خطبة الكتاب

بسم اللّه الرَّحمن الرحيم

وبه ثقتي

الجزء الأول

جَنَّبَك اللّهُ الشُّبْهة، وَعصَمك من الحَيرة، وجَعلَ بينك وبين المعرفة نسباً، وبين الصدق سَبَباً، وحبَّب إليك التثبُّت، وزيَّن في عينك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعرَ قلبكِ عِزَّ الحقّ، وأودَعَ صدرَك بَرْدَ اليقين وطرد عنك ذلَّ اليأس، وعرَّفك ما في الباطل من الذلَّة، وما في الجهل من القِلَّة، ولعمري لقد كان غيرُ هذا الدعاء أصوبَ في أمرك، وأدلَّ عَلَى مقدارِ وزنك، وعلى الحال التي وضعْتَ نفسك فيها، ووسَمْت عرضَك بها، ورضيتها لدينِك حظًّا، ولمروءتك شِكلاً، فقد انتهى إليَّ مَيلُكَ على أبي إسحاق، وحَملُك عليه، وطعنُك على مَعْبَدٍ، وتنقّصك له في الذي كان جَرَى بينَهما في مساوي الديكِ ومحاسِنِه، وفي ذكرِ منافع الكلب ومضارِّه، والذي خرجَا إليه من استقصاءِ ذلك وجمْعِه، ومن تتبُّعِه ونظمِه، ومن الموازَنَة بينَهما، والْحُكم فيهما، ثم عبتَني بكتاب حيل اللصوص، وكتاب غِشّ الصناعات، وعبتَني بكتاب المُلَح والطُّرَف، وما حَرَّ من النوادر وبَرُد، وما عاد بارده حارًّا لفَرْط برده حتى أمتَعَ بأكثر من إمتاع الحارّ، وعبتني بكتاب احتجاجات البخلاء، ومناقضَتِهم للسُّمَحاء، والقولِ في الفرق بين الصدق إذا كان ضارّاً في العاجل، والكذب إذا كان نافعاً في الآجِل، ولِمَ جُعل الصدقُ أبداً محموداً، والكذبُ أبداً مذموماً، والفرق بين الغَيرة وإضاعة الحُرْمة، وبين الإفراط في الحميّة والأنَفَة، وبين التقصير في حفظ حقِّ الحرمة، وقلَّة الاكتراثِ لِسوء القالَة، وهل الغيرة اكتساب وعادة، أم بعض ما يعرض من جهة الديانة، ولبعض التزيُّد فيه والتحسن به، أو يكون ذلك في طباع الحريّة، وحقيقة الجوهريَّة، ما كانت العقولُ سليمة، والآفات منفيَّة والأخلاطُ معتدلة، وعبتَني بكتاب الصُّرَحاء والهُجَناء، ومفاخرة السُّودان والحمران، وموازنة ما بين حقِّ الجئولة والعمومة، وعبتَني بكتاب الزرع والنخل والزيتون والأعناب، وأقسام فضول الصناعات، ومراتب التجارات؛ وبكتاب فضل ما بين الرجال والنساء، وفرق ما بين الذكور والإناث، وفي أيِّ موضع يَغلبن ويفضُلْن، وفي أي موضع يكنَّ المغلوباتِ والمفضولات، ونصيب أيِّهما في الولد أوفر، وفي أيِّ موضع يكون حقُّهنّ أوجب، وأيَّ عملٍ هو بهنَّ أليق، وأيّ صناعةٍ هنَّ فيها أبلغ،

وعبتَني بكتاب القحطانيَّة وكتاب العدنانيَّة في الردّ على القحطانية، وزعمتَ أنّي تجاوزتُ الحميَّة إلى حدِّ العصبيَّة، وأنّي لم أصل إلى تفضيل العدنانيَّة إلا بتنقُّص القحطانيّة، وعبتَني بكتاب العرب والموالي، وزعمت أنّي بَخَسْت المواليَ حقوقهم،

كما أنّي أعطيتُ العربَ ما ليس لهم، وعبتَني بكتاب العرب والعجم، وزعمت أنّ القولَ في فرق ما بين العرب والعجم، هو القولُ في فرق ما بين الموالي والعرب، ونسبتَني إلى التكرار والترداد، وإلى التكثير، والجهل بما في المُعَاد من الخَطَل، وحَمْلِ الناس المؤن، وعبتَني بكتاب الأصنام، وبذكر اعتلالات الهند لها، وسبب عبادة العرب إيّاها، وكيف اختلفا في جهة العِلَّة مع اتّفاقهما على جملة الديانة، وكيف صار عُبَّاد البِدَدَة والمتمسكون بعبادة الأوثان المنحوتة، والأصنام المنجورة، أشدَّ الديّانين إلْفاً لما دانوا به، وشغفاً بمَا تعبَّدوا له، وأظهَرَهم جِدّاً، وأشدَّهم على من خالفهم ضِغناً، وبما دانو ضِنّاً، وما الفرق بين البُدِّ والوثن، وما الفَرق بين الوثن والصنم، وما الفرق بين الدُّمية والجثَّة، ولِمَ صوَّروا في محاريبهم وبيوت عباداتهم، صُوَرَ عظمائهم ورجالِ دعوتهم، ولم تأنَّقوا في التصوير، وتجوَّدوا في إقامة التركيب، وبالغوا في التحسين والتفخيم، وكيف كانت أوَّليَّة تلك العبادات، وكيف اقترفت تلك النِّحل، ومن أيّ شكل كانت خُدَع تلك السدنة، وكيف لم يزالوا أكثرَ الأصنافِ عدداً، وكيف شمل ذلك المذهب الأجناسَ المختلفة، وعبتني بكتاب المعادن، والقولِ في جواهرِ الأرض، وفي اختلاف أجناس الفِلِزِّ والإخبار عن ذائبها وجامدها، ومخلوقها ومصنوعها، وكيف يسرع الانقلاب إلى بعضها، ويُبطئ عن بعضها، وكيف صار بعض الألوان يَصبُغ ولا ينصبغ، وبعضها يَنْصبغُ ولا يصْبَغُ، وبعضها يصبغُ وينصبغ، وما القولُ في الإكسير والتلطيف، وعبتَني بكتاب فرق ما بين هاشمٍ وعبد شمس، وكتاب فرق ما بين الجنّ والإنس، وفرق ما بين الملائكة والجنّ، وكيف القولُ في معرفة الهدهد واستطاعة العفريت، وفي الذي كان عنده عِلْمٌ من الكتاب، وما ذلك العلم، وما تأويل قولهم: كان عنده اسم اللّه الأعظم، وعبتني بكتاب الأوفاق والرياضات، وما القولُ في الأرزاق والإنفاقات وكيف أسباب التثمير والترقيح، وكيفَ يجتلب التجار الحُرَفاء، وكيف الاحتيال للودائع، وكيف التسبُّب إلى الوصايا، وما الذي يوجب لهم حسن التعديل، ويصرف إليهم باب حسن الظن، وكيف ذكرنا غشَّ الصناعات والتجارات، وكيف التسبُّب إلى تعرف ما قد ستروا وكشف ما موَّهوا؛ وكيف الاحتراس منه والسلامة من أهله، وعبتني برسائلي، وبكلّ ما كتبت به إلى إخواني وخُلَطائي، من مَزْح وجِدٍّ، ومن إفصاح وتعريض، ومن تغافُل وتوقيف، ومن هجاء لا يزال مِيسَمه باقياً، ومديح لا يزال أثرُه نامياً ومن مُلَح تُضحِك، ومواعظ تُبكي.

وعبتَني برسائلي الهاشميّات، واحتجاجي فيها، واستقصائي معانيَها، وتصويري لها في أحسَن صورة، وإظهاري لها في أتمِّ حلية، وزعمتَ أنّي قد خرجتُ بذلك من حدِّ المعتزلة إلى حد الزيديّة، ومن حدّ الاعتدال في التشيُّع والاقتصاد فيه، إلى حدِّ السرف والإفراط فيه، وزعمتَ أنّ مقالة الزيدية خطبة مقالةِ الرافضَة، وأنّ مقالة الرافضة خطبة مقالة الغاليَة، وزعمتَ أنّ في أصل القضيّة والذي جَرَتْ عليه العادة، أن كلَّ كبير فأوّلهُ صغير، وأنَّ كلَّ كثير فإنما هو قليل جُمع مِنْ قليل، وأنشدت قول الراجز:

قد يَلحَق الصغيرُ بالجليل   وإنما القرْمُ من الأفِيل

وسُحُقُ النخلِ   من الفسيل

وأنشدت قول الشاعر:

ربّ كبير هاجَه صغيرٌ   وفي البُحور تَغرَق البحورُ

وقلت: وقال يزيدُ بن الحكم:

فاعلم بني فإنه   بالعلم ينتفع العلم

إن الأمور دقيقها   مما يهيج له العظيم

وقلتَ : وقال الآخر:

صار جداً ما مزحت به   رب جدٍ ساقه اللعب

وأنشدت قول الآخر:

ما تنظرون بحق وردة فيكم   تقضي الأمور

قد يبعث الأمر الكبير صغيرة   حتى تظل له الدماء تصبب

وقالت كَبْشة بنت مَعْدِ يكَرِب:

جدعتم بعبد الله آنف قومه   بني مازن أن سب راعي المحزم

وقال الآخر:

أية نار قدح القادح   وأي جدٍ بلغ المازح

وتقول العرب: العَصَا من العُصَيَّة، ولا تلد الحيَّةَ إلا حَيَّةٌ.
وعبتَ كتابي في خلْق القرآن، كما عبت كتابي في الردِّ على المشبّهة؛ وعِبْتَ كتابي في القول في أصول الفتيا والأحكام، كما عبتَ كتابي في الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيبه، وعبتَ معارضَتي للزيدِيَّة وتفضيلي الاعتزالَ

على كلِّ نِحْلة، كما عبتَ كتابي في الوعد والوعيد، وكتابي على النصارى واليهود ثمَّ عبتَ جملةَ كتبي في المعرفة والتمست تهجينَها بكلِّ حيلة، وصغَّرت من شأنها، وحططت من قدرها، واعترضت على ناسخيها والمنتفعين بها، فعبتَ كتاب الجوابات، وكتاب المسائل، وكتابَ أصحابِ الإلهام، وكتابَ الحجَّة في تَثْبيت النبوّة، وكتاب الأخبار، ثمّ عبتَ إنكاري بصيرةَ غنام المرتدِّ، وبصيرةَ كلِّ جاحد وملحد، وتفريقي بين اعتراض الغُمْر، وبين استبصار المحقّ، وعبتَ كتابَ الردِّ على الجَهْمِيّة في الإدراك، وفي قولهم في الجَهَالات، وكتاب الفرق ما بينَ النبيِّ والمتنبي، والفرق ما بينَ الحِيَل والمخاريق، وبينَ الحقائق الظاهرة والأعلام الباهِرة، ثمّ قصدتَ إلى كتابي هذا بالتصغير لقدره والتهجين لنظمه، والاعتراض على لفظه، والتحقير لمعانيه، فزَرَيت على نحْتِهِ وسَبكه، كما زَرَيت على معناهُ ولفظِه، ثمّ طعنتَ في الغرض الذي إليه نزعْنا، والغاية التي إليها قصَدنا، على أنّه كتابٌ معناه أنبَهُ من اسمِهِ، وحقيقتهُ آنَقُ من لفظه، وهو كتابٌ يحتاجُ إليه المتوسِّط العامي، كما يحتاجُ إليه العالم الخاصي، ويحتاج إليه الرَّيِّض كما يحتاج إليه الحاذق: أما الرّيِّض فللتعلُّم والدرْبة، وللترتيب والرياضة، وللتمرينِ وتمْكين العادة، إذْ كان جليلُه يتقدم دقيقه، وإذا كانت مقدِّماته مرتبةً وطبقاتُ معانيه منزّلة، وأما الحاذقُ فلكفايةِ المُؤنة، لأن كلَّ من التقط كتاباً جامعاً، وباباً من أمَّهات العلم مجموعاً، كان له غُنْمه، وعلى مؤلّفه غُرمُه، وكان له نفعُه، وعلى صاحبِهِ كَدُّه، معَ تعرُّضِهِ لمطاعِنِ البُغَاةِ، ولاعتراض المنافِسِين، ومع عرْضِهِ عقلَه المكدودَ على العقولِ الفارغة، ومعانيه على الجهابذة، وتحكيمه فيه المتأوِّلين والحسَدَة، ومتى ظَفِر بمثْله صاحبُ علم، أو هجمَ عليه طالبُ فقه، وهو وادعٌ رافِه، ونَشِيط جَامٌّ، ومؤلِّفه مُتعَبٌ مكدود، فقد كُفي مَؤُونَةَ جمعه وخزنِه، وطلبه وتتبُّعِه، وأغناه ذلك عن طول التفكير، واستفادِ العمر وفلِّ الحدِّ، وأدرَك أقصى حاجتِه وهو مجتمعُ القُوَّة، وعلى أنّ له عند ذلك أن يجعَلَ هُجومه عليه من التوفيق، وظفَره به باباً من التسديد.

وهذا كتابٌ تستوي فيه رغبةُ الأمم، وتتشابَه فيه العُرْبُ والعَجَم، لأنه وإن كانَ عَرَبيًّا أعرابياً، وإسلاميًّا جماعيًّا، فقد أخَذ من طُرَفِ الفلسفة، وجمع بين معرفةِ السماع وعلْم التجربة، وأشرَكَ بين علمِ الكتاب والسنة، وبينَ وِجْدان الحاسَّة، وإحساس الغريزة، ويشتهيه الفتيان كما تشتهيه الشيُوخ، ويشتهيه الفاتِكُ كما يشتهيه الناسك، ويشتهيه اللاعبُ ذو اللَّهو كما يشتهيه المجدّ ذو الحَزْم، ويشتهيه الغُفْلُ كما يشتهيه الأريب، ويشتهيه الغبيُّ كما يشتهيه الفَطِن.

وعبتَني بحكاية قولِ العثمانِيَّة والضِّرَارية، وأنت تسمعني أقول في أوَّل كتابي: وقالت العثمانية والضراريَّة، كما سمعتَني أقول: قالت الرافضة والزيدية، فحكمتَ عليَّ بالنصْب لحكايتي قول العثمانية، فهلاَّ حكمتَ عليّ بالتشيُّع لحكايتي قول الرافضة وهلا كنتُ عندَك من الغالِية لحكايتي حجج الغالية، كما كنتُ عندك من الناصِبة لحكايتي قولَ الناصِبة وقد حكينا في كتابنا قولَ الإباضيَّة والصُّفْرية، كما

حكينا قولَ الأزارقة والزيدية، وعلى هذه الأركان الأربعة بُنِيَت الخارجية، وكلُّ اسمٍ سواها فإنما هو فرعٌ ونتيجةٌ، واشتقاقٌ منها، ومحمولٌ عليها، وإلاَّ كنَّا عندَك من الخارجية، كما صرنا عندَك من الضِّرَاريَّة والناصِبَة، فكيف رضيتَ بأن تكون أسرع من الشيعة، أسرع إلى إعراض الناس من الخارجية، اللهم إلا أن تكون وجدتَ حكايتي عن العثمانيَّة والضِّراريَّة أشبعَ وأجمعَ، وأتَمَّ وأحكم، وأجود صنعة، وأبعد غاية، ورأيتني قد وهَّنت حقَّ أوليائك، بقدر ما قوَّيتُ باطل أعدائك ولو كان ذلك كذلك، لكان شاهدك من الكتاب حاضراً، وبرهانك على ما ادعيت واضحا.

وعبتَني بكتاب العباسية، فهلاَّ عبتَني بحكاية مقالِة مَن أبى وجوبَ الإمامة، ومَنْ يرى الامتناع من طاعة الأئمة الذين زعموا أنّ تَركَ النَّاس سُدًى بلا قيِّم أردُّ عليهم، وهملاً بلا راعٍ أربحُ لهم، وأجدَرُ أنْ يجمع لهم ذلك بين سلامَةِ العاجل، وغنيمةَ الآجل، وأنَّ تركَهم نَشَراً لا نظامَ لهم، أبعد من المَفاسِد، وأجمعُ لهم عَلَى المراشد بل ليس ذلك بك، ولكنَّه بهرَك ما سمعتَ، وملأ صدرَك الذي قرأت، وأبعَلك وأبْطَرَك، فلم تتّجه للحجّة وهي لك معرضة، ولم تعرف المقاتل وهي لك بادية، ولم تَعرف بابَ المخرج إذ جهلتَ بابَ المدخَل، ولم تعرف المصادر إذ جهلتَ الموارد.

رأيتَ أنَّ سبَّ الأولياء أشفى لدائك، وأبلغَ في شفاء سَقَمك، ورأيتَ أن إرسالَ اللسان أحضَرُ لَذَّةً، وأبعدُ من النَّصَب، ومن إطالة الفكرة ومن الاختلاف إلى أرباب هذه الصناعة.

ولو كنتَ فطِنت لعجْزك، ووصَلْتَ نقصَك بتمامِ غيرك، واستكفيْتَ من هو موقوفٌ على كفايةِ مثلك، وحَبيسٌ على تقويم أشباهك كان ذلك أزينَ في العاجِل، وأحقَّ بالمثُوبة في الآجل، وكنتَ إنْ أخطأتك الغنيمةُ لم تُخْطِك السلامة، وقد سَلِم عليك المخالفُ بقدر ما ابتُلي به منكَ الموافِق، وعلى أنَّه لم يُبتَل منك إلا بقدر ما ألزمَته من مُؤنةِ تثقيفك، والتشاغُلِ بتقويمك، وهل كنتُ في ذلك إلاّ كما قال العربي: هَلْ يَضُرُّ السَّحابَ نَبْاحُ الكلابِ، وإلاّ كما قال الشاعر:

هل يَضُرُّ البحرَ أمسى زَاخِراً أنْ رَمَى فيهِ غُلامٌ بَحجَرْ

وهل حالُنا في ذلك إلاّ كما قال الشاعر:

ما ضرَّ تغلِبَ وائلٍ أهجَوْتَها أم بُلْتَ حَيْثُ تَنَاطحَ البَحْرَانِ

وكما قال حسَّانُ بنُ ثابت:

ما أبالِي أنَبَّ بالحَزْنِ تَيسٌ أم لَحَانِي بظهْرِ غَيْبٍ لَئِيمُ

وما أشكُّ أنَّكَ قد جعلت طول إعراضنَا عنك مَطِيَّةً لك، ووجَّهتَ حِلمَنا عنك إلى الخوف منك، وقد قال زُفَر بنُ الحارث لبعضِ مَنْ لم ير حقَّ الصفح، فجعل العفْوَ سبباً إلى سوء القول:

فإنْ عدتَ وَاللّهِ الذي فوقَ عَرْشِهِ مَنَحْتُك مسنون الغِرَارَيْنِ أزْرَقا

فإنّ دواءَ الجهل أن تُضْرَبَ الطُّلَى وأن يُغْمس العِرِّيضُ حتى يغرّقا

وقال الأوّل:

وضغّائنٍ دَاوَيتُها بضغائنٍ   حتَّى شَفَيتُ وبالحُقُودِ حُقُودا

وقال الآخر:

وما نَفى عنك قوماً أنت خائفُهم   كَمِثْلِ وَقمك جُهَّالاً بجُهّالِ

فاقعَسْ إذا حَدِبوا واحدَبْ إذا قعسوا وَوَازِنِ الشَّرَّ مثقالاً بمثقالِ

فإنّا وإن لم يكن عندنا سِنَان زُفَرَ بنِ الحارث، ولا معارضةُ هؤلاء الشرَّ بالشرّ، والجهلَ بالجهل، والحِقد بالحِقد، فإن عندي ما قال المسعوديُّ:

فمُسَّا تراب الأرض منه خُلقتُما وفيه المعادُ والمصيرُ إلى الحشر

ولا تأنفا أن تَرْجِعا فتسلِّما   فما كسى الأفواه شَرًّا من الكِبْرِ

فلو شئتُ أدْلى فيكما غير واحد   علانيةً أو قالَ عندي في السِّرِّ

فإنْ أنا لم آمُرْ ولم أنْهَ عنكُما   ضَحِكْتُ له كيما يَلَجَّ ويَسْتَشْرِي

وقال النَّمِر بن تَولَب:

جزَى اللّهُ عنِّي جمرةَ ابنة نوفلٍ   جَزَاءَ مُغِلٍّ بالأمانةِ كاذِبِ

بما خَبَّرَتْ عنِّي الوُشاةَ ليكذِبوا   عليَّ وقد أوليتُها في النوائِبِ

يقول: أخرجتْ خَبرَها، فخرج إلى من أحبُّ أن يعابَ عندها ولو شئتَ أن نعارضَك لعارضناك في القول بما هو أقبحُ أثراً وأبقى وَسْماً، وأصدقُ قِيلاً، وأعدلُ شاهداً، وليس كلُّ مَن تَرَكَ المعارضَةَ فقد صفح، كما أنَّه ليس من عَارضَ فقد انتصرَ، وقد

قال الشاعر قولاً، إن فهمتَه فقد كفيتَنا مئونةَ المُعارضَة، وكفيتَ نفسَك لزوم العار، وهو قوله:

إن كنتَ لا ترهَبُ ذمّي لِمَا تَعْرِفُ مِنْ صَفْحِي عن الجاهلِ

فاخشَ سُكُوتي إذ أنا منصت فيكَ لمسموع خَنَا القائلِ

فالسامعُ الذمِّ شريكٌ لهُ ومُطعِمُ المأكولِ كالآكِلِ

مقالةُ السُّوءِ إلى أهلها أسرَعُ من مُنْحَدرٍ سائلِ

ومن دَعا الناسَ إلى ذمِّه ذمُّوه بالحقِّ وبالباطلِ

فلا تَهجْ إنْ كنتَ ذا إربَةٍ حرْبَ أخي التجربة العاقلِ

فإنَّ ذا العَقلِ إذا هِجْتَه هجتَ بِه ذا خَبَلٍ خابلِ

تُبْصرُ في عاجلِ شدَّاتِه عليك غِبَّ الضررَ الآجلِ

وقد يقال: إنّ العفوَ يُفسد من اللئيم بقدر إصلاحه من الكريم، وقد قال الشاعر:

والعَفو عندَ لبيبِ القومِ موعِظةٌ وبعضهُ لسَفيهِ القومِ تدريبُ

فإنْ كنَّا أسأنا في هذا التقريع والتوقيفِ، فالذي لم يأخُذْ فينا بحُكم القرآن ولا بأدَب الرسول عليه الصلاة والسلام، ولم يَفزَعْ إلى ما في الفِطَن الصحيحة، وإلى ما توجبهُ المقاييسُ المطَّردةُ، والأمثالُ المضرُوبة، والأشعار السائرة، أولَى بالإساءَة وأحقُّ باللائمة

أخذ البريء بذنب المذنب

قال اللّه عزَّ وجل: "وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى"، وقد قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام: "لا يَجْنِ يمينُكَ عَلَى شِمَالك"، وهذا حكمُ اللّه تعالى وآدابُ رسوله والذي أُنْزِلَ به الكتابُ ودلَّ عليه من حُجَج العقول.
فأمَّا ما قالوا في المثل المضروب رَمَتْني بدَائها وانسلَّتْ، وأمّا قولُ الشعراءِ، وذمُّ الخطباءِ لِمنْ أخَذَ إنساناً بذنْب غيره، وما ضَرَبُوا في ذلك من الأمثال، كقول النابغة حيث يقول في شعره:

وكَلَّفْتَنِي ذَنْبَ امْرئٍ وترَكْتَه كذِي العُرِّ يُكوَى غيرُه وهو رَاتِع

وكانوا إذا أصاب إبلَهُم العُرّ كَوَوُا السليمَ ليدفعَه عن السقيم، فأسقمُوا الصحيحَ من غير أن يُبْرئوا السقيم.
وكانوا إذا كثُرتْ إبلُ أحدِهم فبَلَغَت الألف، فقئوا عَينَ الفحْل، فإنْ زادَت الإبلُ على الألف فقئوا العينَ الأخرى، وذلك المفقّأ والمعمَّى اللذان سمعتَ في أشعارهم.
قال الفرزدق:

غلبتك بالمفقئ والمعنَّى   وبيتِ المُحْتَبي والخافقاتِ

وكانوا يزعمون أن المفقأ يطرد عنها العين والسواف والغارة، فقال الأوّل:

فقأت لها عَيْنَ الفَحِيل عِيافَةً   وفيهنّ رَعْلاَءُ المسامعِ والحامي

الرعلاء: التي تشقّ أذنها وتترك مدلاَّة، لكرمها،- يذبح العتيرة وكانوا يقولون في موضع الكَفَّارة والأمْنِيَّة، كقول الرجل: إذا بلغَتْ إبلي كذا وكذا وكذلك غنَمي، ذَبحْتُ عند الأوثان كذا وكذا عتيرة، والعتيرة من نُسُك الرَّجَبيّة والجمع عتائر والعتائر من الظباء فإذا بلغتْ إبلُ أحدِهم أو غنمُه ذلك العددَ، استعملَ التأويلَ وقال: إنَّما قلتُ إنِّي أذبحُ كذا وكذا شاة، والظباء شاء كما أنّ الغنم شاء، فيجعل ذلك القربانَ شاءً كلَّه ممَّا يَصِيد من الظباء، فلذلك يقول الحارثُ ابن حِلِّزة اليشكُريُّ:

عَنَتاً باطلاً وظُلْماً كما تُعْ   تَرُ عَنْ حَجْرَةِ الرَّبيضِ الظّباءُ

بعد أن قال:

أمْ عَلينا جُناحُ كِنْدَةَ أن يَغْ   نَمَ غازيُهمُ ومِنَّا الجزاءُ

وكانوا إذا أورَدُوا البقرَ فلم تشرَبُ، إمَّا لكَدر الماء، أو لقلّةِ العطش، ضربوا الثورَ ليقتَحِم الماء، لأنَّ البقرَ تَتْبَعه كما تتْبع الشَّوْلُ الفحل، وكما تتبع أتُنُ الوحش الحِمار، فقال في ذلك عَوْفُ بن الخَرِع:

تمنَّتْ طيِّئٌ جَهْلاً وجُبْناً   وقد خالَيتُهم فأبَوْا خلائي

هَجَوْني أنْ هَجَوْتُ جِبالَ سَلمى   كضَرْبِ الثَّور للبقر الظّماء

وقال في ذلك أنَس بن مُدْركة في قتله سُلَيك بنَ السُّلَكَة:

إنّي وقتْلي سُلَيْكاً ثمَّ أعْقِلهُ   كالثَّور يُضرَب لمَّا عافتِ البَقَرُ

أنِفْتُ لِلْمَرءِ إذْ نِيكتْ حَلِيلـتُـه   وأن يُشَدَّ على وجعائها الثَّفَـرُ

وقال الـهَيَّبان الفهميّ:

كما ضُربَ الْيَعْسُوب أنْ عافَ باقِرٌ وما ذَنْبُهُ أن عافتِ الماءَ بـاقـرُ

ولمّا كان الثورُ أميرَ البقر، وهي تطيعُه كطاعة إناث النحل لليعسوب، سمَّاه باسم أمير النحْل.
وكانوا يزعمون أنَّ الجنَّ هي التي تصدُّ الثِّيرانِ عن الماء حتى تُمْسِكَ البقرُ عن الشرب حتى تهلِك، وقال في ذلك الأعشى:

فإنِّي وما كلَّفتُمونـي وربِّـكم   لأعلَمُ مَنْ أمْسَى أعقَّ وأحربـا

لَكالثَّور والجِنّيُّ يَضربُ ظَهرَه   وما ذَنْبُه أن عافتِ الماءَ مَشرَبَا

وما ذَنْبُه أنْ عافتِ الماءَ باقِرٌ   وما إن تَعَافُ الماءَ إلاَّ لِيُضْرَبا

كأنّه قال: إذا كان يُضْرَب أبداً لأنها عافت الماء، فكأنَّها إنما عافتِ الماءَ ليُضْرب، وقال يحيي بن منصور الذُّهليّ في ذلك:

لكالثَّور والجنيّ يَضْرِبُ وَجْهَه   وما ذَنْبه إن كانَتِ الجِنُّ ظالِمه

وقال نَـهْشَلُ بنُ حَرِّيٍّ:

أَتُتْرَكُ عارضٌ وبنـو عَـدِيٍّ   وتَغْـرَمَ دارمٌ وهُـم بَـرَاءُ

كدأبِ الثَّوْر يُضْرَبُ بالهَراوى   إذا مَـا عَافَتِ البَقَرُ الظِّمَـاءُ

وكيف تكلّفُ الشِّعرَى سُهيلاً   وبينَـهما الكواكبُ والسَّـمـاءُ

وقال أبو نُوَيرة بن الحصين، حين أخذه الحكم بن أيُّوب بذَنْب العَطَرَّق:

أبا يُوسُفٍ لو كنتَ تَعلَمُ طاعَتي   ونُصْحِي إذنْ ما بعتَني بالمحلَّقِ

ولا ساقَ سَرّاقِ العِرَافة صالحٌ   بَنِيَّ ولا كُلِّفْتُ ذَنْبَ العطرق

وقال خِداش بن زُهير حين أخذ بدماء بني محارب:

أكلّفُ قتْلَى مَعْشر لستُ مِنـهـمُ   ولا دارُهُمْ داري ولا نصرُهُم نَصْري

أكلّفُ قتلَى العِيصِ عِيصِ شُواحِطٍ وذلك أمرٌ لـم تُـثـفّ لَـهُ قِدْري

وقال الآخر:

إذا عَرَكت عِجْلٌ بنا ذنْبَ طـيِّءٍ   عَرَكْنا بتَيم اللاتِ ذنبَ بَني عِجْلِ

ولما وَجَد اليهودِيُّ أخا حنبض الضبابيّ في منزله فخصاه فمات، وأخذ حنبض بني عَبْس بجنايَة اليهوديّ ، قال قيس بن زُهَيْر: أتأخذُنا بذنْبِ غيرِنا، وتسألنا العَقلَ والقاتلُ يهوديٌّ من أهل تيماء؟ فقال: واللّه أنْ لو قتلَتْه الريح، لودَيْتُمُوه فقال قيس لبني عَبس: الموتُ في بني ذُبيانَ خَيْرٌ من الحَياةِ في بَني عامر ثم أنشأ يقول:

أكلَّفُ ذا الخُصْيَيْن إن كان ظالمـاً وإن كنتُ مظلوماً وإن كنتُ شاطنا

خصاه امروٌ من آلِ تيمـاءَ طـائر ولا يَعْدمُ الإنسيُّ والجـنُّ كـائنـا

فَهَلاَّ بنـي ذُبـيانَ أمُّـكَ هَـابـلٌ   رَهَنْتَ بفيفِ الرِّيح إن كُنْتَ رَاهِنا

إذا قلتُ قد أفلتُّ من شَرِّ حنبـض أتاني بأُخْرَى شرّه مُتَبـاطِـنـا

فقد جَعَلَتْ أكبادُنـا تـجـتـويكُـمُ   كما تجتَوي سوقُ العِضاهِ الكرازنا

قتل لقمان بن عاد لنسائه وابنته

ولما قتَل لُقمان بنُ عادٍ ابنَته - وهي صُحْر أختُ لُقيم - قال حين قتَلها: ألَسْتِ امرأة وذلك أنّه قد كان تزوج عِدَّةَ نساء، كلُّهنَّ خُنَّهُ في أنفُسهنّ، فلمَّا قتَلَ أخراهنَّ ونزل من الجبل، كان أوَّلَ من تلقّاه صُحْر ابنته، فوثبَ عليها فقتلها وقال: وأنت أيضاً امرأة وكان قد ابْتُلِي بأنَّ أختَه كانت مُحْمِقة وكذلك كان زوجُها، فقالتْ لإحدَى نساءِ لُقْمان: هذه ليلةُ طُهْري وهي ليلتُك، فدَعيني أنامُ في مَضجَعِك، فإنَّ لقمانَ رجلٌ مُنْجِب، فعسَى أن يقع عليَّ فأُنْجِبَ، فوَقعَ على أختِه فحَمَلَتْ بلُقيْم، فهو قولُ النَّمرِ بن تَولَب:

لُقيمُ بنُ لُقمانَ من أختِـهِ   فكانَ ابنَ أختٍ لـهُ وابنَما

ليالِيَ حمّق فاستحصنَتْ   عليه فغُرَّ بها مُظْلِمـا

فأحبَلَهَا رَجلٌ مُحكِمٌ فجاءت به رجلاً مُحْكِمَا

فضربت العربُ في ذلك المثلَ بقتل لقمان ابنتَه صُحراً، فقال خُفافُ بن نَدْبة في ذلك:

وعَبّاس يُدِبُّ لي المنـايا وما أذنَبْتُ إلاَّ ذَنْبَ صُحْرِ

وقال في ذلك ابن أُذَيْنَة:

أتجمَع تَهيَاماً بليلَى إذا نـأتْ وهِجْرانَها ظُلماً كما ظُلِمَتْ صُحْرُ

وقال الحارثُ بن عُبَاد:

قرِّبا مربطَ النعامةِ مِنِّي لَقِحَتْ حربُ وائلٍ عَنْ حِيالِ

لم أكنْ من جُنَاتِها عَلِمَ اللـ ـهُ وإنِّي بحَرِّها اليومَ صالِي

وقال الشاعر، وأظنُّه ابنَ المقفَّع:

فلا تَلُمِ المرءَ في شأنِهِ فربَّ ملومٍ ولَمْ يُذْنِبِ

وقال آخر:

لعلَّ لَهُ عُذْراً وأنتَ تَلُومُ وكم لائمٍ قد لاَمَ وهْوَ مُلِيم

حديث سنمَّار وقال بعض العرب، في قتل بعضِ الملوك لِسِنِمَّار الرومي؛ فإنه لما علا الخَوَرْنَق ورأى بُنْياناً لم يرَ مثله، ورأى في ذلك المستشرف، وخاف إن هو استبقاه أن يموت فيبني مثلَ ذلك البنيانَ لرجُلٍ آخرَ من الملوك، رمَى به من فوق القصر، فقال في ذلك الكلبيّ في شيءٍ كان بينَه وبين بعض الملوك:

جَزَاني جَزَاهُ اللّهُ شَرَّ جزائه جَزَاءَ سِنِمَّارٍ وما كان ذَا ذنب

سِوَى رَصِّه البنيانَ سَبعين حِجَّةً يُعَلَّى عليه بالقَرَامِيدِ والسَّكْبِ

فلما رأى البُنْيانَ تمَّ سُحُوقه وآضَ كمِثْلِ الطَّوْدِ ذِي الباذِخ الصَّعْبِ

وظنَّ سِنِمّارٌ به كُلَّ حبوة وفازَ لَدَيْهِ بالمودَّةِ والقُرب

قال اقذِفُوا بالعِلْجِ مِنْ رأسِ شـاهـقٍ فذاكَ لعَمْرَ اللّهِ مِنْ أعظمِ الخَـطْـب

وجاء المسلمونَ، يروي خَلَفٌ عن سلف، وتابعٌ عن سابق، وآخَرُ عنْ أوّل، أنَّهمْ لم يختلِفُوا في عيبِ قول زِياد: لآخُذَنَّ الوَلِيَّ بالوَلِيِّ، والسَّمِي بالسَّمِيِّ، والجارَ بالجار، ولم يختلفُوا في لَعْن شاعِرهم حيث يقول:

إذا أُخِذَ البَرِيءُ بغَيْرِ ذَنْبٍ تجَنَّبَ ما يُحاذِرُه السقيمُ

قال: وقِيل لِعَمْرو بن عُبَيد: إنّ فلاناً لما قدَّم رجلاً ليُضْرَبَ عُنُقه، فقيل له: إنَّه مجنونٍ فقال: لولا أنَّ المجنونَ يَلِدُ عاقلاً لخلَّيت سبيلَه، قال: فقال عَمْرو: ما خَلَقَ اللّهُ النَّارَ إلاّ بالحق ولمّا قالت التغلَبيَّةُ للجَحَّافِ، في وَقْعَة البِشْر: فضَّ اللّهُ فاكَ وأعماك، وأطالَ سُهادَك، وأقلَّ رُقادَك، فوَاللّه إنْ قتَلْتَ إلاّ نساءً أعالِيهنَّ ثُدِيٌّ، وأسافِلُهُنَّ دُمًى فقال لِمنْ حَولَه: لولا أن تَلِدَ هذِه مثلَها لخَلَّيتُ سَبِيلَها فبلغ ذلك الحسنَ فقال: أمَّا الجَحَّاف فجَذْوةٌ من نارِ جهنَّم.
قال: وذمَّ رجلٌ عند الأحنَفِ بنِ قيس الكَمْأةَ بالسَّمْن، فقال عند ذلك الأحنَف: رُبَّ مَلومٍ لا ذَنْبَ لَه.
فبهذِهِ السيرةِ سرتَ فينا.
وما أحسنَ ما قال سعيدُ بنُ عبدِ الرحمن:

وإنّ امرأ أمْسَى وأصْبَحَ سالماً مِنَ النَّاس إلاَّ ما جَنَى لَسَعيدُ

عناية العلماء بالملح والفكاهات

وقلتَ: وما بالُ أهلِ العلمِ والنظر، وأصحابِ الفكرِ والعِبَر، وأربابِ النِّحَلِ، والعلماءِ وأهلِ البصر بمخارجِ المِلَل، وورثةِ الأنبياء، وأعوانِ الخلفاء، يكتُبُون كتبَ الظُّرَفاءِ والمُلَحَاء، وكُتب الفُرَّاغ والخُلَعاء، وكتبَ الملاهي والفُكَاهات، وكتبَ أصحابِ الخُصومات، وكتبَ أصحابِ المِراءِ، وكتبَ أصحاب العصبيَّةِ وحَمِيَّةِ الجاهليّة ألأنَّـهُمْ لا يحاسِبون أنفسهم، ولا يُوازنون بينَ ما عليهم ولهم، ولا يخَافُون تصفُّحَ العلماءِ، ولا لائمةَ الأرْبَاءِ، وشنف الأكْفَاء، ومَشْنَأة الجُلَساء؟ فهلاَّ أمسكتَ - يَرْحَمُكَ اللّه - عَنْ عَيْبِها والطَّعْنِ عليها، وعن المَشُورَةِ والموعِظَة، وعن تخويفِ ما في سوءِ العاقبةِ، إلى أنْ تبلغَ حالَ العلماء، ومراتبَ الأكْفاء؟ فأمَّا كتابُنا هذا، فسنذكرُ جُمْلَةَ المذاهب فيه، وسنَأتِي بعد ذلك على التفسير، ولَعلَّ رأيَك عند ذلك أنْ يتحوَّل، وقولَك أن يتبدل، فتُثْبِتَ أو تكونَ قد أخذتَ من التوقُّفِ بنصيب، إن شاء اللّه.

أقسام الكائنات

وأقول: إنّ العالَم بما فيه من الأجسام على ثلاثة أنحاء: متَّفق، ومختلف، ومتضادٌّ؛ وكلُّها في جملةِ القول جمادٌ ونامٍ، وكان حقيقةُ القولِ في الأجسام من هذه القِسْمة، أن يقال: نامٍ وغيرُ نام، ولو أنَّ الحكماءَ وضعُوا لكلِّ ما ليس بنامٍ اسماً، كما وضعُوا للنامي اسماً، لاتبّعنا أثرَهُمْ؛ وإنما ننتهي إلى حيثُ انتهوا، وما أكثرَ ما تكونُ دلالةُ قولِهِمْ جماد، كدَلاَلَةِ قولهم مَوَات، وقد يَفتَرِقان في مواضِعَ بعضَ الافتراق، وإذا أخرجت من العالَمِ الأفلاكَ والبروجَ والنجومَ والشمسَ والقمر، وجدتَها غيرَ نامية، ولم تجدْهم يسمُّون شيئاً منها بجَماد ولا مَوات، وليس لأنَّها تتحرَّكُ من تِلقاءِ أنفُسِها لم تُسَمَّ مواتاً ولا جماداً، وناسٌ يجعلونها مدبِّرة غير مدبَّرة، ويجعلونها مسخِّرة غير مسَخَّرَة، ويجعلونها أحْيَا من الحيوان؛ إذْ كان الحيوانُ إنَّمَا يَحْيَا بإحيائها لَه، وبما تُعطيه وتُعِيره، وإنما هذا منهم رأي، والأُمَمُ في هذا كلِّه على خلافِهِم، ونحنُ في هذا الموضع إنَّما نعبِّر عن لُغَتنا، وليس في لُغتنا إلاّ ما ذكرنا.
والناسُ يسمُّون الأرضَ جماداً، وربّما يَجعلونها مَوَاتاً إذا كانتْ لم تُنْبتْ قديماً، وهي مَوَات الأرض، وذلك كقولهم: مَنْ أحيَا أرضاً مواتاً فهي له.
وهم لا يجعلون الماء والنارَ والهواءَ، جماداً ولا مَوَاتاً، ولا يسمُّونَها حيواناً ما دامت كذلك، وإن كانت لا تضاف إلى النَّماء والحسّ.
والأرضُ هي أحدُ الأركانِ الأربعة، التي هي الماءُ والأرضُ والهواءُ والنار، والاسمان لا يتعاوَرَانِ عندَهم إلاّ الأرض.

تقسيم النامي

ثمَّ النامِي على قسمين: حيوان ونبات، والحيوانُ على أربعة أقسام: شيءٌ يمشي، وشيء يطير، وشيء يسبَحُ، وشيءٌ يَنْسَاح، إلاّ أنّ كلَّ طائرٍ يمشي، وليس الذي يَمشي ولا يَطِير يسمى طائراً، والنوعُ الذي يَمشي على أربعةِ أقسام: ناس، وبهائم، وسباع، وحشرات، على أنّ الحشَرَاتِ راجعةٌ في المعنى إلى مشاكلةِ طباع البهائمِ والسباعِ، إلاّ أنّنا في هذا كلِّه نتبع الأسماءَ القائمة المعروفة، البائنات بأنفُسِها، المتميِّزاتِ عند سامعيها، مِنْ أهلِ هذه اللغةِ وأصحاب هذا اللسان، وإنَّما نُفْرِد ما أفْرَدوا، ونَجْمَع ما جَمَعوا.

تقسيم الطير

والطيرُ كلٌّ سَبُعٍ وبَهيمة وهَمَج، والسباعُ من الطير على ضَرْبَيْن: فمنها العِتاقُ والأحرارُ والجوارحَ، ومنها البغاث وهو كلُّ ما عظمَ من الطير: سبعاً كان أو بهيمة، إذا لم يكنْ من ذواتِ السلاح والمخالبِ المعقَّفة، كالنُّسورِ والرَّخَم والغِربان، وما أشبهها مِنْ لئامِ السباع، ثم الخَشَاش، وهو ما لطُف جِرمُه وصَغُر شخصه، وكان عديمَ السلاح ولا يكون كالزُّرَّقِ واليُؤيُؤ والباذنجان.
فأما الهَمَج فليس من الطير، ولكنَّه ممَّا يطير، والهمَجَ فيما يطيرُ، كالحشراتِ فيما يمشي، والحيّاتُ من الحشرات، وأيُّ سبع أدخَلُ في معنى السَّبُعيَّة مِنَ الأفاعي والثعابين؟ ولكن ليس ذلك من أسمائها، وإن كانتْ من ذوات الأنيابِ وأكَّالة اللُّحوم

وأعداءِ الإنسِ وجَميع البهائم، ولذلك تأكلُها الأوعَال والخَنازيرُ والقنافِذُ والعِقبان والشاهْمُرك والسنانير، وغير ذلك من البهائم، والسباع، فَمنْ جَعَلَ الحيَّاتِ سِباعاً، وسمَّاها بذلك عندَ بعضِ القولِ والسببِ فقدْ أصابَ، ومن جَعلَ ذلك لها كالاسمِ الذي هو العلامةُ كالكَلْبِ والذئب والأسَد فقد أخطأ.
ومن سِباع الطيرِ شكلٌ يكون سِلاحُه المخالبَ كالعُقابِ وما أشبهها، وشيءٌ يكونُ سِلاحُه المناقيرَ كالنُّسُورِ والرَّخَمِ والغِرْبان، وإنَّما جعلْناها سباعاً لأنّها أكَّالةٌ لحوم.
ومِنْ بهائم الطير ما يكون سلاحُه المناقيرَ كالكَرَاكِيِّ وما أشبهها، ومنه ما يكونُ سلاحُه الأسنانَ كالبُومِ والوَطْوَاطِ وما أشبهها، ومنه ما يكون سلاحُه الصياصي كالدِّيَكَة، ومنه ما يكون سلاحه السَّلْح كالحُباري والثعلب أيضاً كذلك.
والسَّبع من الطير: ما أكل اللحمَ خالصاً، والبهيمةُ: ما أكلت الحبَّ خالصاً، وفي الفنِّ الذي يجمعها من الخلْق المركَّبِ والطبع المشتَرَك، كلامٌ سنأتي عليه في موضعه إن شاء اللّه تعالى، والمشتَرَك عندهم كالعصفور؛ فإنَّه ليس بذي مِخْلَبٍ معقَّف ولا مِنْسَر وهو يلقط الحبَّ، وهو مع هذا يصيد النَّمْل إذا طار، ويَصِيد الجرادَ، ويأكُلُ اللحم، ولا يَزُقُّ فِرَاخَه كما تزقُّ الحمامُ، بل يُلْقِمها كما تُلْقِمُ السباعُ من الطير فراخَها، وأشباهُ العصافيرِ من المشترَك كثيرٌ، وسنذكُر ذلكَ في موضِعه إن شاء اللّه تعالى.
وليس كلُّ ما طار بجَناحينِ فهو من الطير؛ قد يطير الجِعْلاَن والجَحْلُ واليَعاسِيبُ والذّبابُ والزَّنابيرُ والجَرادُ والنمْل والفَراشُ والبَعوضُ والأرضَة والنحلُ وغيرُ ذلك، ولا يسمَّى بالطير، وقد يقال ذلك لها عند بعض الذكرِ والسبب، وقد يسمُّون الدجاجَ طيراً ولا يسمُّون بذلك الجراد، والجرادُ أطْيَر، والمثلُ المضروبُ به أشهر، والملائكةُ تطِيرُ، ولها أجنحةٌ وليستْ من الطير، وجَعفر بن أبي طالب ذو جناحين يَطير بهما في الجنَّة حيثُ شاء، وليس جعفرٌ من الطير.
واسم طائرِ يقَع على ثلاثة أشياء: صورة، وطبيعة، وجَناح، وليس بالريشِ والقوادِمِ والأباهِرِ والخوافي، يسمَّى طائراً، ولا بعدمه يسْقط ذلك عنه، ألا ترى أنَّ الخفَّاشَ والوَطواط من الطير، وإن كانا أمْرَطينِ ليس لهما ريشٌ ولا زَغَبٌ ولا شَكِيرُ ولا قصَب وهما مشهورانِ بالحمل والولادة، وبالرَّضاع، وبظهور حَجْم الآذان، وبكثرة الأسنان، والنعامة ذاتُ ريشٍ ومِنقارِ وبَيضٍ وجَناحين، وليست من الطير.
وليس أيضاً كلُّ عائمٍ سمكة، وإن كان مناسباً للسمك في كثير من معانيه، ألا تَرَى أنّ في الماء كَلْبَ الماء، وعنْزَ الماء، وخِنزيرَ الماء؛ وفيه الرِّقُّ والسُّلَحْفاة، وفيه الضِّفْدَع وفيه السرطان، والبَيْنيبُ، والتِّمساح والدُّخس والدُّلْفين واللَّخْمُ والبُنْبُك، وغيرُ ذلك من الأصناف، والكَوسَج والد اللُّخْم، وليس للكوسج أبٌ يُعرَف، وعامَّةُ ذا يَعيش في الماء، ويبيت خارجاً من الماء، ويبيض في الشطِّ ويَبيضُ بيضاً له صُفْرَةٌ، وقيْضٌ وغِرْقِئٌ، وهو مع ذلك ممّا يكون في الماء مع السمك.

تقسيم الحيوان إلى فصيح وأعجم

ثمَّ لا يخرج الحيوان بعد ذلك في لغة العرب من فصيح وأعجم، كذلك يقال في الجملة، كما يقال الصامت لما لا يَصْنَع صمتاً قطُّ ولا يجوز عليه خلافه، والناطق لِمَا لَمْ يتكلَّمْ قطُّ، فيحملون ما يرغو، ويَثغو، وينهَق، ويَصْهِل، ويَشْحَج، ويَخُور، ويَبْغَم، ويَعوي، ويَنبَح، ويَزْقو، ويَضْغُو، ويَهْدِر، ويَصفِر، ويُصَوْصِي، ويُقَوْقِي، ويَنْعَبُ، ويَزْأر، ويَنْزِبُ، ويكِشُّ، ويَعِجُّ، على نطق الإنسان إذا جمع بعضه على بعض، ولذلك أشباهٌ، كالذكور والإناث إذا اجتمعا، وكالعِير التي تسمَّى لَطِيمة، وكالظُّعُن؛ فإنَّ هذه الأشياءَ إذا وجد بعضُها إلى بعض، أو أخَذ بعضُها من بعض، سُمِّيَتْ بأنبَه النوعَين ذِكْراً، وبأقواهما، والفصيحُ هو الإنسان، والأعجم كلُّ ذي صوتٍ لا يفهَمُ إرادتَه إلاّ ما كان من جنسه، ولعمري إنا نفهم عَن الفَرس والحمارِ والكلبِ والسِّنَّور والبعير، كثيراً من إرادته وحوائجه وقصوره، كما نفهم إرادةَ الصبيِّ في مَهْده ونعلم - وهو من جليل العلم - أنّ بكاءَه يدلُّ على خلافِ ما يدُلُّ عليه ضَحِكُه، وحَمْحَمَةُ الفرَس عند رؤية المخلاة، على خلاف ما يدلُّ عليه حَمحمتُه عند رؤية الحِجْر، ودُعاء الهِرَّةِ الهِرَّ خلافُ دعائها لولدها، وهذا كثير. والإنسانُ فصيح، وإنْ عبَّرَ عن نفسِه بالفارسيّة أو بالهنديّة أو بالروميّة، وليس العربيُّ أسوأ فهماً لِطِمْطِمَةِ الروميِّ من الرومي لبيانِ لسان العربيِّ، فكلُّ إنسانٍ من هذا الوجه يقال له فصيح، فإذا قالوا: فصيح وأعجَم، فهذا هو التأويل في قولهم أعجم، وإذا قالوا العرب والعجم ولم يلفظوا بفصيح وأعجم، فليس هذا المعنى يريدون، إنَّما يَعنُون أنَّه لا يتكلَّم بالعربيَّة، وأنَّ العربَ لا تفهم عنه، وقال كُثيِّر:

فبُورك ما أعطى ابنُ لَيلَى بنِيَّةٍ وصامتُ ما أعطى ابنُ ليلى وناطقُه

ويقال جاء بما صأى وصمت، فالصامت مثل الذهب والفضّة، وقوله صأى يعني الحيوانَ كلَّه، ومعناه نطق وسكَت؛ فالصامت في كلّ شيءٍ سِوَى الحيوان.
ووجدْنا كونَ العالَم بما فيه حكمةً، ووجدْنا الحِكمَةَ على ضربَين: شيءٌ جُعِلَ حكمةً وهو لا يَعقِل الحكمةَ ولا عاقبةَ الحِكمة، وشيءٌ جُعِل حكمةً وهو يَعْقِل الحكمةَ وعاقبةَ الحكمة، فاستوى بذاكَ الشيء العاقلُ وغير العاقل في جهةِ الدَّلالةِ على أنَّهُ حكمة؛ واختلفا من جهةِ أنَّ أحدهما دَليلٌ لاَ يَسْتَدِلّ، والآخر دليل يستدل، فكلُّ مُسْتَدِلٍّ دليل وليس كلُّ دليل مستدلاً، فشارك كل حيوانٍ سوى الإنسان، جميعَ الجمادِ في الدَّلالة، وفي عدم الاستدلال، واجْتَمَع للإنسان أنْ كان دليلاً مستَدِلاً، ثُمَّ جُعِل للمستدِلِّ سببٌ يدلُّ به على وجوهِ استدلاله، ووُجوهِ ما نتج له الاستدلال، وسمَّوا ذلك بياناً.

وسائل البيان

وجُعِل البيانُ على أربعة أقسام: لفظ، وخطّ، وعَقْد، وإشارة، وجُعِل بيانُ الدليل الذي لا يستدِلُّ تَمْكِينَهُ المستدِلَّ من نفسه، واقتيادَه كلَّ من فكَّر فيه إلى معرفةِ ما استُخْزِنَ من البرهان، وَحُشِيَ من الدَّلاَلة، وأودِع مِن عَجيب الحكمة، فالأجسامُ

الخُرْسُ الصامتة، ناطقة مِن جهة الدَّلالة، ومُعْرِبة من جهة صحَّة الشهادة، على أنَّ الذي فيها من التدبير والحِكمة، مخبرٌ لمن استخبَرَه، وناطقٌ لِمَن استنطقه، كما خبَّر الهُزَالُ وكُسُوف اللونِ، عن سُوءِ الحال، وكما ينطق السِّمَنُ وحُسْنُ النَّضْرَة، عن حسن الحال، وقد قال الشاعر وهو نصيب:

فعاجُوا فأثنَوا بالذي أنْتَ أهلُـه   ولو سكتوا أثنتْ عليك الحقائب

وقال آخر:

مَتى تَكُ في عدوٍّ أو صديقِ   تُخَبِّرْكَ العيونُ عن القلوبِ

وقد قال العُكْليُّ في صِدق شمِّ الذِّئب وفي شدّةِ حسِّه واستِرواحه:

يَستخبرُ الريحَ إذا لم يَسْمَعِ   بمثل مقراع الصَّفا الموقَّع

وقال عنترة، هو يصف نَعِيبَ غُراب:

حَرِقُ الجَنَاحِ كأنَّ لَحْيَيْ رأسه   جَلَمانِ بالأخبار هَشٌّ مُولَع

وقال الفضل بن عيسى بن أبان في قصصه: سَل الأرْضَ، فقلْ: مَنْ شقَّ أنهارَكِ، وغَرَسَ أشجارَكِ، وجَنَى ثِمارَكِ؛ فإنْ لم تُجبكَ حِواراً، أجابتْكَ اعتباراً. فموضوعُ الجسم ونَصْبته، دليلٌ على ما فيه وداعيةٌ إليه، ومنبهة عليه، فالجمادُ الأبكمُ الأخرسُ من هذا الوجه، قد شارَكَ في البيان الإنسانَ الحيَّ الناطق، فمَنْ جَعَل أقسام البيانِ خمسة، فقد ذهَبَ أيضاً مذهباً له جوازٌ في اللّغة، وشاهدٌ في العقل، فهذا أحدُ قِسمَي الحكمة، وأحَدُ مَعْنَيَيْ ما استخرنها اللّه تعالى من الوديعة.

ما يعجز عنه الإنسان والحيوان

والقسمة الأخرى ما أودَع صدور صنوفِ سائر الحيوان، مِنْ ضُرُوبِ المعارف، وفطرها عليه من غريب الهداياتِ، وسخَّر حناجِرَها لَهُ من ضروبِ النَّغَم الموزونة، والأصواتِ الملحنة، والمخارج الشجِيَّة، والأغاني المطربة؛ فقد يقال إنَّ جميعَ أصواتها معدَّلة، وموزونة موقَّعة، ثمَّ الذي سهَّل لها من الرفق العجيبِ في الصنعة، مما ذلَّله اللّه تعالى لمناقيرها وأكُفِّها، وكيف فتَحَ لها من باب المعرفةِ على قدر ما هَيَّأ لها من الآلة، وكيفَ أعطى كثيراً مِنها مِنَ الحسِّ اللطيفِ، والصنْعةِ البديعة، من غير تأديبٍ وتثقيف، ومن غير تقويمٍ وتلقين، ومن غير تدريج وتمرين، فبَلَغَتْ بعَفوها وبمقدار قوى فِطرتها، من البَديهةِ والارتجال، ومن الابتداءِ والاقتضاب، ما لا يَقْدرُ عليه حُذّاقُ رجالِ الرأي، وفلاسفةُ علماءِ البشر، بيَدٍ ولا آلة، بل لا يبلغ ذلك من الناسِ أكملُهُمْ خصالا وأتمُّهُمْ خلالاً، لا مِنْ جهة الاقتضاب والارتجال ولا من جِهة التعسُّف والاقتدار، ولا من جهة التقدُّم فيه،

والتأنِّي فيه، والتأتِّي له، والترتيبِ لمقدِّماته، وتمكين الأسباب المُعِينةِ عليه، فصار جهد الإنسان الثاقبِ الحسِّ، الجامعِ القُوى، المتصرِّفِ في الوجوه، المقدَّمِ في الأمور، يَعجِز عن عَفْوِ كَثيرٍ منها، وهو ينظرُ إلى ضروب ما يجيء منها، كما أعطيت العنكبوتُ، وكما أعطِيَت السُّرْفَة، وكما عُلِّم النحْل، بل وعُرِّفَ التُّنَوِّطُ مِن بديع المعرفة، ومِن غريبِ الصنعة، في غير ذلك مِن أصناف الخلق، ثم لم يوجب لهم العجز في أنْفُسِهِمْ في أكثر ذلك، إلاّ بما قوي عليه الهَمَجُ والْخشَاشُ وصِغارُ الحشرات، ثم جعل الإنسان ذا العقلِ والتمكينِ، والاستطاعة والتصريف، وذا التكلُّفِ والتجربَة، وذا التأنِّي والمنافسَة، وصاحبَ الفهْمِ والمسابَقة، والمتبصِّرَ شأنَ العاقبة، متى أحسَنَ شيئاً كان كلُّ شيءٍ دونَه في الغُمُوض عليه أسهلَ، وَجَعَل سائِرَ الحيوانِ، وإن كان يحسنُ أحدُها ما لا يحسنُ أحذَقُ الناس متى أحسنَ شيئاً عجيباً، لم يمكنْهُ أن يُحسِنَ ما هو أقربُ منه في الظنّ، وأسهلُ منه في الرأي، بل لا يحسِنُ ما هو أقرب منه في الحقيقة، فلا الإنسانُ جَعَلَ نفسه كذلك، ولا شيءٌ من الحيوان اختارَ ذلك، فأحسَنَتْ هذه الأجناسُ بلا تعلُّم، ما يمتَنِع على الإنسان وإن تعلَّم، فصار لا يحاوله؛ إذْ كان لاَ يطمع فيه، ولا يحسُدُها؛ إذا لا يؤمِّل اللَّحَاقَ بها، ثمّ جعل تعالى وعزَّ، هاتين الحكمتين بإزاء عُيونِ الناظِرين، وتُجَاهَ أسماع المعتَبِرين، ثمَّ حثَّ على التفكير والاعتبار، وعلى الاتّعاظ والازدِجار، وعلى التعرُّفِ والتبَيُّنِ، وعلى التوقُّفِ والتذكُّر، فجَعَلَها مذكّرةً منبِّهة، وجَعَلَ الفِطر تُنْشِئ الخَواطرَ، وتجُولُ بأهلها في المذاهب، ذَلِكَ اللّهُ رَبُّ العالَمِينَ. "فَتَبارَكَ اللّهُ أحْسَنُ الخَالِقِينَ".

مزج الهزل بالجدّ في الكتاب

وهذا كتابُ موعظةٍ وتعريفٍ وتفقُّهٍ وتنبيه، وأراكَ قد عِبتَه قبل أن تقفَ على حُدودِه، وتتفكَّرَ في فصوله، وتَعتبرَ آخرَه بأوله، ومَصَادِرَه بموارده، وقد غلّطك فيه بعضُ ما رأيتَ في أثنائه من مزحٍ لا تعرف معناه، ومن بَطالةٍ لم تطّلِعْ على غَورها؛ ولم تدرِ لم اجتُلِبت، ولا لأيِّ علّة تُكُلِّفت، وأيّ شيءٍ أُريغَ بها، ولأيِّ جِدٍّ احتُمِل ذلك الهزل، ولأيِّ رياضةٍ تُجُشِّمتْ تلك البَطالة؛ ولم تَدْرِ أنَّ المزاحَ جِدٌّ إذا اجتُلِب ليكون علَّةً للجِدِّ، وَأنَّ البَطالة وَقارٌ ورَزانة، إذا تُكُلِّفت لتلك العافية، ولمَّا قال الخليلُ بن أحمد: لا يصل أحدٌ من علم النحو إلى ما يحتاجُ إليه، حتَّى يتعلَّم ما لا يحتاج إليه، قال أبو شمر: إذا كان لا يُتوصَّل إلى ما يحتاج إليه إلاّ بما لا يحتاج إليه، فقد صار ما لا يُحتاج إليه يُحتاج إليه، وذلك مثل كتابنا هذا؛ لأنّه إن حَمَلْنَا جميعَ من يتكلَّف قراءة هذا الكتابِ على مُرِّ الحق، وصُعوبة الجِدّ، وثِقَل المؤونة، وحِليَة الوقار، لم يصبر عليه مع طوله إلاّ من تجرَّدَ للعلم، وفهم معناه، وذاق من ثمرته، واستشعر قلبه من عزِّه، ونال سروره على حسب ما يُورث الطولُ من الكَدّ، والكثرةُ من السآمة، وما أكثر مَن يُقاد إلى حظّه بالسواجير، وبالسوق العنيف، وبالإخافة الشديدة.

مدح الكتب

ثم لم أرَكَ رضِيتَ بالطعن على كلِّ كتاب لي بعينه، حتَّى تجاوزتَ ذلك إلى أنْ عبت وضْعَ الكتبِ كيفما دارت بها الحالُ، وكيفَ تصرفتْ بها الوجوه، وقد كنتُ أعجَب من عيبك البعضَ بلا علم، حتَّى عِبتَ الكلَّ بلا علْم، ثم تجاوزْت ذلك إلى التشنيع، ثم تجاوزتَ ذلك إلى نصب الحربِ فعبتَ الكِتَّابَ؛ ونعم الذخر والعُقدة هو، ونعم الجليس والعُدَّة، ونعم النشرة والنزهة، ونعم المشتغل والحرفة، ونعم الأنيس لساعة الوحدة، ونعم المعرفةُ ببلاد الغربة ونعم القرين والدخِيل، ونعم الوزير والنزيل، والكتاب وعاءٌ مُلِئَ علماً، وَظرْفٌ حُشِي ظرْفاً، وإناءٌ شُحِن مُزَاحاً وجِدّاً؛ إنْ شئتَ كان أبينَ من سَحْبانِ وائل، وإن شئت كان أعيا من باقِل، وإن شئتَ ضَحِكْتَ مِنْ نوادِرِهِ، وإن شئتَ عَجِبتَ من غرائبِ فرائِده، وإن شئتَ ألهتْك طرائفُه، وإن شئتَ أشجَتْك مواعِظُه، وَمَنْ لَكَ بوَاعِظٍ مُلْهٍ، وبزاجرٍ مُغرٍ، وبناسكٍ فاتِك، وبناطقٍ أخرسَ، وببارِدِ حارّ، وفي البارد الحارِّ يقولُ الحسنُ بن هانئ:

قُلْ لزُهير إذا انتَحى وشدا أقْلِلْ أوَ أكْثِر فأنْتَ مِهْذَارُ

سَخُنْتَ مِنْ شِدِّةِ البُرُودَةِ حتَّى صِرْتَ عِنْدِي كَأنَّكَ النارُ

لاَ يَعجَبِ السامعُون مِنْ صِفَتِي كذلك الثلجُ باردٌ حارُ

ومَنْ لكَ بطبيب أعرابيّ، وَمَنْ لَكَ برُوميٍّ هِنْدِيّ، وبفارسي يُونَانيّ، وبقدِيمٍ مولَّد، وبميِّتٍ ممتَّع، وَمَنْ لَكَ بشيءٍ يَجْمَعُ لَكَ الأوَّلَ والآخِر، والناقص والوافر، والخفيَّ والظاهر، والشاهدَ والغائبَ، والرفيعَ والوضيع، والغثَّ والسمين، والشّكْلَ وخِلافَه، والجِنسَ وضدَّه.

وبعد: فمتى رأيتَ بستاناً يُحمَل في رُدْن، ورَوضةً تُقلُّ في حِجْرٍ، وناطقاً ينطِق عن الموتَى، ويُترجِمُ عن الأحياء وَمَنْ لك بموئنس لا ينام إلاّ بنومِك، ولا ينطق إلاّ بما تهوَى؛ آمَنُ مِنَ الأرض، وأكتمُ للسرِّ من صاحب السرِّ، وأحفظُ للوديعةِ من أرباب الوديعة، وأحفَظ لما استُحْفِظ من الآدميِّين، ومن الأعْرَابِ المعربين، بل مِنَ الصِّبيانِ قبلَ اعتراض الاشتغال، ومن العُميانِ قبلَ التمتُّع بتمييز الأشخاص، حينَ العنايةُ تامَّةٌ لم تنقص، والأذهانُ فارغةٌ لم تنقسِم، والإرادةُ وافرةٌ لم تتشعَّب، والطِّينَةُ ليِّنة، فهي أقبلُ ما تكون للطبائع، والقضيبُ رطبٌ، فهو أقربُ ما يكون من العُلوق، حينَ هذه الخصالُ لم يَخْلُق جديدُها، ولم يُوهَنْ غَرْبُهَا، ولم تتفرَّق قُواها، وكانت كما قال الشاعر:

أتانِي هواها قبل أنْ أعرفَ الهَوى فصادف قلباً خالياً فتمكّنا

وقال عَبْدة بن الطَّبيب:

لا تأمَنوا قوماً يَشِبُّ صبيُّهم بَيْنَ القوابِلِ بالعَدَاوةِ يُنْشَعُ

ومن كلامهم: التعلُّمُ في الصِّغَر كالنقشِ في الحجر، وقد قال جِرَانُ العَودِ:

تُركْنَ برِجلة الروحاء حتَّى تنكّرتِ الديارُ على البَصير

كَوَحْيٍ في الحِجارةِ أو وُشُومٍ بأَيْدِي الرُّومِ بَاقِيَةِ النَّـؤُور

وقال آخر، وهو صالحُ بن عبد القُدُّوس:

وإنّ مَن أدَّبته في الصِّبَى كالعُود يُسْقى الماءَ في غَرْسِهِ

حَتَّى تُرَاهُ مُورِقاً نـاضِراً بعدَ الذي قد كان في يُبْسِـهِ

وقال آخر:

يُقوِّمُ مِنْ مَيلِ الغُلامِ المؤدِّبُ ولا يَنْفَعُ التأديبُ والرأسُ أشيَبُ

وقال آخر:

وَتَلُومُ عِرْسَكَ بَعْدَ ما هَرِمَتْ وَمِنَ العَنَاءِ رِياضَةُ الهَرِم

وقد قالَ ذو الرُّمَّةِ لعيسى بن عمر: اكتبْ شِعري؛ فالكتابُ أحبُّ إليَّ من الحفظ، لأنّ الأعرابيَّ ينسى الكلمةَ وقد سهر في طلبها ليلَته، فيضَعُ في موضعها كلمةً في وزنها، ثم يُنشِدها الناسَ، والكتاب لا يَنْسَى ولا يُبدِّلُ كلاماً بكلام.
وعبتَ الكتابَ، ولا أعلَمُ جاراً أبرَّ، ولا خَليطاً أنصفَ، ولا رفيقاً أطوعَ، ولا معلِّماً أخضعَ، ولا صاحباً أظهرَ كفايةً، ولا أقلَّ جِنايَةً، ولا أقلَّ إمْلالاً وإبراماً، ولا أحفَلَ أخلاقاً، ولا أقلَّ خِلافاً وإجراماً، ولا أقلَّ غِيبةً، ولا أبعدَ من عَضيهةٍ، ولا أكثرَ أعجوبةً وتصرُّفاً، ولا أقلَّ تصلُّفاً وتكلُّفاً، ولا أبعَدَ مِن مِراءٍ، ولا أتْرَكَ لشَغَب، ولا أزهَدَ في جدالٍ، ولا أكفَّ عن قتالٍ، من كتاب، ولا أعلَمُ قريناً أحسنَ موَافاةً، ولا أعجَلَ مكافأةً، ولا أحضَرَ مَعُونةً، ولا أخفَّ مؤونةً، ولا شجرةً أطولَ عمراً، ولا أجمعَ أمراً، ولا أطيبَ ثمرةً، ولا أقرَبَ مُجتَنَى، ولا أسرَعَ إدراكاً، ولا أوجَدَ في كلّ إبَّانٍ، من كتاب، ولا أعلَمُ نِتاجاً في حَدَاثةِ سنِّه وقُرْب ميلادِه، ورُخْص ثمنه، وإمكانِ وُجوده، يجمَعُ من التدابير العجيبَة والعلومِ الغريبة، ومن آثارِ العقولِ الصحيحة، ومحمودِ الأذهانِ اللطيفة، ومِنَ الحِكَم الرفيعة، والمذاهب القويمة، والتجارِبِ الحكيمة، ومِنَ الإخبارِ عن القرون الماضية، والبلادِ المتنازحة، والأمثالِ السائرة، والأمم البائدة، ما يجمَعُ لك الكتابُ، قال اللّه عزّ وجلّ لنبيّه عليه الصلاة والسلام)اقرأ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ(فوَصَفَ نَفْسَهُ، تبارك وتعالى، بأنْ علَّمَ بالقلم، كما وصف نفسَه بالكرَم، واعتدَّ بذلك في نِعَمه العِظام، وفي أياديه الجِسام، وقد قالوا: القَلَمُ أحدُ اللسانَين، وقالوا: كلُّ مَنْ عَرَفَ النِّعمةَ في بَيان

اللسان، كان بفضل النِّعمة في بيانِ القلم أعرَف، ثمَّ جَعَلَ هذا الأمرَ قرآناً، ثمَّ جعلَه في أوَّل التنزيل ومستَفْتَح الكتاب.

كون الاجتماع ضرورياً

ثمَّ اعلمْ، رحِمَك اللّه تعالى، أنّ حاجة بعض الناس إلى بعضٍ، صفةٌ لازمةٌ في طبائِعهم، وخِلقةٌ قائِمةٌ في جواهِرهم، وثابتةٌ لا تُزَايلُهم، ومُحيطةٌ بجماعَتِهم، ومشتملةٌ على أدناهم وأقصاهم، وحاجَتُهُمْ إلى ما غاب عنهم - ممَّا يُعِيشُهم ويُحْيِيهم، ويُمسِك بأرْماقِهم، ويُصلِحُ بالهم، وَيجْمَع شملَهم، وإلى التعاوُنِ في دَرْكِ ذلك، والتوازُرِ عليه - كَحَاجَتِهم إلى التعاون على معرفة ما يضرُّهم، والتوازرِ على ما يحتاجون من الارتفاق بأمورهم التي لم تَغِبْ عنهم، فحاجَةُ الغائِبِ مَوصُولةٌ بحاجةِ الشاهد، لاحتياج الأدنَى إلى معرفة الأقصى، واحتياج الأقصى إلى معرفةِ الأدنى، معانٍ متضمّنةٌ، وأسبابٌ متَّصلة، وحبالٌ منعقدة، وجعل حاجتَنا إلى معرفة أخبارِ مَنْ كان قبلَنا، كحاجةِ من كان قبلنا إلى أخبار مَنْ كان قبلهم، وحاجةِ من يَكُونُ بعدَنا إلى أخبارنا؛ ولذلك تقدَّمت في كتب اللّه البشارات بالرُّسل، ولم يسخِّر لهم جميعَ خَلْقه، إلاّ وهم يحتاجُون إلى الارتفاق بجميع خَلْقه، وجعلَ الحاجَة حاجَتَين: إحداهما قِوامٌ وقُوت، والأخرى لذّةٌ وإمتاع وازديادٌ في الآلة، وفي كلِّ ما أجذَلَ النفوس، وجمع لهم العَتاد، وذلكَ المقدارُ مِنْ جميع الصِّنْفين وفقٌ لكثرةِ حاجاتهم وشَهوَاتهم، وعلى قدْر اتّساع معرفتهم وبُعْدِ غَوْرهم، وعلى قدْر احتمال طبع البشريَّة وفِطرةِ الإنسانيَّة، ثم لم يقطع الزيادةَ إلا لعجْزِ خلقِهم عن احتمالها، ولم يجز أن يفرق بينهم وبين العجْز، إلاّ بعدَم الأعيان، إذ كان العجزُ صفةً من صفاتِ الخلق، ونعتاً من نُعوتِ العبيد.
لم يخلق اللّه تعالى أحداً يستطيعُ بلوغَ حاجتِه بنفسه دونَ الاستعانة ببعضِ من سخَّرَ له، فأدناهم مسخَّرٌ لأقصاهم، وأجلُّهم ميسَّر لأدقِّهم، وعلى ذلك أحوَجَ الملوكَ إلى السُّوقة في بابٍ، وأحوَجَ السُّوقةَ إلى الملوك في باب، وكذلك الغنيُّ والفقير، والعبدُ وسيِّدُه، ثُمَّ جَعلَ اللّه تعالى كلَّ شيءٍ للإنسان خَوَلاً، وفي يَدِه مُذَلّلاً مُيَسَّراً إمّا بالاحتِيالِ له والتلطُّفِ في إراغتِه واستِمالتِه، وإمّا بالصَّوْلةِ عليه، والفتكِ به، وإمّا أنْ يأْتِيَهُ سهواً ورهواً، على أنَّ الإنسانَ لولا حاجَتُهُ إليها، لما احتالَ لها، ولا صَالَ عليها، إلاّ أنّ الحاجةَ تفتَرِق في الجنس والجهةِ والجِبِلَّة، وفي الحظِّ والتقدير.
ثمَّ تعبَّدَ الإنسانَ بالتفكُّر فيها، والنظرِ في أمورها، والاعتبار بما يَرَى، ووَصَل بينَ عُقولهم وَبيْنَ معرفةِ تلك الحكَم الشريفة، وتلك الحاجاتِ اللازمة، بالنظرِ والتفكير، وبالتنقيب والتنْقير، والتثبت والتوقُّف؛ ووَصَلَ معارفَهم بموَاقع حاجاتِهم إليها، وتشاعُرِهم بمواضع الحكم فيها بالبيانِ عنها.

البيان ضروري للاجتماع

وهو البيانُ الذي جعلَه اللّه تعالى سبباً فيما بينَهم، ومعبِّراً عن حقائق حاجاتهم، ومعرِّفاً لمواضع سدِّ الخَلَّة ورفْع الشبهة، ومداواةِ الحَيرة، ولأنّ أكثرَ الناسِ عن

الناس أفهمُ منهم عن الأشباح الماثلة، والأجسامِ الجامدة، والأجرام الساكنة، التي لا يُتَعَرَّفُ ما فيها من دَقائق الحكمةِ وكُنوزِ الآداب، وينابيع العلمِ، إلاّ بالعقلِ الثاقب اللطيف، وبالنظرِ التامِّ النافذ، وبالأداةِ الكاملة، وبالأسبابِ الوافرة، والصبرِ على مكروه الفكر، والاحتراسِ من وُجوه الخُدَعِ، والتحفُّظِ مِن دواعي الهوى؛ ولأنَّ الشّكلَ أفهَمُ عن شِكله، وأسكَنُ إليه وأصَبُّ به، وذلك موجودٌ في أجناسِ البهائم، وضُروبِ السباع، والصبيُّ عن الصبيِّ أفهمُ له، وله آلفُ وإليه أنزَع، وكذلك العالِمُ والعالم، والجاهل والجاهل، وقال اللّه عزّ وجلّ لنبيِّه عليه الصلاة والسلام: "وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً" لأنَّ الإنسان عن الإنسان أفهم، وطباعَه بطِباعه آنس؛ وعلى قدْر ذلك يكونُ موقعُ ما يسمع منه. ثمَّ لم يرضَ لهم من البنيان بصِنفٍ واحد، بل جَمع ذلك ولم يفرِّق، وكثَّر ولم يقلِّل، وأظهَرَ ولم يُخْفِ، وجعَل آلةَ البيانِ التي بها يتعارَفُون معانيَهُم، والتَّرْجُمانَ الذي إليه يرجِعون عند اختلافِهم؛ في أربعة أشياء؛ وفي خَصْلةٍ خامسة؛ وإن نقصت عن بلوغ هذه الأربعة في جهاتها، فقد تُبدَّل بجنسها الذي وَضِعت له وصُرفتْ إليه، وهذه الخصال هي: اللفظ، والخطّ، والإشارة، والعَقْد؛ والخَصلة الخامسة ما أوجَدَ من صحَّة الدَّلالةِ، وصدقِ الشهادة ووُضوح البرهان، في الأجْرَامِ الجامدة والصامتة، والساكنة التي لا تَتَبيَّن ولا تحسُّ، ولا تَفهَم ولا تتحرَّك إلاّ بداخلٍ يدخل عليها، أو عندَ مُمْسِكٍ خلِّي عنها، بعد أنْ كان تقييده لها.

ثمَّ قسّم الأقسامَ ورتَّب المحسوسات، وحصَّل الموجوداتِ، فجعل اللفظ للسامع، وجعل الإشارة للناظر، وأشرَك الناظرَ واللامس في معرفة العَقْد، إلاّ بما فضّل اللّه به نصيبَ الناظرِ في ذلك على قدْرِ نصيبِ اللامس، وجَعَلَ الخطّ دليلاً على ما غابَ من حوائجه عنه، وسبباً موصولاً بينه وبين أعوانه؛ وجعله خازناً لما لا يأمَن نسيانَه، ممَّا قد أحصاه وحفِظه، وأتقنه وجَمعه، وتكلف الإحاطة به؛ ولم يجعل للشامِّ والذائق نصيباً.

خطوط الهند

ولولا خطوطُ الهندِ لضاع من الحساب الكثيرُ والبسيط، ولبطلت مَعرفةُ التضاعيف، ولَعدِموا الإحاطة بالباورات وباورات الباورات، ولو أدركوا ذلك لَما أدركُوه إلاّ بعد أنْ تغلُظ المؤونة، وتنتَقِضَ المُنّةُ، ولصارُوا في حال مَعْجَزَةٍ وحسور، وإلى حالِ مَضيعَةٍ وكَلالِ حدّ، مع التشاغُلِ بأمورٍ لولا فقدُ هذه الدَّلالةِ لكان أربحَ لهم، وأرَدَّ عليهم، أن يُصرَف ذلك الشغلُ في أبوابِ منافع الدين والدنيا.

نفع الحساب

ونفع الحساب معلوم، والخَلّةُ في موضع فقدِه معروفة، قال اللّه تعالى: "الرَّحْمنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ"، ثم قال: "الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بحُسْبَانٍ"، وبالبَيَانِ عَرَفَ الناسُ القرآنَ، وقال اللّه تباركَ وتعالى: "هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَ الْقَمَرَ نُوراً، وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ، لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالحِسَابَ" فأجْرَى الحسابَ مُجرَى البيان بالقرآن، وبحُسْبان منازلِ القمر، عَرَفْنا حالاتِ المدِّ والجزْر،

وكيف تكونُ الزيادةُ في الأهِلَّة وأنصافِ الشهور، وكيف يكونُ النقصانُ في خلال ذلك، وكيف تلك المراتبُ وتلك الأقدار.

فضل الكتابة

ولولا الكتبُ المدوَّنَة والأخبار المخلَّدة، والحكم المخطوطة التي تُحصِّنُ الحسابَ وغيرَ الحساب، لبَطَل أكثر العلم، ولغلَب سُلطانُ النِّسيانِ سلطانَ الذكْر، ولَمَا كان للناس مفزعٌ إلى موضع استذكار، ولو تمَّ ذلك لحُرِمْنا أكثرَ النفع؛ إذ كنَّا قد علمْنا أنَّ مقدار حفْظ الناسِ لعواجل حاجاتهم وأوائلها، لا يَبلغ من ذلك مبلغاً مذكوراً ولا يُغْنِي فيه غَنَاء محموداً، ولو كُلِّفَ عامّةُ مَن يطلب العلمَ ويصطنِع الكتب، ألاّ يزال حافظاً لفِهرست كتبه لأعجزه ذلك، ولكُلِّفَ شططاً، ولَشَغَله ذلك عن كثيرٍ ممّا هو أولى به، وفهمُك لمعاني كلامِ الناس، ينقطع قبل انقطاع فهْمِ عين الصوتِ مجرَّداً، وأبعَدُ فهمِك لصوتِ صاحبك ومُعامِلك والمعاونِ لك، ما كان صياحاً صرفاً، وصوتاً مصمَتاً ونداءً خالصاً، ولا يكون ذلك إلاّ وهو بعيدٌ من المفاهمة، وعُطْلٌ من الدَّلالة، فجعل اللفظ لأقرَب الحاجاتِ، والصوتَ لأنفَسَ من ذلك قليلاً، والكتابُ للنازح من الحاجاتِ، فأمّا الإشارة فأقربُ المفهومِ منها: رَفْعُ الحواجبِ، وكسرُ الأجفان، وليُّ الشِّفاهِ وتحريك الأعناق، وقبْض جلدةِ الوجه؛ وأبعدُها أن تلوى بثوبٍ على مقطع جبل، تُجاهَ عينِ الناظر، ثمَّ ينقطع عملُها ويدرُس أثرها، ويموت ذكرها، ويصير بعدُ كلُّ شيءٍ فضَل عن انتهاء مدَى الصوت ومنتهى الطرف، إلى الحاجة وإلى التفاهم بالخطوطِ والكتب، فأيُّ نفع أعظمُ، وأيُّ مِرْفَقٍ أعوَنُ من الخطِّ، والحالُ فيه كما ذكرنا وليس للعَقْد حظُّ الإشارةِ في بُعد الغاية.

فضل القلم

فلذلك وضع اللّه عزّ وجلّ القلم في المكان الرفيع، ونوَّه بذِكره في المنْصِب الشريف حين قال "ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ" فأقسَمَ بالقلَم كما أقسمَ بما يُخَطُّ بالقلم؛ إذ كان اللسانُ لا يتعاطى شأوَه، ولا يشُقُّ غبارَه ولا يجري في حلبته، ولا يتكلف بُعْدَ غايتِه، لكنْ لما أنْ كانت حاجات الناس بالحَضْرة أكثرَ مِنْ حاجاتهم في سائِر الأماكن، وكانت الحاجةُ إلى بيانِ اللسانِ حاجةً دائِمة واكدة، وراهِنةً ثابتة، وكانت الحاجةُ إلى بَيانِ القلم أمراً يكونُ في الغَيبة وعند النائبة، إلاَّ ما خُصَّت به الدواوين؛ فإنّ لسانَ القلم هناك أبسطُ، وأثرَهُ أعَمُّ، فلذلك قدَّموا اللسانَ على القلم.

فضل اليد

فاللسانُ الآنَ إنَّما هو في منافع اليدِ والمرافق التي فيها، والحاجاتِ التي تبلُغها، فمن ذلك حظُّها وقِسطُها من منافع الإشارة، ثم نَصِيبُها في تقويم القلم، ثم حَظُّها في التصوير، ثم حَظُّها في الصناعات، ثم حَظُّها في العَقْد، ثم حَظُّها في الدَّفْع عن النفس، ثمَّ حَظُّها في إيصال الطعام والشراب إلى الفم، ثم التوضُّؤ والامتساح، ثم انتقادِ الدنانيرِ والدراهمِ ولُبسِ الثِّياب، وفي الدفع عن النفس، وَأَصْنَافِ الرَّمْي، وأصنافِ الضرْب، وأصناف الطعْن، ثم النَّقْرِ بالعُود وتحريكِ الوتر؛ ولولا ذلك لبَطَل

الضرْبُ كلُّه أو عامَّتُه، وكيف لا يكون ذلك كذلك ولها ضَرْبُ الطبْل والدُّفّ، وتحريكُ الصفَّاقتين، وتحريك مخارق خروق المزامير، وما في ذلك من الإطلاق والحبس، ولو لم يكنْ في اليدِ إلاَّ إمساكُ العِنان والزِّمام والخِطام، لكانَ من أعظمِ الحظوظ، وقد اضطرَبوا في الحكْم بين العَقْد والإشارة، ولولا أنّ مغْزانا في هذا الكتابِ سوى هذا الباب، لقد كانَ هذا ممَّا أُحِبُّ أن يعرفه إخوانُنَا وخلطاؤنا، فلا ينبغي لنا أيضاً أن نأخذ في هذا الباب من الكلام، إلاّ بعدَ الفَراغ ممَّا هو أولى بنا منه، إذ كنتَ لم تنازعني، ولم تَعِبْ كتبي، من طريق فضل ما بين العَقْد والإشارة، ولا في تمييز ما بين اللفظ وبينهما، وإنَّما قصَدْنا بكلامنا إلى الإخبار عن فضيلة الكتاب.

فضل الكتاب

والكتابُ هو الذي يؤدِّي إلى الناس كتبَ الدين، وحسابَ الدواوين مع خفَّة نقلِه، وصِغَر حجمه؛ صامتٌ ما أسكتَّه، وبليغ ما استنطقته، ومَن لك بمسامر لا يبتديك في حالِ شُغْلك، ويدعُوك في أوقاتِ نشاطِك، ولا يُحوِجك إلى التجمُّل له والتذمُّم منه، ومَن لكَ بزائرٍ إن شئتَ جعل زيارتَه غِبّاً، ووُروده خِمْساً، وإن شئت لَزِمَك لزومَ ظلِّك، وكان منك مكانَ بعضِك.
والقلمُ مكتفٍ بنفْسه، لا يحتاج إلى ما عندَ غيره؛ ولا بدَّ لبيانِ اللسانِ من أمور: منها إشارة اليد، ولولا الإشارةُ لَمَا فهموا عنك خاصَّ الخاصِّ إذا كان أخصُّ الخاصِّ قد يدخل في باب العامّ، إلاّ أنّه أدنى طبقاته؛ وليس يكتفي خاصُّ الخاصّ باللفظ عمَّا أدّاه، كما اكتفى عامُّ العامّ والطبقاتُ التي بينه وبين أخصِّ الخاصّ.
والكتابُ هو الجليس الذي لا يطريك، والصديق الذي لا يغْريك، والرفيق الذي لا يملُّكَ، والمستَمِيح الذي لا يستَرِيثُك، والجارُ الذي لا يَسْتَبْطِيك، والصاحبُ الذي لا يريد استخراجَ ما عندَك بالملَق، ولا يعامِلُك بالمَكر، ولا يخدَعك بالنِّفاق، ولا يحتالُ لك بالكَذِب، والكتابُ هو الذي إنْ نظرتَ فيه أطالَ إمتَاعَك، وشحَذَ طباعَك، وبسَط لسانَك، وجوَّدَ بَنانك، وفخَّم ألفاظَك، وبجَّح نفسَك، وَعمَّر صدرك، ومنحكَ تعظيمَ العوامِّ وصَداقةَ الملوك، وعَرَفتَ به في شهر، ما لا تعرفُه من أفواهِ الرجال في دهْر، مع السلامةِ من الغُرم، ومن كدِّ الطلب، ومن الوقوفِ بباب المكتِسب بالتعليم، ومِن الجُلوس بين يَديْ مَن أنت أفضلُ منه خُلُقاً، وأكرمُ منه عِرْقاً، ومع السلامةِ من مجالَسَة البُغَضاء ومقارنةِ الأغبياء. والكتابُ هو الذي يُطِيعُك بالليل كطاعته بالنهار، ويطيعُك في السفر كطاعته في الحضر، ولا يعتلُّ بنومٍ، ولا يعتَريه كَلالُ السهر، وهو المعلِّمُ الذي إن افتقرتَ إليه لم يُخْفِرْك، وإن قطعتَ عنه المادَّة لم يقطعْ عنك الفائدة، وإن عُزِلتَ لم يَدعْ طاعتَك، وإن هبَّتْ ريحُ أعادِيك لم ينقلبْ عليك، ومتى كنتَ منه متعلِّقاً بسببٍ أو معتصماً بأدنى حبْل، كان لك فيه غنًى من غيره، ولم تَضْطرَّك معه وحشةُ الوَحدةِ إلى جليس السوء، ولو لم يكن مِن فضْله عليك، وإحسانِه إليك، إلاّ منعُه لكَ من الجلوس على بابك، والنظرِ إلى المارَّةِ بك، مع ما في ذلك من التعرُّض للحقوق التي تَلزَم، ومن فُضولِ النظر، ومن عادةِ الخوض فيما لا يعنيك، ومِن ملابسةِ صغارِ الناس، وحضورِ ألفاظهم الساقطة،

ومعانيهم الفاسِدة، وأخلاقهم الرديَّة، وجَهالاتهم المذمومة، لكان في ذلك السلامة، ثم الغنيمةُ، وإحرازُ الأصل، مع استفادةِ الفرع، ولو لم يكن في ذلك إلاّ أنّه يشغَلُك عن سُخْف المُنَى وعن اعتياد الراحة، وعن اللعب، وكلِّ ما أشبهَ اللعب، لقد كان على صاحبه أسبَغَ النعمة وأعظمَ المِنَّة.

وقد علمنا أنَّ أفضلَ ما يقطع به الفُرَّاغ نهارَهم، وأصحابُ الفُكاهات ساعاتِ ليلِهم، الكتاب، وهو الشيء الذي لا يرى لهم فيه مع النيل أثرٌ في ازدِياد تجربةٍ ولا عقلٍ ولا مروءة، ولا في صونِ عرض، ولا في إصلاح دِين، ولا في تثمير مال، ولا في رَبِّ صنيعة ولا في ابتداء إنعام.

أقوال لبعض العلماء في فضل الكتاب وقال أبو عبيدة، قال المهلَّب لبنِيه في وصيَّتِه: يا بَنيَّ لا تقوموا في الأسواق إلاّ على زَرَّادٍ أو وَرَّاق.

وحدَّثني صديقٌ لي قال: قرأتُ على شيخٍ شاميٍّ كتاباً فيه مِن مآثر غطفان فقال: ذهبَت المكارمُ إلاّ من الكتب.

وسمعتُ الحسن اللؤلؤي يقول: غَبَرتُ أربعين عاماً ما قِلْتُ ولا بتُّ ولا اتكأت إلاّ والكتابُ موضوعٌ على صدري.

وقال ابن الجهْم: إذا غشِيَني النعاس في غير وقتِ نوم - وبئس الشيءُ النومُ الفاضِلُ عن الحاجة - قال: فإذا اعتراني ذلك تناولتُ كتاباً من كتب الحِكَم، فأجِدُ اهتزازي للفوائِد، والأريحيَّة التي تعتريني عند الظفَر ببعض الحاجة، والذي يغشَى قلْبي من سرور الاستبانة وعزِّ التبيين أشدَّ إيقاظاً مِن نَهيق الحمير وهَدَّةِ الهدْم.

وقال ابن الجهم: إذا استحسنتُ الكتابَ واستجدتُه، ورجوتُ منه الفائدة ورأيتُ ذلك فيه - فلو تراني وأنا ساعةً بعدَ ساعةٍ أنظرُ كم بقي من ورقِهِ مخافةَ استنفاده، وانقطاعِ المادَّة من قلْبه، وإن كان المصحفُ عظيمَ الحجم كثير الورق، كثير العدد - فقد تَمَّ عيشي وكَمُلَ سروري.

وذكر العتبي كتاباً لبعض القدماء فقال: لولا طولُه وكثرةُ ورقه لنسختُه، فقال ابن الجهم: لكنِّي ما رغّبني فيه إلاّ الذي زهّدك فيه؛ وما قرأتُ قطُّ كتاباً كبيراً فأخْلاني من فائدة، وما أُحصِي كم قرأتُ من صغار الكتب فخرجتُ منها كما دخلت.

وقال العتبي ذاتَ يومٍ لابن الجهم: ألا تتعجَّبُ من فلانٍ نَظر في كتابِ الإقليدس مع جارية سَلْمَويه في يومٍ واحد، وساعة واحدة، فقد فرغتِ الجاريةُ من الكتابِ وهو بعدُ لم يُحكِم مقالةً واحدة، على أنَّه حُرٌّ مخيَّر، وتلك أمَةٌ مقصورة، وهو أحرصُ على قراءةِ الكتاب مِن سَلْمَوَيهِ على تعليمِ جارية، قال ابن الجهم: قد كنت أظنُّ أنّه لم يفهم منه شكلاً واحداً، وأَرَاك تزعم أنّه قد فرغ من مقالة قال العتبي: وكيف ظننتَ به هذا الظنَّ، وهو رجلٌ ذو لسانٍ وأدب؟ قال: لأنِّي سمعتُه يقول لابنِه: كم أنفقتَ على كتابِ كذا؟ قال: أنفقت عليه كذا، قال: إنَّما رَغّبَني في العلم أنّي ظننتُ أنّي أنفق عليه قليلاً وأكتسِب كثيراً، فأمّا إذا صرتُ أنفِق الكثيرَ، وليس في يدي إلاّ المواعيدُ، فإنِّي لا أريد العلمَ بشيء.

السماع والكتابة

فالإنسان لا يعلمُ حتى يكثُرَ سماعُه، ولا بُدَّ من أن تكون كتبُه أكثرَ من سَمَاعِه؛ ولا يعلمُ، ولا يجمع العلم، ولا يُخْتَلَف إليه، حتى يكون الإنفاقُ عليه من ماله، ألذَّ عندَه من الإنفاقِ من مال عدوِّه، ومَن لم تكن نفقتُه التي تخرج في الكتب، ألذَّ عنده مِن إنفاق عُشَّاق القيان، والمستهتَّرين بالبنيان، لم يبلغ في العلم مبلغاً رضِيّاً، وليس يَنتفع بإنفاقِه، حتَّى يؤثِر اتِّخاذَ الكتبِ إيثارَ الأعرابي فرسَه باللبن على عياله، وحتَّى يؤَمِّل في العلم ما يؤَمِّل الأعرابي في فرسه، - حرص الزنادقة على تحسين كتبهم. وقال إبراهيم بن السِّنديّ مرة: وددْتُ أنَّ الزنادقة لم يكونوا حرصاء على المغالاة بالورق النقيِّ الأبيض، وعلى تخيُّر الحبرِ الأسودِ المشرقِ البرَّاق، وعلى استجادةِ الخطِّ والإرغاب لمن يخطّ، فإنِّي لم أرَ كورَق كتبِهم ورقاً، ولا كالخطوط التي فيها خطّاً، وإذا غرمتُ مالاً عظيماً - مع حبِّي للمال وبُغْضِ الْغُرْم - كان سخاءُ النفس بالإنفاق على الكتب، دليلاً على تعظيمِ العلمِ، وتعظيمُ العلم دليل على شرف النفس، وعلى السلامَة من سُكْر الآفات، قلت لإبراهيم: إنّ إنفاقَ الزنادقةِ على تحصيلِ الكتب، كإنفاق النصارى على البِيَع، ولو كانت كتبُ الزنادقةِ كتبَ حكمٍ وكتبَ فلسفة، وكتبَ مقاييسَ وسُنَنٍ وتبيُّنٍ وتبيين، أو لو كانت كتُبهم كتباً تُعرِّف الناسَ أبوابَ الصِّناعات، أو سُبُلَ التكسُّب والتجارات، أو كتبَ ارتفاقاتٍ ورياضاتٍ، أو بعض ما يتعاطاه الناسُ من الفطن والآداب - وإنْ كان ذلك لا يقرِّب من غِنًى ولا يُبْعِد من مأثم - لكانوا ممَّن قد يجوز أن يُظَنَّ بهم تعظيمُ البيان، والرغبةُ في التبيُّن، ولكنَّهم ذهبوا فيها مذهبَ الدِّيانة، وعلى طريق تعظيم المِلّة، فإنّما إنفاقهم في ذلك، كإنفاق المجوس على بيت النار، وكإنفاق النصارَى على صُلْبان الذهب، أو كإنفاق الهند على سَدَنَةِ البِدَدَة، ولو كانوا أرادوا العلمَ لكان العلمُ لهم مُعرضاً، وكتبُ الحكمة لهم مبذولة، والطرقُ إليها سهْلةً معروفة، فما بالُهُم لا يصنعون ذلك إلاّ بكتُب دياناتهم، كما يزخرفُ النصارى بيوتَ عباداتهم ولو كان هذا المعنى مستحسَناً عند المسلمين، أو كانوا يرون أنّ ذلك داعيةً إلى العبادة، وباعثةً على الخُشوع، لبلَغُوا في ذلك بعَفْوهم، ما لا تبلُغُه النصارى بغاية الجَهْد.
مسجد دمشق وقد رأيتُ مسجِدَ دِمَشْق، حين استجاز هذا السبيل ملِكٌ من ملوكها، ومَنْ رآه فقد علم أنّ أحداً لا يرومه، وأنَّ الرومَ لا تسخوا أنفُسهم به، فلمَّا قام عمرُ بنُ عبد العزيز، جَلَّله بالجِلال، وغطَّاه بالكرابيس، وطبَخَ سلاسلَ القناديلِ حتَّى ذهب عنها ذلك التلألُؤُ والبريق؛ وذهب إلى أنّ ذلك الصنيعَ مجانِبٌ لسنَّة الإسلام، وأنَّ ذلك الحُسنَ الرائعَ والمحاسنَ الدِّقاق، مَذهَلةٌ للقلوب، وَمشغَلةٌ دونَ الخشوع، وأنّ البالَ لا يكون مجتمِعاً وهناك شيء يفرِّقه ويعترض عليه.
صفة كتب الزنادقة والذي يدلُّ على ما قلنا، أنّه ليس في كتبهم مثلٌ سائر، ولا خبرٌ طريف، ولا صنعةُ أدبٍ، ولا حكمةٌ غريبة، ولا فلسفةٌ، ولا مسألةٌ كلاميَّة، ولا تعريفُ صِناعة، ولا استخراجُ آلة، ولا تعليمُ فِلاحةٍ، ولا تدبير حرب، ولا مقارَعة عن دِين، ولا مناضَلة عن نِحْلة، وجُلُّ ما فيها ذِكر النور والظلمة، وتناكُحُ الشياطين، وتسافُدُ العفاريت، وذكر الصنديد، والتهويل بعمود السنخ، والإخبار عن شقلون، وعن الهامة والهمامة، وكلُّه هَذَرٌ وعِيٌّ وخُرافة، وسُخْرِيَة وتكذُّب، لا ترى فيه موعظةً حسنة، ولا حديثاً مُونِقاً، ولا تدبيرَ مَعاشٍ، ولا سياسةَ عامة، ولا

ترتيبَ خاصَّة، فأيُّ كتابٍ أجهلُ، وأيُّ تدبيرٍ أفسدُ من كتابٍ يوجِب على الناس الإطاعة، والبخوع بالديانة، لا على جهة الاستبصار والمحبَّة، وليس فيه صلاحُ مَعاشٍ ولا تصحيحُ دين؟ والناسُ لا يحبُّون إلا ديناً أو دنيا: فأمَّا الدّنيا فإقامةُ سوقِها وإحضار نفعها، وأما الدِّين فأقلُّ ما يُطمع في استجابة العامة، واستمالة الخاصَّة، أنْ يصوِّر في صورةٍ مغلِّطة، ويموِّهَ تمويهَ الدِّينار البَهْرَج، والدرهم الزائف الذي لا يغلط فيه الكثير، ويعرفُ حقيقته القليل، فليس إنفاقُهم عليها من حيثُ ظننت، وكلُّ دين يكون أظهر اختلافاً وأكثرَ فساداً، يحتاج من الترقيع والتمويه، ومن الاحتشاد له والتغليظ فيه إلى أكثر، وقد علمْنا أنَّ النصرانيَّة أشدُّ انتشاراً من اليهوديَّة تعبداً، فعلى حسب ذلك يكون تزيُّدُهم في توكِيده، واحتفالُهم في إظهار تعليمه.

فضل التعلم

وقال بعضهم: كنتُ عندَ بعضِ العلماء، فكنتُ أكتب عنه بعضاً وأدَعُ بعضاً، فقال لي: اكتبْ كلَّ ما تسمعُ، فإن أخسَّ ما تسمعُ خيرٌ من مكانه أبيض.
وقال الخليل بن أحمد: تكثَّرْ من العلم لتعرف، وتقلّلْ منه لتحفَظ.
وقال أبو إسحاق: القليل والكثير للكتب، والقليلُ وحدَه للصدر.
وأنشد قول ابن يَسِير:

أما لو أعِي كلَّ ما أسمَع	وأحفظُ من ذاكَ ما أجمعُ
ولم أستَفِدْ غَيْرَ ما قد جمع	ت لَقِيلَ هو العالِم المِصقع
ولكنَّ نفسي إلى كلّ نو	ع من العلم تسمعُه تنزعُ
فلا أنا أحفظُ ما قد جَمع	تُ ولا أنا مِن جَمعه أشبعُ
وأحصَر بالعِيِّ في مجلسي	وعِلميَ في الكُتْبِ مستودَعُ
فمن يكُ في علمِه هكذا	يكنْ دهرَهُ القهقرَى يرجِعُ
إذا لم تكنْ حافظاً واعياً	فجمعُك للكتبِ لا ينفع

التخصص بضروب من العلم وقال أبو إسحاق: كلَّفَ ابنُ يسيرٍ الكتبَ ما ليس عليها، إن الكتبَ لا تحيي الموتَى، ولا تحوِّل الأحمقَ عاقلاً، ولا البليد ذكِيّاً، ولكنَّ الطبيعةَ إذا كان فيها أدنى قبُول، فالكتبُ تشحَذُ وتَفتِق، وتُرهِف وتَشفي، ومن أرادَ أن يعلمَ كلَّ شيء، فينبغي لأهلِهِ أن يداووه فإنّ ذلك إنما تصوَّرَ له بشيءٍ اعتراه فمَنْ كان ذكيّاً حافظاً فليقصدِ إلى شيئين، وإلى ثلاثة أشياء، ولا ينزع عن الدرس

والمطارَحَة، ولا يدعُ أن يمرَّ على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه، ما قدَر عليه من سائر الأصناف، فيكون عالماً بخواصّ، ويكون غيرَ غفلٍ من سائرِ ما يجري فيه الناسُ ويخوضون فيه، ومن كان مع الدرس لا يحفظ شيئاً، إلاَّ نسيَ ما هو أكثرُ منه، فهو من الحفظ من أفواه الرجال أبعد.

جمع الكتب وفضلها

وحدَّثني موسى بنُ يحيى قال: ما كان في خِزانةِ كتبِ يحيى، وفي بيت مدارسه كتابُ إلاّ وله ثلاثُ نسخ.
وقال أبو عمرو بنُ العلاء: ما دخلتُ على رجل قطُّ ولا مررتُ ببابه، فرأيتُه ينظرُ في دفترٍ وجليسُه فارغُ اليد، إلاّ اعتقدتُ أنَّه أفضلُ منه وأعقل. وقال أبو عمرو بن العلاء: قِيلَ لنا يوماً: إنّ في دار فلانٍ ناساً قد اجتمعوا على سَوءة، وهم جُلوسٌ على خميرة لهم، وعندهم طُنبُورٌ، فتسوَّرنا عليهمْ في جماعةٍ من رجالِ الحيِّ، فإذا فتىً جالسٌ في وسط الدار، وأصحابُه حوله، وإذا همْ بيضُ اللِّحَى، وإذا هو يقرأ عليهم دفتراً فيه شعر، فقال الذي سعى بهم: السَّوءة في ذلك البيت، وإنْ دخلتموه عثرتم عليها فقلت: واللّه لا أكشفُ فتىً أصحابُه شيوخ، وفي يده دفترُ علم، ولو كان في ثوبه دمُ يحيى بنِ زكريَّاء وأنشد رجلٌ يُونُسَ النحويَّ:

استودَعَ العلمَ قرطاساً فضيّعَه فبئْسَ مستودَعُ العلمِ القراطيسُ

قال، فقال يونس: قاتَلَه اللّه، ما أشدَّ ضَنَانَتَه بالعلم، وأحسنَ صِيانته له، إنَّ علمَك مِن روحِك، ومالَكَ مِن بدنك، فضعْه منكَ بمكان الرُّوح، وضعْ مالَكَ بمكان البدن!.
وقيل لابن داحة - وأخرجَ كتابَ أبي الشمقمق، وإذا هو في جلود كوفيَّة، ودَفَّتَين طائفيّتَين، بخطٍّ عجيب - فقيل له: لقد أضيع من تجوَّدَ بشعر أبي الشمَقْمق فقال: لا جرم واللّه إنَّ العلمَ ليُعطيكم على حسابِ ما تعطونه، ولو استطعتُ أن أودِعَه سُويداءَ قلبي، أو أجعلَه محفوظاً على ناظري، لفعلت.
ولقد دخلت على إسحاق بن سليمان في إمْرته، فرأيتُ السِّماطين والرجالَ مُثُولاً كأنَّ على رؤوسهم الطير، ورأيتُ فِرْشَتَه وبزَّته؛ ثم دخلتُ عليه وهو معزول، وإذا هو في بيتِ كتبه، وحواليه الأسفاطُ والرُّقوق، والقماطِرُ والدفاتِر والمَساطر والمحابر، فما رأيتُه قطُّ أفخمَ ولا أنبلَ، ولا أهيبَ ولا أجزَل منهُ في ذلك اليوم؛ لأنَّه جمعَ مع المهابَةِ المحبَّة، ومع الفَخامة الحَلاوة، ومع السُّؤدَد الحِكْمة.
وقال ابن داحة: كان عبدُ اللّه بنُ عبدِ العزيز بنِ عبد اللّهِ بن عمر بن الخطَّاب، لا يجالِسُ الناسَ، وينزلُ مَقْبُرَةً من المقابر، وكان لا يكادُ يُرى إلاَّ وفي يده كتابٌ يقرؤه، فسُئِل عن ذلك، وعن نزولِه المقبُرة فقال: لم أرَ أوْعظ من قبر، ولا أمنَع من كتاب، ولا أسلَمَ من الوَحدة، فقيل له: قد جاء في الوَحدة ما جاء فقال: ما أفسَدَها للجاهِل وأصلحها للعاقل.

منفعة الخط

وضروبٌ من الخُطوطِ بعد ذلك، تدلُّ على قدرِ منفعَة الخطِّ. قال اللّه تبارَك وتعالى "كِرَاماً كَاتِبِينَ. يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُون" وقال اللّه عزّ وجلَّ "فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ. مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ. بِأَيْدِي سَفَرَةٍ" وقال "فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِه" وقال "وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ" وقال "اقرَأْ كِتابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً". ولو لم تكتب أعمالُهم لكانت محفوظةً لا يدخلُ ذلك الحفظ نِسيانٌ، ولكنَّه تعالى وعزَّ، علم أنّ كتابَ المحفوظِ ونسخَه، أوكَدُ وأبلغُ في الإنذار والتحذير، وأهيبُ في الصدور.

وخط آخر، وهو خطُّ الحازي والعرَّاف والزَّاجِر. وكان فيهم حليس الخطَّاط الأسديّ، ولذلك قال شاعرهم في هجائهم:

فأنتم عضاريط الخَمِيس إذا غزَوْا غَناؤكم تِلْكَ الأخاطيطُ في التُّرْبِ

وخُطوطٌ أخَر، تكون مستراحاً للأسيرِ والمهموم والمفكِّر، كما يعتري المفكر من قرْعِ السنِّ، والغضبانَ من تصفيق اليد وتجحيظ العين. وقال تأبَّط شرَّاً:

لتَقْرَعَنَّ عَلَيَّ السنَّ مِنْ نَـدَمٍ إذا تذكَّرتِ يوماً بعضَ أخلاقي

وفي خطِّ الحزينِ في الأرض يقول ذو الرُّمَّة:

عَشِيَّةَ ما لِي حِيلةٌ غيرَ أنَّـنِـي بِلَقْطِ الْحَصَى والخط في الدار مُولَعُ

أخطُّ وأمحو الـخـطَّ ثـم أُعِيدُه بكفّي وَالغِرْبانُ فـي الـدار وُقَّـعُ

وذكر النابغةُ صنيعَ النساءِ، وفزَعَهنَّ إلى ذلك، إذا سُبين واغتربن وفكّرن، فقال:

ويخْططْنَ بالِعيدان في كلِّ منزلِ ويَخبَأنَ رُمَّانَ الثُّدِي النـواهـدِ

وقد يفزع إلى ذلك الخَجِلُ والمتعلّل، كما يفزع إليه المهمومُ وهو قولُ القاسم ابن أمية بن أبي الصَّلْت:

لا ينقرون الأرضَ عند سُؤالِهم لتلمُّسِ العِلاَّتِ بـالـعِـيدان

بل يبسُطون وجوهَهم فتَرَى لها عندَ اللقاء كأحسَنِ الألـوانِ

وقال الحارث بن الكِنْديّ، وذكرَ رجلاً سأله حاجةً فاعتراه العبثُ بأسنانه، فقال:

وآضَ بكَفِّهِ يحتَكُّ ضِرساً يُرِينَا أنَّهُ وَجِعٌ بضِرْسِ

وربما اعتَّرى هؤلاء عدُّ الحصى، إذا كانوا في موضع حصى، ولم يكونوا في موضع تراب، وهو قول امرئ القيس:

ظلِلْتُ ردَائِي فوقَ رَأسِيَ قاعداً   أعدُّ الحصَى ما تَنْقضِي حَسَراتِي

وقال أميَّةُ بنُ أبي الصَّلْت:

نَهَراً جَارياً وبيتاً عِلياً   يعتري المعتَفين فضلُ نداكا

في تراخ من المكارمِ جَزْلٍ   لم تعلِّلهمُ بلَقْطِ حَصاكا

وقال الآخر، وهو يصِف امرأةً قُتِل زوجُها، فهي محزونة تلقط الحصى:

وبيضاءَ مكسال كأنَّ وشاحَها   على أمِّ أحوى المُقْلَتَين خَذُولِ

عَقَلت لها منْ زوجَها عَدَدَ الحصى   مع الصُّبح أو في جُنح كلِّ أصيل

يقول: لم أعْطِهَا عقْلاً عن زوجها، ولم أورثها إلاّ الهمَّ الذي دعاها إلى لقط الحصى، يخبر أنَّه لمنعَتِه، لا يُوصَل منه إلى عقلٍ ولا قوَد.

أقوال الشعراء في الخط

ومّما قالوا في الخطّ، ما أنشدنا هشامُ بن محمد بن السائب الكلبي قال: قال المقنَّع الكنديُّ في قصيدةٍ له مدح فيها الوليدَ بنَ يزيد:

كالخطِّ في كُتُبِ الغلام أجادَه   بمداده، وأسَدَّ من أقلامهِ

قلمٌ كخُرطوم الحمامةِ مائلٌ   مُستَحفِظٌ للعلم من علاّمِه

يَسم الحروفَ إذا يشاءُ بناءَها   لبيانِها بالنَّقْط من أرسامِهِ

مِن صُوفةٍ نَفث المداد سُخامه   حتى تغيَّرَ لونُها بسُخامِه

يَحْفَى فيُقْصَمُ من شَعيرة أنفِه   كقُلاَمة الأُظفُور من قلاّمِه

وبأنفه شَقٌّ تلاءَم فاستَوى   سُقِيَ المدادَ، فزاد في تَلآمِه

مُسْتعجِمٌ وهو الفصِيحُ بكلِّ ما   نطق اللسانُ به على استعجامِهِ

وله تراجِمةٌ بألسنةٍ لهمْ تبيانُ ما يَتلُونَ من تَرجَامِه

ما خطَّ من شيءٍ به كتّابه ما إن يبوحُ به على استكتامِه

وهجاؤه قاف ولام بعدها ميم معلَّقةٌ بأسفلِ لامِه

ثم قال:

قالتْ لجارتها الغزَيِّلُ إذ رأت وجهَ المقنَّع من وراءِ لِثامِه

قد كان أبيضَ فاعتراه أدْمَةٌ فالعينُ تُنكره من ادْهِيمامِه

كم من بُويزل عامِها مهريّة سُرُح اليدينِ ومن بُويزل عامِه

وَهَبَ الوليدُ برَحْلها وزمامها وكذاكَ ذاكَ برَحلِه، وزِمامه

وقويرحٍ عتد أعِدَّ لِنيِّهِ لبن اللَّقُوح فعادَ مِلءَ حِزامِهِ

وهبَ الوليدُ بسَرْجها ولجامها وكذاك ذاك بسَرجه، ولِجَامه

أهدَى المقنّع للوَليدِ قصيدةً كالسيفِ أرهِف حدُّه بحُسامه

وله المآثرُ في قريشٍ كلِّها وله الخِلافةُ بعد موتِ هشامِه

وقال الحسن بن جَماعة الجُذامِيُّ في الخطّ:

إليكَ بسِرِّي بَاتَ يُرقِلُ عالمٌ أصمُّ الصدى مُحرورِفُ السِّنِّ طائعُ

بَصيرٌ بما يُوحَى إليه وما لَهُ لسانٌ ولا أُذْنٌ بها هُوَ سامعُ

كأنَّ ضميرَ القلبِ باحَ بسرِّه لديه، إذا ما حَثْحَثْتْهُ الأصابعُ

له ريقةٌ من غير فرثٍ تمدُّه ولا مِنْ ضُلوعٍ صفّقتها الأضالِعُ

وقال الطائيُّ، يمدح محمَّدَ بن عبدِ الملك الزَّيات:

وما برحتْ صُوراً إليكَ نوازعاً أعنَّتُها مُذْ راسلَتك الرسائل

لكَ القلمُ الأعلى الذي بشباته يُصَابُ من الأمرِ الكُلَى والمفاصلُ

لك الخَلواتُ اللاءِ لولا نجيُّها لما احتفلت للمُلْكِ تلك المحافلُ

لُعابُ الأفاعي القاتلاتِ لُعابُه وأرْيُ الجَنَى اشتارَتْه أيدٍ عَواسِلُ

له ريقةٌ طلٌّ ولكنَّ وقعَها بآثارها في الشرق والغرب وابلُ

فصيحٌ إذا استنطقتَه وهو راكبٌ وأعجمُ إن خاطبتَه وهو راجِلُ

إذا ما امتطى الخمسَ اللّطَافَ وأفرغت عليه شِعابُ الفكرِ وهي حَوافِلُ

أطاعَتْه أطرافُ القنا وتقوَّضَتْ لنَجواه تقويضَ الخيامِ الجَحافلُ

إذا استغزر الذهن الجلِيّ وأقبلتْ أعالِيه في القِرطاس وهي أسافلُ

وقد رفدته الخِنْصَران وسدَّدت ثلاثَ نواحِيه الثلاثُ الأنامِلُ

رأيتَ جليلاً شأنُهُ وهو مُرْهَفٌ ضنى وسميناً خَطْبُه وهو ناحلُ

أرى ابنَ أبي مروانَ أمَّا لِقاؤُه فدانٍ وأمَّا الحكمُ فيه فعادلُ

وقد ذكر البُحتُريُّ في كلمةٍ له، بعض كهولِ العسكر، ومن أنبَل أبناء كتّابهم الجِلّة فقال:

وإذا دجَتْ أقلامُه ثم انتحَتْ برقت مصابيحُ الدُّجَى في كتبه

الكتابات القديمة

وكانوا يجعلون الكتاب حفراً في الصخور، ونقشاً في الحجارة، وخلقة مُرَكَّبةً في البُنْيان، فربَّما كان الكتابُ هو الناتئ، وربّما كان الكتابُ هو الحفر، إذا كان تاريخاً لأمر جَسيم، أو عهداً لأمرٍ عظيم، أو مَوعظةً يُرتَجى نفعُها، أو إحياءَ شرفٍ يريدون تخليد ذكره، أو تطويل مدته، كما كتبوا على قُبَّة غُمْدَان، وعلى باب القيرُوان، وعلى باب سَمَرْقند، وعلى عمود مأرب، وعلى ركن المشقَّر، وعلى الأبلَق الْفَرْد، وعلى باب الرُّها، يعمِدُون إلى الأماكن المشهورة، والمواضع

المذكورة، فيضعون الخطَّ في أبعدِ المواضع من الدُّثور، وأمنَعِها من الدروس، وأجدرَ أنْ يراها من مرَّ بها، ولا تُنسى على وجه الدهر.

فضل الكتابة وتسجيل المعاهدات والمحالفات

وأقول: لولا الخطوطُ لبطلت العهودُ والشروطُ والسِّجِلاَّتُ والصِّكاك، وكلُّ إقطاع، وكلُّ إنفاق، وكلُّ أمان، وكلّ عهدٍ وعَقْدٍ، وكلُّ جِوارٍ وحِلف، ولتعظيمِ ذلك، والثقة به والاستنادِ إليه، كانوا يَدْعُونَ في الجاهليَّةِ مَنْ يكتبُ لهم ذكرَ الحِلْف والهُدْنة، تعظيماً للأمر، وتبعيداً من النسيان، ولذلك قال الحارثُ بن حِلِّزة، في شأنِ بكرٍ وتغلب:

واذكرُوا حِلْفَ ذِي المَجَازِ وما قُ　　دِّمَ فيه العهودُ والكفلاءُ

حَذَرَ الجَورِ والتَّعدِّي وهلْ يَنْ　　قُض ما في المَهارقِ الأهواءُ

والمهارق، ليس يراد بها الصُّحُفُ والكتب، ولا يقال للكتب مَهارقُ حتَّى تكونَ كتبَ دينٍ، أو كتبَ عهودٍ، ومِيثاقٍ، وأمان.

الرقوم والخطوط

وليس بين الرُّقومِ والخطوط فرق، ولولا الرقوم لهلكَ أصحابُ البَزِّ والغُزول، وأصحابُ الساج وعامَّةِ المتاجر، وليسَ بينَ الوُسومِ التي تكون على الحافر كلّه والخفِّ كلّه والظِّلفِ كلّه، وبين الرقومِ فرق، ولا بينَ العقودِ والرقوم فرق، ولا بين الخطوط والرقوم كلُّها فرق، وكلُّها خطوط، وكلها كتابٌ، أو في معنى الخطّ والكتاب، ولا بين الحروف المجموعةِ والمصورَّةِ من الصوت المقطَّع في الهواء، ومن الحروف المجموعة المصوّرة من السواد في القرطاس فرق واللسان: يصنَع في جَوبة الفمِ وهوائه الذي في جوفِ الفمِ وفي خارجه، وفي لَهاته، وباطنِ أسنانه، مثلَ ما يصنع القلمُ في المدادِ واللِّيقة والهواءِ والقرطاس، وكلُّها صورٌ وعلاماتٌ وخَلْقٌ مواثل، ودَلالات، فيعرف منها ما كانَ في تلك الصُّوَر لكثرةِ تَردادها على الأسماع، ويعرف منها ما كان مصوَّراً من تلك الألوان لطول تكرارها على الأبصار، كما استدلُّوا بالضَّحك على السرور، وبالبكاء على الألم، وعلى مثل ذلكَ عرفوا معاني الصوتِ، وضروبَ صورِ الإشارات، وصورِ جميع الهيئات، وكما عرف المجنون لقبه، والكلبَ اسمَه، وعلى مثل ذلك فهم الصبيُّ الزجرَ والإغراء، ووعى المجنون الوعيد والتهدُّد، وبمثل ذلك اشتدّ حُضْرُ الدابّة مع رفع الصوت، حتّى إذا رأى سائسَه حمحم، وإذا رأى الحمامُ القيِّمَ عليه انحطَّ للقطِ الحبّ، قبل أن يُلقِيَ له ما يلقطه، ولولا الوسومُ ونُقُوش الخواتم، لدخل على الأموالِ الخللُ الكثير، وعلى خزائنِ الناس الضررُ الشديد.

الخط والحضارة

وليس في الأرض أمّةٌ بها طِرْق أوْ لها مُسْكَة، ولا جيلٌ لهم قبضٌ وبسْط، إلاّ ولهم خطّ، فأمّا أصحاب الملك والمملكة، والسلطانِ والجِباية، والدِّيانة والعبادة، فهناك الكتابُ المتقن، والحساب المحكَم، ولا يخرج الخطُّ من الجزْم والمسنَد المنمنم والسمون كيف كان، قال ذلك الهيثَمُ بن عدي، وابن الكلبي.
تخليد الأمم لمآثرها قال: فكلُّ أمّةٍ تعتمدُ في استبقاءِ مآثرها، وتحصين مناقبها، على ضربٍ من الضروب، وشكل من الأشكال.
تخليد العرب لمآثرها وكانت العربُ في جاهليَّتها تحتال في تخليدها، بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون، والكلام المقفّى، وكان ذلك هو ديوانها، وعلى أنّ الشعرَ يُفيد فضيلةَ البيانِ، على الشاعر الراغب، والمادح، وفضيلةَ المأثُرة، على السيِّد المرغوبِ إليه، والممدوحِ به، وذهبت العجَم عَلَى أن تقيِّد مآثرَها بالبُنيان، فبنوا مثْلَ كرد بيداد، وبنى أرْدشير بيضاء إصطخْر، وبيضاء المدائن، والحَضْر، والمدن والحصون، والقناطر والجسور، والنواويس، قال: ثمَّ إنّ العربَ أحبَّتْ أن تشارك العجمَ في البناءِ، وتنفرد بالشعر، فبنوا غُمدان، وكعبةَ نَجْران، وقصرَ مارد، وقصر مأرب، وقصر شعوب والأبلق الفرد، وفيه وفي مارد، قالوا تمرَّدَ ماردٌ وعزَّ الأبلق وغيرَ ذلك من البُنيان، قال: ولذلك لم تكن الفرسُ تبيح شريفَ البُنيان، كما لا تبيح شريف الأسماء، إلاّ لأهل البيوتات، كصنيعهم في النواويس والحمَّامات والقِباب الخضر، والشُّرَف على حيطان الدار، وكالعَقْد على الدِّهليز وما أشبهَ ذلكَ ، فقال بعض من حضر: كُتُبُ الحكماءِ وَما دَوَّنت العلماءُ من صنوف البلاغات والصِّناعات، والآداب والأرفاق، من القرون السابقة والأمم الخالية، ومن له بقيَّة ومن لا بقيّة له، أبقى ذكراً وأرفعُ قدراً وأكثر ردّاً، لأنَّ الحكمة أنفعُ لمن ورثها، من جهة الانتفاع بها، وأحسنُ في الأحدوثة، لمن أحبَّ الذكر الجميل.
طمس الملوك والأمراء آثار من قبلهم والكتبُ بذلك أولى من بُنيان الحجارة وحيطان المدَر؛ لأنَّ من شأن الملوك أن يطمِسوا على آثار مَن قبلَهمُ، وأن يُميتوا ذكرَ أعدائهم، فقد هدَموا بذلك السبب أكثرَ المدنِ وأكثرَ الحصون، كذلك كانوا أيَّامَ العجَم وأيَّامَ الجاهليّة، وعلى ذلك همْ في أيّام الإسلام، كما هدم عُثمانُ صومعة غُمدان، وكما هدمَ الآطامَ التي كانت بالمدينة، وكما هدم زيادٌ كلَّ قصر ومصنَع كان لابن عامر، وكما هدم أصحابُنا بناءَ مدن الشامات لبني مروان.

تاريخ الشعر العربي

وأما الشعرُ فحديثُ الميلاد، صغير السنِّ، أوّلُ من نَهَجَ سبيلَه، وسهَّل الطريقَ إليه: امرؤ القيس بن حُجْر، ومُهَلْهِل بنُ ربيعة، وكُتُبُ أرسطاطاليسَ، ومعلِّمِه أفلاطون، ثم بَطْلَيموس، وديمقراطس، وفلان وفلان، قبلَ بدءِ الشعر بالدهور قبلَ الدهور، والأحقاب قبلَ الأحقاب.
ويدلُّ على حداثةِ الشعر، قولُ امرئ القيس بن حُجْر:

إنَّ بني عوفٍ ابتَنَوا حسناً ضيّعه الدُّخلُلون إذ غدَرُوا

أدَّوا إلى جارهم خـفـارتـه ولم يَضعْ بالمَغيب مَنْ نَصَرُوا

لا حِـمْــيَرِيٌّ وفــى ولا عُــدَسٌ ولا است عَيرٍ يحكـهـا الـثَّـفــر

لكن عُوَيرٌ وفى بذمَّتِه لا قِصَر عابَهُ ولا عَوَرُ

فانظُرْ، كم كان عمرُ زُرارةَ وكم كان بين موت زُرارة ومولدِ النبي عليه الصلاة والسلام؟ فإذا استظهرنا الشعرَ، وجدنا له إلى أن جاء اللّه بالإسلام خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام.
قال: وفضيلة الشعر مقصورةٌ على العرب، وعلى من تكلَّم بلسان العرب. والشعر لا يُستطاع أن يترجَم، ولا يجوز عليه النقل، ومتى حوِّل تقطَّع نظمُه وبطلَ وزنُه، وذهب حسنُه وسقط موضعُ التعجب، لا كالكلامِ المنثور، والكلامُ المنثور المبتدأ على ذلك أحسنُ وأوقعُ من المنثور الذي تحوّل من موزون الشعر.
قال: وجميع الأمم يحتاجون إلى الحكم في الدين، والحكم في الصناعات، وإلى كلِّ ما أقام لهم المعاشَ وبوَّب لهم أبوابَ الفِطَن، وعرَّفهم وجوهَ المرَافق؛ حديثُهم كقديمهم، وأسودُهم كأحمرهم، وبعيدُهم كقريبهم؛ والحاجة إلى ذلك شاملَة لهم.

صعوبة ترجمة الشعر العربي

وقد نُقِلَتْ كتبُ الهند، وتُرجمتْ حكم اليونانيّة، وحُوِّلت آدابُ الفرس، فبعضها ازدادَ حُسناً، وبعضها ما انتقص شيئاً، ولو حوّلت حكمة العرب، لبطل ذلك المعجزُ الذي هو الوزن، مع أنَّهم لو حوَّلوها لم يجدوا في معانيها شيئاً لم تذكرْه العجم في كتبهم ، التي وضعت لمعاشهم وفِطَنهم وحِكمَهم، وقد نُقِلَتْ هذه الكتبُ من أمَّةٍ إلى أمّة، ومن قرن إلى قرن، ومِن لسانٍ إلى لسان، حتى انتهت إلينا، وكنَّا آخرَ مَنْ ورثها ونظر فيها، فقد صحَّ أنَّ الكتبَ أبلغُ في تقييدِ المآثِر، من البُنيان والشعر.
ثم قال بعضُ مَنْ ينصر الشعر ويحوطه ويحتجُّ له: إنَّ التَّرجُمان لا يؤدِّي أبداً ما قال الحكيمُ، على خصائِص معانيه، وحقائقِ مذاهِبه ودقائق اختصاراته، وخفيَّاتِ حدوده، ولا يقدِر أنْ يوفيها حقوقها، ويؤدِّيَ الأمانة فيها، ويقومَ بما يلزمُ الوكيلَ ويجبُ على الجَرِيّ، وكيف يقدِر على أدائها وتسليم معانيها، والإخبار عنها على حقِّها وصدقها، إلاَّ أنْ يكونَ في العلم بمعانيها، واستعمالِ تصاريفِ ألفاظِها، وتأويلاتِ مخارجِها ، ومثلَ مؤلِّف الكتاب وواضعِه، فمتى كان رحمه اللّه تعالى ابنُ البطريق، وابن ناعمة، وابن قُرَّة، وابن فِهريز، وثيفيل، وابن وهيلي، وابن المقفَّع، مثلَ أرسطاليس؟ ومتى كان خالدٌ مثلَ أفلاطون؟

قيمة الترجمة

ولا بدَّ للتَّرجُمانَ من أن يكون بيانهُ في نفس الترجمة، في وزْن علمه في نفسِ المعرفة، وينبغي أن يكون أعلمَ الناس باللغة المنقولة والمنقولِ إليها، حتَّى يكون

فيهما سواءً وغاية، ومتى وجدناه أيضاً قد تكلّم بلسانين، علمنا أنَّه قد أدخلَ الضيمَ عليهما، لأنَّ كل واحدةٍ من اللغتين تجذب الأخرى وتأخذُ منها، وتعترضُ عليها، وكيف يكونُ تمكُّنُ اللسان منهما مجتمعين فيه، كتمكُّنِه إذا انفرد بالواحدة، وإنَّما له قوَّةٌ واحدة، فإنْ تكلّمَ بلغةٍ واحدة استُفْرغَتْ تلك القوَّةُ عليهما، وكذلك إنْ تكلّم بأكثرَ مِنْ لغتين، وعلى حساب ذلك تكون الترجمةُ لجميع اللغات، وكلَّما كانَ البابُ من العلم أعسرَ وأضيق، والعلماءُ به أقلَّ، كان أشدَّ على المترجِم، وأجدرَ أن يخطئ فيه، ولن تجد البتَّة مترجماً يفِي بواحدٍ من هؤلاء العلماء.

ترجمة كتب الدين

هذا قولُنا في كتب الهندسة، والتنجيم، والحساب، واللحون، فكيف لو كانت هذه الكتب كتبَ دينٍ وإخبار عن اللّه عزَّ وجلَّ بما يجوز عليه ممَّا لا يجوز عليه، حتىَّ يريد أنْ يتكلَّم على تصحيح المعاني في الطبائع، ويكون ذلك معقوداً بالتوحيد، ويتكلَّمَ في وجوه الإخبار واحتمالاته للوُجوه، ويكونَ ذلك متضمِّناً بما يجوز على اللّه تعالى، ممَّا لا يجوز، وبما يجوزُ على الناس مما لا يجوز، وحتَّى يعلمَ مستقرَّ العامِّ والخاصّ، والمقابلاتِ التي تَلقى الأخبارَ العامِّية المخرَج فيجعلَها خاصيَّة، وحتى يعرفَ من الخبر ما يخصُّه الخبر الذي هو أثر، ممَّا يخصُّه الخبر الذي هو قرآن، وما يخصُّه العقل مما تخصُّه العادة أو الحال الرادَّةُ له عن العموم، وحتَّى يعرفَ ما يكونُ من الخبر صِدقاً أو كذبا، وما لا يجوز أن يسمَّى بصدقٍ ولا كذب؛ وحتَّى يعرفَ اسم الصدق والكذب، وعلى كم معنى يشتمل ويجتمع، وعند فقد أيِّ معنًى ينقلب ذلك الاسم، وكذلك معرفة المُحالِ من الصحيح، وأيّ شيءٍ تأويلُ المحال؛ وهل يسمَّى المحال كذباً أم لا يجوز ذلك، وأيّ القولين أفحشُ: المُحال أم الكذب، وفي أيِّ موضع يكون المحالُ أفْظَع، والكذب أشنع؛ وحتَّى يعرف المثَلَ والبديع، والوحيِ والكناية، وفصْل ما بين الخطَلِ والهَذْر، والمقصور والمبسوط والاختصار، وحتَّى يعرف أبنيةَ الكلام، وعاداتِ القوم، وأسبابَ تفاهمهم، والذي ذكرنا قليلٌ من كثير، ومتى لم يعرفْ ذلك المترجم أخطأ في تأويل كلامِ الدين، والخطأُ في الدين أضرُّ من الخطأ في الرياضة والصناعة، والفلسفةِ والكَيْمِياء، وفي بعض المعيشة التي يعيش بها بنو آدم.
وإذا كان المترجِم الذي قد تَرجَم لا يكمل لذلك، أخطأ على قدْرِ نقصانه من الكمال، وما عِلْمُ المترجِم بالدليل عن شبه الدليل؟ وما علْمه بالأخبار النجوميّة؟ وما علمه بالحدود الخفيّة؟ وما علمه بإصلاح سقطات الكلام، وأسقاط الناسخين للكتب؟ وما علمُه ببعض الخطرفة لبعض المقدَّمات؟ وقد علمنا أنَّ المقدَّمات لا بدَّ أنْ تكون اضطراريّة، ولا بدَّ أن تكون مرتَّبة، وكالخيط الممدود، وابنُ البطريق وابن قرّة لا يفهمان هذا موصوفاً منزَّلاً، ومرتَّباً مفصَّلاً، من معلِّمٍ رفيق، ومن حاذقٍ طبٍّ فكيف بكتابٍ قد تداولتْه اللغاتُ واختلافُ الأقلام، وأجناسُ خطوطِ المِلل والأمم؟! ولو كان الحاذقُ بلسان اليونانيِّين يرمي إلى الحاذق بلسان العربيّة، ثم كان العربيُّ مقصِّراً عن مقدار بلاغة اليونانيّ، لم يجد المعنى والناقل التقصير، ولم يَجِد اليونانيُّ الذي لم يرضَ بمقدار بلاغته في لسان العربيّة بُدّاً من الاغتفار والتجاوز، ثمّ يصير إلى

ما يعرض من الآفات لأصناف الناسخين، وذلك أن نسختَه لا يَعدَمها الخطأ، ثمَّ ينسخُ له من تلك النسخة مَن يزيده من الخطأ الذي يجده في النسخة، ثمّ لا ينقص منه؛ ثم يعارِض بذلك مَن يترك ذلك المقدار من الخطأ على حاله، إذا كان ليس من طاقته إصلاحُ السَّقط الذي لا يجدُه في نسخته.

مشقة تصحيح الكتب

ولربَّما أراد مؤلِّف الكتاب أن يصلِح تصحيفاً، أو كلمةً ساقطة، فيكون إنشاء عشرِ ورقاتٍ من حرِّ اللفظ وشريفِ المعاني، أيسَرَ عليه من إتمام ذلك النقص، حتى يردَّه إلى موضعه من اتِّصال الكلام ، فكيف يُطيق ذلك المعرض المستأجَر، والحكيمُ نفسهُ قد أعجزه هذا الباب وأعجب من ذلك أنَّه يأخذ بأمرَين: قد أصلحَ الفاسدَ وزاد الصالحَ صَلاحاً، ثم يصير هذا الكتاب بعد ذلك نسخةً لإنسان آخَرَ، فيسير فيه الورَّاقُ الثاني سيرَةَ الوَرَّاقَ الأوَّل؛ ولا يزال الكتابُ تتداوله الأيدي الجانية، والأعْرَاض المفسِدة، حتَّى يصير غَلَطاً صِرفاً، وكذِباً مصمَتاً، فما ظنُّكم بكتابٍ تتعاقبه المترجمون بالإفساد، وتتعاوره الخُطّاط بشرٍّ من ذلك أو بمثله، كتابٍ متقادِم الميلاد، دُهْرِيّ الصنعة.

بين أنصار الكتب وأنصار الشعر

قالوا: فكيف تكون هذه الكتبُ أنفعَ لأهلها من الشعر المقفَّى؟ قال الآخر: إذا كان الأمرُ على ما قلتم، والشأنُ على ما نزَّلتم، أليس معلوماً أنَّ شيئاً هذه بقيَّتُهُ وفضلتُه وسُؤرهُ وصُبَابته، وهذا مظهرُ حاله على شدَّة الضيم، وثبات قوته على ذلك الفسادِ وتداوُلِ النقص، حريٌّ بالتعظيم، وحقيقٌ بالتفضيلِ على البنيان، والتقديمِ على شعرٍ إن هو حُوِّل تهافتَ، ونفعُه مقصورٌ على أهله، وهو يُعدُّ من الأدب المقصور، وليسَ بالمبسوط، ومن المنافع الاصطلاحيَّة وليست بحقيقة بيِّنة ، وكلُّ شيءٍ في العالم من الصناعات والأرفاق والآلات، فهي موجودات في هذه الكتب دونَ الأشعار، وهاهنا كتبٌ هي بينَنَا وبينكم، مثل كتاب أقليدِس، ومثل كتاب جالينوس، ومثل المجسْطي، مّما تولاّه الحَجّاج، وكتبٌ كثيرةٌ لا تحصى فيها بلاغٌ للناس، وإن كانت مختلفة ومنقوصة مظلومة ومغيَّرة، فالباقي كافٍ شاف، والغائب منها كان تكميلاً لتسلُّط الطبائع الكاملة.

فأما فضيلة الشعر فعلى ما حكينا، ومنتهى نفعِه إلى حيث انتهى بنا القول.

وحسبُك ما في أيدي الناس من كتب الحساب، والطبّ، والمنطق، والهندسة، ومعرفةِ اللُّحون، والفِلاحة، والتِّجارة، وأبواب الأصباغ، والعِطر، والأطعمة، والآلات، وهم أتَوكم بالحكمة، وبالمنفعة التي في الحمَّامات وفي الأصطرلابات والقرسطونات وآلات معرفة الساعات، وصنعة الزجاج والفُسَيفِساء، والأسرنج والزنجفور واللازَوَرد والأشربة، والأنْبَجَات، والأيارجات ولكم المينا، والنشادر والشَّبَه وتعليق الحيطان والأساطين، وردُّ ما مال منها إلى التقويم، ولهم صبُّ الزردج، واستخراج النَّشَاستَج، وتعليق الخَيش، واتِّخاذ الجمَّازات، وعمل الحَرَّاقات، واستخراج شراب الداذِيّ وعمل الدّبابات.

ما ابتدعه الحجاج من السفن والمحامل

وكان الحجَّاجُ أوّلَ مَن أجرى في البحر السفن المقيَّرة المسمَّرة غيرَ المخرَّزة، والمدهونة والمسطّحة، وغيرَ ذواتِ الجؤجؤ، وكان أوَّلَ من عمِلَ المحامل، ولذا قال بعضُ رُجَّاز الأكرياء:

أوّلُ خَلْقٍ عَمِلَ المحامِلا أخزاهُ ربِّي عاجلاً وآجِلا

وقال آخر:

شَيَّبَ أصداغِي فهُنَّ بيضُ مَحَاملٌ لِقدِّها نَـقِيضُ

وقال آخر:

شيَّب أصداغِي فهن بـيَّضُ مَحَامِلٌ فيها رجال قبَّضُ

لو يتكون سنة لم يغرضوا

وقال القوم: لولا ما عرَّفوكم من أبواب الحُمْلانات لم تعرفوا صنعة الشَبَه، ولولا غضارُ الصين على وجه الأرض لم تعرفوا الغضار، على أنَّ الذي عَمِلْتُم ظاهرٌ فيه التوليد، منقوصُ المنفعة عن تمام الصِّينيّ، وعلى أن الشَّبَهَ لم تستخرجوه، وإنَّما ذلك من الأُمور التي وقعت اتّفاقاً، لسقوط الناطف من يد الأجير في الصُّفْر الذائب، فخِفتم إفساده، فلَمَّا رأيتم ما أعطاه من اللون عَمِلْتم في الزيادة والنقصان، وكذلك جميعُ ما تهيَّأ لكم، ولستم تخرُجون في ذلك من أحدِ أمرَين: إمَّا أن تكونوا استعملتم الاشتقاق من علمِ ما أورثوكم، وإمّا أن يكون ذلك تهيَّأ لكم من طريق الاتِّفاق!

الجمازات

وقد علمتم أنَّ أوَّل شأن الجَمَّازاتِ، أنَّ أمَّ جعفر أمرت الرحَّالِينَ أن يَزيدُوا في سير النجيبة التي كانت عليها، وخافت فوتَ الرشيد، فلما حُرِّكت مشَت ضروباً من المشي، وصنوفاً من السير، فجَمزت في خلال ذلك، ووافقت امرأةً تحسن الاختيار، وتفهم الأمور، فوجدت لذلك الجمز راحةً، ومع الراحة لذَّة، فأمرتْهم أن يسيروا بها في تلك السِّيرة، فما زالوا يقرِّبون ويبعِّدون، ويخطئون ويصيبون، وهي في كلِّ ذلك تصوِّبهم وتخطئُهم على قدر ما عرفتْ، حتى شَدَوا من معرفة ذلك ما شَدَوا، ثمَّ إنّها فرّغتهم لإتمام ذلك حتى تمَّ واستوى، وكذلك لا يخلو جميعُ أمركم، من أن يكون اتِّفاقاً، أو اتِّباعَ أثر.

الترغيب في اصطناع الكتاب

ثم رجع بنا القولُ إلى الترغيب في اصطناع الكتاب، والاحتجاج على مَنْ زَرَى على واضِع الكتب، فأقول: إنّ من شكر النعمة في معرفة مغاوي الناس ومَرَاشدِهم، ومضارِّهم ومنافِعهم، أن يُحتَمَل ثِقْلُ مؤونتهم في تقويمهم، وأن يُتَوَخَّى إرشادُهم وإن جهلوا فضلَ ما يُسْدَى إليهم، فلن يُصانَ العلمُ بمثل بذْله، ولن تُستَبقى النعمةُ فيه بمثل نشره، على أنَّ قراءة الكتبِ أبلغُ في إرشادهم من تلاقيهم؛ إذ كان مع التّلاقي يشتدُّ التصنُّع، ويكثُر التظالُم، وتُفرط العصبيّة، وتقوَى الحَمِيَّة، وعند المواجَهةِ والمقابلَة، يشتدُّ حبُّ الغلَبة، وشهوةُ المباهاةِ والرياسة، مع الاستحياء من الرجوع، والأنفةِ من الخضوع؛ وعن جميع ذلك تحدُثُ الضغائن، ويظهرُ التباين، وإذا كانت القلوبُ على هذه الصِّفةِ وعلى هذه الهيئة، امتنعتْ من التعرُّف، وعمِيت عن مواضعِ الدلالة، وليست في الكتب عِلَّةٌ تمنَع من دَرْك البُغْية، وإصابة الحجَّة، لأنَّ المتوحِّد بدَرْسها، والمنفرد بفهم معانيها، لا يباهي نفسَه ولا يغالب عقلَه، وقد عَدِم مَنْ له يُباهي وَمِنْ أجله يغالب.

الكتاب قد يفضل صاحبه

والكتابُ قد يفضلُ صاحبَه، ويتقدَّم مؤلِّفَه، ويرجِّح قلمَه على لسانِه بأمور: منها أنّ الكتابَ يُقرأ بكلِّ مكان، ويظهرُ ما فيه على كلِّ لسان، ويُوجَد مع كلِّ زمان، على تفاوتِ ما بينَ الأعصار، وتباعُدِ ما بين الأمصار، وذلك أمرٌ يستحيل في واضع الكتاب، والمنازِع في المسألة والجواب، ومناقلةُ اللسان وهدايته لا تجوزان مجلسَ صاحبه، ومبلغَ صوتِه، وقد يذهب الحكيمُ وتبقى كتبُه، ويذهب العقلُ ويبقى أثره، ولولا ما أودعت لنا الأوائلُ في كتبها، وخلَّدت من عجيبِ حكمتها، ودوَّنت من أنواع سِيَرِها، حتَّى شاهدنا بها ما غاب عنَّا، وفتحنا بها كلَّ مستغلق كان علينا، فجمَعنا إلى قليلنا كثيرَهم، وأدركنْا ما لم نكن ندركُه إلاّ بهم، لما حَسُنَ حظُّنا من الحكمة، ولضعُف سببُنَا إلى المعرفة، ولو لجأنا إلى قدر قوَّتِنا، ومبلغ خواطرنا، ومنتهى تجاربنا لما تدركه حواسُّنا، وتشاهدهُ نفوسنا، لقلَّت المعرفةُ، وسَقَطت الهمّة، وارتفعت العزيمة، وعاد الرأيُ عقيماً، والخاطِر فاسداً، ولَكلَّ الحدُّ وتبلَّد العقل.

أفضل الكتب

وأكثرُ مِنْ كتبهم نفعاً، وأشرف منها خَطَراً، وأحسنُ موقعاً، كتُبُ اللّه تعالى، فيها الهُدَى والرحمة، والإخبارُ عن كلِّ حكمة، وتعريفُ كلِّ سيِّئةٍ وحسَنَة، ومازالت كتبُ اللّه تعالى في الألواح والصُّحُف، والمهارِق والمصاحف، وقال اللّه عزَّ وجلَّ "المَ ذلكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ"، وقال: "مَا فَرَّطْنَا في الْكِتَابِ مِنْ شَيءٍ"، ويقال لأهل التَّوراةِ والإنْجيل: أهل الكِتاب.

مواصلة السير في خدمة العلم

وينبغي أن يكونَ سبيلُنا لمَنْ بعدَنا، كسبيلِ مَن كان قبلنا فينا، على أنَّا وقد وجدْنا من العبرة أكثرَ ممّا وجدوا، كما أنَّ مَن بعدَنا يجدُ من العِبرة أكثرَ ممّا وجدْنا، فما

ينتظر العالمُ بإظهار ما عندَه، وما يمنَع الناصرَ للحقِّ من القيامِ بما يلزمُه، وقد أمكن القولُ وصلحَ الدهرُ وخوى نجم التَّقِيَّة، وهَبَّتْ ريحُ العلماء، وكسَدَ العِيُّ والجهل، وقامت سوقُ البيان والعلم ؟! وليس يجدُ الإنسانُ في كل حينٍ إنساناً يدَرِّبه، ومقوِّماً يثقّفه، والصبرُ على إفهام الرِّيِّض شديد، وصرفُ النفسِ عن مغالبة العالم أشدُّ منه، والمتعلّم يجدُ في كلِّ مكانٍ الكتابَ عتيداً، وبما يحتاج إليه قائماً وما أكثرَ مَن فرَّط في التعليم أيَام خُمول ذكره، وأيَّام حَداثةِ سنِّه ولولا جِيادُ الكتبِ وحسَنُها، ومُبَيَّنُها ومختَصرَها، لَمَا تحرَّكت هممُ هؤلاء لطلب العلم، ونزعت إلى حبِّ الأدب، وأنِفَتْ من حال الجهل، وأن تكون في غِمار الحَشْو، ولَدخل على هؤلاء من الخَلَلِ والمضرَّة، ومن الجهل وسوء الحال، وما عسى ألا يمكن الإخبارُ عن مقداره، إلاّ بالكلام الكثير، ولذلك قال عمرُ رضي اللّه تعالى عنه: "تفقَّهوا قبلَ أن تسودوا"

كتب أبي حنيفة

وقد تجدُ الرجلَ يطلبُ الآثارَ وتأويلَ القرآن، ويجالس الفقهاءَ خمسين عاماً، وهو لا يُعدُّ فقيهاً، ولا يُجعَل قاضياً، فما هو إلاّ أن ينظرَ في كتب أبي حنيفة، وأشباه أبي حنيفة، ويحفَظ كتبَ الشروط في مقدارِ سنةٍ أو سنتين، حتى تمرَّ ببابه فتظن أنه من باب بعض العُمَّال، وبالحَرَا ألاّ يمرَّ عليه من الأيّام إلاَّ اليسير، حتَّى يصير حاكماً على مصرٍ من الأمصار، أو بلدٍ من البلدان، وجوب العناية بتنقيح المؤلفات وينبغي لمن كَتبَ كتاباً ألا يكتُبَه إلاّ على أنَّ النَّاس كلَّهم له أعداء، وكلُّهم عالمٌ بالأمور، وكلُّهم متفرِّغ له، ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غُفْلاً، ولا يرضى بالرأي الفطير، فإنَّ لابتداءِ الكتابِ فتنةً وعُجُباً، فإذا سكنت الطبيعةُ وهدأت الحركة، وتراجَعَتِ الأخلاطُ، وعادت النفسُ وافرة، أعاد النَّظر فيه، فيَتَوَقَّفُ عند فصوله توقُّفَ من يكونُ وزنُ طمَعُه في السلامة أنقصَ من وزَنِ خوفِه من العيب، ويتفهَّم معنى قول الشاعر:

إنَّ الحديثَ تَغُرُّ القومَ خلوتُه　　　حتَّى يَلِجَّ بهم عِيٌّ وإكثـارُ

ويقفُ عند قولهم في المثل: كلُّ مُجْرٍ في الخَلاءِ يُسَرُّ فيخاف أن يعتريه ما اعترى مَنْ أحرى فرسه وحدَه، أو خلا بعلمه عند فقدِ خصومه، وأهل المنزلة من أهل صناعته.

تداعي المعاني في التأليف

وليعلم أنَّ صاحبَ القلم يعتريه ما يعتري المؤدِّبَ عند ضربه وعقابه، فما أكثر من يَعزم على خمسةِ أسواط فيضرب مائة؟ لأنَّه ابتدأ الضربَ وهو ساكنُ الطباع، فأراه السكونُ أنَّ الصواب في الإقلال، فلما ضرب تحرَّك دمُه، فأشاع فيه الحرارة فزادَ في غضبه، فأراه الغضبُ أنّ الرأي في الإكثار، وكذلك صاحب القلم؛ فما أكثرَ

من يبتدئ الكتابَ وهو يُريد مقدارَ سطرين، فيكتب عشرة والحفظُ مع الإقلال أمكَن، وهو مع الإكثار أبعَد.

مقايسة بين الولد والكتاب

واعلم أنَّ العاقلَ إنْ لم يكن بالمتتبِّع، فكثيراً ما يعتريه من ولده، أنْ يحسُنَ في عينه منه المقبَّحُ في عين غيره، فليعلمْ أنَّ لفظه أقربُ نسباً منه من ابنه، وحركتَه أمسُّ به رحْماً من ولده، لأنَّ حركتَه شيءٌ أحدثه من نفسه وبذاتِهِ، ومن عين جوهره فصَلَت، ومن نفسِه كانت؛ وإنَّما الولدُ كالمخْطةِ يتمخَّطها، والنُّخَامةِ يقذِفها، ولا سواءٌ إخراجُك مِنْ جزئك شيئاً لم يكن منك، وإظهارُك حركةً لم تكن حتَّى كانت منك، ولذلك تجِدُ فتنةَ الرجُل بشِعره، وفتنتَه بكلامِه وكتبه، فوقَ فتنتِه بجميع نعمته.

ما ينبغي أن تكون عليه لغة الكتب

وليس الكتابُ إلى شيءٍ أحوجَ منه إلى إفهام معانيه، حَتَّى لا يحتاجُ السامع لما فيه من الرويَّة، ويحتاجُ مِنَ اللفظ إلى مقدارٍ يرتفع به عَنْ ألفاظ السِّفْلَةِ والحَشْو، ويحطُّه من غريب الأعراب ووَحْشيِّ الكلام، وليس له أنْ يهذِّبَه جدّاً، وينقِّحَه ويصفِّيه ويروّقه، حتى لا ينطِقَ إلاّ بلُبِّ اللُّبِّ، وباللفظ الذي قد حذف فُضُولَه، وأسقطَ زوائِده، حتَّى عاد خالصاً لا شَوْب فيه؛ فإنَّه إنْ فعل ذلك، لم يُفْهَمْ عنه إلا بأن يجدِّد لهم إفهاماً مِراراً وتكراراً، لأنَّ النَّاسَ كلَّهم قد تعوَّدوا المبسوطَ من الكلام، وصارت أفهامُهم لا تزيد على عاداتهم إلا بأن يعكس عليها ويؤخذ بها، ألا تَرَى أنَّ كتاب المنطق الذي قد وُسم بهذا الاسم، لو قرأتَه على جميع خطباء الأمصار وبلغاءِ الأعراب، لما فهموا أكثرَه، وفي كتاب إقليدِسَ كلامٌ يدور، وهو عربيٌّ وقد صُفِّي، ولو سمِعه بعضُ الخطباء لما فهمه، ولا يمكن أن يفهِّمه من يريد تعليمه، لأنَّه يحتاج إلى أن يكون قد عرَف جهةَ الأمر، وتعوَّد اللفظ المنطقيَّ الذي استُخرج من جميع الكلام.

قول صحار العبدي في الإيجاز

قال معاويةُ بن أبي سفيان، رضي اللّه عنهما، لصُحَارٍ العبدي: ما الإيجاز؟ قال: أن تجيبَ فلا تبطئ، وتقولَ فلا تخطئ، قال معاوية: أو كذلك تقول قال صحار: أَقِلْنِي يا أمير المؤمنين لا تخطئ ولا تبطئ. فلو أنَّ سائلاً سألك عن الإيجاز، فقلت: لا تخطئ ولا تبطئ، وبحضرتك خالد بنُ صفوان، لما عرَفَ بالبديهة وعندَ أوَّل وهلة، أنَّ قولَك لا تخطئ متضمِّنٌ بالقول، وقولَك لا تبطئ متضمِّن بالجواب، وهذا حديثٌ كما ترى آثروه ورَضُوه، ولو أن قائلاً قال لبعضنا: ما الإيجاز؟ لظننتُ أنَّه يقول: الاختصار.

حقيقة الإيجاز

والإيجاز ليس يُعنَى به قلَّةُ عددِ الحروفِ واللفظ، وقد يكونُ البابُ من الكلامِ مَنْ أتى عليه فيما يسع بطن طُومارٍ فقد أوجز، وكذلك الإطالة، وإنَّمَا ينبغي له أن يحذف بقدرِ ما لا يكون سبباً لإغلاقه، ولا يردِّد وهو يَكتفي في الإفهام بشِطره، فما فضَلَ عن المقدار فهو الخطل.
استغلاق كتب الأخفش وقلتُ لأبي الحسن الأخفش: أنت أعلمُ الناسِ بالنَّحو، فلم لا تجعَلُ كتبَك مفهومة كلَّها، وما بالُنا نفهمُ بعضَها ولا نفهم أكثرها، وما بالُك تقدِّم بعضَ العويصِ وتؤخِّر بعض المفهوم؟ قال: أنا رجلٌ لم أضَعْ كتبي هذه للّه، وليست هي من كتبِ الدين، ولو وضعتُها هذا الوضع الذي تدعوني إليه، قلَّت حاجاتُهم إليَّ فيها، وإنَّما كانت غايتي المَنَالة، فأنا أضعُ بعضَها هذا الوضع المفهومَ ، لتدعوَهم حلاوةُ ما فهموا إلى التماس فهْم ما لم يفهموا، وإنَّما قد كسَبْتُ في هذا التدبير، إذ كنتُ إلى التكسُّب ذهبت، ولكنْ ما بالُ إبراهيم النظَّام، وفلانٍ وفلان، يكتبون الكتبَ للّه بزعْمِهم، ثم يأخذُها مثلي في مواقفته، وحُسْنِ نظره، وشدَّةِ عنايته، ولا يفهمُ أكثرَها؟ وأقول: لو أنَّ يوسف السَّمْتيَّ، كتب هذه الشروط ، أيَّام جلسَ سَلمان بن ربيعة شهرين للقضاء، فلم يتقدَّم إليه رجُلان، والقلوب سليمةٌ والحقوقُ على أهلِها موفَّرة، لكان ذلك خطلاً ولغواً؛ ولو كتبَ في دهره شروطَ سَلمان، لكان ذلك غَرارةً ونقصاً، وجهلاً بالسياسةِ، وبما يصلحُ في كلِّ دهر.

مواضع الإسهاب

ووجدنا الناسَ إذا خطبُوا في صلحِ بين العشائر أطالوا، وإذا أنشدوا الشعر بين السِّماطين في مديح الملوك أطالوا، وللإطالة موضعٌ وليس ذلك بخطل، وللإقلال موضعٌ وليس ذلك من عَجْز.
ولولا أنِّي أتّكل على أنَّك لا تملُّ بابَ القولِ في البعير حتَّى تخرجَ إلى الفيل، وفي الذَّرَّة حتَّى تخرجَ إلى البعوضة، وفي العقربِ حتَّى تخرجَ إلى الحيّة، وفي الرجل حتَّى تخرجَ إلى المرأة، وفي الذِّبان والنحل حتى تخرج إلى الغِرْبان والعِقْبان، وفي الكلبِ حتَّى تخرجَ إلى الديك، وفي الذئب حتَّى تخرج إلى السبُع، وفي الظِّلفِ حتَّى تخرجَ إلى الحافر، وفي الحافر حتَّى تخرج إلى الخُفّ، وفي الخفِّ حتَّى تخرجَ إلى البُرْثُن، وفي البرْثُنِ حتَّى تخرج إلى المِخلَب، وكذلك القولُ في الطير وعامَّةِ الأصناف، لَرأيتُ أنَّ جملةَ الكتاب، وإنْ كثُر عددُ ورقِه، أنَّ ذلك ليس مما يُمِلُّ، ويُعتَدُّ عليَّ فيه بالإطالة، لأنَّه وإن كان كتاباً واحداً فإنَّه كتبٌ كثيرة، وكلُّ مُصحَف منها فهو أمٌّ على حِدَة، فإن أرادَ قراءةَ الجميع لم يَطل عليه الباب الأوّل حتَّى يهجمَ على الثاني، ولا الثاني حتَّى يهجمَ على الثالث، فهو أبداً مستفيدٌ ومستَطْرِف، وبعضُه يكون جَماماً لبعض، ولا يزالُ نشاطُه زائداً، ومتى خرج منْ آي القرآن صارَ إلى الأثر، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر، ثم يخرج من الخبر إلى شعر، ومن الشعرِ إلى نوادر، ومن النوادر إلى حكمٍ عقليّة، ومقاييس سِداد، ثم لا يترك هذا البابَ؛ ولعلَّه أن يكون أثقلَ ، والملالُ إليه أسرع، حتَّى يفضِيَ به إلى مزحٍ وفكاهة، وإلى سُخْفٍ وخُرافة، ولست أراه سُخفاً، إذ كنتُ إنما استعملتُ سِيرةَ

الحكماءِ، وآدابَ العلماء.
مخاطبة العرب وبني إسرائيل في القرآن الكريم ورأينا اللّه تبارك وتعالى، إذا خاطب العربَ والأعْرَابَ، أخرجَ الكلامَ مُخْرَجَ الإشارة والوحي والحذف، وإذا خَاطَبَ بني إسرائيل أو حكَى عنهم، جعلَه مبسوطاً، وزاد في الكلام، فأصوبُ العمل اتِّباعُ آثار العلماء، والاحتذاءُ على مثالِ القدماء، والأخذُ بما عليه الجماعة.
أقوال بعض الشعراء في صفة الكتب قال ابن يسير في صفةِ الكتب، في كلمةٍ له:

أقبلْتُ أهرُب لا آلو مُباعدةً	في الأرض منهمْ فلم يُحْصِنِّيَ الهربُ
بقصر أوسٍ فما والت خنادِقُه	ولا النواويسُ فالماخورُ فالخَرب
فأيُّما موئِلٍ منها اعتصمتُ به	فِمن ورائي حثيثاً منهمُ الطلبُ
لمَّا رأىتُ بأني لستُ معجزَهم	فوتاً ولا هَرَباً، قرَّبت أحتجِبُ
فصرتُ في البيت مسروراً بهم جَذِلاً	جَارَ البراءة لا شكوَى ولاشَغَبُ
فرداً يحدِّثني الموتى وتنطِقُ لي	عن علمِ ما غاب عنِّي منهمُ الكتبُ
هم مُؤْنِسون وألاَّف غَنِيتُ بهمْ	فليس لي في أنيسٍ غيرهم أرَبُ
لِلّهِ من جُلَسَاءٍ لا جَليسهمُ	ولا عشيرهُمُ للسُّوءِ مرتَقِبُ
لا بادراتِ الأذى يخشى رفيقُهمُ	ولا يُلاقِيه منهمْ مَنْطِقٌ ذَربُ
أبقوا لنَا حِكماً تبقى منافِعُهَا	أخْرَى الليالي على الأيَّام وانشعبوا
فأيّما آدبٍ منهم مددتُ يدي	إليه فهو قريبٌ من يَدِي كَثبُ
إن شئتُ من مُحكَم الآثار يرفعُها	إلى النبيِّ ثِقاتٌ خِيرةٌ نُجُبُ
أو شئتُ من عَرَبٍ علماً بأوَّلِهم	في الجاهليَّة أنبتْني به العرب
أو شئتُ مِنْ سِيَرِ الأملاكِ مِنْ عَجَمٍ	تُنْبي وتُخْبِرُ كيف الرأيُ والأدبُ
حتَّى كأنِّيَ قد شاهدتُ عصرَهُمُ	وقد مضَتْ دونهم من دَهِرهم حِقَبُ

يا قائلاً قصُرَت في العلم نُـهْيَتُـهُ أمسى إلى الجهل فيما قال ينتسِبُ

إنَّ الأوائل قد بانوا بـعلـمـهـم خلافَ قولِك قد بانوا وقدْ ذهـبـوا

ما ماتَ منا امرؤ أبقى لـنـا أدبـاً نكون منه إذا ما مات نَكـتِـسـبُ

وقال أبو وَجْزة وهو يصف صحيفةً كُتب له فيها بستِّينَ وَسْقاً:

راحَتْ بسِتِّين وَسْقاً في حقيبـتـه ما حُمِّلَتْ حِمْلَها الأدنى ولا السِّدَدا

ما إنْ رأيتُ قلوصاً قبلها حَمَلـت سِتِّينَ وَسقاً وما جابت به بـلـدَا

وقال الراجز:

تَعَلَّمَنْ أنَّ الـدواةَ والـقـلَـمْ تَبقى ويُفْنِي حادثُ الدَّهر الغَنَمْ

يقول: كتابُكَ الذي تكتبُه عليَّ يبقى فتأخذني به، وتذهب غنَمي فيما يذهب.
نشر الأخبار في العراق وممَّا يدلُّ على نفع الكتاب، أنَّه لولا الكتابُ لم يجُزْ أن يعلمَ أهل الرَّقَّة والموصِل وَبغدادَ وواسط، ما كان بالبصرة، وما يحدث بالكوفِة في بياض يوم، حتَّى تكون الحادثةُ بالكوفِة غُدوة، فتعلمُ بها أهل البصرة قبلَ المساءَ.
وذلك مشهورٌ في الحمام الهدَّى، إذا جُعِلت بُرُداً، قال اللّه جلّ وعزَّ وذكر سليمانَ وملكه الذي لم يؤت أحداً مثله فقال "وَتَفَقَّدَ الطَّيرَ فَقالَ مَا لِيَ لاَ أرَى الهُدْهُدَ" إلى قوله: "أوْ لأذْبَحَنَّهُ أوْ لَيَأتِيَنِّي بِسلُطَانٍ مُبِينٍ" فلمْ يلبثْ أن قال الهُدْهُدُ: "جِئْتُكَ مِنْ سَبأ بِنَبَأ يَقِينٍ، إنِّي وَجَدْتُ امرَأةً تَمْلِكُهُمْ، وأوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيءٍ، وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ" قال سليمان: "اذْهَبْ بكتابي هذا فَألْقِهْ إليهِمْ" وقد كان عندَه مَن يبلِّغ الرسالة على تمامها. مِن عِفريت، ومِن بعض مَن عنده علمٌ من الكتاب، فرأى أنَّ الكتابَ أبهى وأنبَلُ، وأكرمُ وأفخمُ من الرسالة عن ظهر لسان، وإن أحاط بجميع ما في الكتاب، وقالت مَلكةُ سَبَأ "يَا أيُّها المَلأ إنِّي ألْقِيَ إليَّ كِتَابٌ كرِيمٌ"، فهذا مما يدل على قدْر اختيار الكتب استخدام الكتابة في أمور الدين والدنيا وقد يريد بعضُ الجِلَّةِ الكبار، وبعضُ الأدباءِ والحكماءِ، أن يدعو بعضَ مَن يجري مَجْراه في سلطانٍ أوْ أدبٍ، إلى مأدُبةٍ أو نِدام، أو خُروج إلى متنزَّه، أو بعض ما يشبهُ ذلك، فلو شاءَ أن يبلِّغهُ الرسولُ إرادته ومعناه، لأصابَ من يُحسن الأداء، ويصدُق في الإبلاغ، فيرى أنَّ الكتاب في ذلك أسرى وأنبَه وأبلغ. ولو شاءَ النبيُّ صلى اللّه عليه وسلم ، ألاّ يكتبَ الكتبَ إلى كسرى، وقيْصَرَ، والنَّجَاشيِّ، والمقوقِس، وإلى ابني الجُلَنْدَى، وإلى العباهلة من حمير، وإلى هوذَة بن علي، وإلى الملوك والعظماء، والسادة النجباء، لفعل، ولوجد المبلِّغَ المعصوم من الخطأ والتبديل، ولكنّهُ عليه الصلاة والسلام، عِلم أنَّ الكتابَ أشبهُ بتلك الحال، وأليق بتلك المراتب،

وأبلغُ في تعظيم ما حواه الكتاب.
ولو شاء اللّه أن يجعَل البشارات على الألسنة بالمرسلين، ولم يودعها الكتب لفعل، ولكنه تعالى وعزّ، علم أن ذلك أتمُّ وأكمل، وأجمع وأنبل.
وقد يكتب بعضُ من له مرتبةٌ في سلطان أو ديانة، إلى بعض من يشاكله، أو يجري مجراه، فلا يرضى بالكتاب حتَّى يخزمه ويختمه، وربَّما لم يرض بذلك حتى يُعَنْونه ويعظمه، قال اللّه جلَّ وعز: "أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِماَ في صُحُفِ مُوسَى وإِبْراهيمَ الَّذِي وَفَّى" فذكر صحف موسى الموجودة، وصحفَ إبراهيم البائدة المعدومة، ليعرف الناس مقدارَ النفع، والمصلحة في الكتب.
نظام التوريث عند فلاسفة اليونانية قالوا: وكانت فلاسفة اليونانية، تورث البنات العَين، وتورث البنين الدين: وكانت تصل العجز بالكفاية، والمؤونة بالكلفة، وكانت تقول: لا تورثوا الابنَ من المال، إلاّ ما يكونُ عوناً له على طلب المال، واغذُوه بحلاوة العلم، واطبَعوه على تعظيم الحكمة، ليصير جمْع العلم أغلبَ عليه من جمع المال، وليرى أنَّه العُدَّة والعتاد، وأنّه أكرم مستفاد.
وكانوا يقولون: لا تورِّثوا الابن من المال إلاّ ما يسد الخلة، ويكون له عوناً على درك الفضول، إن كان لا بُدَّ من الفضول؛ فإنَّه إن كان فاسداً زادت تلك الفضول في فساده، وإن كان صالحاً كان فِيما أورثتموه من العلم وبقّيتم له من الكفاية، ما يكسبه الحال، فإن الحال أفضل من المال، ولأنَّ المال لم يَزَلْ تابعاً للحال، وقد لا يتبع الحال المال، وصاحب الفضول بعرَض فساد، وعلى شفا إضَاعة، مع تمام الحنكَة، واجتماع القوَّة، فما ظنُّكم بها مع غرارة الحداثة، وسوء الاعتبار، وقلة التجربة.
وكانوا يقولون: خير ميراثٍ ما أكسبك الأركان الأربعة، وأحاط بأصول المنفعة، وعجَّل لك حلاوة المحبة، وبقّى لك الأحدوثة الحسنة، وأعطاك عاجل الخير وآجله، وظاهره وباطنه.
وليس يجمع ذلك إلاّ كرامُ الكتب النفيسة، المشتملة على ينابيع العلم، والجامعة لكنوز الأدب، ومعرفِة الصناعات، وفوائدِ الأرفاق، وحجج الدين الذي بصحته، وعند وضوح برهانه، تسكن النفوس، وتثلج الصدور، ويعود القلب معموراً، والعزُّ راسخاً، والأصل فسيحاً.
وهذه الكتب هي التي تزيد في العقل وتشحذه، وتداويه وتصلحه، وتهذبه، وتنفي الخَبَث عنه، وتفيدك العلم ، وتصادق بينك وبين الحجَّة، وتعوّدك الأخذ بالثقة، وتجلب الحالَ، وتكسب المال.
وراثة الكتب ووراثة الكتب الشريفة، والأبواب الرفيعة، منبهة للمورِّث، وكنز عند الوارث، إلا أنه كنز لا تجب فيه الزكاة، ولا حقُّ السلطان، وإذا كانت الكنوز جامدة، ينقصها ما أخذ منها، كان ذلك الكنز مائعاً يزيده ما أخذ منه، ولا يزال بها المورِّث مذكوراً في الحكماء ومنوّهاً باسمه في الأسماء، وإماماً متبوعاً وعَلماً منصوباً، فلا يزال الوارث محفوظاً، ومن أجله محبوباً ممنوعاً، ولا تزال تلك المحبَّة نامية، ما كانت تلك الفوائد قائمة، ولن تزال فوائدها موجودةً ما كانت الدار دار حاجة، ولن يزال من تعظيمها في القلوب أثر، ما كان من فوائدها على الناس

أثر، وقالوا: من ورَّثته كتاباً، وأودعته علماً، فقد ورثته ما يُغِل ولا يَستَغِلّ، وقد ورثته الضيعة التي لا تحتاج إلى إثارة، ولا إلى سقي، ولا إلى إسجال بإيغار، ولا إلى شرط، ولا تحتاج إلى أكّار، ولا إلى أن تُثار، وليس عليها عُشر، ولا للسلطان عليها خَرْج، وسوَاء أفدته علماً أو ورثته آلة علم، وسواءٌ دفْعُك إليه الكفاية، أو ما يجلب الكفاية، وإنما تجري الأمور وتتصرف الأفعال على قدر الإمكان، فمن لم يقدر إلاّ على دفع السبب، ولم يجب عليه إحضار المسبَّب، فكتُب الآباء، تحبيب للأحياء، ومحي لذكر الموتى. وقالوا: ومتى كان الأديب جامعاً بارعاً، وكانت مواريثه كتباً بارعة، وآداباً جامعة، كان الولد أجدر أن يرى التعلُّم حظاً، وأجدر أن يسرع التعليمُ إليه، ويرى تركه خطأً، وأجدرَ أن يجري من الأدب على طريق قد أنهج له، ومنهاج قد وطئ له، وأجدرَ أن يسري إليه عِرقٌ مَن نَجله، وسقي من غرسه، وأجدر أن يجعل بدل الطلب للكسْب، النظر في الكتب ، فلا يأتي عليه من الأيَّام مقدارُ الشغل بجمع الكتب، والاختلاف في سماع العلم، إلا وقد بلغ بالكفاية وغاية الحاجة، وإنَّما تُفسد الكفاية من له تمت آلاته، وتوافت إليه أسبابه، فأما الحدَث الغرير، والمنقوص الفقير. فخير مواريثه الكفاية إلى أن يبلغ التمام، ويكمل للطلب، فخير ميراثٍ وُرّث كتبٌ وعلم، وخير المورّثين من أورث ما يجمع ولا يفرِّق،، ويبصِّر ولا يُعمي، ويُعطي ولا يأخذ، ويجود بالكلِّ دون البعض، ويدع لك الكنزَ الذي ليس للسلطان فيه حقّ، والرِّكازَ الذي ليس للفقراء فيه نصيب، والنِّعمة التي ليس للحاسد فيها حيلة، ولا للُّصُوص فيها رغبة، وليس للخصم عليك فيه حجَّة، ولا على الجار فيه مَؤونة.

قول ديمقراط في تأليف كتب العلم وأما ديمقراط فإنه قال: ينبغي أن يعرف أنه لا بدَّ من أن يكون لكلِّ كتابٍ علمٍ وضعَه أحدٌ من الحكماء، ثمانيةُ أوجه: منها الهمَّة، والمنفعة، والنسبةُ، والصحَّةُ، والصِّنف، والتأليف، والإسناد، والتدبير، فأوَّلُها أن تكون لصاحبه هِمَّة، وأن يكون فيما وضع منفعة، وأن يكون له نسبة يُنْسَب إليها، وأن يكون صحيحاً، وأن يكون على صِنف من أصناف الكتب معروفاً به، وأن يكون مؤتلفاً من أجزاء خمسة، وأن يكون مسنداً إلى وجه من وجوه الحكمة، وأن يكون له تدبير موصوف.

فذُكِر أن أبقراط قد جمع هذه الثمانية الأوجه في هذا الكتاب، وهو كتابه الذي يسمى أفوريسموا تفسيره كتاب الفصول.

مقاولة في شأن الكلب وقولك: وما بلغَ من قدر الكلب مع لؤم أصله ، وخُبث طبعه، وسقوط قدره، ومهانة نفسه، ومع قلَّةِ خيره وكثرة شره، واجتماع الأمم كلِّها على استسقاطه، واستسفاله، ومع ضربهم المثل في ذلك كلِّه به، ومع حاله التي يعرف بها، ومن العجز عن صولة السِّباع واقتدارها، وعن تمنُّعها وتشرُّفها، وتوحُّشها وقلة إسماحها، وعن مسالمة البهائم وموادعتها، والتمكين من إقامة مصلحتها والانتفاع بها، إذ لم يكن في طبعها دفع السباع عن أنفسها، ولا الاحتيال لمعاشها، ولا المعرفة بالمواضع الحريزة من المواضع المخُوفة، ولأنَّ الكلب ليس بسبع تام، ولا بهيمة تامة، حتى كأنه من الخلْق المركَّب والطبائع الملفَّقة، والأخلاط المجتلبة، كالبغل المتلوِّن في أخلاقه، الكثير العيوب المتولِّدة عن مزاجه.

وشرّ الطبائع ما تجاذبته الأعراق المتضادَّة، والأخلاق المتفاوتة، والعناصر المتباعدة، كالراعبيِّ من الحمام، الذي ذهبت عنه هداية الحمام، وشكل هديره وسرعة طيرانه، وبطل عنه عمر الورَشان، وقوَّة جناحه وشدة عصبه، وحسنُ صوته، وشَحْو حلقه، وشكل لحونه، وشدَّة إطرابه، واحتماله لوقع البنادق وجرح المخالب، وفي الراعبي أنّه مُسرْوَل مثقل، وحدث له عِظَمُ بدن، وثقل وزن لم يكن لأبيه ولا لأمِّه.

وكذلك البغل، خرج من بين حيوانين يلدان حيواناً مثلهما، ويعيش نتاجُهما ويبقى بقاءَهما، وهو لا يعيش له ولد وليس بعقيم، ولا يبقى للبغلة ولد وليست بعاقر، فلو كان البغل عقيماً، والبغلة عاقراً، لكان ذلك أزيدَ في قوتهما، وأتمَّ لشدتهما، فمع البغل من الشّبق والنَّعظ ما ليس مع أبيه، ومع البغلة من السَّوَس، وطلب السفاد، ما ليس مع أمِّها، وذلك كلُّهُ قدح في القوَّة، ونقص في البنية، وخرج غرموله أعظم من غراميل أعمامه وأخواله، فترك شبههما، ونزع إلى شيء ليس له في الأرض أصل، وخرج أطول عمراً من أبويه، وأصبرَ على الأثقال من أبويه.

أو كابن المذكَّرة من النساء، والمؤنث من الرجال، فإنه يكون أخبث نتاجاً من البغل، وأفسد أعراقاً من السِّمع، وأكثر عيوباً من العِسبار، ومنْ كلّ خلقٍ خلق إذا تركب من ضدّ، ومن كل شجرة مُطعَّمَةٍ بخلاف.

وليس يعتري مثلُ ذلك الخِلاسيّ من الدجاج، ولا الورداني من الحمام.

وكلُّ ضعف دخل على الخلقة، وكل رقَّة عرضت للحيوان، فعلى قدر جنسه، وعلى وزن مقداره وتمكنه، يظهر العجزُ والعيب. وزعم الأصمعيُّ، أنَّه لم يسبق الحلبة فرسٌ أهضم قط.

وقال محمد بن سلاّم: لم يسبق الحلبة أبلق قط ولا بلقاء.

والهداية في الحمام، والقوَّة على بعد الغاية، إنما هي للمصْمَتَة من الخضر.

الشيات في الحيوان ضعف ونقص.

وزعموا أنَّ الشِّياتِ كلَّها ضعف ونقص والشِّيَة: كلُّ لون دخلِ على لون - وقال اللّه جلّ وعزّ: "إنَّه يَقُولُ إنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ ولاَ تَسْقِي الحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَ شِيَةَ فِيهَا".

ابن المذكرة من المؤنث وزعم عثمان بن الحكم أنَّ ابن المذكرة من المؤنث، يأخذ أسوأ خصال أبيه، وأردأ خصال أمه، فتجتمع فيه عظام الدواهي، وأعيان المساوي، وأنَّه إذا خرج كذلك، لم ينجع فيه أدب، ولا يَطمع في علاجه طبيب، وأنَّه رأى في دور ثقيف، فتًى اجتمعتْ فيه هذه الخصال، فما كان في الأرض يومٌ، إلاَّ وهم يتحدثون عنه بشيءٍ، يصغُر في جنْبه أكبرُ ذنبٍ كان يُنسَب إليه.

وزعمتَ أنَّ الكلب في ذلك كالخنثى، والذي هو لا ذكر ولا أنثى، أو كالخصي الذي لمَّا قُطع منه ما صار به الذَّكر فحلاً، خرجَ من حدِّ كمالِ الذكَر بفقدان الذكَر، ولم يكملُ لأن يصير أنثى، للغريزة الأصلية، وبقيّةِ الجوهريّة.

وزَعَمْتَ أنَّه يصير كالنبيذ الذي يفسده إفراطُ الحرّ، فيخرجه من حدِّ الخل، ولا يدخلهُ في حدِّ النبيذ.

وقال مرداس بن خذام:

سَقينا عِقالاً بالثَّـويّةِ شَـرْبَةً فمالت بلُبِّ الكاهلِيِّ عِقـالِ

فقُلتُ اصطبحْها يا عِقالُ فإنَّما هي الخمرُ خَيَّلْنا لـها بخَـيالِ

رَمَيْتُ بأمِّ الخلِّ حبَّةَ قلبـه فلم ينتعش منها ثلاثَ لـيالِ

فجعل الخمر أمَّ الخلّ قد يتولد عنها، وقد يتولّد عن الخل - إذ كان خمراً مرة - الخمرُ.
وقال سعيد بن وهب:

هَلاَّ وأنت بماءِ وجهك تُشْتَهَـى رَوْدَ الشَّبابِ قليلَ شَعْرِ العارض

فالآن حين بدَتْ بخـدِّك لـحية ذهَبَتْ بملحك مثل كفِّ القابضِ

مثل السلافة عادَ خمرُ عصيرها بعدَ اللّذاذة خَلَّ خمرٍ حـامـض

ويصير أيضاً كالشعر الوسط، والغناء الوسط، والنادرة الفاترة، التي لم تخرج من الحرِّ إلى البرد فتضحك السِّن، ولم تخرُج من البرد إلى الحر فتضحك السِّن.

ما يعتري الإنسان بعد الخصاء

وكيف ما كان قبل الخصاء

قالوا: كلُّ ذي ريح مُنتِنةٍ، وكُلُّ ذي دَفْرٍ وصُنَانٍ كريهِ المشَمَّةِ، كالنَّسر وما أشبهه، فإنَّه متى خُصي نقص نتنُه وذهبَ صُنانه، غيرَ الإنسان، فإنَّ الخصيَّ يكون أنتنَ، وصنانُه أحدَّ، ويعمُّ أيضاً خبْثُ العرق سائرَ جسدَه، حتى لَتُوجَد لأجسادهمْ رائحةٌ لا تكون لغيرهم، فهذا هذا.
وكلُّ شيءٍ من الحيوان يُخصَى فإنَّ عظمَه يدِقُّ، فإذا دقَّ عظمُه استرخَى لحمه، و تبرَّأ من عظمه، وعاد رَخْصاً رطْباً، بعد أن كان عَضِلاً صُلباً، والإنسان إذا خُصِيَ طال عظمُه وعرُض، فخالف أيضاً جميعَ الحيوان من هذا الوجه.
وتعرض للخصيان أيضاً طول أقدامٍ، واعوجاج في أصابع اليد، والتواءٌ في أصابع الرِّجْل، وذلك مِن أوّلِ طعْنهم في السنِّ، وتعرض لهم سرعة التغيُّر والتبدُّل، وانقلاب من حدِّ الرطوبة والبضاضة ومَلاسة الجلد، وصفاءِ اللون ورقَّته، وكثرةِ الماء وبريقه، إلى التكرُّش والكمود، وإلى التقبُّض والتخدُّد، وإلى الهُزال، وسوء الحال، فهذا الباب يعرض للخصيان، ويعرض أيضاً لمعالجي النبات من الأكرة مِن أهل الزرع والنخل، لأنَّكَ ترى الخصيَّ وكأنَّ السيوفَ تلمع في لونه، وكأنَّه مِرْآةٌ صينيَّة، وكأنه وَذيلة مجلوَّة، وكأنه جُمَّارَة رَطْبة، وكأنه قضيبُ فِضَّةٍ قد مسَّهُ

ذهب، وكأن في وجناته الورد، ثم لا يلبثُ كذلك إلا نُسَيْئاتٍ يسيرةً، حتى يذهبَ ذلك ذهاباً لا يعود، وإن كان ذا خِصبٍ، وفي عيش رَغد، وفي فراغ بالٍ، وقلّةِ نصَب.

من طرائف عبد الأعلى القاصّ

وكان من طرائف ما يأتي به عبد الأعلى القاصّ، قوله في الخصي، وكان لغلبة السلامة عليه يُتوهَّم عليه الغفلة، وهو الذي ذكر الفقيرَ مرة في قصصه فقال:
الفقير مرقته سُلْقة، ورداؤه عِلْقة، وجَرْدَقته فِلْقة، وسمكته شِلقة، وإزاره خرقة.
قالوا: ثمَّ ذكر الخَصيَّ فقال: إذا قُطِعت خُصيته، قويت شَهوته وسخُنت مَعِدته، ولانَتْ جِلدتُه، وانجردت شَعْرته، واتَّسعت فقْحته، وكثُرتْ دمعته.
وقالوا، الخصيُّ لا يصلَع كما لا تصلَع المرأة، وإذا قطع العضوُ الذي كان به فحلاً تامّاً، أخرجه ذلك من أكثر معاني الفحول وصفاتهم، وإذا أخرجه من ذلك الكمال، صيَّره كالبغل الذي ليس هو حماراً ولا فرساً، وتصيرُ طباعُه مقسومةً على طباع الذكر والأنثى، وربما لم يَخْلُص له الخلقُ ولم يَصْفُ، حتّى يصير كالخلق من أخلاق الرجال، أو يلحق بمثله من أخلاق النساء، ولكنَّه يقع ممزوجاً مركباً، فيخرج إلى أن يكون مذبذباً، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وربما خرجت النتيجة وما يولّده التركيب، عن مقدار معاني الأبوين، كما يجوزُ عمرُ البغْل عمرَ أبويه، وكذلك ما عددنا في صدر هذا الكلام.

طلب النسل

وقالوا: وللإنسان قوًى معروفةُ المِقدار، وشهواتٌ مصروفةٌ في وجوهِ حاجاتِ النفوس، مقسومةٌ عليها، لا يجوزُ تعطيلُها وتركُ استعمالِها ما كانت النفوسُ قائمةً بطبائعها ومِزاجاتها وحاجاتها، وبابُ المنكَح مِن أكبرها، وأقواها، وأعمِّها.
ويدخل في باب المنكَح ما في طبائِعهم من طلبِ الولد، وهو بابٌ من أبوابهم عظيم؛ فمنهم من يطلبه للكثرة والنُّصرة، وللحاجة إلى العدد والقوَّة، ولذلك استلاطت العربُ الرجالَ، وأغضتْ على نسب المولود على فراش أبيه، وقد أحاط علمُه بأنَّه من الزوج الأوَّل، قال الأشهبُ بن رُمَيلة:

قال الأقاربُ لا تغرُرْكَ كثرتُنا وأغْنِ نفسَكَ عنَّا أيها الرجُلُ

علَّ بَنِيَّ يشدُّ اللّهُ كثرتَـهـم والنَّبْعُ يَنْبُتُ قُضْباناً فيكتهل

وقال الآخَر:

إنَّ بَنِيَّ صِبْيَةٌ صَيْفِيُّونْ أَفْلَحَ مَنْ كان لَهُ رِبْعِيُّونْ

يشكو كما ترى صِغر البنين، وضعف الأسر.
وما أكثر ما يطلب الرجل الوَلدَ نفاسةً بماله على بني عمِّه، ولإشفاقِه من أن تليه

القضاةُ وترتع فيه الأمناء، فيصيرَ مِلكاً للأولياء، ويقضيَ به القاضي الذّمامَ ويصطنع به الرجال.
وربما همَّ الرجلُ بطلب الولد لبقاء الذكْر، وللرغبة في العقب، أو على جهة طلَبِ الثواب في مباهاة المشركين، والزيادةِ في عدد المسلمين، أو للكسب والكفاية، وللمدافعة والنُّصْرة، وللامتناع، وبقاء نوع الإنسان، ولما طبع اللّه تعالى تعالى بني آدم عليه، من حبِّ الذُّرِّيَّةِ وكثرةِ النسل، كما طبع اللّه تعالى الحمام والسنانير على ذلك، وإن كان إذا جاءه الولد زاد في هَمِّه ونصبه، وفي جُبْنِه وبخْله، وقد قال النبي: "الْوَلَد مَجْبَنَةٌ مَبْخَلَةٌ مَجْهَلَةٌ فيحتمل في الولد المُؤَن المعروفة، والهموم الموجودة لغير شيء قصَد له، وليس في ذلك أكثرُ من طلب الطباع، ونزوع النفس إلى ذلك.
وذكر أبو الأخزَر الحِمَّاني عَير العانة بخلاف ما عَليه أصحابُ الزِّواج من الحيوان، فقال عند ذكر سِفاده:

لا مُبتَغِي الذرْء ولا بالعازِلِ

لأنَّ الإنسانَ من بين الحيوان المُزَاوِج، إذا كرهَ الولدَ عزَل، والمزاوج من أصناف الحيوانات إنَّما غايتُها طلبُ الذرْء والولد، لذلك سُخِّرت، وله هيِّئت، لِما أراد اللّه تعالى من إتمامِ حوائجِ الإنسانِ، والحمارُ لا يطلبُ الولدَ، فيكون إفراغه في الأتان لذلك، ولا إذا كان لا يريد الولد عزَل كما يعزل الإنسان، غير أنّ غايتَه قضاءُ الشهوة فقط، ليس يَخْطُر على باله أنَّ ذلك الماءَ يُخلَق منه شيء.
وروى ابن عون عن محمد بن سيرين عن عبيدة قال: ليس في البهائم شيء يعمل عمل قوم لوط إلا الحمار.
وعامَّة اكتساب الرجال وإنفاقهم، وهمِّهم وتصنُّعهم، وتحسينهم لما يملكون، إنَّما هو مصروفٌ إلى النساء والأسباب المتعلقة بالنساء، ولو لم يكن إلاّ التنمُّص والتطيُّب والتطوُّس والتَعرُّس والتخضُّب، والذي يُعَدُّ لها من الطيب والصِّبغ، والحَلْي، والكِساءِ، والفُرُش، والآنية، لكان في ذلك ما كفى، ولو لم يكن له إلاّ الاهتمامُ بحفظها وحراستها، وخوفُ العارِ من جنايتها والجناية عليها، لكان في ذلك المؤْنةُ العظيمة، والمشقة الشديدة.

قوله في الغرائز وبيان سبب شره الخصي

فإذا بطل العضوُ الذي من أجله يكون اشتغالُ النفس بالأصناف الكثيرة، من اللذَّة والألَم، فباضطرارٍ أنْ تعلَمَ أنَّ تلك القوَى لم تَبطل من التركيب، ولم تَعدَمْها الخلقة، وإنَّما سُدَّ دونَها بسدٍّ، وأدخل عليها حجاب، فلا بدَّ لها إذا كانت موجودةً من عمل ، لأنَّ عملَ كلِّ جوهرٍ لا يُعدَم إلاّ بعدمِ ذاته، فإذا صُرِفَتْ من وجهٍ فاضَتْ من وجه، ولا سيما إذا جمَّت ونازعتْ، ولا بُدَّ إذا زخرت وغَزُرت، وطغت وطمَتْ، من أن تفيضَ أو تفتح لنفسها باباً، وليس بعد المنكح بابٌ له موقعُ كموقع المطعم، فاجتمعت تلك القوى التي كانت للمنكَح وما يشتمل عليه باب المنكح، إلى القوَّة

التي عنده للمطعم، فإذا اجتمعت القوَّتان في بابٍ واحد كان أبلغ في حكمِهِ، وأبعدَ غايةً في سبيله، ولذلك صارَ الخَصيُّ آكَلَ من أخيه لأمِّه وأبيه، وعلى قدر الاستمراء يكون هضمه، وعلى قدر حاجةِ طبعه وحركة نفسه والحرارةِ المتولّدةِ عن الحركَة يكونُ الاستمراء، لأن الشهوة من أمتن أبواب الاستمراء، والحركة من أعظم أبواب الحرارة.

تفوق رغبة الإناث على الذكور في الطعام

ودوامُ الأكل في الإناثِ أعمُّ منه في الذكور، وكذلك الحِجْرُ دون الفَرَس، وكذلك الرَّمَكة دونَ البِرذَون، وكذلك النعجة دونَ الكبش، وكذلك النساءُ في البيوت دونَ الرجال، وما أشكُّ أنَّ الرجلَ يأكلُ في المجلسِ الواحِد ما لا تأكل المرأة، ولكنَّها تستوفِي ذلك المقدارَ وتُربِي عليه مقطَّعاً غيرَ منظوم، وهي بدوامِ ذلك منها، يكون حاصلُ طعامِها أكثرَ، وهنَّ يُناسِبْن الصبيانَ في هذا الوجه، لأنَّ طبعَ الصبيِّ سريعُ الهضم، سريعُ الكلَب، قصيرُ مدَّةِ الأكل، قليلُ مقدارِ الطُّعْم، فللمرأةِ كثرةُ معاودتها، ثمَّ تَبينُ بكثرةِ مقدارِ المأكول، فيصير للخَصيِّ نصيبان: نصيبُه من شِبْه النساء، ثم اجتماعُ قوى شهوتيه في بابٍ واحد، أعني شهوة المنكَح التي تحولت، وشهوة المطعم.
قال، وقيل لبعض الأعراب: أيُّ شيء آكَلُ؟ قال: بِرْذَونَة رَغُوث.
ولشدَّةِ نَهَمِ الإناثِ، صارت اللبؤة أشدَّ عُرَاماً وأنزقَ، إذا طلبت الإنسانَ لتأكله، وكَذلك صارت إناثُ الأجناس الصائدة أصيَدَ، كالإناثِ من الكلاب والبُزاةِ وما أشبهَ ذلك، وأحرصَ ما تكونَ عندَ ارتضاع جِرائها من أطبائها، حتَّى صار ذلك منها سبباً للحرص والنَّهم في ذلك.

صوت الخصي

ويعرض له عند قطع ذلك العضوِ تغيُّرُ الصوت، حتى لا يخفى على من سمِعه من غير أن يرى صاحبَه أنَّه خَصِيٌّ، وإن كان الذي يخاطبه ويناقله الكلام أخاه أو ابنَ عمِّه، أو بعضَ أترابه مِن فُحولة جنسه، وهذا المعنى يعرض لخِصيانِ الصقالِبَة أكثر ممَّا يعرض للخراسانية، وللسودان من السِّنْد والحُبْشان، وما أقلَّ مَن تجده ناقصاً عن هذا المقدار، إلاّ وله بيضة أو عِرْق، فليس يُحتاج في صِحَّةِ تمييزِ ذلك، ولا في دقة الحسِّ فيه، إلى حِذقٍ بقيافة، بل تجد ذلك شائعاً في طباع السِّفْلة والغَثْرَاءِ، وفي أجناس الصِّبيان والنساء.

شَعر الخصي

ومتى خُصي قبلَ الإنباتِ لم يُنْبِتْ، وإذا خُصِي بعد استحكام نباتِ الشعر في مواضعه، تساقط كله إلاّ شعرَ العانة، فإنه وإن نقص من غلظه ومقدارِ عَدده فإنَّ الباقيَ كثير، ولا يعرضُ ذلك لشعر الرأس، فإنَّ شعرَ الرأس والحاجبين وأشفار العينين يكون مع الولادة، وإنما يعرض لما يتولد من فضول البدن.
وقد زعم ناسٌ أنَّ حكمَ شعر الرأس خلافُ حكم أشفار العينين، وقد ذكرنا ذلك في

موضعه من باب القول في الشعر، وهذه الخصال من أماكن شَعر النساء، والخصيان والفحولة فيه سواء، وإنما يعرض لسوى ذلك من الشعر الحادثِ الأصول، الزائدِ في النبات، ألا ترى أن المرأة لا تصلَعُ، فناسبها الخصيُّ من هذا الوجه، فإنْ عرضَ له عارضٌ فإنما هو من القرَع، لا من جهة النَّزَع والجَلَح، والجَلَه والصَّلَع وكذلك النساء في جميع ذلك.

والمرأة ربَّما كان في قصَاص مقاديم شعرِ رأسها ارتفاع، وليس ذلك بنزَع ولا جلَح، إذا لم يكن ذلك حادثاً يُحدثه الطعنُ في السنّ. وتكون مقاطعُ شعر رأسه ومنتهى حدود قُصاصه، كمقاطع شعر المرأة ومنتهى قُصاصها، وليس شعرُها كلما دنا من موضع الملاسَة والانجراد يكون أرقَّ حتى يقلَّ ويضمحلَّ، ولكنه ينبُت في مقدارِ ذلك الجلد على نبات واحد، ثم ينقطع عند منتهاه انقطاعاً واحداً، والمرأة ربَّما كانت سبلاءَ، وتكون لها شَعَراتٌ رقيقة زَغَبيَّةٌ كالعِذار موصولاً بأصداغها، ولا يعرض ذلك للخَصي إلا من علة في الخصاء، ولا يرى أبداً بعد مقطع من صُدْغَيه شيءٌ من الشَّعر، لا من رقيقه ولا من كثيفه

ذوات اللحى والشوارب

وقد توجد المرأة ذات لحية، وقد رأيت ذلك، وأكثرُ ما رأيته في عجائزِ الدَّهاقين، وكذلك الغَبَب والشارب، وقد رأيت ذلك أيضاً، وهي ليست في رأي العين بخُنْثى، بل نَجِدها أنثى تامَّة ، إلا أن تكون لم تضرب في ذلك بالسبب الذي يقوَى، حتى يظهر في غير ذلك المكان، ولا تعرض اللحى للنساء، إلا عند ارتفاع الحيض، وليس يعرض ذلك للخَصي.

وقد ذكر أهلُ بَغداد، أنَّه كان لابنةٍ من بناتِ محمَّدِ بنِ راشدٍ الخنَّاق، لحيةٌ وافرة، وأنّها دخلت مع نساءٍ متنقّباتٍ إلى بعض الأعراس لتَرَى العُرس وجَلْوَةَ العَرُوس، ففطِنت لها امرأة فصاحت: رجلٌ واللّه وأحال الخدم والنساءُ عليها بالضرب، فلم تكن لها حيلةٌ إلا الكشفَ عن فرْجِها، فنزَعن عنها وقد كادت تموت.

ويفضل أيضاً الخصيُّ المرأةَ في الانجراد والزَّعَر، بأن تجدَ المرأة زَبَّاءَ الذراعين والساقين، وتجد رَكَب المرأة في الشعْر كأنَّه عانَةُ الرجل، ويعرض لها الشعر في إبطيها وغير ذلك، ولا يعرِض للخصيِّ ما يعرض للديك إذا خُصي: أن يذبُلَ غُضروفُ عُرْفِه ولحيته.

والخصاءُ ينقُص من شدَّة الأسر، وينقُض مُبْرَمَ القُوَى، ويُرْخِي مَعاقِدَ العَصَب، ويقرِّب من الهرَم والبلى

مشي الخصي

ويعرض للخصيِّ أن يشتدَّ وقعُ رجله على أرض السَّطح، حتى لو تفقَّدتَ وقعَ قدمه وقدَم أخيه الفحل الذي هو أعبلُ منه لوجدتَ لوقعِه ووطْئه شيئاً لا تجده لصاحبه، وكأنَّ العضوَ الذي كان يشدُّ توتير النَّسَا، ومَعاقد الوركين ومعاليق العصب، لَمَّا بطل وذهب الذي كان يمسكُه ويرفعه، فيخفّ لذلك وقعُ رجلِه، صار كالذي لا يتماسَكُ ولا يحمل بعضه بعضاً.

أثر الخصاء في الذكاء

ويعرض له أنَّ أخوين صَقْلَبيَّيْنِ مِن أمّ وأبٍ، لو كان أحدهُما توءمَ أخيه، أنَّه متى خُصِيَ أحدُهما خرَجَ الخَصيُّ منهما أجوَدَ خِدمةً، وأفطن لأبواب المعاطاة والمُنَاولةِ، وهو لها أتقنُ وبها أليق، وتجده أيضاً أذكى عقلاً عند المخاطبة، فيُخصُّ بذلك كلِّه، ويبقى أخوه على غثارة فطرته، وعلى غباوة غريزته، وعلى بلاهة الصَّقْلَبيَّة، وعلى سوءِ فهم العجَميّة.
ويدُ الإنسان لا تكون أبداً إلا خرْقاءَ، ولا تصير صَناعاً ما لم تكنْ المعرفةُ ثِقافاً لها، واللسان لا يكون أبرأ، ذاهباً في طريق البيان، متصرفاً في الألفاظ، إلاّ بعد أن تكونَ المعرفةُ متخلِّلَةً به، منقّلةً له، واضعةً له في مواضع حقوقِه، وعلى أماكن حظوظِه، وهو علّةٌ له في الأماكن العميقة، ومصرِّفةٌ له في المواضع المختلفة.
فأوَّلُ ما صنع الخِصاءُ بالصَّقْلَبيِّ تزكيةُ عقلِهِ، وإرهافُ حدِّه، وشحْذُ طبعِه، وتحريكُ نفسه، فلما عرَف كانت حركته تابعةً لمعرفته، وقوَّته على قدر ما هيّجه.
فأمَّا نساءُ الصقالبة وصبيانهم، فليس إلى تحويل طبائعهم، ونقْل خَلْقهم إلى الفطنة الثاقبة، وإلى الحركَة الموزونة، وإلى الخدمة الثابتة الواقعة بالموافقة، سبيلٌ، وعلى حسَب الجهْل يكون الخُرْق، وعلى حسب المعرفة يكون الحِذق، وهذا جملةُ القول في نسائهم، وعلى أنّهنَّ لا حظوظ لهنَّ عند الخلوة، ولا نفاذَ لهنَّ في صناعة؛ إذ كنَّ قد مُنِعن فهمَ المعاطاة ومعرفةَ المناولة. والخِصيانُ معَ جودة آلاتهم ووَفارة طبائعهم في معرفةِ أبوابِ الخِدْمة، وفي استواءِ حالهم في باب المعاطاة، لم تر أحداً منهم قطُّ نفَذَ في صناعةٍ تنْسب إلى بعض المشقَّة، وتضافُ إلى شيءٍ من الحكمة، ممَّا يُعرَف ببُعْد الرَّوِيَّةَ، والغوص بإدامة الفكرة، إلا ما ذكرُوا من نَفَاذ ثقف في التحريك للأوتار، فإنَّه كانَ في ذلك مقدَّماً، وبه مذكوراً، إلاَّ أنَّ الخصيَّ من صباه، يُحسِن صنعة الدّابوق، ويُجِيد دُعاءَ الحمام الطوُّريِّ، وما شئتَ من صغار الصناعات.
وقد زعم البصريُّون أن حَديجاً الخصيّ، خادمَ المُثنّى بن زُهَير، كان يُجاري المُثنّى في البصَر بالحمام، وفي صحّة الفِراسة، وإتقان المعرفة، وجودة الرياضة، وسنذكُر حالَه في باب القول في الحمام إن شاء اللّه تعالى.
هذا قولهم فيمن خُصي من الصقالبة، وملوكُنا لعقول خِصيان خُراسانَ أحمد، وهم قليل، ولذلك لم نأتِ من أمرهم بشيءٍ مشهور، وأمر مذكور.

خصيان السند

وأما السِّند، فلم يكن فيهم أيضاً من الخِصيان إلاّ النَّفرُ الذين كان خصاهم موسى بنُ كعب، وقد رأيت أنا بعضَهم، وزعم لي أنَّه خَصَى أربعةً هو أحدهم، ورأيتُ الخِصاء، قد جذبَه إلى حبِّ الحمام، وعمل التكك، والهراش بالديوك، وهذا شيءٌ لم يُجْر منه على عِرق، وإنما قاده إليه قطعُ ذلك العضو.

خصيان الحبشة والنوبة والسودان

فأمَّا الخصيان من الحُبْشان والنُّوبة وأصناف السودان، فإنّ الخصاءَ يأخذُ منهم ولا يعطيهم، وينقُصهم ولا يزيدهم، ويحطُّهم عن مقادير إخوانهم، كما يزيد الصقالبة عن مقادير إخوتهم، لأن الحبشيَّ متى خُصِي سقطَتْ نفسه، وثقُلت حركته، وذهب نشاطه، ولا بدَّ أن يعرض له فساد، لأنه متى استُقْصي جِبابُه لم يتماسك بوله، وسلُس مخرجه، واسترخى الممسك له، فإن هم لم يستقصوا جِبابه، فإنما يُدخل الرجل منزله مَن له نصفُ ذلك العضو، وعلى أنك لا تجد منهم خَصِياً أبداً، إلاّ وبسُرَّته بُجْرَةٌ، ونفخة شنيعة، وذلك عيبٌ شديد، وهو ضرب من الفتق، مع قُبحِه في العَين، وشُنعَته في الذّكْر، وكلُّ ما قبُح في العين فهو مؤلم، وكل ما شنُع في النفس فهو مؤذٍ، وما أكثرَ ما تجد فيهم الألطع، وذلك فاشٍ في باطن شفاههم، ومتى كانت الشفاه هُدْلاً، وكانت المشافرُ منقلبة، كانت أظهر للَّطع، وهو ضرب من البرص، والبياض الذي يعرض لغُرَاميل الخيل وخُصَاها، ضربٌ أيضاً من البرص، وربما عَرَض مثل ذلك لحشفةِ قضيب المختون، إمَّا لَطبَع الحديد، وإمّا لقرب عهده بالإحداد وسقْي الماء، إلاّ أنَّ ذلك لا يعدُو مكانه، وكلما عظُمت الحشفةُ انبسَطَ ذلك البياضُ على قدر الزيادة فيها، وإنَّما ذلك كالبياض الذي يعرِض من حَرْقِ النار وتشييطها، وكالذي يعرض للصقالِبَة من التَّعالُج بالكيِّ، وربَّما اشتدَّ بياضُه حتى يفحُشَ ويُردِيه، إلا أنَّه لا يفشو ولا ينتشر، إلاّ بقدر ما ينبسط مكانه، ويتحوَّل صاحبه رجُلاً، بعد أن كان صبيّاً، وليس كالذي يعرِض من البلغم ومن المِرَّة، وبعضُ البرص يذهب حتى كأنه لم يكن، وبعضُه لا يذهب ولا يقف، بل لا يزال يتفشَّى ويتَّسع حتى ربَّما سلخه، ولا يذهب إلاّ بأنْ يذهب به نبي، فيكون ذلك علامةً له، ومن البهق الأبيض ما يكاد يلحق بالبَرَص، ولكن الذي هوَّن أمره الذي ترونَ من كثْرَةِ بُرءِ الناس منه.
ثمَّ الخصاءُ يكونُ على ضروبٍ، ويكون في ضروب، فمن ذلك ما يعرِض بعدَ الكِبَر للأحرار، كما يعرض للعبيد، وللعرب كما يعرض للعجم، كما خَصَى بعضُ عَبَاهلةِ اليمن علقمة بنَ سهلٍ الخَصيّ

علقمة الفحل وعلقمة الخصي

وإنما قيل لعلقمة بن عَبَدَةَ الفحلُ، حين وقعَ على هذا اسمُ الخصي، وكان عبداً صالحاً، وهو كان جَنَبَ الجديِل وداعراً، الفحلين الكريمين، إلى عمان، وكان من نازليها، وهو كان أحدَ الشهودِ على قُدامة بنِ مَظْعونٍ في شرب الخمر، وهو الذي قال لعمر بن الخطاب رضي اللّه تعالى عنه: أتَقبَلُ شهادةَ الخصيِّ؟ قال: أما شهادتك فأقبَلُ، وهو عَلقمةُ بن سهْل بن عمارة، فلمَّا سمّوه الخصيّ، قالوا لعلقمة ابن عَبَدة: الفحل، وعلقمةُ الخصيّ، الذي يقول:

فلن يَعْدَمَ الباقون قبراً لجثَّتـي ... ولن يعدَم الميراثَ منِّي المواليا

حِراصٌ على ما كنت أجمعُ قبْلَهم ... هَنِيئاً لهمْ جَمْعِي وما كنتُ والِـيا

ودُلِّيتُ في زَوْراءَ ثُمَّتَ أعنَقوا لشأنِهمُ قدْ أفْرَدُونِي وشَانِيا

فأصبح مالي من طريفٍ وتالدٍ لغيري وكانَ المالُ بالأمس ماليا

وكما عرَض للدَّلال ونَومَةِ الضُّحى، مِن خصاءِ عُثمانَ بن حيَّان المرّيّ والي المدينة لهما، بكتابِ هشام بن عبد الملك.
أثر تحريف كتاب هشام بن عبد الملك فمِنْ بني مرْوان من يدَّعي أنَّ عاملَ المدينةِ صحَّف، لأنه رأى في الكتاب: أحصِ مَنْ قِبَلَكَ مِنَ المخنَّثين فقرأها: اخْصِ مَنْ قِبَلَك من المخنَّثين، وذكر الهيثمُ عن الكاتب الذي تولَّى قراءَة ذلك الكتاب، أنَّه قال: وكيف يقولون ذلك ولقد كانت الخاء معجمةً بنقطةٍ، كأنها سُهيل أو تمْرةُ صيحانية؟ فقال اليقطري: ما وجْهُ كتابِ هشامٍ في إحصاءِ عدَد المخنَّثين؟ وهذا لا معنى له، وما كان الكتابُ إلاّ بالخاء المعجمة دون الحاء المهملة.
وذُكِر عن مشايخَ من أهل المدينة أنهم حكَوا عنهما أنهما قالا: الآن صِرنَا نساءً بالحقّ كأنَّ الأمرَ لو كان إليهما لاختارا أن يكونا امرأتين قال: وذُكِر أنهما خرجا بالخصلتين من الخصاء والتخنيث، من فُتورِ الكلام ولِينِ المفاصل والعظام، ومن التفكُّك والتثنِّي، إلى مقدار لم يرَوا أحداً بلغه، لا من مخنَّثات النساء، ولا من مؤنَّثي الرجال أبو همام السنوط وكما عرَض لأبي همام السَّنُّوط مِن امتلاخ اللُّخْم مذاكيرَه وخصيَيه، أصابَه ذلك في البحر في بعضِ المغازي، فسقطت لحيتُه، ولقّب بالسَّنُّوط، وخرَج لذلك نَهماً وشَرِهاً.
وقال ذات يوم: لو كان النخلُ بعضُه لا يحمل إلاَّ الرُّطب، وبعضُه لا يحمل إلاّ التمرَ، وبعضُه لا يحملُ إلاّ المجزَّع، وبعضُه لا يحمل إلاّ البُسر، وبعضُه لا يحمل إلا الخَلاَل، وكنَّا متى تناولْنا من الشِّمْراخ بُسْرَةً، خلقَ اللّهُ مكانها بُسَرتين، لَمَا كان بذلك بأس ثم قال: أستغفرُ اللّه لو كنتُ تمنيَّتُ أن يكونَ بدل نواةِ التمر زُبدة كان أصوَب!! ومنه ما يعرض من جهة الأوجاع التي تعرض للمذاكير والخصيتين، حتى ربما امتلخَهما طبيبٌ، وربَّما قطع إحداهما، وربما سقطتا جميعاً من تلقاءِ أنفسهما

نسل منزوع البيضة اليسرى

والعوامُّ يزعمون أنَّ الولدَ إنّما يكونُ من البيضة اليسرى، وقد زعمَ ناسٌ من أهل سليمان بن عليٍّ ومواليهم، أنَّ ولدَ داود بن جعفر الخطيب المعتزليِّ، إنَّما وُلِد له بعد أن نُزعت بيضتُه اليُسرى، لأمر كانَ عرض له.
والخصيُّ الطيّان، الذي كان في مسجد ابن رَغبان، وُلِدَ له غلام، وكان ليس له إلاَّ البيضةُ اليُمنى، فجاء أشبهَ به من الذُّباب بالذُّباب والغرابِ بالغراب، ولو أبصرَه أجهلُ خلق اللّه تعالى بفراسةٍ، وأبْعدُهم من قِيافةٍ، ومن مخالَطةِ النخَّاسين، أو من مجالسةِ الأعراب، لعلِمَ أنَّه سُلالَتُه وخلاصته، لا يحتاج فيه إلى مجزِّز المُدْلجِيِّ، ولا إلى ابن كريز الخُزاعي

خصاء الروم

ومن أهل الملل من يَخْصي ابنَه ويقفُه على بيت العبادَة، ويجعله سادناً، كصنيع الرُّوم، إلا أنهم لا يُحدثون في القضيب حدثاً، ولا يتعرضون إلا للأنثيين، كأنهم إنما كرهوا لأولادهم إحبالَ نسائِهم ورواهبهم فقط فأما قضاءُ الوَطر وبلوغُ اللذة، فقد زعموا أنهم يبلُغون من ذلك مبلغاً لا يبلُغه الفحل، كأنهم يزعُمون أنه يستقصي جميعَ ما عِندها ويستَجْلبه، لفَرْط قوَّته على المطاولة.
الروم أول من ابتدع الخصاء وكلُّ خصاءٍ في الدنيا فإنما أصلُه من قِبَل الروم، ومن العجب أنهم نصارى، وهم يدَّعون مِن الرأفة والرحمة، ورقَّة القلبِ والكَبد، ما لا يدَّعيه أحد من جميع الأصناف، وحسبك بالِخصاء مُثْلةً وحسبك بصنيع الخاصي قسوة ولا جَرَم أنهم بعثوا على أنفسهم من الخِصيان، من طَلَب الطوائل وتذكُّر الأحقاد، ما لم يظنُّوه عندَهم، ولا خافوه من قِبَلِهم، فلا هم ينزِعون، ولا الخِصيانُ يَنْكِلون، لأنَّ الرِّماية فيهم فاشية، وإن كان الخصيُّ أسواراً بلغَ منهم، وإن كان جمع معَ الرماية الثَّرْوة، واتخذ بطرَسُوس، وأذَنَة، الضِّياعَ واصطنعَ الرجال، واتخذ العُقد المُغِلَّة فمضرَّة كلِّ واحدٍ منهم عليهم، تَفِي بمَضَرَّةِ قائدٍ ضخم، ولم ترَ عَداوةً قطُّ تجوز مقدارَ عداوتهم لهم، وهذا يدلُّ على مقدار فرطِ الرغبة في النساء، وعلى شهوةٍ شديدةٍ للمباضَعة، وعلى أنهم قد عرفوا مقدار ما فقدوا، وهذه خصلةٌ كريمةٌ مع طلب المثوبة، وحسن الأحدوثة

خصاء الصابئة

فأما الصابئون، فإنَّ العابدَ منهم ربَّما خصى نفْسَه، فهو في هذا الموضع قد تقدم الروميَّ، فيما أظهرَ من حُسْن النيَّة، وانتحل من الديانةِ والعبادة، بخصاء الولد التامِّ، وبإدخاله النقصَ على النَّسلِ، كما فَعَل ذلك أبو المبارك الصابي، وما زال خلفاؤنا وملوكنا يبعثون إليه، ويسمعون منه، ويَسمَر عندَهم، للَّذي يجدونه عنده من الفهم والإفهام، وطُرَف الأخبار، ونوادر الكتب، وكان قد أربى على المائة، ولم أسمعْ قطُّ بأغزَلَ منه، وإنْ كان يصدُق عن نفسه فما في الأرض أزنى منه حديث أبي المبارك الصابي حدَّثني محمد بن عباد قال: سمعته يقول وجرى ذكرُ النساء ومحلِّهن من قلوب الرجال، حتَّى زعموا أنَّ الرجلَ كلما كانَ عليهن أحرصَ كان ذلك أدلَّ على تمام الفُحولة فيه، وكان أذهبَ له في الناحية التي هي في خلقِته ومعناهُ وطبعهِ، إذ كان قد جُعِل رجلاً ولم يُجعل امرأة قال ابن عبّاد، فقال لنا: ألستْم تعلمون أنِّي قد أربَيتُ على المائة، فينبغي لمن كان كذلك أن يكون وهْنُ الكِبَر، ونفادُ الذَّكْر، وموتُ الشهوة، وانقطاعُ ينبُوع النطفَةِ، قد أماتَ حنينه إلى النساء وتفكيرَه في الغزَل؟ قال: قلنا: صَدَقتَ، قال: وينبغي أن يكون مَن عوَّد نفسه تركَهنَّ مُدداً، وتخلى عنهن سِنِينَ ودهراً، أن تكون العادة وتمرينُ الطبيعة، وتوطينُ النفس، قد حطَّ من ثقل منازعة الشهوة، ودواعي الباءة، وقد علمتمْ أنَّ العادة التي هي الطبيعة الثانية، قد تستحكم ببعض عمدِ هَجْرٍ لملامسةِ النساء، قال: قلنا: صدقت، قال: وينبغي أن يكونَ مَن لم يذُقْ طعم الخَلوة بهنَّ ولم

يجالسهنَّ متبذلات، ولم يسمَعْ حديثهنَّ وخِلاَبتهنَّ للقلوب، واستِمالتهن للأهواء، ولم يَرَهُنَّ منكشفاتٍ عارياتٍ، إذا تقدم له ذلك معَ طولِ التَّرك، ألا يكون بقي معه من دواعيهن شيء؟ قال: قلنا: صدقت، قال: وينبغي أن يكون لِمَنْ قد عِلم أنه محبوبٌ، وأنَّ سببه إلى خِلاطهنَّ محسوم، أن يكون اليأسُ من أمتن أسبابه إلى الزهد والسلوة، وإلى موت الخواطر، قال: قلنا : صدقت، قال: وينبغي أن يكونَ من دعاةُ الزُّهدُ في الدنيا، وفيما يحتويه النساءُ مع جمالهنَّ وفتنةِ النُّسَّاكِ بهنّ، واتخاذِ الأنبياء لهنّ، إلى أن خَصَى نفسه، ولم يُكْرِهُه عليه أبٌ ولا عدوٌّ، ولا سَباه سابٍ، أن يكون مقدارُ ذلك الزهد هو المقدار الذي يُميت الذِّكْرَ لهنَّ، ويُسَرِّي عنه ألم فقد وُجودِهنَّ، وينبغي لمن كان في إمكانه أن ينشئ العزم ويختارَ الإرادة التي يصير بها إلى قطع ذلك العضوِ الجامع لِكبارِ اللذّات، وإلى ما فيه من الألم، ومع ما فيه من الخطر، وإلى ما فيه من الْمُثْلة والنَّقص الداخل على الخلقة، أن تكون الوساوس في هذا الباب لا تعرُوه، والدواعي لا تقْروه، قال: قلنا: صدقت، قال: وينبغي لِمَنْ سَخَتْ نفسه عن السَّكَن وعن الوَلد، وعن أن يكون مذكوراً بالعقب الصالح، أن يكون قد نسيَ هذا البابَ، إن كان قد مرَّ منه على ذُكْر، هذا وأنتم تعلمونَ أنّي سَمَلْتُ عيني يومَ خصَيت نفسي، فقد نسيتُ كيفيةَ الصُّوَرِ وكيف تَرُوع، وجَهلت المراد منها، وكيف تُراد، أفما كان مَنْ كان كذلك حَرِيًّا أن تكون نفسُه ساهيةً لاهيةً مشغولةً بالبابِ الذي أحتمل له هذه المكاره؟ قال: قلنا: صدقت، قال: أو لوْ لم أكنْ هَرِماً، ولم يكن هاهنا طولُ اجتنابٍ، وكانت الآلة قائمةً أليس في أنّي لم أذقْ حيواناً منذُ ثمانينَ سنة ولم تمتلِ عُروقي من الشرابِ مخافةَ الزيادة في الشهوة، والنقصانِ من العزم - أليسَ في ذلك ما يقطع الدواعي، ويُسْكِنِ الحركة إن هاجت؟ قال: قلنا: صدقت، قال: فإنّي بعدَ جميع ما وصفتُ لكم، لأَسْمَعُ نغْمة المرأةِ فأظنُّ مرَّةً أنّ كَبِدي قد ذابت، وأظنُّ مرّةً أنها قد انصدعت، وأظنُّ مرّةً أنّ عقلي قد اختُلِس، وربَّما اضطرب فُؤادِي عند ضحِك إحداهُنّ، حتَّى أظنّ أنَّه قد خرجَ من فمي، فكيف ألومُ عليهنَّ غيري؟ فإن كان - حفظك اللّه تعالى - قد صدقَ على نفسه في تلك الحال، بعد أن اجتمعت فيه هذه الخصال، فما ظنُّك بهذا قبل هذا الوقت بنحو سِتِّين سنة أو سبعين سنةً؟ وما ظنَّك به قبلَ الخصاء بساعةً؟ وليس في الاستطاعةِ ولا في صفةِ الإمكان، أن يحتَجِز عن إرادة النساء، ومعِه من الحاجِة إليهنَّ والشهوةِ لهنَّ هذا المقدارُ اللّه تعالى أرحمُ بخلقِه، وأعدَلُ على عباده، من أن يكلّفهم هِجرانَ شيءٍ، قد وصلَه بقلوبهم هذا الوصلَ، وأكَّدَه هذا التأكيد.

وقد خصى نفسه من الصابئين رجالٌ، قد عرَفناهم بأسمائهم وأنسابهم، وصفاتهم وأحاديثهم، وفي الذي ذكرنا كفايةٌ إن شاء اللّه تعالى

استئذان عثمان بن مظعون في الخصاء

وقد ذُكر أنَّ عثمانَ بن مَظْعونٍ، استَأْذنَ النبي صلى اللّه عليه وسلم في السياحة فقال: سِيَاحَةُ أُمَّتِي الجَمَاعَة، واستأذَنَه في الخصاءِ فقال: خِصاء أُمَّتي الصوم، والصوم وِجاء، فهذا خِصاءُ الديانة.

خصاء الجلب وقسوته

فأمَّا من خصى الجَلَبَ على جهة التجارة، فإنه يَجُبُّ القضيب، ويمتلخ الأنثيين، إلا أن تقلَّصت إحداهما من فَرْط الفزَع، فتصيرُ إلى موضع لا يمكن ردُّها إلا بعلاج طويل، فللخاصي عند ذلك ظلمٌ لا يفي به ظُلم، وظلم يُربي على كلِّ ظلم، لأنّه عندَ ذلك لا يحفِل بفوت المتقلّص، ويقطع ما ظهر له، فإن برئ مجبوبَ القضيب أو ذا بيضةٍ واحدة، فقد تركه لا امرأةً ولا رجُلاً ولا خَصِيًّا، وهو حينَئذٍ ممَّن تخرُج لحيتُه، ومِمَّن لا يدعه الناسُ في دُورهم ومواضع الخُصوص من بيوتهم، فلا يكونُ مع الخصيان مقرَّباً ومكرَّماً، وخَصِيبَ العَيش منعَّماً، ولا هو إذا رُمِي به في الفحول، كان له ما للفحول من لذَّةِ غِشيان النساء، ومِن لذّةِ النسل والتمتُّع بشم الأولاد؛ فلم يزَل عندَ الفحولِ مستضعَفاً محتقراً، وعند الخِصيان مجرَّحاً مطرحاً، فهو أسوأ حالاً من السَّدِم المعنَّى فلا أعلم قتْلَهُ إذا كان القتلُ قِتلةً صريحة مُريحة إلا أصغَر عند اللّه تعالى، وأسهلَ على هذا المظلوم من طول التعذيب، واللّه َتعالى بالِمرصاد.

خصاء البهائم

وأمّا خصاءُ البهائم، فمنه الوجاءُ، وهو أن يشدَّ عصَبُ مجامع الخُصيةِ من أصل القضيب، حتَّى إذا نَدَرت البيضة، وجَحَظت الخُصية، وجأها حتى يرضَّها، فهي عند ذلك تذبُل وتنخسف، وتذوي وتستَدِقّ، حتى تذهبَ قُواها، وتنسدَّ المجاري إليها، ويسريَ ذلك الفسادُ إلى موضع تربيةِ النُّطْفة، فيمنعَها من أن تكثُر أو تعذب أو تخثُر.
ومنها ما يكون بالشدِّ والعصْب، وشدَّةِ التحزيق، والعَقْدِ بالخيط الشديد الوَتير الشديد الفتل، فإذا تركه على ذلك عِمل فيه وحزَّ، أو أكلَّ ومنعَه من أن يجزيَ إليه الغذاءُ، فلا يلبثُ أن ينقطعَ ويسقط.
ومنه الامتلاخ، وهو امتلاخ البيضتين

خصاء الناس

فأمَّا خصاءُ الناس، فإنّ للخاصي حديدةً مرهَفَةً مُحْماة، وهي الحاسمة، وهي القاطعة، قال أبو زيد: يقال خصَيت الدابة أخصِيها خِصاءً، ووجأتها أجَؤُها وِجاءً، ويقال: برئتُ إليك من الخصاء أو الوجاء، ولا يقال ذلك إلاّ لما كان قريبَ العهد لم يبرأ منه، فإذا برئ لم يُقل له.
وأما الخِصاءُ فهو أنْ يسلَّ الخُصيتين، والوجاء أن توجَأ العرقُ والخصيتان على حالهما، والمعصوب من التيوس الذي تُعصَب خُصيتاه حتى تسقطا، والواحد من الخصيان خَصِيٌّ ومخصيّ، ويقال ملست الخصيتَين أملُسهما ملْساً، ومَتَنْتُهما أمتنهما مثْناً، وذلك أن تشقّ عنهما الصَّفَن فتسلَّهُما بعروقهما، والصَّفَن: جلدة الخُصيتين.

خصاء البهائم والديكة

والخِصاءُ في أحداثِ البهائم، وفي الغنم خاصةً، يدع اللَّحمَ رَخْصاً ونديًّا عذباً، فإنْ خَصَاه بعد الكبر، لم يقو خِصاؤُه بعدَ استحكامِ القوَّة على قلْب طباعه، وأجود الخِصاء ما كانَ في الصِّغر، وهو يسمَّى بالفارسية ثربخت يُعنى بذلك أنّه خُصِيَ رطباً، والخَصيُّ من فحولها أحَملُ للشحم، لعدم الهيْج والنَّعْظ، وخروج قواه مع ماء الفِحْلة، وكثرةُ السِّفاد تورث الضَّعْفَ والهُزالَ في جميعِ الحيوان، وقد ذُكِر لمعاوية كثرة الجماع فقال: ما استُهتِرَ به أحدٌ إلاّ رأيت ذلك في مُنَّته، والديك يُخصى ليَرطب لحمُه ويطيب ويحملِ الشحم.

خصاء العرب لفحولة الإبل

وكانت العربُ تَخصِي فُحولَةَ الإبل لئلاَّ يأكلَ بعضُها بعضاً، وتستبقي ما كان أجودَ ضِراباً، وأكثرَ نَسْلاً، وكلَّ ما كان مئناثاً وكان شابًّا ولم يكن مذكاراً، وهم يسمُّون الإذكار المحْقَ الخَفِيّ، وما كان منها عَيَاياءَ طَبَاقاءَ، فمنها ما يجعل السّدِمَ المعنَّى، وإذا كان الفحلُ لا يُتَّخذ للضِّراب، شدُّوا ثِيلَه شدّاً شديداً، وتركوه يهدِر ويُقبقِب في الهَجْمة، ولا يصل إليهنَّ وإن أردنَه، فإذا طلبْنَ الفحلَ جِيءَ لهنَّ بفحلٍ قعْسريٍّ ويقولون: لَقْوَةٌ لاقتْ قبيساً، والقبيس من الجِمال: السريع الإلقاح، واللَّقوة: السريعة القبول لماءِ الفحل.
وشكت امرأةٌ زوجَها، وأخبرتْ عن جهله بإتيان النساء، وعِيِّه وعجْزه، وأنَّه إذا سقط عليها أطبَقَ صدرَه - والنساءُ يكرهْنَ وقُوعَ صدورِ الرجال على صدورهنَّ فقالت: زَوْجِي عَيَاياءُ طباقاء، وكلُّ داءٍ لَهُ داءُ وقال الشاعر:

طباقاءُ لم يَشْهدْ خُصوماً ولم يَقُدْ ركاباً إلى أكوارها حينَ تعكف

خصاء العرب للخيل

وكانوا يخْصُون الخيل لشبيه بذلك، ولعلَّة صهيلها ليلة البَيَات، وإذا أكمنوا الكُمَناء أوْ كانو هُرَّاباً.
القول في كلمة خنذيذ ويزعم من لا علم له، أنَّ الخنذيذ في الخيل هو الخصيُّ، وكيف يكون ذلك كما قال، مع قول خُفَاف بن نَدْبة:

وخناذيذ خصية وفُحولا

وقال بشرُ بنُ أبي خَازم:

وخنذيذٍ تَرَى الغُرْمُولَ منهُ كَطيِّ البُرْدِ يَطويه التِّجَارُ

وليس هذا أرادَ بشر، وإنَّما أراد زمانَ الغزو، والحالَ التي يعتري الخيلَ فيها هذا المعنى ، كما قال جد الأحيمر:

لا لا أعقُّ ولا أحُــو   ب ولا أُغِيرُ على مُضَرْ

لكـنَّـمـا غزوي إذا   ضجَّ المطيُّ من الدَّبَـرْ

وإنَّما فخر بالغزْو في ذلك الزمان.
وأما الخنذيذ فهو الكريم التامٌّ، وربَّما وصفوا به الرجل، وقال كثير:

على كل خنذيذ الضُّحَى متمطِّر   وخَيْفانةٍ قد هذَّب الجريُ آلَها

وقال القطامي:

على كلِّ خنذيذ السَّراة مُقلّصٍ   تخنَّثَ منه لحمُه المتكـاوِسُ

ومن الدليل على أنَّهم ربما جعَلوا الرجلَ إذا ما مدحوه خنذيذاً، قولُ بعضِ القيسيين، مِن قيس بن ثعلَبة:

دعوتُ بني سعدٍ إليَّ فشمَّـرتْ   خناذيذُ مِن سعدٍ طِوالُ السواعد

عبد اللّه بن الحارث وعبد الملك بن مروان وقال عبدُ اللّه بن الحارث، وكتب بها إلى عبدِ الملكِ بن مرْوان حينَ فارقَ مُصعباً:

بأيِّ بـلاءٍ أم بــأيَّةِ عِــلَّـةٍ   يُقدَّم قبلي مُسلِمٌ والـمـهـلَّـبُ

وَيُدعَى ابنُ منجوفٍ أمامي كأنَّـه   خَصِيٌّ دنا للماءِ من غير مَشْرَبِ

فقلت ليونس: أقوى فقال: الإقواءُ أحسَنُ من هذا قال: فلمَّا أخذتْه قيسٌ نصبُوه، فجَعلوا يرمُونه بالنبل ويقولون: أذاتَ مغازل تَرَى؟ يريدون بيت ابن الحرّ:

ألم تر قيساً قيسَ عَيلانَ برقعت   لِحاهَا وباعت نبلها بالمغـازل

فلما أتي مُصعبٌ برأسِه، قال لسُويد: يا أبا المِنهال كيف ترى؟ قال: أيُّهَا الأمير هو واللّه الذي أتَى الماءَ من غير مَشْرَب.
وقال أعشَى هَمْدان:

وأبو بُريذِعة الذي حُدِّثْـتَـهُ   فينا أذَلُّ مِن الخَصيِّ الدَّيزج

وتعرض للخصيِّ سُرعة الدَّمعة، وذلك مِن عادةِ طبائع الصبيان ثم النِّساءِ، فإنَّه ليس بعدَ الصبيان أغزَر دَمعةً من النساء، وكفاك بالشيوخ الهرمين أخلاق الخصي

ويعرض للخصيِّ العبثُ واللَّعِبُ بالطير، وما أشبهَ ذلك من أخلاق النساء، وهو من أخلاق الصبيان أيضاً.
ويعرض له الشَّرَه عندَ الطعام، والبخل عليه، والشحُّ العامُّ في كلِّ شيء، وذلك مِن أخلاق الصِّبيانِ ثم النِّساء.
وقال الشاعر:

كأنَّ أبا رُومان قيساً إذا غدَا　　خَصِيٌّ بَراذينٍ يُقاد رَهيصُ

له معْدَةٌ لا يشتكي الدهرَ ضَعْفَها　　وحَنجرةٌ بالدورقين قموصُ

ويعرض للخصيِّ سرعةُ الغضبِ والرضا، وذلك من أخلاق الصِّبْيان والنِّساء، ويعرض له حبُّ النميمة، وضيقُ الصدرُ بما أُودِع من السرّ، وذلك من أخلاق الصبيان والنساء، ويعرض له دون أخيه لأُمِّه وأبيه، ودون ابنِ عمِّه وجميع رهطه، البصَرُ بالرَّفْع والوضْع، والكنسِ والرشِّ، والطَّرح والبسْطِ، والصبرُ على الخدمة، وذلك يعرض للنساء، ويعرض له الصبرُ على الرُّكوب، والقوَّة على كثرةِ الركْض حتَّى يجاوز في ذلك رجالَ الأتراكِ وفرسانَ الخوارج، ومتى دفع إليه مَولاه دابَّتَه ودخل إلى الصلاة، أو ليغتسل في الحمام، أو ليعودَ مريضاً، لم يترُكْ أن يُجريَ تلك الدابَّةَ ذاهباً وجائياً، إلى رجوع مولاه إليه.
ويعرض له حبُّ الرمي بالنَّشَّاب، لِلَّذي يدور في نفسِه من حبِّ غزو الرُّوم، ويعرض له حبُّ أن تَمْلكَه الملوك، على ألاَّ تقيمَ له إلاَّ القوتَ ،ويكونُ ذلك أحبَّ إليه من أنْ تملكَه السُّوقةُ، وإن ألحقتْه بعيشِ الملوك.
ومن العجب أنَّهم مع خروجِهم من شَطْر طبائع الرجال، إلى طبائع النساء، لا يعرض لهم التخنيث، وقد رأيت غيرَ واحدٍ من الأعرابِ مخنَّثاً متفكِّكاً، وموَنثاً يَسيلُ سيلاً، ورأيتُ عدّةَ مجانينَ مخنَّثين، ورأيتُ ذلك في الزَّنج الأقحاح، وقد خبَّرني من رأى كُردِيّاً مخنثاً، ولم أر خَصيّاً قط مخنَّثاً، ولا سمعتُ به؛ ولا أدري كيف ذلك ولا أعرف المانعَ منه، ولو كان الأمرُ في ذلك إلى ظاهِر الرأي، لَقَدْ كان ينبغي لهم أن يكونَ ذلك فيهم عامّاً.
ومما يَزيدني في التعجُّب من هذا الباب، كثرةُ ما يعرض لهم من الحُلاَق، مع قلّةِ ما يعرض لهم من التخنيث، مع مفارقتِهم لشطر معاني الرجال إلى شبه النساء.
ويزعم كثير من الشيوخ المعمَّرين؛ وأهل التجربة المميِّزين، أنَّهم اختبروا أعمارَ ضُروبِ الناس، فوجدوا طولَ الأعمارِ في الخصيان أعمَّ منه في مثلِ أعدادهم من جميع أجناس الرجال، وأنَّهم تفقدوا أعمارَهم وأعمارَ إخوتِهم وبني أعمامهم الذين لم يُخصَوْا، فوجدُوا طول العُمُر في الخِصيان أعمَّ، ولم يجدوا في عمومِ طوال العمر فيهم واحداً نادراً، كفلانٍ وفلان من الفحول.

وزعموا أنّهم لم يجدوا لطول أعمارِهمْ علّةً إلاَّ عدَمَ النِّكاح، وقلّةَ استفراغ النُّطف لقُوى أصلابهم.
قالوا: وكذلك لم نجدْ فيما يعايشُ الناسَ في دُورهم، من الخيل والإبل، والحمير، والبقر، والغنم، والكِلابِ، والدَّجاج، والحمام، والدِّيَكة، والعصافير، أطول أعماراً من البغال.
وكذلك قالوا: وجدْنا أقلّها أعماراً العصافيرَ، وليس ذلك إلاَّ لكثْرةِ سفادِ العصافير وقلّةِ سِفادِ البغال.
وجعل هؤلاء القومُ زيادةَ عمر البغلِ على عمرِ أبويَه دليلاً على أنّ قول الناس: لا يعيشُ أحدٌ فوق عمر أبويه خطأ، وأولئك إنما عنوا الناسَ دونَ جميع الحيوان

النتاج المركب

وقالوا: قد وجدنا غُرمولَ البغل أطولَ من غرمول الحمار والفرس والبرذون، وهؤلاء أعمامُه وأخواله، فقد وجدْنا بعض النِّتاج المركَّبِ، وبعضَ الفروع المستخرجة، أعظم من الأصل؛ ووجدنا الحمام الرَّاعبي أعظمَ من الوَرَشان الذي هو أبوه، ومِن الحمامة التي هي أمُّه، ولَم نجدْه أخذ من عمر الوَرَشان شيئاً، وخرج صَوْتهُ من تقدير أصواتهما، كما خرج شَحِيح البغْل من نهيق الحمار وصهيل الفرَس، وخرَج الرَّاعبي مُسروَلاً، ولم يكن ذلك في أبويه؛ وخرَج مُثقّلاً سَيِّءَ الهداية، وللوَرشَان هداية، وإن كان دونَ الحمام؛ وجاءَ أعظمَ جُثّةً من أبويه، ومقدارُ النّفَس مِن ابتداءِ هَدِيله إلى منقطعه، أضعافُ مقدار هديل أبويه.
وفوالجُ البُخْتِ إذا ضرِبت في إناث البُخْت، ولم يخرُج الحُوَارُ إلاّ أدَنّ قصيرَ العُنق، لا ينال كلأً ولا ماءً إلاَّ بأنْ يُرفعا إليه، فيصيرُ لمكانِ نُقْصان خلقه جَزورَ لحم، ولا يكون من اليعمَلات ولا من السابقة، ولو عالُوه وكفَوه مُؤْنةَ تكلف المأكولِ والمشروب، ثم بلَغَ إلى أن يَصيرَ جملاً يمكنه الضِّراب، وكذلك الأنثى التي هي الحائل إلى أن تصيرَ ناقة؛ فلو ألقحها الفحلُ لجاء ولدُها أقصرَ عنقاً من الفيل، الذي لو لم يجعل اللّه تعالى له خرطوماً يتناولُ به طعامَه وشرابه، لمات جُوعاً وهُزالاً؛ وليس كذلك العِرَاب، وإذا ضربت الفوالجُ في العراب جاءت هذه الجوامز والبُخْت الكريمة التي تجمع عامَّةَ خصال العراب وخصالِ البُخت، فيكونُ ما يُخرِج التركيبُ من هذين الجنسين أكرمَ وأفخمَ وأنفس وأثمن، ومتى ضربت فحولُ العِرَاب في إناث البُخْت جاءت هذه الإبل البَهْوَنِيَّة والصَّرصرانية فتخرج أقبح منظراً من أبويها، وأشدَّ أسْراً من أبويها، وقال الراجز:

ولا بهونيٌّ من الأباعرِ

وبعد؛ فإنّ هذه الشِّهْرِيَّة الخُراسانية، يخرج لها أبدانٌ فوقَ أبدانِ أمّهاتِها وآبائها من الخيل والبراذين، وتأخذ من عِتْق الخيل، ومن وثاجة البراذين، وليس نِتاجها كنتاج البرذَونِ خالصاً والفرس خالصاً.

وما أشبهَ قرابةَ الحمارِ بالرَّمكة والحِجْر، من قرابة الجمل الفالج البُخْتيِّ بقرابةِ القلوص الأعرابيَّة.

الحمر الوحشية

ويقال إن الحمرَ الوحشيَّة، وبخاصّةٍ الأخدريَّة، أطولُ الحَمير أعماراً وإنما هي من نِتَاج الأخدَر، فرس كانَ لأرْدَشير بن بابَك صار وحشيّاً فحمَى عِدَّة عاناتٍ فضرب فيها، فجاء أولادُه منها أعظمَ من سائر الحمر وأحسنَ، وخرجتْ أعمارُها عن أعمارِ الخيل وسائر الحُمُر أعني حمر الوحش فإنَّ أعمارَها تزيد على الأهليَّة مِراراً عدَّة.
عير أبي سيارة ولا يعرفون حماراً وحشيّاً عاشَ أكثر وعُمِّر أطول من عير أبي سيَّارَة عُمَيلة بن أعزل؛ فإنهم لا يشكُّون أنّه دَفَع عليه بأهلِ الموسم أربعين عاماً!!
قال الأصمعيُّ: لم يكن عيراً وإنما كان أتاناً.

لهج ملوك فارس بالصيد

وزعموا وكذلك هو في كتبهم أنَّ ملوكَ فارسَ، كانت لهجة بالصيد؛ إلا أنَّ بهرام جور هو المشهور بذلك في العوامّ.
وهم يزعمون أنّ فيروز بن قباذ الملك الفارسيّ، ألحَّ في طلب حمار أخدري؛ وقد ذُكر له ووُصف؛ فطاوَله عند طلبه والتماسه، وجدَّ في ذلك فلجَّ به عند طلبه الاغترام،وأخرجته الحفيظةُ إلى أن آلى ألاَّ يأخذَه إلا أسراً، ولا يطارِدَه إلا فرداً، فحمل فرَسه عليه، فحطَّه في خبَار فجمع جَراميزه وهو على فرسه ووثب؛ فإذا هو على ظهره؛ فقمَص به، فضم فخذيه فحطّم بعض أضلاعه، ثم أقبل به إلى معظم الناس، وهم وقوف ينظرون إليه وهو راكبه.
قالوا: وكان الملك منهم إذا أخذَ عَيراً أخدريًّا وغيرَ ذلك؛ فإذا وجدَه فتياً وسمَه باسمه وأرَّخ في وسمِه يومَ صيده وخلَّى سبيله، وكان كثيراً إذا ما صاده الملكُ الذي يقوم به بعدَه، سار فيه مثلَه تلك السِّيرةَ وخلَّى سبيله، فعرَف آخرُهم صنيعَ أوّلهم؛ وعرفوا مقدارَ مقادير أعمارها.

الحكمة في تخالف النزعات والميول

ولولا أنَّ ناساً من كلِّ جيل، وخصائص من كلِّ أمَّة، يلهجون ويَكْلَفون بتعرُّف معاني آخرين لدرستْ، ولعلَّ كثيراً من هؤلاء يُزْري على أولئك، ويعجِّب الناسَ من تفرُّغهم لما لا يجدي، وتركهم التشاغلَ بما يُجْدِي، فالذي حبَّب لهذا أن يرصُد عمر حِمار أو وَرَشَانٍ أو حيَّة أو ضبٍّ، هو الذي حبَّب إلى الآخر أن يكون صيَّاداً للأفاعي والحيَّات، يتتبَّعُها ويطلُبها في كلِّ واد وموضع وجَبَلٍ للترياقات، وسخَّرَ هذا ليكون سائسَ الأُسْدِ والفُهود والنُّمُور والببور، وترك من تِلقاء نفسِه أن يكونَ راعيَ غنم.
والذي فرَّق هذه الأقسام، وسخَّر هذه النفوسَ، وصَرف هذه العقول لاستخراج هذه العلوم من مدافِنها، وهذه المعاني من مخابيها، هو الذي سخَّر بَطْليمُوس مع مُلْكِه،

وفلاناً وفلاناً للتفرُّغ للأمور السماويَّة، ولِرعاية النجوم واختلاف مَسير الكواكب، وكلٌّ ميسَّرٌ لَمِا خُلِق له، لتَتمَّ النعمة ولتكمُل المعرفة، وإنما تأبَّى التيسير للمعاصي.
فأمَّا الصناعاتُ فقد تقصُر الأسباب بعضَ الناس على أن يصير حائكاً، وتقصرُ بعضَهم على أن يكون صَيْرَفيّاً، فهي وإن قصَرتْه على الحِياكِة، فلم تقصُرْه على خُلْف المواعيد وعلى إبدال الغُزُول، وعلى تشقيق العملِ دونَ الإحكام والصدق وأداءِ الأمانة، ولم تقصر الصيرفيَّ على التطفيف في الوزنِ والتغليط في الحساب، وعلى دسِّ المموَّه؛ تعالى اللهّ عزَّ وجلَّ عن ذلك علواً كبيراً.

خضوع النتاج المركب للطبيعة

ولو كان أمرُ النِّتاج وما يحدث بالتراكيب ويخرج من التزاويج، إلى تقدير الرأي وما هو أقربُ إلى الظنِّ، لكانت الأظْلاف تجري مَجْرى الحوافر والأخفاف، ألا ترى أنَّ قرابة الضأن من الماعز، كقرابة البخْت من العراب، والخيل من الحمير !!
وسبيل نتائج الظِّلْف على خلافِ ذلك؛ لأنَّ التيسَ على شدَّة غُلمته لا يعرض للنعجة إلاّ بالقليل الذي لا يُذكر، وكذلك ما يحدث بينهما من الولد كذلك: إمَّا ألاّ يتمّ خَلقُه، وإما ألاّ يعيش؛ وكذلك الكبشُ والعنز فضلاً عن أن يكون بينهما نتاج؛ لأنه قد يضرب الجنس في الجنس الذي لا يُلْقحه، ولا يكون اللِّقاح إلا بعد ضراب.
وطلبَ التيس للنعجة قليل وأقلُّ من القليل، وكذلك الكبش للعنز، وأقلُّ من ذلك أنْ تتلاقح ولا يبقى ذلك الولد البتة.
وقد تجاسَرَ ناسٌ على توليدِ أبوابٍ من هذا الشكل، فادَّعوا أموراً، ولم يحفِلوا بالتقريع والتكذيب عند مسألة البرهان.

زعم في الزرافة

زعموا أنَّ الزرافة خلقٌ مركب من بين الناقة الوحشية وبين البقرة الوحشية، وبين الذِّيخ وهو ذكر الضباع؛ وذلك أنّهم لّما رأوا أنَّ اسمها بالفارسية أشتر كاو بلنك؛ وتأويل أشتر بعير، وتأويل كاو بقرة، وتأويل بلنك الضبع؛ لأن الضباعَ عُرْج؛ كذلك الذكر والأنثى يكون بهما خُمَاع؛ كما عرض للذئِب القزَل - وكلُّ ذئبٍ أقزَل - وكما أنَّ كلَّ غرابٍ يحجِل كما يحجِل المقيَّد من الناس؛ وكما أنَّ العصفورَ لا يمشي؛ ومشيُه أن يجمَع رجليه أبداً معاً في كلِّ حركةٍ وسكون، وقولهم للزرافة أشتر كاو بلنك اسم فارسيٌّ، والفُرس تسمِّي الأشياءَ بالاشتقاقات؛ كما تقول للنعامة: اشتر مرغ، وكأنَّهم في التقدير قالوا: هو طائر وجمل؛ فلم نجد هذا الاسم أوجبَ أن تكون النعامةُ نِتاجَ ما بين الإبل والطير، ولكن القوم لما شبهوها بشيئين متقاربين؛ سمَّوها بذينك الشيئين، وهم يسمون الشيء المرَّ الحلو تَرْش شِيرين وهو في التفسير حلوٌ حامض، فجسَر القومُ فوضعوا لتفسير اسم الزرافة حديثاً؛ وجعلوا الخِلقة ضرْباً من التراكيب؛ فقالوا: قد يعرض الذيخ في تلك البلاد للناقة الوحشية فيسفدها، فتلقح بولدٍ يجيء خلقُه ما بين خلْق الناقة والضبع؛ فإن كان أنثى فقد يعرض لها الثور الوَحشي فيضربها؛ فيصير الولد زرافة، وإن كان ولدُ الناقة ذكراً عرَض للمهاة فألقحها فتلد زرافة، فمنهم من حجر البتَّة أن تكون

الزرافة الأنثى تلقح من الزرافة الذكر، وزعموا أنَّ كلَّ زرافةٍ في الأرض، فإنَّما هي من النِّتاج الذي ركِّبوا؛ وزعموا أنَّ ذلك مشهورٌ في بلاد الحبَشة، وأقاصي اليمن، وقال آخرون: ليس كلُّ خلقٍ مركَّب لا ينسِل ولا يبقى نجلُه ولا يتلاقح نسله، على ما حكينا من شأن الورَشان والرَّاعبي، وهؤلاء وما أشبههم يُفسدون العلم، ويتَّهمون الكتب، وتغرّهم كثرةُ أتباعهم ممَّن تجدُه مستهتَراً بسماع الغريب، ومُغرَماً بالطرائف والبدائع، ولو أعطُوا مع هذا الاستهتار نصيباً من التثبُّتِ، وحظًّا من التوقي، لسَلِمت الكتبُ من كثير من الفساد.

النتاج المركب في الطيور

وأنا رأيتُ طائراً له صوتٌ غير حسن، فقال لي صاحب الطيور: إنّه من نِتاج ما بين القُمْريِّ والفاختة.
وقنَّاص الطير، وَمن يأتي كلَّ أوقة وغيضةٍ في التماس الصيد، يزعمون أنَّ أجناساً من الطير الأوابد والقواطع، تلتقي على المياه فتتسافد؛ وأنَّهم لا يزالون يرون أشكالاً لم يروها قطُّ، فيقدِّرون أنَّها من تلاقح تلك المختلفة.

زعم بعض الأعراب في الحرباء

وقال أبو زيدٍ النحويّ، وذكر عّمن لقي من الأعراب أنَّهم زعموا أنَّ ذكرَ أمِّ حُبَين هو الحرباء، قال: وسمعت أعرابيًّا من قيسٍ يقول لأمِّ حُبين حُبينة، والحُبينة هو اسمها، قال: وقيسٌ تسمِّي ذكر العَظاءة العَضْرفوط. وقال يحيى الأغر: سمعتُ أعرابياً يقول: لا خيرَ في العَظاءَة، وإنْ كان ضَبًّا مكُوناً، قال: فإذاً سامٌّ أبرَص، والورَل، والوَحَر، والضَّبّ والحَلَكاء، كلُّها عندَه عَظاءة.

ولد الثعلب من الهرّة الوحشية

وزعم يحيى بن نُجَيم أنَّ الثعلب يسفد الهرة الوحشية، فيخرج بينهما ولدٌ، وأنشد قول حسان بنِ ثابت رضي الله تعالى عنه:

أبوك أبوك وأنت ابنُـه ... فبئس البُنَـيُّ وَبِئس الأبُ
وأمُّكَ سَـوْدَاءُ نُـوبـيَّة ... كأنَّ أناملها العـنـظـب
يبيتُ أبوكَ بـها معرسـاً ... كما ساورَ الهرَّة الثعلبُ

وأنشد أبو عبيدة قولَ عبد الرحمن بن الحكم:

ألا أبلغْ مُعاوية بـنَ حـرب ... مُغلغَلَةً عن الرجُل اليمانـي
أتغضبُ أنْ يقال أبوك عَـفٌّ ... وتَرضى أن يُقال أبوك زَاني

فأشهد أنّ رحمَكَ مِن قُرَيشٍ   كَرحْم الفيل مِنْ وَلَدِ الأتَـانِ

قال كَيسان: ولأي شي قال:

كرحم الفيل من ولد الأتان

إنما كان ينبغي أن يقول: كرحْم الفِيل من الخنزير، قال أبو عبيدة: أرادها هو التبعيدَ بعينه؛ وأنت تُريد ما هو أقرب.

زعم بعض المفسرين والإخباريين في حيوان سفينة نوح

وزعم بعض المفسِّرين وأصحابِ الأخبار: أنَّ أهلَ سفينةِ نوحٍ كانُوا تأذَّوا بالفأر، فعَطس الأسدُ عَطسةً فرمى من مِنْخَريه بزوج سنانير، فلذلك السِّنَّوْرُ أشبهُ شيءٍ بالأسدِ، وسلَح الفيلُ زوجَ خنازير؛ فلذلك الخنزيرُ أشبهُ شيءٍ بالفيل، قال كيسان: فينبغي أن يكون ذلك السِّنَّورُ آدَمَ السنانير، وتلك السِّنَّورة حَوَّاءَها، قال أبو عبيدة لكيسان: أولم تعلمْ أنت أنّ لكل جنس من الحيوان آدم وحواءَ؟ وضحك فضحك القوم.

شره سعد القرقرة

ولمَّا رأى أبو قُردُودة سعدَ القرقرة، أكلَ عند النُّعمان مسلوخاً بعظامه قال:

بين النعامِ وبينَ الكلبِ مَنْبِتُهُ   وفي الذئاب له ظئر وأخْوالُ

يقول: إنَّ سعداً ضرب في أعراقه نجر النعام الذي يلتهم الجمر، ويلتقم الحجارة، فيطفئ الجمرَ ويميع الصخْر، وضرب في أعراقه نَجْرُ الكلبِ الذي يرضُّ كلَّ عظم، ولا يقبض عليه بكفِّه إلاّ هو واثق بفتّه، ولا يسيغه إلاّ وهو على ثقةٍ من استمرائه، فأمَّا الذئب فإنَّه لا يروم بفكَّيه شيئاً إلاّ ابتلعَه بغير معاناةٍ، عظماً كان أو غيرَه، مصمتاً كان أو أجْوفَ.
ولذلك قال الراجز:

أطلَس يُخْفِي شخصَه غُبَارُه   في فمِهِ شَفْرتُـه ونـارُه

فأبو قُردُودة لم يُردْ أنَّ الذئب والكلب خالاه، وأنَّ النعام نَجَلَه، وإنما قال ذلك على المثَل والتشبيه، ولم يردْ أنَّ له ظئراً من الكلاب، وخالا من الذئاب.
وشبيهُ ذلك قول أمير المؤمنين المأمون لبعض الناس: يا نُطفَ الخمَّارين، ونزائع الظُّؤورة، وأشباه الخُؤولة.
وعلىَ شبيهٍ بذلك قال سلم بن قُتَيبة لبعض من ذكره، وهو عند سليمان بن عليٍّ:

أيُّها الأمير، إنَّ آلَ فلانٍ أعلاجُ خلق اللّه وأوباشُه، لئامٌ غُدر، شرَّابون بأنْقُع، ثمَّ هذا بعدُ في نفْسه، نُطفةُ خَمَّار في رَحِمِ صنَّاجة.

زواج الأجناس المتباينة من الناس

وقال لي أبو إسحاق: قال لي أبو العباس وأبو العباس هذا كانَ ختنَ إبراهيمَ على أخته، وكانَ رجلاً يَدِين بالنجوم، ولا يقرُّ بشيءٍ من الحوادث إلاّ بما يجري على الطباع، قال أبو إسحاق: وقال لي مرَّة: أتعرفُ موضعِ الحُظْوةِ من خَلْوة النساء؟، قلْتُ: لا واللّه لا أعرفُه، قال: بل اعلم أن لا يكونُ الحظُّ إلاَّ في نِتاج شِكلين متباينين، فالتقاؤهما هو الأكسير المؤدِّي إلى الخلاص: وهو أن تُزاوج بين هِنديَّةٍ وخُراسانيٍّ، فإنها لا تلد إلاَّ الذهبَ الإبريز، ولكن احرُس ولدَها، إن كان الولدُ أنثى فاحذَر عليها من شدَّة لِواطِ رجال خراسان وزناء نساء الهند، واعلمْ أن شهوتَها للرجال على قدر حُظْوتها عندَهم، واعلمْ أنَّها ستساحق النساءَ على أعراق الخراسانيَّة، وتزْني بالرجال على أعراق الهند، واعلمْ أنّه ممّا يزيد في زناها ومساحَقتها معرفتُها بالحُظوة عند الزُّناة، وبالحظّ عند السحاقات.

مما زعموا في الخلق المركب

وقالوا في الخلق المركَّب ضُروباً من الحقِّ والباطل، ومن الصدق والكذب، فمن الباطِل زعْمهم أنَّ الشَّبُّوط ولد الزَّجْر من البُنِّيِّ، وأنَّ الشَّبُّوط لا يُخْلَق من الشَّبُّوط، وأنَّه كالبغلِ في تركيبه وإنسالِه، ورووا ذلك عن أبي واثِلة إياس بنِ معاوية بن قرّة.
وزعموا أنّ أمَّ جعفر بنت جعفر بن المنصور، حصَرت في حوضٍ لها ضخمٍ أو بركةٍ كبيرةٍ عدداً كثيراً من الزجر والبُنِّيِّ، وأنَّها لم تخلِطْ بهما غيرَهما، فمات أكثره وبقيتْ بقيةٌ كانت الصميمَ في القوَّة، وفي احتمال تغيُّر المكان فلم تحمل البيضَ حِيناً، ثمَّ إنّها حملت بالشبابيط.

مطر الضفادع والشبابيط

وزعم حُريثٌ أنّه كان بأيذج، فإذا سحابة دهماء طخياء تكاد تمسُّ الأرض، وتكاد تمسُّ قِممَ رُؤُوسهم، وأنَّهم سمعوا فيها كأصوات المجانيق، وكَهدير الفحول في الأشوال، ثم إنَّها دفعَت بأشدِّ مطر رُئي أو سُمِع به، حتى استسلموا للغرق، ثمَّ اندفعتْ بالضفادع العظام، ثم اندفعت بالشبابيط السِّمان الخِدال فطبخوا واشتَوَوا، وملَّحوا وادَّخَروا.

غرور أبي واثلة والخليل بن أحمد

ورووا عن أبي واثلة أنَّه زعمَ أنَّ من الدليلِ على أنَّ الشَّبُّوط كالبغل، أنَّ الناسَ لم يجدوا في طولِ ما أكلوا الشبابيطَ في جوفِها بَيْضاً قطُّ، فإن كان هذا الخبرُ عن هذا الرجُلِ المَذكُورِ بشدَّة العقل، المنعوتِ بثُقُوب الفِراسة ودِقَّةِ الفطنة صحيحاً، فما

أعظم المصيبةَ علينا فيه، وما أخلَقَ الخبَرَ أن يكون صحيحاً، وذلك أنِّي سمعتُ له كلاماً كثيراً من تصنيف الحيوان وأقسامِ الأجناس، يدلُّ على أنَّ الرجلَ حينَ أحسَنَ في أشياءَ وهَّمه العُجْبُ بنفسِه أنَّه لا يَروم شيئاً فيمتنعُ عليه.
وغرَّه مِن نفسِه الذي غرّ الخليل بنَ أحمدَ، حينَ أحسَنَ في النحوِ والعَرُوض، فظنَّ أنَّه يُحسِن الكلامَ وتأليف اللُّحون، فكتبَ فيهما كتابَين لا يُشيِر بهما ولا يُدلُّ عليهما إلاّ المِرَّةُ المحترِقة، ولا يؤدِّي إلى مثل ذلك إلاّ خِذلانٌ من اللّه تعالى، فإنّ اللّه عزَّ وجلَّ لا يُعجزه شيء.

بيض الشبوط وتناسله

والشَّبُّوط حفظك اللّه تعالى جِنسٌ كثيرُ الذكور قليلُ الإناث، فلا يكون إناثه أيضاً يجمعْن البيض، وإذا جمعنَ فلو جمعتَ بيضَ عشرِ منهنَّ لَمَا كان كشَطْر بيض بُنِّيَّةٍ واحدةٍ، وقد رأيتُ بَيْضَ الشَّبُّوط وذقتُه للتعرُّف فوجدته غيرَ طائل، ولا مُعجِبٍ، وكلُّ صيّادٍ تسأله فهو يُنْبيك أنّ له بيضاً، ولكنَّه إذا كانَ يكونُ ضئيلاً قليلاً، لأنَّ الشبابيطَ في أصلِ العدد من أقلِّ السمك، وكذلك الجنس منه إذا كانت الأنثى منه مِذكاراً.
مواطن الشبوط على أنَّه رُبّ نهرٍ يكونُ أكثرُ سَمكه الشَّبُّوط، وذلك قليل، كنهر رَامَهُرْمز، والشَّبُّوط لا يتربَّى في البحار، ولا يسكن إلاّ في الأوديةِ والأنهار، ويكره الماءَ الملحَ ويطلبُ الأعذبَ فالأعذب، ويكون في الماء الجاري، ولا يكون في الساكن، وسنذكر شأنَه في موضعه من هذا الكتاب إن شاء اللّه تعالى.

رد على ما زعموا في الزرافة

ولم يصب أبو واثلة، وكذبوا على أمِّ جعفر، فإذا قالوا في الزَّرافةِ ما قالوا فلا تأمَنْهم على ما هو دونَه، وإن كان مَن كذَب على الموتى واستشهد الغُيَّبَ أحذقَ، فصاحبُ الزرافة قد استعمل بعض هذه الحيلة، وصاحب الشَّبُّوط يكذِب على الأحياء، ويستشهد الحضور، وإن كان الذي دعا إلى القول في الزرافة أنهم جعلوا تركيب اسمه دليلاً على تركيب الخلق، فالجاموس بالفارسية كاوماش، وتأويله ضأنيّ بقريّ، لأنهم وجدوا فيه مشابهةَ الكبش وكثيراً من مشابهة الثور، وليس أنّ الكِباشَ ضربت في البقر فجاءت بالجواميس.

رأي الفرس في تقسيم الحيوان

وزعم الفرسُ أنّ الحيوان كلَّه الذي يلد حيواناً مثلَه مِّما يمشي على أربع قوائم، لا تخلو أجناسها من المعز والضأن، والجواميسُ عندهم ضأن البقر،والبُخْت عندهم ضأن الإبل، والبَراذين عندهم ضأن الخيل

زعم في الإبل

والناس يقولون في الإبل أقاويلَ عجيبةً: فمنهم مَن يزعمُ أن فيها عِرقاً من سِفاد الجنّ، وذهبوا إلى الحديث: أنهم إنما كرهوا الصلاة في أعطان الإبل لأنـها خُلِقتْ من أعناق الشياطين فجعلوا المثل والمجاز على غير جهته، وقال ابن ميّادة:

فلما أتاني ما تقول مُحاربٌ تغنَّتْ شياطين وجُنَّ جنُونُها

قال الأصمعي المأثور من السيوف الذي يقال: إنّ الجنَّ عمِلته.
وهم يسمُّون الكِبر والخُنزُوانة والنَّعَرَة التي تضاف إلى أنف المتكبِّر شيطاناً، قال عمر: حتَّى أنزِعَ شيطانَه، كما قال: حتى أنزع النَّعَرة التي في أنفه، ويسمُّون الحيَّة إذا كانت داهية منها شيطاناً، وهو قولهم: شيطان الحَماطة، قال الشاعر:

تعالج مَثْنَى حَضْرميٍّ كـأنـه تَعَمُّجُ شَيْطانٍ بذي خِروع قفْر

شبَّه الزِّمام بالحيَّة، وعلى مثل ذلك قال الشاعر:

شناحية فيها شنـاح كـأنـهـا حباب بكف الشأو من أسطع حشر

والحباب: الحية الذكر، وكذلك الأيم، وقد نُهي عن الصلاةِ عند غيبوبة الشمس، وعند طلوع القرص إلى أن يتتامّ ذلك، وفي الحديث: إنّها تطلُع بين قرْنَي شيطان.

ضرورة حذق اللغة للعالم والمتكلم

فللعرب أمثالٌ واشتقاقاتٌ وأبنية، وموضعُ كلام يدُلُّ عندهم على معانيهم وإرادتهم، ولتلك الألفاظ مواضعُ أخَرُ، ولها حينئذ دَلالات أخر، فمن لم يعرفْها جَهل تأويل الكتابِ والسُّنَّة، والشاهد والمثل، فإذا نظر في الكلام وفي ضروب من العلم، وليس هو من أهل هذا الشأن، هلك وأهلك.

الإبل الوحشية

وزعم ناسٌ أنَّ من الإبل وحشيًّا وكذلك الخيل، وقاسوا ذلك على الحمير والسَّنانير والحمام وغير ذلك، فزعموا أنَّ تلك الإبلَ تسكنُ أرض وَبَار، لأنَّها غيرُ مسكونة، ولأنَّ الحيوانَ كلَّما اشتدَّت وحشيَّتهُ كان للخَلاء أطلب، قالوا: وربَّما خرجَ الجملُ منها لبعضِ ما يعرض، فيضرب في أدنى هَجْمةٍ من الإبل الأهلية، قالوا: فالْمَهْريَّةُ من ذلك النِّتاج.
وقال آخرون: هذه الإبلُ الوحشيَّة هي الحُوش، وهي التي مِن بقايا إبل وَبَار، فلمَّا أهلكهم اللّه تعالى كما أهلك الأمم مثلَ عادٍ وثمودَ والعمالقة وطسْمٍ وجَدِيسَ
وجاسم، بقيَتْ إبلُهم في أماكنهم التي لا يَطُورها إنْسيٌّ فإن سقطَ إلى تلك الجِيزة بعض الخلعاء، أوْ بَعْضُ من أضلَّ الطريق حثَت الجنُّ في وجهه، فإنْ ألحَّ خَبَلته، فضربَتْ هذه الحوش في العُمَانيّة، فجاءَت هذه المَهْريَّة، وهذه العسجديَّة التي

تسمى الذهبيَّة.
وأنشدني سعدان المكفوف عن أبي العميثل قول الراجز:

ما ذمَّ إبْلِي عَجَمٌ ولا عَرَبْ جُلودُها مِثلُ طَواويسِ الذَّهبْ

وقال الآخر:

إذا اصطكَّتْ بضيق حَجْرَتاها تلاقى العَسجديَّةُ واللَّطِيمُ

والعسجد من أسماء الذهب.

قالوا :وإنَّما سُمِّيتْ صاحبةُ يزيد بن الطَّثريَّة حُوشِيَّةَ على هذا المعنى.

وقال رؤبة:

جرت رحانا من بلاد الحُوش

رد على ما زعموا من مطر الضفادع والشبابيط

وأما الذي زعم أنَّهم مُطِروا الشَّبوط، فإنه لما ظنّ أنَّ الضفادعَ التي تُصابُ بعَقِبِ المطر، بحيثُ لا ماءٌ ولا وحلٌ ولا عينٌ ولا شريعة - فإنهم ربَّما رأوها وسط الدَّوِّ والدَّهناء والصَّمَّان - ولم يشُكَّ أنَّها كانت في السحاب وعلم أنَّها تكون في الأنهار ومنابعِ المياه، وليس ذلك من الذكر والأنثى، قاسَ على ذلك الظنِّ السمك، ثم جسَرَ فجعلَ السمك شَبَّوطاً، وتلك الضفادعُ إنما هي شيءٌ يُخلَق تلك الساعة، من طباع الماء والهواء والزمانِ وتلك التُّرْبة، على مقاديرَ ومقابلات، وعلى ما أجرى اللّه تعالى عليه نشأة الخلق.

امتناع التلاقح بين بعض الأجناس المتقاربة

وقد تُعرف القرابةُ التي تكون في رأي العين بين الشكلين من الحيوان فلا يكون بينهما تسافُدٌ ولا تلاقُح، كالضأن والمعز، وكالفأر والجُرْذان، فليس بالعجَب في البقر والجواميس أن تكون كذلك، وقد رأينا الخِلاسيَّ من الدجاج والدِّيَكة، وهو الذي تخلَّقَ من بين المولَّدات والهنديَّات، وهي تحمل اللحم والشحم. وزعم لي مسعود بن عثمان، أنه أهدى إلى عمرو بن مَسْعَدة، دجاجة ووُزِنَ فيها سبعة عشرَ رطلاً بعد طرح الأسقاط وإخراج الحشوة.

أثر زواج الأجناس المتباينة من الناس

ورأينا الخِلاسيَّ من الناس، وهو الذي يتخلَّق بين الحبشيِّ والبيضاء، والعادةُ من هذا التركيب أنه يخرج أعظمَ من أبويه وأقوى من أصلَيه ومثمِرَيه، ورأينا

البَيْسَريَّ من الناس، وهو الذي يُخلَق من بين البيض والهند، لا يخرج ذلك النِّتاجُ على مقدار ضخم الأبوين وقوّتهما، ولكنه يجيءُ أحسنَ وأملح، وهم يسمُّونَ الماءَ إذا خالطته الملوحة بيسراً قياساً على هذا التركيب الذي حكَينا عن البيض والهنديات، ورأينا الخِلاسيَّ من الكلاب، وهو الذي يُخلَق بين السَّلُوقيِّ وكلب الراعي، ولا يكون ذلك من الزِّئني والقلطي، ومن كلاب الدُّور والحرَّاس، وسنقول في السِّمْع والعِسبار، وفي غيرهما من الخَلْق المركَّب إن شاء اللّه تعالى.
أطول الناس أعماراً وذكروا أنَّهم وجدوا أطولَ أعمار الناس في ثلاثة مواضع: أوَّلها سَرْوحمير، ثم فرغانة، ثم اليمامة، وإنّ في الأعراب لأعماراً أطول، على أنَّ لهم في ذلك كِذْباً كثيراً، والهندُ تُربي عليهم في هذا المعنى، هكذا يقول علماء العرب.
أثر النبيذ في عمر الإنسان وكان عثمانُ ماش ويزال وجذعان، يذكرون أنّهم عدُّوا أربعينَ فتًى مِنْ فتيانِ قريش وثقيف أعذارَ عامٍ واحد فأحصَوْا عشرينَ من قريش، وعشرين من ثقيف، وتوخَّوا المتجاورين في المحلَّة والمتقاربين في الدُّور من الموقَّرين على النبيذ، والمقصورين على التنادُم، وأنّهم أحصَوا مثلَ ذلك العدد وأشباهَ أولئك في السِّن ممَّن لا يذوق النبيذَ ولا يعرفُ شراباً إلا المَاءَ، فذكَرُوا أنَّهُمْ وجدُوا بعدَ مرور دهرٍ عامَّةً من كان يشرَبُ النبيذَ حيّاً، ومن لا يشربه قد مات عامَّتُهم، وكانوا قد بلغوا في السنِّ، أما عثمان ويزال فكانا من المعمَّرين، وقد رأيتهما جميعاً ولم أسمع هذا منهما، وسنأتي على هذا البابِ في موضعه من ذكر المعمَّرين، ونميِّز الصدقَ فيه من الكذب، وما يجوز وما لا يجوز إن شاء اللّه تعالى

بعض ما يعرض للخصيان

وما أكثر ما يعرض للخصيان البولُ في الفراش وغير ذلك، ولا سيّما إذا بات أحدُهم ممتلئاً من النبيذ.
ويعرض لهم أيضاً حبُّ الشراب والإفراط في شهوته وشدَّة النَّهم.
ويعرض لهمْ أيضاً إيثار المخْفِس وحبُّ الصِّرْفِ، وذلك أيضاً مّما يعرض للنساء، والإفراط في شهوتهنَّ وشدَّة الهمَّة لهنَّ والغيرة عليهنَّ، ويحتلمون، ويجنبُون ويغتسلون، ويرون الماءَ غير الرائق ولا الغليظ، الذي له ريح طلع الفُحَّال.
ويعرض للخصيِّ شدَّةُ الاستخفاف بمن لم يكن ذا سلطان عظيم أو مال كثيرٍ أو جاهٍ عريض، حتَّى ربَّما كان عند مولاه بعضُ من عسى أن يتقدَّم هؤلاء المذكورين الذين يكون الخصيُّ كلِفاً بهم وبتعظيمهم، ومُغرَماً بخدمتهم، في الأدبِ والحسب، وفي بُعْدِ الهمَّة وكرم الشِّيمة، فيعمِد عند دخول ذلك الرجل الذي له السلطانُ والجاهُ والمالُ إلى متَّكأ هذا الأديب الكريم، والحسيبِ الشريف، فينزعه من تحت مِرْفقهِ، غيرَ محتفل بذلك ولا مكترث لما فيه، ويضعُه له من غير أنْ يكونَ موضع المرافقَ بعيداً، أو كان ذلك ممَّا يفُوت بعضَ الفوت، ويفعل ذلك وإن كان يعاشر هذا الأديب الكريم مولاه وهو على يقين أنه لا يرى ذلك الموسَر وصاحبَ الجاهِ أبداً.
أقوال في خصاء الخيل وقد حرَّم بعضهم خِصاءَ الخيل خاصَّة، وبعضُهُم زاد على

ذلك حتَّى حَرَّم خِصاء البهائم، وقال بَعْضُهُمْ: إذا كان الخِصاءُ إنَّمَا اجتلَبه فاعله أوْ تَكَلّفهُ صاحبُهُ على جهة التماسِ المنفعَة، أو على طريقِ التجارة، فذلك جائز، وسبيلُه سبيل المِيسَم، فإنّ المِيسم نار، و ألمه يجوزُ كلَّ ألم وقد رأينا إبلَ الصدَقة موسُومة، ووسمَت العربُ الخيلَ وجميعَ أصنافِ النَّعم في الإسلام، على مِثل صنيعِها في الجاهليَّة، وقد كانت القصواءُ ناقة النبي صلى اللّه عليه وسلم موسومة، وكذلك العضْباءُ.

أقوال في وسم الحيوان وقال آخرون: الخِصاء غيرُ شبيه بالميسم، لأنَّ في الخصاء من شدَّة الألم، ومن المُثلة، ومن قطْع النَّسْل، ومن إدخال النقصِ على الأعضاء، والنقصِ لموادِّ القوى، ما ليس في الميسم وغيره، وهو بقطع الألية أشبَه، والسِّمَةُ إنَّمَا هي لَدْعة، والخصاءُ مجاوِزٌ لكلِّ شديدة.

قال القوم: ولا بأسَ بقطع الأليةِ إذا مَنعت بِثِقَلِهَا أو عِظَمها الشاةَ من اللَّحاق بالقطيع وخيف عليها من الذئب، وقطعُ الألية في جواز العقول أشبهُ من الميسم، لأنَّ المِيسمَ ليس للبعير فيه حظٌّ، وإنَّما الحظُّ فيه لربِّ المال، وقطعُ الأليةِ من شكل الخِتان، ومن شكل البَطِّ والفصْد، ومن جنس الوَجُور والبيطرة، ومن جنس اللَّدُود والحِجامة، ومن جنس الكيِّ عند الحاجة، وقطع الجارحة إذا خِيف عليها الأكِلَة وسم الإبل قال الأوَّلون: بل لعمري إنَّ للإبل في السِّمات لأعظمَ المنافع، لأنهَّا قد تشْرَب بسماتها ولا تُذَاد عن الحوض إكراماً لأربابها، وقد تضِلُّ فتُؤْوَى، وتُصاب في الهُوَاشات فتُردّ.

قالوا: فإنا لا نسألكم إلاّ عن سماتِ الخيل والبغالِ والحمير والغنم، وبعدُ فكيف نستجيز أنْ نَعمَّها بالإحراق بالنار، لأمَر عسى ألاَّ يحتاج إليه من ألفِ بعيرٍ واحد، ثم عسى ألاَّ يحتاج من جميع ذلك في جميع عمره إلاّ إلى شَرْبةٍ واحدة.

وقال القوم: إنَّمَا المياسم في النَّعَم السائمة كالرُّقوم في ثياب البَزَّاز، ومتى ارتفعت الرقومُ ومُنِعت المياسم، اختلَطت الأموال، وإذا اختلطت أمكَنَ فيها الظلم، والمظلومُ باذلٌ نفسَه دونَ المعيشة والهَضِيمة.

وقالوا: ليس قطعُ الأليةِ كالمجثَّمة وكالشيء المصبور، وقد نُهينا عن إحراق الهوامِّ، وقيل لنا: لا تعذِّبوا بعذاب اللّه تعالى، والميسمُ نار، وقطعُ الألية من شكل قطْع العروق، وصاحبُ المجثَّمة يقدِر أن يرميَ - إن كان به تعلُّم الرماية - شيئاً لا يألم ولم يُنْهَ عن تعذيبه، فمَا يَردُّ الشيء المصبور من العذاب مَرَدّاً بوجه من الوجوه القول في نقص بعض أجزاء الحيوان أو نقضها أو إيلامها وقال آخرون: ليس لك أن تُحدِث في جميع الحيوان حدثاً من نقْضٍ أو نقص أو إيلام، لأنك لا تملك النشأة، ولا يمكنك التعويض له، فإذا أذن لك مالك العين، بل مخترعه ومنشئ ذاته والقادر على تعويضه، وهو اللّه عزَّ وجلَّ، حلَّ لك من ذلك ما كان لا يحلّ، وليس لك في حُجَّة العقل أن تصنعَ بها إلاّ ما كان به مصلحة، كعلاج الدَّبَر وكالبيطرة.

وقال آخرون: لنا أن نصنعَ كلَّ ما كان يُصنَع على عهد رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وبعدَه، ممّا لم يكن مدفوعاً عندَ بعضهم، إلاّ أن يكون نَهْيُ ذلك البعضِ من جماعتهم، في طريق الخلافِ والردِّ والمفارقة ولا يكون عندهم قولاً من الأقاويل،

فإنَّ ذلك في سبيل العلاج بعد أن كان المتكلّف يَعْرِفُ وجهَ الملام، والمذهب في ذلكَ معروف وإن كان خارجاً من ذلك الحدِّ، فقد علمنا أنَّه أُبيح من طريق التعبُّد والمحنة، كما جعل اللّه تعالى لنا ما أحلَّ ذبحَه من البهائم، وكما جعَل لنا أن نقتُل القملَ والبراغيثَ والبعوض، وإن لم يكن منها إلاّ مقدارُ الأذى فقط، والقتل لا يكون قصاصاً من الأذى، ولكن لمَّا أباح لنا خالقُ الشيء والقادر على تعويضه قتلَه، كان قتلُه أسوغَ في العقل مع الأذى، مِنْ ذبح البهيمة مع السلامة من الأذى.

قال: وليس كل مؤذٍ ولا كل ذي أذى حكم اللّه تعالى فيه بإباحة القتل، واللّه عزَّ وجلَّ، بمقادير الأمورِ وبحكم المختلف والمتَّفِق، والقليلِ من ذلك والكثير، أحكَمُ وأعلم.

وقد أمرَ اللّه تعالى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، بذبح إسحاق أو إسماعيل عليهما الصلاة والسلام، فأطاع الوالدُ وطاوع الولد.

والجواب الماضي إنما هو قول من قال بالتعويض، وهو قول النظَّام، وأكثرُ المتكلِّمين يعترضون عليه فيه.

منع خصاء الإنسان وإباحته

ولا يزال - يرحُمك اللّه تعالى - بعضُ الملحِدين من المعاندين، أو بَعْضُ الموحِّدين من الأغبياء المنقوصين، قد طعَن في مِلْكِ الخصيِّ وبيعِه وابتياعه، ويذكرون الخصيَّ الذي كان المقوقِس عظيمُ القِبط أهداه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله، مع مارية القِبطيَّة أمِّ إبراهيم عليه السلام، قالوا: فقد ملك عليه الصلاة والسلام خَصِياً بعد أن عرَفه وأحاط علمُهُ بأنَّه خصيٌّ، وأنتم تزعمون أنَّ الخِصاء حرام، وأنَّ من اشترى من الخاصي خَصِيَّاً ثم زاد على قيمته وهو فحل، فقد أعان على الخصاء وحثَّ عليه، ورغَّب فيه، وأنَّه من أفحش الظلم وأشدِّ القسوة، وزعمتم أنَّ من فعَل ذلك فهو شريكُ الخاصي في الإثم، وأنَّ حالَه كحال المعروفين بالابتياع من اللصوص، وقلتم: وكذلك من شهد القِمار وهِراشَ الكلاب، ونِطاحَ الكِباش وقتال الديوك، وأصحاب المجارحات وحرب الفئتين الضالَّتين، وقلتم: لأنَّ هذه المواضعَ لو لم تحضرها النَّظَّارةُ لما عمِلوا تلك الأعمال، ولو فعلوها ما بَلغوا مقدارَ الشَّطر، لغلَبة الرياءِ والسُّمعة على قلوب الناس، فكذلك الخاصي، والمشتري، والمبتاع من المشتري، شركاءُ متعاونون، وخُلَطاءُ مترادفون، وإذا كان المبتاع يَزيد في السِّلْعة لهذه العلَّة، والبائع يزيد في السَّوْم لهذا السبب، وقد أقررتم بأنَّ النبي صلى اللّه عليه وسلم قد قبِل له من المقوقس، كما قبل مارية، واستخدمه، وجرى عليه ملكُه وأمرُه، فافهمْ فهّمك اللّه تعالى ما أنا مجيبٌ به في هذه المسألة، واللّه الموفِّقُ، وعلى اللّه قصْدُ السبيل.

أقول: قبلَ كلِّ شيء لا يخلو هذا الحديث الذي رويتموه من أن يكون مرضيَّ الإسناد،صحيحَ المخرج، أو يكونَ مسخوط الإسناد، فاسدَ المخرج، فإن كان مسخوطاً، فقد بطلت المسألة، وإن كان مرضيّاً، فقد علمنا أنّه ليس في الحديث أنَّه قبله منه بعد أنْ عِلم أنَّه خصيٌّ، وعلى أنَّ قبولَ الهديّة خلاف الابتياع، لأنَّ بائعَ الخصيِّ إنَّما يحرُم عليه التماسُ الزيادة، وكذلك المبتاع إنَّما يحرم عليه دفعُ

الزيادة إذا كان لو سلم إليه بذلك الثمن فحلاً أجملَ منه وأشبَّ وأخدمَ منه لم يزدْه، والبائع أيضاً لا يستام بالفحل سَومَه بالخصي، وقبول الهديَّة، وقبول الهبَة، وسبيلُ البيع والابتياع لا بأس به إذا كان على ما وصفنا، وإنَّما هديَّة الخِصيِّ كهديَّة الثوب والعِطر، والدابَّةِ والفاكهة، ولأنَّ الخصيَّ لا يحرم مِلكُه ولا استخدامُه، بل لا يحلُّ طرده ونفيُه، وعتقُه جائز، وجوازُ العِتق يوجب الملك، ولو باعه المالك على غير طلبِ الزيادة، أو لو تاب من الخِصاء أو استحلَّه مما أتى إليه، لَمَا حرم على الخاصي نفسِه استخدامه، والخصيُّ مالٌ وملك، واستخدامه حسَنٌ جميل، ولأنَّ خِصاءه إيّاه لا يَعتِقه عليه، ولا يُزيل عن ملكه إلا بمثل ما وَجَبَ به مِلكُه.

وأخرى: أنَّ في قبول هديَّةِ ذلك الملِكِ، وتلَقِّي كرامتِه بالإكرام تدبيراً وحكمة، فقد بطلت المسْألة، والحمدُ للّه كما هو أهله.

وقد رووا مع ذلك أيضاً: أنَّ زنباعاً الجُذَاميّ، خصى عبداً له، وأنَّ النبي صلى الله عليه وسلم أعتقه عليه فيما بلغنا، واللّه أعلم.

وربَّما سألوا عن الشيء وليس القولُ فيه يقع في نسق القول في الخصيّ، وفي الخلْق المركَّب، ولكنْ إذ قد أجبْنا في مسألةٍ كلاميَّة من مسائل الطعْن في النبوَّة، فلا بأسَ أن نُضيف إليها أخرى، ولا سيَّما إذا لم تَطُلْ فتَزِيدَ في طُول الكتاب.

وقد لا يزال الطاعنُ يقول: قد علمْنا أنَّ العربَ لم يَسمُوا حروب أيّام الفِجار بالفجور وقريش خاصّة، إلاّ أنّ القتال في البلد الحرام، في الشهر الحرام كان عندهم فجوراً، وتلك حروبٌ قد شهدها النبيُّ صلى اللّه عليه وسلم وعلى آله، وهو ابن أربَع عشرَ سنةً، وابن أربعَ عشرة سنة يكونُ بالغاً، وقال: شَهِدتُ الفِجَارَ فكنْتُ أنبُلُ على عمومتي. وجوابنا في ذلك: أنَّ بني عامر بن صعصعة، طالبوا أهلَ الحرَم من قريشٍ وكنانة، بجريرة البرَّاض بن قيس، في قتله عروة الرحَّال، وقد علموا أنَّهم يُطالِبون مَنْ لم يجنِ ومن لم يعاونْ، وأنَّ البرَّاض بنَ قيس كان قبل ذلك خليعاً مطروداً، فأتوَهمَ إلى حَرَمهم يُلزمونهم ذنبَ غيرهم، فدافعوا عن أنفسِهم، وعن أموالهم، وعن ذراريهم، والفاجر لا يكون المسْعِيَّ عليه، ولذلك أشهدَ اللّه تبارك وتعالى نبيَّه عليه الصلاة والسلام ذلك الموقف، وبه نُصروا كما نُصرت العربُ على فارسَ يوم ذي قارٍ، به عليه الصلاة والسلام وبمخرجه، وهذان جوابان واضحان قريبان، واللّه الموفِّق للصواب، وإليه المرجع والمآب.

ذكر محاسن الخصي ومساويه

ثم رجَعَ بنا القولُ إلى ذكر مَحاسِن الخصيّ ومساويه.

الخصيُّ يَنْكِحُ ويتّخذ الجواري ويشتدُّ شغفه بالنساء، وشغفُهنَّ به، وهو وإن كان مجبوب العضو فإنَّه قد بقي له ما عسى أن يكون فيه من ذلك ما هو أعجبُ إليهنَّ، وقد يحتلم ويخرجُ منه عند الوطء ماءٌ، ولكنَّه قليلٌ متغيِّر الريح، رقيقٌ ضعيف، وهو يباشِر بمشقّة، ثم لا يمنعه من المعاودة الماءُ الذي يخرج منه إذْ كان قليل المقدار لا يخرجه من القوّة إلى الضعف، مثل الذي يعتري من يخرج منه شيء يكون من إنسان، وهو أخثرُ، وأكثر، وأحدُّ ريحاً، وأصحُّ جوهراً، والخصيُّ يجتمع فيه أُمنيَّةُ المرأة، وذلك أنَّها تبغض كلَّ سريع الإراقة، بطيء الإفاقة، كما تَكرهُ كلَّ

ثقيل الصدر، وخفيف العَجْز، والخصيُّ هو السريع الإفاقة، البطيء الإراقة، المأمونُ الإلقاح، فتقيمُ المرأةُ معَه، وهي آمنة العار الأكبر، فهذا أشدُّ لتوفير لذّتها وشهوتها، وإذا ابتذلن الخِيصانَ، وحَقَرن العبيد، وذهبت الهيبةُ من قلوبهنّ، وتعظيمُ البعول، والتصنُّع لذوي الأقدار باجتلاب الحياء وتكلّفِ الخجل، ظهَر كلُّ شيء في قوى طبائِعهنّ وشَهوَاتهنّ، فأمكنَهَا النَّخير والصِياح، وأن تكون مرَّةً من فوقُ، ومرَّةً من أسفل، وسمحت النفسُ بمكنونِها، وأظهرت أقصى ما عِندها.
وقد تجد في النساء مَنْ تؤْثر النساءَ، وتجدُ فيهنَّ من تُؤثر الرجال، وتجد فيهنَّ مَنْ تؤْثرُ الخِصيان، وتجد فيهنَّ من تجمعُ ولا تفرِّق، وتعمُّ ولا تخصُّ، وكذلك شأنُ الرجال في الرجال، وفي النساء والخصيان فالمرأة تنازع إلى الخصيِّ لأنَّ أمرَه أستر وعاقبتهُ أسلم، وتحرص عليه لأنَّه ممنوعٌ منها، ولأنَّ ذلك حرام عليها، فلها جاذبان: جاذبُ حرصٍ كما يُحْرَص على الممنوع، وجاذبُ أمْنٍ كما يُرغَب في السلامة، وقال الأصمعيّ: قال يونس بن عُبَيد: لو أخِذْنا بالْجَزَع لصبَرنا، قال الشاعر:

وزادها كَلَفاً بالحبِّ أنْ منـعَـتْ   وحَبُّ شيءٍ إلى الإنسان ما مُنِعا

والحرصُ على الممنوع بابٌ لا يَقْدِر على الاحتجاز منه، والاحتراسِ من خُدَعه، إلاَّ كلُّ مبرِّز في الفطنة ومتمهِّل في العزيمة، طويلِ التجارب، فاضِل العقل على قُوَى الشهوات، وبئس الشيءُ القرينُ السوء، وقالوا: صاحب السُّوءِ قِطعةٌ من النار.
وبابٌ من هذا الشكل، فَبِكم أعظَم حاجةٍ إلى أن تعرفوه وتقِفُوا عندَه، وهو ما يصنع الخَبَرُ السابق إلى السمع، ولا سيَّما إذا صادفَ من السامع قلَّة تجربة، فإنْ قرَن بين قلَّة التجربةِ وقلَّةِ التحفُّظ، دخل ذلك الخبر السابقُ إلى مستقرِّه دُخولاً سهلاً، وصادفَ موضعاً وطيئاً، وطبيعة قابلة، ونفساً ساكنة؛ ومتى صادفَ القلبَ كذلك، رسَخَ رسوخاً لا حيلة في إزالته، ومتى أُلقِيَ إلى الفِتيان شيءٌ من أمور الفَتيات، في وقت الغَرَارةِ، وعند غلَبةِ الطبيعة، وشَبَابِ الشهوَةِ، وقلَّة التشاغُل؛ وكذلك متى أُلقِي إلى الفِتيان شيءٌ من أمورهنَّ وأمُور الغِلْمان، وهناك سُكْر الشَّباب، فكذلك تكون حالهم، وإنَّ الشُّطَّار لَيخلُو أحدُهم بالغلام الغَرير فيقول له: لا يكون الغلامُ فتًى أبداً حتَّى يصادِقَ فتًى وإلاّ فهو تِكش، والتكش عندهم الذي لم يؤدّبه فتًى ولم يخرِّجه، فما الماءُ العذْبُ البارد، بأسرعَ في طباع العطشان، من كلمته، إذا كان للغُلام أدنى هوًى في الفتوَّة، وأدنَى داعيةٍ إلى المنالة، وكذلك إذا خلَت العجوز المدربة بالجارية الحَدَثة كيف تخلبها، وأنشدنا:

فأتـتْـهـا طـبَّة عـالـمة   تخلط الجِدَّ بأصنافِ اللعبْ

ترفعُ الصوتَ إذا لانت لـهـا   وتَنَاهَى عند سَورات الغَضَب

وقال الشاعر فيما يشبهُ وقوعَ الْخَبَر السابق إلى القلب:

نقّلْ فؤادَك حيثُ شئْتَ من الهوى　　ما الحبُّ إلاَّ للـحـبـيبِ الأوَّلِ

كم منزلٍ في الأرض يألَفُه الفتَى　　وحنينُـه أبـداً لأوَّلِ مَـنْـزِلِ

وقال مجنون بني عامر:

أتاني هَواهَا قبْلَ أنْ أعرفَ الهوَى　　فصادفَ قلباً خالياً فتـمكَّنَـا

أثر التكرار في خلق الإنسان

وبابٌ آخر ممَّا يدعو إلى الفساد، وهو طولُ وقوعِ البصرِ على الإنسان الذي في طبعه أدنى قابلٍ، وأدنى حركةٍ عند مثله، وطولُ التداني، وكثرةُ الرؤيةِ هما أصلُ البلاء، كما قيل لابنة الخُسّ: لم زَنيتِ بعبْدِك ولم تزني بحرٍّ، وما أغْرَاك به؟ قالت: طُولُ السِّواد، وقُرْبُ الوساد.
ولو أنَّ أقبحَ الناس وجهاً، وأنتنَهم ريحاً، وأظهرَهم فقراً، وأسقطَهم نفساً، وأوضعَهم حسَباً، قال لامرأةٍ قد تمكَّنَ من كلامِها، ومكَّنته من سَمْعِها: واللّهِ يا مولاتي وسيِّدتي، لقد أسهَرْتِ ليلي، وأرَّقتِ عَيني، وشغَلْتِني عن مُهمِّ أمري، فما أعقِلُ أهلاً، ولا مالاً، ولا ولداً؛ لنَقَض طِباعَها، ولفسَخ عَقْدَها، ولو كانتْ أبرعَ الخلْق جمالاً، وأكملَهم كمالاً، وأملحهم مِلحاً، فإنْ تهيّأ مع ذلك مِن هذا المتعشِّق، أنْ تدمَع عينهُ، احتاجت هذه المرأة أن يكون معها وَرَعُ أمِّ الدرداء، ومُعاذة العدويّة، ورابعة القيسيَّة، والشجَّاء الخارجيَّة.

زهد الناس فيما يملكونه ورغبتهم فيما ليس يملكونه

وإنَّمَا قال عمر بن الخطَّاب رضي اللّه تعالى عنهُ: اضربُوهنَّ بالعُرْي لأنَّ الثيابَ هي المدعاةُ إلى الخُروج في الأعراس، والقيامِ في المَناحات، والظهور في الأعياد، ومتَى كثر خروجُها لم يعدمها أن ترى من هو من شكل طبعها، ولو كان بعلُها أتمَّ حسناً، والذي رأتْ أنقصَ حسناً، لكان ما لا تملكه، أطرفَ ممَّا تملكُه، ولكان ما لم تنلْه، ولم تَستكثر منهُ، أشدَّ لها اشتغالاً وأشد لها اجتذاباً، ولذلك قال الشاعر:

ولِلعين مَلْهًى بالتِّـلادِ ولـم يقُـدْ　　هوى النفس شيءٌ كاقتيادِ الطرائف

وقال سعيد بن مسلم: لأن يرى حرمتي ألفُ رجل على حالٍ تكشَف منها وهي لا تراهم، أحبُّ إليّ من أن ترى حُرْمتي رجلاً واحداً غيرَ منكشف.
وقال الأوَّل: لا يضرُّك حُسْنُ من لم تعرف؛ لأنَّك إذا أتبعتها بصرَك، وقد نقضت طبعك، فعلمْتَ أنَّك لا تصل إليها بنفسك ولا بكتابك ولا برسولك، كان الذي رأيت منها كالحلم، وكما يتصور للمتمنِّي، فإذا انقضى ما هو فيهِ مِنَ المنى، ورجعت

نفسُه إلى مكانها الأوَّل، لم يكن عليه من فقدها إلاّ مثلُ فقد ما رآه في النوم، أو مثَّلته له الأمانيّ.

عقيل بن علفة وبناته

وقيل لعَقِيل بن عُلَّفة: لو زوَّجْتَ بناتِك فإنَّ النساءَ لحمٌ على وَضَمٍ إذا لم يكنَّ غانيات قال: كلا، إنِّي أُجِيعُهنَّ فلا يأشَرْنَ، وأعْريهنَّ فلا يظهرْنَ فوافقت إحدى كلمتيه قولَ النبي صلى الله عليه وسلم ووافقت الأخرى قول عمر بن الخطاب؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الصَّوْمُ وِجَاء، وقال عمر: استعينُوا عليهنّ بالعُرْي، وقد جاء في الحديث: وفِّروا أشعارهن فإنَّ ترك الشعر مَجْفَرة، وقد أتينا على هذا الباب في الموضع الذي ذكرنا فيه شأن الغيرة، وأوَّلَ الفسادِ، وكيف ينبُت، وكيف يُحصَد.

بعض ميول الخصيان

وقد رأيتُ غيرَ خَصيٍّ يتلوَّط، ويطلب الغلمان في المواضع، ويخلو بهم ويأخذهم على جِهة الصداقة، ويحمل في ذلك الحديد، ويقاتل دون السخول، ويتمشى مع الشطَّار. وقد كانَ في قطيعةِ الربيع خصيٌّ أثيرٌ عندَ مولاه، عظيم المنزلة عنده؛ وكان يثِق به في مِلْكِ يمينِه، وفي حُرَمه من بنتٍ وزوجَةٍ وأختٍ، لا يخصُّ شيئاً دونَ شيء، فأشرَفَ ذاتَ يومٍ على مِرْبَدٍ له، وفي المِربد غنمٌ صفايا، وقد شدَّ يَدي شاةٍ وركبها من مؤخَّرها يكُومُها، فلمَّا أبصره بَرِقَ وَبَعِلَ وسُقِطَ في يديه، وهجم عليه أمرٌ لو يكون رآه من خصيٍّ لعدوٍّ لَهُ لَمَا فارقَ ذلك الهولُ أبداً قلبَه، فكيف وإنّما عايَن الذي عاين فيمَن كان يخلُفُه في نسائه مِن حُرَمه ومِلْكِ يمينه، فبينما الرجلُ وهو واجم حزين، وهو ينظر إليه وقد تحرَّق عليه غيظاً إذْ رَفَع الخصيُّ رأسَه، فلمَّا أثبَت مولاهُ مَرَّ مُسرِعاً نحوَ باب الدار ليركَبَ رأسَه، وكان المولى أقربَ إلى الباب منه، فسبقه إليه، وكان الموضعُ الذي رآه منه موضعاً لا يُصعَد إليه، فحدَثَ لشقائِهِ أمرٌ لم يجد مولاه معه بُدّاً من صُعودِه، فلبثَ الخصيُّ ساعةً ينتفِض من حُمَّى ركِبته ثم فاظ، ولم يُمسِ إلاَّ وهو في القبر.
ولفرْط إرادتِهم النساء، وبالحسرة التي نالتهم، وبالأسف الذي دخلَهم، أبغَضُوا الفحولَ بأشدَّ مِنْ تباغُضِ الأعداءِ فيما بينهم، حتَّى ليس بين الحاسدِ الباغي وبينَ أصحابِ النِّعَم المتظاهرة، ولا بين المَاشي المعنَّى وبين راكب الهمْلاج الفاره، ولا بين ملوكٍ صاروا سُوقةً، وبينَ سُوقةٍ صاروا ملوكاً، ولا بينَ بني الأعمام مع وقوع التنافس، أو وقوع الحربِ، ولا بين الجِيرانِ والمتشاكلين في الصناعات، من الشنف والبغضاء، بقدرِ ما يلتحف عليه الخِصيانُ للفحول.
وبُغضُ الخصيِّ للفَحل من شِكل بُغض الحاسِدِ لذِي النعمة، وليس مِنْ شكل ما يولِّده التنافسُ وتُلحِقُه الجنايات.

نسك طوائف من الناس

ولرجالِ كلِّ فَنٍّ وضربٍ من الناس، ضربٌ من النسك، إذْ لا بدَّ لأحدِهم من النزوع، ومن تركِ طريقته الأولى: فنسك الخصيِّ غزْو الروم، لِمَا أنْ كانوا هم الذين خَصَوهم، ولُزُومُ أذَنة والرِّباط بطَرَسُوسَ وأشباهِها، فظنَّ عند ذلك أهلُ الفِراسة أنَّ سببَ ذلك إنّما كان لأنَّ الرُّوم لِما كانوا هم الذين خَصَوهم، كانوا مغتاظين عليهم، وكانت متطلّبةً إلى التشفّي منهم، فأخرج لهم حبُّ التشفّي شدَّةَ الاعتزامِ على قتلهم، وعلى الإنفاق في كلِّ شيء يَبلُغ منهم، ونُسكُ الخراسانيِّ أن يُحجَّ: ونسكُ البنوي أن يَدَع الديوان، ونسكُ المغنِّي: أن يُكثر التسبيحُ وهو يشربُ النبيذ، والصلاةَ على النبي صلى الله عليه وسلم، والصلاة في جماعة، ونسك الرافضيِّ: إظهارُ ترْك النبيذ، ونسك السَّواديِّ ترْكُ شرب المطبوخ فقط، ونسكُ اليهوديِّ: إقامة السبت، ونسك المتكلّم: التسرُّع إلى إكفارِ أهل المعاصي، وأنْ يرمَي الناسَ بالجبْر، أو بالتعطيل، أو بالزندقة، يريد أن يوهم أموراً: منها أنَّ ذلك ليس إلاّ من تعظيمه للدِّين، والإغراق فيه، ومنها أن يقال: لو كان نَطِفاً، أو مرتاباً، أو مجتنحاً على بليَّة، لما رمى الناسَ، ولرضي منهم بالسلامة، وما كان ليرميَهم إلاّ للعزِّ الذي في قلبه، ولو كان هناك من ذُلِّ الرِّيبة شيء لقطعَه ذلك عن التعرُّض لهم، أو التنبيه على ما عسى إنْ حرَّكهم له أنْ يتحرَّكوا، ولم نجدْ في المتكلّمين أنْطفَ ولا أكثرَ عيوباً، ممَّن يرمي خصومَه بالكفر.

الجماز وجارية آل جعفر وكان أبو عبد اللّه الجمَّاز، وهو محمد بن عمرو، يتعشَّق جاريةً لآلِ جعفر يقال لها طُغْيان، وكان لهم خصِيٌّ يحفظُها إذا أرادتْ بيوتَ المغنِّين، وكان الخصيُّ أشدَّ عشقاً لها من الجمَّاز، وكان قد حال بينَه وبينَ كلامِها، والدنوِّ منها، فقال الجماز وكان اسم الخادم سناناً:

ما للمَقِيتِ سِنانِ	ولِلظِّباءِ المِلاح
لَبِئْسَ زانٍ خَصِيٌّ	غازٍ بغير سلاح

وقال فيه أيضاً وفيها:

نَفْسِي الفداءُ لظبيٍ	يحبُّني وأُحبُّـهْ
ن أجلِ ذاكَ سِنانٌ	إذا رآني يَسُبُّـهْ
َبْهُ أجابَ سِنـانـاً	يَنيكهُ أين زُبُّـه

وقال أيضاً فيهما:

ظبيٌ سنانُ شريكي	فيه فبئسَ الشريكُ
ا يَنِيكُ سِنـانٌ	ولا يَدَعْنا نـنـيكُ

ما قيل من الشعر في الخصاء وقال الباخَرزيّ يذكرُ محاسِنَ خِصال الخِصيان:

ونساء لمطمئنّ مُقيمٍ ورجال إن كانت الأسفارُ

وقال حميد بن ثور يهجو امرأته:

جُلُبَّانةٌ ورهاء تخصي حمارها بفِي من بغى خيراً إليها الجلامدُ

وقال مزرِّد بن ضِرار:

فجاءتْ كخاصي العَيرِ لم تَحْلَ عَاجة ولا جَاجَةٌ منها تلُوحُ على وَشْم

وقال عمرو الخارَكى:

إذا لامَ على المرد نصيحٌ زادَني حرصا

ولا واللّه ما أقْ لع ما عمِّرت أو أخْصى

وقال آخر:

رَمَاك اللّهُ من أيْرٍ بأفعَى ولا عافاكَ من جَهْد البَلاءِ

جَزَاكَ اللّهُ شَرّاً من رفيقٍ إذا بلغت بي رَكَبَ النساء

أجُبْناً في الكريهة حين نلقى وما تنفكُّ تُنعِظ في الخَلاَءِ

فلا واللّه ما أمسَى رفيقي ولولا البولُ عُوجِل بالخصاء

وقال بعض عبد القيس:

ما كان قحذمٌ ابنُ واهِصَة الْخُصى يرجو المناكحَ في بني الجارودِ

ومِن انتكاس الدهر أن زُوِّجتَها ولكلِّ دهرٍ عَثرةٌ بجُدُود

لو كان منذرُ إذ خطبت إليهم حيّاً لكان خَصَاكَ بالمغمود

وقال أبو عبيدة: حدَّثني أبو الخطاب قال: كان عندنا رجلٌ أحدبُ فسقط في بئرٍ فذهبت حَدَبته وصار آدَر فقيل له: كيف تجِدك؟ فقال: الذي جاءَ شرٌّ من الَّذِي ذهب.

وأبو الحسن عن بعض رجاله قال: خرج معاويةُ ذاتَ يومٍ يمشي ومَعه خَصِيٌّ له، إذ دخلَ على ميسونَ ابنة بحدل وهي أمُّ يزيد، فاستترت منه فقال: أتستترين منه، وإنَّما هو مثلُ المرأة؟ قالت: أتُرَى أنَّ المثلة به تُحِلُّ ما حرَّم اللّه تعالى.
ذكر ما جاء في خصاءِ الدوابّ ذكر آدمُ بن سليمان عن الشعبيّ قال: قرأت كتابَ عمر رضي اللّه تعالى عنه إلى سعد، يَنْهَى عن حذْف أذناب الخيل وأعرافها، وعن خصائها، ويأمره أن يُجْرِيَ من رأس المائتين، وهو أربعة فراسخ.
وسُفيان الثَّوري عن عاصم بن عبد اللّه بن عمر رضي اللّه تعالى عنه كان ينهى عن خِصَاء البهائم ويقول: هل الإنماء إلاّ في الذكور.
وشَريك بن عبد اللّه، قال: أخبرني إبراهيم بن المهاجر، عن إبراهيم النَّخَعي أنّ عمرَ رضي اللّه تعالى عنه نَهَى عن خصاءِ الخيل.
وسفيان الثوري عن إبراهيم بن المهاجر قال: كتب عمرُ بن الخطاب رضي اللّه تعالى عنه لبعض عماله: لا تُجرِيَنَّ فرساً إلاَّ من المائتين، ولا تخْصِينَّ فرساً.
وقال: وسمعتُ نافعاً يقول: كان عبد اللّه بن عمر يكرَه خِصاءَ الذكورِ من الإبل، والبقر، والغنم.
وعبيد اللّه بن عمر عن نافع: أنَّ ابن عمر رضي اللّه تعالى عنهما كان يكره الخصاء ويقول: لا تقطعوا نامية خَلْق اللّهِ تعالى.
وعبد اللّه وأبو بكر ابنا نافع عن نافع قال: نهى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم عن أن تُخصَى ذكورُ الخيلِ، والإبلِ، والبقر، والغنم، يقول: فيها نشأة الخلق، ولا تصلح الإناث إلاَّ بالذكور.
ومحمد بن أبي ذئب قال: سألت الزُّهريَّ: هل بخِصاء البهائم بأس؟ قال: أخبرني عبيد اللّه بن عبد اللّه بن عُتبة بن مسعود، أنَّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطاهِرين، نهى عن صَبْرِ الروح، قالَ الزُّهريُّ: والخِصاءُ صبرٌ شديد.
وأبو جعفَر الرَّازِيّ قال: حدَّثنا الرَّبيعُ بن أنس، عن أنس بن مالك في قوله تعالى: "وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّه" قال: هو الخِصاء.
وأبو جرير عن قتادة عن عِكرمة عن ابن عبَّاس نحوه.
أبو بكر الهذليّ قال: سألتُ الحسنَ عن خِصاء الدواب فقال: تسألني عَن هذا؟ لعن اللّه من خَصَى الرجال.
أبو بكر الهذليُّ عن عِكرمة في قوله تعالى: "وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللّهِ" قال: خصاء الدواب، قال: وقال سعيد بن جبير: أخطأ عكرمة، هو دين اللّه.
نَصر بن طريف قال: حدَّثنا قتادة عن عِكرمة في قوله تعالى: "فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ" قال: خصاء البهائم، فبلغ مجاهداً فقال: كذَبَ هو دين اللّه. فمن العجب أن الذي قال عكرمة هو الصواب، ولو كان هو الخطأ لما جاز لأحد أن يقول له: كذبت، والناسُ لا يضعون هذه الكلمة في موضعِ خطأ الرأي ممَّن يُظنُّ به الاجتهاد، وكان ممَّن له أن يقول، ولو أنَّ إنساناً سمع قولَ اللّه تبارك وتعالى: "فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ" قال: إنَّما يعني الخِصاء، لم يقبل ذلك منه؛ لأنَّ اللفظ ليست فيه دلالةٌ على شيءٍ دونَ شيء، وإذا كان اللفظُ عامّاً لم يكن لأحدٍ أن يقصِد به إلى شيءٍ بعينه إلاَّ أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك مع تلاوةِ الآية، أو يكونَ جبريلُ عليهِ السلام

قال ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنَّ اللّه تبارك وتعالى لا يضمر ولا ينوي، ولا يخصُّ ولا يعمُّ بالقصد؛ وإنَّما الدلالةُ في بنيةِ الكلام نفسِه، فصورة الكلام هو الإرادة وهو القصد، وليس بينه وبين اللّه تعالى عملٌ آخر كالذي يكون من الناس، تعالى اللّهُ عن قول المشبِّهة علوّاً كبيراً.
أبو جرير عن عمار بن أبي عمار أنَّ ابنَ عباسٍ قالَ في قوله تعالى: "وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ" قالَ: هو الخصاء.
وأبو جرير عن قتادة عن عِكرمة عن ابن عبَّاسٍ مثله.
أبو داود النَّخَعِيّ، عن محمَّد بن سعيدٍ عن عبادة بن نسيّ، عن إبراهيم بن محيريز قال: كان أحبَّ الخيلِ إلى سَلَفِ المسلمين، في عهد عمر، وعثمان، ومعاوية، رضي اللّه تعالى عنهم، الخِصْيان؛ فإنَّها أخفى للكَمينِ والطلائع، وأبقى على الجَهْدِ.
أبو جرير قال: أخبرني ابن جُريج عن عطاء أنَّه لم يَرَ بأساً بخصاء الدواب.
وأبو جرير عن أيُّوبَ عن ابن سيرين، أنَّه لم يكن يرى بأساً بالخصاء، ويقول: لو تُركت الفحولةُ لأكل بعضُها بعضاً.
وعمر ويونس عن الحسن: أنّه لم يكن يرى بأساً بخصاءِ الدواب.
سفيان بن عُيينة عن ابن طاوس عن أبيه: أنّه خَصى بعيراً.
وسفيان بن عيينة عن مالك بن مِغوَل عن عطاء، أنه سئل عن خصاء البغل فقال: إذا خفت عِضاضه.

أقوال في النتاج المركب

ولْنَصِلْ هذا الكلام بالكلام الذي قبل هذا في الخلق المَركب وفي تلاقح الأجناس المختلفة، زعموا أن العِسبارَ ولد الضبع من الذئب، وجمعه عسابر، وقال الكميت:

وتجمَّع المتفرِّقو نَ من القَراعِلِ العَسابِرْ

يرميهم بأنَّهم أخلاطٌ ومُعَلْهَجُونَ.
السمع ولد الذئب من الضبع وزعموا أنّ السِّمع ولد الذئب من الضبع، ويزعمون أنّ السِّمع كالحيَّةِ لا تعرف العِلَل، ولا تموتُ حَتْفَ أنفِها، ولا تموت إلاّ بعَرَض يَعْرِض لها، ويَزْعمون أنّه لا يَعدو شيءٌ كعدو السِّمع، وأنّه أسرعُ مِنَ الريح والطَّير.
وقال سهم بن حنظلة يصف فرسه:

فاعْصِ العواذل وارْمِ اللّيلَ في عرضٍ بذي شبيبٍ يُقاسِي ليْلَهُ خَبَبَا

كالسِّمع لم يَنْقب البَيْطار سرّته ولم يَدِجْه ولم يَغمِز له عَصَبَا

وقالَ ابن كُناسة يصف فرساً:

كالعقاب الطلوب يَضْرِبُها الطّـ ـلُّ وقد صَوَّبَتْ على عِسبـار

وقال سؤر الذئب:

هو سِمْعٌ إذا تمطَّرَ شيئاً وعُقابٌ يحثُّها عِسْبـارُ

يقول: إذا اشتدَّ هربُ المطلوبِ الهاربِ من الطالب الجادّ، فهو أحث للطالب، وإذا صار كذلك صار المطلوبُ حينئذٍ في معنى من يحثٌّ الطلب، إذ صار إفراط سرعَتِه سبباً لإفراط طلبِ العُقاب.
وقال تأبط شرّاً، أو أبو محرز خلف بن حيَّان الأحمر:

مُسْبلٌ بالحيِّ أحوى رفلٌّ وإذا يَغْدُو فسِمْـعٌ أزَلُّ

وإنَّما قال أزَلّ وجعَلَه عادياً ووصفهُ بذلك، لأنَّه ابن الذئب، وقال الأصمعي:

يدير عيني لمظةٍ عِسبارَه

وقال في موضع آخر:

كأن منها طرفه استعارَه

وقال آخر:

تَلقى بها السِّمْعَ الأزَلَّ الأطلَسَا

وزعموا أنَّ ولدَ الذئب من الكلبة الدَّيْسَم، ورووا لبشَّار بن بُرْد في دَيْسَمٍ العَنزيّ أنّه قال:

أدَيْسَمُ يا ابنَ الذئبِ مِنْ نسلِ زارعٍ أتَرْوِي هِجائِي سادراً غَيْرَ مُقْصِرِ

وزارع: اسم الكلب، يقال للكلاب أولاد زارع.
زعم لأرسطو في النتاج المركب وزعم صاحب المنطق أنّ أصنافاً أُخَرَ من السباع المتزاوِجات المتلاقِحات مع اختلاف الجنس والصورة، معروفة النتاج مثل الذئاب التي تسفد الكلابَ في أرض رُومِيَة: قال: وتتولَّد أيضاً كلابٌ سَلوقيةٌ من ثعالبَ وكلاب، قال: وبين الحيوان الذي يسمَّى باليونانيَّة طاغريس وبين الكلب، تحدث هذه الكلابُ الهندية، قال: وليس يكون ذلك من الولادة الأولى.
قال أبو عثمان: عن بعض البصريين عن أصحابه قال: وزعموا أنَّ نِتاجَ الأولَى

يخرجُ صعباً وحشيّاً لا يلقَّن ولا يؤلَّف.
تلاقح السبع والكلبة وزعم لي بعضهم عن رجلٍ من أهل الكوفة من بني تميم أنَّ الكلبةَ تعرِض لهذا السبع حتَّى تلقح، ثم تعرَض لمثله مراراً حتى يكون جرو البطن الثالث قليلَ الصعوبة يقبلُ التلقين، وأنَّهم يأخذون إناثَ الكلاب، ويربطونها في تلك البراريّ، فتجيءُ هذه السباعُ وتسفَدُها، وليس في الأرض أنثى يُجتَمَع على حبِّ سفادها، ولا ذكرٌ يجتمع له من النزوع إلى سفاد الأجناسِ المختلفة، أكثرَ في ذلك من الكلب والكلبة.
قال: وإذا رَبَطوا هذه الكلابَ الإناثَ في تلك البراري، فإن كانت هذه السباع هائجةً سفِدَتها، وإن لم يكن السبع هائجاً فالكلبة مأكولة، وقال أبو عدنان:

أيا باكيَ الأطلالِ في رَسْمِ دمنةٍ تَرُودُ بها عينُ المَهَا والجـآذرُ

وعانـاتُ جَوَّال وهَيْق سَفَنَّجٌ وسنداوة فضفاضة وحَضَاجِرُ

وسِمْعٌ خَفِيُّ الرِّزّ تِلْبٌ ودَوْبَلٌ وتُرْمَلَةٌ تعتادها وعَسـابـرُ

وقد سمعنا ما قال صاحبُ المنطق من قبل، وما نظنُّ بمثله أن يخلِّد على نفسه في الكتب شهاداتٍ لا يحقّقُها الامتحان، ولا يعرف صدقها أشباهُه من العلماء، وما عندَنا في معرفةِ ما ادَّعى إلاّ هذا القول.
وأمَّا الذين ذكروا في أشعارهم السِّمْع والعِسبار، فليس في ظاهر كلامهم دليلٌ على ما ادَّعى عليهم النّاسُ من هذا التركيب المختلف، فأدَّينا الذي قالوا وأمسكْنا عن الشهادة، إذ لم نجد عليها بُرهاناً.
ولاد السعلاة وللنَّاس في هذا الضَّرْب ضروبٌ من الدعوى، وعلماءُ السوء يُظْهِرون تجويزَها وتحقيقَها، كالذي يدَّعون من أولاد السَّعَالِي من الناس، كما ذكروا عن عمرو بن يربوع، وكما يروي أبو زيدٍ النحويُّ عن السِّعلاة التي أقامت في بني تميم حتى وَلَدت فيهم، فلمَّا رأتْ برقاً يلمَعُ من شقِّ بلاد السَّعالِي، حنَّت وطارت إليهم، فقال شاعرهم:

رأى بَرْقاً فأوْضَعَ فَوْقَ بَكْرٍ فَلاَ بكِ ما أسَالَ وما أغاما

وأنشدني أن الجنَّ طرقوا بعضَهم فقال:

أتَوا ناري فقُلْتُ مَنُونَ أنـتـمْ فقالوا الجِنُّ قلتُ عِموا ظَلامَا

فقلتُ إلى الطَّعام فقال منهـم زعيمٌ نَحْسُدُ الإنسَ الطَّعامـا

ولم أعِبِ الرواية، وإنَّما عبتُ الإيمانَ بها، والتوكيدَ لمعانيها، فما أكثرَ من يَروي هذا الضربَ على التعجُّبِ منه، وعلى أن يجعَلَ الرواية له سبباً لتعريفِ النَّاس حقَّ

ذلك من باطِله، وأبو زيدٍ وأشباهُه مأمونون على النَّاس؛ إلاَّ أنَّ كلَّ من لم يكن متكلّماً حاذقاً، وكان عند العلماء قدوةً وإماماً، فما أقرَبَ إفسادَه لهم من إفسادِ المتعمِّد لإفسادهم وأنشدوا في تثبيتِ أولاد السعلاة:

تقول جمع من بُـوان ووَتِـدْ وحَسَنٌ أنْ كَلَّفَتْنِي مَـا أجِـد

وَلَمْ تقل جِيء بأبَـان ٍأو أُحُـدْ أو ولدِ السِّعلاةِ أو جِروِ الأسَدْ

أو ملكِ الأعجام مأسوراً بقِدّ

وقال آخر:

يا قاتَلَ اللّه بَنِي السِّعلاةِ عمراً وقابوساً شِرَارَ النات

ما زعموا في جرهم وذكروا أنَّ جُرهُماً كان من نِتاج ما بين الملائكة وبنات آدم، وكان الملَكُ من الملائكة إذا عصى ربَّه في السماء أهبَطَه إلى الأرض في صورة رجل، وفي طبيعته، كما صنع بهاروت وماروت حين كان من شأنهما وشأنِ الزُّهَرة، وهي أناهيد ما كان، فلَّما عصى اللّهَ تعالى بعضُ الملائكة وأهبطَه إلى الأرض في صورةِ رجل، تزوَّج أمَّ جُرهمٍ فولدتْ له جُرهماً، ولذلك قال شاعرهم:

لا هُمَّ إنَّ جُرهُماً عِبادُكا الناس طِرْفٌ وهُمُ تِلادُكا

ما زعموا في بلقيس وذي القرنين ومن هذا النسل ومن هذا التركيب والنجل كانت بِلْقِيسُ ملكةُ سَبأ، وكذلك كان ذو القرنين كانت أمُّه فيرى آدميَّةٌ وأبوه عبرى من الملائكة، ولذلك لما سمِع عمرُ بن الخطَّاب رضي اللّه تعالى عنه رجلاً ينادي: يا ذا القرنين، فقال: أفرَغْتُمْ من أسماءِ الأنبياء فارتفعتم إلى أسماءِ الملائكة؟.
وروى المختارُ بن أبي عبيد أنَّ عليّاً كان إذا ذكَر ذا القرنين قال: ذلك المَلَكُ الأمرط.
ما زعموا من تلاقح الجن والإنس وزعموا أنَّ التناكُح والتلاقُح قد يقع بين الجنِّ والإنس، لقوله تعالى: "وَشَارِكْهُمْ فِي الأمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ"، وذلك أن الجِنِّيَّاتِ إنَّما تعرض لصَرْعِ رجالِ الإنس على جهة التعشُّق وطلبِ السِّفاد، وكذلك رجال الجنِّ لنساء بني آدم، ولولا ذلك لعرض الرِّجالُ للرِّجال، والنساءُ للنساء، ونساؤهم للرجال والنساء.
ومن زعَم أن الصَّرْعَ من المِرَّة، ردَّ قوله تعالى: "الَّذِينَ يَأْكُلُون الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسِّ" وقال تعالى: "لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إنْسٌ قبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ"، فلو كان الجانُّ لا يفتضُّ الآدمِيَّاتِ، ولم يكنْ ذلك قطُّ، وليس ذلك في تركيبه، لَما قال اللّه تعالى هذا القول.
ما زعموا في النسناس وغيره وزعموا أنّ النَّسْنَاسَ تركيبُ ما بين الشِّق

والإنسان، ويزعمون أنَّ خلقاً من وراء السدِّ تركيبٌ من النَّسْنَاس، والناس، والشقِّ، ويأجوج ومأجوج، وذكروا عن الوَاق واق والدوَال باي أنهُمْ نِتاجُ ما بينَ بعض النَّباتِ والحيوان، وذكروا أنَّ أمَّةً كانت في الأرض، فأمرَ اللّه تعالى الملائكة فأجلوَهم؛ وإيَّاهم عَنَوا بقولهم: "أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ"، ولذلك قال اللّه عزَّ وجلَّ لآدم وحواء: "وَلاَ تَقْرَبَا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ"،فهذا يدلُّ على أن ظالماً وظُلماً قد كان في الأرض.
قال الأصمَعيُّ - أو خلَفٌ - في أرجوزة مشهورة، ذكرَ فيها طُولَ عمر الحَيَّة:

أرْقشُ إنْ أسبَط أو تَثَنَّى حَسِبْتَ وَرْساً خالَط اليَرَنَّا

خالَطَهُ مِنْ هَاهُنَا وَهَنَّا إذا تراءَاهُ الحواةُ استَنَّا

قال: وكان يقال لتلك الأمَّة مهنا.
قول المجوس في بدء الخلق وزعم المجوس أنَّ الناسَ من ولد مهنة ومهنينة، وأنَّهما تولدا فيما بينَ أرحام الأرَضين، ونطفتين ابتدرتا من عينَي ابن هُرمُز حين قتله هرمر، وحماقات أصحابِ الاثنَين كثيرةٌ فِي هذا الباب، ولولا أنِّي أحببْتُ أن تسمعَ نوعاً من الكلام، ومبلغَ الرأي، لتُحدِثَ للّه تعالى شكراً على السلامة، لما ذكرتُ كثيراً من هذا الجنس.
عبد الله بن هلال صديق إبليس وختنه وزعم ابن هيثم أنَّه رأى بالكوفة فتًى من ولد عبد اللّه بن هلال الحميري، صديق إبليس وخَتَنِهِ، وأنَّهم كانوا لا يشكُّون أنَّ إبليسَ جَدُّه من قِبَل أمَّهاتِه، وسنقولُ في ذلك بالذي يجبُ إن شاء اللّه تعالى، وصِلَةَ هذا الكلام تجيءُ بعد هذا إن شاء اللّه تعالى.

حوار في الكلب والديك

وقلت: ولو تمَّ للكلب معنى السبع وطباعه، لما ألف الإنسانَ، واستوحش من السبع، وكره الغياض، وألِف الدُّور، واستوحَشَ من البراري وجانب القفار، وألِفَ المجالسَ والدِّيار، ولو تمَّ له معنى البهيمة في الطبع والخلق والغذاءِ، لما أكل الحيوانَ، وكَلِب على النَّاس، نعمْ حتَّى رُبَّما كلِب وَوَثَبَ على صاحبه وكلِبَ على أهله، وقد ذكر ذلك طرفةُ فقال:

كُنْتَ لَنَا والدُّهورَ آونةً تَقْتُلُ حالَ النَّعِيم بالبُؤُس

ككَلْبِ طَسْمٍ وقد تَرَبَّبَه يَعُلُّه بالحَليبِ في الغَلَس

ظلَّ عليه يوماً يُفَرْفِرُه إلاَّ يَلَغ في الدماءِ يَنْتَهِس

وقال حاجب بن دينار المازنيُّ في مثل ذلك:

وكم من عدُوٍّ قد أعنتمْ علـيكُـم   بمالٍ وسُلطانٍ إذا سَلِم الـحَـبْـلُ

كذِي الكلبِ لمَّا أسمَنَ الكَلْبَ رابَهُ بإحدى الدَّواهي حينَ فارَقه الجهلُ

وقال عوف بن الأحوص:

فإنِّي وقيساً كالمسمِّنِ كَلْبَه   تُخَدِّشُهُ أنْيَابُه وأظافِرُه

وأنشد ابن الأعرابي لبعضهم:

وهُمْ سَمَّنُوا كلباً ليأكُلَ بعضَـهـمْ ولو ظَفِروا بالحزْمِ مَا سُمِّنَ الكَلْبُ

وفي المثل: سمِّن كَلْبَكَ يَأْكُلْك.
وكان رجلٌ من أهل الشام مع الحجَّاج بن يوسف، وكان يحضُر طعامَه، فكتب إلى أهله يخبرُهم بما هو فيه من الخِصْب، وأنه قد سَمِن فكتبت إليه امرأته:

أتُهدِي ليَ القِرطاسَ والخبْزُ حاجَتِي وأنتَ على بابِ الأمـير بَـطِـينُ

إذا غِبْتَ لم تَذْكُرْ صَدِيقاً وإن تقمْ   فأنتَ على ما في يَدَيك ضَـنِـينُ

فأنت ككَلْبِ السَّوْءِ في جُوعِ أهلِـه   فيُهْزَلُ أهلُ الكلب وهو سَمِـينُ

وفي المثل: سمن كلب في جوع أهلِه، وذلك أنه عند السُّواف يصيب المال، والإخداج يعرض للنُّوق، يأكُلُ الجِيفَ فيسمَن، وعلى أنه حارسٌ مُحتَرَسٌ منه، ومؤنسٌ شديد الإيحاش من نفسه، وأليفٌ كثير الخيانةِ على إلفِه، وإنما اقتنوه على أنْ ينذِرَهم بموضع السارق، وتركوا طرده لينبههُم على مكان المبيِّت، وهو أسرقُ من كل سارق، وأدومُ جنايةً من ذلك المبيِّت، ويدلُّ على أنَّه سروقٌ عندَهم، قولُ الشاعر:

أفِي أنْ سرَى كلبٌ فبيَّت جُلَّةً   وجَبْجَبةً للوَطب لَيْلَى تُطلقُ

فهو سَرَّاق، وصاحب بَيات، وهو نَبَّاشٌ، وآكلُ لحومِ النَّاس، ألا إنَّه يجمعُ سِرقة الليل مع سرقة النَّهار، ثم لا تجده أبداً يمشي في خِزانةٍ، أو مطبَخ، أو عَرْصةِ دار، أو في طريقٍ، أو في براريَّ، أو في ظهرِ جَبل، أو في بَطْن وادٍ، إلاَّ وخطمُه في الأرض يتشمَّم ويستروح، وإنْ كانت الأرضُ بيضاءَ حَصَّاءَ ودَوِّيَّةً ملساءَ، أو صخرةً خلقاء؛ حرصاً وجشعاً، وشرهاً وطمعاً، نعم حتَّى لا تجده أيضاً يرى كلباً إلاَّ اشتمَّ استَه، ولا يتشمَّم غيرهَا مِنهُ، ولا تراه يُرمَى بحجر أيضاً أبداً إلاَّ رجَع إليه

فعضَّ عليه؛ لأنَّه لمَّا كان لا يكاد يأكلُ إلاَّ شيئاً رمَوا به إليه صار ينسَى لِفَرْط شرَهِه وغلَبة الجشع على طبعه، أنَّ الراميَ إنَّما أراد عقْره أو قتلَه، فيظنّ لذلك أنَّه إنَّما أراد إطعامه والإحسانَ إليه، كذلك يخيِّل إليه فرْطُ النَّهم وتُوهِمُه غلبَةُ الشَّرَه، ولكنَّه رَمى بنفسِه على الناس عجزاً ولؤماً، وفُسولةً ونقصاً، وخافَ السباعَ واستوحش من الصَّحارى.

ولَمَّا سمِعوا بعضَ المفسِّرين يقول في قوله تعالى: "وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ، لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ" إنَّ المحروم هو الكلب؛ وسمِعوا في المثَل: اصنَعُوا المعروفَ ولو إلى الكلب عَطَفُوا عليه واتَّخَذُوه في الدُّور، وعلى أنَّ ذلك لا يكون إلاَّ من سِفْلَتهم وأغبيائهم، ومن قلَّ تقزُّزُهُ وكثُر جهلُه، وردَّ الآثارَ إمَّا جهلاً وإمَّا معانَدة.

وأما الديك فمِن بهائم الطير وبغاثها، ومن كلولِها والعِيال على أربابها، وليس مِنْ أحرارها ولا مِنْ عِتاقِها وجوارحها، ولا ممَّا يطرب بصوته ويُشجِي بلحنه، كالقماريِّ والدَّباسيِّ والشَّفَانين والوراشِين والبلابل والفواخت، ولا ممَّا يُونِق بمنظره ويمتع الأبصار حسنُه، كالطواويس والتَّدارج، ولا مما يعجِب بهدايته ويُعقد الذمام بإلْفه ونِزاعه، وشدةِ أُنسه وحنينه، وتُريده بإرادته لك، وتَعطِف عليهِ لحبِّهِ إياك، كالحمام، ولا هو أيضاً من ذوات الطيران منها، فهو طائرٌ لا يطير، وبهيمةٌ لا يَصيد، ولا هو أيضاً مما يكون صيداً فيمْتِع من هذه الجهة ويُراد لهذه اللَّذة.

والخُفَّاش أمرَطُ، وهو جيِّدُ الطيران، والدِّيكُ كاسٍ وهو لا يطير، وأيُّ شيءٍ أعجبُ من ذي ريشٍ أرضيٍّ، ومن ذي جلدةٍ هوائيّ. وأجمعُ الخلق لخصال الخير الإنسان، وليس الزِّواجُ إلاَّ في الإنسان وفي الطير، فلو كان الديك من غير الطير ثمَّ كان ممن لا يزاوج، لقد كان قد مُنِع هذه الفضيلة وعَدِم هذه المشاكَلَة الغريبة، وحُرِم هذا السَّببَ الكريم والشِّبْه المحمود، فكيف وهو لا يزاوج، وهو من الطير الذي ليس الزواجُ والإلْف وثباتُ العهْد، وطلَبُ الذرء وحبُّ النَّسل، والرجوعُ إلى السكن والحنين إلى الوطن - إلاَّ له وللإنسان، وكلُّ شيء لا يزاوج فإنَّما دخله النقصُ وخسِر هذه الفضيلَة من جهةٍ واحدة، وقد دخل الديكَ النقص مِنْ جهتين، ووصف أبو الأخزَر الحِمَّانيُّ الحِمارَ وعَيْر العانةِ خاصَّة، فإنَّه أمثلُ في باب المعرفة من الأهْليّ، فذكركيف يضرب في الأُتُن، ووصَفَ استبهامَه عن طلب الولد، وجهلَه بموْضِع الذَّرْء، وأنَّ الولدَ لم يجئ منه عن طلبٍ له، ولكن النُّطفة البريئة من الأسقام، إذا لاقت الأرحام البريئَة مِن الأسقام حَدَث النِّتاج على الخلقة، وعلى ما سوِّيت عليه البِنية، وذكر أنّ نزوَه على الأتان، من شكل نَزْوه على العير، وإنَّما ذلك على قدْر ما يحضُره من الشَّبَق، ثمَّ لا يلتفِت إلى دُبرٍ من قُبُل، وإلى ما يَلقحُ من مثلِه ممَّا لا يُلقحُ فقال:

لا مُبْتَغِي الضِّنْءِ ولا بالعازلِ

يقول: هو لا يريد الولَد ولا يعزل.

والأشياء التي تألفُ الناسَ ولا تريدُ سِواهم، ولا تحنُّ إلى غيرهم، كالعصفور

والخُطّاف والكلْب والسِّنَّور، والدِّيك لا يألَفُ منزلَه ولا رَبْعه ولا يُنازع إلى دجاجته ولا طَرُوقته، ولا يحنُّ إلى ولده، بل لم يَدرِ قطُّ أنّ له ولداً؛ ولو دَرَى لكان على درايتِهِ دليل، فإذ قد وجدناه لبيضِه وفراريجِهِ الكائنةِ منه، كما نجدُه لما لم يلدْه ولِمَا ليسَ من شَكلهِ ولا يرجِع إلى نسبه، فكيف تُعرَف الأمور إلاّ بهذا وشبهه، وهو مع ذلك أبلَهُ لا يعرف أهلَ داره، ومبهوتٌ لا يُثْبتُ وَجهَ صَاحِبه، وهو لم يُخْلَق إلاَّ عندَه وفي ظلّه، وفي طعامِه وشرابه، وتَحْتَ جناحه.

والكلْبُ على ما فيه يعرف صاحبَهُ، وهو والسِّنَّور يعرفان أسماءهما، ويألَفان موضعَهما، وإن طُردا رَجعا، وإن أُجيعا صَبَرَا، وإن أُهِينا احتملا.

والديك يكون في الدار من لَدُنْ كانَ فَرُّوجاً صغيراً إلى أن صار ديكاً كبيراً، وهو إن خرَج من باب الدار، أو سقط على حائط من حيطان الجيران، أو على موضعٍ من المواضع، لم يعرفْ كيف الرُّجوعُ، وإن كان يُرَى منزلُه قريباً، وسهل المطلبِ يسيراً، ولا يَذْكُر ولا يتذكَّر، ولا يهتدي ولا يتصوَّر لَه كيف يكونُ الاهتداء، ولو حنَّ لَطَلَبَ، ولو احتاج لالتمس، ولو كان هذا الخُبْرُ في طباعه لظهَر، ولكنَّهَا طبيعةٌ بلهاءُ مستبهمة، طامحة وذاهلة، ثمَّ يسفَدُ الدَّجاجة ولا يعرفُها، هذا مع شدَّةِ حاجته إليهنَّ وحِرصِه على السِّفاد، والحاجةُ تفتِقُ الحِيلَة، وتَدُلُّ على المعرفة، إلاَّ ما عليه الديك؛ فإنَّه مع حِرصهِ على السِّفاد، لا يعرفُ التي يسفَد، ولا يقصِد إلى ولدٍ، ولا يحضُن بيضاً ولا يعطِفُه رَحِمٌ، فهو من ها هنا أحمقُ من الحُبارَى وأعقُّ من الضبِّ، وقال عثمان بن عفَّان رضي اللّه تعالى عنه: كلُّ شيءٍ يحبُّ ولدَه حتى الحُبَارى، فضرَب بها المثلَ كما ترى في المُوق والغفْلة، وفي الجهل والبَلَه، وتقول العرب: أعَقُّ من الضَّبِّ؛ لأنَّه يأكلُ حُسُولَه.

أكل الهرة أولادها وكرمُ عند العرَب حظُّ الهِرَّة، لقولهم: أبَرُّ مِنْ هِرَّة، وأعقُّ مِنْ ضَبٍّ، فوَجَّهوا أكلَ الهِرَّةِ أولادَها على شدَّة الحبِّ لها، ووجَّهوا أكْلَ الضبِّ لها على شدَّةِ البغْض لها، وليس ينجو مِنْهُ شيءٌ منها إلاّ بشغْلِه بأكْل إخْوته عنه، وليس يحرُسُها ممَّا يأكلُها إلاَّ ليأكلَها، ولذلك قال العَمَلَّسُ بن عَقيل، لأبيه عَقيل بن عُلَّفَة:

أكلْتَ بَنِيك أكْلَ الضَّبِّ حتَّى وَجدتَ مَرارةَ الكلأ الوبيل

فلو أنَّ الأُلَى كانوا شهوداً منَعْتَ فِناءَ بيتك من بَجيلِ

وقال أيضاً:

أكلْت بَنِيك أكل الضَّبِّ حتَّى تركت بَنِيك لَيْسَ لَهُمْ عديد

وشبَّه السّيِّدُ بن محمَّد الحميريُّ، عائشة رضي اللّه تعالى عنها في نصْبِها الحربَ يوم الجملِ لقتال بنيها، بالهِرَّةِ حين تأكلُ أولادَها، فقال:

جَاءَتْ معَ الأشْقَينَ في هَوْدَجٍ تُزْجِي إلى البَصْرَةِ أجْنَادَها

كأنَّها في فِعلِها هِرَّةٌ   تُريدُ أن تأكُلَ أولادَهَا

رعاية الذئبة لولد الضبع وتقول العرب أيضاً: أحمَقُ مِنْ جَهيزَة، وهي عِرس الذئب؛ لأنَّها تدعُ ولدها وترضع ولد الضبع.
قال: وهذا معنى قولِ ابن جِذْل الطِّعَان.

كَمُرضِعَةٍ أولادَ أخرَى وضَيَّعَتْ   بَنِيهَا فلم تَرْقع بذلك مَرْقعا

رعاية الذئب لولد الضبع ويقولون: إنَّ الضبعَ إذا صِيدَت أو قُتلت، فإنَّ الذئب يأتي أولادَها باللحم، وأنشد الكُميت:

كما خَامَرَتْ في حِضْنِها أمُّ عامرٍ لِذِي الحبل حتى عَالَ أوسٌ عِيالها

وأوس هو الذئب، وقال في ذلك:

في كلِّ يومٍ من ذُوَالَه   ضِغْثٌ يَزيد على إبَالَه

فلأحْشأنَّك مِشْقَصاً   أوساً أُويسُ من الهبالة

الأوس: الإعطاء، وأويس هو الذئب، وقال في ذلك الهذليّ:

يا ليتَ شعري عنك والأمْرُ أمَمْ   ما فَعَلَ اليومَ أويسٌ في الغنمْ

وقال أميَّةُ بن أبي الصلْت:

وأبو اليتامى كانَ يُحْسِنُ أوسهم   وَيُحوطُهم في كلِّ عامٍ جامد

حمق النعامة ويقولون: أحْمَقُ مِنْ نَعَامة كما يقولون: أشْرَدُ مِنْ نعامة قالوا ذلك لأنّها تدَعُ الحَضْن على بيضِها ساعة الحاجة إلى الطُّعم، فإن هي في خروجِها ذلك رأتْ بيضَ أخرى قد خرجت للطُّعم، حضَنَت بيضَها ونسِيت بيضَ نفسها، ولعلَّ تلك أن تُصادَ فلا ترجعُ إلى بيضها بالعَرَاء حتَّى تهلِك، قالوا: ولذلك قال ابن هَرْمَة:

فإنِّي وتَرْكي نَدَى الأكرَمينَ   وقدْحِي بكَفِّيَ زَنْداً شَحَاحا

كتاركةٍ بيضَها بالعَرَاء   ومُلبسةٍ بَيضَ أخْرَى جناحا

وقد تحضُن الحمامُ على بيض الدَّجاج، وتحضُن الدَّجاجةُ بيضَ الطاوُس، فأمَّا أن يَدَعَ بَيضَه ويحضُنَ بيضَ الدَّجاجة، أو تَدَعَ الدجاجةُ بيضَها وتحضُن بيضَ الطاوس

فلا، فأمَّا فرُّوجُ الدَّجاجة إذا خرج من تحت الحمامة؛ فإنَّهُ يكونُ أكيسَ، وأمَّا الطاوُس الذي يخرج من تحت الدَّجاجة فيكون أقلَّ حسناً وَأَبْغَضَ صوتاً.
الفرخ والفروج وكلُّ بيضةٍ في الأرض فإنَّ اسمَ الذي فيها والذي يخرُج منها فرخ، إلاَّ بيضَ الدَّجاج فإنَّه يسمى فرُّوجاً، ولا يسمَّى فرخاً، إلاَّ أن الشعراء يجعلون الفرُّوج فرخاً على التوسُّع في الكلام، ويجوِّزون في الشعر أشياءَ لا يجوِّزونها في غير الشعر، قال الشاعر:

لَعَمْري لأصْواتُ المَكَاكيِّ بالضُّحَى وسَودٌ تَدَاعى بالعشيِّ نَواعِبُه

أحبُّ إلينا من فِراخ دَجاجةٍ ومِنْ دِيكِ أنباطٍ تَنُوسُ غباغِبُه

وقال الشمَّاخ بن ضِرار:

ألا مَنْ مُبلغٌ خاقانَ عنِّي تأمَّلْ حِينَ يضربُك الشِّتاءُ

فتجعل في جنابك من صغير ومن شيخٍ أضرَّ به الفَناءُ

فراخ دَجاجةٍ يَتْبَعْنَ دِيكاً يَلُذْنَ به إذا حَمِسَ الوَغاءُ

فإنْ قلت: وأيُّ شيء بلَغَ من قدْر الكلبِ وفضيلة الديك، حتَّى يتفرّغ لذكر محاسنِهما ومساويهما، والموازنة بينهما والتنوية بذكرهما، شيخان من عِلْيةِ المتكلِّمين، ومن الجلة المتقدِّمين، وعلى أنَّهما متى أبرما هذا الحكمَ وأفصحا بهذه القضيَّة، صار بهذا التدبير بهما حظٌّ وحكمة وفضيلة وديانة، وقلدَهما كلُّ مَن هو دونَهما، وسيعودُ ذلك عذراً لهما إذا رأيتهما يوازيان بين الذِّبَّان وبناتِ وَرْدانَ، وبين الخنافس والجِعْلان، وبينِ جميع أجناس الهمَج وأصناف الحشراتِ، والخشاش، حتَّى البعوض والفراش والديدان والقِردان فإن جاز هذا في الرأي وتمَّ عليه العمل، صار هذا الضَّربُ من النظر عِوضاً من النَّظر في التوحيد، وصار هذا الشكلُ من التمييز خَلَفاً من التعديل والتجوير، وسقط القولُ في الوعد والوعيد، ونُسي القياسُ والحكم في الاسم، وبطلَ الردُّ على أهلِ الملل، والموازنةُ بين جميع النِّحَل، والنظرُ في مراشد الناس ومصالحهم، وفي منافِعهم ومَرافقهم؛ لأنَّ قلوبَهم لا تتَّسع للجميع، وألسنَتهم لا تنطِلق بالكلِّ، وإنَّما الرأيُ أن تبدأ من الفتق بالأعظم، والأخوف فالأخوف.
وقلتَ: وهذا بابٌ من أبواب الفراغ وشكل من أشكال التطرُّف وطريق من طرق المزاح، وسَبيلٌ من سُبُل المضاحك، ورجالُ الجدِّ غير رجالِ الهزْل، وقد يحسُن بالشَّبَابِ ويقبُح مثلُه من الشيوخ، ولولا التحصيلُ والموازنَة، والإبقاء على الأدب، والدِّيانة بشدَّة المحاسبة، لما قالوا: لكلِّ مقامٍ مقال، ولكلِّ زمانٍ رجالٌ، ولكلِّ ساقطةٍ لاقطة، ولكلِّ طعامٍ أكلة.
تنوع الملكات وقوتها وضرورة ظهورها قد زعم أناسٌ أنَّ كلِّ إنسانٍ فيه آلةِ

لَمِرْفِقٍ من المرافق، وأداةٌ لمنفعةٍ من المنافع، ولا بدَّ لتلك الطبيعة من حركةٍ وإنْ أبطأت، ولا بدَّ لذلك الكامنِ من ظهور، فإنْ أمكَنَهُ ذلك بعثه، وإلاَّ سَرَى إليه كما يسري السمُّ في البدن، ونمَى كما يَنْمِي العِرق، كما أنّ البُزور البرّيَّة، والحبَّة الوحشيَّة الكامنة في أرحام الأرَضين، لا بدَّ لها من حركةٍ عندَ زمانِ الحركة، ومن التفتُّق والانتشار في إبَّانِ الانتشار، وإذا صارت الأمطارُ لتلك الأرحامِ كالنُّطفة، وكان بعضُ الأرض كالأُم الغاذية فلا بدَّ لكلِّ ثديٍ قويٍّ أن يُظهر قوَّتَه، كما قال الأوّلُ:

ولا بدَّ للمصدور يوماً من النَّفْثْ

وقال:ولا بدَّ من شَكوى إذا لم يكنْ صبرُ ولذلك صارَ طلبُ الحسابِ أخفَّ على بعضهم، وطلبُ الطِّبِّ أحبَّ إلى بعضهم، وكذلك النِّزاع إلى الهندسة، وشغَفُ أهلِ النُّجوم بالنُّجوم، وكذلك أىضاً ربَّما تحرَّك له بعد الكَبرَة، وصرَف رغبتَه إليه بعد الكهولة، على قدر قوَّة العِرق في بدنه، وعلى قدْر الشَّواغل له وما يعترضُ عليه، فتجد واحداً يَلهج بطلب الغِناء واللحون، وآخر يلهج بشهوة القتال، حتى يَكْتَتِبَ مع الجُند، وآخر يختار أن يكون ورّاقاً، وآخر يختارُ طلبَ الملك، وتجِدُ حرصَهم على قدر العلل الباطِنة المحرِّكة لهم، ثمَّ لا تَدْري كيف عرضَ لهذا هذا السّببُ دونَ الآخَر إلاَّ بجملة من القول، ولا تجدُ المختارَ لبعض هذه الصناعات على بعضٍ يعلَمْ لم اختارَ ذلك في جملةٍ ولا تفسير، إذّ كان لم يَجْرِ منه عَلَى عِرْق، ولا اختارَه على إرْث.
من سار على غير طبعه وليس العجبُ من رجلٍ في طباعه سببٌ يَصِل بينه وبينَ بعض الأمور ويحرِّكه في بعض الجهات، ولكنَّ العجبَ ممَّن يموت مغنِّياً وهو لا طبعَ له في معرفة الوزن، وليس له جِرمٌ حسَن، فيكون إن فاته أن يكون معلِّماً ومغنِّيَ خاصَّة أنْ يكون مُطرباً ومُغنِّيَ عامّة، وآخر قد ماتَ أن يُذكرَ بالجود، وأن يسخَّى على الطعام، وهو أبخلُ الخلق طبعاً، فتراه كلفاً باتِّخاذ الطيِّبات ومستَهتَراً بالتكثير منها، ثمّ هو أبداً مفْتَضِحٌ وأبداً منتقض الطباع، ظاهرُ الخطأ، سيِّئ الجزع عندَ مؤاكلةِ من كان هو الداعيَ له، والمرسِلَ إليه، والعارفِ مقدارَ لَقْمِه ونهاية أكله، فإنْ زعمتم أنَّ كلَّ واحدٍ من هؤلاء إنَّما هو رهنٌ بأسبابه، وأسيرٌ في أيدي عِلَله، عذَرتم جميعَ اللئام وجميع المقصِّرين، وجميعَ الفاسقين والضالِّين، وإن كان الأمر إلى التمكين دونَ التسخير،أفليس من أعجبِ العجبَ ومن أسوأ التقدير التمثيل بين الدِّيَكة والكِلاب.
قدْ عَرَفنا قولَك، وفهمْنا مذهبَك.
فأما قولُك: وما بلَغ من خَطَر الديك وقدر الكلب فإنَّ هذا ونحوَه كلامُ عبدٍ لم يفهم عن ربِّه، ولم يَعقِل عن سيِّده، إلاَّ بقدْر فهمِ العامَّةِ أو الطبقةِ التي تلي العامَّة، كأنَّكَ، فهَّمك اللّه تعالى، تظنُّ أنَّ خَلْقَ الحيَّةِ والعقرَب، والتدبيرَ في خلق الفَراش والذباب، والحكمة في خلْق الذئاب والأسدِ وكلِّ مبغَّضٍ إليك أو محقَّر عندك، أو مسخَّرٍ لك أو واثبٍ عليك، أنَّ التدبير فيه مختلِفٌ أو ناقص، وأنَّ الحكمة فيه صغيرةٌ أو ممزوجة.

مصلحة الكون في امتزاج الخير بالشر اعلم أنَّ المصلحة في أمرِ ابتداء الدنيا إلى انقضاءِ مُدَّتها امتزاجُ الخير بالشرِّ، والضارِّ بالنافع، والمكروهِ بالسارِّ، والضَّعَةِ بالرِّفعة، والكَثرة بالقِلَّة، ولو كان الشرُّ صِرْفاً هلَكَ الخلقُ، أو كان الخيرُ مَحضاً سقطت المِحْنَة وتقطَّعَتْ أسبابُ الفِكرة، ومع عَدَم الفِكرةِ يكون عَدَمُ الحكمة، ومتى ذهب التخيير ذهب التمييز، ولم يكن للعالِمِ تثبُّتٌ وتوقُّف وتعلُّم، ولم يكن علم، ولا يُعرف بابُ التبيُّن، ولا دفعُ مضرةٍ، ولا اجتلابُ منفعة، ولا صَبْر على مكروهٍ ولا شكْرٌ على محبوب، ولا تفاضُلٌ في بيانٍ، ولا تنَافس في درجةٍ، وبطلَت فرحةُ الظَّفَر وعزُّ الغلبة، ولم يكن على ظهرها مُحِقٌّ يجد عزَّ الحق، ومُبْطِلٌ يجد ذِلَّةَ الباطل، وموقِنٌ يجد بَرْدَ اليقين، وشاكٌّ يجد نقصَ الحَيرةِ وكَرْبَ الوُجوم؛ ولم تكن للنفوس آمالٌ ولم تتشعَّبْهَا الأطماع، ومَن لم يعرف كيف الطَّمعُ لم يعرفِ اليأس، ومن جَهِل اليأسَ جهِلَ الأمن، وعادت الحالُ من الملائكة الذين هم صفوة الخلق، ومن الإنس الذين فيهم الأنبياءُ والأولياءُ، إلى حالِ السبُعِ والبهيمة، وإلى حال الغباوةِ والبلادة، وإلى حالِ النجوم في السُّخْرة؛ فإنها أنقص من حالِ البهائم في الرَّتْعَةِ، ومَنْ هذا الذي يسرُّه أن يكون الشمسَ والقمرَ والنَّارَ والثلج، أو برجاً من البروج أو قطعةً من الغيم؛ أو يكونَ المَجرَّةَ بأسْرِها، أو مكيالاً من الماء أو مقداراً من الهواء؟ وكلُّ شيءٍ في العالم فإنما هو للإنسان ولكلِّ مختَبَرٍ ومُختَار، ولأهل العقول والاستطاعة، ولأهل التبيُّن والرويَّة.

وأين تقعُ لَذَّة البهيمة بالعَلُوفة، ولذَّة السبع بلَطْع الدَّمِ وأكل اللحم - مِن سرورِ الظَّفَر بالأعداء؛ ومِن انفتاح بابِ العلم بعد إدْمان القرْع؟ وأين ذلك من سرورِ السُّودَد ومن عزِّ الرياسة؟ وأين ذلك من حالِ النُّبوّةِ والخِلافة، ومِن عزِّهما وساطع نورهما، وأينَ تقعُ لذَّةُ دركِ الحواسِّ الذي هو ملاقاةُ المطعَم والمشرب، وملاقاةُ الصوتِ المُطرِبِ واللّونِ المونق، والملمسة الليِّنة - مِن السرور بنَفاذ الأمر والنَّهي، وبجواز التوقيع، وبما يُوجب الخاتَمُ من الطاعة ويُلزِم من الحجَّة؟، ولو استَوت الأمور بطَلَ التمييزُ، وإذا لم تكن كلفةٌ لم تكن مَثوبة، ولو كان ذلك لبطلتْ ثمرةُ التوكُّلِ على اللّه تعالى، واليقينِ بأنَّه الوَزَرُ والحافظ، والكالئ والدافع، وأنَّ الذي يحاسِبُك أَجْوَدُ الأجْوَدِين، وأرحَمُ الراحمين، وأنه الذي يقبلُ اليسيرَ ويَهَبُ الكثير، ولا يهلِك عليه إلاّ هالك، ولو كان الأمرُ على ما يشتهيه الغَرير والجاهلُ بعواقبِ الأمور، لبطلَ النَّظرُ وما يشحذ عليه، وما يدعو إليه، ولتعطَّلت الأرواحُ من معانيها، والعقولُ من ثِمارها، ولعَدِمت الأشياءُ حظوظَها وحقوقَها.

فسبْحَان من جعل منافعَها نعمةً، ومضارَّها ترجع إلى أعظم المنافع، وقسّمها بين مُلِذٍّ ومُؤلم، وبين مؤنِسٍ ومُوحش، وبين صَغيرٍ حقير وجليل كبير، وبين عدوٍّ يرصُدُك وبين عقيلٍ يحرسك، وبين مُسَالمٍ يَمْنَعُكَ، وبين مُعينٍ يعضدُك، وجعَل في الجميع تمامَ المصلحة، وباجتماعها تتمُّ النعمة، وفي بطلانِ واحدٍ منها بُطلانَ الجميع، قياساً قائماً وبرهاناً واضحاً، فإنّ الجميع إنَّما هو واحدٌ ضُمّ إلى واحدٍ وواحدٌ ضُمَّ إليهما، ولأنّ الكلَّ أبعاضٌ، ولأنّ كلَّ جُثَّةٍ فمن أجزاء، فإذا جوَّزتَ رفْعَ واحدٍ والآخرُ مثلُه في الوزن وله مثلُ علّتِه وحظِّه ونصيبه، فقد جوَّزْتَ رفعَ الجميع؛ لأنّه ليس الأولُ بأحقَّ من الثاني في الوقت الذي رجوتَ فيه إبطالَ الأوَّل،

والثاني كذلك والثالث والرابع، حتَّى تأتيَ على الكلِّ وتستفرغ الجميع، كذلك الأمورُ المضمَّنة والأسباب المقيَّدة؛ ألا ترى أنَّ الجبلَ ليس بأدلَّ على اللّه تعالى مِنْ الحصاة، وليس الطاوسُ المستحسنُ بأدَلَّ على اللّه تعالى مِنْ الخِنزير المستقبح، والنارُ والثلج وإنْ اختلفا في جِهَة البرودة والسُّخونة، فإنَّهما لم يختلفا في جهة البرهان والدَّلالة.
وأظنُّك ممَّن يرى أنَّ الطاوسَ أكرمُ على اللّه تعالى من الغراب، وأن التُّدْرُجَ أعزُّ على اللّه تعالى من الحِدَأةِ، وأنّ الغزالَ أحبُّ إلى اللّه تعالى من الذئب، فإنَّما هذه أمور فرّقها اللّه تعالى في عيون الناس، وميَّزها في طبائع العباد، فجعَلَ بعضها بهم أقربَ شبهاً، وجعل بعضَها إنسيّاً، وجعل بعضَها وحشيّاً، وبعضها غاذِياً، وبعضها قاتلاً، وكذلك الدُّرَّة وَ الخَرَزة والتمرة والجَمرة.
فلا تَذْهَبْ إلى ما تريك العينُ واذهَبْ إلى ما يريك العقل.
الاعتماد على العقل دون الحواس وللأمور حكمان: حكم ظاهرٌ للحواس، وحكم باطنٌ للعقول، والعقل هو الحجَّة، وقد علمْنا أنَّ خَزَنَةَ النار من الملائكة، ليسوا بدون خزَنَةِ الجنَّة؛ وأنَّ ملك الموت ليس بدُونِ ملَكِ السَّحاب، وإن أتانا بالغيث وجلب الحيَاء؛ وجبريلُ الذي يَنْزِل بالعذاب، ليسَ بدونِ ميكائيل الذي ينزل بالرحمة؛ وإنَّما الاختلاف في المطيع والعاصي، وفي طبقاتِ ذلك ومواضعه، والاختلاف بين أصحابنا أنَّهم إذا استووا في المعاصي استَووا في العقاب، وإذا استَووا في الطاعة استووا في الثواب، وإذا استووا في عدم الطاعة والمعصية استووا في التفضل، هذا هو أصل المقالة، والقُطْب الذي تدورُ عليه الرحى.

التين والزيتون

وقد قال اللّه عزّ وجلَّ: "وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ" فزعم زَيدُ بنُ أسلم أنَّ التِّين دمشق، والزيتون فِلَسطين، وللغاليةِ في هذا تأويلٌ أرغبُ بالعِتْرة عنه وذكره، وقد أخرَجَ اللّه تبارك وتعالى الكلامَ مُخرَجَ القسم، وما تُعرَف دِمَشق إلاّ بدِمشق، ولا فِلَسطين إلاّ بفلسطين، فإن كنتَ إنَّما تقف من ذكرِ التين على مقدار طعمِ يابسِه ورَطْبه، وعلى الاكتنانِ بورَقِه وأغصانه، والوَقود بعيدانه، وأنّه نافعٌ لصاحب السُّلِّ، وهو غذاءٌ قويٌّ ويصلُح في مواضعَ من الدواء، وفي الأضْمدةِ، وأنَّه ليس شيءٌ حلو إلاّ وهو ضارٌّ بالأسنانِ غيره، وأنَّه عند أهلِ الكتاب الشَّجرةُ التي أكَلَ منها آدمُ عليه السلام، وبورقها ستَرَ السّوءَة عند نزولِ العقوبة، وأنّ صاحبَ البواسير يأكله ليُزْلِقَ عنه الثفل، ويسهلَ عليه مخرج الزِّبل؛ وتقف من الزيتون على زيتِه والاصطباح به، وعلى التأدُّم بهما والوَقود بشجرهما، وما أشبه ذلك من أمرهما - فقدْ أسأتَ ظنّاً بالقرآن، وجهلتَ فضلَ التأويل، وليس لهذا المقدارِ عظّمهما اللّه عزّ وجلَّ، وأقسَمَ بهما ونوّه بذكرهما.

التأمل في جناح البعوضة

ولو وقفْتَ على جَناح بَعوضةٍ وُقوفَ معتبر، وتأمَّلتَه تأمُّلَ متفكِّر بعد أن تكونَ ثاقبَ النَّظرِ سليمَ الآلَة، غوَّاصاً على المعاني، لا يعتريك من الخواطر إلاّ على

حسب صحَّةِ عقلك، ولا من الشواغل إلاّ ما زادَ في نشاطِك، لملأت ممَّا تُوجِدك العِبرةُ من غرائب الطوامير الطّوال، والجلود الواسعةِ الكِبار، ولرَأيتَ أنَّ له من كثْرة التصرُّف في الأعاجيب، ومن تقلُّبه في طبقات الحكمة، ولرأيتَ له من الغزْر والرَّيع، ومن الحَلَب والدَّرِّ ولتَبجَّسَ عليك من كوامِنِ المعاني ودفائِنها، ومن خَفِيَّاتِ الحكم وينابيعِ العلم، ما لا يشتدُّ معه تعجّبُك ممَّن وقفَ على ما في الدِّيك من الخصالِ العجِيبة، وفي الكلبِ من الأمور الغريبة، ومن أصنافِ المنافع، وفنون المرافق؛ وما فيهما من المِحَن الشّداد، ومع ما أودِعا من المعرفة، التي متى تجلَّت لك تصاغَرَ عندك كَبيرُ ما تستعظم، وقلَّ في عينك كثير ما تستكثر، كأنَّك تظنُّ أنَّ شيئاً وإنْ حسُن عندك في ثمنِه ومنظره، أنَّ الحكمةَ التي هي في خلْقه إنَّما هي على مقدارِ ثمنه ومنظره.

كلمات اللّه

وقد قال اللّه تعالى: "وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِماتُ اللّهِ" والكلماتُ في هذا الموضع، ليس يُريد بها القولَ والكلامَ المؤلَّفَ من الحروف، وإنَّما يريد النِّعَم والأعاجيب، والصفات وما أشبه ذلك، فإنَّ كلاًّ من هذه الفنون لو وقف عليه رجلٌ رقيقُ اللسان صافي الذهن، صحيحُ الفِكْر تامُّ الأدَاة، لما بَرِح أن تحسره المعاني وتَغْمرَه الحِكَم.
وقد قال المتكلمون والرؤساء والجِلّةُ العُظماءُ في التمثيل بين الملائكةِ والمؤمنين، وفي فرق ما بين الجنِّ والإنس، وطباعُ الجنِّ أبعدُ من طباع الإنس، ومن طباع الديك، ومن طباع الكلب، وإنَّما ذهبوا إلى الطاعة والمعصية، ويخيَّل إليَّ أنك لو كنت سمعتَهما يمثّلان ما بين التُّدْرُج والطاوُس، لَمَا اشتدَّ تعجُّبُك، ونحن نرى أنَّ تمثيلَ ما بينَ خصالِ الذَّرَّة والحمامة، والفيل والبعير، والثَّعلبِ والذيب أعجَب، ولسنا نعني أنَّ للذَّرَّة ما للطاوس من حسنِ ذلك الريش وتلاوينه وتعاريجه، ولا أنَّ لها غَناءَ الفرَس في الحرب والدَّفْع عن الحريم؛ لكنَّا إذا أردنا مواضعَ التدبير العجيبِ من الخلْق الخسيس، والحسِّ اللطيفِ من الشيء السخيف، والنَّظرِ في العواقب من الخلق الخارج من حدود الإنس والجنِّ والملائكة، لم نذهب إلى ضِخَم البدَن وعِظَم الحجم، ولا إلى المنظر الحسَن ولا إلى كثرة الثمن، وفي القرد أعاجيبٌ وفي الدُّبِّ أعاجيب، وليس فيهما كبير مَرْفِقٍ إلاّ بقدْرِ ما تتكسَّب به أصحاب القردة، وإنما قصدنا إلى شيئين يَشِيعُ القولُ فيهما، ويكثُرُ الاعتبار ممَّا يستخرج العلماءُ من خفِيِّ أمرهما، ولو جمعْنا بين الدِّيك وبين بعض ما ذكرت، وبين الكلب وبين بعض ما وصفت، لانقطع القولُ قبل أن يبلغَ حدَّ الموازنة والمقابلة.
وقد ذكرتَ أنَّ بعضَ ما دعاك إلى الإنكار عليهما والتعجُّبِ من أمرهما، سقوطُ قدرِ الكلب ونذالتُه، وبَلَهُ الدِّيكِ وغباوتُه، وأنَّ الكلبَ لا بهيمةٌ تامَّة ولا سبعٌ تامٌّ، وما كان ليخرجَه من شيءٍ من حدود الكلاب إلى حدود الناس، مقدارُ ما هو عليه من الأنس بهم، فقد يكون في الشيءِ بعضُ الشبه مِنْ شيء ولا يكون ذلك مُخرجاً لهما من أحكامِهما وحدودِهما.

تشبيه الإنسان بالقمر والشمس ونحوهما وقد يشبِّه الشعراءُ والعلماءُ والبلغاءُ الإنسانَ بالقمر والشمس، والغيثِ والبحر، وبالأسد والسيف، وبالحيَّة وبالنَّجم، ولا يخرجونه بهذه المعاني إلى حدِّ الإنسان، وإذا ذمُّوا قالوا: هو الكلب والخنزير، وهو القِرد والحمار، وهو الثور، وهو التَّيس، وهو الذيب، وهو العقرب، وهو الجُعَل، وهو القرنْبَى؛ ثم لا يُدخِلون هذه الأشياءَ في حدود الناس ولا أسمائِهم، ولا يُخرجون بذلك الإنسانَ إلى هذه الحدودِ وهذه الأسماء، وسمَّوا الجارية غزالاً، وسمَّوها أيضاً خِشْفاً، ومُهْرةً، وفاخِتةً، وحمامةً، وزهرةً، وقضيباً، وخيزراناً، على ذلك المعنى، وصنَعوا مثلَ ذلك بالبروج والكواكب، فذكَروا الأسدَ والثور، والحَمَل والجدي، والعقربَ والحُوت، وسمَّوها بالقوس والسُّنبلة والميزان، وغيرها، وقال في ذلك ابن عَسَلة الشيبانيّ:

فصَحَوتَ والنَّمَريُّ يحسَبُها عَمَّ السِّمَاكِ وخَالةَ النَّجْمِ

ويُروى عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: نِعْمَتِ العَمة لَكُم النَّخلة خُلقت مِنْ فضلة طينةِ آدم وهذا الكلام صحيحُ المعنى، لا يَعيبه إلاّ مَن لا يعرف مجاز الكلام، وليس هذا ممَّا يطَّرِد لنا أن نقيسَه، وإنَّما نُقدِم على ما أقدَموا، ونُحجم عمّا أحجموا، وننتهي إلى حيثُ انتهوْا.
ونراهم يسمُّون الرجلَ جملاً ولا يسمُّونه بعيراً، ولا يسمُّون المرأةَ ناقة؛ ويسمُّون الرجلَ ثوراً ولا يسمُّون المرأةَ بقرةً، ويُسَمُّونَ الرجل حماراً ولا يسمون المرأة أتاناً؛ ويسمُّون المرأة نعجةً ولا يسمُّونها شاة، وهم لا يضعون نعجةً اسماً مقطوعاً، ولا يجعلون ذلك علامةً مثلَ زيد وعمرو، ويسمُّون المرأة عنْزاً.

تسمية الإنسان بالعالم الأصغر

أوَ ما علمتَ أنّ الإنسان الذي خُلقت السمواتُ والأرضُ وَمَا بَينَهما مِن أجْله كما قال عزَّ وجلَّ: "سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ" إنَّما سَمُّوه العالَم الصغير سليلَ العالَم الكبير، لِمَا وجَدوا فيه من جَمع أشكالِ ما في العالم الكبير، ووجدْنا له الحواسَّ الخمسَ ووجدُوا فيه المحسوساتِ الخمس، ووجدُوه يأكل اللَّحمَ والحبَّ، ويجمعُ بينَ ما تقتاته البهيمةُ والسبع، ووجَدوا فيه صَولةَ الجمل ووُثوبَ الأسد، وغدْرَ الذئب، ورَوَغان الثعلب، وجُبْن الصِّفْرِد، وجَمْعَ الذَّرَّةِ، وصنْعة السُّرْفة وجُودَ الدِّيك، وإلفَ الكلب، واهتداءَ الحمام، وربَّما وجدوا فيه ممَّا في البهائم والسباع خُلُقيْن أو ثلاثة، ولا يبلغُ أن يكون جملاً بأن يكون فيه اهتداؤه وغيرته، وصَولته وحِقدُه، وصبرُه على حَمْل الثِّقْل، ولا يلزَم شبهُ الذئبِ بقدْر ما يَتَهَيَّأ فيه من مِثل غدْره ومكْره، واسترواحِه وتوحُّشه، وشدَّة نُكْره، كما أن الرجلَ يصيبُ الرأيَ الغامضَ المرَّةَ والمرَّتين والثَّلاثَ، ولا يبلغُ ذلك المقدارُ أن يقال له داهيةٌ وذو نَكراء أو صاحبُ بَزْلاء، وكما يخطئ الرجل فيفحُش خَطاؤه في المرَّة والمرَّتين والثلاث، فلا يبلغ الأمرُ به أن يقال له غبيٌّ وأبلهُ ومنقوص. وسمَّوه العالمَ الصغيرَ لأنَّهم وجدُوه يصوِّر كلَّ شيءٍ بيده، ويحكي كلَّ صوتٍ بفَمه، وقالوا:

ولأنَّ أعضاءَه مقسومةً على البروج الاثني عشر والنجومِ السبعة، وفيه الصفراء وهي من نِتاج النار، وفيه السوداء وهي من نِتاج الأرض، وفيه الدَّمُ وهو من نِتاج الهواء، وفيه البلغَمُ وهو من نِتاج الماء، وعلى طبائعه الأربع وضعت الأوتاد الأربعة، فجعَلوه العالَمَ الصغير، إذ كانَ فيه جميعُ أجزائِه وأخلاطِهِ وطبائعه، ألا تَرَى أنَّ فيه طبائعَ الغضبِ والرضَا، وآلة اليقين والشكِّ، والاعتقاد والوقف وفيه طبائعُ الفِطنةِ والغَباوة، والسلامة والمكر، والنصيحةِ والغِشِّ، والوَفاء والغدر، والرياء والإخلاص، والحبّ والبُغْض، والجِدِّ والهزْل، والبخْل والجُود، والاقتصادِ والسَّرَف، والتواضع والكبر، والأُنسِ والوحشة، والفكرة والإمهال، والتمييز والخبْط، والجبْن والشجاعة، والحزم والإضاعة، والتبذير والتقتير، والتبذل والتعزز، والادِّخار والتوكُّل، والقناعة والحِرْص، والرغبة والزُّهْد، والسُّخْط والرِّضا، والصبر والجزَع، والذّكر والنسيان، والخوفِ والرجاء، والطَّمَع واليأس، والتنزُّه والطبَع، والشكِّ واليقين، والحياء والقِحَة، والكِتْمانِ والإشاعة، والإقرار والإنكار، والعلم والجهل، والظلم والإنصاف، والطلب والهَرب، والحِقْد وسرْعة الرضا، والحِدَّةِ وبُعْدِ الغضب، والسُّرور والهمّ، واللَّذَّةِ والألَم، والتأميلِ والتمنِّي، والإصرارِ والنَّدَم، والجِمَاح والبَدَوات، والعيِّ والبلاغة، والنُّطْق والخَرَس، والتصميمِ والتوقف، والتغافُلِ والتفاطُن، والعفوِ والمكافأة، والاستطاعةِ والطبيعة، وما لا يحصى عدده، ولا يُعرَف حَدُّه.

فالكلبُ سبع وإن كانَ بالناس أنيساً، ولا تخرجُه الخصلة والخَصلتان ممَّا قاربَ بعضَ طبائِع الناس، إلى أن يخرجَه من الكَلْبيَّة، قال: وكذلك الجميع، وقد عرَفت شبَه باطنِ الكلب بباطن الإنسان، وشبَه ظاهِر القرد بظاهر الإنسان: ترى ذلك في طَرْفِه وتغميضِ عينه، وفي ضِحْكه وفي حكايته، وفي كفّه وأصابعه، وفي رفعِها ووضعِها، وكيف يتناولُ بها، وكيف يجهز اللُّقمة إلى فيه وكيف يكسِر الجَوْزَ ويستخرج لبَّه وكيف يَلْقَنُ كل مَا أُخِذَ به وأُعِيدَ عليه، وأنَّهُ من بين جميع الحيوان إذا سقط في الماء غرق مثْلَ الإنسان، ومع اجتماع أسبابِ المعرفة فيه يغرق، إلاَّ أن يكتسب معرفةَ السباحة، وإن كان طبعُه أوفى وأكمل فهو من هاهنا أنقص وأكلُّ، وكلُّ شيءٍ فهو يسبَح من جميع الحيوانات، ممَّا يوصف بالمعرفة والفِطنة، وممَّا يوصَفُ بالغَباوة والبَلادة؛ وليس يصير القردُ بذلك المقدار من المقارَبَة إلى أن يخرُج من بعض حدود القرود إلى حدود الإنسان.

عود إلى الحوار في شأن الكلب والديك وزعمتَ أنَّ ممَّا يمنعُ من التمثيل بين الديك والكلب أنّه حارسٌ محترسٌ منه، وكلُّ حارسٍ من الناس فهو حارسٌ غيرُ مأمونِ تَبدُّلُه.

ولقد سأل زيادٌ ليلةً من الليالي: مَنْ على شُرطتكم؟ قالوا: بَلْج بنُ نُشْبَة الجُشَميّ، فقال:

وساعٍ مع السلطانِ يَسعى عليهمُ ومحتَرِسٍ مِن مثْلِه وهو حارس

ويقال: إن الشاعر قال هذا الشعرَ في الفلافس النَّهشَليّ، حين ولِيَ شُرطة الحارث بن عبد اللّه فقال:

أقلّي عليَّ اللومَ يا ابنة مـالـكٍ   وذُمِّي زماناً سادَ فيه الفُلافسُ

وساع مع السلطان يَسعَى عليهمُ ومُحتَرسٍ من مثلِه وهو حارسُ

وليس يُحكمَ لِصغار المضارِّ على كبارِها بل الحكمُ للغامر على المغمور والقاهِر على المقهور، ولو قد حكَينا ما ذكر هذا الشَّيخُ من خِصال الكلب وذكَرَ صاحبُه من خصالِ الديك، أيقنتَ أنَّ العجَلة من عمل الشيطان، وأنَّ العُجْبَ بئس الصاحب.
وقلتَ: وما يبلغُ من قدْر الكلب ومِن مقدارِ الديك، أن يتفرَّغ لهما شيخان من جِلَّة المعتزِلة، وهم أشراف أهلِ الحكمة؛ فأيُّ شيءٍ بلغ، غفر اللّه تعالى لك، من قدْرِ جزءٍ لا يتجزَّأ من رمْل عالج، والجزءِ الأقلِّ من أوَّل قطْع الذَّرَّة للمكان السحيق، والصحيفة التي لا عمقَ لها، ولأيِّ شيء يُعنَوْن بذلك، وما يبلغ من ثمنِه وقدْرِ حجْمه، حتَّى يتفرَّغَ للجدالِ فيه الشُّيوخ الجِلَّة، والكهولُ العِلْية، وحتَّى يختاروا النَّظَرَ فيه على التسبيح والتهليل، وقراءةِ القرآن وطولِ الانتصابِ في الصلاة؛ وحتَّى يزعم أهلُه أنَّه فوقَ الحجِّ والجهاد، وفوقَ كلِ برٍّ واجتهاد، فإنْ زعمتَ أنّ ذلك كلّه سواءٌ، طالت الخُصومةُ معَك، وشغلْتنا بهما عمّا هو أولى بنا فيك، على أنَّك إذا عَممْتَ ذلك كلَّه بالذمِّ، وجلَّلته بالعيب، صارت المصيبةُ فيك أجلَّ، والعزاءُ عنها أعسر، وإن زعمتَ أنَّ ذلك إنَّما جاز لأنَّهم لم يذهبُوا إلى أثمان الأعيان في الأسواق، وإلى عظم الحجم، وإلى ما يروقُ العينَ ويلائِمُ النفس، وأنَّهم إنَّما ذهبوا إلى عاقبة الأمر فيه، وإلى نتيجتِه، وما يتولَّد عنه من علم النِّهايات، ومن باب الكلِّ والبعْض، وكان ويكون، ومن باب ما يحيط به العلم أو ما يفضل عنه، ومن فَرق ما بين مذاهب الدُّهريَّة ومذاهب الموحِّدين، فإن كان هذا العذْرُ مقبولاً، وهذا الحكم صحيحاً، فكذلك نقول في الكلب، لأنَّ الكلبَ ليس له خطرٌ ثمين ولا قدْر في الصدرِ جليل؛ لأنَّه إن كان كلبَ صيد فديتُه أربعون دِرهماً، وإن كان كلب ضَرْعٍ فديتُه شاة، وإن كان كلبَ دارٍ فديتُه زنبيلٌ من ترابٍ، حُقَّ على القاتل أن يؤدِّيَه، وحُقَّ على صاحبِ الدار أن يقبلَه، فهذا مقدارُ ظاهِر حاله ومُفتَّشِه، وكوامِنُ خِصاله، ودفائِنُ الحكمةِ فيه، والبرهاناتُ على عجيب تدبير الربِّ تعالى ذكرُه فيه،على خلاف ذلك؛ فلذلك استجازُوا النَّظَر في شأنه، والتمثيلَ بينَه وبين نظيره، وتعلم أيضاً مع ذلك أنَ الكلبَ إذا كانَ فيه، مع خُموله وسقوطِه، مِن عجيبِ التدبير والنعمةِ السابغةِ والحكمةِ البالغة، مثلُ هذا الإنسان الذي له خلق اللّه السمواتِ والأرض وما بينهما، أحقُّ بأنْ يُفكر فيه، ويُحْمَدَ اللّهُ تعالى على ما أودَعَه من الحكمةِ العجيبةِ، والنِّعمة السابغة.
وقلت: ولو كان بدلُ النظر فيهما النظرَ في التوحيد، وفي نفي التشبيه، وفي الوعد والوعيد، وفي التعديل والتجوير، وفي تصحيح الأخبار، والتفضيلِ بين علم الطبائع والاختيار، لكان أصوبَ.
دفاع عن المتكلمين والعجبُ أنَّك عَمَدْتَ إلى رجالٍ لا صناعةَ لهم ولا تجارةَ إلاَّ الدعاء إلى ما ذكرت، والاحتجاجُ لما وصفت، وإلاَّ وضْعُ الكتبِ فيه والولايةُ والعداوةُ فيه، ولا لهمْ لَذَّةٌ ولا هَمٌّ ولا مذهبٌ ولا مجازٌ إلا عليهِ وإليه؛ فحين أرادُوا

أن يُقسِّطوا بينَ الجميع بالحِصص، ويَعْدِلوا بينَ الكلِّ بإعطاء كلِّ شيء نصيبه، حتَّى يقعَ التعديلُ شاملاً، والتقسيطُ جامعاً، ويظهرَ بذلك الخفيُّ من الحِكَم، والمستورُ من التدبير، اعترضْتَ بالتعنُّتِ والتعجُّب، وسطّرت الكلامَ، وأطلتَ الخطب، من غير أنْ يكون صوَّبَ رأيَكَ أديبٌ، وشايَعَك حكيم.

نسك طوائف من الناس وسأضرب لك مثلاً قد استوجبتَ أغلظ منه، وتعرَّضتَ لأشدَّ منه ولكنَّا نستأنِي بك وننتَظِرُ أوْبَتَك، وَجَدْنَا لجميع أهلِ النَّقص، ولأهلِ كلِّ صِنفٍ منهم نُسْكاً يعتمِدون عليه في الجَمَال، ويحتسِبون به في الطاعة وطلَب المثُوبة، ويفزَعون إليه، على قدْر فسادِ الطِّباع، وضعفِ الأصل، واضطراب الفرْع، مع خبْث المنشأ، وقلَّةِ التثبُّتِ والتوقُّفِ، ومع كثرة التقلُّب والإقدام مَعَ أوّلِ خاطر: فنُسك المَريبِ المرتابِ من المتكلِّمين أنْ يتحلَّى برمْي الناسِ بالرِّيبة، ويتزيَّنَ بإضافةِ ما يجدُ في نفسه إلى خَصمه، خوفاً من أن يكونَ قد فطِن له، فهو يستُرُ ذلك الداءَ برمْي الناس به.

ونُسكُ الخارجيِّ الذي يتحلَّى به ويتزيَّا بجماله، إظهارُ استعظامِ المعاصي، ثم لا يَلتفِت إلى مجاوزَة المقدارِ وإلى ظُلْمِ العباد، ولا يقِف على أنَّ اللّه تعالى لا يحبُّ أن يَظْلِمَ أظلمَ الظَّالمين، وأنَّ في الحقِّ ما وسِعَ الجميع. ونسْك الخُراسانيِّ أن يُحجَّ ويَنَام على قفاه، ويعقد الرِّياسة، ويتهيَّأ للشَّهادة، ويبسُطَ لسانَه بالحِسْبة، وقد قالوا: إذا نَسَك الشَّريفُ تواضَعَ، وإذا نسَكَ الوضيعُ تكبَّر، وتفسيرُه قريبٌ واضح، ونُسْك البَنَوي والجنديِّ طرحُ الديوانِ، والزِّرايةُ على السُّلطان، ونسك دَهاقِين السَّوادِ تركُ شُرْب المطبوخ، ونُسْك الخَصِيِّ لُزُوم طرَسُوس وإظهارُ مجاهَدَةِ الروم، ونُسك الرافضيِّ تركُ النبيذ، ونسك البستانيِّ تركُ سَرِقة الثَّمر، ونُسْك المغنِّي الصَّلاةُ في الجماعة وكثرةُ التسبيح، والصلاةُ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم.

ونسك اليهودِيِّ التشدُّدُ في السَّبْت وإقامته.

والصوفيُّ المظهِرُ النُّسكَ من المسلمين، إذا كان فسلاً يبغض العمل تطرف وأظهر تحريمَ المكاسب، وعاد سائلاً، وجعل مسألتَه وسيلة إلى تعظيم الناسِ له.

وإذا كان النَّصرانيُّ فسلاً نذْلاً مبغِضاً للعمَل، وترهَّب ولَبس الصُّوف؛ لأنَّه واثقٌ أنَّه متى لبس وتزيَّا بذلك الزِّيِّ وتحلَّى بذلك اللِّباس، وأظهر تلك السِّيما، أنَّه قد وجَبَ على أهل اليُسرِ والثَّروة منهم أن يعُولُوه ويَكْفُوه، ثمَّ لا يرضى بأنْ رَبحَ الكِفاية باطلاً حتى استطال بالمرتبة.

فإذا رمى المتكلِّمُ المريبُ أهلَ البراءة، ظنَّ أنَّه قد حوَّل ريبتَه إلى خَصمه، وحوَّل براءةَ خصمِه إليه، وإذا صار كلُّ واحدٍ من هذه الأصناف إلى ما ذكرنا، فقد بلغ الأمنيَّة، ووقفَ على النِّهاية، فاحذَر أن تكونَ منهم واعلَمْ أنَّكَ قد أشبهتهم في هذا الوجه، وضارعتَهم في هذا المذهب.

مما قدَّمْنَا ذكرَه، وبينَه وبينَ ما ذكرنا بعضُ الفرْق.

يقال: أجرأ من الليث، وأجبَنُ من الصِّفْرد، وأسخَى مِنْ لافِظة، وأصبرُ على الهُونِ من كَلب، وأحذر من عَقْعَق، وأزهى مِن غراب، وأصنَع من سُرفة وأظلم من حيَّة، وأغدَر من الذئب، وأخبَث من ذئبِ الخمَرَ وأشدُّ عداوةً من عقرب، وأروغُ من

ثعلب، وأحمقُ من حُبارى، وأهدى من قطاة، وأكذَبُ مِن فاختة، وألأمُ من كلبٍ على جيفة، وأجمَعُ من ذَرّة، وأضلُّ من حِمارِ أهلي، وأعقُّ من ضَبٍّ، وأبرُّ من هِرَّة، وأنْفَر من الظليم، وأضَلّ من وَرَل وأضلُّ من ضبٍّ، وأظلم من الحيَّة.
فيعبِّرون عن هذه الأشياء بعبارةٍ كالعبارة عن الناس، في مواضع الإحسان والإساءة، حتَّى كأنَّهم من الملومِين والمشكورين، ثم يعبِّرون في هذا البابِ الآخَر بدونِ هذا التعبير، ويجعلونَ خبَرهم مقصوراً على ما في الخِلقة من الغريزة والقُوى فيقولون: أبصرُ من عُقاب، وأسمعُ من فرَس، وأطولُ ذماءً من ضبٍّ، وأصحُّ من الظليم.
والثاني يشْبه العبارةَ عن الحمد والذمِّ، والأوَّل يُشبِه العبارةَ عن اللائمةِ والشكر، وإنَّما قلنا ذلك، لأنَّ كلّ مشكورٍ محمود، وليس كلُّ محمودٍ مشكوراً؛ وكلُّ ملومٍ مذموم وليس كلُّ مذمومٍ ملوماً، وقد يحمدون البَلدَةَ ويذمُّون الأخرى، وكذلك الطعامِ والشراب، وليس ذلك على جهة اللّوم ولا على جهة الشكر؛ لأنَّ الأجْر لا يقع إلاَّ على جهة التخيُّر والتكلُّف، وإلاَّ على ما لا يُنال إلاّ بالاستطاعة والأوَّلُ إنَّما يُنالُ بالخِلقة وبمقدارٍ من المعرفة، ولا يبلغ أنْ يسمَّى عقلاً، كما أنّه ليس كلُّ قوَّةٍ تسمَّى استطاعة، واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

ما ذكر صاحبُ الديك من ذمِّ الكلابِ

وتعدد أصناف معانيها

وتعداد أصناف معايبها ومثالبها، مِن لؤمها وجبنها وضعْفها وشرَهها، وغدْرها وبَذائِها، وجهْلها وتسرُّعِها، ونتْنها وقذَرها، وما جاء في الآثار من النَّهْي عن اتخاذها وإمساكها، ومن الأمْر بقتْلِها وطردها، ومن كثرةِ جناياتها وقلَّة ردِّها ومِن ضرب المثَل بلؤمها ونذالتها، وقبحِها وقبْح معاظلتِها وَمِن سماجة نُباحِها وكثرة أذاها، وتقذُّر المسلمين من دنوِّها، وأنّها تأكل لحومَ الناس، وأنَّها كالخلْق المركّبِ والحيوان الملفّق: كالبغْل في الدوابِّ وكالراعِبيِّ في الحمام، وأنّها لا سبعٌ ولا بهيمة، ولا إنسيَّةٌ ولا جِنِّيَّة، وأنَّها من الحِنِّ دون الجِنّ، وأنّها مطايا الجِنِّ ونوعٌ من المِسْخ، وأنَّها تنبُش القبورَ وتأكُلُ الموتى، وأنَّها يعتريها الكَلَبُ مِن أكل لحوم الناس. فإذا حكيْنَا ذلكَ حكَينا قولَ من عدَّد محاسنَها، وصنّف مناقبها، وأخذْنا مِنْ ذكر أسمائِها وأنسابها وأعراقها، وتفدية الرجال إيَّاها واستهتارهم بها، وذكر كسْبها وحراستها، ووفائها وإلْفها وجميع منافعها، والمرافق التي فيها، وما أُودِعت من المعرفة الصحيحةِ والفِطَن العجيبة والحسِّ اللطيف والأدب المحمود، وذلك سِوى صِدق الاسترواح وجَودَةِ الشمِّ، وذِكْر حفظها ونَفَاذها واهتدائِها، وإثباتِها لصُوَر أربابها وجيرانها، وصبرها، ومعرفتِها بحُقوق الكرام، وإهانتها اللئام، وذكر صبْرها على الجفا، واحتمالها للجوع، وذكر ذِمامها وشدَّةِ مَنْعِها مَعَاقِدَ الذِّمَارِ منها، وذكر يَقظتها وقِلَّة غفلتها وبُعْدِ أصواتها، وكثرة نسْلها وسرعة قبولها وإلقاحها وتصرُّفِ أرحامِها في ذلك، مع اختلاف طبائع ذكورها والذكور من غير جنسها، وكثرةِ أعمامِها وأخوالها، وتردُّدها في أصناف السِّباع، وسلامتها من

أعراق البهائم، وذكر لَقنها وحكايتها، وجودة ثقافتِها ومَهْنِها وخدِمتها، وجِدِّها ولِعْبها وجميع أمورها؛ بالأشعارِ المشهورة والأحاديث المأثورة، وبالكتُبِ المنَزَّلة والأمثالِ السائرة، وعن تجربةِ النَّاس لها وفِراستِهم فيها، وما عايَنوا منها؛ وكيف قال أصحابُ الفأل فيها، وبإخبار المتطيِّرين عنها، وعن أسنانها ومنتهى أعمارها وعدد جرائها، ومدَّةِ حملها، وعن أسمائها وألقابها، وسِماتِها وشِياتها، وعن دوائها وأدوائها وسياستها، وعن اللاتي لا تلقنُ منها وعن أعراقِها والخارجيِّ منها وعن أصول مواليدها ومخارج بلدانها.

وذكر صاحبُ الديك ما يحفظ من أكلِ الكلابِ للحُوم النَّاس فقال: قال الجَارود بن أبي سَبْرَة في ذلك:

ألم تر أنَّ اللّـهَ ربِّي بَـحـولْـِه وقوَّتِه أخزى ابنَ عَمْرَةَ مـالـكـا

فمنْ كانَ عنه بالـمـغـيَّبِ سـائلاً فقد صارَ في أرض الرُّصافةِ هالكا

تظلُّ الكلابُ العـاديات يَنْـشْـنَـه إذا اجتَبْن مُسْوَدّاً مِنَ الليل حالـكـا

وقال نُفَيع بن صفَّار المحاربي من ولد مُحارب بن خُصَفَة في حرب قيسٍ وتغلب:

أفْنَتْ بَني جُشَم بن بكرٍ حَرْبُنـا حتى تَعادَلَ مَيلُ تَغلِب فاستَوَى

أكَلَ الكلابُ أنوفهم وخُصَاهُمُ فلتَبْكِ تَغْلِبُ للأنوفِ وللخُصى

وقال أبو يعقوب الخُرَيمي، وهو إسحاق بن حسَّان بن قوهي في قتلَى حربٍ ببغداد:

وهَل رأيتَ الفتيانَ في بـاحة المعتْرَكِ مَعفورة مَنَاخِرُهـا

كلّ فتًى مانـعٍ حـقِـيقـتَـه يشقى به في الوَغى مَساعِرُها

باتَتْ عليه الكلابُ تنـهَـشُـه مخضوبةً من دمٍ أظافِرُهـا

وقال أبو الشمقمق وهو مَرْوان بن محمد، مولى مرْوان بن محمَّد، ويكنى أبا محمَّد:

يُوسفُ الشاعرُ فَرْخ وجَدُوه بـالأُبُـلَّـه

حَلَقِيٌّ قدْ تُـلـقّـي كامناً في جَوف جُلَّه

خيَّطوها خشْيَةَ الكل بِ عليْهِ بمِسَلَّـه

وذُكر لي عن أبي بَكر الهُذَليِّ، قال: كنَّا عندَ الحسن إذ أقبل وكيع بن أبي سُود فجلس، فقال يا أبا سعيد: ما تقولُ في دم البراغيث يُصيب الثوب: أيصلَّى فيه؟ فقال: يا عجباً ممَّن يلَغ في دماءِ المسلمين كأنَّه كلبٌ، ثم يسألُ عن دم البراغيث فقام وكيعٌ يتخلَّج في مِشيتِه كتخلُّج المجنون، فقال الحسن: إنَّ للّه في كلِّ عضوٍ منه نعمةً فيستعين بها على المعصية، اللّهمَّ لا تجعلْنا ممَّن يتقوَّى بنعمتِك على معصيتك.

ما أضيف من الحيوان إلى خبث الرائحة وقال صاحب الديك: أشياءُ مِنَ الحيوانِ تُضافُ إلى نتْنِ الجُلُود وخُبث الرائِحة، كريح أبْدان الحيَّات، وكنتْن التُّيوس وصُنانِ عرَقها، وكنتن جِلدِ الكلاب إذا أصابه مطر، وضروبٌ من النَّتن في سوى ذلك، نحنُ ذاكروها إن شاء اللّه تعالى.

وقال رَوح بن زنباع الجُذاميّ في امرأته، وضرب بالكلب المثل:

ريح الكرائمِ معروفٌ لَهُ أرَجٌ وريحُها ريحُ كلْبٍ مَسَّهُ مَطَرُ

قال: وكانت امرأةُ رَوح بن زنباع أمَّ جعفر بنتَ النُّعمان بن بشير، وكان عبدُ الملك زوَّجه إيّاها، وقال: إنَّها جاريةٌ حسناء، فاصبرْ على بَذاءِ لسانِها.

وقال الآخر:

وريحُ مَجْروبٍ وريح جُلَّه وريح كلبٍ في غَدَاةٍ طلّهْ

وأنشد أبو زيد في ذلك:

كأنَّ ريحَهُمُ من خُبْثِ طُعْمَتِهِمْ ريحُ الكلاب إذا ما بلّها المطر

ومما ذُكر به الكلبُ في أكله العَذِرة، قولُ الراجز:

أحرَصُ من كلبٍ على عِقْي صَبي

وقال مثل ذلك حَنْظلة بن عَرَادة في ذكره لابنِه السَّرَنْدَى:

ما للسَّرَنْدَى أطالَ اللّهُ أيْمَتَهُ خَلَّى أباه بقفر البيد وادَّلجا

مِجْعٌ خَبيثٌ يُعاطي الكَلْبَ طُعْمَتَه وإن رأى غفلةً من جارِهِ ولجا

رَبَّيْته وهو مثلُ الفرْخ أصْرُبُهُ والكلبُ يلحَسُ من تحتِ استِه الرَّدَجا

يقال للذي يخرُج من بطن الصبيِّ حين يخرُج من بطن أمه عِقي بكسر العين، ويقال عقى الصبي يعِقي عَقْياً، فإذا شُدَّ بطنُه للسِّمن قيل قد صُرِبَ ليسمَن، والعِقي

وهو العَقْبة الغيبة، وإيَّاه عنَى ابنُ عمر حين قيل له: هلاَّ بايعت أخاك ابن الزُّبير؟ فقال: إنَّ أخي وضَعَ يده في عَقْبَةٍ ودعا إلى البَيعة، إنِّي لا أنزَع يَدِي مِن جماعةٍ وأضعُها في فُرقة.
وفي الحديث المرفوع: الراجعُ في هِبَتِه كالرَّاجِع في قيئه، وهذا المثَلُ في الكلب.
ويقالُ: أبخَلُ من كلبٍ على جِيفة، وقال بعضُهم في الكلب: الجِيفة أحبُّ إليه من اللّحم الغريض، ويأكل العَذِرة ويرجِع في قيئه، ويشغَر ببَوله فيصير في جوفِ فيه وأنفه، ويحذفه تِلقاءَ خَيشومه.
وقال صاحب الكلب: إنْ كنتُم إنَّما تستسقطون الكلب وتستسفلونه بهذا وأشباهه، فالجيفةُ أنتنُ من العذرة، والعَذرة شرٌ من القيء، والجيفة أحبٌّ إلى أشراف السباع ورؤسائها من اللحم العبيط الغريض الغضِّ.
مأكل السبع والأسَد سَيِّد السباع، وهو يأكل الجِيفة، ولا يعرض لشرائع الوحش وافتراس البهائم، ولا للسابلة من الناس، ما وَجَدَ في فريسته فَضْلة، ويبدأ بعدَشُرْب الدَّم فيبقُر بطنَه ويأكل ما فيه من الغثيثة والثفل والحَشْوة والزِّبل، وهو يرجع في قيئه، وعنه ورث السِّنَّور ذلك.
ما قيل في السبع من الأمثال وهو المضروبُ به المثلُ في النَّجدة والبسالة، وفي شِدَّة الإقدام والصَّولة، فيقال: ما هو إلاّ الأسد على براثنه وهو أشدُّ من الأسد وهو أجرَأ من الليث العادي وفلان أسدُ البلاد وهو الأسد الأسود، وقيل لحمزة بن عبد المطّلب أسدُ اللّه، فكفاك من نُبْل الأسد أنَّه اشتُقَّ لحمزة بن عبد المطّلب من اسمه، ويقال للملك أصْيَد إذا أرادوا أن يصِفوه بالكِبْر وبقلَّةِ الالتفات، وبأنَّ أنفَه فيه أسلوب ولأنَّ الأسد يَلتفت معاً لأنَّ عنقه من عظم واحد، وقال حاتم:

هَلاَّ إذا مَطَرَ السماءُ عليكُمُ ... ورفعتَ رأسَك مثلَ رأس الأصْيَدِ

وقال الآخر:

يَذُودونَ كلباً بالرِّماح وطَيِّئاً ... وتَغْلِبَ والصِّيدَ النواظرِ من بَكر

وقال الآخر :

وكم لي بها من أبٍ أصْيَدٍ ... نَمَاه أبٌ ما جدٌ أصيَدُ

وبعدُ فإنّ الذي يأكل الجيفة لم يبعُد من طبع كثيرٍ من الناس؛ لأنَّ من الناس من يشتهي اللحمَ الغابَّ، ومنهم من يشتهي النَّمكْسُود، وَلَيْسَ بَيْنَ النَّمَكْسُودِ، وبين المصلوب اليابس كبيرُ فرق، وإنَّما يذبحون الدِّيَكَة والْبَطَّ والدَّجاج والدُّرّاج من أوَّل الليل، ليسترخيَ لحمُها، وذلك أول التَّجييف.
فالأسد أجمعُ لهذه الخصال من الكلب، فهلاَّ ذكرتمْ بذلك الأسد وهو أنبَهُ ذِكراً وأبعدُ صيتاً.
وأمَّا ما ذكرتم من نَتْن الجِلد ومن استنشاق البول، فإنَّ للتيسِ في ذلك ما ليس

للكلب، وقد شاركه في الحذْفِ ببوله تِلقاءَ أنفه، وبايَنَه بشدَّةِ الصُّنان؛ فإنَّ الأمثالَ لَه أكثرُ ذِكراً، وفي العنز أيضاً عيوب.
وفي توجيه التيس ببوله إلى حاقِّ خَيشومه قال الشاعر لبعض من يهجُوه:

دُعِيتَ يَزِيدَ كي تَزِيدَ فلم تَـزِدْ فعادَ لك المُسْمِي فأسْمَاك بالقحر

وما القَحْرُ إلاَّ التيسُ يَعْتِك بولُه عَلَيْهِ فيمذي في لَبَانٍ وفي نحر

وقال آخر في مثل ذلك:

أعثمانُ بنُ حَيَّانَ بن لؤم عَتُودٌ في مفارقِه يَبولُ

ولو أنّي أشافِهُه لشالت نَعامَتُه ويفهم ما يقول

وبعد: فما يُعلمَ من صنيع العنز في لبنها وفي الارتضاع من خلفها إلاَّ أقبح.
وقال ابن أحْمَرَ الباهليُّ في ذلك:

إنّا وجَدْنا بَني سَهْمٍ وجاملـهـم كالعنز تعطِفُ روْقيها وتَرْتَضِعُ

وقلتم: هَجَا ابْنُ غادية السلمي بعضَ الكِرام، حينَ عُزِل عن يَنْبُع، فقال لمن ظنَّ أنَّه إنَّما عُزل لمكانه:

رَكِبوك مُرتَحَلاً فظهرُك منهمُ دَبِرُ الحراقفِ والفقار مُوقَّعُ

كالكلبِ يَتْبَعُ خانِقِيهِ وينتحـي نحوَ الذين بهم يَعِزُّ ويمنـعُ

وقال ابن هَرْمة الفِهريّ:

فما عادَت لذِي يمنٍ رؤوسـاً ولا ضَرَّت بفُرْقتها نِـزارا

كعَنْزِ السَّوْءِ تَنْطح مَنْ خَلاهَا وتَرْأمُ مَنْ يُحِدُّ لها الشِّفَـارَا

وما نعلم الرُّجوعَ في الجِرَّة، وإعادة الفرثِ إلى الفم ليُستقصَى مضغُه إلاَّ أسمجَ وأقذَرَ من الرُّجوع في القيْءِ، وقد اختار اللّه عَزّ وجلَّ تلك الطبيعة للأنعام، وجعل الناسَ ليسوا لشيءٍ من اللُّحمان أشدَّ أكلاً ولا أشدَّ عَجباً بِهِ منكم، ولا أصلحَ لأبدانهم ولا أغْذَى لهم من لُحُوم هذه الأنعام أفتائِهَا ومَسَانِّهَا.
وقال صاحبُ الديك: ما يشبه عَوْدُ الماشيةِ في الجِرَّة، ورجوعُها في الفرث تطحَنُه

وتُسيغه، الرجُوعَ في القيء، وقد زعمتم أنَّ جِرَّةَ البعير أنتنُ مِن قيءِ الكلاب لطول غُبُوبها في الجوف، وانقلابها إلى طباع الزِّبل، وأنَّها أنتن من الثلط، وإنَّما مثل الجِرَّة مثل الرِّيق الذي ذكره ابنُ أحمر فقال:

هذا الثناءُ وأجْدِرْ أن أصاحبه　　　وقدْ يدوِّمُ ريقَ الطَّامعِ الأمَلُ

فإنَّما مَثَلُ القيءِ مَثَلُ العَذِرَة؛ لأنَّ الرِّيق الذي زعمتم، ما دامَ في فم صاحبه، ألذُّ من السلوى، وأمتعُ من النسيم، وأحسنُ موقعاً من الماء البارد من العطاش المسهوم، والريقُ كذلك ما لم يزايل موضعَه، ومتى زايل فَمَ صاحبه إلى بعض جِلْده اشتدّ نتْنه وعادَ في سبيل القيء.
فالرِّيق والجِرَّةُ في سبيلٍ واحد، كما أنَّ القيء والعَذِرة في سبيل واحد، ولو أن الكلبَ قلَسَ حتَّى يمتلئَ منه فمه، ثم رجع فيه من غير مباينةٍ له، لكان في ذلك أحقَّ بالنظافة من الأنعام في جِرَّتها، وحشيِّها وأهليِّها، وإنَّ الأرانبَ لَتَحِيضُ حيضاً نَتِناً، فما عاف لحمَهَا أصحابُ التَّقذُّرِ لمشاركَتِها الأنعامَ في الجِرَّة.
فقال صاحب الكلب: أمَّا ما عبتموه من أكْل العَذِرة، فإنَّ ذلك عامٌّ في الماشيةِ المتخيَّرِ لحمُها على اللُّحْمان، لأنَّ الإبل والشياه كلّها جَلاّلة وهُنَّ على يابسِ ما يخرُجِ من الناسِ أحرَصُ؛ وعلى أنّها إذا تعوَّدت أكل ما قد جفَّ ظاهرُه وداخلُه رطبٌ، رَجَع أمرُها إلى ما عليه الكلب، ثم الدَّجاج لا تَرْضَى بالعَذِرة، وبما يَبْقى من الحبوبِ التي لم يأتِ عليها الاستمراء والهضْم، حتَّى تلتمِس الديدانَ التي فيها، فتجمع نوعين من العذرة لأنها إذا أكلت ديدان العَذِرَةِ فقد أتَتْ على النَّوْعين جميعاً، ولذلك قال عبد الرحمن بن الحكَم في هجائِه الأنصار بخبيث الطعام، فضرب المثلَ بالدَّجاج من بين جميع الحيوان، وترَكَ ذِكر الكلاب وهي له مُعرِضة فقال:

وللأنْصَارُ آكَلُ في قُرَاها　　　لِخُبْثِ الأطْعِمَاتِ مِنَ الدَّجَاجِ

ولو قال:

وللأنْصَارُ آكَلُ في قُرَاها　　　لِخُبْثِ الأطْعِمَاتِ مِنَ الْكِلابِ

لكان الشِّعْر صحيحاً مُرضياً.
وعلى أنَّ الكلابَ متى شبعت، لم تعرض للعَذِرة، والأنعامُ الجلاَّلةُ وكذلك الحافِر، قد جعلت ذلك كالحَمْض إذا كانت لها خَلَّة؛ فهي مَرَّة تتغذَّى به ومرة تتحمَّض، وقد جاء في لحُوم الجَلاَّلة ما جاء.
رغبة الملوك والأشراف في الدجاج
وملوكُنا وأهلُ العيشِ مِنَّا، لا يرغبون في شيءٍ من اللُّحمان رغبَتَهم في الدَّجاج، وهم يقدِّمونها على البطِّ والنواهض، والقَبَج والدُّرَّاج، نعم وعلى الجِداء والأعْنُق الحُمْر من بَنَاتِ الصَّفَايا، وهم يعرفُون طبعها وسوء قُوتِها، وهم مع ذلك يأكلون الرَّواعِيَ كما يأكُلون المسمَّنات.

الشبوط أجود السمك وأطيبُ ما في الأنهار من السمك، وأحسنُها قُدوداً وخَرْطاً، وأسبطُها سُبُوطاً، وأرفعُها ثمناً وأكثرُها تصرُّفاً في المالح والطريّ، وفي القريسِ والنَّشوطِ الشَّبُّوطُ، وليس في الماء سمكة رفيعةُ الذكر ولا ذاتَ خمول، إلاَّ وهي أحرص على أكْل العَذِرة منها، وإنّها في ذلك لأشدُّ طلباً لها من الخِنزير في البرِّ، والجِرِّي في البحر.
لحم الخنزير وقد عَلم الناسُ كيفَ استطابةُ أكلِ لحُومِ الخنازير، وأكلُ الخنازير لها، وكيف كانت الأكاسرة والقياصرةُ يقدِّمونها ويفضِّلونها، ولولا التعبُّدُ لجَرَى عندنا مَجْرَاه عندَ غيرنا.
وقد علم النَّاسُ كيف استطابةُ أكل الجِرِّيِّ لأذنابها.
ما قيل في الجري وفي الجِرّيِّ قال أبو كَلْدة: هو أُدْم العُميان، وجيِّدٌ في الكَوْشَان ودواءٌ للكليتين، وصالحٌ لوجَع الظهر وعَجْبِ الذّنب، وخِلافٌ على اليهود، وغيظٌ على الروافض؛ وفي أكله إحياءٌ لبعض السُّنن، وإماتةُ بعضِ البدَع، ولم يُفْلَجْ عليهِ مُكثِرٌ منه قطُّ، وهو محنةٌ بين المبتدِعِ والسُّنِّي، هلك فيه فِئَتَان مذّ كانت الدنيا: محلِّلٌ ومحرِّم.
وقال أبو إسحاق: هو قبيح المنظر، عاري الجِلدِ، ناقص الدّماغ، يلتهم العَذِرة ويأكل الجرذان صحاحاً والفأرَ، وزَهِمٌ لا يُستَطاعُ أكلُه إلاّ محسِيّاً ولا يتصرَّفُ تصرُّفَ السمك، وقد وقع عليه اسم المِسْخ، لا يَطِيب مملوحاً ولا ممقوراً، ولا يؤكل كباباً، ولا يُختارُ مطبوخاً، ويُرمَى كلُّه إلاّ ذنَبه.
والأصناف التي تَعرض للعَذِرة كثيرة، وقد ذكرنا الجلاَّلاَتِ من الأنعامِ والجِرِّيِّ والشَّبُّوطِ من السمك، ويعرض لها من الطير الدَّجاجُ والرَّخَمُ والهَداهِد.
الأنوق وما سمي بهذا الاسم وقد بلغ من شَهوة الرَّخَمَة لذلك، أنْ سمَّوها الأنوق، حتى سمَّوا كلَّ شيءٍ من الحيوان يعرِض للعذِرة بأنوق، وهو قول الشاعر:

حتَّى إذا أضحى تَدَرَّى واكتحل   لجارتَيه ثم ولَّى فنثَلْ

رزقَ الأنُوقينِ القَرَنْبَى والجُعَل

ما قيل من الشعر في الجُعَل

ولشدَّة طلب الجعل لذلك قال الشاعر:

يَبيت في مجلس الأقوام يَربَؤُهم   كَأنَّه شُرَطيٌّ بَاتَ في حَرَسِ

وكذلك قال الآخر:

إذا أتَوه بطعامٍ وأكَلْ   بَاتَ يعشِّي وَحْدَه ألفَيْ جُعَل

هذا البيتُ يدلُّ على عِظم مقدار النَّجْو، فهجاه بذلك، وعلى أنَّ الجُعَل يقتات البَراز.
وفي مثل ذلك يقول ابن عَبْدَل - إن كان قاله - وإنما قلت هذا لأنَّ الشعر يَرتفِع عنه، والشعر قوله:

نِعْم جارُ الخنزيرةِ المرضعُ الغر ثى إذا ما غدا أبو كلثومِ

ثاوياً قد أصابَ عند صديقٍ من ثريدٍ ملبَّقٍ مأدُوم

ثم أنحى بجَعره حاجبَ الشمس فألقى كالمِعْلَفِ المَهْدُوم

بضَريطٍ ترى الخنازير منه عامداتٍ لتلِّهِ المركومِ

وقال الراجز في مثل ذلك:

قد دقَّهُ ثارِدُهُ وصَوْمَعَا ثُمَّتَ ألبَانَ البَخاتِي جَعْجَعَا

جَعْجَعَةَ العَوْدِ ابْتَغَى أنْ يَنْجَعا ثُمَّتَ خوّى باركاً واسْتَرْجَعا

عَن جاثِمٍ يُحْسَبُ كلباً أبقعا

وفي طلب الجُعَل للزِّبْلِ قال الراجز وهو أبو الغُصْن الأسَدي:

ماذا تلاقي طلَحَاتُ الحرجه من كل ذات بُخْنقٍ غمَلَّجه

ظلّ لها بَيْنَ الحلال أرْجَه مِنَ الضُّرَاطِ والفُسَاءِ السمجه

فجئتُها قاعِدَةً منشجه تعطيه عنها جعَلاً مُدحرجَه

وقال يحيى الأغرّ: تقول العرب سَدكَ به جُعَله، وقال الشاعر:

إذا أتيتُ سُليمَى شَبَّ لي جُعَل إنَّ الشقيَّ الذي يُغْرَى به الجُعَلُ

يضرب هذا المثلُ للرَّجل إذا لَصِقَ به من يكره، وإذا كان لا يزال يراه وهو يهرُب منه، قال يحيى: وكان أصلُه ملازمة الجُعَل لمن بات في الصحراء، فكلَّما قام لحاجةٍ تبعه؛ لأنَّه عنده أنَّه يريد الغائط.
القرنبى وفي القَرَنْبَى يقول ابنُ مقبل:

ولا أطرُق الجَارات بالليل قابعاً قَبُوعَ القَرَنْبَى أخْلَفَتْهُ مجاعره

والقبوع: الاجتماع والتقبض، والقرَنْبى: دويْبَّةٌ فوق الخُنْفَسَاء ودونَ الجعل، وهو والجعل يتْبعان الرَّجلَ إلى الغائط.
الهدهد وخبث ريحه ومن الطَّير الذي يُضارِع الرَّخمة في ذلك الهدهدُ، منتنُ البَدَن وإن لم تجدْه ملطخاً بشيءٍ من العَذِرة؛ لأنَّهُ يبني بيته ويصنع أفحوصَه من الزِّبل، وليس اقتياتُه منه إلاَّ على قدْر رغبتِه وحاجته في ألاّ يتَّخذ بيتاً ولا أفحوصاً إلاّ منه، فخامَرَه ذلك النَّتنُ فعَلِق ببدنه وجرى في أعراق أبويه؛ إذ كان هذا الصنيع عامّاً في جنسه.
وتعتري هذه الشَّهْوةُ الذّبان، حتَّى إنَّها لو رأتْ عسلاً وقذَراً، لكانت إلى القذَر أسرعَ، وقال الشاعر:

قفاً خَلْفَ وَجْهٍ قدْ أُطِيلَ كـأنَّـه قفا مالِكٍ يُقْصِي الهُمومَ عَلَى بَثْق

وأعظمُ زهواً من ذُبابٍ على خِراً وأبخَلُ من كَلْبٍ عَقُور على عَرْق

ويزعمون أنَّ الزُّنبورَ لهِجٌ بصيد الذّبان، ولا يكاد يصيده إلاَّ وهو ساقطٌ على عذرة لفَرْط شَهْوتِه لها ولاستفراغها، فيعرف الزُّنبور ذلك، فيجعل غفلتَه فُرصة ونُهْزة، قالوا: وإنَّما قلنا ذلك لأنّا لم نجِدْه يرومُ صيدَه وهو ساقِطٌ على ثمرةٍ، فما دونها في الحلاوة.
شعر في الهجاء وقال أبو الشَّمقمق في ذلك:

الطّريقَ الطّريقَ جاءكُم الأح مقُ رأس الأنتانِ والقذِره

وابْنُ عمِّ الحمار في صورةِ الفي لِ وخالُ الجاموسِ والبقره

يمشي رُويداً يريد حَلْقتكم كمشي خِنزيرةٍ إلى عَذِره

وقال حَمَّادُ عَجْرَد في بشَّارِ بْن بُرْدٍ العُقيليّ:

ما صَوَّرَ اللّه شِبْهاً لَه مِنْ كلِّ مَنْ مِنْ خَلْقِهِ صَوَّرا

أشْبَهَ بالخِنزير وجهاً ولا بالكلب أعراقاً ولا مَكْسِرا

ولا رأينا أحداً مثله أنجَسَ أو أطْفَسَ أو أقذرا

لو طُلِيتْ جِلدتُه عنبراً لنتَّنت جِلْدتُه العَنْبرا

أو طُلِيت مِسكاً ذكيّاً إذنْ تَحوَّلَ المِسْكُ عليه خِرا

وقال أبو نُواس في هِجَاء جَعْفرِ بْنِ يحيى بن خالد البرمَكيّ:

إذا ما مدحتُ فتًى من خِرَا   أليس جَزَائي أن اعْطَى الخِرَا

وقال أعرابيٌّ يهجو رجلاً يقال له جُلمود بن أوس، كان مُنتنَ العرق:

إنّي إذا ما عارضي تألَّقا   ورَعَدت حافتُه وبَرَقا

أهلكتُ جُلمودَ بنَ أوس غرَقا   كانَ لحمقاءَ فصارَ أحمَقا

أخبث شيءٍ عَرَقاً وخِرَقا

وقال حَمَّادُ عَجْرَدٍ في بشَّار:

يا ابنَ بُرْدٍ اخْسَأ إليك فمثلُ ال   كلبِ في الخلْق أنْتَ لا الإنْسَانِ

بَلْ لَعَمْري لأنْتَ شرٌّ من الكل   بِ وأولَى مِنْه بكلِّ هَوَانِ

ولَرِيحُ الخِنْزيرِ أطيبُ مِنْ ري   حِكَ يا ابْنَ الطَّيان ذي التُّبَّانِ

وقال بعض الشعراء في عبد اللّه بن عُمير:

غَزَا ابنُ عُميرٍ غَزْوةً تركَتْ له   ثناءَ كَريح الجَوْرَبِ المتخرق

وقال حمَّادُ عَجْرَدٍ في بشَّار:

قُلْ لشَقِيِّ الجَدِّ في رَمْسِه   ومَن يفِرُّ الناسُ من رجْسِه

لِلقِردِ بَشَّار بْنِ بُردٍ ولا   تَحْفِل برغم القرد أو تَعسه

للقِرْدِ باللَّيْثِ اغترارٌ به   فمَا الَّذِي أدناك من مَسِّه

يا ابنَ استِها فاصبِرْ على ضَغْمةٍ   بنَابه يا قِردُ أوْ ضِرسِه

نهارُه أخبثُ من ليله   ويومُه أخبثُ من أمسِهِ

وليس بالمُقْلِع عن غيِّه   حتى يُدلَّى القِردُ في رَمْسِه

ما خَلَقَ اللّه شبيهاً لـه من جِنِّهِ طُرّاً ومن إنْسِهِ
والله ما الخِنزيرُ في نَتْنِه من رُبْعه بالعُشْرِ أو خمْسِهِ
بل ريحُه أطيبُ من ريحهِ ومسُّه ألينُ مِن مسِّهِ
ووجهُه أحسنُ من وَجهِه ونفسُه أنبَلُ من نفسهِ
وعودُه أكرمُ من عُودِهِ وجِنسُه أكرمُ من جِنسهِ

وأنا حفظك اللّه تعالى أستظرف وضعَه الخنزيرَ بهذا المكان وفي هذا الموضع، حين يقول: وعودُه أكْرَمُ من عُودِه.
وأيُّ عودٍ للخنزير؟ قبَحه اللّه تعالى، وقبح من يشتهي أكله، وقال حمَّادُ عجرد في بشَّار بن بُرد:

إنَّ ابنَ بُردٍ رأى رُؤيَا فأوَّلَها بلا مَشُورةِ إنسانٍ ولا أثَرِ
رأى العَمَى نِعمةً للّه سابغة عليه، إذ كانَ مكفوفاً عن النَّظرِ
وقال :لو لَمْ أكُنْ أعمَى لكنتُ كما قد كان بُردٌ أبي في الضِّيق والعُسُر
أكدُّ نفسيَ بالتطيين مجتهداً إمَّا أجيراً وإمَّا غيرَ مُؤتَجَرِ
أو كنتُ إنْ أنا لم أقْنَعْ بفعلِ أبي قصَّابَ شاءٍ شَقِيَّ الجَدِّ أو بَقرِ
كإخوتي دائباً أشقى شقاءَهُمُ في الحرِّ والبردِ والإدلاجِ وَ الْبُكَرِ
فقد كفاني العَمَى من كلِّ مَكْسَبَةٍ والرِّزقُ يأتِي بأسبابٍ من القدَرِ
فصرتُ ذا نَشَبٍ من غير ما طلب إلاَّ بمَسْألتي إذ كنت في صِغَري
أضمُّ شيئاً إلى شيءٍ فأذخره ممَّا أجمِّع من تمر ومن كِسَرِ
مَن كان يعرفُني لو لم أكن زَمِناً أو كان يبذُل لي شيئاً سِوى الحَجَرِ
فقُل له لا هَداه اللّهُ مِن رجُلٍ فإنَّها عُرَّةٌ تُربي على العُرَرِ

لقد فطِنتَ إلـى شـيءٍ تـعيش بـه		يا ابنَ الخبيثة قد أدققتَ في الـنـظـر

يا ابنَ التي نَشَزَت عن شيخ صِبْيَتِـهـا	لأير ثوبانَ ذي الهامات والـعُـجَـرِ

أما يكفُّكَ عن شَتْمي ومنـقـصَـتـي		ما في حِرامِّك من نَتْن ومـن دَفـرِ

نفَتْكَ عنهـا عُـقيلٌ وهـي صـادقة		فسل أسيداً وسل عنـهـا أبـا زُفَـرِ

يا عبدَ أمِّ الظباء المسـتـطـبِّ بـهـا		من اللَّوَى، لستَ مولى الغُرِّ من مُضَرَ

بل أنتَ كالـكـلـب ذُلاًّ أو أذلُّ وفـي		نَذَالةِ النفس كالـخـنـزيرِ والـيَـعَـرِ

وأنتَ كالقردِ في تشـويه مـنـظـره		بل صورةُ القرد أبهى منك في الصُّوَرَ

ووصف ابن كريمة حشّا له، كان هو وأصحابه يتأذون بريحه فقال:

ولي كَنِيفٌ بِحَمْدِ اللّه يطرقني		أرواح وادي خبال غير فتَّار

له بدائعُ نَتْن ليس يَعرفـهـا		من البَرِيَّةِ إلاَّ خَازن الـنَّـار

إذا أتانى دَخِيلٌ زَادَنِي بـدَعـاً		كَأَنَّهُ لَهِجٌ عَمْداً بـإضْـرَارِي

قد اجتوانِي له الخُلاَّنُ كلُّهُـم		وباعَ مَسْكَنَه مِن قُرْبه جاري

فمن أرادَ من البِرْسَامِ أقتَـلَـهُ		أو الصُّدَاع فمرْه يدخُلَنْ داري

استكثفَ النَّتنُ في أنفي لكثرتِه		فليس يوجِدُنيه غيرُ إضماري

ثروة المحلول من الشعر

وقيل للمحلول: ويلكَ، ما حفظتَ بيتَ شعرٍ قط؟ فقال: بيتاً واحداً اشتهيته فحفظتُه، فقيل له: فهاته، قال: أمَا إنِّي لا أحفظُ إلاَّ بيتاً واحداً، قيل: فكيف رزق منك هذا البيت؟ فَأَنْشِدْهُ، فَأَنشَدَهم:

كأنَّما نَكْهَتُها مِدَّةٌ تَسِيلُ من مَخْطَةِ مَجْذُوم

وزعم أصحابنا أنّ رجُلاً من بني سعد - وكان أنتنَ الناس إبطاً - بلَغه أن ناساً من عبد القيس يتحدَّوْنَه برجلٍ منهم، فمضى إليهم شدّاً، فوافاهم وقد أزْبَدَ إبطاه، وهو يقول:

أقبلتُ مِنْ جَلْهَةٍ ناعتينا بذِي حُطاطٍ يُعطِسُ المخنُونا

يَزْوِي له من نتْنِهِ الجَبِينا حتَّى تَرَى لوجهه غُضُونا

نُبِّئْتَ عبدَ القيس يَأبطونا

قال: ومتَح أعرابيٌّ على بئرٍ وهو يقول:

يا ريَّها إذا بَدا صُنَّانِي كأنَّنِي جاني عُبَيْثُرَانِ

وقال آخر:

كَأنَّ إبطيَّ وقد طالَ المدى نَفْحَةُ خُرْءٍ مِنْ كَوَاميخ القرى

ويقال إنّهُ ليس في الأرض رائِحةٌ أنتنُ، ولا أشَدُّ على النفس، من بَخَر فمٍ أو نَتْنِ حِرٍ، ولا في الأرض رائِحةٌ أعصمُ لرُوحٍ من رائِحة التفاح.
وقال صاحب الكلب: فما نرى النَّاسَ يَعافُون تسميدَ بُقولِهم قبل نُجومِها وتفتُّق بزورها ولا بعد انتشار ورقها وظهور موضع اللُّبِّ منها حتَّى ربَّمَا ذَرُّوا عليها السَّمادَ ذرّاً، ثُمَّ يُرْسَل عليها الماءُ حتى يَشْرَبَ اللُّبُّ قُوى العذرة، بل مَن لهمْ بالعَذِرة؟ وعلى أنَّهُم ما يصيبونها إلاّ مغشوشةً مُفْسَدَة، وكذلك صنيعُهم في الريحان، فأمَّا النَّخْلُ فلو استطاعوا أن يَطْلوا بها الأجذاعَ طلياً لفعلوا، وإنَّهم لَيُوقدون بها الحَمَّاماتِ وأتاتينَ المِلال، وتنانير الخبز، ومن أكرم سمادهم الأبعارُ كلُّها والأخثاءُ إذا جفّت، وما بينَ الثَّلط جَافاً والخثاء يابساً، وبين العَذِرة جافَّةً ويابسةً فرق، وعلى أنَّهم يعالِجون بالعَذِرة وبخرْءِ الكلب، من الذُّبحة والخانُوق في أقصى مواضِع التقزُّز وهو أقصى الحلق، ومواضع اللهاة، ويضعونَها على مواضع الشَّوكة، ويعالجون بها عُيون الدَّوابّ.
أقولُ لمسبِّح الكناس وقال مسبّح الكناس: إنَّمَا اشتُقَّ الخير من الخُرْءِ، والخرء في النوم خير، وسَلْحَةٌ مُدركَةٌ ألذُّ مِن كَوْمِ العَروس ليلةَ العُرس، ولقد دخلتُ على بَعْضِ الملوك لبعض الأسباب، وإذا به قُعاصٌ وزكام وثِقَلُ رأس، وإذا ذلك قد طاولَه، وقد كان بلغني أنَّه كان هجَر الجلوس على المقعدة وإتيانَ الخلاء، فأمرتُه بالعَود إلى عادته، فما مَرَّت به أيامٌ حتى ذهب ذلك عنه.
وزعم أنَّ الدنيا مُنتِنة الحِيطانِ والتُّرْبةِ، والأنهار والأودية، إلاّ أنَّ النَّاسَ قد غمرهم ذلك النتْن المحيط بهم، وقد مَحَقَ حِسَّهم له طولُ مُكثِه في خياشيمهم، قال: فمن ارتابَ بخبري، فليقفْ في الرَّدِّ إلى أن يمتحنَ ذلك في أوَّل ما يخرجُ إلى الدنيا، عَنْ

بيتٍ مطيَّب؛ وليتشَمَّمْ تشمُّمَ المتشبِّث، عَلَى أنّ البقاعَ تتفاوت في النتن، فهذا قولُ مسبّح الكنَّاس.

عصبية سلمويه وابن ماسويه

وزعم لي سَلْمَوَيه وابن ماسَوَيه مُتطبِّبا الخلفاء، أنَّه ليس على الأرض جِيفةٌ أنتنُ نَتْناً ولا أثقبُ ثُقوباً مِن جيفةِ بعير، فظننتُ أنَّ الذي وهَّمهما ذلك عَصَبِيَّتُهُمَا عليه، وبغضُهما لأربابه، ولأنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم وعلى آله، هو المذكورُ في الكتب براكب البعير، ويقال إن الحجَّاج قال لهم: أيُّ الجيَفِ أنتن؟ فقيل: جِيَف الكلاب، فامتحِنَتْ فقيل له: أنتن منها جيف السنانير، وأنتن جيفها الذكورُ منها، فصلب ابن الزُّبير بين جِيفَتَيْ سنَّورين ذكرين.
أطيب الأشياء رائحة وأنتنها
وأنا أقول في النتن والطِّيب شيئاً، لعلَّك إن تفقّدتَه أن توافقني عليه وترضى قولي، أمَّا النتن فإنِّي لم أشمَّ شيئاً أنتنَ من ريح حُشٍّ مقيَّر، يبول فيه الخِصيان ولا يُصَبُّ عليه الماء؛ فإنّ لأبوالهم المترادفة المتراكبة ولريح القار وريح هواءِ الحشِّ وما ينفصل إليه من ريح البالوعة - جِهةً من النَّتْن ومذهباً في المكروه، ليس بينه وبين الأبدان عمل، وإنَّما يقصِد إلى عين الرُّوح وصميمِ القلب، ولا سيَّما إذا كان الخلاءُ غيرَ مكشوف، وكان مغموماً غيرَ مفتوح، فأمَّا الطِّيب فإني لم أشْمَمْ رائِحة قطُّ أحيا للنفس ولا أعصَمَ للرُّوح، ولا أفتَقَ ولا أغنج، ولا أطيب خِمرة من ريح عَروس، إذا أحكِمت تلك الأخلاط، وكان عَرْف بَدَنها ورأسِها وشعرها سليماً، وإن كانت بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنّك ستجد ريحاً تعلَمُ أنّهُ ليس فوقهَا إلاّ ريحُ الجنة.

ما قيل في الظربان

ومما قالوا في النَّتْن، وفي ريح جُحْر الظَّربان خاصَّة، قول الحكم بن عَبْدَل:

ألقيتَ نفسَكَ في عَرُوضِ مَشَقَّةٍ   ولحَصْدُ أنفِكَ بالمنَاجِل أهْوَنُ

أنت امرؤٌ في أرضِ أمّكَ قُلفلٌ   جَمٌّ وقُلْقلنا هُنـاك الـدِّنْـدِنُ

فبحقِّ أمّك وهي منك حقيقةٌ   بالبرِّ واللَّطفَ الذي لا يُخْزَنُ

لا تُدْنِ فاكَ من الأمير ونحِّـه   حتَّى يُداويَ ما بأنْفِكَ أهْرَنُ

إن كان للظّربان جُحْرٌ مُنـتِـنٌ   فلَجُحْرُ أنفك يا محمَّدُ أنـتَـنُ

وقال الربيع بن أبي الحقيق - وذكر الظّربان - حينَ رمى قوماً بأنّهم يَفسُون في مجالسهم، لأنّ الظّربان أنتنُ خلْقِ اللّه تعالى فسْوةً، وقد عَرَف الظّربانُ ذلك فجعَلَه

من أشَدِّ سِلاَحِهِ، كما عرفَتِ الحُبارَي مَا في سُلاَحِها من الآلة، إذا قرب الصقر منها، والظّربانُ يدخل على الضبِّ جُحرَه وفيه حُسوله أو بيضُه، فيأتِي أضيقَ موضعٍ في الجُحر فيسدُّه بيديه، ويحوِّل استَه فلا يفسو ثلاثَ فَسَوَاتٍ حتى يُدَارَ بالضبِّ فيخِرَّ سكرانَ مفشِيّاً عليه، فيأكله، ثم يقيم في جُحره حتَّى يأتِيَ على آخِرِ حُسوله.

وتقول العرب: إنّه ربَّمَا دخَل في خِلال الهَجْمة فيفسو، فلا تتِمُّ له ثلاثُ فَسَوَاتٍ حتى تتفرّق الإبل عن المبْرَك، تتركه وفيه قِرْدان فلا يردُّها الراعي، إلاّ بالجَهْدِ الشديد.

فقال الربيع، وهجاهم أيضاً بريح التُّيوس:

قَلِيلٌ غَنَاؤُهُمُ فِي الـهياج ... إذَا مَا تَنَادَوْا لأمـرٍ شـديدِ

وأنتمْ كِلاَبٌ لَـدَى دُوركـم ... تهرُّ هريرَ العَقور الرَّصُودِ

وأنتم ظَرَابيُّ إذ تجلسـونَ ... وما إنْ لنا فيكمُ مـن نَـدِيدِ

وأنتم تيوسٌ وقد تُعْرَفـونَ ... بريح التُّيوسِ وقُبْح الخدودِ

قال: ويقال: أفسى من الظّربان ويسمّى مفرِّقَ النَّعَم، يريدون من نتْن ريح فُسَائه، ويقال في المثل - إذا وقعَ بين الرجُلين شرٌّ فتباينَا وتقاطعَا -: فسَا بَيْنَهُمَا ظربَان، ويقال: أنتَن مِنْ ظربان لأنَّ الضبّ إنَّما يخدع في جُحْره ويُوغِل في سِرْبه لشدَّة طلب الظّربان له، وقال الفرزدق في ذلك:

ولو كنتُ في نارِ الجحيم لأصبَحَتْ ... ظَرَابيُّ من حِمَّانَ عنِّي تثيرها

وكان أبو عُبيدة يُسمِّي الحِمَّانيَّ صاحِبَ الأصَمِّ: الظَّربان، يريد هذا المعنى، كما يسمى كل حِمَّانِيٍّ ظربَاناً.

وقال ابن عَبدَلٍ:

لا تُدْنِ فاكَ من الأمير ونحِّه ... حتَّى يداويَ ما بأنْفِك أهْرَنُ

إن كانَ للظَّربان جُحرٌ مُنتِنٌ ... فلَجُحر أنفِك يا محمد أنتن

في شعره الذي يقول:

ليتَ الأميرَ أطاعَنِي فشـفيتُـه ... من كلِّ مَن يُكْفِي القصيدَ ويَلْحَنُ

متكَوِّرٌ يَحْثُو الكـلام كـأنَّـما ... باتَتْ مناخِرُهُ بدُهْنِ تُـعْرَنُ

وبنَي لهم سِجناً فكنتُ أميرَهم	زَمناً فأضربُ مَن ْ أشَاءُ وأسجُنُ

قل لابنِ آكِلة العِفَاص محمَّدٍ	إن كنتَ من حبِّ التقرُّب تجبُنُ

ألقيْتَ نفسَك في عَروض مَشَقَّةٍ	ولَحَصْدُ أنفِك بالمناجِل أهْوَنُ

أنتَ امرؤٌ في أرض أمِّك فلفلٌ	جَمٌّ وفلفلنا هناك الدّنْدِن

فبحقِّ أمِّكَ وهي منك حقيقةٌ	بالبرِّ واللَّطفِ الذي لا يُخْزَنُ

لا تُدْنِ فاكَ من الأمير ونحِّهِ	حتَّى يُداويَ ما بأنفِك أهْرَنُ

إنْ كانَ للظَّربان جُحْرٌ منتنٌ	فلَجُحْرُ أنفِك يا محمَّدُ أنتَنُ

فسَلِ الأميرَ غيرُ موفَّقٍ	وبَنُو أبيهِ للفَصاحة مَعْدِنُ

وسَلِ ابنَ ذكْوانٍ تَجِدْهُ عالِماً	بسَليقةِ العُرْب التي لا تحزُنُ

إذْ أنتَ تجعَلُ كلَّ يومٍ عفصةً	فتجيدُ ما عمِلت يَداك وتحسِنُ

أشبهتَ أمَّكَ غيرَ بابٍ واحدٍ	أنْ قد خُتِنْتَ وأنَّها لا تُختَنُ

فلَئِن أصبتَ دراهماً فدفنتَها	وفُتِنت فيها، وابنُ آدَمَ يُفتَنُ

فبما أراك وأنتَ غيرُ مُدرَهمٍ	إذّ ذاك تَقْصِف في القِيان وتزْفِنُ

إذ رأسُ مَالِكَ لُعْبَةٌ بصريَّة	بَيْضَاءُ مُعْرِبَةٌ عليها السَّوْسَنُ

وقال ابن عبدل أيضاً:

نَجَوت محمداً ودخانُ فيه	كريح الجَعْر فوق َ عَطِين جِلْدِ

ركبتُ إليه في رَجُلٍ أتاني	كريمٍ يطلبُ المعروفَ عِندي

فقلتُ له ولم أعجَل عليه،	وذلكَ بعدَ تقريظي وحَمْدي

فأعْرَضَ مُكْمَحاً عنّي كـأنّـي   أكَلِّمُ صَخْرَةً في رأس صمْدِ

أقرِّبُ كل آصِـرَةٍ لـيدنـو   فما يزْداد منِّي غـيرَ بُـعْدِ

فأقسِمُ غيرَ مستـثـنٍ يمينـاً   أبا بَخَرٍ لـتـتَّـخِـمَـنَّ رَدِّي

فلو كنتَ المهذّبَ مـن تـمـيم   لخفتَ ملامَتي ورجوتَ حَمدي

نَجَوتُ محمداً فوجـدتُ ريحـاً   كريح الكلبِ ماتَ قريبَ عَهْدِ

وقد ألْذعَتَني ثعبـانَ نَـتْـنٍ   سيبلغ إنْ سلِمْنا أهلَ نَـجْـدِ

وأدنَى خَطْمَـه فـودِدتُ أنِّـي   قرَنْتُ دونوَّه منـي بـبُـعْـدِ

كما افْتَدَتِ المعاذةُ مـن جَـواهُ   بخِلْعَتِها ولم تَرجِـع بـزَنْـدِ

وفارقها جواه فاسـتـراحَـتْ   وكانتْ عنـدَه كـأسيرِ قِـدِّ

وقد أدنيتُ فـاه إلـيَّ حـتَّـى   قتلتُ بذاك نفسي غيرَ عَـمْـدِ

وما يدنُـو إلـى فيه ذُبـابٌ   ولو طُليت مَشافِرُه بـقـنْـد

يَذُقن حلاوةً ويَخفْن مـوتـاً   زعافاً إنْ همَمْنَ لـه بـوردِ

فلما فاحَ فُوه علـيّ فَـوْحـاً   بمثل غَثِيثةِ الدَّبـر الـمُـغِـدِّ

فقلتُ له: تنحَّ بفيك عـنِّـي   فما هذا بـريح قُـتَـار رَنْـدِ

وما هذا بريح طِـلاً ولـكـنْ   يفوحُ خِرَاكَ منه غير سَرْدِ

فحدِّثِني فإنَّ الـصِّـدقَ أدنـى   لبابِ الحقِّ من كذِب وجَحْدِ

أباتَ يجولُ في عَفَجٍ طحـور   فأعلم أمْ أتـاكَ بـه مُـغَـدِّي

نكِهتَ عليَّ نـكـهة أخـدَريٍّ   شتيمٍ أعصلِ الأنـياب وَرْدِ

فإن أهديتَ لي من فيكَ حتْفـي   فإنِّي كالذي أهـديتَ أهـدي

لكم شُرُداً يَسرن مـغنّـياتٍ تكونُ فنونُها من كل فِـنـدِ

أما تخزى خَزيت لهـا إذا مـا رَوَاها النَّاسُ من شِيبٍ ومُـرْدِ

لأرجُو إن نجوت ولم يُصبْنـي جَوًى إنّي إذن لَسـعيد جـدِّ

وقلتُ له: متى استطْرقتَ هذا فقال أصابني من جَوفِ مَهْدِي

فقلت لـه: أمـا دَاويتَ هـذا فتعذر فيه آمـالا بـجَـهْدِ

فقال :أمَا علمـت لـه رقـاءً فتسديَه لنا فيمـا سـتُسْدي

فقلت لـه: ولا آلـوه عيا له فيمـا أسـرُّ لـه وأبـدي

عليكَ بقيئةٍ وبجَعْر كَـلْـبٍ ومثليْ ذاك من نونٍ كَنَعْدِ

وحِلتـيتٍ وكُـرَّاثٍ وثُـومٍ وعُودَي حَرْمَلٍ ودِماغ فَهْدِ

وحَنْجَرَةِ ابن آوى وابن عِرسٍ ووزن شَعيرةٍ من بَزْرِ فقْدِ

وكَفِّ دُرُحْرُحٍ ولسانِ صَقرٍ ومثقالين من صـوّانِ رَقْدِ

يُدَقُّ ويُعجَن المنخول مـنـه ببولِ آجِن وبجَـعْرِ قِـردِ

وتدفِنُه زمانـاً فـي شـعيرٍ وترقبه فـلا يَبـدُو لـبَـرْدِ

فدخِّن فاكَ ما عتَّقت مـنـه ولا يعجن بأظـفـار ونَـدِّ

فإنْ حضرَ الشتاءُ وأنتَ حيٌّ، أراك اللّهُ غَيَّكَ أمرَ رشـدِ

فدَحْرِجْها بنادِقَ وازدرِدْهـا متَى رُمْتَ التكلُّم أيّ زَرْدِ

فتقذف بالمِصلّ على مِصَـلٍّ ببلعومٍ وشِدْقٍ مُـسْـمَـعِدٍّ

وويْلَك ما لِبَطْنِك مذْ قعَدْنـا كأنّ دويَّهُ إرزام رَعْــدِ

فإنَّ لحِكَّةِ الناسور عندي دواءً إن صبرتَ له سيُجدِي

يُميت الدُّودَ عنكَ وتشتهيه إن انت سَنَنْتَهُ سنَّ المقدِّي

به، وطليتَه بأصول دِفْلَى وشيءٍ من جنَى لَصَفٍ ورَنْدِ

أظُنِّي ميّتاً مِنْ نَتْن فيهِ أهانَ اللهُ من ناجَاهُ بَعْدِي

أشعار العرب في هجاء الكلب

وقال صاحب الديك: سنذكُر أشعار العرب في هجاء الكلب مجرّداً على وجهه، ثمَّ نذكُر ما ذمُّوا من خلالهِ وأصنافِ أعماله، وأموراً من صفاته، ونبدأ بذكرِ هجائه في الجملة، قال بشَّار بن بُرْد:

عددتَ سويداً إذ فخرتَ وتَوْلَباً وللكَلْبُ خَيْرٌ من سُويدٍ وتَولبِ

وقال بشَّارٌ أو غيره:

أتَذْكُرُ إذ تَرْعَى على الحيِّ شاءَهُمْ وأنتَ شريكُ الكلب في كلِّ مَطْعَمِ

وتلحَسُ ما في القعْبِ من فَضْلِ سُؤْرهِ وقد عاثَ فيه باليدَين وبالفمِ

وقال ابن الذئبة:

من يجمع المال ولا يَثُبْ به ويترك المالَ لِعَامِ جِدْبِه

يهُنْ عَلَى النَّاسِ هَوانَ كلبهِ

وقال آخر:

إنَّ شَريبي لاَ يغبُّ بوجهه كُلومي كأنْ كلباً يُهارش أكْلُبا

ولا أقسِمُ الأعطان بيني وبينَه ولا أتوقَّاه وإن كان مُجْربا

هجا الأحوص ابناً له فشبَّهه بجرْوِ كَلْبٍ فقال:

قبحْ به من ولدٍ وأشْقِحْ ثل جُرَيِّ الكلب لم يُفَقِّحْ

إن يَرَ سُوءًا مَا يَقُمْ فـينــبــحْ بالبـابِ عـنـد حـاجةِ الـمـسـتـفـتِـحْ

وقال أبو حُزَابة:

يا ابنَ عليٍّ بَرِح الخَفَاءُ أنتَ لغَيْرِ طَلْحَة الْفِدَاءُ

قد علمَ الأشرافُ والأكفاءُ أنَّك أنت النَّاقصُ اللَّفَاءُ

حَبلَّقَ جَدَّعـه الـرِّعـاء يغُمُّه المِئزَرُ والـرِّدَاءُ

بنو عليٍّ كلُّـهـمْ سواءُ كَأنَّـهـم زينِـيَّة جِـراءُ

وقال عبد بني الحسحاس، وذكر قبح وجهه فقال:

أتيتُ نِساءَ الحارثيِّينَ غُدْوَةً بوجهٍ بَرَاهُ اللّهُ غير جميل

فشبَّهنني كلباً ولسْتُ بفَوقِه ولا دونَه إن كان غيرَ قليل

وقال أبو ذباب السعدي في هوان الكلب:

لكِسْرَى كان أعقلَ من تمـيمٍ ليالـيَ فرَّ من أرْضِ الضِّبابِ

وأسكنَ أهلَه ببـلاد ريفٍ وأشجارٍ وأنـهـارٍ عِذابِ

فصار بنُو بَنِيه لها مُلـوكـاً وصرنا نحنُ أمثالَ الكِـلاَبِ

فلا رَحمَ الإلهُ صدَى تـمـيم فقد أزْرَى بنا في كلّ بـابِ

وأراد اللعين هجاء جرير - وجرير من بني كليب - فاشتق هجاءه من نسبه فقال:

سأقضِي بين كلبِ بني كُليبٍ وبين القَينِ قين بني عِقَالِ

فإنَّ الكلبَ مَطعَمُه خبيثٌ وإنَّ القينَ يَعمَل في سَفالِ

كِلاَ العَبدين قد علمتْ مَعَدٌّ لئيمُ الأصل من عمٍّ وخالِ

فما بُقيَا عليَّ تركتُماني ولـكـنْ خِـفـتُـمـا صَـرَدَ الـنــبــال

وقال رجلٌ من همْدان، يقال له الضَّحَّاك بن سعد، يهجو مَرْوان بن محمد بن مروان بن الحكم، واشتقَّ له اسماً من الكلب فجعلَه كلباً فقال:

لجَّ الفِرَارُ بمرْوانٍ فقلتُ لـه عادَ الظلوم ظليماً همُّهُ الهـربُ

أين الفِرارُ وتركُ الملْك إن قبلت منك الهُوَينَى فـلا دينٌ ولا أدبُ

فَرَاشَةُ الحلم فِرعون العذابِ، وإن يُطلَب نَدَاهُ فكلبٌ دونَه كَـلِـبُ

وقال آخر وجعل الكلبَ مثلاً في اللُّؤم:

سَرَتْ ما سَرَت من ليلِها ثمّ عرّسَتْ على رجلٍ بالعَرْج ألأمَ مِنْ كلْبِ

وكذلك قول الأسود بن المنذر، فإنّه قال:

فإنّ امرأ أنتُمُ حـولَـه تحُفُّون قُبَّتَه بالقِبـابِ

يُهينُ سرَاتَكُم جـاهـداً ويقتُلكم مثلَ قتْل الكلابِ

وقال سحيمة بن نعيم:

ألستَ كليبيّاً لكَلْـبٍ وكـلـبةٍ لها عندَ أطْنَاب البُيوتِ هَرِيرُ

وقال النَّجْرانيُّ في ذلك:

مِن منْزِلي قد أخرجَتْنِي زوجتي تهِرُّ في وجهي هَرير الكَلبةِ

زُوِّجتُها فقيرةً من حِرْفَـتـي قلت لـها لمّا أراقتْ جَـرتـي

أمَّ هِلالٍ أبْشِري بالـحـسـرةِ وأبشري منك بقُرب الضَّرَّةِ

الفلحس والأرشم

ويقال للكلب فلحَس وهو من صفات الحِرْص والإلحاح، ويقال: فلان أسألُ مِنْ فَلْحَس، وفَلْحَسٌ: رجلٌ من بني شيبان كان حريصاً رغيباً، ومُلحِفاً مُلِحّاً، وكلُّ طُفَيليٍّ فهو عندهم فَلْحَسٌ.
والأرشَم: الكلب والذئب، وقد اشتقَّ منه للإنسان إذا كان يتشمَّم الطعام ويتْبع مواضعه، قال جريرٌ في بعضهم:

لَقًى حَملَتْهُ أمُّه وهي ضَيفة ... فجاءَتْ بيَتْنٍ للضِّيافةِ أرشَما

وقال جريرٌ في استِرواح الطعام:

وبنو الهُجَيم سَخيفة أحلامُهم ... ثُطُّ اللِّحَى مُتشابِهُو الألـوان

لو يَسمَعون بأكلةٍ أو شَرْبَةٍ ... بعُمَانَ أضحى جمْعُهم بعُمانِ

متأبِّطين بنيهمُ وبنـاتِـهمْ ... صُعرَ الخدودِ لريح كلِّ دُخان

وقال سَهمُ بن حنْظَلَة الغَنَويُّ في ذلك:

وأمّا كلابٌ فمثـلُ الكِـلا ... ب لا يُحسِنُ الكلبُ إلاَّ هريرَا

وأمَّا نُميرٌ فمثـلُ البـغا ... ل أشبَهْنَ آباءهُنَّ الحَـمـيرا

وأمّـا هِـلالٌ فـعَطّـارَةٌ ... تبيع كِباءً وعِطْراً كـثـيرا

بين جرير والراعي

ومرَّ جريرٌ يوماً بالمِرْبَد، فوقف عليه الراعي وابنه جنْدَل، فقال له ابنه جندل: إنَّه قد طال وقوفُك على هذا الكلب الكُلَيبيّ، فإلى متى ؟ وضرب بغلَته، فمضى الراعي وابنه جندل، فقال جرير: واللّه لأُثقِلَنَّ رواحلك فلما أمسى أخذَ في هجائه، فلم يأته ما يريد، فلما كان معَ الصبح انفتَح له القولُ فقال:

فغضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ من نُميرٍ ... فلا كعباً بلغتَ ولا كِلابـا

ولو جُعِلت فِقاحُ بني نُميرٍ ... على خَبَثِ الحديدِ إذاً لذابـا

ثم وقف في موقفه، فلمَّا مرَّ به جندلٌ قبض على عِنان فرسِه، فأنشده قوله، حتى إذا بلغ إلى هذا البيت:

أجندلُ ما تقول بـنـو نـمـيرٍ ... إذا ما الأيرُ في استِ أبيك غابا

قال: فأدبَرَ وهو يقول: يقولون واللّه شرّاً.
وقال الشاعر - وضرب بالكلب المثلَ في قُبْح الوجه -:

سَفَرتْ فقلتُ لها هَجٍ فَتبرقعَتْ فذكرتُ حين تبرقعت ضَبَّارا

وضَبَّار: اسم كلب له.
أمثال في الكلاب وقال كعب الأحبارِ لرجل وأراد سفراً: إنّ لكلِّ رُفقةٍ كلباً، فلا تكنْ كلبَ أصحابك. وتقول العرب: أحبُّ أهلي إليّ كلبهم الظاعن، ومن الأمثال وقع الكلبُ على الذّئب ليأخذ منه مثل ما أخَذ، ومن أمثالهم: الكلابَ على البَقر، ومن أمثالهم في الشؤم قولهم: على أهْلِها دلَّتْ بَرَاقِشُ، وبراقش: كلبةُ قومٍ نبحَت على جيشٍ مرُّوا ليلاً وهمْ لا يشعُرون بالحيِّ، فاستباحوهم واستدلُّوا على مواضعهم بنباحها.
قال الشاعر:

ألم تَرَ أنَّ سيِّد آلِ ثورٍ نُباتة عضَّهُ كلبٌ فماتا

قتيل الكبش وقتيل العنز

وقال صاحب الكلب: قد يموت الناسُ بكلِّ شيء، وقد قال عبد الملك بن مروان: ألا تتعجبون من الضحَّاك بن قيس يطلب الخلافة ونطح أباه كبش فوُجِد ليس به حَبَضٌ ولا نَبَض، وقال عَرفجة بن شريك يهجو أسلَم بن زُرْعة - ووطئتْ أباه عنْزٌ بالمِربد فمات - فقال:

ولم أستطع إذْ بانَ منِّيَ معشَري مكانَ قتيل العنز أنْ أتكلَّما

فيما ابنَ قتيلِ العنْز هل أنت ثائرٌ بزُرعة تيساً في الزَّريبةِأزنما

وقال أبو الهول يهجو جعفر بن يحيى:

أصبحتُ محتاجاً إلى الضَّرْبِ في طلَبِ العُرْف إلى الكلْبِ

قد وقَّح السَّبُّ له وجهَه فصار لا ينحاش للسَّبِّ

إذا شَكَا صبٌّ إليه الهوَى قال لهُ مالي وللصبِّ

أعْنِي فتًى يُطعَن في دينه يشِبُّ مَعَهُ خَشَبُ الصُّلْبِ

قال: وقلتُ لأبي عبيدة: أليس بُقْعُ الكلاب أمثلَها؟ قال: لا، قلت: ولم قال:

وخِفْتُ هجاءهم لما تَواصَوْا كخَوْفِ الذّئبِ من بُقْعِ الكِلابِ؟

قال: ليس هكذا قال، إنما قال:

خَوْفِ الذّئب من سُودِ الكِلابِ

ألا ترى أنّه حين أراد الهجاء قال:

كأنَّك بالمبارَكِ بعدَ شـهـرٍ   تَخُوضُ غُمورَه بُقْعُ الكِلابِ

ويدل على ذلك قول الجَدَليِّ:

لعمري لجو مـن جـواء سـويقة   أسافلـه مـيث وأعـلاه أجـزع

أحبُّ إلينـا أن نـجـاورَ أهلَـه   ويصبحَ منَّا وهو مرأى ومسمـعُ

مِن الجَوْسَقِ الملعونِ بالرَّيِّ لا يني   على رأسه داعي المنيَّةِ يلـمَـعُ

يقولون لي صبراً فقلتُ: لَطالَمَـا   صَبَرتُ ولكنْ لا أرى الصَّبرَ ينفعُ

فليتَ عطائي كانَ قُسِّمَ بَيْنَـهُـمْ   وكان لي الصَّمَّان والحزْنُ أجمعُ

وكان لـهم أجْرِي هنيئاً وأصبحَـتْ   بي البازلُ الكَوماء بالرمل تَضْبَعَ

أأجَعلُ نفسي عِدْلَ علجٍ كـأنَّـمـا   يموتُ به كلبٌ إذا مـاتَ أبـقـعُ

قال: فقد بيَّن كما ترى أنَّ الأبقعَ شرُّها، قال: وقلت: فلم قال الشاعر:

أرسلْتَ أسداً على بُقْعِ الكلاب فقد أمسى شَرِيدُهمُ في الأرض فُلاَّلاَ

قال: فكيف يقول ذلك وهو يمدحهم؟ وإذا صغّر شأنَ من هَزَموا فقد صغَّر شأنَ الممدوح، بل إنَّما قال: أرسلتَ أسداً على سود الكلاب.
قال: وإنَّما جاء الحديثُ في قتل سُود الكلاب، لأنَّ عُقْرَها أكثرُ ما تكون سوداً، وذلك من غلَبة أنفسها.
وليس في الأرض حيوانٌ من بقرةٍ وثورٍ وحِمارٍ وفرسٍ وكلبٍ وإنسان، إلاّ والسُّودُ أشدُّها أسْراً وعَصَباً، وأظهرُها قُوَّةً وصبْراً.
وقال أبو سعد المخزومي في هجائه دِعبلاً:

يا ثابتَ بن أبي سـعيدٍ إنَّـهـا   دُوَلٌ وأحْرِ بها بأنْ تـتـنَـقَّـلا

هلاّ جعلتَ لها كحُرْمَةِ دِعْبـلِ   في است أمِّ كلبٍ لا يساوي دِعبلا

وقال ابن نوفل:

وجئتَ على قصْواءَ تنقلُ سَوءةً   إلينا وكم من سوءةٍ لا تَهابُها

وتزعمُ أنْ لم تخز سَلْمُ بنُ جنْدَلِ   وقد خَزيت بعدَ الرِّجال كلابُها

وقال الحسن بن هانئ يهجو جعفرَ بنَ يحيى:

قفاً خلف وجه قد أطيل كـأنَّـه   قفا مالك يقضي الهموم على بثق

وأعظم زهواً من ذباب على خراً   وأبخَلُ من كَلْبٍ عَقُورٍ على عَرْق

وقال أبو الشَّمقمق:

أهلُ جودٍ ونـائلٍ وفـعالٍ   غَلَبُوا الناسَ بالنَّدى والعطيَّهْ

جئتُه زائراً فأدنَى مكانـي   وتلقَّى بمرْحَبٍ وتـحيَّهْ

لا كمِثلِ الأصمِّ حارثةِ اللؤ   مِ شبيهِ الكُلَيبة القلَطيَّهْ

جئتُه زائراً فأعرضَ عنِّـي   مثلَ إعراض قحبةٍ سُوسِيَّهْ

وتولَّى كـأنَّـه أير بـغلٍ   غابَ في دُبْر بَغلةٍ مِصريَّهْ

وقال أيضاً:

ألا قُولا لسرّان الـمـخـازي   ووجهِ الكلب والتَّيْسِ الضروطِ

له بطنٌ يَضلُّ الـفيلُ فيه   ودُبرٌ مثلُ رَاقود الـنَّـشـوط

وأيْرٌ عـارمٌ لا خـيرَ فـيـه   كدَوْرِ سفينةٍ في بَـثـق رُوط

ولحيَةٌ حائكٍ من باب قـلـب   مُوَصَّلَةِ الجوانبِ بالـخُـيوطِ

له وجهٌ عليه الـفـقـرُ بـادٍ مُرقَّعة جـوانُـبـه بـقـوطِ

إذَا نَـهَضَ الْكِرَامُ إلَى المَعَالِـي تَرَى سَرَّانَ يَسْفَلُ فِي هَبُـوط

وقال أيضاً في ذلك: من البسيط

يا رازقَ الكلبِ والخنزيرِ في سعةٍ والطيرِ والوحش في يهماءَ دوَّيَّهْ

لو شئتَ صيَّرتَه في حالِ فاقتـه حتى تُقِرَّ بتلك الحـالِ عينـيَّه

وقال جرير بن عطية، يهجو الصَّلّتان العبديّ:

أقول لها والدَّمع يغسِلِ كُحلَـهـا متى كان حكمُ اللّهِ في كَرَبِ النخلِ

فأجابه الصَّلّتَانُ فقال:

تُعيِّرنا أن كانت النَّخْلُ مـالَـنـا وودَّ أبوك الكلبُ لو كان ذا نَخْلِ

يعيِّره جريرُ بأنَّه كان هو وأبوه من أصحاب النَّخْل.
وقال وضّاحُ اليمن:

وأكتم السِّرَّ غضباناً وفي سكري حتى يكون له وجهٌ ومستمِـعُ

وأتْرُكُ القولُ عن علمٍ ومَقْدِرَةٍ حتى يكون لذاك النَّجْدِ مُطَّلَـعُ

لا قوّتي قوّة الراعي ركـائـبَـه يبيتُ يأوي إليه الكلب والرُّبَـع

ولا العَسيفِ الذي تشتدُّ عُقْبَتُـه حتَّى يَثُوبَ وباقي نعْلِه قطـع

وقال محمد بن عباد الكاتب مولي بحيلة، وأبوه من سبى دابق وكاتب زهير، وصديق ثمامة، يهجو أبا سعد دعى بني مخزوم، وبعد أن لقي منه ما لقي:

فعلَتْ نزارُ بك الذي اس تأهَلْتَه نفـيـاً وضـرْبَـا

فهجوتَ قحـطـانـا لأه جُوَهم مـكـايَدَةً وإرْبـا

وأردتَ كيما تشـتَـفـي بهجائهم منهم فـتَـرْبَـا

ووثقت أنَّك مَـا سـبـب ت، حَماكَ لؤمُك أن تُسَبَّا

كالكلب إن ينبـح فلـي س جوابه إلاَّ اخْسَ كَلْبا

خفّض عليك وقرْ مـكـا نَك لا تطفْ شرقاً وغربا

واكشِفْ قِنـاعَ أبيك فـال آباءُ ليس تُنال غصْبـا

وقال آخر يصف كلباً:

ولَذٍّ كطعْم الصَّرْخَدِيِّ تركـتُـه بأرض العِدا من خَشية الحَدَثانِ

ومُبْدٍ ليَ الشَّحناءَ بيني وبـينـه دعوتُ وقد طال السُّرى فدعاني

فوصفه كما ترى أنّه يبدي له البغضاء.
وقال آخر:

سَرَتْ ما سَرَتْ من ليلها ثم عرَّست عَلَى رجُلٍ بالعَرْج ألأمَ من كلْـبِ

وقال راشِد بن شهاب اليشكُريُّ:

فلستُ إذا هبَّتْ شَمَـالٌ عَـرِيَّةٌ بكَلْبٍ على لحم الجزور ولا بَرَمْ

وقال كُثيِّر بن عبد الرحمن، وهو يصف نعلاً من نِعال الكرام:

إذا طُرِحَتْ لم يَطَّبِ الكلبَ ريحُهـا وإن وُضِعت في مجلس القوم شُمَّتِ

وقال اللّعين في بعض أضيافه، يخبر أنّه قراه لحمَ كلب، وقد قال ابنُ الأعرابي: إنَّما وصف تيساً:

فقلتُ لعَبْدَيَّ اقتُلا داءَ بطنِـه وأعفاجِه اللائي لـهـنَّ زوائدُ

فجاءَا بخِرشَاوَي شَعير عليهمـا كَرَادِيسُ من أوصالِ أعقدَ سافِدِ

وقال خُلَيد عَيْنَين وهو يهجو جرير بن عطية ويردّ عليه:

وعيّرْتَنا بالنخل أن كان مالنـا وودَّ أبوك الكلب لو كان ذا نخل

وقال دِعبل بن عليّ:

ولو يُرزَق الناسُ عن حيلةٍ لما نال كفّاً من التُّـرْبـهْ

ولو يشربُ الماءَ أهلُ العفا ف لما نال من مائهم شَرْبَهْ

ولكنَّه رزقُ مَـنْ رزْقُه يعمُّ به الكلبَ والكـلـبـهْ

من هُجِيَ بأكل لحوم الكلاب ولحومِ الناس

قال سالم بن دَارة الغطفانيُّ:

يافقْعَسِيُّ لِمْ أكلته لِـمَـهْ لو خافَكَ اللّهُ عليه حرَّمه

فما أكلتَ لحمَه ولا دَمه وقال الفرزدق في ذلك:

إذا أسديٌّ جاعَ يوماً ببلـدةٍ وكان سميناً كلبُه فهو آكلُه

وقال مساور بن هند:

إذا أسدِيَّة ولدتْ غُـلاَمـاً فبشِّرها بلؤمٍ في الغلامِ

يخرِّسها نساءُ بنـي دُبَـير بأخبثِ ما يجدن من الطّعامِ

ترى أظفارَ أعقدَ مُلقيَاتٍ براثنُها.على وَضَمِ الثُّمَـامِ

فهذا الشعر وما أشبَهه يدلُّ على أنَّ اللعين إنَّما قراهم كلباً ولم يَقْرِهم تيساً، وأنَّ الصوابَ خلافُ ما قال ابْنُ الأعرابيِّ.
وقال مُساوِر بن هند أيضاً:

بني أسدٍ أن تُمحل العامَ فقْعس فهذا إذنْ دَهْرُ الكلابِ وعامُها

وقال شرَيح بن أوس يهجو أبا المهوّش الأسدي:

وعيَّرْتنا تمرَ الـعـراق وبُـرَّه وزادُك أير الكَلْب شيَّطه الجمْر

أكل لحوم الناس

وما قيل في ذلك من شعر

وقال معروفٌ الدُّبيريّ في أكلِهم لحومَ الناس:

إذا ما ضِفْتَ يوماً فقعسيّاً　　فلا تَطعَمْ له أبداً طعـامـا

فإنَّ اللحم إنسـانٌ فـدَعْـهُ　　وخيرُ الزَّادِ مَا مَنَع الحراما

وقد هُجِيت هذيلٌ وأسد وبَلَعْنَبَر وباهلة بأكلِ لحوم الناس، قال حسَّان بن ثابت يذكر هذيلاً:

إنْ سرَّك الغَدْرُ صِرفاً لا مِزَاجَ له　　فأت الرجيع وسل عن دار لِحْيانِ

قومٌ تواصَوا بأكل الجار بينـهـم　　فالكلبُ والشَّاةُ والإنسـانُ سِيَّانِ

وقال الشاعر في مثل ذلك في هذيل:

وأنتمْ أكلتُمْ شحمة بن مـخـدَّم　　زباب فلا يأمنْكُم أحـدٌ بـعـدُ

تداعَوا له من بين خَمسٍ وأربع　　وقد نصل الأظفارُ وانسبَأ الجِلْدُ

ورَقَّعتم جُردَانَه لـرئيسـكـم　　مُعاوية الفلحاء يالكَ ماشُكْدِ

وقال الشاعر في ذلك في باهلة:

إنَّ غفاقاً أكلَتْه بـاهـلـه　　تمشَّشوا عظامَه وكاهلَه

وأصبحتْ أم غفاق ثاكِلَه

وهجا شاعر آخر بَلْعَنبر، وهو يريد ثوْبَ بن شَحْمَة، وكان شريفاً وكان يقال له مجير الطير، فأمَّا مجير الجراد فهو مدلج بن سويد بن مرشد بن خيبري فعيَّر الشاعرُ ثوب بنَ شحمة بأكل الرجلِ العنبريِّ لحمَ المرأة إلى أن أتى ثوبٌ من الجبَل فقال:

عجِلتُمُ ما صادَكم عِلاجْ　　من العُنُوق ومن النِّعاجْ

حتى أكلتمْ طفْلَةً كالعاجْ

فلما عيَّره قال ثوب:

يا بنتَ عمِّيَ ما أدراكِ ما حسبي إذ لا تجنُّ خبيثَ الزاد أضلاعي

إنِّي لذو مِرَّةٍ تُخْشَى بـوادِرُه   عِنْدَ الصِّياح بنَصْلِ السَّيْفِ قرَّاع

ومن ظريف الشعر قول أبي عدنان:

فما كلبة سوداءُ تفري بنـابـهـا   عُراقاً من الموتى مِرَاراً وتَكدِمُ

أتيح لـها كلبٌ فضنَّتْ بعَرْقِـهـا   فهارشَهَا وهي على العَرْق تَعْذِمُ

فقفْ على هذا الشعر فإنّه من أعاجيب الدنيا.
وقال سُنَيح بن رباح شار الزِّنجي:

مَا بالُ كلبِ بني كُليبٍ سبَّنا   أن لم يُوازِنْ حَاجِباً وعِقال

قتيل الكلاب

وتنازع مالك بن مِسْمَع وشقيق بن ثور، فقال له مالِك: إنَّما رفعك قبْرٌ بتُسْتَر فقال شقيق: حينَ وضَعَك قبرٌ بالمشقَّر، يا ابن قتيلِ النساء وقتيل الكلاب.
قال: وكان يقال لمسمع بن شيبان قتيلُ الكلاب، وذلك أنَّه لجأ في الردة إلى قومٍ من عبد القيس، فكان كلبُهم ينبحُ عليه فخاف أن يدلَّ على مكانه فقتَلَه فقُتِلَ به.

أمثال أخرى في الكلب

قال: والعرب تقول: أسرَعُ من لَحْسَةِ كلبٍ أنفه، ويقال: أحرصُ من لَعْوة وهي الكلبة، وجمعها لِعاء، وفي المثل: ألأم من كلبٍ على عَرْق، ونَعِمَ كلبٌ في بؤس أهله، وفي المثل: اصنع المعروف ولو مَعَ الكلب.

رؤيا الكلب وتأويلها

وقال ابن سِيرين: الكلبُ في النوم رجلٌ فاحش، فإن كان أسودَ فهو عربيٌّ، وإن كان أبقعَ فهو عجَميّ.
وقال الأصمعيّ عن حمّاد بن سلمة عن ابنِ أخْتِ أبي بلال مِرداَس بن أدَيَّة قال: رأيتُ أبا بلالٍ في النوم كلباً تذرف عيناه، وقال: إنّا حُوِّلنا بعدَكم كلاباً من كلاب النـار.
قال: ولمّا خرج شَمِر بن ذي الجَوشَن الضِّبابي لقتال الحسين بن علي رضي اللّه تعالى عنهما، فرأى الحسينُ فيما يرى النائم أنَّ كلباً أبقعَ يلغُ في دمائهم، فأوَّلَ ذلك أن يقْتُلَهم شمر بن ذي الجوشن، وكان مُنْسلخاً بَرَصاً.
قال: والمسلمون كلُّهم يسمُّون الخوارجَ: كلابَ النـار.

شعر في تشبيه الفرس بضروب من الحيوان ليس بينها الكلب وقال صاحب الديك: صاحب الكلب يصِفُه بالسُّرعةِ في الحُضْر، وبالصّبر على طول العَدْو، وبسَعة الإهاب، وأنَّه إذا عدا ضَبَع وبسَط يديهِ ورجليه حتى يمسَّ قصَصُهُ الأرْض، وحتى يشرط أذنيه بشَبَا أظفاره، وأنَّه لا يحتِشي ريحاً مع ما يصيب الكلاب من اللَّهَث، فإن كان كما تقولون فلم وصفت الشعراءُ الفرسَ وشبّهته بضروب من الخلق، وكذلك الأعضاءُ وغير ذلك من أمره، وتركوا الكلب في المنْسَأ لا يلتفت أحَدٌ لِفْتَهُ؟ وقال أبو دُؤاد الإياديُّ في ذلك:

عن لسـانٍ كـجـثَّة الـورَل الأحـ مر مـجَّ الـنَّدى عـلـيه الـعَـرارُ

ولم يذكره في شيء، وقال خالد بن عجرة الكلابي:

كأن لسانَه وَرَلٌ عليه بدار مـضـية مـج الـعـرار

وقال امرؤ القيس:

وَخدٌّ أسِيلٌ كالمِسَنِّ وبـرْكَةٌ كجُؤجؤ هَيق دَفُّه قد تموَّرا

ولم يذكره في شيءٍ، وقال عُقْبة بن سابق:

عريض الخدِّ والجبـ هَةِ والصَّهوةِ والجنبِ

ولم يذكره في شيء، وقال امرؤ القيس:

وسامعتان تعرف العتقَ فيهما كسامعتَي مذعورة وسط ربرب

ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال عقبة بن سابق:

ولها بركةٌ كجؤجؤ هيق ولَبَانٌ مضرّجٌ بالخِضَابِ

ولم يذكره في شيء، وقال خُفاف بن نَدبة:

عَبل الذّراعين سليم الشّظا كالسِّيدِ يَومَ القِرَّةِ الصاردِ

ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال امرؤ القيس:

سليم الشَّظا عبْل الشَّوى شَنِج النَّسا أقبَّ كتَيس الحُلَّبِ الـغَذَوانِ

ولم يذكره في شيءٍ من ذلك، وقال عقبة بن سابق:

وأرساغ كأعناق ظِباءٍ أربع غُلْبِ

ولم يذكره في شيءٍ من ذلك، وقال الجَعْديُّ:

كأن تماثيلَ أرساغهِ رِقابُ وُعُولٍ لَدَى مَشْرَبِ

ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال امرؤ القيس:

لها مثْنَتَان خَظاتَا كما أكبَّ عَلَى ساعديه النَّمِرْ

ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال أبو دُؤاد:

يمشي كمشي نعامتَين تُتابعانِ أشقَّ شاخِصْ

ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال ابن الصَّعِق:

بمحنَّبٍ مثل العُقا بِ تخالُه للضُّمر قِدْحا

ولم يذكره في شيءٍ من ذلك، وقال رَبيعة بن جُشم النمري، ويروى لامرئ القيس:

وساقان كعباهما أصمعَا نِ لحمُ حَمَاتَيهما منبتِرْ

ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال عبد الرحمن بن حسّان بن ثابت الأنصاري:

كأنَّ حَمَاتَيْهما أرنبان تقبَّضتا خيفة الأجدلِ

ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال خالد بن عبد الرحمن في مثل ذلك:

كأنَّ حَماتَها كردوس فحْلٍ مقلّصةً على ساقي ظليمِ

ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال الأعشى:

أمَّا إذا استقبلتَه فكأنَّه جِذْعٌ سَمَا فوقَ النَّخيل مشذَّب

وإذا تصفَّحَه الفوارسُ معرضاً فتقولُ سِرحانُ الغَضَا المتصوِّبُ

أما إذا استدبرته فتسوقه ساقٌ يقمِّصها وظيفٌ أحدَبُ

منهُ وجاعرة كأنّ حماتها لما كشفت الجُلّ عنه أرنبَ

ولم يذكره في شيءٍ من ذلك، وقال الأسعر الجُعْفي:

أما إذا استقبلْتَه فكأنّه بازٍ يكفكِفُ أن يطيرَ وقد رأى

أما إذا استعرضتَه متمطّرا فتقول هذا مثلُ سِرحان الغَضا

أمَّا إذا استدبرته فتَسُوقه ساقٌ قموصُ الوَقعِ عارية النَّسَا

ولم يذكره في شيءٍ، وقال أبو داؤد:

السِّيد ما استقبلْتَه وإذا ولّى تقول مُلَمْلَمٌ ضَرْبُ

لأمٌ إذا استعرضتَه ومشَى متتابعاً ما خانَه عَقْبُ

يمشِي كمشي نعامةٍ تبعتْ أخرى إذا هي راعَها خطْبُ

ولم يذكره في شيء من ذلك، وقال امرؤ القيس:

له أيطلاَ ظبي وساقا نعامةٍ وإرخاءُ سِرحانٍ وتقريبُ تَتْفُلِ

ولم يذكره في شيءٍ من ذلك، وقال ابن سِنانٍ العبْديّ:

أما إذا ما أقبلت فُمطارةٌ كالجِذع شذّبهُ نفيُّ المِنْجَلِ

أما إذا ما أعرضَتْ فنبيلة ضخمٌ مكانُ حِزامِها والمِركَلِ

أما إذا تشتدُّ فهي نعامة تنفي سنابكُها صِلابَ الجَنْدَلِ

قول أبي عبيدة في تشبيه الفرس بضروب من الحيوان قال أبو عبيدة: ومما يشبه خَلْقُه من خَلْق النعامة طولُ وظيفِها وقصر ساقيها وعُري نَسَييها، وممَّا يشبه من خلقه خلْقَ الأرنب صِغَر كعبَيها، وممَّا يشبه من خلْقه خلْق الحمار الوحشيِّ غِلظ لحمه، وظمأ فصوصِه وسَراتِه، وتمحص عصَبه، وتمكُّن أرساغه، وعَرَض

صهوته.

قال صاحب الكلب: قد قال أبو عبيدة: إنّ مما يشبه من خلقه خلْقَ الكلب هَرَت شدقِه، وطول لسانه، وكثرة ريقه، وانحدار قصِّه، وسبوغ ضُلوعِه، وطول ذراعيه، ورُحْب جلده، ولحوق بطنه، وقال طُفيل الغَنَويّ، يصف الخيل:

تباري مَراخِيها الزِّجاج كأنَّها ضِرَاءُ أحسَّتْ نبأةً من مكلِّبِ

وقال طُفَيل أيضاً:

كَأنَّ عَلَى أعطافِهِ ثوبَ مـائِحٍ وإن يلق كلب بين لحييه يَذْهَبِ

وقال صاحب الديك: وأين يقع البيتُ والبيتان والثلاثة، من جميع أشعار العرب؟ وقال صاحب الكلب: لعلّنا إن تتبَّعنا ذلك وجدناه كثيراً، ولكنك تقدَّمت في أمر ولم تُشْعِرِ بالذي تعني، فنَلتقط من الجميع أكثرَ مما التقطت، والإنسان شريف الأعضاء وقد تشبه مواضعُ منه مواضع من الفرس العتيق، وما حضرنا من الأشعار إلاّ قوله:

وترى الكميتَ أمامَه وكَأنّه رجلٌ مُغاصِبْ

وقال الشاعر في ذلك:

خُوصٌ تَرَاحَ إلى الصراخ إذا غدت فِعْلَ الضِّرَاءِ تَـرَاح لـلـكَـلاّبِ

وقد شبهوا بالكلب كلَّ شيء وكان اسم فرس عامر بن الطفيل، الكلب، والمزنوق، والوَرد.

شعر في وصف الناقة

قال صاحب الديك: قد قال أوس بن حجر، ووصف الناقة ونشاطها والذي يَهيجها فقال:

كَأنَّ هِرّاً جَنيباً عند مَغْرضها والتفَّ ديكٌ برجليها وخنْزيرُ

فهلاّ قال: والتف كلبٌ كما قال: والتفَّ ديك وقال أبو حيَّة:

وتزاورَتْ عنه كأن بدَفِّهـا هِرّاً ينشِّبُ ضَبْعَها بالأظفر

وقال الأعشى:

بجُلالةٍ سُرُحٍ كَأنّ بـدَقِّـهـا   هرّاً إذا انتعل المطيُّ ظلالَها

وقال عنترة بن شدَّاد العَبْسي:

وكأنَّما ينأى بجانب دَفِّـهـا ال   وحْشِيِّ من هَزِج العشيِّ مؤوَّمِ

هرٌّ جَنيبٌ كلّما عطفَتْ لـه   غَضْبَى اتقاها باليدين وبالفـم

وقال المثقّب العَبْديّ:

فسلِّ الهمَّ عنك بذاتِ لَوْثٍ   عُذافِرةٍ كَمِطْرَقَةِ القُيُون

بصادقةِ الوَجِيفِ كأنّ هرّاً   يُباريها ويأخُذُ بالوَضِـين

قال صاحب الكلب: إنما يذكرون في هذا الباب السِّباعَ المنعوتة بالمخالب وطولِ الأظفار، كما ذكر الهرَّ وابن آوى، والكلبُ ليس يوصف بالمخالب، وليس أنَّ الهر أقوى منه، ألا ترى أوسَ بن حجر قال في ذلك:

كأنّ هرّاً جَنِيباً عِنْدَ مغْرضِها

فذكر الموضع الذي يوصف بالخلْبِ والخدْش والخمش والتظفير، فلما أراد أن يفزِّعها ويثوِّرَها حتى تذهبَ جافلةً في وجْهها، أو نادَّة، أو كأنّها مجنونة من حاق المرح والنشاط قال:

والتفَّ دِيكٌ برجلَيها وخنزير

وقال أبو النجم:

لو جُرَّ شَنٌّ وسطها لم تَحْفِلِ   من شهوةِ الماءِ ورزٍّ معضل

ولو قال أوس:

والتفّ شَنٌّ برجليها وخنزير

لكان جائِزاً، لولا يُبْس الشنِّ وقحُوله، وأنّه ليس مما يلتوي على رجليها، وقال آخر:

كأنَّ ابنَ آوى مُوثقٌ تحت غرْزِها　　إذا هو لم يَكْلِمْ بنابَيـهِ ظفْـرا

وقال صاحب الديك: حديث عمرو بن شُعيب عن عبد اللّه بن عمر وعبد اللّه ابن عباس، أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: لا يحِلُّ لرجلٍ أنْ يُعطِيَ عَطِيَّةً ويرجِع فيها، إلاّ الوالد فيما يعطي ولده، ومثل الذي يُعطي العطيَّة ثم يرجِعُ فيها كمثل الكلب يأكل، حتى إذا شَبِع قاءَ ثم عاد في قيئه.
وعن عبد اللّه بن عمر قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: لا يرجع في هِبَته إلاّ الوالد من ولده، والعائِدُ في هبتِه كالعائد في قيئه.
وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن عبد اللّه بن جعفر، أنّ أبا بكرٍ أمر بقتل الكلب، قال عبد اللّه بن جعفر: وكانت أمِّي تحتَ أبي بكر، وكان جروٌ لي تحت سريره فقلت له: يا أبتِ، وكلبي أيضاً؟ فقال: لا تقتلوا كلبَ ابني، ثمّ أشار بإصبعه إلى الكلب - أي خذوه من تحت السرير - وأنا لا أدري، فقتل.
وإسماعيل بن أميَّة قال: أُمَّتان من الجنِّ مُسِختا، وهما الكلاب والحيَّات.
ابن المبارك قال: إذا عرف الرجلُ قدْرَ نفسه صار عِند نفسِه أذلَّ من الكلب.

لؤم الكلب

قال صاحب الديك - وذكَرَ الكلب فقال -: من لؤمِه أنَّه إذا أسمنْتَه أكلك، وإن أجعْتَه أنكرك، ومن لؤمه اتّبَاعه لمن أهانه، وإلفُه لمن أجاعَه؛ لأنه أجهلُ من أن يأنس بما يؤنس به وأشره وأنَهمُ وأحرصُ وألجُّ من أن يذهب بمطمعته ما يذْهَب بمطامع السباع.
ومن جهله أيضاً أنّا لم نجدْه يحرُس المحسنين إليه بنباحه، وأربابَهُ الذين ربّوه وتبنُّوه إلا كحراسته لمن عَرفه ساعةً واحدة، بل لمن أذلّه وأجاعَه وأعطشه، بل ليس ذلك منه حراسةً، وإنَّما هو فيه من فضل البَذَاء أو الفُحْش، وشدَّة التحرُّش والتسرُّع، وقد قال الشاعر في ذلك:

إذا تخازَرْتُ وما بي من خَزَرْ　　ثم كسَرت العينَ من غير عَوَر

أبذى إذا بُوذيت من كلبٍ ذَكَـرْ　　أسودَ قزَّاحٍ يُعوِّي في السَّحَر

وإنَّما ذلك شكل من شكل الجبن، وكالذي يعتري نِسَاءَ السِّفْلة من الصخب.

جبن الكلب

والكلب جبانٌ وفيه جرأة ولؤم، ولو كان شجاعاً وفيه بعض التهيُّب كان أمثل، ومن فرط الجبن أنّه يفزَع من كلِّ شيء وينبحَه.
والبرذون ربَّما رمَح البرذونَ مبتدئاً، وقلق وصهل صَهيلاً في اختلاط، وليس ذلك من فضْل قوَّةٍ يجدُها في نفسه على المرموح، ولكنَّه يكون جباناً، فإذا رأى

البرذون الذي يظنُّ أنَّه يعجِز عنه أراه الجبنُ أنَّه واقعٌ به، فعندها يقلَق وإذا قلِق رمَح، وهذه العلَّة تعرض للمجنون؛ فإنَّ المجنونَ الذي تستولي عليه السَّوداء، ربما وثب على من لا يعرفه، وليس ذلك إلاّ لأنَّ المِرَّة أوهمتْه أنَّه يريده بسوء، وأنّ الرأي أن يبدأه بالضرب، وعلى مثل ذلك يرمي بنفسه في الماءِ والنار.

مما حدث للنظام

فأمّا الذي شهدت أنا من أبي إسحاق بن سيَّار النظّام، فإنّا خرجنا ليلةً في بعض طرقات الأبُلَّة، وتقدَّمتُه شيئاً، وألح عليه كلبٌ من شكل كلاب الرِّعاء، وكره أن يعدوَ فيغريَه ويُضَرِّيه، وأنف أيضاً من ذلك - وكانَ أَنِفاً شديدَ الشَّكيمةِ أبَّاء للهَضيمة - وكره أن يجلسَ مخافةَ أن يشغَر عليه أو لعلَّه أن يعضَّه فيَهْرِتَ ثوبَه، وألحَّ عليه فلم ينله بسوءٍ، فلمَّا جُزْنا حدَّه وتخلَّصنا منه، قال إبراهيم في كلامٍ له كثير، يعدِّد خصالَه المذمومة، فكان آخر كلامه أن قال: إن كنت سَبُع فاذهبْ مع السِّباع، وعليك بالبراري والغِياض، وإن كنت بَهيمة فاسكتْ عنَّا سكوت البهائم ولا تنكر قولي وحياتي عنه بقولٍ ملحون، من قولي: إن كنت سَبْع ولم أقلْ إن كنت سبعا.

إفساد الإعراب لنوادر المولدين

وأنا أقول: إنّ الإعرابَ يفسد نوادر المولَّدِين، كما أنّ اللحنَ يُفْسِد كلام الأعراب؛ لأنّ سامعَ ذلك الكلام إنَّما أعجبتْه تلك الصورة وذلك المخرَج، وتلك اللغة وتلك العادة؛ فإذا دَخَلْت على هذا الأمر - الذي إنما أضحك بسُخْفِه وبعضِ كلام العجميَّة التي فيه - حروفَ الإعراب والتحقيق والتثقيل وحوَّلتَه إلى صورةِ ألفاظ الأعراب الفصحاء، وأهلِ المروءَة والنجابة انقلب المعنى مع انقلاب نظْمِه، وتبدَّلَتْ صورته.
ثم قال أبو إسحاق: إنْ أطعمَه اللصُّ بالنهار كسرةَ خُبْزٍ خلاّه، ودارَ حولَه ليلاً، فهو في هذا الوجه مرتشٍ وآكلُ سُحت؛ وهو مع ذلك أسمجُ الخلْق صوتاً، وأحمق الخلق يقظةً ونوماً، وينام النَّهارَ كله على نفس الجادَّة، وعلى مدقِّ الحوافر، وفي كل سوقٍ وملتقى طريق، وعلى سبيل الحمُولة وقد سهر الليلَ كله بالصياح والصَّخَب، والنَّصَب والتَّعب، والغيظ والغضب، وبالمجيء والذَّهاب، فيركبه من حبِّ النوم على حسب حاجته إليه، فإن وطئتْه دابَّةٌ فأسوَأ الخَلْق جزَعاً وألأمه لؤماً، وأكثره نُباحاً وعُواءً، فإن سلم ولم تَطأْهُ دابَّةٌ ولا وطئه إنسان، فليست تتمُّ له السلامة؛ لأنّه في حالِ متوقّعٍ للبليَّةِ، ومتوقّعُ البليَّةِ في بَليَّة، فإنْ لم يسلم فليس على ظهرها مبتلى أسوأ حالاً منه؛ لأنّه أسوَؤُهم جزَعاً، وأقلُّهم صبراً، ولأنّه الجاني ذلك على نفسه، وقد كانت الطُّرق الخالية له معرضة، وأصول الحيطان مباحة.
وبعد فإنّ كلَّ خُلُقٍ فارقَ أخلاقَ النَّاس فإنّه مذموم، والناس ينامون بالليل الذي جعله اللّه تعالى سكَناً، وينتشرونَ بالنّهار الذي جعله اللّه تعالى لحاجات الناس مَسْرحاً.

قال صاحب الكلب: لو شئنا أن نقول: إنّ سهره بالليل ونومَه بالنهار خَصْلَةٌ ملوكيَّة لقلنا، ولو كان خلافُ ذلك ألذّ لكانت الملوك بذلك أولى، وأمَّا الذي أشرتمْ به من النوم في الطرق الخالية، وعبتُموه به من نومه على شارعاتِ الطُّرق والسِّكَكِ العامرة وفي الأسواق الجامعة، فكلُّ امرئٍ أعلم بشَأْنِهِ، ولولا أنّ الكلبَ يعلمُ ما يَلقى من الأحداث والسُّفهاءِ وصِبيان الكتَّاب، من رضِّ عظامِه بألواحهم إذا وجدوه نائِماً في طريق خالٍ ليس بحضرته رجالٌ يُهابون، ومشيخةٌ يرحمون ويزجرون السفهاءَ، وأنّ ذلك لا يعتريه في مجامع الأسواق - لقلّ خلافه عليك، ولما رقد في الأسواق، وعلى أنّ هذا الخُلُق إنَّما يعتري كلاب الحُرَّاس، وهي التي في الأسواق مأواها ومنازلها.
وبعد فمن أخطأ وأظلمُ ممَّن يكلّف السباعَ أخلاقَ الناس وعادات البهائِم وقد علمْنا أنّ سباعَ الأرض عن آخرها إنَّما تَهيج وتَسرح وتلتَمس المعيشةَ وتتلاقى على السفاد والعظال ليلاً؛ لأنها تبصر بالليل.

سبب اختيار الليل للنوم

وإنما نام الناسُ بالليل عن حوائِجِهم، لأنّ التمييز والتفصيل والتبيُّن لا يمكنهم إلاّ نهاراً، وليس للمتعَب المتحرِّك بدٌّ من سكون يكون جَماماً له، ولولا صرفُهم التماسَ الجَمام إلى الوقت الذي لو لم يناموا فيه والوقتُ مانع من التمييز والتبيُّن، لكانت الطبائعُ تنتقض، فجعلوا النَّوم بالليل لضربين: أحدهما لأنّ الليلَ إذ كان من طبعه البرد والرُّكود والخُثُورة، كان ذلك أنزَعَ إلى النوم وما دعا إليه، لأنّه من شكله، وأمّا الوجه الآخر فلأنّ الليلَ موحِشٌ مخُوف الجوانب من الهوامِّ والسباع، ولأنّ الأشياء المبتاعة والحاجات إلى تمييز الدنانير، والدراهم، والحبوب، والبزور، والجواهر، وأخلاط العطر، والبَرْبَهار، وما لا يحصى عدده، فقادتهم طبائعُهم وساقتهم غرائزهم إلى وضع النوم في موضعه، والانتشار والتصرف في موضعه على ما قدَّر اللّه تعالى من ذلك وأحبَّه، وأمَّا السباع فإنها تتصرَّف وتبصر بالليل، ولها أيضاً عللٌ أخرى يطول ذكرُها.

نوم الملوك

وأمَّا ما ذكرتموه من نوم الملوك بالنَّهار وسهرهم بالليل، فإنّ الملوكَ لم تجهلْ فضلَ النوم بالليل والحركةِ بالنهار، ولكنَّ الملوك لكثرة أشغالها فضلَت حوائِجها عن مقدار النهار ولم يتّسع لها، فلما استعانَت بالليل ولم يكن لها بدٌّ من الخلوة بالتدبير المكتوم والسرِّ المخزون، وجمعت المقدارَ الفاضلَ عن اتِّسَاع النهار إلى المقدار الذي لا بدَّ للخلوة بالأسرار منه؛ أخذتْ من الليل صدراً صالحاً، فلمَّا طال ذلك عليها أعانها المِران، وخفَّ ذلك عليها بالدُّربة.
وناسٌ منهم ذهبوا إلى التناول من الشراب وإلى أن سَماع الصوت الحسن مما يزيد في المُنّة، ويكون مادَّةً للقوة، وعلموا أنّ العوامَّ إذا كانت لا تتناول الشّرابَ ولا تتكلّف السماع على هذا المعنى، أن ظنّها سيسوءُ، وقولَهَا سيكثُر؛ فرأوا أنّ الليل أسترُ وأجدرُ أن يتمَّ به التدبير، وقال الراجز:

اللَّيلُ أخفَى والنَهارُ أفْضَحُ

وقالوا في المثل: اللَّيل أخفَى للويل.

تلهي المحزون بالسماع

وما زالت ملوكُ العجَم تلهِّي المحزون بالسماع، وتعلِّل المريض، وتَشغله عن التفكير، حتَّى أخذت ذلك ملوكُ العرب عن ملوك العجم، ولذلك قال ابن عَسَلَة الشيباني:

وسماع مُدْجنةٍ تعلّلنُـا ... حتَّى نَنَامَ تَنَاوُمَ العُجْمِ

فصحوت والنَّمَريُّ يحسَبُها ... عَمَّ السِّماكِ وخالَة النَّجْم

النجم: واحد وجمع، وإنَّما يعني في البيت الثريَّا، ومدجنة: يعني سحابةً دائِمة.
قول أم تأبط شراً في ولدها وفيما يحكى عن امرأةٍ من عقلاء نساءِ العرب - وإذا كان نساءُ العرب في الجملة أعقلَ من رجال العجَم، فما ظنُّكَ بالمرأةِ منهم إذا كانت مقدَّمة فيهم - فروَوا جميعاً أنَّ أمَّ تأبَّط شرّاً قالت: واللّه ما وَلَدْتُه يَتْناً، ولا سقيته غَيْلاً ولا أبتُّه على مَأْقة.
فأمَّا اليتن فخروج رجل المولود قبلَ رأسِه، وذلك علامة سُوءٍ، ودليلٌ على الفساد، وأما سَقي الغَيْل، فارتضاع لبن الحبلى، وذلك فسادٌ شديد.
ما ينبغي للأم في سياسة رضيعها حين بكائه وأما قولها في المأقة، فإنَّ الصبيَّ يبكي بكاءً شديداً متعِباً موجِعاً، فإذا كانت الأمُّ جاهلةً حرّكته في المهد حركةً تورثه الدُّوار، أو نوّمته بأن تضرب يدَها على جنبه، ومتى نام الصبيُّ وتلك الفزْعةُ أو اللَّوعة أو المكروه قائمٌ في جوفه، ولم يعلَّلْ ببعضِ ما يلهيه ويُضحكه ويسرُّه، حتى يكون نومه على سرورٍ، فيسْري فيه ويعمَل في طباعه، ولا يكون نومه على فزعٍ أو غيظ أو غمٍّ؛ فإنَّ ذلك ممَّا يعمل في الفساد، والأمُّ الجاهلةُ والمرقِّصة الخرقاء، إذا لم تعرف فرقَ ما بين هاتين الحالتين، كثُر منها ذلك الفساد، وترادَفَ، وأعان الثاني الأوّلَ والثالثُ الثانيَ حتَّى يخرجَ الصبيُّ مائقاً، وفي المثل: صاحبي مَئِق وأنا تئقٌ، يضرب هذا المثل للمسافر الأحمق الرَّفيق والزَّميل، وقد استفرغه الضَّجر لطول السفر فقلبُه ملآن، فأوَّلُ شيءٍ يكون في ذلك المئق من المكروه لم يحتمله بل يَفيض ضجره عليه، لامتلائه من طول ما قاسى من مكروه السفر.
ما يحتاج إليه الملوك فاحتاج حُذَّاق الملوكِ وأصحابُ العنايات التامَّةِ، أن يداووا أنفسَهم بالسماع الحسن، ويشدُّوا من متْنِهم بالشراب، الذي إذا وقعَ في الجَوف حرَّك الدَّم، وإذا حرك الدَّم حرَّك طباعَ السرور، ثمَّ لا يزالُ زائداً في مِكيال الدم، زائداً في الحركة المولِّدة للسرور، هذه صفةُ الملوك، وعليه بنوا أمرَهم، جهل ذلك مَنْ جهله، وعَلمه من علمه.
وقال صاحب الكلب: أمَّا تركُه الاعتراضَ على اللِّصِّ الذي أطعمه أيَّاماً وأحسنَ إليه

مِراراً، فإنَّما وجب عليه حفظُ أهلِه لإحسانهم إليه، وتعاهدهم له، فإذا كان عهده ببرِّ اللص أحدَث من عهده ببرِّ أهله، لم يكلَّف الكلبُ النظرَ في العواقب، وموازنة الأمور، والذي أضمر اللصُّ من البَيات غَيْبٌ قد سُتِر عنه؛ وهو لا يَدري أجاء ليأخذَ أم جاء ليعطيَ، أو هم أمروه أو هو المتكلِّف لذلك؛ ولعلَّ أهله أيضاً أن يكونوا قد استحقُّوا ذلك منه بالضَّرب والإجاعة، وبالسبِّ والإهانة. وأمَّا سماجة الصَّوت فالبغل أسمجُ صوتاً منه، كذلك الطاووس على أنَّهم يتشاءَمون به، وليس الصَّوت الحسنُ إلاّ لأصناف الحمام من القماريِّ والدَّبَاسيّ، وأصناف الشَّفانين والوراَشين، فأمّا الأسد والذئب؛ وابن آوى والخنزير، وجميعُ الطير والسباع والبهائِم فكذلك، وإنَّما لك أن تذمَّ الكلبَ في الشيء الذي لا يعمّ، والناس يقولون: ليس في الناس شيءٌ أقلَّ من ثلاثةِ أصناف: البيان الحسن، والصوت الحسن، والصورة الحسنة؛ ثمّ النَّاس بعدُ مختلِطون ممتزجون، وربّما كان مِنَ الناس بل كثيراً ما تجدُه وصوته أقبحُ من صوت الكلب، فلم تخصّون الكلبَ بشيءٍ عامَّةُ الخلق فيه أسوأ حالاً من الكلب؟ وأما عُواؤه مِن وَطْء الدَّابّة وسوءُ جزَعه من ضرب الصِّبيان، فجزعُ الفرَس من وقع عذَبة السَّوط، أسوأ من جزَعه من وقع حافر برِذون، وهو في هذا الموضع للفرس أشدُّ مناسبةً منه للحمار.
على أنَّ الدِّيكَ لا يُذكَر بصبرٍ ولا جزَع.

نوادر ديسيموس اليوناني

قال صاحب الديك: حدَّثني العُتْبي قال: كان في اليونانيِّين ممرور له نوادرُ عجيبة، وكان يسمَّى ديسيموس، قال: والحكماء يروون له أكثرَ من ثمانين نادرة ما منها إلاّ وهي غُرَّةٌ؛ وعينٌ من عُيون النوادر: فمنها أنَّه كان كلَّما خرجَ من بيته مع الفجر إلى شاطئ الفرات للغائط والطهور، ألقى في أصل باب داره وفي دُوَّارته حجراً، كي لا ينصفق الباب، فيحتاج إلى معالجة فتحه، وإلى دفعه كلَّما رجَع من حاجته، فكان كلَّما رجع لم يجد الحجَر في موضعه، ووجد البابَ منصفقاً، فكَمن له في بعضِ الأيّام ليرى هذا الذي يصنع ما يصنع، فبينا هو في انتظاره إذ أقبَل رجلٌ حتَّى تناوَلَ الحجر، فلمَّا نحَّاه عن مكانه انصفق البابُ، فقال له: ما لَك ولهذا الحجر؟ وما لك تأخذه؟ فقال لم أعلمْ أنَّه لك، قال: فقد علمتَ أنَّه ليس لك.
قال: وقال بعضهم: ما بال ديسيموس يعلّم الناسَ الشِّعرَ ولا يقول الشعر؟ قال: ديسيموس كالمِسَنِّ الذي يشحَذ ولا يقطع.
ورآه رجلٌ يأكل في السُّوق فقال: أتأكل في السوق؟ فقال: إذا جاع ديسيموس في السُّوق أكلَ من السوق.
قال: وأسمعه رجلٌ كلاماً غليظاً وسطا عليه، وفحش في القول، وتحلَّم عنه فلم يجبه، فقيل له: ما منعك من مكافأته وهو لك مُعرِض؟ قال: أرأيتَ لو رمحَك حِمارٌ أكنتَ ترمحُه؟ قال: لا، قال: فإن ينبح عليك كلب تنبح عليه؟ قال:لا، قال: فإنَّ السفيهَ إمّا أن يكون حماراً، وإما أن يكون كلباً؛ لأنَّه لا يخلو من شَرارَةٍ تكون فيه أو جهل، وما أكثر ما يجتمعان فيه.

أمثال أخرى في الكلب

وقال صاحب الديك: يقال للسفيه إنَّما هو كلب، وإنَّما أنتَ كلبٌ نَبَّاح، وما زال ينبَح علينا منذُ اليوم، وكلبُ مَن هذا؟ ويا كلب ابن الكلب، وأخسأْ كلباً.
وقالوا في المثل: احتاجَ إلى الصُّوف مَنْ جَزَّ كلبَه، و أجِعْ كلبَك يتبَعْك، وأحبُّ شيء إلى الكلبِ خانقهُ، وسمِّن كلبَك يأكلك، وأجوَع من كَلْبة حَومَل، وكالكلب يربض في الآرِيِّ فلا هو يأكل ولا يدَعَ الدابَّة تعتلف.
براقش وفي أمثالهم في الشؤم: على أهلها دلَّتْ بَراقِشُ.
وبَراقش: كلبة نبحتْ على جيشٍ مرُّوا في جوف الليل وهم لا يشعُرون بموضع الحيِّ، فاستدلُّوا عليهم بنُباح الكلبة فاستباحوهم.
الجنّ والحنّ وقال صاحب الدِّيك: روى إِسماعيلُ المكِي عن أبي عَطاءٍ العُطاردي قال: سمعت ابن عبَّاس يقول: السُّود من الكلاب الجِنّ، والبُقْع منها الحنّ، ويقال إنَّ الحنَّ ضَعَفة الجنِّ، كما أنَّ الجنيَّ إذا كفر وظلَم وتعدَّى وأفسد، قيل شيطان؛ وإن قوي على البنيان والحمل الثقيل، وعلى استراق السمع قيل مارد، فإنْ زاد فهو عِفريت، فإن زاد فهو عبقريّ، كما أنّ الرجلَ إذا قاتل في الحرب وأقدم ولم يحجم فهو الشجاع، فإن زاد فهو البطل، فإن زاد قالوا: بُهْمة، فإن زاد قالوا: ألْيَس، فهذا قول أبي عبيدة.
وبعض النَّاس يزعم أنَّ الحِنّ والجنَّ صِنفان مختلفان، وذهبوا إلى قول الأعرابي حينَ أتى بعضَ الملوك ليكتتب في الزَّمْنَى، فقال في ذلك:

إن تكتبوا الزَّمْنَى فإنِّي لَزَمِنْ مِن ظاهر الدَّاءِ وداءٍ مُستَكِنّ
أبيتُ أهوي في شياطينَ تُرِنّ مختلفِ نجارُهمْ حِنٌّ وجِنّ

ما ورد من الحديث والخبر في- قتل الكلاب وعن أبي عنبسة عن أبي الزبير عن جابر: قال: أمرنا رسول اللّه صلى الله عليه وسلم بقتل الكلاب، حتى أن المرأة لتقدم بكلبها من البادية فنقتله، ثم نهانا عن قتلها وقال: عليكم بالأسود البهيم ذي النكتتين على عينيه؛ فإنه شيطان.
وعن أبي الزبير عن جابر قال: أمرنا رسول اللّه صلى الله عليه وسلم بقتل الكلاب، فكنا نقتلها كلها حتى قال: إنها أمة من الأمم؛ فاقتلوا البهيم الأسود ذا النكتتين على عينيه؛ فإنه شيطان، وعبد اللّه وأبو بكر ابنا نافع عن ابن عمر، ونافع عن أبي رافع قال: أمرَني رسول اللّه صلى الله عليه وسلم أنْ أقتلَ الكلاب، فكُنَّا نقتُلُها؛ فانتهيت إلى ظاهر بني عامر، وإذا عجوزٌ مسكينة معها كلب وليس قربها إنسان فقالت: ارجعْ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فأخبره أنَّ هذا الكلبَ يُؤنِسني، وليس قربي أحد، فرجع إليه فأخبره، فأمر أن يقتَلَ كلبها فقتله، وقال في حديث آخر: إنَّه لمَّا فرَغ من قتل كلاب المدينة وقتلِ كلْب المرأة قال: الآنَ استرحْت، قالوا: فقد صحَّ الخبرُ عن قتل جميع الكلاب، ثمَّ صحَّ الخبر بنسخ بعضه وقتل الأسود البهيم منها، مع الخبر بأنَّها من الجنّ والحنّ، وأنَّ أمَّتين مُسِختا،

وهما الحيَّات والكلاب.
ثم روى الأشعث عن الحسن قال: ما خطب عثمانُ خُطبةً إلاّ أمرَ بقتْل الكلاب وذبح الحمام، وعن الحسن قال: سمعت عثمانَ بن عفَّانَ يقول: اقتلوا الكلابَ واذبحوا الحمام.
قال: وقال عطاءٌ: في قتل كَلْب الصيد إذا كان صائداً أربعُون درهماً، وفي كلب الزرع شاة.

ما ورد من الحديث والخبر في دية الكلب

والحسن بن عمارة عن يعلى بن عطاءٍ عن إسماعيل بن حسان عن عبد اللّه بن عمر قال: قضى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم في كلب الصَّيدِ بأربعين درهماً، وفي كلب الغنم بشاة، وفي كلب الزرع بفَرَق من طعام، وفي كلب الدار بفَرَق من تراب، حقّ على القاتل أن يؤدِّيَه، وحُقَّ على صاحب الدار أن يقبضه.
قالوا: والتراب لا يكون عقلاً إذا كان في مقدار الفَرَق.
وفي قوله: وحُقَّ على صاحب الدار أن يقبضه، دليلٌ على أنّه عقوبة على اتخاذه وأن ذلك على التصغير لأمر الكلب وتحقيره، وعلى وجه الإرغام لمالكه، ولو كان عوضاً أو ثواباً، أو كان في طريق الأموال المحروص عليها، لما أكْره على قبضه أحد، ولكان العفو أفضل.

ما ورد من الحديث والخبر في شأن الكلب

قال: وسئل عن الكلب يكون في الدار وفي الدار مَن هو له كاره.
ابن أبي عَروبة عن قتادة عن أبي الحكم: أنّ ابنَ عمر سئل عن ذلك فقال: المأثمُ على ربِّ الدَّار الذي يملكها.
وعن ابن عُمر قال: من اتَّخذ كلباً ليس بكلب زَرْع ولا ضَرْع ولا صَيد نَقص من أجره كلَّ يوم قيراط، فقال رجل: فإن اتخذه رجلٌ وهو كاره؟ قال: إنَّما إثمه على صاحب الدار.
وصَدَقة بن طَيْسَلة المازنيّ قال: سألت الحسن قلت: إنَّ دورَنا في الجبّان وهي مُعْوِرة وليس عليها أبواب، أفترى أن نتَّخذ فيها كلاباً؟ قال: لا لا.
وعن ابن أبي أنيسة عن سالم عن أبيه قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: من اقتَنَى كلباً إلاَّ كلب صيدٍ أو كلب ماشية، نقص من أجره كلَّ يوم قيراطان.
وعن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: من اقتنى كلباً فإنَّه ينقص من عمله كلَّ يوم قيراط.
ويونس عن أبيه عن إسحاق قال: حدثنا هُنَيدَةُ بن خالد الخزاعي قال: انطلقت مع نفرٍ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، نعودُ رجلاً من الأنصار، فلمَّا انتَهوا إلى باب الدار ثارت أكلُبٌ في وجوه القوم، فقال بعضهم لبعض: ما يُبقي هؤلاءِ من عمل فلانٍ شيئاً، كلُّ كلبٍ منها ينقُص قيراطاً في كلِّ يومٍ.
هشام بن حسان عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من اتخذ كلباً ليسَ بكلبِ صيدٍ ولا زرْع ولا ضَرْع، فإنه ينقُص من أجره كلَّ يوم قيراطٌ، والقيراطُ

مثلُ جبل أحُد.
يونس عن أبي إسحاق عن مجاهد قال: أقبل عبد اللّه بن عمرو بن العاص حتَّى نزل ناحية مكَّة، وكانت امرأةٌ عمٍّ له تهاديه، فلما كانت ذاتَ يوم قالت له: لو أرسلتَ إليَّ الغنَم فاستأنستُ برعائها وكلابها فقد نزلتُ قاصية فقال: لولا كلابُها لفعلتُ؛ إنَّ الملائكة لا تدخلُ داراً فيها كلب. الثوريُّ عن سماك بن حرب، أنَّ ابنَ عباس قال على مِنبر البصرة: إنَّ الكلاب من الحِنّ وإنّ الحِنّ من ضَعفة الجن، فإذا غشيكم منها شيءٌ فألقُوا إليها شيئاً أو اطردوه، فإنَّ لها أنفُسَ سوء، وهُشيم عن المغيرة عن إبراهيم قالوا: لم يكونوا ينهَوننا عن شيء من اللعب ونحنُ غلمان إلاَّ الكلاب.
قال صاحب الديك: روى إبراهيم بن أبي يحيى الأسلميّ، عن محمّد بن المنكدِر، عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن قال: تقامر رجُلان على عهد عُمر بديكين، فأمر عمر بالديكة أن تُقْتَل فأتاه رجلٌ من الأنصار فقال: أمرتَ بقتل أمَّةٍ من الأمم تسبِّح اللّه تعالى؟ فأمر بتركها.
وعن قتادة أنّ أبا موسى قال: لا تتَّخذوا الدَّجاج في الدُّور فتكونوا أهل قرية، وقد سمعتم ما قال اللّه تعالى في أهل القرى: "أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ".
وهذا عندي من أبي موسى ليس على ما يظنُّه الناس، لأنّ تأويله هذا ليس على وجه، ولكنَّه كره للفُرسانِ ورجالِ الحرب اتخاذَ ما يتّخذه الفلاَّح وأصحابُ التعيُّش، مع حاجته يومئذ إلى تفرُّغِهم لحروب العجم، وأخْذهم في تأهُّب الفُرسان وفي دُرْبة رجال الحرب، فإن كان ذهب إلى الذي يظهَرُ في اللفظ فهذا تأويلٌ مرغوب عنه.
وقال صاحب الكلب لصاحب الديك: فقد أمر عُمَر بقتل الدِّيَكة ولم يستثنِ منها شيئاً دون شيء، ونهى أبو موسى عن اتخاذ الدجاج ولم يستثنِ منها شيئاً دون شيء، والدِّيكةُ تدخل في هذا الاسم، واسم الدَّجاج يجمعها جميعاً، ورويتم في قتل الحمام مثلَ روايتكم في قتل الكلاب، ولم أركم رويتم أنّ الحمام مِسْخ، ولا أنَّ بعضَه من الجن وبعضه من الحِن، ولا أنَّ أمتين مسختا وكان أحدهما الحمام، وزعمتم أنَّ عمر إنَّما أمر بقتل الدِّيَكة حين كره الهراش بها والقمار بها، فلعلَّ كلابَ المدينة في تلك الأيَّام كثُر فيها العقُور وأكثر أهلُها من الهراش بها والقمار فيها، وقد علمتم أنّ ولاة المدينة ربَّما دَمَروا على صاحب الحمام إذا خيف قِبَلَه القِمار وظنُّوا أنه الشَّرَف، وذكروا عنه الرَّمْيَ بالبُندق وخديعةَ أولادهم بالفراخ، فما بالكم لم تُخرِّجوا للكلابِ من التأويل والعذْر، مثلَ الذي خرَّجتم للحمام والديكة.
المسخ من الحيوان ورويتم في الجرِّيِّ والضِّباب أنهما كانتا أمَّتين مُسختا، وروى بعضهم في الإرْبيانة أنَّها كانت خيّاطة تسرق السُّلوك، وأنَّها مُسِخت وترك عليها بعضُ خيوطها لتكون علامةً لها ودليلاً على جِنْس سرقتها، ورويتم في الفأرة أنَّها كانت طحّانة، وفي سُهيل أنّه كان عشّاراً باليمن وفي الحيَّة أنّها كانت في صورة جَمَل، وأنَّ اللّه تعالى عاقبها حتى لاطها بالأرض، وقسم عقابَها على عشرة أقسام، حين احتملت دخولَ إبليس في جوفها حتَّى وَسوَس إلى آدم مِنْ فِيها، وقلتم في الوَزَغة وفي الحكأة ما قلتم، وزعمتم أنّ الإبل خُلِقت من أعنان الشياطين،

وتأوّلتم في ذلك أقبحَ التأويل، وزعمتم أنَّ الكلابَ أمّةٌ من الجنّ مُسخت، والذئبُ أحقُّ بأن يكون شيطاناً من الكلب، لأنَّه وحشيٌّ وصاحبُ قِفار، وبه يُضرَب المثل في التعدِّي، والكلب ألوفٌ وصاحبُ ديار، وبه يُضرَبُ المثل، والذئب خَتُور غدّار، والكلب وفيٌّ مناصح، وقد أقام الناسُ في الدّىار الكلابَ مُقامَ السَّنانير للفأر، والذئب مضرَّةٌ كلُّه، والكلبُ منافعُه فاضلةٌ على مضارِّه، بل هي غالبة عليها وغامرةٌ لها، وهذه صفة جميع هذه الأشياء النافعة.

والناس لم يُطبقوا على اتِّخاذها عبَثاً ولا جهْلاً، والقضاة والفقهاءُ والعُبَّاد والوُلاة والنُّسَّاك، الذين يأمرون بالمعروف وينهَون عن المنكر، والمحتَسِبة وأصحاب التكلُّف والتسليم جميعاً، لم يطبقوا على ترك النَّكِير على ما يشاهدونه منها في دورِ مَنْ لا يعصيهم ولا يمتنِع عليهمْ إلاّ وقد علِموا أنَّه قدْ كان لقتلِ الكلابِ بأعيانها في ذلك الدَّهر، معنى، وإلاَّ فالنَّاسُ في جميع أقطارِ الأرض لا يُجمِعون على مسالمةِ أصحاب المعاصي، الذين قد خلعوا عُذُرَهم وأبرزوا صَفحتَهم، بل ما ترى خصماً يطعن على شاهدٍ عندَ قاض بأنَّ في داره كلباً، ولا تَرَى حَكَما يردُّ بذلك شهادة، بل لو كان اتِّخاذُ الكلاب مأموراً به، لَما كان إلاّ كذلك. ولو أنَّكم حملتم حكم جميع الهَداهد على حكم هدهد سليمان، وجميعَ الغربان على حكم غُراب نوح، وجميعَ الحمام على حكم حمامة السفينة، وجميعَ الذئاب على حكم ذئب أُهبان بن أوس، وجميعَ الحميرِ على حكم حمار عُزَير - لكان ذلك حكماً مردوداً.

أمور حدثت في دهر الأنبياء وقد نعرض لخصائص الأمور أسبابٌ في دهر الأنبياءِ ونزول الوحي، لا يعرض مثلُها في غير زمانهم: قد كان جبريل عليه السلام يمشي في الأرض على صورة دِحية الكَلبيّ، وكان إبليس يتراءى في السِّكك في صورة سُرَاقة المُدْلجِي، وظهر في صورة الشيخ النَّجْدي، ومثل هذا كثير.

ما يسمى شيطاناً وليس به فإنْ زعمتم أنّ النبي صلى الله عليه وسلم نظرَ إلى رجلٍ يتبع حماماً طيَّاراً فقال: "شيطانٌ يتبع شَيطاناً"، فخبِّرونا عمن يتخذ الحمام من بين جميع سكان الآفاق ونازلةِ البُلدان من الحرميِّين والبصريِّين ومن بني هاشم إلى من دونَهم، أتزعمون أنَّهم شياطينُ على الحقيقة، وأنَّهم من نجل الشياطين؛ أو تزعمون أنَّهم كانوا إنساً فمُسِخوا بعدُ جِنّاً؛ أم يكون قوله لذلك الرجل شيطان، على مثل قوله "شَيَاطِينَ الجِنِّ وَالإِنْس" وعلى قول عمر: لأنزِعنَّ شيطانَه من نُعرتِه، وعلى قول منظور بن رواحة:

فلما أتاني ما تقولُ تَرَقَّصَتْ شياطينُ رأسِي وانتَشَيْنَ من الخَمْرِ

وقد قال مَرَّةً أبو الوجيه العُكْلي: وكان ذلك حين ركبني شيطاني قيل له: وأيَّ الشياطين تعني؟ قال: الغضب.

والعرب تسمِّي كلَّ حيّةٍ شيطاناً، وأنشد الأصمعي:

تُلاعب مثنى حَضْرَميٍّ كأنَّـهُ		تعمُّج شَيطانٍ بذي خِرْوَع قفْرِ

وقالت العرب: ما هو إلاّ شيطان الحَمَاطة، ويقولون: ما هو إلاّ شيطان يريدون القبح؛ وما هو إلاّ شيطان، يريدون الفِطنة وشدَّة العارضة.
وروي عن بعض الأعراب في وقعة كانت: واللّه ما قتلْنا إلاَّ شَيطانَ بَرِصاً، لأنَّ الرجل الذي قاتلهم كان اسمه شيطان، وكان به برص.
وفي بني سعد بنو شيطان، قال طفيلٌ الغنوي:

وشيطان إذ يدعوهم ويُثوِّب

وقال ابن مَيّادة:

فلما أتاني ما تَقُول محاربٌ تغنَّت شياطيني وجُنَّ جُنونُها

وقال الراجز:

إنِّي وإن كنتُ حديثَ السِّنِّ وكانَ في العين نُبوٌّ عنِّي

فإنَّ شيطاني كبيرُ الجنّ

وقال أبو النَّجم:

إنِّي وكلَّ شاعرٍ من البَشَرْ شَيطانُه أنثى وشَيطانِي ذَكَرْ

وهذا كلُّه منهم على وجه المثل، وعلى قول منظور بن رَواحَة:

أتاني وأهلي بالدِّماخ فغَمْرَةٍ مسبُّ عُويفِ اللؤم حيَّ بني بَدْر

فلما أتاني ما يقولُ ترقَّصتْ شياطينُ رأسي وانتشَيْنَ من الخَمْر

خرافة العذرى وقد رويتم عن عبد اللّه بن فايد بإسنادٍ له يرفعه قال: خرافة رجل من بَني عذرة استهوته الشياطين، فتحدَّث رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يوماً بحديث فقالت امرأةٌ من نسائِه: هذا من حديثِ خُرافة قال: لا وَخُرَافة حقّ.
حديث عمر مع الذي استهوته الجن ورويتم أنَّ شريك بن خُباسة دخَلَ الجنَّة وخرجَ منها ومعه ورقةٌ من وَرَقِها، وأنَّ عمر سأل الرجل المفقود الذي استهوته الجنُّ فقال: ما كان طعامهم؟ قال: الفول والرِّمَّة، وسأل عن شرابهم فقال: الجدَف، وقال الأعشى:

وإني ومَا كلّفتموني وربِّكم لأعلمُ من أمسَى أعقَّ وأحْوَبا

لكالثَّور والجِنيّ يضرب ظهْرهُ   وما ذنبه أنْ عَافت الماءَ مَشْرَبا

من خنقته الجن، ثم عود إلى الحوار وزعَمتم أنَّ الجنَّ خنقت حرْبَ بن أمية، وخنقت مِرداسَ بن أبي عامر، وخنقت الغَريض المغنِّي، وأنَّها قتلت سعد بن عبادة، واستهوت عمرو بن عدي واستهوت عمارة بن الوليد، فأنتم أمْلياءُ بالخرافات أقوياءُ على ردِّ الصحيح وتصحيح السقيم، وردِّ تأويل الحديث المشهورِ إلى أهوائكم، وقد عارضْناكم وقابلناكم وقارضْناكم. وقالوا: في الحديث أنّ من اقتنى كلباً ليسَ بكلْب زرْع ولا ضرْع ولا قنص فقد أثِم، فهاتوا شيئاً من جميع الحيوان يصلح للزرْع والضَّرْع والقنص، وبعد فهل اتخذوا كلبَ الضَّرْع إلاّ ليحرسَ الماشيةَ وأولادَها من السباع؟ وهل عند الكلبِ عند طروق الأسد والنمر والذئاب وجميع ما يقتات اللُّحمانَ من رؤساء السباع، إلاَّ صياحَه ونباحَه وإنذاره ودلالته، وأنْ يشغلَها بعضَ الشَّغْل، ويهجهج بها بعض الهجهجة، إلى أن يلحق بها من يحميها، ويتوافى إليها من يذود عنها، إذ ليس في هذا القياس أنّا متى وجدنا دهراً تكثُر فيه اللصوص ويفشو فيه السُّرَّاق، وتظهر فيه النُّقوب، ويشيع فيه التسلُّق، ممَّن إذا أفضى إلى منزلِ القوم لم يرضَ إلا بالحريبة ليس دونها شيء، أو يأتي على الأنفس، وهو لا يصل إلى ما يريدُ حتى يمرَّ على النساء مكشَّفات، ومَن عسى إذا أخذ المرأةَ أخذَ يدٍ ألاَّ يرضى أن يتوعَّد بذبح الأولاد وأن يُتَّقى بالمال، حتَّى يذبح، ومن عسى إن تمكّن شيئاً أو أمنَ قليلاً، أن يركب الحُرَم بالسَّوءَة العظمى وبالتي لا شَوَى لها، فهذا الحال أحقُّ بالحِراسة من تلك الأحوال.
وبعد فلِمَ صار نساءُ الحرمَين يتزاوَرْن ليلاً، ونساء المصرَين يتزاورن نهاراً، ونساء الحرمين لا يرين نهاراً، ونساء المصرَين لا يُريْنَ ليلاً؛ إلاَّ للمكابرات ولمكانِ كثرةٍ من يستققي ويتحوّب للنقب والتسلُّق، وإذا كان الأمر كذلك فأيُّ الأمورِ أحقُّ بالتحصين والحياطة، وأيُّهما أشبه بالتغرير والإضاعة: اتخاذ الكلاب التي لا تنام عند نوم من قد دأب نهاره، أو ترك اتخاذها؟ ويقظة السُّرَّاق على قدر المسروقين.
وعلى أنّا لو حُلنا بين حَرس الأسواق وما تشتمل عليه من حرائب الناس، وبين اتِّخاذ الكلاب، لامتنعوا من ضَمان الحراسة، ولامتنع كلُّ محروس من إعطائهم تلك الأجرة، ولوجَد اللصوصُ ذلك من أعظم الغُنْم وأجود الفُرص، أو ما تعلمون أنَّ هذا الحريم، وهذه الحرمات وهذه العقائل من الأموال، أحقُّ بالمنْع والحِراسة والدَّفع عنها بكلِّ حيلة، منْ حفظ الغنم وحريمِ الراعي وحُرمة الأجير؟ وبعد فإنَّ الذئابَ لا تجتمع على قطيع واحد، والذي يُخاف من الذئب السَّلَّة والخطفة، والاستلابُ والاختلاس، والأموالُ التي في حوانيت التجار وفي منازل أهلِ اليسار يأتيها من العدد والعُدّة، ومن نُجب أصحاب النجدة، من يحتملها بحذافيرها، مع ثقل وزنها وعظم حجمها، ثمَّ يجالدون دون ذلك بسيوف الهند وبالأذرع الطوال، وهم من بين جميع الخليقة لَولاَ أنّهم قد أحسُّوا من أنفسهم الجراءَة وثباتَ العزيمة، بما ليس من غيرهم، لكانوا كغيرهم، ولولا أنَّ قلوبَهم أشدُّ من قلوب الأسْد لما خَرَجوا، على أنّ جميع الخلق يطالبونهم، وعلى أنّ السلطانَ لم يُوَلِّ إلاّ

لمكانهم، والكلابَ لم تُتَّخَذْ إلا لِلإنْذار بهم، وعلى أنَّهم إذا أُخذوا ماتوا كراماً.
ولعلَّ المدينةَ قد كانت في ذلك الدهر مأموناً عليها من أهل الفساد وكان أكثرُ كلابها عَقوراً، وأكثرُ فِتيانها من بين مُهارشٍ أو مقامرٍ، والكلبُ العَقورُ والكلْب الكَلِبُ أشدُّ مضرَّةً من الذئب المأمور بقتله.
وقد يعرض للكلاب الكلَب والجنون لأُمور: منها أن تأكلَ لحوم الناس، ومنها كالجنون الذي يعرض لسائر الحيوان.
قتل العامة للوزغ وجُهَّالُ النَّاسِ اليوم يقتلون الوَزَغ، على أنَّ آباءَها وأمهاتها كانت تنفُخ على نار إبراهيم، وتنقُل إليها الحطب، فأحسَب أنَّ آباءها وأمَّهاتِها قد كنَّ يعرفن فصْلَ ما بين النبيِّ والمتنبِّي، وأنَّهن اعتقدْن عداوة إبراهيم، على تقصيرٍ في أصل النظر، أو عن معاندةٍ بعد الاستبانة حتَّى فعلنَ ذلك - كيف جاز لنا أن تَزِر وازرةٌ وِزْرَ أخرى؟ إلاَّ أن تدَّعوا أنَّ هذه التي نقتلها هي تلك الجاحدةُ للنبوَّة، والكافرةُ بالربوبيّة، وأنَّها لا تتناكح ولا تتوالد.
وقد يستقيم في بعض الأمر أن تقتلَ أكثر هذه الأجناس، إمَّا من طريق المحنة والتعبُّد وإمّا إذ كان اللّه عزّ وجلّ قد قضى على جماعتها الموتَ، أن يجريَ ذلك المجرى على أيدي الناس، كما أجرى موت جميع الناس على يد ملك واحد، وهو ملك الموت. وبعد فلعلَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال هذا القول إن كان قاله، على الحكاية لأقاويل قوم، ولعلَّ ذلك كان على معنًى كان يومئذٍ معلوماً فتَرَك النَّاسُ العِلَّة ورووا الخبر سالماً من العِلل، مجرَّداً غير مضمّن.
ولعلَّ مَن سمع هذا الحديث شهد آخرَ الكلام ولم يشهد أوَّله، ولعلَّه عليه الصلاة والسلام قصَد بهذا الكلام إلى ناسٍ من أصحابه قد كان دار بينهم وبينه فيه شيء، وكلُّ ذلك ممكنٌ سائغٌ غير مستنكَر ولا مدفوع.
وقد رويتم في الفواسق ما قد رويتم في الحيَّة والحدأة والعقرب والفأرة والغراب، ورويتم في الكلب العَقور، وكيف يُقتَلْنَ في الحِل والحرَم، فإنْ كنتم فُقهاءَ فقد علمتم أنَّ تسمية الغراب بالفِسق، والفأرة بالفُويسِقة؛ أنّ ذلك ليس من شكل تسمية الفاسق، ولا من شكل تسمية إبليس، وقد قالوا: ما فجرها إلاَّ فاجر، ولم يجعلوا الفاجر اسماً له لا يفارقه، وقد يقال للفاسق من الرجال: خبيث، وقد قال صلى الله عليه وسلم: من أكَلَ من هذه الشَّجَرَةِ الخَبيثةِ فلاَ يَقْرَبَنَّ مُصَلاَّنَا وهو على غير قوله عزّ وجلَّ "الخَبيثَاتُ لِلْخَبيثِينَ"، وقد قال بعضُ الرُّجَّاز وذكر ذئباً:

أما أتاكَ عَنِّيَ الـحَـدِيثُ إذْ أنَا بالغَائِطِ أسْتَغِيثُ

والذئبُ وَسْط غَنَمِي يَعِيثُ وصِحْتُ بالْغَائِطِ يا خَبيثُ

وهذا الباب كثير، وليس هذا موضعه، وقد ذكرناه في كتاب الاسم والحكم.
وقد يشبه الاسمُ الاسمَ في صورةِ تقطيع الصوت، وفي الخطِّ في القرطاس، وإن اختلفت أماكنُه ودلائله، فإذا كان كذلك فإنَّما يعرف فضلُه بالمتكلّمين به، وبالحالات والمقالات، وبالذين عُنُوا بالكلام، وهذه جملةٌ، وتفسيرها يطول.
القتل والقصاص وقالوا: قد أُمِرْنا بقتل الحيَّة والعقرب، والذئب والأسد، على معنًى

ينتظم معنَيْين: أحدهما الامتحان والتعبُّد بفكر القلب وعمل الجارحة، لا على وجه الانتقام والعقوبة، وأمرنا بضرب الباغي بالسيف إذا كانت العَصَى لا تُغني فيه على جهة الدَّفْع وعلى جهة العقاب، ولم نُؤمَرْ بالقصد إلى قتله، وإنَّما الغاية في دفع بأسِه عنا، فإن أتى إلى ذلك المقدار عليه، كان كسارقٍ ماتَ من قطع يده، وقاذفٍ ماتَ عن جَلد ظهره، وقد أُمِرْنا بالقصد إلى قتل الحيَّات والعقارب وإن لم تعرض لنا في ذلك الوقت؛ لأنَّ جنسَها الجنسُ المتلف متَى همَّ بذلك، وليس لنا أن نضربَ الباغيَ بالسَّيف إلاَّ وهو مقبلٌ غيرُ مدبر، ولنا أن نقتل الحيَّة مقبلةً ومدبرة، كما يُقتَل الكافرُ مقبلاً ومدبراً؛ إلاَّ أنَّ قتلَ الكافر يجمع الامتحان والعقوبة، وليس في قتل الحية إلاّ الامتحان، وقد كان يجوز أن تمتَحَن بحبسها والاحتيالِ لمنعها، دونَ قتلها، وإذا ولَّى الباغِي من غير أن يكون يريد الرجوع إلى فئة، فحكمه الأسر والحبس أبداً إلى أن يُؤْنَسَ منه النُّزوعُ، وسبيل الأحناش والسِّباع وذواتِ السموم من الهمَج والحشرات، القتلُ مقبلةً ومدبرة، وقد أبيح لنا قتلُ ضروبٍ من الحيوان عندما يبلُغ من جناياتها علينا الخدش، فضلاً من الجرح والقتل، كالبعوض والنمل، والبراغيث والقمل.

والبعيرُ قتلهُ فسادٌ، فإن صال على الناس كان قتلُه صلاحاً، والإنْسان قتله حرام، فإن خيفَ منه كان قتلُه حلالاً.

طائفة من المسائل

والحديث عن مسخ الضَّبِّ والجِرِّيِّ، وعن مسخ الكلاب والحُكَأةِ وأنَّ الحمامَ شيطان، من جنس المُزاح الذي كنَّا كتبنا به إلى بعض إخواننا ممَّن يدَّعي علمَ كلِّ شيء، فجعلنا هذه الخرافاتِ وهذه الفطنَ الصغارَ، من باب المسائل. فقلنا له: ما الشِّنِقْناقُ والشَّيْصَبانُ وتنكوير ودركاذاب ومَن قاتل امرأة ابنِ مقبل؟ ومن خانق الغَريض؟ ومن هاتف سعد؟ وخبِّرنا عن بني أُقَيش وعن بني لبنى، ومَن زَوْجُها؟ وعن بني غَزْوان ومَن امرأته؟ وعن سملقة وزَوبعة، والميدعان، وعن النقار ذي الرقبة وعن آصف، ومن منهم أشار بأصفر سليم، وعن أطيقس اسم كلب أصحاب الكهف، وكيف صارت الكلابُ لا تنبح من سمَّاه؟ وأين بلغ كتَّابُ شَرطهم؟ وكيف حدَّثوا عن ابن عباسٍ في الفأر والقرد والخنزير والفيل والأرنب والعنكبوت والجِرِّيِّ، أنَّهنَّ كلَّهنّ مِسخ؛ وكيف خُصَّت هذه بالمِسخ؟ وهل يحلُّ لنا أن نُصدِّق بهذا الحديث عن ابن عبَّاس؟ وكيف صارت الظباءُ ماشيةَ الجنّ؟ وكيف صارت الغِيلان تُغيِّر كلَّ شيء إلاَّ حوافرَها؟ ولم ماتت من ضربةٍ وعاشتْ من ضربتين؟ ولِم صارت الأرانب والكِلاب والنَّعامُ مراكبَ الغيلان؟ ولم صارت الرواقيد مطايا السَّواحر؟ وبأي شيء زوَّج أهلُ السّعلاة ابن يربوع؟ وما فرق ما بينه وبين عبد اللّه بن هلال؟ وما فعلت الفتاة التي كانت سميت بصبر على يد حرمي وأبي منصور؟ ولم غضِب من ذلك المذهب؟ ولم مضى على وجهه شفشف؟ وما الفرق بين الغِيلان والسّعالي، وبين شيطان الخضراء وشيطان الحَماطة؟ ولم عُلق السمك المالح بأذنابه والطريّ بآذانه، وما بالُ الفراخ تُحمَل بأجنحتها والفراريج بأرجلها؟ وما بال كلِّ شيء أصلُ لسانه ممّا يلي الحلق وطرفه ممَّا يلي الهواء، إلاَّ لسان

الفيل؟ ولم قالت الهند: لولا أنَّ لسانه مقلوب لتكلَّم؟ ولم صار كلُّ ماضغٍ وآكلٍ يُحرِّك فكَّه الأسفل، إلا التمساح فإنه يحرِّك فكَّه الأعلى؟ ولم صار لأجفان الإنسان الأشفار، وليس ذلك للدواب إلاّ في الأجفان العالية؟ وما بالُ عين الجَرادة وعين الأفعى لا تدوران؟ وما بيضة العُقْر وما بيضة الديك؟ ولم امتنع بيض الأنوق؟ وهل يكون الأبلق العقوق؟ وما بال لسانِ سمكِ البحر عديماً؟ وما بال الغريق من الرِّجال يطفو على قفاه، ومن النساء على وجهه؟ ولم صار القتيل إذا قُتل يسقط على وجهه ثم يقلبه ذكَرُه؛ وأين تذهب شِقشِقة البعير وغُرمول الحمار والبغْل وكبِدُ الكوسج بالنهار، ودَمُ الميت؟ ولم انتصب خَلْق الإنسان من بين سائر الحيوان؟ وخبِّرني عن الضفادع، لم صارت تنقُّ بالليل وإذا أُوقدت النارُ أمسَكَت؟.
وقالوا: قد عارضناكم بما يجري مجرى الفساد والخُرافة، لنردَّكم إلى الاحتجاج بالخبَر الصحيح المخرج للظاهر.
فإن أعجبتك هذه المسائلُ، واستطرَفتَ هذا المذهب، فاقرأ رسالتي إلى أحمد ابن عبد الوهاب الكاتب، فهي مجموعة هناك.

أصناف الكلاب

والكلاب أصنافٌ لا يحيط بها إلاّ من أطالَ الكلام، وجملة ذلك أنّ ما كان منها للصيد فهي الضِّراء، وواحدها ضِروة، وهي الجوارح والكواسب، ونحن لا نعرفها إلاَّ السَّلُوقيّة؛ وهي من أحرار الكلاب وعتاقها، والخِلاسية هجنها ومقاريفها، وكلابُ الرعاءِ من زينيّها وكرديها فهي كرادتها.
وقد تَصيد الكلابُ غيرُ السَّلوقيّة، ولكنَّها تقصِّر عن السَّلوقيّة بعيداً، وسَلوق من أرض اليمن كان لها حديدٌ جيِّد الطبع، كريم العنصر حرُّ الجوهر، وقد قال النابغة:

تَقدُّ السَّلوقيَّ المضاعَفَ نَسْجُه وتوقِد بالصُّفَّاح نارَ الحُباحِبِ

وقال الأصمعيّ: سمعتُ بعضَ الملوك وهو يركض خلفَ كلْبٍ وقد دنا خَطمه من عَجْب ذنب الظبي وهو يقول: إيه فدتكَ نفسي!! وأنشد لبعض الرجاز:

مفدَّيات وملعَّنات

قال صاحب الديك: فلمَّا صار الكلبُ عندهم يجمع خصالَ اللؤم والنَّذالة، والحرص والشَّره، والبَذاء والتسرُّع وأشباه ذلك، صاروا يشتقُّون من اسمه لمن هجَوه بهذه الخصال، وقال بشَّار:

واستَغْنِ بالوجَبات عن ذهبٍ لم يَبقَ قبلَك لامرئٍ ذهبُهْ

يردُ الحريص على متالفه والليثُ يبعثُ حَيْنَه كَلَبُه

ما اشتق من اسم الكلب

قال صاحب الكلب: لَما اشتقُّوا من اسمه للأشياء المحمودة أكثر؛ قال عامر بن الطفيل:

ومدجَّجٍ يسعَى بشِكَّتِه　　　محمرَّةٍ عيناهُ كالكلْبِ

ومن ولد ربيعة بن نزار كلب بن ربيعة، وكلاب بن ربيعة، ومكالب بن ربيعة، ومكلبة بنو ربيعة بن نزار، وفيهم من السباع أسَد، وضُبيعة، وذئب، وذؤيب، وهم خمسة عشر رجلاً؛ ثمانية من جميع السباع، ومن الثمانية أربعة مشتقَّة من اسم الكلب، ومن هذا الباب كليب بن يربوع، وكلاب بن ربيعة، وكلب بن وَبرة، ومنه بنو الكلبة، قال الشاعر:

سَيكْفِيك من ابني نزارٍ لراغبٍ　　　بنو الكلبةِ الشمُّ الطوالُ الأشاجع

والكلبة لقب ميَّة بنت عِلاج بن شَحْمة العنبريّ، وبنوها بنو الكلبة الذين سمعتَ بهم - تزوَّجها خُزيمة بن النعمان من بني ضُبَيعة بن ربيعة بن نزار، فهي أمُّهم، وفيها يقول شُبَيل بن عَزْرة الضُّبَعي صاحب الغريب - وكان شِيعيّاً من الغالية، فصار خارجيًّا من الصُّفرية -:

بنو كلبةٍ هرَّارة وأبُوهُمُ　　　خُزَيمةُ عبدٌ خاملُ الأصل أوكَسُ

وفي مَيَّة الكلبة يقول أبوها، وهو عِلاج بن شحمة:

إنْ تكُ قد بانت بميَّة غربة　　　فقد كان مِمَّا لا يُمَلُّ مَزَارُها

دعتْها رجالٌ من ضُبَيعة كَلْبةً　　　وما كان يُشكى في المحول جِوارُها

ومما اشتقَّ له من اسم الكلب من القُرى والبُلدان والناس وغير ذلك، قولهم في الوقعة التي كانت بإرمِ الكلبة، ومن ذلك قولهم: حين نزلنا من السَّراة صرنا إلى نجد الكلبة.

وكان سبب خروج مالك بن فهم بن غَنْم بن دَوس إلى أزد شنوءة من السراة أنّ بني أخته قتلوا كلبةً لجاره، وكانوا أعَدَّ منه فغضب ومضى، فسمِّي ذلك النجد الذي هَبط منه نَجْد الكَلْبة.

وبطسُّوج بادُوريا نهر يقال له: نهر الكلبة ويقولون: كان ذلك عند طلوع كوكب الكلب، ومن ذلك قولهم: عبَّاد بن أنْف الكلب، ومن ذلك أبو عُمَرَ الكلبُ الجَرميّ النحوي، وكان رجلا من العِلية عالماً، عَروضياً نحويّا فرضيّاً، وعَلُّويه كلب المطبخ، وكان أشربَ الناس للنبيذ، وقد راهنوا بينه وبين محمَّد بن عليّ.

والكلب: كلب الماء، وكلب الرحى والضبة التي يقال لها الكلب، وكذلك الكُلْبة

والكَلْبتان، والكُلاّب والكَلُّوب.
وقال راشد بن شِهابٍ في ذلك المعنى:

أُمكِّن كُلاَّب القنا من ثغورها   وأخضِب ما يبدو منَ استاهها بدَمّ

وقال:

فسوفَ يرى الأقوامُ ديني ودينَكم   إذا كلْبتا قينٍ ومِقْرَاضُـهُ أزَمْ

وقال الراجز:

ما زالَ مذْ كَان غُلاماً يستتر   له على العَير إكافٌ وثفَرْ

والكَلْبَتَانِ والعَلاةُ والوَتَـرْ

وقال أشهب بن رُميلة، وكان أوّلَ من رمى بني مجاشع بأنَّهم قُيون:

يا عجبًا هل يركبُ القيْنُ الفَرَسْ   وعَرَقُ القينِ على الخَيلِ نَجَسْ

وإنَّـمـا أداتـه إذا جَـلَـسْ   الكلبتان والعَلاةُ والـقـبَـسْ

وكان اسم المزنوق فَرَسِ عامر بن الطفيل: الكلب.
وقد زعمت العلماء أنَّ حرب أيَّام هَراميت إنَّما كان سببه كلب.
قال صاحب الديك: قد قيل للخوارج: كلاب النار، وللنوائح: كلاب النار.
وقد قال جَندلُ بن الراعي لأبيه في وقوفِهِ على جرير: ما لكَ تُطيل الوقوفَ على كلبِ بني كليب؟! وقال زفر بن الحارث:

يا كلبُ قد كَلِبَ الزَّمانُ عليكُمُ   وأصابكمْ مِنَّا عذابٌ مُـرسَـلُ

إنَّ السَّماوة لا سماوة فالحقـي   بمنَابتِ الزّيتونِ وابْنِي بَحْدَلُ

وبأرض عكٍّ في السواحل إنَّها   أرضٌ تذوبُ بها اللّقاحُ وتُـهزَلُ

وقال حُصين بن القعقاع يرثي عُتيبة بن الحارث:

بكَرَ النَّعيُّ بخير خِنْدِفَ كلِّها   بعُتيبة بن الحارثِ بن شِهابِ

قتلُوا ذُؤَاباً بعد مقتلِ سَبْـعةٍ   فشَفَى الغليلَ وريبة المرتابِ

يوم الحليس بذي الفقار كَأنَّه   كَلِبٌ بضرب جماجِم ورِقابِ

وقال آخر:

للّه درٌّ بني الحَدّاءِ مِنْ نَفَرٍ   وكلُّ جارٍ على جيرانه كَلِبُ

إذا غدوْا وعِصِيُّ الطَّلْح أرجُلُهم   كما تَنَصَّبُ وسَط البيعة الصُّلُبُ

وإذا كان العُود سريع العُلوق في كلِّ زمانٍ أوْ كلِّ أرض، أو في عامَّة ذلك قالوا: ما هو إلاَّ كلب.
وقالوا: قال النبي صلى الله عليه وسلم في وزر بن جابر حين خرجَ من عندِه واستأذنه إلى أهله: نعم إن لم تدركْه أمٌّ كلْبة يعني الحمَّى.
وممَّا ذكروا به العضو من أعضاء الكلب والكلبة والخلق منهما أو الصفة الواحدة من صفاتهما، أو الفعل الواحد من أفعالهما، قال رؤبة:

لاقيت مَطْلاً كَنُعَاس الْكَلْبِ

يقول: مطلا مُقرْمَطاً دائِماً، وقال الشاعر في ذلك:

يكون بها دليلَ القومِ نجمٌ   كَعينِ الكلب في هُبَّى قِبَاعِ

قال: هذه أرضٌ ذات غبرة من الجدب لا يبصر القوم فيها النجم الذي يُهتَدى به إلاّ وهو كأنّه عين الكلب، لأنّ الكلب أبداً مُغمِضٌ غير مطبق الجفون ولا مفتوحها، والهُبّى: الظلمة واحدها هابٍ، والجمع هُبَّى مثل غازٍ وغُزَّى، والقِباع: التي قبعت في القتام، واحدها قابع، كما يقبَع القنفذ وما أشبهه في جُحره، وأنشد لابن مقبل:

ولا أطرقُ الجاراتِ باللّيل قابعاً   قُبُوعَ القرنْبى أخلفته مجاعره

والقبوع: الاجتماع والتقبُّض، والقرنْبى: دُوَيْبَّة أعظم من الخُنَفساء.

شعر في الهجاء له سبب بالكلب

وقال الآخر في صفة بعض ما يعرض له من العيوب:

ما ضَرَّ تغلبَ وائلٍ أهجوتَها   أم بُلتَ حيثُ تناطحَ البحران

إنّ الأراقم لا ينالُ قديمَها   كلبٌ عَوَى متهتِّم الأسنان

وقال الشاعر في منظور بن زَبَّان:

لبئس ما خَلّفَ الآبـاءُ بـعدَهُـمُ   في الأُمَّهاتِ عِجَانُ الكَلْبِ مَنْظورُ

ومن هذا الضرب قول الأعرابيّ:

لقد شَانَ صغري والياهـا وزَيَّنَـا   لصغري فتًى من أهلها لا يَزينها

كلاب لعاب الكلب إن ساق هَجْمة يعذّب فيها نفسَـه ويُهـينُـهـا

وقال عمرو بن معدِ يكرب:

لحا اللّهُ جَرْماً كلّما ذَرَّ شـارقٌ   وجوهُ كِلابٍ هارشَتْ فازبأَرَّتِ

وقال أبو سفيان بن حرب:

ولو شئتُ نجَّتني كُميتٌ طِـمِـرَّة   ولم أجْعَل النَّعماءَ لابن شَـعـوب

وما زال مُهري مَزْجَرَ الكلبِ مِنهمُ لدنْ غدوةً حتّى دنَـتْ لِـغُـروبِ

وقال عبد الرحمن بن زياد:

دعَتْه بمسرُوق الـحـديث وظـالـعِ من الطرف حتى خاف بَصبصَةَ الكَلبِ

وقال شريح بن أوس:

وعيَّرْتَنا تمْرَ العراق ونخْـلَـه   وزادك أير الكَلْبِ شيَّطه الجمرُ

وقال آخر وهو يهجو قوماً:

فجاءا بخرشَاوَي شعيرٍ عَلَيْهمـا   كرادِيسُ من أوصالِ أعقدَ سافِدِ

وقال الحارث بن الوليد:

ذهب الذين إذا رأوني مُقـبـلاً   هَشُّوا وقالُوا: مَرحباً بالمقْبـلِ

وبقيتُ في خَلْفٍ كأنَّ حديثَـهـم   وَلْغُ الكلاب تهارَشَتْ في مَنْهَل

وقال سَبْرة بن عمرو الفقعسيّ، حين ارتشى ضَمْرة النهشلي، ونفر عليه عباد بن أنف الكلب الصيداويّ فقال سبرة:

يا ضَمْرُ كيفَ حكمتَ أمُّك هابلٌ والحكْمُ مَسوؤل به المتعمَّدُ

أحفِظتَ عهداً أم رَعيت أمـانةً أم هل سمعتَ بمثلها لا يُنشدُ

شَنعاءَ فاقِرة تجلّلُ نـهشلاً تَعْور به الرفـاق وتُـنْـجِد

إنَّ الرِّفاقَ أمال حكمك حبُّـها فلك اللقاء وراكبٌ متـجـرِّد

فضح العشيرةَ واستمرَّ كـأنّـه كلبٌ يبصبص للعِظال ويَطْرُدُ

لا شيءَ يعدِلُها ولكنْ دونَـها خَرْطُ القتادِ تَهابُ شوكَتَها اليدُ

جوْعانُ يلحَس أسكَتَـا زيفيَّة غَلِمٌ يثورُ على البراثن أعْقدُ

وقال مزرِّدُ بن ضرار:

وإنَّ كناز اللَّحْم من بَكَرَاتِكمْ تَهرُّ عليها أمُّكمْ وتُكـالِـبُ

وليتَ الذي ألقى فناؤك رحلَه لتَقريَه بالتْ عليه الثَّعالـبُ

وهذان البيتان من باب الاشتقاق لا من باب الصفات وذِكْرِ الأعضاء، وقال:

يا سبْرُ يا عبدَ بني كِـلابِ يا أيرَ كلبٍ مُوثَقٍ ببـابِ

أكان هذا أوَّلَ الـثَّـوابِ يا وَرَلاً رَقرَقَ في سرابِ

لا يَعْلِقَنْكمُ ظُفري ونـابي

وقال الآخر:

كأنّ بني طُهَيّة رهط سَلْمَى حجارةُ خارئٍ يَرمي الكِلابَا

وقال صاحب الكلب: ومما اشتقَّ من اسم الكلب في موضع النباهة، كليب بن ربيعة، هو كليب وائلٍ، ويقال إنّه قِيل في رجلين من بني ربيعة ما لم يُقلْ في أحدٍ من العرب، حتَّى ضُرِب بهما المثل، وهو قولهم: أعزُّ من كليبِ وائل، والآخر: لا

حرَّ بوادِي عَوْف.
قالوا: وكانت ربيعة إذا انتجعت معه لم توقد ناراً ولم تحوِّضْ حوضاً، وكان يحمي الكلأ ولا يُتَكَلَّمُ عندَهُ إلاَّ خفضاً، ويجير الصيد ويقول: صيدُ أرضِ كذا وكذا في جواري لا يباح، وكان له جرو كلب قد كَنَّعه فربما قذف به في الروضة تعجبُه، فيحميها إلى منتهى عوائه، ويلْقيه بحريم الحوض فلا يردُه بعير حتَّى تصدُرَ إبله.

ما قيل من الشعر في كليب

وفي ذلك يقول معبَد بن شعبة التميمي:

أظنَّ ضِرارٌ أنَّني سأُطيعه وأنِّي سأُعطيه الذي كنتُ أمنعُ
إذِ اغرورقت عيناه واحمرّ وجهُه وقد كادَ غيظاً وجهُه يتبضَّع
تقدَّم في الظلم المُبيِّن عامِداً ذراعاً إذا ما قُدِّمَتْ لك إصبع
كفعلِ كُليبٍ كنت أُنبئت أنَّه يخلط أكلاءَ المِياه ويَمنَعُ
يُجير على أفناءِ بكرِ بن وائل أرانب ضاح والظباءَ فترتَعُ

وقال دريد بن الصمة:

لعمرُكَ ما كُليبٌ حين دلّى بحبلِ كلبَه فيمن يميحُ
بأعظم من بني سفيان بَغْياً وكلُّ عدوِّهم منهم مريح

وقال العبَّاس بن مرداس:

كما كان يبغيها كليبٌ بظلمِه من العزِّ حتى طاح وهو قتيلُها
على وائل إذْ يُنزِل الكلب مائحاً وإذ يُمنَعَ الأكلاءَ منها حلولُها

وقال عباس أيضاً لكُليب بن عهمة الظفريّ:

أكُليبُ إنَّكَ كلَّ يوم ظالم والظلمُ أنكدُ وجْهُه ملعونُ
تبغِي بقومِك ما أرادَ بوائل يومَ الغدير سَمِيُّكَ المطعونُ

وإخالُ أنَّك سوفَ تَلْقى مثلَها   في صَفْحتَيك سنانُه المسنونُ

وقال النابغة الجعدي:

كليبٌ لَعمري كان أكثرَ ناصِراً   وأيسرَ ذنباً منك ضُرِّجَ بالدَّمِ

رَمَى ضَرْعَ نابٍ فاستمر بطعْنَةٍ   كحاشيةِ البُرد اليماني المسهَّمِ

وقال قطِران العبشَميُّ، ويقال العبشي:

ألم تر جسَّاسَ بن مُرَّة لم يَرِدْ   حِمَى وائلٍ حَتَّى احتداه جَهولُها

أجرَّ كليباً إذ رمى النابَ طعنة   جدَت وائلا حتَّى استخفَّت عقولها

بأهون مما قلت إذ أنت سادِرٌ   وللدَّهرِ والأيَّامِ والٍ يُديلها

وقال رجل من بني هلال بن عامر بن صعصعة:

نحن أبَسْنَا تغلبَ ابنة وائلٍ   بقتل كُليبٍ إذ طغى وتَخيَّلا

أبأناه بالنَّابِ التي شقَّ ضَرعها   فأصبحَ موطوءَ الحِمى متذلِّلا

وقال رجل من بني سَدوس:

وأنت كليبيٌّ لكليبٍ وكلبةٍ   لها حولَ أطنابِ البيوتِ هَريرُ

وقال ابن مقبل العَجلاني:

بكتْ أمُّ بكرٍ إذْ تبدَّدَ رهطُها   وأنْ أصبحوا منهم شَريدٌ وهالكُ

وإنَّ كلا حيَّيكِ فيهم بقية   لوَ أنَّ المنايا حالُها متماسكُ

كلاب وكعب لا يبيتأخوهمذليلاً ولا تُعيي عليه المسالكُ

وقال رجل من بني كلاب من الخوارج، لمعاوية بن أبي سفيان:

قد سِرتَ سَيْرَ كُليبٍ في عشيرتِه   لو كان فيهم غلامٌ مثلُ جسَّاسِ

الطاعن الطعنة النجلاء عانِدُهـا   كطرّة البرد أعيا فتقُها الآسـي

هون من تبالة على الحجاج وقال أبو اليقظان في مثل هذا الاشتقاق: كان أوَّل عمل ولِيه الحجّاج بن يوسف تَبالة، فلما سار إليها وقرُب منـها قال للدليل: أين هي، وعلى أيّ سمت هي؟ قال: تسترك عنـها هذه الأكمة، قال: لا أراني أميراً إلاَّ على موضعٍ تسترني منه أكمة، أهونْ بها عليّ؟ وكرَّ راجعاً، فقيل في المثل: أَهْوَنُ مِنْ تَبَالَةَ عَلَى الحَجاج.
والعامة تقول: لهو أهونُ عَلَيَّ من الاعراب على عركوك.

الحجاج والمنجم حينما حضرته الوفاة

قال: ولمّا حضرت الحجاج الوفاةُ وقد وليَ قبل ذلك ما وليَ، وافتتح ما افتتح، وقتل من قتل، قال للمنجِّم: هل ترى ملكاً يموت؟ قال: نعم ولستَ به، أرى ملكاً يموتُ اسمه كُليب، وأنتَ اسمُك الحجَّاج قال: فأنا واللّه كليبٌ، أمِّي سمَّتْني به وأنا صبيٌّ، فمات، وكان استخْلَفَ على الخراج يزيد بن أبي مسلم، وعلى الحرب يزيد بن أبي كبشة.
ما كان العرب يسمون به أولادهم قال: والعرب إنَّما كانت تسمِّي بكلب، وحمار، وحجر، وجُعَل، وحنظلة، وقرد، على التفاؤل بذلك، وكان الرجل إذا وُلد له ذكر خرج يتعرّض لزجر الطير والفأل، فإن سمع إنساناً يقول حجراً، أو رأى حجراً سمَّى ابنَه به وتفاءل فيه الشدَّة والصلابة، والبقاء والصبر، وأنَّه يحطم ما لقي، وكذلك إن سمع إنساناً يقول ذئباً أو رأى ذئباً، تأوَّل فيه الفطنة والخِبَّ والمكرَ والكسب، وإن كان حماراً تأوَّل فيه طولَ العُمر والوقاحة والقوَّة والجَلَد، وإن كان كلباً تأوَّل فيه الحِراسة واليَقَظة وبُعْدَ الصوت، والكسبَ وغير ذلك.
ولذلك صوَّر عبيد اللّه بن زياد في دِهليزه كلباً وأسداً، وقال: كلب نابح، وكبش ناطح، وأسد كالح، فتطيَّر إلى ذلك فطارت عليه.
وقال آخر: لو كان الرجل منهم إنَّما كان يسمِّي ابنَه بحجر وجبل، وكلب، وحمار، وثور، وخنزير، وجُعَل، على هذا المعنى فهلاَّ سمَّى ببِرْذَون، وبغل، وعُقاب، وأشباه ذلك؛ وهذه الأسماء من لغتهم.
قال الأوّل: إنَّما لم يكن ذلك، لأنّه لا يكاد يرى بغلاً وبرذوناً، ولعلَّه لا يكون رآهما قط، وإن كانت الأسماء عندهم عتيدة لأمورٍ لعلّهم يحتاجون إليها يوماً ما.
قالوا: فقد كان يسمع بفرس وبعير، كما كان يسمع بحمار وثور، وقد كان يستقيم أن يشتقَّ منهما اشتقاقات محمودة، بل كيف صار ذلك كذلك ونحن نجده يسمِّي بنجم ولا يسمِّي بكوكب إلاَّ أنَّ بعضَهم قد سمَّى بذلك عبداً له، وفيه يقول:

كَوْكَبُ إنْ مُتُّ فَهْيَ مِيتَتي   لا مُتّ إلاَّ هَرماً يا كَوْكَبُ

ووجدناهم يسمون بجبل وسَنَد، وطَود، ولا يسمُّونَ بأُحُد ولا بثبير وأجأ وسلمى ورَضوى، وصِنْدِد وحميم، وهو تلقاء عيونـهم متى أطلَعوا رؤوسهم من خيامهم،

ويمسونَ ببُرْج ولا يسمون بفلَك، ويسمون بقمر وشمس عَلَى جهة اللقب أو على جهة المديح، ولم يسمُّوا بأرض وسماء، وهواءٍ وماء، إلاَّ على ما وصفنا، وهذه الأصول في الزجر أبلغ، كما أنَّ جبلاً أبلغُ من حجر، وطوداً أجمع من صخر، وتركوا أسماءَ جبالهم المعروفة.
وقد سمّوا بأسد وليث وأسامة وضِرغامة، وتركوا أن يسمُّوا بسبع وسبعة، وسبع هو الاسم الجامع لكلِّ ذي ناب ومخلب.
قال الأوّل: قد تسمَّوا أيضاً بأسماء الجبال، فتسمَّوْا بأبَان وسَلْمَى.
قال آخرون: إنَّما هذه أسماء ناسٍ سمَّوا بها هذه الجبال، وقد كانت لها أسماءٌ تركت لثقلها، أو لعلَّة من العلل؛ وإلاَّ فكيف سمَّوا بسلمى وتركوا أجأ ورَضوى.
وقال بعضهم: قد كانوا ربَّما فعلوا ذلك على أن يتَّفق لواحدٍ وَلَودٍ ولمعظَّمٍ جليل، أن يسمع أو يرى حماراً، فيسمِّي ابنه بذلك؛ وكذلك الكلب والذئب، ولن يتفق في ذلك الوقت أن يسمع بذِكر فرس ولا حِجْر أو هواء أو ماء؛ فإذا صار حمار، أو ثور، أو كلب اسمَ رجل معظَّم، تتابعت عليه العرب تَطِيرُ إليه، ثم يكثر ذلك في ولده خَاصَّةً بعده، وعلى ذلك سمَّت الرعية بنيها وبناتِها بأسماء رجال الملوك ونسائهم، وعلى ذلك صار كلُّ عليٍّ يكنى بأبي الحسن، وكل عُمَر يكنى بأبي حفص، وأشباه ذلك، فالأسماء ضروب، منها شيء أصليٌّ كالسَّمَاء والأرض والهواء والماء والنار، وأسماءٌ أخَرُ مشتقَّاتٌ منها على جهة الفأل، وعلى شكل اسم الأب، كالرجل يكون اسمه عمر فيسمى ابنَه عميراً، ويسمِّي عميرٌ ابنَه عِمران، ويسمِّي عمرانَ ابنَه مَعْمَراً، وربَّما كانت الأسماء بأسماء اللّه عزَّ وجلّ مثل ما سمى اللّه عز وجل أبا إبراهيم آزر، وسمَّى إبليس بفاسق، وربّما كانت الأسماء مأخوذةً من أمورٍ تحدثُ في الأسماء؛ مثل يوم العَرُوبة سمِّيت في الإسلام يوم الجمعة، واشتقَّ له ذلك من صلاة يوم الجمعة.
الألفاظ الجاهلية المهجورة وسنقول في المتروك من هذا الجنس ومن غيره، ثم نعودُ إلى موضعِنا الأوَّلِ إن شاء اللّه تعالى.
ترك النَّاسُ مما كان مستعملاً في الجاهلية أموراً كثيرة، فمن ذلك تسميتُهم للخَراج إتاوة، وكقولهم للرشوة ولما يأخذه السُّلطان: الحُملان والمَكْس، وقال جابر ابن حُنَيّ:

أفي كلِّ أسواق الـعِراق إتـاوةٌ   وفي كلِّ ما باع امرؤٌ مَكْسُ دِرْهَمِ

وكما قال العبديُّ في الجارود:

أيا ابن المعلَّى خِلتَّنا أم حسبتَـنـا صَرَاريَّ نُعطِي الماكسِين مُكوسا

وكما تركوا انْعَمْ صباحاً، وانْعَمْ ظلاماً، وصاروا يقولون: كيف أصبحتم؟ وكيف أمسيتم؟ وقال قيس بن زُهير بن جذيمة، ليزيد بن سنان بن أبي حارثة: انعَمْ ظلاماً أبا ضَمْرة قال: نعمتَ فمن أنت؟ قال: قيس بن زهير.
وعلى ذلك قال امرؤ القيس:

ألا عِمْ صَباحاً أيُّها الطَّلَلُ البـالِـي وهَلْ يَعِمَنْ مَن كان في العُصُر الخَالِي

وعلى ذلك قال الأوَّل:

أتوْا نَـارِي فقلتُ مَنُونَ قالـوا سَرَاة الجنِّ قلتُ عِمُوا ظلاَما

وكما تركوا أن يقولوا للملك أو السَّيِّد المطاع: أبيت اللعن، كما قيل:

مَهْلاً أبيتَ اللّعنَ لا تأكُلْ مَعَهْ

وقد زعموا أن حُذَيفة بنِ بدرٍ كان يُحيَّا بتحيَّة الملوك ويقال له: أبيت اللّعن، وتركوا ذلك في الإسلام من غير أن يكون كفراً.
وقد ترك العبْد أنْ يقول لسيده ربِّي، كما يقال ربُّ الدار، وربُّ البيت، وكذلك حاشية السيِّد والملِك تركوا أن يقولوا ربّنا، كما قال الحارث بن حلّزة:

ربُّنا وابننا وأفضَلُ مَـنْ يم شِي ومَن دُونَ مَا لدَيهِ الثّناءُ

وكما قال لبيد حين ذكر حُذَيفة بن بدر:

وأهلكْنَ يوماً ربَّ كِنْدَة وابنَه وربَّ مَعدٍّ بين خَبْت وعَرْعَر

وكما عيّر زيدُ الخَيل حاتماً الطائيّ في خروجه من طيِّء ومن حرب الفساد، إلى بني بدر، حيث يقول:

وفرَّ من الحَرْبِ العَوانِ ولم يكُنْ بها حاتم طبّاً ولا متـطـبِّـبـا

وريب حصناً بعْدَ أن كان آبياً أبُوّة حِصْنٍ فاستقالَ وأعتَـبَـا

أقِمْ في بني بدر ولا ما يهمـنـا إذا ما تقضَّت حربُنا أنْ تطربا

وقال عوف بن محلَّم، حين رأى الملك: إنّه ربي وربِّ الكعبة، وزوجُه أمُّ أناس بنت عَوف، وكما تركوا أن يقولوا لقُوّام الملوك السَّدَنة وقالوا الحَجَبَة.
وقال أبو عُبيدة مَعْمر بن المثنَّى عن أبي عبد الرحمن يونس بن حبيب النحوي حين أنشدَه شعر الأسديّ:

ومركضة صريحي أبوها تُهان لـها الغلامة والغلامُ

قال: فقلت له: فتقول: للجارية غلامة؟ قال: لا، هذا من الكلام المتروك وأسماؤُه زالت مع زوال معانيها، كالمِربَاعِ والنَّشيطة وبقي الصَّفايا؛ فالمرباع: رُبع جميع الغنيمة الذي كان خالصاً للرئيس، وصار في الإسلام الخمس، على ما سنَّه اللّه تعالى، وأما النَّشيطة فإنَّه كان للرئيس أن ينشِط عند قِسمة المتاع العِلْقَ النفيسَ يراه إذا استحلاه، وبقي الصفِيّ وكان لرسول اللّه صلى الله عليه وسلم من كل مَغْنم، وهو كالسيف اللَّهذَم والفرس العتيق، والدرع الحصينة، والشيء النادر.
وقال ابن عَنَمة الضبّي حليف بني شَيبان، في مرثيته بسطام بن قيس:

لك المِرباعُ منها والصَّفـايا وحُكْمُك والنَّشِيطةُ والفُضولُ

والفُضول: فضول المقاسم، كالشيءِ إذا قسم وفضَلت فضلة استهلكت، كاللؤلؤة، والسيف، والدِّرْع، والبيضة، والجارية، وغير ذلك.
كلمات إسلامية محدثة وأسماءُ حدثت ولم تكن، وإنَّما اشتقّت لهم من أسماءٍ متقدِّمة، على التشبيه، مثل قولهم لمن أدركَ الجاهليَّة والإسلام مُخَضرم كأبي رجاءٍ العُطارديِّ، بن سالمة، وشقيق بن سالمة؛ ومن الشعراء النابغة الجَعديّ وابن مقبل، وأشباههم من الفقهاء والشعراء، ويدلُّ على أنَّ هذا الاسم أحدث في الإسلام، أنَّهم في الجاهليَّة لم يكونوا يعلمون أنَّ ناساً يسلمون وقد أدركوا الجاهليَّة، ولا كانوا يعلمون أنَّ الإسلام يكون.
ويقال إنَّ أوَّلَ من سمَّى الأرضَ التي لم تُحفَر قطُّ ولم تحرثْ إذا فعل بها ذلك مظلومة، النابغةُ حيث يقول:

إلاّ الأوراريَّ لأياً ما أبيِّنُـها والنؤيَ كالحَوض بالمظلومَةِ الجَلَدِ

ومنه قيل سقاءٌ مظلوم إذا أعجل عليه قبل إدراكه، وقال الحادرة:

ظلم البطاحَ له انهلالُ حَريصةٍ فصفا النِّطافُ له بُعيْدَ المَقْلَعِ

وقال آخر:

قالتْ له ميٌّ بأعلَى ذِي سَلَم لو ما تَزُورُنا إذا الشعْبُ ألَمّ

ألا بلَى يا ميّ واليومُ ظَلَمْ

يقول ظلم حين وضعَ الشيءَ في غير موضعه، وقال الآخر:

أنا أبو زينب واليومُ ظلَمْ

وقال ابن مقبل:

عادَ الأذلَّةُ في دارِ وكان بـهـا هُرْتُ الشَّقاشِقِ ظلاَّمُونَ للجزُرِ

وقال آخر:

وصاحبِ صدق لم تَنلنـي أذاتـه ظَلَمْتُ وفي ظُلْمِي له عامداً أجْرُ

وقال آخر:

لا يَظلِمون إذا ضِيفوا وطابَهُمُ وهم لجودهمُ في جُزْرهم ظلمُ

وظلم الجزور: أن يعرقبوها، وكان في الحقِّ أن تنحر نحراً، وظلمهم الجزُر أيضاً أن ينحروها صِحاحاً سماناً لا علَّة بها.
قال: ومن ذلك قولهم: الحرب غشوم؛ وإنَّما سمِّيت بهذا لأنَّها تنال غير الجاني.
قال: ومن ذلك قولهم: مَنْ أشْبَهَ أباه فما ظلَم، يقول: قد وضع الشبه في موضعه.
ومن المحدَثِ المشتقِّ، اسم منافق لمن رَاءَى بالإسلام واستسرَّ بالكفر أخذ ذلك من النافقاء والقاصعاء والدامَّاءِ، ومثل المشرك والكافر، ومثل التيمُّم، قال اللّه تعالى: "فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً" أي تحرَّوْا ذلك وتوخَّوْه، وقال: "فامْسَحُوا بوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْه" فكثُر هذا في الكلام حتَّى صار التيمُّم هو المسح نفسُه، وكذلك عادتهم وصنيعهم في الشيءِ إذا طالتْ صُحبتهم وملابستهم له، وكما سمَّوا رَجيع الإنسان الغائط، وإنَّما الغيطان البطون التي كانوا ينحدرون فيها إذا أرادوا قضاءَ الحاجة للستر.
ومنه العَذِرة، وإنَّما العذِرة الفناءُ، والأفنية هي العَذِرات، ولكن لما طال إلقاؤهم النَّجْو والزِّبل في أفنيتهم، سمِّيت تلك الأشياء التي رَموا بها، باسم المكان الذي رميت به، وفي الحديث: أنْقُوا عَذِرَاتكم.
وقال ابن الرقيَّات:

رَحِمَ اللّهُ أعْظُماً دَفَنُـوهـا بسِجِسْتَان طَلْحَةَ الطَّلَحَـاتِ

كان لا يحجُبُ الصديقَ ولا يع تَلُّ بالبخلِ طيِّبَ الـعَذِرَاتِ

ولكنَّهم لكثرةِ ما كانوا يُلْقون نجوَهم في أفنيتهم سموها باسمها.
ومنه النّجو: وذلك أنّ الرجل كان إذا أراد قضاءَ الحاجةِ تستَّر بنجوة. والنّجو: الارتفاع من الأرض، قالوا من ذلك: ذهب يَنْجُو، كما قالوا ذهب يتغوّط إذا ذهب إلى الغائط لذلك الأمر، ثمَّ اشتقوا منه فقالوا إذا غسل موضع النجو قد استنجى.
وقالوا: ذهب إلى المخرَج، وإلى المتوضَّأ، وإلى المذهب، وإلى الخَلاءِ، وإلى الحُشّ، وإنّما الحشّ القطعةُ من النَّخل وهي الحِشّان، وكانوا بالمدينة إذا أرادوا قضاءَ الحاجة دخلوا النخل؛ لأنَّ ذلك أستر، فسموا المتوضأ الحشّ، وإن كان بعيداً

من النخل؛ كلّ ذلك هرباً من أن يقولوا ذهب لخَرْءِ، لأنَّ الاسم الخرءُ، وكل شيءٍ سواه من ورجيع وبراز وزبل وغائط فكله كناية، ومن هذا الباب الملّةُ، والمَلّة موضع الخُبْزة، فسموا الخُبْزة باسم موضعها، وهذا عند الأصمعيِّ خطأ.
ومن هذا الشكل الراوية، والراوية هو الجمل نفسه، وهو حامل المزادة فسمِّيت المزادة باسم حامل المزادة، ولهذا المعنى سمَّوا حاملَ الشعر والحديث راوية.
ومنه قولهم: ساق إلى المرأة صَداقها، قالوا: وإنَّما كان يقال ذلك حين كانوا يدفعون في الصَّدَاق إبلاً، وتلك الإبل يقال لها النافجة، وقال شاعرهم:

وليس تِلادي من وراثةِ والدي ولا شادَ مالِي مُستَفاد النوافِجِ

وكانوا يقولون: تَهنِيك النافجة، قال: فإذا كانوا يدفعون الصَّدَاقَ عيناً وورَقاً فلا يقال ساق إليها الصَّداق.
ومن ذلك أنَّهم كانوا يضربون على العروس البناءَ، كالقبَّة والخَيَة والخيام، على قدر الإمكان، فيقال بني عليها، اشتقاقاً من البناءِ، ولا يقال ذلك اليومَ، والعروس إمَّا أن تكون مقيمةً في مكانها أوْ تتحوّل إلى مكان أقدم من بنائها.
قال: ومن ذلك قولهم في البَغيّ المكتسِبة بالفُجور: قحْبة، وإنَّما القُحَاب السعال، وكانوا إذا أرادوا الكناية عن من زنَتْ وتكسَّبت بالزنى، قالوا قحبت أي سعلت، كناية، وقال الشاعر:

إنَّ السُّعَالَ هُوَ القُحَاب

وقال:

وإذا ما قحَبت واحدةٌ جاوبَ المبعِدُ منها فَخَضَفْ

وكذلك كان كنايتهم في انكشاف عورة الرجل، يقال: كشف علينا متاعَه وعَورته وشواره، والشّوار: المتاع، وكذلك الفرج وإنَّما يعنون الأير والحِرَ والاسْت.

كلمات للنبي صلى الله عليه وسلم، لم يتقدمه فيهن أحد

وكلمات النبيِّ صلى الله عليه وسلم، لم يتقدَّمْه فيهنَّ أحد: من ذلك قوله: إذاً لا ينتَطِح فيها عَنْزان، ومن ذلك قوله: ماتَ حتْفَ أنفه، ومن ذلك قوله: يا خيلَ اللّه اركَبي ومن ذلك قوله: كلُّ الصَّيدِ في جَوفِ الفَرا، وقوله: لا يُلسَعُ المؤمنُ من جُحْرٍ مرتين.
شنشنة أعرفها من أخزم وقال عُمر رضي اللّه تعالى عنه: شِنْشِنَةٌ أعرفها من أخزم، يعني شبه ابن العبَّاس بالعبَّاس، وأخزَم: فحل معروف بالكرم.
ما يكره من الكلام وأما الكلام الذي جاءَت به كرَاهيةٌ من طريق الروايات، فروي عن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم أنَّه قال: لا يقولَنَّ أحدُكم خَبثت نَفسي ولكن ليقلْ لَقِسَت نفسي، كأنه كره أن يضيف المؤمنُ الطاهِرُ إلى نفسه الخُبث والفساد

بوجهٍ من الوجوه.
وجاءَ عن عمر ومجاهد وغيرهما النهيُ عن قول القائل: استأثر اللّهُ بفُلان، بل يقال مات فلان، ويقال استأثرَ اللّه بعلم الغيب واستأثر اللّه بكذا وكذا.
قال النَّخَعيّ: كانوا يكرهون أن يقال: قراءة عبد اللّه، وقراءة سالم، وقراءَة أُبَيّ، وقراءَة زيد، وكانوا يكرهون أن يقولوا سنَّة أبي بكر وعمر، بل يقال سنَّة اللّه وسنَّة رسوله، ويقال فلان يقرأ بوجْه كذا، وفلان يقرأ بوجه كذا.
وكره مجاهد أن يقولوا مُسيجِد ومُصيحِف، للمسجد القليل الذَّرْع، والمصحف القليل الورق، ويقول: هم وإن لم يريدوا التصغير فإنَّه بذلك شبيه.
وجوه تصغير الكلام وربَّما صغَّروا الشيءَ من طريق الشَّفقة والرِّقَّة، كقول عمر: أخافُ على هذا العُريب، وليس التصغير بهم يريد، وقد يقول الرجل: إنَّما فلانٌ أخَيِّي وصُدَيِّقي؛ وليس التصغير له يريد، وذكر عمرُ ابنَ مسعود فقال: كُنَيْفٌ مُلئ علماً، وقال الحُباب بن المنذر يوم السَّقِيفة: أنا جُذَيْلها المحكك، وعُذَيقُها المرجَّب، وهذا كقول النبيّ صلى الله عليه وسلم لعائشة: الحُميراء، وكقولهم لأبي قابوسَ الملك: أبو قُبيس، وكقولهم: دبّت إليه دويْهيَة الدهر، وذلك حين أرادوا لطافة المدخل ودقة المسلك.
ويقال إنَّ كلَّ فُعيل في أسماء العرب فإنَّما هو على هذا المعنى، كقولهم المُعَيْدِيّ، وكنحو: سُليم، وضُمَير، وكليب، وعُقير، وجُعيل، وحُميد، وسُعيد، وجُبير؛ وكنحو عُبيد، وعُبيد اللّه، وعُبيد الرماح، وطريق التحقير والتصغير إنَّما هو كقولهم: نُجيل ونُذيل، قالوا: ورُبّ اسمٍ إذا صغَّرْتَه كان أملأ للصَّدْر، مثل قولك أبو عبيد اللّه، هو أكبر في السماع من أبي عبد اللّه، وكعب بن جُعَيل، هو أفخم من كعب بن جعل، وربَّما كان التصغير خِلقة وبنية، لا يتغيَّر، كنحو الحُمَيّا والسُّكَيْتِ، وجُنَيدة، والقطيعا، والمريطاء، والسُّميراء، والمليساء - وليس هو كقولهم القُصَيْرى، وفي كبيدات السماءِ والثرّيا.
وقال عليٌّ بن أبي طالب رضي اللّه تعالى عنه: دققت البابَ على رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، فقال: من هذا؟ فقلت: أنا، فقال: أنا كأنَّه كره قولي أنا.
وحدّثني أبو عليٍّ الأنصاري، وعبد الكَريم الغِفاريّ قالا: حدَّثنا عيسى بن حاضر قال: كان عمرو بن عُبيد يجلس في دَاره، وكان لا يَدَع بابَه مفتوحاً، فإذا قرعَه إنسان قامَ بنفسه حتَّى يفتحه له، فأتيتُ الباب يوماً فقرعتُه فقال: من هذا؟ فقلت: أنا، فقال: ما أعرف أحداً يسمَّى أنا، فلم أقُلْ شيئاً وقمتُ خلفَ الباب، إذ جاءَ رجلٌ من أهل خراسان فقرَع الباب، فقال عمرو: مَن هذا؟ فقال: رجلٌ غريبٌ قدِم عليك، يلتمس العلم، فقام له ففتح له الباب، فلمَّا وجدْتُ فرجةً أردت أن ألجَ الباب، فدفع البابَ في وجهي بعُنف، فأقمتُ عنده أيَّاماً ثم قلت في نفسي: واللّه إنِّي يومَ أتغضَّب على عمرو بن عُبيد، لَغيرُ رشيدِ الرأي، فأتيتُ البابَ فقرعته عليه فقال: من هذا؟ فقلت: عيسى بن حاضر، فقام ففتح لي الباب.
وقال رجل عند الشَّعبيّ: أليس اللّه قال كذا وكذا قال: وما عَلَّمَك؟ وقال الربيع بن خُثيم: اتَّقُوا تكذيب اللّه، ليتَّق أحدكم أن يقولَ قال اللّه في كتابه كذا وكذا، فيقول اللّه كذبتَ لم أقلْه.

وقال عمر بن الخطَّاب رضي اللّه عنه: لا يقل أحدُكم أهريقُ الماء ولكن يقول أبول.
وسأل عمرُ رجلاً عن شيءٍ، فقال: اللّه أعلم، فقال عمر: قد خَزينا إن كُنَّا لا نعلم أنَّ اللّه أعلم؛ إذا سُئِلَ أحَدُكم عن شيءٍ فإن كان يعلمه قاله، وإن كان لا يعلمه قال: لا علم لي بذلك.
وسمعَ عمر رجلاً يدعو ويقول؛ اللهمَّ اجعلْني من الأقلِّين قال: ما هذا الدعاءُ؟ قال: إنِّي سمعت اللّه عزّ وجلّ يقول: "وقليلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورَ" وقال: "وَمَا آمَنَ مَعَهُ إلاَّ قَلِيلٌ"، قال عمر: عليك من الدعاءِ بما يُعرَف.
وكره عمر بن عبد العزيز قولَ الرجل لصاحبه: ضَعْه تحت إبطِك، وقال: هلاَّ قلتَ تحت يدِك وتحت مَنكِبك وقال مَرَّة - وراثَ فرسٌ بحضْرة سليمان - فقال: ارفعوا ذلك النَّثِيل، ولم يقل ذلك الرَّوث.
وقال الحجَّاج لأمِّ عبد الرحمن بن الأشعَث: عَمَدْتِ إلى مَالِ اللّه فوَضَعْته تحْتَ، كأنَّه كره أن يقول على عادة الناس: تحت استك، فتلجلج خوفاً من أن يقول قذَعاً أو رَفَثاَ، ثمّ قال: تحتَ ذيلِك.
وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: لا يقولَنَّ أحدُكم لمملوكه عَبْدِي وأمَتي، ولكنْ يقول: فتَايَ وفتاتي، ولا يقول المملوكُ ربِّي وربَّتي، ولكن يقول سيِّدي وسيِّدتي.
وكره مُطرِّف بن عبد اللّه، قولَ القائل للكلب: اللّهُمَّ أخْزه.
وكره عِمران بن الحُصين، أن يقولَ الرَّجلُ لصاحبه: أنْعمَ اللّهُ بك عيناً؛ ولا أنعَمَ اللّهُ بك عيناً، وقد كرهوا أشياءَ ممَّا جاءت في الروايات لا تُعرَف وجوهها، فرأيُ أصحابنا: لا يكرهونها، ولا نستطيع الردَّ عليهم، ولم نسمع لهم في ذلك أكثرَ من الكراهة، ولو كانوا يروون الأمورَ مع عللها وبرهاناتها خَفَّت المؤنة، ولكنّ أكثر الروايات مجرّدة، وقد اقتصروا على ظاهر اللفظ دونَ حكاية العلة، ودون الإخبار عن البرهان، وإن كانوا قد شاهدوا النوعين مشاهدةً واحدة، قال ابن مسعود وأبو هريرة: لا تسمُّوا العِنَب الكَرْم؛ فإنَّ الكَرمَ هو الرجلُ المسلم.
وقد رفعوا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم.
وأمَّا قوله: لا تسُبُّوا الدَّهرَ فإنَّ الدهر هو اللّه فما أحسن ما فسَّر ذلك عبد الرحمن بن مهديّ قال: وجهُ هذا عندنا، أنَّ القوم قالوا: "وَمَا يُهْلِكنَا إلاَّ الدَّهْرُ" فلما قال القوم ذلك، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: ذلك اللّه، يعني أنَّ الذي أهلك القرونَ هو اللّه عزّ وجلَّ، فتوهم منه المتوهِّم أنَّه إنَّما أوقع الكلام على الدهر.
وقال يونس: وكما غلطوا في قول النبي صلى الله عليه وسلم لحسَّان: قُلْ ومَعَك رُوح القُدُس فقالوا: قال النبي صلى الله عليه وسلم لحسَّان: قُلْ ومَعَك جِبريل؛ لأنَّ روح القدس أيضاً من أسماءِ جبريل، ألا ترى أنّ موسى قال: ليتَ أنّ رُوحَ اللّه مع كلّ أحد، وهو يريد العصمة والتوفيق، والنصارى تقول للمتنبِّي: معه روح دكالا، ومعه روح سيفرت، وتقول اليهود: معه روح بَعلزَبول، يريدون شيطاناً، فإذا كان نبياً قالوا: روحه روح القدس، وروحه روح اللّه، وقال اللّه عزَّ وجلّ: "وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أمْرِنَا"، يعني القرآن.
وسمع الحسن رجلاً يقول: طلع سُهيل وبَرُد الليل، فكره ذلك وقال: إنّ سهيلاً لم

يأتِ بحرٍ ولا ببردٍ قطُّ، ولهذا الكلام مجازٌ ومذهب، وقد كره الحسنُ كما ترى.
وكره مالك بن أنس أن يقولَ الرجُلُ للغيم والسحابة: ما أخلقها للمطر وهذا كلام مجازه قائم، وقد كرهه ابن أنس، كأنّهم من خوفهم عليهم العودَ في شيءٍ من أمر الجاهليّة، احتاطوا في أمورهم، فمنعوهم من الكلام الذي فيه أدنى متعلّق.
ورووا أنّ ابنَ عبَّاسٍ قال: لا تقولوا والذي خَاتَمه على فمي، فإنَّما يختِم اللّه عزّ وجلّ على فم الكافر، وكره قولهم: قوس قُزَح، وقال: قزح شيطان، وإنَّما ذهبوا إلى التعريج والتلوين، كأنّه كره ما كانوا عليه من عادات الجاهلية، وكان أحَبَّ أن يقال قوس اللّه، فيرفع من قدره، كما يقال بيت اللّه، وزُوَّار اللّه، وأرض اللّه، وسماء اللّه، وأسد اللّه.
وقالت عائشة رضي اللّه عنها: قولوا لرسول اللّه صلى الله عليه وسلم خاتَم النبيين، ولا تقولوا: لا نَبيَّ بعده فإلاّ تكنْ ذهبتْ إلى نزول المسيح فما أعرف له وجهاً إلاّ أن تكُون قالت لا تغيِّروا ما سمعتم، وقولوا كما قيل لكم، والفِظوا بمثله سواء.
وكره ابن عمر رضي اللّه عنهما قول القائل: أسلمت في كذا وكذا، وقال: ليس الإسلام إلاّ لِلّه عزّ وجلَّ، وهذا الكلام مجازُه عند الناس سهل، وقد كرهه ابنُ عمر، وهو أعلم بذلك.
وكره ابنُ عبَّاسٍ رضي اللّه عنهما قولَ القائل: أنا كسلان.
وقال عمر: لا تسمُّوا الطريق السِّكَّةَ.
وكره أبو العالية قول القائل: كنت في جِنازة، وقال: قل تبعت جنازة، كأنّهُ ذهب إلى أنّه عنى أنّه كان في جوفها، وقال قل تبعت جنازة، والناس لا يريدون هذا، ومجاز هذا الكلام قائم، وقد كرهه أبو العالية، وهي عندي شبيهٌ بقول من كره أن يقول: أعطاني فلان نصف درهم، وقال: إذا قلت: كيف تكيل الدقيق؟ فليس جوابه أن تقول: القفِيز بدُنَينير، ولكن يتناول القفيز ثم يكيل به الدقيق، ويقول: هكذا الكيلة وهذا من القول مسخوط .
وكره ابن عبَّاس قول القائل: الناس قد انصرفوا، يريد من الصلاة، قال بل قولوا: قد قضَوُا الصلاة، وقد فرَغوا من الصلاة، وقد صلَّوْا؛ لقوله: "ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ"، قال: وكلام الناس: كان ذلك حين انصرفنا من الجنازة، وقد انصرفوا من السُّوق، وانصرف الخليفة، وصرف الخليفةُ الناسَ من الدار اليومَ بخير، وكنت في أوَّل المنصرفين، وقد كرهه ابن عبّاس، ولو أخبرونا بعلّتِه انتفعنا بذلك. وكره حَبيب بن أبي ثابت، أن يقال للحائض طامِث، وكره مجاهد قول القائل: دخل رمضان، وذهب رمضان، وقال: قولوا شهر رمضان، فلعلّ رمضان اسم من أسماء اللّه تعالى.
قال أبو إسحاق: إنما أتى من قِبل قوله تعالى: "شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ" فقد قال الناس يوم التَّروية، ويوم عَرَفَة ولم يقولوا عرفة.
رأي النظّام في طائفة من المفسرين وصور من تكلفهم.
كان أبو إسحاق يقول: لا تسترسلوا إلى كثير من المفسِّرين، وإن نصَبوا أنفسَهم للعامَّة، وأجابوا في كلِّ مسألة؛ فإن كثيراً منهم يقول بغير رواية على غير أساس،

وكلّما كان المفسّر أغربَ عندَهم كان أحبَّ إليهم، وليكن عندكم عِكْرِمةُ، والكلبيُّ، والسُّدّي، والضَّحاك، ومقاتل بن سليمان، وأبو بكر الأصمّ، في سبيل واحدة، فكيف أثق بتفسيرهم وأسكن إلى صوابهم، وقد قالوا في قوله عزَّ وجلّ: "وَأَنَّ المَسَاجِدَ لِلَّهِ": إنّ اللّه عزّ وجلَّ لم يعن بهذا الكلام مساجدَنا التي نصلّي فيها، بل إنَّما عنَى الجِبَاهَ وكل ما سجد الناس عليه: من يدٍ ورجلٍ، وَجَبْهَةٍ وأنفٍ وثفِنَة، وقالوا في قوله تعالى: "أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إلَى الإِبلِ كَيْفَ خُلِقَتْ": إنَّه ليس يَعني الجمال والنُّوقَ، وإنَّما يَعني السحاب.

وإذا سُئلوا عن قوله: "وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ" قالُوا: الطلح هو الموز.

وجعلوا الدليلَ على أنَّ شهر رمضانَ قد كان فرضاً على جميع الأمم وأنّ الناس غيَّروه، قولَهُ تعالى: "كُتبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ".

وقالوا في قوله تعالى: "رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً" قالوا: يعني أنّه حَشَرَهُ بلاَ حجَّة.

وقالوا في قوله تعالى: "وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ": الويل وادٍ في جهنم، ثم قعَدُوا يصِفون ذلك الوادي، ومعنى الويل في كلام العرب معروف، وكيف كان في الجاهليَّة قبل الإسلام، وهو من أشهر كلامهم.

وسئلوا عن قوله تعالى: "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ" قالوا: الفَلَق: وادٍ في جهنم، ثمَّ قعدوا يصِفونه، وقال آخرون: الفلق: المِقْطَرة بلغة اليمن.

وقال آخرون في قوله تعالى: "عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً" قالوا: أخطأ من وصَلَ بعض هذه الكلمة ببعض، قالوا: وإنَّما هي: سَلْ سبيلاً إليها يا محمد، فإن كان كما قالوا فأين معنى تسمَّى، وعلى أيِّ شيءٍ وقع قوله تسمَّى فتسمَّى ماذا، وما ذلك الشيء؟ وقالوا في قوله تعالى: "وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا" قالوا الجلود كناية عن الفروج، كأنه كان لا يَرَى أنّ كلام الجِلد من أعجب العجب.

وقالوا في قوله تعالى: "كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعامَ": إنّ هذا إنَّما كان كنايةً عن الغائط، كأنه لا يرى أنّ في الجوع وما ينال أهلَه من الذِّلَّة والعجزِ والفاقة، وأنّه ليس في الحاجة إلى الغذاءِ - ما يُكتَفَى به في الدّلالة على أنّهما مخلوقان، حتّى يدَّعيَ على الكلام ويدّعي له شيئاً قد أغناه اللّه تعالى عنه.

وقالوا في قوله تعالى: "وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ": إنّه إنما عنَى قلبه.

ومن أعجب التأويل قول اللِّحياني: الجبّار من الرجال يكون على وجوه: يكون جبّاراً في الضِّخَم والقوَّة، فتأوّل قوله تعالى: "إنّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ" قال: ويكون جبَّاراً على معنى قتّالاً، وتأوّل في ذلك: "وَإذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ"، وقولَه لموسى عليه السلام: : "إنْ تُرِيدُ إلاّ أنْ تَكُونَ جَبَّاراً في الأَرْضِ" أي قتَّالاً بغيرحقّ، والجبارُ: المتكبِّر عن عبادة اللّه تعالى، وتأوَّل قوله عزَّ وجلَّ: "وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيّاً"، وتأوّلَ في ذلكَ قول عيسى: "وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقيّاً" أي لم يجعلْني متكبِّراً عن عبادته، قال: الجبَّار: المسلَّط القاهر، وقال: وهو قوله: "وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ" أي مسلّط فتقهرهم على الإسلام، والجبَّار: اللّه.

وتأوَّل أيضاً الخوف على وجوهٍ، ولو وجدَه في ألفِ مكانٍ لقال: والخوفُ على ألف وجه، وكذلك الجبَّار، وهذا كلّه يرجِع إلى معنًى واحد؛ إلاّ أنّه لا يجوز أن يوصَف

به إلاّ اللّه عزّ وجلَّ.
تكلف بعض القضاة في أحكامهم وقال رجل لعُبيد اللّه بن الحسن القاضي: إنّ أبي أوصى بثُلث مالِه في الحصون، قال: اذهبْ فاشترِ به خيلاً، فقال الرجل: إنّه إنَّما ذكَر الحصون قال: أما سمعتَ قول الأسْعَر الجُعْفِيّ:

ولقد علمت على تجنُّبِي الرَّدى أنّ الحصونَ الخيلُ لا مَدَرُ القُرَى

فينبغي في مثل هذا القياس على هذا التأويل، أنّه ما قيل للمدن والحصون حصون إلاّ على التشبيه بالخيل.
وخبَّرني النُّوشِروانيّ قال: قلت للحسن القاضي: أوصي جدِّي بثلث ماله لأولاده، وأنا من أولاده، قال: ليس لك شيء، قلت: ولم؟ قال: أو ما سمعت قول الشاعر:

بنُونا بنو أبنائِنا وبنـاتُنـا بنُوهُنَّ أبناءُ الرِّجالِ الأباعِدِ

قال: فشكوت ذلك إلى فلان فزادني شرًّا.
وقالوا في قوله: مَا سَاءَكَ ونَاءَك: ناءك، أبعدك، قالوا: وساءك أبرصك، قال: لقوله تعالى: "تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ"، وبئس التكلُّف.
وقال ابن قميئة:

وحمَّال أثقال إذا هي أعْرَضت على الأصل لا يَسطِيعُها المتكلِّفُ

وقال اللّه وهو يخبر عن نبيِّه صلى الله عليه وسلم: "وَمَا أَنَا مِنَ المُتَكَلِّفِينَ".
وليس يُؤْتَى القوم إلاَّ من الطمع، ومن شدَّةِ إعجابهم بالغريب من التأويل.
رأي في أبي حنيفة وسئل حَفص بن غِياث، عن فقه أبي حنيفة، فقال: أعلم الناس بما لم يكنْ، وأجهلُ الناس بما كان .
وقالوا في قوله تعالى: "ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيم" قالوا: النعيم: الماءُ الحارُّ في الشتاء، والبارد في الصيف.
الصَّرورة ومن الأسماء المحدَثة التي قامت مقامَ الأسماء الجاهليَّة، قولهم في الإسلام لمنْ لم يحجّ: صَرورة.
وأنتَ إذا قرأتَ أشعارَ الجاهليَّة وجدتَهم قد وضعوا هذا الاسمَ على خلافِ هذا الموضع، قال ابن مَقرومٍ الضَّبِّيّ:

لو أنَّها عَرَضَتْ لأشْمَط رَاهبٍ عَبدَ الإلهَ صَرُورةٍ مُتَبَتِّلِ

لدنا لبَهْجَتِها وحُسْنِ حَدِيثِـها ولَهَمَّ من تامُوره بـتـنَـزُّلِ

والصرورة عندهم إذا كانَ أرفعَ الناسِ في مراتب العبادة، وهو اليومَ اسمٌ للذي لم يَحجَّ إمّا لعجزٍ، وإمَّا لتضييع، وإمَّا لإنكار، فهما مختلفان كما ترى.

فإذا كانت العرب يشتقُّون كلاماً من كلامهم وأسماءً من أسمائهم، واللغة عاريّة في أيديهم ممَّن خلقهم ومكَّنهم وألهمهم وعلَّمهم، وكان ذلك منهم صواباً عند جميع الناس؛ فالذي أعارهمْ هذه النِّعمة أحقُّ بالاشتقاق وأوجبُ طاعةً، وكما أنَّ له أن يبتدئَ الأسماءَ؛ فكذلك له أن يبتدئها ممَّا أحَبَّ،، قد سمَّى كتابَه المنزلَ قرآناً، وهذا الاسم لم يكنْ حتى كان، وجعل السجودَ للشمس كفراً، فلا يجوز أن يكون السجود لها كفراً إلاّ وترك ذلك السجود بعينه يكون إيماناً، والترك للشيء لا يكون إلاّ بالجارحة التي كان بها الشيء، وفي مقداره من الزمان، وتكون بدلاً منه وعَقِباً، فواحدةٌ أن يسمَّى السجود كفراً، وإذا كان كفراً كان جحوداً وإذا كان جحوداً كان شركاً، والسجود ليس بجَحْد، والجحد ليس بإشراك إلاَّ أن تصرفه إلى الوجه الذي يصير به إشراكاً.

ما اشتق من نباح الكلابِ وما قيل من الشعر فيه

وقال طُفيل الغَنَوِيّ:

عَوَازِبُ لَمْ تَسْمَعْ نُبُوحَ مقامةٍ ولم ترَ نَارًا تِمَّ حَولٍ مجرَّمِ

وإنَّما أخذ ذلك للجميع من نباح الكلاب.
وذكروا أن الظَّبيَ إذا أسنَّ ونبتَتْ لقرونه شُعَبٌ نَبَح، وهو قول أبي دُؤاد:

وقُصرَى شَنَجِ الأنْسَا ءِ نبَّاح من الشعب

يعني من جهة الشعب؛ وأنشد بعضهم:

وينبَحُ بينَ الشعبِ نبحاً كأنّه نُبَاحُ سَلُوق أبصرَتْ مَا يُرِيبها

وبَيَّضها الهُزْلُ المسوِّدُ غيْرَها كما ابيضَّ عن حَمْضِ المراحم نِيبُها

لأن الظَّبيَ إذا هزل ابيضّ، والبعير يَشِيب وجهَه من أكل الحَمْض، وكذلك قال ابن لَجَأ:

شابَتْ ولمَّا تَدْنُ من ذُكَائها

كما قال الآخر:

أكلْن حمضاً فالوُجُوه شِيبُ شَرِبن حتى نزح القَلِيبُ

وقد تصير النَّاقة الحمراء إذا أتمَّت حبشيّة، ولذلك قال الشاعر:

حمراء لا حَبَشيّة الإتمام

وما أشبه ذلك بقول العَبديّ:

وداويتُها حتَّى شتَتْ حَبَشِيَّةً   كأنَّ عليها سُنْدُساً وسَدُوسا

والدَّواء: اللبن، فلذلك تصير الفرس إذا ألقت شعرها وطرّت، تستديل هذا اللون.
وقال خالد بن الصقْعب النَّهديّ:

هَبَطْنَا بعدَ عهدِك بَطْن خَبْتٍ   تَظلُّ حمامُه مثلَ الخُصُـومِ

كأنَّ عرينَ أيكَتِـه تَـلاَقى   به جَمْعَانِ من نَبَـطٍ ورُومِ

نُباحُ الـهدْهدِ الحَوْلِـيِّ فيـه   كَنَبْحِ الكَلْبِ في الأَنَس المقيمِ

ويقال إنَّ الهدهد ينبَحُ، وربَّما جعلوا الـهُدْهُدَ، الذي ينبح، الحمامَ الذكر، قال الشاعر - وهو يصف الحمام الذَّكَرَ كيف يصنع فيها:

وإذا استترن أرَنَّ فيها هُدهُدٌ   مثلُ المَدَاكِ خَضَبْتَهُ بجِسادِ

وقال طُفيل في النُّبوح والمجاعات:

وأشْعَث تَزْهَاه النُّبـوح مُـدَقَّـع   عن الزَّادِ ممَّا جَلّف الدهرُ مُحْثَل

وقال الجعديّ:

فلما دَنونا لصوتِ النُّبـاح   ولا نُبْصِرُ الحيِّ إلاّ التماسَا

وقال ابن عبدل:

آليتُ إذ آلـيتُ مجـتـهـداً   ورفعتُ صَوتاً ما به بَـحَـحُ

لا يُدْرِكُ الشعراءُ منـزلَـتـي   في الشعر إنْ سكَتَوا وإنْ نَبَحُوا

وقال عمرو بن كلثوم:

وَقدْ هَرَّتْ كلابُ الحَيِّ مِنَّا وشَدَّ بنَا قتَادَةَ مَنْ يَلِينَـا

وقال بعض العلماءِ: كلاب الحيّ شعراؤهم، وهم الذين ينبحون دونَهم، ويحمون أعراضَهم، وقال آخرون: إن كلابَ الحَيِّ كلُّ عقورٍ، وكلُّ ذي عُيون أربع.
وأما قوله:

لَعَمْرُكَ ما خَشِيتُ على أُبَيٍّ رماحَ بني مقيِّدةِ الحمـارِ

ولكنِّي خَشِيت علـى أُبَـيٍّ رِمَاحَ الجنّ أو إيَّاكَ حار

فالطَّواعين هي عند العرب رماح الجن، وفي الحديث: إنَّ الطاعونَ وخْز مِنَ الشيطان.
وقال أبو سلمى:

لا بدَّ للسُّودَد من أرماح ومن سفيهٍ دائم النُّبـاح

ومن عَدِيدٍ يُتَّقى بالرَّاح

وقال الأعشى:

مِثْل أيَّامٍ لَنَا نعْرِفُـهَـا هَرَّ كلبُ النَّاسِ فيها ونَبَحْ

رُزُنُ الأحْلاَمِ في مجلسِهِمْ كلّما كَلْبٌ من النـاسِ نَبَحْ

وقال:

سيَنْبَحُ كلبي جاهداً مِن ورائكم وأغنى غَنَائي عنكُم أن أؤنَّبا

وقال أبو ذؤيب:

ولا هَرَّها كَلبي ليبعد تعْرها ولو نَبَحَتْني بالشَّكاةِ كلابُها

كلابها: شعراؤها، وهو قول بشر بن أبي خازم:

وإنِّـي والـشَّـكـاة لآل لأْمٍ كذاتِ الضِّغْنِ تَمشي في الرِّفاق

وقال أبو زُبَيْد:

ألم تَرَني سكَّنْتُ لأياً كـلابَـهُـمْ وكففت عنكم أكلُبي وَهي عُقَّرُ

هجاء ضروب من الحيوان

قال صاحب الكلب: قد علمنا أنّكم تتبَّعتم على الكلب كلَّ شيءٍ هُجِي به، وجعلتم ذلك دليلاً على سقوط قدْره وعلى لؤم طبعه؛ وقد رأينا الشعراءَ قد هَجَوا الأصناف كلّها، فلَمْ يُفلت منهم إنسان ولا سبع، ولا بهيمةٌ ولا طائر ولا هَمَج ولا حشَرَة، ولا رفيع من الناس ولا وضيع، إلاّ أن يَسلم بعضُ ذلك عليهم بالخمول، فكفاك بالخمول دِقَّةً ولُؤماً وقِلَّة ونَذالة، وقال أميَّة بن أبي عائذ لإياس بن سهم:

فأبْلِغْ إياساً أنَّ عِرضَ ابنِ أُختِكـمْ رِداؤُك فاصطَنْ حسنـه أو تـبـذَّلِ

فإن تكُ ذا طَوْلٍ فإني ابنُ أُختـكـم وكلُّ ابنِ أختٍ من نَدَى الخالِ مغتلِي

فكنْ أسداً أو ثعلبـاً أو شـبـيهَـه فمهما تكنْ أُنسَبْ إلـيك وأشـكـل

فما ثعلبٌ إلاَّ ابـن أخـتِ ثُـعـالةٍ وإنَّ ابنَ أختِ اللَّيثِ رِيبالُ أشبُـلِ

ولن تجد الآسادَ أخوالَ ثـعـلَـبٍ إذا كانت الهيجا تَلوذُ بـمـدخـلِ

فهذا من الثعلب، وقال مزرّد بن ضرار:

وإنّ كناز اللَّحمِ من بَكَراتِكمْ تهرُّ عليها أمُّكُمْ وتكالـب

وليتَ الذي ألقى فناؤُك رحله لتَقريَه بالتْ عليه الثعالـبُ

فقد وضع الثعلب كما ترى بهذا الموضع الذي كفاك به نذالة، قال ابن هرمة:

فما عادت بذي يَمَن رُؤوسـاً ولا ضَرَّت لفرقتها نِـزارا

كعنْزِ السَّوءِ تنطحُ من خلاها وتَرْأمُ من يُحِدُّ لها الشِّفْـارا

وهذا قول الشاعر في العنز، وقال ابن أحمر:

إنـا وجدْنَا بني سهْمٍ وجامِلَـهـم كالعنْز تَعْطِف رَوقيها فترتَضِعُ

وقال الفرزدق:

على حينَ لم أتركْ على الأرضِ حَيّة ولا نابحاً إلا استقرَّ عَقورها

وكان نُقَيع إذ هجاني لأهْلِه كباحثةٍ عن مُدْيةٍ تستثيرُها

فهذا قولهم في العنز، ولا نعلم في الأرض أقلَّ شرّاً ولا أكثر خيراً من شاة.
وقال الخُرَيميّ:

يا لَلرجال لقومٍ قد مَلِلتُهم أرى جِوارَهمُ إحدى البليّات

ذئبٌ رضيع وخنزير تُعارضُها عَقاربٌ وُجِنَتْ وَجْناً بحَيَّاتِ

ما ظنُّكم بأناس خَيْرُ كسبهمُ مُصَرَّح السُّحتِ سمَّوه الأمَانات

فهذا قولهم في العقارب والحيَّاتِ والضِّباع والخنازير.
وقال حماد عَجْرِدٍ في بَشَّار:

قد كان في حُبِّي غزالة شاغِلٌ للقرد عن شَتْمي وفي ثوْبَان

أو في سميعة أختِها وشِرادِها لمجونها مع سِفْلة المُجّان

أو بيت ضيق عرسه وركوبها شرّ البغاءِ بأوكَسِ الأثمانِ

هذا قول حماد في القرد، وقال حمَّاد في بشّار بن بُرد أيضاً:

ولكنْ مَعاذَ اللّهِ لستُ بقاذِفٍ بَريئاً لسوَّاق لِقومٍ نوائح

وما قلتُ في الأعمى لِجَهلٍ وأمّه ولكِنْ بأمرٍ بيِّنٍ ليَ واضح

سأُعرِضُ صحفاً عن حُصينٍ لأمِّه ولست عن القِرد ابن بَرْدٍ بصافِح

وقال الآخر:

لما أتيت ابنَي يزيدَ بن خَثْعَمٍ أرى القردَ والخنْزيرَ مُحتَبيانِ

أمَامَ بيوتِ القومِ من آل خَثْعَم وراءَ قبيحاتِ الوجوه بطانِ

وقال العتَّابي:

اسْجِدْ لقِرْدِ السَّوءِ في زَمَانِه وإن تَلقَّاكَ بخَنْزَوانِه

لا سيَّما ما دام في سلطانه

وقال أبو الشمقمق:

إن رياحَ اللُّؤمِ من شحِّه لا يَطمَع الخنزير في سَلْحِهِ

كفّاه قُفل ضلّ مِفتاحهُ قد يَئِس الحدَّاد مِن فَتْحِهِ

وقال خلف بن خليفة:

فسبحانَ من رزقُه واسع يَعُمُّ به القِرْدَ والقِرْدَهْ

وهذا كثير، ولعمري لو جُمِع كلُّه لكان مثلَ هِجاء الناس للكلب، وكذلك لو جمع جميعُ ما مُدِح به الأسدُ فما دُونه، والأمثالُ السائرةُ التي وقعت في حَمد هذه الأشياء، لَمَا كانتْ كلُّها في مقدار مديح الكلب، فهذه حُجَّتُنَا في مَرتبةِ الكلب على جميع السباع والبهائِم. ولما قال معبدٌ في قتل الكلب، وتلا قول اللّه عزَّ وجلَّ: "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلىَ الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا فاقصُصِ الْقَصَصَ"، قال أبو إسحاق: وإن كنتَ إنَّما جعلتَ الكلب شرّ الخلق بهذه العلَّة، فقد قال على نسق هذا الكلام: "وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بها وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُون بها أولئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ"، فالذي قال في الإبل والبقر والغنَم أعظم، فَأَسْقِطْ من أقدارها بقدر معنى الكلام، وأدنى ذلك أن تُشرك بين الجميع في الذمّ فإنَّك متى أنصفتَ في هذا الوجه، دعاك ذلك إلى أن تُنْصِفها في تتبُّع ما لها من الأشعار والأمثال والأخبار والآيات، كما تتبَّعت ما عليها.

الشرف والخمول في القبائل

وقال صاحب الكلب: سنضرب مثلاً بيننا يكون عَدلاً: إذا استوى القبيلان في تقادم الميلاد ثم كان أحد الأبوين كثير الذرء والفُرسان والحكماءِ والأجواد والشعراء، وكثيرَ السادات في العشائر، وكثيرَ الرؤساء في الأرحَاء وكان الآخر قليل الذَّرء والعدد، ولم يكن فيهم خير كثيرٌ ولا شر كثير، خملوا أو دخلوا في غمار العرب، وغَرِقوا في معظم الناس، وكانوا من المغمورين ومن المنسيِّينَ، فسَلموا من ضروب الهجاء ومن أكثر ذلك، وسلموا من أنْ يُضربَ بهم المثل في قِلَّةٍ ونذالة إذا

لم يكن شرٌّ، وكان محلُّهم من القلوب محلّ من لا يَغْبِط الشعراءُ، ولا يحسدهم الأكفاءُ؛ وكانوا كما قال حُميد بن ثور:

وقُولا إذا جَاوزتما أرْضَ عـامـرٍ وجاوزتُما الحيَّينِ نـهْداً وَخَثْعَمَـا

نَزيعانِ من جَرْمِ بن رَبَّـانِ إنَّـهـم أبَوْا أن يُريقوا في الهَزاهِزِ مِحْجما

وإذا تقادم الميلاد ولم يكن الدّرْءُ وكان فيهم خيرٌ كثيرٌ وشرٌّ كثيرٌ، ومثالِب ومناقب، ولم يَسلَموا من أن يُهجَوا ويُضْرَبَ بهم المثل، ولعلَّ أيضاً أن تتفق لهم أشعار تتصل بمحبة الرواة، وأمثال تسير على ألسنة العلماء، فيصيرُ حينئذٍ من لا خير فيه ولا شرَّ، أمْثَلَ حالاً في العامَّة، ممَّن فيه الفضلُ الكثيرُ وبعضُ النقص، ولا سيَّما إذا جاوَروا من يأكُلهم وحالَفوا من لا ينصفهم، كما لقيت غَنِيّ أو باهلة.
ولو أنَّ عبْساً أقامت في بني عامر ضِعفَ ما أقامت؛ لذهب شَطْرُ شرفها؛ ولكنَّ قيسَ بن زُهير لمَّا رأى دلائل الشرِّ قال لأصحابه: الذلُّ في بني غطفان خير من العزِّ في بني عامر.
وقد يكون القوم حُلولاً مع بني أعمامهم، فإذا رأوا فضْلهم عليهم حَسدوهم وإن تركوا شيئاً من إنصافهم اشتدَّ ذلك عليهم وتعاظمَهم، بأكثر من قدره، فدَعاهم ذلك إلى الخروج منهم إلى أعدائهم، فإذا صاروا إلى آخرين نهكوهم وحملوا عليهم، فوقَ الذي كانوا فيه من بني أعمامهم، حتى يدْعُوَهم ذلك إلى النَّدم على مفارقتهم، فلا يستطيعون الرُّجوع، حميةً واتقاء، ومخافةَ أن يعودوا لهم إلى شيء مما كانوا عليه، وإلى المقام في حلفائهم الذين يرون من احتقارهم، ومِن شدَّة الصَّولة عليهم.

بكل وادٍ بنو سعد

وقد خرج الأضبَط بن قُريع السَّعْدِيُّ من بني سعد، فجاوَزَ ناساً، فلما رأى مذْهَبهم وظُلمهم ونَهْكهم، قال: بكلِّ وادٍ بَنُو سعد، فأرسلها مثلاً.
وقد كان عبَّاس بن ريطة الرِّعلي سيِّد بني سُليم، وقد ناله ضيم في بعض الأمر، فأبى الضَّيم، فلما حاولَ مفارقتَهم إلى بني غَنْم عزَّ عَلَيْهِ فقال في كلمة له:

وأمُّكم تُزْجِي التؤام لبَعْلِهـا   وأمُّ أخيكم كزَّةُ الرِّحْم عاقِرُ

وزعموا أنَّ أبا عمرو أنشد هذا الشعر، وخبَّر عن هذه القصّة في يومٍ من أيامه، فدمعت عينُه، فحلف شُبَيل بن عَزرة بالطلاق: إنَّه لَعَرَبيٌّ في الحقيقة لغِيَّةٍ أو لرشْدة٦ -! قبائل في شطرها خير كثير وفي الشطر الآخر شرف وضعة فمن القبائل المتقادمة الميلاد التي في شِطرها خير كثير، وفي الشطر الآخر شرف وضَعة، مثل قبائل غطفان وقيس عيلان، ومثل فزارة ومرَّة وثعلبة، ومثل عبس وعبد اللّه بن غطفان، ثم غَنِيّ وباهلة، واليعسوب والطفاوة فالشرف والخطر في

عَبس وذبيان، والمبتلى والملقَّى والمحروم والمظلوم، مثل باهلة وغنيّ، ممّا لقيت من صوائب سهام الشعراء، وحتَّى كأنَّهم آلة لمدارج الأقدام، ينكب فيها كلُّ ساعٍ، ويعثُر بها كلُّ ماش، وربّما ذكروا اليَعسوب والطفاوة، وهاربة البقعاء وأشجَع الخنثى ببعض الذّكر، وذلك مشهور في خصائص العلماء ولا يجوز ذلك صدورَهم، وجلُّ معظم البلاء لم يقع إلاَّ بغنيٍّ وباهلة، وهم أرفع من هؤلاء وأكثر فضولاً ومناقب، حتى صار من لاخير فيه ولا شرَّ عنده أحسنَ حالاً ممَّن فيه الخير الكثير وبعض الشرّ، وصار مثلهم كما قال الشاعر:

اضرب نَدَى طَلْحَةِ الطّلْحَاتِ مبتدئا بِبُخْل أَشْعثَ واستَثْبتْ وكُنْ حكما

تخرج خُزاعة من لؤم ومِن كرمٍ   ولا تعُدَّ لها لؤماً ولا كرما

وقد ظرف في شعره فظلم خُزاعة ظُلماً عبقريّاً.
وقال في مثل ذلك الأشعر الرَّقبان الأسديّ:

بحسْبك في القوْمِ أن يعْلموا   بأنّك فيهم غنيٌّ مُضِرّ

وأنت مليخ كلحْم الحُوَارِ   فلا أنت حُلْوٌ ولا أنت مُرّ

وكما قال الشاعر في علباءَ بن حبيب حيث يقول:

أرى العِلباء كالْعِلْبَاءِ   لا حلوٌ ولا مُرُّ

شُيَيْخٌ من بني الجارو   دِ لا خيرٌ ولا شرُّ

فهذا ونحوه من أشدِّ الهجاءِ.
والخمول اسمٌ لجميع أصناف النَّقْص كلِّها أو عامَّتها، ولكنَّه كالسَّرْو عند العلماء، وليس ينفعك العامَّةُ إذا ضرّتك الخاصَّة.
ومن هذا الضرب تميم بن مرّ، وثور وعُكل، وتيم ومزينة، ففي عُكل وتيم ومزَينة من الشرف والفضل، ما ليس في ثور، وقد سلِم ثور إلاَّ من الشيء اليسير، مما لا يرويه إلاَّ العلماء، ثم حلَّت البليَّةُ وركَدَ الشرُّ، والتحف الهجاء على عُكْل وتيم، وقد شعّثوا بين مزينة شيئاً، ولكنَّهم حبَّبهم إلى المسلمين قاطبةً ما تهيأ لهم من الإسلام، حين قلّ حظُّ تيم فيه، وقد نالوا من ضبَّة، مع ما في ضبَّة من الخصال الشريفة؛ لأنَّ الأبَ متى نقص ولَدُه في العدد عن ولد أخيه فقد ركبهم الآخَرون بكلِّ عظيمة، حتى يروا تسليمَ المرباع إليهم حظّاً، والسير تحت اللواء، والحمل على أموالهم في النوائب؛ حتَّى ربَّما كانوا كالعضاريط والعُسَفاء، والأتباع، وفي الأتباع والدخلاء، ثم لا يجدون من ذلك بدّاً؛ كأنهم متى امتنعوا خذلوهم، فاستباحوهم، فرأوا أن النَّعمة أربحُ لهم.

وقد أعان غيلان على الأحنف بكلمة، فقال الأحنف: عبيدٌ في الجاهليَّة، أتباعٌ في الإسلام، فإن هربوا تفرّقوا فصاروا أشلاءً في البلاد، فصار حكمُهم حكم من درج، وحكمُ أبيهم كحكم من لم يُعقِب، وإذا هم حالفوا القرباء فذلك حيث لا يرفعون رؤوسهم من الذلّ والغرم.

الحِلْفُ عند العرب

والحِلْف ضربان: فأحدهما كانضمام عبس وضبَّة، وأسد وغطفان فإنَّ هؤلاءِ أقوياءُ لم يُنهكوا كما نُهكت باهلة وغنيّ، لحاجةِ القوم إليهم، ولخشونة مسِّهم إن تذكّروا على حال؛ فقد لقِيت ضبَّةُ من سعدٍ، وعبسٌ من عامر، وأسدٌ من عيينة بن حصن ما لقُوا.
وقد رأيت مشقَّة ذلك على النابغة، وكيف كره خروج أسد من بني ذبيان.
وعيينةُ بن حصن وإن كان أسود من النابغة وأشرف، فإنَّ النابغة كان أحزم وأعقل.
وقد سلمت ثور وابتُليت عُكل وتيم، ولولا الربيع بن خُثَيم وسُفيان الثوري، لما علمت العامَّةُ أنَّ في العرب قبيلةً يقال لها ثور، ولَشَريفٌ واحدٌ ممَّن قبَلت تيم أكثرُ من ثور وما ولد.
وكذلك بَلْعَنبر، قد ابتُليت وظلمت وبُخست، مع ما فيها من الفُرسان والشُّعراء، ومن الزُّهاد، ومن الفقهاء، ومن القضاة والوُلاة، ومن نوادر الرِّجال إسلاميِّين وجاهليِّين.
وقد سلمت كعب بن عمرو؛ فإنه لم ينلها من الهجاء إلاَّ الخمش والنُّتف. وربَّ قومٍ قد رضُوا بخُمولهم مع السلامة على العامَّة، فلا يشعرون حتَّى يصبَّ اللّه تعالى على قممِ رؤوسهم حجارةَ القذف، بأبياتٍ يسيِّرها شاعر، وسوط عذابٍ يسير به الراكبُ والمثل، كما قال الشاعر:

إن مَنَافاً فقْحَةٌ لـدارم كما الظليمُ فقْحَةُ البراجِمِ

وقال الشاعر:

وجَدْنَا الحُمْرَ مِنْ شَرِّ المطايَا كما الحَبطاتُ شرُّ بني تميم

فما الميسم في جِلد البعير، بأعلق من بعض الشعر.

أثر الشعر في نباهة القبيلة

وإذا كان بيت واحد يربطه الشاعر في قوم لهم النباهة والعَدد والفعال، مثل نُمير، يصير أهلُه إلى ما صارت إليه نُمير وغير نمير، فما ظنُّكَ بالظُّلَيم وبمناف وبالحَبطات، وقد بلغ مضرَّةُ جرير عليهم حيثُ قال:

فغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ مِن نُمير   فلا كعباً بلغتَ ولا كلابـا

إلى أن قال شاعر آخر وهو يهجو قوْماً آخَرين:

وسَوفَ يَزيدُكم ضَعَةً هِجَائِي   كما وضعَ الهجاءُ بَنِي نُميْر

وحتّى قال أبو الرُّدَيْنيّ:

أتُوعِدُنِي لِتَقْتُلَنِـي نُـمـيْرٌ   مَتى قتَلَتْ نُميْر مَنْ هَجَاهَا

بكاء العرب من الهجاء وذكر بعض من بكى منهم لذلك ولأمر ما بكت العربُ بالدموع الغِزار من وقع الهجاءِ، وهذا من أوَّل كرمها، كما بكى مخارقُ بن شِهاب، وكما بكى عَلقمة بن عُلاثة، وكما بكى عبد اللّه بن جُدعان من بيتٍ لخداش بن زهير، وما زال يهجوه من غير أن يكون رآه، ولو كان رآه ورأى جماله وبهاءَه ونبله والذي يقع في النفوس من تفضيله ومحبته ومن إجلاله والرقة عليه أمسك، ألا ترى أن النَّبيت وغسَّان بن مالك بن عمرو بن تميم، ليس يعرفهم بالعجز والقلَّة إلاَّ دَغفل بن حنظلة، وإلاَّ النخَّار العُذريّ وإلا ابن الكيِّس النمريّ، وإلاَّ صُحار العبدي، وإلاَّ ابن شَرِيَّة وأبو السَّطَّاح وأشباههم ومن شابه طريقهم والاقتباس من مواريثهم، وقد سلموا على العامة وحصلوا نسب العرب فالرجل منهم عربي تميمي، فهو يعطي حقّ القوم في الجملة ولا يقتضي ما عليه وعلى رهطه في الخاصّة، والحرمان أسوأ حالاً في العامة من هذه القبائل الخاملة وهم أعدّ وأجلد.
ما تبتلى به القبائل فيصيبها الخمول وبليَّة أخرى: أنْ يكون القبيلُ متقادِمَ الميلاد، قليل الذلة قليل السيادة، وتهيَّأ أن يصير في ولدِ إخوتهم الشرف الكامل والعدد التامّ، فيستبين لمكانهم منهم من قلتهم وضعفهم لكلِّ من رآهم أو سمع بهم، أضعافُ الذي هم عليه لو لم يكونوا ابتُلوا بشرف إخوتهم.
ومِنْ شوْم الإخوة أنّ شرفهم ضعةُ إخوتهم، ومن يُمن الأولاد أنّ شرفهم شرفُ من قبْلهم من آبائهم ومن بعدهم من أولادهم: كعبد اللّه بن دارم وجرير بن دارم، فلو أنَّ الفُقيم لم يناسب عبد اللّه بن دارم وكان جاراً، كان خيراً له.
ولقد ضعضعتْ قُريش - لما جاءتْ به من الخصال الشريفة التامّة؛ مِنْ أركان كنانة - سَنامَ الأرض وجبلها وعينَها التي تبصر بها، وأنفَها التي بها تعطس، فما ظنُّك بمن أبصر بني زيد بن عبد اللّه بن دارم، وبني نهشل بن دارم، وبني مجاشع بن دارم، ثمَّ رأى بني فقُيم بن جرير بن دارم؟ وكذلك كلُّ أخوَين إذا برَع أحدُهما وسبق وعلا الرِّجال؛ في الجود والإفضال، أو في الفُروسة أو في البيان، فإن كان الآخر وسَطاً من الرجال، قصدُوا بحسن مآثره في الطبقة السفلى لتَبين البراعةُ في أخيه، فصارت قرابته التي كانت مفخرةً هي التي بلغت به أسفل السافلين، وكذلك عَنَزَة بن أسد في ربيعة، ولو كان سودد ربيعة مرَّةً في عَنَزَة ومرّة في ضُبَيعة أضْجَمَ، لكان خيراً لهم اليوم، ولودَّ كثير من هؤلاءِ القبائل التي سلمت على

الشعراءِ أو على العوامِّ أن يكون فيهم شَطْرُ ما للعنَزِيِّين من الشرف، ولو أنَّ الناس وازنوا بين خصال هذه القبائل خيرها وشرِّها لكانوا سَوَاءً.
وقال صاحب الكلب: ذكرتَ عيوبَ الكلب فقلتَ: الكلب إذا كان في الدار مَحَق أُجُور أهل الدَّار حتى يأتيَ على أقصاها، لأنَّ الأجور إذ أخِذ منها كلَّ يوم وزنَ قيراط، والقيراط مثل أحد، لم يلبث على ذلك أن يأتيَ على آخرها، وقلتَ: في الكلب أشدُّ الأذى على الجار والضيف والدخيل، يمنعه النَّومَ ليلاً والقائلَة نهاراً، وأن يسمَعَ الحديث، ثمّ الذي على سامع النُّباح من المؤنة من الصوت الشديد.
ولو لم يكن في الكلب ما يؤذي بشدَّة صوتِه إلاَّ بإدامة مجاوبة الكلاب لكان في ذلك ممّا ينغِّص العيش، ويمنع من الكلام والحديث.
شعر في النباح والاستنباح وقال أرطأة بن سُهَيّة في بعض افتخاره:

وإنّي لَقوَّام إلى الضّيف موهنـا   إذا أغدف السِّترَ البخيلُ المواكلُ

دعَا فأجابَتْـهُ كـلاب كَـثِيرَةٌ   على ثقةٍ منّي بما أنا فـاعلُ

وما دونَ ضيفي من تلادٍ تحوزُه   يدُ الضيف إلاَّ أنْ تُصانَ الحَلائِلُ

وقال ابن هَرْمة:

ومستنبح نبَّهتُ كلبي لـصوتِـهِ   وقلتُ له قُمْ في اليَفاع فـجَاوبِ

فجاءَ خَفِيّ الصوتِ قد مسَّهُ الضّوى   بضربْةٍ مسنون الغِرارِيْن قاضبِ

فرحَّبت واستبشرت حتَّى بسطتـهُ   وتلك التي ألقى بـهـا كـلَّ آئبِ

وقال آخر:

هجمنَا عليه وهو يَكْعمُ كلبَـهُ   دع الكلب يَنْبحْ إنَّما الكلبُ نابحُ

وقال مزرِّد بن ضرار:

نشأتُ غلاماً أتَّقى الذمَّ بـالـقِرى   إذا ضاف ضيف من فَزارة راغبُ

فإن آبَ سارٍ أسمَعَ الكلبَ صوتَـه   أتى دون نَبْح الكلبِ والكلـب دائبُ

وقال بشّار بنُ برْد:

سقى اللّه القِباب بتلِّ عبدي   وبالشرقين أيَّامَ القِبـابِ

وأياماً لنا قصُرَتْ وطالتْ   على فُرعان نائمَةَ الكلابِ

وقال رجل من بني عبد اللّه بن غطفان:

إذا أنتَ لم تستَبْق وُدَّ صحـابةٍ   على دَخن أكثرت بثَّ المعاتِبِ

وإنّي لأستبقي امرأ السّوءِ عُدَّةً   لعدْوَة عِرِّيضٍ من الناس جانبِ

أخاف كلابَ الأبعدين ونبحهَا   إذا لم تجاوبْها كلابُ الأقـارب

وقال أحيحة بن الجُلاح:

ما أحْسَنَ الجيدَ من مُليكة والل   بَّاتِ إذ زانهـا تـرائبُـهـا

يا ليتني لـيلة إذا هـجـع ال   نَّاسُ ونـامَ الكلابُ صاحبُهـا

وقلتَ: وفي الكلب قذارةٌ في نفسه، وإقذاره أهله لكثرة سُلاحه وبوله، على أنّهُ لا يرضى بالسُّلاح على السطوح، حتَّى يحفر ببراثنه وينقب بأظافره، وفي ذلك التخريب.
ولو لم يكن إلاّ أنّهُ يكون سبب الوكف، وفي الوكف من منع النَّوم ومن إفساد حُرِّ المتاع، ما لا يخفى مكانه، مع ما فيه من عضِّ الصبيان وتفزيع الولدان، وشقِّ الثياب، والتعرُّض للزوّار؛ ومع ما في خلقه أيضاً من الطبع المستدعي للصبيان إلى ضربه ورجْمه وتـهييجه بالعبث، ويكون سبباً لعقْرهم والوثوبِ عليهم.
وقلت: وبئس الشيء هو في الدار، وفيها الحُرَم والأزواج، والسَّراريُّ والحظِيّات المعشوقات؛ وذلك أن ذكَره أيَرُّ ظاهر الحجم، وهو إما مُقْبَع وإمّا قائم، وليس معه ما يواريه، وربما أشَظَّ وأنعَظ بحضرتـهنَّ، ولعلّهنَّ يكنَّ مُغِيباتٍ أو محتاجاتٍ إلى ما يحتاج إليه النساءُ عند غيبة فحلهنّ، وإذا عجزَ عن أن يَعُمَّهن.
وقد قرحان وقد رمى ضابئُ بن الحارث البُرجُميُّ أمّ أناس من العرب، أنّ الكلب الذي كان يسمَّى قُرْحان، كان يأتي أمَّهم، حتَّى استعدَوا عليه، وحبسه في ذلك عثمان بنُ عفّان رضي اللّه تعالى عنه، ولولا أنّ المعنى الذي رماهم به كان مما يكون ويجوز ويُخافُ مثلُه، لَما بلغ منه عثمانُ ما بلغ، حتّى مات في حبسه، وفي ذلك يقول ضابئ ابن الحارث:

تجشَّم نَحوي وَفْدُ قُرحانَ شُقَّةً   تَظَلُّ بها الوَجناءُ وهي حَسِيرُ

فزوّدتُهم كلباً فراحوا كأنمـا   حَباهم بتَاج الهرمزان أمـيرُ

فأمَّكم لا تتركوها وكلبَكم فإنَّ عقوقَ الوالداتِ كبيرُ

إذا عَثَنَتْ من آخر الليل دُخْنة يبيت له فوقَ السرير هَريرُ

قصص تتعلق بالكلاب

وزعم اليقطريُّ أنّهُ أبصرَ رجلاً يكُومُ كلبةً من كِلاب الرعاء، ومرَّ بذلك الزُّبِّ العظيمِ في ثفرها - والثَّفرُ منها ومن السبع، كالحِرِ من المرأة والظَّبْية من الأتان والحِجر، والحياء من الناقة والشاة - فزعم أنّها لم تعقِد عليه، ولا ندري أمكّنته أم اغتصبَها نفسَها.

وأمّا النَّاس ففي مُلح أحاديثهم: أنّ رجلاً أشرفَ على رجل وقد ناك كلبةً فعقدت عليه، فبقي أسيراً مستخْزياً يدور معها حيث دارت، قال: فصاح به الرجل: اضربْ جَنبَيها، فأطلقته، فرفعَ رأسه إليه، فقال: أخزاه اللّه أيُّ نيَّاكِ كلْباتٍ هو.

وخبّرني من لا أردُّ خبره، أنّه أشرفَ من سطحٍ له قصير الحائط، فإذا هو بسَوادٍ في ظلِّ القمر في أصل حائط، وإذا أنينُ كلبة، فرأى رأسَ إنسان يدخل في القمر، ثم يرجع إلى موضعه من ظِلّ القمر، فتأمَّل في ذلك فإذا هو بحارس ينيك كلبة، قال: فرجمتُه وأعلمته أنّي قد رأيتُه، فصبَّحني من الغد يقرَع الباب عليّ، فقلت له: ما حاجتك؟ وما جاء بك؟ فلقد ظننتُ أنّك ستركب البحر أو تمضي على وجهك إلى البراري، قال: جُعِلتُ فِداك، أسألك أن تستُر عليّ، ستَرَ اللّه عليك، وأنا أتوب على يديك قال: قلت ويلَك، فما اشتهيتَ مِن كلبة؟ قال: جُعلت فداك، كلُّ رجلٍ حارسٍ ليس له زوجةٌ ولا نجل، فهو ينيك إناثَ الكلاب إذْ كنَّ عِظامَ الأجسام، قال: فقلت: فما يخاف أن تعضَّه؟ قال: لو رَامَ ذلك منها غيرُ الحارس التي هي له وقد باتتْ معه فأدخلها في كِسائه في ليالي البرد والمطر، لما تركته، وعلى أنَّه إن أراد أن يوعبه كلَّه لم تستقرّ له، قال: ونسيتُ أنْ أسألَه: فهل تعقِد على أيور النّاس كما تعقِد على أيور الكلاب؟ فلقيته بعدَ ثلاثين سنة، فقال: لا أدري لعلّها لا تعقد عليه، لأنَّهُ لا يُدْخِلُهُ فيها إلى أصله، لعلّ ذلك أيضاً إنَّما هو شيءٌ يحدث بين الكلب والكلبة، فإذا اختلفا لم يقع الالتحام، قال:فقلتُ: فطيِّبٌ هو؟ قال: قد نكْت عامَّةَ إنَاث الحيوانات فوجدتُهُنَّ كلّهنَّ أطيَبَ من النساء، قلتُ: وكيف ذلك؟ قال: ما ذاك إلاّ لشدَّة الحرارة، قال: فطال الحديث حتى أنِس فقلتُ له: فإذا دار الماء في صُلْبك وقرُبَ الفراغ؟ قال: فربَّما التزمتُ الكلبةَ وأهويَت إلى تقبيلها، ثم قال: أمَا إنَّ الكلابَ أطيبُ شيءٍ أفواهاً، وأعذَبُ شيءٍ ريقاً؛ ولكن لا يمكن أنْ أنيكها من قدَّامٍ، ولو ذهبتُ أن أنيكها من خلف وثنيتُ رأسَها إلى أنْ أقبِّلها، لم آمَنْ أنْ تظنَّ بي أني أريدُ غيرَ ذلك فتُكدِّم فمي ووجهي، قال فقلت: فإنّي أسألُك بالذي يستُرُ عليك، هل نَزَعت عن هذا العمل مُنْذُ أعطيتَني صفقة يدِك بالتَّوبة؟ قال: ربَّما حنَنتُ إلى ذلك فأحتبسُ بعهدك.

قال: وقلتُ: وإنَّك لتحنُّ إليها؟ قال: واللّه إني لأحِنُّ إليها، ولقد تَزَوَّجتُ بعدَك

امرأتين، ولي منهما رجالٌ ونساء، ومن تعوّد شيئاً لم يكد يصبرُ عنه قال: فقلت له: هل تَعرف اليومَ في الحُرّاس مَن ينيك الكلبات؟ قال: نعم، خذ محمويَه الأحمر، وخذ يشجب الحارس، وخذ قفا الشاة، وخذ فارساً الحَمّاميّ فإنّ فارساً كان حارساً وكان قيِّم حَمّام، وكان حَلَقيّاً، فزعم أنّه ناكَ الكلابَ خمسين سنة، وشاخ وهُزِلَ وقبُح وتشنَّج، حتّى كان لا يُنيكه أحد، قال: فلم يزَلْ يحتالُ لكلب عندَه حتى ناكه، قال: وكان معه بخير حتَّى قتله اللصوص، ثمَّ أشرفَ على فارسٍ، هذا المحتسِبُ الأحدبُ، وهو ينيك كلبةً فرماه بحجر فدمَغه، قال: فالكلاب كما ترى تُتَّهم بالنساءِ، وينيكها الرجال، وتنيك الرجال، وليس شيءٌ أحقّ بالنفي والإغراب والإطراد وبالقتل منها، ونحن من السباع العادِيَة الوحشيَّة في راحة، إلاّ في القرْط فإنّ لها عُراماً على بعض الماشية، وجنايةً على شرار العامَّة وكذلك البهائم، وما عسى أن يبلغ من وطْءِ بعير ونطح كبش، أو خمش سِنّورٍ أو رَمْح حمار، ولعلّ ذلك يكون في الدهر المرّةَ والمرّتين، ولعلَّ ذلك أيضاً لا ينال إلاّ عبداً أو خادماً أو سائساً، وذلك محتَمل، فالكلاب مع هذه الآفات شركاءُ الناس في دورهم وأهاليهم. قال صاحب الكلب: إنْ كنتم إلى الأذى بالسُّلاح تذهبون، وإلى قشر طِين السطوح بالبراثن تميلون، وإلى نتن السُّلاح وقذَر المأكول والمشروب تقصدون، فالسِّنَّورُ أكثر في ذلك، وقد رويتم عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك أنّه قال: هُنَّ مِنَ الطَّوّافاتِ عليكم، فإذا كان ذلك في السنانير مغتفراً، لانتفاعهم بها في أكل الفأر، فمنافع الكلاب أكثرُ، وهي بالاعتقاد أحقّ، وفي إطلاق ذلك في السنّور دليلٌ على أنّه في الكلاب أجْوَز.

وأمَّا ما ذكرتم من إنعاظه، فلعمري إنّه ما ينبغي للغَيور أن يُقيم الفرسَ ولا البرذونَ والبغلَ والحمارَ والتَّيس في المواضع التي تراها النساءُ، والكلبُ في ذلك أحسنُ حالاً، وقد كره ناسٌ إدخال منازلهم الحمامَ والدِّيكة والدجاج والبطّ خاصة؛ لأنّ له عند السفاد قضيباً يظهر، وكذلك التيس من الظباءِ، فضلاً عن تُيوس الصفايا، فهذا المعنى الذي ذكرتمْ يجري في وجوهٍ كَثيرة وعلى أنّ للحمام خاصَّةً من الاستشارة، والكَسْم بالذنب، والتقبيل الذي ليس للناس مثلُه، ثمَّ التقبيل والتغزّل والتَّنفُّش، والابتهاج بما يكون منه بعدَ الفراغ، وركوب الأنثى للذكر وعدم إمكانها لغير ذكرها، ما يكونُ أهيجَ للنساء ممَّا ذكرتم، فلم أفردتم الكلب بالذِّكر دونَ هذه الأمور، التي إذا عاينت المرأة غُرمُولَ واحدٍ منها، حقرت بعلَها أو سيِّدَها، ولم يزل ظلُّ ذلك الغرمول يعارضها في النوم، وينبِّهها ساعة الغفلة، ويُحدِث لها التمنّيَ لما لا تقدر عليه، والاحتقارَ لما تقدر عليه، وتركتم ذكر ما هو أجلُّ وأعظمُ إلى ما هو أخسُّ وأصغر؟ فإنْ كنتم تذهَبون في التشنيع عليه إلى ما يعقر من الصبيان عند العَبث والتعرُّض، والتَّحَكك والتهييج والتحريش، فلو أنّ الذي يأتي صبيانُكم إلى الكلب، من الإلحاح بأصنَاف العَبَث - والصِّبيانُ أقسى الخلْق وأقلّهم رحمةً - أنْزَلُوهُ بالأحنف ابن قيس، وقيس بن عاصم، بل بحاجب بن زُرارة وحِصن بن حُذَيفة، لخَرَجُوا إلى أقبَحَ ممَّا يخرج إليه الكلب، ومَن ترك منهم الأخذ فوق يدِ ابنه، فهو أحقُّ باللائِمة.

وبعد فما وجدْنا كلباً وثبَ على صبيٍّ فعقره مِنْ تلقاءِ نفسه، وإنّه ليتردَّد عليه وهو

في المهد، وهو لحمٌ على وضَم، فلا يشَمُّه ولا يدنو منه، وهو أكثرُ خلق اللّه تعالى تشمُّماً واسترواحاً؛ وما في الأرضِ كلبٌ يلقى كلباً غريباً إلاَّ شمّ كلُّ واحدٍ منهما استَ صاحبه، ولا في الأرضِ مَجوسيٌّ يَموت فيُحْزَن على موتِه ويحمل إلى الناوُوس إلاَّ بعد أن يُدنى منه كلبٌ يشَمُّه، فإنّه لا يخفى عليه في شمِّه عندَهم، أحيٌّ هو أم ميِّتٌ؛ للطافةِ حِسِّه، وأنّه لا يأكل الأحياءَ، فأمَّا اليهود فإنّهم يتعرَّفون ذلك من الميّت، بأن يدهُنوا استَه، ولذلك قال الشاعر وهو يرمي ناساً بدين اليهودية:

إذا مات منهم ميِّتٌ مَسَحُوا استَهُ   بدُهنٍ وحَفُّوا حَوْلَـه بـقِـرَام

جنايات الديك

وقالوا: فإذا ذكرتم جناياتٍ الكلاب، فواحدٌ من جنايات الدِّيَكة أعظمُ من جنايات الكلاب؛ لأنّ عبد اللّه بن عثمان بن عفّان، ابنَ بنت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، إنَّما مات من نقْرِ ديكٍ في دار عثمان، نقر عينه فكان سبَبَ موته، فقتْلُ الديك لِعتْرة رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، أعظمُ من كثيرٍ ممَّا تستعظمونَه من جنايات الكلاب.
وقد نقر ديكٌ عينَ ابن حَسَكة بن عَتَّاب، أو عين ابن أخته.
وقد نقر ديك عين ابن الريان بن أبي المسيح وهو في المهد فاعورّ، ثمَّ ضربته الحُمرة فمات، ووثَبَ ديك فطعن بصِيصَتِه عين بنتٍ لثُمامة بن أشرس، قال ثمامة: فأتاني الصّريخ، فو اللّه ما وصلتُ إليها حتى كَمد وجهها كلُّه واسودَّ الأنفُ والوَجْنتان وغارت العينان، وكان شأنُ هذا الديك - فيما زعم ثمامة - عجباً من العجب: ذكر أنَّ رجلاً ذكر أنَّ ديكاً عند بقَّالٍ لهم، يقاتل به الكلاب، قال: فأتيتُ البقَّال الذي عنده فسألتُه عن الديك، فزعم أنَّه قد وجَّه به إلى قتال الكلاب، وقد تراهنوا في ذلك، فلم أبرحْ حتَّى اشتَرَيْتُهُ؛ وكنتُ أصونُه وجعلته في مَكَنّة، فخرجت يوماً لبعض مصلحةٍ وأقبلت بنتي هذه لتنظر إليه، فكان هذا جزائِي منه. قال: وديكٌ آخر أقبل إلى رأس زيد بن علي، حتَّى وطئَ في ذؤابته ثمّ أقبَلَ ينقُرُ دِماغه وعينيه، فقال رجل من قريش، لمن حضر ذلك من الخدم:

اطرُدُوا الديكَ عن ذؤابة زيد   طالما كان لا تَطَاهُ الدَّجاجُ

نفع الكلب

والكلب إن كان كما يقول، فإنَّ له يداً تشجُّ وأخرى تأسُو، بل ما يدفع اللّه بحراسته ويجلب من المنافع بصيده أكثرُ وأغمر، وهو الغامر لا المغمور، والفاضل لا المفضول، والديك يفقأ العُيونَ وينقُر الأدمغة ويقتل الأنفس، ويشُجُّ ولا يأسو؛ فشرُّه صِرف وخيره ممزوج، إلاّ أنْ يزعموا أنّه يحرس من الشيطان، فيكون هذا من القول الذي يحتاج إلى البرهان، ومن عارض منافع الكلاب وحراستَها أموالَ

الناس من اللصوص، ومنعَ السِّباع من الماشية، وموضعَ نفع الكلب في المزارع - وذلك عيان ونفعه عامٌّ وخطبه عظيم - بما يُدَّعَى من حراسة الدِّيكة للشيطان، لم يكايل ولم يُوازِن ولم يَعرف المقايسة، ولا وقف قطُّ على معنَى المقابلة ودَلَّ بذلك على أنَّ مبلغَ رأيه لا يجوز رأيَ النساء.

العواء وما قيل من الشعر فيه

ويكون العُواء للكلب والذئبِ والفصيل، وقال النابغة:

ألم أكُ جارَكم فتركتموني	لِكلبي في دياركمُ عُواءُ

وقال الشاعر:

وإنّي امروٌ لا تقشَعِرٌّ ذؤابتي	من الذئب يَعوي والغرابِ المحجَّلِ

وقال الشاعر:

ومستَنْبحٍ تَستَكشِطِ الرّيحُ ثوْبَه	ليَسقُط عنهُ وهو بالثَّوب مُعْصمُ

عَوى في سوادِ الليل بعدَ اعتسافِه	لينبَحَ كلبٌ أو ليفزَعَ نُوّمُ

فجاوبَهُ مستسمعُ الصوتِ للقِرَى	له مع إتيان المُهبِّينَ مَطْعَمُ

يَكَادُ إذا ما أبصر الضيفَ مُقْبلاً	يكلّمهُ من حبِّهِ وَهوَ أعجَمُ

وقال ذو الرُّمَّة:

به الذئب محزوناً كأنَّ عواءَه	عواءُ فصيل آخرَ الليلِ مُحثِلِ

وقال آخر:

ومنهلٍ طامسة أعلامُه	يَعوي به الذئبُ وتَزقو هامُه

وقال عَقيل بن عُلّفة يهجو زبَّان بن منظور:

لا باركَ اللّهُ في قومٍ يسودهمُ	ذئبٌ عَوى وهو مشدود على كُورِ

لم يبقَ من مازنٍ إلاّ شرارُهُم	فوقَ الحصَى حولَ زبّان بن منظور

وقال غَيلان بن سلمة:

ومعرِّس حين العشاء بـه　　　الحبس فالأنواء فالعقـل

قد بثَّه وهنـاً وأرّقنـي　　　ذئب الفلاةِ كأنّـه جِـذلُ

فتركته يعوي بقفرتِـه　　　ولكلِّ صاحِب قفرةٍ شكلُ

بتَنُوفةٍ جرداءَ يجزعـها　　　لَحِب يلوحُ كأنّه سَحْل

وقال مغلّس بن لقيط:

عوى منهُمُ ذئبٌ فطرَّب عـادياً　　　على فعليات مُسْتَثارِ سخيمـها

إذا هُنَّ لم يلحَسْنَ من ذي قرابةٍ　　　دماً هُلِستْ أحسادُها ولحومُها

وقال الأحيمِرُ السعديُّ:

عوى الذئبُ فاستأنستُ بالذئبِ إذ عوى

وصوَّتَ إنسان فكِدتُ أطيرُ وقال آخر:

وعاوٍ عَوى واللّيْلُ مستحلس الندى　　وقد زَحَفَتْ للغور تالية النَّـجمِ

وذلك أنّ الرجلَ إذا كانَ باغياً أو زائراً، أو ممَّن يلتمِس القرَى، ولم ير بالليل نَاراً، عوى ونبح، لتجيبَه الكلاب، فيهتدي بذلك إلى موضع الناس.
وقال الشاعر:

ومُستَنبحٍ أهلَ الثَّرى يَلمَس القِرى　　إلينا وممساه من الأرض نازح

وقال عمرو بن الأهتم:

ومستنبح بعد الـهدُوِّ دعوتُـه　　وقد حانَ من ساري الشِّتاءِ طروق

فهذا من عواء الفصيل والذئب والكلب.

ما قالوا في أنس الكلب وإلفه

وقال صاحب الكلب: وممّا قالوا في أنْس الكلب وإلفه، وحبِّه لأهله ولمن أحسَنَ إليه قول ابن الطّثريّة:

يا أُمَّ عمرِو أنجِزي الموعودا   وارعَيْ بذاكِ أمانةً وعُهُودا

ولقد طرقت كلابَ أهلِكِ بالضُّحَى   حتَّى تركتُ عُقُورَهُنَّ رُقُودا

يضرِبْنَ بالأذنابِ مِن فرحٍ بنا   متوسِّداتٍ أذرُعاً وخدودا

وقال الآخر:

لو كُنْتُ أحمِلُ خمراً يومَ زرتُكم   لم يُنكِرِ الكلبُ أنِّي صاحب الدَّارِ

لكنْ أتيتُ وريحُ المِسكِ يفعمني   والعنبرُ الورْدُ أذكيه على النارِ

فأنكر الكلب ريحي حين أبصرني   وكان يعرف ريح الزِّقِّ والقارِ

وقال أبو الطّمَحان القينيّ في الإلف، وهو يمدح مالك بن حمار الشَمْخي:

سأمدَحُ مالكاً في كلِّ رَكب   لقيتُهمُ وأتركُ كلَّ رَذْلِ

فما أنا والبكارَةُ من مخاضٍ   عِظامٍ جِلَّةٍ سُدُسٍ وبُزْلِ

وقد عرَفَتْ كلابُهمُ ثيابي   كأنِّي منهمُ ونسيتُ أهلي

نمَتْ بك من بني شَمْخٍ زِنَادٌ   لها ما شئتَ مِن فرعٍ وأصلِ

وقال الشاعر في أنَس الكلاب وإلفها، يذكر رجلاً:

عنيف بتَسْواق العِشارِ ورَعْيِها   ولكنْ بتَلْقامِ الثَّريدِ رفيقُ

سَنِيد يظلُّ الكلب يمضَغْ ثوبَه   له في ديارِ الغانياتِ طريق

وقال الآخر:

باتَ الحويرثُ والكلابُ تَشَمُّه   وسَرت بأبيضَ كالهلالِ على الطَّوَى

وقال ذو الرمة:

رأتني كلابُ الحي حتَّى أَلِفْنَنـي ومُدَّت نُسوج العنكبوت على رحلي

وقال حسَّان بن ثابت:

أولاد جَفْنَة حولَ قبرِ أبيهمُ قبر ابْنِ مارية الكريمِ المُفْضِلِ

بيض الوجوهِ نقيَّةٌ حُجزاتُـهـمْ شمُّ الأنُوفِ من الطَّراز الأوَّلِ

يُغشَوْنَ حتَّى ما تَهِرُّ كلابـهم لا يَسألونَ عن السّوادِ المقبلِ

وفي هذا المعنى قال الشاعر:

وبوَّأتِ بيتك في مَعلمٍ رَحِيب المَبَاءةِ والمسْرح

كفيتَ العُفاةَ طِلاَبَ القِرَى ونَبْحَ الكلاب لمستَنْبِـح

تَرَى دَعْس آثار تلك المطيِّ أخادِيدَ كاللَّـقمِ الأفيَح

ولو كنْتَ في نـفق زائغ لكُنْتَ على الشرك الأوضَح

وفي مثل ذلك، وليس في ذكر إلف الكلاب، ولكِنَّه مما ينبغي أن يكون مجموعاً إلى هذه الأشعار، وبك إلى ذلك حاجة شديدة، قال أميَّةُ بنُ أبي الصَّلْت:

لا الغياباتُ مُنتواكَ ولكنْ في ذُرَى مُشْرفِ القُصورِ ذرَاكا

وقال البزَّار الحلِّيّ، في المعنى الأول:

ألِفَ الناسَ فما ينبَحُهُمْ مِنْ أسيف يبتغي الخيرَ وحُرّ

وقال عِمران بن عصام:

لِعَبْدِ العزيزِ على قومِه وغيرِهِمُ مِنَنٌ غامِرَهْ

فبابك ألينُ أبوابهم ودارُك آهلةٌ عامرهْ

وكلبُك آنس بالمعتفِين من الأمِّ بابنتها الزّائره

وكفُّك حين ترى السائلي ن أندَى من اللّيلةِ الماطرهْ

فمِنك العَطاءُ ومنّا الثّنَاءُ بكلِّ محبَّرةٍ سائرهْ

وقال هلال بن خثعم:

إنّي لَعَفٌّ عن زيارة جارَتي وإنّي لَمشْنوءٌ إليّ اغتيابُها

إذا غابَ عنها بعلها لم أكنْ لها زَوُوراً ولم تأنَسْ إليَّ كلابُها

وما أنَا بالدَّاري أحاديثَ سِرِّها ولا عالِمٍ مِنْ أيِّ حوكٍ ثِيابُها

وإنّ قِرَابَ البطنِ يكفيك ملؤهُ ويَكفيك سوءَات الأمور اجتنابُها

وقال حاتم الطائي، وهو حاتم بن عبد اللّه، ويكنى أبا سَفّانة، وكان أسره ثوب ابن شَحمة العنبريّ مُجير الطير:

إذا ما بخيلُ النّاس هَرَّتْ كلابُه وشَقَّ على الضّيفِ الغريبِ عَقُورُها

فإنّي جبانُ الكلب بيتي موطَّأٌ جَواد إذا ما النّفسُ شَحَّ ضميرُها

ولكن كلابي قد أُقِرَّت وعُوِّدت قليل على مَن يعتريها هَريرُها

هجو الناس بهجو كلابهم

وقال صاحب الكلب: إنّ كثيراً من هجاءِ الكلب، ليس يراد به الكلب، وإنَّما يراد به هِجَاءُ رجلٍ، فيجعل الكلب وُصلةً في الكلام ليبلغ ما يريدُ من شتمه، وهذا أيضاً مما يرتفق الناسُ به من أسباب الكلاب، ولذلك قال الشاعر:

مِن دونِ سَيبك لونُ ليل مظلمٍ وحَفيف نافجةٍ وكلب مُوسَدُ

وأخوكَ محتمل عليك ضغينة ومُسِيفُ قومِك لائم لا يَحمَدُ

والضّيفُ عِنْدَكَ مثلُ أسودَ سالخ لا بلْ أحبُّهما إليك الأسودُ

فهذا قول الشاعر، وقال الآخر:

وما يكُ فيَّ مِن عيبٍ فإنِّـي جَبَانُ الكلبِ مَهْزولُ الفصيلِ

فهو لم يردْ مدحَ الكلب بالجبن، وإنَّما أراد نفسه حين قال:

وحفيف نافجة وكلب موسد

فإن كان الكلبُ إنما أسرَه أهلُه، فإنَّما اللوْم على من أسرَه، وإنما هذا الضَّرب كقوله:

قوم إذا استنبَحَ الأضيافُ كلبهمُ قالوا لأمِّهمُ بُولي على النَّارِ

ومعلوم أنّ هذا لا يكون، ولكن حقَّر أمرهم وصغَّرهم.
وقال ابن هَرْمة:

وإذا تنوَّرَ طارق مستنبح نبحَتْ فدَلَّتْهُ عليّ كلابي

وقال ابن مهية:

جلَبنا الخيلَ من شُعَبَى تَشَكَّى حوافِرَها الدوابرَ والنُّسورا

فلما أنْ طلَعن بعين جعدي وأهل الجوف أن قتلوا غرورا

ولم يكُ كلبُهم ليفيق حتَّى يُهارشَ كلبُهم كلباً عَقورا

ومعلوم أنَّ هذا لا يكون، إنما هو مثل، وقال أعرابيّ:

أخو ثقةٍ قدْ يحسبُ المجدَ فُرصة إلى أهله أو ذِمَّةَ لا تُخَفَّرُ

حبيبٌ إلى كلبِ الكريم نباحُه كريةٌ إلى الكوماءِ والكلبُ أبصَرُ

وقال ابن هَرْمة:

وفرحة من كلابِ الحيِّ يتبَعُها شَحمٌ يَزفُّ به الداعِي وتَرعِيبُ

فهذا قول هؤلاءِ، وقال الآخر:

هَجَمْنَا عليه وهو يَكعَمُ كلبَه دَعِ الكلبَ يَنْبَحْ إنَّما الكلبُ نابحُ

وقال الآخر:

وتَكْعَم كلبَ الحيِّ مِن خَشيةِ القِرى ونـارُكَ كالعَذْراءِ مِنْ دُونـها سِتْـرُ

وقال أعشى بني تغلب:

إذا احتلَّت معاوية بن عمرو على الأطواء خَنَّقتِ الكلابا

فالكلب مرَّةً مكعوم، ومرّة مخنوق، ومرّة مُوسَد ومحرَّش،ومرةً يجعله جباناً، ومرّةً وثّاباً، كما قال الراعي في الحطيئة:

ألاَ قبَّحَ اللّـه الـحـطيئة إنّـه على كلِّ ضيفٍ ضافه فهو سالحُ

وقعنا إليه وهو يخنقُ كـلـبَـه دَع الكلبَ ينبَحْ إنّما الكلبُ نـابـحُ

وقال أعشى بني تغلب:

بكَيْتَ على زادٍ خبيثٍ قريتَـه ألا كلُّ عَبْسيٍّ على الزادِ نـابحُ

وقال الفرزدق:

ولا تنزع الأضياف إلاّ إلى فتًى إذا ما أبَى أن ينبَحَ الكلبُ أوقدا

وقال الآخر:

دَع الكلبَ ينبَحْ إنَّما الكلبُ نـابحُ

وقال الآخر:

ألا كلُّ كلبٍ لا أبا لَكَ نـابحُ

وقال الفرزدق:

إذا ما أبى أن ينبَحَ الكلبُ أوقدَا

ومتى صار الكلب يأبى النباح؟ فهذا على أنّهم يتشقّون بذكر الكلب، ويرتَفِقُونَ به، لا على أنّ هذا الأمرَ الذي ذكروه قد كانَ على الحقيقة: وقال الآخر، وهو جرير:

ولو كنت في نَجْرَانَ أو بعَمَايةٍ إذن لأتاني من رَبيعة راكبُ

يُثير الكلابَ آخرَ اللَّيلِ وَطوُه كضَبِّ العَرادِ خَطْوُه متقاربُ

فباتَ يُمنِّينَا الربيعَ وصَوْبَه ويَنْظُرُ من لُقَّاعةٍ وهو كاذب

فذكر تقارُبَ خطوه، وإخفاءَ حركته، وأنَّه مع ذلك قد أثار الكلاب من آخر الليل، وذلك وقت نومها وراحتها، وهذا يدلُّ على تيقُّظها ودِقَّة حسِّها.
وفيما ذكروا مِن حالة الكلب لسبب القرى من البرد، والذي يلقى، وكيف الشأن في ذلك، قال أعشى باهلة:

وأجْحَرَ الكلبَ مُبْيَضٌّ الصَّقِيع بهِ وألجأ الحيَّ من تنفاحه الحُجَرُ

وقال الحطيئة:

إذا أجْحر الكلبَ الصَّقِيعُ اتَّقَيْنَه بأثباج لا خُورٍ ولا قفِراتِ

وقال ابن هَرْمة:

وسل الجارَ والمعصِّب والأض ياف وَهْناً إذا تحبَّوْا لديّا

كَيف يَلْقوْنَني إذا نبَحَ الكل ب وراءَ الكُسُورِ نَبْحاً خَفِيّا

ومَشَى الحالبُ الْمُبسُّ إلى النَّا بِ فلم يَقرِ أصفرَ الحيّ ريّا

لم تَكُنْ خارجيَّة من تراثٍ حادثٍ، بل وَرِثتُ ذاكَ عَليَّا

وقال الأعشى:

وتَبرُد بَرْدَ رداءِ العَرو س في الصَّيْفِ رَقرقتَ فيه العبيرا

وتسخن ليلة لا يستَطي عُ نُباحاً بها الكلب إلا هريرا

وقال الهذلي:

وليلةٍ يَصطلي بالفَرثِ جازرُها يختصُّ بالنَّقرى المُثرينَ داعيها

لا ينبَحُ الكلبُ فيها غيرَ واحدةٍ   من الشِّتاءِ ولا تَسري أفاعيها

وقال الفرزدق:

إذا احمرَّ آفاقُ السَّماءِ وهَتَّكَت   كُسُورَ بَيوتِ الحيِّ نَكْباءُ حرْجَفُ

وجَاءَ قَرِيعُ الشَّوْلِ قبلَ إفالِها   يَزِفُّ وجاءَتْ خَلفَه وهي زُحَّفُ

وهتَّكَتِ الأطنابَ كلُّ ذِفرَّةٍ   لها تامكٌ من عاتق النَّيِّ أعرَفُ

وباشرَ راعيها الصَّلَى بلبانه   وكَفٍّ لحرِّ النار ما يتحرّفُ

وقاتلَ كلبُ الحيِّ عن نار أهلِه   ليربض فِيها والصِّلا متكنَّفُ

وأصبَحَ مبيَضٌّ الصَّقيع كأنّه   على سَرَوات النِّيبِ قُطْن مُندَّفُ

الجزء الثاني

احتجاج صاحب الكلب بالأشعار المعروفة

والأمثالِ السَّائرة والأخبار الصحيحة والأحاديث المأثورة، وما أوجد العيان فيها، وما استخرجت التجاربُ منها من أصناف المنافع والمرافق، وعن مواضع أخلاقها المحمودة وأفعالها المرادة.

ونبدأ بقول العرب: إنَّ دماءَ الملوك شفاءٌ من داء الكلب، ثُمَّ نذكر الأبواب لما قدَّمنا في صدر كلامنا هذا، قال بعض المُرِّيِّين:

أرَى الخلاّنَ بعد أبى عمير بحجْرِ في لقائهمُ جَفاءُ

منَ البيضِ الوُجوهِ بني سنان لوَ أنَّكَ تستضيئ بهم أضاءوا

لهم شمسُ النَّهار إذا استقّلت ونُورٌ ما يغيِّبُه العَماءُ

بُناةُ مَكارمٍ وأساةُ كَلمٍ دِماؤهمُ مِنَ الكلَبِ الشفاء

وقال الفرزدق:

مِنَ الدارميِّين الذين دِماؤهم شِفاءٌ من الدَّاء المجنّة والخبْلْ

وقال عبدُ اللّه بنُ قيس الرّقيَّات:

عاوَدَني النُّكسُ فاشتفيت كما تَشفي دِماء الملُوكِ من كَلَبِ

وقال ابن عَيَّاش الكنديُّ لبني أسَد في قتلهم حُجْرَ بنَ عمرو:

عبيد العصا جئتمْ بقتلِ رئيسكمْ تُريقون تاموراً شفاءً من الكلَبْ

وقال الفرزدق:

ولو تَشربُ الكَلْبى المِرَاضُ دماءَنا شَفَتْها وذو الخَبْلِ الذي هو أدْنَفُ

وذاك أنَّهمْ يزعمون أنَّ دماءَ الأشراف والملوك تَشفي من عَضَّةِ الكلْبِ الكلَبِ، وتَشفي من الجنون أيضاً، كما قال الفرزدق:

ولو تشربُ الكَلْبَى المِرَاضُ دماءنا شفــتــهــا

ثم قال: وذو الخَبْلِ الذي هو أدْنَفُ وقد قال ذلك عاصم بن القِرِّيَّة، وهو جاهليّ:

وداويتُهُ مما بهِ من مَجَنةٍ دمَ ابن كُهالِ والنِّطاسيُّ واقفُ

وقلَّدْتُه دهراً تميمة جَدِّه وليس لِشيءٍ كادَهُ اللَّهُ صارفُ

وكان أصحابنا يزعُمون أنَّ قولهم: دماء الملوك شفاءُ من الكلب، على معنى أنَّ الدَّم الكريم هو الثأرُ المُنيم، وأنَّ داء الكلب على معنى قول الشاعر:

كَلِبٌ مِن حِسِّ ما قد مسَّهُ وأفانين فُؤاد مُخْتَبلْ

وعلى معنى قوله:

كَلِبٌ بِضرْبِ جَماجِمِ ورقابِ

فإذا كَلِبَ من الغيظ والغضب فأدرك ثأره فذلك هو الشفاء من الكلَب، وليس أنَّ هناك دماً في الحقيقة يُشربُ ولولا قول عاصم بن القرِّيَّة: والنِّطاسيُّ واقفُ، لكان ذلك التأويلُ جائزاً، وقول عوف بن الأحوص:

ولا العنقاء ثعلبة بن عمرو دِماءُ القومِ للكَلْبَى شِفاءُ

وفي الكلب يقول الأعشى:

أراني وعَمْراً بيننا دَقُّ مَنْشِمِ فلم يبق إلاَّ أنْ يُجَنَّ وأكلبا

ألا ترى أنَّه فرَّق بينهما، ولو كان كما قال لبيد بن ربيعة:

يَسْعَى خُزيمةُ في قومٍ ليهلكهمْ على الحمالة هل بالمرء مِن كلَبِ

لكان ذلك على تأويل ما ذهبوا إليه جائزاً، وقال الآخر:

وأمْرَ أميري قد أطعتمْ فإنَّ ما كَواه بَنارٍ بينَ عينيه مُكلبُ

وهذا عندي لا يدخل في الباب الأوَّل، وقد جعلوه منه.

طباع الكلب العجيبة

قال صاحبُ الكلب: وزعمتم أنّه يبلغُ من فضل قوَّة طباع الدِّيك في الإلقاح، أنَّه متى سفد دجاجة وقد احتشت بيضاً صغاراً من نتاج الرِّيح والتراب، قلبها كلَّها حيواناً ولو لم يكنْ سفِدها إلاَّ مرَّةً واحدة، وجعلتموه في ذلك بغاية الفِحْلة، فطباعُ الكلب أعجبُ إلقاحاً وأثقبُ، وأقوى وأبعد، لأنَّ الكلبَ إذا عضَّ إنساناً، فأوَّل ذلك أنْ يُحيله نبَّاحاً مثله، وينقلَه إلى طباعه، فصار ينبح، ثم يُحبله ويُلقحه بأجراءٍ صغار يَبولُها عَلَقاً في صُوَر الكلاب، على بُعد ما بين العُنصرين والطَّبعين والجنسين، والذى يتولَّد في أرحام الدجاج، أقرب مشاكلة إلى طباع الديك، فالكلب هو العجب العجيب، لأنَّه أحبَلَ ذكراً من خِلاف جنسه، ولأنّه مع الإحبال والإلقاح، أحاله نبَّاحاً مثله، فتلك الأدراص وتلك الكلاب الصغار، أولادٌ ونتِاج، وإن كان لا يبقى.
وقد تعلمون أنَّ أولادَ البغْلات من البغال لا تبقى، وأن اللّقاح قد يقع، وإنما مُنع البغل من البغلة بهذه العلَّة.

أسرة تتوارث دواء الكلب

قال أبو اليقظان وغيره: كان الأسود بن أوس بن الحُمَّرة، أتى النَّجاشيَّ ومعه امرأته، وهي بنت الحارث أحد بني عاصم بن عبيد بن ثعلبة، فقال النجاشيُّ: لأعطينَّك شيئاً يشفي من داء الكلب، فأقبَلَ حتَّى إذا كان ببعض الطريق أتاه الموت، فأوصى امرأته أن تتزوَّج ابنه قِدامة بنَ الأسود، وأن تعلّمه دواء الكلَب، ولا يخرُج ذلك منهم إلى أحد، فتزوَجته نِكاح مَقْت، وعلّمته دواء الكلب، فهو إلى اليوم فيهم.
فوَلَدَ الأسود قُدامة وولد قُدامة المُحِلَّ وأمُّه بنت الحارث فكان المحِلُّ يُداوي من الكلَب، فولد المحلّ عُقبة وعمراً، فداوى ابنُ المحلُ عُتيبة بن مرداس، وهو ابن فَسوة الشاعر، فبال مثلَ أجراء الكلب عَلَقاً، ومِثل صوُر النَّمْل والأدراص فقال ابن فسوْة حين برئَ:

ولولا دواءُ ابنِ المُحِلِّ وعلمُـه هَرَرتُ إذا ما النَّاس هَرَّ كلابهُا

وأخرج عبد الـلَّـه أولاد زارع مُوَلَّعَة أكتافها وجنـوبُـهـا

وأولاد زارع: الكلاب.
وأمَّا قوله:

ولولا دواء ابن المُحِلِّ وعلمه هررتُ

فإنَّما ذهبَ إلى أنَّ الذي يَعَضُّه الكلْبُ الكلِبُ، ينبح نباح الكلاب ويَهرُّ هريرها.

أعراض الكَلَب

وقال محمَّد بن حفص، وهو أبو عبيد اللَّه بن محمد، ابن عائشة: عضّ رجلاً من بَني العَنْبرِ كلبٌ كلب فأصابه داءُ الكلب، فبال عَلَقاً في صورةِ الكلاب، فقالت بنت المستَنْثر:

أبا لكَ أدراصاً وأولادَ زارع وتلكَ لعمْري نُهيَةَ المتعَجِّبِ

وحدَّثني أبو الصَّهباء عن رجالٍ من بني سعد، منهم عبد الرحمن بن شبيب، قالوا: عضّ سنجيرَ الكلبُ الكلِب، فكان يعطشُ ويطلُبُ الماء بأشدِّ الطلب، فإذا أتوه به صاح عند معاينته: لا، لا أريد، وهكذا يصيب صاحبَ تلك العضّة، وذلك أنَّه يعطش عنها أشدّ العطش ويطلب الماء أشدَّ الطلب، فإذا أتوه به هرَب منه أشدَّ الهرب، فقال دَلَم وهو عبدٌ لبني سعد:

لقد جئت يا سنجير أجلو ملقة إباؤك للشيء الذي أنت طالب

وهي أبياتٌ لم أحفظ منها إلاَّ هذا البيت.
وذكر مَسْلَمَة بن محارب، وعليُّ بن محمَّد عن رجاله، أنَّ زياداً كتب دواء الكلب، وعلَّقه على باب المسجد الأعظم، ليعرفه جميع الناس.

ردّ على ما زعموا من أعراض الكلب

وأنا، حفظك اللَّه تعالى، رأيتُ كلباً مرّةً في الحَيِّ ونحنُ في الكتَّاب، فعرض له صبيٌّ يسمّى مهديّاً من أولاد القصّابين، وهو قائم يمحو لَوحهُ فعضّ وجهه فنقع ثنيَّته دونَ موضع الجفن من عينه اليسرى، فخرق اللحمَ الذي دون العظم إلى شطر خدّه، فرمى به ملقيَّاً على وجهه وجانبِ شِدقه؟ وترك مُقلتَه صحيحة، وخرج منه من الدّم ما ظننتُ أنَّه لا يعيش معه، وبقي الغلامُ مبهوتاً قائماً لا ينبس، وأسكته الفزع وبقي طائر القلب، ثمَّ خيط ذلك الموضعُ، ورأيته بعد ذلك بشهر وقد عاد إلى الكُتَّاب، وليس في وجهه من الشَّتَّر إلا موضعُ الخيط الذى خيط، فلم ينبَحْ إلى أن برئَ، ولا هرَّ، ولا دعا بماءٍ، حتَّى إذا رآه صاح: رُدُّوه ولا بال جرواً ولا عَلَقاً، ولا أصابه ممَّا يقولون قليل ولا كثير، ولم أجدْ أحداً من تلك المشايخ، يشكُّ أنَّهم لم يَروا كلباً قطُّ أكْلَبَ ولا أفسَدَ طبعاً منه، فهذا الذي عاينت.
وأما الذي بلغني عن هؤلاء الثقات فهو الذي قد كتبتُه لك.

مما قيل في الكلب الكلِب

وفي الكَلْبِ الكَلِبِ أنشد الأعرابي:

حيَّاكُم اللَّه فإنِّي منقلبْ وإنّما الشاعر مجنون كلبْ

أكثر ما يأتي على فيه الكَذبْ

إما أن يكون الشعر لِهمْيان وإما أن يكون للزَّفيان، وأنشدني:

فإن كنتُم كَلْبى فعندي شفاؤكم   وفي الجنِّ إن كانَ اعتراك جُنونُ

وأنشدني:

وما أدري إذا لاقيتُ عَمْراً   أكَلْبَى آلُ عمرو أمْ صِحاحُ

قال: فأما المُكلب الذي يصيبُ كلابَه داءٌ في رُؤُوسها يسمَّى الجُحام فتُكْوى بين أعينها،

مسألة كلامية

وسنذكر مسألة كلاميَّة، وإنَّما نذكرها لكثرة من يعترض في هذا ممَّن ليس له علم بالكلام، ولو كان أعلمُ الناس باللغة، لم ينفعك في باب الدين حتَّى يكون عالماً بالكلام، وقد اعترض معترضون في قوله عزّ وجل: "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبأ الَّذي آتيناهُ آياتنا فانسلخَ منها فأتبعه الشيطانُ فكَانَ من الْغاوين، ولَوْ شئنا لَرَفعناهُ بِهَا ولَكنَّهُ أخْلَدَ إلى الأرض واتَّبَع هَوَاهُ فمثُلهُ كمثل الكلب إنَ تحمِلْ عَلَيه يَلهثْ أو تَتْركْهُ يلهثْ ذلك مَثَلُ القومِ الَّذين كذَّبوا بآياتنا" فزَعَموا أنَّ هذا المثلَ لا يجوزُ أن يُضرَب لهذا المذكور في صدر هذا الكلام، لأنه قال: "وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنا فانْسَلَخَ مِنْهَا"، فما يُشبَّه حالُ من أعطي شيئاً فلم يقبله - ولم يذكر غير ذلك - بالكلب الذي إن حملتَ عليه نبح وولى ذاهباً، وإن تركته شدَّ عليك ونبح، مع أنّ قوله: يلهث، لم يقع في موضعه، وإنما يلهث الكلب من عَطَشٍ شديد وحرٍّ شديد، ومن تعب، وأما النُّباح والصِّياح فمن شيء آخر، قلنا له: إن قال "ذلكَ مَثَلُ القَومِ الَّذين كذَّبوا بآياتنا"، فقد يستقيم أن يكون الرادّ لا يسمَّى مكذباً، ولا يقال لهم كذَّبوا إلا وقد كان ذلك منهم مراراً، فإن لم يكن ذلك فليس ببعيد أن يشبَّه الذي أوتي الآيات والأعاجيب والبرهانات والكرامات، في بدء حرصه عليها وطلبه لها، بالكلب في حرصه وطلبه، فإنَّ الكلبَ يُعطي الجِدَّ والجُهْد من نفسه في كلِّ حالةٍ من الحالات، وشبَّه رفضه وقذفه لها من يديه، وردَّه لها بعد الحرص عليها وفرط الرغبة فيها، بالكلب إذا رجع ينبح بعد إطرادك له، وواجبٌ أن يكون رفض قبول الأشياء الخطيرة النفيسة في وزن طلبهم والحرصِ عليها، والكلب إذا أتعب نفسه في شدَّة النُّباح مقبلاً إليك ومدبراً عنك، لهث واعتراه ما يعتريه عند التَّعب والعطش، وعلى أنَّنا ما نرمي بأبصارنا إلى كلابنا وهي رابضةٌ وادعة، إلا وهي تلهث، من غير أن تكون هناك إلا حرارة أجوافها، والذي طُبعت عليه من شأنها، إلا أنَّ لهث الكلب يختلف بالشدَّة واللِّين.

كرم الكلاب

وقال صاحب الكلب: ليس الدِّيك من الكلب في شيء، فمن الكلاب ذواتُ الأسماء المعروفة والألقاب المشهورة، ولكرامها وجوارحها وكواسبها، وأحرارها وعتاقها، أنسابٌ قائمةٌ ودواوينُ مخلّدة، وأعراقٌ محفوظة، ومواليد مُحصاة، مثل كلب جذعان، وهو السَّلْهبُ بن البراق بن يحيى بن وثّاب بن مظفّر بن مُحارش.

شعر فيه ذكر أسماء الكلاب

وقد ذكر العرب أسماءَها وأنسابها، قال مزرِّد بن ضرار:

فعَدّ قريضَ الشّعر إن كنت مُغْزراً فإن غزير الشعر ما شاء قائل

لنعت صبُاحيٍّ طويل شقاؤه له رَقميَّات وصَفراءُ ذابل

بَقينَ له مما يبرّي وأكلبٍ تَقلْقلُ في أعناقهنّ السَّلاسلُ

سُخامٌ، ومِقلاء القنيص، وسلْهبٌ وجدْلاءُ، والسَّرْحان، والمتناولُ

بنات سلُوقِيَّين كانا حياته فماتا فأودى شخصُه فهو خاملُ

وأيقن إذْ ماتا بجُوع وخَلّةٍ وقال لَهُ الشّيطانُ: إنّك عائلُ

فطوّفَ في أصحابه يستثيبهمْ فآب وقد أكْدتْ عليه المسائلُ

إلى صبيةٍ مثل المغالي وخِرملٍ رَوادٍ، ومن شرِّ النساء الخراملُ

فقال لها: هَل من طعامٍ فإنّني أذمُّ إليك الناسَ، أمُّكِ هابلُ

فقالتْ :نَعمْ، هذا الطَّويُّ وماؤه ومُحتَرقٌ من حائل الجلد قاحِلُ

فلما تناهتْ نفسُه مِن طعامِه وأمسى طليحاً ما يُعانيه باطلُ

تَغشَّى، يريدُ النّوم، فضل ردائه فأعيا على العينِ الرُّقاد البلابلُ

ففكِّرْ في هذا الشعر وقِفْ على فصوله، حتى تعرف غناء الكلاب عندهم، وكسبها عليهم، وموقعها منهم، وقال لبيدٌ في ذكرها وذكر أسماءَها:

لتذودهنَّ وأيقنتْ إن لم تَذُدْ أنْ قد أحمَّ مِنَ الحتوفِ حمامُها

فتقصَّدتْ منها كَسابِ وضرِّجت بدمٍ وغُودِرَ في المَكَرِّ سُخامُها

عادة الشعراء حين يذكرون الكلاب

والبقر في شعرهم

ومن عادة الشعراء إذا كان الشعرُ مَرثيةً أو موعظةً، أن تكون الكلابُ التي تقتلُ بقرَ الوحش، وإذا كان الشعر مديحاً، وقال كأنّ ناقتي بقرة من صفتها كذا، أن تكون الكلابُ هي المقتولة، ليس على أنَّ ذلك حكاية عن قصّة بعينها، ولكنَّ الثِّيران ربَّما جرحت الكلاب وربَّما قتلتها، وأما في أكثر ذلك فإنَّها تكون هي المصابة، والكلاب هي السالمة والظافرة، وصاحبها الغانم،

شعر آخر فيه ذكر لبعض أسماء الكلاب

وقال لبيدٌ في هذا القول الثاني غير القول الأول، وذلك على معنى ما فسّرت لك، فقال في ذلك وذكر أسماءها:

فأصبح وانشقَّ الضَّبَابُ وهاجه أخُو قفرةٍ يُشْلِى رِكاحاً وسائلا

عوابسَ كالنُّشَّاب تدمَى نحورُها يريْن دماءَ الهاديات نوافلا

ومن أسمائها قولهم: على أهلها جنتْ براقش، ومن أسمائها قول الآخر: ضبَّار:

سفَرتْ فقلت لها هَجٍ فتبرقعَتْ فذكرْتُ حينَ تبرقعتْ ضَبَّارا

وقال الكُميت الأسديّ:

فبات وباتتْ عليه السَّما ءُ من كلِّ حابيةٍ تَهْطُلُ

مُكِبًّا كما اجتنح الهالكيّ على النّصْل إذ طُبع المنْصُلُ

ثم ذكر أسماء الكلاب فقال:

وفي ضِبْن حِقفٍ يرى حِقْفَه خَطافِ وَسرْحَةُ والأحْدلُ

وأربعة كقِداح السَّرا ء لا عانياتٌ ولا عُبَّلُ

وقال الآخر:

بتنا وباتَ جليد اللَّيل يَضـربـنُـا بينَ البُيوتِ قِرَانا نبْـح درواسِ

إذا مَلاَ بطنَه ألبانهـا حَـلَـبـاً باتَتْ تغنِّيه وضِرْىَ ذاتُ إجراسِ

ودرواس: اسم كلب، والوضرى: استه، وغناؤها: الضُّراط، وقال ضابئ بنُ الحارثُ في ذلك:

فترمّلَت بـدمٍ قـدامِ وَقـدْ أوفى اللَّحاقُ وحانَ مصرعه

وقال الآخر:

ولو هيّا له الـلَّـه من التوفيق أسبابا

لسمَّى نفسَه عَمراً وسمَّى الكلبَ وثَّابا

ومثل هذا كثير.

أحرص الكلاب

والكلبُ أشدُّ ما يكون حرصاً إذا كان خطمُهُ يمسّ عجْبَ ذنب الظَّبي والأرنب والثَّور وغير ذلك، مما هو من صيده، ولذلك قال الشاعر:

ربَّما أغدو مَعي كلبـي طالباً للصيّد في صحبي

فسمَونا للقنيص مـعـاً فدفعنـاهُ إلـى أظـبِ

فاستدرَّتْه فدرَّ لـهـا يَلْطمُ الرُّفْغين بالتُّـرب

فادَّراها وَهْـيَ لاهـيةٌ في جميم الحاج والغَرْب

ففرى جُمَّاعهـنَّ كـمـا قُدَّ مخلولان من عَصبِ

ثم قال:

غير يعفورٍ أهلّ بـه جاف دَفَّيهِ عن القلْـب

ضمّ لَحْيَيهِ بمخْطِمِـهِ ضَمَّك الكسرَين بالشعبِ

وانتحى للباقياتِ كما كَسَرتْ شَغْواءُ من لهْبِ

فتعايا التَّيسُ حين كبَا ودنا فُوهُ من العَجْبِ

ظَلَّ بالوعساء ينقُضه آرماً منه على الصُّلْبِ

تلكَ لذَّاتي وكنتُ فتًى لم أقلْ من لذّةٍ حسبي

الإهلال والاستهلال وأما قوله: غير يعفور أهلَّ به، فالإهلال الذي ذكر هو شيءٌ يعتريه في ذلك الوقت، يخرج من جوفه صوتٌ شبيه بالعُواء الخفيف، وهو ما بين العواء والأنين، وذلك من حاق الحرص، وشدَّة الطلب، وخوف الفوات، ويقال: أهلّت السماءُ، إذا صبَّت، واستهلت: إذا ارتفع صوت وقعها، ومنه الإهلال بالحج، وقال ابن أحمر:

يُهلُّ بالفرقد رُكبانُها كما يُهلُّ الراكبُ المعتمِرْ

ومنه استهلال الصبي، ولذلك قال الأعرابيُّ: أرأيت من لا شرب ولا أكل ولا صاح واستهل، أليس ذلك يُطلّ ؟

تخريق الكلب أذنيه

وإذا ضبَع الكلبُ، وهو أن يمدَّ ضبْعه كلَّه، ولا يكون كالحمار الضيِّق الإبطيْن - والكلبُ في افتراش ذراعيه وبسط رجليه حتَّى يصيب قصُّه الأرض، أكثر من الفرس- وعند ذلك ما يَنْشط أذنيه حتَّى يدميهما ولذلك قال الحسن بن هانئ، وقد طال ما نعتَ بهما:

فانصاع كالكوكب في انحداره لَفْتَ المشير مُوهناً بناره

شَدّاً إذا أحْصفَ في إحضاره خَرّقَ أذنيه شبَا أظفاره

وأوّل هذه الأرجوزة:

لما غدَا الثَّعلبُ من وجاره يَلتَمِس الكَسْب على صغارهِ

معرفة أبي نواس بالكلاب وجودة شعره

وأنا كتبتُ لك رجزه في هذا الباب، لأنَّه كان عالماً راوية، وكان قد لعب بالكلاب زماناً، وعرف منها ما لا تعرفه الأعراب، وذلك موجود في شعره، وصفات الكلاب

مستقصاة في أراجيزه، هذا مع جودة الطبع وجودة السبك، والحذق بالصنعة، وإن تأمَّلتَ شِعرَه فضَّلتَهُ، إلاَّ أن تعترض عليك فيه العصبيّة، أو ترى أنّ أهل البدو أبداً أشعرُ، وأنَّ المولَّدين لا يقاربونهم في شيء، فإن اعترض هذا الباب عليك فإنك لا تبصر الحقَّ من الباطل، مادمتَ مغلوباً

طرديات أبي نواس

قال الحسن بن هانئ:

لما غدا الثعلبُ من وجاره يلتَمس الكسبَ على صغاره

عارضَهُ في سَنَن امتياره مضمَّرٌ يَمُوجُ في صِداره

في حَلَق الصُّقْر وفي أسياره منضمَّة قُصْراهُ من إضماره

قد نَحتَ التسهيمُ من أقطاره من بعد ما كان إلى أصبْاره

غَضّاً غَذَته الجُورُ من عِشَاره أيَّام لا يُحجبُ عن أظآره

وهو طلاً لم يَدْنُ من إشغاره في مَنْزِلٍ يُحجَبُ عن زُوَّاره

يُساسُ فيه طرفَيْ نهاره حتَّى إذا أحْمدَ في اخْتباره

وآضَ مثل القُلب من نُضاره كأنَّ خلفَ ملتقى أشفاره

جَمْرَ غضًى يدمِنُ في استعاره كأنَّ لَحيَيه لدى افترار

شك مَسامِيرَ على طوارِه يضمُّ قُطريه من اضطباره

وإن تمطَّى تمّ في أشباره عَشْرٌ إذا قدّر في اقتداره

سمْعٌ إذا استَرْوَحَ لم تُماره إلا بأن يُطلَقَ من عِذاره

فانصاعَ كالكوكب في انحداره لَفْتَ المُشير مُوهِناً بناره

شدّاً إذا أحْصَفَ في إحضاره خرَّقَ أذنيه شبا أظفاره

حتى إذا ما انساب في غباره عافره أخْرَقُ في عِفاره

فتَلتَلَ المفْصِلَ مـن فـقـاره وشقَّ عنه جانبَـيْ صِـداره

ما خِيرَ للثَّعلب في ابتكـاره

طردية ثانية لأبي النواس وقال في كلب سُليمان بن داود الهاشميّ - وكان الكلبُ يسمى زُنبوراً:

إذا الشياطينُ رأتْ زُنـبـورا قد قُلِّدَ الحـلـقة والـسَّيورا

دَعَتْ لِخزَّان الـفـلا ثُـبُـورا أدفى ترى في شِدقِه تـأخـيرا

ترى إذا عارضْتَـه مـفـرورا خناجراً قد نبتـتْ سُـطـورا

مُشتبكات تنظِمُ الـسُّحـورا أحْسِنَ في تأديبـه صـغـيرا

حتَّى توفَّى السَّبْعةَ الشـهـورا من سِنِّهِ وبلَـغَ الـشُّـغـورا

وعَرف الإيحاءَ والـصَّـفـيرا والكفَّ أنْ تومئ أو تـشـيرا

يعطيك أقصى حُضْره المذخورا شَدًّا تَرَى من همزهِ الأظفُورا

مُنتشِطـاً مـن أذنـه سُـيورًا فما يزالُ والـغـاً تـامـورا

مِن ثعلب غـادَرَه مـجـزورا أو أرنب كوَّرَهـا تـكـويرا

أو ظبيةٍ تقرو رَشـاً غـريرا غادَرَها دون الطَّلا عَـقـيرا

فأمتـعَ الـلَّـهُ بـه الأمـيرا رَبِّي، ولا زالَ به مـسـرورا

وقد قال كما ترى:

شدًّا ترى من هَمْزه الأظفورا مُنتشِطاً من أذنـه سـيُورا

بإثر قوله:

حتَّى توفَّى السبعة الشهورا من سِنِّهِ وبلغ الشغورا

فإنَّ الكلب إذا شغر برجله وبالَ، فذلك دليلُ على تمام بلوغه للإلقاح، وهو من الحيوان الذي يحتلم.

أمارات البلوغ في الجواري والغلمان

وأما احتلام الغلام فيعرف بأمور: منها انفراقُ طرف الأرنبة، ومنها تغيُّر ريح إبطيه، ومنها الأنياب، ومنها غلظ الصوت، ومن الغلمان من لا يحتلم، وفي الجواري جوارٍ لا يحضْن، وذلك في النساء عيب، وليس مثله من الرجال عيباً، وقد رأيت رجالاً يوصفون بالقوة على النساء، وبعضهم لم يحتلم إلا مرة أو مرتين، وبعضهم لم يحتلم البتة، طردية ثالثة لأبي نواس قد قال الحسن بنُ هانئ مثل ذلك، في أرجوزة أخرى:

يَمْري إذا كان الجراءُ عبْطا براثِنا سُحْمَ الأثافي مُلْطا

يَنْشِطِ أذنيه بهنّ نَشْطا

وهذه الأجوزة أوَّلها:

عَدّدْت كلباً للطّرادِ سَلْطا مقلّداً قلائداً وَمقْطا

فهو الجميل والحسيب رهْطا ترى له شِدقين خُطّا خَطّا

يمري إذا كان الجِرَاء عَبْطا براثناً سُحْمَ الأثافي مُلْطا

ينشِطِ أذْنَيه بهنَّ نشطاً تخالُ ما دَمينَ منها شرطا

ما إنْ يقعنَ الأرض إلا فَرْطا كأنَّما يُعجِلنَ شيئاً لقْطا

أعجَلَ من قول قطاة قطّا فاجتاح خِزّان الصحارى الرُّقطا

يَلْقين مِنه حَكماً مشْتطاً للعظْم حطماً والأدِيم عَطّا

شعر في نعت سرعة القوم

والشعراء إذا أرادوا سرعة القوائم قالوا كما قال:

يخفي التُّرابَ بأظلاف ثمانية ومَسُّهن إذا أقبلن تَحليلُ

وقال الآخر:

وكأنَّما جَـهَـدَتْ ألـيَّـتُـهُ أن لا تَمَسَّ الأرضَ أربَعُهُ

فأفرط المولَّدون فى صفة السرعة وليس ذلك بأجود فقال شاعرٌ منهم يصف كلبة بسرعة العَدْو:

كأنَّما تَرفعُ ما لم يُوضَع

وقال الحسن بن هانئ:

ما إنْ يقعن الأرض إلا فرْطا

وقال الحسن بن هانئ في نعت كلب:

أنعتُ كلباً أهلُه فـي كَـدِّه قد سَعِدتْ جدودُهم بجَـدِّه

فكلُّ خيرٍ عندهم من عنـده يظلُّ مولاه له كَـعـبـده

يبيتُ أدنى صاحب من مهْده وإن عري جلَّله بُـبـرْدِه

ذو غُرَّةٍ محجّلٌ بـزَنْـده تَلَذّ منه العينُ حُسنَ قدِّه

يا حُسنَ شِدقيه وطول َ خدِّه تلقى الظّباء عنتاً من طرْده

يشربُ كأساً شدُّها في شدّه يا لكَ مِنْ كلب نسيح وحْدِهِ

طردية خامسة لأبي النواس وقال في صفاتها، وأسمائها وسماتها، وأنسابها، وألقابها، وتفدية أربابها لها كما ذكرنا قبل ذلك:

قد أغتدِي والطَّيرُ في مَثْواتِها لم تُعْرِب الأفواهُ عن لُغاتها

بأكلب تمرَحُ في قِدّاتِـهـا تَعُدُّ عِينَ الوَحْش من أقواتِها

قد نحَتَ التقريح واريـاتـهـا من شدَّة التسهيم واقتياتـهـا

وأشقَقَ القانصُ من حُفاتِـهـا وقلت ُ قد أحكمتَّها فهاتِـهـا

وأذْن للصَّيد مُعلَّـمـاتِـهـا وارفعْ لنا نسبةَ أمَّهـاتِـهـا

فجاء يُزجيها على شِياتـهـا شُمَّ العراقيبِ مؤنَّفـاتـهـا

غُرَّ الوجوه ومحجّلاتِـهـا مُشرفةَ الأكنافِ مُوفِياتِـهـا

قُود الخراطيم مُخْرطماتِها سوداً وصُفْراً وخَلَنْجيَّاتـهـا

مُسَميَّاتِ ومُـلَـقَّـبـاتِـهـا حُمْراً وبيضاً ومطوَّقاتـهـا

مختبَرَات من سَلُوقيَّاتِـهـا كأنّ أقماراً على لَبَّـاتِـهـا

تَرَى على أفخاذها سِماتِـهـا مُفدَّياتِ ومُـحـمَّـياتِـهـا

مفروشة الأيدي شَرَنْبَثاتِـهـا شُمَّ العَراقيب مؤلفـاتـهـا

حيدَ الأظافيرِ مُكَعْبـراتِـهـا زُلَّ المآخير عَمَلَّسـاتـهـا

تسمعُ في الآثار من وحَاتِها

منْ نَهمِ الحرص ومن خَواتِها لتَقْثأ الأرنبَ عَنْ حياتـهـا

إنَّ حياةَ الكلبِ في وفاتـهـا حتَّى ترى القِدرَ على مَثفاتِها

كثيرة الضِّيفانِ من عُفاتِـهـا تقذِفُ جالاها بجَوْزَي شاتها

فقد قال كما ترى:

تسمَعُ في الآثار مِنْ وحاتها من نهَم الحِرص ومن خَواتِها

وهذا هو معناها الأول، وأما قوله:

تعُدُّ عين الوَحْش من أقواتها

فعلى قول أبي النَّجم:

تعُدَّ عانات اللّوى من مالها

وزعموا أنَّ قوله:

كطلعة الأشمط من جلبابه

هو قول الأول:

كطلعةِ الأشمطِ من كسائه

وهو كما قال الآخر:

كطلْعةِ الأشمَطِ من بُرْد سَمَلْ

طردية سادسة لأبي النواس وقال الحسن بن هانئ:

لمَّا تبدَّى الصُّبحُ من حِجابِه كطلْعَةِ الأشمَطِ من جلبابِه

وانعدلَ اللَّيلُ إلى مآبِه هِجْنا بكلبٍ طالما هِجْنا به

خَرَّطَهُ القانِصُ واغتدى به يَعزُّه طوراً على استصعابِه

وتارةً ينصَبُّ لانصبابِه فانصاع للصَّوت الذي يعنى به

كلمَعَان البرق من سحابِه

كأنَّ عينيه لدى ارتيابه فصًّا عَقيقٍ قد تقابَلا به

حتَّى إذا عفَّرَه هاها به بأبَا به يا بعد ما بَابَا به

ينْتسف المِقْوَد من جِذابِه مِنْ مرَحٍ يغلُو إذا اغلَوْلَى به

ومَيْعةٍ تُعرَفِ من شَبَابِه كأنَّ متْنَيهِ لدى انسلابِه

مَتنا شُجاع لَجَّ في انسيابِه كأنَّما الأُظفور في قِنابِه

مُوسى صناعٍ رُدَّ في نِصابِه يثرُدُ وجه الأرض في ذهابه

كأنّ نسراً ما توكَّلنا به يَعفُو على ما جرَّ من ثيابِه

إلاَّ الذي أثَّرَ من هُدَّابِه تَرَى سَوَام الْوَحْش يُحْتَوَى به

يَرُحنَ أسْرى ظُفرهِ ونـابـه

صفة أبي نواس لثعلب أفلت منه مراراً

وقال في ثعلب كان قد أفْلتَ منهُ مراراً:

قد طالَما أفلـتَّ يا ثـعـالا وطالما وطالـمـا وطـالا

جُلت بكلبي يومَكَ الأجـوالا ما طلْتَ منْ لا يسأمُ المِطالا

حتَّى إذا اليومُ حدا الآصـالا أتاك حَيْنُ يقـدمُ الآجـالا

طردية سابعة لأبي نواس وقال أبو نواس أيضاً:

ياربَّ بيتٍ بفضاءٍ سَبْسَبِ بَعيد بين السَّمْكِ والمطنَّـبِ

لِفتْيةٍ قد بَكَّـرُوا بـأكـلُـبِ قد أدَّبوها أحسـنَ الـتـأدبِ

مِنْ كل أدفى مَيَسانِ المنْكِبِ يشبُّ في القوْد شِبابَ المُقْرَبِ

ينشِطُ أذْنيه بجدِّ المِـخْـلَـبِ فما تَنِي وشيقةٌ مـنْ أرنَـبِ

وجلدَةٌ مسلوبةٌ من ثـعـلـب مقلوبة الفرْوة أوْ لمْ تُقْلَـبِ

وعيْرُ عاناتٍ وأمُّ الـتَّـوْلَـبِ ومِرجلٌ يهدِر هَدْر المُصْعَبِ

يَقذف جالاهُ بجَوز القرهَبِ

صفة ما يستدلُّ به على فراهية الكلابِ

وشياتها وسياستها

قال بعض من خبر ذلك: إنَّ طول ما بين يدي الكلب ورجليه - بعد أن يكون قصير الظهر - من علامة السُّرعة، قال: ويصفونه بأن يكون صغير الرأس، طويل العُنقُ غليظها، وأن يشبه بعضُ خلقه بعضاً، وأن يكون أغضف الأذنين مُفرط الغضف، ويكون بعيد ما بينهما، ويكون أزرق العينين، طويل المقلتين، ناتئ الحدقة، طويل الخطم، واسع الشِّدقين، ناتئ الجبهة عريضها، وأن يكون الشَّعر الذي تحت حنكه

كأنَّه طاقة ويكون غليظاً، وكذلك شعرُ خدَّيه، ويكون قصير اليدين، طويل الرجلين، لأنه إذا كان كذلك كان أسرع في الصعود بمنزلة الأرنب، قالوا: ولا يكاد يلحق الأرنب في الصَّعود، إلا ّ كلُّ كلبٍ قصيرِ اليدين، طويل الرِّجلين، وينبغي أن يكون طويل الصدر غليظاً، ويكونَ ما يلي الأرض من صدره عريضاً، وأن يكون غليظ العضُدين، مستقيم اليدين، مضموم الأصابع بعضها إلى بعض، إذا مشى أو عدا، وهو أجدرُ ألاَّ يصير بينها من الطِّين وغير ذلك ما يفسُدها، ويكون ذكيَّ الفؤاد نشيطاً، ويكون عريض الظَّهر، عريض ما بين مفاصل عظامه، عريض ما بين عظمي أصلِ الفخذين اللذين يصيبان أصل الذنب، وطويل الفخذين غليظهما شديد لحمهما، ويكون رزين المحزم، رقيق الوسط طويل الجلدة التي بين أصل الفخذين والصدر، ومستقيم الرجلين، ويكون في ركبته انحناء ويصير قصير الساقين دقيقهما، كأنَّهما خشبة من صلابتهما، وليس يكره أن تكون الإناث طوال الأذناب، ويكره ذلك للذكور، ولينُ شعرهما يدلُّ على القوة، وقد يرغب ذلك في جميع الجوارح من الطير وذوات الأربع، من لين الرِّيش لذوات الريش ، ولينُ الشَّعر لذوات الشعر من عِتاق الخيل علامةٌ صالحة ، قال: وينبغي أن يكون الكلبُ شديد المنازعة للمقود والسِّلسلة، وأن يكون العظم الذي يلي الجنَبين من عظام الجنبين صغيراً في قدر ثلاث أصابع، وزعم أنَّهم يقولون: إنّ السُّود منها أقلّها صبراً على البرد والحر، وإنّ البيض أفرهُ إذا كنَّ سُودَ العيون، قال: ومن علامة الفَرَه التي ليس بعدها شيء، أن يكون على ساقيه أو على إحداهما أو على رأس الذنب مخلب، وينبغي أن يُقطع من السَّاقين، لئلا يمنعه من العدو،

خير غذاء للكلب

وذكرَ أنَّ خير الأشياء التي تُطعمُها للكلب الخبزُ الذي قد يَبس، ويكُونعداوة بعض الحيوان لبعض وزعم صاحب المنطق أنَّ العُقابَ تأكلُ الحيّاتِ، وأنَّ بينَهما عداوةً؛ لأنَّ الحيَّة أيضاً تَطلبُ بيضَها وفراخها، قال: والغُداف يقاتل البُومة، لأنَّ الغُدافَ يَخْطِف بيضَ البومة نهاراً، وتشدُّ البومةُ على بيض الغُداف ليلاً فتأكله؛ لأنَّ البومة ذليلةٌ بالنهار رديَّة النظر، وإذا كانَ اللّيلُ لم يَقْوَ عليها شيءٌ من الطير، والطير كلُّها تعرف البومة بذلك وصنيعَها بالليل، فهي تطير حولَ البومةِ وتضربُها وتَنْتِف ريشها، ومن أجْلِ ذلك صارَ الصيَّادون ينصِبونها للطير، والغداف يقاتل ابنَ عِرْسٍ؛ لأنه يأكل بيضَه وفراخَه، قال: وبين الحِدأة والغُداف قتالٌ؛ لأنَّ الحِدأة تخطِفَ بيضَ الغداف؛ لأنَّها أشدُّ مخالبَ وأسرَعُ طيراناً، وبين الأُطْرُغُلّة والشَّقْرَاق قتال؛ لأنَّه يقتل الأُطْرُغُلَّة ويُطالبها، وبين العنكبوت والعَظاية عداوة، والعَظاية تأكل العنكبوت، وعصفور الشَّوك يعبَثُ بالحمار، وعبَثه ذلك قتَّال له؛ لأنَّ الحمارَ إذا مَرَّ بالشَّوك وكانت به دَبَرَة أو جَرَبٌ تحكَّك بهِ، ولذلك متَى نهق الحمار سقط بيضُ عصفور الشوك، وجعلتْ فراخُه تخرج من عشّها، ولهذه العِلّة يطيرُ العصفورُ وراءَ الْحِمار وينقُر رأسه، والذئب مخالفٌ للثَّور والحمار والثعلبِ جميعاً، لأنَّه يأكل اللحم النِّيءَ ولذلك يقع على البقر والحمير والثعالِبِ، وبين الثعالِبِ والزُّرَّق خلافٌ

لهذه العلّة؛ لأنَّهما جميعاً يأكلان اللحم، والغراب يُخالف الثَّورَ؛ ويُخالف الحمار جميعاً، ويطير حولَهما، وربّما نَقرَ عيونهَما، وقال الشاعر:

عَادَيْتَنَا لا زلت في تَبَابِ عَدَاوَةَ الْحِمارِ للغُرابِ

ولا أعرف هذا من قول صاحب المنْطِق؛ لأنَّ الثعلبَ لا يجوزُ أن يُعَادِيَ مِنْ بين أحرار الطّير وجَوارحها الزُّرَّقَ وحدَه، وغيرُ الزُّرَّق آكِلُ اللَّحم، وإن كان سببُ عداوته له اجتماعَهُما على أكْلِ اللّحم، فليُبْغِض العقابَ من الطير، والذِّئْبَ من ذوات الأربَع؛ فإنّها آكل لِلّحم، والثَّعلَبُ إلى أنْ يحسُدَ ما هو كذلك أقربُ، وأولَى في القياس، فلو زعم أنّه يَعُمُّ أكَلَةَ اللّحم بالعداوة، حتّى يُعطى الزُّرَّق من ذلك نصيبَه،كان ذلك أجْوَزَ، ولعلَّ المترجِم قد أساء في الإخبار عنه، قال: والحيَّة تقاتل الخِنزيرَ، وتقاتِل ابنَ عِرْس، وإنّما تقاتلُ ابنَ عِرْسٍ إذْ كان مأواهما في بيتٍ واحد، وتقاتلُ الخنزير لأنّ الخنزير يأكلُ الحيَّات، ويزعمون أنّ الذي يأكلُ الحيَّاتِ القنافذُ، والأوعالُ، والخنازيرُ، والعِقْبان، قال: فالحيَّة تعرف هذا من الخنزير، فهي تُطالبه. قال: والغراب مصادقٌ للثَّعلب، والثَّعلبُ مصادقٌ للحيَّة، والأسد والنمر مختلفان، قال: وبين الفِيَلةِ اختلافٌ شديد، وكذلك ذكورها وإناثها، وهي تَستعمِل الأنيابَ إذا قاتَل بعضُها بعضاً، وتعتمد بهَا على الحيطان فتهدِمُها، وتزحَمُ النَّخلة بجنبها فتَصرَعُها،

تذليل الفيل والبعير

وإذا صعُب من ذكورتها شيء احتالوا له حتَّى يكُومَه ذكرٌ آخر، فإذا كامَهُ خضَع أبداً، وإذا اشتَدَّ خُلُقُه وصعُب عصبَوا رجلَيه فسكن، ويقال إنَّ البعيرَ إذا صعُب وخافه القوم، استعانوا عليه فأبرَكُوه وعَقلوه حتَّى يكومَه فحل آخر، فإذا فعلَ ذلك به ذلَّ

الفيل والسنّور

وأمّا أصحابنا فحكَوا وجوهَ العداوةِ الّتي بين الفيل والسِّنّور - وهذا أعجب - وذهبوا إلى فزع الفيل من السِّنَّور، ولمْ يرَوه يفزع ممَّا هو أشدُّ وأضخم، وهذا البابُ على خلاف الأوّل، كأنَّ أكثرَ ذلك الباب بُنيَ على عداوة الأكْفاء.

الشاة والذئب

والشاةُ من الذئب أشدُّ فرَقاً منها من الأسد، وإن كانت تعلم أنَّ الأسد يأكلها،

الحمام والشاهين

وكذلك الحمام يَعتريه من الشَّاهينِ ما لا يعتريه من العُقاب والبازي والصقر،

أعداء الفأرة

وكذلك الفأرة من السِّنّور، وقد يأكلها ابْنُ عِرْس، وأكثر ذلك أن يقتلها ولا يأكلها، وهي من السِّنّور أشدُّ فرَقاً،

الثعلب والدجاجة

والدَّجاجة تأكلها أصناف من السباع، والثعلبُ يطالبها مُطالبةً شديدة، ولو أنَّ دجاجاً على رفٍّ مرتفع، أو كُنَّ على أغصان شجرةٍ شاهقة، ثمّ مرَّ تحتَّها كلُّ صِنفٍ ممَّا يأكلها، فإنَّها تَكونُ مستمسكةً بها معتصمةً بالأغصان التي هي عليها، فإذا مرَّ تحتها ابنُ آوى وهُنَّ ألفٌ، لم تَبْقَ واحدةٌ منهنَّ إلاّ رمَتْ بنفسها إليه،

ما يأباه بعض الحيوان من الطعام

والسبع لا يأكل الحارَّ، والسِّنَّور لا يذوقُ الحموضة، ويَجْزَع من الطَّعام الحارِّ، والله تعالى أعلم،

ما أشبه الكلب الأسود والأنسان

ثمَّ رجَع بنا القولُ إلى مفاخر الكلب، ونبدأ بكلِّ ما أشبه فيه الكلبُ الأَسْوَدَ والإنسان؛ وبشيء من صفات العظال، قال صاحب المنطق في كتابه الذي يقال له الحيوان، في موضعٍ ذكَرَ فيه الأسد قال: إذا ضربَ الأسَدُ بمخالبه، رأيتَ موضع آثار مخالبهِ في أقدار شرط الحجّام أو أزْيَدَ قليلاً، إلاّ أنَّه من داخلٍ أوسعُ خرْزاً، كأنَّ الجِلدَ ينضمُّ على سم مخالبه، فيأكل ما هنالك، فأمّا عضتّه فإنَّ دواءَها دواءُ عضَّةِ الكلب، قال: وممَّا أشبه فيه الكلبُ الأسدَ انطباقُ أسنانه، وممّا أشبَهَ فيه الكلب الأسدَ النَّهَمُ، فإنَّ الأسدَ يأكل أكلاً شديداً، ويَمْضَغُ مَضغاً متداركاً، ويبتلع البَضْع الكبار، من حاقِّ الرغبة ومن الحرص، وكالذي يخاف الفوت، ولِمَا نازعَ السِّنَّورَ من شَبَهِهِ صار إذا ألقيت له قِطعة لحم فإمَّا أنْ يحملها أو يأكلها حيثُ لا تراه؛ وإمَّا أن يأكلها وهو يكثر التلفُّت، وإنْ لم يكنْ بحضْرته سِنَّور ينازعُه، والكلبُ يَعضُّ على العَظمِ ليُرضَّه، فإنْ مانَعَه شيءٌ وكان مما يُسيغه، ابتَلَعَه وهو واثق بأنّه يستَمريه ويُسيغه، والنَّهم يعرض للحيَّات، والحيَّة لا تمضَغُ، وإنما تبتلعُ ذواتُ الرَّاسات، وهي غير ذوات الأنياب، فإنّها تمضَغ المضْغة والمضغتين وإن ابتلعت شيئاً فيه عظم أتَتْ عُوداً شاخصاً فالتوت عليه، فحطَمت العظم، والحيَّة قويّة جداً، قال: والأسد وإن كان ممَّا لا يفارق الغِياض ولا يفارق الماء فإنّه قليلُ الشرب للماء، وليس يُلقى رَجْعَه إلاّ مرةً في اليوم، وربّما كان في اليومين والثلاثة، ورجعُه يابس شديد اليُبس متعلّق، شبيه برجيع الكلب، ويشبهه أيضاً من جهة أخرى وذلك أنّهما جميعاً إذا بَالاَ شَغَرا، والكلب من أسماء الأسد، لقرابةِ ما بينه وبينَ الكلب، والكلبُ يُشبه الخِنزير، فإنَّ الخِنزير يسمَن في أسبوع، وإن جاع أيّاماً ثم شبع شَبعةً تبيَّن ذلك تبيُّناً ظاهراً، ألا تراهُ ينزع إلى محاسن الحيوان، ويُشبه أشراف السباع وكرائم البهائم ؟

عظال الكلاب

ويقال: ليس في الأرض فحلٌ من جميع أجناسِ الحيوان لِذَكَرِه حجمٌ ظاهر إلاّ الإنسان والكلب، وليس في الأرض شيئان يتشابكان من فَرْط إرادةِ كلٍّ واحدٍ منهما لطباع صاحبه، حتى يلتحم عضوُ الذكر بعضو الأنثى حتَّى يصير التحامهما التحامَ الخِلقة والبِنْية، لاَ كالتِحامِ الملامَسَة والملازمة، إلاّ كما يُوجَد من التحام قضيبِ الكلب بثَفْر الكلبة.
وقد يلزَق القُراد، ويَغْمِس العَلس مقاديمه في جوف اللحم، حتَّى يُرَى صاحبُ القُراد كأنَّه صاحِبُ ثُؤلُول، وما القُراد المضروبُ به المثلُ في الالتحام إلاّ دون التحامِ الكلبين، ولذلك إذا ضربوا المثل للمتباضِعين بالسُّيوف، والملْتَقِيَين للصِّراع، فالتفّ بعضُهم ببعض، قالوا: كأنهم الكِلاب المتعاظِلة، وليس هذا النَّوعُ من السِّفاد إلاّ للكلاب وزعم صاحبُ المنطق وغيرُه، أنَّ الذُّبابَ في ذلك كالكلب،

إسماعيل بن غزوان وجارية مويس بن عمران

وكان إسماعيل بن غَزْوان قد تعشّقَ جارية كانت لموَيْس بن عمران، وكانت إذا وقعَتْ وقعةً إليه لم تمكثْ عندَهُ إلاّ بقدرِ ما يقعُ عليها، فإذا فَرَغ لبست خُفَّها وطارت، وكان إسماعيلُ يشتهي المعاوَدَةَ وأنْ يطيلَ الحديث، ويُريدُ القَرْص والشمَّ والتقبيلَ والتجريد، ويعلم أنّه في الكَوْم الثاني والثالث أجدر أن يُنْظَرَ، وأجدَرُ أن يَشْتَفي فكان ربَّما ضَجِرَ ويذكرُها بقلبه وهو في المجلس، فيقول: ياربِّ امسَخْني وإيّاها كلبَين ساعة من الليل أو النَّهار، حتَّى يشغَلَها الالتحامُ عن التفكير في غضَب مولاتِها إن احتَبَسَت!

من أعاجيب الكلاب

وفي الكلبة أعجوبة أخرى: وذلك أنّه يسفَدُها كلبٌ أبقعُ وكلب أسودُ وكلب أبيضُ وكلب أصفرُ، فتؤدِّي إلى كلِّ سافدٍ شِكْلَهُ وشِبْهه، في أكثر ما يكُونُ ذلك،

تأويل الظالع في شعر الحطيئة

وأما تأويل الظالع في قول الحطيئة:

تسدَّيتُها مِنْ بَعْدِ مَا نَام ظَالِعُ ال   كلابِ وأخْبى نارَهُ كلُّ موقِدِ

قال الأصمعيّ: يظلَع الكلبُ لِبعضِ ما يعرض للكلاب، فلا يمنعه ذلك مِنْ أن يهيجَ في زمن هَيْج الكلاب، فإذا رأى الكلبة المستحرمة لم يطمَع في معاظلتها والكلابُ منتبهةٌ تنبَح، فلاَ يَزَال يَنْتَظِرُ وقتَ فَتْرةِ الكلاب ونومها، وذلك مِن آخر الليل، وقال أحَيْحَة بن الجُلاَح:

يا ليتَني ليلةً إذا هَجعَ ال   نَّاسُ ونام الكلابُ صاحِبُها

طردية ثامنة لأبي نواس

وممَّا قِيل في الكلاب: من الرَّجز قول أبو نواس:

وفِتية من آلِ ذُهلِ في الذرى مِنِ الرقاشِيِّينَ في أعْلى العُلا

بيضٍ بهالِيلَ كرامِ المُنْتَمَى باتُوا يَسِيرون إلى صُوح اللوى

ينفُون عن أعيُنهمْ طِيبَ الكَرَى إلاَّ غِشَاشاً بعد ما طال السُّرى

يعدين إبلاء الفتى على الفتى حتى إذا ما كوكبُ الصُّبح بدَا

مَاجُوا بغُضْفٍ كاليَعاسيب خَسَا ثلاثةٍ يقطعن حُزَّان الصُّوَى

رحيبةِ الأشداق غضْفٍ في دَفا تَلوي بأذناب قليلات اللِّحا

سَمَعْمَعات الضُّمْر من طُول الطَّوى من كلِّ مَضْبُور القرَا عاري النَّسا

مُحَمْلَج المَتْنين مَنْحُوض الشَّوى شَرنبَثِ البُرثُنِ خَفّاق الحشا

تخالُ منه القصّ من غير جَنَا مَسَتَّنَا صَفواء في حَيْدَيْ صَفا

يلتهب الغائِطُ مِنْهُ إن عدا يُقادح المَروَ وشَذّان الحَصَا

حتَّى إذا استسحَرَ في رَأد الضُّحى بمربَإ أوْفى به على الرُّبا

أرانباً من دونها سِربا ظِبا نواشزاً من أنَسٍ إلى خَلاً

فوضَى يُدَعْثِرنَ أفاحيصَ القطا لَعلَعنَ واستلْهثن من غيْر ظما

مبالغاتٍ في نَهيمٍ وصأى كأنَّما أعينُها جمر الغَضى

ثمَّ تطلّعنَ معاً كالبرق لا في الأرض يَهوين َ ولا لوح الهوا

كأنّها في شَرطها لما انبرى كواكبٌ يُرمَى الشّياطِينُ بها

يدْمَرْنَ بالإيسادِ دَمْراً وَأيَا حتى إذا ما كنَّ منهنَّ كها

دارتْ عليهنّ من الموت رَحى تجذبهنَّ بحديداتِ الشَّبا

شوَامِذ يلعَطْن مَعْبُوط الدِّما بين خليع الزَّورِ مرضُوضِ الصَّلا

وبينَ مفْريِّ النِّياطِ قد شَصَا كأنّه مبتهلٌ إذا دَعا

ومائلِ الفَوْدَين مجلوز القفا يُقْفِينَ بالأكبادِ منها والكُلَى

وبالقلوبِ وكَرَادِيس الطُّلى

طردية تاسعة لأبي النواس وقال أيضاً:

لمَّا تَبَدَّى الصُّبْحُ من حِجَابه وانعدلَ الليلُ إلى مآبه

خرَّطه القانصُ واغتدَى به في مِقود يَردَعُ من جذابه

يَعُزُّه طوراً على استصعابه وتارةً ينصبُّ لانصِبابه

كأنَّما يفتَرُّ من أنيابه عن مرهَفات السِّنِّ من حِرابه

يَرْثُم أنفَ الأرض في ذهابه حتَّى إذا أشرَفَ مِن حِدَابه

بعد انحدار الطَّرف وانقلابه بروضةِ القاعِ إلى أعجابه

أرسلَه كالسَّهْمِ إذْ غالَى به يكادُ أن ينسَلّ من إهابه

كَلَمَعانِ البرق في سَحابه حتَّى إذا ما كادَ أو حَدَا به

وانصاتَ للصَّوتِ الذي يُدْعَى به كأنَّما أدمجَ في خِضابه

مابين لحْيَيه إلى أقرَابه مشَهَّر الغُدُوِّ في إيابه

طردية عاشرة لأبي النواس وقال أيضاً:

ما البرق عارضٍ لماح ولا انقضاض الكواكب المنصاح

ولا انبتات الدَّلو بالمتَّاح ولا انسيابُ الحُوتِ بالمُنْدَاح

حين دنا من راحةِ السَّبَّاح أجدَّ في السُّرعةِ من سِرياح

يَكادُ عِنْدَ ثمَلِ المِراَحِ إذا سَمَا الخاتلُ للأشْباحِ

يَطيرُ في الجوِّ بلا جَنَاحِ يفترُّ عن مِثلِ شَبَا الرِّماحِ

فكَمْ وكَمْ ذِي جُدَّةٍ لَياحِ ونازبٍ أعْفَرَ ذي طِماحِ

غادَرَهُ مضرَّجَ الصِّفاحِ

باب آخر في الكلب وشأنه

تفسير شعر قيل في الكلاب

قال طُفيلٌ الغَنَويّ:

أناس إذا ما أنكر الكلبُ أهْلَهُ حَمَوْا جارَهُمْ مِن كلِّ شنْعاءَ مُظْلِعِ

يقول: إذا تكفَّروا في السِّلاح لمْ تَعْرِفْهُم كلابُهُم، ولم يَدَّعِ جميعُ أصحابِ المعارفِ إلاَّ أنَّ الكلبَ أشدُّ ثِباتاً، وأصدقُ حِسَّاً، وفي ذلك يقول الآخر:

فلا تَرفعي صوتاً وكُوني قصيَّةً إذا ثوَّبَ الدَّاعِي وأنكَرَنِي كَلْبي

يقول: إيّاكِ والصُّراخَ إذا عايَنْتِ الجيش، وقوله: أنكرني كلبي، يخبر أنَّ سلاحَهُ تامٌّ من الدِّرع والمِغْفر والبَيضَة، فإذا تكفّر بسلاحه أنكره كلبُه فنبحَه، وأما قوله:

إذا خَرِس الفَحل وسط الحُجور وصاحَ الكلابُ وعُقَّ الْوَلَدْ

فأمَّا قوله: إذا خرسَ الفحل، فإنَّ الفحلَ إذا عايَن الجيشَ وبوارقَ السيوف، لم يلتفت لِقْتَ الحُجور، وأمَّا قوله: وصاح الكلاب، فإنَّ الكلابَ في تلك الحالة تنبَح أربابَها كما تنبح سَرَعَانَ الخَيل إليهم؛ لأنّها لا تعرفهم من عدُوِّهم، وأما قوله: وعُقَّ الولد، فإنَّ المرأةَ إذا صبَّحتهم الخيل، ونادى الرجال يا صباحاه ذُهِلت عن ولدها، وشغَلها الرُّعبُ عن كلِّ شيءِ، فجَعَلَ تركها احتمالَ ولدها والعطفَ عليه في تلك الحالة، عقوقاً منها، وهو قولُهم: نزلتْ بهم أمور لا يُنادَى وليدُها، وإنَّما استعاروا هذه الكلمة فصيّروها في هذا الموضع من هذا المكان، وقد ذكر ذلك مزرِّد بن ضِرَارٍ وغيرُه، فقال:

تَبَرَّأتُ مِن شَتْمِ الرجالِ بتوبةٍ إلى اللّه مِنى لا يُنادَى وَلِيدُها

وقال الآخر:

ظهَرتُم على الأحرار من بَعْدِ ذلّةٍ وشِقْوَةِ عَيشٍ لا يُنادَى وَلـيدُهـا

والذي يُخْرِسه إفراطُ البرد، وإلحاحُ المطر، كما قال الهذليُّ:

وليلةٍ يَصْطلي بالفَرْثِ جَازِرُها يَخْتَصُّ بالنَّقرَى المُثرينَ دَاعيها

لا يَنبَحُ الكلبُ فيها غيرَ واحدةٍ من الصَّقيع، ولا تَسْري أفاعيها

وقال ابن هَرْمة:

واسألِ الجارَ والمعصِّب والأضيا ف وهْنـاً إذا تـحيّوْا لـديَّا

كيف يَلقونَني إذا نَبحَ الكل بُ وراءَ الكُسور نَبحاً خَفيَّا

وقال آخر:

إذا عميَ الكلبُ في ديمة وأخرسهُ اللَّه مِن غير صِرّ

يقول: الكلبُ وإن أخرسَه البردُ الذى يكون مع المطر والرِّيح التي تمرُّ بالصَّحارى المطيرة فتَبرُدُ، فإنَّ الكلب وإن ناله ذلك فإنّ ذلك من خِصبٍ، وليس ذلك من صِرّ،

نبح الكلاب السحاب

والكلب إذا ألحّت عليه السحائب بالأمطار في أيام الشتاء لقي جِنَّة فمتى أبصرَ غيماً نبحه، لأنَّه قد عرَف ما يُلَقَّى من مِثله، وفي المثل: لا يَضُرُّ السَّحَاب نُبَاحُ الكلاب فقال الشاعر:

وما ليَ لا أغْزوُ وللدَّهر كَرَّة وقد نَبحتْ نحوَ السماء كلابها

يقول: قد كنت أدَعُ الغَزو مخافة العطش على الخيل والأنفس، فما عُذري اليوم والغُدران كثيرة، ومَناقع المياه موفورة، والكلابُ لاتنبَح السحاب إلاَّ من إلحاح المطر وترادُفه، وقال الأفوه الأودِيّ، في نبح الكلاب السحاب، وذلك من وصف الغيم:

له هَيْدَبٌ دانٍ ورعْد ولَـجّة وبرق تراهُ ساطعاً يتبـلّـجُ

فباتَت كلاب الحيِّ ينبَحْن مُزْنَهُ وأضْحَتْ بناتُ الماء فيها تعمَّجُ

قول أبي حيَّة النميري في الكلب

وقال أبو خالد النميريّ: وذكروا فرعون ذا الأوتاد عند أبي حيَّة النميريّ، فقال أبو حيَّة: الكلبُ خير منه وأحزم قال: فقيل له كيف خَصَصْتَ الكلبَ بذلك؟ قال: لأنَّ الشاعر يقول:

وما ليَ لا أغْزُو وللدَّهر كرَّة وقد نبحت نحوَ السماءِ كلابُها

وقال الفرزدق:

فإنَّك إن تهجو حـنـيفة سـادراً وقبلك قد فاتوا يَدَ الـمـتـنـاول

كفِرعَوْنَ إذ يرمي السَّماءَ بسهمِهِ فرُدَّ عليه السهم أفوقَ ناصلِـي

فهذا يرمى السماءَ بجهله، وهذا ينْبح السحابَ من جَودَة فطِنته.

تعصّب فهد الأحزم للكلب

وزعم فهدٌ الأحزم أنَّ الكلبَ إنَّما عَرَف مخرَج ذلك الشيء المؤذي له حتَّى نبحه بالقياس، لأنَّه إنما نبحه بعد أن توالى عليه الأذى من تلك الجهة، وكان فهد يتعصَّب للكلب، فقلت له: وكذلك الحمار إذا رفعت عليه السَّوط مرَّ من تحتك مَرَّاً حثيثاً، فالقياس عَلَّمَهُ أنَّ السَّوط متى رُفِع حُطَّ، ومتى حُطّ أصابَه، ومتى أصابه ألم، فما فضْلُ الكلبُ في هذا الموضع على الحمار، والحمارُ هو الموصوف بالجهل؟

مما قيل في نباح الكلاب

قال الفرزدق:

وقد نَبَحَ الكلبُ السحابَ ودُونَـهـا مَهَامِهُ تعْشِي نَظْرَة المتَأمِّـلِ

وقال الآخر:

ما لَكَ لا تَنبحُ يا كَلْبَ الدَّوْمْ قد كنتَ نَبَّاحاً فما بالُ اليَوْمْ

قال: كان هذا رجلٌ ينتظر عِيراً له تَقدَمْ، فكان إذا جاءت العِيرُ نبح، فاحتبست عليه العيرُ، فقال كالمتمنِّي وكالمنتظر المستبطئ: ما لك لا تنبح؟ أي ما لِلعيرِلا تأتي،

؟فراسة إياس بن معاوية في الكلاب

وقال: خرج إياس بن معاوية، فسمع نُباح كلب فقال: هذا كلبٌ مشدود،ثم سمع نباحَه فقال: قد أرسِل، فانتهوْا إلى الماء فسألوهم فكان كما قال، فقال له غيلان أبو مروان: كيفَ علمتَ أنَّه موثق وأنَّه أطلق؟ قال: كان نباحُه وهو موثق يُسمَع من مكانٍ واحد، فلما أطلق سمعتهُ يقرُب مرّةً ويبعد مرةً، ويتصرَّفُ في ذلك، وقالوا: مرَّ إياس بنُ معاوية ذاتَ ليلةٍ بماء، فقال: أسَمعُ صوتَ كلبٍ غريب، قيل له: كيفَ عرفتَ ذلك؟ قال: بُخضوع صوتِه وشِدَّة نُباح الآخر، فسألوا فإذا هو غريب مربوطٌ والكلابُ تنبَحه، استطراد لغويّ وقال بعض العلماء: كلب أبقع، وفرس أبلق، وكبش أملح، وتيسٌ أبرق، وثور أشْيَه، ويقال كلب وكلاب وكَليب، ومَعزْ وماعِز ومَعيز، وقال لبيد:

فبِتْنَا حيثُ أمسَيْنَا قريباً على جَسَدَاءَ تَنْبَحنَا الكليبُ

وقال عَلْقمَة بن عَبَدة:

وتُصْبِحُ عن غِبِّ السُّرَى وكأنَّها مُوَلَّعَةٌ تخشى القنيص شَبُوبُ

تَعَفّقَ بالأَرْطى لَها وأرادَها رجالٌ فبَذَّتْ نَبْلَهمْ وكَلِيب

وقال عُبادة بن مُحبَّرِ السعدي:

فَمنْ للخَيلِ بَعْدَ أبي سراَجٍ إذا ما أشنج الصِّرُّ الكَلِيبَا

وهؤلاء كلهم جاهليّون، رأى لحمّوية الخريبى في بقع الكلاب وسوادها وقال حمُّويَه الخُرَيْبي وأنشدُوه:

كَأنَّكَ بالمُبَارَكِ بَعْدَ حينٍ تَخُوض غِماره بُقْعُ الكِلاَبِ

وأنشدوه:

أرسلت أسْداً على سُودِ الكلاب فقدْ أمْسَى شريدُهُمُ في الأرضِ فُلاَّلا

فقال: لا خير في بُقْع الكلابِ البتة، وسُود الكلاب أكثرها عَقُوراً،

خير الكلاب والسنانير

وخيرُ الكلاب ما كان لونُه يذهب إلى ألوان الأسد من الصُّفْرةِ والحُمرةَ، والتبقيع هُجْنَة، وخيْرُ السنانير الخَلَنْجِيَّة، وخير كلاب الصَّيد البيض، قالوا: إنّ الأسَدَّ للِهراشِ الحُمر والصُّفر، والسُّودُ للِذّئاب، وهي شرُّها، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لولاَ أنّ الكلابَ أُمَّة من الأممِ لأمَرْتُ بقتلها، ولكن اقتلوا منها كلَّ أسوَدَ

بهيم"، وكلُّ شيءٍ من الحيوان إذا اسودَّ شعرُه أو جلدُهُ، أو صوفه، كان أقوَى لبَدنه ولم تكن معرفته بالمحمودة، خير الحمام وزعم أنّ الحمام الهُدَّاءَ إنما هو في الخُضر والنمر، فإذا اسودَّ الحمام حتَّى يدخل في الاحتراق صارَ مثلَ الزِّنجيِّ الشديد البطش، القليل المعرفة، والأسوَدُ لا يجيء من البعد، لسود هدايته، والأبيض وما ضرَب فيه البياض لا يجيء من الغاية، لضَعْف قواه، وعلى قدر ما يعتريه من البَياض يعتريه من الضّعف، فالكلب هو الأصفر والأحمر، والحمام هو الأخضر والأنْمر، والسِّنَّور هو الخَلَنْجيُّ العسَّال، وسائر الألوان عيب، وقد يكون فيها ومنها الخارجيُّ كما يكون من الخيل، ولكنَّه لا يكادُ ينجب، ولا تعدُو الأمورُ المحمودة منه رأسَه، وقد يكون ربَّما أشْبَهَ وقرب من النَّجابة، فإذا كان كذلك كان كهذه الأمهات والآباء المُنجبة، إلاَّ أنّ ذلكَ لا يتمُّ منها إلا بَعْدَ بطون عِدَّةٍ.
استطراد لغوي وقال أبو زيد: قال ردَّاد: أقول للرجُل الَّذِي إذا ركب الإبلَ فَعَقرَ ظهُورَها من إتعابه، هذا رجل مِعْقرٌ، وكذلِك السَّرْج والقتَب، ولا يقال للكلب إلاَّ عقُور، ويقال هو ضرِو للكلب الضاري على الصيد، وضروة للكلبة، وهذا ضِرَاءٌ كثيرة، وكلب ضارٍ، وكلاب ضَوَارٍ، وقد ضريتْ أشدَّ الضراوة، وقال ذو الرُّمَّة:

مقزَّع أطلس الأطمارِ ليس له إلاَّ الضِّراءَ وإلا صَيْدَها نَشَب

وقال طفيل الغنوي:

تُباري مَرَاخيها الزِّجاجَ كأنَّها ضِرَاءٌ أحسَّتْ نَبأَةً من مكلِّبِ

ومنه قيل: إناء ضار وقد قال عمر رضي اللّه تعالى عنه: إيَّاكمُ وهذِهِ المجازرَ فإنَّ لها ضرَاوَةً كضرَاوَةِ الخمر، وقال الأصمعيّ: كلب أبقَعُ وكلبةٌ بقعاء، وفرس أبلقُ وفرس بَلقاء، وتَيس أبْرَقُ وعَنْزٌ بَرْقاء، وكذلك جَبَل أبرقُ وكساءٌ أبرق وكلب أبرق.
الغلام الشاعر وقال ابن داحة: نزل عندنا أعرابيٌّ ومعه ابنان له صغيران، وكان أحدهما مُستهتَراً باللَّعب بالكلاب، وكان الآخر مُستَهْتَراً بالحُملان، فقال الأعرابيُّ لصاحب الكلب:

ما لي أراكَ مع الكلاب جَنِيبةً وأرَى أخاكَ جَنِيبةَ الحُمْلان

قال: فردَّ عليه الغلام:

لولا الكلابُ وهَرْشُها مَنْ دُونَها كَانَ الوقيرُ فَريسة الذُّوبان

والوقير: اسم للغنم الكثيرةِ السائمةِ مع ما فيها مِنَ الحمير وغير ذلك، وقال الشماخُ بنُ ضرَارٍ:

فأوْرَدَهُنَّ تَقْرِيباً وشَدًّا شرَائعَ لم يكدِّرْها الوَقيرُ

مما قيل من الشعر في نفع الكلاب

وقال الشاعر في تثبيت ما قال الغلام:

تَعدُو الذِّئابُ علىَ مَنْ لا كلابَ له وتتَّقي صَوْلَةَ الْمُستْأسِدِ الضاري

وقال الآخر:

إنَّ الذئاب تَرى مَنْ لا كلاب له وتتّقي حَوْزَةَ المستثِفر الحامي

عفّة عمر بن أبي ربيعة وابن أبي عتيق وقال محمَّد بن إبراهيم: قدِمَتِ امرأة إلى مَكَّة، وكانتْ ذات جمالٍ وعَفافٍ وَبَراعةٍ وشَارة، فأعجبَت ابن أبي ربيعة، فأرْسَل إليها فخافت شِعْرَه، فلما أرادت الطَّواف قالت لأخيها: اخْرجُ مِعي، فخَرَجَ مَعَها، وعَرَضَ لها عُمر فلمَّا رأى أخاها أعْرَض عنها، فأنشدت قولَ جَرير:

تعْدُو الذِّئاب على مَنْ لا كلاب له وَتتَّقي حَوزَةَ المستأسِدِ الضَاري

هذا حديثُ أبي الحسن، وأمّا بنو مَخْزوم فيزعُمونَ أنّ ابن أبي رَبيعة لم يَحُلَّ إزارهَ على حَرام قطُّ، وإنما كان يذهب في نسيبه إلى أخلاق ابن أبي عَتيق، فإنَّ ابن أبي عتيقٍ كان مِن أهل الطَّهارة والعفاف، وكان مَن سمعَ كلامَه توهَّم أنَّه من أجرأ الناس على فاحشة، وما يُشبه الذي يقولُ بنو مَخزومٍ مَا ذكروا عن قريش والمهاجرين؛ فإنّهم يقولون: إنّ عمر بن عبد اللّه بن أبي ربيعة إنَّما سُمِّي بعمر بن الخطاب وإنّه ولد ليلة ماتَ عمر، فلما كان بعد ذلك ذكروا فسادَ هذا وصلاحَ ذلكِ فقالوا: أيُّ باطِلٍ وُضع، وأيُّ حقٍّ رفع ومثلُ هذا الكلامِ لا يقالُ لمن يُوصف بالعفَّة الثابتة، وصيةُ شريح لمعلم ولده ولبُغض المُزاح في لعب الصبيان بالكِلاب واستهتارِهم بها، كَتَبَ شريح إلى معلِّم ولَدٍ له كان يَدَع الكُتّابَ وَيَلعب بالكلاب:

تَرَكَ الصَّلاة لأكلبٍ يَلهو بـهـا طلبَ الهراشِ مع الغُوَاة الرُّجَّسِ

وليأتينَّك غـادياً بـصـحـيفةٍ يَغْدُو بها كصحيفة المتلـمِّس

فإذا خَلوتَ فعَضـَّه بَـمـلاَمَةٍ أو عِظْهً موعِظة الأديب الأكيس

وإذا هممت بضـرْبـهِ فـبـدِرَّةٍ وإذا ضربَت بها ثلاثاً فاحْبس

واعلمْ بأنّك ما فعلت فإنّه   مَعَ مَا يُجَرِّعُني أعزُّ الأنفُس

وهذا الشعر عندنا لأعشى بني سُليم في ابنٍ له، وقد رأيتُ ابنه هذا شيخاً كبيراً، وهو يقوُل الشعر؛ وله أحَاديثُ كثيرةٌ ظريفة،

من دلائل كرم الكلب

وقال صاحب الكلب: ومما يدلُّ على قدْرِ الكلب كثرةُ ما يجري على ألسنةِ النَّاس من مَدْحِه بالخير والشرّ، وبالحمد وبالذمّ، حتَّى ذكر في القرآن مَرَّة بالحمد ومرّةً بالذمّ، وبمثل ذلك ذكر في الحديث، وكذلك في الأشعار والأمثال، حتى استعمل في الاشتقاقات، وجرى في طريق الفأل والطِّيَرة، وفي ذكر الرؤيا والأحلام، ومع الجِن والحِنِّ والسِّباع والبهائم، فإن كنتم قضيتُمْ عليهِ بالشر وبالنقص، وباللؤم وبالسقوطِ لأنَّ ذلك كلَّه قد قيلَ فيه، فالذي قِيلَ فيه من الخير أكثرُ، ومن الخصال المحمودة أشهر، وليْسَ شيءٌ أجمعَ لخصال النقص من الخُمول، لأنَّ تلك الخصالَ المخالِفة لذلك، تُعطي من النَّباهةِ وتُقيم من الذكر على قدْرِ المذْكور من ذلك، وكما لا تكون الخِصال التي تُورث الخمول مورثة للنباهة، فكَذلك خِصَال النّباهة في مجانبة الخُمول، لأنَّ الملومَ أفضلُ من الخامل، الترجمان بن هريم والحارث بن شريح وسمع الترجمانَ بن هُرَيْم عند يزيد بن عمر بن هبيرة، رجلاً يقول: ما جاء الحارث ابن شريح بيوم خَيْر قطّ، قال التَّرجمان: إلا يكنْ جاء بيوم خَير فقد جاء بيوم شَرّ، سياسة الحزم وبعدُ فأيُّ رئيسٍ كان خيرُهُ محضاً عدِمَ الهَيْبَة، ومَن لم يَعْمَل بإقامة جزاءِ السيئة والحسنة، وقتل في موضع القتل، وأحْيَا في موضع الإحياء، وعَفَا في موضع العفو، وعاقبَ في موضع العقوبة، ومَنَع ساعةَ المنع، وأعطى ساعة الإعطاء، خالَفَ الرَّبَّ في تدبيره، وظنَّ أن رحمته فوق رحمةِ ربه، وقد قالوا: بعضُ القتل إحياءٌ للجميع، وبعضُ العفو إغراء، كما أنَّ بعضَ المنع إعطاء، ولا خَيْر فيمن كان خيرُهُ محْضاً، وشَرٌّ منه مَن كان شرُّه صرفاً، ولكن اخلِطِ الوعدَ بالوعيد، والبِشرَ بالعبوس، والإعطاء بالمنع، والحِلمَ بالإيقاع، فإنَّ الناسَ لا يَهابون ولا يصلُحون إلاَّ على الثّواب والعقاب، والإطماع والإخافة، ومن أخافَ ولم يُوقِعْ وعُرِفَ بذلك، كانَ كَمَنْ أطمَعَ ولم يُنْجِز وعُرِف بذلك، ومَنْ عُرِف بذلك دخلَ عليه بحسَب ما عُرِف منه، فخير الخيرِ ما كان ممزُوجاً، وشرُّ الشرِّ مَا كانَ صرفاً، ولو كانَ النّاس يصلُحون على الخيرِ وحدَه لكَان اللَّه عزَّ وجلَّ أولى بذلك الحكم، وفي إطباق جميع الملوك وجميع الأئمةِ في جميع الأقطار وفي جميع الأعصار على استعمال المكروه والمحبوب، دليل على أنَّ الصواب فيه دونَ غيره، وإذا كان الناس إنما يصلحون على الشِّدَّةِ واللين، وعلى العفو والانتقام وعلى البذْل والمنع، وعلى الخير والشرِّ، عاد بذلك الشرُّ خيراً وذلك المنع إعطاء وذلك المكروه محبوباً، وإنَّما الشأنُ في العَوَاقب، وفيما يدوم ولا ينقطع وفيما هو أدْوَم، ومن الانقطاع أبعَدُ، وقال الشاعر، وَهويمدحَ قوماً:

إن يُسألوا الخيرَ يُعطوه وإن جُهدُوا فالجهْدُ يُخرج منهم طِيبَ أخبـار

وإن توَدّدتَهمْ لانوا وإن شُهمـوا كَشَفْتَ أذمارَ حَرْبٍ غيرَ أغمـار

وقال العتبي:

ولكن بنو خيرٍ وشر كلَيهما جمِيعاً ومَعروفٍ ألمَّ وَمْنكر

وقال بَعْضُ من ارتجز يوم جَبَلة:

أنا الْغُلاَمُ الأعسَرْ الخيرُ فيَّ والشرّ

والشرُّ فيّ أكثرْ

وقال عبدُ الملك بن مروان لزُفَر بن الحارث؛ وقد دخل عليه في رجالاتِ قيس: ألستَ امرأ مِن كندة؟ قال: وما خيرُ مَن لا يُتَّقى حَسَداً، ويُدعَى رغبة، وقال ثُمامة: الشُّهرة بالشرِّ خيرٌ من أن لا أُعرفَ بخير ولا شرّ، أمارات النباهة وكان يقال: يُستَدَلُّ على نباهة الرَّجل من الماضين بتَبايُنِ الناس فيه، وقال: ألا ترى أن عليّاً رضيَ اللّه تعالى عنه قال: يَهلك فيَّ فئتان: محبٌّ مُفرط، ومبغض مُفرط، وهذه صفة أنبَهِ الناس، وأبعدهِم غايةً في مراتب الدِّين وشرَف الدنيا، ألا ترى أن الشاعر يقول:

أرَى العِلباءَ كالعِلبـا ءِ لا حُلوٌ ولا مـرُّ

شُيَيْخٌ مِن بني الجارُو دِ لا خير ولا شَـرُّ

وقال الآخر:

عَيَّرتني يا ثكلتْنـي أمِّـي أسْود مثل الجُعَل الأحـمِّ

ينطحُ عُرْضَ الجبَلِ الأصمِّ ليس بذي القرْنِ ولا الأجمِّ

وإذا كانِ الرجلُ أبرعَ الناس بَراعةً، وأظهرَهم فضلاً، وأجمعهم لخصال الشرف، ثمَّ كانت كلُّ خَصلةٍ مساويةً لأختها في التَّمامِ، ولم تغلِب عليه خصلة واحدة، فإنَّ هذا الرَّجل لا يكادُ يوصف إلاَّ بالسيادة والرياسة خاصّةً إذا لم يكن له مسندٌ عما يكون هو الغالب عليه، وقالوا فيما يشبه ما ذكرنا، وإن لم يكن هو بعينه، قال الشاعر:

هَيْنون لَيْنُـونَ أيسـارٌ ذوُو يُسُـرٍ سُوَّاس مَكـرُمَةٍ أبـنـاءُ أيسـار

مَنْ تَلْقَ مِنـهمْ تَقُل لاقيْتُ سَيِّدهـم مثلُ النُّجوم التي يسري بها الساري

وقد قال مثل الذي وصَفنا جعفر الضبّيُّ في الفضل بن سهل: أيُّها الأمير أسْكَتني عن وصفك تَساوي أفعالك في السُّؤدد، وحيَّرني فيها كثرَةُ عددها، فليس إلى ذكر جميعها سبيلٌ، وإنْ أردتُ وَصف واحدةٍ اعترضتْ أختها، إذْ لم تكن الأُولى أحقَّ بالذكر، ولست أصفُها إلاّ بإظهار العَجز عن وَصفها، ولذلك قالوا: أحلم من الأحنف، وما هو إلاَّ في حلم معاوية وأحلم مِن قيس بن عاصم، ولم يقولوا: أحلمَ من عبد المطَّلب، ولاَ هو أحلم من هاشم، لأنَّ الحلم خَصلة من خصاله كتمام حلمه، فلمَّا كانت خصالهُ متساوية، وخلالُه مشرفة متوازيةِ، وكلُّها كان غالباً ظاهراً، وقاهراً غامراً، سمِّي بأجمع الأشياء ولم يُسمّ بالخصلة الْوَاحدة، فيستدلَّ بذلك على أنَّها كانت أغلب خصال الخيرِ علَيه.

هجاء السفهاء للأشراف وإذا بلغ السَّيدُ في السُّؤدَدِ الكمالَ، حسده من الأشراف من يُظنُّ أنَّه الأحقُّ به، وفخرت به عشيرته، فلا يزال سفيهٌ من شعراء تلك القبائل قد غاظه ارتفاعُه على مرتبةِ سيَّد عشيرتَه فهجاه، ومن طلب عيباً وجَدَه، فإن لم يجدْ عيباً وجدَ بعضَ ما إذا ذكره، وجَد مَن يغلط فيه ويحمله عنه، ولذلك هُجِيَ حِصنُ بن حذيفة، وهُجِيَ زُرارة ابن عُدس، وهُجِيَ عبدُ اللَّه بن جُدعان، وهجيَ حاجب بن زرارة، وإنَّما ذَكَرتُ لك هؤلاء لأنهم من سؤدَدِهم وطاعةِ القبيلة لهم، لم يذهبوا فيمَنْ تحت أيديهم من قومِهِمْ، ومن حلفائهم وجيرانهم، مَذْهَبَ كُليبِ بن ربيعة، ولا مذهب حذيفة بن بدر، ولا مذهبَ عيينة بن حصن، ولا مذهبَ لقيط بن زُرارة، ولأنَّ لقيطاً لم يأمر بسحب ضَمْرة بن ضمرة إلاَّ وهو لو بَقي لَجاوز ظلم كليب وتهكم عيينة، فإنَّ هؤلاَء وإن كانوا سادةً فقد كانوا يَظلمون، وكانوا بين أن يظلموا وبين أن يحتملوا ظلماً ممن ظلمهم، ولا بدَّ من الاحتمال كما لا بُدَّ من الانتصار، وقد قال عزَّ وجلَّ: "وَلَكُمْ في القِصاصِ حَياةٌ"، وإلى هذا المعنى رجَع قولُ الحكيم الأوَّل: بعضُ القتلِ إحياءٌ للجميع، حزم السادة وعامَّة هؤلاء السَّادة لم يكنْ شأنهم أن يردُّوا الناسَ إلى أهوائهم، وإلى الانسياق لهم بعُنْف السَّوق، وبالحَرَبِ في القوْدِ، بل كانوا لا يؤثرون التَّرهيبَ على الترغيب، والخشونة على التليين، وهم مع ذلك قد هُجُوا بأقبح الهجاءِ، ومتى أحبَّ السَّيِّدَ الجامعَ، والرئيسَ الكاملَ قومُه أشدَّ الحبِّ وحاطهمْ عَلى حسب حبه لهم، كان بُغْضُ أعدائهم له على حسب حبِّ قومه له، هذا إذا لم يَتوثَّب إليه ولم يعترض عليه من بني عمّه وإخوته مَن قد أطمعتْه الحال باللَّحاق به، وحَسَدُ الأقاربِ أشدُّ، وعداوتُهم على حسب حسدهم، وقد قال الأوَّلون: رضا الناس شيءٌ لا ينال، وقد قيل لبعض العرب: مَن السَّيِّدُ فيكم؟ قال الذي إذا أقبل هِبناه، وإذا أدْبرَ اغتبناه وقد قال الأوَّل: بَغْضَاء السُّوَق موصولة بالملوك والسادة، وتجري في الحاشية مجرى الملوك، صعوبة سياسة العوام وليس في الأرض عملٌ أكدّ لأهله من سِياسة العوامّ، وقدْ قال الهذْليُّ يصف صُعوبة السياسة:

وإن سياسة الأقوامِ فاعلـمْ لها صَعْدَاءُ مَطلبُها طويل

وقال آخرُ في شبيه بهذا المعنى:

ودونَ النَّدى في كلِّ قلبٍ ثـنـيَّةٌ لها مَصْعَدٌ حَزْنٌ ومُنْحَدرٌ سَهْلُ

ووَدَّ الفتى في كلِّ نـيلٍ يُنِـيلُـه إذا ما انقضى، لَوْ أنَّ نائله جَزْلُ

وقال عامر بن الطُّفيل:

وإنِّي وإنْ كُنتُ ابن سيِّدِ عـامـرٍ وفارسها المشهور في كلِّ مَوكبِ

فما سوَّدَتني عامر مـن وراثة أبى اللَّه أنْ أسمو بـأمٍّ ولا أبِ

ولكنَّني أحمي حِماها وأتَّـقـي أذاها وأرْمي مَن رماها بِمَنْكِبِ

وقال زياد بن ظبيان لابنه عُبيد اللَّه بن زياد وزياد ٌ يُغرغِر بنفسه: ألا أوصي بك الأمير؟ قال: لا، قال: ولمِ؟ قال: إذا لم يكنْ للحي إلاَّ وَصِيَّةُ الميِّت، فالحيُّ هو الميِّت، وقال آخر في هذا المعنى:

والعزٌّ لا يأتي بغير تطلُّب

وقال بَشامة بن الغدير في خلاف ذلك، وأن يثبت أن يكون منه كان:

وجَدْت أبي فيهم وَجَدِّي كليهما يُطاعُ ويؤتَى أمره وهو مُحْتَبي

فلم أتَعَمَّل للسِّيادة فِيهمُ ولكِنْ أتَتني طائعاً غيرَ مُتْعب

بحث في السعادة ومن الناس من يقول: إن العيشَ كلَّه في كثرة المال، وصحة البدن، وخمول الذكر، وقال مَن يخالفه: لا يخلو صاحب البدَن الصَّحيح والمال الكثير، مِنْ أن يكون بالأمور عالماً، أو يكونَ بها جاهلاً، فإن كانَ بها عالماً فعلمُه بها لا يتركه حتَّى يكون له من القول والعَمل على حسب علمه، لأنَّ المعرفة لا تكون كعدمها، لأنَّها لو كانت موجودة غيرَ عاملة لكانت المعرفة كعدمها، وفي القول والعملِ ما أوجبَ النَّباهة، وأدنى حالاته أنْ تُخرجه من حدِّ الخمول، ومتى أخرجته من حدِّ الخمول فقد صار معرَّضاً لمن يقدر على سلبه، وكما أنَّ المعرفة لا بدَّ لها من عملٍ، ولا بدَّ للعمل من أن يكون قولاً أو فعلاً، والقول لا يكونُ قولاً إلاَّ

وهناك مَقُول له، والفعلَ لا يكون فعلاً إلاَّ وهناك مفعول له، وفي ذلك ما أخْرَجَ من الخمول وعُرِف به الفاعل، وإذا كانت المعرفةُ هذا عملُها في التنبيه على نفسها، فالمالُ الكثيرُ أحقُّ بأنَّ عملَه الدّلالةُ على مكانه، والسِّعايةُ على أهله، والمالُ أحقُّ بالنميمة، وأولى بالشكر، وأخدع لصاحبه، بل يكون له أشدَّ قهراً، ولحيِّه أشدَّ فساداً، وإن كانتْ معرفتُه ناقصةً فبقدْرِ نقصانها يجهل مواضع اللذة، وإن كانت تامَّةً فبقدْرِ تمامها يُنْفى الخمول ويُجلبُ الذّكر، وبعدُ فليس يَفْهم فضيلة السلامة، وحقائق رُشْدِ العافية، الذين ليس لهمْ من المعرفة إلاّ الشَّدْو، وإلاَّ خلاَق أوساطِ الناس، ومتى كان ذلك كذلك، لم يُعرَف المدْخَل الذي من أجله يَكره ذو المال الشُّهرة، ومن عَرَفَ ذلك على حقّهِ وصدقِهِ، لم يدَعْه فهمُهُ لذلك حتّى يدلَّ على فهمه، وعلى أنَّه لا يفهم هذا الموضعَ حتَّى يفهم كلَّ ما كان في طبقته من العلم، وفي أقلَّ مِن ذلك ما يَبين به حاله مِن حال الخامل، وشروط الأمانيّ غيرُ شروط جوازِ الأفعال وإمكانِ الأمور، وليس شيء ألذُّ ولا أسرُّ مِن عِزِّ الأمر والنهي، ومن الظَّفَرِ بالأعداء، ومن عَقْد المنَن في أعناق الرجال، والسُّرور بالرِّياسة وبثمرة السيادة، لأنَّ هذه الأمورَ هي نصيبُ الرُّوح، وحَظُّ الذهن، وقِسْمُ النَّفس، فأمَّا المطعم والمشرب والمنكح والمشمَّة، وكلُّ ما كان من نصيب الحواسّ، فقد علمْنا أنَّ كُلَّ ما كانَ أشدَّ نَهَماً وأرغبَ، كانَ أتمَّ لوجدانه الطعم، وذلك قياسٌ على مواقع الطُّعْم من الجائع، والشرابِ من العطشان، ولكنَّا إذا ميَّلْنا بين الفضيلة التي مع السُّرور، وبين لذّة الطعام، وما يُحدِث الشَّره له من ألمِ السهر والالتهاب والقلق وشدَّةِ الكلب، رأينا أنَّ صاحِبَهُ مفضولٌ غيرُ فاضل، هذا مَعَ ما يُسَبُّ به، ومع حمله له على القبيح، وعلى أنّ نعمتَهُ متى زالتْ لم يكن أحدُ أشقى منْهُ، هذا مع سرور العالم بما وهَبَ اللَّه لَهُ من السلامة من آفة الشَّرَه، ومِن فسادِ الأخلاط.

وبعدُ فلا يخلو صاحبُ الثَّروة والصامتِ الكثير، الخاملُ الذكر مِن أن يكونَ ممّن يرَغب في المركب الفاره، والثوب اللين، والجاريةِ الحسنةِ، والدار الجيّدة، والمطْعَم الطيِّب، أو يكون ممن لا يرغب في شيءٍ من ذلك، فإن كان لا يرغب في هذا النوع كلِّه، ولا يعمل في ماله للدَّار الآخرةِ، ولا يُعجَب بالأحدوثة الحسنة، ويكونُ ممن لا تعْدو لذّتُهُ أن يكون كثير الصامت، فإنّ هذا حمارٌ أو أفسَدُ طبْعاً من الحمار، وأجْهَل من الحمار، وقدْ رضي أن يكونَ في مَاله أسوأ حالاً من الوكيل، وبعدُ فلا بُدَّ للمال الكثير من الحِراسةِ الشَّديدة، ومن الخوف عليه، فإن أعَملَ الحِراسة له، وتَعب في حفظه وَحَسَبَ الخوف، خرجَ عليه فضْلٌ، فإنْ هو لم يَخَفْ عليهِ ولاَ يكون ذلك في سبيل التوكُّل فهو في طباع الحمار وفي جهْله، والذي أوجب لَهُ الخمول ليؤدِّيه إلى سلامة المال لَهُ، قدْ أعْطاهُ من الجهل مَا لا يكون مَعَهُ إلاّ مثْلُ مقْدَار لذة البهيمةِ في أكل الخَبَط، وإنْ هو ابتاع فُرَّهَ الدواب، وفُرَّهَ الخَدم والجَواري، واتخذ الدارَ الجيِّدة، والطعَام الطيِّب والثوب الليّنَ وأشباهَ ذلك، فقد دلَّ على مَالِهِ، ومَن كانَ كَذلِكَ ثُمَّ ظهرتْ لَهُ ضَيْعَةٌ فاشية، أو تجارة مُرْبحة، يحتمل مثْلَ ذلكَ الذي يظهَر من نفقته، وإلا فإنَّه سيُوجَد في اللُّصُوص عنْد أوَّل مَن يقطع عليْهِ، أو مكابرة تكُون، أو تَعب يؤخذ لأهله المال العظيم، ولو عنى بقوله الخمول وصحة البدنِ والمال، فذهب إلى مقدارٍ من المال مقبولاً ولكن ما لمن كان مالُه لا

يجاوز هذا المقدارَ يَتهيَّأ الخمول، طبقات الخمول ولعمري إنّ الخمولَ لَيكونُ في طبقاتٍ كثيرة، قال أبو نخيلة:

شكرتُك إنَّ الشُّكْرَ حَبْلٌ من التّقى   ومَا كلُّ مَن أقرَضْتَه نِعْمَةً يَقضِي

فأحييتَ من ذكري وما كان خامِلاً   ولكنَّ بعض الذكر أنبَه من بَعْض

قالوا: ولسقوط الخَامل من عُيون الناس، قالت الأعرابيَّة لابنها: إذا جلستَ معَ الناس فإنْ أحسنْتَ أنْ تقولَ كما يقولون فقُلْ، وإلاَّ فخالِفْ تُذْكَر وأمَّا الأصمعيُّ فزعَمَ أنَّها قالت: فخالفْ ولو بأنْ تعلّقَ في عنُقك أيرَ حمار، وليس يقول هذا القولَ إلاَّ مَنْ ليسَ يعرف شكَر الغِنى، وتقلُّبَ الأموال إلى مَا خُلِقتْ لَهُ، وقطْعَها عُقُلَها، وخَلْعَها عُذُرَها، وتِيهَ أصحابها، وكثرةَ خُطاهم في حفظِها وسترها، وعجزْهم عن إماتةِ حركتها ومنعها من جميع مَا تُنازع إليه وتحمل عليه، ملحة من الملح وقد روينا في المُلَح أنَّ رجلاً قال لصاحبٍ لهَ: أبُوكَ الذي جهل قدْرَهُ، وتعدَّى طورَه، فشقَّ العَصَا، وفارَقَ الجماعة، لا جَرَمَ لقد هُزم ثم أُسر ثمَّ قتلَ ثمَّ صُلب قال لَهُ صاحبهُ: دَعْني مِن ذكر هزيمةِ أبي، ومن أسْرِهِ وقتِله وصلبهِ، أبُوكَ هلْ حدَّثَ نفسَه بشيء من هذا قطُّ؟

حكم الأسباب في همم الناس

وليس إلى النَّاس بُعْدُ الهمم وقصَرُها، وإنما تجري الهمَمُ بأهلها إلى الغايات، على قدر مَا يعرِض لهم من الأسباب، ألا تَرى أنّ أبعدَ النَّاس هِمَّة في نفسِه، وأشدَّهم تلفتاً إلى المراتب، لا تنازعه نفسه إلى طلب الخلافة، لأن ذلك يحتاجُ إلى نسب، أو إلى أمر قد وُطِّئ لَهُ بسبب، كسبَب طلبِ أوائل الخَوارج الخلافة بالدِّين وحدَه دونَ النَّسب، فإن صارَ من الخوارج فقد حدثَ له سببُ إمكانِ الطَّلب، أكْدى أم نجح، وقد زعمَ ناسٌ من العلماء أنَّ رجالاً خُطِبت للسِّيادة والنَّباهة والطَّاعة في العشيرة.

سلطان الحظ في نباهة القبيلة

وكذلك القبيلة ربَّما سَعِدت بالحظّ، وربَّما حظيت بالجَدِّ، وإنَّما ذلك على قدر الاتفاق، وإنما هو كالمعافى والمبتلى، وإنما ذلك كما قال زهير:

وَجَدْتُ المنايا خَبْطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِبْتُمِتْهُ ومَنْ تُخْطئ يعمَّرْ فيَهْرَمِ

سلطان الحظ على الآثار الأدبية

وكما تَحْظى بعض الأشعار وبعض الأمثال، وبعضُ الألفاظ دون غيرها، ودونَ ما يجرى مجراها أو يكونُ أرفعَ منها، قالوا: وذلك موجودٌ في المرزوق والمحروم، وفي المُحارَف والذي تجوز عليه الصَّدَقةُ، وكم مِن حاذقٍ بصناعته، وكثير

الجَوَلانَ في تجارته، وقد بلغ فرغانَة مرَّة، والأندلس مرة، ونقَّب في البلاد، وربَع في الآفاق، ومن حاذقٍ يُشاوَر ولا يُستَعْمَل، ثمَّ لا تجدهما يَستَبينان، من سُوءِ الحال وكثرة الدَّين، ومن صاحب حربٍ منكوب، وهو اللَّيثُ على براثنه، معَ تمَام العزيمةِ وشدَّة الشَّكيمة، ونَفَاذ البصيرة، ومع المعرفة بالمكيدة والصَّبْر الدَّائم على الشدَّة، وبَعْدُ؛ فكَمْ مِن بيت شعر قد سار، وأجودُ منه مقيمٌ في بطون الدَّفاتر، لا تزيده الأيَّامُ إلاَّ خمولاً، كما لا تزيد الذي دونَه إلاّ شُهرةً ورفعةً، وكم من مَثلٍ قد طار به الحظُّ حتَّى عرَفَته الإماءُ، ورَوَاه الصِّبيان والنِّساء،

أثر الحظ في نباهة الفرسان

وكذلك حظوظ الفُرسان، وقد عُرِفتْ شُهرةُ عنترة في العامَّة، ونباهة عمرو بن مَعْدِ يكَرِب، وضَرَبَ الناسُ المثلَ بعبيد اللَّه بن الحُرّ، وهم لا يعرفون، بل لم يسمعُوا قطُّ بعتُيَبة بن الحارث بن شهاب، ولا ببسطامِ بن قيس، وكان عامرُ بن الطفيل أذكَرَ منهما نسباً، ويذكرون عُبيدَ اللَّه بنَ الحُرِّ، ولا يعرفونَ شُعبة بن ظُهير ولا زُهيرَ بن ذُؤيب، ولا عَبَّادَ بنَ الحصين، ويذكرون اللسن والبيان والخطيب ابن القِرِّيَّة ولا يعرفون سَحبانَ وائل، والعامَّة لم يصل ذكر هؤلاء إليهم إلاَّ من قِبَل الخاصَّة، والخاصَّة لم تَذْكُر هؤلاء دون أولئك، فتركَتْ تحصيلَ الأمور والموازنَة بين الرجال وحكَمتْ بالسَّابق إلى القلب، على قدر طباع القلب وهيئته، ثمَّ استوت عِلل العامَّة في ذلك وتشابهت، والعامَّة والباعَة والأغنياء والسِّفْلة كأنَّهم أعذارُ عامٍ واحد، وهم في باطنهم أشدُّ تشابهاً من التوأمين في ظاهرهما، وكذلك هم في مقادير العقول وفي الاعتراض والتسرُّع، وإن اختلفت الصُّور والنَّغَم، والأسْنان والبلدان، تشابه طبائع العامّة في كلّ بلدة وفي كل عصر وذكر اللَّه عزَّ وجلَّ ردَّ قريشٍ ومُشركي العَرَبِ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم قولَهُ، فذكر ألفاظهم، وجَهْد معانيهم، ومقادير هممهم التي كانت في وزن ما يكون من جميع الأمم إلى أنبيائهم، فقال:"تَشَابَهتْ قُلُوبُهمْ" وقال: "أتَواصَوْا بِهِ" ثم قال: "وَخُضتمْ كالَّذِي خَاضُوا"، ومثلُ هذا كثير، ألا ترَى أنَّكَ لا تَجدُ بُدًّا في كلِّ بلدةٍ وفي كلِّ عصر للحاكة من أن يكونوا على مقدارٍ واحد وجهة واحدةٍ، من السَّخَط والحمق، والغباوة والظلم، وكذلك النخَّاسون على طبقاتهم، من أصناف ما يبيعون، وكذلك السماكون والقلاَّسون وكذلك أصحابُ الخُلقان كلُّهم، في كلِّ دهرٍ وفي كلِّ بلدٍ، على مثال واحد، وعلى جهةٍ واحدَة.
وكلُّ حجَّامٍ في الأرض فهو شديد الاستهتار بالنبيذ، وإن اختلفوا في البُلدان والأجناس والأسنان، ولا ترى مسجوناً ولا مَضْروباً عندَ السُّلطان إلاّ وهُو يقول: إنّي مظلوم، ولذلك قال الشاعر:

لم يَخلق اللَّهُ مَسْجُوناً تسائلُـهُ ما بالُ سِجْنك إلاّ قالَ مَظلومُ

وليس في الأرض خَصمانِ يتنازعان إلى حاكم، إلاّ كلُّ واحدٍ منهمُا يدَّعِي عدمَ الإنصاف والظُّلم على صاحبه.

مبالغة الإنسان في تقدير ما ينسب إليه

وليس في الأرض إنسانٌ إلاَّ وهُوَ يطرَب من صوتِ نفسه، ويعتريه الغَلطَ في شعره وفي ولده، إلاّ أنَّ الناسَ في ذلك على طبقاتٍ من الغَلط: فمنهم الغرق المغمور، ومنهم من قد نال من الصواب ونال من الخطأ، ومنهم من يكون خطؤه مستوراً لكثرة صوابه، فما أحسَنَ حالَهُ ما لم يُمتَحَنْ بالكشف، ولذلك احتاج العاقل في العُجْبِ بولده، وفي استحسان كتبه وشعره، من التحفظ والتوقّى، ومن إعادة النظر والتُّهمة إلى أضعاف ما يحتاج إليه في سائر ذلك

جود حاتم وكعب بن مامة

والعامّة تحكم أنَّ حاتماً أجودُ العرب، ولو قدَّمَتْه على هَرِمِ الجَوادِ لما اعترَضْتَه عليهم، ولكنَّ الذي يُحَدَّثُ به عن حاتم، لا يبلغ مقدارَ ما رَوَوْهُ عن كعبِ بن مامة، لأنَّ كعباً بذَلَ نفسَه في أعطية الكرم وبَذْل المجهود فساوى حاتماً من هذه الوجه، وبايَنَه ببذْل المُهجة ، ونحن نقول: إنَّ الأشعارَ الصحيحة بها المقدارُ الذي يوجبُ اليقين بأنَّ كعباً كان كما وصفوا، فلو لم يكن الأمرُ في هذا إلى الجُدود والحظوظ والاتِّفاقات، وإلى عللٍ باطنةٍ تجري الأمورُ عليها، وفي الغوص عليها وفي مَعرفتِها بأعيانها عُسر، لَمَا جرت الأمورُ على هذه المجاري، ولو كان الأمرُ فيها مفوَّضاً إلى تقدير الرأي، لكان ينبغي لغالب بن صعصعة أن يكونَ من المشهورين بالجود، دون هرِمٍ وحاتم

كلف العامة بمآثر الجاهلية

فإنْ زعمتَ أنَّ غالباً كان إسلاميًّا وكان حاتمٌ في الجاهلية، والناسُ بمآثر العرب في الجاهليَّة أشدُّ كلفاً، فقد صدقت، وهذا أيضاً يُنبئك أنَّ الأمور في هذا على خلاف تقدير الرأي، وإنَّما تجري في الباطن على نسقٍ قائم، وعلى نظر صحيح، وعلى تقدير محكم، فقد تقدَّم في تَعْبيتهما وتسويتهما مَنْ لا تخفى عليه خافية، ولا يفُوتُه شيءٌ ولا يُعجزه، وإلاّ فما بالُ أيّام الإسلام ورجالها، لم تكنْ أكبرَ في النفوس، وأحلَّ في الصدور مِن رجال الجاهليَّة، مع قُرب العهد وعِظَم خَطرِ ما ملكوا، وكثرة ما جادت به أنفسُهم، ومع الإسلام الذي شملهم، وجعله اللَّه تعالى أولى بهم من أرحامهم.
ولو أنَّ جميعَ مآثر الجاهليَّة وُزِنت به، وبما كان في الجماعات اليسيرة من رجالات قريش في الإسلام لأربت هذه عليها، أو لكانت مثلها.

دلالة الخلق على الخالق

فليس لقدْر الكلب والدِّيك في أنفسهما وأثمانهما ومناظرهما ومحلّهما من صُدور العامَّة أسلفنا هذا الكلام، وابتدأنا بهذا القول، ولسنا نقِف على أثمانهما من الفضَّة والذَّهب، ولا إلى أقدارهما عند الناس، وإنما نَتَنَظَّرُ فيما وضع اللَّه عزَّ وجلَّ فيهما من الدَّلالة عليه، وعلى إتقان صُنْعه، وعلى عجيب تدبيره، وعلى لطيفِ حكمته،

وفيما استخْزنهما من عجائب المعارف، وأودعهما من غوامض الأحساس، وسخّر لهما من عظام المنافع والمرافق، ودلَّ بهما على أنَّ الذي ألبَسهُما ذلك التَّدبيرَ، وأودَعَهُمَا تِلك الحكم، يجبّ أن يفكَّر فيهما؛ ويعتَبَر بهما، ويسبَّح الله عزَّ وجلّ عندهما، فغشَّى ظاهرهما بالبرهان، وعمَّ باطنَهما بالحِكم، وهيَّج عَلَى النظرِ فيهما والاعتبار بهما؛ ليعلم كلُّ ذي عقل أنّه لم يَخْلق الخلق سُدًى؛ ولم يترك الصُّور هَمَلاً؛ وليعلموا أنَّ الله عزّ وجلّ لم يَدَع شيئاً غُفْلاً غير موسوم، ونثراً غير منظوم، وسُدًى غير محفوظ؛ وأنّه لايخطئه من عجيب تقديره، ولا يعطله من حلْي تدبيره، ولا من زينة الحكم وجلال قدرة البرهان، ثمَّ عمّ ذلك بين الصُّؤابة والفرَاشة، إلى الأفلاك السبعة وما دونَها من الأقاليم السبعة.

تأويل الآية الكريمة: "ويخلق ما لا تعلمون".

وقد قال تعالى: "وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ"، وقد يتَّجه هذا الكلامُ في وجوه: أحدها أنْ تكون ها هنا ضروبٌ من الخلق لا يعلم بمكانهم كثيرٌ من الناس، ولابدَّ أن يعرف ذلك الخَلْقُ معنَى نفسه، أو يعلمه صفْوة جنُودِ الله وملائكته، أو تعرفه الأنبياء، أو يعرِفه بعضُ الناس، لايجوز إلاّ ذلك، أو يكون الله عَّز وجلَّ إنما عنى أنّه خلق أسباباً، ووهب عِلَلاً، وجعل ذلك رِفداً لما يظهرُ لنا ونظاماً، وكان بعض المفسِّرين يقول: من أراد أن يعرف معنى قوله: "وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُون" فَلْيُوقِدْ ناراً في وسط غيضه، أو في صحراء بريّة ثمّ ينظر إلى ما يغشى النارَ من أصناف الخلق من الحشرات والهمج فإنّه سيرى صُوراً، ويَتَعرَّف خلقاً لم يكن يظنُّ أنَّ الله تعالى خلق شيئاً من ذلك العالم، وعَلَى أنَّ الخلق الذي يغْشى نارَهُ يختلف عَلَى قدر اختلافِ مواضع الغياض والبحار والجبال، ويعلم أنَّ مَا لم يبلغه أكثرُ وأعجب، ومَا أردُّ هذا التأويل، وإنّه ليدخل عندي في جملةِ مَا تدلُّ عليه الآية، ومَنْ لَمْ يَقل ذلك لم يفهَمْ عن ربِّه ولم يفقهْ في دينه.

ديدان الخل والملح

كأنّك لا ترى أنَّ في دِيدانِ الخلِّ والملح، والدِّيدَانِ التي تتولد في السُّموم إذا عَتقت وعرض لها العفن وهي بَعْدُ قواتل عبرةً وأعجوبة، وأنَّ التفكّر فيها مَشحذةٌ للأذهان، ومَنْبَهةٌ لذَوي الغفْلة، وتحليلٌ لعقدة البُلْدة، وسببٌ لاعتياد الرويّة وانفساح الصدور، وعزٌّ في النفوس، وحلاوةٌ تقتاتُها الرُّوح، وثمرةٌ تغذّي العقل، وتَرَقٍّ في الغايات الشريفة، وتَشَرُّفٌ إلى معرفة الغايات البعيدة،

فأرة البيش والسمندل

وكأنّك لا ترى أنَّ في فأرة البيش وفي السمنْدَل آيَةً غربية، وصفةً عجيبة، وداعيةً إلى التفكُّر، وسبباً إلى التعجُّب والتَّعجيب.

الجُعَل والورد

وكأنَّك لا ترى أنّ في الجُعَل، الذي متى دفنتَه في الورد سكنَتْ حركته وبطلتْ في رأي العين رُوحُه، ومتى أعدْتَه إلى الرَّوث انحلّت عُقدته، وعادت حركتُه، ورجَع حسُّه أعجَبَ العجَبِ، وأحكم الحكم.

حصول الخلد على رزقه

وأيُّ شيء أعجبُ من الخُلْد وكيف يأتيه رزقه، وكيف يهيِّئ الله له ما يقوته وهو أعمى لا يبصر، وأصمُّ لا يسمَع، وبليدٌ لا يتصرَّف، وأبلهُ لا يعرف، ومع ذلك أنّه لا يجوز بابَ جُحره، ولا يتكلّف سوى ما يجلبُ إليه رازقُه ورازق غيره، وأيُّ شيءٍ أعجبُ من طائرٍ ليس له رزقٌ إلاَّ أن يخلِّل أسنانَ التِّمساح، ويكون ذلك له.

الطائران العجيبان

وأيُّ شيءٍ أعجبُ من طائرين، يراهما الناسُ من أدنى جُدود البحر من شِقِّ البصرة، إلى غاية البحر من شِقّ السِّند، أحدهما كبيرُ الجُثّة يرتفع في الهواء صُعُداً، والآخَر صغير الجثَّةِ يتقلّب عليه ويعبَث به، فلا يزال مرَّةً يرفرفُ حَولَه ويرتقي على رأسه، ومرَّةً يطيرُ عند ذُنابَاهُ، ويدخلُ تحتَ جَناحه ويخرُج من بينِ رجليه، فلا يزال يغُمُّه ويكرُبه حتَّى يتّقيه بذرقِهِ، فإذا ذَرَق شحا له فاه فلا يخطئ أقصى حلقِه حتَّى كأنّه دحا به في بئر، وحتّى كأنَّ ذَرْقه مِدحاةٌ بيد أسوار، فلا الطائر الصغير يخطئ في التلَقّي، وفي معرفته أنّه لا رزق له إلاّ الذي في ذلك المكان؛ ولا الكبير يخطئ التَّسديد، ويعلمُ أنّه لا ينجيه منه إلا أنْ يتّقِيَه بذرْقِه، فإذا أوعى ذلك الذَّرْق، واستَوْفى ذلك الرِّزق، رجع شبعانَ ريَّانَ بقُوتِ يومه، ومضى الطائرُ الكبير لِطِيَّتِه، وأمرهما مشهورٌ وشأنهما ظاهر، لا يمكن دفْعه ولا تُهَمَةُ المخبرين عنه.

اختلاف بين الحيوان في الطباع

فجعل تعالى وعزَّ بعضَ الوحوش كَسُوباً محتالاً، وبعضَ الوحوش متوكِّلاً غيرَ محتال، وبعضَ الحشرات يدَّخِر لنفسه رزْقَ سنَتِه؛ وبَعضاً يتَّكل على الثِّقةِ بأنَّ له كلَّ يوم قدْرَ كِفايتِهِ، رزقاً معَدًّا وأمراً مقطوعاً، وَجَعَلَ بعضَ الهمَج يدَّخر، وبعضَه يتكَسَّب، وبعضَ الذكورة يعُولُ وَلده، وبعض الذكورة لا يعرف وَلده، وبعضَ الإناث تُخَرِّج ولدها، وبَعض الإناث تضيِّع ولدها وتكفلُ وَلدَ غيْرها، وبَعْضَ الأجناس معطوفةً على كل وَلَد من جنسها، وبعض الإناث لا تعرف وَلدَها بعد استغْنَائهِ عنها، وبعض الإناث لا تزال تعرفُه وتعطفُ عليْهِ، وبعضَ الإناث تأكلُ وَلدهَا، وكذلك بعض الذكُورة، وبعضَ الأجناس يُعادي كُلَّ ما يكسر بيضَها أو يأكل أولادَهَا، وجعل يُتْمَ بعض الحيوان من قِبَل أمَّهاتها، وجعل يُتْمَ بعضها من قِبَل آبائها، وجعل بعضَها لا يلتمس الولد وإن أتاه الولد، وجعل بعضَها مستفرغَ الهَمِّ في حُبِّ الذَّرءِ والتماس الولدِ؛ وجعل بعضها يُزَاوج وبعضها لا يزاوج ليكون للمتوكل من الناس جهةٌ في توكُّله، وللمتكسِّب جهةٌ في تكسُّبه وليُحضِرَ على بالهم أسباب البرِّ والعُقوق، وأسبابَ الحظْر والتربية، وأسبابَ الوَحشة من الأرحام الماسَّة، افتراق

المعاني واختلاف العلل ولمكانِ افتراق المعاني واختلافِ العلل، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعضهم: اعقِلْهَا وتَوَكَّلْ، وقال لبلال: "أنفِقْ بلاَل، ولاتخشَ مِنْ ذي العَرْش إقلاَلاً".
فافهموا هذا التدبيرَ، وتعلَّموا هذه الحكم، واعرفوا مداخلَها ومخارجَها ومفرَّقها ومجموعَها؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يُرَدِّد في كتابه ذِكرَ الاعتبار، والحثَّ عَلَى التفكير، والترغيبَ في النظر وفي التثبُّت والتعرُّف والتوقُّف، إلاّ وهو يريد أن تكونوا علماءَ من تلك الجهة، حكماءَ من هذه التعبئة.
المعرفة والاستدلال ولولا استعمال المعرفة لما كان للمعرفة معنى، كما أنّه لولا الاستدلال بالأدلة لما كان لوضع الدلالة معنى، لولا تمييزُ المضارِّ من المنافع، والرديِّ من الجيِّد بالعيون المجعولة لذلك، لما جعَل الله عزَّ وجلّ العيونَ المدرِكَة، والإنسان الحسَّاس إذا كانت الأمور المميَّزة عنده، أخذ ما يحتاج إليه وترك ما يستغني عنه وما يَضُرّ أخذه، فيأخذ ما يحبُّ ويدَعُ ما يكره، ويشكر على المحبوب ويصبر على المكروه، حتى يذكر بالمكروه كيفيَّة العِقاب ويَذْكُر بالمحبوب كيفيّة الثواب، ويعرفَ بذلك كيفيَّة التضاعيف، ويكون ما يغمُّه رادِعاً له، وممتَحَناً بالصَّبْر عليه، وما يسرُّه باسطاً له ومُمْتَحَناً بالشكر عليه، وللعقل في خِلال ذلك مجال، وللرأي تقلب، وتَنشَقُّ للخواطر أسبابٌ، ويتهيّأ لصواب الرأي أبواب، ولتكون المعارف الحسِّية والوجدانات الغريزيّة، وتمييز الأمور بها، إلى ما يتميز عند العقول وتحصره المقاييس، وليكون عملُ الدُّنيا سُلَّماً إلى عمل الآخرة، وليترَقَّى من مَعْرِفة الحواس إلَى مَعْرِفةِ العُقول، ومن معْرِفة الرويّة من غايةٍ إلَى غايةٍ؛ حتَّى لاَ يرضى من العِلم والعَمَل إلاّ بما أدّاه إلَى الثَّواب الدائم، ونجَّاه من العِقاب الأليم،

ما يحسن الكلب مما لا يحسنه الإنسان

سنذكُرُ طرَفاً ممَّا أودَعَ الله عزَّ وجلَّ الكلبَ ممَّا لاتحسنُه أنت أيُّها الإنسان، مع احتقارك له وظلمِك إيَّاه، وكيف لا تكون تلك الحكمُ لطيفةً، وتلك المعاني غريبةً، وتلك الأحساسُ دقيقة، ونحنُ نَعلم أنَّ أدقَّ الناس حِسّاً وأرقهُم ذِهناً وأحضرَهم فَهْماً،وأصَحَّهم خاطِراً وأكملَهُمْ تَجْرِبَة وعلماً، لَوْ رَامَ الشيء الذي يحسنُه الكلب في كثيرِ من حالات الكلب لَظَهَر له من عجزه وخُرْقه، وكلال حدِّه وفساد حسِّهِ، ما لا يعرف بدونه إنَّ الأمور لَم تُقسَم على مقدار رأيه، ولا عَلَى مبلغ عقلِه وتقديره، ولا على محبَّتِه وشهوته؛ وأنّ الذي قسم ذلك لا يحتاج إلى المشاورَة والمعاونَة، وإلى مكانَفةٍ ومُرافدة، ولا إلى تجربة ورويّة، ونحن ذاكرون من ذلك جملاً إن شاء الله تعالى.

خبرة الكلب في الصيد

اعلم أنَّ الكلب إذا عاين الظِّباءَ، قريبةً كانت أو بعيدةً، عرف المعْتَلَّ وغير المعْتل وعرَف العَنز من التَّيس، وهو إذا أبصرَ القطيعَ لم يقصِد إلاّ قصدَ التَّيس وإنْ علم أنّه أشدُّ حُضراً، وأطولُ وثبةً، وأبعدُ شوطاً ويَدَعُ العنز وهو يرى ما فيها من

نقصان حُضْرِها وقصر قابِ خَطوها، ولكنَّه يعلم أنّ التَّيس إذا عدا شوطاً أو شوطين حَقِبَ ببوله.
ما يعرض للحيوان عند الفزع وكلُّ حيوانٍ إذا اشتدَّ فزعه، فإنّه يَعرض له إمَّا سَلَس البول والتقطير، وإمَّا الأَسْرُ والحَقب، وكذلك المضروب بالسياط على الأكتاف، وبالعصيِّ على الأستاه، وما أكثر ما يعتريهم البول والغائط، وكذلك صار بعضُ الفرُسان الأبطال إذا عايَنَ العدُوّ قطَّرَ إلى أن يذهب عنه، لِهَولِ الجَنان، وإذا حَقِبَ التَّيس لم يستطع البَول مع شدَّة الحُضر، ومع النَّقْز والزَّمَع، ووضع القوائم معاً ورَفعِها مَعاً، في أسرَعَ من الطَّرْف فيثقُل عَدْوُهُ، ويقصرُ مَدَى خُطاه، ويعتريه البُهْر حتَّى يلحقه الكلبُ فيأخذه، والعنز من الظِّباء إذا اعتراها البولُ من شدَّة الفزَع لم تجمعه، وحذفت به كإيزاغ المَخَاض الضّوارِبِ، لسَعَةِ السَّبيل وسهولةِ المخرج، فتصير لذلك أدومَ شَدّاً، وأصبرَ على المطاولة.
فهذا شيءٌ في طبع الكلب معرفتُه، دونَ سائر الحيوان. والكلب المجرِّب لا يحتاجُ في ذلك إلى مُعاناةٍ، ولا إلى تعلُّم، ولا إلى رويّة ولا إلى تكلف، قد كفاه ذلك الذي خَلَق العَقل والعاقل والمعقُول، والداءَ والدواءَ والمداواة والمداوي، وقسَم الأمور على الحكمة، وعلى تمام مصلحة الخليقة.

ذكاء الكلب ومهارته في الاحتيال للصيد

ومن معرفة الكلب، أنَّ المُكلِّب يُخرجه إلى الصيد في يوم، الأرضُ فيه ملبَسة من الجليد، ومغشَّاةٌ بالثلج، قد تراكم عليها طبقاً عَلَى طبَق، حتَّى طبَّقها واستفاض فيها، حتَّى ربَّمَا ضربتْه الريح ببَرْدها، فيعود كلُّ طبقٍ منها وكأنّه صفاةٌ ملساء، أو صخرةٌ خلْقاء، حتى لا يثبت عليها قدَمٌ ولا خُفٌّ، ولا حافر ولا ظِلف، إلاَّ بالتثبيت الشديد، أو بالجَهْدِ والتَّفريق فيمضي الكلاَّبُ بالكلب، وهو إنسانٌ عَاقل، وصيَّادٌ مجرِّب، وهو مع ذلك لا يدري أينَ جُحر الأرنب من جميع بَسائطِ الأرض، ولا موضعَ كُناس ظبيٍ، ولا مَكْو ثعلب، ولا غيرَ ذلك من موالج وحوشِ الأرض؛ فيتخَّرق الكلب بينَ يديه وخَلفَهُ، وعن يمينه وشماله ويتشمّمُ ويتبصّر، فلا يزال كذلك حتَّى يقِف على أفواه تلك الجِحرَة، وحتى يُثير الذي فيها بتنفيس الذي فيها، وذلك أن أنفاسها وبُخارَ أجوافهَا وأبدانِها، وما يخرج من الحرارة المستكنّةِ في عمق الأرض ممّا يُذيب ما لاقاهَا من فمِ الجُحْر، من الثَّلج الجامد، حتى يرقَّ ويكاد أن يثقبه وذلك خفيٌّ غامض، لا يقع عليه قانص ولا راعٍ، ولا قائف ولا فلاّح، وليس يقع عليه إلاّ الكلب الصائد الماهر، وعلى أنّ لِلكلب في تَتَبُّع الدُّرَّاج والإصعادِ خَلْفَ الأرانب في الجبل الشاهق، من الرِّفق وحسن الاهتداء والتأتِّي ما يخفى مكانه على البيازرة والكلاّبين.

الانتباه الغريزي في الكلب

وقد خبّرني صديقٌ لي أنّه حبس كلباً له في بيتٍ وأغلَقَ دونه الباب في الوقت الذي كان طبَّاخه يرجع فيه من السوق ومعَه اللحم، ثمَّ أحدَّ سِكِّيناً بسكين، فنبَح الكلب وقلق، ورام فتحَ الباب؛ لتوهمّه أنَّ الطَّبَّاخ قد رجَع من السوق بالوظيفة، وهو يحد

السِّكِّين ليقطع اللَّحم ، قال: فلما كان العشيُّ صنَعْنَا به مثلَ ذلك، لنتعرَّف حالَه في معرفة الوقت، فلم يتحرّك، قال: وصنعتُ ذلك بكلبٍ لي آخر فلم يَقْلَقْ إلاّ قلقاً يسيراً، فلم يلبث أنْ رجَعَ الطّباخ فصنَع بالسّكّين مثل صنيعي، فقلِق حتَّى رام فتحَ الباب، قال فقلت: والله لَئنْ كان عرفَ الوقتَ بالرَّصْد فتحرَّك له، فلما لم يشَمَّ ريحَ اللحم عرَف أنَّه ليس بشيء، ثمَّ لما سمع صوتَ السِّكِّين والوقتُ بَعْدُ لم يَذْهب، وقد جيء باللحم فشمَّ ريحَ اللَّحم من المطبخ وهو في البيت، أو عرف فصْلَ ما بين إحدادِي السِّكِّين وإحدادِ الطباخ، إنّ هذا أيضاً لَعَجَب، وإنّ اللحمَ ليكون بيني وبينَه الذراعان والثلاث الأذرع، فما أجدُ ريحَه إلاّ بَعْدَ أنْ أدْنِيَه من أنفي، وكلُّ ذلك عجب.

ولم أجِدْ أهل سكّة أصطفانُوس، ودار جاريَة، وباعَة مُرَبَّعَةِ بني مِنْقرٍ يشُكُّون أنَّ كلباً كان يكونُ في أعلى السكة، وكان لايجوز مَحْرَس الحارس أيامَ الأسبوع كلِّه، حتَّى إذا كان يومُ الجمعة أقبلَ قبْلَ صلاة الغداة، من موضعه ذلك إلى باب جاريَة، فلا يزال هناكَ مادام على مِعْلاق الجزَّار شيءٌ من لحم، وباب جاريَة تُنحر عندَه الجُزُر في جميع أيّام الجمع خاصَّة، فكان ذلك لهذا الكلب عادةً، ولم يره أحدٌ منهم في ذلك الموضع في سائر الأيَّام، حتَّى إذا كان غداةَ الجمعة أقبَل. فليس يكونُ مِثْلُ هذا إلاّ عن مقداريّةٍ بمقدار ما بين الوقتين، ولعلَّ كثيراً من الناس ينتابون بعّض هذه المواضع في يومِ الجمعةِ، إمّا لصلاةٍ، وإمّا لغير ذلك، فلا يَعْدِمُهُم النِّسيان من أنفسهم، والاستذكار بغيرهم، وهذا الكلبُ لم ينسَ من نفسه، ولا يستذكر بغيره، وزعم هؤلاء بأجمعهم أنَّهم تفقَّدوا شأنَ هذا الكلب منذ انتبهوا لصَنيعه هذا، فلم يجِدُوه غادرَ ذلك يوماً واحداً، فهذا هذا.

قصّة في وفاء الكلب

وأنشد أبو الحسن بن خالويه عن أبي عُبيدة لبعض الشعراء:

يُعَرِّدُ عنهُ جارُهُ وشقيقُـه   وينبش عنه كلْبُهُ وَهْو ضاربُهْ

قال أبو عبيدة: قيل ذلك لأنَّ رجلاً خرج إلى الجَبّان ينتظر ركابَه فأتبعه كلبٌ كان له، فضرب الكلبَ وطردَه، وكره أن يتبعه، ورماه بحجر، فأبى الكلبُ إلاّ أن يذهب معه، فلما صار إلى الموضع الذي يريد فيه الانتظار، ربضَ الكلبُ قريباً منه، فبينا هو كذلك إذ أتاهُ أعداءٌ لَهُ يطلبونه بطائلةٍ لهم عنده، وكان معه جار لَهُ وأخوه دِنْياً، فأسلماه وهربا عنه، فجرح جِراحاتٍ ورُمِي بهِ في بئرٍ غير بعيدة القعر، ثم حَثَوْا عليه من التراب حتَّى غطّى رأسه ثم كُمِّمَ فوقَ رأسِه منه، والكلبُ في ذلك يَزجُم ويَهِرُّ، فلمَّا انصرفوا أتى رأسَ البئرْ؛ فما زال يَعوي وينبث عنه ويحثو التُّرَابَ بيده ويكشف عن رأسه حتى أظهر رأسه، فتنفّسَ ورُدَّتْ إليه الرُّوح؛ وقد كاد يموتُ ولم يبق منه إلاّ حُشاشة، فبينا هو كذلك إذ مَرّ ناس فأنكروا مكان الكلب ورأوه كأنّه يحفِر عن قبر، فنظروا فإذا هم بالرَّجُلِ في تلك الحال، فاستشالوه فأخرجوه حيّاً، وحَملوه حتَّى أدَّوه إلى أهله، فزعم أنّ ذلك الموضعَ يُدْعَى ببئر الكلب، وهو

مُتيامِن عن النَّجف، وهذا العملُ يدل عَلَى وَفَاء طبيعي وإلفٍ غريزي ومحاماةٍ شديدة، وعلى معرفةٍ وصبرٍ، وعلى كرم وشكر، وعلى غناءٍ عجيب ومنفعةٍ تفوق المنافع، لأنّ ذلك كلَّه كان من غير تكلف ولا تصنُّع.
مؤمن بن خاقان والأعرابي وقال مؤمَّل بن خاقان، لأعرابيٍّ من بني أسد، وقد أكَلَ جَرْوَ كلب: أتأكل لحم الكلب وقد قال الشاعر:

إذا أسديٌّ جاعَ يوماً ببلَدةٍ وكان سميناً كلبُه فهو آكلُه

أكُلَّ هذا قرَماً إلى اللحم؟ قال: فأنشأ الأسديُّ يقول:

وصَبّاً بحظّ اللَّيثِ طُعْماً وشَـهْوَةً فسائِل أخا الحَلْقاءِ إن كنتَ لا تدري

طلب الأسد للكلب

قال: وذلك لأنَّ الأسَدَ لا يحرص على شيءٍ من اللُّحمان حِرصَه على لحم الكلب، وأمّا العَامَّة فتَزعُم أنَّ لحُوم الشاءِ أحبُّ اللُّحمانِ إليه، قالُوا: ولذلك يُطيف الأسدُ بجَنَبَاتِ القُرى، طلباً لاغترار الكلب؛ لأنَّ وثبة الأسد تُعجِل الكلب عن القيام وهو رابض، حتَّى رُبَّما دعاهم ذلك إلى إخراج الكلب من قُراهم؛ إلاّ أنْ يكون بقرب ضِياعهم خنازيرُ، فليس حينئذٍ شيءٌ أحبَّ إليهم من أن تكثر الأسد عندهم، وإنَّما يُخرجون عنهم في تلك الحالات الكلاب، لأنَّهم يخافونها على ما هو عندهم أنفَسُ من الكلب، وهذه مصلحة في الكلب، ولا يكون ذلك إلاّ في القُرى التي بقُربِ الغَيْضَةِ أو المأسَدَة.
علة طلب الأسد للكلب فزعم لي بعض الدَّهاقِينِ قولاً لا أدري كيف هو، ذكر أنَّهم لا يشكُّونَ أنَّه إنَّما يطلبُ الكلبَ لحَنَقه عليه، لا من طريق أنّ لحمَه أحبُّ اللُّحمان إليه، وإنَّ الأسدَ ليَأتي مَنَاقِع المياه، وشطوط الأنهار، فيأكل السَّراطين والضفادع، والرَّق والسلاحف، وإنَّه أشرَهُ مِنْ أنْ يختارَ لحماً على لحم، قال: وإنَّما يكون ذلك منه إذا أرادَ المتطرِّفَ من حمير القرية وشائها وسائِر دوابِّها، فإذا لَجَّ الكلبُ في النُّباح انتبهوا ونذِروا بالأسَد، فكانوا بَيْنَ أن يحصِّنوا أموالَهم وَبينَ أن يهجهجوا به، فيرجعَ خائباً، فإذا أراد ذلك بدأ بالكلب؛ لأنْ يأمَنْ بذلك الإنذار، ثمَّ يستولي على القرية بما فيها، فإنَّما يطالب الأسدُ الكلابَ لهذه العلَّة.
من حيل الأسد في الصيد وسمعتُ حديثاً من شُيُوخ مَلاَّحي الموصل وأنا هائب له ورأيتُ الحديثَ يدُور بينهم، ويتقبّله جميعُهم، وزعموا أنّ الأسدَ رُبَّما جاء إلى قلس السفينة، فيتشبَّث به ليلاً، والملاَّحون يمدُّون السفينة فلا يشكُّون أنَّ القلْس قد التفَّ عَلى صخرة، أو تعلَّق بجذّم شجرة، ومن عاداتهم أنْ يبعثوا الأوَّل من المدَّادين ليحلّه، فإذا رجع إليه الملاّح ليمدّه تمدّد الأسدُ بالأرض، ولزق بها وغمّض عينيه كي لا يُبصَر وبيصُهُما بالليل، فإذا قرُب منه وثب عليه فخطفَه، فلا يكون للملاّحين همٌّ إلاّ إلقاء أنفُسهم في الماء وعبورَهم إليه، وربما أكله إلاّ ما

بقيَ منه، وربُما جرَّ فريسته إلى عِرِّيسهِ وعرينه، وإلى أجرائه وأشبالِهِ، وإنْ كانَ ذلك عَلى أميال،

سلاح الكلب وسلاح الدِّيك

قالوا: فليس الدِّيك من بابَةِ الكلب؛ لأنّهُ إنْ ساوَرَهُ قهَرَهُ قهْرَاً ذريعاً، وسلاحُ الكلب الذي هو في فيه، أقوى من صِيصة الديك التي في رجله، وصوته أندَى وأبعَد مَدَى وعينه أيقظ.

دفاع عن الكلب

والكلب يكفي نفسه ويحمي غيره، ويعُول أهلَه، فيكون لصاحبه غُنمه وليس عليه غُرمه، ولَمَا يَرمَحُ الدوابُّ من الناس، ولَمَا يَحرن ويجمَع، وتنطح وتقتُل أهلها في يومٍ واحد، أكثرُ ممَّا يكونُ من جميع الكلاب في عام، والكبش يَنْطَحُ فيعقِر ويقتل، من غير أنْ يُهاج ويُعبَث به، والبرذَون يَعضُّ ويرمَح من غير أن يُهاج به ويُعبَث، وأنت لا تكادُ ترى كلباً يَعضُّ أحداً إلاّ من تهييج شديد، وأكثر ذلك أيضاً إنَّما هو النُّباح والوعيد.

معرفة الكلب صاحبه وفرحه به

والكلب يعرف وجهَ ربِّه من وجه عبده وأمَتِه، ووجهَ الزائر، حتَّى ربَّما غاب صاحب الدار حولاً مجرَّماً، فإذا أبصرَه قادِماً اعتراه من الفرَح والبصبصة، والعُواء الذي يدلُّ على السرور، وعلى شدِّة الحنين ما لا يكون فيه شيءٌ فوقه.

قصّة في وفاء كلب

وخبَّرني صديقٌ لي قال: كان عندنا جروُ كلب، وكان لي خادمٌ لهجٌ بتقريبه، مولعٌ بالإحسان إليه، كثيرُ المعاينة له، فغاب عن البَصرة أشهراً، فقلت لبعضِ مَنْ عِنْدي: أتظنون أنّ فلاناً يعني الكلب يُثبت اليومَ صورة فلان يعني خادمَه الغائب وقد فارقه وهو جرو، وقد صار كلباً يشغَر ببوله؟ قالوا: ما نشكُّ أنّه قد نسيَ صورتَه وجميعَ برِّه كان به، قال: فبينا أنا جالسٌ في الدار إذ سمعت من قِبَلِ باب الدار نُباحَه، فلم أرَ شِكْلَ نباحه من التأنُّب والتعثيث والتوعّد، ورأيت فيه بَصبصة السُّرور، وحنين الإِلْف، ثمَّ لم ألبَث أن رأيتُ الخادمَ طالعاً علينا، وإنَّ الكلبَ ليلتَفُّ على ساقيه، ويرتفِع إلى فخذيه، وينظر في وجهه، ويصيح صياحاً يستَبين فيه الفرحُ، ولقد بلَغ من إفراط سُرورِهِ أنّي ظننتُ أنّه عُرِض، ثمَّ كان بعد ذلك يغيب الشّهرين والثلاثة، أوْ يمضي إلى بغدادَ ثم يرجع إلى العسكر بعد أيَّام، فأعرف بذلك الضّرْب من البصبصة، وبذلك النوع من النُّباح، أنَّ الخادمَ قدِم، حتَّى قلتُ لبعض من عندي: ينبغي أن يكون فلان قد قدم، وهو داخل عليكم مع الكلب، وزعم لي أنّه ربَّما ألْقِيَ لهذا الجرو إلى أن صار كلباً تَامّاً، بعضَ الطعام فيأكل منه ما أكل، ثم

يَمضي بالباقي فيخبؤُه، وربَّما أُلْقِيَ إليه الشيءُ وهو شَبْعان فيحتمله، حتَّى يأتِيَ به بعضَ المخابئ فيضعه هناك، حتّى إذا جاع رجَع إليه فأكله.

أدب الكلب

وزعم لي غِلماني وغيرُهم من أهل الدَّرب، أنَّه كان ينبح على كلِّ راكبٍ يدخل الدرب إلى عراقيب برذونه، سائساً كان أو صاحبَ دابّةٍ إلاّ أنّه كان إذا رأى محمدَ بن عبدِ الملكِ داخلاً إلى باب الدربِ أو خارجاً منه، لم ينبَحْ البتَّة، لا عليه ولا على دابَّته، بل كان لا يقف له على الباب ولا على الطريق، ولكنَّه يدخل الدِّهليز سريعاً، فسألتُ عن ذلك فبلغني أنه كان إذا أقبل صاحَ به الخادم، وأهوَى له بالضَّرب، فيدخل الدِّهليز، وأنه ما فعل ذلك به إلاّ ثلاثَ مرارٍ، حتَّى صار إذا رأى محمَّدَ بنَ عبدِ الملكِ، دخل الدِّهليز من تلقاء نفسه، فإذا جاوزَ وثب عَلَى عراقيب دوابِّ الشاكريَّة، ورأيت هذا الخبرَ عندَهم مشهوراً، قال: وكُنَّا إذا تَغدَّيْنَا دنا من الخِوان فزجرناه مرَّةً أو مرَّتين، فكان لا يقرَبُنا، لمكان الزَّجر، ولا يَبعُدُ عن الخوان لعلَّةِ الطمع، فإن ألقينا إليه شيئاً أكلَه ثمَّ، ودنا من أجل ذلك بعضَ الدُّنوِّ، فكُنَّا نستظهرُ عليه، فنرمي باللُّقمة فوقَ مَربضِه بأذرُع، فإذا أكلها ازداد في الطَّمَع، فقرَّبه ذلك من الخِوان، ثمَّ يجوز موضعَه الذي كان فيه، ولولا ما كنا نقصِد إليه من امتحان ما عندَه، ليصيرَ ما يظهرُ لنا حديثاً، لكان إطعام الكلب والسِّنّور من الخِوان خطأ من وجوه: أوَّلُهَا أن يكون يصير له به دربة، حتَّى إنَّ منها ما يمدُّ يَده إلى ما على المائدة حتَّى ربما تناول بفيه ما عليها، وربَّما قاء الذي يأكل وهم يَرَونه، وربَّما لم يرضَ بذلك حتَّى يعُودَ في قيئه، وهذا كله ممَّا لا ينبغي أن يحضُرَهُ الرئيس، ويشهدَه ربُّ الدار، وهو عَلَى الحاشية أجوز.
الأكل بين أيدي السباع فأمَّا علماءُ الفرسِ والهند، وأطبَّاء اليونانيِّينَ ودُهاةُ العرب، وأهلُ التَّجربة من نازلة الأمصار وحُذّاق المتكلّمين، فإنهم يكرهون الأكلَ بين أيْدِي السِّباع، يخافون نفوسَها وأعينها، لِلَّذي فيها من الشَّرَه والحِرص، والطَّلَب والكَلَب، ولِمَا يتحلَّلُ عند ذلك من أجوافها من البخار الردِيء، وينفصل مِن عيونها من الأمور المفسِدة، التي إذا خالطتْ طباعَ الإنسان نقضَتْه، وقد رُوي مثلُ ذلك عن الثَّوري عن سِماك بن حَرْب عن ابن عبّاس أنّه قال على مِنبر البَصرة: إنّ الكلاب من الجِنّ، وإنّ الجِنَّ من ضَعَفَةِ الجِنّ، فإذا غشِيكم منها شيءٌ فألقوا إليه شيئاً واطردوها، فإنّ لها أنفسَ سوء، ولذلك كانوا يكرَهون قِيَامَ الخدمِ بالمذَابِّ والأشربةِ على رُؤُوسهمْ وهم يأكلون؛ مخافة النفس والعَين، وكانوا يأمرون بإشباعهم قبلَ أنْ يأكُلوا، وكانوا يقولون في السِّنَّور والكلب: إمَّا أنْ تطردَه قبل أن تأكلَ وإمَّا أن تشغَلَهُ بشيء يأكله، ولو بعظم، ورأيتُ بعضَ الحكماء وقد سقطت من يده لقمةٌ فرَفَعَ رأسه، فإذا عينُ غلامٍ له تحدّق نحوَ لقمته، وإذا الغلامُ يزدَردُ ريقه لتحلُّب فمِه من الشَّهوة، وكان ذلك الحكيمُ جيِّدَ اللَّقْم، طيِّب الطعام، ويضيِّق على غلمانه، فيزعمون أنّ نُفوسَ السِّباع وأعينَها في هذا الباب أردأ وأخبَث وبينَ هذا المعنى وبين قولهم في إصابة العينِ الشيء العجيبَ المستحسَنَ شِرْكَةٌ وقرَابَة؛ وذلك أنَّهم قالوا: قد رأينا رجالاً ينسب ذلك إليهم، ورأيناهم، وفيهم من إصابة

العَين مقدارٌ من العدد، لا نستطيع أن نجعل ذلك النّسَق من باب الاتّفاق، وليس إلى ردِّ الخبر سبيل؛ لتواتره وترادُفِه، ولأنّ العِيانَ قد حققه، والتجربة قد ضُمّت إليه،

العين التي أصابت سهل بن حنيف

وفي الحديث المأثور في العين التي أصابت سَهْل بن حُنيف فأمرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك بالذي أمَرَ، وذلك مشهور.

كلام في العين والحسد

قالوا: ولولا فاصل ينفصل من عينِ المستحسِن إلى بدن المستحسَن، حتَّى يكون ذلك الداخلُ عليه هو الناقضَ لقُواهُ لَمَا جاز أن يلقى مكروهاً البتَّة، وكيف يلقى المكروه من انساقَ في حَيزه وموضِعه، والذي أصابته العين في حيّزه أيضاً وموضعه، من غير تماسٍّ ولا تصادُم، ولا فاصل ولا عامل لاقى معمولاً فيه، ولا يجوز أنْ يكون المعتل بعد صحّته يعتلُّ من غير معنى بدنُه، ولا تنتقض الأخلاط ولا تتزايل إلاّ لأمرٍ يعرض، لأنه حينئذٍ يكونُ ليس بأولى بالانتقاض من جسمٍ آخر، وإن جاز للصحيح أنْ يعتلّ من غير حادث، جاز للمعتلّ أنْ يبرأ من غير حادث، وكذلك القولُ في الحركة والسكون، وإذا جاز ذلك كان الغائبُ قياساً على الحاضر الذي لم يدخل عليه شيء من مستحسِن له، فإذا كان لابدَّ من معنى قد عَمِل فيه، فليس لذلك المعنى وجه إلاّ أن يكونَ انفصل إليه شيء عَمِل فيه، وإلاّ فكيف يجوزُ أن يعتلّ من ذاتِ نفسه، وهو على سلامتِه وتمام قوّتِه، ولم يتغيَّرْ ولم يحدُث عليه مايغيِّره، فهو وجسم غائب في السَّلامة من الأعراض سواءٌ، وهذا جواب المتكلّمين الذين يصدِّقون بالعين، ويُثبتون الرُّؤيا.

صفة المتكلمين وليس يكونُ المتكلمُ جامعاً لأقطار الكلام متمكّناً في الصناعة، يصلح للرئاسة، حتَّى يكون الذي يُحسِن من كلام الدِّين في وزن الذي يُحسِن من كلام الفلسفة، والعالِمُ عندنا هو الذي يجْمَعهما، والصيب هو الذي يجمَع بين تحقيق التوحيد وإعطاء الطبائع حقائقها من الأعمال، ومن زعم أنّ التوحيدَ لا يصلح إلا بإبطال حقائق الطبائع، فقد حمل عجْزَه على الكلام في التوحيد، وكذلك إذا زعمَ أنّ الطبائعَ لا تصحُّ إذا قرنتَها بالتوحيد، ومن قال فقد حمل عجزَه على الكلام في الطبائع.

وإنَّما يَيْأس منك الملحد إذا لم يَدْعُكَ التوفُّر على التوحيد إلى بَخس حقوق الطبائع؛ لأنّ في رفع أعمالها رفعَ أعيانها، وإذا كانت الأعيان هي الدالّة على الله فرفعْتَ الدّليلَ، فقد أبطلتَ المدلول عليه، ولعمري إنّ في الجمع بينهما لَبعضَ الشِّدّة. وأنا أعوذُ بالله تعالى أنْ أكون كلّما غمزَ قناتي باب من الكلام صَعْبُ المدخل، نقضْتُ ركناً من أركان مقالتي ومن كان كذلك لم يُنتفَعْ به.

القول في إصابة العين ونحوها

فإن قال قائل: وما بلغ من أمر هذا الفاصِل الذي لا يشعر بِهِ القوم الحضورَ ولا الذي انفصل منه، ولا المارّ بينهما، ولا المتلقّي له ببدنِه وليس دونهُ شيء، وكيف

لم يعْمَلْ في الأقربِ دونَ الأبعد، والأقربُ إنسان مثله، ولعلّه أن يكون طبعهُ أشدَّ اجتذاباً للآفات، وبعد، فكيف يكون شيءٌ يصرَع الصحيحَ ويُضجِع القائم، وينقُض القوى، ويُمرِض الأصحَّاء، ويصدَع الصَّخر ويهشِم العظم، ويقْتُل الثَّور، ويَهدُّ الحمار، ويجري في الجَماد مَجراه في النبات، ويجري في النَّبات مجراه في الحيوان، ويجري في الصّلابة والملاسة جريهُ في الأشياء السخيفة الرِّخوة؛ وهو ممَّا ليس له صدم كصدم الحجر، أو غَرْب كغرْب السَّيف، أو حدٌّ كحدِّ السِّنان؛ وليس من جنس السمّ، فيحمل على نفوذ السَّمّ؛ وليس من جنس الغذاءِ فيُحمل على نفوذ الغِذاء، وليس من جنس السِّحر فيقال إنَّ العُمَّار عملوا ذلك من طريق طاعتهم للعزائم، فلعلَّ ذلك إنّما كان شيئاً وافق شيئاً، قيل لهم: قد تعلمون كيف مقدارُ سَمِّ الجرَّارة أو سمّ الأفْعى، وكيف لو وزنتم الجَرَّارة قبل لسعِها وبعده لوجدتموها على حالٍ واحدة، وأنت ترى كيف تفسَخ عْقَدَ بدن الفيل، وكيف تنقض قوى البعير، من غير صدم كصدم الحجر، وغربٍ كغرب السَّيف، وحدٍّ كَحَدِّ السنان، فإنْ قلت: فهل نابُ الأفْعَى وإبرةُ العقرب إلاّ في سبيلِ حدِّ السنان؟ قلنا: إنَّ البعيرَ لو كان إنما يَتفسَّخ لطعْن العَقرب بإبرتها لمَا كان ذلك يبلغ منها مقدار النَّخس فقط، ولكنَّه لابُدَّ أن يكون ذلك لأحد أمرَين: إمَّا أن تكون العقربُ تمجّ فيه شيئاً من إبرتها، فيكون طبع ذلك وإن قلَّ يفسخ الفيلَ والزَّندبيل، وإمَّا أن يكون طبعُ ذلك الدَّم إذا لاقاهُ طبعُ ذلك الناب وتلك الإبرة أن يُجمد فيقتل بالإجماد، أو يذيب فيقتل بالإذابة، فأيَّهما كان فإنَّ الأمرَ فيه على خلاف ما صدَّرتم به المسألة.

ولا تنازعَ بين الأعراب والأعرابُ ناس إنّما وضعوا بيوتَهم وأبنيتهم وسط السِّباع والأحناش والهمَج، فهم ليس يعبُرون إلاّ بها، وليس يعرفون سواها وقد أجمعوا على أنّ الأفْعَى إذا هرمت فلم تَطعَمْ ولم يبقَ في فمها دم أنَّها تنكز بأنفها، وتطعن به، ولا تعضُّ بفيها، فيبلغ النَّكزُ لها ما كان يبلغ لها قبلَ ذلك اللَّدغ، وهل عندنا في ذلك إلا تكذيبُهم أو الرجوعُ إلى الفاصل الذي أنكرتموه، لأنَّ أحداً لا يموت من تلك النّخسة، إن كان ليس هناك أكثر من تلك الغمْزة، وقال العجَّاج، أو ابنه رؤبة:

كنتم كَمنْ أدخَلَ في جُحْرٍ يداً فأخطأ الأفْعَى ولاَقى الأسودا

ثم قال:

بالشمِّ لا بالسَّمِّ منه أقصدا

وقال الآخر:

أصمَّ ما شمّ من خَضْرَاءَ أيبسها أو مسَّ من حجرٍ أوْهَاهُ فانصدعا

وقد حدَّثني الأصمعِيُّ بفَرْق ما بينَ النَّكْز وغيره عند الأعراب، وههنا أمثال نضْرُها، وأمور قد عايْنتموها، يذَلِّلُ بها هذا المعنى عندكم ويسهُل بها المدخَل، قولوا لنا: ما بالُ العجينِ يكون في أقصى الدار ويفلق إنسان بطّيخةِ في أدنى

الدار، فلا يفلح ذلك العجين أبداً ولا يختمر؟ فما ذلك الفاصلُ؟ وكيف تقولون بصدمٍ كان ذلك كصدم الحجر، أو بغرب كغرب السيف وكيف لم يعرِض ذلك الفساد في كلِّ معجون هو أقربُ إليه من ذلك العجين، وعلى أنَّ نكْز الحيَّةِ التي يصفُه الشُّعَراء بأنَّ المنكوزَ ميِّت لا محالة، في سبيل ما حدَّثني به حاذقٌ من حذّاق الأطباء، أنّ رجلاً يضرب الحيَّة مِن دواهي الحيّات بعصاهُ فيموت الضّاربُ، لأنهم يرون أنّ شيئاً فصلَ من الحيَّةِ فجرى فيها حتَّى داخل الضارب فقتله، والأطباء أيضاً والنَّصارى أجْرأ على دفع الرُّؤْيا والعين، وهذه الغرائبِ التي تُحكى عن الحيَّات وصرْعِ الشيطان الإنسانَ، من غيرهم.

فأمَّا الدُّهريّة فمنكِرةٌ للشياطين والجنِّ والملائكة والرُّؤيا والرُّقى، وهم يرون أنَّ أمرَهم لا يتمُّ لهم إلاّ بمشاركةِ أصحاب الجَهالات.

وقد نجدُ الرجُل ينقف شحم الحنظل، وبينه وبين صاحبه مسافة صالحة، فيجد في حلقه مَرارة الحنظل، وكذلك السُّوس إذا عولج بهِ وبينه وبين الإنسانِ مسافة متوسّطة البعد، يجِدُ في حلقهِ حلاوة السوس، وناقف الحنظل لا تزال عينه تهمُل مادام ينقفه، ولذلك قال ابن حُذام، قال أبو عبيدة: وهو الذي يقول:

كأنّي غداةَ البينِ يومَ تحمَّلـوا لَدَى سَمُرَاتِ الحيِّ ناقفُ حنْظل

يخبر عن بكائه، ويصِف دُرُورَ دَمعتِه في إثر الحمول، فشبَّه نفسه بناقف الحنظل، وقد ذكره امرؤ القيس في قوله:

عوجَا على الطّللِ القديم لعَلّنـا نَبْكِي الدِّيارَ كما بكى ابن حمام

ويزْعمون أنّه أوّل مَن بكى في الدِّيار، وقد نجِدُ الرَّجُلَ يقطع البصل، أو يُوخِفُ الخَرْدل فتدمع عيناه، وينظر الإنسان فيديمُ النّظرَ في العين المحمرة فتعتري عينَه حُمرة، والعرب تقول: لَهُو أعدَى من الثُّؤَباء، كما تقول: لَهُو أعدى من الجَرَب، وذلك أنّ مَن تثاءَب مِراراً، وهو تُجاه عينِ إنسان، اعترى ذلك الإنسان التثاؤب، ورأيت ناساً من الأطباء وهم فلاسفة المتكلّمين، منهم مَعْمر، ومحمد بن الجَهْم، وإبراهيم بن السِّنْديّ، يكرهون دُنُوَّ الطامثِ من إناءِ اللبن لتَسُوطه أو تعالجَ منه شيئاً، فكأنّهم يرونَ أنَّ لبدَنِها ما دام ذلك العرَضُ يعرِض لها، رائحةً لها حِدَّةٌ وبخار غليظ، يكون لذلك المَسُوط مُفسِداً.

من أثر العين الحاسدة

ولا تُبْعِدَنَّ هذا من قلبك تباعداً يدعُوك إلى إنكاره، وإلى تكذيب أهله، فإنْ أبيتَ إلاّ إنكارَ ذلك، فما تقول في فرسٍ تحَصَّن تحتَ صاحبه، وهو في وسط موكِبه، وغبارُ الموكِب قد حالَ بين استبانةِ بعضهم لبعض، وليس في الموكب حِجْر ولا رمَكة، فيلتفتُ صاحبُ الحِصان فيرى حجراً أو رمكة، على قاب غَرَضٍ أو غَرَضين، أو غَلوة أو غلوتين، حدِّثني، كيف شمَّ هذا الفرس ريحَ تلك الفرسِ الأنثى، وما باله

يدخل داراً من الدُّور، وفي الدَّار الأخرى حِجْرٌ، فيتحَصَّن مع دخوله من غير معاينة وسَمَاع صهيل وهذا الباب سيقع في موضعه إن شاء اللّه تعالى، وقال أبو سعيد عبد الملك بن قريب: كان عندنا رجُلان يَعينان الناس، فمرَّ أحدهما بحوضٍ من حجارة، فقال: تاللّهِ ما رأيتَ كاليوم قطّ فتطاير الحوض فِلقين، فأخذه أهلُه فضبَّبوه بالحديد، فمرَّ عليه ثانيةً فقال: وأبيك لقلّما أضرَرْتُ أهلَكَ فيك فتطاير أربعَ فِلَق. قال: وأمَّا الآخر، فإنَّه سمعَ صوتَ بَولٍ من وراء حائط فقال: إنَّك لشَرُّ الشَّخب فقالوا له: إنه فلانٌ ابنك، قال: وانقطاع ظهراه قالوا: إنه لا بأسَ عليه، قال: لا يبولُ واللَّه بَعْدَها أبداً قال: فما بال حتَّى مات، قال الأصمعيّ: ورأيت أنا رجلاً عَيُوناً فدُعيَ عليه فعَورَ، قال: إذا رأيتُ الشيءَ يُعجبني، وجدتُ حرارةً تخرجُ من عَيني، قال: وسمع رجلٌ بقرةً تُحلَب فأعجبه صوتُ شَخْبها، فقال: أيتُّهن هذه، فخافوا عينَه فقالوا: الفلانيّة لأخرى ورَّوا بها عنها فهلكتا جميعاً: المُورَّى بها والمورَّى عنها، وقد حَمَل النَّاسُ كما ترى على العين ما لا يجوز، وما لا يسوغ في شيء من المجازات، وقولُ الذي اعورَّ: إذا رأيتُ الشيءَ يعجبني وجدتُ حرارةً تخرج من عيني، مِنْ أعظمِ الحجج في الفاصل من صاحب العين إلى المعين، استطراد لغويقال: ويقال إنَّ فلاناً لَعَيون: إذا كان يتشوَّف للناس ليصيبَهم بعين، ويقال عِنْتُ فلاَنا أعِينه عيْناً: إذا أصبتَه بعين، ورجل مَعين ومعيون: إذا أصيب بالعين، وقال عبَّاس بن مِرداس:

قد كان قومُك يحسِبونكَ سيِّداً وإخال أنك سيِّدٌ مـعَيونُ

ويقال للعَيون: إنَّه لَنَفُوسٌ، وما أنفسَه، أي ما أشدَّ عينه، وقد أصابته نَفس أو عين.

دفاع عن الكلب

وأمَّا قول القائل: إنَّ من لؤمِ الكلب وغدره أنَّ اللصَّ إذا أراد دارَ أهله أطعَمَ الكلبَ الذي يحرسهم قبْلَ ذلك مِراراً ليلاً ونهاراً، ودنا منه ومسح ظهرَهُ، حتى يُثبت صورتَه، فإذا أتاه ليلاً أسْلمَ إليه الدارَ بما فيها فإن هذا التأويل لا يكونُ إلاّ من نتيجةِ سوءِ الرأي، فإنَّ سوءَ الرأي يصوِّر لأهله الباطلَ في صورة الحقِّ، وفيه بعضُ الظُّلم للكلب وبعض المعاندة للمحتجّ عن الكلب، وقد ثبتَ للكلب استحقاقُ المدح من حيثُ أرَادَ أن يهجوَه منه، فإن كان الكلبُ بفرط إلفِه وشكره كفَّ عن اللصِّ عندَ ذِكر إحسانه، وإثبات صورتِهِ، فما أكثرَ منْ يُفْرِط عليه الحياءُ حتَّى ينسب إلى الضَّعف والكرم وحتَّى ينسَب إلى الغفلة، ورُبَّما شاب الرَّجُلُ بعضَ الفطنة ببعض التَّغافل، ليكون أتَمَّ لكَرمه، فإنَّ الفطنة إذا تمَّت منعت من أمور كثيرة، ما لم يكن الخِيمُ كريماً والعِرْق سليماً. وإنك أيُّها المتأوِّل، حينَ تكلّف الكلبَ مع ما قد عَجَّلَ إليه اللصّ من اللّطف والإحسان أنْ يتذكّرَ نعمةً سالفة، وأنْ يحترس من خديعة المحسِن إليه، مخافة أنْ يكونَ يُريغُ بإكرامه سوءاً لَحسَنُ الرأي فيه، بعيدُ الغايةِ في تفضيله، ولو كان للكلبِ آلة يعرف بها عواقبَ الأمور

وحوادثِ الدهور، وكان يوازن بينَ عواجلها وأواجلها، وكان يعرف مصادرها ومواردَها، ويختار أنقص الشرّين وأتمَّ الخيرين، ويتثبَّتُ في الأمور، ويخاف العَيب ويأخذ بحجَّةٍ ويُعطي بحجَّة، ويعرف الحُجَّة من الشُّبهة، والثِّقةِ من الرّيبة، ويتثبَّت في العلّة، ويخاف زَيغ الهوى وسرَف الطبيعة، لكانَ من كبار المكلّفين ومن رُؤُوس الممتَحنين.

أختيار الأشياء والموازنة بينها لدى العاقلين

والعادةُ القائمة، والنَّسَقُ الذي لا يُتَخَطَّى ولا يغادَرُ، والنظامُ الذي لا ينقطع ولا يختلط، في ذوي التمكين والاستطاعة، وفي ذوي العقول والمعرفة، أنَّ أبدانَهم متَّى أحسَّت بأصناف المكروه والمحبوب، وازَنوا وقابَلوا، وعَايَرُوا وميَّزوا بين أتمِّ الخيرين وأنقص الشرّين، ووصلوا كلَّ مضرةٍ ومنفعة في العاجل بكلِّ مضرَّةٍ ومنفعة في الآجل وتتبعوا مواقعها، وتدبَّروا مساقطها، كما يتعرَّفونَ مقاديرَها وأوزانها، واختاروا بعدَ ذلك أتمَّ الخيرين وأنْقصَ الشّرين، فأما الشر صرفاً والخير محضاً فإنّهُم لا يتوقفون عندهما، ولا يتكلّفون الموازَنةَ بينهما، وإنَّما ينظرون في الممزوج وفي بعض ما يخشى في معارضته، ولا يوثقُ بَمَعرّاهُ ومُكَشَّفِه، فيحملونه على خلاص الذّهن، كما يحمَل الذّهب على الكير، وأمّا ذوات الطّبائع المسخَّرة والغريزة المحبولة فإنما تَعمَل من جهة التسخير والتنبيه، كالسمّ الذي يقتل بالكَمِّيَّة ولا يغذو، وكالغذاء الذي يغذو ويقتل بالمجاوَزة لمقدار الاحتمال، وإن هيَّأ اللَّه عزَّ وجلّ أصنافَ الحيوان المسخَّرة لدرْك ما لا تبلغه العقولُ اللطيفة، بلغَتْه بغير معاناةٍ ولا رويّة ولا توقُّف، ولا خوفٍ من عاقبة، ومتى تقدَّمتْ إلى الأمور التي يعالجها أهلُ العقول المبسوطة، المتمكّنة بطبائعها، المقصورةِ غير المبسوطة، لم يمكنْها أن تعرفَ من تلك الطبيعة ما كان موازيّاً لتلك الأمور ببديهةٍ ولا فكرة، وإذا كانت كذلك فليس بواجب أن تكون كلّما أحسنَتْ أمراً أمكنَها أن تُحْسنَ ما كان في وزنه في الغُموض والإلطاف، وفي الصَّنعةِ التي لا تمكِنُ، إلاّ بحُسن التأتِّي وببُعد الرويّة، وبمقابلةِ الأمور بَعضهَا ببعض، وهذا الفنُّ لا يُصابُ إلاّ عند من جِهتُه العقل، ويمكنُه الاستدلالُ، والكفُّ عنه والقطعُ له إذا شاء، وإتمامُه إذا شاء، وبلوغَ غايته، والانصرافُ عنه إلى عَقيبه من الأفعال، ومَنْ جهتُهُ تعرّفُ العِلل، ويُمكنُهُ إكراه نفسِهِ على المقاييس والتكلُّف والتأتِّي، ومتى كانت الآلة موجودةً فإنّها تُنبيك على مكانها، وإلا كان وجُودها كعدمها، وبالحسِّ الغريزيّ تُشعر صاحبَها بمكانها، لا يحتاج في ذلك إلى تلقِينٍ وإشارة، وإلى تعليم وتأديب، وإن كان صاحبُ الآلة أحَمقَ من الحبارى، وأجهَلَ من العقرب،

الإلهام في الحيوان

والعاقل الممكَّن لا يفضلُ في هذا المكان على الأشياء المسخَّرة، ولا ينفصل منها في هذا الباب.
وليس عند البهائم والسباع إلاّ ما صُنعت له، ونصبت عليه، وألهمتْ معرفته وكيفيَّة تكلُّفِ أسبابها والتعلُّم لها من تلقاء أنفسها، فإذا أحسَنَ العنكبوتُ نسْجَ ثوبِّهِ

وهو من أعجب العجب، لم يحسن عملَ بيت الزنبور، وإذا صنع النَّحلُ خلاياه مع عجيب القِسْمَة التي فيها، لم يحسنْ أن يعملَ مثلَ بيتِ العنكبوت، والسُّرْفة التي يقال: أصنَعُ من سُرفة لا تُحسن أن تُبني مثلَ بيتِ الأرَضَة، على جفاءِ هذا العمل وغِلَظِهِ، ودقَّة ذلك العمل ولطافته، وليسَ كذلك العاقلُ وصاحبُ التمييز، وَمَن مَلَك التصرّفَ، وخُوِّل الاستطاعة، لأنّه يكون ليسَ بنجَّارٍ فيتعلَّم النِّجارة، ثمَّ يبدو له بعدَ الحذق الانتقالُ إلى الفِلاحةِ، ثمَّ ربّما ملها بعد أن حذقها، وصار إلى التجارة.

أسمح من لافظة

وقال صاحب الكلب: وزعمتَ أنَّ قولهم أسَمحُ مِنْ لافظة أن اللافظة الدِّيك، لأنّه يَعَضُّ على الحبَّةِ بطرفي منْقاره، ثمّ يحذفُ بها قُدَّام الدَّجاجة، وما رأينا أحداً من العلماء ومِن الذين روَوا هذا المثلَ يقول ذلك، والناسُ في هذا المثل رجلان: زعم أحدُهما أنَّ اللافظة العنز؛ لأن العنز تَرعى في رَوضةٍ وتأكل من مَعْلَفها وهي جائعة، فيدعوها الراعي وصاحبُها باسمِها إلى الحلْب، فتترك ما هي فيه حتى تُنْهَك حلباً، وقال الآخر: اللافظة الرَّحَى، لأنّها لا تمسك في جَوْفها شيئاً مما صار في بطنها، وكيف تكون اللافظة الديكَ وليس لنا أن نلْحِق في هذه الكلمة تاء التأنيث في الأسماء المذكَّرة، واللافظة مع هاء التأنيث أشبه بالعنز والرّحَى، وإنَّما سمَّينا الجملَ راويةً، وحاملَ العلمِ راويَةً، وعلاَّمة، حين احتجَّ أهلُ اللغةِ على ذلك ولم يختلفوا فيه، وكَيفَ ولا اختلافَ بينهم أنّ الديك خارجٌ من هذا التأويل، وإنّ اختلافهم بين العنْزِ والرَّحى، وبعد فقد زعم ثُمامة بن أشرَس رحمه اللَّه تعالى: أنَّ دِيكَة مَرْو تطرُد الدَّجاج عن الحبِّ، وتنزع الحبَّ من أفواه الدَّجاج، وقال صاحب الديك: قولهم: أسَمح من لافظة لا يليق بالرَّحى، لأنَّ الرَّحَى صَخْرَةٌ صمَّاء، والذي يُخرج ما في بطنها المُدير لها، والعربُ إنَّما تمدح بهذه الأسماء الإنسانَ وما جَرَى مجراه في الوجوه الكثيرة، ليكون ذلك مَشحذةً للأذهانِ، وداعيةً إلى السِّباق وبلوغ الغايات وأمَّا ترْك الشَّاة للعلَف فليس بلفظٍ للعلَف، إلاّ أنْ يحملوا ذلك على المجازات البعيدة، وقد يكون ذلك عند بعض الضَّرورة، والشّاة ترضع من خِلْفِها حتَّى تأتي على أقصى لبن في ضرعها، وتنثُر العلَفَ، وتقلبُ المِحْلَب، وتنطَح من قام عليها وأتاها بغذائها، وهي من أمْوَق البهائم، وزوجُها شَتيم المحيّا، منتِنُ الريح، يبولُ في جوف فيهِ وفي حاقّ خياشيمِه، وتقول العرب: ماهُو إلاَّ تيسٌ في سفينةٍ، إذا أرادوا به الغَبَاوة ومَا هُوَ إلاَّ تيس، إذا أرادوا به نتْنَ الريح، والعنْزُ خَرقاءُ، وأبوها وهو التَّيْسُ أخرَقُ منها، وَأمرُ الدِّيكِ وشأنُهُ، وكيْفَ يلفِظُ ما قد صَارَ في منقاره، وكيف يُؤثِرُ به طَرُوقته مِن ذاتِ نفسِه شيءُ يراهُ الناسُ، ويراه جَميعُ العباد، وهذه المكرمة، وهذا الغَزَل، وهذا الإيثار، شيءٌ يراهُ الناس لم يكنْ في ذكَرٍ قطُّ ممَّن يزاوج إلاَّ الديك، والدِّيكُ أحقُّ بهذا المثل، فإنْ كنتُم قد صدَقتم على العرب في تأويل هذا المثل فهذا غلطٌ من العرب وعصبيَّة للَّبَنِ، وعشق للدَّقيق، والمثلُ إنَّما يلفِظ به رجلُ من الأعراب، وليس الأعرابيُّ بقُدْوةٍ إلاَّ في الجرِّ والنصب والرفع وفي الأسماء، وأمَّا غير ذلك فقد يخطئ فيه ويصيب فالدِّيك أحقُّ بهذا المثل الذي ذكرنا، وسائر خصاله الشريفة، والذي يدلُّ على أنَّ هذا الفعلَ في

الدِّيك، إنَّما هو من جهة الغزَل لا غير، أنه لا يفعلُ ذلك إذا هرم وعجَزَ عن السِّفاد، وانصرفت رغبتُه عنهنَّ وهو في أيَّام شَبَابه أنْهَمُ وأحَرص على المأكول، وأضنُّ على الحَبِّ، فما لَهُ لم يُؤْثِرهنّ به عنْدَ زهده، ويُؤْثِرهُنَّ عند رغبته؟ وما بالُهُ لم يفعل ذلك وهو فرُّوج صغير، وصنَع ذلك حِين أطاقَ السفاد؟ فترْكه لذلك في العجز عنهنَّ، وبذْلُه في أوقات القوة عليهنَّ دليل على الذي قلنا، وهذا بَيِّن لا يرُدُّه إلاّ جَاهل أو معاند.

دفاع عن الكلب

وقال صاحب الكلب: لسنا نُنكِر خِصالَ الدِّيك ومناقبَه من الأخبارِ المحمودة، ولولا ذلك ما ميَّلْنا بينَه وبين الكلب، ومَنْ يميِّلُ بين العسَل والخلِّ في وجه الحلاوة والحموضة؟ وكيف يفضل شيءٌ على شيء وليسَ في المفضولِ شيءٌ من الفضل؟ والذي قُلتم من قذْفِه الحبّ قدَّامَ الدَّجاج صحيح، وليس هذا الذي أنكرْنا، وإنَّما أنكَرْنا موضعَ المثل الذي صرفتموه إلى حجّتكم، وتركتم الذين ما زال الناس يقلّدونهم في الشاهد والمثل، وإن جاز لكم أن تردُّوا عليهم هذا المثلَ جاز لكلِّ مَن كرِهَ مثلاً أو شاهداً أنْ يردَّ عليهم كما رددتمْ، وفي ذلك إفْسَادُ أمرِ العَرَبِ كله، فإنْ زعمتَ أنّ الديك، كانَ أحقَّ به، فخصومُك كثير ولسنا نحيط بأوائل كلامهم، على أيِّ مقاديرَ كانوا يضعونها، ومن أيِّ شيء اشتقُّوها، وكيف كان السبب، ورُبَّ شيءٍ أنكرنَاهُ فإذا عرفنا سببَه أقررنَا به، وقال أبو الحسن: مر إياسُ بنُ معاوية بديكٍ ينقر حبًّا ولا يفرقهُ، فقال: ينبغي أن يكون هذا هرماً، فإنَّ الهرم إذا ألقي له الحبُّ لم يفرقهُ ليجتمع الدجاجُ حولَهُ، والهرم قد فنيتْ رغبتهُ فيهنَّ، فليس همَّهُ إلاّ نفسَهُ.
ورووا عنهُ أنّهُ قال: اللافظة الديك الشابُّ،وإنَّهُ يأخذ الحبَّة يؤْثر بها الدَّجاجَ، والهرمُ لا يفعل ذلك، وإنَّما هو لافظةٌ مادام شابّاً، وقال صاحب الكلب: وذكر ابن سيرينَ عن أبي هُريرة: أن كلباً مرَّ بامرأةٍ وهو يلهَثُ عند بئر، فنزعَتْ خُفَّها فسقتْه، فغَفرَ اللّه تعالى لها، وعنه قال: غفرَ اللّه لبَغِيٍّ أو لمؤمنة مرّ بها كلبٌ فنزَعت خُفَّها فسقته، وقال صاحب الكلب: وقال ابن دَاحَة: ضرب ناسٌ من السُّلطاءِ جاراً لهم، ولبَّبوه وسحبوه وجرُّوه،، وله كلبٌ قد ربَّاه، فلم يزَلْ ينبَحُ عليهم ويشقِّق ثيابهم، ولولا أنَّ المضروبَ المسحوبَ كان يكفُّه ويزجُره، لقد كان عقر بعضَهم أو منَعه منهم. قال إبراهيمُ النَّظَّام: قدَّمتم السِّنَّور على الكلب، ورويتم أنْ النبيّ صلى الله عليه وسلم أمرَ بقتل الكلابِ واستحياءِ السنانير وتقريبها وتربيتها، كقوله عند مسألته عنها: إنَّهُنَّ من الطَّوَّافاتِ عليكُمْ، وكلُّ منفعةٍ عنْدَ السِّنَّوْرِ إنّما هي أكلُ الفأر فقط، وعلى أنَّكم قلَّما تجدون سنّوراً يطلُب القأر، فإن كان مما يَطلُبُ ويأكلُ الفَأرَ، لم يعدمكم أن يأكلَ حمَامَكُمْ وفِراخَكُمْ والعَصافيرَ التي يتلهَّى بهَا أولاَدُكُمْ، والطائرَ يُتَّخَذُ لِحُسنهِ وحُسنِ صَوْته، والذي لاَبُدّ منه الوثوبُ علِى صِغَار الفراريج، فإنْ هو عفَّ عَن أموالكُمْ لم يَعفّ عَن أموال جيرانكُمْ، ومنافع الكلب لاَ يحصيها الطَّوامير، والسّنّور مع ذلك يأكل الأوزاغ والعقارب، والخنافيس، وبناتِ وَرْدان، والحيّات، ودخَّالاتِ الآذان والفأرَ والجُرذان، وكلَّ

خبيثةٍ وكلّ ذاتِ سمّ، وكلَّ شيءٍ تعافه النفس، ثمَّ قلتم في سؤر السِّنَّور وسؤر الكلب ما قلتم، ثمَّ لم ترضوا به حتَّى أضفتموه إلى نبيِّكُم صلى الله عليه وسلم.
أطيب البهائم أفواها ولا يشُكُّ الناس أنْ ليس في السباع أطيبُ أفواهاً من الكلاب، وكذلك كلُّ إنسانٍ سائِلِ الريق سائِلِ اللعاب، والخُلوف لا يعرض للمجانين الذين تسيلُ أفواههم، ومن كان لا يعتريه الخلوف فهو من البخَر أبعَدُ، وكمَا أنَّ طولَ انطباق الفم يُورث الخلوف، فكَثرةُ تحَلُّبِ الأفواه بالريق تنفي الخُلوف، وحتَّى إنّ من سال فُوه من اللعاب فإنَّما قضوا له بالسلامةِ من فيهِ، وإن استنكَهوه مع أشباهِهِ وجَدُوه طيِّباً، وإن كان لا يقربُ سِواكاً على الريق، وكذلك يقال، إن أطيبَ النَّاسِ أفواهاً الزِّنج، وإنْ كانت لا تعرفُ سَنُوناً ولا سِواكاً.
على أنّ الكلبَ سبُع، وسباعُ الطيرِ وذواتِ الأربع موصوفةٌ بالبخَرِ، والذي يضْرَب به في ذلك المثل الأسَدُ، وقد ذكره الحكَمُ بن عبدل في هِجائِهِ محمَّدَ بنَ حسَّان فقال:

فنكْهَتُه كَنكْهَةِ أخْدريٍّ شتيمٍ شابكِ الأنْيَاب ورْدِ

وقال بشَّار:

وأفسَى من الظَّرْبان في ليلةِ الكَرى وأخْلَفُ مِنْ صقرٍ وإنْ كانَ قد طعِمْ

يهجو بها حمادَ عجْرَد، ويقال: ليس في البهائم أطيبُ أفواهاً من الظباء.

رضيعٌ مُلَهم

وزعم علماءُ البَصريِّين، وذكر أبو عبيدة النحويُّ، وأبو اليقظان سُحيم بن حفص، وأبو الحسن المدائني، وذكر ذلك عن محمَّدِ بن حفص عن مَسْلمَةَ بن محارب، وهو حديثٌ مشهورٌ في مشيخة أصحابنا من البصريِّين، أنَّ طاعوناً جارفاً جاءَ على أهلِ دار، فلم يشكَّ أهلُ تِلك المحلَّةِ أنَّه لم يَبْقَ فيها صَغيرٌ ولا كبير، وقد كان فيها صَبيٌّ يرتضع، ويحبو ولا يقوم على رجليهِ، فعمَد مَن بقي من المطعونين من أهل تلك المحلَّةِ إلى باب تلك الدار فسدَّهُ، فلمَّا كان بعد ذلك بأشهرُ تحوَّل فيها بعضُ وَرَثةِ القوم، ففتح البابَ، فلمَّا أفضَى إلى عَرْصة الدّار إذا هو بصبِيٍّ يلعبُ مع أجراء كلبةِ، وقد كانَت لأهل الدار، فراعَهُ ذلك، فلم يلبَثْ أنْ أقبلتْ كلبةٌ كانت لأهل الدار، فلمَّا رآها الصبيُّ حبا إليها، فأمكنتْه من أطبائها فمصَّها، فظنُّوا أنّ الصّبيّ لما بقي في الدارِ وصارَ منسيًّا واشتدَّ جوعُهُ، ورأى أجراءَها تستقي من أطبائها، حَبا إليها فعطفت عليه، فلمَّا سقتْهُ مرَّةً أدامتْ ذلك لَهُ، وأدَامَ هو الطلب.
والذي ألْهَمَ هذا المَوْلودَ مَصَّ إبهامه سَاعَةَ يُولَدُ من بطن أمِّهِ، ولم يعرف كيفيَّة الارتضاع، هو الذي هداه إلى الارتضاع منْ أطباءِ الكلبةِ، ولَوْ لم تكُن الهدايَةُ شيئاً مجعولاً في طبيعته، لما مَصَّ الإبهامَ وحلمَةَ الثّدْي، فلمّا أفرط عليهِ الجوعُ واشتدَّت حالُهُ، وطلبَتْ نفْسُهُ وتلك الطبيعةُ فيهِ، دعَتْهُ تلك الطبيعة وتلكَ المَعْرِفَهُ

إلى الطلب والدنوّ، فسبحانَ مَنْ دبَّرَ هذا وألهمه وسَوّاهُ ودلَّ عَلَيْهِ إلهام الحمام
ومثلُ هذا الحديث ما خُبِّر به عن بابويه صاحب الحمام، ولو سمعت قصَصه في كتاب اللُّصوص، علمتَ أنَّه بعيدٌ من الكذب والتزيد، وقد رأيته وجالسته ولم أسمعْ هذا الحديثَ منه، ولكنْ حدَّثني به شيخٌ من مشايخ البصرة، ومن النُّزول بحضرة مسجد محمد بن رَغبان، وقال بابويه: كان عندي زوجُ حمامٍ مقصوص، وزوجُ حمام طيّار، وفرخانِ من فراخ الزّوج الطيار، قال: وكان في الغُرفة ثقْبٌ في أعلاها وقد كنتُ جعلت قُدَّام الكَوَّة رفًّا ليكون مَسقطاً لما يدخلُ ويخرج من الحمام، فتقدَّمتُ في ذلك مخافةَ أن يعرض لي عارضٌ فلا يكون للطَّيار منفذ للتكسُّب ولورود الماء، فبينَا أنا كذلك إذْ جاءني رسولُ السلطان، فوضَعَني في الحبس، فنسِيت قدْر الزَّوج الطيَّار والفرخين، وما لهما من الثمن، وما فيهما من الكرم، ومتُّ من رَحمةِ الزَّوْج المقصوص، وشغلني الاهتمامُ بهما عن كثير مما أنا فيه، فقلت: أمَّا الزَّوْجُ الطيَّارُ فإنَّهما يخرجان ويرجِعان ويزُقان، ولعلَّهما أن يَسْلَما ولعلَّهما أن يذهبا وقد كنتُ ربَّيتهما حتى تحصَّنا ووَرَّدَا فإذا شبَّ الفرخان ونهضا مع أبويهما، وسقطا على المعلاة، فإمّا أن يثبُتا وإمَّا أنْ يذهبا، ولكنْ كيفَ يكونُ حَالُ المقصوصَيْنِ، ومَنْ أسوأ حالاً منهما؟ فخُلِّي سَبِيلي بَعْدَ شهر، فلم يكن لي همٌّ إلاَّ النَّظَر إلى ما خلَّفت خلْفي من الحمام، وإذا الفرخان قد ثبتَّا وإذا الزَّوْجَانِ قد ثبتا، وإذا الزَّوجان الطيَّاران ثبتا على حالهما، إلاّ أنّي رأيتهما زاقَّين، إذ علامةُ ذلك في موضع الغَبَبِ، وفي القِرطِمتَين، وفي أصولِ المناقير، وفي عيونهما، فقلت: فكيف يكونان زاقَّين مع استغناءِ فرخَيهما عنهما؟ ولا أشكُّ في موت المقصوصين، ثمَّ دخلتُ الغرفة فإذا هما على أفضلِ حال، فاشتدَّ تعجُّبي من ذلك، فلم ألبَثْ أن دَنَوا إلى أفواه الزَّوج الكبار يصنعان كما يصنع الفرْخ في طلب الزّقِّ، ورأيتهما حين زقَّاهما، فإذا هما لما اشتدّ جوعُهما، وكانا يريانهما يزقان الفرخَين وَيَريانِ الفرخَين كيفَ يستطعمان ويستَزِقّان، حملَهُما الجوعُ وحبُّ العيش، وَتَلَهُّبُ العطش، وما في طبعِهما من الهدايَةِ، على أنْ طلبا مَا يطلَبُ الفرْخُ، فزَقاهما ثم صار الزَّقُّ عادةً في الطيَّار، والاستطعَامُ عادةً في المقصوص.

من عجائب الحمام ومِن الحمام حمامٌ يزُقُّ فراخه ولا يزقُّ شيئاً من فِراخ غيره، وإن دنا منه مع فراخهِ فرخٌ مِنْ فراخ غيره، وشاكَلَ فرخيه في السِّنِّ واللَّون طردهما ولم يزقَّهما، ومن الحمام ما يزقُّ كلَّ فرخٍ دنا منه، كما أنَّ من الحمام حماماً لا يزُقُّ فراخَه البتّة حتَّى يموت، وإنَّما تعظُم البليّةُ على الفَرخ إذا كان الأبُ هو الذي لا يزقّ، لأنَّ الولادةَ وعامَّة الحضْن والكَفْل على الأمّ، فإذا ظهر الولد فعامَّةُ الزَّقِّ على الأب، كأنه صاحب العِيال والكاسِب عليهم، وكالأمِّ التي تلد وتُرضِع.

الطائر العجيب: كاسر العظام وأعجبُ من هذا، الطائرُ الذي يقال له كاسر العظام، فإنّه يبْلغُ من برِّ الفراخ كلِّها بعد القيَام بشأن فراخ نفسه، أنّهُ يتعاهد فرخَ العُقاب الثالث، الذي تخرجه من عُشِّها، لأنَّها أشرَهُ وأرغَبُ بَطناً، وأقسى قلباً وأسوأ خُلُقاً مِنْ أنَ تحتَمِلَ إطْعامَ ثلاثة، وهي مَعَ ذلك سريعة الجَزَع، فتخرج ما فَضَلَ عن فرخين، فإذا أخرجتْه قبله كاسرُ العِظام وأطْعَمهُ، لأنْ العُقابَ من اللائي تبيض ثلاثَ

بيضات في أكثر حالاتها.
دفاع أسدي عن أكل قومه لحوم الكلاب قال: وعُيِّر رجلٌ من بني أسدٍ بأكل لحوم الكلاب، وذهبَ إلى قوله:

يا فقْعَسِيُّ لمْ أكلته لِمـهْ

لو خافكَ اللّهُ عليهِ حَرَّمهْ

فما أكَلتَ لحمَهُ ولا دَمَهْ

قال: فقال الأعرابي: أمَا علِمت أنْ الشّدَة والشجاعة، والبأسَ والقوة من الحيوان، في ثلاثةِ أصنافٍ: العقاب في الهواء، والتمساح في ساكن الماء، والأسَد في ساكن الغياض، وليس في الأرض لحمٌ أشهى إلى التمساح ولا إلى الأسد من لحم الكلب، فإن شئتمْ فعُدُّوه عدُوًّا لهما، فإنّهُما يأكلانِهِ من طريق الغَيظ وطلب الثأر، وإن شئتم فقولوا غيرذلك.
الطبيعة الأسدية في بني الأسد وبنو أسَدٍ أسْد الغياض، وأشبهُ شيءٍ بالأسد، فلذلك تشتهي من اللُّحمان أشهاها إلى الأسد، والدَّليلُ على أنّهُمْ أسْد، وفي طباعِ الأسْد، أنّكَ لو أحصَيْتَ جميعَ القتلى من سادات العرب ومِنْ فُرسانهم، لَوَجْدَت شَطرَها أو قريباً من شَطرها لبني أسد.

أنفة الكلب

قالوا: ثمَّ بعدَ ذلك كلّه أنَّ الكلبَ لا يرضى بالنوم والرُّبوض على بياض الطريق، وعلى عَفَرِ التراب، وهو يرى ظَهْرَ البساط، ولا يرضَى بالبساط وهو يجد الوِسادة، ولا يرضى بالمطارح دون مرافق المطارح فمن نُبْله في نفسه أن يتخيَّر أبداً أنبلَ موضعٍ في المجلس، وحيثُ يدَعُه ربُّ المجلس صيانةً له وإبقاء عليه إلاَّ أن يتصدَّر فيه منْ لا يجوز إلاَّ أنْ يكون صدراً، فلا يقصِّر الكلب دونَ أن يرقى عليه، وقد كان في حُجج معاوية في اتخاذ المقصورة بعد ضرب البُرَك إيّاه بالسيف، أنّه أبصرَ كلباً على منبره.
هذا على ما طُبع عليه من إكرام الرَّجُل الجميل اللباس، حتَّى لا ينبحُ عليه إن دنا من باب أهله، مع الوُثوب على كل أسوَد، وعلى كلِّ رثِّ الهيئة، وعلى كلِّ سفيهٍ تشبهُ حالُه حالَ أهل الرِّيبة، ومِن كِبْره وشدَّة تجبُّره، وفَرْط حميَّته وأنفته واحتقاره، أنّه متى نبح على رجُلٍ في الليل، ولم يمْنعه حارسٌ ولم يمكنه الفوت، فدواؤه عند الرجل أنّه لا ينجيه منه إلاَّ أن يقعُدَ بين يديه مستخزياً مستسلماً، وأنّه إذا رآه في تلك الحال دنا منهُ فشَغَرَ عليه؛ ولم يَهجْه، كأنَّه حينَ ظفر به، ورآه تحت قدرته، رأى أنْ يسِمَه بميسَمِ ذُلٍّ، كما كانت العربُ تجزُّ نواصِيَ الأسرى من الفُرسان، إذا رامت أنْ تخلِّيَ سبيلَها وتمنَّ عليها، ولو كَفَّ العربيُّ عن جزِّ ناصيته، لوسَمَه الأسْيَرُ من الشّعر والقوافي الخالداتِ البواقي، التي هي أبقى من

المِيسَم، بما هو أضرُّ عليه من جَزِّ ناصيتِه، ولعلَّهُ لا يبلُغُ أهلَه حتَّى تستويَ مع سائر شعرِ رأسه، ولكنَّ ذُلَّ الجزِّ لا يزال يلُوح في وجهه، ولايزال له أثرٌ في قلبه.

تقدير مطرف للكلب

وذُكر أنَّ مُطرِّف بن عبد اللَّه كان يكره أنْ يقال للكلب اخسأ، وما أشبه ذلك، وفي دعائه على أصحاب الكلب الذي كان أربابُه لا يمنعونه من دُخول مُصَلاَّه، قال: اللهمَّ امنعهم بركة صيده دليل على حسْنِ رأيه فيه.
من أقوال المسيح عليه السلام قالوا: ومرَّ المسيحُ بن مريم في الحَوارِيِّين بجِيفة كلب، فقال بعضهم: ما أشدَّ نتنَ ريحه قال: فهلاَّ قلتَ: ما أشدَّ بياضَ أسنانه. قالوا: وقال رجلٌ لكلب: اخسأ، ويْلكَ فقال هَمَّام بن الحارث: الويلُ لأهلِ النَّار.

هراش الكلاب

والهراش الذي يجري بينها وهو شَرٌّ، يكون بينَ جميع الأجناس المتَّفِقة، كالبرذون والبرذون، والبعير والبعير، والحمار والحمار، وكذلك جميع الأجناس، فأمَّا الذي يفرط ويتمُّ ذلك فيه، ويتمنّع ناس من النّاس، ويقع فيه القِمار، ويتَّخذ لذلك، وينفقَ عليه، ويُغالَى به، فالكلبُ والكلب، والكبشُ والكبش، والدِّيكُ والدّيك، والسُّمانَى والسُّمانَى، التحريش بين الجرذان فأمَّا الجُرَذ فإنَّه لا يقاتل الجُرَذُ حتَّى يشدَّ رجل أحدهما في طرف خيط، ويشدّ الجُرَذ الآخر بالطرف الآخر، ويكون بينهما من المساواة والالتقاء، والعضِّ والخمش، وإراقة الدَّم وفرْي الجلود، ما لا يكون بين شيئين من الأنواع التي يُهارَش بها. والذي يُحدث للجُرْذان طبيعة القتالِ، الرِّباطُ نفسُه، فإن انقطع الخيطُ وانحلَّ العقْد، أخذَ هذا شرقاً وهذا غرباً، ولم يلتقِيا أبداً، وإذا تقابلت جِحَرة الفأر، وخَلا لها الموضعُ، فبيْنَها شرٌّ طويل، ولكنه لا يعدُو الوعيد والصخَب، ولا يلتقي منهما اثنانِ أبداً.
قصة ثمامة فيما شاهده من الفأر وحدَّثني ثمامة بن أشْرَس قال: كان بقيَ في الحبس جُحْر فأر، وتِلْقاءَه جُحرٌ آخر، فيرَى لكلِّ واحدٍ منهما وعيداً وصياحاً ووثوباً، حتَّى يُظنَّ أنَّهما سيلتقيان ثم لا يحتجزان حتّى يقْتلَ كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه، فبينا كلُّ واحدٍ منهما في غاية الوعيد، إذ مرَّ هارباً حتَّى دخل جُحره، فما زالا كذلك،حتَّى أتى اللَّه تعالى بالفرَج وخُلِّي سبيلي.

جودة الشم عند الكلاب السلوقية

وزعم أنَّ السَّلوقيَّة الطويلة المناخر أجودُ شَمّاً، والشمُّ العجيب والحسُّ اللطيف من ذلك، إلاَّ أنَّ ذلك في طلب الذكور للإناث والإناثِ للذُّكور خاصة، وأمَّا شمُّ المأكول، واسترواحُ الطُّعم، فللسِّباع في ذلك ما ليس لغيرها، وإنَّ الفأرَ لَيَشمُّ، وإنَّ الذَّر والنمل لَيَشمُّ، وإنَّ السنانير لتشَمُّ، وكذلك الكلب، وله في ذلك فضيلة، ولا يبلغُ مَا يبلغ الذئب وقال أعرابيّ:

كان أبو الصّحيم من أربـابـهـا صَبَّ عليه اللـه مـن ذِئابـهـا

أطلسَ لا ينحاشُ مِن كـلابـهـا يلتهمُ الطـائرَ فـي ذَهـابـهـا

في الجَرْيَةِ الأولَى فلا مَشَى بها

ألا تراه يجتهد في الدُّعاء عليها بذئبٍ لا ينحاشُ من الكلاب.

؟باب ما يُشَبَّه بالكَلْبِ وليس هو منْه

وإذا جرى الفرس المحجّل شبَّهوا قوائمَه بقوائم الكلب إذا ارتفعت في بطنه، فيصير تحجيلُها كأنَّه أكلُبٌ صغارٌ تعدو، كما قال العُمانيُّ:

كأن تحت البَطْن منه أكلُبَـا بيضاً صِغاراً ينتهشْنَ المَنْقَبا

وقال البدريّ:

كأنَّ أجراءَ كـلابٍ بـيض دونَ صِفاقيْه إلى التَّغْرِيض

وقال الآخر:

كأنَّ قِطّاً أو كلاباً أربَعـا دون صِفاقيه إذا ما ضَبَعا

ويصفون الطَّلْعَ أوَّل ما يبدو صغاراً بآذانِ الكلابِ البيض، وقال في ذلك الرَّاجزُ:

أنعَتُ جُمَّاراً على سحيض يَخرج بعد النَّجْم والتبعيض

طَلْعاً كآذان الكلابِ البيض

ويُوصَف صوتُ الشَّخْب في الإناء بهرير هراش الكلاب، قال أعرابيّ:

كأنَّ خِلْفيها إذا مـا هـرَّا جروَا كلابٍ هُورِشا فهرّا

وقال الآخر:

كأنَّ صوتَ شَخْبِها المسحنْفِر بينَ الأباهِيمِ وبين الخِنْصـر

هِراشُ أجراءٍ ولما تُثْغِـر

وقال أبو دُوَاد:

طويل طامِح الطَّرْفِ إلى وَهَوْهةِ الكلب.

جواب صبي

وزعم الهيثم بن عدي قال: كان رجل يُسمَّى كلباً، وكان لهُ بُنَيٌّ يلعبُ في الطريق، فقال له رجلٌ: ابن مَنْ؟ فقال: ابن وَوْ وَوْ وَوْ

ما يستحبّ في ذنب كلب الصيد

ويحبّون أن يكون ذنَب الكلْبِ الصَّائِدِ يابساً، ليس له من اللحم قليل ولا كثير، ولذلك قال:

تلوي بأذنابٍ قليلاتِ اللّحَا

وقال الشاعر:

إنّي وطَلْبَ ابنِ غلاّق ليَقريَني كالغابط الكلبَ يبغي الطِّرْقَ في الذّنب

الطِّرق: الشحم اليسير، يقال: ليس به طِرْق.

طيب لحم أجراء الكلاب

ويقال: ليس في الأرض فرخٌ ولا جروٌ ولا شيءٌ من الحيوان أسمنَ ولا أرطبَ ولا أطيبَ من أجراء الكلب، وهي أشبهُ شيءٍ بالحمام، فإنَّ فِراخَ الحمام أسمنِ شيءٍ مادامت صغاراً من غير أن تسمَّن، فإذا بلَغتْ لم تقبل الشحم، وكذلك أولادُ الكلاب.
وقال الآخر:

وأغضَفِ الأذْن طاوي البَطْنِ مُضْطَمِرٍ لِوَهْوَهٍ رَذِمِ الخيشوم هَرَّارِ

الأصمعِيّ قال: قال أعرابيٌّ: أصابتنا سَنَة شديدة، ثم أعقبتْها سنةٌ تتابَعَ فيها الأمطارُ فسمِنت الماشية، وكثُرت الألبان والأسمان، فسَمِن وِلْدان الحيِّ، حتَّى كأنَّ استَ أحدهم جرو يتمطَّى.
طلب أبي دلامة أبو الحسن قال: قال أبو العبَّاس أميرُ المؤمنين لأبي دُلامة: سَلْ قال: كلباً، قال: ويلك ما تصنع بالكلب؟ قال: قلت أصيدُ به، قال: فلك كلب، قال: ودابَّة، قال: ودابّة، قال: وغلاماً يركَب الدابة ويَصيد، قال: وغلاماً، قال: وجاريَة، قال: وجارية، قال: يا أمير المؤمنين كلبٌ وغلامٌ وجاريَة ودابّة، هؤلاء عِيال، ولابدَّ مِن دار، قال: ودار، قال: ولابدَّ لهؤلاء من غلَّةِ ضَيعة، قال: أقطعناك مائَة جَريبٍ عامرةً ومائَة جريبٍ غامرة، قال: وأيُّ شيء الغامرة؟ قال: ليس فيها نبات،

قال: أنَا أقطِعك خمسَمائَةِ جريب من فيافي بني أسد غامرةً، قال: قد جعلنا لك المائتين عامِرتين كُلَّها، ثمَّ قال: أبقيَ لك شيء؟ قال: نعم، أقبِّل يدك، قال: أمَّا هذه فدعْها، قال: ما منعتَ عيالي شيئاً أهون عليهم فقْداً منه؟.

علمه حيلة فوقع في أسرها

أبو الحسن عن أبي مريم قال: كان عندنا بالمدينة رجلٌ قد كثُر عليه الدَّين حتَّى توارى من غرمائه، ولزم منزله، فأتاه غريم له عليه شيءٌ يسير، فتلطَّفَ حتَّى وصل إليه، فقال له: ما تجعلُ لي إنْ أنا دللتك على حيلةٍ تصيرُ بها إلى الظهور والسَّلامةِ من غرمائك؟ قال: أقضِيكَ حقَّك، وأزيدُك ممَّا عندي ممَّا تقُرُ به عينك، فتوثَّق منه بالأيمان، فقال له: إذا كان غداً قبْلَ الصَّلاةِ مرْ خادمَك يكنُسْ بابَك وفِناءَك ويرشَّ، ويبسُطْ على دكّانك حُصراً، ويضَعْ لك متَّكأ، ثمّ أمهل حتى تصبَح و يمرَّ الناس، ثمّ تجلس، وكلُّ مَن يمرُّ عليك ويسلّم انبح له في وجهه، ولا تزيدَنَّ على النُّباح أحداً كائناً مَن كان، ومَنْ كلّمك من أهلِك أو خدمك أو من غيرهم، أو غريمٍ أو غيره، حتَّى تصير إلى الوالي فإذا كلَّمك فانبَحْ له، وإيَّاك أن تَزيدَه أو غيرَه على النُّباح؛ فإنَّ الواليَ إذا أيقنَ أنَّ ذلك منك جِدٌّ لم يشُكَّ أنَّه قد عرَض لك عارض من مَسٍ فيخلِّيَ عنك، ولا يغري عليك، قال: ففعَل، فمرَّ به بعضُ جيرانه فسلّم عليه، فنبَح في وجهه، ثم مرَّ آخرُ ففعل مثْلَ ذلك، حتَّى تسامع غرماؤه فأتاه بعضُهم فسلّم عليه فلم يزِدْه على النُّباح، ثمَّ آخرُ، فتعلَّقوا به فرفعوه إلى الوالي، فسأله الوالي فلم يزِدْه على النُّباح، فرفعه معهم إلى القاضي، فلم يزده على ذلك، فأمَرَ بحبسه أيَّاماً وجعلَ عليه العيون، وملَك نفْسَه وجعَلَ لا ينطِق بحرفٍ سوى النُّباح، فلمَّا رأى القاضي ذلك أمرَ بإخراجه ووضعَ عليه العيونَ في منزله، وجعل لا ينطِق بحرفٍ إلاَّ النباحَ، فلما تقرَّرَ ذلك عند القاضي أمر غرماءَه بالكفِّ عنه، وقال: هذا رجلٌ بهِ لَمَم، فمكث ما شاء اللهُ تعالى، ثمَّ إنَّ غريمَه الذي كان علّمه الحيلة، أتاه متقاضياً لِعِدتِه فلمَّا كلمه جعل لا يزيدهُ على النُّباح، فقال لَهُ ويلَكَ يا فلان وعليَّ أيضاً، وأنا علَّمتك هذه الحيلة؟ فجعل لا يزيدُه على النُّباح، فلمَّا يئس منه انصرف يائساً مما يطالبه بهِ.

اتحاد المتعاديين في وجه عدوِّهما المشترك قال أبو الحسن عن سلمة بن خطّاب الأزديّ، قال: لمَّا تشاغل عبدُ الملك بنُ مرْوانَ بمحاربةِ مُصعَبِ بنِ الزُّبير، اجتمَعَ وجوهُ الرُّوم إلى ملكهم فقالوا له: قد أمكنَتْك الفُرْصةُ من العَرب، بتَشاغُل بعضهم مع بعض، لوقوع بأسهم بينهم، فالرأيُ لك أن تغزوَهم إلى بلادهم، فإنَّك إن فعلتَ ذلك بهم نلتَ حاجتَك، فلا تدَعْهم حتَّى تنقضيَ الحربُ التي بينهم فيجتمعوا عليك فنهاهم عن ذلك وخطَّأ رأيَهم، فأبوا عليه إلاّ أن يغزُوا العربَ في بلادهم، فلمَّا رأى ذلك منهم أمَرَ بكلبَينِ فحرَّش بينهما، فاقتتلا قتالاً شديداً، ثمَّ دعا بثعلبٍ فخلاَّه، فلما رأى الكلبان الثعلبَ، تركا ما كانا فيه، وأقبلا عليه حتَّى قتلاه، فقال ملك الروم: كيف ترون؟ هكذا العربُ، تقتتلُ بينها، فإذا رأونا تركوا ذلك واجتمعوا علينا فعرَفوا صدقه، ورجَعوا عن رأيهم.

كرم الكلاب

قال: وقال المغيرةُ لرجلٍ خاصم إليه صديقاً له، وكان الصديقُ توعَّدَه بصداقة المغيرة، فأعلمه الرجلُ ذلك، وقال: إنَّ هذا يتوعَّدَني بمعرفتك إيَّاه، وزعم أنَّها تنفعه عندَك، قال: أجَلْ إنَّها والله لتنفع، وإنَّها لتنفعُ عند الكلب العقور.
فإذا كان الكلبُ العقورُ كذلك، فما ظنُّك بغيره؟ وأنت لا تصيب من الناس مَن تنفع عنده المعرفةُ من ألفٍ واحداً. وهذا الكرمُ في الكلاب عامٌّ، والكلبُ يحرُس ربَّه، ويحمي حريمه شاهداً وغائباً، وذاكراً وغافلاً، ونَائِماً ويقظان، ولا يقصِّر عن ذلك وإن جفَوه، ولا يخذُلهم وإن خذَلوه.

نوم الكلب

والكلبُ أيقظُ الحيوان عيناً في وقتِ حاجتهم إلى النوم، وإنَّما نومه نهاراً، عند استغنائِهم عن حراسةٍ، ثمَّ لا ينام إلاَّ غِراراً وإلاَّ غِشَاشاً، وأغلبُ ما يكوم النّومُ عليه وأشدُّ مايكون إسكاراً له أنْ يكونَ كما قال رؤبة:

لاقيت مَطْلاً كنُعاس الكَلْبِ

يعني بذلك القرْمَطة في المواعيد، وكذلك فإنَّه أنْوَمُ مايكونُ أنْ يفتحَ عينَه بقدْر ما يكفيه للحراسة، وذلك ساعةً، وهو في هذا كلّه وأسمَعُ من فرَس، وأحذَرُ من عَقْعَق، مع بُعد صوته.
قول رجل من العرب في الجمال

وقيلَ لرجُل من العرب: ما الجمال؟ فقال: غُؤور العينَين، وإشراف الحاجبين، ورُحْب الأشداق، وبُعْدُ الصوت.

علاج الكلب واحتماله

هذا مع قلة السآمة، والصَّبْرِ على الجفوة، واحتمالِ الجراحات الشِّداد، وجوائف الطعان ونوافِذِ السهام، وإذا ناله ذلك لم يَزَلْ ينظّفه بريقه؛ لمعرفته بأنَّ ذلك هو دواؤه حتَّى يبرأ، لا يحتاج إلى طبيب، ولا إلى مرْهم ولا إلى علاج.

طول ذماء الضب والكلب والأفعى

وتقول العرب: الضبُّ أطولُ شيءٍ ذَمَاء، والكلبُ أعجبُ في ذلك منه، وإنَّما عجبوا من الضَّبِّ، لأنَّه يَعْبُر ليلته مذبوحاً مفريَّ الأوداج، ساكنَ الحركة، حتَّى إذا قرِّب من النار تحرّك، كأنَّهم يظنُّون أنَّه قد كان حياً، وإن كان في العين ميّتاً، والأفعَى

تبقى أيَّاماً تتحرَّك ما يعتريه الاختلاج بعد الموت فأمَّا الذي يعتريه الاختلاج بعد جُموده ليلةً، فلحْمُ البقر والجُزُر، تختلج وهي على المعاليق اختلاجاً شديداً، والحيَّة يُقطَعُ ثلثها الأسفل، فتعيش وينبُت ذلك المقطوع.

حياة الكلب مع الجراح الشديدة

قال: والكلب أشدّ الأشياءِ التي تعيش على الجراح، التي لا يعيش عليها شيء إلا الكلبُ، والخنزيرُ، والخُنْفساء.

قوة فكّ الكلب وأنيابه

والكلبُ أشدُّ الأشياء فكّاً، وأرْهفها ناباً، وأطيَبُها فماً، وأكثرها ريقاً، يُرمَى بالعظم المدْمَج، فيعلم بالغريزة أنَّه إن عضَّه رضّه، وإن بلعَه استمرأه.

إلف الكلب وغيره من الحيوان للإنسان

وهو ألوفٌ للناس، مشاركٌ من هذا الموضع العصافيرَ والخطاطيفَ والحمامَ والسنانير، بل يزيد على ذلك في باب الخاصِّ وفي باب العامِّ، فأمَّا باب الخاصِّ، فإن من الحمام ما هو طُورانيٌّ وحشيٌّ، ومنه ما هو آلفٌ أهلي، والخُطَّاف من القواطع غير الأوابد، إذا قطع إلى الإنس لم يَبْنِ بيتَه إلاَّ في أبعدِ المواضع، من حيثُ لا تناله أيديهم، فهو مقسومٌ على بلاده وبلادِ من اضطرَّته إليه الحاجة، والعصافير تكون في القرب حيثُ تمتنع منهم في أنفسها، والكلاب مخالطةٌ لها ملابسة، ليس منها وحشيّ، وكلُّها أهلي، وليس من القواطع ولا من الأوابد ما يكون آنس بالناس من كثير ممَّا يوصف بالأنس والإلف من الكلاب دون سواها، وفي السَّنانير الوحشيَّةُ والأهلية.
وعلى أنّ إلفَ الكلب فوقَ إلف الإنسان الألوف، وهو في الكلب أغرَبُ منه في الحمام والعصفور؛ لأنَّه سبع، والحمام بهيمة والسبع بالسباع أشبه، فتركَها ولم يناسبها، ورغِب عنها، وكيف، وهو يصيد الوُحوشَ ويمنع جميعَ السِّباع من الإفساد؟ فذلك أحمَدُ له وأوجَبُ لشكره، ثمَّ يصيرُ في كثيرٍ من حالاته، آنَسَ بالنَّاس منه بالكلابِ دِنيَّةً وقُصْرةً، ولا تراه يلاعبُ كلباً ما دام إنسانٌ يلاعبه، ثمَّ لم يرْضَ بهذه القرابة وهذه المشاكلة، وبمقدار ما عليه من طباع الخُطَّاف والحمام والعصفور، وبمقدار ما فضَّلها الله تعالى بهِ من الأُنس، حتَّى صار إلى غايةِ المنافع سُلَّماً، وإلى أكثر المرافق.

الحاجة إلى الكلاب

وليس لحارس الناس ولحارسِ أموالهم بُدٌّ من كلب، وكلَّما كان أكبرَ كان أحبَّ إليه، ولا بدَّ لأقاطيع المواشي من الكلاب، وإلاَّ فإنّها نهب للذئاب ولغير الذئاب ثمّ كلابِ الصّيد، حتَّى كان أكثرُ أهل البيت عِيالاً على كلِّ كلب مقلدات الأنسان من الحيوان وقد صار اليومَ عندَ الكلب من الحكايات وقبول التلقين، وحُسْن التصريف

في أصناف اللّعِب، وفي فِطَن الحكايات ما ليس في الجوارح المذلَّلةِ لذاك، المصرَّفةِ فيه، وما ليس عند الدبِّ والقرد والفيل، والغَنَم المكِّيَّة، والببغاء،

الكلب الزِّينيّ

والكلب الزِّينيّ الصِّينيّ يُسرَج على رأسه ساعاتٍ كثيرةً من اللَّيْل فلا يتحرَّك، وقد كان في بني ضَبَّة كلب زينيٌّ صينيّ، يُسرَج على رأسه، فلا ينبض فيه نابض، ويدعونه باسمه ويُرمى إليه ببضْعَةِ لحم والمِسْرَجةُ على رأسه، فلا يميل ولا يتحرَّك، حتَّى يكونَ القومُ هم الذين يأخذون المصباح من رأسه، فإذا زايَل رأسَه وثب على اللحم فأكله، دُرِّب فدَرب وثُقّف فثقِف، وأُدِّب فقبل، وتعلّق في رقبته الزنْبلة والدَّوْخَلّة وتوضع فيها رُقعة، ثم يمضي إلى البقّال ويجيء بالحوائج. تعليم الكلب والقرد

ثمَّ صار القرَّادُ وصاحبُ الرُّبَّاح مِنْ ثمَّ يستخرجُ فيما بين الكلْب والقِرد ضُروباً من العمَل، وأشكالاً من الفِطن، حتّى صاروا يطحنون عليه، فإذا فرغ من طحنه مضَوا به إلى المُتمَعَّك، فيُمعَّك كما يُمعَّك حمار المُكَاري وبغلُ الطحَّان، وقرابةٌ أخرى بينه وبين الإنسان: أنّه ليس شيءٌ من الحيوان لذكره حجْمٌ بادٍ إلا الكلبُ والإنسان.
ما يسبح من الحيوان وما لا يسبح والكلبُ بعد هذا أسبحُ من حيّة، ولا يتعلَّق بهِ في ذلك الثَّور، وذلك فضيلةٌ له على القِرد، معَ كثرةِ فِطَن القِرْد وتشبُّههِ بالإنسان؛ لأنّ كلَّ حيوانٍ في الأرض فإنَّه إذا ألقي في الماء الغمْر سبح، إلاّ القردَ والفرسَ الأعسَر، والكلب أسبحُها كلِّها، حتّى إنّه ليُقدَّم في ذلك على البقرة والحيَّة.

أعجوبة في الكلاب من الأعاجيب

وفي طباع أرحامِ الكلاب أعجوبَة؛ لأنَّها تَلقح من أجناس غير الكلاب، ويُلقحها كما يلقح منها، وتلقح من كلابٍ مختلفة الألوان، فتؤدِّي شَبَه كلِّ كلب، وتمتلئ أرحامُها أجراءً من سِفاد كلبٍ، ومن مرةٍ واحدة، كما تمتلئ من عدَّة كلابٍ ومن كلبٍ واحد، وليست هذه الفضيلة إلاّ لأرحام الكلاب.
فخر قبيلتين زنجيتين قالوا: والزِّنج صِنفان، قبيلة زنجيَّة فوق قبيلة، وهما صِنفان: النمل والكلاب، فقبيلةٌ هم الكلاب، وقبيلةٌ هم النمل، فخر هؤلاء بالكثرة، وفخر هؤلاء بالشدَّة، وهذان الاسمان هُمَا ما اختارَاهما لأنفسِهما ولم يُكرَها عليهما.

حديث أكلك كلب الله

قال: ويقال إنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال لعُتْبة بن أبي لهَب: أكلك كلبُ الله فأكله الأسد، فواحدةٌ: قد ثبت بذلك أنَّ الأسد كلبُ الله، والثانية: أنّ الله تبارك وتعالى لا يُضاف إليه إلاّ العظيمُ، من جميع الخير والشرِّ، فأما الخير فقولك: بيت الله، وأهل الله، وزُوّار الله، وكِتاب الله، وسماء الله، وأرض الله، وخليلُ الله، وكَلِيم

اللّه، وروح الله، وما أشبه ذلك، وأما الشرُّ فكقولهم: دعْه في لعنَةِ الله وسخَط الله، ودعْه في نار الله وسَعيره، وما أشبه ذلك، وقد يسمِّي المسلِمون والنَّاس كلباً.

تسمية بنات آوى والثعالب والضباع بالكلاب

وقد زعم آخرون: أنَّ بناتِ آوى، والثعالبَ والضِّباعَ، والكلابَ كلَّها كلاب، ولذلك تَسافدُ وتَلاقح، وقال آخرون: لعَمري إنَّها الكلاب إذا أردتم أن تشبِّهوها، فأمَّا أن تكونَ كلاباً لِعلَّةٍ أو عِلَّتين والوجوهُ التي تخالف فيها الكلاب أكثر فإنَّ هذا ممّا لا يجوز، وقول مَنْ زعم أنّ الجواميس بقرٌ وأنّ الخيلَ حُمُرٌ، أقربُ إلى الحقِّ من قولِكم، وقولِ من زعَم أنّ الجواميس ضأنُ البقر، والبقَر ضأنٌ أيضاً، ولذلك سمَّوا بقرَ الوحْشِ نِعاجاً، كأنهم إنما ابتغوا اتِّفاق الأسماء، ومابالُ من زعم أنَّ الأسَد والذئب والضبع والثعلبَ وابنَ آوى كلابٌ أحقُّ بالصواب ممَّن زعم أنَّ الجواميس ضأنٌ والبقر ضأنٌ والماعزُ كلها شيء واحد، وهذا أقربُ إلى الإمكان؛ لتشابهها في الظِّلف والقُرون والكروش وأنَّها تجترُّ، والسِّنَّور والفهد والنمر والببْر والأسد والذئب والضبع والثَّعلبُ إلى أن تكونَ شيئاً واحداً أقرب، وعلى أنَّنا لم نتبينْ إلى الساعة أنَّ الضِّباع والكلابَ وبناتِ آوى والذئابَ تتلاقح؛ وما رأينا على هذا قط سِمْعاً ولا عِسْباراً، ولا كلَّ ما يعُدُّون، وما ذِكْرهم لذلك إلاَّ من طريق الإخبار عن السُّرعة، أو عن بعضِ ما يُشبه ذلك، فأمّا التلاقُح والتركيب العجيب الغريب، فالأعراب أفطنُ والكلام عندهم أرخص منْ أن يكونوا وصَفُوا كلَّ شيءٍ يكون في الوحش، وكلَّ شيءٍ يكون في السّهل والجبل، مما إذا جمع جميعُ أعاجيبه لم يكنْ أظرفَ ولا أكثرَ ممَّا يدَّعون من هذا التَّسافد والتّلاقُح والتراكيب في الامتزاجات، فكيفَ يَدَعُون ما هو أظرفُ، والذي هُو أعجب وأرغب، إلى ما يستوي في معرفته جميعُ الناس؟ تتمَّة القول في حديث السابق وقال آخرون: ليس الكلبُ من أسماء الأسد، كما أنْ ليس الأسد من أسماء الكلب، إلاّ على أنْ تمدحُوا كلبَكم فيقول قائلكم: ماهو إلاّ الأسد؛ وكذلك القول في الأسَد إذا سمَّيتموه كلباً، وذلك عند إرادة التصغير والتحقير، والتأنيب والتقريع؛ كما يقال ذلك للإنسان على جهة التشبيه، فإن كان النبي صلى الله عليه وسلم قال "ذلك فإنَّ ذلك على بعض ما وصفْنا لك، ويقول أهل حمص: إنهم لا يُغلَبون؛ لأن فيها نورَ الله في الأرض، وما كلبُ الله إلا كنُور الله. والله، تبارك وتعالى عُلُوّاً كبيراً، لا تضاف إليه الكلابُ والسنانيرُ والضِّباعُ والثعالب، والنبي صلى الله عليه وسلم لم يقل هذا قطُّ، وإنْ كان قالَه فعلى صلةِ كلامٍ أو على حكايةِ كلام.
وقال صاحب الكلب: قد وضَح الأمر، وتلقَّاه الناس بالقبول، في أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: أكَلَك كلبُ الله وهو يعني الأسد، ومن دفع هذا الحديثَ فقد أنكرَ علاماتِ الرسول صلى الله عليه وسلم.

التسمية بمشتقات الكلب

والنَّاسُ قد سمَّوا الناسَ بكلبٍ وكُليب وكِلاب وأكلبُ ومكاليب ومكالبة بنو ربيعة، وكليب بن ربيعة بن عامر، وفي العرب من القبائل كلب، وبنو الكلْبة، وبنو كلاب،

وأكلبُ بن ربيعة بنِ نزار عِمارةٌ ضخمة، وكلْب بن وَبْرة جِذْمٌ من الأجذام وهم نفرُ جُمجُمة، وكلّ سادات فهو يكنى أبا كليب، ومن ذلك عمرو ذو الكلب وأبو عمرو الكلب الجرمي وأبو عامر الكلب النحوي، وكيف لا يجوز مع ذلك أنْ يسمَّى الأسد بالكلب، وكلُّ هؤلاء أرفعُ من الأسد؟ وقد قالوا: كلب الماء، وكلبُ الرحى، والضَّبَّة التي في الرحل يقال لها الكلب، والكلب: الخشبة التي تمنع الحائط من السُّقوط، وتُشخَص في القناطر والمسنَّيات، والكلب الذي في السماء ذو الصُّوَر، ويقال: داء الكَلَب، وقد اعتراه في الطعام كلب، وقد كلب عليهم في الحرب، ودِمَاءُ القوم للكَلْبى شفاء، ومنه الكلْبة والكلْبتان والكُلاَّب والكلُّوب ثمَّ المكلِّب والمكلب وهذا مختلف مشتقٌّ من ذلك الأصل، ومنه عَلُّويَهْ كلب المطبخ، وحمويه كلب الجنّ.

بين أبي علقمة المزني وسوار بن عبد الله ولما شهدَ أبو علقمة المُزَنيُّ عند سوّار بن عبد الله أو غيره من القضاة و توقَّفَ في قبول شهادته، قال له أبو علقمة: لم توقَّفتَ في إجازة شهادتي؟ قال: بلغني أنَّك تلعَب بالكِلاب والصُّقور، قال: مَنْ خبَّرك أنِّي ألعب فقد أبْطَل، وإذا بلغك أنِّي أصطادُ بها فقد صدَقك مَنْ أبلغك، وإنِّي أخبرك أنِّي جادٌّ في الاصطياد بها غيرُ لاعبٍ ولا هازئ، فقد وقفَ المبلِّغ على فرق ما بينَ الجدِّ واللَّعب، قال: ما وقفَ ولا وقَّفته عليه، فأجازَ شهادتَه قوله تعالى: يَسْألونَكَ مَاذا أُحِلَّ لَهُمْ وقد قال الله تعالى: "يَسْأَلُونَكَ مَاذا أُحلَّ لَهُمْ" فقال لنبيِّه: "قلْ أُحلَّ لكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الجَوَارِح مُكلِّبين"، فاشتَقَّ لكلِّ صائدٍ وجارحٍ كاسب مِنْ باز، وصقر، وعُقاب، وفَهْد، وشاهين، وزرَّق، ويؤيؤ، وباشق، وعَنَاق الأرض، من اسم الكلب، وهذا يدلُّ على أنّه أعمُّها نفعاً، وأبعدها صيتاً، وأنبهها ذكراً، ثمَّ قال: "تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمكُمُ الله فكُلوا مِمّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسمَ اللهِ عَلَيْهِ" فذكر تعليمَهم لها إذ أضافَ ذلك إلى نفسه، ثمَّ أخبَرَ عن أدَبها وأنَّها تُمسِك على أربابها لا على أنفسها، وزعَم أصحاب الصَّيْد أنْ ليس في الجوارح شيءٌ أجدرُ أن يُمسِك على صاحبه ولا يُمسِكَ على نفسه من الكلب تأويل آية أصحاب الكهف قال الله تعالى لنبيِّه صلى الله عليه وسلم: "أمْ حَسِبْتَ أنّ أصْحابَ الْكَهْفِ وَالرّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنَا عَجَباً، إذ أوَى الْفِتْيَةُ إلَى الْكَهْفِ فقالُوا: رَبَّنَا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أمْرِنَا رَشَداً"، فخبَّر كما ترى عن دعائهم وإخلاصهم، ثمَّ قال جلّ وعزَّ: "فضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ في الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أيُّ الحِزْبَيْنِ أحْصَى لِمَا لَبِثُوا أمَداً"، ثمَّ قال عزَّ وجلّ: "نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالحَقِّ إنّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى، وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إذْ قامُوا فقالُوا: رَبُّنَا رَبُّ السَّمواتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مَنْ دَونِهِ إلهاً لَقَدْ قُلْنَا إذاً شططاً" ثم قال: "فَأوُوا إلَى الْكَهْفِ ينشر لَكُمْ رَبُّكمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ويُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أمْرِكُمْ مِرْفَقاً، وتَرَى الشَّمْسَ إذا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُم ذَاتَ الشِّمال" ثمّ قالَ بعدَ هذه الصِّفة لحالهم، والتمكين لهم من قلوب السَّامعين، والأعجوبةِ التي أتاهم بها: "وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ" ثمَّ قال: "لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَ لَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً" فخبَّر أنَّهم لم يستصحبوا مِن جميع مَن يألفُ النَّاس ويرتفقون به، ويسكنون إليه، شيئاً غيرَ الكلب، فإنَّ ممّا يألفُ النَّاس ويرتفقون به، ويسكنون إليه، شيئاً غيرَ الكلب، فإنّ ممّا يألفُ النَّاس ويرتفقون به، ويسكنون إليه: الفرسَ

والبعيرَ والحمار والبغل، والثَّور والشاة، والحمامَ والدِّيَكة، كلّ ذلك مما يرتفَق به ويُستصحب في الأسفار، وينقل من بلدٍ إلى بلد.
والناس يصطادون بغير الكلب، ويستمتعون بأمور كثيرة، فخبَّر عنهم بعد أن جعلهم خياراً أبراراً، أنّهم لم يختاروا استصحابَ شيءٍ سوى الكلب، وليس يكون ذلك من الموفقين المعصومين المؤيَّدين، إلاّ بخاصّةٍ في الكلب لاتكون في غيره، ثمَّ أعاد ذكر الكلب، ونبَّأ عن حاله، بأنْ قال عزَّ وجلَّ: "إذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أعْلَمُ بِهِمْ قالَ الّذينَ غَلَبُوا عَلَى أمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَسْجِداً، سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُم كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُم قُلْ رَبِّي أعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إلاّ قليلٌ، فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إلاّ مِرَاءً ظَاهِراً وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً" وفي قولهم في الآية "ثَلاَثَةٌ رَابِعُهُم كَلْبُهُمْ وَيَقولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُم كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُم كَلْبُهُمْ" دَلِيلٌ عَلَى أنَّ الكلبَ رفيعُ الحال، نبيه الذّكر، إذ جُعِل رابعَهم، وعُطف ذِكْرُه على ذكرهِمْ، واشتقَّ ذكْره من أصل ذكرهمْ، حتَّى كأنَّه واحدٌ منهم، ومن أكفائهم أوْ أشباههم أو ممَّا يقاربهم، ولولا ذلك لقال: سيَقُولون ثلاثةٌ معهم كلبٌ لهم، وبينَ قول القائل معهم كلبٌ لهم، وبين قوله)رَابِعُهُم كَلْبُهُم(فرقٌ بيِّن وطريق واضح، فإنْ قلتم: هذا كلام لم يحكه الله تعالى عن نفسه، وإنَّما حكاه عن غيره، وحيث يقول: "ثلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ" وَقَدْ صَدَقْتُم، والصِّفة على ما ذكرتم؛ لأنَّ الكلامَ لو كان منكراً لأنكره الله تعالى، ولو كان معيباً لعابه الله، فإذْ حكاه ولم يَعِبْهُ، وجعله قرآناً وعظّمه بذلك المعنى، ممّا لا ينكرَ في العقل ولا في اللغة، كان الكلام إذا كان على هذه الصفة مثلَه؛ إذ كان الله عزّ وجلّ المنْزل له الاستطاعة قبل الفعل ومثلَ ذلك مثَّلَ بعضُ المخالفين في القدَر، فإنّه سأل بعضَ أصحابنا فقال: هل تعرفُ في كتاب الله تعالى أنَّه يُخبرُ عن الاستطاعة، أنّها قبلَ الفعل؟ قال: نعم، أتى كثيرٌ، مِنْ ذلك قولُه تعالى "قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أنَا آتيكَ بِهِ قبْلَ أنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ وإنِّي عَلَيْه لَقويٌّ أَمِينٌ"، قال المخالف: سألتك أنْ تخبرني عن الله، فأخبرتني عن عفريتٍ لو كان بينَ يديَّ لبَزَقْتُ في وجهه قال صاحبُنا: أمّا سليمانُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم، فقد ترَكَ النَّكيرَ عليه، ولو كان مثلُ هذا القول كفْراً وافتراءً على الله، ومغالبةً وتفويضاً للمشيئة إلى النفس، لكان سليمان ومَن حضره من المسلمين من الجّن والإنس أحقَّ بالإنكار، بل لم يكن العِفريتُ في هذا الموضع هو الذي يسرع فيه ويذكر الطاعة، ولا يتقرَّب فيه بذكر سرعة النفوذ، ويبشر فيه بأنّ معه من القوّة المجعولة ما يَتَهَيأ لمثله قضاءُ حاجته، فيكذب ثمَّ لا يرضى بالكذب حتَّى يقول قولاً مستنكراً، ويدَّعي قوَّة لا تُجعَل له، ثمّ يستَقبل بالافتراء على الله تعالى والاستبداد عليه، والاستغناء عنه نبيّاً قدْ ملك الجنَّ والإنس والرِّياحَ والطير، وتسْيير الجبال، ونطقَ كلِّ شيء، ثمَّ لا يزجره فضلاً عن أنْ يضربَه، ويسجُنه فضلاً عن أن يقتله.
وبعدُ، فإن الله تبارك وتعالى لم يجعل ذلك القول قرآناً، ويترك التنبيه على ما فيه من العَيب، إلاّ والقول كان صِدقاً مقبولاً، وبعد، فإن هذا القولَ قد سمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتلاهُ على الناس، وما زالوا يتلونه في مجالسهم

ومحاريبهم، أفما كان في جميع هؤلاء واحدٌ يعرف معرفتك، أو يغضَبُ لله تعالى غضبك؟.

دفاع عن الكلب

قال صاحب الكلب: لو اعترضْتَ جميعَ أهل البدو في جميع الآفاق من الأرض، أنْ تُصِيبَ أهلَ خيمةٍ واحدة، ليس عندهُمْ كلبٌ واحد فما فوقَ الواحد لمَا وجدته، وكذلك كانوا في الجاهليَّة، وعلى ذلك هم في الإسلام، فمن رجعَ بالتخطئة على جميع طوائف الأمم، والتأنيبِ والاعتراض على جميع اختيارات الناس، فليتَّهم رأيَه؛ فإنَّ رأيَ الفردِ ولاسيّما الحسودُ، لا يَفي برأيٍ واحد، ولا يرى الاستشارة حظاً وكيف بأنْ يَفيَ بجميع أهل البدو من العرب والعجم، والدليل على أنَّ البَدْوِ قد يكون في اللُّغة لهما جميعاً قولُ الله عزَّ وجلَّ: " وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إخْوَتِي"، ولو ابتُلي صاحبُ هذا القول بأن يَنزل البادية، لتحوَّل رأيُه، واستبدَلَ بهِ رأيَ من قد جرّب تقريبَ الكلب وإبعادَه، وقد قال أبو عَّبادٍ النميري: لا يكون البُنْيَان قريَةً حتى ينبحَ فيه كلبٌ، ويزْقوَ فيه ديك، ولمَّا قال أحمد بنُ الخَارَكي: لا تَصير القريةُ قريَةً حتَّى يصيرَ فيها حائكٌ ومعلِّم، قال أبو عبَّاد: يا مجنونُ إذا صارتْ إلى هذا فقد صارت مدينة.
وللكلب إثباتُه وجهَ صاحبه، ونظرُه في عينيه وفي وجهه، وحبُّه له، ودُنُّوه منه، حتَّى ربَّما لاعبه ولاعب صبيانَه بالعضِّ الذي لا يؤثِّر ولا يُوجِع، وهي الأضراسُ التي لو نشَّبها في الصخر لنَشِبت، والأنيابُ التي لو أنحى بها على الحصَى لرضَّها، وقد تراه وما يصنع بالعظْم المدمَج، وبالفِقْرة من الصُّلب القاسي الذي ليس بالنَّخِر البالي، ولا بالحديثِ العهد بالودَك الذي يلين معه بالمضْغ ويَطيب، فتراه كيف يرضُّه ويفتّته، ثمَّ إن مانَعَه بعضَ الممانعةِ، ووافقَ منه بعضَ الجوع، كيف يبتلِعه وهو واثق باستمرائه وهضْمه، أو بإذابته وحلِّه. وله ضروبٌ من النَّغَم، وأشكال من الأصوات، وله نوح وتطريب، ودُعاء وخُوار، وهَرير وعُواء، وبَصبصة، وشيءٌ يصنَعه عند الفرح، وله صوتٌ شبيهٌ بالأنينِ إذا كان يَغْشَى الصيد، وله إذا لاعَبَ أشكاله في غُدُوات الصَّيفِ شيءٌ بينَ العُواء والأنين، وله وطءٌ للحصى مثله بأن لو وطئ الحصى على أرض السطوح لا يكون مثله وطء الكلب يربى على وزنه مراراً، وإذا مرَّ على وادٍ جامدٍ ظاهرِ الماء، تنكّبَ مواضعَ الخرير في أسفله.
قال الشاعر ورأى رجلاً اسمه وثَّاب واسم كلبه عمرو فقال:

ولو هَيَّا له اللّـه مِن التَّوفيق أسبابا
لسمَّى نفسه عَمْراً وسمَّى الكلبَ وَثَّابا

أطّباء الكلبة والخنزيرة والفهدة

قال: والكلبة كثيرةُ الأطباءِ، وكذلك الخنزيرة، وللفهدة أربعة أطباء من لَدُنْ صدرها وقرب إبطيها إلى رفغيها، وللفيل حلمتان تصغران عن جثته، وهما مما يلي الصَّدر مثل الإنسان، والذكُر في ذلك يشبَّه بالرجل؛ لأنْ للرجل ثديَيْن صغيرَين عن جثته.

واقية الكلاب

ويقال: إنَّ على الكلابِ واقيةً من عبث السُّفهاء والصِّبيان بها، قال دُريد بن الصِّمَّة، حين ضرَبَ امرأته بالسيف ولم يقتلْها:

أقرّ الْعَينَ أنْ عُصِبتْ يداها وما إن يُعصبَان على خِضَابِ

فأبقـاهُـنَّ أنَّ لـهـنَّ جَـدّاً وواقيـة كواقيـة الـكـلاب

وقال الآخر:

إنْ يَقِنَا اللَّه مِن شَرِّها فإنَّ الكلابَ لـها واقيَهْ

ويروى:

سينْجِيه مِنْ شرِّها شرُّه

وقال غيره:

ولقدْ قتلتُك بالهجاء فلم تمُتْ إن الكلاب طويلة الأعْمارِ

وقال بشر بن المعْتَمر:

النـاسُ دَأباً في طلاب الثَّرَا فكُلُّهم من شأنه الخَـتْـرُ

كأذؤبٍ تنهَشُـهـا أذؤبٌ لها عُواءٌ ولـهـا زَفـرُ

استطراد لغوي قال: ويقال قزَح الكلب ببوله يقزح قزْحاً، إذا بال، قال: وقال أبو الصَّقر: يقزَح ببوله حين يبول، وشغر الكلب يشغَر إذا رفع رجْلَه، بال أو لم يبل، ويقال شغرتُ بالمرأة أشغُرها شغْراً إذا رفعتَ رجلَها للنِّكاح، قال: ويقال عاظل الكلبُ مُعاظلةً، يعني السِّفاد، قال أبو الزحف:

كمِشْيَةِ الكلبِ مَشَى للكـلـبَـةِ يَبغي العِظالَ مُصْحراً بالسَّوءَة

قال: ويقال كلبٌ عاظِل وكلابٌ عُظّل وَعظالى، وقال حسان بن ثابت الأنصاري:

ولَست بَخيرِ من يَزيدَ وخَـالـدٍ ولست بخيْر من معاظلة الكلبِ

قال مالِكُ بن عبد اللّه الجَعْديّ، يوم فيفِ الرِّيح: حدَّثني أبي، لقدْ نظرتُ يَوْمَئذٍ إلى بني عبد الحارث بن نمير، فما شبَّهتُهم إلاَّ بالكلاب المتعاظلة حَوْلَ اللواء.
وقال أبو بَرَاء عامرُ بن مالكٍ ملاعبُ الأسِنَّة لاعبه الحارث واليوم قال فقال منذ يومئذ، قال: والسَّلوقيّة منسوبَة إلى سَلوقَ من بلاد اليَمن، لها سلاحٌ جيِّد وكلاب فُرَّه، وقال القطاميٌّ:

معه ضَوَارِ مِنْ سَلوقَ له طَوْراً تُعانِدُه وتنفعـه

تعفير البهائم والسباع أولادها قالُوا: وليس في الأرض بهيمةٌ ولا سبع أنثى تريد فِطامَ ولدها وإخراجَه من اللَّبَن إلى اللحم، أو من اللبنِ إلى العُشْب، إن كانت بهيمةً إلاَّ وهي تعفر ولدَها، والتعفير: أن ترضعه وتمنعه حتى يجوع ويطلب اللحمَ إن كان سبعاً، والعُشْبَ إن كان بهيمة، فلا تزالُ تنولِّه وتُماطله وكلما مرَّتْ عليه الأيَّام كان وقتُ منعِها له أطولَ، حتَّى إذا قوي على أكْل اللَّحْمِ أو العُشْب فطمته، قال لبيدٌ في مثل ذلك:

أفَتِلْكَ أمْ وَحْشِيَّةٌ مَسْبُوعَةٌ خُذِلَتْ وَهَادِيةُ الصِّوَارِ قِوَامُهَـا

خَنْسَاءُ ضَيَّعَتِ الْفَرِيرَ فلـم يَرِمْ عُرْضَ الشَّقَائِقِ طوْفُهَا وَبُغَامُهَا

لمُعَفَّرٍ قَهْدٍ تَنَـازَعَ شِلْـوَهُ غُبْسٌ كَوَاسِبُ لاَ يُمَنُّ طَعَامُهَـا

صَادَفْنَ مِنْهَا غِرَّةً فَأصَبْنَـهَـا إنَّ المنايا لا تَطِيشُ سِهامُـهـا

لأنَّ البقرة إذا كانت بحضْرة ولدها لم تضيِّعه ومَنعت السِّباعَ منه، وقاتلَتْ دونَهُ بقُرونها أشدَّ القتال، حتَّى تُنجيَه أو تعطب.

بعض من كني بالكلاب

قال: وكان ابنُ لِسَانِ الحُمَّرَة يكنى أبا كلابٍ، وكان زوجُ حُبَّى المدَنيَّة يقال له ابن أمِّ كِلاب، وقال الشَّاعر يذكُرها:

ومَا وَجَدَتْ وَجْدي به أمٌّ واحدٍ ولا وجْدُ حُبَّى بابنِ أمِّ كِلابِ

رأتْهُ طويلَ السَّاعدين شَمرْدَلاً كما انبعثَتْ من قوّةٍ وشَبَاب

صفة عيون الكلاب

وقال آخر يصِفُ عيونَ الكلاب إذا أبصرت الصَّيد:

مجزَّعَةٌ غُضْفٌ كأنَّ عيونَـهـا إذا آذَنَ القُنَّاصُ بالصَّيد عَضْرَسُ

مجزّعة: في أعناقها جَزْع، وهو الودَع يُجعَل في القلائد، يقول: تبيضُّ عيونُها حينَ تختِلُ الصَّيد، والعَضْرَس هاهنا: البَرَد، وقال الآخر:

خُوصٌ تَرَاح إلى الصُّراخ إذا غَدَتْ فِعْلَ الضِّراء تَـرَاحُ لـلـكَـلاَّبِ

وقال آخر وذكر الضِّراء، وهو يصف الشَّيخ وضعْفَه:

ومنها أن يُقادَ به بَـعـير ذَلُولٌ حينَ تَـهتَرِشُ الكِلابُ

قال: وهُم عند الحاجة يُعِدُّون الكلبَ والمطيَّة، وأنشد:

فأعقبَ خيراً كلّ أهوج مِهْرَجٍ وكلُّ مُفدَّاةِ العُلالة صِـلْـدِمِ

وقال الآخر:

مُفدَّيات وملقَّبات

وأنشد قول أبي ذُؤَيب في شبيهٍ بالمعنى الأوّل:

شِغفَ الكلابُ الضّـاريـاتُ بـه فإذا يَرَى الصُّبْحَ المُصدَّقَ يَفْزَعُ

يقول: هذه الثِّيران لما قد لُقِّينَ مع الصبح والإشراق من الكلاب، صار أحدها حين يَرَى ساطع الصبح يَفْزَعُ، وذلك أنَّها تمطرُ ليلتَها فتَشَرَّقُ في الشمس، فعندها تُرسَل عليها الكلاب صولة الذئب على الغنم مع الصبح ويقال إنَّ أكثرَ ما يعرض الذّئبُ للغنم مع الصُّبْح، وإنَّما رقب فَتْرة الكلب وكلالَه، لأنّه باتَ ليلتَه دائباً يحرس، وقال أعرابيٌّ وكسرَ ذئب شاةً له مع الصُّبح، فقال:

أودَى بوَردة أمِّ الـورْدِ ذو عَـسَـلٍ مِن الذّئاب إذا مـا راحَ أو بَـكَـرا

لولا ابْنُها وسَلِـيلاتٌ لـهـا غُـرَرَ ما انفكَّت العين تذْري دمعَها دِرَرَا

كأنَّما الذّئبُ إذ يعدو على غنَـمـي في الصُّبح طالبُ وِترٍ كان فاثَّـأرا

اعتامَها اعتامَه شَـثْـنٌ بـراثِـنُـه من الضَّواري اللّواتي تقصِمُ القصَرا

مسألة زيد الخيل للرسول الكريم ولما قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام لزيدِ الخيل مِن الخير ما قال، وسمَّاه زيدَ الخير، ما سأله زيدٌ شيئاً، ولا ذكر له حاجة، إلاّ أنَّه قال: يا رسول اللَّه، فينا رجُلان يقال لأحدهما ذَرِيح، والآخر يكنى أبا دُجانة، ولهما أكلب خمسة تَصِيد الظباء، فما ترى في صيدهم؟ فأنزلَ اللَّه عزَّ وجلّ:"يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنّ مَّما عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ"، فأوَّلُ شيءٍ يعظِّم في عينِك شأنَ الكلب، أنَّ هذا الوَافدَ الكريمَ الذي قِيل له ما قيل، وسُمِّي بما لم يسمَّ به أحد لم يسألْ إلاّ عن شأن الكلب، وثانية وهي أعظمها: أنَّ اللَّه تعالى أنزل فيه عند ذلك آياً مُحْكماً فقال: "أُحِلّ لَكمُ الطَّيِّبَاتُ" فسمَّى صيدَها طيّباً، ثم قال: "وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ" مخبراً عنْ قبولها للتعليم والتأديب، ثم قال: "مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّه" ولولا أنَّ ذلك البابَ من التعليمِ والعلمِ مَرْضيٌّ عند اللَّه عزَّ وجلّ، لَمَا أضافه إلى نفسه، ثم قال: "فَكلُوا ممَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكمْ وَاذْكُروا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ" فأوَّلُ شيءٍ يعظُم به في عينك إمساكُه عليك، وهكذا يقول أصحابُ الصَّيد، إنَّ كلَّ صائدٍ فإنَّما يُمسِك على نفسه إلاّ الكلبَ فإنّهُ يُمسك على صاحبه، ولو كان الجوابُ لزيد الخيل سُنَّةً من سُنَنَ النبي صلى اللَّه عليه وسلم لَكانَ في ذلك الرِّفعةُ، فكيفَ والكتابُ فوقَ السُّنّة، وقد روى هشام أنّ ابنَ عبَّاس سمَّى كِلابَ ذَرِيحِ هذه وكلابَ أبي دُجانة فقال: المختلِس، وغلاَّب، والقنيص، وسَلهب، وسِرْحان، والمتعاطِس.

دواء الذبحة والخانوق وزعم الأطبَّاء أنَّ من أجودِ أدويَةِ الذُّبحة والخانوق أنْ ينفخ في حلقِ مَن كان ذلك به، ما جَفّ من رَجِيع الكلاب، وأجودُ ذلك أنْ يكون يتغرغر به وربَّما طلوْه على جلد المحموم الحديدِ الحُمَّى.

رجيع الكلاب

وأجود رجيع الكلابِ أنْ يشتدّ بياضهُ، وليس يعتريه البَياضُ إلاّ عن أكْل الطعام، وذلك رديءٌ للقانص منها. والجعور قد تبيَضُّ إذا كان قوتُ صاحبها اللبن، ولذلك قال أبو كلاب وهو ابن لسان الحمَّرة ومرَّ به رجلٌ من بني أسد فقال: قد علمت العربُ يا معشَرَ بني أسدٍ أنّكم أشدُّها بَياضَ جُعور، فعكفَ عليه فضرَبه بالسيف حتى بَرَد، وذلك أنّه عيّره بأنّهم لا يعرفون البَقْل، ولا يعرفون إلاّ اللبن، وقال الشاعرُ يهجو ناساً منهم:

عَراجِلةٌ بيضُ الجُعُور كأنّـهـمْ بمنْعَرَج الغِيطَان شُهْبُ العَنَاكِبِ

والعرب تقول: اللّحم أقلُّ الطّعام بَخَراً

دفاع عن الكلب

وقال صاحب الكلب: وما للدِّيك وللكلاب، والكلابُ ينزَّل فيها القرآنُ وُيحْدَث فيها السنن، ويُشتقُّ من أسمائها للنَّاس وللأُسد، ولها أسماءٌ معروفةٌ وأعراق منسوبة، وبُلْدان مشهورة، وألقابٌ وسِمَات، ومناقِبُ ومقامات وما للدِّيك إلاّ ما تقول العوام:

إنّه إذا كان في الدار ديكٌ أبيض أفرَق لم يدخله شيطان، وليس يقومُ خَيْر ذلك، ولو كان ذلك حقًّا، بشؤمه؛ لأنَّ العوامَّ تقضي على مَن كان في داره ديكٌ أبيض أفرق بالزندقة.
والذين يقولون إنّ الدار إذا كان فيها ديكٌ أفرقُ لم يدخُلْها شيطان، هم الذين يقولون مَنْ أكلَ لحم سِنّورٍ أسودَ لم يَضِرْه سحر، وإذا دُخِّنت الدار بالدُّخنة التي سمّوها بدُخنة مريم، أو باللُّبان، لم يكنْ عليها لعُمَّار الدَّار سبيل، فإن مَرَّت ساحرة تطير سقطت، وهم الذين لا يشكُّون أنّ مَن نام بين البابَين تخبَّطه العُمَّارُ وخَبَلته الجنّ

ما يقال له: جرو

قال: ويقال لولد الكلب والذِّئبِ والسِّنَّور أشباه ذلك: جرو، ويقال للصغير من الحنْظل على مِثل ذلك: جرو، وقال النَّمِرُ بنُ تَوْلب:

بجرْوٍ يُلقَّى في سِقـاءٍ كـأنّـه مِنَ الَحنْظل العامِيِّ جَرْوٌ مفلَّقُ.

من قول الكلب

وممَّا زادَ في ذِكْر الكلب قولُ السَّيِّد بن محمد في شأن عائشة في الحديث الذي رَوَوه وكان السّيِّد رافضِيًّا غالياً، وليس في ذكره شرَف، ولكنّه أجمعُ للفنِّ:

تهْوِي من البَلَدِ الحرَامِ فنبَّهـتْ بَعْدَ الهُدُوِّ كِلابَ أهْلِ الحوْءَبِ

قال: ويقال صرَفت الكلبة صِرَافاً وصُروفاً، وظلَعت تظلَع ظُلوعاً

قولهم: لا أفعل حتى ينام ظالع الكلاب

قال: ومن الأمثال في ذلك: لا أفعَلُ حتَّى يَنامَ ظالِعُ الكلاب، قال الأصمعيُّ: هذا باطل، إنّما ذلك إذا أصابَ الكلبَ ما يظلَع منه لم يُطِق سِفاد الكلبة حتَّى تهدأ الرِّجْل، وحتَّى تملَّ الكلابُ النُّباح وتَفترِقَ، وتحتاج إلى النَّوم لطول التعب، وإذا كان في ذلك الوقت يلتمس الظالع ورامَ سِفاد الكلبة، لم يعرف ظلعه إلاّ الكلبة، وأنشد فقال:

تسدَّيتُها مِنْ بَعْدِ ما نام ظالِعُ الْ كِلابِ وأخْبَى نـارَه كلُّ مُوقِدِ

وأنشد غيرهَ لجِرَان العَوْدِ:

وكانَ فُؤادي قدْ صَحَا ثمَّ هاجـه حَمائمُ وُرْقٌ بالَمـدَائنِ هُتَّـفُ

كأنَّ الـهديلَ الظّالِعَ الرِّجْل وَسْطَهَا مِنَ البغْي شِرِّيبٌ يُغَرِّدُ مُتْـرَفُ

ما قيل من الشعر في إشلاء الكلب على الضيوف وقالوا أبياتاً في غير هذا الباب، قال الأعرابيّ:

نزلْنا بعَبّاد فأشلَى كلابَه عَلينا فكِدْنَا بين بابَيهِ نُؤْكَلُ

فقُلْتُ لأصحابي أسرٌّ إليهمُ أذَا اليَومُ أو يومُ القِيامة أطولُ

وقال آخر:

أعدَدْتُ للضِّيفانِ كلباً ضارياً عِندي وفضلَ هِراوَة مِنْ أرْزَنِ

وقال في خلاف ذلك مالكُ بن حَريم الهمْدانيُّ:

وواحدةٌ إلاّ أبيتَ بغـرَّةٍ إذا ما سَوَامُ الحيِّ بات مصرَّعا

وثانيةٌ ألاَّ تفزَّعَ جَارتي إذا كان جَارُ القوم فيهم مفزَّعا

وثالثة ألاَّ أصمِّتَ كلبَنَا إذا نزَل الأضيافُ حِرصاً لتُوزَعا

استطراد لغوي قال: ويقال لَحِزَ الكلبُ الإناءَ، فهو يلحَزه لَحزاً، ولحسَه فهو يلحَسه لحساً، قال أبو يزيد: وذلك إذا لحِس الإناءَ من باطنه، والقرْو: مِيلَغة الكلب، فإذا كان للكلب فإنَّما هو من أسفَل كُوز أو ما أشبه ذلك، وإلاَّ فالقرْوُ أسفلُ نخلةٍ يُنْجَر ويقوَّب ويُنْتَبَذُ فيه.
وقال الأعشى:

أرمِي بها البيدَ إذا أعرَضَتْ وأنتَ بينَ القرْوِ والعاصرِ

في مِجْدَلٍ شُيِّد بُنْيَانُهُ يزلّ عنْه ظُفرُ الطَّائر

أحجيَّة في الكلب وممَّا يُحاجي به النَّاسُ بعضُهم بعضاً أن يقولوا: أتعرفون شيئاً إذا قام كان أقصرَ منه إذا قعد؟ يريدون الكلب، لأنَّ الكلب قعودُه إقعاؤه، وهو إذا أقعَى كان أرفع لسَمْكه، وأرفعَ في الهواء طولاً منه إذا قام، وقال عمر بن لجأ:

عليه حِنْوا قتَبٍ مستقدم مُقْعٍ كإقعاء الكليبِ المعصِمِ

ويقال أقعى الكلبُ إقعاء، ولا يقال قعد ولا جلس، وفي الحديث: أنَّه نَهَى أنْ يُقْعِيَ أحدُهم في الصلاة إقعاءَ الكلب.

معرفة سنّ الكَلْبِ

قال صاحب الكلب: يُعرَف فَتاء الكلب وهَرمُهُ بالأسنان، فإذا كانت سوداء كانت دليلاً على كبره، وإذا كانت بيضاً حادّة دلَّت على الفتاء والحداثة، وقال: أسنان الذَّكر أكثر.

أصناف الحيوان المشقوقة الأفواه وأصناف الحيوانِ المشقوقةُ الأفواه كالكلب والأسد والفهْدِ موصُوفاتٌ بشدَّة المماضيغ والفكّ والخراطيم، كالكلب والخنزير والذئب، فأشبَهَ الكلبُ الأسدَ في شَحْو الفم واتّساعه، وعلى أنَّ شَحْو فمه على مقدار جسمه، وأشبَه الذِّئبَ والخنزيرَ في طول الخَطم وامتداد الخُرطوم، ولذلك كان شديدَ القلب، جيِّدَ الاسترواح، فجمع الكلب دون هذه الأصناف ما يصلُح للرضِّ والحطم، كما جمع ما يصلُح للابتلاع والالتهام والحطم والاستمراء بعض ما قيل في الأسد والأسد حريصٌ واسع الشَّحْو، فهو يبتلع البَضْعَةَ التي لو رآها الإنسان لم يظنَّ أنَّ حلقه يتَّسع لمرور ذلك، ويقال إنّ عنقه عظمٌ واحد واللُّقَم لا تجول فيه، وهو في ذلك قليلُ الرِّيق، فلا يسلُس في حلْقه ما يمرّ فيه، بل يبتلع لفرْط نَهمه وشحْو لَحييه ضِعفَي ذلك المقدار، وقد زعم ناسٌ أنّ الذي يدلُّ على أنَّ عنقَ السبُع عظمٌ واحدٍ، ضعفُه عن تصريفه عنقه، فلا يلتفت إلاَّ معاً، فيسمَّى الأصيد، وقال جِران العَوْدِ في الذئب:

شدَّ المماضغَ منه كلَّ مُلْتَـفَـتٍ   وفي الذِّراعين والخُرطومِ تسهيلُ

وقالوا في أسنان الذئب وفي أسنان بعض الحيَّاتِ بأنَّها مَمطُولة في الفكّين، يُذْهَبُ إلى أنّه عظمٌ مخلوق في الفك، وأنّه لا يُثْغِر، وأنشدوا:

مُطِلْنَ في اللَّحْيينِ مَطلاً إلى   رأسٍ وأشداقٍ رحيبـاتِ

والحيَّاتُ توصَف بسعة الأشداق، والأفاعي خاصَّة هي المنعوتة بذلك، وقال الشاعر وهو جَاهلي:

خُلِقَتْ لَهَازِمُهُ عِزِينَ وَرأسُـهُ   كالقُرص فُلطحَ من طحينِ شَعِير

ويَديرُ عَيناً للـوقـاع كـأنـهـا   سمراءُ طاحت من نَفِيض بَرير

وكأنّ شِدقيه إذا استعرضتَـه   شِدْقا عَجُوزٍ مَضْمَضَتْ لطهور

مما أشبه فيه الكلبُ الإنسان والأسد

وممَّا أشبَه فيه الكلبُ الإنسان والأسد، أنّ كلّ واحدٍ من هذه الأجناس إنَّما له بطنُ واحد، وبعدَ البطن المِعَى، إلا أنَّ بعضَ بطنها أعظمُ من بعض، ويناسبها في الذي ذكرنا الذئبُ والدُّبّ، فما أكثرَ ما يناسبان الكلب، فلذلك صارا يتناكحان ويتلاقحان، وهذا قول صاحب المنطق، قال: وأمعاء الكلب أشبهُ شيءٍ بأمعاء الحيَّة، وهذا أيضاً مما يزيدُ في قدره، لأنّه إمّا أن يشبه الإنسان، وإمَّا أنْ يشبه رؤساء السباع ودواهي الحشرات، وكلّما كانت هذه المعاني فيه أكثر كان قدره أكبر ما يحتلم من الحيوان وما يحتلم قال: والكلب يحلمُ ويحتلم، وكذلك الفرس والحمار، والصبيُّ يحلم ولا يحتلم، والثَّور في هذا كله كالصبيّ، ويعرف ذلك في الكلب إذا تفزَّعَ وأنعَظ، وزعم أنَّ الاحتلامَ قد عُوين من الفَرس والبرذون والحمار بعض الأمور التناسلية لدى الحيوان. قالوا: وليس العِظال والتحام الفرجين إلاّ في الكلب والذئاب، ومَن أراد أن يُفَرِّق بينَ الكلاب إذا تعاظلَت وتسافدت رامَ أمْراً عسيراً.
قالوا: والحيوان الذي يطاول عند السِّفاد معروف، مثل الكلب والذئب والعنكبوت والجمل، وإن لم يكن هناك التحام، وإذا أراد العنكبوت السفادَ جلَبت الأنثى بعض خيوطِ نسْجها من الوسط، فإذا فعلت ذلك فعَل الذكَر مثلَ ذلك، فلاَ يزالانِ يتدانيان حتى يتشابكا فيصير بطنُ الذَّكر قُبالَة بطنِ الأنثى، وذلكَ شَبيهٌ بعادات الضفادع.
وقال أبو الحسن عنْ بعض الأعراب، قال: إذا هَجَم الرَّجلُ على الذّئب والذّئبةِ وهما يتسافدان، وقد التحَمَ الفَرْجان، قتلَهما ذلك الهاجم عليهما كيف شاءَ، لأنَّهما قليلاً ما يُوجدَان كذلك، لأنَّ الذئب وحشيٌّ جدًّا وشَهيٌّ جدّاً، صاحبُ قفرة وخلوة، وانفرادٍ وتباعد، وإذا أراد الذِّئبة توخَّى موضعاً من القِفار لا يطوه الأنيس، خوفاً على نفسه، وضنًّا بالذي يَجد في المطاولة من اللّذة.
حديث أحمد بن المثنى وحدَّثني أحمد بن المثنَّى قال: خرجتُ إلى صحراء خوخ لجنايَةٍ جنيتها وخِفْتُ الطّلب، وأنا شابٌّ، إذّ عرض لي ذئب فكنْتُ كلّما دُرْت من شِقٍّ استدارَ بي، فإذا دُرْت له دَارَ من خلْفي، وأنا وسطْ بَرِّيّةٍ لا أجد مُعيناً إلاّ بشيء أسند إليه ظهْري، وأصابَني الدُّوار، وأيقنْتُ بالهلَكة، فبينا أنَا كذلك وقد أصابني ما أصابني وذلك هو الذي أراده الذِّئبُ وقدَّره إذا ذئبةٌ قد عرَضت، وكان من الصُّنْع وتأخِير الأجَل أنَّ ذلك كان في زمن اهتياجِها وتسافُدها، فلما عايَنها تركَني وقصَدَ نحوها، فما تَلَعْثَمَ أنْ ركِبها، وقد كنتُ قرأتُ في بعض الكتب أنَّها تلتحم، ففوَّقت سهْمِي وهما ينظران إليّ، فلمَّا لم أرَ عندهما نكيراً حقَّقَ ذلك عندي ما كان في الكتاب من تلاحُمِهما، فمشَيْت إليهما بسَيفي حتَّى قتلتهما.

لقاح الكلاب والخنازير

قال: ومما يُعَدُّ للكلاب أنَّها كثيراً ما تُلقحُ وتَلقح لحال الدِّفء أو الخِصب، والكلبُ والخنزير في ذلك سواء، ولا يكاد غيرُهما من الأصناف يتلاقح في ذلك الزمان، فالكلبُ كما ترى ينازع أيضاً مواضع الإساءة والمحاسن في جميع الحيوان.
أسوأ ما يكون الحيوان خلقاً قال: وإناثُ الكلاب تصعُب أخلاقُها إذا كانَ لها جِراء، وكلُّ شيء له بَيضٌ أو جِراء أو فِراخٌ فأسوأ ما يكون خُلقاً وأنزقُ وأكثرُ ما يكون

أدَى وأعْرَمُ إذا كان كذلك، إلاَّ إناث البقر. والكلب كلما كان أسنَّ كانَ صوتُه أجهرَ وأغلظ.

تناسل الكلاب

قال: والكلب ينزو إذا تمَّت له ستَّةُ أشهر، وربَّما كان ذلك منه وهو ابن ثمانية أشهر، والكلبةُ الأنثى تحمِل واحداً وستين يوماً، أطولَ ما يكون، ولا تضعُ قبل أن يتمّ لحملها ستُّون يوماً، ولا يبقى الجرْو ولا يتربّى إذا قصَّر عن ذلك، والأنثى تصلح أن يُنزَى عليها بعد سِتَّة أشهر.
ولد البكر من الحيوان والإنسان والكلبة والحِجْر والمرأةُ وغير ذلك، يكون أوَّلُ نِتاجها أصغرَ جُثّة، وكذلك البَيْضُ إذا كان بكراً، وكذلك ما يخرج منه من فرُّوج أو فرخ بقية القول في تناسل الكلاب وذُكور الكلاب تَهيج قبل الإناث في السّنّ، والإناث تهيج قبلها في وقت حركتها، وكلما تأخَّر وقت الحدث إلى تمام الشَّباب كان أقوى لولده، والكلابُ لا تريد السِّفاد عُمرها كله، بل إلى وقت معلوم، وهي تلقح إلى أن تبلغ ثمانيَ عشرة سنة، وربما انْتَدَرت الكلبة فبلغت العشرين، والكلابُ أجناسٌ كثيرة: الكلب السلوقيُّ يَسفَد إذا كان ابن ثمانية أشهر، والأنثى تطلب ذلك قبل الثمانية، وذلك عند شغُور الذكر ببوله، والكلبة تحمِل من نزْوٍ واحد، وقد عرف ذلك الذين عرفوا الكلاب وحضروا ليعرفوا ذلك، قال: والكلبة السَّلوقيَّة تحمِل سُدْس السنة سِتِّين يوماً، ورُبَّما زادت على ذلك يوماً أو يومين، والجرو إذا وُضع يكون أعمى اثْنَيْ عَشر يوماً ثمَّ يبصر، والكلبة تسفَد بعد وضعِها في الشهر الثاني، ولا تسفد قبل ذلك. ومن إناث الكلاب ما تحمل خُمس السنة، يعنى اثنين وسبعين يوماً، وإذا وضعت الجراء تكون عمياءَ اثنين وعشرين يوماً.
ومن أصناف الكلاب ما يحمل رُبع السنة، أعني ثلاثة أشهر، وتضع جراء وتبقى كذلك سبعة عشر يوماً، ثمَّ تُرضع جِراءَها على عدد أيَّامِها التي لا تبصر فيها.
وزعم أنَّ إناث الكلاب تحيضُ في كلِّ سبعة أيام، وعلامة ذلك وَرَم أثفارها، ولا تقبَل السفاد في ذلك الوقت، بل في السبعة التي بعدها ليكون ذلك تمامَ أربعَة عشرَ يوماً أكثرَ ما يكون، وربما كان كذلك لتمام ستَّةَ عشرَ يوماً.
قالوا: وإنَاث الكلاب تُلقي بَعْدَ وضْع الجِراءِ رُطوبَةً غليظةً بلغميَّة، وإذا وضَعتْها بعدَ الجِراء اعتراها هُزال، وكذلك عامَّة الإناث، ولبنها يظهَر في أطبائها قبل أن تضَعَ بخمسة أيام أكثر ذلك، وربما كثُر اللبنُ في أطبائها قبل ذلك بسبعة أيام، وربّما كان ذلك في مقدار أربعة أيام، ولبنها يظهَر ويجود إذا وَضَعَتْ من ساعتها، قال: فأمَّا السلوقيّة فيظهر لبنها بعد حملها بثلاثين يوماً، ويكون لبنُها أوَّلَ ما تضعُ غليظاً، فإذا أزمن رقَّ ودقَّ، ولبنُ الكلابِ يخالف لبن سائر الحيوان بالغلظ، بعد لبن الخنازير والأرانب.
وقد تكون علامة مبلغُ سِفادها مثلَ مَا يعرض للنّساءِ من ارتفاع الثَّديين، ومعرفة ذلك عسيرة، وهذه علامَات تظهر لإنَاث الكلاب، وذكورةُ الكلاب ترفع أرجلَها وتبول لتمام ستَّةِ أشهر، ومنها مَا لا يفعل ذلك إلى أن يبلغ ثمانية أشهر، ومنها مَا يعجِّل قبل ذلك، قال: ونقول بقولٍ عامٍّ إنَّ الذكورَ تفعلُ ذلك إذا قويت، فأمّا الإنَاث

فهي تبول مُقْعِية، ومنها مَا تشغَر، وأكثرُ ما تضعُ الكلبةُ اثنا عَشَرَ جرواً، وذلك في الفَرْط، وأكثر ذلك الخمسة والسّتة، وربّما وضعت وَاحداً، فأمَّا إناث السلوقَية فهي تضعُ ثمانيةَ أجراء، وإنَاثُها وَذكورُها تسفَد ما بَقِيَتْ، وَيعرِض للكلاب السلوقيَّة عَرَض خاصٌّ: وَهي أنَّها كلَّما بقيت كانت أقوى على السِّفاد

أعمار الكلاب

وذكورة السلوقيَّة تعيش عشرَ سنين، والإناث تعيش اثنتي عشرة سنة، وَأكثر أجناس الكلاب تعيش أربعَ عشرة سنة، وَبعض الأجناس تبقى عشرين سنة. قال: وإناث الكلاب أطولُ أعماراً من الذكور، وكذلك هي في الجملة، وليس يُلقي الكلب من أسنانه سنًّا ما خلا النَّابين، وإنَّما يلقيهما إذا كان ابنَ أربعة أشهر. قال: ومن أجْل أنَّ الكلابَ لا تُلقِي غيرَ هذين النَّابين يشكُّ بعض الناس أنها لا تلقى سِنًّا البتّة

أمراض الكلاب

قال: وللكلاب ثلاثة أصنافٍ من المرض، وأسماؤها: الكلب بفتح اللام، والذبحَة، والنقرس، والكلَب جُنون، فإنْ عرَض لشيء من الحيوان كَلبٌ أيضاً أماته، ماخلا الإنسان، وهو داءٌ يقتل الكلاب، وتقتُل به الكلابُ كلَّ شيء عضّته، إلاّ الإنسان فإنّه يعالج فيسْلَم، أدواء بعض الحيوان قال: وداء الكلَب يعرض للحمار، فأمَّا الجنون وذَهابُ العقل فإنّه يصيبُ كلَّ شيء، فمن ذلك ما يصيب الدوابَّ، فإنَّ منها مَا يُصرعَ كما يُصرع المجنون، والسائس من الدواب: الذاهب العقل.
صرع أعين الطبيب وقد كان شأن أعين الطبيب عَجَباً، وذلك أنّه كان يُصرع، واتَّفق أنّه كان له بغلٌ يصرع، فكان ربَّما اتّفق أن يُصرَعا جميعاً وقد رأى ذلك كثير من أصحابنا البصريِّين الصَّرْعُ عند الحيوان والصَّرْع عامٌّ في الحيوان، ليس يسلم منه صِنف منها حتَّى لا يعرض له منه شيء، والإنسان فوق جميع الحيوان تعذيباً، وكذلك هو في العقل والمعرفة والاحتيال له، مع دفع المضرّة واجتلاب المنفعة، ومَا أكثر مَا يعتريهم ذلك، ومن ذلك مَا يذهب، ومن ذلك ما لا يذهب بعض من عرض لهم الصرع من الفضلاء وقد كان بَخْتيَشوعُ المتطبِّب عرَض له ذلك، وقد كان عرض لعبد الملك بن قُريب فذهب عنه، وربَّما عرض للرّجل الذي لا يُظَنُّ به ذلك في بيان ولا تبيين، ولا في أدبٍ، ولا في اعتدالٍ من الأخلاط، والصحَّةِ من المزَاج، ثُمَّ لا يعرض من ذلك إلاَّ ما لا حيلةَ له فيه، كما كان يعرض لبشر بن أبي عمرو بن العلاء النحويِّ المازنيّ وكما عرض لعبد الرحمن ومنصور الأسدِّيين، فما زالا كذلك حتَّى ماتَا، ولم يبلغنا أنهما صُرِعا.
الموتَة والمُوتَة جنسٌ من الصَّرْع، إلاَّ أنَّ صاحبَه إذا أفاقَ عاد إلى كمال عقله كالنائم والسكران والمغشيِّ عليه، وإن عاش صاحبُ المُوتة في ذلك مائة عام.
وليس يلقى شيءٌ من الحيوان في هذا الباب كما يلقى الوَرَشان أختلاف درجات السُّكْر لدى الحيوان كتبيانها لدى الإنسان وأمَّا السُّكْر فليس شيءٌ من الحيوان إلاَّ وهو يسكر، واختلاف سكره كاختلاف سكر الإنسان، فإنَّ من النّاس مَن تراه يتحدَّث وهو يشرَب فلا تنكر منه شيئاً، حتَّى يغلب عليه نوم السُّكر ضربةً واحدة،

ومنهم من تراه والنبيذ يأخذ منه الأوَّلَ فالأوَّل، وتراه كيف تَثْقُل حركتهُ، ويغلُظُ حسُّه ويتمحَّق، حتى يَطيش عليه السُّكرُ بالعبث، ويطبقَ عليه النوم، ومنهم مَن يأخذُه بالعَبث لا يعدُوه، ومنهم من لا يرضى بدون السَّيف، وإلا بأن يضرب أمَّه ويطلِّق امرأته، ومنهم مَن يعتريه البكاء، ومنهم مَن يعتريه الضَّحِك، ومنهم مَن يعتريه الملَق والتَّفديةُ، والتَّسليمُ على المجالس، والتَّقبيلُ لرؤوس الناس، ومِنهم من يرقصُ ويثِب، ويكون ذلك على ضربين: أحدهما من العَرْض وفضل الأشَر، والآخر تحريك المرارة، وهي علَّةُ الفساد وهيَجان الآفة.

وكلُّ هذه الحالات والصّور، والنعوت، والأجناس، والتوليد، الذي يختلف في طبائع الناس، وطبائع الأشربة، وطبائع البُلدان والأزمان والأسنان، وعلى قدر الأعراق والأخلاق، وعلى قدر القلَّة والكثرة، وعلى قدر التصريف والتوفيق، قد وجدوه في جميع أصناف الناس والحيوان، إلاَّ أنَّ في الناس واحدةً لم تُوجَد في سائر الحيوان قطُّ، فإنَّ في الناس من لا يسكَر البتّة، كان محمد بن الجهم وأبو عبد اللَّه العَمِّيُّ، وكان بين عقل زبيد بن حُميد إذا شرب عشْرة أرطال، وبين عقله إذا ابتدأ الشرب، مقدارٌ صالح.

سكْرُ العميّ وإمَّا العَمّيّ فإنَّ بني عبد الملك الزياديِّين دعَوني مرَّةً ليعَجِّبوني منه، ولم ينبِّهوني على هذه الخاصَّة التي فيه، لأكون أنا الذي أنتبه عليه، فدخلت على رجلٍ ضخمٍ فَدْم غليظ اللسان، غليظِ المعاني، عليه من الكلام أشل المؤنة، وفي معانيه اختلافٌ، ليس منها شيٌ يواتي صاحبَه ولا يعاونُه ولا يشاركُه ولا يناسبه، وحتَّى ترى أنَّ أذنه في شِقٍّ ولسانَه في شقٍّ، وحتَّى تظنَّ أنّ كلامه كلامُ محمومٍ أو مجنون، وأنَّ كلَّ واحد منهما يقطع نظام المعاني، ويخلط بين الأسافل والأعالي، فشرب القوم شُربَ الهيم، وكانت لهم أجسادٌ مدْبرة، وأجوافٌ منكَرة، وكنتُ كأنِّي رجلٌ من النَّظَّارة، فما زال العمِّي يشرَب رطلاً، ويرقُّ لسانُه، وينحلُّ عَقْده، ويصفو ذهنُهُ، ويذهب كدره، ولو قُلْتُ إنِّي لم أرَ مثلَه حُسْنَ نفسٍ كنتُ صادقاً، فالتفت إليَّ القومُ أجمعُهم فقالوا: لولا هذا العَجَب مَا عَجَّبْنَاك اليومَ معَ حداثةِ عهدنا بك.

وزعم العمِّيُّ وكان كثيرَ المنازَعة عند القضاة، أنَّه كان إذا قارب العشرةَ الأرطالِ ثمّ نَازَعَ الخصومَ، كان ذلك اليومُ الذي يفوت فيه ذَرْعَ الخصوم لِلَحَنِ بحجَّته، ويستميل فيه رأيَ القاضي المنعقد في مجلسه الطويل، القطوبِ في وجْهِ مَن نازع إليه، وقال الشاعر:

وجدتُ أقلَّ النَّاس عقلاً إذا انتشى أقلَّهُمُ عقلاً إذا كـانَ صـاحِيا

تزيدُ حُسَى الكاس السَّفِيهَ سَفاهةً وتَتْرُكُ أخْلاَقَ الرِّجالِ كما هِيا

قال: وهذا شعر بعضِ المولَّدين، والأعاريبُ لا تُخطئ هذا الخطأ؛ قد رأينا أسْفَهَ الناس صاحياً أحلم الناس سكران؛ وهو مِرداسٌ صاحب زهير، ورأينا أحسنَ النَّاس خُلقاً وأوزنَهم حلماً، حتَّى إذا صار في رأسه رِطلٌ كان أخفَّ من فَرَاشة، وأكثرَ نزواً من جَرادةٍ رَمِضة، فإنَّ المثَلَ بها يُضرَب.

سبب مَا له عرَفَ المعتزلة سكرَ البهائم وكان سببُ ما لَهُ عرَف أصحابُنا سكْر

البهائم، أنَّ محمَّدَ بنَ عليِّ بنِ سليمانَ الهاشميَّ لمَّا شرب على علُّويه كلب المطبخ، وعلى الدُّهمان، وعلى شُرَّاب البصريِّين، وعلى كُلِّ من نزَع إليه من الأقطار، وتحدَّاه من الشرَّاب الجَوَادِّ من الشُّرَّاب، أحَبَّ أن يشْرَب على الإبل من البَخاتيِّ والعِراب، ثُمَّ عَلَى الظِّلف من الجواميس والبقر، ثم على الخيل العِتاق والبَرَاذين، فلمّا فرَغ من كلِّ عظيمِ الجثة واسع الجُفْرَة، صار إلى الشاء والظِّباء، ثمّ صار إلى النُّسور والكلب وإلى ابن عِرس، وحتَّى أتَاهم حاوٍ فأرغبوه، فكان يحتال لأفواه الحيَّات حتَّى يصبَّ في حاقِّ أجوافِها بالأقماع المدنيّة، وبالمَسَاعط، ويتَّخذ لكلِّ شيء شكله، وكان ملكاً تواتيه الأمور، وتُطيعه الرجال، فأبصَرُوا تلك الاختلافاتِ في هذه الأجناس المختلفة.

نعت النّظام فخبّرني أبو إسحاقَ إبراهيمُ النَّظام، وقد كان جالسَهُ حيناً وكان إبراهيمُ مأمونَ اللِّسان، قَلِيلَ الزَّلَل والزَّيغ في باب الصدق والكذب، ولم أزعم أنَّه قَلِيلُ الزَّيغ والزَّلَل على أنَّ ذلك قد كان يكونُ منه وإن كان قليلاً، بلْ إنَّما قلتُ عَلَى مثل قولك: فلانٌ قلِيل الحياء، وأنتَ لستَ تريد هناك حياءً البتة، وذلك أنَّهم ربَّما وَضعوا القليلَ في موضع ليس، وَإنما كان عيبُهُ الذي لا يفارقه سوءَ ظنِّهِ، وجَودة قياسِهِ عَلَى العارض والخاطر والسابق الذي لا يُوثَق بمثله، فلو كان بدَلَ تصحيحِهِ القياسَ التمَسَ تصحيحَ الأصل الذي كان قاس عليه أمرَه على الخلاص، ولكنَّه كان يظنُّ ثمَّ يقيس عليه وينسى أنَّ بدءَ أمره كان ظنّاً فإذا أتقنَ ذلك وأيقنَ، جَزَم عليهِ، وحكاهُ عن صاحبه حكايَةَ المستبصر في صحَّة معناه، ولكنّه كان لا يقول سمعت، ولا رأيت، وكان كلامُه إذا خرج مخرج الشَّهادةِ القاطعة لم يشُكَّ السامعُ أنَّه إنَّما حكى ذلك عن سماع قد امتحنه، أو عن معاينةٍ قد بهرته.

حديث البهائم في تجربة إسكار البهائم والسباع فحدَّثني إبراهيمُ قال: شهدتُ أكثرَ هذه التَّجربةِ التي كانت منهم في إسكار البهائمِ وَأصنافِ السباع، ولَقد احتالَ لأسد مقلَّم الأظفار يُنادى عليه: العجَب العجَب حتَّى سقاه وعرَف مقدارَه في الاحتمال، فزعمَ، أنّه لم يجِدْ في جميع الحيوان أملحَ سُكْراً من الظَّبي، ولولا أنَّه من الترفُّه لَكنتُ لا يزال عندي الظَّبيُ حتَّى أسكِره وَأرى طرائفَ ما يكون منه.

القول في سرعة التعليم والجرأة عند بعض الحيوان قال: وإناث الكلاب السوقية أسرع تعلماً من الذكورة، قال: وجميع أصناف السباع ذُكورتُها أجراً وَأمضى وأقوى، إلاَّ الفَهْدة والذِّيبَة، والعامَّة تزعم أنَّ اللَّبُؤة أجرأ من الأسد، وليس ذلك بشيء، وهو أنزَقُ وأحَدُّ، وأفرَقُ من الهَجْهجَة، وأبعَدُ من التصميم وشدَّة الصَّولة.

بين عروة بن مرثد وكلب حسبه لصّاً

قال بشر بن سعيد: كان بالبَصرة شيخٌ من بني نَهشَلٍ يقال له عُروة بن مَرْثد، نزل ببني أختٍ له في سكَّة بني مازن، وبنو أخته من قُريش، فخرج رجالُهم إلى ضياعهم وذلك في شهرِ رمضان، وبقِيت النِّساءُ يصلِّين في مسجدهم، فلم يبق في الدار إلاّ كلب يعُسُّ، فرأى بيتاً فدخل وانصفق الباب، فسمع الحركة بعضُ الإماءِ فظَنّوا أنَّ لصّاً دخل الدار فذهبتْ إحداهنَّ إلى أبي الأعزّ، وليس في الحيِّ رجلٌ غيره، فأخبرتْهُ فقال أبو الأعزّ: ما يبتغي اللصُّ مِنَّا؟ ثمَّ أخذ عصاهُ وجاء حتَّى

وقفَ على بابِ البيت فقال: إيه يا مَلأمَان أما واللهِ إنَّك بي لعَارف، وإنِّي بك أيضاً لعارف، فهل أنتَ إلا من لُصوصِ بني مازن، شربتَ حامضاً خبيثاً، حتَّى إذا دارت الأقداحُ في رأسك منَّتْك نفسُك الأمانيَّ، وقلتَ دُورَ بني عمرو، والرِّجالُ خُلوف، والنِّساء يصلِّين في مسجدهنَّ، فأسرقهنَّ سَوءةٌ واللهِ، ما يفعل هذا الأحرارُ لبئْسَ واللهِ ما منَّتك نفسُكَ فاخرجْ وإلاَّ دخلتُ عليك فصَرَمَتْك منِّي العُقوبة لايمُ اللهِ لتَخرُجَنَّ أو لأهتفَنّ هتْفةً مشؤومةً عليك، يلتقي فيها الحيَّان: عمرو وحنظلة، ويصيرُ أمرُك إلى تال، ويجيء سعْدٌ بعَدَدِ الحصى، ويَسيل عليك الرِّجالُ من هاهنا وهاهنا ولئن فعلتَ لتكونَنَّ أشأمَ مولودٍ في بني تميم فلما رأى أنَّه لا يجيبُه أخَذَهُ باللِّين وقال: اخرجْ يا بُنَيَّ وأنتَ مستور، إنِّي والله ما أُرَاك تعرفُني، ولو عرفتَني لقد قَنِعتَ بقولي واطمأننت إليَّ، أنا عُروة بن مَرثَد أبو الأعزِّ المَرثَدِيُّ، وأنا خالُ القومِ وجِلدةُ ما بين أعينهم لا يعصُونَني في أمر، وأنا لك بالذِّمة كفيلٌ خفير، أصيِّرك بين شحمةِ أذني وعاتقي لا تُضارّ، فاخرج فأنتَ في ذِمَّتي، وإلا فإنَّ عندي قوْصرَّتَين إحداهما إلى ابن أختي البارّ الوَصُول، فخذْ إحداهما فانتَبِذْها حلالاً من الله تعالى ورسولِهِ صلى الله عليه وسلم، وكان الكلبُ إذا سمعَ الكلامَ أطرقَ، وإذا سكت وثب يُريغُ المخرج، فتهافت الأعرابيُّ، أيْ تساقط، ثمَّ قال: يا ألأمَ الناسِ وأوضَعَهم، ألا يأْني لك أنَّا منذُ الليلة في وادٍ وأنتَ في آخر، إذا قلتُ لك السَّوداءَ والبيضاء تسكتُ وتطرِق، فإذا سكتُّ عنكَ تَريغُ المخرج؟ والله لتخرُجَنَّ بالعَفو عنك أو لألجَنَّ عليك البيت بالعُقوبة فلما طال وقوفُه جَاءَتْ جَارِيةٌ من إماء الحيِّ فقالت: أعرابيٌّ مجنون والله ما أرى في البيتِ شيئاً ودفعت البابَ فخرج الكلبُ شدّاً، وحادَ عنه أبو الأعزّ مستلقياً، وقال: الحمدُ لله الذي مَسَخك كلباً، وكفاني منك حرباً ثم قال: تالله ما رأيتُ كاللَّيلةِ، ما أراه إلاّ كلباً أمَا والله لو علمتُ بحالِه لولَجت عليه.

بعض خصال الديك

قال صاحب الديك: في الدِّيك الشّجاعَةُ، وفي الديك الصّبرُ عند اللّقاء، وهم لا يجدون الصَّبرَ تحت السِّياط والعصا، إلاّ أنْ يكون ذلك موصولاً بالصَّبر في الحرب على وقع السِّلاح، وفي الدِّيَك الجوَلان، وهو ضرب من الرَّوَغان، وجنسٌ من تدبير الحرب، وفيه الثَّقافةُ والتسديد؛ وذلك أنَّه يقدِّر إيقاع صِيصِيَتِه بعين الديك الآخر ويتقرَّب إلى المذبح فلا يخطئ، وهم يتعجَّبون من الجَزَّار، ويضربون به المثل إذْ كان لايخطئْ اللَّبَّة، ومن اللحَّام إذا كان لا يخطئ المَفْصِل، ولذلك قالوا في المثل: يطبِّق المحزَّ ولايخطئ المَفْصِل، وهذا القولُ يذمُّون به ويَمْدحون، والديك في ذلك أعجبُ، وله مع الطَّعنة سرعة الوَثبة، والارتفاع في الهواء، وسلاحه طَرِير، وفي موضع عجيب، وليس ذلك إلاّ له، وبه سمَّى قرْن الثور صِيصِيَة، ثم سمَّوا الآطام التي كانت بالمدينة للامتناع بها من الأعداء صياصِيَ، قال اللّه عزَّ وجلَّ: "وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ"، والعَرَبُ تسمِّي الدَّارِع وذا الجُنَّة صاحبَ سلاح، فلما كان اسم سلاح الديك وما يمتنع به صِيصِيَة، سمَّوا قرنَ الثور الذي يجْرَح صيصيِة، وَعلى أنّه يشبَّه في صورته بصيصِية الديك وإن كان أعظم، ثمَّ لمَّا وجدوا تلك الآطامَ معاقِلهم وحصونَهم وجُنَّتَهم، وكانت في

مجرى التُّرس والدرع والبَيضة، أجروها مُجْرَى السلاح، ثم سمَّوها صياصي، ثمَّ أسموْا شوكةَ الحائك التي بها تهيَّأ السَّدَاة واللُّحمة صِيصِيةً إذْ كانت مشبَّهة بها في الصورة، وإنْ كانت أطولَ شيئاً؛ ولأنَّها مانعة من فساد الحَوْك والغزْل؛ ولأنَّها في يده كالسلاح، متى شاءَ أن يجأ بها إنساناً وجأه به، وقال دُريد بن الصِّمَّة:

نَظرْتُ إليْهِ والرِّمَاحُ تَنُوشُهُ كَوَقع الصَّياصِي في النَّسيج المُمَدَّدِ

استطراد لغوي

وقد تسمِّي العربُ إبرة العقرب شوكة، كما تسمِّي صيصيَةَ الديك شوكة، وهي من هذا الوجه شبيهةٌ بشَوك النَّخل، ويقال لمن ضربته الحُمْرة، قدْ ضربته الشَّوكة؛ لأنَّ الشَّوكةَ إذا ضربت إنساناً، فما أكثرَ ما تعتريه من ذلك الحمرةُ، وقد قال القطاميُّ في تسمية إبرة العقرب شَوكة:

سرى في جَليدِ الأرْضِ حتَّى كأنّما تخزم بالأطراف شوك العَقاربِ

وتُوصف الحِجْر وتشبَّه بالشَّوكة؛ لأنَّ الشَّوكة غليظةُ المآخِر، لطيفة المَقادم، والشَّوكُ والسُّلاَّءُ سواءٌ، وقال في ذلك عَلْقمة بن عَبدة يصف الحِجْر:

سُلاَّءَة كعَصَا النَّهْدِيِّ غُلَّ لها ذُو فيئةٍ مِنْ نَوَى قُرّان مَعْجومُ

ومن سمَّى إبرة العقرب حُمَة فقد أخطأ، وإنَّما الحُمة سمومُ ذواتِ الشعر كالدَّبْر والزَّنَابير، وذوَات الأنياب والأسنان كالأفاعي وسائر الحيات، وسموم ذوَاتِ الإبر من العقارب، فأمّا البيشُ وما أشبهه من السُّموم، فليس يقال له حُمَة، وها هنا أمور لها سمومٌ في خراطيمها، كالذِّبَّان والبَعوض وأشياءُ من الحشرات تَعضُّ وربَّما قتلت، كالشّبَث وسامِّ أبرَصَ، والطَّبُّوعُ شديد الأذى، والرُّتَيْلاء ربما قتلت، والضَّمج دون ذلك، وعقارب طيَّارةٌ: ولم نرهم يسمُّون جميع السُّموم بالحُمة، فقلنا مثل ما قالوا، وانتهينا إلى حيثُ انتهوا.

بعض من تقتل عضته

وقد يُعرفُ بعضُ النّاس بأنّه متى عضّ قتَل، كان منهم صفوان أبو جشَم الثّقفيّ، وداودُ القرّاد، وسيقع هذا البابُ في موضعه على ما يمكننا إن شاء الله تعالى.

استطراد لغوي

والناس يسمُّون الرَّجلَ إذا بلغ مِنْ حرصه ألاّ يدع ذكراً، غلاماً كان أو رجلاً، وخَصيّاً كان أو فحلاً، إلاّ نكحه مِن فَرْط غُلْمته، ومن قوّة فِحلَتِه: صِيصِيَة، ويقولون: ما فلانٌ إلا صِيصيَة، وهو عندهم اسمٌ لمن اشتدَّ لِواطه؛ تشبيهاً منهم بصيصِية الديك في الحدَّة والصَّلابة.

بعض مزايا الديك

وللديك انتصابُهُ إذا قام، ومباينتُه صورَةً في العين لصُورة الدجاجة، وليس هذا الفرقُ الواضحُ من جميع الإناث والذكور موجوداً إلاّ فيه، وليس ذلك للحمام والحمامة، ولا للحمار والحمارة، ولا للبِرذَون والرَّمَكة ولا للفرس والحِجْر، ولا للجمَل والنَّاقة؛ وليس ذلك إلاّ لهذه الفحولة لأنّها كالرَّجل والمرأة، والتَّيس والظبية، والدِّيك والدَّجاجة وكَالفُحَّال والنخلة المطعمة، ألا ترى أنّك لو رأيتَ ناقةً مقبلةً لم تدر أنَاقة هي أم جمل، حتى تنظر إلى موضع الثِّيل والضّرْع، وإلى موضع الحيا، وكذلك العنز، وكذلك جميع ما وصفت، إلاّ أن يدّعوا أن للعامة أو لبعض الخاصة في ذلك خصوصيَّة، ولذلك ضربوا المثل بالتّيس والنخلة والفُحّال، فاشتقوا من هذا الفحل، وهذا أيضاً من خصال الدِّيك، ثُمَّ للديك لحية ظاهرة، وليست تكون اللّحى إلاّ للجمل فإنّه يوصف بالعثنون، وإلاّ للتَّيس وإلاّ للرَّجل، وقال الرَّاجز في الجمل:

مختلط العُثْنون كالتّيس الأحَمّ   سامٍ كـأنّ رأسَـه فـيه وَذَم

إذّ ضمَّ من قطرَيه هياج قطِم

ثمَّ الديك بعدُ صاحب اللّحية والفرَق، وقالت امرأة في ولدها وزوجها:

أشهَبَ ذِي رَأسٍ كرأسِ الديكِ

أمّا قولها أشهب، فإنّها تريد أنّ شعرَ جسده قد ابيضَّ من الكِبَر، وإنَّما جعلتْ شعرَ رأسهِ كرأس الديك لأنّه كان مخضوبَ الرأس واللّحية بالحُمْرة، ثُمَّ لم ترضَ له بشبه الرجَال من هذا الوجه حتَّى جعلتْ رأسه أفرقَ، وذلك شيءٌ من الجمال والوقار والفضل، لايتَهيَّأ للناس مع كمالهم وتمامهم إلاّ بالتكلف والاحتيال فيه، ثُمَّ يبلغ من شدّة تعجله ومن قوَّته على السِّفاد، وعلى الباب الذي يفخر به الإنسان إذا كان ذا حظٍّ منه وهو ممّا يُذْكي النَّفس كنحو ما ذكر عن التّيس المراطيّ، وكنحو مَا تراهم يُبركون للبُخْتيّ الفالج عدّة قلاص، فإذا ضَرَب الأولى فخافوا عليها أن يحطِمها وهو في ذلك قد رمى بمائهِ مِراراً أقلَته الرِّجَالُ على التي تليه في القرب، حتى يأتي على الثَّلاث والأربع على ذلك المثال، وما دعاهم إلى تحويله عن الثالثة إلى الرابعة إلاّ تخوفهم من العجز منه، وزعم أبو عبد الله الأبرص العَمِّيُّ، وكان من المعتزلين، أنّ التَّيس المراطي قرَع في أول يومٍ من أوَّل هَيْجِة نَيِّفاً وثمانين قرعة، والنّاسُ يحكون ما يكون من العُصفور في الساعة الواحدةِ من العَدَد الكثير، والنّاس يُدخلون هذا الشكل في باب الفضْل، وفي باب شدَّة العجلة وتظاهر القوَّة، والديك يكون له وحدَه الدّجاج الكثيرُ، فيُوسِعها قمطاً وسفاداً، وقد قلنا في حالة البيض الكثير التُّرابي وقلبه إيَّاه بسفادٍ إلى الحيوانيّة، وعلى أنّ الذي يَخصيه إنَّما يُخرج له من بين الزِّمِكّي وموضِع القطاة بيضَتين عظيمَتين معروفتين.

وأنا رأيتُ ديكاً هِنديّاً تسنَّم دَجَاجَة هِنديّة فلم يتمكَّنْ منها، فرأيت نطفته حينَ مجَّها وقد زَلِق عن ظهرها على مَدَرة، وكانت الدار مُثارَة لتُجعَل بُستاناً، فإذا تلك المجَّة كالبَزْقة البيضاء، فأخذها بعضُ مَن كان معنا فشمَّها حين رأى بياضها وخَثورتها وكدرتها، ليعلم هل تناسب ريحُها ريحَ نُطفة الإنسان، وريحَ طَلع الفُحَّال، فلم يجدْ ذلك.
ثمَّ معرفةُ الدِّيك باللَّيل وساعاته، وارتفاقُ بني آدم بمعرفته وصوته: يعرفُ آناء الليل وعددَ الليل وعددَ السَّاعات، ومقاديرَ الأوقات، ثمَّ يقسِّط أصواتَه على ذلك تقسيطاً موزُوناً لا يُغادر منه شيئاً، ثمَّ قد علمنا أنّ اللَّيل إذا كان خمسَ عشْرَةَ ساعَة أنّه يقسِّط أصواتَه المعروفة بالعَدد عليها، كما يقسطها والليل تسعُ ساعات، ثمَّ يصنع فيما بين ذلك من القسمة وإعطاء الحصص على حساب ذلك، فليعلم الحكماءُ أنّه فوقَ الأسطرْلاب، وفوق مقدار الجزْر والمدِّ على منازل القمر، وحتَّى كأنّ طبْعَه فلكٌ على حِدَة، فجمَعَ المعرفةَ العجيبة والرِّعاية العجيبة. وربَّ معرفةٍ تكون نبيلةً وأخرى لا تكون في طريق النَّبالة، وإنْ كانت المعارفُ كلّها مفصّلة مقدّرة، إلاّ أنّها في منازلَ ومراتب، وليس في الأرض معرفةٌ بدقيقٍ ولا جليلٍ وهي في نفسها شريفةٌ كريمةٌ، والمعرفةُ كلُّها بَصر، والجهْل كله عمًى، والعمى كلُّه شَيْنٌ ونقص، والاستبانةُ كلُّها خيرٌ وفضْل، ثم ّ له بعد ذلك ارتفاق الناس بهذا المعنى منه، ومن ذلك بُعدُ صوته، وأنّه يدلُّ على أنّ موضعَه مأهُولٌ مأنوس، ولذلك قالوا: لا يكون البُنْيان قريةً حتَّى يصقع فيها ديك. وليس في الأرض طائر أملح مِلحاً من فرُّوج، وليس ذلك الاسم إلاّ لولد الديك، وإلاّ فكلُّ شيءٍ يخرج من البيض فإنَّما هو فرخ والفَرُّوج حين تنصدع عنه البَيضة، يخرج كاسياً عارفاً بموضع لقْط الحب وسدِّ الخَلَّة، وهو أصيَدُ للذُّباب من السُّودانيّ، ويدرُج مع الولادة بلا فصْل، وهذا مع ما أعطى من محبَّة النساء، ورحمة الرجَال، وحُسْن الرَّأي من جميع الدار، ثم اتِّباعه لمن دَعَاه، وإلفُه لمن قرَّبه، ثمّ ملاحةُ صوته وحُسن قدِّه، ثمَّ الذي فيه ممَّا يصحُّ له الفروج ويتفرَّج فيه.

تفضيل الديك على الثعلب

قول جعفر بن سعيد في تفضيل الديك على الطاوس

وكان جعفر بن سعيد، يزعم أنَّ الدّيك أحمدُ من الطاوس، وأنَّه مع جماله وانتصابه واعتداله وتَقلُّعه إذا مشى، سَليمٌ من مقابح الطاوس ومن مُوقه وقبح صورته، ومن تشاؤم أهل الدار به ومن قُبح رجليه، ونَذَالة مَرْآته، وزعم أنَّه لو ملك طاوساً لألبَسَ رجليه خفّاً، وكان يقول: وإنَّمَا يُفخَر له بالتَّلاوين، وبتلك التعاريج التي لألوانِ ريشه، وربَّما رأيتَ الدِّيك النَّبَطيَّ وفيه شبيهٌ بذلك، إلاّ إنَّ الدِّيك أجملُ من التُّدْرُج؛ لمكان الاعتدال والانتصاب والإشراف، وأسلمُ من العيوب من الطاوس، وكان يقول: ولو كان الطاوس أحسنَ من الدِّيك النَّبَطي في تلاوين ريشه فقط لكان فضلُ الديك عليه بفضل القدِّ والخَرْط، وبفضل حُسْن الانتصاب وجودة الإشراف أكثرَ مِنْ مقدار فضْل حُسنِ ألوانِهِ على ألوان الديك، ولكانَ السليمُ من العيوب في

العين أجمل لاعتراض تلك الخصال القبيحة على حسن الطاوس في عين الناظر إليه، وأوَّل منازل الحمد السلامة من الذَّمِّ، وكان يزعم أنَّ قول الناس فلانٌ أحسن مِن الطاوس، وما فلان إلاّ طاوس، وأنَّ قولَ الشاعر:

جلودُها مثلُ طواويسِ الذَّهب

وأنّهم لمّا سمَّوا جيشَ ابن الأشعث الطواويس لكثرةِ مَن كان يجتمع فيه من الفتيان المنعوتين بالجمال، إنما قالوا ذلك لأن العامَّة لا تبصر الجمال، ولفَرسٌ رائعٌ كريم أحسنُ من كلِّ طاوسٍ في الأرض، وكذلك الرَّجُل والمرأة، وإنّما ذهبوا من حسنه إلى حسن ريشه فقط، ولم يذهبوا إلى حسن تركيبه وتنصُّبه، كحسن البازي وانتصابه، ولم يذهبوا إلى الأعضاء والجوارح وإلى الشِّيات والهيئة، والرأس والوجه الذي فيه.
وكان جعفر يقول: لمّا لم يكن في الطاوس إلاّ حسنُه في ألوانه، ولم يكن فيه من المحاسن ما يزاحمُ ذلك ويجاذبُهُ وينازعه ويَشغل عنه، ذُكِرَ وتبيّن وظهر، وخصال الديك كثيرة، وهي متكافئة في الجمال، ونقول: لم يكن لعبد المطلب في قريش نظير، وكما أنّه ليس للعرب في النَّاس نظير؛ وذلك حين لم تكن فيه خصلةٌ أغلبَ من أختها، وتكاملت فيه وتساوت، وتوافت إليه فكان الطَّبع في وزن المعرفة، فقالوا عند ذلك: سيِّد الأبطح وسيِّد الوادي وسيِّد قريش، وإذا قالوا سيِّد قريش فقد قالوا سيِّد العرب، وإذا قالوا سيِّد العرب فقد قالوا سيِّد الناس، ولو كان مثل الأحنف الذي برع في حلمه وبرَع في سائر خصاله لذكروه بالحلم؛ ولذلك ذكر قيس بن زُهير في الدَّهاء، والحارث بن ظالم في الوفاء، وعتيبة ابن الحارث في النَّجدة والثّقافة، ولو أنّ الأحنَفَ بن قيس رأى حاجبَ بن زُرارة، أو زُرارة بن عُدَس، أو حِصْن بن حذيفة، لقدَّمهم على نفسه، وهؤلاء عيونُ أهلِ الوبر لا يُذكَرون بشيءٍ دونَ شيءٍ لاستواءِ خِصال الخير فيهم، وفي منحول شعر النابغة:

فألفيتُ الأمانة لم تخُنْها كذلك كانَ نوحٌ لا يخُونُ

وليس لهذا الكلام وجهٌ، وإنَّما ذلك كقولهم كان داودُ لا يخون، وكذلك كان موسى لا يخون عليهما السلام، وهم وَإن لم يكونوا في حالٍ من الحالات أصحابَ خِيانةٍ وَلا تجوزُ عليهم، فإنَّ النَّاس إنَّما يضربون المثَلَ بالشيء النادر من فِعل الرجال ومن سائر أمورهم، كما قالوا: عيسى ابن مريم رُوح الله، وموسى كليم الله، وإبراهيم خليلُ الرحمن، صلى الله عليهم وسلم، ولو ذكر ذاكرٌ الصبرَ على البلاءِ فقال: كذلك كان أيُّوب لا يجزع كان قولاً صحيحاً، ولو قال: كان كذلك نوح عليه السلام لا يجزع لم تكن الكلمة أعطِيت حقَّها، ولو ذكر الاحتمال وتجرُّع الغيظ فقال: وكذلك كان معاوية لا يسفهُ، وكان حاتم لا يفحُش، لكان كلاماً مصروفاً عن جهته ولو قال: كذلك كان حاتم لا يبخَل لكان ذلك كلاماً معروفاً ولكان القول قد وقع موقعَه، وإن كان حاتمٌ لا يُعرَف بقلّة الاحتمال وبالتَّسَرُّع إلى المكافأة، ولو قال: سألتك فمنعتني وقد كان الشَّعبيُّ لا يمنع، وكان النَّخعِيُّ لا يقول لا، لكان غيرَ

محمودٍ في جهة البيان، وإن كان ممَّن يُعطِي ويختار نعم على لا، ولكنْ لمَّا لم يكن ذلك هو المشهور من أمرهما لم تُصرَف الأمثال إليهما، ولم تضرب بهما، قال جعفر: وكذلك القول في الديك وجمالِه؛ لكثرة خصاله، وتوازُن خلاله، ولأنَّ جمال الديك لا يلهَج بذكره إلاّ البُصراء بمقادير الجمال والتوسُّطِ في ذلك، والاختلاط والقصد، وما يكون ممزوجاً وما يكون خالصاً، وحُسن الطاوس حسنٌ لا تعرف العوامُّ غيرَه، فلذلك لهجت بذكره، ومن الدَّجاج الخِلاسيُّ والهنديّ، ومن الدَّجاج الزِّنجي ومنها الكَسْكَري، ومن الدّيكة ما يُخصى فلا يبلغه في الطّيب والسِّمن شيء وإن اشتدَّ لحمه، وإن كان غير خَصيٍّ فقد يُمدح ذلك من وجهٍ هو أرَدُّ عليه في باب الفخر، من رَخاوة اللَّحم واستطابة الأكل، وعلى أنَّه لو كان أدناه من بعض سباع الطَّير، أو عدا خَلْفَه إنسانٌ، فكان يريد أخْذَه حتَّى إذا فسخه البهر ارتدّ في موضعه لا يبرحُه، ثم ذبحه على المكان، لجَمَع به الخصال كلَّها، ولو علّقَ في عنقه حَجَرٌ ليلتَه بعد أنْ ذبحه، أو أولج بطنَه شيئاً من حِلْتيت لجَمَعَ بهِ الخصال؛ فإنّه أعْمَلُ فيه من البُورَق وقشور البطّيخ في اللحم المفصّل، وهو بعدُ غيورٌ يحمي دَجاجَه، وقال الرَّاجز:

يغارُ والغَيرةُ خُلُقٌ في الذَّكَرْ

وقال الآخر:

الفحل يَحْمِي شَوْلَهُ مَعْقولا

لحم الدجاج

ولحم الدَّجاج فوق جميع اللُّحمان في الطِّيب والبياض، وفي الحسن، والملوك تقدِّمه على جميع الفراخ والنواهض، والبطّ، والدُّرّاج، وهم للدُّرّاج آكَلُ منهم للجِداء الرُّضَّع، وللعُنُق الحُمر من أولاد الصَّفايا. والدَّجاجُ أكثر اللُّحوم تصرُّفاً، لأنَّها تطيب شِواءً، ثم حارّاً وبارداً، ثمَّ تطيب في البَزْمَاوَرْد، ثم تطيب في الهرائِس، ويحدث لها به نفحةٌ لا تُصاب مع غيرها، وتَطيب طبيخاً، وتَطيب فُصوصها، وإنْ قطَّعتها مع اللحم دَسِمَ ذلك اللحم، وتصلح للحَشاوى، وللملاقسطي، وتصلح في الاسفرجَات وسمينُها يقدَّم في السِّكباجة على البط، إلاّ أنها تُطْعَمُ المَقْصُودَ وليس ذلك للبط.

لفظ: الدجاج قال: والدِّيَكة دَجَاج إذا ذكرت في جملة الجنس، وهذا الباب مما تغلَّب فيه الإناث على الذُّكورة، وقال آخرون: لا، ولكنَّ الدِّيكَ نفسه دَجاجة، إلاَّ أنَّهم أرادوا إبانَتَه بأنَّه ذكرٌ فقالوا: ديك، كما يسمُّون الذَّكر والأنثى فرساً بلا هاء، فإذا أرادوا أن يُثْبتوا إناثها قالوا حِجْر، وإن كانت حِجْراً فهي فرس، وقال الأخطل:

نازَعْته في الدُّجَى الرَّاحَ الشَّمُولَ وقدْ صاحَ الدَّجَاجُ وحانتْ وَقفةُ السَّاري

وقد بيَّن ذلك القرشيُّ حيث يقول:

اطرُدوا الدِّيكَ عن ذؤابةِ زيدٍ كانَ مَا كانَ لا تطاهُ الدَّجَاجُ

وذلك أنّه كان رأى رأسَ زيدِ بن علي في دار يوسفَ بن عمر، فجاء ديكٌ فوطئ شعْرَه ونقره في لحمه ليأكله.

حوار في صياح الديكة

قالوا: قد أخطأ مَن زعم أنّ الدِّيكة إنَّما تتجاوب، بل إنَّما ذلك منها شيءٌ يتوافق في وقت، وليس ذلك بتجاوُبٍ كنباح الكلاب؛ لأنّ الكلبَ لا وقتَ له، وإنَّما هو صامتٌ ساكت ما لم يحسَّ بشيء يفزَع منه، فإذا أحسَّ به نَبح، وإذا سمع نُباح كلبٍ آخر أجَابَ ثم أجابَ ذلكَ آخرُ، ثمَّ أجابهما الكلبُ الأوّلُ، وتبيَّن أنّه المجاوب جميع الكلاب، والدِّيك ليس إذاً من أجْل أنّه أنكر شيئاً استجاب، أو سمع صوتاً صقع، وإنَّما يصقع لشيءِ في طبعه، إذا قابل ذلك الوقتَ من اللَّيل هيّجَه، فعددُ أصواتِهِ في الوقتِ الذي يُظَنُّ أنّه تتجاوبُ فيه الدِّيكة، كعدَدِ أصواتِهِ في القريةِ وليس في القريَةِ ديكٌ غيره، وذلك هو في المواقيت، والعلَّةُ التي لها يصقع في وقتِ بعينه شائعةٌ فيها في ذلك الوقت، وليس كذلك الكلاب قد تنبح الكلاب في الخُرَيْبَة وكلابٌ في بني سعد غير نابحة، وليس يجوز أن تكون دِيَكة المهالبة تصقع، وديكة المسامِعة ساكتة، فإنْ أراد مريدٌ بقوله إنّ الدِّيكة تتجاوب، وعلى مثل قول العرب: هذه الجبال تتناظر، إذا كان بعضُها قُبالة بعضٍ، وإذا كان الجبلُ من صاحبه بالمكان الذي لو كان إنسانٌ رآه جَاز ذلك، وعلى هذا المثال قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم في نارِ المشركين ما قال، حيث قال: لا تَتَرَاءَى نارَاهما، ومع قول الشاعر:

لا تتراءَى قبورهما

وقال ابن مُقْبِلٍ العَجْلانيّ:

سَلِ الدَّار من جَنْبَي حِبرٍّ فواهبٍ وحيثُ يَرَى هَضبَ القليبِ المضيّحُ

وتقول العرب: إذا كانتَ بمكان كذا وكذا، حيثُ ينظُر إليك الجبُل فخُذْ عن يسارك أو عن يمينك، وقال الرَّاجز:

وكما يرى شَيْخ الجبالِ ثبيرا

وشيخ الجبال عنده أبو قبيس، وقال النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله الأخيار: أنا بريءٌ من كلِّ مسلمٍ مع كلِّ مشرك، قيل: ولِمَ يا رسولَ اللّه؟ قال: لا تتراءَى ناراهُما، وقال الكسائِيّ: تقول العرب: داري تنظُر إلى دار فلان، ودورنا تتناظر،

وقال اللّه تبارك وتعالى: "وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إلَيْكَ وَهَمْ لا يُبصِرُونَ"، وإنَّما قال القوم في تجاوُب الدِّيكة ببيتِ شعرٍ سمعوه للطِّرمَّاح، جهلوا معناه، وهو:

فيا صبح كمش غبر الليل مصعدا ببم ونبه العفاء الموشح

إذا صاح لم يخذل وجاوب صوته حماش الشوى يصدحن من كل صداح

وكذلك غلطوا في قول عبدة بن الطبيب:

إذا صفق الديك يدعو بعض أسرته إلى الصباح وهم قوم معازيل

وإنّما أرادَ تَوافيَ ذلك منها معاً؛ فجعلها دعاء وتجاوبا على ما فسرناه.

تفضيل صاحب الكلب الحمار على الديك

قال صاحب الكلب: لولا أنّا وجدنا الحمار المضروبَ به المثلُ في الجهل، يقومُ في الصَّباح وفي ساعات اللّيل مقامَ الدّيكة، لقد كان ذلك قولاً ومذْهباً غيرَ مَرْدُود، ولو أنَّ متفقّداً يتفقَّد ذلك من الحمار لوجدَه منظوماً يتبع بعضُه بعضاً على عدد معلوم؛ ولوجَدَ ذلك مقسوماً على ساعات الليل، ولكان لقائلٍ أن يقول في نهيق الحمار في ذلك الوقت: ليس على تجاوبٍ، إنَّما ذلك شيء يتوافى معاً، لاستواء العلة، ولم تكن للدِّيك الموصوفِ بأنّه فوق الأسْطرلاب فضيلةٌ ليست للحمار، وعلى أنّ الحمار أبعدُ صوتاً، وقد بلغ من شدَّة صوتِه ما إن حلَفَ أحمدُ بن عبد العزيز: إنّ الحمار ما ينام قيل له: وما ذاك؟ قال: لأنّي أجدُ صياحَه ليس بصياح شيءٍ انتبه تلك الساعة، ولا هو صياحُ من يريد أن ينام بعد انقضاء صياحه، هذا والحمارُ هو الذي ضَرب به القرآنُ المثلَ في بُعد الصوت، وضَرب به المثلَ في الجهْل، فقال: "كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أسْفَاراً"، فلو كان شيءٌ من الحيوان أجهلَ بما في بطون الأسفار مِن الحمار، لضَرب اللّه المثلَ به دونَه، عشرة أمثال في شأن الحمار وعلى أنّ فيه من الخصال ما ليس في الديك، وذلك أنّ العربَ وضعته من الأمثال التي هي له في عشرة أماكن، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: "كلُّ الصَّيْدِ في جوْفِ الفَرَا" وكفاك بِهِ مثلاً إذا كان لرسول اللّه صلى الله عليه وسلم في تفضيل هدايةِ أبي سفيان، وقال العرب: أنْكَحُ من الفَرَأ، والفَرَأ مهموز مفتوحة الفاء مجموعُهُ فِرَاءٌ، قال الشاعر:

بضَرْبٍ كآذانِ الفِرَاءِ فُضُولُه وطعْنٍ كإيزاغ المخَاضِ تَبُورُها

وتقول العرب: العَيْرُ أوْقى لِدَمِه، وقولهم: مَنْ يَنِكِ العَيْر يَنِك نيَّاكاً، وقالوا: الجحْشَ إذا فاتَتْكَ الأعيار وقالوا: أصبَرُ من عَير أبي سيَّارة؛ لأنَّه كان دفعَ بأهْلِ الموسم على ذلك الحمار أربعينَ عاماً، وقالوا: إن ذَهَب عيرٌ فعيْرٌ في الرِّباط، وقالوا في المديح لصاحب الرأي: جُحَيش وَحْدِه، و عُيَير وحده، و العَيْرُ يَضْرِط والمِكواةُ في

النَّار؛ وقالوا: حمَارٌ يحمل أسفاراً، و أضلُّ من حمار أهله، و أخزى اللّه الحِمارَ مالاً لا يُزَكَّى ولا يذكّى، و قد حِيلَ بين العَيْر والنَّزَوان، فالذي مُدح به أكثر؛ فقد وجدنا الحمار أبعدَ صوتاً، ووجدناه يعرف من أوقات الليل ويميِّز عدداً معلوماً إلى الصبح، إلاّ أنّ له في الأسحار فضيلة، والحمارُ أجهلُ الخلق، فليس ينبغي للدِّيك أن يُقضَى له بالمعرفة والحمار قد ساواه في يَسِير علمه، ثم بايَنَه أنّ الحمار أحسنُ هداية، والدِّيك إن سقط على حائط جَاره لم يُحسن أن يهتدي إلى داره، وإن خرج مِن باب الدار ضلَّ، وضلالُه من أسفل كضلالِه من فوق.

أحاديث في الديك

ما روى صاحب الديك من أحاديث في الديك

قال صاحب الديك: حدَّثونا عن صالح بن كيسان، عن عبيد اللّه بن عبد اللّه ابن عتبة، قال: صرخَ ديكٌ عندَ النبي صلى الله عليه وسلم فسبَّه بعضُ أصحابه، فقال: لا تَسبَّهُ فإنَّه يدعُو إلى الصلاة، وعن ابن الماجِشُون، عن صالح بن كيسان، عن عبيد اللّه بن عبد اللّه بن عتبة ابن مسعود، عن يزيد بن خالد الجُهني: أنّ رَسولَ اللّه صلى الله عليه وسلم نَهَى عن سبِّ الديك وقال: إنّه يؤذِّن للصَّلاَة.
الحسن بن عمارة، عن عمرو بن مرَّة، وعن سالم بن أبي الجعد، يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنَّ مما خلق اللّه تعالى لَدِيكاً عُرْفُه تحتَ العرش وبَرَاثِنُهُ في الأرض السُّفلى، وجَناحاه في الهواءِ، فإذا ذهب ثُلثا الليل وبقي ثُلثُه ضربَ بجناحه ثم قال: سبِّحوا الملِكَ القُدُّوس، سُبُّوح قدُّوس - أيْ أَنَّهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ - فعند ذلك تضرب الطَّيرُ بأجنحتها وتصيحُ الدِّيَكة، وأبو العلاء عن كَعب: إنَّ لِلَّهِ تَعَالَى دِيكاً عُنقُهُ تحْتَ العرش، وبراثنهُ في أسفل الأرَضين، فإذا صاحت الديكةُ يقول: سبحانَ الملِكِ القُدُّوس الملِك الرَّحمن، لا إله غيره، قال: والدِّيَكة أكيسُ شيءٍ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إنَّ الدِّيكَ الأبيضَ صديقي، وعدوٌّ عدوِّ اللّه، يحرس دارَ صاحِبِهِ وسبعَ دُور، وكان رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يبيِّته معه في البيت. ورُوي أنّ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يسافرون بالدِّيكة.

ذبح الديك الأفرق

وزعم أصحابُ التَّجربةِ أنَّه كثيراً ما يَرون الرَّجل إذا ذبح الدِّيك الأبيضَ الأفرق، أنّه لا يزال يُنْكَب في أهله وماله.

كيف تعرف الديك من الدجاجة

إذا كان صغيراً

وممَّا في المحاجاة أن يقال: كيف تعرف الدِّيك من الدجاجة إذا كان صغيراً حين يخرجُ من البيضة؟ فقالوا: يعلّق بمنقاره، فإنْ تحرَّكَ فهو ديك وإن لم يتحرّك فهو دجَاجة.

شعر في حسن الدجاجة ونبل الديك

قال الشاعر في حُسن الدَّجاجة ونَبل الديك:

غَدَوْتُ بَشربةٍ من ذاتِ عِرْقٍ أبا الدَّهناء من حَلَبِ العصير

وأُخرى بالعقَنْقل ثـم رُحـنـا نرى العُصفورَ أعظمَ من بَعير

كأنَّ الدِّيكَ دِيكَ بنـي نُـمـير أميرُ المؤمنين على السَّرير

كأنَّ دجَاجَهم في الدَّار رُقطاً بناتُ الرُّوم في قُمُص الحرير

فبتُّ أرَى الكواكـبَ دانِـيات يَنَلْنَ أنامِلَ الرَّجُلِ القـصـير

أدافعُهنَّ بالـكـفَّـين عـنِّـي وأمسح جَانبَ القمر المـنـير

طعن صاحب الكلب في الديك

وقال صاحب الكلب: الأشياءُ التي تألفُ الناس لا تريد سواهم كالعصفور والخطَّاف والكلب والسّنور، والدِّيكُ ممَّا يتَّخذه الناس، وليس ممَّا يحنُّ إليهم فيقطَع البلادَ نِزاعاً، فيكون كالقواطع من الطير التي تريدهم كالخطَّاف، ولا هو من الأوابد كالعصفور الذي حيثُما دار رجع إليهم، ولا هو كالكلب الذي لا يعرف سواهم، ولا هو كالأهليِّ من السنانير التي متى ألِفتهم لم تفارقهم، وتعُسُّ باللَّيل، وتطوف في القبائل من دار إلى دار ثمَّ لا يكون مرجعُها إلاَّ إليهم، والدِّيك في خلافِ ذلك كلِّه، ثمّ لا يألف منزله ولا يعرف رَبْعه، ثم لا يحنُّ إلى دجاجِهِ، ثمَّ لا تتوق نفسُه إلى طروقته، ولا يشتاق إلى ولده، ولا يعرف الذين غذوه وربَّوه، بل لم يدر قطّ أنَّ له ولداً، ولو كان درَى لكان على درايته دليل، فإذْ قدْ وجدناهُ لفراريجه وبيضه المخلوقة منه ومِنْ نجْلِه، كما نجده لما لم يلدْ ولما ليس مِن شكله أيضاً ولا يرجعُ إلى نسبه، فكيف لا نقضي عليه بالنَّقص، إذ كانت الأمور لا تعرف إلاَّ بهذا وشبهه. وهو لا يعرف أهلَ داره، ولا يُثبت وجهَ صاحبه الذي لم يُخْلقْ إلاّ عندَه، وفي ظلّه وتحتَ جناحه، ولم يزلْ في رزقه وعِياله، والحمام ترجع إليه من مائتي فرسخ، ويُصطاد فيتحوَّل عن وطنه عشْرَ حِجَج، ثمَّ هو على ثباتِ عهده وقوَّةِ عقْده، وعلى حِفاظه وإلفه، والنِّزاع إلى وطنه، فإن وجد فُرجة ووافق جناحَه وافياً وافاه وصار إليه، وإن كان جناحُه مقصوصاً جَدَف إلى أهله، وتكلَّف المضيَّ إلى سكَنه، فإمّا بَلَغ وإمَّا أعْذَر.

والخُطّاف يقطع إليهم من حيث لا يبلغه خبر، ولا يطوءه صاحب سفر؛ على أنّا لا نراه يتَّخذ وكرَه إذا صار إليهم إلاّ في أحصَنِ موضع، ولا يحمله الأنْس بهم على ترك التَّحرُّز منهم، والحزمِ في مُلابَستهم، ولا يحمله الخوف منهم على منْع نفسه لذّة السُّكونِ إليهم، ولا يبخس الارتفاق بهم حظّه، والعصافير لا تقيم في دار إلاّ وهي مسكونة، فإن هجرها الناسُ لم تُقِمْ فيها العصافير.
قول صاحب الكلب في السنور والهرة والسِّنَّور يعرف ربَّة المنزل، ويألف فرخَ الحمام، ويُعابث فراريج الدار، إن سُرِق ورُبط شهراً عاد عند انفلاته، وانحلال رباطه، والهرَّةُ تعرف ولدَها وإن صار مثلَها، وإن أُطعِمت شيئاً حملته إليه وآثرته به، وربّما أُلقي إليها الشيءُ فتدنو لتأكلَه، ويُقبلُ ولدها فتُمسِك عنه، وترضُّه له، وربّما طُرح لها الشيءُ وولدها غائبٌ عنها ولها ضروبٌ من النَّغَم، وأشكالٌ من الصِّياح فتصيح ضرباً من الصِّياح يعرفُ أهلُ الدَّار أنّه صياحُ الدُّعاء لا غير ذلك، ويقال: أبَرُّ مِنْ هِرَّة، ومتى أرادتْ ما يريدُ صاحبُ الغائط، أتت مواضعَ ترابٍ في زاويةٍ من زوايا الدَّار فتبحثه، حتَّى إذا جعلتْ له مكاناً كهيئة الحفرة جعلَتْه فيها ثمَّ غطّتهُ من ذلك التُّراب، ثمَّ تشمَّمتْ أعلى ذلك التراب وما ظهرَ منه، فإنْ وجدَتْ شيئاً من الرائحة زادت عليها تراباً، فلا تزال كذلك حتَّى تعلم أنَّها قد أخفت المرئيّ والمشموم جميعاً، فإنْ هي لم تجدْ تراباً خَمَشت وجهَ الأرض، أو ظَهْرَ السَّطح، حتَّى تبلغَ في الحفر المبلغ، ومن ستر ذلك المجهودَ.
وزعم ناسٌ من الأطبَّاءِ أن السِّنَّورَ يعرفُ وحدَه ريحَ رجْعِهِ، فإنما يستره لمكان شمّ الفأر لَهُ، فإنها تفرُّ من تلك الرائحة، أو يُغطّيه لما يكون فيه من خلُق من أخلاق الأسد، و ما يشاكل فيهِ الأسدَ في الخُلُق، على قدر ما يشاكله في الخَلق، وتعداد ذلك كثيرٌ.

سُلاح الديك

والدِّيكُ لا تراه إلاّ سالحاً، ثمَّ لا يتوقَّى ثوبَ ربِّ الدار ولا فِراشه ولا بساطه، هذا، وحياتُه التُّراب، ولذا يدفن نفسَه فيهِ، ويُدخله في أصولِ ريشهِ، ثمَّ لا ترى سُلاحاً أنتن من سُلاحهِ، ولا يشبهه ذَرْق الحمام، وصَوْم النَّعام، وجَعْر الكلب، ثم مع ذلك لا تراه إلاّ سائلاً رقيقاً، ولو كان مُدَحرَجاً كأبعار الشاءِ والإبل والظباء، أو متعلقاً يابساً كجَعْر الكلب والأسد، ثمَّ لو كان على مقدار نتنه لكان أهونَ في الجملة، وقال أبو نُواسٍ في ديكِ بعض أصحابه:

آذيتَنا بدِيكِكَ السَّلاّح فنجِّنا مِنْ مُنْتِنِ الأرْوَاح.

استخدام الخناقين للكلب

وقال صاحب الكلب: ومن مَرافق الكلب أنّ الخنَّاقين يظاهر بعضُهم بعضاً، فلا يكونون في البلاد إلاّ معاً، ولا يسافرون إلاّ معاً؛ فربَّما استولَوا على دربٍ بأسْره، أو على طريقٍ بأسره، ولا ينزلون إلاّ في طريق نافذ، ويكون خلف دُورهم: إما صَحارى وإمَّا بساتين، وإما مزابلُ وأشباهُ ذلك، وفي كلِّ دارٍ كلابٌ مربوطة،

ودُفوف وطُبول، ولا يزالون يجعلون على أبوابهم معلَّمَ كتّابٍ منهم، فإذا خنق أهلُ دارٍ منهم إنساناً ضربَ النِّساءُ بالدُّفوف، وضربَ بعضهم الكلابَ فسمع المعلّم فصاحَ بالصِّبيانِ: انبَحُوا وأجابهم أهْلُ كلِّ دَارٍ بالدفوف والصُّنوج، كما يفعل نساءُ أهْلِ القرى، وهَيَّجوا الكلاب، فلو كان المخنوقُ حماراً لما شَعر بمكانه أحد، كما كان ذلك بالرَّقَّة.

وانظرْ كيف أخذُوا أهْلَ دَرْبٍ بأسره وذلك أنّ بعضهم رغِب في ثُوَيب كان على حمّال، وفيهِ دريهمات معَهُ، فألقى الوَهَق في عنقهِ فغُشي عليهِ ولم يمتْ، وتحرَّك بطنُه فأتى المتوضَّأ وتحرَّك الحمَّال والسَّاجور في عنقِه، فرجَعت نفْس الحمال، فلمّا لم يحسّ بأحَدٍ عندَه، قصَدَ نحوَ باب الدار، وخرج وزيارةُ في عنقهِ، وتلقّتهُ جماعَتُه فأخبرهم الخبر، وتصايح النَّاس فأُخِذوا عن آخرهم.

بعض الخبر والشعر في الخناقين

وقد كان بالكوفة شبيهٌ بذلك، وفي غيرها من البلدان، فقال حمادٌ الرَّاوية، وذكر المرميِّين بالخنق من القبائل وأصحاب القبائل والنِّحَل، وكيف يصنع الخُنَّاق، وسمَّى بعضَهم فقال:

إذا سرتَ في عِجْلٍ فسِرْ في صَحابةٍ وكِنْدَةُ فاحْذَرْها حِذارَكَ للخَسْفِ

وفي شيعة الأعمى زيار وغِيلَة وقشْبٌ وإعمالٌ لجَنْدلة القَذْف

وكلُّهم شَرٌّ عَلَى أنَّ رأسَهم حميدةُ والميلاءُ حاضِنَةُ الكِسْف

متى كنتَ في حَيَّيْ بَجيلَة فاستمعْ فإنَّ لهم قصْفاَ يدُلُّ على حَتْف

إذا اعتزموا يوماً على خَنْق زائِرٍ تداعَوْا عَلَيْهِ بالنُّباح وبالعزف

وأمَّا ذِكره لبني عجل فلمكان ذي الضفرتين وغيره من بني عجل، وأمَّا ذكره كندة، فقد أنشدنا سُفيان بن عيينة، وأبو عبيدة النحويُّ:

إذا ما سرَّك العيشُ فلا تأخذ عَلَى كِنْدَه

ومن كِندة أبو قصبة أخذ بالكوفة وقُتِل وصُلب، وكان بالكوفة ممَّن يأكلُ لحومَ النَّاس عَدِيَّةُ المدَنية الصَّفراء، وكان بالبَصرة رَادَوَيه صاحب قصاب رادويه، وأمَّا الأعمى في بني ضَبَّة الذي ذكره فهو المُغيرة بن سعيد صاحب المُغِيريَّة، وهم صِنْفٌ ممَّن يعمل في الخنق بطريق المنصوريَّة، والمغيرة هذا من موالي بَجِيلة، وهو الخارج عَلى خالد بن عبد اللّه القسْريّ، وعِند ذلك قال خالد وهو عَلى المِنبر: أطعِمُوني ماءً وفي ذلك يقول يحيى بن نوفل:

وقلتَ لِما أصابَك أطعِموني شراباً ثمَّ بُلْتَ عَلَى السَّرير

لأعلاجٍ ثمـانـيةٍ وشَيْخٍ كَبير السِّنِّ ذي بَصرٍ ضرير

وأما حميدة فقد كانت لها رياسة في الغالِية، وهي ممَّن استجاب لليلى السبائية الناعِظية، والميلاءُ حاضِنة أبي منصور صاحب المنصوريَّة، وهو الكِسْف، قالت الغالية: إيَّاه عَنَى اللّهُ تبارك وتعالى "وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّماءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ"، وقد ذكَره أبو السريِّ مَعْدَانُ الأعمى الشُّمَيطي في قصيدته التي صنّف فيها الرَّافضة ثم الغالية، وقدَّم الشُّميطيَّة عَلَى جميع أصناف الشيعة، فقال:

إنَّ ذا الكِسْفَ صَدَّ آل كُمَيلٍ وكُمَيْلٌ رَذْلٌ مـن الأرْذالِ

تركا بالـعـراق داءً دويّا ضلَّ فيه تلطُّفُ المحتـالِ

منـهم جاعلُ العَسيبِ إمامـاً وفريقٌ يرض زَنْد الشَّمال

وفريقٌ يقـول إنَّـا بـرَاءٌ من عَلِيٍّ وجُنْدُبٍ وبـلاَلِ

وبرَاءٌ مِنَ الذي سَلَّـمَ الأمْ ر عَلَى قدرةٍ بغير قتـالِ

وفريقٌ يدين بالنصِّ حَتْمـاً وفريقٌ يدِينُ بالإهمـالِ

لأنَّ الكميليَّة لا تجيز الوَكالة في الإمامة، وتقول لاَبُدَّ من إمَامٍ صامتٍ أو نـاطِقٍ، ولابدَّ من عَلَم يمدُّ الناسُ إليهِ أعْناقهم، وأبو منْصُورٍ يقولُ بخلاف ذلك، وأمَّا قوله:

وفي شِيعة الأعمى زيارٌ وغيلة وقشب وإعمالٌ لجَنْدَلَةِ القَذْفِ

فقد قال مَعْدان:

حبشيٌّ وكافر سـبـيانـي حَربيٌّ ونـاسـخ قـتَّـالِ

تلك تيميَّةٌ وهاتيك صمت ثمَّ دين المغيرة المغتـالِ

خنق مرَّةً وشَمٌّ بـخـار ثمَّ رضْخٌ بالجندَلِ المتوالي

لأنَّ من الخنّاقين من يكون جامعاً، وبذلك يسمُّونـه إذا جمعَ الخَنْق والتشميم، وحمل معه في سَفَرهِ حَجَرَين مستديرين مُدمْلَكين وململمين فإذا خلاً برجلٍ من أهل

الرُّفقة استدبره فرَمى بأحدهما قمَحْدُوَتَه، وكذلك إن كان ساجِداً، فإن دمغه الأول سلبَهُ، وَإنْ هُوَ رَفع رأسَهُ طبَّق بالآخر وَجْهَهُ، وكذلك إنْ ألفاه نَائماً أو غافِلاً ، ولقد صَحِبَ منهم نَاسٌ رجلاً خرج من الرَّيِّ، وفي حَقوه هِمْيَانٌ، فكان لاَ يفارق مُعْظَمَ النَّاس، فلمَّا رأوهُ قد قرُب مِنْ مفرق الطَّريقين ورأوا احتراسَهُ، وهم نزولٌ إمَّا فِي صحراء وإمّا في بَعْضِ سُطوحِ الخانَات، والنّاس مُتشاغلون بأمُورهِمْ، فلم يشعُرْ صاحِبُ الهِمْيان نهاراً والنّاس حَوْلَهُ إلا والوَهَقُ في عنقِهِ، وطرحَهُ الآخر حين ألقاه في عنقِه، ووثَبَ إليهِ وجلَسَ علَى صدره، ومَدَّ الآخَر برجْليهِ وألقى عليهِ ثوْباً وأذّنَ فِي أذُنِهِ فقام إليهم بعضُ أهل الرُّفقة كالمعين والمتفجِّع، فقالوا له: مكانَك؛ فإنّه إنْ رآك خجِل واستحَى، فأمسك القومُ عنهم، وارتحل القوم، وأعجلوا بصاحبهم، فلمَّا خَلَوا به أخذوا ما أحَبُّوا، وتركوا ما أحَبُّوا، ثمَّ حملوه علَى أيديهم، حتى إذا برزوا رمَوه في بعض الأودية.

شعر أعشى همدان في السبئية وقد ذكر أعشَى هَمْدانَ السَّبَئيَّة وشأنَهم في كرسيِّ المختار:

شهدتُ عليكم أنّكم سبَئِيَّة وإنِّي بكم يا شُرْطَة الكُفْر عارفُ

وأقسِمُ ما كرسيُّكم بسَكِينةٍ وإنْ كانَ قد لُفَّتْ عليهِ اللفائف

وأنْ لُيِّسَ التّابُوتُ فُتْناً وإن سَمتْ حمامٌ حواليهِ وفيكم زخارف

وإنِّي امرؤٌ أحببتُ آلَ محمَّدٍ وآثرْتُ وَحْياً ضُمِّنَتْهُ المصاحِفُ

وإن شاكراً طافتْ به وتمسَّحَتْ بأعواد ذاوٍ دبرت لا تساعف

ودَانَتْ بِهِ لابن الزُّبير رقابُنا ولا غَبْنَ فيها أو تُحَزُّ السَّوالِفُ

وأحسبُ عُقباها لآلِ محمَّدٍ فيُنْصَرُ مَظلومٌ ويأمن خائفُ

ويجمَعُ ربى أُمَّة قدْ تَشَتَّتَتْ وهاجتْ حُروبٌ بينَهُمْ وحَسَائِفُ

أبو عبيدة: الحسيفة الضغينة، وجمعها حسائف.

من قتل نفسه بيده وما أكثر من قتل نفسَهُ بيده، إمَّا لخوف المُثلة، وإمَّا لخوف التعذيب والهوان وطولِ الأسر، وقد كان الحكمُ بن الطُّفيل، أخو عامر بن الطفيل، وأصحابُه خنَقُوا أنفسَهم في بعض الأيام، فعُيِّروا بذلك تعييراً شديداً، فقال خُراشة بن عامر بن الطفيل:

وقُدْتَهم للموت ثمَّ خَذَلْتَهُمْ فلا وألتْ نفسٌ عليك تحاذرُ

فهلْ تبلِغنّي عامراً إنْ لَقِيتَـه أسلِّيتَ عن سلمان أم أنتَ ذاكرُ

فإنَّ وراءَ الحـيِّ غِـزْلانَ أيْكةٍ مُضَمَّخَةٌ آذانُـهـا والـغـدائرُ

وإنَّكم إذ تخنُقون نـفـوسَكـم لكمْ تحتَ أظلالِ العِضَاهِ جرائرُ

وقال عُروة بن الوَرد في يوم ساحوق، ويذكر خنْق الحكم بن الطُّفيل وأصحابه أنفسَهم، فقال:

ونحنُ صبَحْنا عامراً في دِيارِها عُلالَةَ أرماحٍ وعَضْبا مُذَكَّـرا

بكلِّ رقيق الشَّفْرتين مُـهَـنَّـدٍ ولَدْنٍ من الخَطِّيِّ قد طرَّ أسمَرَا

عجِبت لهم إذ يخنقُوْن نفوسَهـم ومَقْتَلهمْ عند الوغى كان أعذرا

يَشُدُّ الحليمُ منهم عَقْدَ حبلـه ألاَ إنَّما يأتي الذي كان حُذِّرَا

رثاء أبي زبيد الطائي كلباً له وقال أبو زُبَيْدٍ في كلبٍ لَهُ، كان يُساور الأسدَ ويمنعه من الفساد، حين حطمه الأسد، وكان اسمه أكدر، فقال:

أخَال أكْدَرُ مـخـتـالاً كـعـادتِـه حتى إذا كان بينَ الحَوْض والعَطَنِ

لاقى لدى ثـلـل الأضـواء داهـية أسرت وأكدرت تحت الليل في قرن

حطَّت بهِ سُنَّةٌ ورْهـاءُ تَـطْـرُدُه حتَّى تَنَاهى إلى الأهوال في سَنَـنِ

إلى مُقاربِ خَطْوِ الساعِدَين لَـهُ فوق السَّراةِ كَذِفْرَى القارح الغَضِنِ

ريبالُ ظلماءَ لا قـحْـمٌ ولا ضَـرَعٌ كالبغل خطّ به العجلان في سكن

فأسرَيا وهما سنًّا همـومـهـمـا إلى عرين كُعشِّ الأرمَـل الـيَفَـن

هذا بما علقت أظـفـاره بـهـم وظنُّ أكدَرَ غيرُ الأفْنِ والـحَـتَـن

حتّى إذا ورد العِرزالَ وانتـبـهـت لحِسِّـهِ أمُّ أجْـرِ ستةٍ شُـزُنِ

بادٍ جناجنها حصّاء قد أفلت   لهن يبهرن تعبيراً عَلَى سدن

وظنَّ أكدرُ أن تموا ثمانية   أن قد تجلّل أهلُ البيت باليُمن

فخافَ عزّتهم لما دنا لهمُ   فحاص أكدرُ مشفيّاً من الوَسَنِ

بأربَع كلُّها في الخلق داهية   عُضفٍ عليهنَّ ضافِي اللحم واللبن

ألفاه متَّخِذَ الأنيابِ جُنَّتَه   وكانَ باللّيل وَلاَّجاً إلى الجَنَنِ

رثاء أعرابي شاة له أكَلها ذئب وقال صاحب الكلب: قال أعرابيٌّ وأكل ذيبٌ شاةً لَهُ تسمّى وردة، وكُنْيَتها أم الوَرد:

أودَى بورْدَة أمِّ الوَردِ ذُو عَسَلِ   من الذئاب إذا ما راحَ أو بَكَرا

لولا ابنُها وسَليلاتٌ لها غرُرٌ   ما انفكَّت العَيْنُ تَذْري دَمْعها دِرَرَا

كأنَّما الذِّئب إذ يَعْدُو عَلَى غَنَمي   في الصُّبح طالبُ وترٍ كانَ فاتَّأرا

اعتامَها اعتامَهُ شَثْنٌ براثِنُهُ   من الضّواري اللّواتي تقصِمِ القصَرَا

قال: في هذا الشعر دَليلٌ أنَّ الذِّئب إنَّما يعدو عليها مع الصبح، عند فتور الكلْب عن النُّباح؛ لأنَّه باتَ ليلَتهُ كلّها دائباً يقظانَ يحرُس، فلمَّا جاءَ الصُّبحُ جاءَ وَقتُ نَوْم الكلاب، وما يعتريها من النّعاس، ثم لم يَدْعُ اللّهَ عَلَى الذِّئبِ بأن يأكله الأسد حتَّى يختاره ويعتامه، إلاَّ والأسدُ يأكل الذئاب، ويختار ذلك، وإنَما استطابَ لحمَ الذِّئبِ بفضل شهوتِهِ للحم الكلب.

قول صاحب الديك في إجازة الشعراء الدجاج وقال صاحب الدِّيك: لم نر شريفاً قطُّ أجازَ شاعراً بكلْب، ولا حَبا به زائراً، وقد رأيتَّهم يجيزون الشُّعَرَاء بالدَّجاج، وأعْظَمُ من ذلك أن لقيمَ الدَّجَاج، لما قال في افتتاح خيبر، وهو يعني النبي صلى الله عليه وسلم:

رُمِيَتْ نَطاةُ من النبيِّ بفَيْلَق   شهْباءَ ذاتِ مَناكِب وفقار

وهَب لَهُ دَجاج خَيبَر عن آخرها، رواه أبو عمرو، والمدائني عن صالح بن كَيّسان، ولتلك الدَّجَاج قيل: لقيم الدَّجَاج.

إياس بن معاوية وأخوه وقال صاحب الكلب: قال أبو الحسن: كانَ إياسٌ بنُ معاويَة وهو صغيرٌ، ضعيفاً دقيقاً دميماً، وكانَ لَه أخٌ أشدُّ حركَةً منْهُ وَأقوى، فكان

معاويَةُ أبوه يقدِّمهُ علَى إياس، فقال لَه إياسٌ يَوْماً يا أبتِ إنَّك تقدِّمُ أخي علَيّ، وسأضربُ لك مثلي ومثلَه: هو مثل الفرُّوج حين تنفلق عنه البَيضة، يخرج كاسياً كافياً نَفْسَهُ، يلتقط، ويستخفُّه الناس، وكلّما كبر انتُقص، حتى إذا تَمَّ فصار دجاجة، لم يصلحْ إلاّ للذبح، وأنا مثلُ فرخ الحمام حين تنفلق عنه البَيضةُ عن ساقطٍ لا يقدر عَلَى حركة، فأبَواه يغذُوانِهِ حتّى يقوى ويثبتَ ريشُهُ، ثمَّ يحسُن بعد ذلك ويطير، فيجِدُ به الناس ويكرمونَهُ، ويرسل من المواضع البعيدة فيجيء، فيُصان لذلك ويُكْرَمُ، ويُشْتَرى بالأثمانِ الغالية، فقال أبوه: لقد أحسنت المثل فقدَّمه عَلَى أخيهِ، فوجَد عِنْدَهُ أكثرَ مما كانَ يظنُّ فيه.
قال صاحب الكلب: وقد أغفل إياسٌ في هذا القول بعضَ مصالح الدَّجاج، وذلك أنّ الدَّجاج مِنْ لدُنْ يخرج من حَدِّ الصِّغر والكَيْس إلى أن يدخل في حَدِّ الكبر واحتمالِ اللَّحم والشَّحم، يكون أخبثَ حالاً لأنَّهُ لا يصلح فيه للذَّبح، وقد خرج من حدِّ الكَيْس والاستملاح، وإياسٌ هو الذي يقول: لستُ بخِبٍّ والخِبُّ لا يخدعني، ولا يخدَع ابن سيرين وهو يخدع أبي ويخدَع الحسَن.

باب ما يحتاج إلى معرفته

يقال فَرْج المرأة والجمع فُروج، وهو القُبُل، والفَرْجُ كِناية، و الاسم الحِرُ، وجمعه أحْراح، وقال الفرزدق:

إنِّي أقودُ جملاً ممرْاحَا   في قُبَّةٍ مُوقرةٍ أحْرَاحَا

قالوا: وإنّما جمعوه عَلَى أحراح، لأنَّ الواحد حِرْح، هكذا كان أصله، وقد يستعار ذلك وهو قليل، قال الشاعِرُ:

تراها الضَّبعَ أعْظمَهنَّ رَأساً   جُرَاهِمَةً لها حِرَةٌ وثِيلُ

فلم يرض الاستعارة حتَّى ألحق فيها الهاء، وهو الكَعْثب، وقال الفرزدق:

إذا بطِحت فوقَ الأثافي رَفعنها   بثديين مَعْ نحر كريمٍ وكَعْثبِ

وقال الأغلب:

حَيَّاكة عن كعْثبٍ لم يَمْصَحَ

وهو الأجم، وقال الرَّاجز:

جارية أعظمها أجَمُّها   قد سمَّنتْها بالسَّويق أمُّها

بائنة الرِّجْلِ فما تَضمُّها

وقال: وقد يسمّى الشَّكْر، بفتح الشِّينِ وإسكان الكاف، وأنشدوا:

وكنتَ كليلة الشَّيْبَاء هَبَّتْ بمَنْع الشَّكْرِ أتأمَهَا القبيلُ

أتأمها: أفضاها، وأمَّا قوله:

قد أقبلَتْ عَمْرَةُ من عِرَاقِها مُلْصَقة السَّرْج بخَاق باقها

قال: وهو إن أرادَ الحِرَ فليس ذلك من أسمائه، ولكنه سمَّاه بذلك على المزاح، قالوا: والظَّبْيَةُ اسم الفَرْج من الحافر، والجمع الظَّبَيات، وقد استعاره أبو الأخزر فجعله للخُفِّ فقال:

ساوَرَها عندَ القُرُوءِ الـوحـمْ في الأرض ذات الظّبيات الجحمْ

وقد قال الأوَّل:

فجاء بغُرمولٍ وفلك مُدَمْـلَـكٍ فخَرَّقَ ظَبْيَيْها الحِصانُ المُشَبِّقُ

وهو من الظّلف والخُفِّ الحيا، والجمع أحيية، وهو من السبع ثفْر، وقد استعاره الأخطلُ للظّلْف فقال:

جَزَى اللّه عنّا الأعْوَرَيْن مَلاَمَةً وعبلة ثفْر الثَّوْرَةِ المتَضَاجِمِ

فلم يرضَ أن استعاره من السَّبُع للبقرة حتَّى جعل البقرة ثورة، وقد استعاره النَّابعةُ الجَعديُّ للحافر، كما استعاره الأخطل للظّلف، فقال:

بُرِيذَنَةٌ بَلَّ البَرَاذين ثفْرَهـا وقد شَرِبتْ مِنْ آخر الليل أيَّلاَ

وقد قالوا برذونة، وقال الرَّاجز:

تَزَحْزَحي إليك يا برذَوْنَهْ إنّ البراذِينَ إذَا جَرَيْنَـهْ

مَعَ الجيادِ ساعَةً أعيَيْنَهْ

وقد استعاره آخرُ فجَعَلَهُ للنعجة فقال:

وما عمرُو إلاّ نَعْجَة سَاجِسِيَّة تَحَرَّكُ تحْتَ الكَبْش والثَّفْرُ وَارِمُ

والسَّاجِسِيّةُ: ضأنُ في تغلب، وقد استعاره آخرُ فجعله للمرأة فقال:

نحن بنو عَمْرَة في انتِسابِ بنت سُويد أكْرَم الضِّبابِ

جِلْدَتنا من ثفْرِها المِنْجَابِ

ويقال لجُردان الحمار غرمول، وقد يقال ذلك للإنسان وقضيبِ البعير، وهو لكلِّ شيء، ومِقلم الجمل فقط، ومن السباع العقدة، وأصله للكلب والذِّئب، وقال جرير:

إذا رَوينَ عَلَى الخنزير من سَكَرٍ نادَينَ يا أعْظَمَ القسِّينَ جُرْدَانـا

ويقال: صرفت الكلبة صرافاً وصِروفاً، وظلعت تظلع ظلوعاً، وقالوا في الأمثال: لا أفعَلُ حتَّى ينامَ ظَالِعُ الكلاب أي الصارف، ولم يعرف الأصمعِيُّ ظلعت الكلبة بمعنى صرَفت، واستحرمت، وأجْعَلت واستجعلت، واستطارت، والذئبة في ذلك كالكلبة، قال: ويقال في السِّباع: قد وَضَعت، وولَدت، ورمصَت مثلَ ما يقالُ للنَّاس والغنم.

بحث في المذكر من الحيوان ومؤنثه

قال: ويقال كلبة وكلب، وذئبة وذئب وبرذون وبرذونة، وأنشد:

أريْتَ إذا ما جالت الخيْلُ جَوْلَةً وأنتَ على بِرْذَوْنَةٍ غير طائِلِ

ويقال رجل ورجال، وامرأة ونساء، وليس لها جمعٌ من واحدها، ويقال بعير وناقة وجمل، ولا يقال جملة ولا بعيرة، وقد قالوا رجل ورجلة وشيخ وشيخَة، ويقال كبش ونعجة، ولا يقال كبشة، كما لا يقال أسدة، ويقال أسد ولبوة ولبوات، ويقال ذئبة وذئب، وقال الشاعِرُ:

كأنَّـهما ضِبْعانَةٌ في مَفـازَةٍ وذِئْبةُ مَحْلِ أمُّ جِرْوَين تعسلُ

ويقال إنسان وإنسانَةٌ، وسبع وسبعة، وحمام وحمامة، وحمار وحمارة، وسِرْحان وسرحانَة، وَسِيدٌ وسِيدة، وهِقل وهِقلة، وإلق وإلْقة، وَقال رؤبة:

جَدَّ وجدَّتْ إلقة من الإلقْ

وزعم أنَّه يقال ضبع وضبعة، وثعلب وثعلبة، وأصحابُنا لا يقولون هذا ويضحكون ممن يقولون ضَبُعة عرجاء، ويقال ثُرمُلة، ويقال من الفراخ فرخ وَفرخة، ومن

النمور نَمِر وَنَمِرة، قال: ويقال ذِيخٌ وذِيخَةٌ، وضِبْعان وَضِبْعانَةٌ، وجيأل وجَيْألة، ويقال عقرب وعقربَة، والعُقرُبان الذَّكَر وحدَه، وقال الشاعِرُ:

كأنَّ مَرْعى أمِّكُمْ إذْ غَدَتْ عَقْرَبَةٌ يكُومُها عُقْرُبـانْ

ومن الضفادع ضِفدَع وَضِفدَعَة، ومن القنافذ قُنفُذ وقُنفذة، وشَيْهَمٌ وشَيهمةٌ، ومن القرود قرد وقردة، ويقال إلْقة و قِشَّة، ولا يقال إلْق وقِشّ، ويقال لولد القرد رُبَّاح والأنثى إلقة، وقالَ الشَّاعِرُ:

وإلْقةٌ تُرغِث رُبَّاحـهَـا والسَّهْلُ والنَّوفلُ والنَّضْرُ

ومِن النعام هِقل وَهِقلة، وهَيق وهَيقةٌ، وصَعل وصَعلة، وسفنَّج وسفنَّجة، ونعامٌ وَنعامة، والواحد من فراخها الرأل والجمع رئال ورئلان وأرآل وأرؤل، والأنثى رألة، وحقّانةٌ والجمع حقّان، وقد يكون الحَقّان أيضاً للواحد، ويقال لها قِلاص والواحدة قلوص ولا يقال قلوصة، ويقال ظليم ولا يقال ظليمة، ويقال نِقْنِق ولا يقال نِقنِقة، ويقال من الأرانب أرنب ولا يقال أرنبة، والذكر خُزَز، ويقال للأنثى عِكْرِشة ولولدها خِرْنِق، ويقال هذه أرنب وهذه عقاب، ولا يقال هذا الأرنب ولا هذا العقاب، وقال الشَّمَّاخ:

فما تنفكُّ بين عُويرضَـاتٍ تجرّ برَأس عِكْرِشَةٍ زَمُوع

قال ويقال لولد الكلب جروٌ والأنثى جروة، وهو دِرْص والجمع أدراص، ويقال لمن عضَّه الكلْبُ الكَلِبُ: بالَ كأدراص الكلاب.

بدء الإبصار عند أولاد السباع

وجرو الكلب يكون أعمى عَشرة أيام وأكثر، وقد يعرض شبيهٌ بذلك لكثيرٍ من السِّباع.
استطراد لغوي ويقال بصبص الجروُ وفقَّح وجصَّص، إذا فتح عينيه شيئاً، وصأصأ إذا لم يفتح عينيه، ولذلك قال عبيد اللّه بن جحش، والسَّكران بن عمرو، للمسلمين ببلاد الحبشة: إنَّا فقَّحنا وصأصأتم، قال بعض الرُّجاز في بعض الصِّبيان:

أقبِحْ بهِ مِنْ وَلَدٍ وأشْـقِـحِ مثلَ جُرَيِّ الكلبِ لم يفقِّحِ

إنْ يَسْرِ سارٍ لم يَقُمْ فيَنبَـحِ بالبابِ عِنْدَ حاجةِ المستَفْتِحِ

ويقال لولد الأسد جرو وأجراء وجِراء، وهي لجميع السباع، ويقال له خاصَّةً: شِبْل، والجمع أشبال وشُبول، وقال زُهير:

ولأنتَ أشجَعُ حِينَ تتَّجِهُ ال أبطالُ مِنْ لَيْثٍ أبي أجْر.

خبث الثعلب

وحدَّثني صديقٌ لي قال: تعجَّبَ أخٌ لنَا من خُبث الثَّعلب، وكان صاحبَ قنص، وقالَ لي ما أعجب أمر الثعلب يفصل بين الكلب والكلاَّب، فيحتالُ للكَلاَّب بما يعلم أنَّه يَجوز عليه، ولا يحتال مثل تلك الحيلة للكلب، لأنّ الكلب لا يَخفى عليه الميِّت من المغشيِّ عليه، ولا ينفع عنْدَه التَّماوت، ولذلك لا يُحمل من مَات من المجوس إلى النَّار حتى يُدْنَى منه كلبٌ، لأنّه لا يَخفى عليه مغْمُور الحِسِّ أحَيٌّ هُوَ أو ميت، وللكلب عند ذلك عمل يستَدِلُّ بِهِ المجوس، قال: وذلك أنِّي هَجَمْتُ على ثعلبٍ في مَضيق، ومعي بُنَيٌّ لي، فإذا هو ميِّتٌ منتفِخٌ، فصدَدْت عنه، فلم ألَبثْ أن لحِقتني الكلاب، فلمَّا أحسَّ بها وثب كالبرق، بعد أن تحايَدَ عن السَّنن، فسألت عن ذلك فإذا ذلك من فِعلِه معروفٌ، وهو أنْ يستلقيَ وينفخَ خواصرَه ويرفعَ قوائمه، فلا يشكُّ مَن رآه من الناس أنّه ميِّت منذُ دهر، وقدْ تَزَكَّرَ بالانتفاخ بدنُه، فكنتُ أتعجَّب مِنْ ذلك، إذْ مررْتُ في الزُّقاق الذي في أصل دار العبَّاسيّة ومنفذه إلى مازن، فإذا جرو كلبٍ مهزولٌ سيِّئ الغذاء، قد ضربه الصِّبيان وعقَروه ففرَّ منهم ودخل الزُّقاق، فرمى بنفسه في أصل أسطُوانة وتبعوه حتَّى هَجمُوا عليه، فإذا هو قد تَماوَتَ فضربوه بأرجلهم فلم يتحرَّكْ فانصرفوا عنه، فلمَّا جاوزُوا تأمَّلت عينَه فإذا هو يفتَحُها ويُغمِضها، فلمّا بعدوا عنه وأمِنَهم عدا، وأخذَ في غير طريقهم فأذهَبَ الذي كان في نفسي للثَّعلب، إذا كان الثَّعلب ليس فيه إلاَّ الرَّوَغان والمكر، وقد ساواه الكلبُ في أجودِ حِيلهِ.

مقايسة بين الثعلب والكلب

ومع الكلب بعدُ ما ليس مَعَهُ، إلاَّ أنْ يُفخَر بفروته في موضع انتفاع النَّاس به، فجعْر الكلب للذُّبحة أنفع منه، إذ كان في الذُّبحة الموت وليس يقوم مقامه شيءٌ، وجلد الثَّعلب منه عِوَض.
قول صاحب الديك في الكلاب قال صاحب الديك: شِرار عِباد اللَّه مَن قتل أولادَ رسولِ اللَّه صلى الله عليه وسلم ولم نجدْ شعراءَ النَّاس شبَّهوا أولئك القاتلين بشيءٍ سوى الكلاب، قال أبو نضلة الأبَّار، في قتل سلم بن أحوز المازنيِّ، صاحب شرطة نَصْر بن سيَّار اللَّيثي، يحيى بنْ زَيدٍ وأصحابه، فقال:

ألم تر لَيثاً ما الذي خَتَمتْ بهِ لها الوَيْلُ في سُلطانِها المتخاذلِ

كلابٌ تعاوَتْ لاهَدَى اللَّه سُبْلَها فجاءتْ بصَيدٍ لا يحلُّ لآكل

بنفسي وأهلي فاطميٌّ تقنَّصوا زَمانَ عمًى مِنْ أمَّةٍ وتخاذل

لقد كشفت للنّاس ليثٌ عن استها وغابَ قبيلُ الحقِّ دُونَ القبائِلِ

قال صاحب الديك: وروى هُشيم عن المغيرة عن إبراهيم قال: لم يكونُوا ينْهَوْنَنَا عن شيءٍ من اللعب ونحنُ غِلمانٌ إلاّ الكلاب.
التقامر بالبيض وذكر محمَّد بن عجلان المدينيّ عن زيد بن أسلم، أنّه كان لا يرى بأساً بالبيض الذي يتقامر بهِ الفتيان، أن يُهدَى إليه منه شيء أو يشتريَه فيأكله.
وهشام بن حسَّان قال: سئل الحسن عن البيض يَلعَب بهِ الصِّبيان يشتريه الرجل فيأكله، فلم ير بهِ بأساً وإن أطعموه أن يأكل منه، والجوز الذي يلعب بهِ الصِّبيان.
وحاتم بن إسماعيلَ الكوفيُّ قال: حدّثنا عبد الرحمن بن حَرمَلَة، عن سعيد بن المسيّب، أنّه لم يكن يرى بأساً بالبيض الذي يلعب به الصِّبيان.

قتل الحيات والكلاب

قال: وحدَّثني ابن جُريج قال، وأخبرني عبد الله بن عُبيد بن عمير قال: أخبرني أبو الطفيل أنّه سمع عليَّ بنَ أبي طالب يقول: اقتُلوا من الحيَّات ذا الطُّفيتين، والكلبَ الأسودَ البهيم ذا الغُرَّتين.
قال: والغُرَّةُ: حُوَّة تكون بعينيهِ.

قول صاحب الكلب في صقاع الديك

قال صاحب الكلب: قد أخبرني أبو حرب عن منصور القصَّاب، قال: سألت الحسن عن البيض الذي يتقامرون بهِ، فكرههُ. وما رأينا قطُّ أحَداً يريد الادِّلاج ينتظر صُقاع الدِّيك. وإنَّما يوالي الدِّيك بين صياحه قُبيل الفجر ثمَّ مع الفجر إلى أن ينبسط النهار؛ وفيما بين الفَجر وامتدَادِ النهار لا يحتاج النَّاس إلى الاستدلال بأن يصوِّت الديك. ولها في الأسحار أيضاً بالليل الصَّيحة والصَّيحتان، وكذلك الحمار. عَلَى أنّ الحمارَ أبعدُ صوتاً، وأجدر أن ينبِّه كلَّ نائمٍ لحاجةٍ إن كانت له. وما رأينا صاحبَ سَحُورٍ يستعمله، وكذلك صاحب الأذان، وما رأيناه يتَّكل في وقتِ أذانِه عَلَى صياح الدِّيك، لأنّ صورةَ صوتِه ومقدارَ مَخرجِهِ في السَّحَر الأكبر كصياحِه قبلَ الفجر. وصياحَهُ قبلَ الفجر؛ كصياحِه وقد نوَّر الفجرُ وقد أضاء النهار. ولو كان بين الصيحتين فرقٌ وعلامةٌ كانَ لعمري ذلك دليلاً. ولكِنَّهُ مَن سمع هُتافه وصُقاعَهُ فإنَّما يفزع إلى مواضع الكواكب، وإلى مطلع الفجر الكاذب والصادق.
والديك له عِدَّةُ أصواتٍ بالنَّهار لا يغادر منها شيئاً؛ ولتلك أوقاتٌ لا يحتاج فيها النَّاس إليهِ. وملوكُنا وعلماؤنا يستعملون بالنَّهار الأسطُرلابات وبالليل البَنكامات، ولهم بالنّهار سوى الأسطرلاباتِ خطوطٌ وظلٌّ يعرفون بهِ ما مَضى من النهار وما بقي. ورأيناهم يتَفَقَّدُون المطالع والمجاريَ. ورأينا أصحابَ البَساتين وكلّ مَن كان بقُرب الرِّياض، يعرفون ذلك بريح الأزهار. ورأينا الرُّومَ ونَصَارى القُرى يَعرفُون ذلك بحركاتِ الخنازير وببُكُورها وغدوِّهَا وَأصواتها؛ ولذلك قالوا في وَصف الرجل: له وَثبة الأسد، ورَوَغان الثعلب، وانسلاب الذِّئب وجَمع الذرّة وبُكور

الخِنزير. والرَّاعي يعرف ذلك في بكور الإبل وفي حنينها وغير ذلك من أمرها. وللحَمام أوقاتُ صياحٍ ودُعاءٍ مع الصُّبح وقبيلَ ذلك على نسَق واحد، ولكنَّ النَّاس إنَّما ذكروا ذلك في الدِّيك والحمار، لامتداد أصواتهما.

هديل الحمام

وهديلُ الحمامِ ودعاؤه لا يَجوزُ بعيداً، إلاَّ ما كان من الوراشين والفَواختِ في رُءُوس النَّخل وأعالي الأشجار، فلعمري إنَّ ذلك لمَا يُسمَع من موضع صالح البعد.

ما يصيح من الطير مع الفجر

وللعصافير والخطاطيفِ وعامَّة الطَّير، ممَّا يصفِر أو يُصرصِر، وممّا يهدِل مع الفجر إلى بُعيدِ ذلك - صِياحٌ كثير. ثمَّ الذي لا يدع الصِّياح في الأسحار مع الصبُّح أبداً الضُّوَع، والصَّدَى، والهامَة، والبُومة وهذا الشَّكلُ من الطَّير. وقد كتبنا في غير هذا الموضع الأشعارَ في ذلك.
قال: وقد يصيح مع الصُّبح البُوم، والصدى والهام، والضُّوَع والخطاطيف، والعصافير، والحُمَّرُ في ذلك الوقت أكثرَ من الدِّيَكة. قال الوليدُ بن يزيد في ذلك:

سُلَيمى تِيكَ في العير قفي إن شئتِ أو سِيري

فلما أن دَنا الصُّبحُ بأصواتِ العَصَافير

وقال كلثوم بن عمرو العَتّابيّ:

يا ليلةً بُحوَّارينَ ساهرة حتَّى تكلمَ في الصُّبح العَصَافيرُ

فالعَصافير والخطاطيف والحُمّر والحمام والضُّوعان وأصناف البوم كلُّها تقوم مَقام الديك. وقال ثعلبة بن صُعَير المازنيّ:

أعُميرَ ما يُدريكِ أن رُبَ فِتيةٍ بيضِ الوَجوهِ ذوي ندىً ومآثر

حَسَنِي الفُكاهةِ لا تذمُّ لحامُهم سَبِطِي الأكفِّ لدى الحروب مساعر

باكرتُهُم بسِباء جَونٍ مُترَعٍ قبلَ الصَّباح وقبل لغو الطائر

صوت الديك وما قيل فيه من الشعر

قال: ويقال لصوت الدِّيَكة الدُّعاء، والزقاء، والهُتاف، والصُّراخ، والصُّقاع. وهو يهتِف ويَصقع ويزقُو ويصرُخ. وقال جِرانَ العَوْد:

تميلُ بك الدنيا ويَغْلِبك الـهوى كما مَالَ خَوّارُ النَّقا المتقصف

وتُلْغَى كأنَّا مَغْنَمٌ قد حويتـه وترغَبُ عن جَزلِ العَطاءِ وتَصدفُ

فموعِدُكَ الشَّطُّ الذي بينَ أهلِنـا وأهلِك حتَّى تسمَعَ الديكَ يهتِفُ

وقال الممزَّق العَبديُّ:

وقد تَخِذَت رجلايَ في جَنبِ غَرزها نَسِيفاً كأُفحوص القَطاةِ المطرِّق

أنيخت بجوّ يصرُخُ الديك عندَها وباتَت بقاعٍ كادِئ النبت سَمـلَق

وقال لَبيد:

لَدُن أن دعا ديكُ الصَّباح بسُحرَةٍ إلى قدر وِردِ الخامِسِ المتأوِّبِ

طيور الليل

ويقال للطائر الذي يخرجُ من وَكره باللَّيل البومة والصَّدَى والهامة والضُّوَع والوَطواط والخُقَّاش، وغُراب اللَّيل، ويصيدُ بعضها الفأرَ وسامَّ أبرصَ والقطا وصِغارَ الحشرات، وبعضها يصيد البعوض والفراش وما أشبه ذلك. والبوم يدخل بالليل على كل طائرٍ في بيته، ويُخرجه منه ويأكُلُ فِراخه وبَيضَه. وهذه الأسماء مشتركة.
ما قيل من الشعر في الهامة والصدى وقال خزيمة بن أسلم:

فلا تَزقُوَن لي هامةٌ فوق مَرقبٍ فإن زُقاءَ الهامِ أخبَثُ خابثِ

وقال عبد الله بن خازم أو غيره:

فإن تكُ هامةٌ بهَراةَ تَزقُو فقد أزقيتَ بالمَروَينِ هاما

وقال توبة بن الحميِّر:

ولو أن ليلى الأخيليَّة سَلّمت عَلَيَّ ودوني جَندَلٌ وصفائح

لسلَّمتُ تسليمَ البشاشةِ أوزَقا إليها صدى من جانب القبر صائح

وقال الرَّاجز:

ومَنهَل طامِسَةٍ أعلامُـه يَعوي به الذّئب ويَزقُو هامُه

وأنشدني في الصدى:

تجشَّمت من جَرَّاكِ والبوم واالصدى له صائح أن كنتِ أسريتِ من أجلي

وقال سُويد بن أبي كاهل في الضُّوَع:

لن يضِرني غير أن يحسُدَنِـي فهو يَزقُو مثل ما يزقو الضُّوَع

قال: في قراءة ابن مسعود: " إن كانت إلا زَقيَةً واحدةً " " ونفخ في الزَّقية " يريد الصُّور.
وصوت الدجاجة القوقأة، تقول هي تقوقئ.

شعر في الدجاج

وقال أعرابيٌّ:

أليس يرى عيني جُبيرة زوجهـا ومَحجِرَها، قامت عليه النـوائحُ

تنجَّبها لا أكثر اللـه خيرهُ رُميصاء قد شابت عليها المسائحُ

لها أنف خنزيرٍ وساقا دجـاجةٍ ورُؤيتها تَرحٌ من العيشِ تـارحُ

وقال العُجَير السَّلُوليّ:

لا نوم إلا غِرارُ العَينِ ساهرةً حتى أُصيب بغيظ آلَ مطلوبِ

إن تهجُروني فقد بدَّلتُ أيكتُكم دُرقَ الدجاج بحفّاز اليَعَاقِيبِ

وقال أبو الأسود الدُّئلِيّ:

ألم تعلما يا ابنَي دجاجة أنَّني أغُشُّ إذا ما النُّصحُ لم يُتَقبَّل

شعر في هجاء الدجاج وهجاتء من اتخذها

وقال صاحب الكلب: وسنروي في الدجاج ونذكرُ كلَّ من هجاها وهجا مَن اتَّخذها وأشبهها في وجهٍ من الوجوه، قال الراجز:

أقبلن من نِيرٍ ومن سُوَاجِ بالحيِّ قد ملّ من الإدلاج

فهُم رجاجٌ وعلى رَجَاجِ يمشون أفواجاً إلى أفواج

مشيَ الفراريج إلى الدجاج

وقال عبد الله بن الحجّاج:

فإن يُعرض أبو العبَّاس عنِّي ويركب بي عَرُوضاً عن عَرُوضِ

ويجعل ودَّهُ يوماً لغيري ويُبغِضني فإني من بَغِيض

فنصرُ اللهِ يأسُو كلَّ جُرحٍ ويَجبُر كسرَ ذي العظم المهيض

فدىً لك من إذا ما جئتُ يوماً تلقاني بجامعةٍ رَبُوض

لدى جنبِ الحوانِ وذاك فُحشٌ وبئست خُبزة الشَّيخ المريض

كأني إذا فزعت إلى أحيح فزعتُ إلى مُقوقيةٍ بيوض

إوزَّة غيضةٍ لَقِحت كشافاً لِفقحَتِها إذا بَرِكَت نَقِيضُ

وقالت امرأة في زوجها وهي ترقّص ابناً لها منه:

وُهبتُه من سَلفعِ أفُوكِ ومن هِبَلٍّ قد عسا حَنِيكِ

أشهبَ ذي رأسٍ كرأسِ الديكِ

تريد بقولها " أشهب " أنه شيخ وشعر جسده أبيض وأن لحيته حمراء.
وقد قال الشاعر، وهو الأعشى:

وبني المنذر الأشاهب بالحي رة يمشون غُدوة كالسيوف

وإنما أراد الأعشى أن يعظّم ويفخّم أمرهم وشأنهم، بأن يجعلهم شيوخا. وأما قولها: " ذي رأس كرأس الديك " فإنما تعني أنه مخضوبُ الرَّأس واللِّحية.
وقال الآخر:

حلَّت خويلة في حيٍّ مجاورةً أهل المدائن فيها الديك والفيلُ

يقارعُون رءُوس العُجم ضاحية منهم فوارس لا عزلٌ ولا ميلُ

قال ابن أحمر:

في رأس خلقاءَ من عنقاءَ مُشرفةٍ لا يبتغى دونها سهلٌ ولا جبلُ

إلا كمثلك فينا غير أن لنا شوقاً وذلك مما كلفت جَلَلُ

هيهات حيٌّ غدوا من ثجرَ منزلهم حيٌّ بنجرانَ صاح الديك فاحتملوا

وقال:

أبعد حلولٍ بالرِّكاء وجاملٍ غداً سارحاً من حولنا وتَنَشَّرا

تبدلت إصطبلا وتلاًّ وجَرَّةً وديكاً إذا ما آنس الفجر فرفرا

وبستان ذي ثورين لا لينَ عنده إذا ما طغَى ناطورهُ وتَغَشمرا

وقال أوس بن حجر:

كأن هراً جنيباً عند مَغرضِها والتفّ ديكٌ برجليها وخنزيرُ

وقال الحكم بن عبدل:

مررت على بغلٍ تَزُفُّكَ تسعةٌ كأنك ديكٌ مائلُ الرأس أعورُ

تخيَّرت أثواباً لزينة منظرٍ وأنت إلى وجه يزينكَ أفقرُ

وقال النَّمِر بن تولب:

أعِذْني رَب من حَصَرٍ وعيٍ ومن نفسٍ أعالِجُها عِلاجا

ومن حاجات نفسي فاعصِمَنِّي فإن لمضمراتِ النفس حاجا

وأنتَ وليّها وبرئتُ منـهـا إليك وما قضيت فلا خِـلاجـا

وأنتَ وهبتهـا كُـومـاً جِـلاداً أرجِّي النَّسل منها والنّـتـاجـا

وتأمرنـي ربـيعةُ كـلَّ يومٍ لأشريَها وأقتنـيَ الـدَّجـاجـا

وما تُغنِي الدجاج الضَّيف عنـي وليس بنافعي إلا نِـضـاجـا

أأهلكهـا وقـد لاقيتُ فـيهـا مِرار الطعن والضرب الشّجّاجا

وتذهب باطلاً غدوات صُهبـى على الأعداء تختلجُ اختـلاجـا

جَموم الشدِّ شـائلة الـذُّنـابـى تخال بياض غُرتـهـا سِـراجـا

وشدِّي في الـكـريهة كـل يومٍ إذا الأصوات خالطت العَجَاجـا

وقال عبد الرحمن بن الحكم:

وللأنصار آكل في قُـراهـا لخُبث الأطعماتِ من الدجاج

وقال الآخر لصاحبه:

آذيتنا بديكك الـسَّـلاَّح فنجِّنا من مُنتن الأرواح

وقالوا: " هو أسلح من حُبارى " ساعة الخوف، ومن " دجاجةٍ " ساعة الأمن.
وقال عقيل بن علَّفة:

وهل أشهدن خيلاً كأن غُبـارهـا بأسفلِ عِلكد دواخنُ تـنـضُـبِ

تبيتُ على رَمضٍ كأن عُيُونـهـم فِقاحُ الدجاج في الوَدِيِّ المعصبِ

كلب الرفقة

وقال صاحب الديك: حدَّث الأصمعيُّ قال: أخبرني العلاء بن أسلم قال: أردت الخروج إلى مكة المعظَّمة، شرَّفها الله تعالى، فجاءني هشام ابن عقبة - وهو أخو ذي الرُّمة - فقال لي: يا ابن أخي، إنك تريد سفراً يحضرُ الشيطان فيه حضوراً لا يحضره في غيره، فاتّق الله وصلِّ الصلوات لوقتها فإنك مصليها لا محالة، فصلِّها وهي تنفعك، واعلم أن كل رُفقةٍ كلباً ينبح عليهم، فإن كان نـهبٌ شَركوه فيه، وإن

كان عارٌ تقلّده دونهم فلا تكن كلب الرُّفقة !! وقد رووا شبيهاً بذلك عن تبيع بن كعب.
أم كلبة وقال زيد الخيل:

يا نصر نصر بني قعينٍ إنمـا أنتم إماءٌ يتَّبعن الأشتـرا

يتبعن فضلةأبر كلبٍ منغط عضَّ الكلاب بعجبه فاستَثْفَرَا

قال: فلما قدم زيد من عند النبي صلى الله عليه وسلم قال " أبرح فتى إن لم تدركه أم كلبة، يعني الحمَّى.
الكلب بين الهجاء والفخر وقال جرير في البعيث:

إذا أنت لاقيت البَعيثَ وجدتـه أشحَّ على الزاد الخبيثِ من الكلب

وقال صاحب الكلب: وقد قال عمرو بن معد يكرب:

وقد كنتُ إذا مـا الـح يٌّ يوماً كَرِهُوا صُلحي

أَلُفُّ الخيلَ بـالـخيلِ وأكفِي النَّبحَ بالنّـبـح

استعارات من اسم الكلب قال ومن الاستعارات من اسم الكلب قول الرجل منهم، إن أوطن نفسه على شيء: قد ضَرَبت جَروَتي، وضربت عليه. وقال أبو النّجم:

حتى إذا ما ابيضَّ جرو التّنفُلِ وبُدِّلت والدهر ذو تـبـدُّلِ

وقال:

من الحنظل العاميِّ جروٌ مفلّقُ

وقال عُتبة الأعور:

ذهب الذين أحبُّهـم وبقيت فيمن لا أحبه

إذ لا يزال كريم قو مي فيهم كلبٌ يسبُّه

احتقار العرب للصيد

قال صاحب الديك: فخرتم علينا بصيد الكلب، وهجوتم الديك إذ كان مما لا يصيد ولا يصاد به، وقد وجدنا العرب يستذلُّون الصيد ويحقرون الصياد، فمن ذلك قول عمرو بن معد يكرب:

ابنـي زيادٍ أنـتـم فــي قــومــكــم ذَنَبٌ ونـحــن فــروع أصــل طــيِّبِ

نصلُ الخميس إلى الخميس وأنتم بالقهر بين مربِّق ومكلِّبِ

لا يحسَبَنَّ بنو طُليحة حربنا سوق الـحـمير بـحـانةٍ فـالـكـوكـبِ

حيدٌ عن الـمعروفِ سـعــيُ أبـيـهـمُ طلبُ الـوُعول بـوفضةٍ وبــأكــلُــبِ

حتـى يكـهَّنَ بـعـد شَــيبٍ شـامــلٍ ترحاً لـه من كـاهــن مــتــكــذّبِ

الاشتفاء بدماء الملوك والأشراف

وأما قول زهير:

وإن يُقتلو فيُشتَفى بدمـائـهـم وكانوا قديماً من مَنَايِاهم القتلُ

فهذا البيت نفسه ليس يدلُّ على قولهم أن كل من كان به جنونٌ أو كلَبٌ ثم حسَا من دم ملكٍ أو سيدٍ كريم أفاق وبرئ.

فرار الكلب من الماء

وقد ضربوا لصاحب الكلب أمثالاً في شدَّة طلبه الماء، وفي شدَّة فراره منه إذا عاينه.

وقالوا وقلتم: فالماء المطلوب إذا عاينه من غير أن يمسَّه، وهو الطالب له ولم يحرص عليه إلا من حاجة إليه. فكيف صار إذا رآه صاح ؟ ! قالوا: وقد يعتري الناظر إلى الماء، والذي يديم التَّحديق إليه وهو يمشي على قنطرةٍ أو جُرُف أو جسر الدُّوارُ؛ فإنه ربما رمى بنفسه من تلقاء نفسه إلى الماء، وإن كان لا يحسن السباحة. وذلك إنما يكون على قدر ما يصادف ذلك من المرار، ومن الطِّباع.

فمن فعل ذلك بنفسه أبو الجهجهاه محمد بن مسعود، فكاد يموت حتى استُخرج.

ومنهم منصور بن إسماعيل التمَّار، وجماعة قد عرفت حالهم.

ما يعتري المختنق والممرور وهذا كما يعتري الذي يصيبه الأسنُ من البخار المختنق في البئر إذا صار فيها؛ فإنه ربما استقي واستخرج وقد تغيَّر عقله.

وأصحاب الرّكايا يرون أن دواءَه أن يلقوا عليه دِثاراً ثقيلاً، وأن يزمّل تزميلاً وإن كان في تموّز وآب، ثم يحرس وإن كان قريباً من رأس البئر؛ فإنّه إن لم يُحل بينه وبينها طرح نفسه في تلك البئر، أتاها سعياً في أوّل ما يفتح عينَه ويرجع إليه

اليسيرُ من عقله، ثم يُكفي نفسه فيها من ذات نفسِه، في الموضع الذي لقي منه ما لقي، وقد كان عنده معلوماً أنّ القوم لو تركوه طرفة عينٍ لهلك. هكذا كان عنده أيام صحةِ عقله، فلمّا فسد أراه الفساد أن الرّأي في العَود إلى ذلك الموضع.
وكما يعترى المرورَ حتى يرجُم الناس؛ فإن المِرَّة تصوِّر له أن الذي رَجَمه قد كان يريد رجمه، فيرى أن الصواب يبدأه بالرّجم وعلى مثلِ ذلك تُريه المِرّة أن طرحه نفسه في النّار أجودُ وأحزم.
وليس في الأرض إنسانٌ يذبح نفسَه أو يختنق أو يتردَّى في بئر، أو يرمي نفسه من حالق، إلا من خوف المثلة أو التعذيب أو العيير وتقريع الشامتين، أو لأن به وجعاً شديداً فيحرِّكُ عليه المِرَّة فيحمى لذلك بدنُه ويسخنُ جوفه، فيطير من ذلك شيءٌ إلى دماغه أو قلبهِ، فيوهمه ذلك أن الصواب في قتلِ نفسه، وأن ذلك هو الرّاحة، وأن الحزم مع الراحة.
ولا يختار الخنقَ الوادعَ الرابح ابلرافه، السليمُ العقلِ والطِّباع. وللغيظ ربما رَمى بنفسه في هذه المهالك، وقذف بها في هذه المهاوي.
وقد يعترى الذي يصعَد على مثل سنسيرة أو عقرَقوفَ أو خضراء زوج، فإنه يعتريه أن يرمي بنفسه من تلقاء نفسه، فيرون عند ذلك أن يصعد إليه بعض المعاودين المجرّبين، ولا يصنع شيئاً حتى يشدَّ عينيه، ويحتال لإنزاله. فهذا المعنى عامٌّ فيمن كانت طبيعته تثور عند مثل هذه العلّة. وما اكثر كمن لا يعتريه ذلك.
وقد قال الناسُ في عذر هؤلاء ولأن فيهم ضروباً من الأقاويل.
وإنما تكلمنا على المغلوب. فأما من كانت هذه العوارضُ لا تُفسِد عقله، ولا تنقُضُ استطاعته، فليس بيننا اختلافٌ في أنه ملوم. على أن إلزامه اللائمة لا يكون إلاّ من بعد خصومةٍ طويلة، لا يصلح ذكرها في هذا الباب.

الغراب

لؤم الغراب وضعفه

وقال صاحب الكلب: الغربا من لئام الطير وليس من كرامها، ومن بغاثها وليس من أحرارها، ومن ذوات البراثنِ الضعيفة والأظفار الكليلة، وليس من ذوات المخالب المعقَّفة والأظفار الجارحة، ومن ذوات المناقير وليس من ذوات المناسر. وهو مع أنه قويُّ النَّظر. لا يتعاطى الصيد. وربما راوغ العصفور، ولا يَصيد الجرادة إلا أن يلقاها في سدٍّ من الجراد. وهو فسلٌ إذا أصاب جيفةً نال منها وإلا مات هُزالاً، ويتقمم كما يتقمم بهائم الطير وضعافها، وليس ببهيمةٍ لمكان أكلِه الجيف، وليس بسَبع لعجزه عن الصيد.

ألوان الغربان

وهو مع ذلك يكون حالكَ السواد شديدَ الاحتراق، ويكون مثله من الناس الزِّنج فإنهم شرارُ الناس، وأردأ الخلق تركيباً ومزاجاً، كمن بردت بلادُه فلم تطبخه

الأرحام، أو سخنت فأحرقته الأرحام. وإنما صارت عقولُ أهل بابَل وإقليمِها فوقَ العقول، وجمالهم فوق الجمال لعلة الاعتدال.
وللغراب إما أن يكون شديد الاحتراق فلا يكون له معرفةٌ ولا جمال، وإما أن يكون أبقعَ فيكون اختلافُ تركيبه وتضادُّ أعضائِه دليلاً على فسادِ أمره. والبُقع ألأمُ من السود وأضعف.

أنواع الغربان

ومن الغِربان غراب الليل، وهو الذي ترك أخلاقَ الغربان وتشبَّه بأخلاق البوم.
ومنها غرابُ البَين. وغراب البين نوعان: أحدهما غربانٌ صغارٌ معروفةٌ بالضَّعف واللُّؤم، والآخر " كُلُ غرابٍ يُتَشاءَم به. وإنما لزمه هذا الإسم لأن الغراب إذا بان أهلُ الدار للنُّجعة، وقع في مرابض بيوتهم يلتمس ويتقمَّم، فيتشاءمون به ويتطيَّرون منه؛ إذا كان لا يعترى منازلهم إلا إذا بانوا، فسمَّوه غراب البين. ثم كرهوا إطلاق ذلك الاسم له مخلافة الزَّجر والطِّيرَة، وعلموا انه نافذ البصر صافي العين - حتى قالوا أصفى من عينِ الغراب، كما قالوا: أصفى من عين الدِّيك - فسمّوه الأعور كناية، كما كنَوا طيرة عن الأعمى فكنوه أبا بَصير. وبها اكتنى الأعشى بعد أن عمي. ولذلك سمَّوا الملدوغ والمنهوش سليماً، وقالوا للمهالك من الفيافي: المفاوز. وهذا كثير.
والغِدقان جنس من الغربان، وهي لئام جداً.

التشاؤم بالغراب

ومن أجل تشاؤمهم بالغراب اشتقُّوا من اسمه الغربة، والاغتراب، والغريب.
وليس فغي الأرض بارحٌ ولا نَطيح، ولا قعيد، ولا أعضب ولا شيءٌ مما يتشاءمون به إلا والغرابُ عندَهم أنكدُ منه، يرون أن صِياحَه أكثر أخباراً، وأن الزَّجر فيه أعمُّ. وقال عنترة:

حَرق الجناح كأن لحيَى رأسهِ　　　جَلَمانِ، بالأخبار هشٌّ مُولَع

التعاير بأكل لحم الغراب

وهو عندهم عار، وهم يتعايرون بأكل لحمه. ولو كان ذلك منهم لأنه يأكل اللحوم، ولأنه سبع، لكانت الضواري والجوارحُ أحقَّ بذلك عندهم. وقد قال وَعلَة الجَرمي:

فما بالعار ما عَيَّر تُمونا　　　شِواءَ الناهِضاتِ مع الخبيص

فما لحمُ الغرابِ لنا بزادٍ　　　ولا سَرَطانُ أنهار البريص

فسق الغراب وتأويل رؤياه

قال: والغربانُ جنسٌ من الأجناس التي أمر بقتلها في الحِلِّ والحرم، وسمِّيت بالفسق وهي فواسق، اشتقَّ لها من اسم إبليس.
وقالوا: رأى فلان فيما يرى النائمُ أنه يُسقِطُ أعظمَ صومعةٍ بالمدينة غرابٌ. فقال سعيدُ بن المسيِّب: يتزوح أفسَق الفاسقين امرأةً من أهل المدينة. فلم يلبثوا إلا أيَّاماً حتى كان ذلك.

غراب نوح

وقالوا في المثل: لا يرجعُ فلانٌ حتى يرجع غرابُ نوح، وأهل البصرة يقولون: حتّى يرجعَ نشيطٌ من مَرو، وأهل الكوفة يقولون: حتّى يرجعَ مَصقلة من سِجِستان ". فهو مثلٌ في كل موضعٍ من المكروه.

قبح فرخ الغراب وفرخ العقاب

وزعم الأصمعيُّ عن خلفٍ الأحمر، أنّه قال: رأيت فرخ غراب فلم أر صورة أقبحَ ولا أسمجَ ولا أبغضَ ولا أقذرَ ولا أنتنَ منه. وزعم أنّ فِراخَ الغربان أنتنُ من الهدهد - على أنّ الهدهدَ مَثَلٌ في النّتن - فذكر عِظَمَ رأسٍ وصِغَرَ بدن، وطولَ منقار وقِصَرَ جناح، وأنّه أمرطُ أسود، وساقط النّفس، ومُنتِن الرّيح.
وصاحب المنطق يزعُم أنّ رؤية فرخ العُقاب أمرٌ صعب، وشيءٌ عسير. ولست أحسن أن أقضيَ بينهما.
والغربان عندنا بالبَصرة أوابدُ غير قواطع، وهي تفرخ عندنا في رءوس النّخل الشّامخة، والأشجار العالية. أسطورة خداع الغراب للديك

فالغرابُ عند العرب مع هذا كلِّه، قد خدع الدّيك وتلعَّب به، ورَهَنه عند الحمّار وتخلّص من الغُرم، وأغلقه عند الحمّار، فصار له الغنم وعلى الديك الغرم، ثمّ تركه تركاًضرب به المثل.
فإن كان معنى الخبر على ظاهر لفظه، فالديك هو المغبون والمخدوع والمسخور به، ثم كان المتلعّب به أنذلَ الطير وألأمَه.
وإن كان هذا القولُ منهم يجري مجرى الأمثال المضروبة، فلولا أن عُليا الدّيك في قلوبهم دون محلِّ الغراب - على لؤم الغراب ونذالته ومُوقه وقلّة معرفته - لما وضعوه في هذا الموضع.

دهاء أمية بن أبي الصّلت

فإن أردتم معرفة ذلك فانظروا في أشعارهم المعروفة، وأخبارهم الصحيحة ثم ابدءوا بقول أميّة بن أبي الصّلت؛ فقد كان داهيةً من دوهي ثقيف، وثقيفٌ من دُهاةِ العرب، وقد بلغ من اقتداره في نفسه أنَّه كان قد همَّ بادِّعاء النُّبوة، وهو يعلم كيف الخصالُ التي يكون بها الرجل نبيّاً أو متنبيّاً إذا اجتمعت له. نعم وحتّى ترشَّح لذلك بطلب الرِّوايات، ودرس الكُتُب. وقد بان عندَ العرب علاّمةً، ومعروفاً بالجَولان في البلاد، راويةً.

حديث العرب في الغراب

والديك وطوق الحمام

وفي كثيرٍ من الروايات من أحاديث العرب، أن الديك كان نديماً للغراب، وأنهما شربا الخمر عند خمّارٍ ولم يعطياه شيئاً وذهب الغرابُ ليأتيه بالثَّمنِ حين شرب، ورَهن الدّيك، فخاس به، فبقي محبوساً.
وأنّ نوحاً صلى الله عليه وسلم حين بقي في اللُّجّة أياماً بعث الغرب، فوقع على جيفةٍ ولم يرجع، ثم بعث الحمامة لتنظر هل ترى في الأرض موضعاً يكون للسفينة مَرفأً، واستجعَلت على نوحٍ الطَّوق الذي في عنقها، فرشاها بذلك، أي فجعل ذلك جُعلاً لها.
وفي جميع ذلك يقول أمية بن أبي الصلت.

بآيةِ قام ينطق كلُ شيءٍ وخانَ أمانة الديك الغرابُ

يقول: حين تركه في أيديهم وذهب وتركه.
والعامة تضرب به المثل وتقول: ما هو إلا غرابُ نوح.
ثمّ قال:

وأرسلتِ الحمامة بعد سبعٍ تدلُّ على المهالك لا تَهابُ

تلمّس هل ترى في الأرضِ عيناً وغايته من الماء العُبابُ

فجاءت بعدما ركضت بقِطفٍ عليه الثَّأط والطين الكُبابُ

فلما فرَّسوا الآياتِ صاغوا لها طوقاً كما عُقِدَ السِّخابُ

إذا ماتت تورِّثه بنيها وإن تُقتل فليس لها استلاب

كذي الأفعى يربِّيها لديه وذي الجِنِّيِّ أرسله يتابُ

فلا ربُّ المنية يأمَننها ولا الجنيُّ أصبح يُستتابُ

الجنّيّ: إبليس؛ لذنوبه. والأفعى هي الحيَّة التي كلم إبليس آدم من جوفها. ومن لا علم عنده يروي أيضاً أن إبليس قد دخل جوف الحمار مرَّة؛ وذلك أن نوحاً لمَّا دخل السفينة تمنَّع الحمار بعسره ونكّده، وكان إبليسُ قد أخذ بذَنَبه. وقال آخرون: بل كان في جوفه فلما قال إبليس للحمار: ادخل يا ملعون ! ودخل الحمار، دخل إبليس معه؛ إذ كان في جوفه. قال: فلما رآه نوحٌ في السفينة قال: يا ملعون من

أدخلك السفينة ؟ قال: أنت أمرتني. قال: ومتى أمرتك ؟ قال: حين قلت، ادخل يا ملعون، ولم يكن ثمَّ ملعون غيري

شعر أمية في الديك والغراب والحمامة

قال أميَّة بن أبي الصلت:

هو أبدى من كلّ ما يأثُر النا س أماثيلَ باقياتٍ سُفـورا

خلق النَّخل مصعداتٍ تراها تقصف اليابساتِ والخضُّورا

والتّماسيح والتمـاثيل والأ يِّل شتّى والرِّيمَ واليَعفـورا

وصواراً من النواشطِ عِينـاً ونعاماً خواضباً وحـميرا

وأسـوداً عـوادياً وفـيولاً وذياباً والوحشَ والخنـزيرا

وديوكاً تدعو الغراب لصلح وإوَزِّين أخرجت وصقورا

قال: ثم ذكر الحمامة فقال:

سمع اللـه لابـنِ آدم نـوحِ ربُّنا ذو الجلال والإفضـالِ

حين أوفى بذي الحمامة والنا س جميعاً في فُلكِهِ كالعيال

فأتتهُ بالصدق لمّا رشـاها وبقِطفٍ لما غدا عِثكـالِ

ووصف في هذه القصيدة أمر لحمامة والغراب صفة ثانية، وغير ذلك، وبدأ بذكر السفينة فقال:

تَرفَّعُ في جَري كأن أطِيطَـه صريف مَحالٍ تستعيد الدّواليا

على ظهر جونٍ لم يُعَدّ لراكبٍ سراه وغيمٍ ألبس الماء داجيا

فصارت بها أيامها ثمّ سبعة وستَّ ليالٍ دائباتٍ غـواطيا

تشق بهم تهوي بأحسن إمـرةٍ كأن عليها هـادياً ونـواتـيا

وكان لها الجوديُّ نهياً وغاية وأصبح عنه موجه متراخيا

ثم قال:

وما كان أصحاب الحمامة خيفة غداةً غدَت منهم تضم الخوافيا

رسولاً لهم والله يُحكِمُ أمرَه يبين لهم هل يونسُ الثوب باديا

فجاءت بِقِطفٍ آيةً مستبينةً فأصبح منها موضع الطين جاديا

على خطمِها واستوهبت ثمَّ طوقها وقالت ألا لا تجعل الطوق حاليا

ولا ذهباً، إني أخافُ نبالهم يخالونه مالي وليس بماليا

وزدني على طرقي من الحَلي زينةً تُصيب إذا أتبعت طوقي خضابيا

وزدني لطرف العينِ منك بنعمةٍ وأرِّث إذا ما متُّ طوقس حماميا

يكون لأولادي جمالاً وزينةً ويهوين زيني زين أن يرانيا

ثم عاد أيضاً في ذكر الديك فقال:

ولا غرو إلا الذيك مدمن خمرةٍ نديم غرابٍ لا يمل الحوانيا

ومَرهَنُه عن الغراب حبيبَه فأوفيت مرهوناً وخلفاً مسابيا

أدل علي الديك إنبي كما ترى فأقبل على شأني وهاك ردائيا

أمنتك لا تلبَث من الدَّهر ساعةً ولا نصفها حتى تئوب مآبيا

ولا تدركنك الشمسُ عند طلوعها فأعلقَ فيهم أو يطول ثوائيا

فردّ الغراب والرداء يحوزه إلى الديك وعداً كاذباً وأمانيا

بأية ذنبٍ أو بأية حُجةٍ أدعك فلا تدعو علي ولا ليا

فإني نذرت حَجَّةً لن أعوقـهـا فلا تدعو بـي مـرة مـن ورائيا

تطيرت منها والدعـاء يعوقنـي وأزمعت حَجاً أن أطـير أمـامـيا

فلا تيأسن إني مع الصُّبح بـاكرٌ أوافي غداً نحو الحجيج الـغـواديا

لحبِّ امرئٍ فاكهتُه قبل حَـجَّـتـي وآثرت عمداً شأني قـبـل شـانـيا

هنالك ظن الجديك إذ زال زولُـهُ وطال عـلـيه الـلـيل ألا مـفـاديا

فلما أضاء الصُّبح طرَّب صرخةً ألا يا غرابُ هل سمـعـت نـدائيا

على وده لو كـان ثـم مـجـيبـه وكان لـه ندمـان صـدقٍ مـواتـيا

وأمسى الغراب يضرب الأرض كلَّها عتيقاً وأضحى الديك في القِدِّ عانـيا

فذلك مما أسهب الـخـمـر لـبَّـه ونـادم ندمـانـاً مـن الـطـير عـاديا

ما يلقم فراخه وما يزقها

قال: ومن الطَّير ما يُلقم فِراخه مثل العصفور؛ لأنَّ العصفور لا يزقّ. وكذلك أشباه العصفور.
ومن الطير ما يزق فراخه، مثل الحمام ومتا أشبه ذلك كبهائم الطير الخالصة؛ لأن الدّجاجة تأكل اللّحم، وتلَغُ في الدم، وولدها حين يخرج من البيض يخرج كاسباً مليحاً، كيساً بصيراً بما يُعيشه ويقوته، ولا يحتاج إلى تلقيم سباع الطير والعصافير لأولادها؛ لأن أولادها إذ لم ترضع ولم تلقط الحبَّ كالفراريج أوّل ما تخرج من البيض ولم تزقَّها الآباء ولا الأمهات كأجناس الحمام، فلا بد لها من تلقيم.

ما له طبيعة مشتركة من الطير

والفرُّوج مشترك الطبيعة، قد أخذ من طبائع الجوارح نصيباً، وهو أكله للحم، وحسوه للدّم، وأكله للديدان وما هو أقذر من الذباب. والعصفور أيضاً مشارك الطّباع؛ لأنه يجمع بين أكل الحبوب واللُّحمان، وبين لقط الحبوب وأجناسٍ كثيرة من الحيوان، كالنمل إذا طار، وكالجراد، وغير ذلك. وليس في الأرض رأسٌ أشبه برأس الحيَّة من العصفورة.

هداية العصفور

والعصفور يتعالى ويطير، ويهتدي ويستجيب. ولقد بلغني أنه قد رجع من قريبٍ من فرسخ. وهي تكون عندنا بالبصرة في الدُّور، فإذا أمكنت الثمارُ لم تجد منها إلا اليسير، فتصير من القواطع إلى قاصي النَّخل؛ وذلك أنها إذا مرّت بعصافير القرى وقد سبقت إلى ما هو إليها أقرب، جاوزَتها إلى ما هو أبعد، ثم تقرب الأيام الكثيرة إلى ما هو أبعد، ثم تقرب الأيّام الكثيرة المقدار، في المسافة إلى أكثر مما ذكرت من الفرسخ أضعافاً.
تحنن العصافير وعطفها والعصافير لا تقيم في دور الأمصار إذا شخص أهلها عنها، إلا ما كان مقيماً منها على بيض أو فراخ؛ فإنه ليس بالأرض طائرٌ أحنى على ولده ولا أشدُّ تعطفاً من عصفور. والذي يدلُّ على أن في طبعها من ذلك ما ليس في طبع سواها من الطير، الذي تجد من إسعاد بعضهنَّ لبعض، إذا دخلت الحيَّة إلى حُجر بعضهن لتأكل فرخاً، أو تبتلع بيضاً؛ فإن لأبوى الفرخ عند ذلك صياحاً وقلقاً وطيراناً، وتدفيفاً وترنيقاً فوق الحُجر ودونه وحواليه، فلا يبقى عصفورٌ من حيث يسمع صياحَهما أو يسمع أصواتَهما إلا جئن أرسالاً مسعداتٍ، يصنعن معهما كما يصنعان.
حذر العصفور وليس في الأرض أصدقُ حذراً منه. ويقال إنه في ذلك لأكثر من العَقعَق والغراب.
وخبَّرني من يصيد العصافير قال: ربما كان العصفور ساقطاً على حائط سطح بحذائي، فيغمِّني صياحُهُ وحدة صوته، فأصيح وأومئ إليه بيدي، وأشير كأني أرميه، فما يطير. حتى ربما أهويت إلى الأرض كأني أتناول شيئاً، كل ذلك لا يتحرك له. فإن مسَّت يدي أدنى حصاة أو نواةٍ وأنا أريد رميها، طار قبل أن تستمكن منها يدي.
سفاج العصفور وأثره في عمره وليس في الطَّير أكثر عددَ سِفادٍ من العصافير، ولذلك يقال إنّها أقصر الطَّير أعماراً. ةيقال إنّه ليس شيءٌ مما يألَف الناس ويعايشهم في دورهم أقصر عمراً منها. يعنون: من الخيل والبغال والحمير، والبقر والغنم، والكلاب والسّنانير، والخطاطيفِ والزرازير، والحمام والدّجاج.
نقزان العصفور ولا يقدر العصفور على المشي، وليس عنده إلا النَّقزان، ولذلك يسمَّى النَّقَّاز، وإنما يجمع رجليه ثم يثب، وذلك في جميع حركاته، وفي جميع ذهابه ومجيئه. فهي الصَّعو، والعصافير، والنقاقيز. وإن هو مشى هذه المشية - التي هي نَقَزان - على سطحٍ وإن ارتفع سمكه، فكأنك تسمع لوطئه وقع حجرٍ؛ لشدة وطئه، ولصلابة مشيه. وهو ضدُّ الفيل؛ لأن إنساناً لو كان جالساً ومن خلف ظهره فيلٌ لما شعر به، لخفّة وقع قوائمه، مه سرعة مشي وتمكينٍ في الخطا.

سبُعِية الرَّخم والنسر

والرَّخم والنَّسر سباع، وإنما قصَّر بها عدم السلاح. فأما البدن والقوّة ففوق جميع الجوارح، ولكنها في معنى الدّجاج، لمكان البراثن ولعدم المخالب.

وفاء العصافير ولقد رأيت سِنَّوراً وثب على فرخ عصفورٍ فأخطأه فتناول الفرخ بعض الغلمان فوضعه في البيت، فكان أبوه يجيء حتى يطعمه، فلما قوي وكاد يطير جعله في قفص، فرأيت أباه يجيء يتخرق السّنانير وهي تهمّ به، حتى يدخل إليه من أعلى فتح الباب، وهي تهمُّ بالوثوب والاختطاف له، حتى يسقُط على القفص فينازعه ساعة، فإذا لم يجد إلى الوصول سبيلاً طار فسقط خارجاً من البيت، ثم لا يصبر حتى لا يعود. فكان ذلك دأبه. فلما قوي فرخه أرسلوه معه فطارا جميعاً.
وعرفنا أنه الأبُ دون الأمِّ لسواد اللِّحية.

القول في سماجة صوت الديك

قال: والدليلُ على أن صوت الديك كريهٌ في السَّماع، غيرَ مطربٍ، قول الشاعر:

ذكر الصَّبُوح بسُحرةٍ فارتاحا وأمَّلَه ديك الصَّباح صِياحا

أوفى على شُرَف الجدار بسُدفةٍ غرداً يصفّق بالجَناح جناحا

صغر قدر الدجاج

قال: ويدلُّ على صِغر قدر الدجاج عندهم قول بشّار بن بردٍ الأعمى:

بجدِّك يا ابن أقرعَ نلت مالاً ألا إن اللئام لهم جدود

فمن نذر الزيادة في الهدايا أقمت دجاجة فيمن يزيد

أثر كثرة الدجاج في عدد بيضها وفراريجها

قال: وإذا كثر الدجاج في دارٍ أو إصطبل أو قرية، لم يكن عدد بيضها و فراريجها على حسبِ ما كان يبيض القليل منهنَّ ويفرخه. يعرف ذلك تُجَّار الدّجاج ومن اتخذها للغلَّة.

رعي الدجاج في مصر

بمِصر تَرعى كما يَرعَى الغنم، ولها راع وقيِّم.

فراخ الدجاج وفراخ الحمام

والموتُ إلى الدَّجاج سريعٌ جداً، والعادة في صِغار فراريجها خلاف ما عليها نتوُّ فراخ الحمام؛ لأنَّ الفرُّوج تتصدَّع عنه البيضة في كيِّسٌ ظريف، مليح مقبول، مُحَبٌّ، غنيٌّ بنفسه، مكتفٍ بمعرفته، بصيرٌ بموضع معيشته من لَقط الحب، ومن صَيد الذُّباب وصغار الطير من الهوامّ. ويخرج كاسياً حتى كأنَّه من أولاد ذواتِ

الأربع. ويخرج سريعَ الحركة شديدَ الصوت حديده، يُدعى بالنَّقر فيُجيب، ولا يقال له: قر، قر، ثلاث مرّات - حتى يَلقنَه. فإن استدبره مستدبرٌ ودعاه عطفَ عليه، وتتبع الذي يطعمه ويلاعبه، وإن تباعد من مكانه الأوَّل. فهو آلف شيء. ثمَّ كلما مرت عليه الأيام ماق وحمق، ونقص كيسه، وأقبل قبحُه وأدبر مِلحُه. فلا يزال كذلك حتى ينسلخ من جميع ما كان يُحَبُّ له إلى ضدِّ ذلك، ويصير من حالة إلى حال لم يبلغ الانتفاع بذبحه وبيضِه وفراريجه، وذهب عنهم الاستمتاع بكيسه. ولا يكاد يقبل الشَّحم حتى يلحقَ بأبيه، وكذلك إن كانت أنثى، لا تقبل السِّمن، ولا تحمل اللَّحمَ حتَّى تكادَ تلحقُ بأمِّها في الجثّة.

والفرخ يخرج حارضاً ساقِطاً، أنقصَ من أن يقالَ له مائق، وأقبحَ شيء. وهو في ذلك عاري الجلد مختلف الأوصال متفاوت الأعضاء، ضعيفُ الحوصَلة، عظيم المنقار. فكلَّما مرَّت به الأيَّام زادت في لحمه وشحمه، وفي معرفته وبصره، حتى إذا بلغ خرجَ منه مِن الأمور المحمودةِ ما عسى لو أنَّ واصفاً تتَّبع ذلك لمَلأ منهُ الأجلاد الكثيرة. ثم إذا جَاز حدَّ الفِراخ إلى حَدِّ النواهض، إلى حَدِّ العُتّق والمخالب، قلَّ لحمُه وذهب شحمُه على حساب ذلك ينقص. فإذا تمّ وانتهى لم تكن في الأرض دابَّةٌ ولا طائرٌ أقلَّ شحماً ولا أخبثَ لحماً منه، ولا أجدرَ ألاَّ يقبلَ شيئاً من السِّمَن ولو تخيّروا له فؤارَةَ المسمنات وما يسمّن به - ما سمِن.

علة قلة البيض إذا كثر الدجاج وسألت عن السَّبب الذي صار له الدَّجَاجُ إذا كثُرن قلّ بيضهُنَّ وفراخهنَّ، فزعموا أنَّها في طباع النَّخل، فإن النَّخلَة إذا زَحَمت أختها، بل إذا مسّ طرَفُ سَعفِها طرفَ سعفِ الأخرى وجاورتها، و ضيَّقت عليها في الهواء، وكذلك أطراف العُروق في الأرض - كان ذلك كرباً عليها وغمّاً.

قالوا: فتدَانيها وتضاغُطها، وأنفاسها وأنفاسُ أبدانها، يُحدث لها فساداً.

قال: وكما أنَّ الحمامَ إذا كثُرت في الكُنّة والشريحة احتاجت إلى شمس وإلى ماء تغتسِل فيهِ في بعض الأحايين، وإلى أن تكون بيُوتُها مكنوسة في بعض الأوقات ومرشوشة، وإلاَّ لم يكن لها كبيرُ بيض. على أنّه إذا كان لها في الصميمين الدِّفءُ في الشتاءِ والكِنُّ في الصّيف، لم تُغادِر الدهر كلَّه أن تبيض.

فخر صاحب الديك بكثرة ما اشتق من البيض

قال صاحب الدِّيك: فخرتم للكلب بكثرة ما اشتقَّ للأشياء من اسم الكلب، وقد اشتقّ لأكثر من ذلك العدد من البيض، فقالوا لقَلانس الحديد بَيضٌ، وقالوا: فُلاَن يَدفع عن بَيضة الإسلام، وقالوا: قال عليٌّ ابن أبي طالبٍ رضي الله عنه: أنَا بَيضَةُ البَلَدِ. وفي موضع الذمِّ من قولهم:

تأبى قضَاعة أن تدري لكم نَسَباً	وابنَا نزارٍ وأنتم بَيضَةُ البَلَـدِ

ويسمّى رأس الصَّومَعة والقبّةِ بَيضة. ويقال للمجلِسِ إذا كان معمُورا غير مطوّل بَيضٌ جاثمة، ويقال للوعاء الذي يكون فيه الحِبن والخَرَاج وهُوَ الذِي يجتمع فِيهِ القيح - بيضة. وقال الأشتر بن عُبادة:

يكفُّ غُرُوبَها ويَغضُّ منهـا وَراء القوم خشيةَ أن يلامُوا

مُظاهِرُ بَيضَتَين على دِلاَصٍ بهِ من وَقعةٍ أخرى كِلاَمُ

وقال النّابغة:

فصَبّحَهُم مُلَملَمَةً رَدَاحـاً كَأنَّ رُؤوسُهم بَيضُ النعام

وقال العُجيرُ السَّلولي:

إذا البَيضَةُ الصَّمَّاء عضّت صفيحة بحربَائها صاحَت صِياحاً وصلّت

شرط أبي عباد في الخمر

ولما أنشدوا أبا عبَّاد النَّمَريَّ قولَ ابنِ مَيَّادة، وهو الرَّمَّاح:

ولقد غدَوتُ على الفتَى في رحله قبلَ الصَّباح بمُترَعٍ نَـشَّـاجِ

جادَ القلالُ له بدَرٍّ صبـابة حمراءَ مثل سخينة الأوداج

حُبسَت ثلاثة أحرُسٍ في دَارةٍ قوراءَ بَينَ جَوازل ودَجـاج

تَدَعُ الغويَّ كأنَّه في نفسـه مَلِكٌ يعصَّبُ رأسُهُ بالتَّـاج

ويظلُّ يحسِب كلَّ شيءٍ حولَه نُجبَ العراق نزَلنَ بالأحداج

فحين سمعه أبو عبّاد يقول:

حُبست ثلاثة أحرُسٍ في دَارةٍ قوراءَ بَينَ جَوازل ودَجـاج

قال: لو وجدتُ خمراً زيتيّة ذهبية، أصفى من عين الديك، وعَين الغراب، ولعابِ الجُندب وماء المفاصل، وأحسنَ حمرةً من النّار، ومن نَجِيع غزال، ومن فُوَّةِ الصَّباغ - لَما شربتها حتَّى أعلمَ أنَّها من عصير الأرجل، وأنَّها من نبات القرى؛

وما لم تكدر في الزّقاق، وأنَّ العنكبوت قد نسَجَت عليها، وأنَّها لم تصر كذلك إلاَّ وسط دَسكرةٍ، وفي قرية سَوادِيَّة وحولَها دَجاجٌ وفراريج. وإن لم تكن رقطاءَ أو فيها رُقط فإنَّها لم تتمَّ كما أريد. وأعجَب من هذا أنّي لا أنتفع بشُربها حتَّى يكون بائُعها على غير الإسلام، ويكونَ شيخاً لا يُفصح بالعربيَّة، ويكونَ قميصُهُ متقطّعاً بالقار. وأعجب من هذا أنّ الذي لا بدَّ منه أن يكون اسمه إن كان مجُوسيّاً شهريار، ومازيار، ومَا أشبه ذلك، مثل أدير، واردان، ويازان. فإن كان يهوديّاً فاسمه مانشا، وأشلوما، وأشباه ذلك. وإن كان نصرانيّاً فاسمه يُوشع وشمعون وأشباه ذلك.

استطراد لغوي ويقال حَمِسَ الشرُّ وأحمَسَ إذا اشتدّ. ويقال قد احتَمَسَ الدِّيكان احتماساً، إذا اقتتلا اقتتالاً َشديداً. ويقال وقعَ الطائر يقع وُقوعاً. وكلُّ واقعٍ فمصدره الوقوع، ومكانه موقعَة، والجمع مواقع. وقال الرَّاجز:

كأنَّ متنيه من الـنـفـيِّ مواقعُ الطير على الصُّفيِّ

يقال صَفاً وصُفيّ. والنّفِيُّ: ما نفى الرِّشاء من الماء، وما تَنفيه مشافرُ الإبل من الماء المَدِير. فشبَّه مكانَه على ظهر الساقي والمستَقي بذَرق الطَّير علَى الصَّفا. ويقال " وقع الشيءُ من يدي وُقوعا، وسقط من يدي سُقوطا ". ويقال وقع الربيع بالأرض، ويقال سَقط. وقال الرّاعي:

وقعَ الربيع وقد تقاربَ خَطوُهُ ورأى بعَقوَتِهِ أزلَّ نَـسُـولا

لؤم الفروج قال: وكان عِندَنا فرُّوجٌ، وفي الدار سنانيرُ تُعابث الحمامَ وفراخه، وكان الفرُّوج يهرُب منها إلى الحمام، فجاءُونا بدُرَّاج، فترك الحمامً وصار مع الدُّرَّاج، ثم اشترينا فروجاً كَسكَريّاً للذّبح فجعلناه في قفص، فترك الدُّرَّاج ولزم قُرب القفص، فجئنا بدَجَاجةٍ فترك الدِّيك وصار مع الدَّجاجة، فذكَرتُ قولَ الفِزر عبد بني فَزَارة - وكانت بأذنِهِ خُربة -: إنَّ الوئام يتَبرَّع في جميع الطَّمش، لا يقرب العنزُ الضَّأن ما وجدت المعز، وتنفر من المِخلَب ولا تتأنّس بالحفّ. فجعلَها كما ترى تنفر ولا تَأنس منزله.

وكذلك حدّثنا الأصمعِيُّ قال: قلتُ للمنتَّجِع بن نبهان - وكانت بأذنِهِ خربة - أكان تميمٌ مسلماً ؟ قال: إن كان هو الذي سمَّى ابنَه زَيدَ مناةَ فما كان مُسلِماً، وَإلاَّ يكن هو الذي سمَّاه فلا أدري. ولم يقل: وإلاَّ يكن هو سمَّاه فقد كان مسلماً.

الوئام

والوئام: المشاكلة. وقالوا: تقول العرب: " لولا الوئام لهلك الأنام " وقال بعضهم: تأويلُ ذلك: لولا أنَّ بعضَ الناس إذا رأى صاحبه قد صنَع خيراً فتشبَّه بهِ لهلك الناس. وَقال الآخرون: إنَّما ذهب إلى أنس بَعض الناس ببَعض، كأنَّه قال: إنَّما

يتعايشون عَلى مقادِير الأُنس الذي بينهم؛ ولو عمَّتهم الوَحشة عمّتهم الهَلَكة.
وقال قوم بن مَالك، في الوئام:

عَلامَ أُوَائم البخلاءَ فيها فأقعد لا أزُورُ ولاَ أزارُ

وقال الأخطل:

نازعته في الدجَى الرَّاحَ الشَّمُولَ وقد صاحَ الدَّجَاجُ وحانت وقفة السَّاري

وقال جرير:

لمَّا مَررتُ على الدَّيرَينِ أرَّقني صَوتُ الدَّجاج وقرعٌ بالنواقيسِ

شعر في الديكة والدجاج قالوا: وقد وجدنَا الدِّيَكة والدَّجَاجَ وأفعالَها، مذكوراتٍ في مواضعَ كثيرة، قال ذو الرُّمة:

كأنَّ أصواتَ من إيغالهنَّ بنا أواخِرِ المَيس أصواتُ الفرَاريج

وقال الهذلي:

ومن أينها بعد إبدانها ومن شحم أثباجها الهابط

تصيحُ جنادِبُهُ رُكَّداً صِياحَ المسامِير في الواسط

فهو على كلِّ مستوفز سقوط الدَّجَاج على الحائط

وقال مَروان بن محمد:

ضيَّع ما وُرّثه راشدٌ مِن كيلَةِ الأكداس في صفّهِ

فربَّ كدس قد علا رمسَه كالدِّيك إذ يعلو عَلَى رَفّه

بيضة الديك وبيضة العقر ويقال في المثل للذي يعطى عطيّةً لا يعودُ في مثلها: " كانَت بَيضَةَ الدِّيك ". فإن كان معروف له قيل: " بَيضة العُقر ".

استطراد لغوي

ويقال دجَاجة بَيوض في دَجاج بيضٍ وبُيض، بإسكان موضع العين من الفعل من لغة سفلى مضر، وضمِّ موضع العين من نظيره من الفعل مع الفاء من لغة أهل

الحجاز.
ويقال عمد الجرح يَعمَد عَمَداً، إذا عُصر قبل أن ينضجَ فورم ولم يُخرِج بَيضَته، وذلك الوِعاء والغِلاف الذي يجمع المِدَّة يسمّى بيضة. وإذا خرجَ ذلك بالعصر من موضع العَين فقد أفاق صاحبُه.
ويقال حضَن الطائر فهو يحضن حِضَاناً.

السفاد والضراب ونحوهما

ويقال هو التَّسافد من الطير، والتعاظل من السِّباع: ويقال قمَط الحمام الحمامة وسفِدَها. ويقال قعَا الفحلُ يقعو قعوا، وهو إرساله بنفسه عليها في ضرابه.
والفحل من الحفِّ يَضرب، وهو القعو والضِّراب. ومن الظّلف والحافر ينزو نزوا، وكذلك السنانير. والظليم يقعو، وكلّ الطير يقعو قعوا. وأما الحفّ والظّلف فإنّه يقعُو بعد التسنم. وهو ضرابٌ كلّه ما خلا التسنُّم. وأما الظّلف خاصَّة فهو قافط، يقال قفط يقفُط قفطا. أو القفط نزوة واحدة. وليس في الحافر إلاّ النَّزو.
حضن الدجاج بيض الطاوس قال: ويُوضع بيضُ الطاوس تحتَ الدّجاجة، وأكثرُ ذلك لأنَّ الذَّكر يعَبث بالأنثى إذا حَضَنت. قال: ولهذه العلَّة كثيرٌ من إناث طير الوحش يهرِّبن بيضهُنَّ من ذكورتها، ثمَّ لا تضعه بحيث يشعر به ذكورتهُن.
قال: ويُوضَع تحتَ الدجاجةِ بيضتان من بيض الطاوس، لا تقوى على تسخينِ أكثرَ من ذلك. عَلَى أنَّهم يتعهّدون الدَّجاجة بجميع حوائِجها خوفاً من أن تقوم عنه فيفسده الهواء.

خصى ذكور الطير

قال: وخُصى ذكورِ أجناس الطَّير تكونُ في أوان أوّل السفاد أعظم. وكُلَّما كانَ الطيرُ أعظم سِفاداً، كانت خصيته أعظمَ، مثلُ الدِّيك، والقبَج، والحَجَل.
وخُصية العصفور أعظم من خُصيةِ ما يساويه في الجثَّة مرَّتين.
بيض الدجاج قال: وكلُّ ما كان من الدَّجاج أصغرَ جثَّة يكون أكبر لبيضه. وبعض الدَّجّاج يكون يبيض بيضاً كثيراً، وربما باض بَيضتين في يومٍ واحد؛ وإذا عرض له ذلك كان من أسباب موته.

شعر في صفة الديك

وقال آخر في صفة الديك:

ماذا يؤرِّقني والنومُ يُعجِبُنـي مِن صوتِ ذِي رَعَثاتٍ ساكِنِ الدَّارِ

كَأنَّ حُمَّاضةً في رأسهِ نـبـتَـت من آخر الليل قد همَّت بإثـمـارِ

وقال الطِّرمَّاح:

فيا صبحُ كَمِّش غُبَّرَ اللّيلِ مُصعِداً ببَمّ ونَبِّه ذا العفاءِ الموشَّح

إذا صاحَ لم يُخذَل وَجاوَبَ صَوتَهُ حَماشُ الشَّوَى يَصدَحنَ من كُلِّ مَصدَحِ

حضن الحمام بيض الدجاج قال: والفرُّوج إذا خرج من بيضه عن حضن الحمام، كان أكيسَ له.

بيض الطاوس

وبيضُ الطَّاوس إذا لم تحضنه الأنثى التي باضته خرج الفرخ أقمأ وأصغر.
بيض الدجاج قال: وإذا أهرمَت الدَّجَاجة فليس لأواخر ما تَبيض صُفرة. وقد عايَنوا للبَيضَةَ الواحدة مُحَّتين، خبّرني بذلك جماعة ممَّن يَتَعَرَّف الأمور. وإذا لم يكن للبيضة مُحٌّ لم يُخلق من البيضة فرُّوج ولا فرخ؛ لأنّه ليس له طعام يغذوه ويُربيه. والبيض إذا كان فيه محّتان وكان البياض وافراً - ولا يكون ذلك للمسِنَّات - فإذا كان ذلك خلق الله تعالى من البَياض فرُّوجين، وتربَّى الفرُّوجان، وتمَّ الخلق؛ لأنَّ الفرخ إنَّما يخلق من البَياض، والصفرة غذاء الفروج.

ستطراد لغوي

قال: ويقال قفَط الطائر يقفُط قفطا، وسفِد يسفَد سفاداً وهما واحد. ويكون السِّفاد للكلب والشاة. ويقال قمط الحمام يقمُط قمطا.
ويقال ذَرق الطائر يذرُق ذرقا، وخزَق يخزق خَزقا، ويقال ذلك للإنسان. فإذا اشتقّ له من الحذقة نفسه ومن اسمه الذي هو اسمه قيل خرئ، وهو الخُرءُ والخِراء.
ويقال للحافر راث يرُوث، وللمعز والشاء: بعر يبعُر. ويقال للنَّعام: صام يَصُوم، وللطير نجا ينجو، واسم نجو النَّعام الصَّوم، واسم نجو الطَّير العُرَّة. وقال الطِّرمّاح:

في شَنَاظِي أقنٍ بَينَها عُرَّة الطَّير كَصَوم النَّعام

ويقال للصبي عَقَى، مأخوذ من العِقى.
ويقال لحمت الطير. ويقال ألحم طائِرَك إلحاماً، أي أطعمه لحما واتّخذ له. ويقال هي لُحمة النَّسب. ويقال ألحمت الثَّوب إلحاما، وألحمت الطائِرَ إلحاماً، وهي لحمة الثَّوب، ولحمة، بالفتح والضمِّ.
صفاء عين الديك ومن خصال الدِّيك المحمودةِ قولهم في الشراب: " أصفَى مِن عَينِ الدِّيك " وإذا وصفوا عَين الحمام الفَقيع بالحمرة، أو عينَ الجرادِ قالوا: كأنَّها عينُ الدِّيك. وإذا قالوا: " أصفى من عين الغراب " فإنّما يريدون حِدَّته ونفاذَ البصر.
ما قيل في عين الديك وفي عين الديك يقول الأعشى:

وكأسٍ كعَينِ الدِّيكِ باكَرت حَدَّها   بغرتها إذ غابَ عنها بُغاتُـها

وقال آخر:

وكأس كعين الديك باكرتُ حدها   بفتيانِ صِدق والنّواقِيسَ تُضربُ

وقال آخر:

قدَّمَتهُ على عُقارٍ كَعين الدِّي   ك صفَّى زُلاَلَها الـرَّاوُوقُ

وقال الآخر:

ثلاثة أحوال وشَهراً مُجَـرَّمـا   تضئ كَعينِ العُترُفَان المجاوبِ

والعُترُفان من أسماء الدِّيك، وسماه بالمجاوب كما سمّاه بالعُترُفان.
وصف الماء الصافي وإذا وصفوا المَاءَ والشَّرابَ بالصَّافي قالوا، كأنّه الدَّمع، وكأنَّه ماء قطر، وكأنّه ماء مَفصِلٍ،وكأنّه لعاب الجندب. إلاّ أنّ هذا الشاعر قال:

مطبقة مـلآنة بـابـلـيَّة   كأنّ حُميَّاها عُيُون الجنَادِب

وقال آخر:

ومَا قرقفٌ من أذرعاتٍ كأنَّها   إذا سُكِبَت مِن دَنِّها ماءُ مَفصلِ

المفاصل وماء المفاصل والمفاصل: ماءٌ بين السَّهل والجَبَل. وقال أبو ذؤيب:

مَطافيلَ أبكارٍ حَدِيثٍ نِتاجُهـا   تشَابُ بماءٍ مِثلِ ماءِ المَفَاصِلِ

وقال ابن نجيم: إنَّما عنَوا مفاصل فقَارِ الجمَل؛ لأنّ لكلِّ مَفصِلٍ حُقّا، فيستنقع فيه مَاءٌ لا تجد مَاءً أبداً أصفى ولا أحسن منه وإن رقّ.
ثقوب بصر الكلب وسمعه وقال مَرَّة قطربٌ، وهو محمد بن المستنير النحويُّ: " والله لَفلان أبصرُ من كلب، وأسمعُ من كلب، وأشمُّ مِن كلب " !. فقيل له: أنشدنا في ذلك ما يُشبه قولك. فأنشد قوله:

يا رَبَّة البَيتِ قومي غيرَ صاغرة حُطِّي إليك رحال القوم فالقُرُبـا

في ليلةٍ من جُمـادَى ذاتِ أنـدِيَةٍ   لا يُبصِرُ الكلبُ مِن ظلمَائِها الطُّنُبا

لا يَنبَحُ الكلبُ فيها غيرَ واحدةٍ حتَّى يجرَّ على خَيشُومِهِ الذَّنَبـا

وأنشد هذا البيت في ثُقوب بصره، والشِّعر لمرَّة بن مِحكَان السعديّ. ثمَّ أنشدَ في ثُقوب السّمع:

خَفيّ السُّرَى لا يَسمَعُ الكَلبُ وَطأَهُ أتى دُونَ نَبح الكلبِ والكلبُ دابب

خصال القائد التركي قال أبو الحسن: قال نصر بن سيَّارٍ اللَّيثي: كان عظماءُ التُّركِ يقولون للقائِد العظيم القِيادة: لآ بدَّ أن تكونَ فيه عشرُ خصالٍ من أخلاق الحيوان: سخاء الديك، وتحنُّن الدجاجة، وقلب الأسد، وحملة الخنزير، وروَغان الثعلب، وخَتَل الذئب، وصبر الكلب على الجراحة، وحذَر الغراب، وحِراسة الكُركيِّ، وهداية الحمام.

وقد كتبنا هذا في بابِ ما للدَّجاج والدِّيك؛ لأنَّ صاحبَ هذا الكلامِ قسّم هذه الخصال، فأعطى كلَّ جنسٍ منها خَصلةً واحدة وأعطى جنس الدجَاج خَصلتين.

بعض ما ورد من الحديث والخبر في الديك وعبَّاد بن إبراهي عن عبد الرحمن بن زيد قال: كان مكحولٌ يسافر بالدِّيك. وعنه في هذا الإسناد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " الدِّيكُ صدِيقي، وصديق صديقي، وعدُوٌّ عدوِّ الله، يحفَظ دارَه وأربَعَ دُور من حواليه ".

والمسيب بن شريك عن الأعمش نحسبه عن إبراهيم، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تَذبَحُوا الدِّيك؛ فإنَّ الشَّيطان يُفرَحُ بهِ ".

ريش جناح الطائر

قال: وليس جناح إلاَّ وفيه عشرون ريشةً: فأربعُ قوادم، وأربعُ مناكب، وأربع أباهر، وأربع كلىً، وأربعٌ خَوَافٍ، ويقال: سبعٌ قوادم، وسبعٌ خَوافٍ، وسائره لقب.

والكف والركبة لدى الإنسان وذوات الأربع

قال: وكلُّ شيء من ذوات الأربع فركبتاه في يديه، وركبتا الإنسانِ في رجليه، قال: والإنسان كفُّه في يده، والطائر كفه في رجله.

أسنان الإنسان

قال: وفي الفم ثنِيَّتان ورَبَاعِيتّان ونابان وضاحكان وأربعةُ أرحاءٍ سوى ضِرْس الحُكْم، والنَّواجذ والعوارض سواء، ومثلها أسفل.

التفاؤل بالدجاجة قال صاحب الدِّيك: والدَّجَاجةُ يُتفاءَل بذِكرها، ولذلك لَّما ولد لسعيد بن العاص عَنْبَسَةُ بن سعيد، قال لابنه يحيى: أىّ شيءٍ تَنْحَلُه؟قال: دَجَاجة بفراريجها يريد احتقاره بذلك، إذ كان ابنَ أمَةٍ ولم يكن ابنَ حرّة، فقال سعيد -أو قِيلَ له -: إن صدَقَ الطَّيرُ لَيكونَنَّ أكثرَهُمْ ولداً فهم اليومَ أكثرُهُمْ وَلَداً، وهم بالكوفة

والمدينة.
شعر في الدجاج وقال الشاعر:

غدَوتُ بشَرْبةٍ مِنْ ذات عِرْقِ إبا الدَّهناء من حَلب العصير

وأخرى بالعَقنْقل ثمَّ سِرْنا نرى العُصفورَ أعظمَ مِن بَعير

كأنَّ الدِّيكَ دِيك بني نُمير أميرُ المؤمنين على السَّرير

كأنَّ دَجاجَهُمْ في الدَّار رُقطاً بناتُ الرُّومِ في قُمص الحرير

فبتُّ أرى الكَواكبَ دانيات يَنَلْنَ أنَامِلَ الرَّجُلِ القصير

أدافعهنَّ بالكفين عنِّي وأمسَحُ جَانبَ القمَر المُنير

نطق الدجاج قال: ويوصف بالدُّعاءِ وبالمنطق، قال لَبيد بن ربيعة:

وصدَّهُمْ مَنطِقُ الدَّجاج عن القص د وضَرْبُ النَّاقوس فاجْتُنِبا

وقال:

لَدُنْ أن دعا ديكُ الصباح بسُحْرَةٍ إلى قدر ورد الخامِس المتأوّب

دعابة أعرابي، وقسمته للدجاج قال أبو الحسن: حدَّثني أعرابيٌّ كان ينزل بالبَصْرة قال: قدِم أعرابيٌّ من البادية فأنزلته، وكان عندي دَجَاج كثير، ولي امرأةٌ وابنان وابنتان منها، فقلب لامرأتي: بَادِري واشوي لنا دَجَاجَة وقدِّميها إلينا نتغدَّاها فلمَّا حضر الغداء جلسنا جميعاً أنا وامراتي وابناي وابنتاي والأعرابيّ، قال: فدفعنا إليه الدَّجاجة فقلنا له: اقسمِها بيننا - نريد بذلك أنّ نضحك منه - فقال: لا أحسنُ القِسمة، فإن رضيتم بقسمَتي قسمتُها بينكم، قلنا: فإنَّا نرضَى، فأخذَ رأسَ الدَّجَاجة فقطعه فناولَنيه وقال: الرَّأس للرّأس، وقطعَ الجناحين وقال: الجناحان للابنين، ثمَّ قطع السَّاقين فقال: السَّاقان للابنتين، ثمَّ قطعَ الزمِكَّي وقال: العجُز للعُجُز، وقال: الَّزور للزائر: قال فأخذَ الدَّجَاجة بأسْرها وسَخِر بنا، قال: فلما كان من الغد قلتُ لامرأتي: اشوي لنا خَمْسَ دَجاجَاتٍ، فلما حضر الغداءُ، قلت: اقسم بيننا، قال: إنِّي أظنُّ أنّكم وجَدْتم في أنفسكم قلنا: لا لم نجد في أنفسنا فأقسِم، قال: أقسِمُ شفعاً أو وتراً، قلنا: اقسِم وتراً قالَ: أنت وامرأتك ودَجَاجة ثلاثة، ثمَّ رمى إلينا بدجاجة، ثمَّ قالَ: وابناك ودجاجة ثلاثة، ثمّ رمى إليهما بدجاجة، ثمَّ قال: وابنتاك ودجاجة ثلاثة، ثمّ رمى إليهما بدجاجة، ثمَّ قالَ: أنَا ودجاجتان ثلاَثةٌ، وأخذ دجاجتين وسخِر بنا، قالَ: فرآنا ونحن ننظر إلى دجاجتيه فقال: ما تنظرون لعلّكم

كرهتم قسمَتي الوتر لا يجيء إلاَّ هكذا، فهل لكمْ في قِسمَة الشَّفع؟ قلنا: نعم، فضمَّهنَّ إليه، ثم قال: أنتَ وابناك ودجاجة أربعة، ورمى إلينا بدجَاجَة، ثمَّ قال: والعجوز وابنتاها ودجَاجة أربعة، ورمى إليهنَّ بدجَاجَةٍ، ثمّ قالَ: أنَا وثلاث دَجاجَات أربعة، وضمَّ إليه الثَّلاث، ورفعَ يديه إلى السماء وقال: اللّهم الحمد، أنتَ فهَّمتنيها.
قول صاحب الكلب على كيس الفروج قال صاحب الكلب: أمَّا قولهمْ: من أعظم مَفاخِر الدِّيك والدَّجَاج على سائر الحيوان، إنَّ الفَرُّوج يخرج من البيضة كاسيا يكفِي نفسه، ثمَّ يجمع كيْس الخِلقة وكيْس المعرفة، وذلك كلُّه مع خُروجه من البيضة فقد زعم صاحبُ المنطق أنَّ ولد العنكبوت يأخذُ في النَّسج ساعة يُولد، وعملُ العنكبوتِ عملٌ شاقٌ ولطيفٌ دقيق، لايبلغه الفَرُّوجُ ولا أبو الفَرُّوج على أنّ ما مدَحوا الفرُّوج به من خُروجه من البيضة كاسياً، قد شركه في حاله غيرُ جِنسه، وكذلك ذَوات الأربَع كلها تُلد كواسِيَ كواسب، كولد الشاء، وفِراخ القبج والدُّرَّاج، وفراخ البطِّ الصِّينيِّ في ذلك كلّه لاحقةٌ بالفراريج، وتزيدُ على ذلك أنَّها تزداد حُسناً كلَّما كِبرت، فقد سقط هذا الفخر.
شعر هزليّ في الديك ومن الشّعر الذي قيل في الدِّيك، ممَّا يُكتَب للهزْل وليس للجِدِّ والفائدة، قولُ أبي الشَّمَقْمَق:

هَتَفَتْ أمُّ حُصَـيـنٍ ثمَّ قالت: مَن يَنِـيك
فتحتْ فَرْجاً رَحِيبـاً مِثلَ صَحراء العَتيكْ
فيه وَزٌّ فـيه بَـطٌّ فيه دُرّاجٌ ودِيكْ

حديث صاحب الأهواز عن العرب قال: وممَّا فيه ذِكْرُ الدَجَاج وليس من شِكْل ما بنَينا كلامَنا عليه، ولكنَّهُ يُكتَب لما فيه من العجب، قال: قال الهامَرز، قال صاحب الأهواز: ما رأينا قوماً أعجب من العَرَب أتيتُ الأحنفَ بنَ قيسٍ فكلَّمته في حاجةٍ لي إلى ابن زياد، وكنتُ قد ظلمت في الخَراج، فكلَّمَه فأحسَنَ إليّ وحطّ عنِّي، فأهديْتُ إليه هدايا كثيرةً فغضِب وقال: إنَّا لا نأخُذُ على مَعُونتنا أجراً فلمَّا كنتُ في بعضِ الطريق سقطتْ من ردائي دَجاجةٌ فلحقني رجلٌ منهم فقال: هذهِ سقطتْ من ردائك، فأمرتُ له بدِرْهَمٍ، ثمَّ لحِقني بالأبُلَّة فقال: أنا صاحبُ الدَّجاجة فأمرْتُ لَهُ بدراهم؛ ثمَّ لحقني بالأهواز فقال: أنا صاحب الدَّجاجة فقلت له: إن رأيتَ زادي بعد هذا كلّه قد سقط فلا تُعْلِمني، وهُوَ لك.
جرو البطحاء قال صاحب الكلب: كان يقال لأبي العاصي بن الربيع بن عبد العُزَّى بن عبد شمس، وهو زوج زَينبَ بنتِ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ولأخيه كنانة بن الرَّبيع: جرْوُ البطحاء.
الموريانى أسطورة البازي والديك قال صاحب الديك لصاحب الكلب: وسنضرب لك المثلَ الذي ضَرَبه الموريانيُّ للدِّيك والبازي: وذلك أنَّ خلاَّد بن يزيدَ الأرقط قال: بينما أبو أيُّوب الموريانيُّ جالسٌ في أمْره ونهيه، إذ أتاه رسولُ أبي جعفرٍ فانْتُقِع لونه، وطارت عصافيرُ رأسِه، وأذِن بيومِ بأسه، وذعِر ذعراً نقضَ حُبْوته،

واستطار فؤاده، ثمَّ عاد طلقَ الوجْه، فتعجَّبنا من حالَيه وقلْنا لَهُ: إنَّك لطيفُ الخاصَّة قريبُ المنزلة، فلمَ ذهب بك الذُّعُر واستفرَغك الوَجل؟ فقال: سأضرب لكم مثلاً مِنْ أمثال الناس. زعموا أنَّ البازيَ قالَ للديك: ما في الأرض شيءٌ أقلُّ وفاءً منك قالَ: وكيف؟ قالَ: أخذَكَ أهلكَ بيضةً فحضَنُوك، ثمَّ خرجتَ على أيديهم فأطعمُوكَ عَلَى أكفِّهم، ونشأتَ بينهم، حتَّى إذا كبرتَ صرتَ لا يدنو منك أحدٌ إلاَّ طرتَ هاهنا وهاهنا وضَجِجْتَ وَصِحت، وأُخِذْتُ أنا من الجبال مسنّا فعلّموني وألَّفوني، ثمَّ يخلَّى عَنِّي فآخذُ صيدي في الهواء فأجيءُ بهِ إلى صاحبي، فقال له الدِّيك: إنَّك لو رأيتَ من البُزاة في سَفافيدهم مثلَ ما رأيتُ من الدُّيُوك لكنتَ أنفرَ منِّي ولكنَّكم أنتمْ لو علمتم ما أعلَم، لم تتعجَّبوا من خوُفي، مع ما ترونَ من تمكُّن حالي.

استجادة الخيل والكلاب قال صاحب الكلب: ذكر محمَّد بن سلاَّمٍ عن سعيد بن صَخْر قال: أرسل مسلمَ بن عمرو، ابن عَمٍّ لَهُ إلى الشَّام ومِصر يشتري لَهُ خيلاً، فقال له: لا علم لي بالخيل - وكان صاحبَ قَنْص - قال: ألستَ صاحبَ كلاب؟ قال: بلى، قال فانْظرْ كلَّ شيءٍ تستحسنه في الكلب فاستعمله في الفرَس، فقدِم بخيلٍ لم يكنْ في العرَب مثلُها.

حاجة الديك إلى الدجاجة قال محمَّد بن سلاّم: استأذنَ رجلٌ عَلَى امرأةٍ فقالت له: مَاله من حاجةٍ، قالت الجارية: يريدُ أن يذكر حاجة، قالت: لعلها حاجة الدِّيك إلى الدَّجَاجَة.

هرب الكميت من السجن متنكراً بثياب زوجه محمَّد بن سلاّم عن سَلاّم أبي المنذر قالَ: حبس خالدُ بن عبد اللّه الكميتَ بن زَيْد، وكانت امرأتُه تختلف إليه في ثيابٍ وهَيئة حتَّى عرَفها البوَّابُونَ، فلبسَ يَوْماً ثيابَها وخرج عليهم، فسمَّى في شِعره البوَّابين النَّوابحَ، وسمَّى خالداً المُثْلي:

خرجت خروجَ القِدْح قدح ابنِ مُقْبِلٍ على الرَّغْم من تِلْكَ النَّوابح والمشلي

عليَّ ثِيابُ الغانِياتِ وتحتَها صَريمةُ عَزْمٍ أشْبَهَتْ سَلَّةَ النَّصْل.

فتيا الحسن في استبدال البيض قال: وأخبرنا خَشْرَم قال: سمعتُ فلاناً البقَّالَ يسأل الحسنَ قالَ: إنّ الصبيان يأتُونَني ببيضَتين مكسورتين، يأخذون منِّي صحيحةً واحدة، قال: ليس به بأس أرحام الكلاب محمّد بن سلاّم عن بعض أشياخه قال: قال مُصعَب بن الزُّبير على منبر مسجد البصرة، لبعض بني أبي بكْره: إنما كانت أمُّكم مثلَ الكلبة، ينزُو عليها الأعفر والأسودَ والأبقع، فتؤدي إلى كلِّ كلب شِبْهَه، هذا في هذا الموضع هِجاء، وأصحابُ الكلاب يرون هذا من باب النَّجابة، وأنَّ ذلك من صِحّة طِباع الأرحام، حين لا تختلط النُّطَف فتجيء جوارح الأولاد مختلفة مختلطة.

من وصية عثمان الخياط للشطار وقال صاحب الكلب: في وصّية عثمانَ الخيَّاطِ للشُّطَّار اللُّصوص: إيَّاكم إيّاكم وحبَّ النِّساء وسماعَ ضربِ العود، وشربَ الزَّبيب المطبوخ، وعليكم باتِّخاذ الغِلْمان؛ فإنَّ غلامَك هذا أنفعُ لك من أخيك، وأعونُ لك

مِنْ ابنِ عمّك، وعليكم بنَبيذ التَّمر، وضرب الطُّنْبور، وما كان عليه السلف واجعلوا النّقل باقلاّء، وإن قدَتم على الفُستق، والرَّيحان شاهَسْفرَم، وَان قدرتم على الياسمين، ودَعوا لُبس العمائم وعليكم بالقِناع، والقلَنْسوة كُفْر، والخف شِرك، واجعل لهوَك الحَمَامَ، وهارش الكلابَ وإيَّاك والكباشَ واللّعِب بالصُّقورة والشّوَّاهين، وإيَّاكم والفهودَ، فلما انتهى إلى الديك قال: والدِّيكَ فإنَّ لَهُ صبراً ونجدة، ورَوَغانا وتدبيراً، وإعمالاً للسِّلاح، وهو يبهر بهر الشُّجاع. ثم قال: وعليكم بالنَّرد ودعوا الشِّطْرَنج لأهلها، ولا تلعبوا في النَّرْد إلا بالطويلتين، والودَعُ رأس مالٍ كبير، وأوّل منافعه الحذق باللَّقْف. ثمَّ حدَّثهم بحديث يزيد بن مسعود القيسيّ.

كراهية الكلب الأسود البهيم وقال صاحب الديك: ذكر محمَّد بن سلاَّم عن يحيى بن النضر، عن أبي أميّة عبد الكريم المعلّم قال: كان الحسنُ بن إبراهيم يكرَهُ صيدَ الكلبِ الأسودِ البهيم.

قصيدة ابن أبي كريمة في الكلب والفهد وأنشد صاحبُ الكلب قولَ أحمد بن زياد بن أبي كريمة في صفة صَيْدِ الكلب، قصيدة طويلة أوّلُها:

وغِبَّ غمامٍ مَزَّقتْ عن سمائه	شاميَّةٌ حصَّاءُ جُون السَّحائبِ
مُواجِهِ طلق لم يردّد جَهامَه	تذاوُب أرْواح الصَّبا والجنائب
بعْثتُ وأثوابُ الدُّجى قد تقلَّصَتْ	لغرَّة مشهور من الصبُّح ثاقب
قد لاح ناعِي الليل حتَّى كأنَّه	لسَاري الدُّجَى في الفجر قنديلَ راهب
هاليلَ لا يَثْنيهم عن عزيمة	وإن كان جَمَّ الرشدِ، لوْمَ القرائب
تَجْنِيبِ غضْفٍ كالقِداح لطيفةٍ	مُشرَّطةٍ آذانها بالمخالبِ
تخالُ سِياطاً في صلاها مَنُوطةً	طوال الهوادي كالقداح الشوازب
إذا افترَشَتْ خَبتاً أثارتْ بمتْنِه	عجاجاً وبالكَذَّان نارُ الحَباحِب
يفوتُ خُطاها الطَّرْفَ سبقاً كأنّها	سهامُ مُغال أو رُجومُ الكواكب
طِرادُ الهَوادي لاحَها كلّ شَتْوَةٍ	بطامسة الأرجاءِ مَرْتِ المسارب
تكادُ من الأحراج تنسَلُّ كُلَّما	رأتْ شَبَحاً لولا اعتراضُ المناكب

تسُو ف وثُوفى كلَّ نَشْزٍ وفدفدٍ مرابضَ أبناءِ النّفاق الأرانبِ

كأنّ بها ذعراً، يُطِير قلوبَها أنينُ المكَاكي أو صريرُ الجنادبِ

تديرُ عيوناً رُكّبت في بَراطِلٍ كجمْرِ الغضى خُزْراً ذِرَابُ الأنائب

إذا مَا استُحِثتْ لم يُجِنّ طريدَها لهنَّ ضَراءٌ أو مجاري المَذانب

وإن باصها صَلْتاً مدى الطّرفِ أمسكَتْ عليه بدُون الجُهد سُبلَ المذاهب

تكادُ تَفرَّى الأهبُ عنها إذا انتحت لنبّأة شَخْتِ الجِرْم عاري الرَّواجب

كأنّ غصون الخيزرانِ مُتُونُها إذا هي جَالت في طِرادِ الثّعالب

كواشرُ عن أنيابهنَّ كوالحٌ مُذَلّقة الآذان شوس الحواجب

كأنّ بناتِ القفْرِ حِينَ تفرّقتْ غدَونَ عليها بالمنايا الشّواعبِ

ثم وصف الفهود:

بذلك أبغي الصّيدَ طوراً وتارة بمُخْطَفَةِ الأكْفالِ رُحْبِ التَّرائب

مرققة الأذنابِ نُمْرٍ ظهورُها مخطّطةِ الآمَاق غُلبِ الغَواربِ

مُدَنّرةٍ وُرْقٍ كأنّ عيونها حَواجلُ تستَدْمى متونَ الرّواكب

إذا قلّبتها في الفِجاج حسبتَها سَنَا ضَرَمٍ في ظُلمةِ اللّيل ثاقبِ

مُوَلّعة فطح الجِباهِ عوابسٍ تخالُ على أشداقِها خطَّ كاتبِ

نَواصِب آذان لِطافٍ كأنّها مَداهنَ، للإجْراس من كلِّ جانبِ

ذوات أشافٍ رُكِّبت في أكُفّها نَوَافِذَ في صُمِّ الصُّخور نَواشِبِ

ذِراب بلا ترهيفِ قينٍ كأنّها تعقربُ أصداغ المِلاح الكواعِب

فوارسُ مَالم تلق حَرْباً، ورَجْلَةً إذا آنستْ بالبيد شُهبَ الكتائب

تَرَوٍّ وتَسْكِينٌ يَكُونُ دَرِيئةً لهنَّ بذي الأَسْرابِ في كلِّ لاحِبِ

تضاءَلُ حتّى لا تكادُ تُبِينُها عُيُونٌ لدى الصرَّات غير كواذبِ

حراصٌ يَفوت البرقَ أمكثُ جَريها ضِراءٌ مِبَلاّت بطول التَّجارب

تُوَسِّد أجْيادَ الفَرَائِس أذرعاً مرَمّلة تحكى عناق الحَبائب

سهل بن هارون وديكه قال دِعْبلٌ الشاعر: أقمنا عند سهل بن هارونَ فلم نبرحْ، حتّى كدنَا نموتُ من الجوعِ، فلما اضطررناه قال: ياغلام، ويْلَك غدِّنا قال: فأَتِينا بقصعةٍ فيها مرقٌ فيهِ لحمُ ديك عاسٍ هرم ليس قبلَها ولا بعدَها غيرُها لا تحزُّ فيه السكين، ولا تؤثِّر فيه الأضراس، فاطّلع في القصعة وقلَّب بصرَه فيها، ثمّ أخذ قِطْعة خبزٍ يابس فقلَّب جميع مَافي القصعة حتَّى فقد الرأس من الدِّيك وحده، فبقي مطرِقاً ساعَةً ثمَّ رفع رأسه إلى الغلام فقال: أين الرَّأس؟ فقال: رميتُ به، قال: ولم رميت به؟ قال: لم أظنّك تأكله قال: ولأيِّ شيءٍ ظننتَ أنِّي لا آكلُه؟ فواللّه إنِّي لأمقتُ مَن يرمي برجليهِ فكيف من يرمي برأسه؟ ثم قال لَهُ: لو لم أكرهْ مَا صنَعتَ إلاّ للطِّيَرةِ والفأل، لكَرِهْتُه الرأس رئيسٌ وفيهِ الحواسُّ، ومنه يصدَح الديك، ولولا صوتُه ما أريدَ؛ وفِيهِ فَرقُه الذي يُتبرّك به، وعَينُهُ التي يضرب بها المثل، يقال: شرابٌ كعين الديك، ودِمَاغُه عجيب لوجَع الكلية، ولم أرَ عَظماً قطُّ أهشَّ تحت الأسنانِ من عَظْمِ رأسِهِ، فهَلاّ إذْ ظننتَ أنِّي لا آكلُه، ظننتَ أنّ العِيال يأكُلُونه؟ وإنْ كانَ بلَغَ من نُبْلِك أنّك لا تأكلُه، فإنّ عِنْدَنا من يأكُلُه، أوَ ما علمتَ أنّه خيرٌ من طرَف الجَناح، ومن السَّاق والعنق انظرْ أين هو؟ قال: واللّه ما أدري أينَ رميتُ بهِ قال: لكنِّي أدري أنّك رمَيت بهِ في بطنك، واللّهُ حَسيبك.

الجزء الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة

استنشاط القارئ ببعض الهزل

وإن كنَّا قد أمَلْلناك بالجِدِّ وبالاحتجاجاتِ الصحيحة والمرَوَّجة؛ لتكثُّر الخواطر، وتشحَذَ العقول - فإنّا سننشِّطكَ ببعض البَطالات، وبذكر العلل الظَّريفة، والاحتجاجاتِ الغريبة؛ فربَّ شعرٍ يبلُغُ بفَرْطِ غباوةِ صاحبه من السرور والضحك والاستطراف، ما لا يبلغه حشدُ أحرِّ النوادر، وأجمَع المعاني.
وأنا أستظرِفُ أمرَين استظرافاً شديداً: أحدهما استماعُ حديثِ الأعراب، والأمرُ الآخَر احتجاجُ متنازعَين في الكلام، وهما لا يحسنانِ منه شيئاً؛ فإنَّهما يُثيرانِ من غريبِ الطِّيب ما يُضحِك كلَّ ثكْلانَ وإن تشدَّد، وكلَّ غضبانَ وإن أحرقه لَهيبُ الغضَب، ولو أنَّ ذلك لا يحلّ لكان في باب اللَّهو والضَّحِك والسُّرورِ والبَطالة والتشاغُل، ما يجوز في كلِّ فن.

وسنذكر من هذا الشكل عِللاً، ونُوردُ عليك من احتجاجات الأغبياءِ حُجَجاً، فإنْ كنتَ ممَّن يستعمِل الملالةَ، وتَعْجَل إليه السآمة، كان هذا البابُ تنشيطاً لقلْبك، وجَماماً لقوَّتك، ولنبتدِئ النَّظرَ في باب الحمام وقد ذهب عنك الكَلالُ وحدَثَ النشاط.

وإن كنْتَ صاحبَ علمٍ وجِدٍّ، وكنت ممرَّناً موقَّحاً، وكنتَ إلفَ تفكيرٍ وتنقيرٍ، ودراسةِ كتُب، وحِلفَ تبيُّن، وكان ذلك عادة لك لم يضِرْكَ مكانه من الكِتاب، وتخَطِّيه إلى ما هو أولى بك، ضرورة التنويع في التأليف وعلى أنِّي قد عزمتُ - واللّهُ الموفِّق - أنّي أوشِّح هذا الكتابَ وأفصِّلُ أبوابَه، بنوادِرَ من ضُروبِ الشِّعر، وضروبِ الأحاديث، ليخرج قارئُ هذا الكتاب من باب إلى باب، ومن شكل إلى شكل؛ فإنِّي رأيتُ الأسماعَ تملُّ الأصواتَ المطْرِبَة والأغانيَّ الحسنة والأوتارَ الفَصيحة، إذا طال ذلك عليها، وما ذلك إلاَّ في طريق الراحة، التي إذا طالت أورثت الغفلة.

وإذا كانت الأوائلُ قد سارتْ في صغارِ الكتب هذه السِّيرة، كان هذا التَّدبيرُ لِمَا طالَ وكثُر أصلَحَ، وما غايتنا مِن ذلك كلّه إلاَّ أن تَستَفيدُوا خيراً.
وقال أبو الدَّرداء: إنِّي لأجمُّ نفسي ببَعْض الباطل، كراهةَ أنْ أحمِل عليها من الحق ما يملُّها!.

ادّعاء عبد الله الكرخيِّ الفقه

فمن الاحتجاجات الطيِّبة، ومن العِلل الملهية، ما حدَّثني به ابن المديني قال: تحوَّل أبو عبد اللّه الكرْخيُّ اللّحيانيُّ إلى الحَرْبيَّة فادَّعى أنَّه فقيه، وظنَّ أنَّ ذلك يجوزُ له؛ لمكانِ لحيتهقال: فألقى على باب داره البواريّ، وجلس وجلس إليه بعضُ الجيران، فأتاه رجلٌ فقال: يا أبا عبدِ اللّهِ رجلٌ أدخل إصبَعَه في أنفه فخرَج عليها دمٌ، أيَّ شيءٍ يصنع؟ قال: يحتجم، قال: قعدتَ طبيباً أو قعدتَ فقيهاً؟

جواب أبي عبد الله المروزيّ

وحدَّثني شمعون الطبيب قال: كنت يوما عند ذي اليَمينين طاهرِ بن الحسين فدخل عليه أبو عبد اللّه المروَزيّ فقال طاهر: يا أبا عبدِ اللّه مذّ كمْ دخلتَ العراق؟ قال: منذ عِشرين سنةً، وأنا صائم منذ ثلاثين سنة، قال: يا أبا عبدِ اللّه، سألناك عن مسألةٍ فأجبتَنا عن مسألتين

جواب شيخ كندي

وحدَّثني أبو الجهجاه قال: ادَّعى شيخٌ عندنا أنَّه من كندة، قبلَ أن ينظرَ في شيءٍ من نسبِ كِنْدة، فقلت له يوماً وهو عندي: ممن أنت يا أبا فلان؟ قال: من كندة، قلت: من أيِّهم أنت؟ قال: ليس هذا موضعَ هذا الكلام، عافاك اللّه.

جواب خَتَن أبي بكر بن بريرة

ودخلتُ على خَتَن أبي بكر بن بريرة، وكان شيخاً ينتحل قول الإباضيَّة، فسمعتُه يقول: العجبُ ممن يأخذه النَّومُ وهو لا يزعم أنَّ الاستطاعة مع الفعْل قلت: ما الدليل على ذلك؟ قال: الأشعار الصحيحة، قلت: مثل ماذا؟ قال: مثل قوله:

مَا إنْ يقعْنَ الأرْضَ إلاّ وفقا

ومثل قوله:

يَهوين شتَّى ويقعن وفقا

ومثل قولهم في المثل: وقعَا كعِكْمَيْ عَير.
وكقوله أيضاً:

مِكرّ مِفرٍّ مُقبلٍ مُدْبرٍ معاً　　كَجُلمودِ صَخْر حَطَّه السَّيلُ من علِ

وكقوله:

أكفُّ يدي عن أنْ تمسَّ أكفهم　　إذا نحنُ أهوَينا وحاجتنا مَعَا

ثم أقبل عليَّ فقال: أما في هذا مقنع؟ قلت: بلى، وفي دون هذا!

جواب هشام بن الحكم

وذكر محمَّدُ بنُ سلاَّمٍ عن أبانِ بنِ عثمانَ قال: قال رجلٌ من أهلِ الكوفة لهشامِ ابن الحكم: أتُرَى اللّهَ عزَّ وجلّ في عدْله وفضلِه كلّفنا ما لا نطيقُ ثمَّ يعذِّبُنا؟ قال: قدْ واللّه فعل، وكنَّا لا نستطيع أنْ نتكلَّم به.

سؤال ممرور لأبي يوسف القاضي

وحدَّثني محمّد بن الصباح قال: بينا أبو يوسفَ القاضي يسيرُ بظهْرِ الكوفة - وذلك بعدَ أن كتبَ كتابَ الحِيَل - إذ عرضَ له ممرورٌ عندنا أطيب الخلْق، فقال له: يا أبا يوسف، قد أحسنتَ في كتاب الحيل، وقد بقيتْ عليكَ مسائلُ في الفِطن، فإنْ أذِنت لي سألتك عنها، قال: قد أذنتُ لكَ فسَلْ، قال: أخبرْني عن الحرِ كافرٌ هو أو مؤمن؟ فقال أبو يوسف: دينُ الحر دينُ المرأة ودينُ صاحبةِ الحرِ: إن كانت كافرةً فهو كافر، وإن كانت مؤمنةً فهو مؤمن، قال: ما صنعت شيئاً، قال: فقل أنت إذَنْ؛ إذْ لم ترض بقولي، فقال: الحرُ كافر، قال: وكيف علمت ذلك؟ قال لأنَّ المرأةَ إذا ركعَتْ أو سجَدَتْ استدبر الحرُ القِبلة واستقبلت هي القبلة، ولو كان دينُه دينَ المرأة لصنع كما تصنع، هذه واحدةٌ يا أبا يوسف، قال: صدقت.
قال: فتأذن لي في أخرى؟ قال: نعم، قال: أخبرني عنك إذا أتيتَ صحراءَ فهجمْتَ على بَول وخِراء كيف تعرف أبولُ امرأةٍ هو أم بول رجل؟ قال: واللّه ما أدري قال أجل واللّه ما تدري قال: أفتعرف أنت ذاك؟ قال: نعم، إذا رأيت البول قد سال على الخِراء وبين يديه فهو بولُ امرأة، وخِراء امرأة، وإذا رأيت البولَ بعيداً من الخِراء فهو بول رجل وخِراء رجل، قال: صدقت.
قال: وحكى لي جوابَ مسائلَ فنسيت منها مسألة، فعاودته فإذا هو لا يحفظها.

جواب الحجاج العبسي

وحدَّثني أيُّوب الأعورُ، قال قائل للحجاج العبْسي: ما بال شعر الاسْتِ إذا نبتَ أسرع والتفّ؟ قال: لقربه من السَّماد والماء هطِلٌ عليه .

جواب نوفل عريف الكناسين

وحدَّثني محمَّد بن حسَّان قال: وقفتُ على نوفلٍ عَريفِ الكنَّاسين، وإذا مُوسْوَس قد وقف عليه، وعندَه كلُّ كنَّاس بالكَرْخ، فقال له الموسوَس: ما بال بنتِ وردان تدعُ قعرَ البئر وفيه كُرُّ خِراء وهو لها مُسْلمٌ وعليها موفر، وتجيء تطلب اللُّطاخة التي في است أحدنا وهو قاعدٌ على المَقْعَدة، فتلْزم نفسها الكُلفةَ الغليظة، وتتعرَّض للقتل، وإنَّما هذا الذي في أستاهنا قيراط من ذلك الدرهم، وقد دفعنا إليها الدِّرهم وافياً وافراً، قال: فضحك القوم، فحرَّك نوفلٌ رأسَه ثم قال: أتضحكون؟ قدْ واللّهِ سأل الرجل فأجيبوا وأمَّا أنا فقد - واللّه - فكَّرت فيها منذ ستِّينَ سَنَةً، ولكنَّكم لا

تنظرون في شيءٍ من أمر صناعتكم، لا جَرَمَ أنَّكم لا ترتَفِعُون أبداً قال له الموسوَس: قلْ - يرحمُك اللّه - فأنتَ زعيمُ القوم، فقال نوفل: قد علمنا أنَّ الرُّطب أطْيبُ من التَّمر، والحديثَ أطرف من العتيق، والشيءَ من مَعْدِنِه أطيَب، والفاكهة من أشجارِها أطرف، قال: فغضب شريكَه مسبِّح الكنَّاس ثم قال: واللّه لقد وبَّختنا، وهوَّلتَ علينا، حتى ظنَنَّا أنَّك ستُجيب بجوابٍ لا يحسنُه أحد، ما الأمرُ عندَنَا وعند أصحابنا هكذا، قال: فقال لنا الموسوس: ما الجواب عافاكم اللّه، فإنِّي ما نمتُ البارحةَ من الفِكرَة في هذه المسألة؟ قال مسبِّح: لو أنَّ لرجلٍ ألفَ جاريةٍ حسناء ثم عتَقْنَ عندَه لبردَت شهوتُه عنهنَّ وفترت، ثمَّ إن رأى واحدةً دون أخسِّهن في الحسْن صبا إليها وماتَ من شهوتها، فبنت وردانَ تستظرف تلك اللطاخة وقد ملَّت الأولى؛ وبعضُ الناسِ الفطيرُ أحبُّ إليهم من الخمير، وأيضاً إنّ الكثيرَ يمنَع الشَّهوة، ويورث الصُّدود، قال: فقال الموسوس - واستحسَنَ جوابَ مسبِّح، بعد أن كان لا يرى جواباً إلاّ جواب نوفل -: لا تعرفُ مِقدارَ العالمِ حتَّى تجلسَ إلى غيره أنتم أعلم أهل هذه المدَرة، ولقد سألتُ علماءَها عنهُ منذُ عشرينَ سنةً فما تخلّصَ أحدٌ منهم إلى مثلِ ما تخلّصتم إليه، وقدْ واللّه - أنَمْتم عيني، وطابَ بكم عيشي وقد علمنا أنّ كلّ شيءٍ يُستَلبُ استلاباً أنَّه ألذ وأطيب، ولذلك صارَ الدَّبيبُ إلى الغِلمان ونيكهم على جهة القهر ألذ وأطيب، وكلُّ شيءٍ يصيبهُ الرَّجل فهو أعزُّ عليه من المال الذي يرثه أو يوهب له.

علة الحجاج بن يوسف قال: وحدَّثني أبانُ بن عثمانَ قال: قال الحجَّاجُ بنَ يوسفَ: واللّهِ لَطاعتي أوجَبُ مِنْ طاعةِ اللّه؛ لأنَّ اللّه تعالى يقول: "فاتَّقُوا اللّه مَا استَطَعْتُم" فجَعَلَ فيهَا مَثنَويَّةً؛ وقال: "وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا" ولم يَجْعَلْ فيها مثنَويَّة ولو قلتُ لرجل: ادخل مِن هذا الباب، فلم يدخل، لَحَلَّ لي دمُه .

احتجاج مدني وكوفي

قال: وأخبرني محمَّد بن سليمانَ بنِ عبد اللّه النوفليُّ قال: قال رجلٌ من أهل الكوفة لرجل من أهل المدينة: نحن أشدُّ حبّاً لِرَسولِ اللّه - صلى اللّه عليه وسلم وعلى آلِه - مِنْكُم يا أهلَ المدينة فقال المدنيّ: فما بَلَغَ مِنْ حُبِّكَ لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وعلى آله؟ قال: ودِدت أنِّي وَقَيتُ رسولَ اللّه صلى اللّه عليه وسلم - وأنَّه لم يكنْ وصَلَ إليه يومَ أُحُدٍ، ولا في غيره من الأيَّام شيءٌ من المكروه يكرهه إلا كان بي دونَه فقال المدنيُّ: أفَعِنْدَكَ غيرُ هذا؟ قال: وما يكون غيرُ هذا؟ قال: ودِدْتُ أنَّ أبا طالبٍ كانَ آمَنَ فسُرَّ به النبيُّ صلى اللّه عليه وسلم وأنِّي كافر

جواب رجل من وجوه أهل الشام

وحدَّثني أبانُ بنُ عثمان قال: قال ابنُ أبي ليلى: إنّي لأُسَايرُ رجلاً من وُجوهِ أهل الشّاَم، إذْ مرَّ بحمَّالٍ معَه رُمَّان، فتناولَ منه رُمَّانَةً فجعَلها في كُمِّه، فَعَجِبْتُ من ذلك، ثمَّ رجعت إلى نفسي وكذَّبت بصري، حتَّى مرَّ بسائِلٍ فقير، فأخرجها فناوَله إيَّاها، قال: فعلمتُ أنِّي رأيتُها فقلتُ له: رأيتُك قد فعلتَ عجباً، قال: وما هو؟ قلت: رأيتُك أخذْتَ رُمَّانَةً مِنْ حَمَّال وأعطيتها سائلاً؟ قال: وإنَّك ممَّن يقول هذا القولَ؟

أما علِمتَ أنِّي أخَذْتُها وكانت سيِّئَةً وأعطيتها فكانت عشْرَ حَسَنَاتٍ؟ قال: فقال ابن أبي ليلى: أمَا علِمتَ أنكَ أخذْتَها فكانتْ سيِّئةً وأعطيتَها فلم تُقْبَلَ منك؟ جهل الأعراب بالنحو

وقال الربيع: قلت لأعرابيٍّ: أتَهْمِزُ إسرائيل؟ قال: إنِّي إذاً لَرَجُلُ سَوْء؟ قلت: أتجُرُّ فِلَسطين؟ قال: إنِّي إذاً لَقويّ.

احتجاج رجل من أهل الجاهلية

قال: وحدَّثنا حمَّادُ بنُ سلَمَة قال: كان رجلٌ في الجاهليَّة معَه مِحْجَنٌ يتناوَلُ به مَتاعَ الحاجِّ سَرِقة، فإذا قيل له: سرقت قال: لمْ أسرِق، إنَّما سَرَق مِحْجني قال: فقال حماد: لو كانَ هذا اليومَ حَيّاً لكانَ من أصحاب أبي حَنيف.

الأعمش وجليسه

قال: وحدّثني محمَّد بن القاسم قال: قال الأعمشُ لجليسٍ له: أما تَشتَهي بنانيَّ زُرْقَ العُيونِ نَقِيَّة البطونِ، سُودَ الظُّهور، وأرغفةً حارَّةً ليِّنة، وخَلاًّ حاذقاً؟ قال: بلى قال: فانهض بنا، قال الرَّجل: فنَهضْتُ مَعه ودخل منزلَه، قل: فأومأَ إلَيّ: أنْ خُذْ تِلك السَّلَّة، قال: فكشَفَها فإذا برغيفين يابسين وسُكُرَّجة كامَخ شِبثٍ، قال: فجعل يأكل، قال: فقال لي تَعال كُلْ، فقلت: وأينَ السمك؟ قال: ما عندي، سمك، إنما قلت لك: تشتهي.

رأيٌ حفص بن غياث في فقه أبي حنيفة

قال: وسُئل حفْصُ بن غِياث عن فِقه أبي حنيفة، قال: كانَ أجهَلَ النَّاسِ بما يكون، وأعرفَهم بما لا يكون.

علة خشنام بن هند

وأما علة خُشْنَامَ بن هند، فإنَّ خشنام بن هِندٍ كان شيخاً من الغاليةِ، وكان ممَّن إذا أراد أنْ يسمِّيَ أبا بكر وعُمرَ قال: الجبْتُ والطَّاغوت، ومُنْكر ونكير، وأُفٌّ وتُفٌّ، وكُسَير وعُوَير، وكان لا يَزال يُدخِل دارَه حمارَ كسَّاح ويضربه مائَةَ عصاً على أنَّ أبا بكر وعمرَ في جوفه، ولم أر قطُّ أشدَّ احترافاً منه، وكان مع ذلك نبيذِيّاً وصاحبَ حمَام، ويُشبه في القدِّ والخَرْط شُيوخَ الحربيَّة، وكان من بني غُبَر من صميمهم، وكان له بُنَيٌّ يتبعه، فكان يزنِّي أمَّه عند كلِّ حقٍّ وباطل، وعِنْدَ كلِّ جِدٍّ وهَزْل، قلت له يوماً - ونحن عند بني رِبْعِيّ: ويْحَكَ، بأيِّ شيءٍ تستحلُّ أنْ تقذِفَ أمَّه بالزِّنَا؟ فقال: لو كانَ عليَّ في ذلك حَرَجٌ لما قذفْتَها: فلِمَ تزوَّجتَ امرأةً ليس في قذْفِها حرج؟ قال: إنِّي قد احتَلتُ حِيلةً حتَّى حلَّ لي من أجلها ما كان يحرم، قلت: وما تلك الحيلة؟ قال: أنا رجلٌ حديدٌ، وهذا غلامٌ عارِم، وقد كنت طلَّقت أمَّه فكنتُ إذا افتريتُ عليها أثمت، فقلت في نفسي إن أرَغتها وخدَعتُها حتَّى أنيكَها مَرَّةً واحدةً حلّ لي بعدَ ذلك افترائي عليها، بل لا يكونُ قولي حينئذٍ فِرْية، وعلِمتُ أنَّ زَنْيَةً واحدةً لا

تَعدِل عشرة آلافِ فِرْية، فأنا اليَوْمَ أصدُقُ ولستُ أكْذِب، والصَّادِقُ مأجور، إني واللّهِ ما أشكُّ أنَّ اللّهَ إذا علم أنِّي لم أزْنِ بها تلك المرَّة إلاَّ مِن خوف الإثم إذا قذفتها - أنَّهُ سيجعَلُ تلك الزَّنية له طاعة فقلت: أنتَ الآن على يقين أنّ زناكَ طاعةٌ للّه تعالى؟ قال: نعم.

حجة الشيخ الإباضي في كراهية الشيعة

قال الشَّيخُ الإباضي وقد ذهب عني اسمُه وكنيتُه وهو خَتن أبي بكر بن بَريرة - وجرى يوماً شيءٌ من ذِكر التشيُّع والشِّيعة، فأنكر ذلك واشتدَّ غضبُه عليهم، فتوهَّمْتُ أنَّ ذلك إنَّما اعتراه للإباضيّة التي فيه، وقلت: وما عليَّ إن سألته؟ فإنَّه يُقال: إنَّ السائل لا يعْدمُه أنْ يسمعَ في الجواب حُجَّةً أو حِيلةً أو مُلحة - فقلتُ: وما أنكَرت من التشيُّع ومن ذكر الشِّيعة؟ قال: أنكرتُ منه مكان الشِّين التي في أوّل الكلمة؛ لأني لم أجد الشِّين في أوَّل كلمةٍ قطُّ إلاَّ وهي مسخوطة مثل: شؤم، وشرٍّ، وشيطان، وشغب، وشحّ، وشمال، وشجَن، وشيب، وشين، وشراسة، وشَنَج، وشَكّ، وشوكة، وَشَبَث، وشرك، وشارب، وشطير، وشطور، وشِعرة، وشاني، وشتْم، وشتيم، وشِيطرْج، وشنعة، وشَناعة، وشأمة، وشوصة، وشتر وشجوب وشَجَّة، وشطون، وشاطن، وشنّ، وشلَل، وشِيص، وشاطر، وشاطرة، وشاحب. قلت له: ما سمعتُ متكلّماً قطُّ يقول هذا ولا يبلُغه، ولا يقومُ لهؤلاء القوم قائمةٌ بعد هذا.

حيلة أبي كعب القاص

قال: وتعشَّى أبو كعبٍ القاصُّ بطفشيل كثير اللّوبيا، وأكثر مِنه، وشرِب نبيذَ تمر، وغلَّس إلى بعض المساجد ليقصَّ على أهله، إذ انفتل الإمامُ من الصلاة فصادف زحاماً كثيراً، ومسْجِداً مَستوراً بالبَواريِّ من البَرْدِ والرِّيح والمَطر، وإذا محرابٌ غائرٌ في الحائط، وإذا الإمامُ شيخٌ ضعيف؛ فلمَّا صلّى استدْبرَ المحرابَ وجلسَ في زاويَة منه يسبِّح، وقام أبو كعبٍ فجَعل ظهْرَه إلى وجه الإمام وَوجهه إلى وُجوه القوم، وطبَّق وجه المحراب بجِسمه وَفَروته وعمامته وكسائه، وَلم يكن بين فقحته وَبين أنف الإمامِ كبيرُ شيء، وَقصّ وتحرَّك بطنُه، فأَرَاد أنْ يتفرَّج بفسوةٍ وَخاف أنْ تصير ضراطاً، فقال في قصصه: قولوا جميعاً: لا إله إلاّ اللّه وارفعوا بها أصواتكم، وفسا فَسوةً في المحراب فدارت فيه وَجَثَمت على أنف الشيخ وَاحتملها، ثمَّ كدَّه بطنُه فاحتاج إلى أخرى فقال: قولوا: لا إله إلاَّ اللّه وَارفعوا بها أصواتكم، فأرسل فَسوةً أخرى فلم تُخْطِئْ أنْفَ الشيخ، واختَنقتْ في المحراب، فخمَّر الشَّيخُ أنفَه، فصار لا يدري ما يصنع، إنْ هو تنفَّس قتلَتْه الرائحة، وإنْ هو لم يتنفَّس مات كَرْباً، فما زَالَ يُداري ذلك، وأبو كعب يقصُّ، فلم يلبَثْ أبو كعبٍ أن احتاجَ إلى أخرى، وكلما طالَ لُبْثُه تولَّد في بَطْنِهِ من النَّفخ على حَسَب ذلك، فقال: قولوا جميعاً: لا إله إلا اللّه وارفعوا بها أصواتكم، فقال الشيخ مِنَ المحراب - وأطْلَعَ رأسَه وقال -: لا تقولوا لا تقولوا قد قتلني إنَّما يريد أن يفسوَ ثم جذب إليه ثوبَ أبي كعبٍ وقال: جئت إلى ها هنا لتفسوَ أو تقصّ؟ فقال: جئنا لنقص، فإذا

نزلت بليَّةٌ فلا بدَّ لنا ولكم من الصَّبر فضحك الناسُ، واختَلَط المجلس.
جواب أبي كعب القاصّ وأبو كعبٍ هذا هو الذي كان يقصُّ في مسجد عتَّابٍ كلَّ أربعا فاحتَبسَ عليهم في بعض الأيام وطال انتظارُهم له، فبينما هُمْ كذلك إذ جاء رسوله فقال: يقول لكم أبو كعب: انصرفوا؛ فإنِّي قد أصبحْت اليوم مخموراً علة عبد العزيز وأمّا علة عبدِ العزيز بشكست فإنَّ عبدَ العزيز كان له مالٌ، وكان إذا جاءَ وقتُ الزَّكاة وجاء القوّادُ بغلامٍ مؤاجَر، قال: يا غلام ألك أمٌّ؟ ألك خالات؟ فيقول الغلام: نعم، فيقول: خُذْ هذه العشرة الدراهم - أو خُذْ هذه الدَّنانير - مِن زكاةِ مالي، فادفَعْها إليهنَّ، وإنْ شئتَ أن تُبْركني بعد ذلك على جهة المكارمة، فافعل، وإنْ شئتَ أنْ تنْصَرف فانصرف، فيقول ذلك وهو واثقٌ أنَّ الغُلامَ لا يمنَعُه بعد أخْذ الدراهم، وهو يعلم أنه لن يبلغ مِن صلاح طباع المؤاجَرين أن يؤدُّوا الأمانات، فعَبر بذلك ثلاثين سنة وليس له زكاةٌ إلاّ عند أمَّهات المؤاجَرين وأخَوَاتهم وخالاتهم.

احتجاج كوفي للتسمية بمحمد

وحدثني محمَّد بن عبَّاد بن كاسب قال: قال لي الفضل بن مروان شيخ من طِيَاب الكوفيِّين وأغْبيائهم: إنْ وُلِدَ لك مائَةُ ذكرٍ فسمهم كلَّهم محمداً، وكنِّهم بمحمد؛ فإنّك سترى فيهم البركة، أوَ تَدْري لأيِّ شيءٍ كثر مالي؟ قلت: لا واللّه ما أدري، قال: إنَّما كثر مالي لأنِّي سمَّيتُ نَفْسي فيما بيني وبَيْنَ اللّهِ محمداً وإذا كان اسمي عندَ اللّه محمداً فما أبالي ما قال الناس

جواب أحمد بن رباح الجوهري

وشبه هذا الحديث قول المرْوَزي: قلت: لأحمد بن رياح الجوهري اشتريتَ كساءً أبيضَ طبَريّاً بأربعمِائَةِ درهم، وهو عند الناس - فيما ترى عيونهم قُومَسيّ يساوي مائَةَ درهَمٍ قال: علم اللّه أنَّه طبريٌّ فما عليَّ ممَّا قال الناس؟

جواب حارس يكنى أبا خزيمة

وكان عندنا حارسٌ يكنى أبا خُزيمة، فقلت يوماً - وقد خطر على بالي -: كيفَ اكتنَى هذا العِلْجُ الألْكَنُ بأبي خزيمة؟ ثمّ رأيتُه فقلت له: خبِّرني عنك، أكان أبوك يسمَّى خزيمةَ؟ قال: لا، قلت: فجدُّك أو عمك أو خالك؟ قال: لا، قلت: فلك ابنُ يسمَّى خزيمةَ؟ قال: لا، قلت: فكان لك مولًى يسمى خزيمة؟ قال: لا، قلت: فكان في قريتك رجلٌ صالح أو فقيهٌ يسمى خزيمة؟ قال: لا، قلت: فلم اكتنيت بأبي خزيمة، وأنتَ عِلجٌ ألْكَن، وأنتَ فقيرٌ، وأنت حارس؟ قال: هكذا اشتهيت، قلت: فلأيِ شيءٍ اشتَهيتَ هذه الكنيةَ من بينِ جميع الكنى؟ قال: ما يُدريني، قلتُ: فتَبيعُها السَّاعَةَ بدينارٍ، وتَسكتَنيَ بأيِّ كنيةٍ شئت؟ قال: لا وَ اللّه، ولا بالدُّنْيا وما فيها

جواب الزياديِّ

وحدثني مَسْعَدةُ بن طارق، قلت للزيادِيِّ - ومررتُ به وهو جالسٌ في يوم غِمق حارٍّ ومِدٍ، على باب داره في شروع نهر الجُوبار بأردية، وإذا ذلك البحر يبخر في أنفه - قال فقلت له بعتَ دارك وحظَّكَ مِن دارِ جدِّك زيادِ بن أبي سفيان، وتركتَ مجلِسَك في ساباط غَيث، وإشرافك على رَحبة بني هاشم، ومجلسَك في الأبواب التي تلي رَحبة بني سليم، وجلستَ على هذا النَّهر في مثل هذا اليوم، ورضِيت بهِ جاراً؟ قال، نلتُ أطولَ آمالي في قرب هولاء البَزّازين، قلت له لو كنت بقُرْبِ المقابر فقلت نزلت هذا الموضع للاتِّعاظ به والاعتبار كان ذلك وجهاً، ولو كنتَ بقُرْب الحدَّادين فقلت لأتَذَكَّرَ بهذه النِّيران والكِيران نار جهنَّم، كان ذلك قولاً، ولو كنت اشتريت داراً بقرب العطَّارين فاعتَلَلت بطلَبِ رائحةِ الطِّيب كان ذلك وجهاً فأمّاَ قُرْبُ البَزَّازين فقط فهذا ما لا أعرفه، أفلَكَ فيهم دارُ غَلَّةٍ، أو هلْ لك عليهم دُيُونٌ حالَّةٌ، أو هلْ لك فيهم أو عِندَهم غِلمانٌ يؤدُّون الضَّريبة، أو هلْ لك معَهم شِرْكة مُضارَبةٍ؟ قال: لا، قلت: فما ترجو إذاً من قربهم فلم يكن عنده إلاّ: نلت آمالي بقُرب البزَازين.

حكاية ثمامة عن ممرور وحدثني ثمامة بن أشْرس قال: كان رجلٌ ممرور يقوم كلَّ يوم فيأتي دالِيةً لقوم، ولا يزالُ يَمْشي مع رجال الدالية على ذلك الجذع ذاهباً وجائياً، في شدَّة الحرِّ والبرد، حتَّى إذا أمسى نزل إليهم وتوضَّأ وصلَّى، وقال: اللّهُمَّ اجعلْ لنا مِنْ هذا فَرجاً ومَخْرجاً ثمَّ انصرف إلى بيته، فكان كذلك حتّى مات.

بين أعمى وقائده وحدَّثني المكّيّ قال: كان رجلٌ يقود أعْمَى بكراء، وكان الأعمى ربَّما عَثرَ العَثْرَة ونُكِب النّكبة، فيقول: اللّهمَّ أبْدِل لي به قائداً خيراً منه قال: فقال القائد: اللّهُمَّ أبْدِلْ لي بهِ أعَمى خيراً لي منه، حماقة ممرور وحدثني يزيدُ مولى إسحاقَ بن عيسى قال كُنّا في منزل صاحب لنا، إذْ خرج واحدٌ من جماعتنا ليَقِيلَ في البيت الآخر، فلم يلبث إلاّ ساعةً حتى سمِعناه يصيح: أوْهِ أوه قال: فنهَضْنا بأجمعنا إليه فَزعين، فقلنا له: ما لك؟ وإذا هو نائم على شقِّهِ الأيسر، وهو قابضٌ على خصيته بيده فقلت له: لم صحت؟ قال: إذا غمزت خُصْيتي اشتكيتها، وإذا اشتكيتُها صحت، قال: فقلنا له: لا تَغْمِزْها بعدُ حتى لا تشتكي قال: نعم إن شاء اللّه تعالى.

حماقة مولاة عيسى بن علي قال يزيد: وكانت لعيسى بن عليٍّ مَولاةٌ عجوزٌ خُرَاسانيةٌ تصرُخ بالليل من ضَرَبان ضرس لها، فكانت قد أرَّقت الأميرَ إسحاق، فقلت له: إنّها مع ذلك لا تَدَع أكْلَ التمر قال: فبعث إليها بالغداة فقال لها: أتأكلين التَّمر بالنَّهار وتَصِيحينَ باللَّيل؟ فقالت: إذا اشتهيتُ أكلت وإذا أوجَعني صِحت.

حكاية ثمامة عن ممرور وحدثني ثمامةُ قال: مَررتُ في غبّ مطرٍ والأرضُ نَدِيَّة، والسَّماءُ متغيِّمة، والرِّيح شَمالٌ، وإذا شَيخٌ أصْفَرُ كأنَّه جَرَادَة، قدْ جلسَ على قارعة الطَّريق، وحَجّامٌ زنجيٌّ يَحْجُمُهُ، وقد وضع على كاهِله وأخْدَعَيْه مَحاجِم، كل مِحْجَمةٍ كأنَّها قَعْب، وقدْ مَصَّ دَمَهُ حتَّى كادَ أنْ يَستَفْرِغه، قال: فوقفتُ عليه فقلت: يا شيخُ لِمَ تَحْتَجِم في هذا البرد؟ قال لمكانِ هذا الصُّفار الذي بي.

صنيع ممرور وحدثني ثمامة قال: حدَّثني سعيد بن مسلم قال: كُنا بخُراسانَ في منزل بعض الدَّهاقين ونحن شَبابٌ، وفينا شيخ، قال: فأتَانا رَبُّ المنزل بدُهن طيبٍ

فدَهَنَ بعضُنا رأسَه، وبعضنا لحيته، وبعضُنا مَسَح شاربه، وبعضُنا مَسَح يديه وأمَرَّهُما على وجهه، وبعضُنا أخَذَ بطرَف إصبعه فأدخَلَ في أنفه ومَسَح به شاربَه، فعَمَد الشيخُ إلى بقيَّةِ الدُّهن فصبَّها في أذنه، فقلنا له: ويحك، خالفت أصحابكَ كُلَّهُم هل رأيْتَ أحداً إذا أتَوْهُ بدُهن طِيبٍ صبَّه في أذنه؟ قال: فإنّه مع هذا يضرُّني؟ أمْر عيصٍ، سيّد بني تميم وحدَّثني مَسْعَدَةُ بنُ طارقٍ الذَّرَّاع قال: واللّهِ إنَّا لَوُقُوفٌ على حدودِ دار فلان للقِسمة، ونحنُ في خصومةٍ، إذ أقبَل عِيصٌ سيِّدُ بني تميمٍ وموسرهم والذي يصلِّي على جنائزهم، فلمَّا رأيناهُ مقبلاً إلينا أمسَكْنا عن الكلام، فأقبل علينا فقال: حدِّثوني عن هذه الدَّار، هَلْ ضمَّ منها بعضها إلى بعض أحد؟ قال مسعدة: فأنا مُنْذُ ستين سنة أفكِّرُ في كلامه ما أدري ما عَنَى به، قال: وقال لي مرّة: ما من شر من ذين قلت: ولم ذاك؟ قال: من جرا يتعلقون.

وحدّثني الخليلُ بنُ يحيى السَّلُوليُّ قال: نازَع التميميُّ بعضَ بني عمِّه في حائطٍ، فبَعَث إلينا لنَشهد على شَهادتِه، فأتاه جماعةٌ منهم الحميريُّ والزهريُّ، والزِّياديُّ، والبكراوي، فلمّا صِرْنا إليه وقف بنا على الحائط وقال: أُشْهِدُكم جميعاً أنَّ نِصفَ هذا الحائط لي.

جواب ممرور قال: وقدِم ابنُ عمٍّ له إلى عمر بن حبيب، وادَّعَى عليه ألفَ دِرهم فقال ابنُ عمِّه: ما أعرفُ ممَّا قالَ قليلاً ولا كثيراً، ولا له عليّ شيء قال: أصلحك اللّه تعالى فاكتُبْ بإنكاره، قال: فقال عمر: الإنكار لا يفوتك، متى أردْتَه فهو بَينَ يديك.

أمنية أبي عتاب الجرَّار

قال: وقلت لأبي عتّاب الجرَّار: ألا تَرَى عبدَ العزيزِ الغَزَّال وما يتكلم به في قصَصه؟ قال: وأيُّ شيء قاله؟ قلت: قال: ليت اللّه تعالى لم يَكُن خلقني وأنا السَّاعة أعور قالَ أبو عتّاب: وقد قصَّرَ في القول، وأساءَ في التمني، ولكنِّي أقول: ليتَ اللّه تعالى لم يكُنْ خلقني وأنا الساعة أعمى مقطُوعُ اليدين والرجلين.

تعزية طريفة لأبي عتَّاب الجرار

ودخل أبو عتّاب على عمرو بن هدَّاب وقد كُفَّ بَصَرُه، والناس يُعزُّونَه، فمثَلَ بينَ يديه، وكان كالجمل المحجُوم، وله صوتٌ جهير، فقال: يا أبا أسيد، لا يسوءنَّك ذهابُهما، فلو رأيت ثوابَهما في مِيزانِك تمنّيتَ أنّ اللّه تعالى قد قطَع يديك ورجليك، ودَقَّ ظَهْرَك، وأدْمى ضِلَعَكَ.

داود بن المعتمر وبعض النساء

وبينما داودُ بن المعْتَمر الصُّبَيريّ جالسٌ معي، إذ مرت به امرأةٌ جميلة لها قوَامٌ وحُسْن، وعينان عجيبتان، وعليها ثيابٌ بيض، فنهَضَ داودُ فلم أشُكّ أنّه قام ليَتْبَعها، فبعثتُ غلامي ليَعرف ذلك، فلمّا رجع قلت له: قد علمت أنّك إنما قُمتَ لتكلِّمها؛ فليس ينفعُكَ إلا الصِّدق، ولا ينْجِيك منِّي الجُحود، وإنما غايتي أنْ أعرف كيفَ ابتَدأتَ القول، وأي شيءٍ قلتَ لها ـ وعلمت أنَّه سيأتي بآبدة، وكان مليّاً

بالأوابد - قال: ابتدأتُ القول بأنْ قلتُ لها: لولا ما رأيتُ عليكِ من سيماء الخَيْر لمْ أتبَعْك، قال: فضَحِكتْ حتى استنَدَتْ إلى الحائط، ثمَّ قالت: إنما يمنع مِثْلَكَ مِن اتِّباع مِثلي والطَّمَع فيها، ما يَرَى من سِيماء الخير فأمَّا إذْ قد صار سيماءُ الخير هو الدي يُطمِعُ في النساء فإنا للّهِ وإنا إليه راجعون.
وتبع داودُ بنُ المعتمر امرأة، فلم يزلْ يُطريها حتى أجابت، ودَلَّها على المنزل الذي يمكنها فيه ما يريد، فتقدمت الفاجرة وعرض له رجلٌ فشغَلَهُ، وجاء إلى المنزل وقد قضى القوْمُ حوائِجهُمْ وأخَذَتْ حاجتها، فلم تنتظره، فلما أتاهُمْ ولم يَرَها قالَ: أين هي؟ قالوا: واللّه قد فَرَغْنا وذَهَبَت قال: فأيَّ طريقٍ أخَذَتْ؟ قالوا: لا واللّه ما ندري؟ قال فإنْ عَدَوْتُ في إثرها حتَّى أقُومَ على مجامع الطُرق أتُرَوْني ألحقها؟ قالوا: لا واللّهِ ما تَلحقها قال: فقد فاتَتِ الآن؟ قالوا: نعم، قال: فعسى أن يكون خيراً فلم أسمَعْ قطُّ بإنسانٍ يشكُّ أنَّ السَّلامة من الذنوب خير غيره. قول أبي لقمان الممرور في الجزء الذي لا يتجزّأ

وسأل بعضُ أصحابنا أبا لُقمان الممرور عن الجزء الذي لا يتجزَّأ: ما هو؟ قال: الجزء الذي لا يتجزأ هو عليُّ بن أبي طالب عليه السلام، فقال له أبو العيناء محمد: أفَليس في الأرض جزءٌ لا يتجزأ غيرُه؟ قال: بلى حَمزةُ جزءٌ لا يتجزأ، وجَعَفرٌ جزء لا يتجزأ قال فما تقول في العباس؟ قال: جزء لا يتجزأ، قال: فما تقول في أبي بكر وعمر؟ قال: أبو بكر يتجزأ، وعمر يتجزأ، قال: فما تقول في عثمان؟ قال: يتجزَّأ مَرَّتين، والزُّبير يتجزَّأ مرَّتين، قال: فأيَّ شيءٍ تقولُ في معاوية؟ قال: لا يتجزأ ولا لا يتجزأ.
فقد فكرنا في تأويل أبي لقمان حين جعل الإمام جزْءاً لا يتجزأ إلى أيِّ شيءٍ ذهب، فلم نقع عليه إلاّ أن يكون كان أبو لقمان إذا سمع المتكلِّمين يذكرون الجُزْءَ الذي لا يتجزَّأ، هاله ذلك وكبُر في صدره، وتوهَّمَ أنَّه البابُ الأكبرُ مِن عِلم الفلسفة، وأن الشيءَ إذا عظُم خَطَرُه سموه بالجزء الذي لا يتجزأ.
وقد تسخَّفْنا في هذه الأحاديث، واستجزْنا ذلك بما تقدَّم من العُذر، وسنَذْكر قبْلَ ذِكرنا القول في الحمام جملاً من غُرَرٍ ونَوَادِرَ وأشْعَارٍ ونُتفٍ وفقرٍ مِن قصائِدَ قصار وشواردَ وأبياتٍ، لنُعطِيَ قارئَ الكِتاب من كلِّ نوع تَذْهَبُ إليه النُّفوسُ نصيباً إن شاء اللّه.

تناسب الألفاظ مع الأغراض

ولكلِّ ضربٍ من الحديث ضَرْبٌ من اللفظ، ولكلِّ نوعٍ مِن المعاني نوعٌ من الأسماء: فالسَّخيفُ للسخيف، والخَفِيفُ للخفيف، والجَزْلُ للجَزْل، والإفصاحُ في مَوضع الإفصاح، والكِناية في موضع الكناية، والاسترسال في موضع الاسترسال.
وإذا كان مَوْضِعُ الحديثِ على أنَّهُ مُضْحِكٌ ومُلْهٍ، وداخِلٌ في باب المزَاح والطِّيب، فاستعْمَلتَ فيه الإعراب، انقلَبَ عن جِهَتِه، وإنْ كان في لفظه سُخْف وأبْدَلْتَ السَّخافة بالجَزالة، صارَ الحديثُ الذي وَضِع على أنْ يُسرَّ النُّفوسَ يُكْرُ بها، ويَأْخُذُ بأكظامها.

الورع الزائف

وبعض الناس إذا انتهى إلى ذِكرِ الحِرِ والأير والنيك ارتَدَع وأظهر التقزُّز، واستَعْمَلَ بابَ التَّوَرُّع، وأكثرُ مَنْ تجده كذلك فإنَّما هو رجلٌ ليس مَعَه من العَفافِ والكَرَم، والنُّبْل والوَقار، إلاَّ بقدْرِ هذا الشَّكل من التَّصنع، ولم يُكْشَفْ قطُّ صاحِبُ رياءٍ ونِفاقٍ، إلاَّ عن لؤمِ مُسْتَعْمَل، ونذالةٍ متمكِّنة.

تسمُّح بعض الأئمة في ذكر ألفاظ

وقد كان لهم في عبدِ اللّه بن عباسٍ مَقْنَع، حينَ سَمِعه بعضُ الناس يُنْشد في المسجد الحرام:

وهُنَّ يَمشِينَ بنا هَمِيسَا　　　إنْ تَصْدُق الطَّيْرُ نَنِكْ لميسَا

فقيل له في ذلك، فقال: إنَّما الرَّفَثُ ما كان عند النساء.
وقال الضَّحَّاك: لو كان ذلك القولُ رَفَثاً لكان قطْعُ لسانِه أحبُّ إليه مِن أن يَقُولَ هُجْراً، قال شَبيبُ بن يزيد الشيباني، لَيْلَةَ بَيَّتَ عتَّابَ بنَ ورقاء:

مَنْ يَنِكِ الْعَيْرَ يَنِكْ نَيَّاكا

وقال عليُّ بنُ أبي طالب - رضي اللّه عنه - حينَ دخَلَ على بعض الأمراء فقال له: مَن في هذه البيوت؟ فلما قيل له: عقائلُ من عقائل العرب، قال عليٌّ: مَنْ يَطُلْ أَيْرُ أبيهِ يَنْتَطق به.
فعَلَى عليٍّ رضي اللّه تعالى عنه - يعوَّل في تنزيه اللفظ وتشريف المعاني.
وقال أبو بكر - رضي اللّه عنه - حين قال بُدَيل بنُ ورقاء للنبيّ صلى الله عليه وسلم: جئتَنا بعجرائك وسودانك، ولو قد مَسَّ هؤلاء وخْزُ السِّلاح لَقدْ أسْلَمُوك فقال أبو بكر - رضي اللّه عنه -: عَضِضْتَ ببَظْرِ اللاَّت.
وقد رووْا مرفوعاً قوله: مَنْ يُعْذِرُني من ابن أمّ سباع مُقطِّعَة البُظور؟.

لكلِّ مقام مقال

ولو كان ذلك الموضعُ موضعَ كناية هي المستعملة، وبعد فلو لم يكن لهذه الألفاظِ مواضعُ استعملها أهلُ هذه اللُّغة وكان الرأيُ ألاَّ يُلْفَظ بها، لم يَكُنْ لأوَّل، كونها معنًى إلاّ على وجه الخطأ، ولكان في الحزْمِ والصَّوْنِ لهذه اللُّغة أنْ تُرْفَعَ هذه الأسماء منها.
وقد أصاب كلَّ الصَّوابِ الذي قال: لِكُلِّ مَقامٍ مَقَال.

صورة من الوقار المتكلف

ولقد دخل علينا فتًى حَدَثٌ كان قدْ وقعَ إلى أصحاب عبد الواحد بن زيد ونحنُ عند مُوسى بن عِمْران، فدارَ الحديثُ إلى أن قال الفتى: أفطرتُ البارحة على رغيفٍ وزيتونة ونصف، أو زيتونَة وثلث، أو زيتونَة وثُلثي زيتونة، أو ما أشبه ذلك، بل أقول: أكلت زيتونَة، وما علم اللّه من أخرى، فقال موسى: إنّ مِن الورع ما يُبغِضُه اللّه، علمَ اللّه؛ وأظنُّ ورَعَكَ هذا من ذلك الورع.
وكان العُتْبي ربّما قال: فقال لي المأمون كذا وكذا، حينَ صارَ التَّجْمُ على قِمَّة الرأس، أو حينَ جازَني شيئاً، أو قبل أن يوازيَ هامتي، هكذا هو عندي، وفي أغلَبِ ظنّي، وأكرَهُ أنْ أجزمَ على شيءٍ وهُوَ كما قلت إن شاء اللّه تعالى، وقريباً ممّا نقلت، فيتوقف في الوقتِ الذي ليسَ من الحديث في شيء، وذلك الحديث إن كان مَعَ طلوعِ الشمسِ لم يَزِدْه ذلك خيراً، وإن كان مَعَ غرُوبها لم ينقُصه ذلك شيئاً، هذا ولعلَّ الحديثَ في نفسه لم يكُنْ قطُّ ولم يَصلْ هو في تلك الليلة البتّة، وهو مع ذلك زعم أنّه دخَل على أصحابِ الكَهف فعَرف عَدَدَهم، وكانت عليهم ثيابٌ سَبَنيّة وكلبهم مُمَعّط الجلد، وقد قال اللّه عزَّ وجلّ لنبيّه صلى الله عليه وسلم: "لَوِ اطّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَ لَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً".

بعض نوادر الشعر

وسنذكرُ من نوادرِ الشّعر جملةً، فإن نشطت لحِفظِها فاحفظها؛ فإنّها من أشعار المذاكرة، قال الثَّقفي:

مَنْ كَانَ ذَا عَضُدٍ يُدرِكْ ظُلامَتهُ ... إن الذّليلَ الّذِي لَيْسَت لَهُ عضدُ
تَنْبُو يَدَاهُ إذا مَا قلَّ نَـاصـرُهُ ... ويَأنف الضّيمَ إنْ أثرى لَهُ عَدَدُ

وقال أبو قيس بن الأسلت:

بزٌّ امرئٍ مُسْتَبْسِلٍ حَاذرٍ ... للدَّهر جِلْدٍ غير مِجْزَاعِ
الكيْسُ والقُوَّةُ خيْرٌ مِنْ ال ... إشْفَاق والفهةِ والهَـاعِ

وقال عَبْدَهُ بنُ الطَّبيب:

رَبٌّ حَبَانَا بأمْوَالٍ مُـخَـوَّلَةٍ ... وكلُّ شيءٍ حَبَاهُ اللّهُ تَخويلُ
والمرءُ ساعٍ لأمرٍ لَيْسَ يُدرِكه ... والعيْشُ شُحٌّ وإشْفَاقٌ وَ تأميلُ

وكان عمرُ بنُ الخطّاب - رضي اللّه تعالى عنه - يردِّد هذا النصف الآخِرَ، ويَعجَبُ مِنْ جَودَة ما قسم.
وقال المتلمِّس:

وأعْلَمُ علْمَ حَقٍّ غـيْرَ ظَـنٍّ وتَقْوَى اللّهِ مِنْ خيْرِ العَتَـاد

لَحِفْظُ المال أيسر من بُغـاهُ وضربٍ في البلادِ بغَيْرِ زَادِ

وإصْلاَحُ القلـيلِ يزيدُ فـيه ولا يَبْقى الكثيرُ مَعَ الفَسـادِ

وقال آخر:

وحِفْظكَ مَالاً قدْ عُنيتَ بجمعـهِ أشَدُّ من الجمْعِ الذي أنت طالبُه

وقال حُميد بن ثور الهلاليّ:

أتشْغَلُ عنَّا يَابْنَ عمٍّ فلن ترى أخا البخل إلاَّ سوف يعتلُّ بالشغل

وقال ابن أحمر:

هذا الثناء وأجْدِرْ أنْ أصاحبه وقد يدوِّم ريقَ الطامعِ الأملُ

وقال ابن مقبل:

هَلِ الدَّهرُ إلاَّ تَارَتَان فمِـنـهـمـا أموت وأخْرَى أبْتَغِي العَـيْشَ أكْـدَحُ

وكلتاهما قد خُطَّ لي فـي صحـيفة فلا المَوْتُ أهْوَى لي ولا العيش أروحُ

وقال عمرو بن هند:

وإن الذي ينْهاكمُ عن طلابـهـا يُناغي نِساءَ الحيِّ في طُرَّةِ البُـردِ

يُعَلَّلُ والأيَّامُ تـنـقُـصُ عُـمْـرَه كما تنقص النِّيران من طرف الزَّند

وقال أُميَّة - إن كان قالـها-:

رُبَّما تَجْزَعُ النُّفُوس مِنَ الأمْ ـر لـهُ فَرْجَة كَحَلِّ العِقَـال

شعر في الغزل وقال آخر:

رَمَتْنِي وَسِتْرُ اللّهِ بَيْنِي وَ بَيْنَهَا عَشِيَّة آرَام الكِنـاس رَمِـيمُ

ألاَ رُبَّ يومٍ لَوْ رَمَتْنِي رَمَيْتُهَا ولكِنَّ عَهْدِي بالنِّضَالِ قَدِيمُ

رَمِيمُ الَّتِي قالتْ لَجارَاتِ بَيْتِهَا ضَمِنْت لَكُمْ أنْ لاَ يَزَالُ يَهيمُ

وقال آخر:

لم أعْطُهَا بيَدِي إذْ بتُّ أرْشُفُهَا إلاَّ تطاوَلَ غُصْنُ الجيدِ للجِيدِ

كما تَطاعَمَ في خَضْرَاءَ نَاعِمَةٍ مطوَّقانِ أصَاخَا بعد تـغريدِ

فإنْ سَمِعتَ بهلْكٍ للبَخيلِ فقُلْ بُعداً وسُحْقاً له مِنْ هَالكٍ مُودِي

شعر في الحكم وقال أبو الأسود الدؤلي:

المرءُ يَسْعَى ثـمَّ يُدْرِكُ مَـجْدُهُ حَتَّى يُزَيَّنَ بالَّـذِي لـم يَفْـعل

وتَرَى الشقيَّ إذا تكـامَـلَ غـيُّه يُرْمى ويقْذَفُ بالَّذِي لم يعْمَـلِ

رئيسُ حـروب لا يزال ربـيـئةً مشيحٌ على محقوقف الصُّلب مُلْبَدِ

صَبور على رزء المصائب حافظٌ من اليوم أعقاب الأحاديث في غدِ

وهَوَّن وجدي أنني لـم أقـلْ لـه كذبتَ ولم أبخَلْ بما ملكتْ يدي

وقال سعيدُ بن عبد الرحمن:

وإنَّ امرأً يُمسي ويُصْبِحُ سَالِماً مِنَ النَّاس إلاَّ ما جنَى لَسَعِيدُ

وقال أكثمُ بنُ صيفيّ:

نُربَّى ويَهْلِك آباؤنَـا وبَيْنَا نُرَبِّي بَنِينَا فَنِينَا

وقال بعضُ المحدَثين:

فالآنَ أسْمحْتُ للخطوبِ فلاَ يُلْفَى فُؤادِي مِنْ حَادِثٍ يَجِبُ

قلَّبني الدَّهرُ في قوالبـه وكُلُّ شيءٍ ليومِه سَبَبُ

وقال آخر:

لِدُوا للمَوْتِ وابْنُوا للخَرَابِ فكُلّكُمُ يَصِيرُ إلى ذَهاب

ألاَ يا موتُ لم أرَ مِنْكَ بُدّاً أبيتَ فما تَحِيفُ ولا تُحَابي

كأنَّكَ قدْ هجمت على مَشيبي كما هَجَمَ المشيب عَلَى شبابي

وقال آخر:

يا نفس خوضي بحَارَ الْعِلْمِ أو غُوصي فالنَّاسُ مِنْ بَيْنِ مَعْمومٍ ومَخْصوص

لا شيء في هذه الدنيا يُحاط به إلاَّ إحَاطة مَنقوص بمنقوصِ

شعر في التشبيه وأنشدنا للأحيمر:

بأقبَّ منْطَلِق اللَّبان كأنَّه سِيدٌ تَنَصَّل من حُجور سَعالي

وقال الآخر:

أراقب لمحاً من سهيلٍ كأنَّه إذا ما بَدَا مِنْ دُجْيَة اللّيل يطرفُ

وقالوا: قال خلفٌ الأحمر: لم أرَ أجمعَ مِن بيتٍ لامرئ القيس، وهو قوله:

أفادَ وجَادَ وسَادَ وزَادَ وقاد وذاد وعادَ وأفضل

ولا أجمعَ مِنْ قوله:

لهُ أيْطلاَ ظبْي وسَاقا نَعَامَةٍ وإرخاءُ سِرْحَان وتَقْريبُ تَتْفُل

وقالوا: ولم نر في التشبيه كقوله، حينَ شبّه شيئين بشيئين في حالَتين مختلفين في بيتٍ واحدٍ، وهو قوله:

كأن قلوبَ الطَّير رَطْباً ويَابساً لدَى وكْرِها العُنَّابُ وَ الحَشَفُ البَالي

قطعة من أشعار النساء وسنذكرُ قِطعة من أشعارِ النساء، قالتْ أعرابيَّة:

رَأتْ نِضْوَ أسْفارٍ أُميمَةُ شاحباً على نِضْوِ أسفارٍ فجنَّ جُنُونها

فقالتْ مِن أيِّ الناس أنتَ ومَنْ تَكُنْ فإنَّكَ مَوْلى فِرْقَةٍ لا تَـزِينُـهـا

وقالت امرأة من خثعم:

فإنْ تسألوني مَنْ أُحِبُّ فـإنّـنـي أُحِبُّ وبَيتِ اللّه كَعْبَ بْنَ طـارق

أحبُّ الفتى الجَعْدَ السَّلولِيَّ ناضـلا على النَّاس مُعتاداً لضَرْبِ المَفارق

وقالت أخرى:

وما أحسَنَ الدُّنيا وفي الدَّارِ خالد وأقبحَها لمَّا تَجَـهـزَ غـادِيا

وقالتْ أُمُّ فروة الغطفانيَّة:

فما ماءُ مزْنٍ أيُّ ماءٍ تـقـولـهُ تَحدَّرَ مِنْ غُرٍّ طِـوَالَ الـذّوَائب

بمُنْعَرَجٍ أو بَطْنِ وَادٍ تـحـدَّرَتْ عليه رياح الصَّيفِ مِن كلِّ جانبِ

نَفَى نَسَمُ الرِّيح القذَا عنْ متونِـه فما إنْ بهِ عَيبٌ يكونُ لـعـائبِ

بأطْيبَ مِمَّن يقصرُ الطَّرْفَ دُونَه تُقى اللّهِ واستحياءُ بعْضِ العَواقب

وقال بعضُ العُشاق:

وأنتِ الَّتي كلَّفتِنِي دَلَجَ السُّرَى وجُونُ القطا بالجَلْهَتَينِ جُـثـومُ

وأنتِ الّتي أوْرَثْتِ قلبي حَرارةً وقرّحتِ قرحَ القلب وهو كليم

وأنتِ التي أسخطت قومي فكلُّهُمْ بَعِيدُ الرِّضَا دَانِي الصُّدُودِ كَظِيمُ

فقالت المعشوقة:

وأنتَ الّذِي أخْلَفْتَني ما وَعَدْتَني وأشمتَّ بي مَنْ كان فِيكَ يَلومُ

وأبرَزْتَني للنَّاسِ حتَّى تركْتَني لَهُمْ غَرَضاً أُرمى وأنتَ سَلِيمُ

فلوْ أنَّ قوْلاً يكلِمُ الجسْمَ قد بَدَا بجلْدِيَ مِنْ قوْلِ الوُشاةِ كُلومُ

وقال آخر:

شهدْتُ وبَيتِ اللّهِ أنَّكِ غـادةٌ رَدَاحٌ وأنَّ الوجهَ مِنكِ عَتيقُ

وأنَّكِ لا تجزينَنـي بـمـوَدَّةٍ ولا أنا للهجْرانِ مِنكِ مُطيقُ

شَهدْت وبيتِ اللّهِ أنَّكَ باردُ ال ثَّنَايا وأنَّ الخصرْ َمِنكَ رَقيقُ

وأنَّكَ مَشْبوح الذِّرَاعين خَلجَمٌ وأنَّك إذّ تخْلو بهـنَّ رفـيق

شعر مختار وقال آخر:

اللّه يعلم يا مـغيرة أنـنـي قد دُستها دَوس الحصان الهيكل

فأخذتها أخْذَ المقصِّب شـاتَـهُ عَجلانَ يَشويها لـقـومٍ نُـزَّلِ

وقال كعبُ بنُ سعدٍ الغَنَوي:

وحَدَّثتماني أنَّما الموتُ بالقُرَى فكَيفَ وهاتّا هَضْبَةٌ وقلـيبُ

وماءُ سماءٍ كانَ غيرَ مَجمَّةٍ ببَرّيّةٍ تجْري عَلَيهِ جنـوب

ومنزلة في دارِ صدق وغِبطةٍ وما اقتالَ في حُكْمٍ عليَّ طبيبُ

وقال دُرَيد بن الصِّمَّة

رئيسُ حُـروبٍ لا يزَالُ رَبـيـئَةَ مشيح على مُحْقوقفِ الصُّلبِ مُلْبدِ

صبورٌ على رُزْء المصائبِ حافظٌ مِنَ اليَومِ أعقابَ الأحاديثِ في غَدِ

وهَوَّنَ وَجدي أنني لـم أقـلْ لَـهُ كَذَبْتَ ولم أبْخَلْ بما مَلَكَـت يَدي

قطع من البديع وقطعة من البَديع قوله:

إذا حَدَاها صاحبي ورَجَّـعـا وصاح في آثارِها فأسْمَعـا

يتبعْن منهن جُلالاً أتـلـعـا أدمك في ماء المهاوي مُنْقعَا

وقال الراجزُ في البديع المحمود:

قد كنت إذْ حبلُ صِباك مُدْمَش وإذْ أهاضيبُ الشبابِ تَبْغَشُ

ومن هذا البديع المستَحْسَن منه، قولُ حُجْر بن خالد بن مرثد:

سمعتُ بفِعْلِ الفاعلين فلم أجدْ كفِعْلِ أبي قابوسَ حَزْماً ونائلا

يُساقُ الغَمامُ الغُرُّ من كلّ بلدةٍ إليك فأضحى حَوْلَ بيتِك نازِلا

فأصبحَ منه كلُّ وادٍ حللتَه وإن كان قد َخوَّى المرابيعُ سائلا

فإن أنتَ تَهْلِك يَهْلِك الباعُ والنَّدَا وتُضْحِي قلوصُ الحمد جَرْباء حائِلا

فلا ملكٌ ما يبلغنَّك سَعْيُهُ ولا سُوقة ما يَمْدَحَنَّك باطلا

صدق الظَّنِّ وجَودة الفِراسة

قال أوس بن حجر:

الألمعيُّ الذي يظنُّ بك الظ نّ كأنْ قدْ رأى وقد سمعا

وقال عمر بن الخطّاب: إنك لا تَنْتَفعُ بعقل الرَّجل حتّى تعرفَ صدقَ فطنته.
وقال أوس بن حجر:

مليحٌ نَجيحٌ أخو مَأْزق نِقابٌ يُحدَّث بالغائبِ

وقال أبو الفضَّة، قاتِل أحمرَ بن شميط:

فإلاَّ يَأتِكُمْ خَبَرٌ يَقِينٌ فإنَّ الظَّنّ يَنْقُصُ أوْ يزيدُ

وقيل لأبي الهذيل: إنَّك إذا راوَغْت واعتلَلْتَ - وأنتَ تكلِّم النظام وقمت - فأحْسَنُ حالاتِك أنْ يشكَّ النَّاسُ فيكَ وفيهِ قال: خَمْسُون شكّاً خيرٌ مِنْ يَقِينٍ واحد وقال كُثيِّرٌ في عبدِ الملك:

رَأيتُ أبا الوَليد غَدَاةَ جَمعٍ به شَيبٌ وما فَقدَ الشَّبَابَا

فقلتُ لَهُ ولا أعيا جَوابَاً: إذا شابتْ لِدَاتُ المَرْءِ شَابَا

ولكنْ تَحتَ ذاكَ الشيبِ حزمٌ إذا ما قال أمْرَضَ أو أصابا

وليس في جَودة الظَّنِّ بيتُ شعرٍ أحسن مِنْ بيتِ بلعاء بنِ قيس:

وأبغى صواب الظن أعلم أنه إذا طاش ظن المرء طاشت مقادره

وقال اللّه عزَّ وجلَّ: "وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إبْلِيسُ ظَنَّهُ فاتَّبَعُوهُ".
وقال ابن أبي ربيعة في الظَّنِّ :

ودَعاني إلى الـرَّشـادِ فـؤادٌ كان للغيِّ مَرَّةً قدْ دَعـانـي

اكَ دَهْرٌ لو كنتَ فيهِ قرينـي غَيْرَ شَكٍّ عرَفتَ لي عِصْيَانِي

وتَقَلَّبتُ في الفِراشِ ولا تَـع لَمُ إلاَّ الظُّنُونَ أيْنَ مكـانِـي

من مختار الشعر

وقال ابنُ أبي ربيعة في غير هذا الباب:

وخِلٍّ كنتُ عَينَ النُّصْح منْهُ إذا نَظرَتْ ومستَمعاً مطيعا

أطافَ بغيَّةٍ فَنَهيتُ عنـهـا وقُلْتُ لَـهُ أرى أمراً شَنيعَا

أرَدْتُ رَشادَه جَهْدي، فلمـا أبَى وعَصى أتَيناها جَميعَا

وقال معَقّر بن حمار البارقي:

الشِّعرُ لبُّ المرْءِ يَعْرِضه والقوْلُ مِثْلُ مَوَاقِعِ النَّبْلِ

منها المقصِّر عَن رَمِيَّتِه ونَوَافذٌ يذهَبنَ بالخَصلِ

أبياتٌ للمحدَثين حِسانٌ

وأبياتٌ للمحْدَثين حِسَان، قال العَتَّابيّ:

وَكَمْ نِعمةٍ آتاكها اللّـهُ جَزْلَةً مُبرَّأةً مِنْ كُلِّ خُلْقٍ يَذِيمُها

فسلطتَ أخلاقاً عليـهـا ذمِـيمةً   تَعاوَرنـهـا حَتَّى تَفـرَّى أدِيمـهـا

وَلُوعاً وإشفاقاً ونطقاً من الخَـنـا   بعَوراءَ يَجْري في الرِّجال نمِيمُها

وكنتَ امرأً لو شئِتَ أنْ تَبْلُغَ المدَى   بَلَغت بأدنى نِعمَة تَسْتَـدِيمُـهـا

ولكنْ فِطامُ النَّفس أعسر محمَـلاً   مِنَ الصَّخرَةِ الصمَّاء حِين ترُومُها

وقال أيضاً:

وكنتُ امرأً هَيَّابَةً تَسْتَـفِزّنـي   رضاعي بأدنى ضجْعَةٍ أستلينُها

أوافي أميرَ المؤمنـين بـهـمَّةٍ   تَوَقَّلُ في نَيل المَعالي فنُونُـهـا

رَعى أمَّة الإسلامِ فهو إمامُهـا   وأدَّى إليها الحقَّ فهو أمينُـهـا

ويَستَنتج العقماء حتَّى كـأنـمـا   تَغَلْغَلَ في حيثُ استَقرَّ جنينُهـا

وما كل مَوصوفٍ لَهُ يَهـتَـدِي   ولا كل مَن أمَّ الصُّوَى يَسْتَبِينُـهـا

مُقيمٌ بمستنِّ العُلا، حيثُ تَلتَقـي   طوارفُ أبكارِ الخُطُوبِ وعُونُها

وقال الحسن بن هانئ:

قُولاَ لهارُون إمامِ الـهـدَى   عندَ احتِفالِ المجلِسِ الحاشد

نَصيحةُ الفضْلِ وإشفـاقُـهُ   أخلَى لَهُ وجهَكَ مِن حَاسد

بصادِقِ الطـاعةِ ديَّانِـهـا   وواحد الغائب والشـاهـد

أنتَ على ما بكَ مِنْ قُدْرَةٍ   ما أنتَ مِثْلَ الفَضْل بالواجِدِ

أوحَدَه اللّهُ فمـا مـثْـلُـه   لطالـبٍ ذاكَ ولا نَـاشِـد

وليس على اللّه بمستنكـر   أنْ يَجْمَعَ العالَمَ في واحد

وقال عَديٌّ بن الرِّقاع العاملي:

وقصيدةٍ قدْ بتُّ أجْمعُ بَيْنَـهـا حتَّى أقوِّمَ مَيْلها وسنـادهـا

نظرَ المثقّف في كُعُوب قناتِـه حتَّى يُقيمَ ثِقافُـهُ مُنـآدهـا

وعَلِمْتُ حتَّى لَسْتُ أسْأَلُ عالِما عَنْ حَرْف وَاحدة لكيْ أزْدَادَهَا

صلَّى الإلهُ عَلَى امْرئٍ ودَّعته وأتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَـيْهِ وَزَادَهـا

شعر لبنت عدي بن الرقاع

قال: واجتمع ناسٌ من الشُّعَرَاء بباب عَديٍّ بن الرقاع يُريدون مُماتَنَتَهُ ومُساجَلَتَه، فخَرجَت إليهمْ بِنْتٌ له صغيرة، فقالت:

تجَمَّعْتُم منْ كُلِّ أوْبٍ ومَنـزل عَلى وَاحدٍ لا زلْتُمُ قِرْنَ واحد

وقال عبدُ الرحمن بن حسّان الأنصاري، وهو صغير:

اللّه يَعْلَمُ أنِّي كُنْت مُشْتَـغِلاً في دَارِ حَسَّانَ أصْطَادُ اليَعَاسِيبَا

وقال لأبيه وهو صبيٌّ - ورجع إليه وهو يبكي ويقول: لسعني طائر قال: فصفه لي يا بنيّ قال كأنَّهُ ثوْبُ حَبَرة قال حسّان: قال ابني الشِّعْرَ وَرَبِّ الكعبة وكان الذي لَسعه زنبوراً.
وقال سَهْلُ بن هارون، وهو يختلف إلى الكُتَّابِ لجارٍ لهم:

نُبِّيت بَغْلك مبْطوناً فقلت له فهل تَماثل أو نأتيه عُوَّادا

وقال طرفة وهو صبيٌّ صغير:

يا لَكِ مِنْ قُبَّرةٍ بمَعْمَر خلا لكِ الجَوُّ فبيضي واصفِري

وقال بعض الشعراء:

إذا ما ماتَ مَيْتٌ مِن تَميمٍ فسَرَّكَ أن يَعيش فجِئْ بزادِ

بخبزٍ أو بلَحْمٍ أوْ بسَمْنٍ أو الشَّيءْ الملفَّفِ في البجَادِ

تراه يَطوف بالآفاق حِرْصاً ليأكُلَ رأسَ لُقمْان بن عادِ

وقال الأصمعي: الشيء الملقّف في البجاد: الوَطْب.
وقال أعرابيٌّ:

ألاَ بَكَرَتْ تَلْحَى قتَيْلَةُ بَعْدَمـا　　بدا في سَوادِ الرّأس أبيض واضحُ

لتُدرك بالإمْساك والمَنْع ثـرْوةً　　مِنَ المال أفنتْها السّنونَ الجَوائحُ

فقلت لها: لا تعذُليني فـإنمـا　　بذِكْر النَّدَى تَبْكِي عَلَيَّ النـوائح

أشعار في معانٍ مختلفة

وقال بَشَّارٌ أبياتاً تجوز في المذاكرة، في باب المنى، وفي باب الحزم، وفي باب المشورة، وناسٌ يجعلونها للجعجاع الأزدي، وناسٌ يَجعلونها لغيره، وهي قوله:

إذا بَلَغَ الرَّأيُ المَشَورَةَ فاستَعِنْ　　برَأيِ نَصيحٍ أو نَصيحةِ حـازم

ولا تحْسَبِ الشّورى عَلَيْكَ غَضاضَةً　　مَكَانُ الخَوافي رافِدٌ لـلـقـوادم

وأدْنِ مِنَ القُرْبى المقرِّبَ نَفْسَـه　　ولا تُشْهِدِ الشّورَى امرأً غَيْرَ كاتِمِ

وما خيْرُ كَفٍّ أمسَك الغلُّ أخْتَـهَا　　ومَا خيْرُ نَصْلٍ لَـمْ يُؤيَدْ بِـقـائمِ

فإنّك لا تَسْتَطرِدُ الهَمّ بـالـمَـنـى　　ولا تَبْلُغُ العَليَا بغَيْر الـمَـكـارِمِ

وقال بعض الأنصار:

وبَعْضُ خلائق الأقوامِ دَاءٌ　　كَداءِ الشيْخ ليسَ له شفـاءُ

وبَعْضُ القوْل ليس لَهُ عِنَاجٌ　　كمخْض الماء ليس لَهُ إتاءُ

وقال تأبَط شرّاً - إنْ كان قَالَها-:

شامِسٌ في القُرّ حتّى إذا مَـا　　ذكَت الشِّعْرى فبَرَدٌ وظِلُّ

ولَهُ طعْمَان: أرْيٌ وشَـرِيٌ　　وكِلاَ الطِّعمَين قدْ ذاقَ كُـلُّ

مُسْبِلٌ في الحَيّ أحْوَى رِفَـلٌ　　وإذا يغْدو فـسِـمْـعٌ أزَلُّ

وَوَرَاء الثأر منه ابنُ أخـت مَصِعٌ عُقْدَتُـه مـا تُـحَـلُ

مُطرقٌ يَرشَحُ سُمًّا، كـمـا أطرَقَ أفْعَى يَنْفُثُ السمّ صِلُ

خَبَرٌ مَا نابَنَـا مُـصـمَـئِلٌ جَلّ حتَّى دقّ فـيه الأجَـلُّ

كُلُّ ماضٍ قد تَرَدّى بِمـاض كَسَنَا البَـرق إذا مـا يُسَـلُ

فاسقِنيـها يا سَوَاد بنَ عَمـرو إنَّ جِسمي بَعدَ خالي لخلُّ

وقال سلامَة بنُ جَندَل:

سأجزيك بالوُدِّ الـذي كـان بـيـنـنـا أصَعْصَعُ إنِّي سَوف أجزيكَ صَعْصَعَا

سأُهْدِي وإن كنا بـتـثـلـيـثَ مِـدْحةً إليك وإن حلّت بُيُوتـك لَـعلـعـا

فإنْ يَك محـمـوداً أبـوك فـإنَّـنـا وجدناك مَحمُود الـخَـلائق أروَعـا

فإن شئتَ أهـدينَـا ثـنـاءً ومِـدحة وإن شئت أهدينَا لَكُم مـائةً مـعـا

فقال صعصَعة بن محمود بن بشر بن عمرو بن مرثد: الثَّناء والمدحة أحبُ إلينا، وكان أحمر بن جندل أسيراً في يده، فخلّى سبيلَه من غير فداء.
وقال أوسُ بن حجَر، في هذا الشّكل من الشّعر - وهو يقع في باب الشّكر والحمد - :

لَعَمرُك مَا ملّت ثَوَاءَ ثَوِيِّهـا حَليمَةُ إذْ ألْقى مراسيَ مُقعَدِ

وَلَكِنْ تَلقت باليدَين ضَمَانـتـي وَحَلّ بفَلج فالقنـافذ عُـوّدي

وقدْ غبرت شهرَيْ رَبيع كلَيْهما بحَمْلِ البَلايا والخِباء المـمـدّدِ

ولم تُلهِهَا تِلك التّكَاليفُ؛ إنّـهـا كما شِئتَ مِنْ أكرُومَةٍ وتَخَرُّدِ

سأجزِيكِ أو يَجزيكِ عني مثوّبٌ وحَسْبُكِ أن يُثنَى عَلَيْكِ وَتُحمَدِي

وقال أبو يعقوب الأعور :

فلم أجْزِهِ إلاَّ المودّة جاهداً   وَحَسْبُك مِنّي أن أوَدَ وأجهدا

من شعر الإيجاز

وأبيات تضافُ إلى الإيجاز وحَذْف الفضول، قال بعضهم ووصف كِلاَباً في حالِ شَدِّها وعَدْوِها، وفي سُرعةِ رفعِ قوائمها ووضعها - فقال:

كأنَّما تَرْفعُ ما لَمْ يُوضَع

ووصف آخرُ ناقة بالنشاط والقوّة فقال:

خرقاءُ إلاَّ أنها صَنَاع

وقال الآخر:

الليلُ أخفى والنّهارُ أفضَحُ

ووصف الآخر قوْساً فقال:

في كفّه مُعْطِيَةٌ مَنوعُ

وقال الآخر:

وَمَهْمَهٍ فِيهِ السَرَابُ يَسْبَحُ   كَأنَما دليلُه مطوّح

يَدْأبُ فِيهِ القوْمُ حتّى يَطْلَحُوا   كأنّما بَاتُوا بحَيْثُ أصبَحُوا

ومثل هذا البيت الأخير قوله:

وكأنَّما بَدْرٌ وَصِيلُ كُتيفة   وكأنّما مِنْ عاقِلٍ أرْمَامُ

ومثله:

تجاوَزْتُ حُمْرَانَ في ليلةٍ   وقُلتُ قُسَاسٍ من الحَرْمَلِ

ومن الباب الأوّلِ قوله:

عادَني الهمُّ فاعتلجْ   كُلُّ هَمٍّ إلى فَرَجْ

وهذا الشِّعر لجُعَيفران الموَسْوَس.
وقال الآخَر:

لم أقضِ من صحْبةِ زَيدٍ أرَبي   فتًى إذا نبّهْتَه لم يَغْضَبِ

أبيضُ بَسّامٌ وإن لم يعجب   ولا يضن بالمتاع المحقب

مُوَكَّلُ النَّفس بحِفْظِ الغُيّب   أقصى رفِيقيه له كالأقرَب

وقال دُكَين:

وقدْ تعَلّلتُ ذَميلَ العَنْس   بالسَّوْط في دَيْمومةٍ كالتّرْس

إذْ عَرَّج اللّيلَ بروجَ الشَّمس

وقال دُكَينٌ أيضاً:

بمَوطنٍ يُنْبطُ فيه المحتسي بالمشْرَفِيّات نِطافَ الأنْفُسِ

وقال الراجز:

طَالَ عليهنّ تكاليف السّرَى   والنّصُّ في حِينِ الهَجِيرِ والضّحى

حَتّى عُجاهُنّ فما تحت العُجى رَوَاعِفٌ يَخْضِبْنَ مُبْيَضَّ الحَصى

في هذه الأرجوزة يقول:

وضَحِكَ المزن بها ثمّ بكى

ومن الإيجاز المحذوف قولُ الراجز، ووصف سَهمه حينَ رَمى عَيراً كيف نَفَذَ سهمه، وكيفَ صرَعه، وهو قوله:

حتّى نجَا مِنْ جوفه وما نجا

شعر في الاتِعاظ والزهد

ومما يجوز في باب الاتّعاظ قولُ المرأة وهي تطوف بالبيت:

أنت وهَبْتَ الفِتيَةَ السَلاهِبْ وهَجْمةً يَحارُ فيها الطالِبْ

وغنَما مِثْلَ الجَرَادِ السّاربْ متاعَ أيامٍ وكُلٌّ ذاهِبْ

ومثله قولُ المسعوديّ:

أخلِفْ وأنْطفْ كلَّ شيءٍ زعزعتْه الريحُ ذاهبْ

وقال القُدار وكان سيّد عَنَزة في الجاهلية:

أهلَكْت مُهْريَ في الرّهان لجَاجةً ومن اللّجَاجة ما يَضُرُّ وَيَنفَعُ

قال: وسمعت عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر ينشد - وكان فصيحاً:

إذا أنت لم تنفع فضرّ فإنّما يُرَجَى الفتى كيما يضرَّ وينفعا

وقال الأخطل:

شُمْسُ العَداوةِ حتّى يُستفادُ لهم وأعظمُ النّاس أحلاماً إذا قدروا

وقال حارثة بن بدر:

طربتُ بفاثور وما كدت أطربُ سَفاهاً وقدْ جَرّبْتُ فيمَن يجرّب

وجرّبتُ ماذا العَيْشُ إلاّ تِعلّة وما الدَّهر إلاّ مَنْجَنونُ يقلّب

وما اليومُ إلاّ مِثلُ أمْس الذي مضى ومثلُ غدِ الجائي وكلٌّ سيَذْهب

وقال حارثة بن بَدر الغداني أيضاً:

إذا الهمٌ أمسَى وَهو داءٌ فَأَلْقِه ولَسْتَ بمُمْضِيهِ وأنتَ تعادِله

فلا تُنْزِلَنْ أمْرَ الشديدِة بامرئٍ إذا رامَ أمراً عَوّقتْهُ عَواذِله

وَقُل للفؤاد إن نَزا بك نَزوَةً مِنَ الرَّوع أفْرِخْ أكثرُ الرَّوع باطِلُه

شعر في الغَزْو

وقال الحارثُ بن يزيد وهو جدُّ الأحَيمِر السَّعديِّ وهو يقع في باب الغزْو وتمدُّحهم ببعد المغْزى:

لا لا أعُقُّ ولا أحـو ... ب ولا أغير عَلَى مُضرْ

لَكنَّـمـا غزوي إذا ... ضَجَّ المَطيُّ منَ الدَّبَـرْ

وقال ابن محفّض المازنـيُّ:

إن تَك دِرْعي يَوْمَ صَحراَءِ كُليةٍ ... أصِيبت فما ذاكُمْ عَلَيَّ بـعـارِ

ألم تك منْ أسْلابكمْ قبـل ذاكمُ ... عَلَى وَقبَى يومًا ويَوْمَ سَـفـارِ

فتلك سرابيل ابن داودَ بـيـنـنـا ... عواريُّ والأيام وغير قـصـارِ

ونحن طرَدنا الحيَّ بَكْرَ بنَ وائلٍ ... إلى سَنَةٍ مثلِ الشِّهـاب ونَـارِ

ومُومٍ وطاعون وحُمّى وحَصْبةٍ ... وذي لِبَدٍ يَغشى المهَجْهجَ ضاري

وحكم عدوٍّ لا هَـوَادة عـنْـده ... ومنزلِ ذلٍّ في الـحـياة وعَـارِ

وقال آخر:

خُذُوا العَقْلَ إن أعطاكُم القوْمِ عَقْلَكُمْ ... وكونوا كَمَنْ سِيمَ الـهَوَانَ فأرتعـا

ولا تُكثروا فيها الضِجـاجَ فـإنّـه ... محَا السّيف ما قالَ ابنُ دَارةَ أجْمَعا

وقال أبو ليلى:

كأن قطاتها كُردُوسُ فَحل ... مقلّصة على ساقيْ ظليم

شعر في السيادة

وقال أبو سلمى:

لابدَّ للسُّودد من أرمـاح ... ومِنْ سفِيهٍ دائم النُّبـاح

ومنْ عَديدٍ يُتَّقى بالرّاحِ

وقال الهذلي:

وإنَّ سيادة الأقوام فاعْلَمْ		لها صعْداءُ مَطلبها طويل

وقال حارثة بن بدر، وأنشده سفيان بنُ عُيينة:

خلَت الدِّيارُ فسُدْتُ غيْرَ مُسَوَّد		ومِنَ الشَّقاء تفرّدي بالسُّوددِ

شعر في هجاء السادة

وقال أبو نخيلة:

وإنَّ بقوْمٍ سَوَّدوك لَفَاقة		إلى سَيِّدٍ لوْ يظفَرُون بسيِّدِ

وقال إياس بن قتادة، في الأحنف بن قيس:

وإنَّ مِنَ السّادات مَن لو أطعْتَه		دَعَاك إلى نارٍ يَفُورُ سَعيرها

وقال حُميضة بن حذيفة:

أيظلمهم قسراً فتبّاً لسَعيهِ		وكل مطاعٍ لا أبالكَ يَظلِمُ

وقال آخر:

فأصبحتَ بعد الحلم في الحيِّ ظالما		تخَمَّطُ فيهم والمسوَّدُ يَظْلِمُ

وكان أنس بن مدركة الخثعمي يقول:

عزمت على إقامةِ ذي صباحِ		لأمر ما يسوَّدُ مَنْ يسودُ

وقال الآخر:

كما قال الحمار لسهم رامٍ		لقد جَمَّعْتَ من شيء لأمر

وقال أبو حيّة:

إذا قُلْنَ كلاًّ قال والنَّقْع ساطعٌ   بلى وهو واهٍ بالجراءِ أباجِلُه

وقال آخر:

إني رأيت أبا العوراء مرتفقاً   بشطّ دجلة يشري التمر والسمكا

كشدَّة الخيل تبقى عند مذودها   والموت أعلم إذ قفَّى بمن تركا

هذه مساعيك في آثار سادتنا   ومن تكن أنت ساعيه فقد هلكا

وقال شتيم بن خويلد، أحد بني غراب بن فزارة:

وقلت لسيِّدِنا يا حليمُ   إنَّك لَمْ تأسُ أسْواً رَفِيقا

أعَنتَ عديّاً على شَأوها   تُعادي فريقاً وتُبقي فريقا

زَحرتَ بها ليلة كلَّها   فجئتَ بها مؤْيداً خَنْفقِيقا

وقال ابن ميادة:

أتيتُ ابن قشراءِ العِجانِ فلم أجدْ   لدى بَابهِ إذناً يسيراً ولا نُـزْلا

وإنَّ الَّذي ولاّك أمْر جماعةٍ   لأنقصُ من يَمْشي على قدَم عَقلا

شعر في المجد والسيادة

وقال آخر:

ورِثنَا المجْد عن آباءِ صِدقٍ   أسأنَا في ديارهِمُ الصَّنيعا

إذا المَجْدُ الرَّفيعُ تَعاورتْه   بُناة السُّوء أوْشك أنْ يضيعَا

وقال الآخر:

إذا المرءُ أثْرَى ثمَّ قال لقومِه   أنَا السَّيِّدُ المُفْضَى إليه المعمَّمُ

ولم يعْطِهِمْ خيراً أبَوْا أنْ يَسُودَهُم   وهانَ عليهمْ رَغْمُهُ وهو أظْلم

وقال الآخر:

تركتُ لبحرِ دِرهَميه ولمَ يَكُنْ ليَدفع عَنّي خَلّتي دِرْهمَا بحـر

فقلتُ لبحرِ خذّهُما واصطرِفهُما وأنفقْهما في غير حمدٍ ولا أجرِ

أتمنَعُ سُؤال العشيرةِ بعدَ مَـا تسمَّيت بحراً وأكنيت أبا الغمر

وقال الهذليُّ:

وكنت إذا ما الدّهرُ أحدَث نَكبة أقولُ شَوَى ما لَم يُصِبنَ صمِيمي

وقال آخر في غير هذا الباب:

سقى اللّه أرضاً يَعْلَمُ الضَّبُّ أنَّـها بعيدٌ مـن الأدواء طَيبَةُ الـبَـقْلِ

بنى بيته فـي رأس نَـشْزٍ وكُـدْيةٍ وكلُّ امرِئٍ في حِرفةِ العَيْش ذُو عَقْل

أبو الحارث جمين والبرذون

وحدّثني المكيُّ قال: نظر أبو الحارث جُمَّين إلى برذون يُستقى عليه ماءٌ، فقال:المرء حيث يضع نفسه! هذا لو قد همجلج لم يبتل بما ترى!

بين العقل والحَظ

وقال عبد العزيز بن زُرارة الكلابي:

وما لُبُّ اللَّبيب بـغير حـظٍّ بأغنى في المعيشةِ من فتيل

رأيت الحَظَّ يستُر كلَّ عَـيْب وَهَيْهَاتَ الحُظوظ من العقول

هجو الخَلْف

وقال الآخر:

ذهبَ الّذين أحبُّهم سلَـفـاً وبَقِيت كالمقْهور في خَلْفِ

من كلِّ مَطويٍّ على حَـنَـق مُتَضَجِّع يُكْفَى ولا يَكفِـي

عبد العَين

وقال آخر:

وموْلى كَعَبْدِ العَيْن أمَّا لِقاؤه   فيُرضى وأمّا غيبُه فظنُونُ

ويقال للمرائي، ولمن إذا رأى صاحبَه تحرّك له وأراَه الخدْمة والسرعة في طاعته فإذا غابَ عنه وعن عينه خالف ذلك: إنَّما هو عَبْدُ عَين.
وقال اللّهُ عزَّ وجلّ: "وَمِنْ أهْلِ الكِتَّابِ مَن إنْ تَأمَنْه بِقِنطارٍ يُؤَدِّه إلَيْكَ" وَمنْهُم مَنْ إنْ تأْمَنْهُ بدِينَارٍ لاَ يُؤَدِّه إلَيْكَ إلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قائماً".

من إيجاز القرآن

وقد ذكرنا أبياتاً تُضاف إلى الإيجاز وقِلّة الفُضول، ولي كتابٌ جَمَعْتُ فيه آياً من القرآن؛ لتَعرفَ بها فصل ما بينَ الإيجاز والحَذْف، وبين الزّوائد والفُضول والاستعارات، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز والجَمْع للمعاني الكثيرةِ بالألفاظ القليلة على الّذي كتبتُهُ لك في بابِ الإيجازِ وترك الفضول، فمنها قوله حينَ وصفَ خمرَ أهلِ الجنّة:"لاَ يُصَدَّعُون عَنْها وَلاَ يُنْزِفون" وهاتان الكلمتان قد جَمَعتا جميعَ عُيوبِ خمر أهلِ الدُّنيا.
وقولُه عزّ وجل حينَ ذكر فاكهة أهلِ الجنّة فقال: "لاَ مَقْطُوعةٍ وَلاَ مَمْنُوعةٍ". جمع بهاتين الكلمتين جميعَ تلك المعاني.
وهذا كثيرٌ قد دَللتك عليه، فإنْ أردته فموضعه مشهور.

رأي أعرابي في تثمير المال

وقال أعرابي من بني أسد:

يقُولون ثمِّر ما استَطَعت وإنما   لِوَارِثِه ما ثمَّرَ المَالَ كاسبُه

فكلْهُ وأطعمْهُ وَخالِسهُ وَارِثاً   شحيحاً ودهراً تَعْتَريكَ نوائبُهْ

شعر في الهجاء

وقال رجلٌ من بني عَبْس:

أبلغ قُراداً لقد حَكَّمتُمُ رجلاً   لا يَعرفُ النَّصفَ بل قد جاوَزَ النَّصَفا

كان امرأً ثائراً والحقُّ يَغْلِبُه   فجانَبَ السَّهْلَ سَهْلَ الحقِّ واعتسفا

وذاكمُ أنَّ ذُلَّ الجار حالَفَكُم   وأنّ أنفَكُمُ لا يعرِفُ الأَنَفا

إنَّ المحكَّمَ ما لَمْ يَرْتَقِبْ حَسَباً أوْ يَرْهَبِ السَّيف أو حدَّ القنا جنَفَا

مَن لاذ بالسَّيفِ لاقى قرضَه عجبا موتاً على عَجَلٍ أو عاش مُنْتَصِفَا

بيعُوا الحياة بها إذ سام طالبُها إمَّا رَواحاً وإما مِتَّة أنَفا

ليس امرؤٌ خالداً والموتُ يطلبُه هاتيك أجْسادُ عادٍ أصبحتْ جِيفَا

أبلغْ لَديك أبا كعب مغلْغَلة أنَّ الذي بيننا قد مات أو دنِفا

كانت أمورٌ فجابت عن حُلومكم ثوْبَ العَزيمةِ حتَّى انجاب وانكشفَا

إنِّي لأعلَمُ ظهْرَ الضِّغن أعْدِله عَنِّي، وَأعْلَمُ أنِّي آكُلُ الكتفا

شعرحكمىّ

وقال أسقفُّ نجْران:

منَعَ البقاءَ تصرُّفُ الشمسِ وطُلوعُها منْ حيْثُ لا تُمسي

وطُلوعُها بَيضاءَ صافِيَة وغروبُها صَفْراءَ كالوَرْس

اليوم أعلم ما يجيءُ بِهِ ومضى بفَصْل قضائه أمْس

وقال عبيدُ بن الأبرص:

وكُلُّ ذي غَيْبَةٍ يَؤوبُ وغائِبُ الموْتِ لا يؤوبُ

مَنْ يَسْألِ النَّاسَ يَحْرمُوه وسائلُ اللّهِ لا يَخيبُ

وعاقرٌ مثلُ ذاتِ رحْمِ وغانمٌ مثلُ مَنْ يَخيبُ

أفْلحْ بما شئْتَ فقدْ يُبْلَغُ بالضَّعْف وقدْ يُخدَعُ الأريبُ

المرءُ مَا عاش في تَكْذيبِ طُولُ الحَياةِ لَهُ تَعذِيبُ

وقال آخر:

إذا الرِّجـال ولَـدَت أوْلاَدُهـا	واضطرَبَتْ مِنْ كِبَرٍ أعْضادُها

وَجَعلَتْ أوْصابُها تعتـادُهـا	فَهْيَ زُروعٌ قد دنا حَصَادها

مرثية في محمد المخلوع

وقال بنت عيسى بن جعفر وكان مُمْلَكَةً لمحمدٍ المخلوع حينَ قتل:

أبْكيك لا للنَّـعيم والأنـس	بَلْ لِلمعَالي والرُّمح والفَرَسِ

أبكي على فارسٍ فُجعْتُ به	أرْملَني قبْلَ لَيْلَةِ الـعرسُ

من نعت النساء

وقال سَلْمٌ الخاسر:

تبدَّتْ فقلتُ الشَّمسُ عِنْدَ طلُوعِـهـا	بجيدٍ نقيِّ اللّونِ من أثـر الـوَرْس

فلما كَرَرْتُ الطّرفَ قلت لصاحِبي	على مِريْةٍ: ما هاهُنا مطلع الشمس

شعر رثاء

وقال الآخر:

كفى حَزَنـاً بدَفنِكَ ثُـمَّ أنِّـي	نَفَضْتُ تُرابَ قبرك عَنْ يَدَيَّا

وكانت في حياتكَ لي عظاتٌ	وأنتَ اليومْ أوعظُ منْك حَيّا

المديح بالجَمَال وَغيره

قال مزاحمٌ العقيليّ:

يزين سنا الـمـاويِّ كـلَّ عشـيّةٍ	على غَفَلاَت الزَّينِ والمتـجَـمَّـلِ

وجوهٌ لوَ انَّ المدْلجِينَ اعتشوْا بـهـا	صَدَعْنَ الدُّجى حتَّى ترى اللّيْل ينْجَلي

وقال الشَّمَردَل:

إذا جَرى المسْكُ يَنْدى في مفارقِهِمْ	راحُوا كأنهمُ مَرْضى من الكَرَمِ

يشبَّهونَ ملوكاً من تجلّتهم وطولِ أنضيةِ الأعناق والأُمم

النضيُّ: السَّهم الذي لم يُرَش، يعني أن أعناقهم مُلسٌ مستوية، والأمم: القامات.
وقال القتَّال الكلابيّ:

يا لَيتَني والمُنى لَيست بنافعةٍ لمالكٍ أو لحِصْنٍ أو لسَيَّارِ

طوال أنضيَةِ الأعناق لم يجدوا ريحَ الإماء إذا راحت بأزفارِ

لم يرْضَعوا الدَّهر إلا ثدْيَ واضِحةٍ لواضِحِ الوَجْهِ يَحمِي باحَةَ الدَّارِ

وقال آخر:

إذا كان عَقْلٌ قلتُمُ إنَّ عَقْلَنَا إلى الشَّاء لم تُحلَلْ عَلينا الأباعِرُ

وإنَّ امرأً بعدِي يُبادل وُدَّكُمْ بُودِّ بني ذبيان مولى لخاسِرُ

أولئك قومٌ لا يُهان هَدِيّهم إذا صرَّحَتْ كَحْلٌ وهَبَّتْ أعاصِرُ

مَذاليق بالخَيل العِتاق إذا عَدَوا بأيديهمُ خطِّيَّة وبَواتِرُ

وقال أبو الطَّمَحَان القينيّ في المعنى الذي ذكرنا:

كم فيهمُ مِنْ سَيِّدٍ وابن سَيِّد وَفيٍّ بعَقْدِ الجَار، حِينَ يُفارقُه

يكاد الغمام الغُرُّ يُرْعِدُ أنْ رَأى وُجُوهَ بَني لأمٍ ويَنْهَلُّ بارقُه

وقال لَقِيطُ بن زرارة:

وإنِّي مِنَ القوْمِ الذين عَرَفْتمُ إذا مات منْهُمْ سَيِّدٌ قامَ صاحبُه

نجومُ سماءٍ كُلما غار كوْكَبٌ بَدَا كَوْكَبٌ تأوي إليه كواكبُه

أضاءَتْ لهمْ أحسابهُمْ ووُجُوههُم دُجَى اللّيلِ حتَّى نَظَّمَ الجزعَ ثاقِبه

وقال بعض التميميِّين، يمدَح عوفَ بنَ القَعْقاع بن مَعْبَدِ بن زرارة:

بحقِّ امرئ سرو عتيبة خـالـه وأنت لَقعقاعٌ وعمُك حـاجـبُ

دراري نجوم كلما انقض ّ كوكبٌ بدا كوكب ترفضٌ عنه الكواكبُ

وقال طفَيلٌ الغَنَويُّ:

وكانَ هُريمٌ مِن سِنـانِ خَـلِيفة وعمرو ومن أسماءَ لَّما تَغيّبُـوا

نجومُ ظلام كلما غـاب كـوكـبٌ بَدَا ساطِعاً في حِنْدِسِ اللّىلِ كوْكب

وقال الخرَيمي، يمدح بني خُرَيم من آل سنان بن أبي حارثة:

بقيَّة أقمارٍ من الغُرِّ لو خَبتْ لَظلَّت مَعَدٌّ في الدُّجى تَتكَسَّعُ

إذا قمرٌ منهم تَغوَّرَ أو خَبـا بدَا قمرٌ في جانب الليل يَلْمَعُ

وقال بعضُ غنِيٍّ وهو يمدح جمَاعة إخوة، أنشدنيها أبو قطن الذي يقال له شهيد الكَرَم:

حَبِّر ثناءَ بنـي عـمـرو فـإنَّـهـمُ أولـو فُـضـولِ وأنْـفـالٍ وأخـطـار

إنْ يُسْألوا الخَيْرَ يُعطوهُ، وَإنْ جُهِدُوا فالجهْدُ يُخرِج منْهُمْ طِيبَ أخبار

وإنْ تَودَّدْتَهم لانُوا، وإن شُهموا كشفْتَ أذمَار حربٍ غيرَ أغمار

مَن تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ لاقيتُ سَيِّدَهُمْ مِثْلُ النُّجوم التي يسري بها السَّاري

وقال رجلٌ من بني نهشل:

إنِّي لمِنْ مَعْشر أفْنَى أوائلَـهُـمْ قيلُ الكُماةِ ألا أينَ المحامُـونـا

لو كانَ في الألف منَّا واحدٌ فدَعَوْا مَنْ فارسٌ خالَهُمْ إيّاهُ يَعنُـونـا

وليسَ يَذْهَبُ مِنـّا سَيِّدٌ أبَـداً إلاّ افتلَيْنا غُلامـاً سَيِّداً فِينـا

وفي المعنى الأوّل يقول النّابغة الذُّبيانيّ:

وذاكَ لأنَّ اللّهَ أعطاك سُورَةً ترَى كُلَّ مُلْكِ دُونـها يَتَذَبْـذَبُ

بأنَّك شمسٌ والملوك كواكـب إذا طَلَعتَ لم يَبْدُ منـهنّ كَوكَبُ

وفي غير ذلك من المديح يقول الشاعر:

وأتيتُ حَيّاً في الحروب محلُّهم والجيشُ باسم أبيهمُ يُستَهـزَمُ

وفي ذلك يقول الفرزدق:

لتَبْك وكيعاً خيلُ لـيلٍ مُـغيرةٌ تَساَقى السِّمامَ بالرُّدَيْنِيَّة السُّمْـر

لقوا مثلَهم فاستهزَموهمْ بـدعوةٍ دعَوْها وكيعاً والرِّماحُ بهم تجري

وأما قول الشاعر:

تخامل المحتد أو هزام

فإنَّما ذهبَ إلى أنَّ الدَّعوة إذا قام بها خامل الذّكر والنسب فلا يحسُده من أكفائه أحدٌ وأما إذا قام بها مذكورٌ بيُمن النَّقيبة، وبالظّفَر المتتابع، فذلك أجود ما يكون، وأقرَبُ إلى تمام الأمر.

وقال الفرزدق:

تَصرَّم منّي وُدّ بكر بن وَائلٍ وما كان وُدّي عَنْهُمُ يتصرَّمُ

قوارصُ تأتِيني ويحتقرونها وقدْ يَملأ القطْرُ الأناءَ فَيُفْعَمُ

وقال الفرزدق:

وقالتْ أراه واحداً لا أخَـا لَـهُ يؤمِّله في الوَارِثين الأبـاعدُ

لعلَّكِ يوماً أن ترَيْني كـأنَّـما بَنيَّ حَوَاليَّ الأسُودُ الـحـواردُ

فإنَّ تميماً قبل أن يلد الحصـى أقام زمانـاً وهو في الناس واحدُ

وقال الفرزدق أيضاً:

فإنْ كان سيفٌ خان أو قدَرٌ أتى   لميقاتِ يومٍ حَتْفُه غير شاهد

فسَيْفُ بني عَبْسٍ وقد ضَرَبُوا بهِ   نبا بيدَيْ ورْقاءَ عن رأسِ خالدِ

كذاك سُيوفُ الهِنْدِ تنْبُو ظُباتُها   ويقْطَعْن أحياناً مَنَاطَ القلائدِ

؟؟خير قصار القصائد

وإنْ أحببتَ أن تروي مِن قِصار القصائدِ شِعراً لم يُسمَع بمثله، فالتَمِسْ ذلك في قصار قصائدِ الفَرَزدق؛ فإنك لم تَرَ شاعراً قطُّ يجمَعُ التَّجويدَ في القِصار والطِّوال غَيْرَ. وقد قيل للكُميت: إنْ النَّاسَ يزْعمون أنّك لا تقدِر على القصار قال: مَنْ قال الطِّوال فهو على القِصار أقدر.
هذا الكلام يَخْرج في ظاهر الرَّأي والظَّن، ولم نجدْ ذلك عند التَّحصيل على ما قال.
وقيل لعَقِيل بن عُلَّفة: لم لا تُطيل الهجاء؟ قال: يَكفيك مِنَ القِلادة مَا أحَاط بالعُنق.
وقيل لجرير: إلى كَمْ تهجُو النَّاس؟ قال: إنِّي لا أبتدي، ولكنِّي أعتدي.
وقيل له: لم لا تقصِّر؟ قال: إن الجماحَ يمنع الأذى.

شعر مختار

قال عبيد بن الأبرص:

نُبِّئتُ أنَّ بَني جَدِيلة أوْعَبُوا   نُفَراءَ من سَلْمى لنا وتَكَتَّبُوا

ولقد جَرى لهمُ فلم يتعيَّفوا   تيسٌ قعيدٌ كالهِرَاوةِ أعضَبُ

وأبو الفِراخ على خشاش هشيمةٍ   متنكِّبٌ إبط الشَّمائل ينْعَبُ

فتجاوزوا ذاكمْ إلينا كلَّه   عَدْواً وقَرْطبةً فلما قرَّبوا

طُعِنوا بمُرَّان الوَشيج فما تَرى   خلفَ الأسِنّةِ غَيْرَ عِرْقٍ يشْخَبُ

وتَبَدَّلوا اليَعْبوبَ بَعدَ إلههمْ   صَنَماً ففرُّوا يا جَدِيلَ وأعذِبوا

وقال آخر:

ألم تَرَ حَسّان بنَ مَيسرة الذي   بجُوْخَى إلى جيرانه كيفَ يَصنَعُ

مَتَاريبُ ما تنفكُّ منهم عِصابة   إليه سِراعاً يحصُدُون ويزْرَعُ

شعر في قوله يريد أن يعربه فيعجمه

وبابٌ آخر مثلُ قوله:

يريد أن يُعربَه فيُعجمَهُ

وقال آخر:

كأنَّ مَنْ يحفظها يُضيعها

وقال آخر:

أهوجُ لا يَنفعُهُ التثَّقيفُ

وقال بعض المحدَثين في هذا المعنى:

إذا حَاوَلوا أن يَشْعَبُوها رَأيتَها ... مَعَ الشَّعْب لا تزْدَادُ إلا تَدَاعِيَا

وقال صَالِحُ بنُ عبدِ القُدُّوس:

والشيخُ لا يَتْـرُكَ أخـلاقـهُ ... حَتَّى يُوارَى في ثرَى رَمْسِهِ

إذا ارْعَوَى عادَ إلى جَهلِـهِ ... كَذِي الضَّنَا عادَ إلى نُكْسِـهِ

ومثل هذا قولـه:

وتَروضُ عِرْسكَ بَعْدَ ما هَرمتْ ... وَمِنَ العَناءِ رِياضةُ الـهـرِمِ

وقال حُسيل بن عُرْفُطة:

لِيَهْنيكَ بُغْضٌ في الصَّديق وَظِنـة ... وتحديثُك الشَّيء الذي أنت كـاذِبُـهْ

وأنكَ مَشْنوءٌ إلـى كـلِّ صـاحـبٍ ... قلاك ومثلُ الشَّرِّ يُكْـرَهُ جـانـبُـهْ

وأنَّك مِهْداءُ الخَنا نَـطِـفُ الـنـثـا ... شَدِيدُ السِّبَاب رافع الصوتِ غالبُـهْ

فلم أرَ مِثْلَ الجَهْل يَدْعو إلى الـرَّدى ... ولا مِثْلَ بُغْضِ النَّاس غمّضَ صَاحِبُه

كلمة للزِّبرقان وقال الأصمعي: قال الزِّبرقان بنُ بدر: خَصْلَتان كبيرتان فِي امرئ السَّوء: شِدَّة السِّباب، وكثرة اللِّطام.
تمجيد الأقارب وقال خالد بن نَضْلَة:

لَعَمْري لَرَهْطُ المَرءِ خَيْرٌ بَقِيةً عليَه ولو عالَوْا به كلّ مَركبِ

منَ الجانِبِ الأقصَى وإنْ كان ذا نَدى كثيرٍ ولا يُنْبيك مثلُ المجرِّبِ

إذا كنْتَ في قومٍ عِداً لستَ مِنْهُمُ فكلْ مَا عُلِفْتَ مِنْ خَبيثٍ وَطيِّبِ

فإنْ تَلتَبِسْ بي خَيلُ دُودَان لا أرِمْ وإن كنتُ ذا ذَنْب وإن غَيْرَ مُذْنِبِ

بكل وادٍ بنو سعد

قال: ولمَّا تأذَّى الأضبط بنُ قريع في بني سعد تحوَّلَ عنهمْ إلى آخَرينَ فآذَوه فقال: بكلِّ وادٍ بنو سعد.
مقطَّعات شتَّى وقال سُحَيمُ بن وَثِيل:

ألا ليسَ زَينَ الرَّحلِ قِطْعٌ ونُمْرُق ولكنَّ زَينَ الرَّحْلِ يا ميَّ راكبُه

وقال أعرابيٌّ:

فما وجْدُ مِلواحٍ مِنَ الهيمِ خلِّئتْ عن الماء حتَّى جَوْفُها يَتَصَلْصَلُ

تحومُ وتَغْشَاها العِصيُّ وحَوْلها أقَاطيعُ أنعامٍ تُعَلُّ وتُنْهَلُ

بأكثرَ مِنِّي غُلَّة وتعطُّفاً إلى الورد إلاَّ أنني أتَجمّلُ

وقال خالدُ بن عَلْقَمةَ ابنُ الطَّيفان، في عيب أخْذِ العَقْل والرِّضا بشيءٍ دونَ الدَّم، فقال:

وإنَّ الَّذي أصبحْتُمُ تَحلُبُونَه دَمٌ غَيْرَ أنّ اللَّونَ ليس بأحْمَرَا

فلا تُوعِدُوا أولادَ حَيَّانَ بَعْدَما رَضِيتُمْ وزوّجتم سَيَالة مِسْهَرَا

وأعجَبَ قِردٍ يقصم القمل حَالقاً إذا عبّ في البَقِيةِ بَرْبَرَا

إذا سكَبُوا في القعبِ من ذي إنائهم رأوا لَونَه في القعبِ وَرداً وأشقرا

الغضب والجنون

في المواضع التي يكون فيها محموداً

قال الأشهبُ بن رُمَيلة:

هرّ المَقادَةَ من لا يستقيدُ لها واعصَوْصَب السَّيرُ وارتدّ المساكينُ

مِنْ كلِّ أشعثَ قدْ مالَتْ عِمامَتهُ كأنَّهُ مِنْ ضِرار الضَّيم مجْنُون

وقال في شبيهِ ذلك أبو الغول الطُّهَويُّ: فَدَتْ نفسي وما مَلَكَتْ يَميني مَعاشِرَ صُدِّقتْ فيهم ظُنُوني مَعاشِرَ لا يملُّون المنايا إذا دَارتْ رَحَى الحربِ الطَّحون ولا يجزُون مِن خير بشر ولا يَجْزُون من غِلَظٍ بِلِين ولا تَبلى بَسَالتُهُمْ وإنْ هُمْ صَلُوا بالحَرْبِ حيناً بعدَ حين هُمُ أحموا حِمَى الوَقْبَى بضَرْبٍ يُؤَلِّف بينَ أشْتَاتِ المَنُون فنَكَّبَ عنهمُ دَرْءَ الأعادِي وَدَاوَوْا بالجُنُونِ من الجنونِ وقال ابن الطَّثْريَّة:

لو أنَّني لم أنلْ منكم معاقبةً إلا السِّنَانَ لذاقَ الموت مظعونُ

أو لاختطبتُ فإني قد هممت به بالسّيف إن خطيب السَّيفِ مَجْنُونُ

وقالَ آخر:

حمراءُ تامِكة السَّنام كأنَّها جَمَلٌ بهودج أهْلِهِ مَظْعُون

جادَتْ بها يَومَ الوَداعِ يَمينه كِلْتَا يَدَيْ عَمْرو الغَدَاةَ يَمينُ

ما إنْ يجود بمثلها في مثلِه إلاَّ كَريمُ الخِيمِ أو مجْنُونُ

وفي هذا المعنى يقول حسَّان، أو ابنُه عبدُ الرحمن بن حسَّان:

إنَّ شَرْخَ الشَّبابِ والشَّعَرَ الأسْ ودَ ما لَمْ يُعَاصَ كانَ جُنونَا

إنْ يكُنْ غثَّ مِنْ رَقاشِ حَدِيثٌ فبما نأكُلُ الحديثَ سَمِينا

وفي شبيهٍ بذلك قول الشَّنْفَرَى:

فدَقَّتْ وجلَّتْ واسْبَكَرَّتْ وأكْمِلتْ فلو جُنَّ إنْسانٌ مِنَ الحُسْنِ جُنّتِ

وقال القُطاميُّ - حين وصف إفراط ناقتِه في المرَح والنَّشاط:

يَتْبَعْن ساميةَ العَيْنَينِ تحسَبُـهـا   مَجْنُونَةً أو تُرَى ما لا تَرَى الإبلُ

وقال ابنُ أحَمرَ، في معنى التشبيه والاشتقاق:

بهَجْلٍ من قساً ذفِرِ الخُزَامى   تداعى الجِرْبياءُ به الحنينـا

تَفقّأَ فوقهُ القَلَعُ السَّوَاري   وجُنّ الخازباز بهِ جُنُـونـا

وفي مثل ذلك يقول الأعشى:

وإذا الغيثُ صوبُه وَضَع القِدْ   حَ وجُنَّ التِّـلاعُ والآفـاقُ

لم يزِدْهُمْ سَفاهةً نشْوةُ الخم   ر ولا اللّهوُ فيهمُ والسِّبـاقُ

وقال آخر في باب المزاح والبَطالة، مما أنشَدَنيه أبو الأصبغ بن ربعيّ:

أتَوني بمجنونٍ يَسِيلُ لُـعَـابُـه   وما صاحبي إلاَّ الصَّحِيحُ المسلَّمُ

وأنشدني ابراهيم بن هانئ، وعبد الرحمن بن منصور:

جنونك مجنون ولست بواحدٍ   طبيباً يداوي من جنون جنون

إبراهيم بن هانئ والشعر

وكان إبراهيم بن هانئ لا يقيم شعراً ولا أدري كيف أقامَ هذا البيت.
وكان يدَّعى بحضرة أبي إسحاق علمَ الحِسابِ، والكلامِ، والهندسةِ، واللحون، وأنه يقول الشعر؛ فقال أبو إسحاق: نحن لم نمتحِنك في هذه الأمور، فلك أن تدّعِيهَا عندنا، كيف صرْتَ تدّعي قول الشعر، وأنتَ إذا رويتَه لغيرك كسرته؟ قال: فإنّي هكذا طبعتُ، أن أقيمه إذا قلت، وأكسره إذا أنشدت قال أبو إسحاق: ما بعدَ هذا الكلام كلام.

جواب أعرابي

وقلت لأعرابيّ، أيّما أشدُّ غلمةً: المرأة أو الرجل؟ فأنشد:

فوَاللَّهِ ما أدْري وإنّي لَسـائِلُ   أألأيرُ أدنَى للفجور أو الحِرُ

وقد جاءَ هذا مُرخِياً من عِنانه   وأقبلَ هذا فاتحاً فاه يهـدرُ

مقطعات شتى

وأنشد بعضهم:

أصبَح الشَّيبُ في المفارق شاعا   واكتَسى الرأسُ من بياض قناعا

ثم وَلَّى الشَّبابُ إلاَّ سقليلاً   ثم يأبَى القليلُ إلاَّ نزاعا

وأنشد محمد بن يسير:

قامتْ تُخاصرني لِقُبَّتِها   خَوْدٌ تَأَطَّرُ ناعِمٌ بكْرُ

كلٌّ يَرَى أنَّ الشَّبابَ له   في كل مبلغ لَذَّةٍ عُذْرُ

وقال الآخرُ في خلاف ذلك، أنشدنيه محمد بن هشام السِّدري:

فلا تعذُراني في الإساءةِ إنَّه   أشرُّ الرِّجال مَنْ يسيءُ فيُعذَرُ

وقال ابن فسوة:

فلَيت قلوصي عُرِّيت أوْ رحلتها   إلى حَسَن في داره وابن جعفر

إلى مَعْشَر لا يَخصِفُونَ نِعالَهم   ولا يلبَسُون السِّبْتَ ما لم يُحضَّر

وقال الطِّرِمَّاحُ بنُ حكيم، وهو أبو نفْر:

لقد زادني حُبّاً لنَفسيَ أنَّني   بَغيضٌ إلى كلّ امرئٍ غَيْر طائل

إذا ما رآني قطَّعَ الطَّرْفَ بَيْنَه   وَبَيْنِيَ فِعْلَ العارفِ المتجاهِلِ

ملأتُ عليه الأرض حتّى كأنّها   من الضِّيق في عَيْنَيهِ كِفَّةُ حابل

وقال آخر:

إذا أبصرتَني أعْرَضْتَ عَنِّي   كأنَّ الشَّمْسَ مِنْ قِبَلي تَدُورُ

وقال الخُرَيمي وَذكر عماه:

أصغي إلى قائدي ليخبرنـي إذا التقينا عمـن يحـيينـي

أريدُ أن أعدِلَ الـسَّلامَ وأنْ أفصِلَ بَيْنَ الشَّريفِ والدُّونِ

اسمَعُ ما لا أرَى فأكره أنْ أخطِئَ، والسَّمْعُ غيرُ مَأمُونِ

لِلّه عيني التي فجعْتُ بـهـا لو أنّ دَهراً بها يَواتـيـنـي

لو كنْتُ خيِّرتُ ما أخَذْتُ بها تَعْميرَ نُوحٍ في مُلْكِ قارُون

وقال بعضُ القدَماء:

ألم تَرَ حوشَباً أضحى يُبنِّي قُصُوراً نفعُها لِبَني بُقيله

يُؤَمِّل أنْ يُعَمَّرَ عُمْرَ نُوحٍ وأمرُ اللّهِ يحدثُ كلَّ لَيْلَه

وقال ابن عبَّاسٍ بعد ما ذهب بصره:

إنْ يأخُذِ اللّهُ من عينيَّ نُورَهُمـا ففِي لِساني وقلبي مِنْهُما نـورُ

قلبي ذكيٌّ وعَقلي غَيْرُ ذي دَخلٍ وفي فمي صارمٌ كالسَّيفِ مأثورُ

وقال حسَّان يذكرُ بيانَ ابن عبَّاس:

إذا قال لم يَترك مقالاً ولم يقـفْ لِعِيٍّ ولم يَثْنِ اللّسانَ على هُجْرِ

يصرِّف بالقولِ اللسانَ إذا انتحى وينظر في أعطافه نظرَ الصَّقْرِ

شعر في الخصب والجدب

وقال بعضُ الأعراب يذْكُرُ الخِصْبَ والجَدْبَ:

مُطِرْنا فلمّا أنْ رَوِينَاَ تـهـادَرَتْ شَقاشِقُ فيهـا رائبٌ وحَـلـيبُ

ورابت رجالاً مِنْ رجال ظُـلامةَ وعُدَّتْ ذُحولٌ بينـهـم وذنـوبُ

ونُصّتْ ركابٌ للصِّبا فتَـرَوَّحَـتْ لهنَّ بما هاج الحبـيبَ خـبـيبُ

وطنَّ فناءُ الحيِّ حتَّى كأنَّه رَحى مَنْهَلٍ مِنْ كَرِّهِنّ نحيب

بني عمِّنا لا تَعْجَلُوا، ينضُبُ الثَّرَى قليلاً ويَشفى المتْرَفِينَ طبيبُ

فلو قدْ تَوَلَّى النَّبتُ وامتيرَت القُرى وحَنَّتْ رِكابُ الحيِّ حِينَ تثوب

وصارَ غَبُوقَ الخَودِ وهي كريمةٌ على أهلها، ذو جُدَّتين مَشُوب

وصار الَّذي في أنْفِه خُنزوانَةٌ ينادَى إلى هادي الرَّحى فيجيبُ

أولئك أيَّامٌ تُبَيِّنُ ما الفتَى أكابٍ سُكَيْتٌ أمٌ أشمُّ نجيبُ

وقال: ولما وَلِي حارثة بنُ بَدْرٍ سُرَّق، كتب إليه أنَسُ بن أبي إياسٍ الدُّيلي:

أحار بنَ بَدْرٍ قد وَلِيتَ ولايةً فكُنْ جُرَذاً فيها تَخُونُ وتَسْرِقُ

وباهِ تميماً بالغِنى إنَّ لِلغِنى لساناً به المرءُ الهَيُوبَةُ يَنْطِقُ

ولا تحقِرَنْ يا حار شيئاً ملكته فحظُّك من ملك العراقين سُرَّق

فإنَّ جميعَ النَّاس إمَّا مُكذَّبٌ يقُول بما يَهوَى، وإمَّا مصَدَّقُ

يقولون أقوالاً ولا يَعرِفُونها ولو قيل هاتُوا حقّقوا لم يحقّقوا

وقال بعض الأعراب:

فلمَّا رَأينا القوم ثاروا بَجَمْعهِمْ رَعيْنَا الحديثَ وهو فِيهمْ مُضيَّعُ

وأدْرَكَنا من عِزِّ قيسٍ حفيظةٌ ولاخيْرَ فيمن لا يضرّ وينْفَعُ

أقوال مأثورة

ويقال إنَّ رجلاً قال لبعض السَّلاطين: الدُّنيا بما فيها حديث، فإن استَطَعتَ أنْ تكونَ مِن أحسَنِها حديثاً فافعَلْ.
وقال حُذيفة بنُ بدرٍ لصاحبه يوم جَفْر الهباءة، حينَ أعطاهُمْ بلسانه ما أعْطى: إيَّاك والكلامَ المأثور.
وأنشد الأصمعي:

كلُّ يومٍ كأنَّه يومُ أضْحـى   عِنْدَ عبد العَزيز أو يومُ فِطر

وقال: وذكر لي بعضُ البَغداديِّين أنَّه سمع مدَنِيّاً مرَّ ببابِ الفَضْلِ بن يحيى - وعلى بابه جماعةٌ من الشعراء - فقال:

ما لَقِينا مِنْ جُودِ فضلِ بن يَحيى   تَرَكَ النَّاسَ كُلَّهُمْ شُعَرَاءَ

وقال الأصمعي: قال لي خَلَفٌ الأحمر: الفارسيٌّ إذا تظرّف تساكت، والنَّبطيٌّ إذا تظرَّف أكثر الكلام.
وقال الأصمعيُّ: قالَ رجلٌ لأعرابيٍّ: كيف فلانٌ فيكم؟ قالَ: مرزوقٌ أحمق قالَ: هذا الرَّجلُ الكامل.
قال: وقال أعرابيٌّ لرجل: كيف فلانٌ فيكم؟ قَال: غنيٌّ حَظِيٌّ، قال: هذا من أهل الجَنَّة

السواد والبياض في البادية

الأصمعيُّ قال: أخبرني جَوسق قال: كان يقال بالبدو: إذا ظَهَرَ البَياضُ قلَّ السَّواد، وإذا ظهَرَ السَّواد قلَّ البَياض، قال الأصمعيُّ: يعني بالسَّواد التَّمر، وبالبياضِ اللَّبن والأقِط، يقول: إذا كانت السَّنَةُ مجدِبة كثُرَ التَّمْرُ وقلَّ اللَّبن والأقِط، وقال: إذا كان العام خصيباً ظهر في صدقةِ الفِطر البياض يعني الإقِط وإذا كان جَدِبياً ظهر السَّواد، يعني التّمر.
وتقول الفُرس: إذا زَخَرت الأودية بالماء كثُر التَّمر، وإذا اشتدَّت الرِّياح كثر الحبُ.

وقل في أثر الريح في المطر

وحدَّثني محمَّد بن سلام، عن شُعيب بن حجر قال: جاء رجلٌ على فرسٍ فوقفَ بماءٍ من مياه العرب فقال: أعندكم الرِّيحُ الَّتي تكُبّ البعير؟ قالوا: لا، قال: فتدْري الفارس؟ قالوا: لا، قال: فكما تكون يكونُ مطرُكم.
وحدَّثني العُتْبيُّ قال: هَجَمْتُ على بطنٍ بينَ جبلين، فلم أرَ وادياً أخصبَ منه، وإذا رجالٌ يتركَّلون على مَسَاحيهم، وإذا وجوهٌ مهَجَّنة، وألوان فاسِدة فقلتُ: واديكُمْ أخصبُ وادِ، وأنتم لا تشبهُونَ المخاصيبَ قال: فقال شيخٌ منهم: ليس لنا ريح.

شعر في الخصب

وقال النَّمر بن تولب:

كأنَّ حَمدة، أو عزّتْ لها شَبَهـا   في العين يوماً تلاقيْنا بـأرمـام

ميثاءُ جاد عليها وابـلٌ هَـطِـلٌ فأَمْرَعَتْ لاحتيالِ فَرْطِ أعـوامِ

إذا يَجفُّ ثـراهَـا بـلَّـهـا دِيَمٌ مِن كوكبٍ بزل بالماء سَـجـامِ

لم يَرْعَها أحدٌ واربتها زَمـنـاً فأوٌ مِنَ الأرضِ محفوف بأعلامِ

تَسْمَعُ للطَّير في حافاتِها زَجلاً كأنّ أصواتَها أصواتُ جُـرَّامِ

كأنَّ ريحَ خُزَاماها وحنْـوَتـهـا باللَّيل ريحُ يَلَنجوجٍ وأهْـضـامِ

قال: فلم يَدَعْ معنًى مِنْ أجلِه يُخصِبِ الوادي ويعتمُّ نبتُه إلاّ ذكره وصدق النمر.
وقال الأسديُّ في ذِكر الخِصْب ورطوبة الأشجار ولدونة الأغصان وكثرة الماء:

وَكأنَّ أرْحُلَنا بجـوِّ مُـحَـصَّـبٍ بلِوى عُنيزة من مَقيل التَّـرمُـسِ

في حيثُ خالَطتِ الخُزَامى عَرْفَجاً يأتيك قابِسُ أهلـه لـم يُقْـبَـسِ

ذهب إلى أنَّه قد بَلَغَ من الرُّطوبة في أغصانه وعيدانه، أنَّها إذا حُكَّ بعضها ببعضٍ لم يقدح، وفي شبيهٍ بذلك يقول الآخر، وذهب إلى كثرة الألوان والأزهار والأنوار:

كانت لنا من غطفانَ جارَهْ كأنـهـا مـن دبَـل وشـاره

والحلْي حلْي التِّبر والحِجارَه مَدْفعُ مَيثاءَ إلـى قـرارَهْ

ثم قال:

إيَّاكِ أعني واسمعي يا جاره

وقال بشَّار :

وحديثٍ كأنّه قِطعُ الـرَّو ضِ وفيه الحَمْراء والصَّفراءُ

الفطن وفهم الرَّطانات..

والكنايات والفهْم والإفهام

حديث المرأة التي طرقها اللصوص

الأصمعي قال: كانت امرأة تنزل متنحِّية من الحيّ، وتحبُّ العُزلة وكان لها غَنَمٌ، فطرقها اللُّصوص فقالت لأمَتِها: اخرُجي مَنْ هاهنا؟ قالت: هاهنا حَيَّانُ، والحُمارِس، وعامرٌ والحارثُ، ورأسُ عَنْز وَشادن، وراعِيا بَهْمنا: فنحْن ما أولئك، أي: فنحن أولئك، فلما سَمِعُوا ذلك ظنُّوا أنَّ عِندَها بنِيها، وقال الأصمعيُّ مرّة: فلما سمِعت حِسَّهم قالت لأمَتِها: أخرجِي سُلُحَ بَنيَّ من هاهن.
قال: وسُلُح جمع سُلاح، وحيّان والحمارس: أسماءُ تُيوسٍ لها.

قصة الممهُورة الشياه والخمر

قال الأصمعيُّ: تزوَّج رجلٌ امرأةً فساق إليها مهرها ثلاثين شاة، وبعثَ بها رسولاً، وبعثَ بزقٍّ خَمْر، فعَمَدَ الرَّسولُ فذبح شاةً في الطريق فأكَلها، وشَرَب بَعْض الزَّقّ، فلما أتَى المرأة نظرت إلى تسع وعشرين ورأت الزّقّ ناقصاً، فعلمِت أنَّ الرجل لا يبعثُ إلاَّ بثلاثين وَزقٍّ مملوءٍ فقالت للرسول: قل لصاحبك: إن سُحيماً قد رُثم، وإن رسولَك جاءَنا في المحاق فلما أتاه الرَّسولُ بالرِّسالة: قال يا عدوَّ اللّه، أكلتَ مِنَ الثلاثينَ شاةً شاةً، وشربْتَ من رَأس الزِّق فاعتَرَف بذلك.

قصة العنبريّ الأسير

الأصمعيُّ قال: أخبرني شيخٌ من بني العنبر قال: أسر بَنو شَيبانَ رجلاً من بني العنبر، قال: دَعوني حتى أرسل إلى أهلي ليَفدُوني، قالوا: على ألاّ تكلّم الرّسولَ إلاَّ بين أيدينا، قال: نعم، قال: فقال للرسول، ائتِ أهلي فقل: إنَّ الشَّجر قد أوْرق، وقل: إنَّ النِّساءَ قد اشْتَكت وخرَزَت القِرب، ثمَّ قال له: أتعقِلُ؟ قال: نعم، قال: إنْ كنت تَعقِلُ فما هذا؟ قال: الليل، قال: أراك تعقل انطلق إلى أهلي فقل لهم: عَرُّوا جملي الأصهب، واركَبُوا ناقتي الحمراء، وسلوا حارثاً عن أمري - وكان حارث صديقاً له - فذهب الرَّسولُ فأخبرَهم، فدعَوا حارثاً فقصَّ عليه الرَّسولُ القِصة،فقال أمّا قوله: إنَّ الشَّجَر قد أورق فقد تسلَّح القوم، وأمّا قوله: إن النساء قد اشتكتْ وخرَزت القِرَب فيقول: قد اتخذت الشِّكا وخَرزت القِرَبَ للغزو، وأما قوله: هذا الليل فإنَّه يقول: أتاكم جَيشٌ مثلُ الليل، وأمّا قوله: عرُّوا جملي الأصهْب فيقول: ارتحلوا عن الصَّمَّان، وأما قوله: اركَبُوا ناقتي الحمراء فيقول انزلُوا الدَّهناء.
وكان القوم قد تهيَّؤوا لغزْوهم، فخافوا أن يُنذِرهم، فأنذرهم وهم لا يشعرون فجاء القومُ يطلبونهم فلم يجدُوهم.

قصة العطاردي

وكذلك صنع العُطاردي في شأن شِعب جبلة، وهو كرب بن صفوان؛ وذلك أنه حينَ لم يرجِع لهمْ قولاً حين سألوه أن يقول، ورَمى بصُرَّتين في إحداهما شوك، والأخرى تراب، فقال قيس بن زهير: هذا رجلٌ مأخوذٌ عليه ألا يتكلَّم، وهو ينذِركم عدَداً وشَوْكة.
قال اللّهُ عزَّ وجلَّ: "وَتَوَدُّونَ أنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكمْ".

شعر في صفة الخيل والجيش

قال أبُو نخيلة:

لما رأيتُ الـدِّينَ دينـاً يُؤْفَك　　وأمْسَتِ القُبةُ لا تستمْسِكُ

يُفْتَقُ مِن أعْراضها ويُهتـك　　سرت من الباب فطارَ الدَّكدَكُ

منهـا الدَّجُوجيُّ ومِنها الأرْمَـكُ　　كالّليل إلاَّ أنّـهـا تَـحَـرَّكُ

وقال منَصورٌ النَّمري:

ليلٌ من النَّقْعِ لا شَمَسٌ ولا قمرٌ　　إلاَّ جبينُك والمذروبة الشُّرُعُ

وقال آخر:

كأنَّهم ليلٌ إذا استنفِرُوا　　أو لُجَّةٌ ليس لها ساحلُ

وقال العجاج:

كأنَّـمـا زُهـاوُه إذا جُـهـرْ　　ليلٌ وَرزٌّ وَغْرهِ إذا وَغَـرْ

سارِ سَرَى مِن قِبَلِ العَيْنِ فجر

وفي هذا الباب وليس منه يقول بشَّار:

كأنَّ مُثارَ النَّقع فوقَ رؤُوسهم　　وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبُـه

وقال كلثوم بن عمرو:

تَبْني سنابكُهم من فوق أرؤسهم　　سقفا كواكبه البيضُ المبَاتـيرُ

وهذا المعنى قد غلب عليه بشّار، كما غلب عنترةُ على قوله:

فتَرَى الذُّبابَ بها يُغنِّي وَحدَه　　هَزجاً كفِعْلِ الشَّارب المترنِّم

غَرداً يُحكُّ ذِراعه بـذِرَاعـه　　فِعل المُكِبِّ على الزِّنـادِ الأجذَم

فلو أنَّ امرأ القيس عَرضَ في هذا المعنى لعنترة لافتَضَح.

مقطعات شتى

وقال بعضهم في غير هذا المعنى:

وفلاةٍ كأنَّما اشتَمَلَ الّلـلي	لُ على رَكبِها بأبناءِ حـام
خضْتُ فيها إلى الخَليفة بالرِّ	قَّةِ بحرَيْ ظهيرةٍ وظلام

وقال العَرْجيُّ:

سمّيتني خَلَقاً بـخَـلَّةٍ قدُمَتْ	ولا جَدِيدَ إذا لم يُلبَس الخَـلَـقُ
يا أيها المتحلِّي غيْرَ شِيمَتـه	ومِنْ خلائقهِ الإقصادُ والمَلَـقُ
ارجعْ إلى خِيمِك المعروفِ دَيْدَنُه	إن التَّخَلقَ يأتي دُونَهُ الخُـلُـقُ

وقال آخر:

أودَى الخِيارُ مِنَ المعاشِرِ كلهمْ	واستَبَّ بَعْدَك يا كُلَيْبُ المَجْلسُ
وتنازَعوا في كلِّ أمرِ عظيمةٍ	لو قدْ تكونُ شهدْتهُمْ لم ينْبسُوا

وأبياتُ أبي نواسٍ على أنه مولَّد شاطر، أشعرَ من شعر مهلهل في إطراق النَّاس في مجلِس كليب، وهو قوله:

على خبز إسماعيلَ واقِيَة البُـخْـلِ	وقد حلَّ في دَارِ الأمان مِنَ الأكْلِ
وما خبزُهُ إلاَّ كآوَى يُرى ابـنـهـا	ولم تُرَ آوى في الحزون ولا السَّهْلِ
وما خبزُه إلاّ كعَنْـقـاء مُـغـربٍ	تُصوَّرُ في بُسْطِ الملوك وفي المثل
يحدث عنها النَّاس من غير رُؤيةٍ	سِوى صُورةٍ ما أن تُمِرُّ ولا تُحْلي
وما خبـزُه إلاَّ كـلـيبُ بـنُ وائلِ	لَيالِيَ يحمي عزُّه مَنْبتَ الـبَـقْـلِ
وإذْ هو لا يستبُّ خَصْمانِ عِـنْـدَه	ولا القولُ مرفوعٌ بجد ولا هَـزْلِ
فإنْ خبْزُ إسماعيل حلَّ بـه الـذي	أصاب كليباً لم يكن ذاك عن بَـذْلِ

ولكنْ قضاءٌ ليس يُسطاعُ دَفْعهُ بحيلةِ ذي دَهْيٍ ولا فِكْرِ ذي عقل

شعر العرب والمولدين

والقضية التي لا أحتشِمُ منها، ولا أهابُ الخصومة فيها: أنّ عامّة العرب والأعراب والبدوِ والحضر من سائر العرب، أشعر من عامَّة شعراء الأمصار والقُرَى، من المولدة والنابتة، وليس ذلك بواجبٍ لهم في كلِّ ما قالوه.
وقد رأيت ناساً منه يبهرِجون أشعارَ المولّدين، ويستسقِطون مَن رواها ولم أر ذلك قطُّ إلاَّ في راويةٍ للشعر غير بصيرٍ بجوهر ما يروى، ولو كان له بصرٌ لعرَفَ موضعَ الجيِّد ممَّن كان. وفي أيِّ زمان كان.
وأنا رأيت أبا عمرو الشيبانيَّ وقد بلغ من استجادته لهذين البيتين، ونحن في المسجد يوم الجمعة، أن كلَّف رجلاً حتى أحضره دواةً وقرطاساً حتَّى كتبهما له، وأنا أزعم أنَّ صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبداً، ولولا أن أدخِلَ في الحكم بعض الفتك؛ لزعمتَ أنّ ابنَه لا يقول شعراً أبداً، وهما قوله:

لا تحسِبَنَّ الموتَ مَوْتَ البِلَى فإنَّما الموتُ سُؤالُ الرِّجالِ

كلاهما موتٌ ولكِنَّ ذا أفظعَ من ذاكَ لذلِّ السُّؤالِ

القول في المعنى واللفظ

وذهب الشَّيخُ إلى استحسانِ المعنى، والمعاني مطروحةٌ في الطريق يعرفها العجميُّ والعربيُّ، والبدويُّ والقرَوي، والمدنيّ، وإنَّما الشأنُ في إقامةِ الوزن، وتخيُّر اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحَّة الطبع وجَودَة السَّبك، فإنما الشعر صناعةٌ، وضَرْبٌ من النَّسج، وجنسٌ من التَّصوير.
وقد قيل للخَليلِ بنِ أحمد: ما لكَ لا تقولُ الشِّعر؟ قال: الذي يجيئُني لا أرضاه، والذي أرْضاه لا يجيئني.
فأنا أستحسن هذا الكلام، كما أستحسن جوابَ الأعرابيِّ حين قيل له: كيفَ تجِدُك؟ قال: أجدني أجدُ ما لا أشتَهي، وأشتَهي ما لا أجد.

شعر ابن المقفع

وقيل لابن المقفَّع: ما لك لا تجوزُ البيتَ والبيتين والثلاثة قال: إنْ جُزْتُها عرَفوا صاحبَها، فقال له السائل: وما عليك أنْ تُعرَفَ بالطّوال الجياد؟ فعلم أنَّه لم يفهمْ عنه.
الفرق بين المولد والأعرابي ونقول: إن الفَرق بين المولَّد والأعرابي: أنَّ المولَّد يقول بنشاطه وجمع باله الأبياتَ اللاحقةَ بأشعارِ أهلِ البدو، فإذا أمعنَ انحلَّتْ قوَّتُه، واضطربَ كلامُه.

شعر في تعظيم الأشراف وفي شبيهٍ بمعنى مهلهلٍ وأبي نُوَاس، في التَّعظيم والإطراق عندَ السّادة، يقول الشاعر في بعضِ بني مروان:

في كفّه خَيْزَرَانٌ ريحُه عَبِقٌ — في كفِّ أرْوَعَ في عِرنينه شَمَمُ

يغضِي حَياءً ويغضَى مِنْ مَهابتِه — فما يكلَّم إلاَّ حين يبتَسِمُ

إن قال قال بما يَهْوَى جَميعُهمُ — وإن تكلَّمَ يوماً ساختِ الكلِمُ

كَمْ هاتفٍ بك مِن داعٍ وهاتفةٍ — يَدْعُوكَ يا قثمَ الخَيْرَاتِ يا قُثَمُ

وقال أبو نُواس في مثل ذلك:

فتَرَى الساداتِ ماثلة — لِسليلِ الشَّمس من قمرهْ

فهمُ شَتَّى ظُنُونُهمُ — حَذَرَ المطويِّ من خَبَرهْ

وقال إبراهيم بنُ هَرْمَةَ في مديح المنصور، وهو شبيهٌ بهذا وليس منه:

له لحظات عنْ حِفافيْ سريره — إذا كرَّها فيها عقابٌ ونائلُ

فأمُّ الذي أمَّنْت آمِنة الرَّدَى — وأمُّ الذي أوعدتَ بالثُّكْل ثاكلُ

شعر في الحلف والعقد وقال مُهلهلٌ، وهو يقع في باب الحلف وُكِّد بعَقْد:

مِلْنا على وائل وأقْلَتَنا — يَوْماً عديٌّ جُرَيْعَةَ الذَّقن

عتُ عنه الرِّماحَ مجتهداً — حِفْظاً لِحلفي وحلف ذي يَمن

أذكرُ مِن عهدِنا وعهدِهِمُ — عهداً وَثيقاً بمَنْحَر البُدُن

ما بلَّ بحرٌ كفاً بصوفتها — وما أناف الهضابُ من حَضَن

يزيده اللّيلُ والنَّهارُ معاً — شَدّاً، خِرَاط الجَمُوح في الشَّطَنِ

شعر في مصرع عمرو بن هند وقال جابر بن حنَيٍّ التغلبيّ:

ولسنا كأقوامٍ قريبٍ محلهُمْ — ولسنا كمن يرضيكم بالتملق

فسائل شُرَحبيلاً بنا ومحلّماً غداة نكُرُّ الخيْلَ في كلِّ خَنْدَق

لعمرك ما عمرُو بنُ هندٍ وقدْ دعا لتخدمَ ليلى أمَّهُ بموفَّق

فقام ابنُ كُلثوم إلى السَّيف مُغْضباً فأمسَكَ مِن نَدْمَانِه بالمخنَّق

وعممه عمداً على الرَّأس ضَرْبَة بذِي شُطَبٍ صافي الحديدة مخْفَق

شعر في الأقارب وقال المتلمِّس:

على كلّهم آسَى وللأصل زلفة فزحزح عن الأدنَين أن يتصدَّعوا

وقد كان إخواني كريماً جوارُهم ولكنَّ أصلَ العُود مِنْ حَيْثُ يُنزعُ

وقال المتلمس:

ولو غيرُ أخوالي أرادُوا نقِيضَتي جَعلتُ لهم فوقَ العرانِين ميسما

وما كنتُ إلاَّ مِثلَ قاطع كفِّهِ بكفٍّ لهُ أخْرَى فأصبح أجْذَما

يداهُ أصابتْ هذِهِ حَتْفَ هذه فلم تَجِدِ الأخْرَى عليها مُقدَّما

فأطرقَ إطراقَ الشجاع ولو يَرَى مَساغاً لنابَيهِ الشجاعُ لَصَمَّما

أحارثُ إنا لو تَساطُ دِماؤُنا تَزَايَلْنَ حتَّى لا يمَسَّ دَمٌ دما

تفسير كلمة لعمر قال: وسألتُ عن قول عمر بن الخطاب رضي اللّه تعالى عنه لأبي مَرْيم الحَنفي: واللّهِ لأنا أشدُّ بغضاً لك من الأرض للدَّم قال: لأنَّ الدَّم الجاري من كلِّ شيءٍ بيّن، لا يغيضُ في الأرض؛ ومتى جفَّ وتجلَّب ففرقته رأيتَ مكانَه أبيض.
إلاَّ إنَّ صاحب المنطق قال في كتابه في الحيوان: كذلك الدِّماء، إلاَّ دَمَ البعير.
أشعار شتى وقال النَّمِرُ بنُ تولَب:

إذا كنتَ في سعدٍ وأمُّك منهُمُ غريباً فلا تَغْرُرْك أمُّك من سَعْد

وقال:

وإنَّ ابنَ أختِ القومِ مُصغًى إنَاؤه   إذا لم يُزَاحِمْ خالَهُ بأبٍ جَلْدِ

وقال آخر:

تخيَّرَهُ اللّهُ الغداةَ لدِينِه   على عِلْمِهِ واللّه بالعِلْمِ أفْرَسُ

وقال آخر:

وما ترَك الهاجون لي في أديمِكم   مَصَحّاً ولكنّي أرى مُترقَعا

وقال العِجْلِيّ، أو العُكليّ، لنوح بن جرير:

أتسبُّني فأراك مثلي سُبَّةً   وأسبّ جدّكم بسبِّ أبينا

ولقد أرى والمقْتَضى متجوِّزٌ   يا نوحُ أنَّ أباك لا يُوفِينا

وقال عمرو بن معد يكرب:

إذا لم تَسْتَطعْ شيئاً فدَعْه   وجاوزْه إلى مَا تَسْتَطيعُ

وصِلْهُ بالزَّمَاعِ فكُلُّ أمرٍ   سَمَا لكَ أو سَمَوت لَهُ ولوعُ

وقال المقنَّع الكِنديُّ:

وصاحبِ السُّوءِ كالدَّاء العَياء إذا   مَا ارفضّ في الجوفِ يجري هاهُنا وهنا

يُنبي ويُخبر عن عَوْراتِ صاحبه   وما رأى عنده من صالحٍ دفنا

كمهْرِ سَوءٍ إذا رفّعت سَيْرَتَه   رامَ الجماح وإن خَفّضته حَرَنَا

إن يَحْيَ ذاك فكنْ منه بمَعْزَلَةٍ   أو ماتَ ذاكَ فلا تعْرفْ لَهُ جَنَنا

خصال الحرم

فمن خصاله: أنّ الذِّئبَ يصيد الظَّبيَ ويُريغه ويعارضه، فإذا دخَلَ الحرم كفَّ عنه.
ومن خصاله: أنّه لا يسقط على الكعبة حمام إلاّ وهو عليل، يُعرف ذلك متى امتُحنَ وتعرِّفتْ حالُه، ولا يسقط عليها ما دامَ صحيحاً.
ومن خصاله: أنّه إذا حاذى أعلى الكعبة عَرَقَةٌ من الطّير كاليمام وغيره، انفرَقَت

فِرقتين ولم يعلها طائرٌ منها.
ومن خصاله: أنَّه إذا أصاب المطرُ البابَ الذي من شِقِّ العِراق، كان الخِصب والمطرُ في تلك السَّنة في شِقِّ العِراق، وإذا أصاب الذي مِن شِقِّ الشَّام كان الخصْب والمطر في تلك السَّنَةِ في شِقِّ الشام، وإذا عمَّ جوانبَ البيتِ كان المطرُ والخِصْبُ عامّاً في سائر البُلدا.
ومن خصال الحرَم: أنَّ حَصَى الجِمار يُرمى بها في ذلك المرمى، مُذْ يومَ حَجَّ النَّاسُ البيتَ على طوَالِ الدَّهر، ثمَّ كأنَّه على مقدارٍ واحد، ولولا موضع الآيةِ والعلامة والأعجوبةِ التي فيها، لقد كان ذلك كالجبال، هذا مِنْ غير أن تكسَحَه السُّيول، ويأخُذَ منه النَّاس.
ومن سُنَّتهم: أنَّ كلَّ مَن علا الكعبةَ من العبيد فهو حرٌّ، لا يرون المِلْكَ على من علاها، ولا يجمعون بين عزّ علوِّها وذِلةِ الْمِلك.
وبمكة رجالٌ من الصُّلحاء لم يدخُلوا الكَعبة قطّ.
وكانوا في الجاهليَّة لا يبنُون بيتاً مربّعاً؛ تعظيماً للكعبة، والعربُ تسمّي كلّ بيتٍ مربَّع كعبةً، ومنه: كعبة نَجران، وكان أوَّلُ مَن بنى بيتاً مربَّعاً حُميد بن زهير، أحد بني أسد بن عبد العُزّى.
ثمَّ البركة والشفاء الذي يجدُه مَن شرب من ماءِ زمزم على وجْه الدهر وكثرةُ من يُقيم عليه يجدُ فيه الشفاء، بعد أنْ لم يدعْ في الأرض حَمَّةً إلاَّ أتاها، وأقام عندها، وشرب منها، واستنقع فيها.
هذا مع شأن الفيل، والطَّيرِ الأبابيلِ، والحِجارة السِّجِّيل، وأنَّها لم تزل أمْناً ولَقاحاً، لا تؤدِّي إتاوة، ولا تَدِين للملوك، ولذلك سمِّي البيتَ العتيق؛ لأنَّه لم يَزلْ حُرّاً لم يملِكه أحد.
وقال حرب بن أميَّة في ذلك:

أبا مطر هَلُمَّ إلـى صـلاح … فَتَكْفِيَكَ النَّدَامى مِنْ قـريشِ
فتأمَنَ وَسْطَهُمْ وتَعيشَ فيهـم … أبا مطر هُدِيتَ لخيْر عَـيشِ
وتَنْزِلَ بَلْدَةً عزَّت قـدِيمـاً … وتأمَنَ أن يَزُروكَ ربُّ جيشِ

وقال اللّه عزّ وجلّ: "وَإذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً للنَّاسِ وَأمْناً واتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إبْراهيم مُصلًّى" وقال عزَّ وجلَّ، حكايةً عن إبراهيم: "رَبَّنَا إنِّي أسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيّتي بوَادٍ غَيْرِ ذي زَرْعٍ عنْدَ بَيْتِكَ المُحَرَّمِ رَبّنا لِيُقيمُوا الصّلاة فَاجْعَلْ أفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إليْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمرَاتِ لَعَلَّهُمْ يشكرُونَ".

خصال المدينة

والمدينة هي طيبة، ولطيبها قيل تلفِظ خَبَثها وينصعُ طيبُها، وفي ريح ترابها وبنّةِ ترْبتها، وعَرف ترابها ونسيمِ هوائِها، والنعمة التي توجد في سِكَكِها وفي حيطانها

- دليلٌ على أنَّها جُعلت آيةً حينَ جعلت حرماً.
وكلُّ من خَرجَ من منزلٍ مطيّبٍ إلى استنشاق ريح الهواء والتُّرْبة في كل بلدة فإنَّه لابدَّ عند الاستنشاق والتثبُّت مِنْ أنْ يجِدَها منتنةً، فذلك على طبقاتٍ من شأنِ البُلدان، إلاّ ما كان في مدينة الرّسول، رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، فللصَّيَّاح والعِطْر والبَخور والنضوح، من الرائحة الطيبة - إذا كان فيها - أضعافُ ما يوجد له في غيرها من البُلدان، وإن كان الصَّيّاح أجوَد، والعطر أفخرَ، والبَخور أثمن.

بعضُ البلدان الرديئة

ورُبّت بلدةٍ يستحيل فيها العطرُ وتذهب رائحته، كقصبَة الأهواز.
وقد كان الرشيدُ همَّ بالإقامة بأنطاكيَة، وكره أهلَها ذلك، فقال شيخٌ منهم، وصَدَقَهُ: يا أمير المؤمنين، ليست من بلادك، ولا بلاد مثلك، لأنّ الطِّيب الفاخرَ يتغيَّر فيها حتَّى لا يُنْتفعَ منه بكثير شيء، والسِّلاحَ يصدأ فيها ولو كان من قَلْعة الهند، ومن طبع اليمن، ومطرها ربَّما أقام شهرين، ليس فيه سكون، فلم يُقِم بها.
ثمّ ذكر المدينة فقال: وإنّ الجُويرية السّوداء، لَتَجعل في رأسها شيئاً من بَلَح، وشيئاً من نَصُوحٍ، مما لا قيمة له؛ لهوانه على أهله، فتجد لذلك خُمرةً طيِّبة وطيبَ رائحةٍ لا يعدِلُها بيتُ عَرُوسٍ من ذوي الأقدار، حتَّى إنّ النَّوى المنْقع، الذي يكونُ عندَ أهل العراق في غاية النَّتْن، إذا طال إنقاعه، يكونُ عندَهم في غاية الطِّيب، واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر الحمام

أجناسه

قال صاحب الحمام: الحمام وحشيٌّ، وأهليّ، وبيوتيّ، وطوراني، وكلُّ طائرٍ يعرف بالزِّواج، وبحسن الصَّوت، والهديل، والدُّعاء، والترجيع فهو حمام، وإن خالفَ بعضهُ بعضاً في بعض الصّوتِ واللّون، وفي بعض القدِّ، ولحن الهدِيل، وكذلك تختلف أجناس الدَّجاج على مثل ذلك ولا يخرجها ذلك من أن تكون دَجَاجاً: كالدِّيك الهندي والخِلاسيّ والنَّبطِيّ، وكالدّجاج السِّنديّ والزنجيّ وغير ذلك، وكذلك الإبل: كالعِراب والبُخْتِ، والفوالج، والبَهْوَنيّات والصَّرْصَرَانيّات، والحُوش، والنُّجب، وغير ذلك من فحول الإبل؛ ولا يخرجها ذلك من أنْ تكون إبلاً.
وما ذاك إلاّ مخالفة الجُرذانِ والفأر، والنّمْلِ والذّر، وكاختلاف الضّأنِ والمعْز، وأجناسِ البقر الأهليّة والبقر الوحشيَّة، وكقرابَةِ ما بينهما وبين الجواميس.
وقد تختلف الحيّاتُ والعقاربُ بضروبِ الاختلاف، ولا يخرجها ذلك من أن تكونَ عقاربَ وحيّاتٍ، وكذلك الكلابُ، والغِرْبان.
وحسْبُك بتفاوتِ ما بينَ النّاس: كالزِّنج والصقالبة، في الشُّعُور والألوان، وكيأجوج ومأجوج، وعاد وثمود، ومثْلُ الكَنْعَانيّين والعمالقة.
فقد تخالف الماعزة الضائنة حتىّ لا يقع بينهما تسافدٌ ولا تلاقح، وهي في ذلك غنمٌ وشاء.

قال: والقُمريُّ حمام، والفاختِةُ حمام، والورَشان حمام، والشِّفْنين حمام، وكذلك اليمام واليعقوب، وضروبٌ أخرى كلها حمام، ومفاخرها التي فيها ترجع إلى الحمام التي لا تُعرف إلاّ بهذا الاسم.
قال: وقد زعم أفْليمون صاحب الفِراسة أنَّ الحمام يتّخَذُ لضرُوب: منها ما يُتخذُ للأنس والنساء والبُيُوتِ، ومنا ما يُتّخَذُ للزِّجال والسباق.
والزِّجال: إرسال الحمام الهوادِي

مناقب الحمام

ومن مناقب الحمام حبُّه للناس، وأنس الناس به، وأنَّك لم تَرَ حيواناً قطُّ أعدلَ موضِعاً، ولا أقصَد مرتبةً من الحمام، وأسفل النّاس لا يكون دُون أنْ يتَّخذها، وأرفع الناس لا يكون فوقَ أن يتَّخذها، وهي شيءٌ يتَّخذه ما بين الحجَّام إلى الملك الهمام.
والحمامُ مع عمومِ شهوةِ النّاس له، ليس شيءٌ مما يتّخذونه هُمْ أشدُّ شغفاً به ولا أشدُّ صَبابَةً منهم بالحمام، ثمَّ تجد ذلك في الخِصيان كما تجدُه في الفحول، وتجده في الصِّبيان كما تجده في الرِّجال، وتجدُهُ في الفِتْيان كما تجدُه في الشيوخ، وتجده في النساء كما تجده في الرِّجال.
والحمامُ من الطَّير الميامين، وليس من الحيوان الذي تظهر له عورة وحجم قضيبٍ كالكلب والحمار وأشباه ذلك، فيكونَ ذلك مما يكونُ يجب على الرَّجال ألاّ يُدْخِلوه دورَهم.
كلمةٌ لمثنى في الحمام قال مثنَّى بن زهير: ومن العجب أنّ الحمامَ مُلَقَّى، والسَّكْرَان مُوقَّى، فأنشده ابن يسير بيت الخُرَيميّ:

وأعْدَدتُهُ ذُخْراً لكلِّ مُلِـمَّة   وسَهْمُ المنَايا بالذَّخائر مُولَعُ

شرب الحمام

ومتى رأى إنسان عطشان الدِّيك والدَّجاجة يشربان الماء، ورأى ذئباً وكلباً يلطعَان الماء لطْعاً، ذهَبَ عطشه من قُبْح حسْوِ الديك نغْبةً نغْبةً ومن لطْعِ الكلب، وإنَّه لَيَرى الحمام وهو يَشرب الماء وهو ريّان فيشتهي أن يَكْرَعَ في ذلك الماء معه.

صدق رغبة الحمام في النَّسل

والدِّيك والكلبُ في طلب السِّفاد وفي طلب الذَّرْء كما قال أبو الأخزْر الحِمَّانيُ:

لاَ مُبْتَغي الضَّنْءِ ولاَ بالْعَازلِ

والحمام أكثر معانيه الذَرْء وطلبُ الولد، فإذا علم الذَّكَرُ أنَّه قد أودَع رحمَ الأنثى ما يكون منه الولد تقدَّما في إعداد العشِّ، ونقلِ القصَب وشِقَق الخُوص، وأشباه ذلك

من العِيدان الخوَّارة الدِّقاق حتى يعملا أُفحوصة وينسجاها نسجاً مداخلاً، وفي الموضع الذي قد رضياه اتخذاه واصطنَعاه، بقدر جثمان الحمامة، ثمّ أشْخَصا لتِلك الأفحوصةِ حُروفاً غيرَ مرتفعة؛ لتحفَظ البيض وتمنَعه من التَّدحرج، ولتلزمَ كنَفي الجؤجؤ ولتكون رِفداً لصاحبِ الحَضْن، وسَداً للبيض، ثمَّ يتعاوران ذلك المكان ويتعاقبان ذلك القرمُوص وتلك الأفحوصة، يسخِّنانها ويدَفِّيانها ويطيِّبانها، وينفِيان عنها طِباعها الأوّل، ويُحدثان لها طبيعةً أخرى مشتقّةً من طبائعهما، ومستخرجةً من رائحةِ أبدانهما وقُواهما الفاصِلة منهما؛ لكي تقعَ البيضةُ إذا وقعت، في موضعٍ أشبهِ المواضع طباعاً بأرحام الحمام، مع الحضانة والوَثارَة؛ لكي لا تنكسر البيضة بيبُس الموضع، ولئلا ينكر طِباعُها طباعَ المكان، وليكُون على مقدارٍ من البَرْد و السَّخانَة والرَّخاوة والصَّلابَة، ثمّ إنْ ضَرَبها المخاضُ وطَرّقت ببيضتها، بَدَرَت إلى الموضع الذي قد أعدّتُه، وتحاملتْ إلى المكانِ الذي اتَّخَذتْه وصنعتهُ، إلاّ أن يقرِّعها رعدٌ قاصف، أو ريحٌ عاصفٌ فإنَّها ربّما رمَتْ بها دون ِكنِّها وظل عُشها، وبغير موضعها الذي اختارته، والرَّعدَ ربما مَرق عنده البيض وفسد، كالمرأة التي تُسقِط من الفَزَع، ويموتُ جنينُها من الرَّوع.

عناية الحمام وأنثاه بالبيض وإذا وضَعت البيضَ في ذلك المكان فلا يزالان يتعاقبان الحضنَ ويتعاورانه، حتّى إذا بلغ ذلك البيضُ مَداه وانتهَتْ أيّامه، وتمَّ مِيقاته الذي وظَّفه خالقُه، ودبَّره صاحبه، انصدع البيْض عن الفرخ، فخرجَ عاري الجِلْد، صغيرَ الجَناح، قليلَ الحِيلة، منسَدَّ الحلقوم، فيعينانه على خلاصِه من قيضه وترويحه من ضيق هَوَّته.

عنايتهما بالفراخ وهما يعلمان أن الفرخَين لا تتَّسع حلوقهما وحواصِلهُما للغذاء، فلا يكون لهما عند ذلك همٌّ إلاَّ أنْ ينفخا في حلوقهما الريح، لتتسع الحوصلةُ بعد التحامها، وتَنْفَتقَ بعدَ ارتتاقِها، ثم يعلمان أنّ الفرخ وإن اتّسعت حَوصلتُه شيئاً، أنّه لا يحتمل في أول اغتذائه أن يزقَّ بالطّعم، فيُزَقّ عند ذلك باللُّعاب المختلط بقواهما وقوى الطعْم - وهمْ يسمُّونَ ذلك اللُّعاب اللِّباء - ثم يعلمان أنّ طبع حوصلتِه يرق عن استمراء الغذاء وهضم الطُّعمِ، وأنَّ الحوصلة تحتاجُ إلى دَبْغٍ وتقوية، وتحتاج إلى أن يكون لها بعضُ المتانَة والصلابة، فيأكلن من شَوَرَج أصول الحِيطان، وهو شيءٌ بينَ المِلح الخالص وبين التُّراب الملح، فيزقَّان الفرخ حتّى إذا علما أنّه قد اندبَغ واشتدّ زقّاه بالحبِّ الذي قد غبَّ في حواصلهما ثم زقَّاه بعد ذلك بالحبِّ الذي هو أقوى وأطرى، فلا يزلان يزُقَّانه بالحبِّ والماء على مقدار قُوَّتِه ومبلغ طاقته، وهو يطلب ذلك منهما، ويبضُّ نحوهما؛ حتى إذا علما أنّه قد أطاق اللقطَ منَعاه بعضَ المنْع، ليحتاج إلى اللقْطِ فيتعوَّده، حتى إذا علما أنْ أدَاتَه قد تمَّتْ، وأن أسبابَه قد اجتَمَعَتْ وأنَّهما إن فَطماهُ فطْماً مقطوعاً مجذوذاً قويَ على اللَّقط، وبلغ لنفسِه مُنتِهى حاجتِه - ضرباه إذا سألهما الكفاية، ونَفَياه متى رجع إليهما ثمّ تنْزَع عنهما تلك الرحمةُ العجيبة منهما له، وينسَيان ذلك العطف المتمكِّنَ عليه، ويُذهَلان عن تلك الأثَرة له، والكدِّ المضني من الغُدُوِّ عليه، والرَّواح إليه، ثم يبتديان العمل ابتداءً ثانياً، على ذلك النظام وعلى تلك المقدّمات.

فسبحان من عرّفهما وألهمهما، وهداهما، وجعلهما دَلالة لمن استدلّ، ومُخبِراً صادقاً لمن استخبر، ذلكم اللّه رب العالمين.

حالات الطُّعم الذي يصير في أجواف الحيوان

وما أعجب حالاتِ الطُّعْمِ الذي يصير في أجواف الحيوان، وكيف تتصرّف به الحالاتُ، وتختلف في أجناسه الوجوه: فمنها ما يكون مثل زق الحمام لفَرخه، والزقُّ في معنى القَيء أو في معنى التقيؤ وليس بهما؛ وجِرّة البعير والشاةِ والبقرة في معنى ذلك، وليس به، والبعير يريد أن يعود في خَضمه الأوّل واستقصاء طعمه،وربَّما كانت الجِرَّةُ رجيعاً، والرَّجيع: أن يعود على ما قد أعاد عليه مرَّةً حتَّى ينزعه من جَوفه، ويقلبه عن جهته.

زَقّ الحمام

والحمام يُخرِجه من حَوصلته ومن مُسْتكَنِّه وقراره، وموضع حاجته واستمرائه، بالأثَرةِ والبرِّ، إلى حوصلةِ ولده، قد ملك ذلك وطابتْ به نفسُه ولم تغْثَثْ عليه نفسه ولم يتَقذَّر من صنيعه، ولم تَخْبُثْ نفسُه، ولم تتغيَّر شهوته، ولعلَّ لذّتَه في إخراجه أن تكون كلذّتِه في إدخاله، وإنما اللذة في مثل هذا بالمجاري، كنحو ما يعتري مجرَى النُّطفةِ من استلذاذ مرُور النَّطفة، فهذا شأن قلْب الحمام ما في جوفه، وإخراجه بعد إدخاله، والتمساح يخرجه على أنّه رجعُه ونْجوه الذي لا مخرج له ولا فَرَج له في سواه.
تصرف طبيعة الإنسان والحيوان في الطعام وقد يعتري ذلك الإنسان لِما يعرِض من الدَّاء، فلا يعرف إلاّ الأكلَ والقيء، ولا يعرف النَّجْوَ إلاّ في الحِين على بعَضِ الشدَّةِ، وليس ما عرَض بسبب آفةٍ كالذي يخرج على أصل تركيب الطبيعة.
والسِّنَّور والكلبُ على خلاف ذلك كلِّه، لأنّهما يُخرجانه بعارضٍ يعرِضُ لهما مِن خُبْث النَّفس، ومن الفساد، ومن التَّثوير والانقباض ثمَّ يعودان بعد ذلك فيه من ساعتهما، مشتهيَين له، حريصين عليه.
والإنسان إذا ذرَعه ذلك لم يكن شيء أبغض إليه منه، وربَّما استقاء وتكلّف ذلك لبَعض الأمر، وليس التكلف في هذا الباب إلاّ له.
وذوات الكروش كلها تَقْعص بجرّتها، فإذا أجادتْ مضْغه أعادته، والجِرّة هي الفرْث، وأشدُّ من ذلك أنْ تكون رجيعاً، فهي تجيدُ مَضغَها وإعادتَها إلى مكانها، إلاّ أنَّ ذلك ممّا لا يجوز أفواهها، وليس عند الحافِر من ذلك قليلٌ ولا كثير، بوجهٍ من الوجوه. وقد يعتري سباعَ الطير شبيهٌ بالقيء، وهو الذي يسمُّونه الزُّمّج، وبعضُ السَّمكِ يقيء قيئاً ذريعاً، كالبال، فإنَّه ربَّما دسَعَ الدَّسعة، فتلقى بعض المراكب، فيلقون من ذلك شِدّة، والناقة الضجور ربَّما دسعَتْ بجرَّتها في وجه الذي يرحَلها أو يعالجها، فيلقى من ذلك أشدّ الأذى، ومعلومٌ أنَّها تفعَلُ ذلك على عمد.
فلذوات الأقدام في ذلك مذهب، ولذوات الكُروش من الظِّلف والخفِّ في ذلك مذهب، ولذوات الأنياب في ذلك مذهب، وللسَّمك والتمساح الذي يشبه السَّمَكَ في ذلك مذهب.

ويزعمون أن جوف التمساح إن هو إلاَّ معاليق فيه، وأنه في صورة الجراب، مفتوح الفم، مسدود الدُّبر، ولم أحقَّ ذلك، وما أكثر من لا يعرفُ الحال فيه.
الرجوع إلى طلب النسل عند الحمام ثم رجع بنا القولُ في الحمام بعد أن استغنى ولده عنه، وبعد أن نُزعت الرحمة منه، وذلك أنّه يبتدئُ الذّكرُ الدُّعاء والطرد، وتبتدئ الأنثى بالتأتّي والاستدعاء، ثمَّ تزيف وتتشكّل، ثمَّ تمكّن وتمنع، وتجيبُ وتصدفُ بوجهها، ثم يتعاشقان ويتطاوعان، ويحدث لهما من التغزُّل والتقتُّل ومن السَّوف والقبَل، ومن المصِّ والرَّشف، ومن التنفُّخ والتنفُّج، ومن الخيلاء والكبرياء، ومن إعطاء التقبيل حقه، ومن إدخال الفم في الفم، وذلك من التطاعُم، وهي المطاعَمة، وقال الشاعر:

لم أعطها بيدي إذ بتُّ أرشُفُها إلاَّ تَطاولَ غصنُ الجيد بالجيدِ

كما تطاعَمَ في خضراء ناعمة مطوَّقان أصاخا بعد تغريد

هذا مع إرسالها جناحيها وكفّيها على الأرض، ومع تَدَرعها وتبعُّلها ومع تصاوله وتطاوُله، ومع تنفُّجه وتنفُّخِه، مع ما يعتريه مع الحِكة والتفلّي والتنفُّش حتّى تراهُ وقد رمى فيه بمثله.
ثمَّ الذي ترى من كسْحِه بذنبه، وارتفاعِه بصدره، ومن ضرْبه بجناحِه، ومن فرحه ومَرَحِه بعد قمْطِه والفراغ من شهوتِه، ثمَّ يعتريه ذلك في الوقت الذي يفتر فيه أنكحُ النَّاس.

القوة التناسلية لدى الحمام

وتلك الخَصلةُ يفُوق بها جميع الحيوان، لأنّ الإنسان الذي هو أكثر الخلْق في قوّة الشهوة، وفي دوامها في جميع السَّنة، وأرغبُ الحيوانِ في التصنُّع و التغزل، والتشكُّل والتقتُّل أفتر ما يكونُ إذا فرغ، وَعندَها يركبُه الفُتور، ويحبُّ فِراق الزَّوج، إلى أن يعودَ إلى نشاطِه، وترجِعَ إليه قوّتُه.
والحمامُ أنشط ما يكون وأفرح، وأقوى ما يكون وأمرح، مع الزَّهو والشكل، واللهْو والجَذل، أبردَ ما يكون الإنسانُ وأفتره، وأقطع ما يكون وأقصرَه.
هذا، وفي الإنسان ضروبٌ من القُوى: أحدها فَضَل الشّهْوةِ، والأخرى دوام الشهْوة في جميع الدَّهر، والأخرى قوة التصنُّع والتكلف، وأنتَ إذا جمعتَ خِصالَه كلها كانت دونَ قوَّةِ الحمام عندَ فراغِه من حاجته وهذه فضيلةٌ لا يُنْكِرُها أحدٌ، ومَزِيّة لا يجحدها أحد.
البغال ونشاطها ويقال: إنّ النَّاس لم يَجِدُوا مثْلَ نشاط الحمام في وَقت فَتْرَة الإنسان إلاّ ما وجدوه في البغال؛ فإنّ البغال تحمِل أثقالاً عشية، فتسيرُ بقيَّة يومها وسوادَ ليلتها، وصدرَ نهارِ غدِها، حتّى إذا حطُّوا عن جميع ما كان محمّلاً من أصناف الدوَاب أحمالها، لم يكنْ لشيء منها همَّةٌ، ولا لِمَنْ رَكِبَها من النّاس إلاّ المَرَاغة والماء والعَلف، وللإنسان الاستلقاء ورفعُ الرِّجْلين والغمْز والتأوُّه، إلاّ

البغال فإنها في وقت إعياء جميع الدواب وشدّة كلالها، وشَغْلها بأنفسها ممّا مرَّ عليها، ليس عليها عملٌ إلاّ أنْ تدْلي أيورَها وتشظَّ وتضربَ بها بطونَها؛ وتحُطها وترفعها، وفي ذلك الوقت لو رأى المكاري امرأة حسناء لَما انتَشَرَ لها ولا هَمَّ بها، ولو كان مُنعظاً ثم اعتراه بعْض ذلك الإعياء لنَسي الإنعاظ.
وهذه خَصْلة تخالف فيها البغالُ جميعَ الحيوانِ، وتزعم العَمَلة أنَّها تلتمس بذلك الرَّاحَة وتتداوى به، فليس العجبُ - إن كان ذلك حقّاً - إلاّ في إمكان ذلك لها في ذلك الوقت، وذلك لا يكون إلاّ عن شهوة وشَبَقٍ مُفرط.
النشاط العجيب لدى الأتراك وشِبهٌ آخرُ وشِكلٌ من ذلك، كالذي يُوجدَ عند الأتراك عند بلوغ المنْزل بعد مسير اللّيل كلّه وبَعْضِ النَّهار، فإن النَّاسَ في ذلك الوقتِ ليس لهم إلاّ أن يتمددوا ويقيِّدوا دوابّهم، والتركي في ذلك الوقت إذا عاين ظَبْياً أو بعضَ الصّيد، ابْتَدأ الرَّكْضَ بمثْلِ نشاطه قبلَ أن يسيرَ ذلك السير، وذلك وقتَ يَهمُّ فيه الخارجيَّ والخَصيَّ أنفسُهمُا؛ فإنَّهما المذكوران بالصَّبرِ على ظَهْرِ الدّابَّةِ فطام البهائم أولادها وليس في الأرض بهيمة تَفطِمُ ولدَها عن اللّبن دَفْعةً واحدةً، بل تجِدُ الظّبيةَ أو البقرة أو الأتان أو الناقة، إذا ظنت أنّ ولدَها قد أطاق الأكل منَعَتْهُ بعض المنْع، ثمّ لا تزل تُنزِّل ذلك المنْع وترتبه وتدرِّجه، حتّى إذا علمتْ أنّ به غنًى عنها إنْ هي فطمته فطاماً لا رجْعَة فيه، منَعَتْه كلَّ المنْع.
والعرب تسمِّي هذا التَّدبيرَ من البهائم التَّعفيرَ، ولذلك قال لبيد:

لمعفّرٍ قهْدٍ تَنَـازَعَ شِلْـوَه   غُبْسٌ كواسبُ ما يُمَنُّ طعامُها

وعلى مثل هذه السِّيرة والعادة يكون عملُ الحمامِ في فراخه.

من عجيب أمر الحمام

ومن عجيب أمر الحمام أنّه يقلب بيضه، حتى يصير الذي كان منه يَلي الأرض يَلي بدنَ الحمام من بطنه وباطِنِ جَناحِهِ،حتّى يُعطيَ جميعَ البيضةِ نصيبها من الحضن، ومن مَسِّ الأرض، لعلمها أن خلافَ ذلك العمل يفسُده.
وخَصْلَةٌ أخرى محمودةٌ في الحمام، وذلك أنّ البغْل المتولِّد بينَ الحمار والرَّمَكة لا يبقى له نسل، والرَّاعِبي المتولّد فيما بينَ الحمام والوَرشان، يكثر نسله ويطولُ عمرُ ولدهِ، والبُخْتُ والفوالج، إنْ ضربَ بعضُها بعضاً خرج الولدُ منقوص الخلق لا خير فيه، والحمامُ كيفمَا أدَرتَه، وكيفما زَاوجْتَ بينَ متّفِقها ومختلفها، يكون الولد تامَّ الخلق، مأمول الخير، فمن نتاج الحمام إذا كان مركِباً مشْتَركاً ما هو كالرّاعِبي والوَرداني، وعلى أنّ للورْداني غرابةَ لون وظرَافة قدٍّ، للرَّاعِبيِّ فضيلةٌ في عِظم البدنِ والفِراخ، وله من الهديلِ والقرْقَرَةِ ما ليس لأبويه، حتىِّ صار ذلك سبباً للزِّيادة في ثمنه، وعلّةً للحِرْص على اتِّخاذه.
والغنمُ على قسمين: ضأن ومَعز، والبقرُ على قسمين: أحدهما الجواميس إلا ما كان من بقرِ الوحْش، والظِّلْفُ إذا اختلفا لم يكنْ بينهما تسافُدٌ ولا تلاقح، فهذه

فضيلة للحمام في جهة الإنسال والإلقاح، واتِّساع الأرحام لأصنافِ القبول، وعلى أنَّ بينَ سائر أجناس الحمامِ من الوَرَاشين، والقماريّ، والفواخت، تسافداً وتلاقحاً.

مما أشبه فيه الحمام الناس

وممَّا أشبّهَ فيه الحمامُ النَّاسَ، أنّ ساعاتِ الحضْن أكثرُها على الأنثى، وإنّما يحضُن الذكرُ في صدْر النهار حَضْناً يسيراً، والأنثى كالمرأة التي تكفُل الصبيَّ فتَقْطِمه وتمرِّضه، وتتعهده بالتمهيدِ والتَّحريك، حتّى إذا ذهب الحضْنُ وانصرم وقتُه، وصار البيضُ فِراخاً كالعِيال في البيت، يحتاجون إلى الطّعام والشّراب، صار أكثرُ ساعات الزَّقّ على الذَّكر كما كان أكثرُ ساعاتِ الحضنْ على الأنثى.
وممَّا أشبه فيه الحمام النَّاس ما قال مثنَّى بنُ زُهير وهو إمام النّاس في البصرة بالحمام وكان جيِّد الفِراسة، حاذقاً بالعلاج، عارفاً بتدبير الخارجيِّ إذا ظهرت فيه مَخيلة الخير - واسم الخارجيّ عندهم: المجهول - وعالماً بتدبير العريق المنسوب إذا ظهَرتْ فيه علاماتُ الفُسولِة وسوء الهداية، وقديمكن أن يَخلُفَ ابن قُرَشَيَّين وَيَنْدُب ابن خوزيٍّ من نبطيَّةٍ، وإنما فضَلنا نتاج العلْية على نِتاج السِّفلةِ لأنّ نِتاجَ النَّجابة فيهم أكثرُ، والسِّقوط في أولاد السفلة أعمُّ، فليس بواجبٍ أن يكون السفلةُ لا تَلِد إلاّ السفلة والعِلْية لا تَلِد إلاّ العِلية، وقد يلدِ المجنونُ العاقِلَ والسخيُّ البخيلَ، والجميل القبيحَ.
وقد زعم الأصمعي أنّ رجلاً من العرب قال لصاحب له: إذا تَزَوَّجْتَ امرأةً من العَرَب فانظُرْ إلى أخوالها،وأعمامها، وإخوتها، فإنها لا تخطئ الشبّهَ بواحدٍ منهم وإنْ كان هذا الموَصي والحكيم، جعل ذلك حُكماً عامّاً فقد أسرفَ في القول، وإن كان ذهبَ إلى التّخويف والزَّجْر والترهيب كي يختارَ لنفْسِه، ولأنّ المتخيّر أكثرُ نجابَةً فقد أحسن.
وقال مثنّى بنُ زهير: لم أر قطُّ في رجلٍ وامرأةٍ إلاّ وقد رأيتُ مثلَه في الذَّكر والأنثى من الحمام: رأيت حمامةً لا تريد إلاّ ذكرَها، كالمرأة لا تريدُ إلاّ زوجها وسيّدها، ورأيتُ حمامةً لا تمنَع شيئاً من الذُّكورة، ورأيتُ امرأةً لا تمنع يَدَ لامس، ورأيت الحمامةَ لا تزيف إلا بعْدَ طَرْدٍ شديد وشدة طلبٍ، ورأيتُها تزيفَ لأوَّل ذكر يُريدُها ساعة يقصِد إليها، ورأيتُ من النساء كذلك، ورأيت حمامةً لها زوج وهي تمكن ذكراً آخرَ لاتَعْدُوهُ، ورأيتُ مثل ذلك من النساء، ورأيتُها تزيفُ لغير ذكرها وذكرُها يراها، ورأيتها لا تفعل ذلك إلاّ وذكرها يطيرُ أو يحضُنُ، ورأيت الحمامة تقمُطُ الحمام الذكور، ورأيت الحمامة تقمط الحمامة، ورأيت أنثى كانت لي لا تقمط إلا الإناث، ورأيت أخرى تقمط الإناثَ فقط، ولا تدَع أنثى تقمطها.
قال: ورأيت ذكراً يقمُط الذُّكورة وتقمطه؛ ورأيت ذكراً يقمُطها ولا يدعها تقمطه، ورأيت أنثى تزيفُ للذُّكورةِ ولا تدع شيئاً منها يقمطها.
قال: ورأيت هذه الأصنافَ كلَّها في السَّحّاقات من المذكَّرات والمؤنثات، وفي الرَّجال الحَلَقيِّين واللُّوطيِّين، وفي الرجَال من لا يريد النساء، وفي النساء من لا يريد الرجال.
قال: وامتنعتْ عليَّ خصلةٌ، فو اللّه لقد رأيت من النساء من تزْني أبداً وتساحق

أبداً ولا تتزوج أبداً، ومن الرجال من يلوط أبداً، ويزني أبداً ولا يتزوَّج، ورأيت حماماً ذكراً يقمط ما لقي ولا يزاوج، ورأيتُ حمامَة تمكّن كلَّ حمامٍ أرادَها مِنْ ذكرٍ وأنثى، وتقمُطُ الذكورةَ والإناثَ، ولا تزاوج، ورأيتها تزَاوج ولا تبيض، وتبيضُ فيفسدُ بيضُها؛ كالمرأة تتزَوَّج وهي عاقر، وكالمرأة تلد وتكون خرقاء ورْهاء، ويعرض لها الغلظة والعقوق للأولاد، كما يعتري ذلك العُقاب.

وأمَّا أنَا فقد رأيتُ الجفاء للأولاد شائعاً في اللّواتي حَمَلْن من الحرام ولربَّمَا ولدت من زَوجها، فيكون عطفها وتحنُّنها كتحنن العفيفاتِ السَّتيرات، فما هو إلاّ أن تزنيَ أو تَقْحُب فكأنَّ اللّه لم يضْرب بينها وبين ذلك الولدِ بشبكة رَحِم، وكأنّها لم تَلِدْهُ.

قال مثنَّى بنُ زهير: ورأيتْ ذكراً له أنثيان وقد باضَتا منه، وهو يحضُن مع هذه ومع تلك، ويزُقُّ مع هذه ومع تلك، ورأيت أنثى تبيض بيضة، ورأيت أنثى تبيض في أكثر حالاتها ثلاث بيضات.

وزعم أنّه إنَّما جزَم بذلك فيها ولم يظنه بالذَّكر، لأنّها قد كانت قبل ذلك عند ذكرٍ آخر، وكانت تبيض كذلك.

ورأيتُ أنا حمامةً في المنزل لم يعرِضَ لها ذكرٌ إلاّ اشتدّت نحوه بحدَّةٍ ونزقٍ وتسرُّع، حتى تنقر أينَ صادفتْ منهُ، حتى يصدّ عنها كالهارب منها، وكان زوجها جميلاً في العَين رائعاً، وكان لها في المنزل بنون وبنو بنين وبنات وبنات بنات، وكان في العَين كأنّه أشبُّ من جميعهنَّ، وقد بَلَغ من حظوتِه أني قلَّما رأيتُه أرادَ واحدةً من عرْض تلك الإناثِ فامتنعتْ عليه، وقد كن يمتنعن من غيره، فبينا أنا ذاتَ يومٍ جالسٌ بحيث أراهنّ إذ رأيتُ تلك الأنثى قد زافتْ لبعض بنيها فقلت لخادمي: ما الذي غيَّرها عن ذلك الخلق الكريم؟ فقال: إني رَحّلت زوجها من القاطول فذهب، ولهذا شهر، فقلت: هذا عذر.

قال مثنّى بنُ زهير: وقد رأيت الحمامة تزاوج هذا الحمام، ثم تتحول منه إلى آخر، وَرَأيت ذكراً فَعَلَ مثل ذلك في الإناث، ورأيت الذَّكرَ كثيرَ النَّسل قويّاً على القمْط، ثمَّ يُصفِي كما يُصْفي الرَّجلُ إذا أكثر من النَّسْل والجماع.

ثمَّ عدّد مُثنَّى أبواباً غيرَ ما حفِظت ممَّا يُصابُ مثلُه في الناس.

خبرة مثنَّى بن زهير بالحمام

وزعموا أنّ مثنَّى كان ينظر إلى العاتِق والمخلِف، فيظنَ أنّه يجيء من الغاية فلا يكاد ظنهُ يخطئ، وكان إذا أظهرَ ابتياع حمامٍ أغلوْه عليه، وقالوا: لم يطلُبْه إلاّ وقد رأى فيه علامة المجيء من الغاية، وكان يدسُّ في ذلك ففطنوا له وتحفظوا منه، فربَّما اشترى نصفَه وثلثه، فلا يقصِّر عند الزِّجال من الغاية.

وكان له خصيٌّ يقال له خديج، يجري مجراه، فكانا إذا تناظرا في شأنِ طائِرٍ لم تُخلِف فراستهما.

المدة التي يبيض فيها الحمام والدجاج

قال: والحمام تبيض عشرة أشهر من السَّنة، فإذا صانوه وحفِظوه، وأقاموا له الكفاية وأحسنُوا تعهُّده، باضَ في جميع السَّنة.

قالوا: والدَّجاجة تبيض في كلِّ السَّنة خلا شهرين.
ضروب من الدجاج ومن الدَّجاج ما هو عظيم الجثّة، يبيض بيضاً كبيراً، وما أقل ما يحضُن، ومن الدجاج ما يبيض ستِّين بيضة، وأكثرُ الدجاج العظيم الجثَّة يبيضُ أكثرَ من الصغير الجثَّة.
قال: أما الدَّجاج التي نسبت إلى أبي ريانوس الملك، فهو طويلُ البدَن ويبيضُ في كلّ يوم، وهي صعبة الخلق وتقتل فراريجها.
ومن الدَّجَاج الذي يربَّى في المنازل ما يبيض مرَّتين في اليوم، ومن الدجَاج ما إذا باض كثيراً مات سريعاً، لذلك العَرض.
عدد مرات البيض عند الطيور قال: والخُطَّاف تبيض مَرَّتين في السّنة، وتبني بيتَها في أوثق مكانٍ وأعلاه.
فأمَّا الحمام والفَواخت، والأطْرُغلاَّت والحمام البريُّ، فإنّها تبيض مرَّتين في السنة، والحمامُ الأهليُّ يبيض عشْر مرات، وأما القَبَج والدُّرَّاج فهما يبيضان بين العُشب، ولا سيما فيما طال شيّاً والتوى.
خروج البيضة وإذا باض الطّيرُ بيضاً لم تخرُج البيضة من حدِّ التحْدِيد والتَّلطيف، بل يكون الذي يبدأ بالخروج الجانب الأعظم، وكان الظنُّ يسرعُ إلى أنّ الرأس المحدَّد هو الذي يخرج أوّلاً.
قال: وما كان من البيض مستطيلاً محدَّد الأطراف فهو للإناث، وما كان مستديراً عريض الأطراف فهو للذّكور.
قال: والبيضة عندَ خروجها ليِّنَة القِشْر، غير جاسية ولا يابسة ولا جامدة.
بيض الريح والتراب قال: والبيض الذي يتولد من الريح والتُّراب أصغرُ وألطف، وهو في الطِّيب دُونَ الآخر، ويكونُ بيضُ الرِّيح من الدجاج والقبج، والحمام، والطاوس، والإوز.
أثر حضن الطائر قال: وحضْن الطائر وجثومه على البَيض صلاَح لبَدن الطائر، كما يكون صلاحاً لبدَن البيض، ولا كذلك الحضْنُ على الفراخ والفراريج فربما هلك الطائر عن ذلك السبب.
تكوّن بيض الريح وزعم ناسٌ أن بيض الرِّيح إنما تكوَّن منْ سفادٍ متقدِّم، وذلك خطأٌ من وجهين: أمّا أحدُهما فأن ذلك قد عُرف من فَرَاريجَ لم يَرينَ ديكاً قط، والوجه الآخر: أن بيضَ الريح لم يكن منه فَرُّوج قطّ إلاّ أن يسفَدَ الدجَاجة ديك، بعد أن يمضي أيضاً خلْقُ البيض.
معارف شتى في البيض قال: وبيض الصّيف المحضون أسرعْ خروجاً منه في الشتاء ولذلك تحضن الدجاجة البيضة في الصّيف خمس عشرة ليلة.
قال: وربَّما عَرَض غيمٌ في الهواء أو رَعْدٌ، في وقتِ حضْن الطائر، فيفسُدُ البيض، وعلى كل حال ففسادُه في الصيف أكثر، والموتُ فيها في ذلك الزمان أعمّ، وأكثر ما يكون فسادُ البيض في الجَنائب، ولذلك كانَ ابن الجهم لا يطلبُ من نسائه الوَلد إلاّ والرِّيح شمال، وهذا عندي تعرُّضٌ للبلاء، وتحُكك بالشرّ، واستدعاء للعقوبة.
وقال: وبعضهم يسمِّي بيضَ الرِّيح: البيض الجُنُوبيَّ، لأنَّ أصناف الطّير تقْبَلُ الرِّيح في أجوافها.

وربَّما أفرخ بيضُ الرِّيح بسفادٍ كان، ولكنَّ لونَه يكونُ متغيِّراً وإن سفِد الأنثى طائرٌ من غير جنسها، غيَّر خلق ذلك المخلوق الذي كان من الذّكر المتقدِّم، وهو في الديَكةِ أعمَّ. ويقولون: إنّ البَيض يكون من أربعةِ أشياء: فمِنه مَا يكونُ من التُّراب، ومنه ما يكونُ من السفاد، ومنه ما يكون من النّسيم إذا وصلَ إلى أرحامهن وفي بعض الزَّمَان، ومنْهُ شيءٌ يعتري الحَجَل وما شاكله في الطّبيعة، فإنّ الأنثى ربَّما كانَتْ على سُفَالةِ الريح التي تهبُّ من شِقِّ الذكَر في بعض الزمَان فتحتشي من ذلك بيضاً، ولم أرهم يشكون أن النَّخلة المُطْلِعَة تكون بقربِ الفُحَّال وتحت ريحه، فتَلقح بتلك الريح وتكتفي بذلك، قال: وبيضُ أبكارِ الطّير أصغر، وكذلك أولادُ النساء، إلى أنْ تتسع الأرحَام وتنتفخ الجنوب.

هديل الحمام

ويكون هديل الحمام الفتيِّ ضئيلاً فإذا زقَّ مِرَاراً فَتَحَ الزَّقُّ جِلْدَة غَببه وحوصلِته، فخرَجَ الصّوتُ أغلظ وأجهرَ.
حياة البكر وهم لا يثِقون بحياة البكر من النّاسِ كما يثِقون بحياة الثاني، ويرون أنّ طبيعَة الشباب والابتداء لا يعطيانه شيئاً إلاّ أخَذه تضايقُ مكانِه من الرّحم، ويحبُّون أن تبكّر بجارية وأظُنُّ أن ذلك إنما هو لشدّةِ خوفِهم على الذكر، وفي الجملة لا يتيمَّنون بالبكر الذكر، فإن كان البكرُ ابنَ بكرٍ تشاءمُوا به، فإن كان البكْرُ ابنَ بكرَينِ فهو في الشؤمِ مثل قيسِ بنِ زهير، والبَسوس، فإن قيساً كان أزْرق وبكراً ابن بكرين، ولا أحفظُ شأن البَسوس حفظاً أجزمُ عليه.

ما يعتري الحمام والإوز بعد السفاد

قال: وأمّا الحمام فإنّه إذا قمط تَنَفّشَ وتكبَّر ونَفَضَ ذنبه وضَرَبَ بجناحِه، وأمّا الإوَزّ فإنّه إذا سفِد أكثر من السباحة، اعتراه في الماء من المَرَح مثلُ ما يعتري الحمام في الهواء.
قال: وبيضُ الدجَاج يتمُّ خلقُه في عشْرة أيام وأكثرَ شيئاً، وأمَّا بيض الحمام ففي أقلَّ من ذلك.

احتباس بيض الحمامة

والحمامة ربَّما احتبَسَ البيضُ في جوفها بَعْدَ الوقتِ لأمورٍ تَعْرِضُ لها: إمّا لأمر عَرَض لعُشِّها وأفحوصها، وإمّا لنتْفِ ريشها، وإمَّا لعلَّةٍ وجعٍ من أوجاعها وإمّا لصوتِ رعد؛ فإنّ الرَّعدَ إذا اشتَدَّ لم يبقَ طائرٌ على الأرض واقع إلاّ عدَا فَزعاً، وإن كان يطيرُ رَمى بنفسه إلى الأرض، قال علقمة بن عَبَدَة:

رغَا فوقهُمْ سَقْبُ السّماء فَدَاحضٌ   بشِكتِه لم يُستَلَبْ وسليبُ

كأنّهمُ صابتْ عليهمْ سحابةٌ   صواعقُها لطيرهِنّ دَبيبُ

تقبيل الحمام

قال: وليس التَّقبيلُ إلاّ للحمَام والإنسان، ولا يدَعُ ذلك ذكرُ الحمام إلاّ بعد الهَرَم، وكان في أكثرِ الظَّنِّ أنَّه أحوجُ ما يكون إلى ذلك التَّهييج به عند الكِبَرِ والضَّعف. وتزعمُ العوامُّ أنَّ تسافُدَ الغِرْبان هو تطاعُمُها بالمناقير، وأنّ إلقاحَها إنَّما يكونُ من ذلك الوجه، ولم أرَ العلماء يعرفون هذا.
قال: وإناثُ الحمام إذا تسافدَت أيضاً قبَّل بَعْضُهُنَّ بعضاً، ويقال إنّها تبيضُ عن ذلك، ولكِنْ لا يكون عن ذلك البيض فِراخ، وإنَّه في سبيل بيض الريح.

تكوُّن الفرخ في البيضة

قال: ويَستَبينُ خَلْقُ الفِراخ إذا مضت لها ثلاثةُ أيَّامٍ بلياليها وذلك في شَبَاب الدَّجاج، وأمَّا في المَسَانِّ منها فهو أكثر، وفي ذلك الوقت تُوجد الصُّفرةُ من النَّاحيةِ العُليَا من البَيضة، عند الطرَف المحدَّد وحيث يكون أوَّلُ نَقْرِها، فثَمَّ يستبين في بياض البَيضة مثلُ نقطة من دم، وهي تختلجُ وتتحرَّك، والفرخ إنَّما يُخلق من البَياض، ويَغْتذي الصُّفرة، ويتمُّ خَلْقُه لعشرةِ أيّام، والرَّأسُ وحْدَهُ يكونُ أكبر من سائر البدن.
البيض العجيب قال: ومن الدَّجاج ما يبيض بيضاً له صُفْرتان في بعض الأحايين، خبَّرني بذلك كم شِئتَ من ثقاتِ أصحابِنا.
وقال صاحب المنطق: وقد باضت فيما مضى دَجاجةٌ ثماني عشْرَة بيضةً، لكلِ بيضةٍ مُحَّتان، ثمَّ سخِّنت وحُضنت، فخرَجَ من كلِّ بيضة فرُّوجان، ما خلا البيضَ الذي كان فاسداً في الأصل، وقد يخرج من البَيضة فرُّوجان، ويكون أحدُهما أعظمَ جثَّةً، وكذلك الحمام، وما أقلَّ ما يغادر الحمامُ أن يكون أحدُ الفرْخَيْنِ ذكَراً والآخر أنثى.
معارف في البيض قال: وربَّما باضتْ الحمامةُ وأشباهها من الفَواخِتِ ثلاث بيضات، فأمَّا الأَطرُغلاَّت والفواخت فإنها تبيض بيضَتين، وربّما باضتْ ثلاثَ بيضات ولكنْ لا يخرُجُ منها أكثرُ من فرخين، وربّما كان واحداً فقط.
قال: وبعض الطير لايبيض إلاّ بعدَ مُرُورِ الحَوْلِ عليه كَامِلاً، والحمامةُ في أكثر أمْرِها يكونُ أحدُ فَرخَيها ذكراً والآخر أنثى، وهي تبيضُ أوّلاً البيضةَ التي فيها الذَّكر، ثمّ تقيم يوماً وليلةً، ثمَّ تبيض الأخرى، وتحضُنُ ما بينَ السَّبْعة عشَرَ يوماً إلى العشرين، على قدْرِ اختلافِ طباع الزَّمان، والذي يعرضُ لها من العلل، والحمامةُ أبرُّ بالبَيْضُ، والحمامُ أبرُّ بالفراخ.
قال: وأمّا جميعُ أجناسِ الطير ممّا يأكل اللّحمَ، فلم يظهْر لنا أنَّه يبيضُ ويُفرخ أكثرَ من مرَّة واحدة، مَا خلا الخُطّاف فإنَّه يبيض مرَّتين.
تربية الطيور فراخها والعُقابُ تبيضُ ثلاث بيضات، فيَخْرُج لها فرْخان، واختلفوا فقال بعضهم: لأنها لا تحضُن إلاّ بَيضتين، وقال آخرون: قد تحضُنْ وَيخرج لها ثلاثةُ أفراخ، ولكنَّها ترمي بواحدٍ استثقالاً للتكسُّب على ثلاثة، وقال آخرون: ليس ذلك إلاّ بما يعتريها من الضعفِ عن الصّيد، كما يعتري النُّفساء من الوهْن والضّعف، وقال آخرون: العُقاب طائر سيّء الخلق، رديءُ التَّربية، وليس يُستعانُ

على تربية الأولاد إلاَّ بالصَّبْر، وقال آخرون: لا، ولكنّها شديدةُ النَّهم والشَّرَهِ، وإذا لم تكنْ أمُّ الفِراخ ذاتَ أَثَرَةٍ لها، ضاعت.
وكذلك قالوا في العَقعقَ، عند إضاعتها لفراخها، حتى قالوا: أحمقُ من عَقْعَقَ، كما قالوا: أحذَر من عقْعقَ.
وقالوا: وأمّا الفَرخ الذي يُخرجه العُقاب، فإنّ المكلَّفة، وهي طائرٌ يقال لها كاسِر العِظام، تقبلُه وتربِّيه.
والعُقاب تحضن ثلاثين يوماً، وكذلك كلُّ طائرٍ عظيم الجثَّة، مثل الإوزّ وأشباهِ ذلك، فأمَّا الوسط فهو يحضنُ عِشرين يوماً، مثل الحِدَأ ومثل أصناف البُزاةِ كالبواشِق واليَآيئ.
والحدأة تبيضُ بيضتين، وربّما باضتْ ثلاث بيضات وخرَج منهن ثلاثة فِراخ.
قالوا:وأما العقبان السُّودُ الألوان، فإنَّها تربّي وتحضن.
وجميع الطير المعقَّف المخالب تطردُ فراخها من أعشاشها عندَ قوَّتها على الطَّيران، وكذلك سائر الأصنافِ منَ الطير، فإنَّها تطردُ الفِراخ ثمَّ لا تعرفُها، ما عدا الغداف، فإنها لا تزالُ لولدها قابلة، ولحالِهِ متفقِّدة.
أجناس العقبان وقال قوم: إن العِقبانَ والبُزاة التَّامّة، والجهارْرَانك، والسُّمنان، والزَّمامج والزَّرارقة إنها كلّها عِقْبان، وأمَّا الشّواهينُ والصُّقورةَ واليَوايئ، فإنها أجناسٌ أخر.
حضن الطير قال: وقالوا: فراخ البزاة سمينة طيِّبَةٌ جدّاً، وأما الإوزة فإنها التي تحضن دونَ الذكر، وأمّا الغِربانُ فعلى الإنَاث الحضن، والذكورة تأتي الإنَاث بالطُّعمة.
وأمّا الحجَل فإنَّ الزّوج منها يهيّئان للبَيض عُشّىن وثيقين مقسومَين عليهما، فيحضنُ أحدُهُمَا الذَّكَرَ، والآخرَ الأنثى، وكذلك هُمَا في التَّربية، وكلُّ واحدٍ منهما يعيشُ خمساً وعِشرين سنة، ولا تلْقحُ الأنثى بالبيض ولا يُلِقحُ الذكرُ إلاَّ بعدَ ثلاثِ سنين.
الطاوس قال: وأمَّا الطّاوس فأوّل ما تبيضُ ثماني بيضات، وتبيض أيضاً بيضَ الريح، والطاوس يُلقي ريشَه في زَمن الخَريف إذا بدَا أوّلُ ورق الشَّجر يسقُطُ، وإذا بدأ الشَّجرُ يكتسي ورقاً، بدأ الطاوس فاكتسى ريشاً.
ما ليس له عشٌّ من الطير قال: وما كان من الطّير الثَّقيل الجثَّة فليس يهيئ لبيضهِ عُشاً؛ من أجْل أنَّه لا يُجيد الطَّيرَان، ويثقل عليه النهوض ولا يتحلَّق، مثل الدُّرَّاج والقَبَج، وإنما يبيض على التُّراب، وفراخ هذه الأجناس كفراريج الدَّجاج، وكذلك فراريج البطِّ الصِّيني، فإنَّ هذه كلَّها تخرُج من البيض كاسية كاسبة تلقط من ساعتها، وتَكفي نفسها.
القبجة قال: وإذا دنا الصَّيّاد من عُشِّ القبجة ولَها فراخٌ، مرَّتْ بينَ يدَيهِ مَراً غيرَ مفْيت، وأطمعتْه في نفسها ليتبعها، فتمرُّ الفراخ في رجوعها إلى موضع عُشِّها، والفراخ ليسَ معها من الهداية ما مع أمّها، وعلى أنّ القبَجَة سيِّئة الدَّلالةِ والهداية، وكذلك كلُّ طائر يعجِّلُ له الكَيْس والكسْوة، ويعجِّل له الكَسْبُ في صغره.
وهذا إنَّما اعتراها لقرابةِ ما بينَها وبين الدِّيك.

قال: فإذا أمعن الصَّائد خلْفها وقد خرجت الفراخ من موضَعِها، طارت وقد نحَّتْه إلى حيثُ لا يَهتدي الرُّجوع منه إلى موضع عشِّها، فإذا سقطتْ قريباً دعتْها بأصواتٍ لها، حتَّى يجتمعْنَ إليها.
قال: وإناثُ القَبَجْ تبيض خَمْسَ عشْرَةَ بيضة إلى ستَّ عشرةَ بيضة، قال: والقبج طيرٌ منكرٌ وهي تفرٌّ ببَيضها من الذَّكر؛ لأنَّ الأنثى تشتغل بالحضْن عن طاعة الذَّكر في طلب السِّفاد، والقبَج الذَّكَرُ يوصَفُ بالقوّة على السِّفاد، كما يوصف الدِّيكُ والحجَلُ والعُصفور.
قال: فإذا شُغِلَت عنه بالحضْن، ظلبَ مواضعَ بيضها حتى يفسِدَهُ فلذلك ترتاد الأنثى عشَّها في مَخَابئَ إذا أحسَّت بوقتِ البيض.
وثوب الذكورة على الذكورة وإذا قاتل بعضُ ذُكورةِ القبَج بَعضاً فالمغلوبُ منها مسفودٌ والغالبُ سافد، وهذا العرض يعرضُ للدِّيكة ولذكور الدَّراريج، فإذا دَخَل بين الدِّيَكةِ ديكٌ غريب، فمَا أكثرَ ما تجتمع عليه حتَّى تسفدَه، وسفادُ ذُكورة هذه الأجناسِ إنما يعرض لها لهذه الأسباب، فأمَّا ذُكورةُ الحَمير والخَنازيرِ والحمامِ، فإنّ ذُكورَها تثِبُ على بعضٍ مِن جهة الشَّهوة.
وكان عند يعقوبَ بن صباح الأشعثيِّ، هِرّان ضخْمان، أحدُهُما يكومُ الآخَر متى أرادهُ، مِنْ غيرِ إكراهٍ، ومِن غيرِ أن يكونَ المسْفودُ يريدُ من السَّافِدِ مِثْلَ ما يريدُ منه السَّافد، وهذا البابُ شائعٌ في كثير من الأجناس، إلاَّ أنَّه في هذه الأجناس أوْجَد.

صيد البُزاة للحمام

ثمَّ رجَع بنا القولُ إلى ذِكر الحمام، من غير أن يشاب بذكر غيره.
زعم صاحبُ المنطق أنَّ البُزاةُ عشرة أجناس، فمنها ما يضرِب الحمامة والحمامة جاثمة، ومنها ما لا يضرب الحمامَ إلاّ وهو يطير، ومنها ما لا يضرب الحمام في حال طيَرَانِهِ ولا في حال جثومهِ، ولا يعرض له إلاَّ أنْ يجده في بَعْض الأغْصان، أو على بعض الأنشاز والأشجار، فعدَّد أجناسَ صيدِها، ثمَّ ذكرَ أنَّ الحمامَ لا يخفى عليه في أوّل ما يرى البازيَ في الهواء أيُّ البُزَاةِ هُو، وأيُّ نوعٍ صَيدُه، فيخالف ذلك،ولمعرفة الحمامِ بذلك من البازي أشكال: أوَّلَ ذلك أنّ الحمامَ في أوَّلِ نُهوضِهِ يفصلُ بينَ النَّسر والعُقاب، وبينَ الرّخمةِ والبازي، وبينَ الغُرابِ والصَّقر؛ فهوَ يَرَى الكرْكيَّ والطَّبرزين ولا يستوحِشُ منهما ويرى الزُّرَّق فيتضاءل، فإنْ رأى الشّاهينَ فَقدْ رأى السَّمَّ الذعاف الناقِع.
إحساس الحيوان بعدوِّه والنَّعجة ترى الفِيلَ والزَّنْدَبيلَ والجاموسَ والبعير، فلا يهزُّها ذلك، وترى السَّبع وهي لم تره قبل ذلك، وَعضوٌ من أعضاء تلك البهائم أعظمُ وهي أهولُ في العين وأشنعُ، ثمَّ ترى الأسَدَ فتخافه، وكذلك البَبْر والنمر، فإن رأت الذئب وحده اعتراها منه وحْدَهُ مثْلُ ما اعتراها من تلك الأجناسِ لو كانت مجموعةً في مكانٍ واحد، وليس ذلك عن تجربَةٍ، ولا لأنّ منظرَه أشنعُ وأعظم، وليسَ في ذلك عِلَّةٌ إلاَّ ما طُبعت عليه من تمييز الحيوان عندها، فليس بمُسْتَنكَرٍ أنْ تَفْصِلَ الحمامةُ بينَ البازي والبازي، كما فصلت بين البازي والكَرْكيِّ.

فإنْ زعمتَ أنَّها تعرف بالمخالب فمِنْقارُ الكرْكيِّ أشنع وأعظم وأفظع، وأطولُ وأعرض، فأمَّا طرَفُ منقار الأبغث فما كانَ كلُّ سنانٍ وإن كان مذرَّباً ليبلغه.

بلاهة الحمام وخرقه

قال صاحب الدِّيك: وكيفَ يكونُ للحمام من المعرفة والفِطنة ما تذكرون، وقد جاء في الأثر: كُونُوا بُلْهاً كالحمام.
وقال صاحب الدِّيك: تقول العربُ: أخْرَق مِنْ حمامةٍ، وممَّا يدل على ذلك قولُ عَبيدِ بنِ الأبرص:

عَيُّوا بأمْرِهُمُ كمـا	عَيَّتْ ببَيْضَتها الحَمَامهْ
جَعَلَتْ لها عُودَينِ مِنْ	نَشمٍ وآخَرَ من ثمامهْ

فإن كان عَبيدٌ إنما عَنَى حمامةً من حمامكم هذا الذي أنتم بهِ تفْخَرُونَ، فقد أكثرتم في ذكر تدبيرها لمواضع بَيضها، وإحكامها لصَنعة عشاشها وأفاحيصها.
وإن قلتم: إنَّه إنما عَنَى بعضَ أجناسِ الحَمَام الوحشي والبَرّيّ، فقد أخرجتمْ بعضَ الحَمَامِ مِنْ حُسْنِ التَّدْبير، وعبيدٌ لم يُخصَّ حماماً دُونَ حمام.

رغبة عثمان في ذبح الحمام

وحدَّث أسامةُ بن زيد قال: سمعتُ بعضَ أشْياخِنا منذُ زمانٍ، يحدِّثُ أنَّ عثمانَ ابنَ عفَّانَ - رضي اللّهُ تعالى عنه - أراد أنْ يَذْبَحَ الحمَامَ ثمَّ قال: لولا أنّها أمّةٌ من الأمم لأمرت بذبحهن، ولكنْ قُصُّوهنَّ، فدلَّ بقوله: قُصُّوهنّ على أنَّها إنما تُذْبَحُ لرغبة مَنْ يتّخذُهنّ، ويَلعبُ بهنَّ من الفِتْيانِ والأحداثِ والشّطّار، وأصحابِ المراهَنة والقِمار، والذين يتشرَّفون على حُرَم الناس والجيران، ويخْتَدِعُون بفراخ الحَمَامِ أولاد النَّاس، ويرمون بالجُلاَهِقِ وما أكثر مَنْ قد فقأَ عيناً وهشَمَ أنْفاً، وهتَمَ فماً، وهو لا يدري مَا يصنَع، ولا يَقِفُ على مقدارِ مَا ركِبَ به القومَ، ثم تذهب جِنايتُهُ هدَراً؛ ويعودُ ذلك الدَّمُ مطلولاً بلا عقْل ولا قَودٍ ولا قِصاص ولا أرْش؛ إذْ كان صاحِبُه مجهولاً.
وعلى شبيهٍ بذلك كان عمرُ - رضي اللّه عنه - أمر بذَبْح الدِّيَكة وأمرَ النبيُّ صلَّى اللّه عليه وسلَّم بقتْل الكلاب.
قالوا: ففيما ذكرنا دليلٌ على أنَّ أكْلَ لحومِ الكلابِ لم يكنْ مِنْ دينِهم ولا أخْلاقِهِمْ، ولا مِنْ دواعي شهواتهم، ولولا ذلك لما جاء الأثرُ عن النبيِّ - صلّى اللّه عليه وسلم - وعُمرَ وعُثمانَ - رضي اللّه تعالى عنهما بذَبْح الدِّيكةِ والحَمَامِ، وقتْل الكلاب، ولولا أنّ الأمرَ على ما قلنا، لقالوا: اقتلوا الدُّيوكَ والحَمَامَ كما قال: اقتلوا الكلاب، وفي تفريقهم بينها دليلٌ على افتراق الحالاَتِ عندَهم.
قال: حدَّثني أسامة بن زيد، وإبراهيمُ بنُ أبي يحيى، أنَّ عثمان شكَوْا إليه الحَمَامَ، وأنّه قال: مَنْ أخَذ منهنَّ شيئاً فهو له، وقد علمْنا أنّ اللفظ وإن كان قد وقعَ على

شِكاية الحَمام، فإن المعنى إنَّما هو على شكايةِ أصحاب الحَمام؛ لأنّه ليس في الحَمامِ مَعنىً يدعُو إلى شكايةٍ.
قال: وحدّثنا عُثمان قال: سُئل الحسنُ عن الحَمام الذي يصطاده النَّاس، قال: لا تأكلْه، فإنّه منْ أموال الناس فجعله مالاً، ونَهَى عن أكْله بغير إذنِ أهله، وكلُّ ما كان مالاً فيبيعُه حسَنٌ وابتياعُه حسن، فكيفَ يجوزُ لشيء هذه صفته أنْ يُذبح، إلاَّ أن يكون ذلك على طريق العِقاب والزَّجْر لمن اتَّخذه لما لا يحلّ.
قال: ورووا عن الزُّهري عن سعيدِ بن المسيَّب قال: نَهَى عُثمانُ عن اللعِبِ بالحَمَام، وعن رمي الجُلاهِق، فهذا يدلُّ على ما قلْنا.

أمْن حمام مكة وغِزْلانها

والناس يقولون: آمَنُ مِنْ حَمَامِ مَكَّة، ومِنْ غِزلان مكة، وهذا شَائعٌ على جميع الألسنة، لا يردُّ أحدٌ ممن يعرفُ الأمثالَ والشّواهدَ، قال عُقيبةُ الأسديُّ لابن الزُّبير:

ما زلتَ مذ حِججٍ بمكة محْرِماً	في حيثُ يأمَنُ طائرٌ وحَمـامُ
فَلَتَنْهَضَنّ العِيسُ تنفخُ في البُرَا	يَجْتبْنَ عُرْض مَخارمِ الأعلامِ
أبنو المغيرةِ مثلُ آلِ خُويلـدٍ؟	يا لَلرّجال لِـخِـفّةِ الأحـلام

وقال النابغةُ في الغِزْلان وأمْنِهَا، كقول جميع الشُّعراء في الحمام:

والمؤمن العائذاتِ الطيرَ تمسَحُها	رُكبانَ مَكّة بين الغِيلِ والسَّعَدِ

ولو أنّ الظّباء ابتُليْت مِمَّنْ يتَّخِذها بمثل الذي ابتُليت به الحَمام ثمَّ ركبوا المسلمين في الغِزلان بمثل ما ركبوهم به في الحَمام، لساروا في ذَبْح الغِزلان كسيرتهم في ذَبْح الحمام.
وقالوا: إنّه لَيبلُغُ مَن تعظيم الحَمام لحُرْمة البيتِ الحرام، أنّ أهلَ مكة يشهَدون عن آخرهم أنّهم لم يَرَوْا حَماماً قطُّ سقط على ظهر الكعبة، إلاَّ مِنْ عِلةٍ عَرَضتْ له، فإن كانت هذه المعرفة اكتساباً من الحَمام فالحَمامُ فوق جميع الطير وكلِّ ذي أربع، وإن كان هذا إنَّما كان من طريق الإلهام، فليس ما يُلْهَمُ كما لاَ يلهم. وقال الشّاعر في أمْن الحمَام:

لقد علم القبائلُ أنّ بَيْتـي	تفرَّعَ في الذّوائبِ والسَّنامِ
وأنَّا نَحْنُ أولُ من تَبَـنَّـى	بمكّتها البيوتَ معَ الحَمام

وقال كثيِّر- أو غيره من بني سهم - في أمْن الحَمام:

لَعَنَ اللّهُ مَنْ يَسُبُّ علـيّاً وحُسَيْناً مِنْ سُوقةٍ وإمـامِ

أيُسَبُّ المطيَّبـون جدوداً والكرامُ الأخوالِ والأعمامِ

يأمن الظبي والحَمامُ ولا يأ مَنُ آلُ الرَّسولِ عِنْدَ المَقامِ

رحمةُ اللّهِ والسَّلامُ عليهم كلما قامَ قـائمٌ بـسـلامِ

وذكر شأنَ ابنِ الزبير وشأنَ ابنِ الحنفيَّة، فقال:

ومن يَرَ هذا الشَّيخَ بالخِيفِ من مِنى مِنَ النَّاس يَعْلَمْ أنَّهُ غيرُ ظـالـم

سَمِيُّ النبيِّ المصطفى وابن عمِّـهِ وفكَّاكُ أغـلالٍ ونـفَّـاعُ غـارمِ

أبَى فهو لا يشْري هُدى بضَـلالةٍ ولا يتَّقِي في الـلّـه لـوْمَةَ لائمِ

ونحن بحَمْدِ اللّهِ نتـلُـو كـتـابَـهُ حُلولاً بهذا الخَيْفِ خَيفِ المحَـارِمِ

بحيثُ الحَمَامُ آمـنـاتٌ سـواكـنٌ وتَلْقى العدُوَّ كالوَلـيِّ المـسـالـمِ

حمامة نوح

قال صاحب الحَمام: أمَّا العرب والأعرابُ والشُّعَراء، فقد أطبقوا على أنّ الحَمَامَةَ هي التي كانت دليلَ نوحٍ ورائده، وهي التي استجعَلَتْ عليه الطَّوْقَ الذي في عنقها، وعند ذلك أعطاها اللّه تعالى تلك الحِلْية؛ ومنَحَها تلك الزِّينة، بدعاء نوحٍ عليه السلام، حينَ رجعتْ إليه ومعها من الكرْمِ ما مَعها، وفي رجليها من الطِّين والحَمْأة ما برجليها، فعوِّضتْ من ذلك الطِّين خِضابَ الرِّجلين، ومن حُسن الدَّلاَلَةِ والطَّاعةِ طَوْقَ العنق.

شعر في طوق الحمامة

وفي طوقها يقول الفرزدق:

فمن يكُ خائفاً لأذاةِ شِعري فقد أمِنَ الـهجَاءَ بنو حَرَامِ

هم قادُوا سفيهَهُم وخافُـوا قلائِدَ مِثْلَ أطواقِ الحمامِ

وقال في ذلك بَكْر بن النَّطَّاح:

إذا شئتُ غنَّتْني ببَـغدَادَ قيْنَةٌ وإن شئتُ غنَّاني الحَمَامُ المطوَّق

لباسي الحسامُ أو إزارٌ مُعصفرٌ ودِرْعُ حديدٍ أو قميصٌ مخلَّق

فذكر الطَّوق، ووصَفها بالغِناءِ والإطراب، وكذلك قال حُمَيد بن ثور:

رَقودُ الضُّحى لاَ تعرف الجيرَةَ القصا ولا الجيرة الأدْنينَ إلاَّ تـجـشُّـمـا

وليستْ مِنَ اللائي يكونُ حديثُـهـا أمَـام بـيوتِ الـحـيِّ إنّ وإنَّـمـا

ثمّ قال:

وما هاج هذا الشّوقَ إلاَّ حمـامـةٌ دعَتْ ساقَ حُرٍّ تَرْحَةً وتَرَنُّـمـا

مطوّقةٌ خطْباء تصدَحَ كـلـمـا دنَا الصَّيفُ وانجاب الربيعَ فأنجما

ثمّ قال بعد ذكر الطوق:

إذا شئتُ غنَّتْنِي بأجزَاع بـيشَـةٍ أو النَّخْلِ مِنْ تَثْلِيثَ أو بيلملما

عجبتُ لـهـا أنَّى يكونُ غِناؤهـا فصيحاً ولم تَفْغَرْ بمنْطِقِها فمَا

ولم أرَ محزُوناً لهُ مِثْلُ صوتِها ولا عَرَبيّاً شاقهُ صوتُ أعجَما

وقال في ذكر الطّوق ـ وأنّ الحَمامة نَوّاحةٌ ـ عبدُ اللّه بن أبي بكر وهو شهيد يوم الطائِف، وهو صاحبٌ ابن صاحِب:

فلم أرَ مثْلِي طلّق اليومَ مثلـهـا ولا مِثْلها في غير جرمٍ تطلّقُ

أعاتِكُ لا أنْساكِ مَا هبَّتِ الصَّبَا وما نَـاحَ قُمريُّ الحَمامِ المطوَّقُ

وقال جَهْم بن خَلَف، وذكرها بالنَّوح، والغناء، والطّوْق، ودعوةِ نوح؛ وهو قوْلَهُ:

وقد شاقنـي نَـوْحُ قُـمـريةٍ طرُوبِ العَشِيِّ هتوفِ الضُّحَى

من الوُرْق نَـوَّاحةٍ بـاكـرَتْ عَسِيبَ أشاءٍ بذاتِ الـغَـضَـا

تَغنَّتْ عَليهِ بلحنٍ لها يُهيِّج للصَّبِّ ما قدْ مَضى

مطوَّقةٍ كُسِبتْ زينةً بدعْوةِ نوحٍ لها إذ دَعَا

فلم أرَ باكِيةً مِثلها تبكِّي ودَمْعَتها لا تُرَى

أضلّتْ فُرَيْخاً فطافتْ لَهُ وقد عَلِقتْه حبالُ الرَّدَى

فلما بدا اليأسُ منهُ بَكَتْ عَليهِ، وما ذا يردُّ البُكا

وقد صادَهُ ضَرمٌ مُلْحِمٌ خفوقُ الجَناحِ حَثِيثُ النَّجَا

حديدُ المخالِبِ عاري الوَظِيـ فِ ضارٍ من الوُرْق فيه قَنا

تَرَى الطّيرَ والوحْش مِن خَوفه جوامزَ منه إذا ما اغتدى

نزاع صاحب الدِّيك في الفخر بالطوق قال صاحب الديك: وأمَّا قوله:

مطوّقة كساها اللّه طوقاً ولم يخْصُصْ به طيراً سِواهَا

كيف لم يخصُص بالأطواق غَيْرَ الحَمام، والتَّدارِجُ أحقُّ بالأطواق وأحسنُ أطواقاً منها، وهي في ذُكورتها أعمّ؟ وعلى أنّه لم يصف بالطّوق الحَمامة التي فاخرتم بها الدِّيك؛ لأنَّ الحَمامة ليست بمطوَّقة، وإنما الأطواقُ لذكورة الوارشين وأشباه الوارشين،من نوائح الطّير وهواتفِها ومغنِّياتها، ولذلك قال شاعرُكم، حيث يقول:

أعاتكَ لا أنساكِ ما هبَّتِ الصَّبَا وما ناحَ قُمرَيٌّ الحمَامِ المطوَّقُ

وقال الآخر:

وقد شاقني نوحَ قمريةٍ طروبِ العَشِيِّ هَتُوفِ الضُّحى

ووصفها فقال:

مطوَّقةٍ كُسِيت زينةً بدَعوةِ نوحٍ لها إذْ دَعا

فإن زعمتم أنّ الحَمامَ والقمْريَّ واليمامَ والفواخِتَ والدَّبَاسِيَّ والشّفانِينَ والوارشين حمامٌ كلُّه، قلنا: إنَّا نزعم أنّ ذكورةَ التَّدَارج وذكورة القبَج، وذكورةَ الحجَلِ ديوكٌ كلها، فإنْ كان ذلك كذلك، فالفخْرُ بالطّوق نحن أولى به.

قال صاحب الحَمام: العرب تسمِّي هذه الأجناسَ كلها حماماً، فجمعوها بالاسم العامّ، وفرَّقوها بالاسم الخاص، ورأينا صُورَها متشابهة، وإن كانَ في الأجسامِ بعضُ الاختلافِ، وفي الجُثث بعض الائتلاف وكذلك المناقير، ووجدناها تتشابه من طريق الزِّواج، ومن طريقْ الدُّعاء والغناء والنَّوح، وكذلك هي في القدودِ وصُورِ الأعناق، وقصب الريش، وصِيغَة الرُّؤوس والأرجل والسُّوق والبَراثِنِ.

والأجناسُ التي عددتم ليس يجمعها اسمٌ ولا بلدةٌ، ولا صورةٌ ولا زواج، وليس بين الدِّيَكة وبينَ تلك الذُّكورةِ نسبٌ إلاَّ أنّها من الطَّير الموصوفة بكَثْرةِ السِّفاد، وأنَّ فِراخَها وفراريجها تخرُج من بيضها كاسية كاسبة، والبطُّ طائرٌ مثقل، وقد ينبغي أن تجعلوا فرخَ البطَّة فرُّوجاً، والأنثى دجاجةً والذَّكرَ دِيكاً، ونحنُ نجد الحَمامَ، ونجد الوراشين، تتسافد وتتلاقح، ويجيء منها الراعبيُّ والوردانيُّ؛ ونجد الفواخِت والقماريّ تتسافد وتتلاقح، مع ما ذكرنا من التشابهُ في تلك الوجوه، وهذا كلُّه يدلُّ على أنَّ بعضها مع بعْضٍ كالبُخْتِ والعراب ونتائج ما بينهما، وكالبراذين والعِتاق، وكلها خيلٌ، وتلك كلها إبل، وليس بين التَّدارج والقَبَج والحَجَلِ والدَّجاج هذه الأمورُ التي ذكرنا.

وعلى أنَّا قد وجدْنا الأطواقَ عامّةً في ذوات الأوضاح مِنَ الحَمام، لأنَّ فيها من الألوان، ولها من الشِّيَاتِ وأشكالِ وألوان الريش ما ليس لغيرها من الطَّير، ولَو احْتجَجْنَا بالتَّسافُدِ دون التَّلاقُح، لكان لقائل مقال، ولكنَّا وجدنَاهَا تجمع الخَصلتين، لأنَّا قدْ نجِدُ سُفهاءِ النّاس، ومن لا يتقَذّر من الناس والأحداث ومن تشتدُّ غلمته عند احتلامه، ويَقِلُّ طرُوقُه، وتطول عُزْبته؛ كالمعْزِب من الرِّعاء فإنّ هذه الطَّبَقة من النّاس، لم يَدَعُوا نَاقةً، ولا بقرَةً، ولا شاةً، ولا أتاناً، ولا رَمَكةً، ولا حِجْراً، ولا كلبةً، إلاَّ وقد وقعوا عليها.

ولَولاَ أنَّ في نفوس النَّاس وشَهوَاتِهم ما يدعو إلى هذه القاذورة، لَما وجدْتَ هذا العَمَلَ شائعاً في أهل هذه الصفة، ولَوْ جمعتَهم لجمعتَ أكثرَ من أهلِ بغْدَادَ والبصرة، ثم لم يُلقحْ واحد منهم شيئاً من هذه الأجناس على أنّ بعض هذه الأجناس يتلقى ذلك بالشَّهوةِ المفْرطة. ولقد خبَّرني من إخواني من لا أتَّهمُ خَبَرَه أنّ مملوكاً كان لبعض أهل القطيعة - أعني قطيعة الربيع - وكان ذلك المملوكُ يَكومُ بغْلةً وأنّها كانت تودق وتتلمّظ وأنّها في بعض تلك الوَقَعاتِ تأخَّرَتْ وهو موعبٌ فيها ذكرَه تطلبُ الزيادة، فلم يَزَلْ المملوكُ يتأخّرُ وتتأخّرُ البغْلة حتَّى أسندتْه إلى زاويةٍ مِنْ زَوَايا الإصطبل، فاضْغَطتْه حتّى بَرَدَ، فدخل بعضُ من دخل فرآه على تلك الحال فصاح بها فتنحّتْ وخرّ الغلام مَيِّتاً.

وأخبرني صديقٌ لي قال: بلغني عن برذَوْنٍ لزُرْقان المتكَلِّم، أنّهُ كان يدربخ للبغال والحَمير والبراذين حتى تكومَه، قال: فأقبلت يوماً في ذلك الإصطبل، فتناولت المجرفة، فوَضعَتُ رأس عودِ المِجْرَفَة على مَرَاثِه وإنّه لأكْثرُ مِنْ ذرَاعٍ ونصف، وإنه لخَشِنٌ غليظٌ غير محكوك الرأس ولا مملّسهِ، فدفعْته حتى بلغ أقصى العود،

وامتنع من الدُّخول ببدن المِجْرَفة، فحلَفَ أنّه ما رآه تأطّرَ ولا انثنى.
قال صاحب الحمام: فهذا فرق ما بيننا وبينكم.

ما وصف به الحمام من الإسعاد..

وحسن الغناء والنوح

ونَذْكر ما وُصِفَ به الحمامُ من الإسعاد، ومن حُسْن الغُناء والإطراب والنَّوح والشّجَا، قال الحسن بن هانئ:

إذا ثنَتْه الغصون جلّلني   فينانُ مَا في أدِيمه جُوَبُ

تبيتُ في مأتمٍ حمائمه   كما تُرِنُّ الفواقدُ السُّلُبُ

يهبُّ شوقي وشوقهُنَّ معاً   كأنّما يستخفُّنا طرب

وقال آخر:

لقد هَتَفتْ في جُنح لَيل حمامة   على فَنَنٍ وهناً وإنّي لَنائمُ

فقلتُ اعتذاراً عند ذاك وإنّني   لنفسي مما قد سَمِعتُ لَلائمُ

كذبتُ وبيتِ اللّهِ لو كنتُ عاشقاً   لما سَبَقتْني بالبُكاءِ الحَمَائمُ

وقال نصيب:

ولو قبْلَ مَبْكاها بَكَيتُ صبابَةً   بسُعدي شَفَيت النّفس قبلَ التندُّمِ

ولكنْ بَكَتْ قبلي فهيَّج لي البُكا   بُكَاها فقلتُ الفضلُ للْمُتَقدِّمِ

وقال أعرابي:

عليكِ سَلامُ اللّه قاطعَةَ القُوى   على أنَّ قلبي للفِراق كليمُ

قريحٌ بتغريدِ الحَمامِ إذا بكت   وإن هبَّ يوماً للجَنُوبِ نَسِيمُ

وقال المجنونُ، أو غيره:

ولو لم يَهجْني الرائحون لَهاجَني   حمائمُ ورقٌ في الدِّيار وُقوعُ

تجاوَبْنَ فاستبْكَيْنَ من كان ذا هوى   نوائحُ لا تجري لـهـنّ دُمـوعُ

وقال الآخر:

ألا يا سَيَالاتِ الدَّحائلِ باللِّـوى   عليكنَّ من بَين السَّـيالِ سـلامُ

أرَى الوَحْشَ آجالاً إليكنَّ بالضحى   لهـنَ إلـى أفـيائكـنَّ بُـغـامُ

وإنِّي لمجلوبٌ لي الشّوقُ كلما   تَرَنّمَ في أفنـانـكـنَّ حَـمـامُ

وقال عمرُو بن الوليد:

حال مِنْ دون أنْ أحلَّ بهِ الـنَّـأ   يُ وصَرْفُ النَّوى وحَرْبٌ عقامُ

فتبدَّلْتُ من مَسَاكِنِ قـوْمـي   والقصور التي بـهـا الآطـام

كلَّ قصرِ مـشَـيّدٍ ذي أواسٍ   تتغنَّى علـى ذراه الـحَـمـامُ

وقال آخر:

ألا يا صَبَا نجدٍ متى هِجْتَ مِن نَجدِ   فقد هاج لي مَسراكَ وجدًا علَى وَجد

أأن هَتَفتْ ورقاء في رَوْنَق الضُّحى عَلَى غُصُنٍ غضِّ النَّبات مِن الرَّنْـدِ

بكيتَ كما يبكي الوليد ولـم تـكـنْ   جَليدًا وأبْدَيتَ الذي لم تكـنْ تُـبـدي

وقد زعموا أنّ الـمـحـبَّ إذا دنَـا   يُمَلُّ، وأنّ النّأي يشفي مِنَ الْـوَجْـد

بكلٍّ تَدَاوَيْنَا فلم يَشْـفِ مـا بـنـا   عَلَى أنّ قُربَ الدَّارِ خيرٌ من البُعْد

أنساب الحمام

وقال صاحب الحَمام: للحمام مجاهيل، ومعروفات، وخارجيَّات، ومنسوبات، والذي يشتملُ عليه دواوينُ أصحاب الحمام أكثرُ من كتب النَّسب التي تضاف إلى ابن الكلبيِّ، والشّرقيِّ بن القطاميِّ، وأبي اليقظان، وأبي عُبيدة النحويِّ، بل إلى دَغْفَلِ ابن حنظلة، وابن لسان الحُمَّرَة، بل إلى صُحارِ العبديِّ، وإلى أبي السَّطّاح اللّخميّ، بل إلى النَّخّار العذريِّ، وصُبح الطائيِّ، بل إلى مثجور بن غيلان الضّبيّ، وإلى سَطيح الذئبيّ، بل ابن شريَّة الجُرْهميِّ، وإلى زيد بن الكيِّس النَّمَريّ؛ وإلى كلِّ

نسَّابَةٍ راويَةٍ، وكلٍّ متفنن علاّمة.
ووصف الهذيل المازنيُّ، مثنّى بن َ زُهير وحفظه لأنساب الحمام، فقال: واللّه لهو أنسَب من سعيد بن المسيّب، وقتادة بن دِعامة للنَّاس، بل هو أنسبُ من أبي بكر الصِّدِّيق رضي اللّه عنه لقد دخلت على رجلٍ أعْرفَ بالأمَّهاتِ المنْجِبات من سُحَيم ابن حفص، وأعرفَ بما دخَلها من الهُجْنةِ والإقراف، من يُونسَ بنِ حبيب.

مما أشبه فيه الحَمام الناس

قال: وممَّا أشبَهَ فيه الحَمامُ النَّاسَ في الصّورِ والشَّمائلِ ورقة الطباع، وسُرعة القَبول والانقلاب، أنّك إذا كنتَ صاحبَ فِراسةٍ، فمرَّ بك رجالٌ بعضُهم كوفيٌّ، وبعضهم بَصريٌ، وبعضهُم شاميٌّ وبعضُم يمانيٌّ، لم يَخْفَ عَليك أمُورهم في الصُّوَر والشمائِلِ والقُدودِ والنَّغم أيّهم بصريٌّ، وَأيُّهم كوفيّ، وأيّهم يمانيٌّ، وَأيهم مدنيٌّ وكذلك الحمام؛ لا تَرَى صاحبَ حَمامٍ تخفى عليه نسب الحمام وجنسها وبلادُها إذا رآها.

مبلغ ثمن الحمام وغيره

وللحمام من الفضيلة والفخْر، أن الحمام الواحدَ يباعُ بخسمائة دينار، ولايبلغ ذلك بازٍ ولا شاهينٌ، ولا صقرٌ ولا عُقاب، ولا طاوس، ولا تدْرَجٌ ولا ديكٌ، ولا بعيرٌ ولا حمارٌ، ولا بغلٌ، ولو أردْنَا أن نحقّقَ الخبرَ بأنَّ برذوناً أو فَرَساً بيع بخمسمائة دينار، لما قدَرْنا عليه إلاّ في حديث السَّمَر.
وأنت إذا أردْتَ أن تتعرَّف مبلغ ثمنِ الحمام الذي جاء من الغايَةِ، ثمَّ دخلْتَ بغدادَ والبصرة وجدْت ذلك بلا معاناة، وفيه أنَّ الحمام إذا جاء من الغاية بيع الفَرخُ الذَّكرُ من فراخ بعشرين ديناراً أو أكثر، وبيعَت الأنثى بعشرة دنَانير أو أكثر، وبيعَت البيضة بخمسة دنانير، فيقوم الزَّوج منها في الغَلَّةِ مقام ضيعة، وحتى ينهَضَ بموؤْنَة العِيال، ويَقضيَ الدَّين، وتبنى من غلاّتِه وأثمانِ رقابهِ الدُّورُ الجياد، وتبتاع الحوانيتُ المغِلَّة، هذا؛ وهي في ذلك الوقتِ مَلْهى عجيبٌ، ومنظرٌ أنيق، ومعتَبَرٌ لمنْ فكّر، ودليلٌ لمن نظرَ.

عناية الناس بالحمام

ومن دخل الحَجَر ورأى قصُورَها المبنيَّة لها بالشّامات وكيف اختزانُ تلك الغلاَّت، وحفْظُ تلك المؤونات؛ ومن شهد أربابَ الحمام، وأصحابَ الهُدَّى وما يحتملون فيها من الكُلف الغِلاظِ أيَّامَ الزَّجْل، في حملانها على ظهور الرِّجال، وقبل ذلك في بُطون السفن، وكيف تُفْرَدُ في البيوت، وتجمع إذا كان الجمع أمثل، وتفرَّقُ إذا كانت التَّفرقةُ أمثل وكيف تُنقلُ الإنَاثُ عن ذُكورتِها، وكيفَ تنقلُ الذُّكورَةُ عن إناثها إلى غيرها، وكيف يُخافُ عليها الضَّوَى إذا تقاربت أنسابُها، وكيف يُخاف على أعراقِها من دخول الخارجيّات فيها، وكيف يحتاط في صحَّة طرْقها ونجْلها؛ لأنَّهُ لاَ يُؤْمَن أن يقمُط الأنثى ذكرٌ من عُرْضِ الحمام، فيضربَ في النَّجلِ بنصيبٍ، فتعتريه الهُجنة - والبيضة عند ذلك تنسب إلى طرْقها، وهم لا يحوطون أرحام نسائهم كما

يُحوطون أرحامَ المنْجِبات من إناثِ الحمام، ومن شهد أصحاب الحمام عند زَجْلها من الغاية، والذين يعلّمون الحمامَ كيف يختارون لصاحب العلامات، وكيفَ يتخيَّرُون الثِّقة وموضعَ الصِّدق والأمانَةِ، والبُعدِ من الكذِب والرّشوة، وكيفَ يتوخّوْن ذا التَّجربَة والمعرفة اللَّطيفة، وكيف تسخو أنفسُهمْ بالجعالة الرَّفيعة، وكيف يختارون لحملها من رجال الأمانةِ والجَلَدِ والشَّفقةِ والبَصَر وحُسْنِ المعرفةِ - لعَلَم عند ذلك صاحب الدِّيك والكلب أنَّهما لا يجريان في هذه الحلبةِ، ولا يتعاطيان هذه الفضيلة.

خصائص الحمام

قال: وللحمام من حسنِ الاهتداءِ، وجودةِ الاستدلالِ، وثباتِ الحِفْظِ والذِّكرْ، وقوّةِ النِّزاعِ إلى أربابه، والإلف لوطنه، ما ليس لشيء، وكفاك اهتداءً ونِزاعاً أن يكون طائرٌ من بهائم الطير، يجيء من بَرْغمَةَ، لا بَلْ من العليق، أو من خَرشنة أوْ من الصفصاف، لاَ بَلْ من البَغْراس، ومن لؤلؤة.
ثمَّ الدَّليلُ على أنَّه يَستدلُّ بالعقلِ والمعرفة، والفِكرةِ والعناية أنَّه إنما يجيء من الغاية على تدريج وتَدْريبٍ وتنزيل، والدليل عَلَى علم أربابه بأنّ تلك المقدَّمات قد نَجَعنَ فيه، وعملن في طِباعه، أنّهُ إذا بلغ الرَّقة غمَّروا بهِ بكَرّةٍ إلى الدَّرب وما فوقَ الدَّرْب من بلاد الرُّوم، بل لا يجعلون ذلك تغميراً؛ لمكان المقدمات والترتيبات التي قد عُمِلت فيه وحَذَقته ومَرَّنته.
ولو كان الحمام ممَّا يُرسَل باللّيل، لكان مِمَّا يستدِلُّ بالنُّجوم؛ لأنّا رأيناه يلزَم بَطنَ الفُرات، أو بطنَ دِجلة، أو بُطونَ الأوديةِ التي قد مرَّ بها، وهو يرى ويُبصِرُ ويفهَمُ انحدار الماء، ويعلمُ بَعْدَ طولِ الجَوَلانِ و بَعْدَ الزِّجال، إذا هو أشرف علَى الفرات أو دِجلة، أنّ طريقه وطريق الماء واحد، وأنهُ ينبغي أن ينحدِر مَعهُ.
وما أكثرَ ما يستدلُّ بالجَوَادِّ من الطُّرُق إذا أعيتْهُ بطونُ الأودية، فإذا لم يَدْرِ أمُصْعِدٌ أمْ مُنْحَدِرٌ، تعَرَّفَ ذلك بالرِّيح، ومواضعِ قُرْصِ الشمس في السماء، وإنَّما يحتاج إلى ذلك كلّه إذا لم يكُن وَقَعَ بعد على رسم يعمَلُ عليه فربَّما كَرّ حين يزجل بهِ يميناً وشِمالاً، وجنوباً وشَمالاً، وصَباً ودَبُوراً - الفراسِخَ الكثيرة وفوقَ الكثيرة.

الغُمر والمجرّب من الحمام

وفي الحمام الغُمْر والمجرّب، وهم لا يُخاطِرون بالأغمار لوجهين: أحدهما أن يكون الغُمْر عريفاً فصاحبُه يضنُّ به، فهو يريدُ أن يدرِّبه ويمرِّنه ثمَّ يكلفه بعد الشيء الذي اتّخذه له، وبسببه اصطنعه واتخذهُ، وإمَّا أن يكونَ الغمْر مجهولاً، فهو لا يتعنّى ويُشقي نفسَه، ويتوقَّعُ الهدَايَةَ من الأغمار المجاهيل.
وخَصلةٌ أخرى: أنّ المجهولَ إذا رَجَعَ مع الهدَّى المعروفاتِ، فحملهُ معها إلى الغاية فجاء سابقاً، لم يكنْ له كبير ثمنٍ حتَّى تتلاحق به الأولاد، فإنْ أنْجَبَ فيهنَّ صار أباً مذكوراً وصار نَسَباً يرجَع إليه، وزاد ذلك في ثمنه.
فأمَّا المجرَّب غير الغمر، فهو الذي قد عرَّفوه الوُرودَ والتحَصُّب؛ لأنّه متى لم يقدرْ عَلى أن ينقضّ حتَّى يشربَ الماء من بطون الأوديةِ والأنهار والغُدْران، ومناقع

المياه، ولم يتحَصّب بطلب بُزور البراري، وجاعَ وعطش - التمسَ مواضعَ الناس، وإذا مرَّ بالقرى والعُمْران سقط، وإذا سقط أُخِذَ بالبَايْكير وبالققَّاعة، وبالمِلْقفِ وبالتَّدْبيق وبالدُّشَاخ، ورمى أيضاً بالجُلاهِق وبغير ذلك من أسبابِ الصَّيد.
والحمام طائرٌ مُلقًّى غير مُوَقًّى، وأعداؤه كثير، وسباع الطّير تطلُبه أشدّ الطلب، وقد يترقع مع الشّاهين، وهو للشاهين أخوَف، فالحَمامُ أطْيرَ منْهُ ومن جميع سباع الطير، ولكِنَّهُ يُذْعرُ فيجهَلُ بابَ المَخْلَص ويعتريه ما يعتري الحمار من الأسدِ إذا رآه، والشاةَ إذا رأت الذِّئب والفارة إذا رأت السِّنَّور.

سرعة طيران الحمام

والحمامُ أشدُّ طيراناً من جميع سباع الطير، إلاّ في انقضاض وانحدار؛ فإنَّ تلك تنحطّ انحطاط الصخور و متى التقت أمَّةٌ من سباع الطَّير أوْ جُفالةٌ من بهائم الطير، أو طِرْنَ عَلَى عَرَقَةٍ وخيطٍ ممدود، فكلُّهَا يعتريها عند ذلك التَّقصير عما ما كانت عليه، إذا طارت في غير جماعة، ولن ترى جماعة طير أكثرَ طيراناً إذا كَثُرْنَ من الحمام؛ فإنّهُنّ كلما التففن وضاق موضعُهنّ كان أشدّ لطيرانهنَّ، وقد ذكر ذلك النَّابغة الذُّبيانيُّ في قوله:

وَاحْكمْ كَحُكْمِ فَتَاةِ الحَيِّ إذ نَظَرتْ	إلى حمامٍ شراعٍ واردِ الثَّمـدِ
يحفُّه جانـبًا نِـيقٍ ويَتْبَـعُـهُ	مثلُ الزُّجاجةِ لم تُكْحَلْ من الرَّمدِ
قالت :ألا لَيتما هذا الحمامُ لـنـا	إلى حمامَتا ونِصْفُـهُ فَـقَـدِ
فحسَبوه فألفَوه كما حَسَبَـتْ	تِسعًا وتسْعينَ لم تنقُصْ ولم تزدِ
فكَمَّلت مائةً فيها حمامـتُـهـا	وأسْرَعَتْ حَسْبَةً في ذلك العَدَدِ

قال الأصمعيُّ: لما أراد مَديحَ الحاسب وسرعة إصابته، شدَّدَ الأمرَ وضيَّقه عليه؛ ليكون أحمدَ له إذا أصاب؛ فجعَلَهُ حَزَر طيراً، والطّيرُ أخفُّ من غيره، ثمَّ جعله حماماً والحمامُ أسرع الطّير، وأكثرُها اجتهاداً في السرعة إذا كثر عددهنَّ؛ وذلك أنّه يشتدُّ طيرانُهُ عند المسابقة والمنافسة، وقال: يحفّه جانبا نِيقٍ ويتبعه، فأراد أنّ الحمام إذا كان في مضيقٍ من الهواء كان أسرَعَ منه إذا اتّسع عليه الفضاء.

غايات الحمام

وصاحب الحَمام قد كان يدرِّب ويمرِّن ويُنزل في الزِّجال، والغايَة يومئذٍ واسط، فكيف يصنَع اليومَ بتعريفه الطَّريق وتعريفهِ الوُرود والتحصُّب، مع بُعد الغاية؟! ما يختار لِلزّجْل من الحَمام والبغداديون يختارون للزِّجال من الغايةِ الإناث،

والبصريّون يختارون الذُّكور فحجَّة البغداديّين أن الذَّكر إذا سافر وبَعُد عهده بقمْط الإناث، وتاقتْ نفسُه إلى السِّفاد، ورأى أنثاه في طريقه، ترك الطَّلبَ إن كان بعُد في الجوَلان؛ أو ترك السَّيرَ إن كان وقع على القصْد، ومالَ إلى الأنثى وفي ذلك الفسادُ كلُّه.
وقال البَصريُّ: الذَّكرُ أحنُّ إلى بيتِه لمكان أنثاه، وهو أشدُّ متْناً وأقوى بدَناً، وهو أحسنُ اهتداء، فنحنُ لا ندع تقديمَ الشيء القائم إلى معنًى قد يعرضُ وقد لا يعرض.
نصيحة شدفويه في تربية الحَمام وسمعتُ شدفويه السلائحي من نحو خمسين سنة، وهو يقول لعبد السلام بن أبي عمار: اجعل كعبة حمامك في صَحْن دارك، فإنَّ الحَمامَ إذا كان متَى خرج من بيته إلى المعلاة لم يصل إلى معلاتهِ إلاّ بجمع النَّفس والجناحين، وبالنهوضِ ومكَابدَةِ الصعود - اشتدَّ متْنُه، وقويَ جناحُه ولحمه، ومتى أراد بيتَه فاحْتاج إلى أن ينتكس ويجيء منقضّاً كان أقوَى على الارتفاعِ في الهواءِ بعد أن يروى، وقد تعلمون أنَّ الباطنيِّين أشدّ متناً من الظاهريِّين، وأنّ النِّقرسَ لا يُصِيب الباطِنيَّ في رجله ليس ذلك إلاَّ لأنَّه يصعد إلى العلالي فوق الكَنادِيج درجة بعد درجة، وكذلك نزوله، فلو درَّبتم الحَمامَ على هذا التَّرتيب كانَ أصوب، ولا يعجَبُني تَدْريب العاتق وما فوق العاتق إلاّ من الأماكنِ القريبة؛ لأن العاتقَ كالفتاةِ العاتق، وكالصبّي الغرير، فهو لاَ يَعْدِمُه ضعفُ البدن، وقلَّةُ المعرفة، وسوء الإلف، ولا يُعجبُني أن تتركوا الحمام حتّى إذا صار في عدد المسانِّ واكتهل، وولَدَ البطونَ بَعْدَ البطونِ، وأخذ ذلك من قوَّةِ شبابهِ، حملتموه على الزَّجْل، وعلى التَّمْرين، ثمَّ رميتم به أقصى غايةٍ لاَ، ولكنَّ التَّدريب مع الشباب، وانتهاء الحِدَّةِ، وكمال القوَّةِ، من قبل أن تأخذ القوّة في النُّقصان، فهو يلقَّن بقربه من الحداثة، ويُعرَّف بخروجه من حدِّ الحداثة، فابتدِئُوا به التّعليمَ والتمْرينَ في هذه المنزلة الوُسطى.
الوقت الملائم لتمرين فراخ الحمام وهُمْ إذا أرادوا أن يمرِّنوا الفراخَ أخرجُوها وهي جائعة، حتى إذا ألقوا إليها الحبَّ أسرعت النزول، ولا تُخْرَجُ والرِّيح عاصف، فتخرجِ قبل المغربِ وانتصاف النهار، وحُذّاقهم لا يخرجونها مع ذكورة الحمام؛ فإنَّ الذُّكورة يعتريها النَّشاط والطَّيران والتَّباعُدُ ومجاوزة القبيلة، فإن طارت الفِراخُ معها سقطتْ على دور الناس، فرياضتها شديدة، وتحتاج إلى معرفة وعنايَةٍ، وإلى صبرٍ ومُطاولة؛ لأنّ الذي يُراد منها إذا احتيج إليه بعد هذه المقدّمات كان أيضاً من العجَب العجيب.
حوار في اختيار الحمام حوار يعقوب بن داود مع رجل في اختيار الحمام وحدَّثني بعضُ من أثقُ به أنّ يَعقوبَ بن داود، قال لبعض مَنْ دَخَلَ عليه - وقد ذهب عنِّي اسمُه ونسيتُه، بَعْدَ أنْ كنْتُ عرفته -: أما تَرَى كيُ أخلَف ظنُّنا وأخطأ رأيُنا، حتّى عمَّ ذلك ولم يخصّ؟ أما كان في جميع من اصطنعناه واخترناه، وتفرَّسنا فيه الخير وأردنَاه به - واحدٌ تكفِينا معرفته مؤنَة الاحتجاج عنه، حتَّى صرْتُ لا أقرّع إلاّ بهم، ولاَ أعابُ إلاَّ باختيارهم قال: فقال له رجل إنّ الحمام يُختارُ من جهة النَّسَب، ومن جهة الخِلْقة، ثم لا يرضى له أربابُه بذلك حتى ترتِّبه وتنزِّلهُ وتُدَرِّجُه، ثم تُحمَل

الجماعةُ منه بعد ذلك التّرتيب والتَّدْريبِ إلى الغاية، فيذهبُ الشَّطرُ ويرجعُ الشطر، أو شبيهٌ بذلك أو قريبٌ من ذلك، وأنتَ عَمدْتَ إلى حمامٍ لم تنظرْ في أنْسابها ولم تتأمَّلْ مَخيلة الخير في خَلْقها ثمَّ لم ترْض حتى ضربْتَ بها بكَرَّةٍ واحدةٍ إلى الغاية، فليس بعَجَبٍ ولا مُنْكَرٍ ألاّ يرجعَ إليكَ واحدٌ منها، وإنما كان العَجبُ في الرُّجوع، فأمّا في الضّلال فليس في ذلك عجبٌ، وعلى أنّه لو رجع منها واحدٌ أو أكثرُ من الواحدِ لكان خطؤك موفّراً عليك، ولم ينتقصْهُ خطأً من أخطأ؛ لأنّه ليس من الصواب أن يجيء طائراً من الغايةِ على غير عِرْقٍ وعلى غير تدريب.

كرم الحَمام..

الإلف والأنْس والنِّزاعُ والشّوق

وذلك يَدُلُّ على ثبات العهد، وحفْظِ ما ينبغي أن يُحفَظ، وصوْنِ ما ينبغي أن يصان وإنه لخلق صِدْق في بني آدم فكيفَ إذا كان ذلك الخلقُ في بعض الطير.
وقد قالوا: عمَّرَ اللّه البُلدان بحبِّ الأوطان.
قال ابن الزُّبير: ليس النَّاسُ بشيء مِنْ أقسامهم أقنَعَ منهم بأوطانهم.
وأخبر اللّه عزَّ وجلَّ عن طبائع النَّاس في حبِّ الأوطان، فقال: "قالُوا وَمَا لنَا ألاّ نقاتِلَ في سَبيلِ اللّه وقدْ أُخْرِجْنَا من دِيَارِنَا وَأَبْنَائنَا" وقال: "ولَوْ أنّا كَتبْنَا عَلَيْهمْ أنِ اقتُلُوا أنْفُسَكُمْ أوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَاركُمْ ما فَعَلوهُ إلاّ قليلٌ منْهُمْ".
وقال الشاعر:

وكنتُ فيهمْ كممْطُورٍ ببَلْدِتـهِ   فسُرَّ أنْ جَمَعَ الأوْطانَ والمطرَا

فتجدُهُ يُرْسَل منْ موضعٍ فيجيء، ثمَّ يخرج من بيته إلى أضيق موضع وإلى رخام ونقان فيرسل من أبعد من ذلك فيجيء، ثم يصنَع به مثلُ ذلك المرار الكثيرة، ويزاد في الفراسخ، ثم يَكون جزاؤه أن يغمَّر به من الرَّقة إلى لؤلؤة فيجيء ويستَرَق من منزل صاحبه فيقصُّ، ويَغْبرُ هناك حولاً وأكثرَ من الحول، فحينَ ينبت جناحهُ يحنُّ إلى إلفه وينزع إلى وطنه، وإن كان الموضع الثَّاني أنفعَ له، وأنعمَ لباله، فيَهبُ فضْلَ ما بينهما لموضع تربيته وسكنه، كالإنسان الذي لو أصاب في غير بلادِه الرِّيف لم يقعْ ذلك في قلبه، وهو يعالجهم على أن يُعطى عُشْرَ ما هو فيه في وطنه.
ثمَّ ربَّما باعه صاحبهُ، فإذا وجد مَخْلَصاً رجع إليه، حتَّى ربما فَعَلَ ذلك مِراراً، وربَّما طار دَهْرَهُ وجالَ في البلادِ، وألفَ الطّيران والتقلّبَ في الهواء، والنَّظرَ إلى الدنيا، فيبدو لصاحبه فيقصُّ جناحَه ويُلقِيه في ديماس، فينبت جناحُهُ، فلا يَذْهب عنه ولا يتغيَّر له، نَعَمْ، حَتَّى ربّما جَدَف وهو مقصوصٌ، فإمَّا صار إليهِ، وإمّا بلغَ عذراً.

قص جناح الحمام

ومتى قصَّ أحد جناحيه كان أعجزَ له عن الطّيران، ومتى قصّهما جميعاً كان أقوى له عليه، ولكنهُ لا يبْعِد، لأنّه إذا كان مقصوصاً من شِقٍّ واحدٍ اختلفَ خلقه، ولم يعْتدل وزنه، وصارَ أحدُهما هوائياً والآخرُ أرضياً فإذا قصّ الجناحان جميعاً طار، وإن كان مقصوصاً فقد بلغ بذلك التعديل من جناحيه أكثر مما كان يبلغ بهما إذا كان أحدُهما وافياً والآخرُ مبتوراً.
فالكلبُ الذي تَدَّعون له الإلف وثبات العَهد، لا يبلغُ هذا، وصاحبُ الدِّيك الذي لايفخرُ للدِّيك بشيءٍ من الوفاء والحفاظ والإلف، أحقُّ بألاّ يعرض في هذا الباب.
قال: وقد يكون الإنسان شديدَ الحضْر، فإذا قُطِعَتْ إحدى يديه فأراد العَدْو كان خطوهُ أقصر، وكان عن ذلك القصد والسَّنَنِ أذهبَ، وكانت غايةُ مجهوده أقربَ.
حديث نباتَة الأقطع وخبّرني كم شئتَ، أنّ نباتَة الأقطع وَكان منْ أشِدَّاء الفتيان وكانت يدُه قطعت من دُوينِ المنكبِ، وكان ذلك في شقِّه الأيسر؛ فكان إذا صار إلى القتالِ وضرَبَ بسيفِه، فإن أصاب الضَّرِيبة ثبَتَ، وإن أخطأ سقطَ لوجههِ؛ إذ لم يكنْ جَناحه الأيسر يُمسكه ويثقّله حتى يعْتَدلَ بَدَنُهُ.
أجنحة الملائكة وقد طعن قومٌ في أجنحة الملائكة، وقد قال اللّه تعالى: "الحَمْد للّه فاطرِ السَّموَاتِ والأرض جَاعلِ الْمَلاَئكَةِ رُسُلاً أُولي أجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ في الخَلْق مَا يشَاءُ". وزعموا أنَّ الجناحين كاليدين، وإذا كان الجناح اثنين أو أرْبَعَة كانتْ معتدلة، وإذا كانت ثلاَثة كان صاحبُ الثَّلاثةِ كالجادِفُ من الطَّير، الذي أحدُ جناحَيه مقصوص، فلا يستطيع الطّىران لعدم التعديل، وإذا كان أحدُ جناحيه وافياً والآخرُ مقصوصاً، اختلفَ خَلْقُه وصار بَعْضُه يذهب إلى أسفَلَ والآخر إلى فوق.
وقالوا: إنَّما الجناحُ مثل اليد، ووجدنا الأيديَ والأرجل في جميع الحيوان لا تكون إلاَّ أزواجاً، فلو جعلتمْ لكُلِّ واحدٍ منهم مائَة جَناحٍ لم نُنْكِرْ ذلك، وإن جعلتموها أنقصَ بواحدٍ أو أكثرَ بواحدٍ لم نجوِّزه.
قيل لهم: قد رأينا من ذوات الأربع ما ليسَ له قرن، ورأينا ما له قرْنَان أملسان، ورأينا ما له قرنان لهما شُعَبٌ في مقاديم القرون، ورأينا بعضَها جُمّاً ولأخَواتِها قرون، ورأينا منها ما لا يقال لها جُمٌّ لأنَّها ليست لها شكلُ ذواتِ القرون، ورأينا لبعض الشاء عِدَّةَ قرون نَابتةٍ في عظم الرَّأس أزواجاً وأفراداً، ورأينا قرُونَاً جُوفاً فيها قرون، ورأينا قروناً لا قرونَ فيها، ورأيناها مُصمتَة، ورأينا بعضَها يتصُل قرْنُه في كلِّ سنة، كما تسلخ الحيَّةُ جلدَها، وتنفضُ الأشجارُ ورقها، وهي قُرون الأيائلِ، وقد زعموا أنَّ للحِمار الهنديِّ قرناً واحداً.
وقد رأينا طائراً شَدِيدَ الطيران بلا ريشٍ كالخُفّاش، ورأينا طائراً لايطير وهو وافي الجَناح، ورأينا طائراً لا يمشي وهو الزَّرزور، ونحن نُؤْمن بأنَّ جعفراً الطَّيارَ ابنَ أبي طالب، له جناحان يطير بهما في الجِنان، جُعِلا له عوضاً من يديه اللتين قطعتا على لواء المسلمين في يوم مؤتة، وغير ذلك من أعاجيب أصناف الخلق.
فقد يستقيم - وهو سهلٌ جائزٌ شائع مفهوم، ومعقول قريبٌ غير بعيد أن يكون إذا وُضع طباع الطائر على هذا الوضع الذي تراه ألاّ يطير إلاّ بالأزواج، فإذا وُضع على غير هذا الوَضع، وركِّب غيرَ هذا التَّركيب صارت ثلاثة أجنحة وَفُوق تلك

الطبيعة، ولو كان الوَطواط في وضْع أخلاطه وأعضائه وامتزاجاته كسائر الطير، لما طار بلا ريش.
الطير الدائم الطيران وقد زعم البَحْريّون أنّهم يعرفون طائراً لم يسقط قطّ، وإنما يكون سقوطه من لدُنْ خروجهِ من بيضه إلى أن يتمَّ قصبُ ريشه، ثمَّ يطير فليس له رزق إلاّ من بعوض الهواء وأشباه البَعوض؛ إلاّ أنَّهُ قصيرُ العمر سريعُ الانحطام.
بقية الحديث في أجنحة الملائكة وليس بمستنكر أن يُمزَج الطائر ويُعْجَن غيرَ عجْنه الأوَّل فيعيش ضعفَ ذلك العُمر، وقد يجوز أيضاً أنْ يكونَ موضعُ الجَناح الثالث بين الجَناحين، فيكون الثالث للثاني كالثاني للأوّل، وتكون كلُّ واحدةٍ من ريشةٍ عاملةً في التي تليها من ذلك الجسم فتستوي في القوى وفي الحِصص.
ولعَلَّ الجَناح الذي أنكره الملحدُ الضَّيِّقُ العَطَن أن يكونَ مركزُ قوادِمِهِ في حاقِّ الصُّلب.
ولعَلَّ ذلك الجناح أن تكون الريشة الأولى منه معينة للجنَاح الأيمن والثانية معينة للجناح الأيسر، وهذا مما لايضيقُ عنه الوهم، ولا يعجِز عنه الجواز.
فإذا كان ذلك ممكناً في معرفة العبد بما أعاره الربُّ جلّ وعزَّ، كان ذلك في قدرة اللّه أجوز، وما أكثر من يضيقُ صدرُه لقلّة علمه.

أعضاء المشي لدى الحيوان والإنسان

وقد علموا أنَّ كلّ ذي أربعٍ فإنّه إذا مَشى قدّم إحدِى يديه، ولا يجوز أن يستعمل اليَد الأخرى ويقدِّمها بَعْدَ الأولى حَتّى يستعمل الرِّجل المخالفة لتلك اليد: إنْ كانت اليدُ المتقدّمة اليمنى حرَّكَ الرِّجْلِ اليسرى، وإذا حَرّك الرجل اليسرى لم يحرِّك الرِّجْل اليمنى - وهو أقرَبُ إليها وأشبه بها - حَتَّى يحرِّك اليَدَ اليسرى، وهذا كثير.
وفي طريقٍ أخرى فقد يقال: إنَّ كلَّ إنسانٍ فإنما رُكْبَته في رجله، وجميعَ ذوات الأربَع فإنّما رُكبها في أيديها، وكلُّ شيء ذي كفٍّ وبَنان كالإنسان، والقرد، والأسد، والضَّبّ، والدُّب، فكفُّه في يده، والطَّائر كفّه في رجله.
استعمال الإنسان رجليه فيما يعمله في العادة بيديه وما رأيتُ أحداً ليس له يَدٌ إلاّ وهو يعمل برجليه ما كان يعمل بيديه، وما أقف على شيء من عمل الأيدي إلاّ وأنا قد رأيتُ قوماً يتكلّفونه بأرجلهم.
ولقد رأيتُ واحداً منهم راهنَ على أن يُفرغ برجليه ما في دَسْتيجة نبيذ في قنانيّ رطليَّات وفقَّاعِيّات فراهنوه، وأزعجني أمرٌ فتركته عند ثقات لا أشك في خبرهم، فزعموا أنّه وَفى وزاد، قلت: قد عرَفتُ قولكم وفى فما معنى قولكم زاد قالوا: هو أنّه لو صبَّ من رأس الدّستيجة حوالي أفواه القنانيّ كما يعجِز عن ضَبطه جميعُ أصحاب الكمال في الجوارح، لما أنكرنا ذلك، ولقد فرَّغ ما فيها في جميع القناني فما ضيّعَ أوقيَّةً واحدةً.
قيام بعض الناس بعمل دقيق في الظلام وخبَّرني الحزَاميُّ عن خليل أخيه، أنّه متى شاء أن يَدْخُلَ في بيت ليلاً بلا مصباح، ويفرغ قربة في قنانيّ فلا يصبُّ إستاراً واحداً فعله.

ولو حكى لي الحزاميُّ هذا الصَّنيعَ عن رجل وُلِد أعمى أو عمي في صباه، كان يعجبني منه أقلَّ، فأمّا من تعوّد أن يفعل مثل ذلك وهو يبصر فما أشدَّ عليه أن يفعله وهو مغمَض العينين، فإن كان أخوه قد كان يقدر على ذلك إذا غمَّض عينيه فهو عندي عجب، وإن كان يبصر في الظلمة فهو قد أشبه في هذا الوجه السِّنّورَ والفأر، فإنَّ هذا عندي عجبٌ آخر وغرائب الدُّنيا كثيرة عند كلّ من كان كلفاً بتَعرافها، وكان له في العلم أصلٌ، وكان بينه وبين التبَيُّن نَسَب.

اختلاف أحوال الناس عند سماعهم للغرائب وأكثر الناس لا تجدّهم إلاَّ في حالتين: إمّا في حالِ إعراض عن التبيُّن وإهمال للنّفس، وإمَّا في حالِ تكذيبٍ وإنكارٍ وتسرّع إلى أصحاب الاعتبار وتتبُّعِ الغرائب، والرغبةِ في الفوائد، ثمَّ يرى بعضهم أنَّ له بذلك التكذيب فضيلةً، وأنّ ذلك بابٌ من التوقّي، وجنسٌ من استعظام الكذب، وأنّه لم يكن كذلك إلاَّ من حاقِّ الرَّغبةِ في الصِّدق، وبئس الشيء عادة الإقرار والقبول، والحقُّ الذي أمر اللّه تعالى به ورغب فيه، وحثَّ عليه أن ننكر من الخبر ضربين: أحدهما ما تناقضَ واستحال، والآخر ما امْتنع في الطِبيعة، وخرج من طاقة الخلقة، فإذا خرج الخبرُ من هذين البابين، وجرى عليه حكم الجواز، فالتدبير في ذلك التثبت وأن يكون الحقُّ في ذلك هو ضالّتك، والصِّدق هو بُغيتك، كائناً ما كان، وقع منك بالموافقةِ أم وقع منك بالمكروه، ومتى لم تعلم أنّ ثوابَ الحقِّ وثمرَة الصِّدق أجدى عليك من تلك الموافقةِ لم تقع على أن تعطِي التثبتَ حقّه.

??تشبيه رماد الأثافي بالحمام

قال: وهم يصفون الرَّماد الذي بين الأثافيّ بالحمامةِ، ويجعلون الأثافيَّ أظآراً لها، للانحناء الذي في أعالي تلك الأحجار، ولأنّها كانت معطّفات عليها وحانيات على أولادها، قال ذو الرُّمَّة:

كأنَّ الحمامَ الوُرْقَ في الدَّار جَثَّمت على خَرق بين الأثافي جَوازِلُـه

شبّه الرّماد بالفراخ قبل أن تنهض والجُثوم في الطير مثل الرُّبوض في الغنم، وقال الشماخ:

وإرثِ رَماد كالحمامة ماثِل ونُؤْيَينَ في مَظلومَتَيْن كُدَاهما

وقال أبو حيَّة:

مِنَ الـعَرَصـاتِ غير مَـخَـدِّ نُــؤْيٍ كبـاقـي الـوحْـي خُطَّ عـلـى إمـــام

وغير خوالدٍ لُوِّحْن حَتىبهنَّ علامةٌ من غير شام

كأنّ بها حمامَات ثلاثاً مَثَلْنَ ولـم يَطِرْنَ مَـعَ الـحـمـــامِ

وقال العَرْجي:

ومَرْبط أفْرَاسٍ وخَيمٌ مُصرَّعٌ   وهابٍ كجُثْمانِ الحمامةِ هامِدُ

وقال البَعِيث:

وَيَسُفْعْ ثوَيْنَ العَامَ والعَـامَ قبْلَـهُ وَسَحْق رَمادٍ كالنَّصيف من العصْبِ

شعر في نوح الحمام وفي بيوتها

وقالوا في نوح الحمام، قال جِران العَود:

واستقبلوا وادِىاً نوحُ الحمامِ بِهِ   كأنّه صوتُ أنباطٍ مَثـاكيلِ

وقالوا في ارتفاع مواضع بُيوتِها وأعشاشها، وقال الأعشى:

ألم تر أن العِرْض أصبَحَ بطنـهُ   خيلاً وزرعاً نـابتاً وقَصافصـا

وذا شُرُفات يقصُر الطّرف دونَه   تَرَى للحمام الورق فيه قرامصَا

وقال عمرو بن الوليد:

فتبدَّلتُ من مساكنِ قومي   والقُصور التي بها الآطامُ

كلَّ قصرِ مشيّدٍ ذي أواسٍ   تتغنَّى على ذُراه الحمـامُ

والحمام أيضاً ربما سكن أجْوَافَ الرَّكايا، ولا يكون ذلك إلاّ لِلْوحشيِّ منها، وفي البير التي لا تُورد، قال الشاعر:

بدلو غير مُكرَبَةٍ أصابتْ   حَماماً فِي مساكِنِه فَطارَا

يقول: استقى بسُفرته من هذه البئر، ولم يستق بدَلوٍ، وهذه بئر قد سكنها الحمام لأنّها لا تُورَدُ، وقال جهم بن خلف:

وقد هاج شوقي أنْ تَغنَّت حمـامة   مطوّقة ورقاء تصدَحُ في الفجر

هتوفٌ تبكِّي ساقَ حُرٍّ ولن تـرَى   لـها دَمعةً يومًا على خدّها تجري

تغنَّتْ بلحنٍ فاستجابَت لصوتـهـا   نَوائحُ بالأصياف في فَنَنِ السِّدْرِ

إذا فترَتْ كرَّتْ بلحنٍ شجٍ لـهـا   يُهَيِّج للصَّبِّ الحزينِ جَوَى الصَّدْرِ

دعتهُنَّ مِطرابُ العشيَّات والضُحى   بصوتٍ يَهيجُ المستهامَ على الذِّكرِ

فلـم أرَ ذا وجـد يزيدَ صـبـابـةً   عليها، ولا ثكلِى تُبَكِّي على بكْـرِ

فأسْعَدْنها بالنَّوح حتَّى كـأنَّـمـا   شَربنَ سُلافًا من معتَّقة الخَمْـرِ

تجاوبْنَ لحنًا في الغُصونِ كأنَّـهـا   نوائحُ مَيْت يلتدِمْنَ لـدى قـبـرِ

بسُرَّةِ وادٍ مـن تَـبَـالة مُـونِـقٍ   كسا جانبيه الطّلحُ واعتمَّ بالزَّهْـرِ

استطراد لغوي ويقال: هدر الحمام يهدِر، قال: ويقال في الحمام الوحشي من القماريِّ والفواخت والدَّباسي وما أشبه ذلك: قد هدل يهدِل هدِيلاً،فإذا طرَّب قيل غرَّد يغرد تغريداً، والتغريد يكون للحمام والإنسان، وأصله من الطير.
وأمَّا أصحابنا فيقولون: إنّ الجمل يهدِر، ولايكون باللام، والحمام يهدل وربّما كان بالراء.
وبعضهم يزعُم أنّ الهديلَ من أسماء الحمام الذّكر، قال الرّاعي واسمه عبيد بن الحصين:

كهداهِدٍ كَسَرَ الرُّماةُ جَناحَـه   يدعُو بقارعَةِ الطَّريق هديلا

ساق حُرٍّ وزعم الأصمعيُّ أنّ قوله: هتوفٌ تبكّي ساقَ حرٍّ إنَّما هو حكاية صوت وحشيِّ الطير من هذه النَّوّاحات، وبعضهم يزعم أنّ ساق حرّ هو الذكر، وذهب إلى قول الطِّرمَّاح في تشبيه الرَّماد بالحمام، فقال:

بين أظآرٍ بمـظـلـومةٍ   كسَراةِ السّاق ساق الحمامْ

صفة فرس وقال آخر يصف فرساً:

ينْجيه مِنْ مِثلِ حمـام الأغْـلاَلْ   رفعُ يدٍ عَجلَى ورجل شمـلاَلْ

تَظْمَأُ من تحتُ وتُروَي من عالْ

الأغلال: جمع غَلَلٍ، وهو الماء الذي يجري بين ظهرَي الشّجر قال: والمعنى أنّ الحمام إذا كان يريد الماء فهو أسرعُ لها، وقوله: شِملال أيْ خفيفة.
ليس في الأرض جنسٌ يعتريه الأوضاح والشِّيات، ويكون فيها المصْمَت والبهيمُ أكثرَ ألواناً، و من أصناف التَّحَاسِين ما يكون في الحمام، فمنها ما يكون أخضرَ مُصمَّتاً، وأحمر مصمتاً وأسودَ مصمتاً، وأبيض مصمتاً، وضروباً من ذلك، كلها مصمتة، إلاّ أنّ الهِدَايَة للخُضْرِ النُّمر، فإذا ابيضَّ الحمام كالفقيع فمثله من النّاس الصَّقلابيُّ، فإن الصَّقلابيَّ فطيرٌ خامٌ لم تُنْضِجْه الأرحام؛ إذ كانت الأرحام في البلاد التي شمسها ضعيفة. وإن اسودّ الحمامُ فإنما ذلك احتراقٌ، ومجاوزة لحدِّ النُّضج، ومثلُ سود الحمام من الناس الزِّنج؛ فإن أرحامهم جاوزت حدَّ الإنضاح إلى الإحراق، وشيَّطت الشّمس شُعورَهم فتقبَّضت.
والشّعر إذا أدنَيته من النَّار تجعَّد، فإنْ زدْتَه تفلفَل، فإن زدتَه احترق.
وكما أنّ عقول سُودانِ النَّاس وحُمرانِهم دونَ عقول السُّمر، كذلك بيضُ الحمام وسودُها دونَ الخُضْر في المعرفة والهدايَةِ.
استطراد لغوي وأصل الخضرة إنَّما هو لون الرَّيحان والبقولِ، ثم جعلوا بعدُ الحديدَ أخضرَ، والسماء خضراء، حتّى سمَّوا بذلك الكُحْل واللّيل.
قال الشَّمَّاخ بنُ ضرار:

ورُحْنَ رَواحاً مَنْ زَرُودَ فنازعت   زُبالة جلباباً من الليل أخضرا

وقال الرّاجز:

حتَّى انتضاه الصُّبح من ليلٍ خَضِرْ مثل انتضاء البَطَلِ السَّيفَ الذّكَرْ

نضو هوى بالٍ على نِضَوِ سَفَرْ

وقال اللّه عزّ وجلّ: "ومنْ دُونِهمَا جَنَّتَان، فبأيِّ آلاء رَبِّكما تُكَذِّبَان، مُدْهَامَّتَانِ"
قال: خضراوان من الرِّي سوداوان.
ويقال: إن العراقَ إنَّما سمِّي سواداً بلون السَّعَف الذي في النّخل، ومائه.
والأسودان: الماء والتمر، والأبيضان: الماء واللبن، والماء أسودُ إذا كان مع التّمر، وأبيض إذا كان مع اللّبن.
ويقولون: سُودُ البطون وحمْر الكُلى، ويقولون: سود الأكباد يريدون العداوة، وأن الأحقاد قد أحرقت أكبادَهم، ويقال للحافر أسود البطن؛ لأن الحافر لا يكون في بطونها شحم.
ويقولون: نحن بخير ما رأينا سَواد فلان بين أظهرُنا، يريدون شخصه، وقالوا: بل يريدون ظلَّه.
فأمّا خضْرُ مُحارب، فإنما يريدون السُّود وكذلك: خُضْر غسَّان.
ولذلك قال الشاعِرُ:

إنّ الخَضارمة الخضْر الذين غدَوْا   أهْلَ البريص ثمانٍ منهمُ الحكمُ

ومن هذا المعنى قول القرشي في مديح نفسِه:

وأنا الأخضَرُ مَنْ يَعْرِفنـي   أخضَرُ الجِلْدةِ في بَيْتِ العربْ

وإذا قالوا: فلان أخضر القفا، فإنما يعنون به أنّه قد ولدتْه سوداء، وإذا قالوا: فلان أخضر البطْن، فإنما يريدون أنّه حائك، لأنّ الحائك بطنَه لطول التزاقه بالخشبة التي يطوى عليها الثوب يسودّ.
عدواة العروضي للنظام وكان سبب عداوة العَروضي لإبراهيم النَّظام، أنّه كان يسمِّيه الأخضرَ البطن، والأسوَد البطن؛ فكان يكشِفُ بطنَه للناس - يريدُ بذلك تكذيبَ أبي إسحاق - حتى قال له إسماعيل بن غزْوان: إنَّما يريد أنَّك من أبناء الحاكة فعاداه لذلك.
استطراد لغوي فإذا قيل أخضر النَّواجذ، فإنما يريدون أنّه من أهل القُرَى، ممّن يأكل الكُرَّاث والبصل.
وإذا قيل للثور: خاضب؛ فإنما يريدونَ أنّ البقل قدْ خَضَب أظلافه بالخضرة، وإذا قيل للظليم: خاضب، فإنما يَريدونَ حمرةَ وظيفيه فإنهما يَحمرَّان في القيْظ، وإذا قيل للرَّجل خاضب، فإنَّما يريدون الحنَّاء فإذا كان خضابُه بغير الحِنَّاء قالوا: صَبَغ ولا يقال خضب.
ويقولون في شبيهٍ بالباب الأوّل: الأحمران: الذهب والزعفران، والأبيضان: الماء واللَّبن، والأسودان: الماء والتمر.
ويقولون: أهلَكَ النِّساء الأحمران: الذّهب والزّعفران، وأهلَكَ النَّاسَ الأحامِر: الذهب، والزعفران، واللَّحم، والخمر.
والجديدان: اللَّيل والنهار، وهما الملوان.
والعصر: الدَّهر، والعصران: صلاة الفَجْر وصلاة العشي، والعصران: الغَداة والعَشِيُّ، قال الشاعر:

وأمطُله العَصْرَينِ حَتَّى يملَّنـي ويَرْضى بِنِصْفِ الدَّينِ والأنفُ رَاغِمُ

ويقال: البائعان بالخيار وإنَّما هو البائع والمشتري، فدخل المبتاع في البائع.
وقال اللّه عزَّ وجلَّ: "وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ "، دخلت الأمُّ في اسم الأبوَّة، كأنهُمْ يَجمعُون على أنْبَهِ الاسميْنِ وكقولهم: ثبيرَين، والبَصرتَين، وليس ذلك بالواجب؛ وقدْ قالوا: سيرَةَ العُمَرَين، وأبو بكْرٍ فوقَ عمر، قال الفرزْدَق:

أخذْنَا بآفاق السَّماءِ عليكـمُ   لنا قمرَاها والنُّجومُ الطَّوالعُ

وأمَّا قولُ ذي الرُّمَّة:

وليلٍ كجِلبابِ العَرُوس ادَّرعتُـه   بأربْعةٍ والشخْصُ في العَينِ وَاحِدُ

فإنهُ ليس يريدُ لونَ الجلباب، ولكنّهُ يريد سُبوغه.
جواب أعرابيّ قال: وكذلك قول الأعرابيِّ حينَ قيل له: بأيِّ شيء تعرفُ حَملَ شاتِك؟ قال:إذا استفاضَتْ خاصِرتها، ودَجت شَعْرَتها، فالدَّاجي هاهنا اللابس.
قال الأصمعي ومسعود بن فيد الفزاري: ألا تَرونَه يقول: كان ذلك وثوبُ الإِسلامِ داجٍ، وأما لفظ الأصمعيّ فإنّه قال: كان ذلك منذُ دَجَا الإسلام، يعني أنّه ألبس كلَّ شيء.

شِيات الحمام

ثمَّ رجع بنا القول إلى ذكر شِياتِ الحمام.
وزعموا أنّ الأوضاحَ كلَّها ضعَف، قليلها وكثيرها، إلاّ أنَّ ذلك بالحِصَص على قدْر الكثرة والقلّة، كذلك هي في جميع الحيوانِ سواءٌ مستقبلُها ومستدْبرها، وذلك ليس بالواجِبِ حتى لا يغادر شيئاً البتة؛ لأنَّ الكَلْبة السَّلوقيَّة البيضاءَ أكرمُ وأصيَدُ، وأصبَرُ من السَّوْدَاء.
والبياضُ في النَّاسِ على ضروب: فالمعيب منه بياضُ المُغْرَب والأشقرُ والأحمرُ أقلُّ في الضّعف والفسادِ، إذا كان مشتقّاً من بَياضِ البَهَق والبَرَص والبَرَش والشيب.
والمغْرَبُ عند العرب لا خير فيه البتة، والفقيع لا يُنجِب، وليس عنده إلاّ حسنُ بياضه، عند من اشتهى ذلك.
سوابق الخيل وزعم ابن سلاّم الجَمحيّ أنَّه لم يرَ قطُّ بلقاءَ ولا أبلق جاء سابقاً، وقال الأصمعيّ: لم يسبق الحَلْبَة أهضَمُ قطُّ؛ لأنـهم يمدحون المُجْفَرَ من الخيل، كما قال:

خِيط على زَفرةٍ فتَمَّ ولـم   يرجعْ إلى دِقة وَلاَ هَضَمِ

ويقولون: إنَّ الفرَس بعُنُقِه وبطْنه.
وخبّرني بعض أصحابنا، أنَّه رأى فَرَساً للمأمون بَلقاء سبقتِ الحلبة، وهذه نادرةٌ غريبة.

نظافة الحمام ونَفع ذرْقه

والحمام طائر ألوفٌ مألوف ومحبَّب، موصوفٌ بالنّظافة، حتى إنّ ذرْقه لا يعاف ولا نتن له، كسُلاَح الدَّجاج والدِّيَكة، وقد يُعالج بذرْقه صاحبُ الحصاة، والفلاّحون يجدون فيه أكثرَ المنافع، والخبَّاز يُلقي الشيء منه في الخمير لينتفخَ العجينُ

ويعظُمَ الرغيف، ثمّ لا يستبينُ ذلك فيه، ولدَرْقه غلاتٌ، يعرف ذلك أصحاب الحُجَر، وهو يصلُحْ في بَعض وُجوهِ الدَّبْغ.

الحمامُ طائرٌ لئيمٌ قاسي القلب

وقال صاحبُ الدِّيك: الحمامُ طائرٌ لئيمٌ قاسي القلب، وإن برَّ بزَعْمِكم ولدَ غيره، وصنَعَ به كما يصنع بفرخه؛ وذلك أنهما يحضُنان كلَّ بيض، ويزُقّان كلَّ فرْخ، وما ذاك منهما إلاّ في القرْط.
لؤم الحمام فأمَّا لؤمه فمن طريق الغَيرة، فإنّه يرى بعينه الذّكَرَ الذي هو أضعف منه، وهو يطرُدُ أنثاه ويكسَحُ بذنَبه حَولها، ويتطوَّس لها ويستميلها، وهو يرى ذلك بعَينه - ثمَّ لم نر قط ذكراً واثبَ ذكراً عند مثلِ ذلك.
فإذا قلت: إنّه يشتدُّ عليه ويمنعه إذا جثمت له وأراد أن يعلوَها؛ فكلُّ ذكر وأنثى هنالك يفعل ذلك، وليس ذلك من الذكر الغريب من طريق الغَيرة، ولكنّه ضربٌ من البُخْل ومن النّفاسة، وإذا لم يكن من ذكَرِها إلاّ مثلُ ما يكون من جميع الحمام عُلم أنّ ذلك منه ليس من طريق الغيرة، وأنا رأيت النواهضَ تفعل ذلك، وتقطع على الذَّكر بَعْدَ أن يعلُوَ على الأنثى.
قال: وأمَّا ما ذكرتم من أن الحمامَ معطوفٌ على فِراخه ما دامتْ محتاجةً إلى الزّقّ، فإذا استغنَت نُزعت منها الرحمةُ، فليس ذلك كما قلتم، الحمامُ طائرٌ ليس له عهد؛ وذلك أنّ الذكرَ ربما كانت معه الأنثى السِّنينَ، ثمَّ تُنقلُ عنه وتُوارَى عنه شهراً واحداً، ثم تظهر له مع زوج أضْعَفَ منه، فيراها طولَ دهْره وهي إلى جنب بيتِه وتماريده فكأنه لا يعرفها بعد معرفتها الدَّهرَ الطويل، وإنما غابت عنه الأيَّامَ اليسيرةَ، فليس يوجَّهُ ذلك الجهلُ الذي يُعامِل به فراخَهُ بعد أن كبرَت، إلاَّ على الغباوة وسُوءِ الذِّكر، وأنّ الفرْخ حين استوى ريشهُ وأشبَهَ غيرَه من الحمام جهِل الفصْل الذي بينهما.
فإن كان يعرف أنثاه وهو يجدُها مع ذكَرٍ ضعيف وهو مسلِّم لذلك وقانعٌ بهِ، وقليلُ الاكتراث به، فهو من لؤمٍ في أصل الطبيعة.
قسوة الحمام قال: وبابٌ آخر من لؤمه: القسوة، وهي ألأمُ اللّؤم؛ وذلك أن الذّكَر ربَّما كان في البيت طائرٌ ذكرٌ قد اشتدَّ ضعفهُ، فينقُر رأسَه والآخرُ مستخذٍ له، قد أمكنَه من رأسِهِ خاضعاً له، شديدَ الاستسلام لأمره، فلا هو يرحمُه لضعْفِه وعجْزه عنهُ، ولا هو يرحَمُه لخضوعه، ولا هو يملُّ وليس له عنده وتر، ثمّ ينقُر يافُوخَه حتى ينقُبَ عنهُ، ثمَّ لا يزال ينقُر ذلك المكانَ بَعْدَ النّقْب حتى يُخرجَ دِمَاغَهُ فيموتَ بين يَدَيْه.
فلو كان ممَّا يأكل اللَّحمَ واشتهى الدماغ كان ذلك له عذراً؛ إذ لم يَعْدُ ما طَبَعَ اللّه عليه سِباعَ الطير.
فإذا رأينا من بعض بهائمِ الطيرِ من القسوةِ ما لا نرى من سِباع الطير لم يكن لنا إلاّ أن نقضيَ عليهِ من اللؤمِ على حسب مباينته لشكل البهيمة، ويزيد في ذلك على ما في جوارح الطير من السَّبُعِية.
أقوال لصاحب الديك في الحمام وقال صاحب الديك: زعم أبو الأصبغ بن ربعيّ

قال: كان رَوحٌ أبو همام صاحِب المعمّى، عند مثنَّى ابن زهير، فبينما هو يوماً وهو معهُ في السطح إذ جاء جماعةٌ فصعِدوا، فلم يلبثْ أن جاء آخرون، ثمَّ لم يلبَثْ أن جاء مثلهُمْ، فأقبَلَ عليهم فقال: أيُّ شيءٍ جاء بكم؟ وما الذي جَمَعكم اليوم؟ قالوا: هذا اليومُ الذي يرجع فيهِ مَزَاجيلُ الحمامِ من الغايَةِ، قال: ثمَّ ماذا؟ قالوا: ثمَّ نَتَمَتَّعُ بالنَّظر إليها إذا أقبلت، قال: لكِنَّني أتمتَّع بتغميض العين إذا أقبلت، وترْك النَّظر إليها ثمَّ نزَل وجلس وحدَه.

التلهِّي بالحمام

وقال مثنّى بنُ زهير ذاتَ يوم: ما تلَهَّى النّاسُ بشيءٍ مثل الحمام، ولا وجدنا شيئاً مما يتخذه النّاس ويُلعَبُ بِهِ ويُلْهَى بهِ، يخرج من أبواب الهزل إلى أبواب الجِدّ - كالحمام - وأبو إسحاق حاضر - فغاظه ذلك، وكظم على غيظه، فلمَّا رأى مثنَّى سكوته عن الردِّ عليه طمِع فيه فقال: يبلغُ واللّهِ مِنْ كرَم الحمامِ ووفائِه، وثباتِ عهْدِه، وحنينِه إلى أهله، أنِّي ربّما قصَصتُ الطَّائر وبعد أنْ طار عِندي دهراً، فمتى نبَتَ جَناحُه كنباته الأوَّل، لم يَدْعُه سوءُ صنعِي إليه إلى الذَّهاب عنِّي، ولربَّما بعْتُه فيقصُّه المبتاعُ حيناً، فما هو إلاَّ أن يجدَ في جَناحِه قوَّةٍ على النُّهوض حتَّى أراه أتاني جادفاً أو غير جادف، وربَّما فعلتُ ذلك به مراراً كثيرة، كلَّ ذلك لا يزدَادُ إلاَّ وفاء.
قال أبو إسحاق: أمَّا أنت فأراكَ دائباً تحمَده وتذمُّ نَفْسَك، ولئنْ كان رجوعُه إليك من الكرمِ إنّ إخراجَك له من اللُّؤم وما يُعجبني من الرِّجال مَنْ يَقْطعْ نفسَه لصلةِ طائر، وينسى ما عليه في جنبِ ما للبهيمة، ثم قال: خبِّرني عنْكَ حين تقول: رجَعَ إليَّ مرَّةً بعدَ مرَّة، وكلما زهِدْتُ فيه كان فيَّ أرغبَ، وكلّما باعدْتُه كان لي أطْلَبَ؛ إليكَ جاء، وإليكَ حنَّ أمْ إلى عُشِّه الذي درَج منه، وإلى وكْره الذي رُبِّي فيه؟ أرأيت أنْ لو رجَعَ إلَى وكره وبيتِه ثمَّ لم يجدْك، وألفاك غائباً أو ميِّتاً، أكان يرجِعُ إلى موضعه الذي خلّفه؟ وعلى أنّك تتعجَّب من هدايتِه، وما لك فيه مقالٌ غيره، فأمَّا شكرُك على إرادته لك، فقد تبيَّنَ خَطَاؤك فيه، وإنما بقي الآن حسنُ الاهتداء، والحنينُ إلى الوطن.

مشابهة هداية الحمام لهداية الرخم

وقد أجمعوا على أنَّ الرَّخَمَ من لئام الطير وبغاثها، وليست من عِتاقها وأحْرارها، وهي من قواطِع الطَّير، ومِنْ موضعِ مَقْطَعها إلينا ثمَّ مرجِعِها إليه من عندنا، أكثرُ وأطوَل من مقدار أبعَدِ غايات حمامكم، فإن كانتْ وقتَ خُروجها من أوطانها إلينا خرجتْ تقطع الصَّحارى والبراريَّ والجزائرَ والغِياضَ والبحارَ والجبالَ، حتّى تصير إلينا في كلِّ عام - فإن قلت إنّها ليستْ تخرج إلينا على سمْتٍ ولا على هِدايةٍ ولا دَلالةٍ، ولا على أمارةٍ وعَلامة، وإنما هَربَت من الثُّلوج والبرْد الشديد، وعلمت أنّها تحتاج إلى الطُّعْم، وأنّ الثّلجَ قد ألبَس ذلك العالم، فخرجتْ هاربة فلا تزالُ في هربها إلى أن تصادفَ أرضاً خِصْباً دفئاً، فتقيم عندَ أدنى ما تجد - فما تقولُ فيها عند رجوعها ومعرفِتها بانحسارِ الثلوج عن بلادها؟ أليست قد اهتدت طريقَ

الرُّجوع؟ ومعلوم عند أهل تلك الأطراف، وعند أصحاب التَّجارب وعند القانص، أنّ طَيْرَ كلِّ جهةٍ إذا قطعَتْ رَجَعت إلى بلادها وجبالها وأوكارها، وإلى غياضها وأعشّتها، فتجد هذه الصِّفة في جميع القواطع من الطَّير، كرامها كلئامها، وبهائمها كسباعها، ثمَّ لا يكون اهتداؤها على تمرينٍ وتوطين، ولا عن تدريبٍ وتجريبٍ، ولم تلقّن بالتّعليم، ولم تثبّتْ بالتّدبيرِ والتقويم، فالقواطع لأنفسها تصير إلينا، ولأنفسها تعودُ إلى أوكارها.

وكذلك الأوابد من الحمام، لأنفسها ترجع، وإلفُها للوطن إلفٌ مشترَكٌ مقسومٌ على جميع الطّير، فقدْ بَطَلَ جميعُ ما ذكرت.

قواطع السمك ثمّ قال: وأعجبُ من جميعِ قواطعِ الطّيرِ قواطعُ السَّمك، كالأسبور والجُوَاف والبَرستُوج، فإنَّ هذه الأنواعَ تأتي دِجلَة البصرةِ من أقصى البحار، تستعذبُ الماء في ذلك الإبَّان، كأنها تتحمَّضُ بحلاوة الماء وعذوبَتِه، بعدَ مُلوحةِ البحر؛ كما تتحمَّض الإبلُ فتتطلب الحَمْضَ - وهو ملحٌ - بَعْدَ الخُلّة - وهو ما حلا وعذب.

طلب الأسد للملح والأسْدُ إذا أكثرتْ مِنْ حَسْوِ الدِّماء - والدِّماءُ حلوةٌ - وأكْلِ اللّحْم واللّحمُ حلو - طلبت المِلْحَ لتتملّحَ به، وتجعلَه كالحمْض بعْدَ الخُلّة.

ولولا حُسنُ موقع المِلْح لم يُدْخله النّاسُ في أكثرِ طعامهم.

والأسَدُ يخرج للتملُّح فلاَ يزالُ يسيرُ حتّى يجِدَ مَلاَّحة، وربَّما اعتادَ الأسَدُ مكاناً فيجده ممنوعاً، فلاَ يزالُ يقْطَعُ الفراسِخَ الكثيرةَ بَعْدَ ذلك فإذا تملَّح رجع إلى موضعِهِ وغَيْضَتِه وعَرِينِه، وغابه وعِرِّيسته، وإن كان الذي قطع خمسين فرسخاً.

قواطع السمك ونحن بالبصرة نعرف الأشْهُر التي يقبل إلينا فيها هذه الأصناف وهي تقبلُ مرَّتين في كلِّ سنة، ثمّ نجدُها في إحداهما أسمَنَ الجنس، فيقيم كلُّ جنس منها عنْدَنا شهرَين إلى ثلاَثة أشهُر، فإذا مضى ذلك الأجلُ، وانقضتْ عِدّةُ ذلك الجنس، أقبل الجنسُ الآخر، فهم في جميعِ أقسام شُهورِ السَّنَةِ من الشتاءِ والربيعِ، والصَّيفِ والخريف، في نوعٍ من السَّمك غيرِ النّوع الآخَر، إلاَّ أنْ البَرَسْتُوجَ يُقْبِل إلينا قاطعاً من بلاد الزّنج، يستعذب الماء من دِجلةِ البَصْرَةِ، يعرفُ ذلك جميعُ الزّنج والبَحْريّين.

بُعْدُ بلاد الزِّنج والصِّين عن البصرة وهم يزعمون أنّ الذي بين البصرة والزِّنج، أبعَدُ مما بين الصِّين وبينها.

وإنما غلط ناسٌ فزعموا أنّ الصِّين أبعد، لأن بحرَ الزِّنج حفرةٌ واحِدة عميقة واسعة، وأمواجها عِظام، ولذلك البَحْرِ ريحٌ تهبُّ من عُمانَ إلى جهةِ الزِّنج شهْرَين، وريحٌ تَهُبُّ من بلاد الزّنج تريدُ جِهَةَ عُمان شهْرين، على مقْدَارٍ واحدٍ فيما بينَ الشِّدَّة واللّين، إلاّ أنّها إلى الشدّةِ أقرَب، فلما كان البَحْرُ عميقاً والرِّيحُ قويَّةَ، والأمْواجُ عظيمَة، وكان الشِّراعُ لا يحطُّ، وكان سيرهم مع الوَتَر ولم يكن مع القوْس، ولا يَعْرفون الخِبَّ والمكلاَّ، صارت الأيّامُ التي تسير فيها السُّفن إلى الزِّنْج أقل.

البرستُوج قال: والبَرَسْتوج سَمَكٌ يقْطَعُ أمواجَ الماء، وَيَسيح إلى البصرة مِنَ الزنْج، ثم يَعُودُ ما فَضَلَ عنْ صيدِ الناس إلى بلاده وبحره، وذلك أبْعَدُ ممّا بين

البصرة إلى العليق المرارَ الكثيرة، وهم لا يصيدون من البَحْر فيما بين البَصرة إلى الزنْج من البَرَسْتُوج شيئاً إلاَّ في إبانِ مَجيئها إلينا ورجوعِها عنَّا، وإلاَّ فالبحر منها فارغٌ خالٍ.
فعامة الطير أعجبُ من حمامكم، وعامَّةُ السّمك أعجبُ من الطَّير.

هداية السمك والحمام

والطَّيرُ ذو جناحين، يحلّق في الهواء، فله سُرعةُ الدَّرَك وبلوغ الغاية بالطيران، وله إدراك العالم بما فيهِ بعلامات وأمارات إذا هو حلّق في الهواء، وعلا فوق كل شيء، والسَّمكة تسبِّح في غَمْر البَحْر والماء، ولا تسبِّح في أعلاه، ونسيمُ الهواء الذي يعيشُ بهِ الطيرُ لو دامَ على السمكِ ساعة مِنْ نهارٍ لقتله.
وقال أبو العنبر: قال أبو نخيلة الراجز وذكَرَ السمك:

تغمُّه النشرَةَ والنسِيم فلا يزال مُغرَقاً يَعُومُ

في البَحر والبَحْرُ له تخميمُ وأمُّهُ الوَالدة الرؤومُ

تَلهمهُ جهلاً وما يَريمُ

يقول: النشرَةَ والنسيم الذي يُحيي جَميعَ الحيواناتِ، إذا طال عليه الخُمُومُ واللَّخَنُ والعَفَن، والرُّطوباتُ الغليظة، فذلك يغمُّ السَّمَك ويكرُبُه، وأمُّه التي ولدته تأكله؛ لأنّ السَّمكَ يأكلُ بعضُه بعضاً، وهو في ذلك لا يريمُ هذا الموضع.
وقال رؤبة:

والحوت لا يَكفِيه شيءٌ يَلْهَمُه يُصبحُ عَطْشَانَ وفي الماءِ فَمُهْ

يصف طباعَه واتِّصاله بالماء، وأنَّه شديد الحاجةِ إليه، وإن كان غَرقاً فيه أبداً.
شعر في الهجاء وأنشدني محمَّدُ بنُ يسير لبعض المدنيِّين، يهجُو رجلاً، وهو قوله:

لو رأى في السَّقفِ فرْجاً لنزا حتَّى يموتَا

أو رآهُ وَسْطَ بحرٍ صارَ فيه الدَّهرَ حُوتَا

قال: يقول في الغَوْص في البَحْر، وفي طُول اللبْثِ فيه.
شعر في الضفدع وقال الذّكواني، وهو يصف الضِّفْدعَ:

يُدخل في الأشْدَاق ماءً يَنصُفهْ كَيمَا يَنقَّ والنّقِيقُ يُتْلِفهْ

قال: يقول: الضِّفدع لا يصوِّت، ولا يتهيَّأ له ذلك حتَّى يكون في فيه ماء، وإذا أرادَ ذلك أدخل فكه الأسفلَ في الماءِ، وترَك الأعلى حتى يبلُغَ الماءُ نِصفَه.
والمثل الذي يَتَمَثَّلُ بِهِ النّاس: فلانٌ لا يستطيعُ أن يُجيبَ خُصومَه لأنّ فاهُ مَلآن ماءً، وقال شاعرهُمْ:

وما نسيت مكان الآمريكِ بـذا   يا مَنْ هويتُ ولكنْ في فمِي ماءُ

وإنَّما جعلوا ذلك مثلاً، حينَ وجَدُوا الإنسانَ إذا كان في فمه ماءٌ على الحقيقة لم يَسْتطع الكلام، فهو تأويلُ قولِ الذَّكوانيِّ:

يُدخِلُ في الأشداق ماءً يَنْصُفُه

بفتح الياءِ وضمِّ الصَّاد، فإنَّه ذهبَ إلى قول الشاعر:

وكنتُ إذا جاري دَعا لمضُوفةٍ   أشمِّر حتَّى يَنْصُفَ السَّاقَ مِئْزَرِي

المضوفة: الأمر الذي يشفقُ منه.
وكقول الآخر:

فإنَّ الظَّنَّ يَنْصُفُ أو يزِيدُ

وهذا ليس من الإنصاف الذي هو العَدْل، وإنَّما هو من بلوغ نِصْف الساق.
وأمَّا قوله:

كَيما ينقَّ والنَّقِيقُ يُتلِفهُ

فإنه ذهَبَ إلى قول الشاعِر:

ضفادِعُ في ظلماء ليل تجاوَبتْ   فَدَلَّ عَلَيْهَا صَوْتها حَيَّةَ البَحْرِ

معرفة العرب والأعراب بالحيوان وقلَّ معنًى سَمِعناهُ في باب مَعْرفةِ الحيوان من الفلاسفة، وقرأناه في كتبِ الأطبَّاءِ والمتكلمين ـ إلاَّ ونحنُ قد وجدناه أو قريباً منهُ في أشعار العَرب والأعراب، وَفي معرفةِ أهلِ لغتنا ومِلّتنا، ولولا أنْ يطولَ الكتابُ لذكرتُ ذلك أجمعَ، وعلى أنِّي قد تركتُ تفسيرَ أشعارٍ كثيرة، وشواهد عديدة مما لا يعرفه إلاَّ الرَّاويةُ النِّحرير؛ مِنْ خوف التطويل.

حمام النساء وحمام الفراخ

وقال أفليمون صاحبُ الفِراسة: اجعل حمامَ النساء المسرْوَلاتِ العِظامَ الحِسانَ، ذواتِ الاختيال والتَّبختر والهدير؛ واجعل حمام الفِراخ ذواتِ الأنساب الشريفة والأعراق الكريمة، فإنّ الفراخَ إنَّما تكثُر عن حُسْن التعهُّد، ونظافةِ القرامِيص والبُروج، واتَّخِذْ لهنَّ بيتاً محفوراً عَلَى خِلقة الصَّومَعة، محفوفاً من أسفله إلى مقدارِ ثُلثي حيطانِه بالتماريد، ولتَكُنْ واسعةً وليكن بينها حَجاز، وأجودُ ذلك أن تكونَ تماريدُها محفورةً في الحائطِ على ذلك المثال، وتعهَّد البُرْج بالكنس والرَّشِّ في زمان الرش، وليكن مخرجُهنَّ من كَوٍّ في أعلى الصَّومعة، وليكن مقتصداً في السِّعةِ والضِّيق، بقدر ما يدخُل منه ويخرجُ منه الواحد بعد الواحد، وإن استطعتَ أن يكونَ البيتُ بقُربِ مزرعةٍ فافعلْ، فإنْ أعجزكَ المنسوبُ منها فالتمسْ ذلك بالفِراسةِ التي لا تخطئُ وقلَّما يُخطئُ، المتفرِّس.

قال: وليس كلُّ الهُدَّى تَقْوَى على الرّجعة من حيثُ أرسِلتْ؛ لأنَّ منها ما تفضل قوَّتهُ على هِدايته، ومنها البطيء وإن كان قويّاً، ومنها السَّريع وإن كان ضعيفاً، على قدر الحنين والاغترام، ولا بدَّ لجميعها من الصَّرامةِ، ومن التّعليم أوّلاً والتَّوطين آخِراً.

انتخاب الحمام

وقال: جِماع الفِرَاسةِ لاَ يَخرج من أربعة أوجه: أوَّلها التقطيع، الثاني المجسَّة، والثالث الشمائل، والرابع الحركة.

فالتقطيع: انتصاب العنق والخِلْقة، واستدارةُ الرأس من غير عِظَمٍ ولا صِغَر، مع عظم القرطمتين، واتِّساع المنخرين، وانهرات الشدقين وهذان مِنْ أعلامِ الكَرَم في الخيل؛ للاسترواح وغير ذلك، ثمّ حُسنُ خِلْقة العينين، وقِصر المنقار في غير دِقة ثمَّ اتّساعُ الصّدرِ وامتلاءُ الجؤجؤ، وطولُ العُنق، وإشراف المنكِبين، وطول القوادمِ في غير إفراط، ولحُوق بَعض الخوافي ببعض، وصلابة العَصَبِ في غير انتفاخٍ ولا يُبس واجتماعُ الخلْق في غير الجعودة والكَزَازَةِ، وعِظَمُ الفخذين، وقِصرَ الساقين والوظِيفَين، وافتراق الأصابع، وقِصرَ الذَّنب وخِفَّته، من غير تَقْنين وتفرُّق، ثم تَوَقُّد الحَدَقتين، وصفاء اللَّون، فهذه أعلامُ الفِراسة في التقطيع.

وأمَّا أعلامُ المجسة، فوثاقةُ الخلْق، وشدَّة اللَّحم، ومَتانَة العَصَب، وصلاَبةُ القصَب، ولينُ الرِّيش في غير رِقةٍ وصَلابَة المِنقارِ في غير دقة.

وأمَّا أعلامُ الشمائل، فقلَّة الاخْتيال، وصفاءُ البصر وثباتُ النَّظَر وشدّة الحَذر، وحسنُ التَّلَفت، وقلَّة الرعْدةِ عنْدَ الفزع، وخفَّةُ النّهوض إذا طار، وَترْكُ المبادرةِ إذا لَقط.

وأمّا أعلام الحركةِ، فالطيران في علوّ، ومدُّ العُنق في سموٍّ، وقلة الاضطراب في جوِّ السماءِ، وضمُّ الجناحين في الهواء، وتَدَافُعُ الركض في غير اختلاط، وحُسْنُ القصْد في غير دَوَرَانٍ، وشدَّةُ المدِّ في الطيران، فإذا أصبتَه جَامعاً لهذه الخصال فهو الطائر الكامل، وإلا فبقدر ما فيهِ من المحاسن تكون هدايته وفَرَاهتهُ.

أدواء الحمام وعلاجها

قال: فاعلموا أنَّ الحمامَ من الطيرِ الرقيق، الذي تُسرِع إليهِ الآفة، وتَعْرُوهُ الأدواءُ، وطبيعَتهُ الحَرارة واليُبْس، وأكثرُ أدوائِه الخُنان والكباد، والعُطاش، والسل، والقُمَّل، فَهوَ يحتاجُ إلى المكانِ البارِدِ والنَّظيف، وإلى الحبوبِ البارِدَة كالعَدَس والماشِ والشّعير المنخول، والقُرْطمُ له بمنزلة اللَّحم للإنسان؛ لما فيه من قوّةِ الدَّسم.

فممَّا يُعالَجُ بهِ الكبادُ: الزَّعفران والسكر الطبَرْزَد، وماء الهندباء يجعل في سُكرَّجة، ثمَّ يُوجر ذلك أو يمجُّ في حلقه مجّاً وهو على الرِّيق.

وممَّا يعالَجُ به الخُنان: أنْ يليِّنَ لسانَه يوماً أو يومين بدُهْن البنفسج، ثمَّ بالرَّمادِ والملح، يُدْلَك بها حتَّى تنسلخ الجلدة العليا التي غشيت لسانَه، ثمَّ يطلى بعَسل ودَهنِ ورد، حتّى يبرأ.

وممَّا يعالج به السّلّ: أنْ يُطعَم الماشَ المقْشور، ويمجَّ في حلْقه من اللَّبن الحليبِ، ويُقطعَ من وظيفَيْهِ عِرقان ظاهران في أسفل ذلك، مما يلي المفصل من باطن.

وممَّا يعالَجُ بهِ القُمَّل: أنْ يُطلى أصولُ ريشهِ بالزِّيبَق المحلّلِ بدُهن البنفسَج، يفعل بهِ ذلك مرَّاتٍ حتى يسقُط قملُه؛ ويُكْنَسَ مكانُهُ الذي يكون فيهِ كنساً نظيفاً.

تعليم الحمام وتدريبه

وقال: اعلم أنَّ الحمامَ والطيرَ كلَّها لا يصلُح التَّغمير بهِ من البعْد، وهدايته على قدْر التعليم، وعلى قدر التوطين، فأوَّل ذلك أن يخرج إلى ظهر سطحٍ يعلو عليه، ويُنْصَبَ عليه علَمٌ يعرفُهُ، ويكونَ طيرانُه لا يجاوز مَحَلَّتُه، وأن يكون عَلَفُه بالغداة والعَشِيِّ، يُلقى له فوقَ ذلك السَّطْح، قريباً من علَمِه المنصوبِ له، حتَّى يألفَ المكانَ ويتعَّودَ الرُّجوعَ إليه، ولكن ليَنْظُرْ مِنْ أيِّ شيء يتّخذ العلمَ؟ فإنّه لا ينبغي أنْ يكون أسودَ، ولا يكون شيئاً تراه من البُعْدِ أسود، وكلما كان أعظمَ كان أدلَّ.

ولا ينبغي أن يطيِّره وزوجتَّه معاً، ولكن يَنْتفُ أحدهُما ويطيِّر الآخر، ويُخرَجان إلى السَّطح جميعاً، ثمَّ يطيَّر الوافي الجناح؛ فإنّه ينازِع إلى زوجتِه، وإذا عرَف المكان، ودَارَ ورَجع، وألِفَ ذلك الموضع، ونبتَ ريشُ الآخَر، صُنع به كذلك.

وأجود من ذلك أن يُخرَجا إلى السَّطْح وهما مقصوصان، حتّى يألفا ذلك الموضع، ثمَّ يطيَّرَ أحدُهُما قبلَ صاحبه، ويُصنْعَ بالثّاني كما صنع بالأوّل.

وما أشبه قوله هذا بقول ماسرجويه؛ فإنهُ وصفَ في كتابه، طباعَ جميع الألبان، وشُرْبَها للدَّواء، فلمّا فرغ من الصّفة قال: وقد وصفت لك حالَ الألبان في أنفسها، ولكن انظُرْ إلى من يسقيك اللَّبن؛ فإنَّكَ بدءاً تحتاجُ إلى تنظيف جوفك، وتحتاج إلى مَن يعرفُ مقدارَ عِلَّتك من قدر اللّبن، وجنس علّتك من جنس اللَّبن.

حوار مع نجار

ومثْلُ ذلك قول نجَّارٍ كان عندي، دعوته لتعليق بابٍ ثمينٍ كريم فقلت له: إنّ إحكامَ تعليق الباب شديدٌ ولا يحسنه من مائِة نجَّارٍ نجارٌ واحد، وقد يُذْكر بالحذْق في نِجارة السقُوف والقِباب، وهو لا يكمُلُ لتعليق بابٍ على تمامِ الاحكام فيه، والسقُوف، والقِباب عند العامَّة أصعب.

ولهذا أمثال: فمن ذلك أنّ الغلام والجارية يشويان الجَدْيَ والحملَ ويحكمان الشيّ، وهما لا يُحكمان شيَّ جنبٍ، ومَن لا عِلْم له يظنُّ أنَّ شيَّ البَعْض أهونُ من شيِّ الجميع.
فقال لي: قد أحسنتَ حين أعلمْتَني أنّك تُبصِر العمل، فإنَّ معرفتي بمعرفتك تمنعني من التشفيق، فعَلَّقه فأحكَمَ تَعليقه؛ ثمَّ لم يكنْ عندي حَلْقةٌ لوجه الباب إذا أردتُ إصفاقه، فقلت له: أكره أن أحبسَك إلى أن يذهب الغلامُ إلى السوق ويرجع، ولكن اثقبْ لي موضعها، فلما ثقبهُ وأخذ حقّه ولاّني ظهرَه للانصراف، والتفت إليَّ فقال: قد جوّدتُ الثَّقب، ولكن انظرْ أيُّ نجارٍ يدُقُّ فيه الرِّزَّة؛ فإنه إن أخطأ بضربة واحدة شقّ الباب - والشق عيب - فعلمتُ أنّهُ يفهَمُ صِناعتَهُ فهماً تَامّاً.

قص الْحَمام ونتفه

وبعض الناس إذا أراد أن يعلِّم زوجاً قصّهُما ولم ينْتِفْهما، وبين النَّتفِ والقصِّ بَونٌ بَعيد، والقصُّ كثير القصِّ لا يُوجعُ ولا يُقرِّحُ مَغارزَ قصب الرِّيش، والنَّتْف يُوهن المنكِبين، فإذا نُتِفَ الطائرُ مِراراً لم يقْوَ على الغاية، ولم يزَلْ واهنَ المنكِبين، ومتى أبطأ عليه فنتفهُ وقد جفّت أصولُه وقَربت من الطَّرح كان أهونَ عليهِ، وكلما كان النباتُ أطرأ كان أضرَّ عليه، وإنه ليبلغَ من مضرَّته، وأنّ الذَكَرَ لا يجيدُ الإلقاحَ، والأنثى لا تُجيد القبول، وربّما نتفت الأنثى وقد احتشتْ بيضاً، وقد قارَبت أن تبيضَ، فتبطئُ بَعْدَ وقتها الأيّامَ؛ ورُبما أضرَّ ذلك بالبيض.

زجْل الحمام

قال: وإذا بَلغ الثّاني مبلغَ الأوَّلِ في استواءِ الرِّيش، والاهتداء إلى العَلَم، طيِّرا جميعاً، ومُنِعا من الاستقرار؛ إلاّ أن يظن بهما الإعياء والكلال، ثم يُوَطَّنُ لهما المَرَاجِلُ برّاً وبحْراً، من حيث يبصران إذا هما ارتفعا في الهواء السَّمتَ ونفْسَ العَلَم، وأقاصيَ ما كانا يريانِه منها عند التَّباعد في الدّورَانِ والجَوَلان، فإذا رَجَعا من ذلك المكانِ مَرَّاتٍ زُجِلا من أبعَدَ منه - وقد كانوا مَرَّةً يعجبهم أن يزجُلوا من جميع التوطينات، ما لم تبعدْ، مرّتين مرَّتين - فلا يزالان كذلك حتَّى يبلغا الغاية، ويكون أحدهما محتبساً إذا أرسل صاحبه؛ ليتذكّرَه فيرجعَ إليه، فإنْ خيفَ عليه أن يكون قد ملَّ زوجتَه، عرضت عليه زوجةٌ أخرى قبل الزَّجل؛ فإذا تسنَّمَها مرَّة حِيلَ بينه وبينها يومَه ذلك، ثمَّ عرضوها عليه قبل أنْ يُحمَل، فإذا أطاف بها نُحِّيت عنهُ، ثمَّ حُمِلِ إلى الزَّاجل؛ فإنَّ ذلك أسرعَ له.
وقال: اعلموا أنَّ أشدَّ المَرَاجِلِ ما قَلّتْ أعلامُه، كالصَّحارى والبحار.
قال: والطير تختلفُ في الطّباع اختلافاً شديداً: فمنها القويُّ، ومنها الضعيف، ومنها البطيء، ومنها السَّريع، ومنها الذَّهولُ، ومنها الذَّكورُ، ومنها القليل الصَّبرِ على العطش، ومنها الصَّبورُ، وذلك لا يخفى فيهنَّ عند التَّعليمِ والتَّوطين، في سرعة الإجابة والإبطاء، فلا تبْعِدَنّ غايَةَ الضَّعيفِ والذَّهولِ والقليلِ الصَّبر على العطش، ولا تزجلنَّ ما كان منشؤه في بلا الحرِّ في بلاد البرد، ولا ما كان منشؤه في بلاد البَرْد في بلاد الحرِّ؛ إلاَّ ما كان بعد الاعتياد، ولا يصبرُ على طول الطيران

في غير هوائِه وأجوائه طائرٌ إلا بطولِ الإقامةِ في ذلك المكان، ولا تستوي حاله وحالُ من لا يَعْدُو هَوَاءَه والهَوَاءَ الذي يقرُبُ من طِباع هوائه.
تعليم الحمام ورود الماء قال: ولا بدَّ أن يُعلَّم الورودَ، فإذا أرَدتَ به ذلك فأوْرِدْه العيونَ والغُدْرانَ والأنهارَ، ثمَّ حُلْ بينه وبين النَّظَرِ إلى الماء، حتى تكفَّ بصرَه بأصابعِك عن جهة الماء واتِّساع المورد، إلاَّ بقدْر ما كان يشربُ فيه من المساقي، ثمَّ أوسعْ له إذا عَبَّ قليلاً بقدر ما لا يَرُوعه ذلك المنْظر وليكن ْمعطَّشاً؛ فإنّه أجدرُ أن يشرَب، تفعلُ به ذلك مراراً، ثمَّ تفسحُ له المنْظر أوّلاً أوّلاً، حتَّى لا يُنكِر ما هو فيه، فلا تزالُ بهِ حتَّى يعتادَ الشُّربَ بغَيرِ سترة.
استئناسه واستيحاشه قال: واعلم أنَّ الحمامَ الأهليَّ الذي عايشَ النّاسَ، وشَرِب من المساقي ولَقَط في البيوت يختلُّ بالوَحدة، ويَستَوحِش بالغُربة.
قال: واعلم أنّ الوحشيَّ يستأنِس، والأهلي يستوحش.
قال: واعلم أنّه ينسى التّأديبَ إذا أُهمِلَ، كما يتأدَّب بعد الإهمال.
ترتيب الزجْل وإذا زَجَلتَ فلا تُخَطْرف به من نصف الغاية إلى الغاية، ولكن رتِّب ذلك؛ فإنّه ربّما اعتادَ المجيء من ذلك البُعد، فمتى أرسلتَه من أقربَ منه تحيَّر، وأرادَ أن يبتدئَ أمْرَه ابتداءً، وهم اليومَ لا يفعلون ذلك؛ لأنّه إذا بلغ الرَّقة أو فوقَ ذلك شيئاً فقدْ صار عُقْدَةً، وصار له ثمنٌ وغَلّة،فهو لا يرى أن يُخاطر بشيءٍ له قدْر، ولكنّه إن جاءَ من هِيتَ أُدْربَ به؛ لأنّه إن ذهب لم يذهب شيءٌ له ثمن، ولا طائرٌ له رياسة؛ وليس له اسم ولا ذِكر؛ وإن جاء جاء شيء كبير وخطير، وإن جاء من الغاية فقدْ حوَى به ملكاً، على هذا هم اليوم.
وقال: لا ترسِلِ الزَّاقَّ حتى تستأنف به الرِّياضة ولا تَدَعْ ما تُعِدُّه للزّجال أن يحصن بيضاً، ولا يجثم عليه، فإنّ ذلك ممّا ينقُضه ويُفتِّحه، ويعظم له رأسَه، لأنّه عندَ ذلك يسمَن وتكثُر رطوبتُه فتقذِفُ الحرارة تلك الرُّطوبة الحادَّة العارضة إلى رأسه، فإن ثقبَ البيضَ وزقَّ وحَضن، احتجْت إلى تضميره واستئناف سياسِته، ولكنْ إنْ بَدَا لكَ أن تستفرخه فانقُلْ بيضَهُ إلى غيره، بَعْدَ أن تُعْلِمه بعلامةٍ تعرفُه بها إذا انصدَع.
علاج الحمام الفزع وإن أصاب الحمامَ أيضاً فَزَعٌ وذُعْرٌ؛ عن طلب شيءٍ من الجوارح له، فإيَّاك أن تُعيدَه إلى الزَّجل حتّى ترضمه وتستفرخه؛ فإن ذلك الذُّعْرَ لا يفارقُه ولا يسكن حتى تستأنفَ به التّوطين. طريقة استكثار الحمام وإنْ أردتَ أن تستكثرَ من الفِراخ فاعزلِ الذُّكورةَ عن الإناث شهراً أو نحوَه، حتى يصول بعضها على بعض، ثم اجمعْ بينها؛ فإنّ بيضها سيكثُر ويقلُّ سَقطهُ ومُرُوقه، وكذلك كلُّ أرضٍ أثيرت، وكذلك الحِيالُ لما كان من الحيوان حائلاً، قال الأعشى:

مِنْ سَرَاة الهِجَانِ صَلَّبَـهَا الـعُ ضُّ ورَعْيُ الحِمَى وطُولُ الحِيَالِ

وقال الحارث بن عبادٍ وجَعَل ذلك مثلاً:

قرِّبا مَرْبط النَّعامةِ مِـنِّـي لَقِحَتْ حَرْبُ وائل عن حِيَالِ

؟حديث أفليمون عن نفع الحمام

وقال أفليمون صاحب الفِراسة، لصاحبه: وأنا محدِّثك عن نفْع الحمام بحديثٍ يزيدُك رغبة فيها: وذلك أنَّ مَلِكَيْنِ طلب أحدُهما مُلْكَ صاحبِه، وكان المطلوبُ أكثرَ مالا وأقلَّ رجالاً، وأخصب بلاداً، وكانت بينهما مسافةٌ من الأرض بعيدة، فلما بلغَه ذلك دعا خاصَّته فشاوَرَهُمْ في أمْره وشَكا إليهم خوفَه على مُلكه، فقال له بعضهم: دامتْ لك أيُّها الملِكُ السلامةُ، ووُقيتَ المكروه إنَّ الذي تاقتْ له نفسك قد يُحتالُ له باليَسير من الطمع، وليسَ مِنْ شأنِ العاقلِ التَّغريرُ، وليس بعد المُناجَزَة بقيّة، والمناجزُ لا يدري لمن تكون الغَلَبة، والتمسُّك بالثقةِ خيرٌ من الإقدام على الغَرر، وقال بعضهم: دامَ لك العزُّ، ومُدّ لك في البقاء ليسَ في الذُّلِّ دَرَكٌ ولا في الرِّضا بالضيمِ بقيَّة، فالرَّأيُ اتخاذُ الحُصون وإذكاءُ العُيونِ، والاستعدادُ للقتال؛ فإنّ الموتَ في عزٍّ خيرٌ من الحياة في ذل.
وقال بعضهم: وُقِيتَ وكُفِيت، وأُعطيتَ فَضْلَ المزيد الرَّأيُ طلب المصاهرة له والخِطْبة إليه؛ فإنّ الصهرَ سببُ ألفةٍ تقعُ به الحُرْمةُ، وتثبت بِهِ المودَّة، ويُحلُّ به صاحبُهُ المحلَّ الأدنى، ومنْ حلَّ من صاحبه هذا المحلَّ لم يخلِّه مما عَراه، ولم يمتنع من مناوأة من ناواه، فالتمس خِلطتهُ؛ فإنّه ليسَ بَعْدَ الخِلطةِ عداوةٌ، ولا مَع الشِّركة مبايَنة.
فقال لهم الملك: كلٌّ قد أشارَ برأيٍ، ولكلٍّ مدَّة، وأنا ناظِرٌ في قولِكم، وباللّه العِصمة، وبشكره تتمُّ النعمة، وأظهَرَ الخِطبة إلى الملكِ الذي فوقه، وأرسل رُسلاً، وأهدى هدايا، وأمَرَهُم بمصانعةِ جميع مَن يَصِلِ إليه، ودسَّ رجالاً من ثقاتِه، وأمَرهُم باتِّخاذ الحمام في بلاده وتوطينِهِنَّ، واتخذ أيضاً عندَ نفسه مِثلهنَّ، فرقَّعهن من غايَةٍ إلى غاية، فجعلَ هؤلاء يرسلون من بلاد صاحبهم، وجعل مَن عندَ الملِكِ يرسلون من بلاد الملك، وأمرهمْ بمكاتَبتِه بخبرِ كلِّ يوم، وتعليق الكتُب في أصولِ أجنحة الحمام، فصار لا يخفى عليه شيءٌ من أمره، وأطمعَه الملِك في التزويج واستفردَهُ وطاولَه، وتَابعَ بين الهدايا، ودسَّ لحرسِه رجالاً يلاطفونَهمْ حتى صاروا يبيتون بأبوابه معهم، فلمَّا كتبَ أصحابهُ إليه بغِرَّتهم وصل الخبر إليه من يومِه، فسار إليه في جندٍ قد انتخبهم، حتى إذا كان على ليلةٍ أو بَعْض ليلة، أخذ بمجامع الطُّرُق، ثم بيَّتَهُمْ ووثبَ أصحابهُ من داخِل المدينةِ وهو وجنده من خارج، ففتحوا الأبوابَ وقتَلوا المَلِك، وأصبحَ قد غَلَبَ على تلك المدينة، وعلى تلك المملكة، فعظُمَ شأنُه، وأعظمتْه الملوك، وذُكِر فيهم بالحزْم والكَيْد.
وإنما كان سبب ذلك كلِّه الحمام.
حديث آخر في نفع الحمام قال: وأحدِّثك عن الحمام أيضاً بحديثٍ آخر في أمر النساء والرِّجال وما يصابُ من اللَّذَّة فيهنَّ، والصَّواب في معاملتهنَّ، قال: وذلك أنَّ رجلاً أتَاني مرَّةً فشَكا إليَّ حاله في فتاةٍ عُلِّقها فتزَوّجها، وكات جاريةً غِرّاً حسناء، وكانت بكراً ذاتَ عقلٍ وحياء، وكانت غَريرةً فيما يحسِن النِّساءُ من استمالةِ أهواء الرِّجال، ومِنْ أخْذِها بنصيبها من لذّة النساء فلما دخَلَ بها امتنعتْ عليه، ودافعته عن نفسها، فزاولها بكلِّ ضربٍ كان يحسنُهُ من لَطفٍ، وأدخل عليها مِن نسائه ونسائها مَنْ ظَنَّ أنَّها تقبَل منهنّ، فأعيتْهُن، حتى همَّ برفضها مع شدَّة وجْده بها، فأتَاني فشكا ذلك إليَّ مرةً، فأمرْته أن يُفْرِدها ويخلِّيَها من الناس، فلا يَصِلَ إليها

أحدٌ، وأنْ يضْعفَ لها الكرامة في اللّطفِ والإقامة لما يُصلِحها من مَطعَم ومشرَبٍ ومَلبس وطيبٍ وغير ذلك، مما تلهو به امرأةٌ وتُعجَبُ بِهِ، وأنْ يجعَلَ خادِمَها أعجميَّةً لا تَفْهَم عنها، وهي في ذلك عاقلة، ولا تفْهمُها إلاّ بالإيماء؛ حتى تستوحِشَ إليها وإلى كل من يصل إليها من النِّساء وحتى تشتهيَ أن تجِدَ مَنْ يراجعها الكلام وتشكو إليه وحْشة الوَحْدة، وأنْ يَدخِل عليها أزواجاً من الحمام، ذوات صورةٍ حسنةٍ، وتخَيُّل وهدير فيُصَيِّرَهُنّ في بيتٍ نظيف، ويجعل لهنّ في البيت تماريد وبين يدي البيت حجْرة نظيفة، ويفتح لها من بيتها باباً فيصْرن نُصْبَ عينها فتلهو بهن وتنظر إليهنَّ، ويجعل دخوله عليها في اليوم دَفْعَةً إلى تلك الحمام، والتسلّي بهنّ، والاستدعاء لهنّ إلى الهدير ساعةً، ثم يخرج، فإنَّها لا تلبث أنْ تتفكّر في صنيعهنّ إذا رأتْ حالهن؛ فإنَّ الطَّبيعة لا تَلبَثُ حتى تحرّكها، ويكون أوفقُ المقاعد لها الدنّو منهن، وأغلبُ الملاهي عليها النَّظَرَ إليهن؛ لأنَّ الحواس لا تؤدي إلى النَّفس شيئاً من قِبَلِ السمع، والبَصر، والذوق، والشم والمجسّة إلاّ تحرّك مِنَ العَقْل قي قبُولِ ذلك أوْ رَدِّه، والاحتيالِ في إصابته أو دفِعه، والكراهية له أو السُّرور به بقدر ما حرّك النَّفسَ منه، فإذا رأيتَ الغالبَ عليها الدنوّ منهنّ، والتأمُّل لهن، فأدخِلْ عليها امرأةً مجرِّبة غَزِلة تأنس بها، وتفطُنها لصنيعهنَّ، وتعجُّبُها منهنّ، وتستميل فِكرتها إليهنّ، وتَصِف لها موقِعَ اللّذة على قدْر ما ترى من تحريك الشّهوة، ثمّ أخْرِج المرأة عنها، وحاوِل الدُّنو منها، فإنْ رأيتَ كراهيَةً أمسكْت وأعدْتَ المرأةَ إليها، فإنها لا تلبَث أن تمكِنَك، فإنْ فعلتْ ما تحبُّ وأمكنَتْك بعض الإمكان، ولم تَبْلُغ ما تريد فأخبرني بذلك.

قال: وقلتُ له: مُر المرأةَ فلتسألها عن حالها في نفسها، وحالِك عندها، فلعَلّ فيها طبيعةً من الحياء تَمْنَعُها من الانبساط، ولعلّها غِرٌّ لا يُلتمس ما قِبَلها من الخَرقَ، ففعل، وأمر المرأة أن تكشفها عن ذات نفسها، فشكت إليها الخَرَق، فأشارت عليها بالمتابعة، وقالت: اعتبري بما تَرينَ من هذا الحمام؛ فقد تَرَين الزّوجين كيفَ يصنعان قالت: قد تأمَّلت ذلك فعجِبتُ منه، ولستُ أحْسِنُه فقالت لها: لا تمنعي يدَهُ ولا تحمِلي على نفسك الهيبة، وإنْ وجدتِ من نفسِك شيئاً تدعوكِ إليه لذّةٌ فاصنَعيه؛ فإنَّ ذلك يأخُذُ بقلبه، ويزيدُ في محبَّتِكِ، ويحرِّك ذلك منهُ أكثرَ مما أعطاك، فلم يلبثْ أنْ نال حاجتَه وذهبت الحشمة، وسقطت المداراة فكان سببُ الصُّنع لهما، والخروج من الوَحْشة إلى الأنس، ومن الحال الدَّاعِية إلى مفارقتها إلى الحال الدَّاعية إلى ملازمتها، والضَّنِّ بها - الحمام.

الخوف على النساء من الحمام

وما أكثرَ مِنَ الرِّجال، من ليسَ يمنَعُه من إدخال الحمام إلى نسائه الاَّ هذا الشيء الذي حثَّ عليه صاحبُ الفِراسة؛ وذلك أنَّ تلك الرُّؤيةَ قد تذكِّر وتشهِّي وتَمْحَن، وأكثرُ النِّساء بين ثلاثة أحوال: إمَّا امرأة قد مات زَوجُها، فتحريكُ طِباعها خِطار بأمانتها وعَفافِها، والمُغيبة في مثل هذا المعنى، والثَّالثة: امرأةٌ قد طال لُبثها مع زوْجها؛ فقد ذهب الاستطراف، وماتت الشهوة، وإذا رأت ذلك تحرَّك منها كلُّ ساكن وذكَرَتْ ما كانتْ عنه بمندوحة.

والمرأة سليمة الدين والعِرْضِ والقلب، ما لم تَهْجِسْ في صدرها الخواطر، ولم تتوهَّمْ حالاتِ اللَّذَّة وتحرُّك الشهوة، فأمَّا إذا وقع ذلك فعزْمُها أضعفُ العَزم، وعزْمُها على ركوب الهوى أقوى العَزْم.
فأمَّا الأبكارُ الغريرات فهنَّ إلى أن يُؤْخذْن بالقراءة في المصحف، ويُحتالَ لهن حتى يصرْنَ إلى حال التشييخ والجبن والكَزَازَة وحتَّى لا يسمعَن من أحاديث البَاهِ والغَزَل قليلاً ولا كثيراً - أحوج.
نادرة لعجوز سندية ولقد ركبتْ عجوزٌ سنديةٌ ظهر بعيرٍ، فلما أقبَلَ بها هذا البعيرُ وأدبر وطمَر، فمخَضها مَرَّةً مخضَ السقاء، وجعلَها مَرَّةً كأنَّها ترْهَزُ فقالت بلسانها - وهي سنديّة أعجميَّة - أخزَى اللّه هذا الذَّمل؛ فإنّه يذكّر بالسَّرِّ تريد: أخزى اللّه هذا الجمل، فإنه يذكّر بالشر، حدثنا بهذه النادرة محمَّد بن عبَّاد بن كاسب نادرة لعجوز من الأعراب وحدَّثنا ربْعيٌّ الأنصاريُّ: أنَّ عجوزاً من الأعرابِ جَلستْ في طريق مكة إلى فتيانٍ يشربون نبيذاً لهم، فسقوْها قدَحاً فطابت نفسُها، وتبسمت؛ ثمَّ سقوْها قدحاً آخرَ فاحمرَّ وجهها وضَحِكت، فسقوْها قدَحاً ثالثاً فقالت: خبِّروي عن نسائكم بالعراق، أيشرَبْنَ من هذا الشراب؟فقالوا: نعم، فقالت: زَنَيْنَ وربِّ الكعبة.

عقاب خصيّ

وزعم إبراهيم الأنصاريُّ المعتزليُّ أنَّ عباس بن يزيد بن جريرٍ دخَلَ مقصورة لبعض حَواريه، فأبصرَ حماماً قد قمط حمامةً، ثمَّ كسَحَ بذنبه ونفَش ريشه، فقال: لمن هذا الحمام؟ فقالوا: لفلانٍ خادِمك - يعْنونَ خَصِيّاً له - فقدّمه فضَرَبَ عنقهُ.
قول الحطيئة في الغناء وقد قال الحطيئة لفتيان من بني قُرَيع - وقد كانوا ربَّما جلَسُوا بقُربِ خَيْمته، فتغنَّى بعضُهمْ غناء الرّكبان - فقال: يا بني قريعْ إيَّايَ والغناءَ؛ فإنّه داعيةُ الزّنا.
أبو أحمد التمار وصاحب حمام وأما أبو أحمد التمار المتكلم، فإنّه شاهدَ صاحبَ حمامٍ في يوم مجيء حَمامِه من واسط، وكانت واسط يومئذ الغايَة، فرآه كلما أقبلَ طائرٌ من حمامه نعر ورَقَص، فقال له: واللّه إني لأرَى منك عجباً؛ أراك تفْرَحُ بأن جاءك حمامٌ من واسط، وهو ذلك الذي كان، وهو الذي جاء، وهو الذي اهتدى؛ وأنتَ لم تجئ ولم تهتَدِ؛ وحين جاءَ من واسط، لم يجئ معه بشيءٍ من خبر أبي حمزة، ولا بشيءٍ من مقاريض واسط، وبزيون واسط، ولا جاء معه أيضاً بشيء من خِطْمِيٍّ، ولا بشيءٍ من جوز ولا بشيءٍ من زبيب، وقد مرَّ بكسكَرَ فأين كان عن جِدَاء كسكر، ودَجاج كسكر، وسمك كسكر، وصحناة كسكر، ورُبيثاء كسكر وشعير كسكر؟ وذهب صحيحاً نشيطاً، ورجع مريضاً كسلان، وقد غرمت ما غرمت فقل لي: ما وجه فرحك؟ فقال: فرحي أنِّي أرجو أن أبيعه بخمسين ديناراً، قال: ومَن يشتريه منك بخمسين ديناراً؟ قال: فلان، وفلان، فقام ومضى إلى فلان فقال: زعم فلان أنّك تشتري منه حماماً جاءَ من واسِط بخمسين ديْناراً؟ قال: صدق، قال: فقل لي لم تشتريه بخمسين ديناراً؟ قال: لأنّه جاء من واسط، قال: فإذا جاء من واسط فلِمَ تشتريه بخمسين ديناراً؟ قال: لأنِّي أبيع الفرخَ منه بثلاثة دنانير، والبيضة بدينارين، قال: ومن يشتري منك؟ قال: مثلُ فلان وفلان، فأخَذ

نَعْله ومضى إلى فلان، فقال: زعم فلان أنّك تشتْري منه فرخاً من طائرٍ جاءَ من واسط بثلاثة دنانير، والبيضة بدينارَين، قال: صَدَق، قال: فقل لي: لِمَ تشتري فرخَة بثلاثة دنانير؟ قال: لأنَّ أباه جاء من واسط،قال: ولِمَ تشتريه بثلاثة دنانير إذا جاء أبوه من واسط؟ قال: لأني أرجو أن يجيءَ من واسط، قال: وإذا جاء مِن واسط فأيَّ شيء يكون؟ قال: يكون أن أبيعَه بخمسين ديناراً، قال: ومَن يشتريه منك بخمسين ديناراً؟ قال: فلان، فتركَه ومضى إلى فلانٍ، فقال: زعم فلان أنّ فرخاً من فراخه إذا جاء أبُوه من واسط اشتريته أنت منه بخمسين ديناراً، قال: صدق، قال: ولم تشتريه بخمسين ديناراً قال: لأنَّه جاء من واسط، قال: وإذا جاء من واسط لم تشتريه بخمسين ديناراً؟ قال: فأعاد عليه مثل قولِ الأوّل، فقل:لا رزق اللّه من يشتري حماماً جاء من واسط بخمسين ديناراً، ولا رزق اللّه إلاَّ مَن لاَ يشتريه بقليل ولا بكثير.

نوادر لأبي أحمد التمار وأبو أحمد هذا هو الذي قال - وهو يعظ بعض المسرفين - لو أنَّ رجلاً كانت عنده ألفُ ألف دينار ثم أنْفقها كلَّها لذهبت كلها، وإنما سمع قول القائل: لو أنَّ رجلاً عنده ألفُ ألفِ دينار فأخَذَ منها ولم يضَعْ عليها لكان خليقاً أن يأتي عليها.

وهو القائل في قصَصه: ولقد عظَّمَ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم حقّ الجار، وقال فيه قولاً أستحْيي واللّه من ذكره.

وهو الذي قال لبعضهم: بلغني أنَّ في بستانك أشياءَ تهمّني، فأحبُّ أن تَهَبَ لي منه أمراً من أمْرِ اللّه عظيم.

وكان زَجَّالاً قبل أن يكون تماراً.

وزعم سليمان الزجَّال وأخوه ثابت، أنّه قبل أن يكون تماراً قال يوماً - وذكر الحمام، حينَ زَهِد في بيع الحمام؛ وذكَرَ بعضَ الملوك - فقال: أمَّا فلان فإنّه لما بلغني أنه يلعبُ بالحمام سقط من عيني.

واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

تمَّ القولُ في الحمام، والحمد للّه وحدَه.

أجناس الذّبَّان

بسم اللّه، وباللّه والحمد للّه ولا حَولَ ولا قُوَّة إلا باللّه، وصلَّى اللّه على سيِّدنَا محمَّدٍ النبيِّ الأميِّ وعلى آله وصحبه وسلّم، وعلى أبرار عِتْرَتِه الطيِّبينَ الأخيار.

أوصيك أيُّها القارئ المتفهِّم، وأيهُا المستمعُ المنصت المصيخ، ألاّ تحقِرَ شيئاً أبداً لصغر جثَّته، ولا تستصغر قدرَه لقلّة ثمنٍ.

دلالة الدقيق من الخلق على اللّه

ثمّ اعلمْ أنَّ الجبلَ ليس بأدلّ على اللّه من الحصاة، ولا الفلكَ المشتمل على عالَمنا هذا بأدلّ عَلَى اللّه من بَدَن الإنسان، وأنَّ صغيرَ ذلك ودقيقهُ كعظيمهِ وجليله، ولم تفترق الأمورُ في حقائقها، وإنما افترقَ المفكّرون فيها، ومَن أهمَل النَّظر، وأغفلَ مواضع الفَرْق، وفُصولَ الحدود.

فمنْ قِبَلِ ترْكِ النَّظر، ومن قِبَلِ قطْع النَّظر، ومن قِبَل النظر من غير وجه النَّظر، ومن قِبَل الإخلال ببعض المقدّمات، ومن قِبَل ابتداء النّظر من جهَة النّظر، واستتمام النظر مع انتظام المقدّمات - اختلَفوا.
فهذه الخصالُ هِيَ جُمَّاع هذا الباب، إلاّ ما لم نذْكرْه من باب العجز والنقص، فإن الذي امتنع من المعرفة من قِبَل النُّقصان الذي في الخلقة بابٌ عَلَى حِدة.
وإنما ذكرنا بَابَ الخطأ والصَّواب، والتَّقصير والتكميل، فإياك أن تسيءَ الظَّنّ بشيءٍ من الحيوان لاضطراب الخلق، ولتفاوُت التركيب، ولأنّه مشنوءٌ في العين، أو لأنّه قليلُ النّفع والرَّدّ؛ فإنَّ الذي تظُنُّ أنَّه أقلُّها نفعاً لعله أن يكون أكثرَها ردّاً، فإلاّ يكن ذلك من جهةِ عاجلِ أمرِ الدنيا، كان ذلك في آجل أمر الدين، وثوابُ الدين وعقابُهُ باقيان، ومنافعُ الدنيا فانية زائلة؛ فلذلك قدِّمت الآخرة على الأولى.
فإذا رأيتَ شيئاً من الحيوان بعيداً من المعاوَنة، وجاهلاً بسبب المكانَفَةِ، أو كان مما يشتدُّ ضررُه، وتشتدُّ الحِراسة منهُ، كذوات الأنيابِ من الحيَّات والذئابِ وذواتِ المخالبِ من الأسْدِ والنُّمور، وذوات الإبر والشعر من العقارب والدَّبْر، فاعلم أنّ مواقع منافعها من جهة الامتحان، والبلْوى، ومن جهة ما أعد اللّه عزَّ وجلَّ للصابرين، ولمن فهم عنه، ولمن علم أنَّ الاختِيارَ والاختبَار لا يكونان والدنيا كلُّها شرٌّ صِرْفٌ أو خيرٌ محْض؛ فإنّ ذلك لا يكون إلاَّ بالمزواجة بين المكروهِ والمحبوب، والمُؤلم والملِذّ، والمحقَّرِ والمعظَّم، والمأمُون والمخوفِ، فإذا كان الحظُّ الأوْفرُ في الاختبار والاختيار، وبهما يُتوسل إلى ولاية اللّه عزّ وجلّ، وآبد كرامته، وكان ذلك إنما يكون في الدار الممزوجةِ من الخير والشرِّ، والمشتركة والمركّبة بالنّفْع والضر، المشوبةِ باليُسْرِ والعسْر- فليعلَمْ موضعَ النَّفْع في خلْق العقرب، ومكانَ الصُّنْع في خَلْق الحيَّة، فلا يحقرنَّ الجِرْجس والفَرَاشَ والذرَّ والذِّبان ولْتقِفْ حتىَّ تتفكَّرَ في الباب الذي رميتُ إليك بجمْلَتِه، فإنّك ستكْثِرُ حَمْدَ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ على خلْق الهمج والحشرَات وذواتِ السُّمومِ والأنياب، كما تحمَده عَلَى خلق الأغذيةِ من الماءِ والنَّسيم. فإنْ أردتَ الزِّراية والتَّحقيرَ، والعَداوة والتَّصغير، فاصرفْ ذلك كلَّهُ إلى الجنِّ والإنس، واحقِرْ منهم كلَّ مَن عمِلَ عملاً من جهةِ الاختيار يستوجبُ به الاحتقار، ويستحقُّ به غايةَ المقْت من وجهٍ، والتصغيرَ من وجه.
فإن أنت أبغضت من جهةِ الطبيعة، واستَثقلت من جهة الفِطرة ضربينِ من الحَيَوان: ضرباً يقتلك بسمه، وضرباً يقتلك بشدةِ أسْره لم تُلَمْ، إلاّ أنّ عليك أنْ تَعَلَمَ أنّ خالقَهما لم يخلقْهما لأذاك، وإنما خلقهما لتصبرَ عَلَى أذاهما، ولأن تنالَ بالصَّبر الدَرجةَ التي يستحيل أنْ تنالها إلاّ بالصَّبر، والصبر لا يكُونَ إلاّ عَلى حَالٍّ مكروه، فسواءٌ عليك أكان المكروه سبُعاً وثَّاباً، أو كان مَرَضاً قاتلاً، وعَلَى أنّك لا تدري لعلَّ النزْعَ، والعَلَزَ والحشْرَجة، أن يكون أشدَّ من لدْغ حيَّة، وضَغْمَةِ سبع، فإلاّ تكُنْ له حُرقةٌ كحرق النار وألمٌ كألم الدّهق، فلعلَّ هناك من الكَرْب ما يكون موقعهُ من النَّفس فوقَ ذلك.
وقد عمنا أنّ النَّاس يُسَمُّون الانتظار لوقع السيف علَى صليف العُنق جهَدْ البلاءِ؛ وليس ذلك الجهد من شكل لذّع النار، ولا من شكل ألم الضربِ بالعصا، فافهم

فهمَكَ اللّه مواقع النفع كما يعرفها أهلُ الحكمة وأصحاب الأحْسَاس الصحيحة.
ولا تَذْهب في الأمورِ مذهَبَ العامّةِ، وقد جَعَلَكَ اللّهُ تعَالى من الخاصة، فإنك مسؤول عن هذه الفضيلة، لأنّها لم تجعل لِعباً، ولم تترَكْ هَمَلاً، واصرِفْ بُغضك إلى مُرِيدِ ظلمكَ، لا يراقِب فِيكَ إلاًّ ولا ذِمَّة، ولا مودةً، ولا كتاباً ولا سنَّة، وكلما زادك اللّه عزَّ وجلَّ نعمة ازدادَ عليك حنَقاً، ولكَ بُغْضاً، وفِرّ كلَّ الفِرارِ واهرُبْ كلَّ الهرب، واحترسْ كلّ الاحتراس، ممن لايراقب اللّه عزَّ وجلَّ؛ فإنه لا يخلو من أحد أمرين، إمَّا أن يكون لا يعرفُ رَبَّهُ مع ظهور آياتِه ودلالاته، وسبوغ آلائه، وتتابُع نَعَمائه، ومع برهانات رُسله، وبيانِ كتبهِ؛ وإمَّا أنْ يكونِ بهِ عارفاً وبدينِه موقناً، وعليهِ مجترئاً، وبحُرماتِه مستخفاً، فإن كان بحقّهِ جاهلاً فهو بحقّك أجهل، وله أنْكَر، وإن كان به عارفاً وعليه مجترئاً فهو عليك أجرأ، ولحقوقك أضيَع ولأياديك أكفر.
فأمَّا خلْق البَعوضةِ والنَّملة والفَرَاشةِ والذَّرَّة والذّبّان والجِعْلان، واليعاسيب والجراد - فإياك أن تتهاونَ بشأن هذا الجُنْد، وتستخف بالآلة التي في هذا الذَّرْء ؛ فربَّتَ أمة قد أجلاها عن بلادها النملُ، ونقلَها عن مساقِطِ رؤوسها الذَّرُّ، وأُهلِكت بالفأر، وجُردت بالجَرَادِ، وعُذّبت بالبعوض، وأفسَدَ عيشَها الذّبَّان، فهي جُندٌ إن أراد اللّه عزَّ وجلَّ أن يهلِك بها قوماً بَعْدَ طُغْيانِهم وتجبُّرهم وعتَوِّهم؛ ليعرفوا أو ليُعرَفَ بهم أنَّ كثيرَ أمرِهم، لا يقوم بالقليلِ من أمر اللّه عَزّ وجلّ، وفيها بَعْدُ مُعتبرٌ لمن اعتبر، وموعظةٌ لمن فكّر، وصلاحٌ لمن استبصر، وبلوَى ومحْنة، وعذابٌ ونِقْمة، وحُجَّة صادقة، وآيةٌ واضحة، وسَبَبٌ إلى الصّبْرِ والفِكْرَةِ، وَهما جِمَاع الخير في باب المعْرفة والاستبانة، وفي بابِ الأجْر وعِظَمِ المثوبة.
وسَنَذْكر جملةً من حال الذّبّان، ثم نقولُ في جملةِ ما يَحضرُنا منْ شَأنِ الغِرْبانِ والجعلانِ

أمثال في الفراش والذباب

ويقال في موضع الذمِّ والهجاء: ما هُمْ إلاّ فَراشُ نارٍ وَذِبَّانُ طمَع، ويَقال: أطيَشْ مِنْ فَراشَة، وَأزهى مِنْ ذِبّانِ.
وقال الشاعر:

كأنَّ بني ذويبة رهْطَ سلمَى فَرَاشٌ حول نارٍ يَصْطلينا

يُطفْنَ بحرِّها ويَقعْنَ فيهـا ولا يَدْرِينَ ماذا يتَّـقـينـا

والعرب تجعل الفَراشَ والنَّحلَ والزَّنابيرَ والدَّبْر كلَّها من الذّبان، وأما قولهم: أزهى مِنْ ذُباب فلأنَ الذُّباب يسقُط على أنفِ المَلِكِ الجبَّار، وعلى موُق عينيه ليأكله، ثم يطرده فلا ينطرد.
معان وأمثال في الأنف والأنف هو النَّخْوة وموضعُ التَّجبُّر.
وكان من شأن البطارقة وقوَّاد الملوك إذا أنفوا من شيء أن ينخُِروا كما ينْخِر

الثَّورُ عندَ الذَّبح، والبرذونُ عند النَّشاط. والأنف هو موضعُ الخُنْزُوانة والنُّعَرةِ، وإذا تكبَّرت النَّاقةُ بعد أن تلْقح فإنـهَّا تزمّ بأنفها.
والأصيد: الملك الذي تراه أبداً من كِبْره مائلَ الوجه، وشُبِّه بالأسد فقيل أصيد؛ لأنَّ عُنقَ الأسدِ من عظمٍ واحد، فهو لا يلتفتُ إلاّ بكُلِّه، فلذلك يقال لِلمُتَكَبِّر: إنَّما أنفه في أسلوب، ويقال: أرغَمَ اللّه أنفَه وأذلَّ معطِسَه ويقال: ستفعل ذلك وأنفُك راغم والرَّغام: التّراب، ولولا كذا وكذا لهشَّمت أنفك، فإنما يخصُّون بذلك الأنف؛ لأنَّ الكبر إليه يضاف قال الشاعر:

يا رُبَّ مَنْ يُبْغِضُ أذْوادنـا رُحن عَلَى بَغْضائه واغتديْن

لو نَبَتَ البَقلُ عَلَـى أنـفِـه لرُحْنَ منه أصُلاً قد أبـين

ويقال بعير مذبوب إذا عرض له ما يدعو الذِّبّانَ إلى السُّقوط عليه، وهم يعرفون الغُدَّة إذا فشَتْ أو أصابَتْ بعيراً بسُقوط الذِّبَّان عليه.

احتيال الجمالين على السلطان

وبسقوط الذّبّان على البعير يحتال الجَمَّال للسُّلطان، إذا كان قد تسخَّرَ إبلَهُ وهو لذلك كاره، وإذا كان في جماله الجملُ النفيسُ أو الناقةُ الكريمة؛ فإنه يعمِد إلى الخَضْخاض فيصبُّ فيه شيئاً من دِبس ثم يَطْلي به ذلك البعير، فإذا وجد الذّبّان ريحَ الدِّبس تساقطْنَ عليه، فيدَّعي عند ذلك أنَّ به غُدَّة ويجعلُ الشاهدَ له عندَ السُّلطان ما يُوجد عليه من الذِّبان فما أكثر ما يتخلصون بكرائم أموالهم بالحيلِ من أيدي السلطان ولا يظنُّ ذلك السُّلطانُ إلاّ أنه متى شاء أنْ يبيعَ مائةَ أعرابي بدرهم فعَل، والغدّة عندهُمْ تُعدِي، وطباع الإبل أقبلُ شيء للأدواء التي تُعْدِي، فيقول الجمَّال عنْدَ ذلك للسُّلطان: لو لم أخف على الإبل إلاَّ بعيري هذا المغِدّ أن يُعدِيَ لم أبال، ولكنِّي أخاف إعداء الغُدَّةِ ومضرَّتها في سائر مالي فلا يزال يستعطِفهُ بذلك، ويحتالُ له به حتَّى يخلِّيَ سبيلَه،

نفور الذّبّان من الكمأة

ويقال إنَّ الذَّبّان لا يقْرُبَ قدْراً فيه كمأة ،كما لا يَدخُل سامُّ أبْرص بيتاً فيه زعفران.

الخوف على المكلوب من الذِّبَّان

ومن أصابه عض الكلب الكَلِبِ حَمَوا وجهَه من سقوط الذِّبان عليه، قالوا: وهو أشدُّ عليه من دبيب النِّبْر على البعير.
النِّبر والنِّبْر دويْبَّةٌ إذا دبَّت على البعير، تورَّم، وربَّمَا كان ذلك سببَ هلاكه.
قال الشاعرُ وهو يصف سِمَن إبله، وعِظَمَ أبدانها:

حمر تحقَّنَت النّجيل كـأنَّـمـا بجلودهِنَّ مَـدَارجُ الأنْـبـار

مميزات خلقيَّة لبعض الحيوان

وليس في الأرض ذبابٌ إلاَّ وهو أقرَح، ولا في الأرض بعيرٌ إلاّ وهو أعْلم، كما أنَّه ليس في الأرض ثورٌ إلاّ وهو أفطس.
وفي أنَّ كلَّ بعير أعلمُ يقولُ عنترة:

وحَليل غانيةٍ تركتُ مجدَّلاً تمكو فريصتُه كشِدْق الأعلَم

كأنَّه قال: كشدق البعير؛ إذ كان كلهُ بعيرٍ أعلم.
والشعراء يشبِّهون الضربة بشِدْق البعير، ولذلك قال الشاعر:

كمْ ضربةٍ لَكَ تحكِي فاقْراسِيَةٍ من المَصاعبِ في أشداقِهِ شَنَعُ

وقال الكميت:

مَشافِرَ قرْحَى أكلْنَ البريرَا

وإذا قيل الأعلمْ، عُلِم أنَّه البعير، كما أنَّه إذا قيل الأقرح علم أنَّه الذّبّان، قال الشاعِر:

ولأنتَ أطيشُ حينَ تغْدُو سـادراً حذر الطعان مِنَ القدوح الأقرَح

يعني الذبَّان لأنّه أقرح، ولأنّه أبداً يحكُّ بإحدى ذراعيْه على الأخرى كأنّه يقدح بعودَي مَرْخٍ وعفَار، أو عرجون، أو غير ذلك مما يقدح به.
أخذ الشعراء بعضهم معاني بعض ولا يعلم في الأرض شاعر تَقَدَّمَ في تشبيهٍ مُصيبٍ تامّ، وفي معنًى غريبٍ عجيب، أو في معنًى شريف كريم، أو في بديع مُخترع، إلاّ وكلُّ مَنْ جاءَ من الشُعَراءِ منْ بَعدِه أو معه، إنْ هو لم يعدُ على لفظه فيسرقَ بعضه أو يدعِيَه بأسْره، فإنّه لا يَدعُ أن يستعينَ بالمعنى، ويجعَلَ نفسه شريكاً فيه؛ كالمعنى الذي تتنازعُه الشعراءُ فتختلف ألفاظهم، وأعاريضُ أشعارهِمْ، ولايكونُ أحدٌ منهم أحقَّ بذلك المعنى من صاحبه، أو لعلّه أن يجحد أنّه سمع بذلك المعنى قطُّ، وقال إنَّه خطرَ على بالي من غير سماع، كما خطر على بال الأوَّل، هذا إذا قرَّعُوه به، إلاَّ ما كان من عنترة في صفةِ الذباب؛ فإنه وصفَه فأجاد صفته فتحامى معناهُ جميعُ الشعراء فلم يعرضْ له أحدٌ منهم، ولقد عَرضَ له بعضُ المحدَثين ممن كان يحسِّنُ القول، فبلغ من استكراهه لذلك المعنى، ومن اضطرابه فيه، أنّه صار دليلاً على سوء طبعه في الشعر، قال عنترة:

جادَتْ عليها كـلُّ عينٍ ثـرَّةٍ فتَرَكْنَ كلَّ حَدِيقةٍ كالـدِّرْهم

فترى الذُّبابَ بها يغنِّي وحْـدَه هَزِجاً كفِعْلِ الشَّاربِ المترنِّم

غَرِداً يُحكُّ ذِراعَه بـذِرَاعـهِ فِعْلَ المكبِّ على الزِّنَـادِ الأجذم

قال: يريد فعل الأقطعِ المكبِّ على الزّناد، والأجذم: المقطوع اليدين، فوصف الذّباب إذا كان واقعاً ثمَّ حكّ إحدى يديه بالأخرى، فشبَّهَهُ عند ذلك برجلٍ مقطوع اليدين، يقدَحُ بعودين، ومتى سقط الذُّبابُ فهو يفعل ذلك.
ولم أسمع في هذا المعنى بشعر أرضاه غير شِعر عنترة.
قولٌ في حديث وقد كان عندنا في بني العدوية شيخٌ منهم مُنْكر، شديد العارضة فيهِ توضيع، فسمعني أقول: قد جاء في الحديث: إنَّ تحْتَ جَناح الذُّباب اليمين شفاءً وتحت جَناحه الأيسر سمّاً، فإذا سقط في إنَاءٍ أو في شرابٍ أو في مَرَق فاغمسوه فيه؛ فإنه يرفعُ عند ذلك الجناح الذي تحتَه الشفاء، ويحطُّ الجناح الذي تحته السمّ، فقال: بأبي أنتَ وأمي هذا يجمع العداوة والمَكيدة.
قصّة لتميمي مع أناسٍ من الأزد وقدكان عندنا أُنَاسٌ من الأزد، ومعهم ابن حزن، وابن حزن هذا عَدَوِيٌّ من آل عموج، وكان يتعصّب لأصحابه من بني تميم وكانوا على نبيذ، فسقط ذبابٌ في قدَح بعضهم، فقال له الآخر: غطِّ التميمي، ثمَّ سقط آخر في قدَح بعضهم، فقال الباقون: غطِّ التميميّ فلمَّا كان في الثالثة قال ابن حزن: غطّه فإنْ كان تميمياً رسَبَ، وإن كان أزْديّاً طفاً، فقال صاحب المنزل: ما يسرُّني أنَّه كان نقصكم حرفاً، وإنما عَنى أنَّ أزْدَ عُمان مَلاَّحون.

ضروب الذِّبَّان

والذِّبّان ضروبٌ سِوى ما ذكرنَاه من الفَراش والنَّحل والزّنَابير، فمنها الشَّعْراء، وقال الراجز:

ذبّان شَعْرَاء وبيت ماذلِ

وللكلاب ذبابٌ على حِدَة يَتَخَلّق منها ولا يُريدُ سِواها، ومنها ذبّان الكلأ والرياض، وكلّ نوعٍ منها يألفُ ما خلقَ منه، قال أبو النَّجْم:

مستَأسِدٍ ذبّانه في غَيْطلِ يقُلن للرَّائدِ أعشَبْت انزل

شعر ومثل في طنين الذباب

والعربُ تسمّي طَنينَ الذِّبَّان والبعوض غناءً، وقال الأخطلُ في صفة الثَّور:

فرداً تغنّيه ذبّان الرِّياض كما غنّى الغواةُ بصَنْجٍ عِند أسْوارِ

وقالَ حَضْرميٌّ بن عامرٍ في طنين الذباب:

ما زال إهداءُ القصائدِ بيْنَنَـا شَتْمَ الصَّديق وكثْرَةَ الألقاب

حتَّى تركت كأنَّ أمْرك بينَهم في كلِّ مجمعَةٍ طنينُ ذُبَاب

ويقال: ما قولي هذا عندك إلاّ طنينُ ذُباب.

سفاد الذباب وأعمارها

وللذُّباب وقتٌ تهيج فيهِ للسِّفاد مع قصر أعمارها، وفي الحديث: أنَّ عُمْرَ الذباب أربعون يوماً ولها أيضاً وقت هَيْجٍ في أكْلِ النّاس وعضّهم، وشُرُبِ دمائهم، وإنما يعرض هذا الذِّبَّان في البيوت عند قرب أيَّامها؛ فإنّ هلاكها يكون بعد ذلك وشيكاً، والذِّبَّان في وقتٍ من الأوقات من حتوف الإبل والدوابِّ.

علة شدة عض الذباب

والذُّباب والبَعوض من ذوات الخراطيم، ولذلك اشتدَّ عضُّها وقويتْ على خرْق الجلود الغلاظ، وقال الراجز في وصف البعوضة:

مثل السُّفاةِ دائم طنيـنُـهـا ركِّبَ في خرطومها سِكِّينُها

ذوات الخراطيم

وقالوا: ذوات الخراطيم من كلِّ شيء أقوى عضّاً ونَاباً وفكّاً؛ كالذيب والخنزير، والكلب، وأمّا الفيل فإنّ خرطومَه هو أنفه، كما أنَّ لكلِّ شيءٍ من الحيوان أنفاً، وهو يده، ومنه يُغنّي وفيه يجري الصَّوت، كما يُجري الزَّامرُ الصَّوتَ في القصَبةِ بالنّفخ، ومتى تضاغط الهواءُ صوَّتَ علَى قدْر الضّغْطِ، أو على قدر الثّقب.

أمثال من الشعر في الذباب

والذباب: اسم الواحد، والذّبّان: اسم الجماعة، وإذا أرادوا التَّصغير والتقليلَ ضربوا بالذِّبَّان المثل، قال الشاعر:

رأيتُ الخبزَ عزَّ لدَيكَ حتَّى حَسبتُ الخُبْزَ في جوِّ السَّحابِ

وما روّحْتنا لـتـذُبَّ عنـا ولكنْ خِفْتَ مَرْزِية الذُّبـاب

وقال آخر:

لما رأيت القصْر أُغْلِقَ بابهُ		وتعلّقت هَمدان بالأسبـاب

أيقنتُ أنّ إمَارة ابن مضارب		لم يبق منها قِيسُ أيْر ذبابِ

قال بعضهم: لم يذهب إلى مقدار أيْره وإنما ذهب إلى مثل قول ابن أحمر:

ما كنت عنْ قومي بمهتضم		لو أنَّ معصيّاً لـه أمرُ

كلفّتني مُخَّ البَعوض فقدْ		أقصرت لا نُجْحٌ ولا عُذّرُ

ما يَلَغُ من الحيوان وما لا يلَغ قال: وليس شيٌ مما يطير يلَغُ في الدّم، وإنما يلغ في الدماء من السِّباع ذواتُ الأربع، وأمّا الطّير فإنَّها تشربُ حَسواً، أو عبَّة بعد عَبّة، ونُغبةً بعد نغبة، وسباع الطّير قليلة الشُّرب للماء، والأسد كذلك، قال أبو زُبَيد الطائي:

تذبُّ عنهُ كفٌّ بها رَمـقٌ		طيراً عكوفاً كزُوَّر العُرُس

إذا ونى ونْيَة دَلَفنَ لـه		فهنَّ مِنْ والغ ومُنْتَـهِسِ

قال: والطّير لا تلغ، وإنما يلغَ الذباب، وجعله من الطّير، وهو وإن كان يطير فليس ذلك من أسمائه، فإذْ قد جاز أن يستعير له اسم الطائر، جاز أن يستعير للطير ولْغ السِّباع فيجعَل حسْوها ولْغاً، وقال الشاعر:

سراع إلى ولْغ الدماءِ رماحـهم وفي الحرب والـهيجاء أسْدٌ ضراغِمُ

خصلتان محمودتان في الذباب

قال وفي الذباب خصلتان من الخصال المحمودة.
أمَّا إحداهما: فقُرب الحيلة لصرف أذاها ودفع مكروهها؛ فمن أراد إخراجها من البيت فليس بينَهُ وبين أن يكونَ البيتُ على المقدار الأوّل من الضِّياء والكِنِّ بعد إخراجها مع السَّلامة من التأذي بالذبان - إلاّ أن يُغلقَ البابُ، فإنَّهُنَّ يتبادرن إلى الخروج، ويتسابَقْنَ في طلبِ الضوء والهرَب من الظلمة، فإذا أرخي السِّترُ وفتحَ البابُ عاد الضَّوءُ وسلِمَ أهلُه من مكروهِ الذباب، فإنْ كان في الباب شقّ، وإلاّ جَافى المغلقُ أحدَ البابَين عن صاحبه ولم يطبقه عليه إطباقاً، وربّما خرجْن من الفتْح الذي يكون بين أسفل الباب والعتبة، والحيلةُ في إخراجها والسَّلامةِ من أذاها يسيرة، وليس كذلك البعوض؛ لأنَّ البعوض إنما يشتدُّ أذاه، ويقوى سلطانُه،

ويشتدُّ كَلَبه في الظلمةِ، كما يقوَى سلُطان الذبان في الضياء، وليس يمكنُ النّاسَ أنْ يُدخلوا منازلَهم من الضِّياء ما يمنعُ عملَ البعوض؛ لأنَّ ذلك لا يكون إلاّ بإدخال الشَّمس، والبعوض لا يكون إلاّ في الصيَّف، وشمسُ الصيُّفِ لا صبْرَ عليها، وليس في الأرض ضياءٌ انفصلَ من الشمس إلاّ ومَعه نصيبهُ من الحَرِّ، وقد يفارق الحرُّ الضياء في بعض المواضع، والضِّياءُ لا يفارقُ الحَرَّ في مكانٍ من الأماكن.
فإمكان الحِيلة في الذباب يسير، وفي البَعوض عسير.
والفضيلة الأخرى: أنه لولا أن الذّبابة تأكل البَعُوضة و تطلبها وتلتمسها على وجوهِ حيطان البيوت، وفي الزوايا، لما كان لأهلها فيها قرار.

الحكمة في الذباب

وذكَر محمد بن الجهم - فيما خبَّرني عَنْه بعضُ الثقات - أنه قال لهم ذاتَ يوم: هل تعْرفُون الحِكمة التي استفَدْناها في الذُّباب؟ قالوا: لا.
قال: بلى، إنّها تأكل البعوض وتصيده وتلقطه وتفنيه: وذلك أنّي كنت أريد القائلة، فأمرْت بإخراج الذُّباب وطرْح السِّتر وإغلاق الباب قبلَ ذلك بساعة، فإذا خرجن حصل في البيت البعوضُ، في سلطان البعوض وموضعِ قوَّته، فكنتُ أدخلُ إلى القائلة فيأكلني البعوض أكلاً شديداً، فأتيتُ ذات يومٍ المنزلَ في وقت القائلة، فإذا ذلك البيتُ مفتوحٌ، والسِّترُ مرفوع، وقد كان الغلمان أغفلوا ذلك في يومهم، فلما اضطجعَتُ للقائلة لم أجد من البعوض شيئاً وقد كان غضبي اشتدَّ على الغِلمان، فنمتُ في عافية، فما كان من الغد عادُوا إلى إغلاق الباب وإخراج الذّباب، فدخلتُ ألتمسُ القائلة، فإذا البعوضُ كثير، ثم أغفلوا إغلاق البابِ يوماً آخر، فلما رأيته مفتوحاً شتمتُهُمْ فلمَّا صرتُ إلى القائلة لم أجدْ بعوضةً واحدةً، فقلت في نفسي عند ذلك: أراني قد نمتُ في يَوْمَي الإغْفَالِ وَالتَّضْييع وامتَنعَ منِّي النَّومُ في أيَّام التحفُّظ والاحتراس، فِلمَ لا أجرِّبُ ترْك إغلاق الباب في يومي هذا، فإن نمتُ ثلاثة أيام لا ألقى من البَعوضِ أذًى مع فتح الباب، علمتُ أنَّ الصّواب في الجمع بين الذِّبان وبين البعوض؛ فإنَّ الذِّبّان هي التي تُفنيه، وأنَّ صلاحَ أمرنا في تقريبِ ما كُنَّا نباعد، ففعلتُ ذلك، فإذا الأمر قد تمّ، فصرنا إذا أردْنا إخراجَ الذِّبّانِ أخرجْناها بأيسرِ حيلة، وإذا أردنا إفناء البعوض أفنيناها على أيدي الذِّبّان بأيسر حيلة.
فهاتان خَصْلتان من مناقب الذِّبّان.
طبّ القوابل والعجائز وكان محمد بن الجهم يقول: لا تتهاونوا بكثيرٍ ممّا تروْن من علاج القوابل والعجائز، فإنّ كثيراً من ذلك إنما وقع إليهنَّ من قدماء الأطباء؛
كالذّبان يُلقى في الإثمِد ويسحق معه، فيزيد ذلك في نور البصر، ونفاذ النظر، وفي تشديد مراكز شعر الأشفار في حافات الجُفون نفع دوام النظر إلى الخضرة وقلتُ له مرَّة: قيل لماسَرجَويه: ما بالُ الأكَرَة وسُكَّان البساتين، مع أكلهم الكرَّاث والتمر، وشروبهم ماء السّواقي على المالح أقلَّ النَّاس خُفْشاناً وعمياناً وعُمْشاناً وعوراً؟ قال: إني فكّرت في ذلك فلم أجد له علّة إلاّ طولَ وقوع أبصارهِمْ على الخُضْرة.
من لا يتقزّز من الذّبان والزنابير والدّود قال ابن الجهم: ومن أهل السُّفالة ناسٌ

يأكلون الدّبان، وهُمْ لا يرمدون، وليس لذلك أكلوه وإنما هُمْ كأهل خُراسان الذي يأكلون فراخ الزّنابير، والزّنابير ذِبان، وأصحاب الجبن الرَّطب يأخذون الجبنة التي قد نَغِلت دوداً، فينكتها أحَدُهم حتَّى يخرُج ما فيها من الدُّود في راحَتِه، ثم يقمَحُها كما يقمَحُ السَّويق، وكان الفرزدق يقول: ليت أنَّهمْ دفعوا إليَّ نصيبي من الذبان ضَرْبة واحدة، بشرط أنْ آكله لراحة الأبد منها، وكان كما زعموا شديد التقذُّر لها والتقزُّز منها.
دعوتان طريفتان لأحد القصاص وقال ثُمامة: تساقط الذبّان في مَرق بعض القصَّاص وعلى وجْهه فقال: كثرَّ اللّهُ بكنّ القبور وحكى ثمامة عن هذا القاصِّ أنه سمعه بَعَبَّادان يقول في قصَصِه: اللّهمَّ مُنَّ علينا بالشهادةِ، وعلى جميع المسلمين.

قصّة في عمر الذُّباب

وقال لي المكِّيُّ مرَّة: إنما عمر الذبّان أربعونَ يوماً، قلت: هكذا جاء في الأثر، وكنّا يومئذ بواسط في أيَّام العسكر وليس بَعْدَ أرض الهنْد أكثرُ ذَبَاباً من واسط، ولربّما رأيتَ الحائط وكَأنَّ عليهِ مِسْحاً شديدَ السَّواد من كثرة ما عليه من الذبّان، فقلت للمكّيِّ: أحسب الذبَّان يموت في كل أربعين يوماً، وإن شئت ففي أكثرَ، وإن شئت ففي أقلَّ، ونحنُ كما ترى ندوسُها بأرجلنا، ونحن ها هنا مقيمون من أكثر من أربعين يوماً، بل منذ أشهر وأشهر، وما رأينا ذباباً واحداً ميّتاً، فلو كان الأمر على ذلك لرأينا الموتى كما رأينا الأحياء، قال: إنَّ الذّبابة إذا أرادتْ أن تموت ذهبتْ إلى بعض الخربات، قلت: فإنَّا قد دخلنا كلَّ خَربةٍ في الدُّنيا، مَا رأينَا فيها قط ذباباً ميّتاً.
للمَكي وكان المكيّ طيّباً طيّب الحُجَج، ظريفَ الحِيَل، عجيبَ العلل وكان يدَّعي كلَّ شيءٍ على غاية الإحكام، ولم يُحْكِمْ شيئاً قطُّ، لا من الجليل ولا من الدَّقيق، وإذْ قد جرى ذِكره فسأحدِّثك ببعضِ أحاديثه، وأخبرك عن بعض علله، لِتَتَلَهَّى بها ساعةً، ثم نعودَ إلى بقية ذكر الذّبَّان.
نوادر للمكي ادّعى هذا المكّيُّ البَصَرَ بالبراذين، ونظرَ إلى برذون واقف، قد ألقى صاحبه في فيه اللِّجام، فرأى فأس اللّجام وأين بلغَ منه، فقال لي: العجب كيف لا يدْرَعُه القيء، وأنا لو أدخلت إصبعي الصغرى في حلقي لما بَقِيَ في جوفي شيءٌ إلاَّ خرج؟ قلت: الآنَ علمتُ أنَّك تُبْصر ثمَّ مكث البرذون ساعةً يلوكُ لجامه، فأقبل عليَّ فقال لي: كيف لا يبرُدُ أسنانَه؟ قلت: إنما يكون علم هذا عند البصراءِ مثلِك ثمّ رأى البرذونَ كلَّما لاك اللّجام والحديدة سال لعابُه على الأرض فأقبل علَيَّ وقال: لولا أنَّ البرذون أفسَدُ الخلق عقلاً لكان ذهنُه قد صفا قلت له: قد كنت أشك في بَصرك بالدَّوابّ، فأمّا بعْدَ هذا فلستُ أشكُّ فيه.
وقلت له مرّة ونحن في طريق بغداد: مَا بالُ الفرسَخ في هذه الطريق يكون فرسخين، والفرسخ يكون أقلَّ من مقدار نصفِ فرسخ؟ ففكّر طويلاً ثمَّ قال: كان كِسرى يُقْطِعُ للنّاس الفراسخ، فإذا صانَعَ صاحبَ القطيعة زادوه، وإذا لم يصانع نقصوه.
وقلت له مَرَّة: علمتُ أنّ الشاري حدّثني أنَّ المخلوع بعث إلى المأمون بجرابٍ فيه سمسم؛ كأنّه يخبرُ أنَّ عندّه من الجند بعددِ ذلك الحبّ وأنّ المأمون بعث إليه بديكٍ

أعورَ، يريد أنَّ طاهر بن الحسين يقتُلُ هؤلاءِ كلَّهم، كما يلقط الدِّيك الحبَّ قال: فإنَّ هذا الحديث أنا ولَّدته، ولكن انظرْ كيفَ سار في الآفق؟ وأحاديثه وأعاجيبه كثيرة.

معارف في الذّباب

ثمَّ رجع بنا القول إلى صلة كلامِنا في الإخبار عن الذّبّان.
فأمَّا سكَّان بلاد الهند فإنّهم لايطبُخون قدراً، ولا يعملون حَلْوَى ولا يكادون يأكلون إلاَّ ليلاً؛ لِما يتهافت من الذّبّان في طعامهم، وهذا يدلُ على عفَنِ التُّربة ولَخَنِ الهواء.
وللذِّبّانِ يعاسيبُ وجُحْلانٌ، ولكن ليس لها قائدٌ ولا أمير، ولو كانت هذه الأصناف التي يحرسُ بعضها بعضاً، وتتَّخذ رئيساً يدبِّرها ويحوطها، إنما أخرج ذلك منها العقْلُ دونَ الطّبع، وكالشيء يخصُّ به البعض دون الكلّ لكان الذرُّ وَالنَّمْلُ أحقَّ بذلك من الكراكيِّ والغرانيق والثِّيران، ولكَان الفيلُ أحقَّ به من البعير؛ لأنه ليس للذّرّ قائدٌ ولا حارس، ولا يعسوبٌ يجمعها ويحميها بعض المواضع، ويوردها بعضاً.
وكلُّ قائدٍ فهو يعسوبُ ذلك الجنسِ المَقُود، وهذا الاسم مستعارٌ من فحل النَّحل وأمير العَسَّالات، وقال الشاعر وهو يعني الثَّور:

كما ضُربَ اليعسوبُ إذ عاف باقِرٌ وما ذَنْبُه إذ عافتِ الماءَ بـاقِرُ

وكما قال علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه، في صلاح الزَّمان وفساده: فإذا كان ذلك ضَربَ يعسوبُ الدِّين بذَنَبِه.
وعلى ذلك المعنى قال حين مَرَّ بعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد قتيلاً يوم الجمل: لهفي عليك يَعْسُوبَ قريش جدعْتَ أنْفِي وشفَيْتَ نفسي.
قالوا: وعلى هذا المعنى قيل: يعسوب الطُّفاوة.
أقذر الحيوان وزعم بعض الحكماء أنَّه لا ينبغي أن يكون في الأرض شيءٌ من الأشياء أنتنُ من العَذِرة، فكذلك لا شيء أقذَرُ من الذِّبان والقمل، وأمَّا العَذِرة فلولا أنَّها كذلك لكان الإنسان مع طول رُؤيتِه لَها، وكثرة شمِّه لها من نفسه في كلِّ يوم صباحاً ومساء، لقد كان ينبغي أن يكونَ قد ذهَب تقذُّرُهُ له على الأيَّام، أو تمَحَّق، أو دخله النَّقص، فثباتُها ستين عاماً وأكْثرَ وَأقلّ على مقدار واحد من النتن في أنفِ الرَّجل ومنهم من وجدناه بعد مائة عام كذلك، وقد رأينا المِران والعاداتِ وصنيعَها في الطَّبائع، وكيف تهوِّن الشديدَ، وتقلّل الكثير، فلولا أنَّا فوق كلِّ شيءٍ من النَّتْنِ، لَما ثبَتَتْ هذا الثَّباتَ، ولعرض لها ما يعرض لسائر النَّتْنِ، وبَعْد فلو كان إنَّما يشَمُّ شيئاً خرجَ من جوفِ غيره ولم يخرجْ من جوفِ نفسه، لكان ذلك أشْبَه، فإذ قد ثبت في أنفه على هذا المقْدار، وهو منه دونَ غيره، وحتَّى صار يجدُه أنْتن من رَجيع جميع الأجناس - فليس ذلك إلاّ لما قد خُصّ به من المكروه.
وكذلك القول في القمل الذي إنَّمَا يُخْلق من عَرَق الإنسان، ومن رائحته ووسَخ جلده، وبخار بدنه، وكذلك الذِّبَّان المخالطة لهُمْ في جميع الحالات، والملابسَةُ لهم

دُونَ جميع الهوامِّ والهمَج والطّير والبهائم والسِّباع حتَّى تكون ألزم من كلِّ ملازم، وأقربَ من كلِّ قريب؛ حتى ما يمتنع عليه شيء من بدن الإنسان، ولا من ثوبه، ولا من طعامِهِ، ولا مِن شرَابِهِ، حتَّى لزمه لزوماً لم يلزمه شيء قطُّ كلزومه، حتى إنّه يسافر السَّفَرَ البعيدَ من مواضع الخِصْب، فيقطع البراريَّ والقِفارَ التي ليس فيها ولا بقربها نباتٌ ولا ماءٌ ولا حيوان، ثم مع ذلك يتوخَّى عند الحاجة إلى الغائط في تلك البَرّيّة أن يفارق أصحابَه، فيتباعد في الأرض، وفي صحراء خلْقاء، فإذا تبرَّزَ فمتى وقع بصرُه على برازِهِ رأى الذِّبّان ساقطاً عليه، فقبْلَ ذلك ما كان يَراه، فإن كان الذُّباب شيئاً يتخلَّق له في تلك الساعة فهذه أعجبُ مما رآه ومما أردنا وأكثرَ ممّا قلنا، وإن كان قد كان ساقطاً على الصُّخور المُلْس، والبقاع الجُرْدِ، في اليوم القائظ، وفي الهاجرة التي تشْوي كلَّ شيء، وينتظرُ مجيئه - فهذا أعجبُ ممّا قلنا، وإن كانت قد تبعته من الأمصار، إمَّا طائرةً معه، وإمَّا ساقطةً عليه، فلما تبرَّزَ انتقلتْ عنه إلى برازه، فهذا تحقيقٌ لقولنا إنّه لايلزم الإنسانَ شيءٌ لزوم الذباب؛ لأنَّ العصافيرَ، والخطاطيف، والزّرازير، والسَّنانير، والكلابَ وكلَّ شيء يألف النّاسَ، فهو يقيمُ مع النَّاس، فإذا مضى الإنسانُ في سفره، فصار كالمستوحش، وكالنَّازل بالقفار، فكلُّ شيءٍ أهليٍّ يألف النَّاس فإنّما هو مقيمٌ على مثل ما كان من إلفه لهم، لا يتبعهم من دور النَّاس إلى منازل الوحش؛ إلاّ الذِّبَّان.

قال: فإذا كان الإنسانُ يستقذِرُ الذِّبّان في مَرَقِه وفي طعامه هذا الاستقذار، ويستقذِرُ القمْلَ مع محلِّه من القرابة والنِّسبةِ هذا الاستقذار فمعلومٌ أنَّ ذلك لم يكن إلاّ لما خص به من القذر، وإلاّ فبدون هذه القرابة وهذه الملابسَةِ، تطيبُ الأنفس عن كثيرٍ من المحبوب.

إلحاح الذُّباب قال: وفي الذّبّان خُبْرٌ آخَر: وذلك أنّهُنَّ ربَّما تعَوَّدْنَ المبيتَ على خُوصِ فَسيلةٍ وأقلابها من فسائل الدُّور، أو شجرةٍ، أو كِلَّةٍ، أوْ بابٍ، أو سقفِ بيت، فيُطْرَدْن إذا اجتمعن لوقتهنَّ عند المساء ليلتين أو ثلاث ليال، فيتفرقْنَ أو يهجُرْن ذلك المكان في المُستَقْبَل، وَإنْ كانَ ذلك المكانُ قريباً، وهو لهنَّ معرَّض، ثمَّ لا يدعْنَ أن يلتمِسْنَ مبيتاً غيرَه، ولا يعرض لهنَّ من اللَّجاج في مثل ذلك، مثلُ الذي يعرض لهنّ من كثرة الرُّجوع إلى العينين والأنف بعدَ الذَّبِّ والطَّرْد، وبعدَ الاجتهادِ في ذلك.

أذى الذباب ونحوها وقال محمَّد بن حرب: ينبغي أن يكونَ الذِّبّانُ سُمّاً نَاقِعاً؛ لأنَّ كُلَّ شيءٍ يشتدُّ أذاه باللّمس من غيره، فهو بالمداخلة والملابسة أجْدُرُ أن يؤذيَ، وهذه الأفاعي والثعابينُ والجرَّارات قد تمسُّ جلودَها ناسٌ فلا تضرُّهم إلاّ بأن تلابسَ إبرةُ العقربِ ونَابُ الأفعى الدَّم ونحن قد نجد الرَّجُلَ يدخُل في خَرْق أنفِه ذبَابٌ، فيجولُ في أوله من غير أنْ يجاوزَ ما حاذى روثة أنفه وأرنبَته فيخرجه الإنسانُ من جوفِ أنفه بالنّفخ وشدَّة النَّفَس ولم يكن له هنالك لُبْثٌ، ولا كان منه عضّ، وليس إلا ما مسَّ بقوائمه وأطراف جناحيه، فيقع في ذلك المكان من أنْفه، من الدَّغدغة والأكال والحكَّة، ما لا يصنع الخَرْدَل وبَصَلُ النَّرجِس، ولبنُ التِّين، فليس يكون ذلك منه إلاّ وفي طبعه من مضادَّةِ طباع الإنسان ما لا يبلغه مضادَّة شيءٍ وإن أفرط.

قال: وليس الشّأن في أنّه لم ينخُس، ولم يجرح، ولم يَخِزْ ولم يَعُضَّ، ولم يغمز، ولم يخدش، وإنَّما هو على قدْر منافرةِ الطِّباعِ للطباع، وعَلَى قدر القرابةِ والمشاكلةِ.

الأصوات المكروهة

وقد نجدُ الإنسانَ يغتَمُّ بِتَنَقُّضِ الفتيلة وصوتِها عندَ قربِ انطفاء النار، أوْ لبعض البلَل يكون قد خالط الفتيلة، ولا يكون الصَّوت بالشَّديد، ولكنَّ الاغتمامَ به، والتكَرُّه له ويكونُ في مقدار ما يعتريه من أشدِّ الأصوات، ومنْ ذلك المكروهُ الذي يدخلُ عَلَى الإنسان من غَطيط النَّائِم، وليست تلكَ الكراهةُ لعلَّةِ الشِّدّةِ والصَّلابة، ولكن من قِبَلِ الصُّورَةِ والمقدار، وإنْ لم يكن من قبل الجنس، وكذلك صوتُ احتكاك الآجُرِّ الجديدِ بعضِه ببعض، وكذلك شجر الآجَام عَلَى الأجراف؛ فإنَّ النّفسَ تكرهُه كما تكرهُ صوتَ الصَّاعقة، ولو كان عَلَى ثِقةٍ من السَّلامة من الاحتراق، لَمَا احتفَل بالصَّاعقةِ ذلك الاحتفالَ، ولعلَّ ذلك الصَّوت وحدَه ألاّ يقتله.
فأمَّا الذي نشاهدُ اليومَ الأمْرَ عليه، فإنّه متى قرُب منه قتله، ولعلَّ ذلك إنَّما هو لأنَّ الشّي إذا اشتدّ صَدْمُه فَسَخَ القوَّة أو لعلَّ الهواء الذي فيه الإنسانُ والمحيط به أن يحمَى ويستحيلَ ناراً للذي قدْ شارك ذلك الصَّوتَ من النّار، وهم لم يجدوا الصَّوتَ شديداً جدّاً إلاَّ مَا خالَطَ منه النّار.
ما يقتاتُ بالذُّباب وقال ابن حرب: الذّبّان قوتُ خلْقٍ كثيرٍ من خلق اللّه عزّ وجلّ، وهو قوتُ الفراريج، والخفافيش، والعنكبوت، والخُلْد، وضروبٍ كثيرةٍ من الهَمَج، همج الطير، وحشرات السّباع، فأمّا الطّير والسُّودَانِيَّات، والحَصَانيّات، والشاهْمُرْكات، وغير ذلك من أصنافِ الطّير؛ وأمّا الضِّباع - فإنّها تأكل الجيف، وتدع في أفواهها فُضُولاً، وتفتَحُ أفواهَها للذِّبَّان، فإذا احتشَتْ ضمَّت عليها، فهذه إنّما تصيد الذِّبَّانَ بنوعٍ واحدٍ، وهو الاختطافُ والاختلاس، وإعجالها عن الوثوب إذا تلقّطته بأطراف المناقير، أو كبعض ما ذكرنا من إطباق الفم عليها.
فأمَّا الصَّيدُ الذي ليس للكلب، ولا لعَنَاق الأرض، ولا للفهد، ولا لشيءٍ من ذوات الأربع مثْله في الحِذْق والخَتْل والمداراة، وفي صواب الوثبةِ، وفي التسدُّدِ وسرعة الخطف، فليس مثل الذي يقال له الليث، وهو الصّنف المعروفُ من العناكب بصيد الذّبّان؛ فإنَّك تجدُه إذا عاين الذِّبَّان ساقطاً، كيف يَلْطأ بالأرض، وكيف يسكِّن جميعَ جوارحِه للوثبة، وكيفَ يؤخِّر ذلك إلى وقت الغِرَّة، وكيف يريها أنّه عنها لاهٍ؛ فإنّك ترى من ذلك شيئاً لم تر مثله من فهد قطُّ، وإن كان الفهدُ موصوفاً منعوتاً.
واعلم أنّه قد ينبغي ألاَّ يكونَ في الأرض شيءٌ أصيَدُ منه؛ لأنّه لا يطير، ولا يصيدُ إلاّ ما يطير ويصيدُ طائراً شديدَ الحذر، ثمّ يصيد صيَّاداً لأن الذّباب يصيد البعوض، وخديعتك للخدَّاع أعجبُ، ومكرُكَ بالماكِرِ أغرب فكذلك يكون صيدُ هذا الفن من العنكبوت.
وزعم الجرداني أنّ الوزغ تخْتِلُ الذّبانَ، وتصيدُها صيداً حسناً شبيهاً بصيد اللَّيث.
قال: والزُّنبور حريصٌ على صيدِ الذّبَّان، ولكنه لا يطمع فيها إلاّ أن تكون ساقطةً على خَرْءٍ، دونَ كلِّ تمر وعسل؛ لشدَّة عجبها بالخُرْء، وتَشاغلها به فعند ذلك

يطمَعُ فيه الزنبور ويصيده، وزعم الجرداني وتابعه كيسان: أنّ الفهدَ إنما أخَذ ذلِكَ عن اللَّيث، ومتى رآه الفهدُ يصيد الذّبّانَ حتى تَعلَّم منه؟ فظننت أنَّهما قلَّدَا في ذلك بعض مَنْ إذا مَدَحَ شيئاً أسرف فيه.

تقليد الحيوان للحيوان

ويزعمون أنّ السّبع الصَّيُودَ إذا كان مع سبعٍ هو أصْيَدُ منه، تعلَّمَ منهُ وأخَذَ عنه، وهذا لم أحقّه، فأمّا الذي لا أشكُّ فيه فأنَّ الطائرَ الحَسَنَ الصَّوتِ الملحِّنَ، إذا كان مع نوائح الطَّيرِ ومغنِّياتها، فكان بقربِ الطَّائرِ من شِكله، وهو أحذق منه وأكرز وأمهر، جاوبَه وحكاه، وتعلَّم منه، أو صنَع شيئاً يقوم مقامَ التعلُّم.

تعليم البراذين والطير

والبرذونُ يُراض فيعرفُ ما يراد منه، فيعين على نفسه، وربَّما استأجروا للطّيرِ رجُلاً يعلِّمها، فأمّا الذي رأيتُه أنا في البلابل، فقد رأيتُ رجُلاً يُدْعَى لها فيطارِحُها من شكل أصواتها.

ما يخترع الأصوات واللحون من الطير

وفي الطّير ما يخترع الأصواتَ واللُّحون التي لم يُسمع بمثلها قطُّ من المؤلَّف للحونِ من النَّاس؛ فإنّه ربَّما أنشأ لحناً لَمْ يمرّ على أسماع المغنِّين قطُّ.
وأكثرُ ما يجدون ذلك من الطَّير في القماريِّ، وفي السُّودَانيات، ثمَّ في الكرارزة، وهي تأكل الذّبّان أكلاً ذريعاً.

اللّجوج من الحيوان

ويقال إن اللَّجاج في ثلاثةِ أجناسٍ من بينِ جميع الحيوان: الخنفساء، والذُّباب، والدُّودة الحمراء؛ فإنّها في إبَّانِ ذلك ترومُ الصُّعودَ إلى السَّقف، وتمرُّ على الحائط الأملس شيئاً قليلاً فتسقطُ وتعود، ثمَّ لا تزال تزداد شيئاً ثمَّ تسقط، إلى أن تمضيَ إلى باطن السَّقف، فربما سقطت ولَمْ يبق عليها إلاَّ مقدارُ إصبع، ثمَّ تعود.
والخنفساء تُقْبِلُ قِبَلَ الإنسانِ فيدفعُها، فتبعُد بقدر تلك الطَّردة والدَّفعة ثمَّ تعود أيضاً، فيصنع بها أشدَّ من تلك ثمَّ تعود، حتَّى ربما كان ذلك سبباً لغضبه، ويكون غضَبُه سبباً لقتلها.

لجاج الخنفساء واعتقاد المفاليس فيها

وما زالوا كذلك، وما زالت كذلك، حتَّى سقط إلى المفالِيس أنَّ الخنافسَ تجلب الرِّزق، وأنّ دنوَّها دليلٌ على رزق حاضر: من صِلَةٍ، أو جائزة، أو ربح، أو هديَّةٍ، أو حظّ، فصارت الخنافسُ إنْ دخلَتْ في قمُصهم ثمَّ نفذَتْ إلى سَراويلاتهم لَمْ يقولوا لها قليلاً ولا كثيراً، وأكثرُ ما عندهم اليومَ الدَّفعُ لها ببعض الرِّفق، ويظنُّ بعضهم أنّه إذا دافعها فعادَتْ، ثمّ دافعها، فعادت، ثمّ دافعها فعادت - أنّ ذلك كلما كان أكثرَ،

كان حظُّه من المال الذي يؤمِّله عند مجيئها أجزَل.
فانظر، أيّة واقيةٍ وأيَّة حافِظة، وأيُّ حارسٍ، وأيُّ حصنٍ أنشأه لها هذا القول وأيُّ حظٍّ كان لها حينَ صدَّقوا بهذا الخبر هذا التصديق والطَّمعُ هو الذي أثارَ هذا الأمْرَ مِن مدافِنِه، والفقر هو الذي اجتذب هذا الطَّمع واجتلبه، ولكن الويل لها إنْ ألَّحتْ على غَنِيٍّ عالِمٍ، وخاصَّة إن كان مع جِدَتِه وعلمِه حديداً عَجُولا.
اعتقاد العامة في أمير الذبَّان وقد كانوا يقتلون الذبابَ الكبير الشديد الطنين الملحَّ في ذلك، الجهيرَ الصوت، الذي تسميه العوامُّ: أمير الذِّبَّان، فكانوا يحتالون في صرفه وطرده وقتله، إذا أكربَهمْ بكثرةِ طنينه وزَجَله وهِماهِمه فإنّه لا يفتر، فلمَّا سقط إليهم أنّه مبشّرٌ بقدومِ غائبٍ وبُرء سقيم، صاروا إذا دخل المنزلَ وأوسَعَهُم شَرّاً، لم يَهجْه أحدٌ منهم.
وإذا أرادَ اللّه عزّ وجلّ أن يُنْسِئَ في أجلِ شيءٍ من الحيوان هيَّأ لذلك سبباً، كما أنّه إذا أراد أن يقصُر عمرُه وَيحينَ يومُه هيَّأ لذلك سبباً، فتعالى اللّه علوّاً كبيراً.
ثمَّ رجَع بنا القولُ إلى إلحاح الذّبَّان. عبد الله بن سوار وإلحاح الذباب كان لنا بالبَصرة قاض يقال له عبدُ اللّه بنُ سوَّار، لم يَرَ النَّاسُ حاكماً قطُّ ولا زِمِّيتاً ولا رَكيناً، ولا وقوراً حليماً، ضبط من نفسه وملَكَ من حركته مثلَ الذي ضبَط وملَك، كان يصلّي الغداةَ في منزله، وهو قريب الدَّار من مسجده، فيأتي مجلسَه فيحتبي ولا يتَّكئ، فلا يزالُ منتصباً ولا يتحرَّك له عضوٌ، ولا يلتفت، ولا يحلُّ حُبْوَته، ولا يحوِّل رجلاً عن رجل، ولا يَعتمد على أحد شِقَّيه، حَتَّى كأنّه بناءٌ مبنيٌّ، أو صخرةٌ منصوبة، فلا يزال كذلك، حتّى يقوم إلى صلاة الظهر ثمّ يعودُ إلى مجلسهِ فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى العصر، ثمَّ يرجع لمجلسه، فلا يزال كذلك حَتى يقوم لصلاة المغرب، ثمَّ رُبما عاد إلى محلِّه، بل كثيراً ما كان يكون ذلكَ إذا بقي عليه من قراءة العهود والشُّروط والوثائق، ثمَّ يُصلِّي العشاء الأخيرة وينصَرف، فالحق يقال: لَمْ يُقمْ في طول تلك المدَّةِ والولايةِ مَرَّةً واحدةً إلى الوضوء، ولا احتاجَ إليه، ولا شربَ ماءً ولا غيرَه من الشّراب، كذلك كان شأنُه في طوال الأيام وفي قصارها، وفي صيفها وفي شتائها، وكان مع ذلك لا يحرِّك يدَه، ولا يُشيرُ برأسِه، وليس إلاّ أن يتكلم ثمَّ يوجز، ويبلغ بالكلام اليسير المعاني الكثيرة، فبينا هو كذلك ذاتَ يوم وأصحابه حواليه، وفي السِّماطين بينَ يديه، إذّ سقط على أنفِه ذُبَابٌ فأطال المكث، ثمَّ تحوّل إلى مُؤْق عينه، فرام الصَّبر في سقوطه عَلَى المؤق، وعلى عضِّه ونفاذِ خرطومه كما رَام من الصبر عَلَى سقوطه عَلَى أنفِه من غير أن يحرِّك أرنبَته، أو يغضِّنَ وجهَهُ، أو يذبّ بإصبعه، فلمّا طال ذلك عليهِ من الذبَاب وشغَله وأوجعَه وأحرَقهُ، وقصدَ إلى مكان لا يحتمل التّغافُلَ، أطبَق جفنَهُ الأعْلى عَلَى جفنِه الأسفلِ فلم ينهض، فدعاه ذلك إلى أن وَالى بينَ الإطباق والفتْح، فتنحَّى ريثما سكنَ جفنُهُ، ثمَّ عاد إلى موقِه بأشدَّ من مرَّته الأولى فغَمَسَ خرطومهُ في مكان كان قد أوهاهُ قبلَ ذلك، فكان احتماله له أضعف، وعجزُه عن الصَّبر في الثانية أقوى، فحرَّك أجفانَهُ وزاد في شدَّة الحركة وفي فتح العين، وفي تتابُع الفتْح والإطباق، فتنحَّى عنهُ بقدْر ما سكَنَتْ حركَتهُ ثمَّ عاد إلى موضِعِه، فما زالَ يلحُّ عليه حتى استفرغَ صبْرَه وبلَغَ مجهُوده، فلم يجدْ بُدّاً من أن يذبَّ عن عينيهِ بيده،

ففعل، وعيون القوم إليه ترمُقه، وكأنّهم لا يَرَوْنَه، فتنَحَّى عنه بقدْر ما رَدَّ يدَه وسكَنتْ حركته ثمَّ عاد إلى موضعه، ثمَّ ألجأه إلى أن ذبَّ عن وجْهه بطرَف كمه، ثم ألجَأه إلى أنْ تابَعَ بين ذلك، وعلم أنَّ فِعلَه كلّه بعين مَنْ حَضَره من أمنائه وجلسائه، فلمَّا نظروا إليه قال: أشهد أنَّ الذّباب ألَحُّ من الخنفساء، وأزهى من الغراب وأستَغفر اللّه فما أكثر مَن أعجبَتْه نفسُه فأراد اللّه عزّ وجلّ أن يعرِّفه من ضعْفِه ما كان عنهُ مستوراً وقد علمت أنّي عند الناس مِنْ أزْمَتِ الناس، فقد غلَبَني وفضَحَني أضعفُ خلْقِه ثمَّ تلا قولَهُ تعالى: "وَإنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَ يَسْتَنْقذُوهُ مِنهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطْلُوبُ".

وكان بيِّن اللّسان، قليلَ فضولِ الكلام، وكان مَهيباً في أصحابه، وكان أحدَ مَنْ لم يَطْعَنْ عليهِ في نفسه، ولا في تعريض أصحابه للمَنَالة.

قصَّة في إلحاحِ الذباب فأمَّا الذي أصابني أنَا من الذِّبَّان، فإنِّي خَرَجتُ أمشي في المبارك أريد دَيْرَ الربيع، ولم أقدِرْ علَى دابَّةٍ، فمررتُ في عشْبٍ أشِبٍ ونباتٍ ملتفٍّ كثير الذِّبَّان، فسقط ذباب من تلك الذّبّان عَلَى أنفي، فطردته، فتحولّ إلى عيني فطردْتُه، فعاد إلى مُوق عيني، فزدتُ في تحريكِ يديَّ فتنحَّى عني بقدْر شدّة حركتي وذبِّي عن عيني - ولِذِبّان الكلإِ والغِياضِ والرِّياض وقعٌ ليس لغيرها - ثمَّ عادَ إليَّ فعُدْتُ عليهِ ثمّ عَاد إليّ فعدتُ بأشدّ من ذلك، فلما عاد استعملتُ كمِّي فذَبَبْت بهِ عن وجهي، ثمّ عاد، وأنَا في ذلك أحثُّ السَّير، أؤمِّل بسرعتي انقطاعَهُ عنِّي فلما عَاد نزعتُ طَيْلَسانِي من عُنُقي فذببت بهِ عَنِّي بَدَلَ كُمِّي؛ فلما عاوَدَ ولم أجدْ له حيلةً استعملتُ العدْوَ، فعدوْت منه شوطاً تَامَّاً لم أتكلفْ مثلَه مذْ كنتُ صبيّاً، فتلقّاني الأندلسيُّ فقال لي: ما لك يا أبا عثمان هل مِنْ حادثة؟ قلت: نعم أكبر الحوادث، أريد أن أخرجَ من موضعٍ للذِّبَّان عَلَيَّ فيه سلطانٌ فضحك حتى جلس، وانقطع عني، وما صدّقتُ بانقطاعه عنّي حتَّى تباعد جدّاً.

ذبّان العساكر والعساكر أبداً كثيرة الذِّبَّان، فإذا ارتحلوا لم يَرَ المقيمُ بعدَ الظَّاعن منها إلا اليسير.

وزعم بعضُ النَّاسِ أنَّهنَّ يتبعن العساكرَ، ويسقُطْنَ على المتاع، وعلى جِلاَلِ الدّوابِّ، وأعجاز البراذِينِ التي عليها أسبابها حتى تؤدِّيَ إلى المنزل الآخر.

وقال المكِّيُّ: يتبعوننا ليُؤْذونا، ثمَّ لا يركبون إلاّ أعناقنا ودوابَّنا.

تخلّق الذُّباب ويقول بعضهم: بل إنما يتخلّق من تلك العُفونـاتِ والأبخرةِ والأنفاس، فإذا ذهبت فنيت مع ذهابها، ويزعمون أنّهم يعرفون ذلك بكثرتها في الجنائبِ، وبقلّتها في الشمائِل.

قالوا: وربَّما سددْنا فمَ الآنيةِ التي فيها الشَّرابُ بالصِّمَامةِ، فإذا نزعْناها وجدنا هناك ذباباً صغاراً.

وقال ذو الرّمّة:

وأيقنَّ أنّ القنع صارت نِطافه فَرَاشاً وأنّ البَقْلَ ذَاوٍ ويابسُ

القِنْع: الموضع الذي يجتمع فيه نقران الماء، والفراش: الماء الرقيق الذي يبقى في أسفل الحِياض.

وأخبرني رجلٌ من ثقيف، من أصحاب النّبيذ أنّهم رُبَّما فلقوا السَّفرجلة أيامَ السَّفرجل للنَّقْل والأكل، وليس هناك من صغار الذّبَّان شيءٌ البتّة ولا يُعدِمُهمْ أنْ يَرَوا على مَقاطع السَّفرجلِ ذُباباً صغاراً، وربَّما رصدوها وتأمَّلوها، فيجدونَها تعظم حتّى تلحق بالكبار في السَّاعة الواحدة.

حياة الذُّباب بعد موته قال: وفي الذّبان طبع كطبع الجِعلان، فهو طبعٌ غريب عجيب، ولولا أنّ العِيانَ قهَرَ أهلَهُ لكانوا خلقاءَ أن يدفعوا الخبرَ عنهُ؛ فإنَّ الجُعَلَ إذا دُفِنَ في الوردِ ماتَ في العين، وفنِيت حركاتُه كلُّها، وعاد جامداً تارزاً ولم يفصِلِ الناظِرُ إليه بينَه وبين الجُعَلِ الميِّت، ما أقام على تأمله، فإذا أعيد إلى الروث عادت إليه حركة الحياةِ من ساعته.

وجرَّبتُ أنا مثلَ ذلك في الخنفساء، فوجدتُ الأمر فيها قريباً من صِفَةِ الجعَل، ولم يبلغْ كلَّ ذلك إلاَّ لقرابةِ ما بينَ الخنفساء والجُعَل.

ودخلت يوماً على ابن أبي كريمة، وإذا هو قد أخْرَجَ إجَّانَة كان فيها ماءٌ من غسالةِ أوساخ الثياب، وإذا ذِبَّان كثيرةٌ قد تساقطْنَ فيه من اللَّيل فمَوَّتْن، هكذا كُنَّ في رأي العين، فغَبَرْنَ كذلك عَشِيَّتَهُنَّ وليلتهنّ، والغَدَ إلى انتصاف النهار، حتّى انتفخْنَ وعفِنَّ واسترخين؛ وإذا ابن أبي كريمة قد أعدّ آجُرّةً جديدة، وفُتاتَ آجُرٍّ جديد، وإذا هو يأخذ الخَمس منهنّ والستّ، ثمّ يضعهُنّ عَلَى ظهر الآجرَّة الجديدة، ويذرُّ عليهنَّ من دقاق ذلك الآجرِّ الجدِيدِ المدقوق بقدْر ما يغمُرها فلا تلبث أن يراها قدْ تحرَّكتْ، ثمَّ مشت، ثمَّ طارت؛ إلاَّ أنّه طيَرَانٌ ضعيفٌ.

ابن أبي كريمة وعود الحياة إلى غلامه وكان ابنُ أبي كريمة يقول: لا واللّه، لا دفنْتَ ميِّتاً أبداً حَتّى يَنْتُنَ قلت: وكيف ذاك؟ قال: إنّ غلامي هذا نُصيراً ماتَ، فأخّرْتُ دفنه لبعْضِ الأمْر، فقدِم أخوه تلك اللّيْلَة فقال: ما أظنُّ أخي ماتَ ثمَّ أخذ فتيلتين ضخمتين، فروّاهما دهْناً ثمَّ أشعل فيها النّارَ، ثمَّ أطفأهما وقرَّبهما إلى منخريه، فلم يلبَثْ أنْ تحرَّك، وها هو ذا قد تراه قلت له: إن أصحاب الحروب والذين يغسلون الموتى، والأطباء، عندَهم في هذا دَلالاتٌ وعلامات فلا تحمل عَلَى نفسك في واحدٍ من أولئك ألاَّ تستُره بالدفن حتى يَجيف.

والمجوس يقرّبون الميِّت منْ أنف الكلب، ويستدلون بذلك عَلَى أمره فعلمت أنّ الذي عايَنّاه من الذّبَّان قد زادَ في عزْمِه.

النُّعَر والنُّعَر: ضربٌ من الذّبان، والواحدةُ نعَرة، وربما دخلتْ في أنف البعير أو السَّبع، فيزمُّ بأنفِه؛ للذي يلقى من المكروه بسببه، فالعَرَبُ تشبّه ذا الكِبْر من الرجال إذا صعّر خده، وزَمّ أنفه - بذلك البعير في تلك الحال، فيقال عند ذلك: فلان في أنفه نعرة، وفي أنفِه خُنْزوانةٌ، وقال عمر: واللّه لا أقلعُ عنه أو أطيِّرَ نُعرَته.

ومنها القمَع، وهو ضربٌ من ذبّان الكلأ، وقال أوس:

ألَمْ ترَ أن اللّه أنـزَلَ مُـزْنَـه وعفْرُ الظّباءِ في الكِناسِ تَقمَّعُ

وذلك مما يكون في الصيفِ وفي الحرِّ.

أذى الذّبّان للدوابّ والذّبان جنْد من جند اللّه شديدُ الأذى، وربَّما كانَ أضرّ من الدَّبْر في بَعضِ الزمان، وربما أتت عَلَى القافلة بما فيها؛ وذلك أنّها تغشى الدوابّ

حتّى تضربَ بأنفسها الأرض - وهي في المفاوز - وتسقط، فيهلك أهل القافلة؛ لأنهم لا يخرجون من تلك المفاوز على دوابهمْ - وكذلك تُضْرب الرِّعاء بإبلهم، والجمالون بجمالهم عن تلك الناحية، ولا يسْلُكُها صاحبُ دابَّة، ويقول بعضُهم لبعض: بادِرُوا قبْلَ حركَةِ الذّبان، وقبل أنْ تتحرك ذبان الرِّياض والكلأ.
والزّنابير لا تكادُ تدْمي إذا لسعت بأذنابها، والذِّبَّان تغمس خراطيمها في جوفِ لحوم الدوابّ، وتخرق الجلودَ الغلاظ حتى تنزفَ الدَّمَ نزفاً، ولها مع شدّة الوقع سمومٌ، وكذلك البَعوضة ذاتُ سمّ، ولو زِيدَ في بَدَن البعوضة وزيدَ في حرْقة لسْعها إلى أن يصيرَ بَدَنها كبدن الجرَّارة - فإنها أصغر العقارب - لما قام له شيءٌ، ولكان أعظمَ بليَّةً من الجَرَّارة النصيبية أضعافاً كثيرة، وربَّما رأيت الحمار وكأنّه مُمَغَّر أو معصفر، وإنَّهُمْ مع ذلك ليجلّلون حمُرَهم ويُبَرقِعونها، وما يَدَعون موضعاً إلاَّ ستروه بجهدهم، فربَّما رأيتَ الحمير وعليها الرِّجال فيما بين عَبْدَسي والمذار بأيديهم المناخس والمذابُّ، وقد ضربت بأنفسها الأرضَ واستسلمت للموت، وربّما رأيت صاحبَ الحمير إذا كانَ أجيراً يضربُها بالعَصا بكلِّ جَهْده، فلا تنبعث.
وليس لجلد البقرة والحمار والبعير عندَه خطر، ولقدْ رأيتُ ذُباباً سقط على سالفة حِمار كانَ تحتي، فضرب بأُذنيه، وحرَّك رأسه بكلِّ جهده، وأنا أتأمَّله وما يقلع عنه، فعَمَدْتُ بالسَّوطِ لأنحِّيَه به فنزا عنه، ورأيت مع نزْوِهِ عنه الدَّمَ وقد انفجر؛ كأنَّهُ كان يشرب الدَّمَ وقد سدَّ المخرج بفيه، فلمَّا نحَّاه طلع.
ونيم الذّباب وتزعمُ العامَّةُ أنَّ الذّبَّان يخْرَأ عَلَى ما شاء قالوا: لأنَّا نراه يخرأ عَلَى الشيء الأسود أبيضَ، وعلى الأبيضِ أسود.
ويقال قد ونمَ الذُّباب - في معنى خرئ الإنسان - وعرَّ الطائر، وصام النَّعام، وذَرَق الحمام، قال الشاعر:

وقدْ وَنَمَ الذُّبابُ عليه حتَّى كأنَّ وَنِيمَه نقطُ المِدَادِ

وليس طولُ كُوْمِ البعير إذا ركب النَّاقة، والخنزير إذا ركب الخنزيرة، بأطولَ ساعةً من لُبْثِ ذكورةِ الذبّان عَلَى ظهور الإناثِ عندَ السِّفاد.
تخلق الذُّباب والذّباب من الخلْق الذي يكونُ مَرّةً من السِّفاد والوِلاد، ومرّةً من تعفُّن الأجسام والفسادِ الحادث في الأجرام.
والباقلاءُ إذا عتَقَ شيئاً في الأنبار استحال كلُّه ذُباباً، فربَّما أغفلوه في تلك الأنْبار فيعودون إلى الأنبار وقد تطاير من الكُوَى والخروق فلا يجدون في الأنبار إلاّ القشور.
والذّباب الذي يخلق من الباقلاء يكون دوداً، ثمَّ يعود ذباباً، وما أكثر ما ترى الباقلاء مثقّباً في داخله شيءٌ كأنَّه مسحوق، إذا كان اللّه قد خلق منه الذّبَّان وصيَّره، وما أكثر ما تجده فيه تامَّ الخلق، ولو تمّ جناحاه لقد كان طار.
حديث شيخ عن تخلق الذّباب وحدّثني بعض أصحابنا عن شيخٍ من أهل الخُريبة قال: كنت أحبُّ الباقلاء، وأردت، إمَّا البَصرة وإما بغداد - ذهب عنِّي حفظه - فصرتُ في سفينةٍ حِمْلها باقلاء، فقلت في نفسي: هذا واللّه من الحظِّ وسعادة الجَدِّ، ومن التَّوفيق والتسديد، ولقد أربع من وَقَعَ له مثل هذا الذي قد وقع لي:

أجلسُ في هذه السفينة على هذا الباقلاء، فآكلُ منه نِيّاً ومطبوخاً ومقلوّاً، وأرضُّ بعضَه وأطحنُه، وأجْعله مرقاً وإداماً، وهو يغْذو غذاءً صالحاً، ويُسْمِنُ، ويزيد في الباه، فابتدأت فيما أمَّلته، ودفعْنا السَّفينة، فأنكَرْتُ كثرة الذّبّان، فلما كان الغدُ جاء منه ما لم أقدْر معه على الأكلِ والشربِ، وذهبت القائلة وذهب الحَديث، وشُغِلت بالذَّبِّ، على أنهنَّ لم يكنَّ يبرحْنَ بالذَّبّ، وكنَّ أكثرَ من أنْ أكونَ أقوى عليهنَّ؛ لأنّي كنتُ لا أطردُ مائةً حتى يخلفهَا مائَة مكانها، وهُنَّ في أولِ ما يخرجْنَ من الباقلاء كأنَّ بهنّ زَمَانَةً فلما كانَ طيرانهنَّ أسوأ كان أسوأ لحالي، فقلت للملاح: ويلك أيُّ شيءٍ معك حتى صار الذبان يتبعك قدْ واللّهِ أكلَتْ وشربَتْ قال: أوَ ليس تعرف القصةَ؟ قلت: لا واللّه قال: هي واللّه من هذه الباقلاء، ولولا هذه البليّة لجاءنَا من الرُّكاب كما يجيئون إلى جميع أصحاب الحمولات، وما ظننته إلاّ ممن قد اغتفر هذا للين الكِراء، وحبِّ التفرُّد بالسفينة، فسألتُهُ أنْ يقربني إلى بعض الفُرَض، حتى أكترِيَ من هناك إلى حيث أريد، فقال لي: أتحبُّ أنْ أزوِّدَك منه؟ قلت: ما أحبُّ أنْ ألتقيَ أنا والباقلاء في طريقٍ أبَداً.من كره الباقلاء ولذلك كان أبو شمر لا يأكل الباقلاء، وكان أخذ ذلك عن معلِّمه معَمَّر أبي الأشعث، وكذلك كان عبد اللّه بن مسلمة بن محارب والوكيعيُّ ومُعمَّر، وأبو الحسن المدائني، برهةً من دهرهم.

وكان يقول: لولا أنَّ الباقلاء عفِن فاسدُ الطّبع، رديءٌ يختِّر الدَّمَ ويغلّظُه ويورث السّوداءَ وكلَّ بلاء - لما ولّدَ الذِّبان، والذّبان أقذرُ ما طار ومشَى وكان يقول: كلُّ شيءٍ ينبت منكوساً فهو رديءٌ للذّهن، كالباقلاء والباذنجان.

وكان يزعم أنّ رجلاً هرب من غرمائه فدَخل في غابةِ باقلاء، فتستَّر عنهم بها، فأراد بعضُهم إخرَاجه والدخول فيها لطلبهِ، فقال: أحكمهُمْ وأعلمهم كفاكم له بموضعه شرّاً.

وكان يقول: سمعت ناساً من أهل التجْربةِ يحلفون باللّه: إنَّه ما أقام أحدٌ أربَعين يوماً في مِنبت باقلاءَ وخرج منه إلاّ وقد أسقمهُ سُقْماً لا يزايلُ جِسمَه.

وزعم أنّ الذي منع أصحاب الأدْهان والتربيةِ بالسمسم منْ أن يربُّوا السُّماسِمِ بنَوْر الباقلاء، الذي يعرفونَ من فسادِ طبعهِ، وأنَّه غير مأمون على الدِّماغ وعلى الخيشوم والصِّماخ، ويزعمون أنّ عمله الذي عمله هو القصد إلى الأذهان بالفساد.

وكان يزعم أنَّ كلَّ شيءٍ يكون رديئاً للعصب فإنَّه يكون رديئاً للذّهن، وأن البصل إنما كان يفسد الذهن؛ إذّ كان رديّاً للعصب، وأنْ البَلاذُرَ إنما صار يُصلح العقلَ ويورثُ الحفظ؛ لأنَّه صالح للعَصَب.

وكان يقول: سواءٌ عليّ أكلت الذّبان أو أكلت شيئاً لا يولّد إلاَّ الذّبانَ، وهو لا يولّده إلاَّ هُوَ، والشيءُ لا يلد الشيءَ إلاّ وهو أولى الأشياءِ بهِ، وأقربها إلى طبعهِ، وكذلك جميع الأرحام، وفيما ينتج أرحام الأرض وأرحام الحيوان، وأرحام الأشجار، وأرحام الثِّمَار، فيما يتولَّد منها وفيها.

حديث أبي سيف حول حلاوة الخرء

وبينما أنا جَالسٌ يوماً في المسجِد مع فِتيانٍ من المسجديِّين مما يلي أبواب بني سليم، وأنَا يومئذٍ حَدث السّنّ إذْ أقبَلَ أبو سَيف الممرور - وكان لا يؤْذي أحداً، وكان كثير الظّرْفِ من قومٍ سَراة - حتى وقف علينا، ونحن نرى في وجهه أثر الجِدِّ، ثمّ قال مجتهداً: واللّه الذي لا إله إلاّ هو إن الخرْءَ لحلو، ثمَّ واللّه الذي لا إله إلاّ هو إنَّ الخرء لحلو، ثم واللّه الذي لا إله إلاّ هو إنّ الخرء لحلو، يميناً بَاتَّةً يسألني اللّهُ عنها يوم القيامة فقلت له: أشهد أنَّك لا تأكله ولا تذوقه، فمن أين علمت ذلك؟ فإن كنْتَ علمت أمراً فعلَّمنا مما علمكَ اللّه، قال: رأيت الذّبَّان يَسقط على النّبيذ الحلو، ولا يسقط على الحازر، ويقع على العسل ولا يقع على الخلّ، وأراه عَلَى الخُرء أكثرَ منه على التَّمْر، أفتريدون حُجَّةً أبين من هذه؟ فقلت: يا أبا سَيْفٍ بهذا وشبهه يُعرفُ فضْلُ الشَّيخ عَلَى الشاب.

تخلق بعض الحيوان من غير ذكر وأنثى

ثُمَّ رَجَعَ بنا القول إلى ذِكر خلق الذّبان من الباقلاء، وقد أنكر ناسٌ من العوامِّ وأشْباهِ العوامِّ أن يكونَ شيءٌ من الخلق كانَ من غير ذكرٍ وأنثى، وهذا جهلٌ بشأن العالَم، وبأقسام الحيوان، وهم يظنُّون أنَّ على الدِّين من الإقرار بهذا القول مضرَّةً، وليس الأمر كما قالوا، وكلُّ قولٍ يكذِّبُه العِيان فهو أفحش خطأ، وأسخَفُ مذهباً، وأدلُّ على معاندةٍ شديدة أو غفْلة مفْرطة.
وإنْ ذهب الذَّاهبُ إلى أن يقيس ذلك على مجاز ظاهر الرَّأي، دونَ القطْع على غيب حقائق العِلل، فأجْرَاه في كلِّ شيء - قال قوْلاً يدفعه العِيانُ أيضاً، مع إنكار الدِّين له.
وقد علمنا أنَّ الإنسانَ يأكُلُ الطّعامَ ويشربُ الشَّرابَ، وليس فيهما حيَّةٌ ولا دودةٌ، فيُخْلق منها في جوفِه ألوان من الحَيَّات، وأشكالٌ من الدِّيدان من غير ذكرٍ ولا أنثى، ولكن لابدَّ لذلك الولادِ واللّقاح من أنْ يكون عن تناكح طِباع، وملاقاة أشياءَ تشبه بطباعها الأرحامَ وأشياءَ تشبه في طبائعها ملقّحات الأرحام.

استطراد لغوي بشواهد من الشعر

وقد قال الشاعر:

فاسْتَنْكَحَ اللَّيْلَ البهيمَ فَأَلْقِحَت ... عن هَيْجِه واستُنْتِجَت أحلاما

وقال الآخر:

وإذا الأمُور تناكَحَتْ ... فالجود أكرمُها نِتاجا

وقال ذو الرُّمَّة:

وإنِّي لمِدلاجٌ إذا ما تناكَحَتْ ... مَعَ اللّيلِ أحلامُ الهِدَانِ المثقَّلِ

وقال عليٌّ بن مُعاذ:

لَلْبَدْر طِفلٌ في حِضَان الهوا ... مُسْتَزْلِقٌ من رَحِمِ الشّمْس

وقال دُكينٌ الرَّاجز، أو أبو محمد الفقعسيِّ:

وقد تعللتُ ذميل العنْس ... بالسَّوطِ في ديمومةٍ كالتُّرس

إذا عَرَّجَ اللَّيلَ بروجُ الشَّمس

وقال أمية بن أبي الصَّلت:

والأرضُ نوَّخها الإلهُ طرُوقةً ... للماء حتَّى كلُّ زَنْدٍ مُسْفَدُ

والأرضُ مَعقِلنَا وكانتْ أمَّنَا ... فيها مقابِرُنَا وفيها نولد

وذكر أميَّة الأرْضَ فقال:

والطُّوط نزْرعُه فيها فنَلبَسهُ ... والصُّوف نجتزُّه ما أردف الوَبَرُ

هي القرارُ فما نبْغي بهَا بدلاً ... ما أرحَمَ الأرضَ إلاَّ أنَّنا كُفُرُ

وطَعنَةَ اللّهِ في الأعداءِ نافذةٌ ... تُعيي الأطِبَّاءَ لا تَثوَى لها السُّبُرُ

ثمَّ رجع إليها فقال:

مِنها خُلِقْنَا وكانَتْ أمّنا خُلِقَتْ ... ونحنُ أبناؤها لو أنَّنَا شُكُرُ

ما تستنكره العامة من القول

وتقول العرب: الشمسُ أرحمُ بنا فإذا سمع السامعُ منهم أنَّ جالينوسَ قال: عليكم بالبَقْلةِ الرحيمة - السِّلق - استشنعه السامع، وإذا سمع قولَ العرب: الشمسُ أرحم بنا، وقولَ أميّة:

ما أرْحَمَ الأرضَ إلا أنَّنا كُفُرُ

لم يستشنعه، وهما سواء. فإذا سمع أهل الكتاب يقولون: إنَّ عيسى ابن مريم أخَذَ في يده اليمنى غُرْفَةً، وفي اليسرى كِسرَةَ خبز، ثم قال: هذا أبي، للماءِ، وهذه أمِّي، لكسرة الخبز، استشنعه، فإذا سمعَ قولَ أميَّة:

والأرضُ نَوَّخَهَا الإله طرُوقة   للماءِ حتَّى كل زَنْد مُسفَدُ

لم يستشنعه، والأصل في ذلك أنّ الزّنَادِقة أصحابُ ألفاظٍ في كتبهمْ، وأصحابُ تهويل؛ لأنَّهم حينَ عدِمُوا المعانيَ ولم يكن عندهم فيها طائل، مالُوا إلى تكلُّف ما هو أخْصَرُ وأيسرُ وأوجَزُ كثيراً.

حُظْوة طوائف من الألفاظ لدى طوائف من الناس

ولكلِّ قوْمٍ ألفاظٌ حظِيتْ عِنْدَهم، وكذلك كلُّ بليغ في الأرض وصاحِب كلامٍ منثور، وكلُّ شاعِرٍ في الأرض وصاحِبِ كلامٍ موزون؛ فلا بد من أن يكون قد لهجَ وألف ألفاظاً بأعيانها؛ ليديرَها في كلامه، وإن كان واسعَ العلمِ غزيرَ المعاني، كثيرَ اللّفظ..
فصار حظُّ الزَّنَادِقةِ من الألفاظ التي سبقتْ إلى قلوبهم، واتَّصلت بطبائعهم، وجَرتْ على ألسنتهم التناكحَ، والنتائِجَ، والمِزاج والنُّور والظلمة، والدقّاع والمنّاع، والساتر والغَامر، والمنحلّ، والبُطلان، والوِجْدان، والأثير والصِّدِّيق وعمود السبح، وأشكالاً من هذا الكلام، فصَارَ وإن كان غريباً مرفوضاً مهجوراً عنْد أهل ملَّتنا ودعوتِنا، وكذلك هو عِنْدَ عوامِّنا وجمهُورنا، ولا يستعملهُ إلاّ الخَواصُّ وإلاَّ المتكلِّمون.

اختيار الألفاظ وصوغ الكلام

وأنا أقولُ في هذا قوْلاً، وأرجو أن يكون مرضياً، ولم أقلْ أرجو لأني أعلمُ فيه خللاً، ولكنّي أخذتُ بآدابِ وجوهِ أهلِ دعوتي وملّتي، ولغتي، وجزيرتي، وجيرتي؛ وهم العرب، وذلك أنّه قيل لصُحَارِ العبديّ: الرجل يقول لصاحِبه، عنْدَ تذكيره أياديَه وإحْسانه: أما نحنُ فإنّا نرجو أن نكونَ قدْ بلغْنا من أداءِ ما يجبُ علينا مبلغاً مُرضياً، وهُوَ يعلم أنّه قدْ وفّاه حقّه الواجبَ، وتفضّل عليه بما لا يجب، قال صُحار: كانوا يستحبُّون أن يَدَعُوا للقول متنفّساً، وأن يتركوا فيه فضلاً، وأن يتجافوا عن حَقٍّ إن أرادوه لم يُمنَعوا منه.
فلذلك قلت أرجو، فافهَمْ فهّمَكَ اللّه تعالى.
فإنَّ رأيي في هذا الضّربِ من هذا اللفظ، أنْ أكونَ ما دمتُ في المعاني التي هي عبارتها، والعادَة فيها، أن ألفِظ بالشّيء العتيد الموجود، وأدَعَ التكلّفَ لِما عسى ألاَّ يسلس ولا يسهلَ إلاَّ بعد الرِّياضة الطويلة.
وأرى أنْ ألفِظ بألفاظِ المتكلمين ما دُمتُ خائضاً في صناعة الكلام مع خواصِّ أهل الكلام؛ فإن ذلك أفهمُ لهمْ عني، وأخفُّ لمؤنتهمْ عليّ.
ولكل صناعةٍ ألفاظٌ قد حَصلت لأهلها بَعدَ امتحان سواها، فلم تَلزَق بصِناعتهم إلاَّ بَعدَ أن كانَتْ مُشاكَلاً بينها وبين تلك الصناعة.
وقبيحٌ بالمتكلم أنْ يفتقر إلى ألفاظِ المتكلّمين في خُطبةٍ، أو رسالة، أو في مخاطبةِ العوام والتجار، أو في مخاطبةِ أهله وعبْدِهِ وأمته، أو في حديثه إذا تحدثَ، أو

خبره إذا أخبر.
وكذلك فإنّه من الخطأ أن يجلِبَ ألفاظ الأعرابِ، وألفاظ العوامّ وهو في صناعة الكلام داخل، ولكلِّ مقامٍ مقال، ولكلِّ صناعة شكل.

خلق بعض الحيوان من غير ذكر وأنثى

ثم رجع بنا القول إلى ما يحدث اللّه عزَّ وجلَّ من خلْقه من غير ذكرٍ ولا أنثى، فقلنا: إنّه لابدَّ في ذلك من تلاقي أمرينِ يقومانِ مقامَ الذّكر والأنثى، ومقامَ الأرضِ والمطر، وقد تقرب الطّبائعُ من الطبائع، وإن لم تتحوَّلْ في جميع معانيها، كالنطفة والدَّم، وكاللّبنِ والدَّم.
وقد قال صاحبُ المنطق: أقول بقولٍ عامٍّ: لابدَّ لجميع الحيوان من دم، أو من شيء يشاكل الدَّم، ونحن قد نجد الجيفَ يخلق منها الدِّيدان، وكذلك العذرة، ولذلك المجوسيُّ كلما تبرَّز ذرَّ على بُرازه شيئاً من التراب؛ لئلا يخلق منها دِيدان، والمجوسيُّ لا يتغوَّط في الآبار والبلاليع لأنّه بزعمه يُكرم بطنَ الأرض عن ذلك، ويزعم أنّ الأرضَ أحَدُ الأركان التي بُنِيَت العوالمُ الخمسةُ عليها بزعمهم: أبرسارس وأبرمارس وأبردس وكارس وحريرة أمنة، وبعضهم يجعل العوالم ستة ويزيد أسرس، ولذلك لا يدفنون موتاهم ولا يحفرون لهم القبور، ويضعونهم في النّواويس وضْعاً.
قالوا: ولو استطعنا أنْ نخرج تلك الجيف من ظهورِ الأرضين وأجواف الأحراز، كما أخرجْناها من بطون الأرَضين لفعلنا، وهم يسمُّون يوم القيامة روزرستهار، كأنّه يوم تقوم الجيف، فمن بُغضهم لأبْدَان الموتى سمَّوها بأسمج أسمائهم.
قالوا: وعلى هذا المثال أعظمْنا النّار والماء، وليسا بأحقَّ بالتعظيم من الأرض.
وبعد فنحن ننزِع الصِّمامة من رؤوس الآنية التي يكونُ فيها بعضُ الشراب، فنَجد هنالك من الفراش ما لم يكن عن ذكر ولا أنثى، وإنما ذلك لاستحالة بعضِ أجزاءِ الهواء وذلك الشراب إذا انضمَّ عليه ذلك الوعاء، وهذا قولُ ذي الرمَّة وتأويلُ شعره، حيث يقول:

وأبصَرْنَ أن القِنْعَ صارتْ نِطافُهُ ... فَرَاشاً وأنَّ البَقلَ ذاوٍ ويابسُ

وكذلك كلُّ ما تخلق من جُمَّارِ النَّخلة وفيها، من ضروب الخلَق والطَّير، وأشباه الطير، وأشباه بناتِ وَردان، وَالذي يسمَّى بالفارسية فاذو، وكالسُّوس، والقوادح، والأرَضة، وبَنَاتِ وَرْدان اللاتي يخلقْن من الأجذاع والخشب والحشوش، وقد نجد الأرَج الذي يكبس فيه اليخُّ بخراسان، كيف يستحيل كله ضفادِعَ، وما الضِّفدع بأدَلّ عَلَى اللّه من الفَراش.
وإنما يستحيل ذلك الثَّلجُ إذا انفتح فيه كقدْر منخر الثَّور، حتَّى تدْخُله الرِّيح التي هي اللاقحة، كما قال اللّه عزَّ وجلَّ:)وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لوَاقِحَ(، فجعلها لاقحةً ولم يجعلها ملقحة.

ونجد وسْط الدَّهناء - وهي أوسع من الدوِّ ومن الصَّمَّان - وعلى ظهر مسجد الجامع في غبِّ المطر من الضَّفادِع ما لا يُحصى عددُه، وليس أنَّ ذلك كان عن ذكرٍ وأنثى، ولكنَّ اللّهَ خَلقها تلك الساعةَ من طِباع تلك التُّربَةِ وذلك المطر وذلك الهواءِ المحيطِ بهما، وتلك الرِّيح المتحرِّكةِ، وإنْ زعموا أن تلك الضَّفادعَ كانت في السَّحاب، فالذي أقرُّوا به أعجبُ من الذي أنكروه، وإنما تقيم الضَّفادعُ وتتربّى وتتوالَدُ في مناقع المياه، في أرض تلاقي ماءً، والسَّحابُ لا يوصف بهذه الصفة، قد نجد الماء يزيد في دِجْلة والفُرات فتنزُّ البطون والحفائر التي تليها من الأرض، فيُخْلق من ذلك الماءِ السَّمكُ الكثير، ولم يكن في تلك الحفائر الحدث، ولا في بحر تلك الأرضين شيءٌ من بيض السَّمك.

ولم نجد أهلَ القاطول يشكُّون في أنَّ الفار تخلَّق من أرضهم، وأنّهُمْ ربَّما أبصروا الفأرَة من قبل أن يتم خلْقُها، فنسبوا بأجمعهم خلق الفأرِ إلى الذكر والأنثى، وإلى بعض المياه والتُّرَبِ والأجواء والزمان، كما قالوا في السمك، والضَّفادع، والعقارب.

ضعف اطراد القياس والرأي في الأمور الطبيعية

فإن قاس ذلك قائس فقال: ليسَ بين الذّبَّان وبنات وردان وبين الزَّنَابير فرق، ولا بين الزّنَابير والدّبْر والخنافس فرق، ولا بين الزّرازير والخفافيش ولا بين العصافير والزّرازير فرق فإذا فرغوا من خشاش الأرض صاروا إلى بغاثها ثم إلى أحرارها، ثم إلى الطواويس والتدّارج والزمامج حتى يصعدوا إلى الناس، قيل لهم: ليس ذلك كذلك، وينبغي لكم بَدِيّاً أن تعرفوا الطّبيعة والعادة، والطبيعة الغريبة من الطبيعة العامّية، والممكن من المُمْتَنِع، وَأنّ المُمْكِنَ على ضربَين: فمنه الذي لا يزال يكون، ومنه الذي لا يكاد يكون، وما علة الكثرة والقلة، وتعرفوا أنّ الممتنع أيضاً عَلَى ضربينَ: فمنه ما يكُون لعلة موضوعة يجوز دفعها، وما كان منه لعلة لا يجوز دفعها، وفصلَ ما بين العلة التي لا يجوز دفعُها وهي عَلَى كل حالٍ علة، وبين الامتناع الذي لا علة له إلاَّ عينُ الشيء وجنسُه.

وينبغي أنْ تعرفوا فَرْقَ ما بين المحال والممتنع، وما يستحيل كونه من اللّه عزّ وجلّ؛ وما يستحيل كونه من الخلق.

وإذا عرفتم الجواهرَ وحظوظها من القوى، فعند ذلك فتعاطوا الإنكارَ والإقرار، وإلاَّ فكونوا في سبيل المتعلم، أو في سبيل من آثر الرَّاحة ساعةً عَلَى ما يورث كدُّ التعلُّم من راحة الأبد، قد يكون أن يجيءَ علَى جهة التوليد شيءٌ يبعُد في الوهم مَجيئه، ويمتنع شيءٌ هو أقرب في الوهم من غيره؛ لأنّ حقائق الأمور ومغيَّبات الأشياء، لا تُردُّ إلى ظاهر الرَّأي، وإنما يردُّ إلى الرَّأي ما دخل في باب الحَزم والإضاعَة وما هو أصوَبُ وأقربُ إلى نَيل الحاجة، وليس عندَ الرَّأي علْمٌ بالنُّجْح والإكداء؛ كنحو مجيء الزُّجَاج من الرَّمل، وامتناع الشّبَهِ والزئبق من أن يتحوَّل في طبع الذّهب والفضّة، والزئبق أشبهُ بالفضّة المايعة من الرَّمل بالزجاج الفرعونيّ، والشَّبه الدمشقي بالذهب الإبريز أشبه من الرَّمل بفِلَق الزجاج النقيِّ الخالص الصافي. ومن العجب أنّ الزُّجاج - وهو مولَّد - قد يجري مع الذهب في

كثير مفاخِرِ الذّهب؛ إذْ كان لا يغيِّر طبَعَهُ ماءٌ ولا أرض؛ والفضّة التي ليسَتْ بمولدة إذا دفنت زماناً غير طويلٍ استحالتْ أرضاً، فأمَّا الحديد فإنّه في ذلك سريعٌ غير بطيءٌ.

وقد زعمَ ناسٌ أنّ الفرقَ الذي بينهما إنما هو أنّ كلَّ شيءٍ له في العالم أصلٌ وخميرةٌ، لم يكن كالشيء الذي يكتسب ويجتلب ويلفَّق ويلزّق، وأن الذّهب لا يخلو من أن يكون ركناً من الأركان قائماً منذ كان الهواء والماء والنار والأرض، فإن كان كذلك فهو أبعد شيءٍ من أن يولّد النّاسُ مثله، وإن كان الذّهب إنما حدث في عمق الأرض، بأن يصادف من الأرض جَوْهَراً، ومن الهواءِ الذي في خلالها جوهراً، ومن الماءِ الملابِس لها جوهراً، وَمن النار المحصورة فيها جوهراً، مع مقدار من طول مُرور الزمان، ومقدار من مُقابلات البروج، فإن كان الذَّهب إنما هو نتيجة هذه الجواهِر عَلَى هذه الأسباب، فواجب ألاَّ يكون الذهب أبداً إلاّ كذلك.

فيقال لهؤلاء: أرأيتم الفأرة التي خُلِقتْ من صُلْب جُرَذٍ ورحم فأرة، وزعمتم أنَّها فأرة على مقابلة من الأمور السَّماويّة والهوائيَّة والأرضية وكانت نتيجة هذه الخصال، مع استيفاء هذِه الصِّفات؟ ألَسْنا قدْ وجدنا فأرة أخرى تهيَّأ لها من أرحام الأرَضِين، ومن حَضانة الهواء، ومن تلقيح الماء، ومن مُقابلات السماويَّات والهوائيّات، فالزَّمان أصَارَ جميع ذلك سبباً لفأرة أخرى مثلها، وكذلك كلُّ ما عددناه فمن أين يستحيل أن يخلط الإنسانُ بينَ مائيَّة طبيعية ومائيَّة جوهَر؟ إمَّا من طريق التبعيد والتقريب، ومن طريق الظُّنون والتجريب، أوْ من طريق أنْ يقع ذلك اتفاقاً، كما صنع النَّاطف الساقط من يد الأجير في مُذاب الصُّفر حتى أعطاه ذلك اللّون، وجلَب ذلك النَّفع، ثم إنَّ الرِّجالَ دبرْته وزادَتْ ونقصَتْ، حتى صارَ شَبَهَاً ذهبياً،هذا مع النّوشاذر المولّد من الحجارة السُّود.

فلو قلتم: إنَّ ذلك قائمُ الجواز في العقل مطّرد في الرَّأي، غير مستحيل في النَّظر، ولكنَّا وجدْنا العالَم بما فيه من النَّاس منذ كانا فإنَّ النَّاس يلتمسون هذا وينتصبون له، ويَكلفون به، فلو كان هذا الأمرُ يجيءُ من وجه الجمع والتوليد والتركيب والتجريب، أوْ من وجه الاتفاق، لقد كان ينبغي أنْ يكونَ ذلك قد ظهر من ألوفِ سنينَ وألوف؛ إذْ كان هذا المقدارُ أقلَّ ما تؤرِّخ به الأمم، ولكان هذا مقبولاً غيرَ مردود، وعلى أنَّه لم يتبيّنْ لنا منه أنَّه يستحيل أنْ يكون الذَّهبُ إلاَّ من حيث وجد، وليس قُربُ كونِ الشيء في الوهم بموجب لكونهِ، ولا بعدُه في الوهْم بموجبٍ لامتناعه.

ولو أنَّ قائِلاً قال: إنَّ هذا الأمرَ إذ قد يحتاج إلى أنْ تتهيّأ له طباع الأرض، وطباع الماء، وطباع الهواءِ، وطباع النار، ومقادير حركات الفلك، ومقدارٌ من طول الزمان، فمتى لم تجتمعْ هذه الخصالُ وتكمُلْ هذه الأُمور لم يتمَّ خلق الذَّهب، وكذلك قد يستقيم أنْ يكون قد تهيأ لواحدٍ أن يجمع بين مائتي شكل من الجواهِر، فمزجها على مقاديرَ، وطبخَها على مقادير، وأغبّها مقداراً من الزمان، وقابلت مقداراً من حركات الأجرام السماويَّة، وصادفت العالم بما فيه على هيئة، وكان بعضُ ما جرى على يده اتفاقاً وبعضه قصداً، فلما اجتمعت جاء منها ذهبٌ فوقعَ ذلك في خمسة آلاف سنة مرّة، ثمَّ أراد صاحبُه المعاوَدَة فلم يقدِرْ على أمثال مقادير طبائع تلك

الجواهِر، ولم يضبط مقاديرَ ما كان قصدَ إليه في تلك المرَّة، وأخطأ ما كان وقعَ له اتِّفاقاً، ولم يقابل من الفلك مثلَ تلك الحركات، ولا من العالم مثل تلك الهيئة، فلم يُعَدْ له ذلك. فإن قال لنا هذا القول قائل وقال: بَيِّنُوا لي موضع إحالته، ولا تحتجُّوا بتباعد اجتماع الأمور به، فإنَّا نقر لكم بتباعدها، هل كان عندنا في ذلك قولٌ مقنع، والدَّليل الذي تَثْلج به الصُّدور؟ وهل عندنا في استطاعة النَّاس أن يولّدوا مثل ذلك، إلاَّ بأن يُعرَض هذا القول على العقول السليمة، والأفهام التَّامَّة وتردَّه إلى الرسُل والكتب؟ فإذا وجدنا هذه الأمور كلها نَافيَة له، كانَ ذلك عندنا هُوَ المقنع، وليس الشأن فيما يظهر اللِّسانُ من الشكّ فيه والتّجويز له، ولكن ليردَّه إلى العقل؛ فإنّه سيَجده منكراً ونافياً له، إذا كان العقل سليماً من آفة المرض، ومن آفة التخبيل.

ضروب التخبيل

والتخبيل ضروب: تخبيلٌ من المِرَار، وتخبيل من الشّيطان، وتخبيل آخر كالرجل يعمِد إلى قلبٍ رَطْبٍ لم يتوقح، وذهن لم يستمرِ، فَيَحْمِله على الدقيق وهُو بَعْدُ لا يفي بالجليل، ويتخطّى المقدِّمات متسكعاً بلا أمَارة، فرجع حسيراً بلا يقين، وغَبَر زَمَاناً لا يعرف إلاّ الشكوك والخواطر الفاسدة، التي متى لاقت القلبَ على هذه الهيئة، كانت ثمرتها الحيرة، والقلبُ الذي يفسُد في يومٍ لا يداوَى في سنة، والبناءُ الذي يُنقضُ في ساعةٍ لا يبنى مثله في شهر.

قولهم: نبيذٌ يُمنع جانبه ثم رجع بنا القول إلى ذكر الذِّبَّان.

قيل لِعَلُّويه كلبِ المطبخ: أيُّ شيءٍ معنى قولهم: هذا نبيذٌ يمنع جانِبَه؟ قال: يريدُون أن الذّبَّان لا يدنو منه، وكان الرّقاشي حاضراً فأنشدَ قول ابن عبدل:

عَشّشَ الْعَنكَبُوت في قعْر دَنِّي	إنَّ ذا مِنْ رَزِيّتي لَعَظِيمْ
لَيتني قد غَمَرْتُ دَني حتَّـى	أبْصِرَ العَنْكبُوتَ فيهِ يَعُومْ
غرقا لا يُغيثـه الـدَّهْر إلاَّ	زَبَدٌ فوقَ رأسِـه مركـومْ
مخرجًا كفَّه ينـادي ذُبـابًـا	أن أغثني فإنّني مَـغْـمـومْ
قال :دَعْني فَلَنْ أُطِيقَ دُنُـوًّا	من شَرابٍ يشَمُّهُ المزكـومْ

قال: والذِّبَّان يضرَب به المثلُ في القذَر وفي استطابة النَّتْن، فإذا عَجزَ الذُّبابُ عن شمّ شيءٍ فهو الذي لا يكون أنتنُ منه.

ولذلك حينَ رمى ابنُ عبدلِ محمَّدَ بن حَسَّان بن سعْد بالبخر، قال:

وما يدنُو إلى فيهِ ذبـابٌ	ولو طُلِيَتْ مَشافِرُه بقَنْـد

يَرَيْنَ حلاوةً ويخفْنَ مَوتاً وَشِيكاً إنْ هَمَمْنَ له بورْدِ

أبو ذبّان ويقال لكلِّ أبخر: أبو ذبَّان، وكانت فيما زعموا كنيةَ عبدِ الملك بن مروان وأنشدوا قولَ أبي حُزابةَ:

أمسى أبو ذبّانَ مخلوعَ الرَّسَنْ خَلْعَ عِنانٍ قارحٍ مِنَ الحُصُنْ

وقد صفَت بَيْعَتنا لابن حسن

شعر فيه هجاء بالذباب

قال رجل يهجو هلالَ بن عبد الملك الهُنَائيَّ:

ألا مَن يَشْتَري منِّـي هِـلالاً مَوَدَّتَه وخُلَّـتَـه بـفَـلْـس

وأبرأ للذي يبتـاعُ مِـنِّـي هلالاً مِن خصالٍ فيه خَمْسِ

فمنهـنَّ النغانغُ والـمـكـاوي وآثارُ الجروح وأكْلُ ضرْسِ

ومن أخْذِ الذباب بإصبـعَـيهِ وإن كانَ الذُّبابُ برأس جَعْسِ

القول في آية قالوا: وضرب اللّه عزَّ وجلَّ لضعفِ النَّاسِ وعجزهم مثلاً، فقال: "يا أيُّها النَّاس ضُرِبَ مَثَلٌ فاسْتَمِعُوا لَهُ إنَّ الذِين تَدْعون مِنْ دُونِ اللّه لنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً ولَو اجْتَمَعُوا لَه وَإنْ يسلُبْهمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يستَنْقِذوه منْه ضَعُفَ الطّالِبُ والمطلُوبُ". فقال بَعضُ النَّاس: قدْ سَوّى بين الذبّان والنّاسِ في العجْز: وقالوا: فقدْ يولِّد النَّاس من التَّعفين الفراش وغيرَ الفُراش وهذا خلقٌ، على قوله: "وإذْ تَخْلُقُ من الطّينَ كَهَيْئَةِ الطّيْر" وعلى قوله: "أحْسَنُ الخَالِقِينَ" وعلى قول الشاعر:

وأرَاكَ تفْري مَا خلَقْتَ وبَعْ ض الْقوم يخلُقُ ثمَّ لا يُفري

قيل لهم: إنما أراد الاختراع، ولم يرد التَّقدير.
قول في شعر وأمّا قول ابن ميَّادة:

ألا لا نُبالي أنْ تُخنِدفَ خِندفٌ ولسْنا نُبالي أن يَطنّ ذُبابهـا

فإنَّما جعل الذُّباب هاهنا مثلاً، وقد وضعَه في غير موضع تحقير له وموضع تصغير، وهو مثل قوله:

بني أسَدٍ كونُوا لمن قد علمتُم مَوَالِيَ ذلّتْ للهَوَانِ رقابُها

فلو حاربتْنا الجنُّ لم نرفع العصَا عن الجنِّ حتَّى لا تَهرَّ كلابُها

وليس يريد تحقير الكلاب.
ويقال: هو ذباب العين، وذباب السَّيف، ويقال تلك أرضٌ مَذَبَّة أي كثيرة الذُّباب.
وقال أبو الشَّمقْمَق في هجائه لبعض من ابتُلي به:

أسَمج النَّاس جميعاً كلِّهم كذُبَابٍ ساقطٍ في مَرَقَهْ

ويقال إن اللبن إذا ضرب بالكندس ونضح به بيت لم يَدْخله ذبَّان.
أبو حكيم وثمامة بن أشرس وسمعت أبا حكيم الكيمائي وهو يقول لثمامة بن أشرس: قلنا لكم إنَّا ندلكم على الإكسير، فاستثقلتم الغُرْم، وأردتم الغُنم بلا غرم، وقلنا لكم: دَعُونا نصنع هذه الجسور صنعةً لا تنتقض أبداً، فأبيتم، وقلنا لكم: ما ترجُون من هذه المسنّيات التي تهدمها المُدود، وتخرِّبها المراديّ؟ نحنُ نعمل لكم مسنّياتٍ بنصف هذه المؤُونة، فتبقى لكم أبداً، ثم قولوا للمُدود أن تجتهد جهدَها، وللمَرَاديِّ أنْ تبلغ غايتها فأبيتم، وقولوا لي: الذُّباب ما ترجون منها؟ وما تشتهون من البَعُوض؟ وما رغْبَتُكمْ في الجرجس ؟ لمَ لا تَدَعُوني أخرجها من بيوتكم بالمؤُونَة اليسيرة؟ وهو يقول هذا القولَ وأصحابُنا يضحكون، وابن سافري جالسٌ يسْمع.
فلما نزلنا أخذ بيده ومضى به إلى منزله، فغدَّاه وكساه وسَقاه، ثمَّ قال له: أحببتُ أنْ تخرج البَعُوضَ من داري، فأمَّا الذُّباب فإني أحتمله، قال: ولم تحتمل الأذى وقد أتاك اللّهُ بالفرج؟ قال: فافعلْ، قال: لا بدَّ لي من أن أخلط أدوية وأشتري أدوية قال: فكم تريد؟ قال: أريد شيئاً يسيراً، قال: وكم ذاك؟ قال: خمسون ديناراً، قال: ويحك خمسون يقال لها يسير؟ قال: أنت ليسَ تشتهي الرَّاحة من قذَر الذِّبَّان ولسع البعوض ثمَّ لبس نعليه وقام على رجليه، فقال له: اقعد، قال: إنْ قعدْتُ قبل أن آخذَها ثمَّ اشتريت دواءً بمائَة دينار لم تنتفعْ به؛ فإنِّي لست أدخِّنَ هذه الدُّخْنة، إلاَّ للذين إذا أمرتهم بإخراجهنَّ أخرَجُوهن، ولا أكتمكَ ما أريدُ؛ إنِّي لست أقصد إلاَّ إلى العُمَّار، فما هو إلاّ أنْ سمع بذكر العُمَّار حتى ذهب عقله، ودعا له بالكيس وذهب ليزن الدنَّانير، فقال له: لا تشقَّ على نفسك هاتها بلا وزنٍ عدداً، وإنَّما خاف أن تحدث حادثة، أو يقع شغل، فتفوت، فعدَّها وهو زَمِعٌ فغلط بعشرة دنانير، فلما انصرف وزنها وعدَّها فوَجدَ دَنانيره تنقص، فبكَرَ عليه يقتضيه الفضْل، فضحك أبو حكيم حتَّى كاد يموت، ثُمَّ قال: تسألني عن الفرع وقد استُهلك الأصل؟ ولم يزل يختلف إليه ويدافعُه حتَّى قال له ثمامة: ويلك أمجنونٌ أنت؟ قد ذهب المالُ والسُّخرية مستورة، فإن نافرْتَه فضَحْتَ نفسك، وربحتَ عداوة شيطانٍ هو واللّهِ أضَرُّ عليك من عُمَّارِ بيتِك، الذي ليسَ يخرجون عنك الذبابَ والبعوض بلا كُلفة،

مع حقِّ الجوار، قال: هم سكّاني وجيرَاني، قالوا: لو كان سمع منك أبو حكيم هذه الكلمة لكانت الخمسون ديناراً مائَةَ دينار!!

شعر في أصوات الذُّباب وغنائِها

ومما قيل في أصوات الذباب وغِنائها، قال المثقّب العبديُّ:

وتسمَعُ للذّبابِ إذا تـغنَّـى كتَغريد الحمامِ على الغُصون

وقال آخر:

حُوّ مـسَـارِبُـــهُ تَغنّى في غَياطِله ذبابُه

وقال أبو النجم:

أنفٌ ترى ذبَابها تـعَلّـلـه من زَهَرِ الرَّوْضِ الذي يكَلِّلُهْ

وقال أيضاً:

والشيخ تـهديه إلى طحـمـائه فالرَّوضُ قد نوَّر في عَزَّائه

مختلفَ الألوان في أسـمـائه نَوْراً تخال الشَّمْسَ في حمرائه

مكلَّلاً بالوردِ مـن صـفـرائه يجاوب المكّاءَ مـن مُـكَّـائِه

صوتُ ذبابِ العُشْبِ في دَرْمائه يَدْعو كأنَّ العَقْبَ مِنْ دُعـائـه

صوتُ مُغَنٍّ مَدَّ في غِـنـائـه

وقال الشمَّاخ:

يكلفها ألاَّ تخفّضَ صَوْتـهـا أهازيجُ ذِبَّانٍ عَلَى عُودِ عَوْسَج

بعيدُ مَدَى التطريبِ أوّلُ صَوْتِه سَحيلٌ وأعلاهُ نشيجُ المحشْرَج

المغنّيات من الحيوان والأجناس التي توصف بالغِناء أجناسُ الحمام والبعوض، وأصنف الذّبّان من الدَّبْر، والنَّحلِ، والشَّعْراء، والقمَع والنُّعَر، وليس لذِبَّان الكلب غِنَاء، ولا لما يخرُجُ من الباقلاء، قال الشاعر:

تذبّ عنهـا بـأثـيثٍ ذائل ذِبَّان شَعْرَاءَ وَصيفٍ ماذِلِ

ألوان الذِّبَّان

وذِبَّان الشَّعْرَاء حُمر، قال: والذِّبَّان التي تُهْلِكُ الإبلَ زُرق.
قال الشاعِرُ:

تربَّعَتْ والدَّهرُ ذو تصفُّق حَاليةً بذي سَبَـيبٍ مـونِـق

إلاّ منَ أصواتِ الذّباب الأزرق أو من نقانق الفَلا المنقْـنـق

والذّبَّان الذي يسقط على الدواب صُفر.
وقال أرطأة بن سُهَيَّة، لزُميل بن أمِّ دينار:

أزميل إنِّي إن أكن لـك جـازياً أعكِرْ عليكَ وإن ترُحْ لا تسْبَـق

إنِّي امروٌ تجد الرِّجال عدَاوتـي وجْدَ الرِّكاب مَن الذُّبابِ الأزْرق

وإذا مرَّ بك الشّعر الذي يصلح للمثل وللحفظ، فلاَ تنْسَ حظّك من حِفظه.
وقال المتلمس:

فهذا أوَانُ العِرْض جُنّ ذُبَابُهُ زنـابيرُه والأزرقُ المتلمِّسُ

وبه سمِّي المتلمِّس.
وقال ابن ميّادة:

بعَنْتَريسٍ كأنَّ الدَّبْرَ يلسَعُها إذا تغرَّدَ حادٍ خلفَها طرب

ما يسمَّى بالذّبان

والدّليل على أنَّ أجناسَ النَّحل والدَّبْر كلّها ذِبَّان، ما حدث به عبَّاد بن صُهيب، وإسماعيل المكّي عن الأعمش، عن عطيَّة بن سعيد العَوْفي قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: كلُّ ذُبابٍ في النار إلاَّ النَّحلة.
وقال سليمان: سمعت مجاهداً يكرهُ قتل النَّحل وإحراقَ العِظام، يعني في الغزو.
وحدثنا عَنْبسة قال: حدّثنا حنْظلة السّدُوسيُّ قال: أنبأنا أنسُ بن مالك، أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: عمر الذّبابِ أربعون يوماً، والذُّبَاب في النار.
بحث كلاميّ في عذاب الحيوان والأطفال وقد اختلف النَّاس في تأويل قوله:
والذباب في النار وقال قوم: الذّباب خلقٌ خُلق للنّار، كما خلق اللّه تعالى نَاساً كثيراً

للنَّار، وخلق أطفالاً للنَّار، فهؤلاء قومٌ خلعوا عُذرَهم فصار أحدهم إذا قال: ذلك عَدْلٌ من اللّه عزَّ وجلّ؛ فقد بلغ أقصى العذر، ورأى أنَّه إذا أضاف إليه عذاب الأطفال فقد مجَّده، ولو وجد سبيلاً إلى أنْ يقول إنَّ ذلك ظُلم لقاله ولو وجد سبيلاً إلى أن يزعم أنْ اللّه تعالى يخبر عن شيءٍ أنّه يكون وهو لا يكون، ثم يقول إلاّ أنّ ذلك صدق لقاله، إلاّ أنّه يخاف السَّيف عند هذه، ولا يخاف السَّيف عند تلك، وإن كانت تلكَ أعظم في الفِريةِ من هذه.

وبعض يزعم أنَّ اللّه عزَ وجلَّ إنَّما عذّبَ أطفال المشركين ليغمَّ بهم آباءهم، ثمَّ قال المتعاقِلون منهم: بل عذّبهم لأنّه هكذا شاء، ولأنَّ هذا له، فليت شعري أيحتسب بهذا القول في باب التمجيد للّه تعالى؛ لأنّ كل من فعل ما يقدر عليه فهو محمود، وكل من لم يخف سوط أمير فأتى قبيحاً فالذي يحسن ذلك القبيحَ أنّ صاحبَه كان في موضع أمن، أو لأنّه آمنٌ يمتنع من مطالبة السلطان، فكيف وكون الكذب والظُّلم والعبث واللهو والبُخْل كلّه محال ممّن لا يحتاج إليه، ولا تدعوه إليه الدواعي.

وزعم أبو إسحاقَ أنّ الطّاعات إذا استوَتْ استوى أهلُها في الثَّواب، وأنّ المعاصي إذا استوتْ استوى أهلُها في العقاب، وإذا لم يكن منهم طاعةٌ ولا معصية استوَوْا في التفضُّل.

وزعم أنَّ أجناس الحيوان وكلَّ شيءٍ يحسُّ ويألم، في التفضُّل سواء.

وزعم أنّ أطفالَ المشركين والمسلمين كلَّهم في الجنّة، وزعم أنّه ليس بينَ الأطفال ولا بينَ البهائم والمجانين فرق، ولا بين السِّباع في ذلك وبين البهائم فرق.

وكان يقول: إنّ هذه الأبدان السبُعيّة والبهيمية لا تدخل الجنّة، ولكنَّ اللّه عزَّ وجلّ ينقُل تلك الأرواح خالصةً من تلك الآفات؛ فيركّبها في أيِّ الصُّور أحَبَّ. وكان أبو كلدة، ومَعْمَر، وأبو الهُذَيل وصحصح، يكرهون هذا الجواب، ويقولون: سواءٌ عند خواصِّنا وعوامِّنا، أقلنا: إنَّ أرواحَ كلابنا تصير إلى الجنّة، أم قلنا: إن كلابَنا تدخل الجنّة ومتى ما اتَّصل كلامُنا بذكر الكلب على أيِّ وجهٍ كان؛ فكأنّا عِنْدَهم قد زعمنا أنّ الجَنّة فيها كلاب، ولكنّا نزعم أنّ جميع ما خلَق اللّه تعالى مِنَ السِّباع والبهائم والحشرات والهمج فهو قبيح المنظرة مؤلم، أو حسن المَنظرة مُلِذّ؛ فما كان كالخيل والظباء، والطواويس، والتّدَارج فإنَّ تلك في الجنّة، ويَلَذُّ أولياءُ اللّه عزَ وجل بمنَاظرها، وما كان منها قبيحاً في الدُّنيا مؤلِمَ النظر جعله اللّه عذاباً إلى عذاب أعدائه في النّار فإذا جاء في الأثر: أنَّ الذّباب في النّار، وغير ذلك من الخلق، فإنَّما يراد به هذا المعنى.

وذهب بعضهم إلى أنها تكون في النَّار، وتلَذُّ ذلك، كما أنَ خَزَنَةَ جهنَّم والذين يتولَّون من الملائكة التَّعذيبَ، يلذُّون موضعَهم من النار.

وذهب بعضهم إلى أنَّ اللّه تعالى يطبَعهُم على استلذاذ النَّار والعيش فيها، كما طبع ديدان الثلج والخلِّ على العيش في أماكنها.

وذهب آخرون إلى أنَّ اللّه عزَّ وجلَّ يحدث لأبدانهما علَّةً لا تصل النّار إليها، وتنعم قلوبهما وأبدانهما من وجه آخر كيف شاء، وقالوا: وقد وجدنْا النّاسَ يحتالون لأنفسهم في الدُّنيا حِيلاً، حتى يدخُل أحدُهم بَعضَ الأتاتين بذلك الطلاء، ولا تضرُّه

النار، وهو في معظمها، وموضع الجاحم منها، ففضْلُ ما بينَ قدرةِ اللّه وقدرة عباده أكثر من فضل ما بينَ حَرّ نار الدُّنيا والآخرة.
وذهب بعضهم إلى أنّ سبيلها فيها كسبيل نار إبراهيم؛ فإنّه لما قُذِفَ فيها بَعَثَ اللّه عزّ وجلّ مَلَكاً يقال له ملك الظلِّ، فكان يحدِّثُه ويُؤْنسه؛ فلم تصل النار إلى أذاه، مع قرْبه من طباع ذلك الملَك.
وكيفمَا دار الأمرُ في هذه الجوَابات؛ فإن أخسَّها وأشنَعها أحسَنُ مِن قولِ مَنْ زَعمَ أنّ اللّه تعالى يُعَذِّب بنار جهنَّمَ من لم يسخطه ولا يعقِلُ كيف يكون السخط، ومن العَجَب أنَّ بعَضُهم يزعمُ أن اللّه تعالى إنما عذّبه ليغمَّ أباهُ، وإنما يفعل ذلك من لا يقدر على أن يُوصِلَ إلىهم ضعف الاغتمام، وضعفَ الألم الذي ينالهم بسبب أبنائهم، فأمّا مَن يقدِرُ على إيصال ذلك المقدارِ إلى من يستحقه، فكيف يوصله ويصرفه إلى من لا يستحقّه َ؟ وكيف يصرفُه عمَّن أسخطه إلى من لم يُسْخطه؟
هذا وقد سمعوا قولَ اللّه عزّ وجلَّ:)يَوَدُّ المُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَاب يَومِئذٍ ببَنِيهِ، وصَاحِبَتِهِ وأخِيه، وَفصيلَتِهِ التَّي تُؤْويهِ، وَمَنْ في الأرْضِ جَميعاً ثمَّ يُنْجيهِ، كلاّ إنَّها لظى، نَزَّاعةً لِلشَّوَى(وكيف يقولُ هذا القوْلَ مَنْ يتلو القرآن؟ ثمَّ رجع بنا القولُ إلى الذبّانِ وأصنافِ الذّبَّان.

جهل الذبان وما قيل فيها من الشعر

والذّبَّان أجهلُ الخلْق؛ لأنَّها تغْشَى النَّارَ من ذات أنفُسها حتى تحترق، وقال الشاعر:

خَتَمْت الفُؤَادَ عَلَى حُبِّها كذاكَ الصّحيفة بالخاتم
هوتْ بي إلى حبها نظرةٌ هُوِيَّ الْفَرَاشِةِ للجاحم

وقال آخر:

كأنَّ مَشافِرَ النَّجدَاتِ منها إذا ما مسَّها قمَعُ الذُّباب
بأيدي مأتم متساعداتٍ نعالُ السَّبْتِ أو عَذَبَ الثِّياب

نقد بيت من الشعر وقال بعض الشعراء، يهجو حارثة بن بدر الغُدَانيَّ:

زعمَتْ غُدَانةُ أنَّ فيها سيِّداً ضخْماً يُوَاريه جَنَاحُ الجُنْدُبِ

وزعم ناسٌ أنّه قال:

يُرويهِ ما يُرْوِي الذُّبابَ فينتشي سُكْراً، وتُشْبعُه كُراعُ الأرنب

قالوا: لا يجوز أنْ يقول: يرويه ما يروي الذباب ويواريه جَناحُ الجندب ثم يقول: ويشبعه كراع الأرنب.
وإنما ذكر كُراعَ الأرنب؛ لأنّ يد الأرنب قصيرة، ولذلك تسرع في الصُّعود، ولا يلحقها مِن الكلاب إلاّ كلُّ قصير اليد، وذلك محمودٌ من الكلب، والفرس تُوصَف بقصر الذِّراع.

قصة في الهرب من الذّباب

وحدّثني الحسنُ بن إبراهيم العلويُّ قال: مررتُ بخالي، وإذا هو وحده يضْحك، فأنكرتُ ضحكه؛ لأنّي رأيتُه وحده، وأنكرته، لأنَّه كان رجلاً زمِّيتاً رَكِيناً، قليلَ الضَحِك، فسألته عن ذلك فقال: أتاني فلانٌ يعني شيخًاً مدينياً - وهو مذعور فقلتُ له: ما وراءك؟ فقال: أنا واللّهِ هاربٌ من بيتي قلت ولمَ؟ قال: في بيتي ذبابٌ أزرق، كلما دخلتُ ثارَ في وجهي، وطار حولي وطنَّ عند أذني، فإذا وجد مني غفلةً لم يُخطئ موقَ عيني، هذا واللّهِ دأبُه ودأبي دهراً معه، قلت له: إنّ شبه الذباب بالذباب كشبه الغراب بالغراب؛ فلعلَّ الذي آذاك اليومَ أن يكونَ غيرَ الذي آذاك أمسِ، ولعلَّ الذي آذاك آمسِ غيرُ الذي آذاك أوَّل من أمسِ، فقال: أعتقُ ما أملك إن لَمْ أكن أعرفه بعينه منذُ خمس عشرة سنة، فهذا هو الذي أضحكني.

قصة في سفاد الذباب

وقال الخليلُ بن يحيى: قد رأيت الخنزير يركَبُ الخنزيرة عامَّة نهاره، ورأيتُ الجمل يركبُ الناقة ساعةً من نهاره، وكنت قبل ذلك أغبط العصفور والعصم - فإنَّ الذّكرَ وإنْ كان سريعَ النُّزول عن ظهر الأنثى فإنّه لسُرعةِ العودة، ولكثرةِ العدد، كأنّه في معنى الخنزير والجمل وحتّى رأيت الذُّبابَ وفطنت له، فإذا هو يركب الذُّبابة عامّة نهاره، فقال له محمد بن عمر البكراوي: ليس ذلك هو السّفاد، قال: أمَّا الذي رأت العينانِ فهذا حكمُه، فإن كنتَ تريد أنْ تطيب نفْسُك بإنكار ما تعرفُ ممّا قسَم اللّه عزّ وجلّ بين خلقه، من فضول اللّذّة، فدونك..
سفاد الورل ويزعمون أنّ للوَرل في ذلك ما ليس عند غيره.

قصَّة آكل الذّبّان

وأنشدَ ابن داحة في مجلس أبي عبيدة، قولَ السَّيِّد الحميريِّ:

أترى ضهاكاً وابنها وابن ابنها وأبا قحافة آكِلَ الذّبّان

كانوا يَرون وفي الأمور عجائبٌ يأتي بهنّ تصرُّفُ الأزْمان

أنّ الخِلافة في ذؤابةِ هاشمٍ فيهم تصير وهَيْبَةَ السُّلطانِ

وكان ابن داحة رافضيّاً، وكان أبو عبيدة خارجيّاً صُفرْياً، فقال له: ما معناه في قوله: آكل الذّبّان؟ فقال: لأنّه كان يذبُّ عن عطر ابن جُدْعان، قال: ومتى احتاج العطّارون إلى المذابّ؟ قال: غلطت إنَّما كان يذبُ عن حَيْسة ابن جدعان، قال: فابن جُدعان وهشامُ بن المغيرة، كان يُحاسُ لأحدهما الحَيْسةُ على عدَّة أنطاع، فكان يأكلُ منها الراكبُ والقائمُ والقاعدُ فأين كانت تقعُ مِذَبّةُ أبي قحافة من هذا الجبل؟ قال: كان يذبُّ عنها ويدورُ حواليها، فضحكوا منه، فهجر مجلسهم سنةً.

تحقير شأن الذُّبابة

قال: وفي باب تحقير شأن الذبابة وتصغير قدرها، يقول الرسول: لو كانت الدُّنيا تُساوي عند اللّه تعالى جَناحَ ذبابةٍ ما أعطى الكافر منها شيئاً.

أعجوبة في ذبان البصرة

وعندنا بالبصرة في الذبّان أعجوبة، لو كانت بالشّاماتِ أو بمصر لأدخلوها في باب الطِّلّسْم؛ وذلك أنّ التَّمْر يكونُ مصبوباً في بيادر التمر في شقّ البساتين، فلا ترى على شيءٍ منها ذُبَابَةً لا في اللّيل، ولا في النّهار، ولا في البَرْدَين ولا في أنصاف النهار، نعم وتكون هناك المعاصر، ولأصحاب المعاصر ظلال، ومن شأن الذُّباب الفِرارُ من الشّمس إلى الظّلّ، وإنَّما تلك المعاصر بين تمرة ورُطَبَة، ودِبْس وثجير، ثمَّ لاتكاد ترَى في تلك الظّلال والمعاصر، في انتصاف النهار، ولا في وقت طلب الذِّبّان الكِنَّ، إلاَّ دونَ ما تَراه في المنزل الموصوف بقلّة الذِّبَّان.
وهذا شيء يكون موجوداً في جميع الشّقِّ الذي فيه البساتين، فإن تحوَّل شيء من تمر تلك الناحية إلى جميع ما يقابلها في نواحي البصرة، غشيَه من الذّبان ما عسى ألاّ يكونَ بأرض الهند أكثرُ منه وليس بين جزيرة نهر دُبَيس، وبين موضع الذبّان إلاّ فيض البصرة، ولا بين ما يكون من ذلك بنهر أذرب وبين موضع الذبّان ممّا يقابله، إلاّ سيحان، وهو ذلك التمر وتلك المعصرة، ولا تكون تلك المسافة إلاّ مائة ذراع أو أزيَدَ شيئاً أو أنْقصَ شيئاً.
نوم عجيب لضُروبٍ من الحيوان وأعجوبة أخرى، وهي عندي أعجبُ من كلِّ شيءٍ صدَّرنا به جملةَ القوْل في الذباب، فمن العجب أن يكون بعض الحيوان لا ينامُ كالصافر والتُّنَوِّط؛ فإنَّهما إذا كان اللّيلُ فإن أحدهما يتدلَّى من غصن الشّجرة، ويضمُّ عليه رجليه، وينكّس رأسه، ثمَّ لا يزال يصيحُ حتَّى يبرُقَ النُّور، والآخرُ لا يزالُ يتنقَّل في زوايا بيته، ولا يأخذه القرار، خوفاً على نفسه، فلا يزال كذلك، وقد نتفَ قبلَ ذلك ممَّا على ظهور الأشجار مما يشبه الليف فنفشَه، ثمَّ فتلَ منه حبلاً، ثمَّ عملَ منه كَهَيئةِ القفّة، ثمَّ جعله مُدلَّى بذلك الحبل، وعقدَه بطرَف غُصنٍ من تلك الأغصان؛ إلاَّ أنَّ ذلك بترصيعٍ ونسْج، ومُدَاخلَةٍ عجيبة؛ ثمَّ يتَّخذ عشَّه فيه، ويأوي إليه مخافة على نفسه.
والأعرابُ يزعمون أنَّ الذِّئبَ شديدُ الاحتراس، وأنَّه يُرواح بينَ عينَيه، فتكونُ واحدة مطبقة نائمة وتكون الأخرى مفتوحة حارسةً ولا يشكُّون أنّ الأرنب تنام مفتوحة العينين.

وأمَّا الدَّجاج والكلاب فإنما تعزُب عقولهما في النَّوم، ثمَّ ترجع إليهما بمقدار رجوع الأنْفاس، فأمَّا الدَّجاج فإنها تفْعَل ذلك من الجبن وأمَّا الكلب فإنَّه يفعل ذلك من شدّة الاحتراس.
وجاؤوا كلهم يخبرون أن الغرانيق والكراكيّ لا تنامُ أبداً إلاّ في أبعدِ المواضع من النَّاس، وأحْرَزِها مِن صغار سباع الأرض، كالثعلب وابن آوى، وأنها لا تنام حتى تقلِّد أمرَها رئيساً وقائداً، وحافظاً وحارساً، وأن الرئيس إذا أعيا رفَعَ إحدى رجليه، ليكون أيقظ له.
سلطان النوم وسلطان النَّوم معروف، وإن الرَّجل ممن يغزو في البحر، ليعتصمُ بالشِّراع وبالعود وبغير ذلك، وهو يعلم أن النَّومَ متى خالط عينَيه استرخَتْ يدُه، ومتى استرختْ يدُه بايَنَهُ الشيءُ الذي كان يركبه ويَستَعْصم به، وأنه متى بايَنَه لم يقدرْ عليه، ومَتى عجز عن اللّحاق به فقد عطب، ثمّ هو في ذلك لا يخلو، إذا سَهر ليلة أو ليلتين، من أنْ يغلِبه النَّومُ ويقهرَه، وإمَّا أنْ يحتاج إليه الحاجة التي يريه الرأي الخوّان، وفسادُ العقْلِ المغمُور بالعِلَّة الحادثة، أنّه قد يمكن أنْ يُغفيَ وينتبهَ في أسرع الأوقات، وقبلَ أنْ تَسترخِيَ يدُهُ كلَّ الاسترخاء، وقبلَ أن تباينه الخشَبَةُ إن كانتْ خشبة.

العجيبة في نوم الذبان

وليس في جميع ما رأينا وروَينا، في ضروبِ نوم الحيوان، أعجبُ من نوم الذِّبّان، وذلك أنَّها ربما جعلت مأواها بالليل دَرْوَنْد الباب وقد غشَّوه ببطانَةٍ ساج أملسَ كأنَّه صَفاةٌ، فإذا كان اللَّيلُ لزقت به، وجعلت قوائمها مما يليه، وعلّقت أبدانها إلى الهواء، فإن كانت لا تنام البتَّة ولايخالُطها عُزوب المعرفة فهذا أعجب: أنْ تكونَ أمّةٌ من أمم الحيوانِ لا تعرف النَّومَ، ولا تحتاج إليه، وإن كانت تنام ويعزب عنها ما يعزُب عن جميع الحيوان سوى ما ذكرنا، فما تخلو من أن تكون قابضةً على مواضع قوائمها، ممسكةً بها، أو تكون مرسلةً لها مخلّية عنها، فإنْ كانت مرسِلةً لها فكيف لم تسقطْ وهي أثقلُ من الهواء؟ وإن كانت ممسكةً لها فكيف يجامع التشدُّد والتثبيت النَّوم؟.
بعض ما يعتري النائم ونحن نرى كلَّ من كان في يده كيس أوْ دِرهمْاً و حبلٌ، أو عصا فإنّه متى خالط عينَيْه النَّوم استرخَتْ يده وانفتحت أصابعُه، ولذلك يتثاءب المحتال للعبْد الذي في يده عِنان دابّةٍ مولاه، ويتناوم له وهو جالس؛ لأنَّ من عادةِ الإنسان إذا لم يكن بحضرتِه من يشغله، ورأى إنساناً قبالَتَه ينودُ أو يَنْعس، أن يتثاءب وينعَس مثله، فمتى استرخَتْ يدُه أو قبضته عن طرَف العِنان، وقد خامَرهُ سُكْرُ النَّوم، ومتى صار إلى هذه الحال - ركب المحتال الدَّابَّة ومرّ بها.

الغربان

اللهم جنبنا التكلُّف، وأعِذْنَا مِن الخطأ، واحْمِنا العُجْبَ بما يكون منه، والثِّقة بما عندنا، واجعلْنا من المحسنين.
نذكر على اسم اللّه جُمَلَ القولِ في الغِربان، والإخبار عنها، وعن غريبِ ما أُودِعَتْ

من الدّلالة، واستُخْزِنت من عجيب الهداية. وقد كُنَّا قدَّمنا ما تقول العربُ في شأنِ منادَمةِ الغُراب والدِّيكَ وصداقتِه له، وكيف رهنه عند الخمَّار، وكيف خاسَ به وسخِرَ منه وخدعه وكيف خرج سالماً غيرَ غارم، وغانماً غيرَ خائب، وكيف ضربت به العربُ الأمثالَ، وقالت فيه الأشعار، وأدخلتْه في الاشتقاق لزجْرها عند عيافتها وقِيافتها، وكيف كان السبب في ذلك.

ذكر الغراب في القرآن فهذا إلى ما حكى اللّهُ عزَّ وجلَّ من خبر ابنَيْ آدمَ، حينَ قرَّبا قرباناً فحسَدَ الذي لم يُتقبَّلْ منه المتقبل منه، فقال عندما همَّ به مِن قتلِه، وعند إمساكِه عنه، والتَّخليةِ بينَه وبين ما اختارَ لنفسه: "إنِّي أُريدُ أنّ تَبُوءَ بإثْمي وإثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ"، ثُم قال: "فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أخيهِ فقَتَلَهُ فَأصْبَحَ مِنَ الخاسِرِينَ فَبَعَثَ اللّهُ غُراباً يَبْحثُ في الأرضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوارِي سَوْءَةَ أخِيهِ" حتّى قال القائل، وهو أحد ابني آدم ما قال: فلولا أنّ للغُراب فضيلةً وأموراً محمودةً، وآلةً وسبباً ليس لغيره من جميع الطّير لما وضعه اللّهُ تعالى في موضعِ تأديبِ الناس، ولما جعله الواعِظ والمذكِّرَ بذلك، وقد قال اللّه عزَّ وجلَّ: "فبعَثَ اللهُ غراباً يَبْحَثُ في الأرضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُواري سَوْءَةَ أخِيهِ"، فأخْبر أنّه مبعوثٌ، وأنه هو اختاره لذلك مِنْ بين جميع الطّير.

قال صاحب الدِّيك: جعلت الدَّليلَ على سوء حاله وسقوطِهِ الدَّليلَ على حُسنِ حاله وارتفاع مكانه، وكلما كان ذلك المقرَّعُ به أسفلَ كانت الموعظة في ذلك أبلغَ، ألا تَرَاهُ يقول: "يا وَيْلَتَي أعَجَزْت أنْ أكونَ مثْلَ هذا الْغُرَابِ فأُوَارِي سَوْءَةَ أخي فَأصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ".

ولو كان في موضعِ الغُرابِ رجلٌ صالحٌ، أو إنسانٌ عاقلٌ، لما حَسُن به أن يقولَ: يا ويْلتى أعجَزت أنْ أكون مثلَ هذا العاقِلِ الفاضل الكريمِ الشَّريف، وإذا كان دوناً وَحقيراً فقال: أعجزتُ وأنا إنسانٌ أن أحسِنَ ما يحسنه هذا الطائر، ثمّ طائرٌ من شِرار الطير، وإذا أراهُ ذلك في طائرٍ أسودَ محترقٍ، قبيحِ الشَّمائلِ، رديءِ المَشْيَة، ليس من بهائم الطير المحمودة، ولا من سباعها الشريفة، وهو بَعْدُ طائرٌ يتنكَّد به ويتطيَّر منه، آكلُ جيف، رديءُ الصيّد، وكلما كان أجهلَ وأنْذل كان أبلغَ في التَّوبيخ والتّقريع.

وأمّا قوله:"فَأصْبَحَ مِنَ النّادمِينَ" فلم يكنْ به على جهة الإخبار أنّه كانَ قتَلهُ ليلاً، وإنما هو كقوله: "وَمَنْ يُوَلِّهمْ يَوْمَئذٍ دُبُرَهُ إلاّ مُتَحرِّفاً لِقتالٍ أوْ مُتحيِّزاً إلى فئةٍ فقدْ باء بِغضبٍ مِنَ اللّهِ"، ولو كان المعنى وقع على ظاهر اللَّفظ دونَ المستعمل في الكلامِ من عادات الناس، كان من فرَّ من الزَّحفِ ليلاً لم يلزمْه وَعيد، وإنما وقع الكلامُ على ما عليه الأغلبُ من ساعاتِ أعمال الناس، وذلك هو النّهارُ دون اللّيل.

وعلى ذلك المعنى قال صالح بن عبد الرحمن، حين دفعوا إليه جوَّاباً الخارجيَّ ليقتله، وقالوا: إن قتله برئت الخوارجُ منه، وإن ترك قتْله فقد أبدى لنا صفحته، فتأوّل صالحُ عند ذلك تأويلاً مستنكراً: وذلك أنّه قال: قد نجِدُ التّقيَّة تسيغ الكفر، والكفر باللسان أعظم من القتل والقذْفِ بالجارحة، فإذا جازت التقيَّة في الأعظم كانت في الأصغر أجوز، فلما رأى هذا التأويل يطّرد له، ووجد على حال بصيرته ناقصة، وأحسّ بأنّه إنما التمس عُذْراً ولزّق الحجّة تلزيقاً فلمَّا عزمَ على قتل

جوّاب، وهو عنده واحدُ الصُّفرية في النُّسك والفضل قال: إني يومَ أقتُل جَوّاباً على هذا الضّربِ من التأويل لحريصٌ على الحياة ولو كان حين قال إني يوم أقتل جوَّاباً إنما عنى النهارَ دون اللَّيل، كان عند نفسه إذا قتلهُ تلك القتلة ليلاً لم يأثم به، وهذا أيضاً كقوله تعالى: "ولا تَقُولنَّ لشيْءٍ إنِّى فاعِلٌ ذلك غَداً إلا أن يشاء اللّهُ".ولو كان هذا المعنى إنما يقع على ظاهر اللفظ دونَ المستعمَلِ بين الناس، لكان إذا قال من أوّل الليل: إني فاعِلٌ ذلك غداً في السَّحر، أو مع الفجر أو قال الغداة: إني فاعِلٌ يومي كلّه، وليلتي كلها، لم يكنْ عليه حِنث، ولم يكن مخالفاً إذا لم يستثن، وكان إذن لا يكون مخالفاً إلاّ فيما وقع عليهِ اسمُ غد، فأمّا كلُّ ما خالفَ ذلك في اللَّفظ فلا، وليس التّأويل كذلك لأنَّه جلَّ وعلا إنما ألزمَ عبدهَ أن يقول: إن شاء اللّه، ليَتَّقى عَادَةِ التألّي ولئلا يكونَ كلامُه ولفظُه يشبه لفظ المستبدِّ والمستغْني، وعلى أن يكون عِنْد ذلك ذاكرَ اللّه، لأنه عبدٌ مدبَّرٌ، ومقلَّب ميَّسر،ومصرَّفٌ مسخَّر.
وإذا كان المعنى فيه، والغايَةُ التي جرى إليها اللفظ، إنما هو على ما وصفنا، فليس بين أن يقول أفعَلُ ذلك بعْدَ طرْفَةٍ، وبين أن يقولَ أفعَلُ ذلك بَعْدَ سنةٍ فرقٌ.
وأمَّا قوله: "فَأَصْبَحَ مِنَ النّادمين" فليس أنّه كان هنالك ناسُ قتلوا إخوتَهُمْ ونَدموا فصارَ هذا القاتلُ واحداً منهم؛ وإنما ذلك على قوله لآدم وحَوّاء عليهما السلام: "ولا تقْرَبا هذهِ الشَّجرَةَ فتكونا مِنَ الظّاَلِمينَ"، على معنى أن كلّ من صنع صنيعكما فهو ظالم.

الاستثناء في الحلف

وعجبت من ناسٍ ينكرون قولنا في الأستثناء، وقد سمعوا اللّه عزَّ وجلَّ يقولُ: "إنّا بَلَوْنَاهُمْ كما بَلَوْنا أصْحَابَ الجَنَّةِ إذْ أقسَموا ليَصْرِمُنَّها مُصْبِحينَ، ولا يَسْتَثْنون، فطافَ عليْها طائفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نائُمونَ، فأصْبَحَتْ كالصّرِيمِ"، مع قوله عزَّ وجلَّ: "ولا تَقُولنَّ لِشيْءٍ إنِّي فاعِلٌ ذلك غداً إلاّ أنْ يشاءَ اللّه".

تسمية الغراب ابن دأية

والعربُ تسمِّي الغرابَ ابن دأية، لأنَّه إذا وجد دَبَرَةً في ظهر البعير، أو في عنقه قرحة سقط عليها، ونقرهُ وأكله، حتَّى يبلغ الدَّايات، قال الشاعر:

نَجيبة قرْمٍ شادَها القتُّ والنَّوى ... بيثربَ حتى نَيُّها متظاهر

فقلتُ لها سيري فما بكِ عِلّة ... سنامكِ ململومٌ ونابُكِ فاطِرُ

فمِثْلكِ أو خيراً ترَكْتُ رذِيّة ... تقلّب عينيها إذا مرّ طائر

ومثله قول الرَّاعي:

فلو كنت معذوراً بنصْرك طيّرت ... صقوريَ غِرْبان البَعير المقيدِ

هذا البيت لعنترة، في قصيدة له، ضرب ذلك مثلاً للبعير المقيّد ذي الدّبَر، إذا وقعت عليه الغِرْبان.
غرز الريش والخِرق في سنام البعير وإذا كان بظهر البعير دَبَرَةٌ غرزوا في سنامه إمّا قوادمَ ريش أسود وإمّا خرَقاً سُوداً، لتفزع الغِرْبانُ منْهُ، ولا تسقط عليه، قال الشاعِرُ، وهو ذو الخِرَق الطُّهوي:

لما رَأتْ إبلي حطت حمولتـها   هَزْلى عجافاً عليها الرِّيشُ والخِرَقُ

قالتْ ألا تبتغي عيشاً نـعيشُ بـه عمَّا نلاقي فشرُّ العيشة الـرَّنَـقُ

الرَّنَق، بالرّاء المهملة، وبالنون، هو الكدِرُ غير الصافي وقال آخر:

كأنَّها ريشةٌ في غـاربٍ جـرزٍ   في حيثما صرفته الرِّيح ينصرف

جَرَز: عظيم، قال رؤبة:

عن جَرَزٍ منه وجوزٍ عارِ

غرز الريش وجوز عاره وقد توضع الرّيش في أسنمتها وتغرز فيها لغير ذلك، وذلك أنَّ الملوك كانت تجعل الرّيش علامة لحباء الملك، تحميها بذلك وتشرِّف صاحبها.
قال الشاعر:

يهبُ الهجانَ بريشها ورعائها   كاللّيلِ قبلَ صَباحهِ المتبلـج

ولذلك قالوا في الحديث: فرجع النَّابغة من عند النُّعمان وقد وهبَ له مائَةً من عصافيره بريشها وللرِّيش مكان آخر: وهو أنّ الملوك إذا جاءتها الخرائطُ بالظّفَر غرزتْ فيها قوادمَ ريشٍ سُود،

غربان الإبل

وقال الشاعر:

سأرفعُ قولاً للحُصين ومـالـكٍ   تطيرُ به الغِربان شَطْرَ المواسم

وتروى به الـهيمُ الظماءُ ويطَّبي   بأمْثالِهِ الغازينَ سَجْعُ الحمـائمِ

يعني غِرْبان الليل، وأمّا قوله: وتروى به الـهيمُ الظّماء فمثل قول الماتح:

عِلِقت يا حارث عِندَ الورْدِ   بجاذل لا رَفِلِ التَّـرَدِّي

ولا عَيِيٍّ بابتناء المجْدِ

شعر في تعرض الغربان للإبل وقالوا في البعير إذا كان عليه حِملٌ من تمر أو حبٍّ، فتقدَّم الإبلَ بفضل قوَّته ونشاطه، فعرض ما عليه للغربان، قال الرَّاجز:

قد قلتُ قولاً للغرابِ إذْ حَجَلْ   عليكَ بالقود المسانيف الأُوَلْ

تَغَدَّ ما شئت على غير عَجَلْ

ومثله:

يقدُمُها كـلُّ عـلاة مـذعـان   حمراءَ من مُعَرِّضاتِ الغِرْبانْ

أمثال في الغراب

ويقال: أصحُّ بدناً مِنْ غراب، و أبصَرُ مِنْ غُراب، و أصفى عيناً من غراب.
وقال ابن ميّادة:

ألا طرقتـنـا أمُّ أوسٍ ودونـهـا   حِرَاجٌ من الظلّماء يعشى غُرابُها

فبتْنا كأنّـا بَـيْنـنـا لـطـميّة   من المِسْكِ أو داريَّة وعيابُـهـا

يقول: إذا كان الغراب لا يبصر في حِراج الظلماءِ، وواحد الحِراج حَرَجة، وهي هاهنا مثلٌ، حيث جعل كلَّ شيءٍ التفَّ وكثفَ من الظلام حِراجاً، وإنّما الحِراجُ من السِّدْرِ وأشباه السّدر.
يقول: فإذا لم يبصرْ فيها الغرابُ مع حدَّةِ بصره، وصفاء مُقْلته فما ظنُّك بغيره؟
وقال أبو الطمحان القيْنيُّ:

إذا شاء راعيها استقى مِنْ وقيعةٍ   كعين الغراب صَفْوُها لم يكدّرِ

والوقيعة: المكان الصلب الذي يُمسك الماء، والجمع الوقائع.
استطراد لغوي قال: وأنشدنا أبوعمرو بن العلاء، في الوقائع:

إذا ما استبالوا الخيل كانت أكفهم   وقائع للأبْوالِ والمـاءُ أبـرَدُ

يقول: كانوا في فلاةٍ فاستبالوا الخيل في أكفهم، فشربوا أبوالها من العطش.
ويقال شهد الوقيقة والوقعَة بمعنًى واحد، قال الشاعرُ:

لعمري لقد أبقتْ وقِيعةٌ راهطٍ   على زفرٍ داءً من الشَّرِّ باقيا

وقال زُفر بنُ الحارث:

لعمري لقد أبقتْ وقيعة راهطٍ   لِمرْوان صدْعاً بيننا متنـائيا

وقال الأخطل:

لقد أوقع الجحّافُ بالبشْرِ وقعَة   إلى الله منها المشتكى والمعوَّل

أمثال من الشعر والنثر في الغراب

وفي صحّة بدن الغراب يقول الآخر:

إنّ مُعاذَ بن مسلِمٍ رجُلٌ   قدْ ضَجَّ مِنْ طُولِ عُمْرِهِ الأبـد

قدْ شاب رأسُ الزَّمانِ واكتهل الدّهْـ   ـر وأثوابُ عُمْرهِ جُـدُدُ

يا نَسْرَ لقْمانَ كمْ تـعيش وكم   تَسْحَبُ ذيل الحياة يا لُـبَد

قد أصبحتْ دارُ آدَمٍ خربَتْ   وأنت فيها كـأنَّك الـوَتِدُ

تسألُ غِربانَها إذا حَجَلتْ   كيف يكونُ الصُّدَاعُ والرَّمَدُ

ويقال: أرضٌ لا يطير غرابها، قال النَّابغة:

وَلِرَهْطِ حرّابٍ وقدٍّ سَوْرَةٌ   في المجد ليس غرابُها بمُطار

جعله مثلاً، يعني أنّ هذه الأرض تبلغ من خِصبها أنَّه إذا دخلها الغراب لم يخرُج منها، لأنّ كلّ شيءٍ يريدهُ فيها.
وفي زهو الغُراب يقول حسَّان، في بعضِ قريش:

إنّ الفرافِصة بن الأحْوص عِنده   شجَنٌ لأمِّك مِن بناتِ عُقـاب

أجمَعْتَ أنَّك أنت ألأمُ مَنْ مشى   في فحش مُومِسةٍ وزهْوِ غرابِ

ويقال: وجد فلان تمْرَة الغُراب، كأنّه يتّبع عندهم أطيب التمر ويقال: إنّه لأحْذَرُ مِنْ غراب و: أشد سواداً من غراب وقد مدحوا بسَوادِ الغراب، قال عنترة:

فيها اثنتان وأرْبَعُون حلوبَة   سُوداً كخافيةِ الغرابِ الأسحمِ

وقال أبو دؤاد:

تنفي الحصى صُعُداً شِرْقِيَّ مَنْسِمِها نَفْيَ الغُرابِ بأعلى أنفه الغَرَدا

والمغاريد: كَمْءٌ، صِغار، وأنشَدَ:

يَحُجُّ مأمومة في قعْرها لَجَفٌ   فاستُ الطبيب ِقذاها كالمغاريدِ

وقد ذكرنا شدَّة منقاره، وحدَّة بصره في غير هذا المكان.
شعر في مديح السواد وقالوا في مديح السواد، قال امرؤ القيس:

العينُ قادحة واليدُّ سابحة   والأذْن مصْغِية واللّونُ غِربيبُ

وفي السَّواد يقول ربيِّعة أبُو ذؤابٍ الأسدي، قاتل عتيبة بن الحارث بن شهاب:

إن المودة والهوادة بيننا   خلقٌ كسحق الْيُمْنَةِ المنجابِ

إلاَّ بجيشٍ لا يكتُّ عديدُه   سُودِ الجلود من الحديدِ غضابِ

شعر ومثل في شيب الغراب وفي المثل: لا يكون ذلك حتّى يشيبَ الغُراب، وقال العرْجيُّ:

لا يحولُ الفؤادُ عنه بوُدٍّ   أبداً أو يحولَ لون الغرابِ

وقال ساعدة بن جُؤَيّة:

شاب الغراب ولا فؤادك تارك   عَهْدَ الغَضوبِ ولا عتابُكَ يُعتِبُ

معاوية وأبو هوذة الباهلي ومما يذكر للغراب ما حدّث به أبو الحسن، عن أبي سليم، أنَّ معاوية قال لأبي هوذة بن شمّاس الباهليِّ: لقد هممت أن أحملَ جمْعاً من باهلة في سفينةٍ ثم أغرقهم فقال أبو هوْذة: إذنْ لا ترضى باهلةُ بعِدّتِهِمْ من بني أمية قال: اسكت أيُّها الغرابُ الأبقع وكان به برص، فقال أبو هوذة: إنَّ الغراب

الأبقع ربَّما درج إلى الرَّخمةِ حتى ينقر دِماغها، ويقلع عينيها فقال يزيد بن معاوية: ألا تقتله يا أمير المؤمنين؟ فقال: مَهْ ونهض معاوية، ثمَّ وجهه بعدُ في سريَّة فقتل، فقال معاوية ليزيد: هذا أخفى وأصوب.
شعرفي نقر الغراب العيون وقال آخر في نقْر الغراب العُيونَ:

أتوعد أسرتي وتركتَ حُجْراً　　يُريغُ سوادَ عينيهِ الغُرابُ

ولو لاقيت عِلباءَ بن جَحْشٍ　　رضيتَ من الغنيمةِ بالإيابِ

وقال أبو حيَّة - في أنّ الغراب يسمُّونه الأعور تطيُّراً منه -:

وإذا تُحَلُّ قتودها بتنوفةٍ　　مَرَّت تليح من الغُرابِ الأعور

لأنها تخاف من الغربان، لما تعلمُ من وقوعها على الدَّبر شعر فيه مدح لون الغراب ومما يَمْدح به الشُّعراءُ بلون الغراب قال أبو حيّة:

غرابٌ كانَ أسْودَ حالكيّاً　　ألا سَقْياً لذلك مِنْ غُرابِ

وقال أبو حيَّة:

زمانَ عَلَيَّ غرابٌ غدافٌ　　فطيَّرهُ الدَّهْرُ عني فطارا

فلا يُبعدِ اللّه ذاك الغُدافَ　　وإن كان لا هو إلاّ ادّكارا

فأصبح موضعهُ بائضاً　　مُحيطاً خِطاماً مُحيطاً عذارا

وقال أبو حيّة في غير ذلك ،وهو مما يُعدّ للغراب:

كأنّ عصيم الوَرْس منهنَّ جاسدٌ　بما سال من غربانهنَّ من الخطْر

استطراد لغوي

والغراب ضروب، ويقع هذا الاسم في أماكن، فالغراب حدُّ السكين والفأس، يقال فأسٌ حديدة الغراب، وقال الشّمّاخ:

فأنحى عليها ذات حدٍّ غرابها　　عدُوٌّ لأوْساطِ العِضاهِ مُشارزُ

المشارزة: المعاداة والمخاشنة.
والغراب:حدُّ الورك ورأسه الذي يلي الظهر، ويبْدأ من مؤخَّر الرِّدف، والجمعُ غِربان، قال ذو الرُّمَّة:

وقرَّبْنَ بالزُّرق الحمائل بعدَ ما   تَقوَّب من غِربان أوراكها الخطْرُ

تقوَّب: تقشر ما على أوراكها من سلْحِها وبولها، من ضربها بأذنابها.

غراب البين

وكلّ غراب فقد يقال له غراب البين إذا أرادوا به الشؤم، أمّا غراب البين نفسه، فإنَّه غرابٌ صغير، وإنّما قيل لكلِّ غراب غراب البين، لسقوطها في مواضع منازلهم إذا بانوا عنها، قال أبو خولة الرِّياحيّ:

فليس بيربوع إلى العقْل فاقة   ولا دَنس يسودُّ منه ثيابُها

فكيف بنوكي مالك إن كفرتم   لهم هذه أم كيف بعدُ خِطابها

مَشَائم ليسُوا مُصلحين عشيرةً   ولا ناعبٍ إلاّ ببين غرابها

الوليد بن عقبة وعبد اللّه بن الزبير

ومن الدَّليل على أنّ الغرابَ من شرار الطَّير، ما رواه أبو الحسن قال: كان ابنُ الزبير يقعد مع معاوية على سريره، فلا يقدر معاوية أن يمتنع منه، فقال ذات يومٍ: أما أحدٌ يكفيني ابن الزبير؟ فقال الوليد بن عقبة: أنا أكفيكه يا أمير المؤمنين،فسبق فقعد في مقعده على السرير، وجاء ابن الزبير فقعد دون السرير، ثمَّ أنشد ابن الزبير:

تسمّى أباناً بعد ما كان نافعاً   وَقدْ كان ذَكْوانٌ تكنّى أبا عمرو

فانحدرَ الوليدُ حتى صار معه، ثم قال:

ولولا حُرَّة مهَدَتْ عليْكمْ   صفِيَّةُ ما عُدِدْتم في النَّفير

ولا عُرفَ الزبيرُ ولا أبوه   ولا جلس الزبير على السرير

ودِدْنا أنَّ أمّكم غراب   فكنتم شرَّ طيرٍ في الطيور

القواطع والأوابد

قال أبو زيد: إذا كان الشتاء قطعت إلينا الغربان، أي جاءت بلادنا، فهي قواطعُ إلينا، فإذا كان الصيف فهي رواجع، والطير التي تقيم بأرض شتاءها وصيفها أبداً فهي الأوابد، والأوابد أيضاً هي الدواهي، يقال جاءنا بآبدة، ومنها أوابد الوحْش، ومنها أوابد الأشعار، والأوابد أيضاً: الإبل إذا توحَّش منها شيءٌ فلم يُقدرَ عليه إلا بعقْر، وأنشد أبو زيد في الأوابد:

ومَنْهل وَرَدْته التقاطا   طامٍ فلمْ ألْقَ به فُرَّاطا

إلاَّ القطا أوابداً غطاطا

صوت الغراب

ويقال نغق الغراب ينغِق نغيقاً، بغين معجمة، ونعت ينعب نعيباً بعين غير معجمة، فإذا مرّت عليه السِّنون الكثيرة وغلظ صوته قيل شحَج يشحج شحيجاً، وقال ذو الرُّمَّة:

ومُسْتَشْحجاتٍ بالفراق كأنّها   مثاكيلُ من صُيّابةِ النُّوب نُوَّح

والنُّوبة توصف بالجزع.
أثر البادية في رجال الروم والسند وأصحاب الإبل يرغبون في اتخاذ النوبة والبربر والرُّوم للإبل، يرون أنهم يصلحون على معايشها، وتصلح على قيامهم عليها.
ومن العجب أنَّ رجال الرُّوم تصلح في البدو مع الإبل، ودخول الإبل بلاد الروم هو هلاكها، فأمّا السند؛ فإنَّ السِّنديَّ صاحب الخرْبة إذا صار إلى البدو، وهو طفل، خرج أفصحَ من أبي مَهْديّة، ومن أبي مطرف الغنويّ، ولهم طبيعة في الصَّرْفِ، لا ترى بالبصرة صيْرَفِيّاً إلا وصاحب كيسه سِنْديٌّ.
نبوغ أهل السند واشترى محمّد بن السّكن، أبا رَوْح فرَجاً السِّندي، فكسب له المال العظيم، فقلَّ صيدلانيٌّ عندنا إلاّ وله غلامُ سنديٌّ، فبلغوا أيضاً في البَرْبهار والمعرفة بالعقاقير، وفي صحّة المعاملة، واجتلاب الحُرفاء مبلغاً حسناً.
وللسِّندِ في الطبخ طبيعة، ما أكثر ما ينجبون فيه.
وقد كان يحيى بن خالد أراد أن يحوِّل إجراء الخيل عن صبيان الحبشان والنُّوبة، إلى صبيان السند، فلم يفلحوا فيه، وأراد تحويل رجال السّند إلى موضع الفرّاشين من الرُّوم،فلم يفلحوا فيه، وفي السِّند حلوق جياد، وكذلك بنات السنِّد.
استطراد لغوي والغراب يسمّى أيضاً حاتماً، وقال عوف بن الخرع:

ولكنّما أهْجُو صفيّ بن ثابت   مَثَبَّجةً لاقت من الطَّير حاتما

وقال المرقّش، من بني سدُوس:

ولقد غدوتُ وكنتُ لا أغدُو على واقٍ وحاتم

فإذا الأشـائمُ كـالأيا مِنِ والأيامِنُ كالأشائِمْ

وكـذاك لا خـيرٌ ولا شرٌّ على أحدٍ بـدائِمْ

وأنشد لخُثيم بن عَديٍّ:

وليس بهيّابٍ إذا شـدّ رحْـلـه يقولُ عداني اليوم واق وحاتـمُ

ولكنّه يمضي على ذاك مُقدماً إذا صَدَّ عنْ تلك الهنات الخُثارِمُ

والخثارم: هو المتطيِّر من الرِّجال، وأما قوله: واق وحاتمُ فحاتم هو الغراب، والواقي هو الصَّرد، كأنَّه يرى أنّ الزَّجْر بالغراب إذا اشتقّ من اسمه الغرْبة، والاغتراب، والغريب، فإنَّ ذلك حتم، ويشتق من الصُّرَد التصريد، والصَّرَد وهو البرد، ويدلك على ذلك قوله:

دعا صَرِدٌ يوماً على غصْن شوْحَطٍ وصاح بذاتِ البيْنِ منها غرابُهـا

فقلتُ :أتصريدٌ وشحطٌ وغربْة فهذا لعمري نأيُها واغتِرابُـهـا

فاشتقّ التَّصْريدَ من الصُّرَدِ، والْغُرْبَة مِنَ الْغُرابِ، والشَّحْط من الشَّوْحطِ.
ويقال أغرب الرّجُل: إذا اشتدَّ مرضه، فهو مُغْرَب.
قال: والعنقاء المغْرب، العقاب، لأنها تجيء من مكان بعيد.
أصل التطير في اللغة قال: وأصل التطيُّر إنما كان من الطّير ومن جهة الطير، إذا مرَّ بارحاً أوْ سانحاً، أو رآه يتفلى وينتَتِف، حتى صاروا إذا عاينوا الأعورَ من النّاس أو البهائم، أو الأعضب أو الأبتر، زجروا عند ذلك وتطيَّروا عندها، كما تطيَّروا من الطير إذا رأوها على تلك الحال، فكان زجر الطّير هو الأصل، ومنه اشتقوا التطيّر، ثمَّ استعملوا ذلك في كلِّ شيء.

أسماء الغراب

والغراب لسواده إن كان أسود، ولاختلاف لونه إن كان أبقع، ولأنّه غريب يقطع إليهم، ولأنّه لا يوجد في موضع خيامهم يتقمَّم، إلاَّ عند مباينتهم لمساكنهم، ومزايلتهم لدورهم، ولأنّه ليس شيءٌ من الطير أشدَّ على ذوات الدَّبر من إبلهم من الغربان، ولأنه حديدُ البصر فقالوا عند خوفهم من عينه الأعور، كما قالوا: غراب لاغترابه وغربته وغراب البين، لأنَّه عند بينونتهم يوجد في دُورهم.

ويسمُّونه ابن داية، لأنّه ينقب عن الدَّبر حتَّى يبلغ إلى دايات العنق وما اتصل بها من خرزات الصُّلبِ، وفقار الظهر.

مراعاة التفاؤُل في التسمية

وللطَّيَرة سمَّت العرب المنهوش بالسَّليم، والبرّيّة بالمفازة، وكنوا الأعمى أبا بصير، والأسود أبا البيضاء، وسمّوا الغراب بحاتم، إذ كان يحتم الزّجر به على الأمور، فصار تطيُّرهم من القعيد والنَّطيح ومن جرد الجراد، ومن أن الجرادة ذاتُ ألوان، وجميع ذلك - دون التَّطيُّرِ بالغراب،

ضروب من الطِّيَرة

ولإيمان العرب بباب الطِّيرة والفأل عقدُوا الرَّتائم، وعشَّروا إذا دخلوا القرى تعشير الحمار، واستعملوا في القداح الآمر، والناهي، والمتربِّص، وهنَّ غيرُ قداح الأيسار.

قاعدة في الطيرة

ويَدُلُّ على أنهم يشتقُّون من اسم الشيء الذي يعاينون ويسمعون، قولُ سَوّار ابن المضرّب:

تغنّى الطائران ببينِ ليلى ... على غصنين من غَرْبٍ وبانِ

فكان البانُ أن بانتْ سُليمى ... وفي الغَرْب اغترابٌ غيرُ دانِ

فاشتقَّ كما ترى الاغتراب من الغَرْب، والبينُونة من البان.
وقال جران العود:

جرى يوم رُحْنا بالجمال نُزفُّها ... عُقابٌ وشَحَّاج من البين يَبْرحُ

فأمَّا العُقاب فهي منها عقوبة ... وأمّا الغُراب فالغريب المطوَّحُ

فلم يجدِ في العُقاب إلاّ العقوبة، وجعل الشَّحاجَ هو الغراب البارح وصاحب البين، واشتقَّ منه الغريب المطوّح.
ورأى السَّمهريُّ غراباً على بانةٍ ينتف ريشه، فلم يجد في البان إلاّ البينونة، ووجد في الغراب جميع معاني المكروه، فقال:

رأيتُ غراباً واقعاً فوق بانةٍ ... يُنتِّف أعلى ريشهِ ويُطايرُهْ

فقلت ولو أني أشاء زَجَرتُه ... بنفسي للنهديِّ: هل أنت زاجرُه

فقال :غرابُ باغتراب من النَّوى   وبالبان بينٌ من حبيب تعاشرُه

فذكر الغراب بأكثر ممَّا ذُكر به غيرُه، ثمَّ ذكر بعدُ شأنَ الريش وتطايره، وقال الأعشى:

ما تَعِيف اليومَ في الطيرِ الرَّوَحْ   مِنْ غرابِ البين أو تيسٍ بَرَحْ

فجعل التَّيس من الطّير، إذ تقدم ذكر الطير، وجعله من الطير في معنى التطيُّر.
وقال النَّابغة:

زَعَمَ البوارحُ أنَّ رحلْتنا غَداً   وبذاك خبّرنا الغرابُ الأسْودُ

وقال عنترة:

ظَعَنَ الذين فراقهُمْ أتـوقَّـعُ   وجرى ببَيْنِهم الغُرابُ الأبقـعُ

حَرِقُ الجناح كأنَّ لَحْيَي رأسِـه   جَلمانِ بالأخبار هَشٌّ مُـولَـعُ

فزَجرتُـه ألاّ يُفـرِّخَ بيضـُـه   أبداً ويُصبْحَ خائفاً يتـفـجَّـعُ

إنَّ الذين نَعَبَ لي بفـراقِـهـمْ   هم أسهرُوا ليلى التِّمامَ فأوْجَعُوا

فقال: وجرى ببينهم الغراب لأنّه غريب، ولأنه غراب البين، ولأنّه أبقع، ثم قال:حَرِق الجناح تطيراً أيضاً من ذلك، ثمَّ جعل لَحَيَيْ رأسهِ جِلمَين، والجلَم يقطع، وجعله بالأخبار هشَّاً مُولعاً، وجعل نعيبه وشحيجه كالخبر المفهوم.

التشاؤُم بالغراب

قال: فالغراب أكثر من جميع ما يُتطيَّرُ به في باب الشوم، ألا تراهم كلما ذكروا ممَّا يتطيرون منه شيئاً ذكروا الغراب معه.
وقد يذكرون الغراب ولا يذكرون غيره، ثم إذا ذكروا كلّ واحدٍ من هذا الباب لا يمكنهم أنْ يتطيروا منه إلاّ من وجهٍ واحد، والغراب كثير المعاني في هذا الباب، فهو المقدَّم في الشوم، دفاع صاحب الغراب قال صاحبُ الغراب: الغرابُ وغير الغراب في ذلك سواءٌ، والأعرابيُّ إن شاء اشتقَّ من الكلمة، وتَوهَّمَ فيها الخيرَ، وإن شاء اشتقَّ منها الشرّ،وكلُّ كلمة تحتملُ وجوها.
ولذلك قال الشاعر:

نظرتُ وأصحابي ببطن طويلـع   ضُحَيّاً وقد أقْضى إلى اللّبَبِ الحَبْلُ

إلى ظبيةٍ تعطو سيالاً تَصورُه   يجاذبها الأفنان ذو جُدد طفل

فقلتُ وعِفت: الحبلُ حبلُ وصالها   تجدَّدَ من سلماك وانصرم الحبْل

وقلت:سيال قدْ تسلَّت مودَّتي   تصورُ غُصُوناً صار جثمانها يعلو

وعفت الغريرَ الطّفل طفلاً أتت به   فقلت لأصحابي: مضيُّكم جَهل

رُجوعِيَ حَزْمٌ وامترائيَ ضِلّة   كذلك كان الزَّجْرُ يَصْدُقني قبْلُ

وقال ابن قيس الرُّقيَّات:

بَشَّر الظَّبيُ والغُرابُ بُسعْدى   مرحباً بالذي يقول الغرابُ

وقال آخر:

بَدا إذ قصَدْنا عَامِدِينَ لأرضنا   سنيحٌ فقال القوْم: مرَّ سنيحُ

وهابَ رجالٌ أن يقولوا وجمْجموا   فقلت لهم: جار إليَّ ربيحُ

عقابٌ بإعقاب من الدار بَعْدَ ما   مضت نيَّةٌ لا تسْتطاعُ طرُوحُ

وقالوا :دمٌ دامت مودّة بيننا   وعاد لنا غض الشباب صريحُ

وقال صحابي: هُدهُدٌ فوق بانة   هدًى وبيانٌ في الطريق يلوحُ

وقالوا :حمامات فحُمَّ لقاؤُها   وطلحٌ فنيلت والمطيُّ طليحُ

قالوا: فهو إذا شاء جعل الحمام من الحِمام والحميم والحمى، وإن شاء قال: وقالوا حماماتٌ فحمَّ لقاؤها وإذا شاء اشتق البين من البان، وإذا شاءَ اشتقَّ منه البيان.
وقال آخر:

وقالوا :عقابٌ قلتُ عُقْبى من الهوى   دنتْ بعد هَجْرٍ منهمُ ونزوحُ

وقالوا :حمامات فحُمَّ لقاؤُها   وعاد لنا حُلوُ الشّبابِ رَبيحُ

وقالوا :تغنَّى هدهدٌ فوقَ بانة   فقلت :هُدًى نغدو به ونَرُوحُ

ولو شاء الأعرابيّ أن يقول إذا رأى سوادَ الغراب: سواد سودد، وسواد الإنسان: شخصه، وسواد العراق: سعف نخله، والأسودان: الماء والتمر، وأشباه ذلك - لقاله.
قال: وهؤلاء بأعيانهم الذين يصرِّفون الزَّجر كيف شاؤوا، وإذا لم يجدوا من وقوع شيءٍ بعد الزَّجر بُدّاً - هم الذين إذا بدا لهم في ذلك بداء أنكروا الطِّيَرة والزَّجْر البتّة.
تطير النابغة وما قيل فيه من الشعر وقد زعم الأصمعي أنَّ النَّابغة خرج مع زَبَّان بن سيّار يريدان الغزو، فبينما هما يريدان الرحلة إذ نظر النَّابغةُ وإذا على ثوبه جرادةٌ تجرد ذاتُ ألوان، فتطيَّر وقال: غيري الذي خرج في هذا الوجه فلما رجع زبّان من تلك الغزوة سالماً غانماً، قال:

تخبَّر طيْرَهُ فيها زيادٌ لتخْبِرَه وما فيها خبيرُ
أقام كأنَّ لقْمان بن عادٍ أشار له بحكْمته مُشيرُ
تعلَّمْ أنَّه لا طير إلاّ على متطيرٍ وهو الثُّبور
بلى شيءٌ يوافق بعض شيءٍ أحايينا وباطله كثيرُ

فزعم كما ترى زَبّان - وهو من دهاة العرب وساداتهم - أنّ الذي يجدونه إنَّما هو شيءٌ من طريق الاتفاق، وقال:

تعلَّمْ أنَّه لا طيْرَ إلا على متطيِّر وهو الثُّبُور

وهذا لا ينقض الأول من قوله: أمّا واحدة فإنه إنْ جعل ذلك من طريق العقاب للمتطير لم ينقضْ قوله في الاتفاق، وإن ذهب إلى أنّ مثل ذلك قد يكون ولا يشعر به اللاّهي عن ذلك والذي لا يؤمن بالطيرة، فإنّ المتوقّع فهو في بلاء مادام متوقعاً، وإن وافق بعضُ المكروه جعله من ذلك.
تطير ابن الزبير ويقال إنَّ ابن الزبير لما خرج مع أهله من المدينة إلى مكّة، سمع بعض إخوته ينشد:

وكلُّ بني أمٍّ سَيُمْسُون ليلةً ولم يَبْقَ من أعْيانِهِمْ غيْرُ واحدِ

فقال لأخيه: ما دعاك إلى هذا؟ قال: أما إني ما أردته قال: ذلك أشدُّ له.
وهذا منه إيمان شديد بالطيرة كما ترى، بعض من أنكر الطيرة وممن كان لا يرى الطيرة شيئاً المرقش، من بني سدوس، حيث قال:

إني غدوت وكنت لا أغدو على واق وحاتمْ

فإذا الأشـائمُ كـالأيا　　من والأيامِنُ كالأشائمْ

فكذاك لا خير ولا　　شرٌّ على أحد بدائمْ

قال سلامة بن جندل:

ومن تعرَّض للغِرْبان يزْجُرها　　على سلامتهِ لا بدَّ مشؤوم

وممن كان ينكر الطيرة ويوصي بذلك، الحارث بن حلزة، وهو قوله - قال أبو عبيدة: أنشدنيها أبو عمرو، وليست إلا هذه الأبيات، وسائر القصيدة مصنوع مولد - وهو قوله:

يا أيها المزمِعُ ثم انثنـى　　لا يثنِكَ الحازي ولا الشاحِجُ

ولا قعيد أغضـبٌ قرْنُـهُ　　هاجَ له من مَرْبَعٍ هـائِجُ

بينا الفتى يَسعى ويُسْعى له　　تَاحَ له من أمْره خـالِـجُ

يترِكُ ما رَقَّح من عيشـه　　يعيثُ فيه همَجٌ هـامِجُ

لا تكسع الشّول بأغبارهـا　　إنك لا تَدْري من النـاتـجُ

وقال الأصمعي: قال سَلْم بن قتيبة: أضللت ناقة لي عشراء، وأنا بالبدو، فخرجت في طلبها، فتلقاني رجلٌ بوجهه شينٌ من حَرْق النار، ثم تلقَّاني رَجُلٌ آخذ بخطام بعيره، وإذا هو ينشد:

فلَئِنْ بغيت لها البغا　　ة فما البغاة بواجدينا

ثم من بعد هذا كلّه، سألت عنها بعض من لقيتُه، فقال لي: التمسْها عند تلك النار، فأتيتهم فإذا همْ قد نتجوها حُواراً، وقد أوقدُوا لها ناراً فأخذْت بخطامها وانصرفتُ.
عدم إيمان النَّظَّام بالطيرة وأخبرني أبو إسحاق إبراهيم بن سيَّار النَّظَّام قال:جعْت حتَّى أكلت الطين، وما صِرت إلى ذلك حتَّى قلبت قلبي أتذَّكر: هلْ بها رجلٌ أصيبُ عنده غداءً أو عشاء، فما قدرت عليه، وكان علي جُبَّةٌ وقميصان، فنزعتُ القميص الأسفل فبعته بدريهمات، وقصدْتُ إلى فُرْضَة الأهواز، أريد قصبة الأهواز، وما أعرف بها أحداً، وما كان ذلك إلاّ شيئاً أخرجه الضَّجر وبعض التعرُّض، فوافيتُ الفرضة فلم أصبْ فيها سفينة، فتطيَّرتُ من ذلك، ثم إني رأيت سفينة في صدرها خَرْقٌ وهشم فتطيرتُ من ذلك أيضاً، وإذا فيها حمولة، فقلت للملاح: تحملني؟ قال:

نعم، قلت: ما اسمك؟ قال: داوداذ وهو بالفارسية الشّيطان، فتطيرت من ذلك، ثم ركبت معه، تصكّ الشمال وجْهي، وتُثير بالليل الصَّقيعَ على رأسي، فلما قربنا من الفرصة صِحْت: يا حمّال معي لحافٌ لي سَمَل، ومضْربة خلق، وبعضُ ما لا بُدَّ لمثلي منه، فكان أول حمّال أجابني أعور فقلت لبقّار كان واقفاً: بكم تكري ثورك هذا إلى الخان؟ فلما أدناه من متاعي إذا الثَّور أعضبُ القرن، فازددتُ طيرة إلى طيرة، فقلت في نفسي: الرُّجوع أسلم لي، ثم ذكرت حاجتي إلى أكل الطين فقلت: ومن لي بالموت؟ فلما صرتُ في الخان وأنا جالس فيه، ومتاعي بين يديَّ وأنا أقول: إن أنا خلفته في الخان وليس عنده من يحفظه فُشّ البابُ وسرق، وإن جلست أحفظُه لم يكن لمجيئي إلى الأهواز وَجْه، فبينا أنا جالس إذ سمعت قرْع الباب، قلت: من هذا عافاك الله تعالى؟ قال: رجلٌ يريدك، قلت: ومن أنا؟ قال: أنت إبراهيم، فقلت: ومن إبراهيم؟ قال: إبراهيم النَّظّام، قلت: هذا خَنّاق، أو عدوٌّ، أو رسولُ سلطان ثم إني تحاملتُ وفتحتُ البابَ، فقال: أرسلني إليك إبراهيم بن عبد العزيز ويقول: نحن وإن كُنّا اختلفنا في بعض المقالة، فإنَّا قد نرجع بعد ذلك إلى حقوقِ الإخلاق والحرِّيَّة، وقد رأيتك حين مررت بي على حال كرهتها منك، وما عرفتك حتى خبّرني عنك بعضُ من كان معي وقال: ينبغي أن يكون قد نزعتْ بك حاجة، فإن شئت فأقِمْ بمكانك شهراً أوشهرين، فعسى أن نبعث إليك ببعضِ ما يكفيك زمناً من دهرك، وإن اشتهيت الرُّجوع فهذه ثلاثون مثقالاً، فخذها وانصرف، وأنت أحقُّ من عَذَرَ.

قال: فهجم واللّه عليَّ أمرٌ كاد ينقضني، أما واحِدَةً: فأنِّي لم أكنْ ملكتُ قبل ذلك ثلاثين ديناراً في جميع دهري، والثانية: أنّه لم يطلع مقامي وغيبتي عن وطني، وعن أصحابي الذين هم على حال أشكل بي وأفهم عنِّي، والثالثة: ما بيّن لي من أنَّ الطيرة باطل؛ وذلك أنّه قد تتابع عليّ منها ضروبٌ، والواحدة منها كانت عنْدهُمْ مُعطبة.

قال: وعلى مثل ذلك الاشتقاق يعملُ الذين يعبِّرون الرُّؤيا.

عجيبة الغربان بالبصرة

وبالبصرة من شأن الغِرْبان ضروبٌ من العجب، لو كان ذلك بمصر أو ببعض الشامات: لكان عندهم من أجودِ الطِّلَّسم، وذلك أنّ الغربان تقطع إلينا في الخريف، فترى النَّخْلَ وبعضها مصرومة، وعلى كلِّ نخلة عدَد ٌكثيرٌ من الغربان، وليس منها شيءٌ يقرب نخلةً واحدةً من النّخل الذي لم يُصرم، ولو لم يبق عليها إلا عذقٌ واحد، وإنّما أوكار جميع الطير المصوِّت في أقلاب تلك النّخل، والغراب أطيرُ وأقوى منها ثم لا يجترئ أن يسقط على نخلة منها، بعد أن يكون قد بقي عليها عِذّق واحدٌ.

منقار الغراب

ومنقار الغراب معْوَل، وهو شديدُ النَّقْر، وإنّه ليصِلُ إلى الكمأة المنْدفِنة في الأرض بنقْرة واحِدة حتى يشخصها، ولهو أبصرُ بمواضع الكمأة من أعرابيٍّ يطلبها في منبتِ الإجردِّ والقِصيص، في يومٍ له شمس حارَّة، وإن الأعرابيّ ليحتاجُ إلى أن

يرى ما فوقها من الأرض فيه بَعْضُ الانتفاخ والانصدَاع، وما يحتاجُ الغرَاب إلى دليل، وقال أبو دُوَادٍ الإياديّ:

تَنْفي الحصى صُعُداً شرقِي منْسمها نَفْي الغراب بأعلى أنْفهِ الغَرَدا

ولو أنّ الله عزَّ وجلّ أذن للغراب أن يسقط على النخلة وعليها الثّمرة لذهبت، وفي ذلك الوقت لو أنّ إنساناً نقر العِذّق نقرةً واحدَةً لانتثر عامَّة ما فيه، ولهلكتْ غلاّتُ الناس، ولكنّك ترى منها على كلّ نخلة مصرومةِ الغِربانَ الكثيرة، ولا ترى على التي تليها غراباً واحداً، حتى إذا صرموا ما عليها تسابقن إلى ما سقط من التمر في جوف الليف وأصول الكرَب لتستخرجه كما يستخرج المنْتَّاخُ الشّوك.

حوار في نفور الغربان من النخل

فإن قال قائل: إنما أشباح تلك الأعذاق المدلاّةِ كالخِرَق السُّود التي تُفزع الطير أنْ يقع على البزُور، وكالقودام السُّودِ تغرزُ في أسنمةِ ذوات الدبَرِ من الإبل، لكيلا تسقط عليها الغربان، فكأنها إذا رأت سواد الأعذاق فزعت كما يفزع الطير من الخِرَق السُّود.
قال الآخر: قد نجدُ جميع الطير الذمي يفزع بالخِرَق السُّود فلا يسقط على البزور، يقع كله على النخل وعليه الحمل، وهل لعامّة الطيَّر وكور إلا في أقلابِ النّخل ذوات الحمل.
قال الآخر: يشبه أن تكون الغربان قطعتْ إلينا من مواضع ليس فيها نَخْلٌ ولا أعذاق، وهذا الطير الذي يفزع بالخِرَق السُّود إنَّما خُلقتْ ونشأت في المواضع التي لم تزل ترى فيها النَّخيل والأعذاق، ولا نعرف لذلك علة سوى هذا.
قال الآخر: وكيف يكون الشأن كذلك ومن الغِربان غربانٌ أوابدُ بالعِراق فلا تبرَحُ تعَشِّش في رؤوس النَّخل، وتبيض وتفْرخُ، إلاَّ أنَّها لا تقرب النَّخلة التي يكون عليها الحمل.
والدّليل عَلَى أنها تعشش في نخل البصرة، وفي رؤوس أشجار البادية قولُ الأصمعيِّ:

ومن زردَك مثل مكن الضِّبابِ يُنَاوح عيدانَه السيمكان

ومن شكر فيه عُشُّ الغرابِ ومن جيسرانِ وبنْداذجان

وقال أبو محمد الفقعسيُّ وهو يصف فحل هَجْمة:

يتبعُها عَدَبَّسٌ جُرائضُ أكلفُ مربدٌّ هصورٌ هائضُ

بحيثُ يعتش الغرابُ البائضُ

ما يتفائل به من الطير والنبات

والعامَّة تتطيَّرُ من الغراب إذا صاح صيحة واحدة، فإذا ثنَّى تفاءلتْ به.
والبوم عند أهل الرَّيِّ وأهل مَرْوٍ يُتفاءل بهِ، وأهل البصرة يتطيرون منه، والعربيُّ يتطيرُ من الخلاف، والفارسي يتفاءل إليه، لأنَّ اسمه بالفارسية باذامك أي يبقى، وبالعربية خلاف، والخلاف غيرُ الوفاق.
والريحان يُتفاءل به، لأنه مشتقٌّ من الرَّوح، ويتطيرَّ منه لأن طعمه مُرٌّ، وإن كان في العين والأنف مقبولاً.
وقال شاعرٌ من المحدثين:

أهدى له أحـبـابُـه أُتْـرُجَّةً ... فبكى وأشفق مِنْ عيافة زاجرِ

متطيِّراً ممّا أتاه فطعـمـه ... لونان باطنه خلافُ الظّاهرِ

والفرس تحبُّ الآس وتكره الورد، لأن الورد لا يدومُ، والآس دائم.
قال: وإذا صاح الغرابُ مرتين فهو شرٌّ، وإذا صاح ثلاث مرّاتِ فهو خير، على قدر عدد الحروف.

عداوة الحمار للغراب

ويقال: إنّ بين الغراب والحمار عداوةً، كذا قال صاحب المنطق.
وأنشدني بعض النحويِّين:

عاديتنا لا زلْت في تبابِ ... عداوة الحمار للغراب

أمثال في الغراب

ويقال: أصحُّ من غراب، وأنشد ابن أبي كريمة لبعضهم، وهو يهجو صريع الغواني مسلم بن الوليد:

فما ريحُ السّذاب أشدُّ بُغْضاً ... إلى الحيّاتِ منك إلى الغواني

وأنشد:

وأصلب هامةً من ذي حُيُود ... ودُون صداعه حُمّى الغراب

وزعم لي داهيةٌ من دهاة العرب الحوّائين، أنّ الأفاعي وأجناس الأحناش، تأتي أصول الشِّيح والحرْمل، تستظل به، وتستريح إليه.
ويقال: أغربُ من غراب، وأنشد قول مضرّس بن لقيط:

كأني وأصحابي وكرِّي عليهمُ   على كلِّ حال من نشاط ومن سأمْ

غرابٌ من الغِربانِ أيّامَ قرّةٍ   رأيْن لحاماً بالعراص على وضمْ

حديث الطيرة وقد اعترض قومٌ علينا في الحديث الذي جاء في تفرقة ما بين الطيرة والفأل، وزعموا أنّه ليس لقوله: كان يعجبه الفألُ الحسن ويكره الطيرة معنى، وقالوا: إن كان ليس لقول القائل: يا هالك، وأنت باغ، وجهٌ ولا تحقيق، فكذلك إذا قال: يا واجد، ليس له تحقيق، وليس قوله يا مضلُّ ويا مهلك، أحقَّ بأن يكون لا يوجبُ ضلالاً ولا هلاكاً من قوله يا واجد، ويا ظافر، من ألاّ يكون يوجب ظفراً ولا وجوداً، فإمّا أنّ يكونا جميعاً يوجبان، وإما أن يكونا جيمعاً لا يوجبان، قيل لهم: ليس التأويل ما إليه ذهبتم، لو أن النّاس أمَّلوا فائدة اللّه عزَّ وجلَّ ورجوا عائِدته، عند كلِّ سبب ضعيف وقويّ، لكانوا على خير، ولو غلطوا في جهة الرّجاء لكان لهم بنفس ذلك الرّجاء خير، ولو أنهم بدل ذلك قطعوا أملهم ورجاءهم من اللّه تعالى، لكان ذلك من الشرّ والفأل، أن يسمع كلمةً في نفسها مستحسنة، ثمَّ إن أحبَّ بعد ذلك أو عند ذلك أنّ يحدث طمعاً فيما عند اللّه تعالى،كان نفس الطمع خلاف اليأس، وإنما خبَّر أنّه كان يعجبه، وهذا إخبارٌ عن الفطرة كيف هي، وعن الطبيعة إلى أيِّ شيء تتقلب.
وقد قيل لبعض الفقهاء: ما الفأل؟ قال: أن تسمع وأنت مُضِلٌّ: يا واجد، وأنت خائف: يا سالم، ولم يقل إنَّ الفأل يوجب لنفسه السلامة، ولكنّهم يحبُّون له إخراج اليأس وسوء الظن وتوقُّع البلاء من قلبه على كل حال - وحال الطيرة حال من تلك الحالات - ويحبون أن يكون لله راجياً، وأن يكون حسن الظن، فإن ظنَّ أن ذلك المرجوَّ يُوافقُ بتلك الكلمة ففرح بذلك فلا بأس، تطير بعض البصريين وقال الأصمعيُّ: هرب بعض البصريين من بعض الطَّواعين، فركب ومضى بأهله نحو سَفَوان، فسمع غلاماً له أسود يحدوُ خلفه، وهو يقول:

لن يُسْبَقَ اللّهُ على حِمـار   ولا على ذي مَيْعَةٍ مَطّار

أو يأتيَ الحينُ على مقدار   قد يصبحُ اللّه أمام السّاري

فلما سمع ذلك رجع بهم.

معرفة في الغربان

قال: والغربان تسقط في الصحارى تلتمس الطُّعم، ولا تزال كذلك، فإذا وجبت الشمس نهضت إلى أوكارها معاً، و ما أقلّ ما تختلط البُقْع بالسّود المصمتة.
الأنواع الغريبة من الغربان قال: ومنها أجناس كثيرة عظام كأمثال الحداء السُّود، ومنها صغارٌ، وفي مناقيرها اختلاف في الألوان والصور، ومنها غربان تحكي كلّ شيء سمعته، حتى إنها في ذلك أعجب من الببغاء، وما أكثر ما يتخلّف منها عندنا

بالبصرة في الصيف، فإذا جاء القيظ قلّتْ، وأكثر المتخلّفات منها البقع، فإذا جاء الخريف رجعت إلى البساتين، لتنال مما يسقط من التمر في كرب النّخل وفي الأرض، ولا تقرب النَّخلة إذا كان عليها عذق واحد، وأكثر هذه الغربان سود، ولا تكاد ترى فيهنّ أبقع، قبح فرخ الغراب وقال الأصمعيّ: قال خلف: لم أرَ قطُّ أقبح من فرخ الغراب رأيته مرَّة فإذا هو صغير الجسم، عظيم الرأس، عظيم المنقار، أجرد أسودُ الجلد، ساقط النفس، متفاوت الأعضاء.
غربان البصرة قال: وبعضُها يقيم عندنا في القيظ، فأمَّا في الصَّيف فكثير، وأمَّا في الخريف فالدُّهم، وأكثر ما تراه في أعالي سطوحنا في القيظِ والصيف البُقع، وأكثر ما تراه في الخريف في النخل وفي الشتاء في البيوت السُّود.
وفي جبل تكريت في تلك الأيَّام، غِرْبانٌ سودٌ كأمثال الحدَاءِ السُّود عظماً.
تسافد الغربان وناس يزعمون أنَّ تسافدَها عَلَى غير تسافد الطير، وأنّها تزاقُّ بالمناقير، وتلقح من هناك.
نوادر وأشعار نَذْكر شيئاً من نوادر وأشعار وشيئاً من أحاديث، من حارِّها وباردها.
قال ابنُ نُجيْمٍ: كان ابن ميّادة يستحسن هذا البيت لأرطأةَ بن سُهيّة:

فقلت لها يا أمَّ بيضاءَ إنّه ... هُريقَ شبابي واستَشَنَّ أديمي

صار شنّاً.
وكان الأصمعي يستحسن قولَ الطرمَّاح بن حكيم، في صفة الظّليم:

مجتاب شَمْلة بُرجُدٍ لسَرَاتِه ... قدْراً وأسلم ما سِوَاهُ البَرجُدُ

ويستحسن قوله في صفة الثَّور:

يبدوُ وتَضمره البلاد كأنَّه ... سيفٌ علَى شرفٍ يُسلُّ ويُغمدُ

وكان أبو نُواسٍ يستحسنُ قولَ الطّرماح:

إذا قُبضَتْ نفسُ الطّرماح أخلَقتْ ... عُرى المجدِ واسترخى عنان القصائد

وقال كثير:

إذا المال يوجِبْ عليكَ عطاؤُه ... صَنيعَة برٍّ أو خَليلٍ توامِقُه

مَنَعْتَ وبعضُ المنْع حزمٌ وقُوَّةٌ ... فلم يفتلتك المالَ إلاّ حقائقه

وقال سهل بن هارون؛ يمدح يحيى بن خالد:

عدوٌّ تِلادِ المال فيما ينـوبـه   منوعٌ إذا ما منعُه كان أحزَمَا

قال: وكان ربعيٌّ بن الجارود يستحسن قولَه:

فخير منك من لا خير فيه   وخير من زيارتك القُعودُ

وقال الأعشى:

قد نطعُن العَيْرَ في مكنونِ فائلـه   وقد يَشِيطُ على أرماحنا البَطَـلُ

لا تنتهون ولن يَنْهَى ذوي شَطـطٍ كالطَّعْنِ يذهبُ فيه الزَّيتُ والفُتُل

وقال العلاء بن الجارود:

أظهروا للنَّاس نسكاً   وعلى المنقوش دارُوا

وَلَه صامُوا وصَلَّوا   ولَهُ حَجُّوا وزارُوا

وله قامـوا وقـالـوا   وله حلّـوا وسـاروا

لو غدا فوق الـثـريَّا   ولـهم ريش لطـاروا

وقال الآخر في مثل ذلك:

شمر ثيابَك واستعدَّ لـقـابـلٍ   واحكك جبينك للقضاء بثُـوم

وامش الدَّبيبَ إذا مشَيتَ لحاجةٍ   حتى تصيبَ وديعةً لـيتـيم

وقال أبو الحسن: كان يقال: من رقّ وجهُه رقّ عِلمُه.
وقال عمر: تفقَّهوا قبل أن تسودوا.
وقال الأصمعي: وُصلت بالعلم، وكسبت بالملح.
ومن الأشعار الطيبة قول الشاعر في السمك والخادم:

مقبل مدبر خفـيف دُفـيف   دسم الثَّوب قد شَوَى سمكاتِ

من شبابيط لجةٍ ذات غَمْـر   حُدُب من شُحومها زَهماتِ

ففكِّر فيهما فإنَهما سيمتعانك ساعةً.
وقال الشاعر:

إنْ أجزِ علقمَةَ بن سَيْفٍ سعيَهُ لا أجزه ببـلاءٍ يومٍ واحـدِ

لأحَبَّني حُبّ الصبيِّ ورَمَّنـي رَمَّ الهَدِيِّ إلى الغنيّ الواجد

ولقدْ شفيتُ غليلتي ونقعتهـا من آل مسعودٍ بمـاءٍ بـارد

وقال رجل من جرم:

نبئتُ أخوالي أرادوا عمومتي بشنعاء فيها ثاملُ السُّمِّ مُنقعـا

سأركبها فيكم وأدعى مفرِّقـاً وإن شئتم من بعدُ كنت مجمِّعا

وقال يونس بن حبيب: ما أكلت في شتاءٍ شيئاً قطُّ إلاّ وقد برد، ولا أكلت في صيفٍ شيئاً إلاّ وقدْ سخن.
وقال أبو عمرو المدينيّ: لو كانت البلايا بالحِصَص، ما نالني كما نالني: اختلفت الجاريةُ بالشاة إلى التَّيَّاس اختلافاً كثيراً، فرجعت الجارية حاملاً والشاة حائل.
وقال جعفر بن سعيد: الخلافُ موكّل بكلّ شيء يكون، حتى القذاة في الماء في رأس الكوز، فإن أردتَ أن تشرب الماء جاءتْ إلى فيك، وإن أردتَ أن تصبَّ من رأسِ الكوز لتخرج رَجَعت.

حديث أبي عمران وإسماعيل بن غزوان

وقال إسماعيل بن غَزْوان: بكَرْت اليوم إلى أبي عمران، فلزمتُ الجادَّة، فاستقبلني واحدٌ فلَزِمَ الجادَّة التي أنا عليها، فلما غشيني انحرفتُ عنه يَمْنَةً فانحرَفَ معي، فعُدتُ إلى سَمْتي فعاد، فعُدتَ فعاد ثمَّ عُدت فعاد، فلولا أنَّ صاحبَ برذون فرَّق بيننا لكان إلى الساعة يكدُّني، فدَخلت على أبي عمران فدعا بغَدَائه، فأهويتُ بلقْمتي إلى الصِّباغ فأهوى إليه بعضُهم، فنحَّيت يدي فنحَّى يده، ثمَّ عُدْتُ فعاد، ثمَّ نحيتُ فنحَّى، فقلت لأبي عمران: ألا ترى ما نحن فيه؟ قال سأحدِّثك بأعجبَ من هذا، أنا منذُ أكثر مِنْ سنة أشفقُ أن يراني ابن أبي عون الخياط، فلم يتَّفق لي أن يراني مرَّةً واحدة، فلما أن كانَ أمسِ ذكرتُ لأبي الحارث الصُّنْع في السلامة من رؤيته، فاستقبلني أمسِ أربعَ مَرَّات.

نوادر وبلاغات

وذكر محمّد بن سلام، عن محمّد بن القاسم قال: قال جرير: أنّا لا أبتدي ولكنّي أعتدي.

وقال أبو عبيدة: قال الحجّاج: أنا حدِيدٌ حَقود حسود! قال: وقال قدَيد بن مَنيع، لجُدىع بن عليٍّ: لكَ حكم الصبيّ على أهله! وقال أبو إسحاق - وذكرَ إنساناً -: هو واللّه أترَفُ من رَبيب مَلِك، وأخرق من امرأة، وأظلم من صبي.
وقال لي أبو عبيدة: ما ينبغي أن يكون كان في الدنيا مثل هذا النَّظام، قلت: وكيف؟ قال: مرَّ بي يوماً فقلت: واللّهِ لأمتحننَّه، ولأسمعَنَّ كلامه؛ فقلت له: ما عيبُ الزُّجاج - قال: يُسرع إليه الكسر، ولا يقبل الجبْر - من غير أن يكون فكّر أو ارتدع.
قال: وقال جَبَّار بن سُلمى بن مالك - وذكر عامر بن الطفيل فقال: كان لا يضلُّ حتّى يضلَّ النَّجم، ولا يَعطشُ حَتَّى يعْطَش البَعير ولا يهاب حتّى يهاب السيل، كان واللّه خيرَ ما يكون حينَ لاتظنُّ نفسٌ بنفسٍ خيراً.
وقال ابن الأعرابيّ: قال أعرابي: اللهمَّ لا تُنْزلني ماءَ سَوءٍ فأكونَ امرأ سَوء يقول: يدعوني قلّتُهُ إلى منعه.
وقال محمَّد بن سلام، عن حماد بن سلمة، عن الأزرق بن قيس: إنّ الأحنف كان يكرَه الصَّلاة في المقصورة، فقال له بعضُ القوم: يا أبا بحر، لم لا تصلي في المقصورة؟ قال: وأنت لم لاتصلّي فيها؟ قال: لا أُترك.
وهذا الكلامُ يدل على ضروب من الخير كثيرة.
ودخل عبد اللّه بن الحسن على هشامٍ في ثيابِ سفَره، فقال: اذكر حوائجك، فقالَ عبد اللّه: ركابي مُناخةً، وعَلَيَّ ثيابُ سفري فقال: إنَّك لا تجدني خيراً منِّي لك الساعة.
قال أبو عبيدة: بلغ عمرَ بن عبد العزيز قدومُ عبدِ اللّه بن الحسن، فأرسل إليه: إني أخاف عليك طواعينَ الشام، وإنَّك لا تُغنِمَ أهلَك خيراً لهم منك فالحقْ بهم، فإنّ حوائجهم ستسبقك.
وكان ظاهر ما يكلِّمونَهِ بهِ ويُرُونه إيَّاه جميلاً مذكوراً، وكان معناهم الكراهة لمقامه بالشام، وكانوا يرون جمالَهُ، ويعرفون بيانَه وكمالهُ فكان ذلك العَملُ من أجودِ التدبير فيه عندَ نفسه.

شعر في الزهد والحكمة

وأنشد:

تُليح من الموتِ الذي هو واقعٌ   وللموتِ بابٌ أنتَ لابدَّ داخلُه

وقال آخر:

أكلكُمُ أقام على عجوزٍ   عشنْزَرَةٍ مقلَّدةٍ سِخابا

وقال آخر:

الموتُ بابٌ وكل الناس داخلـه		فليتَ شعريَ بعدَ الباب ما الدَّارُ

لو كنتُ أعلم منْ يدري فيخبرني	أجنَّة الخُلْدِ مأوانـا أم الـنَّـارُ

وقال آخر:

اصبرْ لكلِّ مصيبةٍ وتجـلّـدِ		واعلمْ بأنَّ المرءَ غيرُ مخلَّدِ

فإذا ذكرتَ مصيبة تشجى بها		فاذكرْ مصابَكَ بالنبيّ محمدِ

وقال آخر:

والشمس تَنْعَى ساكِنَ ال		دُّنيا ويُسعِدُها القمَـرْ

أين الـذين علـيهـمُ		ركَمُ الجَنادِلِ والمَـدَرْ

أفنـاهُمُ غَلَس الـعِشَـا		ءِ يهزُّ أجنحَةَ السَّحَـرْ

ما للقـلـوب رقـيقة		وكأنَّ قلبَك من حجَـرْ

ولقلَّما تبْـقـى وعـو		دُكَ كلَّ يومٍ يُهتَّصـرْ

وقال زهير:

ومن يُوفِ لايُذممْ ومَنْ يُفْضِ قلبه		إلى مطمئن البرِّ لا يتجمـجـمِ

ومن يغترب يحسَب عدوًّا صديقه		ومن لا يكرِّمْ نفسَـه لا يكـرّمِ

ومهما تكنْ عندَ امرئ من خليقة		وإنْ خالـها تخْفى على النَّاسِ تُعلمِ

ومن لا يزلْ يسترحلُ النَّاسَ نفسَه		ولا يُعفِها يومًا من الـذّمِّ ينـدَمِ

وقال زهير أيضاً:

يطعنهم ما ارتموا حتى إذا طُعِنُـوا	ضارب حتَّى إذا ما ضارَبُوا اعتنقا

وقال:

وجارُ البيتِ والرَّجلُ المنادِي أمام الحيِّ عَقدُهما سـواءُ

جوارٌ شاهدٌ عدْلٌ علـيكم وسِيَّان الكَفـالةُ والـتَّـلاءُ

فإن الحقَّ مقْطعُهُ ثـلاث: يَمينٌ أو نِفـارٌ أو جِـلاءُ

فتفهَّمْ هذه الأقسام الثلاثة، كيف فصّلها هذا الأعرابيّ. وقال أيضاً:

فلو كان حمد يُخلِدُ النَّاسَ لم تمُتْ ولكنَّ حمْدَ المرءِ ليسَ بمُخْلِـدِ

ولكنَّ منـهُ بـاقياتٍ وِراثَةٌ فأوْرِثْ بنيك بعضَهـا وتـزوَّدِ

تزوّدْ إلى يوم الممـاتِ فـإنَّـه وإنْ كرهتْه النَّفسُ آخِرُ معْهَدِ

وقال الأسديُّ:

فإني أحبُّ الخُلدَ لو أستـطيعُ وكالخُلد عندي أن أموت ولم ألَمْ

وقال الحادرة:

فأثنوا علينا لا أبا لأبيكُـم بإحساننا إنَّ الثَّناءَ هو الخُلد

وقال الغنوي:

فإذا بلغتمْ أهلكم فتحـدَّثـوا ومن الحديث مهالك وخُلودُ

وقال آخر:

فقتلاً بتقتيل وعقراً بعقْـركـم جزاءَ العُطاسِ لا يموت من اثَّأرْ

وقال زهير:

والإثمُ من شرٍّ ما تصول به والبرُّ كالغَيثِ نبتُـه أمِـرُ

أي كثير، ولو شاء أن يقول:

والبرُّ كالماءِ نبتُه أمرُ

استقام الشعر، ولكن كان لا يكون له معنى، وإنّما أراد أن النبات يكون على الغيث أجود، ثمَّ قال:

قد أشهَدُ الشَّاربَ المعذَّلَ لا   معروفُهُ مُنكَر ولا حصرُ

في فتيةٍ لَيِّني الـمآزرِ لا   ينسَوْنَ أحلامَهم إذا سَكِروا

يشوُون للضيَف والعُفاةِ ويُو   فون قضاءً إذا هُمُ نَـذَروا

يمدحُ كما ترى أهلَ الجاهلّية بالوفاء بالنُّذور أنشدني حبَّان بن عِثْبان، عن أبي عبيدة، من الشَّوارد التي لا أربابَ لها، قوله:

إن يغْدِرُوا أو يفجُروا   أو يبخَلوا لم يحفِلوا

يَغدُوا عليكَ مرجَّلي   نَ كأنّهُمْ لم يفعَلُوا

كأبي بَراقِشَ كلَّ يو   مِ لونـه يتـخـيَّلُ

وقال الصَّلتَان السعديُّ، وهو غير الصَّلتان العبْديِّ:

أشابَ الصغيرَ وأفنَى الكبـي   رَ كرُّ الغَداةِ ومرُّ الـعشـي

إذا لـيلة هرَّمْت يومـهـا   أتى بـعد ذلـك يوم فـتـي

نروح ونغدُو لـحـاجـاتـنـا   وحاجة من عاشَ لا تنقضـي

تموت مع المرءِ حـاجـاتُـه   وتبقى له حـاجةُ مـا بـقـي

إذا قلتَ يَوْمًا لدى مَـعْشـرِ   أرُوني السَّريَّ أرَوْكَ الغنـي

ألم تَرَ لقمان أوصـى بـنـي   هِ وأوصيت عمرًا فنعم الوَصي

وسِرُّك ما كان عنـدَ امـرئٍ   وسرُّ الثَّلاثةِ غير الـخـفـي

أنشدني محمَّدُ بن زياد الأعرابيّ:

ولا تُلبثُ الأطماعُ من ليس عنـده من الدِّين شيءٌ أن تميل به النَّفسُ

ولا يُلْبثُ الدَّحْس الإهاب تـحوزه بجُمْعِك أن ينهاه عن غيرك الترس

وأنشدني أبو زيدٍ النحويُّ لبعض القدماء:

وَمهْمَا يكنْ رَيْب المَنُون فإنَّنـي أرى قمر اللّيلِ المعذَّرَ كالفتَـى

يعودُ ضئيلاً ثـم يرجـعُ دائبـاً   ويعظم حتَّى قيل قد ثاب واستوى

كذلك زَيْدُ المرء ثمَّ انتقـاصـه   وتكرارُه في إثره بَعْدَ ما مضى

وقال أبو النَّجم:

مَيَّز عَنهُ قُنزَعاً من قنْـزُعِ   مَرُّ اللَّيالي أبْطئي وأسرعي

أفناهُ قِيلُ اللّهِ للشَّمْس اطلعي   ثمّ إذا واراكِ أفق فارجعي

وقال عمرو بن هند:

وإن الذي ينهاكم عن طلابـهـا يُناغي نِسَاءَ الحيِّ في طرَّة البُـرْدِ

يعَلّلُ والأيَّام تـنْـقـص عـمْرَه   كما تنقُص النِّيرَانُ من طرفِ الزّندِ

وقال ابن ميَّادة:

هل ينطقُ الرَّبع بالعَلياء غيّره   سافي الرِّياح ومستنّ له طُنُب

وقال أبو العتاهية:

أسرَع في نقص امرئ تمامُه

وقال:

ولمرِّ الفناءِ في كلِّ شيءٍ   حركاتٌ كأنَّهنّ سكُون

وقال ابن ميّادة:

أشاقك بالقِنعِ الـغَداةَ رُسـومُ دَوارس أدنى عهدِهـنَ قـديمُ

يلحْنَ وقد جرَّمْنَ عشرين حِجَّةً كما لاح في ظهر البنَان وشُوم

وقال آخر:

في مرفقيها إذا ما عُونِقتْ جَمَم علَى الضَّجيع وفي أنيابها شنَب

وقال ابن ميَّادة في جعفر ومحمد ابني سليمانَ، وهو يعني أمير المؤمنين المنصور:

وفى لكما يا ابْني سليمان قـاسـم بجَدِّ النُّهى إذ يقسِمِ الخير قاسِمُـهْ

فبيتكُمـا بَـيتٌ رفـيع بـنـاؤه متى يَلق شيئاً مُحْدَثاً فهو هادمُـهْ

لكُمْ كبْش صِدق شذَّبَ الشَّولَ عنكم وكسَّر قرْني كلِّ كبشٍ يصادمُـهْ

من يهجى ويذكر بالشؤم

قال دِعبل بن عليّ، في صالح الأفقم - وكان لا يصحبُ رجلاً إلاَّ ماتَ أو قُتِل، أو سقطَتْ منزلته -:

قل للأمين أمين آل محـمَّـدٍ قول امرئٍ شفقٍ عليه محام

إيَّاك أن تُغترَّ عنك صنـيعة في صالح بن عطيَّة الحجّامِ

ليس الصَّنائعُ عندَه بصنـائع لكنهـنَّ طـوائلُ الإسـلام

اضربْ به نحرَ العدوِّ فإنَّـه جيشٌ من الطاعون والبرسام

وقال محمد بن عبد اللّه في محمد بن عائشة:

لِلهلالـيّ قـتـيلٌ أبداً في كُلِّ عـام

قتَلَ الفضلَ بن سهل وعليَّ بنَ هـشـام

وعجيفاً آخر القو م بأكناف الـشـآم

وغدا يطلب من يق تَل بالسَّيف الحُسامِ

فأعَاذَ اللّـهُ منـه أحمداً خيرَ الأنـامِ

يعني أحمد بن أبي دؤاد.
وقال عيسى بن زينب في الصخري، وكان مشؤوماً:

يا قوم مَنْ كـان لـه والـدٌ يأكلُ ما جمَّعَ مِـنْ وَفْـرِ

فإنَّ عنـدي لابـنـهِ حيلة يموتُ إن أصْحِبَهُ الصخري

كأنما في كـفّـه مِـبـردٌ يبرُد ما طال من العُمْـر

شعر في مديح وهجاء

وقال الأعشى:

فما إنْ على قلبه غمـرةٌ وما إن بعظمٍ لـهُ من وَهَنْ

وقال الكميت:

ولم يقلْ عِنْـدَ زَلّةٍ لـهـمُ كُرُّوا المعاذيرَ إنَّما حَسبُوا

وقال آخر:

فلا تعذراني في الإسـاءةِ إنَّـه شِرارُ الرِّجال من يسيءُ فيُعذرُ

وقال كلثوم بن عمر العتَّابي:

رحل الرَّجاءُ إليك مغتـربـا حُشِدتْ عليه نوائبُ الدَّهْرِ

ردَّت عليك ندامتي أمَـلـي وَثنى إليك عنَانَه شُـكـري

وجعلت عَتْبكَ عتْب موعظةٍ ورجاء عفوك مُنْتَهَى عُذْري

وقال أعشى بكر:

قلّدتك الـشِّـعـر يا سلامة ذا الإفضال والشَّيءُ حيثُ ما جُعلا

والشِّعر يَسْتَنْزِلُ الكريمَ كما اسْ تَنْزَلَ رعْدُ السَّحابةِ السَّبَلا

لو كنت ماءً عِدّاً جممتَ إذا ما ورَد القومَ لم تكنْ وشلا

أنجَبَ آباؤه الكرامُ به إذّ نجلاهُ فَنِعْمَ ما نَجلا

استأثر اللّهُ بالبَقاء وبالحَمْ دِ وولّى الملامَةَ الرَّجلا

وقال الكذَّاب الحِرْمازيُّ لقومه، أو لغيرهم:

لو كنتمُ شاءً لكنتم نقدا أو كنتمُ ماءً لكنتم ثمدا

أو كنتُم قولاً لكنْتُم فَندا

وقال الأعشى في الثياب:

فعلى مثلها أزورُ بني قي س إذا شطّ بالحبيبِ الفِراقُ

المهينين ما لهم في زمان ال سّوءِ حتَّى إذا أفاق أفاقوا

وإذا ذو الفضول ضنّ على المو لى وصارتْ لخيمها الأخلاقُ

ومشى القومُ بالعمادِ إلى الرَّزْ حى وأعيا المُسيم أيْنُ المساقِ

أخذوا فضْلَهُمْ هناكَ وقد تج ري على عرقِها الكرامُ العتاقُ

وإذا الغيث صوبُهُ وضع القِدْ حَ وجُنَّ التِّلاعُ والآفاقُ

لم يزدْهُمْ سفاهة شُربُ الخمْ ر ولا اللّهوُ فيهمُ والسِّباقَ

واضعاً في سراةِ نَجْرانَ رَحْلي ناعماً غير أنني مُشتاقُ

في مطايَا أربابُهُنَّ عِجَالٌ عن ثواءٍ وهمُّهُنَّ العِراقُ

دَرْمَكٌ غُدوةً لنا ونشيلٌ وصَبُوحٌ مباكرٌ واغتباقُ

وندامى بيضُ الوجوةِ كأنَّ الشَّ ربَ مِنْهُمْ مصاعِبٌ أفنـاقُ

فيهمُ الخِصْبُ والسَّماحةُ والنجْ دةُ جَمْعاً والخاطِبُ المسْلاق

وأبيُّون لا يُسامُون ضيْماً ومكيثُون والحلومُ وثاق

وترى مجلساً يغصُّ به المح رابُ بالقوْمِ والثِّيابُ رقاقُ

وقال أيضاً في الثياب:

أزور يزيدَ وعبدَ المسيح وقيساً هُمُ خيرُ أربابها

وكعبة نَجْران حتم علي كِ حتّى تُناخِي بأبوابها

إذا الحِبراتُ تلوّتْ بهم وجرُّوا أسافلَ هُدَّابها

وفي الثياب يقول الآخر:

أسَيْلم ذاكمُ لا خفا بمكانه لعينٍ تُرَجِّي أو لأذن تَسَمَّعُ

من النَّفرِ البيض الذين إذا انْتَمَوْا وهابَ الرِّجال حَلقة البابِ قعْقعوا

جلا الأذفر الأحوى من الْمسك فرقه وطيب الدِّهانِ رأسه فهو أنْزَع

إذا النَّفر السُّود اليمانون حاولوا له حوك برديْهِ أجادُوا وأوسعوا

وقال كثيّر:

يجرِّر سِرْبالاً عليه كأنّه سبيٌّ هلالٍ لم تفتق شرانقه

وقال الجعدي:

أتاني نصرهمْ وَهمُ بَعِيدٌ بلادُهمُ بأرض الخيْزُران

يريد أرض الخصب والأغصان اللَّيِّنةِ.
وقال الشاعر:

في كفّهِ خَيْزُرانٌ ريحها عبقٌ   بكفِّ أَرْوَع في عِرنينه شمم

لأن الملك لا يختصرُ إلاَّ بعُودِ لدْنِ ناعِمٍ، وقال آخر:

تجاوبُها أخرى على خيْزُرانةٍ   يكاد يدنيها من الأرض لينها

وقال آخر:

نَبتُّم نباتَ الخيْزرانيِّ في الثرى   حديثاً متى ما يأتِكُ الخَيْرُ يَنْفع

وقال المسَيَّبُ بن علس:

قِصار الهمِّ إلاَّ في صديق   كأنَّ وِطابَهُمْ مُوشى الضِّبابِ

عين الرضا وعين السخط

وقال المسيب بن علس:

تامتْ فؤادك إذ عرضْتَ لها   حَسَنٌ برأي العين ما تمِقُ

وقال ابن أبي ربيعة:

حسنٌ في كلِّ عينٍ من تودّ

وقال عبد اللّه بن معاوية:

وعين الرِّضا عن كلِّ عيبٍ كليلة ولكنَّ عينَ السُّخط تُبْدي المساويا

وقال رَوْح أبو همَّام:

وعينُ السُّخْطِ تبصِرُ كلَّ عيبِ   وعينُ أخي الرِّضا عن ذاكَ تَعْمى

شعر وخبر

وقال الفرزدق:

ألا خَبِّروني أيَّها النّاسُ إنّما   سألتُ ومنْ يَسْألْ عن العِلمِ يَعلمِ

سؤال امرئٍ لم يُغْفِل العلم صدرُه وما السائل الواعي الأحاديث كالعمي

وقيل لِدَغْفَلٍ: أنَّى لك هذا العلم؟ قال: لسانٌ سَؤُولٌ، وقلبٌ عقول وقال النابغة:

فآبَ مُضلِوهُ بعين جليَّةٍ   وغُودِرَ بالجوْلانِ حَزْمٌ ونائلُ

مُضِلوه: دافنوه، على حدِّ قوله تعالى: "أإذا ضللنا في الأرضِ".
وقال المخبّل:

أضلَّتْ بنو قيس بنِ سَعْدٍ عميدها وفارسها في الدَّهْرِ قيس بن عاصم

قوال زهيرٌ - أو غيره - في سِنانِ بن أبي حارثة:

إن الرَّزيَّة لا رزيَّة مثلها   ما تبتغي غطفانُ يومَ أضَلَّتِ

ولذلك زعم بعضُ النَّاس أنّ سِنان بن أبي حارثة خَرِفَ فذهب على وجهه، فلم يُوجد.

من هام على وجهه فلم يوجد

ويزعمون أنَّ ثلاثة نفرٍ هامُوا على وجُوههم فلم يُوجَدوا: طالب بن أبي طالب، وسنان بن أبي حارثة، ومرداس بن أبي عامر.
وقال جرير:

وإني لأستحْيي أخي أنْ أرى لـه عليَّ من الفضْلِ الذي لا يرى ليا

وقال امرؤ القيس:

وهل يَعِمَنْ إلاَّ خليٌّ منَعَّمٌ   قليلُ الهمومِ ما يبيتُ بأوجالِ

وقال الأصمعي: هو كقولهم: استراحَ منْ لا عَقْل له.
وقال ابن أبي ربيعة:

وأعجبها مِنْ عيشها ظِلُّ غرفةٍ   وريَّانُ مُلْتفُّ الحدائق أخْضَرُ

ووالٍ كفاها كلَّ شيءٍ يَهُمُّها   فليستْ لشيءٍ آخِرَ اللَّيل تسهرُ

مديح الصَّالحين والفُقهاء

قال ابنُ الخيَّاط، يمدح مالك بن أنس:

يأبى الجوابَ فما يُراجَعُ هَيْبَةً والسائلونَ نَواكِسُ الأذْقان

هديُ التقيَّ وعز سلطان التُّقى فهو المطاعُ وليس ذا سُلْطانِ

وقال ابن الخياط في بعضهم:

فتى لم يجالس مالكاً منْذ أنْ نشا ولم يقتبسْ من علمه فهو جاهلُ

وقال آخر:

فأنت باللَّيل ذئبٌ لا حريمَ لـه وبالنَّهار على سمْتِ ابن سيرين

وقال الخليل بن أحمد وذكروا عنده الحظَّ والجِدَّ، فقال: أمَّا الجِدُّ فلا أقول فيه شيئاً، وأمّا الحظّ فأخزى اللّهُ الحظَّ، فإنه يبلّد الطالبَ إذا اتّكل عليه ويبعد المطلوب إليه من مذمَّةِ الطّالب.
وقال ابن شبرمة:

لو شئت كنت ككرْز في تعبُّدِه أو كابنِ طارق حولَ البيت والحرم

قد حالَ دونَ لذيذِ العيش خوفهما وسارعا في طلاب العزِّ والكرمِ

وقال آخر يرثي الأصمعيّ:

لا دَرَّ دَرُّ خطوبِ الدهر إذْ فجعتْ بالأصمعيِّ لقدْ أبقتْ لنـا أسـفا

عش ما بدا لك في الدُّنيا فلست ترى في الدَّهر منهُ ولا من عِلْمِهِ خلفا

وقال الحسنُ بن هانئ، في مرثية خلفٍ الأحمر:

لو كان حيٌّ وائلاً مـن الـتَّـلـف لوألتْ شغْواءُ في أعلى الشَّعفْ

أمُّ فُريخٍ أحرزَتْـه فـي لَـجـف مُزَغَّبِ الألغادِ لم يأكل بـكـفْ

هاتيك أم عصماءُ في أعلى الشّرف تظلُّ في الطُّبّاق والنَّـزْع الألـفْ

أودى جماعُ العلم مذ أودى خلف   قليْذَمٌ من العيالم الخسفْ

وقال يرثيه في كلمةٍ له:

بتُّ أعزّي الفؤاد عن خلفِ   وبات دمْعي إلاّ يَفِض يَكِفِ

أنسى الرَّزايا مَيتٌ فجعتُ به   أضحى رهيناً للتُّربِ في جَدفِ

كان يسنَّى برفْقه غلقُ ال   أفهامِ في لا خرق ولا عُنفِ

يجوبُ عنك التي عشيتَ لها   حيْران، حتّى يشفيك في لُطفِ

لا يهمُ الحاء في القراءة بالخا   ء ولا لامها مع الألف

ولا مضلاً سُبْلَ الكلامِ ولا   يكون إسناده عن الصَّحُفِ

وكان ممن مضى لنا خلفاً   فليس إذْ مات عنهُ مِن خلفِ

وقال آخر في ابن شبرُمة:

إذا سألت الناس أين المكرمهْ   والعزُّ والجُرثومةُ المقدَّمَهْ

وأين فاروقُ الأمورِ المحكمه   تتابع النَّاسُ على ابن شُبرُمَهْ

شعر مختار

وقال ابن عرفطة:

ليهنيكَ بُغْض للصَّدِيق وظِنَّةٌ   وتحديثك الشَّيْءَ الذي أنت كاذبُه

وأنَّك مشنوءٌ إلى كلِّ صاحبٍ   بلاك، ومثل الشر يكره جانبُهْ

وإنّك مهداءُ الخنا نَطِف النّثا   شديد السِّبابِ رافعُ الصّوتِ غالبُه

وقال النّابغة الجعدي:

أبى لي البلاءُ وأنّي امرؤٌ   إذا ما تبَيَّنت لم أرْتب

وليس يريد أنّه في حال تبيُّنُه غير مُرتاب، وإنَّما يعني أنّ بصيرته لا تتغيّر.
وقال ابنُ الجهم، ذات يوم: أنا لا أشكُّ قال له المكيُّ: وأنا لا أكاد أوقن وقال طرفة:

وكرِّي إذا نادى المُضافُ مُحَنّبا كسيد الغضى في الطَّخْية المتورِّدِ

وتقصيرُ يوم الدَّجنِ والدّجن معجب ببهكنةٍ تحت الخباء الـممدَّدِ

أرى قبر نحَّامٍ بخيلٍ بماله كقبْرِ غويٍّ في البطالةِ مُفْسِدِ

لعمرُك إنَّ الموت ما أخطأ الفتى لكالطَّولِ المُرْخى وثنْياه باليد

أرى الموت أعداد النُّفوس ولا أرى بعيداً غداً، ما أقرب اليومَ من غد

وظلْم ذوي القربى أشد مضاضة على المرْءِ من وقع الحسامِ المهنَّد

وفي كثرة الأيدي عن الظلم زاجرٌ إذا خطرَتْ أيدي الرِّجالِ بمشهد

الجعلان والخنافس

وسنقولُ في هذه المحقرات من حشرات الأرض، وفي المذكور من بغاث الطّير وخشاشه، مِمَّا يقتات العذِرة ويُوصف باللؤم، ويُتَقزَّزُ من لمسه وأكلِ لحمه، كالخنفساء والجعل، والهداهِدِ والرَّخم، فإنَّ هذه الأجناس أطلبُ للعذرة من الخنازير.
فأوَّل ما نَذْكُر من أعاجيبها صداقةُ ما بين الخنافس والعقارب، وصداقة ما بين الحيّات والوزَغ، وتزعمُ الأعراب أنّ بين ذكورةِ الخنافس وإناث الجعلان تسافداً وأنهما ينتجان خلقاً ينزع إليهما جميعاً.
وأنشد خَشْنامُ الأعور النحويُّ عن سيبويه النَّحويّ، عن بعض الأعراب في هِجائهِ عدوّاً له كان شديد السَّواد:

عاديتنا يا خُنْفساً كامُ جُعلْ عداوة الأوعالِ حيَّاتِ الجبَلْ

من كلّ عوْدٍ مُرهَفِ النّابِ عُتُلْ يخْرقُ إنْ مسّ وإنْ شمّ قتَلْ

ويثبت أكل الأوعال للحيّات الشِّعرُ المشهور، الذي في أيدي أصحابنا، وهو:

عَلَّ زيداً أن يُلاقي مَرَّةً في التماسِ بعضَ حيَّاتِ الجبلْ

غاير العينينِ مَفطوح الـقـفـا ليس من حيّات حُجْرٍ والقلـل

يتـوارى فـي صُدوعِ مـرَّة رَبذُى الخطفةِ كالقِدحِ المُوَلْ

وترى السمّ علـى أشـداقـه كشعاع الشّمسِ لاحتْ في طَفَلْ

طرد الأرْوى فمـا تـقـربُـهُ ونفى الحيَّاتِ عن بيضِ الحَجَلْ

وإنما ذكر الأروى من بين جميع ما يسكن الجبال من أصناف الوحش، لأنَّ الأروى من بينـها تأكلُ الحيّات، للعداوة التي بينها وبين الحيّات.

استطراد لغوي

والأرْوى: إنـاث الأوعال، واحدتها أرويّة، والناس يُسمُّون بناتِهم باسم الجماعة، ولا يسمُّون البنت الواحدة باسم الواحدة منها: لا يسمُّون بأرويَّة، ويسمُّون بأرْوى، وقال شماخ بن ضِرار:

فما أرْوى وإنْ كرُمتْ علينا بأدنى من مُوقَّفةٍ حَـرُونِ

وأنشد أبو زيدٍ في جماعة الأوريّة:

فما لك من أرْوى تعاديت بالعمى ولاقيتِ كلاباً مُطـلاًّ وراميـا

يقال: تعادى القومُ وتفاقدوا: إذا مات بعضهم على إثر بعض.
وقالت في ذلك ضباعةُ بنت قُرْط، في مرثية زوجها هشام بن المغيرة:

إنَّ أبا عثمـان لـم أنْسـهُ وإنَّ صمتاً عن بُكاهُ لَحُوبْ

تفاقدُوا من معشرٍ ما لـهـمْ أيَّ ذنوب صوّبوا في القليبْ

طلب الحيّات البيض

وأما قوله:

ونفى الحيَّاتِ عنْ بيْضِ الحجل

فإنَّ الحيّات تطلبُ بيض كلِّ طائر وفراخه، وبيضُ كلِّ طائرٍ مما يبيض على الأرض أحبُّ إليها، فما أعرف لذلك عِلَّةً إلا سهولة المطلب.
والأيائل تأكل الحيَّاتِ، والخنازيرُ تأكل الحيَّاتِ وتعاديها.

عداوة الحمار للغراب

وزعم صاحبُ المنطق أن بين الحمار والغراب عداوة، وأنشدني بعضُ النحويِّين:

عاديتنا لا زِلْتَ في تبابِ عَدَاوَة الحمار للغُرابِ

وأنشد ابنُ أبي كريمة لبعض الشُّعراء في صريع الغواني:

فما ريحُ السَّذابِ أشدَّ بُغْضاً إلى الحيَّاتِ منك إلى الغواني

أمثال

ويقال: ألجُّ من الخنفساء، وأفحشُ من فاسية وهي الخنفساء وأفحش من فالية الأفاعي.
والفساء يُوصف بن ضربان من الخَلْق: الخنفساء، والظَّربان.
وفي لجاج الخنفساء يقولُ خلفٌ الأحمر:

لنا صاحبٌ مُولعٌ بالخلافِ كثيرُ الخطاءِ قليلُ الصّوابِ

ألجُّ لجاجاً من الخنفساء وأزْهى إذا ما مشى منْ غرابِ

طول ذماء الخنفساء

وقال الرقاشي: ذكرت صبر الخنزير على نفوذ السهام في جنبه، فقال لي أعرابيٌّ: الخنفساء أصبر منه، ولقد رأيت صبيّاً من صبيانكم البارحة وأخذ شوكة وجعل في رأسها فتيلةً، ثمَّ أوقد نهاراً، ثمَّ غرزها في ظهر الخنفساء، حتَّى أنفذ الشَّوْكة، فغبرْنا ليلتنا وإنَّها لتجولُ في الدّارِ وتُصبح لنا، واللّهِ إنِّي لأظنها كانتْ مُقْرِباً، لانتفاخ بطنها.
قال: وقال القنانيُّ: العَوَاساء: الحامل من الخنافس، وأنشد:

بكْراً عواساءَ تفاسا مُقْربا

أعاجيب الجعل

قال: ومن أعاجيب الجعل أنَّه يموت من ريح الورد، ويعيش إذا أعيد إلى الرَّوث، ويضرب بشدَّة سوادِ لونِه المثل، قال الرَّاجزُ وهو يصفُ أسود سالخاً:

مُهَرّت الأشداق عود قد كَمَلْ   كأنَّما قُمِّص من لِيطِ جُعَلْ

والجعل يظلُّ دهراً لا جناحَ له، ثم ينبت له جناحان، كالنمل الذي يغْبُر دهراً لا جناح له، ثم ينْبت له جناحان، وذلك عند هَلَكَتِه.

تطورالدعاميص

والدّعاميص قد تغبر حيناً بلا أجنحة، ثم تصير فراشاً وبعوضاً، وليس كذلك الجراد والذِّبَّان، لأنَّ أجنحتها تنبت على مقدار من العمر ومرور من الأيام.
وزعم ثمامة، عن يحيى بن خالد: أنَّ البرغوث قد يستحيل بعوضة.

عادة الجعل

والجعل يحرسُ النّىام، فكلما قام منهم قائمٌ فمضى لحاجته تبعه، طمعاً في أنَّه إنَّما يريد الغائط، وأنشد بعضهم قول الشاعر:

يبيتُ في مجلس الأقوامِ يرْبؤُهم   كأنَّه شرطيٌّ باتَ في حَرَسِ

وأنشد بعضهم لبعض الأعراب في هجائه رجلاً بالفسولة، وبكثرة الأكل، وبعظم حَجْم النَّجو:

حتَّى إذا أضحى تدرَّى واكتحل   لجارَتيه ثمَّ ولَّى فَنثَلْ

رزْقَ الأنوقينِ القرنْبى والجَعَلْ

سمى القرنبي والجعل - إذ كانا يقتاتان الزّبل - أنُوقين، والأنوق: الرَّخمة، وهي أحد ما يقتات العذرة، وقال الأعشى:

يا رَخماً قاظ على يَنْخوب   يُعْجِلُ كفَّ الخارئ المُطيبِ

المطيب: الذي يستطيب بالحجارة، أي يتمسَّح بها، وهم يسمُّون بالأنوق كلَّ شيءٍ يقتات النّجْو والزِّبل، إلاَّ أنّ ذلك على التشبيه لها بالرّخم في هذا المعنى وحدهُ، وقال آخر:

يا أيهذا النّابحي نَبْحَ القبَلْ   يدعُو عليَّ كلما قام يُصَلّ

رافعَ كفَّيهِ كما يفري الجُعلْ   وقد ملأتُ بطْنه حتى أتل

غيظاً فأمسى ضغْنُه قد اعتدل

والقبل: ما أقبل عليك من الجبل، وقوله أتل، أي امتلأ عليك غيْظاً فقصّر في مشيته، وقال الجعديّ:

منعَ الغدر فلم أهممْ بـه وأخُو الغدْر إذا هَمَّ فعلْ

خشيةُ اللّه وأنّي رجلٌ إنما ذكري كنار بقبَـلْ

وقال الرَّاجز - وهو يهجو بعضهم بالفُسولة، وبكثرة الأكل، وعِظَم حجْم النَّجْو:

باتَ يعشّي وحْده ألْفي جُعَل

وقال عنترة:

إذا لاقيتَ جمع بني أبـان فإني لائمٌ للجعْدِ لاحـي

كسوتُ الجعد جَعْد بني أبان ردائي بعد عُرْيٍ وافتضاح

ثم شبَّهه بالجعل فقال:

كأنَّ مؤشر العضديْنِ جَحْلاً هُدوجاً بين أقلـبةٍ مِـلاح

تضمن نعمتي فغدا عليهـا بُكوراً أو تـهجَّر في الرَّواح

وقال الشمَّاخ:

وإن يُلقيا شأواً بأرْضٍ هوى له مفرّضُ أطراف الذّراعينِ أفلج

استطراد لغوي والشأو هاهنا: الرَّوث، كأنّه كثره حتَّى ألحقه بالشأو الذي يخرج من البئر، كما يقول أحدهم إذا أراد أن يُنْقي البئر: أخرجْ من تلك البئُر شأواً أو شأوين، يعني من التراب الذي قد سقط فيها، وهو شيءٌ كهيئة الزَّبيل الصَّغير.
والشاو: الطّلّق، والشأو: الفوْت.
والمفرّض الأفلج الذي عنى، هو الجعل، لأنَّ الجعل في قوائمه تحزيز، وفيها تَفْريج.

معرفة في الجعل

وللجعل جناحان لا يكادان يُريان إلاَّ عند الطَّيران، لشدَّة سوادهما، وشبههما بجلده، ولشِدّة تمكنهما في ظهره.
قال الشاعر، حيثُ عدّد الخَوَنَة، وحثّ الأمير على محاسبتهم:

واشدُدْ يديك بزيْدٍ إن ظفِرْت بـه واشْفِ الأرامل من دُحروجة الجُعلِ

والجعل لا يدحرج إلاّ جعراً يابساً، أو بعرة.
وقال سعد بن طريف، يهجو بلال بن رباح مولى أبي بكر:

وذاك أسودُ نوبيٌّ له ذفرٌ كأنَّه جُعلٌ يمشي بقِرْواح

وسنذكر شأنه وشأن بلالٍ في موضعه من هذا الكتاب إن شاء اللّه تعالى.

أبو الخنافس وأبو العقارب

وكان بالكوفة رجلٌ من ولد عبد الجبّار بن وائل بن حُجْر الحضرميّ يكنى أبا الخنافس راضياً بذلك، ولم تكن الكنية لقباً ولا نَبزاً، وكان من الفُقهاء، وله هيئة ورواءٌ، وسألته: هل كان في آبائه من يكنى أبا الخنافس؟ فإن أبا العقارب في آل سلم مولى بني العباس كثيرٌ على اتّباع أثر، وكان أبو الخنافس هذا اكتنى به ابتداءً.

طول ذماء الخنفساء

وقال لي أبو الفضل العنبريّ: يقولون: الضّبُّ أطول شيءٍ ذماء، والخنفساء أطول منه ذماء، وذلك أنه يُغرز في ظهرها شوكةٌ ثاقبة، وفيها ذبالةٌ تستوقدُ وتُصْبِحُ لأهل الدّار، وهي تدِبُّ بها وتجول وربما كانت في تضاعيف حبل قتٍّ، أو في بعض الحشيش والعُشب والخلا، فتصيرُ في فم الجمل فيبتلعها من غير أن يضْغم الخنفساء، فإذا وصلت إلى جوفه وهي حيَّةٌ جالت فيه، فلا تموت حتى تقتله.
فأصحاب الإبل يتعاورون تلك الأواريّ والعلوفاتِ، خوفاً من الخنافس.
هجاء جواس لحسَّان بن بحدل وقال جَوّاس بن القعْطل في حسَّان بن بَحْدل:

هل يُهلكنِّـي لا أبـالـكـم دَنِسُ الثيابِ كطابخ القِدْرِ

جُعلٌ تمطَّى في عمـايتـه زَمِرُ المروءةِ نـاقصُ الشَّبْرِ

لزبابَةٍ سـوداء حـنـظلةٍ والعاجز التَّدبير كالـوَبْـر

فأمَّا الهجاء والمدح، ومفاخرة السُّودان و الحمران، فإنَّ ذلك كلَّه مجموعٌ في كتاب الهجناء والصُّرحاء.

وقد قدّمنا في صدر هذا الكتاب جملةً في القول في الجعْلانِ وغيرِ ذلك من الأجناس اللئيمة والمستْقذرة، في باب النَّتن والطّيب، فكرهنا إعادته في هذا الموضع.

الهدهد

وأما القول في الهدهد، فإنَّ العرب والأعراب كانوا يزعمون أنَّ القنزعة التي على رأسه ثوابٌ من اللّه تعالى على ما كان من برِّه لأُمِّه لأنَّ أمَّه لما ماتتْ جعل قبرها على رأسه، فهذه القنزعة عوضٌ عن تلك الوَهْدة.
والهدهد طائرٌ مُنتن الريح والبدن، من جوهره وذاته، فربَّ شيءٍ يكونُ مُنتِناً من نفسه، من غيرِ عرَض يعرِضُ له، كالتيوس والحيّاتِ وغير ذلك من أجناس الحيوان.
فأمَّا الأعراب فيجعلون ذلك النَّتْنَ شيئاً خامره بسبب تلك الجيفةِ التي كانت مدفونةً في رأسه، وقد قال في ذلك أميَّة أو غيرُه من شعرائهم، فأمَّا أميَّة فهو الذي يقول:

تعَلَمْ بأنَّ اللّه ليس كصنْعْهِ	صنيعٌ ولا يخفى على اللّه مُلحِدُ
وبكلِّ منكرةٍ لهُ مَعْرُوفة	أخرى على عينٍ بما يتعمَّدُ
جُدُدٌ وتوشيم ورسمُ علامةٍ	وخزائنٌ مفتوحة لا تنفدُ
عمن أراد بها وجاب عِيانَه	لا يستقيم لخالق يتزيَّد
غيم وظلماء وغيث سحابةٍ	أزْمانَ كفَّنَ واستراد الهدهُدُ
يبغي القرارَ لأمِّه ليُجنَّها	فبنى عليها في قفاهُ يُمْهدُ
مَهداً وطيئاً فاستقلَّ بحمْلهِ	في الطَّير يحملها ولا يتأوَّد
من أمِّهِ فجُزي بصالح حملها	ولدًا، وكلف ظهره ما تفقد
فتراه يدْلحُ ما مشى بجنازةٍ	فيها وما اختلف الجديد المسند

معرفة الهدهد بمواضع المياه

ويزعمون أنَّ الهدهد هو الذي كان يدلُّ سليمان عليه السلام على مواضع المياه في قعور الأرضين إذا أراد استنباط شيء منها.

سؤال ومثل في الهدهد

ويروُون أنّ نجْدة الحرُوريَّ أو نافع بن الأزرق قال لابن عباس: إنّك تقول إنَّ الهدهدُ إذا نقر الأرض عرف مسافة ما بينه وبين الماء، والهدهُد لا يُبْصر الفخَّ دُوَين التراب، حتى إذا نقر التّمْرة انضمّ عليه الفخُّ فقال: ابنُ عبَّاس إذا جاء القدرُ عمي البصرُ.
ومن أمثالهم: إذا جاء الحينُ غطّى العين.
وابن عباسٍ إن كان قال ذلك فإنّما عنى هدهُد سليمان عليه السلام بعينه؛ فإنَّ القول فيه خلافُ القولِ في سائر الهداهد.
وسنأتي على ذكر هذا الباب من شأنه في موضعه إن شاء اللّه تعالى.
وقد قال الناس في هُدهُد سُليمان، وغرابِ نوح، وحِمار عُزير، وذئبِ أهبان بن أوس، وغير ذلك من هذا الفنّ، أقاويل، وسنقول في ذلك بجملةٍ من القول في موضعه إن شاء اللّه.

بيت الهدهد

وقد قال صاحبُ المنطق وزعم في كتاب الحيوان، أنَّ لكلِّ طائرٍ يعشِّش شكلاً يتخذ عشَّه منه، فيختلف ذلك على قدر اختلاف المواضع وعلى قدر اختلاف صور تلك القراميص والأفاحيص، وزعم أنَّ الهدهُد من بينها يطلب الزِّبل، حتّى إذا وجده نقل منه، كما تنقل الأرضَةُ من التّراب، ويبني منه بيتاً، كما تبني الأرضة، ويضع جُزءاً على جُزْء، فإذا طال مُكثه في ذلك البيت، وفيه أيضاً ولد، أو في مثله، وتربّى ريشه وبدنه بتلك الرائحة، فأخلِقْ به أيضاً أن يُورث ابنه النَّتْن الذي عَلِقه، كما أورث جدُّهُ أباه، وكما أوْرثه أبوه، قال: ولذلك يكون منتِناً.
وهذا وجهُ أنْ كان معلوماً أنّه لا يتَّخِذ عشَّه إلاّ من الزِّبل.
فأمَّا ناسٌ كثير، فيزعمون أن رُبَّ بدنٍ يكونُ طيب الرَّائحة، كفأرة المسك التي ربما كانت في البيوت، ومن ذلك ما يكونُ مُنْتِنَ البَدنِ، كالذي يحكى عن الحيَّاتِ والأفاعي والثَّعابين، ويوجدُ عليه التُّيوس.
اغتيولس وذكر صاحب المنطق أنَّ الطير الكبير، الذي يسمى باليونانية اغتيولس، يحكم عُشَّه ويتقنُه، ويجعله مستديراً مُداخلاً كأنَّه كرة معمولة، وروى أنَّهم يزعمون أنَّ هذا الطائر يجلب الدّارصينيَّ من موضعه، فيفْرشُ به عشَّه، ولا يعشِّش إلاّ في أعالي الشّجَر المرتفعة المواضع، قال: وربّما عمد الناسُ إلى سهامٍ يشدُّون عليها رصاصاً، ثمَّ يرمون بها أعشتها، فيسقط عليهم الدّارصينيُّ، فيلتقطونه ويأخذونه.
من زعم البحريين في الطير ويزعمُ البحْريُّون أنَّ طائرين يكونان ببلاد السُّفالة، أحدُهما يظهر قبل قُدوم السفن إليهم، وقبل أن يُمكِنَ البحرَ من نفسه، لخروجهم في متاجرهم فيقول الطائر: قرب آمَدْ، فيعلمون بذلك أنَّ الوقت قدْ دنا، وأنْ الإمكان قد قرب.
قالوا: ويجيء بهِ طائرٌ آخر، وشكل آخر، فيقول: سمارو، وذلك في وقت رجوع من قد غاب منهم، فيسمُّون هذين الجنسين من الطير: قرب، وسمارو، كأنَّهم سمَّوهما بقولهما، وتقطيع أصواتهما، كما سمَّت العربُ ضرباً من الطَّير القطا، لأن

القطا كذلك تصيح، وتقطيع أصواتها قطا، وكما سمَّوا الببغاء بتقطيع الصَّوتِ الذي ظهر منه.
فيزعم أهل البحر أنّ ذينك الطائرين لا يطير أحدهما أبداً إلاّ في إناث، وأنّ الآخر لا يطير أبداً إلاّ في ذكورة.

وفاء الشفنين

وزعم لي بعضُ الأطباء ممن أصدّق خبره، أنّ الشِّفنين إذا هلكت أنثاه لم يتزوَّج وإن طال عليه التعزُّب، وإن هاج سفد ولم يطلب الزواج.

من عجائب الطير

وحكوا أنَّ عندهم طائرين، أحدهما وافي الجناحين وهو لم يطِرْ قطّ، والآخر وافي الجناحين، ولكنه من لدُنْ ينهض للطَّيرانِ فلا يزالُ يطيرُ ويقتات من الفراش وأشباه الفراش، وأنَّه لا يسقط إلاَّ ميِّتاً، إلاَّ أنهم ذكروا أنه قصير العمر.
كلام في قول أرسطو ولست أدفع خبر صاحب المنطق عن صاحب الدارصيني، وإن كنت لا أعرف الوجه في أنَّ طائراً ينهض من وكره في الجبال، أو بفارس أو باليمن، فيؤمُّ ويعمد نحو بلاد الدارصيني، وهو لم يجاوز موضعه ولا قرب منه، وليس يخلو هذا الطائر من أن يكون من الأوابد أو من القواطع، وإنْ كان من القواطع فكيف يقطع الصَّحصحان الأملس وبطون الأوْديةِ، وأهضامَ الجبال بالتّدويم في الأجواء، وبالمضيِّ على السَّمت، لطلب ما لم يرَهُ ولم يشمُّه ولم يذقه، وأخرى فإنّه لا يجلب منه بمنقاره ورجليه، ما يصير فِراشاً له ومهاداً، إلا بالاختلاف الطويل، وبعد فإنّه ليس بالوطيء الوثير، ولا هو له بطعام.
فأنا وإن كنت لا أعرفُ العلَّة بعينها فلست أنكر الأمور من هذه الجهة، فاذكرْ هذا.

قول أبي الشيص في الهدهد

وقال أبو الشِّيص في الهدهد:

لا تأمننَّ على سِرِّي وسِرِّكـمُ   غيري وغيْرك أو طيِّ القراطيس
أو طائر سأحَلِّيهِ وأنـعتـه   ما زال صاحبَ تنقير وتدسيسِ
سودٍ بـراثِنـه مـيلِ ذوائبُـه   صُفر حمالِقه في الحسن مَغمُوس
قد كان همَّ سليمـانٌ لـيذبـحـه   لولا سِعايته في ملك بـلـقـيس

وقد قدَّمنا في هذا الكتاب في تضاعيفه، عدَّة مقطَّعات في أخبار الهدهُد.

الرخم

و يقال: إنّ لئامَ الطير ثلاثة: الغِربانُ، والبُوم، والرَّخَم

أسطورة الرخم

ويقال: إنّه قيل للرَّخمة: ما أحمقك قالت: وما حُمْقي، وأنا أقطعُ في أوّلِ القواطع، وأرْجِع في أوَّلِ الرَّواجِع، ولا أطير في التَّحسير، ولا أغتر بالشَّكير، ولا أسقط على الجفِير.
وقد ذكرْنا تفسير هذا، وقال الكميت:

إذْ قيل يا رَخَمَ انطقي　　　في الطَّير إنّك شرُّ طائرْ

بعض الملوك العجم والجلندي الزدي وقال أبو الحسن المدائني: أمَر بعضُ ملوك العجم الجُلَنْدي بنَ عبد العزيز الأزديَّ، وكان يقال له في الجاهلية عرجدة، فقال له: صِدِ لي شرَّ الطير، واشوه بشرِّ الحطب، وأطعِمْه شرَّ الناس، فصاد رخمةً وشواها ببَعْر، وقرَّبها إلى خوزيّ، فقال له الخوزيُّ: أخطأت في كلِّ شيء أمرك بهِ الملك: ليس الرَّخمةُ شرَّ الطير، وليس البعرةُ شرَّ الحطب، وليس الخوزيُّ شرّ الناس، ولكن اذهب فصِد بومة، واشوها بدفلى، وأطعمها نبطيّاً ولدَ زنى، ففعل، وأتى الملك فأخبره، فقال: ليس يُحْتاج إلى ولد زنى يكفيه أن يكون نبطيّاً.

الغراب والرخمة

والغراب يقوَى على الرَّخمة، والرخمة أعظم من الغراب وأشدُّ، والرَّخمة تلتمس لبيضها المواضعَ البعيدة، والأماكنَ الوحشيَّة، والجبالَ الشامخة، وصُدوعَ الصَّخر، فلذلك يقالُ في بيض الأنوق ما يقال.
ما قيل في بيض الأنوق وقال عُتبة بن شمّاس:

إنَّ أولى بالحقِّ في كلِّ حقٍّ　　　ثمَّ أولى أنْ يكون حقيقا

منْ أبوهُ عبد العزيز بنُ مروا　　　نَ ومنْ كانَ جدُّهُ الفارُوقا

ردَّ أموالنا عليْنا وكانتْ　　　في ذُرى شاهقٍ تفُوت الأنوقا

وطلب رجلٌ من أهل الشام الفريضة من معاوية فجاد له بها، فسأل لولدِه، فأبى، فسأله لعشيرته، فقال معاوية:

طلب الأبْلقَ العقوق فلمّا　　　لمْ يجدْهُ أراد بيضَ الأنُوق

وليس يكون العَقُوق إلاَّ من الإناث، فإذا كانت من البُلق كانت بلقاء، وإنما هذا كقولهم: زَلَّ في سَلَى جَمَل، والجمل لا يكون له سلًى.

وقد يرون بيض الأنوق، ولكنَّ ذلك قليلاً ما يكون، وأقلَّ من القليل، لأنَّ بيضها في المواضع الممتنعة، وليست فيها منافع فيتعرض في طلبها للمكروة.
وأنا أظنُّ أن معاوية لم يقل كما قالوا: ولكنَّهُ قدم في اللّفظ بيض الأنوق، فقال: طلب بيض الأنوق، فلما لم يجدْه طلب الأبلق العقوق.
ما يسمَّى بالهدهد وأمَّا قول ابن أحمر:

يمشي بأوظفةٍ شديدٍ أسْرُها شمِّ السنابك لا تقي بالجدجد

إذ صبَّحته طاوياً ذا شِرَّةٍ وفؤادُه زجلٌ كعزْفِ الهدهد

فقد يكون ألاّ يكون عنى بهذا الهدهد، لأنَّ ذكورة الحمام وكلَّ شيء غنّى من الطير وهدر ودعا، فهو هُدهد، ومن روى كعَزْفِ الهدهدِ فليس من هذا في شيء.
وقد قال الشاعر في صفة الحمام:

وإذا اسْتَشرنَ أرنَّ فيها هدهدٌ مِثْلُ المداكِ خضبته بجسادِ

قصة في ميل بعض النساء إلى المال وخطب رجلٌ جميلٌ امرأةً، وخطبها معه رجل دميم فتزوجت الدَّميم لماله، وتركته، فقال:

ألا يا عبادَ اللهِ ما تأمُرونني بأحسن من صلّى وأقبحِهِمْ بعلاً

يدِبُّ على أحشائها كلَّ ليلة دبيبَ القرنْبى بات يقرو نقاً سَهْلا

ما يطلب العذرة

والأجناس التي تريد العذِرة وتطلبها كثيرة، كالخنازير، والدَّجاج، والكلاب، والجراد، وغير ذلك، ولكنها لا تبلغ مبلغ الجُعل والرّخمة.
بعض ما يأكل الأعراب من الحيوان وقال ابن أبي كريمة: كنتُ عند أبي مالك عمرو بن كِرْكِرة، وعنده أعرابيٌّ، فجرى ذكر القرنْبى، قال: فقلت له: أتعرف القرنْبى؟ قال: وما لي لا أعرف القرنبى؟ فو اللّه لربّما لم يكن غدائي إلاّ القرنبى يُحسْحسُ لي، قال: فقلت له: إنها دويْبّة تأكل العذرة، قال: ودجاجكم تأكل العذرة.
وقال: قال بعض المدنيِّين لبعض الأعراب: أتأكلون الحيّاتِ والعقاربَ والجِعْلان والخنافس؟ فقال: نأكل كلَّ شيء إلاّ أمَّ حُبين، قال: فقال المدنيّ: لتَهْنِ أمَّ الحبينِ العافية.
قال: وحدثنا ابن جريجٍ، عن ابن شهاب، عن عبيد اللّه بن عبد اللّه بن عتبة، عن ابن عباس، أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: من الدوابِّ أربعٌ لا يُقتلن: النملة، والنَّحلة، والصُّرَد، والهدهُد.

الخفاش

فأوّل ذلك أنَّ الخفّاش طائر، وهو مع أنّه طائرٌ من عَرَضِ الطير فإنّه شديد الطَّيران، كثير التكفّي في الهواء، سريع التقلُّب فيه، ولا يجوز أن يكون طُعمه إلا من البعوض، وقوتُه إلا من الفراش وأشباه الفراش، ثمَّ لا يصيده إلاّ في وقت طيرانه في الهواء، وفي وقت سلطانه، لأنَّ البعوض إنَّما يتسلط بالليل، ولا يجوز أن يبلغ ذلك إلاّ بسرعة اختطافٍ واختلاس، وشدّةِ طيران، ولين أعطاف وشدّة متن، وحسن تأتٍّ، ورفقٍ في الصّيد، وهو مع ذلك كلِّه ليس بذي ريش، وإنما هو لحم وجلد، فطيرانه بلا ريش عجب، وكلما كان أشدَّ كان أعجب.

من أعاجيب الخفاش

ومن أعاجيبه أنّه لا يطير في ضوءٍ ولا في ظلمة، وهو طائر ضعيفُ قُوَى البصر، قليلُ شعاع العين الفاصِلِ من النَّاظر، ولذلك لا يظهر في الظُّلمة، لأنّها تكون غامرة لضياء بصره، غالبةً لمقدار قوى شعاع ناظره، ولا يظهر نهاراً، لأنَّ بصره لِضعف ناظره يلتمع في شدة بياض النهار، ولأنَّ الشيء المتلألئ ضارٌّ لعيونِ الموصوفين بحدَّة البصر، ولأن شعاع الشمس بمخالفة مخرج أصوله وذهابه، يكون رادعاً لشعاع ناظره، ومفرِّقاً له، فهو لا يبصر ليلاً ولا نهاراً، فلما علم ذلك واحتاج إلى الكسب والطُّعم، التمس الوقت الذي لا يكون فيه من الظلام ما يكون غامراً قاهراً، وعالياً غالباً، ولا من الضِّياء ما يكون مُعْشياً رادعاً، ومفرِّقاً قامِعاً، فالتمس ذلك في وقت غروب القُرص، وبقيّةِ الشّفق، لأنّه وقت هيْج البعوض وأشباه البعوض، وارتفاعها في الهواء، ووقت انتشارها في طلب أرزاقها، فالبعوض يخرج للطعم، وطعمه دماء الحيوان، وتخرج الخفافيش لطلب الطعم، فيقع طالبُ رزق على طالب رزق، فيصير ذلك هو رزقه، وهذا أيضاً مما جعل اللّه في الخفافيش من الأعاجيب.

علاقة الأذن بنتاج الحيوان

ويزعمون أن السُّك الآذان والممسوحة، من جميع الحيوان، أنها تبيضُ بيضاً، وأنّ كلَّ أشرف الآذان فهو يلد ولا يبيض، ولا ندْري لم كان الحيوان إذا كان أشرفُ الآذان ولد، وإذا كان ممسوحاً باض.
ولآذان الخفافيش حجمٌ ظاهر، وشخوص بيِّن، وهي وإن كانت من الطير فإنَّ هذا لها، وهي تحبل وتلد، وتحيض، وترضع.

ما يحيض من الحيوان

والناس يتقزّزون من الأرانب والضِّباع، لمكان الحيض.
وقد زعم صاحب المنطق أنَّ ذوات الأربع كلَّها تحيضُ، على اختلافٍ في القلَّة والكثرة، والزّمان، والحمرة والصفرة، والرقة والغلظ، قال: ويبلغ من ضنٍّ أنثى الخفافيش بولدها ومن خوفها عليه، أنها تحمله تحت جناحها، وربّما قبضت عليه بفيها، وربّما أرضعته وهي تطير، وتقوى من ذلك، ويقوى ولدُها على ما لا يقوى عليه الحمام والشَّاهْمرْك، وسباع الطير.

معارف في الخفاش

وقال معمرٌ أبو الأشعث: ربَّما أتأمتِ الخفافيشُ فتحمل معها الولدين جميعاً، فإنْ عظُما عاقبتْ بينهما.
والخفّاش من الطير، وليس له منقار مخروط، وله فمٌ فيما بين مناسر السِّباع وأفواه البوم، وفيه أسنانٌ حداد صلاب مرصوفة من أطراف الحنك، إلى أصول الفك، إلاّ ما كان في نفس الخطم، وإذا قبضتْ على الفرخ وعضتْ عليه لتطير به، عرفت ذَرَب أسنانها، فعرفت أي نوعٍ ينبغي أن يكون ذلك العض، فتجعله أزْماً ولا تجعله عضّاً ولا تنْييباً ولا ضَغْماً، كما تفعل الهرَّة بولدها، فإنّها مع ذربِ أنيابها، وحدَّة أظفارها ودِقَّتها، لا تخدش لها جلداً، إلا أنها تُمْسِكها ضرباً من الإمساك، وتأزم عليها ضرباً من الأزم قد عَرفته.
ولكل شيءٍ حدٌّ به يصلح، وبمجاوزته والتقصير دُونه يفسد.
وقد نرى الطّائر يغوص في الماء نهاره، ثم يخرج منه كالشَّعرة سَلَلْتها من العيجن، غير مبتلِّ الرِّيش، ولا لثِق الجناحين، ولو أنَّ أرفق الناس رِفقاً، راهن على أن يغمس طائراً منها في الماء غمسةً واحدة ثمّ خلَّى سِربه ليكون هو الخارج منه، لخرج وهو متعجِّن الريش، مُفْسد النظم، منقوضُ التأليف، ولكان أجود ما يكون طيراناً أن يكون كالجادفِ، فهذا أيضاً من أعاجيب الخفاش.

من أعاجيب الخفافيش

ومن أعاجيبها تركها ذرى الجبال وبسيط الفيافي، وأقلاب النخل، وأعالي الأغصان، ودَغل الغياض والرياض، وصُدوع الصّخر، وجزائر البحر، ومجيئها تطلب مساكن الناس وقربهم، ثم إذا صارت إلى بيوتهم وقربهم، قصدت إلى أرفع مكان وأحصنه، وإلى أبعد المواضع من مواضع الاجتياز، وأعرض الحوائج.

طول عمر الخفاش

ثمَّ الخفّاشُ بعد ذلك من الحيوان الموصوف بطول العمر، حتى يجوز في ذلك العُقابَ والورشان إلى النسر، ويجوز حد الفِيَلة والأُسْد وحَمير الوحش، إلى أعمار الحيّات.
ومن أعاجيب الخفافيش أنّ أبصارها تصلح على طول العمر، ولها صبرٌ على طول فقد الطُّعم، فيقال إنّ اللواتي يظهرن في القمر من الخفافيش المسنّاتُ المعمَّرات، وإنّ أولادهن إذا بلغن لم تقو أبصارهُنَّ على ضياء القمر.
ومن أعاجيبها أنها تضخم وتجسم وتقبل الشّحم على الكبر وعلى السنّ.

القدرة التناسلية لدى بعض الحيوان

وقد زعم صاحبُ المنطق أنَّ الكلاب السلوقيَّة كلما دخلتْ في السنِّ كان أقوى لها على المعاظلة.
وهذا غريبٌ جداً، وقد علمنا أنّ الغلام أحدُّ ما يكون وأشبقُ وأنكحُ وأحرصُ، عند

أوّل بلوغه، ثم لا يزالُ كذلك حتى يقطعه الكبر أو إصفاء أو تعرض له آفة.
ولا تزال الجاريةُ من لدُنْ إدراكها وبلوغِها وحركة شهوتها على شبيه بمقدارٍ واحد من ضعف الإرادة، وكذلك عامَّتهنَّ، فإذا اكتهلن وبلغت المرأة حدّ النَّصَف فعند ذلك يقوى عليها سلطانُ الشَّهوةِ والحرص على الباهِ، فإنما تهيج الكهلة عند سُكون هيج الكهل وعند إدبار شهوته، وكلال حدِّه.

قول النساء في أشباهن في الخفافيش

وأما قول النساء وأشباه النساء في الخفافيش، فإنهم يزعمون أن الخفاش إذا عضَّ الصبي لم ينزع سنه من لحمه حتى يسمع نهيق حمار وحشيٍّ، فما أنسى فزعي من سِنِّ الخفاش، ووحشتي من قربه إيماناً بذلك القول، إلى أن بلغت.
وللنساء وأشباه النساء في هذا وشبهه خرافاتٌ، عسى أن نذكر منها شيئاً إذا بلغنا إلى موضعه إن شاء اللّه.

ضعف البصر لدى بعض الحيوان

ومن الطير وذوات الأربع ما يكون فاقد البصر بالليل، ومنها ما يكون سيّءَ البصر، فأمّا قولهم: إنَّهَ الفأرة والسنّور وأشياء أخر أبصرُ باللَّيل، فهذا باطل.
والإنسان رديء البصر باللَّيل، والذي لا يبصر منهم باللَّيل تسمّيه الفرْس شبْكُور وتأويلُهُ أنَّهُ أعْمى ليْلٍ، وليْسَ لهُ في لُغةِ العربِ اسم أكثرُ من أنّه يُقالُ لمنْ لا يُبْصِرُ باللَّيل بعينه: هُدَبِد، ما سمعتُ إلاّ بهذا، فأمّا الأغطش فإنّه السيِّءُ البصر بالليل والنهار جميعا.
وإذا كانت المرأة مُغْرَبَةَ الْعَيْنِ فكانت رديَّة البصر، قيل لها: جَهْراء، وأنشد الأصمعيُّ في الشاء:

جهراء لا تألو إذا هي أظهرتْ بصراً ولا مِنْ عَيْلَةٍ تُغنيني

وذكروا أنَّ الأجهر الذي لا يبصر في الشمس، وقوله لا تألو أي لا تستطيع، وقوله: أظهرت صارت في الظهيرة، والعَيْلَة: الفقر، قال: يعني به شاة. وقال يحيى بن منصور، في هجاء بعض آل الصَّعِق:

يا ليتني والمنى ليستْ بمغْنيةٍ كيف اقتصاصك من ثأرِ الأحابيش

أتنكحون مواليهم كما فعلوا أمْ تغْمِضون كإغماضِ الخفافيش

وقال أبو الشمقمق، وهو مروان بن محمد:

أنا بالأهواز محزو نٌ وبالبصرة داري

في بني سعدٍ وسعد حيث أهلي وقراري

صرت كالخفاش لا أبْ صِرُ في ضوء النهار

وقال الأخطل التغلبيّ:

وقد غبرَ العَجْلان حيناً إذا بكى على الزّاد ألقته الوليدة في الكسرِ

فيصبح كالخُفاش يدلك عينه فقُبِّح من وجهٍ لئيمٍ ومن حَجْرِ

وقالوا: السحاة مقصورة: اسم الخفاش، والجمع سحاً كما ترى.

لغز في الخفاش

وقالوا في اللُّغز، وهم يعنون الخفّاش:

أبى شعراءُ النَّاس لا يُخبرونني وقد ذهَبُوا في الشِّعر في كلِّ مذهبِ

بجلدةِ إنسان وصُورةِ طائرٍ وأظْفار يَرْبوع وأنيابِ ثعلب

النهي عن قتل الضفادع والخفافيش

هشامٌ الدَّسْتوائي قال: حدَّثنا قتادة، عن زرارة بن أوفى، عن عبد اللّه بن عمر أنّه قال: لا تقتلوا الضَّفادِعَ فإنَّ نقيقهُنَّ تسبيح، ولا تقتلوا الخفَّاش فإنَّه إذا خرب بيت المقْدس قال: يا ربِّ سلِّطني على البحر حتّى أغرقهم.
حماد بن سلمة قال: حدّثنا قتادة، عن زرارة بن أوفى، قال: قال عبد اللّه بن عمر: لا تقتلوا الخفَّاش، فإنّه استأذنَ في البحر:أن يأخذ من مائه فيطفئ نار بيت المقدسِ حيث حرق، ولا تقتلوا الضَّفادع فإنَّ نقيقها تسبيح.
قال: وحدثنا عثمان بن سعيد القرشي قال: سمعت الحسن يقول: نهى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم عن قتل الوَطْواطِ، وأمر بقتل الأوزاغ.
قال: والخفاش يأتي الرُّمانة وهي على شجرتها، فينقب عنها، فيأكل كلَّ شيءٍ فيها حتى لا يدع إلاّ القشر وحده، وهم يحفظون الرُّمَّان من الخفافيش بكلِّ حيلة.
قال: ولحوم الخفافيش موافقةٌ للشواهين والصُّقورة والبوازي، ولكثير من جوارح الطير، وهي تسمن عنها، وتصحّ أبدانُها عليها، ولها في ذلك عملٌ محمودٌ نافعٌ عظيمُ النَّفْع، بيِّنُ الأثر، واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

الجزء الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم

وصَلَّى اللَّهُ على سَيِّدنا مُحَمَّدٍ وعلى آلهِ وصحبهِ وَسلَّمَ نَبدأ في هذا الجزء، بعَوْن اللهِ وتأييدِه، بالقول في جُمْلة الذّرّة والنملة، كما شرطنا به آخِرَ المصحَفِ، الثَّالث، ولا حولَ ولا قوَّة إلاَّ باللّه العليِّ العظيم.

خصائص النملة

قد علمنا أنَّ ليس عندَ الذَّرَّةِ غَنَاءُ الفرَسِ في الحرب، والدَّفْع عن الحريم، ولكنّا إذا أردْنا موضِعَ العجَبِ والتَّعجيب، والتَّنْبيه على التدبير،، ذكرنا الخسيسَ القليلَ، والسَّخِيفَ المهين، فأرَيْناكَ ما عنده من الحِسِّ اللطيفِ، والتَّقْدير الغريب، ومِن النظر في العواقب، ومشاكلةِ الإنسان ومزاحمَتِه.
والإنسانُ هو الذي سُخِّر له هذا الفلكُ بما يشتمل عليه.

وقد علمنا أنَّ الذَّرَّة تدّخرُ للشتاء في الصَّيف، وتتقدَّمُ في حال المُهلةِ، ولا تُضيعُ أوقاتَ إمكانِ الحزم، ثم يبلغ من تفقُّدها وحُسْنِ خبرها والنظر في عواقب أمْرِها، أنَّها تخافُ على الحبوب التي ادَّخَرَتْها للشّتاءِ في الصيف، أنْ تعفنَ وتُسوِّسَ ، يقبلها بطن الأرض، فتخرجها إلى ظهرها، لتُيبِّسها وتُعيدَ إليها جُفوفها، وليضربها النَّسِيمُ، وينفَى عنها اللَّخَنَ والفساد، ثمَّ ربّما كان، بل يكون، أكثر - مكانُها ندياً وإن خافتْ أن تنبت نَقرتْ موضع القطْمير، من وسط الحبّة، وتعلم أنّها من ذلك الموضع تبتدئُ وتنبتُ وتنقل، فهي تفلق الحبّ كلّه أنصافاً، فأمّا إذا كان الحب من حبِّ الكُزْبُرة، فلقته أرباعًا، لأنَّ أنْصافَ حبِّ الكزبرة ينبت منْ بين جميع الحبوب، فهي على هذا الوجه مجاوزةٌ لفِطنةِ جميع الحيوان، حتَّى ربَّما كانت في ذلك أحزمَ من كثير من الناس، ولها، مع لطافة شخْصها وخِفَّة وزنها، وفي الشمِّ والاسترواح ما ليس لشيء. وربّما أكل الإنسانُ الجرادَ أو بعض ما يشبه الجرادَ، فتسقط من يدِه الواحدةُ أو صدرُ الواحدة، وليس يرى بقُربه ذَرَّةً ولا له بالذّرِّ عَهْدٌ في ذلك المنزلِ، فلا يلبثُ أن تُقْبِل ذَرَّة قاصدةٌ إلى تلك الجرادة، فترومها وتحاول قلْبها ونقلها، وسحبها وجرَّها، فإذا أعجزتْها بَعْدَ أن بلغَتْ عُذْرًا، مضتْ إلى جُحرها راجعة، فلا يلبَثُ ذلك الإنسانُ أن يراها قد أقبلتْ، وخَلفها صُويحباتُها كالخيطِ الأسودِ الممدوُد، حتى يتعاونَّ عليها فيحملنها، فأوّلُ ذلك صِدْق الشَّمَّ لما لا يشَمُّه الإنسان الجائع، ثمَّ بُعْدُ الهمَّةِ، والجراءةُ على محاولةِ نقل شيءٍ في وزْن جسمِها مائة مرَّة، وأكثر من مائةِ مرّة، وليسَ شيءُ من الحيوان يقْوى على حملِ ما يكونُ ضعف وزنه مرارًا غيْرَها، وعلى أنها لا ترضى بأضعْافِ الأضعافِ، إلاّ بعد انقطاع الأنفاس،

كلام النمل

فإن قلت: وما علَّمَ الرَّجُلَ أنَّ الَّتي حاولتْ نَقْل الجرادَةِ فعجَزت، هي التي أخْبَرَتْ صُوَيحباتِها من الذَّرّ، وأنها كانت على مقدَّمتهن؟ قلنا: لِطُول التَّجربة، ولأنّا لم نر ذَرَّةً قط حاولَتْ نقل جرادةٍ فعجزتْ عنها، ثمَّ رأيناها راجعةً، إلاّ رأينا معها مثْلَ ذلك، وإنْ كنّا لا نَفْصِلُ في العين بينها وبينَ أخواتها، فإنَّه ليس يقعُ في القلب غيرُ الذي قلنا، وعلى أنَّنا لم نرَ ذَرَّةً قطُّ حملت شيئاً أو مضت إلى جُحرها فارغة، فتلقاها ذَرّةٌ، إلاّ واقفتْها ساعة وخبَّرتْها بشيء، فدَلَّ ذلك على أنّها في رجوعها عن الجرادة، إنَّما كانت لأشباهها كالرَّائد لا يكذبُ أهْلَهُ ومن العجب أنَّك تُنْكر أنَّها توحي إلى أخْتِها بشيءٍ، والقرآنُ قد نطق بما هو أكثرُ من ذلك أضعافاً، وقال رُؤْبة بن العجَّاج:

لو كُنْتُ عُلِّمْتُ كلامَ الحُكْلِ عِلْمَ سُلَيْمانَ كلامَ النَّمْلِ

وقال اللّه عز وجلّ: "حَتى إذا أتَوْا على وادي النَّمْلِ قالتْ نَمْلةٌ يا أيُّها النَّمْلُ ادْخُلوا مساكِنَكُمْ لا يحْطِمَنَّكُمْ سُليمانُ وجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعرُونَ، فتبَسَّمَ ضاحِكاً منْ قولها وقالَ ربِّ أوْزِعْني أنْ أشكُرَ نعْمتك الَّتي أنعمت عليَّ" فقد أخبر القرآنُ أنها قد عرَفَتْ سليمان وأثبتتْ عيْنَهُ، وأنَّ علْمَ منطقها عندَه، وأنها أمرتْ صُويحباتها بما هو أحزَمُ وأسلم، ثمَّ أخْبَرَ أنها تعرفُ الجنودَ من غير الجنود، وقد قالت:)وَهُمْ لا يَشْعُرُون(، ونخَالُك أيها المنكِرُ تبسُّمَهُ بحالهنَّ ، أنّك لم تعرفْ قبْلَ ذلك الوقتِ وبَعْدَهُ، شيئاً مِنْ هذا الشكل من الكلام، ولا تدْبيرًا في هذا المقدار، وأمّا ما فوق ذلك فليس لك أن تدَّعيه، ولكن، ما تُنكِرُ من أمثاله وأشباهه وما دُون ذلك، والقرآنُ يدلُّ على أنّ لها بياناً، وقولاً، ومنطقاً يفصلُ بين المعاني التي هي بسبيلها؟ فلعلها مكلَّفة، ومأمورةٌ منهيَّة، ومُطيعةٌ عاصية، فأوّل ذلك أن المسألة من مسائل الجهالات، وإنّ مَنْ دَخلتْ عليه الشُّبهة من هذا المكانِ لناقصُ الرَّويَّة، رَديُّ الفكْرة.
وقد علمنا، وهم ناس ولهم بذلك فضيلةٌ في الغريزةِ وفي الجنسِ والطَّبيعة، وهم ناسٌ إلى أن ينتهوا إلى وقت البلوغ ونزول الفَرْض حتى لو وَردت ذَرّةٌ لشربتْ مِنْ أعلاه.

شعر فيه ذكر النمل

استطراد لغوي قال أبو زيد: الحمكة القمْلة، وجمعه حَمَك، وقد ينقاسُ ذلك في الذَّرّةِ.
قال أبو عبيدة: قرية النمل من التُّراب وهي أيضاً جرُثومة النمل، وقال غيره: قرية النمل ذلك التراب والجُحرُ بما فيه من الذرِّ والحبِّ والمازنِ، والمازنُ هو البيض، وبه سمَّوا مازن.
قال أبو عَمْرو : الزِّبال ما حملت النملة بفيها، وهو قول ابن مُقبل :

كريم النِّجار حَمَى ظهره فلم يُرْتَزَأ برُكوب زبالا

شعر في التعذيب بالنمل

وأنشد ابن نُجيمْ:

هَلكوا بالرُّعافِ والنمل طوْراً ثمَّ بالنَّحس والضِّباب الذُّكور

وقال الأصمعيّ في تسليط الله الذَّرَّ على بعض الأمم:

لحقوا بالزّهْوَيَين فأمسوا لا ترى عُقْرَ دارهم بالمبين

سلَّط الله فازرا وعُقيفا ن فجازاهُمُ بدارِ شَطون

يتبعُ القارَّ والمسافرَ مِنْهُمْ تحت ظلِّ الهدى بذات الغُصون

فازر، وعقيفان: صنفان من الذَّرّ، وكذلك ذكروه عن دغفل بن حنظلة الناسب، ويقال: إنّ أهل تهامة هلكوا بالرُّعافِ مرتين، قال: وكان آخِرُ من مات بالرُّعاف من سادة قريش، هِشامَ ابن المغيرة.
قال أميّةُ بن أبي الصَّلت في ذلك:

نُزِعَ الذِّكْرَ في الحياةِ وغنا وأراهُ العذاب والتَّدميرا

أرسلَ الذَّرَّ والجرادَ عليهم وسِنيناً فأهلكَتْهُمْ ومُورا

ذَكَرُ الذَّرِّ إنَّه يفعل الشر رَّ وإن الجراد كان ثُبُورا

النبي سليمان والنملة

وقرأ أبو إسحاق قوله عز وجلَّ: "وَحُشِرَ لِسُليمانَ جُنودُهُ مِن الجنِّ والإنسِ والطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعونَ"، حتَّى إذا أتَوْا على وادي النَّمْلِ، فقال: كان ذلك الوادي معروفاً بوادي النمل، فكأنّه كان حِمى، وكيف نُنْكِرُ أن يكون حمى؟ والنَّمْلُ ربَّما أجْلتْ أمَّةً من الأمم عن بلادهم.
ولقد سألت أهل كسكر فقلت: شَعِيرُكُمْ عَجبٌ، وأرْزكُمْ عَجبٌ، وسمككم عجب، وجِداؤكُمْ عجب، وبطُّكم عَجبٌ، ودَجاجُكم عجب، فلو كانت لكم أعناب فقالوا: كلُّ أرضٍ كثيرة النَّمْلِ لا تصلُح فيها الأعناب، ثمَّ قرأ: قالتْ نَمْلَةٌ يا أيها النّمْلُ ادْخُلوا مساكِنَكُمْ فجعل تلك الجِحَرَةَ مساكن، والعربُ تسميها كذلك ثمَّ قال: لا يحْطمنَّكُمْ

سُليمانُ وَجنودهُ فجمعتْ من اسمه وعينه، وعرفت الجنْدَ من قائد الجند، ثم قالت: "وَهُمْ لا يشعْرُونَ" فكانوا معذورين، وكنتم ملومين، وكان أشدَّ عليكم، فلذلك قال: فتبسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قوْلِها لما رأى مِنْ بُعْدِ غوْرها وتسديدها، ومعرفتها، فعند ذلك قال: رَبِّ أوْزِعْني أن أشْكُرَ نِعْمتكَ الَّتي أنعمْتَ عليَّ وعلى والديَّ وأنْ أعملَ صالِحاً ترضاهُ وأدْخلني برحْمَتِكَ في عِبادِكَ الصَّالحينَ،

أمثال في النمل

قال: ويقال: ألطف من ذرَّةٍ و: أضْبطُ مِنْ نملة، قال: والنملةُ أيضاً: قُرحَةَ تعرضُ للسَّاق، وهي معروفة في جزيرة العرب، قال: ويقال: أنْسَبُ مِنْ ذَرّ قول في بيت من الشعر فأمَّا قوْلُهُ:

لَوْ يَدِبُّ الحوْلِيُّ مِنْ وَلَدِ الذَّ ... رِّ عَلَيْها لأنْدَبَتْها الكلومُ

فإنَّ الحوليَّ منها لا يُعرفُ منْ مَسانِّها، وإنما هو كما قال الشاعر:

تلقّط حَوْلِيّ الحصى في منازِلِ ... من الحيِّ أمْسَتْ بالحبيبَين بلْقعا

قال: وحوليُّ الحصى: صغارها، فشبَّهه بالحوليِّ من ذوات الأربع،

أحاديث وآثار في النمل

ابن جُريج، عن ابن شهاب، عن عُبيد الله بن عبد اللّه بن عتبة، عن ابن عباس، أنَّ رسول اللّهِ صلى الله عليه وسلم قال: مِنْ الدَّوابِّ أربَعٌ لا يُقْتَلْنَ: النّملة، والنَّحْلة، والصُّرَد، والهُدهُد، وحدَّثنا عبدُ الرحمن بنُ عبدِ الله المسعودي، قال: حدّثنا الحسن بن سعد، مولى علي بن عبد الرحمن بن عبد اللّه قال: نزل رسول اللّه صلى الله عليه وسلم منزلاً فانطلق لحاجته، فجاء وقد أوقد رجلٌ على قريَةِ نَمْلٍ، إمَّا في شجرةٍ وإمَّا في أرض، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :مَنْ فَعلَ هذا؟ أطْفِئها أطفئها، ويحيى بن أيوب، عن أبي زرعة بن جرير، قال أنبأنا أبو زرعة عن أبي هريرة قال: نزل نَبيٌّ من الأنبياء تحتَ شجرةٍ، فعضَّتْه نملةٌ، فقام إلى نَمْلٍ كثيرٍ تحتَ شجرةٍ فقتلهُنَّ، فقيل له: أفلا نَمْلَةً واحدةً؟.
وعبد اللّه بنُ زيادٍ المدنيُّ، قال: أخبرني ابنُ شهابٍ، عن أبي سلمة ابن عبد الرحمن، عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يقول: نزَلَ نبيٌّ من الأنبياء تحتَ شَجَرةٍ، فقرَصَتْهُ نَمْلَةٌ، فأمَرَ بجَهازه فأُخرِجَ مِنْ تحتها، ثمَّ أمرَ بقرْيةِ النَّمْلِ فأحرقتْ، فأوْحى اللهُ إليه: أفي أن قَرَصَتْكَ نملة أهلكتَ أُمَّةً من الأممِ يسبِّحون الله تعالى ؟ فهلاَّ نمْلةً واحدةً، يحيى بن كثير، قال: حدّثنا عمر بن المغيرة بن الحارث الزِّمَّاني، عن هشامٍ الدَّسْتوائي قال: إنَّ النَّمْلَ والذَّرَّ إذا كانا في الصَّيفِ كلِّه ينقُلْن الحبَّ، فإذا كان الشتاءُ وخِفْنَ أن ينبت فلقْنَه، هشام بن حسّان، أنّ أهلَ الأحنفِ بن قيس لَقوا من النَّمْلِ أذًى، فأمرَ الأحنف بكُرْسيّ فوُضِع عند جُحْرهنَّ، فجلَسَ عليه ثمَّ تشهَّد فقال: لَتَنْتَهُنَّ أوْ لنُحَرِّقنّ عليْكُنَّ، أو لنفعلنَّ أوْ

لنفعَلنَّ قال: فذهبن، وعوف بن أبي جميلة عن قسامة بن زُهير قال: قال أبو موسى الأشعريّ: إنَّ لكلِّ شيء سادةً، حتَّى إنَّ للنمل سادة، عبد اللّه بن زيادٍ المدنيُّ، قال: أنبأنا ابن شهاب، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم يقول: خرج نبيٌّ من الأنبياء بالناس يستسقون، فإذا هُمْ بنملة رافعة رأسها إلى السماء، فقال ذلك النبيُّ: ارجِعُوا فقد استُجيبَ لكم منْ أجْلِ هذا النَّمْلِ، مِسْعَر بن كِدام، قال حدّثنا زيد القمِّيُّ، عن أبي الصِّدِّيق النَّاجي قال: خرج سليمانُ بنُ داود - عليهما الصلاة والسلام - يستسقي فرأى نملة مستلقيةً على ظهرها، رافعةً قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللهمَّ إنَّا خلقٌ من خَلْقك، ليس بنا غنًى عن سقْيك، فإمّا أنْ تسقينا وترزُقنا، وإمَّا أنْ تُميتنا وتُهلكنا فقال: ارجعوا فقد سُقيتمْ بدعوة غيركم.
تأويل آية وحدثني أبو الجهجاه قال: سأل أبو عمرو المكفوف عن قوله تعالى:)حتى إذا أتَوْا على وادِي النّمْلِ قالتْ نَمْلَةٌ يا أيُّها النَّملُ ادْخُلُوا مساكِنَكُمْ لا يحْطِمَنَّكُمْ سُليمانُ وجنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرونَ(، فتبسَّم ضاحكاً منْ قولِها فقلت له: إن نذيرًا يعجب منه نبيٌّ من الأنبياء ثمَّ يعظمُ خطرهُ حتى يُضحِكه لَعَجيب قال: فقال: ليس التأويل ما ذهبتَ إليه، قال: فإنَّه قد يضْحك النبيُّ، عليه السلام، من الأنبياء مِنْ كلامِ الصبيِّ، ومِنْ نادرةٍ غريبة، وكلُّ شيءٍ يظهَرُ من غير معدِنه، كالنَّادرة تُسمع من المجنون، فهو يُضْحِك، فتبسَّمُ سُليمانَ عندي على أنّه استظرف ذلك المقدارَ من النّملة، فهذا هو التأويل

سادة النمل

وقال أبو الجهجاه: سألتُه عن قول أبي موسى: إنَّ لكلِّ شيءٍ سادةً حتى الذَّرِّ، قال: يقولون: إنّ سادتها اللَّواتي يخرُجْنَ من الجُحْر، يرتَدْنَ بجماعتها، ويستبقن إلى شمِّ الذي هُو مِنْ طعامهنَّ، تأويل شعر لزهير وقال زهير:

وقالَ سأقضِي حاجَتي ثمَّ أتَّقي عَدُوِّي بألْفٍ مِنْ وَرائي مُلجَّمِ

فشَدَّ ولم تفْزَعْ بُيُوت كـثـيرةٌ لدى حيثُ ألقتْ رَحْلها أمُّ قشْعمِ

قال بعض العلماء: قرية النمل استطراد لغوي قال: ويقال في لسانه حُبْسة: إذا كان في لسانه ثِقلٌ يمنَعُه من البيان، فإذا كان الثِّقلُ الذي في لسانه من قِبَلِ العُجْمةِ قيل: في لسانه حُكْلة، والحُكلُ من الحيوان كلّه ما لم يكن له صوتٌ يُستَبان باختلاف مخارجه، عند حَرَجِه وضجَره، وطلبهِ ما يغذُوه، أو عندَ هِياجه إذا أراد السِّفاد، أو عند وعيدٍ لقتالٍ، وغير ذلك من أمره.
رأي الهند في سبب اختلاف كلام الناس وتزعم الهندُ أنّ سبب ماله كثر كلامُ الناس واختلفتْ صُوَرُ ألفاظهم، ومخارج كلامهم، ومقاديرُ أصواتهم في اللِّين والشّدّةِ، وفي المدِّ والقطْع كثرةُ حاجاتهم، ولِكثرةِ حاجاتهم كثرتْ خواطرُهم وتصاريفُ ألفاظهم، واتّسعتْ على قدْر اتِّساع معرفتهم، قالوا: فحوائج السَّنانير لا تعدو خمسة أوجه: منها صياحُها إذا ضربت، ولذلك صورة، وصياحُها إذا دعت أخَواتها

وآلافها، ولذلك صورة، وصياحُها إذا دعَتْ أولادَها للطُّعْم، ولذلك صورة، وصياحُها إذا جاعَتْ، ولذلك صورة، فلما قلّتْ وجوهُ المعرفةِ ووجوهُ الحاجات، قلّتْ وجوهُ مخارج الأصواتِ، وأصواتها تلك فيما بينها هو كلامها، وقالوا: ثمَّ من الأشياء ما يكونُ صوتها خفيّاً فلا يفهمه عنها إلا ما كان مِن شكلها، ومنها ما يفهم صاحبَه بضروبِ الحركات والإشاراتِ والشمائل، وحاجاتها ظاهرةٌ جليَّة، وقليلةُ العددِ يسيرة، ومعها من المعرفة مالا يقصِّر عن ذلك المقدار، ولا يجوزُه، ورَاضَةُ الإبل، والرِّعاءُ، ورُوَّاضُ الدَّوَابِّ في المُروج، والسُّوَّاسُ، وأصحابُ القنْص بالكلابِ والفهود، يعرفون باختلاف الأصواتِ والهيئات والتشوُّف، واستحالة البصر، والاضطراب، ضروباً من هذه الأصناف، ما لا يعرف مثله من هو أعقلُ منهم، إذا لم يكن له مِنْ مُعاينةِ أصنافِ الحيوان ما لهمْ. فالحُكلُ من الحيوان من هذا الشكل، وقد ذكرناه مرَّة قال رُؤبة:

لَوْ أنَّني عُمِّرْتُ عُمْرَ الحِسْلِ   أوْ أنَّني أوتيتُ علمَ الحُكْلِ

عِلْمَ سُليمانِ كلامَ النّمل تأويل بيت للعماني وقال أبو العباس محمَّد بن ذُؤيب الفُقيميُّ، وهو الذي يقال له العُمانيُّ في بعض قصائده في عبد الملك بن صالح، والعُمانيُّ ممن يُعدُّ ممن جمع الرَّجزَ والقصيد، كَعُمَرَ بن لجأ، وجرير بن الخطفي، وأبي النّجم وغيرهم.
قال العُمانيّ:

ويَعْلم قوْلَ الحُكْل لو أنَّ ذَرَّة   تُساوِدُ أخرى لم يَفُتْهُ سِوادُها

يقول: الذَّرُّ الذي لا يُسمع لمناجاته صوت، لو كان بينها سِوادٌ لفهمه، والسِّواد هو السِّرار، قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم لابن مسعود: أذنكَ حتى أساودك أي تسمع سِوادي، وقالت ابنةُ الخُسِّ: قُرْب الوسادِ وطولُ السِّواد قال أبو كبير الهُذَليُّ:

ساودت عنها الطَّالبينَ فلمْ أنَمْ   حتى نَظرْتُ إلى السِّماكِ الأعزلِ

وقال النمرُ بنُ تَوْل:

ولقد شهِدْتُ إذا القداحُ تَوَحَّدَتْ   وشهدْتُ عند اللَّيل مُوقِدَ نارها

عن ذاتِ أوْليةٍ أساوِدُ رَبّها   وكأنَّ لَوْنَ الملح تحت شفارها

وقد فسَّرنا شأن الحكل، وقال التيميُّ الشاعرُ المتكلم وأنشد لنفسه وهو يهجو ناساً من بني تغْلبَ معروفين:

عُجْم وحُكْلٌ لا تُبينُ، ودِينُها   عِبادةُ أعلاجٍ عليها البرانسُ

ففصل بين الحُكْل والعُجْم فجعل العجم مثل ذواتِ الحافر والظّلف والخفِّ، وجعل الحُكْلَ كالذّرِّ والنَّمل والخنافس، والأشكال التي ليست تصيحُ من أفواهها، فقال لي يومئذ حفصٌ الفَرْدُ: أشهدُ أنّ الذي يقال فيه حقٌّ، كان والله نصرانيًّا، ثمَّ صار يخبر عن النصارى كما يخبر عن الأعراب بين الأصمعي والمفضَّل وقال الأصمعيّ للمفضَّل، لما أنشد المفضَّلُ جعفرَ بن سليمانَ قولَ أوسِ بن حجر:

وذاتُ هدمٍ عارٍ نواشِرُها تُصمِتُ بالماء تَوْلباً جَدِعا

فجعل الدَّال معجمة، وفتحها، وصحَّف، وذهب إلى الأجذاع، قال الأصمعيّ: إنما هي: تَوْلباً جَدِعا الدَّال مكسورة، وفي الجَدِع يقول أبو زُبيد:

ثُمَّ استقاها فلم يقطع نظائمها عن التضبُّبِ لا عَبْلٌ ولا جَدِعُ

وإنما ذلك كقول ابن حَبْناء الأشجعي:

وأرْسَلَ مُهْمَلاً جَدِعاً وخُفّاً ولا جَدِعُ النَّباتِ ولا جَدِيبُ

فنفخ المفضَّلُ، ورفع بها صوته، وتكلَّم وهو يصيح، فقال الأصمعي: لو نفخت بالشَّبُّور لم ينفعك تكلَّمْ بكلامِ النَّملِ وأصِبْ والشَّبُّور: شيء مثل البُوق، والكلمة بالفارسية، وهو شيءٌ يكون لليهود، إذا أراد رأسُ الجالوت أن يحرِّم كلامَ رَجلٍ منهم نفخُوا عليه بالشَّبُّور.
حريم الكلام لدى اليهود والنصارى وليس تحريمُ الكلام من الحدود القائمة في كتبهم، ولكنَّ الجاثَلِيقَ ورأس الجالوتِ، لا يمكنُهُما في دار الإسلام حبسٌ ولا ضرْب، فليس عندهما إلاّ أنْ يغرِّما المال، ويُحرِّما الكلام، على أنَّ الجاثليق كثيراً ما يتغافل عن الرَّجلِ العظيمِ القدْر، الذي له من السُّلطان ناحيةٌ، وكان طيمانو رئيس الجاثليق، قدْ همَّ بتحريم كلام عَونِ العباديِّ، عندما بلغه من اتخاذ السَّراري، فتوعّده وحلف: لئن فعل ليُسْلِمنَّ وكما ترك الأشقيل وميخاييل وتوفيل، سَمَلَ عيْنَ مَنْويل وفي حكمهم أنَّ من أعان المسلمين على الرُّوم يقتل؛ وإن كان ذا رأي سَمَلوا عينيه ولم يقتلوه فتركوا سُنَّتهم فيه، وقد ذكرنا شأنهم في غير ذلك، في كتابنا على النَّصَارى فإن أردته فاطلبهْ هنالك معنى بيت لابن أبي ربيعة وقال عمر بن أبي ربيعة:

لَوْ دَبَّ ذَرٌّ فوقَ ضاحِي جِلْدِها لأبَانَ مِنْ آثارهنَّ حُدُورُ

والحَدْر: الورم والأثرُ يكون عن الضَّرْب.

التسمية بالنمل

وقد يسمَّى بِنَمْلة ونُمَيْلة، ويكتنون بها، وتسمَّوا بذَرٍ، واكتنوا بأبي ذرّ، ويقال: سيفٌ في مَتْنهِ ذرٌّ، وهو ذرِّيٌّ السَّيف

أشعارفي صفة السيف

قال أوسُ بنُ حجر، في صفة السَّيْفِ:

كأن مدبَّ النَّمْلِ يتَّبعُ الـرُّبـا ومَدْرج ذرّ خافَ برْداً فأسْهلاَ

على صفحتيه بعد حين جـلائـه كفى بالّذي أبلى وأنعتُ مُنْصُلاَ

انتقام عقيل بن علفة ممن خطب إحدى بناته قال: وخطب إلى عقيل بن عُلَّفة بعض بناتهِ رجلٌ من الحُرْقة من جُهينة، فأخذه فشَدَّهُ قِماطاً، ودهن استه برُبٍّ وقمطهُ وقرَّبه من قرية النَّمل، فأكل النملُ حُشْوَةَ بطنهِ.
شعر فيه ذكر النمل وقال ذو الرمة:

وَقـرْيةِ لا جـنٍّ ولا أنـسـيّةٍ مُداخَلَةٍ أبوابُها بُنِـيَتْ شَـزْرا

نَزَلْنا بها ما نبتغي عندها القِرَى ولكنَّها كانت لمنزلنـا قـدْرا

وقال أبو العتاهية:

أخْبثْ بدارٍ هَمُّها أشِـبٌ جثل الفُرُوع كثيرةٌ شُعَبُه

إنَّ استهانتها بمنْ صرعتْ لَبقدْرِ ما تَعْلو بهِ رُتَبُـه

وإذا استوتْ للنَّمل أجنحة حتى يطير فقدْ دنا عطبه

وقال البعيث:

ومولًى كَبَيْتِ النملِ لاَ خَيْرَ عنده لمولاه إلاّ سَعْيه بـنـمـيم

بعض ما قيل في النمل

قال: وقد سمعت بعض الأعراب يقول: إنهُ لنمامٌ نمْليٌّ، على قولهم: كذبَ عليَّ نَمِلٌ إذا أرادوا أنْ يخبروا أنه نمام، وقال حميد بن ثوْر، في تهوين قوَّة الذرّ:

منعَّمَة، لو يُصْبحُ الذَّرُّ سـاريًا على جِلْدِها بضّتْ مدارجهُ دما

وقال اللّه عز وجل: "فَمَنْ يَعْمَلْ مثقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يرَهُ، ومنْ يَعْمَلْ مثقال ذَرَّةٍ شرًّا يَرَه"" قال: وقيل لعائشة - رضي الله تعالى عنها، وقد تصدَّقتْ بحبَّةِ عنب: أتصدَّقينَ بحبَّةِ عنب؟ قالت: إن فيها لمثاقيل ذَرّ.

لغز في النّمْل

وممّا قيل في الشِّعر من اللُّغز:

فما ذُو جناحٍ له حافر وليس يضُرُّ ولا ينفعُ

يعني النَّمل، فزعم أنّ للنَّمل حافرًا، وإنَّما يحفْر جُحره، وليس يَحفْرهُ بفمه، التعذيب بالنمل وعذّب عُمَرُ بن هُبيرة سعيد بن عمرو الحَرَشيّ بأنواع العذاب فقيل له: إن أردت ألاّ يُفْلِحَ أبداً فمُرْهُمْ أن ينفخُوا في دُبُره النّمل، ففعلوا فلم يفلح بعدها.

ما يّدخر قوته من الحيوان

قالوا: وأجناسٌ من الحيوان تَدَّخرُ، وتُشبَّهُ في ذلك بالإنسان ذي العقل والرَّوِيَّة، وصاحب النَّظر في العواقب، والتفكير في الأمور: مثلُ الذّرّ، والنّمل، والفأر، والجرذان، والعنكبوت، والنّحل، إلاّ أنَّ النحل لا يدَّخر من الطعام إلاّ جنساً واحداً، وهو العسل.

أكل الذَّرّ والضباع للنمل

وزعم اليقطريّ أنّك لو أدخَلْتَ نملةً في جُحر ذرٍّ لأكلتها، حتى تأتي على عامّتها، وذكر أنَّه قد جرَّب ذلك، وقال صاحب المنطق: إنَّ الضِّباع تأكل النمل أكلاً ذريعاً، وذلك أن الضِّباع تأتي قرية النَّمْلِ في وقتِ اجتماع النّمل، فتلحَس ذلك النَّملَ بلسانِها، بشهوةٍ شديدةٍ، وإرادة قويّة.

أكل النمل للأرضة

قالوا: وربّما أفسدت الأرضة على أهل القرى منازلهم، وأكلتْ كلَّ شيءٍ لهم، ولا تزالُ كذلك حتى يَنْشُوَ في تلك القرى النَّمل، فيسلِّط اللّه ذلك النّملَ على تلك الأرَضة، حتى تأتيَ على آخرها، وعلى أنَّ النَّمْلَ بعد ذلك سيكونُ له أذى، إلاّ أنَّه دونَ الأرضةِ تعدِّياً، وما أكثرَ ما يذهَبُ النَّمل أيضاً من تلك القُرى، حتى تتمَّ لأهلها السَّلامةُ من النَّوعينِ جميعاً،وزعم بعضُهم أنَّ تلك الأرَضَة بأعيانها تستحيل نَمْلاً، وليسَ فَناؤُها لأكلِ النَّمْلِ لها، ولكنَّ الأرضة نفسَها تستحيلُ نملاً، فعلى قدْرِ ما يَستحيل منها يُرَى النقص في عددِها، ومضَرَّتِها على الأيام.

مثل في النمل

قال: وبالنَّمْلِ يُضرب المَثَل؛ يقال: جاؤوا مِثْلَ النَّمْلِ. والزِّنْج نوعان: أحدهما يفخَر بالعدد، وهم يسمَّون النَّمل، والآخَر يفخَر بالصَّبر وعظَم الأبدان، وهم يسمَّون الكلاب، وأحدهما يكبو والآخرُ ينبو، فالكلابُ تكْبو، والنَّمل تنبو.

أجنحة النَّمل

قال: ومن أسبابِ هلاك النّمْلِ نباتُ الأجنحة له، وقد قال الشاعرُ:

وإذا استَوَتْ للنّمْلِ أجنحة حتى يَطِيرَ فقدْ دَنَا عَطبُه

وإذا صارَ النَّمل كذلك أخصبَتِ العصافير؛ لأنها تصطادها في حال طيرَانـها.

وسيلة لقتل النمل

قالوا: وتُقْتَلُ بأنْ يصبَّ في أفواه بيوتـها القطِران والكِبريتُ الأصفر، ويُدَسَّ في أفواهها الشَّعر، وقد جرَّبنا ذلك فوجدناه باطلاً، انتهى.

جملة القول في القِرْدِ والخِنزير

وفي تأويل المَسْخ، وكيف كان، وكيف يُمسَخُ الناس على خلقتهما دونَ كلِّ شيء، وما فيهما من العِبرة والمحنة؛ وفي خصالهما المذمُومة، وما فيهما من الأمُور المحمودة؛ وما الفصْلُ الذي بينهما في النَّقص، وفي الفَضْل، وفي الذمِّ وفي الحمد.
ما ذكر في القرآن من الحيوان وقد ذكر اللّه عزَّ وجلَّ في القرآن العنكبوتَ، والذّرَّ والنَّمْلَ، والكلبَ، والحِمار، والنَّحلَ، والهُدهدَ، والغُرابَ، والذئب، والفِيلَ والخيل، والبغال، والحمير، والبقرَ، والبعوضَ، والمعز، والضأن، والبقرة، والنعجة، والحوت، والنُّون، فذكر منها أجناساً، فجعلها مثلاً في الذِّلَّة والضَّعف، وفي الوهْن، وفي الْبَذَاءِ، والجهل.

هوان شأن القرد والخنزير

وقال اللّه عزَّ وجلّ: "إنَّ اللّهَ لاَ يَسْتَحْي أنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فمَا فَوْقَهَا" فقلّلهَا كما ترَى وَحقّرها، وضرب بها المثل، وهو مع ذلك جلَّ وعلا، لم يمسخ أحداً من حَشْوِ أعدائه وعظمائِهم بعوضةً. وقال تعالى: "يَا أَيُّهَا النّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاسْتَمِعُوا لَهُ إنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَو اجْتَمَعُوا لَهُ وَإنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شيئاً لاَ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْه ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطْلُوبُ"، إنَّمَا قرَّعَ الطالب في هذا الموضع بإنكاره وضعفه، إذ عجز ضعفُه عن ضَعْفِ مطلوبٍ لا شيءَ أضعفُ منه، وهو الذباب، ثمّ مع ذلك لم نجدْه جلَّ وعلا، ذكَرَ أنَّهُ مسخ أحداً ذُباباً.وقال: "وَإنَّ أوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ" فَدَلَّ بوهْن بيتِه على وهْن خَلْقه، فكان هذا القولُ دليلاً على التّصغير والتّقليل، وإنما لم يقل: إنِّي مسخْتُ أحداً من أعدائي عنكبوتاً.
وقال تعالى: "فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكلْبِ إنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ" فكان في

ذلك دليلٌ على ذمِّ طباعه، والإخْبار عن تسَرُّعِهِ وبَذائِه، وعن جهله في تدبيره، وترْكِهِ وأخْذه، ولم يقل إني مسخْتُ أحداً من أعدائي كلباً.وذكر الذَّرَّة فقال: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ فكان ذلك دليلاً على أنّه من الغايات في الصِّغَر والقِلَّة، وفي خِفَّة الوزْن وقلة الرجحان، ولم يذكُرْ أنّه مسَخَ أحداً مِن أعدائه ذرّة، وذكر الحِمار فقال: كَمَثَلِ الحِمار يَحمِلُ أَسْفَاراً فجعله مثلاً في الجهل والغفلة، وفي قِلَّةِ المعرفةِ وغِلَظِ الطَّبيعة، ولم يقلْ إنِّي مسخْتُ أحداً من أعدائي حماراً، وكذلك جميع ما خَلَق وذكرَ من أصناف الحيوان بالذَّمِّ والحمد.
فأمَّا غير ذلك ممّا ذكر من أصناف الحيوان، فإنّه لم يذكرْهُ بذمٍّ ولا نقص، بل قد ذكر أكثرَهنّ بالأمور المحمودة، حتَّى صار إلى ذكر القرد فقال: وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ فلمْ يكنْ لهما في قلوبِ النَّاس حال، ولو لم يكن جعل لهما في صُدور العامّة والخاصّة من القُبْح والتَّشويه، ونذالةِ النَّفس، ما لم يجعلْهُ لشيءٍ غيرهما من الحيوان، لما خصَّهما اللّه تعالى بذلك، وقد علمْنا أنَّ العقربَ أشدُّ عداوةً وأذًى، وأفسَدُ، وأنَّ الأفعى والثُّعْبانَ وعامَّة الأحناش، أبغَضُ إليهم وأقتَلُ لهم، وأنَّ الأسَدَ أشَدُّ صَوْلَةً، وأنَّهم عن دفعهم له أعجز، وبغضَهم له على حسب قوّته عليهم، وعجزِهم عنه، وعلى حَسَبِ سوءِ أثره فيهم، ولم نَرَهُ تعالى مسَخَ أحداً من أعدائه على صورة شيءٍ من هذه الأصناف،ولو كان الاستنذالَ والاستثقالَ والاستسقاطَ أراد، لكان المسخ على صورة بناتِ وَرْدانَ أولى وأحقّ، ولو كان التَّحقيرَ والتَّصْغيرَ أرَادَ، لكانت الصُّؤابة والجِرْجِسَة أولى بذلك، ولو كان إلى الاستصغار ذهَبَ لكان الذّرُّ والقمْل والذُّبابُ أولى بذلك، والدَّليل على قولنا قوله تبارك وتعالى: "إنّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ في أصْلِ الجَحِيمِ، طلعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِين" ولَيْسَ أن النَّاسَ رأوْا شيطاناً قطُّ على صورة، ولكنْ لما كان اللّه تعالى قد جعل في طِباع جميع الأمم استقباحَ جميع صُور الشَّياطين، واستسماجَه وكراهتَهُ، وأجرى على ألسنة جميعهم ضرْبَ المثل في ذلك رجع بالإيحاش والتّنفير، وبالإخافة والتقريع، إلى ما قد جعله اللّه في طباع الأوّلين والآخِرين وعندَ جميع الأممِ على خلاف طبائع جميع الأمم،وهذا التأويل أشبهُ مِن قولِ مَنْ زعَمَ مِن المفسِّرين، أنّ رُؤوسَ الشّياطين نبات نبت باليمن.
وقال اللّه عزّ وجلّ لنبيِّه:" قُلْ لاَ أَجِدُ فِيما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ، أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ، فَمَن اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحيم" فذكر أنه رِجْسٌ، وذكر الخنزير، وهو أحد المسوخ، ولم يذكر في هذه الآية التي أحصى فيها أصنافَ الحرام، وأباح ما وراء ذلك القِرْدَ. وصار بعضهم إلى تحريمه من جهة الحديث، وهو عند كثيرٍ منهم يحتمل المعارَضة.

الخنزير

مساوئ الخنزير فلولا أنَّ في الخنزير معنًى متَقدّماً سوى المسخ، وسِوى ما فيهِ من قبح المنظر وسَماجة التمثيل، وقبح الصوت، وأكل العَذِرة، مع الخلاف الشديد واللّواط المفْرط والأخلاق السمجة، ما ليس في القرد الذي هو شريكه في المسخ لَمَا ذكَره دونه تحريم الخنزير في القرآن دون القرد وقد زعم نَاسٌ أنَّ العربَ لم

تَكنْ تأكلُ القُرودَ، وكان من تنصَّرَ مِن كبار القبائل وملوكِها يأكلُ الخِنزير، فأظهر لذلك تحريمهُ؛ إذ كان هناكَ عالَمٌ من الناس، وكثير من الأشراف والوضعاء، و الملوكِ والسُّوقة، يأكلونُه أشدَّ الأكل، ويرغبون في لحمه أشدّ الرغبة، قالوا: ولأنَّ لحمِ القرد يَنْهَى عن نفسِهِ، ويكفي الطبائعَ في الزّجر عنهُ غَثَّه، ولحم الخنزير ممّا يُسْتَطابُ ويتواصَف، وسَبيلُ لحم القردِ كسَبيلِ لحمِ الكلب، بل هو شرٌّ منهُ وأخبَث، وقد قال الشاعر للأسديِّ الذي لِيمَ بأكل لحمِ الكلب:

يا فقعسيٌّ لِمْ أكَلْتُه لِمـهْ　　　لو خافكَ اللّهُ عليهِ حَرَّمهْ

فما أكَلْتَ لحمهُ ولاَ دَمَهْ وليس يريد بقوله: لو خافك اللّه عليهِ أنّ اللّه يخافُهُ على شيءٍ أو يخافه من شيء، ولكنَّهُ لمَّا كانَ الكلبُ عندَهُ مما لا يأكله أحد وَلاَ يُخَافُ عَلَى أكْلِهِ إلاّ المضطرُّ، جعل بدل قوله: أمِنَ الكلبُ على أكْل لحمه، أنَّ اللّه هو الذي لم يخَفْ ذلك فيحرِّمه، وهذا ممّا لا تقف الأعرابُ عليه، ولا تَتَّبعَ الوهمُ مواضِعَه؛ لأنَّ هذا بابٌ يدخل في باب الدِّين، فيما يُعرَف بالنَّظر.
ما قيل في جودة لحوم الكلاب وقد يأكل أجْراءَ الكلاب ناسٌ، ويستطيبونها فيما يزعمون، ويقولون: إنّ جرو الكلب أسمنُ شيءٍ صغيراً، فإذا شبَّ استحال لحمه، كأنَّه يشبّه بفرخ الحمام مادام فرخاً وناهضاً، إلى أن يستحكم ويشتدّ ذكر من يأكل السنانير وما أكثر من يأكل السَّنانير، والذين يأكلونها صِنفان من الناس: أحدهما الفتى المغرور، الذي يقال له أنت مسحور، ويقال له: من أكل سِنّوراً أسودَ بهيماً لم يعمَلْ فيه السحر، فيأكله لذلك، فإذا أكله لهذه العلَّة، وقد غسل ذلِكَ وعصره، أذهب الماءُ زُهُومَته، ولمْ يكن ذلك المخدوعُ بمستقذِرٍ ما استطابه، ولعلّهُ أيضاً أن يكون عليه ضربٌ من الطَّعام فوق الذي هو فيه، فإذا أكله على هذا الشَّرط، ودبّر هذا التدبير، ولم ينكره، عاوده، فإذا عاوده صار ذلك ضَراوةً له.
والصِّنف الآخر أصحاب الحمام؛ فما أكثر ما ينصِبُون المصائد للسَّنانير، التي يُلقَّوْنَ منها في حمامهم، وربَّما صادف غيظ أحدهم وحَنَقُه وَغضَبُهُ عليه، أن يكون السِّنَّور مُفرطَ السِّمن، فيدعُ قتْله ويذبَحُه، فإذا فعل ذلك مرَّةً أو مرتين، صار ضراوةً عليها، وقد يتقزَّز الرَّجلُ من أكل الضّبِّ والوَرَل والأرنب، فما هو إلاَّ أنْ يأكُله مرَّةً لبعضِ التَّجربة، أو لبعضِ الحاجة، حتى صار ذلك سبباً إلى أكلها، حتى يصير بهم الحال إلى أن يصيروا أرغبَ فيها من أهلها، طيب لحم الجراد وها هنا قومٌ لا يأكلون الجرادَ الأعرابيّ السمين، ونحن لا نعرف طعاماً أطيبَ منه، والأعراب إنَّما يأكلون الحيَّاتِ على شبيهٍ بهذا الترتيب ولهذه العوارض، أكل الأفاعي والحيات وزعم بعضُ الأطبَّاء والفلاسفة، أنَّ الحيَّاتِ والأفاعيَ تؤكل نِيئَةً ومطبوخة، ومشويَّة، وأنَّها تغذُو غِذَاءً حسَناً، رؤبة وأكل الجراذن وزعم أبو زيد، أنَّه دخل على رؤبة، وعنده جِرذانٌ قد شَوَاهُنّ، فإذا هو يأكلهنَّ، فأنكر ذلك عليه، فقال رؤبة: هُنّ خيرٌ من اليرابيع والضِّبابِ وأطيَبُ؛ لأنها عندكم تأكُلُ الخبزَ والتمرَ وأشباهَ ذلك، وكفاك بأكل الجرذان، ولولا هول الحيَّاتِ في الصُّدور من جهة السُّموم، لكانت جهة التقذُّر أسهلَ أمراً من الجرذان، أكل الذبان والزنابير وناسٌ من السُّفالة يأكلون الذّبَّان، وأهلُ خُراسانَ يُعجَبون باتخاذ البَزْماوَردِ من فِراخ

الزَّنابير، ويعافون أذنابَ الجرادِ الأعرابيِّ السمين، وليسَ بين ريح الجَرادِ إذا كانت مشويَّةً وبينَ ريح العقاربِ مشْويَّةً فرق، والطَّعْمُ تبعٌ للرائحة: خبيثُها لخبيثها، وطيِّبها لطيّبها،وقد زعم ناسٌ، ممن يأكلون العقاربَ مشويَّة ونيئةً، أنها كالجراد السِّمان، وكان الفضلُ بنُ يحيى يوجِّه خدمَهُ في طلب فراخ الزَّنابير ليأكلها، وفراخُها ضربٌ من الذُّبان.

أكل لحومِ البراذين فأمَّا لحوم البراذين فقد كثُر علينا وفينا، حتى أنِسْنا به، وزعم بعضهم أنَّه لم يأكلْ أطيبَ من رأسِ برْذَونٍ وسُرَّتِه، فأمّا السُّرَّةُ والمَعْرَفة فإنهم يزاحِمون بها الجِداءَ والدَّجاج، ويقدِّمون الأسرامَ المحشوَّة، أكل السراطين ونحوها ومِن أصحابنا مَن يأكل السراطين أكلاً ذريعاً، فأما الرق والكوسج فهو من أعجب طعام البحْريِّين، وأهل البَحر يأكلون البلبل فهو اللّحم الذي في جوف الأصداف، والأعرابيُّ إذا وجد أسودَ سالخاً، رأى فيهِ ما لا يرى صاحب الكسمير في كسميره.

أكل ديدان الجبن وخَبَّرني كم شِئْتَ من الناس، أنَّه رأى أصحابَ الجُبْن الرَّطبِ بالأهوازِ وقراها، يأخذون القِطعة الضَّخمة من الجبْن الرَّطب، وفيها ككواء الزنابير، وقد تولَّدَ فيها الدِّيدان، فينفضها وسْطَ رَاحتِه، ثمَّ يقمَحُها في فيهِ، كما يقمَحُ السَّويق والسُّكَّر، أو ما هو أطيبُ منه.

ذكربعض أنواع العذاب وقد خبَّر اللّه تعالى عن أصحاب النِّقم، وما أنزل اللّهُ من العذاب، وما أخذ من الشكل والمقابلات، فقال: "فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِه فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا"، وقال: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ، وَأَرسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ" وليس من هذه الأصنافِ شيءٌ أبلغُ في المُثْلة والشُّنْعةِ، ممَّن جَعلَ منهم القِرَدَة والخنازير ما يقبل الأدب من الحيوان فالخنزير يكون أهلياً ووحشياً، كالحمير والسَّنانير، مما يعايش النَّاس، وكلها لا تقبل الآداب، وإنَّ الفُهودَ وهي وحشيَّةٌ تقبل كلها، كما تقبَلُ البوازي، والشَّواهين، والصقورة، والزُّرَّق، واليُؤيؤ، والعُقاب، وعَناق الأرض، وجميعُ الجوارحِ الوحشيَّات، ثمَّ يفضلُها الفهدُ بخَصْلةٍ غريبة وذلك أنّ كبارَها ومَسانَّها أقبَلُ للآداب، وإن تقادَمتْ في الوحْش، مِنْ أولادها الصغار، وإن كانت تقبل الآداب؛ لأنَّ الصغيرَ إذا أُدِّبَ فبلغ، خرج جبينًا مُواكِلاً، والمسنُّ الوحشيَّ يخلُص لك كُله، حتى يصير أصيدَ وأنفعَ، وصغارُ سباع الطَّير وكبارُها على خلاف ذلك، وإن كان الجميعُ يقبل الأدب، والخنزيرُ وإن كان أهليّاً فإنّه لا يقبل الأدبَ على حال، حتى كأنَّهُ وإن كان بهيمةً في طباع ذئب، وذلك أن أعرابيّاً أخذ جرْوَ ذئبٍ وكان التقطه التقاطاً، فقال: أخذتهُ وهو لا يعرف أبويَهِ ولا عملَهُما، وهو غِرٌّ لم يصِدْ شيئاً، فهو إذا رَبَّيناه وألَفناه، أنفعُ لنا مِن الكلب، فلمّا شبَّ عدا على شاة لهُ فقتلَها وأكل لحمها، فقال الأعرابيُّ:

أكَلْتَ شُوَيهتي وَرُبيتَ فينَا فَمنْ أدْرَاكَ أنَّ أباكَ ذيبُ

فالذئب وجرو الذئب إذا كانا سبعين وَحْشِيَّيْنِ كانا ثمَّ من أشدِّ الوحْش توحُّشاً وألزمِها للقِفار، وأبعَدها من العمران، والذِّئب أغدَر من الخنزير والخِنّوص وهما

بهيمتان.
ضرر الخنزير وأمَّا ضرره وإفساده، فمَا ظنُّك بشيءٍ يُتَمَنَّى له الأسَد؟ وذلك أن الخنازير إذا كانت بقرب ضِيَاع قومٍ، هلَكتْ تلك الضِّياع، وفسَدتْ تلك الغلاّت، وربَّما طلب الخنزير بعضَ العروق المدفونَةِ في الأرض فيخرِّب مائَةَ جريبٍ، ونابه ليس يغلبه مِعْول، فإذا اشتدَّ عليهم البلاءُ تمنَّوا أن يصير في جَنْبتهم أسد، ولربَّما صار في ضياعهم الأسد فلا يَهيجونَه، ولا يؤذونَه، ولو ذهب إنسانٌ ليحفر له زُبيةً منعوه أشدَّ المنع؛ إذ كان ربَّمَا حَمَى جانبَهم من الخنازير فقط، فما ظنّك بإفسادها، وما ظنّك ببهيمةٍ يُتَمَنَّى أن يكون بدلَها أسد؟ ثمَّ مع ذلك إذا اجتمعوا للخنازير بالسِّلاح، وبالآلاتِ والأدوات التي تقتل بها، فربَّما قتل الرَّجُلَ منهم، أو عقرَهُ العقرَ الذي لا يندمِل؛ لأنَّه لا يضرب بنابه شيئاً إلاَّ قطعَه، كائناً ما كان، فلو قتلوا في كلِّ يوم منها مائَةً وقتلتْ في كلِّ يومٍ إنساناً واحداً، لما كان في ذلك عِوض.والخنازير تطلب العَذِرَة، وليست كالجلاَّلة؛ لأنها تطلب أحرَّها وأرطبَها وأنتنَها، وأقربها عهداً بالخروج، فهي في القرى تعرف أوقاتَ الصُّبح والفجْر، وَقبلَ ذلك وبعدَه؛ لبُروزِ النَّاس للغائط، فيعرف من كان في بيته نائِماً في الأسحار ومع الصُّبح، أنَّه قد أسْحَرَ وأصبح، بأصواتها ومرورها، ووقعِ أرجلها في تلك الغيطان، وتلك المتبرَّزَات، وبذلك ضربُوا المثلَ ببكور الخنزير، كما ضربوا المثل بحذَرِ الغراب ورَوَغان الثَّعلب،على أنَّ الثَّعلبَ ليس بأرْوَغَ من الخِنْزير، ولا أكَدَّ للفارس، ولا أشدَّ إتعاباً لصاحبه.
بعض أسباب مسخ الإنسان فأمَّا قُبْحُ وجهه فلو أنَّ القُبح والإفلاس، والغَدْر والكذب، تجسَّدت ثمَّ تصوَّرتْ لَمَا زادتْ على قُبح الخنزير، وكلّ ذلك بعضُ الأسباب التي مُسخ لها الإنسان خنزيراً، وإنَّ القرد لَسَمِجُ الوجْه، قبيحٌ كلِّ شيء، وكفاك به أنَّه للمثل المضروب ولكنَّهُ في وجهٍ آخَرَ مليحٌ، فمِلْحُه يعترض على قُبْحه فيمازجُه ويُصلِح منه، والخنزيرُ أقبح منه لأنَّه ضربٌ مُصمَتٌ بهيم، فصار أسمجَ ببعيدٍ.
وثب الذكورة على الذكورة وحدَّثني بعضُ أهل العلم، ممَّن طال ثواؤه في أرض الجزيرة، وكان صاحبَ أخبار وتجربة، وكان كلفاً يحبِّ التبيّن، معترضاً للأمور، يحبُّ أنْ يُفضِيَ إلى حقائقها، وتثبيت أعيانها بعللها، وتمييز أجناسها، وتعرّف مقادير قُواها وتصرُّف أعمالها، وتنقُّل حالاتها؛ وكان يعرفُ للعلم قدْرَهُ، وللبيان فضلهُ، قال: ربَّما رأيت الخنزير الذَّكر وقد ألجأه أكثرُ مِن عِشرينَ خنزيراً إلى مَضِيق، وإلى زاوية، فينزُون عليه واحداً واحداً، حتى يبلغ آخرُهم،وخبَّرني هذا الرَّجل وغيرهُ من أهل النظر وأصحابِ الفكر، أنَّهم رأوا مثلَ ذلك من الحمير، وذكروا أنّ ذلك إما تأنيثٌ في طبعه، و إمّا أنْ يكون له في أعينها من الاستحسان شبيهٌ بالذي يعتري عيونَ بعضِ الرجال في الغلمان، والأحداثِ الشَّبَاب.وقد يكون هذا بين الغَرَانِق والكَرَاكيّ، والتَّسافُد بين الذَّكر والأنثى، والسافد والمسفود إذا كانا من جميع الذكورة، كثيرٌ في جميع أصناف الحيوان، إلاّ أنَّه في جميع الخنازير والحمير أفشى، وأمَّا تسافُد الحمام الذَّكر والأنثى للذَّكر، فأكثرُ من أن يكون فيه تنازع.
معارف في الخنزير وباب آخر ممَّا ذكر صاحب المنطق، فزعم أنّ من الخنازير ما له ظِلف واحد، وليس لشيء من ذوات الأنياب في نابه من القوَّة والدَّرَب ما

للخنزير الذكر، وللجمل، والفهد، والكلب، قال: والإنسان يلقي أسنانه، وكذلك الحافر والخفّ، قال: والخنزير لا يلقي أسنانَه البتّة.
من لم يثغر ويقال: إنّ عبد الصَّمد بنَ عليٍّ لم يُثغر قط، وأنَّه دخل قبره بأسنان الصِّبا.
أسنان الذئب والحية وزعم بعضهم أنَّ أسنانَ الذّئبِ مخلوقةٌ في الفكّ، ممطولةٌ في نفس العظم، وذلك ممَّا توصف به أسنان الحيَّة، قال الشَّاعرُ:

مُطِلْنَ في اللّحْيَيْنِ مَطْلاً إلى الرَّأسِ وَأَشْدَاقٍ رَحِيبـاتِ

والشَّاعِرُ يمدحُ الشيءَ فيشدِّدُ أمرَه، ويقوِّي شأنُه، وربَّما زاد فيه، ولعلَّ الذي قال في الذّئب ما قال، هذا أراد، ولا يشكُّون أنّ الضَّبع كذلك.
مرق لحم الحيوان قال وليس يجمُدُ مرق لحم الحيوان السَّمين، مثل الخنزير والفرس، وأمَّا ما كان كثير الثرب فمرقته تجمد، مثل مرق لحم المِعْزَ.
طباع الخنزير قال: والخنزير الذَّكر يقاتِل في زمن الهيْج، فلا يدَعُ خنزيراً إلاَّ قتله، ويدنو من الشَّجرة ويدلُكُ جلدَه، ثمّ يذهب إلى الطين والحمأة فيتلطخ به، فإذا تساقط عاد فيه.
قال: وذكورة الخنازير تطرد الذُّكورة عن الإناث، وربّما قتل أحدُهما صاحبَه وربّما هلكا جميعاً، وكذلك الثِّيرانُ والكِبَاشُ والتُّيوس في أقاطيعها، وهي قبل ذلك الزَّمان متسالمة.
ما يعرض لبعض الحيوان عند الهيج والجمل في تلك الحالة لا يدَعُ جملاً ولا إنساناً يدنو من هَجْمَتهِ، والجمل خاصَّة يكره قُربَ الفَرَس، ويقاتله أبداً.ومثل هذا يعرض للذّئبة والذّئب، والأسد ليس ذلك من صفاتها؛ لأنَّ بعضَها لا يأوي إلى بعضٍ، بل ينفرد كلُّ واحدٍ بلبؤته، وإذا كان للذّئبة الأنثى جِراء ساءت أخلاقُها وصَعُبت،
وكذلك إناث الخيل والفيل: يسوء خلقها في ذلك الزَّمان، والفيَّالون يحمونها النَّزْو؛ لأنها إذا نزت جهلت جهلاً شديداً، واعتراها هَيْجٌ لا يُقام له، وإذا كان ذلك الزَّمانُ أجادوا عَقْله، وأرسلوه في الفِيَلة الوحشيّة، فأمَّا الخنزير والكلبُ فإنهما لا يجهلان على النَّاس؛ لمكان الألفة، قال: وزعم بعضُ النَّاس أنَّ إناثَ الخيلِ تمتلئ ريحاً في زمان هيْجها، فلا يباعدون الذُّكورة عنها، وإذا اعتراها ذلك ركضَتْ ركضاً شديداً، ثمَّ لا تأخذ غرباً ولا شرقاً، بل تأخذ في الشَّمالِ والجنوب،ويعرض مثل هذا العَرَضِ لإناث الخنازير، فإذا كان زمَنُ هَياج الخنازير، تطأطئ رؤوسها، وتحرِّك أذنابهَا تحريكاً متتابعاً، وتتغيّر أصواتُها إذا طلبت السِّفاد، وإذا طلبت الخنزيرةُ السِّفادَ بالت بولاً متتابعاً.
تناسل الخنازير قال: وإناث الخنازير تحمل أربعة أشهرٍ، وأكثرُ ما تحمل عشرون خِنَّوصاً وإذا وضعت أجراءً كثيرةً لم تَقْوَ على رضاعها وتربيتها.
قال: وإناث الخنازير تحمل مِنْ نزوةٍ واحدة، وربما كان من أكثر، وإذا طلبت الذَّكرَ لم تنزع حتى تطاوع وتسامحَ، وترخي أذنابها، فإذا فعلت ذلك تكتفي بنزْوةٍ واحدة،ويُعلَفُ الذَّكَرُ الشَّعيرَ في أوان النَّزْو، ويصلُح للأنثى.
مدد الحمل للحيوان والخنزيرة تضع في أربعة أشهرٍ، والشَّاةُ في خمسة، والمرأة

والبقرةُ في تسعة أشهر، والحافر كله في سنة خصائص الخنزير قال: ومتى قلعت العينُ الواحدة من الخنزير هلك، وكثيرٌ من الخنازير تبقى خمسة عشر عاماً، والخنزير ينزو إذا تمّ له ثمانية أشهر، والأنثى تريد الذَّكر إذا تمَّت لها ستَّة أشهر، وفي بعض البلدان ينزو إذا تمّ له أربعة أشهر، والخنزيرة إذا تمّت لها ستّة أشهر، ولكنَّ أولادهما لا تجيء كما يريدون، وأجود النَّزْو أن يكون ذلك منه وهو ابن عشرة أشهر إلى ثلاث سنين، وإذا كانت الخنزيرة بكراً ولدت جِراءً ضعافاً وكذلك البكر من كل شيء،الحلال .

وقالَ اللّهُ تَبارك وتعالى: "كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشكُرُوا للّهِ إنْ كُنْتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدُونَ" ثمَّ ذكر غيْرَ الطيِّبات فقال: "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ المَيْتَةُ وَالدَّمُ ولَحمُ الخِنْزِير وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّه به وَالمُنْخَنِقَةُ وَ المَوْقُوذَةُ وَالمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطيحَةُ وَمَا أكَلَ السَّبُعُ إلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبحَ على النُّصُبِ، وَ أنْ تَسْتَقْسِموُا بالأَزْلاَمِ، ذَلِكُمْ فِسْقٌ" ثمّ قال: "هَلْ أنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللّه مَنْ لَعَنَهُ اللّهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكاناً وَ أضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ" وقال: "يَا أيّها الّذينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ المُعْتَدِين".

استطراد لغوى وقوله تعالى: طَيِّبَاتِ تحتمل وجوهاً كثيرة، يقولون: هذا ماءٌ طيِّب، يريدون العُذوبة، وإذا قالوا للبُرِّ والشَّعير والأرز طيِّب، فإنما يريدون أنَّه وَسَطٌ، وأنّه فوقَ الدُّون، ويقولون: فمٌ طيِّب الرِّيح، وكذلك البُرّ، يريدون أنَّه سليم من النّتن، ليس أنَّ هناك ريحاً طيبة ولا ريحاً منتنة، ويقولون: حلالٌ طيِّب، وهذا لا يحل لك، ولا يَطيب لك، وقد طاب لك أي حل لك، كقول: "فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ".

قال طُوَيْسٌ المغنِّي لبعضِ ولد عثمانَ بن عفّان: لقدْ شَهِدْتُ زِفاف أمِّك المبارَكَةِ إلى أبيك الطيِّب، يريد الطَّهارَة، ولو قال: شهدت زفاف أمِّك الطيِّبة إلى أبيك المبارك، لم يحسُنْ ذلك؛ لأنَّ قولك طيِّب إنَّمَا يدلّ على قدر ما اتَّصلَ به من الكلام. وقد قال الشّاعِرُ:

والطيِّبون مَعاقِدَ الأُزْرِ

وقد يخلو الرَّجلُ بالمرأة فيقول: وجدتها طيِّبة، يريد طَيِّبة الكَوْم، لذيذةَ نفس الوطء، وإذا قالوا: فلان طيِّب الخُلُق، فإنما يريدون الظَّرْفَ والمِلْح،وقال اللّهُ عزَّ وجلَّ: "حَتَّى إذَا كُنْتُمْ في الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِريحٍ طَيِّبَةٍ" يريد ريحاً ليستْ بالضعيفة ولا القويّة.

ويقال: لا يحلُّ مال امرئٍ مسلمٍ إلاَّ عن طيبِ نفْسٍ منه، وقال اللّه عزّ وجلَّ: "فَإنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً" وقال: "لَقَدْ كَانَ لِسَبَأ في مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمينٍ وَ شِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ" وذلك إذْ كانت طيِّبة الهواءِ والفواكِه، خصيبةً، وقال: "إنَّا لّذينَ يَرْمُونَ المُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ المُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ" ثم قال: "الخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالخَبِيثُونَ لِلخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ

أولئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ".
وفي هذا دليلٌ على أنّ التأويلَ في امرأةِ نوحٍ وامْرأة لوط، عليهما السلام، على غير ما ذهب إليه كثيرٌ من أصحاب التَّفسير: وذلك أنهم حينَ سمِعوا قولَه عزّ وجلَّ: "ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنهُمَا" فدلَّ ذلك على أنَّه لم يَعْنِ الخيانَةَ في الفرْج، وقد يقع اسمُ الخيانة على ضروب: أوّلها المالُ، ثمَّ يشتقُّ من الخيانة في المال الغشُّ في النصيحةِ والمشاورةِ، وليس لأحدٍ أنْ يوجِّه الخبرَ إذا نزل في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وحُرَم الرُّسُل، على أسمَجِ الوجوه، إذا كان للخبر مذهبٌ في السَّلامة، أو في القُصُور على أدنى العيوب،وقد علمْنا أنّ الخيانة لا تتخطَّى إلى الفرج حتّى تبتدئ بالمال، وقد يستقيم أن يكونا من المنافقين فيكون ذلك منهما خيانة عظيمة، ولا تكون نساؤهم زواني، فيلزمهم أسماءٌ قبيحة، وقال اللّه عزّ وجلّ: "إذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحيّةً مِنْ عِنْدَ اللّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً" وقال: "فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّباً" وقال: "مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلْنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً" وقال تعالى: "قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ" وقال: "وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ" و "مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ" وقال: "وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ والسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَارَزَقْنَاكُمْ" فقوله: "طيِّب"، يقعُ في مواضعَ كثيرةٍ، وقدْ فصَّلنا بعض ذلك في هذا الباب.
ثم رجع بنا القولُ إلى موضعنا من ذِكر الخنزير ثمَّ قال: "قُلْ لاَ أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحيمٌ" ألاَ تراه قد ذكر أصنافَ ما حرَّم ولم يذكرْها بأكثرَ من التَّحريم، فلمّا ذكر الخنزير قال: فَإنَّهُ رِجْسٌ فجعل الخنزير وإنْ كان غير مِيتة أو ذكَرَ الذّابح عليه اسم اللّه، أنَّه رِجْسٌ، ولا نعلم لهذا الوجه إلاَّ الذي خصّهُ اللّه به من ذكر المسخ، فأراد تعظيمَ شأنِ العِقاب ونزولِ الغضَب، وكان ذلك القول ليس ممّا يضرّ الخنزير، وفيه الزَّجر عن محارمه، والتّخويفُ من مواضع عذابه، وإنْ قِيلَ: ينبغي أن يكون مسَخَ صورة القرد، فهلاَّ ذكره في التحريم مع أصناف ما حرَّم، ثمّ خصَّهُ أيضاً أنَّه من بينها رجس، وهو يريد مذهبه وصفته؟ قلنا، إنّ العربَ لم تكن تأكلُ القرودَ، ولا تلتمسُ صيدَها للأكل، وكلُّ مَن تنصَّرَ من ملوك الرُّومِ والحبشَةِ والصِّين، وكلّ مَن تمجَّس من مَلِكٍ أو سُوقة، فإنَّهُمْ كانوا يرون لِلَحْمِ الخنزير فضيلة، وأنّ لحومَها ممَّا تقوم إليهِ النفوسُ، وتنازع إليه الشّهوات، وكان في طباع الناس من التكرُّه للحوم القِرَدةِ، والتقذُّر منها ما يُغني عن ذكرها، فذكر الخنزيرَ إذْ كان بينهما هذا الفرق، ولو ذكر ذلك وألحقَ القردَ بالخنزير لموضع التحريم، لكان ذلك إنما كان على وجه التوكيد لما جعله اللّه تعالى في طبائعهم من التكرُّه والتقذّر، ولا غير ذلك.
وقال اللّه عَزَّ وَجَلَّ: "وَعَلَى الّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أوِ الحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بعَظْمٍ ذلكَ جَزَيْنَاهُمْ ببَغْيهِمْ وَإنَّا لَصَادِقُون".

وجوه التحريم وقد أنبأك كما ترى عن التّحريم أنّهُ يكون مِنْ وجوه: فمنها ما يكون كالكذب والظلم والغَشم والغدْر؛ وهذه أمورٌ لا تحلُّ على وجهٍ من الوجوه، ومنها ما يحرم في العقْل مِن ذبح الإنسانِ الطّفلَ، وجعَلَ في العقول التبيُّنَ بأنّ خالق الحيوانِ أو المالكَ له، والقادرَ على تعويضهِ، يقبح ذلك في السماع على ألسنة رسله، وهذا ممَّا يحرم بعَينِهِ و بذاته لاَ أنه حرِّم لعلة قد يجوز دفعها، والظلم نفسهُ هو الحرام، ولم يحرَّم لعلة غير نفسهِ.
وهو ما جاء من طريق التعبُّد، وما يعرف بالجملة، ويعرف بالتفسير.
ومنهُ ما يكون عقاباً، ويكون مع أنهُ عِقابٌ امتحاناً واختباراً، كنحو ما ذكر من قوله: "ذلِكَ جَزَيْنَاهُمْ ببَغْيِهِمْ" وكنحو أصحاب البقرةِ الذين قيلَ لهُمْ: اذْبَحُوا بَقَرَةً فإنِّي أريد أن أضربَ بها القتيل ثم أحْيِيهما جميعاً، ولو اعترضوا مِن جميع البقر بقرة فذبحوها، كانوا غيرَ مخالفين، فلمّا ذهَبوا مذهب التلكؤ والتعلّل، ثم التعرُّض، والتعثُّت في طريق التعنّت، صار ذلك سبب تغليظ الفرض وقد قال اللّه عزَّ وجلَّ: "مِنْ أجْلِ ذلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إسْرَائِيلَ أنّهُ مَنْ قتَلَ نَفْساً بغَيْرِ نَفسٍ أوْ فَسَادٍ فِي الأرْضِ فكَأنَّمَا قتَلَ النَّاسَ جَميعاً" وقال اللّه تعالى: "الَّذِينَ يَتّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يُجِدُونَه مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإنْجِيلِ يَأمُرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ وَيَنهَاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إصْرَهُمْ وَالأغْلالَ الّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ" ومثله: "رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا" يجوز أن يكونَ إنَّمَا يريدون صَرْف العذاب، ويجوز أن يكون إنما يريدون تخفيف الفرائض، وقد يجوز أن يكونَ على قول من قال: لا أستطيع النظرَ إلى فلانٍ، على معنى الاستقبال.
وبابٌ آخرُ من التّحريم، وهو قوْله: "كُلُّ الطّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إسْرَائِيلَ إلاّ مَا حَرّمَ إسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قبْلِ أنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاة" شعر في الخنزير وقال مروان بن محمد:

يَمْشِي رُوَيْداً يُرِيدُ ختلكم   كمشي خِنزيرةٍ إلى عَذِرَهْ

وقال آخر:

نِعْمَ جَارُ الخنزيرةِ المرضِعُ الغَر   ثى إذا ما غدا، أبُو كلثوم

طاوياً قد أصاب عند صديق   مِنْ ثريدٍ مُلَبَّدٍ مَأدُوم

ثمّ أنْحَى بجَعْرِهِ حاجبَ الشَّمْ   سِ فألْقى كالمِعْلَفِ المهْدُوم

جرير والحضرمي وقال أبو الحسن: وفد جريرٌ على هشامٍ، فقال الحضرمي: أيُّكُمْ يشتمهُ؟ فقالوا: ما أحدٌ يقْدِمُ عليهِ قال: فأنا أشتمهُ ويرضَى وَيَضْحَك قال: فقام إليهِ فقال: أنت جرير؟ قال: نعم، قال: فلا قرّبَ اللّه دارك ولاَ حيَّا مَزَارك يا كَلْب فجعل جريرٌ ينتفخ، ثمَّ قال لهُ: رَضيتَ في شرفك وَفضْلك وَعَفافك أنْ تُهاجِيَ القِرد

العاجز؟ يعني الفرزدق، فضحك.
فحدَّث صديقٌ لي أبا الصَّلَع السِّنديَّ بهذا الحديث، قال: فشِعْري أعجبُ من هذا لأني شتمت البُخَلاءَ، فشتمت نفسي بأشدَّ ممّا شتمتهم، فقال: وَما هو؟ قال قولي:

لاَ تَرَى بيتَ هجاءٍ أبداً يُسْمَعُ مِنِّـي

الهجَا أرْفَعُ ممَّنْ قَدْرُهُ يصغُرُ عنّي

طريفة قال أبو الحسن: كان واحدٌ يسخَر بالنَّاس، ويدَّعي أنَّه يَرقِي من الضِّرس إذا ضربَ على صاحبه، فكان إذا أتاه مَن يشتكي ضِرسه قال له إذا رقاه: إيَّاك أنْ تذكر إذا صرِتَ إلى فِراشك القِردَ؛ فإنَّك إنْ ذكرته بَطَلَتِ الرُّقية فكان إذا آوى إلى فراشه أوَّلَ شيء يخطر على باله ذِكرُ القرد، ويبيت على حاله من ذلك الوَجَع، فيغدو إلى الذي رقاه فيقول له: كيف كنت البارحة؟ فيقول: بتُّ وَجِعاً فيقول: لعلَّك ذكرْتَ القرد فيقول: نعم فيقول: مِنْ ثَمَّ لم تنتفع بالرُّقية شعر لبعض ظرفاء الكوفيين وقال بعضُ ظُرَفاءِ الكوفيِّين:

فَإنْ يشْرَبْ أبو فَرُّوخَ أشْرَبْ وَإنْ كانت معتَّقَةً عُـقَـارَا

وإن يأكلْ أبو فـرُّوخَ آكُلْ وإن كانت خَنَانِيصاً صِغار

قرد يزيد بن معاوية وقال يزيد بن معاوية:

فَمَنْ مبلغُ القِردِ الذي سَبقَتْ به جِيَادَ أمير المؤمـنـين أتَـانُ

تَعَلَّقْ أبا قَيْسٍ بها إنْ أطعتَنـى فليس عليها إن هلَكْتَ ضَمَانُ

جزع بشار من شعر الحماد وزعم الجرداني، أنَّ بشَّاراً الأعمى، لم يجزَعْ من هجاءٍ قطُّ كجزَعِه مِن بيتِ حمَّادِ عَجردٍ، حيث يقول:

ويا أقبَحَ مِن قـردٍ إذا ما عَمِي القِرْدْ

شعر في الهجاء وقال بُشَير بن أبي جَذِيمة العَبْسيّ:

أتَخْطِرُ لِلأشْرافِ حِذْيَمُ كـبـرةً وهل يستعدُّ القِرْدُ للخَـطَـرَانِ

أبى قِصرُ الأذْنابِ أن يخطِرُوا بها ولُؤْمُ قُرودٍ وَسْط كـلِّ مـكـانِ

لقد سمِنَتْ قِرْدانُـكُـمْ آلَ حِـذْيَمِ وأحسابُكم في الحيِّ غيرُ سِمـانِ

الأصمعيُّ عن أبي الأشهب عن أبي السليل قال: ما أبالي أخنزيراً رأيتُ يُجَرُّ برجله، أو مثل عبيد ينادي: يالَ فُلان استطراد لغوي الأصمعيُّ عن أبي ظبيان قال: الخُوز هم البُناة الذين بنَوا الصَّرح واسمُهم مشتقٌّ من الخنزير، ذهب إلى اسمه بالفارسية خوك، فجعلت العرب خُوك خُوزاً، إلى هذا ذهب.

تناسل المِسخ وقد قال النَّاسُ في المَسْخ بأقاويلَ مختلفة: فمنهم من زعم أنّ المِسخَ لا يتناسل ولا يبقى إلاَّ بقدر ما يكونُ موعظةً وعِبْرة، فقطعوا على ذلك الشهادةَ، ومنهم مَن زعم أنَّه يبقى ويتناسل، حتى جعل الضَّبَّ والجِرِّيَّ، والأرانب، والكلاب وغيرَ ذلك، من أولادِ تلك الأمم التي مُسِخت في هذه الصُّور، وكذلك قولُهم في الحيَّات،وقالوا في الوزَغ: إن أباها، لمّا صنع في نار إبراهيمَ وبيت المقْدِس ما صنع، أصمَّهُ اللّه وأبرصَه، فقيل: سامّ أبرص، فهذا الذي نرى هو من ولده؛ حتَّى صار في قتله الأجرُ العظيم، ليس على أنّ الذي يقتلُه كالذي يقتل الأُسْدَ والذِّئاب، إذا خافها على المسلمين، وقالوا في سهيلٍ، وفي الزُّهَرة، وفي هارُوت وماروت، وفي قيرى وعيرى أبَوَي ذي القرنين، وجُرْهم، ما قالوا.

القول في المسخ فأمَّا القول في نفس المَسْخ فإنَّ النَّاس اختلفوا في ذلك: فأمَّا الدُّهريّة فهم في ذلك صِنفان: فمنهم مَن جَحَد المسْخَ وأقرَّ بالخسْف والرِّيح والطّوفان، وجعل الخسْف كالزَّلازل، وزعم أنَّه يقِرُّ من القذْف بما كان من البَرَد الكِبَار؛ فأمّا الحجارة فإنَّها لا تجيء من جهة السَّماء، وقال: لستُ أجوِّز إلاَّ ما اجتمعتِ عليهِ الأمَّة أنَّه قد يحدث في العالم، فأنْكَرَ المسْخَ البتّة.

أثر البيئة وقال الصِّنْف الآخَر: لا ننكر أنْ يفسُدَ الهواءُ في ناحِيةٍ من النواحي فيفسدَ ماؤهم وتفسُدَ تُربتهم، فيعملَ ذلك في طباعهم على الأيَّام، كما عمل ذلك في طباع الزِّنج، وطباع الصَّقالبة، وطباع بلادِ يأجوج ومأجوج،وقد رأينا العَرب وكانوا أعراباً حينَ نزلوا خراسانَ، كيف انسلخوا من جميع تلك المعاني، وترى طباعَ بلاد الترك كيفَ تطبَعُ الإبلَ والدَّوابَّ وجميعَ ماشيتهم: من سبُعٍ وبهيمةٍ، على طبائعهم، وترَى جرادَ البقولِ والرَّياحِين ودِيدانَها خَضراءَ، وتراها في غير الخُضرة على غير ذلك، وترى القمْلة في رأس الشابِّ الأسودِ الشَّعر سوداء، وتراها في رأس الشَّيخ الأبيض الشَّعر بيضاءَ، وتراها في رأس الأشْمط شمطاءَ، وفي لون الجملِ الأورق، فإذا كانت في رأس الخَضِيب بالحمرة تراها حمراء، فإنْ نَصَلَ خضابه صار فيها شُكْلةً، من بين بيضٍ وحُمْر، وقد نرى حَرَّة بني سُليم، وما اشتملت عليه من إنسانٍ، وسبعٍ، وبهيمةٍ، وطائر، وحشرة فتراها كلَّها سوداء، وقد خبَّرَنَا من لا يُحصَى من النَّاس أنّهم قد أدركوا رجالاً من نبَط بَيسان، ولهم أذنَابٌ إلاّ تكنْ كأذنَاب التماسيح والأسد والبقر والخيل؛ وإلاَّ كأذنَاب السَّلاحف والجِرْذان، فقد كان لهم عُجوبٌ طِوالٌ كالأذنَاب، وربَّما رأينا الملاّح النَّبَطِيَّ في بعض الجعفريّات على وجههِ شبهُ القِرْد، وربَّما رأيْنا الرَّجلَ من المغرب فلا نجد بينهُ وبين المِسخ، إلاّ القليل، وقد يجوز أن يصادف ذلك الهواء الفاسدُ، والماءُ الخبيثُ، والتربةُ الرديَّةُ، ناساً في صفةِ هؤلاء المغربيِّين والأنباط، ويكونون جُهّالاً، فلا يرتحلون؛ ضَنَانَةً بمساكنهم وأوطانهم، ولا ينتقلون، فإذا طال ذلك عليهم زادَ في تلك الشعور، وفي تلك الأذناب، وفي تلك الألوان الشُّقْر، وفي تلك الصُّوَر المناسبةِ للقرود، قالوا: ولم نعرفْ، ولم يثْبُتْ عندنا بالخبر الذي لا

يعارَض، أنّ الموضع الذي قلب صُوَر قومٍ إلى صور الخنازير، هو الموضع الذي نقل صُوَر قوْمٍ إلى صُوَرِ القرود، وقد يجوز أن تكون هذه الصُّورُ انقلبت في مهبِّ الريح الشمالي، والأخرى في مهبِّ الجنوب، ويجوز أن يكون ذلك كان في دهرٍ واحد؛ ويجوز أن يكون بينهما دهرٌ ودهور، قالوا: فلسْنا ننكر المِسْخ إن كان على هذا الترتيب؛ لأنَّه إن كان على مجرى الطَّبائع، وما تدور به الأدوار، فليس ذلك بناقضٍ لقولِنا، ولا مثبتٍ لقولكُمْ، قال أبو إسحاق: الذي قلتم ليسَ بمُحالٍ، ولا يُنْكَر أن يحدُثَ في العالَم برهاناتٌ، وذلك المِسخْ كان على مجرى ما أُعطُوا من سائِر الأعاجيب، والدَّلائِل والآيات، ونحن إنَّما عرفنا ذلك من قِبَلِهم، ولولا ذلك لكان الذي قلتمْ غيرُ ممتنِع، ولو كان ذلك المِسْخُ في هذا الموضع على ما ذكرتم، ثمَّ خبر بذلك نبيٌّ، أو دَعا بِهِ نبيٌّ، لَكان ذلك أعظمَ الحُجَّة، فأما أبو بكر الأصمّ، وهشام بن الحكم، فإنَّهُما كانا يقولان بالقلْب، ويقولان: إنَّه إذا جاز أنْ يقلب اللّهُ خَرْدلةً من غير أن يزيد فيها جسماً وطولاً أو عرضاً جاز أن يقلب ابنَ آدمَ قِرداً من غير أن ينقُص من جسمه طولاً أو عرضاً.

وأمَّا أبو إسحاقَ فقد كان لولا ما صَحَّ عنده من قول الأنبياء وإجماع المسلمين على أنّه قد كان، وأنَّه قد كان حُجَّةً وبرهاناً في وقته لكان لا ينكر مذهبهم في هذا الموضع، وقوله هذا قولُ جميع من قال بالطَّبائع، ولم يذهَبْ مذهب جهمٍ، وحفصِ الفَرْدِ.

وقال ابن العنسيّ يذكر القرد:

فهَلاَّ غَدَاةَ الرَّمْلِ يَا قِرْدَ حِذْيمٍ تُؤَامِرُهَا في نَفْسها تَسْتَشِيرُها

القول في تحريم الخنزير قال: وسأل سائلون في تحريم الخنزير عن مسألةٍ؛ فمنهم من أراد الطّعن، ومنهم من أراد الاستفهام، ومنهم مَنْ أحبَّ أن يعرف ذلك من جهة الفُتيا؛ إذْ كان قولُه خلافَ قولنا.

قالوا: إنَّمَا قال اللّه: "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ المَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِير"، فذكر اللَّحمَ دونَ الشّحم، ودونَ الرَّأس، ودونَ المخّ، ودونَ العصَب، ودون سائرِ أجزائه؛ ولم يذكره كما ذكر المَيْتة بأسرها، وكذلك الدَّم؛ لأنَّ القول وقع على جملتهما، فاشتمل على جميع خصالهما بلفظٍ واحد، وهو العموم، وليس ذلك في الخنزير؛ لأنَّه ذكر اللّحم من بين جميع أجزائه وليس بين ذِكْر اللَّحْم والعظْم فرق، ولا بينَ اللَّحْمِ والشَّحم فرق، وقد كان ينبغي في قياسكُمْ هذا لو قال: حرِّمت عَلَيْكُمُ الميتَةُ والدَّم وشَحْم الخنزير، أن تحرِّموا الشحم، وإنَّما ذكر اللَّحم، فلِمَ حرّمتم الشحم؛ وما بالُكُمْ؛ تحرِّمونَ الشّحم عند ذكْر غيرِ الشّحم فهلاّ حرَّمتم اللَّحم بالكتاب، وحرَّمتم ما سِواه بالخبر الذي لا يُدْفع؟ فإن بقيَتْ خصلةٌ أو خَصلتانِ ممَّا لم تُصيبوا ذِكْره في كتابٍ منَزَّل، وفي أثرٍ لا يدفع، رددتموه إلى جهة العقل، قلنا: إنّ النَّاس عاداتٍ، وكلاماً يعرِّف كل شيءٍ بموضعه، وإنما ذلك على قدْر استعمالهم له، وانتفاعهم به،وقد يقول الرجل لوكيله: اشتر لي بهذا الدِّينار لحماً، أو بهذه الدراهم، فيأتيهِ باللّحم فيهِ الشّحم والعظْم، والعِرق والعصب والغُضروف، والفُؤَاد والطِّحالُ، والرِّئة، وببعض أسقاط الشاة وحشو البطن، والرأس لحمٌ، والسَّمك أيضاً لحم، وقال اللّه تعالى:

"هُوَ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيَّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا"، فَإِنْ كانَ الرَّسول ذهب إلى المستعمَل من ذلك، وترَكَ بَعْضَ ما يقع عليهِ اسمُ لحم، فقد أخذَ بما عَلَيْهِ صاحبه، فإذا قال حَرَّمتُ عَلَيْكُمْ لحماً، فكأنّه قال: لحم الشّاة والبقرة والجزور، ولو أنّ رجُلاً قال: أكلت لحما وإنمَا أكل رأساً أو كبداً أو سمكاً لم يكنْ كاذباً، وللنّاس أن يضعُوا كلامَهم حيثُ أحَبُّوا، إذا كان لهم مجازٌ؛ إلاَّ في المعامَلات، فإنْ قُلت: فما تقول في الجلدِ؟ فلَيس للخنزير جلد، كما أنّه ليس للإنسان جلدٌ إلاّ بقطع ما ظهر لك منه بما تحتَه، وإنّما الجِلْد ما يُسْلَخُ ويُدْحَس فيتبرأ ممَّا كان به مُلتزقاً ولم يكن مُلتحماً، كفرق ما بين جلد الحَوْصَلَة والعِرْقين.
فإنْ سألتَ عن الشَّعر، وعن جلد المنْخَنِقة والمَوقُوذةِ والمتردِّيَة والنَّطِيحة وما أكل السَّبُعُ، فإنِّي أزعم أنّ جلدهُ لاَ يُدْبَغ وَلاَ يَنْتَفِعُ به إلاّ الأساكفة، والقول في ذلك أنّ كلَّهُ محرّم، وإنما ذلك كقوله تعالى: "ومَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرهُ" وكَقَوْله عَزَّ وجَلَّ: "وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً إلاّ أنْ يَشَاءَ اللّهُ" والعَربُ تقُول للرَّجُل الصانع نجَّاراً، إن كان لاَ يعمل بالمِثْقبِ والمنشار ونحوه ولاَ يضرب بالمضلع ونحو ذلك، وتسميِّه خبَّازا إذا كان يطبخ ويعجن، وتسمِّي العِيرَ لطيمة، وإن لم يكن فيها ما يحمل العِطْر إلاّ واحد، وتقول: هذه ظُعُنُ فُلاَنٍ؛ للهوادج إذا كانت فيها امرأةٌ واحدة، ويقال: هولاء بنو فُلان؛ وإن كانت نساؤهم أكثرَ من الرجال، فلما كان اللحم هو العمود الذي إليه يُقْصَد، وصار في أعظم الأجزاء قدْراً، دَخَل سائرُ تلك الأجزاءِ في اسمهِ، ولو كان الشّحمُ معتزلاً من اللّحم ومفْرَداً في جميع الشّحام، كشحوم الكُلى والثُّروب، لم يجزْ ذلك، وإذا تكلمَتْ على المفردات لم يكن المخُّ لحماً، لا الدِّماغ، ولا العظم، ولا الشّحم، ولا الغُضروف، ولا الكروش، ولا مَا أشبه ذلك، فلما قال: "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ المَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الخِنْزِيْر" وكانت هذه الأشياء المشبَّهة باللَّحم تدخُل في باب العموم في اسم اللحم، كان القوْلُ واقعاً على الجميع.
وقال الشاعر:

مَنْ يَأْتِنَا صُبحاً يريدُ غَدَاءَنَا فالهَامُ مَنْضَجَةٌ لَدَى الشَّحَّامِ

لحمٌ نَضِيجٌ لاَ يُعنِّي طابخـاً يُؤْتَى به مِنْ قبْلِ كلِّ طعامِ

مسألة الهدهد وإذْ قد ذكرْنَا بَعض الكلام، والمسائل في بعْض الكلام، فسنذكر شأنَ الهدهُد والمسألة في ذلك، قال اللّه عزَّ وجلَّ: "وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِي لاَ أرَى الهُدْهُدَ أمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ، لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً أوْ لأَذْبَحَنَّهُ أوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ" ثم قال: "فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ" يعني الهدهُد، فقال لسليمان المتَوعد له بالذَّبح عقُوبة لَه والعقوبة لا تكون إلا على المعصية لبشريٍّ آدَميّ لم تكن عقوبته الذَّبح، فدلّ ذلك على أنّ المعصية إنما كانت له، ولا تكون المعصيةُ للّه إلاّ ممّن يعرف اللّه، أو ممَّن كان يمكنُه أن يعرفَ اللّه تعالى فتَرَكَ ما يجبُ عليه من المعرفة وفي قولهِ لسليمان: "أحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأ بنبإٍ يَقِينٍ، إنِّي وَجَدْتُ امْرَأةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ"، ثمّ قال بعد أنْ عرفَ فصْلَ ما بين الملوك والسُّوقة، وما بين النِّساء والرجال، وعرف عِظم عرشِها، وكثرة ما

أوتيت في ملكها، قال: وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ فعَرَفَ السُّجُود للشمس وأنْكَرَ المعاصي، ثمَّ قال: "ألاَّ يَسْجُدُوا لِلَّه الَّذِي يُخْرِجُ الخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يَعْلِنُونَ" ويتعجَّب من سجودهم لغير اللّه، ثمَّ علمَ أنَّ اللّه يعلم غيبَ السَّمواتِ والأرض، ويَعلم السِّرَّ والعلانية، ثمَّ قال: "اللَّهُ لا إلهَ إلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ" وهذا يدلُّ على أنّهُ أعْلَمُ مِن ناسٍ كثيرٍ من المميِّزين المستدلِّين الناظرين.

قال سليمان: سَنَنْظُرُ أَصدَقتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ثمَّ قال: "اذْهَبْ بِكِتَابي هذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ، قالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ، إنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإنَّهُ بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ". "فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمانَ قالَ أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُم بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ". وذلك أنَّها قالت: إنَّ المُلُوكَ إذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ المُرْسَلُونَ ثمَّ قال سليمانُ للهدهد: ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لاَ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ وقال: "يَا أَيُّهَا المَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ، قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ، قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ هذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كريم" فطعن في جميع ذلك طاعِنون، فقال بعضهم: قد ثبتَ أنّ الهدهد يحتمل العقاب والعتاب، والتَّكليف والثَّواب، والولاية، ودخولَ الجنَّة بالطّاعة، ودخولَ النَّار بالمعصية؛ لأنَّ المعرفة تُوجِب الأمرَ والنهيَ، والأمرَ والنهيَ يوجبان الطاعة والمعصية، والطاعة والمعصية يوجبان الوَلاَية والعَداوة، فينبغي للهداهد أنْ يكون فيها العدوُّ والوليُّ، والكافر والمسلم، والزِّنديق والدَّهريّ. وإذا كان حُكْمُ الجنس حُكماً واحداً لزم الجميعَ ذلك، وإن كان الهدهدُ لا يبلغ عندَ جميع الناس في المعرفة مبلغَ الذرّة، والنملة، والقملة، والفيل، والقرد، والخنزير، والحمام وجميع هذه الأمَمِ، تُقدِّمُهَا عليه في المعرفة فينبغي أن تكونَ هذه الأصنافُ المتقدِّمَةُ عليه، في عقول هذه الأمَّة والأنبياء، وقد رأينا العلماء يتعجَّبون من خُرافات العَرَب والأعرابِ في الجاهليَّة ومن قولهم في الدِّيك والغراب، ويتعجَّبون من الرِّواية في طوق الحمام فإنّ الحمام كان رائدَ نوح على نبينا وعليه السلام،وهذا القول الذي تؤمنون به في الهدهد، من هذا النوع،قُلنا: إنّ اللّه تعالى لم يقل: وتَفَقّدَ الطَّير فقال ما لي لا أرى هدهداً من عُرْض الهداهد، فلم يوقع قولَه على الهداهد جُملة، ولا على واحدٍ منها غير مقصودٍ إليه، ولم يذهب إلى الجنس عامَّة، ولكنَّهُ قالَ: "وَتَفَقّدَ الطّيرَ فَقالَ مَا لِيَ لا أَرَى الهُدْهُدَ" فأدخَلَ في الاسم الألفَ واللام، فجعله معرفة فدلَّ بذلك القصد على أنَّه ذلك الهدهدُ بعينه، وكذلك غُرابُ نوح، وكذلك حمارُ عُزير، وكذلك ذِئب أُهبانَ بن أوس؛ فقد كانَ لِلّهِ فيه وفيها تدبيرٌ، وليجعَل ذلك آيةً لأنبيائه، وبرهاناً لرسله،ولا يستطيع أعقلُ الناس أن يعملَ عمل أجرإِ النَّاس، كما لا يستطيع أجرأُ النَّاس أن يعملَ أعمالَ أعقلِ الناس، فبأعمال المجانينِ والعُقلاءِ عرَفنا مقدارهما

من صحّة أذهانهما وفسادها، وباختلاف أعمالِ الأطفالِ والكهول عرفْنا مقدارَهما في الضعْف والقوَّة، وفي الجهل والمعرفة، وبمثْل ذلك فصَلنا بين الجماد والحيوان، والعالِمِ وأعلمَ منه، والجاهلِ وأجْهلَ منهُ، ولو كان عند السِّباعِ والبهائم ما عند الحكماء والأدباء، والوزَراء والخلفاء والأمَمِ والأنبياء، لأثمرت تلك العقول، باضطرارٍ، إثمارَ تلك العقول، وهذا بابٌ لا يخطئ فيهِ إلاَّ المانِيَّةُ وأصحابُ الجهالات فقط، فأَمَّا عوامُّ الأمم، فضلاً عن خواصهم، فهم يعلمون مِن ذلك مثْلَ ما نعلم، وإنما يُتفاضَل بالبيان والحِفظ، وبنسق المحفوظ، فأَمَّا المعرفة فنحن فيها سواء، ولم نعرف العقلَ وعدَمه ونقصانه، وإفادته، وأقدارَ معارفِ الحيوان إلاَّ بِمَا يظهر منها، وبتلك الأدلَّة عرفنا فرقَ ما بين الحيِّ والميت، وبين الجماد والحيوان، فإن قال الخصم: ما نعرف كلامَ الذِّئب، ولا معرفةَ الغُراب، ولا علمَ الهدهد، قلنا: نحن ناسٌ نؤمن بأَنَّ عيسى عليه السلام خُلِق من غير ذكرٍ وإنَّما خُلق من أنثى؛ وأنَّ آدَمَ وَحَوَّاءَ خُلقا من غير ذكرٍ وأنثى، وأنَّ عيسى تكلَّم في المهد، وأنَّ يحيى بن زكريَّا نطق بالحكمةِ في الصِّبا، وأنَّ عقيماً ألقحَ، وأنَّ عاقراً ولدت؛ وبأشياءَ كثيرةٍ خرجت خارجيةً من نَسَق العادة، فالسّبب الذي به عرَفنا أنّه قد كان لذلك الهدهد مقدارٌ من المعرفة، دونَ ما توهَّمتم وفوق ما مع الهدهد، ومتى سألتمونا عن الحجَّة فالسبيل واحدة، ونحن نقرُّ بأَنَّ مَن دخل الجَنة من المجانين والأطفال يدخلون عقلاءَ كاملين، من غير تجاربَ وتمرينٍ وترتيب، فمسألتكُمْ عما أُلهم الهدهد، هي المسألة عمَّا ألهم الطفل في الجنة، فإن قال قائل: فإنّ كانَ ذلك القولَ كلّه، الذي كان من الهدهد، إنما كان على الإلهام والتّسْخير، ولم يكن ذلك عن معرفةٍ منه، فلم قال: "لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنّهُ"؟ قلنا: فإنّه قد يتوعَّد الرَّجُلُ ابنَه وَهو بَعْدُ لم يَجر عَلَيْهِ الأحكامُ بالضَّرب الوجيع، إن هو لم يأْتِ السُّوق، أو يحفظْ سورَةَ كَذَا وَكَذَا؛ فلا يعنِّفُهُ أحدٌ على ذلك الوعيد، ويكذبُ فيضربه على الكذب، ويضرب صبياً فيضربه لأنه ضربه، وهو في ذلك قد حَسُنَ خطّه، وجاد حسابُه، وشدَا من النَّحو والعروض والفرائض شدْواً حسناً، ونفع أهلَه، وتَعلم أعمالاً، وتكَلَّم بكلام، و أجاب في الفتيا بكلامٍ فوْقَ معاني الهدهد في اللّطافة وَالغموض، وَهُوَ في ذلك لم يكمُل لاحتمال الفرض وَالْوِلاية وَالعَداوَة،فإن قال: فهل يجوز لأحدٍ أن يقول لابنِه: إنْ أنت لم تأتِ السُّوق ذبحتك؛ وَهُوَ جادّ؟ قُلنا: لا يجوز ذلك، وَ إنَّمَا جاز ذلك في الهدهد لأنّ سليمان وَمَنْ هو دونَ سليمان من جميع العالم له أن يذبح الهدهدَ والحمامَ والدِّيك، والعَناق والجدْي، والذَّبحُ سبيلٌ من سُبُل منایاهم، فلو ذبحهُ سليمانُ لم يكن في ذلك إلاَّ بقدر التَّقديم والتأخير، وإلاَّ بقدْر صَرفِ ما بين أن يموت حتْفَ أنفِهِ، أو يموتَ بالذَّبح، ولَعَلَّ صَرْفَ ما بينهما لا يكون إلاَّ بمقدار ألم عِشرين درَّة، ولعلَّ نتْف جناحِه يَفي بذلك الضرب، وإذا قلنا ذلك فقد أعطينا ذلك الهدهدَ بعينه حقَّ ما دلَّت عليه الآية، ولم نجزْ ذلك في جميع الهداهد، ولم نَكُنْ كَمَنْ ينكر قدرة اللّه على أن يُرَكِّبَ عصفوراً من العصافير ضرباً من التراكيب يكون أدهى من قيس بن زهير، ولو كان اللّه تعالى قد فعل ذلك بالعصافير لظهرت كذلك دلائل، على أنَّا لو تأوّلنا الذَّبحَ على مثالِ تأويلِ قولنا في ذبْح إبراهيم إسماعيلَ عليهما السلام - وَإنما كان ذلك ذبحاً في المعنى لغيره أو على معنى قول القائل: أمّا أنا فقد ذبحته وضربت عنقه، ولكن السيف خانني، أو

على قولهم: المِسْك الذَّبيح، أو على قولهم: فجئت وقدْ ذَبَحَنِي العطش لكان ذلك مجازاً، ولو أنَّ صَبيّاً مِن صبياننا سُئل، قبل أن يبلُغَ فرضَ البلوغ بساعة، وكان رأى مَلِكة سبإٍ في جميع حالاتها، لما كان بعيداً ولا ممتنعاً أن يقولَ: رأيتُ امرأةً مِلِكَةً، ورأيتها تسجُد للشَّمس من دون اللّه، ورأيتُها تُطيعُ الشَّيطانَ وتَعصِي الرَّحمن، ولا سيما إنْ كانَ من صِبيان الخلَفاء والوُزراء، أو مِنْ صبيان الأعراب،والدَّليل على أنَّ ذلك الهدهدَ كان مسخَّراً وميَسَّراً، مَضِيُّه إلى اليمن، ورجوعُه من ساعته، ولم يكن من الطَّير القواطع فرجع إلى وكره، والدَّليل على ذلك أنَّ سليمان عليه السلام لم يقل: نعم قد رأيت كلَّ ما ذكرتَ، وأنت لم تعلم حين مضَيت بطّالاً هارباً من العمل، أتُكْدِي أم تنجح، أو ترى أعجوبةً أو لا تراها، ولكنَّهُ توعَّدهُ على ظاهر الرَّأي، ونافره القول؛ ليُظهرَ الآيةَ والأعجوبة.ناقِ والجدْي، والذَّبحُ سبيلٌ من سُبُل مناياهم، فلو ذبحهُ سليمانُ لم يكن في ذلك إلاَّ بقدر التَّقديم والتأخير، وإلاَّ بقدْر صَرفِ ما بين أن يموت حتْفَ أنفِهِ، أو يموتَ بالذَّبح، ولَعَلَّ صَرْفَ ما بينهما لا يكون إلاَّ بمقدار ألم عِشرين دِرَّة، ولعلَّ نتْف جناحِه يَفي بذلك الضرب، وإذا قلنا ذلك فقد أعطينا ذلك الهدهدَ بعينه حقَّ ما دلَّت عليه الآيةُ، ولم نجزْ ذلك في جميع الهداهد، ولم نَكُنْ كَمَنْ ينكر قدرة اللّه على أن يُرَكِّبَ عصفوراً من العصافير ضرباً من التراكيب يكون أدهى من قيس بن زهير، ولو كان اللّه تعالى قد فعل ذلك بالعصافير لظهرت كذلك دلائل، على أنَّا لو تأوَّلنا الذَّبحَ على مثالِ تأويلِ قولنا في ذبْح إبراهيم إسماعيلَ عليهما السلام - وَإنما كان ذلك ذبحاً في المعنى لغيره أو على معنى قول القائل: أمّا أنا فقد ذبحته وضربت عنقه، ولكن السيف خانني، أو على قولهم: المِسْك الذَّبيح، أو على قولهم: فجئت وقدْ ذَبَحَنِي العطش لكان ذلك مجازاً، ولو أنَّ صَبيّاً مِن صبياننا سُئل، قبل أن يبلُغَ فرضَ البلوغ بساعة، وكان رأى مَلِكة سبإٍ في جميع حالاتها، لما كان بعيداً ولا ممتنعاً أن يقولَ: رأيتُ امرأةً مِلِكَةً، ورأيتها تسجُد للشَّمس من دون اللّه، ورأيتُها تُطيعُ الشَّيطانَ وتَعصِي الرَّحمن، ولا سيما إنْ كانَ من صِبيان الخلَفاء والوُزراء، أو مِنْ صبيان الأعراب،والدَّليل على أنَّ ذلك الهدهدَ كان مسخَّراً وميَسَّراً، مَضِيُّه إلى اليمن، ورجوعُه من ساعته، ولم يكن من الطَّير القواطع فرجع إلى وكره، والدَّليل على ذلك أنَّ سليمان عليه السلام لم يقل: نعم قد رأيت كلَّ ما ذكرتَ، وأنت لم تعلم حين مضَيت بطّالاً هارباً من العمل، أتُكْدِي أم تنجح، أو ترى أعجوبةً أو لا تراها، ولكنَّهُ توعَّدهُ على ظاهر الرَّأي، ونافره القول؛ ليُظهرَ الآيةَ والأعجوبة.

طعن الدهرية في ملك سليمان ثمَّ طعَن في مُلك سُليمانَ ومَلِكةِ سبإ، ناسٌ من الدُّهريَّة، وقالُوا: زعمتم أنَّ سُليمان سأل ربَّه فقال: "رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهبْ لِي مُلْكاً لاَ يَنْبَغِي لأحَدٍ مِنْ بَعْدِي" وأنَّ اللّه تعالى أعطاه ذلك، فملَّكه على الجنِّ فضلاً عن الإنْس، وعلَّمه منطِق الطَّير، وسخَّر له الرِّيح، فكانت الجنُّ له خَوَلاً، والرِّياحُ له مسخرة ثمَّ زعمتم وهو إمّا بالشَّام وإمَّا بسَوَادِ العِراق أنَّه لا يعرف باليمن مَلِكَةً هذه صفتُها، وملوكُنا اليومَ دونَ سليمانَ في القدْرة، لا يخفى عليهم صاحب الخَزَر، ولا صاحبُ الروم، ولا صاحبُ الترك، ولا صاحبُ النُّوبة، وكيف يجهل سليمانُ موضِعَ هذه المِلكة، مع قرْبِ دارها واتِّصَالِ بلادها وليس دونَها بحارٌ ولا أوعارٌ؛ والطريق نهجٌ للخُفِّ والحافر والقدَم، فكيف والجنُّ والإنسُ طوعُ يمينه، ولو كان،

حين خبَّره الهدهدُ بمكانها، أضرَب عنها صفحاً، لكان لقائلٍ أن يقول: ما أتاه الهدهدُ إلاّ بأمرٍ يعرفه، فهذا وما أشبهَهُ دليلٌ على فساد أخباركم.
قُلنا: إنّ الدُّنيا إذا خلاّها اللّه وتدبيرَ أهلها، ومجاريَ أمورها وعاداتها كان لعمري كما تقولون، ونحن نزعمُ أنَّ يَعْقوبَ بنَ إسحاقَ بن إبراهيمَ كَانَ أنبَهَ أهْلِ زمانِه؛ لأنّه نبيٌّ ابنُ نبيٍّ، وكان يوسُف وزير مَلِكِ مصر من النَّباهة بالموضع الذي لا يُدفع، وله البُرُدُ، وإليهِ يرجع جوابُ الأخبار، ثمَّ لم يعرفْ يَعقوبُ مكانَ يوسُفَ، ولا يوسفُ مكانَ يَعقوبَ عليهما السلام ـ دهراً من الدُّهور، مع النَّباهةِ، والقُدْرةِ، واتِّصال الدار وكذلك القولُ في موسى بنِ عمرانَ ومَنْ كَانَ معه في التِّيه، فقد كانوا أمَّةً من الأمم يتَكَسَّعُونَ أربعين عاماً، في مقدارِ فراسخَ يسيرةٍ ولا يهتدون إلى المخرج، وما كانت بلادُ التِّيه إلاّ من ملاعبهم ومُنْتَزَهاتهم، ولا يعدم مثْلُ ذلك العسكرِ الأدلاّءَ والجَمَّالين، والمُكارينَ، والفُيُوجَ، والرُّسلَ، والتّجار، ولكنَّ اللّه صَرَفَ أوهامَهم، ورفع ذلك الفصْلَ مِن صدورهم.وكذلك القول في الشَّياطين الذين يسترِقون السّمْعَ في كلِّ ليلة، فنقُولُ: إنَّهم لو كان كلما أراد مُريدٌ منهم أن يصعَدَ ذكَرَ أنَّه قد رُجم صاحبُه، وأنَّه كذلك منذ كان لم يصل معه أحدٌ إلى استراق السَّمْع، كان مُحالاً أن يرومَ ذلك أحَدٌ منهم مع الذّكر والعِيان.
ومثل ذلك أنّا قد علمْنا أنّ إبْليسَ لا يزالُ عاصِياً إلى يومِ البَعث، ولو كان إبْليسُ في حال المعْصِيَة ذاكِراً لإخبارِ اللّه تعالى أنَّه لا يزالُ عاصياً وهو يَعلم أنّ خَبرَه صِدقٌ، كان محالاً أنْ تدعُوَه نفسُه إلى الإيمان، ويطمَعَ في ذلك، مع تصديقِهِ بأنّه لا يختار الإيمانَ أبداً.
ومن المحال أن يجمَع بين وجودِ الاستطاعة وعدم الدَّواعي وجواز الفعل. ولو أنّ رجلاً عَلِم يقيناً أنّه لاَ يخرُج من بيتِه يومَه ذلك، كان محالاً أن تدعُوَه نفسه إلى الخروج، مع علمه بأنّه لا يفعل، ولكِن إ بْليس لما كانَ مصروفَ القلبِ عن ذِكْر ذلك الخبر، دخل في حَدِّ المستطيعين، ومثل ذلك أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لَمّا بشره اللّه بالظّفر وتمام الأمر بشرّ أصحابَه بالنَّصر، ونزولِ الملائكة، ولو كانوا لذلك ذاكرين في كلّ حالٍ، لم يكن عليهم مِنَ المحاربة مؤونة، وإذا لم يتكلفوا المؤونة لم يؤجَروا، ولكِنّ اللّه تعالى بنظره إليهم رَفَع ذلك في كثيرٍ من الحالات عن أوهامهم؛ ليحتملوا مشقَّة القِتال، وهم لا يعلمون: أيغلِبُون أم يُغْلَبون؛ أو يَقْتُلُونَ أم يُقتلون،ومثل ذلك ما رفع من أوهام العَرب، وصرف نفوسهم عن المعارَضَةِ للقرآن، بَعْدَ أنْ تحدَّاهم الرَّسولُ بنظْمه، ولذلك لم نَجِدْ أحَداً طمِع فيه، ولو طمِعَ فيه لتَكلفه، ولوتكلف بَعضهُمْ ذلك فجاء بأمر فيه أدنى شُبهة لعظمت القصَّة على الأعْراب وأشباه الأعراب، والنِّساءِ وأشباه النساء، ولألقى ذلك للمسلمين عملاً، ولطلبوا المحاكمة والتراضي ببعض العرب، ولكثُر القيلُ والقال، فقد رأيتَ أصحابَ مُسيْلمَة، وأصحاب ابن النواحة إنما تَعلّقُوا بما ألَّف لهُمْ مُسَيلمة من ذلك الكلام، الذي يَعلمُ كلُّ مَن سَمِعه أنَّه إنَّما عَدا على القرآن فسلَبه، وأخَذَ بَعضَه، وتَعاطى أن يُقارِنَه، فكان للّه ذلك التَّدبيرُ، الذي لا يبلغه العِبَادُ ولو اجتَمَعوا له، فإنْ كان الدُّهريُّ يريدُ من أصحَابِ العِبَادَاتِ والرُّسُلِ، ما يريد من الدُّهريِّ الصِّرفِ، الذي لا يُقِرُّ إلا بما أوجَدَه العِيان، وما يَجري مَجرَى العِيانِ فقدْ ظلَمَ.وقد علم الدُّهريُّ أنّنا نعتقِد أنّ لنا ربّاً يخترع الأجسامَ اختراعاً وأنّهُ حَيٌّ لا بحياة،

وعالمٌ لا بعلم، وأنّه شيءٌ لا ينقسم، وليس بذِي طُول ولا عرْض ولا عُمق، وأنّ الأنبياء تحيي الموتى، وهذا كلُّه عنْدَ الدهريِّ مستنكَر، وإنّما كان يكون له عَلَيْنَا سبيل لو لم يكن الذي ذكرنا جائزاً في القِياس، واحتجْنا إلَى تثبيت الرُّبوبيَّةِ وتصديق الرِّسالة، فإذا كان ذلك جائزاً، وكانَ كونُه غيرَ مستنكَرٍ، ولا محالٍ، ولا ظُلم، ولا عيبٍ، فلم يبقَ له إلاّ أنْ يسألَنَا عن الأصْلِ الذي دعا إلى التَّوحِيدِ، وإلَى تثبيت الرسل،وفي كتابنا المنزّل الذي يدلُّنا على أنّه صِدْقٌ، نَظْمُه البدِيع الذي لايقدِر على مثْله العباد، مَعَ ما سِوَى ذلك من الدّلائِل التي جَاء بها مَنْ جَاء به، وفيه مسطورٌ أنّ سليمانَ بنَ داودَ غَبَرَ حِيناً وهو ميّت معتمِداً على عصاه، في الموضع الذي لا يُحْجَب عنه إنْسِيٌّ ولا جِنِّيٌّ، والشَّيَاطينُ مهُمْ المَكْدُودُ بالعَمَل الشديد، وَمِنْهُمْ المحبوسُ والمستعبد، وكانوا كما قال اللّه تعالى: "يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كالجَوَابِي وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ" وقال "وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغوَّاصٍ، وَآخَرينَ مُقرَّنِينَ في الأصْفَادِ"، وَأَنَّهُ غَبَرَ كذلك حيناً وهو تُجاهَ أعيُنِهم، فلا هُمْ عرَفُوا سجيَّةَ وُجوهِ الموتَى، ولا هو إذْ كان ميِّتاً سقط سُقوط الموتى، وثبتَ قائِماً معتمداً على عصاه، وعصاه ثابتةٌ قائمةٌ في يده، وهو قابضٌ عليها، وليستْ هذه الصِّفَةُ صفةَ موتانا، وقال: "فَلَمَّا قضَيْنَا عَلَيْهِ المَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنُّ أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ المُهِينِ" ونحنُ دونَ الشَّيَاطينِ والجِنِّ في صِدْق الحسِّ، ونُفوذِ البصر، ولوْ كُنَّا مِن بعضِ الموتى بهذا المكان، لما خَفِيَ علينا أمرُه وكان أدنى ذلك أنْ نظنَّ ونرتاب، ومتى ارتابَ قومٌ وظنُّوا وماجُوا وتكلموا وشاوروا، لَقِنُوا وثُبِّتُوا، ولا سيَّما إذا كانوا في العذاب ورأوْا تَبَاشِيرَ الفرَج، ولولا الصَّرْفة، التي يُلقيها اللّه تعالى على قَلْبِ مَنْ أحبَّ، ولولا أنّ اللّه يقدِرُ على أنْ يشغَلَ الأوهامَ كيف شاء، ويذكِّر بما يشاء، ويُنَسِّي ما يشاء، لما اجتمع أهلُ داره وقصْره، وسُوره ورَبَضِه، وخاصَّتُه، ومن يخدُمه من الجنِّ والإنْس والشَّياطين، على الإطباق بأنَّه حَيٌّ، كذلك كان عندهم، فحدث ما حَدَثَ من موته، فلمَّا لم يشعُروا به كانوا على ما لم يزالوا عليه، فعلِمْنا أنَّ الجنَّ والشّياطينَ كانت تُوهِم الأغبياء والعَوَامَّ والحُشْوَةَ والسِّفْلة، أنَّ عندهما شيئاً من عِلْمِ الغيب والشياطين لا تعلم ذلك فأراد اللّه أنْ يكشِف من أمْرهم للجُهَّال ما كان كَشَفَه للعلماء، فبهذا وأشباهه من الأمور نحنُ إلى الإقرار به مضطرون بالحجَج الاضطراريَّة فليس لخصومنا حِيلةٌ إلاَّ أن يوافِقُونَا، وينظروا في العلَّة التي اضطرتنا إلى هذا القول؛ فإن كانت صحيحةً فالصَّحيحُ لا يُوجِب إلا الصحيح، وإنْ كانت سقيمةً علِمْنا أنَّما أُتينَا من تأويلنا، وأما قوله: "لأُعَذِّبَنَّهُ" فإنَّ التعذيبَ يكون بالحبس، كما قال اللّه عزّ وجلّ: "لوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا في الْعَذَابِ المُهِينِ"، وإنَّما كانُوا مُخَيَّسِينَ،وقد يقول العاشق لمعشوقتِه: يا معذِّبتي وقد عذّبتني ومن العذابِ ما يكُونُ طويلاً، ومِنْه ما يكونُ قصيرَ الوقت، ولو خَسَفَ اللّه تَعالى بقومٍ في أقلَّ من عُشْر ساعة لجاز لقائل أن يقول: كان ذلك يومَ أحلَّ اللّه عذابَه ونِقمَتَه ببلاد كذا وكذا. يخدُمه من الجنِّ والإنْس والشَّياطين، على الإطباق بأنَّه حَيٌّ، كذلك كان عندهم، فحدث ما حَدَثَ من موته، فلمَّا لم يشعُروا به كانوا على ما لم يزالوا عليه، فعلِمْنا أنَّ الجنَّ والشّياطينَ كانت تُوهِم الأغبياء والعَوَامَّ والحُشْوَةَ والسِّفْلة، أنَّ

عندهما شيئاً من عِلْمِ الغيب والشياطين لا تعلم ذلك فأراد اللّه أنْ يكشِف من أمْرهم للجُهَّال ما كان كَشَفَه للعلماء، فبهذا وأشباهه من الأمور نحنُ إلى الإقرار به مضطرون بالحجَج الاضطراريَّة فليس لخصومنا حِيلةٌ إلاَّ أن يوافِقُونَا، وينظروا في العلَّة التي اضطرتنا إلى هذا القول؛ فإن كانت صحيحةً فالصَّحيحُ لا يُوجِب إلا الصحيح، وإنْ كانت سقيمةً علِمْنا أنَّما أُتِينَا من تأويلنا، وأما قوله: "لأُعَذِّبَنَّهُ" فإنَّ التعذيبَ يكون بالحبس، كما قال اللّه عزّ وجلّ: "لوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا في الْعَذَابِ المُهِينِ"، وإنَّما كانُوا مُخَيَّسِينَ،وقد يقول العاشق لمعشوقتِه: يا معذِّبتي وقد عذبتني ومن العذابِ ما يكُونُ طويلاً، ومِنْه ما يكونُ قصيرَ الوقت، ولو خَسَفَ اللّه تَعالى بقومٍ في أقلَّ من عُشْر ساعة لجاز لقائل أن يقول: كان ذلك يومَ أحلَّ اللّه عذابَه ونِقمَتَه ببلاد كذا وكذا.

قوة الخنزير وشدة احتماله وقال أبو ناصرة: الخنزير ربَّما قتل الأسد، وما أكْثرَ ما يَلْحَقُ بصاحب السَّيفِ والرُّمح، فيضربُه بنابِهِ، فيقطعُ كلّ ما لِقيه من جسَده: من عظمٍ وعصَبٍ، حتى يقتلَه، وربَّما احتال أن ينبَطح على وجهه على الأرض، فلا يغني ذلك عنْه شيئاً: وليس لشيءٍ من الحيوان كاحتمال بدنِه لِوَقع السهام، ونفوذِها فِيهِ.

بعض طباع الخنزير وهو مع ذلك أرْوَغُ من ثعلب، إذا أراده الفارس، وإذا عدا أطمَعَ في نفْسه كلّ شيء، وإذا طولب أعيا الخيْلَ العِتاق، والخنزيرُ مع ذلك أنْسَلُ الخلْق؛ لأنَّ الخِنزيرةَ تَضَعُ عِشرين خِنَّوْصاً، وهو مَع كَثرة إنساله مِنْ أقوَى الفحُول على السِّفاد، ومَعَ القُوّة على السِّفاد هو أطولها مُكْثاً في سفادِه، فهْوَ بذلك أجمَعُ للفُحُولة،وإذا كانَ الكلبُ والذِّئبُ موصوفَينِ بشدّة القلْب؛ لطُول الخَطْم، فالخنْزيرُ أولى بذلك، وللفِيل نابٌ عجيب، ولكِنَّهُ لقصر عنقه لا يبلغ النَّابُ مبلغاً، وإنَّمَا يستعينُ بخُرطومِهِ، وخُرطومُهُ هو أنفه، والخَطْمُ غير الخرطوم.

ما قيل في طيب لحمه وإهالته قال أبو ناصرة: وله طيب، وهُو طِيبُ لحمِه ولحمُ أولاده، وإذا أرادُوا وصفَ اختلاط ودَك الكُرْكيِّ في مَرَق طبيخ، قا لُوا كأَنَّ إهالتَه إهالة خنزير؛ لأنَّه لا يسرع إليها الجمود، وسرعةُ جمودِ إهالة الماعز في الشِّتاء عيب، وللضَّأن في ذلك بعضُ الفضيلة على الماعز؛ ولا يلحق بالخنزير.

قبول عظم الخنزير للالتحام بعظم الانسان وإذا نقص من الإنسان عَظْمٌ واحْتِيجَ إلى صلتِهِ في بعض الأمراض لم يلتحِمْ بهِ إلاّ عَظْمُ الخنْزير. صوت الخنزير وإذا ضُرِب فصاح لم يكن السَّامِعُ يفصِلُ بينَ صَوتِه وبينَ صوت صبيٍّ مضروب.

طيب لحمه وفي إطباق جميع الأممِ على شهوةِ أكله واستطابَةِ لحمِه، دليلٌ على أنَّ له في ذلِكَ ما ليس لغيْره.

زعم المجوس في المنخنقة ونحوها

والمجوس تزعم أنَّ المُنخنقة والموقُوذَة والمتردِّية، وكلَّ ما اعْتُبط ولم يمت حَتْف أنفِه، فهو أطيب لَحْماً وأحلى؛ لأنَّ دَمَه فِيهِ، والدم حُلوٌ دَسِم، وإنما عافه مَن عافه من طَريق العادة والدِّيانة، لا من طريق الاستقذار والزُّهْدِ الذي يكُونُ فِي أصل الطبيعة.

اختلاف ميل الناس إلى الطعام وقد عافَ قومٌ الجِرِّيَّ والضِّبابَ على مثل ذلك،

وشُغِف بهِ آخرون، وقد كانت العربُ في الجاهليَّة تأكل دمَ الفصْد، وتفضِّل طعمه، وتُخبر عَمَّا يورثُ من القوَّة، قال: وأيُّ شيءٍ أحسَنُ من الدّم، وهل اللَّحمُ إلا دَمٌ استحالَ كما يستحيل اللَّحمُ شحماً؟ ولكنّ الناس إذا ذكروا معناه، ومن أين يخرج وكيف يخرج، كانَ ذلِكَ كاسِراً لهُمْ، ومانعاً من شهوتِه.
بعض ما يغير نظر الإنسان إلى الأشياء وكيف حال النَّار في حسنها، فإنّه ليس في الأرض جسمٌ لم يصبغ أحسن منْه، ولَوْلاَ معرفتهُمْ بقتْلها وإحْراقِها وإتلافها، والألم والحُرْقةِ المولدين عنها، لتضاعف ذلك الحُسْن عِنْدَهُمْ، وإنَّهم ليَرَوْنَها في الشِّتاءِ بغير العُيونِ التي يرونها بها في الصَّيف، ليس ذلك إلاَّ بقدْر ما حدَثَ من الاستغناءِ عنها، وكذلك جِلاءُ السَّيف؛ فإنَّ الإنسانَ يَستحسِنُ قدَّ السَّيفِ وخَرْطه، وَطبْعَهُ وبريقه، وإذا ذكر صنيعَه والذي هُيئَ له، بَدَا لهُ في أكثرِ ذلك، وتبدَّل في عينه، وشَغَلَه ذلك عن تأمُّل محاسنه، ولولا علْم النَّاس بعداوة الحيَّاتِ لهم، وأنهَا وحشيَّة لا تَأْنَس ولا تقبل أدَباً، ولا تَرْعَى حقَّ تربية، ثمَّ رأوا شيئاً من هذه الحيَّاتِ، البيض، المنقّشَةِ الظُّهور لَمَا بَيَّتُوها ونوّمُوها إلاَّ في المهد، مع صبيانهم.
ردٌّ على من طعن في تحريم الخنزير فيقال لصاحب هذه المقالة: تحريم الأغذيَةِ إنَّمَا يكونُ من طريق العبادة والمِحْنة، وليس أنهَ جوهَرَ شيء من المأكول يوجِبُ ذلك، وإنَّمَا قلنا: إنَّا وجدْنا اللّه تعالى قد مسَخَ عباداً من عباده في صُوَرَ الخنزير دونَ بقِيَّة الأجْناس، فعلمنا أنَّه لم يَفْعَلْ ذلك إلاَّ لأمور اجتمعتْ في الخنزير، فكان المسخ على صورته أبلَغ من التَّنكيل، لم نقُلْ إلاّ هذا.

القرد

طباع القرد والقرد يَضحَكُ ويَطْرَب، ويُقعي ويَحكي، ويتناولُ الطَّعامَ بيديه ويضعُه في فيه، ولَهُ أصابعُ وأظفار، ويَنقي الجوز، ويأنس الأُنْسَ الشَّديد، وَيَلْقنُ بالتَّلقين الكثير، وإذا سقَط في الماء غرِق ولم يسبَحْ؛ كالإنسانِ قبلَ أنْ يتعلَّمَ السِّباحة، فلم تجد النَّاسُ للذي اعترى القِرْدَ من ذلك دونَ جميع الحيوان عِلَّةً إلاَّ هذه المعاني التي ذكرتها، من مناسَبَة الإنسانِ مِنْ قِبَلِها،ويُحكى عنه من شدَّة الزَّواج، والغَيرةِ على الأزواج، ما لا يحكى مثلُه إلاَّ عن الإنسان؛ لأنَّ الخنزيرَ يَغَارُ، وكذلك الجملُ والفرَسُ، إلاَّ أنهَا لا تزاوج، والحِمارُ يَغارُ ويحمي عانَتَهُ الدَّهر كُلَّهُ، ويضربُ فيها كضربه لو أصابَ أتَاناً من غيرها، وأجناس الحمام تزاوج ولا تَغار، واجتمَع في القرد الزَّواج والغَيرة، وهما خَصلتانِ كريمتان، واجتماعُهما من مفاخرِ الإنسان على سائِر الحيوان، ونحن لم نَرَ وجْهَ شيءٍ غيرِ الإنسان أشبَهَ صورةً وشبهاً، على ما فيه من الاختلاف، ولا أشبَهَ فماً ووجْهاً بالإنسان من القِرْد، ورُبّما رأيْنا وجهَ بَعْضِ الحمر إذا كان ذا خطْمٍ، فلا نَجِدُ بَيْنَهُ وبين القِرْدِ إلاَّ اليسيرَ.
أمثال في القرد وتقول الناس: أكْيسُ من قِشَّة وأمْلَحُ مِنْ رُبَّاحٍ ولم يقل أحد: أكيس من خِنزير، وأملَحُ من خِنّوص، وهو قول العامّة: القرد قبيحٌ ولكنّه مليح.
كف القرد وأصابعه وقال النَّاس في الضبِّ: إنه مِسخٌ، وقالوا: انْظُر إلى كفّه وأصابعه، فكَفّ القرد وأصابعُه أشْبَهُ وأصنَعُ، فقدَّمَتِ القردَ على الخنزير من هذا الوجه.
علة تحريم لحم الخنزير وأمّا القولُ في لحمه، فإنَّا لم نزعمْ أنّ الخنزيرَ هو ذلك

الإنسانُ الذي مُسخ، ولا هو من نَسله، ولم نَدعْ لَحمةُ من جهة الاستقذار لشَهْوته في العَذِرة، ونحن نجد الشّبُّوط والجِرّيَّ، والدّجاج، والجَرادَ، يشاركْنُه في ذلك ولكن للخصال التي عدّدنا من أسباب العبادات، وكيف صار أحقَّ بأنْ تمسخ الأعداءُ على صورته في خلقتِه.

حديث عبيد الكلابي قال: وقلت مَرّةً لعبيد الكلابيِّ وأظهَرَ مِن حُبِّ الإبل والشّغْفِ بها ما دَعاني إلى أن قلت لَهُ: أبينها وبينكم قرابة؟ قال: نعم، لها فينا خُؤولة، إنِّي واللّه ما أعني البَخاتيَّ، ولكني أعني العِرَاب، التي هي أعرب قلت لَهُ: مَسَخَك اللّه تعالى بعيراً قال: اللّه لا يمسخُ الإنسَانَ على صُورةِ كريمٍ، وإنما يمسخه على صورةِ لئيم، مثل الخنزير ثم القرد، فهذا قولُ أعرابيٍّ جِلْفٍ تكَلم على فِطرتِه.

قول في آية وقد تكلم المخالِفُون في قولِهِ تعالى: "وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذلكَ نَبلُوهُمْ بِمَا كانُوا يَفْسُقُونَ" وقد طعَنَ ناسٌ في تأويل هذه الآيَةِ، بغِير علمٍ ولا بيانٍ، فقالوا: وكيف يكون ذلك وليس بين أن تجيء في كلِّ هلال فرقٌ، ولا بينها إذا جاءت في رأس الهلال فرقٌ، ولا بينَها إذا جاءتْ في رأس السَّنَةِ فرق.

هجرة السمك وهذا بحرُ البَصرةِ والأُبلّة، يأتيهم ثلاثة أشهرٍ معلومة معروفة من السنة السَّمَكُ الأسْبور، فيعرفون وقتَ مجيئهِ وينتَظِرُونه، ويَعرفون وقتَ انقِطاعِه ومجيءِ غيره، فلاَ يمكث بهم الحالُ إلاَّ قليلاً حتَّى يُقْبِلَ السَّمكُ من ذلك البحر، في ذلِكَ الأوان، فَلاَ يَزَالونَ في صَيْدِ ثلاَثةَ أشهرٍ معلومةٍ من السَّنَةِ، وذلِكَ في كلِّ سنةٍ مرَّتين لكل جنس، ومعلومٌ عندهم أنه يكون في أحد الزمانين أسمَنَ، وهو الجُواف، ثمَّ يأتيهم الأسْبور، على حساب مجيء الأسبور والجُوَافِ، فأمّا الأسْبور فهو يقطع إليهم من بلادِ الزِّنج، وذلِكَ مَعْرُوفٌ عند البحْريِّينَ، وأنَّ الأسْبور في الوقت الذي يقطَع إلى دِجلةِ البصرة لا يوجَد في الزِّنج، وفي الوقت الذي يُوجَدُ في الزنج لا يوجد في دِجلة، وربَّما اصطادُوا منها شيئاً في الطريق في وقت قطعِهَا المَعْرُوفِ، وفي وقت رجوعها، ومَع ذلِكَ أصنافٌ من السمك كالإرْبيان، والرَّقّ، والكَوْسَج، والبرد، والبَرَستُوج، وكلٌّ ذلك معْرُوف الزَّمان، متوقعُ المخرَج،وفي السَّمكِ أوابدُ وقواطع، وفيها سيّارةٌ لا تقيم، وذلك الشبَهُ يُصابُ، ولذلك صارُوا يتكلمُونَ بخَمْسةِ السنة، يهذُّونها، سوى ما تَعَلَّقُوا به من غيرها، ثمَّ القواطع من الطير قد تأتينا إلى العِراق منهم في ذلك الإبَّان جماعاتٌ كثيرةٌ، تَقْطعُ إلينا ثمَّ تَعُودُ في وقتها.

رد على المعترض قُلْنا لهؤلاء القوْم: لَقدْ أصبتم في بَعض ما وصفتم، وأخْطأتم في بَعضٍ، قال اللّه تعالى: "إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ" ويومُ السبتِ يدورُ مَعَ الأسابيع، والأسابيعُ تدور مع شهورِ القَمَر، وهذا لا يكونُ مَعَ استواءٍ من الزمان، وقد يكون السبتُ في الشتاء والصَّيف والخريف، وفيما بين ذلك، ولَيْسَ هذا من باب أزمان قواطع السَّمكِ وهَيْج الحَيَوان وطلب السِّفاد، وأزمان الفلاحَةِ، وأوقاتِ الجزْر والمَدِّ؛ وفي سبيل الأنواء، والشجر كيْفَ يَنْفُضُ الوَرَق والثمار؛ والحيّاتِ كَيف تَسلُخُ، والأيائِلُ كَيف تُلقي قُرونَها، والطير كيف تَنطق ومتى تسكت، ولو قال لَنَا قائل: إني نَبيٌّ وقُلْنَا لَهُ: وما آيتك؟ وعلامتك؟ فقال: إذا كان في آخر تَشرينَ الآخِرِ أقبل إليكم الأسْبُور من جهة البحر، ضَحكُوا

منه وسخِروا به،ولو قال: إذا كانَ يَوْمُ الجمعَة أو يومُ الأحَد أقبل إلَيكم الأسْبُور، حَتَّى لا يزالُ يصنع ذلك في كلِّ جمعة علِمْنا اضطراراً إذا عايَنَّا الذي ذَكَرَ على نَسَقه أنّه صادق، وأنَّه لم يعلمْ ذلك إلاّ من قِبَلِ خالِق ذلك، تعالى اللّه عن ذلك، وقد أقرَرْنا بعجيبِ ما نرى من مطالع النُّجوم، ومن تناهي المدِّ والجزْر على قدر امتلاءِ القمر، ونُقصانه وزيادته، ومحاقه واستراره، وكلُّ شيءٍ يأتي على هذا النَّسقِ من المجاري، فإنَّمَا الآيةُ فيه لِلّهِ وحدَه على وحدانيَّته، فإذا قال قائلٌ لأهل شريعةٍ ولأهل مُرسًى، من أصحابِ بحرٍ أو نهرٍ أو وادٍ، أو عينٍ، أو جدولٍ: تأتيكم الحِيتانُ في كلِّ سبت، أو قال: في كلِّ رمضان، ورمضانُ متحوِّلُ الأزمانِ في الشِّتاءِ والصيف والرَّبيع والخريفِ، والسَّبتُ يتحوَّل في جميع الأزمان، فإذا كان ذلك كانتْ تلك الأعجوبةُ فيه دالةً على توحيد اللّه تعالى، وعلى صِدق صاحب الخبَر، وأنَّه رسولُ ذلك المسخِّر لذلك الصِّنف، وكان ذلك المجيءُ خارجاً من النَّسق القائم، والعادةِ المعروفة، وهذا الفرقُ بذلك بَيِّنٌ، والحمدُ للّه.

شنعة الخنزير والقرد

قال اللّه تعالى: "فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ" وفي الموضع الذي ذَكَرَ أنَّه مسَخَ ناساً خنازير قد ذكر القُرُود، ولم يذكُرْ أنَّهُ مَسَخَ قوماً خنازير، ولم يمسَخْ منهم قروداً، وإذا كان الأمر كذلك فالمسخُ على صورة القِرَدة أشنَع؛ إذْ كان المسخُ على صورتهَا أعظمَ، وكان العقابُ به أكْبر، وإنّ الوقت الذي قد ذكر أنَّه قد مسخ ناساً قروداً فقد كان مسخَ ناساً خنازير، فلم يدَعْ ذِكْرَ الخنازير وذَكَرَ القرودَ؛ إلاّ والقرودُ في هذا الباب أوجَعُ وأشنَع وأعظمُ في العُقوبة، وأدلُّ على شدَّة السَّخْطة، هذا قول بعضهم.
استطراد لغوي قال: ويقال لموضع الأنف من السِّباع الخطم، والخُرطوم وقد يقال ذلك للخنزير والفِنْطِيسة، والجمع الفناطيس، وقال الأعرابيّ: كأنّ فناطيسها كراكِرُ الإبل.
خصائص بعض البلدان وقال صاحب المنطق: لا يكونُ خِنزيرٌ ولا أيِّلٌ بحريّاً، وذكر أنَّ خَنازيرَ بعض البُلدانِ يكونُ لها ظلفٌ واحد، ولا يكون بأرضِ نهاوَنْدَ حِمَارٌ؛ لشدَّة بردِ الموضع، ولأنَّ الحِمار صَرِدٌ.
وقال: في أرضِ كذا وكذا لا يكون بها شيءٌ من الخَلْدِ، وإن نقله إنسانٌ إليها لم يحفر، ولم يتَّخذ بها بيتاً، وفي الجزيرة التي تسمَّى صِقِلِّية لا يكُونُ بها صنفٌ من النمل، الذي يسمَّى أقرشا.
قول أهل الكتابين في المسخ وأهل الكتابَين يُنكرون أنْ يكون اللّه تعالى مسخَ النَّاس قروداً وخنازير، وإنما مسخ امرأة لوط حَجَراً، كذلك يقولون.

القول في الحيات

اللهمَّ جنِّبنا التكلفَ، وأعِذْنَا من الخطَل، واحمِنا من العُجْبِ بمَا يكونُ منَّا، والثِّقةِ بمَا عندنا، واجعلْنا من المحسنين.

احتيال الحيات للصيد

حدثنا أبو جعفرٍ المكفوفُ النحويُّ العنبريُّ، وأخوه رَوحٌ الكاتب ورجالٌ من بني العنْبر، أن عندهم في رمال بلْعنبر حيَّةً تصيد العصافير وصِغارَ الطير بأعجبِ صيدٍ، زعموا أنها إذا انتصَفَ النهارُ واشتدَّ الحرُّ في رمالِ بلعنبر، وامتنَعت الأرض على الحافي والمنتعل، ورَمِض الجندب، غمست هذه الحيّةُ ذنبَها في الرَّمل، ثم انتصبَتْ كأنها رمحٌ مركوزٌ، أو عودٌ ثابت، فيجيء الطائرِ الصغيرُ أو الجرادةُ، فإذا رأى عوداً قائماً وكره الوُقُوعَ على الرَّمل لشدَّة حرِّه، وقعَ علَى رأس الحيَّة، على أنّها عُود، فإذا وقعَ على رأسها قبضَتْ عليه، فإن كان جرادةً أو جُعَلاً أو بَعْضَ ما لا يُشْبعها مثلُه، ابتلعته وبقيتْ على انتصابها، وإن كان الواقعُ على رأسها طائراً يُشبعها مثلُه أكلتْهُ وانصرفت، وأنَّ ذلك دأبُها ما مَنَعَ الرَّمل جانِبَه في الصَّيفِ والقَيْظ، في انتصاف النهار والهاجرة، وذلك أنَّ الطائِرَ لا يشكُّ أنَّ الحيَّة عودٌ، وأنُّه سيقُوم له مقام الجِذْل للحِرْباء، إلى أنْ يسكن الحرُّ ووَهَجُ الرَّمْلِ، وفي هذا الحديثِ من العَجَبِ أنْ تكون هذه الحيَّةُ تَهتَدِي لمثل هذه الحيلة، وفيه جَهلُ الطائرِ بفرق ما بين الحيوانِ والعُود، وفيه قلةُ اكتراثِ الحيَّة بالرَّمْل الذي عادَ كالجمر، وصلحَ أن يكون مَلَّةً وموضِعاً للخبزة، ثمَّ أن يشتمل ذلك الرَّمل على ثلث الحيَّة ساعاتٍ من النَّهَار، والرملُ على هذه الصفة، فهذه أعجوبةٌ من أعاجيب ما في الحيّات.

رضاع الحية وإعجابها باللبن

وزعم لي رجَالٌ من الصّقالبةِ، خصيانٌ وفحول، أنَّ الحيَّة في بلادهم تأتي البقرةَ المحفَّلة فتنطوي على فخذيْها ورُكبتيها إلى عراقيبها، ثمّ تُشْخص صدرَها نحو أخلافِ ضَرْعِها، حتى تلْتقم الخِلف؛ فلا تستطيع البَقَرةُ مع قوَّتها أن تَتَرَمْرَمَ، فلا تزا لُ تمصُّ اللبن، وكلما مصَّت استرخت، فإذا كادت تتلفُ أرسلتها، وزعموا أن تلك البقرةَ إمّا أن تموتَ، وإمّا أنْ يصيبَها في ضرعها فسادٌ شديدٌ تَعْسُرُ مداواته، والحيَّةُ تُعْجَبُ باللبن، وإذا وجدت الأفاعي الإناء غير مخَمَّر كرعت فيه، ورُبَّمَا مجَّت فيه ما صار في جوفها، فيصيبُ شاربَ ذلك اللبَنِ أذًى ومكروهٌ كثير، ويقال إنَّ اللبن محتَضر، وقد ذهب ناسٌ إلى العمَّار، على قولهم إنَّ الثوبَ المعصْفَر محْتضَر، فظنَّ كثيرٌ من العلماء أنَّ المعنى في اللبن إنَما رَجَعَ إلى الحيَّات.

ما تعجب به الحيات

والحيَّةُ تُعْجَبُ باللُّفَّاح والبطِّيخ، وبالحُرْفِ، والخردل المرْخُوف؛ وتكره ريحَ السذاب والشِّيح، كما تكره الوَزَغُ ريحَ الزَّعفَران.

قوة بدن الحية

وليس في الأرض شيءٌ جسمه مثلُ جسم الحيَّةِ، إلا والحيّةُ أقوى بدناً مِنه أضعافاً، ومن قوَّتها أنها إذا أدخَلَتْ رأسها في جُحْرها، أو في صَدْعٍ إلى صدرها، لم يستطعْ أقوى النّاس وهو قابضٌ على ذنبها بكلتَا يديه أنْ يخرجها؛ لشدَّةِ اعتمادها، وتَعاونِ أجزائِها، وليست بذاتِ قوائم لَهَا أظفارٌ أو مخالبُ أو أظلاف، تُنْشِبُهَا في

الأرض، وتتشبث بها، وتعتمد عليها، وربما انقطعَتْ في يدي الجاذِب لها، مَعَ أنها لد نَةٌ ملساءُ عَلِكَة فيحتاج الرفيق في أمرها عند ذلك، أنْ يُرسلها من يديهِ بعضَ الإرسال، ثمَّ ينشطُها كالمختطف والمختلس، وربما انقطع ذنبها في يد الجاذب لها، فأمَّا أذنابُ الأفاعي فإنها تنبُت،ومن عجيب ما فيها من هذا الباب، أنَّ نابَها يُقطَع بالكاز، فينبت حتى يتمَّ نباته في أقلَّ من ثلاث ليال.
نزع عين الخطاف والخُطَّاف في هذا الباب خلافُ الخنزير؛ لأنَّ الخطاف إذا قُلمتْ إحدى عينيه رجَعت، وعينُ البرْذَوْنِ يركبها البَياضُ، فيذهب في أيَّامٍ يسيرة.

الاحتيال لناب الأفعى

وناب الأفعى يُحتالُ له بأن يُدخلَ في فيها حُمَّاض أترُجّ، ويطبق لحيُها الأعلى عَلَى الأسفل، فلا تقتل بعَضّتها أياماً صالحة، والمِغْناطيس الجَاذب للحديد، إذا حُكَّ عليه الثُّوم، لم يجذب الحديد.

خصائص الأفعى

والأفعى لا تدورُ عينُها في رأسها، وهي تلد وتبيض، وذلك أنها إذا طرَّقت ببيضها تحطَّمَ في جوفها، فترمي بفراخِها أولاداً، حتى كأنها من الحيوان الذي يلد حيواناً مثلَه،وفي الأفاعي من العجَب أنها تُذبح حتى يُفرَى منها كلُّ ودَج، فتبقى كذلك أيَّامًا لا تموت، وأمرتُ الحاويَ فقبض على خَرَزَة عنقها، فقلت له: اقبضها من الخَرَزَة التي تليها قبضاً رفيقاً، فما فتَحَ بينها بقدر سَمِّ الإبرة حتَّى بَرَدَتْ ميّتة، وزعم أنّه قد ذبحَ غيرَها من الحيَّاتِ فعاشَتْ على شبيهٍ بذلك، ثمَّ إنه فصَلَ تلك الخَرَزَة عَلَى مثالِ ما صنع بالأفعى، فماتت بأسرعَ من الطَّرْف.
قوة بدن الممسوح وكلُّ شيءٍ ممسوح البدن، ليس بذِي أيدٍ ولا أرْجُل، فإنَّه يكون شديدَ البدن، كالسَّمكة والحيَّة، حديث في سم الأفعى وزعم أحمد بن غالب قال: باعني حَوّاءٌ ثلاثين أفعى بدينارين، وأهدي إليَّ خمساً اصطادها من قُبالة القلب، في تلك الصحارى على شاطئ دجلة، قال: وأرَدْتها للتِّرياق، قال: فقال لي حين جاءني بها: قل لي: مَن يعالجها؟ قال: فقلت له: فلان الصيدلانيّ، فقال: ليس عن هذا سألتك، قل لي: من يذبحها ويسلُخها؟ قال: قلت: هذا الصيدلانيُّ بعينه، قال: أخاف أن يكون مغروراً من نفسه، إنَّه واللّه إن أخطأ موضع المفصِل من قفاهُ، وحركتُه أسرعُ من البرق، فإن كان لا يحسن ولا يدري كيف يتغفله، فينقُرُه نَقْرَةً، لَمْ يُفْلِحْ بَعدَهَا أبَداً، ولكني سَأتَطوَّعُ لك بأَنْ أعمل ذلك بين يديه، قال: فبعثت إليه، وكان رأسه إلى الجَوْنة، فيُغْفِلُ الواحدة فيقبض على قفاها بأسرع من الطَّرْفِ، ثمَّ يذبحها، فإذا ذبحها سال من أفواهها لُعابٌ أبيض، فيقول: هذا هو السم الذي يقتُل قال: فجالت يدُه جَوْلةً، وقطرت من ذلك اللُّعاب قطرةٌ عَلَى طرَف قميص الصيدلانيِّ، قال: فتَفَشَّى ذلك القاطرُ حتَّى صار في قدر الدِّرهم العظيم، ثم إنّ الحوّاء امتَحَن ذلك الموضع فتهافت في يده، وبقيت الأفاعي مُذبَّحة تجول في الطست ويكدم بعضُها بعضاً، حتى أمسينا، قال: وبكرت على أبي رجاء إلى باب الجِسر، أحَدِّثه بالحديث، فقال لي ودِدْت أنِّي رأيت موضع القطْرة من قميص

الصَّيدلاني قال: فواللّه مارمْتُ حَتَّى مرَّ مَعي إلى الصَّيدَلانيِّ، فأَرَيْتُه موضعَه، وأصحابُنَا يزعمون أنَّ لعابَ الأفاعي لا يَعمَلُ في الدَّم، إلاَّ أنّ أحْمَدَ ابنَ المثنَّى زعم أنّ من الأفاعي جنساً لا يُضرُّ الفراريج من بينِ الأشياء، ولا أدري أيُّ الخبرين أبعد: أخبَرُ ابن غالب في تفسيخ الثَّوب، أو خبر ابن المثنى في سلامة الفَرُّوج عَلَى الأفعى ما تضيء عينه من الحيوان وزعم محمد بن الجهم أنّ العيون التي تضيء بالليل كأنها مصابيحُ، عيُونُ الأسْد والنمور، والسَّنانيرِ والأفاعي، فبينا نحنُ عندَه إذْ دخل عليه بعضُ من يجلب الأفاعي من سِجسْتان، ويَعْمَلُ التِّرياقات، ويبيعها أحياءً ومقتولة، فقال له: حَدِّثهم بالذي حَدَّثتني به من عين الأفعَى، قال: نَعَم، كنتُ في مَنْزِلِي نائماً في ظلمة، وقد كنتُ جمعتُ رؤوس أفاع كنَّ عندي، لأرميَ بها، وأغفلتُ تحت السَّرير رأساً واحداً، ففتحْتُ عَيني تجَاهَ السَّرير في الظلمةِ، فرأيت ضياءً إلاَّ أنَّه ضئيلٌ ضعيفٌ رقيق، فقلت: عينُ غولٍ أو بعضِ أولاءِ السَّعالى، وذهبَتْ نفسي في ألوانٍ من المعاني، فقمت فقدَحْت ناراً، وأخذتُ المصباح معي، ومضيت نحوَ السرير فلم أجدْ تَحْتَهُ إلاَّ رأسَ أفعى، فأطفأتُ السِّراج ونمتُ وفتحْتُ عيني، فإذا ذلك الضوء على حاله، فنهضْتُ فصَنَعتُ كصنيعي الأوَّل، حتى فعلتُ ذلك مِراراً، قال: فقلت آخر مرَّة: ما أرى شيئاً إلاَّ رأسَ أفعى، فلو نحَّيتَهُ فنحَّيتُه وأطفأتُ السِّراج، ثمّ رجعْتُ إلى منامي، ففتحْت عيني فلم أ رَ الضَّوء، فعلمت أنَّه من عين الأفعى، ثمَّ سألتُ عن ذلك، فإذا الأمرُ حَقٌّ، وإذا هو مشهورٌ في أهل هذه الصِّناعة علة قوة بدن الحية قال: وربَّمَا قبضَ الرَّجلُ الشديدُ الأسْرِ والقُوَّةِ القبضة على قفا الحيَّة فتلتفُّ عليه فتصرعُهُ، وفي صُعودِها وفي سعيها خلفَ الرَّجلِ الشديدِ الحُضْر، أو عند هربها حتَّى تفوتَ وتسبق، وليستْ بذاتِ قوائِم، وإنما تنسابُ عَلَى بطنها، وفي تدافُع أجزائِها وتَعاونها، وفي حَرَكَةِ الكلِّ من ذاتِ نفسها، دليلٌ على إفراطِ قُوَّةِ بدنها،ومن ذلك أنها لا تمضَغ، وإنما تبتلع، فربَّما كان في البَضْعة أو في الشيء الذي ابتلعَتْه عَظْمٌ، فتأتي جِذْمَ شجرةٍ، أو حَجراً شاخِصاً فتنطوي عليه انطواءً شديداً فيتحطَّم ذلك العَظْم حتَّى يَصِيرَ رُفاتاً، ثمَّ يُقطعُ ذنبُها فينبت، ثمَّ تعيشُ في الماء، إن صارت في الماء، بَعد أنْ كانَتْ بريَّة، وتعيشُ في البرِّ بَعْدَ أن طال مُكثها في الماء وصارتْ مائية، قال: وَ إنَّمَا أتتْها هذه القُوَّة، واشتدَّت فِقرُ ظهرها هذه الشِّدَّة؛ لكثرةِ أضلاعِها، وذلك أنَّ لها من الأضلاع عددَ أيَّام الشَّهر، وهي مع ذلك أطولُ الحيوان عمراً، موت الحية ويزعمون أنَّ الحيَّة لا تموتُ حَتْفَ أنفها، وإنَّمَا تموتُ بعَرَضٍ يَعْرِضُ لها، ومع ذلك فإنه ليس في الحيوان شيءٌ هُوَ أصبرُ عَلَى جوعٍ من حَيَّةٍ؛ لأنَّها إن كانَتْ شَابَّةً فدَخَلَتْ في حائطٍ صخرٍ، فتتبَّعُوا موضعَ مَدْخَلِها بوتِدٍ أو بحجر، ثمّ هدموا هذا الحائط، وجدُوها هنَاك منطوية وهي حَيّةٌ، فالشّابةُ تُذكر بالصَّبْر عند هذه العلَّة، فإن هَرِمَتْ صغُرت في بدنها، وأقنَعَها النَّسِيم، ولم تشتَهِ الطعم، وقد قالَ الشاعرُ: وهُوَ جَاهليٌّ:

فابْعَثْ له من بعض أعراض اللَّمَمْ   لُمَيْمَةً من حَنَشٍ أعمَى أصمْ

قدْ عاشَ حتى هُوَ لا يَمشي بدمْ   فكُلَّمَا أقصدَ مِنْهُ الجُوعُ شَمّْ

وهذا القولُ لهذا المعنى، وفي هذا الوجه يقُول الشاعِرُ:

داهية قدْ صغُرَتْ من الكِبَـرْ صِلّ صفاً ما ينطوي من القِصَرْ

طويلة الإطراق من غير خَفَـر كمطرقٍ قد ذهبت به الفِكـرْ

جَاء بهَا الطوفان أيَّامَ زَخَّ صَبْرُ الحية على فقْدِ الطُّعْم ومن أعاجيبِهَا أنها وإن كانَتْ مَوْصُوفة بالشَّرَهِ والنَّهَم، وسرعَةِ الابتلاع، فلها في الصّبر في أيَّامِ الشِّتاء ما ليس للزّهِيدِ، ثمَّ هي بَعْدُ ممَّا يصير بها الحالُ إلى أن تستغنِيَ عن الطُّعم،

النمس والثعابين

ثمّ قدْ يزعمُون أنَّ بمصرَ دويْبَّةً يقال لها النمس يتَّخذهَا الناطور إذا اشتدّ خوفه مِنَ الثّعَابين؛ لأنَّ هذه الدَّابة تنقبضُ وتنضمُّ، تَتضاءَلُ وتستدق، حتّى كأنها قُدَيْدَة أو قطعةُ حبْل، فإذا عضَّها الثُّعبان وانطوى عليها زفرتْ، وأخذتْ بنَفَسها وزَخَرت جوفَها فانتفخ، فتفعل ذلك وقد انطوى عليها، فتقطعه قِطعاً من شِدّةِ الزَّخْرة، وهذا من أعجب الأحاديث

القواتل من الحيات

والثَّعابينُ إحدَى القواتِل، ويزعُمون أنها ثلاثةُ أجناسٍ لا ينجَعُ فيها رُقيةٌ ولا حِيلة، كالثّعبان، والأفعى، والهنديَّة، ويقال: إنَّ ما سِواها فإنما يقتُلُ مع ما يُمِدُّها من الفزَع؛ فقد يفعل الفَزَع وحْدَه؛ فكيف إذا قارنَ سُمَّهَا؟ وسُمُّهَا إنْ لم يقتُلْ أمرَضَ. ما يفعل الفزع في المسموم ويزعمون أنَّ رجلاً قال تحتَ شجرةٍ، فتدلَّت عليه حيَّةٌ منها فعضَّت رأسَه، فانتبه محمرَّ الوَجْهِ، فحكَّ رأسَه، وتَلَفَّتَ، فلم يَرَ شيئاً، فوضع رأسَه ينامُ، وأقام مدَّةً طويلةً لا يرى بأساً، فقال له بَعْضُ مَنْ كان رأى تدلِّيَهَا عليه ثمّ تقلُّصَها عنه وهروبَها منه: هل علمتَ مِنْ أيِّ شَيءٍ كان انتباهُك تحتَ الشَّجرة؟ قال: لا واللّه، ما علمت، قال: بلى، فإنَّ الحيَّةَ الفُلانيَّةَ نزلت عليك حتّى عضَّتْ رأسَك، فلما جلست فزعاً تقلَّصتْ عنك وتراجعَتْ، ففَزِع فَزْعَةً وصَرَخَ صرخَةً كانَتْ فيها نَفْسُهُ، وكأنهُمْ توّهُموا أنَّه لما فزِع واضطرَبَ، وقد كان ذلك السمُّ مغموراً ممنوعاً فزال مانِعُه، وأوغله ذلك الفَزَعُ، حِينَ تفتَّحت منافسُه، إلى موضع الصَّميم والدِّماغ وعمْق البدَن، فانحلَّ موضعُ العَقْد الذي انعقدَتْ عليه أجزاؤه وأخلاطُه. وأنشد الأصمعيُّ:

نَكِيثة تنهشه بمنبذ

وأنشدَ لأبي دُؤادٍ الإياديِّ:

فأتاني تَقْحِيمُ كَعْبٍ لِيَ المن طقَ إن النَّكِيثة الإقحَـامُ

أثر الفزع في فعل السم قال: فالفزَعُ إمّا أنْ يكونَ يُوصِلِ السمَّ إلى المَقاتِل، وإمَّا أن يكون معيناً له، كتعاون الرَّجُلين على نزع وتِد، فهم لا يجزمون على أنّ الحيَّة من القواتل البتّة، إلاَّ أنْ تقتلَ إذا عضَّت النائِمَ والمغشيَّ عليه، والطفلَ الغرير، والمجنونَ الذي لا يَعْقِلُ، وحتّى تجَرَّبَ عليهِ الأدوية.

الترياق وانقلاب الأفعى

وكنت يوماً عند أبي عبد اللّه أحمد بن أبي دُؤاد، وكان عنده سَلَمويه وابن ماسويه، وبختيشوع بن جبريل، فقال: هل ينفع التِّرياق من نهشة أفعى؟ فقال بعضهم: إذا عَضَّتِ الأفعَى فأدركتَ قبل أن تَنْقلب نفع الترياق، وإن لَمْ تُدْرَك لَمْ يَنْفَعْ؛ لأنهم إنْ قلَّلوا مِنَ التِّرياق قتَلهُ السُّمُّ، وإن كثَّروا مِنْهُ قتله الفاضلُ عن مقدار الحاجة، قلت: فإنَّ ابنَ أبي العجوزِ خبَّرني بأنها ليست تنقلب لِمجِّ السمِّ وإفراغهِ، ولكنَّ الأفعى في نابها عَصَل، وإذا عضّت استفرغت إدخالَ النَّابِ كلِّه، وهو أحْجَنُ أعْصَل، فيهِ مشابه من الشِّصّ، فإذا انقلبَتْ كان أسهلَ لنزْعه وسلِّه، فأمَّا لصبِّ السّمّ وإفراغه فلا، قالَ: واللّه لعلَّه ما قلت قلتُ: مَا أسْرَعَ ما شككْتَ ثمّ قلت له: فكأنما وضعوا الترياق واجتلَبُوا الأفاعيَ وضنُّوا وعزمُوا على أنه لا ينفع إلاّ بدَرْكِ الأفْعى قبلَ أنْ تَنقلب وكيف صار التِّرياقُ بعد الانقلاب لا يكونُ إلاَّ في إحْدَى منزلتين: إمّا أن يقتل بكثرته، وإمَّا ألاّ ينْفَعَ بقلَّته فكأنَّ الترياقَ ليس نفعُه إلاَّ في المنزلةِ الوسطى التي لا تكون فاضلةً ولا ناقصة ولكني أقولُ لك: كيف يكون نفعه إذا كان الترياقُ جَيِّداً قويّاً، وعُوجل فسُقي المقْدَارَ الأوسط، قبْلَ أنْ يَبْلُغَ الصَّميمَ، ويغوصَ في العُمْق، وعلى هذا وُضع، وهم كانوا أحْزَم وأحْذَقَ مِنْ أن يتكلَّفوا شيئاً، ومقدارُه من النَّفع لا يُوصَل إلى معرفته.
ويقول بعضُ الحُذّاق: إنَّ سقي التِّرياق بعدَ النهش بساعةٍ أو ساعَتين مَوْتُ المنهوش، ثم قلت له: وما علَّمك؟ وبأيِّ سببٍ أيقنتَ أنها تمجُّ من جوفِ نابها شيئاً؟ ولعله ليس هنالك إلاَّ مخالطةُ جوهَرِ ذلك النَّابِ لدم الإنسان أوَلَسْنَا قد نَجِدُ من الإنسانِ مَنْ يَعَضُّ صاحبَهُ فيقتُلُهُ، ويكونُ معروفاً بذلك؟ وقد تُقِرُّون أنَّ الهنديَّة والثُّعبانَ يقتُلان، إمَّا بمخالطة الرِّيق الدم، وإمَّا بمخالطة السِّنِّ الدَّم، من غير أن تدَّعُوا أنَّ أسنانَهما مجوَّفة، وقد أجمع جميعُ أصحابِ التجارب أنَّ الحيَّة تُضرَبُ بقصَبَةٍ فتكونُ أشدَّ عليها من العصا، وقد يضرَبُ الرجلُ على جسَده بقُضْبان اللّوْز وَ قُضْبَانِ الرُّمان، وقُضبانُ اللّوْزِ أعلَكُ وألْدَن، ولكنَّها أسلَمُ، وقُضبان الرُّمَّان أخفُّ وأسخَفُ ولكنها أعطب، وقد يطأ الإنسانُ على عَظْمِ حَيّةٍ أو إبْرَةِ عَقْرَبٍ، وهما مَيْتَتان، فيلقى الجهد، وقد يُخْرَجُ السِّكِّينُ من الكِيرِ وهو مُحمًى، فيغْمَسُ في اللبن فمتى خالَط الدَّمَ قامَ مقامَ السمّ، من غير أن يكون مَجَّ في الدّم رطوبةً غليظةً أو رقيقةً.
وبعض الحجارة يُكْوَى بهاوهو رخوالأوْرَامُ حتى يفرقها ويُحْمِصهَا من غير أن يكونَ نفذَ إلَيْهَا شيءٌ مِنْهُ، وليس إلاّ الملاقاة، قلتُ: ولعلَّ قُوًى قد انفصلَتْ من أنيابِ الأفاعي إلى دماء النَّاس، وقد رَوَوْا أنَّه قيل لجالينوس: إنّ ها هُنا رجلاً يَرقي العقاربَ فتموتُ، أو تنحلّ فلا تعمل، فرآه يرقيها ويتفُل عليها، فدعا به بحضرةِ جماعةٍ وهو على الرِّيق، ودعا بغَدائه فتغَدّى مَعَه، ثمَّ دُعِيَ له بالعقارب

فتَقَل عليها، فلم يَجِدْ لعابه يصنَعُ شيئاً إلاَّ أنْ يكون ريقاً، وهُوَ حَدِيثٌ يدورُ بينَ أهل الطبِّ، وأنت طبيب، فلم أرَهُ في يومه ذلك قال شيئاً إلاَّ مِن طريق الحَزْر والحَدْس، والبلاغات.
السموم وسمومُ الحيَّاتِ ذواتِ الأنياب، والعقاربِ ذواتِ الإبر، إنَما تَعْمَلُ في الدّمِ بالإجمادِ والإذابة، وكذا سمومُ ذواتِ الشعر والقُرُونِ والجُمِّ، إنما تَعْمَلُ في العصب، ومنها ما يعمل في الدم.

شرب المسموم لِلَّبن

وحدَّثني بعضُ أصحابنا قال: كنتُ إمَّا برماي وإما بباري وهما بلادُ حيّاتٍ وأفاعٍ، ونحن في عُرْس، إذ أدخَلوا الخِدْرَ العروسَ فأبطؤوا عليه شيئاً، فأغفى وتَلوّتْ على ذراعه أفعى، فذهبَ ينفضها وَحَجَمَتْ على ذراعه وقد يقال ذلك إذا كانت العضَّة في صورةِ شَرْطِ الحجَّام فصَرَخَ وجاؤوا يتعادَوْن فوجدُوها فقتلوها، وسقوه في تلك اللَّيلةِ لبَن أربعينَ عنزاً، كُلَّمَا استقرّ في جوفه قَعْبٌ من ذلك اللَّبَن قاءَ فَيَخْرُجُ مِنْهُ كأمثال طَلْع الفُحَّال الأبيض، فيه طرائق من دَسَمٍ تعلُوه خُضرة، حتى استَوْفَى ذلك اللَّبَن كُله، قال: فعندها قال شيخٌ من أهل القرية: إن كنتم أخرَجْتم ذلك السّمَّ فقد أخرجتم نَفْسَهُ معَه قال: فغبَرَ أيَّاماً بأسوإ حالٍ ثمَّ مات، قال: وكنتُ أعجَبُ من سُرعةِ استحالة اللَّبَنِ وجُموده.

اكتفاء الحيات والضباب بالنسيم

قلتُ: والحيَّاتُ البريَّة إذا هرمت تنسَّمت النَّسيمَ فاكتفتْ بذلك، وكذلك الضِّبابُ إذا هرمت، قال: ولا يكون ذلك للمائيّة من حيَّاتِ الغياضِ وشُطوطِ الأنهار، ومناقِع المياه.

الحيات المائية

قال: والحيَّات المائيَّة، إمَّا أن تكون بريَّةً أو جبليَّةً، فاكتَسحتها السُّيولُ واحتملَتْها في كثير مِنْ أصناف الحشَراتِ والدَّوابِّ والسِّباع، فتوالدت تلك الحيَّاتُ وتلاقحَتْ هناك، وإمَّا أنْ تكون كانت أمهاتُها وآباؤُها في حيَّات الماء، وكيف دارت الأمورُ فإنَّ الحيَّاتِ في أصل الطّبع مائيّة، وهي تعيشُ في النَّدَى، وفي الماء، وفي البرِّ وفي البحر، وفي الصَّخر والرَّمل، ومن طباعها أن ترقّ وتلطف على شكلين: أحدهما لطول العمر، والآخر للبُعد من الرِّيف، وعلى حسب ذلك تعظُم في المياه والغياض.

ما أشبه الحيات من السمك

قال: وكلُّ شيء في الماء ممّا يعايش السمك، مما أشبه الحيَّات كالمارماهي والأنكليس فإنها كلها على ضربين: فأحدهما من أولاد الحيات انقلبت بما عرض لها من طباعِ البلد والماء، والآخر من نسل سمك وحيات تلاقحَت؛ إذ كان طِبَاعُ السمك قريباً من طباع تلك الحيّات، والحيَّاتُ في الأصل مائيَّة، وكلّها كانت حيّات.

قرابة بعض النبات لبعض وقد زعم أهلُ البصرة أنّ مُشَان الكوفة قريبٌ من بُرْنيّ البصْرَة، قلبته البلدة،ويزعمُ أهلُ الحجاز أنَّ نخلَ النارجيل هو نخل المُقْل، ولكنّه انقلب لطباعِ البلدة، وأشباهُ ذلك كثير،ويزعمون أنَّ الفيلة مائية الطِّباع بالجاموسيَّة والخنزيريّة التي فيهاب والنسيم قال: والذِّئْبُ أيضاً، وإن كان عندهم مِمَّا لا يجتزي بالنَّسيم، فإنَّه من الحيوان الذي يفتح فاه للنَّسيم؛ ليبرد جوفه من اللهيب الذي يعتري السِّباع؛ ولأنَّ ذلك يمدّ قوَّته، ويقطع عنه ببرودته ولطافته الرِّيق، فإن كان ذا سُعْر إذا عدا احتشى ريحاً.

اختلاف صبر الذئب والأسد على الطعام وربّما جاعَ الأسد ففعل فِعْلَ الذّئب، فالأسد والذّئب يختلفان في الجوع والصبر؛ لأنَّ الأسدَ شديدُ النَّهَم، رغيبٌ حريص شَرِهٌ؛ وهو مع ذلك يحتمِلُ أنْ يبقى أيّامًا لا يأكلُ شيئاً، والذّئبُ وإن كان أقفر منزلاً، وأقلَّ خِصْباً، وأكثرَ كَدّاً وإخفاقاً، فلا بدَّ له من شيء يُلقِيه في جوفه، فإذا لم يجدْ شيئاً استعارَ النسيم .

حيلة بعض الجائعين والنَّاس إذا جاعُوا واشتدَّ جوعُهم شدُّوا على بطونهم العمائِم، فإن استقلوا، وإلاَّ شَدُّوا الحَجَر شعر في الذئب وأنشَدَ:

كَسِيدِ الغَضَا العَادِي أضلَّ جِراءَهُ على شَرَفٍ مُسْتَقْبِلَ الرِّيح يَلْحَبُ

كأنّه يجمع استِدْخالَ الرِّيح والنَّسيم، فلعلَّه أن يجِدَ ريحَ جِرائه.

وقالَ الرَّاجز:

يَسْتَخْبِرُ الرِّيحَ إذا لم يَسْمَع   بمِثْلِ مِقْرَاع الصَّفَا المُوقَّع

شمّ الظليم

والظَّليم يكون على بيضه فيشمُّ ريح القانص من أكثرَ من غَلْوَةٍ، ويبعُد عَنْ رئالِه فيشمُّ ريحَها من مكانٍ بعيد. وأنشدني يحيى بن نُجيم بن زَمَعَة قال:

أشمُّ من هَيَقٍ وأهْدَى من جَمَلْ

وأنشدني عَمْرُو بن كِركِرة:

مَا زَالَ يشتمُّ اشتمامَ الهَيْق

قال: وإنّمَا جعله ذئبَ غضاً لأنهم يقولون: ذئبُ الخَمر أخبث، ويقولون: شَيْطان الحَماطة: يريدون الحيّة.

بعض ضروب الحيّات

وكلُّ حيّةٍ خفيفةِ الجسم فهي شَيطان، والثِّقالُ لا تنْشط من أرضٍ إلى أرض، وتثقُلُ عَمَّا تبلُغُه المستطيلاتُ الخِفاف، وقال طرَفة:

تلاعِبُ مَثْنَى حَضْرَمِيٍّ كَأَنَّـهُ   تَعَمُّجُ شَيْطانٍ بذي خِرْوعٍ قفْرِ

الكِرْماني عن أنَس ولا أدري مَنْ أنسٌ هذا فِي صفة ناقة:

شَنَاحِيَةٌ فيها شنـاحٌ كـأنّـها   حَبَابٌ بكفِّ الشَّأْوِ من أسطعَ حَشْرِ

والحَباب: الحيّة الذكر.
بعض المضاف إلى النبات من الحيوان وكما يقولون: ذئب الخَمر، يقولون: أرنب الخلّة، وتيس الرَّبْل، وضبُّ السَّحا، والسَّحَا بقلة تحسُنُ حالُه مَنْ أكلها،وكذلك يقولون: ما هو إلاّ قُنْفذُ بُرْقة لأنه يكون أخبثَ له، وذلك كله علىقدر طبائع البلدان والأغذية العاملة في طبائع الحيوان.
بعض طبائع البلدان ألا ترى أنَّهم يزعُمون أنَّ مَن دخَلَ أرضَ تُبَّتَ لم يزَلْ ضاحكاً مسروراً، من غير عَجَبٍ حتّى يخرجَ منها، ومن أقام بالموصِل حولاً ثم تفقَّد قوَّته وجد فيها فضلاً، ومن أقام بالأهواز حَوْلاً فتفقَّد عقلَه ذُو فِراسةٍ وجد النُّقصانَ فيه بيِّناً، كما يقال في حُمَّى خَيبر، وطِحال البحْرين، ودماميل الجزيرة، وجَرَب الزِّنج، وقال الشمَّاخ:

كأنَّ نَطاة خَيْبَرَ زَوَّدَتْـه   بَكُورَ الوِرْدِ رَيِّثَةَ القُلُوعِ

وقال أوسُ بن حجَر:

كأنَّ به إذْ جئتُهُ خَيْبَـرِيَّةً   يَعُودُ عَلَيْهِ وِرْدُهَا وَمُلالُهَا

وقال آخر:

كأنّ حمَّى خَيبر تَمُلُّهُ

وكذلك القول في وادي جُحفة، وفي مَهْيَعَة، وفي أصول النخل حيث كان.وقال عبد اللّه بن همام السَّلوليّ في دماميل الجزيرة:

أُتِيحَ له مِنْ شُرْطَةِ الحَيِّ جَانِبٌ   غَلِيظُ الْقُصَيْرَى لحمُهُ مُتَكاوِسُ

تَرَاهُ إذا يَمْضِي يحكُّ كَأَنَّمَـا   به من دَمامِيلِ الجَزِيرةِ ناخسُ

فحدَّثني أبو زُفَرَ الضِّراري قال: مات ضِرار بن عمرو وهو ابن تسعين سنةً بالدَّماميل، قلت: واللّه إنّ هذا لعجب قال: كلاَّ، إنَّمَا احتملها من الجزيرة،وكذلك

القولُ في طواعِين الشّام، قال أحدُ بني المغيرة، فيمن مات منهم بطوَاعِينِ الشامِ، ومن مات منهم بطعْن الرِّماح أيَّامَ تلك المغازي:

مَنْ يَنْزِلِ الشَّامَ وَ يَعْرَسْ بِـهِ فالشَّامُ إنْ لَمْ يُفْنِـهِ كَـاذِبُ

أفْنى بني رَيْطَة فُرسانَـهـمْ عِشرينَ لم يُقَصَصْ لهم شاربُ

ومن بني أعمامِهِمْ مِثلَـهـم لِمِثلِ هذا عجبَ الـعـاجِـبُ

طَعْنٌ وطاعُونٌ مـنـايـاهُمُ ذلك ما خطَّ لنـا الـكـاتـبُ

قدوم عبد اللّه بن الحسن على عمر بن عبد العزيز وهشام قال: ولمّا قدِمَ عبدُ اللّه بن الحسن بن الحسن رضي اللّه عنهم، على عمَرَ بنِ عبد العزيز رضي اللّه عنه في حَوَائجَ له، فلمَّا رأى مكانَه بالشام، وعَرَفَ سِنَّه وسمْتَه وعقلَه، ولسانَه، وصلاته وصيامه، فلم يكنْ شيءٌ أحبَّ إليه من ألاَّ يراه أحدٌ من أهل الشام، فقال له: إنِّي أخافُ عَلَيكَ طواعينَ الشَّام؛ فإنَّك لن تُغْنِمَ أهلك أكثرَ منك، فالحَقْ بهم؛ فإنَّ حوائجك ستسبقُك إليهم، ثمّ قدم على هشامٍ، فكره عبدُ اللّه أن يدخل منزل له حتّى يأتيَه في ثيابِ سفره؛ مخافة سوء ظنِّه، فلما أعلمه الحاجبُ مكانَه، ودخل عليه وعايَنه، كره أن يقيم بها طَرْفة عين، قال: اذكر حوائجك، قال: أحطُّ رَحْلي وأضَعُ ثيابَ سفري، وأتذكَّرُ حوائجِي، قال: إنَّك لنْ تجِدَني في حالٍ خيراً لك منِّي الساعةَ يريد أنّ القُلوبَ أرقُّ ما تكونُ إذا تلاقت العيونُ عن بُعْدِ عَهد، وليس ذلك أراد.
طحال البحرين والعامّة تنشد:

مَنْ يَسْكُن البَحْرَين يعظُمْ طحالُهُ وَ يُغْبَطْ بما في بَطْنِهِ وَهُو جَائِعُ

ونظر دُكينٌ الرّاجزُ، إلى أبي العباس محمَّدِ بنِ ذُويبٍ الفُقيميِّ الرَّاجز، وهو غُلَيِّمٌ مصفرٌّ مَطحُول، وهو يمتَحُ على بَكَرةٍ ويرتجز، فقال: من هذا العُمانيّ؟ فلزمته هذه النّسبة.
جرب الزنج وحدَّثني يوسفُ الزّنجي أنّه لا بدَّ لكلِّ مَن قدِم من شِقِّ العراق إلى بلادِ الزِّنج ألاَّ يزالَ جَرِباً، ما أقام بها، وإنْ أكثرَ من شُرْب نبيذِها، أو شَراب النَّارَجيل، طمَسَ الخُمَارُ على عقله، حتَّى لا يكونَ بينه وبين المعتوه إلاَّ الشَّيء اليسير.
طبيعة المصيصة وخبَّرني كم شئْتَ من الغُزاة، أن مَن أطالَ الصَّومَ بالمصيصة في أيَّام الصَّيف، هاج به المِرار، وأنَّ كثيراً منهم قد جُنُّوا عن ذلك الاحتراق.
طبيعة قصبة الأهواز فأمَّا قصَبَة الأهواز، فإنَّها قلبَتْ كلَّ مَن نزَلها من بني هاشم إلى كثيرٍ من طِباعهم وشمائلهم، ولا بدَّ للهاشميِّ، قبيحَ الوجهِ كانَ أو حسناً، أو دميماً كان أو بارعاً رائعاً، مِنْ أن يكون لوجْهه وشمائله طبائعُ يَبِينُ بها من جميع قريشٍ وجميع العرب، فلقد كادَتْ البلْدةُ أن تنقل ذلك فتبدِّله، ولقد تَخَيَّفَتْهُ وأدخلَت الضَّيَمَ عليه، وبيَّنَتْ أثرَها فيه فما ظنُّك بصنيعها في سائر الأجناس؟ ولفسادِ

عُقولِهم، ولؤمِ طَبْع بلادِهم، لا تراهم مع تلك الأموالِ الكثيرةِ، والضِّياع الفاشية، يحبُّون من البنينَ والبناتِ ما يحبُّه أوساطُ أهلِ الأمصار على الثَّروة واليَسار، وإن طال ذلك، والمال مَنْبَهةٌ كما تعلمون، وقد يكتسبُ الرَّجُل، من غيرهم، المُوَيل اليسير، فلا يرضى لولده حتَّى يفرضَ له المؤدِّبين، ولا يرضى لنسائه مثل الذي كان يرضاه قبل ذلك، وليس في الأرض صناعةٌ مذكورةٌ، ولا أدبٌ شريفٌ؛ ولا مذهبٌ محمودٌ، لهم في شيءٍ منه نصيبٌ وإن خَسّ، ولم أرَ بهَا وَجْنَةً حمراءَ لصبيٍّ ولا صبيَّةٍ، ولا دمًا ظاهرًا ولا قريبًا من ذلك، وهي قتّالَةٌ للغُرَباء، وعلى أنَّ حُمَّاها خاصَّةً ليست للغريب بأسرَعَ منها إلى القريب، ووباؤها وحُمَّاها، في وقت انكشاف الوَبَاءِ ونُزوعِ الحمَّى عن جميع البُلدانِ،وكلُّ محمومٍ في الأرض فإنَّ حُمَّاه لا تنْزِع عنه، ولا تفارِقُه وفي بدنه منها بقيَّة، فإذا نزَعَتْ عنه فقد أخَذَ منها عند نفسه البراءةَ، إلى أنْ يعود إلى الخلْط، وَأنْ يجمعَ في جوفه الفسادَ،وليست كذلك الأهواز لأنها تُعاود من نزَعتْ عنه من غير حدَث، كما تعاود أصحابَ الحدَث؛ لأنَّهم ليسوا يُؤْتَون من قبل النَّهَم، ومن قِبَل الخلْط والإكْثار، وإنَّما يُؤتَوْن من عينِ البلدة،وكذلك جمعَتْ سوقُ الأهوازِ الأفاعيَ في جبلِها الطَّاعِنِ في منازلها، المطِلِّ عليها؛ والجَرَّاراتِ في بيوتِها ومقابرها ومنابرها، ولَو كان في العالَم شيءٌ هو شرٌّ من الأفعَى والجرَّارة، لما قصَّرَت قصَبَة الأهواز عن توليده وتلقيحه، وبَلِيتُها أنَّها من ورائها سِبَاخٌ ومناقِعُ مياهٍ غليظةٍ وفيها أنهارٌ تشُقها مَسَايلُ كُنُفِهم، ومياهُ أمطارهم ومُتَوضَّآتِهِمْ، فإذا طلَعت الشَّمسُ فطالَ مُقامُها، وطالت مقابلتُها لذلك الجبل، قبل بالصَّخْرِية التي فِيه تلكَ الجرّارات، فإذا امتلأتْ يبَساً وحرارةً، وعادتْ جمرةً واحدةً، قذفت ما قبلت من ذلك عليهم، وقد تُحدِث تلك السِّباخ وتلك الأنهار بُخَاراً فاسداً، فإذا التقى عليهم ما تُحدِث السِّباخُ وما قذفه ذلك الجبلُ، فسَدَ الهواء، وبفساد الهواء يفسُد كلُّ شيءٍ يشتملُ عليه ذلك الهواء.وحدَّثني إبراهيمُ بن عباس بنُ محمد بن منصورٍ، عن مَشْيَخة من أهل الأهواز، عن القوابل، أنهنَّ ربّما قبِلْنَ الطِّفلَ المولودَ، فيجدْنَهُ في تلك السَّاعةِ محموماً، يعرِفْنَ ذلك ويتحدَّثْن به.

عيون الحيات والخطاطيف

قال: ويعرِض لفراخ الحيَّات مثلُ الذي يعرض لفِراخ الخَطاطِيف؛ فإنَّ نازعاً لو نزَع عيونَ فراخ الخطاطيفِ، وفراخ الحيّاتِ، لعادتْ بصيرةً.
مفارقة السلحفاة والرق والضفدع للماء وزعم أنَّ السُّلحفاةَ والرّقّ، والضّفدع، مّما لا بدَّ له من التنفُّس، ولا بدَّ لها من مفارقةِ الماء، وأنَّها تبيض وتكتسب الطعم وهي خارجة من الماء، وذلك لِلنَّسب الذي بينها وبين الضّب، وإن كان هذا بَرِّيًّا وهذا بحريًّا. شبه بعض الحيوان البري بنظيره من البحري ويزعمُون أنّ ما كان في البرِّ من الضبِّ والورَل والحِرباء، والحلكاء، وشحْمة الأرض، والوزَغ والعظاء مثل الذي في البحر من السُّلحفاةِ والرّقّ، والتِّمساح، والضّفدع، وأنَّ تلك الأجناسَ البرّية وإن اختلفتْ في أمورها، فإنّها قد تتشابه في أمور، وأنّ هذه الأجناسَ البحرية من تلك، ككلب الماء من كلب الأرض.
صوم بعض الحيوان وقد زعم صاحبُ المنطق أنّ الحيَّة وسامّ أبْرَص من العظاء، والتِّمساح، تسكنُ في أعشّتها الأربعةَ أشهر الشديدة البرد، لا تطعم شيئاً، وأنّ

سائر الحيّاتِ تسكنُ بطنَ الأرض، فأمَّا الأفاعي فإنّها تسكن في صُدوع الصَّخر،وليس لشيءٍ من الحيوانِ من الصَّبر عن الطُّعمِ ما لهذه الأجناس، وإنَّ الفيل ليناسبُها من وجهين: أحدهما من طول العمر، فإنَّ منها ما قد عاش أربعمائة سنة، والوجه الآخر أنّ الفيلة مائيَّة وهذه الأجناس مائيَّة وإن كان بعضها لا يسكن الماء.

داهيةُ الغَبَر قال: وسمعتُ يونُس بن حبيبٍ يقول: داهية الغبر قال: وقيل ذلك لأنها ربَّما سكنَتْ بقُربِ ماءٍ، إمَّا غديرٍ وإما عينٍ، فتحْمي ذلك الموضعَ، وربما غبر ذلك الماءُ في المنْقع حيناً وقد حمته، وقال الكذَّابُ الحرمازيّ:

يا ابنَ المعلَّى نزلتْ إحدى الكُبَر   دَاهيةُ الدَّهرِ وصَمَّاءُ الغَبَـر

قال: وسأل الحكم بنُ مروانَ بنِ زنباعٍ، عن بني عبد اللّه بن غطفان، قال: أفعى إنْ أيقظْتَها لسعَتْك، وإن تركْتها لم تَضِرْك.

نادرة تتعلق بالحيات

وذكر عن سعيد بن صخر قال: نُهش رجلٌ من أهل البادية كثيرُ المال، فأشفى على الموت، فأتاهم رجلٌ فقال: أنا أرْقيه، فما تُعطوني؟ فشارطوه على ثلاثين درهماً، فرقاه وسقاه أشياء ببعض الأخلاط، فلمَّا أفاقَ قال الرَّاقي والمداوي: حقي قال الملدوغ: وما حقه، قالوا: ثلاثون درهماً، قال أعطيه من مالي ثلاثينَ درهماً في نفثاتٍ نفثها، وحَمْضٍ سقاه لا تُعطوه شيئاً.

حديث سكر الشطرنجي وحدَّثني بعض أصحابنا عن سكَّرٍ الشِّطرنجيّ، وكان أحمق القاصِّين، وأحذقهم بلعب الشِّطرنج، وسألته عن خرقٍ كان في خَرَمَةِ أنفه فقلت له: ما كان هذا الخرق؟ فذكر أنَّه خرج إلى جَبَلَ يتكسَّب بالشِّطْرنج، فقدم البلدة وليس معه إلاّ درهمٌ واحد، وليس يَدري أينجَح أم يُخْفِق،ويَجِدُ صاحبَه الذي اعتمده أمْ لا يجده؟ فورد على حَوَّاءٍ وبين يديه جُوَن عِظامٌ فيها حياتٌ جليلة.

والحيّة إذا عضَّت لم تكنْ غايتُها النَّهش أو العضّ، وأن ترضى بالنَّهش، ولكنَّها لا تعضُّ إلاَّ للأكل والابتلاع، وربَّما كانت الحيَّات عِظامًا جدًّا ولا سموم لها، ولا تَعْقِر بالعضّ، كحيات الجَوْلان،وفي البادية حيَّة يقال لها الحُفَّاث، والحُفَّاث من الحيَّات تأكل الفأر وأشباهَ الفأر، ولها وعيدٌ مُنكرٌ، ونفخٌ وإظهارٌ للصَّولة، وليس وراء ذلك شيء، والجاهل ربَّما مات من الفزع منها، وربَّما جمعت الحيَّة السَّمَّ وشدَّةَ الجَرْح، والعضَّ والابتلاع، وحَطْمَ العظم،فوقف سُكَّرٌ على الحوّاء وقد أخرج من جونتهِ أعظم حَيَّاتٍ في الأرض، وادّعى نفوذَ الرُّقيةِ وجودةَ التِّرياق، فقال له سُكَّرٌ:خذْ منِّي هذا الدِّرهم، وارقني رُقيةً لا تضرّني معها حيّةٌ أبداً قال: فإنِّي أفعل، قال: فأرْسِلْ قبل ذلك حَيَّةً، حتَّى ترقيني بعد أن تعضَّني، فإنْ أفقْتُ علمتُ أنَّ رُقيتك صحيحة، قال: فإنّي أفعل، فاخترْ أيَّتَهنَّ شئت، فأشار إلى واحدةٍ ممّا تعضُّ للأكلِ دون السَّمّ، فقال:دعْ هذه، فإنَّ هذه إن قبضَتْ على لحمك لم تفارقك حتى تقطعك قال: فإنِّي لا أريد غيرها، وظنَّ أنّه إنّما زَوَاها عنه لفضيلةٍ فيها، قال: أمّا إذْ أبيت إلاَّ هذه فاخترْ موضعاً من جسدكَ حَتَّى أرسلها عليه، فاختارَ أنفه، فناشده وخوَّفه، فأبى إلاَّ ذلك

أو يردَّ عليه دِرهَمَهُ، فأخذها الحّواءُ وطواها على يده، كي لا يدعها تنكز فتقطع أنفه من أصله، ثمَّ أرسلها عليه، فلما أنشبت أحد نابَيْها في شِقِّ أنفه صَرَخ عليه صَرخةً جمعتْ عليه أهل تلك البلْدة، ثُمّ غُشِي عليه، فأُخِذَ الحوّاءُ فوُضِع في السِّجن، وقتلوا تلك الحيَّات، وتركوه حتّى أفاقَ كانّه أجنُّ الخلْق، فتطوَّعوا بحمله فحملوه مع المُكاري، وردُّوه إلى البصرة، وبقِي أثرُ نابها في أنفه إلى أن مات.
ما يغتصب بيت غيره من الحيوان قال: وأشياءُ من الحشراتِ لا تتخذ لنفسها ولا لبيضها ولا أولادها بيوتاً، بل تظلم كلَّ ذي جُحر جُحرَه، فتخرجُه منه، أو تأكلُهُ إنْ ثبتَ لها، والعربُ تقول للمُسيء: أظْلَمُ مِنْ حَيّةٍ لأنَّ، الحيّة لا تتَّخذ لنفسها بيتاً،وكُلُّ بيتٍ قصدَت نحوه هرب أهلُه منه، وأخْلَوْه لها.

عداوة الورل والحية

والورَل يقْوَى على الحيَّاتِ ويأكلها أكلاً ذريعاً، وكلُّ شِدَّةٍ يلقاها ذو جُحْر منها فهي تلقى مثْلَ ذلك من الورَل، والورَلُ ألْطفُ جِرْمًا من الضّبِّ،وزعم أنَّهُمْ يقولون:أظْلَمُ مِنْ وَرَل كما يقولون: أظْلَمُ مِنْ حَيّة، وكما يقولون:أظْلَمُ مِنْ ذِئْبٍ ويقولون:من اسْتَرْعى الذِّئْبَ ظلم .
الورل والضبّ وبراثن الورَل أقوى من براثِنِ الضّبّ، والضِّبابُ تحفر جِحَرتها في الكُدَى، والورَل لا يحفُرُ لنفسه بل يُخْرجُ الضّبّ من بيته، فتزعم الأعرابُ أنَّه إنما صار لا يحفر لنفسه إبقاءً على براثنه، ويمنع الحيَّة أن تحفُر بيتها أنّ أسنانَها أكَلُّ من أسنان الفأر ومن التي تحفر بالأفواه والأيدي، كالنمل والذّرِّ وما أشبه ذلك، والحيّة لا ترى أن تعانيَ ذلك، وَحَفْرُ غيرها ومعاناته يكفيها

شعر في ظلم الحية

وفي. ضَرْبِ المثل بظُلْم الحيّة، يقول مضرِّس بن لقيط:

لعمرك إنى لو أخاصم حيةً إلى فقعسٍ ما أنصفتنى فقعس

إذا قلت مات الداء بيني وبينهم سعى حاطبٌ منهم لآخر يقبس

فما لكم طلساً إلى كأنكم ذئاب الغضا والذئب بالليل أطلس

وجعله أطلس؛ لأنّه حين تشتدُّ ظُلمة اللَّيل فهو أخفى له، ويكونُ حينئذٍ أخبث له وأضْرَى.
وقال حَريزُ بن نُشْبَة العَدَويّ، لبني جعفر بن كلاب، وضَرَبَ جَوْر الحيَّةِ والذّئْبِ في الحُكْم مثلاً، فقال:

كأنني حين أحبو جعفراً مدحى أسقيهم طرق ماء غير مشروب

ولو أخاصم أفعى نابها لـثـقٌ أو الأساود من صم الأهاضيب

لكنتم معها ألبـاً وكـان لـهـا نابٌ بأسفل ساقٍ أو بعرقـوب

ولو أخاصم ذئباً في أكليلتـه لجاءني جمعكم يسعى مع الذيب

فم الأفعى

قال: والحيَّة واسعةُ الشَّحْوِ والفم، لها خطم، ولذلك ينفذ نابُها، وكذلك كلُّ ذِي فمٍ واسع الشَّحو، كفمِ الأسد، فإذا اجْتمعَ له سعَةُ الشَّحو وطولُ اللَّحيين، وكان ذا خَطمٍ وخُرطومٍ فهو أشدُّ له؛ كالخنزير، والذِّئب والكلْب، ولو كان لرأس الحيَّة عَظْمٌ كان أشدَّ لعضَّتها، ولكنَّه جلدٌ قد أطبقَ على عظمين رقيقينِ مستطيلين بفكِّها الأعلى والأسفل، ولذلك إذا أهوى الرَّجُلُ بحَجر أو عصًى، رأيتها تلوِّي رأسها وتحتال في ذلك، وتمنعه بكلِّ حيلةٍ، لأنَّها تعلم وتحسُّ بضَعْفِ ذلك الموضع منها، وهو مَقْتَلٌ، وما أكثر ما يكون في أعناقها تخصيرٌ، ولصدورها أغباب، وذلك في الأفاعي أعمُّ، وذلك الموضعُ المستدقّ إنَّما هو شيءٌ كهيئة الخريطة، وكهيئة فم الجِراب، مُنْضمُّ الأثناء، مُثنّى الغضُون، فإذا شئت أن تفتح انفتح لك فمٌ واسع،ولذلك قال إبراهيم بن هانئ: كان فَتْحُ فمِ الجرابِ يحتاجُ إلى ثلاثة أيدٍ، ولولا أنّ الحمالين قد جعلوا أفواههم بدل اليد الثَّالثةِ لقدكان ذلك ممتنعًا حتّى يستعينوا بيدِ إنسان.وهذا ممَّا يعدُّ في مجون ابن هانئ،وكذلك حُلوقُ الحيَّاتِ وأعناقها وصدورُها، قد تراها فتراها في العين دقيقةً، ولا سيَّما إذا أفرطتْ في الطُّول.

شراهة الحية والأسد

وهي تبتلعُ فِراخ الحمام، والحيةُ أنهمُ وأشره من الأسد، والأسدُ يبلعُ البَضْعَةَ العظيمةَ من غير مضْغٍ، وذلك لما فيه من فَضْل الشره، وكذلك الحيّة، وهما واثقان بسهولةِ وسَعَةِ المخرج.

تِنِّين أنطاكية ومِمَّا عظَّمها وزادَ في فزع النَّاس منها، الذي يرويه أهلُ الشام، وأهْلُ الْبَحْرَيْن، وأهل أنطاكِيَة، وذلك أنِّي رأيتُ الثلث الأعلى من منارة مسجد أنطاكِية أظهرَ جِدَّةً من الثلثين الأسفلين، فقلت لهم: ما بالُ هذا الثلثِ الأعلى أجدَّ وأطْرى؟ قالوا: لأنّ تِنِّيناً تَرَقَّعَ مِنْ بَحْرِنا هذا، فكان لا يمرُّ بشيءٍ إلاّ أهلكه، فمرَّ على المدينة في الهواء، محاذياً لرأس هذه المنارة، وكان أعلى ممَّا هي عليه، فضربه بذنبهِ ضَرْبَةً، حَذفت من الجميع أكثرَ من هذا المقدار، فأعادوه بعد ذلك، ولذلك اختلفَ في المنْظر.

الخلاف في التنين ولم يزل أهلُ البقاع يتدافعون أمْرَ التِّنِّين، ومن العجب أنّكَ تكون في مجلسٍ وفيه عِشرونَ رَجُلاً، فيجري ذكرُ التِّنِّينِ فينكرهُ بعضهم، وأصحاب التثبت يدَّعون العِيانَ، والموضع قريب، ومَنْ يعاينهُ كثير، وهذا اختلافٌ شديد.

قول الأعراب في الأصلة

والأعراب تقول في الأصلة قولاً عجيباً: تزعُمُ أنَّ الحَّية التي يقال لها الأصَلَة لا تمرّ بشيءٍ إلاّ احترق، مع تهاويلَ كثيرةٍ، وأحاديثَ شنيعةٍ.

الأجدهاني

وتزعم الفُرْس أنّ الأجدهاني أعظم من البعير، وأنّ لها سبعة رؤوس، وربّما لَقِيتْ ناساً فتبتلع من كلِّ جهةِ فمٍ ورأسٍ إنساناً، وهو من أحاديث الباعة والعجائز.

الحية ذات الرأسين

وقد زعم صاحبُ المنطق أنّه قد ظهرَتْ حَيّة ٌلها رأسان، فسألتُ أعْرَابيًّا عن ذلك فزَعَمَ أنّ ذلك حَقٌّ، فقلت له: فمن أي جهةِ الرَّأسينِ تسعى؟ ومن أيِّهما تأكلُ وتعَضّ؟ فقال: فأمَّا السَّعْيُ فلا تَسْعَى، ولكنّها تَسْعَى إلى حاجتها بالتقلب، كما يتقلّب الصِّبيانُ على الرَّمْل، وأمّا الأكل فإنها تتعشى بفمٍ وتتغدّى بفم،وأمّا العضُّ فإنها تعضُّ برأسيها معًا فإذا به أكذبُ البريَّة، وهذه الأحاديثُ كلها، ممّا يزيد في الرعب منها،وفي تهويل أمرها.
فُرانق الأسد ومِثْلُ شأنِ التِّنِّين مِثْلُ أمْرُ فُرانِق الأسد، فإنّ ذكره يجري في المجلس، فيقول بعضهم: أنا رأيتهُ وسَمِعْتُهُ!

فزع الناس من الحية

وربما زاد في الرعب منها والاستهالة لمنظرها قولُ جميع المحدِّثين: إنَّ من أعظم ما خَلَقَ اللّهُ الحية والسَّرطانَ والسّمك!

طول عمر الحية

وتقول الأعراب: إنَّ الحية أطولُ عمرًا من النَّسر، وإن الناسَ لم يجِدُوا حَيةً قطُّ ماتت حتْفَ أنفِها، وإنما تموت بالأمر يعرض لها، وذلك لأمور؛ منها قولهم: إنَّ فيها شياطينَ، وإنَّ فيها مِنْ مِسخ، وإنّ إبليسَ إنما وسوس إلى آدم وإلى حوَّاء من جَوْفها.
زعم الفضل بن إسحاق وزعم لي الفضلُ بن إسحاقَ، أنهُ كان لأبيه نُخَّان، وأنّ طولَ كُلِّ نخّ تسعةَ عشر ذراعاً

ضروب الحيات

ومن الحيَّات الجُرْد والزعْر، وذلك فيها من الغالب،ومنها ذواتُ شعر، ومنها ذواتُ قرون، وإنَّما يتخلق لها في كلِّ عام قشرٌ وغلاف فأما مقادير أجسامهافقط.
انسلاخ جلد الإنسان وأمَّا الجلودُ فإنَّ الأرمينيَّ زعم أنه كان عندهم رجلٌ ينقشِر من جلده وينسلخُ في كلِّ شهرٍ مَرَّةً،قال فجمع ذلك فوُجد فيه مِلْءُ جراب أو قال: أكثرُ.

علة الفزع من الحية

وأمَّا الذي لا أشك في أنه قد زاد في أقدارها في النفوس، وعظَّم من أخطارها، وهوَّل مِن أمْرها، ونبّه على ما فيها من الآية العجيبةِ والبرهانِ النيِّر، والحجَّةِ الظاهرة، فمَا في قلب العصا حَيَّة، وفي ابتلاعها ما هوّلَ به القوم وسحَروا من أعْيُنِ النَّاس، وجاؤوا به من الإفك، قال اللّه عزَّ وجلَّ: "وَقَالَ مُوسَى يا فِرْعَوْنُ إنِّي رسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِين حَقِيقٌ على أن لا أقُولَ على اللّه إلاَّ الحَقَّ قدْ جِئْتُكُمْ ببَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فأرْسِلْ مَعِيَ بني إسْرائيلَ قال إنْ كُنْتَ جِئْتَ بآيَةٍ فأْتِ بها إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، فألْقى عَصاهُ فإذا هي ثُعبَانٌ مُبينٌ" إلى قوله: "فَألْقوا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ" فإنْ قلت: إنه إنما حَوَّل العصا ثُعباناً لأنهم جاؤوا بحبال وعِصِيٍ؛ فحوَّلوها في أعين الناس كلها حيّات، فلذلك قلبَ الله العصَا حَيةً على هذه المعارضة، ولو كانوا حين سحرُوا أعيُنَ الناس جَعَلوا حبالهم وعصيَّهُمْ ذِئاباً في أعْيُنِ الناس ونمُورًا، لجعلَ اللّهُ عصا مُوسى ذئبًا أوْ نَمِرًا، فلم يكن ذلك لخاصَّة في بَدَنِ الحيةِ، قلنا: الدّليل على باطل ما قلتم، قوْلُ اللّه تعالى: "وما تِلْكَ بيَمِينِكَ يَا مُوسى، قال هي عَصايَ أتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وأهُشُّ بها عَلى غَنَمِي وَلِيَ فِيها مآرِبُ أخْرَى قال ألْقِها يا مُوسى فألْقَاها فإذا هي حَيَّةٌ تَسْعى" وقال اللّه عزَّ وجلّ: "إذْ قالَ مُوسى لأهْلِهِ إنِّي آنَسْتُ ناراً" إلى قوله: "وَألْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كأنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبرًا وَلَمْ يعُقِّبْ يا مُوسى لا تخفْ إنِّي لا يخافُ لَدَيَّ المرْسَلُونَ" فقلبت العصا جانًّا، وليس هناك حبالٌ ولا عِصِيٌّ، وقال اللّه: "قال لئِنِ اتخَذْتَ إلهاً غَيْري لأجْعَلَنَّك مِنَ المَسْجُونِينَ قالَ أوَلَوْ جِئْتُكَ بشَيءٍ مُبين قالَ فأتِ به إنْ كنت من الصَّادِقِينَ فألْقى عصاهُ فإذا هي ثُعْبانٌ مُبينٌ" فقلْبُ العصا حَيَّةً كان في حالاتٍ شَتَّى، فكان هذا مِمّا زاد في قدْر الحية،وقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم قال في دعائه أن لا يميتَه اللّهُ لَديغاً، وتأويل ذلك: أنَّه صلى الله عليه وسلم ما اسْتَعَاذ باللّه من أن يموتَ لديغاً، وأنْ تكونَ مِيتته بأكْلِ هذا العدوِّ، إلا وهو من أعداءِ اللّهِ، بل من أشدِّهم عداوةوقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: أشَدُّ النّاس عذاباً بومَ القيامةِ مَنْ قتلَ نَبيًّا أو قتَلَهُ نبيٌّ كأنَّهُ كان في المعلوم أنَّ النبيَّ لا يقتلُ أحدًا، ولا يتفَّقُ ذلك إلاَّ في أشْرار الخلْق، ويدلُّ على ذلك، الذي اتفَّق من قتل أُبيِّ بنِ خلفٍ بيده، والنَّضر بن الحارث، وعُقبة بن أبي مُعيط، ومعاوية بن المغيرة بن أبي العاصي صبراً.وحُدِّثت عن عبد اللّه بن أبي هند، قال: حدّثني صيفي بن أبي أيُّوب، أنه سمع أبا بَشِيرٍ الأنصاريّ يقول: كان رسول صلى الله عليه وسلم يتعوَّذُ من هؤلاء السَّبْع: كان يقول: اللهمَّ إني أعوذُ بك من الهَدْم وأعوذُ بك من التردِّي، وأعوذُ بك من الغَمِّ والغرَق، وأعوذ بك من الحَرَق والهَرَم، وأعوذ بك أن يتخبَّطني الشيَّطانُ عند الموت وأعوذ بك من أن أموتَ في سبيلك مُدْبرًا، وأعوذ بك من أن أموت لديغاً.وطلحة بن عمرو قال: حدثني عطاء أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: اللّهُمَّ إني أعوذُ بك من الأسَد والأسْوَدِ، وأعوذ بك من الهَدْم.

استطراد لغوي قال: ويقال للحيَّة: صَفَرَتْ تَصْفِرُ صفيراً، والرجل يصفِر بالطير للتنفير، وبالدوابِّ وببعض الطير للتعليم، وتتخذ الصَّفّارة يُصْفَرُ بها للحمامِ وللطير في المزارع، قال أعشى هَمْدان يهجو رَجُلاً:

وإذا جئْنا للزَّرع يوم حَصادِهِ قطعَ النَّهارَ تأوُّهاً وصَفِيرا

لسان الحية

والحيَّة مشقوقة اللسانِ سوداؤه، وزعم بعضهم أن لبعض الحيَّات لسانين، وهذا عندي غلطٌ، وأظنُّ أنَّهُ لما رأى افتراقَ طرف اللسان قضى بأنَّ له لسانين.
عجيبة للضب ويقال: إن للضَّبِّ أيْرَين، ويسمَّى أير الضَّبِّ نَزْكاً، قال الشاعر:

كَضَبٍّ له نِزْكانِ كانا فضِيلة على كلِّ حافٍ في الأنام وناعِلِ

قالَ أبو خلف النمريّ: سئل أبو حيّة النميري عن أير الضَّبِّ، فزعم أنّ أيرَ الضبّ كلسان الحيَّة: الأصل واحدٌ، الفرع اثنان

زعم بعض المفسرين في عقاب الحية

وبعض أصحاب التفسير يَزْعُمُ أنّ اللّه عاقب الحيَّة حين أدخلت إبليس في جوفها، حتى كَلّمَ آدمَ وَحَوَّاءَ وخدعهما على لسانها، بعشر خِصال: منها شقُّ اللسان، قالوا: فلذلك ترى الحيَّة إذا ضُرِبَتْ للقتْلِ كيف تخرج لسانها لتُرِيَ الضّارِبَ عقوبة اللّه، كأنها تَسْترحم، وصاحب هذا التفسير لم يقلْ ذلك إلاَّ لحيَّةٍ كانت عنْدَهُ تتَكَلمُ، ولولا ذلك لأنكر آدمُ كلامها، وإن كان إبليسُ لا يحتال إلاَّ من جهة الحيَّة، ولا يحتال بشيءٍ غير مموّهٍ ولا مشبَّه.
استطراد لغوي قال: ويقال: أرضٌ مَحْوَاةٌ وَمَحْيَاة من الحيَّات، كما يقال أرض مَضَبَّة وَضَبِبَة من الضِّباب، وفائرة من الفأر.
قولهم:هذا أجل من الحرش وقال الأصمعيُّ في تفسير قولهم في المثل: هذا أجَلُّ مِنَ الحَرْش: إنّ الضّبّ قال لابنه: إذا سمعت صَوْتَ الحرْشِ فلا تخرُجَنَّ قال: وذلك أنّهُم يْزعمون أن الحرْشَ تحريك اليدِ عندَ جُحْر الضّبِّ، ليخرج إذا ظنَّ أنه حية قال: وسمع ابنهُ صوت الحفْر فقال: يا أَبَهْ هذا الحرش؟ قال: يا بنيَّ، هذا أجلُّ من الحرْش فأرسلها مثلاً.

أسماء ما يأكل الحيات

بين الحيات وبين الخنازير عداوة، والخنازيرُ تأكُلها أكلاً ذريعاً، وسمومُ ذواتِ الأنيابِ من الحيّات، وَذوات ِالإبر، سريعةٌ في الخنازير، وهي تَهْلِكُ عند ذلك هلاكاً وشيكاً، فلذلك لا ترضى بقتلها حتى تأكلها، وتأكلُ الحيَّاتِ العِقْبانُ، والأيائِلُ، والأراويُّ، والأوعالُ، والسَّنانير والشّاهْمُرك، والقنفذُ، إلاَّ أن القنفذ أكثرُ ما يقصِدُ إلى الأفاعي، وإنما يظهر بالليل، قال الرَّاجز:

قنفذ ليلٍ دائم التَّجْآبِ

وهذا الراجز هو أبو محمد الفقعسي القول في القنفذ وكذلك يشبه النَّمَّامُ، والمُدَاخِلُ، والدَّسِيس، بالقنفذ، لخروجه بالليل دون النهار، ولاحتياله للأفاعي، قال عَبْدة بن الطبيب:

اعصوا الذي يلقى القنافذ بينكم　متنصحاً وهو السمام الأنـقـع

يزجى عقاربه ليبعث بينـكـم　حرباً كما بعث العروق الأخدع

حران لا يشفي غلـيل فـؤاده　عسلٌ بماء في الإنـاء مشعشـع

لا تأمنوا قوماً يشب صبيـهـم　بين القوابل بالـعـداوة ينـشـع

وهذا البيت الآخر يضم إلى قول مجنون بني عامر:

أتاني هَوَاها قبْل أنْ أعْرِفَ الـهَوَى　فَصَادَفَ قَلْباً خَالِياً فَتَـمَـكـنـا

ويضم إليه قول ابْنِ أوْدٍ: الطينة تَقْبَلُ الطبائع ما كانت لَيِّنَةً.
ثم قال عبْدة بنُ الطَّبيب، في صلة الأبياتِ التي ذكر فيها القنفذ والنَّميمة:

إنَّ الذين تُـرَوْنَـهُـمْ خُـلاَّنَـكُـمْ　يَشْفِي صُدَاعَ رُؤوسهمْ أنْ تُصْرَعُوا

قومٌ إذا دمسَ الظَّـلاَمُ عَـلَـيْهِـمُ　جَدْعُوا قنافِذَ بالـنـمـيمة تـمـزَعُ

وهذا الشعر من غُرر الأشعار، وهو مِمَّا يحفظ.
وقال الأوديّ:

كقنفذ القُنِّ لا تخفى مدارجُهُ　خبٌّ إذا نامَ عَنْهُ الناس لم ينمِ

عهد آل سجستان على العرب　وفي عهد آل سجستان على العربِ حين افتتحوها:
لا تقتلوا قُنْفُذًا ولا وَرَلاً وَلاَ تَصِيدُوا، لأنـها بلادُ أفاعٍ، وأكثرُ ما يجتلبُ أصحابُ
صنعة الترياق والحواوُون الأفاعي من سجستان، وذلك كَسْبٌ لـهم وحِرْفَةٌ
ومَتجرٌ،ولولا كثرةُ قنافِذِها لما كان لـهم بها قرارٌ.

أكل القنفذ للحية

والقنفذُ لا يبالي أيّ موضع قبضَ من الأفعى، وذلك أنـه إن قبض على رأسها أو
على قفاها فهي مأكولةٌ على أسهل الوُجوه، وإن قبضَ على وسطها أو على ذنبها،
جذَبَ ما قبض عليه، فاستدار وتجمَّع، ومنحه سائِرَ بدَنِهِ،فمتى فَتَحَتْ فاها لتقبضَ
على شيء منه، لم تصلْ إلى جلده مع شوكِهِ الثَّابت فيه، والأفعى تـهربُ منه،
وطلبهُ لـها وجراءتهُ عليها، على حَسَبِ هربها منه وضعْفها عنه.
أمثال في الحية والورَل والضَّبِّ وأمَّا قولـهم: أضل من حَيّةٍ؛ وأضَلُّ من وَرَلٍ؛
وأضَلُّ من ضَبٍّ، فأمَّا الحيّة فإنَّها لا تتَّخذ لنفسها بيتاً، والذَّكَرُ لا يقيم في الموضع،

وإنما يقيم على بيضها بقدر ما تخرج فراخُها وتقوى على الكَسْب والتماس الطعم، ثمَّ تصير الأنثى سَيَّارَةً، فمتى وَجَدت جُحْرًا دخلتْ واثقةً بأنَّ السَّاكِنَ فيه بين أمرين:إمّا أقام فصار طُعْماً لها، وإمَّا هرَب فصار البيتُ لها ما أقامت فيه ساعةً، كان ذلك من ليلٍ أو نهار.

بيض الحيات

وقد رأيتُ بيض الحيَّات وكسرتُها لأتعرَّفَ ما فيها، فإذا هو بيضٌ مستطيلٌ أكدرُ اللون أخضر، وفي بعضه نَمَشٌ ولُمَعٌ، فأمَّا داخلُه فلم أرَ قَيْحًا قطُّ، ولا صديدًا خَرَجَ من جُرح فاسدٍ، إلاَّ والَّذي في بيضها أسمجُ منه وأقذر، ويزعمون أنها كثيرةُ البيض جداً، وأنَّ السلامة في بيضها على دون ذلك، وأنَّ بيضها يكون منضَّدًا في جوفها طُولاً على غرار واحد، وعلى خيط واحد، وهي طويلة البطن والأرحام، وعددُ أضلاعها عددُ أيام الشهر، وكان ذلك بعض ما زاد في شدَّة بدنها.
أكثر الحيوان نسلاً والخلْق الكثير الذَّرء الدَّجاجُ، والضَّبُّ أكثرُ بيضاً من الدَّجاجة، والخنزيرة تضعَ عشرين خِنَّوْصاً.
ويخرجُ من أجوافِ العقاربِ عقاربُ صغارٌ، كثيرةُ العدد جدًّا، وعامَّة العقارب إذا حَبِلَتْ كان حَتْفُها في ولادها، لأنَّ أولادها إذا استَوى خَلْقُها أكلَتْ بطونَ الأمَّهاتِ حتَّى تثقبها، وتكونُ الولادةُ من ذلك الثَّقب، فتخرج والأمهاتُ ميِّتة.
وأكثرُ من ذلك كله ذَرْءُ السَّمك، لأنَّ الإنسان لو زَعَمَ أنّ بيضة واحدة من بَعْضِ الأسْبور عشرة آلاف بيضة، لكان ذلك لعظمِ ما تحمِل، ولدِقَّة حَبّه وصِغره، ولكن يعتريها أمران: أحدهما الفساد، والآخر أنَّ الذكورة في أوانِ ولادة الإناث تَتْبَعُ أذْنَابَها، فكُلَّما زَحَرَتْ بشيء التقمتْه والتهمتْه.
ثمَّ السَّمك بعد ذلك في الجملة إنما طبعها أن يأكل بعضُها بعضاً.
علة كثرة الأولاد ويزعمون أن الكثرَةَ في الأولاد إنّما تكون من العفَنِ واللَّخَن، وعلى قدْرِ كثرةِ المائيَّة وقِلّتِها، فذهبوا إلى أنَّ أرحامَ الرُّوميَّاتِ والنَّصرانيَّاتِ أكثرُ لخنًا ورُطوبة، لأنّ غسْلَ الفُرُوج بالماء البارد مرارًا في اليوم، مِمَّا يطيِّب الأرحامَ، وينفي اللَّخَنَ والعَفَن، ويزعمون أنَّ المرأة إذا كان فرجُها نظيفاً، وكانت مُعَطَّرَة قويّة المُنّةِ قلَّ حملُها، فإنْ أفرطتْ في السِّمَنِ عادتْ عاقراً، وسِمانُ الرِّجال لا يكاد يعتريهم ذلك.
وكذلك العاقر من إناث الإبل والبقر والغنم والنَّخْل، إذا قويت النَّخلة وكانت شابّةً، وسَمِنَ جُمَّارُها، صارتْ عاقِرًا لا تحمل، فيحتالون عند ذلك بإدخال الوهن عليها.
اعتراض على التعليل السابق وقد طعن في ذلك ناسٌ فقالوا: إنّ في الضّبِّ على خلاف ما ذكرتم، قد تبيضُ الأنثى سبعين بيضة فيها سبعون حِسْلاً، ولولا أنّ الضَّبَّ يأكلُ ولدَه لانتفشت الصحارى ضِباباً، والضب لا يحفر إلاّ في كُدْية وفي بلادِ العَرَاد، وإذا هرمت تبلّغتْ بالنّسيم، وهذا كله مِمَّا يستدلُّ به على بُعْدِ طبعها من اللَّخَن والعفن.
وقيل لهم: قد يمكنُ أن يكون ذلك كذلك في جميع صفاتها إلاّ في أرحامها فقط.

سفاد الحيات

وليس للحيَّاتِ سِفادٌ معروف يَنْتَهي إليه علمٌ، ويقف عليه عيان، وليس عند الناس في ذلك إلاَّ الذي يَرَوْنَ من ملاقاة الحيّة للحيَّة، والتواءِ كلٍّ منهما على صاحبه، حتى كأنهما زوجُ خيزرانٍ مفتولٌ، أو خَلخَالٌ مفتولٌ، فأمَّا أن يقفوا على عضوٍ يدخل أو فرج يدخل فيه فلا.
شعر في الأيم والجرادة الذكر والعرب تذكُرُ الحيّاتِ بأسمائها وأجناسها، فإذا قالوا:أيْم، فإنما يريدون الذَّكَر دونَ الأنثى، ويذكرونه عِنْدَ جودةِ الانسيابِ، وخِفَّةِ البدن، كما تذكر الشُّعراء في صفة الخيل الجرادةَ الذَّكَرَ، دُونَ الأنثى، فهم وإن ألحقُوا لها فإنما يريدون الذَّكَرَ، قال بِشْرُ بن أبي خازم :

جَرَادَةٌ هَبْوَةٍ فيها اصفرارُ

لأنّ الأنثى لا تكون صفراء، وإنما الموصوفُ بالصُّفْرة الذَّكر، لأن الأنثى تكون بين حالتين: إمّا أنّ تكون حُبْلَى ببَيْضِها فهي مُثْقلة، وإمّا أن تكون قد سرأت وقذفت بيضها، فهي أضعفُ ما تكون.
قال الشاعر:

أتذهَبُ سَلْمَى في اللِّمَامِ وَلا تُرى   وفي اللّيلِ أيّمٌ حيثُ شاءَ يسيبُ

آثار الحيات والعظاء في الرمال

وإذا انسابت في الكُثبانِ والرّمل، يبينُ مواضعُ مَزَاحِفِها، وعُرِفت آثارُها.
وقال آخر:

كأنَّ مَزَاحِفَ الحيَّاتِ فيها   قُبيلَ الصُّبْح آثارُ السِّياطِ

وكذلك يعرفون آثار العِظاء، وأنشدَ ابن الأعرابيِّ:

بها ضربُ أذناب العِظاء كأنها   مَلاعِبُ وِلْدَانٍ تخطّ وتمصعُ

وقال الآخر، وهو يصف حيّات:

كأنَّ مَزاحِفِها أنسعٌ   جُرِرْنَ فُرَادَى ومَثْناتها

وقال ثمامة الكلبيُّ:

كأنَّ مَزَاحِفَ الهَزْلَى صباحاً   خُدُودُ رَصائع جُدلتْ توَاما

والهَزْلَى من الحيَّات، قال جرير أو غيره :

ومن ذات أصْفاءٍ سُهُوب كأنها مَزَاحِفُ هَزْلَى بينها متباعدُ

وقال بعضُ المحدثين، وذكر حال البرامكةِ كيف كانتْ، وإلى أيِّ شيءٍ صارت:

وإذا نَظرْتَ إلى الثّرى بعِرَاصهم قلْتَ :الشجاعُ ثوى بها والأرقمُ

وقال البعيث:

لَقًى حَمَلَتْهُ أمُّهُ وهي ضَيْفَةٌ فجاءتْ بيَتْنٍ للضيافةِ أرْشَما

مُدامِنُ جَوْعَاتٍ كأنّ عروقَـهُ مسَاربُ حَيَّاتٍ تَسَرَّبْنَ سَمْسَما

روعة جلد الحية

ولا ثوبَ، ولا جناحَ، ولا سِتْرَ عنكبوتٍ، إلا وَقشْرُ الحيَّةِ أحْسَنُ منه وأرقُّ، وأخفُّ وَأنْعَمُ، وأعجبُ صنعةً وتركيباً.
ولذلك وصف كُثيِّرٌ قميص ملِكٍ، فشبَّهه بسَلخ الحيَّة، حيث يقول:

إذا ما أفادَ المالَ أودَى بِفَضْلِـهِ حقوقٌ، فَكُرْهُ العاذلاتِ يوافقُهْ

يجرِّ سِرْبالاً عـليه كـأنّـه سَبيءٌ لِهَزْلَى لم تُقطَّعْ شَرَانِقُهْ

والسَّبيء: السَّلْخُ والجلد، قال الشاعر:

وقد نصلَ الأظفارُ وانسَبَأ الجِلْدُ

صمم النعام والأفعى

وتزعمُ العربُ أنَّ النَّعامَ والأفعى صُمٌّ لا تسمع، وكذلك هما من بينِ جميع الخَلْق، وسنذكرُ من ذلك في هذا الموضع طرفاً، ونؤخر الباقي إلى الموضع الذي نذكر فيه جملة القوْل في النَّعام، أصحاب الدعاوى الكبيرة وقد ابتُلينا بضَرْبين من الناس، ودعواهما كبيرة، أحدهما يبلغ من حبه للغرائب أن يجعل سمْعه هدَفاً لتوليد الكذابين، وقلبه قراراً لغرائب الزُّور، ولِكَلَفِهِ بالغريب، وشَغَفِهِ بالطُّرَف، لا يقفُ على التَّصحيح والتمييز، فهو يدخل الغثَّ في السمين، والممكنَ في الممتنع، ويَتَعَلَّقُ بأدنى سببٍ ثمَّ يدفع عنه كلّ الدَّفع.
والصِّنف الآخر، وهو أنَّ بعضهم يرى أنَّ ذلك لايكون منه عنْدَ من يسمعه يتكلم إلا من خاف التقزُّز من الكذب.

قول في صمم الأفعى وعماه فزعم ناسُ أنّ الدَّليلَ على أنّ الأفاعي صُمٌّ، قولُ الشاعر:

أنعَتُ نضناضاً من الحيَّاتِ   أصمَّ لا يَسْمَعُ للرُّقـاة

قد ذكروا بالصَّممِ أجناساً من خبيثات الحيَّات، وذهبوا إلى امتناعها من الخروج عند رُقيةِ الرَّاقي عند رأس الجُحْر، فقال بعضهم:

وذاتِ قرْنَيْنِ مـن الأفـاعـي   صَمَّاء لا تَسْمَعُ صَوْتَ الدَّاعي

ويزعمونَ أنّ كلّ نَضْناضٍ أفعى، وقال آخر:

ومِنْ حَنَشٍ لا يُجِيبُ الـرُّقـا   ةَ أرْقشَ ذي حُمَةٍ كالـرِّشـا

أصمَّ سَمِيعٍ طويلِ الـسُّبَـا   تِ مُنْهَرِتِ الشدق عاري النسَا

فزعم أنّه أصمُّ سميعٌ، فجاز له أن يجعله أصمّ بقوله: ومِنْ حَنَشٍ لا يُجِيبُ الرُّقاة وقال الآخر:

أصمَّ أعْمى لا يُجيبُ الرُّقى   يَفْتَرُّ عَنْ عُصْلٍ حَـدِيداتِ

والأفعى ليس بأعمى، وعينه لا تنطبق، وإنْ قُلِعَتْ عينهُ عادت، وهو قائمُ العَيْنِ كَعَيْنِ الجرادة، كأنها مِسمارٌ مضروب، ولها بالليل شُعاع خفيٌّ، قال الرَّاعي يصفُ الأفعى:

ويُدْني ذِرَاعَيهِ إذا ما تـبـادَرَا   إلى رأس صِلٍّ قائمِ العَيْنِ أسفع

وهذه صفةُ سَليمِ الأفعى، فيجوز أن يكون الشاعِرُ وصفها بالتمنع من الخروج بالصَّممَ، كما وصفها بالعمى، لمكان السُّباتِ وطُولِ الإطراق.
قال الشاعِرُ:

أصمَّ سميع طويل السُّبـاتِ   مُنهرت الشّدْق عَاري القَرَا

وقال آخر:

منهرتِ الشِّدق رَقُودِ الـضُّحـى   سارِ طـمُـورٍ بـالـدُّجُـنَّـاتِ

وتـارَةً تَـحْـسَـبُـهُ مَـيِّـتـاً   من طُولِ إطْراقٍ وإخبـاتِ

يُسْبِتُهُ الصُّبْحُ وَطوْراً لَهُ   نَفخ ونفْثٌ في المغارات

وَيُعْلَمُ أنَّهُ وصفَ أفعى بقولِه:

أصمَّ أعمى لا يُجيبُ الرُّقى   يَفْتَرُّ عن عُصْلٍ حَدِيدات

مُنْهَرِتِ الشِّدْقِ رَقُودِ الضُّحى "الخ"

ثم ذكر أنيابَهُ، فقال:

قُدِّمْن عَنْ ضِرْسَيْهِ واسْتَأْخَرا   إلى صماخَيْن ولَهْوَاتِ

فجعله أعصل الأنياب، منهرتَ الأشْداق، ثمَّ وصفها بالسُّباتِ وطولِ الإطراق، وبسُرْعَةِ النَّشْطة، وخفّة الحركة، إذا هَّمت بذلك وكانت تعظم.
شعر امرأة جمع صفة الحية وقد وصفتها امرأة جاهليَّةٌ بجميع هذه الصِّفةِ، إلاَّ أنها زادت شيئاً، والشِّعرُ صحيح، وليس في أيدي أصحابنا مِنْ صِفَةِ الأفاعي مثلها.
وقد رأيتُ عند داودَ بن محمَّدٍ الهاشميِّ كتاباً في الحيَّات، أكثرَ من عشرة أجلادٍ، ما يصحُّ منها مقدارُ جلدٍ ونصف.
ولقد ولَّدُوا على لسانِ خلفٍ الأحْمَر،والأصمعيِّ، أرجازاً كثيرة، فما ظنُّك بتوليدهم على ألسِنَةِ القُدماء.
ولقد ولَّدُوا على لسانِ جَحْشَوَيْهِ في الحلاق أشعاراً ما قالها جَحْشَوَيه قط، فلو تقذَّرُوا من شيءٍ تقذَّرُوا من هذا الباب.
والشِّعر الذي في الأفعى:

قدْ كاد يقتُلني أصمُّ مُرقَّشٌ   من حُبِّكُمْ والخطبُ غيرُ كبير

خُلِقتْ لَهَازِمُهُ عِزِينَ ورأسُهُ   كالقُرْص فُلْطِحَ مِنْ دقيق شَعير

وَيديرُ عَيْناً لِلْوقاع كأنَّها   سَمْراءُ طاحَتْ مِنْ نَفيض بَرير

وكأنَّ ملقاه بكلِّ تَنُوفةٍ   مَلْقاكَ كِفَّةَ مُنْخُل مأطور

وكأنَّ شِدْقَيْهِ إذا اسْتَعْرَضْتَهُ   شِدْقا عَجوز مضْمَضَتْ لِطهُور

فقد زعمت كما ترى أنها تدير عيناً، وزعم الأوَّلُ أنها قائمة العين، إلاَّ أنْ تزعُمَ أنها لم تُردْ بالإدارة أن مقلتها تزولُ عن موضعها، ولكنّها أرادتْ أنّها جَوّالةٌ في إدراك الأشخاص، البعيدةِ والقريبة، والمتيامِنَة والمتياسِرَة.
وقد يجوزُ أنْ يكونُ إنَّما جَعَلَها سميعةً لدقة الحِسِّ، وكثرة الاكتراث وجودةِ الشمِّ،

لا جَوْدَةِ السَّمْع؛ فإنّ الذين زعموا أنّ النّعامة صمّاء زَعمُوا أنّها تُدْرِكُ من جهة الشمِّ والعَيْنِ، جميع الأمورِ التي كانت تعرفها من قِبلَ السَّمْع لو كانَتْ سَمِيعَةَ، وقد قال الشاعِرُ في صفة الحيّة:

تَهْوِي إلى الصّوْت والظلماءُ عاكِفَةٌ تَعَرُّدَ السَّيْلِ لاقى الحَيْدَ فاطّلَعَا

هذا بعد أن قال:

إني وما تَبْتَغي منّي كملتمس صيداً وما نالَ مِنْهُ الرِّيَّ والشِّبَعا

أهْوى إلى بابِ جُحر في مقدّمِه مِثْلُ العسيبِ تَرى في رَأسِه نزَعَا

اللَّوْنُ أربَدُ والأنيابُ شابكةٌ عُصْلٌ تَرى السمَّ يجري بيْنَها قِطَعَا

أصم ما شمَّ مِنْ خَضراءَ أيبَسها أو شمّ من حَجَر أوْهاهُ فانْصدعَا

فقد جَعَلَ لها أنياباً عُصْلاً، ووصفها بغاية الخُبْثِ، وزعم أنها تسمع، فهؤلاء ثلاثة شعراء.
الثقة بالعلماء فإن قلت: إنّ المولَّدَ لا يؤمن عليه الخطأ، إذْ كان دخيلاً في ذلك الأمر، وليس كالأعرابيِّ الذي إنما يحكي الموجودَ الظاهر له، الذي عليه نَشَأ، وبمَعْرِفتِهِ غُذي، فالعلماء الذين اتَّسَعوا في علم العرب، حتى صاروا إذا أخبروا عنهم بخبرِ كانوا الثِّقاتِ فيما بيننا وبينهم، هم الذين نقلُوا إلينا، وسواءٌ علينا جعلوهُ كلاماً وحديثاً منثوراً، أو جعلوه رجزاً وقصيداً موزوناً.
وَمْتَى أخبرني بعضُ هؤلاء بخبر لم أسْتَظْهِرْ عليه بمسألة الأعراب، ولكنهُ إنْ تَكلم وتحدَّث، فأنكرتُ في كلامهِ بعضَ الإعراب، لم أجْعَلْ ذلك قُدوَةً حتى أوقِفه عليه، لأنّه ممَّنْ لا يُؤْمنُ عَلَيْهِ اللَّحْنُ الخفيّ قبلَ التفكر، فهذا وما أشبههُ حكمهُ خلافُ الأوَّل.
الرُّقْية والرُّقَيَةُ تكونُ على ضروب: فمنها الذي يدّعيه الحَوَّاءُ والرَّقَّاء؛ وذلك يُشْبِه بالذي يدَّعي ناسٌ من العزائم على الشياطين والجن، وذلك أنهم يزعمون أن في تلك الرّقْيَةِ عزيمةً لا يمتنع منها الشيطانُ، فكيفَ العامر؟ وأن العامرَ إذا سُئل بها أجاب، فيكونُ هو الذي يتولى إخراجَ الحياتِ من الصّخْر، فإنْ كان الأمرُ على ما قالوا فما ينبغي أن يكون بين خروج الأفاعي الصمِّ.
وغيرها فرقٌ، إذا كانت العزائم والرّقى والنَّفْثُ ليس شيئاً يعمل في نفس الحيّة، وإنَّما هو شيءٌ يَعْملُ في الذي يُخْرِجُ الحَيَّة، وإذا كان ذلك كذلك فالسَّميعُ والأصمُّ فيه سواءٌ.
وكذلك يقولون في التَّحبيب والتَّبغيض، وفي النُّشرة وحلِّ العُقْدة، وفي التَّعقيد

والتحليل.
العزيمة ويزعمون أنَّ الجن لا تجيبُ صاحب العزيمةِ حتى يتَوَحَّشَ ويأتي الخراباتِ والبراريَّ، ولا يأنسَ بالناس، ويَتَشَبَّه بالجنِّ، ويغسل بالماء القراح، ويتبخَّر باللّبان الذّكر، ويراعي المشتري فإذا دقَّ ولطُفَ، وتوحّش وعزم، أجابتْهُ الجنُّ، وذلك بعد أن يكونَ بدنهُ يصلُح هيكلاً لها، وحتَّى يَلَذَّ دُخولَه واديَ منازلها، وألاَّ يكرهَ ملابسته والكَوْنَ فيه، فإنْ هو ألَحَّ عليها بالعزائم، ولم يأخُذْ لذلك أهْبته خبَلَتْه، وربَّما قتلتْه، لأنها تَظنُّ أنّهُ متى توحَّش لها، واحتمى، وتَنَظف فقد فرغ، وهي لا تُجيب بذلك فقطْ، حتى يكونَ المعزِّمُ مشاكلاً لها في الطِّباع.
فيزعمون أنّ الحيَّاتِ إنما تُخْرَجُ إخراجاً، وأنَّ الذي يخرجُها هو الذي يخرج سمومها مِنْ أجساد النّاس، إذا عَزَم عليها.
؟التعويذ والرُّقية الأخرى بما يُعْرفُ من التعويذ، قال أبو عُبَيْدَة: سَمِعْتُ أعْرَابياً يقول: قد جاءكم أحدُكُمْ يستَرْقِيكُمْ فارْقوه، قال: فَعَوَّذُوهُ ببعض العوائذ.
والوجه الآخر مشتقّ من هذا ومحمولٌ عَلَيْهِ، كالرّجُلِ يقول: ما زال فلانٌ يرقي فُلاناً حتَّى لانَ وأجابَ.

رقى الحيات

وقد قالت الشعراء في الجاهِلِيَّةِ والإسلامِ في رُقى الحيات، وكانوا يؤمنون بذلك ويصدقون به، وسنخبر بأقاويلِ المتكلمين في ذلك، وبالله التوفيق.
ومنهم مَنْ زعم أنَّ إخراجَ الحيّةِ من جُحْرها إلى الرَّاقي، إنما كان للعزيمة والإقسامِ عليها، ولأنَّها إذا فهمتْ ذلك أجابَتْ ولم تمتنع.
وكان أمَيَّةُ بنُ أبي الصَّلت، لا يعرف قولهم في أنَّ العُمَّارَ هم الذين يُجيبون العزائم بإخراج الحيّات من بيُوتها، وفي ذلك يقول :

والحية الذكر الرقشاء أخرجها   من جحرها أمنات الله والقسم

إذا دعا باسمها الإنسان أو سمعت ذات الإله بدا في مشيها رزم

من خلفها حمةٌ لولا الذي سمعت   قد كان ثبتها في جحرها الحمم

نابٌ حديدٌ وكفٌ غير وادعةٍ   والخلق مختلفٌ في القول والشيم

إذا دعين بأسماء أجبن لـهـا   لنافثٍ يعتديه الـلـه والـكـلـم

لولا مخافة ربٍ كـان عذبـهـا   عرجاء تظلع في أنيابها عسـم

وقد بلته فذاقت بعض مصدقـه فليس في سمعها، من رهبةٍ صمم

فكيف يأمنها أم كيف تـألـفـه   وليس بينهما قـربـى ولا رحـم

يقول: لو أنَّها أخرجت حين اسْتُحْلِفَتْ بالله لما خرجت، إذ ليس بينهما قُربى ولا رَحِم، ثمَّ ذكر الحُمَّةَ والنّاب.
وقال آخرون: إنما الحيَّة مثل الضبّ والضّبع، إذا سمع بالله والهدْم والصَّوت خرج ينظر، والحوَّاء إذا دنا من الجُحْر رفع صوتَه وصفَّقَ بيديه، وأكثر من ذلك، حتى يخرج الحيّة، كما يُخرجُ الضب والضَّبع.
وقال كثيِّر:

وسَودَاءَ مِطراق إليَّ مِن الصَّفا   أنِيٍّ إذا الحاوي دنا فَصَدَا لـهـا

والتَّصدية، التَّصفيق، قال اللّه تعالى: "وما كان صلاتُهُمْ عِنْدَ البَيْتِ إلاَّ مُكاءً وتصْدِيةً" الآية، فالمُكاء: صوتٌ بين النَّفْخ والصَّفير، والتَّصْدِيَةُ: تصفيق اليد باليد.
فكان الحوّاء يحتالُ بذلك للحيَّة، ويُوهم مَنْ حضرَ أنَّهُ بالرُّقية أخرجها، وهو في ذلك يتكلم ويعرِّض، إلاّ أنَّ ذلك صوتٌ رفيع، وهو لو رفعَ صوته ببيتِ شعرٍ أو بخُرافةٍ، لكان ذلك والذي يظهر من العزيمة عند الحيَّة سَواءً، وإنَّما ينْكر الصَّوتَ، كما ينكره الضّبُّ وغيرُ ذلك من الوحش.
ثم قال:

كفَفْتُ يَداً عنـها وأرضَيْتُ سَمْعـهـا من القوْل حتَّى صدَّقتْ ما وعى لـهـا

وأشْعرتها نفْثاً بليغاً فـلـو تـرى   وقد جعلت أن ترعني النَّفْثَ بالـهـا

تسلَّلْتُها من حيث أدركها الـرّقـى   إلى الكفّ لما سالمت وانسلالـهـا

فقال كما ترى: كففت يدًا عنها وأرضيتُ سمْعَها ثم قال:

وأشعرتها نَفْثاً بليغاً فلو ترى

وقال الأعشى:

أبا مِسْمَعٍ إني امرؤ من قبيلةٍ   بَنَى لِيَ عِزاً مَوْتُها وحياتُها

فلا تُلْمِسِ الأفعى يديك تريدها   إذا ما سعت يوماً إليها سَفاتُها

وقال آخر:

يَدْعُو بِهِ الحيَّة في أقطارِهِ   فإنْ أبى شَمَّ سَفا وجَارِهِ

والسَّفا: التراب اليابس بين التربين، يقال سَفاً وسفاة.
تمويه الحواء والراقي والحوَّاء وَ الرَّاقي يُري النَّاس أنَّهُ إذا رأى جحراً لم يخْفَ عليه: أجحر حيَّةٍ هو أمْ جُحْر شيء غيره، فإن كان جُحر حيّةٍ لم يَخْفَ عليه أهي فيه أم لا، ثمَّ إذا رَقى وعزَّم فامتنعت من الخُرُوج، وخاف أنْ تكون أفْعى صَمَّاءَ لا تسمَعُ، وإذا أرَاغَها ليأخُذَها فأخطأ، لم يأمن من أن تنقره نَقْرَةً؛ لا يُفْلِحُ بعدها أبداً، فهو عند ذلك يستبري بأن يشمَّ من تراب الجُحر، فلا يخفى عَلَيْهِ: أهي أفْعى أم حَيّةٌ من سائر الحيات، فلذلك قال:

يدعو به الحَية في أقطاره

والوجار: الجُحر.

ريح الأفعى

وزعم لي بَعْضُ الحوَّائين أنَّ للحيَّات نَتْناً وسهَكاً، وأن ريحَ الأفعَى معروفةٌ، وليس شيءٌ أغلقَ، ولا أعْنَقَ، ولا أسرعَ أخذاً لرائِحةٍ من طينٍ أو تراب، وَأنَّهُ إذا شمّ من طينة الجُحْر لم يخْفَ عليه، وقال: اعتبرْ ذلك بهذا الطين السداني والرَّاهطي إذا ألقي في الزَّعفران والكافور، أو غيره ذلك من الطِّيب، فإنّه متى وُضع إلى جنب رَوْثةٍ أو عَذِرَة، قبلَ ذلك الجسم، والرَّقاء يوهم النَّاسَ إذا دخَل دُورهم لاستخراج الحيَّاتِ أنَّهُ يعرف أماكنها برائِحتها، فلذلك يأخُذُ قصبةً ويَشْعَب رأسها، ثم يطْعُن بها في سقف البيت والزَّوايا، ثمّ يشمها ويقول مرة: فيها حيّات؛ ويقول مَرَّةً: بلى فيها حيّات، على قدْر الطمع في القوم، وفي عقولهم.
تأثير الأصوات

وَأمْرُ الصَّوتِ عجيبٌ، وتصرُّفُه في الوجوه عجب، فمن ذلك أنّ منه ما يقتل، كصوت الصاعقة، ومنها ما يسرُّ النفوس حتى يُفْرط عليها السُّرُورُ؛ فتقلَقَ حتى ترقُص، وحتَّى رُبما رمى الرَّجُل بنفْسه مِن حالق، وذلك مثلُ هذه الأغاني المطربة،

ومن ذلك ما يُكْمد، ومن ذلك ما يزيل العقْل حتى يُغْشَى على صاحبه، كنحو هذه الأصواتِ الشجيةِ، والقراءَات الملحَّنة، وليس يعتريهم ذلك مِنْ قِبَلِ المعاني؛ لأنهم في كثير من ذلك لا يفهمون معاني كَلاَمهم، وقد بَكَى ماسرجويه من قراءَة أبي الخوخ، فقيل له: كيفَ بكيتَ من كتاب اللّه ولا تصدِّقُ به؟ قال: إنما أبكاني الشجا. وبالأصوات ينوِّمون الصِّبيانَ والأطفالَ.

أثر الصوت في الحيوان والدَّوابُّ تَصُرُّ آذانها إذا غنَّى المُكاري، والإبل تصرُّ آذانَها إذا حدا في آثارها الحادي، وتزداد نشاطاً، وتزيد في مشيها، ويَجمع بها الصَّيَّادُونَ السَّمك في حظائرهم التي يتَّخذونها له، وذلك أنّهم يضربون بعصيٍّ معهم، وَيُعَطْعِطُونَ، فتُقبل أجناسُ السَّمكِ شاخصة الأبصار مصغيةً إلى تلك الأصوات، حَتَّى تدخُلَ في الحظيرة ويُضْرَب بالطّساس للطَّير، وتُصاد بها، ويضرَبُ بالطّساس للأُسْدِ وقد أقبلَتْ، فتروعُها تلك الأصوات.

وقال صاحب المنطق: الأيائِلُ تُصَادُ بالصَّفير والغناء، وهي لا تنامُ مادامت تسمَعُ ذلك من حاذق الصوت، فيشغلونها بذلك ويأتُون من خَلفِها فإنْ رأوْها مسترخيةَ الآذانِ وثَبُوا عليها، وإن كانت قائمةَ الأذنين فليس إليها سَبيل.

والصَّفير تُسْقى به الدوابُّ الماءَ، وتنفّرُ به الطير عن البذور.

وزعم صاحبُ المنطق أنَّ الرَّعدَ الشَّدِيدَ إذا وافق سِبَاحَةَ السَّمك في أعلى الماء رَمَتْ ببيضها قبلَ انتهاء الأجَل، وربّما تمّ الأجل فتَسمع الرَّعدَ الشَّدِيدَ، فيتعطّل عليها أيّاماً بعدَ الوقت.

قول لأبي الوجيه العكلي

وقال أبو الوجيه العُكْلِيُّ: أحِبُّ السّحابةَ الخَرْسَاءَ وَلاَ أُحِبها فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: لأنها لا تخرَسُ حتى تمتلئَ ماءً وتصبُّ صَبّاً كثيراً، ويكونَ غيثاً طبَقاً، وفي ذلك الحَيَا، إلاّ أنّ الكماةَ لا تكون على قدْرِ الغيث، ذهب إلى أنّ للرَّعدِ في الكمأة عملاً.

دعابة لجعفر بن سعيد

وقال جعفر بن سعيد: سأل كسرى عن الكَمْأة فقيل له: لا تكونُ بالمطر دونَ الرَّعد، ولا بالرّعْد دونَ المطر، قال: فقال كسرى: رشُّوا بالماء واضربوا بالطبول وكان من جعفر على التمليح، وقد علم جعفرٌ أنّ كسرَى لا يجهل هذا المقدار.

أثر الصوت في الحية

فالحيَّة واحدةٌ من جميع أجناس الحيوان الذي للصَّوتِ في طبعه عمل، فإذا دنا الحوَّاء وصفق بيديه، وتكلم رافعاً صوتَه حتى يزَيِّد، خرج إليه كلُّ شيء كان في الجُحْر، فلا يشكُّ من لا علم له أنَّ من لا علم له أنَّ الحيّةَ خرجت من جهة الطاعةِ وخوْف المعصيَةِ، وأنّ العامرَ أخرجها تعظيماً للعزيمة، ولأنّ المعتزم مُطاعٌ في العُمَّار، والعامّة أسرعُ شيءٍ إلى التَّصديق.

شعر في الروح وهيكلها

وفي الرُّوح، وفي أنّ البدنَ هيكلٌ لها، يقول سليمانُ الأعمى؛ وكان أخا مسلم ابن الوليد الأنصاريِّ، وكانوا لا يشكون بأنَّ سليمانَ هذا الأعمى، كان من مُستَجِيبي بشارٍ الأعمَى، وأنَّه كان يختلف إليه وهو غلامٌ فقبل عنه ذلك الدِّين، وهو الذي يقول:

إنّ في ذا الجِسمِ مُعْتَبَـراً	لِطَلُوبِ الْعِلمِ مُقْتَبِـسِـهْ
هَيْكَلٌ للرُّوحِ ينـطـقـه	عِرْقُهُ والصّوْتُ من نَفَسِهْ
لا تَعِظْ إلاّ اللَّبيبَ فـمـا	يُعْدَلُ الضِّلعُ عَلَى قوَسِهْ
رُبَّ مَغْرُوسٍ يُعَاشُ بِـهِ	فقدَتْهُ كَفُّ مُغْتَـرِسِـهْ
وكذَاكَ الدَّهْرُ مـأتـمُـهُ	أقربُ الأشياءِ مِنْ عُرُسِهِ

قول في شعر لأمية بن أبي الصلت

وكانت العربُ تقول: كان ذلك إذ كان كلُّ شيء ينطق، وكان ذلك والحجارةُ رَطبةٌ، قال أميّةُ:

وإذ هم لا لبوس لهم تقيهم	وإذ صم السلام لهم رطاب
بآية قام ينطق كل شـيءٍ	وخان أمانة الديك الغراب
وأرسلت الحمامة بعد سبـعٍ	تدل على المهالك لا تـهـاب
تلمس هل ترى في الأرض عيناً	وعاينة بها المـاء الـعـبـاب
فجاءت بعد مار كضت بقطفٍ	عليها التأط والطين الكـبـاب
فلما فرسوا الآيات صـاغـوا	لها طوقاً كما عقد السـخـاب
إذا ماتـت تـورثـه بـنـيهـا	وإن تقتل فلي لـه انـسلاب

فذكر رُطوبة الحجارة، وأنّ كلّ شيء قد كان ينطِق، ثمّ خَبّرَ عن منادمةِ الدِّيك الغرابَ، واشتراطِ الحمامة على نوح، وغير ذلك ممّا يدلُّ على ما قُلْنَا، ثم ذكر الحيَّة، وشأنَ إبليسَ وشأنَها، فقال:

كذي الأفعَى ترَبَّبَها لَـدَيْهِ   وذي الجِنِّيِّ أرسَلَهَا تُسَابُ

فلا رَبُّ البريّة يأمَنَنْـهَـا   ولا الجنيُّ أصبح يُستَتَابُ

فإن قُلْتَ: إنَّ أميّة كانَ أعرابيّاً، وكان بَدَوِيّاً، وهذا من خرافاتِ أعْرَاب الجاهليَّة، وزعمت أنّ أمَيّة لم يأخذ ذلك عن أهْل الكتاب فإني سأنْشِدُك لعدِيِّ بن زيدٍ، وكان نصرانيّاً دياناً، وتَرْجُمَاناً، وصاحبَ كتب، وكان من دُهاةِ أهل ذلك الدَّهر.
قال عديُّ بن زيدٍ، يذكرُ شأن آدم ومعصيتِه، وكيف أغواه، وكيف دخل في الحية، وأنَّ الحَية كانت في صورة جَمَلٍ فمسخها اللّهُ عقوبة لها، حين طاوعت عَدُوَّه على وليِّه، فقال :

قضى لستة أيامٍ خليقته   وكان آخرها أن صور الرجلا

دعاه آدم صوتاً فاستجاب له   بنفخة الروح في الجسم الذي جبلا

ثمت أورثه الفردوس يعمرها   وزوجه صنعة من ضلعه جعلا

لم ينهه ربه عن غير واحدةٍ   من شجرٍ طيب أن شم أو أكلا

فكانت الحية الرقشاء إذ خلقت   كما ترى ناقة في الخلق أو جملا

فعمدا للتي عن أكلها نهيا   بأمر حواء لم تأخذ له الدغلا

كلاهما خاط إذ بزا لبوسهما   من ورق التين ثوباً لم يكن غزلا

فلاطها الله إذ أغوت خليقته   طول الليالي ولم يجعل لها أجلا

تمشي على بطنها في الدهر ما عمرت   والترب تأكله حزنا وإن سهلا

فأتعبا أبوانا في حياتهما   وأوجدا الجوع والأوصاب والعللا

وأوتيا الملك والإنجيل نقرؤه   نشفى بحكمته أحلامنا عللا

من غير ما حاجةٍ إلا ليجعلنا   فوق البرية أرباباً كما فعلا

عقاب حواء وآدم والحية

فرَوَوْا أنَّ كعبَ الأحبارِ قال: مكتوبٌ في التوارة أنَّ حَوَّاءَ عِنْدَ ذلك عُوقبتْ بعشر خصالٍ، وأنّ آدم لمَّا أطاع حَوَّاء وعصى رَبَّه عُوقب بعشر خصال، وأنَّ الحيَّة التي دخل فيها إبليس عُوقبت أيضاً بعشْر خِصال.
وأوَّلُ خِصال حَوّاء التي عُوقبت بها وجَع الافتضاض، ثم الطلق، ثمَّ النَّزْع، ثمّ بقناع الرَّأس، وما يصيبُ الوحَمى والنفساء من المكروه، والقصْرُ في البيوت، والحيض، وأنَّ الرِّجال هم القوَّامون عليهنَّ، أن تكونَ عِنْدَ الجماع هي الأسفل.
وأمّا خصال آدم عليه السلام: فالذي انتقص من طوله، وبما جعله اللّه يخافُ من الهوامِّ والسِّباع، ونكَد العَيش، وبتوقع الموت، وبسكنى الأرض، وبالعُرْي من ثياب الجنَّة، وبأوجاع أهل الدنيا، وبمقاساة التحفظ من إبليس، وبالمحاسبة بالطَّرف، وبما شاع عليه من اسم العصاة، وأمَّا الحيَّة فإنها عوقبت بنقص جَناحها، وقطعْ أرجلها، والمشي على بطنها، وبإعراء جلدها - حتى يقال: أعْرَى مِنْ حَيَّة وبشقِّ لسانها - لذلك كلما خافتْ من القتل أخرجَتْ لسانها لتريَهم العُقوبة - وبما ألقِي عليها من عَداوةِ النَّاس، وبمخافة الناس، وبجعله لها أوَّلَ ملعونٍ من اللّحم والدَّم، وبالذي يُنسب إليها من الكذب والظلم.

ظلم الحية وكذبها

فأمّا الظلم فقولهم: أظلم من حَيّةٍ وأما الكذب فإنها تنطوي في الرَّملِ على الطَّريق وتُدْخِلُ بَعض جسدِها في الرَّمل، فتظهر كأنها طبقُ خيزُرانٍ، ومنها حَيَّاتٌ بيضٌ قِصَارٌ تجمعُ بين أطرافها على طُرُق الناس، وتستديرُ كأنها طوْقٌ أوْ خلخالٌ، أو سوارُ ذهبٍ أو فضةٍ - ولما تلقي على نفسها من السُّبات، ولما تُظهر من الهَرَب من الناس، وكلّ ذلك إنّما تغرُّهُمْ وتصطادُهُمْ بتلك الحيلة، فذلك هو كِذبُها.
عقاب الأرض قال: وعُوقبت الأرضُ حين شَربَتْ دم ابن آدم بعشرِ خِصال: أنَبتَ فيها الشّوك، وصيَّر فيها الفيافيَ، وخرق فيها البحار، وملَّح أكثرَ مائها، وخَلقَ فيها الهوامَّ والسِّباع، وجَعَلَها قَرَاراً لإبْلِيسَ والعاصين، وجعل جهنَّم فيها، وجعَلها لا تُرْبي ثمرتها، إلاَّ في الحرِّ، وهي تعذَّب بهم إلَى يوم القيامة، وجعلها تُوطأ بالأخْفافِ، والحوافِر، والأظلافِ، والأقدام، وجَعَلها مالحة الطَّعم.
شراب الأرض للدم ثم لم تشرب بعد دمِ ابنِ آدمَ دَمَ أحدٍ من ولده، ولا من غير ولده، قالَ: وَلِذلِكَ قال عمر بنُ الخطاب رضي اللّه تعالى عنه لأبي مريم الحنفيِّ: لأنَا أشَدُّ لك بُغْضاً مِنَ الأرْضِ للدم.
وزعم صاحبُ المنطق أنَّ الأرض لا تشرب الدَّم، إلاَّ يسيراً من دماء الإبل خاصَّة.
اختبار العسل وإذا أرادُوا أن يمتحنُوا جَوْدَة العسل من رداءته، قطرُوا على الأرض منه قَطْرَةً، فإذا استدارت كأنها قطعَة زئبقٍ، ولم تأخُذْ مِنَ الأرْضِ ولم تُعْطِهَا فهو الماذيُّ الخالصُ الذَّهبيُّ، فإن كان فيه غُشوشةٌ نفشت القطْرة على قدر ما فيها، وأخَذتْ من الأرض وأعطتها، وإن لم يقدِرُوا على اللّحم الغَريض دَفَنُوهُ وغرّقوه في العسل، فإنهم متى رجعوا فغسلوه عنه وجَدُوهُ غضّاً طريّاً، لأنَّهُ ذهبيُّ الطِّباع، ليس بينه وبين سائرِ الأجرام شيء، فهو لا يعطيه شيئاً ولا يأخذ منه. وكذلك

الذَّهَبُ إذا كان مدفوناً.
زمن الفطحل وهذه الأحاديثُ، وهذه الأشعارُ، تدلُّ على أنَّهُمْ قد كانوا يقولون: إنَّ الصُخورَ كانت رَطْبَةً ليِّنة، وإنَّ كلَّ شيءٍ قد كانَ يعرف وينطق، وإنّ الأشْجَارَ والنَّخل لم يكن عليها شوكٌ، وقد قال العجَّاج، أو رُؤبة:

أوْ عُمْرَ نُوحٍ زَمَنَ الْفِطَحْلِ وَالصَّخْرُ مُبْتَلٌّ كَطِينِ الوَحْلِ

مرويات كعب الأحبار

وأنا أظنُّ أنَّ كثيراً مِمَّا يُحكى عن كعبٍ أنَّهُ قال: مكتوبٌ في التوراة أنَّهُ إنّمَا قال: نجدُ في الكتب، وهو إنَّما يعني كتب الأنبياء، والذي يتوارثونه من كتب سليمان؛ وما في كتبهم من مثل كتب إشَعْياء وغيره، والذين يروون عنه في صفة عُمَرَ بن الخطاب رضي اللّه عنه، وأشباهِ ذلك، فإن كانوا صَدَقوا عليه وكان الشيخ لا يضعُ الأخبارَ فما كان وجهُ كلامه عندنا إلاّ على ما قلتُ لك.

نطق الحية

وفي أنّ الحيّة قد كانت تسمَعُ وتنطق، يقول النّابغةُ في المثل الذي ضَرَبَهُ، وهو قوله:

ألیس لنا مولىً يحب سراحنا فيعذرنا من مرة المتناصره

ليهنكم أن قد نفيتم بيوتنا محل عبيدان المحلإ باقره

وإني للاقٍ من ذوي الضغن نكبةً بلا عثرةٍ والنفس لا بد عاثره

كما لقيت ذات الصفا من حليفها وما انفكت الأمثال في الناس سائره

فقالت له: أدعوك للعقل وافراً ولا تغشيني منك للظلم بادره

فواثقها بالله حتى تراضيا فكانت تديه الجزع خفياً وظاهره

فلما توفي العقل إلا أقله وجارت به نفسٌ عن الخير جائره

تفكر أني يجمع الله شمله فيصبح ذا مالٍ ويقتل واتره

فظل على فأسٍ يحد غرابها ليقتلها والنفس للقتل حاذره

فلما وقاها الله ضربة فأسه ولله عينٌ لا تغمض ساهره

فقال :تعالى نجعل اللـه بيننـا على العقل حتى تنجزى لي أخره

فقالت يمين اللـه أفعل إنـني رأيتك ختاراً يمـينـك فـاجـره

أبى لك قبرٌ لا يزال مواجـهـاً وضربة فأسٍ فوق رأسي فاقره

فذهَب النّابغةُ في الحيَّاتِ مذهَبَ أميّة بن أبي الصّلْتِ، وعديِّ بن زيدٍ، وغيرهما من الشعراء.
الصخور والأشجار في ماضي الزمان وأنشدني عبدُ الرحمن بن كَيسان:

فكانَ رَطِيباً يومَ ذلك صخْرُها وكان خَضِيداً طَلْحُها وَسَيالُهَا

فزعم كما ترى أنّ الصُّخورَ كانت لَيِّنَةً، وأنَّ الأشجارَ: الطّلْحَ والسَّيالَ كانت خَضِيداً لا شوكَ عليها.
وزعم بعضُ المفسِّرين وأصحابُ الأخبار، أنّ الشّوك إنما اعتراها في صبيحة اليوم الذي زعَمتِ النّصارَى فيه أنّ المسيح ابنُ اللّه.
أثر قدم إبراهيم عليه السلام وكان مقاتلٌ يقولُ - حَدّثنَا بذلك عنه أبو عقيل السّواق، وكما أحدَ رواتِه والحاملين عنه - إنَّ الصُّخورَ كانَتْ لَيِّنَةً، وإنّ قدمَ إبراهيم عليه السلام أثرت في تلك الصخرة، كتأثير أقدامِ الناس في ذلك الزّمان، إلاَّ أنَّ اللّه تعالى توقّى تلك الآثارَ، وعفّى عليها، ومسَحَها ومحاها، وترَكَ أثرَ مقام إبراهيمَ عليه السلام، والحجَّةُ إنما هي في إفراده بذلك ومَحْوِ ما سواهُ من آثار أقدام الناس، ليس أنّ إبراهيم صلى اللّه عليه وسلم كان وطئ على صخرة خلقاءَ يابسةٍ فأثَّرَ فيها.
فضل المتكلمين والمعتزلة وأنا أقول على تثبيت ذلك بالحجة، ونعوذُ باللّه من الهَذْر والتكلف وانتحالِ ما لا أقوم به، أقول: إنّهُ لولا مكانَ المتكلمين لهلكت العوامّ من جميع الأمم، ولولا مكانُ المعتزلة لهلكت العَوَامُّ من جميع النِّحل، فإن لم أقل، ولولا أصحابُ إبراهيمَ وإبراهيمُ لهلكت العوامُّ من المعتزلة، فإني أقول: إنهُ قد أنهج لَهُمْ سُبُلاً، وفتقَ لهم أموراً، واختصر لهم أبواباً ظهرتْ فيها المنفعة، وشملتهم بها النعمة.
ما يحتاج إليه الناس وأنا أزعُمُ أن الناس يحتاجون بَدِيّاً إلى طبيعةٍ ثم إلى معرفة، ثم إلى إنصاف، وأوّل ما ينبغي أنْ يبتدئ به صاحبُ الإنصافِ أمرَه ألاَّ يعطى نفسَه فوقَ حقها، وألاَّ يضعها دونَ مكانها، وأن يتحفظ من شيئين؛ فإن نجاتَه لا تتمّ إلاّ بالتحفظ منهما: أحدهما تهمة الإلف، والآخر تُهمة السَّابق إلى القلب - واللّه الموفق.
حديث عن تأليف هذا الكتاب وما أكثرَ ما يعرض في وقت إكبابي على هذا الكتاب، وإطالتي الكلام، وإطنابي في القول، بيتُ ابن هَرْمة، حيث يقول:

إنَّ الحديثَ تغر القوْمَ خَلوتُه   حَتى يلجَّ بهم عِيٌّ وإكثـارُ

وقولهم في المثل: كل مُجْرٍ في الخَلاَءِ يُسَرُّ.
وأنَا أعوذُ باللّه أنْ أغَرَّ من نفسي، عند غَيبةِ خَصمي، وتصفح العلماءِ لكلامي، فإني أعلم أن فِتنةَ اللسانِ والقلم، أشدّ من فِتنةَ النساء، والحرصِ على المال.
وقد صادف هذا الكتابُ مني حالاتٍ تمنعُ من بلوغ الإرادة فيهِ، أوّلُ ذلك العِلة الشديدة، والثانية قلة الأعوان، والثالثة طولُ الكتاب، والرابعة أني لو تكلفت كتاباً في طوله، وعدَدِ ألْفاظِهِ ومعانيهِ، ثمَّ كان من كُتب العَرَض والجوهر، والطَّفرة، والتولد، والمداخَلَة، والغرائز، والتماس لكان أسهَلَ وأقصَرَ أياماً، وأسْرَعَ فراغاً؛ لأني كنت لا أفزَعُ فيه إلى تلقُّط الأشعار، وتتبُّع الأمثال، واستخراج الآيِ من القرآن، والحجَج من الرِّواية، مع تفرُّق هذه الأمور في الكتب. وتباعُدِ ما بين الأشكال، فإنْ وجَدْتَ فيه خللاً من اضطرابِ لفظٍ، ومن سوءِ تأليف، أو من تقطيع نظامٍ، ومن وقوع الشيء في غير موضعه - فلا تنكِرْ، بعدَ أنْ صوَّرتُ عندك حالي التي ابتدأتُ عليها كتابي.
ولولا ما أرجو من عَوْنِ اللّه على إتمامه؛ إذْ كنتُ لم ألتمسْ به إلاَّ إفهامَك مواقعَ الحُجَج للّه، وتصاريفَ تدبيره، والذي أوْدَعَ أصنافَ خَلْقه من أصناف حكمته لَمَا تعرَّضْتُ لهذا المكروه، فإنْ نَظَرْتَ في هذا الكتاب فانظُرْ فيه نظرَ مَنْ يلتمس لصاحبه المخارجَ، ولا يَذْهَبُ مذهبَ التعنُّتِ، وَمَذْهَبَ مَنْ إذا رأى خيراً كتَمَهُ، وإذا رأى شَرّاً أذاعه. وليعْلم مَنْ فَعَلَ ذلك أنَّه قد تعرَّض لبابٍ إن أخِذَ بمثله، وتُعَرِّض له في قوله وكتبه، أنْ ليس ذلك إلاّ من سبيل العُقوبةِ، والأخْذ منه بالظلامة، فلينظرْ فيه على مثال ما أدَّب اللّه به، وعرَّف كيف يكون النظر والتفكير والاعتبار والتعليم؛ فإنَّ اللّه عزّ وجلّ يقول: "وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ".
الحكمة الجليلة في دقيق الأشياء فينبغي أنْ تكون إذا مررْتَ بذكر الآية والأعجوبةِ، في الفراشة والجِرجسَة، ألاَّ تحقِرَ تلك الآية، وتصغّر تلك الأعجوبة؛ لصغر قدرهما عندك، ولقلّة معرفتهما عِنْدَ معرفتك، لِصغَر أجسامهما عند جسمك، ولكن كنْ عند الذي يظهَر لك من تلك الحكم، ومن ذلك التَّدبير، كما قال اللّه عزّ وجلّ: "وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ" ثم قال: "فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا" ثمّ قال اللّه تعالى: "وَإِذْ نَتَقْنَا الجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ"، وقد قال عامرُ بن عبد قيس: الكلمة إذا خرجتْ من القَلْبِ وقعَتْ في القلب، وإذا خَرَجَتْ من اللسان لم تجاوز الآذان.
حث على الإخلاص والتنبه عند النظر وأنا أعيذ نفسي باللّه أنْ أقول إلاّ لَهُ، وأعيذك باللّه أن تسمع إلاّ لَهُ، وقد قال اللّه عزّ وجلّ: "وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَهْتَدُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ" فاحْذَرْ من أنْ تكونَ منهم، وممَّن يَنْظُرُ إلى حكمة اللّه وهو لا يبصرها، وَمِمَّنْ يبصرها بفتْح العَيْن واستماع الآذان؛ ولكن بالتوقف من القلْب، والتثبت من العقْل، وبتحفيظه وتمكينه من اليقين،

والحجَّة الظاهرة، ولا يراها من يُعرِضُ عنها.
وقد قال اللّه عزّ وجلّ: "وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ" وقال: "إنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ" ولو كانوا صمّاً بُكماً وكانوا هم لا يعقلون، لَمَا عيَّرهم بذلك، كما لم يعيِّر مَنْ خَلَقهُ معتوهاً كيف لم يعقل، وَمَنْ خَلَقُه أعمى كيف لم يبصر، وكما لم يَلُمِ الدوابَّ، ولم يعاقب السِّباع، ولكِنَّهُ سمّى البصير المتعامي أعمى، والسميعَ المتصامِمَ أصمَّ، والعاقلَ المتجاهلَ جَاهلاً.
وقد قال اللّه عزّ وجلّ: "فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللّهِ كَيْفَ يُحْيِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إنّ ذلِكَ لَمُحْيِ المَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" فَانْظُرْ كما أمرك اللّه، وانظرْ من الجهة التي دلّك مِنْهَا، وخذْ ذلك بقوَة، قال تعالى: "خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ".
عود إلى الحيات ثمَّ رَجَعَ بنا القولُ إلى ما في الحيَّات من العِلم والعِبرة، والفائدةِ والحِكمة؛ ولذلك قال أبو ذَرٍّ الغفاريُّ: لقد تَرَكَنَا رَسولُ اللّه صلى الله عليه وسلم، وما يمرُّ بنا طائرٌ إلا وعِنْدَنَا من شأنه عِلْمٌ، وهذا القولُ صحيح عن أبي ذر، ولم يخصَّ أبو ذرٍّ خَشاش الطَّير من بُغاثها وأحرارها، ولا ما يدخل في بابة الهمَج، وقد أريْناك من تحقيق قولِه طرَفاً، ولعلك إن جمعْتَ نظرك إلى نظرنا، أنْ تستتمَّ هذا الباب، فقد قال الشاعر:

خليليَّ ليس الرأيُ في رأي واحدٍ   أشِيرَا عَلَيَّ الْـيَوْمَ مَـا تَـرَيَانِ

وقال الأحنَف: ما مِنْ الناس أحدٌ إلاَّ وقد تعلَّمْتُ منه شيئاً، حتَّى من الأمَةِ الوَرْهاءِ والعبْدِ الأوْرَه.
والحيَّات مختلفاتُ الجهاتِ جدّاً، وهي من الأممِ التي يكثُر اختلافُ أجناسِها في الضَّررِ والسمّ، وفي الصِّغرِ والعِظَم، وفي التعرُّضِ للنَّاسِ، وفي الهربِ منهم، فمنها ما لا يؤذي إلاَّ أنْ يكونَ الناس قد آذَوْهَا مَرَّة، وأمّا الأسودُ فإنَّهُ يحقِدُ ويُطالب، ويكمُن في المتاع حتى يُدْرك بطائلته، وله زمانٌ يقتلُ فيه كلَّ شيءٍ نهشَه. وأمَّا الأفعى فليس ذلك عندَها، ولكنها تَظهر في الصَّيفِ مع أوَّل الليل، إذا سكَنَ وهَجُ الرَّمْلِ وظاهِرُ الأرض؛ فتأتي قارعَةَ الطَّريق حتى تستديرَ وتَطْحَنَ كأنَّها رَحًى، ثمَّ تُلصِقُ بَدَنَهَا بالأرض وتُشْخِصُ رأسها؛ لئلاَّ يدركَها السُّبات، معترضة؛ لِئلاَّ يطأها إنسانٌ أو دابَّةٌ فتنهشَه، كأنَّهَا تريد ألاَّ تنهَشَ إلاَّ بأن يُتَعَرَّضَ لها، وهي قدْ تعرَّضت لنَهْشه باعتراضها في الطَّريق وتناوُمها عليه وهي من الحيّات التي ترصد وتوصف بذلك، قال مَعْقِل بن خُويلد:

أبا مَعْقِلٍ لا تُوطِئَنْكُمْ بَـغَـاضَـتـي رُؤوسَ الأفاعِي في مَرَاصِدِهَا الْعُرْمِ

يريد: الأفاعي في مراصدها، وكلُّ منقَّطَة فهي عَرْماء، مِنْ شاةٍ أو غير ذلك.
وقال آخر:

وكم طوَتْ من حَنَشٍ وراصِدِ   للسّفْر في أعلى البيات قاصِدِ

والأفعى تقتُلُ في كلِّ حالٍ وفي كلِّ زمان، والشُّجاع يواثِبُ ويقوم على ذَنَبه، وربَّما بَلَغَ رأسُه رأسَ الفارس.

ما يقتل الحية والعقرب من الحيوان

وليس يقتلها - إذا تطوّقت على الطَّريق وفي المناهج، أو اعتَرضتْها لتقطعها عابرةً إلى الجانب الآخر - شيءٌ كأقاطيع الشِّياهِ إذا مرَّت بها، وكذلك الإبلُ الكثيرةُ إذا مرَّت، فإنَّ الحيَّةَ إذا وَقَعَتْ بين أرجلها كان همتُّها نفسَها، ولم يكن لها همةٌ إلاّ التَّخَلص بنفسها؛ لئلاّ تعجلها بالوطء، فإن نجَتْ من وطء أيديها، لم تنجُ من وطء أرجلها، وإنْ سلمَتْ مِن واحدةٍ لم تسلم من التي تليها، إلى آخرها.
وقال عمر بن لَجَأ، وهو يصف إبله:

تَعَرَّضُ الحيَّاتُ في غِشَاشها

وقال ذو الأهدام:

تُعْجِلها عن نهشها والنَّكْزِ

ومن ذلك أنّ العقربَ تَقَعُ في يد السِّنّور، فيلعب بها ساعة من اللَّيل وهي في ذلك مسترخيةٌ مستخذِيةٌ لا تضربه، والسَّنانير من الخلْق الذي لا تسرع السُّموم فيه.

مسالمة الأفعى للقانص والراعي

وربَّما باتت الأفعى عندَ رأسِ الرَّجُل وعلى فراشه فلا تنهشُه، وأكثرُ ما يُوجَدُ ذلك من القانِص والرَّاعي، قال الشاعر:

تبيتُ الحيَّةُ النَّضْنَاضُ مِنْـهُ مكانَ الحِبِّ مستَمِعَ السِّرارِ

قال: الحِبُّ: الحبيب، والنضناض من الحيَّات: الذي يحرِّك لسانَهُ، وعن عيسى بن عمر قال: قلتُ لذي الرُّمّة: ما النضناض؟ فأخرَجَ لسانَه يحرِّكه.
وإنما يصف القانص وأنّه يبيت بالقفر، ومثلُهُ قولُ أبي النجم:

تَحكي لنَا الْقرْنَاءُ في عِرْزالِهـا جَرْيِ الرّحَى تَجْري على ثِفالِها

العِرْزال: المكان وفي ذلك يقول أبو وَجْزَة:

تبيت جارتَه الأفعَى وسامرَه رُبدٌ به عاذرٌ منهنّ كالجَرَب

وقوله: رُبْد، يريد البعوض، وعاذر: أثر.
قصة في مسالمة الأفعى قال: وبات يحيى بن منقاش مع دارم الدارميّ، فلما أصبح

يحيى رأى بينهما أفعى مستوية، فوثب يحيى ليقتلها، فقال له دارم، قد أعتقتُها وحرَّرتها ولمَ تقتُلُها وهي ضجيعتي من أوَّل الليل؟ فقال يحيى:

أعوذُ بربِّي أن تُرَى لي صحبْتِي   يُطِيفُ بنا ليلاً مُحَرَّرُ دارمِ

من الخُرْسِ لا ينجو صحيحاً سَليمُها   وإن كان معقوداً بحلْي التمائم

مسالمة العقارب للناس والعقاربُ في ذلك دونَ الحيَّات، إلاّ الجرَّارات، فإنها ربَّما باتت في لحافِ الرَّجُلِ اللَّيلَة بأسرها، وتكونُ في قميصه عامّة يومها، فلا تلسعه، فهي بالأفعى أشبَه.
فأمَّا سائرُ العقاربِ فإنها تقصِدُ إلى الصَّوت، فإذا ضربَتْ إنساناً فرَّتْ كما يصنع المسيء الخائف لِلعقاب.
والعقرب لا تضرب الميتَ ولا المغشيّ عليه، ولا النائم إلاَّ أن يحرك شيئاً من جَسَدِه، فإنها عند ذلك تضربُه.
مسالمة الخنافس للعقارب والحيات ويقال إنها تأوي مع الخنافس وتسالمُها، ولا تصادق من الحيّات إلا كلّ أسودَ سالِخ.
عقارب نصر بن الحجاج وحدَّثَ أبو إسحاق المكي قال: كان في دار نَصْرِ بن الحجاج السُّلمي عقاربُ إذا لسعَتْ قتَلَتْ، فدبّ ضيفٌ لهم على بعضِ أهْلِ الدَّار فضربَتْه عقربٌ على مذاكيره، فقال نصرٌ يعرِّض به:

وَدَاري إذا نَام سكَّانُها   أقامَ الحُدُودَ بهَا الْعَقْرَبُ

إذا غَفَلَ الناسُ عن دينهم   فإن عقاربها تضرب

قال: فأدخَلَ النَّاسُ بها حوّاءً، وَحكَوْا لَهُ شأنَ تلك العقاربِ، فقال: إن هذه العقاربَ تستقي مِنْ أسودَ سالِخ، ونظر إلى موضعٍ في الدار فقال: احفُرُوا هاهنا، فحفَرُوا عن أسودَيْن: ذكرٍ وأنثى، وللذَّكر خُصيتان وَرَأوْا حولَ الذَّكر عقاربَ كثيرةً فقتلوها.
قال: وقال الفضلُ بن عبَّاس حين راهنه عقرب بالشِّعر، وقيل لكلِّ واحدٍ منهما: لسْتَ في شيءٍ حَتَّى تغلِبَ صاحبك، فقال الفضل:

قد تجر العقرب في سوقنا   لا مرحباً بالعقرب التاجره

كل عدوٍ يتقي مقبلاً   وعقرب تخشى من الدابره

كل عدوٍ كيده في استه   فغير ذي أيدٍ ولا ضائره

قد ضاقت العقرب واستيقنت بأن لا دنـيا ولا آخـره

إن عادت العقرب عدنا لهـا وكانت النعل لـها حاضـره

من سمى بعقرب واسم أم حارثة بن بدر، عقرب، وآل أبي موسى يكتنُون بأبي العقارب، ومن هؤلاء الذين يكتنون بالعقرب: ابن أبي العقرب الليثيُّ الخطيب الفصيح، الراوية.
وَرَوَوْا أنّ عقرباً لسعت النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال: لَعَنَهَا اللّهُ، فإنَّها لا تُبَالي مَنْ ضربت! وقال الضّبّيّ: أنا عقربٌ، أضرُّ ولا أنفع.
الجرارات وكان الرَّجُلُ تلسعه الجَرَّارة بعسكر مُكْرَم، أو بجند يسابور، فتقتله؛ وربّما تناثر لحمه، وربَّما تعفّنَ وأنتن، حتى لا يدنُوَ منه أحدٌ إلاَّ وهو مُخَمِّرٌ أنفه، مخافة إعْدائه، ولا سيما إن كان قد نال من اللحم وهو لا يعلم أنَّ الوخْزَةَ التي وُخِزها كانت من جَرَّارة.
وكانوا إذا شَعرُوا بها دَعوا حجاماً، يحجُم ذلك الموضعَ ويمصُّه، قبلَ أن يتفشى فيه السمُّ ويدخلَ تلك المداخل، فكان الحجَّام لا يجيئهم حتى يقبضَ دنانيرَ كثيرةً، وإنّما كانوا يجودون له بذلك؛ لِمَا كانَ لصاحبهم في ذلك من الفَرَج، وما على الحجام في ذلك من ضرر، وذلك أن وجهَه ربّما اسمارَّ واربَدّ، وربَّما عطّلت مقاديم أسنانه وتوجّعت عليه، فيلقى من ذلك الجهد، وذلك لما كان يتّصل إلى فيه من بُخار الدَّم، ومن ذلك السمّ المخالط لذلك الدّم، ثمَّ إنَّهم بعدَ ذلك حشَوْا أذناب المحاجِم بالقُطْن، فصار القُطْنُ لا يمنع قوَّةَ المصِّ والجذْب، ولم يدَعْه يصلُ إلى فم الحجام، ثمّ إنَّهم بَعْدَ مدّة سُنَيّاتٍ أصابوا نَبتةً في بعض الشُّعب، فإذا عالجوا الملسوعَ بها حَسُنَت حالُه.
والجرَّارات تألف الأخْواء التي تكون بحضرة الأتاتين، وتألف الحشوش والمواضع الناريّة، وسمُّها نار.
قول ماسرجويه في العقرب وقيل لماسرجويه: قد نجِدُ العقربَ تلسَعُ رَجُلَيْنِ فتقتلُ أحدَهما ويقتلها الآخرُ، وربّما نَجَتْ ولم تمُتْ، كما أنَّهُ ربَّما عُقِرت ولم تَفُتْ، ونجدُها تضربُ رجُلَين في ساعةٍ واحدة، فيختلفان في سوءِ الحال، ونجدُها تختلف مواضعُ ضَرَرِها على قدْرِ الأغذيةِ، وعلى قدر الأزمان، وعلى قدْر مواضعِ الجسَد، ونجدُ واحداً يتعالج بالمَسُوس فيحمَدُهُ، ونجد آخرَ يُدخِلُ يده في مدخلِ حارٍّ من غير أنْ يكونَ فيهِ ماءٌ فيحمده، ونجدُ آخر يعالجه بالنّخالة الحارَّة فيحمدها، ونجد آخرَ يحجم ذلك الموضعَ فيحمَده، ونجد كلّ واحدٍ من هؤلاءِ يشكو خلافَ ما يوافقه، ثم إنَّا نجدُه يعاود ذلك العلاجَ عند لسعةٍ أخرى فلا يحمده.
قال ماسرجويه: لما اختلفت السُّمومُ في أنفسها بالجنْس والقدر، وفي الزَّمان، باختلاف مَا لاقاهُ اختلفَ الذي وافقه على حسب اختلافه.
وكان يقول: إنَّ قولَ القائل في العقرب: شرُّ ما تكون حين تخرج من جُحرها، ليس يعنُون من ليلتها - إذْ كان لا بدَّ من أن يكون لها نصيبٌ من الشدّة - ولكنَّهُمْ إنما يَعْنُونَ: في أوّل ما تخرج من جُحرها عند استقبال الصَّيف، بَعْدَ طول مُكْثِها في

غير عالَمِنَا وغذائِنا وأنفاسنا ومعايشنَا.
زعم العامة في العقرب والعامّة تزعم أنها شرٌّ ما تكون إذا ضربت الإنسانَ وقد خرج من الحمام؛ لتفتح المسامِّ، وسَعة المجاري، وسخونة البدن، ولذلك صار سمها في الصيف أشدَّ، هذا قولُ أبي إسحاق، كأنَّهُ كان يَرَى أنَّ الهواءَ كلما كان أحرَّ، وكان البدنُ أسخَنَ كان شَرّاً.
ونحن نجدهم يصرُخُون مِنْ لسعتها اللَّيْلَ كلَّه، وإذا طلعت الشمسُ سكن ما بهم، فإذا بقيت فضْلةٌ من تلك الجارحة في الشمس فما أكثر ما يسكن، وسمومها باللّيل أشدُّ، إلاَّ أن يزعم أنَّ أجوافَ الناس في برد الليل أسخن وفي حرِّ النهار أفتر.
الدّساس وزعم لي بعضُ العلماء ممّن قدْ روَى الكتُب، وهو في إرثٍ منها، أنّ الحية التي يقال لها: الدسّاس، تلد ولا تبيض؛ وأنَّ أنثى النمور لم تضَعْ نمراً قط إلاّ ومعه أفعى.

زعم استحالة الكمأة إلى أفاع

والأعرابُ تزعم أنّ الكمْأة تبقى في الأرض فتُمْطر مَطْرةً صَيفيّة، فيستحيل بعضُها أفاعي، فسمعَ هذا الحديثَ منِّي بعضُ الرُّؤساء الطَّائيِّين، فزعم لي أنّه عايَنَ كمأةً ضخْمة فتأمَّلها، فإذا هي تتحرَّك، فنهض إليها فقلَعها، فإذا هي أفعًى، هذا ما حدّثته عن الأعراب، حتّى برئت إلى اللّه من عيب الحديث.

معارف في الحيات عن صاحب المنطق

وزعم صاحبُ المنطق أنّ الوزَغة والحيَّاتِ تأكُلُ اللّحمَ والعُشب، وزعَمَ أنَّ الحَيَّاتِ أظهَرُ كلَباً من جميع الحيوان، مع قلَّة شربِ الماء، وأنَّ الأسدَ مع نَهمه قليلُ شرب الماء، قال: ولا تضبطُ الحيَّاتُ أنفسَها إذا شمَّت ريحَ السَّذاب، وربَّما اصطِيدَتْ به وإذا أصابوها كذلك وجدُوها وقد سكِرَتْ.
قال: والحيات تبتلع البيض، والفراخَ، والعُشب.
سلخ الحيوان وزعم أنَّ الحياتِ تسلَخُ جلودَها في أوَّل الرَّبيع، عند خروجها من أعشّتها وفي أوّل الخريف، وزعم أن السَّلْخ يبتدئَ من ناحية عيونها أوّلاً، قال: ولذلك يظنُّ بعض من يُعانِيها أنها عمياء، وهي تسلَخُ من جلودها في يومٍ وليلةٍ من الرَّأس إلى الذَّنَب، ويصيرُ داخل الجِلْد هو الخارج، كما يُسلخ الجَنينُ من المِشيمَة، وكذلك جميع الحيوان المحزَّز الجسد، وكلُّ طائر لجناحه غِلافٌ مثل الجُعَل والدّبْر وكذلك السَّرطان، يسلخ أيضاً، فيضعف عند ذلك من المشي.
وتسلخ جلودها مِراراً.
والسَّلْخ يصيب عامّة الحيوان: أمَّا الطير فسلخُها تحسيرها، وأمّا ذوات الحوافر فسلخُها عقائقها، وسلخ الإبل طرحُ أوْبارها، وسلخُ الجراد انسلاخ جلودها، وسلخ الأيائِل إلقاء قرونها، وسلخ الأشجار إسقاط ورقها.

أصل الأسروع

والأسروع: دويبَّةٌ تنسلِخُ فتصيرُ فَرَاشَةً، وقال الطِّرمَّاح شعراً:

وتجرّدَ الأسْرُوعُ واطَّرَدَ السَّفَا   وجرت بجالَيْها الحِدَابُ القَرْدَدُ

وانسابَ حيَّاتُ الكَثِيبِ وأقْبَلَـتْ   وُرْقُ الْفَرَاشِ لما يَشُبُّ المُوقِدُ

يصف الزّمان.
والدُّعْمُوص ينسلخُ، فيصير إمَّا بعوضةً وإما فراشةً.

انسلاخ البرغوث

وزعم ثمامةُ عن يحيى بن برمك أنّ البرغوث ينسلخ فيصير بعوضة، وأنّهَ البعوضةَ التي من سَلْخ دعموص ربَّمَا انسلخت برغوثاً.
والنمل تحدث لها أجنحةٌ ويتغيَّر خَلْقهَا، وذلك هو سلخُها، وهُلْكُها يحين عند طيرانها.

انسلاخ الجراد

والجراد ينسلخ على غير هذا النوع، قال الرَّاجز:

مَلْعُونَةٍ تسْلَخُ لَوْناً لَوْنَيْن

أثر البلدان في ضرر الأفاعي ونحوها قال: وعضُّ السِّباع ذواتِ الأربع، ولدغُ الهوامّ، يختلفُ بقدر اختلافِ البُلدان؛ كالذي يبلغُنا عن أفاعي الرَّمْل، وعن جَرَّارات قرى الأهواز، وعقارب نَصِيبين، وثعابين مصر، وهِنْدِيّات الخرابات.
وفي الشِّبْثان، والزَّنابير، والرُّتَيْلاَت ما يقتل، فأمَّا الطَّبُّوع فإنَّهُ شديدُ الأذى، وللضَّمْج أذًى لا يبلغ ذلك.
أقوال لصاحب المنطق وقال صاحب المنطق: ويكون بالبلدة التي تسمَّى باليونانية: طبقون حيَّةٌ صغيرة شديدة اللَّدْغ، إلا أن تُعالج بحجرٍ، يُخرَج من بعض قبور قدماء الملوك، ولم أفهم هذا، ولم كان ذلك.
وإذا أكل بعض ذوات السموم من جسَد بعضها، كانت أردأ ما تكون سماً، مثل العقارب والأفاعي.
قال: والأيِّلُ إذا ألقى قُرونَه علم أنَّهُ قد ألقى سلاحَه فهو لا يظهر، وكذلك إن سمن علم أنَّهُ يُطْلَبُ، فلا يظهر، وكذلك أوّلَ ما ينبت قرْنُهُ يعرِّضُه للشمس؛ ليصلُب ويجفّ، وإن لدغت الأيِّلَ حيّةٌ أكلَ السَّراطينَ؛ فلذلك نَظُنُّ أنَّ السَّراطِينَ صالحةٌ لِلَّديغ من الناس.
قال: وإذا وضعت أنثى الأيّل ولداً أكلت مشيمتها، فيُظَنُّ أنّ المشيمَةَ شيءٌ يتداوَى به من عِلّة النفاس.
قال: وَالدُّبَّةُ إذا هربت دفعت جِراءَها بين يديها، وإن خافت على أولادها غيَّبتها، وإذا لحقت صعِدَتْ في الشجر وحملَتْ معَها جِراءَهَا.
قال: والفهْدُ إذا عراه الدّاءُ الذي يقالُ له: خانِق الفهود أكل العَذِرَةَ فبرئ منه.

قال: والسِّباع تشتهي رائِحة الفهودِ، والفهدُ يتغيّب عنها، وربَّما فرَّ بعضها منه فيُطْمِعُ في نفسه، فإذا أراده السّبعُ وثبَ عليه الفهد فأكله.
قال: والتمساح يفتح فاه إذا غمّهُ ما قد تعلق بأسنانه، حتى يأتيَ طائِرٌ فيأكلَ ذلك، فيكونَ طعاماً له وراحَةً للتِّمساح.
قال: وأمّا السُّلحفاة فإنَّها إذا أكلت الأفعى أكلت صَعْتَراً جبليّاً، وقد فَعَلت ذلك مراراً، فربما عادت فأكلت منها ثمّ أكلت من الصَّعتر مراراً كثيرة، فإذا أكثرت من ذلك هلكت.
قال: وأمّا ابنُ عِرس، فإنَّه إذا قاتَلَ الحيَّة بدأ بأكْلِ السَّذاب، لأنّ رائحَةَ السَّذاب مخالفَةٌ للحيَّةِ، كما أن سامَّ أبرصَ لا يدخلُ بيتاً فيه زعفران.
قال: والكلاب إذا كان في أجوافها دُودٌ أكلت سُنبل القمح.
قال: ونَظُنُّ أنّ ابنَ عرس يحتالُ للطيرِ بحيلة الذئب للغنم؛ فإنهُ يذبحها كما يفعل الذئب بالشاة، قال: وتتقاتل الحيّات المشتركة في الطُّعم.
وزعَمَ أنَّ القنافِذَ لا يخفى عليها شيءٌ من جهة الرِّيح وتحوُّلها وهُبُوبها، وأنّهُ كان بِقُسْطَنْطِينِيَّة رجلٌ يُقدّمُ ويُعظَّمُ؛ لأنه كان يَعْرِفُ هُبُوبَ الرِّيح ويخبرهم بذلك وإنما كان يَعرف الحالَ فيها بما يَرَى مِنْ هيئةِ القنافذ.
العيون الحمر العيُونُ الحمرُ لِلعَرَض المفارق، كعين الغضبان، وعينِ السّكران، وَعَيْنِ الْكَلْبِ، وَعَيْنِ الرَّمِدِ.
العيون الذهبية والعيُونُ الذهبيَّةُ، عيونُ أصناف البزاة من بين العُقاب إلى الزُّرَّق.
العيون التي تسرج بالليل والعيُون التي تُسْرِج بالليل، عيون الأسْد، وعيون النمور، وعيون السّنانير، وعيون الأفاعي، قال أبو حيَّة: خبر وشعر في العين

غِضابٌ يُثِيرُونَ الذُّحُولَ عُيُونُهمْ　　كَجَمْرِ الغَضا ذَكَّيتهُ فتـوقـدَا

وقال آخر:

وَمدَجِّجٍ يَسْعَى بشِكَّتهِ　　محمرّةٍ عيناهُ كالكلب

رجع بالكلب إلى صفة المدجَّج.
وقالَ معاويةُ لصُحارِ العبديِّ: يا أحمر قال: والذهب أحمر قال يا أزرق قال: والبازي أزرق وأنشدوا:

ولا عيبَ فيها غيرُ شُكْلَة عينها　　كذاك عِتاقُ الطير شُكْلٌ عُيُونُـها

وقال آخر:

وشُكْلَة عينٍ لَوْ حُبيت ببَعْضِـهَـا　　لكنت مكانَ العَيْنِ مَرْأى وَمَسْمَعا

ومن العيون المغْرَب، والأزرق، والأشكل، والأسجَر، والأشهل، والأخْيَف، وذلك إذا اختلفا، وعين الفأرة كَحْلاء، وهي أبصَرُ بالليل من الفَرَسِ والعقابِ.
وفي حمرة العينين وضيائهما يقولُ محمَّدُ بنُ ذؤيبٍ العُمانيُّ، في صفة الأسد:

أجراُ مِنْ ذي لِبْدَةٍ هَمَّـاس   غضَنْفَرٍ مضَبَّر رهَّـاس

مَنَّاع أخْيَاس إلى أخْـيَاس   كأنَّمَا عيناهُ في مِـراس

شعاعُ مِقْبَاسٍ إلى مِقباس

وقال المرَّار:

كَأنَّمَا وَقْدُ عَيْنَيْهِ النَّمِرِ

أصوات خشاش الأرض

نحو الضبّ، والورل، والحيَّة، والقنفذ، وما أشبه ذلك.
يقال للضبّ والحيَّة والورَل: فحَّ يفِحُّ فحيحاً، وقال رؤبة:

فِحّي فلا أفرَقُ أنْ تَفِحّي   وَأنْ تُرَحّي كَرَحَى المرحِّي

أصْبَحَ مِنْ نـحـنـحةٍ وأحِّ   يحكِي سُعالَ النَّشَرَ الأبـحِّ

قال: الفحيح: صوتُ الحيَّة مِنْ فيها، والكشيش والنشيش: صوتُ جلدها إذا حكّت بعضَه ببعض، قال الرَّاجز في صفة الشَّخْب والحلْب:

حَلَبْتُ لِلأبْرَش وهو مُغْضِ   حمراءَ منها شخْبَةٌ بالمخض

ليستْ بذات وَبَرٍ مـبـيضّ   كأنَّ صوتَ شخْبها المرْفَضِّ

كشيشُ أفعَى أجْمعت لعَضِّ

ويقال للضّبّ والورل: كش يكِش كشيشاً، وأنشد أبو الجرّاح:

تَرَى الضَّبَّ إن لم يرهب الضبُّ غيرَه يكِشُّ له مستـنـكـراً ويُطـاوِلُـه

ضرب المثل للرَّجُلِ الداهية وللحيِّ الممتنع بالحيّة

قال ذو الإصبع العَدْوانيُّ:

عَذِيرَ الحيِّ مِنْ عَدْوا ن كانوا حَيّة الأرض

بَغَى بعضُهُمُ ظلماً فلم يُرْعَ على بَعْض

وفيهم كانَتِ السَّادا تُ والموفُون بالقرْض

يقال: فلانٌ حَيّةُ الوادي، وما هو إلاَّ صِلُّ أصلال، والصِّلُّ: الداهية والحيَّة، قال النَّابغةُ:

ماذا رُزِئْنَا بهِ من حَيَّةٍ ذَكَرٍ نَضْنَاضَةٍ بالرَّزايا صِلِّ أصلالِ

وقال آخر:

صِلِّ صفاً تَنْطِفُ أنيابُهُ سِمامَ ذيفانِ مجيرات

وقال آخر:

مُطْرِقٌ يرشَح سمّاً كما أطْرَقَ أفْعَى يَنْفُثُ السمَّ صِلُّ

ومن أمثالهم: صَمِّي صَمَامِ، وَصَمِّي ابْنَةَ الجبل، وهي الحيَّة.
قال الكميت:

إذا لَقِيَ السَّفِيرَ لها وَنَادَى بها :صَمِّي ابْنَةَ الجَبَلِ السَّفِيرُ

قولهم جاء بأم الربيق على أريق

ومن أمثالهم: جاءَ بأمِّ الرُّبَيق على أُرَيق، أمُّ الرُّبيق: إحدى الحيات، وأُرَيق: أمُّ الطّبق، ضربوا به مثلاً في الدواهي، وأصلها من الحيَّات قال:

إذا وجدْتَ بوادٍ حَيَّةً ذَكَراً فاذْهَبْ وَدَعْني أمارِسْ حَيةَ الوادي

قولهم أدرك القويمة لا تأكلها الهويمة

وفي المثل: أدرك القُوَيِّمة لا تأكلها الهوَيِّمة يعني الصبي الذي يدرُج ويتناول كلَّ شيءٍ سنَح له، ويَهوي به إلى فيه، كأنه قال لأمِّه: أدركيه لا تأكلْه الهامَّة وهي الحيّةُ، وهو قوله في التعويذ: ومن كلِّ شيطانٍ وهَامَّة، ونَفْسٍ وعينٍ لامَّة.

شعر للأخطل في ذكر الحية

وقال الأخطل، في جعلهم الرَّجلَ الشُّجاعَ وذا الرّأي الدَّاهية حية - وكذلك يجعلون إذا أرادوا تعظيمَ شأنها، وإذا أرادوا ذلك فما أكثر ما يجعلون الحَيّة ذكراً، قال الأخطل:

أنبئت كلباً تمنى أن يسافهنا   وطالما سافهونا ثم ما ظفروا

كلفتمونا رجالا قاطعي قرنٍ   مستحلقين كما يستلحق اليسر

ليست عليهم إذا عدت خصالهم   خصلٌ وليس لهم إيجاب ما قمروا

قد أنذروا حيةً في رأس هضبته   وقد أتتهم به الأنباء والنذر

باتوا رقوداً على الأمهاد ليلهم   وليلهم ساهرٌ فيها وما شعروا

ثمت قالوا أمات الماء حيته   وما يكاد ينام الحية الذكر

حيَّة الماء

وما أكثرَ ما يذكرون حيّة المَاء؛ لأنّ حَيَّاتِ المَاء فيها تفاوت، إمّا أن تكونَ لا تضُرُّ كبيرَ ضررٍ، وإمَّا أن تكونَ أقتَلَ من الحيَّاتِ والأفاعي.
الهنديات ويقال إنّ الهنديّات إنَّما تصير في البيوت والدُّور، والإصطبلات، والخرابات؛ لأنّها تُحمَلُ في القُضُب وفي أشباه ذلك.

علة وجود الحيات في بعض البيوت

والحيّاتُ تأكل الجرادَ أكلاً شديداً، فربّما فتَحَ رأس كُرْزِه وجرابه وجوالقه، الذي يأتي الجراد، وقد ضَرَبَه برْدُ السَّحَر، وقد تراكم بعضُه على بعض؛ لأنَّها موصوفةٌ بالصَّرَدِ.
والحيّاتُ توصَفُ بالصَّرَد، كذلك الحمير، والماعزُ من الغنم، ولذلك قال الشاعرُ:

بليت كما يبلى الوكاءُ ولا أرى   جِنَاباً ولا أكنافَ ذروة تخلُقُ

أُلوِّي حَيازيمي بهنَّ صَبابةً   كما تَتَلَوَّى الحيّة المتشرِّقُ

وإنما تَشَرَّقُ إذا أدركها بَرَدُ السَّحَر ولم تصر بعدُ إلى صلاحها، وإذا خرجت بالليل تكتسب الطعم كما يفعل ذلك سائر السِّباع، فربما اجترف صَاحبُ الكرز الجراد، فأدخله كُرْزَه، وفيه الأفعَى وأسودُ سالخٌ، حتى يُنقلَ ذلكَ إلى الدُّور، فربّما لقى النّاسُ منها جهداً.
وقال بشر بن المعتَمر، في شعره المزاوَج:

يا عجباً والدَّهرُ ذو عجائب　　مِنْ شاهدٍ وَقلْبُهُ كالـغـائبِ

وحاطب يَحْطِبُ في بـجـادِهِ　　في ظلمة الليلِ وفي سَـوَادِهِ

يحْطب في بجاده الأيْمَ الذكـر　　والأسودَ السَّالخ مكروهَ النَّظَرْ

شعر في حية الماء فممن ذكر حَيَّة الماء، عبد اللّه بن هَمّام السلوليُّ فقال:

كَحَيَّةِ الماء لا تنحاش مِنْ أحَدٍ　　صُلْبُ المراس إذا ما حُلَّتُ النُّطقُ

وقال الشمّاخ بنُ ضِرار:

خُوصُ العيونِ تَبَارَى في أزِمَّتها　　إذا تفصَّدْنَ من حَرِّ الصَّياخـيدِ

وكلُّهن تُبَاري ثِنْـيَ مُـطَّـرِدٍ　　كحيةِ الماءِ وَلَّى غَيْرَ مَطْرودِ

وقال الأخطل:

ضفادعُ في ظلْماءِ ليلٍ تجاوَبَت　　فدل عليها صوتُها حَيَّةَ البَحْرْ

ما يشبّه بالأيم، فالأيْم الحيَّةُ الذكر يشبهون به الزِّمام، وربَّما شبَّهُوا الجاريَةَ المجدولة الخميصة الخواصر، في مشيها، بالأيم؛ لأنَّ الحَيَّةَ الذكرَ ليس له غَبَبٌ، وموضعُ بطنِه مجدولٌ غيرُ متراخٍ، وقال ابنُ ميَّادة:

قعدت على السِّعلاة تنفض مسحَهَا　　وتجذب مِثْلَ الأيْم في بلدٍ قـفْـر

تيمِّمُ خَيْرَ النَّاس مِنْ آل حـاضـر　　وتحمِلُ حاجاتٍ تضمَّنَها صَدْري

شعر في حمرة عين الأفعى وقال الآخر في حمرة عين الأفعى:

لولا الـهراوةُ والكِفّاتُ أوْرَدَنِي　　حَوْضَ المنيَّة قتَّالٌ لِمَنْ عَلِقا

أصمُّ منهرتُ الشِّدْقين ملتبـدٌ　　لم يُغْذَ إلاّ المنايا مِنْ لَدُنْ خُلِقا

كأنَّ عينيه مِسْمارَانِ مِنْ ذهبٍ　　جلاهُما مِدْوسُ التَّألاَقِ فائتَلَقا

شعر في حمرة عيون الناس وقال في حمرة عُيون النَّاس في الحرْب وفي الغضب، ابنُ ميَّادة:

وعند الفَزَاري العراقي عـارض كأَنَّ عيونَ القوْمِ في نبضة الجمرِ

وفي حمرة العين من جهة الخِلْقةِ، يقول أبو قُرْدُودة، في ابن عمارٍ حينَ قتله النُّعمان:

إنِّي نـهيتُ ابنَ عَمّارٍ وقلتُ لـه: لا تـأمَنَنْ أحْمَرَ الْعَيْنَيْنِ وَالشعَرَهْ

إنَّ الملوك متى تنزل بساحتِهِمْ تَطِرْ بنارك مِنْ نيرانـهم شَـرِرَهْ

يا جفنَةً كإزاء الحَوْض قد هُدِمَتْ وَمَنْطِقاً مِثلَ وَشْي الْيَمْنَةِ الحَبَرَهْ

معرفة في الحية

وأكثرُ ما يذكرون مِنَ الحيات بأسمائِها دون صفاتها: الأفعى، والأسود، والشجاع، والأرقم، قال عمر بن لجأ:

يلزق بالصّخْرِ لُزُوقَ الأرقمِ

وقال آخر:

ورقع أولى القوم وقعُ خرادِلٍ ووقعُ نبال مثل وقع الأساودِ

ذكر الأفاعي في بعض كتب الأنبياء

وفي بعض كتب الأنبياء، أنّ اللّه تبارك وتعالى قال لبني إسرائيل: يا أولادَ الأفاعي.
مثل وشعر في الحية ويقال: رَماهُ اللّه بأفْعى حَارية وهي التي تحري، وكلما كبرت في السن صغُرت في الجسم، وأنشد الأصمعيُّ في شدَّة اسوداد أسود سالخ:

مُهَرَّت الأشداق عَوْدٍ قد كمل كأنّما قُيِّظ من لِيط جَـعَل

وقال جريرٌ في صفة عُرُوق بَطْنِ الشَّبْعَانِ:

وأعور من نَبْهَانَ أمَّا نـهـارُه فأعمَى وأمَّا ليله فـبـصـيرُ

رَفَعْتُ له مشبوبة يلتوي بـهـا يكادُ سناها في السماءِ يَطيرُ

فلما استَوَى جنباه لاعَبَ ظلّـهُ عريضُ أفاعي الحالبَين ضريرُ

قال: ويقال: أبْصَرُ من حيّةٍ، كما يقال: أسمعُ مِنْ فرس، و أسمَعُ مِنْ عُقاب، وقال الراجز:

أسمَعُ مِنْ فَرْخِ العُقابِ الأَشْجَعِ

وقال آخر:

أسودُ شَرَى لاقتْ أسودَ خفيَّةٍ   تساقوْا عَلَى حَرْدٍ دِماءَ الأسَاوِدِ

ضَرَبَ المثَلَ بجنسين من الأسُود، إذْ كانا عندَه الغاية في الشدَّة والهوْل، فلم يقنع بذلك حتى ردَّ ذلك كُلَّهُ إلى سموم الحيّات.
ما يشبه بالأسود وفي هَوْل منظر الأسْوَد يقول الشاعرُ:

مِنْ دُونِ سَيْبِكَ لونُ ليلٍ مُظلمٍ   وَحَفيفُ نافجةٍ وكَلْبٌ مُوسَدُ

والضَّيفُ عِنْدَكَ مِثْلُ أسوَد سالخٍ   لا بَلْ أحَبُّهما إليكَ الأسْوَدُ

ويصِفُون ذوائبَ الناس، فإذا بلغوا الغاية شبهوها بالأساود، قال جِرانُ العَوْدِ:

ألا لا تَغُرَّنَّ امرأً نَوْفَلِيَّةٌ   على الرَّأس منها والترائبُ وُضَّحُ

ولا فاحِمٌ يُسْقَى الدِّهانَ كأنَّهُ   أساودُ يزهاها لعينك أبْطَحُ

استطراد لغوي قال: والخرشاء: القشرة الغليظة بعد أن تنقب فيخرج ما فيها، وجماعةُ الخراشيّ، غير مهموز، قال: وخرشاء الحيّة: سلخها حين تَسْلَخ، وقال: هذا أسود سالخ، وهذان أسودان سالخان.
وأساود سالخة، وقال مرَقّش:

إن يَغْضَبُوا يغضب لِذَاكُمْ كما   يَنْسلُّ عَنْ خِرْشَائِهِ الأرْقَمْ

تعليق الحلي والخلاخيل على السليم وكانوا يَرَوْنَ أنَّ تعليقَ الحَلْي، وخَشخشَةَ الخلاخيل على السَّليم، ممَّا لا يفيق ولا يَبْرَأ إلاَّ به، وقال زَيْدُ الخيل:

أيم يكون النعل منه ضَجِيعَةً   كما عُلِّقت فوقَ السليم الخَلاَخِلُ

وخبَّرني خالد بن عقبة، من بني سلمة بن الأكوع، وهو من بني المسبع، أنّ رجُلاً من حَزْن، من بني عذرة، يسمَّى أسْباط، قال في تعليقهم الحَلْيَ على السَّليم:

أرقتُ فلم تَطعَمْ لي الْعَيْنُ مَهْجَعَا   وَبِتُّ كما بَاتَ السليمُ مُقرَّعَا

كأني سليمٌ نَالـهُ كَـلْـمُ حَـيَّةٍ تَرَى حَوْلَهُ حَلْيَ النِّساءِ مُرَصَّعَا

وقال الذُّبيانيّ:

فبتُّ كأنِّي ساورتْـنـي ضَـئيلة من الرُّقْشِ في أنيابها السّمُّ ناقعُ

يُسَهَّدُ من ليل التّمام سليمُـهـا لحلْي النِّسَاءِ في يديه قعـاقِـع

استطراد فيه لغة وشعر قال: ويقال لسان طلْق ذلِقٌ، يقال للسليم إذا لُدِغ: قد طلّق، وذلك حين تَرْجع إليه نفسُه، وهو قول النابغة:

تناذَرها الرَّاقون من سُوءِ سمِّها تطلِّقُه طوراً وطوراً تُراجِعُ

وقال العبدي - إن كان قاله -:

تَبيتُ الهُمُومُ الطَّارِقاتُ يَعُدْنَنيكمَا تَعْتَرِي الأهْوَالُ رَأسَ المطلَّق

وأنشد:

تُلاقِي مِنْ تَذَكُّر آلِ ليلـى كما يَلْقى السَّليمُ مِنَ العِدَادِ

والعِداد: الوقت، يقال: إنّ تلك اللَّسعة لتعَادّه: إذا عاده الوجَع في الوقت الذي لُسِع فيه.
حديث الحمل المصْليّ وذكر النبيُّ صلى الله عليه وسلم السّمَّ الذي كان في الحَمَلِ المَصْلِيّ، الذي كانت اليهوديَّةُ قدّمته إليه فنَالَ منه، فقال: إنّ تِلك الأكْلَةَ لتُعَادُّني.

جلد الحية

وفي الحيّة قشْرُها، وهو أحسنُ من كلِّ ورقةٍ وثوبٍ، وجَناحٍ، وطائرٍ؛ وأعجبُ من سِتْر العنكبوت، وغِرْقِئ البيض.

ما يشبه بلسان الحية

ويقال في مثلٍ، إذا مدحوا الخُفَّ اللَّطيف، والقدَمَ اللَّطِيفة قالوا: كأنّه لِسَانُ حَيَّة.

نفع الحية

وبالحيّة يُتداوَى من سمّ الحيّة، ولِلدغ الأفاعي يُؤْخَذ التِّرياقُ الذي لا يُوجَدُ إلاّ بمتون الأفاعي، قال كثيِّر:

وما زالَتْ رُقاك تَسُلُّ ضِغْنِي　　　وتُخْرِجُ مِنْ مَكَامِنِهَا ضِبَابي

وَتَرْقِينِيَ لك الحاوُون حَتَّى　　　أجَابَكَ حيَّةٌ تحْتَ الحِجابِ

قصة امرأة لدغتها حية جويبر بن إسماعيل، عن عمّه، قال: حججْتُ فإنّا لفي وَقْعَةٍ مَعَ قوم نزلوا منزلنا، ومعنا امرأة، فنامت فانتبهتْ وحيّة منْطوية عليها، قد جمعَتْ رأسَها مع ذنبها بين ثدييها، فهالها ذلك وأزعَجَنا، فلم تزَلْ مُنطويةً عليها لا تضُرُّها بشيء، حتّى دخلْنا أنصاب الحرم، فانسابت فدخلَتْ مكّة، فقضَينا نسكَنا وانصرفْنَا، حتَّى إذ كنَّا بالمكان الذي انطوت عليها فيه الحيَّة، وهو المنزل الذي نزلناه، نزلَتْ فنامت واستيقظت، فإذا الحيَّةُ منطويَةٌ عليها، ثمّ صَفَرت الحيَّةُ فإذا الوادي يسيلُ حيَّاتٍ عليها، فنهشْتْها حتّى نَقَتْ عظامَها، فقلت لجاريةٍ كانت لها: وَيْحَكِ: أخبرينا عن هذه المرأة، قالت: بغَتْ ثلاثَ مرّاتٍ، كلَّ مرّة تأتي بولدٍ، فإذا وضعَتْه سَجَرت التّنّور، ثمّ ألقته فيه.
قول امرأة في عليٍّ والزّبير وطلحة قال ونظرت امرأةٌ إلى عليٍّ، والزُّبير، وطلحة، رضي اللّه تعالى عنهم، وقد اختلفَتْ أعناقُ دوابِّهم حين التقوا، فقالت: من هذا الذي كأنه أرقَمْ يتلمَّظ؟ قيل لها: الزُّبير، قالت: فمن هذا الذي كأنّه كُسِر ثمّ جُبِر؟ قيل لها: عليٌّ، قالت: فمن هذا الذي كأنّ وجهه دينارٌ هِرَقْليّ؟ قيل لها: طلحة.

استطراد لغوي

وقال أبو زيد: نهشت أنْهَشُ نهشاً، والنَّهش: هو تناولك الشَّيءَ بفيك، فتمضَغُه فتؤثّر فيه ولا تجْرحه، وكذلك نهْش الحيَّة، وأمَّا نهْش السَّبع فتناوله من الدَّابَّةِ بفيه، ثمَّ يقطع ما أخذ منه فوه، ويقال نهشت اللحم أنهَشُه نهشاً، وهو انتزاع اللّحم بالثَّنايا؛ للأكل، ويقال نَشَطت العَقْد نَشْطاً: إذا عقدته بأنْشوطة، ونَشَطت الإبلُ تنشِط نَشْطاً: إذا ذهبتْ على هدًى أو غيرِ هدى، نزعاً أو غير نزْع، ونشطتْهُ الحيَّةُ فهي تنشُطه نَشْطاً، وهو أن تَعَضَّه عضّاً، ونكزَتْهُ الحيَّةُ تنكُزُه نكْزاً، وهو طعنُها الإنسانَ بأنفها، فالنَّكْز من كلِّ دَابَّةٍ سوى الحيّة العضّ، ويقال: نَشَطتْهُ شَعُوبُ نشْطاً وهي المنيَّة.
قال: وتقول العرب، نشطته الشَّعوب، فتدخل عليها التعريف.
علة تسمية النهيش بالسليم ويسمون النهيش سليماً على الطيرَة، قال ابنُ ميَّادة:

كأنّي بها لما عَرَفْتُ رُسومَهَا　　　قتيلٌ لدَى أيدِي الرُّقاةِ سَليمُ

شعر في الحية وممَّا يضربون به المثلَ بالحيَّاتِ في دواهي الأمر، كقول الأقيْبل القينيّ:

لَقَدْ عِلِمْتُ وخَيرُ القوْلِ أنْفَعُه　　　أنَّ انطلاقي إلى الحَجَّاج تَغْرِيرُ

لَئنْ ذَهَبْتُ إلى الحَجَّاج يَقْتُلُنـِي   إنِّي لأحْمَقُ مَنْ تُحْدَى بهِ الْعيرُ

مستحقباً صُحُفاً تَدْمَى طوَابعها   وفي الصَّحائفِ حَيّاتٌ مَنَاكِيرُ

استطراد لغوي وقال الأصمعيّ: يقال للحيَّة الذَّكر أيِّم وأيم، مثقَّل ومخفف، نحو ليِّن ولين، وهيِّن وهَين، قال الشاعر:

هَيْنُون لَيْنُون أيْسارٌ ذوُو يسرٍ   سُوَّاسُ مكْرُمَةٍ أبْنَاءُ أيْسار

وأنشد في تخفيف الأيم وتشديده:

ولقد وَرَدْتَ الماءَ لم تَشْرَبْ بـهِ   زَمَنَ الرَّبيع إلى شهور الصيّفِ

إلاّ عَوَاسِرُ كالمِراط مُـعِيدَةٌ   باللَّيل مَوْرِدَ أيّم متـغضِّـف

الصَّيِّف، يعني مَطرَ الصيّف، والعواسر: يعني ذئاباً رافعة أذنابها.
والمِراط: السهام التي قد تمرَّط ريشها، ومُعيدة: يعني معاودة للورْد، يقول هو مكانٌ لخَلائه يكون فيه الحيَّاتُ، وتَرِدُه الذِّئاب، ومتغضِّف يريد بعضُهُ على بعض، يريد تثني الحيَّة.
وأنشد لابن هند:

أودَى بأمِّ سُليمَى لاطِئٌ لَبِدٌ   كحيَّةٍ مُنْطوٍ من بينِ أحجارِ

وقال محمد بن سَعيد:

قريحة لم تُدنِّيهـا الـسِّياط ولـم   تُورَدْ عِرَاكاً ولم تعصر على كَدَرِ

كمنْطوَى الحيَّةِ النَّضناضِ مكمنهـا   في الصَّدر ما لم يهيِّجْها على زَوَرِ

الليث للَّيثِ منـسوبٌ أظـافِرُهُ   والحيَّةُ الصِّلُّ نجل الحيَّةِ الـذَّكَرِ

وقال ذو الرّمّةِ:

وأحْوَى كأيم الضَّالِ أطرَقَ بَعْدَمَا   حَبَا تحتَ فينانٍ من الظّلِّ وارفِ

قال: ويقال انبسَّت الحيَّات: إذا تفرَّقت وكثُرت، وذلك عند إقبال الصَّيف، قال أبو النَّجم:

وانبسَ حيَّاتُ الكثيبِ الأهْيَلِ

وقال الطِّرمَّاح:

وَتَجَرَّدَ الأسروعُ وَاطَّرَدَ السَّفَا وَجَرَتْ بجالَيْهَا الحِدَابُ القَرْدَدُ

وانسابَ حَيّاتُ الكثيبِ وأقبلَتْ وُرْقِ الفَرَاشِ لما يَشُبُّ المُوقِدُ.
قال: ويقال جبأ عليه الأسودُ من حجره: إذا فاجأه، وهو يجبأ جبأ وجَبْواً.
وقال رجلٌ من بني شيبان:

وَما أنَا مِنْ رَيْبِ المَنُون بجُبأ وَمَا أنَا مِنْ سَيْبِ الإلهِ بيَائِس

ما يشرع في اللبَن قال: ويقال: اللّبن مُحْتَضَرٌ فغطّ إناءك، كأنَّهُمْ يَرَوْنَ أنّ الجنَّ تَشْرَع فيه، على تصديق الحديث في قول المفقود لعمر، حينَ سأله وقد استهْوَتْهُ الجانّ: ما كان طعامهم؟ قال الرِّمَّة، يريد العظم البالي، قال: فما شرابهم؟ قال: الجَدَف، قال: وهو كلُّ شراب لا يُخمَّر.
وتقول الأعراب: ليس ذلك إلاّ في اللّبَن، وأمّا النَّاس فيذهبون إلى أنَّ الحَيَّاتِ تشرع في اللَّبَن، وكذلك سامُّ أبرص، كذلك الحيّات تشرع في كثير من المرق.
حديث في المعصفر وجاء في الحديث: لا تَبيتُوا في المعَصْفر؛ فإنها مُحْتَضَرَةٌ أي يحضرها الجنُّ والعُمَّار.
وقال الشاعر فيما يمجُنُونَ به، من ذكر الأفعى:

رَمَاكَ اللّهُ مِنْ أيرٍ بأفْعَى ولا عافاكَ من جَهدِ البَلاء

أجُبْنَاً في الكريهة حِينَ تَلْقى وَنَعْظاً ما تفتِّرُ في الخَلاء

فلولا اللّه ما أمْسى رَفيقي ولولا البولُ عُوجِلَ بالخِصاء

وقال أبو النّجم:

نظرَتْ فأعَجبها الذي في دِرْعِهَا من حُسْنها ونظرتُ في سِرباليا

فرأتْ لها كفلاً ينوء بخَصْرها وعثا روادفُهُ وأخْثمَ ناتيا

ورأيتُ منتشرَ العِجَانِ مُقبَّضَا رِخْواً حمائلُهُ وَجِلْداً باليا

أدْنِي له الرَّكَبَ الحَلِيقَ كأنَّما أدني إليه عقارباً وأفاعيا

وقال آخر:

مريضةٌ أثناءِ التَّهادِي كـأنّـمَـا تخافُ على أحشائها أنْ تَقطَّعـا

تسيب انسيابَ الأيْمِ أخْصَرَه النَّدَى يرقِّع من أطرافه ما ترقَّعَـا

شعر في العقربان وقال إياسُ بن الأرَتِّ:

كَأَنَّ مَرْعَى أمِّكُـمْ سوءَةَ عقْرَبَةٌ يَكُومُها عُقْرُبـانْ

إكليلُها زَوْلٌ وفي شَوْلـها وَخْزٌ حَدِيدٌ مِثْلُ وخْزِ السنانْ

كلُّ امرئٍ قدْ يُتَّقى مُقْبِـلاً وأمُّكُمْ قد تُتّقى بالعِجَـانْ

وقال آخَرُ لِمُضِيفِهِ:

تَبيتُ تُدَهْدِهُ القِذَّانَ حَوْلِـي كأنَّكَ عِنْدَ رأسي عُقْرُبانُ

فلو أطعمتني حَمَلاً سَمِيناً شَكَرْتُكَ وَالطّعامُ له مكانُ

شعر في الحيات الأفاعي

وقال النّابغة:

فلو يستطيعون دبَّتْ لنـا مَذاكِي الأفاعي وأطفالُها

وقال رجلٌ من قريش:

ما زالَ أمْرُ وُلاةِ السُّوءِ مُنْتشِراً حتَّى أظلّ عليهم حَـيّةٌ ذكَـرُ

ذو مِرّةٍ تَفْرَقُ الحيَّاتُ صَوْلَتَـهُ عَفُّ الشَّمائِل قدْ شُدَّت له المِرَرُ

لم يأتِهم خَبَرٌ عَنْـهُ يلِينُ لـه حَتّى أتَاهُمْ به عن نَفْسِهِ الخبـرُ

وقال بشار:

تزِلُّ القوَافي عَنْ لِسَانِي كَأَنَّها حُمَاتُ الأفاعي ريقهُنّ قضَاءُ

وقال:

فكم من أخٍ قد كان يأمُلُ نفعَكُمْ شجاع له نابٌ حديدٌ ومِخْلَبُ

أخ لو شَكَرْتُمْ فِعْلَهُ لَو عَضَضْتُم رُؤوسَ الأفاعي عَضّ لا يتهيَّبُ

وقال الحارث دعيُّ الوليد، في ذكر الأسْوَدِ بالسمّ من بين الحيّات:

فإنْ أنتَ أقرَرْتَ الغَدَاةَ بِنِسْبَتِي عُرِفْتُ وإلاّ كنتُ فقْعاً بِقَرْدَدِ

ويَشْمَتُ أعداءٌ ويجذَلُ كاشحٌ عَمَرْتُ لهم سُمّاً على رأس أسْوَدِ

وقال آخر:

ومَعْشَرٍ مُنْقِعٍ لي في صُدُورهِمُ سمُّ الأساودِ يغلي في المواعيدِ

وَسَمْتُهُم بالقوافي فوْقَ أعينهم وَسْمَ المعيديِّ أعناقَ المقاحيدِ

وقال أبو الأسود:

ليتَكَ آذنتني بواحدةٍ جَعَلتَها مِنْكَ آخِرَ الأبَدِ

تحْلِفُ ألاّ تَبَرَّني أبداً فإنّ فيها بَرْداً على كَبِدِي

إن كان رزقي إليك فارْمِ به في نَاظِرَي حَيّةٍ على رَصَدِ

وقال أبُو السَّقّاح يرثي أخاه يحيى بن عميرة ويسمِّيه بالشجاع:

يَعْدُو فلا تكذبُ شَدَّاتُهُ كما عدا اللّيْثُ بوادي السِّباعْ

يجمَعُ عَزْماً وَأنَاةً معاً ثُمَّتَ يَنْبَاعُ انْبِيَاعَ الشجاعْ

وقال المتلمِّس:

فأطْرَقَ إطرَاقَ الشجَاعِ ولو يرَى مَسَاغاً لنَابَيْهِ الشُّجَاعُ لَصَمَّمَا

وقال معمر بن لقيط أو ابن ذي القروح:

شموسٌ يظلُّ القوم معتصماً بهِ وإن كان ذا حَزمٍ من القوْمِ عادَيا

أبيت كما بات الشجاع إلى الذُّرَى وأغدُو على همِّي وإن بتُّ طَاويَا

وإنِّي أهُضُّ الضيَّم منِّي بصـارمٍ   رهيفٍ وشيخٍ ماجدٍ قدْ بَنَى لـيا

وهكذا صفة الأفعَى؛ لأنـها أبداً نـابتةٌ مستوية، فإنْ أنكَرَتْ شيئاً فنَشْطتها كالبَرْق الخاطِف، ووصف آخرُ أفعى، فقال:

وَقدْ أراني بطـويِّ الـحسِّ   وذاتِ قرْنَيْنِ طحُونِ الضِّرْسِ

نضناضةٍ مثلِ انثناء المَرْسِ   تدير عَيْناً كشهاب القبْسِ

لمّا التَقيْنَا بمَضِيقِ شَكْسِ   حتى قَنَصْتُ قرْنَهَا بخَمْسِ

وهم يتـهاجَوْنَ بأكل الأفاعي والحيّات، قال الشاعر:

فإياكمُ والرِّيفَ لا تَقـرُبـنَّـهُ   فإن لديه الموتَ والحتمَ قاضيا

همُ طردوكم عن بلادِ أبيكُـمُ   وأنتمْ حُلولٌ تشتَوون الأفاعيَا

وقال عمر بن أبي ربيعة:

ولمَّا فقدْتُ الصَّوتَ منهم وأطْفِئَتْ   مصابيحُ شُبَّت بالعِشَـاء وأنـؤُرُ

وغاب قُميرٌ كنت أرجُو مَغِيبَـه   وروَّح رُعيانٌ وهَـوَّمَ سُـمَّـرُ

ونفَّضت عنِّي اللَّيلَ أقبلتُ مِشْيَةَ ال حُبَابِ ورُكني خِيفَةَ القـومِ أزْوَرُ

ضرب المثل بسمّ الأساود

وضَرَبَ كلثومُ بن عمرٍو، المثلَ بسمِّ الأساود، فقال:

تلوم على تَرْك الغنـى بَـاهـلـيَّة   طوى الدَّهْرُ عنها كلَّ طِرْفٍ وتـالِدِ

رأتْ حولها النِّسوانَ يرفُلْنَ في الكُسَا مقلَّـدةً أجـيادُهـا بـالـقـلائِدِ

يسرُّكِ أنِّي نلتُ ما نالَ جـعفـرٌ   من الملك أو ما نال يحيى بنُ خالد

وَأنّ أميرَ المؤمـنـين أعَـضَّـنِـي   مَعَضَّهمَا بالمرْهَفَـاتِ الـبَـوَارِد

ذريني تجئني مِيتتـي مُـطْـمئنَّةً   ولم أتَقَحَّمْ هَوْلَ تـلـكَ الـمـواردِ

فإن كريماتِ المعالـي مَـشُـوبَةً   بمستَوْدَعاتٍ في بطـونِ الأسـاودِ

حيات الجبل

وفي التشنيع لحيَّات الجبل، يقول اللَّعِينُ المِنْقريُّ، لرؤبة بن العجَّاج:

إني أنا ابن جلا إن كنت تعرفنـي   يا رُؤبَ والحيَّةُ الصَّماء في الجَبَلِ

أبا الأراجِيز يا ابنَ اللؤمِ تُوعدنـي وفي الأراجيز جَلْبُ اللؤمِ والكَسَلِ

خبران في الحيات

الأصمعيُّ، قال: حدَّثني ابن أبي طرفة، قال: مرَّ قومٌ حُجَّاجٌ من أهل اليمن مع المساء، برجلٍ من هُذيل، يقال له أبو خِراش، فسألوه القِرَى، فقال لهم: هذه قدرٌ، وهذه مِسْقاةٌ، وبذلك الشِّعب ماء فقالوا: ما وفيتنا حقّ قِرانا فأخذ القِرْبَة فتقلّدَها يسقيهم، فنهشته حيَّة.
قال أبو إسحاق: بلغني وأنا حدث، أن النبي صلى الله عليه وسلم نَهَى عن اخْتِنَاث فمِ القِرْبة، والشربِ منه، قال: فكنت أقولُ إنّ لهذا الحديث لشأناً، وما في الشرب من فم قِرْبَةٍ حتّى يجيء فيها هذا النهي؟ حتّى قيل: إنّ رجلاً شربَ من فمِ قِربةٍ، فوكعته حيَّةٌ فمات، وإنَّ الحيَّاتِ تدخُل في أفواه القِرَب، فعَلِمْتُ أنّ كُلّ شيء لا أعرفُ تأويلَه من الحديث، أنّ له مذهباً وإن جَهِلْتُه.

شعر في سلخ الحية

وقال الشاعرُ في سَلْخ الحيَّة:

حَتَّى إذا تَابَعَ بَيْنَ سَلْخَيْنْ   وعادَ كالميسَمِ أحماهُ الْقَيْنْ

أقبَلَ وهو واثقٌ بِثِنْتَيْنْ:   بسَمِّهِ الرَّأسَ ونَهْشِ الرِّجْلَيْنْ

قال: كأنهُ ذهب إلى أنّ سمَّه لا يكونُ قاتِلاً مُجْهِزاً حتَّى تأتيَ عليه سنتان.
وزعم بعضهم أنّ السّلْخَ للحيّةِ مثلُ البزُولِ والقروح للخف والحافر، قال: وليس ينسلخ إلاّ بعد سِنِينَ كثيرةٍ، ولم يقِفُوا من السِّنين على حَدٍّ.
قول في سلخ الحية وزعم بعضهم أنّ الحَيّةَ تَسْلَخُ في كُلِّ عامٍ مرَّتين، والسلخ في الحيات كالتَّحسير من الطير، وأنّ الطير لا تجتمع قوّتهُ إلاّ بعد التحسير وتمامِ نباتِ الرِّيش، وكذلك الحيَّة، تضعُف في أيامِ السَّلْخ ثمَّ تشتدُّ بعد.

تأويل رؤيا الحية

قال الأصمعيّ: أخبرني أبو رفاعة، شيخٌ من أهل البادية، قال: رأيتُ في المنام كأني أتخطّى حَيّات، فمطرت السماء، فجعلت أتخطى سُيولاً.
وحكى الأصمعيُّ أنَّ رجلاً رأى في المنام في بيوته حَيَّاتٍ، فسأل عن ذلك ابن سِيرِينَ أو غيره، فقال: هذا رجلٌ يدخل منزلَه أعداءُ المسلمين، وكانت الخوارجُ تجتمعُ في بيته.
شعر للعرجي والشماخ في الحيات قال العرْجيُّ، في دبيب السمِّ في المنهوش:

وأشْربَ جِلْدِي حُبَّها وَمَشى بـهِ كمشي حُمَيَّا الكَأسِ في جِلد شاربِ

يَدِبُّ هَوَاهَا في عظامي وحبـهـا كما دَبَّ في الملسوع سمُّ العَقاربِ

وقال العرجيُّ في العرماءِ من الأفاعي، وكونها في صُدوع الصَّخْر، فقال:

تَأتي بليلٍ ذُو سعاة فسَلَّـهـا بها حافظ هاد ولم أرق سلمـا

كمثل شِهاب النَّار في كفِّ قابسٍ إذا الرِّيحُ هبت من مكانٍ تَضَرَّمَا

أبرَّ على الحُوَّاءِ حتى تَـنَـاذَرُوا حِمَاهُ محاماة من الناس فاحتمى

يظلّ مُشيحاً سامعاً ثمَّ إنـهـا إذا بُعِثت لَمْ تَـألُ إلاّ تَـقـدُّمـا

قال: ويقال: تطوَّت الحيَّة، وأنشد العرجِيُّ:

ذكَرَتْني إذّ حَيَّةٌ قد تطوّتْ فرقا عند عرسه في الثياب

وقال الشَّماخ، أو البَعيث:

وأطرَقَ إطراقَ الشجاع وقدْ جَرَى على حَدِّ نَابَيْهِ الذُّعافُ المسمِّمُ

ما ينبح من الحيوان والأجناس التي تُذْكَرُ بالنُّبَاح: الكلب، والحيَّةُ، والظَّبْيُ إذا أسنَّ، والهُدهدُ، وقد كتبنا ذلك مرة ثمَّ، قال أبو النَّجم:

والأسد قد تَسْمَعُ مِنْ زئيرهـا وباتت الأفعى على مَحْفُورهـا

تأسِيرُها يحتَكُّ في تـأسـيرهـا مرّ الرَّحَى تجري على شَعيرها

كرَعْدَة الجـرَاء أو هـديرهـا تضرُّمَ القصْباء في تَنُّـورهـا

توقر النَّفس على توقيرها   تعلّم الأشياء في تنقيرها

في عاجل النفْسِ وفي تأخيرها

قول في آية وسنذكر مسألة وجوابها، وذلك أنَّ ناساً زعموا أنّ جميع الحيوان على أربعة أقسام، شيء يطير، وشيءٍ يمشي، وشيء يعوم، وشيءٍ ينساح.
وقد قال اللّه عزَّ وجلَّ: "وَاللّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أربَعٍ، يَخْلُقُ اللّهُ مَا يَشَاءُ".
وقد وَضَعَ الكلامَ على قسمة أجناس الحيوان، وعلى تصنيف ضروبِ الخلْق، ثمَّ قصَّرَ عن الشيء الذي وضعَ عليه كلامَهُ، فلم يذكر ما يطير وما يعومُ، ثمَّ جعل ما ينساحُ، مثلُ الحيَّاتِ والدِّيدان، ممَّا يمشي؛ والمشي لا يكون إلاّ برجل، كما أنَّ العضّ لا يكون إلا بفمٍ، والرَّمْح لا يكون إلاَّ بحافر؛ وذكر ما يمشي على أربع، وها هنا دوابٌّ كثيرةٌ تمشي على ثمانِ قوائمَ، وعلى ستٍّ، وعلى أكثرَ من ثمانٍ، ومَن تفقَّدَ قوائمَ السَّرطانِ وبناتِ وَرْدَانَ، وأصنافَ العناكب عرَفَ ذلك.
قلنا: قد أخطأتم في جميع هذا التَّأويل وَحَدِّه، فما الدَّليلُ على أنَّهُ وضع كلامَهُ في استقصاءِ أصناف القوائمِ؟ وبأيِّ حُجةٍ جزَمْتم على ذلك؟ وقد قال اللّه عزَّ وجلّ: "وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ" وتَرَكَ ذِكْرَ الشَّيَاطِينِ وَالنَّارُ لهُمْ آكَلُ، وعذابُهم بها أشدُّ، فتَرَكَ ذِكرَهم من غير نسيان، وعلى أنَّ ذلك معلومٌ عند المخاطب، وقد قال اللّه عزَّ وجلّ: "خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثمَّ جَعَلَكُمْ أزْوَاجاً" أخرج من هذا العموم عيسى ابنَ مريم، وقد قصَدَ في مخرَجِ هذا الكلام إلى جَميعِ ولِد آدمَ، وقال: "هَلْ أتَى عَلَى الإنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً" أدخَلَ فيها آدمَ وحوَّاءَ، ثمَّ قال على صلة الكلام: "إنَّا خَلَقْنَا الإنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أمْشَاجٍ نَبْتَلِيه" أخرج منها آدمَ وحوَّاءَ وعيسى ابنَ مريمَ.
وحَسُنُ ذلك إذ كان الكلامُ لم يُوضَع على جميع ما تعرفه النُّفوسُ من جهةِ استقصاءِ اللَّفظ، فقوله: "فَمِنْهُمْ مَنْ يَمشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمشِي عَلَى أرْبَعٍ" كان على هذا المثال الذي ذكرنا، وعلى أنّ كُلَّ شيءٍ يمشي على أربع فهو مما يمشي على رجلين، والذي يمشي على ثمانٍ هو مما يمشي على أربعٍ، وعلى رجلين وإذا قلت: لي على فلان عشرة آلاف درهم، فقد خبَّرت أنّ لك عليه ما بين درهمٍ إلى عشرة آلاف.
وأمَّا قولكم: إنَّ المشي لا يكون إلاَّ بالأرجل، فينبغي أيضاً أنْ تقولوا "فإذَا هِيَ حَيّةٌ تَسْعَى" إنّ ذلك خطأ؛ لأنَّ السَّعي لا يكون إلاّ بالأرجل.
وفي هذا الذي جهلتموه ضروبٌ من الجواب: أمّا وجهٌ منه: فهو قولُ القائل وقول الشَّاعر: ما هُوَ إلاَّ كَأنهُ حيّة وكأنّ مِشيته مِشْيةُ حيّة يَصِفُونَ ذلك، ويذكرون عِنْدَهُ مِشيةَ الأيم والحُبَابِ، وذكور الحيَّات، ومَنْ جَعَلَ للحَيّاتِ مَشياً من الشعراء، أكثرُ من أن نقف عليهم، ولو كانوا لا يسمُّون انسيابَها وانسياحَها مشياً وَسَعْياً، لكان ذلك مما يجوزُ على التشبيه والبدل، وَأنْ قامَ الشيءُ مقامَ الشيءِ أو مقام صاحبه؛ فمن عادة العرب أن تشبِّه به في حالاتٍ كثيرة، وقال اللّه تعالى: "هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ

الدِّينِ" والعذاب لا يكون نزُلاً، ولكِنّهُ أجراه مُجْرَى كلامهم، كقول حاتمٍ حينَ أمرُوهُ بفَصْدِ بعيرٍ، وَطَعَنه في سَنامه، وقال: هذا فَصْدُهُ.
وقال الآخر:

فقلتُ يا عمرُو اطْعِمَنّي تَمْرَا   فكان تمْري كَهْرَةً وَزَبْـرَا

وذمَّ بعضهم الفأرَ، وذكرَ سوءَ أثرِها في بيته، فقال:

يا عَجّلَ الرَّحْمنُ بالعقابِ   لِعامرات البيتِ بالخرابِ

يقول: هذا هو عمارتُها، كما يقول الرّجُل، ما نَرَى مِنْ خيرك وَرِفْدِك إلاّ ما يبلُغُنا منْ حَطبك علينا، وفتِّكَ في أعضادِنا.
وقال النَّابغة في شبيهٍ بهذا، وليس به:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ سيوفهم   بهنّ فلولٌ من قِراع الكتائب

ووجهٌ آخر: أنَّ الأعرابَ تزعُمُ - وكذلك قال ناسٌ من الحوَّائين والرَّقائين - إنّ للحيَّة حزوزاً في بطنه، فإذا مَشَى قامت حُزُوزُه، وإذا تَرَكَ المشْيَ تراجَعتْ إلى مكانها، وعادتْ تلك المواضعُ مُلْساً، ولم تُوجَدْ بعَيْنٍ ولا لَمْس، ولا يبْلغها إلاَّ كلُّ حَوَّاءٍ دقيق الحِسِّ. وليس ذلك بأعجَبَ من شِقْشِقةِ الجمل العربيِّ؛ فإنّه يظهرُها كالدَّلْو، فإذا هو أعادها إلى لَهَاتِهِ تراجَعَ ذلك الجلدُ إلى موضعه، فلا يقدِرُ أحدٌ عليه بلمْسٍ ولا عَين، وكذلك عروق الكُلَى إلى المثانة التي يَجْري فيها الحَصَى المتولّد في الكُلية إذا قَذَفتْهُ تلك العروقُ إلى المثانة، فإذا بال الإنسانُ انضمّت العروقُ واتَّصلت بأماكنها، والتحمتْ حتى كان موضعُها كسائرِ ما جاوز تلك الأماكن.
ووجهٌ آخر: وهو أنَّ هذا الكلام عربيٌّ فصيح؛ إذ كانَ الذي جاءَ به عربيّاً فصيحاً، ولو لم يكنْ قرآناً من عند اللّه تبارك وتعالى، ثمَّ كان كلامَ الذي جاء به، وكان ممّن يجهل اللَّحنَ ولا يعرفُ مواضعَ الأسماء في لُغته، لكان هذا - خاصَّةً - ممَّا لا يجهلُه.
فلو أنَّنا لم نجعل لمحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، فضيلة في نُبُوَّةٍ، ولا مزيَّةً في البيان والفصاحة، لكُنَّا لا نجد بُدّاً من أن نعلم أنَّهُ كواحدٍ من الفصحاءِ، فهل يجوزُ عندكم أن يخطئَ أحدٌ منهم في مثلِ هذا في حديثٍ، أو وصفٍ أو خُطبةٍ، أو رسالة، فيزعُمَ أن كذا وكذا يمشي أو يسعى أو يطير، وذلك الذي قال ليس من لُغته ولا من لغة أهله؟ فمعلومٌ عندَ هذا الجواب، وعند ما قبله، أنَّ تأويلَكُمْ هذا خطأ.
وقال اللّه عزَّ وجلَّ: "إنَّ أصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُون" وأصحابُ الجنّة لا يوصفون بالشُّغْل، وإنّما ذلك جوابٌ لقول القائل: خبِّرني عن أهل الجنَّة، بأيِّ شيءٍ يتشاغلون؟ أم لهم فراغٌ أبداً؟ فيقول المجيب: لا، ما شُغْلهم إلاَّ في افتضاضِ الأبكار، وأكْلِ فواكه الجنَّة، وزيارةِ الإخوانِ على نجائب الياقوت .
وهذا على مثالِ جَوابِ عامر بنِ عبد قيس، حين قيل له وقد أقبل مِنْ جهة الحلبة،

وهو بالشام: مَنْ سَبَقَ؟ قال: رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قيل: فَمَنْ صَلَّى؟ قال: أبو بكر قال: إنَّمَا أسألك عن الخيل قال: وأنا أجيبك عن الخير.
وهو كقول المفسِّر حين سُئل عن قوله: "لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وعَشِيّاً" فقال: ليس فيها بُكرةٌ وعشيٌّ، وقد صدَقَ القرآنُ، وصدَق المفسِّر، ولم يتَناكرا، ولم يتنافيا؛ لأنَّ القرآن ذهبَ إلى المقادير، والمفسِّرَ ذهبَ إلى الموجودِ، مِن دوَران ذلك مع غروب الشَّمس وطلوعِها.
وعلى ذلك المعنى رُوِي عن عمر أنَّهُ قال: مُتْعتان كانتا على عهد رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، أنا أنْهَى عنهما وأضربُ عليهما.
قد كان المسلمون يتكلمون في الصَّلاة ويطبِّقُون إذا ركعوا، فنَهَى عن ذلك إمامٌ من الأئمَّةِ، وَضَرَبَ عليه، بعد أن أظهَرَ النَّسخ، وعرَّفهم أن ذلك من المنسوخ، فكأنَّ قائلاً قال: أتنهانا عن شيءٍ، وقد كان على عهد النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فيقول: نعم، وقد قدَّم الاحتجاجَ في النَّاسخ والمنسوخ.
ومن العجَب أنَّ ناساً جعلُوا هذا القولَ على المِنبرِ من عيوبه، فإن لم يكن المعنى فيه على ما وصفنا، فما في الأرض أجهلُ من عُمَرَ حين يُظهرُ الكُفْرَ في الإسلام على مِنبر الجماعة، وهو إنَّما علاه بالإسلام، ثمَّ في شيءٍ ليس له حُجَّةٌ فيه ولا عِلة، وأعجَبُ منه تلك الأمّة، وتلك الجماعة التي لم تُنْكِرْ تلك الكلمةَ في حياته، ولا بَعْدَ موته؛ ثمّ تَرَكَ ذلك جميعُ التَّابعين وأتباع التَّابعين، حتَّى أفضَى الأمرُ إلى أهْلِ دهرنا هذا.
وتلك الجماعة هم الذين قتلوا عُثمان على أن سيَّرَ رجلاً، وهذا لا يقوله إلاّ جاهلٌ أو معاند، وعلى تأويل قوله: "هذَا نُزُلُهمْ يَوْمَ الدِّين" قال: "جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ المِهَادُ" وقال تعالى: "حَتَّى إذَا جَاؤُوها فُتِحَتْ أبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا ألَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذا، قالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ العَذَابِ عَلَى الْكَافِرِين" فجعل للنَّار خزائن، وجعل لها خزنة، كما جعل في الجنَّةِ خزائن وجعل لها خَزَنة.
ولو أنَّ جهنَّمَ فُتحَتْ أبوابُهَا، ونُحِّي عنها الخَزَنَة، ثمّ قيل لكلِّ لصٍّ في الأرض، ولكلِّ خائن في الأرض: دونَكَ؛ فقد أبِيحَتْ لكلَمَا دنا منها، وقد جُعِل لها خزائنٌ وخَزَنَة، وإنَّمَا هذا على مثالِ ما ذكرنَا، وهذا كثيرٌ في كَلاَمِ العَرَب.
والآيُ التي ذكرنا في صِدْق هذا الجواب، كلها حُجَجٌ على الخوارج في إنكارهم المنْزِلة بين المنزلتين.
شعر لخلف الأحمر في الحيات وقال خَلفٌ الأحمرُ في ذكر الحيّات:

يرون الموت دونى أن رأونـي / وصلٌ صفاً لنـابيه ذبـاب
من المتحرمات بكهف طودٍ / حرامٍ مـا يرام لـه جنـاب
أبى الحاوون أن يطئوا حمـاه / ولا تسرى بعقوتـه الـذئاب
كأن دماً أمـير علـى قـراه / وقطراناً أمـير بـه كـباب

إذا ما استجرس الأصوات أبدى لساناً دونه الموت الضباب

إذا ما الليل ألبسته دحاه سرى أصمى تصيح له الشعاب

فقلت لحيّان بن عتبي: لِمَ قال موسى بنُ جابر الحنفيُّ:

طرَدَ الأرْوَى فما تقربُهُ وَنَفَى الحَيّاتِ عَنْ بَيْض الحجلْه

قال: لأنَّ الذّئاب تأكُلُ الحيّات، قلت: فلم قال خلفٌ الأحمر:

ولا تسري بعَقوته الذئاب

قال: لأنَّ الذّئاب تأكُل الحيّات، فظننت أنَّه حَدَسَ ولم يقُل بعلم.
وقال الزِّياديُّ في يحيى بن أبي حفصة:

إني ويحيى وما يبغي كملتَمِسٍ صَيْداً وما نال منه الرِّيَّ والشِّبَعا

أهْوَى إلى باب جُحْرٍ في مقدَّمهِ مِثْلُ الْعَسيبِ تَرَى في رأسه قزَعا

اللَّوْنُ أرْبَدُ والأنيابُ شابكَةٌ عُصلٌ تَرَى السُّمَّ يجري بينها قِطعَا

يَهْوِي إلى الصَّوْتِ والظلماءُ عاكفة تَعَردَ السّيْلِ لاقى الحَيْدَ فاطَّلَعا

لو نَالَ كفَّكَ آبَتْ منه مخضبة بَيْضاءَ قد جللت أنيابها قزعا

بيعَتْ بوكْسٍ قليلٍ فاستقلّ بها من الهُزَالِ أبوها بعد ما ركعا

فردَّ عليه يحيى فقال:

كم حيّةٍ ترهَبُ الحيَّاتُ صَوْلَتَهُ يَحْمَى لِرَيْدَيْهِ قد غادرتُه قِطعا

يلقَيْنَ حَيَّة قفٍّ ذا مُسَاوَرَةٍ يُسْقَى به القِرْنُ من كأس الرَّدى جُرَعا

تكاد تسقُطُ منهنَّ الجلودُ لِمَا يعلَمْنَ منه إذا عايَنَّهُ قزَعَا

أصمَّ ما شمَّ من خَضْرَاءَ أيبسها أو مسّ من حجر أوْهاه فانْصَدَعَا

شعر في الحيات وقال آخر:

وكم طوت من حنشٍ راصدٍ للسفر في أعلى الثـنـيات

أصم أعمى لا يجيب الرقـى يفتر عن عصـلٍ حـديدات

منهرت الشدق رقود الضحى سارٍ طمورٍ في الدجـنـات

ذي هامةٍ رقطاء مفطوحة من الدواهي الجـبـلـيات

صل صفاً تنطف أنـيابـه سمـام ذيفـانٍ مـجـيرات

مطلن في اللحيين مطلاً إلى رأس وأشـداقٍ رحـيبـات

قدمن عن ضرسين واستأخرا إلى سماخين ولـهـوات

يسبته الصبح وطوراً لـه نفخٌ ونفثٌ في المـغـارات

وتارةً تـحـسـبـه مـيتـاً من طول إطراق وإخبـات

قال آخر، وهو جاهليٌّ:

لاهم إن كان أبو عمروٍ ظلـم وخانني في علمه وقد علـم

فابعث له في بعض أعراض اللمم لميمةً من حنشٍ أعـمـى أصـم

أسمر زحافاً من الرقط الـعـرم قد عاش حتى هو لا يمشي بـدم

فكلما أقصد منـه الـجـوع شـم حتى إذا أمسى أبو عـمـروٍ ولـم

يمس منه مـضـضٌ ولا سـقـم قام وود بـعـدهـا أن لـم يقـم

ولـم يقـم لإبـلٍ ولا غـنـم ولا لخـوفٍ راعـه ولا لـهـم

حتى دنا من رأس نضناضٍ أصـم فخاضه بين الشـراك والـقـدم

بمذربٍ أخرجه من جوف كم كأن وخز نـابـه إذا انـتـظـم

ومخالب الأسد وأشباهِ الأسد من السِّباع، تكون في غُلُفٍ، إذا وطئت على بُطونِ أكُفِّها ترفّعت المخالبُ ودخلَتْ في أكمام لها، وهو قولُ أبي زُبَيْد:

بحُجْنٍ كالمحاجِنِ في فتوخ يَقِيها قِضَّةَ الأرْض الدَّخيسُ

وكذلك أنياب الأفاعي، هي ما لم تعضَّ فمصُونَةٌ في أكمام، ألا تراه يقول:

فَخَاضَهُ بَينَ الشِّرَاكِ والقَدَمْ بمِذْرَبٍ أخرَجَهُ من جَوْفِ كِمْ

رجز وشعر في لعاب الحية وقال آخر:

أنعتَ نضناضاً كثِيرَ الصَّقْرِ مولده كمولِدِ ابن الدّهْرِ

كانا جميعاً وُلِدَا في شَهْرِ يظلُّ في مَرْأًى بَعِيدِ القَعْرِ

بَيْنَ حوَافِي سَدِرٍ وصَخْرْ

وقال:

وكيفَ وقد أسْهرْتَ عَيْنَك تبتغي عِنَاداً لِنَابَيْ حَيّةٍ قد تَربَّدا

من الصُّمِّ يكفي مرَّةٌ من لُعَابـِهِ وما عَاد إلاَّ كانَ في الْعَوْدِ أحْمَدَا

شعر لخلف في الأفعى وقال خلفٌ الأحمر وهي مخلوطةٌ فيها شيء، وله شيء، من الغبرة وما علمتُ أنّ وصف عَيْنَ الأفعى على معرفةٍ واختبار غيرَه وهو قولُه:

أفعَى رَخُوف العين مِطْرَاق البُكـرْ داهية قد صغرت من الكبرْ

صِلّ صَفاً ما ينطوي من القِصَرْ طويلة الإطراق من غير حسرْ

كأنَّما قدْ ذهبَتْ بـهِ الفِكَرْ شُقَّتْ له العَيْنانِ طُولاً في شَتَرْ

مهروتة الشدقينِ حولاء النظرْ جاءَ بها الطُّوفان أيامَ زَخَرْ

كأنّ صوتَ جلدِها إذا استدرّ نِشيشُ جمر عندَ طاهٍ مقتَدِرْ

أحاديث في الوزغ هشام بن عروة قال: أخبرني أبي أنَّ عائشة أمَّ المؤمنين رضي اللّه عنها كانَتْ تَقْتُلُ الأوْزَاغ، يحيى بن أبي أنَيسة، عن الزُّهري، عن عروة، عن عائشة قالت: سمعتُ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يقول للوزغ: "فويسِق".

قالت: "ولم أسمَعْ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أمَرَ بقتله".
قال: قالت عائشة رضي اللّه عنها : "سمعت سعداً" يقول: أمرَ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بقتله.
عبد الرحمن بن زياد قال: أخبرني هشامٌ عن عروة عن عائشة أنَّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال للوزَغ: "الفُويسق" أبو بكر الهذليُّ، عن مُعاذ عن عائشة قالت: دخلَ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عليَّ وفي يدي عُكَّازٌ فيه زُجٌّ، فقال: يا عائشة مَا تَصنعِين بهذا؟ قلت: أقتُلُ به الوزَغ في بيتي، قال: إن تفعلي فإنّ الدَّوَابَّ كلها، حين ألقي إبراهيمُ صلى اللّه عليه وسلم في النَّار، كانت تُطفئ عنه، وإنّ هذا كانَ ينفخُ عليه، فصَمّ وبَرص.
وهذه الأحاديثُ كلها يحتجُّ بها أصحابُ الجهالات، وَمَنْ زَعَمَ أنّ الأشياءَ كلها كانتْ ناطقةً، وأنها أممٌ مجراها مجرى الناس.
تأوَّل آيات من الكتاب وتأوّلوا قوله تعالى: "وَمَا مِنْ دَابَّةٍ في الأرْض ولاَ طائرٍ يَطِير بجنَاحَيه إلاَّ أَممٌ أمْثالُكُم مَا فرَّطْنَا في الْكِتابِ مِنْ شَيء"، وقالوا: قال اللّه عزَّ وجلَّ: "إنَّا عَرَضْنَا الأمَانَةَ عَلَى السَّموَاتِ وَالأرْضِ وَالجبَالِ فأبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنَها وأشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَهَا الإنْسَانُ إنَّهُ كانَ ظلُوماً جَهُولاً" وقال تعالى: "يَا جِبَالُ أوِّبي مَعَهُ وَالطَّيْرَ" وقال: "وَإنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَما يَتَفجرُ مِنْهُ الأنْهَارُ وَإنَّ مِنها لَما يشَّقّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المَاءُ وَإنَّ مِنْها لَما يَهْبطُ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ".
فذهبت الجهمية وَمَنْ أنْكَرَ إيجاد الطّبائع مذهباً، وذهب ابنُ حائطٍ ومن لَفَّ لَفّهُ من أصحابِ الجهالاتِ مذهباً، وذهب ناسٌ من غير المتكلمين، واتّبعوا ظاهرَ الحديثِ وظاهرِ الأشعَار، وزعموا أنّ الحجارة كانت تعْقِلُ وتَنْطِق، وإنَما سُلبت المنْطِق فقط، فأمَّا الطير والسِّباع فعلى ما كانَتْ عليه.
قالوا: والوَطواط، والصُّرد، والضفدعُ، مطيعاتٌ ومُثابات والعقرب، والحيَّةٌ والحِدأة، والغراب، والوزَغ، والكلب، و أشباهُ ذلك، عاصياتٌ معاقبات.
ولم أقف على واحدٍ منهم فأقول له: إنَّ الوزَغةَ التي تقتلها على أنَّها كانت تُضْرِم النَّار على إبراهيم أهي هذه أم هي مِن أولادِها فمأخوذة هيَ بذَنب غيرها؟ أم تزعم أنَّهُ في المعلوم أنْ تكون تلك الوزَغُ لا تلد ولا تَبيضُ ولا تُفْرخُ إلاَّ من ثيدين بدينها، ويذهبُ مذهبها؟ وليس هؤلاء مِمَّنْ يَفهَمُ تأويلَ الأحاديث، وأيَّ ضرب منها، يكون مردوداً، وأيَّ ضربٍ منها يكون متأوَّلاً، وأيَّ ضربٍ منها يقال إنَّ ذلك إنَّما هو حكايةٌ عن بَعْضِ القبائل.
ولذلك أقولُ: لولاَ مكانُ المتكلمين لهلكت العوامُّ، واختُطِفَتْ واستُرِقتْ، ولولا المعتزلة لهلك المتكلمون.
أحاديث في قتل الوزع شريكٌ عن التَّخَمِيِّ، عن ليثٍ، عن نافع، أنّ ابن عمرَ كان يقتُلُ الوزَغ في بيته ويقول هو شيطان.
هشام بنُ حسَّان، عن خالد الرَّبعيِّ، قال: لم يكن شيءٌ من خَشاشِ الأرض إلاَّ كان يُطفئُ النّار عن إبراهيم، إلاّ الوزَغ، فإنَّهُ كان ينفخ عليه.
حنظلة بن أبي سفيان، قال: سمعت القاسمَ بنَ محمَّد يقول إنَّ الأوازغ كانت يومَ حُرِق بيت المَقْدِس تنفُخُه والوطاوط بأجنِحَتها.
شريكٌ عن النَّخَعيِّ، عن جابرٍ، عن ابن عباسٍ، قال: الوَزَغ شَريكُ الشيطان.

أبو داود الواسطيّ قال: أخبرنا أبو هاشم، قال : مَنْ قتَلَ وزغةً حطَّ الله عنه سَبعين خَطيئةً، ومن قتل سبعاً كان كَعِتْق رقبة.
هشامُ بن حسّان، عن واصل مولى أبي عيينة، عن عقيل، عن يحيى بن يعمر، قال: لأنْ أقتُلَ مائَةً من الوزَغ أحبُّ إليَّ من أنْ أعتِقَ مائَةَ رقبة.
وهذا الحديثُ ليس من شكل الأوّل، لأنّ يحيى بنَ يعمر لم يزعمْ أنّهُ يقتله لكفره أو لكفر أبيه، ولكنها دابّةٌ تُطاعمُ الحيَّاتِ وتُزَاقُّها وتقاربُها، وربَّما قتلَتْ بعَضَّتها، وتكرَع في المرَق واللَّبن ثُمَّ تمجُّه في الإناء فينالُ النَّاسَ بذلك مكروهٌ كبيرٌ، من حيث لا يعلمون، وقتْلُه في سبيل قتْلِ الحيّاتِ والعقاربِ.
صنع السم من الأوزاغ وأهلُ السِّجْنِ يعملون منها سموماً أنفذَ من سمِّ البيش، ومن ريق الأفاعي، وذلك أنَّهم يُدخِلون الوزَغَ قارورةً، ثمَّ يصبُّون فيها من الزَّيت ما يغمرُها، ويضعونها في الشَّمسِ أربعين يوماً، حتَّى تختلط بالزَّيت وتصيرَ شيئاً واحداً، فإنْ مسَحَ السَّجِينِ منه على رغيف مَسْحةً يسيرةً فأكَلَ منه عشرةُ أنفسٍ ماتُوا، ولا أدري لِمَ توَخَّوْا من مواضع الدَّفْنِ عَتَبَ الأبواب.
حديث فيه نصائح يحيى بن أبي أُنَيسة، عن أبي الزُّبير، عن جابر بن عبد اللّه، قال: أمَرَنَا رسولُ اللّه صلى اللّه عليه وسلم بأرْبَعٍ ونَهانا عن أربع، أمَرَنا أن نُجيفَ أبوابنا، وأنْ نخمِّر آنيتنا، وأنْ نوكي أسقِيَتَنا، وأنْ نُطفئَ سُرُجَنا، فإنَّ الشَّيطانَ إذا وجد باباً مُجَافاً لم يفتحْه، وإناءً مخمَّراً لم يكشِفْه، وسقاءً مُوكًى لم يحلّه، وإنَّ الفُويسقة تأتي المصباح فتُضْرِمُه على أهل البيت، ونهانا عن أربع: نهانا عن اشتمال الصَّمَّاء، وأنْ يمشيَ أحدُنا في النَّعْلِ الواحدة أو الخُفِّ الواحد، وأنْ يَحْتَبيَ الرَّجُلُ مِنَّا في الثَّوبِ الواحدِ ليس عليه غيره، وأنْ يستلقي أحدُنا على ظهره ويرفعَ إحدى رجليه على الأخرى.
وهذا الحديث ليس هذا موضعَه، وهو يقع في باب جملة القول في النّار، وهو يقع بعد هذا الذي يلي القول في النعام.

ما جاء في الحيات من الحديث

شعبة أبو بسطام، قال أخبرني أبو قيس، قال: جلست إلى علقمة بن قيْس ، وربيع بن خثيم فقال ربيع: قولوا وافعَلُوا خيْراً تُجْزَوْا خيراً، وقال علقمة: مَن استَطاعَ مِنْكُمْ ألاَّ يَرَى الحيَّة، إلاَّ قتَلَهَا إلاَّ التي مثل الميل؛ فإنَّها جانٌّ، وإنَّهُ لا يضرُّه قتل حَيَّةٍ أو كافر.
إسماعيل المكي، عن أبي إسحاق، عن علقمة قال: قال عبد اللّه بن مسعود: من قتل حيَّةً فقتل كافراً.
ثم سمعت عبد الرحمن بن زَيد يقول: من قتل حَيَّةً أو عقرباً قتَلَ كافراً. وهذا ممَّا يتعلق به أصحابُ ابن حائطٍ ، وتأويله في الحديث الآخَر.
عبد الرحمن بن عبد اللّه المسعودي قال: سمعت القاسم بن عبد الرحمن، يقول: قال عبد اللّه: من قتَلَ حَيَّةً أو عقرباً فكأنَّما قتَلَ كافراً، فعلى هذا المعنى يكونُ تأليف الحديث.
سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة أن رسول اللّه صلى اللّه عَلَيْهِ وسلم قال: "مَا سَالمْنَاهُنّ مُذْ حارَبْنَاهُنّ".

سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، قالت عائشة: "مَنْ تَرَكَ قتْلَ حَيَّةٍ مخافة أثآرِهَا فعليه لَعْنَةُ اللّه والملائكة".
الرَّبيعُ بن صبيحٍ عن عَطاء الخُراسانيّ قال: كان فيما أُخِذَ على الحيّاتِ ألاَّ يَظْهرْن، فَمَنْ ظهَرَ منهنَّ حلَّ قتلُه، وقتالُهنَّ كقتال الكفَّار، ولا يَتْرُكُ قتلَهُنّ إلا شَاكٌّ.
وهذا ممَّا يتعلَّق به أصحابُ ابن حائطٍ.
محمد بن عَجْلانَ قال: سمعت أبي يحدِّث عن أبي هُريرة قال: قال رسول اللّه صلَّى اللّه عليه وسلم: "ما سالَمْنَاهُنَّ مُذْ حَارَبْنَاهُنَّ".
ابن جُريج قال: أخبرني عبد اللّه بن عُبيد بن عميْر قال: أخبرَني أبو الطفيل أنَّه سمع علي بنَ أبي طالب رضي اللّه عنه يقول: اقتلوا من الحيَّات ذا الطفيتين، والكلب الأسودَ البهيم ذا الغُرّتَين.
قال: والغُرّة: حُوّة تكون بعينيه.
طعام بعض الحيوان قال صاحب المنطق: الطير عَلَى ضربين: أوابدُ وقواطعُ، ومنه ما يأكل اللحم لا يأكل غيْرَه وإن لم يكن ذا سلاح، فأمَّا ذو السِّلاح فوَاجِبٌ أن يكون طعامُهُ اللَّحم، ومن الطَّير ما يأكُلُ الحُبُوبَ لا يَعْدُوها، ومنه المشترك الطِّباع، كالعصْفور والدَّجاج والغُراب، فإنها تأكلُ النوعين جميعاً، وكطير الماء، يأكُلُ السَّمَكَ ويلقط الحبّ، ومنه ما يأكل شيئاً خاصّاً، مثل جنس النّحل المعَسِّل الذي غذاؤه شيء واحد، وجنس العنكبوت، فإن طُعْمَ النحل المعسِّل العسل، والعنكبوت يعيشُ من صيد الذباب.
ما له مسكن من الحيوان ومن الحيوان ما له مسكنٌ ومأوًى، كالخُلْد، والفأر، والنَّملِ، والنَّحل، والضّبّ، ومنه ما لا يتَّخذُ شيئاً يرجع إليه كالحيَّاتِ لأنَّ ذُكورةَ الحيَّاتِ سَيَّارةٌ، وإناثُهَا إنَّما تُقيم في المكان إلى تمامِ خُروج الفِرَاخ من البَيض، واستغناء الفِرَاخ بأنفُسِها، ومنها ما يكونُ يأوي إلى شُقوق الصُّخورِ والحِيطانِ ، والمداخِلِ الضَّيِّقة، مثل سامّ أبرص.
قال: والحيّات تألفها كما تألف العقاربُ الخنافس، والعَظايا تألف المزابلَ والخراباتِ، والوزَغُ قريبةٌ من النَّاس.

زعم زرادشت في العظايا وسوامّ أبرص

وزعم زَرَادَشْت أنَّ العظايا ليستْ من ذواتِ السُّموم، وأنَّ سامَّ أبرصَ من ذواتِ السُّموم، وأنّ أهرمن لما قعد ليقسِمَ السُّمومَ، كان الحظ الأوْفرُ لكلِّ شيء سبقَ إلى طلبه، كالأفاعي، والثَّعابين والجرّارات، وأنّ نصيبَ الوزَغ نصيبٌ وسَطٌ قصْد، لا يكمل أن يقتُل، ولكنّه يزاقُّ الحيَّة، فتُميرُهُ ممّا عندها، ومتى دَبَرَ الوزَغُ جاءَ منه السمُّ القاتل، أسرعَ من سمّ البيش، ومن لُعاب الأفاعي، فأمَّا العَظاية فإنّها احتبسَتْ عن الطَّلبِ حتى نَفَدَ السمُّ، وأخذ كلُّ شيء قِسْطَهُ، على قدْر السَّبق والبكور، فلما جاءت العظاية وقد فَني السمُّ، دخلها من الحسرةِ، وممّا علاها من الكِرْب، حتى جعلت وجهها إلى الخرابات والمزابل، فإذا رأيْتَ العظاية تمشي مشْياً سريعاً ثمّ تقِفُ، فإنَّ تلك الوقفة إنَّمَا هي لما يعرضُ لها من التذكُّر والحسْرة على ما فاتها مِنْ نصيبها من السمّ.
رد عليه ولا أعلم العَظاية في هذا القياس إلاَّ أكثر شُروراً من الوزَغ؛ لأنها لولا

إفراط طباعها في الشَّرارة، لم يدخلها من قوَّة الهمِّ مثلُ الذي دخلَها ولم يستَبن للنَّاس من اغتباط الوزَغ بنصيبه من السمِّ، بقدْر ما استبان من ثُكل العظايةِ، وتسلُّلها وإحضارها وبكائها وحُزْنها، وأسَفِها على ما فاتها من السَّمِّ.
زعم زرادشت في خلق الفأرة والسِّنّور ويزعم زَرَادشْت، وهو مذهبُ المجوس، أنَّ الفأرة مِنْ خلق اللّه، وأنّ السِّنّورَ من خَلْق الشَّيطان، وهو إبليس، وهو أهْرمَن، فإذا قيل له: كيف تقول ذلك والفأرةُ مُفسِدةٌ، تجذب فتيلة المِصباحِ فتحرق بذلك البيتَ والقبائلَ الكثيرة، والمدنَ العِظام، والأرباضَ الواسعة، بما فيها من النَّاس والحيوانِ والأموال، وتقرضُ دفاتر العلْم، وكتبَ اللّه ، ودقائق الحساب، والصِّكاكَ، والشُّروطَ؛ وتقرضُ الثِّيابَ، وربَّما طلبت القُطنَ لتأكُلَ بزْره فتدَعُ اللِّحاف غِرْبالاً، وتقرض الجُرُب، وأوْكِية الأسقِيَةِ والأزْقاق والقربِ فتخرجُ جميعَ ما فيها؛ وتقع في الآنية وفي البئر، فتموت فيه وتُحْوِج النَّاسَ إلى مُؤَنٍ عظام؛ وربَّما عضّت رِجْلَ النَّائم، وربَّما قتلت الإنسان بعضّتها، والفَأر بخُراسانَ ربَّما قطعتْ أذن الرَّجُل، وجرْذَانُ أنْطاكِية تَعْجِزُ عنها السَّنانير، وقد جلا عنها قومٌ وكرهَها آخرون لمكانِ جِرْذانها،وهي التي فجرت المسنَّاة، حتى كان ذلك سببَ الحَسْر بأرض سبأ؛ وهي المضروب بها المثَلَ، وسَيْل العَرِم ممَّا تؤرِّخُ بزمانه العَرب، والعَرِم: المسنَّاة، وإنما كان جُرَذاً.
وتقتل النَّخْل والفسِيل، وتخرِّب الضَّيعة، وتأتي على أزمَّةِ الركاب والخُطُم، وغير ذلك من الأموال.
والنّاسُ ربما اجتلبوا السَّنانير ليدفعوا بها بوائق الفأر فكيفَ صار خَلقُ الضَّارِّ المفسِدِ من اللّه، وخَلقُ النّافِع من الضَّرَرِ منْ خَلق الشيطان؟ والسِّنَّور يُعدى به على كلِّ شيءٍ خَلقهُ الشَّيطانُ من الحيَّاتِ، والعقارب، والجِعلان، وبناتِ ورْدان، والفأرةُ لا نَفْعَ لها، ومؤَنها عظيمة.
قال: لأنَّ السِّنَّورَ لو بَالَ في البحر لَقتَلَ عشْرَةَ آلافِ سمكة.
فهَلْ سمعت بحُجّةٍ قطُّ، أو بحيلةٍ، أو بأضحوكةٍ، أو بكلام ظهر على تلقيح هرة، يبلغ مُؤَن هذا الاعتلال؟ فالحمد للّه الذي كان هذا مقدارَ عقولهم واختيارهم.
وأنشد أبو زَيْد:

واللّه لو كنْتُ لهذا خالِصَا   لكنْتُ عبداً آكلُ الأبارصا

يعني جماعَ سامِّ أبْرص: أبارص.
أثر أكل سام أبرص ونحوه وسامُّ أبرص ربَّما قتَلَ أكله، وليس يُؤكل إلاَّ من الجوع الشَّديد، وربما قتَلَ السَّنانيرَ وبناتِ عِرْس، والشَّاهْمُرْكَ، وجميع اللَّقاطات.
وقال آخر:

كَأنَّ الْقوْمَ عُشُّوا لَحْمَ ضَأنٍ   فهُمْ نَعِجُونَ قد مالَتْ طُلاَهمْ

وهو شيءٌ يعرض عن أكْلِ دَسَم الضَّأن، وهو أيضاً يلقى على دسمه النّعاس، وقد يفعل ذلك الحبق، والخشخاش.

والخشخاشُ يسمَّى بالفارسيّة أنارْ كِبُو وتأويله رمَّان الخسّ، وإنما اشتقَّ له ذلك إذ كان يورثُ النُّعاس، كما يورثه الخس.
أكل السماني وأكلُ الطّعام الذي فيه سمَان يُورِثُ الدُّوَار، وزعموا أنَّ صبيّاً من الأعراب فيما مضى من الدَّهر، صادَ هامةً عَلَى قبر، فظنها سُمانَ، فأكلها فغثتْ نفسه، فقال:

نفسي تَمَقَّسُ مِنْ سُمَانَ الأقبرِ

استطراد لغوي ويقال: غثت نفسه غثىاناً وغثياً ، ولَقِسَتْ تَلْقسُ لَقساً، وتَمَقَّست تَتَمقَّسُ تمقساً: إذا غثِيت.

أكل الأعراب للحيات

وأخبرني صباح بن خَاقان، قال: كنتُ بالبادية، فرأيت ناساً حَولَ نَارٍ فسألتُ عنهم، فقالوا: قد صادوا حياتٍ فهم يشوُونها ويأكلونها؛ إذْ نَظرْتُ إلى رجلٍ منهم ينهش حَيةً قد أخرجَها من الجمر، فرأيته إذا امتنعتْ عليه يمدُّها كما يُمدُّ عصَبٌ لم ينضَجْ، فما صرفتُ بصري عنه حتّى لُبط به، فما لبثَ أن مات، فسألتُ عنْ شأنه،فقيلَ لي: عجَّلَ عليها قبلَ أن تنضَج وتَعملَ النّار في مَتْنها.
وقد كان قد بَغدادَ وفي البَصْرةِ جماعةٌ من الحوّائين، يأكلُ أحدُهم أيَّ حيّةٍ أشرتَ إليها في جَوْنَتهِ، غير مشويَّة، وربَّما أخَذَ المرَارَةَ وسْط راحِته، فلطعها بلسانه، ويأكلُ عشرين عقربانة نِيَّةً بدرهم، وأما المشويُّ فإنَّ ذلك عنده عُرْسٌ.
شعر في الحيات وقال كُثيِّر:

وما زَالَتْ رُقاكَ تَسُلُّ ضِغْني فتُخْرِجُ من مكامِنِها ضِبابي

وتَرْقِيني لك الحاوُونَ حتّى أجابَتْ حَيَّةٌ خَلفَ الحِجَاب

وقال أبو عَدنان، وذكر ابنَ ثرْوانَ الخارجيَّ، حين كان صار إلى ظهْر البصرة، وخرج إليه مَنْ خرج مِنْ بني نُمير:

حَسِبْتَ نُميراً يا ابن ثرْوَان كالألَى لَقِيتَهُمُ بالأمْس: دُهلاً ويَشْكُرَا

كما ظَنَّ صَيَّادُ العَصَافِيرِ أنَّ في جَمِيع الكُوَى جَهْلاً فِرَاخاً وأطيُرَا

فأدْخَل يوماً كفَّهُ جُحْرَ أسودٍ فشَرْشَرَهُ بالنَّهش حتى تشرْشَرَا

أراد قول رؤبة:

كنتُمْ كمن أدْخَلَ في جُحْرٍ يَدَا فأخْطأ الأفْعَى ولاَقى الأسْوَدَا

لو مسّ حَرْفيْ حجَرِ تَقصَّدا   بالشَّمِّ لا بالسمِّ منه قصدا

فقدَّمَ الأسودَ على الأفعَى، وهذا لا يقوله مَن يعرف مقدار سمِّ الحيات.
وقال عنترة:

حلَقْنا لَهُمْ والخيلُ تَرْدِي بنا معاً   نزايلُكُمْ حتّى تَهرُّوا العَواليا

عَوَالِيَ سُمْرٍ مِنْ رماحِ رُدَينةٍ   هَريرَ الكلابِ يَتَّقِينَ الأفاعيا

حديث في الحية وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "اتقُوا ذَا الطُّفْيَتَيْنِ والأبتَر".
شبّه الخيطينِ على ظهره بخُوص المقْل، وأنْشِدْتُ لأبي ذُؤيب:

عَفَتْ غَيْرَ نُؤْيِ الدَّار لأياً أبينُهُ   وأقطاع طُفْيٍ قد عَفَتْ في المعاقل

وَالطُّفْي: خُوص المقْل.
وهم يَصفونَ بَطْن المرأةِ الهيفاء الخميصَةِ البطْن، ببطن الحيَّةِ، وهي الأيْم، وقال العجَّاج:

وبَطْنَ أيمٍ وقوَاماً عُسْلُجَا

مناقضة شعرية وقال أدْهَمُ بنُ أبي الزَّعْراء، وشبَّه نفسَه بحيَّةٍ:

وما أسودٌ بالبأس ترتاح نفسه   إذا حلبة جاءت ويطرق للحس

به نقطٌ حمرٌ وسودٌ كأنما   تنضح نضحاً بالكحيل وبالورس

أصم قطارىٌ يكون خروجه   قبيل غروب الشمس مختلط الدمس

له منزلٌ أنف ابن قترة يغتذى   به السم لم يظهر نهارا إلى الشمس

يقيل إذا ما قال بين شواهقٍ   تزل العقاب عن نفانفها الملس

بأجرأ مني يا ابنة القوم مقدماً   إذا الحرب دبت أو لبست لها لبسى

فأجابه عَنْتَرَةُ الطائي، فقال:

عَسَاكَ تمنى مِنْ أراقمِ أرْضِنا   بأرْقَمَ يُسْقى السمَّ مِنْ كلِّ مَنْطِفِ

وقال عنترة:

أترجو حياةً يا ابن بشر بن مسهرٍ وقد علقت رجلاك في ناب أسودا

أصم جبالـي إذا غض عضة تزايل عنـه جـلـده فـنـبـددا

بسلع صفاً لم يبد للشمس قبلـهـا إذا ما رآه صاحب الـيم أرعدا

له ربقة في عنقه من قميصـه وسائره عن متنـه قد تـقـددا

رقود ضحياتٍ كـأن لـسـانـه إذا سمع الإجراس مكحال أرمدا

يفيت النفوس قبل أن يقع الرقـى وابن أبرق الحاوي عليه وأرعدا

شعر في الحية وقال آخر:

لا ينبت العشب في وادٍ تكون بـه ولا يجاورها وحشٌ ولا شـجـر

ربداء شـابـكـة الأنـيـاب ذابـلـة ينبو من اليبس عن يافوخها الحجر

لو سرحت بالندى ما مسها بـلـلٌ ولو تكنفها الحاوون مـا قدروا

قد حاوروها فما قام الرقاة لـهـا وخاتلوها فما نالوا ولا ظـفـروا

تقصر الورل العادي بضربتـهـا نكزاً ويهرب عنها الحية الذكـر

جملة القول في الظليم

فممّا فيه من الأعاجيب أنّه يغتذي الصّخرَ، ويبتلع الحِجارة، ويعمد إلى المرْو، والمرْوُ من الحجارة التي توصف بالملاسة، ويبتلع الحصى، والحصى أصلب من الصَّخْر، ثم يُمِيعه ويذيبه في قانصته، حتَّى يجعله كالماء الجاري، ويقصدُ إليه وهو واثقٌ باستمرائه وهضْمه، وأنّه له غذاءٌ وقِوامٌ.
وفي ذلك أعجوبتان: إحداهما التَّغذّي بما لا يُتَغذَّى به، والأخرى استمراؤه وهضْمُه للشيء الذي لو أُلقِيَ في شيء ثم طبخ أبداً ما انحلّ ولا لان، والحجارة هو المثل المضروبُ في الشدَّة، قال الشاعر:

حتى يَلِينَ لِضِرْسِ الماضغ الحَجَرُ

وقال آخر:

مَا أطْيَبَ العَيْشَ لو أنَّ الْفتَى حَجَرٌ تنبو الحوادثُ عنهُ وهو ملمـومُ

ووصف اللّه قلوب قومٍ بالشدَّة والقسوة، فقال: "فَهِيَ كالحِجَارةِ أوْ أشَدُّ قَسْوَةً"، وقال في التشديد: "نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ"، لأنه حين حذر النَّاسَ أعلمهم أنّه يُلقي العُصاة في نار تأكلُ الحجارة.
ومن الحجارةِ ما يتّخذه الصقّارونَ عَلاةً دونَ الحديد؛ لأنّه أصبرُ على دقِّ عِظام المطارق والفِطّيسات. فجوفُ النعامة يُذِيب هذا الجوهرَ الذي هذه صفته.

شواهد لأكل النعام الحصى والحجارة

وقال ذو الرُّمّة:

أذَاكَ أمْ خاضبٌ بالسِّيِّ مرتـعُـهُ   أبو ثلاثينَ أمْسى وهو منْقلِـبُ

شخت الجزارة مثْلُ البيتِ سـائرُه من المُسوح خِدَبٌّ شوقب خَشـبُ

كأنَّ رجليه مِسْماكانِ من عُـشَـرٍ   صَقْبانِ لَمْ يَتَقشّرْ عنهما النّـجَـبُ

الهَـاهُ آءٌ وَتَـنُّـوم وعُـقْـبَـتُـهُ   مِنْ لائح المرْوِ والمَرْعَى له عُقَب

وقال أبو النَّجْم:

والْمَروُ يُلْقِيه إلى أمعـائه   في سَرْطمٍ مَادَ على التوائهِ

يَمُورُ في الحلق على عِلْبَائِهِ   تَمَعُّجَ الحيَّةِ في غِشَـائِهِ

هادٍ ولو حَارَ بحَوصَلائِهِ

إذابة جوف الظليم للحجارة

ومَنْ زَعَمَ أنَّ جَوفَ الظَّلِيمِ إنما يُذيبِ الحجارة بقيظ الحرارة فقد أخطأ، ولكنْ لا بدَّ من مقدار للحرارة و نحو غرائز أخر، وخاصيّات أخر، ألا ترَى أنَّ القُدورَ التي يُوقد تحتها الأيَّامَ واللَّيالِيَ، لا تذوب.

القول في الخاصِّيَّات والمقابلات والغرائز

وسأدلك على أنّ القولَ في الخاصيّاتِ والمقابلات والغرائز حقٌّ، ألا ترى أنَّ جوفَ الكلْب والذّيبِ يذيبان العظام ولا يذيبان نَوَى التمر، ونَوَى التمر أرخَى وألين وأضعفُ من العظام المصمَتة، وما أكثر ما يَهضِمِ العظم، وقد يهضم العظمَ جوفُ

الأسد وجوفُ الحيَّةِ، إذا ازدردت بضع اللحْمِ بالشَّرَهِ والنَّهَم، وفيها بعضُ العِظام.
والبراذين التي يُحِيلُ أجوافُها القتَّ والتِّبن رَوْثاً، لا تستمري الشعير.
والإبلُ تقبضُ بأسنانِها على أغصانِ أمِّ غَيْلان، وله شوكٌ كصَياصي البقر، والقُضبانُ علكة يابسة جرد، وصلاب متينة، فتستمرئُها وتجعَلُها ثَلْطاً، ولا تقْوَى على هضْم الشَّعِير المنْقَع، وليس ذلك إلاَّ بالخصائص والمقابلات.
وقد قُدِّر كلٌّ شيء لشيء، ولولا ذلك لما نفذ خرطومُ البعوضةِ والجِرجسة في جلد الفيلِ والجاموس، ولَمَا رأيت الجاموسَ يهربُ إلى الانغماس في الماء مرّةً، ومرّةً يتلطَّخ بالطِّين، ومرّةً يجعله أهله على ربيث الدكان، ولو دفعوا إليك مِسَلّةً شديدةَ المتْن، لَمَا أدخلْتَها في جلد الجاموس إلاَّ بَعدَ التكلُّفِ، وإلاّ ببَعْضِ الاعتماد.
والذي سخَّر جلدَ الجاموسِ حَتّى انفرَى وانصدع لطَعْنةِ البعوضة، وسخَّر جلد الحمار لطَعنة الذُّباب، وسخَّر الحجارة لجوف الظليمِ، والعَظْمَ لجوف الكلب هو الذي سخَّر الصَّخْر الصُّلبَ لأذناب الجراد، إذا أرادتْ أن تُلقي بيضها؛ فإنَّها في تلك الحال مَتَى عقدَتْ ذنبها في ضاحي صخْرةٍ انصدعَتْ لها، ولو كان انصداعُها من جهة الأسْر، ومن قوَّة الآلة، ومن الصَّدم وقوَّة الغمز، لانصدعت لما هُو في الحسِّ أشدُّ وأقوى، ولكنَّه على جهة التَّسخير، والمقابلات، والخصائص.
وكذلك عُود الحَلْفاء، مع دِقته ورخَاوته ولِين انعطافه، إذا نَبتَ في عُمق الأرضِ، وتلقَّاه الآجُرُّ والخزَفُ الغليظ، ثقبَ ذلك، عند نباته وشبابه، وهو في ذلك عبقرٌ نضير.
وزعم لي ناسٌ من أهل الأردُنِّ، أنّهم وجَدوا الحلْفاء قد خَرَقَ جوف القار.
وزعم لي أبو عتّاب الجرّار، أنّه سمع الأكَرَة يُخبرونَ أنَّهم وجدوه قد خَرَقَ فَلْساً بَصْرِيّاً.
وليس ذلك لشدَّةِ الغمزِ وحِدّة الرأس، ولكنه يكون على قدْر ملاقاة الطباع.
ويزعمون أنَّ الصَّاعقة تسقُطُ في حانوت الصَّيقل فتُذيب السُّيوفَ بطبعها، وتدع الأغمادَ عَلَى شبيهٍ بحالها، وتسقُطُ عَلَى الرَّجلِ ومعه الدراهمُ فتُسبك الدَّراهم، ولا يصيبُ الرجُلَ أكثرُ من الموت.
والبحريُّونَ عندنا بالبصرة والأبُلَّة التي تكون فيها الصَّواعق، لا يدعون في صحُون دُورهم وأعالي سُطوحهم، شيئاً من الصُّفر إلاَّ رَفعوه؛ لأنّها عندهم تنقضُّ من أصل مخارجها، على مقدارٍ من محاذاة الأرض، ومقابلة المكان، فإذا كان الصُّفر لها ضاحياً، عَدَلتْ إليه عن سَنَنها.
وما أنكر ما قالوا، وقد رأيتُهم يستعمِلون ذلك.
وقد يَسْقط النَّوى في تُرابِ المتوضَّأ، فإذا صهرجَ نَبتَ، فإذا انتهى إلى الصَّاروج أمسك، وإن كان الصَّاروج رقيقاً فإنْ قُيِّرَ، وجُعل غِلظُهُ بقدر طول الإبهام، نبت ذلك النَّوى حتَّى يخرق ذلك القار.
ولو رام رَجُلٌ خرْقه بمسمار أو سِكّة، لما بلغ إرادته حتى يشقَّ على نفْسه.
والذي سخّر هذه الأمورَ القويَّة في مذْهب الرَّأي وإحساس النَّاس، هو الذي سخَّر القُمقُم، والطَّيجن، والمِرْجل، والطَّستَ، لإبرة العقرب، فما أُحصي عددَ مَنْ أخبرني من الحوّائين، من أهل التَّجارب، أنّها ربَّما خرجتْ من جُحرها في اللَّيل لطلَب الطُّعم، ولها نشاط وعُرَام، فتضرب كلّ ما لِقيتْ ولقِيها: من حيوانٍ، أو نبات، أو

جماد.
وزعم لي خاقانُ بن صبيح واستشهد المثنَّى بنَ بِشْر، وما كان يحتاجُ خَبَرُه إلى شاهدٍ؛ لصدقه أنّه سمعَ في داره نَقْرَةً وقعتْ على قُمقُم وقد كان سمع بهذا الحديث فنهض نحوَ الصَّوت، فإذا هو بعقرب فتعاورها هو والمثني بنعالهما حتى قتلاها، ثمَّ دعَوَا بماء فصبَّاه في القُمقُم في عشِيَّتهما، وهو صحيحٌ لا يسيلُ منه شيء.
فمن تعجّبَ من ذلك فليصرفُ بَدِيّاً تعجُّبَه إلى الشيء الذي تقذفه بذنبها العقربُ في بدَن الإنسان والحمير والبغال، فليفكِّرْ في مقدار ذلك من القلة و الكثرة، فقد زعم لي ناسٌ من أهل العَسْكر أنّهم وزنوا جَرَّارَةً بعد أنْ ألْسَعُوها فوجدوا وزنَها على تحقيق الوزن على مقدارٍ واحد، فإن كان الشيء المقذوفُ من شكل الشيء الحارّ، فلم قصَّرت النَّارُ عن مبلغ عمله؟ وإن كان من شِكل الشيء البارد فلم قصَّر الثلج عن مَبْلغ عمله؟ فقد وَجَبَ الآنَ أنَّ السمَّ ليس يقتل بالحرارة، ولا بالبرودة إذا كان بارداً، ولو وجَدْنا فيما أردنا شيئاً بلغ مبلَغَ الثَّلج والنار لذكرْناه.
فقد دلَّ ما ذكرنا على أنّ جوفَ النَّعامةِ ليس يذُيبُ الصَّخرَ الأملسَ بالحرارة، ولكنَّه لا بدّ على كلِّ حالٍ من مقدارِ من الحرارة، مع خاصِيَّات أُخَرَ، ليستْ بذاتِ أسماء، ولا تعرفُ إلاَّ بالوهم في الجملة.
علة قتل السم والسمّ يقتِل بالكمّ والكَيف والجنِس، والكَمُّ المقدار، والكيف: الحدّ، والجنس: عَيْنُ الجوهرِ وذاتُه، وتزعمُ الهِنْدُ أنّ السمّ إنما يقتُل بالغرابة، وأنّ كلّ شيء غريب خالَطَ جَوْفَ حيوَانٍ قتَلهُ، وقد أبى ذلك ناسٌ فقالوا: وما بالُه يكون غريباً إذا لاقى العصبَ واللَّحم، وربَّما كان عاملاً فيهما جميعاً، بل ليس يقتل إلاَّ بالجنس، وليس تُحسُّ النّفسُ إلاَّ بالجنس، ولوكان الذي يميت حِسَّهُما إنَّما يميتهُ لأنّهُ غريبٌ ، جَازَ أيضاً أنْ يكون الحَسَّاس إنما حَسّ لأنه غريب، ولو كان هذا جائزاً لقيل في كلِّ شيء.
وقال ابن الجهم: لولا أنّ الذهب المائعَ، والفِضّة المائعة، يجمدان إذا صارا في جوف الإنسان، وإذا جَمَدَا لم يجاوزَا مكانهَما لكانَا من القواتل بالغرابة.
وهذا القول دعْوَى في النَّفس، والنّفْسُ تضيق جدًّا، وما قرأت للقدماء في النفْس الأجلادَ الكثيرة، وإنما يستدلُّ ببقاءِ تلك الكتبِ على وَجْهِ الدَّهر إلى يومنا هذا، وَنسْخ الرِّجَال لها أمَّةً بعدَ أمَّة، وعمراً بعد عمر، على جهل أكثرِ النّاسِ بالكلام، والمتكلمون يريدون أن يَعْلمُوا كلّ شيء، ويأبى اللّه ذلك، فهذا بابٌ من أعاجيب الظليم.

باب آخر وهو أعجب من الأول

وهو ابتلاعُهُ الجمرَ حتى ينفُذَ إلى جوفه، فيكونَ جوفُه هو العامل في إطفائه، ولا يكون الجمرُ هو العامل في إحراقه. وأخبرني إبو إسحاقَ إبراهيمُ بن سَيّارِ النّظّام وكنّا لا نرتاب بحديثه إذا حكى عن سماعٍ أو عِيانٍ أنّهُ شَهِدَ محمد بنَ عبد اللّه يلقي الحجَرَ في النّار، فإذا عاد كالجمر قذَف به قُدّامَهُ، فإذا هو يبتلعه كما يبتلع الجَمْرَ، كنتُ قلت له: إنَّ الجَمْرَ سخيفٌ سريعُ الانطفاءِ إذا لقي الرُّطوبات، ومتى أطبقَ عيه شيء يحُولُ بَيْنَهُ وبين النّسيم خَمَدَ، والحَجَرَ أشدُّ إمساكاً لما يتداخله من الحرارة، وأثقلُ ثِقلاً، وألزق لزُوقاً وأبطأ انْطِفاءً، فلو أحميْتَ الحجارة فأحماها ثم

قذف بها إليه، فابتلع الأولى فارتَبت به ، فلما ثنى وثلّثَ اشتدّ تعجبي له ، فقلت له: لو أحميت أواقيَّ الحديدِ، ما كان منها رُبْعَ رطلٍ ونصف رطل ففعل، فابتلعه، فقلت: هذا أعجبُ من الأوّلِ والثّاني، وقد بقيَتْ علينا واحدةٌ، وهو أن ننظر: أيَسْتَمْرِي الحديد كما يستمْرِي الحجارة؟ ولم يتركنا بعضُ السفهاء وأصحاب الخُرْق أن نَتَعرَّفَ ذلك على الأيَّام، وكنت عَزْمتُ على ذبْحه وتفتيش جَوْفه وقانصته، فلعلّ الحديد يكون قد بقي هناك لا ذائباً ولا خارجاً فعمَد بعضُ نُدمائه إلى سِكّينٍ فأُحْمِيَ، ثم ألقاه إليه فابتلعه، فلم يجاوز أعلى حلقه حتى طلع طرفُ السّكين من موضع مَذْبحه، ثمَّ خرّ مَيِّتاً، فمنَعَنَا بخُرقِه من استقصاء ما أردْنا.

شبه النعامة بالبعير وبالطائر

وفي النَّعامة أنّها لا طائرٌ ولا بعير، وفيها من جهة المنْسمِ والوظيف والخَرَمَةِ، والشّقّ الذي في أنفه، ما للبعير، وفيها من الرِّيش والجَناحَين والذَّنبِ والمنِقْار، ما للطائر، وما كان فيها من شكل الطَّائر أخرَجَها ونقلها إلى البيض، وما كان فيها من شكل البعير لم يخرجها ولم ينقلها إلى الوُلدِ، وسماها أهل فارس: أشْتُرْمُرْغ، كأنّهم قالوا: هو طائر وبعير.
وقال يحيى بن نوفل:

فأنْتَ كساقطٍ بين الحشَايا تَصير إلى الخَبيثِ من المصِير

ومثْلُ نَعامةٍ تُدْعَى بعيراً تعاظُمِها إذا ما قيل طِيري

فإن قيل احْمِلي قالت فإنِّي مِنَ الطَّير المُربَّةِ بالوُكور

ثمَّ هجا خالداً فقال:

وكنتَ لَدَى المُغيرة عَيرَ سَوْءٍ تَصُول من المَخافةِ للزَّئير

لأعلاجٍ ثمانيةٍ وعِلْجٍ كَبير السِّنِّ ذي بصَرٍ ضَرير

هَتْفتَ بكلِّ صَوْتِكَ: أطْعِمُوني شراباً ثمَّ بُلْتَ عَلى السَّرير

وإنما قيل ذلك في النَّعامة؛ لأنّ النَّاسَ يضربون بها المثلَ للرّجل إذا كان مِمَّنْ يعتلُّ في كُلِّ شيء يكلفونه بعِلة، وإن اخْتَلَفَ ذلك التكليف، وهو قولهم: إنما أنتَ نعامةٌ، إذا قيل لها احملي قالت: أنا طائر، وإذا قيل لها طيري قالتْ: أنا بعير.

قصة أذني النعامة

وتزعمُ الأعرابُ أنَّ النّعامة ذهبَتْ تطلُبُ قرنَين، فرجعت مقطوعة الأذنين؛ فلذلك يسمُّونه الظليم، ويصفونه بذلك.
وقد ذكر أبو العِيالِ الهُذليّ ذلك، فقال:

وإخال أنَّ أخاكم وعِتَابَه إذ جاءكم بتعطُّفٍ وسكون

يُمْسِي إذا يُمسِي ببطن جائع صِفْرٍ ووجهِ ساهمٍ مَدْهُون

فَغَدَا يمُثُّ ولا يُرى في بَطْنِهِ مِثْقالُ حَبَّةِ خَرْدلٍ موزُون

أو كالنّعامةِ إذْ غدت من بيتها ليُصَاغ قرْنَاهَا بِغَيْر أذين

فاجْتُثَّتِ الأذْنان منها فانْثَنَتْ صَلماءَ ليسَتْ مِنْ ذواتِ قُرُون

تقليد الغراب للعصفور ويقولون: ذهَبَ الغُراب يَتَعَلَمُ مشية العُصفور، فلم يتعلّمْها، ونسِيَ مِشيتَهُ، فلذلك صارَ يحجِلُ ولا يَقفِزُ قفزان العُصْفور.
مشي طوائف من الحيوان والبرغوث والجرادةُ ذات قفز، ولا تمشي مِشْية الدِّيكِ والصّقرِ والبازي، ولكن تمشي مِشية المقيَّد أو المُحَجَّل خِلْقه.
قال أبو عِمران الأعمى، في تحوُّل قُضاعة إلى قحطانَ عَنْ نزار:

كما اسْتَوحَشَ الحيُّ المقيمُ ففارقوا الخَليط فلا عزَّ الّذين تَحَمّلوا

كتاركِ يوماً مِشْيَةٍ مِنْ سَجِيَّةٍ لأخرى ففاتَتْهُ فأصبَحَ يَحْجِل

عظام النعامة

ومن أعاجيبها أنّها مع عظمِ عظامها، وشدّة عدْوها، لا مخَّ فيها.
وفي ذلك يقول الأعلم الهذلي:

عَلَى حتِّ البُرَايةِ زَمْخَرِيِّ السّ واعدِ ظلَّ في شَرْيٍ طِوال

يعني ظليماً شبّه بِهِ عدْوَ فرسِهِ، والحَتُّ: السريع، والشّري: الحنظل، وبُرايته: قوّته على ما يَبْريه من السَّير، والسَّواعد: مجاري مخّه في العظم وكذلك مجاري عُروق الضّرع، يقال لها السَّواعد.
قال: ونظنّ إنَّما قيل لها ذلك لأنّ بعضَها يُسْعِدُ بعضاً، كأنّه من التّعاون أو من المواساة.
قال: والزَّمْخَريّ: الأجوف، ويقال: إنَّ قصَبَ عظمِ الظّليمِ لا مخَّ له، وقال أبو النَّجْم:

هاوٍ يظلُّ المخُّ في هَوائِهِ

وواحد السَّواعد: ساعد.
وقال صاحب المنطق: ليس المخُّ إلاَّ في المجوّفة، مثل عَظْمِ الأسَدِ.
وفي بعض عظامه مخٌّ يسير، وكذلك المخُّ قليلٌ في عِظام الخنازير، وليس في بعضها منه شيءٌ البتَّة.

بيض النعام وما قيل فيه من الشعر

ومِنْ أعاجيبها أنّها مع عِظَم بيضها تكثِّرُ عددَ البيض، ثمَّ تضَع بيضَها طولاً، حتى لو مددْت عليها خيطاً لما وجدتَ لها مِنْهُ خُروجاً عن الأخرى، تُعطي كلَّ بيضةٍ من ذلك قسْطَه، ثم هي مع ذلك ربَّما تركت بيضها وذهبَتْ تلتمسُ الطَّعام، فتجِدُ بيضَ أُخرَى فتحضنُه، وربَّما حضنت هذه بيضَ تلك،وربّما ضاع البيضُ بينهما.
وأمّا عَددُ بيضها ورئالها فقد قال ذُو الرُّمّةِ:

أذاك أم خاضِبٌ بالسِّيِّ مرتَعُهُ ... أبو ثلاَثِينَ أمْسَى وهو مُنْقلِب

وفي وضعها له طولاً وعرضاً على خطٍّ وسَطْرٍ، يقول:

وَمَا بَيْضَاتُ ذِي لِبَدٍ هِجَفٍّ ... سُقِينَ بِزَاجَلٍ حَتَّى رَوِينَا
وُضِعْنَ فكلُّهُنَّ على غِرارٍ ... هِجانُ اللَّون لم تقرع جَنينا
يَبِيتُ يَحفهُنّ بمِرْفقيْهِ ... وَيَلْحَفهُنّ هَفهَافاً ثخينا

وقال الآخر:

تهوى بها مكرباتٌ في مرافقها ... فتلٌ صلابٌ مياسيرٌ معاجيل
يدا مهاةٍ ورجلا خاضبٍ سنقٍ ... كأنه من جناه الشرى مخلول
هيقٍ هجفٍ وزفانيةٍ مرطى ... زعراء ريش جناحيها هراميل
كأنما منثنى أقماع ما هصرت ... من العفاء بليتيها ثآليل
تروحا من سنام العرق فالتبطا ... إلى القنان التي فيها المداخيل
إذا استهلا بشؤبوب فقد فعلت ... بما أصابا من الأرض الأفاعيل
فصادفا البيض قد أبدت مناكبها ... منها الرئال لها منها سرابيل

فنكبا يبققان البيض عن بـشـرٍ   كأنـها ورق البسباس مغسـول

تشبيه القدر الضخمة بالنعامة

والشُّعراء يشبِّهون القِدْرَ الضَّخْمةَ التي تكون بمنزلِ العَظيم وأشباهِهِ من الأجواد، بالنَّعامة، قال الرّمّاحُ، ابنُ مَيّادة:

وقلت لـهـا لا تـعـجـلـي   كذلك تقري الشوك ما لم تردد

إلى جامعٍ مثل النَّعامة يلتقي   عوازبـــه فــــوق

جامع: يعني القدر، وجعلها مثل النَّعامة.
وقال ابن ميادة يمدح الوليدَ بنَ يزيد:

نتاج العِشَار المنْقِيات إذا شتَتْ   روابدُها مثلُ النّعامِ العواطِفِ

وقال الفرزدق:

وقدرٍ كحيزُوم النّعامة أُحْمِشَتْ   بأجْذالِ خُشْبٍ زالَ عَنْهَا هشيمها

الذئب والنعام

وضحك أبو كَلْدَةَ حين أُنشِد شعرَ ابن النَّطّاح، وهو قوله:

والذّئب يلعب بالنّعام الشَّارد

قال: وكيف يلعب بالنّعام، والذّئبُ لا يَعْرِضُ لبيض النَّعام وفراخه حين لا يكونان حاضرَين، أو يكونُ أحدهما، لأنَّهُمَا متى ناهضاه ركَضَهُ الذَّكرُ فرماه إلى الأنثى، وأعجلَتْهُ الأنثى فرَكَضَتْهُ ركضة تُلقيه إلى الذّكر فلا يزالان كذلك حتى يقتُلاه أو يعجزَهُما هَرَباً، وإذا حاولَ ذلك منه أحَدُهُمَا لم يقْوَ عليه، قال: فكيف يقول:

والذّئب يلعبُ بالنَّعام الشَّارد

وهذه حالُه مع النَّعام.

وزعم أنَّ نعامتين اعتَوَرَتا ذِئباً فهزَمتاه، وصعِد شجرةً ، فجالدهما، فنقره أحدُهما، فتناولَ الذِّئبُ رأسَه فقطعه، ثم نزل إلى الآخرَ فساوَرَه فهزَمَه.

جُبن الظليم ونفاره

والظَّليم يُوصَف بالجُبْن، ويوصف بالنِّفار والتَّوحُّش. وقال سَهم بن حنظلة، في هجائه بني عامر:

إذا ما رَأيتَ بني عامرٍ	**رأيتَ جَفاءً ونُوكاً كثيرا**
نعامٌ تَجُرُّ بأعْنَاقـهـا	**ويمنَعها نُوْكها أن تَطيرا**

ضرر النعامة

والنّعامة تتخذها النّاسُ في الدُّور، وضررُها شديدٌ، لأنّها ربَّما رأتْ في أذن الجارية أو الصبيَّة قُرطاً فيه حجرٌ، أو حبّة لؤلؤٍ، فتَخْطَفُهُ لتأكله، فكم أذنٍ قد خرَقتها وربّما رأتْ ذلك في لَبَّةِ الصبيِّ أو الصبيّة، فتضربه بمنقارها، فربَّما خرقت ذلك المكانَ.

شعر في تشبيه الفرس بالظليم

وممَّا يشبَّه به الفَرَسُ ممَّا في الظليم، قولُ امرئ القيس بن حُجْر:

وخدٌّ أسيلٌ كالمِسنِّ وبـركْةٌ	**كَجؤجؤ هَيْقٍ دفُّه قد تمورّا**

وقال عُقْبَةُ بن سَابق:

وله بركة كَجُؤجُؤ هَـيْقٍ	**ولَبانٌ مضرَّجٌ بالخِضَاب**

وقال أبو دُاوُد الإيادي:

يَمْشِي كمشي نَعامَتـ	**ـين يُتابعانِ أشقَّ شاخصْ**

وقال آخر:

كأنَّ حَماتَه كُردُوسُ فَحْلٍ	**مقلَّصة على سَاقيْ ظَلِيمِ**

وقال أبو داوُدٍ الإياديُّ:

كالسَّيدِ ما استقبلتـه وإذا   وَلَّى تَقُولُ مُلَمْلَمٌ ضـرْبُ

لأمٌ إذا استقبلته وَمَشَـى   متتابعاً ما خانَـهُ عَـقْـبُ

يَمْشِي كمَشْيِ نَعامَةٍ تَبِعَتْ   أخْرَى إذا مَا رَاعَهَا خَطْبُ

القولُ فيما اشتُقَّ له من البَيْض اسم قال العَدَبَّس الكِنانيّ: باضت البُهْمَى: أي سقطت نِصالُها وباضَ الصَّيف، وباضَ القيظُ: اشتدَّ الحرُّ وخرج كلُّ ما فيه من ذلك.
وقال الأسَدِيّ:

فجِئنا وقد باضَ الكَرَى في عُيونِنا فتًى مِنْ عُيُوبِ المُقْرِفِينَ مُسَلَّمَا

وقال أميَّةُ بنُ أبي الصَّلْتِ:

رَكِبَت بيضةُ البَيَاتِ عليهم   لم يُحِسُّوا منها سِواهَا نذيرا

وقال الرَّاعي، يهجو ابنَ الرِّقاع:

لو كنْتَ مِنْ أحدٍ يُهجَى هجَوْتُكُمْ يا ابنَ الرِّقاع ولكنْ لسْتَ مِنْ أحَدِ

تأبَى قُضاعةُ لمْ تقبَلْ لكمْ نسـباً وابنَا نِزارٍ فأنتم بَيضةُ البَـلَـدِ

وفي المديح قولُ عليِّ بن أبي طالب رضي اللّه عنه: أنا بَيْضَةُ البَلد، ومنه بيضة الإسلام، وبيضة القبّة: أعلاها، وكذلك الصَّوْمَعَةُ، والبَيْضُ: قلانس الحديد.
وقال أبو حيَّة النُّميريّ:

وصَدَّ الغانياتُ البيضُ عَنِّـي   وما إنْ كان ذلك عن تَقالي

رأيْنَ الشَّيبَ بَاضَ على لِدَاتِي   وأفْسَدَ ما عَلَيَّ من الجَمَـالِ

وبَيضُ الجُرْح والخُرَاجِ والحِبْن: الوعاء الذي يُجْمعُ فيه الصَّديد، إذا خَرَجَ برئَ وصلُح، وقد يُسمُّون ما في بطونِ إناث السَّمك بَيْضاً، وما في بطون الجَرادِ بيضاً، وإن كَانُوا لا يَرَوْنَ قِشْراً يشتمِلُ عليه، ولا قَيْضاً يكونُ لما فيه حِضْناً.
والخِرشَاءُ: قِشرةُ البَيْض إذا خَرَجَ ما فيه، وسَلْخ الحيَّةِ يقال له الخِرشاء.
شعر في التشبيه بالبيض وقال الأعشى في تشبيه اللّفاءِ الحسناءِ بالبيضة:

أو بيضةٍ في الدِّعص مكنونةٍ   أو دُرَّةٍ سِيقتْ إلى تَـاجِـرِ

وقال في بيض الحديد:

كأنَّ نَعامَ الدَّوِّ بَاض عليهمُ   إذا شامَ يوماً للصَّريخ المُندَّدِ

وقال الأعشى:

أَتَتْنَا مِنَ البَطْحاءِ يَبْرُقُ بَيضُهَا   وقد رُفِعَتْ نِيرانُها فاستقلَّتِ

وقال زيد الخيل:

كأنَّ نَعَامَ الدَّوِّ باض عليهمُ   فَأحْدَاقُهُمْ تَحْتَ الحَدِيدِ خوازِرُ

استطراد لغوي

قال: ويقال تقيَّضَت البيضةُ، والإناءُ، والقارورة، تقيُّضاً: إذا انكسرت فِلَقاً، فإذا هي لم تَتَفَلَّقْ فِلَقاً وهي متلازقةٌ، فهي منْقاضةٌ انقِياضاً، وقيض البيضة: قشرتها اليابسة، وغِرْقِئها: القشرة الرَّقيقة التي بين اللَّحم وبين الصَّميم، قال: والصَّميم: الجلدة.
قال: ويقال غرقأت البيضةُ: إذا خرجَتْ وليس لها قشرٌ ظاهر غير الغِرقِئة.
قال الرَّدَّاد: غرقأت الدَّجاجةُ بيضها، فالبيضة مُغَرْقأة، والخِرشاء: القشرة الغليظة من البيضة، بعد أن تثقب فيخرجَ ما فيها من البلل؛ وجماعُها الخَراشيّ، غير مهموز.
قال: وقال ردَّاد: خِرْشاءُ الحيّة: سَلْخَها حين تنسَلخ.
قال: وتغدّى أعرابيٌّ عندَ بعضِ الملوك، فدبَّت على حلْقِهِ قملةٌ، فتناولها فقصَعَها بإبهامه وسَبَّابتهِ، ثمَّ قتلها، فقالوا له: ويلك ما صنعت؟ فقال: بأبي أنتُمْ وأمي، ما بقي إلا خِرشاؤها.
وقالَ المُرَقِّشُ:

إن تَغْضَبُوا نَغْضَبْ لذاكم كما   يَنْسَلُّ من خِرْشائه الأرقمْ

وقال دُريد بن الصِّمَّةِ في بَيض الحديد: قال: ويقال في الحافر نزَا ينزو، وأمَّا الظّليمُ فيقال: قعَا يقعُو، مثل البعير، يقال: قاع يقوعُ قَوْعاً وقِيَاعاً، وقعَا يقعُو قعْواً، فهذا ما يسوُّون فيه بينه وبين البعير، ويقال: خفّ البعير، والجمع أخفاف، ومنسِمُ

البعير، والجمع مناسم؛ وكذلك يقال للنّعامة.
وقال الرّاعي:

ورِجْل كرجْل الأخْدَريِّ يُشيلُها وَظِيفٌ على خُفِّ النّعامةِ أرْوحُ

وقال جران العود:

لَهَا مثل أظفار العُقاب ومَنْسِمٌ أزجُّ كَظُنْبُوب النَّعَامةِ أروحُ

قال: والزَّاجَل: ماء الظَّليم؛ وهو كالكِرَاضِ من ماءِ الفحْل، وأنْشد لابْنِ أحمر:

وما بيضاتُ ذي لِبَدٍ هِجَفٍّ سُقِين بزاجَلِ حَتَّى رَوِينَا

وقال الطِّرِمَّاح:

سَوْفَ تُدْنِيك مِنْ لَمِيسَ سَبَنْدَا ةٌ أمَارَتْ بالبَوْلِ مَاءَ الكِرَاضِ

وربَّما استعاروا المناسم، قال الشاعر:

توعدني بالسِّجن والآدات إذا عَدَت تأظبت أداتِ

تربطُ بالحبل أكَيْرعَاتِ

قال: ويقال لولد النَّعام: الرَّأل، والجمع رِئال ورئلان؛ وَحَقَّانٌ، وَحَقّانة للواحدة، والجمع حَقَّان؛ وحِسْكل، ويقال: هذا خَيطُ نعامٍ وخِيطان، وقال الأسودُ بن يُعْفُر:

وكأنّ مرجعهم مَنَاقفُ حَنْظَلٍ لعِبَ الرِّئال بها وخِيطُ نَعامِ

ويقال: قطيعٌ من نَعام، ورَعْلةٌ من نعام.
وقال الأصمعيُّ: الرَّعلة: القِطعة من النَّعَام، والسِّرب من الظِّبَاءِ والقطا، والإجْل من الظّلف، وقال طُفَيلٌ الغَنَوِيُّ في بيضة الْحَيِّ وما أشبه ذلك:

ضَوَابعُ تَنْوي بَيْضَةَ الْحَيِّ بعدما أذاعَتْ برَيْعَانِ السَّوَامِ المعزَّبِ

قال: ويقال: للظليم إذا رَعى في هذا النَّبات ساعةً وفي هذا ساعةً قد عَقَّبَ يُعَقِّبُ تعقِيباً، وأنشدني لذي الرُّمَّة:

ألهاه آءٌ وتَنُّومٌ وَعُقْبَتُه مِنْ لائح المروِ والمَرْعَى لَهُ عُقَبُ

قال: ويقال للرجل، إذا كان صغير الأذنين لاصقتين بالرَّأس: أصمع؛ وامرأةٌ صَمْعاء، ويقال: خَرَجَ السهمُ متَصَمِّعاً: إذا ابتلَّتْ قُذَذُه من الدَّم وانضمّت، وقال أبو ذُؤيب:

سهماً فخَرَّ وَريشُهُ متصمِّعُ

ويقال: أتانا بثريدةٍ مُصَمَّعَة: إذا دَقَّقها وَحَدَّدَ رأسَها، وصومعة الرّاهبِ منه؛ لأنها دقيقة الرأس، وفلانٌ أصمع القلْبِ: إذا كان ذكياً حديداً ماضياً، وقال طرفة:

لَعَمْرِي لقد مَرَّتْ عواطِسُ جَمّةٌ   وَمَرَّ قُبَيْلَ الصُّبح ظَبيٌ مصمِّعُ

أراد: ماضياً.
شعر في البيض وقال الشاعر في بيضة البَلَدِ:

أقبَلَتَ تُوضِعُ بكْراً لا خِطامَ لها   حَسِبْتَ رَهْطك عِنْدِي بَيْضَةَ البَلَدِ

ويُشبَّه عظامُ جماجمِ الرؤوس ببَيض النّعام، وقال الأعرج القَيْنِيّ:

بكَينا بالرِّماح غداةَ طَرْقٍ   على قَتْلَى بناصفةٍ كِرام

جَماجمَ غُودِرَتْ بحمامِ عِرْقٍ   كأنَّ فَرَاشَها بَيضُ النّعامِ

وقال مقاتل بن طَلَبَة:

رأيتُ سحيماً فاقدَ اللّهُ بَيْنَهَا   تَنِيكُ بأيديها وتَأبَى أيُورُهَا

وقال السُّحيمي يردّ عليه:

مُقَاتِلُ بشِّرْها ببيض نَعامةٍ   وإن لم تبشِّرها فأنتَ أميرُها

وقال أبو الشِّيص الخُزاعي في بيضة الخِدْر:

وأبرزَ الخِدْر من ثِنْيَيْهِ بَيْضَتَهُ   وأعجَلَ الرَّوْعُ نصلَ السَّيفِ يُخْتَرَط

فثمَّ تَفديك مِنّا كلُّ غانيةٍ   والشَّيخُ يفديك والوِلدانُ والشُّمُط

وقال جحشُ بنُ نصيب:

كأنَّ فُلاق الهام تحتَ سُيوفِنا   خَذاريفُ بَيْضٍ عَجَّلَ النَّقفُ طائرُه

وقال مهلهلٌ في بيضة الخِدر:

وتجولُ بيضاتُ الخُدورِ حواسراً   يمسَحْنَ فضْلَ ذوائِبِ الأيتـامِ

وهو وما قبله يدلان على أنهم لا يُشَبِّهون ببَيْضِ النّعام إلاّ الأبكار.
قال الشاعِرُ:

وَبيض أفقْنَا بالضُّحَى من مُتونـهـا سَماوة بيض كالخباء الـمقـوَّض

هجومٌ عَليهَا نَـفْسَـهُ غَيْرَ أنَّـهُ   مَتَى يُرْمَ في عَيْنَيْهِ بالشَّخْصِ يَنْهَضِ

يعني بالبيض بَيْضِ النَّعام، وَسماوة الشيء: شخصه، لأنّ الظَّليم لما رآهم فزع ونـهضَ، وهذا البيت أيضاً يدلّ على أنَّهُ فَرُوقَةٌ.
وقال ذو الرُّمَّة في بيض النَّعام:

تراه إذا هبّ الصَّبا دَرَجَتْ بـه   غرابيبُ من بيضٍ هَجَائِنَ دَرْدَقُ

قال: والصَّبَا والجنوبُ تـهبَّان في أيام يُبس البقْل، وهو الوقتُ الذي يثقُبُ النَّعام فيه البيض، يقول: درجت به رئلانٌ سودٌ غرابيب، وهي من بيضٍ هجائن: أي بَيْض، والدَّرْدَق: الصِّغار، وهو من صُغْر الرِّئْلاَن.

الحصول على بيض النعام

قال طُفيل بن عوفٍ الغنَويّ، وذكر كيف يأخذون بيضَ النّعام:

عَوازبُ لم تسمَعْ نُبُوح مَقـامَةٍ   ولم تَر نَاراً تِمَّ حَوْلٍ مـجـرَّمِ

سِوى نـار بَيض أو غَزالٍ مُعْقَّرِ   أغَنَّ من الخُنْس المناخِرِ تَوْءَمِ

هذه إبلُ راعٍ معزِبٍ صاحب بوادٍ وبدوةٍ لا يأتي المحاضرَ والمياهَ حيثُ تكون النّيران، وهو صاحب لبنٍ وليس صاحبَ بقْل، فإبله لا ترى نَاراً سوى نَارِ بَيض أو غزالٍ.
نـار الصَّيد وهذه النَّارُ هي النّارُ التي يُصطاد بها الظّباءُ والرِّئلانُ وبَيْضُ النَّعام لأنَّ هذه كلَّها تعشى إذا رأتْ ناراً، ويحدُثُ لها فكرةٌ فيها ونظر، والصبيُّ الصغير كذلك، وأوَّلُ ما يعابثُ الرَّضيعُ، أوَّلَ ما يناغي، المصباحُ.
وقد يعتري مثْلُ ذلك الأسدَ، ويعتري الضِّفدعَ؛ لأنَّ الضِّفدعَ ينقّ، فإذا رأى ناراً سكَت، وهذه الأجناس قد تُغترُّ بالنَّار، ويُحتَالُ لها بها.

تشبيه الغيوم بالنّعام

وتوصف الغيومُ المتراكمة بأنَّ عليها نعاماً، قال الشَّاعر:

كأنَّ الرَّبَاب دُوين السَّحا ... بِ نَعامٌ تَعلَّقَ بالأرْجُلِ

وقال آخر:

خَلِيلَيّ لا تَسْتَسْلِمَا وَادْعُوا الّذِي ... له كلُّ أمْرِ أنْ يَصُوبَ ربيعُ

حَياً لبلاَد أبْعَدَ المَحْلُ أهلها ... وفي العَظْم شيءٌ في شَظَاهُ صُدُوع

بمنتضكٍ غرِّ النَّشَاص كأنها ... جِبالٌ عليهنَّ النُّسورُ وُقُوعُ

استطراد لغوي وقال آخر:

وَضَعَ النَّعَامَات الرِّجالُ برَيْدِهَا ... من بين مَخْفُوضٍ وبين مظلَّلِ

والنعائم في السماء، والنعائم والنّعامتان من آلات البئر، والنعامة: بيت الصائد. وقال في مثل ذلك عروةُ بن مُرَّة الهذليّ:

وذاتِ رَيْدٍ كَزَنْق القأس مُشْرِفَةٍ ... طريقها سَربٌ بالنّاس مجبُوبُ

لم يَبْق من عَرْشها إلاّ نعامتُها ... حالانِ منهزمٌ منها ومَنصوبُ

مسكن النعام

وفي المثل: ما يُجمَعُ بين الأرْوَى والنّعام لأنَّ الأرْوَى تسكن الجبال ولا تُسهل، والنّعامَ تسكن السهل ولا تَرْقى في الجبال، ولذلك قال الشاعِرُ:

وَخَيْلٍ تُكَرْدِسُ بالدّارِعِينَ ... كمشْيِ الوُعول على الظّاهِرَهْ

وقال كثيِّر:

يَهدي مَطَايَا كالحَنِيّ ضَوَامِراً ... بنيَاط أغْبَرَ شَاخِص الأمْيَالِ

فكَأنَّه إذْ يَغْتَدِي مُتَسَنِّماً ... وَهْداً فوَهْداً نَاعِقٌ برئالِ

شعر في تشبيه النعام وقال الأعشى، في تشبيه النَّعام بما يتدلَّى من السَّحاب من قطع الرَّباب:

يا هَلْ تَرى بَرْقاً على ال	جَبَلَيْنِ يُعْجِبُني انجِيابُـه

مِنْ ساقط الأكنـافِ ذِي	زَجَلٍ أرَبَّ به سَحابُـه

مثلِ النَّعامِ مُـعَلَّـقاً	لمَّا زَقا ودنـا رَبـابُـه

وقال وشبَّهَ ناقتهُ بالظَّلِيم:

وإذا أطاف لبابه بسَديسِهِ	ومسافراً ولجا به وتَـزَيَّدَا

شَبَّهْتهُ هِقْلا يُباري هِقْلَةً	رَبْدَاءَ في خَيْطٍ نَقَانِقَ أربدا

وذكر زهيرٌ الظَّليمَ وأولاده، حتّى شبَّه ناقتَه بالظَّليم:

كأني وردفي والقراب ونمرقـي	على خاضب الساقين أرعن نقنق

ترامى به حب الصحارى وقد رأى	سماوة قشراء الوظيفين عوهق

تحن إلى ميل الجنـاحين جـثمٍ	لدى سكنٍ من بيضها المتفلـق

تحطم عنها عن خـراطم أسيح	وعن حدق كالسبج لم يتـفلـق

السَّبج: الخَرزُ.

النعامة فرس خالد بن نضلة

وكان اسمُ فرسِ خالدِ بن نَضْلة: النَّعامة، قال:

تَدَارَكَ إرخَاءُ النَّعامةِ حَنْثَراً	وَدُودَانَ أدَّتْهُ إليَّ مُكبَّـلا

تشبيه مشي الشيخ بمشي الرئال وقال عُروة بن الوَرد:

أليسَ ورائـي أن أدِبَّ على العَصَا	فيأمَنَ أعدائي ويَسْأمَنِي أهْلِـي

رَهِينَةَ قعْرِ البيتِ كلّ عَشِيّةٍ	يُطِيفُ بيَ الولْدَانُ أهْدِجُ كالرَّألِ

شَبَّه هَدَجَانَ الشَّيخ الضَّعيفِ في مشيته بهدَجَان الرَّأل.
وقال أبو الزَّحْف:

أشكو إليك وَجَعاً بركبتـي   وَهَدَجَاناً لم يكنْ في مِشْيَتـي

كَهَدَجَانِ الرَّألِ حوْلَ الـهَيْقتِ

وقال آخر، ولست أدري أيُّهما حَمَل على صاحبه:

أشكُو إليكَ وَجَعاً بمرفقِي   وَهَدَجَاناً لم يكنْ في خُلقي

كَهَدَجَانِ الرَّألِ حوْلَ النِّقْنِقِ

ولم يفضحْه إلاَّ قوله:

أشكو إليك وجعاً بمرفقي

لأنَّ الأوَّلَ حكى أنَّ وجعَه في المكان الذي يُصيبُ الشُّيوخَ، ووجعُ المرفق مثلُ وجَع الأذنِ، وضربانِ الضّرس ليس من أوجاع الكِبَر في شيء.
شعر فيه ذكر النعامة وقال ابن ميَّادة، وذكر بني نَعامة من بني أسد - وقد كان قطريٌّ بن الفجاءة يكنى أبا نعامة -:

فهل يمنَعَنِّي أنْ أسِيرَ ببَلْـدَةٍ   نَعامةُ مِفْتاحُ المخازي وبابُها

وهجا دُريدُ بن الصِّمّةِ رَجُلاً فجعل البيضة الفاسدة مثلاً له، ثمَّ ألحقَ النَّسرَ بأحرار الطَّير وكرامها - وما رأيتُهُمْ يعرِفون ذلك لنسرٍ - فقال:

فإنِّي على رغْم العَذولِ لَنَـازلٌ   بحيث التَّقى عيطٌ وبيضُ بني بـدْرْ

أيا حَكَمَ السَّوْءَاتِ لا تَهْجُ وَاضْطَجِعْ   فهل أنْتَ إن هاجَيْتَ إلاَّ من الخُضْرْ

وهل أنْتَ إلاَّ بَيْضَةٌ مات فَرْخُـها   ثوَتْ في سُلوخ الطير في بلدٍ قَفْـرِ

حوَاهَا بغاثٌ: شرُّ طير علمتَـهـا   وَسُلأَّءُ ليستْ من عُقابٍ ولا نسْـرِ

استطراد لغوي ويقال للأنثى من ولد النَّعامة: قلوص؛ على التشبيه بالنَّعام من الإبل، وهذا الجمعِ إلى ما جعلوه له من اسم البعير، وإلى ما جعلوا له من الخفِّ والمنسم، والخَرَمَةِ، وغير ذلك.
قال عنترة:

تأوي له قُلُصُ النَّعام كما أوَتْ   حِزَقٌ يَمَانِيَةٌ لأعجَمَ طِمْطِمِ

وقال شماخ بن ضِرار:

قلوص نَعامٍ زِفْها قد تَمورّا

وصف الرئال ووصف لبيدٌ الرِّئـالَ فقال:

فأضْحَتْ قد خَلَتْ إلاّ عِراراً وَعَزْفاً بعد أحياءٍ حِـلاَلِ

وخَيطاً من خَوَاضِبَ مزلفات كأَنَّ رئـالـها وُرْقُ الإفـالِ

وقال حسانُ بن ثابتٍ، رضي اللّه عنه:

لعمرُك إنّ إلَّكَ في قُريشٍ كإلِّ السَّقْبِ مِنْ رَألِ النّعامِ

وقد عاب عَلَيْهِ هذا البيتَ ناسٌ، وَظَنّوا أنَّهُ أراد التبعيد، فذكر شيئين قد يتشابهان من وجوهٍ، وحسانُ لم يردْ هذا، وإنما أراد ضعْفَ نَسَبه في قُريش، وأنَّه حِينَ وَجَدَ أدنى نَسب انتحل ذلك النَّسب.

النعامة فرس الحارث بن عباد

وقال الفرزدقُ - وذكَرَ الفرَسَ الذي يقال له: النّعامة وهو فرسُ الحارث بن عُبَاد، التي يقول فيها:

قرِّبا مَرْبطَ النّعامةِ مِـنِّـي لَقِحَتْ حَرْبُ وائلٍ عن حِيَالِ

وقولُ الفرزدق:

تُريكِ نُجومَ اللّيل والشّمْسُ حَيّة كرامُ بناتِ الحارثِ بْنِ عُبـادِ

نساءٌ أبوهنّ الأغرّ، ولم تَـكُـنْ من الحُتِّ في أجْبالها وَهَدَادِ

أبوها الذي آوى النَّعامة بعدما أبَتْ وَائِلٌ في الحَرْبِ غَيْرَ تَمادِ

وقد مَدحوا بناتِ الحارث بن عباد هذا، فمن ذلك قوله:

جاؤُوا بحارِشَةِ الضِّبابِ كأنَّهُمُ جَاؤُوا ببنتِ الحارثِ بن عُبادِ

ويلحق هذا البيت بموضعه، من قولهم، باضَ الصَّيف، وباضَ القيظ.
وقال مضرِّس:

بلمّاعةٍ قد بَاكَرَ الصَّيفُ ماءَها وباضت عليها شمسه وحرائِرُه

ابن النعامة، فرس خزز بن لوذان وابن النّعامة: فرس خُزَز بن لَوْذَان، وهو الذي يقول لامرأته حين أنكرتْ عليه إيثاره فرسَه باللبَن:

كَذَبَ العَتِيق ومَاءُ شَنٍّ بـاردٌ إنْ كنْتِ سائلتي غَبوقاً فاذْهَبي

إنّي لأخْشَى أن تقولَ خليلتـي هذا غبارٌ ساطعٌ فتَـلَـبَّـبِ

إنَّ العدوَّ لهـم إلـيكِ وسيلةٌ إنْ يأخُذوكِ تَكَحَّلي وتخضبي

ويكون مَرْكَبُك القعودَ وحِدْجَه وابنُ النَّعامة يوم ذلِك مَرْكَبي

شعر في النعامة

وقال أبو بكر الهذليُّ:

وَضَعَ النَّعاماتِ الرِّجالُ برَيْدِها يُرْفَعْنَ بَينَ مُشَعشَعٍ ومُهَلَّـلِ

وقال ذُو الإصبع العَدْوانيّ:

ولي ابنُ عَمّ على ما كان مِنْ خُلُقٍ مخالفٌ لي أقليه ويقلـينـي

أزْرَى بنا أنَّنا شالَتْ نعامتُـنـا فخَالني دُونَهُ بل خِلْتُـهُ دُونـي

وقال أبو داوُدٍ الإياديُّ في ذكر الصَّيد، وذكر فرَسه:

وأخذنا به الصِّرارَ وقـلـنـا بحقير بـنـانـه أضـمـارُ

وأتى يبتغي تَفَرُّسَ أمِّ الـبَـي ضِ شَدّاً وقد تَعَالَى النـهـارُ

غَيْرَ جُعْفٍ أوابدٍ ونـعـامٍ ونعـامٍ خِـلالَـهـا أثْـوارُ

في حوال العقارب العمر فيها حين يَنْهَضْنَ بالصَّباح عِذارُ

ثم قال:

يتكشَّفْنَ عَنْ صَرائعَ ستٍّ قُسِّمَتْ بينهنَّ كأسٌ عُقَارُ

بينَ ربْدَاءَ كالمِظَلَّةِ أقْقٍ وظليمٍ مَعَ الظَّليمِ حمارُ

ومهاتين حربين ورئال وسيوبٌ كأنّه أوْتَارُ

ووصف علْقمة بن عبدة ناقته، وشبّهها بأشياءَ منها، ثُمّ أطنب في تشبيهه إيّاها بالظَّليم:

تلاحظ السوط شزراً وهي ضامزة كما توجس طاوى الكشح موشوم

كأنها خاضب زعرٌ قوائمه أجنى له باللوى شرىً وتنوم

يظل في الحنظل الخطبان ينقفه وما استطف من التنوم مخذوم

فده كتق العصا لايا تبينه أسك ما يسمع الأصوات مصلوم

يكاد منه اختل مقلته كأنه حاذرٌ للنخس مشهوم

حتى تذكر بيضاتٍ وهيجه يوم رذاذٍ عليه الريح مغيوم

فلا تزيده في مشيه نفقٌ ولا الزفيف دوين الشد مسئوم

يأوي إلى حسكلٍ زعرٍ حواصلها كأنهن إذا بركن جرثوم

وضاعة كعصى الشرع جؤجؤه كأنه بتناهي الروض علجوم

حتى تلافي وقرن الشمس مرتفعٌ أدحى عرسين فيه البيض مركوم

يومي إليها بإنقاضٍ ونقنقةٍ كما تراطن في أفدانها الروم

صعلٌ كان جناحيه وجؤجؤه بيتٌ أطافت به خرقاءٌ مهجوم

تحفه هقلة سطعاء خاضبةٌ تجيبه بزمارٍ فيه ترنيم

رؤيا النعامة

الأصمعيّ قال: أخبرني رجلٌ من أهل البَصرة قال: أرسلَ شيخٌ من ثقيفٍ ابنَه فلاناً - ولم يحفظ اسمه - إلى ابن سيرين، فكلمه بكلامٍ، وأمُّ ابنه هذا قاعدةٌ، ولا يظنُّ

أنّها تفطِنُ، فقال له: يا بنيَّ اذهبْ إلى ابن سِيرِينَ، فقل له: رجلٌ رأى أنَّ له نعامةً تطحَن، قال: فقلت له؛ فقال: هذا رجلٌ اشترى جاريةً فَخَبَّأَهَا في بني حنيفة، قال: فجئت أبي فأخبرتُه، فنافرَتْهُ أمِّي، وما زالت به حتى اعترف أنّ له جارية في بني حنيفة.
وما أعرفُ هذا التأويل، ولولا أنّه من حديث الأصمعي مشهورٌ ما ذكرته في كتابي.
مسيلمة الكذاب وأمَّا قول الشاعِرِ الهذليِّ في مسيلمة الكذاب، في احتياله وتمويهه وتشبيهِ ما يحتال به من أعلام الأنبياء، بقوله:

ببَيْضَةِ قــارُورِ وَرَايَةِ شَــادنِ وتوصيل مَقصوصِ من الطير جادِفِ

قال: هذا شعرٌ أنشدَنَاهُ أبو الزَّرقاء سَهْمٌ الخثعمي، هذا منذُ أكثرَ من أربعينَ سنة، والبيتُ من قصيدةٍ قد كان أنشدنيها فلم أحفظْ منها إلاّ هذا البيت.
فذكر أنَّ مسيلمة طاف قبلَ التنبِّي، في الأسواق التي كانت بين دُور العجم والعرَب، يلتقُون فيها للتسوُّق والبياعات، كنحو سُوق الأُبُلّة، وسوق لقه، وسوق الأنبار، وسوق الحِيرة.
قال: وكان يلتمس تعلُّم الحِيَل والنِّيرَجَات، واختيارات النُّجوم والمتنبئين، وقد كان أحكَمَ حِيَل السّدَنَةِ والحُوَّاءِ وأصحابِ الزَّجْر والخط ومذهبَ الكاهنِ والعَيَّاف والسَّاحر، وصاحبِ الجنّ الذي يزعم أنّ معه تَابعَهُ.
قال: فخَرَجَ وقد أحكم من ذلك أموراً، فمن ذلك أنّهُ صبّ على بيضَةٍ من خَلٍّ قاطع - والبيضُ إذا أطيل إنقاعُه في الخلِّ لان قشرُه الأعلى، حَتَّى إذا مددته استطال واستدقّ وامتدّ كما يمتدُّ العِلْكُ، أو على قريبٍ من ذلك - قال: فلمَّا تمَّ له فيها ما طاوَل وأمّل، طوّلها ثمَّ أدخلَها قارورةً ضيِّقةَ الرَّأس، وتركها حتّى جفّت ويبست، فلمّا جفّت انضمّت، وكلما انضمَّت استدارتْ، حتى عادت كهيئتها الأولى، فأخرجها إلى مُجَّاعَة، وأهل بيته، وهم أعراب، وادَّعى بها أعجوبةً، وأنّها جُعِلت له آية، فآمَنَ به في ذلك المجلس مُجّاعَة، وكان قد حمل معه ريشاً في لون ريشِ أزواج حمامٍ، وقد كان يَرَاهُنَّ في منزل مُجّاعة مَقاصِيصَ، فالتفت، بعد أن أراهم الآيةَ في البيض، إلى الحمام فقال لِمُجَّاعَة: إلى كم تعذِّب خَلْقَ اللّه بالقصِّ؟ ولو أراد اللّه للطَّير خلافَ الطَّيرَانِ لَمَا خَلَقَ لها أجنحةً، وقد حَرّمْتُ عليكم قصّ أجنحة الحمام فقال لَهُ مُجَّاعة كالمتعنت: فسَلِ الذي أعطاك في البيضِ هذه الآيةَ أنْ يُنبت لك جَنَاح هذا الطائر الذَّكَر السَّاعةَ.
فقلت لسهم: أمَا كان أجوَدَ من هذا وأشبَهَ أنْ يقول: فسل الذي أدْخَلَ لك هذه البيضة فَمَ هذه القارُورة أنْ يخرجها كما أدخلَها، قال، فقال: كأنَّ القومَ كانُوا أعراباً، ومثلُ هذا الامتحانِ من مُجَّاعة كثير، ولَعَمْري إنَّ المتنبئَ ليخدع ألفاً مثلَ قيسِ ابن زهير، قبل أن يخْدَعَ واحداً من آخِرِ المتكلمين، وإن كان ذلك المتكلم لا يشقُّ غبارَ قيس فيما قيسٌ بسبيله.
قال مسيلمة: فإنْ أنا سألتُ اللّه ذلك، فانتبهْ له حتى يطيرَ وأنتم ترونَهُ، أتعلمون أني رسول اللّه إليكم؟ قالوا: نعم، قال: فإني أريد أنْ أناجيَ ربِّي، وللمناجاة خَلوةٌ، فانهضوا عنِّي، وإن شئتم فادخلوه هذا البيت وأدخلوني معه، حتى أخرجه إليكم

السَّاعة في الجناحَينِ يطير، وأنتم ترونَهُ، ولم يكن القوم سَمِعُوا بتغريز الحمام، ولا كان عندهم بابُ الاحتياط في أمْر المحتالين، وذلك أن عُبَيداً الكيِّس، فإنّه المقدَّم في هذه الصناعة، لو منعوه السِّتر والاختفاء، لَمَا وصل إلى شيءٍ من عمله جلّ ولا دَقَّ؛ ولكان واحداً من النَّاس. فلما خلا بالطائر أخرج الريش الذي قد هيَّأه، فأدخل طرَف كلِّ ريشةٍ ممَّا كانَ معه، في جَوف ريش الحمامِ المقصوص، من عند المقطعِ والقصِّ، وقصَبُ الرِّيش أجوَفُ، وأكثرُ الأصولِ حِدَادٌ وصلاب، فلما وفَّى الطَّائرَ ريشَهُ صارَ في العَين كأنَّهُ بِرْذَونٌ موصول الذَّنب، لا يعرف ذلك إلاَّ من ارتاب به، والحمام بنفسه قد كان له أصولُ ريشٍ، فلما غُرِّزَتْ تمت فلما أرسله من يده طار، وينبغي ألاَّ يكونَ فعَلَ ذلك بطائرٍ قد كانوا قطوه بعد أن ثبت عندهم، فلما فعل ذلك ازداد مَنْ كان آمَنَ به بصيرةً، وآمَنَ به آخرون لم يكونوا آمنوا به، ونزع منهم في أمْره كلُّ من كان مستبصِراً في تكذيبه.
قال: ثمّ إنَّه قال لهم - وذلك في مِثْل ليلةٍ مُنكَرَةِ الرِّيَاح مُظلمةٍ، في بعض زمان البوارح - إنَّ المَلَكَ عَلَى أن ينزل إليّ، والملائكة تطير، وهي ذوات أجنحة، ولمجيء المَلَكِ زَجَلٌ وخشخشة وقعقعة، فمن كان مِنْكُمْ ظاهراً فَلْيَدْخُلْ منزلَه؛ فإنَّ من تأمّل اختُطِف بصرُه.
ثمّ صنَعَ رايةً من رايات الصِّبيان التي تعمل من الورق الصِّينيّ، ومن الكَاغَدِ، وتُجْعَلُ لها الأذنابُ والأجنحة، وتعلَّق في صدورها الجلاجل، وترسَل يوم الرِّيح بالخيوط الطِّوال الصِّلاب، قال: فبات القومُ يتوقَّعون نزولَ المَلَك، ويلاحظون السَّماءَ، وأبطأ عنهم حتَّى قام جلُّ أهلِ اليمامة؛ وأطْنبت الرِّيح وقويت، فأرسلها، وهم لا يَرَوْنَ الخيوط، واللَّيلُ لا يُبِينُ عن صورة الرَّقِّ، وعن دقَّةِ الكاغد، وقد توهَّموا قبل ذلك الملائكة، فلمّا سَمِعُوا ذلك ورأوه تصارَخُوا وصاح: من صَرَفَ بَصَره ودخلَ بيتَه فهو آمن فأصبح القومُ وقد أطبَقُوا على نصرتِه والدَّفع عنه، فهو قوله:

ببيضَة قــارُورٍ ورَايَةِ شَــادنٍ وتوصيل مَقصوص من الطير جادِفِ

فقلت لسهمٍ: يكون مثلُ هذا الأمْر العجيب، فلاَ يقولُ فِيهِ شَاعرٌ، ولا يَشِيعُ به خبر؟ قال: أوَكلما كان في الأرض عجبٌ، أو شيء غريبٌ، فقد وجَبَ أن يشيع ذكرُه، ويقالَ فيه الشِّعرُ، ويجعلَ زمانُهُ تاريخاً ألسْنَا معشَرَ العربِ نزعُمُ أنَّ كسرى أبرويز، وهو من أحرار فارسَ، من الملوكِ الأعاظمِ، وسليلُ ملوكٍ، وأبو مُلوك، مع حَزْمه ورأيه وكماله، خطبَ إلى النُّعمان بن المنذر، وإلى رجلٍ يرضى أن تكونَ امرأتُه ظِئراً لبعض ولدِ كسرى، وهو عامله، ويسمِّيه كسرى عبداً، وهو مع ذلك أحَيْمِرُ أقيْشِرُ، إمَّا من أشلاء قصيّ بن معد، وإما من عُرْض لخم، وهو الذي قالوا: تَزَوَّجَ مومسةً - وهي الفاجرةُ؛ ولا يقال لها مومسةٌ إلاَّ وهي بذلك مشهورة - وعرفها بذلك، وأقام عليها، وهُجِيَ بها ولم يَحفِلْ بهجائهم، وممّا زاد في شهرتها قصّة المرقش، وناكها قُرَّة بن هُبيرة حين سباها، فعلم بذلك وأقامَ عليها، ثمّ لم يرضَ حتَّى قال لها: هل مَسّكِ؟ قالت: وأنت واللّه لو قدَر عليك لَمَسَّكفلم يَرْضَ بها حتى قال لها: صِفِيهِ لي، فوصَفَتْهُ حتَّى قالتْ: كأنَّ شعر خَدّيْهِ حَلَقُ الدِّرْع وبال

على رأسه خلف ابن نوالة الكناني عامَ حَجّ، وَنَصّرَه عديٌّ بنُ زيد بأحْمَق سَبَب، وَخَطَبَ أخُوهُ المنذرُ إلى عبيدة بن همام، فردّه أقبَحَ الرّد، وقال:

أَتَوْنِي ولم أرْضَ ما بَيَّتُوا   وقد طرَقُوني بأمْرٍ نُكرْ

لأَنْكِحَ أيِّمَـهُـمْ مُـنْـذِراً   وهل يُنْكِح الْعَبْدَ حُرٌّ لِحُرّ

ثمّ مع ذلك خطب إليه كسرى بعضَ بناتِه فرغِبَ بها عنه، حتَّى كان ذلك سببَ هربه وعِلَّةَ لقتله فهل رأيت شاعراً في ذلك الزَّمان مع كثرة الشعراء فيه، ومع افتخارهم بالذي كان منهم في يوم جَلولى ويومِ ذي قار، وفي وقائع المثنَّى بن حارثة وسعد بن أبي وقَّاص - فهل سَمِعْتَ في ذلك بشعرٍ صحيحِ طريف المخرج، كما سمعته في جميع مفاخرهم ممّا لا يداني هذا المَفْخَر؟.
ولقد خَطَبَ بَعْضُ إخوتِهِ إلى رجالٍ من نِزار، من غَير أهل البيوتات، فرغبوا عنهم.
وأمّ النعمان سَلْمَى بنت الصَّائغ: يهوديّ من أنباط الشام، ثمَّ كان نَجْلُهُ لِفعلٍ غيرِ محمود.
وقد قال جَبَلَةُ بن الأيْهم، لحسَّان بن ثابت: قد دَخَلْتَ عليَّ ورأيتَني، فأينَ أنا من النّعمان؟ قال: واللّهِ...
فالنّعمان مع هذه المثالب كلّها قد رَغِبَ بنفسه عن مصاهرة كِسْرَى، وهو من أنْبَهِ الأكاسرة، وكما كان أبْرَوَيزُ أعْظَمَ خَطراً، كانَتْ أنَفَتُهُ أفْخَرَ للعَرَبِ، وأدلَّ على ما يدَّعون من العلوِّ في النسب وكان الأمر مشهوداً ظاهراً، وَمُرَدَّداً على الأسماع مستفيضاً، فإذْ قد تهيَّأ أن يكون مثلُ هذا الأمر الجليل، والمفْخِرِ العظيم، والعربُ أفْخَرُ الأمم، ومع ذلك قد أغفلوه - فشَأنُ مسيلمَةَ أحقُّ بأن يجوزَ ذلك عليه.
وأنشدني يوسفُ لبعضِ شعراء بني حنيفة، وكان يُسَمَّى مُسَيلَمَةَ وَيُكْنَى أبا ثُمامة:

لـهفي عَلَيْكَ أبا ثُـمامَـهْ   لـهفي على رُكْنَيْ شمامَهْ

كم آيةٍ لأبــيـهـــمُ   كالشَّمْسِ تَطْلُعُ مِنْ غمَامَهْ

وقد كتبنا قِصَّتَهُ وَقِصَّةَ ابن النَّوَّاحَةِ في كتابنا الذي ذكرنا فيه فَصْلَ ما بين النبيِّ والمتنبي وَذَكَرْنَا جميعَ المتنبئين، وشأنَ كلِّ واحدٍ منهم على حِدَتِهِ، وبأيِّ ضربٍ كان يَحتالُ، وَذَكَرْنَا جملةَ احتيالاتِهِمْ، والأبوابَ التي تدور عليها مَخاريقهم، فإنْ أردتَ أنْ تعرفَ هذا البابَ فاطلبْ هذا الكتاب؛ فإنّهُ موجود.
هجاء النعمان وقد هجا عبدُ القيس بنُ خُفافٍ البُرْجُمِيُّ، النُّعْمَانَ بن المنذر، في الجاهليَّةِ، وذكر ولادة الصَّائغ له فقال:

لَعَنَ اللّهُ ثمَّ ثنَّـى بـلَـعنٍ   ابنَ ذا الصَّائغِ الظلومَ الجهولا

يجمعُ الجيشَ ذا الألوفِ ويغزُو   ثمَّ لا يرزأُ الـعدُوّ فَـتِيلا

سَهْمٌ الحنفي وكان سَهْمٌ الحنفيُّ يلي طبَرِسْتان، لمعن بن زائِدة، مع حداثة سنه يومئذ، وكان له مروءةٌ وَقَدْرٌ في نفسه.
كثرة الشعر وقلته في بعض قبائل العرب وبنو حنيفة مع كثرة عددهم، وشِدّةِ بأسهم، وكثرة وقائعهم، وَحَسَدِ العربِ لهم على دارهم وتخُومهم وَسْطَ أعدائِهم، حتى كأنهم وَحْدَهُمْ يعدِلون بَكْراً كلها - ومع ذلك لم نَرَ قبيلةً قطُّ أقلَّ شعراً منهم، وفي إخوتهم عِجْلٌ قصيدٌ وَرَجَزٌ، وَشُعَرَاء ورَجَّازُون، وليس ذلك لمكانِ الخِصْب وأنّهم أهلُ مَدَر، وأكّالو تمرٍ؛ لأنَّ الأوْسَ والخزرج كذلك، وهم في الشعر كما قد علمت، وكذلك عبدُ القيس النَّازلة قرى البحْرين، فقد تعرفُ أنَّ طعامَهم أطْيبُ من طعام أهل اليمامة.
وثقيفٌ أهلُ دارٍ ناهيك بها خِصْباً وطِيباً، وهم وإن كان شعرُهم أقلَّ، فإنَّ ذلك القليلَ يدلُّ على طبْعٍ في الشعر عجيب، وليس ذلك مِنْ قِبَلِ رداءة الغِذاء، ولا من قِلَّة الخِصب الشَّاغل والغِنَى عن النَّاس؛ وإنَّمَا ذلك عن قدْر ما قسَمَ اللّه لهم من الحظوظ والغرائز، والبلاد والأعراق مكانها.
وبنو الحارث بن كعب قبيلٌ شريفٌ، يجزون مَجاريِ ملوك اليمن، ومجاريَ ساداتِ أعراب أهْلِ نَجْدٍ ولم يكن لهم في الجاهليَّة كبيرُ حَظٍّ في الشعر، ولهم في الإسلام شعراءُ مفْلِقُونَ.
وبنو بَدْرٍ كانوا مفْحَمين، وكان ما أطلق اللّه به ألسنة العرب خيراً لهم من تصيير الشعر في أنفسهم.
وقد يَحْظَى بالشعر نَاسٌ ويخرُج آخَرون، وإن كانوا مثلهم أو فوقهم، ولم تُمْدَح قبيلةٌ في الجاهليَّة، من قريش، كما مُدحت مخزوم، ولم يتهيَّأ من الشَّاهد والمثلِ لمادحٍ في أحدٍ من العرب، ما تهيَّأ لبني بدر.
وقد كان في ولد زُرارة لصُلبه، شعر كثير، كشعر لقيط وحاجبٍ وغيرهما من ولده، ولم يكن لحذَيفة ولا حِصْن، ولا عيينَة بن حِصن، ولا لحَمِل بنِ بدْر شِعْرٌ مذكور.
حظوة الخلفاء الولاة بالشعر وقد كان عبدُ العزيز بن مَرْوَانَ أحْظَى في الشعر من كثير من خلفائهم، ولم يكنْ أحَدٌ من أصحابنا، من خُلفائنا وأئمتنا، أحظى في الشعر من الرَّشيد، وقد كان يزيد ابن مَزْيَد وَعمُّهُ، ممَّنْ أحْظاهُ الشِّعْرُ.
وما أعلمُ في الأرض نعمة بَعْدَ وِلاَيَةِ اللّهِ، أعْظَمَ من أنْ يكونَ الرَّجُلُ ممدوحاً.

الصُّمُّ من الحيوان

تقول العرب: ضربانِ من الحيوان لا يَسمعان الأصوات، وذلك عامٌّ في الأفاعي والنّعام، واعتدّ من ادّعى للنّعام الصّمَمَ بقول عَلْقمة:

فُوهُ كَشَقِّ العَصَا لأياً تَبيَّنُـه   أسَكُّ ما يَسْمَعُ الأصْوَاتَ مَصْلومُ

قال: ولا يصلح أن تكون ما في الموضع الذي ذَكَرَ؛ لأنَّ ذلك يصير كقول القائل: التمر حلو، والثَّلج بارد، والنّار حارَّة، ولا يحتاج إلى أن يُخبر أنّ الذي يُسْمَعُ هذا الصَّوتُ؛ لأنهُ لا مسموعَ إلاَّ الصَّوت.
قال خصمه: فقد قال عَلْقَمةُ بن عَبَدَة:

حَتَّى تلاقى وقرنُ الشَّمْسِ مرتفعٌ أُدْحيَّ عِرْسَيْنِ فيه البَيضُ مَرْكومُ

يوحِي إليها بإنقاض ونقنقةٍ كما تَرَاطَنُ في أقدانها الرُّومُ

ثم قال:

تحفُّهُ هِقْلَةٌ سفعاءُ خاذلة تجيبُهُ بزمارٍ فيه تَرنيمُ

واحتجّ من زعم أنها تسمع، بقوله:

وَصُحْمٍ صِيَامٍ بين صَمْدٍ ورَجْلَةٍ وَبَيْضٍ تُؤَامٍ بينَ مَيْثٍ ومِذْنَبِ

مَتَى مَا تَشأ تَسْمَعْ عراراً بقفْرَةٍ يُجيبُ زِماراً كاليَرَاعِ المُثقبِ

وقال الطِّرِمَّاح:

يدعو العِرارُ بها الزِّمَارَ كأنَّهُ ألِمٌ تجاوبُه النِّساءُ العُوَّدُ

قال: وَصَوْتُ النعامة الذّكر: العِرارُ، وصوت الأنثى: الزِّمَار.
وأنشدَ الذي زَعَمَ أنَّهَا لا تسمع، قولَ أسامة بنِ الحارث الهذليِّ:

تذكَّرْتُ إخْواني فبتُّ مُسَهَّداً كما ذكرت بَوّاً من اللَّيل فاقِدُ

لعمري لقد أمْهَلتُ في نَهْيِ خالدٍ عَنِ الشَّام إمّا يَعْصِيَنَّكَ خالدُ

وَأمْهَلْتَ في إخوانه فكأنَّما تَسَمَّعَ بالنَّهْيِ النَّعامُ المُشَرَّدُ

وقال الذي زعم أنها تسمع: فقد قال اللّه عزَّ وَجَلَّ: "أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ" ولو عنَى أنَّ عَماهم كعمى العُمْيان، وصممَهم كصممَ الصُّمَّان، لما قال: "أَفلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفالُهَا" وإنّما ذلك كقوله: "إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ المَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ" وكيف تُسمعُ المدبرَ عنك ولذلك يقال: إنَّ الحُبَّ يُعمِي وَيُصِمُّ، وقد قال الهذليُّ:

تَسَمَّعَ بالنَّهْيِ النَّعَامُ المُشَرَّدُ

والشارد النافر عنك لا يوصف بالفهم، ولو قال: تسمع بالنَّهْيِ، وسكت - كان أبلغَ فيما يريد، وهو كما قال اللّه تعالى: "وَلاَ تَسْمِعُ الصمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ"، قال الرَّاجز:

رِدِي رِدِي وِرْدَ قطاةٍ صَمّا كُدْرِيَّةٍ أعْجَبَهَا بَرْدُ الْمَـا

أي لأنـها لا تسمع صوتاً يَثْنِيها ويَرُدُّهَا.
وأنشد قول الشاعر:

دَعَوْتُ خُلَيْداً دَعْوَةً فكـأنـمـا دَعَوْتُ به ابنَ الطَّوْدِ أوْ هُوَ أسْرَعُ

والطَّود: الجبل، وابنُهُ: الحجر الذي يَتَدَهْدَهُ منه، كقوله:

كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّه السَّيْلُ مِنْ عَلِ

وقال الرَّاجز:

وَمَنْهَلٍ أعْوَرَ إحْدَى العَيْنَيْن بَصِيرِ أخْرَى وَأصَمِّ الأذْنَيْنْ

كأنَّهُ كانَ في ذلك المنهَلِ بيرَانِ، والآبارُ أعينٌ، فغُوِّرَتْ إحدى البيرَين وتُرِكت الأخْرى وقوله: أصمِّ الأذْنَيْنِ لِمَا أنْ كان عنده في الأرض فضَاءٌ وَخَلاَءٌ، حيثُ لا يسمع فيه صوت، جعله أنْ كان لا يسمَعُ صوتاً أصمَّ؛ وإنْ كان ذلك لِفقْدِ الأصواتِ.

شاهد من الشعر لسمع الناقة

قال: وقد قال الحارثُ بن حِلِّزَةَ قولاً يدلُّ على أنَّهَا تسمع، حيث قال:

ولقد أسْتَعِينُ يوماً على اله مِّ إذا خفَّ بالثَّوِيِّ الثَّوَاءُ

بزَفُوفٍ كأنها هِقْلَةٌ أ مُّ رِئالٍ دَوِّيَّةٌ سفعاءُ

ثم قال:

آنسَتْ نَبْأَةً وأفْزَعَهَا الْقُنّ اص عَصْراً وقد دنا الإمْسَاءُ

فترى خَلْفَهُنَّ مِنْ سُرْعَةَ المَشْ يِ مَنِيناً كـأنَّـهُ أهبـاءُ

ولو قال: أفْزَعَها القُنَّاصُ ولم يقل: آنَسَتْ نبأة - والنَّبْأة الصَّوت - لكان لَكُمْ في ذلك مَقال، وقال امرؤ القيس:

وصمٌّ صِلاَبٌ ما يَقين من الوَجَى كأنَّ مكانَ الرِّدْفِ منه على رَالِ

وإنما يعني أنها مُصْمَتَةٌ غير جَوفاء، وقال الآخَر:

قُلْ ما بدا لك مِنْ زُورٍ وَمِنْ كَذِبٍ   حِلْمِي أصمُّ وَأُذْنِي غَيْرُ صَمَّاءِ

يريد أنَّ حلمَهُ ليس بسخيف متخلخِل، وليس بخفيف سَارٍ، ولكنّه مصمَت، قال الشاعرُ:

وأسأل من صمَّاء ذاتِ صَليل

وإنَّمَا يريد أرضاً يابسة، ورملةً نَشَّافةً، تسأل الماء: أي تريده وتبتلعه؛ وهي في ذلك صمّاء،

ذكر الصَّمِّ في القرآن الكريم

وقد قال اللّه لناسٍ يسمعون: "صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ" ذلك على المثل، وقال: "وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ"، وذلك كلّه على ما فسّرنا، وقال: "وَالّذِينَ إذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً" وقال أيضاً: "إنّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالوَحْي وَلاَ يَسْمَعُ الصَّمُّ الدُّعَاءَ إذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ".

شعر في معنى الصمم

وقال عَنترة:

ظَلِلْنَا نكرُّ المشْرَفيَّة فيهمُ   وخُرْصَانَ صُمِّ السَّمْهريِّ المثقفِ

وقال العُجَيرُ السَّلوليّ:

وقد جَذَب القومُ العصائبَ مؤخراً   ففيهنَّ عنْ صُلْعِ الرِّجال حُسُورُ

فظلَّ نِدَاءُ العَصْبِ مُلْقًى كأنّه   سَلَى فَرَسٍ تحْتَ الرِّجال عقورُ

لو ان الصُّخُور الصُّمَّ يَسْمَعْنَ صَلْقنا   لَرُحْنَ وفي أعْرَاضِهِنَّ فُطورُ

وقال زهير:

ليتَنِي خُلِقْتُ لِلأبدِ   صَخْرَةً صمَّاءَ في كَبِدِ

لا تشكَّي شرَّ جارتِها   خُلِقَتْ غَليظة الكبدِ

وقالت جُمْل بنتُ جَعْفَر:

بني جَعْفَرٍ لا سِلْمَ حَتَّى نَزُورَكمْ   بكلِّ رُدينيٍّ وأبيضَ ذي أثرِ

؟وَحتَّى تَرَوْا وَسْطَ الْبُيُوتِ مُغيرةً تُصمُّكُمُ بالضَّرْبِ حَاشِيةَ الدُّعْرِ

تبينُ لِذِي الشَّكِّ الذي لم يكن دَرَى وَيُبْصِرُها الأعْمَى وَيَسْمَعُ ذو الْوَقرِ

وقال دريد:

متى كان الملوك قطِيناً   عَلَيَّ ولايةٌ صَمَّاءُ مِنِّي

مثل وحديث في الصمم

ومن الأمثال قولهم: صمَّتْ حَصَاةٌ بدَم قال: فأصله أنْ يكثُرَ القتْلُ وسفْكُ الدِّماءِ، حتَّى لو وقعَتْ حَصَاةٌ على الأرضِ لم يُسْمَعْ لها صوتٌ؛ لأنَّها لا تلقى صلابة الأرض.
وقد جاء في بعض الحديث: إذا كانت تلك الملاحِمْ بلغَت الدِّماءُ الثُّنَنَ يعني ثُنَنَ الخيل، وهو الشَّعر الذي خلف الحافر.

صمت السيف

وقال الزُّبير بن عبد المطَّلب:

وَيُنْبِي نَخْوَةَ المختَال   عنِّي جُرَازُ الحدِّ ضَرْبَتُه صَمُوتُ

لأنَّ السَّيفَ إذا مرَّ في العظْم مَرًّا سريعاً فلم يكن له صوت - كان في معنى الصامت.

شعر في مجاز الصمم

وقال ابن ميَّادة:

متى أدعُ في قيسِ بن عَيْلاَنَ خائفاً   إلى فَزَعٍ تُركَبْ إليَّ خُيُولُها

بملمومة كالطَّودِ شهْباء فيْلَقٍ   رَدَاحٍ يصمُّ السَّامعين صليلُها

لأنَّ الصَّوت إذا اشتدَّ جدّاً لم يُفْهَمْ معناه، إنْ كان صاحبه أراد أن يخبر عن شيءٍ، ومتى كثُرت الأصواتُ صارت وَغًى، ومنع بعضُها بعضاً من الفهم، فإذا لم يفهمها صار في معنى الأصمّ، فجاز أن يسمّى باسم الأصمّ.

وعلى ذلك قال الأضْبَط بن قُريع، حين آذوه بنو سعدٍ فتحوَّل من جوارهم في آخرين فآذوه، فقال: بِكُلِّ وادٍ بَنُو سَعْدٍ.
وقال جرانُ العَود:

وقالَتْ لنا وَالْعِيسُ صُعْرٌ من البُرَى وأخفافها بالجَنْدَلِ الصُّمِّ تـقـذِفُ

قول منكر صمم النعام

وقال الذي ينكر صَمَم شيءٍ من الخلق: اعتللتم في صَمَم النّعام بقول زهير:

أصَكَّ مُصَلَّمِ الأُذُنَيْنِ أجْنَى لَهُ بالسِّـيِّ تَـنُّـومٌ وَآءُ

وبقول أوس بن حجر:

وَيَنْهَى ذَوي الأحْلامِ عنِّي حُلومُهم وَأرْفعُ صَوْتِي للنّعامِ المـخـزّمِ

يريد خَرْقَ أنفه، وهو في موضع الخَزَمَةِ من البعير.
وأمَّا قوله: وَأرْفعُ صَوْتِي للنّعام فإنما خصَّ بذلكَ النّعامَ لأنَّهَا تَجْمَعُ الشّرُودَ والنِّفَار، إلى المُوق وسوءِ الفهْم، ولو قال: وأرفع صَوتي للحَمير والدّوَابِّ لكان كذلك، والمصلَّمة: السُّكّ التي ليس لآذانها حَجم.
رد عليه قال: قوْلُ الذي زعم أنـها ليست بصماءَ لا يجوز؛ لأنَّ الدواب تسمعُ وتَفهم الزَّجْر، وتجيب الدُّعاء، بل لو قال: وأرفع صوتي للصخور والحِجارة، كان صواباً، وكان لِرَفْع صوته معنًى؛ إذْ كان الرّفْعُ والوضْعُ عند الصُّخور سَوَاءً، وليس كذلك الدوابُّ، ولو كان إنما جعله مصلَّماً، وجعلَ آذانَ النّعام مصلومة، لأنه ليس لآذانها حَجْم فالطير كله كذلك إلاَّ الخفّاش، وكلُّ شيءٍ يبيض من الحيوان فليس لها حَجْم آذان، ففي قصْدهم بهذه الكلمة إلى النّعامِ، بين جميع ما ليس لأذنَيه حجْم، دليلٌ على أنَّ تأويلكم خطأ، قال عَلْقمة بن عَبَدَة:

فُوه كشَقِّ العَصَا لأياً تـبـيَّنُـهُ أسكُّ ما يَسْمَعُ الأصواتَ مصلومُ

وقالت كَبْشة بنت مَعْدِ يكَرِب:

وَأرسَلَ عَبْدُ اللّهِ إذ حـانَ يومـهُ إلى قومه ألاَّ تَعْقُلُوا لـهُـمْ دَمـي

ولا تأخُذُوا منهمْ إفـالاً وَأبْـكُـراً وَأتْرَكَ في بيتٍ بِصَعْدَةَ مُظْـلِـمِ

جَدَعْتُمْ بعبد اللّه آنْفَ قـوْمِـكُـمْ بني مَازنٍ أنْ سُبَّ راعي المخزَّمِ

فإن أنتمُ لـم تـثـأرُوا لأخِـيكُـمُ فَمَشُّوا بآذان النّعام المـصـلَّـمِ

فلو كانت إنَّما تريد أنّه ليس لمسامِعِها حجمٌ، كانت الدُّنيا لها مُعرضة، وقال عنترة:

وكأنَّما أقِصُ الإكامَ عَشِيَّةً ... بقريبِ بَيْنَ المَنْسِمَيْنِ مُصَلَّمِ

تأوي له حِزَقُ النَّعامِ كما أوَتْ ... حِزَقٌ يَمانِيَةٌ لأعْجَمَ طمطمِ

ولو كان عنترة إنَّمَا أراد عدَم الحجم، لقد كانت الدُّنيا له مُعرضة.
وقال زُهير:

بآرِزةِ الفقارةِ لم يَخُنْـها ... قطاف في الرِّكاب ولا خِلاَءُ

كأنَّ الرحْلَ منها فَوْقَ صَعْلٍ ... من الظلمان جُؤجُؤه هَواءُ

أصَكَّ مُصلَّمِ الأُذُنَيْنِ أجْنَى ... له بـالسِّيِّ تَنُّـومٌ وآءُ

رد منكر صمم النعام قال القوم: فإنَّا لا نقول ذلك، ولكنّ العربَ في أمثالها تقول: إنَّ النَّعامةَ ذهبَتْ تطلبُ قرنَين فقطعوا أذنيها، ليجعلوها مثلاً في المُوق وسوء التدبير، فإذا ذكر الشَّاعِرُ الظَّليمَ، وذكَرَ أنَّهُ مصلَّم الأذنين، فإنما يريد هذا المعنى، فكثُرَ ذلك حتى صار قولهم: مصلم الأذنين، مثلَ قولهم صكَّاء، وسواءٌ قال صَكَّاء، أو قال نعامة، كما أنّهُ سواء قال خنْساء أو قال مهاة ونَعْجَة وبقرة وظبية؛ لأنَّ الظِّباء والبقرَ كلها فُطس خُنْسٌ وإذا سَمَّوا امرَأَةً خنْساءَ فليسَ الخَنَسَ والفطَسَ يُريدون، بل كأنهم قالوا: مَهَاةٌ وَظبية، ولذلك قال المسيَّبُ بنُ علَسٍ، في صفة النَّاقة:

صَكّاءَ ذِعْلِبَةٍ إذا استَقْبَلْتَها ... حَرَجٍ إذا اسْتَدْبَرْتَها هِلوَاعِ

فتفهَّمْ هذا البيت، فإنهُ قد أحسَنَ فيه جداً.
وَالصَّكَكُ في الناس، والاصطكاك في رجلي الناقة عيب، فهو لم يكنْ ليصِفَها بما فيه عيب، ولكنَّه لا يفرق بين قولهِ صكّاء، وبين قوْلِهِ نعامة، وكذلك لا يفرّقون بين قولهم أعلم، وبين قولهم: بَعِيرٌ، قال الراجز:

إني لِمن أنكَرَ أو تَوَسَّما ... أخو خَناثِيرَ يَقُودُ الأعْلَمَا

كأنه يقول: يقودُ بعيراً، وهو كقول عنترة:

وحَليلِ غانيةٍ تَرَكْتُ مجدّلاً ... تَمْكُو فريصتُهُ كَشِدْقِ الأعْلمِ

ردّ مدّعي الصَّمم فقال مَن ادّعى للنَّعام الصَّمَم: أمَّا قولكم: من الدَّليل على أن النَّعامة تسمعُ قولُ الشاعِر:

تدعُو النّعام به العِرار

وقوله:

متى ما تَشَأ تسمع عِرَاراً بقفْرَةٍ   يجيب زِمَاراً كاليَرَاع المثقَّبِ

وقوله:

آنَسَتْ نَبْأَةً وَأفْزَعها   الْقنَّاصُ عَصْراً وَقدْ دَنَا الإمْسَاءُ

فليس ذلك أراد، وقد يراك الأخرسُ مِن النّاس - والأخرس أصمُّ - فيعرف ما تقول، بما يرى مِنْ صُورة حَرَكَتِكَ، كما يعرف معانيكَ من إشارتك، ويدعُوك ويطلُبُ إليك بصوتٍ؛ وهو لم يسمَعْ صوتَكَ قط فيقصِدَ إليه، ولكنه يريد تلك الحركَةَ، وتلك الحركُةَ تولد الصّوت، أراده هو أو لم يرده، وَيُضْرَبَ فيصيح، وهو لم يقصِدْ إلى الصِّياح، ولكنّه متى أدار لسانَهُ في جَوْبَةِ الفم بالهواء الذي فيه، والنَّفس الذي يُحضِره جُمّاع الفم، حدَثَ الصَّوت، وهذا إنما غايَتُه الحركة فيعرف صورة تلك الحركة.

والأخرس يرى النَّاس يصفّقون بأيديهم، عند دعاءِ إنسانٍ، أو عند الغضب والحَدِّ، فيعرف صورة تلك الحركةِ؛ لطول تَرْدادِها على عينيه، كما يعرف سائِر الإشارات، وإذا تعجَّبَ ضربَ بيدَيهِ كما يضربون.

فالنّعامة تعرفُ صورة إشارة الرِّئلان وإرادتها، فتعقل ذلك، وتجاوبها بما تعقل عنها من الإشارة والحركة، وغدت لحركتها أصواتٌ، ولو كانا يسمعان لم تزد حالهما في التّفاهُم على ذلك.

شم النعامة والعرب تقول: أشَمُّ مِنْ نَعامةٍ وأشَمُّ مِنْ ذَرّةٍ، قال الرَّاجز:

أشمُّ مِنْ هَيْقٍ وَأهْدَى مِنْ جَمَلْ

وقال الحِرْمازيُّ، في أرجُوزته:

وهو يَشْتَمُّ اشتِمامَ الهَيْق

قال: وأخبرنا ابنُ الأعرابيِّ أنَّ أعرابيّاً كلم صَاحِبَهُ، فرآه لا يفهَمُ عنه ولا يسمعُ فقال: أصَلَخٌ كَصلَخ النَّعَامَةِ.

شم الفرس والذئب والذر وقد يكون الفرَسُ في الموكِب وخلفه، على قاب غلوتين، حِجْرٌ أو رَمكة، فَيَتَحَصَّنُ تحتَ راكبه، من غير أن تكونَ صهلَتْ.

والذِّئب يشتَمُّ ويستروح منْ مِيلٍ، والذَرَّة تَشْتَمُّ ما ليس لَهُ ريحٌ، ممّا لو وضعْتَهُ على أنفكَ ما وجَدْتَ لَهُ رائحة وإن أجَدْتَ التشمُّمَ، كرجْل الجرادة تَنْبذُهَا من يدك

في موضعٍ لم تر فيه ذرَّة قطّ، فلا تلبث أن ترى الذّرّ إليها كالخيط الأسودِ الممدود.
وقال الشَّاعر، وهو يصف استرواح الناس:

وجاءَ كمِثلِ الرَّألِ يَتْبَعُ أنْـفَـهُ	لِعَقْبَيْهِ مِنْ وَقعِ الصُّخور قعاقعُ

فإنَّ الرَّألَ يشتم رائحة أبيه وأمِّه والسَّبعُ والإنْسَانِ من مكانٍ بعيد، وشبَّهَ به رَجُلاً جاءَ يتَّبع الرِّيح فيَشتمٌّ.
استطراد لغوي وقال الآخر:

والمرء لم يغضَبْ لمطّلَبِ أنْفِهِ	أو عِرْسِه لكَريهةٍ لم يَغْضَبِ

ومطّلَب أنفه: فَرْجُ أمِّه؛ لأنَّ الولد إذا تمَّتْ أيَّامهُ في الرّحم، قلا مَكانَهُ وكرهَه، وضاق به موضِعُهُ، فطلبَ بأنفه مَوضع المخرَج مِمَّا هو فيه من الكرب، حتَّى يَصِير أنفه ورأسُهُ على فم الرَّحم، تِلقاءَ فم المخرج، فالأناء والمكانُ يرفعانه في تلك الجهة، والولد يلتمِسُ تلك الجهة بأنْفه، ولولا أنَّه يطلبُ الهواءَ من ذاته، ويكرهُ مكانَه من ذاته، ثمَّ خرج إلى عالَمٍ آخَرَ خلافِ عالمه الذي رُبِّي فيه، لَمَاتَ؛ كما يموت السَّمَكُ إذا فارقه الماء، ولكنَّ الماءَ لمّا كانَ قابلاً لطباع السمك غاذياً لها، والسَّمكُ مريداً له، كان في مفارقته له عطبُه، وكان في مفارقة الولد لجَوْف البطن واغتذائه فضلاتِ الدَّم، مَا لاَ يَنْقُصُ شيئاً من طباعِه وطباع المكان الذي كان له مَرَّةً مَسْكناً، فلذلك قال الشَّاعر الجاهلي:

والمرءُ لم يغضب لمطّلَبِ أنفه	أو عِرسه لكريهةٍ لَمْ يغضَبِ

يقول: متى لم يَحْمِ فرجَ أمِّه وامرأته، فليس مِمّن يغضب من شيءٍ يؤُول إليه.

قول المتكلّمين في صمم الأخرس

وزعم المتكلّمون أنَّ الأخرسَ أصمٌّ، وأنّه لم يُوتَ من العجْز عن المنطق لشيءٍ في لسانه، ولكنّه إنّما أتي في ذلك؛ لأنّه حين لم يسمع صوتاً قطٌّ، مؤلّفاً أو غير مؤلّف، لم يعرف كيفيَّته فيقصدَ إليه، وأنّ جميعَ الصُّمِّ ليس فيهم مُصمَت، وإنما يتفاوَتُون في الشِّدَّةِ واللِّين؛ فبعضهم يسمع الهدّة والصَّاعقة، ونَهيق الحمار إذا كان قريباً منه، والرَّعد الشّديدَ، لا يسمَعُ غير ذلك، ومنهم من يَسمع السِّرار، وإذا رفعْت له الصَّوتَ لم يسمَعْ، ومتى كلَّمته وقرَّت الشّكّاية في أذنه، فهِمَ عنك كلَّ الفهم، وإن تكلَّمْت على ذلك المقدار في الهواءِ، ولم يكن ينفذُ في قناةٍ تحصرُهُ وتجمعُه، حتّى تُؤَدِّيه إلى دِماغه - لم يفهمه.
فالأصمُّ في الحقيقة إنَّما هو الأخرس، والأخرس إنَّما سمِّي بذلك على التشبيه والقرابة، ومتى ضَرَب الأصمُّ من النَّاس إنساناً أو شيئاً غيرَه، ظنَّ أنَّه لم يبالِغْ، حتّى يسمعَ صوتَ الضربة، قال الشّاعر:

أشَارَ بهمْ لَمْعَ الأصمِّ فأقبَلُـوا   عَرَانِينَ، لايأتيه للنَّصر مُحْلِبُ

وقال الأسَدِيّ:

وَأوصِيكُمُ بطِعَانِ الـكُمَـاةِ   فقدْ تعلمُونَ بـأنْ لا خُـلـودَا

وَضَرْبِ الجماجِم ضَرْبَ الأصَمِّ   حَنْظَلَ شَابَةَ يَجنى الـهـبـيدا

وقال الهذلي:

فالطعْنُ شَغْشَغَةٌ وَالضَّرْبُ مَعْمَعَةٌضَرْبَ المُعَوِّل تَحْتَ الدِّيَمةِ العَضَدَا

وإنَما جعله تحتَ الدِّيمة؛ لأنّ الأغصانَ والأشجارَ تصير ألْدَنَ وأعْلَك، فيحتاج الذي يضربُ تلك الأُصولَ قبل المطر، إلى عشْر ضَرَباتٍ حتَّى يقطع ذلك المضروب؛ فإذا أصابه المطرُ احتاج إلى أكثرَ من ذلك.
تحقيق معنى شعري وأنشدني يحيى الأغر:

كَضَرْبِ القُيونِ سَبيك الحدي   دِ يومَ الجنائب ضرباً وَكيدا

فلم أعرفه؛ فسألتُ بعضَ الصَّياقلة فقال: نعم، هذا بَيِّنٌ معروف، إذا أخْرَجْنا الحديدة من الكِيرِ في يومِ شَمَال، واحتاجت في القطْع إلى مائة ضربةٍ، احتاجَت في قطْعها يومَ الجَنُوب إلى أكثر من ذلك، وإلى أشدّ من ذلك الضَّرب؛ لأنّ الشمالَ يُيَبِّسُ ويقصِف، والجنوب يرطِّب ويلدِّن.
الأخرس والإنسان أبداً أخْرسُ، إذا كان لا يسمع ولا يتبيَّن الأصوات التي تخرج من فيه، على معناه، ويقال في غير الإنسان، على غير ذلك، قال كثيِّر:

ألم تَسْألي يا أمّ عَمْرِو فتُخْبَـري   سَلِمْتِ وأسقاكِ السّحَابُ البوارقُ

بكياً لِصَوْتِ الرَّعدِ خرس روائح ونعق ولم يُسْمَعْ لهن صواع

وتقول العرَب: مازلت تحت عينٍ خرساء، والعين: السحابة تبقى أيّاماً تمطر، وإذا كثر ماؤها وكثُف، ولم يكن فيها مخارق تُمدحْ ببرق.
سرعة الضوء وسرعة الصوت ومتى رأيتَ البرقَ سَمِعتَ الرَّعْدَ بعدُ، والرَّعدُ يكون في الأصل قبلَه، ولكنَّ الصَّوتَ لا يصل إليك في سرعة البرق؛ لأنَّ البارقَ والبصر أشدُّ تقارباً من الصَّوتِ والسَّمْع، وقد ترى الإنسانَ، وبينك وبينه رحْلهُ فيضرب بعصاً إمَّا حجراً، وإمّا دَابَّةً، وإمَّا ثوباً، فترى الضَّرْب، ثمّ تمكثُ وقتاً إلى أن يأتيَك الصَّوت.

السحابة الخرساء

فإذا لم تصوِّت السَّحابةُ لم تبشِّر بشيءٍ، وإذا لَمْ يكن لها رزٌّ سمِّيت خَرْساءَ.

الصخرة الصماء

وإذا كانت الصَّخرةُ في هذه الصِّفة سمِّيت صماءَ، قال الأعشَى:

وإذا تجيءُ كتيبةٌ ملمُومَةٌ مَكْرُوهَةٌ يخشى الكُمَاةُ نِزَالهَا

وعلى غير هذا المعنى قال كثيِّر:

كأني أنادي صَخْرَةً حين أعْرَضَتْ من الصُّمِّ لو تمشي بها العصْمُ زَلَّتِ

ومن هذا الشّكل قولُ زُهير:

وَتَنُوفةٍ عَمْياءَ لا يَجْتَازُها إلا المشيَّعُ ذُو الفُؤَاد الهادي

قفْرٍ هَجَعْتُ بها ولستُ بنائِمِ وذِراعُ مُلْقِيَةِ الجِرَانِ وسادِي

وَوَقعْتُ بَيْنَ قُتُودِ عنْس ضَامِرٍ لَحَّاظةٍ طفَلَ العشيِّ سِنَادِ

فجعل التَّنُوفة عَمْياءَ، حين لَمْ تكن بها أمارات.

الزبابة

ودابَّة يقال لها الزَّبابَة، عمياء صَمَّاء، تشبه الفأرة؛ وليست بالخُلْد؛ لأنَّ الخُلْدَ أعمى وليس بأصمّ، والزبَاب يكون في الرَّمل، وقال الشاعِر:

وَهمُ زَبَابٌ حائر لا تَسْمَعُ الآذانُ رَعْدَا

وكلُّ مولودٍ في الأرض يُولد أعمَى، إن كان تأويل العمى أنّهُ لا يُبصر إلاّ بعد أيام، فمنه ما يفتح عينيه بعد أيَّامٍ كالجِرْو؛ إلاّ أولادَ الدّجاج؛ فإنَّ فراريجها تخرُج كاسِيَةً كاسِبة.

شعر فيه مجون وقال أبو الشمقمق - وجعل الأيْر أعمى أصمَّ على التشبيه - فقال:

فسلِّمْ عليه فاترَ الطرْفِ ضاحكاً وصوِّت له بالحارثِ بن عُبادِ

بأصلَعَ مِثلِ الجرْو جَهْمٍ غضَنْفَرٍ مُعَاوِدِ طعْنٍ جائفٍ وسنادِ

أصمّ وأعْمَى يُنْغِضُ الدَّهْرَ رَأسَهُ   يسير على مَيْلٍ بـغير قـيادِ

قول لمن زعم أن النعامة تسمع وقال مَنْ زعَم أنَّ النَّعامة تسمع: يدلُّ على ذلك قول طرَفَة:

هَلْ بِالدِّيار الغَدَاة من خَـرَس   أمْ هَلْ بربْع الجميع مِنْ أنَس

سِوَى مَهاة تَقْرُو أسِرَّتَـه   وَجُؤذُرٍ يَرْتَعِي على كَنَـس

أو خضابٍ يرتعي بهقْلَـتِـهِ   متى تَرُعْهُ الأصْوَاتُ يـهتَجِس

فقد قال طرَفَة كما تـرى:

متى ترُعْهُ الأصوات يـهتجس

وقال الآخر: جوابُنا في هذا هو جوابنا فيما قبله.
فكاهة وروى الهيثم بنُ عديٍّ، وسمعه بعضُ أصحابنا من أبي عبيدة، قال: تضارَط أعرابيَّان عند خالد بن عبد اللّه، أحدُهما تميميٌّ والآخر أزْديٌّ فضَرَط الأزْديُّ ضَرْطَةً ضئيلة، فقال التميميّ:

حَبَقْتَ عَجِيفاً مُحْثلاً ولَوَ أنَّنِـي   حَبَقْتُ لأسْمَعْتُ النّعَامَ المشرَّدَا

فمرَّ كمرِّ المنْجَنِيق وصَوْتُـهُ   يبدُّ هَزِيمَ الرَّعْدِ بدءاَ عَمـرّدَا

من لقبه: نعامة وزعم أبو عمرو الشَّيبانيُّ عن بعض العرب، أنَّ كلّ عربيّ وأعرابيّ كان يلقَّب نَعامة، فإنما يلقَّب بذلك لشدّة صَمَمِه، وأنّهُ سأله عن الظليم: هل يسمع؟ فقال: يَعرفُ بأنفه وعينِه، ولا يحتاج معهما إلى سمْع، وَأنْشَدَنِي:

فجئْتُك مِثْلَ الهِقْلِ يشتمُّ رَألَـهُ   ولا عَرْفَ إلاّ سَوْفُهَا وَشَمِيمُها

وزعم أنَّ لَقبَ بيهس نَعامة، وأنه لقّب بذلك لأنّه كان في خُلُق نعامة، وكان شديدَ الصَّمَم مائقًا، فأنْشَدَ لعديٍّ بن زَيد:

وَمِنْ حَـذَرِ الأيَّامِ مَـا حَـزّ أنْـفـهُ   قصِيرٌ وَخاضَ المَوْتَ بالسَّيْفِ بَيْهَسُ

نعامةُ لَمَّا صرّع الـقـومُ رَهْـطَـهُ   تَبَيَّنَ في أثْـوَابـهِ كـيفَ يَلْـبـسُ

وقال المتنخِّل الهذَليُّ وذكر سَيْفاً:

مُنْتَخَبُ اللّبِّ لهُ ضَرْبَةَ خَدْباءُ كالعَطِّ من الخِدْعِلِ

يقول: هذا السَّيف أهوجُ لا عَقْل له، والخَدَب في هذا الموضوع: الهوَجُ، وتهاوي الشيءِ لا يَتَمَالك، ويقال للسِّيف لا يُبالِي ما لَقِيَ.
شعر في النعام والتشبيه به وقال الأعشى في غير هذا الباب:

كَحَوْصَلَة الرَّالِ في جَرْيِهَا إذا جُلِيَتْ بَعْدَ إقعَادِها

كحوصلة الرَّأل يصف الخَمْرَ بالحمرة، جليت: أخرجت؛ وهو مأخوذ من جَلوة العروس القاعدة، إذا قعَدَت عن الطَّلَب، ومثله في غَير الخمر قولُ علقمة:

تأوي إلى حِسْكِلٍ حُمْرٍ حواصِلُه كأنَّهُنَّ إذا بَرَّكْنَ جُرثومُ

وقال الأخنس بن شهاب:

تظَلُّ بها رُبْدُ النَّعامِ كأنَّها إمَاءٌ تُزَجِّي بالمسَاءِ حَواطبُ

تُزجِّي: تَدْفعُ؛ وذلك أنَّهُ يثقل حِملها فتمشي مِشْيَة النَّعامةِ، وقال الرَّاجز:

وإذا الرِّياحُ تَرَوَّحَتْ بعَشِيَّةٍ رَتَكَ النَّعامُ إلى كَثِيفِ العَرْفَجِ

والرّتَكُ: مشْيٌ سريع، يقول تبادِرُ إلى الكثيف تستتر به من البَرْد، وقال:

رَتْكَ النّعامةِ في طريقٍ حام

استقبال الظليم للريح وليسَ لقولِ مَنْ زعَم أنَّ الظليم إذا عدا استقْبَل الرِّيح، وإنّمَا ذلك مخافة أن تكونَ الرِّيحُ من خلفه فتَكبتَه - معنى؛ لأنَّا نجدُهم يصفون جميع ما يستدعونه باستقبال الرِّيح، قال عَبْدة بن الطَّبيب، يصف الثَّور:

مستقبل الرِّيح يهفُو وَهوَ مُبْتَرِكٌ لسانُه عَنْ شِمالِ الشِّدْق مَعْدُولُ

ووصف الذِّيبَ طُفيلٌ الغَنَويُّ، فقال:

كسيدِ الغَضَا العادِي أضَلَّ جِراءَهُ عَلَى شَرَفٍ مُسْتَقْبلَ الرِّيح يلحَب

استطراد ويُلحَقُ بموضع ذِكْر الضَّربِ الشديد، قولهم في المثل: ضَرَبْنَاهُمْ ضَرْبَ غَرَائبِ الإبلِ، قال أبو حيّة:

جَدِيرُونَ يَوْمَ الرَّوْعِ أنْ يخْضِبُوا القَنَاوَأنْ يترُكُوا الكَبْشَ المدجَّجَ ثاويا

ضَرَبْنَاهُمُ ضرب الجنابَى على جبًى غرائب تغشاهُ حِراراً ضواريا

وإذا جاءت عِطاشاً قدْ بَلَغ منها العطشُ واليُبْسُ، قيل: جاءَتْ تَصِلُّ أجوافُها صَليلاً، قال الرَّاعي:

فَسَقوا صَوَادِيَ يَسْمَعُون عِشيَّةً لِلماءِ في أجوافهنَّ صَليلا

قال: وأنشدنا أبو مَهديَّة، لمزاحمٍ العُقيليّ:

غَدَتْ مِنْ عَليه بعدَ مَا تمّ ظِمْؤُهَا تَصِلُّ وَعَنْ قَيْضٍ بزَيزاء مَجْهَل

قال الزَّيزاءُ: المكان الغليظ.
وقال آخر:

ألمْ تَعلمي يا أمَّ حَسَّانَ أنَّني إذا عَبْرَةٌ نَهنَهتُها فتَجلَّتِ

رجَعت إلى صَدْرٍ كجرَّةِ حَنْتمٍ إذا قُرعَتْ صِفْراً مِنَ الماءِ صلَّتِ

اختبار أمير المؤمنين المننصور لأحد الحواء وزعَمَ ابن أبي العجوز الحَوّاءُ، أنَّ الأفاعيَ صُمٌّ، فلذلك لا تُجيب الرُّقى، ثُمَّ زعم لي في ذلك المجلس أنَّ أميرَ المؤمِنينَ المنصورَ، أراد امتحان رُقى حَيَّةٍ وأنْ يتعرّف صِحَّتها من سُقْمها، وأنَّهُ أمَرَ فصاغوا له أفْعًى من رَصاص، فجاءَت ولا يشكُّ النَّاظر فيها؛ وأنَّهُ أمر بإلزاقها في موضع من السَّقف؛ وَأَنَّهُ أحضرهُ وقال له: إنَّ هذه الأفعى قد صارَتْ في هذه الدّار، وقد كرِهْتُهَا لمكانِهَا؛ فإن احْتَلْتَ لي برُقيَةٍ، أو بما أحببْتَ أحسنتُ إليك، قال: إن أرَدْتُ أنْ آخذها هَرَبَتْ، ولكنْ أرقيها حتى تنزل فرقاها فلما رآها لا تتحرَّكُ زادَ في رفْع صوتِه وألقى قِنَاعَهُ، فلما رآها لا تتحرّكُ نزعَ عِمامَتَهُ وزاد في رفع صوتِه، فلما رآها لا تتحرَّك نزَعَ قلنسُوتَهُ وزادَ في رفْعِ صوتِه، فلما رآها لا تتحرَّك نَزَعَ ثِيابَهُ، وزادَ في رَفْعِ صَوْتِهِ، حَتَّى أزْبَد، وتمرّغَ في الأرض، فلما فعل ذلك سال ذلك الرّصاصُ وذابَ، حتى صار بينَ أيديهم، فأقرّ عند ذلكَ المنصورُ بجودَةِ رُقيته.
فقلت له: ويلك زعمتَ قُبَيْلُ أنَّ الأفَاعِيَ لا تُجيب الرُّقى؛ لأنها لا تسمع، وهي حيوان، ثمَّ زعمتَ أنَّها أجابت، وهي جماد.
شعر وخبر في نفار النعامة وقال الشَّاعِرُ:

وربداء يَكفيها الشَّميمُ وما لَها سِوَى الرُّبْدِ من أنْسٍ بتلك المجاهِلِ

يخبر أنَّ النّعامة لا تستأنسُ بشيءٍ من الوحْش، وَأنَّ الشَّمّ يغنيها في فهم ما تحتاج إليه، وهي مع ذلك إذا صارتْ إلى دور النّاس، فليس معها من الوحْشة منهم، على قدر ما يذكرون، وفي الوحش ما يأنس، وفيها ما لا يأنس، وقال كثيِّر:

فأقسَمْتُ لاَ أنْسَاكِ ما عِشْتُ لَيْلَةً وَإنْ شَحَطتْ دارٌ وَشَطّ مَزَارُهـا

وما استَنّ رَقراقُ السّرَابِ وما جَرَتْ ببيض الرُّبا أنسيُّها ونَـوَارُهَـا

ووصف بلاداً قفاراً غيرَ مأنوسة فقال:

ما تَرَى الْعَيْنُ حولَها مِنْ أنِيسٍ قُرْبَهَا غيرَ رابداتِ الـرِّئَال

خصّها بالذّكْر؛ لأنها أنْفَرُ وأشرَد، وَأقلُّ أنْساً من جميع الوحش.
وقال الأحيمر: كنتُ آتي الظّبْيَ حتى آخُذَ بذراعيه؛ وما كان شيءٌ من بهائِمِ الوحْش ينكرُني إلاّ النّعام، وَأنْشَدَ قوْلَ ذي الرُّمّة:

وكلّ أحَمِّ الـمقْلـتـين كـأنّـهُ أخو الإنْسِ من طُول الخَلاءِ المغفّلِ

يدلّ على ذلك في قدْرِ ما شاهدنا أنّهم يخرجون إلى الصّحارى الأغفال، التي لم يُدّعَر صيدُها، ولا يطؤُها النّاس، فيأتون الوحْشَ فوضَى هَمَلاً، ومعهم كلابُهم وفهودُهم تتلوى بأيديهم، فيتقدّمون إلى المواضع التي لو كانوا ابتدؤوا الصّيْدَ مِنْ جهتها لأخَذُوا ما أخذوا فإذا نفرتْ وحوش هذه الأرْض، ومرَّت بالأرْض المجاورَةِ لها، نفرت سُكّانُ تلك الأرضِ مع هذه النّوافر، ولا تعودُ تلك الصحارى إلى مثل ما كانت عليه، مِنْ كثرَة الوَحْشِ حيناً.
ومتى لم تنفّرها الأعرابُ بالكلابِ والقِسيِّ، ونصْب الحبائل، رتَعتْ بقُربهم، ثمَّ دنتْ منهُمْ أوّلاً فأوّلاً، حتى تطأ أكنافَ بيوتهم، وهي اليوم في حَيْزِ المعتصم باللّه والواثق باللّه على هذه الصِّفة.
هجرة الظباء إلى الناس وخبّرني إبراهيم بْنُ السِّنديِّ قال خبرني عبدُ الملك بنُ صالح، وإسحاق بن عيسى، وصالحٌ صاحب الموصِل، أنّ خالدَ بنَ بَرْمَكَ، بينا هو على سطحٍ من سُطوح القُرى مع قحْطبَةَ، وهم يتغدّون، وذلك في بَعض منازلهم، حين فصلوا من خُراسَانَ إلى الجبل، قال: وبين قحْطبَة وبين الأعداء مَسِيرَةُ أيَّامٍ وليال، قال: فبينا خالدٌ يتغدَّى معه وذلك حين نزلوا وبهم كَلاَلُ السَّير، وحينَ عَلّقُوا على دوابِّهم، ونصبوا قُدُورَهُمْ، وَقرَّبُوا سُفَرَهُمْ.
قال فنَظَرَ خالدٌ إلى الصَّحراءِ، فرأى أقاطيعَ الظِّباءِ قد أقبَلتْ من جهة الصَّحَارَى، حتى كادت تخالِطُ العَسْكَر، فقال لِقَحْطَبَةَ: أيُّهَا الأمير نَادِ في النَّاس: يا خَيلَ اللّه ارْكَبي؛ فإنّ العدوّ قد حثّ إليكَ السَّير، وغاية أصحابك أنْ يسرجوا ويُلجموا قبل أن يروا سَرَعان الخيل، فقام قحطبة مذعوراً، فلما لم ير شيئاً يَرُوعه، ولَمْ يَرَ غُباراً قال لخالد: ما هذا الرّأيُ قال: أيُّها الأمير لا تتشاغل بي وبكلامي، وَنَادِ في النَّاس،

أما تَرَى أقاطيعَ الوحْش قد أقبلت، فارقت مواضعَها حتَّى خالطت الناس؟ إنّ وَرَاءَهَا جَمْعاً عظيماً، قال: فواللّه ما ألجموا وَأسْرَجُوا حتى رَأوْا ساطِعَ الغُبَار، ولا تلبَّسوا وتسلَّحوا حَتَّى رأوا الطليعة، فما التأموا حَتى استوى أصحابُ قحطبة على ظُهورِ خيولهم، ولولا نَظْرَةُ خالد بنِ برمَكَ وُفِراستُهُ، لقد كان ذلك الجيش اصطُلِم.
قصة في قوة الشمّ وكان إبراهيم بنُ السِّنديِّ يُحَدِّثُنا مِنْ صدق حِسِّ أبيه في الشَّمِّ، بشيءٍ ما يُحكى مثلُهُ إلاَّ عن السِّباع والذَّرّ والنَّعام، وزعم أنَّ أباه قال ذات يوم: أجدُ ريحَ بولِ فأرة ثمَّ تَشَمّمَ وأجَالَ أنْفَهُ في المجلس، فقال: هو في تلك الزّاوية فنظروا فإذا على طرف البساط من البلَلِ بقدْر الدِّرْهم، أو أوْسَعُ شيئاً، فقضَوْا أنَّهُ بولُ فأرة.
قال: وَشَهِدْتُهُ مَرَّةً وَأشْرَاطُهُ قيامٌ على رأسِه في السِّمَاطين، فقال: أجدُ ريحَ جَوْرَبٍ عَفِنٍ مُنْتِن فتشمَّمْنا بأجمعنا، فلم نَجِدْ شَيْئاً، ثمَّ تشمَّمَ وقال: انزَعُوا خُفَّ ذاك، فنزعوا خُفَّه، فكلَّما مدَّ النازعُ له شيئاً بدا من لِفافته، فما زَال النَّتْنُ يَكْثُفُ ويزدادُ، حتى خَلَعَ خُفَّهُ ونزَعَهُ مِنْ رِجْله، فظهَرَ من نَتْنِ لِفَافتِهِ ما عُرِفَ به صِدْقُ حسِّه، ثمَّ قال: انزَعُوا الآنَ أخْفَافَكُمْ بأجمعكم، فلا بُدَّ من ألاَّ يكونَ في جميع اللَّفائفِ مُنْتِنٌ غيرُ لِفافته، أو تكونَ لِفافتُه أنتَنها؛ فَنَزَعُوا، فلم يَجِدُوا في جميعها لِفافةً منتنةً غيرها.
وَأنْشَدُوا:

غزا ابْنُ عُميرٍ غَزوةً تركت لنا ثناءً كنَتْنِ الجوربِ المتخرِّقِ

أقوى درجات التشمم وليس الذي يُحكَى من صِدق الحسِّ في الشَّم - عن بعض النَّاس، وعن النَّعام والسِّباع، والفأر والذَّرّ، وضروبٍ من الحشرات - من شكل ما نطق به القرآنُ العظيمُ، من شأن يعقوبَ ويوسفَ عليهما الصلاة والسَّلام حين يقول تعالى: "قَالَ أبُوهُمْ إنِّي لأجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أنْ تُفَنِّدُونِ، قالوا تَاللّهِ إنَّكَ لفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ"، وكان هذا من يعقوبَ بعد أنْ قال يوسف: "اذْهَبُوا بقَمِيصِي هذَا فَألْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أبِي يَأتِ بَصِيراً وَأتُونِي بأهْلِكُمْ أجْمَعِينَ"، ولذلك قال: "وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أبُوهُمْ إنِّي لأجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أنْ تُفَنِّدُونِ" ثمَّ قال: "فَلَمَّا أنْ جَاءَ الْبَشِيرُ ألْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً".
وإنّمَا هذا علامةٌ ظهرَتْ له خاصة؛ إذ كان النَّاسُ لا يشتمُّون أرواحَ أولادِهم إذا تباعَدُوا عن أنوفهم، وما في طاقة الحصان الذي يجدُ ريح الحِجْر ممَّا يجوزُ الغَلوتين والثَّلاث، فكيف يجدُ الإنسانُ وهو بالشَّام ريحَ ابنه في قميصه، ساعةَ فَصلَ من أرض مصر؟ ولذلك قال: "ألَمْ أقُلْ لَكُمْ إنِّي أعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ".
بعض المجاعات وقد غَبَرَ موسى وهو يَسِيرُ أرْبَعِينَ عَاماً، لا يذوق ذَوَاقاً، وجاع أهلِ المدينة في تلك الحُطَمَةِ ، حتى كان أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يشدُّون الحَجَرَ على بُطُونِهِمْ، من الجُوع والجَهْد ، وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الطيِّبين الطاهرين يقول: إنِّي لَسْتُ كأحَدِكُمْ، إنِّي أبِيتُ عِنْدَ رَبِّي، يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي.
حجاج في ذبح الحيوان وقتله ورجَالٌ مِمَّنْ ينتحل الإسلام، يُظْهِرُونَ التقذُّرَ من

الصَّيدِ، وَيَرَوْنَ أنَّ ذلكَ من القسوة، وَأنَّ أصحابَ الصَّيدِ لَتُؤَدِّيهم الضَّراوةُ التي اعترتهم مِنْ طرُوقِ الطَّيرِ في الأوكار، وَنَصْبِ الحبائل للظِّباء، التي تنقطع عن الخشْفَانِ حتى تموتَ هُزْلاً وجُوعاً، وإشلاء السِّباع على بهائِم الوحش وَسَتُسْلِمُ أهلَها إلى القسْوة، وإلى التهاوُن بدماء النَّاس.

والرَّحْمةُ شكلٌ واحد، وَمَنْ لم يَرْحَمِ الْكَلْبَ لم يَرْحَمِ الظَّبيَ، وَمَنْ لَمْ يرْحَم الظَّبيَ لَمْ يَرْحَم الجَدْيَ، وَمَنْ لَمْ يَرْحَمِ الْعُصْفُوْرَ لَمْ يَرْحَمِ الصَّبيَّ، وصِغارُ الأمور تؤدِّي إلى كبارها.

وليسَ ينبغي لأحدٍ أن يتهاونَ بشيءٍ ممَّا يؤدي إلى القسْوة يَوماً مَا، وأكثرُ ما سمعت هذا البابَ، مِنْ نَاسٍ من الصُّوفِيّة، ومن النَّصارَى؛ لمضَاهاة النَّصارى سبيلَ الزَّنَادِقة، في رفضِ الذبائح، وَالْبُغْضِ لإراقة الدِّماءِ، وَالزُّهدِ في أكل اللُّحْمَان.

وقد - كان يرحَمُك اللّه - على الزِّنديق ألاَّ يأتي ذلك في سِبَاعِ الطَّيرِ، وذواتِ الأربع من السّباع، فأما قَتْلُ الحيَّةِ والعقرب، فما كان ينبغي لهم الْبَتَّةَ أنْ يَقِفُوا في قتلهما طرْفَةَ عَينٍ؛ لأنَّ هذه الأمورَ لا تخلو مِنْ أن تكونَ شرًّا صِرْفاً، أو يكون ما فيها من الخير مغْموراً بما فيها من الشرِّ، والشَّرُّ شيطانٌ، والظُّلمة عدُوُّ النُّور، فاستِحْياءُ الظلمة وأنتَ قادرٌ على إماتتها، لا يكونُ من عمل النُّور، بل قد ينبغي أن تكونَ رحمة النُّور لجميعِ الخلائِقِ والنَّاس، إلى استنقاذهما من شُرُور الظلمة.

وكما ينبغي أن يكون حَسَناً في العقْل استحياءُ النُّور والعمَلُ في تخليصه والدَّفْعُ عنه - فكذلك ينبغي أنْ يكونَ قَتْلُ الظُّلْمة وإماتتُها، وَالعَوْنُ على إهلاكها، وتوهينِ أمرها - حسناً.

والبهيمة التي يَرَوْنَ أن يدفعُوا عنها أيضاً ممزُوجة، إلاَّ أنَّ شرّهَا أقلُّ، فهم إذا استَبْقَوْها فقد استبْقَوا الشُّرورَ المخالطة لها.

فإنْ زَعموا أنَّ ذلك إنَّما جاز لهم؛ لأنَّ الأغلب على طِباعها النُّور فلْيغتفروا في هذا الموضع إدخالَ الأذى على قليل ما فيها من أجزاء الشَّرِّ كما اغتفروا ما في إدخال الروح والسُّرور على ما في البهيمة من أجزاء الظُّلْمة لدفعهم عن البهيمة؛ إذْ كان أكثر أجزائها من النُّور.

وإنَّما ذكرتُ ما ذكرت؛ لأنَّهم قالوا: الدَّليلُ على أنَّ الذي أنتم فيه، مِنْ أكل الحيوان كلَّ يومٍ من الذبائِح، مكروهٌ عِنْدَ اللّهِ، أنَّكُمْ لَمْ تَرَوْا قطُّ ذبّاحي الحيوان ولا قتَّالي الإنسان، ولا الذين لا يقتاتون إلاَّ اللّحْمَان يفلحون أبداً، ويستغنون؛ كنحو صيَّادِي السّمك وصيَّادي الوحْش وأصناف الجزَّارين والقصَّابين، والشَّوّائين والطهَّائين والفهَّادِين والبيَازِرة والصَّقَّارينَ والكلابين؛ لا ترى أحَداً منهم صار إلى غِنًى وَيُسْرٍ، ولا تراهُ أبداً إلا فقيراً مُحَارَفاً، وعلى حالٍ مشبهَةٍ بحاله الأولى.

وكذلك الجلادون، ومن يضربُ الأعناقَ بين يَدَي المُلوكِ، وكذلك أصحابُ الاستخراج والعذابِ، وإن أصابوا الإصابات، وجميع أهل هذه الأصناف.

نَعَمْ؛ وَحَتَّى ترى بعضَهم وإن خَرَجَ نَادِراً خارجيّاً، ونال منهم ثروةً وَجَاهاً وسُلطاناً، فإمَّا أن يقْتَلَ، وإمّا يُغْتَصَبَ نَفْسَهُ بميتَةٍ عاجلة، عندَ سروره بالثَّروة، أو يبعث اللّه عليه المحق فلا يَنْمُو له شيء، وإما ألاَّ يجعل مِنْ نسلهم عَقِباً مذكوراً، ولا ذِكْراً نبيهاً وَذُرِّيَّةً طيبةً، مثل الحجّاج بن يوسف، وأبي مسلم، ويزيد بن أبي

مسلم ومثل أبي الوعد، ومثل رِجَالٍ ذكروهم لا نحبُّ أن نسميهم.
قال: فإنَّ هؤلاءِ، مع كثرة الطَّرُوقةِ وظُهُورِ القدْرة، ومع كثرة الإنسال، قد قبَحَ اللّه أمرَهم، وأخْمَلَ أولادَهم، فهم بين مَنْ لم يُعقِبْ، أو بَيْنَ مَنْ هُوَ في معنى مَن لم يُعقب.
فقلت للنّصَارَى بديّاً: كيف كان النّاسُ أيَّامَ الحُكم بما في التَّوْراة أيَّامَ موسى وَدَاودَ، وهما صاحبا حُروبٍ وَقتْلٍ، وَسِبَاءٍ وذبائحَ؟ نعم حتى كان القُربان كُله أو عَامَّتُهُ حيواناً مذبوحاً، لذلك سَمَّيتم بيت المَذْبح.
وَلَسْنَا نسألكم عن سِيرَةَ النَّصارَى اليومَ، ولكِنَّا نسألُكُمْ عَنْ دينِ مُوسى وَحُكْمِ التَّوْراةِ، وَحُكْمِ صاحب الزَّبور، وما زالوا عندكم إلى أن أنكروا رُبُوبيّةَ المسيح، على أكثرَ من حالنا اليومَ في الذبَائح، وأنتم في كثيرٍ من حالاتكم تُغْلُونَ علينا السَّمَكَ، حتى نتوخَّى أيّاماً بأعيانها، فلا نشتري السَّمَكَ إلا فيها؛ طلباً للإمكان والاسْتِرْخَاصِ، وهي يومُ الخَميسِ، ويوم السّبْتِ، ويومُ الثُّلاثاء؛ لأنَّ شراءكم في ذلك اليومِ يَقِلُّ، على أنَّكم تُكْثِرُونَ مِنَ الذَّبائِحِ في أيَّام الفِصْح، وهلْ تَدَعُونَ أكْلَ الحيوانِ إلاّ أيّاماً معدودةً، وساعاتٍ مَعْلومةً؟.
فإذا كانت الحِرْفةُ والمحن إنَّما لزمَا القصَّابين والجزَّارين والشَّوَّائين، وأصنافَ الصّيَّادين، من جهة العقوبة - فأنتمْ شركاءُ صيَّادِي السَّمَكِ خَاصّة؛ لأنَّكم آكَلُ الخلْق له، وأنتم أيضاً شُرَكَاءُ القصَّابين في عامَّة الدّهْر، فلا أنتم تَدِينُونَ للإسلام فتعرفوا ما عليكم ولكم، وفصْلَ ما بين الرّحمةِ والقسوة، وما الرَّحمة، وفي أيِّ موضعٍ يكونُ ذلك القتلُ رحمَةً؟ فقد أجمعوا على أنّ قَتْلَ الْبَعْضِ إحياءٌ للجميع، وَأنّ إصلاح النَّاس، في إقامةِ جزاءِ الحسنة والسيئة، "وَلَكُمْ في الْقِصَاصِ حَيَاةٌ".
وَالْقَوَدُ حَيَاةٌ، وهذا شيءٌ تَعْمَلُ به الأممُ كلها، غَيْرَ الزَّنَادِقةِ، وَالزَّنَادِقةُ لَمْ تَكُنْ قطُّ أمَّةً، ولا كان لها مُلْكٌ وَمَمْلَكَةٌ، وَلَمْ تزَلْ بَيْنَ مَقْتُولٍ وهاربٍ ومنافق، فلا أنتم زَنَادِقةً، ولا ينكر لمن كان ذلك مَذْهَبَهُ أن يقول هذا القوْلَ.
فأنتم لا دهْرِيَّة، ولا زَنَادِقةَ، ولا مُسلمون؛ ولا أنتم رَاضُونَ بِحُكْمِ اللّهِ أيّامَ التّوراة.
فإن كانَ هذا الحكْمُ قد أمرَ اللّه به - وهو عَدْلٌ - فليس بين الزَّمَانَيْنِ فرق.
وَبَعْدُ فإنَّا نَجِدُكم تَأكُلونَ السَّمك أكْلاً ذَريعاً، وتتقذرون من اللُّحمانَ أفلأنَّ السّمكَ لا يألَمُ الْقتْلَ، أم لأنَّ السَّمكَ لَمَّا قتلتُمُوه بلاَ سِكِّين لم يُحِسَّ قتلهُ؟ فالجميع حيوانٌ، وكلُّ مقتول يألَمُ، وكلٌّ يُحِسّ، فكيف صار أكْلُ اللَّحْم قسْوَةً، وَأكْلُ السَّمَكِ لَيْسَ بقسوةٍ؟، وكيف صار ذَبْح البهائمِ قسوة ولا تكون تفرقةُ ما بين السَّمَكِ والماءِ حَتَّى تَموت قسوة وكيف صار ذبح الشَّاةِ قسوَةً وصيدُ السمكِ بالسَّنَانير المذرّبة المعقّفة ليس لها شعائر تخالف العقاف المنصوص في جهاتها، وكيف وهي وإنْ لم تنشَبْ في أجوافها، وتَقْبِضْ على مجامع أرواحِها، لم تقدِرْ على أخْذِها؟.
وكيف صار وَجْء اللَّبَّة من الجزور أقسى من ضَرْب النبائل؟ أم كيف صار طَعْن العَير بالرُّمح، ونصْبُ الحبائل للظّباء، وإرسالُ الكلابِ عليها أشَدَّ مِنْ وقع النَّبائل في ظَهْرِ السّمك؟.
ولأنَّكُمْ تكْثِرونَ قولَكُمْ: لا نأكل شيئاً فيه دمٌ أيّامَ صومِنا، فللسَّمك دمٌ، ولا بدَّ لجميع الحيوان من دمٍ أو شيءٍ يُشاكِلُ الدَّم، فما وجْهُ اعتلالِكم بالدَّم؟ ألأنَّ كلَّ شيءٍ فيه دمٌ فهو أشدُّ ألماً؟ فكيف نعلم ذلك؟ وما الدَّليلُ عليه؟.

فإن زعمتم أنَّ ذلك داخلٌ في باب التعبُّدِ والمصلَحة، لا في باب القِياسِ والرَّحمَةِ والقسْوة، فهذا باب آخر، إلاَّ أنْ تَدَّعُوا أنَّ ذواتِ الدِّماء أقوى للأبدان، وآشَرُ للنُّفوس، فأردتم بذلك قلَّة الأشَرِ وضَعْفَ البدن، فإنْ كان ذلك كذلك فقد ينبغي أن يكونَ هذا المعنى مُستبيناً في آكلي السَّمَكِ من البحريين.

وأمّا ما ذكَرْتُم مِنْ مُلازَمةِ الحِرْفَةِ لهؤلاء الأصْناف، فإنَّ كلَّ مَنْ نزلَتْ صِناعَتُه، ودَقّ خَطَرُ تِجَارته، كذلك سَبيلُه.

وأحلُّ الكَسْبِ كُلِّه وأطْيَبُهُ عِنْدَ جَميعِ النّاس سَقْيُ الماء، إمَّا على الظَّهر، وإمَّا على دَابَّة، ولم أرَ سَقَّاءً قطُّ بَلَغَ حالَ اليَسار والثروة وكذلك ضَرَّابُ اللّبنِ، والطَّيّانُ، والحَرَّاثُ، وكذلك ما صغُرَ من التِّجاراتِ والصِّناعاتِ.

ألا ترون أنَّ الأمْوالَ كثيراً ما تكونُ عند الكُتَّاب، وعندَ أصْحَابِ الجَوهر، وعندَ أصحابِ الوَشْي والأنماط، وعند الصّيارفةِ والحنَّاطين، وعند البحْريِّين والبصريين، والجُلاَّبُ أبداً، والبيازرَةَ أيسر ممّنْ يَبْتَاع منهم.

وجُمَلُ الأموالِ حَقٌّ بأنْ تُربحَ الجُمَلَ مِنْ تفاريق الأموال، وكذلك سبيل القصّاب والجزّار، والشَّوّاءِ، والبازيار، والفَهَّاد.

وأمّا ما ذكرتم من انقطاعِ نَسْلِ القُساةِ، وخمولِ أولادِهم، كانقطاع نَسْلِ فِرعَونَ، وهامان، ونُمرُود، وبُخْت نَصّر، وأشباههم، فإنّ اللّه يقول: "وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى".

وإن شئتم أن تعدّوا من المذكورين بالصَّلاحِ أكثرَ مِن هؤلاء ممّن كان عقيماً أو كان مِيناثاً، أو يكونُ مِمّنْ نَبَتَ لهم أوْلاَدُ سَوءٍ عقّوهُمْ في حياتهم، وعرّضوهُمْ للسَّبِّ بعد موتهم - لوجَدْتموهُمْ.

وعلى أني لم أنْصِبْ نَفسي حَرْباً لِلْحَجّاج بن يوسف، ويزيد بن أبي مسلم، أتحرى بهما، وهما عِندي من أهل النَّار، ولكِنِّي عرَفْتُ مَغْزاكم، وعلى أنَّكُمْ ليسَ الْقصّابينَ أرَدْتُمْ، وَلَكِنَّكُمْ أرَدْتُمْ دِينَ المسلِمين.

وَقَدْ خَرَجَ الحَجَّاجُ من الدُّنْيَا سَلِيماً في بَدَنِهِ، وظَاهِرِ نعمته، وعليٍّ مرتَبَتِهِ من الملْك، وَمَكانِهِ من جَوازِ الأمْرِ وَالنَّهْي.

فإنْ كان اللّه عِنْدَكُمْ سَلَّمَهُ وَعاقبَ أولاَده، وكان ذلك دينكم فإنّ هذا قولٌ إن خاطبتم به الجبْريّة فعسى أن تتعلّقوا منهمْ بسبب فأمّا مَنْ صَحَّحَ القوْلَ بالْعَدْل فإنّ هذا القولَ عِنْدَه من الخطأ الفاحش الذي لاَ شُبهَةَ فيه.

شعر في القانص وفقره وكان ممَّا أنشدُوا من الدَّلِيل على أنّ القانِصَ لا يزالُ فقيراً - قوْلُ ذي الرّمةِ:

حَتَّى إذَا مَا لَهَا فِي الجَدْرِ وَاتَّخَذَتْشَمَسُ النَّهَارِ شُعَاعاً بينها طِبَبُ

وَلاحَ أزْهَرُ مَشْهُورٌ بِنُقْبَتِهِ كَأنّـهُ حِينَ يَعْلُـو عَـاقِـراً لَـهَـبُ

هَاجَتْ بِهِ جُوّعٌ طُلْسٌ مُخَصَّرَةٌ شَوَازِبٌ لاَحَهَا التَّغْرِيث وَالجَنِبُ

جُرْدٌ مُهَرَّتَةُ الأشْدَاقِ ضَـارِيَةٌ مثْلُ السَّرَاحِينِ في أعناقِهَا الْعَذَبُ

وَمُطعَمُ الصَّيْدِ هَبّالٌ لِبُغْيَتِـهِ		ألفى أبَاهُ بِذَاكَ الْكَسْبِ يكتَسِـبُ

مقزّعٌ أطْلسُ الأطمَار لَـيْسَ لـه		إلاّ الضِرَاءَ وَإلاّ صَيْدَهَا نَشَبُ

فانصاعَ جَانِبَهُ الوَحْشِيَّ وَانْكَدَرَتْ		يلحبن لا يأتلي المطلوبُ والطَّلَبُ

قال: فجعله كما ترى مقزّعاً أطلسَ الأطمار، وخَبَّرَ أنّ كِلاَبَه نشَبُه، وأنَّه ألفى أباه كذلك، وأنشَدُوا في ذلك قول الآخر:

وأعصم أنسته المنية نفسه		رعى النبع والظيان في شاهقٍ وعر

موارده قلتٌ تصفقه الصبا		بنيقٍ مزلٍ غير كدرٍ ولا نزر

قرته السحاب ماؤها وتهدلت		عليه غصونٌ دانياتٌ من السمر

أتيح له طلحٌ إزاه بكفه		هتوفٌ وأشباه تخيرن من حجر

أو صبيةٍ لا يستدر إذا شتا		لقوحاً ولا عنزاً وليس بذي وفر

له زوجة شمطاء يدرج حولها		فطيم تناجيه وآخر في الحجر

مشوهة لم تعب طيباً ولم تبت		تقتر هندياً بليلٍ على جمر

محددة العرقوب ثلم نابها		تعرقها الأوذار من فقر الحمر

مسفعة الخدين سود درعها		تقدرها بالليل والأخذ بالقدر

كغول الفلاة لم تخضب بنانها		ولم تدر ما زي الخرائد بالمصر

فأرسل سهماً أرهف القين حده		فأنفذ حصينه فخر على النحر

مساءلة المنانية كان أبو إسحاق يسأل المنانِيَّة، عن مسألةٍ قريبة المأخَذِ قاطعةٍ، وكان يزعُمُ أنّهَا ليست له.
وذلك أنَّ المنانيَّة تزعُمُ أنَّ العَالمَ بما فيه، من عشرةِ أجناس: خمسةً منها خيرٌ ونورٌ، وخمسةً منها شرٌّ وظُلْمَة، وكلُّها حاسَّةٌ وَحارَّة.
وأنَّ الإنسانَ مركَّبٌ مِنْ جميعِها على قدْر ما يكونُ في كلِّ إنسانٍ من رُجْحانِ أجناس الخير على أجناس الشَّرِّ، ورُجْحانِ أجْنَاسِ الشَّرِّ على أجناسِ الخير.
وأنَّ الإنسانَ وإن كان ذا حَواسَّ خمسةٍ، فإنَّ في كُلِّ حاسَّةٍ متوناً من ضدِّه من

الأجْناس الخمسة، فمتى نَظرَ الإنسانُ نظْرَةً رحمةٍ فتلك النَّظْرَةُ من النُّور، ومن الخير، ومتى نَظرَ نَظْرَةَ وعيدٍ، فتلك النَّظْرَةُ من الظلمة،وكذلك جميع الحواسِّ.
وأنَّ حاسَّة السَّمع جنسٌ على حِدَةٍ، وأنَّ الذي في حاسَّة البصر من الخير والنُّور، لا يعين الذي في حاسَّة السَّمع من الخير ولكنه لا يضادُّهُ، ولا يُفاسِدُهُ، ولا يمنعه، فهو لا يعينه لمكان الخِلاف والجِنس، ولا يعين عليه؛ لأنَّهُ ليس ضِدّاً.
وأنَّ أجناسَ الشَّرِّ خلافٌ لأجناس الشَّرِّ، ضِدٌّ لأجناس الخير، وأجناسَ الخير يخالفُ بعضُها بَعْضاً ولا يضادُّ، وأنَّ التَّعاونَ والتآدِي لا يقعُ بين مختلِفها، ولا بين متضادِّها، وإنما يقع بين متفقها.
قال: فيقال للمنانيِّ: ما تقول في رَجُلٍ قال لرجُلٍ: يا فلان، هل رأيت فلاناً؟ فقال المسؤول: نعم قد رأيتُه، أليسَ السَّامعُ قد أدَّى إلى النَّاظِر، والنَّاظِرُ قد أدّى إلى الذَّائِق؟ وإلاَّ فِلمَ قال اللِّسَانُ: نَعَمْ إلاَّ وقد سَمِعَ الصَّوْتَ صاحبُ اللِّسَانِ؟ وهذه المسألة قصيرةٌ كما ترى، ولا حِيلَةَ له بأنْ يَدْفَعَ قوْلَهُ.
مُساءَلَة زنديق ومسألةٌ أخرى، سأل عنها أميرُ المؤمنين الزِّنديقَ الذي كان يكنى بأبي عليٍّ، وذلك عندما رأى من تطويلِ مُحَمَّدِ بن الجهم وعجْزِ العُتبي وسوءِ فهم القاسم بن سَيَّار، فقال له المأمون: أسألُكَ عن حَرفين فقط، خبِّرني: هل ندِم مُسيءٌ قطّ على إساءته، أو نكون نحنُ لم نندَمْ على شيءٍ كان منّا قط؟ قال: بل ندِم كثيرٌ من المسِيئينَ على إساءتِهم، قال: فخَبِّرْني عن النَّدَم على الإساءَة، إساءَةٌ أو إحسان؟ قال: إحسان، قال: فالذي ندم هو الذي أساءَ أو غَيْرُهُ؟ قال: الذي نَدِم هو الذي أساءَ، قال: فأرِي صاحبَ الخير هو صاحب الشَّرِّ، وقد بطل قولكم: إنّ الذي ينظر نَظرَ الوعيد غيرُ الذي ينظر نَظرَ الرحمة، قال: فإني أزعم أنّ الذي أساءَ غيرُ الذي ندِم، قال: فندم على شيءٍ كان منه أو على شيءٍ كان من غيره؟ فقطعه بمسألته، ولم يتُبْ ولم يرجِعْ، حتى مات، وأصْلاَه اللّه نارَ جَهنَّمَ.
شعر في هجو الزنادقة وقد ذكر حمَّادُ عجردٍ ناساً في هجائه لبشار، فقال:

لو كنت زنديقاً عمار حبوتني	أو كنت أعبد غير رب محمد
أو كنت عندك أو تراك عرفتني	كالنضر أو ألفيت كابن المقعد
أو كابن حمادٍ ربيئة دينكم	جبل وما جبل الغوى بمرشد
لكنني وحدت ربي مخلصاً	فجفوتني بغضاً لكل موحد
وحبوت من زعم السماء تكونت	والأرض خالقها لها لم يمهد
والنسيم مثل الزرع آن حصاده	منه الحصيد ومنه ما لم يحصد

وحمّادٌ هذا أشهر بالزّنْدَقةِ من عُمارَة بن حربية، الذي هجاه بهذه الأبيات.
وأمَّا قوله:

وَحَبَوْتَ مَنْ زَعَمَ السَّمَاءَ تَكَوَّنَتْ

فليس يقول أحدٌ: إنّ الفلكَ بما فيه من التّدْبير، تكوَّنَ بنفسه ومِنْ نفسه فجَهْلُ حمّادٍ بهذا المقدارِ من مقالة القوْم، كأنّهُ عندي ممّا يعرفه من براءَته الساحة، فإن كان قد أجابَهُمْ فإنما هو من مقلّديهم.
وهجا حمّادُ بن الزِّبرقان، حماداً الراوية فقال:

نِعْمَ الفتَى لَوْ كَانَ يَعْرِفُ رَبَّهُ ويقيمُ وقتَ صَلاَتِهِ حَمَّادُ

هدَلَتْ مَشَافرُهُ الدِّنَانُ فأَنْفُهُ مِثْلُ الْقدُومِ يَسُنّها الحدّادُ

وَابْيَضّ مِنْ شُرْبِ المُدامَةِ وَجْهُهُ فبيَاضُه يوم الحسابِ سَوَادُ

فقد كان كما ترى:

هدَلَتْ مَشَافِرَهُ الدنَانُ فأنفهُ مثلُ القدوم ...

فقد رأيتُ جماعةً ممَّنْ يُعاقرُون الشَّراب، قد عظمت آنُفهُمْ، وصارتْ لهم خراطيمُ، منهُمْ رَوْحٌ الصّائغ، وعبدُ الواحد صاحب اللؤلويّ وجماعة من نَدْمانِ حمّاد بن الصّباح، وعبد اللّه أخو نهر ابن عسكر وناس كثيرٌ.
ويدلُّ على ذلك من المنافرَةِ قولُ جَريرٍ للأخطل:

وشَربتَ بعد أبي ظهير وابنه سكَرَ الدِّنَانِ كأنَّ أنْفكَ دُمّلُ

وكان منهم يُونس بن فروة، وفي يونس يقول حمّادُ عجرد:

أما ابن فروة يونسٌ فكأنه من كبره أير الحمار القائم

ما الناس عندك غير نفسك وجدها والخلق عندك ما خلاك بهائم

إن الذي أصبحت مفتوناً به سيزول عنك وأنف جارك راغم

فتعض من ندمٍ يديك على الذي فرطت فيه كما يعض النادم

فلقد رضيت بعصبةٍ آخيتهم وإخاهم لك بالمعرة لازم

فعلمت حين جعلتهم لك دخلة أني لعرض في إخائك ظالم

ذكر بعض الزنادقة وكان حمّادُ عجرد، وَحَمَّاد الرّاوية، وحمّادُ بن الزّبرقان، ويونس بن هارون، وعلي بن الخليل، ويزيد بن الفيض، وعُبادة وجميل بن محفوظ، وقاسم، ومطيع، ووالبة بن الحباب، وأبانُ بن عبد الحميد، وعمارة بن حربية، يتواصلون، وكأنهم نفس واحدة وكان بشّارٌ ينكر عليهم.
ويونس الذي زعم حمادُ عجْردٍ أنّهُ قد غَرَّ نفسه بهؤلاءِ، كانَ أشهَرَ بهذا الرّأي منهم، وقد كان كتبَ كتاباً لملك الرُّومِ في مثالب العرب، وعيوب الإسلام، بزعمه.
هجاء في أبان والزنادقة وذكر أبو نواسٍ أبانَ بْنَ عبد الحميد اللاّحقي، وبعضَ هؤلاء، ذِكْرَ إنسانٍ يَرَى لهم قدْراً وخطراً، في هجائيّةٍ لأبان، وهو قوله:

جالست يوماً أباناً ... لادر در أبان

ونحن حضر رواق ال ... أمير بالنهروان

حتى إذا ما صلاة الأ ... ولى أتت لأذان

فقام ثم بها ذو ... فصاحةٍ وبيان

فكل ما قال قلنا ... إلى انقضاء الأذان

فقال كيف شهدتم ... بذا بغير عيان

لا أشهد الدهر حتى ... تعاين العينان

فقلت سبحان ربي ... فقال سبحان ماني

فقلت عيسى رسولٌ ... فقال من شيطان

فقلت موسى كليم ال ... مهيمن المنان

فقال ربك ذو مق ... لةٍ إذاً ولسان

فنفسه خلقته ... أم من فقمت مكاني

عن كافرٍ يتمرى ... بالكفر بالرحمن

يريد أن يتسوى ... بالعصبة المجان

بعجردس وعبادٍ ... والوالبي الهجان

وتَعَجُّبي من أبي نواس، وقد كان جالسَ المتكلمين أشدُّ من تعجُّبي من حَمَّادٍ، حين يَحكي عن قومٍ من هؤلاء قولاً لا يقولهُ أحد، وهذه قُرَّة عَينِ المهجُوّ، والذي يقول: سبحانَ ماني يعظم أمر عيسى تعظيماً شديداً فكيف يقول: إنَّه من قِبَلِ شيطان؟.
وأما قوله: فنفسه خلقتْه أم من فإنَّ هذه مسألةٌ نجدُها ظاهرةً على ألْسُنِ العوامّ، والمتكلمون لا يحكُون هذا عن أحد.
وفي قوله: والوالبيِّ الهجان دليلٌ على أنَّه من شكلهم.
والعجب أنَّه يقول في أبان: إنَّه ممَّن يتشبه بعَجْرد ومُطيعٍ، ووالبة بن الحباب، وعلي بن الخليل، وأصبغ وأبان فوقَ ملء الأرض مِنْ هؤلاء، ولقد كان أبان، وهو سكرانُ، أصحَّ عَقلاً من هؤلاء وهم صحاةٌ، فأمَّا اعتقادُه فلاَ أدري ما أقول لك فيه: لأنَّ النَّاس لم يُؤْتَوْا في اعتقادهم الخطأَ المكشوفَ، من جهة النظر، ولكنْ لِلنَّاس تأسٍّ وعاداتٌ، وتقليدٌ للآباء والكُبراء، ويعملون على الهوى، وعلى ما يسبق إلى القلوب، ويستثقلون التَّحصيلَ، ويُهمِلون النَّظرَ، حتى يصيروا في حالٍ متى عاودوه وأرادوه، نظروا بأبصار كليلة، وأذهان مدخُولة، ومع سوء عادَة، والنّفسُ لا تجيبُ وهي مُسْتَكرَهةٌ، وكان يقال:العقلُ إذا أكره عَمِي، ومتى عَمِيَ الطّباعُ وجَسَا وغلط وأهمل، حتَّى يألف الجهل، لم يكد يفهم ما عليه وله، فلهذا وأشباهه قاموا على الإلف، والسَّابق إلى القلب.

شعر لحماد عجرد

وقال حمَادُ عجْرَد:

اعلَمُوا أنَّ لوُدِّي ثمناً عندي ثميَنا
لَيْتَ شِعْري أيَّ حُكْمٍ قدْ أراكُمْ تَحْكُمُونَا
أنْ تكونوا غَيْرَ مُعْطِي نَ وأنتمْ تأخذونَا
ابْنَ لُقْمَانَ بنَ عادٍ في استْتِ هذا الدِّين دينا

وما رأيت أحداً وضع لقمانَ بنَ عاد في هذا الموضع، غيرَه.
وقال حَمَّادُ عجردٍ في بشار:

اعلموا أن لودي ثمناً عندي ثمينا
ليت شعري أي حكمٍ قد أراكم تحكمونا

أن تكونوا غير معطي ن وأنتم تـأخـذونـا

ابن لقمـان بـن عـادٍ في است هذا الدين دينا

وما رأيت أحداص وضع لقمان بن عاد في هذا الموضع، غيره! وقال حماد عجردٍ في بشار:

يا ابن الخبيثة إن أم ك لم تكن ذات اكتتام

وتبدلت ثوبـان ذا ال أير المضبر والعرام

ثوبـان دقـاق الأزز بأرواث حســام

عرد كقائمة الـسر ير يبيلها عند الرطام

وأتت سميعة بعدهـا بالمصمئلات العظام

أخت لـهم كانت تكابر أن تسافح من قـيام

وقال حَمَّاد يذكر بشاراً:

غزالة الرجسة أو بنتها سُمَيعة الناعية الفهرا

وقال وذكر أمّه:

أبَنِي غَزَالة يا بنِي جُشَمٍ استها لَيَحققُكُمْ أنْ تفرَحوا لا تَجزعُوا

حماد عجرد وبشار

وما كان ينبغي لبشَّارٍ أنْ يناظِرَ حماداً من جهة الشعرِ وما يتعلَّقُ بالشّعر، لأنَّ حمَّاداً في الحَضِيض، وَبشَّاراً مع العَيُّوق، وليس في الأرض مولّد قرَوِيٌّ يُعَدُّ شعرُه في المحدث إلاّ وبَشَّارٌ أشعرُ منه.
شعر في هجو بعض الزنادقة وقال أبو الشمقمق في جميل بن محفوظ:

وهذا جميلٌ على بغلـه وَقدْ كانَ يعدُو عَلَى رِجْلِهِ

يَرُوحُ ويغدو كأيْرِ الحمار وَيرْجعُ صِفْراً إلى أهلِه

وقدْ زَعموا أنَّه كـافرٌ وأنَّ التَّزَنْدُقَ من شَكْلِـهِ

كأني به قد دعاهُ الإمـامُ وآذن ربُّكَ في قتْـلـهِ

غلو أبي النواس في شعره وأمّا أبو نُواسٍ فقد كان يتعرّضُ لِلْقتْل بجهْدِه، وقد كانوا يعجَبون من قوله:

كيف لا يُدْنيك مِنْ أمَلِ مَنْ رسُولُ اللّهِ مِنْ نَفَره

فلما قال:

فاحْبِبْ قُريشاً لحبّ أحَمدِهَا واشكُرْ لـها الجَزْلَ مِنْ مواهبها

جاء بشيء غطَّى على الأوَّل.
وأنكروا عليه قولَه:

لو أكثر التَّسْبيح ما نجَّاه

فلما قال:

يا أحْمَدَ الْمرْتَجَى في كُلِّ نائبةٍ قُمْ سَيِّدي نَعْص جَبَّارَ السَّموَاتِ

غَطّى هذا على الأوَّل، وهذا البيت مع كفره مَقِيتٌ جداً، وكان يُكثِرُ في هذا الباب.
وأما سوى هذا الفنِّ فلم يعرِفُوا له من الخطإ إلاَ قولَه:

أمستخبرَ الدّارِ هلْ تنطِقُ أنا مكان الدار لا أنطقُ

كأنـها إذْ خَرِستْ جَـارِمٌ بين ذوي تَفْنِيدِهِ مُطْرِقُ

فعابوه بذلك، وقالوا: لا يقول أحد: لقد سكت هذا الحَجَرُ، كَأَنَّهُ إنسانٌ ساكت، وإنما يُوصَف خَرَسُ الإنسانِ بخَرَسِ الدَّار، ويشبَّهُ صممه بصمَمِ الصَّخر.
وعابوه بقوله، حين وصف عَينَ الأسد بالجُحوظِ، فقال:

كأَنَّ عَيْنَهُ إذا التـهـبَتْ بارزَةَ الجفْنِ عينُ مخنوق

وَهُمْ يَصِفُونَ عينَ الأسد بالغؤور، قال الرَّاجز:

كأنما يَنْظُرُ من جَوْفِ حَجَرْ

وقال أبو زُبَيد:

كأنَّ عَينيه في وَقبَين من حَجَرٍ قِيضَا اقتياضاً بأطراف المناقير

ومع هذا فإنَّا لا نعرف بَعْدَ بَشَّارٍ أشعَرَ منه.
وقال أبو زُبَيد:

وَعَينانِ كالوَقبين في ملء صَخْرَةٍ ترى فيهما كالجَمْرَتَينِ تَسَعَّرُ

قصة راهبين من الزَّنادقة وحدَّثني أبو شُعيب القلاَّلُ، وهو صُفْريٌّ، قال: رُهبان ُالزَّنادقةِ سَيّاحون؛ كأنهم جعلوا السِّياحَة بدلَ تعلق النَّسطوري في المطامير.
ومُقامُ المُلكانيِّ في الصَّوامع، ومُقامُ النَّسطوريّ في المطامير.
قال: ولا يَسِيحون إلا أزواجاً، ومتى رأيتَ منهم واحداً فالتفتَّ رأيتَ صاحبَه، والسِّياحة عندهم ألاَّ يبيت أحَدُهم في منزل ليلتَين، قال: ويسِيحون على أربع خصال: على القُدْس، والطّهر، والصِّدق، والمسكنَة، فأمَّا المسكنة، فأنْ يأكلَ من المسألة، وممَّا طابت به أنفُسُ النَّاس له حتَّى لا يأكلُ إلاَّ من كسْبِ غيره الذي عليه غُرْمُهُ ومأثمه، وأمَّا الطهر فترك الجِمَاع، وأمّا الصِّدق فعلى ألاّ يكذبَ، وأما القُدْس فعلى أن يكتُمَ ذنبَه، وإن سئل عنه. قال: فدخل الأهوازَ منهم رجلان، فمضى أحَدُهما نحو المقابر للغائط، وجلس الآخَرُ بقربِ حانوتِ صائغ، وخرجت امرأةٌ من بعض تلك القُصُور ومعها حُقٌّ فيه أحْجارٌ نَفيسة، فلما صَعِدَت من الطَّريق إلى دكان الصَّائغ زلقت فسقط الحقُّ من يدها، وظَليمٌ لِبعضِ أهل تلك الدُّور يتردَّدُ فلما سقط الحُقُّ وبايَنَهُ الطَبَق، تبدّدَ ما فيه مِنَ الأحْجار، فالتَقمَ ذلك الظَّليمُ أعظمَ حَجرٍ فيه وأنْفَسهُ، وذلك بعَيْنِ السّائح؛ ووثب الصّائغُ وغلمانهُ فجمَعُوا تلك الأحْجَارَ، وَنَحّوا النَّاسَ وصاحُوا بهم فلم يَدْنُ منهم أحَدٌ، وفقدوا ذلك الحجَر، فصرخت المرأةُ، فكشفَ القوْمُ وتناحَوْا، فلم يصيبوا الحَجَرَ، فقال بعضهم: واللّهِ ما كان بقربنا إلاّ هذا الرّاهبُ الجالسُ، وما ينبغي أن يكون إلاّ معه فسألوه عن الحجر؛ فكِره أنْ يخبرَهم أنه في جوف الظليم فيُذْبَحَ الظليمُ، فيكونَ قد شاركَ في دَم بعضِ الحيوان، فقال ما أخذْتُ شيئاً وبحثُوه وفتّشُوا كلّ شيء معه وألحُّوا عليه بالضّرب، وأقبل صاحِبُهُ وقال: اتَّقُوا اللّهَ فأخذُوهُ وقالوا: دفعتَه إلى هذا حتَّى غَيَّبَهُ فقال: ما دفعتُ إليه شيئاً فضرَبوهما ليموتَا، فبينما هما كذلك إذْ مَرَّ رَجُلٌ يَعْقِلُ، ففهم عنهُمُ القِصَّة، ورأى ظَليماً يتردّدُ فقال لهم: أكان هذا الظليمُ يتردَّد في الطريق حِينَ سقط الحجر؟ قالوا: نعمْ، قال: فهو صاحبكم، فعوَّضُوا أصحابَ الظليم، وذبحوه وشقُّوا عن قانصته، فوجدوا الحجَر وقد نَقصَ في ذلك المقدار من الزَّمانِ شَبيهاً بشَطْره، إلاّ أنها أعطتْهُ لَوْناً صارَ الذي استفادُوه من جهةِ اللَّوْنِ أربحَ لهم من وزْنِ ذلك الشَّطر أنْ لَوْ كانَ لم يَذْهَبْ.
ونارُ القانصةِ غيرُ نار الحجَر.

القول في النِّيران وأقسامها

ونحنُ ذاكرون جُمَلاً من القول في النِّيرانِ وأجناسها، ومواضعِها، وأيَّ شيء منها يضافُ إلى العجَم، وأيِّ شيء منها يضاف إلى العرَب، ونُخبرُ عن نيران الدِّيانات، وغير الدِّيانات، وعمَّن عظَّمها وعمَّن استهانَ بها، وعمَّنْ أفرَط في تعظيمها حتَّى عَبَدَها، ونُخبرُ عن المواضع التي عُظِّمَ فيها مِنْ شأن النَّار.

نار القربان

فمن مواضعها التي عُظِّمَتْ بها أنَّ اللّه عزَّ وجلّ جعلها لبني إسرائيلَ في موضع امتحان إخلاصهم، وتَعَرُّفِ صدق نياتهم ، فكانوا يتقرَّبون بالقرْبان، فمَنْ كانَ منهم مُخلِصاً نزلتْ نارٌ من قِبَلِ السّماء حتَّى تُحيط به فتأكُلَهُ، فإذا فَعَلَتْ ذلك كان صاحبُ القُرْبَان مُخْلِصاً في تَقرُّبه، ومتَى لَمْ يرَوْهَا وبَقِيَ القُرْبَانُ على حَاله، قضَوْا بأنَّه كانَ مدخولَ القلْب فاسِدَ النِّيةِ، ولذلك قال اللّه تعالى في كتابه: "الَّذينَ قالوا إنَّ اللّه عَهِدَ إلَيْنَا ألاَّ نُؤْمِنَ لرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تأكُلُه النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مَنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبالّذي قُلْتُمْ فلِمَ قتلتُمُوهُمْ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ".
والدَّليل على أنّ ذلك قدْ كَانَ معلوماً، قولُ اللّه عزّ وجلّ: "قدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِن قَبْلِي بالْبَيِّنَاتِ وَبالذِي قُلْتمْ" ثمَّ إنّ اللّه ستَرَ على عبادِه، وجعَلَ بيانَ ذلك في الآخرة، وكان ذلك التّدبيرَ مصلحة ذلك الزّمان، ووفق طبائعهم وعللهم، وقد كانَ القوم من المعاندةِ والغَباوة على مقدارٍ لم يكنْ لينجع فيهم ويَكمُلَ لمصلحتهم إلا ما كان في هذا الوزْن، فهذا بَابٌ من عِظَم شأنِ النَّار في صُدور النَّاس. وممَّا زاد في تعظيم شأنِ النَّار في صدور النَّاس قولُ اللّه عزَّ وجلَّ: "وَهَلْ أتَاكَ حَديثُ مُوسَى، إذْ رَأى نَاراً فقال لأهْلِهِ امْكُثوا إنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بقبَسٍ أوْ أجِدُ عَلَى النَّار هُدًى، فلَمَّا أتَاهَا نُودي يَا مُوسَى، إنِّي أنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْليْكَ إنَّكَ بِالْوَادِي المُقدَّسِ طُوًى"، وقال عزّ وجلّ: "إذْ قالَ مُوسَى لأهْلِهِ إنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتيكُمْ مِنْهَا بخَبَرٍ أوْ آتِيكُمْ بشِهَابٍ قبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ، فلَمَّا جَاءَها نُودِيَ أنْ بُورِكَ مَنْ في النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللّه رَبِّ الْعالَمِينَ".
وكان ذلك مما زاد في قدْر النّار في صدور النَّاس.
ومن ذلك نار إبراهيم صلى اللّه عليه وسلم، وقال اللّه عزّ وجلّ: "قالُوا سَمِعْنَا فتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إبرَاهيمُ، قالوا فَأْتُوا به عَلَى أعْيُنِ النَّاس لَعَلَّهمْ يَشْهَدُونَ" ثم قالَ: "قالوا حَرِّقوهُ وَانْصرُوا آلِهتَكُمْ إنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ" فلما قال اللّه عزّ وجلّ: "قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إبْرَاهِيم" كانَ ذلك ممَّا زاد في نباهة النَّار وَقدْرهَا في صُدور النّاس.

تنويه القرآن الكريم بشأن النار

وهو قوله عزَّ وجلَّ: "الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشجَرِ الأخْضَرِ نَاراً فإذَا أنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ".
والنَّار مِنْ أكْبَر الماعون، وأعظمِ المنافع المرافق في هذه الدنيا على عباده، ولو لم يكنْ فيها إلاّ أنَّ اللّه عزّ وجلّ قد جَعَلَهَا الزاجرةَ عن المعاصي، لكان ذلك ممّا يزيدُ في قدْرها، وفي نَباهة ذِكْرها.

وقال تعالى: "أفَرَأيْتمُ النّار الّتي تُورُونَ أأنتمْ أنْشَأتمْ شَجَرَتَهَا أمْ نَحْنُ المُنْشِئُونَ".
ثم قال: "نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ"، فقف عند قوله: "نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتاعاً" فإنْ كنت بهذا القول مؤمناً فتذكَّرْ ما فيها من النعمة أولاً ثم آخراً، ثم توهَّمْ مقادير النعم وتصاريفها.
وقد علمنا أنَّ اللّه عذَّب الأممَ بالغَرقَ، والرِّياح، وبالحاصِب، والرُّجُم، وبالصّواعق، وبالخسْف، والمسخ، وبالجُوع، وبالنقص من الثمرات، ولم يبعث عليهم نَاراً، كما بعث عليهم ماءً وَريحاً وحجارة، وإنما جعلها من عقاب الآخرة وعذاب العُقبَى، ونهى أن يُحرق بها شيء من الهوامّ، وقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: "لا تُعذِّبُوا بِعَذَاب اللّه، فقدْ عَظَّمَهَا كما ترى".
فتفهَّمْ رَحِمَك الله فقد أرادَ اللّهُ إفهَامك.
وقال اللّه تعالى لِلثَّقَلَيْنِ: "يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فلاَ تَنْتَصِرَانِ، فَبأيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ"، فجعل الشُّواظ والنُّحَاسَ، وهما النّارُ وَالدُّخانُ، من الآية، ولذلك قال على نَسَق الكلام: "فَبأيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ" ولم يَعْنِ أن التّعْذيبَ بالنّار نعمةٌ يومَ القيامة، ولكِنه أرادَ التّحذيرَ بالخوفِ والوَعِيدِ بها، غيرَ إدخالِ النَّاس فيها، وإحراقهم بها.
شعر في بعض النبات وقال المرَّار بن منقذ:

وكأنَّ أرحُلنا بجوٍّ مُـحْـصِـبٍ بلِوَى عُنَيزةَ مِنْ مَقيل التُّرمُـس

في حيثُ خالطت الخزامى عَرْفَجاً يأتيك قابسُ أهْلهَـا لـم يُقْبَـس

أراد خصْبَ الوادي ورطوبَتَهُ، وإذا كان كذلك لم تَقْدَح عيدانُهُ، فإنْ دَخَلها مستقبسٌ لم يُور ناراً، وقال كُثيِّر:

له حسبٌ في الحيِّ وار زِنَـادُهُ عَفَارُ وَمَرْخٌ حَثَّهُ الوَرْيُ عاجلُ

والعَفار والمَرْخ، من بين جميع العِيدان التي تُقْدَحُ، أكثرُها في ذلك وأسرعُها.
قال: ومن أمثالهم: في كُلِّ الشَّجَرِ نارٌ، واستمجَدَ المَرْخُ والعَفار.

نار الاستمطار

ونارٌ أخرى، وهي النّار التي كانوا يَسْتَمْطِرُونَ بها في الجاهليَّةِ الأولى؛ فإنهم كانوا إذا تتابعت عليهم الأزَمَات ورَكَدَ عليهم البلاءُ، واشتدّ الجَدْب، واحتاجوا إلى الاستِمْطار، استجمعوا وَجَمعُوا ما قدَرُوا عليه من البَقر، ثم عقدُوا في أذنَابها وبينَ عَراقِيبها، السَّلَعَ والعُشَر، ثمَّ صعدوا بها في جبلٍ وعْرٍ، وأشعَلُوا فيها النِّيرانَ، وضجُّوا بالدُّعاء والتضرُّع، فكانوا يَرَوْن أنّ ذلك من أسبابِ السُّقيا، ولذلك قال أُمَيَّةُ:

سنةٌ أزمةٌ تـخـيل بـالـنـا س ترى للعضاه فيها صريرا

إذ يسفون بالدقيق وكانوا قبل لا يأكلون شيئاً فطيرا

ويسوقون باقراً يطرد السه ل مهازيل خشيةً أن يبورا

عاقدين النيران في شكر الأذ ناب عمداً كيما تهيج البحورا

فاشتوت كلها فهاج عليهم ثم هاجت إلى صبيرٍ صبيرا

فرآها الإله ترشم بالقط ر وأمسى جنابهم ممطور

فسقاها نشاصه واكف الغي ث منه إذ رادعوه الكبيرا

سلعٌ ما ومثله عشرٌ ما عائلٌ ما وعالت البنقورا

هكذا كان الأصمعيُّ ينشِدُ هذه الكلمة، فقال له علماءُ بَغدادَ: صحفْتَ، إنما هي البيقور، مأخوذة من البقر.
وأنشد القحذمي للورَلِ الطائيّ:

لا دَرّ درُّ رجَالٍ خاب سَعْيُهُمُ يَسْتمْطِرونَ لَدَى الأزْمَاتِ بالعُشَرِ

أجاعلٌ أنتَ بيْقُوراً مُسَلَّعَةَ ذَريعةً لك بين اللّهِ والمَطرِ

استطراد لغوي قال: ويقال بقر، وبَقِير، وبَيقور، وباقر، ويقال للجماعة منها قطيع ، وإجْل، وكَوْر، وأنشد:

فسكَّنتهم بالقولِ حتى كأنَّهم بواقِرُ جُلْحٌ أسكنَتها المراتعُ

وأنشد:

ولا شَبُوبٌ مِنَ الثيران أفْرَدَهُ عَنْ كَوْرِهِ كَثْرَةُ الإغْراء والطَّرَدُ

نار التحالف والحلف

ونار أخرى، هي التي توقدُ عند التَّحالُف؛ فلا يعقِدُونَ حِلفهُمْ إلاَّ عندَها، فيذكرون عند ذلك منافعها، ويَدْعُونَ إلى اللّه عزَّ وجلَّ، بالحرمان والمنع من منافعها، على الذي يَنْقُضُ عَهْدَ الحِلف، ويَخيس بالعهد.
ويقولون في الحلف: الدَّمُ الدَّمُ، والهدَمُ الهدَمُ، يحرِّكون الدّالَ في هذا الموضع ؛ لا يزيده طلوعُ الشمس إلا شَدًّا، وطولُ اللّيالي إلاَّ مَدّاً، ما بلَّ البحر صوفة، وما أقام

رضوى في مكانه، إن كان جبلهم رَضْوَى.
وكلُّ قومٍ يذكرون جبلهم، والمشهورَ من جبالهم.
وَربّما دَنَوْا منها حتى تكاد تحرقهم، ويهوِّلون على من يُخافُ عليه الغَدْرُ، بحقوقها ومنافعها، والتَّخويفِ مِنْ حِرْمانِ منفعتها، وقال الكُمَيت:

كهُولةِ ما أوقد المحلفُو ن للحالِفينِ وما هَوّلوا

وأصل الحِلْف والتَّحالف، إنما هو من الحَلِفِ والأيمان، ولقد تحالفت قبائلُ من قبائل مُرَّة بنِ عَوف، فتحالفوا عندَ نارٍ فدَنَوْا منها، وعشُوا بها، حَتَّى مَحَشَتهم، فسُمُّوا: المحاشَ.
وكان سيدَهم والمطاعَ فيهم، أبو ضمرة يزيد بن سنان بن أبي حارثة، ولذلك يقول النَّابغة:

جَمِّعْ محَاشَكَ يا يزيدُ فإنَّني جَمَّعْتُ يرْبُوعاً لكم وتميما

ولحِقتَ بالنَّسَبِ الذي عَيّرتَني وتركْتَ أصلاً يا يزيدُ ذميما

وقوله: تميم يريد: تميمة، فحذف الهاء.
التحالف والتعاقد على الملح وربّما تحالفوا وتعاقدوا على الملح، والملحُ شيئان: أحدهما المرَقة، والأخرى اللَّبَن، وأنشدوا لشُتيم بن خُويلدٍ الفَزاريّ:

لا يبعد اللّهُ رَبُّ العباد والمِلْحُ ما وَلَدَت خَالدَهْ

وأنشدوا فيه قول أبي الطَّمَحَانِ:

وإني لأَرْجُو مِلْحَهَا في بطونِكم وما بَسَطتْ مِنْ جِلْدِ أشْعَثَ أغْبَرَا

وذلك أنَّهُ كان جاورهم، فكان يَسقيهم اللَّبن؛ فقال: أرجو أن تشكروا لي رَدَّ إبلي، عَلَى ما شَرِبتم من ألبانها، وما بَسَطتْ من جِلْدِ أشْعَثَ أغبر، كأنَّهُ يقول: كنتم مهازيل والمهزولَ يتقشَّف جِلْدُهُ وينقبض فبَسَط ذلك من جُلودِكم. نار المسافر

ونار أخرى، وهي النّار التي كانوا ربَّما أوقدوها خَلْفَ المسافر، وَخَلفَ الزَّائرِ الذي لا يحبُّونَ رُجُوعَه، وكانوا يقولون في الدُّعاءِ: أبعده اللّه وأسحقه، وَأَوْقَدَ نَاراً خلفَه، وفي إثره وهو معنى قولِ بشار - وضرَبَهُ مثلاً:

صَحوتَ وأوقدْتَ للجهل نَارَا وردَّ عليك الصِّبَا ما استَعارا

وأنشدوا:

وجَمَّةِ أقوامٍ حَمَلْتَ ولم تكنْ   لتوقِدَ نَاراً إثرهم للتـنـدُّمِ

والجَمَّة: الجَمَاعة يمشون في الصلح، وقال الراجز في إبله:

تقسَمُ في الحقِّ وَتُعْطَى في الجُمَمْ

يقول: لا تندم على ما أعطيت في الحمالة، عند كلام الجَماعة فتوقد خلفهم ناراً كي لا يعودوا،

نار الحرب

ونار أخرى وهي النَّار التي كانوا إذا أرادوا حرْباً، وتوقَّعُوا جيشاً عظيماً، وأرادوا الاجتماع أوقدوا ليلاً على جبلهم نَاراً؛ ليبلغ الخبرُ أصحابَهم.
وقد قال عمرُو بنُ كلثومٍ:

ونحنُ غَدَاةَ أوقِدَ في خَزَازٍ   رَفَدْنَا فَوْقَ رَفْدِ الرَّافدينَا

وإذا جَدُّوا في جَمْع عشائرهم إليهم أوْقَدُوا نَارَيْنِ، وهو قول الفرزدق:

لولا فوارسُ تَغْلِبَ ابنَـةِ وائلٍ   سَدّ العدوُّ عليكَ كـلَّ مـكـانِ

ضربُوا الصَّنائِع والملوكَ وَأوقدوا   نـارَينَ أشرفَتَا علـى الـنِّـيران

نار الحرَّتين

ونار أخرى، وهي نار الحرّتين، وهي نار خالد بن سنان، أحد بني مخزوم، من بني قُطَيْعَةَ بْنِ عَبْس، ولم يكن في بني إسماعيل نبيٌّ قبلَهُ، وهو الذي أطفأ اللّه به نار الحَرَّتَينِ، وكانت ببلاد بني عبس، فإذا كان اللَّيلُ فهي نارٌ تسطعُ في السَّماء، وكانت طيِّئٌ تُنْفِشُ بها إبلها من مسيرةِ ثلاث، وربّما ندرَتْ منها العُنُق فتأتي على كلِّ شيء فتحرقُه، وإذا كان النهارُ فإنما هي دخانٌ يفور، فبعث اللّه خالدَ بنَ سنانٍ فاحتفَرَ لها بئراً، ثمّ أدخلها فيها، والنَّاس ينظرون؛ ثمّ اقتحم فيها حتى غيَّبها، وسمع بعض القوم وهو يقول: هَلَكَ الرَّجُلُ فقال خالدُ بن سنِانٍ: كذب ابنُ راعية المعز، لأخرجنَّ منها وجبيني يَنْدَى فلمَّا حضَرَتْهُ الوفاة، قال لقومه: إذا أنا متُّ ثمَّ دفنتموني، فاحضُروني بعدَ ثلاثٍ؛ فإنَّكم تَرَوْنَ عَيراً أبتَرَ يطوفُ بقبري، فإذا رأيتم ذلك فانبشوني؛ فإني أخبرُكم بما هو كائن إلى يوم القيامة، فاجتمعوا لذلك في اليوم الثالث، فلما رأوا العَيْرَ وذهبوا ينبشونه، اختلفوا، فصاروا فرقتين، وابنُه عبد اللّه في الفِرقة التي أبَتْ أن تنبشه، وهو يقول: لا أفْعَلُ إني إذاً أُدْعَى ابنَ المنبوش فتركوه.
وقد قدِمَتْ ابنَتُهُ على النبيّ صلى الله عليه وسلم، فَبَسط لها رداءَهُ وقال: هذه ابنةُ

نَبيٍّ ضيَّعهُ قومُهُ.
قال: وسَمِعتْ سورَةَ: "قُلْ هُوَ اللّهُ أحَدٌ" فقالت: قدكان أبي يتلو هذه السورة.
نبوة خالد بن سنان والمتكلّمون لا يؤمنون بهذا، ويزعمون أنَّ خالداً هذا كان أعرابيّاَ وبَريّاَ، من أهل شَرْجٍ ونَاظِرَة، ولم يبعث اللّه نبيًّا قطُّ من الأعرابِ ولا من الفدَّادِينَ أهلِ الوَبَر، وإنما بعثهم من أهل القرَى، وسُكَّانِ المُدُن.
وقال خُلَيْدُ عَيْنَيْن:

وأي نبيٍّ كانَ في غير قـوْمِـهِ　　　وَهَلْ كانَ حُكْمُ اللّهِ إلاّ مَع النَّخْلِ

وأنشدُوا:

كَنَارِ الحرَّتَينِ لـهـا زفـيرٌ　　　يُصِمُّ مَسَامِعَ الرَّجُلَ السّمِيع

عبادة النار وتعظيمها

وما زالَ النَّاسُ كافَّةَ، والأممُ قاطبةً حتى جَاءَ اللّه بالحقّ مُولَعين بتعظيم النَّار؛ حتى ضلَّ كثيرٌ من النَّاس لإفراطهم فيها، أنهم يعبدونها.
فأما النار العُلويَّة، كالشمس والكواكب، فقد عُبدت البتَّة،قال اللّه تعالى: "وَجَدتُها وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْس مِنْ دُونِ اللّه".
وقد يجيء في الأثر وفي سُنَّةِ بعض الأنبياء، تعظيمها على جهة التعبُّد والمحنة، وعلى إيجاب الشكر على النِّعمة بها وفيها، فيغلط لذلك كثيرٌ من النَّاس، فيجوزُون الحدّ. ويزعم أهلُ الكِتاب أنَّ اللّه تعالى أوصاهُمْ بها، وقال: لا تُطفئوا النِّيران مِنْ بُيوتي، فلذلك لا تجد الكنائس والبيَع، وبيوت العبادات، إلاَّ وهي لا تخلو من نارٍ أبداً، ليلاً ولا نهاراً؛ حتَّى اتَّخذت للنِّيرانِ البُيُوتَ وَالسَّدَنَة، ووقفُوا عليها الغلاَّتِ الكثيرة.
إطفاء نيران المجوس أبو الحسن عن مسلمة وقحدم، أنَّ زياداً بعث عَبد اللّه بنَ أبي بَكرة، وأمرهُ أن يطفئَ النيران، فأراد عبد اللّه أنْ يَبْدَأ بنارِ جُور فيطفِئَها، فقيل له: ليست للمجوس نَارٌ أعْظَمُ من نار الكاريانِ من دار الحارث، فإن أطفأتها لم يمتنع عَلَيْكَ أحدٌ، وإنْ أطفأت سافِلَتَهَا استعدُّوا للحَرْب وامتَنَعُوا، فابْدَأ بها، فخرجَ إلى الكاريان فتحصَّنَ أهلُها في القلعة، وكان رَجُلٌ من الفرس من أهل تلك البلاد معروف بالشدّة، لا يقدِرُ عليه أحد، وكان يمرُّ كلّ عشيَّةٍ ببابِ منزله استخفافاً وإذلالاً بنفسه، فغمَّ ذلك عبدَ اللّه، فقال: أما لِهذا أحدٌ؟ وكان معَ عبد اللّه بن أبي بكْرة رجلٌ من عبد القيس، مِنْ أشدِّ النَّاس بطشاً، وكان َجباناً، فقالوا له: هذا العبدي، هو شديدٌ جبان، وإن أمَرْتَهُ به خافَ القتالَ فلم يَعْرِضْ له، فاحتل له حيلةً، فقال: نعم.
قال: فبينا هو في مجلسه إذّ مرَّ الفارسِيُّ، فقال عبد اللّه: مارأيتُ مِثْلَ خلْق هذا، وما في الأرض كما زعموا أشدُّ منه بطشاً ما يقوى عليه أحد فقال العبدي: ما تجعلون لي إن احتملتُه حتَّى أدْخِلَه الدَّارَ وأكْتِفَهُ؟ فقال له عبد اللّه: لك أربعةُ آلافِ درهم، فقال: تَفُونَ لي بألفٍ؟ قال: نَعَمْ فلمّا كان الغْد مرَّ الفارسيُّ، فقام إليه العبديُّ

فاحتمله فيما امتَنَع ولا قدَرَ أن يتحرّك، حتَّى أدخَله الدَّار وَضربَ به الأرض ووثبَ عليه النَّاسُ فقتلوه، وغُشِيَ على العبدي حين قتلوه، فلما قُتِلَ أعْطى أهلُ القلعة بأيديهم، فقتل ابنُ أبي بَكْرة الهرابذة ، وأطفأ النَّارَ، ومضى يُطفئُ النِّيرانَ حتَّى بَلَغَ سِجِسْتَّان.
تعظيم المجوس للنار والمجوسُ تقدّم النّارَ في التَّعظيم على الماء، وتقدِّم الماءَ في التَّعظيم على الأرض، ولا تكاد تذكر الهواء.

نار السعالي والجن والغيلان

ونار أخرى، التي يحكونها من نيران السَّعالِي والجنِّ وهي غَيرُ نار الغِيلان، وأنشد أبو زيد لسَهم بن الحارث:

وَنَارٍ قد حضأتُ بُـعيْد هُدءٍ	بدارٍ لا أريدُ بها مُقامَا
سوَى تحليلِ رَاحلةٍ وعَيْنٍ	أكالئُها مخافة أنْ تَنَامَا
أتَوْا ناري فقلْتُ مَنُون أنتمْ	فقالوا :الجنُّ قلت: عِمُوا ظلاَمَا
فقلت :إلى الطّعامِ فقال منهم	زَعيمٌ :نحسُدُ الإنْسَ الطعامَا

وهذا غلط وليس من هذا الباب، وسنضعه في موضعه إن شاء اللّه تعالى، بل الذي يقع ههنا قول أبي المطراب عُبيدِ بن أيُّوبَ:

فللّه درُّ الغُول أيُّ رَفيقةٍ	لصاحِب قفرٍ خائفٍ متقفّرِ
أرَنّتْ بلَحْنٍ بَعْدَ لَحنٍ وأوقدَت	حَوَالَيَّ نيرَاناً تبوخُ وَتَزْهَرُ

نار الاحتيال

وما زالت السَّدَنَة تحتالُ للنَّاس جهة النِّيران بأنواع الحيل، كاحتيال رُهبانِ كَنيسةِ القُمامة ببيت المقدس بمصابيحها، وأنَّ زَيْتَ قناديلها يَسْتَوْقِدُ لهم من غير نَارٍ، في بعض ليالي أعيادِهم.
قال: وبمثل احتيال السَّادنِ لخالد بن الوليد، حين رماه بالشَّرَر؛ ليوهمه أنَّ ذلك من الأوثان،أو عقوبةً على ترك عبادتها وإنكارها، والتعرُّض لها؛ حتى قال:

يا عُزَّ كُفْرَانَكِ لا سُبْحَانَكِ	إنّي وَجَدْتُ اللّهَ قد أهَانَكْ

حتى كشف اللّه ذلك الغطاءَ، من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم.

نار الصيد والبيض

ونار أخرى، وهي النَّار التي تُوقدُ للظباء وصيدها، لتعشى إذا أدامت النَّظر، وتُخْتَل من ورائها، ويطلب بها بيض النعام في أفاحيصها ومكناتها.
ولذلك قال طُفيلٌ الغنوي:

عوازب لم تسمع نُبُوحَ مَقامَةٍ وَلَمْ تَرَ نَاراً تِمَّ حَوْلِ مُجَرَّمِ

سِوى نَار بَيْض أو غَزَالٍ بِقفرَة أغنَّ مِنَ الخُنْسِ المَناخِرِ تَوْأَمِ

وقد يُوقدون النِّيران يُهَوِّلون بها على الأسْد إذا خافوها، والأسَدُ إذا عايَنَ النَّار حدقَ إليها وتأمَّلها، فما أكْثَرَ ما تَشْغَلهُ عن السَابلة.
قصة أبي ثعلب الأعرج وَمرَّ أبُو ثعلب الأعرج، على وادي السّباع، فَعَرَض له سبع، فقال لَهُ المُكاري: لو أمرت غِلمانَكَ فأوْقدوا ناراً، وضَرَبوا على الطَّساس الذي معهم ففعلوا فأحْجَمَ عنها، فأنشدني لهُ ابن أبي كريمة، في حُبّه بعد ذلك للنّار، وَمَدْحِهِ لها وللصوتِ الشَّديد، بَعد بُغْضِه لهمَا وهو قوله:

فأحْبَبْتها حُباً هويتُ خِلاَطَهَا ولو في صَميمِ النَّار نَار جَهنَّم

وصِرْتُ ألذُّ الصَّوتَ لو كان صاعِقاً وأطْربُ من صَوْت الحمار المرقَّم

وروي أنَّ أعرابيَّاً اشتدَّ عليه البردُ، فأصاب ناراً، فدنا منها ليصطلي بها، وهو يقول: اللّهم لا تَحْرمنيها في الدُّنيا ولا في الآخرة.
حيرة الضفدع عند رؤية النار وممّا إذا أبصر النّار اعترَتْهُ الحيرةُ، الضّفدعُ،؛ فإنَّهُ لا يزالُ يَنِقُّ فإذا أبْصَرَ النّار سَكَتَ.

نار الحباحب

ومن النِّيران نار الحُباحِب وهي أيضاً نارُ أبي الحباحب، وقال أبو حَيّة:

يُعَشِّرْ في تقريبهِ فإذا انحنى عليهنّ في قفٍّ أرَنَّتْ جنادِلُهْ

وَأوْقدْنَ نيرانَ الحباحب والتقى غَضاً تتراقى بينهنَّ ولاوِلُهْ

وقال القُطاميُّ في نار أبي الحُباحب:

تُخَوِّدُ تخْويدَ النّعامةِ بَعْدَما تَصَوَّبَتِ الجَوْزَاءُ قصْدَ المغاربِ

ألا إنما نِيرَانُ قَيْسٍ إذا اشْتَوت لطارق ليْلٍ مثْلُ نارِ الحباحبِ

ويصفون ناراً أخرى، وهي قريبةٌ من نار أبي الحباحب، وكلُّ نار تراها العينُ ولا حقيقة لها عند التماسها، فهي نار أبي الحباحب، ولم أسمعْ في أبي حباحب نفسِهِ شيئاً.

نار البرق

وقال الأعرابيُّ، وذَكَرَ البرْق:

نَارٌ تعُود به للعُودِ جِدّتُـه   والنَّارُ تُشْعِلُ نِيرَاناً فتحترقُ

يقول: كلُّ نار في الدُّنيا فهي تحرِق العِيدانَ وتُبْطلها وتُهلكها، إلاَّ نار البرق، فإنَّها تجيء بالغيث، وإذا غِيثتِ الأرضُ ومُطِرَتْ أحدَثَ اللّه للِعىدَانِ جِدَّةً، وللأشْجار أغصاناً لم تكن.

نار اليراعة

ونارٌ أخرى، وهي شبيهةٌ بنار البرق، ونار أبي حباحب، وهي نار اليراعة،
واليراعة: طائر صغير، إنْ طار بالنَّهار كان كبعض الطَّير، وإن طار باللَّيل كان كأنَّهُ شهابٌ قُذِفَ أو مصباحٌ يطير.
الدفء برؤية النار وفي الأحاديث السَّائرة المذكورة في الكتب، أنَّ رَجُلاً أُلقيَ في ماء راكِدٍ في شتاء بارد، في ليلةٍ من الحنادِس، لا قمر ولا ساهور وإنما ذكر ذلك ،لأنَّ ليلةَ العَشْر والبدر والطَّوق الذي يستدير حول القمر، يكون كاسِراً من بَرْد تلك الليلة قالوا: فما زال الرجُل حيّاً وهو في ذلك تَارزٌ جامِد، ما دام ينظر إلى نَارٍ، كانت تُجاهَ وجهه في القرية، أو مصباحٍ، فلما طفئتْ انْتَقَضَ.

نار الخلعاء والهُرَّاب

وقال الشَّاعر:

ونـارٍ قُبيلَ الصُّبح بادَرْتُ قدْحَها   حَيَا النَّار قد أوْقدْتُهَا للمُسَافر

يقول: بادرت اللَّيل، لأنَّ النَّارَ لا تُرى بالنهار، كأنه كان خليعاً أو مطلوباً.
وقال آخر:

وَدَوِّيّةٍ لا يثقب النَّار سَفْرُهَا   وَتُضْحِي بها الوَجْناء وَهْيَ لَهيدُ

كأنَّهم كانوا هُرّاباً، فمِنْ حثهم السّيرَ لا يُوقدون لبُرْمَةٍ ولا مَلَّة؛ لأنّ ذلك لا يكون إلاّ بالنزول والتمكثِ، وإنما يجتازون بالبَسيسَةِ، أو بأدنى عُلقة، وقال بعض اللُّصوص:

ملساً بذَوْدِ الحدَسِيّ مَلْسَا نبَّهْتُ عنهن غلاماً غُسَّا

لمَّا تَغَشَّى فَرْوَةً وَحِلْسا مِنْ غُدْوَةٍ حتَّى كأنّ الشّمسَا

بالأفُق الغربيِّ تكْسَى وَرْسَا لا تخبزا خَبْزاً وَبُسّا بَسّا

ولا تُطيلا بمُناخٍ حَبْسَا وَجَنِّباها أسَداً وَعَبْسا

قال: والبَسيسة: أن يبلّ الدَّقيق بشيء حتى يجتمع ويؤكل.

نار الوشْم

ونار أخرى، وهي نار الوشم والمِيسَم يقال للرجل: ما نار إبلِك؟ فيقول: عِلاط، أو خِبَاط، أو حَلْقة أو كذا وكذا.
رجز لبعض اللصوص وقرّب بعضُ اللُّصوص إبلاً من الهُواشة، وقد أغار عليها من كلِّ جانب، وجَمعها من قبائلَ شتى، فقرّبها إلى بعض الأسواق، فقال له بعض التّجار: ما نارك؟ وإنما يسأله عن ذلك؛ لأنهم يعرفون بميسم كل قومٍ كرَمَ إبلِهِمْ من لؤمها، فقال:

تَسْألُني البَاعَةُ ما نِجَارُها إذْ زعزعُوها فَسَمَتْ أبصارُها

فكلُّ دارٍ لأناسٍ دَارُها وكلُّ نَارِ العَالمينَ نارُها

وقال الكردوس المرادي:

تسائلني عن نارها وَنِتَاجِها وذلك عِلْمٌ لا يُحيط به الطّمْشُ

والطّمْشُ: الخلقُ، وَالوَرَى: النَّاس خاصّة.

الجزء الخامس

بِسم اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

نبدأ في هذا الجزءِ بتمامِ القول في نيران العربِ والعجَم، ونيرانِ الدِّيانة ومبلغ أقدارها عند أهلِ كلِّ مِلَّةٍ وما يكون منها مَفْخَراً، وما يكونُ منها مذموماً، وما يكون صاحبها بذلك مهجوراً.

ونبدأ بالإخبار عنها وبدئها، وعن نفس جوهرها، وكيفَ القولُ في كُمونها وظهورها، إن كانت النارُ قد كانت موجودةً العينِ قبلَ ظهورها، وعن كونها، على المجاورة كان ذلك أم على المداخَلَة، وفي حدوث عَينها إن كانت غيرَ كامنة، وفي إحالة الهواء لها والعودِ جَمْراً، إن كانت الاستحالةُ جائزة، وكانت الحجّة في تثبيت الأعراض صحيحة، وكيف القولُ في الضِّرام الذي يظْهر من الشجر، وفي الشَّرَر الذي يظهر من الحجَر، وما القولُ في لون النار في حقيقتها، وهل يختلفُ الشَّرَار في طبائعها، أم لا اختلافَ بين جميعِ جواهرها، أم يكون اختلافها على قدْر اختلافِ مخارجِها ومَداخلها، وعلى قدر اختلافِ ما لاقاها وهَيّجها؟

الكلام على النار

قول النظام في النار

ونبدأ، باسم اللّه وتأييده، بقول أبي إسحاق.

قال أبو إسحاق: الناس اسمُ للحَرِّ والضِّياء، فإذا قالوا: أحْرَقتْ أو سخّنَتْ، فإنما الإحراقُ والتسخينُ لأحدِ هذين الجنسين المتداخِلين، وهو الحرُّ دون الضياء. وزعمَ أن الحرَّ جوهَر صعَّادٌ، وإنما اختلفا، ولم يكن اتِّفاقهما على الصعود موافقاً بين جواهرهما؛ لأنهما متى صارا من العالَم العُلويِّ إلى مكانٍ صار أحدهما فوقَ صاحبه.

وكان يجزِم القولَ ويُبْرِم الحُكم بأنّ الضياءَ هو الذي يَعْلو إذا انفردَ، ولا يُعْلَى.

قال: ونحنُ إنما صِرْنا إذا أطفأنا نارَ الأتُّون وجَدْنا أرضه وهواهُ وحيطانه حارّة، ولم نجدْها مضيئة، لأن في الأرض، وفي الماء الذي قد لابسَ الأرض، حَرّا كثيراً، وتداخلاً مُتشابكاً؛ وليس فيهما ضياء، وقدْ كانَ حَرُّ النار هَيَّجَ تِلْكَ الحَرَارَةَ

فأَظْهَرَهَا، ولَمْ يَكُنْ هُنَاكَ ضِياءٌ من مُلاَبِس فهَيَّجهُ الضياءُ وأظهره، كما اتصل الحرُّ بالحرِّ فأزاله من موضعهِ، وأبرزهُ من مكانه، فلذلك وجدْنا أرضَ الأتُّون، وحيطانها، وهواها حارَّةً، ولم نجِدْها مضيئة.
وزعم أبو إسحاقَ أنَّ الدليل على أن في الحجر والعود ناراً مع اختلاف الجهات، أنه يلزَمُ من أنكرَ ذلك أن يزعُمَ أن ليس في السِّمسم دُهْنٌ ولا في الزَّيتون زيت.
ومن قال ذلك لزمهُ أنْ يقولَ: أنْ ليس في الإنسان دَم، وأنَّ الدَّمَ إنّما تَخَلَّقَ عند البطّ، وكان ليس بين مَن أنكرَ أن يكون الصَّبرُ مرّ الجوهر، والعسلُ حُلْوَ الجوهر قبل ألاّ يذاقا، وبين السمسمِ والزيتون قبلَ أن يُعصرا - فَرْق.

وإنْ زَعَم الزاعم أنّ الحلاوة والمرارة عَرَضانِ، والزيتَ والخلّ جوهر، وإذا لزم مَنْ قال ذلك في حلاوة العسل، وحموضة الخلِّ، وهما طعمان - لزمه مثلُ ذلك في ألوانهما، فيزعم أنَّ سوادَ السَّبَج، وبياضَ الثلج، وحُمْرَةَ العُصْفُر، وصُفرة الذهب، وخُضْرَةَ البقْل، إنما تحدُث عندَ رؤية الإنسان، وإن كانت المعاينةُ والمقابلة غيرَ عاملتين في تلك الجواهر. قال: فإذا قاسَ ذلك المتكلِّم في لَوْنِ الجسم بعد طعمه، وفي طوله وعرضه وصورته بعد رائحته، وفي خفتِه وثقل وزنه، كما قاس في رخاوته وصلابته - فقد دخل في باب الجهالات، ولِحق بالذين زعموا أن القِرْبَةَ ليس فيها ماء، وإنْ وجدوها باللمس ثقيلة مزكورة وإنما تخلَّق عند حلِّ رباطها، وكذلك فليقولوا في الشمسِ والقمرِ، والكواكب، والجبال، إذا غابتْ عن أبصارهم

قال: فمن هرب عن الانقطاع إلى الجهالات، كان الذي هرب إليه أشدَّ عليه.

وكان يضربُ لهما مثلاً ذكرته لِظرَافته: حُكِيَ عن رجل أحدبَ سقط في بئر، فاستوت حدَبتُهُ وحَدَثتْ له أُدْرَةٌ في خُصيته، فهَنَّاه رجلٌ عن ذهاب حَدَبته، فقال: الذي جاء شرٌّ من الذي ذهب.

رد النظام على ضرار في إنكار الكمون وكان أبو إسحاق يزعُم أن ضِرَارَ بنَ عَمرو قد جَمعَ في إنكاره القولَ بالكُمُونِ الكفرَ والمعاندة؛ لأنه كان يزعُمُ أن التوحيدَ لا يصحُّ إلا مع إنكار الكمون، وأن القولَ بالكمون لا يصحُّ إلا بأنْ يكون في الإنسان دمٌ، وإنما هو شيءٌ تَخَلَّق عند الرُّؤية.
قال: وهو قد كان يعلمُ يقيناً أنَّ جوفَ الإنسانِ لا يخلو من دم.

قال: ومن زعَمَ أن شيئاً من الحيوان يعيشُ بغير الدم، أو شيءٍ يشبهُ الدمَ، فواجبٌ عليه أن يقول بإنكار الطبائع؛ ويدفع الحقائقَ بقول جَهْم في تسخين النار وتبريد الثلج، وفي الإدراك والحسِّ، والغذاء والسُّمِّ، وذلك بابٌ آخر في الجهالات.

ومن زعم أن التوحيدَ لا يصلحُ إلا بألاّ يكون في الإنسان دم، وإلا بأن تكونَ النارُ لا توجب الإحراق، والبصرُ الصحيحُ لا يوجبُ الإدراك - فقد دَلّ عَلى أنه في غاية النقص والغباوة، أو في غاية التكذيب والمعاندة.
وقال أبو إسحاق: وجدنا الحطب عند انحلال أجزائه، وتفرُّق أركانِهِ التي بُني عليها، ومجموعاته التي رُكّبَ منها وهي أربع: نارٌ، ودخانٍ، وماءٌ، ورَمَاد، ووجدنا للنار حرّاً وضياءً، ووجدنا للماء صوتاً، ووجدنا لِلدُّخان طعماً ولوناً ورائحة، ووجدنا للرَّمَادِ طعماً ولوناً ويُبْساً، ووجدنا للماء السائل من كل واحد من أصحابه، ثمَّ وجدناه ذا أجناسٍ رُكِّبَتْ من المفرَدَات.
ووجدنا الحطب رُكِّبَ على ما وصفنا، فزَعمنا أنه رُكِّب من المُزْدَوِجَاتِ، ولم يُرَكَّبْ من المفردات.
قال أبو إسحاق: فإذا كان المتكلمُ لا يعرف القياسَ ويُعطيه حقه فرأى أنَّ العُود حين احتكَّ بالعودِ أحدث النار فإنه يلزَمُه في الدخان مثلُ ذلك، ويَلزَمُه في الماء السائل مثلُ ذلك، وإنْ قاس قال في الرّماد مثلَ قوله في الدخان والماء، وإلا فهو إما جاهلٌ، وإمّا متحكم.
وإن زَعَمَ أنه إنما أنكرَ أنْ تكون النارُ كانت في العودِ، لأنه وَجَدَ النارَ أعظم من العود، ولا يجوز أن يكون الكبيرُ في الصغير، وكذلك الدخان - فليَزْعُمْ أن الدخانَ لم يكنْ في الحطبِ، وفي الزَّيت وفي النِّفْطِ.
فإن زعم أنهما سواءٌ، وأنه إنما قال بذلك لأن بَدَنَ ذلك الحطب لم يكن يسعُ الذي عاين من بَدَن النارِ والدخان، فليس ينبغي لمنْ أنكر كُمونَهَا من هذه الجهة أنْ يزعُمَ أنّ شَرَرَ القدَّاحَةِ والحجَرِ لم يكونا كامنين في الحجَر والقدَّاحَة.
وليس ينبغي أن يُنْكِرَ كُمونَ الدم في الإنسان، وكمونَ الدُّهْن في السمسم، وكمون الزيت في الزيتون، ولا ينبغي أن يُنْكِرَ من ذلك إلا ما لا يكون الجسمُ يَسَعُه في العين.
فكيف وهم قد أجْرَوْا هذا الإنكارَ في كلِّ ما غابَ عن حواسّهم من الأجسام المستَتِرة بالأجسام حتى يعود بذلك إلى إبطال الأعراض؟ كنحو حموضة الخلّ، وحلاوة العسلِ، وعذوبة الماء، ومَرارة الصبر.
قال: فإن قاسوا قولهم وزعموا أن الرمادَ حادثٌ، كما قالوا في النار والدُّخان، فقد وجبَ عليهم أن يقولوا في جميع الأجسام مثلَ ذلك كالدقيق المخالفِ للبُرِّ في لونه، وفي صلابَتهِ، وفي مساحته، وفي أمورٍ غير ذلك منه، فقد ينبغي أن يزعم أن الدقيقَ حادثٌ، وَأن البُرّ قد بطَلَ.
وإذا زعم ذلك زعم أنّ الزُّبْدَ الحادثَ بعد المخْضِ لم يكن في اللبن، وأنَّ جُبْنَ اللبنِ حادث، وقاسَ ماءَ الجُبْن على الجبن، وليس اللبنُ إلا الجُبْنَ والماءَ. وإذا زعم أنهما حادثان، وَأن اللبن قد بَطَلَ، لزمَه أن يكون كذلك الفَخَّارُ، الذي لم نجِده حتى عَجَنَّا الترابَ اليابسَ المتهافتَ على حِدَته، بالماءِ الرَّطْبِ السّيال على حِدَتِهِ، ثم شوَيناهُ بالنار الحارَّةِ الصَّعَّادَةِ على حِدَتِها، ووجدنا الفخار في العينِ واللمس والذَّوق والشَّمّ، وعند النَّقْر والصّكِّ - على خلاف ما وجدنا عليه النارَ وحدها، والماءَ وحده، والتُّرابَ وَحْدَهُ؛ فإنّ ذلك الفخار هو تلك الأشياءُ، والحطبَ هو تلك

الأشياءُ، إلا أن أحدَها من تركيب العِباد، والآخرَ من تركيب اللّه.
والعبد لا يقلبُ المَركَّباتِ عن جواهرها بتركيبه ما ركب منها.
والحَجَرُ متى صَكَّ بيضةً كسَرَها، وكيف دارَ الأمرُ، سواءٌ كانت الرِّيح تقلبه أو إنسان.
فإن زعموا أن الفخار ليس ذلك التُّرابَ، وذلك الماءَ، وتلك النار، وقالوا مثل ذلك في جميع الأخبصة والأنبذة، كان آخرُ قياسهم أن يُجِيبوا بجواب أبي الجهجاه؛ فإنه زعم أن القائمَ غيرُ القاعد، والعجينَ غيرُ الدقيق، وزعم - ولو أنه لم يقل ذلك - أن الحبَّة متى فلقت فقد بطل الصحيح، وحدثَ جِسْمان في هيئةِ نصفَي الحبَّة، وكذلك إذا فلقت بأربع فلق، إلى أن تصيرَ سَويقاً، ثم تصيرَ دقيقاً، ثم تصير عجيناً، ثم تصير خُبزاً، ثم تعودَ رجيعاً وزِبْلاً، ثم تعودُ رَيحاناً وبَقلاً، ثم يعود الرجيع أيضاً لبناً وزُبداً؛ لأن الجلاَّلة من البهائم تأكله، فيعودُ لحماً ودماً.
وقال: فليس القولُ إلا ما قال أصحابُ الكُمونِ، أو قولَ هذا.
ردّ النظام على أصحاب الأعراض قال أبو إسحاق: فإن اعترض علينا مُعترضٌ من أصحاب الأعراض فزعم أن النارَ لم تكن كامنةً، وكيفَ تكمُنُ فيه وهي أعظم منه؟
ولكنّ العودَ إذا احتكّ بالعود حَمِيَ العودان، وحمي من الهواءِ المحيط بهما الجزءُ الذي بينهما، ثم الذي يَلي ذلك منهما، فإذا احتدم رقّ، ثم جفّ والتهب، فإنما النارُ هواءٌ استحالَ.
والهواءُ في أصل جوهرهِ حارٌّ رقيق، وهو جسم رقيق، وهو جسمٌ خَوَّارٌ، جيِّد القبول، سريع الانقلاب.
والنار التي تراها أكثرَ من الحطب، إنما هي ذلك الهواءُ المستحيل، وانطفاؤها بطلان تلك الأعراضِ الحادثة من النارية فيه، فالهواءُ سريعُ الاستحالة إلى النار، سريعُ الرجوع إلى طبعهِ الأول، وليس أنها إذا عُدِمَتْ فقد انقطعتْ إلى شكل لها عُلْويٍّ واتصلت، وصارتْ إلى تِلادها، ولا أنَّ أجزاءَها أيضاً تفرقتْ في الهواء، ولا أنها كانت كامنةً في الحطب، متداخلةً منقبضةً فيه، فلما ظهرت انبسطت وانتشرت، وإنما اللهبُ هواءٌ استحال ناراً؛ لأن الهواءَ قريبُ القرابةِ من النار، والماءَ هو حجازٌ بينهما، لأنَّ النار يابسةٌ حارة، والماءَ رطبٌ بارد، والهواءَ حارٌّ رطب، فهو يُشبه الماء من جهة الرطوبة والصفاء، ويُشبه النار بالحرارةِ والخفة فهو يخالفهما ويوافقهما؛ فلذلك جازَ أن ينقلبَ إليهما انقلاباً سريعاً، كما ينعصر الهواء إذا استحال رطباً وحدث له كثافة، إلى أن تعود أجزاؤه مطراً، فالماء ضدٌّ النار، والهواء خلافٌ لهما، وليس بضِدٍّ، ولا يجوز أن ينقلب الجوهر إلى ضده حتى ينقلب بَدِيّاً إلى خلافه، فقد يستقيم أن ينقلبَ الماء هواءً، ثم ينقلبَ الهواءُ ناراً، وينقلبَ الهواءُ ماء، ثم ينقلبَ الماءُ أرضاً، فلا بدّ في الانقلاب من الترتيبِ والتدريج، وكلُّ جوهر فله مقدمات؛ لأن الماءَ قد يحيل الطين صخراً، وكذلك في العكس، فلا يستحيل الصخرُ هواءً، والهواءُ صخراً، إلا على هذا التنزيل والترتيب.
وقال أبو إسحاق لمن قال بذلك من حُذَّاق أصحاب الأعراض: قد زعمتم أن النار التي عاينّاها لم تخرج من الحطب، ولكنَّ الهواءَ المحيط بهما احتدَمَ واستحالَ ناراً، فلعلّ الحطب الذي يسيل منه الماءُ الكثيرُ، أن يكون ذلك الماءُ لم يكن في الحطب،

ولكنَّ ذلك المكان من الهواءِ استحالَ ماء، وليس ذلك المكان من الهواء أحقَّ بأن يستحيل ماءً من أن يكون سبيلُ الدخان في الاستحالةِ سبيلَ النار والماء.
فإن قاسَ القومُ ذلك، فزعموا أن النار التي عاينَّاها، وذلك الماء والدخان في كثافة الدخَان وسَوادِه، والذي يتراكمُ منه في أسافل القدور وسُقف المطابخ إنما ذلك هواء استحال، فلعلَّ الرماد أيضاً، هواءٌ استحالَ رماداً. فإن قلتم: الدُّخان في أول ثقله المتراكم على أسافل القدور، وفي بُطونِ سُقُفِ مواقِدِ الحمامات، الذي إذا دُبِّرَ ببعض التدبير جاء منه الأنقاسُ العجيبةُ أحق بأن استحال أرضيّاً، فإن قاسَ صاحب العَرَض، وزعم أن الحطب انحلَّ بأسره، فاستحال بعضه رماداً كما قد كان بعضُه رماداً مرةً، واستحال بعضه ماءً كما كان بعضه ماءً مرة، وبعضه استحال أرضاً، كما كان بعضه أرضاً مرة، ولم يقلْ إن الهواءَ المحيطَ به استحالَ رماداً، ولكنَّ بعضَ أخلاطِ الحطبِ استحالَ رماداً ودُخاناً، وبعض الهواء المتصل به استحال ماءً وبعضه استحال ناراً، على قدر العوامل، وعلى المقابلات له، وإذا قال صاحبُ العرض ذلك كان قد أجاب في هذه الساعةِ على حدِّ ما نزَّلتُه لك.
وهذا باب من القول في النار، وعلينا أن نستقصيَ للفريقين واللّه المعين.

ردٌّ على منكري الكُمون

وبابٌ آخرُ، وهو أن بعض من ينكرُ كُمونَ النار في الحطب قالوا: إن هذا الحرّ الذي رأيناه قد ظهرَ من الحطب، لو كان في الحطب لكان واجباً أن يجده مَنْ مَسّه كالجمر المتوقد، إذا لم يكن دونه مانعٌ منه، ولو كان هناك مانعٌ لم يكن ذلك المانعُ إلا البردَ؛ لأن اللونَ والطعمَ والرائحة لا يفاسِد الحرَّ، ولا يُمانعه إلا الذي يُضادُّه، دون الذي يخالفه ولا يضاده.
فإن زعم زاعمٌ أنه قد كان هناكَ من أجزاء البرد ما يعادلُ ذلك الحرَّ ويُطاوله، ويكافيه ويوازيهِ؛ فلذلك صرنا إذا مَسَسْنَا الحطبَ لم نجدْه مؤذياً، وإنما يظهر الحرْقُ ويُحْرِقُ لزوال البرد، إذا قام في مكانه وظهر الحرُّ وحْده فظهر عمله، ولو كان البردُ المعادلُ لذلك الحرِّ مقيماً في العود على أصلِ كمونه فيه، لكانَ ينبغي لمن مَسَّ الرَّمادَ بيده أن يجده أبرد من الثلج، فإذا كان مسه كمسِّ غيره، فقد علمنا أنه ليس هناك من البرد ما يعادلُ هذا الحرَّ الذي يُحرق كلّ شيءٍ لَقِيَه.
فإن زعم أنهما خرجا جميعاً من العود، فلا يخلو البردُ أن يكونَ أَخَذَ في جهته، فلِمَ وجدنا الحرّ وحده وليس هو بأحق أن نجده من ضِدّه، وإن كان البردُ أَخَذَ شَمَالاً، وأخذَ الحرُّ جنوباً، فقد كان ينبغي أن يجْمِد ويُهْلك ما لاقاه، كما أهلك الحر وأحرقَ وأذاب كلَّ ما لاقاه.
قالوا: فلما وجدنا جميعَ أقسامِ هذا البابِ، علمنا أن النار لم تكن كامنة في الحطبِ.
قال أبو إسحاق: والجواب عن ذلك أنا نزعم أن الغالبَ على العالَم السفليِّ الماءُ والأرض، وهما جميعاً باردان، وفي أعماقهما وأضعافهما من الحر ما يكون مغموراً ولا يكون غامراً، ويكون مقموعاً ولا يكون قامعاً؛ لأنه هناك قليل، والقليلُ ذليل، والذليلُ غريب، والغريبُ محقور، فلما كان العالَمُ السفلي كذلك، اجتذبَ ما فيه من قوة البرد وذلك البرد الذي كان في العود عند زوالِ مانعه؛ لأن العودَ مقيمٌ

في هذا العالم، ثم لمْ ينقطع ذلك البردُ إلى برد الأرض، الذي هو كالقُرْص له، إلا بالطَّفرة والتخليف، لا بالمرور على الأماكن والمحاذاةِ لها وقام بَرْدَ الماء منه مقام قرصِ الشمسِ من الضياء الذي يدخل البيتَ للخَرْق الذي يكون فيه، فإذا سُدَّ فمع السَّدِّ ينقطعُ إلى قُرْصه، وأصلِ جوهره.

فإذا أجابَ بذلك أبو إسحاق لم يجد خصمُه بُدّاً من أن يبتدئ مسألةً في إفساد القول بالطفرة والتخليف.

ولولا ما اعترض به أبو إسحاق من الجواب بالطفرة في هذا الموضع، لكان هذا مما يقع في باب الاستدلالِ على حدوثِ العالم.

قول النظام في الكمون وكان أبو إسحاق يزعُمُ أن احتراق الثوب والحطب والقطن، إنما هو خروجُ نيرانه منه، وهذا هو تأويل الاحتراق، وليس أن ناراً جاءت من مكانٍ فعملت في الحطب، ولكن النار الكامنة في الحطب لم تكن تقوى على نفي ضدِّها عنها، فلما اتصلت بنار أخرى، واستمدَّت منها، قويَتَا جميعاً على نفي ذلك المانع، فلما زال المانع ظهرت، فعند ظهورها تجزَّأ الحطبُ وتجففَ وتهافتَ؛ لمكان عملها فيه، فإحراقك للشيء إنما هو إخراجك نيرانه منه.

وكان يزعم أن حرارة الشمس، إنما تحرق في هذا العالم بإخراج نيرانها منه، وهي لا تُحرق ما عقد العَرضُ وكَثَّفَ تلك النداوة؛ لأن التي عقدت تلك الأجزاء من الحر أجناس لا تحترق، كاللون والطعم والرائحة، والصوت، والاحتراقُ إنما هو ظهورُ النار عند زوال مانِعها فقط.

وكان يزعم أن سمَّ الأفعى مقيماً في بدن الأفعى، ليس يَقْتُل، وأنه متى مازَجَ بدناً لا سمَّ فيه لم يقتل ولم يُتْلِفْ، وإنما يتلفُ الأبدان التي فيها سموم ممنوعة مما يُضَادُّها، فإذا دخل عليها سم الأفعى، عاون السم الكامنُ ذلك السمَّ الممنوعَ على مانعهِ، فإذا زال المانعُ تلف البدن، فكان المنهوشُ عند أبي إسحاقَ، إنما كان أكثرُ ما أتلفه السمّ الذي معه.

وكذلك كان يقول في حرِّ الحمَّام، والحر الكامنِ في الإنسان: أنَّ الغَشْيَ الذي يعتريه في الحمام ليس من الحر القريب، ولكن من الحر الغريب، حرّك الحرَّ الكامن في الإنسانِ، وأمَدّهُ ببعض أجزائه، فلما قويَ عند ذلك على مانِعِهِ فأزاله، صار ذلك العملُ الذي كان يُوقعه بالمانع واقعاً به، وإنما ذلك كماءٍ حار يحرقُ اليَد، صُبَّ عليه ماءٌ باردٌ، فلما دخل عليه الماء البارد صار شُغْله بالداخل، وصار من وضَعَ يده فيه ووضع يدَه في شيء قد شُغِلَ فيه بغيره، فلما دفع اللّه، عزّ وجلّ، عنه ذلك الجسم الذي هو مشغولٌ به، صار ذلك الشُّغْل مصروفاً إلى من وضع يده فيه؛ إذ كان لا ينفكُّ من عمله.

وكان مع ذلك يزعم أنك لو أطفأتَ نارَ الأتُّون لم تجدْ شيئاً من الضوء، ووجدت الكثير من الحر؛ لأن الضياء لما لم يكن له في الأرض أصلٌ ينسب إليه، وكان له في العلوِّ أصلٌ، كانَ أولَى به.

وفي الحقيقة أنهما جميعاً قد اتصلا بجوهرهما من العالم العلويِّ، وهذا الحر الذي تجده في الأرض، إنما هو الحرُّ الكامن الذي زال مانعه.

هكذا كان ينبغي أن يقول، وهو قياسُه.

وكان يزعم أنك إن أبصرتَ مصباحاً قائماً إلى الصُّبح أن الذي رأيته في أول وهلةٍ قد بَطَلَ من هذا العالَم، وظفِر من الدهن بشيء من وزنه وقدره بلا فضل، ثم كذلك الثالث والرابع والتاسع، فأنت إن ظننتَ أن هذا المصباحَ ذلك، فليس به، ولكن ذلك المكان لما كان لا يخلو من أقسامٍ متقاربة متشابهة، و لم يكن في الأول شِيةٌ ولا علامة، وقع عندك أن المصباحَ الذي رأيته مع طلوع الفجر، هو الذي رأيته مع غروب الشَّفق.
وكان يزعم أن نار المصباح لم تأكل شيئاً من الدُّهن ولم تشربْه، وأن النار لا تأكل ولا تشرب، ولكن الدهن ينقص على قدر ما يخرجُ منه من الدخان والنار الكامنَين، اللذَينِ كانا فيه، وإذا خرج كلُّ شيء فهو بُطْلاَنه.

المجاز والتشبيه الأكل

وقد يقولون ذلك أيضاً على المثل، وعلى الاشتِقاق، وعلى التشبيه.
فإن قلتم: فقد قال اللّه عزّ وجلّ في الكتاب: "الَّذِينَ قالُوا إنَّ اللّه عَهِدَ إلَيْنا أنْ لاَ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تأْكُلُهُ النَّارُ" علِمْنَا أن اللّه، عزّ وجلّ، إنما كلمهم بلغتهم.
وقد قال أوسُ بنُ حَجَر :

فأشْرَط فيها نفسَه وهْو مُعْصِمٌ وألقى بأسبابٍ لـه وتـوكَّـلاَ

وقد أكَلَتْ أظْفَارُه الصَّخْرُ كلما تَعَايا عليه طولُ مَرْقى تَوَصَّلاَ

فجعل النحتَ والتَّنَقُّصَ أكلاً.
وقال خفَافُ بن نَدْبَة:

أبا خُرَاشَةَ أمَّا كنْتَ ذَا نَفَرٍ فإنَّ قوْمِيَ لمْ تَأكلْهُمُ الضبُعُ

والضَّبُع: السَّنَة، فجعل تَنَقُّصَ الجدْب، والأزْمة، أكلاً.
باب آخر مما يسمونه أكلاً. وقال مِرْداسُ بن أُدَيّة:

وأدّتِ الأرضُ مِنِّي مِثْلَ مَا أكَلَتْ وقرّبُوا لحِسَابِ القِسْطِ أعمالـي

وأكْلُ الأرض لما صارَ في بطنها: إحالتها له إلى جَوْهَرها.

باب آخر في المجاز والتشبيه بالأكل

وهو قول اللّه عزّ وجلّ: "إنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أمْوَالَ الْيَتَامَى ظلْماً" وقوله تعالى، عزَّ اسمُه: "أكَّالُونَ لِلسُّحْتِ"، وقد يقال لهم ذلك وإن شربوا بتلك الأموال الأنبذة، ولبسوا الحُلَلَ، وركبوا الدوابَّ، ولم ينفقوا منها دِرْهَماً واحداً في سبيل الأكل.

وقد قال اللّه عزّ وجلّ: "إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً"، وهذا مجازٌ آخر.
وقال الشاعر في أخذ السِّنِينَ من أجزاء الخمر:

أكَلَ الدَّهْرُ ما تجسَّمَ منها وتَبَقَّى مُصَاصَهَا المكنونا

وقال الشاعر:

مَرّتْ بِنَا تَخْتَالُ فِي أرْبَعِ يأكُلُ منها بعضُهَا بعضَا

وهلْ قوله: وقد أكَلَتْ أظْفَارَه الصَّخْرُ، إلا كقوله:

كضَبِّ الكُدَى أفنى برَاثِنَهُ الحفْرُ

وإذا قالوا: أكلَهُ الأسَد، فإنما يذهبون إلى الأكل المعروف، وإذا قالوا: أكَلَهُ الأسْوَد، فإنما يعنون النَّهْشَ واللَّدْغ والعضَّ فقط.
وقد قال اللّه عزّ وجلّ: "أَيُحبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً"، ويقال: هم لحوم الناس.
وقال قائلٌ لإسماعيل بن حماد: أيّ اللُّحْمَانِ أطيب؟ قال: لحومُ الناس، هي واللّهِ أطيبُ من الدجاج، ومن الفراخ، والعُنُوز الحُمْر.
ويقولون في باب آخر: فلانٌ يأكل الناس، وإن لم يأكلْ من طعامهم شيئاً.
وأما قولُ أوس بن حَجَر:

وذو شُطباتٍ قدّهُ ابنُ مجدِّعٍ له رَونقٌ ذرِّيُّهُ يتـأكَّلُ

فهذا على خلاف الأول، وكذلك قول دُهْمان النهري:

سألْتِني عنْ أنَاسٍ أكلُوا شَرِبَ الدَّهْرُ عليهمْ وأكَلْ

فهذا كله مختلف، وهو كله مجاز.

باب آخر في مجاز الذوق

وهو قول الرَّجل إذا بالغ في عقوبةِ عبده: ذُقْ و: كيف ذقته؟ و: كيف وجدتَ طعمَه! وقال عزّ وجلّ: "ذُقْ إنَّك أَنْتَ العَزِيزُ الْكَرِيمُ".
وأما قولهم: ما ذقت اليوم ذَواقاً، فإنه يعني: ما أكلتُ اليوم طعاماً، ولا شربتُ شراباً، وإنما أراد القليل والكثير، وأنه لم يذقه، فضلاً عن غير ذلك.
وقال بعض طبقات الفقهاء، ممن يشتهي أن يكون عند الناس متكلماً: ما ذقت اليوم ذواقاً على وجهٍ من الوجوه، ولا على معنًى من المعاني، ولا على سبب من الأسباب، ولا على جهةٍ من الجهات، ولا على لون من الألوان.

وهذا من عجيب الكلام.
قال: ويقول الرجل لوكيله: اِيتِ فلاناً فذُقْ ما عنده.
وقال شمّاخ بن ضِرار:

فذاق فأعطتْه من اللِّين جانبـاً   كَفى ولَهَا أن يُغرِقَ السهمَ حاجزُ

وقال ابن مُقْبل:

أو كاهتزازِ رُدَيْنِيٍّ تَذَاوَقـهُ   أيْدِي التِّجَارِ فَزَادُوا مَتْنَهُ لِينَا

وقال نَـهْشَلُ بن حَرِّيٍّ:

وعَهْدُ الغَانِيَاتِ كَعَهْدِ قـيْنٍ   وَنَتْ عنهُ الجعائلُ مستذاق

الجعائلُ: من الجُعْل.
وتجاوزوا ذلك إلى أن قال يزيدَ بن الصّعِق، لبني سُليم حين صنعوا بسيِّدهم العباسِ ما صنعوا، وقد كانوا توّجوه وملّكوه، فلما خالفَهُم في بعض الأمر وثبوا عليه، وكان سببَ ذلك قلة رَهْطِه، وقال يزيد بن الصّعِق:

وإن اللّه ذاق حُلُوم قيْسٍ   فلما ذاق خِفَّتَهَا قلاَهـا

رآها لا تطيعُ لها أميراً   فخلاَّها تردَّدُ في خلاها

فزعم أن اللّه، عزَّ وجلَّ، يذوق.
وعند ذلك قال عباس الرِّعلي يخبر عن قلّتِهِ وكثرتـهم، فقال:

وأمُّكمُ تُزْجي التُّؤَام لِبَعْلِهَا   وأمُّ أخيكم كَزَّة الرِّحمِ عاقرُ

وزعم يونس أنَّ أسلم بن زرعة لما أنشدَ هذا البيت اغرَوْرَقتْ عيناه.
وجعل عباسٌ أمّه عاقراً إذْ كانت نَزوراً، وقد قال الغنويّ:

وتحدثوا مَلأً لِتُصْبحَ أمُّنَـا   عَذْرَاءَ لا كَهْلٌ ولا مَوْلُودُ

جَعَلَهَا إذْ قلَّ ولدُها كالعذراء التي لم تلد قطُّ، لما كانت كالعذراء جعلها عذراء.
وللعربِ إقدام على الكلام، ثقةً بفهمِ أصحابهم عنهم، وهذه أيضاً فضيلةٌ أخرى.
وكما جوّزُوا لقولهم أكل وإنما عضَّ، وأكلَ وإنما أفْنَى، وأكلَ وإنما أحاله، وأكل وإنما أبطلَ عينه - جوّزوا أيضاً أن يقولوا: ذُقتَ ما ليس بطعم، ثم قالوا: طعِمْت، لغير الطعام، وقال العرْجيُّ:

وإنْ شِئْتُ حَرَّمتُ النساءَ سِوَاكـمُ وإن شئتُ لم أطعمْ نُقاخاً ولا بَرْدَا

وقال اللّه تعالى: "إنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكمْ بنَهرٍ فمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فلَيْسَ مِنِّي ومَنْ لَمْ يَطْعَمْه فإنهُ مِنِّي"، يريد: لم يذقْ طعمه.
وقال عَلقمة بن عَبَدَة:

وقد أصاحِبُ فتياناً طعامُهُمُ   حُمْرُ المَزاد ولحمٌ فيه تنشيمُ

يقول: هذا طعامهم في الغزو والسفرِ البعيد الغايةِ، وفي الصيف الذي يُغَيِّرُ الطعام والشراب، والغزوُ على هذه الصفةِ من المفاخر؛ ولذلك قال الأول:

لا لا أعقُّ ولا أحُـو   بُ ولا أغيرُ عَلَى مُضَرْ

لَكِنّمـا غزْوي إذا   ضجَّ المَطِيُّ من الدَّبَرْ

وعلى المعنى الأولِ قولُ الشاعر:

قالت ألاَ فاطْعِمْ عُمَيْراً تمرا   وكان تَمْري كهرةً وزَبرا

وعلى المعنى الأولِ قال حاتم: هذا فَصْدِي أنَهْ! ولذلك قال الرّاجز:

لعامراتِ البيتِ بالخرابِ

يقول: هذا هو عمارتها.

تأويل النظام لقولهم النار يابسة

وكان أبو إسحاق يتعجبُ من قولهم: النار يابسة، قال: أما قولهم: الماء رَطْب، فيصح؛ لأنا نراه سيَّالاً، وإذا قال الأرض يابسة، فإنما يريد الترابَ المتهافتَ فقط، فإن لم يُرِدْ إلا بَدَنَ الأرض الملازمَ بعضُه لبعض؛ لما فيها من اللُّدُونة فقط، فقد أخطأ، لأن أجزاءَ الأرض مخالطةٌ لأجزاءِ الماء، فامتنعتْ من التهافتِ على أقدار ذلك.
ومتى حفرنا ودخلنا في عُمْق الأرض، وجدنا الأرض طيناً؛ بل لا تزال تجدُ الطين أرطبَ حتى تصيرَ إلى الماء، والأرض اليوم كلها أرضٌ وماء، والماء ماءٌ وأرض، وإنما يلزمها من الاسم على قدر الكثرة والقلة، فأما النار فليست بيابسة البدن، ولو كانت يابسة البدنِ لتهافتتْ تهافت التراب، ولتَبَرّأ بعضها من بعض، كما أن الماء لما كان رطباً كان سيَّالاً.
ولكن القوم لما وجدوا النار تستخرج كل شيء في العودِ من النار فظهرت

الرطوباتُ لذلك السببِ، ووجدوا العودَ تتميزُ أخلاطه عند خروج نيرانه التي كانت إحدى مراتعها من التمييز فوجدوا العودَ قد صار رماداً يابساً مُتهافتاً - ظنوا أن يُبْسَهُ إنما هو مما أعطته النار وولَّدتْ فيه.
والنارُ لم تُعْطِهِ شيئاً، ولكن نار العودِ لما فارقتْ رطوباتِ العودِ، ظهرت تلك الرطوباتُ الكامنة والمانعة، فبقيَ من العودِ الجزءُ الذي هو الرماد، وهو جزء الأرضِ وجَوْهَرُها؛ لأن العود فيه جزء أرضيٌّ، وجزءٌ مائيٌّ، وجزءٌ ناريٌّ، وجزءٌ هوائيٌّ، فلما خرجتِ النارُ واعتزلت الرطوبة بقيَ الجزءُ الأرضيّ.
فقولهم: النار يابسةٌ، غلطٌ، وإنما ذهبوا إلى ما تراه العيون، ولم يغوصوا على مُغَيَّبَاتِ العِلَل، وكان يقول: ليس القوم في طريق خُلَّصِ المتكلمين، ولا في طريق الجهابذةِ المتقدِّمين.
قول النظام في علاقة الذكاء بالجنس وكان يقول: إنَّ الأُمَّة التي لم تنْضِجْها الأرحام، ويخالفون في ألوان أبدانِهم، وأحداق عيونهم، وألوانِ شعورهم، سبيلَ الاعتدال - لا تكون عقولهم وقرائحهم إلا على حسبِ ذلك، وعلى حسبِ ذلك تكون أخلاقهم وآدابهم، وشمائلهم، وتصرُّف هممهم في لؤمهم وكرمهم، لاختلاف السّبْكِ وطبقاتِ الطبخ، وتفاوتُ ما بين الفطير والخمير، والمقصِّر والمجاوز - وموضع العقل عضوٌ من الأعضاء، وجزءٌ من تلك الأجزاء - كالتفاوت الذي بين الصَّقالبةِ والزّنج.
وكذلك القولُ في الصور ومواضع الأعضاء، ألا ترَى أن أهل الصين والتُّبَّتِ، حُذَّاقُ الصناعات، لها فيها الرِّفق والحِذْق، ولُطفُ المداخل، والاتساعُ في ذلك، والغَوْصُ على غامِضِه وبعيده، وليس عندهم إلا ذلك؛ فقد يُفْتَح لقوم في باب الصناعات ولا يُفتح لهم في سِوَى ذلك.
تخطئة من زعم أن الحرارة تورث اليبس قال: وكان يخطِّئهم في قولهم: إن الحرارة تورث اليُبْس، لأن الحرارة إنما ينبغي أن تورثَ السخونة، وتولِّدَ ما يشاكلها، ولا تولدُ ضرباً آخر مما ليس منها في شيء، ولو جازَ أن تولّد من الأجناس التي تخالفها شكلاً واحداً لم يكن ذلك الخلاف بأحقَّ من خلافٍ آخر، إلا أن يذهبوا إلى سبيلِ المجاز: فقد يقول الرجلُ: إنما رأيتك لأني التفتُّ، وهو إنما رآه لطبع في البصر الدرَّاك، عند ذلك الالتفاتِ. وكذلك يقول: قد نجد النار تداخلُ ماءَ القُمقمِ بالإيقاد من تحته، فإذا صارت النارُ في الماء لابسَتْه، واتصلت بما فيه من الحرَاراتِ، والنار صَعَّادةٌ - فيحدثُ عند ذلك للماء غليانٌ؛ لحركة النار التي قد صارت في أضعافه، وحركتها تصعُّدٌ، فإذا تَرَقَّعت أجزاءُ النار رَفَعَت معها لطائف من تلك الرُّطوباتِ التي قد لابَسَتْها؛ فإذا دام ذلك الإيقادُ من النار الداخلةِ على الماء، صعدت أجزاء الرطوباتِ الملابسةُ لأجزاء النار، ولقوة حركة النار وطلبها التِّلادَ العُلْويَّ، كان ذلك، فمتى وجد من لا عِلْمَ له في أسفل القمقم كالجِبس، أو وجد الباقيَ من الماء مالحاً عند تصعُّدِ لطائفه، على مثال ما يعتري ماءَ البحر ظنَّ أن النار التي أعطته اليُبْسَ.
وإن زعموا أن النار هي الميَبِّسَة - على معنى ما قد فسرنا - فقد أصابوا، فإن ذهبوا إلى غير المجازِ أخطئوا.

وكذلك الحرارة، إذا مُكنت في الأجساد بعثتِ الرطوبات ولابَسَتْهَا، فمتى قويَتْ عَلَى الخروج أخرجتها منه، فعند خروج الرطوباتِ توجد الأبدان يابسةً، ليس أن الحرّ يجوز أن يكون له عملٌ إلا التسخينَ والصعودَ؛ والتقلبُ إلى الصعود من الصعود، كما أن الاعتزال من شكل الزوال.

وكذلك الماء الذي يفيض إلى البحر من جميع ظهور الأرضينَ وبطونها، إذا صار إلى تلك الحفرة العظيمة، فالماء غسَّال مصّاص، والأرض تقذف إليه ما فيها من الملوحة.

وحرارةُ الشمس والذي يخرج إليه من الأرض، من أجزاء النيران المخالطة يرفعان لطائفَ الماء بارتفاعهما، وتبخيرهما، فإذا رَفَعَا اللطائفَ، فصار منهما مطرٌ وما يشبه المطر، وكان ذلك دأبهما، عادَ ذلك الماء ملحاً لأن الأرض إذا كانت تعطيه الملوحة، والنيران تخرجُ منه العذوبة واللطافة - كان واجباً أن يعود إلى الملوحة، ولذلك يكون ماء البحرِ أبداً عَلَى كيلٍ واحدٍ، ووزن واحد؛ لأن الحراراتِ تطلب القرارَ وتجري في أعماق الأرض، وترفع اللطائف؛ فيصير مطراً، وبَرَداً، وثلجاً، وطلاًّ، ثم تعود تلك الأمواه سيولاً تطلب الحَدورَ، وتطلب القرار، وتجري في أعماق الأرض، حتى تصير إلى ذلك الهواء، فليس يضيع من ذلك الماء شيء، ولا يبطلُ منه شيء، والأعيانُ قائمة، فكأنه مَنْجَنُونٌ غرف من بحر، وصبَّ في جدول يفيضُ إلى ذلك النهر.

فهو عملُ الحرارات إذا كَانت في أجواف الحطب، أو في أجواف الأرَضينَ، أو في أجواف الحيوان.

والحر إذا صار في البدَن، فإنما هو شيء مُكْرَه، والمكرهُ لا يألو يتخلصُ وهو لا يتلخص إلا وقد حَمَل معه كلَّ ما قويَ عليه، مما لم يشتد، فمتى خرج خرج معه ذلك الشيءُ.

قال: فمن هاهنا غلط القوم.

قول الدُّهرية في أركان العالم قال أبو إسحاق: قالت الدهرية في عالَمِنَا هذا بأقاويلَ: فمنهم من زعم أن عالمنا هذا من أربعة أركانٍ: حرّ، وبرد، ويبس، وبلَّة، وسائر الأشياء نتائجُ، وتركيبٌ، وتوليد، وجعلوا هذه الأربعة أجساماً.

ومنهم من زعم أن هذا العالم من أربعةِ أركانٍ: من أرض، وهواءٍ، وماءٍ، ونار، وجعلوا الحر، والبرد، واليُبْس، والبلَّة أعراضاً في هذه الجواهر، ثم قالوا في سائر الأراييح، والألوان، والأصوات: ثمارُ هذه الأربعة، عَلَى قدر الأخلاط، في القلة والكثرة، والرقة والكثافة.

فقدَّموا ذِكر نصيب حاسَّةِ اللمس فقط، وأضربوا عن أنصباء الحواسِّ الأربع.

قالوا: ونحن نجد الطُّعومَ غاذيةً وقاتلة، وكذلك الأراييح، ونجد الأصوات مُلذة ومؤلمة، وهي مع ذلك قاتلة وناقصة للقوى مُتْلفة، ونجد للألوان في المضار والمنافع، واللّذاذةِ والألَمِ، المواقعَ التي لا تجهل، كما وجدنا مثل ذلك في الحر والبر، واليُبْس والبلَّة، ونجن لم نجد الأرض باردة يابسة، غير أنا نجدها مالحة، أي ذات مَذاقةٍ ولون كما وجدناها ذات رائحةٍ، وذات صوتٍ متى قرَعَ بعضها بعضاً.

فبردُ هذه الأجرامِ وحرها، ويُبْسُهَا ورطوبتها، لم تكن فيها لعلة كون الطُّعوم والأرابيح والألوان فيها، وكذلك طعومها، وأرابيحها وألوانها، لم تكن فيها لمكانِ كمون البرد، واليُبْس، والحر، والبِلَّة فيها.
ووجدنا كلَّ ذلك إما ضارّاً وإما نافعاً، وإما غاذياً وإما قاتلاً، وإما مؤلماً وإما مُلِذّاً.
وليس يكون كون الأرض مالحة أو عذبة، ومنتِنَةً أو طيبة أحقَّ بأن يكون علة لكون اليُبْسِ والبرد، والحر والرطوبة، من أن يكون كون الرطوبةِ واليُبْس، والحر والبرد- عِلَّة لكون اللون والطعم والرائحةِ.
وقد هجم الناسُ على هذه الأعراض الملازمةِ، والأجسام المشاركةِ هجوماً واحداً، عَلَى هذه الحِلْية والصورة ألفاها الأولُ والآخِرُ.
قال: فكيف وقع القول منهم عَلَى نصيب هذه الحاسَّةِ وحدها ونحن لم نر من البِلَّة، أو من اليُبْس نفعاً ولا ضرّاً، تنفرد به دونَ هذه الأمور؟.
قال: والهواء يختلف على قدْرِ العوامل فيه من تحت ومن فوق، ومن الأجرام المشتملة عليه والمخالطة له، وهو جسم رقيق، وهو في ذلك محصورٌ، وهو خَوّارٌ سريعَ القبول، وهو مع رقته يقبل ذلك الحصر؛ مثل عمل الريح والزِّقِّ، فإنها تدفعه من جوانبه، وذلك لعلة الحصر ولقطْعه عن شكلهِ.
والهواء ليس بالجسم الصعاد، والجسمِ النَّزَّال، ولكنه جسم به تعرف المنازل والمصاعد.
والأمور ثلاثة: شيء يصعدُ في الهواء، وشيء ينزل في الهواء، وشيء مع الهواء، فكما أن الصاعد فيه، والمنحدرَ - لا يكونان إلا مخالفين، فالواقع معه لا يكون إلا موافقاً.
ولو أنَّ إنساناً أرسل من يده - وهو في قعْر الماء - زقّاً منفوخاً، فارتفع الزِّقُّ لدفع الريح التي فيه، لم يكن لقائل أن يقول: ذلك الهواءُ شأنه الصعود بل إنما ينبغي أن يقول: ذلك الهواء من شأنه أن يصير إلى جوهره، ولا يقيم في غير جوهره؛ إلا أن يقول: من شأنه أن يصعد في الماء، كما أن من شأن الماء أن ينزل في الهواء، وكما أن الماء يطلبُ تِلادَ الماء، والهواءَ يطلب تلاد الهواء.
قالوا: والنار أجناسٌ كثيرة مختلفة، وكذلك الصاعد، ولا بدّ إذا كانت مختلفة أن يكون بعضها أسرع من بعض، أو يكون بعضها إذا خرج من عالم الهواء، وصار إلى نهاية، إلى حيث لا منفذ - ألاّ يزال فوق الآخر الذي صعد معه، وإن وجد مذهباً لم يقم عليه.
ويدلُّ على ذلك أنا نجد الضياء صعَّاداً، والصوت صعّاداً، ونجد الظلام رابداً، وكذلك البردَ والرُّطوبة، فإذا صح أن هذه الأجناس مختلفة، فإذا أخذت في جهة، علمنا أن الجهة لا تخالف بين الأجناس ولا توافق، وأن الذي يوافق بينهما ويخالف اختلافُ الأعمال.
ولا يكون القطعانِ متفقين، إلا بأن يكون سرورهما سواء، وإذا صارا إلى الغاية، صار اتصال كل واحد منهما بصاحبه، كاتصال بعضِه ببعض، ثم لا يوجد أبداً، إلا إمّا أعْلَى، وإما أسفل.
قال أبو إسحاق: فيستدل على أن الضياء أخفُّ من الحر بزواله، وقد يذهب ضوء

الأتّون، وتبقى سخونته.
قال أبو إسحاق: لأمر ما حُصر الهواء في جوف هذا الفلك، ولا بد لكل محصور من أن يكون تقلبه وضغطه على قدر شدة الحصار، وكذلك الماء إذا اختنق.
قال: والريح هواء نزل لا غير، فلِمَ قضَوا على طبع الهواء في جوهريته باللدونة، والهواء الذي يكون بقرب الشمس، والهواء الذي بينهما على خلاف ذلك؟ ولولا أن قوَى البرد غريزيةٌ فيه، لما كان مروِّحاً عن النفوس، ومنفِّساً عن جميع الحيوان إذا اختنق في أجوافها البخارُ والوهجُ المؤذي، حتى فزعتْ إليه واستغاثتْ به، وصارت تجتلب من رَوْحه وبردِ نسيمه، في وزن ما خَرَجَ من البخار الغليظ، والحرارة المستَكِنَّة.
قال: وقد علموا ما في اليُبْس من الخصومة والاختلاف، وقد زعم قومٌ أن اليُبْس إنما هو عدم البلَّة، قالوا: وعلى قدر البلة قد تتحول عليه الأسماء، حتى قال خصومهم: فقولوا أيضاً إنما نجدُ الجسم بارداً على قدر قلة الحَرِّ فيه.
وكذلك قالوا في الكلام: إن الهواء إنما يقع عندنا أنه مُظلم لفِقْدان الضياء، ولأن الضياء قرصٌ قائم، وشعاع ساطعٌ فاصل، وليس للظلام قرص، ولو كان في هذا العالم شيء يقال له ظلامٌ، لما قام إلا في قرص، فكيف تكون الأرض قُرْصَةً، والأرض غبراء، ولا ينبغي أن يكون شعاع الشيء أسبغَ منه.
قال: والأول لا يشبه القول في اليُبْس والبلة، والقولَ في الحر والبرد، والقول في اليُبْس والرطوبة، والقول في الخشونة واللين، لأن التراب لو كان كله يابساً، وكان اليبس في جميع أجزائه شائعاً، لم يكن بعضه أحق بالتقطيع والتبرد والتهافت، من الجزء الذي نجده متمسكاً. قال خصمه: ولو كَان أيضاً التهافت الذي نجده فيه إنما هو لعدمِ البلة، وكله قد عدم البلَّة، لكان ينبغي للكل أن يكون متهافتاً، ولا نجد منه جزأين متلازقين.
فإن زعمتم أنه إنما اختلف في التهافت على قدر اختلاف اليُبْس، فينبغي لكم أن تجعلوا اليُبْس طبقات، كما يُجعل ذلك للخُضرة والصُّفرة.
وقال إبراهيم: أرأيت لو اشتمل اليُبس الذي هو غاية التُّراب كله كما عرض لنصفه، أما كان واجباً أن يكون الافتراقُ داخلاً على الجميع؟ وفي ذلك القولُ بالجزء الذي لا يتجزأ.
وأبو إسحاق، وإن كان اعترض على هؤلاء في باب القول في اليبس، فإنّ المسألة عليه في ذلك أشد.
وكان أبو إسحاق يقول: من الدليل على أن الضياء أخفُّ من الحرِّ أنَّ النار تكون منها على قاب غلوة فيأتيك ضوؤها ولا يأتيك حرها، ولو أن شمعة في بيت غير ذي سقف، لارتفع الضوء في الهواء حتى لا تجد منه عَلَى الأرض إلا الشيء الضعيف، وكان الحرُّ عَلَى شبيهٍ بحاله الأول.
رد النظام على الديصانية وقال أبو إسحاق: زعمت الديصانية أن أصلَ العالَمِ إنما هو من ضياءٍ وظلام، وأن الحرَّ والبردَ، واللون والطعمَ والصوت والرائحة، إنما هي نتائج عَلَى قدر امتزاجهما.
فقيل لهم: وجدنا الحِبْر إذا اختلط باللبن صار جسماً أغبر، وإذا خلَطْتَ الصَّبِرَ

بالعسل صار جسماً مُرَّ الطعم عَلَى حساب ما زدْنا، وكذلك نجدُ جميع المركبات، فما لنا إذا مزجنا بين شيئين من ذواتِ المناظر، خرجنا إلى ذوات الملامس، وإلى ذوات المَذَاقة والمشَمَّة؟ وهذا نفسُه داخلٌ عَلَى من زعم أن الأشياء كلها تولدت من تلك الأشياء الأربعة، التي هي نصيبُ حاسةٍ واحدة.

نقد النظام لبعض مذاهب الفلاسفة وقال أبو إسحاق: إنْ زعَمَ قومٌ أن ههنا جنساً هو روحٌ، وهو ركن خامس - لم نخالفهم.

وإن زعموا أن الأشياء يحدثُ لها جنسٌ إذا امتزجتْ بضربٍ من المزاج، فكيف صار المزاجُ يُحْدِث لها جنساً وكلُّ واحد منه إذا انفرد لم يكن ذا جنس، وكان مفْسِداً للجسم، وإن فصَلَ عنها أفسدَ جنسها؟ وهل حكمُ قليلِ ذلك إلا كحكم كثيرهِ؟ ولم لا يجوز أن يُجمعَ بين ضياءٍ وضياءٍ فيحدُثَ لهما منع الإدراك؟.

فإن اعتلَّ القومُ بالزاج والعفْص والماء، وقالوا: قد نجدُ كلَّ واحد من هذه الثلاثة ليس بأسودَ، وإذا اختلطت صارت جسماً واحداً أشدَّ سواداً من الليل، ومن السَّبَج، ومن الغراب - قال أبو إسحاق: بيني وبينكم في ذلك فرْق، أنا أزعمُ أن السواد قد يكون كامناً ويكون ممنوع المنظرة، فإذا زال مانعهُ ظهر، كما أقولُ في النار والحجَر وغير ذلك من الأمور الكامنة، فإن قلتم بذلك فقد تركتم قولَكم، وإن أبيتم فلا بدَّ من القول، قال أبو إسحاق: وقد خلط أيضاً كثيرٌ منهم فزعموا أن طباع الشيخ البلغم.

ولو كان طباعُهُ البلغم، والبلغم ليّنٌ رَطْبٌ أبيضُ، لما ازداد عَظمه نحولاً، ولونهُ سواداً، وجلدهُ تقبُّضاً.

وقال النَّمِرُ بنُ تَوْلب:

كَأَنَّ مِحَطّاً فـي يَدَيْ حَـارِثـيّةٍ   صَنَاع علتْ مِنِّي به الجِلْدَ مِنْ عَلُ

وقال الراجز:

وكثرت فواضل الإهابِ

قال: ولكنهم لما رأوْا بَدَنَهُ يَتَغضّنُ، ويظهرُ من ذلك التغضُّنِ رطوبات بدنية كالبلغم من الفم، والمخاطِ السائل من الأنف، والرَّمَص والدمع من العين، ظنوا أن ذلك لكثرة ما فيه من أجزاء الرطوبات، وأرادوا أن يقسِّموا الصِّبا والشباب، والكهولة والشيوخة على أربعة أقسام كما تهيأ لهم ذلك في غير بابٍ.

وإذا ظهرت تلك الرطوباتُ، فإنما هي لنفْي اليُبْس لها، ولعَصْرِهِ قُوى البَدَنِ، ولو كان الذي ذكروا لكان دمعُ الصِّبا أكثرَ ومخاطه أغزرَ، ورطوباته أظهر، وفي البقول والرياحين والأغصان والأشجار ذلك؛ إذ كانت في الحداثة أرطبَ، وعَلَى مرور السنينَ والأيام أيْبَس.

قال الرَّاجز:

اسمع أنـبـئك بـآيات الـكـبـر   نوم العشي وسعال بـالـسـحـر

وقلة النوم إذا الـليل اعتكـر   وقلة الطعم إذا الـزاد حضـر

وسرعة الطرف وضعف في النظر وتركي الحسناء في قبل الطـهـر

وحـذر أزداده إلــى حــذر   والنـاس يبلون كما يبلى الشـجـر

وكان يتعجَّب من القول بالهيولَى. وكان يقول: قد عرفنا مقدارَ رزانة البلَّة، وسنعطيكم أن للبرد وزناً، أليس الذي لا تشُكُّونَ فيه أن الحر خفيف ولا وزن له، وأنه إذا دخل في جِرمٍ له وزنٌ صار أخفّ، وإنكم لا تستطيعون أن تثبتوا لليبس من الوزن مثل ما تثبتون للبلَّة، وعلى أنَّ كثيراً منكم يزعم أن البرد المجْمِدَ للماء هو أيبس.
وزعم بعضهم أن البرد كثيراً ما يصاحب اليبس، وأن اليبس وحده لو حلَّ بالماء لم يُجمِدْ، وأن البرد وحده لو حلَّ بالماء لم يَجْمُدْ، وأن الماء أيضاً يجمد لاجتماعهما عليه، وفي هذا القولُ أن شيئين مجتمعين قد اجتمعا على الإجماد، فما تنكرون أن يجتمع شيئان عَلَى الإذابة؟.
وإن جاز لليبس أن يُجمد جاز للبلَّة أن تُذِيب.
قال أبو إسحاق: فإن كان بعض هذه الجواهر صعّاداً وبعضها نزَّالاً، ونحن نجد الذهب أثقلَ من مثله من هذه الأشياء النزّالة، فكيف يكون أثقل منها وفيه أشياء صَعّادة؟.
فإن زعموا أن الخفة إنما تكونُ من التَّخَلْخُل والسُّخْف، وكثرةِ أجزاء الهواء في الجرم، فقد ينبغي أن يكون الهواء أخفَّ من النار، وأن النار في الحجَر، كما أن فيه هواءً، والنار أقوى رفع الحجَر من الهواء الذي فيه.
وكان يقول: من الدليل على أن النار كامنةٌ في الحطب، أن الحطب يُحرقُ بمقدار من الإحراق، ويُمنع الحطب أن يخرج جميع ما فيه من النيران، فيجعل فحماً، فمتى أحببت أن تستخرِج الباقيَ من النار استخرجته، فترى النار عند ذلك يكون لها لهبٌ دون الضرام، فمتى أخرجت تلك النار الباقية، ثم أوقدْت عليها ألف عامٍ لم تَسْتَوْقِدْ، وتأويل: لم تستوقد إنما هو ظهور النار التي كانت فيه، فإذا لم يكن فيه شيءٌ فكيف يستوقد؟.
وكان يُكثِر التعجُّبَ من ناس كانوا ينافسون في الرّآسة، إذا رآهم يجهلون جهلَ صغارِ العلماء، وقد ارتفعوا في أنفسهم إلى مرتبةِ كبار العلماء.
وذلك أن بعضهم كان يأخذ العود فيَنقِيه فيقول: أين تلك النار الكامنة؟ ما لي لا أراها، وقد ميّزْتُ العود قشراً بعد قشر؟.

استخراج الأشياء الكامنة

فكان يقول في الأشياء الكامنة: إن لكل نوع منها نوعاً من الاستخراج، وضرباً من العلاج، فالعيدَانُ تُخرجُ نيرانُها بالاحتكاك، واللبنُ يُخرَج زبدُه بالمخْض، وجُبْنه يُجمع بإنْفحَّةٍ، وبضروب من علاجه.

ولو أن إنساناً أراد أن يخرج القطِرَانَ من الصّنَوْبَر، والزّفْتَ من الأرْز؛ لم يكن يخرج له بأن يقطع العود ويدُقه ويقشِره، بل يوقد له ناراً بقربه، فإذا أصابه الحرُّ عَرِق وسالَ، في ضروب من العلاج.

ولو أن إنساناً مَزَجَ بين الفضة والذهب، وسبكهما سبيكة واحدة، ثم أراد أن يعزل أحدهما من صاحبهِ لم يُمكنه ذلك بالقَرْضْ والدَّق، وسبيل التفريق بينهما قريبة سهلة عند الصَّاغة، وأرباب الحُمْلانات.

رد النظام على أرسطاطاليس وزعم أبو إسحاق أن أرسطاطاليس كان يزعم أن الماء الممازجَ للأرض لم ينقلب أرضاً، وأن النار الممازجة للماء لم تنقلب ماء، وكذلك ما كان من الماء في الحجَر، ومن النار في الأرض والهواء، وأن الأجرامَ إنما يخفُّ وزنها وتَسْخُفُ، على قدر ما فيها من التخلخلُ ومن أجزاء الهواء، وأنها ترزُنُ وتصلب وتَمْتُن على قدر قلَّةِ ذلك فيها.

ومن قال هذا القولَ في الأرض والماء والنار والهواء، وفيما تركّب منها من الأشجار وغير ذلك - لم يصل إلى أن يزعمَ أن في الأرض عرضاً يحدث، وبالْحَرَا أن يَعجِز عن تثبيت كون الماء والأرض والنار عرضاً.

وإذا قال في تلك الأشجار بتلك القالة، قال في الطول والعرض، والعُمق، وفي التربيع والتثليث والتدوير، بجواب أصحاب الأجسام، وكما يُلزمُ أصحابُ الأعراضُ أصحابَ الأجسام بقولهم في تثبيت السكون والحركة أن القول في حِرَاكِ الحجَر كالقول في سكونه - كذلك أصحاب الأجسام يلزمون كلّ من زعم أن شيئاً من الأعراض لا يُنقض أنَّ الجسمَ يتغير في المَذَاقةِ والملْمَسَة والمنْظرَةِ والمشَمّة من غير لون الماء، وفي برودة نفس الأرض وتثبيتها كذلك.

ومتى وجدْنا طينة مربَّعة صارت مدوَّرة، فليس ذلك بحدوثِ تدويرٍ لم يكن، فكان عنده تغيُّره في العَين أوْلَى من تَغَيُّر الطينةِ في العين من البياض إلى السواد، وسبيلُ الصلابة والرَّخاوة؛ والثقل والخِفَّة، سبيل الحلاوةِ والملوحة، والحرارة والبرودة. أصحاب القول بالاستحالة وليس يقيس القول في الأعراض إلا من قال بالاستحالة، وليس في الاستحالة شيءٌ أقبحُ من قولهم في استحالة الجبل الصَّخير إلى مقدار خردلةٍ، من غير أن يدخل أجزاءَه شيءٌ على حال، فهو عَلَى قولِ من زعم أنّ الخردلة تتنصَّفُ أبداً أحسن، فأما إذا قال بالجزء الذي لا يتجزأ، وزعم أن أقلَّ الأجسام، الذي تركيبه من ثمانيةِ أجزاءٍ لا تتجزأ، أو ستة أجزاءٍ لا تتجزأ، يستحيل جسْماً عَلَى قدر طول العالَم وعرضه وعُمْقه - فإنّا لو وجدناه كذلك لم نجد بدّاً من أن نقول: إنا لو رفعنا من أوهامنا من ذلك شبراً من الجميع، فإن كان مقدار ذلك الشبرِ جزءاً واحداً فقد وجدناه جِسماً أقلَّ من ثمانية أجزاء ومن ستة أجزاء، وهذا نقضُ الأصل، مع أنّ الشبرَ الذي رفعناه من أوهامنا، فلا بدَّ إن كان جسماً أن يكون من ستةِ أجزاء أو من ثمانية أجزاء، وهذا كله فاسد.

الأضواء والألوان

والنار حرٌّ وضياء، ولكلِّ ضياء بياضٌ ونور، وليس لكلِّ بياض نورٌ وضياء، وقد غلط في هذا المقام عالمٌ من المتكلمين.

والضياء ليس بلون، لأن الألوان تتفاسد، وذلك شائعٌ في كلها، وعامٌّ في جميعها؛ فاللبَن والحِبر يتفاسدان، ويتمازجُ التراب اليابس والماء السائل، كما يتمازج الحارُّ والبارد، والحلو والحامض، فصنيع البياض في السواد، كصنيع السواد في البياض، والتفاسُدُ الذي يقع بين الخُضْرَةِ والحمرة، فبذلك الوزن يقع بين البياض وجميع الألوان.
وقد رأينا أن البياضَ مَيّاعٌ مفسِدٌ لسائر الألوان، فأنت قد ترى الضياء عَلَى خلافِ ذلك؛ لأنه إذا سقط عَلَى الألوان المختلفةِ كان عملُه فيها عملاً واحداً، وهو التفصيل بين أجناسها، وتمييزُ بعضها من بعض، فيبين عن جميعها إبانة واحدة، ولا تراه يخصُّ البياضَ إلا بما يخص بمثله السواد، ولا يعملُ في الخُضْرة إلا مثلَ عملِه في الحُمرة، فدلَّ ذلك عَلَى أن جنسه خلافُ أجناسِ الألوان، وجوهرَه خلافُ جواهرها، وإنما يدل عَلَى اختلافِ الجواهرِ اختلافُ الأعمال؛ فباختلاف الأعمالِ واتفاقها تعرفُ اختلافَ الأجسام واتفاقها.

جملة القول في الضد والخلاف والوفاق

قالوا: الألوان كلها متضادّة، وكذلك الطعوم، وكذلك الأراييح، وكذلك الأصوات، وكذلك المَلاَمِس: من الحرارة والبرودة، واليبس والرطوبة، والرخاوة والصلابة، والملاَسة والخشونة، وهذه جميع الملامس.
وزعموا أن التضادُ إنما يقع بين نصيبِ الحاسّة الواحدةِ فقط، فإذا اختلفت الحواس صار نصيب هذه الحاسةِ الواحدة من المحسوسات، خِلاف نصيب تلك الحاسة، ولم يضادّها بالضِّدِّ كاللَّون واللون؛ لمكان التفاسد، والطعم والرائحة؛ لمكان التفاسُد.
ولا يكون الطعم ضدَّ اللون، ولاَ اللون ضدَّ الطعم، بل يكونُ خِلافاً، ولا يكون ضداً ولا وفاقاً، لأنه من غير جنسه، ولا يكون ضدّاً، لأنه لا يفاسده.
وزعم من لا علم له من أصحاب الأعراض، أن السوادَ إنما ضادّ البياضَ، لأنهما لا يتعاقبان، ولا يتناوبان، ولأنهما يتنافيان.
قال القوم: لو كان ذلك من العلة، كان ينبغي لذهابِ الجسمِ قُدُماً أن يكون بعضه يضاد بعضاً، لأن كونَه في المكان الثاني لا يوجدُ مع كونه في المكان الثالث، وكذلك التربيع: كطينة لو رُبِّعت بعد تثليثها، ثم رُبِّعت بعد ذلك، ففي قياسهم أن هذين التربيعين ينبغي لهما أن يكونا متضادَّين، إذ كانا متنافيين، لأن الجسم لا يحتمل في وقت واحد طولَين، وأن الضدَّ يكون عَلَى ضدين: يكون أحدهما أن يخالف الشيءُ الشيءَ من وجوهٍ عدة، والآخرُ أن يخالفه من وجهين أو وجهٍ فقط.
قالوا: والبياض يخالف الحمرة ويضادُّها، لأنهُ يُفاسِدُها ولا يفاسِدُ الطعم؛ وكذلك البياض للصفرة والحُوّةِ والخُضرة، فأما السواد خاصة فإن البياض يضاده بالتفاسد، وكذلك التفاسد، وكذلك السواد.
وبَقِيَ لهما خاصة من الفصول في أبواب المضادة: أن البياض ينصبغ ولا يَصْبُغ، والسواد يصبغ ولا ينصبغ، وليس كذلك سائر الألوان لأنها كلها تصبُغ وتَنْصَبغ.
قالوا: فهذا بابٌ يساق.

إن الصفرة متى اشتدت صارت حُمْرة

ومتى اشتدت الحمرةُ صارت سواداً، وكذلك الخضرةُ متى اشتدت صارتْ سواداً.

والسواد يضاد البياضَ مضادة تامة، وصارت الألوان الأخر فيما بينها تتضاد عادة، وصارت الطُّعوم والأراييح والملامس تخالفها ولا تضادها.
أصل الألوان جميعها وقد جعل بعض من يقول بالأجسام هذا المذهب دليلاً عَلَى أن الألوان كلَّها إنما هي من السواد والبياض، وإنما تختلفان عَلَى قدر المزاج، وزعموا أن اللونَ في الحقيقة إنما هو البياض والسواد، وحكموا في المقالة الأولى بالقوة للسواد علَى البياض؛ إذ كانت الألوان كلها كلما اشتدت قربت من السواد، وَبَعُدت من البياض، فلا تزال كذلك إلى أن تصيرَ سواداً.
وقد ذكرنا قبل هذا قولَ من جعل الضياء والبياض جنسين مختلفين، وزَعَم أن كلَّ ضياء بياضٌ وليس كلُّ بياضٍ ضياء.
عِظَم شأن المتكلمين وما كان أحْوَجَنَا وأحوجَ جميعَ المرضى أن يكون جميعُ الأطباء متكلمين، وإلى أن يكون المتكلمون علماء؛ فإن الطبّ لو كان من نتائج حُذاق المتكلمين ومن تلقيحهم له، لم نجدْ في الأصول التي يبنون عليها من الخَلَلِ ما نجدُ.
ألوان النِّيران والأضواء وزعموا أن النار حمراء، وذهبوا إلى ما ترى العينُ، والنار في الحقيقة بيضاء، ثم قاسوا عَلَى خلافِ الحقيقة المِرَّة الحمراء، وشبّهوها بالنار، ثم زعموا أن المرة الحمراء مُرّة، وأخْلِقْ بالدخان أن يكون مرّاً، وليس الدخان من النار في شيء.
وكل نور وضياء هو أبيض، وإنما يحمرُّ في العين بالعرَض الذي يَعرِض للعين، فإذا سَلِمَتْ من ذلك، وأفضت إليه العين رأته أبيضَ، وكذلك نار العود تنفصل من العود، وكذلك انفصال النار من الدُّهن ومعها الدخَان ٠ ً. لأجزائها، فإذا وقعت الحاسة على سوادٍ أو بياض في مكان واحد، كان نتاجهما في العين منظرة الحمرة.
ولو أنَّ دخاناً عرض بينك وبينه قرص الشمس أو القمر لرأيته أحمر، وكذلك قرص الشمس في المشرق أحمر وأصفر، للبخار والغبارِ المعترض بينك وبينه، والبخار والدخان أخوان.
ومتى تحلَّق القرص في كبد السماء، فصار على قمة رأسك؛ ولم يكن بين عينيك وبينه إلا بقدر ما تمكن البخار من الارتفاع في الهواء صُعُداً - وذلك يسيرٌ قليل - فلا تراه حينئذٍ إلا في غاية البياض.
وإذا انحطَّ شرقاً أو غرباً صار كلُّ شيء بين عينيك وبين قرصها من الهواء، ملابساً للغبار والدخان والبخار، وضروب الضَّباب والأنداء فتراها إما صفراء، وإما حمراء.
ومن زعم أن النار حمراءُ فلم يكذب إن ذهب إلى ما ترى العين، ومن ذهب إلى الحقيقة والمعلوم في الجوهرية، فزعم أنها حمراءُ، ثم قاس على ذلك جهلَ وأخطأ.
وقد نجد النار تختلف على قدر اختلاف النِّفط الأزرق، والأسود، والأبيض، وذلك

كله يدور في العين مع كثرة الدخان وقلته.
ونجد النار تتغير في ألوانها في العين، عَلَى قدر جفوفِ الحطب ورطوبته، وعَلَى قدر أجناس العيدان والأدهان، فنجدُها شقراء، ونجدها خضراء إذا كان حطبُها مثلَ الكبريت الأصفر.
علة تلون السحاب ونجد لون السحاب مختلفاً في الحمرة والبياض، عَلَى قدر المقابلات والأعراض، ونجد السحابة بيضاء، فإذا قابلت الشمسَ بعض المقابلة، فإن كانت السحابة غربية أفقية والشمسُ منحطّة، رأيتَها صفراء، ثم سوداء، تعرض للعين لبعض ما يدخلُ عليها.
شعر في ألوان النار وقال الصَّلَتّان الفهْمِيّ في النار:

وتُوقدها شقراءَ في رأس هَضْبَةٍ   ليعْشُو إليها كلُّ بـاغٍ وجـازعِ

وقال مزرِّد بن ضِرار:

فأبصَرَ نـاري وهْيَ شقراءُ أوقِدَتْ   بعلياء نَشْزٍ للعيونِ الـنـواظرِ

وقال آخر:

ونار كسَحْرِ العَوْد يرفعُ ضَوْءَها   مع الليل هَبّاتُ الرياح الصَّوَارِدُ

والغبار يناسب بعضَ الدخان، ولذلك قال طُفَيْلٌ الغَنَويّ:

إذا هبطتْ سَهْلاً كأنّ غبـارَه   بجانبها الأقصى دواخنُ تَنضُبِ

لأن دخَانَه يكون أبيض يشبه الغبار، وناره شقراء.
والعرب تجمَعُ الدخان دواخِن، وقال الأزرق الهمْدَانيّ:

ونوقدها شقراء من فرع تَنضُبٍ   وَلَلْكُمْتُ أرْوَى لِلنِّزَالِ وأشْبَـعُ

وذلك أن النار إذا أُلقِيَ عليها اللحمُ فصار لها دخَان، اصْهَابَّتْ بدخَان ماء اللحم وسوادِ القُتَار، وهذا يدل أيضاً عَلَى ما قلنا.
وفي ذلك يقول الهَيّبَان الفَهميّ:

له فوق النجاد جفان شيزى   ونار لا تضرم للـصلاء

ولكن للطبيخ، وقد عراها   طليح الهم مستلب الفراء

وما غذيت بغير لظى، فنارى   كمرتكم الغمامة ذي العفاء

وقال سحر العود:

لـه نـارٌ تُشَبُّ عَلَى يَفَـاعٍ لكلِّ مُرْعَبَلِ الأهدام بالي

ونـار فوقها بُجْرٌ رِحَـابٌ مُبَجّلَةٌ تَقَاذَفُ بالمَحَـال

علة اختلاف ألوان النار ويدلُّ أيضاً على ما قلنا: أن النار يختلف لونُها على قدر اختلاف جنس الدُّهن والحطب والدخَان، وعَلَى قدر كثرةِ ذلك وقلَّته، وعَلَى قدر يُبْسه ورطوبته - قولُ الراعي حين أراد أن يصف لونَ ذئبٍ فقال:

وقع الربيع وقد تقارب خطوه ورأى بعقوته أزل نـسـولا

متوضح الأقراب فيه شهبة هش اليدين تخاله مشكـولا

كدخان مرتجل بأعلى تلـعة غر ثان ضرم عرفجاً مبلولا

المرتجل: الذي أصاب رجلاً من جرادٍ، فهو يشويه، وجعله غَرْثان لكون الغَرِث لا يختار الحطب اليابس عَلَى رطْبه، فهو يشويه بما حضَره، وأدار هذا الكلام، ليكون لون الدخَان بلون الذئب الأطحل متفقين.

تعظيم زرادُشت لشأن النار

وزرادُشت هو الذي عظم النار وأمر بإحيائها، ونهى عن إطفائها، ونهى الحيَّض عن مسها والدنوِّ منها، وزعم أن العقاب في الآخرة إنما هو بالبردِ والزمهرير والدَّمَق.
علة تخويف زرادشت أصحابه بالبرد والثلج وزعم أصحاب الكلام أن زَرَادُشت - وهو صاحب المجوس - جاء من بَلْخ، وادعى أن الوحي نزل عليه عَلَى جبال سيلان، وأنه حين دعا سكان تلك الناحية الباردة، الذين لا يعرفون إلا الأذى بالبرد، ولا يضربون المثل إلا به؛ حتى يقول الرجل لعبده: لئن عدت إلى هذا لأنزعنَّ ثيابك، ولأقيمنَّك في الريح، ولأُوقفنَّك في الثلج فلما رأى موقِع البردِ منهم هذا الموقع، جعل الوعيد بتضاعُفِه، وظنَّ أنّ ذلك أزجَرُ لهم عما يكره.
وزَرادُشت في توعده تلك الأمة بالثلج دون النار، مُقِرٌّ بأنه لم يُبعث إلا إلى أهل تلك الجبال، وكأنه إذا قيل له: أنت رسول إلى من؟ قال لأهل البلاد الباردة، الذين لابدّ لهم من وعيدٍ، ولا وعيدَ لهم إلا بالثلج.
وهذا جهلٌ منه، ومن استجاب له أجهلُ منه.
ردٌّ على زرادشت في التخويف بالثلج والثلج لا يكْمُل لمضادَّة النار، فكيف يبلغ مبلغها؟ والثلج يُؤْكَلُ ويشرب، ويُقضم قضماً، ويمزَج بالأشربة، ويدفن فيه الماء وكثير من الفواكه.

وربما أخذ بعض المترفين القطعة منه كهامَة الثور، فيضعها عَلَى رأسه ساعة من نهار، ويتبرّد بذلك.
ولو أقام إنسان عَلَى قطعة من الثلج مقدارِ صخرة في حَمدان ريح ساعةً من نهار، لما خيفَ عليه المرض قطُّ.
فلو كان المبالغة في التنفير والزجر أراد، وإليه قصدَ؛ لذكَر ما هو في الحقيقة عند الأمم أشدُّ، والوعيد بما هو أشد، وبما يعم بالخوف سكان البلاد الباردة والحارة أشبه، إذا كان المبالغةَ يريد.
والثلج قد يداوَى به بعض المرضى، ويتولد فيه الدود، وتخوضه الحوافرُ، والأظلاف، والأخفاف، والأقدام، بالليل والنهار، في الأسفار.
وفي أيام الصيد يهون عَلَى من شرِب خمسة أرطال نبيذ أن يعدوَ عليه خمسة أشواط.
معارضة بعض المجوس في عذاب النار وقد عارضني بعض المجوس وقال: فلعلَّ أيضاً صاحبكم إنما توعَّد أصحابه بالنار، لأن بلادهم ليست ببلاد ثلج ولا دَمقَ، وإنما هي ناحية الحرور والوهَج والسَّموم، لأن ذلك المكروه أزجر لهم، فرأي هذا المجوسي أنه قد عارضني فقلت له: إن أكثر بلاد العرب موصوفة بشدة الحر في الصيف، وشدة البرد في الشتاء؛ لأنها بلاد صخور وجبال، والصخر يقبل الحر والبرد ولذلك سمت الفرس بالفارسية، العرب والأعراب: كَهْيَان، والكَه بالفارسية هو الجبل، فمتى أحببت أن تعرف مقدار برد بلادهم في الشتاء وحرِّها في الصيف، فانظر في أشعارهم، وكيف قسَّموا ذلك، وكيف وضعوه لتعرف أن الحالتين سواء عندهم في الشدة.
القول في البرودة والثلج والبلاد ليس يشتد بردها عَلَى كثرة الثلج، فقد تكون بلدة أبرد وثلجها أقل، والماء ليس يجمدُ للبرد فقط، فيكون متى رأينا بلدة ثلجها أكثر، حكمنا أن نصيبها من البرد أوفر.
وقد تكون الليلة باردة جداً، وتكون صِنَّبْرَةً فلا يجمد الماء، ويجمد فيما هو أقلُّ منها برداً، وقد يختلف جمود الماء في الليلة ذات الريح، عَلَى خلاف ما يقدِّرون ويظنون.
وقد خبرني من لا أرتاب بخبره، أنهم كانوا في موضعٍ من الجبَل، يستَغْشُونَ به بلبس المبطَّنات، ومتى صبوا ماءً في إناء زجاجٍ، ووضعوه تحت السماء، جَمَدَ من ساعته.
فليس جُمُود الماء بالبرد فقط، ولا بد من شروطٍ ومقادير، واختلافِ جواهر، ومقابلات أحوال، كسرعة البرد في بعض الأدهان، وإبطائه عن بعض وكاختلاف عمله في الماء المغْلَى، وفي الماء المتروك عَلَى حاله وكاختلاف عمله في الماء والنبيذ، وكما يعتري البَوْل من الخُثُورة والجمود، عَلَى قدر طبائع الطعام والقلة.
والزَّيت خاصة يصيبه المقدار القليل من النار، فيستحيل من الحرارة إلى مقدار لا يستحيل إليه ما هو أحرّ.
ردٌّ آخر على المجوس وحجةٌ أخرى عَلَى المجوس، وذلك أن محمداً صلى اللّه عليه وسلم، لو كان قال: لم أُبعثْ إلا إلى أهل مكة - لكان له متعلق من جهة هذه

المعارضة، فأما وأصل نبوَّته، والذي عليه مخرجُ أمرهِ وابتداءُ مبعثه إلى ساعة وفاته، أنه المبعوث إلى الأحمر والأسود، وإلى الناس كافة، وقد قال اللّه تعالى: "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّه إِلَيْكُم جَمِيعاً" وقد قال تعالى: "نذِيراً لِلْبَشَرِ" فلم يبق أن يكون مع ذلك قولهم معارضة، وأن يُعَدّ في باب الموازنة.

مما قيل في البرد ومما قالوا في البرد قول الكميت:

إذا التفّ دون الفتاةِ الضَّجِيعُ ووَحْوَحَ ذو الفَرْوَةِ المُرْمِلُ

وراح الفَنِيقُ مع الرائحاتِ كإحدى أوائلها المرسَلِ

وقال الكميت أيضاً في مثل ذلك:

وجاءت الريح من تلقاء مَغْربـهـا وَضَنَّ من قِدْره ذُو القِدْرِ بالْعُقبِ

وكهْكَهَ المدْلِجُ المقرورُ فـي يَدِهِ واستدفأ الكلب في المأسور ذي الذِّئب

وقال في مثله جِرَانُ العَودِ:

ومشبوح الأشـاجع أريحـي بعيد السمع، كالقمر المنـير

رفيع الناظرين إلى المعالـي عَلى العِلاتِ في الخلقُ اليسير

يكاد المجدُ ينضحُ من يديهِ إذا دُفع اليتيمُ عن الـجـزور

وألجأتِ الكلاب صباً بـلـيلٌ وآل نباحهنّ إلـى الـهـرير

وقد جعلتْ فتاةُ الحي تـدنـو مع الـهلاك من عَرَن القدور

وقال في مثل ذلك ابن قميئة:

ليس طعمي طعم الأنامل إذ قلَّص درُّ اللقاح في الصنبر

ورأيتَ الإماء كالجعثن البا لي عكوفاً عَـلـى قـرارة قِـدر

ورأيتَ الـدخَـان كـالـودع الأه جنِ ينبـاع مـن وراء الـسـتـر

حاضـر شـركـم وخـيركـمُ دَ رٌّ خـروسٍ مـن الأرانـبِ بـكـر

وقال في مثل ذلك:

وإذا العَذارى بالدُّخان تَقنَّعتْ ... واستعجلت نَصْبَ القدور فملَّتِ

دَرَّتْ بأرزاق العيالِ مَغَالِقٌ ... بيديَّ من قمَع العشار الجِلَّةِ

وقال الهذليّ:

وليلة يصطلي بالفرث جازرُها ... يختصُّ بالنَّقرَى المثرينَ دَاعيها

لا ينبح الكلبُ فيها غيرَ واحدةٍ ... من الشِّتاء ولا تَسري أفاعيها

وفي الجَمدِ والبرد والأزمات يقول الكميت:

وفي السنةِ الجمادِ يكون غيثاً ... إذا لم تعط دِرَّتها الغضوبُ

ورُوِّحت اللِّقاحُ مُبْهَلاَتٍ ... ولم تُعْطف عَلَى الرُّبَع السَّلوبُ

وكان السَّوف للفتيان قوتاً ... تعيش به وهُيِّبت الرقوب

وفي هذه القصيدة يقول في شدة الحر:

وخَرْقٍ تعزف الجِنَّانُ فيه ... لأفئدة الكماةِ لها وَجِيب

قطعتُ ظلامَ ليلته ويوماً ... يكاد حَصَى الإكام به يذوب

وقال آخر لمعشوقته:

وأنتِ التي كلفتني البرد شاتياً ... وأوردتِنيه فانظري أيَّ موردِ

فما ظنك ببرد يؤدِّي هذا العاشق إلى أن يجعل شدَّته عذراً له في تركه الإلمام بها، وذلك قوله في هذه القصيدة:

فيا حسنها إذ لم أعُجْ أن يقالَ لي ... تروَّحْ فشيعنا إلى ضحوة الغدِ

فأصبحتُ مما كان بيني وبينها ... سِوى ذكرها كالقابض الماءَ باليد

ومما يقع في الباب قبل هذا، ولم نجد له باباً قول مسكين الدَّارميّ:

وإني لا أقومُ على قنـاتـي أسبُّ النـاسَ كالكلب العقور

وإني لا أحلُّ ببطـن وادٍ ولا آوي إلى البيتِ القصير

وإني لا أحاوص عقدَ نـاد ولا أدعو دعائي بالصغير

ولستُ بقائل للعَبْدِ أو قـدْ إذا أوقدتَ بالعودِ الصغير

ولو تأملتَ دخان أتُّون واحد، من ابتدائه إلى انقضائه، لرأيت فيه الأسود الفاحم، والأبيض الناصع.
والسواد والبياض، هما الغاية في المضادَّة، وذلك عَلَى قدر البخار والرطوبات، وفيما بينهما ضروب من الألوان.
وكذلك الرماد، منه الأسود، ومنه الأبيض، ومنه الأصهب، ومنه الخَصِيف، وذلك كله على قدر اختلاف حالات المحترق وجواهره.
فهذا بعضُ ما قالوا في البرد.

بعض ما قيل في صفة الحر

وسنذكر بعض ما قالوا في صفة الحر، قال مضرِّس بن زُرارة بن لقيط:

تدلّت عليها الشمسُ حتى كـأنـه من الحر يُرمى بالسكينة نُورُها

سجوداً لدَى الأرْطى كأن رؤوسها علاها صداعٌ أو فوَالٍ يصُورها

وقال القطاميُّ:

فهن معترضاتٌ والحصى رمِضٌ والريحُ ساكنة والظلُّ معتـدلُ

حتى وردْن ركِيَّاتِ الغُوَيْر وقـد كاد المُلاءُ من الكتَّان يشتـعلُ

وقال الشماخ بن ضِرار:

كأن قُتودي فوق جـأب مـطـرد من الحقب لاحتْه الجداد الغوارز

طوى ظمأها في بيضة القيظ بعد ما جرَت في عِنان الشِّعرَيين الأماعزُ

وظلتت بيمؤودٍ كـأن عيونـهـا إلى الشمس هلا تدنو، ركيٌّ نواكز

ولهذه الأبيات كان الحطيئة والفرزدق يقدِّمان الشماخَ بغاية التقديم.
وقال الراعي:

ونـار وديقة فـي يوم هَـيْجٍ من الشِّعرى نصْبتُ لها الجبينا

إذا مَعزاءُ هـاجـرةٍ أونَّـتْ جَنادُبها وكان العيسُ جُونـا

وقال مسكينٌ الدارمي:

وهاجرةٍ ظلَّتْ كأنّ ظبـاءَهـا إذا ما أتَّقتها بالقرون سجـودُ

تلوذ لشُؤبوبٍ من الشَّمس فوقها كما لاذَ من حَرِّ السِّنان طريدُ

وقال جرير:

وهاجِدِ موماةٍ بعثتُ إلى السُّرى وللنومُ أحلى عنده من جنى النحلِ

يكون نزولُ الركب فيها كَـلاَ وَلاَ غشاشاً ولا يدنون رحلا إلى رحل

ليوم أتتْ دون الظلال سمومـهُ وظلَّ المها صوراً جماجمها تغلي

وفيها يقول جرير:

تمنَّى رجال من تميمٍ لي الرّدى وما ذاد عن أحسابهم ذائدٌ مثلي

احتجاج النظام للكمون

وقال أبو إسحاق: أخطأ من زعم أن النـار تصعدُ في أول العود، وتنحدر وتغوص فيه، وتظهر عليه، وتأخذ منه عَرَضاً.
وقال: العود، النار في جميعه كامنة، وفيه سائحة، وهي أحد أخلاطه، والجزء الذي يُرى منها في الطرف الأول، غير الجزء الذي في الوسط والجزء الذي في الوسط غير الجزء الذي في الطرف الآخر، فإذا احتكّ الطرف فحميَ زال مانعه، وظهرت النار التي فيه، وإذا ظهرت حَمِيَ لشدة حرها الموضعُ الذي يليها، وتنحَّى أيضاً مانعه، وكذلك الذي في الطرَف الآخر ولكن الإنسان إذا رأى النار قد اتصلت في العود كله، وظهرت أولاً فأوّلاً، ظن أن الجزء الذي كان في المكان الأول قد سَرَى إلى المكان الثاني، ثم إلى المكان الثالث، فيخبرُ عن ظاهر ما يرى ولا يعرف حقيقة ما بطن من شأنها. وقال أبو إسحاق: ولو كانت العيدان كلها لا نار فيها، لم يكن سرعةُ ظهورها من العراجين، ومن المرْخ والعَفار، أحقّ منها بعودِ العُنَّابِ

والبَرديِّ وما أشبه ذلك، لكنها لمَّا كانت في بعض العيدان أكثر، وكان مانعها أضعَفَ، كان ظهورها أسرع، وأجزاؤها إذا ظهرت أعظمَ، وكذلك ما كمَنَ منها في الحجارة، ولو كانت أجناس الحجارة مستوية في الاستسرار فيها، لما كان حجَرُ المرْو أحقَّ بالقدْح إذا صُكَّ بالقدَّاحة، من غيره من الحجارة، ولو طال مُكثُه في النار ونُفِخَ عليه بالكير.

ولِمَ صار لبعض العيدان جَمْرٌ باق، ولبعضها جمر سريع الانحلال، وبعضها لا يصير جمراً؟ ولمَ صار البَرْديّ مع هَشَاشته ويبسه ورخاوته، لا تعمل فيه النيران؟ ولذلك إذا وقع الحريق في السُّوق سَلِمَ كل مكان يكون بين أضعاف البردي، ولذلك ترى النار سريعة الانطفاء في أضعاف البرديّ، ومواضع جميع اللِّيف.

وقال أبو اسحاق: فلِمَ اختلفَتْ في ذلك؟ إلا على قدر ما يكونُ فيها من النار، وعَلَى قدر قوة الموانع وضعفها.

ولم صارت تقدَح عَلَى الاحتكاك حتى تلهبت، كالساج في السفن إذا اختلط بعضه ببعض عند تحريك الأمواج لها؟ ولذلك أعدُّوا لها الرجال لتَصُبّ من الماء صَبّاً دائماً، وتدوِّم الريحُ فتحتك عيدان الأغصان في الغياض، فتلتهب نار فتحدثُ نيران.

ولِمَ صار العود يحمَى إذا احتكَّ بغيره؟ ولمَ صار الطّلَقُ لا يحمى؟ فإن قلت لطبيعة هناك، فهل دللتمونا إلا عَلَى اسم علَّقتموه عَلَى غير معنًى وجدتموه؟ أوَ لسنا قد وجدنا عيون ماءٍ حارة وعيون ماءٍ بارد، بعضها يبرص ويُنفِط الجلد، وبعضها يُجمِدُ الدمَ ويورث الكُزَاز؛ أولسنا قد وجدنا عيون ريح وعيون نار؟ فلِمَ زعمتم أن الريحَ والماء كانا مختنقين في بطون الأرض و لم تجوِّزوا لنا مثل ذلك في النار؟ وهل بين اختناق الريح والماء فرق؟ وهل الريح إلا هواءٌ تحرَّكَ؟ وهل بين المختنق والكامن فرْق؟.

وزعم أبو إسحاق: أنه رمى بردائه في بئر النبي صلى اللّه عليه وسلم التي من طريق مكة، فردّته الريح عليه.

وحدَّثني رجل من بني هاشم قال: كنت برَامة، من طريق مكة فرميت في بئرها ببعرة فرجعت إليَّ، ثم أعدتها فرجعَتْ، فرميْت بحصاة فسمعتُ لها حَريقاً وحفيفاً شديداً وشبيهاً بالجوَلان، إلى أن بلغَتْ قرار الماء.

وزعم أبو إسحاق أنه رأى عين نار في بعض الجبال، يكون دخانُها نهاراً وليلاً، أو ليس الأصل الذي بُني عليه أمرُهم: أن جميع الأبدان من الأخلاط الأربعة: من النار، والماء، والأرض، والهواء؟ فإذا رأينا موضعاً من الأرض يخرج منه ماءٌ قلنا: هذا أحدُ الأركان؛ فما بالُنا إذا رأينا موضعاً من الأرض يخرج منه نارٌ لم نقل مثل ذلك فيه؟.

ولمَ نقولُ في حجرِ النار إنه متى وُجد أخف من مقدار جسمه من الذهب والرّصاص والزئبق، إنما هو لما خالَطه من أجزاء الهواء الرّافعة له؟ وإذا وجدناه أعْلَكَ عُلوكة، وأمتَنَ متانة، وأبعد من التهافُتِ جعلنا ذلك لما خالطه من أجزاء الماء، وإذا وجدناه ينقض الشرر، ويُظهرُ النار جعلنا لك للذي خالطه من الهواء؟ ولمَ جعلناه إذا خف عن شيء بمقدار جسمه، لما خالطه من أجزاء الهواء، ولا نجعله كذلك لما خالطه من أجزاء النار؟ ولا سيما إذا كانت العينُ تجدُه يقدَح

بالشرر، ولَمْ تجْر أجزاء الهواء فيه عندنا عِياناً، فلِمَ أنكروا ذلك، وهذه القصةُ توافقُ الأصل الذي بَنَوْا عليه أمرهم؟.
قال: أو ليس من قوله أنه لولا النيرانُ المتحركة في جوف الأرض، التي منها يكون البُخارُ - الذي بعضه أرضيٌّ وبعضه مائيٌّ - لم يرتفعْ ضبابٌ، ولم يكن صواعق ولا مطرٌ ولا أنداء.

الصواعق وما قيل فيها

ومتى كان البخار حارّاً يابساً قدَحَ وقذَفَ بالنار التي تسمى الصاعقة، إذا اجتمعت تلك القوى في موضع منه، فإن كانت القِوَى ريحاً كان لها صوتٌ، وإن كانت ناراً كانت لها صواعقُ، حتى زعم كثير من الناس أن بعض السيوف من خبث نيران الصواعق، وذلك شائع على أفواه الأعراب والشعراء، قال أبو الهوْل الحِمْيري:

حاز صمصامة الزبيديِّ من بين جميع الأنامِ موسى الأمينُ

سيفُ عمرو، وكان فيما سَمعنا خيرَ ما أطبقتْ عليه الجفونُ

أوفدتْ فوقهُ لاصواعقُ ناراً ثم ساطت به الزعافَ المنون

وقال منهم آخر:

يكفيك من قلَع السماء عقيقة فوق الذّراع ودون بَوْع البائع

قال الأصمعيّ: الانعقاق: تشقُّق البرق، ومنه وصف السيف بالعقيقةِ، وأنشد:

وسيفي كالعقيقةِ وَهْوَ كِمْعِي

وقال الأخطل:

وأرَّقني من بعد ما نِمْتُ نَوْمَة وعَضْبٌ إباطي كالعقيق يمَانِي

ونذكرُ بعَونِ اللّهِ وتأييده جُمْلةً مِنَ القول في الماء ثمَّ نصير إلى ذكر ما ابتدأنا به، من القول في النار.
ذكروا أن الماء لا يغذو، وإنما هو مَرْكَبٌ ومِعْبَرٌ ومَوْصِلٌ للغِذاء، واستدلُّوا لذلك بأن كلّ رقيق سَيّال فإنك متى طبَخْته انعقد، إلا الماء، وقالوا في القياس: إنه لا ينعقد في الجوف عند طبخ الكبد له، فإذا لم ينعقِد لم يجئْ منه لحمٌ ولا عظم، ولأننا لم نر إنساناً قطُّ اغتذاه وثبت عليه روحُه وإن السمك الذي يموت عند فقده لَيَغْذُوه سِواه مما يكون فيه دونه.
قال خصمهم: إنما صار الماء لا ينعقد؛ لأنه ليس فيه قُوًى مستفادةٌ مأخوذة من

قُوى الجواهر، والماء هو الجوهرُ القابلُ لجميع القُوَى، فبضربٍ من القُوى والقبول يصير دُهناً، وبضرب آخر يصير خلاًّ، وبضرب آخر يصير دماً، وبضرب آخر يصير لبَنَاً، وهذه الأمور كلها إنَّما اختلفت بالقُوى العارضة فيها، فالجوهرُ المنقلبُ في جميع الأجرام السّيَّالة، إنما هو الماء، فيصير عند ضرب من القبول دُهناً، وعند ضرب من القبول لبناً.
وعصير كل شيء ماؤه والقابلُ لِقُوى ما فيه، فإذا طبخْتَ الماء صِرْفاً، سالماً على وجهه، ولا قُوَى فيه، لم ينعقد وانحلَّ بُخاراً حتى يتفانى؛ وإنما ينعقد الكامن من الملابس له، فإذا صار الماء في البدنِ وحده ولم يكن فيه قوًى لم ينعقد، وانعقاده إنما هو انعقاد ما فيه.
والماء لا يخلو من بعض القبُول ولكنَّ البعض لا ينعقد ما لم يكثُر.
وزعم أصحاب الأعراض أن الهواء سريعُ الاستحالة إلى الماء، وكذلك الماء إلى الهواء، للمناسبة التي بينهما من الرطوبة والرقة، وإنما هما غير سيَّارين، ويدل على ذلك اجتذابُ الهواء للماء وملابسته له، عند مَصِّ الإنسان بفيه فم الشَّرابة، ولذلك سَرَى الماء وجرى في جوف قصَبِ الخيزُرَان، إذا وضَعْتَ طرفه في الماء.
وكذلك الهواء، فيه ظلامُ الليل وضياء النهار وما كان فيه من الأشباح، والحدَقة لا ترى من الضياء العارض في الهواء ما تباعد منها.

ألوان الماء

والماء يرقّ فيكون له لون، ويكون عمقه مقداراً عَدْلاً فيكون له لون، فإنْ بعد غوْرُه وأفرط عمقه رأيته أسودَ.
وكذلك يحكون عن الدُّرْدُور.
ويزعمون أن عين حوارا ترمى بمثل الزنوج.
فتجدُ الماء جنساً واحداً، ثم تجد ذلك الجنسَ أبيض إذا قلَّ عمقه، وأخضَرَ إذا كان وسطاً، وأسودَ إذا بعُدَ غوْرُه.
تحقيق في لون الماء ويختلف منظره على قدر اختلاف إنائه وأرضه، وما يقابله، فدلّ ذلك على أنه ليس بذي لون، وإنما يعتريه في التخييل لونُ ما يقابله ويحيط به، ولعلَّ هذه الأمور إذا تقابلت أن تصنع في العين أموراً، فيظنَّ الإنسان مع قُرب المجاورةِ والالتباس، أن هذه الألوان المختلفة إنما هي لهذا الماء الرائق الخالص، الذي لم ينقلب في نفسه، ولا عَرَضَ له ما يقْلبه، وكيف يعرض له ويقلبه وعينُ كل واحد منهما غيرُ عينِ صاحبه؟ وهو يرى الماء أسودَ كالبحر، متى أخذ منه أحدٌ غُرفة رآه كهيئته إذا رآه قليل العُمق.
تشابه الماء والهواء ويتشابهان أيضاً لسُرعة قبولهما للحر والبرد، والطّيب والنّتْن؛ والفساد والصلاح.
حجة للنظام في الكمون قال أبو إسحاق: قال اللّه عزَّ وجلّ عند ذكر إنعامِه على عباده وامتنانه على خلقه، فذكَر ما أعانهم به من الماعون: "أفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ، أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ المنْشِئُون"، وكيف قال شَجَرَتَهَا وليس في تلك الشجرة شيء، وجوفها وجوفُ الطَّلَق في ذلك سواء، وقدرة اللّه على أن

يَخلق النار عندَ مسِّ الطَّلَق، كقدرته على أن يخلقها عند حكِّ العود وهو، تعالى وعز، لم يُرد في هذا الموضع إلا التعجيبَ من اجتماعِ النار والماء.
وهل بين قولكم في ذلك وبين من زعم أن البذر الجيِّد والرديء والماء العذب والملح، والسّبَخَة والخبرَة الرِّخوة، والزمان المخالفَ والموافقَ، سواءٌ، وليس بينها من الفرْق إلا أن اللّه شاء أن يخلق عند اجتماع هذه "حَبّاً، وعِنَباً وَقَضْباً، وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً" دون تلك الأضداد.
ومن قال بذلك وقاسه في جميع ما يلزم من ذلك، قال كقول الجَهْمِيّةِ في جميع المقالات، وصار إلى الجهالات، وقال بإنكار الطبائع والحقائق.
وقال اللّه عزّ وجلّ: "الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ".
ولو كان الأمر في ذلك على أن يخلقها ابتداءً لم يكن بين خلقها عند أخضرِ الشجر وعند اليابس الهشيم فرق، ولم يكن لذكر الخضْرَةِ الدّالة عَلَى الرطوبةِ مَعْنًى.
وقد ذكرنا جملةً من قولهم في النار، وفي ذلك بلاغ لمن أراد معرفة هذا الباب، وهو مقدارٌ قصدٌ، لا طويل ولا قصير.
فأما القولُ في نار جهنم، وفي شُواظها ودوامها وتسعُّرها وخبوِّها والقول في خلق السماء من دُخَان والجانِّ من نار السّموم، وفي مَفْخَر النار على الطين، وفي احتجاج إبليس بذلك - فإنا سنذكر من ذلك جملة في موضعه إن شاء اللّه تعالى.

ما قيل في حسن النار

ونحن راجعون في القول في النار إلى مثل ما كنا ابتدأنا به القول في صدر هذا الكلام، حتى نأتيَ من أصناف النيران على ما يحضرنا، إن شاء اللّه تعالى.
قالوا: وليس في العالم جسمٌ صِرْفٌ غير ممزوج، ومرسلٌ غير مركب، ومُطلق القُوَى، غير محصور ولا مقصور، أحسنُ من النار.
قال: والنار سماوية عُلْوية؛ لأن النار فوق الأرض، والهواء فوق الماء، والنار فوق الهواء، ويقولون: شراب كأنه النار، و كأن لونَ وجهها النار، وإذا وصفوا بالذكاء قالوا: ما هو إلا نار وإذا وصفوا حمرة القِرمز وحمرة الذهب قالوا: ما هو إلا نار.
قال: وقالت هند: كنتُ واللّه في أيام شبابي أحسنَ من النار الموقَدَة.
وأنا أقول: لم يكن بها حاجةٌ إلى ذكر الموقَدَة وكان قولها: أحسنَ من النار يكفيها، وكذلك اتهمتُ هذه الرواية.
وقال قُدَامة حكيم المشرق في وصف الذّهن: شُعاعٌ مركوم، ونَسَمٌ معقود، ونورٌ بصَّاص، وهو النار الخامدة، والكِبريت الأحمر.
ومما قال العتَّابي: وجمالُ كل مجلس بأن يكون سَقْفهُ أحمرَ، وبساطُه أحمر.
وقال بشّار بنُ بُرْد:

هِجانٌ عليها حُمْرةٌ في بياضِها   تَرُوق بها العَينَين والحسنُ أحمرُ

وقال أعرابيٌّ:

هِجانٌ عليها حمرةٌ في بياضِها   ولا لونَ أدنى للهجان من الحُمْر

تعظيم اللّه شأن النار

قال: ومما عظم اللّه به شأن النار أنها تنتقم في الآخرة من جميع أعدائه، وليس يستوجبها بَشريٌّ منْ بَشَريّ، ولا جنيٌّ من جنيّ بضغينةٍ ولا ظلمٍ، ولا جنايةٍ ولا عُدْوان، ولا يَسْتَوْجِبُ النارَ إلا بعداوة اللّه عزَّ وجلَّ وحده، وبها يَشْفي صدورَ أوليائه من أعدائهم في الآخرة.
عظمِ شأن ما أضيف إلى الله وكل شيء أضافه اللّه إلى نفسه فقد عظَّم شأنه، وشدَّد أمره، وقد فعَل ذلك بالنار، فقالوا بأجمعهم: دَعْهُ في نار اللّه وسقره، وفي غضب اللّه ولعنته، وسَخَط اللّه وغضبه، هما ناره أو الوعيدُ بناره، كما يقال: بيتُ اللّه، وزُوّار اللّه، وسماءُ اللّه، وعرشُ اللّه.
المنة الأولى بالنار ثم ذكرها فامْتَنّ بها على أهل الأرض من وجهين: أحدهما قوله عزّ وجلّ: "الّذي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأخْضَرِ ناراً فإذا أنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ" فجَعَلَهَا من أعظم الماعون معونة، وأخفها مَؤُونة.
استطراد لغوي والماعون الأكبر: الماء والنار، ثم الكَلأُ والملح.
قال الشاعر في الماعون بيتاً جامعاً، أحسن فيه التأدية حيث قال:

لا تَعْدِلَنّ أتَاوِيِّينَ قد نـزلـوا   وَسْطَ الْفلاَةِ بأصْحَابِ المُحِلاَّتِ

والمُحِلاَّت هي الأشياء التي إذا كانت مع المسافرين حَلّوا حيثُ شاؤوا، وهي القَدَّاحة، والقِرْبة، والمِسْحاة، فقال: إياك أن تَعْدِلَ، إذا أردت النّزولَ، مَنْ مَعَهُ أصنافُ الماعونِ بأتَاويِّين، يعني واحداً أتى مِنْ هاهنا، وآخر أتى من هاهنا، كأنهم جماعة التقوْا من غير تعريف بنسب ولا بلد، وإذا تجمعوا أفذاذاً لم يكمل كلّ واحدٍ منهم خصال المحِلاَّت.
قال أبو النجم:

يَضَعْنَ بالـفَـقْـر أتَـاويَّاتِ   مُعْتَرضاتٍ غَيْرَ عُرْضِيَّاتِ

وقالت امرأة من الكفار، وهي تحرِّض الأوسَ والخزْرج، حين نزل فيهم النبي صلّى اللّه عليه وسلم وعلى آله وصحبهِ:

أطعْتُمْ أتَاويَّ مِنْ غَيْركُمْ   فلاَ مِنْ مُرَادٍ ولاَ مَذْحِجِ

ولم تردْ أنهما أشرفُ من قريش، ومن الحيّيْن كعبٍ وعامر، ولكنها أرادت أن تؤلّبَ وتُذْكِيَ العصبيّة.

اختيار ما تبنى عليه المدن وقالوا: لا تُبْتَنَى المدن إلا على الماء والكلإ والمحتطبِ، فدخلت النار في المحتطب؛ إذ كان كلُّ عود يوري.
المنة الثانية بالنار وأما الوجه الآخرُ من الإمتنان بها، فكقوله تعالى: "يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنْتَصِرَانِ" ثم قال على صِلَة الكلام: "فبِأيِّ آلاَءِ رَبِّكما تكَذِّبَانِ"، وليس يريد أنّ إحراقَ اللّه عز وجلَّ العبدَ بالنار من آلائه ونعمائه، ولكنه رأى أن الوعيدَ الصادق إذا كان في غاية الزجر عما يُطغيه ويُرْدِيه فهو من النعم السابغة والآلاء العظام.
وكذلك نقول في خلْق جهنم: إنها نعمة عظيمة، ومِنَّةٌ جليلةٌ، إذا كان زاجراً عن نفْسه ناهياً، وإلى الجنة داعياً، فأما الوقوع فيها فما يُشَكُّ أنه البلاءُ العظيم.
وكيف تكونُ النقمُ نِعَماً ولو كانت النقمة نعمةً لكانت رحمة، ولكان السّخط رضا وليس يَهْلِكُ عَلَى البينة إلا هالك، وقال اللّه عزّ وَجلَّ: "لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ".
عظات للحسن البصري وقال الحسن: واللّهِ يا ابن آدم، ما توبقُكَ إلا خطاياك قد أُريد بك النجاةُ فأبيتَ إلا أن توقِعَ نفسَك.
وشهد الحسَنُ بعضَ الأمراء، وقد تعدّى إقامة الحدّ، وزاد في عددِ الضرب، فكلمه في ذلك، فلما رآهُ لا يقبلُ النصح قال: أمَا إنكَ لا تضربُ إلا نفسكَ، فإن شئْتَ فقَلِّلْ، وإن شئتَ فكثِّر.
وكان كثيراً ما يتلو عند ذلك: "فما أصْبَرَهُمْ عَلَى النَّار".
عقاب الآخرة وعقاب الأولى والعقاب عقابان: فعقاب آخرةٍ، وعقابُ دنيا، فجميعُ عقاب الدنيا بَلِيَّةٌ منْ وجه، ونعمةٌ من وجه، إذ كان يؤدِّي إلى النعمة وإن كان مؤلماً، فهو عن المعاصي زاجرٌ، وإن كان داخلاً في باب الامتحان والتعبُّد، مع دخوله في باب العقاب والنعمة؛ إذ كان زجراً، وتنكيلاً لغيره، وقد كلِّفنا الصبرَ عليه، والرضا به، والتسليم لأمر اللّه فيه.
وعقاب الآخرة بلاءٌ صِرْف، وخزيٌ بَحْت، لأنه ليس بمخْرَج منه، ولا يحتملُ وجهين.

معارف في النار

وقال أبو إسحاقَ: الجمرُ في الشمس أصهب، وفي الفيء أشكلُ، وفي ظلِّ الأرض - الذي هو الليل - أحمر، وأيُّ صوتٍ خالطتْه النار فهو أشد الأصوات، كالصاعقة، والإعصار الذي يخرج من شِقِّ البحر، وكصوت المُوم، والجَذْوَةِ من العود إذا كان في طَرَفِه نارٌ ثم غمستَه في إناءٍ فيه ماءُ نَوًى مُنْقَع.
ثم بالنار يعيشُ أهلُ الأرض من وجوه: فمن ذلك صنيعُ الشمس في بردِ الماء والأرض؛ لأنها صِلاءُ جميع الحيوان، عند حاجتها إلى دفع عاديةِ البردِ، ثمّ سراجُهم الذي يستصبحون به، والذي يميزون بضيائه بين الأمور.
وكلُّ بخار يرتفع من البحار والمياهِ وأصول الجبال، وكل ضبابٍ يعلو، وندًى يرتفع ثم يعود بركة ممدودة عَلَى جميع النبات والحيوان - فالماء الذي يحلُّه ويلطِّفه، ويفتحُ له الأبوابَ، ويأخُذُ بضَبْعه من قعر البحر والأرضِ النارُ المخالطة لهما من

تحتُ، والشمسُ من فوق.
عيون الأرض وفي الأرض عيون نار، وعيونُ قطِران، وعيون نِفْط وكباريت وأصناف جميع الفِلِزّ من الذهب والفضة والرَّصاص والنُّحاس، فلولا ما في بطونها من أجزاء النار لما ذَابَ في قعرها جامدٌ، ولَمَا انسبك في أضعافها شيءٌ من الجواهر، ولَمَا كان لمتقاربها جامع، ولمختلفها مُفَرِّق.

ما قالت العرب في الشمس

قال: وتقول العرب الشمسُ أرحَمُ بنا.
وقيل لبعض العرب: أيُّ يوم أنفع؟ قال: يومُ شَمَال وشَمْس.
وقال بعضهم لامرأته:

تمَنَّيْنَ الطَّلاَقَ وأنْتِ عِنْدِي   بعَيْشٍ مثلِ مَشْرِقةِ الشَّمالِ

وقال عُمَر: الشمسُ صِلاءُ العرب، قال عُمر: العربيُّ كالبعير، حيثما دارت الشمسُ استقبلَهَا بهامَتِه.
ووصف الرّاجز إبلاً فقال:

تستقبل الشمسَ بجُمْجُماتها

وقال قطِران العبسيّ:

بمستأسد القُرْيَان حُوٍّ تِلاعُـهُ   فنُوّارُهُ مِيلٌ إلى الشمسِ زاهِرُهْ

الْخِيريّ والخِيريُّ ينضم ورقه بالليل، وينفتح بالنهار.
ولإسماعيل بن غَزْوان في هذا نادرةٌ، وهو أن سائلاً سألَنَا من غير أهل الكلام، فقال: ما بالُ ورق الخِيريّ ينضم بالليل وينتشرُ بالنهار؟ فانبَرَى له إسماعيل بنُ غَزْوان فقال: لأن بردَ الليل وثِقلَه، من طباعهما الضمُّ والقبض والتّنويم، وحرّ شمس النهار من طباعه الإذابة، والنشر، والبسْط، والخفَّة، والإيقاظ، قال السائل: فيما قلت دليلٌ، ولكنه قال إسماعيل: وما عليك أن يكون هذا في يدك، إلى أن تصيبَ شيئاً هو خيرٌ منه.
تسرع الحمر الألوان، وفالج ذوي البدانة وكان إسماعيل أحمَرَ حَليماً، وكذلك كان الحَراميّ، وكنت أظن بالحمر الألوانِ التسرعَ والحدَّة، فوجدت الحِلْمَ فيهم أعمّ، وكنت أظن بالسمان الخِدالِ العظامِ أنّ الفالِجَ إليهم أسرعُ، فوجدتُهُ في الذين يُخالفون هذه الصِّفَة أعَمّ.
أثر الشمس والحركة والجوِّ في الأبدان وقال إياسُ بن معاوية: صِحَّة الأبدان مع الشمس، ذهب إلى أهل العَمَد والوبر.
وقال مثنَّى بن بشير: الحركة خيرٌ من الظل والسُّكون.
وقد رأينا لِمَن مدح خلاف ذلك كَلاماً، وهو قليل.

وقيل لابنة الخسِّ: أيُّمَا أشَدُّ: الشتاء أمِ الصيف؟ قالت: ومن يجعل الأذى كالزمانة؟.
وقال أعرابيٌّ: لا تَسُبُّوا الشَّمال فإنها تضعُ أنفَ الأفعى، وترفع أنف الرِّفقة.
وقال خاقانُ بن صبيح، وذكر نُبْلَ الشتاء وفضلَه عَلَى نُبْلِ الصيف فقال: تغيب فيه الهوام، وتنجحر فيه الحشرات، وتظهر الفِرْشَة والبزَّةُ، ويكثُر فيه الدّجْن؛ وتطيب فيه خِمْرة البيت، ويموت فيه الذّبان والبَعوض، ويبرُد الماء، ويسخُن الجوفُ، ويطيبُ فيه العِناق.
وإذا ذكرت العربُ بَرْدَ الماء وسخونة الجوف قالت: حِرَّةٌ تحت قِرّة.
ويجود فيه الاستمراء؛ لطول الليل، لتَفصِّي الحرِّ.
وقال بعضهم: لا تُسَرّنَّ بكثرة الإخوان، ما لم يكونوا أخياراً؛ فإن الإخوان غيرَ الخِيَارِ بمنْزِلةِ النار، قليلُها متاعٌ، وكثيرها بوار.

نار الزحفتين

قال: ومن النيران نار الزَّحْفتَيْن، وهي نار أبي سريع، وأبو سريع هو الْعَرْفجُ.
وقال قُتيبة بن مسلم، لعُمَرَ بن عبَّاد بن حُصين: واللّه لَلسُّؤدُدُ أسرعُ إليك من النار في يبيس العَرْفج.
وإنما قيل لنار العَرفج: نار الزحفتين؛ لأن العَرفج إذا التهبَتْ فيه النار أسرعَتْ فيه وعَظُمَتْ، وشاعت واستفاضت، في أسرَعَ من كل شيء، فمن كان في قُرْبها يزحف عنها، ثم لا تلبثُ أن تنطفئ من ساعتها، في مثل تلك السرعة؛ فيحتاج الذي يزحف عنها أن يزحَفَ إليها من ساعتِه؛ فلا تزالُ للمصْطلي كذلك، ولا يزال المصطلي بها كذلك، فمن أجْلِ ذلك قيل: نار الزَّحْفتَيْن، قال: وقيل لبعض الأعراب: ما بالُ نسائكم رُسْحاً؟ قال: أرْسَحَهُنَّ عَرْفَجُ الهَلْبَاءِ.
صورة عقد بين الراعي والمسترعي وهذا شرط الراعي فيما بينه وبين من استرعاه ماشيته في القارِّ والحارِّ ، وذلك أن شرطهم عليه أن يقول المسترعي للراعي: إن عليك أن تردَّ ضالَّتها، وتهنأ جرْباها، وتلوط حوضَهَا، ويدُك مبسوطةٌ في الرِّسْل ما لم تُنْهِكَ حَلْباً، أو تضرّ بنَسْل.
قال: فيقول عند ذلك الراعي لرب الماشية، بعد هذا الشرط: ليس لك أن تَذْكُرَ أُمِّي بخيرٍ ولا شرّ ولك حذْفةٌ بالعصا عند غضَبك، أخطأتَ أو أصَبْتَ، ولي مَقعدي من النار وموضعُ يدي من الحارّ والقارّ.

شبه ما بين النار والإنسان

قال: ووَصف بعض الأوائل شبَهَ ما بين النار والإنسان، فجعل ذلك قرابة ومشاكلة، قال: وليس بين الأرض وبين الإنسان، ولا بين الإنسان، والماء، ولا بين الهواء والإنسان، مثل قرابة ما بينه وبين النار؛ لأن الأرض إنما هي أمٌّ للنبات، وليس للماء إلا أنه مَرْكَب، وهو لا يغذُو؛ إلاّ ما يعقِدهُ الطبخ وليس للهواء فيه إلا النسيم والمتقلَّب، وهذه الأمور وإن كانت زائدة، وكانت النفوسُ تَتلَفُ مع فَقْدِ بعضها، فطريق المشاكلةِ والقرابةِ غير طريق إدخال المَرْفِق وجَرِّ المنفعة، ودفع المضَرّة.

قال: وإنما قضيتُ لها بالقرابة، لأني وجدت الإنسان يَحْيَا ويعيشُ في حيثُ تحيا النار وتعيشُ، وتموتُ وتَتْلَفُ حيث يموت الإنسانَ ويتلف.
وقد تدخل نار في بعض المطامير والجِبابِ، والمغاراتِ، والمعادن، فتجدها متى ماتت هناك علمنا أن الإنسان متى صار في ذلك الموضِع مات، ولذلك لا يدخلها أحدٌ ما دامت النار إذا صارتْ فيها ماتت، ولذلك يعمد أصحاب المعادن والحفاير إذا هجموا على فَتْق في بطن الإرض أو مغارة في أعماقها أو أضعافها، قدّموا شمعةً في طرَفِها أو في رأسها نارٌ، فإن ثبتت النار وعاشت دخلوا في طلب الجواهر من الذهب وغير ذلك، وإلا لم يتعرَّضوا له، وإنما يكونُ دخولُهم بحياة النار، وامتناعُهم بموت النار.
وكذلك إذا وقعوا على رأس الجُبِّ الذي فيه الطعام، لم يجسُروا على النزول فيه، حتى يُرسلوا في ذلك الجبِّ قِنديلاً فيه مصباحٌ أو شيئاً يقومُ مقامَ القِنديل، فإن مات لم يتعرَّضوا له، وحرّكوا في جوفه أكسية وغيرها من أجزاء الهواء.
قال: وممّا يُشَبَّه النارُ فيه بالإنسان، أنك ترى للمصباح قبل انطفائه ونفادِ دهنه، اضطراماً وضياءً ساطعاً، وشُعاعاً طائراً، وحركة سريعةً وتنقضاً شديداً، وصوتاً متداركاً، فعندها يخْمُدُ المصباح.
وكذلك الإنسان، له قبلَ حالِ الموتِ، ودُوَيْنَ انقضاء مُدَّته بأقرب الحالات، حال مُطْمِعَة تزيد في القوة على حاله قبلَ ذلك أضعافاً، وهي التي يسمونها راحة الموت، وليس له بعد تلك الحال لُبث.
قول أحد المتكلِّمين في النفس وكان رئيسٌ من المتكلمين، وأحدُ الجِلَّة المتقدمين، يقولُ في النفس قولاً بليغاً عجيباً، لولا شُنْعته لأظْهَرْتُ اسمه، وكان يقول: الهواءُ اسم لكل فتق، وكذلك الحيِّز، والفتق لا يكون إلا بين الأجرام الغِلاظ، وإلا فإنما هو الذي يسميه أصحاب الفَلَكِ اللُّجَّ، وإذا هم سألوهم عن خُضْرة الماء قالوا: هذا لُجّ الهواء، وقالوا: لولا أنكَ في ذلك المكانِ لرأيت في اللُّجِّ الذي فوق ذلك مثل هذه الخضرة، وليس شيء إلا وهو أرقٌّ من كَتِيفِه أو من الأجرام الحاصرة له، وهو اسمٌ لكل متحرَّك ومُتَقَلَّب لكل شيء فيه من الأجرام المركبة، ولا يستقيم أن يكون من جنس النسيم، حتى يكونَ محصوراً، إما بحصر كَتِيفِيٍّ كالسفينة لما فيها من الهواء الذي به حَمَلَتْ مثلَ وزنِ جِرمها الأضعاف الكثيرة، وإما أن يكون محصوراً في شيء كهيئة البيضة المشتملة على ما فيها، كالذي يقولون في الفَلَكِ الذي هو عندنا: سماء.
قال: وللنسيم الذي هو فيه معنى آخر، وهو الذي يجعلُهُ بعضُ الناس ترويحاً عن النفس، يعطيها البَرْدَ والرِّقَّة والطِّيب، ويدفعُ النَفسَ، ويُخرج إليه البخارَ والغِلَظ، والحراراتِ الفاضلة، وكلّ ما لا تقوى النَفسُ على نفْيه واطِّرادِه.
قال: وليس الأمر كذلك، بل أزعمُ أنّ النفس من جنس النسيم وهذه النفسُ القائمة في الهواء المحصور، عرضٌ لهذه النفسِ المتفرِّقة في أجرام جميع الحيوان، وهذه الأجزاء التي في هذه الأبدان، هي من النسيم في موضع الشعاع والأكثاف، والفروع التي تكون من الأصول.
قال: وضياء النفس كضياء دخلَ من كوَّة فلما سُدَّت الكوَّةُ انقطع بالطَّفْرة إلى

عنصره من قُرْص الشمس وشُعاعها المشرق فيها، ولم يُقِم في البيت مع خلاف شكله من الجُروم، ومتى عَمَّ السَّدُّ لم تُقِم النفْسُ في الجِرم فوق لا.
وحكمُ النفْس عند السَّدِّ - إذ كنا لا نجدها بعد ذلك - كحكم الضياء بعد السدّ، إذ كنا لا نجده بعد ذلك.
فالنفسُ من جنس النسيم، وبفساده تفسُدُ الأبدانُ، وبصلاحه تصلحُ، وكان يعتمدُ على أن الهواء نفْسَه هو النفسُ والنسيم، وأن الحرّ واللدونة وغير ذلك من الخلاف، إنما هو من الفساد العارض.
قيل له: فقد يفسُدُ الماء فتفسُدُ الأجرام من الحيوان بفساده، ويصلُحُ فتَصلح بصلاحه، وتمْنَعُ الماء وهي تنازعُ إليه فلا تَحُلُّ بعد المنازعة إذا تمَّ المنْعُ، وتوصَلُ بجِرْمِ الماء فتقيمُ في مكانها، فلعل النفسَ عند بُطلانِها في جسمها قد انقطعت إلى عُنصر الماء بالطّفرة.
وبعدُ فما عَلَّمَكَ؟ لعلّ الخنْقَ هيَّجَ على النفس أضداداً لها كثيرةً، غمرتها حتى غرقت فيها، وصارت مغمورةً بها.
وكان هذا الرئيس يقول: لولا أن تحت كلِّ شعرةٍ وزَغَبَةٍ مجرى نَفَسٍ لكان المخنوقُ يموتُ مع أوّلِ حالات الخنق، ولكن النفْسَ قد كان لها اتصالٌ بالنسيم من تلك المجاري على قدر مِنَ الأقدار، فكان نَوْطُها جوف الإنسان فالرِّيح والبُخَارُ لمَّا طلَبَ المنفذ فلم يجِدْه، دارَ وكثُفَ وقويَ؛ فامتدَّ له الجلدُ فسدَّ له المجاري، فعند ذلك ينقطع النفَس، ولولا اعتصامها بهذا السبب لقد كانت انقطعت إلى أصلها من القُرْص، مع أول حالات الخنق.
وكان يقول: إن لم تكن النفسُ غُمِرت بما هُيِّج عليها من الآفاتِ، ولم تنقطع للطَّفْر إلى أصلها جاز أن يكون الضياءُ الساقطُ على أرض البيت عند سدِّ الكُوّةِ أن يكون لم ينقطع إلى أصله. ولكن السدَّ هيَّج عليه من الظلام القائم في الهواء ما غمرَه، وقطعه عن أصله، ولا فرْق بين هذَين.
وكان يعظّم شأنَ الهواء، ويُخبر عن إحاطته بالأمور ودخوله فيها، وتفضُّل قوّته عليها.
وكان يزعمُ أن الذي في الزّقّ من الهواء، لو لم يكن له مَجَارٍ ومنافسُ، ومُنِع من كل وجهةٍ لأقلَّ الجَمَلَ الضخم.
وكان يقول: وما ظنّك بالرِّطل من الحديد أو بالزُّبْرَةِ منه، أنه متى أرسل في الماء خَرَقَه، كما يخرق الهواء قال: والحديد يسرعُ إلى الأرض إذا أرسلتَه في الهواء، بطبعه وقوّته، ولطلبه الأرضَ المشاكِلَةَ له، ودفع الهواء له، وتبرِّيه منه، ونفيه له بالمضادة، واطِّرَادِهِ له بالعداوة.
قال: ثمّ تأخذُ تلك الزُّبْرَةَ فتبسُطها بالمطارق، فتنزل نزولاً دون ذلك؛ لأنها كلما اجتمعت فكان الذي يلاقيها من الماء أصغَر جِرْماً، كانت أقوى عليه.
ومتى ما أشخَصْتَ هذه الزُّبْرَةَ المفطوحة المبسوطة المسطوحة، بنتْق الحِيطان في مقدار غِلظ الإصبع، حَمَلَ مثْلَ زِنَتِهِ المرارَ الكثيرةَ وليس إلا لما حصرَتْ تلك الإصبعُ من الهواء، وكلما كان نتوُّ الحِيطان أرفع كان للأثقال أحْمَلَ، وكان الهواء أشدَّ انحصاراً.

قال: ولولا أن ذلك الهواءَ المحصورَ متَّصلٌ بالهواء المحصور في جرم الحديد، وفي جرم الخشبِ والقار، فرفعَ بذلك الاتصال السفينة عُلوّاً - لَمَا كان يبلُغُ من حصر ارتفاع إصبعٍ للهواء ما يحملهُ البَغْل.
ويدلّ على ذلك شأن السكّابة؛ فإنَّك تضعُ رأسَ السكّابة الذي يلي الماء في الماء، ثم تمصه من الطرف الآخر، فلو كان الهواء المحصورُ في تلك الأنبوبةِ إنما هو مجاورٌ لوجهِ الماء، ولم يكن متصلاً بما لابَس جِرْم الماء من الهواء، ثم مصصتَه بأضعافِ ذلك الجذْبِ إلى ما لا يتناهى لَمَا ارتفع إليك من الماء شيءٌ رأساً.
وكان يقول في السَّبيكة التي تُطيل عليها الإيقاد، كيف لا تتلوّى، فما هو إلا أن يُنفخ عليها بالكيرِ حتى تدخلَ النيرانُ في تلك المداخلِ، وتُعاونَها الأجزاءُ التي فيها من الهواء.
وبمثل ذلك قامَ الماءُ في جوف كُوز المِسْقاة المنكس، ولعلمهم بصَنيع الهواء إذا احتُصَر وإذا حُصِر، جعلوا سَمْكَ الصِّينية مِثْلَ طولها، أعني المركبَ الصِّينيّ.
وكان يخبر عن صنيع الهواء بأعاجيب.
وكان يزعم أنّ الرّجلَ إذا ضُربت عنقُه سقط عَلَى وجهه، فإذا انتفخَ انتفخَ غُرمُوله وقامَ وعَظُم، فقلبَه عند ذلك على القفا، فإذا جاءت الضّبُع لتأكله فرَأته على تلك الحال، ورأت غُرمُوله على تلك الهيئة، استَدْخَلَتْه وقضتْ وطرَها من تلك الجهة، ثم أكلَت الرّجلَ، بعد أن يقوم ذلك عندك أكثر من سِفاد الذِّيخ.
والذِّيخ: ذكر الضِّباع العَرقاء. وذكر بعضُ الأعراب أنه عاينَها عند ذلك، وعند سِفاد الضَّبُع لها، فوجد لها عند تلك الحال حركةً وصياحاً، لم يجده عندها في وقت سِفاد الذِّيخ لها.
ولذلك قال أبو إسحاق لإسماعيل بن غَزْوان: أشهد باللّه إنك لَضَبُعٌ، لأن إسماعيل شدّ جاريةً له على سُلّم وَحلَف ليضربَّها مائةَ سَوْطٍ دونَ الإزار - ليلتزِقَ جلدُ السّوط بجلدها، فيكون أوْجَعَ لها - فلما كشفَ عنها رَطْبةً بَضَّةً خَدْلَةً، وقع عليها، فلما قضى حاجته منها وفرَغَ، ضربَها مائةَ سوط، فعند ذلك قال أبو إسحاقَ ما قال.
اختلاف أحوال الغرقى وإذا غرقت المرأةُ رسبتْ، فإذا انتفخت وصارت في بطنها ريح وصارت في معنى الزقّ، طفا بدنُها وارتفع، إلا أنها تكون مُنْكَبَّةً، ويكونُ الرّجل مستلقياً.
وإذا ضُربتْ عُنقُ الرّجلِ وأُلقيَ في الماء لم يَرسُب، وقام في جوف الماء وانتصب، ولم يغْرَق، ولم يَلزم القعر، ولم يظهر، كذلك يكونُ إذا كان مضروبَ العُنق، كان الماء جارياً أو كان ساكناً، حتى إذا خفَّ وصار فيه الهواء، وصار كالزِّقِّ المنفوخ، انقلبَ وظهَرَ بدنه كله، وصار مستلقياً، كان الماءُ جارياً أو كان قائماً، فوُقوفُه وهو مضروب العُنق، شبيهٌ بالذي عليه طباعُ العقربِ التي فيها الحياة، إذا ألقيتَها في ماء غَمْر، لم تطفُ ولم ترسبْ، وبقيتْ في وسط عُمْق الماء، لا يتحرَّك منها شيء.
ما يسبح من الحيوان والعقرب من الحيوان الذي لا يسبَح، فأما الحيّة فإنها تكونُ جيِّدَةَ السباحةِ، إذا كانت من اللواتي تنساب وتزحف، فأمّا أجناس الأفاعي التي تسير على جنبٍ فليس عندها في السباحة طائل.
والسِّباحة المنعوتة، إنما هي للإوزّةِ والبقرةِ والكلبِ، فأمّا السمكةُ فهي الأصل في

السباحة، وهي المثل، وإليها جميع النسبة.
والمضروب العنق يكون في عُمْق الماء قائماً، والعقربُ يكون على خلاف ذلك.

ثمّ رجع بنا القول إلى ذكر النار

قال: وللنار من الخصال المحمودةِ أنَّ الطفل لا يُناغي شيئاً كما يُناغي المِصْباح، وتلك المناغاة نافعةٌ له في تحريك النفْس، وتهييج الهمة، والبعثِ على الخواطر، وفتق اللّهاة، وتسديد اللسان، وفي السرور الذي له في النفس أكرمُ أثر.
قول الأديان في النار قال: وكانت النار معظَّمةً عند بني إسرائيل، حيث جعلها اللّه تعالى تأكل القربان، وتدل على إخلاص المتقرِّب، وفساد نية المُدْغِل، وحيث قال اللّه لهم: لا تُطْفِئُوا النَّارَ مِنْ بُيُوتِي، ولذلك لا تجد الكنائس وَالبيَعَ أبداً إلا وفيها المصابيح تزْهر، ليلاً ونهاراً، حتى نَسَخَ الإسلام ذلك وأمرنا بإطفاء النيران، إلا بقدر الحاجة.
فذَكَرَ ابنُ جُريجٍ قال: أخبرني أبو الزّبير، أنه سمع جابرَ بن عبدِ اللّه يقول: أمرني رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فقال: إذا رَقَدْتَ فأغلق بابك، وخَمِّرْ إناءك، وأوْكِ سِقاءَك، وأطفئ مصباحَك، فإن الشيطان لا يفتح غَلَقاً ولا يكشفُ إناءً، ولا يحلُّ وكاءً، وإن الفأرة الفُويسِقة تحرقُ أهل البيت.
وفِطْر بن خليفة عن أبي الزبير؛ عن جابر بن عبد اللّه، قال: قال لنا رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وسلم: "أغْلِقُوا أبوابَكم، وأوكُوا أسقِيتكم وخَمِّروا آنيتكم، وأطفئوا سُرُجكم، فإن الشيطان لا يفتحُ غَلَقاً، ولا يُحلُّ وكاءً، ولا يكشفُ غِطاءً، وإن الفويسقة تضرِّم البيتَ على أهله، وكُفُّوا مَوَاشِيَكم وأهليكم حينَ تغرُب الشمس، حتى تذهبَ فحمةُ العِشاء".
قال: ويدل على أنه صلى اللّه عليه وسلم لم يأمر بحفظها إلا بقدر الحاجةِ إليها، ويأمر بإطفائها إلا عند الاستغناء عنها - ما حدَّث به عبَادُ بن كثير قال: حدّثني الحسن بنُ ذكْوان عن شَهْر بن حَوشب قال: أمر رسولُ اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أن تحبسوا صبيانَكم عند فحمة العشاء، وأن تُطفئوا المصابيح، وأن توكِئوا الأسقِية، وأن تخمِّروا الآنية، وأن تغلّقوا الأبواب، قال: فقام رجلٌ فقال: يا رسول اللّه إنه لا بدّ لنا من المصابيح، للمرأةِ النُّفساءِ، وللمريض، وللحاجة تكون، قال: فلا بأسَ إذاً، فإن المصباحَ مَطْرَدَةٌ للشيطان، مذبَّةٌ للهوام، مَدَلَّةٌ على اللصوص.
نار الغول قال: ونارٌ أخرى، وهي التي تذكر الأعرابُ أن الغولَ تُوقِدُها بالليل، للعبث والتخليل، وإضلال السابلة.
قال أبو المطراب عُبيد بن أيوبَ العَنبَريّ:

فللّه دَرُّ الغُولِ أيُّ رَفيقةٍ لصاحبِ قفْرٍ خائفٍ مُتَقتِّرُ

أرنّت بلَحْنٍ بعدَ لَحْنٍ وَأوقدَتْ حَوَالَيَّ نِيراناً تبوخُ وتزهرُ

جَمَرات العرب قال: وجَمَراتُ العرب: عبسٌ، وضَبّةُ، ونُمَير، يقال لكلِّ واحد منهم: جمرة.
وقد ذكر أبو حَيَّةَ النُّميري قومَه خاصَّةً فقال:

وهمْ جَمْرَةٌ لا يَصْطَلي الناسُ نارَهم تَوَقَّدُ لا تُطفا لِريْب النّوائبِ

ويروى: الدوابر.
ثم ذكر هذه القبائل فعمّهُمْ بذلك، لأنها كلّها مُضَرِيَّة، فقال:

لنا جَمَراتٌ ليس للناس مثلهم ثلاَثٌ فقدْ جُرِّبْنَ كلّ التَّجاربِ

نُمَيْرٌ وعَبْسٌ تُتَّقى صقَراتُها وضَبّةُ قومٌ بَأْسُهُمْ غَيْرُ كاذِبِ

يعني شدّتها.

إلى كلِّ قومٍ قدْ دَلَفْنَا بجَمْرَةٍ لها عارضٌ جَونٌ قويٌّ المناكبِ

سقوط الجمرة

وعلى ذلك المعنى قيل: قد سقطت الجَمْرة، إذا كان في اسقبال زمان الدَّفاء، ويقولون: قد سقطت الجمرة الأولى، والثانية، والثالثة.

استطراد لغوي

والجمار: الحصى الذي يُرْمَى به، والرَّمْي: التجمير، قال الشاعر:

ولم أرَ كالتجمير منظرَ ناظِرٍ ولا كلَيَالِي الحجِّ أفْتَنّ ذا هَوَى

والتجمير أيضاً: أن يُرْمَى بالجُنْد في ثغر من الثُّغور، ثم لا يُؤْذَنَ لهم في الرجوع.
وقال حُمَيْدٌ الأرقطُ:

فاليومَ لا ظلم ولا تَتْبيرُ ولا لغازٍ إنْ غَزَا تَجميرُ

وقال بعضُ مَنْ جُمِّرَ من الشعراء في بعض الأجناد:

مُعَاوِيَ إمّا أنْ تُجَهِّزَ أهْلَنَا إلينا وإما أن نَؤُوبَ مُعاويا

أجَمَّرْتَنَا تَجميرَ كِسْرى جُنُودَهُ ومَنّيْتَنَا حتى مَلِلنا الأمانيا

وقال الجعديّ:

كالخلايا أنشأنَ من أهل سابا   ط بجنْد مُجَمَّرٍ بـأَوَالِ

ويقال قد أجمر الرجل: إذا أسرع أوْ أعجلَ مركَبه.
وقال لبيد:

وإذا حَرَّكْتُ غَرْزي أجْمَرَتْ   أوْ قِرَابي عَدْوُ جَوْنٍ قدْ أبَلْ

وقال الراجز:

أجْمَرَ إجْمَاراً لَهُ تَطْمِيمُ

التّطميم: الارتفاع والعلوّ، ويقال: أجْمَرَ ثوبَه، إذا دخّنه.
والمِجْمَرة والمِجْمر: الذي يكون فيه الدُّخنة، وهو مأخوذٌ من الجَمْر.
ويقال: قد جَمَّرت المرأةُ شَعْرَها إذا ضَفَرته، والضَّفر يقال له الجمير، قال: ويسمى الهلالُ قبل ليلةِ السِّرار بلَيلةٍ: ابن جَمِير قال أبو حَرْدَبة:

فهل الإله يُشيِّعُني بفوارسٍ   لبَنِي أمَيّة في سِرار جَمير

وأنشدني الأصمعيُّ:

مَضْفُورُها يُطوَى على جَميرها

ويقال: قد تجمَّر القوم، إذا هم اجتمعو حتى يصير لهم بأسٌ، ويكونوا كالنار على أعدائهم فكأنهم جمرةٌ،أو كأنهمْ جَميرٌ من شعر مضفور، أو حَبل مُرصّع القُوَى.
وبه سمِّيت تلك القبائلُ والبطونُ من تميم: الجمار.
والمجمَّر مشدّد الميم: حيثُ يقع حصى الجمار، وقال الهذلي:

لأدْركهمْ شُعْثَ النّوَاصِي كأنهمْ   سوابقُ حُجّاج تُوَافي المجمَّرا

ويقال خُفٌّ مجمَّرَ: إذا كان مجتمعاً شديداً.
ويقال: عدَّ فلانٌ إبله أو خيله أو رجاله جَمَاراً: إذا كان ذلك جُملة واحدة، وقال الأعشى:

فَمَنْ مُبْلَغٌ وائلاً قومَنـا   وأعْني بذلك بَكراً جَمَارَا

قال: ويقال في النار وما يسقط من الزَّند: السِّقط، والسُّقط، والسَّقْط، ويقال: هذا مَسقِط الرمل، أي مُنْقطع الرمل، ويقال: أتانا مَسْقِط النَّجْمِ، إذا جاء حين غاب.
ويقال رَفَعَ الطائرُ سِقْطَيْه، وقال الشاعر:

حتى إذا ما أضاء الصُّبْحُ وانبعثتْ   عنهُ نعامةُ ذِي سِقْطَينِ مُعْتكرِ

أراد ناحيتي الليل.
ويقال: شبّت النار والحرب تَشِبّ شَبّاً، وشببْتها أنا أشبُّها شَبّاً، وهو رجل شَبُوبٌ للحرب. ويقال: حَسَبٌ ثاقب، أي مضيءٌ متوقد، وكذلك يقال في العلم، ويقال: هب لي ثقوباً، وهو ما أثقبْتَ به النار، من عُطْبَةٍ أو من غيرها ويقال: أثقب النار إذا فتح عَيْنَهَا لتشتعل، وهو لثُّقوب، ويقال: ثقبَ الزندُ ثُقوباً، إذا ظهرت ناره، وكذلك النار، والزند الثاقب الذي إذا قدِح ظهرت النار منه.
ويقال: ذَكَتر النارُ تَذْكُو ذُكُوّاً، إذا اشتعلت، ويقال ذكّها إذا أريد اشتعالها، وذُكاءُ اسم للشمس، مضموم الذال المعجمة، وابن ذُكاء: الصبح، ممدود مضموم الذال، وقال العجَّاج:

ابنُ ذُكاءٍ كامنٌ في كَفْرِ

وقال ثعلَبة بن صُعير المازني، وذكر ظليماً ونعامة:

تذكَّرَا ثقلاً رَثِيداً بعدَ ما   لَقَتْ ذُكاءُ يَمِينَهَا في كافِرِ

وأما الذكاء مفتوح الذال ممدود فحدَّه الفُؤَاد، وسُرعةُ اللَّقْن.
وقالوا: أضْرَمْتُ النار حتى اضطرمتْ وألهبْتُها حتى التهبت، وهما واحد، والضِّرام من الحطب: ما ضعُف منه ولان، والجَزْل: ما غلُظ واشتدَّ، فالرِّمْث وما فوقه جَزْل، والعَرْفَج وما دونه ضرام، والقصب وكل شيء ليس له جمرٌ فهو ضِرام، وكل ما له جَمر فهو جَزل.
ويقال: ما فيها نافخ ضَرَمَة، أي ما فيها أحدٌ ينفخ ناراً.
ويقال: صَلَيتُ الشاةَ فأنا أصلْيها صَلْياً أذا شَوَيتها، فهي مَصْلَيَّة، ويقالُ: صَلِيَ الرجُلُ النار يَصْلاها، وأصلاه اللّه حرَّ النار إصلاءً، وتقول: هو صالٍ حرَّ النار، في قومٍ صالين وصُلَّى.
ويقال: هَمَدت النار تَهمُدُ هُمُوداً، وطفِئَتْ تطفَا طُفُوءاً، إذا ماتت، وخَمَدَتْ تَخْمُدُ خُمُوداً، إذا سكن لهبُها وبَقِي جمراً حارّاً.
وشبّت النار تشِبُّ شُبُوباً إذا هاجتْ والتهبت، وشبّ الفرسُ بيديه فهو يشِبّ شِباباً، وشبَّ الصبيُّ يشِبُّ شَباباً، ويقال: ليس لك عَضَّاضٌ ولا شَبّاب.
ويقال: عَشَا إلى النار فهو يعشو إليها عَشْواً وعُشُوا، وذلك يكون من أول الليل، يرى ناراً فيعشو إليها يستضيءُ بها، قال الحطيئة:

متى تأتِهِ تَعْشُو إلى ضَوْءِ نارهِ   تجِدْ خيرَ نارٍ عندها خيرُ مُوقِدِ

وقال الأعشى:

وباتَ على النار الندى والمحلق

ويقال: عَشِيَ الرجل يَعْشَى عَشاوةً، وهو رجلٌ أعشى، وهو الذي لا يبصر بالليل، وعشِيِ الرجلُ علَى صاحبه يعشَى عَشاً شديداً.
نار الحرب ويذكرون ناراً أخرى، وهي على طريق المثل والاستعارة، لا على طريق الحقيقة، كقولهم في نار الحرب، قال ابن مَيَّادة:

يداه :يدٌ تَنْهَلُّ بالـخير والـنّدا   وأخْرَى شديدٌ بالأعادي ضَرِيُرها

وناراهْ :نـارٌ نـارُ كَلِّ مُـدَقَّعٍ   وأخرى يُصيبُ المجرمينَ سَعيرُها

وقال ابن كُناسَة:

خَلْفَهَا عارضٌ يَمُدُّ عَلَى الآ   فاق سِتْرَيْين مِنْ حديدٍ ونار

نارُ حربٍ يشُبُّها الحَدُّ والج   دّ وتُغْشِي نوافذ الأبصـار

وقال الرَّاعي:

وَغارَتُنَا أوْدَتْم ببَهراءَ إنـها   تصيبُ الصّريحَ مَرّةً والمواليا

وكانت لنا ناران: نارٌ بجاسِمٍ   ونارٌ بدَمْخَ يُحرِقانِ الأعـاديا

جاسم: بالشام، ودمْخ: جَبَلٌ بالعالية.
نار القِرى ونار أخرى، وهي مذكورةٌ عَلَى الحقيقة لا على المثل، وهي مِن أعظم مفاخر العرب، وهي النار التي ترْفع للسَّفر، ولمن يلتمسُ القِرَى، فكلما كان موضِعها أرفع كان أفخر.
وقال أميَّة بن أبي الصّلْت:

لا الغياباتُ منْتَـوَاكَ ولـكنْ   في ذُرَى مُشْرفِ القصور ثَوَاكَا

وقال الطائي:

وبوأت بيتكَ في مَعْلَمٍ رفيع المباءةِ والمسرح

كيفتَ العُفاةَ طلابَ القرى ونبح الكلابِ لمستنبح

ترى دعسَ آثارِ تلكَ المطـ يِّ أخاديدَ كاللقمِ الأفيح

ولو كنتَ في نفقٍ رائغ لكنتَ على الشركِ الأوضح

وأنشدني أبو الزِّبرقان:

له نارٌ تُشَبُّ بكلِّ ريع إذا الظلماءُ جَلَّلَتِ البقاعَا

وما إن كان أكْثرَهمْ سَوَاماً ولكنْ كان أرْحَبَهُمْ ذِرَاعا

ويروى: ولَمْ يَكُ أكْثرَ الفِتْيَانِ مالاً.

وفي نار القِرَى يقول الآخر:

عَلَى مِثْلَ هَمَّامٍ ولَمْ أرَ مثلَهُ تُبَكِّي البَوَاكي أو لبِشْرِ بن عامر

غلامان كان استَوْرَدَا كلَّ مَوْرِدٍ مِنَ المجدِ ثمَّ استوسعا في المصادر

كأنَّ سَنَا ناريهما كلَّ شَتْوَةٍ سَنَا الفجرِ يبدَو للعُيُونِ النّواظِرِ

وفي ذلك يقول عوفُ بن الأحوص:

ومستنبحٍ يخشي القواءَ ودونهُ من الليلِ بابَا ظلمَةَ وستورُها

رفعتُ لهُ ناري فلما اهتدى بها زجرتُ كلابي أن يهرَّ عقورُها

فلا تسأليني واسألي عن خليقتي إذا رَدَّ عَافي القدرِ منْ يستعيرُها

ترى أنْ قدري لاتزالُ كأنها لذي الفروة المقرور أمُّ يزورُها

مبرزة لا يجعلُ الستر دونها إذا أخمد النيرانُ لاح بشيرها

إذا الشولُ راحتْ ثم لَمْ تفدِ لحمها بألبانها ذاقَ السنانَ عقيرها

خبر وشعر في الماء أما إن ذكرنا جُملةً من القول في الماء من طريق الكلام وما يدُخل في الطب، فستذكُر من ذلك جملة في باب آخر: قالوا: مدَّ الشعبي يدهُ وهو على مائدة قتيبة بن مسلم يلتمس الشرابَ، فلم يَدْرِ صاحبُ الشرابِ اللبن، أم العسلَ، أم بعضَ الأشربة؟ فقال له: أيِ الأشربةِ أحبُّ إليك؟ قال: أعزُّها مفقوداً، وأهونُها موجوداً قال قُتيبة: اسقِهِ ماءً.
وكان أبو العتاهية في جماعة من الشعراء عند بعض الملوك، إذ شرب رجلٌ منهم ماء، ثم قال: بَرَدَ الماءُ وطابَ فقال أبو العتاهية: اجعله شِعْراً، ثم قال: مَنْ يجيز هذا البيت؟ فأطرق القومُ مفكرين، فقال أبو العتاهية: سبحان اللّه وما هذا الإطراق؟ ثم قال:

بَرَدَ الماءُ وطابا حَبَّذا الماءُ شرابا

وقال اللّه عز وجل: "أنهَارٌ منْ مَاءٍ غيرِ آسِنٍ" ثم لم يذكرْهُ بأكثر من السلامةِ من التغيُّر، إذْ كان الماء متى كان خالصاً سالماً لم يحتجْ إلى أن يُشرِبَ بشيء غير ماَ في خلقته من الصفَّاء والعُذوبة، والبَرْدِ والطِّيب، والحُسن، والسَّلَس في الحَلْق، وقد قال عديٌّ بن زَيد:

لوْ بغَيْرِ الماء حَلْقِي شَرِقٌ كنتُ كالغَصَّانِ بالماء اعتصاري

قال أبو المطراب عبيد بن أيُّوب العنبريُّ:

وأوَّلُ خُبْثِ الماء خُبْثُ تُرَابِه وأولُ خُبْثِ النَّجْلِ خُبْثُ الحَلائِلِ

وأوصَى رجلٌ من العرب ابنته ليلةَ زفافها بوصايا، فكان مما قال لها: احذري مَوَاقِعَ أنفه، واغتسلي بالماء القرَاح، حتى كأنك شَنٌّ ممطور.
وأوصتِ امرأةٌ ابنتَّها بوصايا، فكان منها: وليكنْ أطيبَ طِيبك الماءُ.
وزعموا أنها القائلةُ لبنتها:

بُنَيَّتِي إن نامَ نامِي قبْلَهُ وأكْرمي تابعهُ وأهلَهُ

ولا تكوني في الخِصامِ مثْلَهُ فتَخْصِمِيه فتكوني بَعْلَهُ

ومن الأمثال:

فأصبحتُ مما كان بَيْنِي وبينَها سِوى ذِكْرِها كالقابض الماءَ باليدِ

وأخذ المسيحُ عليه السلام في يده اليُمْنى ماءً، وفي يده اليسرى خُبزاً فقال: هذا أبي، وهذا أمِّي، فجعل الماء أباً، لأن الماءَ من الأرض يقوم مقام النطفةِ من

المرأة.
وإذا طُبخ الماء ثم بَرَدَ لم تَلْقحْ عليه الأشجار، وكذلك قُضبان الشجر، والحبوبف والبذور لو طُبخت طبخة ثمَّ بُذِرَت لم تَعْلق.
وقالوا في النظر إلى الماء الدائم الجريان ما قالوا.
وجاء في الأثر: من كان به برصٌ قديمٌ فليأخذْ دِرْهماً حلالاً، فلْيَشْتَرِ به عَسلاً، ثم يَشربَهُ بماء سماء، فإنه يبرأ بإذن اللّه.
والنزيف هو الماء عند العرب.
وما ظنُّكم بشرابٍ خَبُث ومَلحَ فصار مِلْحاً زُعاقاً، وبحراً أُجَاجاً، ولّد العنبر الوَرْدَ، وأنسل الدّرّ النفيس، فهل سِمعْتَ بِنَجْلٍ أكرمَ ممن نجَله، ومن نِتاجِ أشرفَ ممن نَسَله.
وما أحسن ما قال أبو عبَّاد كاتبُ ابن أبي خالد حيثُ يقول: ما جلسَ بين يديّ رجلٌ قط، إلا تمثَّل لي أنني سأجلِسُ بين يديه، وما سَرَّني دهرٌ قطُّ، إلا شغلني عنه تذكرُ ما يليق بالدهور من الغِيَر. قال اللّه عزَّ وجلّ: "قِيلَ لَها ادْخُلي الصَّرْحَ فلمَّا رَأتْهُ حَسِبِتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقيْهَا"، لأن الزجاج أكثرُ ما يُمدحُ به أن يقال: كأنه الماء في الفيافي.
وقال اللّه عز وجل: "هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ".
وقال القُطاميّ:

وهُنَّ يَنْبذْنَ مِنْ قولٍ يُصِبْنَ بـه مواقِعَ الماء منْ ذِي الغُلَّةِ الصَّادي

وقال اللّه عز وجل: "وَاللّهُ خَلَقَ كُلَّ دابَّةٍ مِنْ مَاء".
فيقال: إنه ليس شيء إلا وفيه ماء، أو قدْ أصابه ماء، أوخُلق من ماء، والنُّطفة ماء، والماء يسمى نُطفة، وقال اللّه تعالى: "وَكَانَ عَرْشُهُ على المَاء"، قال ابن عباس: موج مكفوف.
وقال عز وجل: "وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّماء مَاءً مُبَاركاً".
التسمية بماء السماء وحين اجتهدوا في تسميةِ امرأةٍ بالجمال، والبركة، والحُسن، والصَّفاء، والبَياض قالوا: ماء السماء، وقالوا: المنذر بن ماء السماء.

استطراد لغوي

ويقال: صِبْغٌ له ماء، ولونٌ له ماء، وفلان ليس في وجهه ماء، ورَدَّني فلانٌ ووجهي بمائه، قال الشاعر:

ماءُ الحياء يجولُ في وجَناتِهِ

شعر في صفة الماء وقالت أمُّ فَروة في صفة الماء:

وما ماءُ مزنٍ أيُّ ماء تـقولـه   تحدر من غر طِوالِ الـذوائبِ

بمنعرج أو بطنِ وادٍ تـحـدبـت   عليه رياحُ المزن من كلِّ جانب

نفى نسمُ لاريح القذا عن متونـه فما إنْ به عيب تراه لـشـارب

بأطيبَ ممنْ يقصرُ الطرفَ دونه تقى الله واستحياء بعض العواقب

ما يحبه الحيوان من الماء والإبل لا تحبُّ من الماء إلا الغليظ، والحوافر لا تحبُّ العُذوبة وتكره الماء الصافي، حتى ربَّما ضَرَب الفرسُ بيده الشريعة ليثوِّر الماء ثمّ يشربَه.
والبقر تعافُ الماءَ الكدِرَ، ولا تشرب إلا الصافي.
والظباء تَكرَع في ماء البحرِ الأُجاج، وتخضِمُ الحنْظل.

استطراد لغوي

والأبيضان: الماء، واللبن، والأسودان: الماء، والتمر.
وسواد العِراق: ماؤه الكثير، والماء إن كان لـه عُمْق اشتدّ سوادُه في العين.
شعر في صفة الماء وقال العُكليّ في صفة الماء:

عاد من ذكر سلـمـى عوده   والليل داجٍ مطلخمٌّ أسـوده

فبتُّ ليلى ساهراً مـا أرقُّده   حتى إذا الليل تولـى كـبـده

وانكبّ للغورِ انكبابا فـرقـدهْ   وحثَّه حادٍ كـمـيشٌ يطـرده

أغرُّ أجلى مغربٌ مـجـردهُ   أصبح بالقلبِ جوى ما يبـردهُ

ماء غمامٍ في الرصاف مقلدهْ   زل به عن رأس نيقٍ صـدده

عن ظهر صفوانٍ مزل مجسده   حتى إذا السيل تنـاهـى مـدده

وشكد المـاء الـذي يشـكـده   بين نعامى ودبورٍ تـلـهـدُه

كلُّ نسيمٍ من صباً تستـورده   كأنمـا يشـهـده أو يفـقـده

فهو شِفاءُ الصاد مما يَعْمِدُه وقال آخَر في الماء:

يا كأس ما ثغبٌ برأس شظيةٍ   نزلٍ أصابَ عراصها شؤبوب

ضحيانُ شاهقةٍ يرف بشامُـه   نديانَ، يقصر دونهُ اليعقـوب

بألذَّ منكِ مـذاقةً لـمـحـلاٍ   عشانَ داغش ثم عاد يلـوبُ

وقال جرير:

لو شئتِ قد نَقعَ الفؤَادُ بـشَـرْبَةٍ   تَدَعُ الحوائمَ لا يَجُدْنَ غـلـيلا

بالعَذْب من رصَف القِلاتِ مَقِيلُه   قضٌّ الأباطح لا يزالُ ظـلـيلا

فضل الماء قال: وفي الماء أنَّ أطيب شراب عُمِل وَرُكِّب، مثل السَّكَنْجَبين، والجُلاّب، والبَنَفْسَج وغير ذلك مما يُشْرَبُ من الأشربة، فإنْ لذّ وطاب، فإنّ تمام لذَّته إن يَجْرَعَ شاربُه بعد شُربه له جُرَعاً من الماء، يغْسل بها فمه، ويطيِّب بها نفسه، وهو في هذا الموضع كالخُلّة والحَمض جميعاً وهو لتسويغ الطعام في المرىء، والمركَبُ والمِعْبر، والمتوصَّل به إلى الأعضاء.
فالماء يُشربُ صِرْفاً وممزوجاً، والأشربة لا تُشرَبُ صِرفاً، ولا يُنْتَفَعُ بها إلا بممازَجَة الماء، وهو بعدُ طهورُ الأبدانِ، وغسولُ الأدران. وقالوا: هو كالماء الذي يطهر كلّ شيء، ولا ينجِّسه شيء.
وقال النبي صلى اللّه عليه وسلم في بئر رُومة: "الماءُ لا ينجِّسُه شيءٌ" .
ومنه ما يكون منه المِلْح، والبَرَد، والثَّلج، فيجتمع الحُسن في العين، والكرم في البياض والصفاء، وحسنُ الموقع في النفس.
وبالماء يكون القسَم، كقول الشاعر:

غضبى ولا واللّهِ يا أهْلَهَـا   لا أشْرَبُ الباردَ أو تَرْضَى

ويقولون: لو عِلمَ فلانٌ أنَّ شُرْبَ الباردِ يَضَعُ من مروءَتِهِ لما ذاقه، وسمَّى اللّه عز وجل أصلَ الماء غَيثاً بعد أن قال: "وكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماء".
ومن الماء ماء زمزم، وهو لِمَا شَرِبَ له، ومنه ما يكونُ دواءً وشفاءً بنفسه، كالماء للحمى.

علّة ذكر النار في كتاب الحيوان

قد ذكرنا جملة من القول في النار، وإن كان ذلك لا يدخل في باب القول في أصناف الحيوان، فقد يرجع إليها من وجوه كريمة نافعةِ الذكر، باعثةٍ على الفكر، وقد يعرضُ من القوْلِ ما عسى أن يكون أنفعَ لقارئ هذا الكتاب من باب القول في الفيل، والزَّندبيل، والقرد والخنزير، وفي الدُّب والذئب، والضَّبّ والضَّبع، وفي السِّمْع والعسْبار.
وعَلَى أن الحكمة ربما كانت في الذُّبابة مع لطافة شخصها، ونذالةِ قدْرها،

وخساسة حالها أظهرَ منها في الفرس الرَّائع، وإن كان الفرسُ أنفع في باب الجهاد، وفي الجاموس مع عَظم شخصه، وفي دودة القزّ، وفي العنكبوت أظهرَ منها في الليثِ الهصور، والعُقاب الشّغْوَاء.
وربما كان ذكرُ العظيم الجُثّة الوثيق البَدَن، الذي يجمعُ حِدَّةَ الناب وصولةَ الخلق أكثرَ فائدةً، وأظهرَ حِكمة من الصَّغيرِ الحقير، ومن القليل القمِي، كالبعير والصُّؤابة، والجاموس والثعلب والقملة.
وشأن الأرَضةِ أعجَبُ من شأن البَبْر مع مسالمة الأسد له، ومحاربته للنمر.
وشأنُ الكُركيِّ أعجبُ من شأن العَندليب، فإن الكركيِّ من أعظم الطّير، والعندليبَ أصغر من ابن تَمْرة.
ولذلك ذكر يونس بعضَ لاطةِ الرُّواة فقال: يضربُ ما بين الكُركيِّ إلى العندليب، يقول: لا يدع رجلاً ولا صبيَّاًإلاَّ عَفَجَه.
ويشبه ذلك هجاءُ خلفٍ الأحمر أبا عبيدة، حيثُ يقول:

ويضربُ الكُركى إلى القُنبَرِ   لا عانساً يبقى ولا مُحْتَلِمْ

والعانس من الرجال مثله من النساء.
فلسنا نُطنبُ في ذكر العطيم الجثة لِعظم جُثّته، ولا نَرْغَبُ عن ذكر الصّغير الجثة، لصغر جُثَّتة، وإنما نلتمس ما كان أكثر أعجوبة، وأبلغَ في الحكمة، وأدلّ عند العامة على حكمة الرّبّ، وعلى إنعام هذا السّيّد.
ورُبّ شيء الأعجوبةُ فيه إنما هي في صورته، وصَنعته، وتركيب أعضائِه، وتأليف أجزائه، كالطاووس في تعاريج ريشه، وتهاويل ألوانه، وكالزَّرافة في عجيب تركيبها، ومواضع أعضائها، والقولُ فيهما شبيهٌ بالقول في التُّدرُج والنَّعامة.
وقد يكون الحيوانُ عجيبَ صنعةِ البَدن، ثم لا يُذكرُ بعدَ حُسن الخَلْق بخُلُق كريم، ولا حِسٍ ثاقبٍ، ولا معرفة عجيبة، ولا صنعة لطيفة، ومنه ما يكون كالببغاء، والنخْلة، والحمامة، والثعلب، والدُّرّة، ولا تكون الأعجوبةُ في تصويره، وتركيب أعضائه، وتنضيد ألوانِ ريشه في وزن تلك الأشياء التي ذكرناها، أو يكون العَجَبُ فيما أعطى في حنجرته من الأغاني العجيبة، والأصوات الشجيَّة المطربة، والمخارج الحسنة مثلَ العجب فيما أعْطِيَ من الأخلاق الكريمة، أو في صنعة الكفِّ اللطيفة، والهداية الغريبة، أو المِرْفق النافع، أو المضرَّة التي تدعو إلى شدَّة الاحتراس، ودقة الاحتيال، فيقدَّم في الذكر لذلك.
وأيُّ شيء أعجبُ من العَقْعَق وصِدْق حِسَّه، وشدَّة حَذَرِه، وحُسْنِ معرفته، ثم ليس في الأرض طائر أشدُّ تضْييعاً لبيضه وفراخه منه، والحُبارَى مع أنها أحمقُ الطير، تحوطُ بيَضها أو فراخَها أشدَّ الحياطة، وبأغْمَضِ معرفة، حتى قال عثمانُ بن عفان، رضي اللّه عنه: كلُّ شيء يحب والدَه حتى الحبارى، يَضْرِبُ بها المثلَ في الموق.
العقعق ثم العقعَقُ مع حِذقه بالاستلاب، وبسرعة الخطف، لا يستعمل ذلك إلا فيما لا ينتفع به، فكَمْ من عِقْدٍ ثمين خَطير، ومن قُرْطٍ شريف نفيس، قد اختطف من بين

أيدي قومٍ، فإمّا رَمَى به بعد تَحَلُّقه في الهواء، وإما أحرزه ولم يلتفت إليه أبداً.
وقالوا: هو كالماء الذي يطهر كلّ شيء، ولا ينجِّسه شيء.
وقال النبي صلى اللّه عليه وسلم في بئر رُومة: "الماءُ لا ينجِّسُه شيءٌ" .
ومنه ما يكون منه المِلْح، والبَرَد، والثَّلج، فيجتمع الحُسن في العين، والكرم في البياض والصفاء، وحسنُ الموقع في النفس.
وبالماء يكون القسَم، كقول الشاعر:

غضبى ولا واللّهِ يا أهْلَهَا   لا أشْرَبُ البارِدَ أو تَرْضَى

ويقولون: لو عِلمَ فلانٌ أنَّ شُرْبَ البارِدِ يَضَعُ من مروءَتِهِ لما ذاقه، وسمَّى اللّه عز وجل أصلَ الماء غَيثاً بعد أن قال: "وكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماء".
ومن الماء ماء زمزم، وهو لِمَا شَرِبَ له، ومنه ما يكونُ دواءً وشفاءً بنفسه، كالماء للحمى.

علَّة ذكر النار في كتاب الحيوان

قد ذكرنا جملة من القول في النار، وإن كان ذلك لا يدخل في باب القول في أصناف الحيوان، فقد يرجع إليها من وجوه كريمة نافعةِ الذكر، باعثةٍ على الفكر، وقد يعرضُ من القوْلِ ما عسى أن يكون أنفعَ لقارئ هذا الكتاب من باب القول في الفيل، والزَّندبيل، والقرد والخنزير، وفي الدُّب والذئب، والضَّبّ والضَّبع، وفي السِّمْع والعسْبار.
وعَلَى أن الحكمةَ ربما كانت في الذُّبابة مع لطافة شخصها، ونذالةِ قدْرها، وخساسة حالها أظهرَ منها في الفرس الرَّائع، وإن كان الفرسُ أنفع في باب الجهاد، وفي الجاموس مع عَظَم شخصه، وفي دودة القزّ، وفي العنكبوت أظهرَ منها في الليثِ الهصور، والعُقابِ الشّغْوَاء.
وربما كان ذكرُ العظيم الجُثّة الوثيق البَدَن، الذي يجمعُ حِدَّةَ الناب وصولة الخلق أكثرَ فائدةً، وأظهرَ حِكمة من الصَّغيرِ الحقير، ومن القليل القمِي، كالبعير والصُّؤابة، والجاموس والثعلب والقملة.
وشأن الأرَضةِ أعجَبُ من شأن البَبْرِ مع مسالمة الأسد له، ومحاربته للنمر.
وشأنُ الكُركيِّ أعجبُ من شأن العَندليب، فإن الكركيَّ من أعظم الطّير، والعندليبَ أصغر من ابن تَمْرة.
ولذلك ذكر يونس بعضَ لاطةِ الرُّواة فقال: يضربُ ما بين الكُركيِّ إلى العندليب، يقول: لا يدع رجلاً ولا صبيَّاًإلاَّ عَفَجَه.
ويشبه ذلك هجاءُ خلفٍ الأحمر أبا عبيدة، حيثُ يقول:

ويضربُ الكُرْكى إلى القُنبَرِ   لا عانساً يبقى ولا مُحْتَلِـمْ

والعانس من الرجال مثله من النساء.
فلسنا نُطنبُ في ذكر العظيم الجثة لِعظم جُثَته، ولا نَرْغَبُ عن ذكر الصّغير الجثة، لصغر جُثَّتة، وإنما نلتمس ما كان أكثر أعجوبة، وأبلغَ في الحكمة، وأدلّ عند العامة على حكمة الرّبّ، وعلى إنعام هذا السّيّد.
ورُبّ شيء الأعجوبةُ فيه إنما هي في صورته، وصَنعته، وتركيب أعضائِه، وتأليف أجزائه، كالطاووس في تعاريج ريشه، وتهاويل ألوانه، وكالزَّرافة في عجيب تركيبها، ومواضع أعضائها، والقولُ فيهما شبيهٌ بالقول في التُّدرُج والنَّعامة.
وقد يكون الحيوانُ عجيبَ صنعةَ البَدن، ثم لا يُذكرُ بعدَ حُسن الخَلْق بخُلُق كريم، ولا حِسٍ ثاقبٍ، ولا معرفة عجيبة، ولا صنعة لطيفة، ومنه ما يكون كالببغاء، والنخْلة، والحمامة، والثعلب، والدُّرّة، ولا تكون الأعجوبةُ في تصويره، وتركيب أعضائه، وتنضيد ألوانِ ريشه في وزن تلك الأشياء التي ذكرناها، أو يكون العَجَبُ فيما أعطى في حنجرته من الأغاني العجيبة، والأصوات الشجيَّة المطربة، والمخارج الحسنة مثلَ العجب فيما أعْطِيَ من الأخلاق الكريمة، أو في صنعة الكفِّ اللطيفة، والهداية الغريبة، أو المِرْفق النافع، أو المضرَّة التي تدعو إلى شدَّة الاحتراس، ودقة الاحتيال، فيقدَّم في الذكر لذلك.
وأيُّ شيء أعجبُ من العَقْعَق وصِدْق حِسَّه، وشدَّة حَذَرِه، وحُسْنِ معرفته، ثم ليس في الأرض طائر أشدُّ تضْييعاً لبيضه وفراخه منه، والحُبارَى مع أنها أحمقُ الطير، تحوطُ بيَضها أو فراخَها أشدَّ الحياطة، وبأغْمَضِ معرفة، حتى قال عثمانُ بن عفان، رضي اللّه عنه: كلُّ شيء يحب والدَه حتى الحبارى، يَضْرِبُ بها المثلَ في الموق.
العقعق ثم العقعَقُ مع حِذقه بالاستلاب، وبسرعة الخطف، لا يستعمل ذلك إلا فيما لا ينتفع به، فكَمْ من عِقْدٍ ثمين خَطير، ومن قُرْطٍ شريف نفيس، قد اختطف من بين أيدي قومٍ، فإمّا رَمَى به بعد تَحَلُّقه في الهواء، وإما أحرزه ولم يلتفت إليه أبداً.
وزعم الأصمعيُّ أنّ عَقعقاً مرةًأستلَبَ سِخاباً كريماً لقومٍ، فأخذَ أهلُ السِّخَاب أعرابيَّة كانت عندهم، فبينما هي تُضْرَبُ، وتُسْحَبُ وتسَبُّ إذ مرَّ العَقعَقُ والسِّخابُ في منقاره، فصاحوا به فرمى به، فقالت الأعرابية وتذكرَّتِ السلامة بعد أن كانت قد ابتُليت ببليَّة أخرى فقالت:

وَيومُ السِّخَاب منْ تَعَاجيبِ رَبِّنَا كما أنه من بَلْدَةِ السَّوْء نجَّاني

تَعني الذين كانت نزلت بهم من أهل الحاضِرة.
كلام في الاستطراد ولا بأس بذكر ما يعرض، ما لم يكن من الأبواب الطّوال، التي ليس فيها إلا المقاييس المجرَّدة، والكلامية المحضة، فإن ذلك مما لا يخفُّ سماعه ولا تَهَشُّ النفوسُ لقراءته، وقد يحتمل ذلك صاحبُ الصناعة، وملتمس الثواب والحِسْبة، إذا كان حليفَ فِكَرٍ، أليفَ عِبَرٍ، فمتى وجدنا من ذلك باباً يحتمل أن يوشَّح بالأشعار الظريفة البليغة، والأخبار الطريفة العجيبة، تكلّفنا ذلك، ورأيناه أجمعَ لما ينتفع به القارئ.

ولذلك استجزْنا أن نقولَ في باب النار ما قلنا.
وأنا كاتبٌ لك بعد هذا؛ إذْ كنتُ قد أملَلْتُكَ بالتطويل، وحملتُك على أصعَب المراكب، وأوْعَر الطُّرق، إذ قد ذكرنا فيه جملةً صالحةً من كلام المتكلمين، ولا أرى أن أزيد في سآمتك، وأُحَمِّلَكَ استفراغ طاقتك، بأن أبتدئ القول في الإبل، والبقر، والغنم، والأُسْدِ، والذئاب، والحمير، والظباء، وأشباه ذلك، مما أنا كاتِبُهُ لك.
ولكني أبدأ بصغار الأبواب وقصارها، ومُحَقَّراتها، ومِلاحها، لئلا تخرج من الباب الأول، إلا وأنت نشيط للباب الثاني، وكذلك الثالث والرابع إلى آخر ما أنا كاتبه لك، إن شاء اللّه.

سَرد منهج سائر الكتاب

ونبدأ بذكر ما في العصفور، ثم نأخذ في ذكر ما في الفأر والعقرب، والذي بينهما من العَداوة، مع سائر خصالهما.
ثم القولُ في العقرب والخنفساء، وفي الصداقة بينهما، مع سائر خصالهما.
ثم القول في السِّنَّوْر، وبعضُ القول في العقرب.
ثم القولُ في البعوض والبراغيث، ثم القول في القمل والصِّئْبان، ثم القول في الورَل والضّبّ، ثم القول في اليربوع والقنفذ، ثم القول في النسور والرّخم.
ثم القول في العُقاب، وفي الأرنب، ثم القول في القِرْدان والضفادع، ثم القول في الحُبارى وما أشبه ذلك، وإن كنا قد استعملنا في هذا الكتاب جمَلاً من أخبار ما سمينا بذلك.
وسنذكر قبل ذكرنا لهذا الباب أبواباً من الشعر طريفة، تصلُحُ للمذاكرة، وتبعث على النشاط معه وتُسْتَخَفّ معه قراءة ما طال من الكتبِ الطوال.
ولولا سوءُ ظني بمن يُظْهِرُ التماسِ العلم في هذا الزمان، ويذكر اصطناعَ الكتبِ في هذا الدهر - لَمَا احتجْتُ في مداراتهم واستمالتهم، وترقيق نفوسهم وتشجيع قلوبهم، مع كثرةِ فوائد هذا الكتابِ - إلى هذه الرياضة الطويلة، وإلى كثرة هذا الاعتذار، حتى كأنَّ الذي أُفيدُه إياهم أستفيدُهُ منهم، وحتى كأنَّ رغبتي في صَلاحِهم، رغبةُ منَ يرْغَبُ في دنياهم، ويتضرَّعُ إلى ما حوته أيديهم.
هذا، ولم أذكر لك من الأبواب الطوال شيئاً، ولوا قد صرت إلى ذكرِ فرق ما بين الجن والإنس، وفرق ما بين الملائكة والأنبياء، وفرق ما بين الأنثى والذكر، وفرق ما بينهما وبين ما ليس بأنثى ولا ذكر، حتى يمتدَّ بنا القولُ في فضيلة الإنسان على جميع أصنافِ الحيوان، وفي ذكر الأمم والأعصار، وفي ذكر القسم والأعمار، وفي ذكر مقادير العقول والعلوم والصناعات، ثم القول في طباع الإنسان منذُ كان نطفة إلى أن يُفْنِيهُ الهرَم، وكيف حقيقة ذلك الردّ إلى أرذل العمر، فإن مَلِلْتَ الكتابَ واستَثْقَلْتَ القراءة، فأنت حينئذ أعذرُ، ولحظّ نفسك أبْخَسُ، وما عندي لك من الحيلة إلا أن أصوّره لك في أحسن صورة، وأقلّبَك منه في الفنون المختلفة، فأجعلَكَ لا تخرجُ من الاحتجاج بالقرآن الحكيم إلا إلى الحديث المأثور، ولا تخرجُ من الحديث إلا إلى الشِّعر الصحيح، ولا تخرجُ من الشّعر الصحيح الظريفِ إلا إلى المثلِ السائر الواقع، ولاتخرج من المثل السائر الواقع إلا إلى

القول في طُرف الفلسفة، والغرائب التي صحَّحَتْها التجربة، وأبرزها الامتحان، وكشَف قِناعَها البُرهانُ، والأعاجيبِ التي للنفوسِ بها كلَفٌ شديدٌ وللعقول الصحيحة إليها النزاع القويّ. ولذلك كتبتُه لك، وسُقتُه إليك، واحتسبتُ الأجرَ فيك. فانظر فيه نظر المنْصِفِ من الأكفاء والعُلَمَاءَ، أو نَظر المسترشِدِ من المتعلّمين والأتباع، فإن وجَدت الكتابَ الذي كتبتُه لك يخالفُ ما وصفتُ فانْقُصْني من نشاطك له على قدْر ما نَقصْتُكَ مما ينشطك لقراءته، وإن أنت وجدتني - إذا صحَّ عقلُك وإنصافك - قد وفَّيتُكَ ما ضمنت لك فوجدتَ نشاطك بعدَ ذلك مدخولاً، وحَدَّكَ مفلُولاً فاعلم أنا لم نُؤْتَ إلا من فُسولتِك، و من فسادِ طبعك، ومن إيثارك لما هو أضرُّ بك.

مديح النصارى واليهود والمجوس والأنذال وصغار الناس

من ذلك ما هو مديحُ رغبة، ومنه ما هو إحماد.
أنشدنا أبو صالح مسعود بن قنْد الفزاريّ، في ناسٍ خالَطهم من اليهود:

وجدنا في اليهودِ رجالَ صدقٍ على ما كانَ من دينٍ يريبُ
لعمركَ إنني وابنيْ عريضٍ لمثلُ الماء خالطهُ الحليبُ
خيلان اكتسبتُهُمَات وإنـي لخِلَّةِ ماجد أبداً كسوبُ

وقال أبو الطَّمَحَان الأسَديّ، وكان نديماً لناسٍ من بني الحَدَّاء وكانوا نَصَارى، فأحمدَ نِدامهم فقال:

كأنْ لم يكنْ قصر مقاتلٍ وزورةً ظلٌّ ناعمٌ وصديق
ولم أرد البحطاء أمزجُ ماءها بخمرٍ من البر ُ! وقتينٍ عتيقُ
معي كلُّ فضفاض لاقميص كأنه إذا ما جرى فيه المدامُ فنيق
هو الصلتِ والحداء كلُّ سَمَيْدعٍ له في العروق الصالحات عروقُ
وإني وإنْ كانو نصارى أحِبُّهم ويرتاحُ قلبي نحوهم ويتوقُ

وقال ابن عَبْدَلٍ، أو غيرُه، في مجوسيٍّ ساق عنه صَدَاقاً فقال:

شهدتُ عليك بطيب المشا ش وأنكَ بحرٌ جوادٌ خضمٌّ
وأنكَ سيدُ أهلِ الجحيم إذا ما ترديتَ فيمن ظلمْ

نظيراً لهامانَ في قعرهَا وفرعونَ والمكتنى بالحكم

كفاني المجدوسيُّ مَهْرَ الربا بِ، فدى للمجوسيِّ خالي وعَمْ

فقال له المجوسيُّ: جعلْتَني في النار؟ أمَا ترَضى أن تكون مع مَن سّميتُ؟قال: بَلى، قال: فمن تَعني بالحكَم؟ قال: أبا جهل بن هشام.
وأنشدني أبو الرُّدَيني العُكْليّ، لبعض العُكْلِيِّين، وكان قينٌ لهم أحدّ جلماً له، فقال يمدحه:

يا سودُ يا أكرمَ قينٍ في مضرْ

لك المساعي كلها والمفتخرْ

على قُيون الناس، و الوجهُ الأغرّ

كانَ أبوكَ رجلاً لا يُقْتَسَر

ثبتاً إذا ما هو بالكير ازبأرّ

زادك نفخاً تلتظي منهُ سقرْ

حتى يطيرَ حولهُ منها شَرَرْ

قد عطف الكتيفَ حتى قد مهَرْ

بالشعب إن شاء وإن شاء سَمَرْ

ما زالَ مُذّ كانَ غلاما يشتبر

له على العير إكافٌ وثغرْ

والكلبتانِ والعلاةُ والوتر

فانظر ثوَابي، والثَّوَابُ ينتظرْ

في جَلَمَيَّ والأحاديثُ عِبَر

من أراد أن يمدح فهجا

قال سعيد بن سلْم: لما قال الأخطلُ بالكوفة: أخطأ الفرزدقُ حين قال:

أبَني غُدَانة إنني حَرَرْتُكُمْ فوهبتكم لعَطيّة بن جِعالِ

لولا عَطِيَّةُ لاجتَدَعْتُ أنُوفكُمْ منْ بين ألأم أعْيُنْ وَسِبَالِ

كيف يكون قد وهبهم له وهو يهجوهم بمثل هذا الهجاء؟ قال: فانبرى له فتى من بني تميم فقال له: وأنتَ الذي قلتَ في سويد بن منجوف:

وما جِذْعُ سَوْءٍ رَقّق السُّوسُ جَوْفَه لِمَا حُمِّلَتْهُ وائلٌ بمطيق

أردت هجاءه فزعمتَ أنّ وائلاً تعصبُ به الحاجات، وقدْرُ وسويد لا يبلغ ذلك عندهم، فأعطيْتَه الكثيرَ ومنعتَه القليلَ.
وأردتَ أن تهجوَ حاتمَ بنَ النعمانِ الباهليّ،وأنْ تصغِّرَ شأنه، وتَضَعَ منه، فقلتَ:

وسَوّدَ حاتماً أنْ ليس فيها إذا ما أوقدَ النيرانُ نارُ

فأعطيتَه السُّودَدَ من قيس ومنعتَه ما لا يضرُّهُ.
وأردت أن تمدح سِماك بن زيد الأسدي فهجوتَه فقلت:

نِعم المجيرُ سِماكٌ من بني أسَدٍ بالطَّفِّ إذْ قتَلْتَ جِيرانَهَا مُضرُ

قد كنتُ أحسِبَهُ قيْناً وأنْبَؤُه فاليومَ طُيِّرَ عن أثوابه الشرَرُ

وقلتَ في زُفرَ بنِ الحارث:

بني أميّة إني ناصحٌ لكُمُ فلا يَبيتَنَّ فيكُمْ آمِناً زُفَرُ

مُفْتَرِشاً كافتراش الليث كلْكلَهُ لوَقْعَةٍ كائن فيها لكم جزَرُ

فأردت أن تُغْري به بني أُمَيّة فوهّنْتَ أمرهم، وتركتَهُمْ ضُعفاءَ ممتَهَنِينَ، وأعطيتَ زُفَرَ عليهم من القوةِ ما لم يكنْ في حسابه.
قال: ورجَعَ أبو العطاف من عند عمرو بن هَدَّاب، في يومين كانا لعمرو، وأبو العطّاف يضحك، فسئِل عن ذلك فقال: أما أحدُ اليومين فإنَّهُ جَلَس للشعراء، فكان

أولُ من أنشده المديحَ فيه طريفُ بنُ سَوادة، فما زال يُنشدهُ أرجوزةً له طويلة، حتى انتهى إلى قوله:

أبرصُ فيّاضُ اليَدَينِ أكْـلَـفُ   وَالْبُرْصُ أنْدَى باللُّهى وأعْرَفُ

مجلوِّدٌ في الزَّحَفاتِ مِزْحَفُ

المجلوِّذ: السريع.
وكان عمرو أبرص فصاح به ناس: ما لكَ؟ قطع اللّه لسانك: قال عمرو: مَهْ، البرَصُ من مَفاخِرِ العرب، أما سمِعتُم ابن حبناءَ يقول:

إنِّي امرؤٌ حنظليٌّ حين تنسُبُنِي   لامِنْ عَتيكِ ولا أخواليَ العَوَقُ

لا تحسِبِنَ بياضاً فِيّ مَنْقصَةً   إنّ اللَّهامِيمَ في أقرابِهَا بَلَـقُ

أوَ ما سمعتم قولَ الآخر:

يا كأسُ لا تستنكري نُحُولِـي   ووضحاً أوْفَى عَلَى خَصِيلي

فإنَّ نَعْتَ الفرسِ الـرّجيل   يكمُل بالغرَّةِ والتّحْجِيلِ

أوَ ما سمعتُم بقول أبي مسهر:

يَشْتُمْنِي زَيدٌ بأَنْ كُنْتُ أبْرَصاً   فكلُّ كريمٍ لا أبالَكَ أبرصُ

ثم أقبل على الرَّاجزِ فقال: ما تَحْفَظُ في هذا؟ قال: أحفظُ واللّهِ قولهُ:

يا أُخْتَ سَعْدٍ لا تَعُرِّي بالـرَّوَقْ   ليس يضرُّ الطِّرْفَ توليعُ الْبَلَقْ

إذا جرى في حَلْبَةِ الخيْلِ سَبَقْ

ومحمد بنُ سلاّم يزعمُ أنه لم يَرَ سابقاً قطّ أبلقَ ولا بَلْقاءَ.
وقد سبق للمأمون فرسٌ، إمّا أبلقُ وإما بلقاء.
وأنشدني أبو نواسٍ لبعضِ بني نهشَلَ:

نَفَرَتْ سَودةُ عنّـي أنْ رأتْ   صَلَعَ الرَّأس وفي الجلدِ وَضَحْ

قلتُ يا سَوْدَة هذا والـذي   يَفْرجُ الكُرْبَةَ مِنّا والـكلـحْ

هو زَيْنٌ لِيَ في الوجهِ كمـا　　زَيَّنَ الطِّرفَ تحاسينُ القرَح

وزعم أبو نُواس أنهم كانوا يتبركون به، وأن جَذِيمةَ الوضّاحَ كان يفخرُ بذلك.
وزعم أصحابنا أنَ بَلعاءَ بنَ قيس، لمَّا شاع في جِلْدِهِ البَرص قال له قائل: ما هذا يا بَلعاء؟ فقال: هذا سيف اللّه جلاَه، وكنانة تقول: سيف اللّه حَلأَه.
ثم رجع الحديثُ إلى أبي العَطَّاف وضَحِكه، قال: وأما اليوم الآخر فإنَّ عَمْراً لمَّا ذهبَ بصرهُ، ودخلَ عليه الناس يُعَزُّونَهُ، دخل عليه إبراهيمُ بنُ جامع، وهو أبو عتَّابٍ من آل أبي مَصاد، وكان كالجَمل المحجوم، فقام بين يديْ عمرٍو فقال: يا أبا أَسَيّد لا تجزعنَّ مِنْ ذهَابِ عينَيك وإن كانتا كريمتَيكِ؛ فإنك لو رأيتَ ثوابهما في ميزانك تمنيتَ أن يكونَ اللّه عز وجل قد قطعَ يدَيكَ ورجْلَيْك، ودقَّ ظهرك، وأدمَى ضِلَعَك.
قال: فصاحَ به القومُ وضَحِك بعضهم، فقال عمرو: معناه صحيحٌ، ونيتُه حسنة، وإن كان قد أخطأ في اللفظ.
وقلتُ لأبي عَتَّاب: بلغني أن عبدَ العزيز الغزّال قال: ليتَ أن اللّه لم يكن خَلَقني، وأني الساعة أعْور، قال أبو عتَّاب: بئسَ ما قال؛ وددتُ واللّه أن اللّه لم يكن خَلَقَنِي وأنّي الساعة أعمى مقطوعُ اليدينِ والرِّجلين.
وأتى بعضُ الشعراء أبا الواسع وبنُوهُ حَولَه، فاستعفاه أبو الواسع من إنشاد مديحه، فلم يزلْ به حتى أذِن له، فلما انتهى إلى قوله:

فكيف تُنْقَى وَأَنْتَ الْيَوْمَ رَأسُهُمُوحَولَكَ الْغُرُّ مِنْ أَبْنَائِكَ الصِّيدِ

قال أبو الواسع: ليتكَ تركْتَهم رأساً برأس.
ومدح الممزَّق أبو عباد بن الممزِّق، بِشْرَ بنَ أبي عمرو وليس هو بشر بن أبي عمرو بن العلاء فقال:

من كانَ يزعُمُ أن بشراً مُلصقٌ　　فاللهُ يجزيهِ وربـكَ أعلـمُ

تنبيكَ قامتُه وقلةُ لـحمِـه　　وتشادقٌ فيه ولـونٌ أسحـمُ

أنَّ الصريحَ المحضَ فيه دلالة　　والعرقُ مُنْكَشف لمَنْ يتوسم

أما لسانك واحتباؤك في المَـلاَ　　فزُرارَةٌ العُدُسيُّ عِنْدَكَ أعجمُ

إني لأرجو أنْ يكونَ مقالـهـمْ　　زُوراً، وشانُئك الحسودُ المرغَمُ

خطأ الكميت في المديح

ومِن المديح الخطأ الذي لمْ أرَ قطُّ أعجب منه، قولُ الكميتِ بن زيدٍ وهو يمدح النبي صلى اللّه عليه وسلم، فلو كان مديحه لبني أمَيَّةَ لجاز أن يعيبهم بذلك بعض بني هاشم، أوْ لو مَدَحَ به بعض بني هاشمٍ لجاز أن يعترض عليه بعضُ بني أميَّة، أوْ لو مدح أبا بلال الخارجيّ لجاز أن تعيبه العامّة، أو لو مدح عَمرو بن عُبيَدٍ لجازَ أن يعيبه المخالف، أوْ لو مدح المهلَّب لجاز أن يعيبه أصحابُ الأحنفِ.
فأما مديح النبي صلى اللّه عليه وسلم، فمن هذا الذي يسوءهُ ذلك حيثُ قال:

فاعتتبَ الشوقُ مِنْ فؤاديَ ولاشع   رُ إلى منْ إليه معُتتَبُ

إلى السراج المنير أحمدَ لا   يعْدِلني رَغبةٌ ولا رهَبٌ

عنه إلى تغيره، ولو رفعَ النا   سٌ إلى العيونَ توارتقبُوا

وقيل :أفرَطتَ بل قصدتُ ولو   عَنفني القائلونَ أو ثلبُوا

إليكَ يا خير من تضَمنت الأر   ضُ ولو عابَ قوليَ العُيُبُ

لج بتفضيلكَ اللسانٌ ولو   أكثر فيك الضجاج واللجبُ

أنت المصفى المحضُ المهذَّب في ال نسبةِ إنْ نص قومكَ النسبُ

ولو كان لم يقلْ فيه عليه السلام إلا مِثلَ قوله:

وَبُورِكَ قبْرٌ أنْتَ فيه وَبُورِكَتْ   به وله أهلٌ بذلك يَثربُ

لقد غَيَّبُوا برّاً وحَزْماً وَنائلاً   عَشِيَّة وَارَاكَ الصَّفيحُ المنصَّب

فلو كان لم يمدحْه عليه السلام إلا بهذه الأشعار التي لا تصلح في عامة العرب لما كان ذلك بالمحمود، فكيفَ مع الذي حَكينا قبل هذا؟.

غلط بعض الشعراء في المديح والفخر

ومن الأشعار الغائظة لقبيلة الشاعر - وهي الأشعار التي لو ظنَّت الشعراءُ أن مَضَرَّتها تَعُودُ بعُشر ما عادتْ به، ولكان الخرسُ أهْوَنَ عليها من ذلك القول - فمن ذلك قولُ لبيدِ بنِ ربيعة:

أبني كلابٍ كيفَ تُنفي جعفرٌ   وبنو ضَبَنينة حاضرُ والأجبابِ

قتلوا ابنَ عروةَ ثمّ لطوا دونـه حتى تحاكمتـمْ إلـى جـوابِ

يرعونَ منخرق القديد كأنهـمْ في العزّ أسرَةُ حاجبٍ وشهابِ

متاظهرٌ حلقُ الحديدِ عليهـمُ كبني زرارة أو بني عتّـابِ

قومٌ لـهم عَرَفَتْ مقعدٌّ فضلهَا والحقُّ يعرفهُ ذوو الألـبـابِ

ومن هذا الباب قولُ منظور بن زبّانَ بن سَيَّار بن عَمرو بن جابر الفَزَاري، وهو أحَدُ سادةِ غطفان:

فجاؤوا بَجمْعِ مُحْزئِلٍّ كأنـهـمْ بنو دارمٍ إذا كان في الناس دَارمُ

وذلك أن تميماً لما طالَ افتخارُ قيس عليها بأن شعراء تميم كانت تضربُ المثلَ بقبائل قيس ورجالها، فغَبَرتْ تميمٌ زماناً لا ترفعُ رؤُوسها حتى أصابتْ هذين الشعْرين من هذين الشَّاعرينِ العظيمَي القدر، فزال عنها الذُّلُّ وانتصفت، فلو علم هذان الشاعران الكريمان ماذا يصنعان بعشائرهما لكانَ الخَرسُ أحبّ إليهما.
قال أبو عبيدة: ومن ذلك قولُ الحارث بن حِلِّزَة، وأنشَدَها الملكَ وكان به وضَحٌ وأنشَدَه من وراء سِتر فبلغ من استحسانه القصيدة إلى أن أمَرَ برفْع السِّتر.
ولكراهتهم لدُنُوِّ الأبرص منهم قال لبيدُ بن ربيعة، للنُّعمان بن المنذر، في الربيع بن زياد:

مَهْلاً أبَيْتَ اللَّعْنَ لا تأكل مَعَهْ إنّ استَه مِنْ بَرَصٍ مُلمَّعَهْ

وإنهُ يُدخِلُ فيها إصْبَعَهْ يُدْخِلُهَا حتى يُواري أشْجعَهْ

كأنما يطلُبُ شيئاً ضَيَّعَهْ

قال ابنُ الأعرابيّ: فلما أنشدَ الملكَ لبيدٌ في الربيع بن زيادٍ ما أنشد قال الربيعُ: أبيتَ اللّعن، واللّه لقد نكتُ أمَّه، قال: فقال لبيد: قد كانت لعَمْري يتيمة في حِجْرك، وأنتَ ربيتها، فهذا بذاك، وإلا تكن فعَلْتَ ما قُلتَ فما أولاك بالكذب وإن كانت هي الفاعلة فإنها منْ نِسوةٍ لذلك فُعُل، يعني بذلك أن نساءَ عَبْس فواجرُ، لأن أمه كانت عَبْسيّة.
والعربيُّ يعافُ الشيءَ ويهجو به غيره، فإن ابتُلِيَ بذلك فخَر به، ولكنه لا يفخرُ به لنفسه مِنْ جهةٍ ما هجا به صاحبه، فافهم هذه، فإن الناس يَغْلطُونَ على العَرَبِ ويزعُمون أنهم قد يمدَحون الشيء الذي قد يهجُون به، وهذا باطلٌ، فإنه ليس شيءٌ إلا وله وجهان وطرَفان وطريقان، فإذا مدحوا ذكروا أحسنَ الوجهين، وإذا

ذمُّوا ذكروا أٍقبحَ الوجهين.
والحارثُ بنُ حِلِّزَة فَخَرَ ببكر بنِ وائلٍ على تَغْلِبَ، ثم عاتَبهم عِتاباً دلَّ على أنـهم لا ينتصفون منـهم، فقال:

وأتانـا عن الأراقمِ أنـبا ءٌ وخطبٌ نُعْنَى به ونـسـاءُ

يخلطونَ البريءَ منا بذي الـذن بِ ولا ينفعُ الخليَّ الـخـلاءُ

زعموا أن كلَّ منْ ضرب العي رَ مَوَالٍ لـنـا وأنـا الـولاء

إنَّ إخواننـا الاراقمَ يغـلـو ن علينا في قولهـم إحفـاءُ

ثم قال:

واتركوا الطيخ والتعاشي وإمـا تتعاشوا ففي التعـاشـي الـداءُ

واذكروا حلفَ ذي المجازِ وما ق دِّمَ فيه، العهـودُ والـكـفـلاءُ

حذَرَ الجورِ والتعدي وهـل ين قُضُ ما في المهارق الأهـواءُ

واعلمـوا أنـنـا وإياكـم فـي ما اشترطنا يومَ اختلفنـا سـواءُ

أم علينـا جنـاُ كـنـدة أن يغ نمَ غازيهمُ ومـنـا الـجـزاءُ

أم علينا جرا حـنـيفة أم مـا جمعتْ من محاربٍ غـبـراءُ

أم علينا جراً قـضـاعة أم لـي س علينا فيمـا جـنـوا أنـداءُ

ليس مِنا المضربـونَ، ولا قـي سٌ، ولا جنـدلٌ، ولا الـحـداءُ

أم جنايا بني عتـيق. فـمـن يَغ در فإنا مـن غـدرهـم بـرآءُ

عنتاً باطلاً شدوخـاً كـمـاتُـع تر عن حجرةِ لاربيض الظبـاءُ

ومن المديح الذي يقبُح، قولُ أبي الحَلال في مَرْثِيَةِ يزيدَ بن مُعاوية، حيث يقول:

يا أيُّها الميْت بحُوَّارينـا إنّك خيرُ الناسِ أجمعينا

وقال الآخر:

مدحتُ خير العالمين عَنْقشَا يشبُّ زهراءَ تقود الأعمشا

وقال الآخر:

إنَّ الذي أمْسى يُسمَّى كُوزَا اسماً نبيهاً لم يكن تَنْبيزا

لما ابْتَدَرْنَا القصبَ المركوزا وَجَدْتُني ذا وثبة أبُوزَا

ودخل بعضُ أغثاث شعراءِ البَصريين على رجل من أشراف الوجوه يُقال في نسَبِه، فقال: إني مَدَحْتُكَ بشعر لم تُمْدَحْ قطُّ بشعر هو أنفعُ لك منه، قال: ما أحْوَجَني إلى المنفعة، ولا سيَّما كلُّ شيء منه يخلدُ على الأيام، فهاتِ ما عندك فقال:

سَأَلْتُ عَنْ أصلِك فيما مضى أبناءَ تِسْعِين وقد نَيّفُوا

فكُلُّهُمْ يخبرُني أنه مُهَذَّبٌ جَوْهَرُهُ يُعْرَفُ

فقال له: قمْ في لعنةِ اللّه وسَخَطِهِ فلَعَنَكَ اللّه ولعنَ مَنْ سَأَلْتَ ولعنَ من أجابك.

في السُّخف والباطل

وسنذكر لك باباً من السُّخْف، وما نتسَخَّفُ به لك، إذ كان الحق يثقلُ ولا يخفُّ إلا ببعضِ الباطل.
أنشدنا أبو نُوَاس في التدليك:

إنْ تَبْخَلِي بالرَّكَبِ المحلوق فإنَّ عندي رَاحَتي وريقِي

وهذا الشعرُ مما يقالُ إن أبا نَواس ولَّدَهُ.
ومما يُظَنُّ أنه ولّدَه قولُه:

لم أرَ كاللَّيلةِ في التوفيق حِراً على قارعةِ الطريق

كأنَّ فيه لَهَبَ الحريق

وأنشدني ابن الخارَكي لبعض الأعربِ في التدليك:

لا بارَك الإله في الأحْراح فإن فيها عَدَمَ اللِّقاح

لا خَيرَ في السفاح واللّقاح   إلا مُناجاة بطونِ الـرَّاح

وأنشدني محمد بنُ عَبَّاد:

تَسْألُني ما عَتِدي وعـنـددي   فإنني يا بـنْـتَ آلِ مَـرْثـدِ

راحلتي رِجلايَ اسْرَاتِي يَدِي

وأنشدني بعض أصحابنا لبعض المدنيِّين:

أُصفِي هَوى النفسِ غيرَ مُتَّئبٍ   حَليلةً لا تَسومُني نَـفـقـهْ

تكونُ عوني على الزمانِ لِـلْ   كَسْبِ إذا ما أخْفقْتُ مُرْتَفِقه

وشعرٌ في ذلك سمعناه على وجه الدهر، وهو قولُه:

إذا نَزَلْتَ بـوادٍ لا أنـيسَ بـه   فاجلِدْ عُمَيرةَ لا عارٌ ولا حَرَجُ

وأنشدنا أبو خالد النُّميرىّ:

لو أنـها رَخْصةَ قضَّيْتُ مِنْ وطري   لكنَّ جِلْدَتَها تُرْبي عَلَى السَّقَن

أشكو إلى اللّه نعْظا قدْ بُليتُ بـه   وما ألاقي مِنَ الإمْلاق وَالحـزَن

وقال الذَّكوانيُّ يردُّ على الأولِ قولَه:

جَلْدِي عُميرة فيه العار والحُـوبُ والعَجْزُ مُطَّرح والفُحْشُ مَسْبُوبُ

وبالعراق نساءٌ كَالَمها قُـطُـفٌ   بأرخص السَّوْمِ خَدْلاَتٌ مَناجِـيبُ

وما عُميرةُ منْ ثـدْيـاءَ حـالـيةٍ   كالعاج صَفّرها الأكنانُ والطِّيب

قال: مَثَلُ هذا الشعرِ كمثل رجُل قيلَ له: أبوكَ ذاك الذي ماتَ جُوعا؟ قال: فوَجَدَ شيئاً فلم يأكله؟ وقال الحَرامي:

عِيَالٌ عالَةٌ وكسادُ سُوقٍ   وأيرٌ لا ينامُ ولا يُنِـيمْ

مما قالوا في السرّ

قال ابن ميّادة:

أَتُظْهِرُ ما في الصَّدْرِ أمْ أنتَ كاتمُهْ وكِتمانُهُ داءٌ لِمَنْ هو كـاتـمُـه

وإضمارُهُ في الصدرِ داءٌ وَعِلّةٌ وإظهارُهْ شَنْعٌ لِمَنْ هوَ عالـمـه

وتقول العرب: من ارتاد لسِرِّه موضعاً فقد أشاعه.
وأرى الأول قد أذِنَ في واحدٍ وهو قولُه:

وسِرُّكَ ما كانَ عندَ امرئٍ وسرُّ الثلاثةِ غيرُ الخِفي

وقال الآخر فيما يوافق فيه المثل الأول:

فلا تُفْشِ سرَّك إلا إلـيكَ فإنَّ لكلِّ نصيحٍ نصيحـا

فإني رأيتُ غُواة الـرجـا ل لا يترُكون أديماً صحيحا

وقال مسكينٌ الدَّارميّ:

إذا ما خليلي خانني وائتـمـنـتُـه فذاكَ وداعِيهِ وذاكَ وَداعُـهـا

رَدَدْتُ عليه وُدّهُ وتـركـتُـهـا مطلَّقة لا يُستطـاعُ رجـاعُـهـا

وإني امروٌ مني الحياءُ الذي تَـرَى أعيشُ بأخلاق قليل خِداعُـهـا

أُوَاخي رجالاً لستُ أُطلِعُ بعضَهـمْ على سرِّ بعض غيرَ أني جِماعُها

يَظلُّونَ شَتَّى في البلادِ وسِرُّهـم إلى صخرةٍ أعيا الرِّجالَ انصداعُها

وقال أبو مِحْجَنِ الثَّقفيّ:

وقد أجُودُ وما مالي بذي فَنَعٍ وأكتُمُ السِّرَّ فيه ضربةُ الْعُنُق

وقال عمر بن الخطاب، رضي اللّه عنه: منْ كَتم سِرَّهُ كانَ الخيار في يَدِه.
وقال بعضُ الحكماء: لا تُطلعْ واحداً من سِرِّك، إلا بقدر ما لا تجدُ فيه بدَّاً من معاونتك، وقال آخر: إنَّ سِرَّكَ مِنْ دَمِكِ، فانظرْ أينَ تُريقُهُ.
وقال الشاعر:

ولو قدَرْتُ عَلَى نسيانِ ما اشْتَمَلَتْ مني الضلوعُ من الأسرار والخَبَرِ

لكنت أوَّلَ من ينسى سرائره إذ كنت من نشرها يوماً على خَطَرِ

وقال الآخر:

فإذا استَودَعْتَ سِرّاً أحَداً فقد استودعت بالسرِّ دَمَكْ

وقال قيس بنُ الخطيم:

وإنْ ضَيَّعَ الإخْوانُ سِرّاً فإنني كتُومٌ لأسْرَارِ العَشِيرِ أمينُ

يكونُ له عندي إذا ما ائتُمِنْتُهُ مكانٌ بسَوداءِ الفُؤَادِ مَكينُ

وقيل لمَزبِّد: يا مُزَبِّد، ما هذا الذي تحتَ حضنك؟ فقال: يا أحمق، فلمَ خبأتُه؟ وقال أبو الشِّيص:

ضع السرّ في صَمَّاءَ ليستْ بصخرةٍ صَلودٍ كما عايَنْتَ من سائر الصَّخر

ولكنها قلب امرئٍ ذي حفيظةٍ يَرَى ضَيْعَةَ الأسرارِ هتراً من الهتر

يموتُ وما ماتَتْ كرائمُ فِعْلهِ ويَبْلَى وما يَبْلَى نَثَاهُ عَلَى الدَّهرِ

وقال سُحَيمٌ الفقعسيّ، في نشر ما يُودَعُ من السِّرِّ:

ولا أكتُمُ الأسرارَ لَكِنْ أذيعُها ولا أدَعُ الأسرارَ تَغْلي عَلَى قلبي

وإن قليلَ العقلِ من باتَ ليلهُ تقلّبه الأسرارُ جنباً إلى جنب

وقال القرّارالسُّلَمى - وهذا الشعر في طريق شعر سُحَيمٍ، وإن لم يكن في معنى السرِّ - وهو قوله:

وكتيبةٍ لبستها بكتيبةٍ حتى إذا التبستْ نفضتُ بهايدي

وتركتُهُمْ تقصُ الرماحُ ظهورهم من بين منجدلٍ وآخر مسندِ

ما كانَ ينفعني مقالُ نسـائهـم وقتلتُ دون رجالهمْ: لا تَبْـعَدِ

تخاذل أسلم بن زرعة وقيل لأسلم بن زَرْعة إنك إن انـهزمتَ من أصحاب مِرْدَاس بن أديَّة غضِبَ عليك الأمير عبيدُ اللّه بن زياد قال: يغضبُ عليَّ وأنا حيٌّ؛ أحبُّ إليَّ مِنْ أن يرضَى عني وأنا ميِّت.
قال: ووليَ دسْتَبى فخرج إليها في أصحابه، فلما شارفها عرضَتْ له الخوارجُ، وكان أكثر منهم عدداً وعُدّة، فقال: واللّه لأصاقَّنَّهم، وَلأُعَبِّيَنّ أصحابين فلعلهم إذا رأوا كثرَتهُم انصرفوا، ولا أزال بذلك قويّاً في عملي هذا، فلما رأت الخوارج كثرة القوم نزلوا عن خيولهم فعَرْقبُوهَا وقطّعوا أجفانَ سيوفهم، ونبذوا كل دقيق كان معهم، وصبُّوا أسقِيَتَهُم، فلما رأى ذلك رأى الموتَ الأحمر.
فأقبل عليهم فقال: عرقبتم دوابَّكم وقطّعتم أجفان سيوفِكم، ونبذتم دقيقكم؟ خارَ اللّه لنا ولكم ثم ضربَ وجوهَ أصحابه وانصرفَ عنهم.
ضيق النطّام بحَمْلِ السرّ وكان أبو إسحاقَ إبراهيمُ بن سيّارٍ النظّام، أضْيقَ الناس صدراً بحملِ سرٍّ وكان شرَّ ما يكون إذا يُوَكِّد عليه صاحبُ السر وكان إذا لم يؤكِّدْ عليه ربما نسِيَ القِصَّة، فيسلمُ صاحبُ السرّ.
وقال له مرةً قاسمٌ التمَّار: سبحان اللّه ما في الأرض أعجبُ منك، أودعتُك سِرّاً فلم تصبر عن نشره يوماً واحداً، واللّه لأشكونّك للناس.
فقال: يا هؤلاء، سَلُوه نَمَمْتُ عليه مرةً واحدةً، أو مرتين، أو ثلاثاً، أو أربعاً، فلمن الذنبُ الآن؟ لم يرضَ بأن يشاركه في الذّنب، حتى صيَّرَ الذّنبَ كله لصاحب السرّ.

شعر في حفظ السرّ

وقال بعضُ الشعراء:

خَتَمْتُ الفؤَادَ على سِرِّها كذاكَ الصحيفةُ بالخاتـم

هوَى بي إلى حُبِّها نظْرةٌ هُويَّ الفراشةِ للجاحـم

وقال البَعيث:

فإنْ تَك لَيلَى حَمَّلَتْني لُبـانَةَ فلا وأبي ليلى إذاً لا أخُونُـها

حَفِظْتُ لها السرّ الذي كان بيننا ولا يحفَظُ الأسرارَ إلا أمينُها

وقال رجلٌ من بني سَعد:

إذا ما ضاق صدرُك عن حديثٍ فأفشتهُ الرجالُ فمـنْ تـلـومُ

إذا عاتبتُ من أفشى حديثي وسري عنده فأنا الظلومُ

وإني حين أسأمُ حملَ سرى وقد ضَمنتُهُ صدري سؤومُ

ولستُ محدثاً سرى خليلاً ولا عرسى، إذا خطرتْ همومُ

وأطوي السر دونَ الناس، إني لمكا استودعتُ من سرٍ كتومُ

؟اعتذار شيخ

قال: وقيل لشيخ: ويحَك هاهنا ناسٌ يسرق أحدُهم خمسين سنة، ويزْني خمسين سنةً، ويَصْنَع العظائم خمسين سنة، وهو في ذلك كله مستور جميل الأمر، وأنت إنما لُطْتَ منذُ خمسةِ أشهر، وقد شُهرتَ به في الآفاق قال: بأبي أنت، ومن يكون سرُّهُ عند الصِّبْيَان أيُّ شيء تكونُ حالُه.

وصية العباس لابنه أبو الحسن، عن محمد بن القاسم الهاشمي قال: قال العباسُ بن عبد المطلب لعبد اللّه ابنه: يا بُنيّ أنتَ أعْلَمُ منّي، وأنا أفْقهُ منك إن هذا الرجلَ يُدْنيك - يعني عُمَر بن الخطاب - فاحفظْ عني ثلاثاً: لاتُفْشِ له سرّاً، ولا تَغْتَابَنَّ عنده أحداً، ولا يَطّلِعَنَّ منك على كِذْبة.

في ذكر المُنى

قال: سئل ابن أبي بكرة: أيُّ شيء أدْوَم إمتاعاً؟ قال: المُنَى. قال: وقال يزيد بن معاوية على مِنبره: ثلاثٌ يُخْلِقْنَ العقْل، وفيها دليل على الضّعف: سرعةُ الجواب، وطُول التمنّي والاستغراق في الضَّحك.

وقال عبايةُ الجُعْفي: ما سرّني بنصيبي من المنى حُمْرُ النَّعم.

وقال الأصمعي: قال ابن أبي الزِّناد: المنى والحُلُم أخَوان.

وقال مُعمَّر بن عَبَّاد: الأماني للنَّفس، مثْلُ التُّرَّهات لِلّسان.

وقال الشاعر:

اللّهُ أصْدَقُ والآمالُ كاذبةٌ وجُلُّ هذِي المنَى في الصَّدور وسْواسُ

وقال الآخر:

إذا تمَنَّيْتُ مالاً بتُّ مُغتبطاً إنّ المنى روسُ أموالِ المفاليس

لولا المنى مِتُّ من هَمٍّ ومن حَزَنٍ إذا تذكرتُ ما في داخلِ الكيسِ

وقال بعضُ الأعراب:

مُنًى إن تَكنْ حَقَّاًتَكُنْ أحسنَ المُنَى وإلاّ فقدْ عِشنا به زَمنـاً رَغْدا

أمانيُّ مِن سَلمى حسانٌ كأنـمـا سَقتْني بها سَلمَى على ظمأ بردَا

وقال بشار:

كَرَرْنا أحاديثَ الزمانِ الذي مَضى فلذهَ لنا محمودُها وذمِيمـهـا

وروَى الأصمعيُّ عن بعضهم أنه قال: الاحتلام أطيبُ من الغِشْيان.
وتمنِّيك لشيء أوفرُ حظاً في اللَّذةِ من قُدْرتك عليه.
قال: كأنه ذَهَبَ إلى أنه إذا ملَكَ وجَبَتْ عليه في ذلك المِلْكَ حقوقٌ، وخاف الزوالَ واحتاجَ إلى الحفظ.
وقال: وفي الحديث المأثور: ما عظُمتْ نعمةُ اللّه على أحدٍ إلاّ عظمتْ مؤونةُ الناسِ عليه.
قال: وقيل لمزبِّد: أيسرُّك أن عندَك قِنِّينة شرَابٍ؟ قال: يا ابنَ أمِّ، من يسرُّهُ دخولُ النار بالمجاز؟.
قال: وقدّموا إلى أبي الحارث جُمَّيز جامَ خبيصٍ وقالوا له: أهذا أطيَبُ أم الفالوذَج؟ قال: لا أقضي على غائب.
قال: وقال مَدينـيٌّ لرجل: أيسرُّك أن هذه الدار لك؟ قال: نعم، قال: وليس إلا نَعَمْ فقط؟ قال: فما أقول؟ قال: تقول: نَعم، وأحمّ سَنة قال: نعم، وأنا أعْور.
قال: وقيل لمزبِّد: أيسُرُّك أن هذه الجُبَّة لك؟ قال: نعم، وأضرَبُ عشرين سوطاً، قال: ولِمَ تقولُ هذا؟ قال: لأنه لا يكون شيءٌ إلا بشيء.
قال: وقال عبدُ الرحمن بن أبي بَكْرة: مَنْ تمنَّى طول العمر فلْيوَطِّنْ نفسه على المصائِب.
يقول: إنه لا يخلو من موتِ أخٍ، أو عمٍّ، أو ابن عمٍّ، أو صديق، أو حَميم وقال المجنون:

أيا حرجات الحيِّ حيثُ تحمـلـوا بذي سلمٍ لا جـادَكـنّ ربـيعُ

وخيماتكِ اللاتي بمنعَرج اللـوى بلينَ بلى لم تـبـلـهـنَّ ربـوعُ

فقدتكَ من قلبٍ شعاعٍ، فطالـمـا نهيتك عن هذا وأنـت جـمـيعُ

فقربت لي غيرَ القريبِ، وأشرفتْ مناكَ ثنايا ما لـهـنّ طـلـوعُ

أمانيّ بعض الخوارج

قال: وقال عبدُ الرحمن بن محمد بن الأشعث: لولا أربعُ خِصال ما أعطيتُ عربيّاً طاعة: أو ماتت أمّ عَمْرو - يعني أمّه - ولو نَسَبْت، ولو قرأتُ القرآن، ولو لم يكن رأسي صغيراً.
قال: وقدِم عبدُ الملك، وكان يحبُّ الشِّعر فبعثتُ إلى الرواة، فما أتَتْ عَلَيَّ سنةٌ حتى رويتُ الشاهدَ والمثل، وفضُولاً بعد ذلك، وقِدم مُصْعبٌ وكان يحبُّ النّسَب، فدعوتُ النَّسَّابين فتعلّمتُه في سنة، ثم قدِم الحجَّاج، وكان يُدْنِي على القرآن، فحفِظته في سَنَة.
قال: وقال يزيدُ بنُ المهلَّب: لا أخرجُ حتى أحجّ، وأحفظ القرآن، وتموت أمِّي، فخرج قبل ذلك كلّه.
وقال عُبَيْدُ اللّه بنُ يحيى: كان من أصحابنا بمَرْو جماعة، فجلَسنا ذات يومٍ نتمنَّى، فتمنَّيتُ أن أصيرَ إلى العراق من أيامي سالماً، وأن أقدَمَ فأتزوّج سَمَاع، ألي كَسْكر.
قال: فقدِمتُ سالماً، وتزوجتُ سَمَاع، ووليتُ كسْكَر.

خبر وشعر في نهري دجلة والفرات

قال: ووقف هشامُ بنُ عبد الملك على الفرات، ومعه عبدُ الرحمنِ بنُ رستَم، فقال هشام: ما في الأرض نـهرٌ خيرٌ من الفُرات فقال عبد الرحمن: ما في الأرض نـهرٌ شرٌّ من الفرات، أوَّلُه للمُشْرِكِين، وآخِرُه للمنافقين.
وقال أبو الحسن: الفرات ودِجلة رائدان لأهل العراق لا يكذبان.
قال الأصمعيّ وأبو الحسن: فهما الرائدان، وهما الرَّافدان.
وقال الفرزْدَق:

أميرَ المؤمنين وأنـتَ عَـفٌّ ... كريم لستَ بالوالي الحريص

بَعَثْتَ إلى العراق ورافِـدَيه ... فَزَاريّاً أحَذَّ يَدِ القـمـيص

ولم يكُ قبْلَهَا راعي مَخَاضٍ ... لِيَأمَنَهُ على وَرِكَيْ قَلُـوص

تَفَيْهَقَ بالعِراق أبو المثـنَّـى ... وعَلَّمَ قوْمَهُ أكلَ الخَبـيص

قال: وبينا غَيْلان بن خرَشَة، يسيرُ معبد اللَّه بن عامر، إذ وَرَدَا على نـهر أمِّ عبد اللّه فقال ابنُ عامر: ما أنفعَ هذا النـهرَ لأهل هذا المصر قال غيلان: أجَلْ أيها الأمير، واللّه إنـهم ليَسْتَعْذِبُون منه، وتفيضُ مياهُهم إليه، ويتعلمُ صبيانـهم فيه العَوم، وتـأتيهمْ مِيرَتـهم فيه.
فلما أن كان بعد ذلك سايَرَ ذاتَ يوم زياداً - وكان زيادٌ عدُوّاً لابن عامر - فقال زياد: ما أضَرَّ هذا النـهرَ بأهل هذا المصر فقال: أجَلْ واللّه أيها الأمير تنزُّ منه دُورُهم، ويغرقُ فيه صبيانـهم، ويُبْعَضون ويُبَرْغَثُونَ.

القول في العصافير

وسنقول باسم اللّه وعونه في العصفور بجملةٍ من القول.
وعلى أنّا قد ذكرنا من شأنه أطرافاً ومقطَّعاتٍ من القول تفرّقنَ في تضاعيف تلك الأصناف، وإذا طال الكلامُ وكثُرت فنونه، صار الباب القصيرُ من القولِ في غِماره مُسْتَهْلَكاً، وفي حومته غَرِقاً، فلا بأسَ أن تكون تلك الفقرُ مجموعاتٍ، وتلك المقطَّعاتُ موصولاتٍ، وتلك الأطراف مستقصياتٍ مع الباقي من ذِكْرنا فيه؛ ليكون البابُ مجتمعاً في مكانٍ واحد، فبالاجتماع تجتمع القوة، ومن الأبعاض يلتئم الكُلُّ، وبالنظام تظهرُ المحاسن.

دعوى الإحاطة بالعلم

ولستُ أدَّعي في شيء من هذه الأشكالِ الإحاطة به، والجمعَ لكل شيء فيه، ومن عَجَز عن نظم الكثير، وعن وضعِه في مواضعه - كان عن بُلوغ آخره، وعن استخراج كل شيء فيه أعجز، والمتح أهونَ من الاستنباط، والحصْدَ أيسَرُ من الحرث.
وهذا البابَ لو ضمَّنه على كتابه من هو أكثرُ مني رواية أضعافاً، وأجود مني حِفظاً بعيداً، وكان أوسع مني علماً وأتمَّ عزماً، وألطفَ نظراً وأصدَقَ حِسّاً، وأغوصَ على البعيد الغامض، وأفهَمَ للعويص الممتنع، وأكثرَ خاطراً وأصحَّ قريحةً، وأقلَّ سآمَةً، وأتمَّ عنايةً، وأحسنَ عادةً مع إفراط الشهوةِ، وفراغ البال، وبُعْدِ الأمَل، وقوةِ الطمعِ في تمامه، والانتفاع بثمرته، ثم مُدَّ له في العمر، ومكَّنته المقدرة - لكان قد ادَّعى مُعْضِلة، وضمِنَ أمراً معجزاً، وقال قولاً مرغوباً عنه، متعجّباً منه؛ ولكان لغْواً ساقطاً، وحارضاً بَهْرَجاً؛ ولكان ممن يفضلُ قوله على فعله، ووَعدُه على مقدار إنجازه؛ لأن الإنسان، وإن أُضيفَ إلى الكمال وعُرِف بالبَراعة، وغَمَر العلماء؛ فإنه لا يكْمُلُ أن يُحيط علمُه بكلِّ ما في جناح بَعوضةٍ، أيام الدنيا، ولو استمد بقوةِ كلِّ نظَّارٍ حكيم؛ واستعارَ حِفظ كلّ بحّاثٍ واع؛ وكلِّ نَقَّاب في البلاد، ودَرّاسة للكتب.
وما أشكُّ أن عندَ الوُزراء في ذلك ما ليس عند الرعيَّة من العلماء، وعند الخلفاء ما ليس عند الوزراء، وعند الأنبياء ما ليس عند الخلفاء، وعند الملائكةِ ما ليس عند الأنبياء، والذي عندَ اللّه أكثر، والخلقُ عن بلوغه أعجز، وإنما عَلَّمَ اللّهُ كلَّ طبقة من خَلْقِهِ بقدْر احْتِمالِ فِطَرهم، ومقدارِ مَصْلَحتهم.

القول في: "علَّمَ آدمَ الأسماء كلها"

فإن قلت: فقد علَّم اللّهُ عزّ وجلَّ آدمَ الأسماءَ كلّها - ولا يجوز تعريفُ الأسماء بغير المعاني - وقلتَ: ولولا حاجةُ الناس إلى المعاني، وإلى التعاوُن والترَافُد، لَمَا احتاجوا إلى الأسماء، وعلى أن المعانيَ تفضلُ عن الأسماء، والحاجاتِ تجوز مقاديرَ السِّمات، وتفوت ذَرْع العلامات فممَّا لا اسم له خاصُّ الخاصّ، والخاصِّيَّاتُ كلها ليست لها أسماءٌ قائمة.
وكذلك تراكيب الألوان، والأرابيح، والطعوم، ونتائجها.
وجوابي في ذلك: أن اللّه عزّ وجلّ لم يخبرْنا أنه قد كان علَّم آدمَ كلّ شيء يعلمه

تعالى، كما لا يجوز أن يُقْدِرَه على كلِّ شيء يقدرُ عليه.
وإذا كان العبدُ المحدودُ الجسمِ، المحدود القوَى، لا يبلُغُ صِفةَ ربِّه الذي اخترعه، ولا صفة خالِقه الذي ابتدعه - فمعلومٌ أنه إنما عَنَى بقوله:)وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا(عِلْمَ مصلحتِه في دُنياه وآخِرته.
وقال اللّه عزّ وجلّ: "وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ"، وقال اللّه عزَّ وجلَّ: "وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِ سَبْعَةُ أَبْحرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللّهِ"، وقال اللّه تعالى: "يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا"، وقال تَقَدَّسَتْ أسماؤه: "وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلاَّ هُوَ"، وقال اللّه عزَّ وجلّ: "وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعلَمُونَ".
وهذا الباب من المعلوم، غيرُ باب عِلْم ما يكونُ قبلَ أن يكون؛ لأن بابَ كَانَ قد يُعْلَمُ بعضُه، وبابُ يكون لا سبيل إلى معرفةِ شيء منه، والمخاطبةُ وقعَتْ على جميع المتعبَّدين، واشتملت على جميع أصناف الممتَحَنين، ولم تقع على أهْلِ عَصْرٍ دونَ عصر، ولا على أهل بلدٍ دونَ بلد، ولا على جنسٍ دونَ جنس، ولا على تابع دون متبوع ولا على آخرٍ دونَ أوَّل.

أجناس الطير التي تألفُ دورَ الناس

العصافير، والخطاطيف، والزّرازير، والخفافيش، فبين هذه وبين الناس مناسَبَةٌ ومُشاكلة، وإلْفٌ ومحبّة.
والخطاطيفُ تقطع إليهمْ وتَعْزُب عنهم، والعصافير لا تفارِقهم، وإن وجدَتْ داراً مبنيةً لم تَسْكُنْها حتى يَسْكُنَها إنسان، ومتى سكنتها لم تُقِم فيها إذا خرج منها ذلك الإنسان، فبفراقه تُفارِق، وبسُكناه تسكُن، وهذه فضيلةٌ لها على الخطاطيف.
الحمام لا يقيمُ معهم في دُورهم إلا بعد أن يثبِّتوه ويعلّموه، ويُرتِّبو حاله ويدرِّجوه، ومنها ما هو وحشيٌ طُورانيٌ، وربما توحّش بعد الأُنْس والعصافير على خلاف ذلك، فلها بذلك فضيلةٌ على الحمام، وعلى الخُطّاف.
وقد يُدرَّب العصفورُ ويثَبَّتُ فيستجيبُ من المكان البعيد، ويثْبُتُ ويَدْجُن، فهو مما يثْبُت ويُعايش الناسَ، من تلقاء نفسه مرةً، وبالتثبيتِ مرةً، وليس كذلك شيء مما يأوي إلى الناس من الطير.
وقد بلَغني أن بعضَ ما يستجيب منها قد دُرِّبَ فرجع من مِيل، فأما الهدايةُ من تلقاء نفسه فمن الفراسخ الكثيرة.
وحدَّثني حَمّوَيْهِ الخُرَيْبيّ وأبو جَرَاد الهزَارِدَرِيّ قالا: إذا كان زمان البيادر لم يبق بالبصرة عُصفورٌ إلا صارَ إلى البساتين، إلا ما أقام عَلَى بيضه وفراخه، وكذلك العصافير إذا خَرَجَ أهلُ الدّار من الدَّار، فإنه لا يقيمُ في تلك الدار عُصفُورٌ إلا عَلَى بيض أو فِراخ، فإذا لم يكنْ لها اسْتَوْحَشَتْ، والتمستْ لأنفسها الأوكارَ في الدُّور المعمورة، ولذلك قال أبو يعقوب إسحاقُ الخُرَيمي:

فَتِلك بغدادُ ما تَبنَّى من ال   وَحْشةِ في دُورِها عصافِرُها

قالا: فعلى قدْرِ قُرب القبائل من البساتين سبقُ العصافير إليها، فإذا جاءت العصافيرُ التي تلي أقرب القبائل منها إلى أوائل البساتين فوجدت عصافير ما هو أقربُ إليها منها قد سبقت إليها تعدَّتها إلى البساتين التي تليها وكذلك صنيعُ ما بَقِيَ من عصافير القبائل الباقية حتى تصير عصافير آخر البصرة إلى آخر البساتين، وذلك شبيهٌ بعشرين فَرْسخاً، فإذا قضت حاجتها، وانقضى أمرُ البيادر أقبلت من هناك، على أماراتٍ لها معروفةٍ، وعلامات قائمة، حتى تصير إلى أوكارها.

ضروب الطير

والطيرُ كله على ثلاثة أضرب: فضربٌ من بهائم الطير، وضربٌ كسباع الطير، وضربٌ كالمشترَك المركَّب منها جميعاً.
فالبهيمة كالحمام وأشباه الحمام، مما يَغتذي الحبوبَ والبزُورَ والنبات، ولا يغتذي غير ذلك، والسبع: الذي لا يَغْتَذِي إلا اللحم.
وقد يأكل الأسدُ الملحَ، ليس على طريق التغذي، ولكن على طريق التَّملُّح والتحمُّض.

ما يشارك فيه العصفور الطير والحيات

فممَّا يُشاركُ فيه العصفور بهائم الطير، أنه ليس بذي مخْلَبٍ ولا مِنْسَر، أو هو مما إذا سقط على عُودٍ قدّم أصابعه الثلاثَ، وأخَّر الدّابرة، وسباع الطير تقدِّم إصبَعَينْ، وتؤخِّر إصبَعَيْن.
ومما شارك فيه السَّبع أنَّ بهائم الطير تزقّ فراخها، والسِّباع تُلقِم فِرَاخها. والفراخ على ثلاثة أضربٍ: ففرخٌ كالفرُّوج لا يُزَق ولا يُلْقم؛ وهو يظهر كاسباً، وفرخ كفرخ الْحمام وأشباه الحمام، فهو يُزَقُّ ولا يُلْقم، وفرخ كفرخ العُقاب والبازِي، والزرّقُ، والشاهين والصقر، وأشباهِها من السِّباع فهو يُلقم ولا يُزقّ، فأشبهها العُصفورُ من هذا الوجه.
وفيه من أخلاق السِّباع: أنه يصيد الجرادة، والنملَ الطيَّار، ويأكل اللحم، ويُلقِم فراخَه اللحم، وليس في الأرض رأسٌ أشبَهُ برأس حَيَّةٍ من رأس عصفور الأجناس التي تعايش الناس والأجناس التي تعايش الناس: الكلبُ، والسِّنّور، والفرَس، والبعير، والحمار، والبغل، والحمام، والخُطَّافَ، والزّرزور، والخُفَّاش، والعصفور.
أطول الحيوان عمراً وأقصره قالوا: وليس في جميعها أطولُ عُمْراً من البغل، ولا أقصَرُ عمراً من العصفور.
قالوا: ونظن ذلك إنما كان لقلَّةِ سِفاد البغل، وكثرة سفاد العصفور.
ويزعمون أن محمدَ بنَ سليمان أنزَى البغالَ على البغلات، كما أنزَى العِتاق على الحُجور، والبَرَاذِينَ على الرِّماك، والحمير على الأتن، فوجد تلك الفُحُولة من البغالِ بأعيانها، أقصَرَ أعماراً من سائر الحافر، حين سوَّى بينها في السِّفاد، ووَجد البغالَ تلقح إلقاحاً فاسداً لا يتمّ ولا يعيش.
وذكروا أن قِصَر العُمر لم يعرض لإناثها كما عَرَض لذكورتها.

وهذا شبيهٌ بما ذكر صاحبُ المنطق في العصافير، فإنه ذكر أن إناثها أطولُ أعماراً، وأن ذكورتها لا تعيش إلا سنةً واحدة.
أثر السمن في الحمل والمرأة تنقطع عن الحَبَل قبل أن ينقطعَ الرجُلُ عن الإحبال بدَهْر، وتُفرط في السمن فتصيرُ عاقراً، ويكونُ الرجُلُ أسْمَنَ منها فلا يصير عاقراً، وكذلك الحِجر، والرَّمَكَة، والأتان، وكذلك النخلة المطعِمَة، ويَسْمَنُ لُبُّ الفُحَّال فيكون أجْود لإلقاحه، وهما يختلفان كما ترى.

الأجناس الفاضلة من الحيوان

وللعصفور فضيلة أخرى، وذلك أنَّ من فضْل الجنْس أن تتميز ذكورتُه في العين من إناثه، كالرجل والمرأة، والدِّيكِ والدجاجة، والفُحال والمُطعِمة، والتَّيْسِ والصفِيَّةِ، والطاوس، والتُّدْرُج، والدُّرَّاج وإناثها.
وليس ذلك كالحِجْر والفرَس، والرَّمَكةِ والبرذَون، والناقة والجمل، والعير والأتان، والأسد واللَّبُوَة، فإن هذه الأجناسَ تُقْبِلُ نحوَك فلا ينفصل في العين الأنثى من الذكر، حتى تتفقدَ مواضع القُنْبِ والأطْباء، وموضِع الضّرع والثِّيل، وموضِعَ ثفْر الكلبة من القضيب.
لأنّ للعُصفور الذَكَرِ لحيَةً سوداء، وليس اللحية إلا للرجل والجمل، والتيس، والدِّيك، وأشباهِ ذلك، فهذه أيضاً فضيلةٌ للعُصفور، وذكر ابنُ الأعرابيِّ أن للناقة عُثْنُوناً كعثنون الجمل، وأنها متى كان عُثنونها أطوَلَ كان فيها أحْمَدَ.

حب العصافير فراخها

وليس في الأرض طائرٌ، ولا سبعٌ ولا بهيمةٌ، أحْنَى على ولدٍ، ولا أشدّ به شعَفاً، وعليه إشفاقاً من العصافير، فإذا أصيبت بأولادها، أو خافتْ عليها العَطب، فليس بينَ شيء من الأجناسِ من المساعدة، مثلُ الذي مع العصافير، لأن العصفورَ يرى الحيَّةَ قد أقبلت نحو جُحره وعُشّه ووَكره، لتأكُلَ بيضه أو فراخه، فيصيح ويُرَنِّق فلا يسمعُ صوته عُصفورٌ إلا أقبل إليه وصنَعَ مِثْلَ صنيعهِ، بتحرُّق ولوعةٍ، وقلَقٍ، واستغاثةٍ وصُراخ، وربما أفلت الفرْخ وسقط إلى الأرض - وقد ذهبت الحيّة - فيجتمعن عليه، إذا كان قد نَبَتَ ريشه أدنى نبات، فلا يزلْنَ يُهَيِّجْنَهُ، ويَطِرْنَ حوله، لعلمها أن ذلك يحدِثُ للفَرْخ قوةً عَلَى النُّهوض فإذا نهضَ طِرْنَ حواليه ودونه، حتى يحتثِثْنَهُ بذلك العمل.
وكان الخُرَيميّ ينشد:

واحْتَثّ كلُّ بازلٍ ذقُون   حتى رَفَعْنَ سَيْرَةَ اللَّجُونِ

وينشد:

واحْتَثَّ مُحْتَثَّاتُهَا الخَدُورا

وتقول العرب: العاشِية تهيجُ الآبية، ولو أن إنساناً أخذ فرْخَيْ عُصْفورٍ من وكره، ووضعهما بحيثُ يراهما أبواهما في منزله، لوجدَ العصفور يتقحّم في ذلك المنزل، حتى يدخل في ذلك القفص، فلا يزالُ في تعهُّدِه بما يُعيشه حتى يستغنِيَ عنه، ثم يحتملانِ في ذلك غاية التغْرير والخِطار؛ وذلك من فرط الرِّقَّة على أولادهما.
ما لا يسمح بالمشي من الحيوان وأجناس الحيوان التي لا تستطيع أن تُسمحَ بالمشي ضروب: منها الضبع، لأنها خُلقت عرْجاء، فهي أبداً تخمَع، قال الشاعر:

وجاءتْ جَيْأَلٌ وأبو بنيها أحَمُّ المَأْقِيَيْنِ به خُمَاعُ

وقال مدرك بن حِصْن:

من الغُثْر ما تَدْري أرجُلُ شمالُها بها الظَّلع إمَّا هَرْوَلَتْ أمْ يَمينُها

والذئب أقزل شَنَجِ النسا، وإن أُحِثَّ إلى المشي فكأنه يتوجَّى.
وكذلك الظَّبيُ، شَنَجُ النَّسا، فهو لا يُسْمِحُ بالمشي، قال الشاعر:

وقُصْرَى شَنَجِ الأنسا ءِ نبَّاحً من الشُّعْبِ

ظبيٌ أشعب: إذا كان بعيد ما بين القرنين، ولا يسمع له نُباح، وإذا أراد العَدْو، فإنما هو النَّقْز والوثب، ورفع القوائم معاً.
ومن ذلك الأسد فإنه يمشي كأنه رَهِيص، وإذا مشى تخلَّع.
قال أبو زبيد:

إذا تبهْنَسَ يمشي خِلْتَهُ وعِثـا وعَتْ سواعدُ منه بعد تكسيرِ

ومن ذلك الفرسُ، لا يُسمِح بالمشْي، وهو يوصف بشَنَجِ النسا.
وقال الشاعر:

شَنَجِ الأنْساءِ من غيرِ فَحَجْ

ومن ذلك الغراب، فإنه يحجِل كأنه مقيَّد، قال الشاعر:

كتاركِ يوماً مشْيةٍ من سَجِيَّةٍ لأخْرى ففاتَتْه فأصبحَ يحجِلُ

وقال الطِّرِمّاح:

شُنُجَ النسا أدفى الجَناح كأنهُ في الدّار بعدَ الظَّاعِنين مُقيَّدُ

والسِّنّورُ، والفَهْد، وأشباهُهما في طريق الأسَد.
والحيَّة تمشي، ومنها ما يَثِب، ومنها ما ينتصِبُ ويقومُ على ذنَبه.
والأفعى إذا نَهَشت أو انباعت للنَّهش، لم تستقلّ ببدنها كلِّه ولكنها تَستقِلُّ ببدنها الذي يلي الرأس، بحركةٍ ونَشْطٍ أسرعَ من اللَّمْح.
والجرادة تطير وتمشي وتطمر، فإذا صِرتَ إلى العصفور ذهب المشي البتّة، وأكثر ما عند البرغوث الطُّمور والوثوب.
وقال الحسنُ بن هانئ يصفُ رجلاً يفْلي القمْلَ والبُرغوث بأنامله:

أو طامريٍّ واثبٍ لم يُنْجِهِ منه وِثابُهْ

لأن البرغوث مشّاء وثّاب.
قال: وقول الناس: طامر بن طامر، إنما يريدون البرغوث.
والعصفور ليس يعرفُ إلا أنْ يجمعَ رجليه ثم يثِب، فيضعهما معاً ويرفعهما معاً، فليس عنده إلا النَّقَزَانُ، ولذلك سُمِّي العصفورُ نقَّازاً.
وهو العصفور والجمع عصافير، ونقَّاز والجمع نقاقيز، وهو الصّعْو، ويزعمون أن العرب تجعلُ الخرّق والقُنْبر، والحُمَّر، وأشباه ذلك كله، من العصافير، والعصفور طَيرَانه نَقزانٌ أيضاً، فهو لا يُسمِحُ بالطيران كما لا يسمح بالمشي.

شدة وطء العصفور

وليسَ لشيء جسمُه مثلُ جسمِ العُصفور مراراً كثيرةً، من شدَّة الوطء، وصلابة الوقع عَلَى الأرض، إذا مشى، أو عَلَى السطح ـ ما للعصفور، فإنك إذا كنتَ تحت السّطح الذي يمشي عليه العصفور حسِبتَ وقْعَه عليه وقْعَ حَجَر.
والكلبُ منعوتٌ بشدة الوطء، وكذلك الخِصْيانُ من كل شيء، والعصفور يَأخذ بنصيبه من ذلك أكثرَ من قِسْط جِسْمِهِ من تلك الأجسام بالأضعاف الكثيرة.
ما يجيد المشي من الحيوان والذُّباب من الطير الذي يجيدُ المشي، ويمشي مشياً سَبْطاً حَثِيثاً، وحسناً مستوياً.
والقطاة مَلِيحةُ المِشْية، مقاربَة الخطو.
وقد توصف مِشْيَةُ المرأةِ بمِشية القطاة، وقال الكُمَيت:

يمشينَ مَشْيَ قطا البُطاح تأوُّداً قُبَّ الْبُطونِ رَوَاجحَ الأكْفَالِ

وقال الشاعر:

يتمشين كمـا تـم شي قطا أو بقراتُ

لأن البقرةَ تتبخترُ في مِشْيتها.
وقلت لابن دَبُوقاء: أي شيء أول التَّشاجي؟ قال: التباهُر والقرْمَطة في المشي، وقال:

دفعتُها فتـدافـعتْ		تمشيَ القطاةِ إلى الغدير

وكلُّ حيوان من ذوات الرجلين والأربع، إذا انكسرت لها قائمة تحامَلَت بالصحيحة، إلا النعامة فإنها تسقُط البتَّة،

سفاد العصفور

قال: وكثرةُ عددِ السِّفاد، والمبالغة في الإبطاء، والدّوامُ في كثرة العدد لضروبٍ من الحيوان - فالإنسانُ يغلبُ هذه الأجناس بأن ذلك دائم منه في جميع الأزمنة، فأما الإبطاءُ في حال السِّفاد فللجمل والورَل والذّبّان والخنازير، فهذه فضيلةٌ لذة لهذه الأجناس والأصناف، فأما كثرةُ العدَد فللعصافير. سفاد التيس

وقد زعم أبو عبد اللّه العتبيّ الأبْرَصُ، وكان قاطعَ الشهادة عند أصحابنا البَصريِّين - أن الذي يقال له المِشْرَطِيُّ قرعَ في يومٍ واحدٍ نيفاً وثمانين قرْعة.
إلا أن ذلك منه ومن مثله ينمحقُ؛ حتى يعودَ جافراً في الأيام القليلة.

تيس بني حِمَّان

وبنو حِمّان يزعمون أن تيسَ بني حِمّان قرَع وألقحَ بعد أن ذُبح، وفخَرُوا بذلك، فقال بعضُ من يهجوهم:

ألهى بَنِي حِمّان عَسْبُ عَتُودِهم		عن المجْدِ حتى أحْرَزَتْه الأكارمُ

زعم لصاحب المنطق وزعمَ صاحبُ المنطق، في كتاب الحيوان، أن ثوْراً فيما سلف من الدهر سَفِدَ وألْقحَ من ساعته بعد أنْ خُصِي.
فإذا أفرط المديحُ وخرجَ من المقدار، أو أفرطَ التعجيبُ وخرج من المقدار - احتاج صاحبُه إلى أن يثبته بالعيان، أو بالخبر الذي لا يكذّبُ مثله، وإلا فقد تعرَّض للتكذيب.
ولو جعلوا حركتهم خبراً وحكاية، وتبرؤوا عن عيْبه - ما ضرَّهم ذلك، وكان ذلك أصْوَن لأقدارهم، وأتمَّ لمروءات كتبهم.

القول في الجناح واليد والرجل

وقالوا: وكلُّ طائر جيِّد الجناح، يكونُ ضعيفَ الرجلين، كالزُّرْزُور والخُطَّاف؛ وجناحاهما أجْود من جناح العصفور، ورجل العُصفور قويَّة.
والجناحان هما يدا الطائر؛ لأنهم يجعلون كلَّ طائر وإنسان ذا أربع: فجناحا الطائر يداه، ويدا الإنسان جناحاه، ولذلك إنْ قُطعت يدُ الإنسان لم يُجِد العَدْو، وكذلك إن قُطِعَتْ رجلُ الطائر لم يُجد الطَّيران.
والدابة قد تقوم على رجلين دون يديها، والإنسان قد يمشي على أربع، قالوا: فهُم

في عدد الأيدي والأرجل سواء، وفي الآلات الأربع؛ إلا أن الآلة تكونُ في مكان ببعض الأعمال أليَقَ، وهو عليها أسهل، فتجذبُها طبائعها إلى ما فيها من ذلك، كمشي الدابة عَلَى يديها، وثِقَل ذلك على الإنسان.
والحمام يضربُ بجناحِه الحمامَ، ويقاتلُه به، ويدفع به عن نفسه، فقوادمه هي أصابعه، وجناحُه هُو يدُه ورجله كالقدم، وهي رجلٌ وإنْ سمّوها كفّاً، حين وجدوها تكفُّ به، كما يصنع الإنسانُ بكفّه.
وكلُّ مقطوع اليدين، وكل من لم يُخلق له يدانِ فهو يصنعُ برجليه عامَّة ما يصنَعُه الوافرُ الخلق بيديه.
وكل سبُع يكون شديدَ اليدين فإنه يكونُ ضعيفَ الرجلين.
وكل شيء من ذوات الأربع، من البراثن والحوافر، فإن أيديَها أكبرُ من أرجُلها، والناس أرجلهم أكبرُ من أيديهم، وأقدامهم أكبر من أكفّهم.
وجعلوا رُكَبَهُم في أرجُلهم، وجعلوا رُكَبَ الدّواب في أيديها.

نفع العصافير وضررها

وللعصافير طبَاهِجَات وقلايا تُدْعَى العصافيريَّة، ولها حَشاوي يطعِمها العوامّ المَفلوجَ، والعوامُّ تأكلها للقوَّة على الجِماع، وعِظامُ سُوقِها وأفخاذِها أحَدُّ وأدْرَب من الإبر، وهي مَخُوفةٌ على المعدة والأمعاء.
وهي تخرِّب السُّقف تخريباً فاحشاً، وتجتلبُ الحيّات إلى منازل الناس؛ لحرْص الحياتِ على ابتلاع العصافير وفراخها وبيضها.

عمر العصفور

والذين زعموا أن ذكورتها لا تعيش إلا سنةً، يحتاجون إلى أن يعرِّفوا الناس ذلك، وكيفَ يستطيعون تعريفَهم؟ وقد تكون القُرى بقُرب المزارع والبيادر مملوءة عصافيرَ، ومملوءة من بَيْضها وفراخها، وهم مع ذلك لم يروْا عصفوراً قط ميتاً.
والذين يزعمون أن الذبابَ لا يعيشُ أكثر من أربعين يوماً، وكانوا لا يكادون يروْن ذبابة ميتة أعْذرُ، لأنهم ذهبوا إلى الحديث، وأصحاب الحديث لا يؤاخذون بما يؤاخَذ به الفلاسفة.
والذين زعموا أن البغل إنما طال عمره لقلّة السِّفاد، والعصفورَ إنما قصُرَ عمره لكثرة السِّفاد وغُلمته - لو قالوا بذلك عَلى جهة الظنِّ والتقريب، لم يلُمْهم أحد من العلماء، والأمور المقرّبة غيرُ الأمور الموجَبة، فينبغي أن يعرفوا فصْل ما بين الموجب والمقرَّب، وفصلَ ما بين الدليل وشبه الدليل ولعلّ طول عمر البغل يكون للذي قالوا، ولشيء آخر.
وليس ينبغي لنا أن نجزمَ على هذه العِلّة فقط، إلا بعد أن يحيط علمنا بأن عمرَه لم يفْضُلْ على أعمار تلك الأجناس إلا لهذه العلّة.

بعض خصال العصفور

والعصفورُ لا يستقرُّ ما كان خارجاً من وكْره، حتى كأنه في دوام الحركة صبيٌّ، له صوت حديدٌ مؤْذ.
وزعموا أن البُلبل لا يستقر أبداً وهذا غَلَطٌ، لأن البُلبل إنما يقْلَقُ لأنه محصورٌ في قفص، والذين عاينوا البلابلَ والعصافير في أوكارها، وغير محصورة في الأقفاص - يعلَمون فضلَ العصفورِ عَلَى البُلبل في الحركة.
فأما صدْق الحِسِّ، وشدَّة الحذَر، والإزكان الذي ليس عند خبيث الطير، ولا عند الغُرَاب إن عند العصفور منه ما ليسَ عندَ جميع ما ذكرنا، لو اجتمعت قوهم، ورُكِّبوا في نصاب واحد.
من ذلك أنه يغمّ بحدَّة صوته بعضَ من يقرُب منه، فيصيح به ويُهوي بيديه إلى الأرض كأنه يريد أن يرميَه بحجر فلا يراه يحفِل بذلك، فإن وقعت يدُه على حصاةٍ طارَ من قبل أن يتمكّنَ من أخذها.
وزعم صاحبُ المنطق أن بين الحِمار وعصفورِ الشَّوك عداوةً، وقال: لأن الحمارَ يدخل الشجر والشّوك، فربما زاحَمَ الموضع الذي فيه وَكْرُه فيبدِّد عُشَّه، وربما نهق الحِمارُ فسقط فرخُ العُصفور أو بيضه من جوفِ وكْره، قال: ولذلك إذا رآه العصفورَ رَنَّق فوقَ رأسه، وعلى عينيه، وآذاه بطيرانه وصِياحه.
وربّما كان العصفورُ أبْلَق، ويصابُ فيه الأصبغ، والجرادِيّ، والأسود، والفيق، والأغْبَس، فإذا أصابوه كذلك باعوه بالثَّمن الكثير.
وقال أبو بدر الأَسَيديّ: قيل لعبد الأعلى القاصّ: لم سمّي العصفورُ عُصفوراً؟ قال: لأنه عَصى وفرّ، وقيل: ولم سمّي الطَّفَشيل طفشيلاً؟ قال: لأنه طفا وشال، وقيل له: لم سمي الكلبُ القَلَطِيُّ قَلَطِيّاً؟ قال: لأنه قلَّ ولَطِئَ، وقيل له: لم سمي الكلبُ السَّلوقيُّ سَلوقيّاً؟ قال: لأنه يستَلّ ويَلقى، قال: وحدّثنا سُفيان بن عيينة، عن عَمرو بن دِينار، عن صُهَيب مولى ابن عامر، عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص، قال: قال رسولُ اللّه صلى الله عليه وسلم: ما مِنْ إنسان يقتل عصفوراً أو ما فوقها بغير حقها إلا سأله اللّه عنها، قيل: يا رسول اللّه: وما حقها؟ قال: أن تذْبحها فتأكُلَها، ولا تقطع رأسَها فترميَ بها.

صياح العصافير ونحوها

ويقال: قد صرّ العصفورُ يصرُّ صريراً، قال: ويقال للعصافير والمَكاكيّ والقنابر، والْخُرّق، والحُمَّر: قد صفَر يصفِرُ صفيراً، وقال طرَفة بنُ العبْد:

يا لَكِ مِنْ قُبَّرة بمعْمَر خَلا لكِ الجوُّ فبيضي واصفِري

ونَقِّري ما شِيتِ أن تُنَقِّري

ويقال: قد نطق العصفور، وقال كثيِّر:

سوى ذِكرةٍ منها إذا الرَّكبُ عَرَّسُوا وهَبَّتْ عصافيرُ الصَّريمِ النواطقُ

ولذِكْر العصفور موضعٌ آخر: وذلك أنَّ العصافير تصيحُ معَ الصُّبح، وقال كلثومُ بنُ عمرو:

يا ليلةً لي بحُوّارينَ ساهرةً   حتى تكلم في الصبحِ العصافير

وقال خلفٌ الأحمر:

فما أصاتَتْ عصافيرُه   ولاحت تَباشِيرُ أرْواقِهِ

غَدَا يَقْتَرِي أُنُفاً عازِباً   ويَلتَسُّ ناضِرَ أوْرَاقِهِ

وقال الوليد بنُ يزيد:

فلما أنْ دنا الصبحُ   بأصواتِ العَصافير

أحلام العصافير

ولها موضع آخر، وذلك أنهم يضربون المثلَ بأحلامِ العصافير لأحلام السُّخَفَاءِ، وقال دُرَيد بنُ الصِّمَّة:

يا آلَ سُفيانَ ما بالي وبالُكمْ   أنتم كثير وفي أحلامِ عُصفور

وقال حسَّانُ بنُ ثابت:

لا بأسَ بالقومِ من طولٍ ومن عِظَمٍ   جسمُ البغالِ وأحلامُ العصافير

ومن هذا الباب في معنى التَّصغير والتَّحقير، قولُ لبيد:

فإنْ تسأَلينا فيمَ نحنُ فإننا   عَصافيرُ من هذا الأنامِ المسحَّرِ

المخدَّع، على قوله:

ونُسحَرُ بالطعامِ وبالشَّرابِ

وقال لبيد:

عَصافيرٌ وذِبّانٌ ودُودٌ   وأجرأ من مُجَلِّحَةِ الذِّئَابِ

فكأنه يخبر عن ضَعْف طِباع الإنسان.
وقال قوم: المسحّر، يعني كلّ ذي سَحْر، يذهب إلى الرئة؛ لقوله:

ونُسْحَر بالطعامِ وبالشراب

قولهم صريم سحر

ولذِكر السَّحْر موضعٌ آخر، يقول الرجلُ لصاحبه: صرَمْت سَحْري منك، أيْ لستُ منك، وقال خُفافُ بن نُدْبة:

ولولا ابنا تُماضِر أن يُساوُوا　　　وأنّي منك غيرُ صَريم سَحْرِ

فكأنه قال: لستُ كذلك منك.
وقال قيسُ بنُ الخطيم:

تقولُ ظعينَتِي لما استَقلّتْ　　　أتَتْرُكُ مَا جَمَعْتَ صَريمَ سَحْرِ

أي قد تركتَه آيساً منه.
وأنشد الآخر:

أيَذْهَبُ ما جمعتُ صَريمَ سَحْرِ　　　ظَلِيفاً أنَّ ذا لهو العجيبُ

كَذَبْتُمْ والّذِي رَفَعَ المعالِي　　　ولمَّا يُخْضَب الأسَلُ الخضيبُ

العصفور والضب

وإذا وصفوا شدّة الحرّ، وصفوا كيفَ يُوفِي الحِرباءُ على العُود والجِذْل، وكيف تلجأ العصافيرُ إلى جِحَرة الضِّباب من شدة الحرّ.
وقال أبو زُبَيد:

أيُّ ساعٍ سعى ليقطع شربي　　　حين لاحتْ للصابح الجوزاءُ

واستكنَّ العصفورُ كرهاً مع الضبِّ وأوفى في عوده الحرباءُ

ونفى الجندبُ الحصى بكراعي　　　هِ وأذْكتْ نيرانها المعزاءُ

من سمومٍ كأنها لفحُ نار　　　صقرتها الهجيرةُ الغراء

وأنشدوا:

تجاوزتُ والعَصفورُ في الجُحْر لاجئٌ مع الضّبِّ والشِّقذانُ تسمو صدورها

قال: الشِّقْذان: الحَرَابيّ، قوله: تسمو أي ترتفع عَلَى رأس العُود، والواحد من الشِّقْذان شَقَذَان، بتحريك القاف وفتح الشين.

عصافير النعمان

وأكرم فحْلٍ كان للعَرَب من الإبل كان يسمى عصفوراً، وتسمى أولاده عصافير النُّعمان.
وكانوا يقولون: صنعَ به الملكُ كذا وكذا، وحَبَاه بكذا وكذا، ووهب له مائة من عصافيره.
وعصفور، ودَاعر، وشاغِر، وذو الكَبْلَيْن: فحولة إبل النعمان.
وعصافير الرَّحْل واحدها عصفور.

عصفور القواس

وعصفور القوّاس إليه تضاف القِسِيُّ العُصفورية، وقد ذكره ابن يَسير حين دعَا على حمام له بالشّواهين، والصُّقورة، والسَّنانير والبنادق، فقال:

من كلِّ أكلفَ باتَ يدجنُ ليلهُ ... فغدا بغدوةِ ساغب ممطور
ضرم يقلب طرفه متأنساً ... شيئاً فكنَّ له من التقديرُ
يأتي لهنْ ميامناً ومياسراً ... صكاً بكلِّ مذلق مطور
لا ينجُ منه شريدهنّ، فإنْ بحا ... شيءٌ فصار بجانبات الدور
لمشمرينَ عن السواعدِ حُسر ... عنها بكلِّ رشيقةِ التوتير
ليس الذي تشوي يداه رمية ... فيهم بمعتذر ولا معذور
ينبوعون مع الشروق غديَّة ... في كل معطيةِ الجذاب نتور
عطف السيات موانع في بذلها ... تعزى إذا نسبتْ إلى عصفور
ينفثْنَ عن جذبِ الأكفِّ سواسياً ... متشابهاتِ صغنَ بالتدوير
تجري لها مهجُ النفوسِ وإنها ... لنواصلٌ سلبٌ من التحسير

ما إن ينى متباينٌ متباعدٌ في الجو يحسر طرف كل بصير

عن سمتهنَّ إذا قصدنَ لجمعهِ متقطراص متضمخاً بعبير

فيؤوب ناجيهنَّ بينَ مجلهق دامٍ ومخلوبٍ إلى منسور

عاري الجناح من القوادم والقرا كاسٍ عليه بصائرُ التامور

شعر في العصفور

وقال أبو السِّريّ، وهو مَعْدَانُ الأعمى المديبريّ، وهو يذكر ظهوراًالإمام، وأشراط خُروجه، فقال:

في زمانٍ تبيض فيه الخَفاف شُ وتُسقى سُلافة الجِرْيَالِ

ويقيم العُصفورُ سِلماً مع الأيْ مِ وتحمِي الذّئابُ لحمَ السِّخالِ

يقول: إذا ظهر الإمامُ فآية ذلك أنْ تبيض الخفافيش - وهي اليومَ تلِدُ - وتحلُّ لنا الخمرُ، وتسالِمُ الحيّاتُ العصافيرَ، والذئابُ السِّخَالَ.
سجود عيسى بن عقبة وروَوْا في طولِ سجودِ عيسى بن عُقبة، أنه كان يطيل ذلك حتى يظنّ العصفورُ أنه كالشيء الذي لا يُخافُ جانبه، وحتى يظنّ العصفورُ أنه سارية، فيسقط عليه.
وذكر عُمَرُ بن الفضل، عن الأعمش، عن يزيد بن حَيّان قال: كان عيسى بن عقبة إذا سجد وقعت العصافيرُ عَلَى ظهره؛ من طولِ سجوده.
وكان محمدُ بنُ طلحة يسجُد حتى إن العصافير ليَسْقُطْنَ على ظهره ما يحسِبَنْه إلا حائطاً.

مثل الشيخ والعصفور

وفي المثل: أنَّ شيخاً نصَبَ للعصافير فخّاً، فارْتَبْنَ به وبالفخ، وضربه البرد، فكلما مشى إلى الفخِّ وقد انضمَّ عَلَى عصفور، فقبض عليه ودقَّ جناحَه، وألقاه في وعائه، دَمعت عينُه مما كان يَصُكُّ وجهَه من برد الشّمال، قال: فتوامَرَت العصافيرُ بأمره وقلن: لا بأس عليكنَّ، فإنه شيخٌ صالحٌ رحيم رقيقُ الدَّمعة قال: فقال عصفورٌ منها: لا تنظروا إلى دموع عينَيه، ولكن انظروا إلى عمل يديه .
استطراد ومن أمثال العامّة للشيء تتعرّفه بغير مَؤُونة: الحجَرُ مَجّان، والعصفور مجّان.
قال: ويقال عصفور وعصفورة، وأنشدَ قوله:

ولو أنها عصفورةٌ لحسبْتَها مُسَوّمَةً تدعو عُبيداً وأزنما

شعر فيما يصوِّره الفَزَع وقال في هذا المعنى جريرٌ، وإن لم يكن ذكر العصفور، حيث يقول:

مازلتَ تحسِبُ كلَّ شيءٍ بَعْدَهم خيلاً تشدُّ عليكمُ ورجالا

قال يُونس: أخذَ هذا المعنى من قولِ اللّه: "يَحْسَبُونَ كلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ العَدُوُّ". وقال الشاعر:

كأن بلادَ اللّهِ وهْيَ عريةٌ عَلَى الخائفِ المطلوبِ كِفّةُ حابل

يُؤَدِّى إليه أنَّ كلَّ ثنيَّةٍ تَيَمَّمَهَا تَرْمِي إليه بقاتل

وقال بشّارٌ في شبيه ذلك:

كأنَّ فؤاده كرةٌ تنزى حذارَ البين لو نفعَ الحذارُ

جفتْ عيني عن التغميض حتى كأنّ جفونها عنه قصارُ

يروعهُ السرارُ بكلِّ أمرٍ مخافة أن يكونَ به السرارُ

وقال عُبيدُ بن أيُّوب: وقال أبان اللاَّحقيُّ:

اخْفِض الصَّوتَ إنْ نَطقْتَ بليلٍ والتَفِتْ بالنهار قبل الكلام

حديث الغاضري ومن مُلَح أحاديثِ الأصمعيّ، قال: حدَّثني شيخٌ من أهل المدينة وكان عاليَ السِّنّ قال: قال الغاضري: كانت هذه الأرضُ لقومٍ ابتدؤوها وشقُّوها، وكانت الثمرة إذا أدركتْ قال قائلهم لقيِّمه: اثلُم الحائط، ليصيبَ المارُّ مما فيه والمعْتَفي، ثم يقول: أرْسِلْ إلى آل فلان بكذا وكذا، وإلى آل فلان بكذا وكذا، فإذا بيعَت الثمرة قال: أرسل إلى فلان بكذا وكذا ودينار، وإلى فلان بكذا وكذا، فيضج الوكيل، فيقول: ما أنت وهذا؟ لا أمَّ لك فلما عُمِرت الأرضون وأغنَّتْ أقطعَها قومٌ سواهم، فإنَّ أحدهم ليسدُّ حائطه، ويصغّر بابَه، ثم يُدْلِجُ فيمرُّ فيقول: ما هذه الثُّلمة؟ ويستطيف من وراء الحائط، فهو أطول من مَعقِل أبي كريز.
وإذا دخل حائطه دخل معه بقذّافة، فإذا رأى العصفورَ على القنا رماه، فيقع العصفورُ مَشْويّاً على قُرْص، والقُرْص كالعصفور.

العصافير الهبيرية

وبحمْص العصافيرُ الهُبَيريّة، وهي تطعم على رفوف، وتكون أسمَنَ من السُّمانَى، وأطيبَ من كلّ طير، وهي تُهدَى إلى ملوكنا، وهي قليلةٌ هناك.

شعر في نطق العصفور

وقال الرَّاعي:

ما زال يركبُ رَوْقيهِ وكَلْكَلـه   حتى اسْتَثَارَ سَفاةً دونَها الـثَّـأَدُ

حتى إذا نَطَقَ العصفورُ وانكشفَتْ   عَمَايةُ الليل عنه وهو مُعتـمِـدُ

وقال الراعي:

وأصْقَر مجدول من القِدِّ مارن   يُلاثُ بعينَيها فيُلْوى ويُطْلَقُ

لَدَى ساعِدَيْ مَهْريّة شَدَنـيةٍ   أُنِيخَتْ قليلاً والعصافيرُ تنطقُ

صيد العصافير

قال: وتُصاد العصافيرُ بأهونِ حيلة، وذلك أنهم يعملون لها مِصْيَدَةً، ويجعلون لها سَلَّة في صورة المِحْبَرة التي يقال لها: اليهودية، المنكوسة الأنبوبة؛ ثم يُنْزَل في جوفها عصفورٌ واحد، فتنقضُّ عليه العصافيرُ ويدْخُلْن عليه، وما دخل منها فإنه لا يجد سبيلاً إلى الخروج منها، فيصيد الرجُلُ منها في اليوم الواحد المئين وهو وادع، وهنّ أسرعُ إلى ذلك العصفور من الطير إلى البُوم إذا جُعِلن في المصائد.
ومتى أخذ رجلٌ فراخ العصافير من أوكارها، فوضعها في قفص بحيث تراها الآباءُ والأمّهات، فإنها تأتيها بالطُّعم على الخطَر الشديد، والخوف من الناس والسَّنانير، مع شدة حذرها، ودِقَّة حسِّها، ليس ذلك إلا لبرّها بأولادها، وشدة حبّها لها.

في العقارب والفأر والسنانير والجرذان

نقول في العقارب والفأرِ والجرذان بما أمكن من القول، وإنما ذكرنا العقاربَ مع ذكرنا للفأر، للعداوة التي بين الفأر والعقارب، كما رأينا أن نذكُر السّنانير في باب ذكر الفأر، للعداوة التي بينهما.
فإن قلت: قد عرَفنا عداوة الفأر للعقرب، فكيف تُعادي الفأرةُ السنّور، والفأرة لا تقاوم السنّور؟ قيل: لعَمري إن جِرذانَ أنطاكِيَة لَتُساجِلُ السنانيرَ في الحربِ التي بينهما، وما يقوم لها ولا يقوى عليها إلا الواحد بَعْدَ الوَاحِد، وهي بخراسان قويَّة جدّاً، وربما قطعتْ أذنَ النائم.
وفي الفأر ما إذا عضَّ قتل، أخبرني أبو يونس الشريطي أنه عاين ذلك.
وأنا رأيتُ سنّوراً عندنا ساور جُرذاً في بيت الحطَب، فأفلَتَ الجُرذُ منه وقد فقأ عينَ

السِّنَّوْر.
قتال الحيوان والقتالُ يكونُ بين الدِّيَكةِ، وبين الكباشِ والكلاب والسُّمَانَى والقبج، وضروبٍ مما يقبل التَّحريشَ، ويواثبُ عند الإغراء.

قتال الجرذان

ويزعمون أنهم لم يَروا قتالاً قطُّ بينَ بهيمتين ولا سبعين أشدَّ من قتال يكونُ بين جُرذين، فإذا ربط أحدُهما بطرَف خيطٍ، وشُدَّ رجْل الآخر بالْطَرَف الآخر من الخيط، فلهما عند ذلك من الخلب والخَمْش والعضِّ، والتَّنْييبِ والعفاس، ما لا يوجد بين شيئين من ذوات العِقار والهراش، إلا أن ذلك ما داما في الرِّباط، فإذا انحلَّ أو انقطع ولَّى كلُّ واحد منهما عن صاحبه، وهربَ في الأرض، وأخذ في خلاف جهته الآخر.
وإن جُعِلا في إناء من قوارير، أعني الجُرذَ والعقرب، وإنما ذكرت القوارير، لأنها لا تستر عن أعيُن الناس صَنيعَهما، ولا يستطيعان الخُروجَ؛ لمَلاسة الحيطان - فالفأرة عند ذلك تختِلُ العقربَ، فإن قبضَتْ على إبرتها قرَضَتها، وإن ضربها العقربُ ضرباً كثيراً فاستنفدتْ سمّها كان ذلك من أسباب حتفها.

قتال العقارب والجرذان

ودخلت مرة أنا وحَمْدان بن الصباح عَلَى عبيد بن الشُّونِيزي فإذا عنده بَرنِيّة زَجاج، فيها عشرون عقرباً وعشرون فأرةً، فإذا هي تقتتل، فخيِّل لي أن تلك الفأرَ قد اعتراها ورمٌ من شدةِ وقع اللسع، ورأيت العقاربَ قد كلَّتْ عنها وتاركتْها، ولم أر إلا هذا المقدارَ الذي وصفت.
وحدثنا عنها عبيدٌ بأعاجيبَ، ولو كان عبيدٌ إسناداً لخبّرت عنه، ولكنَّ موضِعَ البياض من هذا الكتابِ خيرٌ من جميع ما كان لعبيد.

تدبير في الجرذ

وللجُرذِ تدبير في الشيء يأكلُه أو يَحسُوه، فإنه ليَأتي القارورة الضَّيِّقة الرأس، فيحتال حتى يُدْخلَ طرفَ ذَنَبه في عُنقِها، فكلَّما ابتلّ بالدُّهنِ أخرجه فلطعَه، ثم أعاده، حتى لا يدعَ في القارُورة شيئاً.
ورأيتُ من الجرْذان أعجوبةً، وذلك أن الصيادة لما سقطت عَلَى جُرذٍ منها ضخمٍ، اجتمعْن لإخراجه وسلِّ عُنقِه من الصيَّادة، فلما أعجزهنَّ ذلك قرضْنَ الموضِعَ المنضمَّ عليه من جميع الجوانب، ليتسع الخَرْقُ فيجذبْنه، فهجَمْتُ على نُحاتَةٍ لو اعتمَدْتُ بسكين عَلَى ذلك الموضع لظننْت أنه لم يكن يمكنني إلا شبيهٌ بذلك.
وزعم بعضُ الأطباء أن السنورَ إنما يدفِنُ خُرأه ثم يعودُ إلى موضعه فيشتمّه فإن كان يجدُ من ريحه بعدُ شيئاً زاد عليه من التراب، لأنّ الفأرةَ لطيفة الحِسِّ، جيِّدةُ الشّمّ، فإذا وجدَتْ تلك الرائحة عرفَتْها فأمعنَتْ في الهربِ، فلذلك يصنَع السنَّورُ ما يصنَع.

فأرة سيل العرم

ولا يشكُّ الناسُ في أن أرضَ سبأ وجنّتَيها إنما خربتا حين دخلهما سيلُ العرم - والعرم: المسَنّاة - وأن الذي فجَّر المسنَّاة، وسبّب لدخول الماء الفأرة.
والسّيل إذا دخل أخْرَبَ بقدر قوَّته، وقوّتُه من ثلاثة أوجه: إمّا أنْ تدفعه ريحٌ في مكان يفْحُشُ فيه الريح، وإما أن يكون وراءه وفوقه ماءٌ كثير، وإما أن يُصيبَ حَدُوراً عميقاً.

حديث ثمامة عن الفأر

وأما حديث ثمامة فإنه قال: لم أرَ قطُّ أعجبَ من قتال الفأر، كنتُ في الحبْس وحْدي، وكان في البيت الذي أنا فيه جُحرُ فأر، يقابلُه جُحر آخر، فكان الجُرذ يخرُج من أحد الجُحْرين فيرقص ويتوعّد، ويضرب بذنبه، ثم يرفع صدره ويهزُّ رأسه، فلا يزال كذلك حتى يخرجَ الجرذ الذي يقابله، فيصنع كصنيعه، فبينما هما إذ عَدَا أحدُهما فدَخل جُحره، ثم صنع الآخرُ مثلَ ذلك، فلم يزل ذلك دأبَهما في الوعيد وفي الفِرار، وفي التحاجُز وفي ترك التّلاقي، إلا أني في كل مرةٍ أظنُّ للذي يظهَرُ لي من جدهما واجتهادهما، وشدة توعُّدِهما، أنهما سيلتقيان بشيء أهونُه العضّ والخمْش، ولا واللّه إن التقيا قطُّ؟ فعجبتُ من وعيدٍ دائمٍ لا إيقاعَ معه، ومن فِرار دائمٍ لا ثباتَ معه، ومن هرب لا يمنعُ من العَودة، ومن إقدامٍ لا يوجبُ الالتقاء، كيف يتوعّدُ صاحبه ويتوعدُه الآخر؟ وبأيّ شيء يتوعدُه، وهما يعلمان أنهما لا يلتقيان أبداً؟ فإن كان قتالهما ليس هو إلا الصَّخَب والتَّنْييب فلِمَ يفرُّ كلّ واحدٍ منهما حتى يدخل جحره؟ وإن كان غير ذلك فأيّ شيء يمنعهما من الصَّدْمة؟ وهذا أعجبُ.
أطول الحيوان ذماءً وأقصره وتقول العرب: الضبُّ أطولُ شيء ذَماءً.
ولا أعلَمُ في الأرض شيئاً أقصَرَ ذَماءً، ولا أضعَفَ مُنّة ولا أجدَر أن يقتُلَه اليسير من الفأر.

لعب السنور بالفأر

وبلغ من تحرُّزِه واحتياطه، أنه يسكن السقوف، فربما فاجأه السِّنَّور وهو يريد أن يعبُر إلى بيته والسِّنَّور في الأرض والفأرةُ في السّقف، ولو شاءت أن تدخل بيتها لم يكن للسِّنَّور عليها سبيل، فتتحيَّر، فيقول السِّنّور بيده كالمشير بيساره: ارجِع، فإذا رجعت أشار بيمينه: أن عُدْ فيعود، وإنما يطلب أن تَعيا أو تَزْلَق أو يُدَارَ بها، ولا يفعل ذلك بها ثلاثَ مرَّات، حتى تسقط إلى الأرض، فيثبَ عليها، فإذا وثَبَ عليها لعِبَ بها ساعةً ثم أكلها، وربما خلَّى سبيلها، وأظهر التغافل عنها فتمعِن في الهرَب، فإذا ظنّتْ أنها نجتْ وثبَ عليها وثبةً فأخذها، فلا يزال كذلك كالذي يحبُّ أن يسخَرَ من صاحبه، وأن يخدعه، وأن يأخُذَهُ أقوى ما يكون طمعاً في السَّلامة، وأن يُورثه الحسرَةَ والأسَفَ، وأن يلذَّ بتنغيصه وتعذيبه.
وقد يفعل مثلَ ذلك العقابُ بالأرنب، ويفعل مثل ذلك السِّنَّورُ بالعقرب.

أكل الجرذان واليرابيع والضباب والضفادع

وقال أبو زيد: دخلتُ على رُؤبة هو يَمُلُّ جرذاناً، فإذا نضجت أخرَجَها من الجمْر فأكلها، فقلت له: أتأكل الجرذان؟ قال: هي خيرٌ من اليرابيع والضِّباب، إنها عندكم تأكل التَّمْر والجُبْن والسويق والخبز، وتحسُو الزَّيتَ والسمن.
وقد كان ناسٌ من أهل سِيف البحْر من شِقِّ فارس يأكلون الفأر والضفادع، ممقورةً ومملوحة، وكانوا يسمونها: جَنْك جَنْك ووَال وَال.
وقال أوسُ بنُ حجَر:

لحَينَهُمُ لَحّيَ العصَا فطردنَهم	إلى سَنَة جِرذانُها لم تَحَلَّمِ

يقال: تَحَلَّم الصَّبيُّ: إذا بدأ في السِّمَن؛ فإذا زاد عَلى المقدار قيل قد ضَبَّبَ، أي سَمِنَ سِمَناً متناهياً.

مثل وشعر في الجرذ

ويقال: أسْرق من زَبَابَة، والزَّبابة: الفأرة، ويقال: أسْرَق من جُرَذ.
وقال أنس بن أبي إياس لحارثة بن بدرٍ حينَ ولِيَ أرض سُرَّق:

أحار بن بدر قد وليتَ تولايةً	فكنْ جرذاً فيها تخونُ وتسرقُ
وباهِ تميماً بالغنى إنّ للغنى	لساناً به المرء الهيوبةُ ينطق
فإنّ جميعَ الناسِ إما مكذبٌ	يقول بما تهوى وإما مصدقُ
يقولون أقوالا ولا يعلمونَها	وإن قيلَ هاتوا حققوا لم يحققوا
فلا تحقرنْ يا حار شيئاً أصبتَه	فحظكَ من ملك العراقين سرقُ

فلما بلغَتْ حارثةَ بنَ بدر قال: لا يعمَى عليك الرُّشْد.

طلب كثرة الجرذان

قال: ووقفت عجوزٌ عَلَى قيس بن سعد، فقالت: أشكو إليك قلَّةَ الجُرذان، قال: ما ألطفَ ما سألتِ لأمْلأنَّ بيتَك جُرذاناً، تذكر أنَّ بيتها قفْرٌ من الأدَم والمأدوم، فأكثِرْ لها يا غلامُ من ذلك، قال: وسمعت قاصّاً مدينيّاً يقول في دعائه: اللهمّ أكثِرْ جُرذاننا وأقِلّ صِبيانَنا. فزع بعض الناس من الفأر

وبين الفأرِ وبينَ طباع كثير من الناس منافرةٌ، حتى إنّ بعضهم لو وطئ عَلَى ثعبان، أو رُمِيَ بثُعبان - لكان الذي يدخله من المكروه والوَحْشَةِ والفزَع، أيسرَ

مما يدخُله من الفأرة لو رُمِيَ بها، أو وطئ عليها.
وخبرني رجالٌ من آل زائدة بن مقسم، أن سليمان الأزرق دُعِيَ لحيّة شَنْعَاء قد صارت في دارهم، فدخلَتْ في جُحر، وأنه اغتصبها نفسها حتى قبضَ على ما ألفى منها، ثم أدارها على رأسه كما يُصْنَع بالمِخْراق، وأهوى بها إلى الأرض ليضربها بها، فابتَدَرَتْ من حلْقها فأرة كانت ازْدَرَدَتْها، فلما رأى الفأرةَ هرَب وصرخ صرخة، قالوا: فأخذ مشايخُنا الغِلمانَ بإخراج الفأرةِ وتلك الحيّة الشنعاء إلى مجلس الحيّ ليعجِّبوهم من إنسانٍ قتَلَ هذه وفرَّ من هذه.

علة نتن الحيات

وسألتُ بعضَ الحوَّائين ممن يأكلُ الأفاعيَ فما دونها، فقلت: ما بالُ الحيات مُنتنة الجلود والجرُوم؟ قال: أمَّا الأفاعي فإنَّها ليست بمنتنة، لأنها لا تأكل الفأر، وأما الحيَّات عامة فإنها تطلبُ الفأرَ طلباً شديداً، وربما رأيتُ الحيَّة وما يكونُ غلظها إلا مثل غلظ إبهام الكبير، ثم أجدُها قد ابتلعت الجُرذَ أغْلَظ من الذّراع، فأنكرَ نتنَ الحيَّات إلا من هذا الوجه، ولم أر الذي قال قولاً.

رجز في الفأر

ودخل أعرابيٌّ بعضَ الأمصار، فلقِيَ من الجِرذان جَهداً، فرجز بها ودعا عليها، فقال:

يعجلُ الرحمنُ بالعقاب	لعامراتِ البيت بالخراب
حتى يُعجِّلنَ إلى الثياب	كحلُ العيونِ وقصِ الرقاب
مستتبعاتٍ خلفة الأذنابِ	مثل مداري الحصن السلاَّب

ثم دعا عليهنَّ بالسَّنَّور فقال:

أهْوَى لهنَّ أنمَرُ الإهاب	منهرتُ الشِّدْق حديدُ النَّابِ
كأنما بُرْثِنَ بالحِرابِ	

التشبيه بالجرذان

وتُوصَف عضلُ الحفَّار والماتح والذي يعمَل في المعادن، فتُشَبَّه بالجُرْذان، إذا تَفلَّقَ لحمه عن صلابة، وصار زِيَماً، قال الرَّاجز:

أعدَدتُ للوردِ إذا الورْدُ حَفَزْ	غَرْباً جَرُوراً وجُلالاً خُزَخِزْ

وماتِحاً لا ينْثني إذا احـتَـجَـزْ   كأنَّ جوفَ جلدِه إذا احتَـفَـزْ

في كلِّ عُضو جُرَذَينِ أو خُزَزْ

والخُزَزَ: ذكر الأرانب و اليرابيع.

أنواع الفأر

والزَّبابُ، والخُلْد، واليرابيع، والجرذان، كله فأر، ويقال لولد اليرابيع دِرص وأدراص، والخلْد أعمى، لا يزال كذلك، والزّبابُ أصمٌّ، لا يزالُ كذلك، وأنشد:

وهمُ زَبـابٌ حـائرٌ   لاَ تسمعُ الآذانُ رَعْدا

هكذا أنشَدونا.

شعر وخبر في الفأر

وأنشد الأصمعي لمزرِّد بن ضِرار، في تشبيه الجرع في حُلوق الإبل بجثمان الزَّبابِ - وهو الشكل الذي وصفناه - فقال في وصف ضيف له سقاهُ، فوصف جَرْعه:

فقلتُ له اشرب لو وجدتَ بهازراً طوالَ الذري من مفرهاتٍ خناجر

ولكنما صـادفتَ ذوداً مـنـيحة   لمثلكَ يأتي للقرى غير عـاذر

فأهوى له الكفين وامتد حـلـقـهُ   بجرعٍ كأثباج الزبابِ لازنـابـر

وقال أعرابيٌّ وهو يطنِّز بغريم له، ويذكر قرْض الفأر الصِّكاك، عند فراره منه: الزم الصَّكّ لا يقرضه الفأر تهزَّؤوا به:

أهونْ علي بسيار وصفوتـه   إذا جعلتُ ضراراً دون سيار

التابعي ناشراً عندي صحيفتـه   في السوق بين قطينٍ غير أبـرار

جاءوا إليّ غضاباً يلغطون مـعـاً   يشفى إراتهمُ أنْ غابَ أنصـارى

لما أبوا جهرةً إلا مُـلازَمَـتـي   أجمعتُ مكراً بهم في غير إنكار

وقلتُ إني سيأتيني غداً جلبي وإن موعدكم دار ابن هبار

وما أواعدهمْ إلا لأربهمْ عني فيخرجُني نقضي وإمراري

وما جلبتُ إليهم غير راحلة تخدي برحلي وسيفٍ جفنهُ عاري

إنَّ القضاءَ سيأتي دونه زمنٌ فاطو الصحيفة واحفظها من الفار

وصفقةٍ لا يقال الربحَ تاجرها وقعتُ فيها وقوع الكلب في النار

والعربُ تعيبُ الإنسانَ إذا كان ضيِّق الفمِ، أو كان دقيقَ الخطم، يشبّهون ذلك بفمِ الفأرة، وقال عَبْدة بن الطبيب: يشبهون ذلك بفهم الفأرة. وقال عبدة بن الطبيب:

ما معَ أنكَ يومَ الوردِ ذو لغطٍ ضخمُ الجزارة بالسلمين وكارُ

تكفي الوليدة في النادي مؤتزراً فاحلب فإنك حلابٌ وصرارُ

ما كنت أولَ ضبٍّ صاب تلعتهُ غيثٌ فأمرعَ واسترخت به الدارُ

أنتَ الذي لا نرجي نيلهُ أبداً جلد الندى، وغداةَ الروع خوارُ

تدعو بنييكَ عباداً وحذيمة فا فأرة شجها في الجُحر محفارُ

شعر أبي الشمقمق في الفأر والسنور

وقا لأبو الشمقمق في الفأر والسنور:

ولقد قلتُ حين أقفرَ بيتي من جراب الدقيق والفخارَه

ولقد كان آخلاً غير قفر مخصباً خيرهُ كثير العماره

فأرى الفأر قد تجنبن بيتي عائذاتٍ منه بدار الإماره

ودعا بالرحيل ذبانُ بيتي بين مقصوصةٍ إلى طياره

وأقامَ السنورُ منهُ من شدةِ الجو ع وعيش فيه أذى ومراره

قلتُ لما رأيتهُ ناكس الرأ ... س كئيباً، في الجوف منه حراره

ويكَ صبراً فأنتَ من خير سنَّ ... ور رأتهُ عيناي َقطُّ بحاره

قال :لا صبر لي، وكيف مقامي ... ببيوتٍ قفر كجوفِ الحماره

قلتُ :سر راشداً إلى بيت جارِ ... مخصبٍ رحلهُ عظيم التجاره

وإذا العنكبوتُ تغزلُ في دنىِّ وحبِّي الكوز والقرقارَه

وأصابَ الجحامُ كلبي فأضحى ... بين كلبٍ. وكلبةٍ عياره

وقال أيضاً:

ولقد قلتُ حين أجحرني البر ... دُ كما تجحرُ الكلابُ ثعالَه

في بييتٍ من الغضارةِ قفر ... ليس فيه إلا النوى والمخالَه

عطلتهُ الجرذان من قلة الخير ... وطار الذبابُ نحو زُبالَه

هار بات منهُ إلى كلِّ خصبٍ ... جيدة لمْ يرتجينَ منهُ بلالَه

وأقام السنورُ فقيه بشرِ ... يسأل اللهَ ذا العلا والجلالَه

أن يرى فأرةً، فلم ير شيئاً ... ناكساً رأسُهُ لطول الملالَه

قلت لما رأيته ناكس الرأس ... س كئيباً يمشي على شرِّ حالَه

قلتُ صبراً يا نازُ رأسَ السنا ... نير، وعللته بحسن مقالَه

قال :لا صبر لي، وكيف مقامي ... في قفار كمثل بيد تبالَه

لا أرى فيه فأرة أنغض الرأ ... س ومشي في البيت مشي خَيَالَه

قلت :سر راشداً فخارَ لك الله ... ولا تعدُ كربجَ البقالَه

فإذا ما سمعت أنَّا بخير ... في نعيم من عيشةٍ ومنالَه

فائتنــا راشــداً ولا تــعــدونــا إن مـنْ جـازَ رحلنَـا في ضــلالــه

قال لي قولة: عليك سلامٌ غير لعب منه ولا ببطاله

ثمَ ولي كأنه شيخُ سوء أخـرجـوه مـن مـحـبـس بـكـفـالــه

وقال أيضاً:

نزل الـفــأرُ بــبـيـتــي رفـقةٌ مـن بـعــد رفــقــه

حلقـاً بــعــد قــطــارِ نزلـوا بـالـبـيت صَـفـقــه

ابـن عــرس رأس بــيـتــي صاعداً فـي رأس نــبــقــه

سيفــه ســيفٌ جـــديدٌ شقـه من ضـلـع سلــقــه

جاءنـا يطــرق بـــالـــليل فدق الـــبـــاب دقـــــه

دخل الــبــيت جــهــاراً لم يدع فـي البيت فِـلْــقــه

وتــتــرسْ بــرغـــيف وصـفـقْ نـازُويه صـفــقــه

صفقة أبصرتُ منها في سوادِ العين زرقه

زرقة مثل ابنِ عرس أغبـشٌ تـعلوهُ بـلــقــه

وقال أيضاً:

أخذ الفأرُ برجلـي جفلوا منها خِفَافِـي

وسـراويلاتِ سـوء وتبابـينَ ضـعـافِ

درجوا حولي بزفـن وبضربٍ بالـدفـافِ

ساعةً ثمتَ جـازوا عن هوايَ في خلافِ

نقروا استي وبـاتـوا دون أهلي في لحافِي

لعقوا استى وقـالـوا ريحُ مِسك بسـلاَفِ

صفعوا نازويه حتـى استهلّت بالـرُّعـافِ

أحاديث في الفأرة والهرة

يُرْوَى عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: خمسٌ يُورثْنَ النسيان: أكلُ التفاح، وسُؤر الفأرة، والحِجَامةُ في النقرة، ونبذُ القمْلة، والبولُ في الماء الراكد.
وابن جُريج قال: أخبرني أبو الزبير أنه سمعَ جابر بن عبد اللّه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا رَقدْتَ فأغْلِقْ بابَكَ، وخمِّر إناءَكَ، وأوْكِ سِقاءَك، وأطْفِئْ مصباحَك؛ فإن الشيطان لا يفتح غلَقاً ولا يكشف إناءً، ولا يحل وكاءً، وإن الفأرة الفُويسقة تحرِّق على أهل البيت".
قالوا: في قول النبي صلى الله عليه وسلم في السنانير: "إنهنّ من الطّوّافات عليكم"، وفي تفريقه بين سُؤر السِّنَّور وسُؤر الكلب - دليلٌ عَلَى حُبِّه لاتخاذهنَّ، وليْس لاتخاذهنّ وجهٌ إلا إفنَاءَ الفأر وقتلَ الجُرذان، فكأنَّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كما أحبَّ استحياءَ السنانير، فقد أحبَّ إهلاك الفأر.
وعن نافع، عن ابن عُمَر، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: عُذبتِ امرأةٌ في هرّة سجنتْها - ويقال: ربَطتْها - فلم تطعمها ولم تَسْقها، ولم تُرْسِلْهَا تأكل من خَشَاش الأرض.
وعن أبي سلَمة، عن أبي هريرة، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: دخلَتِ امرأةٌ ممن كان قبلكم النارَ في هرَّة ربطتها، فلا هي أطعَمَتهَا، ولا هي تركتْهَا تُصيب من خِشاش الأرض، حتى ماتت فأدخِلَتِ النارَ، كلما أقبلَتْ نهشَتْهَا، وكلما أدْبرتْ نَهَشَتها.
قال: وذكَرَ النبيّ صلى الله عليه وسلم، صاحبَ المِحْجَن يجرُّ قُصْبَه في النار حتى قال: وحتى رأيتُ فيها صاحِبة الهرَّةِ التي ربَطتهَا، فلم تدعْها تأكلُ من خشاش الأرض.

وصف السنور بصفة الأسد

قال ابن يسير في صفة السِّنَّور - فوصفه بصفةِ الأسَد، إلا ما وصفَه به من التنمير، فإن السنوْر يوصفُ بصفة الأسد، إذا أرادوا به الصورةَ والأعضاء، والوثوب والتخَلُّع في المشي، ألا إن في السنانير السودَ والنُّمر والبُلْق، والخلنْجِيَّة، وليس في ألوانِ الأسد من ذلك شيء، إلا كما ترونَ في النوادر: من الفأرة البيضاء، والفاخِتة البيضاء، والوَرَشَان الأبيض، والفَرَس الأبيض - فقال ابن يسير في دعائهِ على حمام ذلك الجار حين انتهى إلى ذكر السنور:

وَخبُعثنِ في مشيهِ متبـهـنـسِ	خطف المؤخر كاملِ التصـديرِ

مما أعِيرَ مفر أغضف ضيغمٍ	عن كلِّ أعصلِ كالسنانِ هصُورِ

متَسربلٍ ثوبَ الدُّجى أوْ غبشةً	شبت على متنيه بالـتـنـمـير

يختصُّ كلَّ سليلِ سابقِ غـايةٍ	محضِ النجارِ مهذبٍ مخبُـورِ

فزعِ الناقة من الهر وإذا وصفوا الناقة بأنها رُواع شديدة التفزُّع، لفَرط نشاطها ومَرَحِهَا، وصفوها بأن هِرًّا قد نُيِّبَ في دفِّها، وأكثرُ ما يذكرون في ذلك الهرّ؛ لأنه يجمعُ العضَّ بالناب، والخمشَ بالمخالب، وليس كل سَبُعٍ كذلك.
وقال ضابئ بن الحارث:

بأدماءَ حُرجُوجٍ ترى تحتَ غَرْزِها	تهاويلَ هِرًّاَوْ تَـهـاويلَ أخْـيَلا

وقد أوس بن حَجَر:

كأنَّ هرّاً جنيباً تحتَ مَغْرضها	والتَفَّ ديكٌ برجْلَيْهَا وخنزيرُ

وقال عنترة:

وكأنَّما ينأى بجانبِ دفِّـهـا ال	وَحْشِيِّ من هَزِج العَشِيِّ مُؤوَّمِ

هِرٍّ جَنيبٍ كلما عَطفَتْ لـه	غَضْبَى اتّقاهَا باليدين وبالفمِ

والفيلُ يفزَعُ من السنَّور فزعاً شديداً.

السنور في الهجاء

ومما يقع في باب الهجاء، للسنور، قول عبد اللّه بن عمرو بن الوليد، في أمِّ سعيد بنت خالد:

وما السِّنَّوْرُ في نَفْسِي بأهلٍ	لِغِزْلانِ الخمائلِ والـبـرَاقِ

فطلِّقها فلَستَ لها بـأهْـلٍ	ولو أعْطيْتَ هِنداً في الصَّداقِ

الرجم بالسنانير

قال صاحب الكلب: قالوا: ولما مات القصبيّ - وكان من موالي بني ربيعة بن حنظلة، وهو عمرو القصبي، ومات بالبصرة - رُجم بالسنانير الميّتة، قال: وقد صنعوا شبيهاً بذلك بخالد بن طليق، حين زعم أهله أن ذلك كان عن تدبير محمد بن سليمان.
وقالوا: ولم نر الناس رَمَوْا أحداً بالكلاب الميّتة، والكلابُ أكثر من السنانير حيَّة وميّتة، فليس ذلك إلا لأن السنانير أحقرُ عندهم وأنتن.
استطراد لغوي قال: ويقال للجرذان العِضلان، وأولاد الفأرِ أدراص، والواحد دِرْص، وكذلك أولاد اليرابيع، يقال: أدراص ودُروص، وقال أوسُ بن حَجَر:

ووِدَّ أبو ليلى طُفيل بن مالكٍ   بمنعرَج السُّوبان لو يتقصَّع

قال: واليرابيع ضربٌ من الفأر، قال: ويقال: نفّق اليربوع ينفّق تنفيقاً إذا عمل النافقاء، وهي إحدى مجاحره، ومحافره، وهي النافقاء والقاصعاء، والدَّامَّاء، والراهِطاء، وقال الشاعر:

فمَا أمُّ الـرُّدَيْنِ وَإنْ أدَلَّـتْ   بعالمةٍ بأخْلاق الـكِرام

إذا الشيطانُ قصَّع في قفاهَا   تنفّقْنَاه بالحَبْـل الـتُّـؤَامِ

فإذا طلِبَ من إحدى هذه الحفائر نافق، أي فخرج النّافقاء، وإن طُلِب من النافقاء قصَّع، ويقال: أنفقته إنفاقاً: إذا صاح به حتى يخرُج، ونَفِقَ هو: إذا خَرَجَ من النافقاء.

احتيال اليربوع

وفي احتيالِ اليرابيع بالنافقاء، والقاصِعاء، والدَّامّاء والرَّاهطاء، وفي جَمْعها الترابَ على نفسِ باب الجُحْر، وفي تقدمها بالحيلة والحِراسة، وفي تغليطِها لمن أرادها، والتَّوريةِ بشيء عن شيء، وفي معرفتها بباب الخديعة، وكيف تُوهِم عَدُوّها خلاف ما هي عليه، ثم في وطئها على زمَعاتها، في السهولة وفي الأرض اللينة، كي لا يعرفَ أثرها الذي يقتَصُّه، وفي استعمالها واستعمال بعض ما يقاربها في الحيلة التوبير - والتوبير: الوطْء على مآخِير أكفّها - العجبُ العجيب.
أنفاق الزباء وزعم أبو عَقيل بن دُرُسْت، وشدَّادٌ الحارثيّ، وحسين الزهريّ أن الزباء الروميّة إنما عمِلت تلك الأنفاق التي ذكرها الشاعرُ فقال:

أقام لها على الأنفاق عَمرٌو   ولم تشعُرْ بأنَّ لَهَا كمينَـا

على تدبير اليرابيع في محافيرها هذه، ومخارجِها التي أعدَّتها ومداخِلها، وعلى قدر ما يفجَؤُها من الأمر.
وأن أهل تُبَّت والرُّوم، إنما استخرجوا الاحتيال بالأنفاق والمطامير والمخارق على

تدبير اليرابيع.
اشتقاق المنافق وإنما سمّى اللّه عزّ وجلّ الكافرَ في باطنه المورِّيَ بالإيمان، والمستتر بخلاف ما يُسِرّ - بالمنافق، على النافقاء والقاصعاء، وعلى تدبير اليربوع في التورية بشيء عن شيء، قال الشاعر:

إذا الشيطانُ قصَّع في قفاها　　　　تنفقّناه بالحَبْل التُّؤَام

وهذا الاسمُ لم يكن في الجاهلية لمن عمِل بهذا العمل، ولكن اللّه عزّ وجلّ اشتق لهم هذا الاسم من هذا الأصل.
كلمات إسلامية وقد علمْنا أن قولهم لمن لم يُحجّ: صَرُورة، ولمن أدرك الجاهلية والإسلام: مخضرم، قولهم وتسميتهم لكتاب اللّه: قرآناً فرقاناً، وتسميتهم للتمسُّح بالتراب: التيمُّم، وتسميتَّهم للقاذف ب فاسق - أن ذلك لم يكنْ في الجاهلية.
وإذا كان للنابغة أن يبتدئ الأسماء على الاشتقاق من أصْل اللغة، كقوله:

والنُّؤيُ كالحَوضِ بالمظْلومة الجَلَد

وحتى اجتمعت العَرب على تصويبه، وعلى اتباع أثره، وعلى أنها لغة عربية - فاللّه الذي لهُ أصلُ اللغةِ أحقُّ بذلك.
شعر شمّاخ في الزّموع وذكر شمَّاخُ بنُ ضرار الزَّموع، وكيف تطأ الأرنبُ عَلَى زَمَعاتها لتغالِطَ الكِلاب وجميعَ ما يطالبها - فذكر بديئاً شأن العَيرِ والعانة، فقال:

إذا ما استْافَهُنَّ ضَرَبْنَ منهُ　　　　مكان الرُّمح من أنف القَدُوع

وقد جعَلتْ ضَغَائِنهنّ تبدُو　　　　بما قد كان نالَ بلا شفيع

مُدِلاَّتٍ يُرِدْنَ النّأيَ منه　　　　وهُنَّ بعَينِ مُرْتَقِبٍ تَبُوع

ثم أخذ في صفة العُقاب، وصار إلى صفة الأرنب فقال:

كأنَّ مُتُونَهُنَّ مولِّياتٍ　　　　عِصِيُّ جناح طالبةٍ لَمُوع

قليلاً ما تريث إذا استفادتْ　　　　غريضَ اللّحم عن ضرمٍ جَزوع

ثم قال:

فما تنفكُّ بين عويرضاتٍ　　　　تجرُّ برأس عكرشةٍ زموع

تطاردُ سيد صاراتٍ، ويوماً | على خزانَ قارتاتن الجوع
تلوذ ثعالبُ الشرفين منهـا | كما لاذ الغريمُ من التبيـع
نماها الغزُّ في قطن، نماها | إلى فرخين في وكر رفيع
ترى قطعاً من الأناث فيها | جماجمهنَّ كالخشل النزيع

والزَّموع: التي تمشي على زَمعاتها: مآخير رِجْليها قال أبو المفضل: توبِّر بيديها، وتمشي عَلَى زَمَعاتها عَلَى رجليها، وهي مواضع الثُّنَن من الدوابِّ، والزَّمَعِ المعلَّق خلفَ الظَّلف من الشاة والظبي والثور، قال: وكل ذلك توْبير، وهو أن تطأ عَلَى مآخير قوائمها، كي لا يعرفَ أثرها إنسانٌ ولا كلب.
وذكر أنها تطاردُ ذئباً مرّةً، وخُزَزاً مرةً، وهو الذَّكر من الأرانب؛ والعِكْرِشة: الأنثى، والخِرْنِق: ولدها، فإذا قلتَ أرنب، أو عُقاب فليس إلا التأنيث، هذه العُقاب، وهذه الأرانب، إلا أن تقول: خزَز.
وقطن: جَبَل معروف، والأحناش: الحيات، وأحناش الأرض:الضبّ، والقنفذ، واليربوع، وهي أيضاً حشرات الأرض، فجعل الحية حنشاً على قولهم: قد آذَتْني دوابٌّ رأسي: يعنون القمل؛ وعلى قوله تعالى: "مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إلا دَابَّة الأرضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ".
قال أبو المفضَّل العنبري: ما أراد إلا الحيّات بأعيانها في هذا الموضع، فإن العِقبان أسرعُ إلى أكل الحيّات، من الحيّات إلى أكل الفأر.
ويدلُّ على أنه إنما أراد رؤوسَ الحيَّات بأعيانِها، قوله:

ترَى قِطعاً من الأحناش فيها | جَمَاجِمُهُنَّ كالخَشَلِ النزيع

لأن أروُسَ الحياتِ سخيفةٌ، قليلة اللّحم والعظام، فلذلك شبَّهها بالخَشَل النزيع، والخشل: المُقْل السخيف اليابس الخفيف.
شعر فيه ذكر المقل والحتيّ قال خلف الأحمر:

سقى حجاجنا نـوء الـثـريا | على ما كان من مطل وبخلِ
هم جمعوا النعالَ فأحرزوها | وسدوا دونها باباَ بـقـفلِ
إذا أهديت فـاكـهةً وشـاةً | وعشر دجائج بعثوا بنـعـل
ومسواكين طولهـمـا ذرَاعٌ | وعشر من رديٍّ المقلِ خشل

فإن أهديتُ ذاك ليحملـونـي   عَلى نَعْل فدقَّ الله رجلـي

أناسٌ تائهـونَ، لـهـم رواءٌ   تغيمُ سماؤهم من غير وبـلِ

إذا انتسبوا ففرعٌ من قـريش   ولكنْ الفعالَ فعالُ عـكـلِ

والحَتِيّ، المقلُ عَلَى وجهه، وقال أبو ذؤيب:

لا دَرَّ درِّيَ إن أطعمتُ نازلَـهـمْ   قِرْفَ الحتيِّ وعندي البُرُّ مكنوز

للسنور فضيلة على جميع أصناف الحيوان ما خلا الإنسان

وإذا قال القائل: فلانٌ وضعَ كتابًاَفي أصناف الحيوان - فليس يدخل فيها الملائكةُ والجنُّ، وعلى هذا كلام الناس.
وللحيوان موضع آخر، وهو قول اللّه عزّ وجلّ في كتابه: "وَإنَّ الدَّارَ الآخرة لَهِيَ الحَيَوانُ".
قد علمْنا أن العُجْم من السِّباع والبهائم، كلما قرُبت من مُشاكلَة الناس كان أشرف لها والإنسان هو الفصيح وهو الناطق.
إطلاق الناطق على الحيوان وقد يشتقُّون لسائر الحيوان الذي يُصَوِّتُ ويصيح، اسم الناطق إذا قرنوه في الذكر إلي الصامت، ولهذا الفرق أعطوه هذه المشاكلة، وهذا الاشتقاق، فإذا تهيأ من لسانِ بعضها من الحروف مقدارٌ يَفضُلُ به عَلَى مقادير الأصناف الباقية، كان أولى بهذا الاسم عندهم،فلما تهيأ للقطاةِ ثلاثة أحرف قاف، وطاء، وألف، وكان ذلك هو صوتها، سمَّوها بصوتها، ثم زعموا أنها صادقةً في تسميتها نفسها قطا، قال الكمِيت:

كالناطقات الـصـادقـا   تِ الواسقاتِ مِنَ الذَّخائرْ

وقال الآخر وذكرَ القطاة:

وصادقةٍ قد خَبّرَتْ ما بـعَـثـتْـهـا   طُرُوقًاَوباقي الليل في الأرض مُسْدِفُ

فجعلها مُخْبرة، وجعل خبرها صدقًا، حين زعمتْ أنها قطًا؛ وإنه كانت القطاة لم تَرُمْ ذلك.
والعرب تتوسع في كلامها، وبأي شيء تفاهَم الناسُ فهو بيانٌ، إلا أن بعضه أحسنُ من بعض، والذي تهيأ للشاةِ قولها: ما، ولذلك قال ذو الرُّمة:

لا يرفعُ الصَّوْتَ إلا ما تخوّنـه   داعٍ يناديه باسم الماء مبغُومُ

وقال أبو عبَّاد النميريّ لخربَق العُمَيري، وكان يتعشَّقه ورآه قد اشترى أُضْحِيَة، فقال:

يا ذابح المـاه مـاه	فعلْتَ فعل الجفاه
أما رَحِمْتَ مِنَ المو	تِ يا خريبق شـاه

والصبيان هم الذين يسمون الشاة: ماه، كأنهم سموْها بالذي سمعوه منها، حينَ جهلوا اسمها.
وقيل لصبي يلعب على بابهم: من أبوكَ يا غلام؟ وكان اسم أبيه كلبًاَ- فقال: وَوْ وَوْ.
وزعم صاحبُ المنطق، أن كل طائر عريض اللسان، والإفصاح بحروف الكلام منه أوجَد.
ولابن آوى صياح يشبهُ صياحَ الصبيان، وكذلك الخنزير، وقد تهيأ للكلب مثلُ: عَفْ عَفْ، ووَوْ وَوْ، وأشباه ذلك، وتهيَّأَ للغراب القاف، وقد تهيَّا للهزاردَسْتان - وهو العندليب - ألوانٌ أخر، وقد تهيَّأ للببغاء من الحروف أكثر، فإذا صرْتَ إلى السنانير وجدتها قد تهيَّأ لها من الحروفِ العددُ الكثير، ومتى أحبَبتَ أن تعرفَ ذلك فتسمّعْ تجاوُبَ السنانير، وتوعُّدَ بعضها لبعض في جوف الليل، ثم احص ما تسمعه وتتبَّعْه، وتَوَقَّفْ عنده، فإنك ترى من عدد الحروف ما لو كان لها من الحاجات والعقولِ والاستطاعات؛ ثمّ ألّفتْهَا لكانت لغة صالحة الموضع، متوسِّطة الحال، العلة في صعوبة بعض اللغات واللغاتُ إنما تشتدُّ وتعسُرُ عَلَى المتكلم بها؛ عَلَى قدْر جهله بأماكنها التي وُضعت فيها، وعَلَى قدْر كثرةِ العدد وقلّته، وعلَى قدْر مخارجها، وخفَّتها وسَلَسهَا، وثقلها وتعقُّدِها في أنفسها، كفرق ما بين الزّنْجي والخُوزي فإن الرجل يتنخَّس في بيع الزّنج وابتياعهم شهراً واحداً فيتكلَّمُ بعامّة كلامِهم، ويبايع الخُوزَ، ويجاورُهم زمانًاَفلا يتعلَّق منهم بطائل.
والجملة: أنَّ مِنْ أعْوَنِ الأسباب عَلَى تعلُّم اللغة فرط الحاجةِ إلى ذلك، وعلى قدْر الضرورة إليها في المعاملةِ يكونُ البلوغُ فيها، والتقصير عنها.
مناسبة الهر للإنسان والسنور يناسبُ الإنسان في أمور: منها أنه يعطِسُ، ومنها أنه يتثاءَب، ومنها أنه يتمطّى ويغسل وجهه وعينَيه بلعابه، وتلطع الهرّةُ وبرَ جلدِ ولدِها بعد الكبر، وفي الصغر، حتى يصير كأن الدهان تجري في جلده.
ما يتهيأ للغربان من الحروف ويتهيأ لبعض الغِرْبان من الحروف والحكايةِ ما لا يَعْشِره الببغاء.

نفع الفأر

وزعمت الأطباء أن خُرْءَ الفأر يُسقاهُ صاحبُ الأسر فيُطْلَق عن بوله، والأسر هو حُصر البول ولكن لا يسمّى بذلك، وهو الأسر بالألف، دون الياء.
ويصيب الصبيَّ الحُصر فيحتمل من خرْء الفأر فيُطْلق عنه، فقد تهيأ في خرء الفأر

دواءان لداءين قاتلين مجْهزين، ولذلك قيل لأعرابيّ قد اجتمعتْ فيه أوجاعٌ شداد: أيَّ شيءٍ تشتكي؟ قال: أمّا الذي يعْمدني فحُصرٌ وأُسْر.

استطراد لغوي

يقال: خَثَى الثور يَخْثي خثيًا، وواحد الأخثاء خِثيٌ كما ترى.
ويقال: خَزق الطائر، وذَرَق، ومَزَق، وزَرق.
قال ابنُ الأعرابيّ: لا يكون النّجوُ جَعراًحتى يكون يابساً.
ويقال: ونَم الذُّبابُ، واسم نجوه: الونيم، وقال الشاعر:

وقد وَنَمَ الذُّبابُ عليه حتى كأنَّ ونِيمهُ نَقْط المِـدَادِ

وهو ونِيم الذُّباب، وعُرَّة الطائر، وصوم النّعام، ورَوث الحمار وبعر البعير والشاةِ والظبي، وخِثي البقر.
وقال الزُّبير: منْ أهْدَى لَنَا مِكْتلاً من عُرَّةٍ أهدَيْيَا لهُ مِكْتَلاً منْ تمر.
قال: العرَّة اسمٌ لجميع ما يكونُ من جميع الحيوان، ولذا قال الزبيرُ ما قال.
قال: ويقال: رَمَصَت الدجاجة، وذرقت، وسَلَحت، فرذا صاروا إلى الإنسان والفأرة قالوا: خرء الإنسان وخُرء الفأرة، ويقال خروءة الفأرة أدخلوا الهاء، فيه، كما قالوا ذكورة للذُّكران، وقد يُستعار ذلك لغير الإنسان والفأرة، قالت دَخْتَنُوس بنتُ لقيط بن زُرارة، في يوم شِعب جَبَلَة:

فرّت بنو أسَدٍ خـرو ءَ الطَّير عن أربابها

فلذلك يقال لبني أسد: خروء الطير، وقيل لهم: عبيد العَصَا.
ببيت قاله صاحبهم بشر بن أبي خازم، قالها لأوس بن حارثة:

عَبيدُ العَصَا لـمْ يَتَّـقُوكَ بـذمةٍ سوى سَيب سُعْدَى إنّ سَيْبَك واسعُ

ميسم الشعراء

فيحبُ على العاقل بعدَ أن يعرف مِيسم الشّعرُ مَضرّتَه، أن يتَّقِي لسانَ أخسِّ الشُّعراء وأجهلهم شِعراً بشِطْر ماله؛ بل بما أمكَن من ذلك، فأما العربيُّ أو المولى الرَّاوية، فلو خرجَ إلى الشعراء من جميع مِلكه لما عنّفْتُه.
والذي لا يكثرث لوقع نِبَال الشعر، كما قال الباخَرْزيّ:

ما لي أرَى الناسَ يأخُذُونَ ويُعطُو نَ ويستَمْتعون بـالـنَّـشَـبِ

وأنتَ مثْلُ الحـمـار أبـهَـمُ لا تشكو جراحاتِ ألْسُنِ الـعَرَبِ

ولأمر مّا قال حذيفةُ لأخيه، والرماحُ شوارعُ في صدره: إياك والكلاَمَ المأثور.
وهذا مذهبٌ فَرَعتْ فيه العربُ جميع الأمم، وهومذهبٌ جامع لأسباب الخير.

استطراد لغوي

قال: ويقال لموضع الغائط: الخَلاء، والمذْهب، والمخْرَج، والكنيفُ والحُشُّ، والمرحاض، والمِرْفق.
وكل ذلك كناية واشتقاق، وهذا أيضًاَيدلك على شدة هربهم من الدناءة والفُسولة، والفحْش والقذَع.
قال: وعن اليزيديّ: رجع الرجُلُ، من الرجيع.
وخبرني أبو العاص عن يونس، قال: ليس الرجيع إلا رجيعَ القول والسَّفر والجِرَّة، قال اللّه تعالى: "والسّماءِ ذاتِ الرَّجْع" وقال الهذليُّ وهو المتنخِّل:

أبيضَ كالرّجْع رسوبٌ إذا ما ثاخ في مُحْتَفَلٍ يَخْتلي

وفي الحديث: فلما قدِمنا الشامَ وجدْنا مرافقهم قد استُقْبلَ بها القِبْلة، فكنَّا ننحَرف ونستغفرُ اللّه،

شعر ابن عبدل في الفأرة والسنَّور

وقال ابن عَبدَل في الفأرة والسنَّور:

يا أبا طلحةَ الجوادَ أغثنـي بسجالي من سيبك المقسوم

أحي نفسي فدتك نفسي فإني مفلسٌ قد علمتَ ذاك عديم

أو تطوعْ لنا بسلفِ دقيق أجرُه إن فعلتَ ذاك عظيمْ

قد علمتُم فلا تعامس عنِّـي ما قضى الله في طعام اليتيم

أراد: لا تعامَسُوا، فاكتفى بالضمة من الواو، وأنشد:

فلو أنَّ الأطبَّاء كـان حولـي وكان مع الأطبـاء الأسـاة

ليس لي غيرُ جرة وأصيص وكتابٍ منمنـمٍ كـالـوشـوم

وكساء أبيعه برغيفٍ قد رقعنا خروقه بـأديمْ

وإكاف أعارنيه نَشِيطٌ هو لحافٌ لكلِّ ضيف كـريمْ

ونبيدٍ مـمـا يبـيع صُـهـيبٌ   يذر الشيخَ رمحـه مـا يقـومْ

ربٍّ حلا فقد ذكرتُ أصيصي   ولحافي حتى يغورَ النـجـومْ

كل بيت عليه نصفُ رغيف   ذاك قسمٌ عليهـمُ مـعلـومْ

فر منه موليا فـارُ بـيتـي   ولقد كان سـاكـنـاً مـا يريمْ

قلتُ :هذا صومُ النصارى فحلوا   لا تليحُوا شيوخَكم في السَّمـومْ

ضحكَ الفأرُ ثم قلن جـمـيعـاً   أهو الحقُّ كـلَّ يومٍ تـصُـومْ

قلتُ :إن البراء قد قامَ فـي ال   ناس بإذنٍ وأنتَ فـينـا ذمـيمْ

حملوا زادهم على خنفسـات   وقـراد مـخـيس مـزمُـومْ

وإذا ضفـدعٌ عـلـيه إكـاف   علموه بعد النفـار الـرسـيمْ

خطموا أنفهُ بقطعة حـبـل   يا لقومي لأنفِه المـخـطُـومْ

تصبُوا منجنيقهم حولَ بـيتـي   يا لقومي لبيتـيَ الـمـهـدومْ

وإذا في الغبـاء سـمٌّ بُـرَيص   قائمٌ فوقَ بـيتـنـا بـقـدومْ

قلتُ :بيتُ الجرينِ مجمعُ صدق   كان قدماً لجمعكم مـعـلـوم

قلنَ :لولا سنورتاهُ احـتـفـرنـا   مسكناً تحتَ تمرهِ المـركـوم

إن تُلاق سنـورَتَـاهْ فـضـاءً   تذرانا وجمْعُنـا كـالـهـزيمْ

عششَ العنكبوت في قعر دنـى   إن ذا من رَزِيتي لـعـظـيم

ليتني قد غمرت تدنى حـتـى   أبصرَ العنكبوتَ فـيه يعـومْ

غرقاً لا يغيثـه الـدهـرَ إلا   زبدٌ فـوقَ رأسـهِ مـركـوم

مخرجاً كفه ينادي ذبابـاً   أنْ أغثني فإنني مظلوم

قال ذرني فلنْ أطيقَ دنواً　　من نبيذ يشمه المزكوم

وقال في الفأر والسنور:

قد قثال سنورنا وأعهدهُ　　قد كان عضباً مقوهاً لسنا

لو أصبحت عندنا جنازتها　　لحنطت واشترى لها كفنًا

ثم جمعنْا صحابتي وغدوا　　فيهم كريبٌ يبكي وقام لنا

كلُّ عجوزٍ حلو شمائلـها　　كانت لجرذانٍ بيتنا شحنـا

من كلِّ حدباء ذاتِ خشخشةٍ　　أو جرذٍ ذي شوارب أرنا

سقياً لسنورةٍ فجعتُ بـها　　كانت لميثاء حقبةً سكنـا

ضروب الفأر

قال: والفأر ضروب: فمنها الجُرذان والفأر المعروفان، وهما كالجواميس والبقر، وكالبُخْت والعِراب، ومنها الزباب، ومنها الخُلدْ، واليرابيع شكلٌ من الفأر، اسم ولدِ اليربوع دِرص، مثل ولد الفأر.
ومن الفأر فأرةُ المِسك، وهي دويْبةٌ تكونُ في ناحية تُبّت، تصادُ لنوافجها وسُرَرِها، فإذا اصطادها صائدٌ عصَب سُرّتَها بعصاب شديد، وسُرّتها مدلاة، فيجتمع فيها دمها فإذا أحكَم ذل ذبحها.
وما أكثر من يأكلها - فإذا ماتت قوّر السرةَ التي كان عصبَها له والفأرة حيّة، ثم دفنها في الشعير حتى يستحيلَ ذلك الدمُ المحتقِنُ هناك، الجامدُ بعد موتها، مِسكاً ذكياً، بعد أن كان ذلك الدَّمُ لا يُرام نَتْناً.
قال: وفي البيوت أيضاً قد يوجد فأرٌ مما يقال له: فأر المسك، وهي جرذانٌ سودُ ليس عندها إلا تلك الرائحة اللازمةُ له.
قال: وفي الجِرذان جِنْسٌ لها عبثٌ بالعقود والشُّنوف، والدراهم والدنانير، على شبيه بالذي عليه خُلُق العَقعَق؛ إلا أن هذه الجرذان تفرح بالدنانير والدراهم، وبخشخاش الحلي، وذلك أنها تخرجُها من حجورها في بعض الزمان، فتلعب عليها وحواليها، ثم تنقلها واحداً واحداً، حتى تُعيدَها عن آخرها إلى موضعها.
فزعم الشَّرقيُّ بنُ القُطاميّ - وقد رَوَوْهُ عن شَوكَر أن رجلاً من أهل الشام اطّلع على جُرُذ يُخرجُ من جُحره ديناراً ديناراً، فلما رآه قد أخرج مالاً صالحاً استخفَّه الحِرصُ، فهمّ أن يأخُذَهُ، ثم أدركه الحزْم، وفتح له الرزقُ المقسوم باباً من الفطنة، فقال: الرأيُ أن أمْسِك عن أخذه ما دامَ يخرجُ، فإذا رأيتُهُ يُدخِلُ فعند أوَّلِ دينار

يغيّبه ويُعيده إلى مكانه أثِبُ عليه، فأجترفُ المال.
قال: ففعلتُ وعدتُ إلى موضعي الذي كنتُ أراه منه، فبينما هو يُخْرجُ إذ ترك الإخراج، ثم جعل يرقصُ ويثبُ إلى الهواء، ويذهبُ يَمنة ويَسرةً ساعة، ثم أخذ ديناراً فولَّى به، فأدخله الجُحر، فلما رأيتُ ذلك قمتُ إلى الدنانير فأخذتها، فلما عادَ ليأخذَ ديناراً آخر فلم يجد الدنانير أقبل يثبُ في الهواء، ثم يضربُ بنفسه الأرضَ، حتى مات.
وهذا الحديثُ من أحاديثِ النساء وأشباه النساء.

باب آخر يدَّعونه للفأر

وهو الذي ينظر فيه أصحاب الفِراسة في قرض الفأر، كما ينظر بعضهم في الخيلان، وفي الأكتاف، وفي أسرار الكفّ: ويزعمون أنَّ أبا جعفر المنصور نزلَ في بعض القُرَى، فقرض الفأرُ مِسْحاً له كان يجلسُ عليه، فبعث به ليُرفَأ، فقال لهم الرفَّاء: إنَّ هنا أهل بيتٍ يَعْرفون بقرضِ الفأر ما ينال صاحب المتاعِ من خير أو شر، فلا عليكم أن تعرضوه عليهم قبل أن تصلحوه، فبعث المنصورُ إلى شيخهم، فلما وقعت عينُه على موضع القرضِ وثب وقام قائماً ثم قال: مَن صاحبُ هذا المِسح؟ فقال المنصور: أنا، فقام ثم قال: السلامُ عليك يا أميرَ المؤمنين ورحمة اللّه وبركاتُه واللّه لَتَلِيَنَّ الخِلافة أو أكون جاهلاً أو كذاباً.
ذكر هذا الحديث عَمرو بن مجمِّع السَّكوني الصَّريمي وقد قضَى على بعض البلدان.

فأرة المسك

وسألت بعضَ العطارين من أصحابنا المعتزلةِ عن فأرةِ المسكِ فقال: ليس بالفأرة، وهو بالخِشف أشبه، ثم قصَّ عَلَيَّ شأن المسك وكيف يُصْطنع، وقال، لولا أنَّ رسولَ اللّه صلى الله عليه وسلم قد تطيَّب بالمِسْكِ لَمَا تطيّبْت به، فأَمَّا الزبادُ فليس مما يقرب ثيابي منه شيء. قلت له: وكيف يرتَضِع الجديُ من لَبَنِ خنزيرة فلا يحرمُ لحمه؟ قال: لأنَّ ذلك اللبن استحال لحماً، وخرجَ من تلك الطبيعة، ومن تلك الصورة، ومن ذلك الاسم، وكذلك لحومُ الجلاَّلة، فالمسكُ غيرُ الدَّم، والخَلُّ غير الخمر، والجوهرُ ليس يحرُم بعينه، وإنما يحرم للأعراض والعِلَل، فلا تَقزَّزْ منه عند تذكرك الدَّم الحقين؛ فإنه ليس به، وقد تتحوَّل النار هواءً، والهواءُ ماءً، فيصير الشبه الذي بين الماء والنار بعيداً جدّاً.

بيت الفأر

والجِرذانُ لا تحفِرُ بيوتها على قارعةِ طريق، وتجتنبُ الخفض؛ لمكان المطر، وتجتنبُ الجوَادَّ؛ لأن الحوافر تهدمُ عليها بيوتها، فإذا أخرجها وقعُ حافر فرس، مع هذا الصَّنيع، دلّ ذلك على شدة الجري والوقع، وقال امرؤ القيس يصفُ فرسَه:

فللسوطِ ألهوبٌ وللرجل درةٌ وللزجر منه وقعُ أهوَجَ منعبِ

فأدرك، لَمْ يعرق مـنـاطُ عذارهِ يدرُّ كخُذْرُوفِ الوليد الـمـثـقـبِ

ترى الفأر في مستعكد الأرض لاجئاً إلى جَدَدِ الصحراء من شدِّ مُركـبِ

خفاهُنَّ: أظهرهنَّ، وقرأ بعضهم: "إنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أكَادُ أَخْفِيها"، بفتح الألف؛ أي أظهرها، وقال امرؤ القيس:

فإن تَدْفِنُوا الداءَ لا نَخْفِـهِ وإن تبعثوا الحربَ لا نقعُدِ

وقال أعرابيّ: إن بني عامرٍ جَعَلَتنِي على حنديرة أعينُها، تريد أن تختفيَ دمي.
استطراد لغوي وقال أبو عبيدة: أربعة أحرف تهمزُها عُقيل من بين جميع العرب، تقول: فأرة، ومُؤْسَى، وجُؤْنة، وحُؤت.
فأصناف ما يقع عليه اسمُ الفأرة: فأرة البيش، وفأرة البيت، وفأرة المِسْك، وفأرة الإبل، وفي فأرة المسك يقول حُمَيْدٌ الأرقط:

مَمْطورَةً خالَط منها النَّشْرُ ذا أرَجٍ شُقّقَ عنه الفـأرُ

وفي فأرة الإبل قال الشاعر:

كأنّ فأرة مِسْك في مباءتـهـا إذا بدا من ضياء الصُّبح تبشيرُ

وهذا شبيهٌ بالذي قال الراعي - وليس به -:

تبيتُ بناتُ القفْر عند لَبَـانِـهِ بأحْقَفَ من أنقاء تُوضحَ هائلِ

كأنّ القِطارَ حرَّكتْ في مَبيته جَذِيّة مِسكٍ في مُعَرَّس قافِلِ

الأصمعي وأبو مهدية قال الأصمعيّ: قلت لأبي مهدية: كيف تقول: لا طيبَ إلا المِسْك؟ قال: فأين أنتَ من العنبر؟ قال: فقلت: لا طيب إلا المسك والعنبر، قال: فأين البان؟ فقلتُ: لا طيب إلا المسك والعنبر والبان، قال: فأين أنت عنْ أدهان بحَجْر؟ قال: فقلت: لا طيب إلا المسك، والعنبر، والبان، قال: فأين أنت عن أدهان بحجرْ؟ قال: فقلت: لا طيب إلا السك، والعنبر، والبان، وأدهان بحَجْر، قال: فأين فأرة الإبل صادرة؟ قال الأصمعيّ: وفأرة الإبِل.

فأرة البيش والسمندل

وفأرة البيش دويَّبة تغْتذِي السُّمومَ فلا تضرها، والبيش سمّ، وحكمه حُكم الطائر الذي يقال له: سَمَنْدَل؛ فإنه يسقُط في النار فلا يحترق ريشَه.
ما لا يقبل الاحتراق ونُبِّيت عن أمير المؤمنين المأمون أنه قال: لو أخِذَ الطُّحْلَب فجفف في الظِّلِّ، ثم أسقِط في النِّيران لم يحترق.
ولولا ما عاينوا من شأن الطَّلْق والعُود الذي يُجاء به من كَحِرْ لاشتدَّ إنكارهم.
وزعم ابن أبي حرب أن قيساً راهنَ عَلَى أن الصليبَ الذي في عُنقه من خشبٍ، أنه لا يحترق؛ لأنه من العود الذي كان صُلب عليه المسيح، وأنه كان يفْتن بذلك ناساً من أهل النظر، حتى فطن له بعضُ المتكلمين، فأتاهم بقطعة عودٍ يكون بكِرمان، فكان أبقى عَلَى النار من صليبه.

مساوي السنانير

قال صاحب الكلب: والسنور لصٌّ لئيم، وشَرَهٌ خَوُون، فمن ذلك أن صاحب المنزل يرمي إليه ببعض الطعم، فيحتمله احتمالَ المُريب، واللصِّ المغير، حتى يُولج به خَلْفَ حُبّ أو رَاقود، أو عِدْلٍ أو حطب، ثم لا يأكله إلا وهو يتلفَّت يميناً وشمالاً، كالذي يخافُ أن يُسْلَبَ ما أُعطيَ، أو يُعْثَرَ على سَرِقته فيعاقب، ثم ليس في الأرض خِبْثَةٌ إلا وهو يأكلها، مثل الخنافس والجِعْلان، وبناتِ وَردان، والأوزاغ، والحيّاتِ، والعقاربِ، والفأر، وكلِّ نتن وكل خبْثة، وكلِّ مستقذر. وهذه الأنعامُ تدخل الغيض، فتجتنبُ مواضع السموم بطبائعها، وتتخطاها ولا تلتفت لِفْتها، وربما أشكل الشيءُ على البعير، فيمتَحِنُه بالشَّمة الواحدة، فلا تغلط الإبلُ إلا في البيش وحده، ولا تغلط الخيل إلا في الدِّفلى وحدَه.
والسنانيرُ تموت عن أكْل الأوزاغ والحيّات والعقارب، وما لا يحصى عدده من هذه الحشرات، فهذا يدلُّ عَلَى جهل بمصلحةِ المعاش، وعَلَى حسٍّ غليظ وشَرَهٍ شدِيد.
هَيْج الحيوان قالوا: وكل أنثى من جميع الحيوان، ما خلا المرأةَ، فلا بدَّ لها من هَيج في زمان معلوم، ثم لا يُعْرف ذلك منها وفيها إلا بالدلائل والآثار، أو ببعض المعاينة.
وإناثُ السنانير، إذا هجن للسِّفاد، آذَيْن بصياحهنَّ أهلَ القبائل ليلاً ونهاراً، بشيء ظاهر قاهر عليّ، لا يعتريهن فترةٌ ولا مَلالةٌ ولا سآمة، فربَّ رجُل حُرٍّ شديدِ الغَيرة، وهو جالسٌ مع نسائه وهُنَّ يتردّدْن عَلَى مثل هذه الهيئة، ويصرُخْن في طلب السِّفاد، فكم من حرة قد خجِلت، وحُرّ قد انتقضت طبيعته.
وليس لشيء من فحولتها مثلُ ذلك، فكل جنس في العالم من الحيوان فذكورته أظهر هيجاً، إلا السَّنانير.
وليس لشيء من فحولة الأجناس مثلُ الذي للجمل من الإزباد، وهِجْران الرَّعْي، وتركِ الماء، حتى تنضمَّ أياطله، ويتورَّمَ رأسُه، ويكون كذلك الأيامَ الكثيرة، وهو في ذلك الوقت لو حُمِّل على ظهره - مع امتناعه شهراً من الطعام - ثلاثةَ أضعافِ حِمْله لحملَهَا.
المكي وإسماعيل بن غَزْوان ونظر المكيّ إلى جمل قد أزبدَ وتلغّم، وطار على رأسه منه كشقق البرْسِ، وقد زمّ بأنْفه، وهو يهدر ويقبقب، لا يعقل شيئاً إلا ما

هو فيه، فقال لإسماعيل بن غزوان: واللّه لودِدْت أن أهل البصرةِ رأوني يوماً واحداً إلى الليل عَلَى هذه الصفة، وأنّي خرجتُ من قليلِ مالي وكثيره فقال له إسماعيل: وأي شيء لك في ذلك؟ قال: كنت واللّه لا أصبح حتى يوافِيَ داري جميعُ نساء أهل البصرة، وجَواريكَ فيهنَّ فلا أبدأ إلا بهنّ قال إسماعيل: إنك واللّه ما سبقتَني إلا إلى القول، وأما النية والأمْنيَّة فأنا واللّه أتمَنَّى هذا منذ أنا صبيٌّ.
حال بعض الحيوان عند معاينة الأنثى وللحمار والفرَس عندَ معايَنَةِ الحِجْر والأتان هَيْجٌ وصياحٌ، وقلق وطلب، والجملُ يقيم على تلك الصِّفةِ عاين أو لم يعاين، ثم يُدنى من هذه الذُّكورة إناثُها فلا تسمحُ بالإمكان إلا بعد أن تسوَّى وتُدَارَى.

مقارنة بين السنور والكلب

قالوا: والسنانير إذا انتقل أربابها من دارٍ إلى دار، كان وطنُها أحبَّ إليها منهم، وإن أثبَتت أعيانهم، فإن هم حوّلوها فأنكرت الدار لم تقِمْ عَلَى معرفتهم، فربما هربت من دارهم الحادثة ولم تعرف دارَهم الأولى، فتبقى متردِّدة: إما وحْشية، وإما مأخوذةً، وإما مقتولة.
والكلب يخلّي الدار، ويذهب مع أهل الدار، والحمام في ذلك كالسنور.

اختلاف أثمان السنور

قال صاحب الكلب: السنور يسوَى في صغره دِرهماً، فإذا كبر لم يَسْوَ شيئاً، وقال العمّيّ:

فإنَّكَ فيما قد أَتَيْتَ من الْخَـنَـا سَفَاهاً وما قد ردْتَ فيهِ بإفراطِ

كسِنَّوْر عَبْدِ اللّه بيعَ بـدِرْهَـمٍ صغيراً فلمّا شَبَّ بيعَ بقيراطِ

وصاحب هذا الشعر، لو غبرَ مع امرئ القيس بن حُجْر والنابغةِ الذُّبياني، وزهير ابن أبي سُلْمَى، ثم مع جرير والفرزدق، والراعي والأخطل، ثم مع بشار وابن هَرْمة، وابن أبي عُيينة، ويحيى بن نوفل وأبي يعقوب الأعور، ألف سنة - لما قال بيتاً واحداً مرضياً أبداً.
وقد يضاف هذا الشعر إلى بشَّار، وهو باطل.
حُلاق الحيوان وزعم لي مَنْ لا أردُّ خبرَه، أن الحُلاقَ قد يَعرض للسنانير، كما يعرض للخنازير والحمير.
وزعم لي بعضُ أهل النظر، أنّ الزّنج أشبهوا الحميرَ في كلِّ شيء، حتى في الحُلاق؛ فإنه ليس على ظهرها زنجيٌّ إلا وهو حَلَقيّ.
وقد غلط، ليس عليها زنجيٌّ عليه مَؤُونة من أن يُنَاك، وليس هذا تأويلَ الحُلاق، وتأويلُ الحُلاق أن يكون هو الطالب.
والنبيذ يهتِكُ ستر الحَلَقيّ، وينقُضُ عزْمَ المتجَمِّل، وهم يشربون النبيذ أبداً، وسوءُ الاحتمال له، وسرعة السكْر إليهم عامٌّ فيهم. وعندنا منهم أممٌ، فلو كان هذا المعنى

حقّاً لكان علمُه ظاهراً، فخبَّرني صاحبُنَا هذا أن في منزل أبي يوسف يعقوب بن إسحاق الكِنْدي هرّين ذكرَين عظيمين، يكومُ أحدُهما الآخَر، وذلك كثيراً ما يكون، وأن المنكوحَ لا يمانعُ الناكحَ، ولا يلتمسُ منه مثلَ الذي يبذله له.

أكل الهرة أولادها

قالوا: والهرة تأكل أولادَها، فكفاك بهذه الخصْلة لُؤْماً وشرَهاً، وعُقوقاً وغِلظ قلب! وقال السيِّد الحميريّ - وذكر مَسيرَ عائشة، رضي اللّه تعالى عنها، إلى البصرةِ مع طلحة والزُّبير، حينَ شهدَتْ ما لم يشهَدَا، وأقدمت على ما نكَصا عنه:

جاءت مع الأشقينَ في هَودجٍ تُزْجي إلى البَصرةِ أجنادَها

كأنَّها في فِعْلِهَا هِرَّةٌ تُريد أن تـأكلَ أولادهـا

ولبئس ما قال في أمِّ المؤمنين وبنت الصدّيق وقد كان قادراً على أن يوفّر على عليٍّ - رضي اللّه عنه - فضْله، من غير أن يشتُم الحَوَاريِّينَ، وأمّهَاتِ المؤمنين، ولو أراد الحقَّ لسار فيها وفي ذكرها سيرةَ علي بن أبي طالب، فلا هو جعل عليّاً قدوة، ولا هو رعَى للنبيِّ صلى الله عليه وسلم حرمة.
وذكورة سنانير الجيران تأكلُ أولادَ الهرة، ما دُمنَ صغاراً أو فوقَ الصغار شيئاً، وتقتلها وتطلبها أشدَّ الطلب، والأمهات تحرُسها منها وتقاتلُ دونَها، مع عجزها عن الذكورة.
الألوان الأصيلة في الحيوان قال أبو إسحاق: السنور الذي هو السنور، هو المنمّر، وهو الأنمر، وهو الذي يُقال له: البقّاليّ، وذلك لكثرة اتخاذ البقالين لها، من بين سائر السنانير، لأنها أصيد للفأر.
قال: وجميعُ ألوانِ السنانير إنما هي كالشِّياتِ الدَّاخلةِ على اللون.
قال: وكذلك الحمار، إنما هو الأخضر، والألوانُ الأُخَرُ داخلةٌ عليه.
قال: فأما الأسدُ فليْستْ بذاتِ شيات، ولا تعدو لوناً واحداً، ويكونُ ذلك اللونُ متقارباً غير متفاوتٍ.

أحوال إناث السنانير وذكورها

قال: ومن فضيلةِ ما في السنانير، أنها تضَعُ في السَّنَةِ مرتين وكذلك الماعزة في القرى، إلا ما داس الحبَّ.
قال: ويحدُث لإناث السنانير من القوة والشجاعة إذا كامها الفحل وهرب منها عند الفراغ فلو لِحقتْهُ قطَّعته.
ويحدثُ للذكر استخذاءٌ، كما يحدُث للذئب القويِّ إذا ناله الخدشُ اليسير، ويحدث للضعيف من الجرأةِ عليه حتى يثبَ عليه فيأكلَه؛ فلا يمتنعَ منه، كما قال الشاعر:

وكنتَ كذئب السَّوء لما رأى دماً بصاحبه يوماً أحالَ على الدمِ

ويحدث مثلُ ذلك للجرذ إذا خُصِي، من الحَرْد على سائر الجِرذان، حتى يثب فيقطّعها، وتهرب منه ضعفاً عنه.
وسائرُ الحيوانِ إنما يعتريه الضَّعفُ عن أمثاله إذا خُصي وترك أمثالُه على حالها.
قول زَرَادشت في الفأر والردُّ عليه ثم رجَعنا إلى قول زَرادُشتَ في الفأر.
زعم زَرَادُشتُ أن الفأرة من خَلْق اللّه، وأن السنَّوْرَ من خَلْق الشيطان، فقيل للمجوس: ينبغي على أصل قولكم أن يكون الشيءُ الذي خلق اللّهُ خيراً كله ونفعاً كلُّه، ومرفقا كله، ويكونَ ما خلقَ الشيطان على خلافِ ذلك، ونحن نجدُ عياناً أن الذي قلتم به خطأ، رأينا الناس كلهم يرون أن الفأرَ بلاءٌ ابتلوا به، فلم يجدوا بدّاً من الاحتيالِ لصرْف مضرَّته، كالداء النازل الذي يلتمسُ له الشفاء، ثم وجدناهم قد أقاموا السنانير مُقامَ التداوي والتعالُج، وأقاموا الفأر مُقامَ الداء الذي أنزله اللّه، وأمر بالتداوي منه، فاجتلبوا لذلك السنانير وبناتِ عِرْس، ثم نصبوا لها ألوانَ الصيَّادات، وصنعوا لها ألوان السُّموم و المعجونات التي إذا أكلت منها ماتَت، واسْتَفْرَهُوا السنانير واختاروا الصيَّادات.
واجتَبوا السِّنَّور دون ابن عِرس، لأن ابنَ عِرسٍ يعمل في الفأر والطير كعَمل الذِّئبِ بالغنم، فأوّل ما يصنع بالفريسة أن يذبَحها، ثم لا يأكلُها إلا في القَرْط، والسّوْرُ يقتل ثم يأكل، فالفار من السنور أشدُّ فزَعاً، وهو الذي قوبل به طباعها وطباعه.
وكما أن الذي يأكل الدجاجَ كثيرٌ، وأن الذي جُعِل بإزائِه ابن آوى، وكما أن الذي يأكل الغنمَ كثيرٌ، والذي جعِلَ بإزائها الذئب.
والأسد أقوى منه على النعجة، والنَّعجة من الذّئب أشد فرَقا. والحيَّاتُ تُطالِبُ الفأرَ والجِرذان، وهيِ من السنور أشد فزَعاً.
وإن كان في الجُرذان ما يُساوي السنور فإنها منه أشد فزعاً.
فإن كنتم إنما جعلتموه من خلْق الشيطان لأكْلِهِ صِنفاً واحداً من خلق اللّه - فالأصناف التي يأكلُها من خَلق الشيطان أكثر.
وزعم زَرَادُشْت أن السِّنَّوْرَ لو بال في البحر، لقتَلَ عشرة آلافِ سَمَكة.
فإن كان إنما استبْصَر في ذمِّه في قتل السمك فالسمكُ أحقُّ بأنْ يكون من خلق الشيطان؛ لأن السمكَ يأكلُ بعضه بعضاً، والذكر يتبع الأنثى في زمان طرْح البيض، فكلما قذفتْ به التهمه، وإن غرق إنسان في الماء، بحراً كان أو وادياً، أو بعضُ ذواتِ الأربع - فالسمكُ أسرعُ إلى أكله من الضِّباع والنسور إلى الجِيَف.
وعلى أنَّ اعتلاله على السنور، وقوله: لو بال في البحر قتل عشرة آلافِ سمكة، فما يقول فيمن زَعَم أن الجُرذَ لو بالَ في البحر قتَلَ مائة ألف سَمَكة؟ وبأي شيء يَبين منه؟ وهل ينبغي لمن كسر هذا القول الظاهر الكسْر، المكشوف المُوق أن يفرح؟ وهل تقرُّ الجماعةُ والأممُ بأنَّ في الفأر شيئاً من المرافق؟ وهل يُمازجُ مضَرَّتَها شيءٌ من الخير وَإن قلَّ؟ أو ليست الفأرُ والجِرذانُ هي التي تأكل كُتُبَ اللّه تعالى، وكتبَ العِلْم، وكتب الحساب؛ وتقرض الثِّيَابَ الثمينة، وتطلب سِرَّ نوى القطن، وتُفسد بذلك اللُّحُفَ والدَّواويج والجباب، والأقبية والخفاتين، وتحسُو الأدهان، فإن عجزتْ أفواهُها أخرجَتْهَا بأذنابها؟ أو ليست التي تنقب السِّلال

وتقرض الأوكية وتأكل الجُرُب حتى يُعلَّقَ المتاعُ في الهواء إذا أمكن تعليقُه؟.
وتجلبُ إلى البيوتِ الحيّاتِ؛ للعداوة التي بينها وبين الحيَّات، و لحرْص الحيَّات على أكلها، فتكون سبباً في اجتماعها في منازلهم، وإذا كثُرن قتلنَ النفوس.
وقال ابن أبي العجوز: لولا مكان الفأر لما أقامت الحيَّاتُ في بيوت الناس، إلا ما لا بال به من الإقامة.
وتقتل الفسيل والنخل، وتهلك العلفَ والزرع، وربما أهلكن القرَاحَ كله وحملْنَ شعير الكدْس وبُرَّه.
أو ليس معلوماً من أخلاقها اجتذابُ فتائل المصابيح رغبةً في تلك الأدهان، حتى ربما جذبتْها جهلاً وفي أطرافها الأخر السُّرج تستوقد فتحرق بذلك القبائلَ الكثيرة، بما فيها من الناس والأموال والحيوان؟.
وهي بعدُ آكل للبيض وأصناف الفِراخ من الحيَّات لها.
فكيف لم تكن من هذه الجهة من خَلْق الشيطان؟.
هذا، وبين طِباعها وطِباعِ الإنسانِ مُنافرةٌ شديدةٌ، ووَحْشةٌ مفْرطة، وهي لاتأنسُ بالناس وإن طالتْ معايشتُها لهم والسِّنَّوْرُ آنسُ الخلق بهم.
وكيف تأنس بهم وهم لا يُقلعون عن قتلها ما لم تقلع هي عن مَساءتهم؟ فلو كنَّ مما يؤكل لكان في ذلك بعض المرفق، فكيف وإنها لتُلقى في الطريق ميّتة، فما يعرض لها الكلبُ الجائع.
فالأمم كلها على التفادي منها واتخاذ السنانير لها.
وزَرَادُشْت بهذا العقل دعا الناس إلى نكاح الأمهات، وإلى التوضؤ بالبول، وإلى التوكيل في نيك المُغيبات، وإلى إقامة سُورٍ للسُّنْبِ، وصاحب الحائض والنفساء.
علة نجاح زرادشت ولولا أنَّه صادف دهراً في غاية الفسادِ، وأمَّةً في غاية البُعْد من الحرية ومن الغَيْرة والألفة، ومن التقزُّز والتنظف، لما تمّ له هذا الأمر.
وقد زعم ناسٌ أن ذلك إنما كان وإنما تمَّ لأنه بدأ بالملك؛ فدعاه على قدْر ما عرَف من طباعه وشهوته وخُلُقه، فكان الملكُ هو الذي حَمَل على ذلك رعيَّتَه.
والذي قال هذا القولَ ليس يعرف من الأمور إلا بقدر ما باينَ به العامّة؛ لأنه لا يجوز أن يكون الملكُ حملَ العامّة على ذلك، إلا بعد أن يكون زَرَادشتُ ألْفى على ذلك الفسادِ أجنادَ الملك، ولم يكن الملك ليقوى على العامة بأجناده، وبعشرة أضعاف أجناده، إلا أن يكون في العامة عالمٌ من الناس، يكونون أعواناً للأجناد على سائر الرعية. وعلى أن الملوكَ ليس لها في مثل هذه الأمور عِلّةٌ تدعو إلى المخاطرةِ بملكها، وإنما غايةُ الملوكِ كل شيء لابد للملوك منه، فأمَّا ما فضَل عن ذلك فإنها لا تخاطر بأصول المُلك تطلُب الفضول، إلا من كان مُلْكه في نصاب إمامة، وإمامتُه في نصاب نُبوّة، فإنه يتَّبع كلّ شيء توجبه الشريعة، وإن كان ذلك سبيلَ الرأي؛ لأن الذي شرع الشريعة أعْلَمُ بغيب تلك المصلحة، وقد ينبغي أن يكون ذلك الزمان كان أفسدَ زمان، وأولئك الأهل كانوا شرّ أهل، ولذلك لم تر قطُّ ذا دين تحوّل إلى المجوسيَّة عن دينه، ولم يكن ذلك المذهبُ إلا في شِقِّهم وصُقْعهم من فارسَ والجبالِ وخراسان، وهذه كلها فارسية.
أثر البيئة في العقيدة فإن تعجّبْت من استسقاطي لعَقْلِ كِسْرَى أبرَويز وآبائه،

وأحْبَائه وقرابينه وكُتَّابه وأطبائه، وحكمائه وأساورته - فإني أقول في ذلك قولاً تَعرف به أني ليس إلى العصبيّة ذهبت.
اعلم أني لم أعْنِ بذلك القولِ الذين وُلدوا بعدُ على هذه المقالة، ونشؤوا على هذه الدِّيانة، وغُذُوا بهذه النِّحلة، ورُبُّوا جميعاً على هذه الملة؛ فقد علِمْنا جميعاً أن عقولَ اليونانيةِ فوقَ الدِّيانة بالدهرية والاستبصار في عبادة البروج والكواكب؛ وعقول الهند فوقَ الديانة بطاعة البُدِّ. وعبادة البِدَدَة، وعقول العرب فوق الدِّيانة بعبادة الأصنام والخشب المنجور، والحجر المنصوب، والصخرة المنحوتة.
فداء المنشأ والتقليد، داءٌ لا يُحْسِنُ علاجَه جالينُوس ولا غيرُه من الأطباء، وتعظيمُ الكبراءِ، وتقليدُ الأسلاف، وإلْفُ دينِ الآباء، والأنس بما لا يعرفون غيره، يحتاج إلى علاج شديد، والكلام في هذا يطول.
فإن آثرت أن تتعجب، حتى دعاك التعجُّب إلى ذكر أبرويز - فاذكر ساداتِ قُريش، فإنهم فوق كسرى وآل كسرى.

دفاع صاحب السنور

وقال المحتجُّ للسنانير: قد قالوا: أبر من هرَّة وأعق من ضَبٍّ، وهذا قول الذينَ عاينوها تأكلُ أولادها، وزعموا أن ذلك من شدة الحبِّ لها، وقال بعضهم: إنما يعتريها ذلك من جنونٍ يعتريها عند الولادة، وجوعٍ يذهبُ معه علمها بفرْق ما بين جِرائها وجِراء غيرها من الأجناس، ولأنها متى أشْبَعَتْ أو أطعمت شِطْرَ شِبَعها لم تعرض لأولادها، والرد على الأمم أمثالها عملٌ مسخوط، والعربُ لا تتعصب للسنّور عَلَى الضبِّ؛ فيُتوهَّم عليها في ذلك خلافُ الحقِّ، وإنما هذا منكم عَلَى جهة قولكم في السنور إذا نَجَث لنجْوه ثم ستره، ثم عاودَ ذلك المكان فشمّه فإذا وجد رائحةً زاد عليه من التراب، فقلتم: ليس الكرمَ وستر القبيح أراد، وإنما أراد تأنيس الفأر، فنحنُ لا نَدَعُ ظاهر صنيعَه الذي لا حُكم له إلا الجميل لِمَا يدّعي مُدّعٍ من تصاريفِ الضمير، وعلى أن الذي قلْتموه إن كان حقّاً فالذي أعطيتموه من فضيلة التدبير أكثر مما سلبْتموه من فضيلة الحياء.
العيون التي تسرج بالليل قال: والعيون التي تُسرج باللي:عيون الأسْد، والأفاعي؛ والسنانير، والنُّمور.
والأسْدُ سُجْر العيون، وعيون السنانير منها زُرق، ومنها ذهبية، كعيون أحرار الطير وعِتاقها، وعيونُ الأفاعي بين الزُّرْق والذهبية، وقال حسان بنُ ثابت:

ثريدٌ كأنّ السّمْنَ في حَجَرَاتِـه نُجومُ الثُّريَّا أو عُيُون الضَّيَاوِنِ

الضَّيون: السّنّور.
تحقيق في الألوان وإذا قال الناس: ثوب أزرق فإنهم يذهبون إلى لون واحد، وإذا وصفوا بذلك العينَ وَقَعَ على لونين؛ لأن البازي يسمى أزرق وكذلك العقاب، والزُّرَّقُ، وكل شيء ذهبيُّ العَين، فإذا قالوا: سنور أزرق لم يُدْرَ، أذهبوا إلى ألوان

الثياب أم إلى ألوان عيون البزاة.
وقد قال صُحَارٌ العبديُّ حين قال له معاوية: يا أزرق قال: البازي أزرَق، وأنشد:

ولا عَيْبَ فيها غيرَ شُكْلَةِ عينِها　　كذاك عِتاقُ الطير شُكْلٌ عيونُها

والذهب قد يقال له أصفر، ويقال له أحمر.
وقال بعض بني مَرْوَانَ لبعض ولد متمِّم بن نُويرة: يا أحمر قال: الذهَب أحمر، فلذلك زعم أن عِتاقَ الطير شُكلٌ عيونها.
وقال الأخطل:

وما زالت القتْلَى تمُورُ دماؤُهم　　بدِجْلَة حتى ماءُ دِجلة أشكلُ

فالشُّكلة عندهم تقع على الصُّفرة والحمرة إذا خالطا غيرهما.
الزرق العيون من العرب فمن الزرق من الناس صُحارٌ العبديُّ، وعبدُ الرحمن ابنُه، وداوُد بن متمِّم بن نويرة، والعباس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ومرون بن محمد بن مروان، وسعيد بن قيس الهمداني، وزرقاءُ اليمامة، وهي عَنْز، من بنات لُقمان بن عادِيا.
ومن الزُّرق ممن كانوا يتشاءمون به: قيس بن زهير، وكان أزرق وكان بكراً وابن بِكْرين، وكانت البسوسُ زَرْقاءَ وبكراً بنتَ بكرين، ولها حديث لا أحقّه.
وكانت الزّبّاء زرقاء، والزرْق العيون، من بني قيس بن ثعلبة، منهم المرقّشان، وغيرهما.
الحمر الحماليق من العرب والحمرُ الحماليق، من بني شيبان، وكان النعمان أزرقَ، أقشرَ، أحمرَ العينين، أحمر الحماليق، وفيه يقول أبو قُردودة حين نهى ابن عمار عن منادَمته:

إني نهيتُ ابنَ عمار وقلتُ له　　لا تأمننْ أحمرَ العينينِ والشعرَهْ

إن الملوك متى تنزلْ بساحتهمْ　　تطر بنارك من نيرانِهم شرره

يا جفْنَةً كإزاء الحوض قد هدموا　　ومنطقاً مثلَ وشي اليمنةِ الحبرهْ

شعر في الزرق وقال عبد اللّه بن همام السّلوليّ:

ولا يكونَنَّ مالُ اللّه مَأكُلَةً　　لِكلِّ أزرقَ من هَمْدانَ مكْتَحِلِ

وقال آخر:

لقد زَرِقتْ عيناك يا ابنَ مُكَعْبِرٍ　　كما كلُّ ضَبِّيٍّ من اللؤمِ أزرقُ

وفي باب آخر يقول زُهير:

فلما ورَدْنَ الماءَ زُرْقاً جِمامُـه   وَضَعْنَ عِصِيَّ الحاضر المتخيِّم

معارف في حمرة العين وقال يونس: لم أرَ قرَشِيّاً قطُّ أحمرَ عروق العينين إلا كان سيِّداً شُجاعاً.
وروي أن النبي صلى اللّه عليه وسلم، كان أشكلَ العينين ضليع الفم.

شعر في الدعاء على الفأر

قال: ونزل أبو الرِّعْل الجرميّ بعض قرى أنطاكيَة فلَقي من جِرذانها شرّاً، فدعا عليها بالسنانير فقال:

يا رب شُعْثٍ بري الإسآد أوجههم   ومُنْزِلَ الحُكم في طه وحاميمِ

أتحْ لشيخ ثوي بالشام مُغْتربـاً   نائي النصير بعيدِ الدار مهمـومِ

تكنَفَتْهُ قريباتُ الـخـطة دُكُـنٌ   وقصُ الرقابِ لطيفاتُ الخراطيم

حجنُ المخالب والأنـياب شـابة   غلبُ الرقاب رحيباتُ الحـيازيم

ثاروا لهنَّ فما تنفكُّ من قـنـصٍ   لكِّ ذيالةٍ مـقـاءَ عُـلـجـومِ

حتى أبيتَ وزادي غير منعكـمٍ   على النزيل ولا كرزي بمعكوم

وأنشدَني ابنُ أبي كريمة، ليزيدَ بنِ ناجِيَة السَّعْدي: سعدِ بن بكر، وكان لقيَ من الفأرجَهْداً، فدعا عليهنّ بالسنانير، فقال:

أزهير مالك لا يهمك مـا بـي   أخزى إله محمد أصـحـابـي

كحلُ العيون، صغيرة آذانُـهـا   جُنح الحنادِس يعتورْنَ جِرابـي

شُمُّ الأنوفِ لريح كـلِّ قـفـيةٍ   يلحظنَ لحظ مروع مـرتـابِ

دُكْنُ الجباب تدرعتْ أبدانـهـا   صُعلُ الرُّؤوسِ طويلة الأذنابِ

شُخُت المخالب والأنـايبِ والشوى   ثجْل الخصور رَحيبة الأقرابِ

أسقى الإلهُ بلادهنَّ سحـائباً غُرّ النَّشَاصِ بعيدة الأطنـابِ

تَرمِي بغُبْسٍ كالليوث تسَرْبَلَتْ منها الجلودُ مدارعَ السنجابِ

غُلب الرِّقاب لطيفة أعجازُها فُطح الجباهِ رهيفةِ الأنيابِ

مُتبهنْسَاتٍ للطرادِ كـأنـها آسادُ بيشة أدمجت بخضـابِ

ونحن نظنُّ أنّ هذه القصيدةَ من توليد ابنِ أبي كريمة،

معارف في السنور

والسنّور ثاقبُ البصر بالليل، وكذلك الفأرة سوداءُ العينين، وهي في ذلك ثاقبة البصر.
والسنَّوْرُ ضعيفُ الهامة، وهامته من مَقاتِله، ولا يستطيعُ أنْ يذوقَ الطعامَ الحارّ والحامضَ.

مقارنة بين السِّنور والكلب

قال: وللسنور فضيلةٌ أخرى: أنه كثيرُ الأسماء القائمةِ بأنفسها، غير المشتقات، ولا أنها تجمع الصفاتِ والأعمالَ، بل هي أسماءٌ قائمةٌ، من ذلك: القطُّ، والهِرُّ، والضَّيْوَن، والسنَّوْر.
وليس للكلب اسمٌ سِوَى الكلبِ، ولا للدِّيك اسمُ إلا الديك. وليس للأسد اسمٌ إلا الأسد اللَّيث، وأمَّا الضيغم، والخنابس، والرِّئبالُ، وغيرها - فليست بمقطوعة، والباقي ليست بأسماءٍ مقطوعةٍ؛ ولا تصلح في كل مكان.
وكذلك الخمر، فإذا قالوا: قهوة، ومدامةٌ، وسُلاَف، وخَنْدَريسٌ وأشباه ذلك، فإنما تلك أسماءٌ مشتركة، وكذلك السيف، وليس هذه الأسماءُ عند العامة كذلك.
قال: وعلى السّنور من المحبة، ولا سيما من مَحَبَّة النِّساء، ومعه من الإلف والأنس والدنُوِّ، والمضاجعةِ والنوم في اللّحاف الواحد - ما ليس مع الكلب، ولا مع الحمام، ولا مع الدَّجاج، ولا مع شيء مما يعايش الناس.
هذا، ومنها الوحشي والأهليّ فلولا قوّةُ حبِّه للناس لما كان في هذا المعنى أكثرَ من الكلابِ، والكلاب كلّها أهلية.
قالوا: وليس بعجيبٍ إن يكون الكلبُ طيِّبَ الفم؛ لكثرةِ ريقه، ولبُعد قرابَتِه ومشاكَلَته للأسد، وإنما العجبُ في طيبِ فم السنَّور، وكأنه في الشّبه من أشبال الأسد.
ومن يُقَبِّل أفواه السنانير وأجْراءها من الخرائد وربَّات الحِجال، والمخدَّرات، والمطهَّمات، والقينات أكثر من أن يُحصى لهنَّ عدد، وكلهنَّ يخبرنَ عن أفواهها بالطِّيب والسلامةِ مما عليه أفواهُ السباع، وأفواهُ ذوات الجِرَّة من الأنعام.

وما رأينا وضيعة قطٌّ ولا رفيعة، قبَّلت فمَ كلبٍ أو دِيكٍ، وما كان ذلك من حارس قطٌّ، ولا من كلابٍ، ولا من مكلِّب، ولا من مُهَارِش.
والسنور يُخْضَب، وتُصاغُ له الشنوف والأقرطة، ويُتحف ويدلَّل.
ومَنْ رَأى السنوْر كيف يَختِلُ العُصفورَ، مع حَذَرِ العُصفور، وسُرعة طيرانه - على أن جِهته في الصيدِ جِهةُ الفهد والأسد، ومنْ رآه كيفَ يرتفعُ بوَثْبته إلى الجرادة في حال طيرَانها - علم أنه أسْرَعُ من الجرادة.
وله إهابٌ فضفاضٌ، وقميصٌ من جِلده واسعٌ، يموج فيه بدنُه، وهو مما يضبع لسعَةَ إبطيه، ولو شاء إنسان أن يعقِدَ صُلْبَهُ، ويَثْنِيَ أوَّله عَلَى آخِره، كما يُثْنَى المِخْراق، وكما يثنى قضيبُ الخيزُران لفعَلَ.
ويوصفُ الفَرَسُ بأنه رهِلِ اللَّبان، رحيبُ الإهاب، واسع الآباط، وعيب الحمار للكزَازة التي في يديه، وفي منكبيهِ، وانضمامهما إلى إبطيه، وضِيق جلدِهِ، وإنما يعدُو بعُنقه.

التجارة في السنانير

قالوا: وللسنور تجَّارٌ وباعة، ودلاَّلون، وناسٌ يعرفون بذلك، ولها رَاضَة.
وقال السِّنْدِيُّ بن شاهك: ما أعياني أحدٌ من أهل الأسواق: من التجّار، ومن الباعة والصنّاع، كما أعياني أصحابُ السنانير، يأخذون السنّوْر الذي يأكل الفِرَاخ والحمامَ، ويواثب أقفاص الفواختِ والوراشين والدّباسِي والشّفانين، يودخِلُونه في دَنٍّ، ويشدُّون رأسَه، ثم يدحْرجونه على الأرض حتى يَشْغَلَه الدُّوَار، ثم يدخِلونه في قفص فيه الفراخُ والحمام، فإذا رآه المشتري رأى شيئاً عجباً، وظنّ أنه قد ظفر بحاجته، فإذا مضى به إلى البيت مَضى بشيطانٍ، فيجْمع عليه بليَّتين إحداهما أكْلُ طيوره وطيور الجيران، والثانية أنه إذا ضَرِيَ عليها لم يطْلُبْ سِواها.
ومررتُ يوماً وأنا أريدُ منزلَ المكّي بالأساورة وإذا امرأة قد تعلّقت برجُل وهي تقول: بيني وبينك صاحبُ المسْلَحَة فإنك دَلَلْتَنِي عَلَى سِنَّوْرٍ، وزعمتَ أنه لا يقربُ الفراخ، ولا يكشفُ القدُور، ولا يدنو من الحيوان، وزعمت أنك أبصر الناس بسنور، فأعطيتُك على بصرك و دلالتك دانِقاً؛ فلما مضيتُ به إلى البيت مضيتُ بشيطان قد واللّه أهْلَكَ الجيرانَ بعد أن فرغَ منا، ونحنُ منذ خمسةِ أيامٍ نحتال في أخذه، وها هو ذا قد جئتك به فرُدَّ عَلَيَّ دانقي، وخُذ ثمنه من الذي باعني، ولا واللّه إن تُبْصِرُ من السنانير قليلاً ولا كثيراً.
قال الدلاّل: انظروا بأيِّ شيء تستقبلني؟ ولا واللّه إنْ في ناحيتنا فتًى هو أبصرُ بسنور منِّي، وذلك من مَنِّ سيِّدي ومولاي.
فقلتُ للدَّلاّل: ولا واللّه إن في هذه الناحية فتًى هو أشكر للّه منك.

أكل السنانير

وناس يأكلون السنانيرَ ويستطيبونها، وليس يأكل الكلبَ أحَدٌ إلا في القَرط.
والعامة تزعم أن من أكل السِّنَّوْر الأسود لم يَعْمَلْ فيه السحر، والكلبُ لا يؤكل.

أكل الديك والديك خبيث اللحم عَضلِه، إلا أن يُخْصَى، وتلك حيلة لأهل حِمْص وليست عندنا فيه حيلة، وقال جَحْشويه:

كيفَ صبري عن مثلِ جُمجُمة الهرِّ تثنَّى بمُسْبَطِرٍّ متين

ليس يَخفى عليك حين تراها أنـــهـــا عُـــدّةٌ لـــداءٍ دفـــــين

سكينة التابوت قالوا: وزعم بعضُ أهل الكتاب، وبعضُ أصحاب التفسير، أن السَّكينة التي كانت في تابوت موسى كانت رأس هِرٍّ.
استطراد لغوي قالوا: وقلتم في الاشتقاق من اسم الكلب: كلَيب، وكلاب، ومَكْلَبة، ومُكالب، وأصاب القومَ كُلْبَة الزمان، مثل هُلْبة، وهي الشدَّة.
والكِلابُ واحِدُها كَلْب، وتجمع على كلاب وأكلب وكليب، كما يجمع البُخْت بَخيتاً وأبخُتاً.
والكَلاّب بتثقيل اللام: صاحب الكلاب، والمُكَلِّب، بتثقيل اللام وضمّ الميم: الذي يعلّم الكِلاَبَ الصَّيْدَ، وقال طُفيلٌ الغَنَويّ:

تُبَاري مَرَاخِيها الزِّجَاجَ كأنها ضِراءٌ أحسَّت نَبأَةً من مكَلِّبِ

وقال الآخر:

خُوصٌ تَرَاحُ إلى الصُّدَاح إذا غَدَتْ فِعْلَ الضِّرَاءِ تَرَاحُ لـلـكَـلاَّبِ

والكَلَب: داء يقع في الإبل، فيقال كلِبت الإبلُ تَكْلَبُ كلَباً، وأكلَب القوم: إذا وقع في إبلِهم الكَلَب، ويقال كَلِب الكلبُ واستكلب: إذا ضَرِيَ وتعوَّدَ أكلَ الناس، ويقال للرّجل إذا عضَّه الكلبُ الكلِبُ: قد كُلِبَ الرَّجلُ.
ويقال: إن الرَّجلَ الكلِبَ يَعَضُّ إنساناً آخر، فيأتون رجلاً شريفاً، فيقطُرُ لهم من دَم إصبعه، فيَسْقُونَ ذلك الكلبَ فيبرأ، وقال الكُميت:

أحلامكم لسِقام الجهلِ شافية كما دِماؤكم يُشْفَى بها الكلَبُ

قالوا: فقد يقولون للسنور هِرّ، وللأنثى هِرّة، ويقال من ذلك هرَّ الكلبُ يهرُّ هريراً، وتسمَّى المرأةُ بهرَّة، ويكنى الرّجُل أبا هِرّ، وأبا هُريرة، وقال الأعشى:

ودِّعْ هُريرةَ إنَّ الركبَ مُرْتحِلُ وهل تُطيق وَداعاً أيها الرجلُ

وقال امرؤ القيس:

دارٌ لهرٍّ والرَّبابِ وفَرْتَنَى ولَمِيس قبْلَ تفرُّق الأيَّام

وقال ابن أحمرَ:

إنَّ امرأ القيسِ عَلَى عَهْدِهِ   في إرْثِ ما كان بناه حُجُرْ

بَنَّتْ عليه الملك أطنابَـها   كأسٌ رَنَوْنَاةٌ وطِرْفٌ طمِرّ

يلهُو بهندٍ فوقَ أنماطِـهَا   وفرْتَنَى تَسْعَى عليه وهِرّ

أطْباء الهرة وحملها قال: وللهرة ثمانية أطباء: أربعةٌ تقابلُ أربعة، أوَّلهنَّ بين الإبط والصَّدْر، وآخِرُهُنَّ عد الرُّفْغ، وتحمِلُ خمسين يوماً، وتضع جراهَا عُمْياً، وليس بين تفقيحها وتفقيح جراءِ الكلابِ إلا اليَسير.
إيثار الهرة والديك والهرَّةُ من الخلْق الذي يؤثِر على نفسه، ولها فضيلةٌ في ذلك على الدِّيك الذي له الفضيلة في ذلك على جميع الحيوان، إلا أن الديك لا يفعل ذلك بالدجاج إلا مادام شابّاً، ولا يفعل ذلك بأولاده، ولا يعرفهم؛ وإنما يفعل ذلك بالدجاج عَلَى غير الزِّواج، وعلَى غير القصد إلى واحدة يقصد إليها بالهوى.
والهرَّة يُلقى إليها الشيء الطيبُ وهي جائعة، فتدعو أولادها، وقد استغنين عن اللبن، وأطقْنَ الأكل والتقمُّم والتكسُّب، نعم حتى ربما فعلتْ ذلك بهنّ وهنَّ في العينِ شبيهاتٌ بها في العِظم؛ فلا تزالُ ممسكة عن تلك الشحمة على جُوعها، ومع شرهِ السنانير، حتى يُقبلَ ولدُها فيأكلَه.
ورجلٌ من أصحابنا ائتمنوه على مال، فشدّ عليه فأخذه، فلما لامه بعضُ نصحائه قال: يطرحون اللحم قدّام السنّور فإذا أكله ضربوه.
فضَرَبَ شَرَهَ السنور مثلاً لنفسه.
والهرَّة ربما رموا إليها بقطعةِ اللحم، فتقصدُ نحوها حتى تقف عليها، فإذا أقبلَ ولدها تجافتْ عنها، وربما قبضتْ عليها بأسنانها فرمت بها إليه بعد شمِّ الرائحة، وذوق الطعم.
نقل الهرة أولادها والهرَّة تنقل أولادها في المواضع، من الخوف عليها، ولا سبيل لها في حملها إلا بفيها، وهي تعرف دِقَّة أطْرَافِ أنيابها، وذَرَب أسنانها، فلها بتلك الأنياب الحِدَاد ضربٌ من القبض عليها، والعَضِّ لها، بمقدار تبلغُ به الحاجة، ولا تؤثّر فيها ولا تؤذيها.
مخالب الهرة والأسد فأما كفُّها والمخالبُ المعقَّفة الحِدَادُ التي فيها، فإنها مصونة في أكمامها، فمتى وقعت كفُّها على وجه الأرض صارت في صوْن، ومتى أرادت استعمالها نَشَرَتها وافرة، غير مكلومةٍ ولا مثلومة، كما وصف أبو زُبَيْدٍ كفَّ الأسد فقال:

بحُجْن كالمحاجِن في قنُوبٍ   يَقيها قِضَّة الأرضِ الدَّخيسُ

أنياب الأفاعي كذلك مخالبها ومخالبُ الأسد، وأنيابُ الأفاعي، وقد قال الرَّاجز، وهو جاهليّ:

حتَّى دنا من رأس نَضْناض أصمّ   فخَاضَه بين الشِّراك والـقـدَمْ

بمِذْرَبٍ أخرجَه من جوفِ كُمّ

زعم بعض المفسرين في السنانير والخنازير

وزعم بعض المفسرين أن السنور خلِق من عطسة الأسد، وأن الخنزيد خُلِق من سلحة الفيل؛ لأن أصحابَ التفسير يزعمون أن أهلَ سفينةِ نوح لما تأذَّوْا بكثرة الفأر وشكَوا إلى نوح ذلك سألَ ربَّه الفَرَج، فأمره أن يأمُرَ الأسد فيعطِسَ، فلما عطس خرج من منخرَيه زوجُ سنانير: ذكر وأنثى، خرج الذَّكَر من المنْخر الأيمن، والأنثى من المنخر الأيسر، فكفَياهم مَؤُونة الجُرذان، ولما تأذَّوْا بري نَجْوهما شكوا ذلك إلى نوح، وشكا ذلك إلى ربِّه، فأمره أن يأمر الفيل فليَسْلح، فسَلَح زوجَ خنازير فكفياهم مَؤُونة رائحة النجو.
وهذا الحديثُ نافقٌ عند العوَامِّ، وعندَ بعض القُصَّاص.
إنكار تخلُّق الحيوان من غير الحيوان فقد أنكر ناسٌ أن يكون الفأر تخلَّق في أرحام إناثها من أصلاب ذكورتها ومن أرحام بعض الأرضين كطينة القاطول؛ فإن أهلها زعموا أنهم ربما رأوا الفأرةَ لم يتمَّ خلْقُها بعدُ، وإن عينيها لتَبصَّان، ثم لا يريمون حتى يتمَّ خَلقها وتشتدَّ حركتها.
وقالوا: لا يجوز لشيء خُلِقَ من الحيوان أن يُخلق من غير الحيوان، ولا يجوز أن يكونَ شيءٌ له في العالم أصلٌ أن يؤلِّف الناسُ أشياءَ تستحيل إلى مثل هذا الأصل، فأنكروا من هذا الوجْه تحويل الشبَهِ ذهباً، والزّيبق فضة.
وقد علمنا أن للنُّوشادُر في العالم أصلاً موجوداً، وقد يصعِّدُون الشَّعر ويدبِّرونه حتى يستحيل كحجر النوشادُر، ولا يغادر منه شيئاً في عَمَلٍ ولا بَدَن.
وقد يدبِّرون الرّماد والقِلْي فيستحيل حجارة سوداً إذا عُمل منها أرْحاءٌ كان لها في الرّيْع فضيلة.
قالوا: وللمُردَارسَنْج في العالم أصلٌ قائم، والرصاص يُدبَّر فيستحيل مُرداسَنْجا، وللرّصاص في العالم أصل قائم، فيدبِّرون المرداسنج فيستحيل رصاصاً.
وللتُّوتياء أصل قائم، فيدبرون أقليميا النُّحاس فتستحيل تُوتياء.
وكذلك الميناء، له أصل قائم، وقد عمِله الناس.
وكذلك الحجارة السُّود للطحين وغير ذلك.
فأما قولهم: لا يجوز أن يكون شيء من الحيوان يُخلقُ من ذكر وأنثى - فيجيء من غير ذكر وأنثى - فقد قلنا في جميع ذلك في صدْر كتابنا هذا بما أمكننا.
معارف في الحيّات وقال: الحيّاتُ كلها تعومُ، إلا الأفاعي، فإنها لايعومُ منها إلا الجَبَليّات.
قال: والحيَّة إن رأت حيّة ميتة لم تأكلها، ولا تأكلُ الفأر ولا الجرذانَ الميتة، ولا العصافير الميتة، مع حرص الحية عليها، ولا تأكل إلا لحمَ الشيء الحيِّ، إلا أن يُدخلَ الحوّاءُ في حلوقها اللحمَ إدخالاً، فأما من تلقاء نفسها فإن وجدَته، وهي

جائعة لم تأكله.
فينبغي أن يكون صاحبُ المنطق إنما عَنَى بقوله: أخبثُ ما تكون ذواتُ السمومِ إذا أكلَ بعضها بعضاً لابتلاعَ دون كل شيء، وهم لا يعرفون ذلك في الحيّات إلا للأسوَد، فإنه ربما كان مع الأفاعي في جُونة، فيجوع فيبتلعها، وذلك إذا أخذها من قِبَل رؤوسها، وإن رام ذلك من جهة الرأس فعضته الأفعى قتلتْه.
وزعموا أن الحية لاَ تَصَّاعَدُ في الحائط الأملس ولا في غير الأمْلس، فإنما يقول ذلك أصحاب المخاريق والذين يستخرجون الحياتِ بزعمهم من السقوف، ويشمون أراييحَ أبدانها من أطراف القصَب، إذا مَسَحوها في ترابيع البيوت.
قالوا: وقد تصعد الحيّات في الدّرج وأشباه الدَّرَج؛ لتطلبَ بيوتَ العصافير، والفأر، والخطاطيفِ، والزَّرازير، والخفافيش، وتتحامى في السُّقُف.

في العقرب

وسنذكر تمامَ القوْل في العقْرب؛ إذْ كنا قد ذكرنا من شأنها شيئاً في باب القول في الفأر. ولمَّا قيل ليحيى بن خالد، النازلِ في مُربَّعة الأحنف - وزعموا أنهم لم يروْا رجُلاً لم يختلف إلى البيمارستانات ولا رجُلاً مسلماً ليس بنصرانيّ ولا رجلاً لم ينصِبْ نفسه للتكسب بالطب كان أطبَّ منه - فلما قيل له: إن القينيّ قال: أنا مِثْلُ العقرب أضرُّ ولا أنفع قال: ما أقلَّ عِلمه باللّه عزّ وجلّ؛ لعَمْري إنها لتنفع إذا شُقَّ بطنها ثم شُدَّ على موضع اللَّسعة، فإنها حينئذٍ تنفع منفعةً بينةً.

نفع العقرب

والعقربُ تُجعل في جوف فخَّارٍ مشدودِ الرّأس مطيّن الجوانبِ، ثم يوضع الفخَّارُ في تنّور، فإذا صارت العقربُ رماداً سُقي من ذلك الرَّمادِ مَنْ به الحصاة مِقدارَ نصفِ دانقَ.
وقال حُنين: وقد يُسقى منه الدانق وأكثر، فيفتِّتُ الحصاةَ من غير أن يضرَّ بشيء من الأعضاء والأخلاط، وخيرُ الدواء ما قصَد إلى العضْو السقيم، وسلِمَتْ عليه الأعضاء الصحيحة.
وقال يحيى: وقد تَلْسَعُ أصحابَ ضروبٍ من الحُمّيات العقاربُ فيُفيقُون، وتلسع الأفاعيَ فتموت، ومنها مايلسع بعضها بعضاً فيموت الملسوع، فهي من هذا الوجه تكفي الناسَ مؤونةً عظيمة، وتُلقى العقربُ في الدُّهن وتُتْركُ فيه، حتى يأخُذ الدهن منها ويمتصّ ويجتذبَ قواها كلها بعد الموت، فيكونُ ذلك الدهنُ يفرِّق الأورام الغِلاظ، وقد عَرَف ذلك حُنين.

بعض أعاجيب العقرب

ومِنْ أعاجيبها أنها لا تسبَحُ، ولا تتحركُ إذا أُلقيت في الماء كيف كان الماءُ: ساكناً أو جارياً، والعقرب تطلبُ الإنسان وتقصِد نحوه، فإذا قصَدَ نحوها فرَّتْ وهَربت وتقصِدُ أيضاً نحو الإنسان، فإذا ضربَتْهُ هربتْ، هربَ مَنْ قد أساء، وتعلم أنها مطلوبة.

والزنابير تطالبُ من تعرَّض لها وتقصِد لِعَينه، ولا تكادُ تعرض للكافّ عنها.
فصل ما بين المودَّة والمسالمة في الحيوان وبين العقارب وبين الخنافس مودة، والمودَّة غيرُ المسالمة.
والمسالمة: أن يكون كل واحد من الجنسين لا يعرض للآخر بخير ولا شر، بعد أن يكون كل واحد منهما مقرَّباً لصاحبه.
والعداوة أن يعرض كل واحد منهما لصاحبه بالشرّ والأذى والقتل، ليس من جهةِ أن أحدهما طعامٌ لصاحبه.
والأسدُ ليس يثبُ على الإنسان والحمار والبقرة والشاة من جهة العداوةِ، وإنما يثبُ عليه من طريق طلبِ المطعم، ولو مرَّ به وهو غيرُ جائعٍ لم يعرض له الأسد، والنمر على غير ذلك، ولكن قد يقال: إن بين البَبْرِ والأسد مُسالمة.
والمودة: كما يكون بين العقارب والخنافس، فإنَّ بعضها يتألف بعضاً، وليست تلك بمسالمة، وكما بين الحيَّات والوزغ، فإنها تَساقى السّمّ وتَزَاقُّ، وكما بينَ ضروب من العقارب وأسودَ سالخ.
والأسْوَدُ ربَّما جاعَ في جُونة الحَوَّاء فأكل الأفعى وربما عَضَّتْهُ الأفعى فقتلتْه.
علاقة الرائحة بالطعم وريح العقارب إذا شويت مثْلُ ريح الجراد.
وما زلتُ أظنُّ أن الطعم أبداً يتْبع الرائحة، حتى حقَّق ذلك عندي بعضُ من يأكلها مشوية ونِيَّة، أنه ليس بينها وبين الجراد الأعرابي السمين فرْق.

رؤية الخرق الذي في إبرة العقرب

وزعم لي بَختيشَوع بن جبريل، أنه عاين الخرق الذي في إبرة العقرب، وإن كان صادقاً كما قال، فما في الأرض أحدٌ بصراً منه، وإنه لبعيدٌ، وما هو بمستنكر.
من أعاجيب العقرب وفي العقارب أعجوبةٌ أخرى؛ لأنه يقال: إنها مائية الطِّباع، وإنها من ذوات الذَّرْوِ والإنسال وكثرة الولد، كما يعتري ذلك السَّمَكَ والضّبّ والخنزيرة، في كثرة الخنانِيص.

موت العقرب بعد الولادة

قال: ومع ذلك إن حَتْفها في أولادها، وإن أولادها إذا بلغْنَ وحانَ وقتُ الولادة، أكلْن جلدَ بطنها من داخل، حتى إذا خَرَقْنَهُ خَرَجْنَ منه وماتت الأُمُّ.
وقد يطأ الإنسانُ على العقرب وهي ميتة، فتغترز إبرتها في رجله، فيلقى الجهدَ الجاهِدَ؛ وربما أمْرَضَتْ، وربّما قتلت.
قال: وفي أشعار اللُّغز قيلَ في أكل أولاد العقرب بطنَ الأمّ، وأنّ عَطَبَهَا في أولادها:

وحاملة لا يكْمُلُ الدَّهرَ حملُها تموتُ ويبقى حملها حينَ تَعْطبُ

وليس هذا شيئاً.
خبَّرني من أثق بعقله، وأسكنُ إلى خبره، أنه أرى العقرب عِياناً وأولادُها يخرُجْنَ من فيها، وذكر عدداً كثيراً، وأنها صِغارٌ بيضٌ على ظهورها نقط سُودٌ، وأنها

تحمل أولادها على ظهرها، وأنه عاين ذلك مرةً أخرى، فقلت: إن كانت العقرب تلد مِنْ فيها فأخلِقْ بها أن يكون تلاقحُها من حيثُ تلدُ أولادَها.

العقارب القاتلة

والعقاربُ القاتلةُ تكون في موضعين: بِشَهْرَزُور، وقرى الأهواز، إلا أن القواتلَ التي بالأهواز جرّارات، لم نذكر عقاربَ نصيبين، لأن أصلها - فيما لا يشكُّون فيه - من شَهْرَزُور حين حُوصِرَ أهلها ورُموا بالمجانيق، وبكيزان محشوَّة من عقارب شَهْرَزُور، حتَّى توالَدَتْ هناك، فأعْطى القومُ بأيديهم.

لغز في العقرب

ومن اللُّغز فيها في غير هذا الجنس:

وما بكرةٌ مضبورة مقمطرة ... مسرةُ كبرٍ أن تُنال فتَمرضا

بأشوسَ منها حين جاءت مُدِلةً ... لتقتل نفساً أو تصيب فتُمرضا

فلما دنا نادي أوابا بنعم غيرها ... ديراً إذا نال الغريفة أو قضَا

استخراج العقارب بالجراد والكرَّاث

قال: والعقارب تُستَخْرَجُ من بيوتها بالجراد: تُشَدُّ الجرادةُ في طرف عود، ثم تُدْخَلُ الجُحْرَ، فإذا عاينتْها تعلقتْ بها، فإذا أخرج العُودُ خرجت العقربُ وهي متعلقةٌ بالجرادة.
فأما إبراهيم بن هانىء فأخبَرني أنه كان يُدْخِلُ في جُحْرها خُوط كرّاث، فلا يبقى منها عقربٌ إلا تبعته.
ألسنة الحيات والأفاعي ألسنة الحيّات كلها سودٌ، وألسنة الأفاعي حُمرٌ، إلا أنها مشقوقة.
جرَّارات الأهواز وسنذكر عقارب الشتاء وعُقيرب الحِرِّ، وكلَّ شيء من هذا الباب، ولكنا نبدأ بذكر جرَّارات الأهواز.
ذكروا أنَّ أقتلها عقاربُ عَسكَر مُكْرَم، وأنها متى ضَرَبَتْ رجُلاً فظنَّ أن تلك العضة عضَّةُ نملة، أو وخزةُ شوكة، فنال من اللحم تضاعَفَ ما به.
وربما باتت مع الرجل في إزاره فلم تضربْه.
وهي لا تدبُّ على كل شيء له غَفْر، ولا تدبُّ على المُسوح، وما أكثرَ ما تأوي في أصول الآجُرِّ الذي قد أخرج من الأتاتين ونضِّد في الأنابير.
وكان أهل العسكر يروْن أن من أصلح ما يُعالج به موضع اللسعة أن يُحجَم، وكان الحجَّام لا يرضى إلا بدنانير ودنانير، لأن ثناياه ربما نَصَلَتْ، وجلدَ وجهه ربما تبطَّط من السمِّ الذي يرتفع إلى فيه، بمصَّته وجذْبته من أذناب المحاجم، حتى

عمدوا بعد ذلك إلى شيء من قُطْنٍ، فحشَوْا به تلك الأنبوبة، فإذا جذب بمصّتهِ فارتفع إليه من بخار الدَّمِ أجزاءٌ من ذلك السم، تعلقت بالقطن، ولم تنفُذْ إلى فيه، والقطن ليس مما يدفع قوَّة المص، ثم وقعوا بعد ذلك على حشيشةٍ فوجدوا فيها الشفاء.

من أعاجيب العقرب ومن أعاجيب ما في العقرب أنا وجدْنا عقارب القاطول يموتُ بعضُها عن لسع بعض، ثم لا يموتُ عن لسعها شيء غير العقارب.

ونجدُ العقربَ تلسعُ إنساناًَفيموت الإنسان، وتسلع آخرَ فتموت هي، فدَلَّ ذلك على أنها كما تعطي تأخُذ، وأن للناس أيضاًَسُموماًَعجيبة، ولذلك صار بعضهم إذا عضّ قتل.

ومن أعاجيبها أنها تضرب الطست أو القمقُم فتخرقُه، وربما ضربتْه فتثبُتُ فيه إبرتُها ثم تنصل حتى تَبين منها.

العنبر وأثره في الطيور والبالِ والعنِبر يقذفه البحرُ إلى عبريه، فلا يأكل منه شيء إلا مات، ولا ينقُره طائرٌ بمنقار إلا نصل فيه منقاره، فإذا وضع رجليه نصلتْ أظفاره، فإن كان قد أكلَ منه قتلهُ ما أكل، وإن لم يكن أكلَ فإنه ميت لا محالة، لأنه إذا بقي بغير منقار، ولم يكن للطائر شيءٌ يأكل به مات.

والبحْريُّونَ والعطّارُون يُخبرونَنَا أنهم ربما وجدوا فيه المنقارَ والظفر، وإنَّ البال ليأكلُ منه اليسيرَ فيموت.

والبالُ: سمكة ربما كان طولها أكثر من خمسين ذراعاً.

أعاجيب لسع العقرب

ومن أعاجيب العقارب أنها تلسع الأفعى فتموتُ الأفعى ولا تموت هي، وتلسع بعض الناس، فتموتُ هي، ولا ينال الملسوع منها مِن المكروه قليل ولا كثير، ويزعم العوامُّ أن ذلك إنما يكونُ لمن لسعتْ أمَّه عقربٌ وهو حَمْلٌ في بطنها.

وقد لسعت عقربٌ رجلاً مفلوجًا، فذهبَ عنه الفالِجُ، وقصةُ هذا المفلوج معروفة، وقد عرفها صليبا وغيرهُ من الأطباء.

ومن العقارب طياراتٌ وجراراتٌ، ومعقَّفات، وخضرٌ، وحمرٌ.

اختلاف السموم، واختلاف علاجها وتختلف سمومُ العقارب بأسباب: منها اختلاف أجناسها، كالجرّارة وغيرها، ومنها اختلافُ التُّرب كفَرق ما بين جرّاراتِ عقارب شهرزور وعسكر مُكْرَم.

وتختلف مَضَرَّة سمومها على قدر طباع الملسوع، ويختلف قدر سمومها على قدْر مواضع اللسعة، وعلى قدر اختلاف ما بين النهار والليل وعلى قدر ما صادفت عليه الملسوع من غذائه، ومن تفتُّح منافسه، وعلى قدْر ما تُصادَف عليه العقرب من الحَبلِ وغير الحَبَل وعلى قدر لَسْعَتِها في أوَّلِ الليل عند خروجها من جُحرها بعد أقامت فيه شَتوَتَها، وأشدُّ من ذلك أن تلسع أوّلَ ما تخرجُ من جُحْرها بعد أن أقامتْ فيه يومها.

قال ماسرْجويه: فلذلك اختلفت وجوه العلاج، فصار ضَرْبٌ من العلاج يفيق عنه إنسانٌ ولا يُصلح أمر الآخر.

لسعة الزنبور وخبرني ثمامةُ عن أمير المؤمنين المأمون أنه قال: قال لي بختيشوع ابن جبريل وسَلْمَوَيْه، وابن ماسَوَيه: إن الذبابَ إذا دُلِكَ به موضعُ لسعةِ الزنبور سكنَ فلسَعني زنبور فحككْتُ على موضعه أكثر من عشرين ذبابة فما سكَن إلا في قدْر الزمان الذي كان يسكن فيه من غير علاج، فلم يبق في يدي منهم إلا أن يقولوا: كان هذا الزنبور حَتْفَاًقاضيًا، ولولا هذا العلاج لَقتَلَكَ.
حُججُ الأطِبّاء وكذلك همْ إذا سقوا دواءً فضرّ، أو قطعوا عِرْقَاًفضرّ، قالوا: أنت مع هذا العلاج الصَّوابِ تجِدُ ما تجد فلولا ذلك العلاجُ كنتَ الساعة في نار جهنم.
وقيل لي - وقرأت في كتاب الحيوان - إنّ ريحَ السَّذَابِ يشتدّ على الحيّات، فألقيتُ على وجوه الأفاعي جُرَزَ السَّذاب فما كان عندها إلا كسائر البَقْل.
فلو قلت لهم في هذا شيئاًلقالوا: الحيّات غير الأفاعي، وهذا باطلٌ، الأفاعي نوع من الحيات، وكلهم قد عمَّ ولم يخص.
ما يَدَّخر من الحيوان وجميع الحشرات والأحناش، وجميع العقاربِ وهذه الدَّبّابات التي تعضُّ وتلسع، التي تكمُن في الشتاء لا تأكلُ شيئاً في تلك الأشهر ولا تشرب، وكذا كل شيء من الهمَج والحشرات مما لا يتحرّك في الشتاء إلا النملَ والذّرَّ والنحل، فإنها قد ادخرت ما يكفيها، وليست كغيرها مما تثبتُ حياتُه مع ترك الطعم.

حرص العقارب والحيات على أكل الجراد

وللعقرب ثماني أرجل وهي حريصة على أكل الجراد، وكذلك الحيات، وما أكثر ما تلدغ وتنْهش صاحب الجراد.
أثر المُرضِع في الرضيع ومن عجيب سمِّ الأفاعي ما خبرني به بعضُ من يخبُر شأن الأفاعي قال: كنت بالبادية ورأيت ناقة ترتعُ، وفصيلها يرتضِعُ من أخلافها، إذ نهَشَت الناقةَ على مشافرها أفعى، فبقيتْ واقفةً سادرة، والفصيلُ يرتضع، فبينا هو يرتضعُ إذ خرَّ ميِّتاً.
فكان موتُه قبل موتِ أمَّه من العجب، وكان مرورُ السمِّ في تلك الساعة القصيرة أعجبَ، وكان ما صار من فضول سمها في لبنِ الضّرع حتى قتَلَ الفصيلَ قبل أمه عجباً آخر.
والمرأةُ المرضِعُ تشربُ النبيذَ فيسكر عن لبنها الرضيع وتشربُ دواء المشْي فيعتري الرضيعَ الخِلْفة فلذلك يختار الحكماء لأولادهم الظئر البريئة من الأدواء: في عقلها، وفي بدنها.
وتوهَّموا أن اللبن إنماجع في الفصيل لقرابة اللبنِ والدَّم، فصار ذلك السمُّ أسرعَ إليه منه إلى أمه، ولعل ضعفَ الفصيل قد أعان أيضاًعلى ذلك.

قصتان في من لسعته العقرب

قال أبو عُبَيْدةَ: لسعت أعرابيّاً عقربٌ بالبصرة، فخيفَ عليه فاشتدّ جزَعُه، فقالَ بعضُ الناس: ليس شيءٌ خيراً له من أن تُغْسَل له خصيةُ زنجي عَرِق - وكانت ليلة غَمِقة - فلما سقوه قطبَ، فقيل له: طعم ماذا تجد؟ قال: طعمُ قِرْبَةٍ جديدة.

وخبرني محمد وعليٌّ ابنا بشير، أن ظئراً لسليمان بن رياش لسعتها عقربٌ فملأت الدنيا صُرَاخاً، فقال سليمان: اطلبوا لها هذه العقرب، فإن دواءها أن تلسعها لسعة أخرى في ذلك المكان، فقالت العجوز: قد برئتُ، وقد سكنَ وجعي، ولاحاجةَ لي إلى هذا العلاج، قال: فأتوْه بعقرب لا واللّه إن يُدرَى: أهي تلك أم غيرُها؟ فأمرَ بها فأمسكت فقالت: أنشُدكَ باللّه واللبن فأبى وأرسلها عليها، فلسعتها فغُشِيَ عليها ومرَضتْ زمانًا وتساقط شعر رأسها، فقيل لسليمان في ذلك فقال: يا مجانين لا واللّه إن ردَّ عليَّ رُوحها إلا اللسعةُ الثانية، ولولا هِيَ لقد كانت ماتت.

في القمْل والصُّؤَاب

وسنقول في القمْل والصُّؤَاب ما وجدنا تمكينًا مِنَ القول، إن شاء اللّه تعالى.
ذكروا عن إياسِ بن معاوية، أنه زعم أن الصِّئبان ذكورةُ القمْلِ والقمل إناثها، وأن القملَ من الشَّكل الذي تكون إناثه أعظمَ من ذكورته.
وذكروا عنه أنه قال: وكذلك الزَّرَارقة والبُزَاة، فجعل البُزَاةَ في الإناث.
وليس فيما قال شيء من الصواب التَّسْديد، وقد خبّرناكم عن حكايته في الشَّبُّوط، حين جعله كالبغل، وجعلَه مخلوقاً من بينِ البُنِّيِّ والزَّجْر.
والقمل يعتري مِنَ العَرَق والوسَخ، إذا علاهما ثوبٌ، أو ريشٌ، أو شعر، حتى يكون لذلك المكانِ عَفَن وخُموم.

أثر لون الشَّعر في لون القملة

والقملة تكون في رأس الأسوَدِ سوداء، ورأسِ الأبيض الشعر بيضاءَ، وتكون خصيفة اللون، وكالحَبْل الأبرَق إذا كانت في رأس الأشمط، وإذا كانت في رأس الخاضب بالحمرة كانت حمراء، وإن كان الخاضب ناصلَ الخضاب كان في ولونها شُكْلة، إلا أن يستولي على الشعر النُّصول فتعود بيضاء.
وهذا شيءٌ يعتري القملَ، كما تعتري الخضرةُ دَودَ البَقْلِ، وجرادَه وذبابه، وكلَّ شيءٍ يعيش فيه، أثر البيئة في الحيوان وليس ذلك بأعجب من حَرَّة بن سُليم، فإن من طباع تلك الحرة أن تُسَوِّدَ كل شيء يكونُ فيها: من إنسان، أو فَرَس، أو حِمَارٍ، أو شاة، أو بعير، أو طائرٍ، أو حيّة.
ولم نسمع ببلدة أقوى في هذا المعنى من بلاد الترك، فإنها تصوِّر إبلَهم خيلَهم، وجميعَ ما يعيش فيها، على صورة التُّرك.

تولد القمل

والقمل يعرِضُ لثياب كلِّ الناس إذا عرض لها الوسخُ والعرق، والخموم، إلا ثيابَ المجذَّمين فإنهم لا يَقْمَلون.
وإذا قَمِلَ إنسانٌ وأفرط عليه ذلك، زأبَق رأسه إن كنّ في رأسه أو جسده، وإن كنّ في ثيابه، فموَّتْنَ.
وقال أبو قطيفة لأصحابه: أتدرون ما يذْرأ القمل قالوا: لا، قال: ذاك واللّه من قلة عنايتكم بما يصلحُ أبدانكم يذرأ القملَ الفُساء.

فأما ثمامة فحدثني عن يحيى بن خالد البرمكي، أن شيئين يُورِثان القمل: أحدُهما الإكثار من التِّين اليابس، والآخر بخار اللُّبان إذا أُلقي على المجمرة.
وربما كان الإنسان قَمِل الطباع، وإن تنظَّف وتعطّر وبدَّل الثياب، كما عَرَضَ لعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوّام، استأذَنَا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم،في لباس الحرير فأذن لهما فيه؛ ولولا أنهم كانا في حدِّ ضرورة لَمَا أذِنَ لهما فيه، مع ما قد جاء في ذلك من التشديد.
فلما كان في خلافة عمر، رأى عمر على بعض بني المغيرة من أخواله، قميصَ حريرٍ، فعَلاَه بالدِّرّة، فقال المغيريُّ: أو ليس عبد الرحمن بنُ عوفٍ يلبسُ الحرير؟ قال: وأنت مثل عبد الرحمن؛ لا أمَّ لك.
الاحتيال للبراغيث واحتاج أصحابنا إلى التسلُّم من عضّ البراغيث، أيامَ كنَّا بدمشق، ودخلنا أنطاكيَة، فاحتالوا لبراغيثها بالأسِرَّةِ فلم ينتفعوا بذلك؛ لأن براغيثهم تمشي.
وبراغيثهم نوعان: الأبْجلُ البقّ، إنما سمّوا ذلك الجنس على شبيهٍ بما حَكَى لي ثمامةُ عن يحيي بن خالدٍ البرمكيّ، فإن يحيى زعمَ أن البراغيثَ من الخلق الذي يعرِضُ له الطيران فيستحيل بقًّا، كما يعرض الطيرانُ للنَّمل، وكما يعرض الطيرانُ للدَّعاميص؛ فإن الدعاميصَ إذا انسلخت صارت فَرَاشاً. فكان أصحابنا قد لَقُوا من تلك البراغيث جَهْدًا، وكانت لها بليَّة أخرى: وذلك أن الذي تُسهِرُهُ البراغيث لا يستريح إلا أن يقتلها بالعرْك والقتْل، وإلى أن يقبضَ عليها فيرميَ بها إلى الأرض من فوق سريره فيرى أنهَنّ إذا صِرْنَ عشرينَ كان أهون عليه من أنْ يكُنَّ إحدى وعشرين، فكان الرجلُ إذا رام ذلك من واحدة منها نتُنَتْ يده وكانوا مُلوكاً، ومثل هذا شديدٌ علَى مثلهم، فما زالوا في جهد منها حتى لبسوا قُمُصَ الحرير الصِّينيِّ، وجعلوها طويلة الأردان والأبدان فناموا مستريحين.

خروج القمل من جسم الإنسان

وخبّرني كم شئت من أطبَّاء الناس وأصحاب التجارب، منهم من يقشعر من الكذب، ويتقزز منه أنهم رأوا القمل عِياناً وهو يخرج من جلد الإنسان، فإذا كان الإنسان قَمِلاً كان قمله مستطيلاً، في شبيه بخلقة الديدانِ الصغار البيض.
ويُذكر أن مثلَ ذلك قد كان عرضَ لأيوبَ النبي، صلى اللّه عليه وسلم، حين كان امتُحِن بتلك الأوجاع حتى سُمِّي: المبتلَى.
وخبَّرني شيخٌ من بني ليث، أنه اعتراه جَرَبٌ، وأنه تطلّى بالمَرْتَك والدُّهن، ثم دخل الحمَّام فرأى قملاً كثيراً، يخرج من تلك الجُلَب والقروح.
وخبَّرني أبو موسى العباسيُّ صديقُنا أنه كان له غلامٌ بمصر، وكان الغلام ربما أخذه إبرة ففتَح بها فتحاً في بعض جسده، في الجِلْد، فلا يلبثُ أن يطلع من تحت الجلد في القيح قملة.

قمل الحيوان

والقمل يُسرعُ إلى الدّجاج والحمام، إذا لم يغتَسِلْ يكُنْ نظيف البيت، وهو يعرض للقرْد، ويتولَّد من وسَخ جلد الأسير وما في رأسِه من الوسخ، ولذلك كانوا يضجُّون ويقولون: أكلَنَا القِدُّ والقمل.
تلبيد الشعر وكانوا يلبِّدون شعورهم، وذلك العمل هو التلبيد، والحاجُّ الملبّد هو هذا، وقال الشاعر:

يا ربِّ ربَّ الراقصاتِ عشيَّة بالقومِ بين مِنًى وبين ثبير

زُحُفِ الرَّوَاح قد انقضت مُنَّاتهُمْ يحمِلْنَ كلَّ مَلَبِّد مأجُور

وقال عبد اللّه بن العَجْلان النهديُّ:

إني وما مارَ بالفُرَيْق وما قرْقرَ بالجَلْهَتَيْن من سُرَبِ

جماعة من القطا وغيره، واحدتها سُرْبَة وعبر بها هاهنا عن الحُجَّاج.

من شَعَرٍ كالغَليل يُلْبَدُ بال قمْلِ وما مارَ من دمٍ سَرَبِ

والعِتر عتر النَّسيك يخفر بال بُدْن لحِلّ الإحرامِ والنُّصُبِ

وقال أميَّةُ بن أبي الصَّلت:

شاحينَ آباطَهُمْ لم ينزعُوا تَفَثاً ولمْ يسلُّوا لهم قملاً وصِئباناً

ويروى: لم يقرَبوا تَفَثاً قال اللّه عزّ وجلّ: "ثمّ لْيَقضوا تَفَثَهُمْ" وما أقل ما ذكَرَوا التَّفَثَ في الأشعار.
والتلبيد: أن يأخذ شيئاً من خِطْميٍّ وآسٍ وَسِدْر، وشيئاً من صَمْغ فيجعله في أصول شعره وعلي رأسه، كي يتلبد شعرهُ ولا يعْرق ويدخله الغبار، ويخمَّ فيقمَل.
وكانوا يكرهون تسريح الشعر وقتل القمل، فكان ذلك العمل يقلُّ معه القمل.
وقد قال النبيُّ صلى اللّه عليه وسلم لكعب بن عُجْرة: هل آذاك هَوَامّك رأسِك؟
تعيير هَوازن وأسدٍ بأكل القُرَّة وقال ابنُ الكلبيِّ: عُيِّرَتْ هَوَازنُ وسدٌ بأكل القُرَّةِ، وهما بنو القملة، وذلك أن أهل اليمن كانوا إذا حلقوا رؤوسهم بمِنًى وضع كل رجل منه على رأسِهِ قُبْضةً من دقيق، فإذا حلقوا رؤوسهم سقط ذلك الشَّعَرُ مع ذلك الدقيق، ويجعلون الدقيق صدقةً، فكان ناسٌ من الضُّركاء وفيهم ناسٌ من قيس وأسد، يأخذون ذلك الشعر بدقيقه، فيرمُون بالشعر، وينتفعون بالدقيق.
وأنشد لمعاوية بن أبي معاوية الجرْميّ، في هجائهم:

ألم تر جَرماً أنْجَدتْ وأبوكم مع الشعر في قصِّ الملبِّدِ شارعُ

إذا قرَّةٌ جاءت يقولُ أصبْ بـهـا سوى القمل إني من هَوَازنَ ضارعُ

شعر في هجو القملين

وقال بعض العُقيليِّين، ومرّ بأبي العلاء العُقيليّ وهو يتفلَّى، فقال:

وإذا مررت به مررتَ بقانصٍ متصيِّد في شَرَقْةٍ مـقـرور

للقملِ حولَ أبي العلاء مصارعٌ مِنْ بين مقتول وبينَ عـقـيرِ

وكأنـهنَّ لدي خُبُون قميصـه فَذٌّ وتوأمُ سمسمٍ مـقـشـور

ضَرِج الأنامل من دماء قتيلها حنِق علَى أخرى العدوِّ مغِير

وقال الحسنُ بنُ هانىء، في أيوبَ، وقد ذهب عني نسبُه، وطالما رأيته في المسجد:

مَن ينْأ عنه مـصـادُهُ فمصادُ أيوبٍ ثـيابُـه

تكفيه فـيهـا نـظـرةٌ فتعلُّ من عَلَق حِرَابُـه

يا رُبّ محترس بخـب نِ الدرزِ تكنفُه صُؤابُه

فاشي النكاية غير معلو مِ إذا دبَّ انـسـيابـهُ

أو طـامـريٍ واثـبٍ لم ينجهِ عنه وثـابُـه

الطامريّ: البرغوث، ثم قال:

أهْوَى لهُ بمذلَّق الغَرْبَين إصْبَعُه نِصابُه

للّه درُّك من أخي قـنـص أصـابـعُـه كِـلابُـــه

أحاديث وأخبار في القمل

وفي الحديث أن أكل التفاح، وسُؤْرَ الفأر، ونَبْذَ القملة يورث النّسيان.
وفي حديث آخر أنَّ الذي ينبذ القملة لا يُكفَى الهمّ.

والعامة تزعم أن لُبس النِّعال السودِ يورث الغمَّ والنسيان.
وتناول أعرابيٌّ قملة دبَّتْ عَلَى عُنقه، ففدغها ثم قتلها بين باطنِ إبهامه وسَبَّابته، فقيل له: ما تصنع ويلك بحضرة الأمير؟ فقال: بأبي أنتَ وأميِّ: وهل بقي منها إلا خِرشاؤها؟ يعني جلدَتَها وقِشرتها وكل وعاءٍ فهو خرشاء.
المأمون وسعيد بن جابر وحدثني إبراهيم بنُ هانىء، قال: حدّثني سعيدُ بنُ جابر، قال: لما كادت الأجناد تحيط ببغداد من جوانبها، قال لنا المخلوع: لو خرجنا هكذا قُطْرَبُّل علَى دوابنا، ثم رجعنا من فورنا، كان لنا في ذلك نُشرة، قال: فلما صرنا هناك هجمنا عَلَى موضع خَمَّارين، فرأي أناسًا قد تطافروا من بعض تلك الحانات، فسأل عنهم، فإذا هم أصحابُ قِمار ونَرْدٍ ونبيذٍ، فبعث في آثارهم فرُدُّوا وقال لنا: أشتهي أن أسمع حديثهم، وأرى مجلسهم وقمِارهم، قال: فدخلْنا إلى موضعِهم، فإذا تخت النّرد قطعةُ لِبْد، وإذا فصوص النَّردِ من طين، بعضُه مسوَّد وبعضه متروك، وإذا الكعبانِ من عُروة كوز محكّكة، وإذا بعضُهم يتكئُ عَلَى دَنٍّ خالٍ وتحتهم بَوَار قد تنسَّرتْ، قال: فبينا هو يضحك منهم إذ رأيت قملة تدب عَلَى ذيله، فتغفّلتُه وأخذْتها فرآني وقد تناولتُ شيئًا، فقال لي: أي شيء تناولتَ؟ فقلتُ: دُوَيْبَّة دبت علَى ذيلك من ثيابِ هؤلاء، قال: وأيُّ دابة هي؟ قلت: قملة، قال: أرنِيها؛ فقد واللّه سمعت بها.
قال: فتعجبتُ يومئذ من المقادير كيفَ ترفع رجالاً في السماء، وتحطُّ آخرينَ في الثَّرى.

معارف وخبر في القمل

قال: والقردُ يتفلّى، فإذا أصاب قملةً رمى بها إلى فيه.
ونساء العوامِّ يعجِبُهُنَّ صوتُ قصْع القمل على الأظفار.
ورأيت مرةً أنا وجعفر بن سعيد، بقَّالا في العتيقة وإذا امرأته جالسةً بين يديه، وزوجها يحدَّثها وهي تفلّي جيْبَها وقد جمعت بين باطن إبهامها وسَبَّابتها عدَّة قمل، فوضعتها على ظفر إبهامها الأيسر، ثم قلبت عليها ظفرها الأيمن فشدخَتْها به، فسمعتُ لها فَرقعةً، فقلت لجعفر: فما منعها أن تضَعَها بين حَجَرين؟ قال: لها لذةٌ في هذه الفرقعة، والمباشرةُ أبلغُ عندها في اللذة، فقلت: فما تكرهُ مكانَ زوجها؟ قال: لولا أن زوجها يُعجبُ بذلك لنهاها.
شعر لابن ميادة وقال ابن مَيَّادة:

وسقتني سقاة المجد من آل ظالمٍ بأرشيةٍ أطرافها في الكواكب

وإنَّ بأعلى ذي النخيل نسية يسيرون أعياراً شدادَ المناكبِ

يشلنَ بأستاهٍ عليهنَّ دسمة كما شال بالأذناب سمرُ العقارب

في البرغوث

والبرغوث أسودُ أحدبُ نَزّاء، من الخلق الذي لا يمشي صِرفاً.
وبما قال بعضهم: دبيبُها من تحتي أشدُّ عَلَيّ مِنْ عضِّها.
وليس ذلك بدبيب، وكيف يمكنهُ الدَّبيبُ وهو مُلزَق عَلَى النِّطع بجلد جنب النائم؟
ولكنّ البرغوثَ خبيثٌ، فمتى أرادَ الإنسان أن ينقلب من جنب إلي جنب، انقلب البرغوث واستلقى عَلَى ظهره، ورفع قوائمه فدغدغه بها، فيظنُّ من لا علم عنده أنه إنما يمشي تحت جنبه. وقد ذكرنا من شأنه في مواضع، ولو كان الباب يكبر حتى يكون لك مجموعاً ولم تعرفه تكلفت لك جمعه.

شعر في البرغوث

وقال بعضُ الأعراب:

ليلُ البراغيث عنّاني وأنْصَبَني لا باركَ اللّهُ في ليل البراغيثِ

كأنهنَّ وجلدي إذْ خَلونَ به أيتامُ سَوْءٍ أغاروا في المواريثِ

وقال محبوب بن أبي العشَنَّط النهشليّ:

لروْضة من رياضِ الحزْن أو طرفٌ من القريةِ جرْد غيرُ محروثِ

للنورِ فيه إذا مجَّ النَّدى أرجٌ يشفي الصداعَ ويشفي كلَّ ممغوثِ

أملا وأحلى لعَينِي إن مررتُ به مِن كَرْخ بغدادَ ذِي الرُّمان والتُّوثِ

الليلُ نِصفان: نصفٌ للهموم فما أقضى الرقادَ، ونصف للبراغيثِ

أبيتُ حين تُساميني أوائلها أنزو وأخلطِ تسبيحاً بتغويثِ

سُود مَداليجُ في الظلماء مؤذيةٌ وليس ملتمسٌ منها بمسبوثِ

وقد جعل التوثَ بالثاء، ووجه الكلام بالتاء، وتعجيمها نقطتان من فوقها.
وقال آخر:

لقد عَلِمَ البرُغوثحين يَعَضّني ببغدادَ إني بالبلاد غريبُ

وقال آخر:

وَإنَّ امرأ تؤْذي البراغيثُ جِلدَه ويُخرجنّهُ من بيته لذليلُ

ألاَ رُبّ برغوثٍ تركتُ مجدّلاً بأبيض ماضي الشّفرَتَيْنِ صقَيل

وقال آخر:

لِقيتُ منَ البرغوث جَهْداً ولا أرى أميراً عَلَى البرغوثِ يقضِي ولا يُعْدِي

يقلّبني فوقَ الفِرَاش دبيبُه وتصبح آثارٌ تَبيّنُ في جِلْدِي

وقال آخر:

ألا يا عبادَ اللّه مَنْ لقبيلةٍ إذا ظهرتْ في الأرض شدَّ مُغِيرُها

فلا الدِّينُ ينهاها ولا هي تنتهي ولا ذُو سِلاحِ من مَعَدٍّ يَضِيرُها

وقال يزيد بن نُبيه الكِلابّي:

أصبحتُ سالمتُ البراغيثَ بعدما مَضَتْ لية مني وقلَّ رُقُودها

فيا ليت شعري هل أزورنَّ بلدة قيلٌ بها أو باشُها وسنيدُها

وهل أسمعن الدهرَ أصوات ضُمَّر تُطالِعُ بالركبانِ صُعراً خُدُودها

وهل أرَيَن الدهرَ ناراً بأرْضها بنفسي وأهلي أرضُها ووفودها

تراطنُ حولي كما ذرَّ شارقٌ ببغداد أنباط القُري وعبيدُها

وقال آخر:

لا بارك اللهُ في البرغوثِ، إن له لذعاً شديداً كلذعِ الكيِّ بالنار

أقولُ والنجمُ قد غارت أوائله وغَلَّسَ المدلجُ الساري بأسحار

لبرقةٌ مِنْ براق الحزنِ أعمَرها فيها الظباءُ تُراعي غبَّ أمطار

أشفى لِدَائي من دربٍ به نبطٌ ومنزلٍ بين حَجام وجزار

مَنْ ينحرُ الشول لا يُخطى قوائمَها بمُدية كشرار النار بتار

وقال آخر:

إنَّ هذا المصلوبَ لا شك فيه هو من بعد صلبهِ مبعوثُ

حلَّ من حيثُ ليس يأكله البقُّ ولا يهتدي له البرغوثُ

بينَ حِنوى مطيةٍ إنْ يسقها سائقاها فذاك سيرٌ مكيثُ

فعليه الدبارُ والخزيُ لما قلتُ مَنْ ذا فقال لصٌّ خبيثُ

وقال أبو الرماح الأسديُّ:

تطاولَ بالفسطاط ليلي ولم يكن بحنْو الغضَى ليلٌ عَليَّ يطولُ

يؤرِّقني حُدْبٌ صغارٌ أذلة وإن الذي يؤذينَهُ لذليل

إذا جُلتُ بعض الليل منهن جوْلة تعلَّقْنَ بي أو جُلْنَ حيثُ أجولُ

إذا ما قتلناهنّ أضعفْنَ كَثرَةً علينا ولا يُنعى لهنّ قتيلُ

ألا ليت شعري هل أبيتَنَّ ليلة وليس لبرغوث عَلَيَّ سبيلُ

وقال أبو الشَّمقمق:

يا طولَ يومي وطول لَيْلَتِيَهْ إن البراغيثَ قد عَبثْنَ بيَهْ

فيهنّ بُرغوثةٌ مُجَوَّعَةٌ قد عقدَتْ بَنْدها بفقْحَتِيهْ

وقال آخر:

هنيئاً لاهل الرَّي طيبُ بلادهم وأن أميرَ الريِّ يحي بن خالدِ

تطاولَ في بغدادَ ليلى ومن يكُنْ ببغدادَ يلبثْ ليله غيرَ راقدِ

بلادٌ إذا جنَّ الظلامُ تقافزتْ براغيثها من بين مثنى وواحدِ

ديازجةٌ سود الجلود كأنها بغالُ بريد أرسلت في مداودِ

وقال آخر:

أرّقني الأسَيْوِدُ الأسكُّ ليلة حَكَّ ليس فيها شكِّ

أحُكُّ حتى مالهُ مَحَكَ أحُلُّ حتى مِرْفقي مُنفكُّ

وقال آخر:

يا أمَّ مَثْواي عَدِمْتُ وَجْهكِ أنقذني ربُّ العُلا من مِصْرِكِ

ولدْغ برغوثٍ أراهُ مُهْلِكي أبيبُ ليلي دائمَ التحكُّكِ

تحكُّكَ الأجربِ عند المبركِ

وقال آخر:

الحمد للّه برغوث يُؤرِّقني أحَيْلِكُ الجلْدِ لا سمْعٌ ولا بصرُ

وقال آخر:

قبيلة في طولها وعَرْضِها لم يُطْبِقُوا عينًا لهم بغُمْضِها

خوْفَ البراغيثِ وخوفَ عضّها كأنّ في جلودها من مَضِّها

عقارباً ترفضُّ من مُرَفْضِّها إن دام هذا هربتْ منْ أرضِها

يا ربِّ فاقتلْ بعضَها ببعضِها

معارف في البرغوث

قال: والبرغوثُ في صورة الفيل، وزعموا أنها تبيض وتفرخ، وأنهم رأوْا بيضَها رؤية العين، والبراغيث تَنَاكَحُ وهي مستدبرةٌ ومتعاظلة، وهي من الجنس الذي تطول ساعة كوْمِها.
استقذار القمل وليس الناسُ لشيء مما يعَضُّهم ويؤذيهم، من الجرجس، والبقِّ، والبراغيثِ والذِّبان - أشد استقذارًا منهم للقمل، ومن العجب أنّ قرابته أمسُّ، فأما قملة النِّسر، وهي التي يقال لها بالفارسية: دَدَه ،وهي تكون بالجبل، فإنها إذا عضّت قتلت.
القول في البعوض حدَّثني إبراهيم بن السِّنديِّ قال: لما كان أبي بالشام والياً، أحبَّ

أن يسوِّي بين القحطانيِّ والعَدناني، وقال: لسنا نقدِّمُكم إلا على الطاعة للّه عزّ وجلّ، وللخلفاء، وكلُّكم إخْوة، وليس للنِّزاريِّ عندي شيءٌ ليس لليَمانيِّ مثله.
قال: وكان يتغدّى مع جملة من جِلَّة الفريقين، ويسوِّي بينهم في الإذن والمجلس، وكان شيخ اليمانية يدخل عليه معتمًّا، وقد جذب كورَ عمامته حتى غطى بها حاجبه وكان لا ينزعها في حر ولا برد، فأراد فتى من قيس - وقد كان أبي يستخليه ويقرِّبه - أن يُسْقطه من عين أبي ويوحِشَه منه، فقال له ذات يوم ووجدَ المجلس خاليًا: إني أريدُ أن أقول شيئاً ليس يخرجه مني إلا الشكر والحُرية، وإلا المودة والنصيحة، ولولا ما أعرفُ من تقزُّزك وتنطُّسِك؛ وأنك متى انتبهت على ما أنا مُلْقِيه إليك لم آمَنْ أنْ تستغشَّني، وإن لم تُظْهِرْه لي، إن هذا اليمانيّ إنما يعتم أبداً، ويمدُّ طُرّةَ العمامة حتى يغطّي بها حاجِبَيْهِ؛ لأن به داءً لو عَلِمْتَ به لم تؤاكلْهُ.
قال: فقال أبي: فرَماني واللّه بمعنى كاد ينقضُ عليَّ جميع ما بيدي، وقلتُ: واللّه لئن أكلت معه وبه الذي به إنّ هذا لهو البلاءُ، ولئنْ منعت الجميع مؤاكلتي لأوحِشَنهم جميعاً بعد المباسطة والمباثة والملابسة والمؤاكلة، ولئن خصَصْتُه بالمنع أو أقعدتُه على غير مائدتي، ليغضَبَنّ، ولئن غضِب ليغضَبنّ معه كل قحطاني بالشام، فبتُّ بليلة طويلة،فلما كان الغَدُو جلست، ودخلوا للسلام، جرى شيءٌ من ذكر السمومِ وغرائبِ أعمالها، فأقبل عَليَّ ذلك الشيخُ فقال: عندي من هذا بالمعاينةِ ما ليس عند أحد، خرجت مع ابن اخي هذا، ومع ابن عمّي هذا، ومع ابني هذا، أريد قريتي الفُلانية، فإذا بقُرب الجادّةِ بعير قد نهشته أفعى، وإذا هو وافرُ اللحم، وكل شيء حَوَالَيه من الطَّير والسباع ميت، فقمنا منه على قابِ أرماح نتعجب، وإذا عليه بعوض كثيرة، فبينا أنا أقول لأصحابي: يا هؤلاء، إنكم لترون العجَب: أولُ ذلك أن بعيراً مثل هذا يتفسَّخ من عَضةِ شيء لعله أن لا يكون في جسم عرقٍ من عروقه، أو عَصَبة من عصَبه، فما هذا الذي مَجَّه فيه، وقذفه إليه؟ ثم لم يرضَ بأن قتلَه حتى قتلَ كلّ طائر ذاق منه، وكلّ سبُعٍ عضّ عليه، وأعجب من هذا قتلُه لأكابر السِّباع والطير، وترْكه قتْلَ البعوضة، مع ضَعفها ومهانتِها.
فبينا نحن كذلك إذ هبَّت ريحٌ من تلقاء الجيفةِ، فطيّرت البعوض إلى شِقنا، وتسقط بعوضة على جبهتي، فما هو إلا أن عضتْني إذ اسْمَأدَّ وجهي تورَّم رأسي، فكنت لا أضربُ بيدي إلى شيء أحكُّه من رأسي وحاجِبي، إلا انتثر في يدي، فحُمِلْت إلى منزلي في محمل وعولِجْت بأنواع العلاج، فبَرَأت بعد دهر طويل، على أنه أبقى عليَّ من الشَّين أنه تركني أقرعَ الرأس، أمرط الحاجبين.
قال: والقومُ يخوضون معه في ذلك الحديث، خَوْضَ قوم قد قتَلوا تلك القصة يقيناً.
قال: فتبسمْت، ونَكَس الفتى القيسيُّ رأسه، فظن الشيخ أنه قد جرى بيننا في ذلك ذَرْء من القول، فقال: إن هذا القيسيّ خبيث،ولعله أن يكون قد احتال لكَ بحيلة قال إبراهيم: فلم أسمع في السموم بأعجبَ من هذا الحديث.
طلسمات البعوض ويزعم أهلُ أنطاكية أنهم لا يُبْعَضونَ لِطلَّسمٍ هناك، ولو ادعى أهلُ عقْر الدَّير، المتوسطة لأجمةِ ما بينَ البصرة وكَسْكَر لكان طِلَّسْمُهُمْ أعجب.
ويزعم أهلُ حِمْص أن فيها طِلَّسْماً من أجلِهِ لا تعيشُ فيها العقارب، وإنْ طُرِحَتْ

فيها عقربٌ غريبةٌ ماتَتْ من ساعتها.
و لَعَمري إنه ليجوزُ أن تكون بلدة تضادُّ ضرباً من الحيوان فلا يعيش فيها ذلك الجنس، فيدعي كذَّابو أهلها أن ذلك برُقْية، أو دعوة، أو طلّسم.

ألم عضة البرغوث والقملة

والبرغوثُ إذا عض، وكذاك القملة، فيس هناك من الحُرقة والألم ما لَه مدةٌ قصيرة ولا طويلة.
وأما البعوضُ فأشهد أن بعوضةً عضتْ ظهر قدمي، وأنا بقرب كاذَة والعَوْجاء، وذلك بعد أن صلى الناسُ المغرب، فلم أزَل منها في أكالٍ وحُرْقة، وأنا أسير في السفينة، إلى أن سمِعتُ أذانِ العشاء.
ولذلك يقال: إن البعوضة لو ألحقت بمقدار جرْم الجرَّارة - فإنَّها أصغرُ العقارب ثم زيدتْ مم تضاعيف ما معها من السُّمِّ عَلَى حَسَبِ ذلك لكانت شَرّاً من الدُّوَيْبّة التي تسمى بالفارسية: دَدَهْ وهي أكبر من القملة شيئاً، وتكون بمهرجان قُذُق، فإنها مع صِغر جسمها تفسَخ الإنسان في أسرعَ من الإشارة باليد، وهي تعضُّ ولا تلسع، وهي من ذوات الأفواهِ، وهي التي بزعمهم يقال لها قملة النَّسر، وذلك أن النّسر في بعض الزمان، إذا سقط بتلك الأرض سقطت منه قملة تستحيل هذه الدابة الخبيثة.
والبعوضةُ من ذواتِ الخراطيم.
وحدّثني محمد بن هاشم السِّدريّ قال: كنتُ بالزُّطّ، فكنت واللّه أرَى البعوضَة تطير عن ظهر الثور فتسقط على الغُصْن من الأغصان، فتقلِس ما في بطنها، ثم تعود.
والبعوضة تَغْمِس خرطومها في جلد الجاموس، كما يغمِسُ الرجلُ أصابعَه في الثريد.
ومن العجب أن بين البصرة وواسط شطرين، فالشَّطر الذي يلي الطّف وباب طنج يبيت أهله في عافية، وليس عندهم من البَعوض ما يذكر، والشطر الذي يلي زقاق الهفَّة لا ينامُ أهله من البعوض، فلو كان هذا ببلاد الشام أو بلاد مصر لأدَّعوا الطِّلّسم. وحدَّثني إبراهيم النَّظام قال: وردنا فم زقاق الهفة، في أجَمة البصرة،فأردنا النفوذ فمنعنا صاحبُ المسْلحة، فأرَدْنا التأخُّر إلى الَهوْر الذي خرَجْنا منه، فأبى علينا، ووردْنا عليه وهو سكران وأصحابُه سُكارى، فغضِب عَلَى مَلاَّح نَبَطِيٍّ، فشدّهُ قِماطاً، ثم رمى به في الأجمة، على موضع أرض تتصل بموضع أكواخ صاحب المسلَحة، فصاح الملاح: اقتلني أيَّ قتلة شئتَ وأرحْني فأبى وطرحه، فصاح، ثم عاد صياحُه إلى الأنين، ثم خَفَتَ وناموا في كِلِلِهم وهم سكارى، فجئتُ إلى المقموط، وما جاوز وقت عتمةٍ، فإذا هو ميتٌ، وإذا هو أشد سواداً من الزنجي، وأشد انتفاخاً من الزقِّ المنفوخ، وذلك كله بقدر ما بين العشاء والمغرب، فقلت: إنها لمَّا لسَبَتْه ولسَعته من كلِّ جانب لسْعا عَلَى لسع إن اجتماعَ سمومها فيه أرْبَتْ عَلَى نهشة أفعى بعيداً، فهي ضررٌ ومحنةٌ، ليس فيها شيءٌ من المرافق.
نفع العقرب والعقاربُ بأكلها مَشويةً من بعينه ريح السّبَل، فيجدُها صالحة، ويرمَى

بها في الزيت، حتى إذا تفسَّخت وامتصَّ الزيتُ ما فيها من قواها فطلوْا بذلك الدهنِ الخُصى التي فيها النفخ - فرّق تلك الريح حتَّى تخمُصَ الجلِدة، ويذهب الوجع.
فإذا سمعْتَ بدُهْن العقارب فإنما يعنون هذا الدهن.

في البقّ والجِرجس والشَّرَّان والفَرَاش والأدي

وقال اللّه تعالى: "إنَّ اللّه لا يَسْتَحْي أنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فمَا فوْقها"، قال: يريد فما دونها.
وهو قول القائل للرجل يقول: فلانٌ أسفلُ الناسِ وأنذلهُم فيقول: هو فوق ذلك يضعُ قوله فوق، في موضع: هو شَرٌّ من ذلك.
قال: وضروب من الطير لا تلتمسُ أرزاقها إلا بالليل، منها الخُفّاش، والبُومة، والصَّدى، والضُّوْع، وغُرابُ الليل.
وللبعوض بالنهار تؤذي بعض الأذى، وإنما سلطانها بالليل، وكذلك البراغيث.
وأما القملُ فأمره في الحالات مستوٍ، وليس للذِّبَّانِ بالليل عملٌ، إلا أنّي متى بيَّتَ معتي في القبة ما صار إليها، وسكن فيها من الذِّبّان، ولم أطرُدْها بالعشيِّ وبعد العصر، فإني لا أجدُ فيها بعوضة واحدة.

شعر ورجز في البعوض

وقال الرَّاجز في خرطوم البعوضة:

مثل السَّفَاة دائمٌ طنينُـهَا رُكِّبَ في خُرْطومِها سِكِّينُهَا

وقال الهذليّ:

كأنَّ وغَى الخَموش بجانِبَيْه وغَى رَكْبٍ أمَيْمَ ذوي هِيَاطِ

والخموش: أصناف البعوض، والوغى: أصوات الملتفة التي لا يُبين واحدُها عن معنى، وهو كما تسمع من الأصوات الجيشين إذا التقيا عَلَى الحرب، وكما تسمعُ من ضجَّة السوق.
وقال الكُمَيت وهو يذكر قانصاً وصاحب قُتْرَة - لأنه لا يَبْتَنِي بيته إلاّ عند شريعةٍ ينتابها الوحْش - فقال وهو يصف البعوض:

به حاضرٌ من غير جِنٍّ تروُعه ولا أنسٌ ذو أرْنانٍ وذُو زَجَلْ

والحاضر: الذي لا يبرحه البعوض، لأن البعوض من الماء يتخَلق فكيف يفارقه، والماءُ الراكد لا يزال يولدُهُ؟ فإن صار نطافاً أو ضَحْضَحاً استحال دعاميص، وانسلخت الدَّعاميص فصارت فراشاً وبعوضاً، وقال ذو الرُّمّة:

وأيقنّ أنّ القِنْعَ صارتْ نِطافُه فَرَاشاً وأن البقّل ذاوٍ و يابسُ

وصفَ الصَّيف، وقال أبو وجْزَة، وهو يصِفُ القانصَ والشريعة والبعوض:

تَبيتُ جارَتَهُ الأفعى وسامرُه رُمْدٌ به عاذِرٌ مِنهنَّ كالجَرَبِ

رُمْدٌ في لونها، يعني البعوض، وهي التي تسامرُ القانِصَ وتُسْهره، والعاذِر: الأثر، يقول: في جلده عواذير وآثارٌ كآثارِ الجَرَبِ من لسع البعوض، وهو مَعَ ذلك وسْط الأفاعي.
وقال الراجز يصف البَعُوض:

ولَيلةٍ لم أدرِ ما كَراها أمارسُ البَعُوضَ في دُجَاها

كلُّ زَجُول خَفِقٍ حَشاها سِتٌّ لدَى إيفائها شَوَاها

لا يطْربُ السامعُ من غناَها حَنّانة أعظمُها أذاها

أرجل الجرادة والعقرب والنملة والسرطان وكذلك قوائم الجرادة، هي ستّ: يدان، ورجلان، والميشاران وبهما تعتمد إذا نَزَت.
فأما العقرب فلها ثمان أرجل، وللنملة ست أرجل. وللسَّرَطان ثمان أرجل، وهو في ذلك يستعين بأسنانه، فكأنه يمشي على عَشر، وعيناه في ظهره، وما أكثر من يشويه ويأكله للشهوة، لا للحاجة ولا للعلاج.

شعر ورجز في البعوض

وقال الرَّاجز، ووصَفَ حالَهُ وحَالَ البَعوض:

لم أرَ كاليوم ولا مُذْ قطّ أطولَ من ليلي بنهر بَطّ

كأنما نجومُه في رُبْطِ أبيتُ بينَ خُطّتي مشتطّ

من البَعُوضِ ومن التغطّي إذا تَغَنَّيْنَ غِناءَ الزُّطّ

وهُنّ منّي بمكانِ القرطِ فثِقْ بوقع مثلِ وقع الشَّرطِ

وقال أيضاً:

إذا البعوضُ زجَلَت أصواتُها وأخذ اللحنَ مغنّياتُها

لم تطرب السامعَ خافضاتُها كلُّ زجُولِ تُتَّقى شَذاتُـهـا

صغيرةٌ عظـيمةٌ أذاتـهـا تنقُص عن بُغيتها بُغاتُـهـا

ولا تصيبُ أبداً رُمـاتُـهـا رامحة خُرطومُها قنَاتُها

وأنشدني جعفر بن سعيد:

ظَلِلْتُ بالبصرة في تَهْوَاش وفي براغيثَ أذاها فاشـي

من نافر منها وذي اهتماش يرفع جَنْبَيِّ عن الـفـراش

فأنا في حَكَ وفي تخْراش تتركُ في جنبيِّ كالخـراش

وزوجةٍ دائمةِ الـهـراش تغلي كغلي المِرجَلِ التَّشَّاش

تأكلُ ماجَمَّعت من تَهبـاش بل أمٌّ معروف خَموشٌ ناشِ

وقال رجل من بني حِمَّانَ، وقع في جُنْد الثغور:

أأنصرُ أهل الشام ممن يكيدهـم وأهلي بنَجدٍ ساءَ ذلك من نصرِ

بَراغيثُ تُرْذِيني إذا الناسُ نَوَّمُوا وبَقٌّ أقاسيه على ساحل البحر

فإن يك فرضٌ بَعدها لا أعُدْ لَهُ وإن بذلوا حُمْرَ الدنانيرِ كالجمْرِ

؟

في العنكبوت

قال اللّه عز وجل: "مَثَل الَّذينَ اتخذوا مِنْ دُونِ اللّهِ أوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً، وَإنَّ أوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ"، ثم قال على إثر ذلك: "وَتِلْكَ الأمْثَالُ نَضربُها لِلنَّاسِ وَمَا يَعقِلها إلاّ العَالِمُونَ" يريد ذكره بالوهَن، وكذلك هو، ولم يُرِدْ إحكام الصنعة في الرِّقَّة والصَّفاقة، واستواء الرقعة، وطول البقاء، إذا كان لا يعمل فيه تعاوُرُ الأيام، وسَلِمَ من جنايات الأيدي.

شعر في العنكبوت

وقال الحُدَّانيّ:

يزهِّدُني فـي وُدِّ هـارونَ أنـه غَذَتْهُ بأَطْباءٍ مُلَـعَّنَةٍ عُكْـلُ

كأنّ قفا هارُونَ إذّ قامَ مُـدْبـراً قفا عنكبوت سَلّ من دُبْرهَا غَزْلَ

ألا ليت هاروناً يسافرُ جـائعاً وليس عَلَى هارون خفٌّ ولا نعْلُ

وقال مزرِّدُ بن ضِرار:

ولو أنَّ شيخاً ذا بَـنِـين كـأنـمـا على رأسِهِ من شاملِ الشَّيْب قوْنَسُ

ولم يَبْقَ من أضراسه غير واحـدٍ إذ ا مَسَّه يَدْمى مِرَاراً ويَضْـرَسُ

تبيِّت فيه العنكبـوتُ بـنـاتِـهـا نواشئَ حتى شِبْنَ أوْ هُنّ عُـنَّـسُ

لظَلَّ إلـيهـا رَانِـياً وكـأنـــه إذا كشّ ثورٌ من كريص مُنَمِّسُ

أجناس العنكبوت ونسْجها

قال: ومن أجناس العنكبوت جنس رديء التدبير، لأنه ينسِجُ سِترهُ على وجه الأرض، والصخور، ويجعله على ظهر الأرض خارجاً، وتكونُ الأطرافُ داخلة، فإذا وقع عليه شيءٌ مما يغْتَذِيه من شكل الذّبّان وما أشبه ذلك أخذه.
وأما الدقيق الصَّنْعة فإنه يصعِّد بيته ويمدُّ الشَّعرة ناحيةَ القرون والأوتاد، ثم يسدِّي من الوسط، ثم يهيِّئُ اللُّحمة، ويهيِّئُ مَصيدَتَه في الوسط، فإذا وقع عليها ذباب تحرَّك ما هناك ارتبط ونشِبت به، فيتركه على حاله حتى إذا وثق بوَهْنِهِ وضَعْفه، غلَّه وأدخَلَه إلى خزانته، وإن كان جائعاً مصَّ من رطوبته ورمَى به، فإذا فَرَغ رمّ ما تشعَّثَ من نَسْجه.
وأكثرُ ما يقعُ عَلَى تلك المصيدة من الصَّيدِ عند غيبوبة الشمس.
وإنما تنسجُ الأنثى، فأما الذكرُ فإنه ينقُض ويُفسِد. وولد العنكبوتِ أعجبُ من الفرُّوج، الذي يظهر إلى الدنيا كاسباً محتالاً مكتفياً.
قال: وولد العنكبوت يقومُ عَلَى النسج ساعةَ يولد.
قال: والذي ينسِجُ به لا يخرجُ من جوفه، بل من خارج جسده.
وقال الحُدَّانيُّ:

كأن قفا هارون إذ قام مُـدْبـراً قفا عنكبوت سُلَّ من دُبْرها غزْلُ

فالنحل، العنكبوت، ودود القزّ، تختلف من جهات ما يقال إنه يخْرُج منها.

العنكبوت الذي يسمى الليث

ومن العناكبِ جنسٌ يصيد الذُّبابَ صيد الفهود، وهو الذي يسمى: الليث وله ستُّ عيون، وإذا رأى الذُّبابَ لطِئَ بالأرض، وسكَّنَ أطرافه، وإذا وثبَ لم يخطئْ، وهو من آفات الذّبّان، ولا يصيدُ إلا ذِبّان الناس.
ذبان الأسد والكلاب وذِبَّانُ الأُسْدِ علَى حِدَة، وذِبّانُ الكِلاب على حِدَة، وليس يقوم لها شيءٌ، وهي أشدُّ من الزنابير، وأضرُّ من العقارب الطيّارة، وفيها من الأعاجيب أنها تعضُّ الأَسْدَ، كما يعضُّ الكلبَ ذِبَّانُ الكَلْب.
وكذلك ذِبّانُ الكلأ، لما يغشَى الكَلأ من بعير وغير ذلك، ولها عضٌّ مُنكَر، ولا يبلغُ مبلغَ ذِبَّانِ الأُسْد.
فمن أعاجيبها سِوى شدةِ عضِّها وسَمِّها، وأنها مقصورة علَى الأسد، وأنها متى رأت بأسد دماً من جراح أو رمْي، ولو في مقدار الخُديش الصغير فإنها تستجمعُ عليه، فلا تقلعُ عنه حتى تقتله.
وهذا شبيهٌ بما يُرْوَى ويُخبَر عن الذَّرّ، فإن الذَّرّ متى رأتْ بحيَّة خدْشاً لم تقْلِعْ عنه حتى تقتله، وحتى تأكله.
ولوع النمل بالأراك ولقد أردتُ أن أغْرسَ في داري أراكةً، فقالوا لي: إن الأراكة إنما تنبت من حبِّ الأراك، وفي نباتها عسْرٌ، وذلك أن حبّ الأراك يغرس في جوف طين، وفي قواصِرَ، ويُسقى الماءَ أياماً، فإذا نبتَ الحبُّ وظهر نباتُه فوق الطين، وُضِعت القَوْصَرَة كما هي في جوف الأرض، ولكنها إلى أنْ تصير في جوف الأرض، فإن الذرَّ يطالبها مطالبة شديدة، وإن لم تُحفظ منها بالليل والنهار أفسدتها.
فعمدتُ إلى منارات من صُفر من هذه المسارج، وهي في غاية الملاسة واللِّين، فكنتُ أضَعُ القوصَرَة عَلَى التُّرس الذي فوق العمود الأملس، فأجد فيها الذرّ الكثير، فكنتُ أنقُل المنارةَ من مكان إلى مكان، فما أفلحَ ذلك الحبُّ.

ضروب العناكب

قال: والعناكب ضروبٌ: منها هذا الذي يقال له الليث، وهو الذّي يصيد الذّبّان صيد الفهد، وقد ذكرنا في صدر هذا الكلام حِذقه ورِفقه، وتأتّيه وحيلته.
ومنها أجناس طِوَالُ الأرجلُ، والواحدةُ منها إذا مشت علَى جِلْد الإنسان تبثَّر، ويقال إن العنكبوت الطويلة الأرجل، إنما اتخذت بيتاً وأعدَّت فيه المصايد والحبائل، والخيوط التي تلتفُّ على ما يدخُل بيتها من أصناف الذّبان وصغار الزنابير لأنها حين علِمَتْ أنها لا بدّ لها من قوت، وعرفت ضعفَ قوائمها، وأنها تعجزُ عما يقْوَى عليه الليث، احتالت بتلك الحيل.
فالعنكبوتُ، والفأر، والنحلُ، والذَّرّ، والنمل، من الأجناس التي تتقدم في إحكام شأن المعيشة، ومنها جنس رديء، مشنوء الصورة، غليظ الأرجل، كثيراً ما يكون في المكان التَّرب من الصناديق والقماطر والأسفاط، وقد قيل: إنَّ بينه وبين الحيَّة، كما بين الخنفساء والعقرب.
وإناث العناكب هي العوامل: تغزل وتنسج، والذَّكَرُ أخرق ينقضُ ولا ينْسِجُ، وإن كان ما قال صاحب المنطق حَقّاً فما أغرَبَ الأعجوبة في ذلك، وذلك أنه زعم أن

العنكبوت تقْوَى على النَّسْج، وعلى التقدمِ في إحكام شأن المعاش حين تولد.
الكاسب من أولاد الحيوان وقالوا: وأشياءُ من أولاد الحيوان تكونُ عالمةً بصناعتها، عارفة بما يُعيشها ويُصلْحها، حتى تكون في ذلك كأمهاتها وآبائها، حين تخرجُ إلى الدنيا، وكالفرُّوج من وَلد الدجاج، والحِسْل من ولد الضبِّاب، وفرخ العنكبوت.
وهذه الأجناسُ، مع الفأر والجرذان، هي التي من بين جميع الخلق تدَّخرُ لنفسها ما تعيش به من الطُّعم.

في النحل

زعمَ صاحبُ المنطق أن خلِيَّة من خلايا النحل فيما سلف من الزمان، اعتلتْ ومَرِض ما كان فيها من النحل، وجاء نحلٌ من خَلِيَّةٍ أخرى يقاتلُ هذا النحل حتى أخرجت العسل، وأقبل القيِّم على الخلايا يقتل بذلك النحل الذي جاء إلى خليته.
قال: فخرج النحلُ من الخليَّة يقاتلُ النحلَ الغريب، والرجل بينها يطردُ الغريب، فلم تلسعه نحل الخليَّة التي هو حافظُها، لدفعه المكروهَ عنها.
قال: وأجودُ العسل ما كان لونه لون الذهب.

نظام النحل

قال: والنحل تجتمع فتقسم الأعمال بينها، فبعضَها يعملُ الشّمع، وبعضها يعملُ العسل، وبعضها يبني البيوتَ، وبعضها يَسْتَقي الماء ويصبُّه في الثقب، ويلطخه بالعسل.
ومنه ما يبكِّر إلى العمل، ومن النحل ما يَكفُّه؛ حتى إذا نهضتْ واحدةٌ طارت كلها، يقال: بَكَرَ بُكورَ اليَعْسوب، يريد أمير النحل لأنها تتبعه غُدوةً إلى عملها، ومنها ما ينقل العسل من أطرافِ الشجر، ومنها ما ينقل الشَّمعَ الذي تبني به، فلا تزالُ في عملها حتى إذا كان الليل آبت إلى مآبها.
قال: والأرْي: عمل العسل، يقال: أرت تأري أرْياً، والأرْي في غير هذا الموضع: القيء، وقال أبو ذؤيب:

بأرىِ التي تأري إلى كل مَغْربٍ إذا اصفرَّ ليطُ الشمس حان انقلابُها

ومغارب: جمع مغرب، وكل شيء واراك من شيء فهو مغرب، كما جعله أبو ذؤيب، والأصل مغرب الشمس، وقال أبو ذؤيب:

فباتَ بجَمْعٍ ثُمَّ تمَّ إلى مِنًى فأصبحَ رَاداً يبتغي المزْجَ بالسَّحْلِ

المزْجُ: العسل، والسَّحْل: النقد.
ما له رئيس من الحيوان ومن الحيوان ما يكون لكل جماعة منها رأس وأمير، ومنها ما لايكونُ ذلك له، فأما الحيوان الذي لا يجد بدّاً ولا مصلحة لشأنه إلا في

اتخاذ رئيس ورقيب فمثل ما يصنع الناس، ومثلُ ما تتخذ النحلُ والغَرانيق، والكَرَاكيّ.
فأما الإبل والحمير والبقر، فإن الرياسة لفحْل الهجْمة، ولعَير العانة، ولثور الرَّبرَب، وذكورتها لاتتخذ تخذ الرُّقباء من الذُّكورة.
وقد زعم ناس أن الكراكيَّ لا تُرَى أبداً إلا فُرادَى فكأن الذي يجمعها الذكر، ولا يجمعُها إلا أزواجاً.
ولا أدري كيف هذا القول؟ والنحل أيضاً تسير بسيرة الإبل والبقر والحمير، لأن الرئيس هو الذي يوردُها ويُصدِرها، وتنْهَضُ بنهوضه، وتقع بوقوعه، واليعسوب هو فحلها، فترى كما ترى، سائر الحيوان الذي يتخذ رئيساً إنما هي إناث الأجناس، إلا الناس؛ فإنهم يعلمون أن صلاحهم في اتخاذ أمير وسيِّد، ورئيس.
وزعم بعضهم أن رياسة اليعسوبِ، وفحل الهجْمة، والثور، والعَير، لأحد أمرين: أحدهما لاقتدار الذَّكر على الإناث، والآخر لما في طباع الإناث من حبّ ذكورتها.
ولو لم تتأمَّرْ عليها الفحولُ لكانت هي لحبِّها الفحولِ تغدو بغدوِّها، وتروح بَروَاحها.
قالوا: وكذلك الغرانيق والكراكيّ، فأما ما ذكروا من رؤساء الإبل والبقر والجواميس والحمير، فما أبعدهم في ذلك عن الصواب.
وأما إلحاقهم الغرانيقَ والكراكي بهذه المنزلة فليس علَى ما قالوا.
وعلى أنَّا لا نجدُ بُدّاً من أن يعلم أن ذكورتها أقوى على قسر الإناث وجمعها إليها من الإناث وعلى أنه لا بد من أن يكون بعض طاعة الإناث لها من جهة ما في طباعها من حبِّ ذكورتها، ولو كان اتخاذ الغرانيق والكراكيّ الرؤساءَ والرُّقباء إنما علته المعرفة لم يكن للغرانيق والكراكيِّ في المعرفة فضلٌ على الذّرِّ والنمل، وعلى الذِّئب والفيل، وعلى الثعلب والحمام.
أما الغنم فهي أغْثرُ وأمْوَق من أن تجري في باب هذا القول.
وقد تخضع الحياتُ للحية، والكلاب للكلب، والدُّيوك للديكِ، حتى لا تروِّمَه ولا تحاول مدافعتَه، قصة في خنوع الكلب ولقد خرجت في بعض الأسحار في طلبِ الحديث، فلما صرتُ في مربَّعة المحلَّة، ثار إليّ عِدّةٌ من الكلابِ، من ضَخامها، ومما يختارُه الحُرّاس، فبينا أنا في الاحتيال لهنَّ وقد غشِينَني إذ سَكَتْنَ سكتةً واحدة معاً، ثم أخذ كل واحد في شقٍّ كالخائف المستخفي، وسمعت نغمة إنسان، فانتهزتُ تلك الفُرصة من إمساكهنَّ عن النُّباح، فقلتُ: إنَّ هَهُنَا لَعِلَّة إذ أقبلَ رجلانِ ومعها كلبٌ أزبُّ ضخمٌ دَوسر، وهو في ساجور، ولم أرَ كلباً قط أضخم منه، فقلت: إنهنَّ إنما أمْسَكن عن النُّباح وتسترن، من الهيبة له وهي مع ذلك لا تتخذ رئيساً.
سادة الحيوان ورُوِي عن عبّاد بن صهيب، عن عوف بن أبي جميلة، عن قسامة بن زُهير قال: قال أبو موسى: إن لكل شيء سادة حتى إن للنمل سادة، فقال بعضهم: سادة النمل: المتقدِّمات.
وهذا تخريج، ولا ندري ما معنى ما قال أبو موسى في هذا.
ولو كان اتخاذُ الرئيس من النحل، والكراكيِّ، والغرانيق، والإبل، والحمير، والثيران، لكثرة ما معها من المعرفة - لكانت القرود، والفيلة والذرّ، والثعالبُ،

أولى بذلك، فلا بد من معرفةٍ، ولا بد من طباعٍ وصَنْعة.
والحمام يُزْجَلْن من لُؤلؤة، وهنَّ بَصريَّات وبغداديَّات، وهنّ جُمَّاعٌ من هاهنا و هاهنا، فلا تتخذ رئيساً.

طعن ناس من الملحدين في آية النَّحل

وقد طعنَ ناسٌ من الملحدين، وبعضُ من لا علم له بوجوه اللغةِ وتوسُّع العرب في لُغتها، وفَهْمِ بعضها عن بعض، بالإشارة والوحي فقالوا: قد علمْنا أن الشمع شيءٌ تنقله النحل، مما يسقط على الشجر، فتَبني بيوت العسل منه، ثم تنقل من الأشجار العسل الساقط عليها، كما يسقط التَّرَنْجُبين، والمنُّ، وغير ذلك، إلا أن مواضع الشمع وأبدانه خفيٌّ، وكذلك العسل أخفى وأقلّ، فليس العسل بقيءٍ ولا رجْع، ولا دخَلَ للنحلة في بطنٍ قطُّ.
وفي القرآن قول الله عز وجل: "وَأَوْحَى رَبُّك إلَى النَّحْلِ أنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبْال بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَر وَمِمَّا يَعْرِشُونَ، ثمَّ كُلي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلكِي سبُلَ رَبِّكِ ذُللاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فيهِ شِفاءٌ للنَّاسِ إنَّ في ذلكَ لآيةً لِقومٍ يَتَفكَّرون".
ولو كان إنما ذهبَ إلى أنه شيءٌ يُلتَقطُ من الأشجار، كالصُّموغ وما يتولد من طِباع الأنداء والأجْواء والأشجار إذا تمازجت ـ لمان كا في ذلك عجبٌ إلا بمقدار ما نجده في أمور كثيرة.

دعوى ابن حائط في نبوة النحل

قلنا: قد زعم ابن حائط وناسٌ من جُهَّال الصُّوفيَّة، أن في النحل أنبياء، لقوله عز وجل: "وَأوْحَى رَبُّك إلَى النَّحْل"، وزعموا أن الحَوَارِيِّينَ كانوا أنبياء لقوله عز وجل: " وَإذْ أوْحَيْتُ إلى الحَوارِيِّينَ".
قلنا: وما خالف إلى أن يكون في النحل أنبياء؟ بل يجبُ أن تكون النحل كلها أنبياء، لقوله عز وجل على المخرج العامّ: "وَأوْحَى رَبُّك إلَى النَّحْلِ"، ولم يخصّ الأمهات والملوكَ واليعاسيب، بل أطلقَ القول إطلاقاً.
وبعدُ فإن كنتم مسلمين فليس هذا قولَ أحد من المسلمين، وإلا تكونوا مسلمين فلِمَ تجعلون الحجة علي نبوة النحل كلاماً هو عندكم باطل؟ قول في المجاز وأما قوله عز وجل: "يَخْرجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ" فالعسل ليس بشرابٍ، وإنما هو شيء يحوَّلُ بالماء شراباً، أو بالماء نبيذاً، فسماه كما ترى شراباً، إذ كان يجيء منه الشراب.
وقد جاء في كلام العرب أن يقولوا: جاءت السماءُ اليوم بأمر عظيم.
وقد قال الشاعر:

إذا سقط السماءُ بأرْضِ قوْمٍ رَعيناه وإن كانوا غِضَابَا

فزعموا أنهم يرعَونَ السماء، وأنَّ السماء تسقط.
ومتى خرج العسلُ من جهةِ بطونها وأجوافها فقد خرج في اللغة من بطونها

وأجوافها.
ومَنْ حمل اللغة علي هذا المركب، لم يفهم عن العرب قليلاً ولا كثيراً وهذا الباب هو مفخرُ العربِ في لغتهم، وبه وبأشباهه اتسعت، وقد خاطبَ بهذا الكلام أهل تِهامة، وهُذيلاً، وضواحِيَ كِنانة، وهؤلاء أصحابُ العسل، والأعرابُ أعرَف بكل صَمْغَةٍ سائلة، وعَسلة ساقطة، فهل سمعتم بأحد أنكر هذا الباب أو طعنَ عليه من هذه الحجة؟

أحاديث في العسل

حُدِّثَ عن سفيان الثَّوريّ، قال حدَّثنا أبو طُعْمة عن بكر بن ماعز، عن ربيع ابن خُثَيْم قال: ليس للمريض عندي دواءٌ إلا العسل.
وعن هشام بن حسان، عن الحسن أنه كان يعجبه إذا استمشي الرجُل أن يشربَ اللبنَ والعسل، إبراهيمُ بنُ أبي يحيى، قال: بلغني عن ابن عباس: أن النبيَّ صلى اللّه عليه وسلم سُئِل: أيُّ الشراب أفضل؟ قال: الحُلْو البارد.
وسفيان الثوري عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص عن ابن مسعود قال: عليكم بالشفاءين: القرآن والعسل.
شعبة عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، قال: مضى رجل إلى ابن مسعود فقال: إن أخي يشتكي بطنَه، وقد نُعِتَت له الخمر، فقال: سبحان اللّه ما كان اللّه ليجعلَ شفاءهُ في رجس، وإنما جُعِلَ الشفاءُ في اثنين: في القرآنِ والعسل.
سعيد بن أبي عَرُوبة، عن قتادة، عن أبي المتوكّل الناجيّ، عن أبي سعيد الخدريّ: أن رجلاً أتى النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال إن أخي يشتكي بطنَه، فقال عليه السلام: اسقهِ عسلاً، ثم أتاه فقال: قد فعلت، قال: اسقهِ عسلاً، ثم أتاه فقال قد فعلتُ، فقال: اسقهِ عسلاً، ثم أتاه الرابعَة، فقال: صدق اللّه وكذَبَ بطْنُ أخيك، اسقه عسلاً فسقاه فبَرأ الرجُل.
قال: والذي يدلُّ على صحةِ تأويلنا لقول اللّه عز وجل: "يَخْرُجُ منْ بُطُونِها شَرَابٌ مُخْتَلِف أَلْوَانُهُ فيهِ شفَاءٌ لِلنَّاسِ"، أن تكون المعجوناتِ كلها إنما بالعسل، وكذلك الأنْبَجات.
نفع العسل وإذا ألقي في العسل اللحمُ الغريضُ فاحتاجَ صاحبه إليه بعد شهر أخرَجه طريّاً لم يتغير.
وإذا قطَرَت منه قطْرَة علي وجه الأرض، فإن استدار كما يستدير الزِّئبقُ، ولم يَتَفَشَّ، ولم يختلط بالأرض والتراب فهو الصحيح، وأجودُه الذهبي.
ويزعمُ أصحابُ الشراب أنهم لم يروا شراباً قطُّ ألذَّ ولا أحسنَ ولا أجمعَ لما يريدون، من شراب العسل الذي يُنْتَبَذُ بمصر، وليس في الأرضِ تجارُ شراب ولا غير ذلك أيْسَرَ ومنهم.
وفيه أعجوبةٌ: وذلك أنهم لا يعملونه إلا بماء النّيل أكْدَرَ ما يكون، وكلما كان أكدرَ كان أصفى، وإن عملوه بالصافي فسَد.
وقد يُلقى العسلُ على الزّبيب، وعلى عصير الكرْم فيجوِّدهم.
التشبيه بالعسل وهو المثلُ في الأمور المرتفعة، فيقولون: ماءٌ كأنه العسل،

ويصفُون كلَّ شيء حلْوٍ، فيقولون: كأنه العسل، ويقال: هو معسول اللسان، وقال الشاعر:

لسانُكَ معسولٌ ونفسُك شَحَّةٌ   ودون الثُّرَيَّا مِن صديقِك مالكا

التنويه بالعسل في القرآن وقال اللّه عزَّ وجل في كتابه، وذكر أنهار الجنة، فقال: "مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتي وُعِد المُتَّقون فِيها أنْهارٌ مِنْ مَاء غيْر آسِنٍ وَأنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغيَّرْ طعْمهُ وأنهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ للشَّاربينَ، وأنْهَارٌ منْ عَسَلٍ مُصَفّىً"، فاستفتح الكلام بذكر الماء، وختمه بذكر العسلِ، وذكر الماء واللبنَ فلم يذكرْهُما في نعتهما ووصفهما إلا بالسلامةِ من الأسَنِ والتغيُّر وذكَرَ الخمر والعسلَ فقال: "مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ للشَّاربين"و "مِنْ عَسَل مُصفّى"، فكان هذا ضرباً من التفضيل، وذكرها في مواضع أخَر فنفى عنها عيوَب خَمْر الدنيا، فقال عز وجل اسمه: "لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ"، فكان هذا القول الأولُ أظهر دليل على التفضيل.

في القراد

يقال: أسمَعُ من قُراد وألزَقُ من قُرَاد وماهُو إلا قراد ثفر، وقال الشاعر:

هم السمنُ بالسنُّوتِ لا ألْسَ فيهم   وهم يمنعون جارهم أن يُقرَّدَا

السنُّوت، عند أهل مكة: العسل، وعند آخرين: الكمُّون.
وقال الحطيئة:

لَعَمْرُك ما قُرَادُ بنيكُليْب   إذا نُزِعَ القُرَادُ بمستطاع

قال: وذلك أن الفحلَ يَمنَعُ أن يُخطَم، فإذا نزعوا من قُرَاداتِه شيئاً لذّ لذلك، وسكَنَ إليه، ولانَ لصاحبه، فعند ذلك يلقي الخطامَ في رأسه.
قال: وأخبرني فِراس بنُ خَنْدَقٍ، وأبو برْزة قال: كان جحدرٌ إذا نزلت رُفقةٌ قريباً منه، أخذ شَنَّةً فجعل فيها قِردَاناً، ثم نثرها بقرب الإبل فإذا وجدَتِ الإبلُ مَسّها نهضتْ، وشدّ الشنَّةَ في ذنب بعضِ الإبل، فإذا سمعتْ صوتَ الشَّنَّة، وعملِتْ فيها القِردانُ نفرت، ثم كان يثبُ في ذِروة ما ندّ منها، ويقول: ارحم الغارَّة الضِّعاف يعني القِرْدان.
قال أبو بَرْزة: ولم تكن هِمَّتُه تجاوزُ بعيراً.

القراد في الهجو

قال رُشَيد بن رُمَيض:

لنا عِزٌّ ومأوَانـا قريبٌ   ومَولى لا يدِبُّ مع القُرَادِ

وهجاهم الأعشَى فقال:

فلسنا لباغي المهمَلاتِ بِقِرْفَةٍ إذا ما طمَا بالليلِ مُنْتَشِرَاتها

أبا مِسْمَعٍ أقصِرْ فإن قصيدةً متى تأتِكمْ تُلْحَقْ بها أخَوَاتها

وهجاهم حُضَين بن المنذر فقال:

تنازعني ضبيعةُ أمْرَ قومِي وما كانتْ ضُبيعةُ للأمـور

وهل كانت ضُبيعةُ غيرَ عبدٍ ضَمَمناه إلى نسَبٍ شطير

وأوصاني أبي، فحفظتُ عنهُ بفكِّ الغُلِّ عن عُنُق الأسير

وأوصَى جَحْدَرٌ فوَقى بَنيهِ بإرسال القُرَادِ على البَعير

قال: وفي القردان يقول الآخر قال: وبعضهم يجعلها في البراغيث؛ وهذا باطلٌ:

ألا يا عبادَ الـلّـهِ مَنْ لِـقـبـيلةٍ إذا ظهَرَتْ في الأرض شدَّ مُغيرُها

فلا الدِّينُ ينهاها ولا هي تنـتـهـي ولا ذو سلاحٍ من مَعَدٍّ يَضيرُها

فمن أصناف القِرْدان: الحَمْنان، والحَلم، والقِرشام، والعَلُّ، والطِّلْح.

شعر ومثل في القراد

وقال الطِّرمَّاح:

لمَّا وَرَدَتِ الطوىّ والـحـوضُ كـال صيرة دفـن الإزاء مـلـتـبـدهُ

سافتْ قليلاً عَلـى نـصـائبـه ثم استمرَّت في طامسٍ تـخـده

وقد لـوى أنفهُ بمـشـفـرهـا طلحُ قراشيمَ شـاحـبٌ جـسـده

علٌّ طويلُ الطوى كبالية السفع متى يلق العلو يصطعده

وفي لُزوق القُرادِ يقولُ الراعي:

نبتَّتْ مرافقهُنَّ فوْقَ مَزِلَّةٍ لا يستطيعُ بها القُرَاد مَقيلا

والعربُ تقولُ: ألْزَقُ من البرَام كما تقول: ألْزَقُ من القُراد، وهما واحدٌ.
شعر لأمية في الأرض والسماء وذكر أميةُ بنُ أبي الصَّلْتِ، خلق السماء، وإنه ذكرَ من مَلاَستِها أن القُراد لا يَعْلقُ بها، فقال:

والأرضُ معقلنا وكانتْ أمنـا   فيها معاقلنا وفيـها نـولـدُ

فيها تلاميذ على قذفـاتـهـا   حبسوا قياماً فالفرائص ترعد

فبنى الإله عليهم مخصوفة   خلقاء لا تبلـى ولا تـتـأود

فلو أنه تحدو البرام بمتنـهـا   زلَ البرام عن التي لا تقردُ

استطراد لغوي

قال: القُرَادُ أولُ ما يكون - وهو الذي لا يكاد يُرَى من صِغَر - قمْقامَة، ثم يصير حَمْنَانة، ثم يصير قراداً، ثم يصير حَلَمة.
قال: ويقال للقُراد: العَلّ، والطِّلْح، والقَتِين، والبُرام، وَالقِرْشام.
قال: والقُمّل واحدتها قمَّلة، وهي من جنس القِردان، وهي أصغر منها.

تخلق القراد والقمل

قال: والقِرْدانُ يتخلَّق من عرَق البعير، ومن الوسخ والتلطُّخ بالثُّلُوط والأبوال، كما يتخلّق من جلد الكلب، وكما يتخلق القملُ من عرق الإنسان ووسَخه، إذا انطبق عليه ثوبٌ أو شعرٌ أو ريش.
والحَلَم يعرض لأُذنَي الكلب أكثرَ ذلك.

أمثال وأخبار في القراد

قال: ويقال أقطفُ مِنْ حلَمَة، وألزَقُ من بُرَام، وأذلُّ من قُرَاد، وقال الشاعر:

يكاد خَليلي من تقارُبِ شَخصِه   يَعَضُّ القرَادُ باسْتِه وهو قائمُ

وقال أبو حَنَش لقيس بن زهير: واللّه لأنْتَ بها أذلُّ من قُراد، فقدَّمَه وضَرَبَ عُنقه.
وقال الراجز:

قِرْدانُه في العَطن الحَوْلـيِّ   بيضٌ كحَبِّ الحنْظلِ المقلي

من الخَلاءَ ومن الخُويِّ.
ويقال كلمة الثدي: القراد، وقال عديٌّ بن الرَّقاع:

كأنَ قرَادَيْ صدره طبعتْهُمَـا		بطينِ من الجَوْلان كتّابُ أعْجَم

والقُرَادُ يعرضُ لاستِ الجَمل، والنمل يعرضُ للخُصَى، وقال الشاعر:

وأنتَ مـكـانُـك مـن وائل		مكان القُرَاد مِنْ استِ الجَملْ

قال الممَّزق:

تُنَاخُ طليحاً ما تُرَاعُ من الـشَّذا ولو ظلَّي في أوصالها العَلُّ يرتَقي

ويروَى: فباتَتْ ثلاثاً لا تُرَاع، يصف شدة جزعها من القردان.
وقال بشار بنُ بُرد:

أعادي الهمَّ منفرداً بشوق		عَلَى كَبدي كما لزق القُرَادُ

وكانوا إذا خافوا الجَدبَ والأزمة تقدموا في عمل العِلهِز، والعِلْهِز.
قِردَانٌ يُعالج بدم الفصْد مع شيء من وَبر، فيدّخرون ذلك كما يدّخرُ مَن خاف الحصار الأكارعَ والجاوَرْس.
والشُّعوبيّة تهجو العربَ بأكلِ العِلْهِز، والفثِّ، والدُّعاع، والهبيد، والمغافير، وأشباهِ ذلك، وقال حسانُ بنُ ثابتٍ:

لم يُعَلَّلْنَ بالمغافير والـصَّمْ		غ ولا شَرْيِ حنظلِ الخُطْبان

وقال الطِّرِمَّاح:

لم تأكلِ الفثّ والدعاعَ ولم		تنقف هَيبداً يَجْنيه مُهْتَبِدُه

وقال الأصمعيُّ: قال رجلٌ من أهل المدينة لرجل: أيسرُّك أن تعيشَ حتى تجيء حَلَمةٌ من إفريقية مشياً؟ قال: فأنت يسرُّك ذلك؟ قال: أخافُ أن يقول إنسانٌ: إنها بمخيض، فيُغْشَى عليَّ ومخيض على رأسِ بَريد من المدينة.
ويقولون: أمّ القِرَاد، للواحدِة الكبيرة منها، ويتسمَّوْنَ بقرَاد، ويكتنون بأبي قراد، وقد ذكر ذلك أبو النجم فقال:

للأرض من أمِّ القُرادِ الأطْحَلِ

وفي العرب بنو قُراد.

في الحبارى

ونُقولُ في الحُبارى بقول مُوجز، إن شاء اللّه تعالى.
قال ابنُ الأعرابي: قال أعرابيٌّ إنه ليقتلُ الحُبارَى هزلاً ظلمُ الناس بعضهم لبعض،
قال يقول: إذا كثرت الخطايا منَع اللّه عز وجل دَرَّ السَّحاب، وإنما تصِيب الطيرُ من
الحبِّ ومن الثمر عَلَى قدْر المَطر.
وقال الشاعر:

يسقُط الطيرُ حيثُ ينْتَثِر الحَ   بُّ وتغشَى منازلُ الكُرَماءِ

وهذا مثل قوله:

أمَا رأيتَ الألسُنَ السِّلاطا   والأذرُعَ الواسعة السِّباطا

إن الندَى حيثُ تَرَى الضِّغاطا

ما قيل من المثل في الحبارى

وقالوا في المثل: مات فلانٌ كَمَدَ الحُبارَى: وقال أبو الأسود الدؤلي:

وزَيْدٌ ميِّتٌ كَمَدَ الحُبَارَى   إذا ظعنت هُنيدةُ أو تُلمُّ

ويروى: ملمّ وهو اسم امرأة.
وذلك أن الطير تتحسَّر وتتحسّر معها الحُبارى، والحُبارى إذا نُتِفتْ أو تحسّرتْ
أبطأ نبات ريشها، فإذا طار صُوَيحِباتها ماتت كمداً.
وأما قوله: أو تلمّ يقول: أوْ تقارب أن تَظْعَن.
وقال عثمان بن عفان رضي اللّه عنه: كلُّ شيء يحبُّ ولدَهُ حتى الحُبارى، يضرب
بها المثل في المُوق.

سلاح الحبارى وغيرها من الحيوان

قال: وللحبارَى خِزانة بين دُبُره وأمعائه، له فيها أبداً سَلْحٌ رقيق لزج، فمتى ألحّ
عليها الصقرُ وقد علمت أن سُلاحها منْ أجود سِلاحها، وأنها إذا ذرقتْهُ بقي
كالمكتوف، أو المدبَّقُ المقيَّد فعند ذلك تجتمع الحبارياتُ على الصقر فينتفن ريشَه
كلَّه طاقةً طاقةً وفي ذلك هلاكُ الصقر.
قال: وإنما الحُبارى في سُلاحِها كالظَّرابيِّ في فُسائها، وكالثعلب في سُلاحه،
وكالعقرب في إبرتها، والزنبور في شعرته، والثور في قرنه، والدِّيك في صِيصِيَته،
والأفعى في نابها، والعُقابِ في كفّها، والتمساح في ذنبه.
وكلُّ شيء معه سلاحٌ فهو أعلم بمكانه، وإذا عدم السِّلاحَ كان أبعصرَ بوجوه
الهرب؛ كالأرنب في إيثارها للصَّعْداء، لقصر يديها، وكاستعمال الأرانب للتوبير
والوطء على الزَّمَعات، واتخاذ اليرابيع، القاصعاءَ والنَّافقاء، والدَّامَّاء، والراهِطاء.

شعر في الحبارى

وقال الشاعر:

وهم تركوك أسْلَحَ مِنْ حُبَارَى رأتْ صقراً وأشْرَدَ من نَعَامِ

يريد: نعامة، وقال قيسُ بن زهير:

متى تتحزَّمْ بالمناطق ظالماً لتجري إلى شَأوٍ بعيد وتسبح

تكُنْ كالحُبارَى إن أصيبتْ فمِثلُها أصيبَ وإن تفْلِتْ من الصَّقْر تسْلح

وقال ابن أبي فَنَنٍ، يصفُ ناساً من الكُتَّابِ، في قصيدة له ذكرَ فيها خيانَتَهم، فقال:

رَأوْا مالَ الإمامِ لهمْ حَلالا وقالوا الدِّينُ دين بنَي صَهارى

ولو كانوا يحاسبُهمْ أمينٌ لقد سَلَحُوا كما سَلَح الحُبارَى

الخرب والنهار والخَرَب: ذكَر الحُبارى، والنهارُ: فرْخ الحُبارى، وفرخها حارض ساقطٌ لا خير فيه، وقال متمِّمُ بن نويرة:

وضَيفٍ إذا أرغى طُروقاً بَعيرَه وعانٍ ثوى في القِدِّ حتى تكنَّعا

وأرملةٍ تمشي بأشعثَ مُحْثَل كفَرْخ الحُبَارَى رأسُه قد تصَوَّعا

وقال أعرابيّ:

أحبُّ أنْ أصطادَ ضبّاً سَحْبَلا وخَرَباً يرعى ربيعاً أرملا

فجعل الخَرَب أرمَل، لأن ريشه يكون أكثر، وقد ذكرنا ما في هذا الباب فيما قد سلف من كتابنا.

خبر فيه ذكر الحبارى

وقال أبو الحسن المدائنيّ: قال سعيد النّواءُ: قدِمْت المدينة فلقيتُ عليَّ بن الحسين، فقلت: يا ابنَ رسولِ اللّه، متى يُبْعثُ أميرُ المؤمنين عليُّ بن أبي طالب؟
قال: إذا بُعِثَ الناس.
قال: ثم تذاكرنا أيامَ الجملَ فقال: ليته كان ممنوعاً قبل ذلك بعشرين سنة أو كلمة غير هذه قال: فأتيت حسن بن حسَنٍ، فذكرتُ له ما قال، فقال: لَوَدِدْتُ واللّه أنه

كان يقاتلهم إلى اليوم قال: فخرجت من فوري ذلك إلى عليِّ بن الحسين، فأخبرته بما قال، فقال: إنه لقليلُ الإبقاء على أبيه.
قال: وبلغ الخبرُ المختارَ فقال: أيُضَرِّبُ بين ابنَي رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم؟ لأقتلنَّه فتواريت ما شاء اللّه، ثم لم أشعر إلا وأنا بين يديه، فقال: الحمد للّه الذي أمكنني منكقال فقلت: أنت استمكنْتَ منّي؟ أمَا واللّه لولا رؤيا رأيتها لَمَا قدرْتَ عليّ قال: وما رأيت؟ فقلت: رأيتُ عثمان بن عفان، فقالت: أنت عثمانُ بنُ عفان؟ فقال: أنا حُبَارى، تركتُ أصحابي حَيَارى، لا يهود ولا نصارى.
فقال: يا أهل الكوفة انظروا إلى ما أرى اللّه عدوّكم ثم خلَّى سبيلي، وقد رُوي هذا الكلامُ عن شُتَيْر بن شَكَل، أنه رأى معاوية في النوم فقال الكلامَ الذي رُوي عن عثمان.
ووجْهُ كلامِ عليِّ بن الحسين الذي رواه عنه سعيدُ النواءُ، إن كان صادقاً فإنه للذي كان يسمعُ من الغالية، من الإفراط والْغلوِّ والفُحْش.
فكأنه إنما أرادَ كسرهم، وأن يحُطَّهم عن الغلوّ إلى القصْد؛ فإن دين اللّه عزّ وجلّ بَيْنَ التقصير والغلوّ، وإلا فعليُّ بن الحسين أفقهُ في الدين، وأعلمُ بمواضع الإمامة، من أن يخفَى عليه فضلُ ما بين عليٍّ بين طلحة والزُّبير.
شعر ومعرفة في الحبارى وقال الكميت:

وعيدَ الحبارَى من بعيد تنفَّشَتْ لأزْرَقَ مَغْلولِ الأظافير بالخَضْبِ

والحبارى طائرٌ حسن، وقد يُتَّخَذُ في الدور.
وناسٌ كثيرٌ من العرب وقريش يستطيبون مَحْسِيَّ الحُبارَى جدّاً.
قال: والحُبارى من أشد الطير طيراناً، وأبعَدها مَسْقِطاً وأطولها شوْطاً، وأقلّها عُرْجةً، وذلك أنها تُصْطاد بظهر البَصرة عندنا، فيشقَّق عن حواصلها، فيوجد فيه الحبّة الخضراءُ غضّةً، لم تتغير ولم تفسدُ.
وأشجار البُطم وهي الحبّة الخضراء بعيدةُ المنابت مِنَّا وهي عُلوية أو ثغريّة، أو جَبَلِيَّة، فقال الشاعر:

ترتعي الضّرْوَ من بَرَاقش أو هيلا نَ أو يانـعاً مـن الـعُـتُـم

شجر الزيتون، والضّرو شجر البُطْم، وهي الحبَّة الخضراء بالجبال شجرتها.
وقال الكَودَن العِجْليّ، ويروى العُكْلي: البطم لا يعرفه أهل الجَلْس، وبلاد نجد هي الجلس، وهو ما ارتفع، والغور هو ما انخفض.
وبَراقِشُ: واد باليمن، كان لقوم عاد، وبراقشُ: كلبةٌ كانت تتشاءم بها العرب، وقال حمزة بن بيض:

بل جناها أخٌ عَلَيَّ كـريمٌ وعَلَى أهلِها بَرَاقِشُ تجْني

القول في الضأن والمعز

قال صاحب الضَّأن: قال اللّه تبارك وتعالى: "ثَمانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأنِ اثْنَين وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ"، فقدَّم ذِكرَ الضأن.
وقال عزّ وجلّ: "وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ"، وقد أجمعوا على أنه كبشٌ، ولا شيءَ أعظمُ مما عظّم اللّه عزّ وجلّ، ومِنْ شيء فُدِيَ به نبيٌّ.
وقال تعالى: "إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجةٌ وَاحِدَةٌ" ولم يقل إنَّ هذا أخي له تسعٌ وتسعونَ عَنْزاً ولي عنزٌ واحدة؛ لأن الناس يقولون: كيف النعجة؟ يريدون الزوجة.
وتسمي المها مِنْ بقر الوحش نعاجاً ولم تسمّ بعُنُوز، وجَعلهُ اللّه عزّ وجلّ السّنّة في الأضاحي، والكبشُ للعقيقة وهدية العُرْس وجعل الجذَع من الضأن كالثَّنِيِّ من المعْز في الأُضْحِيَة.
وهذا ما فضَّل اللّه به الضأن في الكتاب والسُّنّة.

فضل الضأن على المعز

تولَّد الضأن مرة في السّنَة، وتُفْرِد ولا تُتئِم، والماعزة قد تولَّد مرتين، وقد تضعُ الثلاثَ وأكثرَ وأقلَّ.
والبركة والنَّماء والعددُ في الضأن، والخنزيرةُ كثيرةُ الخنانيص، يقال إنها تلد عشرينَ خِنَّوصاً، ولا نماء فيها. قال: وفضل الضأن على المعز أن الصوف أغلى وأثمنُ وأكثرُ قدراً من الشعر، والمثلُ السائر: إنما فلانٌ كبشٌ من الكِباش، وإذا هجَوه قالوا: إنما هو تيسٌ من التيوس إذا أرادوا النتن أيضاً، فإذا أرادوا الغاية في الغباوةِ قالوا: ما هو إلا تيسٌ في سفينة.
والحُمْلاَنُ يلعبُ بها الصبيان، والجداءُ لا يُلعبُ بها، ولبنُ الضأن أطيبُ وأخثرُ وأدسم، وزُبْده أكثر، ورؤوس الضأن المشويّةُ هي الطيبة المفضلة، ورؤوس المعْز ليس عندها طائل.
ويقال رؤوس الحُملان، ولا يقال رؤوس العِرْضان.
ويقال لِلُّوطِيِّ الذي يلعب بالحُدَّر من أولاد الناس: هو يأكل رؤوس الحُملان؛ لمكان ألية الحَمل، ولأنه أخْدل وأرطب، ولم يقولوا في الكناية والتعريض: هو يأكل رؤوس العِرضان.
والشِّواءُ المنعوتُ شِواءُ الضأن، وشحمُه يصير كلُّه إهالةً أوَّله وآخرُهُ، والمعْز يبقى شحمُه على حاله، وكذلك لحمه، ولذلك صار الخبَّازون الحُذَّاقُ قد تركوا الضأن؛ لأن المعْز يبقى شحمه ولحمه، فيصلح لأن يسخَّن مراتٍ، فيكون أربَحَ لأصحاب العُرس.
والكباشُ للهدايا وللنطاح، فتلك فضيلةٌ في النجدة وفي الثقافة، ومن الملوك من يُرَاهِنُ عليها، ويضع السَّبَق عليها، كما يراهن على الخيل.
والكبشُ الكراز يحمل الراعيَ وأداةَ الراعي، وهو له كالحمار في الوقير، ويعيش الكرَّازُ عشرين سنة.
وإذا شَبَقَ الراعي وَاغتَلم اختارَ النعجة على العنز، وإذا نعتوا شكلاً من أشكال مشي البراذِين الفُرَّه قالوا: هو يمشي مشْيَ النِّعاج.

وقال اللّه عزّ وجلّ: "وَمِنْ أصوَافِهَا وَأَوْبَارِها وَأَشْعَارِهَا" فقدّم الصُّوف.
والبُخْت هي ضأن الإبل، منها الجمّازات، والجواميس هي ضأن البقر، يقال للجاموس الفارسية: كاوْماش.
ولا يُذْكرُ الماعزُ بفضيلةٍ إلا ارتفاعَ ثمن جلده، وغَزَارةَ لبَنه، فإذا صِرْتَ إلى عدَدِ كثرة النِّعاج وجلودِ النعاج والضأن كلِّها أرْبَى ذلك على ما يفضُلُ به الماعزُ الضأن في ثمن الجلد، والغزر في اللبن.

قول ابنة الخس ودغفل في المعز

وقيل لابنة الخُسّ: ما تقولين في مائة من الماعز؟ قالت: قِنًى! قيل: فمائة من الضأن؟ قالت: غِنًى، قيل: فمائة من الإبل؟ قالت: مُنًى! وسئل دَغْفل بن حنظلة عن بني مخزوم، فقال: مِعزَى مَطيرة، عليها قُشَعْريرة، إلا بني المغيرة؛ فإن فيهم تشادُقَ الكلام، ومصاهرة الكرام.

ما قيل من الأمثال في العنز

وتقول العرب: لهو أصْرَدُ من عَنزٍ جَرْباء وتقول العرب: العنز تُبْهِي ولا تُبْنِي لأن العنز تصعَد على ظهور الأخْبيةِ فتقطعها بأظلافها، والنعجة لا تفعل ذلك.
هذا، وبيوتُ الأعراب إنما تُعْمَلُ من الصوف والوبَر، فليس للماعز فيها معونة، وهي تخرِّقها، وقال الأول:

لو نزلَ الغيثُ لأبْنَيْن امرأً كانت له قبَّةٌ سَحْقَ بجادْ

أبناه: إذا جعل له بناء، وأبنية العرب: خيامهم؛ ولذلك يقولون: بنى فلانٌ على امرأته البارحة،

ضرر لحم الماعز

وقال لي شمؤون الطبيب: يا أبا عثمان، إياك ولحم الماعز؛ فإنه يورثُ الهمَّ، ويحرِّك السّوداء، ويورثُ النِّسيان، ويُفسدُ الدمَ وهو واللّه يخبِّل الأولاد.
وقال الكلابيُّ: العُنُوق بعد النُّوق، ولم يقل: الحمَل بعد الجمَل.
وقال عمرُو ابن العاص للشيخ الجُهنيِّ المعترض عليه في شأن الحكَمين: وما أنتَ والكلامَ يا تيس جُهينة؟ ولم يقلْ يا كبشَ جُهينة؛ لأن الكبشَ مدحٌ والتَّيس ذمٌّ.
وأما قوله: إن الظّلف لا يُرَى مع الخُفِّ فالبقرُ والجواميس والضأن والمعْز في ذلك سواء.
قال: وأُتيَ عبدُ الملكِ بن مرْوان في دخوله الكوفة على موائد بالجِداء، فقال: فأين أنتم عن العماريس؟ فقيل له: عماريس الشّام أطيب.
وفي المثل: لهو أذلُّ من النقد، النقد هو المعز، وقال الكذّابَ الحِرْمازيُّ:

لو كنتمُ قولاً لكنتمُ فَنـدَا أو كنتمُ ماءً لكنتمُ زَبَدا

أو كنتمُ شاءً لكنتم نَقَـدا أو كنتم عوداً لكنتم عُقَدا

اشتقاق الأسماء من الكبش

قال: والمرأة تسمى كَبْشَةَ، وكُبَيشة، والرجل يكنى أبا كَبْشة، وقال أبو قُردودة:

كبيشة إذ حاولـتْ أن تَـبِـ ينَ يستبقُ الدمعُ مني استباقا

وقامتْ تريكَ غداة الفراق كشحاً لطيفاً وفخذاً وساقا

ومنسدلاً كمثاني الحبـا ل توسعه زَنْبقاً أو خلاقا

وأول هذه القصيدة:

كبيشةُ عِرْسي تريدُ الطَّلاقا وتسألني بعْدَ وَهْنٍ فِراقـا

قول القصاص في تفضيل الكبش على التيس

وقال بعض القُصّاص: ومما فضل اللّه عزّ وجلّ به الكبْش أن جعله مستورَ العورة من قُبُل ومن دبُر، وممَّا أهان اللّه تعالى به التيس أن جعله مهتوكَ الستر، مكشوف القبُل والدُّبُر.

التيس في الهجاء

وقال حسّان بن ثابتٍ الأنصاريُّ:

سألت قريشاً كلها فشـرارُهـا بنو عامر شاهتْ وجوهُ الأعابدِ

إذا جلسوا وسْطَ النَّدِيِّ تجاوبوا تجاوُبَ عِتْدَان الربيع السَّوافِدِ

وقال آخر:

أعثمانُ بنُ حَيّانَ بن أدم عَتوٌ في مَفارِقِه يبـولُ

ولو أني أشاءُ قد ارفأنَّتْ نَعامَتُه ويعلمُ ما أقـولُ

وقال الشاعر:

سُمِّيتَ زَيداً كي تزيد فلم تُزِدْ فعادَ لك المسْمِي فسَمَّاك بالقحْر

وما القحْرُ إلا التّيسُ يعتك بَولُـه عليه ويمني في الّلبان وفي النَّحْر

نتن التُّيوس

فالتَّيس كالكلب؛ لأنه يقزَحُ ببوله، فيريدُ به حاقَّ خَيشومه، وبول التَّيس من أخْثَر البَولِ وأنتنِه، وريحُ أبدانِ التُّيوس إليها ينتهي المثل، ولو كان هذا العرَضُ في الكبْش لكان أعذرَ له؛ لأن الخموم واللخَن، والعفَن والنَّتْن، لو عرض لجلدِ ذي الصُّوفِ المتراكم، الصَّفيق الدقيق، والملتفِّ المستكثِف؛ لأن الرِّيح لا تتخلَّله، والنسيم لا يتخرّقه - لكان ذلك أشبه.
فقد علِمْنا الآن أن للتيسِ مع تخلخل شعره، وبروز جلده وجفوف عرَقه، وتقطع بخارِ بدنه - فضلاً ليس لشيء سواه، والكلبُ يُوصَفُ بالنَّتْن إذا بلّه المطر، والحيَّات توصفُ بالنّتن، ولعل ذلك أن يجدَه من وَضع أنفه على جلودها.
وبولُ التّيس يخالط خَيشومَه، وليس لشيء من الحيوان ما يشْبهُ هذا، إلا ما ذكرْنا من الكلب، على أن صاحب الكلب قد أنكَرَ هذا.
وجلود التُّيوس، وجلود آباط الزّنْج، مُنتِنَة العرَق، وسائر ذلك سليم، والتيس إبطٌ كله، ونتْنه في الشتاء كنتْنه في الصيف، وإنا لندخل السكّة وفي أقصاها تَيَّاس، فنجِدُ نتْنها من أدناها، حتى لا يكاد أحدُنا يقطعُ تلك السكة إلا وهو مخمَّرُ الأنف، إلاما كان مما طبَعَ اللّه عزّ وجلّ عليه البَلَويّ وعلياً الأسواري؛ فإن بعضَهما صادقَ بعضاً على استطابة ريح التيوس، وكان ربما جلسا على باب التَّيَّاس؛ ليستنشقا تلك الرائحة، فإذا مرَّ بهما من يعرفهما وأنكر مكانهما، ادّعيا أنهما ينتظران بعض من يخرجُ إليهما من بعض تلك الدُّور.
المكّيّ وجاريته فأما المكي فإنه تعشَّقَ جارية يقال لها سَنْدَرة، ثم تزوجها نَهاريَّة وقد دعاني إلى منزلها غيرَ مرّة، وخَبَّرني أنها كانت ذاتَ صُنان، وأنه كان معجَباً بذلك منها، وأنها كانت تعالجه بالمرتك، وأنه نهاها مراراً حتى غضب عليها في ذلك، قال: فلما عرَفَتْ شهوتي كانت إذا سألَتْني حاجة ولم أقضها قالت: واللّه لأتَمَرْتَكَنَّ، ثم واللّه لأتَمرتكَنَّ، ثمَّ واللّه لأتَمَرْتكنَّ فلا أجِدُ بُدّاً من أن أقضي حاجتها كائناً ما كان.
اشتهاء ريح الكرياس وحدّثني مُويس بن عمران، وكان هو والكذب لا يأخذان في طريق، ولم يكن عليه في الصدق مَؤونة، لإيثاره له حتى كان يستوي عنده ما يضرُّ وما لا يضر - قال: كان عندنا رجل يشتهي ريح الكِرْياس لا يشفيه دونه شيء، فكان قد أعدَّ مِجْوَباً أو سكة حديد في صورة المِبرد، فيأتي الكراييس التي تكون في الأزقة القليلة المارة، فيخرق الكِرياس ولا يبالي، أكان من خزَف أو من خشب، ثم يضعُ منخرَيه عليه، حتى يقضيَ وطرَه.
قال: فلقي الناسُ من سَيَلان كراييسهم شرّاً حتى عثروا عليه فما منعَهُم من حبسه

إلا الرحمة له من تلك البليّة، مع الذي رأوا من حسن هيئته، فقال لهم: يا هؤلاء، لو مررتم بي إلى السلطان كان يبلغُ من عقابي أكثر مما أبلغ من نفسي؟ قالوا: لا واللّه وتركوه.

نتن العنز

قالوا: وهذا شأنُ التَّيس، وهو أبو العنز، ولا تلد الحيَّة إلا حيّة، ولا بد لذلك النّتْن عن ميراث في ظاهر أو باطن، وَأنْشدوا لابن أحمر:

إني وجدْت بني أعْيَا وجاملهم كالعنز تَعطفُ رَوقيها فتَرتضعُ

وهذا عيب لا يكون في النّعاج.

مثالب العنز

والعَنز هي التي ترتضع من خِلفِها وهي مُحَفَّلة، حتى تأتيَ على أقصى لبنِها، وهي التي تنزع الوتد وتقلِبُ المِعْلَف، وتنثر ما فيه.
وإذا ارتعتِ الضائنة والماعزة في قصيل، نبتَ ما تأكله الضائنة، ولا ينبت ما تأكله الماعزة، لأن الضائنة تقرض بأسنانها وَتقطع، والماعزة تقبض عليه فتثيره وتجذبه، وهي في ذلك تأكله، ويضرب بها المثلُ بالموق في جلْبها حَتْفَها على نفسها، وقال الفرزدق:

فكانتْ كَعَنْزِ السَّوءِ قامتْ بظِلْفِها إلى مُدْيَةٍ تحتَ التُّرابِ تُثيرُها

تيس بني حمان

وقال الشاعر:

لَعَمْرُك ما تَدْري فَوَارِسُ مِنْقرأفِي الرأس أمْ فِي الإستِ تُلْقى الشَّكائمُ

وألْهى بَني حِمَّانَ عَسْبُ عَتودِهم عن المجْد حتى أحرزَتْهُ الأكارمُ

وذلك أن بني حمَّان تزعم أن تيسهم قرَعَ شاةً بعد أن ذُبح وأنه ألقحها.

أعجوبة الضأن

قالوا: في الضأن أعجوبة؛ وذلك أن النعجة ربما عظمت ألْيَتُها حتى تسقط على الأرض، ويمنعها ذلك من المشي، فعند الكبش رفقٌ في السِّفاد، وحِذْقٌ لم يُسْمَعْ بأعجبَ منه، وذلك أنه يدنو منها ويقف منها موقفاً يعرِفُه، ثم يصكّ أحدَ جانبي

الأليةِ بصدره، بمقدارٍ من الصكّ يعرفه، فيفرج عن حياها المقدار الذي لا يعرفه غيرُه، ثم يسفدُها في أسرَعَ من اللَّمح.

فضل الضأن على الماعز

وقالوا: والضأنُ أحمَلُ للبرد والجَمد ولِلرِّيح والمطر.
قالوا: ومن مفاخر الضأن على المعز أن التمثيل الذي كان عند كسرى والتَّخييرَ، إنما كان بين النعجة والنخلة، ولم يكن هناك للعنز ذِكر وعلى ذلك الناسُ إلى اليوم. والموتُ إلى المعزَي أسْرَع، وأمرَاضها أكثر، وإنما معادِن الغَنَم الكثير الذي عليه يعتمدُ الناسُ الجبالُ، والمعز لا تعيش هناك، وأصوافُ الكِباش أمنَعُ للكِباشِ من غِلَظ جُلودِ المعز، ولولا أن أجوافَ الماعز أبردُ وكذلك كُلاها، لَمَا احتَشَتْ من الشّحم كما تحتشي.

جمال ذكورة الحيوان وقبح التيوس

وذكورة كلِّ جنس أتمُّ حُسناً من إناثها، وربما لم يكنْ للإناث شيءٌ من الحُسنِ، وتكون الذكورةُ في غاية الحسن؛ كالطواويس والتَّدارج، وإناثها لا تدانيها في الحُسن، ولها من الحسن مقدارٌ، وربما كُنَّ دونَ الذُّكورة، ولهنّ من الحسن مقدار، كإناث الدَّراريج والقبَج والدجاج والْحمام، والوراشين، وأشباه ذلك.
وإذا قال الناس: تيّاس، عُرف معناه واستُقْذِرَتْ صناعته، وإذا قالوا: كَبَّاش، فإنما يعنُون بيعَ الكبَاش واتخاذها للنِّطاح.
والتُّيوسُ قبيحة جدّاً، وزاد في قبحها حُسْن الصَّفايا.

التشبيه بالكباش والتفاؤل بها

وإذا وصفوا أعذاق النخلِ العِظام قالوا: كأنَّها كِباش.
وقال الشاعر:

كأنَّ كِباشَ السَّاجِسِيَّةِ عُلِّـقـت   دُوينَ الخوافي أو غرايرَ تاجِرِ

وصَوّر عُبيدُ اللّه بن زياد، في زقاق قصره، أسداً، وكلباً، وكبشاً فقرَنَه مع سَبُعين عظيمَي الشأن: وحشيًّ، وأهليّ؛ تفاؤلاً به.

شعر في ذم العنز

ومما ذمُّوا فيه العنز دونَ النعجةِ قولُ أبي الأسودِ الدُّؤَلي:

ولستُ بمعراضٍ إذا ما لقيتـه   يعبِّس كالغَضْبان حين يقـولُ

ولا بِسبس كالعنز أطولُ رسْلها   ورئمانها يومـان ثـم يزولُ

وقال أبو الأسود أيضاً:

ومن خير ما يتعاطي الرجالُ نصيحةُ ذي الرأي للمجتبيها

فلا تكُ مثلَ التي استخرجتْ بأظلافها مديةً أو بفيها

فقام إليها بها ذابح ومن تدع يوماً شعوبُ يجيها

فظلتُ بأوصالها قدرُها تحشُّ الوليدةُ أو تشتويها

وقال مسكين الدارميّ:

إذا صَبَّحَتْني من أناسٍ ثعالبٌ لترفع ما قالوا مَنَحْتُهُم حَقْرَا

فكانوا كعنزِ السَّوءِ تثغُو لحَيْنها وتحفِرُ بالأظلافِ عن حتفها حَفْرَا

وقال الفرزدق:

وكان يُجيرُ الناس من سيف مالكٍ فأصبح يبغي نفسه من يُجيرُها

وكان كعنز السُّوء قامت بظلفها إلى مُدْيَة تحت التراب تثيرها

أمنية أبي شعيب القلال وقال رمضانُ لأبي شُعيبٍ القلاَّل - وأبو الهُذَيل حاضر -: أيَّ شيء تشتهي؟ وذلك نصفُ النهار، وفي يومٍ من صَيف البصرة، قال أبو شعيب: أشتهي أن أجيءَ إلى بابِ صاحب سَقَط، وله على باب حانوته أليةٌ معلقة، من تلك المبزَّرة المشرّجة، وقد اصفرّت، ووَدكُها يقطر من حاقِّ السِّمَن، فآخُذَ بحِضْنْها ثم أفتح لها فمي، فلا أزال كَدْماً كدماً، ونهشاً نهشاً، وودكها يسيلُ على شِدْقي، حتى أبلغَ عَجْب الذّنب قال أبو الهذيل: ويلك قتلتَني قتلتني يعني من الشهوة.

باب في الماعز

قال صاحب الماعز: في أسماء الماعز وصفاتها، ومنافعها وأعمالها، دليلٌ على فضلها، فمن ذلك أن الصفية أحسن من النعجة، وفي اسمها دليل على تفضيلها، ولبنها أكثر أضعافاً، وأولادُها أكثرُ أضعافاً، وزُبْدُها أكثرُ وأطيب.
وزعم أبو عبد اللّه العتبيّ أن التيس المشْراطيّ قرع في يومٍ واحد نيِّفاً وثمانين قرْعَة، وكان قاطعَ الشهادة، وقد بيع من نسل المِشْراطيّ وغيره الجديُ بثمانين

درهماً، والشاةُ بنحوِ من ذلك، وتحلب خمسة مَكاكيك وأكثر، وربما بيع الجلد جلد الماعز فيشتَرِيه الباضورَكي بثمانين درهماً وأكثر.
والشاة إذا كانت كذلك فلها غَلَّة نافعة تقوم بأهل البيت.
والنعال البقريّة من السِّبت وغير السِّبت مقسومٌ نفعُها بين الماعز والبقر، لأن للشُّرُك من جلودها خطراً، وكذلك القِبال والشِّسْع.
ووصفَ حُميد بن ثوْر جلداً من جلودها، فقال:

تتابَعَ أعوامٌ علينا أطبْنـهـا وأقبَلَ عامٌ أصلَحَ الناسَ واحدُ

وجاءتْ بذي أونَين مازال شاتُه تُعمِّر حتى قيل هل ماتَ خالدُ

وقال راشد بن سِهابُ:

ترى رائداتِ الخيل حول بيوتـنـا كمِعْزَى الحجاز أعْوَزَتْها الزّرائبُ

لحم الماعز والضأن

ومن منافعها الإنتفاعُ بشحم الثرْب والكلية، وهما فوق شحم الألْية، وإذا مدحوا اللحمَ قالوا: لحم الماعز الخَصيِّ الثَّنيّ وقال الشاعر:

كأن القوم عُشُّوا لَحمَ ضـأنٍ فهُمْ نَعِجُون قد مالت طُلاَهمْ

والمَمرورون الذين يصرَعون، إذا أكلوا لحم الضأن اشتدَّ ما بهم، حتى يصرعَهم ذلك في غيرِ أوان الصرْع.
وأوان الصَّرْع الأهِلَّةُ وأنصاف الشهور، وهذان الوقتان هما وقتُ مدِّ البحر وزيادة الماء، ولزيادة القمر إلى أن يصيرَ بدراً أثرٌ بيِّنٌ في زيادة الدِّماء والأدمغة، وزيادة جميع الرطوبات.

أمثال في المعز والضأن

ويقال: فلانٌ ماعزٌ من الرِّجال، وفلانٌ أمْعَزُ مِنْ فلان، والعِتاق مَعْزُ الخَيْل، والبراذين ضأنها، وإذا وصفوا الرّجُل بالضعف والموق قالوا: ماهو إلا نعجةٌ من النعاج، ويقولون في التقديم والتأخير: ما له سَبَدٌ ولا لَبَد.
وقال الشاعر:

نشبى وما جمعتُ من صفدَ وحويتُ من سبدَ ومن لبـدِ

هم تقاذفت الهموم بـهـا فنزعن من بلدٍ إلى بـلـدِ

يا روحَ منْ حسمت قناعتُه سَببَ المطامع من غدٍ وغدِ

من لم يكنْ لله متـهمـاً لم يمسِ محتاجاً إلى أحدِ

وهذا شعر رويثُه على وجْه الدهر.
وزعم لي حُسَين بن الضّحّاك أنه له، وما كان لِيَدَّعيَ ما ليس له.
وقال لي سعدانُ المكفوف: لايكون: فنَزَعْنَ من بلد إلى بلَد بل كان ينبغي أن يقول: فنازعن.

؟فضل الماعز

وقال: والماعزة قد تُولَّد في السنة مرتين، إلا ما ألقي منها في الدِّياس، ولها في الدِّياس نفعٌ موقعُه كبير، وربما باعوا عندنا بطنَ الماعز بثمن شاةٍ من الضأن.
قال: والأقِط للمعز، وقرونها هي المنتفع بها.
قال: والجدْيُ أطيبُ من الحمل وأكرم، وربما قدموا على المائدةِ الحملَ مقطوع الألية من أصل الذَّنَب؛ ليوهِمُوا أنه جَدْي. وقال عمر بن الخطاب، رضي اللّه عنه - وعقولُ الخلفاء فوقَ عقولِ الرّعية، وهم أبْصَرُ بالعيش، استعملوا ذلك أو تركوه - فقال: أتُرَوْنَ أني لا أعرفُ الطيبات؟ لبابُ البُرّ بصغار المعزى.
وملوكنا يُحمَل معهم في أسفارهم البعيدة الصفايا الحواملُ، المعروفاتُ أزمانِ الحمل والوضع، ليكون لهم في كل منزلِ جِداءٌ مُعَدَّة، وهم يقدرون على الحُملانِ السِّمان بلا مؤونة.
والعَناق الحمراء والجِداءُ، هي المثل في المعْز والطِّيب، ويقولون: جِداء البَصرة، وجِداء كَسْكر.
وسلْخ الماعز على القصَّاب أهوَن، والنَّجّار يذكر في خصال السَّاج سَلَسَهُ تحت القدُوم والمثقب والميشار.

أمارات حمل الشاة

وقيل لأعرابي: بأي شيءٍ تعرفُ حملَ شاتك؟ قال: إذا تورَّم حيَاها ودجَتْ شَعْرتها واستفاضت خاصرتها.
وللداجي يقال: قد كان ذلك وقد دَجَا ثوبُ الإسلام، وكان ذلك وثوبُ الإسلام داجٍ.

المِرْعِزِيِّ وقرابة الماعزة من الناس

قال: وللماعز المِرْعِزيّ؛ وليس للضأن إلا الصوف.
والكِسَاءُ كلها صوفٌ ووبر وريشٌ وشعرٌ، وليس الصوف إلا للضأن، وذوات الوبر كالإبل والثعالب، والخُزَز والأرنب، وكلاب الماء، والسّمُّور، والفَنَك، والقاقم، والسِّنجاب، والدِّباب.
والتي لها شعر كالبقر والجواميس، والماعز، والظباء، والأسْد، والنمور، والذئاب،

والبُبور، والكلاب، والفهود، والضباع، والعِتاق، والبراذين، والبغالِ، والحمير، وما أشبه ذلك.
والإنسان الذي جعله اللّه تعالى فوقَ جميع الحيوان في الجمال والاعتدال، وفي العقل والكرم، ذو شعر.
فالماعزة بقرابتها من الناس بهذا المعنى أفخر وأكرم.

الماعز التي لا ترد

وزعم الأصمعيُّ أن لبني عُقيلٍ ماعزاً لا ترِد ؛ فأحَسَبُ واديَهم أخصبَ واد وأرطبه، أليس هذا من أعجب العجَب؟.

جلود الماعز

ومن جلودها تكون القِربُ، والزِّقاق، وآلة المشاعِل، وكلُّ نِتحْي وسعْن، ووَطْب، وشُكَيَّة وسِقاءٍ، ومَزَادَةٍ، مسطوحة كانت أو مثلوثة، ومنها مايكون الخون، وعِكْمُ السَّلْف، والبطائن والجُرُب، ومن الماعزة تكون أنطاع البُسط، وجِلال الأثقال في الأسفار، وجِلال قِبابِ الملوك، وبقباب الأدَم تتفاخر العرب، وللقباب الحمر قالوا: مضر الحمراء، وقال عَبيد بن الأبرص:

فاذهبْ إليكَ فإني من بني أسَدٍ   أهل القِباب وأهلِ الجُردِ والنادي

الفخر بالماعز

وقالوا: وفخرتم بكبشة وكبيشة وأبي كبشة، فمِنَّا عنز اليمامة وعنز وائل، ومنا ماعز بن مالك، صاحب التوبة النَّصوح.
وقال صاحبُ الماعز: وطعنتم على الماعزة بحفرها عن حتفها، فقد قيل ذلك للضأن. من ذلك البكري للغنبرية، وهي قيلة وصار معها إلى النبي فسأله الدهناء، فاعترضت عنه قيلة، فقال لها البكري: إني وإياك كما قال القائل: عن حتفها تبحث ضأن بأظلافها؟ فقالت له العنبرية: مهلاً، فإنك ما علمت: جواداً بذي الرجل، هادياً في الليلة الظلماء، عفيفاً عن الرفيقة؟؟! فقال: لا زلت مصاحباً بعد أن أثنيت علي بحضرة الرسول بهذا!

ضرر الضأن ونفع الماعز

وقالوا: والنعجة حرب، واتخاذها خسران، إلا أن تكون في نعاج سائمة، لأنها لا ترفع رأسها من الأكل. والنعجة آكلُ من الكبش، والحجر آكل من الفحل، والرمكة آكل من البرذون. والنعجة لا يقوم نفعها بمؤونتها. والعنز تمنعُ الحيَّ الجلاء، فإن العرب تقول: إن العنوق تمنع الحيَّ الجلاء.
والصفية من العراب أغرر من بخُتيةٍ بعيداً.
ويقال: أحمق من راعي ضأن ثمانين!.

كرم الماعز

وأصناف أجناسِ الأظلاف وكرامها بالمعز أشبه، لأن الظباء والبقر من ذوات الأذناب والشعر، وليست من ذوات الألايا والصوف. والشمُل، والتعاويذ والقلائد، إنما تتخذ للصفايا، ولا تُتخذ للنعاج، ولا يخاف على ضروعها العين والنفس.
والأشعار التي قيلت فلي الشاء إذا تأملتها وجدت أكثرها في المعز: في صفاياها وفي حوها، وفي تيوسها وفي عنوقها وجدائها. وقال مخارق ابن شهاب المازني - وكان سيداً كريماً، وكان شاعراً - فقال يصف تيس غنمه:

وراحت أصَيلاناً كأن ضروعَها دلاء وفيها واتدُ القرن لبلب

له رعثات كالشُّنوف وغُرَّةٌ شديخٌ ولون كالوذيلة مذْهبُ

وعينا أحم المقلتين وعصمة ثنى وصلها دان من الظلف مكثب

إذا دوحةٌ من مخلف الضال أربلت عطاها كما يعوذُرى الضال قرْهَبُ

تلاد رقيق الخدّ إنْ عُدَّ نجرهُ فصردان نعمَ النجر منه وأشعب

أبو الغُرِّ والحوِّ اللواتي كأنها من الحسن في الأعناق جزعٌ مثقبُ

إذا طاف فيها الحالبانِ تقابلت عقائلُ في الأعناق منها تحلبُ

ترى ضيفها فيها يبيت بغبطةٍ وضيفُ ابن قيس جائعٌ يتحوبُ

قال: فوفد ابن قيس هذا، على النعمان، فقال له: كيف المخارقُ فيكم؟ قال: سيد شريف، من رجل يمدح تيسه، ويهجو ابن عمه! وقال الراجز:

أنعتُ ضاناً أمجرتْ غثاثاَ

والمِجَر: أن تشربَ فلا تروى. وذلك من مثالبها.
وقال رجل لبعض ولد سليمان بن عبدِ الملك: "ماتت أمُّك بغراً، وأبوك بشماً!".
وقال أعرابي:

مولى بني تيمٍ، ألستَ مؤدياً منيحتنا كما تؤدى المنائح

فإنك لو أديت صعدة لم تزلْ بعلياء عندي، ما ابتغى الربحَ رابح

لها شعرٌ داج وجيدٌ مقلص وخلقٌ زخاريّ وضرعٌ مجالحُ

ولو أشليتْ في ليلةٍ رجبيةٍ لأرواقها هطلٌ من الماء سافحُ

لجاءت أمامَ الحالبينِ وضرعُها أمامَ صفاقيها مبدٌّ مضارحُ

وويلُ أمها كانت نتيجة واحد ترامى بها بيدُ الإكام القراوح

أصناف الظلف وأصناف الحافر ليس سبيلُ الظلففِي التشابه سبيلَ أصناف الحافر، والخفة. واسم النعم يشتمل على الإبل والبقر والغنم.وبعد بعض الظلف من بعض، كبعده من الحافر والخف؛ لأن الظلف للضأن والمعز والبقر والجواميس والظباء والخنازير وبقر الوحش، وليس بين هذه الأجناس تسافد ولا تلاقح، لا الغنم في الغنم من الضأن والماعز، ولا الغنم في سائر الظلف ولا شيء من سائر تلك الأجناس تسافدُ غيرها أو تُلاقِحُها. فهي تختلف في الصوف والشعر، وفي الأنس والوحشة، وفي عدم التلاقح والتسافد وليس كذلك الحافر والخف.

رجَز في العنز

وقال الراجز:

لَهَفي على عنْزين لا أنساهما كأنَّ ظِلَّ حَجَرٍ صُغْرَاهُما

وصالِغٌ مُعْطِرةٌ كُبراهما

قوله: صالغٌ، يريد انتهاء السنّ، والمعطرة: الحمراء؛ مأخوذة من العِطر، وقوله: كأن ظلّ حجَر صُغراهما يريد أنها كانت سوداء، لأن ظِلَّ الحجَر يكونُ أسودَ، وكلما كان الساتر أشدَّ اكتنازاً كان الظلُّ أشدَّ سواداً.
قولهم أظل من حجر وتقول العرب: ليس شيءٌ أظلَّ من حجَر، ولا أدفأ من شجَر، وليس يكون ظلٌّ أبردَ ولا أشدَّ سواداً من ظلِّ جبل، وكلما كان أرفع سَمْكاً، وكان مَسْقِط الشمس أبعَد، وكان أكثر عرضاً وأشدَّ اكتنازاً، كَان أشدَّ لسواد ظله.
ويزعم المنجِّمون أن الليلَ ظلُّ الأرض، وإنما اشتدَّ جدّاً لأنه ظلُّ كُرةِ الأرض، وبقدر ما زاد بدنها في العِظم ازدادَ سوادُ ظِلِّها.
وقال حميد بن ثور:

إلى شَجَرٍ ألمَى الظلالَ كأنها رواهبُ أحْرَمْنَ الشرابَ عُذُوبُ

والشقَّة الحمَّاء يقال لها لَمْياء، يصِفُون بذلك اللّثة، فجعَل ظِلَّ الأشجار الملتفَّة ألمى.

أقط الماعز

وقال امروُ القيس بن حُجْر:

لنا غَنَمٌ نُسوِّقها غِزارٌلنـا   كأنَّ قرُونَ جِلّتِها العِصِيُّ

فدلّ بصفة القرون عَلَى أنها كانت ماعزة، ثم قال:

فتمْلأٌ بيتَنا أقِطاً وسَمْنـاً   وحَسْبُكَ من غِنًى شِبعٌ وريُّ

فدلَّ عَلَى أن الأقط منها يكون.
استطراد لغوي وقال: ويقال لذواتِ الأظلاف: قد ولّدت الشاة والبقرة، مضمومة الواو مكسورة اللام مشدودة، يقال هذه شاة تُحلَب قفيزاً، ولا يقال تحلُب، والصواب ضم التاء وفتح اللام.
ويقال أيضاً: وضعَتْ، في موضع وُلّدت، وهي شاة رُبَّى، من حين تضعُ إلى خمسة عشَرَ يوماً - وقال أبو زيد: إلى شهرين - مِنْ غنمٍ رُباب، مضمومة الرَّاء عَلَى فُعال، كما قالوا: رَجُل ورُجال، وظئر وظؤار وهي رُبَّى بيّنة الرِّباب والرِّبَّة بكسر الرّاء، ويقال هي في ربابها، وأنشد:

حَنِينَ أمِّ البَوِّ في ربابها

والرِّباب مصدر، وفي الرُّبى حديث عمر: دَعِ الرُّبَّى والماخِض والأكولة، وقال أبو زيد: ومثل الرّبى من الضأن الرّغوث، قال طَرَفة:

فليتَ لنا مكانَ المَلْكِ عَمرِو   رَغُوثاً حَوْلَ قُبَّتِنا تخُـور

وقالوا: إذا وضعت العنز ما في بطنها قيل سَليل ومَلِيط، وقال أبو زيد: هي ساعة تضعَه من الضأن والمعز جميعاً، ذكراً كان أو أنثى: سخلةٌ، وجمعُها سَخْل وسِخَال، فلا يزال ذلك اسمَه ما رضعَ اللبَن، ثم هي البَهْمة للذكر والأنثى، وجمعُها بَهْم، وقال الشاعر:

وليس يَزْجُرُكُم ما تُوعَظُون بـه   والبَهْمُ يزجرُها الراعي فتنزجرُ

ويروى: يُزْجَر أحياناً، وإذا بلغَتْ أربعة أشرٍ وفُصِلتْ عن أمهاتها، وأكلَتْ من البقل واجترّت، فما كان من أولاد المعز فهو جَفْر، والأنثى جَفْرة، والجمع جِفَار، ومنه حديث عمر رضي اللّه عنه، حين قضى في الأرنبِ يُصِيبها المحرمُ بجَفْر.
فإذا رَعَى وقويَ وأتى عليه حولٌ فهو عريض، وجمعه عِرْضان، والعَتُود نحوٌ

منه، وجمعه أعْتِدة وعِتْدان، وقال يونس: جمعه أعْتدة وعتد، وهو في ذلك كلّه جدْيٌ، والأنثى عَناق، وقال الأخطل:

واذْكرْ غُدَانةَ عِتْدانًا مُزَنَّمَةً   من الحبلّق يُبْنَى حولها الصِّيَرُ

ويقال له إذا تبع أمَّه وفطِم: تِلوٌ، والأنثى: تِلوة؛ لأنه يتلو أمَّه.
ويقال للجَدْي: إمَّر والأنثى أمَّرَةٌ، وقالوا: هِلّع وهِلّعة، والبدرة: العَناق أيضاً، والعُطعُط: الجدي، فإذا أتى عليه الحولُ فالذكر تيس والأنثى عَنْز، ثم يكون جذَعاً في السَّنة الثانية، والأنثى جذَعة، ثم ثنِيّاً في الثالثة، والأنثى ثنِيَّة، ثم يكون رَباعياً في الرابعة، والأنثى رباعيَة، ثم يكون سَديساً، والأنثى سَدِيس أيضاً مثل الذكر بغير هاء، ثم يكون صالغاً والأنثى صالغة، والصالغُ بمنزلة البازل من الإبل، والقارح من الخيل، ويقال: قد صلَغَ يَصلْغُ صُلوغاً، والجمع الصُّلَّغ، وقال رؤبة:

والحربُ شهباءُ الكباشِ الصُّلَّغ

وليس بعد الصالغ شيءٌ.
وقال الأصمعيّ: الحُلاّمِ والحُلاّن من أولاد المعز خاصة، وجاء في الحديث: في الأرنب يصيبها المحرمُ حُلاَّم، قال ابن أحمر:

تُهدِي إليه ذراعَ البكْر تَكرمَةً   إمّا ذكِيّاً وإمّا كان حُلاَّنا

ويروى: ذراع الجدي ويروى: ذبيحا، والذبيح هو الذي أدْرَك أن يضحَّى به، وقال مهلهل بنُ ربيعة:

كلُّ قتيلٍ في كليبٍ حُلاَّمْ   حتى ينال القتلُ آلَ هَمامْ

وقالوا في الضأن كما قالوا في المعز، إلا في مواضع، قال الكسائي: هو خروف، في موضع العريض، والأنثى خروفة، ويقال له حَمَل، وَالأنثى من الحِمْلان رخل والجمع رُخال، كما يقال ظئر وظؤار وَتَوأم وتؤام، والبَهْمة: الضأن وَالمعز جميعاً، فلا يزال كذلك حتى يَصِيف، فإذا أكل وَاجترّ فهو فرير وفُرارة وفُرفور، وعمرُوس، وهذا كله حينَ يسمَنُ ويجتر، والجِلاَم، بكسر الجيم وتعجيم نقطة من تحت الجيم، قال الأعشى:

سَوَاهِمُ جِذْعانها كَالجِلام   وَأقرَحَ منها القيادُ النسورا

يعني الحوافر.
واليَعْر: الجدي، بإسكان العين، وقال البُريقُ الهذليّ: مُقِيماً بأملاح كما رُبط اليَعْرُ
والبذَجُ: من أولاد الضأن خاصة، وقال الراجز:

قد هَلَكَتْ جارتُنا من الهمَـجْ فإن تجُعْ تأكل عَتُوداً أو بَذَجْ

والجمع بذجَان.
دعاء أعرابي وقال أعرابيّ: اللّهم مِيتَةً كمِيتَةِ أبي خارجة قالوا: وما ميتة أبي خارجة؟ قال: أكل بذَجاً، وَشرب مِشعَلاً، ونام في الشمس، فأتَتْه المنيَّةُ شبْعان ريانَ دفآن.
تيس بني حمان وفي المثل: أغلم من تيس بني حِمّان، وبنو حمّان تزعم أنه ققط سبعين عنزاً وقد فُريت أوداجه.
فهذا من الكذِب الذي يدخلُ في باب الخرافة.
؟زعم لصاحب المنطق وقد ذكر أرسطوطاليسُ في كتاب الحيوان، أنه قد ظهر ثورٌ وَثَب بعد أنْ خُصي، فنزا على بقرةٍ فأحلبَها.
ولم يَحْكِ هذا عن مُعاينةٍ، والصدورُ تضيق بالردِّ على أصحاب النظر وتضِيق بتصديق هذا الشَّكْل.
أحاديث وآثار في الغنم قال: وحدَّثنا سعد بن طريق، عن الأصبغ بن نُباتة قال: سمعت عليّاً يقول: ما أهْلُ بيتٍ لهمْ شاةٌ إلا يُقدَّسُون كُلَّ لَيْلَةٍ.
وقال: حدثنا عنبسة القطّان، قال حدَّثنا السكن بن عبد اللّه بن عبد الأعلى القرشيّ، عن رجل من الأنصار، أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال: امْسَحُوا رُعامَ الشَّاءِ، ونَقُّوا مرابضَها مِنَ الشَّوْكِ والحِجَارَةِ، فإنَّها فِي الجَنَّةِ.
وقال: ما مِنْ مُسْلمٍ له شاةٌ إلا قدِّس كُلَّ يومٍ مَرَّةً، فإنْ كانَتْ لَهُ شَاتانِ قُدِّسَ في كلِّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ، قال: وحدثنا عنبسة القطان، بهذا الإسناد، أن رسولَ اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال: "أوصِيكُمْ بالشَّاءِ خَيْراً، فَنَقُّوا مَرابِضَها مِنَ الحِجَارةِ والشَّوْكِ فإنَّها فِي الجَنَّةِ".
وعن محمد بن عجلان، عن وهب بن كَيسان، عن محمد بن عمرو بن عطاء العامريّ من بني عامر بن لؤَيّ، أن رجلاً مرَّ على أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه، وهو بالعقيق، فقال: أين تريد؟ قال: أريد غُنَيمةً لي، قال: امسح رُعامها، وأطِبْ مُرَاحها، وصلِّ في جانبِ مُراحها؛ فإنها من دوابِّ الجنة.
وعن فرج بن فضالة، عن معاوية بنُ صالح، عن رجل من أصحاب أبي الدرداء، أنه عَمِلَ طعاماً اجتهد فيه، ثم دعاه فأكل، فلما أكل قال: الحمد للّه الذي أطعَمَنَا الخميرَ، وألبسَنَا الحَبيرَ، بعد الأسودَين: الماء والتمر، قال: وعند صاحبه ضائنة له، فقال: هذه لك؟ قال: نعم، قال: أطِبْ مُراحها واغسِلْ رُعامها، فإنها من دوابِّ الجنة، وهي صفوة اللّه من البهائم.
قال: وحدَّثنا إبراهيم بن يحيى، عن رجل، عن عطاء بن أبي رباح، عن أبي هريرة، عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم، أنه قال: إن اللّه عزّ وجلّ خَلَقَ الجنة بيضاءَ، وخيرُ الزِّيِّ البياض، قال: وبعث إلى الرُّعيان: من كانت له غنمٌ سُودٌ فليَخْلِطْها بعُفْر، فإنَّ دمَ عفراءَ أزكى من دمِ سَوداوين.
وحدثنا أبو المقدام قال: حدَّثنا عبد الرحمن بن حبيب، عن عطاء، عن ابن عباس، أن رسولَ اللّه صلّى اللّهُ عليه وسلم دعا بالرُّعاة فجُمعوا له، فقال: "مَنْ كَانَ مِنْكُمْ

يَرْعَى غَنَماً سُوداً فَلْيَخْلِطْ فِيها بيضاً".
قال: وجاءته امرأةٌ فقالت: يا رسول اللّه، إني اتخذت غنماً رجوت نسلها ورسلها وإني لا أراها تنمو، قال: فما ألوانها؟ قالت: سود، قال: "عقّري"، أي اخلطي فيها بيضاً.
قال: وحدثنا طلحة بنُ عمرو الحضْرَميّ، عن عطاء، أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال: "الغَنَمُ بَرَكَةٌ مَوْضُوعَةٌ، والإبلُ جمالٌ لأهْلِها، والخيرُ مَعْقُودٌ في نَواصِي الخَيْلِ إلى يَوْمِ القِيامَةِ"، حنظلةُ بن أبي سفيان المكّي قال: سمعت طاووساً يقول: من هاهنا أطلعَ الشيطان قرنَيه، من مطلع الشمس، والجفاءُ والكِبْرُ في أهل الخيل والإبل، في الفدَّادينَ أهل الوبر، والسكينةُ في أهل الغنم.
قال وحدثنا بكر بن خُنيس، عن يحيى بن عُبَيد اللّه بن عبد اللّه بن مَوْهب، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: "رأسُ الكفر قِبَلَ المشرق، والفخرُ والخُيلاءُ في أهل الخيل والإبل والفدادين أهل الوبر، والسكينة في أهل الغنم، والإيمانُ يمانٍ والحكمة يمانية.
وعن عوف بن أبي جَميلة، عن الحسن، أن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: "الفخرُ في أهل الخيل، والجفاءُ في أهل الإبل، والسكينة في أهل الغنم".
وعن عثمان بن مقْسَم، عن نافع، أن ابنَ عمرَ حدثه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: السكينة في أهل الغنَم.
والفدَّاد: الجافي الصوتِ والكلامِ، وأنشدنا أبو الرُّدينيّ العكليّ: جاءت سُليمٌ ولها فديدُ.
أخبار ونصوص في الغنم وكان من الأنبياء عليهم السلام مَنْ رعى الغنم، ولم يَرع أحدٌ منهم الإبل، وكان منهم شعيب، وداود، وموسى، ومحمد؛ عليهم السلام، قال اللّه جلّ وعزّ: "وَمَا تِلْكَ بيَمِينِكَ يَا مُوسى، قال هِيَ عَصَايَ أتَوَكَّأُ عَلَيهَا وأهُشُّ بهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيها مَآربُ أُخْرَى".
وكان النبي صلّى اللّه عليه وسلم يرعى غُنَيمات خديجة.
والمعْزِبون بنزولهم البُعدَ من الناس، في طباع الوحش.
وجاء في الحديث: من بَدَا جَفا.
ورعاءُ الغنم وأربابها أرقُّ قلوباً، وأبعد من الفظاظة والغلظة.
وراعى الغنم إنما يرعاها بقرب الناس، ولا يُعْزِبُ، ولا يبدو، ولا ينتجع، قالوا: والغنم في النوم غُنْمٌ.
وقالوا في الغنم: إذا أقبلتْ أقبلتْ، وإذا أدبرت أقبلت.
الحامي والسائبة والوصيلة وكان لأصحاب الإبل مما يحرمونه على أنفسه: الحامي والسائبة، ولأصحاب الشاءِ الوصيلة.
العتيرة والرجيبة والغذوى والعتيرة أيضاً من الشَّاء، وكان أحدهم إذا نذر أن يذبحَ من العتائر والرجبية كذا وكذا شاة، فبلغ الذي كان يتمنَّى في نذره، وشحّ على الشاء قال: والظِّباء أيضاً شاء، وهي تُجْزي إذا كانت شاء: فيجعل عتائره من صيدِ الظباء، وقال الحارث بن حِلّزة:

عنَتاً باطلاً وظُلماً كمـا تُـعْ   تَرُ عن حجْرَةِ الرَّبيضِ الظّباءُ

وقال الطِّرمّاح:

كَلَوْنِ الغَرِيِّ الفَرْدِ أجْسَدَ رأسَه   عَتائرُ مظلومِ الهَدِيِّ المذبَّـح

ومنها الغَدويُّ والغَذَويّ جميعاً، وقال الفرزدق:

ومهورُ نِسْوَتِهِمْ إذا ما أنكَحُوا   غَذَوِيُّ كلِّ هبَنْقعٍ تِنْبَـالِ

ميل الحيوان على شقه الأيسر وقال أبو عتَّاب: ليس في الأرض شاة ولا بعيرٌ ولا أسَدٌ ولا كلْبٌ يريدُ الرُّبوض إلا مال على شِقِّه الأيسر، إبقاءً على ناحية كبده.
قال: ومتى تفقدتم الصفايا التي في البيوت، والنعاجَ، والجِداء، والحُمْلاَن وجدتموها كذلك.
معالجة العقاب الفريسة قال: والعقاب تستعمل كفها اليمنى إذا أصْعَدَتْ بالأرانب والثعالب في الهواء، وإذا ضربتْ بمخالبها في بطون الظّباء والذئاب، فإذا اشتكت كبدها أحسّت بذلك، فلا تزال إذا اصطادت شيئاً تأكلُ من كبدِه، حتى تبرأ، وإن لم تُعاين فريسة فربما جلَّت على الحمار الوحشيِّ فتنقضُّ عليه انقضاضَ الصخرة، فتقدُّ بدابرتها ما بين عجْب ذنبه إلى منسِجه، وقد ذكرنا من شأنها في باب القول فيها ما فيه كفاية.
أخذ الحيوان على يساره حين يهرب قال: وليس في الأرضِ هاربٌ من حَرْبٍ أو غيرها استعملَ الحُضْرَ إلا أخَذَ على يساره، إذا ترك عَزْمَه وسَوْمَ طبيعته، وأنشد:

تخامَصَ عن وحْشِيِّه وهو ذاهلٌ وفي الجوف نارٌ ليس يخبو ضِرامُها

وأنشد الأصمعي للأعشى:

ويسَّر سَهْماً ذا غِرَار يسوقُـهُ   أمين القُوَى في ضالةِ المترنّمِ

فمرّ نَضِيَّ السَّهْمِ تحت لبانِـه   وحالَ على وحْشِيِّهِ لم يعَتِّمِ

قال: ووضع: على موضع: عن.
ميل شقشقة الجمل ولسان الثور وفي بابٍ آخرَ يقول أوسُ بن حَجَر:

أوْ سَرَّكم في جُمادَى أن نصالحكم   إذِ الشقاشق معدولٌ بها الحَنَكُ

وذلك أنه ليس في الأرض جملٌ هاج وأخرج شِقْشِقتَه إلا عدَلَ بها إلى أحدِ شِقَّي حنَكه، والثورُ إذا عدا عدل بلسانه عن شِقِّ شماله إلى يمينه، وقال عَبْدَة بن الطبيب:

مُستَقبلَ الريح يهفو وهو مُبْتَرِكٌ   لِسانه عن شِمَالِ الشّدق معدولُ

حال الثور عند الكر والفر قال: وإذا كرَّ الكلبُ أو الثور فهو يصْنَعُ خلاف صَنيعِه عند الفرّ، وقال الأعشى:

فلما أضاء الصبحُ قام مبادراً   وحان انطلاقُ الشاةِ من حيثُ يمما

فصبحهُ عندَ الشروق غديةٍ   كلابُ الفتى البكري عوف بن أرقما

فأطلَقَ عن مجنوبها فاتبعنَه   كما هيَّج السامي المعسلُ خشْرَما

فأنحَى علَى شُؤمي يديهِ فذادها   بأظمأ من فرع الذؤابةِ أسحَما

ثم قال:

وأدَبَر كالشِّعْرَى وُضُوحاً ونُقْبَة   يُواعِسُ من حُرِّ الصّريمة مُعظما

علة غزو العرب أعداءهم من شق اليمين قال: ولعلمِ العرب بأن طبع الإنسان داعيةٌ إلى الهرب من شِقِّ الشمال، يحبُّون أن يأتوا أعداءهم من شِقِّ اليمين، قال: ولذلك قال شُتيم بن خُويلد:

فجئناهمُ من أيمنِ الشّق غُدْوَةً   ويأتي الشّقِيَّ الحَين من حيث لا يدري

وأما روايةُ أصحابنا فهي: فجئناهم من أيمنِ الشق عندهم.
الأعسر من الناس واليَسَر وإذا كان أكثُر عمل الرجُل بيساره كان أعسَر، فإذا استوى عملاً بهما قيل أعسرُ يسَرَ، فإذا كان أعسر مُصْمَتاً فليس بمستوى الخلق، وهو عندهم إذا كان كذلك فليس بميمون الخلْق، ويشتقُّون من اليد العُسْرى العُسْر والعُسرة، فلما سمَّوها الشِّمال أجْرَوْها في الشؤْم وفي المشؤُوم على ذلك المعنى، وسموها اليد اليَسارَ واليدَ اليسرى على نَفْي العُسر والنكَد، كما قالوا: سليم، ومفازة، ثم أفصحوا بها في موضع فقالوا اليد الشؤْمَى.
مما قيل من الشعر في الشمال ومما قالوا في الشمال قولُ أبي ذُؤيب:

أ بالصَّرمِ من أسماء جَدَّ بكَ الذي   جَرَى بيننا يومَ استَقَلّت ركَابُها

زجَرْتَ لها طيْرَ الشِّمالِ فإن يكن   هَوَاك الذي تهوى يُصِبْكَ اجْتنَابُها

وقال شُتيم بن خويلد:

وقلتُ لسَيّدِنـا يا حـليم   إنّك لم تَأْسُ أَسْواً رفيقـا

زجرتَ بها ليلةً كـلـهـا   فجئت بها مُؤيداً خَنفقيمـا

أعنتَ عَدِيّاً على شـأوَهَـا   تُعادي فريقاً وتبقي فريقـا

أطعْتَ غُرَيِّبَ إبْط الشِّمَال   تُنَحِّي لحِدِ المَواسِي الحُلوقا

وقال آخر:

وهوَّنَ وجدْي أنني لم أكنْ لـهـم غرابَ شِمَال ينفضُ الرِّيشَ حاتما

وإذا مال شِقُّة قالوا: احْولَّ شِقُّه، وقال الأشتر بن عُمارة:

عَشِيَّة يدعو مِعْتَرٌ يالَ جَعْفَرِ   أخوكم أخوكم أحُولَ الشِّقِّ مائِلُه

وقال آخر:

أيَّ أخ كانَ لي وكـنـتُ لـه   أشفَق من والدٍ علـى ولـدِ

حتى إذا قاربَ الحـوادثُ مـن   خَطْوِي وحلَّ الزمانُ من عُقدي

احولّ عنّي وكان ينظُر مِـن   عيني ويرمي بساعدِي ويَدِي

الوقت الجيد في الحمل على الشاء قال الأصمعيّ: الوقت الجيِّد في الحمل على الشاء أن تخلَّى سبعة أشهُرٍ بعد ولادها، ويكون حملها خمسة أشهر، فتولَّد في كل سنَة مرة، فإن حُمِل عليها في كل سنة مرتين فذلك الإمغال، يقال: أمغَل بنو فُلانٍ فهم مُمْغلون، والشاةُ ممغل.
وإذا وُلّدت الشاةُ ومضَى لها أربعةُ أشهر فهي لجبة، والجميع اللِّجاب واللَّجبات، وذلك حين يأخذ لبنها في النقصان.
استطراد لغوي قال: والأير من البعير: المِقْلَم، ومن الحافر الجُرْدَان، ومن الظلف كله: القضيب، ومن الفرَس العتيق: النَّضِيّ، زعم ذلك أبو عبيدة.
وما أراد من الحافر الفحلَ فهو الوِداق، وهو من الإبل الضَّبَعة، ومن الضأن الحُنوّ،

ويقال: حنَت تحنو حُنُوّاً، وهي نعجةٌ حانٍ كما ترى، وما كان من المعْز فهو الحِرْمَة، ويقال: عنز حَرْمَى، وأنكر بعضهم قولهم: شاةٌ صارف وزعم أنه مولد.
قال: وهو من السباع الإجعال، يقال: كلبةٌ مُجْعِل، فإذا عظُم بطنها قيل أجَحَّتْ فهي مُجِحّ.
وما كان من الخف فهو مِشْفَر، وما كان من الغنم فهو مِرَمّة، وما كان من الحافر فهو جَحْفَلة.
وإذا قلتَ لكلِّ ذات حملٍ وضعتْ، جاز، فإذا ميزْتَ قلت للخف: نُتِجَتْ، وللظّلف: ولّدت، والبقرةُ تجري هذا المجرى، وقلتَ للحافر: نتِجَتْ.
ويقال للحافر من بين هذا كله إذا كان في بطنها ولد: نَتوج، وإذا عظم بطنُ الحافر قيل قد أعقّتْ فهي عَقوق، والجماعُ عُقُقٌ، وبعضهم يقول: عقائق.
ويقال للبقرة الوحشية نعجة، والبقرة تجري مجرى الضائنة في حالها.
وما كان من الخف فصوته بُغام، فإذا ضجَّتْ فهو الرُّغاء، فإذا طرِّبت في إثر ولَدها قبل حنَّتْ، فإذا مدت الحنين قيل سَجَرت.
قال: والإلماعُ في السباع وفي الخيل، دون البهائم، وهو أن تشرق ضروعها.
قال: والخروف في الخيل والضأن، دون البهائم كلها.
قال: ويقال للطير: قد قمطها يقمطها، ويقال للتيس والكلب: قد سَفِدَ يُسْفَد سِفاداً، ويقال في الخيل: كامها يكُومُها كَوْماً، وكذلك في الحافر كلّه، وفي في الحمار وحده: باكها يبُوكها بَوْكاً.
قولهم: ما له سَبَد ولا لَبَد وتقول العرب: ما له عندي سَبَدٌ ولا لَبَد، فقدّموا السّبَد، ففي هذا المعنى أنهم قدموا الشَّعر على الصوف.
فإن قال قائل: فقد قدَّموا في مواضع كثيرةٍ ذكرَ ما هو أخَسُّ فقالوا: ما له عندي قليلٌ ولا كثير، والعِير والنَّفير حتى قالوا: الخلّ والزيت، وقالوا: ربيعة ومُضَر، وسُلَيم وعامر، والأوس والخزرج، وقال اللّه:"لاَ يُغادِرُ صَغِيرةً ولاَ كَبِيرةً إلاَّ أحْصَاهَا".
والذي يدلُّ على أن ذلك الذي قلنا كما قلنا قولُ الراعي:

حتى إذا هبَط الغِيطانَ وانقطعت ... عنه سلاسل رَمْل بينها عُقَدُ

لاقى أطيْلِسَ مَشّاءً بأكْلُبِهِ ... إثْرَ الأوابد ما يَنْمِي له سَبَدُ

فقدَّمَ السَّبدَ، ثم قال:

يُشْلِي سَلُوقيَّة زُلاًّ جواعِرُها ... مِثْلَ اليعاسيب في أصلابها أوَدُ

وقال الراعي:

أما الفقيرُ الذي كانت حَلُوبَتُه ... وَفْقَ العِيالِ فلم يُتْرَكْ له سَبَدُ

وهو لو قال: لم يُترك له لَبَد، ولو قال: ما ينمي له لَبَدَ لقام الوزْنُ، ولكان له معنى، فدلَّ ذلك على أنه إنما أراد تقديم المقدَّم.

مفاخرة بين صاحب الضأن وصاحب الماعز

قال صاحب الضأن: فَخَرتم على الضأن بأن الإنسان ذو شعر، وأنه بالماعز أشبه، فالإنسان ذو أليةٍ، وليس بذي ذنب، فهو من هذا الوجه بالضأن أشبه.
قال صاحبُ الماعز: كما فخرتم بقوله: "ثَمَانِيةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأنِ اثْنَيْنِ" وقلتم: فقد قدَّمها، فقال اللّه: "يَا مَعْشَرَ الجِنِّ والإنْسِ".
فإن وجب لضأنك التقديمُ على الماعز بتقديم هذه الآية وجَبَ للجنِّ التقديمُ بتلك الآية.

في الضفادع

علَّمك اللّه علماً نافعاً، وجعلَ لك من نفسك سامعاً، وأعاذك من العُجْبِ، وعرّفك لباسَ التقوى، وجَعَلك من الفائزين.
اعلمْ، رحمك اللّه تعالى، أن اللّه جل وعز قد أضاف ست سُوَر من كتابه إلى أشكال من أجناس الحيوان الثلاثة، منها مما يسمونها باسم البهيمة وهي سورة البقرة، وسورة الأنعام، وسورة الفيل، وثلاثة منها مما يعدون اثنتين منها من الهمج، وواحدةً من الحشرات.
فلو كان موقعِ ذِكرِ هذه البهائم، وهذه الحشرات والهمج، من الحكمة والتدبير، موقِعَها من قلوب الذين لا يعتبرون ولا يفكرون، ولا يميزون، ولا يحصلون الأمور، ولا يفهمون الأقدار لما أضاف هذه السور العظامَ الخطيرة، و الشريفة الجليلة، إلى هذه الأمور المحقّرة المسْخِفَة، والمغمورة المقهورة.
ولأمر ما وضعها في هذا المكان، ونوَّه بأسمائها هذا التنويه، فافهم، فإن الأديبَ الفَهِم، لا يعوِّد قلبَه الاسترسال، وخُذْ نفسَك بالفكرة، وقلبَك بالعبْرة.
وأنا ذاكرٌ من شأن الضفدع من القول ما يحضر مثلي، وهو قليلٌ في جنب ما عند علمائنا، والذي عند علمائنا لا يحَسُّ في جنب ما عند غيرهم من العلماء، والذي عند العلماء قليل في جنب ما عند الأنبياء، والذي عند الأنبياء قليل في جنب ما عند اللّه تبارك وتعالى.
من ذلك الضِّفدِع، لا يصيحُ ولا يمكنه الصياح حتى يدخل حنكَه الأسفل في الماء، فإذا صار في فمه بعض الماء صاح، ولذلك لا تسمعُ للضفادع نقيقاً إذا كُنَّ خارجاتٍ من الماء.
والضفادعُ من الحيوان الذي يعيشُ في الماء، ويبيضُ في الشطّ، مثل الرّق والسُّلحفاة، وأشباه ذلك.
والضفادعُ تنقّ، فإذا أبصرت النار أمسكت.

زعم في الضفادع

والضفادع من الحيوانِ الذي يُخلقَ في أرحام الحيوان، وفي أرحام الأرَضِين، إذا ألقحتها المياه، لأن اليَخَّ بخراسان يُكبس في الآزاج، ويحالُ بينه وبين الرِّيح والهواء والشمس، بأحكمِ ما يقدرون عليه وأوثقه، ومتى انْخرق في تلك الخزانة خَرْقٌ في مقدارِ مَنْخِرِ الثور حتى تدخلَه الريح، استحال ذلك اليخُّ كله ضفادع.
ولم نعرف حقَّ هذا وصدقه من طريق حديث الرجل والرجلين، بل نجدُ الخبرُ عنه كالإطباق، وكالخبر المستفيض الذي لا معارضَ له.

أعجوبة في الضفادع

وفيها أعجوبة أخرى: وذلك أنا نجد، من كِبارها وصغارها، الذي لا يحصى في غِبِّ المطر، إذا كان المطر ديمة، ثم نجدُها في المواضع التي ليس بقربها بحرٌ ولا نهرٌ، ولا حوضٌ، ولا غديرٌ، ولا وادٍ، ولا بيرٌ، ونجدها في الصَّحاصح الأماليس، وفوق ظهورِ مساجد الجماعة، حتى زعم كثيرٌ من المتكلفين، ومن أهل الخسارة وممن لا يحتفل بسوء الحال عند العلماء، ولا يكترث للشكّ - أنها كانت في السحاب.
ولذلك طمع بعضُ الكذّابين ممن نَكْرَهُ اسمه، فذكر أن أهل أيذَج مُطِروا مرةً أكبر شبابيط في الأرض، وأسمنَها وأعذبها وأعظمها، وأنهم اشتوَوا، وملَّحوا، وقرّسوا، وتزوَّدَ منه مسافرهم، وإنما تلك الضفادع شيءٌ يخلق في تلك الحال بمزاوجَة الزمان، وتلك المطرة، وتلك الأرض، وذلك الهواء.

معارف في الضفدع

والضفادعُ من الخلْق الذي لا عظامَ له.
ويزعم أصحاب الغرائب أن العَلاجيمَ منها الذكورة السود.
ويقال: أرْسَح مِن ضِفدِع.
وتزعمُ الأعرابُ أن الضفدِع كان ذا ذنب، وأن الضَّبَّ سلبه إياه وذلك في خُرافة من خرافات الأعراب، ويقول آخرون: إن الضفدع إذا كان صغيراً كان ذا ذنب، فإذا خرجتْ له يدانِ أو رجلان سقط.
جملة من الأمثال وتقول العرب: لا يكون ذلك حتى يُجمع بين الأرْوَى والنعام وحتى يُجمع بين الماء والنار، وحتى يشِيبَ الغراب، وحتى يَبيْضَّ القار، وحتى تقع السماءُ على الأرض.
ومن حديث الأمثال: حتى يجيءَ نشيطٌ من مَرْو، وهو لأهل البصرة، وحتى يجيء مصْقلة من طبرسْتانَ، وهو لأهل الكوفة.
وقال اللّه عزّ وجلّ: "وَلاَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حتَّى يَلِجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِيْاطِ".
وتقول العرب: لا يكون ذلك حتي يُجمع بين الضب والنون، وحتى يُجمع بين الضفدع والضَّبّ، وقال الكميت:

يؤلّفُ بين ضِفْدِعةٍ وضَبٍّ ويَعجبُ أن نَبَرَّ بني أبينا

وقال في النون والضبّ:

ولو أنـهم جاؤُوا بشيء مُقـارب   لشيءٍ وبالشكْل الموافق للشّكل

ولكنـهم جاءُوا بحيتـانِ لُـجّةٍ   قوامِسَ والمكنيِّ فينا أبا الحِسْلِ

معارف في الضفدع

وهو من الخلق الذي لا يصاب له عَظْم، والضفدعُ أجْحظ الخلق عيناً، والأسد تنتابُها في الشرائع، وفي مَناقِع المياه، والآجام والغياض، فتأكلها أكلاً شديداً.
وهي من الخلق المائيّ الذي يصبرُ عن الماء أياماً صالحة، والضفادع تعظُم ولا تسمَن، كالدُّرّاج والأرنب، فإنَّ سِمَنهما أن يحتملا اللحم.
وفي سواحل فارس ناسٌ يأكلونـها.

قول مسيلمة في الضفدع

ولا أدري ما هيّجَ مسيلمة على ذكْرها، ولِمَ ساء رأيه فيها، حيثُ جعلَ بزعمه فيما نزل عليه من قرآنه: يا ضفْدَعُ نِقّي كَمْ تَنقّين نصفُكِ في الماء ونصفُكِ في الطين لا الماء تُكَدِّرين، ولا الشارب تمنعين.

معيشة الضفادع مع السمك

والضفادعُ من الخلْق الذي يعيشُ مع السمك في الماء، وليس كل شيء يعيشُ في الماء فهو سَمَك، وقد قال الصَّلّتانُ العبْدِيّ، في القضاء الذي قضى بين جرير والفرزدق، و الفصلِ الذي بينهما:

فإن يكُ بحرُ الحنظليَّين زاخراً   فما تستوي حِيتانُه والضفادعُ

طلب الحيَّات والضفادع

والحيات تأتي مناقِعَ الماء، تطلب الضفادع، والفأر تكون بقرب المياه كثيرةً، فلذلك تأتي الحياتُ تلك المواضعَ، ولأن صيدها من أسهل الصيد عليها، وهي تعرف صيْدها، ألا تراها تحيدُ عن ابن عُرْسٍ، وإن رأتْ جُرَذاً أكبر منه لم تنـهْنِهْه دون أن تبتلعه؟ وترى الوَرَلَ فتفرُّ منه، وترى الوَحَرة فتتشدُّ عليها، وترى القُنفُذَ وإن صغُر - فلا تجترئُ أنْ تمرّ به خاطفة، وترى الوَبْرة، وهي مثلُ ذلك القنفذِ مرتين فتأكلها.
ولطلبها الضفادعَ بالليل في الشرائع يقول الأخطل:

ضفادعُ في ظلْماء ليلِ تجاوبَتْ   فدلَّ عليها صوتـها حَيَّةَ البحر

وقد سرَق معناه بعضُ الشُّعراء، فقال وهو يذكر الضفدع، وأنه لا ينقّ حتى يدخل حنَكه الماء:

يُدْخِل في الأشداق ماءً ينصفُهُ كيما ينِقّ والنَّقيقُ يُتلفه

شعر في الضفادع

وقال زهير:

وقابلٌ يتغنَّى كلما قدرَت عَلَى العرَاقي يداه قائماً دَفقا

يُحيلُ في جدولٍ تحبُو ضفادِعُه حَبْو الجواري ترى في مائه نُطُقا

يخرُجْن من شَرَبَاتٍ ماؤها طحِلٌ على الجُذوع يخَفْنَ الغَمّ والغَرَقا

وقال أوسُ بن حجَر:

فباكَرْنَ جَوْناً للعلاجيم فوقهُ مَجالِسُ غَرْقى لا يُحَلاَ ناهِلُه

جون قال: يريد غديراً كثيرَ الماء، قال: وإذا كثر الماءُ وكثر عُمْقُه اسودَّ في العين، والعلاجيم: الضفادع السود؛ وجعلها غرقى، يقول: هي فيما شاءت من الماء، كقولك: فلان في خير غامر من قِبَل فلان، وجعل لها مجالس حول الماء وفوقه، لأن هذه الأجناس - التي تعيش مع السمك في الماء وليست بسمك - أكثرُ حالاتهن إذّ لم تكن سمكا خالصاً أن تظهر علَى شُطوط المياه، وفي المواضع التي تبيض فيها من الدَّغل، وذلك كالسّرطان والسُّلحفاة، والرَّق، والضفدع، وكلبِ الماء، وأشباه ذلك.
استطراد لغوي ويُقال: نقّ الضفْدِع ينقُّ نقيقاً، وأنقض ينقِضُ إنقاضاً ، وقال رُؤبةُ:

إذا دنا منهن إنقاض النُّقُقْ في الماء والساحلُ خضخاضُ البَثَقْ

سمع الضفدع

وقد زعم ناسٌ أن أبا الأخْزَر الحِمّاني حيث قال:

تسمُّع القِنْقِن صوتَ القنقِن

إنما أراد الضفدع، قالوا: وكذلك الطّرماحُ حيث يقول:

يخافِتْنَ بعض المضغ من خشيةِ الرّدَى ويُنْصِتْنَ للصوتِ انتصاتَ القنـاقِنِ

قالوا: لأن الضفِدع جيِّد السمع إذا تركَ النقيق وكان خارجاً من الماء، وهو في ذلك الوقتِ أحذر من الغراب والعصفور والعَقْعَق، وأسمعُ من فرَس، وأسمع من قُراد، وأسمع من عُقاب، وبكل هذا جاء الشعر.

ذكر ما جاء في الضفادع في الآثار

إبراهيم بن أبي يحيي، عن سعيد بن أبي خالد بن فارض، عن سعيد بن لمسيب، عن عبد الرحمن بن عثمان التيمي أن النبي صلى اللّه عليه وسلم نهى عن قتل الضفدع.
قال: وحدَّثنا سعيد عن قتادة قال: سمعتُ زُرارةَ يحدِّث أنه سمع عبد اللّه بن عَمْرو يقول: لا تسبُّوا الضفادع فإنَّ أصواتها تسبيح.
قال: وحدثنا هشامٌ صاحبُ الدّستوائي، عن قتادة عن زُرارة بنِ أوفى، عن عبد اللّه بن عمرو أنه قال: لا تقتلوا الضفادعَ، فإن نقيقهُنَّ تسبيح، ولا تقتلوا الخفاش، فإنه إذا خرب بيت المقدس قال: يا ربِّ سلِّطني على البحر حتى أغرقهم.
وعن حماد بن سَلمة، عن قتادة، عن زُرارة، قال: قال عبد الله بن عمرو: لا تقتلوا الخفاش، فإنه استأذن البحر أن يأخذ من مائه فيطفئَ بيتَ المقدس حيث حرِّق، ولا تقتلوا الضفادع، فإن نقيقها تسبيح.
وعن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ذِئب، وفي إسناد له: أن طبيباً ذكر الضِّفدِع عن النبي صلى اللّه عليه وسلم، ليُجْعل في دواء، فنهى النبي صلى اللّه عليه وسلم عن قتل الضفدع.
ما يوصف بجودة الحراسة وشدة الحذر والعربُ تصف هذه الأصناف التي ذكرناها بجودة الحراسة، وبشدة الحذَر، وأعطوا الثعلبَ والذِّئب أموراً لا يبلغها كثيرٌ من الناس.
قول صاحب المنطق في الغرانيق وقال صاحبُ المنطق في الغرانيق قولاً عجيباً، فزعم أن الغرانيق من الطيور القواطع، وليست من الأوابد، وأنها إذا أحسّتْ بتغيُّرِ الزمان اعتزمت على الرجوع إلى بلادها وأوكارها، وذكر أنها بعيدةٌ سحيقة، قال: فعند ذلك تتخذ قائداً وحارساً، ثم تنهض معاً، فإذا طارت ترفعت في الجواء جدّاً، كي لا يعرض لها شيء من سباع الطير، أو يبلغَها سهمٌ أو بُنْدُق، وإن عاينَتْ غيماً أو مطراً، أو خافتْ مطراً، أو سقطتْ لطلبِ ما لا بدَّ لها منه من طعم، أو هجم عليها الليل أمسكَتْ عن الصياح، وضمَّتْ إليها أجنحتها، فإذا أرادت النوم أدخل كل واحد منها رأسَه تحتَ جناحِه، لأنه يرى أن الجناح أحْمَلُ لما يَردُ عليه من رأسه، أو بعض ما في رأسه: من العين وغير ذلك، ويعلم أنه ليس بعد ذهابِ الرأس حياة، ثم ينام كل واحد منها وهو قائم على رجليه، لأنه يظن أنه إن مكَّنهما نام إن كان لا يحب النوم، أوْ نام ثقيلا إن كان يحب أن يكون نومّه غراراً، فأما قائدها وسائقها وحارسُها، فإنه لا ينامُ إلا وهو مكشوفُ الرأس، وإن نام فإن نومُه يكونُ

أقلُّ من الغِشاش، وينظُرُ في جميع النواحي، فإن أحسَّ شيئاً صاحَ بأعلى صوته.
صيد طير الماء وسألتُ بعضَ من اصطادَ في يومٍ واحد مائة طائر من طير الماء، فقلت له: كيف تصنعون؟ قال: إن هذا الذي تراه ليس من صيْدِ يوم واحد، وإن كلَّه صِيدَ في ساعة واحدة، قلت له: وكيف ذاك؟ قال: وذلك أنا نأتي مناقعَ الماء ومواضِعِ الطير، فنأخذ قرعةً يابسة صحيحة، فنرمي بها في ذلك الماء، فإذا أبصرها الطير تدنو منه بدفع الرِّيح لها في جهته، مرة أو مرتين فِزِع، فإذا كثر ذلك عليه أنس، وإنما ذلك الطير طير الماء والسّمكِ، فهي أبداً على وجه الماء، فلا تزالُ الرِّيح تقرِّبها وتباعدها، وتزداد هي بها أُنْساً، حتى ربما سَقَط الطائرُ عليها، والقرعة في ذلك إما واقفةٌ في مكان، وإما ذاهبةٌ وجائية، فإذا لم نرها تنفرُ منها أخذنا قرعة أخرى، أو أخذناها بعينها، وقطعنا موضِعَ الإبريق منها، وخرَقْنا فيها موضِعَ عينين، ثم أخَذَها أحَدُنا فأدخَلَ رأسَه فيها، ثم دخل الماء ومشى فيه إليها مشياً رُوَيْداً، فكلما دنا من طائر قبض على رجليه ثم غمسه في الماء، ودقّ جَناحَه وخَلاّهُ، فبقي طافياً فوق الماء يسبحُ برجليه، ولا يطيقُ الطيران، وسائرُ الطير لا ينكر انغماسه، ولا يزال كذلك حتى يَأتيَ على آخر الطير، فإذا لم يبق منها شيء رَمى بالقرعة عن رأسه، ثمّ نلقطها ونجمعها ونحملها.
علاج الملسوع قال: ومن جيِّدِ ما يُعالجَ به الملسوعُ، أن يُشَقَّ بطنُ الضفدع، ثم يرفد به موضع اللسعة، ولسنا نعني لدغة الحية، وإنما نعني لسعة العقرب.
والضفدع إذا رأى النار أمسك عن النقيق، وإذا رأى الفجر. والأسدُ إذا رأت النار أحجمت عن الإقدام، وإذا اشتد الأصوات.
استطراد لغويّ قال: ويقال للضفدع: نقّ ينقّ، وهدر يهدِر، وقال الراعي:

فأوردهُنَّ قبيلَ الصباح عيناً ضَفادعُها تَهْدِرُ

قول صاحب المنطق في الضفادع والسمك

وأما قولُ صاحبُ المنطق في أن الضفادع لا تنقّ حتى تُدخِلَ فكها الأسفل في الماء، لزن الصوت لا يجيئُها حتى يكون في فكها ماء فقد قال ذلك، وقد، وافقه عليه ناسٌ من العلماء، وادعوا في ذلك العِيان.
فأما زعمه أن السمكة لا تبتلع شيئاً من الطعم إلا ببعض الماء، فأيُّ عيان دلَّ على هذا؟ وهذا عَسِرٌ.
أحضِرْني على اسم اللّه ذِهنك، وفرِّغ لما ألقيه إليك قلْبَكَ، فربَّ حرْف من حروف الحكم الشريفة، والأمثال الكريمة - قد عَفا أثرُه، ودثر ذكرُه، ونبا الطَّرفُ عنه، ولم يُشغَل الذهنُ بالوقوف عليه، وربَّ بيتٍ هذا سبيله، وخطبةٍ هذه حالها.
ومدارُ الأمر على فهم المعاني لا الألفاظ، والحقائق لا العبارات، فكم من دارس كتاباً خرَج غُفْلاً كما دخل، وكم من متفهِّم لم يفهم؟ ولن يستطيع الفهم إلا من فرَّغ قلبه للتفهم، كما لا يستطيعُ الإفهام إلا من صحت نيتُه في التعليم.

فضل الإنسان على سائر الحيوان

فأقول: إن الفرق الذي بين الإنسان والبهيمة، والإنسان والسَّبُع والحشرة، والذي صَبَّرَ الإنسان إلى استحقاق قول اللّه عز وجلّ: "وَسَخَّرَ لَكمْ ما في السَّموَاتِ وما في الأرْضِ جَميعاً مِنْهُ" ليس هو الصورة، وأنه خُلِقَ من نطفة وأن أباه خلق من تراب، ولا أنه يمشي على رجليه، ويتناول حوائجه بيديه، لأن هذه الخصالَ كلها مجموعة في البُلْه والمجانين، والأطفال والمنقوصين.

والفرق الذي هو الفرق إنما هو الاستطاعة والتمكين، وفي وجُودِ الاستطاعة وجودُ العقل والمعرفة، وليس يوجِبُ وجودُهما وُجودَ الاستطاعة.

وقد شرَّف اللّه تعالى الجانَّ وفضّله على السّبُع والبهيمة، بالذي أعطاه من الاستطاعة الدالة عَلَى وجود العقل والمعرفة.

وقد شَرَّف اللّه الملائكةِ وفضلهم عَلَى الجانّ، وقدمهم علَى الإنسان وألزمهم من التكليف عَلَى حسب ما خوَّلهم من النعمة، وليست لهم صورة الإنسان ولم يخْلَقُوا من النُّطف، ولا خلُق أبوهم من التراب، وإنما الشأنُ في العقل، والمعرفة، والاستطاعة.

أفتظنُّ أن اللّه عز وجل يخصُّ بهذه الخصال بعضَ خلقِه دون بعض، ثم لا يطالبهم إلا كما يطالب بعضَ من أعدمه ذلك، وأعْراه منه؟ فلِمَ أعطاه العقل،إلا للاعتبار والتفكير؟ ولِمَ أعطاه المعرفة، إلا ليؤْثر الحقَّ على هواه؟ ولِمَ أعطاهُ الاستطاعة، إلا لإلزام الحجة؟. فهل فكَّرتَ قطُّ في فصل ما بينك وبين الخلق المسخَّر لك، وبين الخلق الذي جُعِل لك والخلق المسلط عليك؟ وهل فكَّرت قط في فصل ما بين ما جعله عليك عادياً؟ وبين ما جعله لك غاذياً؟ وهل فكرتَ قطُّ في فصل ما بين الخلق الذي جُعل لك عذاباً، والخلق الذي جعُل لك قاتِلاً، وبين ما آنسه بك وبين ما أوْحَشَهُ منك، وبين ما صغَّره في عينك وعظَّمه في نفسك، وبين ما عظَّمه في عينك وصغَّره في نفسك؟.

بل هل فكرت في النحلة والعنكبوت والنملة، أنت ترى اللّه تقدَّس وعزّ كيف نوّه بذكره ورفع من قدرها، وأضاف إليها السُّوَر العظامَ، والآياتِ الجسامَ، وكيفَ جعل الإخبارَ عنها قرآناً وفرقاناً، حيث يقول: "وَأَوْحَى ربُّكَ إلى النَّحْلِ"، فقفْ عَلَى صغر النحلة وضعْفَ أيْدِها، ثم ارْم بعقلك إلى قول اللّه: "ثمَّ كلي مّنْ كلِّ الثَّمَرَاتِ فاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً" فإنك تجدُها أكبر من الطَّود، وأوسعَ من الفضاءِ، ثم انظر إلى قوله: "حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وادِي النَّمْلِ"، فما ترى في مقدار النملة في عقل الغبيِّ، وغير الذّكيّ؟ فانظر كيف أضاف الوادي إليها، وخبر عن حذرها ونصحها لأصحابها، وخوفها ممن قد مُكّنَ، فإنك تجدُها عظيمةَ القدر، رفيعةَ الذكر، قد عظمها في عقلك، بعد أن صغرها في عينك.

عَجزُ الإنسان وصِغَرُ قدْرِهِ

وخبِّرني عن اللّه تعالى، أمَا كان قادراً أن يعذِّب الكنعانيينَ، والجبابرة، والفراعنة، وأبناءَ العمالقة: من نَسْلِ عاد وثمود، وأهل العتوِّ والعُنُود بالشياطين ثم بالمردة، ثم بالعفاريت، ثم بالملائكة الذين وكّلهم اللّه تعالى بسَوْق السحاب، وبالمدِّ والجزْر، وبقبضِ أرواح الخلق، وبقلب الأرَضين، وبالماء والريح، وبالكواكب والنيران،

وبالأسْد والنمور والبُبُور وبالفيَلة والإبل وبالجواميس، وبالأفاعُي والثعابين وبالعقارب والجرارات، وبالعقبان والنسور، وبالتماسيح، وباللُّخم والدُّلفِين.
فلمَ عذَّبهم بالجراد والقُمَّل والضفادع؟ وهل يتلقَّى عقلك قبل التفكير إلا أنه أراد أن يعرِّفهم عجْزهم، ويذكَّرهم صِغَر أقدارهم، ويدُلَّهم على ذلك بأذلِّ خلقه، ويعرفهم أن له في كل شيء جُنْداً، وأن القويَّ من قوَّاهُ وأعانه، والضعيف من ضَعَّفه، والمنصورَ من نصرَه، والمخذول من خَلاّه وخذله، وأنه متى شاء أن يقتل بالعسل الماذي والماء الزُّلال كما يقتلُ بالسمّ الساري، والسيف الماضي قتل؟.
ولِمَ كان النبيُّ صلى اللّه عليه وسلم إذا رأى على جسده البَثْرة ابتهلَ في الدعاء وقال:إن اللّه تعالى إذا أراد أن يعظمَ صغيراً عظمه؟.
ولم قال لنا: "فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وَالجَرَادَ والقُمَّلَ والضَّفادِعِ وَالدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاَتٍ". فافهمْ عنه تعالى ذكره، وتقدست أسماؤه قوله: "آيات" ثم قال: "مُفصَّلات"، فهل وقفت قطُّ عَلَى هذه الآياتِ؟ وهل توهّمْت تأويلَ قوله: هذا آية وغيرْ آية؟ وهل وقفت علَى فصل ما بين الآية وغير الآية، وإذا كانت مفصَّلات كان ماذا، وإذا لم تكن مفصلات كان ماذا.
فافهم قوله: "فَأَرْسلنَا عَلَيْهم"، وما في الأرض أنقصُ معرفة وعلماً، ولا أضعفُ قوة وبطشاً، ولا أوْهَنُ رُكناً وعَظماً من ضِفدِع، فقد قال - كما ترى: "فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ والْجَرَاد والقمَّلِ والضَّفَادِعَ والدَّمَ"، فقد جعله - كما ترى - أفضل آياته والعذابَ الذي أرسله عَلَى أعدائه.
وقد قال جل وعز: "فإذَا جاءَ أَمْرُنَا وفارَ التَّنُّورُ" فأظهر الماء جلّ ثناؤه من أبعد مواضع الماء من ظنونهم، وخَبَّرَنا بذلك كي لا نخلِيَ أنفسنا من الحذر والإشفاق، ولنكون علماء بالعِلمِ الذي أعطانا، ولنكون راجين خائفين، ليصحّ الاختيار، ويحسُنَ الاختبار: "فَتَبَارَكَ اللّه أحسَنُ الخَالِقينَ"، ما أحسنَ ما قدَّر، وأتقنَ ما برأ.
وكان السبب الذي سلطه اللّه تعالى عَلى العَرِم، وهو مُسَنَّاةُ جَنّتَيْ بلادِ سبإ، جُرَذاً، فهو الذي خَرقه، وبدَّل نعمتَهم بؤساً، ومُلكهُمْ يَبَاباً وعِزَّهمْ ذلاً، إلى أن عادوا فقراء، فقال اللّه: "وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْن ذَوَاتَيْ أُكلٍ خَمطٍ وأَثْلٍ وشَيءٍ مِنْ سِدْر قليل"، هذا بعد أن قال: "لَقَدْ كانَ لِسَبأ في مسَاكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتان عَنْ يَمِينٍ وَشِمَال كُلُوا من رزْق رَبِّكُمْ وَاشْكرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ، فَأَعْرَضوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِم".
شعر في سد مأرب وقال الأعشى:

ففي ذاكَ للمُؤْتَسِي أُسْوَةٌ ومأربُ قفَّى عليه العَرِمْ
رُخامٌ بنَتْه لهم حمـيرٌ إذا جاء ماؤُهُمُ لـم يَرِمْ

وأنشد أبو عمرو بنُ العلاء:

من سَبَأ الحاضرينَ مَأْربَ إذ يبْنُونَ منْ دون سَيلِهِ العَرِمَا

معارف في الجراد

ثم انظر إلى الجراد وهذا باب القول فيه.
قال: فأولُ ما يبدو الجرادُ إذا باض سَرْءٌ، وسَروُه: بيضُه.
يقال: سَرأتْ تَسرأ سَرْءاً.
فانظر الآن، فكم ترى فيه من أعجوبةٍ، ومن آيةٍ بليغة، فأوَّل ذلك التماسُها لبيضها الموضعَ الصَّلد، والصخور الصمَّ المُلْسَ، ثقةً بأنها إذا ضربَتْ بأذنابها فيها انفرجت لها.

ذنب الجرادة وإبرة العقرب

ومعلومٌ أن ذَنَب الجرادة ليس في خلقة المسمار، ولا طرف، ذنبها كحدِّ السِّنان، ولا لها من قوة الأسْر، ولذنبها من الصّلابة ما إذا اعتمدَتْ به على الكُدْية والكَدّانة جرح فيهما فكيف وهي تتعدى إلى ما هو أصلبُ من ذلك، وليس في طرف ذنبها كابرة العقرب؟.
وعَلَى أن العقرب ليس تخرق القمقم من جهة الأيْد وقوة البدن، بل إنما ينفرجُ بطبعٍ مجعول هناك، وكذلك انفراجُ الصخورِ لأذناب الجراد.
ولو أن عُقاباً أرادتْ أن تخرق في جلد الجاموس لما انخرق لها إلا بالتكلُّفِ الشديدِ، والعُقابُ هي التي تَنْكدرُ على الذئب الأطلس فتقدّ بدابرتها ما بين صَلاهُ إلى موضع الكاهل.
فإذا غرزَت الجرادة وألقت بيضها، وانضمَّت عليها تلك الأخاديد التي أحدثتْها، وصارت كالأفاحيص لها، وصارت حافظةً لها ومربِّية، وصائنة وواقية، حتى إذا جاء وقتُ دبيبِ الرُّوح فيها أحدث اللّهُ في أمرها عجباً آخر، فسبحان من استخزنها حكمتَه، وحشاها بالأدلة عليه،وأنطقها بأنها مدبرة، ومُذَلَّلةً ميسرة، ليفكر مفكر، ويعتبر معتبر ذَلِكمُ اللّهُ رَبُّ العَالمِينَ، وتبارك اللّه ربُّ العالمين.

مراتب الجراد

وقال الأصمعي: يقال: قد سرأت الجرادة تسرأ سَرْءًا، فإذا خرج من بيضه فهو دَباً والواحدة دَباة، ويخرج أصهَبَ إلى البياض، فإذا اصفرَّ وتلوَّنت فيه خطوطٌ واسودَّ فهو بُرقان، يقال رأيت دباً بُرقاناً، والواحدة بُرقانة، فإذا بدت فيه خطوطٌ سُودٌ وبيضٌ وصُفر فهو المسَيَّح، فإذا بدا حجْمُ جناحِه فذلك الكُتْفان، لأنه حينئذٍ يكتف المشي واحدة كتفانة، قال ابن كناسة:

يكتِفُ المشْيَ كالذي يتخطَّى طنُباً أو يشكُّ كالمتمـادِي

يصف فرساً، فإذا ظهرت أجنحتُه وصار أحمرَ إلى الغبْرة فهو الغَوْغاء والواحدة غوغاءه، وذلك حين يستقلُّ ويموجُ بعضه في بعضِه ولا يتوجَّهُ جهةً، ولذلك قيل لرعاع الناس غوغاء، فإذا بدتْ في لونه الحمرة والصفرة، وبقي بعضُ الحمرة،

واختلف في ألوانه، فهو الخيفان، والواحدة خَيفانة، ومن ثمَّة قيل للفَرَس خَيفانة.
فإذا اصفرّت الذكورةُ واسودّت الإناثُ ذهبت عنه أسماء غير الجراد، فإذا باض قيل غَرَزَ الجرادُ، وقد رزَّ.
فإذا كثر الجرادُ في السماء وكثُف فذلك السُّدُّ، ويقال:رأيتُ سُدًّا مِنْ جَرادٍ، ورأيتُ رِجْلاً من جَرادٍ، للكثير منه، وقال العجاج:

سَيْرَ الجراد السُّدِّ يرتاد الخَضِرْ

مثل في الجراد

و مما تقول العرب: أصْرَد منْ جرادة، وإنما يُصْطاد الجراد بالسّحَر، إذا وقع عليه الندى طلبَ مكاناً أرفع من موضعه.
فإن كان مع النَّدى بَرَدٌ لبَدَ في موضعه، ولذلك قال الشاعر:

وكتيبةٍ لبَّسْتُـها بـكـتـيبةٍ ... كالثائر الحيران أشرفَ للنَّدَى

الثائر: الجراد، أشرف: أتى على شَرَف، للندى: أي من أجْل الندى.
استطراد لغوي ويقال: سخّتِ الجرادة تسخُّ سَخّاً، ورزَّت وأرزّت، وجرادةٌ رزّاءُ ورازّ ومُرزّ: إذا غمزَت ذنبها في الأرض، وإذا ألْقت بيضها قيل: سَرأت تَسْرأ سَرْءًا.
ويقال: قد بَشرَ الجرادُ الأرضَ فهو يبشرها بشراً: إذا حَلقها فأكل ما عليها، ويقال: جَرِدَ الجرادُ: إذا وقع على شيء فجردَه، وأنشدني ابن الأعرابي:

كما جَرَد الجارودُ بكرَ بْنَ وائل

ولهذا البيت سُمِّي الجارود.
وأنشدني آخر:

يقول أميرٌ: ها جَرادٌ وضبَّةٌ ... فقد جَردَت بيتي وبيتَ عِياليا

وهذا من الاشتقاق.
ومنه قيلُ ثوب جَرْدٌ، بإسكان الراء، إذا كان قد انجرد وأخْلَق، قالت سُعدَى بنت الشَّمَرْدان:

سَبَّاءُ عادية وهادي سُرْبةٍ ... ومُقاتلٌ بطلٌ وليثٌ مِسْلعُ

أجَعلتَ أسعدَ للرِّماح دريئة ... هبلتْك أُمُّكَ أيَّ جَرْدٍ ترقعُ

تطيرُّ النابغة ويدخلُ في هذا الباب ما حدّثنا به الأصمعيّ، قال: تجهز النابغةُ الذبيانيُّ مع زَبَّان بن سَيَّارٍ الفزاريّ، للغزو، فلما أراد الرحيلَ نظرَ إلى جرادة قد سقطتْ عليه، فقال:جرادَةٌ تجرُد، وذات لونين، غيري منْ خرج في هذا الوجه: ولم يلتفتْ زَبّانُ إلى طِيرته وزجْره، ونفذ لوجهه، فلما رجع إلى موضعه الذي كان النابغةُ فارقه فيه، وذكر ما نال من السلامة والغنيمة، أنشأ يذكر شأن النابغة فقال:

تخبّر طيرَهُ فيها زيادٌ   لتُخبره وما فيها خَبيرُ

أقامَ كأنَّ لُقمانَ بنَ عادٍ   أشارَ له بحكمته مَشيرُ

تعَلَّمْ أنهُ لا طيْرَ إلا   على متَطيِّر وهو الثّبورُ

بلى شيءٌ يوافقُ بعضَ شيءٍ   أحايِيناً وباطلهُ كثيرُ

واسم النابغة زياد بن عمرو، وكنيته أبو ثُمامة، وأنشدني أبو عبيدة:

وقائلةٍ :مَنْ أمّها واهتَدَى لها؟   زيادُ بنُ عمرو أمَّها واهتدى لها

استطراد لغوي قال: ويقال أبشرت الأرض إبشاراً: إذا بُذِرَتْ فخرج منها بذرها، فعند ذلك يقال: ما أحسَنَ بَشرةَ الأرض.
وقال الكميت ـ وكنية الجراد عندهم: أمُّ عوف، وجناحاها: بُرْدَاها ـ ولذا قال:

تُنَفّضُ بُردَيْ أمِّ عوفٍ ولم تَطِرْ   لنا بارقٌ بخْ للوَعيدِ وللرّهْبِ

وأنشدنا أبو زيد:

كأن رجْليهِ رجْلا مُقْطفٍ عَجِلٍ   إذا تجاوَبَ مِنْ بُرْدَيْهِ ترنيمُ

يقول: كأنَّ رجلَي الجندب، حين يضربُ بهما الأرض من شدة الحرِّ والرَّمضاء، رجلا رجل مُقْطِف، والمقطف: الذي تحته دابَّةٌ قطوف، فهو يهمزُها برجليه.

شعر في الجندب والجراد

وقال أبو زبيدٍ الطائي، يصفَ الحرَّ وشدته، وعملَ الجندب بكُراعيه:

أيُّ ساعٍ سَعَى ليقْطع شَرْبي   حينَ لاحَتْ للصابح الجوزاءُ

واستَكَنّ العُصْفُورُ كَرْهاً مع الضَّـ   ـبُّ أوفى في عودِهِ الحِرباءُ

ونفى الجندَبُ الحصَى بكُـراعَ　　يهِ وأذْكَتْ نيرانَها المعزاءُ

وأنشد أبو زيد، لعوف بن ذِرْوَة، في صفة الجراد:

قد خفت أن يحدَرَنا للمِصْرَينْ　　ويترك الدِّينَ علينا والدَّينْ

زَحْفٌ من الخَيْفان بعد الزّحْفَيْنْ　　مِنْ كلِّ سَفْعاء القفا والخدَّينْ

مَلعونةٍ تسلَخُ لوناً عن لونْ　　كأنها مُلتقَّةٌ في بُرْدينْ

تُنْحِي على الشِّمراخ مثل الفأسَيْنْ　　أو مثل مِئشار غليظِ الحَرْفَينْ

أنصبَه مُنصِبُه في قِحْفَين

وعلى معنى قوله:

تُنحي عَلَى الشمراخ مثلَ الفأسينْ　　أو مثلَ مِئشار عليظِ الحرفينْ

قال حمادٌ لأبي عطاء:

فما صفراءُ تُكنَى أمَّ عوفٍ　　كأن رُجَيْلَتَيْها مِنْجَلانِ

تشبيه الفرس بالجرادة

ويُوصَفُ الفرسُ فيشبه بالجرادة، ولذا قال الشاعر:

فإذا أتيتَ أباكَ فاشترِ مثلها　　إنَّ الرِّداف عن الأحبَّة يَشْغَلُ

فإذا رفعْتَ عِنانَها فجرادةٌ　　وإذا وضعْتَ عنانَها لا تفشل

ولم يرض بشرُ بن أبي خازم بأن يشَبهه بالجرادة حتى جعله ذكراً، حيث يقول:

بكلِّ قِيادِ مُسْنِفَةٍ عَنُودٍ　　أضَرَّ بها المسالِح والعِوارُ

مُهارِشَةِ العِنَان كأنّ فيها　　جَرَادَةٌ هَبْوةٍ فيها اصفرارُ

فوصفها بالصُّفرة، لأنَّ الصفرة هي الذكورة، وهي أخفُّ أبداناً، وتكونُ لخفة الأبدان أشدُّ طيراناً.

تشبيه مسامير الدرع بحدق الجرادة

ويوصف قتيرُ الدِّرع ومساميرُها فيشَبَّه بحدَق الجراد، وقال قيس بن الخطيم:

ولما رأيتُ الحرب حرباً تجرَّدَتْ لبست مع البردَيْنِ ثوبَ المحاربِ

مضاعفة يغشَى الأناملَ فضلُها كأنَّ قتيرِيْهَا عيونُ الجنادبِ

وقال المقنَّع الكِنْديّ:

ولي نَثرةٌ ما أبْصَرَتْ عينُ ناظرٍ كصُنْعٍ لها صُنعاً ولا سَرْدِها سَرْدَا

تلاحَمَ منها سَردُها فكأنما عيونُ الدَّبا في الأرض تجردُها جَرْدا

وقال عمرو بن معد يكربَ:

تمناني ليقاني أبيٌّ وددتُ وأين ما منِّي ودادِي

تمناني وسابغتي دلاصٌ خَوس الحسِّ محكمةُالسرادِ

مضاعفة تخيرَّها سُليمٌ كأنَّ سِكاكَها حَدَقُ الجرادِ

تشبيه وسط الفرس بوسط الجرادة

ويوصفُ وسط الفرَس بوَسط الجرادة، قال رجلٌ من عبد القيس يصف فرَساً:

أمَّا إذا ما استُدْبِرَتْ فَنَعامة تَنْفِي سَنابِكُها رَضيضَ الجَنْدَلِ

تشبيه الحباب بحدق الجراد

ويوصفُ حَباب الشراب بحدق الجراد، قال المتلمِّس:

كأني شاربٌ يومَ استَبدُّوا وحثّ بهم وراءَ البيدِ حادِي

عُقاراً عُتِّقتْ في الدّنِّ حتى كأنَّ حبابَها حَدَقُ الجراد

لعاب الجندب

وإذا صفا الشَّرابُ وراقَ شبَّهوه بلُعاب الجندب، ولذا قال الشاعر:

صفراء من حَلَبِ الكرومِ كأنّها ماءُ المفاصِلِ أو لُعابُ الجُنْدُبِ

ولُعاب الجندب سمٌّ عَلَى الأشجار، لا يقع على شيء إلا أحرقه.
زعم في الدَّبا ولا يزالُ بعضُ من يدَّعي العِلمَ يزعمُ أن الدَّبا يُريد الخُضرة، ودونها النهر الجاري، فيصيرُ بعضه جسراً لبعض، وحتى يعبُر إلى الخضرة، وأن تلك حيلة منها.
وليس ذلك كما قال: ولكنّ الزَّحفَ الأول من الدبا يريد الخضرة، فلا يستطيعها إلا بالعبور إليها، فإذا صارت تلك القطعة فوق الماء طافيةً صارت تلك لعمري أرضاً للزحف الثاني الذي يريد الخضرة، فإن سمَّوا ذلك جسراً استقام، فأما أن يكون الزحفُ الأولُ مهَّد للثاني وَمكّن له، وآثَرَه بالكفاية فهذا ما لا يُعرُف.
ولو أن الزحْفين جميعاً أشرفا على النهر، وأمسَكَ أحدُهما عن تكلُّف العبور إلى أن يمهِّد له الآخر - كان ذلك قولاً.
استطراد لغوي ويقال في الجراد: خِرقة من جراد، والجميع خِرَق، وقال الشاعر:

وكأنها خِرَقُ الجرَادِ يثورُ يومَ غُبـار

ويقال للقطعة الكثيرة منها رجْل جراد، ورجلةٌ من جراد، والثَّوْل: القطعة من النحل.
وتوصف كثرة النّبْلِ، ومرورها، وسرعة ذلك بالجراد، وقال أبو النجم:

كأنما المَعْزاءُ من نِضالهـا رجلُ جرادٍ طار عن حِدَالها

وإذا جاء منه ما يسدُّ الأفق قالوا: رأينا سُدّاً من جراد، وقال المفضل النُّكريّ:

كأنَّ النَّبلَ بينهمُ جرادٌ تُهيِّجه شآمِيَةٌ خَريقُ

والمرتجل: الذي قد أصابَ رجْل جرادٍ، فهو يشويه.
وقال بعضُ الرُّجّاز، وهو يصف خيلاً قد أقبلت إلى الحيّ:

حتى رأينا كدُخانِ المرتـجِلْ أو شَبَهَ الحَقَّانِ في سفح الجَبَلْ

ولأن الحفانَ أتمُّها أبداناً، قال ابنُ الزِّبَعرَى:

ليتَ أشياخي ببدرٍ شـهـدوا جَزَعَ الخزرجِ من وقع الأسلْ

حينَ ألقتْ بقُبـاء بَـرْكَـهـا واستَحَرَّ القتلُ في عبدِ الأشَلْ

ساعةً ثمَّ استخفوا رَقصاً رَقصَ الحفان في سَفْح الجَبَلْ

وقبلنا الضَّعف منْ ساداتِهمْ وعدلنا مَيلَ بدرٍ فاعتَدَلَ

طيب الجراد الأعرابي

والجرادُ الأعرابيُّ لا يتقدمه في الطِّيب شيء، وما أحصِي كم سمِعتُ من الأعرابُ مَنْ يقول: ما شبعتُ منه قطُّ وما أدعُهُ إلا خوفاً من عاقبته؛ أو لأني أعيا فأتركه.
أكل الجراد والجرادُ يطيب حارّاً وبارداً، ومشويّاً ومطبوخاً، ومنظوماً في خيط، ومجعولاً في الملَّة.
والبيض الذي يتقدَّمُ في الطيب ثلاثةُ أجناس: بيض الأسْبور وبيض الدَّجاج، وبيضُ الجراد فوقَ بيض الأسبور في الطيب، وبيضُ الأسبور فوق بيض الدَّجاج.
وجاء في الأثر، أن الجراد ذكرَ عندَ عمر فقال: ليت لنا منه قفْعَةً أو قفعتين.
وهو يؤكل يابساً وغير يابس، ويجعل أدْماً ونَقْلاً.
والجرادُ المأكولُ ضروبٌ، فمنه الأهوازيّ، ومنه المذنّب، وأطيبُه الأعرابيّ، وأهل خُراسان لا يأكلونه.
قصة في الولوع بأكل الجراد وحدَّثني رَتْبيل بن عمرو بن رَتْبيل قال: واللّه إني لجالس على باب داري في بني صبير، إذ أقبلت امرأةٌ لم أر قط أتم حسناً ومِلحاً وجسماً منها، ورأيت في مشيها تأوُّداً، ورأيتها تَتَلَقَّتُ، فلم ألبَثْ أن طلعتْ أخرى لا أدري أيتهما أقدَم، إذ قالت التي رأيتها بديًّا للأخرى: ما لك لا تلحقيني؟ قالت: أنا منذ أيام كثيرة أكثرُ أكلَ هذا الجراد، فقد أضعفني فقالت: وإنك لتحبِّينَه حُبًّا تحتملين له مثلَ ما أرى بكِ من الضَّعف؟ قالت: واللّه إنه لأحبُّ إليَّ من الحبل.

طرفة في الجراد

وقال الأصمعي: قال رجلٌ من أهل المدينة لامرأته: لاجزَاكِ اللّه خيراً، فإنك غيرُ مُرْعِيَةٍ ولا مبقية قالت: لأنا واللّه أرْعَى وأبقى من التي كانت قبلي قال: فأنت طالقٌ إن لم أكنْ كنتُ آتيها بجرادةٍ فتطبخ منها أربعة ألوان، وتَشْوي جنبَيها فرفعَتهُ إلى القاضي فجعل القاضي يفكر ويطلبُ له المخرج، فقال للقاضي: أصلحك اللّه أأشكلتْ عليك المسألة؟ هي طالقٌ عشرين.

تشبيه الجيش بالدبا

ووصف الراجزُ حرباً، فوصفَ دنوَّ الرّجَّالة من الرّجّالة، فقال:

أو كالدَّبا دبّ ضُحًى إلى الدَّبَا

قول أبي إسحاق في آية الضفادع

وقرأ بعضُ أصحابنا بحضرة أبي إسحاق: "وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فما نَحْنُ لكَ بمُؤْمِنِينَ، فأرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ الطُّوفانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاَتٍ" فقال رجلٌ لأبي إسحاق: انظر كيف قَرَنَ الضفادعَ مع ضعفها إلى الطوفان، مع قوة الطوفان وغلبته، قال أبو إسحاق: الضفادعُ أعجبُ في هذا الموضع من الطوفان، وإذا أراد اللّه تعالى أن يصيِّر الضفادعَ أضرَّ من الطوفان فعل.

شعر في تشبيه بالجراد

وقال أبو الهِنْدِي:

لمَّا سِمعتُ الدِّيك صاحَ بسُحْرة | وتوسّط النَّسْرانِ بَطْنَ العقربِ
وتتابعَتْ عُصَب النُّجوم كـأنـها | عُقْرُ الظِّباء على فروع المرْقبِ
وبَدا سُهَيلٌ في السـمـاء كـأنـه | ثوْرٌ وعارضَه هِجَانُ الـرّبْـرَب
نَبَّهْتُ نَدْمَانِي فقلتُ له: اصطبـحْ | يا ابن الكرامِ من الشَّراب الأصهْبِ
صفراءُ تنْزُو في الإناء كـأنـها | عَيْنُ الجرادةِ أو لعابُ الجُنْـدُبِ
نَزْوَ الدَّبا مِنْ حَرِّ كلِّ ظـهـيرة | وقَّـادَةٍ حِـرْبـاؤُهـا يتـقـلَّـبُ

وقال أبو الهنديّ أيضاً:

فإنَّ هذا الوطْبَ لـي ضـائرٌ | في ظاهر الأمر وفي الغامض
إنْ كُنْتَ تَسْقِيني فَمِنْ قَـهْوَةٍ | صفراءَ مثل المُهْرَةِ الناهض
تنْزُو الفقاقيعُ إذا شُعْشِـعَتْ | نَزْوَ جَرَادِ البلـدِ الـرَّامِـض

وقال الأقوهُ:

بمناقِبٍ بيضٍ كأنَّ وجُوهَهُمْ | زَهرٌ قُبيلَ ترَجُّل الشَّمس
دَبُّوا كمنتشر الجرادِ هَوَتْ | بالبطن في دِرعٍ وفي تُرْس
وكـأنـهـا آجـالُ عـادية | حطَّتْ إلى إجْلٍ من الخُنْس

أقوال فيما يضر من الأشياء وروى الأصمعي، وأبو الحسن، عن بعض المشايخ، قال: ثلاثة أشياءَ ربما صرعتْ أهلَ البيت عن آخرهم: أكلُ الجراد، ولحوم الإبل، والفُطْر من الكمْأة.
وقال غيرُهما: شربُ الماء في الليل يورث الخبل، والنظر إلى المختصر يُورث ضعف القلب، والاطلاع في الآبار العاديَّة ينقُض التركيب، ويُسوِّل مصارِعَ السَّوء، فأما الفُطْر الذي يُخْلق في ظلِّ شجر الزيتون فإنما هو حتفٌ قاض، وسمٌّ ناقع، وكل شيء يخلق تحت ظلال الشجر يكون رديئاً، وأردؤه شجر الزيتون، وربما قتل، وإن كان مما اجتنبوه من أوساط الصحارى، قالوا: ومما يقتُلُ: الحمَّامُ على الْمِلأة، والجماع على البطْنة، والإكثارُ من القديدِ اليابس.
وقال الآخر: شربُ الماء البارد على الظمإ الشديد إذا عجّل الكرْعَ، وعظّم الجرع، ولم يقطع النفس يقتُل.
قالوا: وثلاثٌ تورثُ الهُزال: شرب الماء عَلَى الرّيق، والنوم على غير وطاء، وكثرة الكلام برفع الصوت.
والجماعُ على الامتلاء من الطعام ودخوله، وربما خِيف عليه أن يكون قاتل نفسه.
وقالوا: وأربعةُ أشياء تسرعُ إلى العقل بالإفساد: الإكثار مِنَ البَصل، والباقلَّى والجماع، والخُمَار.
وأما ما يذكرون في الباب من الهمِّ والوحدة والفِكرة، فجميع الناس يعرفون ذلك، وأما الذي لا يعرفه إلا الخاصة فالكفاية التامة، والتعظيم الدائم، وإهمال الفكر، والأنَفُ من التعلمُّ، هذا قول أبي إسحاق.
وقال أبو إسحاق: ثلاثة أشياء تخلِق العقلَ، وتُفسِد الذهِن: طول النظر في المرآة، والاستغراق في الضحك، ودوام النظر إلى البحر.
وقال مُعمّر: قُطعت في ثلاثة مجالس، ولم أجِدْ لذلك علةً؛ إلا أني أكثرتُ في أحد تلك الأيام من أكل الباذنجان، وفي اليوم الآخر من أكْل الزيتون، وفي اليوم الثالث مِنْ الباقلَّي.
وزعم أنه كلم رجلاً من الملْحدين في بعض العَشايا، وأنه علاه عُلُوًّا ظاهراً قاهراً، وأنه بَكَرَ على بقيةِ ما في مسألته من التخريج، فأجْبَلَ وأصْفَى، فقال له خصمه: ما أحدثتَ بعدي؟ قال: قلتُ: ما أتَّهمُ إلا إكثاري البارحةَ من الباذنجان فقال لي - وماخالف إلى التُّهمة: ما أشكُّ أنك لم تُؤْتَ إلا منه.
وقال لي مَن أثقُ به: ما أخذت قط شيئاً من البلاذُر فنازعت أحداً إلا ظهرتُ عليه.
وقال أبو ناضرة: ما أعرف وجهَ انتفاع الناس بالبلاذُر إلا أن يؤخذ للعصب، قلت: فأي شيءٍ بقي بعد صلاح العصب، وأنتم بأجمعكم تزعمون أن الحسّ للعصب خاصة؟.

في القطا

تقول العرب: أصْدَق من قطاة وأهْدَى من قطاة.
وفي القطا أُعجوبةٌ، وذلك أنها لا تضعُ بيضها أبداً إلا أفراداً، ولا يكونُ بيضها أزواجاً أبداً، وقال أبو وَجزَة:

وَهُنَّ يَنْسُبْنَ وَهْناً كُلَّ صـادقةٍ   باتَتْ تُبَاشِرُ عُرْماً غير أزواج

والعُرم التي عَنَى: بيض القطا، لأنها منقَّطة، وقال الأخطل:

شَفَى النَّفْسَ قتْلِى مِنْ سُليمٍ وعامرٍ ولم يَشْفِها قتلَى غَنِيٍّ ولا جَسْرِ

ولا جُشَمٍ شرِّ الـقـبـائل إنـهـم   كبَيْضِ القطا ليسوا بسودٍ ولا حُمْرِ

وقال مَعْقل بن خويلد:

أبا مَعْقِل لا توطِئَنْكم بَـغَـاضـتـي رؤوسَ الأفاعي في مَرَاصِدِها العُرْمِ

يريد: الأفاعي العُرْمِ في مراصدها، وهي منقَّطة الظهور، وما أكثرَ ما تبيض العُقاب ثلاث بيضات، إلا أنها لا تلحم ثلاثةً، بل تخرج منهنَّ واحدة، وربما باضت الحمامةُ ثلاثَ بيضات، إلا أن واحدة تفسد لا محالة، وقال الآخر في صفة البيض:

وبيضاء لا تَنْحَاشُ مِنَّا وأُمُّها   إذا ما رأتْنا زالَ منها زَوِيلُها

نتوجٍ ولم تُقرفْ لِمَا يُمتنى له   إذا أنْتَجَتْ ماتَتْ وحيَّ سَليلُها

يعني البيضة، نَتوج، حامل: ولم تُقْرف :لم تُدَانِ، لما يُمتنَى: أي للضِّراب، والامتناء: انتظارك الناقة إذا ضُربت ألاقحٌ هي أمْ لا.
وقال ابنُ أحمر:

بتيْهاءَ قفْرٍ والمطيُّ كـأنـهـا   قطا الحزْن قد كانت فِراخاً بُيوضُها

وذلك أنها قد كانت قبل ذلك الوقت تشرَب من الغُدُر، فلما أفرخت صافت، فاحتاجت إلى طلب الماء من مكان بعيد، فذلك أسرعُ لها.

تشبيه مشي المرأة بمشي القطاة

ويشبَّه مشيُ المرأةِ إذا كانت سمينة غير خرّاجة طوّافة بمشي القطاة في القرمطة والدَّلِّ، وقال ابنُ ميّادة:

إذا الطّوال سَدَوْنَ المشيَ في خطلٍ قامت تريك قوَاماً غير ذي أوَدِ

تمشي ككدْريَّة في الجَوِّ فـاردة   تَهْدِي سُروب قطاً يشربْنَ بالثَّمـدِ

وقال جِران العَود:

فلمَّا رَأيْنَ الصُّبْحَ بادَرْنَ ضَوْءَهُرَسِيَم قطا البَطْحَاءِ أو هُنَّ أقطفُ

وقال الكميت:

يمشينَ مشيَ قطا البطاح تأوُّداً   قُبّ البُطُون رَواجحَ الأكفالِ

شعر في التشبيه بالقطاة

وقال الآخرُ في غير هذا المعنى:

كَأنَّ القلْبَ لَيْلَة قِيلَ يُغدَى   بِلَيْلَى العامِريَّةِ أو يُراحُ

قطاةٌ غرَّها شَرَكٌ فباتَتْ   تُجاذِبُه وَقدْ عَلِقَ الجَناحُ

وقال آخر:

وَكُنَّا كَزَوْجٍ مِنْ قطاً بمفازةٍ لَدَى خَفْض عَيْشٍ ُونِق مُورِق رَغْدِ

فَخَانَهُمَا ريبُ الزّمَن فأفردا ولَمْ تَرَ عَيْني قطٌّ أقبَح مِنْ فردِ

شعر في صدق القطاة

وفي صدق القطاة يقولُ الشاعر:

وصادقة ما خبَّرت قد بعثتُها طُروقاً وباقي الليل في الأرض مُسْدِفِ

ولو تركتْ نامتْ ولكن أعشَّها أذى من قِلاص كالحَنيِّ المُعَطّفِ

وتقول العرب: لو تُرِك القطا لنام، ويقال: أعْشَشْتُ القوم إعشاشاً: إذا نزلْتَ بهم وهم كارهون لك فتحوّلوا عن منزلهم.
وقال الكميت:

لا تكذبُ القوْلَ إن قالت قطا صدَقتْ إذ كلُّ ذي نِسْبَة لا بد ينتحلُ

وقال مُزاحمٌ العُقيليّ في تجاوب القطاةِ وفرْخِها:

فنادتْ ونادَاها وما اعْوَجَّ صَدْرُها   بمِثْل الذي قالتْ له لم يُبدَّلِ

والقطاة لم تُرد اسم َنفسها، ولكن الناس سموها بالحروف التي تخرج من فيها، وزادَ في ذلك أنها على أبنيةِ كلام العرب، فجعلوها صادقة ومُخبرة، ومُريدة وقاصدة.
استطراد لغوي ويقال سِرْبُ نساءٍ، وسِربُ قطاً، وسِرْبُ ظباء، كل ذلك بكسر السين وإسكان الراء، فإذا كان من الطريق والمذهب قالوا: خَلِّ سَرْبَهُ، و: فلانٌ خَلِيُّ السَّرْب؛ بفتح السين وإسكان الراء، وهذا عن يونس بن حبيب، وقال الشاعر:

أما القطاةُ فإنّي سَوْفَ أَنْعتُـهـا نعتاً يوافقُ نَعْتي بعضَ ما فيها

سَكّاءُ مخطوفة في ريشها طَرَقٌ سُودٌ قوادمها صُهْبٌ خوافِيهـا

ويقال في ريشها فتَخ، وهو اللِّين، ويقال في جناحه طرَق: إذا غطى الرِّيشُ الأعلى الأسفلَ، وقال ذو الرُّمَّة:

طراقُ الخَوافي واقعٌ فوقَ ريعةٍ ندى ليْلِه في ريشِه يتـرقـرَقُ

ويقال: اطَّرقت الأرض: إذا ركب الترابُ بعضُه بعضاً، ولزمَ بعضُه بعضاً، فصار كطِراق النِّعال طبَقاً، وقال العجاج:

فاطَّرَقتْ إلا ثلاثاً دُخَّسا

والطَّرْق، بإسكان الراء: الضرْب بالحصى، وهو من فِعال الحُزَاة والعائفين: وقال لبيدٌ، أو البَعيث:

لعمرك ما تدري الطوارقُ بالحصَى ولا زاجراتُ الطير ما اللّهُ صانعُ

قال: ويقال طرّقت القطاةُ ببيضِها: إذا حان خروجه وتعضلّت به شيئاً، قال أبو عبيد ولا يقال ذلك في غير القطاة، وغَرَّهُ قولُ العَبْدِيِّ:

وقد تخذتْ رجلي لدى جَنْبِ غرزها نسيفاً كأُفْحوصِ القَطاة المطرِّق

وهذا الشاعرُ لم يقلْ إن التطريق لا يكونُ إلا للقطاة، بل يكونُ لكل بَيَّاضةٍ، ولكلِّ ذاتَ ولد، وكيف يقول ذلك وهم يروُون عن قابلة البادية أنها قالت لجاريةٍ تسمى سَحَابة، وقد ضربها المخاضُ وهي تُطَلّق عَلَى يدها:

أيا سَحَابُ طرِّقِي بخَـيْر وطرِّقي بخُصْيَةٍ وأيْر

ولا تُرينا طرَفَ البُظَيْر

وقال أوسُ بنُ حجر:

بكلِّ مكان تـرى شـطـبـةً مولية، ربها مسـبـطـرْ

وأحمَرَ جعداً عليه النـسـو رُ وفي ضبنه ثعلبٌ منكسرْ

وفي صدره مثلُ جيب الفتا ةِ تشهق حيناً وحيناً تَّـهـرّ

فإنا وإخوتَّنا عـامـراً على مثلِ ما بيننا نـأتمرْ

لنا صرخة ثم إسكـاتـةٌ كما طرقتْ بنفاسٍ بِكِرْ

فهذا كما ترى يردُّ عليه.
ولادة البكر وإنما ذكر أوسُ بن حجرِ البكرَ دون غيرها، لأن الولاد على البكر أشدّ، وخروج الولد أعسر، والمخرج أكزّ وأضيق، ولولا أن البكر أكثر ما تلدُ أصغرُ جثةً وألطفُ جسماً، إلى أن تتسع الرحم بتمطّي الأولاد فيها لكانَ أعسر وأشقّ.

أجود قصيدة في القطا

وقال المرَّار، أو العِكَبُّ التغلبي، وهي أجود قصيدِة قيلت في القطا:

بلادٌ مروراةٌ يحارُ بها الـقـطـا ترى الفرخَ في حافاتها يتحـرقُ

يظلُّ بها فَرخَ القـطـاةِ كـأنـهُ يتيمٌ جفا عنهُ مواليـهِ مُـطـرقُ

بديمومة قد مات فـيهـا وعـيثُـه على موته تغْضى مِراراً وترمقُ

شبيهٌ بلا شيء هنالك شـخـصـهُ يواريه قيضٌ حولَه مـتـفـلـقُ

له محجرٌ نـاب وعـينٌ مـريضةٌ وشدقٌ بمثل الزعفرانِ مخـلـقُ

تُعاجيه كحلاءُ الـمـدامـع حـرةٌ لها ذنبٌ وحفٌ وجيدٌ مـطـوقُ

سِمـاكـيةٌ كـدرية عُـرْعُـريَّةٌ سُكاكيَّةٌ غبراء سمراءُ عسـلـقُ

إذا غادرتْه تبتغي مـا يُعيشُـه كفاها رَذَاياها النجاء الـهـبـنـقُ

غدت تستقي من منهل ليس دونـه مَسيرة شَهْر للقطا، مـتـعـلَّـقُ

لأزغبَ مطروحٍ، بجوز تـنُـوفة تلظَّى سَمُوماً قيظه،فـهـو أورقُ

تراه إذا أمسى وقد كـاد جـلـدُه من الحرِّ عن أوصاله يتـمـزقُ

غدت فاستقلّت ثم ولَّـت مُـغيرةً بها حِين يزْهاها الجناحانِ أولـقُ

تيممُ ضحضاحاً من الماء قد بـدتْ دعاميصه فالماء أطـحـلُ أورقُ

فلما أتتهُ مقذ حـراً تـغـوثـتْ تغوثَ مخنوقٍ فيطفـو ويغـرقُ

تحيرُ وثُلقِي في سـقـاء كـأنـه من الحنظلِ العاميِّ جروٌ مُفَلَّـقُ

فلما ارتوَتْ مِن مائه لم يكُنْ لـهـا أناةٌ وقد كادتْ من الري تبصـقُ

طمتْ طموة صُعداً ومدَّتْ جِرانَها وطارت كما طار السحابُ المحلقُ

شعر البعيث في القطا

وقال البعيث:

نجتْ بُطوالات كـأنَّ نـجـاءهـا هُوِي القطا تعروُ المناهلَ جُونَـهـا

طَوَين سقاء الخمسِ ثُمَّتْ قلـصـت لوردِ المياهِ واستتبتْ قـرونُـهـا

إذا ما وَرَدْنَ الماء في غلسِ الضُّحى بلَلْنَ أداوَي ليس خرزٌ يشـيـنُـهـا

أداوَي خفيفاتِ المحاملِ أشـنـقـتْ إلى ثُغْرِ اللبات منها حصينـهـا

جَعَلْنَ حَبابَ الماء حين حمـلـنـه إلى غُصصٍ قد ضاق عنها وتينـهـا

إذا شئْن أن يسمعنَ والليـلُ واضـعٌ هذا ليلهُ والريح تجري فُنُـونُـهـا

تناوَمَ سربٌ في أفاحيصه الـسـفـا وميتةُ الخرشاء حيٌّ جَـنـيـنـهـا

يروَّين زغباً بـالـفـلاةِ كـأنَّـهـا بقايا أفاني الصيفِ، حُمراً بطونـهـا

يروِّين من قولك: روّيت: أي حملت في رواية.

إذا مَلأتْ مِنْهَا قطاةٌ سِقاءَها فلا تُعكمُ الأخرى ولا تستعينُها

ذكر نوادر وأحاديث وأشعار وكلام يتمُّ بها هذا الجزء قالوا: خرف النَّمْرُ بن تولب، فكان هِجّيراه: اصبَحوا الركْب، اغْبِقُوا الركْب.
وخرفت امرأةٌ من العرب فكان هِجِّيراها: زوِّجوني، زوِّجوني فقال عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه: لَمَا لهج به أخو عُكل خيرٌ مما لهجتْ به صاحبتُكم.
وحدثني عبد اللّه بن إبراهيم بن قدامة الجمحي قال: كان عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه إذا رأى رجلاً يَضْرِبُ في كلامه قال: أشهدُ أن الذي خلَقَكَ وخلقَ عمرو بنَ العاص واحد.
وقال عليٌّ بن أبي طالب رضي اللّه عنه لصعصعة بن صُوحان في المنذر بن الجارود: ما وجدْنا عند صاحبك شيئاً قال: إن قلتَ ذاك إنه لنظّارٌ في عِطفيه، تَفَّالٌ في شِرَاكيه، تُعجبه حُمرةُ بردَيه. قال: وحدّثنا جريرُ بنُ حازم القطعيّ قال: قال الحسن: لو كان الرجُل كلما قال أصاب، وكلما عمل أحسنَ، لأوشك أن يُجَنَّ من العُجْب.
عن أبان بن عثمان قال: سمعتُ أبا بلال في جِنازةٍ وهو يقول: كلُّ مِيتةٍ ظنونٌ إلا ميتة الشَّجَّاء قالوا: وما ميتة الشّجَّاء؟ قال: أخذها زيادٌ فقطع يديها ورجليها، فقيل لها: كيف تَرَيْنَ يا شَجَّاء؟ فقالت: قد شغلني هَول المُطَّلَع عن بَرْد حَديدِكم هذا.
قال: وقيل لرابعة القيسيَّة: لو أذِنْتِ لنا كلَّمْنا قومَكِ فجَمعوا لك ثمن خادمٍ، وكان لك في ذلك مَرْفقٌ وكفتْكِ الخدمة وتفرَّغت للعبادة، فقالت واللّه إني لأستحيي أن أسأل الدنيا من يملك الدنيا، فكيف أسأل الدنيا من لا يملكها؟.
والناسكات المتزهدات من النساء المذكورات في الزُّهد والرياسة، من نساء الجماعة وأصحاب الأهواء، فمن نساء الجماعة: أمُّ الدرداء، ومُعاذةُ العدَوية، ورابعة القيسيَّة.
ومن نساء الخوارج: الشّجاء، وحمادة الصُّفرية وغزالة الشَّيْبانية قُتِلْنَ جميعاً، وصُلبت الشجاء وحمادة، قتل خالدُ بن عتّاب غَزَالة، وكانت امرأةَ صالح بن مُسرِّح.
ومن نساء الغالية: الميلاء، وحُمَيدة، وليلى الناعظية.
محمد بن سلام عن ابن جُعْدُبة قال: ما أبرم عُمر بنُ الخطاب أمراً قط إلا تمثل ببيت شعر.
وعن أبان بن عثمان، قال عبد الملك: لقد كنت أمشي في الزَّرْع فأتَّقي الجُندبَ أن أقتله، وإن الحجاجَ ليكتب إليَّ في قتل فئامٍ من الناس؛ فما أحفِلُ بذلك.
وقيل له وقد أمر بضرب أعناق الأسرَاء: أقسَتك الخلافةُ يا أمير المؤمنين، وقد كنت رؤوفاً قال: كلا، ما أقسَتْني، ولكن أقساني احتمال الضغن على الضغن.
قالوا: ومات يونسُ النحويُّ سنة اثنتين وثمانين ومائة هو ابن ثمان وثمانين سنة، وقال يونس: ما أكلت شيئا قطُّ في الشتاء إلا وقد بَرُد، ولا في الصيف إلا وقد سخن.
وحدثني محمد بن يَسير قال: قال أبو عمرو المَدَايني: لو كانت البَلايا بالحِصص ما

نالني كل ما نالني: اختلفت جاريتي بالشاة إلى التّياس وبي إلى حملها حاجة، فرجعت جاريتي حاملاً، والشاة حائلاً.
محمد بن القاسم قال: قال جرير: أنا لا أبتدي، ولكني أعْتَدِي.
وقال القيني: أنا مثل العقرب، أضرُّ ولا أنفع.
وقال القينيّ: أنا أصدق في صغار ما يضرُّني، لأكذبَ في كبارِ ما ينفعني.
قال أبو إسحاق: استراح فلانٌ من حيث تعبَ الكرامُ.
وقال الحجاج: أنا حديدٌ حقود حسود.
وحدثني نُفَيع قال: قال لي القَيْني: أنا لا أصدُق مادام كذبي يخفى.
قال: وذُكر شبيب بن شيبة عند خالد بن صفوان فقال خالد: ليس له صديق في السر، ولا عدوٌّ في العلانية.
وقال أبو نخيلة في شبيب بن شيبة:

إذا غدَتْ سعدٌ على شَبيبِها على فتاها وعلى خطيبِها

مِنْ مطلع الشمس إلى مغيبها عجِبْتَ مِن كثرتها وطِيبِها

وقال يحيى بن أبي علي الكرْخيّ: أنا إنسان لا أبالي ما استقبلت به الأحرار.
وقال عَمرو بن القاسم: إنما قويت على خصمي بأني لم أتستَّرْ قطُّ عن شيء من القبيح فقال أبو إسحاق: نلتَ اللذَّة، وهتكتَ المروءة، وغلبتك النفس الدَّنية، فأرَثْك مكروهَ عملك محبوباً وشيء قولك حسناً، ومن كان عَلَى هذا السبيل لم يتلفتْ إلى خير يكون منه، ولم يكترثْ بشرِ يفعله.
وقال الفرزدق:

وكان يُجيرُ الناس من سيفِ مالك فأصبح يبغي نفسَه من يُجيرُها

ومن هذا الباب قول الثُّوتّ اليمانيِّ:

عَلَى أيَّ باب أطلُبُ الإذنَ بعد ما حُجِبْتُ عن الباب الذي أنا حاجبُه

ومن هذا الشكل قولُ عديِّ بن زيد:

لو بغير الماء حَلْقِي شرقٌ كنتُ كَالغُصَّانِ بالماء اعتصاري

وقال زُهير:

فلما وَرَدْنَ الماءَ زُرْقاً جمامُه وضَعْنَ عِصِيَّ الحاضِرِ المتَخَيِّمِ

وكتب سُوَيد بن منجوف إلى مُصعب بن الزبير:

فأبْلِغْ مُصْعَباً عنـي رسـولاً وهل يُلقَى النصيحُ بكـل وادِ

تعلَّمْ أنّ أكثرَ مَـن تـواخـى وإن ضحِكوا إليك هم الأعادي

وحدثني إبراهيم بن عبد الوهاب، قال: كتب شيخٌ من أهل الريّ عَلَى باب داره:جزى اللّه من لا يعرفنا ولا نعرفه خيراً، فأمّا أصدقاؤنا الخاصة فلا جزاهمُ الله خيراً، فإنا لم نُؤْتَ قطُّ إلا منهم وأنشدني النهشليُّ لأعرابي يصف نخْلاً:

ترى مخارفَها ثِنيَيْ جوانبهـا كأنَّ جانيَ بَيْض النَّحْلِ جَانِيها

ووصف آخر نخلاً فقال:

إذا عَلا قِمَّتَها الرَّاقي أهَلّ

وقال الشاعر:

ومن تَقْلِلْ حلوبَتُهُ وَيـنْـكُـلْ عن الأعداء يَغْبَقْهُ القراحُ

رأيتُ مَعاشِراً يُثنى عليهـم إذا شَبعوا وأوجُهُهُمْ قِبَـاحُ

ظلُّ المُصْرِمُونَ لهمُ سُجُوداً وإن لم يُسْقَ عندهُم ضَيَاحُ

وقال الشاعر:

البائتين قريبـاً مـن بـيوتـهـمُ ولو يشاؤون آبوا الحيّ أوْ طرَقوا

يقول: لرَغبته في القِرَى، وفي طعام الناس، يبيت بهمْ، ويدعُ أهلَه، ولو شاء أنْ يبيت عندهم لَفعل.
وقال آخر، يمدحُ ضدَّ هؤلاء:

تَقري قدورُهم سُرَّاءَ ليلهـمُ ولا يبيتون دون الحيِّ أضيافا

وقال جرير:

وإني لأسْتَحيي أخِي أن أرى له عَليَّ من الحق الذي لا يَرى لِيَا

قال: أستحيي أن يكون له عندي يدٌ ولا يرى لي عندَه مثلها.
وقال امرؤ القيس:

وهلْ ينعمْنَ إلا خلِيٌّ منعَّمٌ قليلُ الهموم ما يبيتُ بأوْجالِ

قال: وهو كقوله: استراحَ من لا عقْلَ لهَ، وأنشد مع هذا البيت قول عمر بن أبي ربيعة، ويحكى أن المنصور كان يعجبُه النصف الأخير من البيت الثاني جدّاً، ويتمثل به كثيراً، حتي انتقده بعض من قضى به عليه أن المعنى قدَّمَهُ دهراً، وكان استحسانه عن فضل معرفته بإحقاقه فيه، وصواب قوله:

وأعجَبَها من عيشها ظِلُّ غُرْفَة وريَّانُ مُلْتَفُّ الحدائِق أخْضرُ

ووالٍ كَفَاها كلَّ شيء يَهُمُّها فليَستْ لشيء آخر الدهر تَسْهَرُ

وأنشد:

إذا ابْتَدَرَ الناسُ المعالي رأيتهمْ وقوفاً بأيديهم مسُوكُ الأرانب

هجاهم بأنهم إنما يعيشون من الصيد، وأنشد:

إذا ابتدرَ الناسُ المكارمَ والعُلاَ أقاموا رُتوباً في النُّهُوج اللهاجمِ

يخْبر أنهم يسألون الناس، والنهج واللهْجم: الطريق الواسع.
وقال الآخر:

لنا إبلٌ يَروين يوماً عِيالَنا ثلاثُ وإن يكثرْنَ يوماً فأربعُ

نُمِدُّهمُ بالماء لا مِنْ هَوانِهمْ ولكِنْ إذا مَا قلَّ شيءٌ يوسَّعُ

وقال الآخر:

من المُهْدَيات الماءَ بالماء بعدما رمى بالمقادي كلُّ قادٍ ومُعْتَمِ

وقال الآخر:

وداع دعا والليلُ مُرخٍ سُدولَه رجاءَ القِرَى يا مُسلمَ بنَ حِمارِ

دَعا جُعَلاً لا يهتدي لِمَبيته من اللوم حتى يهتدي ابنُوبارِ

وقال الحسن بن هانئ:

أضْمرتُ للنِّيل هِجْراناً ومَقـلـيـةً   إذ قيل لي إنما التِّمساحُ في النـيل

فمن رأى النِّيل رأيَ العَينِ من كثبٍ فما أرى النّيلَ إلا في البـواقيل

وقال ابن ميَّادة:

أتيتُ ابنَ قشْراءِ العِجانِ فلم أجِدْ لدى بابهِ إذناً يسـيراً ولا نُـزْلا

فإن الذي ولاّكَ أمْرَ جـمـاعةٍ   لأنقصُ مَن يمشي على قدم عْقلا

ومن هذا الباب قوله:

إني رأيت أبا العوراء مُرتفـقـاً   بشَطّ دِجْلَة يَشْري التَّمر والسَّمكا

كَشِرَّةِ الخيل تبقى عند مِذْوِدِهـا   والموتُ أعلم إذْ قفّى بمن تركا

هَذِي مساعيكَ في آثار سادَتِـنـا   ومن تكنْ أنت ساعيه فقد هَلَكا

ومن هذا الباب قوله:

ورِثنـا المجدَ عن آباء صِـدق   أسأنا في ديارهم الصَّنيعَـا

إذا المجدُ الرفيعُ تعـاورتْـه   وُلاة السُّوء أوشك أن يضيعا

وقال جِران العَوْدِ:

أُراقبُ لمحاً من سُهيل كـأنـه   إذا ما بَدَا في دُجْية الليل يطرفُ

وقال:

ولَمْ أجِدِ الموقودَ تُرجى حياتُـه   إذا لم يرعْه الماءُ ساعة يُنضَحُ

وكان أبو عبادِ النُّميريُّ أتى باب بعض العمال، يسأله شيئاً من عمل السلطان، فبعثه إلى أسْتقانَا فسرقوا كل شيء في البَيْدر وهو لا يشعر، فعاتبه في ذلك، فكتب إليه أبو عبّاد:

كنتُ بازاً أضربُ الكُـرْ   كيّ والطيرَ العظـامـا

فتقنَّصَتْ بـيَ الـصَّ عْوِ فأوهنْتَ القُدَامـى

وإذا ما أرسل الـبـا زِي عَلَى الصعْو تَعَامَى

أراد قول أبي النجم في الراعي:

يمرُّ بين الغانـيات الـجـهَّلِ كالصقر يجفو عن طِرادِ الدُّخّلِ

وبات أبو عبّادِ مع أبي بكر الغِفاريّ، في ليالي شهر رمضان، في المسجد الأعظم، فدبّ إليه، وأنشأ يقول:

يا ليلةً لي بتُّ ألْهُو بـهـا مع الغِفاريِّ أبي بـكـرِ

قمتُ إليه بعد ما قد مضى ثُلْثٌ من الليل على قدْرِ

في للة القدْرِ فيا مَنْ رأى أدَبَّ منِّي ليلة الـقـدْرِ

ما قام حَمْدانٌ أبو بـكـرِ إلا وقد أفزَعَهُ نَـخْـري

وقال في قَلْبانَ صديقتِه:

إنَّ قلبانَ قد بَـغَـتْ لشقائي وقد طغَتْ

وإذا لم تُـنَـك بـأيْ رِ عظيم القِوى بكتْ

وقال مسكينٌ الدَّارمي:

إليك أمير المؤمنين رحَلْتُهـا تثيرُ القطا ليلاً وهنَّ هُجـودُ

لدَى كلِّ قرموص كأنَّ فراخةَ كُلًى غير أن كانت لـهنَّ جُلودُ

وقال أبو الأسود الدؤلي، واسمه ظالم بن عمرو بن سفيان:

أمِنْتَ على السّرِّ امْرأً غيرَ كاتمٍ ولكنه في النصح غيرُ مُريبِ

أذاعَ بهِ في الناس حتَّى كَأنَّـهُ بعَلياء نـارٌ أُوقِدَتْ بـثـقُـوبِ

وكنتَ متى لم تَرْعَ سِرَّك تنتشرْ قوارعُه مِنْ مخطئ ومُصيبِ

وما كل ذي لُبٍّ بموْتيكَ نُصْحَهُ وما كلُّ موتٍ نصحَهُ بلَبيبِ

ولكن إذا ما استَجْمعا عند واحدٍ فحقّ له مِنْ طاعةٍ بنَصيبِ

وقال أيضاً:

إذا كنتَ مظلوماً فلا تُلْفَ راضياً عَنِ القوْمِ حتَّى تأخُذَ النصفَ واغْضَبِ

وَإن كنتَ أنتَ الظّالمُ القومَ فاطّرِحْ مقالتَهم وَأشْغب بهم كل مَشْغَبِ

وقاربْ بذي جهلٍ وباعدْ بعالمٍ جَلوبٍ عليكَ الحقَّ مِنْ كلِّ مَجلبِ

فإن حَدِبوا فاقعَسْ وإن هم تقاعَسُوا ليستمسكون مما وراءك فاحدَبِ

ولا تُدْعِنَنْ للحقِّ واصبر على التي بها كنتُ أقضِي للبعيد على أبي

فإني امرؤٌ أخشَى إلهي وأتَّقي مَعادي وقد جرّبتُ ما لم تجربِ

وقال مَسْلمة بن عبد الملك:

إني إذا الأصواتُ في القوم عَلَتْ في مَوْطِنٍ يَخشى به القومُ العَنَتْ

مُوَطِّنٌ نفسي على ما خَيَّلَتْ بالصَّبر حتَّى تنجلي عَمَّا انجلَتْ

وقال الكميت:

وبيضٍ رِقاقٍ خفاف المُتُون تسمعُ للبَيْضِ منها صريرا

تُشَبَّهُ في الهامِ آثارُها مَشافِرَ قَرْحَى أكلْنَ البَريرا

وأنشدني أبو عبيدة:

نُصْبِحُها قيساً بلا استبقائها صفائحاً فيها فضولُ مائها

من كلِّ عَضْبٍ علَّ من دِمائها إذا علا البيضة في استوائها

رونقُه أوقدَ في حِرْبـائهـا　　ناراً وقد أمخض من ورائهـا

وأنشدني لرجُل من طيئ:

لم أرَ فتيانَ صباحِ أصبَـراً　　منهم إذا كان الرماحُ كِسَرا

سفْعَ الحدودِ دُرَّعاً وحُسَّرا　　لا يشتهون الأجَل المؤخَّرا

وقال ابن مفرِّع:

قبٌّ البطون والهوادي قودُ　　إن حادتِ الأبطالُ لا تحيدُ

إذا رجعناهُنَّ قالت عودُوا　　كأنما يَعلمن مـا نُـريدُ

ومن المجهولات:

عليكَ سلامَ اللّه من مَـنـزلٍ قـفْـرِ　　فقد هِجْتَ لي شوقاً قديماً وما تدرِي

عهدتك من شهر جديداً ولـم أخَـلْ　　صُروفَ النّوَى تُبلي مغانيك في شهرِ

الخرَيميُّ أبو يعقوب:

لعمرك ما أخلقتُ وجهاً بذلتُه　　إليك ولا عَرَّضْتُه للمعـايرِ

أي لا أعيَّرُ لقصدك.

فتًى وفرتْ أيدي المحامدِ عِرضَه　　عليه وخلَّتْ ماله غيرَ وافرِ

وقال مطيعُ بنُ إياسٍ:

قد كَلَّفَتْني طويلةُ الـعُـنُـق　　وحُبُّ طُولِ الأعْناق مِنْ خُلُقي

أقْلَقُ مِنْ بُعْدِها فإنْ قـربَـتْ　　فالقُرْبُ أيضاً يزيدُ في قَلَقي

وقال سهلُ بنُ هارون:

إذا امروٌ ضاقَ عنِّي لم يَضِقْ خُلُقي　　مِنْ أنْ يراني غَنِيّاً عنه بـالـياسِ

ولا يراني إذا لـم يَرْعَ آصِـرَتـي   مُسْتَمْرِياً دِرَراً منـه بـإبـسـاسِ

لا أطْلُبُ المالَ كي أُغْنَي بفضلتـه   ما كان مَطْلَبُهُ فقراً إلى الـنـاسِ

وقال ليحيى بن خالد:

عدّ تلادِ المال فـيمـا ينـوبـه   منوعٌ إذا ما منْعُه كان أحْزَمـا

فِسيَّان حالاه له فضْلُ مـنْـعِـه   كما يستحقُّ الفضلَ إن هو أنْعَمَا

مذلِّلُ نفس قد أبتْ غير أن ترى   مَكارِهَ ما تأتي من الحقِّ مَغْنما

وقال أبو الأسود لزياد:

لعَمْرُكَ ما حَشاكَ اللّهُ رُوحاً   به جَشَعٌ ولا نَفْساً شَـرِيرهْ

ولكنَّ أنتَ لا شَرِسٌ غلـيظٌ   ولا هَشٌّ تنـازِعُه خـؤُورَهْ

كأنا إذّ أتَـيـنـاهُ نـزلْـنـا   بجانِبِ رَوْضة رَيَّا مَطيرةْ

الجزء السادس

الخطوط ومرافقها

بسم الله والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.
اللهم جنبنا فضول القول، بما عندنا، ولا تجعلنا من المتكلفين. قد قلنافي الخطوط ومرافقها، وفي عموم منافعها، وكيف كانت الحاجة إلى استخراجها، وكيف اختلفت صورها على قدر اختلاف طبائع أهلها، وكيف كانت ضرورتهم إلى وضعها، وكيف كانت تكون الهلة عند فقدها.
وقلنا في العقد ولم تكلفوه، وفي الإشارة ولم اجتلبوها، ولم شبهوا جميع ذلك ببيان اللسان، حتى سموه بالبيان. ولم قالوا: القلم أحد اللسانين، والعين أنم من اللسان.
وقلنا في الحاجة إلى المنطق وعموم نفعه، وشدة الحاجة إليه، وكيف صار أعم نفعاً، ولجميع هذه الأشكال أصلاً، وصار هو المشتق منه، والمحمول عليه، وكيف جعلنا الأجسام الصامتة نطقاً والبرهان الذي في الأجرام الجامدة بياناً.
وذكرنا جملة القول في الكلب والدِّيك في الجزْأين الأوَّلين، وذكرْنا جملة القول في الحمام، وفي الذِّبَّان، و في الغربان، وفي الخنافس، وفي الجعلان، إلاّ ما بقي من فضْل القول فيهما، فإنّا قد أخَّرنا ذلك، لدخوله في باب الحشرات، وصواب موقعهما في باب القول في الهمج - في الجزء الثالث.
وإذا سمعت ما أودعها اللّه تعالى من عظيم الصَّنعة، وما فطرها اللّه تعالى عليه من غريب المعرفة، وما أجْرى بأسبابها من المنافع الكثيرة، والمِحن العظيمة، وما جعل فيها من الدَّاء والدَّواء - أجلَلْتها أنْ تسميها همجاً، وأكبرت الصنف الآخر أنْ تسمِّيه حشرة، وعلمت أنَّ أقدارَ الحيوان ليست على قدر الاستحسان، ولا على أقدار الأثمان.
وذكرنا جملة القول في الذّرّة والنَّملة، وفي القرد والخنزير، وفي الحيَّات والنّعام، وبعض القول في النَّار في الجزء الرابع.
والنار - حفظك اللّه - وإنْ لم تكن من الحيوان، فقد كان جرى من السَّبب المتَّصل بذكرها، ومن القول المضمر بما فيها، ما أوجبَ ذِكْرها والإخبار عن جملة القول فيها.
وقد ذكرنا بقيَّة القول في النّار، ثمَّ جملة القول في العصافير، ثمَّ جملة القول في الجرذان والسَّنانير والعقارب، ولِجَمْع هذه الأجناس في باب واحد سببٌ سيعرفه من قرأه، ويتبيّنه من رآه.
ثمَّ القولَ في القمل والبراغيث والبعوض، ثمَّ القول في العنكبوت والنَّحل، ثمَّ القولَ في الحُبارى. ثمَّ القول في الضَّأن والمعز، ثم القول في الضفادع والجراد، ثمَّ القول في القطا. الإطناب والإيجاز

وقد بقيتْ - أبقاك اللّه تعالى - أبوابٌ توجب الإطالة، وتُحوج إلى الإطناب، وليس بإطالةٍ ما لم يُجاوزْ مِقْدارَ الحاجة، ووقف عند منتهى البغية.

وإنما الألفاظ على أقدار المعاني، فكثيرُها لكثيرها، وقليلها لقليلها، وشريفُها لشريفها، وسخيفها لسخيفها، والمعاني المفردةُ، البائنة بصُورها وجهاتها، تحتاج من الألفاظ إلى أقلَّ مما تحتاج إليه المعاني المشتركة، والجهاتُ الملْتبسة.
ولو جَهد جميعُ أهل البلاغة أن يُخبروا من دونهم عن هذه المعاني، بكلام وجيز يُغْني عن التفسير باللّسان، والإشارة باليد والرأس - لما قدَرُوا عليه، وقد قال الأوّل: إذا لم يكنْ ما تُريدُ فأردْ ما يكون، وليس ينبغي للعاقل أن يسُوم اللُّغاتِ ما ليس في طاقتها، ويسومَ النُّفوس ما ليس في جِبلَّتها، ولذلك صار يحتاجُ صاحبُ كتاب المنطق إلى أنْ يفسِّره لِمَنْ طُلب مِنْ قِبَلِه علم المنطق، وإن كان المتكلمُ رفيق اللّسان، حسن البيان، إلاَّ أنِّي لا أشُكُّ على حالٍ أنَّ النفوسَ إذّ كانتْ إلى الطَّرائف أحنَّ، وبالنَّوادر أشغف، وإلى قصار الأحاديث أمْيل، وبها أصبَّ - أنَّها خليقةٌ لاستثقال الكثير، وإن استحقَّت تلك المعاني الكثيرة، وإنْ كان ذلك الطَّويلُ أنفعَ، وذلك الكثيرُ أردّ.

رجع إلى سرد سائر أبواب الكتاب

وسنبدأ بعون اللّه تعالى وتأييده، بالقول في الحشرات والهمج، وصغار السباع، والمجهولات الخاملة الذِّكْر من البهائم، ونجعل ذلك كله باباً واحداً، ونتَّكل، بعد صُنْع اللّه تعالى، على أنّ ذلك الباب إذّ كان أبواباً كثيرة، وأسماء مختلفة - أنّ القارئ لها لا يملُّ باباً حتَّى يخرجه الثَّاني إلى خلافه، وكذلك يكون مقامُ الثَّالث من الرَّابع، والرابع من الخامس، والخامس من السَّادِس،

مقياس قدر الحيوان

وليس الذي يُعتمد عليه من شأن الحيوان عِظم الجثة، ولا كثرة العدد، ولا ثقل الوزن! والغايةَ التي يُجرى إليها، والغرض الذي نرمي إليه غير ذلك، لأن خلْق البعوضة وما فيها من عجيب التركيب، ومن غريب العمل، كخلْق الذَّرَّة وما فيها من عجيب التركيب، ومن الأحاسيس الصَّادقة، والتدابير الحسنة، ومن الرويَّةِ والنظر في العاقبة، والاختيار لكلِّ ما فيه صلاحُ المعيشة، ومع ما فيها من البُرهانات النيرة، والحجج الظَّاهرة.
وكذلك خَلْق السُّرْفَة وعجيب تركيبها، وصنْعة كفِّها، ونظرها في عواقب أمرها.
وكذا خلق النَّحْلة مع ما فيها من غريب الحكم، وعجيب التَّدبير، ومن التقدُّم فيما يُعيشها، والادخار ليوم العجْز عن كسبها، وشمِّها ما لا يُشَمُّ، ورؤيتها لما لا يُرى، وحُسن هدايتها، والتّدبير في التأمير عليها، وطاعة ساداتها، وتقسيط أجناس الأعمال بينها، على أقدار معارفها وقوّة أبدانها.
فهذه النَّحلة، وإن كانت ذبابة، فانظر قبل كل شيء في ضروب انتفاع ضُروب الناس فيها، فإنَّك تجدُها أكبر من الجبل الشامخ، والفضاء الواسع.
وكلُّ شيء وإن كان فيه من العجب العاجب، ومن البُرهان النّاصع، ما يوسِّع فِكر العاقل، ويملأ صدْر المفكّر، فإنّ بعض الأمور أكثرُ أعجوبة، وأظهر علامة، وكما

تختلف بُرهاناتها في الغموض والظُّهور، فكذلك تختلف في طبقات الكثرةِ، وإن شملتها الكثرةُ، ووقع عليها اسم البرهان.

رجْع إلى سرد سائر أبواب الكتاب

ولعلَّ هذا الجزء الذي نبتدئُ فيه بذكر ما في الحشرات والهمج، أنْ يفضل من ورقه شيءٌ، فنرفعه ونتمِّه بجملة القول في الظّباء والذئاب، فإنَّهما بابان يقصُران عن الطوال، ويزيدان على القصار.
وقد بقي من الأبواب المتوسِّطة والمقتصدة المعتدلة، التي قد أخذت من القِصر لمنَ طلب القصر بحظٍّ، ومن الطُّول لمن طلب الطُّول بحظٍّ وهو القولُ في البقر، والقولُ في الحمير، والقولُ في كِبار السِّباع وأشرافِها، ورؤسائها، وذوي النَّباهة منها، كالأسد والنَّمر، والبَبْر وأشباه ذلك، مما يجمعُ قوَّة أصل النَّاب، والذَّرب، وشَحْو الفم، والسَّبُعيّة وحدّة البرثن، وتمكُّنه في العصب، وشدّة القلب وصرامته عند الحاجة، ووثاقة خَلْق البدن، وقوّته على الوثب. وسنذكر تسالُمَ المتسالمةِ منها، وتعادِي المتعادية منها، وما الذي أصلح بينها على السَّبُعيَّة الصِّرف، واستواء حالها في اقتيات اللُّحمان، حتَّى ربَّما استوت فريستُها في الجنس.
وقد شاهدْنا غير هذه الأجناس يكون تعاديها من قِبل هذه الأمور التي ذكرناها، وليس فيما بين هذه السِّباع بأعيانها تفاوتٌ في الشِّدَّة، فتكون كالأسد الذي يطلب الفهد ليأكله، والفهدُ لا يطمع فيه ولا يأكله، فوجدنا التَّكافؤ في القُوَّة والآلة من أسباب التَّفاسُد، وإنَّ ذلك ليعملُ في طباع عقلاء الإنس حتَّى يخْرجوا إلى تهارُش السِّباع، فما بالها لم تعمل هذا العمل في أنفُس السِّباع؟ وسنذكر علَّة التسالم وعِلَّة التعادي، ولِم طُبعت رؤساء السِّباع على الغفلة وبعض ما يدخلُ في باب الكرَم، دون صغار السِّباع وسفْلتها، وحاشيتها وحَشْوها، وكذلك أوساطها، والمعتدلة الآلة والأسر منها.

شواهد هذا الكتاب

ولم نذكر، بحمد اللّه تعالى، شيئاً من هذه الغرائب، وطريفة من هذه الطرائف إلا ومعها شاهد من كتاب مُنْزلٍ، أو حديثٍ مأثور، أو خبرٍ مستفيض، أو شعرٍ معروف، أو مثل مضروب، أو يكون ذلك ممّا يشهد عليه الطبيب، ومن قد أكثر قراءة الكتب، أو بعض من قد مارَس الأسفار، وركب البحار، وسكنَ الصَّحاري واستَدّرى بالهضاب، ودخل في الغياض، ومشى في بطون الأودية.
وقد رأيْنا أقواماً يدَّعُون في كتبهم الغرائب الكثيرة، والأمور البديعة، ويخاطرون من أجل ذلك بمروءاتهم، ويُعرِّضون أقدارهم، ويسلِّطون السُّفهاء على أعراضهم، ويجترُّون سُوء الظَّنِّ إلى أخبارهم، ويحكِّمون حُسّاد النِّعم في كتبهم، ويمكِّنون لهم من مقالتِهم، وبعضهم يتّكل على حُسْن الظَّنِّ بهم، أو على التسليم لهم، والتقليد لدعواهم، وأحسنهم حالاً من يُحِبُّ أن يُتفضَّلَ عليه ببسط العُذْر له، ويُتكلّف الاحتجاجُ عنه، ولا يبالي أن يُمَنّ بذلك على عقبه، أو من دان بدينه، أو اقتبس ذلك العلم من قِبل كُتُبه.

ونحن حفظك اللّه تعالى، إذا استنطقْنا الشَّاهد، وأحَلْنا على المثل، فالخصومة حينئذٍ إنَّما هي بينهم وبينها، إذْ كنّا نحنُ لم نستشهد إلاّ بما ذكرنا، وفيما ذكرنا مقنعٌ عند علمائنا، إلاّ أن يكون شيءٌ يثبتُ بالقياس، أو يبطلُ بالقياس، فواضعُ الكتاب ضامنٌ لتخليصه وتلخيصه، ولتثبيتِهِ وإظهار حجّته.
فأمَّا الأبوابُ الكبارُ فمثلُ القوْل في الإبل، والقولِ في فضيلة الإنسان على جميع الحيوان، كفضل الحيوان على جميع النامي، وفضلِ النَّامي على جميع الجماد.
وليس يدخلُ في هذا الباب القولُ فيما قسم اللّه، عزّ وجلّ، لبعض البقاع من التَّعظيم دون بعض، ولا فيما قسم من السّاعات والليالي، والأيَّام والشُّهور وأشباه ذلك، لأنّه معنًى يرجع إلى المختبرين بذلك، من الملائكة والجنّ والآدميِّين.
فمن أبواب الكبار القول في فصْل ما بين الذُّكورةِ والإناث، وفي فصْل ما بين الرّجل والمرأة خاصَّة.
وقد يدخل في القول في الإنسان ذكر اختلاف النّاس في الأعمار، وفي طول الأجسام، وفي مقادير العقول، وفي تفاضل الصِّناعات، وكيف قال من قال في تقديم الأوَّل، وكيف قال من قال في تقديم الآخر.
فأما الأبوابُ الأُخر، كفضْل الملكِ على الإنسان، وفضلِ الإنسان على الجانّ، وهي جملة القول في اختلاف جواهرهم، وفي أيِّ موضع يتشاكلون، وفي أيِّ موضع يختلفون؛ فإن هذه من الأبوابَ المعتدلة في القصَر والطّول. وليس من الأبواب بابُ إلاّ وقد يدخلُه نُتفٌ من أبوابٍ أُخرَ على قدْر ما يتعلّق بها من الأسباب، ويعرض فيه من التضمين، ولعلك أن تكون بها أشدَّ انتفاعاً.
وعلى أني ربما وشّحْت هذا الكتاب وفصَّلت فيه بين الجزء والجزء بنوادر كلام، وطرف أخبار، وغُرر أشعار، مع طرف مضاحيك، ولولا الذي نُحاول من استعطاف على استتمام انتفاعكم لقد كنَّا تسخَّفْنا وسخَّفْنا شأن كتابنا هذا.
وإذا علم اللّه تعالى موقع النِّيَّة، وجهة القصْد، أعان على السَّلامة من كلّ مخوف.

العلة في عدم إفراد باب للسمك

ولم نجعل لما يسكن المِلحَ والعذوبة، والأنهارَ والأدوية، والمناقع والمياه الجارية، من السَّمَك وممَّا يخالف السَّمك، ممَّا يعيش مع السمك - باباً مجرّداً، لأنّي لم أجدْ في أكثره شِعراً يجمع الشّاهد ويُوثق منه بحسْنِ الوصف، وينشّط بما فيه من غير ذلك للقراءة، ولم يكن الشّاهد عليه إلاّ أخبار البحْريِّين، وهم قومٌ لا يعدُّون القول في باب الفِعْل، وكلّما كان الخبرُ أغرب كانوا به أشدّ عُجْباً، مع عبارة غثَّة، ومخارج سَمِجة.
وفيه عيبٌ آخر: وهو أنّ معه من الطّول والكثرة ما لا تحتملونه، ولو غثَّاكم بجميعه مُخارِق، وضرب عليه زلْزل، وزمر به بَرْصُوماً، فلذلك لم أتعرَّضْ له.
وقد أكثر في هذا الباب أرسطاطاليس، ولم أجد في كتابه على ذلك من الشّاهد إلاّ دعْواه.
ولقد قلت لرجل من البحريِّين: زعم أرسطاطاليس أنّ السّمكة لا تبتلعُ الطُّعم أبداً إلاّ ومعه شيءٌ من ماء، مع سعة المدخل، وشرّ النفس، فكان من جوابه أن قال لي:

ما يعلم هذا إلاّ مَنْ كان سمكة مرَّةً، أو أخبرته به سمكة، أو حدَّثه بذلك الحواريُّون أصحاب عيسى، فإنهم كانوا صيّادين، وكانوا تلامذة المسيح.
وهذا البحريُّ صاحبُ كلام، وهو يتكلَّف معرفة العِلل، وهذا كان جوابه، ولكني لن أدع ذِكْرَ بعض ما وجدته في الأشعار والأخبار، أوْ كان مشهوراً عند من ينزل الأسيافَ وشطوط الأودية والأنهار، ويعرفه السَّمَّاكون، ويُقِرُّ بهِ الأطبَّاء - بقدر ما أمكن من القول.
زعم إياس بن معاوية في الشبُّوط وقد روى لنا غيرُ واحد من أصحابِ الأخبار، أنّ إياسَ بن مُعاوية زعم أنّ الشَّبُّوطة كالبغْل، وأنّ أمّها بُنيّة، وأباها زَجْرٌ، وأنّ من الدّليل على ذلك أنّ الناس لم يجدوا في بطن شَبُّوطة قطُّ بيضاً.
وأنا أخبرك أنّي قد وجدته فيها مِراراً، ولكنّي وجدتُهُ أصغر جُثّةً، وأبعد من الطّيب، ولم أجده عامّاً كما أجده في بطون جميع السمك.
فهذا قول أبي واثلة إياس بن معاوية المزني الفقيه القاضي، وصاحب الإزكان، وأقوف من كرْز بن علقمة، داهية مُضر في زمانه، ومفخرٌ من مفاخر العرب.
الشك في أخبار البحريين والسّماكين والمترجمين فكيف أسكُنُ بعد هذا إلى أخبار البحْريِّين، وأحاديث السمَّاكين، وإلى ما في كتابِ رَجُل لعلّه أنْ لو وجد هذا المترجم أن يُقِيمَهُ على المِصْطبة، ويبرأ إلى النَّاس من كذبه عليه، ومن إفساد معانيه بسوء ترجمته.

فصيلة الضب

والذي حضرني من أسماء الحشرات، ممَّا يرجع عمود صُورها إلى قالبٍ واحد، وإن اختلفتْ بعد ذلك في أمور، فأوّل ما نذكر من ذلك الضبّ.
والأجناسُ التي ترجع إلى صورة الضّبّ: الورلُ، والحرباء، والوحرة، والحُلْكة، وشحمة الأرض، وكذلك العظاء، والوزغ، والحرذون، وقال أبو زيد: وذكر العظاية هو العضْرَفُوط، ويقال في أمِّ حُبين حُبيْنة وأشباهُها مما يسكن الماء: الرّقُّ، والسُّلحفاة، والغيلم، والتِّمساح، وما أشبه ذلك.

الحشرات

وممّا نحن قائلون في شأنه من الحشرات: الظربان، والعُثّ والحُفَّاث والعِربِدُ، والعضْرفوط، والوبْر، وأم حبين، والجعل، والقرَنْبى والدَّسَّاس، والخنفساء، والحيّة، والعقرب، والشّبث والرُّتيلاء، والطَّبُّوع، والحرقوص، والدَّلم، وقمْلة النَّسْر، والمثل، والنِّبْر، وهي دويْبَّة إذا دبَّتْ على جلد البعير تورَّم، ولذلك يقول الشاعر، وهو يصف إبله بالسِّمن:

كأنّها من بُدُنٍ واستيقارْ دَبَّتْ عليها ذربات الأنبارْ

وقال الآخر :

حمر تحقنت النَّجيلَ كأنما   بجلودهن مدارجُ الأنبارِ

والضَّمْج، والقنفذ، والنَّمْل، والذّرِّ، والدّساس، ومنها ما تتشاكل في وجوه، وتختلف من وجوه: كالفأر والجرذان والزباب، والخلد واليربوع، وابن عِرس، وابن مقرض ومنها العنكبوت الذي يقال له منونة، وهي شرٌّ من الجرَّارة والضّمْج.

ما فيه الوحشي والأهلي من الحيوان

وسنقول في الأجناس التي يكون في الجنس منها الوحشيُّ والأهليّ، كالفيلة، والخنازير، والبقر، والحمير، والسَّنانير.
والظّباء قد تَدْجُن وتُولّد على صُعوبةٍ فيها، وليس في أجناس الإبل جنس وحشيٌّ، إلاّ في قول الأعراب.

ما هو أهلي صرف أو وحشي صرف من الحيوانات

وممَّا يكون أهليّاً ولا يكون وحشيّاً وهو سبعُ - الكلاب وليس يتوحّش منها إلاّ الكلب الكَلِب، فأمّا الضِّباع والذِّئاب، والأسد، والنمور، والبُبور، والثعالب، وبنات آوى، فوحشيَّةٌ كلها، وقد يقلّم الأسد وتُنزع أنْيابه، ويطول ثواؤُه مع الناس حتى يهرم مع ذلك، ويحسّ بعجزه عن الصَّيد، ثمَّ هو في ذلك لا يُؤتمن عُرامه ولا شروده، إذا انفرد عن سوَّاسه، وأبصر غيضة قُدّامها صَحراء.
قصة الأعرابي والذئب وقد كان بعض الأعراب ربّى جرو ذئب صغيراً، حتَّى شبَّ، وظنَّ أنه يكونُ أغْنى غناءً من الكلب، وأقوى على الذّبِّ عن الماشية، فلمَّا قوي شيئاً وثب على شاةٍ فذبحها - وكذلك يصنعُ الذِّئب - ثمَّ أكل منها فلمَّا أبصر الرّجل أمرهُ قال:

أكَلْتَ شوَيهتي ورَبيت فينا   فمن أنباك أنّ أباك ذيبُ

وقد أنكر ناسٌ من أصحابنا هذا الحديث، وقالوا: لم يكنْ ليألفه ويقيم معه بعد أن اشتدّ عظْمُه ولِمَ لَمْ يذهَبْ مع الذِّئاب والضِّباع، ولم تكن الباديةُ أحبَّ إليه من الحاضرة، والقفارُ أحبَّ إليه من المواضع المأنوسة.
كيف يصير الوحشيُّ من الحيوان أهلياً وليس يصير السبعُ من هذه الأجناس أو الوحشيُّ من البهائم أهليّاً بالمقام فيهم، وهو لا يقدر على الصَّحاري، وإنما يصير أهليّاً إذا ترك منازل الوحش وهي له مُعْرِضة.
ما يعتري الوحشي إذا صار إلى الناس وقد تتسافد وتتوالد في الدُّور وهي بعد وحشيَّة، وليس ذلك فيها بعامّ، ومن الوحْش ما إذا صار إلى النّاس وفي دُورهم ترك السّفاد، ومنها ما لا يطعم ولا يشربُ البتَّة بوجْهٍ من الوجوه، ومنها ما يُكره على الطُّعْم ويدخل في حلقة كالحيّة، ومنها ما لا يسفد ولا يدْجُن، ولا يطعم ولا

يشرب، ولا يصيحُ حتى يموت وهذا المعنى في وحشيِّ الطَّير أكثر.
السوراني ورياضته للوحوش والذي يحكى عن السوراني القنَّاص الجبليّ ليس بناقضٍ لما قُلنا، لأنّ الشَّيء الغريبَ، والنادر الخارجيّ، لا يقاس عليه، وقد زعموا أنّه بلغ من حذْقه بتدريب الجوارح وتضْريتها أنّه ضرَّى ذئباً حتّى اصطاد به الظِّباء وما دونها، صيداً ذريعاً، وأنه ألفه حتى رجع إليه من ثلاثين فرسخاً، وقد كان بعضُ العُمَّال سرقه منه، وقد ذكروا أنّ هذا الذِّئب قد صار إلى العسكر، وأن هذا السُّوراني ضرّى أسداً حتى اصطاد له الحمير فما دونها صيداً ذريعاً، وأنه ضرَّى الزَّنابيرَ فاصطاد بها الذِّبّان، وكلُّ هذا عجب، وهو غريبٌ نادرٌ، بديعٌ خارجيّ وذكروا أنّه من قيس عيلان، وأن حليمة ظئر النبي صلى الله عليه وسلم قد ولدته.
الحيوانات العجيبة وليس عندي في الحمار الهنديِّ شيء، وقد ذكره صاحب المنطق، فأما الدِّباب، وفأرة المسك، والفنك، والقاقم، والسِّنجاب، والسَّمُّور، وهذه الدوابّ ذوات الفِراء والوبر الكثيف النّاعم، والمرغوب فيه، والمنتفع به، فهي عجيبة.
وإنّما نذكر ما يعرفه أصحابنا وعلماؤنا، وأهلُ باديتنا، ألا ترى أنّي لم أذكر لك الحريش، والدُّخس، ولا هذه السِّباع المشتركة الخلق، المتولّدة فيما بين السِّباع المختلفة الأعضاء، المتشابهة الأرحام، التي إذا صار بعضُها في أيدي القرّادين والمتكسِّبين و الطوّافين، وضعوا لها أسماء، فقالوا: مقلاس، وكيلاس، وشلقطير، وخلقطير وأشباه ذلك، حين لمْ تَكُنْ من السِّباع الأصلية والمشهورة النسب، والمعروفة بالنّفع والضّرر.
وقد ذكرنا منها ما كان مثل الضبع، والسِّمع، والعِسبار، إذ كانت معروفةً عند الأعراب، مشهورة في الأخبار، منوَّهاً بها في الأشعار.
الاعتماد على معارف الأعراب في الوحش وإنَّما أعتمد في مثل هذا على ما عند الأعراب، وإن كانوا لم يَعْرفوا شكل ما احتِيجَ إليه منها من جهة العناية والفلاية، ولا من جهة التذاكر والتكسُّب، ولكن هذه الأجناس الكثيرة، ما كان منها سبعاً أو بهيمةً أو مشترك الخلْق، فإنّما هي مبثوثة في بلاد الوحْش: من صحراء، أو وادٍ، أو غائط، أو غيضة، أو رملةٍ، أو رأس جبل، وهي في منازلهم ومناشئهم، فقد نزلوا كما ترى بينها، وأقاموا معها، وهم أيضاً من بين النّاس وحشٌ، أو أشباه الوحش. وربَّما؛ بلْ كثيراً ما يُبتلون بالناب والمخلب، وباللدغ واللَّسع، والعضّ والأكل، فخرجتْ بهم الحاجة إلى تعرُّف حالِ الجاني والجارح والقاتل، وحال المجنيِّ عليه والمجروح والمقتول، وكيف الطَّلبُ والهرب، وكيف الداء والدواء، لطول الحاجة، ولطول وُقوع البصر، مع ما يتوارثون من المعرفة بالدَّاء والدواء،

معرفة العرب للآثار والأنواء والنجوم

ومن هذه الجهة عرفوا الآثار في الأرض والرَّمل، وعرفوا الأنواءَ ونجوم الاهتداء، لأنَّ كلَّ من كان بالصَّحاصح الأماليس ـ حيث لا أمارة ولا هادي، مع حاجته إلى بعد الشَّقّة ـ مضطرٌّ إلى التماس ما ينجيه ويُؤْديه.
ولحاجته إلى الغيث، وفِراره من الجدْب، وضنّه بالحياة، اضطرته الحاجة إلى

تعرُّف شأنِ الغيث.
ولأنه في كلِّ حالٍ يرى السَّماء، وما يجري فيها من كوكب، ويرى التَّعاقب بينها، والنّجوم الثوابت فيها، وما يسير منها مجتمعاً وما يسير منها فارداً، وما يكون منها راجعاً ومستقيماً.

أقوال لبعض الأعراب في النجوم

وسئلت أعرابيَّة فقيل لها: أتعرفين النجوم؟ قالت: سبحانَ اللّه أما أعرف أشباحاً وُقوفاً عليَّ كلَّ ليلة.
وقال اليقطريّ: وصف أعرابيٌّ لبعض أهل الحاضرة نجوم الأنواء، ونجوم الاهتداء، ونجوم ساعات اللّيل والسُّعودِ والنُّحوس، فقال قائلٌ لشيخ عباديٍّ كان حاضراً: أما ترى هذا الأعرابيَّ يعرف من النُّجوم ما لا نعرف قال: ويل أمِّك، منْ لا يعرف أجذاع بيته؟ قال: وقلت لشيخٍ من الأعراب قد خرفَ، وكان من دُهاتهم: إني لا أراكَ عارفاً بالنُّجوم قال: أما إنّها لو كانت أكثر لكنتُ بشأنها أبصر، ولو كانت أقلَّ لكنت لها أذْكر.
وأكثرُ سببِ ذلك كلِّه - بعد فَرْط الحاجة، وطول المدارسة - دِقةُ الأذهان، وجودة الحفظ، ولذلك قال مجنونٌ من الأعراب - لَمّا قال له أبو الأصْبَغ بن ربْعيّ: أما تعرف النجوم؟ قال: وما لي أعرفُ من لا يعرفني؟ فلو كان لهذا الأعرابيِّ المجنون مثلُ عُقول أصحابه، لعرف مثل ما عرفوا.

ما يجب في التعليم

ولو كان عندي في أبْدان السَّمُّور، والفنَك، والقاقُم، ما عِندي في أبدان الأرانب والثَّعالب، دون فرائها، لذكرتها بما قلَّ أو كثُر، لكنّه لا ينبغي لمن قلَّ علمُه أن يدعَ تعليم من هو أقلُّ منه علماً،

الدساس وعلة اختصاصه بالذّكر

ولو كانت الدَّسَّاس من أصناف الحيّات لم نخصَّها من بينها بالذّكر، ولكنها وإن كانت على قالب الحيَّات وخَرْطها، وأفرغت كإفراغها وعلى عَمُود صُورها، فخصائصها دون خصائصها، كما يناسبها في ذلك الحُقَّاث والعِرْبد، وليسا من الحيّات، كما أن هذا ليس من الحيّات، لأنّ الدّسَّاس ممسوحة الأذن، وهي مع ذلك ممَّا يلد ولا يبيض، والمعروف في ذلك أنّ الولادة هي في الأشرف، والبيض في الممسوح.
وقد زعم ناسٌ أنّ الولادة لا تُخرج الدَّسَّاسَ من اسم الحيّة، كما أن الولادة لا تخرج الخفَّاش من اسم الطير.
وكلّ ولد يخرج من بيضه فهو فرْخ، إلا ولد بيض الدَّجاج فإنّه فرُّوج.
والأصناف التي ذكرناها مع ذكر الضَّبّ تبيض كلُّها، ويسمى ولدُها بالاسم الأعم فرْخاً.
وزعم لي ابنُ أبي العجوز، أنّ الدّسّاس تلد، وكذلك خبّرني به محمد بنُ أيوبَ ابن

جعفر عن أبيه، وخبَّرني به الفضل بنُ إسحاق بن سليمان فإن كان خبرهما عن إسحاق فقد كان إسحاق من معادن العلم.
وقد زعموا بهذا الإسناد أنّ الأرْويَّة تضعُ مع كلِّ ولد وضعَتْه أفعى في مشيمةٍ واحدة.
وقال الآخرون: الأرويّة لا تعرف بهذا المعنى، ولكنه ليس في الأرض نمرة إلا وهي تضعُ ولدها وفي عنقه أفعى في مكان الطَّوق، وذكروا أنَّها تنهش وتعضّ، ولا تقتل.
ولم أكتب هذا لتقرَّ بهِ، ولكنها رواية أحببت أن تسمعها، ولا يعجبني الإقرار بهذا الخبر، وكذلك لا يعجبني الإنكار له، ولكن ليكنْ قلبك إلى إنكاره أميلَ.

الشك واليقين

وبعد هذا فاعرف مواضع الشّكّ، وحالاتها الموجبة له، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له، وتعلم الشّكّ في المشكوك فيه تعلُّماً، فلو لم يكن في ذلك إلاّ تعرُّف التوقُّف ثمَّ التثبُّت، لقد كان ذلك ممَّا يحتاج إليه.
ثمّ اعلم أنّ الشكّ في طبقاتٍ عند جميعهم، ولم يُجْمعوا على أن اليقين طبقاتٌ في القوَّة والضعف.
أقوال لبعض المتكلمين في الشك ولمّا قال ابن الجهم للمَكِّيِّ: أنا لا أكاد أشكّ قال المكّيّ: وأنا لا أكاد أوقن ففخر عليه المكيّ بالشكّ في مواضع الشّك، كما فخر عليه ابنُ الجهم باليقين في مواضع اليقين.
وقال أبو إسحاق: نازعت من الملحدين الشاك والجاحد فوجدتُ الشُّكّاك أبصر بجوهر الكلام من أصحاب الجحود.
وقال أبو إسحاق: الشاك أقربُ إليك من الجاحِد، ولم يكنْ يقينٌ قط حتى كان قبله شكّ، ولم ينتقل أحدٌ عن اعتقادٍ إلى اعتقاد غيره حتّى يكون بينهما حالُ شكّ.
وقال ابنُ الجهم: ما أطمعني في أوْبة المتحيِّر لأنّ كل من اقتطعته عن اليقين الحيرة فضالته التبيُّن، ومنْ وجد ضالته فرح بها.
وقال عمرو بن عُبيد: تقرير لسانِ الجاحد أشدُّ من تعريفِ قلب الجاهل.
وقال أبو إسحاق: إذا أردت أن تعرف مقدار الرجل العالِم، وفي أيِّ طبقةٍ هو، وأردت أن تدخِله الكورَ وتنفخ عليه، ليظهر لك فيه الصّحَّةُ من الفساد، أو مقدارُه من الصّحَّة والفساد، فكن عالماً في صورة متعلِّم، ثم اسأله سؤال من يطمع في بلوغ حاجتهِ منه.
فصل ما بين العوام والخواص في الشك والعوامُّ أقلُّ شكوكاً من الخواص، لأنَّهم لا يتوقَّفون في التصديق والتكذيب ولا يرتابون بأنفسهم، فليس عندهم إلاّ الإقدامُ على التَّصديق المجرّد، أو على التكذيب المجرد، وألغوا الحال الثالثة من حال الشّكّ التي تشتمل على طبقات الشك، وذلك على قدر سُوء الظنِّ وحُسن الظّن بأسباب ذلك، وعلى مقادير الأغلب.
حرمة المتكلمين وسمع رجلٌ، ممَّن قد نظر بعض النظر، تصويب العلماء لبعض الشكّ، فأجرى ذلك في جميع الأمور، حتّى زعم أنّ الأمور كلها يُعرف حقها

وباطلُها بالأغلب.
وقد مات ولم يخلّف عَقِباً، ولا واحداً يدينُ بدينه، فلو ذكرت اسمه مع هذه الحال لم أكنْ أسأت، ولكنّي على حالٍ أكرهُ التّنويه بذكر من قد تحرّم بحُرمة الكلام، وشارك المتكلّمين في اسم الصِّناعة، ولا سيَّما إنْ كان ممّن ينتحل تقْديم الاستطاعة.
الأوعال والثياتل والأيايل فأمّا القولُ في الأوعال، والثّياتِل، والأيايل وأشباه ذلك، فلم يحضرْنا فيها ما إن نجعل لذكرها باباً مبوباً، ولكننا سنذكرها في مواضِع ذكرها من تضاعيف هذا الكتاب إن شاء اللّه تعالى.

الضب

وأنا مبتدئٌ على اسم اللّه تعالى في القول في الضَّبّ، على أنّي أذمُّ هذا الكتابَ في الجملة، لأنَّ الشواهد على كلِّ شيء بعينه وقعتْ متفرِّقة غير مجتمعة، ولو قدرتُ على جمعها لكان ذلك أبلغ في تزكية الشّاهد، وأنور َ للبُرهان، وأملأ للنفس، وأمْتع لها، بحسن الرّصف، وأحمده، لأنّ جُملة الكتاب على حالٍ مشتملةٍ على جميع تلك الحجج، ومحيطة بجميع تلك البرهانات، وإن وقع بعضُه في مكان بعضٍ، تأخّر متقدِّم، وتقدّم متأخر.

جحر الضب وما قيل فيه من الشعر

وقالوا: و من كيْس الضّبّ أنّه لا يتخذ جُحره إلاّ في كُدْية وهو الموضع الصُّلب - أو في ارتفاع عن المسيل والبسيط، ولذلك توجدُ براثنُه ناقصةً كليلة، لأنّه يحفر في الصَّلابة، ويعمِّق الحفْر، ولذلك قال خالد بن الطَّيْفان:

ومَولى كمولى الزِّبرقانِ دَمَلْتـه   كما دُمِلَتْ ساقٌ تهاضُ بها كَسْرُ

إذا ما أحالتْ والجبـائرُ فوْقـها   مضى الحوْل لا بُرْءٌ مُبينٌ ولا جَبرُ

تراه كـأنّ الـلّـه يَجْدَعُ أنـفـه   وأذْنَيْهِ إنْ مولاهُ ثـابَ لـه وفـرُ

ترى الشَّرّ قد أفْنى دوائر وَجْـهـهِ   كضبِّ الكُدى أفنى براثِنَه الحفْرُ

وقال كثيِّر:

فإن شئت قلت له صـادقـاً   وجدْتك بالقُفِّ ضَبَاً جَحُـولا

من اللاءِ يحفِرْن تحت الكُدى   ولا يَبْتَغين الدِّماث السُّهولا

وقال دُريد بن الصِّمَّة:

وجدْنا أبا الجبَّار ضَبّاً مورَّشـاً لـهُ في الصَّفاة بُرثنٌ ومـعـاولُ

له كدْيَةٌ أعيت على كلِّ قانـصٍ ولو كان مِنهمْ حارشان وحابـلُ

ظلِلْتُ أراعي الشمس لولا ملالتي تزلَّع جلدي عِنْدَهُ وهو قـائِلُ

وأنشد لدريد بن الصمة:

وعوْراء مِنْ قيلِ امرئٍ قد ردَدْتُها بسالمةِ العَيْنين طـالـبةٍ عُذْرا

ولو أنني إذ قالها قلْت مِثْلَـهـا وأكثر منها أورثتْ بَيْنَنا غِمْرا

فأعْرَضْتُ عنها وانتظرت به غداً لعلَّ غداً يُبدي لمُنْتظِر أمـرا

لأُخرج ضباً كان تحت ضلوعِـه وأقْلِمَ أظفاراً أطال بها الحفـرا

وقال أوسُ بنُ حَجَر، في أكل الصَّخر للأظفار:

فأشرط فيها نفسهُ وهو مُعْصِمٌ وألْقى بأسبابٍ لَـهُ وتـوَكّـلا

وقد أكلت أظْفارَهُ الصَّخر كُلَّما تَعايا عليه طولُ مَرْقى تَوَصَّلا

فقد وصفوا الضَّبّ كما ترى، بأنه لا يحفِرُ إلاّ في كدية، ويطيلُ الحفْرَ حتّى تفنى براثنه، ويتوخّى به الارتفاع عن مجاري السّيل و المياه، وعن مدق الحوافر، لكيلا يَنْهارَ عليه بيته.

الموضع الذي يختاره الضب لجحره

ولمّا علم أنَّهُ نَسَّاءٌ سيِّئ الهداية، لم يحفر وجاره إلاَّ عند أكمة، أو صخْرةٍ، أو شجرة، ليكون متى تباعد من جُحره لطلب الطُّعم، أو لبعض الخوف فالتفت ورآه؛ أحسن الهداية إلى جحره، ولأنّه إذا لم يُقِمْ عَلَماً فلعلّه أن يلِجَ على ظربانٍ أو وَرَل، فلا يكون دون أكله له شيءٌ.
فقالت العرب: خبٌّ ضبّ؛ و: أخبُّ من ضبّ؛ و أخْدع من ضبّ؛ و: كلُّ ضبٍّ عِنْدَ مِرْداتِهِ.
وإذا خَدع في زوايا حفيرته فقد توثَّق لنفسه عند نفسه.
حذر بعض الحيوان ولهذه العلّة اتخذ اليربوع القاصعاء، والنافقاء، والدَّامَّاء، والرَّاهطاء، وهي أبوابٌ قد اتخذها لحفيرته، فمتى أحسَّ بشرٍّ خالف تلك الجهة إلى

الباب.
ولهذا وشبهه من الحذر كان التوبير من الأرانب وأشباهها، والتوبير: أنْ تطأ على زمعاتها فلا يعرف الكلبُ والقائفُ من أصحاب القنص آثار قوائمها.
ولما أشبه هذا التَّدبير صار الظبي لا يدخل كناسَه إلاّ وهو مستدبر، يستقبل بعينه ما يخافه على نفسه وخشفه.

شعر في حزم الضب واليربوع

وقد جمع يحيى بن منصورٍ الذُّهليّ أبواباً من حزم الضب، وخبثه وتدبيره، إلاّ أنّه لم يرد تفضيل الضب في ذلك، ولكنه بعد أنْ قدَّمه على حمْقى الرِّجال، قال: فكيف لو فكّرتم في حزْم اليربوع والضبّ.
وأنشدني فقال:

وبعضُ النّاس أنقصُ رأي حَزْمٍ من اليربُوع والضبِّ المكون
يَرى مِرْداتـهُ مِـن رأس مِـيلِ ويأمَنُ سَيْلَ بـارقةٍ هَـتُـون
وَيَحْفِرُ في الكُدى خَوْفَ انـهـيارٍ ويجعلُ مَكْوَهُ رأسَ الـوجـين
ويخْدَعُ إنْ أردْتَ لـه احـتـيالاً رواغَ الفهْدِ من أسـدٍ كـمـين
ويدخِلُ عَقْرَباً تحت الـذّنـابـى ويعمِلُ كيد ذي خـدعٍ طـبـين
فهذا الـضـبُّ لـيس بـذي حريمٍ مع اليربوع والذِّئب اللَّعين

وقد ذكر يحيى جميع ما ذكرنا، إلاّ احتياله بإعداد العقرب لكفِّ المحترش، فإنه لم يذكر هذه الحيلة من عمله، وسنذكر ذلك في موضعه، والشّعر الذي يُثبتُ له ذلك كثير.
فهذا شأنُ الضّبُ في الحفر، وإحكام شأن منزِله.
الورل وعدم اتخاذه بيتاً ومن كلام العرب أنّ الورل إنَّما يمنعه من اتِّخاذ البُيوت أنَّ اتخادها لا يكونُ إلاّ بالحفر، والورل يُبقي على براثنه، ويعلم أنّها سلاحه الذي به يقوى على ما هو أشدُّ بدناً منه، وله ذنبٌ يؤكل ويُستطاب، كثيرُ الشَّحم.

قول الأعراب في مطايا الجن من الحيوان

والأعراب لا يصيدون يربوعاً، ولا قُنفذاً، ولا ورلاً من أول الليل، وكذلك كل شيءٍ يكونُ عندهم من مطايا الجنّ، كالنَّعام والظّباء.
ولا تكون الأرنبُ والضَّبع من مراكب الجن، لأن الأرنب تحيض ولا تغتسل من الحيض، والضبِّاع تركبُ أيورَ القتلى والموتى إذا جيَّفتْ أبدانهم وانتفخوا وأنعظوا

ثم لا تغتسل عندهم من الجنابة، ولا حنابة إلا ما كان للإنسان فيه شِرْك، ولا تمتطي القرود، لأن القرد زان، ولا يغتسل من جنابة.
فإنْ قتلَ أعرابيٌّ قنفذاً أو ورلاً، من أول الليل، أو بعض هذه المراكب، لم يأمنْ على فحل إبله، ومتى اعتراه شيءٌ حكم بأنه عقوبةٌ من قبلهم.
قالوا: ويسمعون الهاتف عند ذلك بالنَّعي، وبضروب الوعيد.
قول الأعراب في قتل الجان من الحيات وكذلك يقولون في الجانّ من الحيّات، وقتلُ الجان عندهم عظيم، ولذلك رأى رجلٌ منهم جاناً في قعر بئر، لا يستطيع الخروج منها، فنزل على خطر شديد حتَّى أخرجها، ثم أرسلها من يده فانسابت، وغمَّض عَيْنيه لكيلا يرى مدخلها كأنّه يريد الإخلاص في التقرُّب إلى الجن.
قال المازني: فأقبل عليه رجلٌ فقال له: كيف يقدر على أذاك مَنْ لم ينقذه من الأذى غيرك؟

ما لا يتم له التدبير إذا دخل الأنفاق

وقال: ثلاثة أشياء لا يتمُّ لها التَّدبير إذا دخلت الأسراب، والأنفاق، والمكامِن والتّوالج حتَّى يغص بها الخرْق.
- فمن ذلك: أن الظربان إذا أراد أن يأكل حِسلة الضب أو الضبّ نفسه؛ اقتحم جُحر الضّب مستدبراً، ثم التمس أضيق موضع فيه، فإذا وجده قد غَصَّ به، وأيقنَ أنّه قد حال بينه وبين النسيم، فسا عليه، فليس يجاوز ثلاث فسوات حتى يُغشى على الضب فيأكله كيف شاء.
والآخر: أن الرجل إذا دخل وِجَارَ الضبع ومعه حَبْل، فإن لم يسُدّ ببدنه وبثوبه جميع المخارق والمنافذ ثم وصل إلى الضبع من الضياء بمقدار سمّ الإبرة، وثبتْ عليه، فقطّعته، ولو كان أشدّ من الأسد.
- والثالث: أنّ الضب إذا أراد أن يأكل حُسوله وقف لها من جحرها في أضيق موضعٍ من منفذه إلى خارج، فإذا أحكم ذلك بدأ فأكل منها، فإذا امتلأ جوفه انحطَّ عن ذلك المكان شيئاً قليلاً، فلا يُفْلِتُ منه شيءٌ من ولده إلا بعد أنْ يشبع ويزولَ عن موضعه، فيجد منفذاً.
وقال بعض الأعراب:

يَنْشب في المسلكِ عِنْدَ سَلَّتِـهْ تزاحمَ الضبِّ عصى في كُدْيتِهْ

شعر في أكل الضبّ ولدَه

وقال: الدَّليل على أنّ الضّبّ يأكلُ ولدَه قول عَمَلّس بن عقيل بن عُلّفة لأبيه:

أكَلْتَ بَنيك أكْل الضّبِّ حتى وجدت مَرارَةَ الكلأ الوبيل

فلو أنّ الأولى كانوا شهوداً مَنَعْتَ فِناءَ بيتكَ من بجيل

وأنشد لغيره:

أكَلْتَ بَنيك أكْل الضَّبِّ حتّى   تَركْتَ بَنيك ليْس لَهُمْ عَديدُ

وقال عمرو بن مسافر: عتبت على أبي يوماً في بعض الأمر، فقُلت:

كيف ألومُ أبي طيْشاً ليرْحَمَني   وَجَدُّه الضَّبُّ لم يَتْرك لَهُ وَلَدَا

وقال خداش بنُ زُهير:

فإن سمعُتْم بجيشٍ سالِكـاً سَرِفـاً   أو بطْن قوٍّ فأخْفُوا الجرْس واكتَتِمُوا

ثمَّ ارجِعُوا فأكِبُّوا فـي بُـيُوتِـكُـمُ   كما أكبّ على ذي بَطْنه الـهـرِمُ

جعله هَرِماً لطول عمره، وذي بطنه: ولده.
وقال أبو بكر بن أبي قُحافة لعائشة، رضي اللّه عنهما: إنّي كنتُ نحلتكِ سبعين وَسْقاً من مالي بالعالية، وإنّك لمْ تحُوزيه، وإنما هو مالُ الوارث، وإنما هو أخواك وأختاك، قالت: ما أعرفُ لي أختاً غير أسماء، قال: إنَّه قد أُلقي في رُوعي أن ذا بطن بنت خارجة جارية.
قال آخرون: لم يعْنِ بذي بطنه ولده، ولكنَّ الضَّبَّ يرمي ما أكل، أي يقيء؛ ثم يرجعُ فيأكله، فذلك هو ذو بَطْنه، فشبَّهُوه في ذلك بالكلب والسّنّور.
وقال عمرو بن مسافر: ما عنى إلا أولاده، فكأنَّ خداشاً قال: ارجعوا عن الحرب التي لا تستطيعونها، إلى أكل الذُّريَّة والعيال.

قول أبي سليمان الغنوي في أكل الضبة أولادها

قال: وقال أبو سليمان الغنويّ: أبرأ إلى اللّه تعالى من أن تكون الضَّبَّة تأكل أولادها ولكنها تدفنهنَّ وتطمُّ عليهنَّ التُّراب، وتتعهدهنَّ في كلِّ يوم حتَّى يُخرَّجن، وذلك في ثلاثة أسابيع، غير أنّ الثَّعالب والظَّربان والطَّير، تحفر عنهنَّ فتأكلهنَّ، ولو أفلت منهنَّ كلُّ فراخ الضِّباب لَملأنَ الأرض جميعاً.
ولو أنَّ إنساناً نحل أمَّ الدَّرداء، أو مُعاذة العدويَّة، أو رابعة القيسيَّة، أنهنَّ يأكلن أولادهنَّ، لما كان عند أحدٍ من النّاس من إنكار ذلك، ومن التكذيب عنهنَّ، ومن استعظام هذا القول، أكثر مما قاله أبو سليمان في التَّكذيب على الضِّباب أن تكون تأكل أولادها.
قال أبو سليمان: ولكن الضبّ يأكلُ بعْره، وهو طيِّبٌ عنده، وأنشد:

يَعود في تَيْعِه حِدْثانَ مَوْلِدِهِ   فإنْ أسنَّ تغذَّى نَجْوَهُ كَلِفا

قال: وقال أقَّار بن لقيط: التَّيْع: القيء، ولكنّا رويناهُ هكذا، إنما قال: يعودُ في رَجْعِه، وكذلك الضَّبُّ، يأكُلُ رجْعَه.
وزعم أصحابنا أنَّ أبا المنْجُوف السَّدوسيَّ روى عن أبي الوجيه العُكْليّ قوله:

وأفطنَ مِنْ ضَبٍّ إذا خافَ حَارِشاً ... أعدَّ لهُ عِنْدَ التلمُّس عَقرَبـا

في نصيب الضباب من الأعاجيب والغرائب

أوَّل ذلك طولُ الدَّماء، وهو بقيَّة النَّفْس وشدَّة انعقاد الحياة والرُّوح بعد الذبح وهَشْمِ الرّأس، والطَّعنِ الجائف النافذ، حتَّى يكون في ذلك أعجب من الخنزير، ومن الكلب، ومن الخنفساء، وهذه الأشياء التي قد تفرَّدت بطول الدَّماء.
ثمَّ شارك الضَّبُّ الوزغة والحيَّة، فإن الحية تُقطعُ من ثلث جسمها، فتعيش إن سلمت من الذَّرّ، فجمع الضَّبُّ الخصلتين جميعاً، إلا ما رأيت في دَخّال الأذن من هذه الخصلة الواحدة، فإنّي كنتُ أقطعُه بنصفين، فيمضي أحدُ نصفيه يمنةً والآخر يَسرة، إلا أنّي لا أعرفُ مقدار بقائهما بعد أن فاتا بَصَري.
ومن أعاجيبه طولُ العمر، وذلك مشهورٌ في الأشعار والأخبار، ومضروبٌ به المثلُ، فشارك الحيَّات في هذه الفضيلة، وشارك الأفعى الرّمْليَّة والصَّخرية في أنَّها لا تموتُ حتْفَ أنفِها، وليس إلا أن تُقتل أو تصطاد، فتبقى في جُون الحوّائين، تذيلها الأيدي، وتُكره على الطّعم في غير أرضِها وهوائها، حتى تموت، أو تحتملها السُّيولُ في الشِّتاء وزمان الزَّمْهرير، فما أسرع موتها حينئذ، لأنَّها صردة.

مثل في الحية

وتقول العرب: أصرد من حيّة؛ كما تقول: أعرى من حية، وقال القشيريّ: واللّه لهي أصْردُ من عنزٍ جرْباء.

حُتوف الحيّات

وحُتوفها التي تُسرع إليها ثلاثة أشياء: أحدها مُرور أقاطيع الإبل والشَّاء، وهي منبسطة على وجه الأرض، إما للتشرُّق نهاراً في أوائل البرد، وإما للتبرُّد ليلاً في ليالي الصَّيف، وإمّا لخروجها في طلب الطُّعم.
والخصلة الثانية ما يسلَّط عليها من القنافذ والأوعال والورل، فإنها تطالبها مطالبة شديدة، وتقوى عليها قوّةً ظاهرة، والخنازير تأكلها ـ وقد ذكرنا ذلك في باب القول في الحيّات.
والخصلة الثالثة: تكسُّب الحوَّائين بصيدها، وهي تموت عِندهم سريعاً.
ما يشارك الضب فيه الحية والضَّبُّ يشاركها في طول العمر، ثمَّ الاكتفاء بالنسيم والتَّعيش ببرد الهواء، وذلك عند الهرم وفناء الرُّطوبات، ونَقْص الحرارات، وهذه كلها عجب.

عود إلى أعاجيب الضب ثم اتخاذه الجحر في الصَّلابة، وفي بعض الارتفاع، خوفاً من الانهدام، ومسيل المياه، ثم لا يكون ذلك إلا عند عَلَم يرجع إليه إنْ هو أضلَّ جُحره، ولو رأى بالقُرْب تراباً متراكِباً بقدر تلك المِرداة والصَّخرة، لم يحفِلْ بذلك، فهذا كله كيْسٌ وحزم، وقال الشَّاعر:

سقى اللّه أرضاً يَعْلم الضب أنّـها عَذيّة بَطْنِ القاع طيّبةُ البَقْلِ

يرود بها بيتـاً علـى رأس كُدْيةٍ وكل امرئٍ في حِرْفة العيْشِ ذو عقْلِ

وقال البُطين:

وكلُّ شيءٍ مصيبٌ في تعيُّشِـه الضبُّ كالنُّون والإنسانُ كالسّبُعِ

ومن أعاجيبه أنّ له أيرَين، وللضبة حِرَين، وهذا شيءٌ لا يُعْرف إلاَّ لهما، فهذا قولُ الأعراب، وأمَّا قولُ كثير من العلماء، ومن نقّب في البلاد، وقرأ الكتب، فإنّهم يزعُمون أنَّ للسَّقَنْقور أيرين، وهو الذي يتداوى به العاجزُ عن النكاح، ليورثه ذلك القوة.
قالو: و إن للحِرْذون أيضاً أيرين، وإنّهم عاينوا ذلك معاينة، وآخر من زعم لي ذلك موسى بن إبراهيم.
والحِرذون دويبة تشبه الحِرباء، تكون بناحية مِصْرَ وما والاها، وهي دويِّبَة مَليحة موشّاة بألوانٍ ونقط.
وقال جالينوس: الضبُّ الذي له لسانان يصلُح لحمه لكذا وكذا، فهذه أيضاً أعجوبة أخرى في الضبِّ: أن يكونَ بعضه ذا لسانين وذا أيرين.
ومن أعاجيب الضَّبَّة أنّها تأكل أولادها، وتجاوز في ذلك خلُق الهرَّة، حتّى قالت الأعراب: أعقُّ من ضَبٍّ.
احتيال الضب بالعقرب وزعمت العرب أنّه يُعِدّ العقربَ في جُحره، فإذا سمع صوت الحرْش استثفرها، فألصقها بأصْل عَجْب الذّنَب من تحتُ، وضمّ عليها، فإذا أدخل الحارشُ يده ليقبض على أصْل ذنبه لسعَتْه العقرب. وقال علماؤهم: بل يهيِّئ العقارب في جحره، لتلسع المحترشَ إذا أدخل يده.
وقال أبو المنجد بن رويشد: رأيت الضب أخْور دابّة في الأرض على الحر، تراه أبداً في شهر ناجر بباب جُحره، متدخِّلاً يخاف أن يقبض قابضٌ بذنبه، فربّما أتاه الجاهلُ ليستخرجه، وقد أتى بعقرب فوضَعَها تحت ذنبه بينه وبين الأرض، يحبسها بعَجْب الذنب، فإذا قبض الجاهلُ على أصلِ ذنبه لسعَتْه، فشغِل بنفسه.
فأما ذو المعرفة فإنّ معه عُويْداً يحرِّكه هُناك، فإذا زالت العقرب قبض عليه.
وقال أبو الوجيه: كذب واللّه من زعم أنّ الضّبّة تستثفر عقرباً، ولكنَّ العقارب مسالمة للضِّباب، لأنها لا تعرض لبيضها وفراخها، والضبُّ يأكل الجراد ولا يأكلُ العقارب، وأنشد قول التميميّ الذي كان ينزل به الأزديُّ: إنه ليس إلى الطعام يقصد، وليس به إلا أنه قد صار به إلفاً وأنيساً، فقال:

أتأنسُ بي ونَجْرُك غير نَجْري   كما بين العقارب والضِّبابِ

وأنشد:

تجَمَّعْن عند الضبّ حتى كـأنـه   على كلِّ حال أسودُ الجِلدِ خنْفَسُ

لأن العقارب تألف الخنافِس، وأنشدوا للحَكم بن عمرو البَهْراني:

والوزَغُ الرُّقطُ على ذُلِّها   تُطاعِمُ الحيّاتِ في الجحرِ

والخُنفسُ الأسود من نَجْره   مودّةُ العقربِ في السِّرِّ

لأنك لا تراهُما أبداً إلاّ ظاهرتين، يطَّاعمان أو يتسايران، ومتى رأيت مكنة أو اطَّلعْتَ على جُحر فرأيت إحداهما رأيت الأخرى.
قال: ومما يؤكِّد القول الأوَّل قولُه:

ومُستثفِرٍ دون السَّويّةِ عقـربـاً   لقد جئت بجْرياً من الدَّهْر أعوجا

يقول: حين لم تَرْضَ من الدّهاء والنكر إلاّ بما تخالف عنده النّاس وتجوزهم.
إعجاب الضب والعقرب بالتمر وأنشدني ابن داحة لحذيفة بن دأب عمّ عيسى بن يزيد، الذي يقال له ابن دأب في حديث طويل من أحاديث العشَّاق:

لئن خُدِعتْ حُبَّى بسبٍّ مُزَعفـرٍ   فقدْ يُخْدع الضَّبُّ المخادع بالتَّمرِ

لأن الضب شديد العُجْب بالتّمر، فضرب الضب مثلاً في الخُبْث والخديعة.
والذي يدلُّ على أن الضب والعقرب يُعجبان بالتّمر عجباً شديداً، ما جاء من الأشعار في ذلك، وأنشدني ابن الأعرابيِّ، لابن دَغْماء العِجْلي:

سوى أنكم دُرِّبْتُم فـجريْتـم   على دُرْبةٍ والضّبُّ يُحْبَلُ بالتّمْرِ

فجعل صيده بالتّمر كصيده بالحِبالة، وأنشدني القُشيريُّ:

وما كنت ضباً يُخرج التّمر ضِغْنه   ولا أنا ممـنْ يزدهِيهِ وَعيدُ

وقال بشر بن المعتمر، في قصيدته التي ذكر فيها آيات اللّه عز ذكره، في صُنوف خلْقه، مع ذكر الإباضيّة، والرافضة والحشوية والنابتة فقال فيها:

وهِقْلةٌ تَرتاعُ من ظِلِّـها — لها عِرارٌ ولَهـا زَمْرُ

تلتهمُ المرْو على شهوةٍ — وَحَبُّ شيءٍ عِندها الجمرُ

وضبّةٌ تـأكلُ أولادهـا — وعُثْرُفانٌ بطنُه صِفْرُ

يؤثِر بالطُّعْم وتـأذينـهُ — مُنَجِّمُ ليس لـه فِكـرُ

وظبيةٌ تخضَمُ في حَنْظل — وعقربٌ يُعجبها التمـرُ

وقال أيضاً بشرٌ، في قصيدةٍ له أخرى:

أما ترى الهِقْلَ وأمـعـاءَهُ — يجمعُ بين الصَّخْر والجمْر

وفأرة البيش على بيشِـهـا — أحْرص مِنْ ضبٍّ على تمر

وقال أبو دارة - وقد رأيتهُ أنا، وكان صاحب قنْص:

ومـا الـتـمْـر إلا آفةٌ وبـلـيّةٌ — على جُلِّ هذا الخَلْق من ساكن البَحْر

وفي البَرِّ من ذئب وسمع وعقربٍ — وثُرمُلةٍ تسْعى وخُنفسة تـسْري

وقد قيل في الأمثالِ إن كنت واعياً — عذيرك إنَّ الضَّبَّ يُحْبَلُ بالـتـمـر

وسنفسِّر معاني هذه الأبيات إذا كتبْنا القصيدتين على وجوههما بما يشتملان عليه من ذكر الغرائب والحكم، والتّدبير والأعاجيب التي أودع اللّه تعالى أصناف هذا الخلْق، ليعتبر مُعتبر، ويفكر مفكر، فيصير بذلك عاقلاً عالماً، وموحِّداً مخلْصاً.
طول ذماء الضب والدّليل على ما ذكرْنا من تفسير قولهم: الضّبّ أطولُ شيءٍ ذماء، قولهم: إنَّه لأحيا مِن ضَبّ، لأنّ حارشه ربّما ذبحه فاستقْصى فرْي الأوداج، ثم يدعُه، فربما تحرك بعد ثلاثة أيام.
وقال أبو ذؤيبٍ الهذلي:

ذكر الورُود بها وشاقى أمْرَهُ — شؤماً وأقبلَ حينه يتتـبَّـعُ

فأبَدَّهُنَّ حُتُوفَهُنَّ فـهـاربٌ — بذمائه أو ساقطٌ متَجَعْجِـعُ

وكان النّاس يروون: فهاربٌ بدمائه يريدون من الدم، وكانوا يكسِرون الدال، حتى قال الأصمعيّ: بذمائِه معجمة الذال مفتوحة وقال كثير:

ولقد شهدْت الخيل يحْمِل شِكَّتي   متلمِّظٌ خذم العِنـانِ بَـهـيمُ

باقي الذماءِ إذا مَلَكْت مُناقِلٌ   وإذا جَمَعْتُ به أجشٌّ هَزيمُ

خبث الضب والضّبّ إذا خدَع في جُحره وُصِف عند ذلك بالخبث والمكر، ولذلك قال الشاعر:

إنَّا مُنينا بضَبٍّ من بني جُمَـحٍ   يرى الخيانة مِثْلَ الماء بالعسَلِ

وأنشد أبو عصام:

إنّ لنا شيخَين لا ينـفـعـانـنـا   غنيَّين لا يجْدي عَلَيْنا غِنـاهُـمـا

كأنَّـهما ضَبَّانِ ضَبَّـا مـغـارةٍ   كبيران غيْداقان صُفْرٌ كُشاهُمـا

فإن يُحْبَلا لا يوجدا فـي حـبـالةٍ   وإنْ يُرصدا يوماً يخبْ راصِداهُما

ولذلك شبَّهُوا الحِقد الكامنَ في القلْب، الذي يسري ضررُه، وتدبُّ عقاربُه بالضَّبّ، فسمَّوا ذلك الحقد ضبّاً، قال مَعنُ بنُ أوس:

ألا مَنْ لمولًى لا يزالُ كـأنَّـهُ   صفاً فيه صَدْعٌ لا يُدانيه شاعِبُ

تدِبُّ ضِبابُ الغشِّ تحت ضُلوعِه   لأهلِ النّدى من قومِه بالعقارب

وقال أبو دَهْبل الجمحيّ:

فاعلمْ بأنِّي لِمَنْ عاديتَ مضطغنٌ   ضبّاً وإني عليك اليوم مَحْسودُ

وأنشد ابن الأعرابيّ:

يا رُبَّ مولًى حاسدٍ مُباغض   عليَّ ذي ضغنٍ وضبٍّ فارض

له قُرُوءٌ كقُروءِ الـحـائض

كأنّه ذهب إلى أنّ حِقده يخبو تارةً ثمَّ يستعر، ثم يخبو ثم يستعر.
وقال ابن ميّادة، وضرب المثل بنفخ الضب وتوثُّبه:

فإن لقيسٍ من بغيضٍ أقاصياً إذا أسدٌ كَشّتْ لفخْرٍ ضِبابُها

وقال الآخر:

فلا يَقْطع اللّه اليمين التي كَسَتْ حِجاجَيْ مَنيعٍ بالقنا من دم سَجْلا

ولو ضبَّ أعلى ذي دميثٍ حَبلتما إذاً ظلَّ يمطو من حبالكم حَبْلا

والضب يُوصف بشدّة الكبر، ولا سيّما إذا أخصب وأمِنَ وصارَ، كما قال عبْدة بن الطَّبيب، فإنهَ ضرب الضبّ مثلاً حيثُ يقول ليحيى بن هزّال:

لأعرِفَنّك يومَ الـورْدِ ذا لـغَطٍ ضخْم الجُزارةِ بالسَّلْمَين وَكّـارُ

تكفي الوليدة والرُّعيانَ مؤتـزراً فاحلُبْ فإنّك حـلاّبٌ وصـرّارُ

ما كُنْتَ أول ضب صاب تلْعَتَـهُ غيثٌ فأمْرعَ واسترخت به الدارُ

وقال ابن مَيّادة:

ترى الضَّبّ أنْ لم يرهبِ الضَّبُّ غيْرهُ يكشُّ لهُ مُسْتـكْبـراً ويُطـاوِلُـهْ

وقال دَعْلَجٌ عبدُ المِنْجاب:

إذا كان بيتُ الضب وسْط مَضبّةٍ تطاول للشخص الذي هو حابله

المضبَّة: مكان ذو ضباب كثيرة، ولا تكثر إلاّ وبقربها حَيّة أووَرل، أو ظربان، ولا يكون ذلك إلاّ في موضع بعيد من النّاس، فإذا أمِن وخلا لَهُ جوُّه، وأخصب، نفخ وكشَّ نحو كل شيء يُريده.
ما يوصف بالكِبْر من الحيوان ومما يوصف بالكِبْر الثَّوْرُ في حال تشرُّقه، وفي حالِ مشيته الخُيلاء في الرِّياض، عند غِبِّ ديمة، ولذلك قال الكُميت:

كشبوبٍ ذي كِبرياء من الوَحْ دة لا يبْتَغي عليها ظهيرا

وهذا كثيرٌ، وسيقع في موضعه من القول في البقر.
وممّا يُوصف بالكِبْر الجملُ الفَحْل، إذا طافت به نوق الهجمة، ومرَّ نحو ماءٍ أو كلأ فتبعنه، وقال الرّاجز:

فإنْ تشرَّدْن حواليْهِ وَقفْ قالِبَ حِمْلاقيهِ في مثل الجرُفْ

لو رُضَّ لحدُ عَيْنِهِ لما طرفْ كِبراً وإعجاباً وعِزّاً وتَرَفْ

والنَّاقة يشتدُّ كِبْرها إذا لَقِحت، وتزُمُّ بأنفها وتنفرد عن صحاباتها، وأنشد الأصمعيّ:

وهو إذا أراد منها عِرْسا دَهْماءَ مِرْباعِ الّلقاح جَلْسا

عاينها بعد السِّنان أنسا حتّى تلقَّتْهُ مخاضاً قُعْسا

حتَّى احتشت في كلِّ نفسٍ نفْسا على الدّوامِ ضامِزاتٍ خُرْسا

خُوصاً مُسِرَّاتٍ لقاحاً مُلْسا

وأمّا قول الشّمَّاخ:

جُماليَّة لو يُجعلُ السَّيفُ غَرضها على حَدِّه لاستكبرتْ أنْ تضوّرا

فليس من الأوّل في شيء.
المذكورون من الناس بالكبر والمذكورون من النَّاس بالكِبْر، ثمَّ من قريشٍ: بنو محزوم، وبنو أميَّة، ومن العرب: بنو جعفر بن كلاب، وبنو زرارة بن عُدس خاصّة.
فأمّا الأكاسرة من الفرْس فكانوا لا يعُدُّون النَّاس إلاّ عبيداً، وأنفسهم إلاّ أرباباً.
ولسنا نُخْبر إلا عن دهماء النّاس وجُمهورهم كيف كانوا، من ملوك وسوقة.
الكبر في الأجناس الذليلة والكِبر في الأجناس الذَّليلة من النّاس أرسَخ وأعمُّ، ولكنّ الذلة والقلّة مانعتان من ظهور كبرهم، فصار لا يعرف ذلك إلاّ أهلُ المعرفة، كعبيدنا من السِّنْدِ، وذِمَّتنا من اليهود.
والجملةُ أنّ كلّ من قدر من السِّفلة والوُضعاء والمحقرين أدنى قدرةٍ، ظهر من كِبره على منْ تحت قدرته، على مراتب القدرة، ما لا خفاء به، فإنْ كان ذمِّياً وحَسُنَ بما لَهُ في صدور النّاس، تزيَّد في ذلك، واستظهرت طبيعته بما يظنُّ أنّ فيه رَقع ذلك الخرْق، وحِياص ذلك الفتق، وسد تلك الثُّلمة، فتفقدْ ما أقول لك، فإنك ستجده فاشياً.
وعلى هذا الحسابِ من هذه الجهة، صار المملوك أسوأ ملكةً من الحُرّ.

وشيءٌ قد قتلته عِلماً، وهو أنّي لم أرَ ذا كِبْر قطُّ على منَ دونه إلا وهو يذلُّ لمن فوقه بمقدار ذلك ووزْنه.
كبر قبائل من العرب فأمّا بنو مخزوم، وبنو أمَيَّة، وبنو جعفر بن كلاب، وبنو زرارة بن عُدُس، فأبْطرهم ما وجدوا لأنفسهم من الفضيلة، ولو كان في قوى عقولهم وديانتهم فضلٌ على قوى دواعي الحميّة فيهم، لكانوا كبني هاشمٍ في تواضُعِهم، وفي إنصافهم لمنْ دونهم.
وقد قال في شبيهٍ بهذا المعنى عَبْدةُ بن الطبيب، حيث يقول:

إن الذين تُـرَوْنَـهُـمْ خـلاَّنـكُـمْ　　يَشْفي صُداع رؤوسهم أن تُصْرعوا

فضلت عداوتهم على أحـلامِـهـم　وأبتْ ضِبابُ صُدورهم لا تنـزعُ

من عجائب الضب فأمَّا ما ذكروا أنَّ للضبّ أيرين، وللضَّبَّة حِرَين، فهذا من العجب العجيب، ولم نجدْهم يشكُّون، وقد يختلفون ثمَّ يرجعون إلى هذا العمود، وقال الفزاريّ:

جبى المالَ عُمَّالُ الخراج وجِبْوتي　مُحذَّفة الأذناب صُفْرُ الشّواكلِ

رَعين الدَّبا والبَقْلَ حتى كـأنـمـا　　كساهُنَّ سُلْطانٌ ثيابَ المـراجلِ

سِبحْل له نزكانِ كانـا فـضـيلـةً　　على كُلِّ حاف في البلاد وناعل

ترى كلَّ ذيَّال إذا الشمسُ عارضتْ　سما بين عِرْسَيْهِ سُمُوَّ المـخـايلِ

واسم أيره النَّزْك، معجمة الزّاي والنون من فوق بواحدة، وساكنة الزاي، فهذا قول الفزاريّ، وأنشد الكِسائي:

تفرَّقتمُ لا زلْتـم قِـرْنَ واحـدٍ　　تفرُّق أيْر الضّبِّ والأصل واحدُ

فهذا يؤكد ما رواه أبو خالد النميري، عن أبي حيّة النُّميري، قال أبو خالدِ: سئل أبو حيّة عن ذلك، فزعم أنّ أير الضبّ كلسان الحيّة: الأصل واحدٌ، والفرعُ اثنان.

زعم بعض المفسِّرين في عقاب الحية

وبعضُ أهل التّفسير يزعم أنّ اللّه عزّ وجلّ عاقب الحيَّة - حين أدخلتْ إبليس في جوفها حتَّى كلّم آدم على لسانها - بعشر خصال، منها شقُّ اللسان.
قالوا: فلذلك ترى الحيّة أبداً إذا ضُربت لتُقْتل كيف تُخرجُ لسانها، تلويه كما يصنعُ المسترحمُ من النَّاس بإصبعه إذا ترحّم أو دعا، لترىَ الظالمَ عقوبة اللّه تعالى لها.

قول بعض العلماء في تناسل الضب قال أبو خالد: قال أبو حيّة: الأصل واحد، والفرع اثنان، وللأنثى مَدخلان، وأنشد لحبَّى المدنيَّة:

وَدِدتُ بأنّه ضبٌّ وأنـي　　　كضبَّة كُدْيةٍ وجَدَتْ خلاءَ

قال: قالت هذا البيت لابنها، حين عذلها، لأنَّها تزوّجتْ ابن أمِّ كلاب، وهو فتى حدثٌ، وكانت هي قد زادت على النَّصَف، فتمنَّتْ أن يكون لها حِرانِ ولزوجها أيران.
وقال ابن الأعرابيّ: للأنثى سبيلان، ولرحمها قُرْنتان، وهما زاويتا الرَّحم، فإذا امتلأت الزَّاويتان أتأمتْ، وإذا لم تمتلئْ أفردت.
وقال غيرُه من العلماء: هذا لا يكون لذوات البيض والفراخ، وإنما هذا من صفة أرحام اللواتي يحْبلن بالأولاد، ويضعْن خلقاً كخلقهنَّ ويُرْضعن، وكيف تُفرِد الضبّة وهي لم تتئم قط، وهي تبيض سبعين بيضة في كلِّ بيضةٍ حِسْل.
قال: ولهذه الحشرات أيورٌ معروفة، إلاّ أنّ بعضها أحقر من بعض، فأما الخصى فشيءٌ ظاهرٌ لمن شقّ عنها.
تناسل الذباب وجسر أبو خالد، فزعم أنه قد أبصر أير ذباب وهو يكُوم ذبابة وزعم أن اسم أيره المُتْك، وأنشد لعبد اللّه بن همام السَّلوليِّ:

لما رأيْتُ القصْرَ غُلِّقَ بابـه　　　وتعلَّقتْ همْدانُ بالأسبـابِ

أيقنْتُ أنّ إمارة ابن مُضاربٍ　　　لم يبْقَ منها قِيسُ أير ذُبابِ

وهذا شعرٌ لا يدلُّ على ما قال.
وقال أصحابنا: إنّما المتك البظْر، ولذلك يقال للعِلْج: يابن المتْكاء كما يقال له: يابن البظراء.

فيمن استطاب لحم الضب ومن عافه

روى أنَّه أُتي به على خوان النبي صلى الله عليه وسلم فلم يأكله، وقال: ليس من طعام قومي، وأكله خالد بن الوليد فلم يُنكر عليه.
ورووا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا أحلُّه ولا أحرِّمه، وأنكر ذلك ابنُ عباس وقال: ما بعثه اللّه تعالى إلاّ ليُحلّ ويحرِّم.
وحرّمه قومٌ، ورووا أنَّ أُمّتين مُسختا، أخذت إحداهما في البَرِّ، فهي الضِّباب، وأخذت الأخرى في طريق البحر، فهي الجِرِّيّ.
ورووْا عن بعض الفقهاء أنه رأى رجلاً أكل لحم ضبٍّ، فقال: اعلمْ أنَّك قد أكلت شيخاً من مشيخة بني إسرائيل.
وقال بعضُ من يعافه: الذي يدلُّ على أنّه مِسْخ شبه كفّه بكفِّ الإنسان.

وقال العُدار الأبرص، نديم أيّوب بن جعفر، وكان أيوبُ لا يغبّ أكل الضباب، في زمانها، ولها في المِرْبد سوقٌ تقوم في ظلّ دار جعفر، ولذلك قال أبو فرعون، في كلمة له طويلة:

سُوقُ الضبابِ خير سوقٍ في العربْ

وكان أبو إسحاق إبراهيم النظام والعُدار، إذا كان عند أيوب قاما عن خوانه، إذا وضع له عليه ضبّ، ومما قال فيه العُدار قوله:

له كَفٌّ إنسانٍ وخَلْقُ عَظايةٍ وكالقِرد والخنزير في المسْخ والغضبْ

قول العوام في المسخ والعوامّ تقول ذلك، وناسٌ يزعمون أن الحيّة مسخ، والضبّ مِسْخ، والكلبَ مِسْخ، والإربيان مِسخ، والفأر مسخ.
قول أهل الكتاب في المسخ ولم أر أهل الكتاب يُقِرُّون بأنَّ اللّه تعالى مسخ إنساناً قط خنزيراً ولا قرداً، إلاّ أنهم قد أجمعوا أنّ اللّه تبارك وتعالى قد مسخ امرأة لُوطٍ حَجَراً، حين التفتتْ.
وتزعم الأعراب: أنَّ اللّه عزّ ذكره قد مسخ كلَّ صاحب مَكْس وجابي خراج وإتاوة، إذا كان ظالماً، وأنه مسخ ماكسين، أحدهما ذئباً والآخر ضبعاً.
شعر الحكم بن عمرو في غرائب الخلق وأنشد محمَّد بن السَّكن المعلِّم النحويّ، للحكم بن عمرو البهراني، في ذلك وفي غيره شعراً عجيباً، وقد ذكر فيه ضروباً كلُّها طريف غريب، وكلها باطل، والأعراب تؤمن بها أجمع.
وكان الحكَم هذا أتى بني العنبر بالبادية، على أنَّ العنبر من بَهْراء، فنفوه من البادية إلى الحاضرة، وكان يتفقَّه ويفتي فُتيا الأعراب، وكان مكفوفاً ودهريّاً عُدْمُليّاً، وهو الذي يقول:

إنّ ربيِّ لمِا يشاءُ قديرٌ	ما لشيءٍ أرادهُ منْ مفرِّ
مسخَ الماكسينِ ضبعاً وذئباً	فلهذا تناجلا أمَّ عمرو
بعثَ النملَ والجرادَ وقفّى	بنجيعِ الرُّعافِ في حيٍّ بكر
خرقتْ فارةٌ بأنفِ ضئيلٍ	عرماً محكمَ الأساس بصخر
فجَّرته وكانَ جيلان عنهُ	عاجزاً لو يرومُه بعد دهر
مسخَ الضبّ في الجدالة قدْماً	وسهيلَ السماءِ عمداً بصغر
والذي كانَ يكتنى برغالٍ	جعلَ اللهُ قبرهُ شرَّ قبر

وكذا كلُّ ذى سـفينٍ وخـرجِ ... ومكوسٍ وكلُّ صاحبِ عشـر

منكبٌ كافرٌ وأشـراطُ سـوءٍ ... وعريفٌ جزاؤه حـرٌّ جـمـر

ونزوجتُ في الشـبـيبةِ غـولا ... بغزالٍ وصدقتي زقُّ خـمـر

ثيبٌ إن هويتُ ذلـك مـنـهـا ... ومتى شئتُ لم أجدْ غيرَ بكـر

بنتُ عمرو وخالها مسحَل الخي ... ر وخالي هميمُ صاحبُ عمرو

ولـها خـطة بـأرض وبـارٍ ... مسحوها فكان لي نصفُ شطر

أرضُ حوشٍ وجاملٍ عكـنـانٍ ... وعروج من المـؤبَّـل دثـر

سادة الجنّ ليس فيها من الـج ... نِّ تـاجـر وآخـرَ مـكـر

ونفوْا عن حريمها كلَّ عفـرٍ ... يسرقُ السمعَ كل لـيلة بـدر

في فتوٍ من الشنـقـنـاق غـرٍ ... ونساءٍ من الـزوابـع زهـر

تأكل القولُ ذا البساطة مـسياً ... بعد روثِ الحمار في كل فجر

جعلَ اللهُ ذلك الـروثَ بـيضـا ... من أنوقٍ ومن طروقة نـسـر

ضربت فردةً فصارتْ هـبـاءً ... في محاق القمير آخرَ شـهـر

تركتْ عبدلاً ثمالَ الـيتـامَـى ... وأخوه مزاحم كـان بـكـرى

وضعتْ تسعةً وكانـت نـزورا ... من نساء في أهلها غير نـزر

غلبتني على النجابةِ عرسـيْ ... بعد ما طار في النجابةِ ذكرى

وأرى فيهمُ شـمـائلَ إنـسٍ ... غيرَ أنْ النجار صورةُ عفـر

وبها كنتُ راكـبـاً حـشـراتٍ ... ملجماً قنفذاً ومـسـرجَ وبـر

كنت لا أركبُ الأرانب للحيـ ... ض ولا الضبع أنها ذاتُ نكر

تركبُ المقعصَ المجيف ذا النعـ ... ظ وتدعو الضباع من كلِّ جحر

جائباً للبحار أهدى لـعرسـي ... فلفُلا مجتنًى وهضمة عطر

وأحلّى هريرَ من صدفِ البحـ ... ر وأسقى العيالَ من نيلِ مصر

ويسنى المعقودَ نفثي وحلـيِّ ... ثم بخفى على السَّواحر سحري

وأجوب البلاد تحتـىَ ظبـيٌ ... ضاحكٌ سنهُ كثيرٌ الـتـمـرى

مولـجٌ دبرهُ خـواية مـكـوٍ ... وهو بالليلِ في العفاريت يسرى

يحسبُ الناظرون أنِّى ابن مـاءٍ ... ذاكرٌ عشهُ بـضـفةِ نـهـر

ربَّ يوم أكلت من كبدِ الـلـي ... ث وأعقبتُ بين ذئبٍ ونـمـر

ليس ذا كم كمن يبيتُ بـطـيناً ... من شواءِ ومن قـلـيةِ جـزر

ثم لاحظتُ خلَّتـي فـي غـدوٍ ... بينَ عيني وعينها السمُّ يجرى

ثم أصبحتُ بعد خفضٍ ولـهـوٍ ... مدنفاً مفرداً محالـفَ عسـر

أتراني مقتٌّ مـن ذبـحَ الـدي ... كَ وعاديتُ من أهابَ بصقر

وسمعتُ النقيقَ في ظلمِ الـلـي ... لِ فجاوبته بـسـرٍ وجـهـر

ثم يرمى بي الجحيمُ جـهـاراً ... في خمير وفي دراهم قـمـر

فلعلْ الإله يرحـمُ ضـعـفي ... ويَرى كبرتي ويقبلُ عذرى

في حل الضب واستطابته

وسنقول في الذين استحلوه واستطابوه وقدّموه.
قالوا: الشيء لا يحرم إلاّ من جهة كتابٍ، أو إجماعٍ، أو حجةِ عقل، أو من جهة القياس على أصل في كتاب اللّه عزّ وجلّ، أو إجماع، ولم نجدْ في تحريمه شيئاً

من هذه الخصال، وإن كان إنَّما يُترك من قِبلِ التقزز؛ فقد أكل الناسُ الدَّجاجَ، والشبابيط؛ ولحوم الجَلاَّلة، وأكلوا السراطين، والعقصير، وفراخ الزّنابير، والصحناء والرَّبيثا فكان التقزُّز مما يغتذي العذِرةَ رطْبةً ويابسة، أولى وأحقَّ من كلِّ شيء يأكل الضروب التي قد ذكرناها وذكرها الرَّاجز حيث يقول:

يَا رُبَّ ضَبٍّ بين أكنافِ اللِّوَى   رعى المُرار والكَبَاث والدَّبا

حَتَّى إذا ما ناصلِ البُهْمَى ارتمى   وأجفئَتْ في الأرض أعْرَافُ السّفَا

ظَلَّ يباري هُبَّصاً وَسْطَ المَلا   وهو بَعيْنَي قانصٍ بالمرْتَبَا

كان إذا أخْفَقَ مِن غير الرعا   رازَمَ بالأكباد منها والكُشَى

فإن عفتموه لأكل الدَّبا فلا تأكلوا الجراد، ولا تستطيبوا بَيضه.
وقد قال أبو حجين المنقريُّ:

ألا لَيت شِعري هل أبيتنَّ ليلة   بأسفل وادٍ ليس فيه أذانُ

وهل آكُلَنْ ضَبّاً بأسقل تَلْعَةٍ   وعرْفجُ أكماع المَديد خِواني

أقومُ إلى وقتِ الصَّلاةِ وريحُهُ   بَكَفَّيَّ لم أغسِلْهُما بشُنَان

وهل أشرَبَنْ مِنْ ماءِ لِينة شرْبة   على عطشٍ من سور أمّ أبانِ

وقال آخر:

لَعَمْرِي لَضَبٌّ بالعُنيزَة صائف   تضحَّى عَرَاداً فهو يَنْفخ كالقرمْ

أحبُّ إلينا أنْ يجاورَ أرْضَنَا   من السَّمكِ البُنّيّ والسَّلّجَم الوَخِمْ

وقال آخرُ في تفضيل أكل الضّبّ:

أقولُ له يوماً وقد راح صُحْبَتي   وباللّه أبغي صَيْدَهُ وأخاتِلُهْ

فلمَّا التقتْ كَفّي على فضْلِ ذَيلِهِ   وشالت شمالي زايَلَ الضَبّ باطلُهْ

فأصبح محنوذاً نضِيجاً وأصبحَتْ   تَمَشَّى على القِيزان حُولاً حلائلهْ

شديد اصفرار الكُشْيَتَيْن كـأنّـمـا   تطلّى بورْس بَطْنُه وشواكِـلُـهْ

فذلك أشْهى عنْدَنا من بـيَاحِـكـمْ   لَحَى اللّه شاريهِ وقُبِّـح آكِـلُـهْ

وقال أبو الهنْديّ، من ولد شَبَثِ بن ربْعيٍّ:

أكَلْتُ الضِّبابَ فما عِفْـتـهـا   وإنّي لأهْوَى قديد الـغـنَـمْ

ورَكَّبتُ زُبداً علـى تَـمـرةٍ   فنِعْمَ الطّـعـام ونِـعْـمَ الأدُمْ

وسَمْن السِّلاءِ وكمءَ القصيصِ   وزينُ السَّديفِ كبودُ النَّـعَـمْ

ولحمَ الخروف حَـنـيذاً وقـدْ   أتيتُ به فائراً في الـشَّـبـمْ

فأمَّا الـبَـهـطُ وحِـيتـانُـكـمُ   فما زِلْتُ منها كَثِيرَ السَّـقَـمْ

وقد نِلْتُ ذاكَ كـمـا نِـلْـتـمُ   فلم أرَ فيها كـضَـبٍّ هَـرِمْ

وما في البُيُوضِ كبَيْضِ الدَّجاج   وَبيْضُ الجراد شِفاءُ الـقَـرِمْ

ومَكنُ الضِّبابِ طعَامُ العُـرَيبِ   وَلا تَشْتَهيهِ نُفُوسُ الـعَـجَـمْ

وإلى هذا المعنى ذهب جِران العود، حين أطعمَ ضيفَه ضَبّاً، فهجاه ابن عمٍّ له كان يُغمزُ في نسبه، فلما قال في كلمةٍ له:

وتُطعِمُ ضَيْفَك الجَوْعَانَ ضباً   وتـأكلُ دُونَـهُ تمْراً بـزبْـدِ

وقال في كلمةٍ له أخْرَى:

وتُطْعِمُ ضَيْفَكَ الجَوْعان ضبّاً   كأنَّ الضَّبَّ عندهم عَرِيبُ

قال جران العود:

فلولا أنَّ أصلْـكَ فـارسـيٌّ   لَمَا عبْتَ الضِّبَابَ ومنْ قرَاها

قريتُ الضيفَ من حُبِّي كُشَاها   وأيُّ لَـويّةٍ إلاّ كُـشـاهـا

واللَّوِيّة: الطُّعيِّم الطّيب، واللّطف يرفع للشّيخ والصبي، وقد قال الأخطل:

فقلتُ لهُمْ هاتوا لَـوية مـالـكٍ   وإنْ كان قد لاقى لَبوساً ومَطْعما

بزماورد الزَّنابير وقال مُويس بن عمران: كان بشر بن المعتَمر خاصّاً بالفضل بن يحيى، فقدِم عليه رجلٌ من مواليه، وهو أحد بني هلال بن عامر، فمضى به يوماً إلى الفضْل؛ ليكرمَه بذلك، وحضرت المائدة، فذكروا الضب ومن يأكلُه، فأفرط الفضْلُ في ذمِّه، وتابَعَهُ القوم بذلك ونظر الهلاليُّ فلم ير على المائدة عربيّاً غيره، وغاظه كلامُهم، فلم يلبث الفضل أن أُتِيَ بصَحْفَة ملآنةٍ من فراخ الزَّنابير، ليتّخذ لَه منها بزماورد - والدَّبر والنَّحل عند العرب أجناسٌ من الذّبان - فلم يشكّ الهلاليُّ أنَّ الذي رأى من ذِبّان البيوت والحشُوش، وكان الفضْلُ حين وليَ خُراسان استظرف بها بزماورد الزَّنابير، فلمَّا قدم العراق كان يتشَّهاها فتطلبُ له من كلِّ مكان، فشمِتَ الهلاليُّ به وبأصحابه، وخرجَ وهو يقول:

ظلَّ يباري هُبَّصاً وَسْط المَلا   وهو بَعيْنَي قانصٍ بالمرْتَبَـا

كان إذا أخْفَقَ مِن غير الرعا   رازَمَ بالأكباد منها والكُشَى

فإن عفتموه لأكل الدَّبا فلا تأكلوا الجراد، ولا تستطيبوا بَيضه.
وقد قال أبو حجين المنقريُّ:

ألا لَيت شِعري هل أبيتنَّ لـيلة   بأسفل وادٍ لـيس فـيه أذانُ

وهل آكُلَنْ ضَبّاً بأسقل تَـلْعَةٍ   وعرْفجُ أكماع المَديد خِوانـي

أقومُ إلى وقتِ الصّلاةِ وريحُهُ   بَكَفَّيَّ لم أغسِلْهُما بـشُنَـان

وهل أشرَبَنْ مِنْ ماءِ لِينة شرْبة   على عطشٍ من سور أمّ أبانِ

وقال آخر:

لَعَمْري لَضَبٌّ بالعُنيزَة صـائف   تضحَّى عَرَاداً فهو يَنْفخ كالقرمْ

أحبُّ إلينا أنْ يجاورَ أرْضَنَـا   من السَّمكِ البُنّيّ والسَّلْجَم الوَخِمْ

وقال آخرُ في تفضيل أكل الضّبّ:

أقولُ له يوماً وقد راح صُحْبَتـي   وباللّه أبغي صَيْدَهُ وأخـاتِـلُـهْ

فلمَّا التقتْ كَفّي على فضْلِ ذَيلِـهِ　　وشالت شمالي زايَلَ الضَبّ باطلُهْ

فأصبح محنوذاً نضِيجاً وأصبَحَتْ تَمَشَّى على القِيزان حُولاً حلائلُهْ

شديد اصفرار الكُشْيَتَيْن كـأنّـمـا　　تطلّى بورْس بَطْنُه وشواكِلُـهْ

فذلك أشْهى عنْدَنا من بـيَاحِكـمْ　　لَحَى اللّه شاريهِ وقبِّح آكِلُـهْ

وقال أبو الهنْديّ، من ولد شَبَثِ بنِ ربْعيٍّ:

أكَلْتُ الضِّبابَ فما عِفْتـهـا　　وإنّي لأهْوَى قديد الـغَـنَـمْ

ورَكّبتُ زُبداً على تـمـرةٍ　　فنِعْمَ الطّـعـام ونِـعْـمَ الأدُمْ

وسَمْن السِّلاءِ وكمءَ القصيص　　وزينُ السَّديفِ كبودُ النَّـعَـمْ

ولحمَ الخروف حَـنـيذاً وقـدْ　　أتيتُ به فائراً في الـشَّـبـمْ

فأمَّا البَـهـطُ وحِيتـانُـكـمُ　　فما زلْتُ منها كَثِيرَ السَّقَـمْ

وقد نِلْتُ ذاكَ كـمـا نِـلْـتـمُ　　فلم أرَ فيها كـضَـبٍّ هَـرِمْ

وما في البُيُوض كبَيْضِ الدَّجاج　　وَبيْضُ الجراد شِفاءُ الـقَـرِمْ

ومَكنُ الضِّبابِ طعَامُ العُـرَيبِ　　وَلا تَشْتَهيهِ نُفُوسُ الـعَـجَـمْ

وإلى هذا المعنى ذهب جِران العود، حين أطعمَ ضيفَه ضَبّاً، فهجاه ابن عمٍّ له كان يُغمزُ في نسبه، فلما قال في كلمةٍ له:

وتُطْعِمُ ضَيْفَك الجَوْعَانَ ضباً　　وتأكلُ دُونَهُ تمرْاً بـزبْـدِ

وقال في كلمةٍ له أخْرَى:

وتُطْعِمُ ضَيْفَكَ الجَوْعانَ ضبّاً　　كأنَّ الضَّبَّ عندهم عَرِيبُ

قال جِران العود:

فلولا أنَّ أصْلكَ فارسيٌّ لَمَا عبْتَ الضِّبَابَ ومنْ قرَاها

قريتُ الضيفَ من حُبِّي كُشَاها وأيُّ لَويّةٍ إلاّ كُشاها

واللَّويّة: الطُّعيِّم الطّيب، واللَّطف يرفع للشَّيخ والصبي، وقد قال الأخطل:

فقلتُ لهُمْ هاتوا لَوية مالكٍ وإنْ كان قد لاقى لَبوساً ومَطْعما

بزماورد الزَّنابير وقال مُويس بن عمران: كان بشر بن المعتَمر خاصّاً بالفضل بن يحيى، فقدِم عليه رجلٌ من مواليه، وهو أحد بني هلال بن عامر، فمضى به يوماً إلى الفضْل؛ ليكرمَه بذلك، وحضرت المائدة، فذكروا الضب ومن يأكلُه، فأفرط الفضْلُ في ذمِّه، وتابَعَهُ القوم بذلك ونظر الهلاليُّ فلم ير على المائدة عربيّاً غيره، وغاظه كلامُهم، فلم يلبث الفضل أن أتِيَ بصَحْفة ملآنةٍ من فراخ الزَّنابير، ليتّخذ لَه منها بزماورد - والدَّبر والنَّحل عند العرب أجناسٌ من الذّبان - فلم يشكّ الهلاليُّ أنَّ الذي رأى من ذِبّان البيوت والحشُوش، وكان الفضْلُ حين وليَ خُراسان استظرف بها بزماورد الزَّنابير، فلمَّا قدم العراق كان يتشَّهاها فتطلبُ له من كلِّ مكان، فشمِتَ الهلاليُّ به وبأصحابه، وخرجَ وهو يقول:

وعِلْج يعافُ الضَّبّ لُؤْماً وبطْنَةً وبعضُ إدام العِلْج هَامُ ذُبابِ

ولو أن مَلْكاً في الْمَلا ناك أمَّه لقالُوا لقدْ أُوتيتَ فَصلَ خطابِ

شعر أبي الطروق في مَهر امرأة لما قال أبو الطروق الضبي:

يقولُون أصْدِقْها جَرَاداً وضَبَّةً فقد جَردَتْ بَيْتي وبَيْتَ عِياليا

وأبْقتْ ضِباباً في الصُّدور جَواثماً فيا لك من دَعْوى تُصِمُّ المُناديا

وعاديتُ أعمامي وهمْ شرُّ جِيرةٍ يُدِبُّونَ شَطْرَ اللَّيْلِ نحوي الأفاعيا

وقدْ كانَ في قعبٍ وقوس وإنْ أشَا من الأقط ما بلَّغن في المَهْر حاجيا

فقال أبوها:

فلو كان قعباً رضّ قعْبك جندلٌ ولَوْ كان قوساً كانَ للنَّبْلِ أذْكرا

فقال عمُّها: دعوني والعبد.

شعر في الضبّ

وأنشد للدُّبيري:

أعامِرَ عبدِ اللّه إنّي وجدتكمْ كعَرْفَجَةِ الضّبّ الذي يتذلّلُ

قال: هي ليّنة، وعودُها ليّن، فهو يعلوها إذا حضروا بالقيظ، ويتشوَّف عليها، ولستَ تَرَى الضّب إلا وهي ساميةٌ برأسها، تنظر وترقب، وأنشد:

بلاد يكون الخَيْمَ أطلال أهْلِها إذا حَضَروا بالقَيْظِ والضَّبُّ نونُها

وقال عمرو بن خويلد:

ركاب حُسَيْلٍ أشْهُرَ الصَّيْف بُدَّنٌ وناقةُ عَمرٍو ما يُحَلُّ لها رَحلُ

إذا ما ابتَنَيْنَا بيتَنا لمعيشةٍ يعُودُ لما نبْني فيهدمُه حِسْلُ

ويزعم حِسْلٌ أنّه فَرْعُ قومِه وما أنت فرعٌ يا حُسيلُ ولا أصْلُ

وُلِدْت بحادي النَّجم تسعى بسعيه كَما ولَدَتْ بالنَّحْسِ دَيَّانهَا عُكْلُ

استطراد لغوي وهم يسمُّون بحسل وحسيل: وضبّ وضبّة، فمنهم ضبّة بن أدّ، وضبة بن محض، وزيد بن ضبّ، ويقال: حفرة ضب، وفي قريش بنو حسل، ومن ذلك ضبَّة الباب، ويسمّى حلْب الناقة بخمس أصابع ضبّاً، يقال ضبَّها يضبُّها ضبّاً: إذا حلبها كذلك، وضبَّ الجُرح وبَضّ: إذا سال دماً، مثل ما تقول: جذب وجبذ، و:إنّه لَخبٌّ ضَبّ، وإنّه لأخْدع من ضبّ، والضبُّ: الحقد إذا تمكَّن وسَرَت عقاربُه، وأخفى مكانه، والضّبُّ: ورمٌ في خفِّ البعير، وقال الرَّاجز:

ليس بذي عرك ولا ذي ضبِّ

ويقال ضَبٌّ خَدِعٌ، أي مراوغ، ولذلك سموا الخزانةِ المخْدع، وقال راشد بن شهاب:

أرقتُ فلم تَخْدَعْ بعينَيَّ نعسةٌ وواللّه ما دَهْري بعشق ولا سَقَمْ

وقال ذو الرُّمَّة:

مناسِمها خُثمٌ صِلابٌ كـأنّـهـا رووس الضِّباب استخرجَتها الظهائرُ

شعر فيه ذكر الضبّ ويدلُّ على كثرةِ تصريفهم لهذا الاسم ما أنشدَناهُ أبو الرُّدَينيّ:

لا يعقر التقبيل إلا زُبِّـي ولا يُداوي مِنْ صَميم الحُبِّ

والضّبُّ في صوَّانِهِ مُجَبّ

وأنشدنا أبو الرُّدينيّ العُكْليّ، لطارق وكنيته أبو السَّمّال:

يا أم سَمَّال ألَـمَّـا تـدْري أنّي على مَيَاسري وعَسْري

يَكفيكِ رِفْدي رجلاً ذا وَفْر ضَخْم المثاليثِ صغير الأير

إذا تغَدّى قالَ تَمْري تمْـري كأنّه بين الذَّرى والكِسْر

ضَبٌّ تَضَحَّى بمكانٍ قفْر

وقال أعرابيّ:

قد اصطدتُ يا يقظان ضَبّا ولم يَكُنْ ليُصطاد ضبٌّ مِثْلُه بالـحـبـائلِ

يَظَلُّ رِعاءُ الشَّاءِ يَرْتَمِضُونَـهْ حَنِيذاً ويُجْنى بَعضُه لـلـحَـلائلِ

عظيمُ الكشى مثلُ الصَّبي إذا عدا يفوتُ الضِّبابَ حِسلُه في السَّحابلِ

وقال العماني:

إنّي لأرْجُو مِن عَطَايا رَبّـي ومِنْ وَلِيِّ العَهد بعد الغِبِّ

رُوميّةً أولجُ فيها ضَبِّـي لها حرٌ مُستهدِفٌ كالـقـبِ

مُستَحصِفٌ نِعْمَ قرابُ الزُّبِّ

وقال الآخر:

إذا اصطَلَحوا على أمرٍ تَوَلَّوْا وفي أجوافهم منه ضِبـابُ

وقال الزِّبرقان بنُ بدر:

ومن الموالي ضَبُّ جَنْدَلَةٍ　　زَمِرُ المروءَة ناقص الشَّبر

فالأول جعل أيره ضَبّاً، والثاني جعل الحقد ضبّاً.
وقال الخليل بن أحمد، في ظهر البصرة مما يلي قصْر أنَس:

زُرْ وادِيَ الْقصرْ نِعْمَ القصرُ والوادي　لا بُدّ مِنْ زورْةٍ عَنْ غير مِيعادِ

تَرَى به السُّفْنَ كالظّلْمانِ واقفةً　　والضبّ والنُّون والملاح والحادي

وقال في مثل ذلك ابنُ أبي عُيَينة:

يا جنَّةً فاتَتِ الجِنان فما　　يَبْلُغُها قِيمةٌ ولا ثمنُ

أَلِفْتُها فاتَّخَذْتُها وَطناً　　إنَّ فؤادي لأهْلِها وطنُ

زُوِّج حيَتانُها الضِّبابَ بها　　فهذه كَنَّةٌ وذا خَتَنُ

فانظُرْ وفكِّرْ فيما تُطيف به　　إنَّ الأريب المفكِّرُ الفَطِنُ

من سُفنٍ كالنّعامِ مقبلةٍ　　ومن نَعَامٍ كأنَّها سُفنُ

وقال عقبة بن مُكَدَّم في صفة الفرَس:

وَلَها مَنْخِرٌ إذا رَفعَتْه　　في المُجاراةِ مثلُ وَجْرِ الضِّبابِ

وأنشد:

وأنْتَ لو ذُقتَ الكُشى بالأكبَادْ　　لما تَرَكْتَ الضّبَّ يسْعى بالوَادْ

وقال أبو حَيّة النُّميري:

وَقرَّبوا كلَّ قِنعاس قُراسيةٍ　　أَبَدَّ ليس به ضبٌّ ولا سرَرُ

وقال كثير:

ومحترش ضبَّ العَداوة منهُم　بحُلْو الرُّقى حرش الضِّباب الخَوادِعِ

وقال كثيِّر أيضاً:

وما زالتْ رُقاكَ تَسُلُّ ضِغْني وتُخْرِجُ مِنْ مضائبها ضِبابي

شعر في الهجاء فيه ذكر الضب

فأما الذين ذمُّوا الضب وأكْلَه، وضربوا المثل به وبأعضائه وأخلاقه وأعماله، فكما قال التميمي:

لَكِسْرى كان أعْقلَ مِنْ تميم لَيَاليَ فرَّ مِنْ أرض الضِّبابِ

فأنزَلَ أهْلَهُ ببلادِ ريفٍ وأشجارٍ وأنهارٍ عِذابِ

وصار بَنُو بَنِيه بها ملوكاً وصِرْنَا نحنُ أمثالَ الكِلابِ

فلا رَحِمَ الإلهُ صَدَى تميم فقد أزْرَى بنا في كلِّ بابِ

وقال أبو نواس:

إذا ما تميميٌّ أتَاكَ مُفاخراً فقلْ عَدِّ عَنْ ذَا كيف أكْلُك للضَّبِّ

تُفاخِرُ أبناء المُلُوكِ سَفاهةً وبَوْلُكَ يَجْري فُوق ساقِكَ والكعْبِ

وقال الآخر:

فحبَّذَا همْ ورَوَّى اللّه أرضَهُمُ مِنْ كلِّ مُنْهمِرِ الأحشاء ذي بَرَدِ

ولا سقى اللّه أياماً غنيتُ بها ببَطْنِ فَلْجٍ على اليَنسُوعِ فالعُقدِ

مواطنٌ مِنْ تميم غير معجِبة أهْلِ الجفاءِ وعيْشِ البُؤس والصَّرَدِ

همُّ الكرامِ كريمُ الأمْرِ تفْعلُهُ وهَمُّ سَعْد بما تُلقي إلى المَعِدِ

أصحاب ضبٍّ ويربوع وحَنْظلةٍ وعَيشةٍ سَكَنُوا منها على ضَمَدِ

إنْ يأكلوا الضّبَّ باتوا مُخصبين به وزَادُها الجُوعُ إن باتَتْ ولم تصدِ

لو أنَّ سعداً لها ريفٌ لقد دُفعَتْ عنه كما دُفِعتْ عن صالح البلدِ

من ذا يقارع سعْداً عَنْ مفازتـهـا   ومَنْ يُنافِسُها في عَيْشها الـنّـكـدِ

وقال في مثل ذلك عَمرُو بنُ الأهتم:

وتَرَكْنا عُمَيْرَهُمْ رَهْنَ ضَبْـعِ   مُسْلَحِباً ورَهْنَ طُلْسِ الذِّئابِ

نَزَلُوا منزلَ الضِّيافة مـنـا   فقرى القومَ غِلمة الأعرابِ

ورَدَدْنَاهُمُ إلـى حَـرَّتَـيْهـم   حَيْث لا يأكُلون غير الضبّابِ

وقالت المرّيّة:

جاؤُوا بحارشةِ الضِّباب كأنَّما   جاؤوا ببنْتِ الحارثِ بن عُبادِ

وقائلة هذا الشعر امرأةٌ من بني مُرَّة بن عباد.
وقال الحارث الكندي:

لعمرك ما إلى حَسَن أنخْنَا   ولا جِئنا حُسيناً يابن أنس

ولكنّ ضبّ جَنْدلةٍ أتـينـا   مُضِبّاً في مضابئها يُفسِّي

فلمَّا أنْ أتينَاهُ وقـلْـنـا   بحاجتنا تَلَوَّنَ لَوْنَ وَرْس

وآضَ بكفّه يحتكُّ ضِرْساً   يُرينا أنّه وَجِعٌ بضـرْسِ

فقلتُ لصاحبي أبهِ كُزازٌ   وقلت أُسِرُّه أتراه يُمسي

وقمْنَا هاربيْن معاً جميعاً   نحاذر أنْ نزَنّ بقتْلِ نَفْس

وقالت عائشة ابنة عثمان، في أبان بن سعيد بن العاص، حين خطبها، وكان نزل أيْلَة وترك المدينة:

نَزَلْتَ ببيتِ الضَّبِّ لا أنت ضائرٌ   عَدُوّاً ولا مستنفعاً أنت نـافـعُ

وقال جرير:

وجَدْنا بيتَ ضَبَّة في تـمـيمٍ   كبَيْتِ الضَّبِّ ليس له سَواري

وقال آخر - وهذا الشعر يقع أيضاً في الضِّباع كما يقع في الضِّباب -:

يا ضبُعَ الأكهافِ ذاتِ الشّعبِ　　والوثبِ للعَنْز وغير الوثـبِ

عِيثي ولا تخشَيْنَ إلاَّ سَبِّي　　فلستُ بالطّبِّ ولا ابن الطَّبِّ

إنْ لم أدع بيْتَك بيتَ الضّبِّ　　يضيق عند ذي القرَد المكبِّ

وقال الفرزدق:

لحى اللّه ماءً حنبلٌ خيرُ أهله　　قفا ضبَّةٍ عند الصّفَاةِ مَكُون

فلو عَلِمَ الحجَّاجُ عِلمَك لم تَبعْ　　يمينُك ماءً مُسلماً بـيَمـين

وأنشد:

زعمْتَ بأنَّ الضبَّ أعمى ولم يفت　　بأعمى ولكن فاتَ وهْو بصـيرُ

بل الضبُّ أعمى يوم يخنِسُ باسته　　إليك بصحراء البـياضِ غـريرُ

وقالت امرأةٌ في ولدها وتهجو أباه:

وُهِبْتُه من ذي ثُفالٍ خَـبِّ　　يقْلبُ عيْناً مثلَ عين الضَّبِّ

ليس بمعشوق ولا مُحَبِّ

وقال رجلٌ من فزارة:

وجدناكم رَأباً بـين أمِّ قِـرفةٍ　　كأسنان حِسْلٍ لا وَفاءٌ ولا غَدرُ

وأنشد:

ثلاثون رأباً أو تزيد ثلاثة　　يقاتلنا بالقرْن ألفٌ مقنَّعُ

والرأب: السواء، والمعنى الأولُ يشبه قوله:

سَواسٍ كأسنان الحمار فلا تَـرَى　　لِذي شَيْبةٍ منهمْ على ناشئٍ فضلا

وأنشد ابنُ الأعرابي:

قُبِّحْتِ من سالفةٍ ومن صُدُغْ　　كأنَّها كُشْية ضبٍّ في صُقُعْ

أراد صُقْع بالعين فقلب، وقال الآخر:

أعقّ من ضبٍّ وأقسَى من ظَربْ

وأنشَد:

فجاءت تهاب الدَّمَّ ليست بضَبّة　　ولا سلفعٍ يلْقى مِراساً زمِيلُها

يقول: لا تخدع كما يخدع الضّبُّ في جُحْره.
وأنشد ابنُ الأعرابي لحيّان بن عبيد الربعي جد أبي محضة:

يا سهلُ لو رأيْتَهُ يَوْمَ الـجُـفَـرْ　　إذْ هو يَسْعى يَسْتَجيرُ لـلـسُّـوَرْ

يَرمي عن الصَّفو ويَرضى بالكَدَرْ　　لازْدَدتَ منه قذراً عـلـى قـذرْ

يضحك عن ثغر ذميم المُكْتَـشَـرْ　　ولِـثةٍ كـأنَّـهـا سَيرُ حَـوَرْ

وعارضٍ كعارض الضَّبِّ الذكرْ

وأنشد السِّدري:

هو القرَنْبى ومَشْيُ الضب تعرفهُ　　وخُصْيَتّا صَرصَراني من الإبـلِ

والخالُ ذو قَحَم في الجرْي صادقةٍ　　وعاتِقٌ يتعقَّى مأبض الـرجُـلِ

واعلم،حفظك اللّه تعالى، أنّه قد أكتِفي بالشّاهد، وتبقى في الشعر فضلةٌ، ممّا يصلح لمذاكرة، ولبعض ما بك إلى معرفته حاجة، فأصلُه به، ولا أقطعهُ عنه.
وأنشد لابن لجأ:

وعَنَوي يَرْتـمـي بـأسْـهُـمِ　　يلصق بالصّخْر لصوقَ الأرْقمِ

لو سئمَ الضبُّ بها لم يسْـأمِ

وقال أعرابيٌّ من بني تميم:

تسخرُ مِنّي أنْ رَأَتْني أحتَرِش   ولو حَرَشْتِ لكَشَفْتِ عن حِرِشْ

يريد عن حِرِك.
قال: وقال أبو سعنَة:

قلَهْزَمانِ جعدةٌ لِحَاهما   عاداهما اللّهُ وقد عادَاهما

ضَبّاً كُدًى قدْ غمِّرَت كشاَاهما

وأنشد الأصمعي:

إنِّي وجدتُك ياجُرثومُ من نفرٍ   جرثومة اللُّؤم لا جُرْثومةِ الكرمِ

إنّا وجَدْنا بني جَلاَن كلَّهمُ   كسَاعدِ الضَّبِّ لا طولٌ ولا عِظمِ

وقال ابن ميّادة:

فإنّ لقيسٍ مِنْ بَغيضٍ لَنَاصراً   إذا أسدٌ كَشّتْ لفخرِ ضِبابُها

وفي هذه القصيدة يقول:

ولو أنّ قيساً قيسَ عَيْلان أقسَمَتْ على الشَّمْسِ لم يَطْلُع عليك حجابُها

وهذا من شكل قول بشّار:

إذا ما غضِبنا غضْبةً مُضَرِيّةً هَتَكْنا حِجابَ الشَّمْسِ أو مَطرتْ دمَا

وأنشد لأبي الطَّمَحان:

مهْلاً نَميرُ فإنَّكُمْ أمسيتُمُ   مِنّا بثغْرِ ثنيَةٍ لم تستَر

سُوداً كأنّكمُ ذئابُ خطيطةٍ   مُطِرَ البلادُ وحِرْمُها لم يُمْطَر

يحْبُون بينَ أجاً وبُرْقةِ عالجٍ   حبْو الضِّبابِ إلى أصول السَّخْبَر

وتَرَكْتُمُ قصب الشُّرَيفِ طوامياً   تهوي ثنيّتُهُ كعين الأعور

مفاخرة العُثِّ للضبِّ

وقال العُثّ، واسمه زيد بن معروف، للضب غلام رُتْبيل بن غلاق: وقد رأيت من سمّى عَنزاً وثوراً، وكلباً، ويربوعاً،فلم نر منهم أحَداً أشبَه العنز ولا الثَّور، ولا الكلب، ولا اليربوع، وأنتَ قد تقيَّلتَ الضَّبَّ حتى لم تغادِرْ منه شيئاً، فاحتمَلَ ذلك عنه، فلمَّا قال:

من كان يدعى باسمٍ لا يناسِبهُ فأنتَ والاسْمُ شَنٌّ فوقه طبقُ

فقال ضبٌّ لعثّ:

إن كنْتُ ضَبّاً فإنَّ الضّبَ مُحْتَبَلٌ والضبُّ ذو ثمن في السُّوق مَعْلُومِ

وليس للعُثِّ حَبَّالٌ يُرَاوِغُه ولسْتَ شَيَئاً سِوَى قرضٍ وتقليم

وما أكثر ما يجيء الأعرابي بقربةٍ من ماء، حتى يفرغها في جحره، ليخرج فيصطاده، ولذلك قال الكميت في صفة المطر الشديد الذي يستخرج الضِّباب من جِحَرتها، وإن كانتْ لاتتّخذها إلا في الارتفاع - فقال:

وعلته بتركها تحفش الأكْ مَ ويكفي المضبِّبَ التفجيرُ

والمضبّب هو الذي يصيد الضباب.

القول في سن الضب وعُمره

أنشد الأصمعيُّ وغيره:

تعلّقت واتّصلت بعكْلِ خِطْبي وهَزّتْ رأسها تسْتبْلي

تسألني من السِّنين كمْ لي فقُلْتُ لو عمِّرتُ عمرْ الحِسْلْ

أو عُمرَ نوحٍ زَمَنَ الفِطحْلِ والصَّخْرُ مُبْتَلٌّ كطِينِ الوَحْلْ

صِرْتُ رَهينَ هَرَمٍ أو قتْلِ

وهذا الشِّعر يدلُّ على طول عمر الحِسْل؛ لأنه لم يكن ليقول:

أو عُمرَ نوحٍ زمنَ الفِطحْلِ والصّخرُ مبتلٌّ كطين الوَحْلْ

إلاَّ وعمر الحِسل عنده من أطول الأعمار.
وروى ابن الأعرابي عن بعض الأعراب أنّ سِنَّ الضبّ واحدة أبداً، وعلى حال

أبداً، قال فكأنه قال: لا أفعله ما دامَ سِنها كذلك، لا ينقص ولا يزيد.
وقال زيد بن كَثوة: سنّ الحِسْل ثلاثة أعوام، وزعم أن قوله ثمّة: لا أفعله سِنَّ الحسل غلَط، ولكن الضبَّ طويلُ العمر إذا لم يَعرِضْ له أمر.
وسنُّ الحِسل مِثلُ سنّ القلوص، ثلاث سنين، حتى يلقح؛ ولو كانت سنُّ الحِسل على حال واحدة أبداً لم تعرف الأعرابُ الفتيَّ من المُذكِّي.
وقد يكون الضَّبُّ أعظمَ من الضّبّ وليس بأكبَر منه سِنّاً.
قال: ولقد نظرتُ يوماً إلى شيخ لنا يفرُّ ضَبّاً جَحْلاً سِبَحْلاً قد اصطاده، فقلت له: لم تفعلُ ذلك؟ فقال: أرجو أن يكون هرماً.

بيض الضب

قال: وزعم عمرو بن مسافر أن الضّبّة تبيض ستِّين بيضة، فإذا كان ذلك سدَّت عليهن باب الجُحر، ثم تدعهن أربعين يوماً فيتفقَّص البيض، ويظهر ما فيه، فتحفر عنهنَّ عند ذلك، فإذا كشفَتْ عنهن أحْضَرْن وأحضرَتْ في أثرهن تأكلهن، فيحفر المنفلت منها لنفسه جُحراً وَيرْعى من البقْل.
قال: وبيض الضبّ شبيهٌ ببيض الحمام، قال: وفرخه حين يخرج يخْرُج كيّساً كاسياً، خبيثاً، مُطيقاً للكَسْب، وكذلك ولد العقرب، وفراخ البطّ، وفراريج الدَّجاج، وولد العناكب.

سنّ الضب

وقال زيدبن كَثوة، مَرَّةً بعد ذلك: إنّ الضب ينبت سِنُّه معه وتكبر مع كِبر بدنه، فلا يزال أبداً كذلك إلى أن ينتهي بدنُه منْتهاه قال: فلا يُدعى حِسلاً إلا ثلاثَ ليال فقط.
وهذا القول يخالف القول الأوّل، وأنشَدَ:

مَهَرْتُها بعد المِطالِ ضَبَّيْنْ مِنَ الضباب سَحْبَلَيْنِ سَبْطين

نِعْمَ لعمرُ اللّه مهْر العِرْسَيَنْ

أنشدني ابن فَضَّال: أمْهَرتها وزعم أنّه كذلك سِمعها من أعرابيّ.
وقد يكون أن يكون الحسل لا يُثني ولا يُرْبِع، فتكون أسنانُه أبداً على أمر واحد، ويكون قول رؤبة بن العجّاج في طول عمره حَقّاً.
ويدلُّ على أنّ أسنانَه على ما ذكروا قولُ الفزاريّ:

وجدناكمُ رأباً بنـي أمّ قِرفةٍ كأسنان حِسْلٍ لا وَفَاءٌ ولا غدْرُ

يقول: لا زيادة ولا نقصان.

قصة في عمر الضب

وقال زيد بن كَثْوَة المزني: قال العنبريّ، وهو أبو يحيى: مكثتُ في عنفوان شَبيبتي، وريَعانٍ من ذلك، أُريغُ ضَبّاً، وكان ببعض بلادنا في وشاز من الأرض، وكان عظيماً منها مُنْكراً، ما رأيتُ مِثله، فمكثت دهراً أُريغه ما أقدر عليه، ثم إنّي هبطت إلى البصرة، فأقمت بها ثلاثينَ سنةً، ثمَّ إنِّي واللّه كرَرْتُ راجعاً إلى بلادي، فمررتُ في طريقي بموضع الضّبّ، معتمداً لذلك، فقلت: واللّه لأعلمنَّ اليوم عِلمَه، وما دَهري إلا أن أجعل من جلده عُكَّة؛ للّذي كان عليه من إفراط العِظَم، فوجَّهت الرَّواحل نحوه، فإذا أنا به واللّه مُحْرنْبئاً على تَلعة؛ فلمّا سمع حِسّ الرّواحل، ورأى سواداً مقبلاً نحوه، مرَّ مسرعاً نحو جحره، وفاتني واللّه الذي لا إله إلا هو.

مكن الضَّبة

وقال ابن الأعرابيّ: أخبرني ابن فارس بن ضِبْعان الكلبيّ، أنَّ الضّبّة يكون بيضُها في بطنها، وهو مكْنها، ويكون بيضُها متَّسِقاً، فإذا أرادَتْ أن تبيضَه حفرَتْ في الأرض أُدْحيّاً مثلَ أُدْحِيِّ النعامة، ثم ترمي بمكنها في ذلك الأدحِيّ ثمانين مَكنة، وتدفنه بالتُّراب، وتدعُه أربعين يوماً، ثم تجيءُ بعد الأربعين فتبحثُ عن مَكْنها، فإذا حِسَلَةٌ يتعادين منها، فتأكلُ ما قدَرت عليه، ولو قدرَتْ على جميعهن لأكلتهنّ، قال: ومَكنها جلدٌ ليّن، فإذا يبست فهي جلد، فإذا شويْتَّها أو طبخْتَها وجَدْت لها مُحّاً كمحِّ بيض الدّجاج.

عداوة الضَّبة للحية

قال: والضَّبّة تقاتل الحيّة وتضربُها بذنبها، وهو أخشن من السَّفَن وهو سلاحها، وقد أعطيت فيه من القُوَّةِ مثل ما أعطيت العُقاب في أصابعها، فربما قطعتها بضربة، أو قتلتها، أو قدّتها، وذلك إذا كان الضّبّ ذَيّالاً مذنِّباً وإذا كان مرائساً قتلته الحية.
والتذنيب: أنّ الضبّ إذا أرادت الحيّةُ الدُّخول عليه في جُحره أخرَج الضبُّ ذنبه إلى فم جُحره، ثم يضرب به كالمخراق يميناً وشمالاً، فإذا أصاب الحية قطعها، والحية عند ذلك تهرُبُ منه، والمراءسة: أن يُخرج الرَّأس ويدَعَ الذَّنَب ويكون غُمراً فتعضّه الحيَّة فتقتله.
استطراد لغوي قال: وتقول: أمكنت الضبّة والجرادة فهي تمكن إمكاناً: إذا جمعت البَيضَ في جوفها، واسم البَيض المَكن، والضّبة مكُون، فإذا باضت الضّبة والجرادةُ قيل قد سرأت، والمكن والسَّرء: البيض، كان في بطنها أو بعد أن تبيضه، وضَبّة سرُوء، وكذلك الجرادة تسرَأ سرءاً، حين تُلقي بيضها، وهي حينئذ سِلْقة.
وتقول: رزّت الجرادة ذنبها في الأرض فهي ترزُّ رزّاً، وضربت بذنبها الأرض ضرباً، وذلك إذا أرادت أن تلقي بيضها.
المضافات من الحيوان ويقولون: ذئب الخمَر، وشيطان الحماطة، وأرنب الخُلّة، وتيس الرَّبْل، وضبّ السَّحا، والسَّحا: بقلة تحسُن حاله عنها.
ويقال: هو قنفذ بُرْقة، إذا أراد أن يصِفَه بالخُبث.

ذكر الشعراء للضب في وصف الصيف

وما أكثر ما يذكرون الضَّبَّ إذا ذكَرُوا الصيف مثل قول الشاعر:

سار أبو مسلمٍ عنهـا بـصِرْمَـتِـهِ والضبُّ في الجُحْرِ والعُصفورُ مُجتمعُ

وكما قال أبو زبيد:

أيُّ ساعٍ سَعَى ليقطع شـرْبـي حين لاحت للصَّابح الـجـوزاءُ

واستكنَّ العُصفور كَرْهاً مع الضبِّ وأوْفى في عُودِهِ الحِربـاءُ

وأنشد الأصمعيّ:

تجاوَزْتُ والعصفور في الجُحر لاجئٌ مع الضَّبِّ والشِّقْذانُ تَسمُو صدورُها

قال: والشِّقذان: الحرَابيّ، قوله: تسمو: أي تَرتَفِعُ في رؤوس العيدان، الواحد من الشّقذان، بكسر الشين وإسكان القاف، شَقَذ بتحريك القاف.

أسطورة الضب والضفدع

وتقول الأعراب: خاصم الضبُّ الضفدعَ في الظّمأ أيُّهما أصبر، وكان للضفدع ذنَب، وكان الضبُّ ممسوحَ الذنب، فلمّا غلبها الضبُّ أخذ ذنَبها فخرجا في الكلأ، فصَبرت الضفدع يوماً ويوماً، فنادت: يا ضبّ، ورداً ورداً فقال الضبُّ:

أصبَحَ قلْبي صَرِدا لا يشْتَهي أن يَرِدا

إلاّ عَرَاداً عَرِدا وصِلِّيانـاً بَـرِدَا

فلما كان في اليوم الثالث نادت: يا ضَبُّ، ورداً ورداً قال: فلمّا لم يُجِبها بادَرَتْ إلى الماء، وأتْبعها الضبُّ، فأخذ ذنَبها، فقال: في تصْداق ذلك ابن هَرْمة:

ألم تأرَقْ لضوءِ البَرْقِ في أسْحَمَ لـمَّـاح

كأعناق نسـاء الـهِـنْدِ قد شِيبَتْ بـأوْضـاح

تُؤَامِ الـوَدْق كـالـزّرّافِ يُزْجَى خَلْفَ أطلاح

كأنّ العـازف الـجـنِّيَّ أو أصوات أنْـوَاح

على أرجائها الـغُرّ　　　　تَهَدِّيها بـمـصْبـاح

فقال الضبُّ للضفدِ　　　　ع في بَيداءَ قِرواح

تأمّل كيف تنْجوُ اليو　　　　مَ من كرب وتطْواح

فإنـي سَابـحٌ نـاجٍ　　　　وما أنـتَ بـسَبَّـاح

فلمّا دق أنـف المُزْ　　　　نِ أبْـدَى خـيرَ إرْواح

وسَحَّ الماء من مُستحْ　　　　لَب بالمـاء سَحَّـاح

رَأى الضبَّ من الضفد　　　　ع عَوماً غير مِنْجـاح

وحطَّ العُصْمَ يُهويها　　　　ثجُوجٌ غير نَـشّـاح

ثقالُ المشْي كالسَّكرا　　　　نِ يمشي خلفه الصَّاحي

ثم قال في شأن الضفدع والضب، الكميتُ بن ثعلبة:

على أخْذِها يَوْمَ غِبِّ الوُرُود　　　　وعند الحكومة أذْنَـابَـهـا

وقال عبيد بن أيوب:

ظَللت وناقتي نِضْويْ فَـلاةٍ　　　　كفَرْخ الضبّ لا يبغي ورُودا

وقال أبوزياد: قال الضبّ لصاحبه:

أهَدَموا بَيْتَكَ لا أبـالَـكـا　　　　وزعموا أنك لا أخالـكـا

وأنا أمشي الحَيكى حوالكا

قول العرب أروى من الضب

وتقول العرب: أرْوَى من ضبّ؛ لأن الضب عندهم لا يحتاجُ إلى شُرب الماء، وإذا هرم اكتفى بَبْرد النَّسيم، وعند ذلك تفنى رطوبته فلا يبقى فيه شيءٌ من الدَّم، ولا مما يُشبه الدّم، وكذلك الحيَّة، فإذا صارت كذلك لم تقْتُلْ بلعاب، ولا بمجَاج، ولا بمخالطةِ ريق؛ وليس إلاَّ مخالطة عظم السِّنَّ لدماء الحيوان، وأنشدوا:

لُمَيْمَةَ من حنَش أعْمَى أصمّ قد عاشَ حتَّى هو لا يمْشِي بدمْ

فكلّما أقصدَ منه الجوعُ شمّ

وأما صاحبُ المنطق فإنه قال: باضطرار إنه لا يعيش حيوانٌ إلاّ وفيه دمٌ أو شيء يشاكل الدم،

إخراج الضب من جحره

والضبُّ تذْلقه من جُحره أمور، منها السَّيل، وربَّما صبُّوا في جحره قربةَ من ماءِ فأذْلقوه به، وأنشد أبو عبيدة:

يُذلقُ الضبَّ ويَخفيه كما يُذلقُ السَّيلُ يَرابيعَ النُّفَقْ

يَخفيه مفتوحة الياء، وتذلقه وقع حوافِر الخيل، ولذلك قال امرؤ القيس بن حُجْر:

خَفَاهُنَّ مِنْ أنْفاقهنَّ كـأنَّـمـا خَفَاهُنَّ وَدْقٌ من سَحابٍ مُرَكّبِ

تقول: خَفَيْته أخفِيه خَفْياً: إذا أظهرته، وأخفيته إخفاءً: إذا ستَرته، وقال ابن أحمر:

فإن تَدْفِنُوا الدّاءَ لا نَخفِـهِ وإنْ تبعثُوا الحربَ لا نقعُدِ

ولا بدَّ من أن يكونَ وقعُ الحوافرِ هدَم عليها، أو يكونَ أفزَعَها فخرجَتْ، وأهلُ الحجاز يسمُّون النّبّاش المُخْتفِي؛ لأنّه يستخرج الكفَنَ من القبْر ويُظهره.
وحكَوا عن بعض الأعراب أنّه قال: إنَّ بني عامر قد جعلوني على حِنديرة أعينها، تريد أن تختفي دمي أي تظهره وتستخرجه، كأنّها إذا سفحَتْه وأراقته فقد أظهرتْه.
قول أبي عبيدة في تفضيل أبيات لامرئ القيس وأنشد أبو عبيدة:

دِيمةٌ هَطْلاءُ فيهـا وَطَـفٌ طبقُ الأرض تَحَرَّى وتَدُرّْ

تُخرج الضبَّ إذا ما أشجَذَتْ وتُواريه إذا ما تَعْـتَـكِـرْ

وتَرَى الضّبَّ ذفيفاً ماهراً ثانياً بُرثُنَه مـا يَنْـعَـفِـرْ

وكان أبو عبيدة يقدِّم هذه القصيدة في الغيث، على قصيدة عَبيد بن الأبرص، أوْ أوس بن حجر، التي يقول فيها أحدهما:

دانٍ مُسِفٍّ فويْقَ الأرْض هَيْدَبه يَكادُ يَدْفعُه مَنْ قامَ بـالـرَّاح

فمن بنَجْوَته كَمَنْ بعَقْوَتِـهِ   والمُستَكنُّ كَمَنْ يمشي بقِرْواحِ

وأنا أتعجّب مِنْ هذا الحكم.
قولهم: هذا أجلُّ من الحرش ومما يضيفون إلى هذه الضِّباب من الكلام، ما رواه الأصمعيّ في تفسير المثل، وهو قولهم: هذا أجَلُّ من الحَرْش - أنّ الضَّبَّ قال لابنه: إذا سمعْتَ صَوْتَ الحَرْشِ فلا تخْرُجَنَّ قال: والحَرْش: تحريكُ اليدِ عند جُحر الضب؛ ليخرج ويَرى أنّه حيّة، قال: فسمع الحِسْل صَوْتَ الحفْر، فقال للضّبِّ: يا أبت هذا الحرش؟ قال: يا بُنَيّ، هذا أجَلّ من الحُرْش فأرسَلَها مثلاً.

الضب والضفدع والسمكة

وقال الكميت:

يُؤَلِّفُ بَيْنَ ضِفدِعَة وضَبٍّ   ويَعْجَب أنْ نَبَرّ بني أبينا

وقال في الضَّبِّ والنُّون:

وَلوْ أنَّهُمْ جاؤوا بشيءٍ مُقـاربٍ   لِشَيءٍ وبالشِّكْل المقاربِ للشّكْل

ولَكِنَّهُمْ جاؤوا بحِيتـان لُـجَّةٍ   قوامسَ والمكنيِّ فينا أبا حِسْلِ

وقال الكميت:

وما خلْتُ الضّبابَ مُعطَّفـاتٍ   على الحيتان مِنْ شَبَهِ الحسولِ

وقال آخر: والعَربُ تقولُ في الشَّيءِ المُمْتَنِع: لا يكونَ ذلك حتى يَرِدَ الضبُّ، وفي تبعيدِ ما بينَ الجِنْسَيْن: حتّى يؤلّف بين الضَّبِّ والنُّون.
استطراد لغوي قال: ويقال أضبَّت أرض بني فلان: إذا كَثرتْ ضِبابها، وهذه أرضٌ مَضبَّة، وأرضُ بني فلان مَضبَّة، مثل فَئِرة من الفأر، وجَرِذة من الجُرذان، ومَحوَاة ومَحْياة من الحيّات، وجَرِدة من الجراد، وسرِفة من السُّرفة، ومأسَدَة من الأسود، ومَثْعلة من الثّعالب؛ لأن الثَّعلب يسمَّى ثعالة، والذّئب ذُؤالة.
ويقال أرضٌ مَذبَّة من الذُّباب، مَذْأبَة من الذِّئاب.
ويقال في الضّبِّ: وقعْنا في مَضابَّ منكَرَة، وهي قطعٌ من الأرض تكثر ضِبابُها.
قال: ويقال أرضٌ مربْعة، كما يقال مضبَّة، إذا كانت ذات يرابيع وضِباب، واسمُ بيضها المَكْن، والواحدة مكنِة.
ويقال لفرْخه إذا خرج حِسْل، والجميعُ حَسَلَة، وأحسال، وحُسول، وهو حِسْل، ثم مُطبِّخ ثم غيداق، ثمَّ جَحْل، والسَّحْبَلُ: ما عظم منها، وهو في ذلك كلِّه ضبٌّ.

وبعضُهم يقول: يكون غَيداقاً، ثم يكون مطبِّخاً، ثمَّ يكون جَحْلاً، وهو العظيم، ثمَّ هو خُضَرِمٌ، ثمَّ يكون ضَباً، وهذا خطأ، وهو ضَبٌّ قبل ذلك، وقال الرَّاجز:

ينفي الغياديقَ عن الطَّريق   قلَّص عنه بيضُهُ في نيق

ما يوصف بسوء الهداية من الحيوان ويقال: أضَلُّ من ضبٍّ، والضلال وسوء الهِداية يكونُ في الضبِّ، والورَل، والدِّيك.

الضب وشدة الحر

وإذا غيّر الحَرُّ لون جِلْدِ الضبِّ فذلك أشدُّ ما يكون من الحر، وقال الشَّاعر:

وهَاجرةٍ تُنْجي عنِ الضَّبِّ جِلْدَه   قطعْتُ حَشَاهَا بالغُرَيريَّة الصُّهبِ

أمثال في الضب

وفي المثل: خلِّ دَرَجَ الضبّ، وفي المثل: تعْلِمني بضبٍّ أنا حرَشْتُه؛ و: هذا أجَلُّ من الحَرْش، و:أضلُّ من ضبٍّ و: أخبُّ من ضبّ، و: أروى من ضبٍّ، و: أعَقُّ من ضبّ، و: أحيَا من ضبٍّ، و: أطوَلُ ذَماءً من ضبّ، و:كلُّ ضَبٍّ عِندَ مِرْداته، ويقال: أقصرُ من إبهام الضّبّ كما يقال: أقصر من إبهام القطاة، وقال ابن الطَّثْريّةِ:

ويومٍ كإبهام القطاة

ومن أمثالهم: لا آتِيكَ سنَّ الحِسْل، وقال العجاج:

ثُمَّت لا آتيه سِنَّ الحِسْلِ

كأنّه قال، حتّى يكون مَا لا يكون؛ لأنَّ الحسل لايستبدل بأسنانه أسناناً.
أسنان الذئب وزعم بَعضُهم أنّ أسنان الذّئب ممطولة في فكيه، وأنشد:

أنيابه ممطولةٌ في فَكّيْنْ

وليس في هذا الشعر دَليلٌ على ما قال؛ لأنَّ الشاعر يُشْبِع الصفةَ إذا مَدَح أو هَجا، وقد يجوز أن يكونَ ما قال حقّاً.
ما قيل في عبد الصمد بن علي فأما عبد الصَّمد بن علي فإنه لم يُثْغِر، ودخل القبر بأسنان الصِّبا.
استطراد لغوي وقد يقال للضَّبِّ والحيّة والورَل، وما أشبَهَ ذلك: فحَّ يفحُّ فحيحاً، والفحيح: صوت الحية من جَوْفها، والكشيش والقشيش: صَوت جِلْدها إذا حكَّت

بَعضها ببعض.
وليس كما قال، ليس يُسمع صوت احتكاك الجلد بالجلد إلاّ للأفعى فقط، وقال رؤبة:

فِحِّي فلا أفْرَقُ أن تَفِحّي   وأن تُرَحّي كرَحَى المرحِّي

وقال ابنُ ميادة:

ترى الضبَّ إن لم يرهب الضبُّ غيره يكِشُّ له مستكبراً ويطاولُه

حديث أبي عمرة الأنصاري

ويُكتَب في باب حبِّ الضّب للتّمر حديث أبي عمرة الأنصاري رووه من كلِّ وجه، أنّ عمر بن الخطاب، رضي اللّه عنه، قالَ لرجل من أهل الطائف: الحُبْلَة أفْضل أم النخلة؟ قال: بل الحُبلة، أتزببها وأشَمِّسها، وأستظل في ظلّها، وأصلح بُرْمَتي منها، قال عمر: تأبى ذاك عليك الأنصار.
ودخل أبو عمرة عبد الرحمن بن محْصن النجَّاري فقال له عمر: الحبلة أفضل أم النَّخلة؟ قال: الزبيب إنْ آكلْه أضْرَس، وإن أتْرُكْه أغرث ليس كالصقّر في رُؤوس الرَّقل، الراسخات في الوحل، المطعمات في المَحْل، خُرْفَة الصائم وتُحْفَة الكبير، وصُمْتة الصغير وخُرسة مريم، ويُحْتَرَشُ به الضِّباب من الصَّلعاء يعني الصحراء.

دية الضب واليربوع

قال: ويقالُ في الضّب حُلاَّم، وفي اليَربوع جفْرة، والجفرة:التي قد انتفخ جَنْبَاها وشَدَنت، والحُلاَّم فوق الجدي وقد صَلُح أن يُذبَح للنُّسك، والحُلاَّن، بالنون: الجدي الصغير الذي لا يصلح للنُّسك.
وقال ابن أحمر:

تهدِي إليه ذراع الجَدْي تَكْرِمَةً   إمَّا ذَبيحاً وإمَّا كان حُلاّنا

والحُلاَّن والحُلوان جميعاً:رشوة الكاهن، وقد نُهي عن زَبْدِ المشركين، وحُلوان الكاهن، وقال مهلهل:

كُلُّ قتيل في كُليبٍ حُلاّم   حَتَّى ينالَ القتْلُ آلَ هَمّامْ

أقوال لبعض الأعراب وقال الأصمعي: قال أعرابيٌّ يَهزَأ بصاحبه: اشتر لي شاةً قفْعاء، كأنَّها تضْحَك: مندلقةً خاصرتاها، كأنّها في مَحْمِل، لها ضرْعٌ أرقط، كأنّه ضبّ، قال: فكيف العَقْلُ ؟ قال: أو لهذه عَقْل؟! قال: وسأل مَدنيٌّ أعرابيّاً قال: أتأكلون الضَّبّ؟ قال: نعم، قال: فاليربوع؟ قال: نعم، قال: فالورَل؟ قال: نعم، قال:

أفتأكلون أمّ حُبَين؟ قال: لا، قال: فلْيَهْنِ أمَّ حُبينٍ العافية.
شعر في الضب وقال فِراس بن عبد اللّه الكلابي:

لَمّا خَشِيت الجُوع والإرمَالا ... ولم أجد بشَوْلِـها بـلالا
أبصرت ضَبّاً دَحِناً مُخْتـالا ... أوفدَ فَوْقَ جُحْـرِهِ وذالا
فدَبّ لي يخْتلني اخـتـيالا ... حتّى رأيتُ دونـيَ القَـذالا
ومَيْلةً ما مِلْتُ حـينَ مـالا ... فدهِشَتْ كَفَّاي فاستطـالا
مِني فلا نزْعَ ولا إرسـالا ... فحاجزا وبَـرَّأ الأوصـالا
مِنِّي ولم أرفعْ بـذاكَ بـالا ... لمَّا رأتْ عيني كُشًى خِدَالا
منه وثَنّيْتُ لـه الأكـبـالا ... ورُحت منهُ دحنـاً دألا

أسماء لعب الأعراب البُقَّير، وعُظَيمُ وضّاح، والخَطْرة، والدَّارة، والشّحمة والحلق، ولُعبة الضّبّ.
فالبُقَيْرَ: أن يجمع يديه على التراب في الأرض إلى أسفله، ثم يقول لصاحبه: اشتَّهِ في نفسك، فيصيبُ ويخطئ.
وعُظَيمُ وَضّاح: أن يأخذ بالليل عظماً أبيضَ، ثم يرمي به واحدٌ من الفَريقين، فإنْ وجدَهُ واحدٌ من الفريقين ركِب أصحابه الفريقَ الآخر من الموضع الذي يجدونه فيه إلى الموضع الذي رموا به منه.
والخطرة: أن يعملوا مِخْراقاً، ثم يرمي به واحدٌ منهم من خلفه إلى الفريق الآخر، فإن عجزوا عن أخذه رموا به إليهم، فإن أخذوه ركبوهم.
والدّارة، هي التي يقال لها الخَراج.
والشّحمة: أن يمضيَ واحدٌ من أحد الفريقين بغلامٍ فيتنحَّون ناحية ثم يقبلون، ويستقبلهم الآخرون؛ فإن منَعوا الغلام حتَّى يصيروا إلى الموضع الآخر فقد غلبوهم عليه، ويُدفع الغلام إليهم، وإن هم لم يمنعوه ركبوهم، وهذا كله يكون في ليالي الصَّيف، عن غِبِّ ربيعٍ مُخصِب، ولُعبة الضّبّ: أن يصوِّروا الضّبّ في الأرض، ثم يحوِّل واحدٌ من الفريقين وجهَه، ثم يضع بعضهم يده على شيءٍ من الضّبِّ، فيقول الذي يحوِّل وجهه: أنف الضّبِّ، أو عين الضبِّ، أو ذَنب الضّب، أو كذا وكذا من الضّبِّ، على الولاء، حتّى يفرغ؛ فإن أخطأ ما وضَع عليه يدَهُ رُكِب ورُكِب أصحابه، وإن أصابَ حَوَّل وجهه الذي كان وضع يده على الضّبِّ، ثم يصيرُ هو السائل.
ويقول: الأطبَّاء: إنَّ خُرء الضّب صالح للبياض الذي يصير في العين.
والأعرابُ ربَّما تداوَوْا به من وجَع الظهر.

وناسٌ يزعمون أنّ أكل لحمان الحيوان المذكور بطولِ العمر، يزيد في العمر،
فصدَّق بذلك ابن الخارَكي وقال: هذا كما يزعمون أن أكل الكُلية جيِّد للكُلية، وكذلك
الكبدُ، والطِّحال، والرِّئة، واللّحم ينبت اللّحم، والشّحم ينبت الشّحم، فغَبرَ سنةً
وليس يأكلُ إلاّ قديد لحوم الحمر الوحشية، وإلا الورشان والضِّباب، وكلَّ شيء قدَر
عليه مما يقضي له بطول العُمر، فانتقض بدنه، وكاد يموت، فعاد بعدُ إلى غذائه
الأوّل.
تفسير قصيدة البهراني نقول في تفسير قصيدة البَهْراني، فإذا فرغنا منها ذكرنا ما
في الحشرات من المنافع والأعاجيب والروايات، ثم ذكرنا قصيدتي أبي سهل بشر
بن المعتمر في ذلك، وفسرناهما وما فيهما من أعاجيب ما أودع اللّه تعالى هذا
الخلْق وركّبهُ فيهم، إن شاء اللّه تعالى، وباللّه تبارك وتعالى أستعين.
أما قوله:

مَسَخَ الماكِسَينِ ضَبْعاً وذئبا ... فلهذا تناجلا أمَّ عَمْرو

فإن ملوك العرب كانتْ تأخُذُ من التُّجَّار في البرِّ والبحر، وفي أسواقهم، المكْس،
وهو ضريبةٌ كانت تؤخذ منهم، وكانوا يظلمونهم في ذلك، ولذلك قال التَّغلبي، وهو
يشكو ذاك في الجاهلية ويتوعد وهو قوله:

ألا تَسْتحِي منّا مُلوكٌ وتَـتّـقِـي ... حارمنا لا يَبْوُؤا الـدَّمُ بـالـدَّمِ

في كُلِّ أسْواق العراق إتـاوةٌ ... ي كلِّ ما باعَ امرؤٌ مَكْسُ دِرْهم

والإتاوة والأُرْبان والخرْج كله شيءُ واحد، وقال الآخر:

لاَ ابنَ المُعَلّى خِلْتَنا أمْ حسِبْتَـنـا ... صراري نعطي الماكسينَ مُكُوسا

وقال الأصمعيُّ، في ذكر المكسِ والسُّفن التي كان تُعْشر، في قصيدته التي ذكر
فيها من أهلك الله عز ذكره، من الملوك، وقصم من الجبابرة، وأباد من الأمم
الخالية - فقال:

أعْلقتْ تُبَّعاً حِبالُ الـمـنـون ... وانتحت بعده على ذي جُدُونِ

وأصابتْ مِنْ بعدهم آل هِرْمـا ... سَ وعادتْ من بعدُ للسّاطِرُون

ملكَ الحضر والفُراتِ إلى دِجْ ... لة شرقاً فالطور من عَبْـدين

كل حِمْلٍ يمرُّ فـوق بـعـير ... فله مكسُهُ ومكسُ السُّـفِـينِ

والأعراب يزعمون أن اللّه تعالى عزّ وجلّ لم يدعَ ماكساً ظالماً إلا أنزل به بلية، وأنَّه مسخَ منهم ضبُعاً وذئباً، فلهذه القرابةِ تسافدا وتناجلا، وإن اختلفا في سوى ذلك، فمن ولدهما السِّمع والعِسبار، وإنما اختلفا لأنّ الأمَّ ربما كانت ضبعاً والأبُ ذئباً، وربما كانت الأمُّ ذئبةً والأبُ ذيخاً، والذِّيخ: ذكر الضِّباع.
ذكر من أهلك الله من الأمم وأمّا قوله:

بَعَثَ الذَّرَّ والجراد وقفَّى   بنجيع الرُّعافِ في حَيِّ بَكْرِ

فإنّ الإعراب تزعم أن اللّه تعالى قد أهلك بالذرّ أمما، وقد قال أميّةُ بن أبي الصّلت:

أرسل الذَّرَّ والجراد عليهمْ   وسنيناً فأهلَكَتْهم ومُـورا

ذكرَ الذَّرِّ إنَّه يفعلُ الـش   رّ وإنّ الجرادَ كان ثُبورا

وأما قوله: وقفّي بنجيع الرُّعاف في حيِّ بكرِ فإنّه يريد بكر بن عبد مناة، لأنّ كنانة بنزولها مَكَّة كانوا لا يزالون يصيبهم من الرُّعاف ما يصير شبيهاً بالموتان، ويجارف الطاعون، وكان آخِر من مات بالرُّعاف من سادة قُريش هِشام بن المغيرة.
وكان الرُّعاف مِنْ منايا جرهُم أيام جرهم، ولذلك قال شاعرٌ في الجاهلية، من إياد:

ونحـنُ إيادٌ عبـادُ الإلـه   ورهط مُناجيهِ في سُلّـم

ونحنُ ولاةُ حجاب العتـيق   زمان الرُّعافِ على جُرهم

ولهذا المناجي الذي كان يناجي الله، عز وجل، في الجاهلية على سُلّم - حديث.
سيل العرم فأما قوله:

خَرقتْ فأرةٌ بأنـفٍ ضئيلٍ   عَرِماً مُحكَمَ الأساسِ بصَخْرِ

فقد قال اللّه عز وجل: "فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ" والعَرِم: المسنّاة التي كانوا أحكموا عملها لتكون حجازاً بين ضِياعهم وبين السيل، ففجرته فارة، فكان ذلك أعجبَ وأظهر في الأعجوبة كما أفار اللّه تعالى عز وجل ماءَ الطوفان من جَوف تَنُّور، ليكون ذلك أثبتَ في العِبرة، وأعجَبَ في الآية.
ولذلك قال خالدُ بنُ صفوان لليمانيّ الذي فخر عليه عند المهديِّ وهو ساكت، فقال المهدي: وما لكَ لا تقول؟ قال: وما أقول لقوم ليس فيهم إلا دابغُ جِلد، وناسجُ بُرْدٍ، وسائسُ قرد، وراكب عَرْد، غرَّقتهم فارة، وملَكَتْهم امرأة، ودلَّ عليهم هدهد.
وأما قوله:

فجَّرتْه وكان جِيلان عنـه عاجزاً لو يَرُومُه بَعْدَ دَهْرِ

فإنّ جيلان فعَلة الملوك، وكانوا من أهل الجَبَل، وأنشد الأصمعي:

أرسَلَ جِيلان يَنحَتون له ساتيدما بالحديد فانصدعا

وأنشد:

وتَبْني له جِيلانُ مِنْ نَحْتِها الصفّا قُصوراً تُعالى بالصَّفيح وتُكْلَسُ

وأنشد لامرئ القيس:

أُتِيحَ له جَيلانُ عنـد جَذاذِه ورُدِّدَ فيه الطَّرْفُ حتّى تحيَّرا

يقول: فجَّرته فارةٌ، ولو أنّ جيلان أرادت ذلك لامتَنعَ عليها، لأنَّ الفارةَ إنما خرقته لما سخّر اللّه عز ذكره لها من ذلك العَرِم وأنشدوا:

مِنْ سَبأَ الحاضرينَ مأرب إذْ يَبْنُون مِنْ دُون سَيلِهِ العَرِما

ومأرب: اسمٌ لقصر ذلك الملك، ثم صار اسماً لذلك البلد، ويدلُّ على ذلك قول أبي الطّمحان القيني:

ألا ترى مَأرِباً ما كان أحصَنَـهُ وما حَوالَيْهِ مِنْ سُورٍ وبُنْـيانِ

ظلَّ العِباديُّ يُسقى فوق قُلّتـهِ ولم يَهَبْ رَيْبَ دَهرٍ حقّ خَوَّانِ

حتّى تناولـه من بعد ما هَجَعوا يَرْقى إليه على أسْبابِ كَتّانِ

وقال الأعشى:

ففي ذاكَ للمُؤْتَسي أسْـوةٌ ومَأربُ قفّى عليه العَرِمْ

رخامٌ بَنتْه لـهُ حِمْـيَرٌ إذا جاء ماؤُهُم لـم يَرِمْ

فأروَى الحُرُوثَ وأعنابَها على ساعةٍ ماؤُهُم إذ قُسِمْ

فطار الفُيولُ وفيَّالُـها بيَهْماءَ فيها سَرابٌ يطِمّ

فكانُوا بذلكمُ حِقْبةً فمال بهمْ جارفٌ مُنْهدمْ

فطارُوا سِراعاً وما يَقدِرُو نَ مِنْهُ لِشُرْب صَبيٍّ فُطِمْ

مسخ الضبّ وسهيل

وأما قوله:

مَسَخَ الضَّبّ في الجَدَالةِ قِدْماَ وسُهَيلَ السَّماءِ عَمْداً بصُغْر

فإنهم يزعمون أنّ الضّبَّ وسُهيلاً كانا ماكِسَين عَشّارين، فمسخ اللّه عز وجل أحدهما في الأرض، والآخَرَ في السماء، والجدالة: الأرض، ولذلك يقال: ضربه فجدَّله أي ألْزَقه بالأرض، أي بالجَدالة، وكذلك قول عنترة:

وحليل غانِيةٍ تركْتُ مجدّلاً تَمْكو فريصتُه كشِدْق الأعْلَمِ

وأنشد أبو زيدٍ سعيدُ بن أوسٍ الأنصاري:

قد أركب الحالة بعد الحالهْ وأتْرُكُ العاجِز بالجَدالهْ

أبو رغال وأما قوله:

والذي كان يَكْتَني برغال جَعَل اللّه قبْرَهُ شَرَّ قبْر

وكذا كلُّ ذي سُفين وخَرْجٍ ومُكُوسٍ وكلُّ صاحب عُشْر

فإنما ذكر أبا رِغال، وهو الذي يرجم الناس قبره إذا أتوا مَكة، وكان وجّهه صالحٌ النبي صلى الله عليه وسلم، فيما يزعمون، على صدقات الأموال، فخالف أمره، وأساءَ السِّيرة، فوثب عليه ثقيف، وهو قسِيُّ بن مُنَبِّه، فقتله قتْلاً شنيعاً، وإنما ذلك لسوء سيرته في أهل الحرم فقال غيلان بن سلمة، وذكر قسوة أبيه على أبي رغال:

نحنُ قسِيٌّ وقسا أبونا

وقال أُميّة بنُ أبي الصَّلت:

نفوْا عن أرْضِهِمْ عدْنانَ طُرّاً وكانوا للقبائل قاهِرينا

وهم قتلوا الرئيس أبا رغال بنخلة إذ يسوق بها الظعينا

وقال عمرو بن دَرَّاكِ العبدي، وذكر فُجور أبي رغال وخُبْثهُ، فقال:

وإني إن قطعت حِبـال قيسٍ وحَالَفْتُ المزُونَ على تـمِـيم

لأعْظَمُ فَجْرةً مِنَ أبي رغـالِ وأجْوَرُ في الحكومةِ من سَدُومِ

وقال مسكينٌ الدارميّ:

وأرجُمُ قبْرَهُ في كـلِّ عـامٍ كرَجْمِ النّاس قبْرَ أبي رغالِ

وقال عُمرُ بن الخطاب، رضي اللّه تعالى عنه، لغَيلان بن سلَمة، حين أعتق عبده، وجعل ماله في رتاج الكَعْبة: لئن لم تَرْجِعْ في مالك ثمَّ مُتَّ لأرجُمَنّ قبرك، كما رُجِم قبرُ أبي رِغال، وكلاماً غير هذا قد كلّمه به.
المنكب والعريف وأما قوله:

مَنْكِبٌ كافرٌ وأشْرَاطُ سَوْءٍ وعَريفٌ جزاؤُه حَرُّ جَمْرِ

فإنما ذهب إلى أحكام الإسلام، كأنه قد كان لقي من المَنْكِب والعَرِيف جهْداً، وهم ثلاثة: مَنْكِب، ونقيب، وعَريف، وقال جُبَيْهاءُ الأشجعيُّ:

رعاع عاونَتْ بَكْـراً علـَيْه كما جُعِلَ العريفُ على النَّقِيبِ

الغول والسعلاة وأما قوله:

وتزوّجْتُ في الشَّبيبةِ غُولاً بغزال وصَدْقتي زقُّ خَمْر

فالغُول اسمُ لكلِّ شيءٍ من الجن يعرضُ للسُّفّار، ويتلوّنُ في ضُروب الصُّور والثِّياب، ذكراً كان أو أنثى، إلاّ أنّ أكثر كلامهم على أنّه أنثى.
وقد قال أبو المطْراب عُبيدُ بن أيُّوبَ العنبريّ:

وحالَفْتَ الوحوشَ وحالَفْتنـي بقرب عُهودهنّ وبالبـعـادِ

وأمْسَى الذِّئبُ يرصُدُني مِخشّاً لخفّةِ ضربتي ولضعف آدي

وغُولاً قفرةٍ ذكرٌ وأنـثـى كأنّ عَلَيْهمَا قِطعَ البـجـادِ

فجعل في الغِيلان الذَّكرَ والأُنثى، وقد قال الشَّاعر في تلوُّنها:

فما تدوم على حالٍ تكون بها　　　كما تَلَوَّنُ في أثوابها الغُولُ

فالغول ما كان كذلك، والسِّعلاة اسم الواحدة من نساء الجن إذا لم تتغوَّل لتفتِنَ السُّفّار.
قالو: وإنما هذا منها على العَبث، أو لعلّها أن تفزّع إنساناً جميلاً فتغيِّرَ عقله، فتداخِلَه عند ذلك، لأنّهم لم يُسلّطوا على الصَّحيح العقل، ولو كان ذلك إليهم لبدؤوا بعليّ بن أبي طالب، وحمزَة بن عبد المطلب وبأبي بكر وعُمر في زَمانهم وبغيلان والحسن في دهرهما وبواصل وعمرو في أيامهما.
وقد فرَق بين الغُول والسِّعلاة عُبيدُ بن أيُّوبَ، حيث يقول:

وساخرة منِّي ولو أنّ عَينَـهـا　　　رأتْ ما ألاقيهِ من الهولْ جُنّتِ

أزلُّ وسِعلاةٌ وغولٌ بقفْـرةٍ　　　إذا اللّيل وارَى الجنَّ فيه أرنّتِ

وهم إذا رأوا المرأة حديدة الطّرف والذّهن، سريعة الحركة، ممشوقة مُمَحَّصة قالوا: سعلاة وقال الأعشى:

ورجال قتْلى بجنْبَيْ أريكٍ　　　ونساءٍ كأنهنَّ السَّعالـي

تزاوج الجن والإنس

ويقولون: تزَّوج عمرو بن يربوع السّعلاة، وقال الرَّاجز:

يا قاتلَ اللّهُ بني الـسّعـلاةِ　　　عمرو بن يَربوعٍ شِرارَ النَّاتِ

وفي تلوُّن الغُول يقول عَبَّاسُ بنُ مرداسٍ السُّلَميُّ:

أصابَت العام رِعلاً غولُ قومهم　　　وَسْطَ البُيوتِ ولونُ الغُولِ ألوانُ

وهم يتأوَّلون قوله عز ذكره: "وَشَارِكْهُمْ في الأمْوَالِ وَالأوْلاَدِ".
وقوله عز وجل: "لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إنْسٌ قَبْلَهُمْ ولا جَانٌّ"، قالوا: فلو كان الجانّ لم يُصِب منهنَّ قط، ولم يأتهنّ، ولا كان ذلك مما يجوز بين الجن وبين النساء الآدميات - لم يقل ذلك.
وتأوَّلوا قوله عزّ وجل: "وَأنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الجِنِّ" فجعل منهنَّ النِّساء، إذ قد جعل منهم الرِّجال، وقوله تبارك وتعالى: "أفَتَتَّخِذونَهُ وَذُرِّيّتَهُ أوْلِياءَ مِنْ دُونِي".

وزعم ابنُ الأعرابيّ قال: دعا أعرابيٌّ ربهُ فقال: اللّهم إني أعوذُ بك منْ عفاريت الجن اللهمَّ لا تُشْركهمْ في ولدي، ولا جسدي، ولا دمي، ولا مالي، ولا تُدخلهم في بيتي، ولا تجعَلْهمْ لي شركاء في شيءٍ من أمر الدنيا والآخرة.
وقالوا: ودعا زُهير بن هُنيدة فقال: اللهمَّ لا تُسلطهم على نطفتي ولا جَسَدي. قال أبو عبيدة: فقيل له: لمَ تدعو بهذا الدُّعاء قال: وكيف لا أدعو به وأنا أسمعُ أيُّوب النبي واللّه تعالى يخبر عنه ويقول: "واذكُرْ عَبْدَنا أيُّوب إذْ نادى رَبّهُ أنِّي مَسَّنيَ الشَّيطانُ بِنُصْبٍ وعَذابٍ" حتى قيل له: "اركُضْ برجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ باردٌ وَشرابٌ"، وكيف لا أستعيذُ باللّه منه وأنا أسمع اللّه يقول: "الّذين يأكُلونَ الرِّبا لا يَقومُون إلاّ كما يقُومُ الّذي يَتَخبَّطُهُ الشَّيْطانُ من المَسِّ"، وأسمعه يقول: "وإذْ زَيَّن لَهُمُ الشَّيْطانُ أعمالَهُمْ وقالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وإنِّي جارٌ لَكُمْ"، فلما رأى الملائكة نكص على عقبيه، كما قال اللّه عزّ ذكره: "فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكصَ على عَقِبيْهِ وقالَ إنّي بَرِيءٌ مِنكمْ إنّي أرى مَا لا تَرَوْنَ"، وقد جاءهم في صورة الشَّيخ النّجدي، وكيف لا أستعيذ بالله منه، وأنا أسمع الله عز ذكره يقول: "ولقدْ جَعَلْنا في السَّماءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرينَ، وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ، إلاَّ منِ اسْتَرقَ السَّمْعَ فَأتْبَعَهُ شِهابٌ مُبينٌ"، وكيف لا أستعيذ باللّه منه وأنا أسمع اللّه تعالى يقول: "ولِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ وأسلْنا لَهُ عيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَديْهِ بِإذْنِ ربِّهِ" ثم قال: "يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحاريبَ وتماثيلَ وجِفانٍ كالجوابِ وقُدُورٍ راسِياتٍ"، وكيف لا أدعو بذلك وأنا أسمع اللّه تعالى يقول: "قال عِفْريتٌ مِنَ الجِنِّ أنا آتِيكَ بهِ قَبْلَ أنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ، وإنّي عَلَيْه لقويٌّ أمِينٌ".
وكيف لا أقول ذلك وأنا أسمع اللّه عزّ وجلَّ يقول: "ربِّ اغْفِرْ لي وَهَبْ لي مُلْكاً لا يَنْبغي لأحدٍ مِنْ بَعْدي إنَّكَ أنْتَ الْوهّابُ، فسخَّرْنا لهُ الرِّيحَ تَجْري بِأمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أصابَ، والشَّياطينَ كُلَّ بَنّاءٍ وغوَّاصٍ، وآخرينَ مُقرَّنينَ في الأصفادِ".

تزيد الأعراب وأصحاب التأويل في أخبار الجن

والأعراب يتزيّدون في هذا الباب، وأشباهُ الأعراب يغلطون فيه، وبعضُ أصحابِ التأويل يجوّز في هذا الباب ما لا يجوز فيه، وقد قلنا في ذلك في كتاب النُّبُوّات بما هو كافٍ إن شاء اللّه تعالى.

مذاهب الأعراب وشعرائهم في الجن

وسيقع هذا الباب والجواب فيه تامّاً إذا صرنا إلى القول في الملائكة، وفي فرق ما بين الجن والإنس، وأما هذا الموضع فإنما مَغْزانا فيه الإخبارُ عن مذاهب الأعراب، وشعراءِ العرب، ولولا العلم بالكلام، وبما يجوز مما لا يجوز، لكان في دون إطباقهم على هذه الأحاديث ما يغلط فيه العاقل.
قال عُبيدُ بن أيُّوب، وقد كان جَوَّالاً في مجهول الأرض، لمَّا اشتد خوفه وطال تردُّده، وأبعد في الهرب:

لقد خِفْتُ حتَّى لو تمرُّ حَمـامَةٌ لقُلْتُ عَدُوٌّ أو طَلِيعَةُ مَعْشَـرِ

فإن قيل أمْنٌ قلتُ هذِي خـديعةٌ وإن قيل خوفٌ قلتُ حَقّاً فشَمِّرِ

وخِفت خليلي ذا الصَّفاء وَرَابَني وقيل فلان أو فلانة فـاحـذر

فلله دَرُّ الـغُول أيُّ رفـيقةٍ لصاحِبِ قفْرٍ خائِفٍ متقتِّـرِ

أرنَّتْ بلحْن بعد لحن وأوقـدَتْ حواليَّ نيراناً تلوح وتـزهـرُ

وأصبحت كالوحْشيِّ يتبَعُ ما خلا ويترك مَأبُوسَ البلادِ المدَعْثَرِ

وقال في هذا الباب في كلمة له، وهذا أولـها:

أذِقني طَعْمَ الأمن أو سَلْ حـقيقةً عليَّ فإن قامتْ ففصِّل بـنـانـيا

خلعتَ فؤادي فاستُطيرَ فأصبَحَـتْ ترامى بي البيدُ القِفـارُ تـرامـيا

كأني وآجال الظّـبـاء بـقـفـرةٍ لنا نسبٌ نرعـاه أصـبـح دانـيا

رأين ضئيلَ الشَّخْص يظهَرُ مَـرَّةً ويخْفَى مراراً ضامِرَ الجسم عاريا

فأجْفَلنَ نفْراً ثمَّ قُلـنَ ابـنُ بـلـدةٍ قليلُ الأذى أمْسى لكُنَّ مُصَـافـيا

ألا يا ظِباءَ الوَحْش لا تُشْهِرُنَّـنـيً وأخفِينني إذ كنتُ فِيكن خـافـيَا

أكلت عُرُوق الشَّرْي مَعْكُنَّ والْتَـوىً بحَلقي نَوْرُ القفْر حـتَّـى وَرانـيا

وقد لقيتْ منـي الـسِّـبـاعُ بـلـيّةً وقد لاقت الغيلانُ مِنِّي الـدّواهـيا

ومنهنّ قد لاقيت ذاك فـلـم أكُـنْ دجباناً إذا هَوْلُ الجبان اعـتـرَانـيا

أذقت المنايا بَعْضَهُنَّ بـأسـهـميً وقدّدْن لحمي وامـتَـشَـقْـنَ ردائيا

أبيتُ ضجيع الأسْوَدِ الجَون في الهُوَى كثيراً وأثناءُ الـحـشـاش وسـادِيَا

إذا هِجْن بي في جُحْرِهنَّ اكتنفنني فليت سُلَيمانَ بن وَبْرِ يرانيا

فما زلت مُذ كُنتُ ابن عشرين حِجةً أخا الحرب مَجْنيّاً عليَّ وجانيا

ومما ذكر فيه الغيلان قولُه:

نقول وقد ألممتُ بالإنس لَمَّةً مُخضَّبةُ الأطرافِ خُرْسُ الخلاخِلِ

أهذا خليلُ الغُول والذّئب والذي يهيمُ بربّاتِ الحِجال الكواهل

رَأتْ خَلَقَ الأدراس أشْعَثَ شاحباً على الجدْب بَسَّاماً كريمَ الشَّمائلِ

تعوَّدَ من آبائه فتكاتِهم وإطعامَهُمْ في كلِّ غبْراء شامِلِ

إذا صاد صيداً لفَّه بضرامِهِ وشيكاً ولم ينْظر لنَصْب المراجلِ

ونهْساً كنَهْس الصقر ثم مِراسهُ بكفّيه رأسَ الشَّيخة المتمايل

فلم يسحب المِنديلَ بين جماعةٍ ولا فارداً مذ صاحَ بيْن القوابلِ

ومما قال في هذا المعنى:

علام تُرَى ليلى تعذّب بالمُنى أخا قفَراتٍ كان بالذئب يأنسُ

وصار خليل الغُول بَعْد عداوةٍ صَفيّاً وربّتهُ القفارُ البسابسُ

وقال في هذا المعنى:

فلولا رجالٌ يا مَنيعُ رأيتَهم لهم خُلقٌ عند الجوار حَمِيدُ

لنالكُمُ مِني نكالٌ وغارةٌ لها ذنبٌ لم تدركُوه بعيدُ

أقلَّ بنو الإنسان حتَّى أغرتمُ على من يثير الجنّ وهي هجودُ

أخبار وطرف تتعلق بالجن

وقال ابن الأعرابي: وَعدت أعرابيَّةٌ أعرابيّاً أن يأتيها، فكمن في عُشَرةٍ كانت بقربهم، فنظر الزّوجُ فرأى شَبَحاً في العُشرَةَ، فقال لامرأته: يا هَنَتاهُ إنّ إنساناً

لَيُطالعنا من العُشَرَة قالت: مَهْ يا شيخُ، ذاك جانُّ العُشَرَة إليك عنّي وعن ولَدِي قال الشيخ: وعنِّي يرحَمُك اللّه قالت: وعن أبيهم إن هو غطَّى رأسه ورقد، قال: ونام الشَّيخ، وجاء الأعرابي فسَفَع برجليها ثمّ أعطاها حتى رضيت.
وروى عن محمّد بن الحسن، عن مُجالِد أو عن غيره وقال: كنّا عند الشّعبي جُلوساً، فمرَّ حمّالٌ على ظهره دَنّ خَلٍّ، فلما رأى الشّعبيَّ وضع الدّنّ وقال للشعبي: ما كان اسمُ امرأة إبليس؟ قال: ذاك نكاحٌ ما شهدناه .
وأبو الحسن عن أبي إسحاق المالِكي قال: قال الحجاج ليحيى بن سعيد بن العاص: أخبرني عبدُ اللّه بن هلال صديق إبليس، أنّك تشبه إبليس قال: وما ينكر أنْ يكون سيد الإنس يُشبه سيد الجنّ وروى الهيثم عن داود بن أبي هند، قال: سئل الشّعبي عن لحم الفيل، فتلا قولَه عزّ ذكره: "قُلْ لا أَجِدُ فيما أُوحِيَ إليّ مُحَرَّماً على طاعِمٍ يطْعَمُهُ إلاَّ أنْ يكُونَ مَيْتَةً أوْ دماً مَسْفُوحاً أوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ" إلى آخر الآية، وسُئل عن لحم الشَّيطان فقال: نحن نرضى منه بالكَفَاف، فقال له قائل: ما تقولُ في الذّبّان؟ قال: إن اشتهيته فكُلْهُ.
وأنشدوا قول أعرابي لامرأته:

ألا تمُوتين إنا نبتغي بدلاإن اللواتي يموِّتن الميامين

أم أنت لازلتِ في الدنيا معَمَّرَةً كما يُعَمَّر إبليسُ الشَّياطِين

وقال أبو الحسن وغيرُه: كان سعيدُ بن خالد بن عبد اللّه بن أسيد تصيبهُ مُوتة نصف سنة، ونصفَ سنةٍ يصح، فيحبو ويُعطي، ويكسُو ويَحمِل، فأراد أهلُه أنْ يعالِجُوه، فتكلّمت امرأةٌ على لسانه فقالت، أنا رُقَيَّة بنت ملْحان سيِّد الجنِّ، واللّه أنْ لو علِمتُ مكانَ رجل أشرَف منه لعلِقْتُه واللّه لئن عالجتموه لأقْتُلنّه فتركوا علاجه.
وتقول العرب: شيطان الحمَاطة، وغول القفْرَة، وجانُّ العُشرَة، وأنشد:

فانصَلَتَتْ لي مِثْلَ سعلاةِ العُشَرْ تروح بالوَيْل وتَغْدُو بالغِيَرْ

وأنشد:

يا أيُّها الضاغب بالغُمْلولْ إنّك غُولٌ ولدَتْكَ غولْ

الغُملول: الخمرَ من الأرض اختبأ فيه هذا الرجل، وضغب ضغبة الأرنب، ليفزعه ويوهمه أنّه عامر لذلك الخمر.

رؤية الغيلان وسماع عزيف الجان

من ادعى من الأعراب والشعراء أنهم يرون الغيلان ويسمعون عزيف الجان

وما يشبهون بالجن والشياطين، وبأعضائهم وبأخلاقهم وأعمالهم.
وأنشد:

كأنّه لَمَّا تدانى مَقْربُه   وانقطعت أوْذامُه وكُرَبُهْ

وجاءت الخيلُ جميعاً تَذْنِبُهْ   شيطان جنّ في هواء يرقُبهْ

أذنب فانقضَّ عليه كوكبُهْ

وأنشد:

إنّ العُقيليَّ لا تلقى له شَبَهاً   ولو صَبرْتَ لتلقاه على العِيسِ

بَيْنا تَراهُ عليه الخزُّ متَّكِئاً   إذ مَرَّ يهدج في خَيْش الكرابيس

وقد تكنَّفَهُ غُرَّامُه زَمَناً   أشباهُ جِنٍّ عكوفٍ حَوْلَ إبليس

إذا المفاليسُ يوماً حاربُوا مَلِكاً   ترى العُقيليّ منهمْ في كرادِيس

وهو الذي يقول:

أصبحتَ مَا لَكَ غيرُ جِلْدِكَ تَلبَسُ   قطرَ السَّماء وأنْتَ عارٍ مُفْلِسُ

وقال الخطفى:

يَرْفَعْنَ بالليل إذا ما أسْدفا   أعْناقَ جِنَّانٍ وهاماً رُجَّفا

وَعَنَقاً بعد الرسيم خيطفا

وأنشد ابنُ الأعرابي:

غناءً كليبياً تَرَى الجنَّ تبتغي   صَدَاهُ إذا ما آب للجشنِّ آيبُ

وقال الحارث بن حلزة:

ربُّنا وابننا وأفضل منْ يَمْ   شي ومَنْ دونَ ما لَدَيْه الثَّناءُ

إرَميٌّ بمثْلهِ جالَتِ الج   نُّ فآبَتْ لخصْمها الأجْلاءُ

وقال الأعشى:

فإنّي وما كَلَّفتُمونـي ورَبِّكـم ليعلم من أمْسى أعَقَّ وأحْوَبـا

لكالثَّور والجِنْيُّ يضربُ ظهْرَهُ وما ذنْبُه أنْ عافتِ الماء مَشْرَبا

وقال الزَّفيان العُوافيُّ واسمه عطاء بن أسِيد أحد بني عُوافة بن سعد:

بَيْن اللّها منه إذا مـا مـدّا مثلُ عزيف الجن هَدّتْ هَدّا

وقال ذو الرُّمَّة:

قد أعسِفُ النَّازحَ المجهُولَ مَعْسِفُه في ظلِّ أغْضَفَ يَدْعو هامَهُ البُومُ

للجِنِّ باللّيل في حافاتـها زَجَلٌ كما تناوَحَ يوم الـريح عيشـومُ

داويّةٍ ودُجَى لـيل كـأنَّـهـما يَمٌّ تراطنُ في حافـاتـه الـرُّومُ

وقال:

وكمْ عَرَّستْ بعد السُّرى من مُعَرَّس به من كلام الجن أصواتُ سامِر

وقال:

كمْ جُبْتُ دُونَكَ من يَهْماء مُظْلمةٍ تِيهٍ إذا ما مُغَنِّي جِنَّةٍ سَمَـرا

وقال:

ورَمل عزيف الجنِّ في عَقِداتِه هزيزٌ كتضْرابِ المغنِّين بالطّبْلِ

وقال:

وتِيهٍ خَبَطْنا غَوْلَها وارتـمـى بـنـا أبو البعد من أرجائها المـتـطـاوحُ

فلاةٌ لِصوت الجنِّ في مُنْكَـراتـهـا هزيزٌ ولـلأبـوام فـيهـا نـوائحُ

وطولُ اغتماسي في الدُّجى كلما دعت من اللَّيل أصداءُ المِتَانِ الـصـوائحُ

وقال ذو الرّمة:

بلاداً يبيتُ البومُ يدعُو بنـاتِـه   بها ومن الأصداءِ والجنِّ سامرُ

وقال ذو الرمة:

وللوحشِ والجِنّان كُلَّ عشيةٍ   بها خِلْفةٌ من عازفٍ وبُغامِ

وقال الراعي:

ودَاوِيّةٍ غبراءَ أكثرُ أهْلِـها   عزيفٌ وبُومٌ آخِرَ الليل صائحُ

أقرّ بهـا جـأشِـي تـأوُّل آيةٍ   وماضي الحسام غمِدُه متصايحُ

لطيم الشيطان

ويقال لمن به لقوة أو شتَر، إذا سُبَّ: يا لطيم الشيطان.
وكذلك قال عبيد اللّه بن زياد، لعمرو بن سعيد، حين أهوى بسيفه ليطعنَ في خاصرة عبد اللّه بن معاوية، وكان مستضعفاً، وكان مع الضّحّاك فأسِرَ، فلمّا أهوى له السيفَ وقد استردفه عبيدُ اللّه، واستغاث بعبيد اللّه، قال عبيد اللّه لعمرو: يدك يا لطيمَ الشيطان. قولهم: ظل النعامة، وظل الشيطان ويقال للرَّجُل المفرط الطّول: يا ظلَّ النّعامة وللمتكبِّر الضخم: يا ظلَّ الشيطان كما قال الحجّاج لمحمد بن سَعْد بن أبي وقاص: بينا أنت، يا ظلَّ الشّيطان، أشدُّ النَّاس كِبْراً إذْ صِرتَ مؤذِّناً لفلان.
وقال جريرٌ في هجائه شَبّةَ بن عِقال، وكان مُفْرط الطّول:

فَضَح المنابرُ يَوْمَ يَسْلَحُ قائماً   ظِلُّ النّعامةِ شَبّةُ بنُ عِقالِ

قولهم: ظل الرمح فأما قولهم: مُنينا بيوم كظلِّ الرمح فإنّهم ليس يريدون به الطول فقط، ولكنّهم يريدون أنّه مع الطول ضيق غيرُ واسع.
وقال ابن الطّثرية:

ويَوْمٍ كظِلِّ الرُّمح قصَّر طُولـه   دَمُ الزِّقِّ عنّا واصطِفاقُ المَزَاهِرِ

قال: وليس يوجد لظلِّ الشخص نـهاية مع طلوع الشّمس.

التشبيه بالجن

قال: وكان عمر بن عبد العزيز أوّلَ من نـهى النّاسَ عن حمل الصِّبيان على ظهور الخيل يوم الحَلبة، وقال: تحمِلون الصِّبيان على الجِنَّان؟.
وأنشد في تشبيه الإنس بالجن لأبي الجُوَيرِية العَبْدي:

إنسٌ إذا أمنوا جِنٌّ إذا فزعوا　　　مُرزَّؤُونَ بهاليلٌ إذا حَشدوا

وأنشدوا:

وقلتُ واللّه لنَرحَلَنّـا　　　قلائصاً تحسِبهنَّ جنا

وقال ابن ذي الزوائد:

وَحَوْلي الشَّوْلُ رُزَّحاً شُسُباً　　　بَكِيةَ الدَّرِّ حينَ تُمْتَصَرُ
ولاذَ بي الكلبُ لا نُباحَ له　　　يهرُّ مُحْرَنْجماً وينجَحِرُ
بُحُورُ خَفْضٍ لمنْ ألَمَّ بهمْ　　　جِنٌّ بأرماحِهمْ إذا خطروا

وأنشدوا:

إنِّي امرؤٌ تابعَنـي شيطـانِيـَه　　　آخيتهُ عُمْري وقد آخـانِيـه
يشْرَبُ في قعْبي وقد سـقـانِيـَه　　　فالحمدُ للّه الـذي أعطـانِيـَه
قَرْماً وخُرْقاً في خُدودٍ واضيه　　　تربَّعَتْ في عُقدٍ فـالـمـاويه
بَقلاً نَضِيداً فـي تِـلاعِ حـالـيه　　　حتّى إذا ما الشّمْسُ مَرَّتْ ماضيه
قام إلـيهـا فـتـيةٌ ثـمـانيه　　　فثوَّروا كـلَّ مَـريٍّ سـاجـيَه
أخلافها لِذي الأكـف مـالِـيَه

جبل الجن

وقال ابنُ الأعرابي: قال لي أعرابي مَرّة مِن غنيٍّ وقد نزلت به، قال: وهو أخفُّ ما نزلتُ به و أطيَبُه، فقلت: ما أطيب ماءكم هذا، وأعْذى منزلكم قال: نعم وهو بعيدٌ من الخَير كله، بعيد من العراق واليمامة والحجاز، كثير الحيات، كثير الجنان

فقلت: أتَّروَنَ الجن؟ قال: نعم مكانُهم في هذا الجبل - وأشار بيدهِ إلى جبل يقال له سُواج قال: ثمَّ حدَّثني بأشياء.

شعر فيه ذكر الجن

وقال عبيد بن أوس الطائي في أخت عَدي بن أوس:

هلْ جاءَ أوساً ليلتي ونعيمـهـا ومقامُ أوْسٍ في الخِباءِ الْمُشْرَجَ

ما زلتُ أطوي الجِنّ أسمع حِسَّهُمْ حَتّى دَفَعْتُ إلى ربيبة هـودج

فوضعت كفّي عند مقطع خَصْرِها فَتَنَفّستْ بُهْراً ولـمَّـا تـنـهـج

فتناولتْ رأسي لِتعرفَ مَسّهُ بمخضّبِ الأطرافِ غير مُشنّـج

قالتْ بعَيْشِ أخي وحُرمة والـدي لأُنَبِّهَنَّ الحـيّ إنْ لـم تـخـرج

فخرجتُ خيفة قومها فتبسَّمَـتْ فعلمْتُ أنّ يمينها لـم تـلـجـج

فلثمْت فاهاً قابضاً بـقُـرونِـهـا شُرْبَ النَّزيفِ ببرْدِ ماء الحشْرَجَ

وأنشدني آخر:

ذَهَبْتُمْ فعُذْتـمُ بـالأمـير وقُلْـتُـمُ تركْنا أحاديثاً ولحـمـاً مُـوضـعـاً

فمـا زَادَنـي إلاّ سـنـاءً ورفـعة ولا زادكُمْ في القوم إلاّ تـخـشّـعـا

فما نفرتْ جِنّي ولا فُلَّ مِـبـرِدِي وما أصبحت طيري من الخوفِ وُقَّعَا

وقال حسّانُ بنُ ثابت، في معنى قولِه: ولله لأضربنَّه حتَّى أنزع من رأسِه شيطانه، فقال:

وداويةٍ سَبسَبٍ سَمْلَـقٍ مِنَ البيد تَعْزِفُ جنّانُـهـا

قطعْتُ بعَيْرانةٍ كالفَنِـي ق يَمْرَحُ في الآل شَيْطانُها

فجمع في هذا البيت تثبيت عزيف الجن، وأنَّ المراح والنشاط والْخُيلاء والغرب هو شيطانُها، وأبينُ منْ ذلك قولُ منظور بن رواحة:

أتاني وأهْلي بالدِّماخ فغمرةٍ مَسبٌّ عويفِ اللؤم حيَّ بني بدرِ

فلمّا أتاني ما يقولُ ترقصت شياطينُ رأسي وانْتشَيْنَ من الخَمْرِ

من المثل والتشبيه بالجن

ومن المثل والتّشبيه قولُ أبي النّجم:

وقام جِنِّيُّ السَّنام الأميَلِ وامْتَهَدَ الغاربَ فِعْلَ الدُّمَّلِ

وقال ابن أحمر:

بهَجْلٍ من قساً ذفِرِ الخُزامَى تداعى الجربياءُ به الحنينا

تكسَّر فوقه القَلَعُ السَّواري وجُنَّ الخازباز به جُنونا

وقال الأعشى:

وإذا الغيثُ صَوْبُه وضع القِدْ حَ وجُنَّ التِّلاعُ والآفاقُ

لم يزدهم سفاهَةً شُرُبُ الْخمْ رِ ولا اللهوُ بينهُم والسِّباقُ

وقال النابغة:

وخَيِّس الجنَّ إنِّي قد أذِنْتُ لَهُمْ يَبْنُونَ تَدْمُرَ بالصُّفَّاح والعَمَدِ

ما يزعمون أنه من عمل الجن

وأهلُ تدمُر يزعمون أنّ ذلك البناء بُنِيَ قبل زمن سليمان، عليه السلام، بأكثرَ مما بيننا اليوم وبين سليمان بن داود عليهما السلام قالوا: ولكنّكم إذا رأيتمْ بنياناً عجيباً، وجهلتم موضع الحِيلة فيه، أضفْتُموه إلى الجنِّ، ولم تعانوه بالفكر.
وقال العَرْجيُّ:

سدّتْ مسامِعها بفرْج مراجِل مِنْ نَسْج جِنٍّ مثله لا يُنسَجُ

وقال الأصمعيُّ: السيوف المأثورة هي التي يقال إنها من عمل الجن والشياطين لسليمان بن داود عليهما السلام، فأمّا القوارير والحمامات، فذلك ما لا شك فيه،
وقال البعيث:

بَنَى زيادٌ لذِكْرِ اللهِ مَصْنَعَةً من الْحِجارة لم تُعملْ من الطِّينِ

كأنَّها غير أنّ الإنسَ ترفعُها مما بنتْ لسليمانَ الشياطينُ

وقال المقنَّع الكِنْديُّ:

وفي الظّعائنِ والأحْداج أمْلَحُ منْ حَلَّ العِراقَ وَحَلَّ الشامَ واليَمنَا

جِنِّيّةٌ مِنْ نِسَاءِ الإنسِ أحسَنُ مِنْ شَمْسِ النّهارِ وبَدْرِ اللّيلِ لو قُرِنَا

مَكتومةُ الذكرِ عندي ما حييتُ له قدْ لَعَمْري مَلِلتُ الصَّرمَ والحَزَنَا

وقال أبو النَّجم:

أدرك عقلاً والرهان عمله كأنّ تُرْبَ القاعِ حينَ تَسحَلُه

صيقُ شياطينَ زَفَتْهُ شَمْألُهْ

وقال الأعشى في المعنى الأوّل، من بناء الشياطين لسليمان بن داود عليهما السلام:

أرى عَادِيا لمْ يمنع الموْتَ رَبُّه ووَرْدٌ بتيماءِ اليهوديِّ أبلَقُ

بناهُ سُليمانُ بنُ داودَ حِقْبةً له جَنْدَلٌ صمٌّ وطيٌّ موثَّقُ

مواضع الجن

وكما يقولون: قنفذ بُرْقة، وضبٌّ سحاً، وأرنب الخلَّة، وذئب خَمر فيفرقون بينها وبينَ ما ليست كذلك إمَّا في السِّمن، وإمّا في الخُبث، وإمَّا في القوة ـ فكذلك أيضاً يفرقون بين مواضع الجن، فإذا نَسبُوا الشّكل منها إلى موضعٍ معروف، فقد خَصُّوه من الخُبث و القُوة والعَرامة بما ليس لجملتهم وجمهورهم، قال لبيد:

غُلْب تَشَذّرُ بالذُّحولِ كأنّها جنُّ البَدِيِّ رواسِياً أقدامُها

وقال النّابغة:

سهكينَ مِنْ صدَإ الحديدِ كأنَّهُمْ تحتَ السَّنَوَّرِ جِنَّةُ البقّارِ

وقال زهير:

عَلَيْهِنَّ فِتْيانٌ كَجِنّةِ عَبقرٍ   جديرون يوماً أن يُنيفوا فيَسْتعلوا

وقال حاتم:

عليهنّ فِتْيانٌ كَجِنّة عبقر   يهزُّون بالأيدي الوشِيجَ المقوّما

ولذلك قيل لكلِّ شيء فائق، أو شديدٍ: عبقري.
وفي الحديث، في صفة عمر رضي اللّه عنه فلم أر عبقريّاً يفري فريّه، قال أعرابي: ظلمني واللّه ظُلماً عبقريّاً.

مراتب الجن والملائكة

ثمَّ ينزلون الجن في مراتب، فإذا ذكروا الْجِنِّيَّ سالماً قالوا: جني، فإذا أرادوا أنّه ممن سكن مع النَّاس قالوا: عامر، والجميع عُمّار، وإنْ كان ممن يعرض للصبيان فهُمْ أرواح، فإن خبُث أحدُهم وتعرَّم فهو شيطان، فإذا زاد على ذلك فهو مارد، قال اللّه عز ذكره: "وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ ماردٍ" فإن زاد على ذلك في القوَّة فهو عفريت، والجميع عفاريت، قال اللّه تعالى: "قال عِفْريتٌ مِنَ الْجنِّ أنَا آتيكَ بهِ قبْلَ أنْ تَقُومَ منْ مقامِك".
وهم في الجملة جنٌّ وخوافي، قال الشاعر:

ولا يُحَسُّ سِوى الخافي بها أثرُ

فإن طهَرَ الجني ونَظُف ونَقِيَ وصار خيراً كلُّه فهو مَلَك، في قول من تأول قوله عز ذكره: "كانَ مِنَ الْجنِّ ففسقَ عَنْ أمْرِ ربِّهِ" على أنّ الجنَّ في هذا الموضع الملائكة.
وقال آخرون: كان منهم على الإضافة إلى الدّار والدّيانة، لا على أنّه كان من جنْسهم، وإنّما ذلك على قولهم سليمان بن يزيد العدوي، وسليمان بن طرْخان التّيمي، وأبو علي الحرمازي، وعَمْرو بن فائد الأسواري، أضافوهم إلى المحالّ، وتركوا أنسابهم في الحقيقة.
استطراد لغوي وقال آخرون: كلُّ مُستْجِنٍّ فهو جِنّيٌّ، وجانّ، وجنين، وكذلك الولدُ قيل له جنينٌ لكونه في البطن واستجنانه، وقالوا للمّيت الذي في القبر جنين، وقال عمْرو بن كلثوم:

ولا شمْطاءُ لم تَدعِ المنايا   لها منْ تِسْعَةٍ إلاّ جنينا

يُخبر أنّها قد دَفَنَتْهم كلُّهم.
قالوا: وكذلك الملائكة، من الحَفَظة، والحملَة، والكَرُوبيِّينَ، فلا بدّ من طبقات،

وربَّما فُرِّق بينـهم بالأعمال، واشتُقَّ لـهم الاسمُ من السّبب كما قالُوا لواحدٍ من الأنبياء: خليل اللّه، وقالوا لآخر: كليم اللّه، وقالوا لآخر: روح اللّه.

مراتب الشجعان

والعرب تُنزل الشُّجعاء في المراتب، والاسم العامُّ شجاع، ثمَّ بطلَ، ثم بُهْمة، ثم أليَس، هذا قول أبي عبيدة.
فأمّا قولـهم: شيطان الحماطة، فإنّهم يعنون الحيّة، وأنشد الأصمعي:

ثُلاعِبُ مَثنى حَضْرَميٍّ كأنّـهُ تَعمُّجُ شيطان بذي خِرْوَع قفْرِ

وقد يُسَمُّون الكِبر والطغيان، والخُنْزُوانة، والغضبَ الشّديدَ شيطاناً، على التّشبيه، قال عمر بن الخطاب، رضي اللّه تعالى عنه: والله لأنزِعَنّ نُعْرتَه، ولأضربنَّه حتى أنزع شيطانه من نخرته.
مراتب الجن والأعراب تجعل الخوافِي والمستجِنّات، من قبل أن ترتِّب المراتب، جنسين، يقولون جِنّ وحنّ، بالجيم والحاء، وأنشدوا:

أبيتُ أهْوي في شياطينَ تُرنّ مختلفٍ نجواهمُ حِنٌّ وجِنّ

ويجعلون الجِنّ فوق الحنّ، وقال أعشى سليم:

فما أنا منْ جِنٍّ إذا كـنـتُ خـافياً ولستُ من النَّسْناسِ في عنصُرِ البَشَرْ

ذهب إلى قول من قال: البشر نـاسُ ونسناس، والخوافي حنّ وجنّ، يقول: أنا من أكرم الجِنسين حيثما كنت.
شيطان ضعفة النُّسّاك والعباد وضَعَفة النسّاك وأغبياءُ العُبّاد، يزعمون أنّ لـهم خاصّة شيطاناً قد وُكِّل بهم، ويقال له المذهِب يُسْرِج لـهم النِّيران، ويُضيء لـهم الظُّلْمة ليفتنـهم وليريهم العجب إذا ظنُّوا أنّ ذلك من قِبَل اللّه تعالى.
شيطان حفظة القرآن وفي الحديث أنّ الشّيطانَ الذي قد تفرّد بحفظة القرآن يُنْسِيهم القرآن، يسمى خَنْزَب، وهو صاحب عثمان بن أبي العاص.
الخابل والخبل قال: وأما الخابل والخَبَل، فإنما ذلك اسمٌ للجنّ الذين يخبلون النّاسَ بأعيانـهم، دون غيرهم، وقال

تناوح جِنّان بهنَّ وخُبَّلُ

كأنّه أخْرج الذين يخبلون ويتعرَّضون، ممّن ليس عنده إلاّ العزيف والنّوح، وفصل أيضاً لبيدٌ بينـهم فقال:

أعاذِلُ لو كان النِّداد لقُوتلوا   ولكنْ أتانا كُلُّ جنّ وخابلِ

وقد زعم ناسٌ أنَّ الخبلَ والخابل ناس، قالوا: فإذا كان ذلك كذلك، فكيف يقول أوس بن حجر:

تناوح جِنّان بهن وخُبّلُ

استطراد لغوي

قالوا: وإذا تعرّضَت الجنّيّة وتلوَّنتْ وعَبِثت فهي شيطانة، ثم غُول، والغُول في كلام العرب الدَّاهية، ويقال: لقد غالَتْهُ غول، وقال الشاعر:

تقول بيتي في عِزّ وفي سعَةٍ   فقدْ صدقتَ ولكنْ أنت مدخولُ

لا بأسَ بالبَيْتِ إلاّ ما صنعت به   تَبْني وتَهْدِمُه هدّاً لـه غـولُ

وقال الرَّاجز:

والحربُ غولٌ أو كشبه الغُولِ   تُزَفُّ بالرّاياتِ والطُّبـول

تَقْلِبُ للأوتـارِ والـذُّحُولِ   حِملاقَ عَيْنٍ ليس بالمكْحُولِ

زواج الأعراب للجن

ومن قول الأعراب أنهم يظهرون لهم، ويكلّمونهم، ويناكحونهم، ولذلك قال شمر بن الحارث الضّبّي:

ونارِ قد حضأتُ بُعَيْدَ هَدْءٍ   بدارِ لا أُريدُ بها مُـقـامَـا

سِوى تَحْلِيلِ راحـلـةٍ وعـينِ   أكالئُها مخافة أنّ تـنـامـا

أتَوْا نَـاري فقلتُ منونَ قالـوا   سراةُ الجنِّ قلتُ عِموا ظلاما

فقُلْتُ إلى الطّعامِ فقالَ مِنْهـمْ   زعيمٌ نحسد الإنسَ الطّعامـا

وذكر أبو زيدٍ عنهم أن رجلاً منهم تزوج السِّعلاة، وأنها كانت عنده زماناً، وولدت مِنْه، حتَّى رأت ذات ليلةٍ بَرْقاً على بلاد السَّعالي، فطارَتْ إليهنّ، فقال:

رأى بَرْقاً فأوْضعَ فوقَ بَكْرٍ فلا بكِ ما أسال وما أغامَا

فمن هذا النِّتاج المشترك، وهذا الخلْق المركَّب عندهم، بنو السِّعلاة، من بين عمرو بن يربوع، وبلقيسُ ملكة سبأ، وتأوَّلوا قول الشاعر:

لاهُمّ إنَّ جُرْهُماً عبادُكـا النّاس طِرْفٌ وهُمُ تِلادُكا

فزَعموا أن أبا جُرهمٍ من الملائكة الذين كانوا إذا عصوا في السَّماء أنزلوا إلى الأرض، كما قيل في هاروت وماروت، فجعلوا سُهيلاً عشّاراً مُسِخ نجماً، وجعلوا الزُّهرة امرأة بغيّاً مُسِخت نجماً، وكان اسمها أناهيد.
وتقول الهند في الكوكب الذي يسمّى عُطاردَ شبيهاً بهذا.
المخدومون ويقول الناس: فلانٌ مخدوم يذهبون إلى أنّه إذا عَزَم على الشَّياطين والأرواح والعُمَّار أجابوه وأطاعوه، منهم عبد اللّه بن هلال الحميريّ، الذي كان يقال له صديق إبليس، ومنهم كرباش الهنديّ، وصالح المديبري.
شروط إجابة العامر للعزيمة وقد كان عبيد مُجّ يقول: إن العامِر حريصٌ على إجابة العزيمة، ولكنّ البدنَ إذا لم يصلُحْ أن يكون له هيكلاً لم يستطعْ دخوله، والحيلةُ في ذلك أن يتبخَّرَ باللبان الذّكر، ويراعي سَيْرَ المشتري، ويغتسلَ بالماء القراح، ويدعَ الجماعَ وأكلَ الزُّهُومات، ويتوحّش في الفيافي، ويُكثر دخول الخراباتِ، حتى يرقَّ ويلطف ويصفو ويصير فيه مشابهُ من الجنّ، فإن عزم عند ذلك فلم يُجب فلا يعودنّ لمثلها فإنه ممَّن لا يصلح أن يكون بدنه هيكلاً لها، ومتى عاد خُبط فربما جُنّ، وربما مات.
قال: فلو كنت ممَّن يصلح أن يكون لهم هيكلاً لكنت فوق عبد اللّه بن هلال.

رؤية الجن

قال الأعراب: وربما نزلنا بجمعٍ كثير، ورأينا خياماً وقباباً،وناساً، ثم فقدناهم من ساعتنا.
والعوامّ ترى أنّ ابن مسعود، رضي اللّه عنه، رأى رجالاً من الزُّطّ فقال: هؤلاء أشبه من رأيت بالجنّ ليلة الجنّ.
قال: وقد رُوي عنه خلاف ذلك.
وتأوّلوا قوله تعالى: "وأنَّه كانَ رجالٌ مِنَ الإنْسِ يَعُوذُونَ برجالٍ مِنَ الْجِنِّ فزادُوهُمْ رَهَقاً"، ولم يُهلك الناس كالتأويل.
ومما يدلُّ على ما قُلنا قولُ أبي النّجم، حيث يقول:

بحيثُ تُستنُّ مع الجنّ الغُولُ

فأخرج الغول من الجِنّ، للذِي بانَتْ به من الجنّ.
وهكذا عادتهم: أن يُخرجوا الشيء من الجملة بعد أنْ دخَلَ ذلك الشيء في الجملة،

فيظهر لأمر خاصّ.
وفي بعض الرِّواية أنهم كانوا يسمعون في الجاهلية من أجواف الأوثان همهمةً، وأن خالد بن الوليد حين هدم العُزَّى رمته بالشّرَر حتى احترق عامّةُ فخذه، حتى عادهُ النبيَ صلى الله عليه وسلم.
وهذه فتنةٌ لم يكن اللّه تعالى ليمتحنَ بها الأعراب وأشباه الأعراب من العوامّ، وما أشك أنه قد كانتْ للسَّدنة حِيَلٌ وألطاف لمكان التكسُّب.
ولو سمعت أو رأيت بعض ما قد أعدّ الهِنْدُ من هذه المخاريق في بيوت عباداتهم، لعلمت أنّ اللّه تعالى قد مَنَّ على جملة الناس بالمتكلِّمين، الذين قد نشؤوا فيهم.
افتتان بعض النصارى بمصابيح كنيسة قمامة وقد تَعْرف ما في عجايز النصارى وأغمارهم، من الافتتان بمصابيح كنيسة قمامة، فأما علماؤُهم وعقلاؤُهم فليسوا بمتحاشِين من الكذب الصِّرف، والجراءةِ على البُهتان البَحْت، وقد تعوَّدُوا المكابرة حتى دربوا بها الدَّرب الذي لا يفطن له إلا ذو الفِراسة الثابتة، والمعرفة الثاقبة.

إيمان الأعراب بالهواتف

والأعرابُ وأشباهُ الأعراب لا يتحاشَون من الإيمان بالهاتف، بل يتعجَّبون ممن ردَّ ذلك، فمن ذلك حديث الأعشى بن نبّاش بن زرارة الأسدي، أنه سمع هاتفاً يقول:

لقد هَلَك الفيَّاضُ غيثُ بني فِـهْر وذُو الباع والمجْدِ الرَّفيع وذو الفخر

قال: فقلتُ مجيباً له:

ألا أيُّها الناعي أخا الجود والنّدَى مَن المرْءُ تَنْعاهُ لنا من بين فِهْر

فقال:

نَعيْت ابن جدْعان بن عمروٍ أخا النَّدى وذا الحسب القُدْمُوس والحسب القهر

وهذا الباب كثير.
قالوا: ولنَقَل الجنّ الأخبارَ علمَ الناس بوفاةِ الملوك، والأمور المهمة، كما تسامعُوا بموت المنصور بالبصرة في اليوم الذي تُوفي فيه بقرب مكة، وهذا الباب أيضاً كثير.

من له رَئيٌّ من الجن

وكانوا يقولون: إذا ألف الجنّي إنساناً وتعطَّف عليه، وخبّره ببعض الأخبار، وجد حِسّه ورأى خياله، فإذا كان عندهم كذلك قالوا: مع فلان رَئيٌّ من الجن، وممن يقولون ذلك فيه عمرو بن لُحيّ بن قمَعة، والمأمور الحارثي، وعتيبة بن الحارث بن شهاب، في ناسٍ معروفين من ذوي الأقدار، من بين فارس رئيس، وسيِّد

مُطاع.
فأما الكهّان: فمثل حارثة جهينة، وكاهنة باهلة، وعُزّى سلمة، ومثل شِقّ، وسَطيح، وأشباههم، وأما العرّاف، وهو دون الكاهن، فمثل الأبلق الأسدي، والأجلح الزهري، وعروة ابن زيد الأسدي، وعرّاف اليمامة رباح بن كَحْلَة، وهو صاحب بنت المستنير البلتعي، وقد قال الشاعر:

فقلت لعراف اليمامة داوني فإنَّك إنْ أبرَأتني لَطبيبُ

وقال جُبَيهاء الأشجعيّ:

أقامَ هَوى صفيَّة في فؤادي وقد سيَّرتُ كلَّ هوى حبيبِ

لكِ الخيراتُ كَيْفَ مُنِحتِ وُدِّي وما أنا مِنْ هَواكِ بذي نَصيبِ

أقول وعروةُ الأسديُّ يرقي أتاك برُقيةِ المَلِق الكذوبِ

لَعَمْرُك ما التّثاؤبُ يا ابن زيدٍ بشافٍ من رُقاك ولا مُجيبِ

لَسَيْرُ النّاعجات أظنُّ أشفى لما بي منْ طبيب بني الذَّهوبِ

وليس البابُ الذي يدّعيه هؤلاء من جنس العيافة والزّجر، والخطوط، والنّظر في أسرار الكفّ، وفي مواضع قرض الفار، وفي الخيلان في الجسد، وفي النظر في الأكتاف، والقضاء بالنجوم، والعلاج بالفكر.
وقد كان مُسيلمة يدّعي أن معه رئيّاً في أوّل زمانه، ولذلك قال الشّاعر، حين وَصفَ مخاريقه وخُدَعه:

ببَيْضةِ قارورِ ورايةِ شادنٍ وخُلةِ جنّيّ وتوصيلِ طائر

ألا تراه ذكر خُلّة الجني.

ظهور الشق للمسافرين

ويقولون: ومن الجنِّ جنسٌ صورةُ الواحدِ منهم على نصف صورة الإنسان، واسمه شِقّ، وإنّه كثيراً ما يعرض للرّجُل المسافر إذا كان وحْدَه، فربَّما أهلَكه فزعاً، وربما أهلَكه ضرباً وقتلاً.
قالوا: فمن ذلك حديثُ علقمة بن صفْوان بن أميَّة بن محرِّث الكناني، جدّ مروان بن الحكم، خرج في الجاهلية، وهو يريد مالاً له بمكة، وهو على حمار، وعليه إزارٌ ورداء، ومعه مِقْرعة، في ليلةٍ إضْحِيانة، حتى انتهى إلى موضعٍ يقال له حائط حزمان، فإذا هو بشقّ له يدٌ ورجل، وعينٌ، ومعه سيف، وهو يقول:

عَلْقمُ إني مـقـتـولْ وإن لـحمـي مأكـولْ

أضْرِبُهُمْ بالـهـذّلـولْ ضربَ غلامٍ شُملولْ

رحبِ الذّراعِ بُهلولْ

فقال علقمة:

يا شِقَّها مالي ولك اغمِدَ عنِّي مُنْصُلك

تَقْتُل مَنْ لا يقتلك

فقال شِقّ:

عَبيت لك عَبيتُ لـك كيما أتِيحَ مَقْـتـلـك

فاصبر لما قدْ حُمَّ لَكْ

قال: فضرب كلُّ واحدٍ منهما صاحبه، فخرَّا ميِّتين، فممَّن قتلت الجنّ علقمةُ ابن صفوان هذا، وحَرْب بن أميّة.
قالوا: وقالت الجنّ:

وقبْرُ حَرْبٍ بمكانٍ قـفـر وليس قُرْبَ قبْر حَرْبٍ قبْرُ

قالوا: ومن الدَّليل على ذلك، وعلى أنَّ هذين البيتين من أشعار الجن أن أحداً لا يستطيع أن ينشدَهما ثلاث مراتٍ متصلة، لا يَتتَعْتع فيها، وهو يستطيع أن يُنشد أثقل شعر في الأرض وأشقَّه عشْر مرّات ولا يَتَعْتَعُ.

ذكر من قتلته الجنّ أو استهوته

قال: وقتلت مِرْداسَ بن أبي عامر، أبا عبّاس بن مرداسٍ، وقتلت الغريضَ خنْقاً بعد أن غنَّى بالغناء الذي كانوا نـهَوه عنـه، وقتلت الجنُّ سعد بن عُبادة بن دُلَيم، وسمعوا الـهاتف يقول:

نحن قتَلْنا سيِّد الخزْرْ ج سَعْد بن عُبـاده

رَمَيْناه بسَـهـمـين فلَمْ نُخْـطِ فُـؤادَهُ

واستهوَوا سِنانَ بن أبي حارثة ليستفحلوه، فمات فيهم، واستهووا طالب بن أبي طالب، فلم يوجد له أثرٌ إلى يومنا هذا.
واستهووا عَمرو بن عَدِيٍّ اللَّخميّ الملك، الذي يقال فيه: شَبَّ عَمْرٌو عن الطّوق، ثمَّ ردُّوه على خاله جذيمة الأبرش، بعد سنين وسنين.
واستهوَوا عمارة بن الوليد بن المغيرة، ونفخوا في إحليله فصار مع الوحش.
ويروون عن عبد اللّه بن فائد بإسنادٍ له يرفعه، أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: خرافة رَجُل من عُذْرة استهوتْه الشّياطين، وأنّه تحدَّث يوماً بحديثٍ فقالت امرأةٌ من نسائه: هذا من حديث خُرافة قال: لا، وخُرافةُ حقٌّ.

طعام الجن

ورووا عن عُمر بن الخطاب رضي اللّه عنه، أنّه سأل المفقود الذي استهوته الجن: ما كان طعامهم؟ قال: الفول، قال: فما كان شرابهم؟ قال: الجدف.
ورووا أن طعامهم الرِّمة وما لم يذكر اسمُ اللّه عليه.
ورووا عن النبي صلى الله عليه وسلم - والحديث صحيح - أنه قال: خَمِّروا آنيتكم، وأوكئوا أسقيتكم وأجيفُوا الأبواب، وأطفئوا المصابيح، واكفُفُوا صِبيانكم، فإن للشّياطين انتشاراً وخَطَفة،

رؤوس الشياطين

وقد قال الناس في قوله تعالى: "إنّها شَجَرةٌ تَخْرُجُ في أصْلِ الجحيمِ، طلْعُها كأنَّهُ رُؤُوس الشَّياطِين"، فزعم ناس أنّ رؤوس الشياطين ثمر شجرةٍ تكون ببلاد اليمن، لها منظر كريه.
والمتكلّمون لا يعرفون هذا التَّفسير، وقالوا: ما عنى إلاّ رؤُوس الشياطين المعروفين بهذا الاسم، من فَسَقة الجن ومَرَدتهم، فقال أهل الطّعن والخلاف: كيف يجوز أن يضرب المثل بشيء لم نرَه فنتوهَّمه، ولا وُصِفت لنا صورته في كتابٍ ناطق، أو خبر صادق، ومخرج الكلام يدلُّ على التخويف بتلك الصُّورة، والتفزيع منها، وعلى أنّه لو كان شيءٌ أبلغَ في الزَّجر من ذلك لذكَرَه، فكيف يكون الشَّأن كذلك، والناس لا يفزعون إلاّ من شيء هائل شنيع، قد عاينوه، أو صوّره لهم واصفٌ صدوقُ اللسان، بليغٌ في الوصف، ونحن لم نعاينها، ولا صوَّرها لنا صادق، وعلى أنَّ أكثر الناس من هذه الأمم التي لم تعايشْ أهل الكتابين وحَمَلَة القرآن من المسلمين، ولم تسمع الاختلاف لا يتوهَّمون ذلك، ولا يقفون عليه، ولا يفزعون منه، فكيف يكون ذلك وعيداً عاماً؟.
قلنا: وإن كنّا نحن لم نر شيطاناً قطّ ولا صوّر رؤوسها لنا صادقٌ بيده، ففي إجماعهم على ضرْب المثل بقُبح الشيطان، حتَّى صاروا يضعُون ذلك في مكانين: أحدهما أن يقولوا: لهو أقبح من الشيطان، والوجه الآخر أن يسمَّى الجميلُ شيطاناً، على جهة التطيُّر له، كما تُسمَّى الفرسُ الكريمةُ شَوهاء، والمرأة الجميلة صَمّاء، وقرناء، وخَنْساء، وجرباء وأشباه ذلك، على جهة التطيُّر له، ففي إجماع المسلمين والعرب وكلِّ من لقيناهُ على ضرْب المثل بقُبْح الشيطان، دليلُ على أنه

في الحقيقة أقبحُ من كل قبيح.
والكتابُ إنَّما نزل على هؤلاء الذين قد ثبّت في طبائعهم بغاية التثبيت.
وكما يقولون: لهو أقبحُ من السحر، فكذلك يقولون، كما قال عمر بن عبد العزيز لبعض من أحسنَ الكلام في طلب حاجته - هذا واللّه السِّحر الحلال.
وكذلك أيضاً ربّما قالوا: ما فلانٌ إلا شيطان على معنى الشَّهامة والنَّفاذ وأشباه ذلك.
صفة الغول والشيطان والعامّة تزعم أنَّ الغول تتصوَّر في أحسن صورة إلا أنه لا بدَّ أن تكون رجْلُها رجلَ حمارٍ.
وخبَّروا عن الخليل بن أحمد، أنّ أعرابيّاً أنشده:

وحافر العَير في ساقٍ خَدلَّجةٍ وجفن عينٍ خلاف الإنس في الطولِ

وذكروا أنّ العامَّة تزعم أنّ شقَّ عين الشيطان بالطول، وما أظنُّهم أخذوا هذين المعنين إلاّ عن الأعراب.
ردّ على أهل الطعن في الكتاب وأما إخبارهم عن هذه الأمم، وعن جهلها بهذا الإجماع والاتِّفاق والإطباق، فما القول في ذلك إلاّ كالقول في الزَّبانِية وخزنةِ جهنَّم، وصُور الملائكة الذين يتصوّرون في أقبح الصُّور إذا حضروا لقبْض أرواح الكفار، وكذلك في صور مُنكر ونكير، تكون للمؤمن على مثال، وللكافر على مثال.
ونحن نعلم أنّ الكفار يزعمون أنهم لا يتوهّمون الكلامَ والمحاجَّة من إنسان ألقي في جاحِم أتُّون فكيف بأن يُلقى في نار جهنّم؟ فالحجّة على جميع هؤلاء، في جميع هذه الأبواب، من جهةٍ واحدة، وهذا الجوابُ قريبٌ، والحمد للّه.
وشقُّ فم العنكبوت بالطول، وله ثماني أرجل.

سكنى الجن أرض وبار

وتزعم الأعرابُ أن اللّه عزّ ذكره حين أهلك الأمة التي كانت تسمَّى وبار، كما أهلك طسْماً، وجَدِيساً، وأميماً، وجاسماً، وعملاقاً، وثموداً وعاداً - أنَّ الجنّ سكنت في منازلها وحمتها من كلِّ مَنْ أرادها، وأنّها أخصبُ بلاد اللّه، وأكثرها شجراً، وأطيبُها ثمراً، وأكثرها حبّاً وعنباً، وأكثرها نخلاً وموزاً، فإن دنا اليومَ إنسانٌ من تلك البلاد، متعمِّداً، أو غالطاً، حَثوا في وجهه التراب، فإن أبى الرُّجوعَ خبلوه، وربّما قتلوه.
والموضع نفسه باطل، فإذا قيل لهم: دُلُّونا على جهته، ووقِّفونا على حدِّه وخلاكُم ذمٌّ - زعموا أنّ من أراد ألقي على قلبه الصَّرْفة، حتَّى كأنهم أصحابُ موسى في التِّيه، وقال الشاعر:

وداع دعا واللَّيلُ مرخٍ سُدولـه رجاءَ القِرى يا مُسْلِمَ بن حمارِ

دعا جُعَلاً لا يهتدِي لمقيلـه من اللؤم حتّى يهْتدي لوَبَـارِ

فهذا الشاعرُ الأعرابيُّ جعل أرض وبارِ مثلاً في الضلال، والأعراب يتحدّثون عنها كما يتحدّثون عمّا يجدونه بالدَّوِّ والصَّمّان، والدهناء، ورمل يبرين، وما أكثر ما يذكرون أرض وبارِ في الشِّعر، على معنى هذا الشاعر.
قالوا: فليس اليومَ في تلك البلاد إلاَّ الجنُّ، والإبلُ الحُوشيَّة.
الحوشية من الإبل والحوشُ من الإبل عندهم هي التي ضربتْ فيها فحولُ إبل الجن، فالحوشِيَّة من نَسْل إبل الجن، والعِيديَّة، والمَهْرية، والعَسْجديّة، والعُمانية، قد ضربت فيها الحوش، وقال رُؤبة:

جَرَّت رَحانا من بلاد الحوشِ

وقال ابن هريم:

كأنّي على حُوشيَّةٍ أو نَعامةٍ لها نَسبٌ في الطَّيرِ وهو ظليمُ

وإنما سمَّوا صاحبة يزيد بن الطَّثرية حُوشيّة على هذا المعنى.

التحصُّن من الجنّ

وقال بعضُ أصحاب التفسير في قوله تعالى: "وَأَنَّهُ كانَ رجالٌ من الإنس يَعُوذونَ برجالٍ من الْجِنِّ فزادُوهُمْ رَهقاً": إنَّ جماعة من العرب كانوا إذا صاروا في تيه من الأرض، وتوسَّطوا بلاد الحُوش، خافوا عبث الجنَّانِ والسَّعالي والغيلان والشياطين، فيقوم أحدهم فيرفع صوته: إنا عائذرن بسيِّد هذا الوادي فلا يؤذيهم أحدٌ، وتصير لهم بذلك خفارة.

أثر عشق الجن في الصرع

وهم يزعمون أن المجنون إذا صرعَتْه الجنّيّة، وأنّ المجنونة إذا صرعها الجنيّ - أنّ ذلك إنما هو على طريق العشْق والهوى، وشهوة النِّكاح، وأن الشيطان يعشق المرأة منّا، وأنَّ نظْرته إليها من طريق العُجب بها أشدُّ عليها من حُمّى أيام، وأنّ عين الجانّ أشدُّ من عين الإنسان.
قال: وسمع عمرو بن عُبيد، رضي اللّه عنه، ناساً من المتكلّمين يُنْكِرون صَرْع الإنسان للإنسان، واستهواء الجنّ للإنس، فقال وما ينكرون من ذلك وقد سمعوا قول اللّه عزّ ذكره في أكَلَة الرِّبا، وما يصيبهم يوم القيامة، حيث قال: "الَّذينَ يأكُلُونَ الرِّبا لا يقومُون إلاّ كما يَقُومُ الَّذي يَتَخبَّطهُ الشَّيْطانُ منَ المَسِّ"، ولو كان الشَّيطانُ لم يَخْبِطْ أحداً لما ذكر اللّه تعالى به أكلة الرّبا، فقيل له: ولعلّ ذلك كان مرّةً فذهب، قال: ولعله قد كثر فازداد أضعافاً، قال: وما يُنكرون من الاستهواء بعد قوله تعالى: "كالَّذي استهْوَتْهُ الشّياطينُ في الأرض حَيْرانَ".
زعم العرب أن الطاعون طعن من الشيطان قال: والعرب تزعم أن الطاعون طعنٌ من الشيطان، ويسمُّون الطَّاعون رماح الجنّ، قال الأسديُّ للحارث الملك الغسّاني:

لَعَمْرِكَ ما خَشيتُ على أُبيٍّ   رماحَ بني مُقيِّدة الحمـارِ

ولكني خَشيت علـى أُبـيٍّ   رماح الجنِّ أو إياكَ حار

يقول: لم أكن أخاف على أبيّ مع منعته وصرامته، أن يقتله الأنذال، ومن يرتبط العير دونَ الفرس، ولكني إنما كنت أخافك عليه، فتكونُ أنت الذي تطعَنه أو يطعَنه طاعونُ الشّام.
وقال العُمانيّ يذكر دولة بني العبّاس:

قد دَفَع اللّه رماح الجن   وأذهب العذابَ والتَّجنّي

وقال زيد بن جُندب الإياديّ:

ولولا رماحُ الجنِّ ما كان هزمهم رماح الأعادي من فصيح وأعجم

ذهب إلى قول أبي دؤاد:

سُلِّط الموتُ والمنونُ عليهم   فلهم في صَدى المقابر هامُ

يعني الطاعون الذي كان أصاب إياداً.
وجاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه ذكر الطّاعون فقال: "هو وَخْزٌ من عَدُوِّكم": وأنَّ عَمْرو بن العاص قام في النّاس في طاعون عَمَواس فقال: إنّ هذا الطاعون قد ظهر، وإنما هو وخْزٌ من الشَّيطان، ففِرُّوا منه في هذه الشِّعاب.
وبلغ مُعاذ بن جبَلٍ، فأنكر ذلك القول عليه.

تصور الجنّ والغيلان والملائكة والناس

وتزعم العامَّة أنّ اللّه تعالى قد مَلّك الجن والشياطين والعُمَّار والغيلانَ أنْ يتحوّلوا في أيِّ صورة شاؤوا، إلاّ الغول، فإنّها تتحوَّل في جميع صُورة المرأة ولباسها، إلاّ رجليها، فلا بُدَّ من أن تكون رجليْ حمار.
وإنما قاسُوا تصوُّر الجن على تصوُّر جبريل عليه السلام في صورة دَحْية بن خليفة الكلبي، وعلى تصوُّر الملائكة الذين أتوا مريم، وإبراهيم، ولوطاً، وداود عليهم السلام في صورة الآدميِّين، وعلى ما جاء في الأثر من تصوُّر إبليس في صورة سُراقة بن مالك بن جعْشم، وعلى تصوّره في صورة الشيخ النجدي، وقاسوه على تصوُّر مَلَكَ الموت إذا حضر لقبض أرواح بني آدم، فإنه عند ذلك يتصوّر على قدر الأعمال الصالحة والطالحة.
قالوا: وقد جاء في الخبر أنّ من الملائكة من هو في صورة الرِّجال، ومنهم من

هو في صورة الثِّيران، ومنهم من هو في صورة النسور، ويدلُّ على ذلك تصديقُ النبي صلى الله عليه وسلم لأميّة بن أبي الصّلت، حين أُنشِدَ:

رَجُلٌ وثَوْرٌ تحت رِجْلِ يمينـه والنَّسْر للأُخرى ولَيْثٌ مُرْصَدُ

قالوا: فإذ قد استقام أن تختلف صُورهم وأخلاط أبدانهم، وتتفق عقولهم وبيانهم واستطاعتهم، جاز أيضاً أن يكون إبليس والشّيطان والغول أن يتبدلوا في الصُّور من غير أنْ يتبدلوا في العقل والبيان والاستطاعة.
قالو: وقد حوَّل اللّه تعالى جعفر بن أبي طالب طائراً، حتى سماه المسلمون الطّيّار، ولم يخرجْه ذلك من أن نراه غداً في الجنة، وله مثْلُ عقل أخيه علي رضي اللّه عنهما، ومثل عقل عمه حمزة رضي اللّه تعالى عنه، مع المساواة بالبيان والخلق.

أحاديث في إثبات الشيطان

قالوا: وقد جاء في الأثر النهي عن الصّلاة في أعطان الإبل، لأنّها خلقت من أعنان الشياطين.
وجاء أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم نَهى عن الصَّلاة عند طلوع الشَّمس حتى طلوعها، فإنّها بين قرني شيطان.
وجاء أنَّ الشياطين تُغلّ في رمضان.
فكيف تنكر ذلك مع قوله تعالى في القرآن: "والشَّياطينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغوَّاص، وآخَرينَ مُقرَّنينَ في الأصفادِ".
ولشهرة ذلك في العرب، في بقايا ما ثبتوا عليه من دين إبراهيم عليه السّلام، قال النابغة الذبياني:

إلا سُلَيمـانَ إذْ قـال الإلـهُ لَـهُ قم في البَريَّةِ فاحْددْها عن الفَنَد

وخيِّس الجِنَّ إنِّي قدْ أذِنتُ لَـهُـمْ يَبْنُون تَدْمُر بالصُّفّاح والعمـدِ

فمنْ عصاك فعاقِبْهُ مُـعـاقـبةً تنهى الظّلوم ولا تقْعد على ضمدِ

وجاء في قتل الأسود البهيم من الكلاب، وفي ذي الثُّكْتتين، وفي الحية ذات الطُّفْيتين، وفي الجانّ.
وجاء: لا تشربوا من ثُلمة الإناء، فإنَّه كِفْل الشَّيطان، وفي العاقد شَعره في الصلاة: إنَّه كِفْل الشيطان، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: تراصُّوا بينكم في الصلاة، لا تتخللكم الشّياطين كأنّها بنات حذف، وأنَّه نهى عن ذبائح الجن.
ورووا: أن امرأة أتتْ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: إنّ ابني هذا، به جنونٌ يصيبه عند الغداء والعَشَاء قال: فمسح النبيُّ صلى الله عليه وسلم صدْرَه، فثَعَّ ثعة فخرج من جوفه جروٌ أسود يسعى.

قالوا: وقد قضى ابن عُلاثة القاضي بين الجنّ، في دم كان بينهم بحكمٍ أقنعهم.
رجع إلى تفسير قصيدة البهراني ثم رجع بنا القولُ إلى تفسير قصيدة البهّراني:
أما قوله:

وتزوّجْتُ في الشبيبة غولاً   بغزال وصَدْقتي زِقُّ خمر

فزعم أنه جعل صداقها غزالاً وزقَّ خمر، فالخمر لطيب الرائحة، والغزالُ لتجعله مَرْكباً، فإنّ الظِّباء من مراكب الجن.
وأما قوله:

ثيِّبٌ إن هَوِيتُ ذلك منـهـا   ومتى شئتُ لم أجِدْ غير بكر

كأنه قال: هي تتصوَّر في أيِّ صورةٍ شاءتْ.

شياطين الشعراء

وأما قوله:

بنت عَمْرٍو وخالها مِسحل الخي   ر وخالي هُميمُ صاحب عَمْرو

فإنهم يزعمون أنّ مع كلِّ فحل من الشعراء شيطاناً يقول ذلك الفحلُ على لسانه الشعر، فزعم البهراني أنّ هذه الجنّية بنت عمرو صاحب المخبَّل، وأن خالها مِسْحل شيطان الأعشى، وذكر أن خاله هُمَيم، وهو همّام، وهمّام هو الفرزدق، وكان غالبُ بن صعصعة إذا دعا الفرزدق قال: يا هميم.
وأما قوله: صاحب عمرو فكذلك أيضاً يقال إن اسم شيطان الفرزدق عمرو، وقد ذكر الأعشى مِسْحلاً حين هجاه جُهُنَّام فقال:

دَعَوْتُ خليلي مِسْحلاً ودعَوا له   جُهُنّامَ جَدْعاً للهجين المذَمَّـم

وذكره الأعشى فقال:

حباني أخي الجنِّيُّ نفسي فداؤُه   بأفْيَحَ جَيَّاشِ العَشيّات مِرْجـم

وقال أعشى سُلَيم:

وما كان جِنّيُّ الـفـرزدق قـدوةً   وما كان فيهم مِثْلُ فَحْلِ المخـبَّـل

وما في الخوافي مثل عَمْرو وشيخِهِ   ولا بعدَ عمرو شاعرٌ مثلُ مِسْحـل

وقال الفرزدق، في مديح أسد بن عبد اللّه:

ليُبلغَنّ أبا الأشبـال مِـدْحـتـنـا مَنْ كان بالغُور أو مَرْوَيْ خُراسانا

كأنّـها الذّهب العقْيانُ حـبّـرهـا لسانُ أشْعر خلْق اللّه شيطـانـا

وقال:

فلو كنْتَ عنْدي يوم قوٍّ عذرْتني بيوم دهتْني جِنُّهُ وأخـابـلُـه

فمن أجل هذا البيت، ومن أجل قول الآخر:

إذا ما راعَ جارَتهُ فلاقى خبالَ اللّه منْ إنس وجِنِّ

زعموا أنّ الخابل النّاس.
ولما قال بشّار الأعمى:

دعاني شِنِقْناقٌ إلى خَلْفِ بكرةٍ فقلتُ :اتركنِّي فالتفرُّدُ أحمدُ

يقول: أحمدُ في الشعر أن لا يكون لي عليه معين - فقال أعشى سُليم يردُّ عليه:

إذا أَلِفَ الجنّيُّ قِرداً مُشَنّـفـاً فقل لخنازير الجزيرةِ أبْشري

فجزع بشّارٌ من ذلك جزعاً شديداً، لأنّه كان يعلم مع تغزُّله أنَّ وجهه وجْهُ قردٍ، وكان أوّل ما عُرف من جزعه من ذكر القِرد، الذي رأوا منه حين أنشدوه بيت حمّاد:

ويا أقبحَ مِن قِـرْدٍ إذا ما عَمِيَ القِرْدُ

وأما قوله:

ولـهـا خِـطَّةٌ بـأرض وبـار مسَحُوها فكان لي نصْفُ شطر

فإنما ادّعى الرُّبع من ميراثها، لأنه قال:

تركتْ عَبْدلاً ثمالَ اليتـامـى وأخوه مزاحم كان بـكـر

وَضَعَتْ تِسْعةً وكانتْ نَزوراً من نِساءٍ في أهْلِها غير نُزْر

وفي أنَّ مع كلِّ شاعر شيطاناً يقول معه، قول أبي النجم:

إني وكلّ شاعر من البَشـرْ　　　شيطانه أنْثى وشَيطاني ذكر

وقال آخر:

إني وإن كنتُ صغير السِّنّ　　　وكان في العين نُبُوٌّ عنّي

فإنّ شيطاني كبير الجنِّ

كلاب الجن

وأما قول عمرو بن كلثوم:

وقد هَرَّتْ كلابُ الجِنِّ منا　　　وشَذَّبْنَا قتادة من يلـينـا

فإنهم يزعمون أنّ كلاب الجنِّ هم الشعراء.

أرض الجن

وأما قوله:

أرض حُوشٍ وجاملٍ عَكَنَانِ　　　وعُروجٍ من المؤبّلِ دَثـر

فأرض الحوش هي أرضُ وَبار، وقد فسَّرنا تأويل الحوش، والعَكَنَان: الكثير الذي لايكون فوقه عدد، قوله: عروج جمع عَرْجٍ، والعَرْجَ: ألف من الإبل نقص شَيئاً أوْ زاد شيئاً، والمؤبّل من الإبل، يقال إبل مؤبَّلة، ودراهم مُدَرهمة، وبدَر مبدَّرة، مثل قوله تعالى: "وَالْقَنَاطِيرِ المُقَنْطرَةَ" وأما قوله: "دثر" فإنهم يقولون: مال دَثر، ومالٌ دَبْر، ومال حَوْم: إذا كان كثيراً.

استراق السمع

وأما قوله:

ونَفَوْا عَنْ حريمها كلَّ عِفْرٍ　　　يسرقُ السَّمعَ كلَّ ليلةِ بَدْرِ

فالعِفْر هو العفريت، وجعله لا يسرق السمع إلا جهاراً في أضوإ ما يكون البدر، من شدَّة معاندته، وفرط قوته.
الشنقناق والشيصبان وأما قوله:

في فُتُوٍّ من الشَّنقناق غُرٍّ   ونِساء من الزَّوابع زُهْرِ

الزوابع: بنو زَوْبعة الجنِّيّ، وهم أصحاب الرَّهج والقتَّام والتَّثوير وَقال راجزهم:

إنّ الشياطين أتوْني أربـعـهْ   في غَبَش الليل وفيهم زَوبعه

فأما شِنِقناق وشَيْصبَان، فقد ذكرهما أبو النجم:

لابن شنقْناق وشَيْصبَانِ

فهذان رئيسان ومن آباء القبائل، وقد قال شاعرهم:

إذا ما ترَعْرَعَ فينا الـغـلامْ   فليس يقال لـه مـن هُـوَهْ

إذا لم يَسُدْ قبل شـدِّ الإزار   فذلك فينـا الـذي لا هُـوَهْ

ولي صاحبٌ من بني الشَّيصبا   ن فطوراً أقولُ وطوراً هُوَهْ

وهذا البيت أيضاً يصلح أن يلحق في الدَّليل على أنهم يقولون: إن مع كلِّ شاعر شيطاناً، ومن ذلك قولُ بشَّار الأعمى:

دَعاني شِنِقْناقٌ إلى خَلْف بَكرَةٍ   فقلت :اترُكَنِّي فالتَّفَرُّدُ أحمَدُ

شياطين الشام والهند

قال: وأصحاب الرُّقى والأخذ والعزائم، والسِّحر، والشَّعبذة، يزعمون أنّ العدد والقوّة في الجنِّ والشياطين لنازلة الشام والهند، وأنَّ عظيم شياطين الهند يقال له: تنكوير، وعظيم شياطين الشام يقال له: دركاذاب.
وقد ذكرهما أبو إسحاق في هجائه محمد بن يَسِير، حين ادّعى هذه الصناعة فقال:

قد لعمْرى جمعت مِنْ آصفيّا   تِ ومن سفْر آدم والـجـرابِ

وتفردتَ بالطـوالـق والـهـي   كل والرهنباتِ من كـلِّ بـابِ

وعلمتَ الأسماء كيمـا تُـلاقـى   زُحلاً والمريخَ فوق السـحـابِ

واستثرتَ الأرواح بالبحْـر يأت   ينَ لصرع الصحيح بعدَ المصابِ

جامعاً من لطائف الدنـهـشيَّا ... تِ كبوسا نمقتها فـي كـتـابِ

ثمَّ أحكمت متـقـن الـكـرويا ... ت وفعل النـاريس والـنـجـابِ

ثمَّ لم تعْيك الشعـابـيذ والـخـد ... مةُ والاحـتـفـاء بـالـطـلابِ

بالخواتيم والمـنـاديل والـسـع ... يِ بـتـنـكـوير ودركـاذابِ

قتل الغول بضربة واحدة وأما قولـه:

ضربَتْ فَردةً فصارت هَباءً ... في مُحاق القُمير آخر شَهْرِ

فإنّ الأعرابَ والعامّة تزعُم أن الغول إذا ضربت ضَربةً ماتت، إلاّ أن يُعيد عليها الضّارب قبل أن تقْضي ضربة أخرى، فإنّه إن فعل ذلك لم تمُتْ، وقال شاعرهم:

فثنّيتُ والمِقدارُ يحرُسُ أهلَهُ ... فَلَيْتَ يميني قبل ذلك شلّتِ

وأنشد لأبي البلاد الطُّهَويّ:

لـهَانَ علَى جهينة مـا ألاقـي ... من الروعاتِ يومَ رحَى بطانِ

لقيتُ الغول تسرى في ظـلامٍ ... بسهبٍ كالعباية صحصحـانِ

فقلتُ لـها كلانا نقض أرضٍ ... أخُو سفَر فصدِّى عن مَكانى

فصدتْ وانتحيتُ لـها بعضـبٍ ... حسامٍ غير مؤتشبٍ يمـانـى

فقدّ سَراتها والبرك مـنـهـا ... فخرتْ لليدين ولـلـجـران

فقالت زدْ فقلـتُ رويدَ إنّـى ... على أمثالها ثبتُ الـجـنـانِ

شددتُ عقالها وحططت عنها ... لأنظرَ غدوةً ماذا دهـانـى

إذا عينان في وجـهٍ قـبـيح ... كوجْه الهرِّ مشقوق اللسـانِ

ورجلا مخدجٍ ولسانُ كـلـبٍ ... وجلدٌمن فـراءٍ أو سنـانِ

وأبو البلاد هذا الطهوي كان من شياطين الأعراب، وهو كما ترى يكذِب وهو يَعلَم، ويُطيل الكذِب ويُحَبِّره، وقد قال كما ترى:

فقالت زِدْ فقلتُ رُوَيْد إنّي على أمثالها ثَبْتُ الجَنَانِ

لأنّهم هكذا يقولون، يزعمون أنّ الغول تستزيد بعد الضَّرْبة الأولى لأنّها تموت من ضربةٍ، وتعيشُ من ألف ضرْبة.

مناكحة الجنِّ ومحالفتهم

وأمّا قوله:

غلبتني على النَّجابة عرسي بعد أنْ طالَ في النجابة ذكري

وأرى فِيهِمُ شمائِلَ إنسٍ غيرَ أنّ النّجارَ صُورةُ عِفرِ

فإنَّه يقول: لما تركّب الولدُ منّي ومنها كان شبهُها فيه أكثر.
وقال عبيد بن أيُّوب:

أخو قفراتٍ حَالَفَ الجِنَّ وانتفى مِنَ الإنْس حتّى قد تَقضّتْ وسائلُهْ

له نَسَبُ الإنسيّ يُعرَفُ نَجْلُه وللجِنِّ منه خَلْقه وشمائلُه

وقال:

وصارَ خليلَ الغُول بَعدَ عداوةٍ صَفِيّاً وربَّتْه القِفَارُ البسابسُ

فليس بجِنّيٍّ فيُعْرَفَ نَجْله ولا أنَسيٍّ تحتويه المجالِسُ

يظلُّ ولا يبدوُ لشيءٍ نهارَه ولكنّه ينْباعُ واللّيْلُ دامِس

قال: وقال القعقاع بنُ مَعْبَد بن زُرارة، في ابنه عوف بن القعقاع: واللّه لما أرى من شمائل الجنّ في عوف أكثر ممّا أرَى فيه من شمائل الإنس.
وقال مَسلمة بن محارب: حدّثني رجلٌ من أصحابنا قال: خرجنا في سَفرٍ ومعنا رجُلٌ، فانتهينا إلى واد، فدعَوْنا بالغَدَاء، فمدّ رجلٌ يدَه إلى الطعام، فلم يقدر عليه - وهو قبْلَ ذلك يأكلُ معَنا في كلِّ منزل - فاشتدّ اغتمامنا لذلك، فخرجنا نسأل عن حاله، فتلقَّانا أعرابيٌّ فقال: ما لكم؟ فأخبرناه خبَرَ الرَّجُل، فقال: ما اسم صاحبكم؟ قلنا: أسد قال: هذا وادٍ قد أخِذَتْ سباعه فارحلوا، فلو قد جاوزتم الواديَ استمرَى الرَّجُل وأكَل.

مراكب الجن

وأمَّا قوله:

وبها كنتُ راكبـاً حشـراتٍ	مُلجِماً قنفذاً ومُـسْـرِجَ وَبْـر
وأجوبُ البلادَ تحتـيَ ظبـيٌ	ضاحكٌ سنُّه كثيرُ الـتـمـرِّي
مُولـجٌ دُبْرَهُ خَـوَايَةَ مَـكْـوٍ	وهو بالليل في العفاريت يَسري

فقد أخبرْنا في صدر هذا الكتاب بقول الأعراب في مطايا الجن من الحشرات والوحش.
وأنشد ابنُ الأعرابي لبعض الأعراب:

كلَّ المطايا قد ركبنا فلـم نـجـد	ألَذَّ وأشهى مِنْ مذاكي الثَّعـالـبِ
وَمِنْ عنظوان صـعبةٍ شـمّـرية	تَخُبُّ برجْليهـا أمـام الـرَّكـائبِ
ومنْ جُرَذٍ سُرْحِ الـيدين مـفـرَّج	يعوم برَحْلي بين أيدِي المـراكـب
ومنْ فارةٍ تزداد عِـتْـقـاً وحـدّةً	تبرِّح بالخوص العِتاق النَّـجَـائبِ
ومنْ كلِّ فتْلاء الـذِّراعَـين حُـرَّة	مدرَّبة مـن عـافـيات الأرانـبِ
ومنْ ورَل يغتالُ فضْلَ زمـامِـهِ	أضرَّ به طول السُّرى في السَّباسِبِ

قال ابنُ الأعرابي: فقلت له: أترى الجن كانت تركبُها، فقال: أحلِفُ باللّه لقد كنتُ أجد بالظِّباء التَّوقيعَ في ظهورها؟ والسِّمة في الآذان، وأنشد:

كلّ المطايا قد ركبنا فلـم نـجـدْ	ألذَّ وأشْهَى من رُكوب الجَـنـادِبِ
ومنْ عَضْرفوط حطَّ بي فأقمـتـهُ	يبادِرُ ورداً من عـظـاءٍ قـواربِ
وشرُّ مطايا الـجـنِّ أرْنـبُ خُـلّةٍ	وذئبُ الغضا أوقٌ على كلِّ صاحبِ
ولم أر فيها مِثلَ قُـنـفُـذ بُـرْقةٍ	يَقُودَ قطاراً منْ عظام العنـاكـبِ

وقد فسَّرنا قولهم في الأرانب، لم لا تركب، وفي أرنب الخَلّة، وقنفذ البُرْقة.
وحدثني أبو نُواس قال: بكرتُ إلى المِربَد، ومعي ألواحي أطلبُ أعرابيّاً فصيحاً، فإذا في ظلِّ دار جعفر أعرابيٌّ لم أسمع بشيطان أقبَحَ منه وجهاً، ولا بإنسان أحسنَ منه عقلاً، وذلك في يومٍ لم أر كبرده برداً، فقلتُ له: هلاَّ قعدت في الشمس فقال: الخَلْوة أحبُّ إليّ فقلت له مازحاً: أرأيت القنفذَ إذا امتطاه الْجِنيُّ وعلا به في الهواء، هل القنفذ يحمل الجنِّيّ أم الجنّيّ يحمل القنفذ؟ قال: هذا من أكاذيب الأعراب، وقد قلت في ذلك شعراً، قلت فأنشِدْنيه، فأنشَدَني بعد أن كان قال لي: قلت هذا الشعر وقد رأيت ليلة قنفذاً ويربوعاً يلتمسان بعض الرِّزق:

فما يُعجبُ الجنَّانَ منك عَدِمتَّهم وفي الأُسْد أفراسٌ لهم ونجائبُ

أتُسرج يربوعً وتُلجِم قُنفذاً لقدْ أعوزَتهُمْ ما علمْتَ المراكِبُ

فإن كانت الجنّانُ جُنّت فبالحَرى ولا ذَنْبَ للأقدار واللّه غالبُ

وما الناس إلا خادعٌ ومخدَّعٌ وصاحبُ إسْهَابٍ وآخر كاذب

قال: فقلت له: قد كان ينبغي أن يكون البيت الثالث والرابع بيت آخر، قال: كانت واللّه أربعين بيتاً، ولكنَّ الحطمة واللّه حَطمتها، قال: فقلت: فهلْ قلت في هذا الباب غير هذا؟ قال: نعم، شيءٌ قلتُهُ لزوجتي، وهو واللّه عندها أصدقُ شيءٍ قلتُه لها:

أراه سَميعاً للسِّرار كقنفذٍ لقد ضاع سِرُّ اللّه يا أمَّ مَعْبدِ

قال: فلم أصبر أن ضحِكْتُ، فغضب وذهب.

شعر فيه ذكر الغول

ويكتب مع شعر أبي البلاد الطُّهوي:

فمن لامَني فيها فوَاجَه مِثلَها على غِرَّةٍ ألقت عطافاً ومئزرا

لها ساعِدَا غُولٍ ورجلا نعامةٍ ورأسٌ كمسْحاة اليهُوديِّ أزعَرَا

وبَطْنٌ كأثناء المزادةِ رَقّعتْ جوانبُه أعكانَه وتَكَسَّرا

وثدْيان كالخُرْجين نيطت عُرَاهُما إلى جُؤجُؤٍ جاني الترائب أزْوَرَا

قال: كان أبو شيطان، واسمه إسحاق بن رَزِين، أحد بني السِّمط سِمْط جعدة ابن كعب، فأتاهم أميرٌ فجعل ينْكُب عليهم جَوراً، وجعل آخر من أهل بلده ينقب عليهم: أي يكون عليهم نقيباً. فجعل يقول:

يا ذا الذي نَكَبَنَا ونَقبَا زَوّجَهُ الرَّحمن غُولاً عقْرَبا

جمّع فيها مالَه ولبْلَبا لبالب التّيس إذا تَهَبْهبَا

حتَّى إذا ما استطربَتْ واستطربَا عاينَ أشنا خَلق ربّيزرْنبا

ذات نواتين وسَلع أسْقِبَا

يعني فرجها ونوَاتها، يقول، لم تُخْتَن.

جنون الجن وصرعهم

وأما قوله:

فإنْ كانت الجِنّان جُنّتْ فبالَحرى

فإنهم قد يقولون في مثل هذا، وقد قال دَعْلجُ بن الحكم:

وكيف يفِيق الدهرَ كعبُ بنُ ناشبٍ وشيطانه عِندَ الأهلَّة يُصْرَعُ

شعر فيه ذكر الجنون وأنشدني عبد الرحمن بن منصور الأُسَيْديِّ قبل أن يُجَنَّ:

جُنونكَ مجنونٌ ولستَ بواجِدٍ طبيباً يُداوي منْ جُنونِ جُنونِ

وأنشدني يومئذ:

أتَوني بمجْنون يَسِيلُ لُعابُهُ وما صاحبي إلا الصَّحيحُ المسَلَّمُ

وفيما يشبه الأولَ يقولُ ابن ميَّادة:

فلما أتاني ما تقُولُ محاربٌ تَغَنَّتْ شياطيني وجُنَّ جُنونُها

وحاكتْ لها ممّا أقول قصائداً ترامَتْ بها صُهْبُ المَهاري وجُونُها

وقال في التَّمثيل:

إنّ شَرَخَ الشّبابِ والشّعرَ الأس ودَ ما لم يُعاصَ كان جُنونـا

وقال الآخر:

قالت عَهِدْتُك مجنوناً فقلتُ لها إنّ الشّبابَ جُنُونٌ بُرؤُه الكِبَرُ

وما أحسنَ ما قال الشّاعر حيث يقول:

فدقت وجلّت واسبكرّت وأكمِلت فلو جُنَّ إنسانٌ من الحُسْن جُنَّتِ

وما أحسن ما قال الآخر:

حمراء تامِكةُ السَّنام كأنّها جَملٌ بهودج أهلِهِ مظعونُ

جادَتْ بها عند الغداةِ يميـن كلتا يَدَي عَمْرو الغَداة يمينُ

ما إن يجودُ بمثلها في مثلها إلاّ كريمُ الخِيمِ أو مَجنـونُ

وقال الجميح:

لو أنّني لم أنَلْ مِنكم مُـعـاقبةً إلاّ السِّنَانَ لذاقَ الموتَ مظعونُ

أوْ لاختطبتُ فإني قد هَمَمْتُ بـه بالسَّيفِ إنّ خطِيبَ السَّيف مجنونُ

وأنشد:

هُمُ أحْمَوا حِمى الوَقبى بضرْبٍ يؤلّفُ بَيْنَ أشتاتِ الـمنُـون

فنَكَّبَ عنـهـم دَرءَ الأعـادي ودَاوَوْا بالجُنون من الجُنـون

وأنشدني جعفر بن سعيد:

إنَّ الجنونَ سِهامٌ بـين أربـعةٍ الرِّيحُ والبحْرُ والإنسانِ والجَملُ

وأنشدني أيضاً:

احْذَر مغايظ أقوامٍ ذوي حَسَـبٍ   إنّ المغيظ جَهُولُ السَّيفِ مجنونُ

وأنشدني أبو تمام الطائي:

منْ كلِّ أصلَعَ قد مالَت عمامتُه   كأنّه من حِذار الضَّيمِ مجنونُ

وقال القطاميّ:

يَتْبَعْنَ سَامِيَة العَينين تَحْسَبُـهـا   مجنُونةً أو تُرَى ما لا تُرَى الإبلُ

وقال في المعنى الأوّل الزَّفَيانُ العُوافيّ:

أنا العُوافيُّ فمنْ عـادانـي   أذقتُـه بـوادِرَ الـهـوان

حتّى تَرَاهُ مُطرقَ الشّيطانِ

وقال مروانُ بن محمد:

وإذا تجنّنَ شاعرٌ أو مُفْحَمٌ   أسعطْتُه بمرارة الشيطانِ

وقال ابن مُقبل:

وعِنْدي الدُّهَيم لو أحُلُّ عِقالهَـا   فتُصْعدُ لم تَعْدَم من الْجِنِّ حادِيا

وقد صغّر الدُّهيَم ليس على التحقير، ولكن هذا مثل قولهم: دبَّت إليهم دويهيَةَ الدهر.
أحاديث الفلاة وَقال أبو إسحاق: وأما قول ذي الرُّمَّة:

إذا حَثَّهُنَّ الرَّكبُ في مُدْلَـهِـمَّةٍ   أحاديثُها مثلُ اصطخاب الضّرائر

قال أبو إسحاق: يكون في النَّهار ساعاتٌ ترى الشّخص الصَّغيرَ في تلك المهامهِ عظيماً، ويُوجَد الصَّوت الخافضُ رفيعاً، ويُسمع الصَّوتُ الذي ليس بالرَّفيع مع انبساط الشّمس غدوة من المكان البعيد؛ ويُوجَد لأوساط الفَيافي والقِفار والرِّمال والحرار، في أنصاف النّهار، مثلُ الدَّويّ من طبع ذلك الوقت وذلك المكان، عند ما يعرض له، ولذلك قال ذو الرُّمَّة:

إذا قال حادينا لتَشْبيهِ نَـبـأةٍ   صَهٍ لم يكنْ إلا دويُّ المسامع

قالوا: وبالدَّويّ سمِّيت دوِّيّة وداوية، وبه سمِّي الدوّ دَوّاً.

تعليل ما يتخيله الأعراب من عزيف الجنان وتغول الغيلان

وكان أبو إسحاق يقول في الذي تذكر الأعرابُ من عزيف الجنان، وتغوُّل الغيلان: أصلُ هذا الأمر وابتداؤه، أنّ القوم لما نزلوا بلاد الوحش، عملتْ فيهم الوَحْشة، ومن انفردَ وطال مُقامُه في البلاد والخلاء، والبعد من الإنس - استوحَش، ولا سيَّما مع قلة الأشغال والمذاكرين.
والوَحدةُ لاتقطع أيامهم إلا بالمُنى أو بالتفكير، والفكرُ ربما كان من أسباب الوَسوَسة، وقد ابتلى بذلك غيرُ حاسب، كأبي يس ومُثنَّى ولد القُنافر.
وخبَّرني الأعمش أنه فكّر في مسألة، فأنكر أهله عقله، حتّى حَمَوه وداووه.
وقد عرض ذلك لكثير من الهند.
وإذا استوحشَ الإنسانُ تمثّل له الشّيء الصغيرُ في صورة الكبير، وارتاب، وتفرَّق ذهْنه، وانتقضت أخلاطُه، فرأى ما لا يُرى، وسمع ما لا يُسمع، وتوهم على الشيء اليسير الحقير، أنه عظيمٌ جليل.
ثمَّ جعلوا ما تصوَّر لهم من ذلك شعرا تناشدوه، وأحاديث توارثوها فازدادوا بذلك إيماناً، ونشأ عليه الناشئ، ورُبّي به الطّفل، فصار أحدهم حين يتوسَّط الفيافيَ، وتشتملُ عليه الغيطان في اللّيالي الحنادس - فعند أوَّل وحْشةٍ وفزْعة، وعند صياح بُوم ومجاوبة صدًى، وقد رأى كلَّ باطل، وتوهَّم كلَّ زُور، وربما كان في أصل الخلْق والطبيعة كذّاباً نفّاجاً، وصاحبَ تشنيع وتهويل، فيقولُ في ذلك من الشِّعر على حسب هذه الصِّفة، فعند ذلك يقول: رأيتُ الغيلان وكلّمت السِّعلاة ثمَّ يتجاوزُ ذلك إلى أن يقول قتلتها، ثم يتجاوزُ ذلك إلى أن يقول: رافقتها ثمَّ يتجاوز ذلك إلى أن يقول: تزوَّجتها.
قال عُبيد بن أيُّوب:

فللّه دَرُّ الغُولِ أيُّ رَفيقةٍ لصاحبِ قفْرٍ خائفٍ متقتِّر

وقال:

أهذا خَليلُ الغولِ والذئبِ والذي يهيمُ بَرَبَّاتِ الحِجالِ الهَرَاكِلِ

وقال:

أخُو قفرَاتٍ حالَفَ الجِنّ وانتَفَى من الإنْسِ حتَّى قد تقضّت وسائله

له نسَبُ الإنْسيِّ يُعْرَفُ نجله وللجنِّ منهُ خَلْقُه وشمائله

وممّا زادهم في هذا الباب، وأغراهم به، ومدَّ لهم فيه، أنهم ليس يلقون بهذه الأشعار وبهذه الأخبار إلا أعرابيّاً مثلهم، وإلا عَامِّيّاً لم يأخُذْ نفسه قط بتمييز ما

يستوجب التّكذيب والتّصديق، أو الشّكّ، ولم يسلُك سبيلَ التوقف والتثبّت في هذه الأجناس قطّ، وإمَّا أن يَلقوْا رَاوِيَة شعر، أو صاحب خبَر، فالرّاوية كلّما كان الأعرابيُّ أكذبَ في شعره كان أطْرَف عِنْده، وصارت روايتُه أغلبَ، ومضاحيكُ حديثه أكثر فلذلك صار بعضهم يدّعي رؤية الغُول، أو قتلها، أو مرافقتها، أو تزويجها؛ وآخر يزعم أنّه رافقَ في مفازةٍ نمراً، فكان يطاعمه ويؤاكله، فمن هؤلاء خاصّة القتّال الكِلابي؛ فإنّه الذي يقول:

أيرسِلُ مَرْوانُ الأميرُ رسالة ... لآتيه إني إذاً لَمَضلَّلُ

وما بي عِصْيانٌ ولا بُعدُ منزل ... ولكنّني من خوْف مَرْوانَ أوجلُ

وفي باحة العَنْقاء أو في عَمايةٍ ... أو الأدَمِى من رَهْبَةِ الموتِ مَوْئلُ

ولي صاحبٌ في الغار هَدَّكَ صاحباً ... هو الجَون إلاّ أنه لا يعلّل

إذا ما التقينا كان جُلّ حديثنا ... صُماتٌ وطرْفٌ كالمعَابلِ أطْحَلُ

تَضَمَّنَتِ الأرْوَى لنا بطعامِنا ... كِلانا له منها نَصيبٌ ومأكلُ

فأغلِبُه في صَنْعة الزّادِ إنّني ... أميطُ الأذى عنه ولا يتأمَّلُ

وكانتْ لنا قلتٌ بأرض مَضَلَّةٍ ... شريعتُنا لأيّنا جاءَ أوَّلُ

كلانا عدُوٌّ لو يرى في عدُوِّه ... مَحزّاً وكلٌّ في العداوة مُجْمِلُ

وأنشد الأصمعيّ:

ظلَلْنَا معاً جارَينْ نحترسُ الثَّأى ... يُسائرُني من نُطفةٍ وأسائرُهْ

ذكر سبعاً ورجُلاً، قد ترافقا، فصار كلُّ واحدٍ منهما يدَعُ فضْلاً من سُؤره ليشرَبَ صاحبه، الثَّأى: الفساد، وخبّر أنّ كلّ واحد منهما يحترس من صاحبه.
وقد يستقيمُ أن يكونَ شعر النابغة في الحية، وفي القتيلِ صاحب القبْر، وفي أخيه المصالح للحيةِ أن يكون إنما جعل ذلك مثلاً، وقد أثبتناهُ في باب الحيات، فلذلك كرهنا إعادَته في هذا الموضع، فأما جميع ما ذكرناه عنهم فإنما يخبرون عنه من جهة المعاينَة والتّحقيق، وإنما المثل في هذا مثل قوله:

قد كان شيطانك منْ خطّابها ... وكان شيطاني منْ طُلاَّبها

حيناً فلمّا اعترَكا ألْوى بها

الاشتباه في الأصوات والإنسان يجوع فيسمع في أذنه مثل الدويّ، وقال الشاعر:

دويُّ القيَافي رَابـه فكـأنّـه		أميمٌ وساري اللَّيلِ للضرِّ مُعْورُ

مُعْوِر: أي مُصْحِر.
وربما قال الغلام لمولاه: أدعوتني؟ فيقول له: لا، وإنما اعترى مسامعه ذلك لعرض، لا أنَّه سمعَ صوتاً.
ومن هذا الباب قول تأبَّط شراً، أو قول قائل فيه في كلمة له:

يَظلُّ بموْماةٍ ويُمسي بـقـفـرَةٍ		جَحِيشاً ويَعرَوْرِي ظهورَ المهالِكِ

ويَسْبِقُ وقدَ الرِّيح من حَيث ينْتحي		بمنخَرِقٍ من شَدِّهِ الـمـتـدارِكِ

إذا خاط عَينَيه كَرى النَّوم لم يزَلْ		له كالئٌ من قلبِ شَيْحانَ فاتـكِ

ويجعلُ عينـيه رَبـيئة قـلـبـهِ		إلى سلَّةٍ من حَدِّ أخْضَرَ بـاتـكِ

إذا هزَّه في عَظم قِرْنٍ تهلَّـلـتْ		نواجذُ أفواهِ المنايا الضّـواحـكِ

يَرى الإنس وحْشيَّ الفَلاة ويهتدي		بحيث اهتدتْ أمُّ النجومِ الشّوابـكِ

نزول العرب بلاد الوحش والحشرات والسباع ويدلُّ على ما قال أبو إسحاق، من نزولهم في بلاد الوحْش وبينَ الحشَراتِ والسِّباع، ما رواه لنا أبو مُسْهِرٍ، عن أعرابيٍّ من بني تميم نزل ناحية الشّام، فكان لا يَعْدِمُهُ في كلِّ ليلة أن يعضَّه أو يَعضَّ ولدَه أو بعضَ حاشيته سبعٌ من السباع، أو دابّة من دوابّ الأرض فقال:

تعـاوَرَنـي دَينٌ وذُلٌّ وغُــربة		ومَزّقَ جلدي نـابُ سبْع ومِخْلـبُ

وفي الأرض أحناشٌ وسَبْع وحاربٌ		ونحن أُسارَى وَسْطَهَا نتـقـلـبُ

رُتَيْلا وطبُّوعٌ وشِبْـثـان ظُـلْـمةٍ		وأرقطُ حُرْقوص وضَمْجٌ وعقْربُ

ونمل كأشخاصِ الخنافس قُطَّـبٌ		وأرْسالُ جعلانٍ وهَزْلى تَسَـرَّبُ

وعُثٌّ وحُفّاثٌ وضَبٌّ وعِربِـدٌ		وذرٌّ ودَحّاس وفـارٌ وعـقـربُ

وهِرٌّ وظِرْبانٌ وسِمْعٌ ودَوْبَلٌ   وتُرْمُلَةٌ تجري وسِيدٌ وثعلبُ

ونمر وفَهْدٌ ثم ضبعٌ وجَيألٌ   وليثٌ يجُوس الألف لا يتهيّبُ

ولم أرَ آوى حيث أسمعُ ذِكرَه   ولا الدُّبَّ إنّ الدُّبَّ لا يتنسَّبُ

فأما الرُّتَيلا والطَّبُّوع، والشَّبَث، والحُرقوص، والضّمجُ والعنكبوت، والخنفُساء، والجُعَل، والعُثّ، والحُفَّاث، والدّحّاس والظّربان، والذِّئب، والثَّعلب، والنمر، والفَهْد، والضّبع، والأسد - فسنقول في ذلك إذا صرنا إلى ذكر هذه الأبواب، وقبل ذلك عند ذِكر الحشرات، فأما الضّبُّ والورَل، والعقرب، والجُعل، والخنفساء، والسِّمْع فقد ذكرنا ذلك في أوّل الكتاب، وأما قوله: وهَزْلى تسرب فالهزْلى هي الحيات، كما قال جَرير:

مَزَاحف هزْلَى بينها متباعدُ

وكما قال الآخر:

كأنَّ مَزَاحِفَ الهَزْلى عليها   خدودُ رصائع جُدِلَتْ تُؤَامَا

وأما قوله:

ولم أر آوَى حيثُ أسمع ذِكرَه

فإنّ ابنَ آوى لا ينزِلُ القفار، وإنّما يكونُ حيث يكونُ الريف.
وينبغي أن يكونَ حيث قال هذا الشّعر توهَّم أنّه ببياض نجد.
وأمّا قوله:

ولا الدبَّ إنَّ الدبَّ لا يتنسَّبُ

فإنّ الدبَّ عندهم عجميٌّ، والعجميُّ لا يقيم نسبَه.

مُلَح ونوادر

وروَوْا في المُلَح أنّ فتًى قال لجارية له، أو لصديقةٍ له: ليس في الأرض أحسنُ منّي: ولا أملحُ منّي، فصار عندها كذلك، فبينا هو عِندها على هذه الصّفّة إذ قرع عليها الباب إنسانٌ يريدهُ، فاطّلعت عليه من خرق الباب، فرأت فتًى أحسنَ النّاس وأملحَهم، وأنَبلهم وأتمّهم، فلمَّا عاد صاحبُها إلى المنزل قالت له: أوَ ما أخبرَتني أنَّك أملحُ الخلْق وأحسنُهم؟ قال: بلى وكذلك أنا فقالت: فقد أرادك اليومَ فلانٌ،

ورأيتُه من خَرق البابِ، فرأيتُه أحسنَ منك وأملَح قال: لَعْمري إنَّه لَحَسنٌ مَليح، ولكنَّ له جِنِّيّة تصرعه في كلِّ شهرٍ مرَّتين - وهو يريدُ بذلك أن يسقطه من عينها - قالت: أوَ ما تصرعه في الشّهر إلاّ مرتين؟ أمَا واللّه لو أنّي جِنّيَّة لصرعْته في اليوم ألفين.
وهذا يدلُ على أنّ صرْع الشّيطان للإنسان ليس هو عند العوامِّ إلاّ على جهة ما يعرفون من الجِماع.
ومن هذا الضَّرب من الحديث ما حدَّثنا به المازنيُّ، قال: ابتاع فتًى صَلِفٌ بَذَّاخ جاريةً حسناءَ بديعةً ظريفة، فلمّا وقع عليها قال لها مراراً ويلَكِ، ما أوسَعَ حِرَك فلمّا أكثرَ عليها قالت: أنت الفداءُ لمن كان يملَؤُه.
فقد سمع هذا كما ترى من المكروه مثلَ ما سمِع الأوّل.
وزعموا أنّ رجلاً نظر إلى امرأةٍ حسْناء ظريفةٍ، فألحّ عليها، فقالت: ما تنظر؟ قُرَّة عينك، وشيءُ غيرك.
وزعم أبو الحسن المدائني أن رجلاً تبع جاريةً لقوم، فراوغَتْه فلم ينقطع عنها، فحثتْ في المشي فلم ينقطع عنها، فلمّا جازَتْ بمجلس قومٍ قالت: يا هؤلاء، لي طريقٌ ولهذا طريق، ومولاي ينيكني؛ فسَلوا هذا ما يريدُ مني؟ وزَعَمَ أيضاً أن سياراً البرقيّ قال: مرّت بنا جاريةٌ، فرأينا فيها الكِبْرَ والتجبُّر، فقال بعضنا: ينبغي أن يكون مولى هذه الجارية ينيكها قالت: كما يكون.
فلم أسمع بكلمة عامّية أشْنَعَ ولا أدلّ على ما أرادت، ولا أقصَر من كلمتها هذه.
وقد قال جحشويهِ في شعر شبيهاً بهذا القول، حيث يقول:

تواعدُني لتنكِحني ثلاثاً ... ولكن يا مَشُوم بأيِّ أيْرِ

فلو خُطِبَتْ في صفة أيرٍ خُطبةٌ أطولُ من خطبة قيس بن خارجة بن سنان في شأن الحمالة - لما بلغ مبلغَ قول جحشويه: ولكن يا مَشُوم بأيِّ أير، وقول الخادم: كما يكون. وزعموا أن فتًى جلس إلى أعرابيّة، وعلمت أنّه إنما جلس لينظر إلى محاسن ابنتها، فضربت بيدها على جنبها، ثم قالت:

عَلَنْداة يئطُّ الأيرُ فيها ... أطِيط الغَرْزِ في الرَّحْلِ الجديدِ

ثم أقبلت على الفتى فقالت:

وما لَكَ من غيرَ أنَّكَ ناكحٌ ... بعينَيكَ عَينيها فهل ذاكَ نافعُ

ودخل قاسم منزل الخُوارزمي النخَّاس، فرأى عنده جارية كأنها جانّ، وكأنها خُوط بانٍ، وكأنّها جَدْل عِنان، وكأنه الياسمين؛ نعْمةً وبياضاً؛ فقال لها: أشتريك يا جارية؟ فقالت: افتحْ كيسَك تسرَّ نفسَك ودخلت الجارية منزل النخّاس، فاشتراها وهي لا تعلم ومضى إلى المنزل ودفعها الخوارزميُّ إلى غلامه، فلم تشعر الجارية إلا وهي معه في جَوف بيت، فلما نظرتْ إليه وعرفتْ ما وقعَتْ فيه قالت له: ويلكَ

إنك واللّه لن تَصِل إليّ إلا بعد أن أموت فإن كنت تجسُرُ على نَيك من قد أدرجوه في الأكفان فدونَك واللّهِ إن زلتُ منذ رأيتك، ودخلتُ إلى الجواري، أصف لهنَّ قبحك وبليّةَ امرأتك بك فأقبل عليها يكلّمها بكلام المتكلمين، فلم تقبل منه، فقال: فلم قلتِ لي: افتَحْ كيسَك تسرَّ نفسك؟ وقد فتحت كيسي فدَعيني أسُرُّ نفْسي وهو يكلّمها وعينُ الجارية إلى الباب، ونفْسُها في توهُّم الطّريق إلى منزل النخّاس، فلم يشعر قاسمٌ حتّى وثبَتْ وثبةً إلى الباب كأنّها غزال، ولم يشعر الخوارزمي إلاّ والجارية بين يدَيه مغشيٌّ عليها، فكرَّ قاسمٌ إليه راجعاً وقال: ادفعْها إليّ أشفي نفسي منها، فطلبوا إليه فصفَح عنها، واشتراها في ذلك المجلس غلامٌ أملحُ منها، فقامت إليه فقبَّلت فاه، وقاسمٌ ينظرُ، والقومُ يتعجَبون ممّا تهيأ له وتهيَّأ لها.
وأما عيسى بن مروان كاتب أبي مروان عبد الملك بن أبي حمزة فإنّه كان شديد التغزُّل والتّصندل، حتَّى شرب لذلك النبيذَ وتَظرَّف بتقطيع ثيابه وتغنَّى أصواتاً، وحفظ أحاديثَ من أحاديث العشّاق ومن الأحاديث التي تشتهيها النساء وتفهمُ معانِيها، وكان أقبحَ خلْق اللّه تعالى أنفاً، حتَّى كان أقبحَ من الأخنَس، ومن الأفطس، والأجدع، فإمّا أن يكون صادقَ ظريفةً، وإما أنْ يكونَ تزوَّجها فلما خَلاَ معها في بيتٍ وأرادها على ما يريد الرَّجلُ من المرأة، امتنعت، فوهب لها، ومنَّاها، وأظهر تعشقها، وأرَاغَها بكلِّ حيلة، فلما لم تُجِب قال لها: خبِّريني، ما الذي يمنعُك؟ قالت: قبح أنفِك وهو يَستقبِلُ عيني وقتَ الحاجة، فلو كان أنفُك في قفَاك لكان أهونَ عليَّ قال لها: جعِلْت فِداك؟ الذي بأنفي ليسَ هو خِلقةً وإنّما هو ضربةٌ ضُرِبتُها في سبيل اللّه تعالى، فقالت واستغربَتْ ضحِكاً: أنا ما أبالي، في سبيل اللّه كانَتْ أو في سبيل الشَّيطان، إنَّما بيَ قبحُه، فخذْ ثوابَك على هذه الضَّربة من اللّه أمَّا أنَا فلا.

باب الجِدِّ من أمْر الجِنّ

ليس هذا، حفظك اللّه تعالى، من الباب الذي كُنَّا فيه، ولكنّه كان مُستراحاً وجماماً، وسنقول في باب من ذكر الجنّ، لتنتفع في دِينك أشد الانتفاع، وهو جِدٌّ كلُّه.
والكلام الأوّل وما يتلوه من ذكر الحشرات، ليس فيه جِدٌّ إلاّ وفيه خَلْطٌ من هزْل، وليس فيه كلامٌ صحيح إلا وإلى جنبه خرافة، لأن هذا الباب هكذا يقع.
وقد طعن قومٌ في استراق الشَّياطينِ السمعَ بوجوهٍ من الطّعن، فإذْ قد جرى لها من الذّكر في باب الهزْل ما قد جرى، فالواجبُ علينا أن نقول في باب الجدّ، وفيما يرد على أهل الدِّين بجملة، وإن كان هذا الكتابُ لم يُقصد به إلى هذا الباب حيثُ ابتدئ، وإن نحنُ استقصيناه كنَّا قد خرجْنا من حدِّ القول في الحيوان، ولكنا نقول بجملةٍ كافية، واللّه تعالى المعين على ذلك.
رد على المحتجّين لإنكار استراق السمع بالقرآن قال قوم: قد علمنا أن الشياطينَ ألطف لطافةً، وأقلُّ آفةً، وأحدُّ أذهاناً، وأقلُّ فضُولاً، وأخفُّ أبداناً، وأكثرُ معرفةً وأدقُّ فِطنةً منّا، والدّليلُ على ذلك إجماعهم على أنّه ليس في الأرض بدعةٌ بديعةٌ، دقيقةٌ ولا جليلة، ولا في الأرض مَعصِيةٌ من طريق الهوى والشّهوة، خفيّةً كانت أو ظاهرة، إلاّ والشَّيطانُ هو الدَّاعي لها، والمزيِّنُ لها، والذي يفتحُ بابَ كلِّ بلاء،

ويَنصِب كلَّ حبالةٍ وخدعة، ولم تَكن لتَعرف أصناف جميع الشرور والمعاصي حتى تَعرف جميعَ أصناف الخير والطّاعات.
ونحن قد نجدُ الرّجلَ إذا كان معه عقْل، ثمّ عِلم أنّه إذا نقب حائطاً قُطِعت يدهُ، أو أسمع إنساناً كلاماً قطع لسانه، أويكونُ متى رام ذلك حِيلَ دونَه ودونَ ما رام منْهُ - أنّه لايتكلّف ذلك ولا يرُومه، ولا يحاولُ أمراً قد أيقنَ أنّه لا يبلغهُ.
وأنتم تزعمون أنّ الشّياطين الذين هم على هذه الصِّفة كلّما صعِد منهم شيطانٌ ليسترقَ السّمعَ قُذِف بشهاب نار، وليس له خواطئ، فإمَّا أن يكون يصيبه، وإمَّا أنْ يكون نذيراً صادقاً أو وعيداً إنْ يقدمْ عليه رمى به، وهذه الرُّجوم لا تكون إلا لهذه الأمور، ومتى كانت فقد ظهر للشَّيطان إحراق المستمع والمسترق، والموانع دون الوصول ثمَّ لا نرى الأوَّلَ ينهي الثّاني، ولا الثّاني ينهي الثّالث، ولا الثّالث ينهي الرّابع عَجَب، وإن كان الذي يعود غيرَه فكيف خفي عليه شأنهم، وهو ظاهر مكشوف؟.
وعلى أنّهم لم يكونوا أعلَمَ منّا حتّى ميّزوا جميع المعاصي من جميع الطاعات، ولولا ذلك لدعوا إلى الطّاعة بحساب المعصية، وزينّوا لها الصَّلاح وهم يريدون الفساد، فإذا كانوا ليسوا كذلك فأدنى حالاتهم أن يكونوا قد عرفوا أخبار القرآن وصدقوها، وأنّ اللّه تعالى محقّق ما أوعَدَ كما يُنجِز ما وعد، وقد قال اللّه عزّ وجل: "وَلَقدْ زَيَّنّا السَّماء الدُّنيا بِمَصابيح وجَعَلْنَاها رُجُوماً للشَّياطينِ"، وقال تعالى: "وَلَقدْ جَعَلْنَا في السَّماءِ بُرُوجاً وَزَيَّنّاها للنَّاظِرينَ، وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كلِّ شَيْطان رَجيمٍ" وقال تعالى: "إنّا زَيَّنّا السَّماءَ الدُّنْيا بزينةٍ الْكَوَاكِبِ وحفْظاً منْ كلِّ شَيْطانٍ ماردٍ" وقال تعالى: "هَلْ أُنَبِّئكمْ عَلَى مَنْ تَنَزّلُ الشّياطينُ تنَزَّلُ علي كلِّ أفّاكٍ أثيمٍ، يُلْقون السَّمعَ وأكثرُهم كاذِبُون" مع قولِ الجنّ: "أنَّا لا نَدْري أشَرٌّ أُريدَ بمَنْ في الأرْضِ أمْ أرَاد بهمْ ربُّهم رَشَداً" وقولهم: "أنَّا لَمسْنَا السَّمَاءَ فوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرساً شديداً وَشُهُباً، وأنّا كنَّا نقعُدُ منْهَا مقاعِد للسَّمع فمَنْ يَسْتَمِعِ الآن يَجدْ لَهُ شِهَاباً رصَداً".
فكيف يسترق السَّمع الذين شاهدوا الحالَتين جميعاً، وأظهروا اليقين بصحَّة الخير بأنَّ للمستمع بعد ذلك القذْفَ بالشُّهب، والإحراقَ بالنار، وقوله تعالى: "إنَّهُمْ عَنِ السَّمع لَمعْزولُونَ" وقوله تعالى: "وَحفْظاً مِنْ كلِّ شيْطَانٍ مَاردٍ، لا يَسَّمَّعُون إلى الْملإِ الأعْلى وَيُقْذَفُون مِن كُلِّ جانبٍ دُحوراً وَلَهُمْ عذابٌ وَاصِبٌ" في آيٍ غيرِ هذا كثير، فكيف يعُودُون إلى استراق السَّمع، مع تيقنهم بأنَّه قد حُصِّن بالشهب، ولو لم يكونوا مُوقِنين من جهة حقائق الكِتاب، ولا من جهة أنّهم بَعْدَ قعودِهم مقاعدَ السَّمْع لمَسُوا السَّماء فوَجَدوا الأمرَ قد تغيَّر - لكانَ في طول التَّجْربة والعِيان الظّاهِر، وفي إخبار بعضِهم لبعض، ما يكونُ حائلاً دُونَ الطّمع وقاطعاً دون التماس الصُّعود، وبعد فأيُّ عاقل يُسرُّ بأنْ يسمع خبراً وتُقطعَ يدهُ فضْلاً عن أن تحرقه النَّار؟ وبعد فأيُّ خبر في ذلك اليوم؟ وهل يصِلون إلى النَّاس حتَّى يجعلوا ذلك الخبَر سبباً إلى صرْف الدّعوَى؟ قيل لهم: فإنّا نقول بالصّرْفة في عامَّة هذه الأصول، وفي هذه الأبواب، كنحو ما ألقي على قلوب بني إسرائيل وهم يجُولون في التِّيهِ، وهم في العدد وفي كثرة الأدِلاَّء والتجّار وأصحاب الأسفار، والحمّارين

والمُكارينَ، من الكثرَة على ما قد سمعتم به وعرَفْتموه؛ وهم مع هذا يمشُون حتّى يُصبحوا، مع شدّة الاجتهاد في الدَّهر الطويل، ومع قُرْب ما بينَ طرفي التِّيه، وقد كان طريقاً مسلوكاً، وإنّما سمَّوه التّيه حين تاهوا فيه، لأنَّ اللّه تعالى حين أرادَ أن يمتحِنَهم ويبتلِيهم صرَف أوهامَهم.
ومثل ذلك صنيعُه في أوهام الأمة التي كان سُليمان مَلِكَها ونبيّها، مع تسخير الريح والأعاجيبِ التي أعطِيَها، وليس بينهم وبين ملِكهم ومملكتهم وبين مُلك سَبأ ومملكةِ بِلقيس ملِكتهم بحارٌ لا تُركب، وجبالٌ لا تُرام، ولم يتسامَعْ أهل المملكتين ولا كان في ذكرهم مكانُ هذه الملِكة.
وقد قلنا في باب القول في الهُدهُد ما قلنا، حين ذكرنا الصَّرفة، وذكرنا حالَ يعقوب ويوسف وحالَ سليمان وهو معتمدٌ على عصاه، وهو مَيِّتٌ والجنُّ مُطيفة به وهم لا يشعُرون بموته، وذكرنا من صَرْف أوهام العرَب عن محُاولة معارضة القرآن، ولم يأتوا به مضطرباً ولا مُلَفَّقاً ولا مُستكرَهاً؛ إذا كان في ذلك لأهل الشَّغْبِ متعلّق، مع غير ذلك، ممّا يُخالَف فيه طريقُ الدُّهريّة، لأنّ الدّهريّ لا يُقر إلاّ بالمحسوسات والعادات على خلاف هذا المذهب.
ولعمري ما يستطيعُ الدّهريّ أن يقولَ بهذا القول ويحتجَّ بهذه الحجّة، ما دام لا يقول بالتّوحيد، وما دام لا يعرف إلا الفلك وعملَه، ومادام يرى أن إرسال الرسُل يستحيل، وأن الأمر والنَّهي، والثوابَ والعقاب على غير ما نقول، وأنّ اللّه تعالى لا يجوز أن يأمر من جهة الاختبار إلا من جهة الحزْم.
وكذلك نقول ونزعم أن أوهَام هذه العفاريت تُصرف عن الذكر لتقع المحنة، وكذلك نقول في النبي صلى اللّه عليه وسلم أنْ لو كانَ في جميع تلك الهزاهز مَنْ يذكر قوله تعالى: "واللّه يَعصِمُك من النّاس" لسَقَطَ عنه من المحنة أغلظها، وإذا سقطت المحنة لم تكن الطاعة والمعصية، وكذلك عظيم الطاعة مقرونٌ بعظيم الثواب.
وما يصنع الدهري وغير الدّهري بهذه المسألة وبهذا التسطير؟ ونحن نقول: لو كان إبليس يذكر في كلِّ حال قوله تعالى: "وَإنَّ عَلَيْكَ اللّعْنَةَ إلى يَوْمِ الدِّينِ" وعلم في كلِّ حالٍ أنّه لا يُسْلِمُ لوَجَبَ أن المحنة كانت تسقط عنه، لأن من علِم يقيناً أنّه لا يمضي غداً إلى السوق ولايقبض دراهمَه من فلان، لم يطمع فيه، ومن لم يطمعْ في الشيء انقطعت عنه أسباب الدواعي إليه، ومن كان كذلك فمُحالٌ أن يأتيَ السّوق.
فنقول في إبليس: إنه يَنْسى ليكون مُختَبراً ممتَحناً فليعلموا أن قولنا في مسترقي السمع كقولنا في إبليس، وفي جميع هذه الأمور التي أوْجَبَ علينا الدِّين أن نقولَ فيها بهذا القول. ٠ وليس له أن يدفع هذا القولَ على أصل ديننا، فإن أحبَّ أن يسأل عن الدين الذي أوجب هذا القول علينا فيلفعَلْ، واللّه تعالى المعين والموفّق.
وأما قولهم: منْ يُخاطر بذْهابِ نفْسِه لخبرٍ يستفيده فقد علِمْنا أن أصحاب الرِّياساتِ وإن كان متبيَّناً كيف كان اعتراضهم على أنّ أيسر ما يحتملون في جَنْب تلك الرِّياسات القتل.
ولعلّ بعض الشّياطين أن يكون معه من النّفْخ وحب الرِّياسة ما يهوِّن عليه أن

يبلغ دُوَين المواضع التي إن دنا منها أصابه الرَّجْم، والرَّجمُ إنما ضمن أنه مانع من الوصول، ويعلم أنه إذا كان شهاباً أنه يُحرقه ولم يضمن أنه يتلف عنه، فما أكثر من تخترقه الرِّماح في الحرب ثم يعاودُ ذلك المكان ورزقُه ثمانون دِيناراً ولا يأخذ إلا نصفه، ولا يأخذه إلا قمحاً، فلولا أن مع قدَم هذا الجنديِّ ضروباً مما يهزُّه وينجِّده ويدعو إليه ويُغْريه - ما كان يعود إلى موضعٍ قد قطعت فيه إحدى يديه، أو فقئت إحدى عينَيه. ولِمَ وقع عليه إذاً اسمُ شيطان، ومارِدٍ، وعفريتٍ، وأشباه ذلك؟ ولِمَ صار الإنسانُ يُسمَّى بهذه الأسماء، ويوصَف بهذه الصفات إذا كان فيه الجزء الواحد من كلِّ ما همْ عليه؟.

وقالوا في باب آخر من الطّعن غير هذا، قالوا في قوله تعالى: "وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقَاعِدَ لِلسّمْعِ فمَنْ يسْتَمِع الآن يَجدْ لَهُ شِهاباً رصداً" فقالوا: قد دلَّ هذا الكلام على أن الأخبار هناك كانت مُضَيَّعةً حتّى حُصِّنت بعد، فقد وصفْتُم اللّه تعالى بالتَّضييع والاستِدْراك.

قلنا: ليس في هذا الكلام دليلٌ على أنهم سمعوا سِرّاً قط أوْ هجموا على خبر إن أشاعوه فسد به شيءٌ من الدين، وللملائكةِ في السَّماء تسبيحٌ وتهليلٌ، وتكبيرٌ وتلاوة، فكان لا يبلغُ الموضعَ الذي يُسمَعُ ذلك منه إلا عفاريتُهم.

وقد يستقيم أن يكون العفريتُ يكذب ويقولُ: سمعت ما لم يَسْمع ومتى لم يكن على قوله برهانٌ يدلُّ على صدقه فإنما هو في كذبه من جنس كلِّ متنبئٍ وكاهن، فإن صدقه مصدقٌ بلا حُجَّة فليس ذلك بحجّةٍ على اللّه وعلى رسوله صلى اللّه عليه وسلم.

المحتجون بالشعر لرجم الشياطين قبل الإسلام وذهب بعضهم في الطّعن إلي غير هذه الحُجّة، قالوا: زعمتم أن اللّه تعالى جعل هذه الرَّجومَ للخوافي حُجّة للنبي صلى اللّه عليه وسلم، فكيف يكون ذلك رَجْماً، وقد كان قبل الإسلام ظاهراً مرْئيّاً، وذلك موجودٌ في الأشعار، وقد قال بشر بن أبي خازم في ذلك:

فجأجأها من أول الرِّيِّ غُدوة ... ولَمَّا يسَكّنْهُ من الأرْض مَرْتعُ

بأكْلبةٍ زُرْقٍ ضوارٍ كأنّها ... خطاطيفُ من طول الطريدة تلمعُ

فجال على نَفْر تعرُّضَ كوكبٍ ... وقد حالَ دُون النّقع والنّقعُ يسْطَعُ

فوصف شَوْط الثور هارباً من الكلابِ بانقضاض الكَوكب في سُرعته، وحُسْنه، وبريق جلده، ولذلك قال الطرمّاح:

يَبْدُو وتُضْمِرُه البلاد كأنّهُ ... سيفٌ على شَرَفٍ يُسَلُّ ويُغْمَدُ

وأنشد أيضاً قولَ بِشْر بن أبي خازم:

وتشُجُّ بالعير الفلاة كأنّها ... فتْخاءُ كاسِرةٌ هَوَتْ من مرْقبِ

والعير يُرْهِقُها الخبَار وجَحشُها ينقضُّ خلْفهُما انْقِضاض الكوكبِ

قالوا: وقال الضّبّي:

يَنَالها مهتك أشْجارها بذي غُروب فيه تحريبُ

كأنّه حينَ نَحَا كوكبٌ أو قبَسٌ بالكفّ مشبوبُ

وقال أوس بن حَجَر:

فانقضَّ كالدّريءِ يَتْبَعُهُ نَقْع يثُورُ تخالُه طُنُبَا

يَخفى وأحياناً يلوح كما رفع المشيرُ بكفّهِ لهبَا

ورووا قوله:

فانقضَّ كالدّرّي من مُتَحدِّر لَمْعَ العقيقةِ جُنْح لَيل مُظْلِمِ

وقال عَوْف بن الخرع:

يردُّ علينا العَيْرَ من دون أنْفه أو الثّوْر كالدُّرّي يتْبَعُهُ الدَّمُ

وقال الأفوه الأودي:

كشِهاب القذفِ يَرمِيكُمْ بـه فارسٌ في كفّه للحَرْبِ نارُ

وقال أُميَّةُ بن أبي الصلْت:

وترى شياطيناً تَرُوغُ مُضافة ورَواغُها شتّى إذا ما تُطْرَدُ

يُلْقى عليها في السَّماء مذلّة وكواكبٌ تُرمى بها فتعرِّدُ

قلنا لهؤلاء القوم: إن قدَرتم على شعرٍ جاهليٍّ لم يُدركْ مَبعث النبي صلى الله عليه وسلم ولا مَولِده فهو بعضُ ما يتعلّق به مثلُكم، وإن كان الجوابُ في ذلك سيأتيكم إن شاء اللّه تعالى، فأما أشعار المخضْرمين والإسلاميّين فليس لكم في ذلك حُجَّة، والجاهليُّ ما لم يكن أدرك المولد، فإنَّ ذلك ممَّا ليس ينبغي لكم أن تتعلّقوا به، وبشرُ بنُ أبي خازم فقد أدرك الفِجار، والنبي صلى الله عليه وسلم شهد الفِجار، وقال: شهدتُ الفجار فكنْتُ أنبل على عمومتي وأنا غلام. والأعلام ضروب، فمنها

ما يكون كالبشارات في الكتب، لكون الصِّفة إذا واقفت الصِّفة التي لا يقع مثلها اتفاقاً وعرضاً لزمتْ فيه الحجة، وضروبٌ أُخَرُ كالإرهاص للأمر، والتأسيس له، وكالتعبيد والترشيح، فإنَّه قلَّ نبيٌّ إلاّ وقد حدثت عند مولده، أو قُبيلَ مولِده، أو بعد مولده أشياءُ لم يكنْ يحدُث مثلُها، وعند ذلك يقول الناس: إنّ هذا لأمرٍ، وإنّ هذا ليراد به أمرٌ وقع، أو سيكون لهذا نبأ، كما تراهم يقولون عند الذوائب التي تحدث لبعض الكواكب في بعض الزمان، فمن التّرشيح والتَّأسيس والتَّفخيم شأنُ عبد المطلب عند القُرعة، وحين خروج الماء من تحت رُكْبة جملة، وما كان من شأن الفيل والطير الأبابيل وغير ذلك، مما إذا تقدم للرّجل زاد في نُبله وفي فخامة أمره، والمتوقَّع أبداً معظَم.

فإن كانت هذه الشهب في هذه الأيام أبداً مرئيّة فإنما كانت من التأسيس والإرهاص، إلا أن يُنْشِدونا مثل شعر الشعراء الذين لم يدركوا المولد ولا بعد ذلك، فإنّ عددهم كثير، وشعرهم معروف.

وقد قيل الشِّعر قبل الإسلام في مقدار من االدهر أطولَ ممّا بيننا اليوم وبين أوّل الإسلام، وأولئكم عندكم أشعرُ ممن كان بعدهم.

وكان أحدهم لا يدع عظماً منبوذاً بالياً، ولا حجراً مطروحاً، ولا خنفساء، ولا جُعلاً، ولا دودة، ولا حيةً، إلا قال فيها، فكيف لم يتهيأ من واحدٍ منهم أن يذكر الكواكب المنقضّة مع حُسْنها وسُرعتها والأعجوبة فيها، وكيف أمسكُوا بأجمعهم عن ذكرها إلى الزَّمان الذي يحْتَجُّ فيه خصومُكم.

وقد علمْنا أنّ النبي صلى الله عليه وسلم حين ذُكر له يوم ذي قار قال: هذا أوَّلُ يومٍ انتصفَتْ فيه العربُ من العجم، وبي نُصروا.

ولم يكن قال لهم قبْل ذلك إنّ وقعةً ستكون، من صِفَتها كذا، ومن شأنها كذا، وتُنصرون على العجَم، وبي تنصرون.

فإن كان بشرُ بن أبي خازمٍ وهؤلاء الذين ذكرتُم قد عايَنُوا انقضاض الكواكب فليس بمستنكرٍ أنْ تكون كانت إرهاصاً لمن لم يُخبر عنها ويحتجُّ بها لنفسه، فكيف وبشر بن أبي خازم حيّ في أيّام الفِجار، التي شهدها النبيُّ صلى الله عليه وسلم بنفسه، وأنّ كنانة وقُريشاً به نُصروا.

وسنقول في هذه الأشعار التي أنشدتموها، ونُخبر عن مقاديرها وطبقاتها، فأما قوله:

فانقضَّ كالدُّرِّي من متحدِّرٍ لمْعَ العقيقةِ جُنْحَ ليل مُظلمِ

فخبّرني أبو إسحاق أن هذا البيت في أبياتٍ أخر كان أسامة صاحب رَوْح بن أبي هَمَّام، هو الذي كان ولَّدها، فإن اتَّهمت خبر أبي إسحاق فسمِّ الشّاعرَ، وهات القصيدة، فإنَّه لا يُقبل في مثل هذا إلاّ بيتٌ صحيح صحيح الجوهَر، من قصيدةٍ، صحيحة لشاعر معروف، وإلاّ فإن كلَّ من يقول الشِّعر يستطيعُ أن يقول خمسين بيتاً كل بيتٍ منها أجودُ من هذا البيت.

وأسامة هذا هو الذي قال له رَوْحٌ:

اسقِني يا أسامَـةْ مِنْ رحيق مُدامَهْ

اسْقنيها فـإنِّـي كافرٌ بالقِـيامَـهْ

وهذا الشعر هو الذي قتله، وأمَّا ما أنشدتم من قول أوس بن حجر:

فانقضَّ كالدريء يتبعه نَقْعٌ يثُور تخالُه طُنبا

وهذا الشّعر ليس يرويه لأوسٍ إلاّ من لا يفصِلُ بين شعر أوس بن حجر، وشُريح ابن أوس، وقد طعنت الرُّواة في هذا الشِّعر الذي أضفْتموه إلى بشر بن أبي خازم، من قوله:

والعير يرهقها الخبارُ وجَحْشها ينقضُّ خلفهما انقضاض الكوكبِ

فزعموا أنه ليس من عادتهم أن يصِفوا عَدْو الحمار بانقضاض الكوكب، ولا بَدَن الحمار ببدن الكوكب، وقالوا: في شعر بشر مصنوعٌ كثير، مما قد احتملتْه كثيرٌ من الرُّواة على أنَّه من صحيح شعره، فمن ذلك قصيدته التي يقول فيها:

فرجِّي الخيرَ وانتظِري إيابي إذا ما القارظُ العَنَزِيُّ آبـا

وأما ما ذكرتم من شعر هذا الضَّبِّي، فإنَّ الضّبيَّ مخضرم. وزعمتم أنَّكم وجدتُم ذِكْر الشُّهب في كتب القُدماء من الفلاسفة، وأنّه في الآثار العُلْوية لأرسطاطاليس، حين ذكر القول في الشُّهب، مع القول في الكواكب ذوات الذوائب، ومع القول في القوس، والطَّوق الذي يكون حول القمَر بالليل، فإن كنتم بمثل هذا تَستعِينونَ، وإليه تفزعون، فإنّا نوجدكم من كذب التَّراجمة وزيادتهم، ومن فساد الكِتاب، من جهة تأويل الكلام، ومن جهة جهْل المترجِم بنقل لغةٍ إلى لغة، ومن جهة فسادِ النَّسخ، ومن أنه قد تقادمَ فاعترضَتْ دونه الدُّهورُ والأحقاب، فصار لا يؤمن عليه ضروبُ التَّبديل والفساد، وهذا الكلام معروفٌ صحيح.
وأما ما رويتم من شعر الأفوه الأوديّ فلعمري إنّه لجاهليّ، وما وجدْنا أحداً من الرُّواة يشكُّ في أن القصيدة مصنوعةٌ، وبعد فمِنْ أين علم الأفْوهُ أنّ الشهب التي يراها إنما هي قذْفٌ ورجْم، وهو جاهليٌّ، ولم يدَّع هذا أحدٌ قطُّ إلا المسلمون؟ فهذا دليلٌ آخر على أن القصيدة مصنوعة رجع إلى تفسير قصيدة البهراني ثم رجع بنا القولُ إلى تفسير قصيدة البهرانيّ: وأما قوله:

جائباً للبحار أهدي لِعِرْسي فُلفلاً مجتنًى وهَضْمَة عِطْر

وأحلّي هُرَيْرَ مِنْ صدف البَحْـ ـر وأسْقي العِيال من نيل مِصر

فإن الناس يقولون: إن السَّاحر لا يكون ماهراً حتَّى يأتي بالفلْفُل الرّطب من سرنديب، وهُريرة: اسم امرأته الجنّيّة.
وذكر الظّبي الذي جعله مَرْكبه إلى بلاد الهند، فقال:

وأجوبُ البلاد تحتيَ ظبيٌ ضاحكٌ سِنُّه كثيرُ التَّمرِّي

مُولجٌ دَبْرَهُ خَوايَةَ مَكْوٍ وهو باللَّيل في العفاريت يَسْري

يقول: هذا الظَّبي الذي من جُبْنِهِ وحذره، من بين جميع الوَحْش، لا يدخل حَراه إلا مستدبراً، لتكون عيناه تلقاء ما يخاف أن يغشاه هو الذي يسري مع العفاريت باللَّيل ضاحِكاً بي هازئاً إذا كان تحتي.
وأما قوله:

يحسَبُ النَّاظِرُون أني ابنُ ماءٍ ذاكرٌ عُشَّهُ بضَفَّةِ نَهْرِ

فإن الجنّيَّ إذا طار به في جوِّ السماء ظنَّ كلُّ من رآه أنّه طائر ماء.

قولهم: أروى من ضبّ

وأما قولهم في المثل: أروى من ضبّ فإني لا أعرفه، لأنَّ كلَّ شيء بالدوّ والدَّهْناء والصَّمَّان، وأوساط هذه المهامه والصحاصح فإن جميع ما يسكنُها من الحشرات والسِّباع لا يردُ الماء ولا يريدُه، لأنه ليس في أوساط هذه الفيافي في الصَّيف كله وفي القيظ جميعاً مَنْقع ماء، ولا غدير، ولا شريعة، ولا وَشَلَ، فإذا استقام أن يمرّ بظبائها وأرانبها وثعالبها وغير ذلك منها الصَّيفة كلَّها، والقيظ كله، ولم تذق فيها قطرة ماء، فهي له في الشتاء أتْرك، لأنَّ من اقتات اليبَس إذا لم يشرب الماء فهو إذا اقتات الرَّطب أترك.
وليس العجب في هذا، ولكنّ العجب في إبلٍ لا ترد الماء.
وزعم الأصمعيُّ أنَّ لبني عقيل ماعِزاً لم يرد الماءَ قطّ، فينبغي على ذاكَ أنْ يكون واديهم لا يزالُ يكونُ فيه من البقْل والورق ما يُعيشُها بتلك الرُّطوبة التي فيها.
ولو كانت ثعالبُ الدّهْناء وظباؤُها وأرانبُها ووحْشُها تحتاج إلى الماء لطلَبتْه أشدّ الطلب، فإن الحيوان كلَّه يهتدي إلى ما يُعيشه، وذلك في طبْعه وإنما سُلِب هذه المعارفَ الذين أعطوا العقل والاستطاعة فوكِلوا إليهما.
فأمّا من سُلِبَ الآلة التي بها تكون الرَّويّة والأداة التي يكون بها التصرُّف، وتخرج أفعاله من حد الإيجاب إلى حد الإمكان، وعُوِّض التمكينَ، فإن سبيله غيرُ سبيل من مُنِح ذلك، فقسم اللّه تعالى لتلك الكفاية، وقسم لهؤلاء الابتلاء والاختيار.

قصيدتا بشر بن المعتمر

أوّل ما نبدأ قبل ذكر الحشرات وأصناف الحيوان والوحش بشِعْرَي بشر بن المعتمر، فإن له في هذا الباب قصيدتين، قد جمع فيهما كثيراً من هذه الغرائب والفرائد، ونبَّه بهذا على وجوهٍ كثيرةٍ من الحكمة العجيبة، والموعظةِ البليغة، وقد كان يمكننا أن نذكر من شأن هذه السِّباع والحشرات بقدْر ما تتسع له الرواية، من غير أن نكتبهما في هذا الكتاب، ولكنهما يجمعان أموراً كثيرة.

أمّا أوّل ذلك فإنَّ حفظ الشّعر أهونُ على النَّفس، وإذا حُفظ كان أعلَقَ وأثبت، وكان شاهداً، وإن احتيج إلى ضرْب المثل كان مثلاً.

وإذا قسمنا ما عندنا في هذه الأصناف، على بيوت هذين الشّعرين، وقع ذكرهما مصنّفاً فيصير حينئذٍ آنقَ في الأسماع، وأشدَّ في الحفْظ.

القصيدة الأولى

قال بشرُ بن المعتمر:

الناس دأباً في طلاب الغنى	وكلهم من شأنهِ الخـتـرُ
كأذؤبٍ تنهـشـهـا أذؤبٌ	لها عواءٌ ولـهـا زفـرُ
تراهمُ فوضَى وأيدى سبـا	كلٌّ لهُ في نفثـهِ سـحـرُ
تبارك الله وسـبـحـانَـه	بينَ يديهِ النفعُ والـضـرُّ
منْ خلقه في روقه كلهـمْ	الذيخُ والثيتلُ والـغـفـرُ
وساكنُ الجوِّ إذا مـا عـلا	فيه ومنْ مسكنهُ الـقـفـر
والصدع الأعصمُ في شاهقٍ	وجأبة مسكنهـا الـوعـرُ
والحيةُ الصماءُ في جحرها	والتتفلُ الـرائغُ والـذرُّ
وإلقةٌ ترغث ربـاحـهـا	والسهلُ والنوفلُ والنضـرُ
وهقلة ترتاعُ من ظلـهـا	لها عرارٌ ولـهـا زمـرُ
تلتهم المروَ على شـهـوةٍ	أحبُّ شيءٍ عندها الجمـر
وضبة تـأكـلُ أولادهـا	وعترفانٌ بطنـهُ صـفـر

يؤثر بالطـعـم وتـأذينـهُ منجمُ لـيس لـه فكـرُ

وكيف لا أعجبُ من عالـمٍ حشوتهُ التأبيس والـدغر

وحكمة يبصرها عـاقلٌ ليس لـها من دونـها سـتـرُ

جرادةٌ تخرقُ متنَ الصفـا وأبغثٌ يصطادهُ صـقـر

سلاحه رمحٌ فما عذره وقد عراه دونـه الـذعـر

والدبُّ والقرد إذا علـما والفيلُ والكلبةُ والـيعـر

يحجم عن فرطِ أعاجيبها وعنْ مدى غاياتها السحـر

وظيبة تخضمُ في حنظلٍ وعقربٌ يعجبها التمـرُ

وخنفسُ يسعى بجعلانـهِ يقوتها الأرواثُ والبعـرُ

يقتلها الـورد وتـحـيا إذا ضمَّ إليها الروث والجعرُ

وفارة البيشِ إمـامٌ لـهـا والخلد فيه عجبٌ هتـرُ

وقتفذٌ يسرى إلـى حيةٍ وحيةٌ يخلى لهُ الجحـرُ

وعضر فوطٌ ماله قبلـة وهدهدٌ يكـفـره بـكـرُ

وفرةُ العقرب من لسعها تخبرُ أن ليسَ لهـا عذرُ

والببر فيه عجبٌ عـاجبٌ إذا تلاقى الليث والببـرُ

وطائرُ أشـرفُ ذو جـردة وطائرٌ ليسَ لـهـا وكـرُ

وثرملٌ تأوى إلـى دوبـل وعسكرٌ يتبعه الـنـسـر

يسالمُ الضبـعَ بـذى مـرة أبرمها في الرحم العمـرُ

وتمسحٌ خـلـلـهُ طـائـرٌ وسابحٌ ليسَ لـهـا سـحـرُ

والعثُّ والحفاثُ ذو فحفحٍ	وخرنقٌ يسفدهُ وبر
وغائص في الرمل ذو حدة	ليس لها نابٌ ولا ظفرُ
حرباؤها في قيظها شامسٌ	حتى يوافى وقتهُ العصر
يميل بالشقِّ إليها كما	يميلُ في روضتهِ الزهر
والظربانُ الوردُ قد شفه	حبُّ الكشى والوحر الحمر
يلوذُ منه الضبُّ مذلولياً	ولو نجا أهلكهُ الذعرُ
وليس ينجيه إذا ما فسا	شيءٌ ولو أحرزه قصرُ
وهيشنة تأكلها سرفةٌ	وسمعُ ذئبٍ همهُ الحضرُ
لا تردُ الماءَ أفاعي النقا	لكنما يعجبها الخمرُ
وفي ذرى الحرملِ ظلٌّ لها	إذا غلا واحتدم الهجرُ
فبعضها طعمُ لبعض كما	أعطى سهامَ الميسرِ القمرُ
وتمسحُ النيل عقابُ الهوا	والليثُ رأسٌ ولـه الأسرُ
ثلاثةٌ ليس لـها غالبٌ	إلاّ بما ينتقضُ الدهرُ
إنّى وإنْ كنتُ ضعيفَ القوى	فاللهُ يقضى ولـهُ الأمرُ
لست إباضيًّا عبيًّا ولا	كرافضى غرهُ الجفرُ
كما يغرُّ الآل في سبسبٍ	سفراً فأودَى عنده السفرُ
كلاهما وسع في جهل ما	فعاله عندهما كفرُ
لسنا من الحشو الجفاةِ الأولى	عابوا الذي عابوا ولم يدروا

أن غبتَ لم يسلمكَ من تهمة   وإنْ رنَا فلحظهُ شزرُ

يعرضُ إن سالمته مدبراً   كأنما يلسبه الدبرُ

أبلهُ خبٌّ ضغنٌ قلبه   له احتيالٌ وله مكرُ

وانتحلوا جماعةً باسمها   وفارقوها فهمُ اليعر

وأهوجُ أعوجُ ذو لوثةٍ   ليس له رأىٌ ولا قدر

قد غره في نفسه مثله   وغرهم أيضاً كما غروا

لا تنجع الحكمةُ فيهم كما   ينبو عن الجرولة القطرُ

قلوبهم شتَّى فما منهم   ثلاثةٌ يجمعهم أمرُ

إلا الأذى أو بهتَ أهلِ التقى   وأنهم أعينهمْ خزرُ

أولئك الداءُ العضالُ الذي   أعيا لديه الصابُ والمقر

حيلة من ليست له حيلة   حسنُ عزاء النفسِ والصبر

القصيدة الثانية

قال: وأنشدني أيضاً:

ما ترى العالم ذا حشوةٍ   يقصر عنها عدد القطر

أوابد الوحشِ وأحناشها   وكلٌّ سبع وافر الظفر

وبعضه ذو همجٍ هامجٍ   فيه اعتبارٌ لذوي الفكر

والوزغُ الرقط على ذلهَّا   تطاعمُ الحياتِ في الجحر

والخنفسُ الأسودُ في طبعه   مودة العقرب في السر

والحشراتُ الغبرُ منبثةٌ   بين الورى والبلدِ القفر

وكلها شرٌّ وفي شرها
خيرٌ كثيرٌ عند من يدرى

لو فكرَ العاقلُ في نفسه
مدة هذا الخلق في العمر

لم ير إلا عجباً شاملا
أو حجة تنقشُ في الصخر

فكم ترى في الخلق من آيةٍ
خفيةِ الجسمان في قعر

أبرزها الفكر على فكرةٍ
يحارُ فيها وضحُ الفجرِ

لله درُّ العقلِ من رائدٍ
وصاحبِ في العسرِ واليسرِ

وحاكمٍ يقضى على غائبٍ
قضية الشاهدِ للأمرِ

وإن شيئاً بعضُ أفعاله
أن يفصلَ الخيرَ من الشرِّ

بذى قوًى قد خصه ربُّه
بخالص التقديس والطهر

بل أنت كالعين وإنسانها
ومخرج الخيشوم والنحر

فشرهم أكثرهم حيلة
كالذئب والثعلب والذر

والليث قد جلده علمه
بما حوى من شدة الأسر

فتارة يحطمهُ خابطاً
وتارة يثنيه بالهصر

والضعفُ قد عرف أربابه
مواضعَ الفرِّ من الكر

تعرف بالإحساس أقدارها
في الأسر والإلحاح والصبر

والبختُ مقرونٌ فلأتجهلن
بصاحبِ الحاجة والفقر

وذو الكفايات إلى سكرةٍ
أهونُ منها سكرةُ الخمر

والضبعُ الغثراء مع ذيخها
شرٌّ من اللبوة والنمر

لو خلى الليثُ ببطن الورى
والنمرُ أو قد جىء بالببر

كان لـها أرجى ولو قضقضت ما بين قرنيه إلى الـصـدر

والذئب إن أفلت مـن شره فبعد أن أبلغ فـي الـعذر

وكلٌّ جنـس فـلـه قـالـبٌ وعنصرٌ أعراقـه تـسـرى

وتصنع السرفة فيهم علـى مثلِ صنيع الأرض والبـذر

والأضعف الأصغرُ أحرى بأن يحتال للأكبر بـالـفـكـرِ

متـى يرى عـدوه قـاهـراً أحوجهُ ذاك إلى الـمـكـرِ

كما ترى الذئب إذا لم يطقْ صاحَ فجاءت رسلاً تجـرى

وكلُّ شيءٍ فـعلـى قـدره يحجـم أو يقـدم أو يجـرى

والكيس في المكسب شملٌ لـهمْ والعندليب الفرخُ كالنـسـرِ

والخلدْ كالذئب على خـبـثـه والفيلُ والأعلـم كـالـوبـرِ

والعبدُ كـالـحـرِّ وإن سـاءه والأبغثُ الأغثر كالصـقـرِ

لكنهم في الـدين أيدى سـبـا تفاوتوا في الرأي والـقـدرِ

قد غمر التقليدُ أحـلامـهـم فنـاصبوا القياسَ ذا السـبـرِ

فافهم كلامى واصطبر ساعة فإنما النجح مع الـصـبـرِ

وانظر إلى الدنيا بعين امرىء يكـره أن يجـري ولا يدري

أما ترى الهقلَ وأمـعـاءه يجمعُ بين الصخر والجمـرِ

وفارةُ البيش على بـيشـهـا طيبةٌ فـائقة الـعـطـرِ

وطائر يسبـح فـي جـاحـمٍ كماهرٍ يسبح فـي غـمـرِ

ولطعة الذئب على حسوهِ		وصنعة السرفة والدبر

ومسمع القردان في منهل		أعجبُ مما قيلَ في الحجرِ

وظبية تدخلُ في تولجٍ		مؤخرها من شدة الذعر

تأخذ بالحزم على قانصٍ		يريغها من قبلِ الدبر

والمقرمُ المعلم ما إنْ له		مرارةٌ تسمعُ في الذكر

وخصية تنصلُ من جوفه		عندَ حدوثِ الموتِ والنحر

ولا يرى من بعدها جازرٌ		شقشقةً مائلة الهدر

وليس للطرفِ طحالٌ وقد		أشاعه العالمُ بالأمر

وفي فؤاد الثور عظمٌ وقد		يعرفه الجازر ذو الخبر

وأكثرُ الحيتان أعجوبةً		ما كان منها عاشَ في البحر

إذْ لا لسانٌ سقى ملحه		ولا دماغٌ السمك النهرى

يدخل في العذب إلى جمه		كفعل ذى النقلةِ إلى البرِّ

تدير أوقاتاً بأعيانها		على مثالِ الفلك المجرى

وكلُّ جنسٍ فلهُ مدةٌ		تعاقبَ الأنواء في الشهر

وأكبدٌ تظهرُ في ليلها		ثمَّ توارى آخرَ الدهر

ولا يسبغ الطعم ما لم يكن		مزاجه ماءً على قدر

ليس له شيء لإزلاقه		سوى جرابٍ واسع الشجر

والتتفل الرائغ إما نضا		فشطر أنبوب على شطر

متى رأى الليث أخا حافر		تجده ذا فشٍ وذا جزر

وإن رأى النمر طعاماً لـه أطعمه ذلك في الـنـمـر

وإن رأى مخـلـبـه وافـياً ونـابه يجرح في الصـخـر

منهرتَ الشدق إلى غلـصـمٍ فالنمر مأكولٌ إلى الحـشـر

وما يعادي النمرُ في ضيغمٍ زئيره أصبـر مـن نـمـر

لولا الذي في أصلِ تركـيبـه من شدةِ الأضلاع والظهـر

يبلغ بالجسر على طـبـعـه ما يسحر المختالَ ذا الكبـر

سبحانَ ربِّ الخلـق والأمـر ومنشر الميتِ من الـقـبـر

فاصبرْ على التفكير فيما ترى ما أقربَ الأجرَ من الـوزر

تفسير القصيدة الأولى

نقول بعون اللّه تعالى وقوّته في تفسير قصيدة أبي سهل بشر بن المعتمر، ونبدأ بالأولى المرفوعة، التي ذكر في آخرها الإباضية، والرافضة، والنابتة، فإذا قلنا في ذلك بما حضرَنا قلنا في قصيدته الثانية إن شاء اللّه تعالى.
ما قيل في الذئب أمَّا قوله:

كأذْؤُبٍ تنهشُها أذْؤبٌ لها عُواءٌ ولها زَفرُ

فإنَّها قد تتهارشُ على الفريسة، ولا تبلغ القتْل، فإذا أدْمى بعضها بعضاً وثبتْ عليه فمزّقته وأكلته، وقال الرّاجز:

فلا تكوني يا ابْنَةَ الأشَمِّ ورقاء دَمّى ذئبها المدمِّي

وقال الفرزدق:

وكنْتَ كذئبِ السَّوْء لمّا رأى دماً بصاحبه يوماً أحالَ على الـدَّمِ

نعم حتّى رُبما أقبلا على الإنسان إقبالاً واحداً، وهما سواءٌ على عداوته والجزْم على أكله، فإذا أُدْمي أحدُهما وثب على صاحبه المدْمى فمزّقه وأكله، وترك الإنسان وإن كان أحدهما قد أدماه.
ولا أعلمُ في الأرض خلقاً ألأمَ من هذا الخلق، ولا شرّاً منه، ويحدث عند رؤيته

الدَّم له في صاحبه الطمع، ويحدث له في ذلك الطمع فضلُ قوة، ويحدث للمدمَّى جبنٌ وخوف، ويحدث عنهما ضعف واستخذاء، فإذا تهيأ ذلك منهما لم يكن دونَ أكله شيء، واللّه أعلم حيثُ لم يُعط الذئب قوّة الأسد، ولم يعط الأسد جُبن الذئب الهارب بما يرى في أثر الدم من الضعف، مثل ما يعتري الهر والهرة بعد الفراغ من السِّفاد، فإن الهر قبل أن يفرُغ من سفاد الهرة أقوى منها كثيراً، فإذا سَفِدها ولّى عنها هارباً واتبعته طالبةً له، فإنها في تلك الحال إن لحقتْه كانت أقوى منه كثيراً، فلذلك يقطع الأرض في الهرب، وربَّما رمى بنفسه من حالق، وهذا شيءٌ لا يعدمانِه في تلك الحال.

ولم أرهم يقِفون على حدِّ العلة في ذلك، وهذا بابٌ سيقعُ في موضعه من القول في الذئب تامّاً، بما فيه من الرِّواية وغير ذلك.

الذيخ والثيتل والغفر وأمَّا قوله:

مِنْ خلقه في رزقِه كلِّهُمْ الذِّيخُ والثّيْتلُ والغُفرُ

الذِّيخ: ذكر الضّبع، والثيتل شبيهٌ بالوعل، وهو ممَّا يسكن في رؤوس الجبال، ولا يكون في القُرى، وكذلك الأوعال، وليس لها حُضرٌ ولا عملٌ محمود على البسيط، وكذلك ليس للظباء حُضْر ولا عملٌ محمود في رؤوس الجبال.

وقال الشاعر:

وخَيلٍ تُكَرْدِسُ بـالـدارعينَ كمشي الوُعولِ على الظاهرهْ

وقال أيضاً:

والظّبيُ في رأس اليفاع تخالُه عِنْد الهضاب مُقيَّداً مشْكولا

والغُفْر: ولد الأَروية: واحد الأرْوى، والأرْوى: جماعةٌ من إناث الأوعال.

الصَّدع والجأب وأما قوله:

والصَّدَعُ الأعصمُ في شاهق وجأبةٌ مسكنُها الوعْرُ

فالصّدع: الشّاب من الأوعال، والأعصم: الذي في عصمته بياضٌ، وفي المِعْصم منه سوادٌ ولونٌ يخالفُ لونَ جسده، والأنثى عصماء، والجأب: الحمار الغليظ الشَّديد، والجأبة: الأتان الغليظة، والجأب أيضاً، مهموز: المَغرة، وقال عنترة:

فنجا أمامَ رماحِهنَّ كأنَّهُ فوْتَ الأسِنة حافر الجأبِ

شبَّهه بما عليه من لُطوخ الدِّماء برجُل يحفر في معدن المغْرة، والمغرة أيضاً المكْر، ولذلك قال أبو زُبيد في صفة الأسد المخمر بالدماء:

يعاجيهم للشرِّ ثانِيَ عِطفِهِ عنايته كأنّما باتَ يُمْكُر

الحية والثعلب والذر وأما قوله:

والحية الصماء في جُحرها والتَّتفل الرائغ والذّرُّ

فالتتفل هو الثعلب، وهو موصوفٌ بالرَّوغان والخبث، ويضرب به المثل في النَّذالة والدناءة، كما يضرب به المثلُ في الخبْث والرَّوغان.
وقال طرفة:

وصاحبٍ قد كنتُ صاحبْتُه لا ترك اللهُ لهُ واضحَه

كلهمُ أرْوغُ من ثعلبٍ ما أشبهَ اللّيلة بالبارحَهْ

وقال دُريد بن الصمَّة:

ومُرّة قد أدركتُهم فتركتُهمْ يروغُون بالغَرّاءَ روْغ الثَّعالبِ

وقال أيضاً:

ولستُ بثعلبٍ إن كان كونٌ يدُسُّ برأسهِ في كُلِّ جُحْرْ

ولمَّا قال أبو محجنٍ الثَّقفي لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، من حائط الطائف ما قال: قال له عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه: إنما أنت ثعلبٌ في جُحْر، فابرزْ من الحصْن إن كنت رجلاً.
ومما قيل في ذلة الثعلب، قال بعض السّلف، حين وجد الثُّعلبان بال على رأس صنمه:

إله يبول الثُّعلّبانُ برأسِه لقد ذَلّ منْ بالتْ عليه الثّعالبُ

فأرسلها مثلاً، وقال دُريدٌ في مثل ذلك:

تمنَّيْتني قيْسَ بن سعدٍ سفاهةً وأنت امرؤٌ لا تحتويك المقانبُ

وأنت امرؤٌ جَعْدُ القفا مُتَعَكِّسٌ من الأقِطِ الحوليِّ شبعان كانِبُ

إذا انتسبوا لم يعرِفوا غير ثعْلبٍ إليهم ومن شرِّ السِّباع الثعالبُ

وأنشدوا في مثل ذلك:

ما أعجبَ الدَّهْرَ في تصرُّفِهِ والدَّهْرُ لا تنقضي عجائبُهُ

يبسطُ آمالنا فنبسطها ودون آمـالِـنـا نـوائبُــهُ

وكم رأينا في الدَّهر من أسدٍ بالتْ على رأسهِ ثعالبـهُ

ففي الثَّعلب جلدهُ، وهو كريم الوبر، وليس في الوَبر أغلى من الثعلب الأسود، وهو ضروبٌ، ومنه الأبيضُ الذي لا يُفْصل بينه وبين الفَنَك، ومنه الخلنْجيّ، وهو الأعمّ. ومن أعاجيبه أن نَضيَّهُ، وهو قضيبه في خلقة الأنبوبة، أحد شِطرْيه عظْمٌ في صورة المثقب، والآخر عصبٌ ولحم، ولذلك قال بشرُ بنُ المعتمر:

والتّتفل الرائغُ إمّا نضا فشطْرُ أنبوبٍ على شطْر

وهو سَبُعٌ جبانٌ جدّاً، ولكنَّه لفرط الخبث والحيلة يجري مع كبار السّباع.
وزعم أعرابيٌّ ممن يُسمعُ منه، أنّه طاردهُ مرّة بكلابٍ له، فراوغه حتّى صار في خَمر، ومرّ بمكانه فرأى ثعلباً ميّتاً، وإذا هو قد زَكر بطنه ونفخه، فوهّمه أنّه قد مات من يوم أو يومين، قال: فتعدّيته وشمَّ رائحة الكلاب فوثب وثبةَ فصار في صحراء.
وفي حديث العامَّة أنَّه لما كثُرت البراغيثُ في فرْوته، تناول بفيه إمَّا صُوفةَ وإمَّا ليقةً، ثم أدخل رجليه في الماء، فترقَّعتْ عن ذلك الموضع، فما زال يغمسُ بدنه أوّلاً فأوّلاً حتَّى اجتمعن في خَطْمه، فلمّا غمس خطمه أوّلاً فأوّلاً اجتمعنَ في الصُّوفة، فإذا علم أنّ الصُّوفة قد اشتملت عليهنَّ تركها في الماء ووثبَ، فإذا هو خارجٌ عن جميعها.
فإن كان هذا الحديثُ حَقّاً فما أعجبه، وإن كان باطلاً فإنّهم لم يجعلوه له إلاّ للفضيلة التي فيه، من الخبْثِ والكَيْس.
وإذا مشى الفرسُ مشْياً شبيهاً بمشْيِ الثعلب قالوا: مشى الثّعلبيّة قال الراعي:

وغَمْلى نَصيٍّ بالمِتان كأنّها ثعالبُ مَوْتى جلدها قد تسَلَّعا

وقال الأصمعيُّ: سرق هذا المعنى من طفيلِ الغنويّ ولم يُجِد السَّرق.
وفي تشبيه بعض مشيته قال المرّار بن مُنقذ:

صِفَةُ الثَّعلبِ أدنى جَرْيِه وإذا يُركضُ يَعْفُورٌ أشِرْ

وقال امرؤ القيس:

له أيْطلا ظبْيٍ وساقا نَعـامَةٍ وإرخاءُ سِرْحانٍ وتقْريب تَتْفُلِ

والبيت الذي ذكره الأصمعيُّ لطفيل الغنوي، أنّ الرَّاعي سرق معناه هو قوله:

وغمْلى نصيٍّ بالمتان كأنّها ثعالبُ موتى جِلْدُها لم ينزع

وأنشدوا في جُبْنِه قولَ زُهير بن أبي سُلمى:

وبَلـدةٍ لا تُـرام خـائفةٍ زَوْراءَ مُغْبَرَّةٍ جوانبُـها

تسمَعُ للجِنّ عازفين بـها تصِيحُ مِنْ رَهْبَةٍ ثعالبُها

كلّفْتُها عِرْمِساً عُذافِرَةً ذاتَ هِبابٍ فُعماً مناكبُها

تُراقبُ المُحْصَدَ الممَرَّ إذا هاجرةٌ لم تَقِلْ جَنادبُـها

والذي عندي أنَّ زُهيراً قد وصف الثعلب بشدَّة القلْب، لأنـهم إذا هَوَّلُوا بذكر الظُّلْمة الوحشيَّة والغيلان، لم يذكروا إلاَّ فزع من لا يكاد يفزع، لأنَّ الشاعر قد وصف نفسه بالجراءة على قطع هذه الأرض في هذه الحال.
وفي استنذاله وجبنه قالت أمُّ سالم لابنـها مَعْمر:

أرى مَعْمراً لا زيّنَ اللهُ مَعْمراً ولا زانَهُ مـنْ زائر يتـقـرّبُ

أعاديْتَـنـا عـاداك عزٌّ وذلَّةٌ كأنك في السِّربالِ إذّ جئت ثعلبُ

فلم تَرَ عيني زائراً مثل مَعْمـر أحقَّ بأن يُجنى عليه ويُضْرَبُ

وقال عقيل بن عُلفة:

تأمَّل لما قد نال أمَّك هِـجْرِسٌ فإنَّـك عَبْدٌ يا زُمَـيل ذَلـيلُ

وإني متى أضْرِبْك بالسَّيفِ ضَرْبة أصبِّحْ بني عَمْرِو وأنتَ قـتـيلُ

الهِجْرس: ولد الثَّعلب، قال: وكيف يصْطادُ وهو على هذه الصِّفة؟ فأنشد شعر ابن ميّادة:

ألم تَرَ أنَّ الوَحْشَ يَخْـدَعُ مَـرَّةً ويُخْدَعُ أحياناً فيُصطاد نُورها

بلى وضَواري الصَّيدِ تُخْفِقُ مَرَّةً   وإنْ فُرهتْ عقبانُها ونُسورها

قال: وسألت عنه بعض الفقهاء فقال: قيل لابن عبّاس: كيف تزعمون أنّ سليمان بن داود عليهما السلام كان إذا صار في البراري، حيث لا ماء ولا شجر، فاحتاج إلى الماء، دلّه على مكانه الهدهُد، ونحن نغطّي له الفخَّ بالتراب الرَّقيق، ونُبرز له الطُّعم، فيقع فيه جَهْلاً بما تحت ذلك التراب، وهو يدلُّ على الماء في قعر الأرض الذي لا يوصل إليه إلاّ بأن يحفر عليه القيِّم الكيِّس؟.
قال: فقال ابنُ عبّاس رضي اللّه عنهما: إذا جاء القدَرُ لم ينفع الحذر.
وأنشدوا:

خير الصديق هو الصَّدوق مقالةً   وكذاك شَرُّهم الميُون الأكذبُ

فإذا غدوْت له تريد نجازهُ   بالوَعْدِ راغ كما يروغُ الثعلبُ

وقال حسّان بن ثابت رضي اللّه عنه:

بني عابدٍ شاهَتْ وجُوهُ الأعابد   بطاءٌ عن المعروف يوم التّزايُدِ

فما كان صَيفيٌّ يفي بأمانة   قفا ثعلب أعْيا ببعض المراصِدِ

وأنشد:

ويشْرَبُه مَذْقاً ويسقِي عِيالَه   سَجاجاً كأقرابِ الثَّعالبِ أوْرقا

وقال مالك بن مِرْداس:

يا أيُّها ذا الموعِدِي بالضرِّ   لا تلعبنَّ لِعبة المغترِّ

أخافُ أنْ تكونَ مثل هرِّ   أو ثعْلبٍ أُضيعَ بعد حُرِّ

هاجَتْ به مخيلة الأظفر   عسراء في يوم شمال قرِّ

يجول منها لثق الذعر   بصردٍ ليس بذي محجر

تنفض أعلى فرْوهِ المغبرِّ   تنفضُّ منها نابها بشزر

نفضاً كلون الشره المخمر

المخيلة: العقاب الذّكر الأشبث، صرد: مكان مطمئن.
وقال اليقطري: كان اسمُ أبي الضّريس ديناراً فقال له مولاه: يا دنينير فقال: أتصغّرني وأنت من بني مخيلة، والعقاب الذّكر بدرهم، والأنثى بنصف درهم، وأنا ثمني عشرة دراهم.
سلاح الثعلب ومن أشدِّ سِلاح الثَّعلب عندكم الرَّوغان والتّماوُت، وسلاحه أنتنُ وألزجُ وأكثرُ من سُلاح الحبارى.
وقالت العرب: أدهى من ثعلب، وأنتن من سُلاح الثَّعلب.
وله عجيبةٌ في طلب مقتل القنفذ، وذلك إذا لقيه فأمكنهُ من ظهرِهِ بالَ عليه، فإذا فعل ذلك به ينبسط فعند ذلك يقبض على مَراقِّ بطْنه.
أرزاق الحيوان ومن العجب في قسمة الأرزاق أنّ الذّئب يصيد الثّعلب فيأكله، ويصيد الثّعلب القنفذَ فيأكله، ويُريغ القنفذ الأفعى فيأكلها، وكذلك صنيعُه في الحيَّات ما لم تعظُم الحيَّة، والحيَّة تصيدُ العصفور فتأكلهُ، والعصفور يصيد الجراد فيأكله، والجراد يلتمس فِراخَ الزّنابير وكلّ شيء يكون أفحوصُهُ على المستوي، والزُّنبور يصيد النّحلة فيأكلها، والنَّحلة تصيد الذبابة فتأكلها، والذبابة تصيدُ البعوضة فتأكلها.
الإلقة والسهل والنوفل والنضر وأمَّا قوله:

وإلقة تُرْغِثُ رُبَّاحـهـا		والسّهْلُ والنَّوْفلُ والنضرُ

فالإلقة هاهنا القردة، تُرْغِث: ترضع، والرُّبَّاح: ولد القِردة، والسَّهْل: الغراب، والنَّوفل: البحر، والنَّضْر: الذهب، وكلُّ جَرِيَّةٍ من النِّساء وغيرِ ذلك فهي إلْقة، وأنشدني بشرُ بن المعتمر لرؤبة:

جَدّ وجدّت إلقةٌ من الإلقْ

وقد ذكرنا الهِقْلَ وشأنه في الجمر والصّخْر، وأكلَ الضّبِّ أولاده، في موضعه من هذا الكتاب وكذلك قوله في العُتْرُفان، وهو الديك الذي يؤثر الدَّجاج بالحبّ، وكأنّه منجِّم أو صاحبِ أسْطُرلاب، وذكرنا أيضاً ما في الجراد في موضعه، ولسنا نُعيدُ ذكر ذلك، وإن كان مذكوراً في شعر بشر.
الأبغث وأمّا قوله:

وأبغث يصطاده صقر

ثم قال:

سلاحُه رُمْحٌ فما عُذْرُه		وقد عَراه دُونه الذعرُ

يقول: بدنُ الأبغث أعظمُ من بدن الصقر، وهو أشدُّ منه شِدَّة، ومنقارُه كسنان الرُّمْح في الطول والذّرب، وربّما تجلّى له الصَّقرُ والشّاهينُ فَعَلقَ الشّجر والعَرار، وهتك كلَّ شيء، يقول: فقد اجتمعت فيه خصالٌ في الظّاهر معينةٌ له عليه، ولولا أنّه على حال يعلم أنَّ الصَّقر إنما يأتيه قبُلاً ودبُراً، واعتراضاً، ومن عَلُ، وأنه قد أعطى في سلاحه وكفّه فضل قوَّة لما استخذى له، ولما أطمعه بهرَبه، حتّى صارت جُرأته عليه بأضعاف ما كانت.
قال بعضُ بني مروان في قتل عبد الملك عَمْرو بن سعيد:

كأنَّ بني مَـرْوان إذ يقتـلونـه بغاثٌ من الطّيرِ اجتمعن على صقْر

ما يقبل التعليم من الحيوان وأمَّا قوله:

والدُّبُّ والقِرد إذا عُلِّما والفيل والكَلْبة واليَعْرُ

فإن الحيوان الذي يَلْقن ويَحكِي ويَكيسُ ويُعلَّم فيزداد بالتّعليم في هذه التي ذكرنا، وهي الدّبّ والقِرد، والفيل، والكلب.
وقوله: اليعر، يعني صغار الغنم، ولعمري أنَّ في المكّيّة والحبشيَّة لعباً.
حب الظبي للحنظل والعقرب للتمر وأمَّا قوله:

وظبيةٌ تخضِمُ في حَنْظل وعَقْرَبٌ يُعْجِبها التَّمرُ

ففي الظَّبي أعاجيبُ من هذا الضرب، وذلك أنّه ربّما رَعى الحنظل، فتراه يقبضُ ويعضُّ على نِصف حنظلةٍ فيقدّها قد الخسْفة فيمضغُ ذلك النصفَ وماؤُه يسيلُ من شدقيه، وأنت ترى فيه الاستلذاذ له، والاستحلاء لطعمه.
وخبرني أبو محجن العنزيّ، خالُ أبي العميثل الرّاجز، قال: كنت أرى بأنطاكية الظّبي يَرِدُ البحر، و يشربُ المالحَ الأجاج.
والعقْرب ترمي بنفسها في التَّمر، وإنّما تطلب النَّوى المُنْقع في قعر الإناء.
فأيُّ شيء أعجبُ من حيوانٍ يستعذب مُلوحة البحر، ويستحلي مرارة الحنظل.
وسنذكر خصال الظّبي في الباب الذي يقع فيه ذكره إن شاء الله تعالى، ولسنا نذكر شأن الضبِّ والنَّمل، والجعل والرَّوث والورد لأنّا قد ذكرناه مرّة.
فأرة البيش وأمّا قوله:

وفأرة البيش إمامٌ لها والخلْدُ فيه عجبٌ هترُ

فإن فأرة البيش دُويْبة تشبة الفأرة، وليست بفأرة، ولكن هكذا تسمّى، وهي تكون في العياض والرِّياض ومنابت الأهضام، وفيها سمومٌ كثيرة، كقرون السُّنْبل، وما في القُسْط، فهي تتخلَّل تلك الأهضام، وتطلب السُّمومَ وتغتذيها، والبيش: اسمٌ لبعض السُّموم، وهذا ممّا يُعجب منه.

وقد ذكرنا شأن القنفذ والحيَّة في باب القول في الحيّات.
العضرفوط والهدهد وأمَّا قوله: وعضرفوطٌ ما له قِبْلة فهو أيضاً عندهم من مطايا الجنّ، وقد ذكره أيمنُ بن خُريم فقال:

وخيلُ غزالة تَنْتـابُـهُـمْ تجوب العِراقَ وتَجْبي النَّبيطا

تَكُرُّ وتُجْحِرِ فُرسانَـهُـمْ كما أجْحَرَ الحيَّةَ العَضْرفوطا

لأن العضرفوط دويْبّة صفيرةٌ ضعيفة، والحيّات تأكلها وتغصِبها أنفسها.
وأنشدوا على ألسنة الجنّ:

ومن عَضْرَفوطٍ حَطَّ بي فأقمته يبادِرُ ورْداً مِنْ عظاءٍ قواربِ

وأمّا قولُه:

وهدهدٌ يُكْفِرُهُ بكرُ

فإنَّما ذلك لأنَّه كان حاجَّ بكر ابن أختِ عبد الواحد صاحب البكريَّةِ، فقال له: أتخبرُ عن حال الهدهُدِ بخبر؟ إنه كان يعرفُ طاعة اللّه عزَّ وجل من معصيته، وقد ترك موضِعَه وسار إلى بلاد سبأ، وهو وإن أطرف سليمان بذلك الخبر وقبله منه فإنَّ ذَنْبَه في ترْك موضعه الذي وُكِّل به، وجولانِه في البُلدان على حاله، ولا يكون ذلك مما يجعل ذنبه السابق إحساناً، والمعصيةُ لا تنقلبُ طاعة، فلم لا تشهد عليه بالنِّفاق؟ قال: فإني أفعل قال: فحكى ذلك عنه فقال: أمّا هو فقد كان سلم على سُليمان وقد كان قال: "لأعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شديداً أوْ لأذْبحنّهُ أوْ ليَأتينِّي بسُلْطانٍ مُبينٍ"، فلمَّا أتاه بذلك الخبر، رأى أنّه قد أدلى بحجّة، فلمْ يعذّبْه، ولم يذبَحْه، فإن كان ذنبُه على حاله، فكيف يكون ما هجم عليه ممَّا لم يُرسل فيه ولم يقْصِد له حُجَّة؟ وكيف يُبْقي هذا عليه. وبكر يزعم أن الأطفال والبهائم لا تأثم، ولا يجوز أن يُؤْثم الله تعالى إلاّ المسيئين، فقال بشرٌ لبَكْر: بأيِّ شيءٍ تستدلُّ على أنّ المسيء يعلمُ أنه مسيء؟ قال: بخجله، واعتذاره بتوبته، قال: فإنّ العقرب متى لسعت فرّتْ من خوف القتْل، وهذا يدلُّ على أنَّها جانية، وأنت تزعمُ أنّ كلَّ شيءٍ عاصٍ كافرٌ، فينبغي للعقرب أن تكون كافرة، إذا لم يكن لها عذرٌ في الإساءة.
الببر والنمر وأمّا قوله:

والبَبْرُ فيه عجبٌ عاجبٌ إذا تلاقى الليث والنَّمْرُ

لأنّ الببر مسالِمٌ للأسد، والنَّمر يطالبه، فإذا التقيا أعان الببر الأسد.
الخفاش والطائر الذي ليس له وكر وأمّا قوله:

وطائِرٌ أشْرَفُ ذو جُرْدة   وطائِرٌ ليس لـه وكـرُ

فإنّ الأشرفَ من الطَّير الخُفّاش، لأنّ لآذانها حجماً ظاهراً، وهو متجرِّدٌ من الزَّغب والرِّيش، وهو يلد.
والطّائِر الذي ليس له وكرٌ، هو طائرٌ يخبر عنه البحريُّون أنّه لا يسقُط إلاّ ريثما يجعلُ لبيضه أدحيّاً من تراب، ويغطّي عليه، ويطير في الهواء أبداً حتّى يموت، وإن لقى ذكرٌ أنثى تسافدا في الهواء، وبيضه يتفقص من نفسه عند انتهاء مُدَّته، فإذا أطاق فرخُه الطّيران كان كأبويه في عاداتهما.
الثعالب والنسور والضباع وأمّا قوله:

وثُرْمُلٌ تأوي إلى دَوْبَـلٍ   وعسْكرٌ يتبعه النـسـرُ

يُسالم الضّبْعَ بذي مـرةٍ   أبرمها في الرحم العُمْرُ

فالثرْملة: أنثى الثّعالب، وهي مسالمِة للدَّوبل، وأمَّا قوله:

وعسكر يتبعه النّسر

فإن النسور تتبع العساكر، وتتبع الرِّفاق ذواتِ الإبل، وقد تفعل ذلك العِقبان، وتفعله الرَّخم، وقد قال النَّابغة:

وثقتَ بالنصر إذ قيل لـهُ قد غدتْ كتائبُ من غسـانَ غيرُ أشـائب

بنو عمِّه دنيا وعمرو بن عـامـر   أولئك قومٌ بأسهـمْ غيرُ كـاذب

إذا ما غزوا بالجيش حلقَ فوقهـمْ عصائبُ طيرٍ تـهتدى بعصـائب

جوانـحُ قد أيقنَّ أن قـبيلـه   إذا ما التقى الجمعانِ أوّل غالـبِ

تراهنَّ خلفَ القومِ خزراً عيونـها جلوسَ الشيوخ في مسوك الأرانب

والأصمعي يروي: جلوسَ الشيوخ في ثياب المرانِب.
وسباع الطير كذلك في اتباع العساكر، وأنا أرى ذلك من الطمع في القتلى، وفي الرَّذايا والحسْرَى، أو في الجهيض وما يُجْرح.
وقد قال النّابغة:

سَمَاماً تُباري الرِّيحَ خُصوماً عُيونُـها لَـهُنَّ رذايا بـالـطَّريق وَدائِعُ

وقال الشاعر:

يشُقّ سماحِيقَ السّلا عن جَنينِها   أخو قفْرَةٍ بادِي السَّغابَةِ أطْحَلُ

وقال حُميد بن ثور في صفة ذئب:

إذا ما بـدا يومـاً رأيتَ غيايـة   من الطير ينظرْن الذي هو صانعُ

لأنّه لا محالة حين يسعى وهو جائع، سوف يقع على سبع أضعف منه أو على بهيمةٍ ليس دونها مانع.
وقد أكثر الشُّعراءُ في هذا الباب حتّى أطنب بعضُ المحدثين وهو مسلم بن الوليد بن يزيد فقال:

يكسو السيوف نفوس الناكثين به   وَيجعلُ الهامَ تِيجان القنا الذُّبُلِ

قد عَوَّدَ الطَّيرَ عاداتٍ وثِقْنَ بها   فهُنَّ يتْبعْنَه في كلِّ مُرْتَـحـلِ

ولا نعلم أحداً منهم أسرَفَ في هذا القول وقال قولاً يُرغبُ عنه إلا النابغة، فإنَّه قال:

جوانـحُ قد أيقـنَّ أنّ قـبيلـهُ   إذا ما التقى الجمعان أوّلُ غالبِ

وهذا لا نُثبته. وليس عند الطَّير والسِّباع في اتّباع الجموع إلاَّ ما يسقط من ركابهم ودوابِّهم وتوقع القتل، إذْ كانوا قد رأوا من تلك الجُموع مرَّةً أو مراراً، فأمّا أن تقصد بالأمل واليقين إلى أحد الجمعين، فهذا ما لم يقلْه أحدٌ.
نسر لقمان وقد أكثر الشُّعراءُ في ذكر النسور، وأكثر ذلك قالوا في لُبَد.
قال النَّابغة:

أضحَتْ خلاءً وأمْسى أهلُها احتملُوا أخْنَى عَلَيْها الذي أخْنَى على لُبَـدِ

فضربه مثلاً في طُول السَّلامة، وقال لبيد:

لما رأى صبحٌ سوادَ خليلـه   من بين قائمِ سيفهِ والمحمل

وبكر يزعم أن الأطفال والبهائم لا تأثم، ولا يجوز أن يُؤْثم الله تعالى إلاّ المسيئين، فقال بشرٌ لبَكْر: بأيِّ شيءٍ تستدلُّ على أنّ المسيء يعلمُ أنه مسيء؟ قال: بخجله، واعتذاره بتوبته، قال: فإنّ العقرب متى لسعت فرّتْ من خوف القتْل، وهذا يدلُّ على أنَّها جانية، وأنت تزعمُ أنّ كلَّ شيءٍ عاصٍ كافرٌ، فينبغي للعقرب أن تكون

كافرة، إذا لم يكن لها عذرٌ في الإساءة.
الببر والنمر وأمّا قوله:

والبَبْرُ فيه عجبٌ عاجبٌ إذا تلاقى الليث والنَّمْرُ

لأنّ الببر مسالِمٌ للأسد، والنَّمر يطالبه، فإذا التقيا أعان الببر الأسد.
الخفاش والطائر الذي ليس له وكر وأمّا قوله:

وطائرٌ أشْرَفُ ذو جُرْدَة وطائِرٌ ليس له وكرُ

فإنّ الأشرفَ من الطَّير الخُفّاش، لأنَّ لآذانها حجماً ظاهراً، وهو متجرِّدٌ من الزَّغب والرِّيش، وهو يلد.
والطّائِر الذي ليس له وكرٌ، هو طائرٌ يخبر عنه البحريُّون أنّه لا يسقُط إلاّ ريثما يجعلُ لبيضه أدحيّاً من تراب، ويغطّي عليه، ويطير في الهواء أبداً حتّى يموت، وإن لقى ذكرٌ أنثى تسافدا في الهواء، وبيضه يتفقص من نفسه عند انتهاء مُدَّته، فإذا أطاق فرخُه الطّيران كان كأبويه في عاداتهما.
الثعالب والنسور والضباع وأمّا قوله:

وثُرْمُلٌ تأوي إلى دَوْبَلٍ وعسْكرٌ يتبعه النسرُ

يُسالم الضّبْعَ بذي مرةٍ أبرمها في الرحم العُمْرُ

فالثرْملة: أنثى الثّعالب، وهي مسالمِةٌ للدَّوبل، وأمَّا قوله:

وعسكر يتبعه النّسر

فإن النسور تتبع العساكر، وتتبع الرِّفاق ذواتِ الإبل، وقد تفعل ذلك العِقبان، وتفعله الرَّخم، وقد قال النّابغة:

وثقتَ بالنصر إذ قيل لهُ قد غدتْ كتائبُ من غسانَ غيرُ أشائب

بنو عمِّه دنيا وعمرو بن عامر أولئك قومٌ بأسهمْ غيرُ كاذب

إذا ما غزوا بالجيشِ حلقَ فوقهمْ عصائبُ طيرِ تهتدى بعصائب

جوانحُ قد أيقنَّ أن قبيله إذا ما التقى الجمعانِ أوّل غالبِ

تراهنَّ خلفَ القومِ خزراً عيونها جلوسَ الشيوخِ في مسوك الأرانب

والأصمعي يروي: جلوسَ الشيوخ في ثياب المرانِب.
وسباع الطير كذلك في اتباع العساكر، وأنا أرى ذلك من الطمع في القتلى، وفي الرَّذايا والحسْرَى، أو في الجهيض وما يُجْرح.
وقد قال النّابغة:

سَمَاماً تُباري الرِّيحَ خُصوماً عُيونُها لَهُنَّ رذايا بـالـطَّريق وَدائِعُ

وقال الشاعر:

يشُقّ سماحِيقَ السّلا عن جَنينِها أخو قفْرَةٍ بادِي السَّغابَةِ أطْحَلُ

وقال حُميد بن ثور في صفة ذئب:

إذا مـا بـدا يومـاً رأيتَ غـياية من الطير ينظرْن الذي هو صانعُ

لأنّه لا محالة حين يسعى وهو جائع، سوف يقع على سبع أضعف منه أو على بهيمةٍ ليس دونها مانع.
وقد أكثر الشُّعراءُ في هذا الباب حتّى أطنب بعضُ المحدثين وهو مسلم بن الوليد بن يزيد فقال:

يكسو السيوف نفوس الناكثين به وَيجعلُ الهامَ تِيجان القنا الذُّبُلِ

قد عَوَّدَ الطَّيرَ عاداتٍ وثِقْنَ بها فهُنَّ يتْبعْنَه في كلِّ مُرْتَـحـلِ

ولا نعلم أحداً منهم أسرَفَ في هذا القول وقال قولاً يُرغبُ عنه إلا النابغة، فإنَّه قال:

جوانحُ قد أيقـنَّ أنّ قـبـيلـهُ إذا ما التقى الجمعان أوّلُ غالبِ

وهذا لا نُثْبته. وليس عند الطَّير والسِّباع في اتّباع الجموع إلاّ ما يسقط من ركابهم ودوابِّهم وتوقع القتل، إذْ كانوا قد رأوا من تلك الجُموع مرَّةً أو مراراً، فأمّا أن تقصد بالأمل واليقين إلى أحد الجمعين، فهذا ما لم يقلْه أحدٌ.
نسر لقمان وقد أكثر الشُّعراءُ في ذكر النسور، وأكثر ذلك قالوا في لُبَد.
قال النَّابغة:

أضحَتْ خلاءً وأمْسى أهلُها احتملُوا أخْنى عَلَيْها الذي أخْنَى على لُبَـدِ

فضربه مثلاً في طُول السَّلامة، وقال لبيد:

لما رأى صبحٌ سوادَ خليلـه　　من بين قائمِ سيفهِ والمحمل

صبحنَ صبحاً يوم حقَّ حذاره　　فأصاب صبحاً قائماً لم يعقل

فالتفَّ منقصفاً وأضحي نجمةٌ　　بين التراب وبين حنو الكلكل

ولقد جرى لبدٌ فأدركَ جريه　　ريبُ الزمانِ وكان غير مثقلِ

لما رأى لبد النسور تطـايرتْ　　رفعَ القوادمَ كالفقير الأعزل

من تحته لقمانُ يرجو نفعه　　ولقد رأى لقمانُ أن لم يأتـل

وإن أحسنت الأوائل في ذلك فقد أحسن بعض المحْدَثين وهو الخزرجي في ذكر النَّسر وضرب المثل به وبلبد وصِحَّة بدنِ الغراب، حيث ذكرَ طولَ عمر مُعاذِ بن مُسلم بن رجاء، مولى القعقاع بن شَور وكان من المعَمرين، طعن في السن مائَةَ وعشرينَ سنةً، وهو قوله:

إن معـاذَ بـنَ مـسلـمٍ رجـلٌ　　قد ضجَّ من طولِ عمـره الأبـدُ

قد شابَ رأسُ الزمانِ واختضب ال　　دهرَ وأثـوابُ عـمـرِ جدد

يا نسرَ لقمانَ كـمْ تـعيشُ وكـمْ　　تلبسُ ثـوبَ الـحياةِ يا لـبد

قد أصبـحـتْ دارُ آدمٍ خـربـتْ　　وأنـتَ فـيه كـأنـك الـونـد

تسألُ عربانـهـا إذا حـجلـتْ　　كيفَ يكونُ الصداعُ والـرمـد

شعر وخبر فيما يشبه بالنسور

وما تعلق بالسَّحاب من الغيم يشبَّه بالنَّعام، وما تراكبَ عليه يُشبَّه بالنسور، قال الشاعر:

خليلىَّ لا تستسلما وادعوا الذي　　له كلُّ أمر أنْ يصوبَ ربيعُ

حياً لبلادٍ أنفذ المحلُ عودهـا　　وجبرٌ لعظمٍ في شظاه صدوعُ

بمنتصر غرِّ النشاص كأنها جبالٌ عليهنّ النسورُ وقوعُ

عسى أن يحلّ جزعاً وإنها وعلَّ النوى بالظاعنينَ تريعُ

وشبّه العُجير السّلوليّ شُيوخاً على باب بعضِ الملوك بالنسور، فقال:

فمنهن إسآدي على ضوء كوكبٍ له من عمانيّ النُّجوم نظيرُ

ومنهن قرْعي كلَّ بابٍ كأنّما به القومُ يرْجونَ الأذين نُسورُ

إلى فَطِنٍ يستخرج القلبَ طرْفُه له فوق أعواد السَّرير زئيرُ

وذكرت امرأةٌ من هُذيلٍ قتيلاً فقالت:

تمشى النسورُ إليه وهي لاهِيَةٌ مشيَ العذارى عَلَيهنَّ الجلابيبُ

تقول: هي آمنةٌ أنْ تُذعر.
ومدح بعض الشُّعراء عبد العزيز بن زُرارة الكلابيّ فقال:

وعند الكلابيِّ الذي حلَّ بيْتُه بجوٍّ شِخَابٌ ماضرٌ وصَبُوحُ

ومكسورةٌ حمْرٌ كأنَّ مُتونها نُسورٌ إلى جَنْبِ الخوان جُنوحُ

مكسورة: يعني وسائد مثنيَّة، وقال ابن ميّادة:

ورَجَعْتُ مِنْ بَعْدِ الشَّبابِ وعصره شيخاً أزبَّ كأنَّه نَسْرُ

وقال طرفة:

فلأ منعنَّ مَنَابتَ الضّ مران إذ منع النسور

وفي كتاب كليلة ودمنة: وكُنْ كالنَّسْرِ حَوْلَهُ الجيفُ، ولا تكنْ كالجِيفِ حولها النسور، فاعترض على ترجمة ابن المقفَّع بعضُ المتكلّفين من فتيان الكتّاب فقال: إنما كان ينبغي أن يقول: كُنْ كالضِّرس حُفَّ بالتُّحَف، ولا تكنْ كالهبْرة تطيف بها الأكَلة أطنّه أراد الضُّروس فقال الضّرس، وهذا من الاعتراض عجبٌ.
ويوصف النسر بشدّة الارتفاع، حتّى ألحقوه بالأنوق، وهي الرَّخمة.
وقال عديٌّ بن زيد:

فوق عَلْياءَ لا يُنال ذُراها   يَلْغَبُ النّسرُ دُونها والأنوقُ

وأنشدوا في ذلك:

أهل الدّناءةِ في مجالِسهمْ   الطَّيْش والعوراءِ والهذّر

يَدْنون ما سألوا وإن سُئلوا   فهُمُ معَ العَيُّوق والنَّسْر

وقال زيد بن بِشْر التّغلبي، في قتل عمير بن الحباب:

لا يجُوزنَّ أرْضنا مُضَريٌّ   بخفير ولا بغير خَفير

طحنَتْ تغلبٌ هوازنَ طحْناً   وألحَّت على بني مَنْصور

يومَ تَرْدي الكماةُ حول عمير   حَجَلانَ النسور حَوْلَ جَزُور

وقال جميل:

وما صائبٌ من نابلِ قذفتْ به   يدٌ وممرٌّ العقدتين وثيقُ

له من خوافي النسر حمٌّ نظائرٌ   ونصلٌ كنصل الزاعبىِّ رقيقُ

على نبعةٍ زوراءَ أما خطامها   فمتنٌ وأما عودها فعتيق

بأوشكَ قتلاً منكِ يومَ رميتنى   نوافذَ لم تظهرْ لهن خروق

فلمْ أرَ حرباً يا بثينَ كحربنا   تكشفُ غماها وأنتِ صديقُ

مسالمة النسر للضبع وأما قوله:

يُسالم الضّبْع بذي مِرّةٍ   رَمها في الرَّحِمِ العُمُرُ

لأنَّ النَّسر طيرٌ ثقيلٌ، عظيمٌ شرهٌ رغيبٌ نهم، فإذا سقط على الجيفة وتملأ لم يستطع الطّيران حتى يثب وثباتٍ، ثمّ يدور حولَ مسقطهِ مِراراً، ويسقُط في ذلك، فلا يزالُ يرفع نفسه طبقةً طبقةً في الهواء حتى يُدخِلَ تحته الرِّيح، فكلُّ من صادفه وقد بَطِنَ وتملأ، ضربه إن شاء بعصاً، وإن شاء بحجر، حتّى ربما اصطاده

الضَّعيف من الناس.
وهو مع ذلك يشارك الضَّبع في فريسة الضبع، ولا يثبُ عليه، مع معرفته بعجْزه عن الطّيران، وزعَمَ أنّ ثقته بطول العمر هو الذي جرَّأه على ذلك.

ستطراد لغوي

ويقال: هوت العُقاب تهوي هُويّاً: إذا انقضّت على صيدٍ أو غيره ما لم ترغه، فإذا أراغتْه قيل أهوت له إهواءً، والإهواء أيضاً التَّناول باليد، والإراغة أن يذهب بالصيد هكذا وهكذا.
ويقال دوَّم الطائر في جوّ السّماء، وهو يدوِّم تدويماً: إذا دار في السماء ولا يحرك جناحيه.
ويقال نسره بالمِنْسَر، وقال العجَّاج:

شاكي الكلاليب إذا أهْوى ظفَرْ   كعَابِرَ الرؤوس منها أو نسَرْ

والنسر ذو منسر، وليس بذي مخلب، وإنما له أظفارٌ كأظفار الدّجاج.
وليس له سلاحٌ، إنّما يقوى بقوّة بدنه وعِظمه، وهو سبعٌ لئيمٌ عديم السِّلاح، وليس من أحرار الطير وعِتاقها.

ولوع عتاق الطير بالحمرة

ويقال إنّ عتاق الطير تنقضُّ على عُمود الرّحل وعلى الطّنفسة والنمرق فتحسبه لحمرته لحماً، وهم مع ذلك يصفونها بحدَّة البصر ولا أدري كيف ذلك.
وقال غيلان بن سلمة:

في الآل يخفِضُها ويرفعُها   رَيعٌ كأنّ مَتونَه السَّحلُ

عَقْلاً ورَقْماً ثـمَّ أردفـه   كِلِلٌ على ألوانها الخَمْلُ

كدم الرُّعافِ على مآزرها   وكأنَّهنَّ ضوامـراً إجـلُ

وهذا الشِّعر عندنا للمسيَّب بن عَلس وقال علْقمة بن عَبدة:

ردّ الإماءُ جمالَ الحيِّ فاحتملوا   وكلّهَا بالتَّزيدِيات مَـعْكُومُ

عَقْلاً ورَقْماً يظلُّ الطّيرُ يتبعُه   كأنّه من دَمِ الأجوافِ مَدْمُـومُ

شعر في العقاب وقال الهذليّ:

ولقد غَدَوْتُ وصاحبي وحشيَّةٌ تحتَ الرِّداء بصيرةٌ بالمشرفِ

حتَّى أتيتُ إلى فراش عزيزةٍ سوداءَ، رَوْثةُ أنفها كالمِخْصَفِ

يعني عقاباً، وقوله: بصيرة بالمشرف يريد الرّيح من أشرفَ لها أصابتْه.
وقال الآخرُ في شبيهٍ بهذا:

فإذا أتتْكُمْ هذه فتلبّسُوا إنّ الرِّماح بصيرةٌ بالحاسِرِ

وقال آخر:

كأنّي إذْ عَدَوْا ضَمَّنْتُ بزِّي مِن العِقْبانِ خائِتَةً طَلُوبا

جريمة ناهضٍ في رأس نيقٍ تَرى لعِظامِ ما جَمعَتْ صليبا

وقال طُفيل الغنويّ:

تبيتُ كعِقْبان الشُّرَيف رجالُه إذا ما نَوَوْا إحداثَ أمْرٍ مُعَطّبِ

أي أمهلوا، وقال دُريد:

تعللتُ بالشطاء إذْ بانَ صاحبى وكلُّ امرىءٍ قد بانَ إذْ بان صاحبه

كأنى وبزى فوقَ فتخاءَ لقوةٍ لها ناهضٌ في وكرها لا تجانبه

فباتتْ عليه ينفضُ الطلَّ ريشها تراقبُ ليلاً ما تغورُ كواكبه

فلما تجلى الليلُ عنها وأسفرت تنفض حسرى عن أحصِ مناكبه

رأت ثعلباً من حرةٍ فهوتْ لهُ إلى حرةٍ والموتُ عجلانُ كاربه

فخرَّ قتيلاً واستمر بسحره وبالقلب يدمى أنفه وترائبه

جفاء العقاب زعم صاحبُ المنطق أنّه ليس شيءٌ في الطّير أجفى لفِراخه من العُقاب وأنّه لا بدّ من أن يُخْرِجَ واحداً، وربما طردَهُنَّ جميعاً حتّى يجيء طائرٌ يسمّى كاسر العظام فيتكفّل به.
ودريدُ بن الصِّمَّة يقول:

كأني وبزّي فوق فتخاءَ لـقْوةٍ لها ناهضٌ في وكْرها لا تجانِبُه

ما يعتري العقاب عند الشبع وقد يعتري العُقاب، عند شِبعها من لحم الصّيد، شبيهٌ بالذي ذكرنا في النسر، وأنشد أبو صالحٍ مسعود بن قنْد، لبعض القيسيِّين:

قرى الطّير بعد اليأس زيدٌ فأصبحتْ بوحْفاء قفْرٍ ما يدِبُّ عُـقـابُـهـا

وما يتخطّى الفحلَ زيدٌ بسيفهِ ولا العِرْمسَ الوَجناء قد شقَّ نابُها

وإن قيل مَـهْلاً إنّـه شدنِيّة يقطّع أقران الجِبالِ جذابُـهـا

خبّر أنّه يعتري العُقاب من الثّقل عند الطيران، من البطْنة، ما يعتري النسر.
شعر في العقاب وقال امرؤُ القيس - إن كان قاله -:

كأنها حين فاض الماءُ واحتملتْ فتخاءُ لاحَ لها بالقفرةِ الذيبُ

فأبصرت شخصهُ من فوق مرقبةٍ ودونَ موقعها منهُ شناخيب

فأقبلتْ نحوه في الجوِّ كاسرةً يحثُّها من هوىِّ اللوح تصويب

صبتْ عليه ولم تنصبّ من أممٍ إنَّ الشقاء على الأشقين مصبوبُ

كالدلو بتتْ عراها وهي مثقلة إذْ خانها وذمٌ منها وتكريب

لا كالتي في هواء الجوِّ طالبة ولا كهذا الذي في الأرض مطلوب

كالبرق والريح مرآتاهما عجبٌ ما في اجتهادٍ على الإصرار تغبيب

فأدركته فنالته مخالبها فانسل من تحتها والدفُّ مثقوب

يلوذُ بالصخر منها بعدَ ما فترت منها ومنه على الصخر الشآبيب

ثم استغاثت بمتنِ الأرض تعفرهُ وباللسان وبالشدقين تتريب

ما أخطأته المنايا قيسَ أنملةٍ ولا تحرزَ إلاّ وهو مكتوب

يظلُّ منجحراً منها يراقبها ويرقب الليلَ إنَّ الليلَ محبوب

وقال زهير:

تنبذُ أفلاذهَا في كلِّ منْزلةٍ تَنتِخُ أعيُنَها العِقبانُ والرَّخَمُ

تنتِخ: أي تنزع وتستخرج، والعرب تسمِّي المنقاش المِنتاخ.
ويقال: نقّت الرَّخمُ تنقُّ نقيقاً، وأنشد أبو الجرَّاح:

حديثاً من سماع الدَّلِّ وعر كأنَّ نَقيقهُنَّ نقيقُ رُخـمِ

والنقيق مشترك، يقال: نقّ الضفدع ينقُّ نقيقاً.
ويقال: أعزُّ من الأبْلَق العَقُوق، و: أبعدُ من بيض الأنوق.
فأمَّا بيض الأنوق فربما رئي، وذلك أنَّ الرَّخم تختارُ أعاليَ الجبال، وصدُوعَ الصَّخر، والمواضِعَ الوحشيّة، وأمّا الأبلق فلا يكون عقوقاً، وأما العقوق البلْقاء فهو مَثلٌ، وقال:

ذكرناكِ أن مَرَّتْ أمامَ ركـابـنـا من الأُدْمِ مخماص العشيِّ سلوبُ

تدلّتْ عليها تَنفُضُ الرّيش تحتهـا براثِنُها وراحُـهـنَّ خَـضـيبُ

خداريَّة صقْعاء دُون فراخِـهـا من الطَّودِ فأْوٌ بينهـا ولـهـوبُ

إذا القانِص المحروم آبَ ولم يُصِبْ فمطعَمُهُ جُنْحَ الظّلامِ نَـصـيبُ

فأصبحت بعد الطير ما دون فارة كما قام فوق المنْصِتِين خطيبُ

وقال بشرُ بن أبي خازم:

فما صَدْعٌ بخيَّة أو بَـشَـرْقٍ على زَلَق زُمَالقَ ذي كهافِ

تَزلُّ اللّقْوة الشَّغْواء عنـهـا مخالبُها كأطْرافِ الأشافي

وقال بشر أيضاً:

تداركَ لَـحـمي بـعـدَ مـا حَـلّـقـتْ بـــه مع الـنَّـسْر فـتـخـاءُ الـجـنـاح قـبــوضُ

فإن تجعلِ النَّعماء منك تمامَةًونُعماك نعمى لا تزال تفيضُ

تكنْ لك في قومي يدٌ يشكرونـهـا وأيدي الـنّـدى فـي الـصـالـحــين قــروض

وعلى شبيهٍ بهذا البيت الآخر، قال الحطيئة:

مَنْ يفعل الخيرَ لا يَعدَمْ جوازيَهُ لا يذْهبُ العُرْفُ بين اللّهِ والنَّاسِ

وقال عقيل بن العرندس:

حبيبٌ لقرطاسٍ يؤدِّي رسالة   فيالكِ نفساً كيف حان ذُهولها

وكنت كفرخ النسْر مُهِّد وكْرُه   بملتقَّةِ الأفنان حيلٌ مقيلُها

التمساح والسمك وأما قوله:

وتِمْسحٌ خَلَّلَهُ طائرٌ   وسابحٌ ليس له سَحْرُ

فالتمساح مختلف الأسنان، فينشب فيه اللحم، فيغمُّه فيُنتن عليه، وقد جُعل في طبعه أن يخرُج عند ذلك إلى الشط، ويشحا فاه لطائر يعرفه بعينه، يقال إنه طائرٌ صغير أرقط مليح، فيجيء من بين الطير حتى يسقط بين لحييه ثم ينقرُه بمنقاره حتّى يستخرج جميع ذلك اللحم، فيكون غذاءً له ومعاشاً، ويكونُ تخفيفاً عن التِّمساح وترفيهاً، فالطائر الصغير يأتي ما هنالك يلتمس ذلك الطُّعم، والتمساح يتعرَّض له، لمعرفته بذلك منه.
وأما قوله: وسابح ليس له سَحْر، فإن السمك كلَّه لا رئة له، قالوا: وإنما تكون الرِّئة لمن يتنفس، هذا، وهم يرون منخري السَّمك، والخرق النَّافذ في مكان الأنف منه، ويجعلون ما يرون من نفسه إذا أخرجوه من الماء أن ذلك ليس بنفس يخرج من المنخرين، ولكنه تنفس جميع البدن.
العث والحفاث وأما قوله:

والعُث والحُفّاث ذو نفخةٍ   وخرنقٌ يسفِده وَبْرُ

فإنَّ الحُفَّاث دابّة تشبه الحيّة وليست بحيّة، وله وعيدٌ شديدٌ، ونفْخ وتوثُّب، ومن لم يعرفْه كان له أشدَّ هيبةَ منه للأفاعي والثّعابين، وهو لا يضرُّ بقليل ولا كثير، والحيّات تقتله، وأنشد:

أيفايشون وقد رأوْا حُفّاثهم   قدْ عضَّه فقضى عليه الأسودُ

والعثُّ: دويْبة تقرض كلَّ شيء، وليس له خطرٌ ولا قوّة ولا بدن.
قال الرَّاجز:

يحثُّني وِرْدانُ أيَّ حثّ   وما يحثُّ من كبيرٍ عَثِّ

إهابُه مثلُ إهاب العُثّ

وأنشد:

وعَثٍّ قدْ وكلْتُ إليه أهْلـي   فطاحَ الأهلُ واجتِيح الحريمُ

وما لاهى به طرفٌ فيوحي   ولا صَكَّ إذا ذكر القضِيمُ

وأنشد آخر:

فإن تشتمونا على لُـؤْمِـكُـمْ   فقد يقرض العثُّ مُلْسَ الأديمِ

وقالوا في الحُفَّاث، هجا الكروبي أخاه فقال:

حُبارى في اللّقاء إذا التقينا   وحُفَّاثٌ إذا اجتمع الفريقُ

وقال أعرابي:

ولستُ بحفَّاثٍ يُطاوِلُ شَخْصَهُ   وينفخُ نَفْخَ الكيرِ وهو لَـئيمُ

وقع بين رجلٍ من العرب ورجل من الموالي كلامٌ، فأربى عليه المولى، وكان المولى فيه مَشابهُ من العرب والأعراب، فلم يشكَّ ذلك العربيُّ أن ذلك المولى عربيٌّ، وأنَّه وسط عشيرتِه، فانخزل عنه فلم يكلمْه، فلما فارقه وصار إلى منزله علم أنه مولى، فبكر عليه غُدوةً، فلما رأى خِذّلان جلسائه له ذلَّ واعتذر، فعند ذلك قال العربيُّ في كلمةٍ له:

ولم أدْرِ ما الحفاثُ حتّى بلـوتُـه   ولا نفض للأشخاصِ حتّى تكشّفَا

وقد أدركتُ هذه القضية وكانت في البحرَين، عند مسحر بن السكن عندنا بالبصرة، فهو قوله: والعثّ والحفّاث ذو نفخةٍ لأن الحفاث له نفْخ وتوثُّب، وهو ضخمٌ شنيعُ المنظر، فهو يهول من لا يعرفه. وكان أبو ديجونة مولى سليمان، يدَّعي غاية الإقدام والشَّجاعة والصَّرامة، فرأى حُفّاثاً وهو في طريق مكة، فوجده وقد قتله أعرابيٌّ، ورآه أبو ديجونة كيف ينفخ ويتوعّد، فلم يشك إلا أنه أخبثُ من الأفعى ومن الثعبان، وأنه إذا أتى به أباه وادعى أنه قتله سيقضي له بقتل الأسد والببْر والنمر في نِقاب، فحمله وجاء به إلى أبيه وهو مع أصحابه، وقال: ما أنا اليوم إلا ذيخ وما ينبغي لمن أحسَّ بنفسه مثل الذي أحِس أن يُرمى في المهالك والمعاطب، وينبغي أن يستبقيها لجهادٍ أو دفعٍ عن حُرْمة وحريمٍ يذبُّ عنه وذلك أني هجمْت

على هذه الحيّة، وقد منعت الرِّفاق من السُّلوك، وهربت منها الإبل، وأمعَنَ في الهرب عنه كلُّ جمّالٍ ضخم الجزارة، فهزتني إليه طبيعة الأبطال، فراوغتها حتى وهب اللّه الظّفر، وكان من البلاء أنها كانت بأرضٍ ملساء ما فيها حصاة، وبصُرْتُ بفهر على قاب غلوة، فسعيت إليه - وأنا أسوارٌ كما تعلمون - فو اللّه ما أخطاتُ حاقَّ لهزْمته حتى رزق اللّه عليه الظّفر، وأبوه والقومُ ينظرون في وجْهه، وهم أعلم النَّاس بضعْف الحُقّاث، وأنَّه لم يؤذ أحداً قط، فقال له أبوه: ارم بهذا من يدك، لعنك اللّه ولعنهُ معك، ولعنَ تصديقي لك ما كنْت تدَّعيه من الشَّجاعة والجراءة فكبّروا عليه وسمَّوة قاتل الأسد.
ومما هجوا به حين يشبِّهون الرَّجل بالعث، في لؤْمه وصِغر قدره قول مُخارق الطائي، حيث يقول: ؟؟؟نقضص صفحة٣٤٩ من الكتاب الوبر والخرنق وأما قوله:

وخِرنقٌ يسفدُه وبْرُ

فإنَّ الأعراب يزعمون أنّ الوبْر يشتهي سِفاد العِكرشَة - وهي أنثى الأرانب - ولكنّه يعجز عنها، فإذا قدَر على ولدِها وثبَ عليه، والأنثى تسمى العِكرشة، والذَّكر هو الخُزَر، والخِرنِق ولدهما، قال الشاعر:

قَبَحَ الإلَه عِصابة نـادمتُـهـمْ — في جَحْجَحان إلى أسافِلِ نقنـق
أخَذُوا العِتَاق وعرَّضُوا أحسابَهُمْ — لمحَرَّبٍ ذَكَر الحديدِ مُـعـرِّق
ولقد قرعتُ صَفاتَكمْ فوجدْتُكم — مُتشبِّثين بزاحفٍ مـتـعـلِّـق
ولقد غمَزْتُ قناتكم فوجدتـهـا — خرْعاءَ مَكْسِرُها كعودٍ محرَق
ولقد قبَضْتُ بقلبِ سَلْمة قبـضة — قبْضَ العُقابِ على فؤاد الخِرنق
ثمَّ اقتحَمْتُ لِلَحمهِ فـأكـلـتـه — في وكر مرتفع الجنابِ معلَّـق

قالوا: إنه قالها أبو حبيب بعد أن قال جُشَمُ ما قال، وقد قدَّم إليه طعامه.
مايشبه الخزز ووصف أعرابيٌّ خلْقَ أعرابيٍّ فقال: كأن في عَضَلَته خُزَزاً، وكأنّ في عضده جُرذاً.
وأنشدوا لماتحٍ ووصفَ ماتحاً، ورآه يستقي على بئرهِ، فقال:

أعدَدْت للورد إذ الوردُ حَـفـزْ — دَلواً جَرُوراً وجَلالاً خُـزَخِـزْ
وماتِحاً لا يَنْثني إذا احـتـجَـزْ — كأنَّ تحتَ جِلْدِه إذا احـتـفـزْ

في كلِّ عضوٍ جُرَذين أو خُزَزْ

وسنقول في الأرنب بما يحضرنا إن شاء اللّه تعالى.
القول في الأرانب قال الشاعر:

زَعَمَتْ غُدانة أن فيها سيِّداً ضخماً يوازنه جنَاحُ الجنْدبِ

يُرويه ما يُروي الذُّبابَ فينتَشي سُكراً ويُشْبعه كراعُ الأرنب

وإنما ذكرَ كراعَ الأرنب من بين جميع الكراعات لأنَّ الأرنب هي الموصوفة بقصر الذِّراع وقصر اليد، ولم يُرد الكُراع فقط، وإنما أراد اليدَ بأسْرها، وإنما جعل ذلك لها بسببٍ نحن ذاكروه إن شاء اللّه تعالى.
والفرس يُوصف بقِصر الذِّراع فقط.

التوبير

والتَّوبير لكلِّ محتالٍ من صغار السِّباع، إذا طمِع في الصيد أو خاف أنْ يُصاد، كالثّعلب، وعَناقُ الأرض هي التي يقال لها التُّفَة، وهي دابّة نحو الكلْب الصَّغير، تصيد صَيداً حسناً، وربَّما واثبَ الإنسان فعقرَه، وهوأحسن صيداً من الكلْب.
وفي أمثالهم: لأنتَ أغنى من التفةِ عن الرُّفة، وهو التِّبن الذي تأكله الدوابُّ والماشية من جميع البهائم، والتُّفة سبعٌ خالصٌ لا يأكل إلا اللحم.
والتَّوبير: أن تَضمَّ بَرَاثِنِها فلا تطأ على الأرض إلا ببطن الكفِّ، حتى لا يُرَى لها أثر براثِنَ وأصابع، وبعضها يطأ على زمَعاته، وبعضها لا يفعل ذلك، وذلك كله في السهل، فإذا أخذت في الحُزونة والصَّلابة، وارتفعت عن السَّهل حيث لا تُرَى لها آثارٌ - قالوا: ظلفت الأثر تظلفه ظلْفاً، وقال النُّميري: أظلفت الأثر إظلافاً.
بعض ما قيل في الأرنب وعن عبد الملك بن عمير، عن قبيصة بن جابر: ما الدُّنيا في الآخرةِ إلاّ كنفْجة أرنب.
ويقال حذفته بالعَصا كما تُحذَف الأرنب.
وقال أبو الوَجيه العُكْلي: لو كانت واللّه الضبّة دجَاجةً لكانت الأرنب دُرَّاجة، ذهب إلى أنّ الأرانب والدُّرَّاج لا تستحيل لحومها ولا تنقلِبُ شحوماً، وإنّما سِمَنها بكثرة اللّحم، وذهب إلى ما يقول المعجبون منهم بلحْم الضّبّ؛ فإنّهم يزعُمون أنّ الطعمين متشابهان، وأنشد:

وأنتَ لو ذُقتَ الكشى بالأكبادْ لما تَركْتَ الضَّبَّ يَسعَى بالوادْ

قال: والضبّ يعرض لبيض الظّليم؛ ولذلك قال الحجَّاج لأهل الشّام: إنّما أنا لكم كالظّليم الرَّامح عن فراخه، ينفي عنها المَدَر، ويباعدُ عنها الحجَر، ويُكِنُّها من

المطر، ويحميها من الضِّباب، ويحرُسُها من الذئاب، يا أهلَ الشّام أنتم الجُنّة والرِّداء، وأنتم العُدّة والحذاء.

ما يشبه بالأرنب

ثم رجع بنا القول إلى الأرانب، فممَّا في الخيل مما يُشبه الأرنب قول الأعشى:

أمَّا إذا استقبلتَه فكأنَّه جِذعٌ سَمَا فوقَ النَّخيل مشذَّبُ

وإذا تصفَّحه الفوارسُ مُعْرِضاً فتقولُ سِرْحَانُ الغَضا المتنصِّبُ

أمَّا إذا استدبرته فتسوقُه ساقٌ يُقمِّصُها وظيف أحْدَبُ

مِنْه وجاعرةٌ كأنّ حَماتَها كشَطتْ مَكان الجَلِّ عَنْهَا أرْنَبُ

وقال عبد الرَّحمن بن حسّان:

كأنّ حَماتَيْهمَا أرْنَبا ن غيضتا خيفة الأجْدَلِ

طول عمر الأغضف والأرنب

وأنشد الأثرم:

بأغْضَفَ الأذْنِ الطَّويل العمر وأرنب الخُلّةِ تِلْوُ الدَّهر

قد سمعتُ من يذكر أنّ كِبَرَ أذنِ الإنسان دليلٌ على طُول عمره، حتَّى زعُموا أنّ شيخاً من الزَّنادقة، لعنهم اللّه تعالى، قدّموه لتُضرب عنقُه فعَدَا إليه غلامٌ سعديٌّ كان له، فقال: أليسَ قد زعمتَ يا مولايَ أنّ من طالت أذُنه طال عمره؟ قال: بلى قال: فهاهم يقتلونك قال: إنما قلت: إن تركوه.
وأنا لا أعرف ما قال الأثرم، ولا سمعتُ شِعراً حديثاً ولا قديماً يُخبرُ عن طول عُمر الأرنب، قال الشّاعر:

مِعْبلة في قِدْح نَبْع حادِرْ تسقى دَم الجوفِ لظفر قاصرْ

إذ لا تزال أرنبٌ أو فادِرْ أو كروانٌ أو حُبارى حاسِرْ

إلى حمار أو أتان عاقرْ

لبن الأرنب

قال: ويزعمون أنه ليس شيءٌ من الوحْش، في مثل جسم الأرنب أقلَّ لبناً ودُرُوراً على ولَدٍ منها، ولذلك يُضرَبُ بدَرِّها المثل، فممَّن قال في ذلك عَمرو بن قميئة، حيث يقول:

ليس بالمطعم الأرانبِ إذْ قلّ	ص دَرُّ اللّقاح في الصِّنَّبْرِ
ورأيتَ الإماء كالجِعثن البا	لي عُكوفاً على قُرارة قِدْرِ
ورأيتَ الدُّخانَ كالودع الأه	جَن يَنباع من وراء السِّتر
حاضرٌ شرُّكُمْ وخَيْرُكمُ دَ	رُّ خريُسٍ من الأرانب بكر

قصر يدي الأرنب

والأرنب قصير اليدين، فلذلك يخفُّ عليه الصَّعْداء والتوقُّل في الجبال، وعَرف أنّ ذلك سهلٌ عليه، فصرَفُ بعضَ حِيله إلى ذلك، عند إرهاق الكلاب إيَّاه، ولذلك يعجَبون بكلِّ كلبٍ قصير اليدين، لأنه إذا كان كذلك كان أجدر أن يلحقها.

من أعاجيب الأرنب

وفي الأرانب من العجب أنها تحيض، وأنها لا تسمن، وأن قضيب الخُزَزِ ربَّما كان من عظمٍ، على صورة قضيب الثّعلب.
ومن أعاجيبها أنّها تنام مفتوحة العَين، فربَّما جاء الأعرابيُّ حتّى يأخذها من تلقاء وجهها، ثقةً منه بأنَّها لا تبصر.
وتقول العرب: هذه أرنبٌ، كما يقولون: هذه عُقاب ولايذكّرون، وفيها التَّوبير الذي ليس لشيءٍ من الدوابِّ التي تحتال بذلك، صائدةً كانت أو مصيدةً، وهو الوطْء على مؤخر القوائم، كي لا تعرف الكلابُ آثارها، وليس يعرفُ ذلك من الكلابِ إلاّ الماهر، وإنّما تفعل ذلك في الأرض اللّيِّنة، وإذا فعلَتْ ذلك لم تسرع في الهرَب، وإن خافت أن تدرَك انحرفت إلى الحُزونة والصَّلابة، وإنما تستعمل التَّوبير قبل دنو الكلاب.
وليسَ لشيء من الوَحْش، ممّا يُوصَف بقصَر اليدَينِ ما للأرنَب من السرعة، والفرس يوصف بقصر الكُراع فقط.

تعليق في كعب الأرنب

وكانت العربُ في الجاهليَّة تقول: مَن عُلّق عليه كعبُ أرنب لم تصبهُ عينٌ ولا نفسٌ ولا سِحر، وكانت عليه واقيةً؛ لأنَّ الجنَّ تهرب منها، وليست من مطاياها لمكان الحيض.
وقد قال في ذلك امرؤ القيس:

يا هِنْدُ لا تنْكحي بُوهَةَ | عليه عَقِيقتُه أحْسَبَـا
مُرَسِّعَةٌ بين أرساغـه | به عَسَمٌ يبتغي أرْنبـا
ليجْعَل في يَدِهِ كَعْبَهَـا | حِذار المنيَّة أنْ يَعْطبا

وفي الحديث: بكى حتَّى رسعت عينه مشَدَّدة وغير مشدَّدة، أي قد تغيَّرت، ورجلٌ مرسِّع وامرأة مرسِّعة.

تعشير الخائف

وكانوا إذا دخل أحدهم قريةً من جِنِّ أهلها، ومن وباء الحاضرة، أشدّ الخوف، إلاّ أن يقِف على باب القرية فيعشِّرَ كما يعشِّرُ الحمارُ في نـهيقه، ويعلّق عليه كعبَ أرْنب، ولذلك قال قائلهم:

ينفع التَّعشيرُ في جَنْبِ جِرْمة | ولا دَعدعٌ يغني ولا كعبُ أرْنبِ

الجِرمة: القطعة من النّخل، وقوله: دعدع كلمةٌ كانوا يقولونـها عند العِثار، وقد قال الحادرة:

ومَطِيَّةٍ كلّفْتُ رَحْلَ مَطِيَّةٍ | حَرَجٍ تُنمُّ من العِثار بدَعْدَعِ

وقالت امرأةٌ من اليهود:

وليس لوالدةٍ نَفْثُـها | ولا قوْلُها لابنـها دَعْدَعِ
تداري غراء أحوالـه | وربُّك أعْلَمُ بالمصرَعِ

وقد قال عُورة بن الورد، في التَّعشير، حين دخل المدينَة فقيل له: إن لم تعشِّرْ هلكت فقال:

لَعمْري لئنْ عشَّرْتُ من خيفةِ نُهاقَ الحَمير إنّني لجَزوعُ

نفع الأرنب

وللأرنب جلدٌ وَوَبَرٌ يُنتَفع به، ولحمه طيِّب؛ ولا سيَّما إنْ جُعل مَحْشياً؛ لأنّه يجمع حُسْنَ المنظر، واستفادة العلم مما يرون من تدبيرها وتدبير الكلاب، والانتفاع

بالجلد وبأكل اللّحم، وما أقلَّ ما تجتمع هذه الأمورُ في شيءٍ من الطَّير.
وأما قوله:

إذا ابتدَرَ النّاسُ المعالي رأيتَهم   قياماً بأيديهم مسوكُ الأرانبِ

فإنّه هجاهم بأنّهم لا كسب لهم إلاّ صيدُ الأرانبِ وبيع جلودها.
الحُلكاء وأمّا قوله:

وغائصٌ في الرمل ذو حدَّةٍ   ليس له نابٌ ولا ظُفْرُ

فهذا الغائص هو الحلكاء، والحلكاء: دويْبّة تغوصُ في الرمل، كما يصنع الطَّائر الذي يسمّى الغمّاس في الماء، وقال ابن سُحيم في قصيدته التي قصَد فيها للغرائب:

والحُلَكاء التي تَبْعَج في الرمل

شحمة الرمل وممَّا يغوص في الرَّمل، ويسبح فيه سباحة السَّمكة في الماء، شحْمةُ الرَّمل، وهي شحمة الأرض، بيضاء حَسَنَةٌ يشبّه بها كفُّ المرأة، وقال ذو الرُّمَّة في تشبيه البَنان بها:

خراعيب أمْثالٌ كأنّ بنانَها   بَنَاتُ النقا تخْفَى مراراً وتظهرُ

وقال أبو سليمان الغَنَوي: هي أعرض من العظاءة بيضاء حسنة منقطة بحمرة وصُفرة، وهي أحسنُ دوابِّ الأرض.
وتشبّه أيضاً أطرافُ البنانِ بالأساريع وبالعنم، إذا كانت مُطرَّفة، وقال مرقش:

النَّشْرُ مِسْكٌ والوُجوهُ دنا   نيرُ وأطراف الأكُفِّ عَنَمْ

وصاحب البلاغة من العامَّة يقول: كأنّ بَنانها البَيَّاح والدُّواج، ولها ذراعٌ كأنها شَبُّوطة.
ويشبه أيضاً بالدِّمقس.
شعر فيه خرافة ومن خرافات أشعار الأعراب، يقول شاعره:

أشكو إلى اللّه العليِّ الأمجدِ   عشائراً مثلَ فراخ السرهدِ

عشائراً قد نبَّفوا بقدقدِ   قد ساقهمْ خبث الزمان الأنكَدِ

وكلّ حِرباءَ وكـل جُـدْجُـدِ   وكلّ رامٍ في الرِّمال يهْتـدي

وكلّ نقّاض القفا مـلـهّد   ينصِبُ رجْليَه حِذار المعتدي

وشحْمة الأرض وفرْخ الهُدهُد   والقار واليَرْبوع ما لم يسقَدِ

فنارهم ثاقبة لم تـخْمُـد   شواء أحناشٍ ولـم تـفـرّدِ

من الحُبين والعظاء الأجردِ   يبيتُ يَسْري ما دنا بـفـدفـدِ

وكلِّ مقطوع العرا معلكدِ   حَتَّى ينـالـوه بـعـود أوْ يَدِ

منها وأبصار سَعَالٍ جُـهَّـدِ   يغدون بالجهد وبالـتـشـرُّدِ

زَحْفاً وحَبْواً مثل حَبْوِ المُقْعَدِ

الحرباء وأمّا قوله:

حِرباؤها في قيْظها شَامِسٌ   حتَّى يوافي وَقته العَصْرُ

يَميل بالشّقِّ إليها كـمـا   يميل في رَوْضَتِهِ الزّهْرُ

قال: والحِرباء دويْبَّة أعظم من العظاءة أغبَرُ ما كان فرخاً، ثم يصفرّ، وإنّما حياتُه الحر، فتراه أبداً إذا بدت جَونة يعني الشّمس، قد لجأ بظهْره إلى جُذيل، فإن رمضت الأرضُ ارتفع، ثم هو يقلّب بوجهه أبداً مع الشَّمس حيث دارت، حتَّى تغرب، إلا أنْ يخاف شيئاً، ثم تراه شَابحاً بيدَيه، كما رأيت من المصلوب، وكلما حميت عليه الشَّمس رأيتَ جلدَه قد يخضرّ، وقد ذكره ذو الرُّمَّة بذلك فقال:

يظلُّ بها الحِرباءُ للشَّمس مـاثـلاً على الجِذلِ إلاّ أنّـه لا يكـبِّـرُ

إذا حَوَّل الظلَّ الـعِشـيِّ رأيتَـه   حَنِيفاً وفي قرْن الضُّحَى يَتَنَصَّرُ

غدَا أصفرَ الأعْلـى وراحَ كـأنّ   من الضِّحِّ واستقبالهِ الشَّمْسَ أخضَرُ

خضوع بعض الأحياء للشمس وكذا الجمل أيضاً يستقْبل بهامته الشَّمس، إلاّ أنه لا يدور معَها كيف دارَت كما يفعل الحرباء، وشقائقُ النُّعمان والخِيريّ يصنع ذلك، ويتفتَّحُ بالنهار، وينضمُّ بالليل، والنِّيلُوفر الذي ينبت في الماء يغيب الليل كلّه

ويظهر بالنهار، والسَّمك الذي يقال له الكَوسج، في جوفه شحمة طيّبة، وهم يسمُّونها الكَبِد، فإن اصطادُوا هذه السَّمكة ليلاً وجدوا هذه الشَّحمة فيها وافرةً، وإن اصطادُوها نهاراً لم تُوجَد، وقد ذكر الحطيئة دوران النّبات مع الشمس حيث يقول:

بِمُستأسدِ القُرْيانِ حُوٍّ تِلاعُه   فنُوَّارُه مِيلٌ إلى الشَّمس زَاهِرُه

وقال ذو الرُّمَّة:

إذا جعَلَ الحِرباءُ يغبرُ لونُه   ويخضرُّ من لَفْح الهَجير غَباغِبُه

ويَشْبحُ بالكفَّين شَبْحاً كأنّه   أخو فجرةٍ عالى بهِ الجذعَ صالبُه

وقال ذو الرُّمّة أيضاً:

وهاجرةٍ من دُونِ مَيَّة لم يَقِل قلوصي بها والجُندبُ الجَوْنُ يَرْمَحُ

إذا جعَل الحِرباءُ ممَّا أصابَه من الحَرِّ يلوي رأسَه ويرنِّحُ

وقال آخر:

كأنّ يدَيْ حِربائها متشَمِّساً   يَدَا مُجرمٍ يَستغفِرُ اللّه تائب

وقال آخر:

لظًى يلفحُ الحِرباءَ حتَّى كأنّه   أخو حَرَباتٍ بُزَّ ثوْبيه شابحُ

وأنشدوا:

قد لاحها يومٌ شموسٌ مِلهابْ   أبْلجُ ما لشمسه منْ جلبابْ

يرمي الإكام من حصاة طبطاب   شال الحَرابيُّ له بالأذْنابْ

وقال العباس بن مرداس:

على قُلصٍ يعلو بها كلَّ سَبْسَبٍ   تخالُ به الحِرباءَ أنشط جالِسا

وقال الشّاعر:

تجاوَزتُ والعُصفورُ في الحجرِ لاجئ الصَّبِّ والشّقذانُ تسمو صُدورُها

وقال أبو زُبَيْد:

واستَكَنّ العُصفورُ كَرْهاً مع الضَّ بِّ وأوَفى في عُودِهِ الحرْباءُ

والشِّقْذان: الحرابي، وقوله: تسمو أي ترتفع في الشجرة وعلى رأس العود، والواحدِ من الشّقذان بإسكان القاف وكسر الشِّين شَقَذ بتحريك القاف.
وأنشد:

ففيها إذا الحِرباءُ مَدَّ بكفّه قام مَثيلَ الرّاهبِ المتعبِّدِ

وذلك أنّ الحِرباء إذا انتصف النّهار فعلا في رأس شجرةٍ صار كأنَّه راهبٌ في صومعتِه.
وقال آخر:

أنَّى أُتيحَ لَكُم حِرباءُ تنضبةٍ لا يترُكُ السَّاق إلاّ مُمْسكاً سَاقا

التشبُّه بالعرب قال: وكان مولى لأبي بكر الشّيباني، فادَّعى إلى العرب مِنْ ليلته فأصبح إلى الجُلوس في الشمس، قال: قال لي محمد بن منصور: مررْتُ به فإذا هو في ضاحيةٍ، وإذا هويحكُّ جلده بأظفاره خمْشاً وهو يقول: إنما نحن إبل.
وقد كان قيل له مرَّة: إنَّك تتشبّه بالعرب، فقال: ألي يقال هذا؟ أنا واللّه حِرباء تنضُبة، يشهدُ لي سوادُ لَوني، وشَعاثتي، وغَوْر عينيّ وحُبي للشَّمس.
نفخ الحرباء والورل قال: والحِرباء ربَّما رأى الإنسان فتوعَّدَه، ونفَخ وتطاول له حتَّى ربَّما فزِع منه مَن لم يعرفْه، وليس عندَه شرٌ ولا خير.
وأمَّا الذي سمعناه من أصحابنا فإنَّ الورَل السّامد هو الذي يفعل ذلك، ولم أسمعْ بهذا في الحِرباء إلا من هذا الرجل.
قال: والحِرباء أيضاً: المسمار الذي يكون في حَلَقة الدِّرع؛ وجمعه حرابي.
استدراك لما فات من ذكر الوبر وقد كنا غفلنا أنْ نذكر الوَبْر في البيت الأول، قال رجلٌ من بني تغلب:

إذا رَجوْنَا ولداً من ظَهْرِ جاءَتْ بهِ أسْوَدَ مثلَ الوَبرِ

من باردِ الأدنَى بعيدِ القعْرِ

وقال مُخارقُ بن شهاب:

فيا راكباً إمَّا عرَضْتَ فبلِّغن بني فالج حيثُ استقرَّ قرارُها

هلُمُّوا إلينا لا تكونوا كأنَّكم بلاقعُ أرضٍ طار عنه وبارُها

وأرض التي أنتم لقيتم بجوِّها كثيرٌ بها أوعالُها ومدارها

فهجا هؤلاء بكثرة الوبار في أرضهم، ومدح هؤلاء بكثرة الوعول في جَبَلِهم، وقال آخر:

هل يشتمنّي لا أبا لَكُمُ دنِسُ الثِّيابِ كطابخ القِدْرِ

جُعَلٌ تمَطّى في غيابتـهِ زَمِرُ المروءةِ ناقص الشَّبْرِ

لِزَبابةٍ سَوداءَ حَنْظلةٍ والعاجز التّدبير كالوَبْرِ

ويَضرب المثل بنتْن الوبْر؛ ولذلك يقول الشاعر:

تطلّى وهْيَ سيِّئة المُعَرَّى بوضْر الوَبر تحسَبُه مَلابَا

ونتن الوبر هو بَول مما يتمازح به الأعراب ومما تتمازح به الأعراب، فمن ذلك قول الشاعر:

قد هدَمَ الضِّفدعُ بيتَ الفاره فجاء الرُّبْيةِ والوبارَهْ

وحلَمٌ يَشدُّ بالحجاره

وهذا مثلُ قولهم:

اختلط النَّقد على الجِعْلانْ وقد بقي دريهمٌ وثلْثانْ

الظربان وأمَّا قوله:

والظَّربانُ الوَرْدُ قد شقّه حُبُّ الكشي والوحَرُ الحُمْرُ

يلوذ منه الضبُّ مذلولياً ولو نجا أهلكه الذُّعْرُ

وليس يُنْجيه إذا ما فسَا شيءٌ ولَوْ أحرَزَهُ قصْرُ

قال أبو سليمان الغنويُّ: الظّربان أخبثُ دابَّةٍ في الأرض وأهلَكه لفراخ الضَّبّة.
قال: فسألت زيدَ بن كثوَة عن ذلك فقال: إي واللّه وللضَّبّ الكبير.
والظَّربان دابّة فسّاءَه لا يقوم لشَرِّ فسْوها شيءٌ، قلت: فكيف يأخذها؟ قال: يأتي جُحر الضَّبّ، وهو ببابه يستَروح، فإذا وجد الضّبُ ريحَ فسْوه دخل هارباً في جُحره، ومَرَّ هو معه من فوق الجُحر مستمعاً حَرْشَه، وقد أصغى بإحدى أذُنيه من فوق الأرض نحوَ صوته - وهو أسمع دابَّةٍ في الأرض - فإذا بلغ الضبُّ منتهاه، وصار إلى أقصى جُحره وكفَّ حَرشَه استدَبَر جُحره، ثم يَفْسُو عليه من ذلك الموضع - وهو متى شمّه غُشيَ عليه - فيأخذه.
قال: والظّربان واحدٌ، والظّرْبان: الجميع، مثل الكَرَوان للواحد والكِرْوان للجميع، وأنشد قولَ ذي الرُّمَة:

من آلِ أبي موسى تَرَى القوْمَ حَوْلَهُ كأنَّهمُ الكِرْوان أبصَرْنَ بـازيا

والعامّة لا تشكُّ في أنَّ الكَرَوَان ابنُ الحُبارَى؛ لقول الشاعر:

ألم تَر أنّ الزُّبد بالتَّمْر طيِّبٌ وأنّ الحُبارَي خالَةُ الكَرَوَان

وقال غيره: الظَّربان يكونُ على خلقة هذا الكلب الصِّينيِّ، وهو منتنٌ جدّاً، يدخل في جُحر الضبِّ فيفسو عليه، فينتن عليه بيته، حتى يُذلَق الضبَّ من بَيته، فيصيده.
والضّباب الدلالي أيضاً، التي يدخُل عليها السَّيلُ فيخرجها، وأنشد:

يا ظَرباناً يتعشّى ضَبّـاً رَأى العُقاب فوْقهُ فخبّا

كأنَّ خُصيْيَه إذا أكبّـا فَرُّوجتان تطلبان حَبَّـا

أوْ ثعلبَان يَحْفِزان ضبّا

وأنشد الفرزدق:

أبوك سليمٌ قدْ عَرَفْنـا مكـانـه وأنت بجيريّ قـصيرٌ قـوائمُـهُ

ومن يجعل الظّرْبى القصار ظُهورُها كمنْ رفعَتْهُ في السمـاء دعـائمـهُ

سلاح بعض الحيوان قال: والظَّربان يعلم أنَّ سلاحه في فسائه، ليس شيءٌ عندَه سواه، والحبارى تعلم أنَّ سِلاحها في سَلْحها ليس لها شيءٌ سواه، قال: ولها في جوفها خِزانةٌ لها فيها أبداً رَجْعٌ مُعدٌّ فإذا احتاجتْ إليه وأمكنَها الاستعمال

استعملَتْه، وهي تعلم أنَّ ذلك وقايةٌ لها، وتعرف مع ذلك شدَّة لَزَجه، وخبث نَتْنِه، وتعلم أنها تساور بذلك الزُّرَّق، وأنها تُثقله فلا يصيد.
ويعلم الدِّيك أنَّ سلاحه في صيصيته، ويعلم أنَّ له سلاحاً، ويعلم أنّه تلك الشوكة، ويدري لأيِّ مكانٍ يعتلج، وأيَّ موضعٍ يطعن به.
والقنافذ تعلم أنّ فروتها جنّة وأنّ شوك جلدها وقايةٌ، فما كان منها مثل الدُّلدل ذوات المداري فإنها ترمي فلا تُخْطِئ، حتى يمرَّ مُرُورَ السهم المُسدَّد، وإن كانت من صغارها قبضتْ على الأفعى وهي واثقةٌ بأنّه ليس في طاقة الأفعى لها من المكروه شيء، ومتى قبضتْ على رأس الأفعى فالخطب فيها يسير، وإن قبضتْ على الذنَبِ أدخلَتْ رأسها فقرضتها وأكلتها أكلاً، وأمكنَتها من جسمها، تصنع ما شاءت؛ ثقةً منها بأنّه لايصل إليها بوجهٍ من الوجوه.
والأجناس التي تأكل الحيَّاتِ: القنافذُ، والخنازير، والعِقْبانُ، والسّنانيرُ، والشاهُمرْك، على أن النّسور والشاهمرك لا يتعرَّضان للكبار.
ويعلم الزُّنبور أن سلاحه في شَعْرته فقط، كما تعلم العقربُ أن سلاحها في إبرتها فقط، وتعلم الذّبان والبعوضُ والقملة، أن سلاحها في خراطيمها، وتعلم جوارحُ الطّير أن سِلاحها في مخالبها، ويعلم الذِّئبُ والكلبُ أنّ سلاحهما في أشداقهما فقط، ويعلم الخنزير والأفعى أنّ سلاحهما في أنيابهما فقط.
ويعلم الثور أنّ سلاحه قرنُه، لا سلاحَ له غيره، فإن لم يجد الثورُ والكبشُ والتّيس قروناً، وكانت جُمّاً، استعملتْ باضطرارٍ مواضع القُرون.
والبرذون يستعمل فمه وحافر رجله.
ويعلم التِّمْساح أنّ أحدّ أسلحته وأعْونَها ذنبُه، ولذلك لايعرض إلاّ لمن وجَدَه على الشريعة؛ فإنّه يضربه ويجمعُه إليه حتى يُلقيَه في الماء.
وذنَب الضبّ أنفع من براثنه.
لُجوء بعض الحيوان إلى الخبث وإنما تفزع هذه الأجناس إلى الخُبث، وإلى ما في طبعها من شدَّة الحُضْر إذا عَدِمت السِّلاح؛ فعند ذلك تستعمل الحيلَة: مثلَ القُنفذِ في إمكان عَدوِّهِ من فرْوته، ومثلَ الظّبي واستعمال الحضْر في المستوي، ومثل الأرنب واستعماله الحضْر في الصَّعْداء.
وإذا كان ممن لا يرجع إلى سلاحه ولا إلى خبثه كان إمَّا أن يكون أشدَّ حُضْراً ساعة الهربِ من غيره، وإمَّا أن يكون ممَّن لا يمكنه الحضْر ويقطعه الجبْن، فلا يبرح حتَّى يؤخذ.
ما يقطعه الجبن من الحيوان وإنما تتقرَّب الشّاة بالمتابعة والانقياد للسّبع، تظنُّ أن ذلك ممّا ينفعها؛ فإن الأسد إذا أخذ الشّاة ولم تتابعه، ولم تعِنْه على نفسها، فربما اضطُرّ الأسد إلى أن يجرَّها إلى عرينه، وإذا أخذها الذئب عدَتْ معه حتّى لا يكونُ عليه فيها مَؤُونة، وهو إنما يريد أن ينحِّيَها عن الراعي والكلب، وإن لم يكن في ذلك الوقت هناك كلبٌ ولا راع، فيرى أن يجري على عادته.
وكذلك الدَّجاج إذا كُنَّ وُقَّعاً على أغصان الشَّجر، أو على الرُّفوف، فلو مرَّ تحتها كلُّ كلبٍ، وكلُّ سنّور، وكلُّ ثعلب، وكلُّ شيءٍ يطالبها، فإذا مرَّ ابن آوى بقُربها لم يبق منها واحدةٌ إلاّ رمت بنفْسها إليه، لأنّ الذِّئب هو المقصود به إلى طباع الشاة،

وكذلك شأنُ ابن آوى والدَّجاج، يخيَّلُ إليها أن ذلك مما ينفع عنده، وللجُبن تفعل كلّ هذا.
ولمثل هذه العلَّة نزل المنهزم عن فرسه الجوادِ؛ ليُحْضر ببدنه، يظنُّ اجتهاده أنجى له، وأنّه إذا كان على ظهر الفرَس أقلُّ كَدّاً، وأنَّ ذلك أقرب له إلى الهلاك. ولمثل هذه العلَّة يتشبَّثُ الغريق بمن أراد إنقاذه حتَّى يُغرِقه نفسَه، وهما قبل ذلك قد سمعا بحال الغريق والمنهزم، وأنّهما إنّما هما في ذلك كالرجل المعافى الذي يتعجَّب ممن يشرب الدَّواء من يد أعلم النَّاس به، فإن أصابتْه شقيقة، أو لسعة عقرب، أو اشتكى خاصِرته، أو أصابه حُصْر أو أسْر شرب الدَّواءَ من يد أجهل الخليقة، أو جَمع بين دواءين متضادَّين.
فالأشياء التي تعلم أنَّ سِلاحها في أذنابها ومآخرها الزُّنبور والثَّعلب والعقرب والحُبارى، والظَّربان، وسيقع هذا البابُ في موضعه إن شاء اللّه تعالى.
وليس شيءٌ من صنف الحيوان أردأ حيلةً عند معاينة العدوِّ من الغنم؛ لأنها في الأصل موصولةً بكفايات النَّاس، فأسندت إليهم في كل أمْرٍ يصيبها، ولولا ذلك لخرَّجت لها الحاجة ضروباً من الأبواب التي تعينها، فإذا لم يكن لها سلاحٌ ولا حيلة، ولم تَكن ممن يستطيع الانسياب إلى جُحرهِ أو صدع صخرة، أو في ذرْوة جبل، كانت مثل الدَّجاجة، فإنَّ أكثر ما عندها من الحيلة إذا كانت على الأرض أن ترتفع إلى رَفٍّ، وربّما كانت في الأرض، فإذا دنا المغرب فزعت إلى ذلك.
ما له ضروب من السلاح وربّما كان عند الجنس من الآلات ضروبٌ، كنحو زبرة الأسد ولبدته، فإنَّه حَمولٌ للسِّلاح إلاَّ في مراقِّ بطنه فإنّه من هناك ضعيفٌ جدّاً، وقال التغلبي:

تَرى النَّاسُ مِنَّا جلدَ أسْودَ سالـخ وزُبْرَة ضِرْغامٍ من الأسدِ ضَيغَم

وله مع ذلك بَعدُ الوثبة واللُّزوقُ بالأرض، وله الحبس باليد، وله الطَّعن بالمخلب، حتى ربَّما حبَسَ العَيرَ بيمينه وطعن بمِخْلب يساره لبَّته وقد ألقاه على مؤخره، فيتلقَّى دمَه شاحياً فاه وكأنه ينصبُّ من فوَّارَة، حتى إذا شربه واستفرغه صار إلى شقِّ بطنه، وله العضُّ بأنيابٍ صلابِ حداد، وفكٌّ شديد، ومنخر واسع، وله مع البُرثُن والشكِّ بأظفاره دقُّ الأعناق، وحطم الأصلاب، وله أنه أسرعَ حُضْراً من كلِّ شيءٍ أعمَلَ الحُضْرَ في الهرب منه، وله من الصَّبر على الجوع ومن قلَّة الحاجة إلى الماء مع غيره، وربّما سار في طلب الملح ثمانين فرسخاً في يوم وليلة، ولو لم يكن له سلاحٌ إلاَّ زئيره وتوقُّد عينيه، وما في صدور النَّاس له لَكفاه.
وربما كان كالبعير الذي يعلم أنَّ سِلاحه في نابيه وفي كِركِرته.
والإنسان يستعملُ في القتال كفّيه في ضروبٍ، ومرفقيه ورِجليه ومنكبيه وفمه ورأسَه وصدرَه، كلُّ ذلك له سلاحٌ ويعلم مكانه، يستوي في ذلك العاقلُ والمجنونُ، كما يستويان في الهداية في الطَّعام والشراب إلى الفم.
سلاح المرأة والمرأة إذا ضَعُفت عن كلِّ شيءٍ فزعت إلى الصُّراخ والولولة؛ التماساً للرَّحمة، واستجلاباً للغياث من حُماتِها وكُفاتها، أو من أهل الحسبة في أمرها.

باب أسماء أولاد الحيوان قال: ويقال لولد السَّبع الهجرس والجمع هجارس، ولولد الضبع الفرعُل والجمعُ فراعل، قال ابن حبناء:

سلاحين منها بالرّكوب وغيرها   إذا ما رآها فُرعُلُ الضَّبع كَفَّرا

قال: والدَّيسم ولد الذّئب من الكلبة.
وسألت عن ذلك أبا الفتح صاحبَ قطرب فأنكر ذلك وزعم أنَّ الدَّيسمة الذَّرة، واسم أبي الفتح هذا ديْسم.
ويقال إنَّه دويْبَّة غير ما قالوا.
ويقال لولد اليربوع والفأرِ درص، والجمع أدْرَاصٌ، ويقال لولد الأرنب خِرنِق، والجمع خرانق، قال طرفة:

إذا جَلسوا خيّلْتَ تحت ثيابهم   خرانقَ تُوفي بالضَّغيبِ لها نَذْرا

أشعارٌ فيها أخلاط من السباع والوحش والحشرات.
قال مسعود بن كبير الجرمي، من طيئ، يقولها في حمارٍ اشتراه فوجدَهُ على خلاف ما وصفهُ به النخّاس:

إنّ أبا الخرشن شيءٌ هِنْبُ   معجّبٌ ما يحتويه العُجْبُ
قد قلتُ لما أنْ أجدّ الرَّكبُ   واعتر القوم صحار رحبُ
يا أجْنحُ الأذنِ ألا تخبُّ   أهانك اللّه فبئسَ النَّجْبُ
ما كان لي إذ أشتريك قلبُ   بَلى ولكنْ ضاع ثمَّ اللُّبُّ
إن الذي باعك خبٌّ ضبٌّ   أخبرني أنّك عَيْرٌ نَدْبُ
وشرُّ ما قال الرِّجال الْكذِبُ   صَبَّ عليه ضبُعٌ وذئبُ
سرْحانَةٌ وجَيْألٌ قِرْشَبّ   ذيخٌ عَدَثهُ رَمْلةٌ وهضبُ
كأنه تحت الظّلام سَقْبُ يأخذ منه من رآه الرُّعْبُ
أبو جراءٍ مَسَّهُنَّ السَّغْبُ   حتّى يقال حيث أفضى السحبُ
وأنت نَقّاقٌ هناك ضبُّ   وصبَحَ الراعي مُجَراً وغبُ

ورخـمـات بَـيْـنـهُــنَّ كـعــبُ   وأكـرُعُ الـعَــيْرِ وفــرْثٌ رطْــبُ

يقول:أدنوني إلى شرائه، ويقال ثرية لقيك لغة طائيَّة.
وقال قِرْواش بن حَوْط:

نبّئْتُ أن عقالاً بـنَ خـويلـدٍ   بنعافِ ذي عدَمٍ وأنَّ الأعلمـا

ضَبُعاً مجاهَرةٍ ولـيثـا هُدنـةٍ   وثعَيلبَا خمرٍ إذا ماء أظلَـمـا

لا تسأماني من رَسِيسِ عَداوَةٍ   أبداً فلستُ بسائمٍ إنْ تسـأمَـا

غُضَّا الوعيدَ فما أكونُ لموعِدِي   فيئاً ولا أكُلاً له متخَضَّـمَـا

فمتى ألاقِكما البراز تُـلاَقـيا   عَركاً يفلُّ الحدَّ شاكاً مُعْلِمـا

الوحر قال: وقال العَدَبّس الكنانيّ: والوَحَرة دويْبَّة كالعظاءة حمراء إذا اجتمَعَتْ تلصق بالأرض، وجمع وحَرَة وحَرٌ، مفتوحة الحاء، ومنه قيل وَحَرُ الصَّدر، كما قيل للحقدِ ضبٌّ؛ ذهبوا إلى لزوقه بالصّدر كالتزاق الوَحَرة بالأرض، وأنشدَ:

بئسَ عَمْرَ اللّه قومٌ طُرِقُوا   فقرَوْا أضيافَهُمْ لَحْماً وحِر

وسَقَوْهم في إناءٍ مقـرفٍ   لبَناً من دَرِّ مِخراطٍ قَـئرْ

يقال لحم وَحِر: إذا دبّت عليه الوَحرة، مقرف: مُوبئ، ويقال قِئر: إذا وقعتْ فيه فارةٌ، وقال الحكَميّ:

بأرضِ باعدَ الـرَّحْـمَ   نُ عَنْهَا الطّلْحَ والعُشَرَا

ولم يَجْعلْ مصـايدَهـا   يَرَابـيعـاً ولا وَحَـرا

لهيْثَمَة وأمّا قوله:

وَهيْثمةٌ تأكلـهـا سُـرْفَةٌ   وَسِمْعُ ذئبٍ هَمُّهُ الحُضْرُ

فالهيثمة أم حبين، وأنشد:

أشكو إليك زمـانـاً قدْ تعـرَّقـن   كما تعرّق رأسَ الـهـيْثَمَة الذِّيبُ

وأمُّ جُبَيْن وأمُّ حُبَيْنَة سواءٌ، وقد ذكرنا شأنها في صدر هذا الكتاب، ويقال إنّها لا تقيم بمكانٍ تكون فيه هذه الدُّودة التي يقال لها السُّرفة، وإليها ينتهي المَثل في الصَّنْعة، ويقال: أصنَعُ من سُرفة، ويقال إنّها تقوم منْ أمِّ حُبين مَقامَ القراد من البعير، إذا كانتْ أمُّ حبَيْنٍ في الأرض التي تكون فيها هذه الدُّودة.
ذكر من يأكل أم حبين والقرنبي والجرذان قال: وقال مَدَنيٌّ لأعرابي: أتأكلون الضَّبَّ؟ قال: نعم، قال: فاليربوع؟ قال: نعم، قال: فالوَحرة؟ قال: نعم، حتَّى عدَّ أجناساً كثيرةً من هذه الحشرات، قال أفتأكلون أمَّ حُبيْنٍ؟ قال: لا، قال: فلْتَهنِ أمَّ حُبينٍ العافيةُ.
قال ابنُ أبي كريمة: سألَ عمرُو بنُ كريمةَ أعرابيّاً - وأنا عنده - فقال: أتأكلونَ القرنْبى؟ قال: طال واللّه ما سال ماوُه على شدقي.
وزعم أبو زيدٍ النحويُّ سعيدُ بنُ أوْس الأنصاريُّ، قال: دخلتُ على رُوبة وإذا قُدَّامه كانونٌ، وهو يَمُلُّ على جَمْرِهِ جُرذاً من جرذان البيت، يخرج الواحدَ بعد الواحد فيأكله، ويقول: هذا أطيبُ من اليربوع يأكل التّمرْ والجُبْنُ، ويحسو الزَّيْت والسَّمْن.
وأنشد:

تَرَى التَّيْميَّ يزحَفُ كالقرَنْبى إلى تَيْميَّة كقفا القدُّوم

وقال آخر:

يدِبُّ عَلَى أحشائها كلَّ لَيْلَةٍ دَبيبَ القَرْنبى باتَ يعلو نقا سهلا

اليربوع قال: واليربوع دابَّة كالجُرذ، منْكبٌّ على صدره؛ لقِصر يديه طويل الرِّجلين، له ذنبٌ كذنب الجرذ يرفعه في الصعداء إذا هَرْولَ، وإذا رأيتَه كذلك رأيتَ فيه اضطراباً وعجباً، والأعراب تأكله في الجَهْد وفي الخِصب.
أخبث الحيوان قال: وكلُّ دابّةٍ حشاها اللّه تعالى خُبْثاً فهو قصيرُ اليدين، فإذا خافت شيئاً لاذت بالصّعداء فلا يكاد يلحقُها شيء.
أكل المسيب بن شريك لليربوع قال: وأخبرني ابنُ أبي نُجَيح وكان حجّ مع المسيّب بن شريك عامَ حجَّ المهديُّ مع سلسبيل، قال: زاملْت المسيِّب في حَجَّته تِلك، فبينا نحنُ نَسير إذ نظرنا إلى يربوع يتخلل فرَاسن الإبل، فصاحَ بغلمانه: دونَكم اليَربوع فأحضرُوا في إثره فأخذُوه، فلمَّا حططْنا قال: اذبحوه، ثمَّ قال: اسلخوهُ واشوُوه وائتوني به في غَدائي، قال: فأتي به في آخر الغداء، على رغيف قد رَغَّبوه فهو أشدُّ حمرة من الزَّهوة، - يريد البُسرة - فعطف عليه فثنى الرَّغيف ثم غمزه بين راحتيه ثم فَرَج الرغيف، فإذا هو قد أخذَ من دسمه، فوضعه بين يديه، ثمَّ تناول اليربوع فنزع فخذاً منه، فتناولها ثم قال: كل يا أبا محمد فقلت: ما لي به حاجة فضحك ثم جعلَ يأتي عليه عضواً عضواً.
أم حبين قال: وأمَّا أمُّ حُبين فهي الهَيْشة، وهي أم الحبين، وهي دويْبَةٌ تأكلُها الأعراب مثل الحرباء، إلاّ أنَّها أصغر منها، وهي كدْرَاءٌ لِسوادٍ بيضاءُ البطن، وهو

خلافُ قول الأعرابيِّ للمدني.
وصاة أعرابي لسهل بن هارون وقال أعرابيٌّ لسهل بن هارون، في تواري سهل من غُرمائه وطلبهم له طلباً شديداً؛ فأوصاه الأعرابيُّ بالحزْم وتدبير اليَربوع، فقال:

انزل أبا عمرو على حَدِّ قريةٍ   تَزيغ إلى سَهْلٍ كثير السَّلائق

وخُذْ نَفَقَ اليربوع واسْلُكْ سبيلَه ودَعْ عنك إني ناطقٌ وابنُ ناطق

وكنْ كأبي قُطْنٍ على كلِّ زائغ   له منزلٌ في ضيق العَرْض شاهق

وإنّما قال ذلك لاحتيال اليربوع بأبوابه التي يخرج من بعضها، إذا ارتاب بالبعض الآخر، وكذا كانت دار أبي قطنة الخناق بالكوفة في كندة، و يزعمون أنَّه كان مولًى لهم، وأنشد أبو عُبيدة قال: أنشدني سفيان بن عيينة:

إذ ما سَرَّكَ العَيشُ   فلا تمرُرْ على كِنْدَهْ

وقد قُتل أبو قُطنة وصُلِب.
الخناقون وممَّن كان يخنق النّاس بالمدينة عَدِيَّة المدنيّةُ الصَّفراءُ، وبالبصرة، رادويْه، والمرميُّون بالخنق من القبائل وأصحاب النِّحل والتأويلات هم الذين ذكَرَهم أعشى هَمْدان في قوله:

إذا سِرْتَ في عِجلٍ فسِرْ في صَحابةٍ وكِنْدَةَ فاحذَرْهَا حِذَارك للخسْفِ

وفي شيعة الأعمى خِناقٌ وغِيلةٌ   وقشْبٌ وإعمال لجندلة القذفِ

وكلُّهُمُ شَرٌّ على أنَّ رأسهم   حميدة والميلاءُ حاضِنة الكِسْفِ

متى كُنْتَ في حَيَّيْ بجيلة فاستمعْ   فإنَّ لها قصفاً يدلُ على حَتْفِ

إذا اعتزموا يوماً على قتْل زائر   تداعَوْا عَلَيه بالنُّباح وبالعَزْفِ

وذلك أن الخناقين لا يسيرون إلاّ معاً، ولا يقيمون في الأمصار إلاّ كذلك، فإذا عزَم أهلُ دارٍ على خنْق إنسانٍ كانت العلامةُ بينهم الضرب على دُفٍّ أوْ طبلٍ، على ما يكون في دوُر الناس، وعندهم كلابٌ مرتَبطة فإذا تجاوَبُوا بالعزْف ليختفي الصَّوت ضربوا تلك الكِلاب فنبحَتْ، وربّما كان منهم معلِّم يؤدّب في الدّرب، فإذا سمع تلك الأصوات أمَرَ الصِّبيانَ برفع الهجاء والقِراءة والحساب.
المغيرية والغالية والمنصورية وأما الأعمى فهو المغيرة بن سعيدٍ صاحبُ

المغيرية، مولى بجيلة والخارج على خالد بن عبد اللّه القسري، ومن أجل خُروجه عليه قال: أطعموني ماء حتى نعى عليه ذلك يحيى بنُ نوفل، فقال:

تقول من النَّواكَة أطعموني شراباً ثمَّ بُلتَ على السّرير

لأعلاج ثـمـانـيةٍ وشـيخ كَليلِ الحدّ ذي بصر ضرير

وأمَّا حميدة، فكانت من أصحاب ليلى الناعظية، ولها رياسة في الغالية، والمَيْلاء حاضنة أبي منصور صاحب المنْصوريَّة، وهو الكِسْف، قالت الغالية: إيَّاه عَنَى اللّه: "وإنْ يَروْا كِسْفاً من السَّماء سَاقِطاً يقُولُوا سَحابٌ مَرْكومٌ" وإيَّاه عنى مَعْدان الأعمى حيثُ يقول:

إنَّ ذا الكِسْفَ صَدَّ آل كُميل وكميلٌ رَذْلٌ مـن الأرْذال

تَركا بالـعِراق دَاءً دويّاً ضَلَّ فيه تلطُّف المحتـال

تفسير بيت وأمَّا قوله:

انزل أبا عمرو على حَدِّ قريةٍ تَزيغ إلى سهْل كثيرِ السّلائق

فأراد الهرب؛ لأنه متى كان في ظهرٍ فظٍّ كثير الجوَادّ والطرائق، كان أمكرَ وأخفى، وما أحسن ما قال النابغةُ في صفة الطّريق إذا كان يتشعَّب، حيث يقول:

وناجيةٍ عدَّيتُ في ظهر لاحبٍ كَسَحْل اليماني قاصداً للمناهلِ

له خلجٌ تَهْوِي فُرادى وتَرعوي إلى كلِّ ذي نِيرَين بادِي الشَّواكلِ

وهذا موضع اليربوع في تدبيره ومَكره.
أرجوزة في اليربوع وأكل الحشرات والحيات وقال الآخر في صفة اليربوع، وفي حيلته، وفي خلْقه، وفي أكل الحشرَات والحيات:

يا رُبَّ يَربـوع قصير الظَّــهــر وشاخص الـعَجْب ذليل الـصَّدْر

ومُـحْكم الـبيتِ جميع الأمــر يَرْعـى أُصولَ سَـلــم وسِــدْر

حتّى تـراهُ كـمِداد الـعــكــر باكرتُـه قبلَ طُلوع الـفَجـر

بكلِّ فيَّاض الـــيدين غــمــر وكـلِّ قنَّـاصٍ قليلِ الـــوَفـر

مُرتـفـع الـنّـجم كريم الـنَّـجْــر   فعاد منّـي ببـعيد الـقـعْــر

مختلفِ الـبَطْن عجيبِ الـظـهر   وتـدْمُـريٌّ قـاصـعٌ فـي جُـحــر

في العُسـر إنْ كـان وبـعدَ الـعُسْر   أطيب عنـدي مِـنْ جَنـيِّ الـتّـمر

وشَـحْـمةُ الأرض طـعـامُ الـمُـثْـري   وكـلِّ جبـار بـعـيد الـــذّكــر

وهيْشة أرفعها لفطري ليوم حقْل وليوم فَخْر

وكلُّ شيءٍ في الظلام يَسْري   من عقْرَبٍ أو قُـنـفـذ أو وَبْـــر

أو حـيّةٍ أمُـلَّـهـا فـي الـجَـمْــر   فتـلـك هَـمِّـي وإلـيهـا أجــري

في كـلِّ حـالٍ مـن غنًـى وفـقْــر   وكـلُّ شــيءٍ لـقـضَـــاءٍ يجــري

وكـلُّ طيرٍ جـاثـم فـــي وَكْــر   وَكـلُّ يَعسـوبٍ وكــلُّ دَبْــر

والـذّيخُ والـسِّـمْـعُ وذئبُ الـقـفْــر   والكـلـبُ والـتَّـتْـفل بـعد الـهـرِّ

والـضّـبُّ والـحـوتُ وطـيرُ الـبَـحْـر   والأعـورُ الـنَّـاطقُ يومَ الـزّجْــر

آكُـلُـهُ غـيرَ الـحـرابـي الـخُـضْـر   أو جُـعـل صـلَّـى صـلاة الـعـصْـر

يشـكـر إن نــالَ قِـرًى مـن جَـعْــر   يا ويلَـه مـن شـاكـرِ ذي كُــفْــر

أفسـدَ والـلّـه علـيّ شُـكـــري

فزعم أنَّه يستطيبُ كلَّ شيءٍ إلاّ الحِرباء الذي قد اخضرَّ من حرِّ الشّمس وإلاّ الجُعَل الذي يصلِّي العصر، وزعَمَ أنّه إنما جعَل ذلك شكراً على ما أُطعِمَ من العَذِرة، وأنَّ ذلك الشُّكر هو اللُّؤم والكفر.

ولا أعرفُ معنى صلاة الجعَل، وقد روى ابن الأعرابي عن زاهر قال: يا بُنَيّ لا تصلِّ فإنّما يصلِّي الجُعل، ولا تَصُمْ فإنما يصوم الحِمار، وما فهمتُه بعد.

وأراه قد قدّم الهَيْشة، وهي أمُّ حبين، وهذا خلافُ ما رووا عن الأعرابي والمدني. اليرابيع وأمَّا قوله: وَتَدْمُريٌّ قاصعٌ في جحْرٍ فقد قال الشاعر:

وإنّي لأصطاد اليَرابيعَ كُلّها   شُفَاريَّها والتّدمُريَّ المقصّعَا

واليرابيع ضربان: الشُّفاريُّ والتَّدمُري، مثل الفَتِّي والمذكِّي.
وقال جريرٌ حينَ شبَّه أشياء من المرأة بأشياء من الحشرات وغيرها وذكر فيها الجُعل فقال:

ترَى التَّيميَّ يزْحفُ كالقرنبى   إلى تيميةٍ كعصَا المَـلـيل

تشينُ الزَّعفران عَروسُ تـيْمٍ   وتمْشي مِشْيَة الجُعلِ الدّحُولِ

يَقولُ المجتَلون عروسَ تـيمٍ   شَوى أمِّ الحُبَين ورأسُ فيلِ

شعر فيه ذكر اليربوع وقال عُبيد بن أيُّوب العنبري، في ذكر اليربوع:

حَمَلْتُ عليها ما لـوَ أنَّ حـمـامـةً   تُحَمَّلُه طارتْ به في الـخـفـاخـفِ

نطوعاً وأنسـاعـاً وأشـلاء مُـدْنَـفٍ   بَرى جِّسمَه طولُ السَّرى في المخاوفِ

فرُحْنا كما راحَتْ قطـاةٌ تـنـوَّرَتْ   لأزغبَ مُلْقى بين غُبْر صَفـاصـفِ

ترى الطّير واليربوعَ يبحثن وطـأهـا   وينقرنَ وطء المنسم الـمـتـقـاذِفِ

وقال ابنُ الأعرابيّ، وهو الذي أنشدَنيه: ترى الطير واليربوع يعني أنّهما يبحثان في أثر خُفّها ملجأ يلجآن إليه، إمَّا لشدَّة الحر، وإما لغير ذلك، وأنشد أصحابنا عن بعض الأعراب وشعرائهم أنَّه قال في أمّه:

فما أمُّ الـرُّدينِ وإن أدَلّـتْ   بعالمةٍ بأخْلاق الـكـرام

إذا الشّيطان قصَّع في قفاها   تَنَفقْنَاه بالـحـبْـل الـتـوَأم

يقول: إذا دخل الشَّيطان في قاصعاء قفاها تنفقناه، أي أخرجْناه من النافقاء، بالحبل المثنّى، وقد مَثَّل وقد أحسن في نعت الشِّعر وإن لم يكن أحْسَن في العُقوق، وأنشد قي قوس:

لا كَّزة السَّهم ولا قـلـوعُ   يدرُج تحت عَجْسها اليربوعُ

القلوع من القسي: التي إذا نُزع فيها انقلبت على كفِّ النازع، وأما قوله: وأما قوله:

تخالُ به السِّمعَ الأزلَّ كأنّه   إذا مـــا عـــدا

قيام الذئب بشأن جراء الضبع ويقولون: إن الضبع إذا هلكَتْ قام بشأنِ جرائها الذِّئب وقال الكُميت:

كما خامَرَتْ في حضنْها أمُّ عامر لِذي الحَبْل حتَّى عالَ أوسٌ عِيالها

وأنشد أبو عبيدة في ذلك شعراً فسَّر به المعنى، وهو قوله:

والذّئبُ يغذُو بناتِ الذّيخ نـافلـة بلْ يحسبُ الذّئبُ أنَّ النَّجْل للذّيبِ

يقول: لكثرة ما بين الذئاب والضباع من التّسافُد يظن الذّئب أنّ أولاد الضبع أولادُه.
أكل الأعراب للسباع والحشرات والأمرُ في الأعراب عجب في أكل السِّباع والحشرات، فمنهم من يظهر استطابتها، ومنهم من يفخَر بأكلها، كالذي يقول:

أيا أمَّ عمرو ومَنْ يَكُنْ عُقرُ داره جِوَارَ عَدِيٍّ يأكل الحَشـرات

ما تحبه الأفاعي وما تبغضه وأمَّا قوله:

لا تَرِدُ الماء أفاعي النّقا لكنّها يُعْجِبُها الخمْرُ

وفي ذُرَى الحَرْمَلِ ظلٌّ إذا علا واحْتَدَم الهَجْرُ

فإن من العجبَ أنّ الأفعى لا تردُ الماءَ ولا تريدُه، وهي مع هذا إذا وجدت الخَمر شربَت حتّى تسكر حتّى ربَّما كان ذلك سبب حتفها.
والأفاعي تكره ريح السَّذاب والشّيح، وتستريح إلى نبات الحَرمَل، وأمَّا أنا فإنِّي ألقيْتُ على رأسها وأنفها من السّذاب ما غمرها فلم أر على ما قالوا دليلاً.
أكل بعض الحيوان لبعض وأمّا قوله:

وبعضها طُعْمٌ لبعضٍ كما أعْطى سِهام الميْسِرِ القمْرُ

فإن الجرذ يخرُج يلتمسُ الطُّعم، فهو يحتالُ لطُعمه، وهو يأكل ما دونَه في القُوَّة، كنحو صغار الدّوابِّ والطّير، وبيضِها وفراخِها، ومِما لا يسكن في جُحْر، أو تكون أفاحيصُه على وجْه الأرض، فهو يحتال لذلك، ويحتال لمنْع نفسه من الحيّات ومن سِباع الطيَّر.
والحيّة تُريغ الجرذ لتأكله، وتحتال أيضاً للامتناع من الوَرَل والقنفذ، وهما عليه أقوى منه عليهما، والوَرَل إنما يحتال للحية، ويحتال للثَّعلب، والثعلب يحتال لما دُونه.
قال: وتخرج البعوضة لطلب الطُّعمِ، والبعوضة تعرف بطبعها أنّ الذي يعيشها

الدم، ومتى أبصرتْ الفيلَ والجاموسَ وما دونهما، علمت إنّما خلِقت جلودهما لها غذاءً، فتسقطُ عليهما وتطعُنُ بخرطومها، ثقةً منها بنفوذ سلاحها، وبهجومها على الدَّم.
وتخرجُ الذُّبابة ولها ضروبٌ من المطعم، والبعوضُ من أكبرها صيدها وأحبُّ غذائها إليها، ولولا الذّبان لكان ضررُ البعوض نهاراً أكثر.
وتخرج الوزَغَةُ والعنكبوت الذي يقال له الليث فيصيدان الذُّباب بألطف حِيلة، وأجود تدبير، ثم تذهب تلك أيضاً كشأن غيرهما.
كأنه يقول: هذا مذهبٌ في أكل الطيِّبات بعضها لبعض، وليس لجميعها بُدٌّ من الطُّعم، ولا بدّ للصائد أنْ يصطاد، وكلُّ ضعيفٍ فهو يأكُلُ أضعف منه، وكلُّ قويٍّ فلا بدَّ أن يأكله من هو أقوى منه، والنَّاسُ بعضُهم على بعض شبيه بذلك، وإن قصروا عن دَرْك المقدار، فجعل اللّه عزّ وجلَّ بعضها حياةً لبعض، وبعضها موتاً لبعض.
شعر للمنهال في أكل بعض الحيوان لبعض وقال المنهال:

ووثبة من خُـزَزٍ أعفـرٍ   وخِرنقٍ يلعَبُ فوْقَ التُّرابْ

وَعَضرَ فُوطٍ قد تقوّى على   مُحْلوْلِكِ البقة مثل الحباب

وظالم يَعْدُو علـى ظـالـمٍ   قد ضَجَّ منه حَشراتُ الشّعابْ

وهذان الظَّالمان اللذان عنى: الأسودُ، والأفعى، فإنَّ الأسود إذا جاع ابتلع الأفعى.
آكل الأسود للأفاعي وشكا إليّ حَوّاءٌ مرةً فقال: أفقرني هذا الأسْوَد، ومنعني الكَسْبَ، وذلك أنّ امرأتي جهلت فرمَتْ به في جُونةٍ فيها أفاعي ثلاثٌ أو أربعٌ، فابتلعهنَّ كلّهن، وأراني حيَّةً مُنْكَرةً، ولا يبعد ما قال.
والعرب تقول للمسيء: أظْلَمُ من حيَّة، وقد ذكرنا ذلك في موضعه من هذا الكتاب.
ولا يستطيع أنْ يروم ذلك من الأفعى إلاّ بأن يغتالها، فيقبض على رأسها وقفاها، فإنّ الأفعى تنفذ في الأسود، لكثرة دمه.
وصف سم الحية وإذا وصفوا سمّ الحيّة بالشدَّة والإجهاز خبَّروا عنها أنّه لم يبقَ في بدنها دمٌ ولا بِلّة، ولذلك قال الشاعر:

لو حُزّ ما أخرجتْ منه يَدٌ بَلَلاً   ولو تَكَنّفَهُ الراقون ما سَمِعا

وقال آخر:

لُميمةً من حنشٍ أعْمى أصمّ   قد عاش حتّى هو ما يمشي بدَمْ

سلاح الحيوان والشأن في السِّلاح أنّه كلما كان أقلَّ كان أبلغ، وكلما كان أكثر عدَداً وأشدَّ ضرراً كان أشجع وآخذ لكلِّ من عَرفَ أنه دونه، وأنشد أبو عبيدة:

مشْي السَّبَنْتى إلى هَيْجاءَ مُقْطِعَةٍ   له سلاحان أنـيابٌ وأظـفـارُ

كالأسد له فم الذّئب - وحسبك بفم الذّئب - وله فضلُ قوة المخالب، وللنَّسر منْسرٌ وقُوَّة بدن يكون بهما فوقَ العقاب، ولذلك قال ابن مُناذر:

أتجعلُ ليثاً ذا عرين تَرى لـه   نُيوباً وأظْفاراً وعِرساً وأشبُلاَ

كآخرَ ذا نابٍ حديدٍ ومِخْلـبٍ   ولم يتَّخذ عِرْساً ولم يَحْمِ مَعْقِلاَ

وذلك أن فتيين تواجئا بالخناجر، أحدهما صُبيريّ والآخر كلْبيّ، فحُملا إلى الأمير، فضرب الصُّبيريَّ مائة سوط، فلم يحمدوا صبره، وشغل عن الكلبي فضربه يوم العَرْض خمسمائة سوط، فصبر صبراً حمِدوهُ، ففخر الْكلبيُّ بذلك على الصُّبيري.
وابن مناذر مولى سُليمان بن عبيد بن علاّن بن شمّاس الصُّبيري، فقال هذا الشعر، ومعناه أنّ شُجاعاً لو لقي الأسد وهو مسلَّح، بأرضٍ هو بها غريبٌ وليس هو بقرب غيضتِهِ وأشباله، لما كان معه، مما يتخذه، مثل الذي يكون معه في الحال الأخرى، يقولُ: وإنما صبرَ صاحبُكم لأنّه إنما ضُربَ بحضرة الأكفاء والأصدقاء والأعداء، فكان هذا مما أعانه على الصّبر، وضُربَ صاحبُنا في الخلاء، وقد وُكل إلى مقدار جودة نَفْسه، وقطعت المادةُ بحضور البطالة.
حمدان وغلامه وسمعتُ حمدانَ أبا العقب، وهو يقولُ لِغلامٍ له، وكيف لا تستطيل عليَّ وقد ضربُوك بين النّاس خمسين سوطاً فلم تنطِق؟ فقلت: إذا ضربه السَّجَّانُ مائةَ قناةٍ في مكانٍ ليس فيه أحدٌ فصبرَ فهو أصبرُ النّاس.
تفسير بيت الخنساء وأمّا قوله: مشْي السّبَنْتَى، فإن السبَّنتى هو النمر، ثمَّ صار اسماً لكلِّ سبع جريء، ثم صاروا يسمُّون الناقة القوية سَبَنْتاة، قال الشّاعرُ:

مَشْي السَّبتى وجد السَّبَنْتى

رؤساء الحيوان وأمّا قولُهُ:

وَتمْسح النِّيلِ عُقاب الهوا   والليثُ رأسٌ وله الأسْرُ

ثلاثةٌ ليْسَ لَهُمْ غـالـبٌ   إلاَّ بما يَنْتَقِضُ الدَّهْرُ

فإنّهم يزعمون أنَّ الهواء للعقاب، والأرض للأسد، والماء للتِّمساح، وليس للنّار حظٌّ في شيءٍ من أجناس الحيوان: فكأنّه سلّم الرياسة على جميع الدُّنيا للعُقاب والأسد والتمساح؛ ولم يَمُد الهواءَ، وقصْرُ الممدود أحْسَنُ من مدِّ المقصور.
رواية المعتزلة للشعر وروت المعتزلةُ المذكورون كلُّهمْ رواية عامَّةِ الأشعار، وكان بشرٌ أرواهم للشِّعر خاصَّةً.

الهوائي والمائي والأرضي من الحيوان وقولهم: الطائر هوائيٌّ، والسمك مائيٌّ، مجازُ كلام، وكلُّ حيوان في الأرض فهو أرضيٌّ قبل أن يكون مائيّاً أو هوائياً؛ لأنَّ الطَّائر وإنْ طار في الهواء فإنّ طيرانَهُ فيه كسباحةِ الإنسان في الماء، وإنّما ذلك على التكلفِ والحيلة، ومتى صار في الأرض ودلّى نفسه لم يجدْ بُدّاً من الأرض.
بقية قصيدة بشر الأولى وأمّا بَقِيَّةُ القصيدةِ التي فيها ذكر الرَّافضة والإباضيَّةِ والنَّابتة فليس هذا موضع تفسيره.
وسنقولُ في قصيدته الأخرى، بما أمكننا من القول إن شاء اللّه تعالى.
انقضت قصيدةُ بشر بن المعتمر الأولى.

تفسير القصيدة الثانية

وأما قوله:

أوابد الوحش وأحناشها

فإن الأوابد المقيمة، والأحناشُ الحيّات، ثم صار بعدُ الضبُّ والوَرَلُ والحِرباء والوحَرة وأشباه ذلك - من الأحناش.
وأما قوله:

وكلُّها شرٌّ وفي شَرِّها خيرٌ كثيرٌ عند مَنْ يدري

يقولُ: هي وإن كانَتْ مؤذيَةً وفيها قواتل فإن فيها دواءً، وفيها عبرةً لمن فكّر، وأذاها محنة واختبارٌ، فبالاختبار يطيع النّاسُ، وبالطاعة يدخلون الجنّة.
وَسئلَ علي بن أبي طالب، كرم اللّه وجههُ، غير مرَّةٍ في عِلَلٍ نالته فقيل لهُ: كيف أصبحت؟ فقال: بشرٍّ، ذهبَ إلى قوله عزّ وجلّ:"قُلْ أعوذُ بربِّ الْفَلَق، مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ".
وأمّا قوله:

فَشَرُّهُمْ أكثرُهُمْ حِيلةً كالذِّئْبِ والثّعْلَبِ والذَّرّ

فقد فسرهُ لك في قوله:

والليث قد بلّده عِلْمُـهُ بما حوى من شدّةِ الأسْرِ

وهكذا كلُّ من وثِقَ بنفسه، وقلَّت حاجته.
ويزعم أصحابُ القنصِ أنّ العُقاب لا تكادُ تراوغ الصَّيد ولا تعاني ذلك، وأنَّها لا تزال تكونُ على المرقبِ العالي، فإذا اصطاد بعضُ سباع الطير شيئاً انقضّتْ عليه فإذا أبصرها ذلك الطائرُ لم يكن همه إلا الهرب وترْك صيدِهِ في يدها، ولكنها إذا جاعت فلم تجدْ كافياً لم يمتنعْ عليها الذّئبُ فما دونَه، وقد قال الشّاعرُ:

مُهَبّلٌ ذئبها يوماً إذا قلَبَتْ   إليه من مُسْتَكَفِّ الجوِّ حملاقا

وقال آخر:

كأنّها حين فاض الماءُ واحتمِلَتْ صَقْعاءُ لاحَ لها بالقفرَةِ الذّيبُ

صُبَّتْ عليه ولم تنصبَّ من أمم   إنَّ الشَّقاء على الأشقيْنَ مصبوبُ

وأمَّا قوله:

تَعْرفُ بالإحساسِ أقدارها   في الأسر والإلحاح والصَّبر

يقول: لا يخفى على كلِّ سبع ضعفُه وتجلدُه وقوته، وكذلك البهيمةُ الوحشيَّةُ لا يخفى عليها مقدارُ قوةِ بدنِها وسلاحها، ولا مقدارُ عَدْوِها في الكرِّ والفر، وعلى أقدار هذه الطّبقات تظهر أعمالها.
وأمّا قوله:

والضَّبُع الغَثْراء مع ذيخها   شرٌّ من اللّبْوَة والنَّمر

كما تَرى الذّئب إذا لم يُطِق   صاح فجَاءَت رَسلاً تجري

وكُلُّ شيءٍ فعلى قدْرِهِ   يُحْجِمُ أو يُقْدِمُ أو يَجْري

فإنَّ هذه السِّباع القويَّة الشَّريفة ذواتِ الرِّياسةِ: الأُسْد والنُّمور والبُبُورَ - لا تعرض للنَّاس إلاّ بعد أن تهرم فتعجِزَ عن صيد الوَحش، وإن لم يكنْ بها جوعٌ شديدٌ فمرَّ بها إنسانٌ لم تعْرِضْ له، وليس الذّئبُ كذلك، لأن الذّئبَ أشدُّ مطالبةً، فإن خاف العجز عوى عُواء استغاثة فتسامعت الذّئاب وأقبلتْ، فليس دون أكل ذلك الإنسانِ شيءٌ.
وقسّم الأشياء فقال: إنّما هو نكوصٌ وتأخُّر، وفِرارٌ، وإحجام وليس بفرار ولا إقدام، وكذلك هو، وأمَّا قوله:

والكَيْسُ في المكسبِ شَمَلٌ لهم   والعندليل الفرخ كالنَّسْر

فالعندليل طائرٌ أصغر من ابن تمرة، وابنُ تمرة هو الذي يُضرب به المثلُ في صغر الجسم، والنَّسر أعظمُ سباع الطَّير وأقواها بدناً.
وقال يونسُ النحويُّ وذكر خلفاً الأحمر فقال: يضربُ ما بين العندليل إلى الكُركيّ، وقد قال فيه الشّاعر:

ويضربُ الكركي إلى القُنبرِ　　لا عانساً يبقى ولا مُحْتلِمْ

وقال:

وبما أقولُ لصاحبي خلفٍ　　إيهاً إليك تَحَذّرَنْ خَلَفُ

فلو أنّ بيتك في ذُرى عَلَمٍ　　من دُونِ قُلَّةِ رأسِهِ شَعَفُ

لخشيتُ قدرك أن يبيتها　　إن لم يكن لي عنه مُنصرفُ

وفي المثل: كلُّ طائرٍ يصيدُ على قدْرِه.
كسب الذئب وخبثه وأمَّا قوله:

والخُلد كالذّئب على كَسْبِهِ　　والفيلُ والأعلمُ كالوَبْرِ

فإنّه يقالُ: أغدرُ من ذئب وأخبث من ذئب، وأكسبُ من ذئب، على قول الآخر:

أكسبُ لِلْخَيْرِ من الذّئْبِ الأزَلّ

والخير عنده في هذا الموضع ما يُعيش ويقُوت، والخير في مكانٍ آخر: المالُ بعينه على قوله عزّ وجلّ: "إنْ ترَكَ خيْراً الْوصِيَّةُ"، وعلى قوله: "وإنَّهُ لِحُبِّ الخيْرِ لَشَدِيدٌ"، أي إنّه من أجل حبِّ المال لبخيلٌ عليه، ضنين به، متشدِّد فيه.
والخير في موضعٍ آخر: الخصب وكثرة المأكول والمشروب، تقول: ما أكثر خير بيتِ فلان، والخير المحض: الطّاعة وسلامة الصدر.
وأمَّا قولهم: أخبث من ذِئْبِ خَمَرَ فعلى قول الرَّاجز:

أما أتاك عَنِّي الحديثُ　　إذّ أنا بالغائط أستغيثُ

والذّئْبُ وسط أعنُزي يَعِيثُ　　وصحتُ بالغائط يا خبيثُ

وقالوا في المثل: مُستودع الذئب أظلم.
الخلد والخُلد دويبةٌ عمياءُ صماءُ، لا تعرف ما يدنُو منها إلا بالشّمِّ، تخرُج من جُحرها، وهي تعلم أن لا سمع ولا بصَر لها، وإنما تَشْحا فاها، وتقفُ على باب جُحرها فيجيء الذُّباب فيسقط على شِدقها ويمرُّ بين لَحييها فتسُدُّ فمها عليها وتستدخلها بجذْبة النّفس، وتعلمُ أن ذلك هو رزقها وقسمها، فهي تعرِض لها نهاراً دون اللّيل، وفي السّاعات من النهار التي يكون فيها الذباب أكثر، لا تفرِّط في الطَّلب، ولا تقصِّر في الطلب، ولا تخطئ الوقت، ولا تغلط في المقدار.

وللخلد أيضاً ترابٌ حواليْ جُحره، هو الذي أخرجه من الجحر، يزعمون أنّه يصلُحُ لصاحب النِّقرس إذا بُلّ بالماء وطُلي به ذلك المكان.
الأعلم وأمّا قوله:

والفيل والأعلم كالوبْر

فالفيل معروف، والأعلم: البعير، وبذلك يسمّى، لأنّه أبداً مشقوقُ الشَّفةِ العليا، ويسمّى الإنسان إذا كان كذلك به.
ويدلُّ على أن الأعلم والبعير سواء قولُ الراجز:

إني لمن أنكر أو توسَّما　　　أخو خناثيرَ أقود الأعلما

وقال عنترة:

وحليل غانيةٍ تركتُ مجدَّلاً　　　تمْكُو فريصتُه كشِدْق الأعْلم

يريد شِدْق البعير في السعة، وقال الآخر:

كم ضربةٍ لك تحْكي فاقراسِيَةٍ　　　من المصاعِب في أشداقِهِ عَلَمُ

بعض ما قيل من الشعر في صفة الضرب والطعن وقال الكميت:

مَشافِرَ قرْحى أكلْن البَريرا

وقال آخر:

بضربٍ يُلقِحُ الضِّبْعانُ مِنْهُ　　　طرُوقته ويأتنِفُ السِّفادا

وقال الشاعر الباهليّ:

بضَرْبٍ كآذان الفِراء فُضولُه　　　وطعَنٍ كإيزاغ المخاض تَبُورُها

كأنّه ضربَه بالسَّيف، فعلِق عليه من اللحم كأمثال آذان الحمير.
وقال بعضُ المحدثين، وهو ذو اليمينين:

ومقْعصٍ تشْخَبُ أوداجُه　　　قد بانَ عن مَنْكِبه الكاهلُ

فصارَ ما بينهما هُوَّةً　　　يمشي بها الرَّامحُ والنّابلُ

وفي صفات الطّعنة والضَّربة أنشدني ابنُ الأعرابيّ:

تمنَّى أبو اليقظانِ عندي هَـجْـمَـةً فسهَّل مأوى ليلها بالـكـلاكِـلِ

ولا عَقْلَ عندي غيرُ طعنِ نوافـذٍ وضربٍ كأشداق الفِصال الـهوازلِ

وسَبٍّ يود المرءُ لو مـاتَ دُونـه كوقع الهضابِ صُدِّعَتْ بالمعاولِ

وقل الآخر:

جَمَعْتُ بها كفِّي فأنْهرْت فتْقها ترى قائماً من خلفها ما وراءها

وقال البعيث:

أئن أمرعَت مِعْزى عطِيَّة وارتعتْ تِلاعاً من المرُّوت أحْوى جميمها

تعرَّضْت لي حتّى ضربتُك ضربةً على الرّأس يكبو لليدين أميمـهـا

إذا قاسها الآسِي النِّطاسيُّ أرعِشَتْ أنـاملُ آسيها وجاشَتْ هُزُومـهـا

وقال الآخر:

ونـائحة رافعٍ صـوتُـهـا تَنُوحُ وقد وقعَ المِـهْـذَمُ

تَنُوحُ وتُـسْـبَـرُ قـلاّسَـةً وقد غابت الكفُّ والمعْصَمُ

وقال آخر:

ومُستَنَّةٍ كاستنان الـخـرُو فِ قدْ قطعَ الحبلَ بالمِرْودِ

دفوع الأصابع ضَرْحَ الشَّمُو سِ نجلاءَ مُؤْيسةِ الـعُـوَّدِ

وقال محمد بن يسير:

وطعن خليسٍ كفرْغ النّضيح أفْرغ منْ ثعبِ الـحـاجِـر

تُهالُ العوائدُ من فتْـقِـهـا تردُّ السِّبارَ على السّـابـر

وأنشدوا لرجلٍ من أزْد شنوءة:

وطعْنَ خَليسٍ قد طعنت مُرِشّةٍ   يقطّعُ أحشاءَ الجبان شهيقها

إذا باشرُوها بالسِّبار تقطّعتْ   تقطع أم السكر شيب عقوقُها

وروي للفِنْدْ الزِّمَّاني ولا أظنُّه له:

كففنا عن بنى هنـدٍ   وقلنا القومُ إخـوانُ

عسى الأيامُ ترجعهم   جميعاً كالذي كانـوا

فلمَّا صرحَ الـشرُّ   وأضحى وهو عريانُ

شددنا شـدّةَ الـليثِ   عدا والليثُ غضبـانُ

بضربٍ فيه تفـجيعٌ   وتـوهينٌ وإرنـانُ

وطعن كفم الـزقِّ   وهي والزقُّ مـلآنُ

وأنشد السُّدّيّ لرجل من بلحارث:

أتيت المحرم فـي رحلـه   فشمرَ رحلى بعنسٍ خبـوبْ

تذكر منِّى خطوباً مـضـت   ويومَ الأباء ويومَ الكـثـيب

ويومَ خزازَ وقدْ ألـجمـوا   وأشرطت نفسى بأن لا أثوب

ففرجتُ عنهـم بـنـفـاحةٍ   لها عائدٌ مثلُ ماء الشعيب

إذا سبروها عوى كلـبـهـا   وجاشتْ إليهم بآنٍ صـبـيبْ

وقال آخر:

طعنةٌ ما طعنتُ في جمح الدَّ   مَّ هلالٍ وأين منِّى هـلالُ

طعنة الثائر المصمم حتـى   نجم الرمحُ خلفه كالخـلال

وقال الحارث بن حِلِّزَة:

لا يقيم العزيز بالبلدِ السهـ ... ل ولا ينفعُ الذليلَ النجـاءُ

حولَ قيسٍ مستلئمين بكبشٍ ... قرظىً كـأنـهُ عـبـلاءُ

فرددناهم بضربٍ كما يخ ... رجُ من خربة المزادِ الماءُ

وفعلنا بهمْ كما علم اللـه ... وما إنْ للحـائنـين دمـاءُ

وقال ابن هَرْمة:

بالمشرفيّة والمظاهر نَسْجُها ... يَوْمَ اللّقاء وكلّ وَرْدٍ صاهِلِ

وبكلّ أرْوَعَ كالحريق مُطاعنٍ ... فمسايفٍ فمعانقٍ فمُنـازل

ويروى: فمعاذل.
الإفراط في صفة الضرب والطعن وإذّ قد ذكرنا شيئاً من الشِّعر في صفة الضرب والطعن فقد ينبغي أن نذكر بعض ما يشاكلُ هذا الباب من إسرافِ من أسْرَفَ، واقتصادِ من اقتصد، فأما من أفْرط فقول مُهلهل:

فلولا الرِّيحُ أسْمِعُ مَنْ بحجْرٍ ... صليلَ البيض تُقْرَعُ بالذُّكور

وقال الهذلي:

والطعن شَغْشَغَةٌ والضّرْبُ هَيْقـعة ... ضَرْبَ المعوِّل تحتَ الدِّيمة العضدا

وللقسـيِّ أزاميلٌ وغـمْـغـمَةَ ... حِسَّ الجنوبِ سوق الماء والقـردا

ومن ذلك قول عنترة:

برَحيبة الفَرْغين يهدي جرْسُها ... باللّيْل مُعْتسَّ السِّباع الضُّـرَّمِ

وقال أبو قيس بن الأسلت:

قد حصَّت البيضةُ رأسي فما ... أطْعَمُ نوماً غيرَ تَـهـجـاعِ

وقال دُريد بن الصِّمَّة:

أعاذِلُ إنَّما أفنـى شبـابـي   رُكوبي في الصَّريخ إلى المنادي

مع الفتيان حتّى خلّ جِسْمـي   وأقْرَحَ عاتِقي حَمْلُ الـنِّـجـادِ

وممّا يدخُل في هذا الباب قولُ عنترة:

رُعْناهم والخيلُ تَرْدي بالقنا   وبكُلِّ أبْيضَ صارمٍ قصَّالِ

وأنا المنيّة في المواطِنِ كلّها   والطَّعْنُ مِنِّي سابقُ الآجالِ

وأمَّا قوله:

إنّ المنيَّة لَوْ تُمَثَّلُ مُـثِّـلَـتْ   مِثلي إذا نَزلوا بِضنْكِ المنزلِ

وقال نـهشل بن حَرِّيّ:

وما زال رُكْني يرتقي مـن ورائه وفارسُ هيجا ينفض الصدر واقفُ

فوصف نفسه بأنّه مجتمع القلب، مرير لا يبرح.
وقد كان حميد بن عبد الحميد يوصف بذلك ،لأنّه كان لا يرمي بسَهْم، ولا يطعنُ برُمح، ولا يضربُ بسيفٍ، ولكن التصبير والتَّحريض والثبات، إذا انـهزمَ كلُّ شُجاع منْ نذر في حميّة المقتول نذْرا فبلغ في طلب ثأره الشفاء. قال العبسيّ:

دَعَوْتُ اللّه إذْ قدْنا إلـيهـمْ   لَنَلْقى مِنْقراً أو عَبْدَ عَمْرو

وكانَتْ حَلْقَةٌ حُلِقَتْ لِـوِتْـرٍ   وشاء اللّهُ أنْ أدْرَكْتُ وتري

وإنّي قد سَقِمْتُ فكان بُـرئي   بقِرْواش بن حارثة بن صَخْرِ

والأعرابُ تعدُّ القتْلَ سُقماً وداءً لا يبرئـه أخذ ثأره دون أخٍ أو ابن عمٍّ، فذلك الثأرُ المنيم.
وممَّن قال في ذلك صبَار بن التوءم اليشكري، في طلب الطّائلة وأنّ ذلك داءٌ ليس له بُرء، وكانوا قتلوا أخاه إساف بن عباد، فلما أدرك ثأره قال:

ألمْ يأتِها أنِّي صَحَوْتُ وأنَّـنـي   شفاني من الدَّاء المُخامِرِ شـافِ

فأصبحْتُ ظبياً مُطْلقاً من حِبـالةٍ صحيحَ الأديم بَعْد داءٍ إسـاف

وكنتُ مغطّى في قناعِي حِقْبةً كَشَفْتُ قناعي واعتطفْتُ عطافي

وفي شبيه بهذا المذهب منْ ذكر الدّاء والبُرء قال الآخر:

قالتْ عهدِتك مجنوناً فقلتُ لها إن الشّبابَ جُنونٌ بُرؤهُ الكبرُ

وفي شبيهٍ بالأوّل قول الشّيخ الباهليِّ، حين خرج إلى المبارزَةِ على فرسٍ أعجف، فقالوا: بالٍ على بالٍ، فقال الشّيخ:

رآني الأشْعَريُّ فقالَ بـالٍ على بالٍ ولم يعرفْ بلائي

ومثلُك قد كَسَرْتُ الرُّمْحَ فيه فآبَ بدائه وشـفَيْتُ دائي

وقالت بنتُ المنذر بن ماء السَّماءِ:

بعين أباغ قاسَمْنا المنـايا فكان قسِيمُها خيْرَ القسـيم

وقالوا فارس الهيْجاء قلنـا كذاك الرُّمح يَكْلَفُ بالكريم

وقال الأسدي:

رفعْنا طريفاً بأرْمـاحنـا وبالرَّاح مِنَّا فلم يدفعونـا

فطاح الوَشيظُ ومالَ الجُمُوحُ ولا تأكلُ الحَرْبُ إلا السَّمينا

وقال الخريمي:

وأعددتُه ذُخْراً لكلِّ مُلِمَّةٍ وسَهْمُ المنايا بالذخائر مُولعُ

وقال السموءلُ بنُ عاديا:

يقرِّبُ حُبُّ الموتِ آجالنا لنا وتَكْرَهُه آجالهمْ فتطولُ

لأنّا أناسٌ لا نرى القتْلَ سُبّةً إذا ما رأتْه ُعامرٌ وسلولُ

وقال أبو العيزار:

يَدْنُو وتَرْفَعُهُ الرِّماحُ كـأنّـهُ شِلْوٌ تَنَشَّبَ في مخالِبِ ضاري

فتوى صريعاً والرِّماحُ تَنُوشُه إنّ الشُّراة قصيرةُ الأعمـار

وقال آخر وهو يُوصي بِلُبْس السِّلاح:

فإذا أتَتْكُمْ هذه فتلـبَّـسُـوا إنَّ الرِّماحَ بصيرةٌ بالحاسر

وقال الآخر:

يا فارسَ الناس في الهيجا إذا شُغلتْ كِلتا اليدينِ كرُوراً غَيْرَ وقـافِ

قوله شُغِلَتْ يريد بالسّيف والتُّرس، وأنشد أبو اليقظان: وكان ضروباً باليدين وباليَدِ أمَّا قوله: ضروباً باليدين، فإنّه يريد القِداح، وأمّا قوله: باليد فإنّه يريد السَّيف.

وأمّا قول حسّان لقائده حين قرَّبوا الطّعام لبعض الملوك: أطعام يدين أم يد؟ فإنه قال هذا الكلام يومئذ وهو مكفوفٌ.

وإن كان الطعام حَيْساً أو ثريداً أو حريرة فهو طعام يدٍ، وإن كان شواءً فهو طعام يدَين.

من أشعار المقتصدين في الشعر ومن أشعار المقتصدين في الشِّعر أنشدني قطرب:

تركْت الرِّكابَ لأربابها فأجْهَدْتُ نفسي على ابن الصَّعِقْ

جَعَلْتُ يديَّ وشـاحـاً لـه وبعضُ الفوارس لا يعتنق

وممن صدق على نفسه عمرو بن الإطنابة، حيثُ يقول:

وإقدامي على المكْروهِ نَفْسي وضرْبي هامَةَ البطلِ المشيَح

وقولي كُلَّما جَشأتْ وجَاشَـتْ مَكانَكِ تُجْمَدي أوْ تَسْتَريحـي

وقل آخر:

وقلتُ لِنفسي إنّما هو عـامرٌ فلا ترهَبيه وانظُري كيف يركبُ

وقال عَمرو بن مَعْدِ يكرب:

ولّما رأيتُ الخيلَ زُوراً كأنَّـهـا جَدَاولُ زَرْعٍ أُرْسِلَتْ فاسْبَطَرَّتِ

فجاشَتْ إليّ النَّفْسُ أولّ مَـرَّةٍ فَرُدَّتْ على مَكْرُوهِها فاسْتقرَّتِ

وقال الطّائيُّ:

ودَنَـوْنـا ودَنَـوْا حـتّــى إذا أمْكنَ الضّرْبُ فمنْ شاءَ ضربْ

ركضتْ فِينـا وفِـيهـمْ سـاعـةٌ لَهذَميّاتٌ وبيضٌ كـالـشُّـهُـبْ

تروا القـاعَ لـنـا إذْ كَـرِهُـوا غمراتِ الموتِ واختارُوا الهَربْ

وقال النّمر بنُ تولب:

سَمَوْنـا ليشْكُر يَوْمَ النِّهابِ نـهزُّ قناً سَمْهرِيّاً طِوالاَ

فلمّا التقينا وكان الْجِـلادُ أحَبّوا الحياة فولّوْا شِلالا

وكما قال الآخر:

هُم المقْدِمُون الْخيلَ تَدْمى نُحورُهـا إذا ابيضَّ من هَوْلِ الطّعان المسالحُ

وقال عنترة:

إذْ يتَّقون بي الأسنّةَ لم أخِـمْ عنْها ولكني تضايقَ مُقْدمي

وقال قطريُّ بن الفُجاءة:

وقولي كلّما جشأتْ لنـفـسـي من الأبطالِ ويْحكِ لا تُراعـي

فإنّكِ لـوْ سـألـتِ حـياةَ يومٍ سوى الأجلِ الذي لكِ لم تُطاعي

وقالت الخنْساء:

يُهينُ النُّفوس وهَوْنُ النفوس غداة الكريهةِ أبقى لـهـا

وقال عامر بن الطُّفيل:

أقولُ لنفسٍ لا يجادُ بمثلـهـا　　　　أقِلّي المراح إنَّني غيرُ مُقْصِرِ

وقال جرير:

إن طارَدُوا الخيل لم يُشْوُوا فوارسها　　أو نازلوا عانَقُوا الأبطال فاهتصروا

وقال ابن مقروم الضّبيّ:

وإذا تُعلَّل بالسِّياطِ جيادُها　　　　أعطاك ثائبةً ولم يَتَعَلَّلِ

فدعوا نَزالِ فكنتُ أوّل نازلِ　　　　وعلامَ أركبهُ إذا لم أنـزلِ

وقال كعب الأشقري:

إليهم وفيه منتهى الحزم والنـدى　　وللكربِ فيهم والخصاصةِ فاسـحُ

ترى علقاً تغشى النقوش رشـاشـه　　إذا انفرجت من بعدهنّ الجـوانـح

كأن القنا الخطيَّ فينـا وفـيهـم　　أشاطينُ بئرٍ هيجتهـا الـمـواتـحُ

هناك قذفنا بـالـرمـاح فـمـائلٌ　　هنالك في جمع الفريقـين رانـحُ

ودرنا كما دارتْ على قطبها الرحى　　ودارت على هامِ الرجال الصفائح

وقال مهلهل:

ودلَفْنا بجمعنا لـبـنـي شَـيْ　　　　بان إن الخليل يبغي الخـلـيلاَ

لم يُطيقوا أن ينزلوا ونـزلْـنـا　　　　وأخو الحرب من أطاق النزولا

وقال عبدة، وهو رجلٌ من عبد شمس:

ولما زجرْنا الخيلَ خاضَتْ بنا القنا　　كما خاضت البُزْلُ النِّهاءَ الطَّواميا

رمَوْنا برشْقٍ ثـمَّ إنَّ سيوفنـا　　　　ورَدْن فأنكرْن القبيل المـرامـيا

ولم يكُ يثني النَّبل وقعُ سُيوفنـا   إذا ما عقدنا للجلادِ النّـواصيا

في ذكر الجبن ووهل الجبان قال اللّه عزَّ وجلّ: "يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحةٍ عَلَيْهمْ هُمُ الْعَدُوُّ فاحْذَرْهُمْ قاتلَهُمُ اللّه أنّى يُؤْفكُون"، ويقال إن جريراً من هذا أخذ قوله:

ما زلتَ تحسِبُ كُلَّ شيءٍ بعدَهُمْ   خيلاً تكرُّ عليكم ورجـالا

وإلى هذا ذهب الأوَّل:

ولو أنّها عصفورةٌ لحسبتها   مُسَوَّمةً تدعُو عُبيداً وأزْنما

وقال جران العود:

يومَ ارْتحلت برَحْلي قبْل برذعتي   والقلْبُ مُسْتَوْهِلٌ للبَيْنِ مشغولُ

ثمَّ اغترزتُ على نِضْوى ليحملني   إثر الحُمول الغوادي وهو معقولُ

وهذا صفة وهل الجبان، وليس هذا من قوله:

كملقي الأعنّةِ من كَفّهِ   وقادَ الجيادَ بأذنابهـا

وقال الذّكواني أو زمرة الأهوازيّ، ففسر ذلك حيث يقول:

يجعلُ الخيل كالسّفينِ ويَرْقى   عادياً فوق طِرْفِهِ المَشْكولِ

لأنهم ربّما تنادوا في العَسكر: قد جاؤوا، ولا بأس فيُسرج الفارس فرسه وهو مشكولٌ ثم يركبه ويحثُّه بالسَّوط، ويضربُه بالرِّجل، فإذا رآه لا يُعطيه ما يريدُ نزل فأحْضر على رجليه، ومنْ وهل الجبان أن يُذْهل عن موضع الشّكال في قوائم فرسه، وربما مضى باللِّجام إلى عَجْب ذنبه، وهو قوله: يجعل الخيْل كالسّفين لأنّ لجام السفينة الذي يغمزها به والشِّكال هو في الذّنب.
وقال سهل بن هارون الكاتب في المنهزمة من أصحاب ابن نهيك بالنَّهروان من خيل هَرْثمة بن أعْين:

يُخيِّلُ للمهزومِ إفراطُ رَوْعِه   بأنّ ظهورَ الخيل أدنى من العَطبْ

لأنّ الجُبْنَ يُريه أنّ عَدْوَه على رجليه أنجى له، كأنّه يرى أنّ النَّجاة إنّما تكونُ على قدر الحمل للبدن. وقال آخر حينَ اعْتلّ عليه قومُه في القتال بالورع:

كأنّ ربَّك لم يَخْلقْ لِخَشيتـه   سِواهُمُ مِنْ جميعِ النّاس إنسانَا

وقال آخر:

كأنّ بلادَ اللّـه وهـي عريضةً   على الخائفِ المطلوب كِفّة حَابل

وقال الشّاعر:

يروِّعه السِّرارُ بكُلِّ أرضٍ   مخافة أن يكون به السِّرارُ

وأنشدني ابن رُحيم القراطيسي الشاعر ورمى شاطراً بالجبن، فقال:

رأى في النَّوم إنساناً   فوارَى نفْسَهُ أشهرْ

ويقولون في صفة الحديد إذا أرادوا أنّه خالص، فمن ذلك قول هِميان:

يمشون في ماء الحديدِ تنكُّبا

وقال ابنُ لجأ:

أخضر من ماءِ الحديدِ جِمْجِم

وقال الأعشى في غير هذا:

وإذا ما الأكسُّ شبـه بـالأرْ   وَق عند الـهيجا وقلَّ البُصاقُ

وقال الأعشى:

إذْ لا نقاتل بالعِصيِّ   ولا نُرامي بالحجارَه

وقال الأخطل:

وما تركتْ أسيافُنا حينَ جُـرِّدَتْ   لأعدائنا قيس بن عيلان من عُذر

وأنشد الأصمعيُّ للجعديّ:

وبنـو فـزارة إنّـهـا   لا تُلْبث الحلبَ الحلائبْ

يقول: لا تُلْبِثُ الحلائِبَ حَلَباً حتى تَهْزِمَهُم.
السّندل وأمَّا قوله:

وطائر يسبح في جاحمٍ كماهِرِ يسبحُ في غَمر

فهذا طائرٌ يسمَّى سَنْدل، وهو هِنْديّ، يدخل في أتون النّار ويخرج ولا يحترق له ريشة.
ذكر ما لا يحترق وزعم ثُمامة أن المأمون قال: لو أخذ إنسانٌ هذا الطُّحلب الذي يكون على وجّه الماء، في مناقع المياه، فجفّفه في الظلّ وألقاه في النّار لما كان يحترق.
وزعموا أنّ الفلفل لا يضرُّه الحرق، ولا الغرق، والطَّلق لا يصير جمراً أبداً، قال: وكذلك المَغْرة.
فكأنّ هذا الطَّائرَ في طباعه وفي طباع ريشه مزاجٌ من طلاء النّفاطين، وأظنُّ هذا من طلق وخَطْمِيٍّ ومَغْرة.
وقد رأيْت عُوداً يُؤْتى به من ناحية كِرْمان لا يحترق، وكان عندنا نصرانيٌّ في عنقه صليبٌ منه، وكان يقول لضعفاء الناس: هذا العود من الخشبة التي صُلب عليها المسيح، والنّار لا تعمل فيها، فكان يكتسب بذلك، حتّى فُطن له وعورض بهذا العُود.
الماهر وأمّا قوله:

كماهِرِ يسبحُ في غَمْر

فالماهر هو السَّابح الماهر وقال الأعشى:

مِثْلَ الفراتيّ إذا ما طما يقذِفُ بالبُوصيِّ والماهر

وقال الربيع بن قعْنب:

وترى الماهِرَ في غَمْرتِـه ثل كَلْبِ الماء في يومِ مَطِرْ

لطعة الذئب صونعة السرفة والدبر وأمَّا قوله:

ولطعة الذّئب على حَسْوِهِ وصَنْعَة السّرْقة والدَّبر

قال: فإنّ الذّئب يأتي الجمل الميِّت فيفضي بغمغمته، فيعتمدُ على حجاج عينه فيلْحسُ عينه بلسانه حسْياً، فكأنّما قُوِّرت عينُه تقويراً، لِما أعُطِيَ من قوَّة الرَّدَّة، وردُّه لسانه أشدُّ مرّاً في اللَّحم والعصب من لسان البقر في الخلى.
فأمّا عضّتُه ومصّتُه فليس يقعُ على شيء عظماً كان أو غيره إلاّ كان له بالغاً بلا

معاناةٍ، من شدّة فكيه.
ويقال: إنّه ليس في الأرض سبعٌ يعضُّ على عظمٍ إلاّ ولِكَسرْته صَوتٌ بين لحييه، إلاّ الذئب، فإنّ أسنانه توصف بأنّها تبري العظم برْي السَّيف المنعوت بأنّ ضربته من شدّة مُرورها في العظم، ومن قلّة ثبات العظْم له، لا يكون له صوت، قال الزُّبير بن عبد المطّلب:

ويُنْبي نخوَةَ المحتال عَنّي　　　غموضُ الصوت ضَرْبته صَمُوتُ

ولذلك قالوا في المثل: ضربه ضربةً فكأنما أخطأه، لسرعة المرِّ، لأنّه لم يكن له صوت.
وقال الرَّاجز في صفة الذّئب:

أطلس يخفي شخصه غُبارُه　　　في شدْقِه شَفْرته ونـارُهُ

وسنأتي على صفة الذئب، في غير هذا البابِ من أمره في موضعه إن شاء اللّه تعالى.
وأمَّا ذِكر صَنْعة السُّرْفة والدَّبْر، فإنّه يعني حكمتها في صنعة بيوتها، فإنّ فيها صنْعَةً عجيبةً.
سمع القُراد والحِجر وأمّا قوله:

ومَسْمع القِرْدان في مَنْهَلٍ　　　أعجبُ ممّا قيل في الحِجْرِ

فإنهم يقولون: أسمعُ مِنْ فَرَسٍ، ويجعلون الحجْر فرساً بلا هاء، وإنَّما يعنون بذلك الحِجْر، لأنها أسمع.
قال: والحِجْر وإن ضُرِبَ بها المثل، فالقُرادُ أعْجب منها، لأنها تكون في المنهل فتموج ليلة الورْد، في وقت يكون بينها وبين الإبل التي تريد الورود أميالٌ، فتزعمُ الأعراب أنها تسمعُ رغاءها وأصوات أخفافها، قبل أنْ يسمعها شيء.
والعرب تقول: أسمعُ منْ قُراد، وقال الرَّاجز:

أسمعُ منْ فَرْخِ العُقابِ الأسحمِ

ما في الجمل من الأعاجيب وأمَّا قوله:

والمقْرم المعْلم ما إن لـه　　　مَرارة تُسْمَعُ في الذّكر
وحصية تنصلُ من جَوفِـه　　　عِنْدَ حُدوث الموتِ والنَّحْر
ولا يرى بعدهما جـازرٌ　　　شقشقة مـائلة الـهدْر

فهذا بابٌ قد غلط فيه من هو أعْنى بتعرُّف أعاجيب ما في العالم من بشرْ.
ولقد تنازع بالبصرة ناسٌ، وفيهم رجلٌ ليس عندنا بالبصرة أطيبُ منه، فأطبقوا جميعاً على أنَّ الجمل إذا نُحِر ومات فالتُمست خُصْيته وشقشقتُه أنهما لا توجدان، فقال ذلك الطيِّب: فلعلَّ مرارة الجمل أيضاً كذلك، ولعلّه أن تكون له مرارةٌ ما دام حيّاً، ثمَّ تبطل عند الموت والنَّحر، وإنّما صرنا نقول: لا مرارَة له، لأنّا لا نصلُ إلى رؤية المرارة إلاّ بعد أن تفارقه الحياة، فلم أجد ذلك عمل في قلبي، مع إجماعهم على ذلك، فبعثت إلى شيخ من جزّاري باب المغيرة فسألته عن ذلك، فقال: بلى لعمري إنهما لتوجدان إن أرادهما مريد، وإنّما سمعت العامّة كلمةً، وربّما مزَحْنا بها، فيقول أحدنا: خُصية الجمل لا توجد عند مَنْحره أجلْ واللّه ما توجدُ عند منحره، وإنما توجد في موضعها، وربّما كان الجمل خياراً جيّداً فتلحق خصيتاه بكليتيه، فلا توجدان لهذه العلّة، فبعثت إليه رسولاً: إنّه ليس يشفيني إلاّ المعاينة، فبعث إليَّ بعد ذلك بيومٍ أو يومين مع خادمي نَفيس، بشقشقةٍ وخُصية.
ومثل هذا كثيرٌ قد يغلط فيه من يشتدُّ حرصُه على حكاية الغرائب.
ما في الفرس والثور من الأعاجيب وأمّا قوله:

وليس للطّرْفِ طِحالٌ وقد ... أشاعَهُ العالمُ بـالأمـرِ
وفي فُؤاد الثور عَظْمٌ وقدْ ... يعرفُه الجازرُ ذُو الخبرِ

وليس عندي في الفرَس أنّه لا طحال له، إلاّ ما أرى في كتاب الخيل لأبي عبيدة والنّوادر لأبي الحسن، وفي الشّعر لبشْر، فإن كان جوف الفرس كَجوف البرذون، فأهلُ خراسان من أهل هذا العسكر، يذبحون في كلِّ أسبوع عدَّة براذين.
وأمّا العظم الذي يوجد في قلب الثور فقد سمعنا بعضهم يقول ذلك، ورأيتهُ في كتاب الحيوان لصاحب المنطق.
أعجوبة السمك وأمّا قوله:

وأكثرُ الحيتـان أعـجـوبة ... ما كان منها عاشَ في البَحْرِ
إذ لا لسانٌ سُقي مـلـحـه ... ولا دماغ السمك النـهـري

فهو كما قال: لأنَّ سمك البحر كلّه ليس له لسانٌ ولا دِماغ.

القواطع في السمك

وأصنافٌ من حِيتان البحْر تجيء في كلِّ عام، في أوقاتٍ معلومةٍ حتّى تدخل دجلة، ثم تجوز إلى البطاح، فمنها الأسبور، ومنها البرسْتوك ووقته ومنها الجُواف ووقته، وإنما عرفتْ هذه الأصناف بأعيانها وأزمانها لأنها أطيبُ ذلك السَّمك، وما أشكّ أنّ معها أصنافاً أخر يعلم منها أهلُ الأبلّة مثل الذي أعلم أنا من هذه الأصناف

الثلاثة.
كبد الكوسج وأمّا قوله:

وأكبدٌ تَظْهر في ليلِها   ثمَّ توارى آخرَ الدَّهر

ولا يُسيغ الطُّعمَ ما لم يكنْ   مِزاجُه ماءً على قدْر

ليس له شيءٌ لإزلاقه   سوى جِرابٍ واسع الشَّجْر

فإنّ سمكاً يقال له الكوسج غليظ الجلد، أجرد، يشبه الجِرّيَّ، وليس بالجِرِّي، في جوفها شحمة طيِّبة، فإن اصطادُوها ليلاً وجدوها وإن اصطادوها نهاراً لم يجدوها.
وهذا الخبر شائعُ في الأبُلة، وعند جميع البحريِّين، وهم يسمُّون تلك الشَّحمة الكبد.
وأما قولهم: السَّمكة لا تسيغ طعمها إلاّ مع الماء، فما عند بِشْرٍ ولا عندي إلاّ ما ذكر صاحبُ المنطق، وقد عجِب بشرٌ من امتناعها من بلْع الطّعم، وهي مستنقعة في الماء، مع سعة جِرابِ فيها.
والعرب تسمِّي جوف البئر من أعلاه إلى قعره جراب البئر.
وأمّا ما سوى هذه القصيدة فليس فيها إلاّ ما يعرف، وقد ذكرناه في موضعِ غير هذا من هذا الجزء خاصَّة.

الضبع

وسنقول في باب الضّبع والقنفذ والحرقوص والورل وأشباه ذلك ما أمكن إن شاء اللّه تعالى.
قال أبو زياد الكلابيّ: أكلت الضّبع شاة رجلٍ من الأعراب، فجعل يخاطبُها ويقول:

ما أنا يا جعارِ من خُطّابكْ   عليَّ دَقُّ العُصْلِ من أنيابكْ

على حذا جُحْرِك لا أهابُكْ

جَعَارِ: اسمُ الضبع، ولذلك قال الراجز:

يا أيُّها الجفْر السَّمين وقومُه   هزْلى تجرُّهُمُ ضِباعُ جَعار

ثم قال الأعرابيّ:

ما صَنَعتْ شاتي التي أكلْتْ   ملأت مِنْها البَطْنَ ثُمَّ جُلْتْ

وخُنْتَني وبئْسَ ما فَعلْتْ

قالت له: لا زلتَ تلقى الهمّا وأرسل اللّه عليكَ الحمّى

لقد رأيْت رجلاً معتمّا

قال لها: كذبتِ يا خباثِ قد طال ما أمسيتُ في اكتراثِ

أكلتِ شاةً صبيةٍ غِراثِ

قالت له والقولُ ذو شُجونِ: أسهبْتَ في قولك كالمجنون

أما وربِّ المُرسَلِ الأمينِ لأفْجَعَنْ بعيركَ السَّمينِ

وأمِّه وجَحشِه القرين حتَّى تكونَ عُقْلةَ العُيُون

قال لها وْيحَكِ حذِّريني واجتهدي الجهد وواعديني

وبالأمانيِّ فعلّليني لأقطعَنَّ مُلتقى الوتين

مِنْكِ وأشفى الهمَّ مِنْ دَفينى فصدِّقيني أو فكذِّبيني

أو اتركي حَقِّي وما يليني إذاً فشلّتْ عندها يميني

تعرّفي ذلك باليقينِ

قالت :أبالقتلِ لنا تهدِّد وأنت شيخٌ مُهْترٌ مفنّدُ

قولُكَ بالجُبْنِ عليك يشهدُ منك وأنت كالذي قد أعهدُ

قال لها: فأبشِري وأبشري إذا تجردتُ لشأني فاصبري

أنتِ زعمتِ قد أمنتِ منكري أحلفُ باللّه العليِّ الأكبر

يمين ذي ثرية لم يكفرِ لأخْضِبنَّ منك جَنْبَ المنحَر

برمْيةٍ من نازع مذكّرِ أو تتركين أحْمري وبَقري

فأقبلتْ للقدر المقدّرِ فأصبحَتْ في الشرّكِ المزعفرِ

مكبوبةً لوَجْهها والمنخرِ والشَّيخُ قد مالَ بغربِ مجزرِ

ثمّ اشتوى من أحمرٍ وأصفرِ منها ومقدورٍ وما لم يُقْدرِ

جلد الضبع

وقال الآخر:

يا ليت لي نَعلينُ من جلد الضبُعْ وشَرَكاً من استها لا يَنْقطِعْ

كُلَّ الحذاء يحتذي الحافي الوَقِعْ

وهذا يدلُّ على أنّ جلدها جلدُ سوء.
وإذا كانت السَّنَةُ جدبةً تأكلُ المال، سمّتْها العربُ الضبّع، قال الشّاعر:

أبا خُراشة أمّا كُنْتَ ذا نفرٍ فإنّ قوْمي لم تأكلُهم الضبّعُ

تسمية السنة الجدبة بالضبع

وقال عُمير بن الحباب:

فبشّري القيْنَ بطعْن شرَجْ يشبعُ أولادَ الضباع العُرْجْ

ما زال إسدائي لهمْ ونَسْجي حتّى اتّقوني بظهُورٍ ثُبْجِ

أرَيْننا يَوماً كيوم المرْجْ

مما قيل من الشعر في الضباع

وقال رجلٌ من بني ضبَّة:

يا ضبعاً أكلت آيارَ أحمرةٍ ففي البطون وقد راحتْ قراقير

ما منكم غير جعلانٍ ممددة دسمُ المرافق أنذالٌ عواويرُ

وغيرُ همزٍ ولمز للصديق ولا تنكى عدوكم منكم أظافير

وإنّكم ما بطنتـم لـم يزلْ أبـداً   منكك على الأقربِ الأدنى زنـابير

وأنشد:

القوْم أمثال السِّباع فـانـشَـمِـر   فمنهُم الذّئب ومنهـم الـنَّـمِـرْ

والضّبْع العَرجاءُ واللّيثُ الهصِرْ

وقال العلاجم:

معاورِ حلباته الشخص أعـم   كالدِّيخ أفنى سِنّه طول الـهرم

وأنشد:

فجاوز الحرض ولا تشمِّمه   لسابغ المِشفر رحبٍ بلعمه

سالت ذفاريه وشاب غلصمُه   كالدِّيخ في يومٍ مُرشٍّ رِهَمه

يقول: وبَرُ لحييها كثيرٌ كأنّه شعر ذيخ قد بلّه المطر، وأنشد:

لما رأين ماتِـحاً بـالـغَـرْبِ   تخلَّجَتْ أشداقُها لـلـشُّـربِ

تخْليج أشداق الضَّبـاع الـغُـلْـبِ

يعني من الحرص والشّرهِ، وتمثّل ابنُ الزُّبير:

خُذيني فجُرِّيني جَعارِ وأبشـري   بلحْمِ امرئٍ لم يَشْهَدِ اليومَ ناصرهُ

وإنّما خصَّ الضّباع، لأنّها تنبش القبور، وذلك من فرط طلبها للحوم النّاس إذا لم تجدْها ظاهرة، وقال تأبّط شرّاً:

فلا تَقْبُرُوني إنّ قـبْـري مُـحَـرَّمٌ   عليكمْ ولكن خامـري أمَّ عـامـر

إذا ضربوا رأسي وفي الرّأس أكثري   غُودر عِند الملتـقـى ثـمَّ سـائري

هنالك لا أبْغـي حـيـاةً تـسـرُّنـي   سميرَ الليالي مُبْسلاً بـالـجـرائر

إعجابُ الضِّباع بالقتلى

قال اليقطري: وإذا بقي القتيلُ بالعراء انتفخ أيره، لأنّه إذا ضربت عنقه يكون منبطحاً على وجهه، فإذا انتفخ انقلب، فعند ذلك تجيء الضّبع فتركبُه فتقضي حاجتها ثمَّ تأكله.
وكانت مع عبد الملك جارية شهدت معه حربَ مُصعَب، فنظرت إلى مصعبٍ وقد انقلبَ وانتفخ أيره وورم وغلظ، فقالت: يا أمير المؤمنين، ما أغلظ أيور المنافقين. فلطمها عبد الملك

حديث امرأة وزوجها

ابنُ الأعرابي: قالت امرأةٌ لزوجها، وكانت صغيرة الرّكب، وكان زوجُها صغير الأير: ما للرّجل في عِظم الرّكَب منفعة، وإنّما الشّأن في ضِيق المدخل، وفي المصِّ والحرارة، ولا ينبغي أن يلتفت إلى ما ليس من هذا في شيء، وكذلك الأير، إنّما ينبغي أن تنظر المرأة إلى حَرِّ جلدته، وطيب عُسيلته، ولا تلتفت إلى كِبَره وصِغره، وأنعظ الرجل على حديثها إنعاظاً شديداً، فطمع أن ترى أيره في تلك الحال عظيماً، فأراها إيّاه، وفي البيت سِراجٌ، فجعل الرَّجلُ يشير إلى أيره، وعينُها طامحةٌ إلى ظلِّ أيره في أصْل الحائط، فقال: يا كذابة، لشدّة شهوتك في عظم ظلِّ الأير لم تفهمي عنِّي شيئاً، قالت: أما إنَّك لو كنت جاهلاً كان أنعم لبالك يا مائق، لو كان منفعةُ عِظم الأير كمنفعة عِظم الرَّكب لما طمَحَتْ عيني إليه، قال الرجل: فإنَّ للرَّكب العظيم حَظّاً في العين، وعلى ذلك تتحرّك له الشَّهوة، قالت: وما تصنع بالحركة، وشكٍّ يؤدِّي إلى شكّ؟ الأير إنْ عَظم فقد ناك جميع الحِر، ودخل في تلك الزَّوايا التي لم تزل تنتظمُ من بعيد، وغيرها المنتظم دونَها، وإذا صغُر ينيكُ ثُلث الحِرِ ونصفُه وثلثيه، فمنْ يسرُّه أن يأكل بثُلث بطْنه، أو يشرب بثُلث بطنه؟ قال اليقطري: أمكنها واللّه من القول ما لم يمكنه.

حديث معاوية وجاريته الخراسانية

وقال: وخلا معاوية بجاريةٍ له خراسانيّة، فما همَّ بها نظر إلى وصيفةٍ في الدّار، فترك الخراسانيّة وخلا بالوصيفة ثمَّ خرج فقال للخراسانيّة: ما اسم الأسد بالفارسيّة؟ قال: كَفْتار، فخرج وهو يقول: ما الكفتار؟ فقيل له: الكفتار الضّبع، فقال: ما لها قاتلها اللّه، أدركتْ بثأرها والفُرْسُ إذا استقبحت وجه الإنسان قالت: رُوي كَفْتار، أي وجه الضبع.

كتاب عمر بن يزيد إلى قتيبة بن مسلم

قال: وكتب عمر بن يزيد بن عمير الأسدي إلى قتيبة بن مسلم، حين عزل وكيع بن سُودٍ عن رياسة بني تميم، وولاَّها ضِرار بن حسين الضّبي: عزلْت السِّباعَ ووليّت الضِّباع.

شعر فيه ذكر الضبع

وأنشد لعبّاس بن مِرداسِ السُّلميِّ:

فلو مات مِنهمْ مَنْ جَرَحْنا لأصبْحتْ ضباعٌ بأكناف الأراك عرائسا

وقال جريبة بن أشْيم:

فمنْ مبلغٌ عني يساراً ورافعاً وأسلم إنَّ الأوهنين الأقاربُ

فلا تدفننَّي في ضراً وادفِنّنـي بديمومةٍ تنزو علىَّ الجنـادبُ

وإنْ أنتَ لم تعقرْ علىّ مطيتى فلا قام في مالٍ لكَ الدهرَ حالبُ

فلا يأكلني الذئبُ فيما دفنتنـي ولا فرعلٌ مثل الصريمة حاربُ

أزلُّ هلـيبٌ لا يزال مـآبطـا إذا ذربت أنيابه والمـخـالـب

وأنشد:

تركوا جارهم تـأكلـه ضبعُ الوادي وترميه الشجر

يقول: خذلوه حتّى أكله ألأم السِّباع، وأضعفها، وقوله: وترميه الشَّجر، يقول: حتّى صار يرميه من لا يرمي أحداً.

بقية الكلام في الضبع

وقد بقي من القول في الضّبُع ما سنكتبه في باب القول في الذئب.

الحرقوص

وأمَّا الحرقوص فزعموا أنّه دويْبَّة أكبر من البُرغوث، وأكثرُ ما ينبت له جناحان بعد حينٍ، وذلك له خير.
وهذا المعنى يعتري النّمل - وعند ذلك يكون هلاكه - ويعتري الدَّعاميص إذا صارت فَراشاً، ويعتري الجِعلان.
والحرقوص دويْبَّة عضُّها أشدُّ من عضِّ البراغيث، وما أكثر ما يَعضُّ أحراحَ النساء والخُصى، وقد سميِّ بحرقوص من مازنٍ أبو كابية بن حُرقوص، قال الشّاعر:

أنتم بني كابية بن حُرقُوصْ   كلّهُمُ هامته كالأفْحُوصْ

وقال بشرُ بن المعتمر، في شعره المزاوج، حين ذكر فضل عليٍّ على الخوارج، وهو قوله: ؟؟؟نق صفحة ٤٥٥ من الكتاب قال: والحرقوص يسمى بالنُّهيك، وعضَّ النُّهيك ذلك الموضع من امرأة أعرابيّ فقال:

وما أنا للحرقوص إنْ عضَّ عَضةً   لها بَيْنَ رجليها بـجِدٍّ عَقُور

تطيب بنفْسي بعد ما تستفزُّنـي   مقالتُها إنَّ النُّـهـيك صـغيرُ

والذين ذهبوا إلى أنَّه البرغوث نفسُه قالوا: الدَّليل على ذلك قول الطِّرمَّاح:

ولو أنّ حُرقوصاً على ظهْر قمْلة   يَكرُّ على صَفَّيْ تميمٍ لـولّـتِ

قالوا: ولو كان له جناحانِ لما أركبه ظهْر القملة، وليس في قول الطِّرمَّاح دليلٌ على ما قال، وقال بعضُ الأعراب، وعض الحرقوص خُصيتَه:

لقدْ منَعَ الحراقيصُ القـرَارَا   فلا ليلاً نَقـرُّ ولا نَـهـارَا

يُغالِبْنَ الرِّجالَ على خُصاهم   وفي الأحراح دَسّاً وانجحارا

وقالت امرأةٌ تَعْني زوجَها:

يغارُ من الحرقوص أنْ عَضَّ عَضةً بفخذِيَ منـهـا مـا يَجُدُّ غيورُ

لقد وقعَ الحُرقوصُ مِنِّي موقِـعـاً   أرى لَذّةَ الـدُّنـيا إلـيه تـصـيرُ

وأنشدوا لآخر:

بَرَّحَ بي ذُو النُّقطتين الأملسُ   يَقْرُضُ أحياناً وحيناً ينهَسُ

فقد وصفه هذا كما ترى، وهذا يصدِّق قول الآخر، ويردُّ على من جعل الحراقيص من البراغيث، قال الآخر:

يَبيت باللّيل جوّاباً علـى دَمِـثٍ   ماذا هُنالك من عَضِّ الحراقيصِ

الورل

وسنقول في الورَل بما أمكنَ من القول إن شاء اللّه تعالى، وعلى أنَّا قد فرَّقنا القولَ فيه على أبواب قد كتبناها قبل هذا.
قالوا: الورَل يقتل الضَّبَّ، وهو أشدُّ منه، وأجودُ سلاحاً وألطفُ بدناً، قالوا: والسَّافِد منها يكون مهزولاً، وهو الذي يَزيف إلى الإنسان وينفخ ويتوعَّد.
قال: واصطدت منها واحداً فكسرت حجراً، وأخذتُ مَرْوةً فذبحته بها، حتَّى قلت قد نخعته، فاسبطرَّ لحِينِه فأردت أن أصغي إليه وأشرْتُ بإبهامي في فيه، فعضَّ عليها عضةً اختلعَت أنيابَه، فلم يخلِّها حتى عضضْت على رأسِه.
قال: فأتيتُ أهلي فشققْتُ بطنَه، فإذا فيها حيّتان عظيمتان إلاَّ الرَّأس.
قال: وهو يشدخ رأسَ الحيَّة ثمّ يبتلعُها فلا يضرُّه سمُّها، وهذا عنده أعجب ما فيه، فكيف لو رأى الحوَّائين عندنا، وأحدُهم يُعطى الشيءَ اليسير، فإن شاء أكل الأفْعى نِيّاً، وإن شاء شِواءً، وإن شاء قديداً فلا يضرُّه ذلك بقليلٍ ولا كثير.
وفي الورَل أنه ليس شيءٌ من الحيوان أقوَى على أكل الحَيَّات وقتلها منه، ولا أكثر سفاداً، حتى لقد طمَّ في ذلك على التَّيس، وعلى الجمل، وعلى العُصفور، وعلى الخِنزير، وعلى الذِّبَّانِ في العدد، وفي طُول المكث، وفيه أنَّه لا يحتفر لنفسه بيتاً، ويغتصب كلَّ شيء بيتَه؛ لأنها أيَّ جُحر دخَلتْه هربَ منه صاحبُه، فالورَل يغتصب الحيَّة بيتَها كما تغتصب الحيَّةُ بيوت سائر الأحناش والطّير والضَّب.
وهو أيضاً من المراكِب، وهو أيضاً مما يُستطاب، وله شَحمة، وَيَستطيبون لحمَ ذنبه، والورل دابَّة خفيفُ الحَركة ذاهباً وجائياً، ويميناً وشمالاً، وليس شيء بعد العَظاءة أكثر تلفُّتاً منه وتوقفاً.

زعم المجوس في العظاءة

وتزعم المجوس أنّ أهْرمَن، وهو إبليس، لمَّا جلس في مجلسه في أوَّل الدهر ليقسِّم الشَّرَّ والسُّموم - فيكون ذلك عدّةً على مناهضة صاحب الخير إذا انقضى الأجل بينهما، ولأنَّ من طباعه أيضاً فعلَ الشر على كلِّ حال - كانت العظاءَة آخِرَ من حَضَر، فحضَرَتْ وقد قسم السمَّ كلَّه، فتداخلها الحسرةُ والأسف، فتراها إذا اشتدّت وقفتْ وقفةَ تذكُّرٍ لما فاتَها من نصيبها من السُّم، ولتفريطها في الإبطاء حتى صارتْ لا تسكن إلاَّ في الخرابات والحُشُوش؛ لأنها حين لم يكن فيها من السمّ شيءٌ لم تطلبْ مواضعَ الناس كالوزَغِة التي تسكنُ معهم البيوت، وتكرَع في آنيتهم الماءَ وتمجُّه، وتُزاقُّ الحيَّات وتهيِّجها عليهم، ولذلك نفرت طباعُ النَّاس من الوزَغة، فقتلوها تحت كلِّ حجر، وسلمت منهم العظاءَة تسليماً منهم.
ولم أر قولاً أشدَّ تناقضاً، ولا أمْوق من قولهم هذا؛ لأنّ العظاءَة لم يكن ليعتريَها من الأسف على فوت السمّ على ما ذكروا أوّلاً إلاَّ وفي طبعها من الشّرَارة الغريزيَّة أكثرُ ممَّا في طبع الأفعى.

شعر فيه ذكر للورل

قال الرَّاجز في معنى الأوَّل:

يا وَرَلاً رقرق في سَرَابِ أكانَ هذا أول الـثـوَاب

قال: ورقرقتُه: سُرعتُه ذاهباً وجائياً ويميناً وشمالاً.
قال أبو دُؤاد الإيادي، في صفة لسان فرسه:

عَنْ لسان كَجُثَّة الورَل الأحْ مَر مَجَّ الثَّرَى عليه العَرارُ

وقال خالد بن عُجْرة:

كأنّ لسانه ورلٌ عليه بدار مَضِنّةٍ مَجُّ العرار

ووصف الأصمعيٌّ حمرته في بعض أراجيزه، فقال:

في مَغرِ ذي أضرُسٍ وصَكِّ يعرجُ منه بعد ضيق ضَنْكِ

فروة القنفذ

قد قلنا في القُنفذ، وصنيعه في الحيَّات وفي الأفاعي خاصَّة، وفي أنه من المراكب، وفي غير ذلك من أمره، فيما تقدم هذا المكانَ من هذا الكتاب.
ويقول من نزَع فروته بأنها مملوءة شحيمة، والأعراب تستطيبُ أكله، وهو طيِّب للأرواح.
شعر فيه ذكر للقنفذ والقنفذ لا يظهر إلا بالليل، كالمستخفي، فلذلك شبه به، قال أيمن بن خُريم:

كقنفذ الرَّمل لا تخفى مدارجُه خِبٌّ إذا نام عنْهُ النّاسُ لم يَنَم

وقال عَبْدَة بن الطبيب:

قومٌ إذا دمَسَ الظلامُ عليهمُ حَدَجوا قنافِذَ بالنّميمةِ تمْزَعُ

وقال:

شَرَيْتُ الأمور وغالَيْتُها فأوْلَى لَكُمْ يابَني الأعرج

تدبُّون حول رَكِيّاتـكُمْ دَبيبَ القنافِذِ في العَرْفَج

وقال الآخر في غير هذا الباب:

كأنّ قِيراً أو كُحيلاً ينعصرْ   ينحطُّ من قُنفذِ ذِفراه الذَفِرْ

وقال عبَّاس بن مِرداس السُّلَمِيُّ، يَضرب المَثَلَ به وبأذنيه في القلّة والصَّغَر:

فإنَّك لم تك كابن الشَّرِيد   ولكنْ أبوك أبو سَالِم

حَمَلْتَ المئين وأثقالها   على أذنَي قنفُذٍ رازم

وأشبْهتَ جَدَّكَ شرّ الجدودِ   وَالعِرْقُ يَسْري إلى النّائم

وأنشدني الدَّلهمُ بن شهاب، أحد بني عوف بن كنانة، من عُكل، قال: أنشدنيه نفيع بن طارق في تشبيه رَكَب المرأة إذا جَمَّمَ بجلد القنفذ:

علقَ من عنائه وشقوته   وقد رأيتَ هدجاً في مشيته

وقد جلاَ الشيبُ عذارَ لحيته   بنتَ ثماني عشرةٍ من حجته

يظنها ظنًّا بغير رؤيته   تمشى بجهمٍ ضيقهُ من همته

لم يخزه الله برحب سعته   جممَ بعدَ حلقهِ ونورته

كقنفذ القفِّ اختفى في فروته   لا يبلغ الأيرُ بنزع رهوته

ولا يكرُّ راجعاً بكرته   كأنَّ فيه وهجاً من ملته

من تسمى بقنفذ ويتسمَّون بالقنافذ، وذو البرة الذي ذكره عَمرو بن كلثوم هو الذي يقال له: بُرة القُنفذ، وهو كعب بن زهير، وهو قوله:

وذو البُرة الذي حُدِّثْتَ عَنه   بهِ نَحْمَى وَنَشْفِيس المُلْجَئِينَا

كبار القنافذ ومن القنافذ جنس وهو أعظم من هذه القنافذ؛ وذلك أنّ لها شوكاً كصَياصي الحاكة، وإنَّما هي مدارَى قد سُخِّرَتْ لها وذلّلت تلك المغارز والمنابت، ويكون متى شاء أن ينصل منها رمى به الشخصَ الذي يخافُه، فعلاَحتّى كَأنّه السهم الذي يخرجه الوتر.
ولم أر أشبه به في الحذف من شَجر الخِرْوع؛ فإنَّ الحبَّ إذا جفَّ في أكمامه، وتصدَّع عنه بعضَ الصَّدع، حذف به بعضُ الغصون، فربَّما وقع على قاب الرّمح الطويل وأكثر من ذلك،

تحريك بعض أعضاء الحيوان دون بعض

والبرذون يسقُط على جلدِهِ ذبابةٌ فيحرِّك ذلك الموضعَ، فهذا عامٌّ في الخيل، فأمَّا النَّاس فإن المخنَّث ربما حرَّك شيئاً من جسدَه، وأيَّ موضعٍ شاء من بدنه.
والكاعاني، وهو اسم الذي يتجنّن أو يتفالج فالج الرِّعدة والارتعاش، فإنّه يحكي من صَرْعِ الشَّيطان، ومن الإزباد، ومن النَّفضة، ما ليس يصدرُ عنهما، وربّما جمعهما في نِقابٍ واحد، فأراك اللّه تعالى منه مجنوناً مفلوجاً يجمع الحركتين جميعاً بما لا يجيء من طباع المجنون.
حكاية الإنسان للأصوات وغيرها والإنسان العاقلُ وإن كان لا يحسُن يبني كهيئة وَكْر الزُّنبور، ونسج العنكبوت، فإنه إذا صار إلى حكاية أصوات البهائم وجميع الدوابّ وحكاية العُمْيان والعُرْجان؛ والفأفاء، وإلى أنْ يصوِّر أصنافَ الحيوان بيده، بَلَغ من حكايته الصُّورةَ والصوت والحركة ما لا يبلغه المحكيّ.
الحركات العجيبة وفي النَّاس من يحرِّك أذنَيه من بين سائر جسده، وربَّما حرَّك إحداهما قبل الأخرى، ومنهم من يحرِّك شعر رأسه، كما أنَّ منهم من يبكي إذا شاء، ويضحَك إذا شاء.
وخبَّرني بعضهم أنّه رأى من يبكي بإحدى عينيه، وبالتي يقترحُها عليه الغير.
وحكى المكّي عن جَوارٍ باليمن، لهنّ قرونٌ مضفورةٌ من شعر رؤوسهن، وأنَّ إحداهنَّ تلعب وترقُص على إيقاعٍ موزون، ثمَّ تُشخِص قرناً من تلك القرون، ثمَّ تلعب وترقص، ثمَّ تُشخِص من تلك الضَّفائر المرصَّعة واحدةً بعد أخرى، حتَّى تنتصب كأنها قرونٌ أوَابدُ في رأسها، فقلت له: فلعلَّ التَّضفير والترصيع أن يكون شديد الفتْل ببعض الغِسْل والتّلبيد، فإذا أخرجَتْه بالحركة التي تُثبِتُها في أصل تلك الضفيرة شخَصت، فلم أره ذهبَ إلى ذلك، ورأيته يحقّقه ويستشهد بأخيه.
نوم الذئب وتزعمُ الأعراب أنّ الذِّئب ينامُ بإحدى عينيه، ويزعمون أنّ ذلك من حاقِّ الحذر، وينشد شعر حُميد بن ثَوْرٍ الهلاليّ، وهو قوله:

يَنامُ بإحدى مُقْلَتَيْهِ وَيَتَّقِي ال   مَنَايا بأُخْرَى فهو يَقظانُ هاجعُ

وأنا أظنُّ هذا الحديث في معنًى ما مُدح به تأبَّط شرّاً:

إذا خاط عينيه كرَى النّوم لم يَزلْ   له كالئٌ من قلب شَيْحَانَ فاتكِ

ويجعَلُ عيْنَيه رَبيئَةَ قَلْبِهِ   إلى سَلّةٍ منْ حَدّ أخْضَرَ باتكِ

قولهم: أسمع من قنفذ ومن دلدل ويقال: أسمَعُ من قُنْفُذ، وقد ينبغي أن يكون قولهم: أسمعُ من الدُّلدُل من الأمثال المولّدة.
المتقاربات من الحيوان وفرق ما بين القنفذِ والدُّلدُل، كفرق ما بين الفأر والجُرْذان، والبقر والجواميس، والبَخَاتيِّ والعِراب، والضّأن والمعز، والذّر والنّمل، والجوَاف والأسبور، وأجناس من الحيّات، وغير ذلك؛ فإنّ هذه الأجناس

منها ما يتسافد ويتلاقح، ومنها ما لا يكون ذلك فيها.
قولهم: افحش من فاسية ويقال: إنّه لأفْحشُ من فاسية وهي الخنفساء؛ لأنّها تفسو في يد من مَسَّها، وقال بعضهم: إنّه عنى الظَّربان؛ لأنّ الظّربانِ يفْسُو في وسط الهجْمة، فتتفرَّقِ الإبل فلا تجتمع إلا بالجهد الشّديد، ويقال: ألجُّ من الخنفساء، وقال خلفُ الأحمرُ وهو يهجو رجلاً:

ألجُّ لَجاجاً مِن الخُنفساء   وأزْهى إذا ما مَشَى مِنْ غُرابِ

رجز في الضبع وأنشد أبو الرُّديني، عن عبد اللّه بن كُراع، أخي سُويد بن كُراع، في الضّبع:

مَنْ يجن أولاد طريفٍ رَهْطا   مُرْداً أولـه شُـمـطـا

رَأى عَضاريط طِوالاً ثُطّا   كأضْبع مُرْطٍ هَبطن هَبْطا

ثم يفسِّينَ هَزيلاً مَرْطا   إنَّ لكم عندي هناءً لَعْطا

خطماً على آنِفُكُمْ وعلطا

قصة أبي مجيب وحكى أبو مجيب، ما أصابه من أهله، ثمَّ قال: وقد رأيت رؤيا عبَّرتها: رأيتُ كأني طردت أرنباً فانْجحرتْ، فحفرتُ عنها حتَّى استخرجتها، فرجوت أن يكون ذلك ولداً أرزقه، وإنه كانت لي ابنة عمٍّ هاهنا، فأردتُ أن أتزوّجها؛ فما ترى؟ قلت: تزوَّجْها على بركة اللّه تعالى، ففَعل؛ ثمَّ استأذنني أنْ يقيم عندنا أيَّاماً؛ فأقام ثم أتاني فقلتُ: لاتخبرْني بشيءٍ حتى أنشدَك، ثمَّ أنشدْتُه هذه الأبيات:

يا لَيت شِعْري عَن أبي مجيبِ   إذْ باتَ في مَجَاسِدٍ وطيبِ

مُعانقاً للرَّشـا الـرَّبـيـبِ   أأقحَمَ الحِفارَ في القليبِ

أمْ كانَ رِخْواً يابسَ القضيبِ

قال: بلى كان واللّه رخْواً يابسَ القضيب، واللّه لكأنّكَ كنتَ معنا ومُشاهِدَنا.

خصال الفهد

فأمَّا الفهد؛ فالذي يحضُرنا من خصاله أنّه يقال إن عظام السِّباع تشتهي ريَحه، وتستدلُّ برائحته على مكانهِ وتُعجَب بلحمه أشدّ العجب.
وقد يصادُ بضروبٍ، منها الصَّوت الحسَن؛ فإنّه يُصغِي إليه إصغاءً حسناً، وإذا

اصطادوا المسنَّ كان أنفعَ لأهله في الصَّيد من الجرو الذي يربُّونه؛ لأنَّ الجرو يخرج خَبّاً، ويخرج المسنُّ عَلَى التأديب صَيُوداً غيرَ خِبٍّ ولا مُوَاكِلٍ في صيده، وهو أنفع من صيد كلِّ صائد، وأحسن في العين، وله فيه تدبيرٌ عجيب.
وليس شيءٌ في مثل جِسْم الفَهد إلاّ والفَهد أثقلُ منه، وأحطمُ لظهر الدابَّة التي يَرقى على مؤخَّرها.
والفهد أنْوَم الخلق، وليس نومه كنوم الكلب؛ لأن الكلب نومه نعاس واختلاس، والفهد نومه مُصْمَت: قال أبو حيَّة النّميري:

بعذاريها أناساً نام حلمهمُ ... عَنّا وعنك وعنها نومة الفَهَدِ

وقال حُميد بن ثورِ الهلاليّ:

ونمتَ كنَوم الفَهْدِ عن ذي حفيظةٍ ... أكلْت طعاماً دونه وهو جائعُ

أرجوزة في صفة الفهد

وقال الرقاشيُّ في صفة الفهد:

قد أغتدى والليلُ أحوى السدِّ ... والصبحُ في الظلماء ذو تهدى
مثل اهتزازِ العضب ذى الفرندِ ... بأهرتِ الشدقين ملتئد
أربدَ مضبورِ القرا علكدِ ... طاوى الحشا في طيِّ جشمٍ معدِ
كزَّ البراجيم هصور الجدِّ ... برامز ذى نكتٍ مسودٍّ
وسحر اللجين سحر وردِ ... شرنبثٍ أغلبَ مصعدِّ
كالليث إلاَّ عاين بعدَ الجهدِ ... على قطاة الردف ردف العبد
سر سرعتنا بحس صلد ... وانقضَّ يأدو غيرَ مجرهدَّ
في ملهبٍ مه وختلٍ إدٍّ ... مثل انسياب الحية العربد

وقوله: مثل انسياب الحيَّة العربدِّ، هذه الحيَّة عين الدابّة التي يقال لها العربد، وقد ذكرها مالك بن حريم في قوله لعمْرو بن معد يكرب:

يا عمرو لو أبصرتني ... لرفوتنى ف يالخيل رفوا

والبيضُ تلمعُ بينـهـم تعصو بها الفرسان عصوا

فلقيت مـنـي عربداً يقطو أمامَ الخيلِ قطـوا

لـمـا رأيتُ نـسـاءهـم يدخلنَ تحت البيت حـبـوا

وسمعتُ زجرَ الخيل فـي جوفِ الظلام هبى وهبـوا

في فيلقٍ مـلـمـومةٍ تسطو على الخبراتِ سطوا

وقال الرَّقاشي أيضاً في الفهد:

لما غدا للصَّيدِ آلُ جَـعْـفَـر رَهْطُ رسولِ اللّه أهلُ المفْخَر

بفَهْدَةٍ ذات قـراً مُـضَـبَّـر وكاهلٍ بادٍ وعـنْـق أزْهـر

ومُقْلةٍ سال سَوادُ المـحـجـر منـها إلى شِدقٍ رُحابِ المفْغَر

وذنبٍ طالَ وجـلْـدٍ أنْـمَـر وأيْطَلٍ مستأسدٍ غضـنـفـر

وأذنٍ مكسورةٍ لـم تـجْـبـر فَطْساءَ فيها رَحَبٌ في المنخر

مثل وجار التتفل الـمـقـوَّر أرثها إسحاق في الـتـعـذر

منـها على الخدَّين والمُعذّر

نعت ابن أبي كريمة للفهد

وقال ابنُ أبي كريمة في صفة الفهْد:

كأنَّ بناتِ القفْر حين تشعَّبَـتْ غدوت عليها بالمنايَا الشواعبِ

بذلك نبَغي الصيد طوراً وتـارةً بمُخْطفة الأحشاء رحْبِ التَّرائبِ

مُوَقَّفة الأذناب نُمرِ ظهورهـا مخطّطة الآماق غلبِ الغوَارب

مُوَلَّعةٍ فُطْح الجِبَاهِ عوابسٍ تخالُ على أشْداقها خطّ كاتبِ

فوارسُ ما لم تلقَ حرْباً ورجلة إذا آنَسَتْ بالبيد شُهبَ الكتائبِ

تضَاءَلُ حتَّى ما تكاد تُبينُها عيونٌ لدى الصرّاتِ غير كواذب

توسّد أجيَادَ الفرائس أذرُعاً مُرَمَّلة تحْكي عِناقَ الحَبائب

ما يضاف إلى اليهود من الحيوان

قال: والصبيان يصيحون بالفهد إذا رأوه: يا يهوديّ وقد عرفنا مَقالهم في الجِرِّيّ.
والعامَّة تزعم أن الفأرة كانت يهوديَّة سحّارة، والأرضة يهودية أيضاً عندهم؛
ولذلك يلطّخون الأجذاع بشحم الجزُور.
والضبّ يهوديّ؛ ولذلك قال بعضُ القصّاص لرجل أكل ضبّاَ: اعلمْ أنّك أكلت شيخاً
من بني إسرائيل.
ولا أراهم يضيفون إلى النّصرانية شيئاً من السِّباع والحشرات.
ولذلك قال أبو علقمة: كان اسم الذئب الذي أكل يوسف رجحون، فقيل له: فإنّ
يوسف لم يأكُلْه الذّئب، وإنما كذبوا على الذّئب؛ ولذلك قال اللّه عزَّ وجلّ: "وَجاؤُوا
عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كذبٍ"، قال: فهذا اسمٌ للذئب الذي لم يأكلْ يوسف.
فينبغي أن يكونَ ذلك الاسمُ لجميع الذّئاب، لأنَّ الذئابَ كلها لم تأكله.

زعم المجوس في لبس أعوان سومين

وتزعمُ المجوس أنّ بَشُوتَن الذي ينتظرون خروجه، ويزعُمون أنّ الملك يصيرُ
إليه، يخرج على بقرةٍ ذاتِ قرون، ومعه سبعون رجلاً عليهم جلود الفهود، لا
يعرفُ هرّا ولا برّاً حتى يأخذ جميع الدنيا.
الهرّ والبرّ وكذلك إلغازهم في الهرّ والبرّ، وابن الكلبي يزعم عن الشّرقي بن
القطاميّ، أن الهرّ السنّور، والبرّ الفارة.

جوارح الملوك

والباز والفَهد من جوارح الملوك، والشاهين، والصَّقر، والزُّرَّق، واليؤيؤ.
وليس ترى شريفاً يستحسِنُ حملَ البازي - لأنّ ذلك من عمل البازيار - ويستهجن
حمل الصُّقور والشواهين وغيرها من الجوارح، وما أدري علّة ذلك إلا أنّ البازَ
عندهم أعجميّ، والصَّقر عربيّ.
ومن الحيوان الذي يدرّب فيستجيب ويَكيس وينصَح العَقْعَقُ، فإنّه يستجيبُ من
حيثُ تستجيبُ الصُّقور، ويُزْجِر فيعرف ما يُرَاد منه ويخبأ الحَلي فيُسأل عنه
ويُصاح به فيمضي حتى يقفَ بصاحبه على المكان الذي خبَّأه فيه، ولكن لا يلزم
البحث عنه.

وهو مع ذلك كثيراً ما يُضيع بيضه وفِراخه.
مخبئات الدراهم والحلى وثلاثة أشياءَ تُخبِّي الدَّراهم والحليَ، وتَفْرَحُ بذلك من غير انتفاعٍ به، منها: العَقعقُ؛ ومنها ابن مِقْرض: دويْبّةٌ آلَقُ من ابن عِرْس؛ وهو صعبٌ وحْشيٌّ، يحبُّ الدَّراهم، ويفْرَحُ بأخذها، ويخبيها، وهو مع ذلك يصيد العصافير صيداً كثيراً، وذلك أنّهُ يُؤْخَذ فيُربَطُ بخيطٍ شديد الفتْل، ويُقابلُ به بيت الْعُصفور، فيدخُلُ عليه فيأخذه وفراخَه، ولايقتلها حتى يقتلها الرّجل، فلا يزال كذلك ولو طاف به على ألف جُحْر، فإذا حلّ خيطه ذهَبَ ولم يقُم.
وضرب من الفار يسرق الدَّراهِمَ والدنانير والحَلْي ويفرح به ويُظْهِرهُ ويغيِّبه في الجُحر وينظُر إليه ويتقلّب عليه.
ذَنَبُ الوزَغة قال: وخطب الأشعث فقال: أيُّها الناسُ إنه مابقي من عدوِّكم إلا كما بقي من ذَنَب الوزَغة تضرب به يميناً وشمالاً ثم لاتلبث أن تموت فمر به رجلٌ من قشير فسمع كلامه فقال: قبَّح اللّه تعالى هذا ورأيَه، يأمر أصحابَه بقلّة الاحتراس، وتركِ الاستعداد.
وقد يُقطع ذنبُ الوزَغةِ من ثلثها الأسفل، فتعيش إن أفلتَتْ من الذَّرِّ.
أشد الحيوان احتمالاً للطعن والبتر وقد تحتمل الخنافسُ والكلابُ من الطَّعْن الجائف، والسّهم النَّافذ؛ ما لا يحتملُ مثْله شيء، والخُنفَسَاءُ أعْجبُ من ذلك وكفاك بالضّبِّ.
والجمل يكون سَنامُه كالهدف، فيُكشَف عنه جلدُه في المجهدَة؛ ثمَّ يُجتث من أصله بالشِّفار، ثمَّ تعاد عليه الجلدةُ ويُدَاوَى فيبرأ، ويحتمل ذلك، وهو أعْجَب في ذلك من الكبش في قطع أليته من أصل عَجْب ذنَبه، وهي كالتُّرس، وربما فعل ذلك به وهو لا يستطيع أن يقُلَّ أليته إلاَّ بأداةٍ تتَّخذ، ولكنَّ الألية على كلِّ حال طرفٌ زائد، والسَّنام قد طبَّقَ على جميع ما في الجوف.
ذكاء إياس ونظر إياسُ بن معاوية في الرَّحْبة بواسط إلى آجُرَّة، فقال: تحت هذه الآجُرَّة دابّة: فنزعوا الآجُرَّة فإذا تحتها حيَّة متطوِّقة، فسُئِل عن ذلك، فقال لأنّي رأيتُ ما بينَ الآجُرَّتين نَدِيّاً من جميع تلك الرَّحَبة، فعلمتُ أن تحتها شيئاً يتنفّس.
هداية الكلاب في الثلوج وإذا سقط الثلج في الصحارى صار كلَّه طبقاً واحداً، إلاّ ما كان مقابلاً لأفواه جِحَرة الوحْش والحشرات؛ فإنّ الثّلج في ذلك المكان يَنْحسر ويرقّ لأنفاسها من أفواهها ومنَاخِرها ووهَج أبدانها، فالكلابُ في تلك الحال يعتادها الاسترواح حتى تقفَ بالكلاّبين على رؤوس المواضع التي تنبت الإجْردّ والقصيص، وهي التربة التي تُنبتُ الكَمْأة وتربِّيها.
تعرّف مواضع الكمأة وربما كانت الواحدةُ كالرُّمانة الفخْمة، ثم تتخلَّق من غير بزر، وليس لها عرقٌ تمصُّ به من قُوى تلك الأرض، ولكنها قوى اجتمعَت من طريق الاستحالات، كما يَنطبخُ في أعماق الأرض، من جميع الجواهر وليس لها بدّ من تربةِ ذلك من جوهرها، ولا بدَّ لها من وسْميّ، فإذا صار جانِيها إلى تلك المواضع - ولا سيما إن كان اليومُ يوماً لِشمسهِ وَقْعٌ - فإنه إذا أبصر الإجردَّ والقصِيص استدلَّ على مواضعها بانتفاخ الأرض وانصداعها.

وإذا نظر الأعرابيّ إلى موضع الانتفاخ يتصدّعُ في مكانه فكان تفتُّحه في الحالات مستوياً، علم أنَّه كمأة؛ وإن خلَط في الحركة والتصدُّع علم أنّه دابَّة، فاتَّقى مكانَها.

نوادرَ وأشعار وأحاديث

قال الشّاعر:

وعصَيتِ أمْرَ ذوي النُّهـى وأطعْتِ رأيَ ذوي الْجَهالَهْ

فاحتلتُ حِينَ صَرَمْتِنِـي والمرءُ يَعْجَزُ لا المَحَالـه

والعبدُ يقرعُ بـالـعصـا والحرُّ تكفيه المـقـالـهْ

وقال بشّار:

وصاحبٍ كالدُّمّل المُـمِـدِّ حَمَلْتُه في رُقْعَةٍ من جِلِدي

الحُرُّ يُلْحَى والعصا للعَبْـدِ وليس للملحِفِ مثلُ الـرَّدِّ

وقال خليفة الأقطع:

العبد يُقْرَعُ بالعصـا والحُرُّ تكفيه المَلامَهْ

القول في العُرْجان

قال رجلٌ من بني عِجْل:

وشَى بيَ واشٍ عندَ لَيْلَى سَـفـاهة فقالت له ليلَى مقالة ذي عـقْـلِ

وخبَّرَها أنِّي عَرِجْتَ فـم تـكُـنْ كَوَرْهَاءَ تجترّ الملامة للـبَـعـلِ

وما بيَ مِنْ عَيبِ الفتى غَيْرَ أنّنـي جَعَلْتُ العَصَا رجلاً أقيمُ بها رجلي

وقال أبو حَيَّة في مثل ذلك:

وقد جَعَلْتُ إذ ما قُمـتُ يُوجِـعُـنـي ظهْري فقُمت قِيَامَ الشّاربِ السَّكـرِ

وكنتُ أمشي على رجلَين مُـعْـتَـدِلاً فصرتُ أمشي على أخرى من الشجر

وقال أعرابيٌّ من بني تميم:

وما بيَ منْ عيب الفتى غَيْرَ أنّني أَلِفْتُ قناتي حِينَ أوجَعني ظهْري

وكان بنو الحَدَّاءِ عُرْجاناً كلّهم، فهجاهُم بعض الشُّعراء فقال:

للّه درُّ بَني الحَدّاءِ مِنْ نَفَرِ وكلُّ جارٍ على جيرانِهِ كَلِبُ

إذا غَدَوْا وعصيُّ الطّلْح أرجُلُهم كما تُنَصَّبُ وَسْط البيعَةِ الصُّلُبُ

وإنّما شبه أرجلهم بعصيّ الطّلح؛ لأنَّ أغصان الطلح تنْبت معوجّة، لذلك قال مَعْدان الأعمى:

والذي طفَّفَ الجدار من الدُّعْ ر وقد بات قاسِمَ الأنفالِ

فغدا خامعاً بأيدِي هَشِيمٍ وبساقٍ كعُودِ طلحٍ بالِ

وله حديثٌ.

عصا الحكم بن عبدل

وكان الحكمُ بن عبدل أعرجَ، وكان بعد هجائه لمحمد بن حسَّان بنِ سعد لا يبعث إلى أحدٍ بعصاه التي يتوكأ عليها وكتبَ عليها حاجَته إلاّ قضاها كيفَ كانت، فدخل على عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، وهو أميرُ الكوفة، وكان أعرجَ، وكان صاحبُ شُرطته أعرَج فقال ابن عَبْدَل:

ألقِ العَصَا ودَعِ التَّعَارجَ والتمِسْ عملاً فهذي دَولَةُ العُرجانِ

فأميرُنا وأميرُ شُرطِتنَا مَعاً يا قومنا لكليهما رجلانِ

فإذا يكونُ أميرُنا ووزيرُه وأنا فإنّ الرَّابعَ الشيطانُ

وقال آخر ووصف ضَعفه وكِبَر سنِّه:

آتِي النديَّ فلا يُقرَّب مجلسي وأقودُ للشرَفِ الرفيع حماريا

عرجان الشعراء

وكان من العُرجان والشعراء أبو ثعلب، وهو كليب بن أبي الغول، ومنهم أبو مالك الأعرج، وفي أحدهما يقول اليزيدي:

أبو ثعلبٍ للناطفيِّ مؤازرٌ على خبثه والناطفيُّ غيورُ
وبالبغلة الشهباء رِقَّةُ حافرٍ وصاحبُنا ماضي الجَنان جَسورُ
ولا غَرْوَ أنْ كان الأعيرجُ آرَهَا وما الناسُ إلآ آيرٌ ومَئيرُ

البدء والثُّنيان

وقال الشاعر:

تَلَقى ثِنَانا إذا ما جاءٍ بَدَأهم وبَدْؤُهم إنْ أتانا كان ثُنْيانَا

فالبدء أضخم السَّادات؛ يقال ثِنًى وثنيان، وهو اسم واحد، وهو تأويلُ قولِ الشَّاعر:

يَصُدُّ الشَّاعر الثُّنْيَانُ عَنِّي صُدُودَ الْبَكْرِ عن قَرْمٍ هِجَانِ

لم يمدح نفسه بأن لا يغلب الفحل وإنَّما يغلب الثنيانَ، وإنما أراد أنْ يصغِّر بالذي هَجَاه، بأنه ثنيان، وإن كان عندَ نفسِه فحلاً وأمَّا قول الشَّاعر:

وَمَنْ يَفْخَرْ بمثل أبي وجَدّي يجئْ قبل السّوابق وهو ثانِ

فالمعنى ثانِ عنانه.

أحاديث من أعاجيب المماليك

- أتيتُ باب السَّعدانيَ، فإذا غلامٌ له مليحٌ بالباب كان يتْبع دابَّته، فقلت له: قلْ لمولاك، إن شئتَ بكَرتَ إليَّ، وإن شئت بكَرتُ إليك، قال: أنا ليس أكلّم مولاي - ومعي أبو القنافذ - فقال أبو القنافذ: ما نحتاج مع هذا الْخُبْر إلى معايَنَة.
وقال أبو البصير المنجِّم، وهو عند قثم بن جعفر، لغلام له مليحِ صَغير السّنّ: ما حَبَسك يا حلَقيّ؟ والحلقيُّ:المخنث - ثمّ قال: أمَا واللّه لئن قمتُ إليك يا حلَقيُّ لَتَعلمنّفلمَّا أكثر عليه من هذا الكلام بكى و قال: أدعو اللّه على مَنْ جعلني حَلَقياً.
حدَّثني الحسن بنُ المرزبان قال: كنتُ مع أصحابٍ لنا، إذ أتينا بغلامٍ سنديٍّ يُباع، فقلتُ له: أشتريك يا غلام؟ فقال: حتَّى أسألَ عنك قال المكِّي: وأتِيَ المثنّى بن بشرٍ بسِنْديٍّ ليشتريه على أنّه طبّاخ، فقال له المثنى: كَمْ تحسنُ يا غلامُ من لونٍ؟ فلم يُجبْه؛ فأعاد عليه، وقال: يا غلامُ كَمْ تحسنُ من لون؟ فكلّم غيرَه وتركه؛ فقال المثنّى في الثالثة: ما له لايتكلم؟ يا غلام، كم تحسنُ من لون؟ فقال السندي: كم

تحسن من لون كم تحسن من لون وأنت لا تحسن ما يكفيك أنت؟ قال: حسبُك الآن: ثم قال المثنّى للدَّلاّل: امضِ بهذا، عليه لعنةُ اللّه.
وحدَّثني ثمامة قال: جاءنا رجلٌ بغلامٍ سِنديّ يزعمُ أنّه طباخٌ حاذق، فاشتريتُه منه، فلمَّا أمرتُ له بالمال قال الرَّجل: إنه قد غاب عنا غيبةً، فإن اشتريتَه عَلى هذا الشّرط، وإلاّ فاتركْهُ، فقلتُ للسندي: أكنتَ أبقْتَ قطّ قال: واللّه ما أبقْتُ قطّ فقلت: أنت الآن قد جمعتَ مع الإباق الكذب قال: كيف ذلك ؟ قلتُ: لأنّ هذا الموضعَ لا يجوز أنْ يكذِب فيه البائع، قال: جعلني اللّه تعالى فِدَاءَك أنا واللّه أخبرك عن قصّتي: كنت أذنَبتُ ذنْباً كما يُذّنِبُ هذا وهذا، جميعُ غلمان النّاس فحلف بكلّ يمين لَيضربنِّي أربَعمائة سوط، فكنتَ ترى لي أن أقيم؟ قلت: لا واللّه قال: فهذا الآن إباق؟ قلتُ لا، قال: فاشتريته فإذا هو أحسنُ النّاس خَبْزاً وأطيبُهم طبخاً.
وخبَّرني رجلٌ قال: قال رجلٌ لغلام له ذاتَ يوم: يا فاجر قال: جعلني اللّه فِداك، مَولى القوم منهم.
وزعم روح بن الطائفية - وكان روْحٌ عَبداً لأخْت أنَس بن أبي شيخ، وكانت قد فوَّضت إليه كلَّ شيءٍ من أمْرها - قال: دخلت السُّوق أريدُ شراءَ غلامٍ طبَّاخ، فبينا أنا واقفٌ إذ جيءَ بغلامٍ يُعرَض بعشرة دنانير، ويساوي على حُسْن وجهه وجودة قدِّه، وحداثة سنِّه، دونَ صناعته - مائَة دينار، فلمَّا رأيته لم أتمالك أنْ دنوتُ منه فقلت: ويحك أقلُّ ثمنِك على وجْهِك مائةُ دينار، واللّه ما يبيعُك مولاك بعشْرَة دنانيرَ إلاّ وأنت شرُّ الناس فقال: أمَّا لهم فأنا شرُّ الناس، وأمَّا لغيرهم فأنا أساوي مائةً ومائة، قال: فقلت: التزيُّن بجمالِ هذا وطيبِ طبْخِه يوماً واحداً عند أصحابي خيرٌ من عشرة دنانير، فابتَعته ومضيتُ به إلى المنزل، فرأيت من حِذقه وخِدمته، وَقلَّة تزيُّده ما إنْ بعثْتُه إلى الصيّرفي لِيأتيني من قِبَله بعشرين ديناراً، فأخذَها ومضى على وجْهه فو اللّه ما شعَرت إلاّ والنَّاشد قد جاءني وهو يطلب جُعْله، فقلت: لهذا وشِبْهه باعك القومُ بعشرة دنانير قال: لولا أنّي أعلم أنَّك لا تصدِّق يميني و كيف طرَّت الدّنانير من ثوبي، ولكنّي أقولُ لك واحدة: احتبسني واحترسْ منِّي، واستمتعْ بخدمتي، واحتسِبْ أنَّك كنت اشتريتني بثلاثين ديناراً، قال: فاحتبسته لهوايَ فيه، وقلت لعلَّه أنْ يكونَ صادقاً، ثمَّ رأيتُ واللّه من صلاحه وإنابته وحُسْن خدمته ما دعاني إلى نسيان جميع قصَّته، حتى دفعتُ إليه يَوماً ثلاثين ديناراً ليوصلها إلى أهلي، فلمَّا صارت إلى يده ذهبَ على وجهه، فلم ألبثْ إلاّ أيّاماً حتى ردّه النّاشد، فقلت له: زَعمتَ أنّ الدَّنانير الأولى طُرَّتْ منك، فما قولك في هذه الثانية؟ قال: أنا، واللّهِ أعلم أنَّك لا تقبل لي عُذْراً، فدَعْني خارجَ الدار، ولا تجاوزْ بي خدمةَ المطبخ؛ ولو كان الضَّرْبُ يردُّ عليك شيئاً من مالِك لأشرتُ عليك به، ولكنْ قد ذهبَ مالُك، والضَّرب ينقُص من أجْرك؛ ولعلّي أيضاً أموتُ تحتَ الضّرب فتندمَ وتأثمَ وتفتضحَ ويطلبَك السلطان، ولكنْ اقتصِرْ بي على المطبخ فإنّي سأسرُّك فيه، وأوفره عليك، وأستجيد ما أشتريه وأستصلحه لك، وعدَّ أنْك اشتريتني بستّين ديناراً فقلت له: أنت لا تفلح بعد هذا اذهبْ فأنتَ حرٌّ لوجه اللّه تعالى فقال لي: أنت عبدٌ فكيف يجوز عتقُك، قلت فأبيعُك بما عَزَّ أوْ هانَ فقال: لا تَبعْني حَتَّى تُعِدَّ طبَّاخاً، فإنّك إن بعتني لم تتغدّ غِذاءً إلاّ بخبزٍ وباقِلاء، قال: فتركته ومَرَّتْ بعد ذلك أيامٌ فبينا أنا

جالسٌ يوماً إذْ مرَّت عليّ شاةٌ لبونٌ كريمة، غزيرة الدّرّ كنا فرَّقنا بينها وبين عَناقها فأكثرتْ في الثُّغاء، فقلت كما يقول النّاس، وكما يقول الضّجر: اللهمَّ العنْ هذه الشاة ليت أنَّ اللّه بعثَ إنساناً ذبحها أو سرَقها، حتى نستريحَ من صياحها قال: فلم ألبَثْ إلاّ بقدْر ما غاب عن عيني، ثمَّ عاد فإذا في يده سِكِّين وسَاطور وعليه قميصُ العَمَل، ثمّ أقبل عليّ فقال: هذا اللّحم ما نصنع به وأيُّ شيءٍ تأمرني به؟ فقلت: وأيُّ لحم؟ قال: لحم هذه الشاة، قلت: وأيُّما شاةٍ؟ قال: التي أمرتَ بذبحها، قلت: وأي شاةٍ أمرْت بذبحها؟ قال: سبحان اللّه أليس قد قلت السّاعة: ليت أن اللّه تعالى قد بعث إليها من يذبحها أو يسرقها، فلما أعطاك اللّه تعالى سؤلك صرتَ تتجاهل قال روح: فبقِيت واللّه لا أقدرُ على حبَسه ولا على بيعه ولا على عِتقه.

أشعارٌ حِسَان

وقال مسكينٌ الدّارميّ:

إنَّ أبانا بِكْـرُ آدم فـاعلـمـوا　　وحَواء قرْمٌ ذو عِثانـين شـارف

كأنّ على خُرطومه متهـافِتـاً　　من القُطن هاجته الأكفُّ النوادفُ

وللَصَّدَأ المُسْوَدُّ أطيبُ عنـدَنـا　　من المِسك دافته الأكْفُّ الدوائفُ

ويصبْح عِرفان الدُّروع جلـودَنـا　　إذا جاءَ يومٌ مُظلمُ اللّون كاسفُ

تعلق في مثل السّواري سُيوفنـا　　وما بينها والكعب مِنَّا تـنـائفُ

وكلُّ رُدَيْنـيٍّ كـأنَّ كُـعـوبَـه　　قطاً سابقٌ مستوردُ الماء صائفُ

كأنّ هِلالاً لاحَ فـوقَ قَـنَـاتِـهِ　　جلا الغَيْمَ عنه والقتامَ الحَراجِفُ

له مثلُ حُلقومِ النَّعـامة حـلة　　ومثل القدامى ساقها متناصفُ

وقال أيضاً مِسكينٌ الدَّارميّ:

وإذا الفاحش لاقى فاحـشـاً　　فهنـاكُمْ وافقَ الشَّنُّ الطبَـقْ

إنَّما الفُحشُ ومـنْ يعتـادُه　　كغُرابِ البَيْن ما شَاءَ نـعَـقْ

أو حمار السَّوءِ إنْ أشبعْتَـهُ رَمَحَ النَّاسَ وإنْ جَاعَ نَـهَقْ

أو غُلامِ السَّوءِ إنْ جوّعتـه سَرَق الجارَ وإن يشْبَع فسَق

وقال ابن قيس الرقيات:

مَعقل القوم من قُريشٍ إذا ما فازَ بالجهلِ مَعْشَرٌ آخرُونا

لا يَؤُمُّون في العَشِيرة بالسَّو ءولا يُفْسِدون ما يَصْنَعُونـا

وقال ابن قيس أيضاً، واسمُه عبد اللّه:

لو كانَ حَولي بنـو أمَيّة لـم ينطِقِ رجالٌ إذا همُ نَطـقُـوا

إنْ جَلسُوا لم تَضقْ مجالسهُـم أو ركِبوا ضاق عنهمُ الأُفقُ

كَمْ فيهم من فتًى أخـي ثـقةٍ عن مَنْكِبَيه القميصُ منخـرقُ

تحبُّهم عُوَّذُ الـنِّسـاء إذا ما احمَرَّ تحت القوانِسِ الْحَدَقُ

وأنكَرَ الكَلْبُ أهلَه ورأى الشَّرَّ وطاحَ الـمـروَّعُ الـفـرقُ

وقال النابغة:

سَهكينَ مِنْ صَدإ الحديدِ كأنَّهمْ تحتَ السَّنَوَّر جِنّةُ البـقَّـار

وقال بشار بن برد:

يطيِّبُ ريحُ الخيزُرَانَةِ بينَـهـم على أنّها ريحُ الدِّماء تضُوع

سنقول في الشهب وفي استراق السمع وإنّما تركْنا جمعَه في مكان واحد، لأنّ ذلك كان يطولُ على القارئ، ولو قد قرأ فضْلَ الإنسان على الجانّ، والحجَّة على مَن أنكرَ الجانّ - لم يستثقِلْه، لأنّه حينئذٍ يقصد إليه على أنّه مقصورٌ على هذا الباب، فإذا أدخلناه في باب القول في صغار الوحش، والسِّباع، والهَمج، والحشرات، فإذا ابتدأ القراءة على ذلك استطال كلَّ قصير إذا كان من غير هذا المعنى.
قالوا: زعمتم أنَّ اللّه تعالى قال: "وَلَقد زَيَّنا السَّمَاءَ الدُّنْيا بمصَابيحَ وَجَعَلْناهَا رُجُوماً للشّياطين"، وقال تعالى: "وَحفِظْنَاهَا منْ كُلِّ شيْطان رَجيم"، وقال تعالى:

"وجَعَلْناهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطين" ونحنُ لم نجدْ قطُّ كوكباً خلا مكانهُ، فما ينبغي أنْ يكون واحدٌ من جميع هذا الخلق، من سكّان الصحارى، والبحار، ومن يَراعِي النُّجوم للاهتداء، أو يفكِّر في خلق السموات أن يكون يرى كوكباً واحداً زائلاً، مع قوله: "وَجَعَلْناهَا رُجُوماً للشَّياطين".

قيل لهم: قد يحرِّك الإنسانُ يدَه أو حاجبَه أو إصبَعه، فتضاف تلك الحركةُ إلى كلّه، فلا يشكّون أنّ الكلَّ هو العاملُ لتلك الحركة، ومتى فصَل شهابٌ من كوكب، فأحرق وأضاء في جميع البلاد، فقد حكَم كلُّ إنسانٍ بإضافة ذلك الإحراق إلى الكوكب، وهذا جواب قريبٌ سهل، والحمد للّه.

ولم يقلْ أحد: إنّه يجبُ في قوله: "وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّياطينِ" أنّه يَعْني الجميع، فإذا كان قد صحّ أنّه إنَّما عَنى البعض فقد عَنى نُجُوم المجرّة، والنجومَ التي تظهر في ليالي الحنادس؛ لأنّه محال أن تقعَ عينٌ على ذلك الكوكبِ بعينه في وقت زوَاله حتّى يكون اللّه عزّ وجلَّ لو أفنى ذلك الكوكَب من بين جميع الكواكب الملتفَّة، لعرف هذا المتأمِّلُ مكانه، ولوَجَدَ مَسَّ فقدِه، ومن ظنَّ بجهله أنَّه يستطيع الإحاطة بعدد النُّجوم فإنه متى تأمَّلها في الحَنادس، وتأمَّل المجرَّة وما حولها، لم يضرب المثل في كثرة العدد إلاّ بها، دونَ الرّمل والتّراب وقطْر السَّحاب.

وقال بعضُهم: يدنو الشِّهاب قريباً، ونراه يجيء عَرْضاً لا مُنْقضاً ولو كان الكوكب هو الذي ينقضُّ لم يُر كالخيط الدّقيق، ولأضاء جميع الدُّنيا، ولأحرق كلَّ شيء مما على وجْه الأرض، قيل له: قد تكون الكواكب أفقيّة ولا تكونْ علوية؛ فإذا كانت كذلك فصَل الشِّهابُ منها عَرْضَاً، وكذلك قال اللّه تعالى: "إلاّ مَنْ خَطِفَ الخَطْفَة فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ" وقال اللّه عزَّ وجلّ: "أوْ آتيكُمْ بشِهابٍ قبس" فليس لكم أن تقضوا بأنّ المباشر لبدَن الشيطان هو الكوْكب حتى لا يكون غير ذلك، وأنتم تسمعونَ اللّه تعالى يقول: "فأتبعَهُ شِهَابٌ ثاقبٌ" والشِّهاب معروفٌ في اللغة، وإذا لم يُوجِبْ عليها ظاهرَ لفظ القُرآن لم ينكر أنْ يكون الشِّهَابُ كالخطّ أو كالسهم لا يضيءُ إلاّ بمقدار، ولا يقوى على إحراق هذا العالم، وهذا قريبٌ والحمد لله.

وطعن بعضهم من جهة أخرى فقال: زعمتم أنّ اللّه تبارك وتعالى قال: "وَحفظَاً منْ كلِّ شَيْطانٍ ماردٍ، لا يَسَّمعُون إلى الملإ الأعْلى وَيُقْذَفُونَ من كلِّ جانبٍ، دُحوراً ولَهُمْ عَذابٌ واصبٌ" وقال على سَنَنِ الكلام: "إلاّ مَنْ خَطفَ الخَطفَةَ فأتْبَعَهُ شهَابٌ ثاقبٌ" قال: فكيف تكون الخطفة من المكان الممنوع؟ قيل له: ليس بممنوع من الخطفة، إذ كان لا محالة مرمِيّاً بالشِّهاب، ومقْتُولاً، على أنّه لو كان سلِمَ بالخطفة لما كان استفاد شيئاً للتكاذيب والرِّياسة، وليس كلُّ من كذب على اللّه وادَّعى النبوَّة كان على اللّه تعالى أنْ يُظهر تكذيبه، بأن يخسِفَ به الأرْض، أو ينطِقَ بتكذيبه في تلك السَّاعة، وإذا وجبت في العُقول السّليمة ألاّ يصدق في الأخبار لم يكن معه بُرهان، فكفى بذلك.

ولو كان ذلك لكانَ جائزاً، ولكنَّه ليس بالواجب، وعلى أنَّ ناساً من النحويِّين لم يُدخلوا قوله تعالى: "إلاّ منْ خطِف الخَطْفَة"، في الاستثناء، وقال: إنّما هو كقوله:

إلاّ كخارجة المكلّفِ نفسَـه وابنَي قبيصة أن أغيبَ ويشْهدَا

وقوله أيضاً:

إلا كناشرة الذي كَلّفتمُ　　　كالغُصْنِ في غلوائه المتَنبّتِ

وقال الشاعر في باب آخر ممّا يكونُ موعظةً له من الفكر والاعتبار، فمن ذلك قوله:

مهما يَكن ريبُ المنُون فإنني　أرى قمَر اللّيلِ المعَذّر كالفتى

يَكُونُ صغيراً ثمَّ يعظُم دائباً　ويرجعُ حتّى قيلَ قد مات وانقضى

كذلك زَيدُ المرءِ ثمَّ انتقاصُه　وتكراره في إثره بعد ما مضَى

وقال آخر:

ومستَنْبَتٍ لا باللّيالي نَباتُه　　　وما إن تلاقي ما به الشّفتان

وآخر في خمسٍ وتسعِ تمامُه　　　ويُجْهد في سَبْعٍ معاً وثمانِ

الأوّل الطّريق والثاني القمر.

ما قيل من الشعر في إنقاص الصحة والحيا

وقال أبو العتاهية:

أسرَعَ في نقْض امرئٍ تمامه

وقال عبدُ هند:

فإنّ السِّنان يركبُ المرءُ حَدّه　من العارِ أو يعدُو على الأسد الوَرْدِ

وإنّ الذي ينهاكُمُ عن طِلابها　يُناغي نساءَ الحيِّ في طرّة البُرْد

يُعلّلُ والأيّامُ تنقص عمرَهُ　　كما تنقُصُ النّيرانُ من طرَف الزّنْدِ

وفي أمثال العرب: كلُّ ما أقامَ شَخَص، وكلُّ ما ازداد نقص؛ ولو كان يُميتُ النّاس الدَّاءَ، لأعاشهم الدّواء.
وقال حميد بن ثور:

أرى بَصَري قد رَابَني بعْدَ صحّةٍ   وحَسْبُكَ داءً أن تصحَّ وتسلما

وقال النَّمر بنُ تَولب:

يُحبُّ الفَتى طُولَ السَّلامةِ والبقا   فكَيفَ تَرَى طُول السَّلامةِ يفعَلُ

أخبار في المرض والموت

وقيل للمُوبَذ: متى أبنك يعني أبنك قال: يوم ولِد.
وقال الشّاعر:

تصرّفتُ أطواراً أرى كُلَّ عِبْرَةٍ   وكان الصَّبَا منِّي جديداً فأخلقا

وما زادَ شيءٌ قطُّ إلا لنقصهِ   وما اجتمع الإلفان إلاّ تفرَّقا

وقيل لأعرابي في مرضه الذي مات فيه: أيَّ شيءٍ تشتكي؟ قال: تمام العِدّة وانقضاء المدّة. وقيل لأعرابي، في شَكَاته التي ماتَ فيها: كيف تجِدُك ؟ قال: أجدُني أجدُ ما لا أشتهي، وأشتهي ما لا أجِد.
وقيلَ لَعمرو بن العاص في مَرْضَته التي ماتَ فيها: كيف تجدك؟ قال: أجِدُني أذوب ولا أثُوب ، وقال مَعْمَرٌ: قلتُ لرجلٍ كان معي في الحبْس، وكان مات بالبطْن: كيفَ تجدُك؟ قال: أجدُ روحي قد خرجَتْ من نصفي الأسفل، وأجد السَّماءَ، مُطْبقةَ عليَّ، ولو شئتْ أنْ ألمسَها بيدي لفعلت، ومهما شككتُ فيه فلا أشكُّ أنّ الموت بَرد ويُبس، وأنّ الحياةَ حرارة ورطوبة.

شعر في الرثاء

وقال يعقوبُ بن الرَّبيع في مرثية جاريةٍ كانتْ له:

حتَّى إذا فَتَر اللّسانُ وأصبحَتْ   للموتِ قد ذَبَلَتْ ذُبول النَّرجسِ

رَجَعَ اليقين مطامعي يأساً كما   رَجَعَ اليقينُ مطامعَ المتلمِّسِ

وقال يعقوبُ بن الربيعُ:

لئن كان قُرْبُكِ لي نافعاً   لَبُعدُك قد كان لي أنفعا

لأني أمنْتُ رَزَايا الدُّهور   وإنْ جلَّ خطبٌ فلن أجْزعَا

وقال أبو العتاهية:

وكانتْ في حياتِك لي عِظَاتٌ　　　فأنتَ اليوم أوْعظُ منك حيّا

وقال التيميُّ:

لقد عزَّى رَبيعَةَ أنَّ يومـاً　　　عليها مِثل يومكَ لا يعودُ

ومن عَجبٍ قصَدنَ له المنايا　　　على عَمْدٍ وهُنَّ له جُنُـودُ

وقال صالحُ بنُ عبد القدُّوس:

إن يكنْ ما أصِبت فيه جليلاً　　　فذهاب العزاء فيه أجَلُّ

ونظر بعض الحكماء إلى جنازة الإسكندر، فقال: إنّ الإسكندرَ كان أمسِ أنطقَ منه اليوم، وهو اليومَ أوعْظُ منه أمس.
وقال غسان:

ابيضَّ مِنِّي الرَّأسُ بعدَ سوادِهِ　　　ودَعَا المشيبُ حليلَتي لبعـادِ

واستُنفِدَ القرْنُ الذي أنا مِنْهُمُ　　　وكفى بذلك علامةً لحصادي

وقال أعرابي:

إذا الرِّجـالُ ولـدَتْ أولادُها　　　واضطربتْ من كِبَرٍ أعضادُها

وَجعلتْ أسقامُها تعتـادُها　　　فهي زُروعٌ قد دَنا حصادُها

وقال ضِرارُ بنُ عمرو: منْ سرَّه بَنُوهُ ساءتْه نفسُه.
وقال عبدُ الرحمن بن أبي بكرة، مَنْ أحَبَّ طُولَ العُمُر فليُوطِّن نفسَه على المصائب.
وقال أخو ذي الرُّمَّة:

ولم يُنسني أوْفى المُلِمَّاتُ بعدَه　　　ولكنَّ نَكْءَ القرْحِ بالقرْحِ أوْجَعُ

بعض المجون

وقال بعض المُجّان:

نُرقّع دُنْيانا بتمزيق ديننـا فلا دِينُنا يَبْقى ولا ما نرقّعُ

وسُئل بعضُ المُجَّان: كيف أنتَ في دينك؟ قال: أخرِّقه بالمعاصي، وأرقعه بالاستغفار.

شعر في معنى الموت وأنشدُوا لعُروة بن أذينة:

نُراع إذا الجنائزُ قابلتْنـا ويحزُنُنا بُكاءُ الباكـياتِ

كَرَوْعةِ ثَلَّةٍ لمغارِ سَبْـعٍ فلما غابَ عادَتْ راتِعَاتِ

وقال أبو العتاهية:

إذا ما رأيتم مَيِّتين جـزعـتـمُ وإن لم تَرَوا ملتم إلى صَبواتِها

وقالت الخنساء:

تَرتَعُ ما غَفَلَتْ حتَّى إذا ادَّكرت فإنَّما هـي إقـبـالٌ وإدبـارُ

وكان الحسن لا يتمثَّل إلا بهذين البيتين، وهما:

يسرُّ الفتى ما كان قدَّمَ من تُقًى إذا عَرَفَ الدَّاءَ الذي هو قاتلُه

والبيتُ الآخر:

ليس مَنْ ماتَ فاستراح بَميْتٍ إنّما الميْتُ مـيّتُ الأحـياءِ

وكان صالحٌ المُرّيّ يتمثَّل في قصصه بقوله:

فباتَ يُروِّي أصولَ الفسـيلِ فعاشَ الفَسيلُ وماتَ الرجلْ

وكان أبو عبد الحميد المكفوف، يتمثَّل في قصصه بقوله:

يا راقدَ اللّيل مسروراً بـأوّلـه إنّ الحوادث قد يطْرُقن أسحاراً

ونظر بكرُ بن عبد اللّه المُزنيّ إلى مُوَرِّقٍ العِجليّ، فقال:

عندَ الصّباح يَحْمَدُ القوْمُ السُّرَى وتنجلي عنهمْ غيابات الكَرَى

وقال أبو النجم:

كلنا يأمُل مدّاً في الأجلْ　　　　والمنايا هي آفاتُ الأملْ

فأمَّا أبو النجم فإنَّه ذهب في الموت مذهبَ زهيرحيث يقول:

إنَّ الفتى يُصْبحُ للأسقـام　　　　كالغَرَضِ المنْصُوبِ للسِّهام

أخطاهُ رامٍ وأصاب رام

وقال زهير:

رأيتُ المنايا خَبْط عَشْوَاءَ منْ تُصبْ تُمتْهُومَنْ تخطئ يُعَمّرْ فيَهْرَمِ

مقطعات شتى وقال الآخر:

وإذا صنَعْتَ صنيعةً أتممتهـا　　　　بيدَين ليس نَداهُما بمكـدّرِ

وإذا تباعُ كريمةٌ أو تُشْتَـرى　　　　فسواك بائعُها وأنت المُشْتري

وقال الشاعر:

قصيرُ يدِ السِّربال يَمْشي معرِّداً　　وشرُّ قريشٍ في قريشٍ مُرَكَّبا

وقال الآخر:

بعثتَ إلى العراق ورافِدَيه　　　　فزَاريّاً أحَذَّ يدِ القميص

تفيهق بالعراق أبو المثنَّى　　　　وعلّمَ قومه أكلَ الخبيصِ

وقال الآخر:

حَبَّذا رَجْعُها إلـيَّ يَدَيها　　　　بيدَيْ دِرعِها تحلُّ الإزَارا

وأنشد:

طوَتْهُ المنـايا وهو عنهنَّ غـافلٌ　　بمنخَرق السِّربال عاري المناكبِ

جريءٍ على الأهوال يَعْدِل دَرْءَهَا بأبيضَ سَقَّاطٍ وراءَ الضَّرائب

وقال جرير:

تركتُ لكم بالشّام حَبْلَ جـمـاعةٍ   مَتينَ القُوى مُسْتَحْصدِ الْفَتْل باقيَا

وجدْت رُقى الشَّيطان لا تستفزُّه   وقد كان شَيطاني من الجِنِّ راقيا

وقال الأسديّ:

كثير المناقب ِوالمكرمـات   يجود مجداً وأصـلاً أثـيلا

ترى بيديه وَراء الكـمـيّ   تباله بعد نصال نـصـولا

تمنى السفاه ورأى الخـنـا   وضَلّ وقد كان قِدْماً ضَلولا

فإن أنت تنزع عن وُدِّنـا   فما إن وجدت لقلبي محيلا

بسمِ اللّهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

في إحساس أجناس الحيوان

اللهم إنَّا نَعوذ بك من الشَّيطان الرجيم، ونسألك الهداية إلى صراطك المستقيم، وصلّى اللّه على سيدنا محمد خاصَّة وعلى أنبيائه عامَّة، ونعوذ باللّه أن تدعوَنا المحبَّةُ لإتمام هذا الكتاب إلى أنْ نَصِلَ الصِّدْقَ بالكذب ونُدْخِلِ الباطلَ في تضاعيف الحق، وأن نتكثَّر بقول الزور ونلتمس تقوية ضعفِهِ باللفظ الحسن، وستر قبحه بالتأليف المونِق، أو نستعينَ على إيضاح الحقِّ إلا بالحق، وعلى الإفصاح بالحجَّة إلاّ بالحجة، ونستميلَ إلى دراسته واجتبائه، ونستدعي إلى تفضيله والإشادة بذكره، بالأشعار المولّدة، والأحاديث المصنوعة، والأسانيد المدخولة، بما لا شاهد عليه إلاّ دعوى قائله، ولا مصدِّق له إلاّ مَن لا يُوثَق بمعرفته، ونعوذُ باللّه من فِتنة القول وخَطله، ومن الإسهاب وتقحُّم أهله، والاعتمادُ فيما بيننا وبين كثيرٍ من أهل هذا الزمان على حسن الظنّ، والاتّكالُ فيهم على العُذر؛ فإنّ كثيراً ممّن يتكلّف قراءة الكُتب، ومدارسة العلم، يقِفون من جميع الكتب على الكلمة الضعيفة، واللّفظة السَّخيفة، وعلى موضعِ من التأليف قد عرض له شيءٌ من استكراهٍ، أو ناله بعضُ اضطراب، أو كما يعرض في الكتب من سَقَطات الوهْم، وفَلَتات الضَّجَر، ومن خَطأ النّاسخ، وسوء تحفُّظ المعارض على معنًى لعله لو تدبَّره بعقلٍ غير مفْسَدٍ، ونظرٍ غير مدخول، وتصفّحَه وهو محترسٌ من عوارض الحسد، ومن عادة التسرُّع، ومن أخلاق مَن عسى أن يتَّسِع في القول بمقدار ضِيق صَدره، ويُرسل لسانَه إرسالَ الجاهل بكُنْه ما يكون منه، ولو جعلَ بدلَ شُغله بقليلِ ما يرى من المذموم شُغْلَهُ بكثيرِ ما يرى من المحمود - كانَ ذلك أشبهَ بالأدبِ المرضيِّ والخِيم الصَّالح، وأشدّ مشاكلَةً للحكمة، وأبعدَ من سلطان الطَّيش، وأقربَ إلى عادة السَّلَف وسيرة الأوَّلين، وأجدَرَ أن يَهَبَ اللّه له السَّلامة في كتبه، والدِّفاعَ عن حُجَّته يومَ مناضلةِ خصومه ومقارعةِ أعدائه. وليس هذا الكتابُ - يرحمك اللّه - في إيجاب الوَعد والوعيد فيعترض عليه المرجئ، ولا في تفضيل عليٍّ فينصِب له العثمانيّ، ولا هو في تصويب الحكمَين، فيتسخّطَه الخارجيّ، ولا هو في تقديم الاستطاعة فيعارضَه من يُخالف التقديم، ولا هو في تثبيت الأعراض فيخالفَه صاحبُ الأجسام، ولا هو في تفضيل البَصرة على الكوفة، ومكة على المدينة، والشَّام على الجزيرة، ولا في تفضيل العجَم على العرب، وعدنانَ على قحْطان، وعمرٍو على واصل فيردّ بذلك الهذيلي عَلَى النّظّامي، ولا هو في تفضيل مالكٍ على أبي حنيفة؛ ولا هو في تفضيل امرئ القيس على النّابغة، وعامر ابن الطفيل على عمرو بن معد يكرب، وعباد بن الحصين على عبيد اللّه بن الحُرّ، ولا في تفضيل ابن سُريج على الغَريض، ولا في تفضيل سيبويهِ على الكسائيّ، ولا في تفضيل الجعفريِّ على العقيليّ، ولا في تفضيل حلم الأحنف على حِلم معاوية، وتفضيل قتادة على الزّهري، فإنَّ لكلِّ صِنفٍ من هذه الأصناف شيعةً، ولكلِّ رجل من هؤلاء الرجال جُند، وعدداً يخاصمون عنهم، وسفهاؤهم المتسرعون منهم كثير، وعلماؤهم قليل، وأنصاف علمائهم أقلّ.

ولا تنكر هذا - حفظكَ اللّه - أنا رأيت رجُلين بالبصرة على باب مُويس بن عِمران، تنازعا في العنب النَّيروزيِّ والرازقيِّ، فجرى بينهما اللعين حتى تواثبا، فقطع الكوفيُّ إصبع البصريِّ، وفقأ البصريُّ عينَ الكوفيّ، ثم لم ألبَث إلاّ يسيراً حتى رأيتهما متصافيَين متنادمين لم يقعا قطّ على مقدار ما يُغضب مِن مقدار ما يُرضي، فكيف يقعَانِ على مقادير طبقات الغضب والرضا؟ واللّه المستعان.

وقد ترك هذا الجمهورُ الأكبر، والسَّوَادُ الأعظمُ، التوقفَ عندَ الشبهة، والتثبُّتَ عند الحكومة جانباً،

وأضربوا عنه صَفْحاً، فليس إلاّ لا أو نعم، إلاّ أنّ قولهم لاَ موصول منهم بالغضب، وقولهم نعم موصولٌ منهم بالرِّضا، وقد عُزلت الحرِّيَّة جانباً، ومات ذِكرُ الحلال والحرام، ورُفض ذكر القبيح والحسن.
قال عَمرو بن الحارث: كنَّا نُبغض من الرِّجال ذا الرياء والنَّفخ، ونحن اليوم نتمنّاهما.
قد كتبْنا من كتاب الحيوان ستّة أجزاء، وهذا الكتابُ السابع هو الذي ذكرنا فيه الفِيل بما حضَرنا من جُمْلة القولِ في شأنه، وفي جملة أسبابه، واللّه الموفق.
وإنما اعتمدنا في هذه الكتب على الإخبار عمّا في أجناس الحيوان من الحجج المتظاهِرة، وعلى الأدلة المترادفة، وعلى التنبيه على ما جلَّلها اللّه تعالى من البرهانات التي لا تعرف حقائقُها إلا بالفكرة، وغشَّاها من العلامات التي لا تنال منافعها إلا بالعبرة، وكيف فرَّق فيها من الحكم العجيبة، والأحاسيس الدقيقة، والصنعة اللطيفة، وما ألهمها من المعرفة وحشاها من الجُبن والجرأة، وبصَّرها بما يُقيتُها ويُعيشها، وأشعرها من الفِطنة لما يحاول منها عدوُّها، ليكونَ ذلك سبباً للحذر، ويكون حذرُها سبباً للحِراسة، وحراستُها سبباً للسلامة، حتى تجاوزت في ذلك مقدارَ حراسة المجرِّب من الناس، والخائفِ المطلوب من أهل الاستطاعة والروِيَّة، كالذي يروى من تحارُس الغرانيق والكراكي، وأشكالٍ من ذلك كثيرة، حتى صار الناسُ لا يضربون المثلَ إلا بها، ولا يذمُّون ولا يمدحون إلا بما يجدون في أصناف الوَحْش من الطَّير وغير ذلك، فقالوا: أحذر من عقْعَق، وأحذَر من غراب، وأحذَر من عصفور، وأسمع من فَرْخ العُقاب، وأسمع من قُراد، وأسمعُ من فَرَس، وأجْبَنُ من صِفْرِد، وأسخَى من لافِظَة، وأصنع من تُنَوِّطٍ، وأصنَع من سُرْفَة، وأصنع من دَبْر، وأهدى من قطاة، وأهدى من حمامٍ، وأهدَى من جملٍ، وأزهى من غراب، وأزْهى من ذباب، وأجرأ من اللَّيث، وأكسب من الذِّئب، وأخدع من ضَبّ، وأرْوَغ من ثعلب، وأعقّ من ضَبّ، وأبرّ من هِرَّة، وأسْرع من سِمْع، وأظلم من حيَّة، وأظلم من وَرَلٍ، وأكذبُ من فاخِتة، وأصدق من قطاة، وأمْوَق من رَخمة، وأحزَم من فَرْخ العُقاب.
ونبَّهنَا تعالى وعزّ على هذه المناسبة، وعلى هذه المشاركة، وامتَحَن ما عندنا بتقديمها علينا في بعض الأمور، وتقديمنا عليها في أكثر الأمور وأراد بذلك ألاّ يُخْلِينَا من حُجة، ومن النَّظر إلى عبرةٍ، وإلى ما يعود عند الفكرة موعظةً، وكما كره لنا من السهو والإغفال، ومن البطالة والإهمال، في كلِّ أحوالنا لا تُفْتَح أبصارُنا إلا وهي واقعةٌ على ضربٍ من الدلالة، وعلى شكل من أشكال البرهانات، وجعل ظاهرَ ما فيها من الآيات داعياً إلى التفكير فيها، وجعل ما استخزنها من أصناف الأعاجيب يُعرف بالتكشِيف عنها، فمنها ظاهرٌ يدعوك إلى نفسه، ويشير إلى ما فيه، ومنها باطنٌ يَزيدك بالأمور ثقةً إذا أفضيتَ إلى حقيقته، لتعلم أنَّك مع فضيلة عقلِك، وتصرُّف استطاعتِك إذا ظهر عجزُك عن عمل ما هو أعجز منك - أنّ الذي فضَّلك عليه بالاستطاعة والمنطق، هو الذي فضَّله عليك بضروبٍ أُخَر، وأنكما ميسَّران لما خُلقتُما له، ومُصرَّفان لما سُخِّرتما له، وأن الذي يعجِز عن صَنْعة السُّرْفة، وعن تدبير العنكبوت في قلتهما ومَهانتهما وضُعفهما وصِغَر جرمهما، لا ينبغي أن يتكبّر في الأرض ولا يمشِيَ الخُيَلاء، ولا يتهكَّمَ في القول، ولا يتألَّى ولا يستأمر، وليعلم أنَّ عقله منيحة من ربه، وأن استطاعتَه عاريَّةً عنده، وأنه إنما يستبقي النِّعمة بإدامة الشُّكْر، والتعرُّض لسلبها بإضاعة الشكر.
ثم حبَّب إليها طلب الذَّرء والسِّفاد الذي يكون مَجْلَبَةً للذرء، وحبَّب إليها أولادَها ونجلَها وذَرءها ونسلها، حتى قالوا: أكرم الإبل أشدُّها حنيناً، وأكرم الصَّفايا أشدُّها حبّاً لأولادها، وزَاوَجَ بين أكثرها وجعل تألَّفها معَ بعضها من الطَّروقة إذا لم يكن الزِّواج لها خُلقاً، وجعل إلف العِرْس لها عادة، وقوَّاها على المسافَدة، لتتمَّ النعمة، وتعظم المنة، وألهمها المبالغة في التربية، وحُسْنَ التعبُّد، وشدَّة

التفقُّد، وسوَّى في ذلك بين الجِنس الذي يُلَقِّم أولاده تلقيماً، وبين الذي يُرْضِعُها إرضاعاً، وبين الذي يزقُّها زَقّاً، وبين ما يحضن وما لا يحضن، ومنها ما أخرجها من أرحام البَيض وأرحام البطون كاسية، ومها ما أخرجها كاسيةً كاسِبة، وأمتَعَها وألذَّها، وجعلها نِعمةً على عباده، وامتحاناً لشكرهم، وزيادةً في معرفتهم، وجِلاءً لما يتراكم من الجهل على قلوبهم، فليس لهذا الكتاب ضدٌّ من جميع مَن يشهد الشهادة، ويصلّي إلى القبلة، ويأكل الذَّبيحة ولا ضدٌّ من جميع الملحدين ممَّن لا يقرُّ بالبعث، وينتحل الشرائع وإن أَلْحَدَ في ذلك وزاد ونقص، إلا الدَّهريَّ، فإن الذي ينفي الربوبيَّة، ويُحيل الأمرَ والنَّهيَ، ويُنكر جواز الرِّسالة، ويجعل الطِّينة قديمة، ويَجحد الثوابَ والعِقاب، ولا يعرف الحلالَ والحرام، ولا يقرُّ بأن في جميع العالَم برهاناً يدلّ عَلى صانعٍ ومصنوع، وخالق ومخلوق، ويجعلُ الفلك الذي لا يعرف نفسه من غيره، ولا يفصل بين الحديث والقديم، وبين المحسن والمسيء، ولا يستطيع الزيادةَ في حركته، ولا النُّقصانَ مِن دورانه، ولا مُعاقبةً للسُّكون بالحرَكة، ولا الوقوفَ طرْفةَ عين، ولا الانحرافَ عن الجهة - هو الذي يكون به جميع الإبرام والنَّقض، ودقيقُ الأمور وجليلها، وهذه الحِكم العجيبة، والتدابير المتْقنة، والتأليف البديع، والتَّركيب الحكيم، على حسابٍ معلوم، ونسَق معروف، على غايةٍ من دقائق الحكمة وإحكام الصَّنْعة.

ولا ينبغي لهذا الدهريِّ أيضاً أن يعرِض لكتابنا هذا وإن دلَّ على خلافِ مذهبه، ودعا إلى خِلافِ اعتقاده، لأن الدَّهريّ ليس يرى أنَّ في الأرض ديناً أو نِحلةً أو شريعة أو مِلة، ولا يرى للحلال حُرْمَةَ ولا يعرفه ولا للحرام نهايةً ولا يعرفه، ولا يتوقَّع العقابَ على الإساءة، ولا يترجّى الثواب على الإحسان، وإنما الصواب عنده والحقُّ في حُكْمه، أنه والبهيمة سِيّان، وأنه والسَّبُعَ سِيّان، ليس القبيحُ عنده إلاّ ما خالف هواه وليس الحسَن عنده إلاّ ما وافق هواه، وأن مدار الأمر على الإخفاق والدّرَك، وعلى اللذّة والألم، وإنما الصواب فيما نال من المنفعة، وإن قتلَ ألفَ إنسانٍ صالح لِمَنالةِ درهم رديء، فهذا الدهريّ لا يخاف إن ترك الطّعْن على جميع الكتب عقاباً ولا لائِمة، ولا عذاباً دائِماً ولا منقطعاً ولا يرجو إنْ ذمّها ونَصَب لها ثواباً في عاجل ولا آجل.

فالواجبُ أن يسلم هذا الكتابُ على جميع البريَّة، إذا كان موضِعُه على هذه الصِّفة، ومُجراه إلى هذه الغاية، واللّه تعالى الكافي الموفّق بلطفه وتأييده، إنه سميع قريب، فعال لما يريد.

ثم رجع بنا القولُ إلى الإخبار عن الحيوان، بأيِّ شيء تفاضلتْ وبأيِّ شيء خُصَّت، وبماذا أبينتْ، وقد عَرَفنا ما أعطيت في الشَّمِّ والاستِرْواح، قال الرَّاجز وذكر الذئب:

يستخبرُ الرِّيحَ إذا لم يسمَعِ　　　بمِثْل مِقْرَاع الصَّفا الموقَّع

وقد عرفنا كيف شمُّ السّنانير والسِّباع والذئاب، وأعجبُ من ذلك وِجدانُ الذَّرّة لرائحة شيءٍ لو وضعْتَه على أنفك لَمَا وجدْتَ له رائحةً، كرجل جرادةٍ يابسة منبوذةٍ، كيف تجدُ رائحتها من جوف جُحرها حتى تخرج إليها، فإذا تكلّفتْ حملَها فأعجَزَتْها كيف تستدعي إليها سائر الذَّرّ، وتستعينُ بكلِّ ما كان منها في الجُحر.

ونحو شمِّ الفَرَس رائحة الحِجْر من مَسيرة ميل، والفرس يسير قُدُماً والحِجر خلفه بذلك المقدار، من غير تلفُّتٍ ولا معايَنةٍ من جهة من الجهات، وهذا كثيرٌ، وقد ذكرناه في غير هذا الموضع، فأمّا السَّمع فدعنا من قولْهم: أسمعُ من فَرس،: أسمع من فرْخ العقاب وأسمع من كذا، وأسمع من كذا، ولكنّا نقصد إلى الصّغير الحقير في اسمه وخطَره؛ والقليلِ في جسمه وفي قدْره.

وتقول العرب: أسمع من قُراد، ويستدلون بالقِردان التي تكون حَوْل الماء والبئر، فإذا كان ليلة ورود القَرَب، وقد بعث القومُ من يصلح لإبلهم الأرشِية وأداةَ السقي، وباتت الرجال عند الماء تنتظر مجيء

الإبل، فإنها تعرف قربَها منهم في جوف الليل بانتفاش القِرْدان وسرعة حركتها وخشخشتها، ومرورها نحو الرعاء، وزجر الرعاء، ووقع الأخفاف على الأرض، من غير أن يُحسّ أولئك الرجالُ حسّاً أو يشعروا بشيء من أمرها، فإذا استدلوا بذلك من القردان نهضوا فتلبَّبوا واتزرُوا وتهيؤوا للعمل.
فأمّا إدراك البصر فقد قالوا: أبصر من غراب وأبصر من فرس؛ وأبصر من هدهد وأبصر من عقاب. والسَّنانير والفأرُ والجِرذان والسِّباع تُبصر بالليل كما تبصر بالنهار؛ فأمّا الطُّعم فيظنّ أنها بفرط الشَّرَه والشّهوة وبفرط الاستمراء وبفرط الحِرص والنَّهم، أن لذتها تكون عَلى قدْر شَرَهها وشهوتها، تكون على قدر ما ترَى من حركتها، وظاهر حرصها. ونحن قد نرى الحمار إذا عاين الأتان، والفرس إذا عاينَ الحِجْر والرمكة، والبغلَ والبغلة، والتيسَ والعنز فنظن أن اللذة على قدر الشهوة، والشهوة على قدر الحركة، وأن الصِّياحَ على قدر غلبة الإرادة. ونجد الرجال إذا اعتراهم ذلك لا يكونون كذلك إلاّ في الوقت الذي هم فيه أشدَّ غُلْمة وأفْرَط شهوة.
فإن قال قائل: إن الإنسان يغشى النِّساء في كلِّ حالٍ من الفصلين والصَّميمين، وإنما هَيْجُ السِّباع والبهائم في أيام من السنة ثم يسكن هيج التَّيس والجمل، فالإنسان المداوم أحسن حالاً.
قلنا: إنّا لم نَكن في ذكر المخايَرة بين نصيب الإنسان في ذلك مجموعاً ومفرَّقاً، وبين نصيب كلِّ جنسٍ من هذه الأجناس مجموعاً ومفرَّقاً، وإنما ذكرنا نفس المخالطة فقط، وما يدريكم أيضاً لعلها أنْ تَسْتَوْفيَ في هذه الأيَّام اليسيرة أضعافَ ما يأتِي الإنسان في تلك الأيَّام الكثيرة.
وعلى أنَّا قد نرى ممّا يعتري الحمارَ والفرسَ والبغلَ وضروباً كثيرة إذا عاينوا الإناث في غير أيام الهيج، وهاهنا أصنافٌ تُديم ذلك كما يُدِيمه الإنسان، مثل الحمام والدِّيَكَةِ وغير ذلك.
وقد علمنا أنّ السَّنانيرَ وأشباهَ السنانير لها وقتُ هيج، ولكنَّ ذلك يكون مراراً في السّنة على أشدَّ مِن هَيج الإنسان، فليس الأمر على ما يظنّون.
فإن كان الإنسانُ موضعُ ذهنهِ من قلبه أو دماغه يكونُ أدقّ وأرقَّ وأنفذَ، وأبصر، فإنّ حواسَّ هذه الأشكال أدقّ وأرقّ وأبْصر وأنفذ، وإن كان الإنسانُ يبلغُ بالرويّة والتصفُّح، والتحصيل والتمثيل ما لا يبلغه شيءٌ من السِّباع والبهائم، فإنّ لها أموراً تدركها، وصنعةً تحذِقها تبلغُ منها بالطبائع سهواً وهوِيّاً ما لا يبلغ الإنسان في ما هو بسبيله إلا أن يُكره نفسَه على التفكير، وعلى إدامة التنقير والتكشيف والمقاييس فهو يستثقله.
ولكلِّ شيءٍ ضربٌ من الفضيلة وشكلٌ من الأمور المحمودة، لينفيَ تعالى وعز عن الإنسانِ العُجْب، ويقبِّح عنده البَطر، ويعرِّفه أقدار القسْم.
وسنذكر من فطن البهائم وأحساس الوَحْش وضروب الطير أموراً تعرفون بها كثْرَةَ ما أودعها اللّه تعالى من المعارف، وسخَّر لها من الصنعة، ثم لا نذكر من ذلك في هذا الموضع إلاّ كلَّ طائر منسوبٍ إلى الموق، وإلاّ كلَّ بهيمةٍ معروفةٍ بالغثاثة، بعِدّةِ ما فيه أشْكالُها من المعرفة والفطنة، ولو أردنا الأجناسَ المعروفةَ بالمعارف الكثيرةِ، والأحساسِ اللَّطيفة، لذكرنا الفيلَ والبعير، والذَّرة والنملة، والذئب، والثعلب، والغرنوق، والنحلة، والعنكبوت، والحمامَ، والكلب، وسنذكر عَلى اسم اللّه تعالى بعضَ ما في البهائم والسِّباع والطير من المعرفة، ثم نخصُّ في هذا الكتابِ المنسوباتِ إلى المُوق، والمعروفاتِ بالغباوةِ وقِلة المعرفة، كالرَّخمة والزنبور، والرُّبَع من أولاد الإبل، والنَّسر من عظام الطير.
وقال المفضَّل الضبيّ: قلت لمحمد بن سهل راوية الكميت: ما معنى قول الكميت في الرَّخمة:

وذاتِ اسْمَيْنِ والألوانُ شَتَّى تُحَمَّقُ وهْيَ كيِّسة الحَويل

لها خِبٌّ تلوذُ به وليست بضائعة الجَنين ولا مَذُولِ

قال: كأنّ معناه عندي حفظُ فراخها، أو موضع بيضها، وطلب طعمها، واختيارها من المساكن ما لا يَطُوره سبع طائر ولا ذو أربع، قال: فقلتُ: فأيُّ كيس عند الرّخمة إلاّ ما ذكرت، ونحن لا نعرف طائراً ألأم لؤماً ولا أقذَر طُعْمة، ولا أظهر مُوقاً منها، حتى صارت في ذلك مثلاً؟ فقال محمد بن سهل: وما حمقُها وهي تحضن بيضها، وتحمي فِراخها، وتحبُّ ولدها، ولا تمكِّنُ إلاّ زوجها، وتقطع في أوَّل القواطع وترجِعِ في أوَّل الرواجع، ولا تَطير في التحسير، ولا تغترُّ بالشكير، ولا تُربُّ بالوكور ولا تسقط على الجَفير.
أمّا قوله: تقطع في أول القواطعِ وترجع في أوّل الرواجع فإنَّ الرُّماة وأصحابَ الحبائلِ والقُنَّاصَ إنما يطلبون الطير بعد أن يعلموا أنَّ القواطع قد قطعَتْ، فبقطع الرّخمة يستدلُّون، فلا بدَّ للرَّخَمَةِ مِنْ أن تنجوَ سالمةً إذا كانت أوَّلَ طالعٍ عليهم.
وأمَّا قوله: ولا تُربُّ بالوُكور فإنّه يقول: الوكر لا يكون إلا في عُرْض الجبل، وهي لا تَرضى إلا بأعالي الهضاب، ثم مواضع الصّدوع وخِلالِ الصخور، وحيث يمتنعُ على جميع الخلق المصيرُ إلى فراخها، ولذلك قال الكميت:

ولا تجعلوني في رَجائيَ وُدَّكم كراجٍ على بيضِ الأنوق احتبالَها

والأنوقُ هي الرّخمة، وقال ابن نوفل:

وأنتَ كساقطٍ بينَ الحشايا يَصِيرُ إلى الخبيثِ مِن المَصِيرِ

ومثلُ نَعامةٍ تُدْعَى بعيراً تعاظُمِها إذا ما قيل طِيري

وإن قيل احملي قالت فإنّي من الطّير المُربَّة في الوكورِ

وأما قوله: ولا تطير في التَّحسير، ولا تغترُّ بالشّكير فإنها تدعُ الطيرانَ أيام التحسير، فإذا نبت الشّكير - وهو أول ما ينبت من الريش - فإنها لا تَنهض حتى يصير الشكير قصَباً، وأمَّا قوله: ولا تسقط عَلَى الجَفِير، فإنما يعني جعبة السِّهام، يقول: إذا رأته علمت أنّ هناك سهماً، فهي لا تسقط في موضع تخاف فيه وقع السِّهام. اتباع الرخم والنسور والعقبان للجيوش

والرَّخم والنّسور والعِقبان تتبع الجيوشَ لتوقع القتال وما يكون لها من الجيف، وتتبع أيضا الجيوشَ والحُجَّاج لما يسقط من كَسير الدَّواب، وتتبعها أيضاً في الأزمنة التي تكون فيها الأنعام والحُجور حواملَ، لِمَا تؤمِّل من الإجهاض والإخداج، قال النابغة:

وَثِقْتُ له بالنَّصرِ إذْ قِيلَ قد غدَتْ كتائبُ من غسّان غير أشائِبِ

بنو عمِّه دُنْيا وعمرُو بن عـامـر أولئك قومٌ بأسهُم غير كـاذبِ

إذا ما غَزَوْا بالجيش حَلَّقَ فوقهـمْ عصائب طيرٍ تَهتدي بعصـائب

جوانح قد أيقـنَّ أنّ قـبيلـه إذا ما التقى الجمعان أوّلُ غالبِ

تراهُنّ خَلْفَ القوْمِ خُزْراً عيونُـها جُلوس شيوخٍ في مُسوك الأرانبِ

فأخذ هذا المعنى حميد بن ثور الهلالي فقال:

إذا ما غزا يوماً رأيتَ عِصـابةً من الطّير ينظُرْنَ الذي هو صانِعُ

وقال آخر:

يكسُو السيوفَ نفوس النَّاكثين به ويجعل الرُّوسَ تِيجَانَ القنا الذبُلِ

قد عَوَّدَ الطَّيْرَ عاداتٍ وَثِقن بهـا فهُنَّ يَتْبَعْنَهُ في كلِّ مُرْتَـحَـل

فقال الكميت كما ترى:

تحمّق وهي كيِّسةُ الحَوِيل

فزعم أن النَّاس يحمقونها وهي كيِّسة.
قول بعض الأعراب وقال بعضُ أصحابنا: قيل لأعرابيٍّ: أتحسن أنْ تأكلُ الرَّأسَ؟ قال: نعم، قيل: وكيف تصنع به؟ قال: أبخصُ عينيه، وأسْحَى خدَّيه، وأعفص أذنيه، وأفكُّ لَحيَيْه، وأرْمي بالمخِّ إلى مَنْ هُو أحوجُ منِّي إليه، قيل له: إنك لأحمق من رُبَع، قال: وما حمق الرُّبَع؟ واللّه إنه لَيَجْتَنبُ العُدَاوَء ويتبع أمّه في المرعى، ويُرَاوِحُ بين الأطْباء، ويعلم أن حَنينها رُغاء، فأين حمقُهُ.

قتل المكاء للثعبان

وحدث ابنُ الأعرابيِّ عن هشام بن سالم، وكان هشام من رهْط ذي الرُّمّة، قال: أكلتْ حَيّة بيضَ مُكَّاء فجعل المُكَّاءُ يشرشِرِ على رأسها ويدنُو منها، حتى إذا فتحت فاها تريده وهمَّتْ به ألقى فيه حَسَكة، فلم يزل يُلقي فيه حسكةً بعد حسكة، فأخذَتْ بحلقها حتى ماتت.
وأنشد ابن الأعرابيِّ عند هذا الحديث قولَ الشاعر:

كأنَّ لكلّ عند كُلّ سخيمة يُريد بتخْريق الأدِيم استلالَهَا

وأنشد أبو عمرو الشيباني بيت شعر، وهو هذا المعنى بعينه، وهو قول الأسدِيِّ الدُّبيريّ:

إنْ كنتَ أبصَرْتني فذّاً ومُصطَلَماً   فرُبَّما قتَلَ المُكَّاءُ ثُعبانا

يقول: قد يظفر القليل بالكثير، والقليلُ الأعوانِ بالكثير الأعوان؛ والمُكَّاء من أصغر الطير وأضعَفِه، وقد احتال للثُّعبان حتّى قتله.

قول جالينوس في معرفة أنثى الطير

وقال جالينوس في الإخبار عن معارف البهائم والطير، وفي التعجُّب من ذلك وتعجب الناس منه: قولوا لي: مَن عَلَّمَ النسرَ الأنثى إذا خافت على بيضها وفراخها الخفافيش أن تفرش ذلك الوَكْر بورق الدُّلْب حَتى لا تقربه الخفافيش، وهذا أعجب، والأطباء والعلماء لا يتدافعونه، والنُّسور هي المنسوبة إلى قلّة المعرفة والكيس والفطنة.

حزم فرخ العقاب

وقال ابن الأعرابيّ وأبو الحسن المدائني: قال رجلٌ من الأعراب: كان سنان بن أبي حارثة أحزَم من فرخ العقاب، وذلك أنَّ جوارح الطير تتخذ أوكارها في عُرْض الجبال، فربّما كان الجبلُ عموداً، فلو تحرَّك الفرخ إذا طلب الطعم وقد أقبل إليه أبواه أو أحدهما وزادَ في حركته شيئاً من موضع مَجثِمه لَهوَى من رأس الجبل إلى الحضيض، وهو يعرف مع صِغره وضُعفه وقلّة تجربته، أنّ الصواب في ترك الحركة.

اختلاف عادات صغار الحيوان

ولو وُضِع في أوكار الوحشيَّاتِ فرخٌ من فراخ الأهليَّات لتهافتن تهافُتاً كفراخ القطا والحجَل والقبج والدُّرَّاج والدَّجاج؛ لأنَّ هذه تَدْرُجُ على البَسيط، وذلك لها عادة، وفراخ الوحشيّة لا تجاوز الأوكار؛ لأنها تعرف وتعلم أنّ الهلكة في المجاوزة، وأولادُ الملاّحين الذين وُلدوا في السفن الكبار، والمنشآت العظام لا يخاف الآباءُ والأمَّهات عليهم إذا درجوا ومَشوا أنْ يقعوا في الماء، ولو أن أولاد سُكان القصور والدّور صاروا مكان أولادِ أرباب السفن لتَهافتوا، ولكلِّ شيء قدْر، وله موضعٌ وزمانٌ وجهة وعادةٌ.
فإذا استوى قصب ريش فرخ العقاب، وأحَسَّ بالقوة طار.
وأبَوَا فَرخ الخطّاف يعلّمانه الطيران تعليماً.

الختان عند اليهود والمسلمين والنصارى

وزعم ناسٌ من أطبَّاء النصارى وهم أعداءُ اليهود، أن اليهود يختِنون أولادَهم في اليوم الثّامن، وأن ذلك يَقع، ويوافِق أنْ يكون في الصَّميمين، كما يوافق الفصلين، وأنّهم لم يروْا قطّ يهوديّاً أصابه مكروه من قِبَل الخِتان، وأنهم قد رأوْا من أولاد المسلمين والنصارى ما لا يُحصى مِمَّنْ لقي المكروهَ في ختانه إذا كان ذلك في الصَّميمين من ريح الحمرة، ومن قطع طرَف الكمرة، ومن أن تكون المُوسَى حديثة العَهْد بالإحداد وسَقْي الماء، فتشيط عند ذلك الكَمرة ويعتريها برَص، والصبيّ ابن ثمانية أيام أعسرُ ختاناً من الغُلام الذي قد شَبَّ وشدن وقويَ؛ إلاّ أنَّ ذلك البرصَ لا يتفشى ولا يعدو مكانَه، وهو في ذلك كنحو البرص الذي يكون من الكيِّ وإحراق النار، فإنهما يفحشان ولا يتسعان.

ختان أولاد السفلة وأولاد الملوك وأشباههم

ويختن من أولاد السِّفْلة والفقراء الجماعة الكثيرة فيؤمَن عليهم خطأٌ الخاتن، وذلك غير مأمونٍ على أولاد الملوك وأشباهِ الملوك، لفِرط الاجتهاد، وشدّة الاحتياط، ومع ذلك يَزْمَعُ، ومع الزَّمَع والرِّعدة يقعُ الخطأ، وعلى قدر رعدة اليد ينال القلبَ من الاضطراب على حسَب ذلك.
وليس من التدبير أن يحضُر الصبيّ والخاتنَ إلاّ سفلة الخدم، ولا يحضره من يهاب.

قدم ختان العرب

وهذا الختان في العرب في النِّساء والرجال من لدُنْ إبراهيم وهاجر إلى يومنا هذا، ثم لم يُولَد صبيٌّ مختونٌ قط؛ أو في صورةِ مختون.

ختان الأنبياء

وناسٌ يزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم وعيسى بن مريم وُلِدَا مختونين، والسَّبيلُ في مثل هذا الرُّجوعُ إلى الرواية الصحيحة، والأثر القائم.

أثر الختان في اللذة

قال: والبظراء تجد من اللذة ما لا تجدُه المختونة، فإنْ كانت مُستأصَلةً مستوعَبةً كان على قدر ذلك، وأصل ختان النساء لم يُحاوَلْ به الحسنُ دونَ التماس نُقصان الشهوة، فيكون العفاف عليهنَّ مقصوراً.
قال: ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم للخاتنة: يا أم عطيَّة أشمِّيه ولا تَنْهَكِيه، فإنه أسْرَى للوَجْه، وأحظى عند البعل، كأنه أراد صلى الله عليه وسلم أن ينقُص من شهوتها بقدر ما يردّها إلى الاعتدال؛ فإن شهوتها إذا قلَّتْ ذهبَ التمتُّع، ونقصَ حُبُّ الأزواج، وحبُّ الزَّوج قيْدٌ دون الفجور، والمرأة لا تكونُ في حالٍ من حالات الجماع أشدَّ شهوةً منها للكَوْم الذي لقحت منه.
وقد كان رجلٌ من كبار الأشراف عندنا يقول للخاتنة: لا تقرضي إلاّ ما يظهر فقط.

أثر الختان في العفاف والفجور

وزعم جَناب بن الخَشخاش القاضي، أنه أحصى في قرية واحدة النساءَ المختونات والمُعْبرَات، فوجد أكثر العفائفِ مستوعَبات وأكثر الفواجر مُعْبَرَات.
وأن نساء الهند والروم وفارس إنما صار الزنا وطلب الرِّجال فيهنَّ أعم، لأنَّ شهوتهنَّ للرجال أكثر، ولذلك اتخذ الهند دوراً للزَّواني، قالوا: وليس لذلك علّة إلاّ وفارةَ البظْر والقُلْفة.
والهند توافِق العربَ في كلِّ شيء إلاّ في ختانِ النِّساء والرجال، ودعاهم إلى ذلك تعمُّقهم في توفير حظ الباه، قالوا: ولذلك اتخذوا الأدوية، وكتبوا في صناعة الباه كتباً ودَرَسُوها الأولاد، السحق قالوا: ومن أكبر ما يدعو النساء إلى السحق أنهنَّ إذا ألصقن موضع مَحَزِّ الخِتان وجَدْنَ هناك لذَّةً عجيبة، وكلما كان ذلك منها أوفرَ كان السَّحقُ ألذّ، قال: ولذلك صار حُذّاق الرِّجالِ يضعون أطراف الكمر ويعتمدون بها على محزِّ الختان، لأنَّ هناك مجتمع الشهوة.

ظمأ الأيِّل إذا أكل الحيات

ومن هذا الباب الذي ذكرنا فيه صِدقَ إحساس الحيوان؛ ثم اللاتي يضاف منها إلى المُوق وينسب إلى الغثارة، قال داود النبي عليه السلام في الزبور: شوقي إلى المسيح مثل الأيِّل إذا أكل الحيَّات، والأيِّل إذا أكل الحيَّات فاعتراه العطش الشديد تراه كيف يدور حَول الماء ويحجزه من الشرب منه علمُه بأنَّ ذلك عطبُه، لأن السموم حينئذٍ تجري مع هذا الماء، وتدخل مداخل لم يكن ليبلغها الطَّعامُ بنفسه، وليس علم الأيِّل بهذا كان عن تجربةٍ متقدمة، بل هذا يوجد في أوّل ما يأكل الحيّاتِ وفي آخِره.
تعلُّق رؤوس الحيات في بدن الأيِّل وربما اصطيد الأيِّل فيجد القُنَّاصُ رؤوس الأفاعي وسائر الحياتِ ناشبة الأسنان في عنقه وجلد وجهه، لأنه يريدُ أكلها فربّما بدرته الأفعى والأسود وغيرهما من الحيات فتعضُّه، وهو يأكلها ويأكل ما ينال منها ويفوته ما تعلق به منها بالعضِّ، فتبقى الرُّؤوس مع الأعناق معلَّقة عليه إلى أن تنقطِع.

نصول قرن الوعل

قالوا: وليس شيءٌ من ذوات القرون ينصل قرنه في كلِّ عام إلا الوعل، فإذا علم أنَّه غير ذي قرن، وأنه عديم السلاح، لم يظهر من مخافة السباع، فإذا طال مُكثُه في موضعه سمن، فإذا سمن علم أن حركته تفقد وتبطئ، فزاد ذلك في استخفائه وقلَّة تعرُّضه، واحتالَ بألاَّ يكون أبداً على علاوة الريح، فإذا نجم قرنه لم يجد بُدّاً من أن يمظّعه ويعرِّضه للشمس والريح، حتى إذا أيقن أنه قد اشتد أكثر المجيء والذهاب التماساً أن يذهب شحمه، ويشتد لحمه، وعند ذلك يحتال في البعد من السِّباع، حتى إذا أمكنه استعمال قرنيه في النزال والاعتماد عليهما، والوثوب من جهتهما، رجَع إلى حالـه من مراعيه وعاداته، ولذلك قال عصام بن زفر:

تَرجو الثَّوَاب من صبيح يا حَمَلْ — قد مصَّه الدهر فما فيه بَلَـلْ

إن صبيحاً ظاعِنٌ فمحتَـمِـلْ — فلائذٌ منك بشِعبٍ من جَبَـلْ

كما يلوذ من أعاديه الوَعِلْ

فضرب به المثل كما ترى في الاحتيال والهربِ من أعدائه: وقال الراجز:

لما رأيتُ البرقَ قد تـبـسَّـمـا — وأخرج القطْرُ القرُوعَ الأعصَما

قال ابن الأعرابيّ: إنما سمَّوا الوعلَ القَروع لأنه يقرع عَجْب ذنبه من الناحيتين جميعاً.

بيوت الزنابير

وقال ابن الكلبي: قال الشرقي بن القطامي ذات يوم: أرأيتم لو فكَّر رجل منكم عُمرَه الأطولَ في أن يتعرَّف الشيء الذي تتَّخذ الزنابيرَ بيوتها المخرَّقة بمثل المجاوب، المستوية في الأقدار، المتحاجزة بالحيطان، السخيفة في المنظر، الخفيفة في المحمل، المستديرة المضمر بعضها ببعض، المتقاربة الأجزاء، وهي البيوت التي تعلم أنها بُنيت من جوهرٍ واحد وكأنها من ورق أطباق صِغار الكاغد المزرّرة، قولوا لي: كيف جمعتْه؟ ومن أي شيءٍ أخذته، وهو لا يشبه البناء ولا النَّسجَ ولا الخياطة.

ولم يفسر ابن الكلبيّ والشرقيُّ في ذلك شيئاً، فلم يصِرْ في أيدينا منهما إلا التعجُّب والتعجيب، فسألت بعد ذلك مشايخ الأكرَة فزعموا أنها تلتقطه من زَبَد المُدود، فلا يدرى أمِن نَفْس الزَّبَدِ تأخذ، أم مِن شيءٍ يكون في الزَّبَد.
والذي عرَّف الزنابير مواضع تلك الأجزاء، ودلها على ذلك الجوهر هو الذي علَّم العنكبوتَ ذلك النسج، وقد قال الشاعر:

كأنَّ قفا هارون إذ يَعْتَلـونَـهُ   قفا عَنْكبُوتٍ سُلَّ من دُبْرِها غَزْلُ

وقد قال بلا علم.
وأما دودة القزّ فلا نشك أنها تخرجه من جوفها.

معرفة الحقنة من الطير

وتزعم الأطباء أنهم استفادوا معرفة الحُقنة من قِبل الطائر الذي إذا أصابه الحُصْر أتى البحرَ فأخَذَ بمنقاره من الماء المالح، ثم استدخَلَه فمجَّه في جوفه، وأمكنَه ذلك بطول العنق والمِنقار، فإذا فعل ذلك، ذَرَق فاستراحَ.

ما يتعالج به الحيوان

والقنفذ وابن عِرسٍ إذا ناهشا الأفاعيَ والحيَّاتِ الكبارَ تعالَجَا بأكل الصَّعتر البرّيّ.
والعقاب إذا اشتكت كبدَها مِن رَفْعها الأرنَبَ والثعلبَ في الهواء وحَطِّها لهما مِرَاراً فإنها لا تأكل إلاّ من الأكباد حتى تبرأ من وجَع كبدها.

رغبة الثعلب في القنفذ

قال: وسألتُ القُنّاصَ: ما رغبة الثعلب في أكل القنفذ وإن كان حشو إهابه شحماً سميناً، وفي ظاهر جلده شوك صلابٌ حدادٌ متقاربٌ كتقارُب الشعر في الجسد؟ فزعموا أنَّ الثعلبَ إذا أصابه قلبَه لظهره ثم بال على بطنه فيما بين مغرز عَجْبه إلى فكَّيه، فإذا أصابه ذلك البولُ اعتراه الأسَنُ فأسبَط وتمدَّد، فينقر عن بطنه، فمن تلك الجهة يأكل جميعَ بدنه ومسلوخِه الذي يشتمل عليه جلدهُ.

صيد الظربان للضب

وقالوا: وبشبيهٍ بهذه العلّة يصيد الظّربانُ الضبّ في جوف جُحْره حتى يغتصبه نفسَه؛ وذلك أنّه يعلم أنّه أنتن خلق اللّه قسوة، فإذا دخل عليه جُحره سَدَّ خَصاصَه وفروجَه ببدنه، وهو في ذلك مستدبرٌ له، فلا يفسو عليه ثلاثَ فَسَوَاتٍ حتى يُعْطِيَ بيده فيأكله كيفَ شاءَ.
قالوا: وربّما فسا وهو بقرْب الهَجْمة وهي باركةٌ فتتفرَّق في الصحراء فلا يجمعُها راعِيها إلاّ بجهد شديد، ولذلك قال الشاعر:

لا تمنحوا صقراً فما لـمـنـيحةٍ أتت آلَ صقرٍ من ثوابٍ ولا شُكْرِ

فما ظربانٌ يُؤْبسُ الضبَّ فَسْوُهُ بألأمَ لؤماً قد علمناه مِن صقْرِ

ولذلك قال الراجز، وهو يذكر تكسُّب الظربان بفسوه لِطُعْمِهِ وقوته، كما يتكسَّب الناس بالصِّناعات والتِّجارات، فقال:

باتا يُحكَّان عراصِيفَ القـتَـبْ مستمسِكَيْن بالبطان وَالحقب

كما يحُكُّ القينُ أطرافَ الخشَبْ وابن يزيدَ حَرَبٌ من الحـرَبْ

لا ينفع الصاحبَ إلاّ أن يَسُبّ كالظَّربان بالفُسَاءِ يكتسِبْ

ما قيل في بلاهة الحمام

قال ابن الأعرابيّ: قلت لشيخ من قريش: مَن علّمك هذا، وإنما يُحسِن من هذا أصحابُ التجارات والتكسُّب، وأنتَ رجلٌ مكفيٌّ مودّع؟ قال: علّمني الذي علم الحمامةَ على بَلَهها تقليبَ بيضها كي تعطي الوجهين جميعاً نصيبَهما من الحَضْن، ولخوف طباع الأرض إذا دام على الشِّقِّ الواحد.
والحمام أبله؛ ولذلك كان أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يقولون: كونوا بُلْهاً كالحمام، ألا ترى أنّ الحمام في الوجه الذي ألهمه اللّه مصالح ما يُعيشه، ويُصلِح به شأنَ ذرْئه ونسله - ليس بدونِ الإنسان في ذرئه ونسله، مع ما خُوِّل من المنطق، وألهم من العقل، وأعطي من التّصريف في الوجوه؟،

حيلة الفأرة للعقرب

وإذا جَمَعَ بعضُ أهل العَبث وبعضُ أهل التَّجربة بين العقرب وبين الفأرة في إناءِ زجاج، فليس عندَ الفأرة حيلةٌ أبلغُ من قرض إبرة العقرب فإمّا أنْ تموتَ من ساعتها، وإمَّا أنْ تتعجل السَّلامة منها، ثم تقتلَها كيف شاءت، وتأكلَها كيف أحبَّت.

علم الذرة

قال: ومَن علَّم الذرَّة أن تفلق الحبَّة فتأكل موضع القِطمير لئلاّ تنبتَ فتفسُد، فإذا كانت الحبَّة من حبّ الكزْبُرة ففلقتها أنصافاً لم ترض حتى تفلِقها أرباعاً؛ لأن الكُزبُرة من بين جَميع الحبّ تنبُت وإنْ كانت أنصافاً، وهذا عِلْمٌ غامضٌ.
إذا عرَفه الشّيخُ الفلاّح المجرِّب، والفاشكار الرئيس والأكَّار الحاذِق، فقد بلغوا النهاية في الرِّياسة.

معرفة الدبّ

وقال جالينوس: ومن علّم الدبّ الأنثى إذا وضعت ولدَها أنْ ترفعَه في الهواء أياماً تهرُب به من الذَّرِّ والنمل، لأنها تضعه كفِدْرة من لحمٍ، غيرَ متميِّز الجوارح، فهي تخاف عليه الذَّرَّ، وذلك له حتفٌ، فلا تزالُ رافعةً له وراصدة، ومُتفقّدَةً ومُحَوِّلَةً له من موضع إلى موضع، حتى يشتد وتنْفرج أعضاؤُه.
شعر لبشار وقال بشَّار الأعمى:

أما الحيَاة فكلُّ النَّاسِ يحفظُـهـا	وفي المعيشةِ أبلاءٌ مـنـاكـيرُ
وكلُّ قسمٍ فللعـقـبـان أكـثـرُهُ	والحظُّ شيءٌ عليه الدهر مقصورُ

أمنِيَّة بشر أخي بشار

وقال بشر أخو بشّار - وكانوا ثلاثةً، واحد حنفيّ، وواحد سدوسيّ، وبشَّار عُقيليّ، وإنما نزل في بني سدوس لسبب أخيه - وقد كان قيل لأخيه: لو خيَّرك اللّه أنْ تكون شيئاً من الحيوان أيَّ شيءٍ كنتَ تتمنى أن تكون؟ قال: عُقاب، قيل: ولِمَ تمنّيت ذلك؟ قال: لأنَّها تَبيتُ حيثُ لا ينالها سَبُعٌ ذو أربع، وتَحِيدُ عنها سباعُ الطَّير.
وهي لا تعاني الصَّيد إلاّ في الفرْط، ولكنّها تسلُب كلّ صَيُودٍ صَيْدَه، وإذا جامع صاحبُ الصقر وصاحبُ الشّاهين وصاحبُ البازي صاحبَ العقاب، لم يرسلوا أطيارهم خوفاً من العُقاب، وهي طويلة العمر، عاقَّة بولدها، وهي لا تحمِل على نفسها في الكَسْبِ، وهي إنْ شاءتْ كانت فوقَ كلِّ شيءٍ، وإن شاءتْ كانت بقُرْبِ كلِّ شيء، وتتغدّى بالعِراق وتتعشَّى باليمن، وريشُها الذي عليها هو فروُها في الشتاء، وخَيْشُها في الصَّيف، وهي أبصرُ خلق اللّه.
هذا قولُ صاحب المنطق في عُقوق العقاب وجفائها بأولادها، فأمَّا أشعار العرب فهي تدلُّ على خلاف ذلك، قال دريد بن الصِّمَّة:

وكلُّ لَجُوجٍ في العِنان كـأنَّـهـا	إذا اغتمست في الماءِ فَتْخَاءُ كاسِرُ
لها ناهض في الوكر قد مَهَدَتْ له	كما مَهَدَتْ لِلْبَعْل حسناءُ عـاقرُ

المحمق من الحيوان

والحيوان المحمّق الرّخَمة والحُبارَى، قال عثمان بن عفّان رضي اللّه عنه: كلُّ شيءٍ يحبُّ ولدَه حتّى الحبارى.
وأنثى الذئاب، وهي التي تسمَّى جَهيزة، والضبع، والنَّعجة، والعنز، هذه من الموصوفات بالمُوق جدّاً.
قال: ومن الحيوان ما ليس عنده إلا الجمالُ والحسن كالطاوس؛ وهو من الطير المحمَّق، وكذلك التُّدْرُجُ مع جماله وحُسنه وعجيب وَشْيه، والزرافةُ، وهي أيضاً موصوفة بالمُوق، وليس عندها إلا

طرَافة الصُّورة وغرابة النِّتاج، وهي من الخَلْق العجيب مَواضِعِ الأعضاء، ويتنازعها أشباهٌ كثيرة.
والفيل عجيب ظريف، ولكنه قبيحٌ مَسيخ، وهو في ذلك بهيٌّ نبيلٌ، والعين لا تكرهه، والخنزير قبيح مَسيخ، والعين تكرهه، والقرد قبيحٌ مليح.
وعند البَبْغاء والمُكَّاء والعندليب وابن تَمْرة مع صغر أجْرامها ولَطافة شُخوصها، وضَعْف أسْرها، من المعرفة والكَيس والفِطنة والخُبث ما ليسَ عند الزَّرافة والطاووس والببغاء عجيب الأمر، ويقولون: عنديب وعنديبل، وهو من أصغر الطير.

ما قيل في حمق الأجناس المائية وفطنتها

فأما الأجناس المائية من أصناف السَّمك، والأجناس التي تُعايش السَّمك، فإنَّ جماعتَها موصوفةٌ بالجَهل والمُوق وقِلَّة المعرفة، وليس فيها خُلُقٌ مذكور، ولا خَصْلةٌ من خِصال الفِطَن، إلا كنحو ما يروى من صَيد الجرِّيِّ للجِرْذان، وحَمْل تلك الدابة للغَرْقى حتى تؤدِّيَهم إلى الساحل.
شدة بدن السمكة والحية والسمكة شديدة البدن، وكذلك الحيّة، وكلُّ شيء لا يستعينُ بيدٍ ولا رجلٍ ولا جَناحٍ، وإنما يستعمل أجزاءَ بدنه معاً فإنه يكونُ شديد البدن.

حيلة الشبوط في التخلص من الشبكة

وخبَّرني بعضُ الصيّادين أنَّ الشبوطة تنتهي في النهر إلى الشَّبكة فلا تستطيع النفوذ منها، فتعلم أنها لا يُنجيها إلا الوثوب فتتأخّر قدرَ قابِ رُمح، ثم تتأخَّر جامعةً لجراميزها حتَّى تثِب، فربّما كان ارتفاعُ وثْبتِها في الهواء أكثرَ من عَشْرِ أذرُع، وإنما اعتمدَتْ على ما وصفنا، وهذا العملُ أكثرُ ما روَوْه من معرفتها، وليس لها في المعرفة نصيبٌ مذكور.

ما يغوص من السمك في الطين

وأنواعٌ من السمك يغوص في الطِّين، وذلك أنها تَنْخَر وتتنفَّس في جوفه، وتلزم أصول النبات إذا لم يرتفع، وتلتمس الطُّعم والسِّفاد.
ونحن لم نر قطُّ في بطن دِجلةَ والفراتِ وجميعِ الأودية والأنهار، عند نضوب الماء، وانكشاف الأرض، وظهور وجه الطين، وعند الجزْر والنُّقصان في الماء في مَوَاخِر الصَّيْف وأيَّامِ مجاورة الأهلّة والأنْصاف جُحْراً قطُّ، فضلاً على ما يقولُون، أنّ لها في بُطونِ الأنهار بيوتاً.

جِحَرة الوحش

ورأيْتُ عجَباً آخرَ، وهو أنّي في طولِ ما دخلت البَراريَّ، ودخلت البُلدان، في صحارى جزيرة العرب والرُّوم والشّام والجزيرة وغير ذلك، ما أعلمُ أني رأيتُ على لَقمِ طريقٍ أو جادةٍ، أو شَرَكٍ مُصَاقِبٍ ذلك أو إذا جانبتُ الطُّرُق، وأمعنْتُ في البَراري، وضربت إلى الموْضِعِ الوحشي - جُحراً واحداً يجوز أن يدخله ضبع أو تيس ظباء، أو بعض هذه الأجناس الوحشيّة، وما أكثر ما أرَى الجِحَرة، ولكني لم أرَ شَىءاً يتسعُ للثّعلب وابنِ آوى، فضلاً على هذه الوحوش الكِبار مما هو مذكور بالتَّوْلَج والوِجار، وبالكِناس والعَرين.
وجُحْر الضبّ يسمَّى عريناً، وهو غير العَرين الذي يضاف إلى الشَّجَر.

حيلة الضب واليربوع

وأمَّا حفظ الحياةِ والبصَر بالكَسْبِ، والاحتراسُ مِن العدوّ والاستعداء بالِحِيَل، فكما أعَدَّ الضبُّ واليَربوع.

أوقات اختفاء الفهد والأيل

والفهد إذا سِمنَ عَرَف أنه مطلوب، وأنّ حركته قد ثقلت، فهو يُخفي نفسَه بجهده حتى ينقضِيَ ذلك الزمان الذي تسمن فيه الفهود، ويعلم أنّ رائحة بدنه شهيَّةٌ إلى الأسد والنَّمِر، وهو ألطفُ شمّاً لأراييح السباع القويَّة من شمّ السباع للرائحة الشهيّة، فهي لا تكاد تكون إلاّ على عُلاوةِ الريح.
والأيِّلُ ينصُل قرْنَه في كلّ عام، فيصير كالأجمِّ، فإذا كان ذلك الزمانُ استخفَى وهربَ وكَمن، فإذا نبت قرنُه عرَّضَهُ للرِّيح والشَّمْسِ في الموضع الممتنع، ولا يظهرُ حتى يَصلُب قرنه ويَصيرَ سلاحاً يمتنع به، وقرنُه مُصمَتٌ، وليس في جوفه تجويفٌ، ولا هو مصمتُ الأعْلَى أجوف الأسفل.

معرفة الإبل بما يضرها وما ينفعها

والبعير يدخل الرَّوضة و الغيَضة، وفي النبات ما هو غذاءٌ، ومنه ما هو سمٌّ عليه خاصة، ومنه ما يخرج من الحاليْن جميعاً، ومن الغِذاء ما يريده في حالٍ ولا يريده في حالٍ أخرى، كالحَمْضِ وَ الخَلَّة، ومنه ما يغتذيه غيرُ جِنسِهِ فهو لا يقرَبُه وإن كان ليس بقاتل ولا مُعْطِب، فمن تلك الأجناس ما يَعرفه برؤية العين دون الشمّ، ومنها ما لا يَعرفه حتّى يَشمَّه، وقد تغلِطُ في البيش فتأكلُه، كصُنْع الحافر في الدِّفْلَى.
معرفة الإبل بالزجر والناقة تعرفُ قولَهم: حَل، والجمل يعرف قولهم: جاه، قال الراجز وهو يحمِّق رجلاً هَجاه:

يقولُ للناقة قوْلاً للجمَلْ يقُولُ جَاهِ يَثْنِيهِ بحَلْ

قدرة الحيوان على رفع اللبن وإرساله

وممَّا فضلت به السِّباعُ على بني آدمَ أنّ اللّه جعَلَ في طِباع إناث السباع والبهائم، من الوحشيّة والأهلية، رَفْعَ اللَّبن وإرسالَه عند حضور الولد، والمرأة لا تقدر أن تدرّ على ولدها وترفعَ لبنها في صدرها إذا كان ذلك المُقرَّبُ منها غيرُ ولدِها.
والذي أعطى اللّه البهائم من ذلك مثل ما تعرف به المعنى وتتوهَّمه.
اعلم أنّ اللّه تعالى قد أقدر الإنسانَ على أن يحبس بولَه وغائطه إلى مقدارٍ، وأن يخرجهما، ما لم تكن هناك عِلّةٌ من حُصْرٍ وأسْر، وإنما يخرج منه بولُه ورَجِيعه بالإرادة والتوجيه والتهيؤ لذلك، وقد جعل اللّه حبْسَه وإخراجَه وتأخيرَه وتقديمَه على ما فسَّرْنا، فعلى هذا الطريق طوْقُ إناثِ السِّباع والبهائم، في رفع اللّبَن.
حشر الحيوان في اليوم الآخر وقد قال اللّه جل ثناؤه: "وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بجَنَاحَيْهِ إلاّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيءٍ ثُمَّ إلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ"، فالكلمة في الحشر مطلقة عامّة، ومرسلةٌ غيرُ مستثنًى منها، فأوجب في عموم الخبَرِ على الطَّير الحَشْرَ، والطير أكثر الخلق، والحديث: إنَّ أكثرَ الخَلْق الجراد.

ما يطرأ عليه الطيران

ومن العقارب طيَّارة قاتلة، وزعم صاحب المنطق أنَّ بالحبشَة حياتٍ لها أجنحة.
وأشياءُ كثيرةٌ تطيرُ بعد أن لم تكن طيَّارة، مثل الدعاميص، والنَّمْلِ، والأرَضةِ، والجعلانِ.
والجرادُ تنتقل في حالاتٍ قبلَ نبات الأجنحة.
جعفر الطيار قالوا: وحين عظَّم اللّه شأن جعفر بن أبي طالب، خلق له جناحين يطير بهما في الجنّة، كأنه تعالى ألحَقه بشبه الملائكة في بعض الوُجوه.
ما يطير ولا يسمى طيراً وذكر اللّه الملائكة فقال: "أولِي أجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ". ولا يقال للملائكة طير، ولا يقال إنها من الطّير، رفعاً لأقدارها.
ولا يقال للنمل والدعاميص والجِعلان والأرَضةِ إذا طارت: من الطَّير، كذلك لا يقال للجِرجِس والبَعُوضِ وأجناس الهمَج إنها من الطير، وضعاً لأقدارها عن أقدار ما يسمَّى طيْراً، فالملائكةُ تطير ولا يسمُّونها طيْراً لرفْع أقدارها عن الطير، والهمج يطير ولا يسمّى طيْراً لوضع أقدارها عن الطَّير.
ملائكة العرش وفي الرواية أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم أنْشِدَ قولَ أميّة بن أبي الصَّلْت:

رَجُلٌ وثورٌ تَحتَ رِجْلِ يَمينِه والنَّسرُ للأُخرَى وليثٌ مُرْصِدُ

فقال: صدَق، وقوله نسر يعني في صورة نسر، لأنَّ الملَك لا يقال له نَسْرٌ ولا صقْرٌ ولا عُقابٌ ولا بازٍ.
ما جاء فيه الأثر من الطير وذكروا غرابَ نوح، وحمامة نوح، وهدهد سليمان، والنحل والدرّاج، وما جاء من الأثر في ذلك الديكِ الذي يكون في السماء.
وقال الناس: غراب نوح، وهدهد سليمان، وحمامة نوح، ورووا في الخطاف والصُّرَد.
أشرف الخيل والطير ولا نعرف شيئاً من الحيوان أشْرَفَ اسماً من الخَيل والطَّير، لأنّهم يقولون: فرس جواد، وفرس كريم، وفرسٌ وسيم، وفرس عَتيق، وفرس رائع.
وقالوا في الطير لذوات المخالب المعقَّفة، والمناسر المحدَّبة: أحرار، ومَضْرَحِيَّات، وعِتاق؛ وكواسب، وجوارح، وقال لبيدُ بنُ ربيعة:

فانتضَلْنَا وابنُ سَلْمَى قاعدٌ كَعتيق الطَّير يُغْضِي ويُجَلّ

وقال الشّاعر:

حُرٌّ صَنَعْنَاهُ لتُحْسِنَ كفُّهُ عَمَلَ الرفِيقة واستلابَ الأخْرَق

ولولا أنا قد ذكرنا شأن الهدهُد والغراب والنمل وما ذكرها به القرآن، والخصالَ التي فيها من المعارف ومِنَ القوْلِ والعمَل، لذكرناه في هذا الموضع.
ما جاء في ذكر الطير قال اللّه جلّ ثناؤه: "وَرَسُولاً إلَى بَنِي إسْرَائِيلَ أنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أنِّي أخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طيْراً بإذْنِ اللّهِ"، وقال اللّه: "وَإذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طائراً بِإذْنِي وَتُبْرِئُ الأكْمَهَ والأبْرَصَ بِإذْنِي وَإذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإذْنِي"، وقال: "وَإنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ألاَ إنَّمَا طائِرُهُمْ عِنْدَ اللّهِ وَلَكِنَّ أكْثَرَهُم لا يَعْلَمُونَ"، وقال اللّه: "أمَّا أحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأسِهِ"، وقال: "ألَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بأصْحَابِ الْفِيلِ، ألَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ في تَضْلِيلِ، وَأرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أبَابيلَ، تَرْمِيهِمْ بحِجَارَةٍ مِن سِجِّيل"، وقال اللّه: "وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ داوُد وَقَالَ يَا أيُّها النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ

الطَّيْر".
ولم يذكر منطق البهائم والسباع والهمج والحشرات.
وقال اللّه: "فاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانوا يَنْطِقُونَ"؛ لأنك حيثما تجد المنطقَ تجد الرُّوح والعَقل والاستطاعة.
وقالوا: الإنسان هو الحيُّ الناطقُ، وقال اللّه: "فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ فقالُوا هذا إلهُكمْ وَإله مُوسى"، وقال: "أفَلاَ يَرَوْنَ أنْ لاَ يَرْجِعُ إلَيْهِمْ قوْلاً"، ثم قال: "وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الجِنِّ وَ الإنْسِ وَالطَّيْر" ولم يذكر شيئاً من جميع الخلق، وقد كان اللّه سخّر له جميعَ ذلك، ثم قال: "وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فقالَ مَا لِيَ لاَ أرَى الْهُدْهُدَ أمْ كَانَ مِنَ الْغائِبِينَ".
ولم يتفقد شيئاً ممَّا سخّر له، ولا دلَّ سليمانَ على مَلِكة سبأ إلاّ طائِرٌ. وقال اللّه: "وَمَنْ يُشْرِكْ باللّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِن السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ"، وقال اللّه: "وَإنْ منْ شَيْءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ"، فلما ذكر داود قال: "وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ"، وقال اللّه: "يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِم ألْسِنَتُهُمْ وَ أيْدِيهِمْ وَأرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"، وقال: "وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتمْ عَلَيْنَا قَالُوا أنْطقَنَا اللّهُ الَّذِي أنْطقَ كُلَّ شَيْءٍ".
وقالوا: مَنطِق الطير، على التشبيه بمنطق الناس، ثم قالوا بعدُ: الصَّامت والناطق، ثم قالوا بعد للدار: تنطق.
وقال اللّه: "يَا قوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بالسَّيِّئةِ قبْلَ الحسَنَةِ لَوْلاَ تَسْتَغْفِرُونَ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ، قالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللّهِ بَلْ أنْتُمْ قوْمٌ تُفْتَنُونَ".
وقال اللّهُ: "وَإذَا وَقَعَ الْقوْلُ عَلَيْهِمْ أخْرَجْنَا لَهُمْ دابَّةً مِنَ الأرْضِ تُكلِّمُهُمْ أنَّ النَّاسَ كانُوا بآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ".
وكان عبدُ اللّه بن عبّاسٍ يقول: ليس يعني بقوله: "تُكلِّمُهُمْ" من الكلام، وإنما هو من الكَلْم والجِراح، وجمع الكَلْم كُلوم، ولم يكن يجعلُه من المنطق، بل يجعله من الخُطوط والوسم، كالكتاب والعلامة اللذين يقومان مقام الكلام والمنطق.
وقال الآخرون: لا نَدعُ ظاهرَ اللفظ والعادةَ الدالّة في ظاهر الكلام، إلى المجازات، قالوا: فقد ذكر اللّه الدابّة بالمنطق، كما ذكروا في الحديث كلام الذئب لأهبان بن أوس، وقولُ الهدهد مسطورٌ في الكتاب بأطول الأقاصيص، وكذلك شأن الغراب.
وقال اللّه: "وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قالُوا أنْطقَنَا اللّهُ الَّذِي أنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وجعل اللّه مقالة النملة قرآناً، وقال: "وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأرْضِ، وَلاَ طائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلاَّ أمَمٌ أمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ"، وقال في مكان آخر: "وَلَحْمِ طيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ"، وقال: "وَالطَّيْرَ مَحْشورَةً كُلٌّ لَهُ أوَّابٌ"، وذكر الملائكة فقال: "أُولِي أجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ".
وأنشدوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم قول أميّة بن أبي الصَّلْت:

رَجُلٌ وَثَوْرٌ تحتَ رِجْلِ يَمِينِـهِ والنَّسْرُ لِلأُخْرَى وَلَيْثٌ مَرْصَدُ

فقال: صدق.
وخلق اللّه لجعفرٍ جناحَين في الجنّة، عوضاً من يديه المقطوعتين في سبيل اللّه، قالوا: ولو كانت في الأرض يدٌ تفضل الجناحَ لجعلها اللّه بدل الجناح، وسمّاه المسلمون الطيّار.
ويقال: ما هو إلا طائر، إذا أرادوا مديح الإنسان في السُّرعة، وقال الفرزدق:

جاؤوا مع الرِّيح أو طارُوا بأجنحةٍ وخَلَّفوا في جُؤاثا سيِّدَيْ مُضَرَا

والأمم كلُّها تضرب المثلَ بعَنقاءِ مُغْربٍ، وقد جاء في نسر لقمان ما قد جاءَ من الآثار والأخبار، وقال الخزرجي:

إنّ مُعـاذَ بـنَ مُسلـمٍ رَجُلٌ قد ضجَّ مِن طُول عُمـره الأبَـدُ

قد شابَ رأسُ الزَّمانِ وَاخْتَضَبْ ال دَّهْرُ وأثـوابُ عمْرِه جُدُدُ

يا نَسْرَ لقمانَ كـمْ تَـعيشُ وكـم تسحَـبُ ذَيلَ الـحياةِ يا لُـبَـدُ

قد أصبـحـتْ دارٌ آدمٍ خَـرِبَـتْ وأنتَ فيـها كـأنّـكَ الـوتِـدُ

تسألُ غِرْبانَـها إذا حـجَـلَـتْ كيفَ يكونُ الصُّدَاعُ و الـرّمـدُ

وقال النابغة:

أضْحَتْ خَلاءً وأضْحَى أهلُها احْتَمَلوا أخنَى عليها الذي أخنى علَى لُـبَـدِ

وقال اللّه: "وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً" لأن ذلك الصنم كان عَلَى صورة النَّسر.
وقالوا: أحرار فارسَ، وأحرار الرَّياحين، وأحرار البقول، وأحرار الطير، وهي الأحرار، والعتاق، والكواسبُ، والجوارح، والمضرجيّات.
بعض ما قيل في العقل وقيل لرجل من الحكماء: متَى عقلتَ؟ قال: ساعَةَ وُلِدْتُ، فلما رأى إنكارَهم لكلامه قال: أمّا أنا فقد بكيت حِينَ خِفْت، وطلبت الأكل حين جُعْتُ، وطلبت الثَّدَى حين احتَجْت، وسكتُّ حين أعطيت، يقول هذه مقاديرُ حاجاتي، ومن عَرَف مقادير حاجاته إذا مُنِعَها، وإذا أعْطِيَها، فلا حاجة به في ذلك الوقت إلى أكثرَ من ذلك العقل، ولذلك قال الأعرابيّ:

سَقى اللّهُ أرضاً يعلم الضّبُّ أنّـهـا بَعِيدٌ من الآفـات طيبةُ الـبَـقْـلِ

بني بيتّه منهـا عَلَـى رأس كُدْيةٍ وكلُّ امرئٍ في حِرْفة العَيش ذُو عَقْلِ

منطق الطير وعقله فإن قال قائل: ليس هذا بمنطق، قيل له: أما القرآن فقد نطق بأنّه منطِقٌ، والأشعارُ قد جعلته مَنطِقاً، وكذلك كلامُ العرب، فإن كنتَ إنما أخرجتَه من حدِّ البيان، وزعمت أنّه ليس بمنطقٍ لأنك لم تَفهم عنه، فأنتَ أيضاً لا تفهم كلامَ عامَّةِ الأمم؛ وأنتَ إن سمَّيْتَ كلامَهم رَطانةَ وطمْطمةً فإنّك لا تمتَنِعُ من أن تزعم أنّ ذلك كلامُهم ومنطقُهم، وعامّة الأمم أيضاً لا يفهمون كلامَك ومنطِقَك، فجائزٌ لهم أن يُخْرِجوا كلامَك من البيان والمنطِق، وهل صار ذلك الكلامُ منهم بياناً ومنطقاً إلاّ لتفاهمهم حاجة بعضهم إلى بعض، ولأنّ ذلك كان صوتاً مؤلّفاً خرج من لسانٍ وفمٍ، فهلاّ كانت

أصواتُ أجناس الطير والوحش والبهائم بياناً ومنطقاً إذّ قد علمتَ أنّها مقطعة مصوّرة، ومؤلّفة منظمة، وبها تفاهموا الحاجات، وخرجت من فمٍ ولسان، فإن كنتَ لا تفهم من ذلك إلاّ البعض، فكذلك تلك الأجناس لا تفهَمُ من كلامك إلاّ البعض.
وتلك الأقدارُ من الأصوات المؤلّفة هي نهايةُ حاجاتِها والبيان عنها، وكذلك أصواتك المؤلَّفةُ هي نهايةُ حاجاتك وبيانِك عنها، وعلى أنّك قد تعلّم الطَّيرَ الأصوات فتتعلّم، وكذلك يُعلَّم الإنسانُ الكلامَ فيتكلّم، كتعليم الصبيِّ والأعجميّ، والفرقُ بين الإنسان والطير أنّ ذلك المعنى معنًى يسمَّى منطقاً وكلاماً على التشبيه بالنَّاس، وعلى السبب الذي يجري، والنَّاسُ ذلك لهمْ على كلّ حال.
وكذلك قال الشاعر الذي وصفها بالعقل، وإنما قال ذلك على التَّشْبيه، فليس للشاعر إطلاق هذا الكلام لها، وليس لك أن تمنعها ذلك من كلِّ جهةٍ وفي كلّ حال، فافهم فهَّمك اللّه، فإنَّ اللّه قد أمرك بالتفكّر والاعتبار، وبالتعرُّف والاتّعاظ.
وقد قال اللّه عزَّ وجلَّ مخبراً عن سليمان: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْر" فجعل ذلك منطقاً، وخصَّ اللّه سليمانَ بأنْ فهّمه معانيَ ذلك المنطق، وأقامه فيه مقامَ الطّير؛ وكذلك لو قال عُلّمنا منطقَ البهائم والسِّباع، لكان ذلك آيةً وعلامة.
وقد علّم اللّهُ إسماعيلَ منطِقَ العرَب بعد أن كان ابنَ أربعَ عشرة سنة، فلما كان ذلك على غير التلقين والتأديب والاعتياد والترتيب والمنشأ، صار ذلك برهاناً ودلالةً وأعجوبةً وآية.
وقال ابنُ عبّاس - وذكر عمرَ بن الخطاب فقال -: كان كالطائر الحذِر؛ فشبّه عزْمَ عمرَ وتخوّفَه من الخطأ، وحذّره من الخُدع بالطائر.
ما قيل في تجاوب الأصداء والديكة وقال ابن مقبل:

فلا أقومُ عَلَى المَوْلَى فأشتُمه ... ولا يخرّقه نابي ولا ظفُري

ولا تَهيَّبُني المَوْماةُ أركبُها ... إذا تجاوبت الأصداءُ بالسَّحَرِ

فجعلها تتجاوب، وقال الطرمّاح بنُ حكيم - وذكر تجاوب الدِّيَكة كما ذكر ابنُ مقبلٍ تجاوبَ الأصْدَاء - فقال:

فيا صُبْحُ كَمِّشْ غُبَّرَ اللّيْلِ مُصْعِداً ... ببَمٍّ ونبِّهْ ذا العِفاء الموشَّح

إذا صاح لم يُخْذَلْ وجاوَبَ صوتَهُ ... حِماشُ الشَّوَى يصدَحْنَ مِنْ كلِّ مَصْدَحِ

ما قيل في ضبحة الثعلب وقبعة القنفذ والقرنبى وحدَّثَ أبو عبيدةَ عن أبي عمرو بن العلاء قال: خطب ابن الزبير خطبة فاعترض له رجلٌ فآذاه بكلمة، ثم طأطأ الرَّجلُ رأسَه، فقال ابنُ الزُّبير: أين المتكلم؟ فلم يجبْه فقال: قاتله اللّه، ضبح ضَبْحَةَ الثَّعلب وقبَعَ قِبْعَةَ القُنفذ، وقال ابن مقبل:

ولا أتَبَعُ الجارات باللّيْل قابعاً ... قُبوعَ القَرَنْبَى أخلفَتْهُ مجاعِرُهُ

ما جاء في الشعر من إحساس الطّير..

وغير ذلك من الحيوان

قال أبو عبيدة: تسلَح الحُبارَى على الصّقر، وذلك من أحدِّ سِلاحها، وهي تعلم أنّها تدبّق جناحَيه وتكتِفُه، حتى تجتمع عليه الحُبارَيات فينتفن ريشه طاقةً طاقة، فيموت الصَّقْر.
والحُبَارَى إذا تحسَّرت فأبطأ نبْت ريشِها، وهي لا تنْهض بالشَّكير، فربَّما طار صُويحباتها إذا تقدَّمَ نبْتُ ريشها قبل نبْت ريش تلك الحُبارى، فعند ذلك تكْمَد حزناً حتى تموت كمداً؛ ولذلك قال أبو الأسود الدّؤليّ:

وزيدٌ ميّت كَمَدَ الحُبَارى إذا ظعنَتْ مَليحة أو تُلِمُّ

وليس في الطَّيْر أسرعُ طيراناً منها، لأنها تَصَادُ عِندنا بظهر البصرة، فيوجَد في حواصلها حبَّة الخضراء غضّةً طريَّة، وبينها وبين مواضع ذلك الحبِّ بلادٌ وبلاد، ولذلك قال بشر بن مروان، في قتل عبد الملك عَمرو بنَ سعيدٍ:

كأنّ بني مـروانَ إذ يقتـلـونـه بُغاثٌ من الطَّيْرِ اجتمَعْنَ عَلى صَقْرِ

وبُغَاث الطّيْر ضعاف الطير وسَفِلَتها من العِظام الأبدان، والخشاش مثلُ ذلك إلا أنها من صغار الطّير، وأنشد أبو عبيدة قول الشاعر:

سألتُ النّاسَ عن أنسٍ فقالو بأندَلُسٍ وأندَلـسٌ بـعيدُ

كأنّي بعد سكن مَضرحـيٌّ أصابَ جَناحَه عنَتٌ شـديدُ

فقد طمِعت عِتاقُ الطّير فيه وكانت عن عَقِيرَتِه تحـيدُ

وقال الذّكوانيّ:

بغَاثُ الطّير تعرف قانِصِيهَا وكلَّ مكبَّدٍ منهـا لَـهِيدِ

يقول: لكلِّ جنس من الجوارح ضربٌ من الصيد، وضربٌ من الطلب، فالمصِيد منها يعرف ذكر، فيجعل المهرب من الآخر، ثم ذلك أنها تعرف الصائد المعتلّ من الصحيح، وهو معنى الخرَيمي حيث يقول:

ويعلم ما يأتي وإنْ كان طائراً ويعلم أقدارَ الجوارح والبُغْثِ

وقوله البُغْث يريد به جمع أبغث، وقال الأوَّل:

بُغاث الطَّيْرِ أكثرها فروخاً وأمُّ البازِ مِقْلاتٌ نَـزُورُ

وأنشدني ابن يسير:

بالجَدّ طوراً ثم بالجِدّ تارةً كذاك جميعُ الناس في الجَدِّ والطّلَبْ

والجَدُّ مفتوح الجيم، يقول: الطير كالناس، فمرَّة تصيد بالحظ وبما يتفق لها، ومرَّةً بالحيلة والطّلب، وقال بشّار بنُ برْد:

وبجَدِّهِ يتقلّبُ العصفور

قال: وقال زاهر لصبيانه: يرزقكم الذي يرزُق عصافير الدوّ، وقال صالح المُرّيّ: تغدو الطّيرُ خِماصاً وتَرُوحُ شِباعاً، واثقة بأنّ لها في كلِّ غدْوةٍ رزقاً لا يفوتُها، والذي نَفْسي بيده أنْ لو غدوتُم على أسواقكم على مثل إخلاصها، لرُحْتم وبطونُكم أبطنُ من بطون الحوامل.
وقال أعشى هَمْدان:

قالت تعاتبني عِرْسي وتسألُني أين الدَّراهم عَنّا والدَّنانيرُ

فقلتُ أنفقْتُها واللّهُ يُخْلِفُها والدَّهر ذو مرَّةٍ عسرٌ وميسورُ

إنْ يرزق اللّهُ أعدائي فقد رُزِقتْ من قبلهم في مَراعيها الخنازيرُ

قالت :فرزقك رزقٌ غيرُ متَّسع وما لَدَيْكَ من الخبرات قِطميرُ

وقد رضيتَ بأن تحيا على رَمَقٍ يوماً فيوماً كما تحيا العصافير

وإنما خصَّ العصافير بقلّة الرِّزق، لأنها لا تتباعد في طلب الطعم؛ وإلا فإنّ السِّباعَ ووحشَ الطَّير كلّها تغدو خِماصاً وتروح بطاناً.
وقال لبيد:

فإنْ تسألينا فيم نحنُ فإنّنا عصافيرُ من هذا الأنامِ المُسحَّرِ

وقال:

عصافيرٌ وذِبَّانٌ ودودٌ وأجرأ من مجلّحة الذئابِ

ولولا أنّ تفسير هذا قد مرَّ في باب القول في العصافير في كتاب الحيوان لقلنا في ذلك.

اختلاف طبائع الحيوان وما يعتريها من الأخلاق

الذئب لا يطمع فيه صاحبُه، فإذا دَمِيَ وثب عليه صاحبُه فأكلَه، وإذا عضَّ الذِّئْبُ شاةً فأفلتتْ منه بضربٍ من الضروب، فإنَّ عادة الغنم إذا وجدَتْ ريحَ الدَّمِ أن تشمَّ موضع أنياب الذئب، وليس عندها عند ذلك إلاّ أن ينضمَّ بعضها إلى بعض؛ ولذلك قال جريرٌ لعُمر بن لجأ التَّيميّ:

فلا يضغمَنَّ اللَّيْثُ تَيماً بِغِرَّةٍ وتَيمٌ يَشمُّونَ الفَريسَ المنَيَّبَا

فذكر أنّهم كالغنم في العجز والجُبن، وإذا دَمِيَ الحمارُ ألقى نفسَه إلى الأرض وامتنع ممن يريده بالعضّ وبكلِّ ما قدر عليه، غير أنه لا ينهض ولا يبرحُ مكانَه، وإذا أصاب الأسدَ خَدْش أو شَحْطَة بعد أن يَدْمَى مكانَه فإنَّ ذبَّان الأسد تلحُّ عليه، ولا تُقْلع عنه أبداً حتى تقتله.
وللأسود ذِبَّانٌ على حدة، وكذلك الكلاب، وكذلك الحمير، وكذلك الإبل، وكذلك الناس.
وإذا دَمِيَ الإنسانُ وشمَّ الذئبُ منه ريحَ الدَّم فما أقلَّ من يَنْجُو منه؛ وإن كان أشدّ الناس بدَناً وقلباً، وأتَمَّهم سِلاحاً، وأثقفَهم ثقافة.
وإذا دَمِيَ الببرُ استكلب فخافه كلُّ شيء كان يسالمهُ مِن كبار السِّباع كالأسود والنُّمور، والببر على خلاف جميع ما حكينا.
وإذا أصاب الحية خدْشٌ فإِنَّ الذرَّ يطالبه أشدَّ الطلب، فلا يكاد ينجو، ولا يعرف ذلك إلا في القَرْط.
وإذا عضَّ الإنسانَ الكلبُ الكلِبُ فإنَّ الفأر يطالبه ليبولَ عليه، وفيه هَلَكَتُهُ، فهو يحتال له بكلِّ حيلة.
وربما أغَدَّ البعير فلا يعرف ذلك الجمَّالُ حتى يرى الذّبّانَ يطالبه.
وإذا وضعت الذِّئبةُ جَرْوَها فإنه يكون حينئذ ملتزقَ الأعضاء أمْعَط كأنه قطعة لحم، وتعلم الذِّئبة أنّ الذرَّ يطالبه، فلا تزال رافعة له بيديها، ومحوِّلةً له من مكانٍ إلى مكان، حتى تفرج الأعضاء، ويشتدّ اللحم.
وإذا وضعت الهرَّة جروَها فإنْ طرَحُوا لها لحماً من ساعتها أو رُوبة أو بعض ما يشبه ذلك فأكلته، لم تكد تأكل أجراءها، لأنّ الهرة يعتريها عند ذلك جُوعٌ وجُنون وخفَّة.
والأجناس التي تحدث لها قوَّةٌ على غير سبب يعرف في تقدير الرأي منها الذِّئبُ الضعيف الواثبُ على الذِّئب القويّ إذا رأى عليه دماً، والهِرَّةُ إذا سفِدها الهِرُّ، فإنها عند ذلك تشدُّ عليه وهي واثقةٌ باستخذائه لها، وفضْلِ قوَّتها عليه، والجُرذ إذا خصِيَ فإنّه يأكل الجرذان أكلاً ذريعاً ولا يقوم له شيءٌ منها.
فأمَّا الفيل والكركدَّنَ والجمل، عند الاغتلام وطلَب الضِّراب، فإنها وإن تركت الشُّرْبَ والأكلَ الأيّامَ الكثيرة فإنّه لا يقوم لشيءٍ منها شيء من ذلك الجنس وإن كان قويّاً شاباً آكلاً شارباً.
وأمَّا الغيرانُ والغَضبان والسَّكران والمُعاين للحرب، فهم يختلفون في ذلك على عللٍ قد ذكَرْناها في القول في فضيلة المَلَك على الإنسان، والإنسان على الجانّ، فإنْ أردتَه فالتمسْهُ هناك، فإنَّ إعادة الأحاديث الطوال والكلامَ الكثيرَ مما يُهجر في السَّماع، ويهجِّن الكتب.

ما يستدل به في شأن الحيوان على حسن صنع اللّه

وإحكام تدبيره، وأن الأمور موزونة مقدرة، قالوا: الأشياء البيَّاضة طائر، ومشترك، وذو أربع، ومُنْساح، فمنها ما يبيض في صُدوع الصَّخر وأعالي الهضاب، ومنها ما يعيش في الجِحَرة كسائر الحيات.
وأما الدَّسَّاس منها فإنَّها تلد ولا تبيض، وهي لا تُرضِع ولا تُلقِم، والخفَّاش تَلد ولا تبيض وترضع،

وهذا مختلف.
والدَّجاج والحجَل والقطا وأشباه ذلك من الدّرَاريج وغيرها أفاحيصُها في الأرض.
والحمام منها طُورانّي جبَلِيّ، ومنها ألوفٌ أهليّ، فالجبليُّ تبيض في أوكارٍ لها في عُرْض مقاطع الجبال، والأهليُّ منها يبيض في البيوت، والعصافير بيوتُها في أصول أجذاع السُّقُف، والخطاطيف تتّخذ بيوتَها، في باطن السقف في أوثق ذلك وأمْنَعِه، والرّخَم لا ترضَى من الجِبال إلا بالوحشيّ منها، ومن البعيد في أسحَقِها وأبعدها عن مواضع أعدائها، ثم من الجبال إلاّ في رؤوس هضابها، ثم من الهضاب إلا في صدوع صخورها، ولذلك يُضرب بامتناع بيضها المثل.
وأما الرِّقّ والضِّفدِع والسُّلَحفاة والتمساح، وهذه الدوابّ المائية، فإنها تبيض في الأرض وتحضن، وأمَّا السَّراطِين فإنَّ لها بيوتاً في عُرْض شُطوط الأنهار والسّواقي، تمتلئ مرةً ماءً وتخلو مرة.
ومن الحيوان ما لا يجثم، كالضبَّة فإنها لا تجثِمُ على بيضها، ولكن تغطّيها بالتراب وتنتظر أيّام انصداعها.

مواضع الفراخ والبيض

فإذا كان مواضع الفِراخ والبيض من القطا وأشباه القطا فهو أفحوصة، وإذا كان من الطير الذي يهيئ ذلك المجثِمَ من العِيدان والرِّيش والحشيش فهو عُشّ، وإذا كان من الظّليم فهو أُدْحِيّ، ذكر ذلك أبو عبيدة والأصمعي، وكلُّها وُكور ووكون، ووُكُنات ووكَرات.

أكثر الحيوان بيضاً وأقله

فالذي يبيض الكثيرَ من البيض الذي لا يجوزه شيءٌ في الكثرة السَّمَك، ثم الجراد، ثم العقارب، ثم الضَّبّة، لأن السَّمَكَ لا تزقُّ ولا تلقِم ولا تُلحِم ولا تحضُن ولا تُرضع، فحين كانت كذلك كثَّر اللّه تعالى ذَرْءَها وعددَ نسلِها، فكان ذلك على خلاف شأن الحمام الذي يُزاوج أصنافَ الحمام ومثل العصافير والنَّعام، فإنها لا تزاوج.
فأما الحمامِ فلما جعله اللّه يزق ويحضن، ويحتاج إلى ما يغتذيه و يغذو به ولده، ويحتاج إلى الزَّق، وهو ضربٌ من القيء، وفيه عليها وهْنٌ وشدَّة، ولذلك لا يُزْجَل إذا كان زاقًّا، فلما أن كان كذلك لم يحمل عليها أكثر من فرخين وبيضتين.
ولما كانت الدَّجاجة تحضن ولا تزُقّ، وهي تأكل الحبَّ وكلَّ ما دبّ ودَرَجَ، زاد اللّه في بيضها، وعدد فراريجها، ولم يجعل ذلك في عدد أولاد السَّمك والعقارب والضِّباب التي لا تحضُن البتةَ ولا تزُقّ ولا تُلقِم.
ولما جعَلَ اللّه أولادَ الضبّ لها معاشاً، زاد في عدد بيضها وفراخها، وصار ما يسلمُ كثيراً غير متجاوزٍ للقدر.
وكذلك الظَّليم، لما كان لا يزق ولا يحضن اتسَع عليه مطلبُ الرِّزق من الحبوب وأصول الشَّجر.
وجعلها تبيض ثلاثينَ بيضةَ وأكثر، وقال ذو الرمة:

أذاك أم خاضبٌ بالسِّيِّ مَرْتَعُه أبو ثلاثين أمسى فهو منقلبُ

وبيضها كبارٌ، وليس في طاقتها أن تَشتمل وتجثم إلاّ على القليل منها، وكذلك الحيَّة تضع ثلاثين بيضةً، ولها ثلاثون ضِلعاً، وبيضها وأضلاعها عدد أيام الشَّهر، ولذلك قويَت أصلابها لكثرة عدد الأضلاع، وحمل عليها في الحضن بعض الحمل إذْ كانت لا ترضع.

أثر الإلقام والزق في الحيوان

والطائر الذي يُلقِم فرخه يكون أقوى من الطائر الزاقّ، وكذلك من البهائم المرضِعة.
ولما كانت العصافير تصيد الجراد والنمل والأرَضَة إذا طارت، وتأكل الحبَّ واللَّحم، وكانت مع هذا تُلقم، لم تكثِّر من البيض كتكثير الدجاج ولم تقلّل كتقليل الحمام.

ما يزاوج من الحيوان

وللعصافير فيها زِوَاجٌ، وكذلك النّعام، وليس في شيء من ذوات الأربع زواج، وإنما الزِّواج في اللاتي تمِشي على رِجْلين، كالإنسان والطَّير والنَّعام، وليس هو في الطير بالعامّ، وهو في الحمام وأصناف الحمام من هذه المغنيات والنوائح عامٌّ، وسبيل الحجل والقَبَج سبيلُ الدِّيكة والدَّجاج.
والدَّجاجة تمكن كلَّ ديكِ، والدِّيك يثبُ على كلّ دجاجة، وربمَّا غبر الحمام الذَّكَر حياتَه كلَّها لا يقمط غير أنثاه، وكذلك الأنثى لا تدعو إلا زوجها، وربَّما أمكنت غيره، وفي الحمام في هذا الباب من الاختلاف ما في النساء والرجال.
فأما الشِّقْنين فإنّه لا يقمُط غيرَ أنثاه، وإن هلكت الأُنثى لم يزاوِجْ أبداً، وكذلك الأنثى للذكر.

عجائب البيض

فأمَّا العلة في وضع القطا بيضَها أفراداً، وخروج البضة من جهة أوسع الرَّأسين، واستدارة بيض الرّقّ، واستطالة بيض الحيات، وما يكون منها أرقط وأخضَر وأصفر وأبيض وأكدر وأسود، فإنّي لم أرْضَ لهم في ذلك جواباً فأحْكِيَه لك.
معارف في البيض قالوا: وإنما يعظُم البيض على قدر جُثَّة البيَّاضة، وبيضُ الأبكار أصغر، فأمَّا كثرة العدد فقالوا إنه كلما كان أكثر سِفاداً كانَ أكثرَ عدداً، وليس الأمرُ كذلك، لأنَّ العصفور أكثرُ سِفاداً من أجناسٍ كثيرةٍ هي أقلُّ بيضاً منه.
والجرادُ والسَّمَك لا حضنَ ولا زَقَّ ولا رَضاعَ ولا تَلقيم عليهن، فحين جَعَل الفراخَ كثيرةَ العدد، وكانت الأمَّهات والآباءُ عاجزة عنها، لم يَجْعلْها محتاجةً إلى الأمَّهاتِ والآباء.
فتفهَّمْ هذا التدبيرَ اللطيفَ، والحكمةَ البالغة.
أقل الحيوان نسلاً وأكثره قالوا: والأقلّ في ذلك البازي، والأكثر في ذلك الدَّرّ والسَّمك.
قال الشاعر:

بغاثُ الطَّيْرِ أكثرها فُروخاً وأمُّ الباز مِقْلاَتٌ نَـزُورُ

وقال صاحب المنطق: نسل الأسد أقلُّ لأنه يَجْرح الرحم فيُعْقم.
قالوا: والفِيَلة تضعُ في سبع سنين، وأقلُّ الخَلْق عدداً وذَرْءًا الكركَدَّن، لأنّ الأنثى تكون نَزُوراً، وأيامُ حملها كثيرة جِدًّا، وهي من الحيوان الذي لا يلد إلاّ واحداً، وكذلك عِظامُ الحيوان، وهي مع ذلك تأكل أولادَها، ولا يكاد يسلم منها إلاّ القليل، لأنّ الولد يخرجُ سويًّا نابتَ الأسنانِ والقرنِ، شديد الحافر.

ما جاء في الفيلة

من عجيب التركيب، وغريب التأليف، والمعارف الصحيحة، والأحاسيس اللطيفة، وفي قبولها التثقيف والتأديب، وسرعتها إلى التلقين والتقويم، وما في أبدانها من أعضاء الكريمة، والأجزاء الشريفة.

بسم اللّه الرحمن الرحيم

والحمد للّه ولا حول ولا قوة إلا باللّه، وصلى اللّه على سيدنا محمد خاصَّة وعلى أنبيائه عامّة، ونسأله التأييدَ والعصمة، ونعوذ به من كلِّ سبب جانَبَ الطَّاعة، ودعا إلى المعصية، إنه قريبٌ مجيب، فعَّالٌ لما يريد.
قد قلنا في أول هذا الجزء، وهو الجزء السابع، من القول في الحيوان في إحساس أجناسها المجعولة فيها، وفي معارفها المطبوعة عليها، وفي أعاجيب ما رُكِّبَتْ عليه من الدَّفع عن أنفُسها، والتقدُّم فيما يُحييها وفي تحسُّسها عواقبَ أمورها وكلِّ ما خوِّفت من حوادث المكروه عليها بقدر ما ينوبُها من الآفات، ويعتريها من الحادِثات وأنّها تدْرك ذلك بالطَّبع من غير رَويّة، وبحِسِّ النَّفس من غير فِكرة، ليعتبرَ مُعْتَبِرٌ، ويفكرُ مفكِّر، ولينفي عن نفسه العُجب، ويعرفَ مقدارَه من العجز، ونهاية قوَّته، ومبلغَ نفاذِ بصرِهِ، وأنه مخلوق مدبَّر ومصرّف وميسَّر، وأنَّ الأعجمَ من أجناس الحيوان، والأخرسَ من تلك الأشكال، يبلغ في تدبير معيشته، ومصلحةِ شأنهِ، وفي كلِّ ما هو بسبيله، ما لا يبلغه ذو الرَّويَّة التامّة، والمنطق البليغ، وأنَّ منها ما يكون ألْطفَ مَدخلاً، وأدقَّ مسلكاً، وأصنَعَ كفّاً، وأجودَ حنجرة، وأطبَعَ على الأصوات الموزونة، وأقوَم في حفظ ما يُعيشُه طريقةً، إلاَّ أنّ ذلك منها مفرَّق غيرُ مجموع، ومنقطعٌ غير منظوم.
والإنسان ذو العقل والاستطاعة، والتصرُّف والرويّة، إذا علم علماً غامضاً، وأدركَ معنًى خفياً، لم يكَدْ يمتنع عليه ما دونه إذا قاس بعض أمْرِهِ على بعض.
وأجناس الحيوانِ قد يعلَّم بعضُها علماً، ويصنع بكفِّه صنعةً يفوقُ بها الناس، ولا يهتدي إلى ما هو دون ذلك بطبعٍ ولا رويّة، وعلى أنّ الذي عجز عنه في تقدير العقول دون الذي قدَرَ عليه.
وأنا ذاكرٌ إن شاء اللّه، ما جاء في الفيلة من عجيب التركيب، وغريب التأليف، والمعارف الصَّحيحة، والأحاسيس اللطيفة، وفي قبولها التّثقيفَ والتّأديب، وسرعتها إلى التلقين والتّقويم، وما في أبدانها من الأعضاء الكريمة، والأجزاء الشريفة، وكم مقدارُ منافِعها، ومبلغُ مضارِّها، وبكم فضَلَتْ أجناسَ الحيوان، وفاقتْ تلكَ الأجناسَ.
وما جعل اللّه تعالي فيها من الآيات والبرهانات، والعلامات النيِّرات، التي جَلاها لعُيون خلْقه وعرَّف بينها وبين عُقول عباده، وقيَّدَها عليهم، وحفِظَها لهم ليكثِّر لهم من الأدلَّة، ويزيدَهم في وضوح الحُجَّة، ويسخِّرَهم لتمام النِّعمة، والذي ذكرها اللّه به في الكتاب الناطق، والخبر الصادق، وما في الآثار المعروفة، والأمثال المضروبة، والتجارب الصحيحة.
وما قالت فيها الشعراء، ونطقتْ به الخطباء، وميَّزتْه العلماء، وعجّبت منه الحكماء، وحالها عند الملوك وموضع نفعِها في الحروب، ومهابتها في العيون، وجَلالتها في الصُّدور، وفي طُول أعمارها، وقوّة أبدانِها، وفي اعتزامها وتصميمها، وأحْقادها، وشدَّة اكتراثها، وطلبها بطوائلها، وارتفاعها عن مِلْك السُّقّاط والحشْوة، وعن اقتناءِ الأنذال والسِّفِلة، وعن ارتخاصها في الثمن وارتباطها على الخَسْف، وابتذالها وإذالتها، وعن امتناع طبائعها، وتمنُّع غرائزها أن تَصلُحَ أبدانُها، وتَنْبُتَ أنيابُها، وتعظُمَ جوارحُها، وتتسافدَ وتتلاقحَ إلاّ في معادنها وبلادها، وفي منابتها ومَغارس أعراقها، مع

التماس الملوك ذلك منها، حتى أعجَزت الحِيل، وخرجَتْ مِنْ حدِّ الطَّمَع، وعن الإخبار عن حملها ووضعِها، ومواضع أعضائها، والذي خالَفتْ فيه الأشكالَ الأربعةَ التي تُحيط بالجميع مما ينْساح أو يعوم، أو يمشي أو يطير، وجميع ما ينتقل عن أوَّليَّةِ خَلقه، وما يبقى على الطّبائع الأُوَل من صُورته وعَمّا يتنازَعُه من شِبه الحيوان، أو ما يخالِفُ فيه جميعَ الحيوان، وعن القول في شدَّة قلبه وأسْره، وفي جرأته، على ما هو أعظمُ بدَناً وأشدُّ كلَباً، وأحدُّ أظفاراً، وأذْربُ أنياباً، وهربه ممَّا هو أصغرُ منه جِرْماً وأكلُّ حدّاً، وأضعَفُ أسْراً، وأخملُ ذِكراً.

وعن الإخبار عن خصاله المذمومة، وأموره المحمودة وعن القول في لَوْنه وجِلده وشعره، ولحمه وشحمه وعظمه، وبَوْله ونَجْوه، وعن لسانه وفمه، وعن أذنه وعينه، وعن خرطومه وغُرموله، وعن مَقاتِلهِ وموضع سلاحه، وعن أدوائه ودوائه، وعن القول في أنيابه وسائر أسنانه، وسائر عظامه، وفرْق ما بين عِظامه وعظام غيره، وعن مَواضع عجزه وقوّته، والقوْل في ألبانها وضُروعها، وعدد أخْلافها وأماكن ذلك منها، وعن سياحتها ومشْيها وحُضْرها وسرْعتها، وخِفَّة وطئها ولين ظهورها، وإلذاذ راكبها، وعن ثباتِ خُفِّها في الوَحل والرَّمل، وفي الحدَر والصَّعْداء، وعن أمْن راكبها من العِثار.

وكيف حالها عند اهتياجها واغتلامِها، وعن سكونها وانقضاء هَيَجانها عند حملها، وعن طرَبها وطاعتها لسُوَّاسها، وفهمِها لما يُراد منها، وكيف حِدّةُ نَظرها والفَهمُ الذي يُرَى في طرْفِها، مع الوقار والنُّبل، والإطراق والسُّكون، ولِمَ اجتمعت الملوكُ عَرَبُها وعجمُها وأحمرُها وأسودُها على اقتنائها والتزيُّنِ بها، والفخر بكثرة ما تهيَّأ لهم منها، حتى صارت عندهم من أكرم الهدايا، وأشْرَف الألطاف، وحتى صار اتخاذُها مُرُوءةً وعَتاداً وعُدّة، ودليلاً على أنّ مُقْتَنِيَها صاحبُ حرب.

وفي تفضيل خصال الفيل على خصال البعير، وفي أيِّ مكانٍ يكون أنفع في الحرب من الفرس، وأصبَرَ عند القتال من النَّمر، وأقتلَ للأسد من الجاموس، وأكلَبَ من الببر إذا تعرَّم، وأشدَّ من الكرْكَدَّن إذا اغتلم، حتى لا يبلُغه مقدارُ ما يكون من تماسيح الخُلجان، وخيل النِّيل، وَعِقبان الهواء، وأُسْدِ الغياض.

قصيدة هاورن مولى الأزد في الفيل وقد جمع هاورنُ مولى الأزد الذي كان يرُدُّ على الكميت ويفخر بقحطان، وكان شاعرَ أهل المُوْلتان، ولا أعرف من شأنه أكثر من اسمه وصِناعته، وقد قال في صفات الفيل أشعاراً كثيرة، ذكر فيها كثيراً ممّا قدَّمْنا ذِكرَه، فمن ذلك قولُه:

أليس عجيباً بأنْ خِلقةً	له فِطَنُ الإنْس في جِرْم فيلِ

وأنشدني هذا البيت صفوانُ بن صفوانَ الأنصاريّ، وكان من رُواة داود بن مزيد:

أليس عجيباً بأنْ خِلقةً	له فِطَنُ الإنس في جِرْمِ فيلِ
وأظرفُ مِنْ قِشَّةٍ زَولة	بحِلْمٍ يجلُّ عن الخنشَلِيلِ
وأوقصُ مختلفٌ خَلْقُهُ	طويلُ النُّيوب قصير النَّصِيلِ
ويلقى العدُوَّ بنابٍ عظيم	وجَوفٍ رَحيب وصوتٍ ضَئيل

وأشبـهُ شـيءٍ إذا قِسْـتَـه — بخنزير بَرٍّ وجامـوس غِيل

تَنـازَعَـهُ كـلُّ ذِي أربَــع — فما في الأنـام له مِـن عَـدِيل

ويخضعُ للَّيثِ ليْثِ الـعَرين — بأنْ نـاسَبَ الـهرَّ من رأس مِيل

ويعصِفُ بالبَبْر بعد النُّـمـور — كما تعصف الرِّيحُ بالعندبيل

وشخـصٌ تُـرَى يَدُه أنـفَـه — فإن وصَلوه بسيفٍ صَـقيل

وأقبلَ كالطَّوْدِ هادِي الخميس — بهوْلٍ شديدٍ أمـامَ الـرَّعِيل

ومرَّ يَسِيلُ كَسَيْل الأتـيِّ — بخطوٍ خفيفٍ وجِرْم ثـقيل

فإن شِمْتَه زادَ فـي هولـه — شناعةً أُذْنَين في رأسِ غولِ

وقد كنتُ أعددْتُ هِـرًّا لـهُ — قليلَ التهيُّبِ لـلـزَّنـدبـيل

فلما أحسَّ بـه في الـعَجـاج — أتانَا الإلـهُ بفـتـحٍ جـمـيل

فطـارَ وَرَاغَـمَ فَـيَّالَـــهُ — بقلبٍ نجيبٍ وجسمٍ نـبـيل

فسبحانَ خالِقِهِ وحْدَه — إلهُ الأنـامِ وربُّ الفُيول

احتيال هارون بالهر لهزيمة الفيل

وذكر صفوانُ بن صفوان أنّ هارون هذا خبَّأ معه هرّاً تحت حِضْنِه، ومشى بسيفِه إلى الفيل، وفي خرطومه السَّيف، والفيالونَ يَذْمُرُونه، فلما دنا منه رمى بالهرِّ في وجهه، فأدَبَرَ هارباً، وتساقط كلُّ مَن كان فوقه، وكبَّر المسلمون، وكان ذلك سببَ الهزيمة.
وسنذكر الهرَّ في هذا الشِّعر كما كتبته لك.
استطراد لغوي وأمَّا قوله:

بحِلم يَجِلُّ عن الخنْشليل

فقد قال الأنصاريُّ في صفة النَّخل:

تُليصُ العِشَـاءَ بـأذنـابـهـا — وفي مَدَر الأرض عنها فُضُولُ

ويشبعها المصُّ مص الـثَّـرَى　　　إذا جاعت الشَّاةُ والخنْشـلِـيلُ

وهذا غير قولـه:

قد علمتْ جارية عُطبـولُ　　　أنِّي بنَصْل السيف خنْشلِيلُ

العندبيل وأما العَندبيل فهو طائرٌ صغيرٌ جدّاً، ولذلك قال الشاعر:

وما كان يَوْمَ الـرِّيح أوَّلَ طـائرٍ　　　يَرْوحَ كَرَوْحِ العَندبيل إلى الوكْرِ

لأنَّ الرِّيح تعصف به من صِغره، فهو يعرفُ ذلك من نفسِه، فإذا قويت الرِّيح دخلَ جُحْره، ويقولون عندليب وعَندبيل وكلٌّ صواب، ولذلك قال هارون:

ويعصِفُ بالبَبْر بَعْدَ النمـور　　　كما تعصِفُ الرِّيح بالعندبيلِ

وسنخبر عن تقرير ما في هذه القصيدة مفرَّقاً، إذ لم نقْدِرْ عليه مجموعاً متَّصلاً، ولو أمكن ذلك لكان أحسن للكِتاب، وأصَحَّ لمعناه، وأفهَمَ لمنْ قرَأه.

ما يدخل في ذكر الفيل..

وفيه أخلاط من شعر وحديث وغير ذلك

قال رؤبةُ في صفة الفيل:

أجْرَدُ كالحِصْنِ طويلُ النَّابَـيْنْ　　　مُشَرَّفُ اللَّحْي صغيرُ الفقْمَيْنْ

عليه أذْنَانِ كفضْلِ الثَّوْبَـيْنْ

وأنشد ابنُ الأعرابيّ:

هو البعوضةُ إنْ كلّفتَه كَرَماً　　　والفيل في كلِّ أمرٍ أصلُه لُومُ

وقال أعرابيٌّ وَوَصَفَ امرأةً له:

لو أكلتْ فِيلينِ لم تَخْشَ البَشَمْ

وقال أعرابيٌّ يصف الأكْرياء:

لو تركبُ البُختِيَّ مِيلاً لاَنْحَطم   أو تركبُ الفِيلَ بها الفيلُ رَزَمْ

وحمل ناسُ أبا الحَلال الهدَادي على الفيلِ أيَّام الحَجَّاج، فتمنَّع وأنشأ يقول:

أأرْكبُ شيطاناً ومِسْخاً وهَضبْةً   إلا إنّ رأيي قبل ذاك مُضلَّلُ

فقالوا له: لو علوتَه ما كانَ عندَك إلاّ كالبغْل فلما علاه صاحَ: الأرضَ الأرضَ فلما خافوا أنْ يرْمِي بنفسه وهو شيخٌ كبير، أنزلوهُ، فقال بعد ذلك في كلمة له:

وما كان تحتي يومَ ذلك بَغْلةٌ   ولكِنَّ جُلْباً مِنْ رَفِيع السَّحائبِ

وقال بعض المتحدِثين والمملّحين في بعض النساء:

أرادت مرّةً بيتاً   لها فيه تماثيلُ

فلما أبصرْتَ سِتْراً   لوجهَيْه تهاويلُ

وفيه الفيلُ منقوشاً   وفي مِشْفَرهِ طُولُ

قالت :إنزعُوا الستر   فلا يأكلْنيَ الفِيلُ

وقال خلَف بن خليفة الأقطع، حين ذكر الأشرافَ الذين يدخلون على ابن هُبيرة:

وقامتْ قريشٌ قريشُ البطاح   مع العُصَبِ الأولَ الدَّاخِلهْ

يقودهم الفِيلُ والزَّنْدَبيلُ   وَذو الضِّرْسِ والشَّقَةِ المائله

الفيل والزّنْدَبيل: أبان والحكم، ابنا عبد الملك بن بشر بن مَرْوان، وذو الضِّرس: خالد بن سَلَمة المخزومي الخطيب، وهو ذو الشَّفَة، قتل مع يزيد بن عُمَر ابن هبيرة فيمن قتل.
وقد فَصَل خلف بن خليفة الفيلَ من الزَّنْدَبيل، ولم يفسِّر، وقد اختلفوا في ذلك، وسنذكرهُ إذا جرّ سببه إن شاء اللّه تعالى.

طرائف من اللغات والأخبار في الفيل

الفيلُ، المعروف بهذا الاسم، ويقال رجلٌ فِيلٌ إذا كان في رأيه فِيَالة، والفِيَالة: الخطأ والفساد، ويسمُّون أيضاً الرَّجل بفيل، منهم فيلٌ مولى زياد وحاجبُه، وفي أنهار الفرات بالبصرة نهر يقال له فيل بانان وموضعٌ آخر يقال له فِيلان.
وقد يعرض بقدم الإنسان ورَم جاسٍ حتَّى تعظم له قدمُه وساقُه، وصاحبُه لا يبرأ منه، ويسمّي ذلك

الورمُ داءَ الفيل.
ويسمَّى الرَّجُل بدَغْفَلٍ، وهو ولد الفِيل، ولا يسمُّونَ بَزْنْدبيل، وبعض العرب يقول للذّكر من الفيلة فِيل وللأنثى فِيلة، كما يقولون أسد وأسدة، وذئب وذئبة، ولا يقولون مثل ذلك في ثعلب وضبع، وأمورٍ غير ذلك، إلاّ أن يكون اسماً لإنسان.
وبعث رجلٌ من العرب بديلاً مكانَه في بعض البعوث، وأنشأ يقول:

إذا ما اختَبَّتِ الشَّقْرَاءُ مِيلاً فهانَ عَلَيَّ ما لقيَ البَديلُ

يشنِّفُها ويحسَبُها بـعيراً قليلٌ علمه بالخيل فِـيلُ

وأنشدنا الأصمعيّ:

يفرُّون والفيل الجبان كأنّـه أزَبُّ خَصِيٌّ نفّرته القعاقِعُ

قال سَلَمة بن عَيَّاش: قال لي رؤبة: ما كنت أحب أن أرى في رأيك فِيالة.
وبالكوفة باب الفيل، وبواسط باب الفيل.
ومنهم فِيلُويه، وهو أبو حاتم بن فِيلُويه، وكان أبو مسلم ربَّى أبا حاتمٍ حتّى اكتهل، وهُما سقيا أبا مسلم السمّ حتى عُولج بالترياق فأفاق، فقتلهما أبو مسلم بعد ذلك، وكانا على شبيهٍ بدين الخُرَّميّة.
ويقولون عنبسة الفيل، وهو النحويّ، وهو أحد قدماء النحوييِّن الحذّاقَ، وهو عنبسة بن مَعْدَانَ، وكان معدانُ يروض فيلاً لزياد، فلما أنشَد عنبسةُ بنُ معدانَ هجاءَ جريرٍ للفرزدق قال الفرزدق:

لقد كان في مَعْدانَ والفيلِ زاجرٌ لِعَنبسة الرَّاوي عَلَيَّ القصـائدا

فلمَّا تناشَدَ النّاسُ بعد ذلك هذا الشعر قال عنبسةُ: إنَّما قال الفرزدق:

لقد كان في مَعْدانَ واللُّوْمِ زاجرٌ

فقالوا: إنَّ شيئاً فررتَ منه إلى اللُّوْمِ لَنَاهِيكَ به قبحاً فعند ذلك سُمِّي عنبسة الفيل.
وغيلان الراجز كان يقال له غيلانُ راكب الفيل كان الحجّاج بن يوسف ربَّما حَمَلَه على الفيل، وسَعْدُويه الطُّنبوريّ، وكان يقال له: سعدويه عين الفيل.
قال أبو عبيدة: حدَّثني يونس قال: لما بنى فِيلٌ مولى زيادٍ دارَه وحَمَّامَه بالسَّبابجة، عمل طعاماً لأصحاب زياد، ودعاهم إلى داره، وأدْخلهم حمَّامَه، فلمَّا خرجوا منه غدَّاهم، ثم ركِب وغَبَّر في وجوههم، فقال أبو الأسود الدُّؤلي:

لَعَمْرُ أبيكَ مَا حمّامُ كِسرى على الثُّلْثينِ من حمَّام فيل

وقال الجارود بن أبي سَبرة:

وما إرقاصنا خَلْفَ الموالي كَسُنّتِنا عَلَى عهدِ الرسولِ

وأنشد الأصمعي وغيره:

خلافاً علينـا مـن فـيالة رأيه كما قيل قبلَ اليومِ خالفْ فتُذْكَرا

ويقال للرّجُل إذا عُنّف عند الرأي يراه: لِمَ تفيِّلُ رأيَكَ؟ وقد فال رأي فلان.
وحدَّثنا عبد اللّه بن بكر، عن حميد، عن أنس قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: لمّا انتهيت إلى السّدْرَة إذا ورَقُها أمثالُ آذانِ الفِيَلة، وإذا ثمَرها أمثالُ القِلال، فلما غشِيَها من أمر اللّه ما غشِيها تحوَّلت ياقوتاً.
وقال صاحب الكيمياء في جرير بن يزيد:

مهلاً أبا العبَّاس رفقاً ولا تكنْ خَصيمَ المَعْشَرِ الخُونِ

هيهات هيهاتَ لما رُمْتَـهُ أو يُولَدَ الفيلُ من النُّـونِ

أنت إذا ما عُدَّ أهلُ الحِجـا والحِلْمِ كالأحنف في سين

الفرخ والفروج وكلُّ طائرٍ يخرج من البيض وكلُّ ولدٍ يخرجِ من البيض وإن لم يكن طائراً، فإنما يسمَّى فرخاً، كفرخ الحمام والوزغة والعظاءَة والرقُ والسُّلحفاءِ والحُكَاء، وبنات النَّقا، وشحمة الأرض، والضب، والحِرْذون، والورل، والحرباء، إلا ما يخرج من بيض الدجاج فإنه يقال له فرّوج ولا يقال له فرخ، إلا أنَّ الشعراءَ يتوسَّعون في ذلك،قال شمّاخ بن أبي شداد:

ألا مَن مبلغٌ خاقان عَنَّـا تأمَّلْ حين يضربُك الشّتَـاءُ

أتجعلُ في عيالك من صغيرٍ ومن شيخ أضَرَّ به الفَنَـاءُ

فراخَ دجاجةٍ يتبعن ديكـاً يلُذْنَ به إذا حَمِسَ الوغـاءُ

وقال الآخر:

أحبُّ إلينا من فراخ دجـاجة ومن ديك أنباط تنوسُ غَباغبهْ

وإذا سمَّي أهل البصرة إنساناً بغيل فأرادوا تصغيره قالوا فِيلويه، كما يجعلون عمراً عَمرويه، ومحمداً حمدويه. وكان محمد بن إبراهيم الرّافقي الفارسُ النَّجيد قتيل نصر بن شَبَث، مولى بني نصر بن معاوية، له كنيتان: أبو الفيل وأبو جعفر، ولم يكن بالجزيرة أفْرَسُ من داود بن عيسى، وأبي الفيل وعيسى بن منصور من ساكني الرافقة.

حمل الفيل وعمره

وذكرَ بعضُ الفيَّالين أنّ الفِيَلَة تضعُ لِسبع سنينَ ولداً مستويَ الأسنان، وأنهم يرصدون ذلك الوقتَ من الوحشية منها، ويحتالون في أخذ الولد، وأن ذلك الولدَ يعيش في أيديهم ما بين الثمانين سنةً إلى المائة، وأنّ عُمر الوحشية أطولُ.
وأنّ كلَّ شيءٍ منها اليومَ بالعَسْكر إناث، وأنّ الموتَ بالعراق إلى الذُّكورة أسرعْ، وأنَّ نابَه لا يطول عندنا، وأنَّهم يَعْملون من جلودها التِّرَسَة أجودَ من جلود الجواميس، ومن الخيزُران، ومن الدّرق والحَجَف التي تتخذ من جلود الإبل، ومن هذه المعقَّبة المطليَّة، ومن جميع ما يؤلَّف من أنواع الخشَب والجلودِ التي قد أُطيل إنقاعها في اللَّبن، ومن كلِّ تُبَّتيّ وصينيّ.

مروج الفيلة

وذكر أن لها مُروجاً، وأن المروج أصلحُ لها من القرى، ومواضِعَهَا من الوحش أصلحُ لها من المُروج.

فهم الفيلة

وذكر رسولٌ لي إلى سائسها أنه قد اتّبعها إلى دجلة، وأنّ بعض الغوغاء صاح بها: يا حجَّام بابَك وهذا الكلام اليومَ ظاهرٌ على ألسنة الجهَّال، وأن فيلاً منها ركلَه برجله رَكلةً صكَّ بها الحائط حَتَّى خيف عليه منها، وأنه رأى منها الإنكارَ لذلك القول، وأنَّ الفيّالَ كان يحثُّها على الانتقام لَمَّا صاحَ بها.
وإذا عرفَ الكلبُ اسمه، وكذلك السنّور، وكذلك الشّاة والفرس، والطفل والمجنون المصْمَت الجنون، وعرفت النّاقةُ فصْل ما بين حَلْ وجاهِ، وعرَف الحمارُ الصَّوتَ الذي يُلْتَمَسُ به وقوفُه، والذي يلتمس به سيُره، وعرف الكلبُ مخاطبةَ الكلاَّب، والبَبْغاءِ مناغاةَ المُكَلِّم له، فجائزٌ أن يكون الفيلُ بفضل فِطنته أنْ يفهم أضعافَ ذلك، فإذا أمروه بضرب إنسانٍ عند ضربٍ من الكلام استعاد ذلك وأدامَه، لم ينكر أنْ يعرفَه على طول الترداد.

فائدة نجو الفيل

قالوا: وإذا احتملت المرأة شيئاً من نَجْو الفيل بعد أن يُخْلَط به شيءٌ من عسَل فإنها لا تَحبَل أبداً.
قالوا: ومما يؤكِّد ذلك أنّك لو علّقتَ على شجرةٍ من نَجْوه شيئاً، إنَّ تلك الشجرةَ لا تحمِلُ في تلك السنة.
قالوا: وزواني الهند يفعلن ذلك استبقاءً للطّراء وللشّباب، ولأنها إذا كانت موقوفةً على جميع الأجناس من الرِّجال كانت أسرَعَ إلى الحبَل لأنها لا تعدَم موافقاً لطبعها، وإذا حملت ووضعت مراراً بطلت.
ضروب من الدواء وليس هذا بعجيب، لأنهم يزعمون أنَّ صاحب الحصاة إذا أخذ روثَ الحمار حين يَرُوثه حارّاً فعصرهَ وشرب ماءَه أنه كثيراً ما يبول تلك الحصاة، وفي ماء روثِ الحمار أيضاً دواءٌ للضِّرس المأكول.
وقال الأصمعيّ: سألتُ بعضَ الأكلة ممن كان يقدَّم على مَيْسرة التَّرَّاس: كيف تصنعُ إذا جَهَدتك الكِظَّة؟ والعرب تقول: إذاً كنت بطيناً فعدِّلْ نفسَك زَمناً، فقال: آخذ روْثَ حمار حارّاً فأعصرْه وأشرب ماءه فأختلف عنه مراراً، فلا أثبت أنْ يلْحَقَ بطني بصُلْبي، فأشتَهي الطّعامَ.

والمرأة من نسائنا اليومَ إذا استُحِيضَت استقّتْ مثقالاً من الإثمد، لأنها عندهن إذا فعلت ذلك لم تَلِد.
وأنا رأيتُ امرأة قد فعلتْ ذلك ثم ولدت.
وخُرء الكلب إذا كان الجعرُ أبيضَ اللَّوْن، وكان غذاءُ الكلب العظامَ دون اللحم، فهو عجيبٌ لصاحب الذُّبحة، وكذلك رَجِيع الإنسان.
وخرء الفار يكون شِيافاً للصِّبيان، يحملونه إذا استوكى بطنُ أحدهم وإن كان من خرء الجرذان وكان عظيماً كان الواحد منه هو الشِّياف.
ويصلح أيضاً خُرْء الفار لداء الثَّعلب، وهو القرَع الذي يعرض لشَعر الرَّأس.
وخرء الحمام الأحمر يصلحُ، من المَبْوَلات للرَّمْل والحصَى، يُقمَحُ منه وزن درهم مع مثله من الدَّارصيني.

شعر في الفيل

وقال بعض المُحْدَثين:

يا لحيةً طالت على نَوكها ... كأنها لـحـيةُ جِبـريلِ
لوْ كانَ ما ينصَبُّ من مائها ... نَهْراً إذا طمَّ على النِّـيلِ
أو كان ما يقطر من دهنها ... كَيْلاً لَوَفَّى ألفَ قِنـديلِ

فلو ترَاها وهي قد سُرِّحَتْ ... حسبْتَها بَنداً علـى فـيلِ

وأنشد أبو عمرو الشيبانيّ لبعض المولّدين:

إذا تلاقى الفُيولُ وازدحَـمـتْ ... فكيفَ حالُ البَعوضِ في الوَسَطِ

وأنشد علي بن محمد:

وما الفِيلُ أحملِه مُوقرا ... رَصاصاً بأثقلَ من معْبَد
ولا قِرْمليٌّ عليه الغَبيطُ ... ينوء بعِدْلَين من إثمِـدِ
وجاموسةٍ أوقِرَتْ زئبقاً ... بأثقلَ منه ولا أنْـكَـدِ

وقال آخر:

بابٌ يرى ليس لـه داخلٌ ... إلاّ خراً جُمِّع في الزَّاويهْ

إن جئت فالفيلُ على هامتي ... ومثله نِيط بـأوصـالِـيهْ

ووصف مرَّة بن مَحْكَان قِدراً فقال:

تَرمي الصُّلاة بنبْلٍ غير طـائشةٍ ... وَفقاً إذا آنست من تَحتِها لهبـا

زيَّافة مثل جوفُ الفِيل مُجفَرة ... لو يُقذَف الرَّألُ في حيزومها ذَهَبا

وقال بعض الأكرياء في امرأة كان حَملَها:

بيضاء من رُفقةِ عِمْرَانَ الأصمّ ... لا ثعلٌ في سِنِّها ولا قصَمْ

بَهْكَنَة لو تركب الـفيلَ رَزَمْ ... كأنَّها يوم ثُوافي بـالـحـرمْ

غمَامَةٌ غرَّاءُ عَنْ غِبِّ رِهَمْ

وقال رؤبةُ بن العجَّاج:

إنّ الرّدافى والكريّ الأرْقبا ... يكفيكَ دَرْءَ الفِيل حَتى تَرْكَبا

ثم قال:

يشقى بي الغيرانُ حَتّى أحْسَبا ... سِيداً مُغِيراً أو لياحاً مُغْرَبـا

ما ورد في شأن الفيل من الأمثال في كليلة ودمنة

ومما قرأه الناسُ من الأمثال في شأن الفيل التي وجدوها في كتاب كليلة ودمنة، فمن ذلك قوله: أفلاَ تَرَى أنَّ الكلب يُبصبصُ بذنبه مِراراً حتى تُلقى له الكِسرة، وإنّ الفيلَ المغتِلم لَيعرف قوّتَه وفضله، فإذا قُدِّمَ إليه عَلَفه مُكَرّماً لم يأكلْ حتى يُمَسح ويُتملّق.
قال: وقيل في أعماله ثلاثة لا يستطيعها أحدٌ إلا بمعونةٍ من ارتفاع هِمة، وعظيم خطر، منها عملُ السلطان، وتجارة البحر، ومناجزة العدوّ، وقالت العلماء في الرَّجُل الفاضل الرشيد: إنّه لا ينبغي أن يُرَى إلا في مكانَين، ولا يليق به غيرهما إمَّا مع الملوك مُكرَّماً، وإمَّا مع النُّسَّاك متبتِّلاً، كالفيل إنما بهاؤه وجماله في مكانَين: إمَّا في برّية وحشيّاً، وإما مَرْكَباً للمُلوك.
قال: وقد قيل في أشياء ثلاثةٍ فضْلُ ما بينها متفاوت: فضل المقاتل على المُقاتل، وفضل الفيلِ على الفيل، وفضل العالم على العالم.
وقال في كلام آخر: فإن لم تنجَع الحيلة فهو إذاً القدَرُ الذي لا يُدفع، فإنَّ القدرَ هو الذي يسلب الأسَدَ قوَّته حتى يُدْخِله التَّابُوت، وهو الذي يَحمِل الرَّجُل الضَّعيف على ظهر الفيل المغتلِم، وهو الذي يسلِّط الحوّاء على الحَيَّة ذات الحُمَة فينزعُ حمتَها ويلعبُ بها.

قال: ومَن لم يرضَ من الدُّنيا بالكفَاف الذي يُغْنيه، وطمحت عيناه إلى ما فوق ذلك، ولم ينظر إلى ما يتخوّف أمامه، كان مثله مثل الذباب الذي ليس يرضى بالشجر والرياحين حتى يطلب الماء الذي يسيل من أذن الفيل المغتلم، فيضربه بأُذنِهِ فيهلك.
وقال: فأقام الجملُ مع الأسد حَتى إذا كان ذاتَ يوم توجّه الأسد نحو الصيد، فلقيَه فيلٌ فقاتلَه قتالاً شديداً، وأفلَتَ الأسد مُثقلاً يسيل دماً، قد جرحه الفيل بأنيابه، فكان لايستطيع أن يطلُبَ صيداً، فلبث الذئبُ والغرابُ وابن آوى أياماً لا يجدون ما يعيشون به من فضول الأسد.
وقال: وكيف يرجو إخوانُك عندك وفاءً وكرَماً وأنتَ قد صنَعت بملكك الذي كَرَّمك وشَرَّفك ما صنَعتَ، بل مَثَلُك في ذلك كما قال التاجر: إنَّ أرضاً يأكلُ جُرذانها مائة مَنٍّ من حديد، غيرُ مستنكَر أن تخطِفَ بُزاتها الفِيَلَة.
قال: وقال الجرذُ للغراب: أشد العداوةِ عداوة الجوهر، وعداوةُ الجوهر عداوتان، منها عداوة متجازَية كعداوة الفيل والأسد، فإنّه ربَّما قتل الفيلُ الأسد، وربَّما قتل الأسدُ الفيل، ومنها عداوة إنما ضرَرُها من أحد الجانبين على الآخر كعداوة ما بيني وبين السنّور، فإنّ العداوة بيننا ليست لضرٍّ منّي عليه، ولكن لضرٍّ منه عليّ. وقال: إن الكريم إذا عَثَر لم يستعنْ إلا بالكريم، كالفيل إذا وَحِل لم يستخرجْه إلا الفيلة.
ضروب العداوات وسنذكرُ عداوة الشيطان للإنسانِ، والإنسان للشَّيطان، وهما عداوتان مختلفتان وعداوة اللّه للكافر، وعداوة الكافر للّه، وهاتان العداوتان غير تينك، وهما في أنفسهما مختلفتان، وهما والتي قبلها مخالفة لعداوة العقرب للإنسان، وعداوةُ العقرب مخالفةٌ لعداوة الحيَّة، وعداوة الإنسان لهما مخالفة لعداوة كلٍّ منهما للإنسان، وعداوة الذئب والأسد، والأسد والإنسان خلاف عداوة العقرب والحية، وعداوة النمر للأسد والأسد للنمر مخالفةٌ لجميع ما وصفنا، ومسالمة البَبر للأسد غير مسالمة الخنفساء والعقرب، وشأن الحيات والوزغ خلافُ شأنِ الخنافس والعقارب، وعداوة الإنسان خلافُ عداوة ذلك كلِّه، وابن عِرْس أشدُّ عداوة للجُرذان من السنَّور، وعداوةُ البعير للبعير، والبرذون للبرذون، والحمار للحمار شكل واحد، وعداوة الذِّئب خلاف ذلك، والشَّاةُ أشدُّ فَرَقاً منه منها من الأسد والنمر والببر، وهي أقوى عليها من الذّئب، وفَرَق الدَّجاج من ابن آوى أشدُّ من فَرَقها من الثَّعلب، والحمام أشدُّ فرَقاً من الشاهين منه من الصَّقر والبازي.
عداوات الناس وأسباب عداوات النَّاس ضروبٌ: منها المشاكلة في الصناعة، ومنها التقارُب في الجِوار، ومنها التقارب في النَّسب، والكثرة مِن أسباب التّقاطع في العشيرة والقبيلة، والسَّاكن عدو للمُسْكِن، والفقير عدوٌّ للغني وكذلك الماشي والراكب، وكذلك الفحل والخصيّ، و بَغْضاء السُّوَق موصولةٌ بالملوك، وكذلك المعتق عن دُبُر، والموصَى له بالمال الرغيب، وكذلك الوارث والموروث، ولجميع هذا تفسيرٌ ولكنه يطول.
عداوات الحيوان وذكر صاحب المنطق عداوةَ الغرابِ للحمار، والنَّحويون ينشدون في ذلك قولَ الشَّاعر:

عاديتَنا لا زِلْتَ في تَبابِ   عَدَاوَةَ الْحِمارِ للغُرَابِ

ولا أدري من أينَ وقعَ هذا إليهم.
وذكر أيضاً عداوة البُوم للغراب، وكذلك عصفور الشَّوك للحمار، وفي هذا كلامٌ كثيرٌ قد ذكرنا بعضه في أوَّل كتابنا هذا من الحيوان.
رجع إلى الأمثال في كليلة ودمنة ثم رجعنا إلى الإخبار عن الأمثال.

قال: وأكيس الأقوام مَن لا يلتمس الأمر بالقتال ما وجد عن القِتال مذْهباً؛ فإن القتال إنما النفقة فيه من الأنفس، وسائر الأشياء إنما النَّفقة فيها من الأموال، فلا يكوننَّ قتال البوم من رأيك، فإنّ من يُرَاكل الفيل يُرَاكل الحَيْن.
قال: فأجابه الجرذ فقال: إنّه رُبَّ عداوةٍ باطنةٍ ظاهرُها صداقة، وهي أشدُّ ضَرَراً من العداوة الظاهرة، ومن لم يَحترسْ منها وقعَ موقِعَ الرَّجُلِ الذي يَركب نابَ الفيل المغْتَلِم ثمَّ يغلبُه النُّعاس.
قال: واعلم أنَّ كثيراً من العَدوّ لا يستطاع بالشدَّة والمكابرة حتى يُصادَ بالرِّفق والملاينة، كما يصاد الفيل الوحشيُّ بالفيل الأهليّ.
وقال: إنّ العُشب كما رأيتَ في اللِّينِ والضَّعف، وقد يُجْمَعُ منه الكثيرُ فيصنع منه الحبلُ القويُّ الذي يوثق به الفيل المغتلم.
قال: وقالوا: نريد أحبَّ بَنيك إليك، وأكرمهم عليك، ونريد كالَ الكاتبَ صاحبَ سرِّك، والسيف الذي لا يوجد مثله، والفيلَ الأبيضَ الذي لا تلحقه الخيلُ الذي هو مَركبكَ في القتال، ونريد الفيلين العظيمين اللذين يكونان مع الفيل الذَّكَر.

الفيلة في الحروب

وقد سمعنا في هذا الحديثِ والإخبار عن أيام القادسيَّة ويوم جسر مِهْرَان، وقُسِّ النَّاطف، وجَلولاء، ويوم نَهاوَنَد، بالفيل الأبقع، والفيل الأسود، والفيل الأبيض، والناس لم يَرَوْا بالعراق فِيلاً أوبَرَ، ولا فيلاً أشْعَرَ.

الفيلة المستأنسة

والفيلة التي كانت مع الفرس، حُكمُها حكمُ الفِيَلة التي كانت عند أمير المؤمنين المنصور، وعند سائر الخلفاءِ من بَعدِه، وكلها جُردٌ مُعَضّبة، ولم نلْقَ أحداً رآها وحشيَّةً قبل أن تصير في القُرَى والمواضع التي يذكرها.
تبدل حال الحيوان إذا أخرج من موطنه وقد علمنا أنّ الطائر الصَّيود من الجوارح، لو أقام في بلاده مائة عام لم يحدُثْ لمنسره زوائد، وعَيْرَ العانة إذا أقام في غيرِ بلاده احتاجَ إلى الأخذ من حافره، و إلى أن يُخْتَلَف به إلى البَيطار، والطائر الوحشيّ من هذه المغنِّيات والنوائح، لو أقام عندنا دهراً طويلاً لم يُصوِّتْ إذا أخذناه وقد كُرِّز، وكذلك المزاوجة والتعشيش والتَّفريخ.

التكاثر بالفيلة

قال: وكلُّ مَلكٍ كان يصلُ إلى أن تكون عنده فِيَلة فإنّه كان لا يَدَعُ الاستكثار منها والتجمل بها، والتَّهويل بمكانها عنده، ولا يَدَعُ ركوبَها في الحروب، وفي الأعياد، وفي يوم الزِّينة.

الفيل في الشعر

وقد كانت عند حِمير والتبابعة والمقاول والعباهلة من ملوكهم، وأبي اليكسوم من ملوك الحبشة، وعند ملوك سبأ، مقرَّبة مكرَّمة، يدلّ على ذلك الأشعارُ المعروفة، والأخبار الصحيحة، ألا ترى أن الأعشى ذكر مأرِب وملوك سَبأ وسَيلَ العرِم، فقال:

ففي ذاك للمؤتسي أسْوَةٌ ومأربُ عَفّى عليها العَرِمْ

رخَامٌ بنَتْه لـه حِمْيَرٌ إذا جاء ماؤُهُمُ لـم يَرِمْ

فأروى الحروثَ وأعنابَها على ساعة ماؤهم قد قُسِمْ

وطار الفُيُولُ وفـيَّالُـها بتَيْهَاءَ فيها سَرابٌ يَطـمّ

وكان الأقيبل القينيّ مع الحجاج يقاتل ابنَ الزُّبير، فلما رأى البيتَ يُرْمَى بالمنجنيق أنشأ يقول:

ولم أرَ جَيْشاً غُرَّ بالحجِّ قبلـنـا ولم أرَ جيْشاً مِثلَنَا كلُّهم خـرسُ

دَلَفْنَا لِبَيْتِ اللّهِ نَرْمِـي سُتُـورَه بأحجارنَا نَهْبَ الولائد للـعُـرْسِ

دَلَفْنَا لـهمْ يَوْمَ الثلاثاءِ مِنْ مِـنًـى بجيش كصَدْرِ الفيلِ ليس له رأسُ

فلما فزِعَ وعاذ بقبر مروان، وكتبَ له عبدُ الملك كتابا إلى الحجَّاج يخبره فيه، وفوَّض الأمرَ إليه، قال:

وقد علمتُ لو انَّ الْعِلْمَ يَنْفَعُنـي أنَّ انْطِلاَقِي إلى الحجَّاج تغريرُ

مُستَحْقِباً صُحُفاً تَدْمَى طَوَابعُهـا وفي الصَّحائِفِ حَيَّاتٌ مَناكـيرُ

لئنْ رَحَلْتُ إلى الحجَّاج معتذِراً إنِّي لأحْمَقُ مَنْ تَخْدِي به العِيرُ

لسان الفيل

وكلُّ حيوانٍ في الأرض ذو لسانٍ فأصْلُ لسانِه إلى داخل، وطرفه إلى خارج؛ إلاّ الفيل، فإنّ طرَف لسانه إلى داخل، وأصله إلى خارج.
بعض خصائص الحيوان وتقول الهند: إنّ لسان الفيل مقلوب، ولولا أنّه مقلوب ثمَّ لقن الكلامَ لتكلم.
وكلُّ سمكٍ يكون في الماء العذْب فإنّ له لساناً ودِماغاً، إلاّ ما كان منها في الماء الملح، فإنّه ليس لسمك البحر لسانٌ ولا دِماغ.
وكلُّ شيءٍ يأكل بالمضغ دون الابتلاع فإنّه إنما يحرِّك فكه الأسفلَ، إلاّ التمساح فإنَّه إنّما يحرِّك فكّه الأعلى.
وكلُّ ذي عينٍ من ذوات الأربع من السِّباع والبهائم الوحشية والأهلية، فإنما الأشفار لجفونـها الأعالي إلاّ الإنسان، فإنّ الأشفار للأعالي والأسافل.

وكلُّ حيوانٍ ذي صَدْرٍ فإنَّه ضيِّق الصَّدْر، إلاّ الإنسانَ فإنّه واسعُ الصَّدْر وليس لشيء من ذكورةِ جميع الحيوان وإناثها ثديٌ في صدره إلا الإنسان والفيل، وقال ابن مُقبل:

وليلةٍ مثل ظهْر الفِيل غَيَّرَها   طلْسُ النُّجُوم إذا اغبرَّ الدياميمُ

ضخم الفيل وظرفه

والفيل أضخم الحيوان وهو مع ضِخَمه أملَحُ وأظرَف وأحْكَى وهو يفوق في ذلك كلَّ خفيفِ الجسم، رشيق الطبيعة.
وإنّما الحكاية من جميع الحيوان في الكلب والقِرد والدُّبّ والشّاة المكّيّة، وليس عند البَبْغاء إلاّ حكايةُ صورِ الأصوات، فصار مع غِلظه وضِخَمه وفخامته أرشقَ مَذهباً، وأدقَّ ظرفاً، وأظهَرَ طرَباً، وهذا من أعجب العَجَب، وما ظنُّكم بعِظَم خَلْقٍ ربّما كان في نَابَيْهِ أكثر من ثلاثمائة مَنّ،

أعظم الحيوان في قول المتعصبين على الفيل

فقال من يعارضهُم: قد أجمعوا على أنّ أعظمَ الحيوان خَلْقاً السمكةُ والسرَطان، وحكَوْا عن عِظَم بعض الحيَّات، حتى ألحقوه بهما، وأكثروا في تعظيم شأن التّنّين؛ فليس لكم أنْ تَدَّعُوا للفِيل ما ادّعيتم. رد صاحب الفيل على خصمه

قال صاحبُ الهند والمعبِّرُ عن خصال الفيل: أمَّا الفيل وعلوّ سَمْكه، وعِظم جُفْرته، واتِّساع صَهْوَته، وطولُ خُرطومه، وسعَةُ أذنه، وكِبر غُرموله، مع خِفّة وطئه، وطول عُمره، وثقل حمله، وقلة اكتراثهِ لِما وُضع على ظهره، فقد عايَنَ ذلك من الجماعات مَن لا يستطيعُ الردَّ عليها إلاّ جاهلٌ أو مُعاند، وأمَّا ما ادّعيتم من عِظَم الحيَّة وأنّا متى مسَحْنا طولَها وثخنها، وأخذْنا وَزْنَها كانت أكثرَ من الفيل، فإنّا لم نَسْمَعْ هذا إلا في أحاديث الرقائين، وأكاذيب الحوّائين، وتزيُّد البحريِّين.
وأما التنِّين فإنّما سبيلُ الإيمان به سبيلُ الإيمان بعَنْقاءِ مُغْرِب، وما رأيتُ مجلِساً قطُّ جَرَى فيه ذكر التنِّين إلاَّ وهم ينكرونه ويكذِّبون المُخبر عنه، إلاّ أنا في القَرْط ربَّما رأينا بعضَ الشاميِّين يزعمُ أنَّ التِّنِّين إعصارٌ فيه نار يخرج من قِبَل البحر في بعض الزَّمان، فلا يمرُّ بشيءٍ إلاَّ أحرقَه، فسمَّى ذلك ناسٌ التِّنّين، ثمَّ جعَلوه في صورة حيّة.
وأما السَّرَطان فلم نرَ أحداً قط ذكرَ أنَّه عايَنَه، فإنْ كنَّا إلى قول بعض البحريِّين نرجع، فقد زَعَم هؤلاء أنَّهم ربما قرُبوا إلى بعض جزائر البحر، وفيها الغِياض والأودية واللّخَاقيق، وأنَّهمْ في بعض ذلك أوقدُوا ناراً عظيمة، فلما وصلَتْ إلى ظهر السرطان هَاجَ بهم وبكلِّ ما عليه من النَّبات، حتَّى لم ينْجُ منهم إلا الشريد.
وهذا الحديثُ قد طمَّ على الخرافات والتُّرَّهات وحديث الخَلْوَة.
وأمّا السَّمك فلعمري إنَّ السمكة التي يقال لها البالُ لفاحشة العظم، وقد عاينوا ذلك عياناً، وقتلوه يقيناً، ولكن أحَسِبوا أنَّ الشَّأن في البال على ما ذكرتم، فهل علمتم أن فيه من الحسِّ والمعرفة، واللّقن والحكاية، والطَّرَبِ وحسن المَواتاة وشدَّة القتال، والتمهُّد تحتَ الملوك، وغير ذلك من الخصال، كما وجدنا ذلك وأكثر منه في الفيل.
وهل رغبتْ في صيده الملوكُ واحتالت له التجار، أو تمنَّى الظّفَرَ بأجزائه بعض الأطبَّاء، وهل يَصلح لدواءٍ أو غذاءٍ أو لبْس، إنّما غاية البحريِّين أنْ يسلَمُوا من عبثه إن هجموا عليه نائماً أو غافلاً، حتّى

ينفر ويفزع وينبّه بقرْع العصا، واصطكاك الخشب.
وإنما قدَّمْنا خصالَ الفيل على خِصال الحيوان الذي في كفّه ومنقاره الصنعةُ العجيبة، أو يَكون فيه من طريف المعرفة، وغريب الحس، وثقوب البصر، أو بعض ما فيه من الجمال والحُسْن، ومن التفاريج ومن التَّحاسين، والوشي والتلاوين، بالتأليف العجيب، والتَّنضيد الغريب، أو بعض ما في حنجرته من الأصوات الملحَّنة، والمخارج الموزونة، والأغاني الدَّاخلة في الإيقاع، الخارجة من سبيل الخطأ، ممَّا يجمع الطَّرَب والشّجا، ومما يفوق النوائح ويروق كلَّ مغنّ، حتى يُضرب بحسن تخريجه وصفاء صوتِه وشجَا مخرَجه المثلُ، حتى يشبَّه به صوتُ المزمار والوَتر.
وأما بعض ما يُعرف بالمكر والحِيَل، والكَيْس والرَّوغان، وبالفِطنة وبالخديعة، والرِّفق والتكسُّب، والعلم بما يُعِيشُه والحذرِ ممّا يُعْطِبُه، وتأتِّيه لذلك وحِذقه به؛ وأمّا بعضُ ما يكون في طريق الثّقافة يوم الثِّقافة والبصر بالمشاولة، والصَّبر على المطاولة، والعزم والرَّوغان، والكرِّ والجَوَلان، ووضْع تلك التدابير في مواضعها حتى لا تردُّ له طعنة ولا تخطئ له وثبة، وأما بعضُ ما يُعرَف بالنَّظر في العاقبة وبإحكام شأن المعيشة والأخذ لنفسه بالثقة، وبالتقدُّم في حال المُهْلة والادِّخار ليوم الحاجة، والأجناسُ التي تدَّخر لأنفسها ليوم العجْز عن الطلب والتكسُّب - فمِثْلُ الذَّرَّة، والنملة، والجُرَذ والفأرة، وكنحو العنكبوت والنَّحل. فإذا كان ليس للفيل إلا عِظَمه وإن كان العِظَم قد يدخل في باب من أبواب المفاخرة، فلا ينبغي لأحد أن يُنَاهِد به الأبدانَ التي لها الخصال الشّريفة، ويناضلَ به ذواتِ المفاخر العظيمة، فما ظنُّكَ ببدنٍ قد جمع مع العِظَمِ من الخصال الشريفة ما يُفنِي الطَّواميرَ الكثيرة، ويستغرق الأجلاد الواسعة، وقد علمت أنَّ مِنْ جَهْلِ هذه السمكة بما يُعِيشُها ويُصلِحُها أنَّها شديدةُ الطّلب والشَّهوة لأكل العَنبر، والعنبرُ أقتَلُ للبال من الدِّفلَى للدوابّ، فإذا أصابوه ميِّتاً استخرجوا من جَوفه عنبراً كثيراً فاسداً.
وما فيه من النفْع إلاّ أنّ دهنَه يصلُح لتمرينِ سُفن البحريين.

تعصب غانم الهندي على الفيل

فسمِعَنِي غانمٌ العبد يوماً وأنا أحكِي هذا الكلامَ، وكان منْ أمْوَق الناس وأرْقعهم رَقاعةً، مع تِيهٍ شَدِيدٍ وعُجْب ورضاً عن نفسه، وسُخط على النَّاس، فمِن حُمْقه أنه هنديٌّ وهو يتعصَّب على الفيل، فقال لي: ما تقول الهند في الحوت الذي يحمل الأرض، أليس أعمَّ نفعاً وأعْلَى أمراً؟ قلت له: يا هالكُ، إنَّ مدارَ هذا الكلام إنما يقع على الأقسام الأربعة من بين جميع الحيوان المذكورة في الماء وفي الأرض وفي الهواء، كالذي ينساح من أجناس الحيَّات والدِّيدان، وكالذي يمشي من الدوابّ والنَّاس، وكالذي يَطير مِن أحرار الطير وبغاثها وخَشاشها وهَمَجها، وكالذي يعوم كالسَّمك وكلِّ ما يعايش السمك.
فأمَّا الحوت الذي تكون الأرض على ظهره فقد علمْنا أنَّ في الملائكة مَن هو أعظمُ من هذا الحوت مراراً، ولولا مكانُ مَن قد حَضَرَنا لكان ممن لا يستأهِلُ الجواب، وهذا مقدارُ معرفته.

قوة الفيل

قالوا: والفيل أقوى مِن جميع الحيوان إنْ حُمِّل الأثقال، ومن قوة عظْمه وعصَبه أنّه يمرُّ خلفَ القاعد مع عِظَم بَدَنه، فلا يشعر بوطئه، ولايُحسُّ بممَرِّه لاحتمال بعض بدَنه لبعض، وهذه أعجوبةٌ أخرى.

طول مدة حمل الفيلة

وليس في حوامل إناث الحيوان أطولُ مدَّة حبَل من الفيل، والكركَدَّن، فإنه مذكورٌ في هذا الباب، والفيلُ يزيد عليه في قول بعضهم.
فأمَّا الهِنْدُ ففتنتُهم بالكركدَّن أشدُّ مِن فِتنتهم بالفيل.
فأما ما كان دون ذلك من أجناس الحيوان فأطولُها حملاً الحافر والخفّ، ولا يزيدان على السّنَة إلا أن تُسحَب الأنثى وتُجرَّ أيَّاماً، فأمَّا الظّلف فعلى ضربين، فما كان منها من البقر فإنّ مدَّة حَمْلها وحمل النساء تسعة أشهر، وما كان من الغنم فإنّ حملها خمسةُ أشهر.
وقد ذكرنا حال أجناس الحيوان في ذلك فيما سلف من كتابنا هذا.

صولة الفيل

قالوا: والفيلة هَوْلُها في العين، فاحْذَر أنْ تتخذ ظهورها كالمناظر والمسالح والأرصاد.
وللفيل قتالٌ وضرب بخرطومه، وخَبْطٌ بقوائمه، وكانت الأكاسرة ربما قتلت الرَّجلَ بوَطْءِ الفيلة، وكانت قد درّبت على ذلك وعُلّمَتْه، فإذا ألقوا إليها الرّجل تركت العلَف وقصدَتْ نحوه فداسَتْه، ولذلك أنشد العباس بن يعقوب العامريّ، لناهِض بن ثومة العامري قوله:

أنا الشَّاعرُ الخطَّارُ مِن دون عـامـرٍ — وذو الضَّغْم إذْ بعضُ المحامِين ناهشُ

بخبطٍ كخَبْط الفيل حتـى تـركـتـه — أمِيماً به مُسْتَدْمِياتٌ مَقـارِشُ

وأنشد الأصمعي وأبو عمرو لتميم بن مقبل:

بني عامرٍ ما تأمُرُون بشاعر — تَخَيَّرَ آياتِ الكتـاب هِـجـائيا

أأعفُو كما يعفُو الكريمُ فإنّنـي — أرَى الشَّعب فيما بينَنا متدانـيا

أمَ اخْبِطُ خبْطَ الفيل هامةَ رَأسِهِ — بجَرْدٍ فلا أُبقي مِن الرأس باقيا

بعض من رمي تحت أرجل الفيلة وكانت الأكاسرة - وهي الكُسُور - تؤدِّبها وتعوِّدها وطْءَ الناس وخَبْطهم إذا أُلقِيَ تحت قوائمها بعض أهلِ الجنايات، فكان ممنْ رُمِيَ به تحتَ أرجل الفِيَلَة النُّعمان بن المنذر، وقال في ذلك الشاعر:

إنّ ذا التّاج لا أبا لَكَ أضْحَـى — وَذرَى بَيْتِهِ بجَوْزِ الـفُـيُولِ

إنّ كِسْرَى عَدَا على الملك النُّعْـ — ـمَانِ حَتَّى سقاه أمَّ الـبَـلـيلِ

كتاب ملك الصين وذكر الهيثم بن عديٍّ، عن أبي يعقوب الثّقفيّ، عن عبد الملك بن عمير قال: رأيت في ديوان معاوية بعد موته كتاباً مِنْ ملك الصين فيه: من ملك الصِّين الذي على مَرْبطه ألفُ فيل، وبُنيت دارُه بلبن الذهب والفضة، والذي تخدمه بناتُ ألفِ ملكٍ، والذي له نهرانِ يسقيان الألوّة، إلى معاوية.

قالوا: ولمَّا أراد كِسرى قتلَ زيوشت المغنِّي، لقتله فهلبذ المغني، وأمر أن يرمى به تحت الفيلة وقال: قتلتَ أحسنَ النّاس غِنَاءً، وأجودَهم إمتاعاً للملِك؛ حسداً له، فلمّا سحبوه نحوالفيلة التفت إلى كسرى وقال: إذا قتلتُ زيوشت المُغني، وقد قتل زيوشت فهلبذ فمن يُطربك؟ فقال كسرى: المدة التي بقيت لك هي التي أنطقتْكَ، خلُّوا سبيله.

تأديب الهند الفيلة

وقال صفوان بن صفوان الأنصاريّ، وكان عند داود بن يزيد بالمولتان: الهند تؤدّب الفيلة بأنواع من التّأديب، وبضروب من التقويم، فمنها آدابُ الحروب، حتى ربَّما رَبَطُوا السَّيفَ الهُذَام الرَّغيب، الشَّديد المتن، الحديد الغَرْب، التّام الطول، الطَّويل السِّيلان، في طرَف خُرطوم الفيل، وعلموه كيف يضرب به قُدُماً، يميناً وشمالاً، وكيف يرفعُه بخرطومه حتى يكونَ فوقَ رؤوس الفيَّالين القعودِ على ظهره.

شعر هارون في الفيل

قال: وأنشدني هارون بن فلان المولى، مولى الأزد، قصيدته التي ذكر فيها خروجَه في الحرب إلى فيلٍ في هذه الصفة، فمشَى إليه، فلما كان حيثُ ينالُه السَّيفُ وثبَ وَثْبَةً أعجَلَه بها عن الضَّربة، ولصق بصدْر الفيل، وتعلّق بأُصول نابَيه - وهما عندهم قرناه - فجال به الفيلُ جوْلة كاد يحطِمُه مِن شدَّة ما جال به، وكان رجلاً شديِد الخَلْق، رابط الجأش، قال: فاعتمدتُ وأنا في تلك الحال - وأصولُ الأنياب جُوف - فانقلعا من أصلِهما، وأدبرَ الفيلُ، وصار القرنان في يَدَيَّ، وكانت الهزيمة وغَنِم المسلمون غنائمَ كثيرة، وقلت في ذلك:

مشيتُ إليه وادعاً متمهِّلا ... وقد وصلُوا خُرطومَه بحُسَام

فقلتُ لِنفسي: إنّه الفيلُ ضاربٌ ... بأبيضَ مِن ماءِ الحديد هُذَامِ

فإنْ تَنْكلي عنْه فعذرُكِ واضحٌ ... لَدَى كلِّ منخُوب الفُؤادِ عَبامِ

وعندَ شُجاع القومِ أكلفُ فاحمٌ ... كظُلمة لَيْلٍ جُلِّلت بقتامِ

ولما رأيتُ السيفَ في رأس هضبةٍ ... كما لاحَ برقٌ من خلالِ غمامِ

فناهَشْتُه حَتى لَصِقتُ بصدْره ... فلما هوى لازَمْتُ أيَّ لِزامِ

وَعذْتُ بقرْنَيْهِ أريدُ لَبانَهُ ... وذلك مِن عاداتِ كلِّ محامِي

فجَال وهِجِّيراهُ صوتُ مُخَضْرَمِ ... وَأبْتُ بقرْنَيْ يَذْبُلٍ وشَمامِ

وقال هارون:

ولمَّا أتـانـي أنّـهُـم يَعقِدُونـه بقائم سَيفٍ فاضِلِ الطُّول والـعَـرضِ

مَرَرتُ ولم أحْفِلْ بـذلـك مـنـهـمُ إذا كانَ أنفُ الفيلِ في عَفَـرِ الأرضِ

وحين رأيتُ السَّيفَ يَهْـتَـزُّ قـائِـمـاً ويَلمَعُ لَمْعَ الصُّبْح بالبَلَدِ المـقْـضِـي

وصارَ كمِـخـراقٍ بـكَـفِّ حَـزَوَّرٍ يُصَرِّفه في الرَّقع طوراً وفي الخَفْضِ

فأقبلَ يَفْري كـلَّ شـيءٍ سَـمـا لَـهُ وصرتُ كأنِّي فوقَ مَزْلَـقةٍ دَحْـضِ

وأهوي لجاري فاغتنـمْـتُ ذُهـولَـهُ فلاذَ بقرنـيـه أخـو ثـقـةٍ مـحـضِ

فجال وجَالَ القِرْن في كـفِّ مـاجـدٍ كثير مِراسِ الحرب مجتنبِ الخفْضِ

فطـاحَ وَولّـى هـاربـاً لا يَهـيده رطانةُ هِنديٍّ بـرفـعٍ ولا خـفـضِ

نابا الفيل

والهندُ تزعمُ أنّ نابَي الفِيل يخرجان مستبطِنين حتى يخرقا الحنك ويخرجا أعقفين، وإنما يجعَلهما نابين مَن لا يفهمُ الأمور، قالوا: والدَّليل على ذلك أنّ لهما أصلين في موضع مخارج القرون، يُوجَد ذلك عند سَلْخ جلده، ولأنّ القرن لا يكون إلاّ مصمْت الأعلى مجوَّف الأسفل وكذلك صفةُ هذا الذي يسمِّيه مَن لا علم له ناباً، ومع ذلك إنّا لا نجد الفيل يعضّ كعضِّ الأسد للأكل، ولا كعضِّ الجمل الصَّؤُول للقتل، ولا كعضِّ الأفعى لإخراج السمّ، ولا تراه يصنع به ويستعمله إلاّ على شبيهٍ بما تستعمله ذوات القرن عند القِتال والغضب.

فقال لهم بعضُ من يردُّ عليهم: أمَّا قولكم إنّ القرنَ لا يكون إلاّ مجوَّفَ الأصل، فهذا قرنُ الأيِّل مُصمتَ من أوَّله إلى آخره، وهو ينصل في كلِّ سنة، فإذا نبتَ حديثاً لم يظهَرْ حتى يستحكِم في يُبسه وصَلابته، وإذا علم أنه قد بلغ ذلك ظهَرَ، وأكثرُ القُرُونِ الجُوفِ يكون في أجوافها قرونٌ، وليس ذلك لقرن الفِيل.

قالوا: ولم نجد هذا القرنَ في لون القُرون، ووجدناه بسائر أسنانه وأضراسه أشبهَ، للبياض واليبس، وليس كذلك صفةُ القرون.

وتقول الهند: فم الأيِّل صغير، وهو أفقم، ولا يجوز أن يكون مثلُ ذلك اللَّحي والفكِّ ينبُتُ فيه ومنه نابان يكون فيهما ثلاثمائة مَنّ، وقد رأيتُ قروناً كثيرة الأجناس، بيضاً، وبُرْشاً، وصُهْباً، وهذه أيضاً من أعاجيب الفيل.

وقرن الكركَدَّن أغلظُ من مقدار ذراع، وليس طولُه على قدر غِلَظه، وهو أصلب وأكرم مِن قرني الفيل.

أعضاء التناسل لدى الحيوان ويقال: إنّ أكبر أيور الحيوان أيْر الفيل، وأصغَرَها قضيبُ الظبي، وقضيب البطّ لا يذكر مع هذه الأشكال، وليس شيءٌ على قدْره ومقدار جسمه أعظمُ أيراً من البغل.

وقد علمنا أنّ للضب أيرَين، وكذلك الحِرذَون والسَّقَنْقُور، وعرفنا مقدارَ ذلك، ولكنَّه لا يدخل في هذا الباب لضَعفٍ لا يخفَى.

خرطوم الفيل

ولو لم يكن من أعاجيب الفيل إلاّ خرطومُه الذي هو أنفه وهو يدُه، وبه يوصِل الطعامَ والشَّرَابَ إلى جوفه، وهو شيءٌ بَيْنَ الغُضروف واللحمِ والعصبِ، وبه يقاتِل ويضرِب، ومنه يصيح، وليس صياحُه في مقدارِ جرْم بدنه، ويضربُ به الأرضَ ويرفعِه في السَّماء ويصرِّفه كيف شاء، وهو مَقتلٌ من مقاتله، والهند تربط في طرَفه سيفاً شديدَ المتْن فيقاتِلُ به، مع ما في ذلك من التهويل على من عايَنه.

سباحة الفيل والجاموس والبعير

وهو مع عِظَم بدَنه جيِّد السِّباحة إلاّ أنه يخرج خرطومه ويرفعُه في الهواء صُعُداً لأنّه أنفه، ألا ترى أنّ الجاموسَ يغيب جميعُ بدنِه في الماء إلاّ منخريه.
والبعير قبيح السِّباحة: لأنه لا يسبح إلاّ على جنبه فهو في ذلك بطيءٌ ثقيل، والبعير مما يُخايَر بينه وبين الفيل، فلذلك ذكرناه.
ما يغرق من الحيوان وقد علمنا أنَّ الإنسان يغرق في الماءِ ما لم يتعلَّم السِّباحة، فأمّا الفَرس الأعسرُ والقِرد فإنَّهما يغرقان البتَّة، والعقرب تقُومُ وسط الماءِ لا طافيةً ولا لازقة بالأرض.
أشراف السباع وساداتها وأشراف السِّباع وساداتها وكبارها ورؤساؤها ثلاثة: الكَرْكدَّن والفِيل والجاموس، قال: ولعلَّ بعضَ مَن اعتاد الاعتراض على الكتب يقول: وأينَ الخيل والإبل، وفيها من خصال الشَّرَف والمنافع والغَناء في السَّفر والحَضَر، وفي الحرْب والسّلم، وفي الزِّينة والبهاء، وفي العُدَّة والعتاد، ما ليس عند الكركدَّن ولا عندَ الفيل ولا عند الجاموس.
قال القوم: ليس إلى هذا الباب ذهبْنا، ولا إليه قصدنَا، ولا ذلك البابُ ممَّا يجوز أن نُدخله في هذا الباب، ولكنَّا ذهبْنا إلى المحاماة والدَّفع عن الأنفس والقتال دون الأولاد، وإلى الامتناع من الأضداد بالحيلة اللطيفة، وبالبطش الشديد، وليس عند الخيل والإبل إذا صافت الأسد والنُّمور والبُبُور، ما عند الجاموس والفِيل، فأمّا الكركَدَّن فإن كلَّ شيء من الحيوان يقصِّر عن غايته التقصيرَ الفاحش.
إنكار الكركدن والعنقاء وما أكثر مَن ينكر أن يكون في الدنيا حيوانٌ يسمّى الكَرْكدَّن، ويزعمون أنَّ هذا وعَنْقاءَ مُغْرِبٍ سواء، وإنْ كانوا يرون صُورة العَنقاء مصورَّةً في بُسُط الملوك، واسمها عندهم بالفارسيَّة سِيمَرْكْ كأنه قال: هو وحدَه ثلاثون طائراً، لأنَّ قولهم بالفارسية سي هو ثلاثون بالعربية، ومرغ بالفارسيَّة هو الطائر بالعربية، والعرب إذا أخبرت عن هلاك شيءٍ وبطلانه قالت: حلّقت به في الجوِّ عنقاءُ مغرب، وفي بعض الحديث: أنّ بعضَ الأمم سألوا نبيَّهم وقالوا: لن نؤمن لك حتى تفعل كذا وتفعل كذا، أو تلقي في فم العنقاء اللِّجام، وتردَّ اليومَ أمس.
شعر في العنقاء قال أبو السّريّ الشُّميطي، وهو مَعْدان المكفوف المديبريّ:

يا سَمِيّ النبيِّ والصادقَ الوَع	دِ وَجَدَّ الصبيِّ ذي الخَلخالِ
صاحب الثُّومة التي لم يشِنْها	بعد حَرْسٍ مَثاقبُ اللآلِ

مَهَدتْه العنقاءُ وهي عقيمٌ رُبَّ مهدٍ يكون فوقَ الهلالِ

يومَ تُصغِي له النَّعامة والأحْنا شُ طُرّاً لِشدّة الزّلزالِ

فأهل هذه النِّحلةُ يثبتون العنقاءَ، ويزعمون أنها عقيم.
وقال زُرارة بن أعْيَن، مولى بني أسعد بن همام، وهو رئيس الشميطيَّة وذكر هذا الصبي الذي تكفَّله العنقاء، فقال:

وأوّلُ ما يحيَا نِعَاجٌ وأكبُشٌ ولو شاءَ أحيا ربها وهو مذنبُ

ولكنّه ساعَى بأمٍّ وجَدّةٍ وقال سَيكفِيني الشقيقُ المقرّبُ

وآخِرُ برهاناتِه قلبُ يومكم وإلجامُه العنقاءَ في العين أعجبُ

يَصيفُ بسَاباطٍ ويشتُو بآمِدِ وذلك سرٌّ لو علمناه معجب

أماعَ له الكِبريتَ والبحرُ جامدٌ وملّكَه الأبراجَ والشَّمْسُ تُجْنَبُ

فيومئذٍ قامت شماط بقدرها وقام عسِيب القفر يُثني وَيخْطُبُ

وقام صبيٌّ دَرْدَقٌ في قِماطِهِ عليهم بأصناف اللّسَانَيْنِ مُعْرِبُ

فثبّت زرارة بنُ أعيَنَ قولَ أبي السَّريِّ في العنقاء، وزادنا تثبيت الكِبريت الأحمر ولا أعلمُ في الأرض قوماً يُثبِّتون العنقاءَ على الحقيقة غيرَهم.
الكركدن قال: والذي يثبت الكركَدَّن أن داود النبي صلى الله عليه وسلم ذكره في الزّبور حتّى سمّاه.
وقد ذكره صاحب المنطق في كتاب الحيوان إلاّ أنه سمَّاه بالْحِمار الهنديّ، وجعل له قرناً واحداً في وسْط جبهته، وكذلك أجمع عليه أهلُ الهند كبيرُهم وصغيرُهم.
وإنما صار الشكُّ يعرِضُ في أمْرِهِ من قِبَل أنّ الأنثى منها تكون نَزُوراً، وأيام حَمْلها ليست بأقل من أيام حمل الفيلة فلذلك قلَّ عددُ هذا الجنس.
وتزعم الهندُ أنّ الكركدَّن إذا كانت ببلاد، لم يَرْعَ شيءٌ من الحيوان شيئاً من أكناف تلك البلاد، حتى يكونَ بينه وبينها مائةُ فرسَخ من جميع جهات الأرض؛ هيبةً له، وخضوعاً له، وهرباً منه.
وقد قالوا في ولَدها وهو في بطنها قولاً لولا أنّه ظاهرٌ على ألسِنَة الهند لكان أكثرُ النّاس، بل كثيرٌ من العلماء، يُدْخلونه في باب الخرافة وذلك أنهم يزعمون أنَّ أيامَ حَمْلها إذا كادت أن تتم، وإذا نضجت وسُحِبتْ وجرّت وجرى وقت الولادة، فربما أخرجَ الولدُ رأسَه من ظَبْيتها فأكل من أطراف الشجر، فإذا شبع أدخَلَ رأسَه، حتَّى إذا تمّت أيامُه وضاق به مكانَه وأنكرتْه الرَّحِم، وضعَتْه مُطِيقاً قويّاً على الكسب والحُضْر والدفع عن نفسه، بل لا يَعْرِضُ له شيءٌ من الحيوان والسِّباع.

ولد الفيل

وقد زعم صاحبُ المنطق أنّ ولد الفيل يخرُج من بطن أمّه نابت الأسنان، لطول لبثه في بطنها.
وهذا جائزٌ في ولد الفيل غيرُ مُنكر، لأن جماعةَ نساءٍ معروفاتِ الآباء والأبناء، قد ولدْنَ أولادَهنَّ ولهم أسنانٌ نابتة، كالذي روَوْا في شأن مالك بن أنس، ومحمد بن عَجْلان وغيرهما، أعاجيب الولادة
وقد زعم ناسٌ من أهل البصرة أنَّ خاقانَ بنَ عبد اللّه بن الأهتم استوفى في بطن أُمِّه ثلاثةَ عشر شهراً، وقد مُدِح بذلك وهُجِيَ، وليس هذا بالمستنكر، وإنْ كنت لم أرَ قطُّ قابلةً تُقرّ بشيء من هذا الباب وكذلك الأطبّاء، وقد روَوْه كما علمت، ولكنَّ العجبَ كلَّ العجَب ما ذكروا من إخراج ولَد الكركدَّنِ رأسَه واعتلافه، ثم إدخاله رأسَه بعد الشِّبع والبطنة، ولا بدَّ - أكرمك اللّه - لِمَا أكَلَ مِنْ نَجْوٍ فإن كان بقي ذلك الولدُ يأكل ولا يرُوث فهذا عجبٌ، وإن كان يروث في جَوْفها فهذا أعجب.
وإنما جعلناه يروثُ حيثُ سمَّوه حماراً، وهذا ممّا ينبغي لنا أن نذكرَه في خصال الحمير إذا بلغْنا ذلك الباب.
ولا أُقِرُّ أنّ الولدَ يُخرج رأسه من فرج أمِّه حتى يأكل شبعه، ثمَّ يدخل رأسَه من فَرْج أمِّه، ولستُ أراه مُحالاً ولا ممتنعاً في القُدرة، ولا ممتنعاً في الطبيعة، وأرى جَوازَه مَوْهُوماً غيرَ مستحيل، إلاّ أنَّ قلبي ليس يقبلُه، وليس في كونه ظُلْمٌ ولا عَبَثٌ ولا خطأ ولا تقصير في شيء من الصفات المحمودة، ولم نجد القرآنَ يُنكره، ولا الإجماعَ يدفعُه، واللّه هو القادر دون خَلْقه، ولست أبتُّ بإنكاره وإن كان قلبي شديدَ الميل إلى ردِّه، وهذا ممّا لا يعلمه النَّاسُ بالقياس، ولا يعرفونه إلاّ بالعيان الظاهر، والخبر المتظاهر.
عجيبة الدسَّاس وليس الخبر عنهُ مثلَ الخبرِ عن الدَّسَّاس التي تَلِدُ ولا تَبيض، وإنما أنكر ذلك ناسٌ لأنَّ الدَّسّاس ليس بأشرف كالخُفّاش، بل هو من الممسوح كسائر الطير، وكاللواتي يبضْن من ذوات الأربع من المائيَّات والأرضيَّات.
عجائب الدلفين واللُّخم والكوسج وليس الخبر عن الكركدَّن أيضاً كالخبر عن الدُّلْفين أنَّها تَلِد وعن اللُّخْم مثل ذلك، وأنَّ الكَوسج يتولّد من بين اللّخْم وسمكةٍ أخرى، وهذا كلُّه غيْرُ مستحيل، إلاّ أنّي لا أجعلُ الشيءَ الجائزَ كونُه كالشيء الذي تثبِّته الأدلَّة ويخرجه البرهان من باب الإنكار، والواجبُ في مثل هذا الوقفُ، وإن كان القلبُ إلى نقض ذلك أمْيَل.
والمَيْل أيضاً يكون في طبقات، وكذلك الظن قد يكون داخلاً في باب الإيجاب، وربَّما قصَّر عن ذلك شيئاً.
زعم ولادة السمك وقد زعم ناسٌ من أهل العلم أنَّ السَّمَكَ كلَّه يلِد، وأنهم إنما سمَّوْا ذلك الحَبَّ بيضاً على التشبيه والتمثيل، لأنّه لا قشر له هناك ولا مُحّ ولا بَياضَ، ولا غِرْقِئَ؛ وأنّ السمكة لا تخرج أبداً إلاّ فارغةَ البَطْنِ أو محشوَّة، ولم نر الحَبَّ الذي بقرب مَبالها أعظمَ، ولم نَرها ألقتْ إحدى تلك الطّوامير وبقّت الأخرى، وإنما غلط في ذلك ناسٌ من قِبَل ضيق السبيل والمَسْلَكَ، فظنوا أنّ خرق المبال يضيق عن عِظَم ذلك الجسم العظيم المجتمع من الحبِّ الصغار، قالوا: فإنما تُخرج تلك الطواميرَ واحداً فواحداً، وأوّلاً فأولاً.
عجائب الولادة وما ذلك بأعجبَ ولا أضيق من حياء الناقة والسَّقبُ والحائلُ يخرجان منه خروجاً سَلِساً إذا أذن اللّه بذلك، وكذلك المرأة وولدها، والفِيلةُ، والجاموسة، والرَّمَكةُ، والحِجْر والأتان، والشاة في ذلك كلّه مثلُ السمكة.
وقالوا: لا بُدَّ للبيض من حَضْن، ومتى حَضَنَت السمَكةُ بيضَها لا تلتفت إلى بيضها وفراخها.
زعم العوام في الكركدن والعوامُّ تضربُ المثَلَ في الشدّة والقوَّة بالكركدَّن، وتزعم أنه ربما شطحَ

الفيل فرفعه بقرنه الواتِد في وسْط جَبْهته، فلا يشعرُ بمكانه ولا يحسّ به حتّى ينقطع على الأيَّام. وهذا القولُ بالخرافة أشبَه.
مزاعم في ضروب من الحيوان وأعجبُ من القول في ولد الكركدَّن ما يخبرنا به ناسٌ من أهل النظر والطبّ وقراءة الكتب، وذلك أنّهم يزعمون أنّ النمرة لا تَضَعُ ولدَها أبداً إلاّ وهو متطوِّق بأفعى، وأنها تعيش وتنهش، إلاّ أنها لا تقتل، ولو كنتُ أجسُر في كتبي على تكذيب العلماء وَدَرَّاسِي الكتب، لبدأت بصاحب هذا الخبر.
وليس هذا عندي كزعمهم أنّ الأفعى تلد وتبيض، لأنَّ تأويل ذلك أنَّ الأفعى تتعضَّلُ ببيضها، فإذا طرَّقتْ بالبيض تلوّت فحطمَتْه في جَوفها، ثم ترمي بتلك القشور والخَرَاشِيّ أوّلاً فأولاً، كما لا بدّ لكلِّ ذات حملٍ أن تُلْقِيَ مشيمتَها.
ويزعُم كثيرٌ من الأعراب أنّ الكَمْأة تتعفَّن، ويتخلّق منها أفاعي، فهذا الخبرُ وإن كنت لا أتسَرَّعُ إلى ردِّه فإنّي على أصحابه أَلْيَن كَنفاً.
قرن الكركدن وأمَّا قرْن الكَرْكَدَّن فخبَّرَني من رآه ممَّن أثِقُ بعقْله، وأسكن إلى خَبَره، أنَّ غِلظ أصله وسَعة جسمه يكونُ نحواً من شِبرين، وليس طولُه على قدْر ثِخَنه، وهو محدَّد الرأس، شديدُ الملاسة، ململوم الأجزاء مُدْمج، ذو لدونةٍ وعُلوكة في صلابة، لا يمتنع عليه شيءٌ، ويُجهز مِنْ عِندنا بالبصرة إلى الصين؛ لأنَّه يقع إلينا قبلهم، فإذا قطعُوه ظهرت في مقاطعه صُوَرٌ عجيبة، وفيه خصال غير ذلك، لها يطلب.
خيل النهر وقد كنا نزعُم أنّ الهواء للعقاب، والماء للتمساح، والغياض للأسَد حتى زعم أصحابُنا أنَّ في نيل مصر خُيولاً تأكل التماسيح أكلاً ذريعاً وتقوى عليها قوة ظاهرة، وتغتصِبُها أنفسَها فلا تمتنع عليها، وعارَضوا مَن أنكر خيلَ الماء، بخنازير الماء وبكلابِ الماء، وبدُخّس الماء.
إنقاذ بعض حيوان البحر للغريق ولم أجدْهم يشكُّون أن بعضَ الحيوان الذي يكون في البحر ممّا ليس بسمك وهو يعايش السمك - وقد ذهبَ عنّي اسمُه - أنَّه متى أبصر غريقاً عَرض له وصار تحت بَطنه وصَدْره، فلا يزال كالحامل له والمُزْجي والمعين، حتى يقذفَ به إلى حزيرة، أو ساحلٍ، أو جبل.
وأصنافُ سمَك البحر، وأجناسُ ما يعايش سمكَ البحر لا تكون في أوساط اللُّجج وفي تلك الأهوَاز العِظام، مثل لجَّة سقُوطرَا، وهركند، وصنجى، وكذلكَ أهلُ البحر إذا عاينُوا نباتاً أو طيراً، أيقنُوا بقرب الأرض إلاَّ أنّ ذلك القريب قد سمِّيَ بعيداً، فلذلك سَلِم ذلك الغريقُ بمعونة ذلك الحيوان.
مسالمة الأسد للببر ومعاداته للنمر فأمّا الأسَد والبَبْر فمُتسالمان، وأما الأسد والنمر فمُتَعَاديان والظَّفَر بينهما سِجال، والنَّمر وإن كان ينتصف من الأسد فإنّ قُوَّتَه على سائر الحيوان دون قوَّته على الأسد، وبدنه في ذلك أحملُ لوَقع السِّلاح، ولا يعرضُ له البَبْر، وقد أيقنا أنَّهما ليسا من بابته، فلا يعرض لهما، لسلامة ناحيته وقلة شرِّه، وهما لا يعرضان له لما يعرفان من أنفسهما من العَجْز عنه، وأمَّا البهائم الثلاث اللواتي ذكَرْناها فإنَّها فوق الأسد والنمر.
والبَبْر هنديٌّ أيضاً مثل الفيل، وأمَّا الكركدَّن فلا يقوم له سبعٌ ولا بهيمة، ولا يطمع فيه، ولا يَرومُ ذلك منه.
مبارزة الجاموس للأسد وأمّا الجاموس والأسَد فخبَّرني محمد بن عبد الملك أنّ أمير المؤمنِين المعتصمَ باللّه، أبرزَ للأسد جاموسَيْن فغلبَاه، ثم أبرز له جاموسةً ومعها ولدُها فغلبته وحمَتْ ولدَها منه، وحَصّنته، ثم أبرز له جاموساً وحْدَه فواثبَه ثم أدبر عنه.
هذا وفي طبع الأسد الجرأة عليه، لأنّه يعدّ الجاموسَ من طعامه، والجاموسُ يعرف نفسَه بذلك، فمع الأسد من الجُرأة عليه على حَسب ذلك ومع الجاموس من الخوف على قدْر ذلك، وفي معرفة الأسد

أنّ له في فمه من السِّلاح ما ليس لشيء سواه، وفي معرفة الجاموس بعدم ذلك السِّلاح منه، فمعه من الجرأة عليه بمقدار ما مع الجاموس من التهيُّب له، فيعلم أنّه قد أعطي في كفِّه ومخالبه من السلاح ما ليس لشيء سواه، ويعلم الأسَد والجاموسُ جميعاً أنّه ليس في فم الجاموس ويده وظِلْفه من السِّلاح قليلٌ ولا كثير، فمع الأسد من الجَراءة عليه، ومع الجاموس من الخوف منه، على حَسب ذلك، ويَعلمُ الأسدُ أنّ بدنَه يَمُوج في إهابه، وأنّ له مِن القوَّة على الوثوب والصَّبْر والحُضْر، والطَّلَب والهرَب، ما ليس في الجاموس، بل ليس ذلك عند الفَهْد في وثوبه، ولا عند السِّمْع في سرعة مَرِّه، ولا عند الأرنب في صَعْدَاء ولا هَبُوط، ولا يبلُغُه نَقزان الظَّبي إذا جَمَعَ جراميزهُ، ولا ركْضُ الخيلِ العِتاق إذا أُجيد إضمارُها، والجاموسُ يعرف كلَّ ذلك منه.
ومع الجاموس من النُّكوص عنه بقدْر ما مع الأسد من الإقدام عليه، ويعلم أنّه ليس له إلاّ قرنُه وأنّ قرنَه ليس في حدّة قُرون بقَر الوحْش، فضلاً عن حِدّة أطراف مخالب الأسَد وأنيابه وأن قرنه مُبْتَذَلٌ، لا يصان عن شيءٍ، ومخالب الأسد في أكمام وصِوان.
وإذا قوي الجاموسُ مع هذه الأسباب المجبِّنة على الأسد مع تلك الأسباب المشجِّعَة حتى يقتله أو يعرِّدَ عنه، كان قد تقدَّمَه تقدُّماً فاحشاً، وقد علاه عُلوّاً ظاهراً، فلذلك قدَّمنا الجاموسَ وهو بهيمة، وقدَّمنا رؤساء البهائم على رؤساء السباع، هذا سِوى ما فيها من المرافق والمنافع والمَعاون.
والجاموس أجْزَعُ خلْق اللّه مِن عَضِّ جِرجسةٍ وبعوضةٍ، وأشدُّهُ هرباً مِنْهُما إلى الماء، وهو يمشي إلى الأسد رَخِيَّ البال، رابط الجأش، ثابت الجنان، فأمَّا الفيلُ فلم يولِّد الناسُ عليه وعلى الكركدَّن ما ولَّدُوا من إفراط القُوَّة والنَّجدة والشَّهامة، إلاّ والأمرُ بينهما متقاربٌ عندهم.

مغالبة الفيل للأسد

والهندُ أصحابُ البُبور والفُيول، كما أنَّ النُّوبة أصحابُ الزَّرافات دونَ غيرهم من الأُمم، وأهلُ غانة إنما صار لباسُهم جلودَ النمور لكثرة النمور بها، إلا أنَّها على حالٍ موجودةٍ في كثيرٍ من البُلدان.
وقد ذكَرُوا بأجمعهم قُوّةَ الفيل الوحشيِّ على الأسد، وقالوا في الفِيَلَة الأهليَّة إذا لقِيتْ عندنا بالعِراق الأسْد وجمعنا بينهما، قالوا: أما واحدة فإنّ ذُكور الفِيَلَة لا تكاد تعيشُ عندكم، وأنيابُها التي هي أكبَرُ سلاحِها لا تنبُت في بلادكم، ولا تعظُم ولا تزيدُ على ما كانت عليه ما أقامت في أرضكم، وهي أيضاً لا تتناتج عندكم، وذلك من شدّة مُخالَفة البلدة لِطبائعها ونقضها لقواها، وإنما أسْرَعَ إليها الموتُ عندكم للذي يعتريها من الآفات والأعراض في دُوركم، فاجتمعت عليها خصال، أوّل ذلك أنها مع الوحش وفي صميم بلادها أجرأ وأقوى، وأشهَمُ نفساً وأمضى، فلمّا اصطدْناها بالْحِيَل، وصيَّرْناها مقصورة أهليَّة بعد أن كانت وحشيَّةً وفي غير غذائها، لأنّها كانت تشرب إذا احتاجت، وتأكل إذا احتاجت وتأخذ من ذلك على مقادير ما تعرف من مَوقع الحاجة، فلما صارت إلى قيام العبيد عليها، والأجَراء بشأنها، والوكلاء بما يصلحها دخل ذلك من النقض والخوَر، والخطأ والتقصير، على حسب ما تَجِدُ في سائر الأشياء، ثم لم نَرْض بذلك حتَّى نقلناها من تلك البلدة على إنكارها لتلك اللدة، فصيَّرْناها إلى الضدِّ بعد أن كانت في الخلاف.
وقد علمنا أنَّ سبيلَها سبيلُ سائر الحيوان، فإنّ الإبلَ تموت ببلاد الروم وتَهلكُ وتسوءُ حالُها، والعقارب تموت في مدينة حِمْص، والتماسيح تموت إن نُقلت إلى دِجلة والفرات، والنَّاس يصيبهم الجَلاءُ فيموتون ويتهافتون، وقد علمنا أنَّ الزِّنج إذا أخرجوا من بلادهم فما يحصل بالبصرة عندنا منهم إلاَّ اليسير، وكذلك لو نقلوا إليكم بزر الفُلفُل والسَّاج والصَّندل والعُود، وجميعَ تلك الأهضام، فما امتناعُ نباتِ العاج ببلادكم إلاّ كامتناع نباتِ الآبنوس، وإن كان ينبت في حيوان والآخر في أرض.

فلا يفتخرنَّ مفتخر في الأسد في هذه البلدة إذا قاوم الفيل، والأسد هاهنا في بلاده وفي الموضع الذي تتوفّر أموره عليه، لأنَّ أسْد العراق هي الغاية، وأقواها أسْد السّواد ثم أسْد الكوفة، ولأنّ الفِيَلَةَ عندكم أيضاً تَرَى عندَكم السَّنانير، وقد جَعَل اللّهُ في طبْع الفيل الهربَ من السِّنَّور والوَحشةَ منه، كما أنَّ بعضَ شجعانِكم يمشي إلى الأسد، ويقبض على الثُّعبان، ولا يستطيع النَّظَرَ إلى الفأر والجرذان، حتى يهرُب منها كلَّ الهرب، ويعتريه من النّفضة واصفرار اللّوْن ما لا يعتري المصبور على السَّيف وهو يلاحِظُ بريقه عند قفاه.

خوف عبد اللّه بن خازم من الجرذ وذكر عليّ بن محمد السميري قال: بينما عبد اللّه بن خازم السُّلَميّ عند عبيد اللّه بن زياد، إذ أُدْخِلَ على عبد اللّه جرذ أبيض ليُعجَّبَ منه، فأقبل عبيدُ اللّه على عبد اللّه فقال: هل رأيتَ يا أبا صالحٍ أعجَب من هذا الجرذ قط؟ وإذا عبد اللّه قد تضاءَل حتى صار كأنه فرخ، واصفرَّ حتى صار كأنَّه جرادة ذَكَرٌ، فقال عبيد اللّه: أبو صالحٍ يَعصِي الرَّحمن، ويتهاوَن بالشيطان، ويقبض على الثعبان، ويمشي إلى الأسد، ويَلْقى الرِّماح بوجهه، وقد اعتراه من جُرَذٍ ما ترون؟ أشهَدُ أنَّ اللّه على كلِّ شيءٍ قدير.

خوف الفيل من السنور

وإذا عاين الفِيلُ الأسدَ رأى فيه شَبَه السّنّور، فيظنُّ أنه سنّور عظيمُ فلا يبلغ منه مقدارَ تلك المناسبة، وذلك الشّبه، ومقدارَ ذلك الظنّ ما يبلغ رؤيةُ السِّنَّور نفسهِ، وليس هربُه منه مِن جهةٍ أنّه طعامٌ له، وأنّه إن ساوَرَه خافه على نفسه، وإن كان في المعنى يرجع إلى أنّه طعامٌ لصغار السِّباع وكبارها، وهَلْ قتل أسدٌ قطُّ فيلاً، ومتى أكله؟ وإنَّه مع ذلك لرُبَّما رَكَله الرَّكْلة، فإمّا أنْ يقتُلَه، وإمَّا أنْ يذهبَ عنه هارباً في الأرض، وإمَّا أن يُجْلِيَهُ.

وأيّة حُجَّة على الفيل في أن يرى سنوراً فينفر منه؟ فالأسدُ يُشار إليه بشُعلةٍ من نار، أو يُضرَب له بالطَّسْتِ فيهربُ منه، فإنما هذا كنحو تفزُّع الفَرَس من كلِّ شيءٍ يراه في الماء وهو عطشانُ فيأباه.

ويزعم ناسٌ من أصحاب الخيل أنّ الفَرَس ليس يضرب بيديه في الماءِ الصافي ليثوِّره، لأنَّ الماء الكدرَ أحبُّ إليه، وما هو إلا كالثَّور الذي يحبُّ الصافي ويختاره، ولكنه إذا وقف على الماء الصافي رأى فيه ظِلّه وظلّ غيره من الأشخاص، فيفزعه ذلك، فلمعرفته بأنَّ الماء الكدرَ لا تتصوَّر فيه الصُّوَر يضرب بيديه، هذا قول هؤلاء، وأمَّا صاحبُ المنطق وغيرهُ ممَّن يدَّعي معرفةَ شأنِ الحيوان فإنّه يزعُم أنَّ الفرسَ بالماء الكدِر أشدُّ عُجْباً منه بالماء الصافي، كما أنَّ الإبلَ لا يُعجِبها الماءُ إلاَّ أنْ يكونَ غليظاً، وذلك هو الماءُ النَّمير عندهم، وإنَّما تصلُح الإبل عندَهم على الماء الذي تصلُح عليه الخيل.

تداوي الحبشة والنوبة بأضراس خيل الماء وأعفاجها ويزعُم مَنَ أقام ببلاد السُّودان أنَّ الذين يسكُنون شاطئ النيل من الحبشة والنُّوبة، أنهم يشربون الماء الكدر، ويأكلون السَّمك النِّيء فيعتريهم طحالٌ شديد، فإذا شدُّوا على بطونهم ضِرْساً من أضراس خَيل الماء وجدْوه صالحاً لبعض ما يعرض من ذلك، ويزعمون أن أعفاج هذا الفرس تُبْرئُ من الصَّرْع الذي يكون في الأهِلّة.

دفاع صاحب الأسد وقال بعض من يَنْصُرُ الأسَد: إن الأُسْدَ في الهند أضعَفُ، بل هي ضعيفةٌ جدّاً، والفيل في بلادهم أقوى، والوحشي منها أجرأ، والمغتلم لا يقوم له إلا الكركدَّن؛ وإنه ليهجُم عليه فيحجم عنه حتى تذهب عنه سَكْرة الغُلْمة، فيرجعُ إلى معرفةِ حال الكركدَّن فلا يَطور طوَارَه، ولا يحلُّ بأداني أرضه.

وأما الفيل فإذا كان غيرَ هائج والأسدُ في غير أيَّام هِيَاجِه ثم يكونُ الأسَدُ عِراقيّاً ويكونُ سَوادِيّاً ويكون من أجَمَة أبْزيقيا فإنَّ الفيلَ لا يقوم له.

قول صاحب الفيل

وقال صاحب الفيل: الفيل لا يُعاينُ أسداً أبْزيقيّاً حتى تفسَخَه البلْدة، وتَهدِمَهُ الوحشة، ويُمرضه الغِذاء، ويُفسده الماء، وهو لا يصل إلى ذلك المكان حتى يجمع بينه وبين ذلك الأسد، وحتى يَسْمَع تجاوُبَ السَّنانير وتَضاغيها - وهو أسمَعُ من قُراد - فيغِبّ ذلك في صدره، وتتزايد تلك الوَحشةُ في نفسه، فمتى رأى أسداً قائماً فربَّما دعَته الوحشة منه، والبغض المجعُول فيه، إلى الصُّدُود والذَّهاب عنه، فيظنُّ كثيرٌ من الناس أنَّ ذهابَه هرَب، وأنّ صدودَه جُبْن، وإنَّما هو من الوَحشة منه، والكَراهة لمنظرَتِه، وربَّما اضطرَّهُ الأسدُ بخُرْقه حتى يُنقضَ حِلمُه، ويُغْلَب وقارُه، فيخبطُه خَبطةً لا يُفلح بعدها أبداً.

فخر صاحب فرس الماء قال صاحبُ الفرَس: زعمتم أنَّ الأسدَ في الأرض كالعقاب في الهواء، وكالتمساح في الماء، وأنَّ تمساحاً وأسداً اعتلجا على شريعةٍ فقتَلَ كلُّ واحدٍ منهما صاحبه، وكأنَّ التمساح ضرب الأسد بذنبه في الشريعة، وضغمَ الأسدُ رأسَه فماتا جميعاً.

قال: والفَرسُ المائيُّ بالنِّيل يقتُلُ التَّماسيحَ ويقهرُها ويأكلها ولا يُساجلُها الحرب، ولا تقعُ بينهما مغالَبةٌ ومجاذبة، وتكون الأيام بينهما دُوَلاً، فهذه فضيلةٌ ظاهرة على الأسد، وشرفُ فرس الماء راجعٌ إلى فرس الأرض، فإنْ كان فرسُ الأرض لا يقوى على الأسَد ولا على النَّمر ولا على البَبْر، فإن ابنَ عمِّه وشكلَه في الجنْس قد قويَ على التِّمساح وهو رئيسُ سُكان الماء.

قالوا: أمَّا واحدة فإن التمساح ليس برئيسِ سُكان الماء إلا أن تَريد بعضَ سكان الأودية والأنهار والخُلجان والبُحَيْرات في بعض المياه العذبة، والكوسج واللُّخْم والسَّرَطان والدُّلْفين وضَرُوبٌ من السباع مما يعايشَ السَّمك ليس التمساح من بابه، وعلى أن التمساح إنما يأكله ذلك الفرسُ وهو في الماء، وليس للتمساح في جوف الماء كبيرُ عملٍ إلا أن يحتمل شيئاً بذنبه ويحتجنَه إليه، ويدخله الماء، وربَّما خرج إلى الأرض للسِّفاد ولحضْن البيض، فلا يكونُ على ظهر الأرض شيءٌ أذلُّ منه، وذلُّه على ظهر الأرض شبيهٌ بذُلِّ الأسَد في وسط الماء الغَمْر، ولَعمري أنْ لو عَرَض له هذا الفرسُ في الشرائع فغلبه لقد كان ذلك من مفاخره، فلذلك لم تُذْكَر الخيل في باب الغلبة، والقتال والمساجلة، والانتصاف من الأعداء.

والفرَس قد يُقاتل الفرسَ في المُرُوج إذا أراد أن يحمِيَ الحُجور، كما يحمِي العيرُ العانةَ ويقاتل دونها كلَّ عيرٍ يريد مشاركتَه فيها، وهذا شيءٌ يعرض لجميع الفُحولة في زمن الهيج.

وقد يصاولُ الجملُ الجملَ فربَّما قتلَ أحدُهما صاحبَه، ولكنَّ هذه الفَحولَة لا تعرض لشيءٍ من الحيوان في غير هذا الباب.

وإن أرادَ الفرسَ أسدٌ، فليس عنده من إحراز نفسه وقتْل عدوِّه ما عند الجاموس، فإنْ فضَلَه الجاموسُ بقرنيه، فإن السِّلاح الذي في فَم الفَرس لو استعمله لكان سِلاحاً، ولو استدْبَرَ الأسدَ فركله ورَمَحه وعَضّه بفيه، لكان ذلك ممَّا يدفع عنه ويحمي لحمَه.

وليس للجاموس في أظلافه وفي يديه ورجليه وفي فمه سلاح، فقد دلّت الحالُ على أنّ مدارَ الأمر إنَّما هو في شَجاعة القلب.

وفي هذا القياس أنّ الصَّقْر إنَّما يواثِبُ الكُرْكيَّ لمكان سلاحه دون شجاعة القلب التي يقوى بها الضَّعيف، وبخلافها يضعُف القويّ.

وسأقرِّب ذلك عندك ببعض ما تعرِفه، لا نَشكّ أنّ الهِرّ أقوى من الهِرَّة في كلِّ الحالات، حتى إذا سفِدها فحدثتْ بينهما بغضاء ومطالبة حدثت للهِرَّة شجاعةٌ وللهِرِّ ضَعَف، فصارت الهِرَّةُ في هذه الحال أقوى منه، وصار الهِرُّ أضعف، ولولا أنَّه يُمعِن في الهرب غاية الإمعان ثمَّ لحقته، لقطَّعته وهو

مستخْذٍ.
ومثل ذلك أنَّ الجُرذ يُخْصَى ويرمى به في أنابير التّجّار وفي الأقرِحَة والبيادر، فلا يدَعُ جُرذاً ضخْماً قد أعيا الهرّ وابن عِرْس إلاَّ قتَلَه، وإنْ كان أعظمَ منه وأشدّ.
والخَصيُّ من كلِّ شيءٍ أضعَفُ قوَّةً من الفحْل إلاّ الجرذ، فإنه إذا خُصي أحدث له الخصاء شجاعةً وجَراءة، وأحدثتْ له الشَّجَاعة قوّة وأحدث علم الجرذان بحال الخصاء لها جُبْناً، وأحدَثَ الجُبنُ لها ضعْفاً.
والرَّجُلُ الشّدّيدُ الأسر قد يَفْزَعُ فتنحلُّ قُوَاهُ، ويسترخي عصبُه حتّى يضربه الصبيُّ، والذِّئبُ القويُّ من ذئاب الخمر يكون معه الذئبُ الضعيف من ذئاب البراري، فيصيب القويَّ خدشٌ يسيرٌ، فحينَ يَشمّ ذلك الذئبُ الضعيف رائحةَ الدَّم وثب عليه، فيعتري ذلك القويّ عند ذلك من الضّعف بمقدار ما يعتري الضعِيفَ من القُوَّة حتى يأكله كيف شاء.
والأسَد الذي يعتريه الضَّعف في الماء الغَمْر حتّى يركبَ ظهرَه الصبيُّ ثم يقبضَ على أذنيه فيُغطه كيف شاء.
وقد يفعل به ذلك غِلمان السَّوَادِ وشاطئ الفرات، إذا احتملت المدودُ الأسْدَ لا تملك من أنفُسها شيئاً، وهو مع ذلك يشدُّ على العسكر حتى يفرقه فَرْقَ الشّعر، ويطويه طيَّ السِّجِل؛ ويهارِشُ النمرَ عامّة يومه لا يقتلُ أحدُهما صاحبَه، وإنْ كان الجمل الهائجُ باركاً أتاه فضرب جنبَه ليثْنِيَ إليه عنقه، كأنه يريد عضّهُ فيضربُ بيساره إلى مشْفره فيجذبه جذبةً يفصل بها بين دَأيات عنُقه، وإن ألفاه قائماً وثب وثبة فإذا هو في ذروة سنامه، فعند ذلك يصرِّفه كيف شاء، ويتلعَّب به كيف أحبّ. ونحن لا نشكُّ أنّ للفَرس تحتَ الفارس غَناءً في الحرب لا يُشْبهه غناء، ولذلك فُضِّل في القسْم، وإنما ذلك بتصريف راكِبه له، وقتالِه عليه، فأمَّا هو نفسهُ فإنه إذ كان أوفرَ سلاحاً من الجاموسِ وخام عن قِرنه،
واستسلم لعدوِّه؛ فإنّه من هاهنا لا يقدم على غيره، ولم يكن اللّه ليجعلَ انحصارَ جميع أقسام الخير في شخصٍ واحد، ولكن لمَّا أن كان الفَرَس عليه تقاتل الأنبياءُ وأتْباع الأنبياء، ملوكَ الكفَّار وأتْباعَ مُلوك الكُفار حتّى يقمَع اللّه الباطلَ ويُظْهر الحقّ؛ فلذلك قدَّمناه على جميع البهائم والسِّباع، وإنما نُقدِّمه على الوجه الذي قدَّمه اللّه فيه.
الرد على صاحب فرس الماء واعترضَ على أصحاب فرَس الماء معترِضون فقالوا: الفرسُ لا يكون إلاّ بهيمة، والبهائم لا تصيد وتأكل صَيدَها، وإنما طعامُ الفرسِ النَّباتُ وليس اللّحمُ لها بطعام، وقال النمر بن تولب:

والخيلُ في إطعامها اللّحمَ ضررٌ نُطعمُها اللّحمَ إذا عَزّ الشَّجَرْ

في كلمته التي يقول فيها:

اللّهُ من آياته هذا القمرْ

وقد تُعلَف في تلك الحالاتِ اللّحمَ اليابس وهسيسَ السّمك، فأمّا الهسيس فلخُيول أهل الأسياف خاصّة.
الرد على صاحب فرس الماء قيل لهؤلاء المعترضين على فرَس الماء: وقد يكون في الخلْق المشترك وغير المشترك ما يأكلُ اللّحمَ والحَبّ، فالمشترك مثلُ الإنسانِ الذي يأكل الحيوان والنبات، وهذا العصفور من الخلق المشترك لأنّه يأكل الحبّ، ويصطاد النمل الطّيار والأرضة فيأكلُها، ويأكل اللّحم، والدَّجاجُ تأكل اللَّحمَ والدِّيدان، وتحسُو الدَّمَ وتلقُط الحبّ، والغراب لا يَدَعُ شيئاً إلاَّ أكله.

وما خرج من حدِّ المشترك وهو كنحو الذِّئب والضَّبع، وكنحو الشَّاهين والصَّقر، فإنّ هذه وأشباهَها لا تعرفُ إلا اللَّحم، والحمامُ وضروبٌ من الطيرِ لا تعرف إلاَّ الحبَّ والنَّبات، والمشتركُ أجمَعُ مما هو غير مشترك.
والسّمكة تأكل الطّين والنّبات، وتأكل الجيف التي تصيب في الماء، وتُصاد بضروبٍ من الحيوان تُجعل لها في الشُّصوص، ثم ينصبون لكلِّ ضربٍ من السَّمك بضربٍ من الطُّعم.
والجِرّيُّ يأكل الجرذانَ ويصيدُها، وهو آكلُ لها من السّنانير والحيّات والكلابِ السَّلوقية، ويأكلُ الجِرِّيُّ جميعَ جِيفِ الموتى، والسَّمك يأكل السّمكَ ويأكلُ من كلّ حَبّ ونبات يسقط في الماء.
وإن استفهَمَ مستفهِمٌ، أو اعترض معترضٌ فقال: وكيف يأكل الجِرِّيُّ الجرذان، والجرذانُ أرضيَّةٌ بيوتيَّة، والجِرّيُّ مائي؟ قيل له: يخبِّرنا جميعُ مَن يبيتُ في السُّفُن وفي المشارع، في فيض البَصرة عندنا، أنّ جرذان الأنابير تخرُج أرسالاً باللّيل كأنّها بناتُ عِرْس، والجرِّيُّ قد كَمَنَ لهنَّ وهو فاتحٌ فاه، فإذا دنا الجُرذُ من الماء فعبَّ فيه التهمه ليس دون ذلك شيء، بشَجْر فمٍ واسع يَدخُل في مثله الضبُّ الهرم، وإنما يضَع بخطمه على الشَّريعة.
وسنذكر شيئاً من الطُّرَف والحِكم والأشعار، إذْ كُنَّا قد ذكرْنا من الكلام في الحيوان صدراً صالحاً، وأبواباً جامعةً، ثم نعود في ذكر الفيل إنْ شاء اللّه، واللّهُ الموفق.
شيء من الطرف والحكم والأشعار قال الشّاعر:

ونحنُ أناسٌ لا حجازَ بـأرْضِنـا ... معَ الغَيْثِ ما نُلْقى ومَن هو غالبُ
وإن قصُرَت أسيافُنا كان وصلُها ... خُطانا إلى أعدائنا فنـضـاربُ
ترى كلّ قومٍ ينظرون إلـيهمُ ... وتقصُر عمَّا يبلـغون الـذَّوائبُ

مثل قول الآخر:

لكلِّ أناسٍ سُلَّمٌ يُرْتَـقـى بـه ... وليس إلينا في السَّلاليم مطلعُ
ومنزلُنا الأعلَى حجازٌ لمن به ... وكلُّ حجازٍ إن هبطناهُ بلقـعُ
وينفِرِ منا كلُّ وحشٍ وينتمِـي ... إلى وَحْشِنا وحشُ البلاد فيَرْبعُ

وقال حسَّان بن ثابت:

ونَدْمانِ صِدقٍ تقطر الخيرَ كَفُّـه ... إذا راح فَضْفاضَ العشيَّاتِ خِضْرِما
وصلتُ به كفِّي وخالَط شِيمَـتـي ... ولم أكُ عِضّاً في الندامى مُلوّمـا
لنا حاضرٌ فـعـمٌ وبـادٍ كـأنّـه ... شماريخُ رَضْوَى عِزَّةً وتـكـرُّمـا

ولدْنا بني العَنْقاء وابْنَيْ محرِّقٍ فأكرِمْ بنا خالاً وأكرم بنا ابنما

لنا الجفناتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ في الضُّحَى وأسيافُنا يقطرْنَ من نجدةٍ دَما

وقال أعرابيٌّ غزليّ:

بنفسي وأهلي مَن إذا عَرَضُوا له ببَعض الأذى لم يَدْرِ كيف يُجيبُ

ولم يعتذِرْ عُذْرَ البريء ولم تَزَلْ به سَكْتةٌ حتّى يُقالُ مُريبُ

وقال أعرابيٌّ من هُذيل:

رَعاكِ ضمانُ اللّهِ يا أمَّ مالكٍ وللّهُ أن يَسْقِيكِ أولَى وأوسَعُ

يُذكِّرُنِيكِ الخيرُ والشرُّ والذي أخافُ وأرجو والذي أتوقَّعُ

قطعة من أشعار الاتعاظ

قال الشاعر:

عليك مِنَ امْرِكَ ما تستطيع وما ليس يُغْنِيك عنه فَذَرْ

وللصَّمْتُ أجْمَلُ في حِينِهِ مِنَ القوْلِ في خَطَلٍ أوْ هَذَرْ

وكم غائبٍ كَانَ يَخشَى الرَّدَى فعادَ وَأوْدَى الذي في الحضَرْ

وبينا الفتى يُعجبُ النَّاظري نَ مال إلى عِطْفِهِ فانقعَرْ

وبعضُ الحوادث إن يُبْقِهِ فإنَّ الفنَا شأنُهُ وَالكِبَرْ

وكم من أخي نجدة ماهرٍ تعلَّقه الدَّهْرُ حتى عَثَرْ

وكم من أخي عثرة مُقْتِرٍ تأتَّى له الدَّهرُ حَتى انجَبَرْ

وقال علقمة بن عبدة:

وكلُّ قوْمٍ وإن عَزُّوا وإنْ كَثُرُوا عَرِيفُهُمْ بِأثافي الشَّرِّ مرجـومُ

والحمدُ لا يُشْتَرَى إلا لهُ ثمـنٌ ممَّا يَضِنُّ به الأقوامُ معلـومُ

والجهلُ مَنْقصةٌ شَيْنٌ لصاحبِـهِ والحِلْمُ آونَةً في النَّاس مَعْدُومُ

وكلُّ حِصْنٍ وإنْ طالَتْ سلامَتُه على دعائمه لا بدَّ مَـهـدومُ

ومَنْ تَعَرَّض للغرْبانِ يَزْجُرُهَا عَلَى سَلاَمَتِهِ لا بُدَّ مشـؤومُ

وَمُطْعَمُ الغُنْمِ يَوْمَ الْغُنمِ مُطْعَمُهُ أنَّى تَوَجَّهَ والمحرومُ مَحْـرُومُ

وقال عديُّ بن زيد العباديّ، وهو أحدُ من قد حُمِلَ عَلَى شعره الحَمْلُ الكثير، ولأهل الحِيرة بشعره عنايةٌ، وقال أبو زيدٍ النحويّ: لَو تمنَّيت أنْ أقولَ الشِّعر ما قلتُ إلا شعرَ عديٍّ بن زَيد:

كَفَى زاجراً للمـرء أيَّامُ عمـرهِ تروح له بالواعظاتِ وتغتـدي

فنفسَك فاحفَظْها من الغيِّ والرَّدَى متى تُغْوِها تُغْوِ الذي بك يَقتَـدِي

فإنْ كانتِ النَّعماءُ عنـدَك لامـرئ فمثلاً بهَا فاجْزِ المُطالـب أو زدِ

عن المرْءِ لا تَسألْ وأبصِرْ قرينَـه فإنَّ القرين بـالمقارَنِ مُـقـتـدِي

ستُدرِك مِن ذي الجَهْلِ حقَّك كلـه بحلمك في رِفق ولَمَّـا تَـشَـدَّدِ

وظُلم ذوي القرْبَـى أشـدَّ عداوةً على المرء من وَقْع الحُسام المهنَّدِ

وفي كثرة الأيدي عن الظُّلمِ زاجرٌ إذا خَطرَتْ أيدي الرِّجال بمشهَـدِ

قال المهلب بن أبي صُفرة: عجبْت لمن يشتري المماليك بمالِهِ كيف لا يشتري الأحرارَ بمعروفه.
وقال عبد اللّه بنُ جعفرٍ لرجلٍ يُوصِيه: عليك بصُحبةِ مَنْ إنْ صحِبْتَهُ زَانَك، وإنْ تركتَه شانَكَ؛ إن سألتَه أعطاك، وإن تركتَه ابتداك؛ إنْ رأى منك سيِّئة سدَّها، وإن رأى حسنة عدّها؛ وإن وَعَدَك لم يُجْرِضْك وإن ألجِئْتَ إليه لم يرفُضْك.
وسأل يزيدَ بنَ المهلَّب رجلٌ من أصحابه حاجةً وذَكَرَ له خَلّة، فقال: أوجِّهُ بها إليك، ثمَّ حَمَلَ إليه خمسين ألفَ درهم، ثم كتب إليه: قد وجَّهتُ إليك بخمسينَ ألفَ دِرهم، لم أذكُرْها تمنُّناً، ولم أدَعْ ذكرها تجبُّراً، ولم أقطَعْ بها لك رَجاء، ولم أُرِدْ بها منك جزاء.
وقيل ليزيد: ما أحسَنُ ما مُدِحتَ به؟ قال: قول زياد الأعجم:

فتًى زَادهُ السُّلطان في الحمد رَغبةً　　　إذا غَيَّرَ السلطانُ كـلَّ خـلـيل

شبيهٌ بقول الآخر:

فتًى زادهُ عِزُّ المَهابةِ ذِلّةً　　　وكلّ عزيزٍ عندَه متواضعُ

وقال الآخر، وهو يدخل في باب الشكر:

شوقي إليك يا أبا العبّـاس　　　طيَّرَ ما أبْلَيْتَني نُـعـاسِـي

إنّي لمعروفك غير نـاس　　　والشُّكرُ قِدْماً في خيار النَّاس

أبيات لبعض الشعراء العميان أنشدني ابنُ الأعرابيِّ لرجلٍ من بني قُريع يَرْثي عينَه ويذكر طبيباً:

لقد طُفتُ شرقيّ البلادِ وَغَرْبَها　　　فأعْيا عَليَّ الطبُّ والمتطبِّـبُ

يقولون إسماعيلُ نَقّـابُ أعيُنٍ　　　وما خير عَيْنٍ بعد ثقْبٍ بمثقبِ

يقولون ماءٌ طيِّبٌ خان عينَـه　　　وما ماءُ عينٍ خانَ عيناً بطيِّبِ

ولكـنَّـه أيّامَ أنْـظُرُ طيِّبٌ　　　بعينَيْ قُطاميٍّ علا فوقَ مَرْقبِ

كأنَّ ابنَ حَجلٍ مدَّ فضلُ جناحه　　　على ماء إنسانيهما ماءَ طُحلبِ

وقال الخُرَيميّ:

كفى حزَناً أن لا أزورَ أحبّـتـي　　　من القرْب إلاّ بالتَّكَلُّفِ والجـهـدِ

وأنّي إذا حُيِّيت نـاجيتُ قـائدي　　　ليَعدِلَني قبل الإجـابة فـي الـردِّ

إذا ما أفاضُوا في الحديث تقاصرَتْ　　　بيَ النَّفْسُ حتى ما أحِيرَ وما أبْدِي

كأني غريبٌ بينهم لستُ مـنـهـمُ　　　فإنْ لم يحولوا عن وفاءٍ ولا عَهدِ

أقاسي خطوباً لا يقوم بثِـقْـلـهـا　　　من الناسِ إلا كلُّ ذي مرَّةٍ جَلْدِ

باب في الحاجة قال ابنُ الأعرابيّ: قيل للأحنف: أتيناك في حاجةٍ، لا تَرْزَؤُك ولا تنكؤك، فقال: ليس مِثلي يُؤتى في حاجةٍ لا تَرْزأ ولا تَنكأ.
وقال أعرابيٌّ لرجل: إني لم أصُنْ وجْهي عن الطَّلب إليك، فصُنْ وجهَك عن رَدِّي، وأنزِلْني مِنْ كرمك بحيثُ وَجْهي مِنْ رجائك.
وقال أبو عقيل بن دُرُسْت: لم يقْضِ ذِمامَ التَّأميل، ولم يَقُم بحُرمة الرَّجاء إلاّ مَن أعطاها حقَّها، ووقاها حظَّها، وعرَف قدْرَها، وكيف يستبقي النِّعمة فيها، وكيف الشُّكرُ على أداء حقِّها، بالبِشْر عند المسألة، وقلّةِ التَّضجُّر عند المعاودة، وتوكيد الضَّمان عند العِدَةِ، وانتهازِ الفرصة عند القُدرة، ويكونُ النُّجح المعجل أحبَّ إليه من عُذْر المَصْدَق، وحتّى يرى أنَّ حقّك عليه في بذْل وجهك إليه أكثرُ من حقه عليك في تحقيق أملك فيه، ثم إيجاب سترها، فإنَّ سَتْرَها هو المخبر عنها، والدالُّ عليها، والزَّائد في قدرها، والمتولِّي لنَشرها.
وقال الشاعر:

فإنَّ إحياءَها إماتتُها وإنَّ مَنّاً بهَا يكدِّرُها

باب في الوعد والوفاء به والخلف له قال عمرو بن الحارث: كنتُ متى شئتُ أن أجِدَ صفةَ من يَعِد ويُنجز وجدتُه، فقد أعياني من يعدُ ولا ينجز.
وقال أبو إسحاق النَّظام: كنَّا نلهو بالأماني، ونَطيب أنفساً بالمواعيد، فذَهَبَ مَنْ يَعِدُ، وقطعَتْنا الهمومُ عن فضُول الأماني.
وقال الشاعر:

قد بَلَوناك بحمد اللّه إن أغنى البلاءُ فإذا جُلُّ مواعيدِكَ والجَحدُ سواءُ

وقال أعرابيٌّ: وعْدُ الكريم نقدٌ وتعجيل، ووعد اللئيم مَطلٌ وتعطيل.
وذمّ أعرابيٌّ رجلاً فقال: إذا أوْعَدَ صدق، وإذا وَعَدَ كذب، ويغضَبُ قبل أن يُشتم، ويجزم قبلَ أن يَعْلَم.
وقال عبدُ اللّه بنُ قيس الرقيَّات:

اخْتَرْتُ عبدَ العزيز مرتغِبا واللّهُ لِلمرْءِ خَيرُ مَنْ قسَمَا

مِن البهاليل مِنْ أميَّةَ يَزْ دادُ إذا ما مَدَحْتَه كرَما

جاءت به حُرّةٌ مهذّبة كلبيّة كان بيتُها دِعَما

هُنَّ العَرَانينُ من قضاعة أمْ ثالُ بنيهنَّ تمنع الذِّمما

تُكِنُّهُ خِرْقةُ الدِّرَفس من الشَّم سِ كلَيْثٍ يُفرِّج الأجما

يقُوتُ شِبْلَين في مَغارهما قد ناهَزَا للفِطام أو فُطِما

لم يأتِ يومٌ إلا وعندَهُما … لحمُ رجال أو يَوْلَغان دَما

فذاك أشبَهْتَهُ ابنَ ليْلَى ول … كنَّ ابنَ ليلَى يفوقُه شيما

مَنْ يَهَبُ البُخْتَ والولائد كال … غِزْلانِ والخيلَ تعلك اللجُما

يُنكر لا إنّ لا لمنكَرَةٌ … مِنْ فيه إلاّ مُحَالِفاً نَعَما

وقال زيادَة بن زيد:

إذا فُرْجَةٌ سدّتْ عليكَ فروجَها … فأنتَ مُلاقٍ لا مَحالة مَذْهَبا

فلم يجعلِ اللّهُ الأمورَ إذا اغتدت … عليك رِتاجاً لا يُرامُ مُضبَّبا

كفاك الغِنى يوماً إذا ما تقلّبتْ … به صَيرفيّاتُ الأمور تقلبا

وإني لمزْوَرٌّ قليلٌ تقلُّبي … لوجهِ امرئٍ يوماً إذا ما تجنَّبا

قليلٌ ليوم الشَّرِّ وَيْكَ تعرُّضي … فإنْ حَلَّ يوماً قلتُ للشَّرِّ مَرْحَبا

مَلَكْنا ولم نُملَكْ وقُدْنا ولم نُقَدْ … وكان لنا حقًّا على الناس تُرْتُبَا

وقال هُدْبة العُذْرِيّ:

فأَب بي إلى خيرٍ فقد فاتني الصِّبا … وصِيحَ بريْعان الشَّباب فنُفّرا

أمُورٌ وألوانٌ وحالٌ تقلَّبتْ … بنا وزمانٌ عُرْفُه قد تنكّرا

أُصِبْنا بما لو أنّ سَلْمى أصابَهُ … لَسُهِّلَ من أركانه ما توعَّرا

فإن ننجُ من أهوالِ ما خاف قومُنا … علينا فإنّ اللّهَ ما شاء يَسَّرَا

وإنْ غالَنا دهرٌ فقد غال قبلنا … ملوكَ بني نَصْرٍ وكِسرى وقيْصَرَا

وذي نَيربٍ قد عابَني لينالَني … فأعيا مَداهُ عن مَدَايَ فقصَّرا

فإن يكُ دَهرٌ نالني فأصابَني … برَيْبٍ فإنْ تُشْوي الحوادثُ مَعْشَرا

فلست إذا الضَّرَّاءُ نابَتْ بـجُـبَّـأ ولا جَزِع إنْ كان دَهرٌ تـغـيَّرَا

وكان هُدبةُ هذا من شياطين عُذْرة، وهذا شعرهُ كما ترى، وقد أُمِرَ بضرب عنقه وشَدّ خِناقه، وقليلاً ما ترى مثلَ هذا الشّعر عند مثل هذه الحال؛ وإنَّ امرأ مجتمعَ القلب، صحيحَ الفكر، كثير الرين، عَضْبَ اللّسان في مثل هذه الحال، لَنَاهِيكَ به مطلقاً غير موثق، وادِعاً غير خائف، ونعوذ باللّه من امتحان الأخيار.
وهو القائلُ في تلك الحال:

فلا تعذليني لا أرى الدهر معتبـاً إذا ما مضى يومٌ ولا اللوم مرجعا

ولكن أرى أن الفتى عرضة الردى ولاقي المنايا مصعدا ومفـرعـا

وإن التقى خير المتـاع وإنـمـا نصيب الفتى من ماله ما تمتـعـا

فلا تنكحي إن فرق الدهر بينـنـا أغم القفا والوجه ليس بأنـزعـا

ضروبا للحييه على عظـم زوره إذا القوم هشوا للفعال تقنـعـا

وأخرى إذا ما زار بـيتـك زائرٌ زيالك يوماً كان كالدهر أجمـعـا

سأذكر من نفسي خـلائق جـمة ومجداً قديماً طالما قد تـرفـعـا

فلم أر مـثـلـي كـاوياً لـدوائه ولا قاطعاً عرقاً سنونا وأخـدعـا

وما كنت ممن أرث الشر بينـهـم ولا حين جد الشر ممن تخشـعـا

وكنت أرى ذا الضغن ممن يكيدني إذا ما رآني فاتر الطرف أخشعا

وما قرأتُ في الشِّعر كشعر عبد يغوث بن صَلاءةَ الحارثيّ، وطرفة بن العَبْد، وهدبة هذا، فإنّ شِعرَهم في الخوفِ لا يقصِّر عن شِعرهم في الأمْن، وهذا قليلٌ جدّاً.
من أشعار الأعراب أنشدني ابنُ الأعرابيِّ في معنى قولـه:

كمخْض المـاءِ لـيس لـه إنَـاء

وما كان مثلي يعتريكَ رجاؤُه ولكن أساءَتْ هِمّةٌ مِن فتى مَحْضِ

وإنّي وإشرافي إليك بـهـمَّـتـي لكالمرْتجي زُبداً من الماء بالمخضِ

وقال الآخر في مثل قول عبيد اللّه بن عبد اللّه بن عتبة:

فلولا اتّقاءُ اللّه قلتُ مقالة   تسِير مع الرُّكبان أبْرَدُها يَغْلِي

ابنْ لي فكنْ مِثْلِي أوَ ابْتغ صاحباً   كمثلكَ إني مُبْتغٍ صاحباً مِثْلي

ولا يلبثُ الأصحابُ أن يتفرَّقُوا   إذا لم يؤلّف رُوح شكلٍ إلى شكلِ

فقال:

لكلِّ امرئ شكلٌ يقرُّ بعينه   وقُرَّةُ عينِ الفَسْل أن يتبع الفَسْلا

وتعرف في جُودِ امرئ جُودَ خالِه   ويَنذُلُ أنْ تلقى أخَا أمِّهِ نَذْلا

وفي غير هذا الباب يقول الجَرَنفس اللص:

أبلغ بني ثعَلٍ عنِّي مُغَلغَلة   فقدْ أنَى لكَ مِنْ نِيءٍ بإنْضَاج

أمَّا النهارَ ففي قيْدٍ وسِلسلةٍ   واللّيْلَ فِي جوفِ منحُوتٍ من السَّاج

وقال بعضُ اللصوص:

أقيْدٌ وَحَبْسٌ واغْتِرَابٌ وفرقةٌ   وهَجْرُ حبيبٍ إنَّ ذا لَعظيمُ

وإن امرأً دَامت مَواثِيقُ وَدِّهِ   عَلَى عُشْرِ ما بي إنَّه لَكريمُ

ومن المراثي المستحسَنة قولُ حارثة بن بدر الغُدانيّ، يرثي زياداً ابنَ أبيه:

أبَا المغيرةِ والدُّنيا مغيِّرةٌ   وإنّ مَن غرّت الدُّنيا لَمَغْرُورُ

قد كانَ عِندَك للمعروف مَعرفةٌ   وكان عندك للنَّكراء تنكيرُ

وكنتَ تُؤتَى فتُؤْتي الخيرَ من سعةٍ   إن كان قبرُك أمْسَى وهو مهجورُ

صلَّى الإلهُ على قبرٍ بمَحْنِيةٍ   دُونَ الثويّة يسفي فوقهُ المُورُ

وأنشد ابنُ الأعرابيّ:

وما حسَبُ الأقوامِ إلا فِعالـهم		ورُبَّ حسيب الأصلِ غيرُ حَسيبِ

وقال الآخر في مثله:

ليس الكريمُ بمَنْ يدنِّسُ عِرضَه		وَيَرَى مُرُوءتَه تكون بمنْ مضَى

حَتَّى يَشِيدَ بنـاءَهم ببنـائِه		وَيَزِينَ صالحَ ما أتَوْه بما أتَـى

وقال عبد اللّه بن معُاوية بن عبد اللّه بن جعفر:

لَسْنا وإنْ كرُمَتْ أوائِلُنا		يوماً على الأحسابِ نَتَّكِلُ

نَبْني كما كانت أوائلُنـا		تَبْني ونَفْعَلُ مِثل ما فعَلوا

وقال عُمر بنُ الخطّاب: كفى بالمرء عيباً أن تكون فيه خَلةٌ من ثلاث: أن يبدو له مِن أخيه ما يخفى عليه من نفسه، أو يَعيبَ شيئاً ثم يأتيَ مثله، أو يؤذِيَ جليسَه فيما لا يعنيه.
ووصف أعرابيٌّ رجُلاً فقال: آخَذُ النَّاس بما به أمَرَ، وأتْرَكُهم لما عنه زَجَر.
من هجا امرأته قدِم أعرابيٌّ فحلَفَ بطلاق امرأتَيه على شيء فحنث ثم هربَ فقال:

لو يعلم الغرَماء منزلَتَيْهما		ما خوَّفوني بالطّلاق العاجلِ

قد مَلَّتا وَمَلِلْتُ من وجْهَيهما		عجفاءُ مرضِعةٌ وأخرَى حاملُ

وقال الأقرع بن مُعاذ القُشَيريّ:

لَعمرُك إنّ المسّ من أمِّ خالدٍ		إليَّ وإنْ ضاجَعْتُها لَبغيضُ

إذا بُزَّ عنها ثوبُها فكـأنما		على الثّوب نملٌ عاذمٌ وبَعوضُ

وقال أعرابيٌّ يتألّهُ، لامرأته، وما الأعرابُ وهذا المذهبُ، ولكن كذا وقعَ، واللّه أعلمُ بكثيرٍ من الرِّواية:

لولا مخافةُ ربِّي أنْ يُعاقِبَني		وأنَّها عِدَّةٌ تُقضَى وأوتارُ

لقد جعلْتُ مكانَ الطّوق ذا شُطبٍ		وثُبْتُ بعدُ فإنّ اللّه غفّارُ

وقال بعض المولّدين:

تجهَّزي للطَّلاق وانصرفي   ذاكِ جَزَاءُ الجوامِحِ الشُّمُسِ

للَيْلَتي حين بتُّ طالقةً   ألذُّ عِنْدِي مِنْ لَيلة العُرُسِ

وأنشدني ابنُ الأعرابيِّ لأعرابي:

قد قرنوني بعجوز جحمرش   ناتية الناب كزوم قنفرش

كأنما دلاها على الفرش   من آخر الليل كلاب تهترش

وجلدها من حكها القمل برش   كأن طي بطنها كرش

فقماء في حضن الضجيع تهتمش   تخشخش الضب دنا للمحترش

وقال رجلٌ من بني نُميرٍ لامرأته، وكانت حضَرية:

لَعمري لأعرابيّة بدوية   تظلُّ بِرَوْقيْ بَيتها الرِّيحُ تخفقُ

أحبُّ إلينا من ضِنَاكٍ ضِفِنَّةٍ   إذا رُفعَت عنها المراويحُ تعرقُ

كبطّيخةِ البُسْتان ظاهرُ جِلدها   صحيحٌ ويبدُو داؤها حين تُفْتَقُ

وأنشدني محمد بن يَسِير في امرأته أو في غيرها:

أنْبِئْتُ أنَّ فتاةً كنتُ أخطبُها   عُرقوبُها مِثْلُ شَهرِ الصَّوم في الطول

أسنانُها مائةٌ أو زدْن واحدةً   كأنّها حين يبدو وَجْهُها غُولُ

وإنما أكتب لك من كلّ بابٍ طرَفاً، لأنّ إخراجَك مِن بابٍ إلى باب أبقى لنشاطك، ولو كتبتُه بكمالِه لكان أكملَ وأنبل، ولكن أخافُ التَّطْويل، وأنتَ جديرٌ أن تعرف بالجملةِ التّفصيلَ، والآخر بالأوّل.
مَن هجتْه زوجته قالت عصيمة الحنظليّة:

كأنّ الدّارَ حين تكونُ فيها   علينا حُفْرَةٌ مُلِئَتْ دُخانا

فليتَك في سَفين بني عِبادٍ   فتصبحَ لا نَرَاك ولا تَرانا

فلو أنّ البُدور قبلْنَ يوماً   لقد أعطيتُها مائة هِجانا

وقالت امرأةٌ من بني ضبة لزوجها:

تراهُ أهْوَجَ ملعوناً خـلـيقـتُـه   يمشي على مِثْل معوَجٍّ العراجينِ

وما دعوتُ عليه قطُّ ألـعنُـه   إلاّ وآخَـرُ يَتْـلُـوهُ بـآمِـين

فليتَه كان أرضُ الرُّوم مَنْـزلَـه   وأنَّني قبلَه صُيِّرتُ بـالـصِّين

وقالت جمرة الأزدية لزوجها أبي وائل:

لعمرك ما إنْ أبـو وائل   إذا ذُكِرَ القومُ بالطـائل

فيا ليتني لم أكنْ عِرْسَـه   وعُوجِلْتُ بالحدَث العاجلِ

وقالت امرأةٌ من بني زياد الحارثي:

فلا تأمُرُوني بالتـزوُّج إنّـنـي   أريد كرامَ النَّاس أو أتـبـتَّـلُ

أريد فتًى لا يملأُ الهَوْلُ صـدرَه   يُريحُ عليه حلمُه حين يجـهـلُ

كمثل الفتَى الجعْدِ الطَّويل إذا غدا   كعالية الرُّمح الطويل أوَ اطولُ

وقالت امرأةٌ من باهلة:

أحبُّ الفتى ينفي الفواحشَ سمعُه   كأنَّ به كـلَّ فـاحـشةٍ وَقـرَا

سليمُ دَوَاعِي الصَّدْرِ لا باسطٌ أذًى   ولا مانع خيراً ولا قائلٌ هُجْرا

كَمثل الفتى الذُّهْليِّ تحسِبُ وجهَه   إذا ما بدا في ظلمةٍ طالعاً بَدْرا

وقال لبيد بن ربيعة:

إنما يحفظُ الـتـقـى الأبـرارُ   وإلى اللّه يستـقـرُّ الـقـرَارُ

وإلى اللّه تُرْجَـعُـونَ وعِـنْـدَ   اللّه ورْدُ الأمـورِ والإصـدارُ

إنْ يَكنْ في الحياة خيرٌ فقد أن   ظِرتُ لو كان ينفع الإنـظـارُ

عشْتُ دهراً فلن يدوم على الأيَّام إلاَّ يَرَمْرَمٌ وَتِــعَــارُ

وأنشدني الأصمعيُّ قال: أنشدني رجلٌ، ولم يُسمِّهِ:

إذا ما بَدا عمرٌو بدَتْ منه صورةٌ تدلُّ على مكنونِهِ يُقْبِلُ

بياضُ خُراسانِ ولُكْنَةُ فارسٍ وَجُثَّةُ رُوميٍّ وشَعرٌ مُفَلْفَلُ

لقد أَلَّفَتْ أعضاءُ عمرِو عصابةٌ يدُلُّ عليها آخِرِ القَوْمِ أوَّلُ

وقالت أخت ذي الرُّمّة ترثيه:

تعزَّيت عن أوفى بغَيلانَ بعدَه عَزاءً وجفنُ العَين مَلآن مترَعُ

ولَمْ تنْسِنِي أوفى المصيبات بَعْدُهُ ولكنَّ نَكْءَ القَرْحِ بالقرْحِ أوجَعُ

وذو الرُّمَّة القائل: إذا قلت كأنَّ فلم أجِدْ مخْرجاً فقطعَ اللّهُ لِسَاني.
وأنشد:

لا أتَّقي حَسَكَ الضَّغائن بالرُّقى فِعْلَ الذَّليلِ ولو بَقِيتُ وحِيدا

لكن أعِدُّ لها ضغائنَ مِثلها حتَّى أُدواي بالحُقود حُقودا

كالخمرِ خَيْرُ دوائها منها بها تَشْفي السَّقيمَ وتُبْرِئُ المنجودا

فأخذ الحِكَميُّ هذا فقال:

وكأس شربْتُ على لذَّةٍ وأخرى تداوَيْتُ منها بها

وقال ابنُ هَرْمة:

إنَّ أياديك عندي غيرُ واحدةٍ جَلَّت عن الوَصْف والإحصاء والعددِ

وليس منها يدٌ إلاَّ وأنْتَ بها مُستوجِبُ الشُّكرِ منِّي آخِرَ الأبدِ

وقال الآخر:

سأشكُرُ ما أبْقانيَ اللّـهُ خـالِـداً كشكْري ولا يَدْري عليَّ بن ثابتِ

حمَلْتُ عليه مُثقِلاً فـأطـاقـهُ وحَمَّلَني مِن شكره فوقَ طاقتي

ورأى رجلٌ من النبيط الحجَّاج بعد موته في منامه فقال: يا حجَّاج، إلامَ صيَّرك ربُّك؟ فقال: وماذا عليك يا ابن الزَّانية، فقال: ما سلِمْنا مِن قولك ميْتاً، ولا مِن فِعْلك حَيّاً.
وقال الأشهب رجلٌ من أهل الكوفة يهجو نُوح بن دَرَّاج:

إنّ القيامة فيما أحسَبُ اقتربـتْ إذ صار حاكمنَا نوحُ بنُ درَّاجِ

لو كان حَيًّا لَهُ الحجَّاجُ ما سَلِمَتْ صَحيحةً يدهُ من نَقْش حَجَّاج

وكان الحجَّاج يَشِمُ أيديَ النَّبَط علامةً يُعْرَفون بها.
وقال رجلٌ من طيّئ لرجلٍ من فَزارة، وكان الرجل يتوعّده:

فإن كان هذا يا فزار تجلبـاً لنخشى فما نرتاع للجلبـاب

أألآن لما أن علا الشيب مفرقي وصارت نيوب العود مختلفات

فو أن سافي الريح يحملكم قذى لأعيننا ما كـنـتـم بـقـذاة

ألست فزارياً تـبـين لـؤمـه إذ قام بين الأنف والسبـلات

ترى الخيل تستحي إذا ما ركبتم عليها حياء البدن الخـفـرات

وقال أبو عبيدة:ما ينبغي أن يكون في الدُّنيا مثل النظَّام: سألتُه وهو صبيّ عن عَيب الزُّجاج، فقال: سريع الكَسْر، بطيء الجبر.
ومَدَحوا النَّخلة عِندَه، فقال:صعبةُ المرتقى، بعيدةُ المَهْوَى، خشِنة المسّ، قليلة الظلّ.
وذكر النظّام الخليلَ بن أحمدَ فقالَ: توحَّدَ به العُجْبُ فأهلكه، وصَوَّر له الاستبدادُ صوابَ رأيه فتعاطى ما لا يحسنُه، ورامَ ما لا يناله، وفتنَتْه دوائرُه التي لا يحتاجة إليها غيره.
وكان أبو إسحاق إذا ذكر الوهمَ لم يشكَّ في جُنونه، وفي اختلاط عقله، وهكذا كان الخليلُ، وإن كان قد أحسَنَ في شيء.
وكان النظّام كثيراً ما ينشد:

فلو كنت أرضَى لا أبالكَ بـالـذي به الخامل الجثَّامُ في الخفْض قانعُ

قَصِرْتُ علَى أدْنى الهموم وأصبحَتْ عَلَيّ وعندي للرِّجال صنـائعُ

وقال المَريسيُّ لأبي الهُذيل بحضرة المأمون، بعد كلامٍ جرى: كيف ترى هذه السِّهام؟ قال: ليِّنة كالزُّبد، حُلوة كالشَّهد، فكيفَ ترى سهامَنا؟ قال: ما أحسستُ بها، قال: لأنَّها صادفتْ جَماداً.
وأنشِدَ أبو الهذيل:

فإذا توهَّمَ أنْ يَراها ناظرٌ	ترَكَ التَّوهّمُ وجْهَها مَكلُوما

فقال: هذهِ ثُناكُ بأيرِ من خاطر وأنشدني أبو الهذيل بعد أن أنشد هذا البيت:

اسجُدْ لقِرد السَّوء في زمانِهِ	ولا تُسَائِلْ عن خَبيءِ شأنِهِ

وقال آخر:

كم من كريم ضعْضَعَ الدَّهرُ حالَـهُ	وكم مِنْ لئيمٍ أصبَحَ اليومَ صـاعِدا
وقد قال في الأمثال في النَّاس واعظٌ	بتجربةٍ أهْدَى النَّصيحة جـاهِدا
إذا دولةٌ للقِرد جاءت فكُنْ لـهُ	وذلك من حُسن المداراة سـاجـدا
بذاك تـداريه ويُوشِـكُ بـعَدَهـا	تَراه إلى ثُبَّـانِـهِ الـرَّثِّ عـائدا

وأنشدني الأصمَعيُّ في معنى قول الفرزدق:

بهِ لا بظبي بالصَّريمةِ أعفرا	

لرجل من بني القَين:

أقول لصالح لمـا دهتـه	بنات الدهر ويحك ما دهاكا
شجاك العزل لا بأخي نوالٍ	من الفتيان كربة ماشجاكـا
أتيتك زائراً فرجعت صفراً	كذاك تكون أوبة من أتاكـا
أحب لك السلامة يا ابن أمي	وإن كنت امرأ بخلت يداكا
حفاظاً للعشيرة لا بعرفٍ	فإن العرف من به سواكـا

وقال الفرزدق:

ألا خبِّرُوني أيُّها الـنـاس إنَّـنـي سألتُ ومن يَسْألْ عن العِلم يَعْلَـمِ

سؤالَ امرئٍ لم يُغْفِل العلمَ صدرُه وما العالم الواعي الأحاديثِ كالعَمي

وقال أيضاً:

ألم تعلموا يا آل طوْعة أنـمـا تَهيجُ جَليلاتِ الأمور دقيقُها

سَأُثني على سعدٍ بما قد عَلِمْتـِهِ وخير أحاديث الرِّجال صدوقُها

قال أبو عثمان: ومما أكتب لك من الأخبار العجيبة التي لا يجسُر عليها إلا كلُّ وَقاحٍ أخبارُ بعضِ العلماء وبعض من يؤلّف الكُتب ويقرؤها ويدارس أهل العبر ويتحفَّظها.
زعموا أنَّ الضبع تكون عاماً ذكراً وعاماً أنثى، وسمعت هذا من جماعةٍ منهم ممَّنْ لا أستجيز تسميته.
قال الفضل بن إسحاق: أنا رأيتُ العَقْص والبَلُّوط في غصن واحد.
قال: ومن العقْص ما يكونُ مثلَ الأكَر، وقد خبَّرني بذلك غيرُه، وهو يشبه تحوُّل الأنثى ذكراً والذَّكر أنثى.
وقد ذكرت العربُ في أشعارها الضِّباعَ والذِّئابَ والسِّمعَ والعِسبار، وجميعَ الوحوش والحشرات، وهم أخْبَرُ الخلق بشأن الضَّبع، فكيف تركَتْ ما هو أعجبُ وأطرَفُ.
وقد ذكرت العلماء الضِّباعَ في مواضعَ من الفُتْيا لم نرَ أحداً ذكَرَ ذلك، وأولئك بأعيانهم هم الذين زعموا أن النمر الأنثى تضع في مشيمةٍ واحدةٍ جرواً وفي عنقه أفعى قد تطوَّقتْ به، وإذا لم يأتِنا في تحقيق هذه الأخبار شعرٌ شائع، أو خبرٌ مستفيض، لم نلتفتْ لِفْتَه، وقد أقرَرْنا أن للسَّقَنْقُور أيرَين، وكذلك الحِرْذَون والضبّ، حين وجَدْناه ظاهراً على ألسنة الشُّعراء وحكاية الأطِبَّاء.
خرطوم الفيل والخرطوم للفيل هو أنفه، ويقومُ مقام يده ومقام عنقه، والخَرْق الذي هُوَ فيه لا ينفذ، وإنما هو وعاءٌ إذا ملأه الفيل من طعام أو ماء أولجه في فيه، لأنّه قصير العُنَق لا ينال ماء ولا مرعى، وإنما صار ولدُ البُخْتِيِّ من البُخْتِيّة جَزُور لحمٍ لقصَر عنُقه، ولعجْزه عن تناوُل الماء والمرعَى.
خرطوم البعوضة وللبعوضة خرطومٌ، وهي تُشَبَّه بالفيل إلاَّ أنَّ خرطومها أجوفُ فإذا طَعَنَ به في جوف الإنسان والبهيمة فاستقى به الدَّمَ من جوفه قذفت به إلى جوفها، فهو لها كالبلعوم والحلقوم.
وللذبابة خرطومٌ تخرجُه إذا أرادَتِ الدَّم، وتُدْخِلُه إذا رَوِيَتْ، فأمَّا مَنْ سَمَّى خطمَ الخنزيرِ والكلبِ والذِّئبِ خرطوماً فإنما ذلك على التشبيه، وكذلك يقولون لكلِّ طويل الخطم قصير اللَّحييْن.
وقد يقال للخَطْم خرطوم على قوله: "سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ".
وأنشدنا ابنُ الأعرابي لفتًى من بني عامر:

ولا أقومُ على شيخي فأشتُمُه ولا أمرُّ على تلك الخراطيمِ

جعل سادةَ عشيرته في النَّادي والمجالس كالخراطيم والمقاديم والهوادي، وعلى ذلك قالوا: بنو فلانٍ أنفُ بني فلانٍ ورؤوسُهم وخَراطيمُهم، ومعنى العامريِّ الذي ذهب إليه في شعره كأنَّه عظّم المشيخَةَ أن يمرّ بهم، وقد قال الشاعر:

هم الأنفُ المقدَّم والسَّنَامُ

والفِيلُ والبَبْرُ، والطَّاوس والبَبْغا، والدّجاج السِّنديُّ، والكركَدَّن، مما خص اللّه به الهندَ، وقد عدَّد ذلك مطيعُ بن إياس، حين خاطب جاريةً له كانت تسمى رُوقة، فقال:

روق أي روق كيف فيك أقول ... سادسنا دوني وأرمائيل

وبعيدٌ من بينه حيثما كا ... ن وبين الحبيب قنـدابيل

روق يا روق لو ترين محلى ... ببلادٍ معروفها مجهول

ببلاد بها تبيض الطواوي ... س وفيها يزاوج الزندبيل

وبها الببغاء والصفر والعو ... د له في ذرى الأراك مقيل

والخموع العرجاء والأيل الأق ... رن والليث في الغياض النسول

وقال أبو الأصلع الهنديُّ، يفخر بالهند وما أخرجت بلاد الهند:

لقد يعذلني صحبي ... وما ذلك بالأمثل

وفي مدحتي الهند ... وسهم الهند في المقتل

وفيه الساج والعاج ... وفيه الفيل والدغفل

وإن التوتيا فيه ... كمثل الجبل الأطول

وفيه الدار صيني ... وفيه ينبت الفلفل

والمتشابه عندهم من الحيوان الفيل، والخنزير، والبعوضة، والجاموس، وقال رؤبة:

ليث يَدُقّ الأسَدَ الهَمُوسَا ... والأقْهَبيْنِ الفيلَ والجاموسا

هجاء أبي الطروق لامرأته ولما هجا أبو الطّروق الضبِّيُّ امرأتَه، وكان اسمها شَغْفَر بالقُبح والشناعة فقال:

جاموسة وفيلةٌ وخَنـزرُ   وكلُّهنَّ في الجمال شَغْفرُ

جعل الخنزير خَنزراً، فجمعها كما ترى للتّشابه، وقال الآخر:

كأنّ الذي يَبْدُو لنا من لِثامِها   جَحافلُ عَيرٍ أو مشافر فِيلِ

شعر في الفيل

والفيل يوصف بالفقم، ولذلك قال الأعرابيّ:

قد قادني أصحبي الـمـعـمـم   ولم أكن أخدع فـيمـا أعـلـم

إذا صفق الباب العريض الأعظم   وأدنى الفيل لنا وتـرجـمـوا

وقيل إن الفـيل فـيلٌ مـرجـم   خبعثنٌ قد تم منه الـمـحـزم

أجرد أعلى الجسم منه أصحم   يجر أرحـاءً ثقـالاً تـحـطـم

ما تحتها من قرضها وتهشـم   وحـنـكٌ حـين يمـد أفـقـم

ومشفرٌ حـين يمـد سرطـم   يرده في الجوف حين يطـعـم

لو كان عندي سبـبٌ أو سـلـم   نجيت نفسي جاهداً لا أظـلـم

وقال آخر:

مَنْ يركبِ الفيلَ فهذا الفيلُ   إنّ الذي يركَبُهُ محمـولُ

على تهاويلَ لـهـا تـهـويلُ   كالطَّودِ إلاَّ أنّـهُ يجـولُ

وأذنٌ كأنـهـا مِـنـديلُ

وقال عمارة بن عقيل يضرب المثل بقوَّة الفيل:

إذا أتانا أميرٌ لـم يقـلْ لـهـمُ   هَيْداً وجالتْ بنا منه الأحابـيلُ

وعَضَّ مجهودنا الأقصَى وحَمَّله		مِنَ المظالم ما لا يحمِلُ الفِيلُ

وقال أبو دَهْبَلٍ يمدح أبا الفيل الأشعريّ:

إنّ أبا الفيل لا تحصى فضـائلـه		قد عَمَّ بالعُرْفِ كلَّ العُجْمِ والعَربِ

ونظر ابن شهلة المدينيّ إلى خُرطوم الفيل وإلى غُرموله فقال:

ولم أرَ خُرطومَين في جسمِ واحدٍ		قد اعتدَلاَ في مَشْرَبٍ ومَبـالِ

فقد غلِط لأنّ الفيلَ لا يشرَبُ بخرطومه ولكن به يُوصِلُ الماءَ إلى فمه، فشبَّه غُرموله بالخرطوم، وغُرموله يشبَّه بالجعْبة والقنْديل والبَرْبخ.
وقال المخبَّل في تعظيم شأن الفيل:

أتهزأ منِّي أمُّ عمـرة أنْ رأت		نهاراً وليلاً بَلَّياني فـأسْرَعَـا

فإن أكُ لاقيتُ الدَّهاريسَ منهمـا		فقد أفْنيا النُّعْمان قبلي وتُبَّعـا

ولا يلبثُ الدَّهرُ المفرِّق بَيْنَـهُ		على الفيل حتى يستدير فيُصْرَعا

وقال مروان بن محمد وهو أبو الشَّمَقْمَق وحدّثني صديقٌ لي قال سألتُ أبا الشَّمقمق عن اسمه ونسبه، فقال: أنا مَرْوَان بن محمد، مولى مروانَ بن محمد:

يا قوم إنّي رأيتُ الفِيلَ بعدَكُم		فبارَكَ اللّه لي في رُؤْيةِ الفيل

رأيت بيتاً له شـيءٌ يحرّكـه		فكدتُ أصنعُ شيئاً في السراويلِ

وقالت دودة لأمِّها:

يا أمِّ إنّي رأيتُ الفِيلَ مِن كَثَبٍ		لا بارَك اللّهُ لي في رؤية الفيلِ

لمّا بصُرْت بأير الفِيل أذْهَلَنـي		عن الحمير وعن تلك الأباطيلِ

خطبة بدوي فيها ذكر الفيل

وقال الأصمعي: جَنَى قومٌ من أهل اليمامة جناية فأرسل إليهم السُّلطانُ جنداً من بُخاريّةِ ابن زياد، فقام رجلٌ من أهل البادية يُذمِّرُ أصحابَه فقال: يا معشَرَ العرب، ويا بني المحصنات، قاتِلُوا عَن أحسابكم ونِسائكم، واللّه لَئنْ ظَهَرَ هؤلاء القومُ عليكم لا يَدَعُون بها لِينَةً حَمْراءَ، ولا نخلةً خضراءَ،

إلاّ وضعُوها بالأرض، ولا أغرُّكم مِن نُشّابٍ معهم، في جِعاب كأنَّها أيور الفِيَلة، يَنزِعُونَ في قسِيٍّ كأنَّها العَتَلُ تئط إحداهُنّ أطِيط الزُّرنُوق، يَمْغَطُ أحدُهم فيها حتى يتفرّق شعرُ إبطيْه، ثم يُرْسِل نُشَّابةً كأنها رِشاءٌ منقطع، فما بينَ أحَدِكم وبين أن تفضخ عينه، أو يُصدَع قلبُه منزلة.
قال: فخلَعَ قلوبَهم فطارُوا رُعْباً.

الزندبيل

قالوا: الفِيَلة ضربان: فيلٌ وزندبيل، وقد اختلفوا في أشعارهم وأخبارهم، فبعضهم يقول كالبُخْت والعِراب، والجواميسِ والبقر، والبَراذين والخيل، والفأر والجِرذان، والذّرّ والنمل، وبعضهم يقول: إنما ذهبوا إلى الذَّكَر والأنثى.
قال خالدُ القنَّاص، وفي قصيدته تلك المزَاوَجةِ والمخمَّسة، التي ذكر فيها الصَّيد فأطنَبَ فيها، فقال حينَ صار إلى ذِكْر الفيل:

ذاك الذي مِشفَرُهُ طويلُ وهو من الأفيال زَنْدَبيلُ

فذهب إلى العِظَم، وقال الذَّكْواني:

وفيلة كالطّوْدِ زندبيل

وقال الآخر:

مِن بين فِيلاتٍ وزَنْدَبيلِ

فجعل الزَّنْدَبيل هو الذكر، وقال أبو اليقظان سحيمُ بنُ حفص: إنَّ الزَّنْدَبيلَ هو الأنثى، فلم يقِفُوا مِن ذا على شيءٍ.
الجِنّ والحِن وبعض النّاس يقْسِمِ الجنَّ على قِسْمين فيقول: هم جِنّ وحِنّ، ويجعل التي بالحاء أضعفَها، وأما الرّاجزُ فقال:

أبيتُ أهْوِي في شَياطينَ تُرِنّ مختلفٍ نَجْرَاهُمُ جِنٌّ وحِنّ

ففرق هذا بين الجنسين.
الناس والنسناس وسمع بعضُ الجهَّال قولَ الحسن: ذهبَ النَّاسُ وَبَقِيتُ في النِّسناس فجعَلَ النَّسناس جنساً على حِدَة، وسمع آخرون هم أجهلُ من هؤلاء قولَ فجعَلَ النَّسناس جنساً على حِدَة، وسمع آخرون هم أجهلُ من هؤلاء قولَ الكميت:

نَسناسهم والنَّسانسا

فزعموا أنّهمْ ثلاثةُ أجناسٍ: ناس، ونَسْناس، ونَسانِسُ، هذا سوى القول في الشِّق، وواق واق، وذوال باي، وفي العُدَار، وفي أولاد السَّعالِي من الناس، وفي غير ذلك مما ذكرناه في موضعه من

ذكر الجنّ والإنس.
وقد علم أهلُ العقلِ أنّ النّسناس إنما وقعَ على السِّفْلة والأوغاد والغَوْغاء، كما سمَّوا الغوغاء الجراد إذا ألقى البيض وسخُف وخفّ وَطار.

هياج الفيل

قال: وإذا اغْتَلمَ الفيلُ قتَلَ الفِيَلَة والفيَّالين وكلَّ مَن لَقِيَه من سائر النَّاس، ولم يقمْ له شيءٌ، حتى لا يكونُ لسُوَّاسِه هَمٌّ إلاّ الهرَبُ، وإلاّ الاحتيالُ لأنفسهم.
وتزعُم الفرُس أنّ فيلاً من فِيَلة كِسرى اغتلمَ، فأقبَلَ نحو النَّاس فلم يقمْ له شيءٌ، حتى دنا من مَجلس كِسرى فأقشَعَ عنه جُندُه، وأسلمتهُ صنائعهُ، وقصد إلى كسرى ولم يبقَ معه إلاّ رجلٌ واحدٌ من فرسانِه كان أخصَّهم به حالاً، وأرفعَهم مكاناً، فلمّا رأى قُرْبَه من الملك شَدَّ عليه بطَبْرَزِينٍ كان في يده فضرَبَ به جبهتَه ضربةً غابَ لها جميعُ الحديدة في جبهته، فصدفَ عنها وارتدع، وأبَى كِسرَى أن يزُولَ من مكانه، فلمَّا أيقنَ بالسَّلامة قال لذلك الرجل: ما أنا بما وَهَبَ اللّه لي من الحياةِ على يدك بأشدَّ سروراً منِّي بالذي رأيت من هذا الجِلَد والوفاء والصَّبْر في رجل من صنائعي، وحين لم تخطئْ فِرَاسَتي، ولم يَفِلْ رأيي فهل رأيت أحداً قطُّ أشدَّ منك؟ قال: نعم، قال: فحدِّثني عنه، قال: على أن تؤمِّنني، فأمّنه فحدَّث عنبْهرام جُوبين بحديثٍ شقَّ على الملك وكرِهَه، إذ كان عدُوَّه على تلك الصّفة.
قال: إذا اغتَلمَ الفِيلُ وصَالَ وغَضبَ وخَمط خلاَّهُ الفيَّالون والرِّوَّاضُ، فربَّما عاد وحشيًّا.

أهليُّ الفيلة ووحشيُّها

والفيلة من الأجناس التي يكون فيها الأهليُّ والوحشيُّ، كالسّنانير والظِّباء والحمير وما أشْبَهَ ذلك، وأنشد الكِرمانيّ لشاعر المُولْتانِ قولَه:

فكنتُ في طلبي مِنْ عندِه فرَجاً ... كراكب الفيل وَحْشِيّاً ومُغْتَلَمَا

وهذه القصيدة هي التي يقول فيها:

قد كنت صَعَّدْتُ عن بُغْبُورُ مغترباً ... حتى لقيت بها حِلْفَ النَّدَى حَكَما

قَرْمٌ كأنَّ ضياءَ الشَّمْس سُنَّتُه ... لو نَاطقَ الشَّمْس ألقَتْ نحوَه الكَلِما

خصال كسرى وتقول الفُرْس: أُعْطِيَ كسرى أبْرَويزَ ثمان عشْرَةَ خَصْلَةً لم يُعطها ملكٌ قطّ ولا يعطاها أحدٌ أبداً، من ذلك أنّه اجتمَعَ له تِسْعُمائة وخمسون فيلاً، وهذا شيءٌ لم يجتمعْ عندَ ملِك قط، ومن ذلك أنّه أنْزَى الذُّكورة على الإناث، وأنَّ فيلةً منها وضعَتْ عنده، وهي لا تتلاقح بالعراق، فكانت أوَّل فِيلةٍ بالعراق وآخر فيلةٍ تضع.
قالو: ولقي رُسْتَمُ الآزَريّ المسلمين يوم القادسيّة ومعه من الفيلة عشرون ومائة فيل، وكنّ من بقايا فِيَلة كِسرى أبرويز.
قالوا: ومن خصاله أنّ النَّاس لم يرَوْا قط أمَدَّ قامةً، ولا أتمّ ألواحاً، ولا أبرَعَ جمالاً منه، فلما مات

فرسُهُ الشَّبْدِيز كان لا يحمله إلاَّ فيلٌ من فِيَلته، وكان يجمع وطاءةَ ظهْر الفِيل وثباتَ قوائمه، ولِينَ مشيته، وبُعْدَ خَطوه، وكان ألطفَها بدَناً، وأعدلها جسماً.

أكثر خلفاء المسلمين فيلة

قالوا: ولم يجتمع لأحد من ملوك المسلمين مِن الفيَلة ما اجتمع عندَ أمير المؤمنين المنصور، اجتمع عنده أربعون فيلاً، فيها عشرون فحلاً.

شرف الفيل

قالوا: والفِيل أشرَفُ مراكب الملوك، وأكثرُها تصرُّفاً، ولذلك سأل وَهْرَز الأسْوارُ عن صاحب الحبشة، حين صافَّهم في الحرب، فقيل له: ها هو ذاكَ على الفيل، فقال: لا أرميه وهو على مركب الملوك، ثم سأل عنه فقيل له: قد نزل عنه وركِبَ الفرَس، قال: لا أرميه وهو على مركب الحُمَاةِ، قيل: قد نزلَ عنه وركب الحمار، قال: قد نزل عن مَرْكبه لحمارٍ فدعَا بعِصابةٍ رَفَع بها حاجِبَيْه وكان قد أسنَّ حتى سقط جاجباه على عينيه ثم رماه فقتَله.

ذكاء الفيل

وكان سهلُ بنُ هارونَ يتعجَّبُ مِنْ نَظَر الفيلِ إلى الإنسان، وإلى كلّ شيء يمرّ به، وهو الذي يقول:

ولمَّا رأيتُ الفيلَ ينظُرُ قاصداً	ظننْتُ بأنّ الفيلَ يلزمُه الفرضُ

قال أبو عثمان: وقد رأيتُ أنا في عَين الفِيل من صحّة الفَهْم والتأمُّل إذا نظر بها، وما شبهت نظرَه إلى الإنسان إلاّ بنظر ملكٍ عظيم الكِبْر راجح الحِلم، وإذا أرَدتَ أن ترَى من الفيل ما يُضحِك، وترَاهُ في أسخَف حالاته وأجهلِهِ فألق إليه جوزةً، فإنّه يريد أن يأخذ بطرَف خُرطومِه، فإذا دنا منها تنفَّسَ، فإذا تنفَّس طارت الجَوزة من بين يديه، ثم يدنو ثانيةً ليأخذَها فيتنفسُ أخرى، فتبعد عنه، فلا يزال ذلك دأبَه.

فضله في الحرب

قالوا: ويفضُل الفيلُ الفرسَ في الحرب أنّ الفيل يحمِي الجماعة كلهم، ويقاتل ويَرمي ويزجّ بالمزاريق، وله من الهول ما ليس للفرس، وهو أحسن مطاوعةً، ولا يُعْرَفُ بجماح ولا طِماحٍ ولا حِران.
والخيولُ العِتاقُ ربَّما قتلَت الفُرسانَ بالحِران مَرَّةً وبالإقدام مَرَّة، وبسُوء الطّاعة وشدّة الجزع، وربّما شبَّ الفرسُ بفارسه حتى يلقِيَه بين الحوافر والسُّيوف، للسَّهم يصيبه والحجر يقع به، وما يشبه ظهرُ الفرسِ مِن ظهره، وظهرُ الفيل منظرةٌ من المناظر ومَسْلَحَةٌ من المسالح.

عمر الفيل

وفي الفِيَلة عجبٌ آخرُ، وذلك أنَّ قصَرَ الأعمار مقرونٌ بالإبل والبراذين وبكلِّ خَلقٍ عظيم، وكلُّ شيء يعايشُ النَّاسَ في دُورهم وقُراهم ومَنازلهم فالناس أطولُ أعماراً منها، كالجمل، والفَرَس والبرذَوْن،

والبغل والحِمار، والثوْر والشّاة، والكلْب والدَّجاج، وكلِّ صغيرٍ وكبيرٍ، إلا الفيل فإنّه أطولُ عمراً.
والفيلُ أعظم من جميع الحيوان جسماً وأكثرُ أكلاً، وهو يعيشُ مائة السنة ومائتي السَّنة.
وزعم صاحبُ المنطقِ في كتاب الحيوان أنّه قد ظَهرَ فيلٌ عاش أربعمائةِ سنة، فالفيل في هذا الوجه يشارك الضِّباب والحيَّات والنُّسُور، وإذا كان كذلك فهو فوقَ الورَشان وعَيْر العانة وهو من المعمَّرين وفوق المعمَّرين وهو مع ذلك أعظم الحيوان بدناً، وأطولُها عمراً.

الأسد والفيل

وقال بعض من يستفهم ويحب التَّعلمَ: ما بال الأسد إذا رأى الفيلَ عَلِم أنَّه طعام له، وإذا رأى النَّمر والبَبْر لم يكونا عنده كذلك؟ وكيف وهو أعظمُ وأضخَم وأشْنَع وأهول؟ فإن كانَ الأسدُ إنما اجترأ عليه لأنّه من لحمٍ ودمٍ، واللّحْمُ طعامُه والدَّم شرابُه، فالببر والنَّمر من لحمٍ ودم، وهما أقلُّ من هؤلاء وأقمأ جسماً.
قال القوم: ومَتَى قدّرَ الأسدُ في الفيل أنه إذا قاتله غلبه، وإذا غلبه قتَله، وإذا قتله أكلَه؟ وقد نَجِدُ البَبْرَ فوقَ الأسد وهو لا يعْرِض له، والأسد فوق الكلب وهو يشتهي لحمه، ويشتهي لحم الفهد بأكثر ممّا يشتهي لحمَ الضّبع والذئب، وليست علَّته المواثبة التي ذهبتم إليها.
معرفة الحيوان فأمَّا عِلْم جميعِ الحيوان بمواضع ما يُعيشها، فَمنْ علّم البعوضة أنّ مِن وراء ظاهرِ جلد الجاموس دَماً، وإنّ ذلك الدمَ غذاءٌ لها، وأنّها مَتَى طعَنتْ في ذلك الجلدِ الغليظ الشَّثْن، الشديد الصُّلبِ، أن خرطومَها ينفذ فيه على غير مُعاناة.
ولو أن رجلاً منَّا طعنَ جلدَه بشوكةٍ لانكسرت الشَّوكةُ قبل أن تصل إلى موضع الدم، وهذا بابٌ يُدْرَك بالحسِّ وبالطبع وبالشبه وبالخِلْقة، والذي سخّر لخرطوم البَعوضِة جلدَ الجاموس، هو الذي سخَّر الصخرةَ لذنَب الجرادة، وهو الذي سخَّر قمقُمَ النُّحاس لإبرة العقرب. علة عدم تلاقح الفيلة بالعراق

وقال بعض خصماء الهند: لو كانت الفِيَلَة لا تتلاقحُ عندنا بالعِراق لأنها هنديَّة لتغيّر الهواءِ والأرض، فعَقَر ذلك أرحامَها،وأعْقمَ أصلابها لكان ينبغي للطواويس أن لا تتزاوج عندنا ولا تبيض ولا تُفرخَ، ونحن قد نَصيد البلابِل والدباسيّ، والوراشين، والفواخت والقمارى والقَبَجَ والدُّرَّاج، فلا تتسافدُ عندنا في البيوت، وهي من أطيار بساتيننا وضياعنا، ولا تتلاقحُ إذا اصطدْناها كرارزة، بل لا تصوِّت ولا تغنّي ولا تَنُوح، وتبقى عندَنا وحشيّة كمِدةً ما عاشت، فإن أخذْناها فراخاً زاوَجتَ وعَشَّشت وباضت وفرّخت، فلعلّكم أن تكونوا لو أهديتم إلينا أولادَها صغاراً فنشأت عندنا وذهب عنها وحشة الخلاء، وجدَتْ أنسَ الأهليّ، فإنَّ الوحشة هي التي أكْمَدَتْها، ونقضَتْ قوّتَها، وأفنت شهْوَتَها.

وفاء الشفنين

وقد نجِد الشِّفْنينَ الذَّكر تهلِكُ أنثاه فلا يُزاوِج غيرَها أبداً، في بلادها كان ذلك أو في غير بلادها، ونحن لو جِئْنا بالأسد والذِّئاب والنُّمور والبُبُور فأقامَتْ عِندنا الدَّهرَ الطَّويل لم تتلاقح، قصة الذئب والأعرابي وقد أصاب أعرابيٌّ جروَ ذئبٍ فربّاه ورجَا حراستَه وأن يألفه، فيكونَ خيراً له من الكلب، فلما قوِيَ وثب على شاةٍ له فأكلها، فقال الأعرابي:

أكلْتَ شُوَيْهَتي ورَبيتَ فينا ... فما أدراك أنَّ أباكَ ذيبُ

تسافد حمير الوحش وقد تتسافد عندنا حمير الوحش، وقد تلاقحتْ عندَ بعض الملوك.
تلاقح الظباء في البيوت وكان جعفر بنُ سليمانَ أحضَرَ على مائدته بالبَصرة يوم زارَهُ الرّشيدُ ألبانَ الظّباء وزُبْدَها وسِلاها ولبَأها، فاستطاب الرشيدُ جميعَ طعومِها، فسأل عن ذلك وغمَزَ جعفرٌ بعضَ الغِلمان فأطلقَ عن الظّباء ومعَها خشْفانُها، وعليها شُمُلها، حتى مَرّتْ في عَرْصةٍ تُجاهَ عينِ الرَّشيد، فلما رآها على تلك الحال وهي مقرَّطة مخضّبة استخفَّه الفرح والتعجُّب حتى قال: ما هذه الألبان؟ وما هذه السُّمْنان واللِّبأ والرَّائب والزُّبد الذي بينَ أيدينا؟ قال: مِن حَلَبِ هذه الظّباء ألّقتْ وهي خشْفانٌ فتلاقحتْ وتلاحقت.
استنتاج الذئاب والأسد بالعراق ولو أطلقوا الذّئابَ والأسْد في مرْوج العراق، وأقاموا لها حاجاتها لتسافدَتْ وتلاقحت، فلعلّهم لو تقدَّموا في اصطناع أولاد الفِيَلة واقتنائها صغاراً أن تأنس حتى تتسافد وتتلاقح، وقد زعمتم أنَّ كسرى أبرويز استنْتج دَغْفلاً واحداً.
احتجاج الهندي قال الهندي: تكفِينا هذه الحُجَّة، وهي بيننا وبينكم، أوَ ليس قد جَهد في ذلك جميعُ الملوك من جميع الأمم في قديم الدهر، فلم يستنتجوا إلا واحداً، وعلى أنَّ هذه الأحاديثَ من أحاديث الفُرْس، وهم أصحاب نَفْجٍ وتزيد ولا سيَّما في كلِّ شيء مما يدخل في باب العصبيَّة، ويزيد في أقدار الأكاسرة، وإن كانوا كذلك فهم أظنَّاء، والمتهم لا شهادة له، ولكن هل رأيتم قطُّ هندياً أقرَّ بذلك، أو هل أقرَّت بقايا سائر الأمم للفرسِ بهذا الأمر للفيلِ المعروفِ بهذا الاسم.
استطراد لغوي ويقال رجل فيلٌ إذا كان في رأيهِ فِيَالة، والفِيالة، الخطأ والفساد، وهم يسمُّون الرَّجل بفيل، منهم فيلٌ مولى زياد، ويكنون بأبي الفيل، منهم أبو الفِيل الأشعريّ الذي امتدحه أبو دَهْبَل.
وقال: الرَّاجز غَيْلان يقال له راكبُ الفِيل: ومنهم عَنْبَسة الفيل، وكذلك يقال لابنه مَعدان وله حديث، وقال الفرزدق:

لقد كان في مَعْدانَ والفيلِ زاجرٌ ... لعَنْبسة الرّاوي عليَّ القصائدا

وقال الأصمعيّ: إذا كان الرجلُ نبيلاً جباناً قِيلَ هذا فِيلٌ، وأنشد:

يقولون للفِيلِ الجبان كأنّه ... أزَبُّ خَصِيٌّ نَفّرَتْهُ القعاقِعُ

وقال سلمة بن عَيَّاش: قال لي رؤبة: ما كنتُ أُحِبُّ أنْ أرَى في رأيك فيالة.
ويقول الرَّجلُ لصاحبه: لم يَفِلْ رأيُك، وهو رأيٌ فائل، ورجلٌ فِيل، وبالكوفة بابُ الفيل، ودار الفِيل في السبابجة، وكذلك حَمَّام فيل، وفي حمَّام فِيل يقول بعض السَّلَف:

لَعمْرُ أبيكَ ما حمّامُ كِسرَى ... على الثّلثينِ من حمَّام فيل

وقال الجارود بن أبي سبرة:

وما إرْقاصُنا خَلْفَ المَوَالي ... كسنَّتنا على عهد الرّسول

وأبو الفيل محمد بن إبراهيم الرافقي كان فارس أهل العراق.
وفِيلُويه السّقطي هو الذي كان يُجري لأمّه كلَّ أضْحى درهماً، فحدثتني امرأة قالت قلتُ لأمّ فِيلُويَهْ: أو ما كان يجري فِيلويَه في كلِّ أضْحَى إلا درهماً؟ قالت: إي واللّه، وربَّما أدخل أضْحى في أضحى!.

مثالب الفيل

وقال بعضُ من يخالف الهند: الفيل لا يُنْتَفع بلحمه ولا بلبَنه، ولا بسمْنِه ولا يزبده، ولا بشَعره ولا بوبَره ولا بصوفه،عظيم المؤُونة في النفقة، شديد التَّشزُّن على الرُّوَّاض، وإن اغتلم لم تفِ جميعُ منافعه في جميع دهرهِ بمضرَّة ساعة واحدة، وهو مرتفعٌ في الثمن، وإن أخطؤوا في تدبير مَطعِمِه ومَشربه، وتعلُّمه وتلقنه هلَكَ سريعاً، ولا يتصرَّف كتصرُّف الدّوابّ، ولا يُركب في الحوائج والأسواق وفي الجنائز والزِّيارات، ولو أنّ إنساناً عادَ مريضاً أو اتَّبع جنازة على فيل لصارَ شهرةً، وتركَ الميِّت آية.

رؤيا الفيل

وسئِل ابن سِيرينَ عن رجلٍ رأى فيما يَرَى النَّائم كأنه راكبٌ على فيل، فقال: أمرٌ جسيمٌ لا منفعة له.
قالوا: وقال رجلٌ للحجَّاج بن يوسف: رأيت في المنام رجلاً مِن عُمَّالك قدَّمَ فيلاً فضربَ عُنقه، فقال: إن صدقتْ رؤْياك هلك دَاهَر بن بصبهرى.

حكم أكل لحمه

وسئل الشَّعبيُّ عن أكل لحمِ الفيل، فقال: ليس هو من بهيمة الأنعام.

خرطوم الفيل

وخرطومُه، الذي هو سلاحُه والذي به يبطِشُ وبه يعيش، مِنْ مَقاتلِه.
وقال زَهْرة بن جُوَيَّة يوم القادسية: أمَّا لهذه الدابة مقتل؟ قالوا: بلَى، خُرطومه، فشدَّ عليهم حتى خالَطهم، ودنا من الفيل، فحملَ كلُّ واحدٍ منهما على صاحبه فضَرَبَ خرطومَه فبرَك وأدبر القوم.

بعض صفة الفيل

قال: والفيل أفقمُ قصير العنق، مقلوبُ اللسان، مشوَّه الخَلْق، فاحش القُبْح، ولم يفْلِحْ ذو أربعٍ قطُّ قصير العُنق في طلبٍ ولا هرب، ولولا أنّ مسلوخَ الثَّور يجول في إهابه، ولولا سعته وغبَبُه، لما خَطا مع قصَر عنقه، ولذلك قال الأعرابي: ومن جَعَل الأوْقص كالأعْنق والمطبّق كالضابع، وقال الشَّاعر في غَبَبِ الثَّور، وهو إسحاق بن حسان الخرَيميّ:

وأغلبَ فضفاض جلد اللَّبَانِ ... يُدافع غَبْغَبَه بالوظِيفِ

وليس يُؤتى البَعيرُ في حُضره مع طول عنقه إلاّ من ضِيق جلْده، والفيلُ ضئيل الصَّوت، وذلك من أشدِّ عيوبه، والفيل إذا بلغَ في الغلمة أشدَّ المبالغ أشبَهَ الجملَ في ترْك الماءِ والعَلف حتى تنضمّ أيْطلاه ويتورَّم رأسه، وقد وصف الرّاجزُ الجملَ الهائج فقال:

سامٍ كأنّ رأسَه فيه وَرَمْ إذْ ضَمَّ إطْليْهِ هَياجٌ وقطَمْ

وآضَ بعد البُدْنِ ذا لحمٍ زِيَمْ

ولو لم يكنْ في الفِيَلَة من العيب إلا أن عِدةّ أيام حملها كعمر بعض البهائم، لكان ذلك عيباً، وقد ترك أهلُ المدينة غِراسَ العَجْوة، لمَّا كانت لا تطعِمُ إلاّ بعد أربعين سنة.

قدرته على حمل الأثقال

قال: وليس شيءٌ يحمل من عدد الأرطال ما يحمل الفِيلُ، لأنّ الذي يفضُل فيما بين حِمْل الفيل وحِمْل البُخْتيّ أكثرُ مِن قدرِ ما يفضل بين جسم الفيل على جسم البُخْتي.
وقد قال الأعرابيُّ الذي أدخل على كِسرى ليعْجب من جفائه وجهله، حين قال له: أيُّ شيء أبعَدُ صوتاً؟ قال: الجمل، قال: فأيُّ شيءٍ أطيَبُ لحماً؟ قال: الجمل، قال: فأيُّ شيء أنهض بالحِمْل؟ قال: الجمل، قال كسرى: كيف يكون الجملُ أبعَدَ صوتاً ونحن نسمَعُ صوتَ الكُركيِّ من كذا وكذا ميلاً؟ قال الأعرابي: ضَع الكرْكيَّ في مكان الجمل، وضَع الجملَ في مكان الكُركيّ حتى يُعرفَ أيُّهما أبعَدُ صوتاً، قال: وكيف يكون لحمُ الجملِ أطيبَ من لحم البطّ والدّجاج والفِراخ والدُّرَّاج والنَّوَاهِض والجِداء؟ قال الأعرابيّ: يُطبَخ لحمُ الدَّجاج بماء ومِلح، ويُطبخ لحم الجملِ بماء وملح، حتى يُعرَف فَضْل ما بين اللّحمَين، قال كِسرى: فكيف تزعُم أنّ الجملَ أحْمَلُ للثِّقْل من الفيل والفيلُ يحمل كذا وكذا رطلاً؟ قال الأعرابيّ: ليبرِكِ الفِيلُ ويَبرِكِ الجمل، وليُحمَل على الفيل حِمْل الْجمل، فإنْ نهض به فهو أحمَلُ للأثقال. قال القوم: ليس في استطاعة الْجمال النهوضَ بالأحمال ما يوجب لها فضيلةً على حَمْل ما هو أثقل، ولعمري، إنَّ للجمل بلينِ أرساغه وطُول عنقِه لفضيلةً في النُّهوض بعد البروك، فأمَّا نفس الثقل فالذي بَينهما أكثر من أن يقع بينهما الخيار.
قالوا: وبفارسَ ثِيرَانٌ تحمِل حِمْلَ الْجملِ باركةً ثم تنهض به، فهذا باب الذمّ.

مناقب الفيل

فأمَّا باب الحَمدِ فقد حُدِّثنا عن شَريكٍ، عن جَابر الجُعْفي، قال: رأيت الشعبيَّ خارجاً فقلت له: إلى أينَ؟
قال: أنظُرُ إلى الفيل.
قال: وسألتُ أبا عبيدةَ فقلتُ: ما لونُ الفيل؟ قال: جَوْن.

ما يحث به الفيل

ومن أعاجيب الفيل أن سَوطه الذي به يُحَثُّ ويصرَّف، مِحجَنُ حديدٍ طرفُه في جبهته، والطَّرَف الآخَر في يد راكبه، فإذا راد منه شيئاً غمَزَ تلك الحديدة في لحمه، على قدْر إرادته لوجوهِ التصرُّف.

قصة الفيل

وقد ذكر ذلك أبو قيس بن الأسلت في الجاهليَّة، وهذا الشِّعر حجَّة في صَرْفِ اللّه الفيلَ والطَّيرَ الأبابيل، وصدِّ أبي يَكسوم عن البيت، وسنذكر من ذلك طرفاً إن شاء اللّه تعالى، قال أبو قيس:

ومِن صُنْعِه يومُ فِيل الحُبو | ش إذْ كلّما بَعثُوه رَزَمْ
محاجِنُهم تحتَ أقرابِـهِ | وقد كَلَمُوا أنفه فانْخَرَمْ
وقد جعلوا سَوْطَهُ مِغْوَلاً | إذا يمَّمُوهُ قفاهُ كـلَمْ
فأرسَلَ من فوقهم حاصِباً | يلفُّهم مثلَ لَفِّ الـقـزَمْ

وقال أيضاً صَيْفيُّ بنُ عامر، وهو أبو قيس بن الأسلت، وهو رجلٌ يمان من أهل يثرب، وليس بمكيّ ولا تَهامٍ ولا قُرَشِيّ ولا حَليفِ قرشيّ، وهو جاهليّ:

قوموا فصلوا ربكم وتـعـوذوا | بأركان هذا البيت بين الأخاشب
فعندكم منـه بـلاءٌ مـصـدقٌ | غداة أبي يكسوم هادي الكتائب
فلما أجازوا بطن نعمان ردهـم | جنود الإله بين سافٍ وحاصبٍ
فولوا سراعاً نادمين ولـم يوب | إلى أهله ملحبش غير عصائب

ويدلُّ على صحَّة هذا الخبر قول طُفيل الغَنَويّ، وهو جاهليّ، وهذه الأشعارُ صحيحةٌ معروفةٌ لا يرتاب بها أحدٌ من الرُّواة، وإنما قال ذلك طُفيلٌ لأنَّ غَنِيّاً كانت تنزل تِهامة، فأخرجتها كِنانةُ فيمن أخرجَتْ، فهو قوله:

تَرْعَى مَذانِبَ وَسْمِيٍّ أطاعَ لـه | بالجِزْعِ حيثُ عَصَى أصحابَه الفِيلُ

قال أبو الصَّلت، واسمه ربيعة، وهو أبو أميَّة بن أبي الصَّلت، وهو ثقفِيّ طائفيّ، وهو جاهليٌّ، وثقيفٌ يومئذ أضداد بالبلدة وبالمال وبالحدائق والجِنان، ولهم اللاتُ والغَبْغَب، وبيتٌ له سَدَنة يضاهِئُون بذلك قريشاً، فقال مع اجتماع هذه الأسباب التي توجب الحسدَ والمنافسة:

إنَّ آيات ربِّـنـا بـيِّـنـاتٌ | ما يماري فيهنَّ إلاَّ الكَفورُ
حَبسَ الفِيلَ بالمغمَّس حتَّـى | ظلَّ يَحْبُو كأنَّه مَـعْـقـورُ
واضعاً حَلْقَةَ الجِرَانِ كما قُطّ | رَ صخرٌ من كَبْكَبٍ محدُورُ

وقال بعضهم لأبْرَهَةَ الأشرم:

أينَ المفرُّ والإله الـطـالـبْ والأشرمُ المغلوبُ غير الغالب

وقال عبد المطّلب يوم الفيل وهو على حِراء:

لاهُـمّ إنّ الـمـرءَ يم نَعُ رَحْلَه فامْنَعْ حِلالَكْ

لا يغلبَنَّ صـلـيبُـهُـمْ وَمِحَالُـهُمْ أبَداً مِحالَـكْ

إنْ كنتَ تاركَهُمْ وَقِـبْ لَتَنا فأمْرٌ ما بَـدا لَـكْ

وقال نُفَيْل بن حَبيب الخثعميّ، وهو جاهليٌّ شهدَ الفيلَ وصُنْعَ اللّهِ في ذلك اليوم:

ألاَ رُدِّي جِمالَـكِ يا رُدَيْنَـا نَعِمْنَاكُم مع الإصْباح عَيْنَـا

فإنَّكِ لو رأيتِ ولَـنْ تـرَيْهِ لدى جَنْبِ المحصَّبِ ما رأيْنَا

أكلُّ الناس يَسْأَلَ عن نُـفيل كأنّ عَلَيَّ للحُبْشَـان دَيْنَـا

حَمِدْتُ اللّهَ أنْ عايَنْتُ طيراً وحَصْبَ حجارة تُلْقى علينا

وقال المغيرة بنُ عبدِ اللّه المخروميّ:

أنتَ حبستَ الفيلَ بالمغمَّسْ حبَسْتَه كأنَّـهُ مُـكَـرْدَسْ

مُحْتَبَسٌ تزهَقُ فيه الأنفُسْ

قال اللّه تبارك وتعالى: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ ربُّكَ بأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ، تَرْمِيهِمْ بحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ"، وأنزل هذه السورة وقريشٌ يومئذٍ مُجْلبون في الردِّ على النبي صلى الله عليه وسلم، وما شيءٌ أحبّ إليهم مِن أن يَرَوْا له سَقطةً أو عَثْرَةً أو كِذْبة، أو بعضَ ما يتعلّق به مثلُهم، فلولا أنّه كان أذكَرَهُم أمراً لا يتدافعونه ولا يستطيع العدوُّ إنكارَه، لِلذي يُرى من إطباق الجميع عليه، لوجدوا أكبرَ المقال، فهذا بابٌ يكثُر الكلام فيه، وقد أتينا عليه في كتاب الحُجَّة.

وقال: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بعَادٍ"، مثل قوله: "أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ"، وقال: "وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ المَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فقدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُم تَنْظُرُونَ"، وهذا كلُّه ليس من رؤية العين لنا.

استطراد لغوي وباب آخَرُ من هذا، وهو قوله: "وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ"، ويقول الرجُل: رأيتُ الرجلَ قال كذا وكذا، وسمعتُ اللّه قال كذا، وفلانٌ يرى السّيف، وفلان يرَى رأيَ أبي حنيفة، وقد رأيت عَقْلَهُ حسناً، وقال ابن مُقبل:

سَلِ الدَّارَ مِنْ جَنْبيْ حِبرٍّ فَوَاهِبٍ		بحيْثُ يَرَى هَضْبَ القليب المضيَّحُ

وإذا قابل الجبلُ الجبلَ فهو يراهُ، إذْ قام منه مقام الناظر الذي ينظر إليه.
وتقول العرب: دارُ فلانٍ تَنْظر إلى دار فلان، ودُورُ بني فلان تتناظر.
وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: أنا بريءُ من كلّ مسلمٍ مع مشرك قيل: ولم يا رسول اللّه؟ قال: لا تتراءى ناراهما.
ويقولون: إذا استقمت تلقاءَ وجهك فنظرَ إليك الجبلُ فخُذْ عن يمينك، وقال الكميت:

وفي ضِبْنِ حِقفٍ يَرَى حِقْفَهُ		خَطافِ وسَرْحَةُ والأحْدَلُ

جسامة الفيل

قال أبو عثمان: خرجتُ يومَ عيدٍ، فلما صِرت بعيساباذ إذا أنا بتَلٍّ مُجَلَّلٍ بقطوع ومقطَّعات، وإذا رجالٌ جلوسٌ، عليهم أسلحَتُهم فسألتُ بعضَ مَن يشهَدُ العِيد فقلتُ: ما بال هذه المَسْلَحةِ في هذا المكان وقد أحاطَ النّاس بذلك التَّلِّ؟ فقال لي: هذا الفيلُ فقصدتُ نحوَه وما لي هَمٌّ إلاّ النّظرُ إلى أذنيه فرجعتُ عنه بعد طول تأمُّل وأنا أتوهّم عامَّةَ أعضائه بل جميعَ أعضائه إلاّ أذنَيه، وما كانت لي في ذلك عِلَّةٌ إلاّ شَغْلَ قلبي بكلِّ شيءٍ هجمتُ عليه منه، وكلُّه كان شاغلاً لي عن أذنه التي إليها كان قصْدي، فذاكرتُ في ذلك سَهل بنَ هارون، فذكر لي أنَّه ابتُلِيَ بمثلها، وأنشدني في ذلك بيتين من شعره، وهما قوله:

أتيتُ الفيل محتسِباً بقصْدي		لأبصِرَ أذنَه ويَطول فِكْري

فلم أرَ أذْنَه ورأيتُ خَلْقاً		يقرِّب بين نِسياني وذِكري

أعجب الأشياء قال: وقال رجلٌ مرَّة: أخزى اللّه الفيل فما أقبحه، فقال بكر بن عبد اللّه المزَنيّ: لا تشتم شيئاً جعله اللّه آيةً في الجاهليّة، وإرهاصاً للنبوَّة.
وقال سعدان الأعمَى النحوي: قلتُ للأصمعيّ: أيُّ شيءٍ رأيت أعجبُ؟ قال: الفيل.
وقيل لابن الجهم: أيُّ أمورِ الدنيا أعجب؟ قالَ: الشمّ.
وقيل لإبراهيم النظّام: أيُّ أمور الدُّنيا أعجب؟ قال: الرُّوح.
وقيل لأبي عقيل بن دُرُسْت: أيُّ أمورِ الدُّنيا أعجب؟ قال: النَّوْم واليقظة.
وقيل لأبي شمر: أيُّ أمورِ الدُّنيا أعجب؟ قال: النِّسْيان والذّكر.
وقيل لسلم الخلاَّل: أيُّ أمورِ الدُّنيا أعجب؟ قال: النار.
وقيل لبَطْلَيْمُوس: أيُّ أمور الدنيا أعجب؟ قال: بَدَنُ الفلك، وقال مرَّة أخرى: الضِّياء.
وقيل لأبي عليٍّ عمرُ بن فائدِ الأسْواريّ: أيّ شيءٍ ممّا رأيت أعجب؟ قال: الآجال والأرزاق، وكان إبراهيم بن سيَّارٍ النَّظّامُ شديدَ التعجُّب من الفيل.
وكان مَعْبَدُ بنُ عُمَر يقول: إنَّ السرطان والنعامة أكثر عجائبَ من الفيل، وهذا كله تفسير قول الخضر في بعض الدواب أبو عقيل السّوّاق، عن مُقاتل بن سليمان، قال: قال مُوسى للخضر: أي الدوابِّ أحبُّ إليك، وأيُّها أبغض؟ قال: أحِبُّ الفرسَ والحمارَ والبعيرَ؛ لأنّها من مراكب الأنبياء، وأبغِض الفيل

والجاموسُ والثَّور.
فأمّا البعير فمركب هُودٍ وصالحٍ وشعيب والنبيِّين عليهم السلام، وأما الفرَس فمركب أُولِي العزْم من الرُّسل وكلِّ من أمرَهُ اللّه بحمل السِّلاح وقتالِ الكفّار، وأمّا الحِمار فمركب عيسى بن مَريم وعُزَير وبلْعَم، وكيف لا أحبُّ شيئاً أحياه اللّه بعدَ موته قبل الحشْر.
قال: ولمّا نظر الفضلُ بن عيسى الرَّقاشيُّ إلى سَلْم بن قُتيبة على حمارٍ يريد المسجد قال: قِعْدة نَبيٍّ وبِذْلة جَبّار.
وأبغض الفيل لأنَّه أبو الخنزير، وأبغض الثَّور لأنّه يشبه الجاموس، وأبغض الجاموسَ لأنّه يشبه الفيل.
وأنشدني في هذا المعنى جَعفرٌ ابنُ أختِ واصل، في منزل الفضل بن عاصم الباخَرزيّ:

ما أبغض الخضر فيلاً منذ كان ولا ... أحب عيراً وذا كم غاية الـكـذب
وكيف يبغض شيئاً فيه معتـبـرٌ ... وكان في الفلك فراجاً من الكرب
والفيلُ أقبلُ شيء لو تـلـقـنُـه ... حاجاتِ نفسكَ من جدٍ ومن لعبِ
ولو تـتـوجَ فـينـا واحـدٌ فـرأى ... زيّ الملوكِ لقد أوفى على الركبِ
يغضى ويركعُ تعظيماً لـهـيبـتـه ... وليس يعدِ لـه النشوانُ في الطربِ
وليس يجذل إلا كـلَّ ذي فـخـرِ ... حرِ ومنبته من خالص الـذهـبِ
مثل الزنوج فإنّ الله فضّـلـهـم ... بالجود والتَّطويل في الـخـطـب

قال: أنشدنيها يونس لابن رباح الشارزنجيّ، فمدَحَ الفيل كما ترى بالطَّرب والحِكاية، وأنّه قد أدِّب وعُلِّم السجودَ للملوك.

سجود الفيل للملك

وزعموا أنّ أوَّلَ شيءٍ يؤدّبونَه بهِ السجُودُ للملك؛ قالوا: خرج كِسرى أبرويز ذات يومٍ لبعض الأعياد، وقد صفّوا له ألفَ فيل، وقد أحدق به وبها ثلاثونَ ألفَ فارس، فلما بصُرَتْ به الفِيَلةُ سجدتْ له، فما رفَعَتْ رأسَها حتى جُذِبَت بالمحاجن وراطَنَها الفيَّالون.
وقد شهد ذلك المشهد جميعُ أصناف الدوابِّ: الخيلُ فما دونها، وليس فيها شيءٌ يفصِل بين الملوكِ والرعيَّة، فلما رأى ذلك كسرى قال: ليت أنّ الفيلَ كان فارسيّاً ولم يكن هنديّاً، انظُروا إليها وإلى سائر الدوابّ، وفضّلوها بقدر ما ترَون من فَهْمها وأدبها.
وأما ما ذُكَرَ بهِ الزّنجَ من طول الخُطب فكذلك همْ في بلادهم وعند نوائبهم، ولكنَّ معانيهم لا ترتفع عن أقدار الدوابِّ إلاّ بما لا يذكر.

ما قيل في تعظيم شأن الفيل

وأنشدوا في تعظيم شأن الفيل وصحة نظره وجَودة تحديقه وتأمُّله، وسكونِ طرْفه، والشّعر لبعض المتكلّمين:

إذا ما رأيت الفيل ينظر قاصداً ظننت بأنّ الفيلَ يلزمُه الفَرْضُ

وقد قيل إن الشِّعر لسهل بن هارون.

مثل النون والضب وقال عبد الأعلى القاصّ: يقال في المثل: إنّ النون قال للضبّ حينَ رأى إنساناً في الأرض: إني قد رأيتُ عجباً، قال: وما هو؟ قال: رأيتُ خَلْقاً يمشي على رجليه، ويتناول الطعام بيديه فيُهْوِي به إلى فيه، قال: إنْ كان ما تقولُ حَقاً فإنّه سيُخرجُني من قعر البحر ويُنزِلُك من وَكْرك من رأس الجبل.

تناول الفيل والقرد طعامه

والفيل أعجَبُ منه، لأنَّ يده أنفُه، وأيدي البهائمِ والسِّباع على حال عاملة شيئاً، والقِردُ يأكل بيديه وَيَنْقِي الجَوزة ويتفلّى ويَفْلِي أنثاه، وليس شيءٌ يكرَع بأنفه ويُوصِلُ الطعامَ إلى فيه بأنفه غير الفيل.

إطعام الدب ولدها والدب الأنثى تُقيم أولادَها تحت شَجرةِ الجوز، ثم تصعَد الشّجرة فتجمَع الجوز في كفِّها، ثم تضرب باليمنى على اليسرى فتحطم ذلك الجوز فترمي به إلى أولادها، فلا تزال كذلك حتى إذا شبعْنَ نزلَتْ.

وربّما قطع الدّبُّ من الشجرة الغُصْن العَبْل الضّخمَ الذي لا يقطعه صاحب الفأس إلاّ بالجهد الشديد، ثم يشدّ به على الفارس قابضاً عليه في موضع مقبض العصا فلا يصيبُ شيئاً إلاّ هَتَكه.

قلة تصرف يدي الفيل

قال صاحب المنطق: ليس شيءٌ من ذوات الأربع إلاّ وتصرُّف يديهِ في الجهات أقلُّ من تصرُّف يَدَي الفيل.

شعر في وصف جلد الفيل والجاموس

وقال أبو عثمان: ويوصف جِلدُ الفيل، وجلدُ الجاموس بالقوَّة، قال جميل:

إذا ما علَتْ نَشْزاً تمدُّ زمامَـها كما امتدّ نِـهيُ الأصْلَفِ المترقرق

وما يبتغِي مِنِّي العُداةُ تفاقدوا ومِن جِلدِ جاموسٍ سمين مطرَّق

وأبيضَ مِن ماءِ الحديدِ اصطفيتُـه له بعد إخلاص الضريبة رَوْنَـقُ

شعر فيه ذكر الفيل وقال كعبُ بن زهير في اعتذارهِ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم:

لقد أقومُ مقاماً لـو يقوم بـه أرى وأسمعُ ما لوْ يَسْمَعُ الفيلُ

لظلَّ يُرعَدُ إلاّ أن يكون لـه مِنْ الرَّسولِ بأمر اللّه تنـويلُ

وذكر أمية بن أبي الصلت سفينة نوح فقال:

تصرخ الطَّيرُ والبريَّة فيهـا مَعْ قويِّ السِّبـاع والأفيالِ

حينَ فيها من كلِّ ما عاشَ زوجٌ بين ظهرَيْ غواربٍ كالجبـالِ

وقال أميَّة أيضاً:

خَلَقَ النَّحْل مُعْصِرَاتٍ تَرَاهـا تَعْصِف اليابسات والمخْضُورا

والتماسيح والـثـيَاتِـل والأيِّ لَ شَتَّى والرِّيمَ واليعفـورا

وصُواراً من النَّواشط عِيناً ونعَاماً خواضباً وحَميرا

وأسـوداً عواديِاً وفـيولاً وسِباعاً والنّمرَ والخِـنـزيرا

طيب عرق الفيل

وتزعم الهند أنّ جبهة الفيل في بعض الزمان تَعرق عرَقاً غليظاً غيرَ سائل، يكون أطيبَ رائحة من المِسْك، وهذا شيءٌ يعتريه كلَّ عامٍ، وموضعُ ذلك الينبوع في جَبْهته.
فأرة المسك والإبل والنّاسُ يجِدُون ريحَ المسك في بيوتهم في بعض الأحايين، وهي ريح فارةٍ يقال لها فارة المِسْك، والذي يكون في ناحية خراسان الذي له فأر المسك ليسَ بالفأر، وهو بالخِشْف حين تضَعُه الظّبيةُ أشبَه.
وتقول العرب في فارةِ الإبل صادرةً: إنّ أرَجَ ذلك العرق أطيبُ من المسك الأذْفر في ذلك الزمان، وفي ذلك الوقت من اللّيل والنهار.
قال الراعي:

لها فارةٌ ذَفْرَاءُ كلَّ عشيَّةٍ كمَا فَتَقَ الكافورَ بالمسكِ فاتقُهْ

قال الأصمعيّ قلت لأبي مهدية، أو قيل لأبي مهدية: كيف تقول لا طِيب إلا المسك؟ قال: فأين أنت من البان، قال: فقيل له: فقل: لا طيب إلا المسك والبان، قال: فأين أنت عن أدهانٍ بحَجْر، قالوا له: فقل: لا طيبَ إلاّ المسكُ والبانُ وأدهانٌ بحَجْر، قال: فأين أنتم عن فارة الإبل صادرة؟.
قالوا: وربّما وجَدَ النّاسُ في بيوتهم الجُرذَ يضرب إلى السَّوَاد، يجدونَ من بدَنه إذا عَدا إلى جُحْره رائحةَ تشبه رائحة المسك، وبعضُ النّاس يزعم أنّ هذا الجنسَ هو الذي يَخْبأ الدَّنانير والدراهمَ والحُليّ، كما يصنع العَقْعق والغُرَاب.

وهذا الجردُ غير فارة المسك التي تكون بخُراسان، وتلك بالخِشْف الصَّغير أشبه، وإنما يأخذون سُرَّتَه وهي ملأى من دمٍ عَبيط.

الآية في الفيل

قالوا: وقد جعل اللّه الفيلَ من أكبر الآيات وأعظمِ البُرْهانات للبيت الحرام ولِقبْلة الإسلام، وتأسيساً لنبوَّة النبيّ صلى الله عليه وسلم، وتعظيماً لشأنه ولما أجْرَى من ذلك على يَدَي جدِّه عبد المطلب، حين غدَت الحبشةُ لِتهدمَ البيتَ الحرام وتُذِلَّ العرب، فلم يذكر اللّهُ منهم ملِكاً ولا سُوقةً باسمٍ ولا نَسب ولا لقب وذكرَ الفيلَ باسمه المعروف، وأضاف السورةَ التي ذكر فيها الفيل إلى الفيل، وجعل فيه من الآية أنهم كانوا إذا قصَدُوا به نحوَ البيت تَعَاصَى وبَرَك، وإذا خلَّوه وسَوْمَه صَدَّ عنه وصدَف، وفي أضعاف ذلك التقمَ أذنَه نُفيل بن حَبيب، وقال: ابرُكْ محمود، وكان ذلك اسمَه.
الطعن في قصة الفيل وقد طعن في ذلك ناسٌ فقالوا: قد يستقيم أن ينصرف عنه وَيحْرِدَ دونَه، كلّ ذلك بتصريف اللّه له، وكيف يجوز أن يَفْهَمَ كلامَ العرب ويعرفَ معنى قول نُفيل؟ فإن قلتم: قد يفهم الفيل عن الفَيّال جميعَ الأدب والتقويم، وجميعَ ما يريد منه عند الحَطِّ والرَّحيل والمُقام والمسير، قلنا: قد يَفهم بالهنديّة كما يعرف الكلبُ اسمَه، ويعرفُ قولَهم اخسَأ، وقد يعرف السِّنّورُ اسمَه ويعرف الدُّعاءَ والزَّجْر، وكذلك الطِّفلُ والمجنون، وكذلك الحمارُ والفرس إذا كنَّ قد عُوِّدْن تلك الإشارة، وسماعَ تلك الألفاظ، فأمّا الفيل وهو هنديٌّ جلبَه إلى تلك البلْدة حبشيٌّ، فخرجَ من عُجْمة إلى عجمة، كيف يفهمُ مع ذلك لسانَ العرب وسِرار نُفَيل بن حَبيب بالعربيّة؟ قلنا: قد يستقيم أن يكون قال له كلاماً بالهنديّة كان قد تعوَّدَ سَماعه من الفيّالين، فيكونَ ترجمتُه بالعربيّة هذا الكلامَ الذي حكَوْه، وقد يكون الذي أنطقَ الذِّئبَ لأهبانَ بنِ أوس؛ وجعل عود المنبر يحنّ إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أن يصوِّر لوهم الفيل إرادة نُفَيل بن حبيب، وقد يستقيم مع لَقَن الفيل وذَكَائه وحكايته ومُؤاتاته، أن يعرف ذلك كلَّه وأكثرَ منه، لطول مُقامِه في أرض الحبَشة واليمن، وليس يبعُد أن يكون بأرض الحبشة جماعةٌ كثيرةٌ من العرب من وافد وباغٍ وتاجر،وغيرِ ذلك من الأصناف، فيسمع ذلك منهم الفيلُ فيعرفه، وليس هذا المقدار بمستنكَرٍ من الفيل، مع الذي قد أجمَعُوا عليه من فَهم الفيل ومَعرفته.
وكان منكه المتطبّب الهنديّ صحيح الإسلام، وكان إسلامَه بعد المناظرة والاستقصاء والتثبُّت، قالوا: فسمع مَرَّةً من رجل وهو يقرأ: "أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ"، وسمع بعضَ الجهال يقول: فكيف لو رأى الفيل؟ فعذلَه قوم، فقال منكه: لا تَعْذُلُوه فإنَّه لا شكَّ أنَّ خَلْقَ الفيل أعجَبُ، فقيل له: فكيف لم يضرب به اللّه تعالى المثلَ دونَ البعير؟ فقال أبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النظام، فقلت له: ليس الفيلُ بأعجبَ من البعير، واجعَلْه يعجِّب من البعير، وهو إنما خاطب العرب، وهم الحجةُ على جميع أهل اللغات، ثم تصير تلك المخاطبةُ لجميع الأمم بعد الترجمة على ألسنة هؤلاء العرب، الذين بهم بَدَأت المخاطبة لجميع الأمم، وكيف يجوز أن يعجِّب جماعةَ الأمم من شيءٍ لم يروْه قطّ، ولا كانَ على ظهرها يوم نزلَتْ هذه السورة رجلٌ واحد كان قد شهد الفيلَ والحبشة، وعلى أنَّ الفيلَ وافى مكَّةَ وما بها أحدٌ إلاّ عبدُ المطلب في نفير من بقيَّة النَّاس، ولا كانوا حيث يتأمّلون الفيل.
وقد قال ناسٌ: كان النَّاسُ رَجلين، رجلٌ قد سمع بهذا الخبر من رجالات قريش الذين يجترُّون إلى أنفسهم بذلك التَّعظيم، كما كانت السَّدنةُ تكذِب للأوثان والأصنام والأنصاب، لتجترَّ بذلك المنافع، ورجلٌ لم يكن عندَه علمٌ بأنّ هذا الخبرَ باطل فلم يتقدَّم على إنكار ذلك الخبر، وجميعُ قريش تثبِّته.
قيل لهم: إنَّ مكَّة لم تَزَل دارَ خُزاعة وبقايا جُرهم وبقايا الأمم البائدة، وكانت كنانة منها النَّسأة، وكانت مرّ بن أدّ مِنْ رَهْطِ صُوفة والرَّبيط منها أصحاب المزدلفة، وإليهم كانت السِّدانة، وكانت

عَدْوان وأبو سيّارة عَمِيلة بن أعزَل، تدفع بالنّاس، وقد كان بين خزاعة وبقايا جرهم ما كان حتى انتزعوا البيت منهم، وقد كان بين ثقيف وقريش لقُرب الدار والمصاهرة، والتَّشابه في الثروة والمشاكَلة في المجاورة تحاسدٌ وتنافر، وقد كان هنالك فيهم المولى والحُلفاء والقطّان والنازِلة، ومَن يحجُّ في كلِّ عام، وكان البيت مَزُوراً على وجْه الدهر، يأتونه رجالاً ورُكباناً وعلى كل ضامرٍ يأتينَ من كلِّ فجٍّ عميق، وبشِقِّ الأنفس، كما قال اللّه تعالى: "فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ"، وكانوا بقرب سُوق عُكاظ وذي المجاز، وهما سوقان معروفان، وما زالتا قائمين حتى جاء الإسلام، فلا يجوز أن يكون السَّالب والمسلوب، والمفتخر به والمفتخَر عليه، والحاسد والمحسود، والمتديِّن به والمنكر له، مع اختلاف الطبائع وكَثْرة العلل، يُجْمِعُون كلهم على قبول هذه الآية وتصديق هذه السُّورة، وكلهم مُطْبقٌ على عداوة النبي صلى الله عليه وسلم، والكُفْر به. والمحلُّون من العرب ممَّن كان لا يرى للحَرَم ولا للشَّهر الحرام حُرمةً: طيِّئٌ كلها، وخثعمٌ كلُّها، وكثيرٌ من أحياء قُضاعة ويَشْكُرَ والحارثِ بن كعب، وهؤلاء كلُّهم أعداءٌ في الدِّين والنَّسَب، هذا مع ما كان في العرب من النّصارى الذين يخالفون دِينَ مُشركي العرب كلَّ الخلاف، كتغلبَ، وشيبانَ، وعبدِ القيس، وقضاعة، وغسَّان، وسَليح، والعِباد، وتَنوخَ، وعاملة،ولخمٍ، وجُذَامَ، وكثيرٍ من بَلحارث بن كعب، وهم خُلَطاء وأعْداء، يُغاورون ويَسْبُون، ويُسْبَى منهم، وفيهم الثُّؤُور والأوتار والطوائل، وهي العربُ وألسنتُها الحِداد، وأشعارُها التي إنما هي مَياسم، وَهِمَمُها البعيدة، وطلبُها للطّوائل، وذمُّها لكلّ دقيقٍ وجليل من الحسَن والقبيح، في الأشعار والأرجاز والأسجاع، والمزدوَج والمنثور، فهل سمْعنا بأحد من جميع هؤلاء الذين ذكرْنا أنكَرَ شأنَ الفيل، أو عَرَضَ فيه بحرف واحد.

كلام الفيل والذئب

ورَزِينٌ العَروضيُّ - وهو أبو زهير - لم أر قطُّ أطيبَ منه احتجاجاً، ولا أطيب عبارة قال في شعرٍ له يهجو ولدَعقبة بنِ جعفر، فكان في احتجاجه عليهم وتقريعِه لهم أن قال:

تِهتُمْ علينا بأن الذِّئبَ كلّمكمْ	فقد لعمري أبُوكُم كَلَّمَ الذِّيبا
فكيفَ لو كلمَ اللّيث الهصورَ إذاً	تركتمُ الناس مأكولاً ومَشرُوبا
هذا السَّنَيديُّ لا أصلٌ ولا طرف	يكلّم الفِيلَ تصعيداً وتَصويبا

ولو كان ولد أُهبان بن أوسٍ ادَّعَوا أنّ أباهم كلم الذئب، كانوا مجانين وإنما ادَّعوا أنّ الذئبَ كلّمَ أباهم، وأنّه ذُكِرَ ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم وأنّه صَدَّقه.
والفيلُ ليس يكلِّم السنديّ، ولم يدَّعِ ذلك السنديّ قطُّ، وربَّما كان السِّندِيُّ هو المكلّم له، والفيل هو الفَهِمَ عنه، فذهب رَزين العَرُوضيُّ من الغَلَط في كل مذهب.
ما يكلِّم من ضروب الحيوان والنَّاس قد يكلّمون الطيرَ والبهائم والكلابَ والسَّنانير والمَرَاكب، وكلَّ ما كان تحتَهم من أصناف الحيوان التي قد خوّلوها وسُخِّرَتْ لهم، وربَّما رأيتَ القرَّادَ يكلّم القِرد بكلِّ ضرب من الكلام، ويُطيعه القِرد في جميع ذلك، وكذلك ربَّما رأيتَه يلقّن الببغاء ضروباً من الكلام، والبَبْغاء تحكيه، وإنّ في غراب البَيْن لَعَجَباً، وكذلك كلامهم للدب والكلب والشاة المكّيَّة، وهذه الأصنافِ التي تَلْقن وَتَحْكِي.

تكليم الأنبياء للحيوان وقد رَوَى الناسُ عن النبي صلى الله عليه وسلم في كلام السِّباع والإبل ضروباً، ولم يذهبوا إلى أنها نطقتْ بحروفٍ مقطّعة، ولكنّ النبي صلى الله عليه وسلم إما أن يكون اللّه أوحَى إليه بحاجاتها، وإمَّا أن تكون فِراسته وحِسّه وتثبُّتُه في الأمور، مع ما يُحْضِرُهُ اللّه من التوفيق، بَيَّنَ له معانيَها وجلاَّها له، واستدلَّ بظاهر على باطنٍ، وبهيئة وحركةٍ على موضع الحاجة، وإمَّا أن يكون اللّه ألهمه ذلك إلهاماً.

وأمَّا جِهةُ سليمان بن داود، صلى اللّه على نبينا وعليه، في المعرفة بمنطق الطير ومَنطِق كلِّ شيء، فلا ينبغي أن يكون ذلك إلاّ أن يقوم منها في الفهم عنها مَقامَ بعضِها من بعض، إذا كان اللّه قد خصَّه بهذا الاسم، وأبانَه بهذه الدَّلالة، وأعلام الرُّسُل لا يكثُر عددُها، ولا تَعظُم أقدارها على أقدار فضائل الأنبياء؛ لأن أكثر الأنبياء فوقَ سليمان بن داود، وأدنى ذلك أنّ داود فوْقه، لأن الحكم في الوارث والمورِّث، والخليفة والذي استخلفه، أن يكون الموروثُ أعلى، والمستخلِف أرفعَ، كذلك ظاهر هذا الحكم حتى يخصّ ذلك برهانٌ حادث.

وإنما تكثُر العلامات وتعظُم على قدْر طبائع أهل الزمان، وعلى قدر الأسباب التي تتَّفق وتتهيَّأ لقومٍ دون قوم، وهو أن يكونوا جبابرةً عُتاةً، أو أغبياءَ مَنقوصين، أو علماءَ معاندين، أو فلاسفةً محتالين، أو قوماً قد شملهم من العادات السيِّئة وتراكمَ على قلوبهم من الإلف للأمور المرْدية، مع طول لبثِ ذلك في قلوبهم، أو تكون نِحْلتهم وملتهم ودَعوتهم تحتمل من الأسْباب والاحتيالات أكثرَ ممَّا يحتملُ غيرها من ذلك، فإنّ من الكفر ما يكون عند المسألة، والجواب أسرَع انتشاراً وأظهرَ انتقاضاً، ومنه ما يكون أمْتَنَ شيئاً، وإن كانَ مصيرُ الجميع إلى الانتقاض وإلى الفساد، ومنه شيء يحتاج من المعالجة إلى أكثرَ وأطولَ، وإنما يتفاضَلُ العلماءُ عند هذه الحال، وقد يكون أن ينقدح في قلوب الناس عداواتٌ وأضغانٌ سَببها التَّحاسُد الذي يقع بين الجيران والمتفقين في الصِّناعة، وربما كانت العداوةُ من جهة العصبيَّة، فإنَّ عامَّةَ مَن ارتاب بالإسلام إنما كان أوَّل ذلك رأي الشُّعوبية والتمادي فيه، وطول الجدال المؤدِّي إلى القتال، فإذا أبغض شيئاً أبغضَ أهلَه، وإنْ أبغضَ تلك اللغةَ أبغض تلكَ الجزيرةَ، وإذا أبغض تلك الجزيرةَ أحبَّ مَن أبغض تلك الجزيرة، فلا تزال الحالاتُ تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام، إذ كانت العرب هي التي جاءت به، وكانوا السَّلف والقدوة.

أثر الغُلمة في الجسم والعمر وتزعم الهندُ أنّ شِدّة غلْمة الفيل وطولَ أيَّامه فيها وهجرانَه الطَّعامَ والشرَابَ، وبقيَّة تلك الطبيعة، وعملَ ذلك العرق السَّاري، هو الذي يمنع الفيل أن يصير في جسمه مَرَّتَين، لأنّ ذلك مِن أمتن أسباب الهُزَال، وإذا تقادَمَ ذلك في بدن وغبَّ فيه، عمِل في العظْم والعصَب، بعْدَ الشَّحم واللَّحم، وإذا كان رفعُ الصوت والصِّياحُ وكثرةُ الكلام والغضبُ والحدّة، إنما صار يورثُ الهُزال لأنّ البدن يسخُن عن ذلك، و إذا شاعَت فيه الحرارة أحرقتْ وأكلَتْ وشربت، ولذلك صار الخَصيُّ من الدُّيوكِ والأنعامِ أسمَنَ.

وزعَمُوا أنَّه ليس فيما يعايش الناس من أصناف الحيوان أقصرُ عمراً من العصفور، ولا أطْوَلُ عمراً من البغل، وللأمور أسبابٌ، فليس يقع الظنُّ إلاّ على قلّة سِفاد البغل وكثرة سفاد العُصفور.

قالوا: ونجد العمرَ الطَّويلَ أمراً خاصاً في الرُّهبان، فنظنّ أيضاً أنّ تركها الجِماعَ من أسباب ذلك.

قالوا: وإذا اغتلم الذكرُ من الحيوان فهو أخبَث ما يكون لحماً، وإذا كثُر سِفادُه تضاعَفَ فيه ذلك، وصار لحمه أيبَسَ ودمُه أقلَّ.

قال الشاعر:

أُحِبُّ أنْ أصطادَ ضَبّاً سَحْبَلاَ   أو جُرَذاً يرعى رَبيعاً أرْمَلاَ

فجعله أرْمَلَ لا زوجة له ليكون أسمَنَ له؛ لأنَّ كثرةَ السفاد مما يورث الهزال، ولا يكثر سفاده إلاّ من شدَّة غلْمته.
وهجا أعرابيٌّ صاحبه حين أكل لحمَ سَوْءٍ غثٍّ فقال:

أكلته من غَرَثٍ ومن قرَمْ   كالوَرَلِ السافد يَغْنَى بالنَّسَمْ

لأنّ لَحْمَ الورل لا يشبه لحم الضبّ، وهم لا يرغبون في أكله لأنه عَضِلٌ مَسِيخٌ، ولأنهم كثيراً ما يجدون في جوفه الحيَّاتِ والأفاعي، وله ذنبٌ سمينٌ، وذلك عامٌّ في الأذناب، وإنْ رأيتَها في العين كأنها عضَل، فإذا كان لحمُها كذلك، ثم كان في زمن هيجه وسفاده كان شرّاً له.
وللورَل في السِّفاد ما يجوز به حَدّ الجمل والخنزير.
قال: والنسم هو النَّسيم في هذا المكان.
وقالت أمُّ فَرْوَة القرنية:

نفى نَسَمُ الرِّيح القذَى عن مُتونِه   فما إنْ به عيبٌ تراه لشاربِ

وأنا أعلمُ أني لو فسَّرْتُ لك معانيَ هذه الأشعار وغريبَها، لكان أتمَّ للكتاب وأنفعَ لمن قرأ هذه الأبواب، ولكني أعرف مَلالَةَ الناس للكتاب إذا طال، قال الشاعر يهجو من قرَاه لحمَ كلب:

فجاءَ بخِرْشَاوَيْ شَعيرٍ عليهما   كَرَادِيسُ من أوصالِ أعقدَ سافِدِ

فلم يرضَ أنْ جعله كلباً حتى جعله سافداً، فأمَا ابنُ الأعرابيِّ فزعم أنّه إنما عَنَى تيساً، وقد أبطلَ، وعلى أنَّ المعنى فيهما سواء.
أثر الخصاء في اللحم قالوا: وإنما صار الخصيُّ من كلّ جنسٍ أسمنَ لأنّه لا يَسْفَد ولا يَهيج.
السقنقور قالوا: والسقنقور إنما ينفعُ أكلَه إذا اصطادوه في أيام هَيْجه وسِفاده؛ لأنَّ العاجز عن النِّساء يتعالج بأكل لحمه، فصار لحمُ الهائج أهْيَج له.
أبو نواس والحرامِي أقبل أبو نواسٍ ومعه الحرَامِيّ الكاتب، وكان أطْيَبَ الخَلْق، وقد كانا قبل ذلك قد نظرا إلى الفيلة فأبصرا غُرمولَ فيل منها، وعلم الحَرَاميّ أنّ غُرمولَ الفيلِ يُوصَفَ بالجَعْبة، فوصف لنا غرمولَه، وأنشدنا فيه شعراً لنفسه:

كأنّه لمَّا بَدَا للسَّفْدِ   جَعْبةُ تُرْكيٍّ عليها لِبَدُ

قلنا له: أقْوَيْتَ واجتلبتَ ذِكر اللِّبد عن غير حاجة، قال: فإني قد قلتُ غيرَ هذا، قلنا: فأنشِدْنا، فقال:

كأنه لمَّا دنا للشدِّ   شمعةُ قيلٍ لُفّقتْ في لِبْدِ

قلنا: فلا نرى لك بُدّاً من اللِّبد على حال؟ قال: قال أبو نواس: فإني أقولُ عنك بيتين، قال: فهاتِهما، فقال:

كأنه لما دَنَا للـوثـبَـه   أيورُ أعيارٍ جمعن ضَرْبَهْ

قال الحَرَامي لأبي نواس: هَبهُما لي على أن لا تدَّعيهما، فعسى أن أنتحِلَهما، قلت له: وما ترجُو من هذا الضَّرب من الأشعار؟ قال: قد رأيتُ غُرمولَه، فما عُذْري عند الفيل إنْ لم أقُلْ فيه شيئاً.

فهم الفيلِ الهندية

وحدَّثني صديقٌ لي قال: رأيتُ الفيَّالينَ على ظهر فيلٍ من هذه الفِيَلة، وأقبل صبيٌّ يريد السِّنديّ الرّاكب، فكلَّمَ الفيلَ بالهنديَّة فوقف، ثم كلَّمه فمدّ يدَه رافِعَها في الهواء حتى رَكِبَها الغلامُ، ثم رفع يَدَه حتى مدَّ السنديُّ يدَه، فأخذ بيد الصبيِّ.
أخلاف الحيوان وأطْباؤه وللبقر والجواميس أربعةُ أخْلافٍ في مُؤخّر بُطونها، وللشاة خِلفان، وللناقة أربعة في مؤخّر البطن، وللمرأة والرّجُل والفِيل ثديانِ في الصدر، وثَدْيُ الفيل يصغُر جدّاً إذا قرنته إلى بدنه، وللسّنّور ثمانيةُ أطْباءٍ، وكذلك الكلْبةُ في جميع بطونهما، والخنزيرة كثيرةُ الأطْباء، وللفَهدةِ في بطنها أربعةُ أطْباء، وللَّبوَة طِبْيانِ لا يصغُران عن مقدار بَدَنِها، والبقرة والأتان والرَّمَكة والحِجْر في ذلك سواءٌ، إلاّ أنها من الحافرِ أطْباء، ومن الظّلْف أخلاف، والسِّباعُ في ذلك والحافرُ سواءٌ.

عضو الفيل

وقال صاحبُ المنطق: غُرمول الفِيل يصغُر عن مقدار بَدَنِه، وخُصيتُه لاحقةٌ بكُلْيته لا تُرَى،ولذلك يكونُ سريع السِّفاد.
وزعم الهنديُّ صاحبُ كتاب الباه أنَّ أعظمَ الأيور أيْرُ الفِيل، وأصغرها أير الظَّبي.

الفيل في كتاب الحيوان

وما أعجَبَ ما قرأتُ في كتاب الحيوان لصاحب المنطق، وجدتُه قد ذكر رأس الفيل وقِصَر عنقه، ولم يذكر انقلابَ لسانه، وذلك أعجَبُ ما فيه، ولم يذكر في كم يَضَعُ، ولا مقدار وزن أعظم الأنياب وكيف يخرج من بطن أمِّه نابت الأسنان.

خصائص الفيلة

والفِيَلةُ لا تلِد التوءام، قال: وهي تفِدُّ وتُفْرِد، قال: وقال بعضُ العلماء: لا يقال أفذّت ولا أفرَدَت إلاّ لما يجوز أن يُتْئِم.
قال: وأمراضُها أقلُّ من أمراضِ غيرها، إلاّ أنّ النَّفْخَ والرِّياحَ يعرِضُ لها كثيراً ويُؤْذيها أذًى شديداً، وعامَّةُ أمراضِها من ذلك، حتى ربَّما مَنَعها البولُ وغير ذلك، قال: وإذا أكلت التُّراب ضَرَّها ذلك، ولا سيَّما إذا أكثَرَتْ منه فعاودَتْه.
علاج الفيلة قال: وربَّما ابتلعت منه الحجارة، قال: وإذا أصابَها استطلاقٌ سُقِيَت الماءَ الحارَّ وعُلِفَت الحشيشَ المغْسول، وإذا أتْعَبُوها اعتراها السَّهَر، فتعالجَ عند ذلك بأن تُدْلَكَ أكتافُها بزيتٍ وماءٍ حار، قال: وبعضها يشرب الزَّيت شُرْباً ذَريعاً.
تذليل الفيل قال: وإذا تصعَّب الفيل وكانَ في حِدْثان ما اقتطعُوه من الوحْش فإنهم يُنْزُون عليه فِيلاً مثلَه، ويحتالون له في ذلك؛ فما أكثرَ ما يَجِدُونه بعد ذلك قد لاَنَ.

قال: وهو مادامَ راكبُه عليه فهو أَلينُ من كلِّ ذي أربع، وأحسَنُ طاعة، ولكن لبعضها صعوبةٌ عند نزُوله عنه، فإذا شدُّوا مقاديمَ قوائمها بالحبال شَدّاً قويّاً لانَتْ.
قال: وهي على صعوبتها تأنَسُ سريعاً وتَلقنُ سريعاً، فأوَّلُ ما يعلَّم السُّجودُ للملك، فإذا عَرَفَه فكلما رآه سجَدَ له.
صدق حس الفيل فأمَّا صِدْقُ الحسّ فهو يفوقُ في ذلك جميعَ الحيوان، وهو والجمل سواءٌ إذا علّما، لأنّ الأنثى إذا لَقِحت لم يعاودَاها للضِّراب، فهذه فضيلةٌ مذكورة في حسِّ الجمل، وقد شاركهُ الفيلُ فيها وبايَنه في خصالٍ أخر.
بعض خصائص الفيل وإناثُ الفِيَلَة وذكورُها متقاربة في السنّ، وكذلك النِّساء والرِّجال، وهو بحريّ الطّباع، ونَشَأ في الدَّفاء، وهو أجردُ الجلد، فلذلك يشتدُّ جزعه منَ البرْد، فإنْ كان أجْرَدَ الجلدِ، فما قولهم في أحاديثهم: طلبوا من الملك الفيلَ الأبيضَ والفِيلَ الأبقع، وجاء فلانٌ على الفيل الأسود.
حقد الفيل قال: وأخبَرَني رجلٌ من البَحْرِيِّين لم أر فيهم أقصَدَ ولاَ أسدّ ولا أقلَّ تكلُّفاً منه، قال: لم أجِدْهم يشكُّون أنَّ فيَّالاً ضربَ فِيلاً فأوجَعَه فألحَّ عليه، وأنَّهم عندَ ذلك نَهَوْه وخوّفوه وقالوا: لا تَنمْ حيثُ ينالك؛ فإنه من الحيوان الذي يحقِد ويُطالِب، ولمَّا أراد ذلك السائسُ القائلة شدَّه إلى أصل شجرةٍ وأحكم وَثاقه، ثم تنحّى عنه بمقدارِ ذراعٍ ونام، ولذلك السائس جُمَّة، قال: فتناولَ الفيلُ بخُرطومه غصناً كان مطروحاً، فوطِئ على طرَفه حتى تشعَّث، ثم أخَذَه بخرطومه، فوضع ذلك الطَّرَف على جُمَّة الهندي، ثم لواها بخُرْطومه، فلما ظنَّ أنها قد تشبّكت به وانعقدت، جذبَ العود جَذبةً فإذا الهنديُّ تحت قوائمه، فخبطه خبطةً كانت نَفْسُه فيها.
فإنْ كان الحديثُ حقّاً في أصل مخرَجِه فكفاك بالفيل معرفةً ومكيدةً، وإنْ كان باطلاً فإنهم لم يَنْحَلُوا الفيلَ هذِه النِّحْلة دونَ غيره من الدوابّ إلاّ وفيه عندهم ما يحتمل ذلك ويليق به.
طيب عرق الفيل قال: والعرَق الذي يسيل من جَبْهته في زمنٍ من الزَّمان يضارع المِسْكَ في طيبه، ولا يعرض له وهو في غير بلاده.

أثر المدن في روائح الأشياء

وقد علمنا أنّ لرائحة الطِّيب فضيلةً إذا كان بالمدينة، وأنّ الناسَ إذا وجَدُوا ريح النَّوى المنقع بالعِراق هَرَبوا منه، وأشراف أهل المدينة ينتابُون المواضِعَ التي يكون فيها ذلك، التماساً لِطيب تلك الرائحة.
ويزعم تُجَّار التُّبَّتِ ممن قد دخَل الصِّين والزَّابج، وقلَّب تلك الجزائر، ونقّب في البلاد، أنّ كلَّ من أقام بقصبة تُبَّت اعتراه سُرورٌ لا يدري ما سببُه، ولا يزال مبتسماً ضاحكاً من غير عجَب حتى يخرجَ منها.
ويزعمون أنّ شِيرازَ من بين قُرى فارس، لها فغمَةٌ طيّبة، ومَن مَشَى واختلف في طُرقات مدينة الرَّسول صلى الله عليه وسلم، وجَدَ منها عَرْفاً طيِّباً وَبَنّةً عجيبَة لا تخفى على أحدٍ، ولا يستطيع أنْ يسمِّيَها.
ولو أدخلتَ كلَّ غالية وكلَّ عطر، من المعجونات وغير المعجونات، قصبة الأهواز أو قصبة أنطاكِية لوجدتَه قد تغيَّر وفسد، إذا أقام فيها الشَّهرين والثَّلاثة.

أثر بعض التمر في العرق

وأجمعَ أهلُ البَحْرين أنَّ لهمْ تمراً يسمى النَّابجِيّ، وأنّ مَن فَضَخَه وجَعلَه نبيذاً ثمّ شربه وعليه ثوبٌ أبيض، صبغَهُ عرقه، حتى كأنه ثوب أتحَميٌّ.

استعمال الفيلة وزعم لي بعضُ البحريِّين أنها بالهند تكون نَقَّالةً وعوامِلَ كعوامل البقر والإبل، والنَّقالة التي تكون في الكَلأَءِ والسُّوق، وأنها تذلّ لذلك وتُسامِح وتُطاوع، وأنّ لها غلأَّتٍ من هذا الوجه.
وزعم لي أنَّ أحَد هذه الفِيَلَةِ التي رأيناها بسُرّ من رأى، أنّه كان لقصَّارٍ بأرض سَنْدان، يحملُ عليه الثِّيابَ إلى الموضع الذي يغسلها فيه، ولا أعلَمُه إلا الفيلَ الذي بعثَ به ماهانُ أو زكريا بن عطية.
العاج قالوا: وعظامُ الفيل كلها عاجٌ، إلاّ أنّ جوهَرَ النَّاب أثمنُ وأكرم، وأكثرُ ما تَرى من العاج الذي في القِباب والحِجال والفُلك والمَدَاهن إنما هو من عظام الفيل، يعرَفُ ذلك بالرَّزانة والملاسة.
والعاجُ مَتْجر كبير، ويتصرّف في وجوهٍ كثيرة، ولولا قَدْرَهُ لما فخر الأحنفُ بن قيس فيما فخر به على أهل الكوفة، حيث قال: نحن أكثرُ منكم عاجاً وساجاً، وديباجاً، وخراجاً، ويقال إنّه من كلام خالد بن صفوان، ويقال إنه من كلام أبي بكر الهذلي.
موت الذباب وإذا خفق بأذنه الفيلُ فأصاب ذُباباً أو يعسوباً أو زنبوراً لم يفْلِحْ، والفرسُ الكريم تقعُ الذُّبابة على مُوقيْ عينيه، فيَصْفِق بأحَدِ جفنَيه، فتخرُّ الذُّبابة ميّتة، وقال ابن مُقْبل:

كأنّ اصطفاقَ مَأْقِيَيْهِ بطرْفِه　　صِفاقُ أديمٍ بالأديمِ يُقابلـهْ

ويصيح الحمار فتصعق منه الذبابة فتموت، قال العَبْشَمِيّ:

مِنَ الحمير صَعِقاً ذِبَّانُـهُ　　بكلِّ مَيْثاءَ كتغريد المغَنّ

وقال عُقبة بن مكدَّم التّغلبي:

وتَرَى طَرْفَها حديداً بعيداً　　أعْوَجيّاً يطنُّ رأسَ الذُّبابِ

وقال ابن مُقبل:

ترى النُّعَرات الخُضْرَ تحتَ لَبَانِهِ　　فرَادَى وشَتَّى أصعقتْهَا صواهله

وأنشد في غير هذا الباب:

وإنِّي لقاضٍ بين شيبـانَ وائل　　وَيَشْكُرَ إنِّي بالقضاء بصـيرُ

وجدنا بني شيبانَ خُرطوم وائل　　ويَشْكُرُ خنزيرٌ أدَنُّ قصـيرُ

وليس هذا موضع هذين البيتين، وأنشد:

أمسى المَضَاءُ ورهطُهُ في غِبطةٍ　　ليسُوا كما كان المَضَـاءُ يقـولُ

لا تَخْرَأ الذّبان فوقَ رَؤُوسِـهـم　　فاليومَ تخرأُ فوقـهـا وتـبـولُ

قول زياد في بناء داره أبو الحسن قال: قال زياد ودخلَ دارَه، وكان بناها له فيلٌ موْلاهُ، فلم يرضَ بناءَها، فقال: ادعُوا لي فيلاً، فلم يجِدُوه، فقال: ليتَها في بطن فيل، وفيلٌ في البحر.

قصة فيل مولى زياد

وكان فيلٌ مولى زيادٍ شديدَ اللُّكْنة، وأهدى بعضُهم إلى زيادٍ حمارَ وحش، فقال فيل: أصلح اللّه الأمير، قد أهدَوْا لنا همارَ وَهْش فقال: أيَّ شيءٍ تقول ويْلَكَ؟ قال: أهْدَوْا لنا أيراً، يريد عيراً فقال زياد: الأوَّل أمثل.

العيثوم

وكان أبو مالكٍ يقول: العيثُوم الفيلُ الأنثى، وذهب إلى قول الشاعر:

وطِئَتْ عليك بخُفِّها العيثومُ

ويدلّ قولُ علقمة بن عَبْدَة على أنّ العيثومَ من صفات الفيل العظيم الضَّخْم، وقال:

تَتْبعُ جُوناً إذا ما هيِّجَتْ زَجَلَتْ كأنّ دُفّاً عَلَى العَلْياءِ مَهزُومُ

إذا تزغَّمَ من حافاتــهـا رُبَـعٌ حَنَّت شعاميمُ من أوساطها كُومُ

يَهْدِي بها أسْجَحُ الخدَّين مُختَبِرٌ من الجمال شديدُ الخَلْق عَيثُومُ

ضرب المثل ببعد ما بين الجنسين وقد أكثروا في ضرب المثل ببُعدِ ما بين الجِنْسين، وقال عبد الرحمن بن الحكم:

أتغضَبُ أن يقالَ أبوك عَـفٌّ وتَرْضَى أنْ يقال أبوك زَانِي

وأشهدُ أنْ رحمك مـن زيادٍ كرحم الفيلِ من ولد الأتـانِ

فجعل معاوية من نسل الفيل لشرفه، وجعل زياداً من نسل الحمار لضَعَتِه ولعمري لقد باعد؛ لأنّ الغنم وإن كانت من النعَم من ذوات الجِرّة والكروش فإنّ ما بين الغنم والإبل بعيد.
وكذلك قول الكميت:

وما خِلتُ الضَّبابَ معطَّفـاتٍ على الحيتان من شَبَهِ الحُسُولِ

قال: فهذا أبْعَد وأبعد، لأنه وإن ذهب إلى أنّ ولدَ نزارٍ عربٌ فهم في معنى الضِّباب وساكني الصَّحارَى، وأولئك عَجَم، فجعلهم كالسَّمك الذي يعيش في الماء، ألا ترى أنّ معاوية بنَ أبي سفيانَ

بن يزيد بن معاوية، لمّا قتلَتْه ضبَّةٌ دسَّت في استه سَمَكة.
قال جرير:

ما بين تيم وإسماعيلَ مِن نَسبٍ إلاّ قرابةُ بَيْنِ الزّنْج والـرُّوم

فقال قطرب: الصَّقالبة أبعد، قيل له: إنّ جريراً لا يفْصِلْ بين الصَّقالبة والرُّوم.
وعلى معنى الكميت قال الآخر: حتى يؤلفَ بين الضّبِّ والنّونِ وتقول العرب: لا يكون ذاك حتى يجمع بين الأروَى والنَّعام لأنّ الأرْوَى جبليَّةٌ والنّعامَ سُهْلية، وقد قال الكميت:

يؤلّف بين ضِفْدِعَة وضَبٍّ ويعجبُ أنْ نبرّ بني أبينا

وهذا هو معناه الأوَّل، وأبعَدُ من هذا قولُ الشاعر:

حَتّى يؤلّف بين الثَّلج والنَّار

قصة الجارية وأمها وقال أبو الحسن المدائني: قال أبو دهمان الغلاّبي عن الوقاصي، قال وحدثني بذلك الغَيْدَاقيّ عن الوقاصي قال: قالت جارية لأمّها ليلة زَفافها: يا أُمَّهْ، إن كان أيرُ زوجي مثلَ أير الفيل كيف أحتال حتى أنتفع به؟ قال: فقالت الأم: أي بُنَيّة قد سألتُ عن هذه المسألة أمي فذكرتْ أنّها سألتْ عنها أمَّها فقالت: لا يجوز إلا أن يجعلَكِ اللّهُ مثلَ امرأةِ الفيل، قال: فسكتَتْ حولاً ثم قالتْ لأمّها يا أمَّه، فإنّي إنْ سألتُ ربِّي أن يجعلَني مثلَ امرأةِ الفيل أتطمعين أن يفعلَ ذلك؟ قالت: يا بُنَيَّة، قد سألتُ عن هذه المسألة أمِّي فذكرَتْ أنها سألتْ عنها أمَّها فقالت: لا يجوز ذلك إلا أن يجعلَ اللّهُ جميعَ نساءِ الرِّجال مثلَ نساءِ الفيلة، قال: فسكتَتْ عنها حولاً ثم قالت: فإن سألتُ ربّي أن يَجْعَلَ نساءَ جميع الرِّجالِ مثلَ نساء الفيلة أتطمعين أن يفعلَ ذلك؟ قالت: يا بُنَيَّة، قد سألتُ عن مثل هذه أمِّي فذكرت أنها سألَتْ أمَّها عنها فقالت: لا يجوز ذلك إلا أن يجعلَ اللّه جميعَ رجال النساء مثلَ رجالِ نساء الفيلة، قال: فسكتَتْ عنها حولاً ثم قالت فإنْ سألتُ ربِّي أنْ يجعلَ جميعَ رجالِ النساء مثلَ جميع رجالِ نساء الفِيَلة أتطمعين أن يَفْعَل ذلك؟ قال: يا بُنيَّة، قد سألتُ عن هذه المسألة أمِّي فذكرَتْ أنَّها قد سألتْ أمَّها عنها، وأنّها قالت: يا بُنَيّة، إنّ اللّه إنْ جعلَ جميع النّاسِ فيلةً لم تجد امرأةُ الفيل مع عِظَمِ بدنها من اللّذة إلا مثلَ ما تجدين أنتِ اليومَ مع زوجك من اللذَّة، ثم تذهب عنك لذّةُ الشَّمِّ والتَّقبيل والضمّ والتقليب، والعِطْر والصِّبْغ، والحَلْي والمِشطة والعِتاب والتفدية وجميع ما لكِ اليومَ، قال: فسكتَت حَولاً ثم قالت: يا أمَّهْ، إنْ سألتُ ربِّي أن يجعلَ أير الفِيل أعظمَ أتطمعينَ أن يفعلَ ذلك؟ قالت الأمّ: أيْ بُنيَّة، قد سألتُ عن هذه المسألة أمِّي فذكرَتْ أنها سألَتْ عنها أمّها، وأنها قالت: أيْ بُنيَّة، إنّ اللّه إنْ جعَل أير الفيل أعظمَ، جعل حِرَ امرأةِ الفيل أوسَع وأعظمَ، فيعودُ الأمرُ كلُّه إلى الأمر الأول، قال: فسكتَتْ عنها حولاً ثم قالت: يا أمّه، فإنْ سألتُ ربِّي أن يجعل أير الفيل أشدَّ غُلْمة فيصير عددُ أكوامه أكثرَ أتطمَعين أن يفعل ذلك؟ قالت: أي بُنَية، قد سألتُ عن هذه المسألة أمِّي فذكَرَتْ أنها سألَتْ أمَّها عنها، وأنها قالت: أيْ بُنَية سَلِي اللّهَ أن يجعل زوجَك أشدَّ غُلْمةً مما هو عليه، ولكن لا تسأليه ذلك حتى تسأليه أن يزيدك في غلمتك، قالت: يا أُمَّه، فإن سألْتُ ربِّي أن يجعَلَه في غُلْمة التيس أتطمعين أن يفعلَ ذلك؟ قالت: أيْ بُنيَّة، قد سألتُ عن مثل هذه المسألة أُمِّي فذكرَتْ أنها سألت عنها أمَّها، وأنها قالت: لا يجوز أن يجعلَه في غُلمة التَّيس حتى يجعلَه تَيساً، قالت: يا أمّه فإنْ سألتُ ربِّي أن يجعله

تيساً أتطمعين في ذلك، قالت: أي بُنَيَّة، إنه لا يجعله تيساً حتى يجعلَك عَنْزاً، قال: أيْ أُمَّه، فإنْ سألتُه أن يجعله تيساً ويجعلني عنزاً أتطمعين أن يفعلَ ذلك؟ قالت:أيْ بنيّة قد سألتُ عن هذه المسألة أمِّي فذكَرتْ أنها زارَتْ أُمَّها لتسألها عن هذه المسألة فوجَدتْها في آخِر يومٍ من الدُّنيا وأوَّلِ يومٍ من الآخرة، وما أشكُّ أن يَوْمي قد دنا.
فلم تلبَثِ الأمُّ إلا أياماً حتى ماتت.

باب الظلف

وهي الظِّباء وهي مَعْزٌ، والمعزُ أجناسٌ، والبقرُ الوحشيُّ ذاتُ أظلافٍ وهي بالمعْز أشبَهُ منها بالبقر الأهليّ، وهي في ذلك تسمَّى نعاجاً، وليس بينها وبين الظِّباء، وإن كانت ذواتِ جرّةٍ وكرُوشٍ وقُرونٍ وأظلافٍ تَسافدٌ ولا تلاقح، وهي تُشْبهها في الشعَر، وفي عَدَم السّنام.
ومن الظِّلْف الوَعِل، والثَّيتَل، والتَّامور، والأيّل، جبَليات كلُّها، لا أدري كيفَ التَّسافد والتلاقح منها.
ومن الظلف الخنازيرُ وهي بلا كَرِشٍ ولا جِرّة ولا قرْنٍ، وليس بينهما موافقةٌ إلا في الظلف، وفي الخنازير ما ليس ظِلفُه بمنشقٍّ، فذاك هو المخالفُ بالنَّاب وبعدم هذه الأشياءِ كلِّها، وتُشاكُل المعْزَ والبقرةَ والظباءَ بالشَّعَر وقِصَر الذَّنب، وتُخالف البقر والجواميسَ في طول الذَّنب، وفي عدد أيّام الحَمْل. ومن الظلف الضأنُ والمَعْز، وقد يكون بينهما تسافدٌ وتلاقح إلا أنها تُلقيه مَلِيطاً قبل أن يُشْعِر، وذلك أقلُّ من القليل.
ومن الظلف البقر الأهليُّ، والجواميس، وهي أهليةٌ أبداً، وهي موافقةٌ للضأن في القرن وفي عدم النَّاب، وفي الجرَّة والكَرِش، وتخالف الضأنَ في الصُّوف والسنام وتوافق المعز في الشعر وتخالف في السنام، وتخالف جميعَ الغنم في الحَمْل؛ لأن الغنمَ تضع لخمسة أشهر، والبقر تضَعُ كما تضعُ المرأةُ في تسعة أشهر، وليس تُشْبه المرأة في غير ذلك، إلا ما يذكرون من الغَبَب ونُتُوِّ الكاهل، فإنهما ربما كانا في بعض النساء، وأكثر ذلك في نساء الدّهاقين.

في الزرافة

قالوا: والزَرافة تكون في أرض النُّوبة فقط، قالوا: وهي تسمَّى بالفارسية أشتُرْكَاوْ بلنك كأنه قال: بعير، بقرة، نمر، لأنّ كاوْ هو البقرة، وأشتُر هو الجَمَل، وبلنك هو النَّمر.
فزعموا أنّ الزرافةَ ولدُ النمرة من الجمل، فلو زعمتم أنَّ الْجملَ يكوم الضَّبُعَ ويكوم بعض ما له ظِلفٌ ما كان إلا كذلك، والمسافدةُ في أجناس المِخلب والخفِّ والحافر أعمُّ، فلو جعلوا الفحلَ هو النمر، والأنثى هي الناقة، كان ذلك أقرَبُ في الوهم.
وليس كلُّ ذكرٍ يكومُ أنثى يُلقِحُها، وقد يكومُ الإنسانُ الدابَّة بشهوةٍ منهما جميعاً ولا يكون تَلاقُح كما اتّفقا في المسافدة، وإنّ الرّاعيَ يكومُ الغنمَ وغيرَ الغنم.
وانظرْ، كم مِنْ ضَرْبٍ ادَّعَوْا ممّا لا يُعرَف: فواحدة أنّ بهيمةً ذكراً اشتَهى سبعاً أنثى، وهو من أصعب السِّباع، ثم الثانية أنه ألقح، والثالثة أنّ أرحامَ النمور لا تتّسع لأولاد الإبل.
قالوا: نمورُهم عِظامٌ وإبلُهم لِطاف، وقد تتّسع أرحامُ القِلاص العربيَّة لفوالج كِرْمان، فتجيء بهذه الجَمَّازات، ولولا أنه فسَّرَ لجازَ أن يكونَ النَّمِرُ يكومُ النَّاقة فتتَّسع أرحامُها لذلك.
قالوا: وفي أعالي بلاد النُّوبة تجتمع سباعٌ ووحوشٌ ودوابٌّ كثيرة، في حَمَارَّةِ القيظ إلى شرَائع المياه، فتتسافدُ هناك فيَلْقح منها ما يَلْقح، ويمتنعَ ما يمتنع، فيجيءُ من ذلك خلقٌ كثيرٌ مختلفُ الصُّورة والشكل والقدْر، منها الزَّرَافة.

وللزّرافةُ خَطْمُ الجَمل، والجِلد للنَّمِر، والأظلاف والقرن للأيِّل، والذَّنَب للظَّبْي، والأسنان للبقر، فإنْ كانت أمُّها ناقةً فقد كامَها نمِرٌ وظبْيٌ وأيِّل في تلك الشرائع، وهذا القولُ يدلُّ على جَهْلٍ شديد.
والزّرافة طويلةُ الرِّجْلين، منحنية إلى مآخيرها، وليس لرجلَيْها ركبتان، وإنما الرُّكبتانِ ليديها؛ وكذلك البهائم كلُّها، وعَسَاهُ إنما أرادَ الثفِنات، والإنسانُ ركْبتاه في رجليه.
ويقولون: أُشْتُرْ مُرْك للنَّعامة، على التَّشبيه بالبعير والطّائر، يريدون تشابُهَ الخلق، لا على الولادة.
ويقولون للجاموس كاوماش على أن الجاموس يُشْبه الكبشَ والثوْر، لا على الولادة، لأنّ كاو بقرة، وماش اسمٌ للضأن.
وقال آخر: تضع أمُّ الزَّرافة ولدَها من بعض السِّباع، ولا يشعرُ النَّاسُ بذلك الذَّكر، قالوا: كاوماش على شَبَه الجواميس بالضّأن، لأنَّ البقرَ والضأنَ لا يقع بينهما تلاقحٌ، والتّفليس الذي في الزَّرافة لا يُشْبه الذي في النَّمر، وهو بالبَبْر أشبَه، وما النمرُ بأحقَّ به من هذا الوجه من الفَهْد.

تسافد الأجناس المختلفة

وقد يمكن أن تُسْمِحَ الضَّبعُ للذئب، والذِّئبة للذِّيخ، والكلبةُ للذِّئبِ وكذلكَ الثعلبُ والهرَّةُ، وكذلِكَ الطَّيْرُ وأجْناس الحمامِ كالوَرْدَانيِّ والوَرَشان والحمام، وكالشِّهريّ من بين الحِجْر والبِرْذَوْن، والرَّمَكة والفَرَس، والبغْلِ من بين الرَّمَكة والحمار.
فأمَّا بُروك الْجمل على النَّمرة، والْجملُ لا بدَّ أنْ تكون طرُوقتُه باركةً، فكيف تبركُ النّمرة للجمل، والسِّباع إنما تتسافد وتتلاقح قائمةً، وكذلك الظّلف والحافر، والمِخْلَب، والخُفّ، والإنسانُ والتِّمْساح يتبطّنان الأنثى، والطيرُ كلُّه إنما يتسافدُ ويتلاقح بالأستاه من خلف وهي قائمة.

شواذ السفاد

وعموا أنَّ الغرابَ يُزَاقُّ، والحُمَّرُ والقبَج ربّما ألقحا الإناث إذا كانا على عُلاَوَة الرِّيح، ولا تكونُ الولادةُ إلاّ في موضع إلقاء النُّطفة والشيءِ الذي يلقح منه. وأمَّا السَّمكةُ فقد عايَن قومٌ مُعارضَةَ الذكر للأنْثى، فإذا سَبَح الذكَرُ إلى جنب الأنثى عَقفَ ذَنَبَه وعقفَتْ ذَنَبها، فيلتقي المبالان فتكونُ الولادة من حيث يكون التلقيح، لا يجوزُ غير ذلك.
والذين يزعمون أن الحجَلَة تلقحُ من الحجَل إذا كانَتْ في سُفَالة الرِّيح، من شيءٍ ينفصل من الذكر، فإنما شبَّهوا الحجَل بالنَّخْل، فإن النخلةَ ربما لقِحَتْ من ريح كافور الفُحَّالِ إذا كانت تحتَ الرِّيح.

المخايرة بين ذوات القرون والجم

قال: وسئل الشَّرْقيّ عن مخايرةِ ما بين ذوات القرون والجُمّ فقال: الإبل والخيل من الخفّ والحافر، والبرثُن والمِخْلب والقدَم التي هي للإنسان، قال: فمن خصال ذي القرن أنَّ منه وإليه ينسب ذو القرنين الملكُ المذكورُ في القرآن، ويزعم بعضُهم أنه الإسكَنْدَر، وقال أميَّة بن أبي الصَّلْت:

رَجُلٌ وثوْرٌ تحتَ رجل يمينـهِ   والنَّسْرُ للأخْرى ولَيْثٌ مُرْصَد

استطراد لغوي وَيقالُ ضَرَبَه على قرْنه، وقرْنٌ من دم، كما يقال قرنٌ من عَرَقٍ، والقَرْن: أمَّة بعد أمَّة، والقَرْنُ: شيءٌ يصيب فُروج النساء يُشْبه العَفَلة.

ذوات القرون

والفيل من ذوات القرون، وفي الحيَّات والأفاعِي ما لها قرون، وإنما ذلك الذي تسمع أنه قرن إنما هو شيءٌ يقولونه على التَّشبيه، لأنّه من جنس الجِلْد والغضروف، ولو كان من جنس القُرون لكانت الحيّة صلبة الرأس، والحية أضعفُ خَلق اللّه رأساً، ورأسُه هو مَقْتلُه؛ لأن كلَّ شيءٍ له قرنٌ فرأسُه أصْلَب وسلاحَه أتمّ، والقَرْنُ سلاحٌ عَتِيدٌ غير مُجْتَلَبٍ ولا مصنُوع، وهو لذَوات القُرون في الرؤوس، وللكرْكدَّن قرنٌ في جبهته، والجاموس أوثق بقَرْنِه من الأسد بمخْلبه ونابه.
وتقول المجوس: يجيء بَشُوتَن على بقرةٍ ذاتِ قُرون.
وظهرت الآية في شأن داودَ وطالوتَ في القَرْن، وشَبُّورُ اليَهود من قَرْن.
والبُوق في الحُروب مُذ كانت الحَرْب إنما كان قرناً.
وبُوق الرَّحَى قرنٌ، والأيّل يَنْصُل قرنُه في كلّ عامٍ، وكان سِنان رُمح الفارس في الجاهليَّة رَوقَ ثور.

ما يسمى بروق

ويسمَّى الرَّجلُ برَوق، والرَّوْق كالشيء يعاقب الشيء وقال بشّار في التَّعَاقب:

أعقَبَتْه الجَنُوبُ رَوْقاً من الأزْيَبِ

وفي العرَب رَوْق وأبو رَوْقٍ، وقال ابن مَيادة:

دَانَ له الرَّوقانِ من وائلٍ وَقبْلَهُ دَانَتْ له حِمْيَرُ

الرَّوْقانِ: بكرٌ وتَغْلِب.

استطراد لغوي

ويقال قَرْنُ الضُّحى، وقَرْنُ الشّمس، وقُرون الشَّعَر، وقَرْنُ الكَلأ، وقرون السُّنْبل، وأطرافُ عذوق النَّخْل وأطاف عروق الحَلْفاء وإبرةُ العقرب كلُّها قُرون.

علاقة القرون واللحى بالذكور

والأجناس التي تكون لها القرون تكونَ قُرونُها في الذُّكور منها، وقد يكون الفحلُ أجمَّ، كما أن اللِّحَى عامٌّ في الرِّجال، وقد يكون فيهم السِّناط.
أنواع القرون وقد تَتَشعَّبُ قرونُ الظباء إذا أسنَّتْ.
وقرونُ الظّباء وبقرِ الوحْش شِدادٌ جدّاً، وإنما تعتمد الأوعالُ في الوُثوب وفي القذْف بأنفسها مِن أعالي الجبال على القُرون، والأغلب على القُرون أن تكون اثنَيْن اثنين، وقد يكون لبعض الغنم قرون عِدّة.
استخدام القرون والجواميسُ تمنَعُ أنفسَها وأولادَها من الأسْد بالقُرون، وبقر الوحش تمنَع أنفسَها وأولادَها من كِلاب القُنَّاص ومن السِّباع التي تُطيف بها، بالقُرون، قال الطّرمَّاح:

أكَلَ السَّبْعُ طلاَها فـمـا تَسْألُ الأشباحَ غَيرَ انـهزَامْ

قصة في سفاد الخنزير وقال ابن النُّوشَجانيّ: أقبلت من خراسان في بعض طُرُق الجِبال فرأيتُ أكثرَ من مِيلَين متّصلينِ في مواضعَ كثيرةٍ من الأرض، أثر سِتِّ أرجل، فقلت في نفسي: ما أعرف دابّة لها ستُّ أرجُل فاضطرَّني الأمر إلى أنْ سألتُ المُكاريَ، فزَعَم أنَّ الخنزيرَ الذّكرَ في زمان الـهَيْج يركب الخنزيرة وهي ترتُع أو تذهَبُ نحوَ مَبيتِها، فلا يَقْطعُ سفادَه أميالاً، ويداه على ظهْرها ورجلاهُ خَلْف رجليها، فمنْ رأى تلك الآثار، رأى ستّ أرجل، لا يدري كيفَ ذلك.
ما يعرف بطول السفاد قال: فالخنزير في ذلك على شَبيهٍ بحال الذباب الذكر إذا سقط على ظهر الأنثى، في طول السِّفاد.
وإنّ الجملَ في ذلك لعجيب الشّأن، فأمَّا العدد فالعصفور، ويُحكَى أنَّ للورَل في ذلك ما ليس لشيءٍ، يعني في القوة، وأنشد أبو عبيدة:

في عُظْمِ أير الفيل في رَهْز الفرَسْ وطولِ عَيْس جَمَلٍ إذا دَحَسْ

فرس الماء

قال عَمْرُو بنُ سعيد: فرس الماء يأكل التمساح، قال: ويكون في النِّيل خُيول، وفي تلك البحور - يعني تلك الخُلْجان - مثلُ خيول البرّ، وهي تأكل التماسيح أكلاً شديداً، وليس للتماسيح في وسط الماءِ سلطان شديد إلاّ على ما احتمَلَه بذَنَبه من الشّرِيعة.
قال: وفرس الماء يؤْذِن بطلوع النِّيل، بأثر وطْء حافره، فحيث وجدَ أهلُ مِصرَ أثرَ تلك الأرجل عرَفُوا أنّ ماء النيل سينتَهي في طلوعه إلى ذلك المكان.
وهذا الفَرَس ربَّما رعَى الزُّرُوع، وليس يبدأ إذا رَعَى في أدْنَى الزَّرْع إليه، ولكنّه يحزُرُ منه قدْرَ ما يأكل، فيبدأ بأكله من أقصاه، فيرعى مُقْبِلاً إلى النِّيل، وربَّما شرب هذا الفرس من الماء، بعد المَرْعَى ثم قاءَه في المكان الذي رَعى فيه، فينبت أيضاً.
والطَّير عندنا يأكلُ التُّوت ويَذْرُقه، فينبت من ذَرْقه شجَر التُّوت.
قالوا: وإذا أصابُوا من هذه الخيل فِلْواً صغيراً ربّوه مع نسائهم وصبيانهم في البيوت، ولم يزدْ على هذا الكلام شيئاً.
قال: وفي سنّ من أسنانه شفاءٌ من وجع المَعِدة.

التداوي بفرس الماء وبنات عرس

قال: والنُّوبةُ وناسٌ من الحبَشة يأكلون الحيتان نِيَّةً بغير نار، ويشربون الماءَ العكر فيمرَضُون، فإذا علَّقوا سنّ هذا الفرس أفاقوا، قال: وأعفاج هذا الفرس تُبرئ من الجنون والصَّرْع الذي يعتري مع الأهلَّة.
قال: وكذلك لحومُ بنات عِرْسٍ صالحة لِمَنْ به هذه العِلّة.

صيد الذئب للإنسان

قال: وإنما يكونُ الإنسان من مصايد الذّئب إذا لقيه والأرض ثلْجاء، فإنّه عند ذلك يحفِش وجْهَ الأرض ويجمعُه، ويضرب وجهَ الرجل فارساً كان أو راجلاً، قال: ودُقاق الثَّلج وغُباره إذا صَكَّ وجهَ الفارس سَدِرَ واسترْخَى وتحيَّرَ بَصرُه، فإذا رأى ما قد حلَّ به فربَّما بَعَج بطنَ الدَّابَّة، وربما عضَّها، فيقبضُ على الفارس فيصرعُه ولا حَرَاك به، فيأكله كيف شاء، وإلاّ أن يكون الفارس مجرباً ماهراً، فيشدُّ عليه عند ذلك بالسِّلاح، وهو في ذلك يَسيرُ ويقطعُ المفازةَ، ولا يدعَه حينئذٍ يتمكَّن من النفر عليه.

تعليم الذئب وتأليفه

وزَعَم عبويه أنّ الخصيّ العبدي الفقيه من أهل هَمَدان، السودانيّ الجَبَلّي، وهو رجل من العرب قد ولدته حليمةُ ظئرُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وهو من بني سعد بن بكر، فزعَم أنَّ السُّوداني أشبَهُ خلْق اللّه بجارحةٍ وأحكمُهمْ بتدبير ذئبٍ وكلبٍ وَأسدٍ ونَمر، وتعليم وتثقيف، وأنّه بلَغَ مِن حذقه ورِفقه أنّه ضَرّى ذئباً وعلَّمه، حتى اصطاد له الظِّباء والثّعالبَ وغيرَ ذلك من الوحوش، وأنّ هذا الذئبَ بعينه سَرَّحَه فرجَع إليه من ثلاثين فرسخاً، وذكر أنّ هذا الذئبَ اليومَ بالعسكر، وحدّثني بهذا الحديث في الأيام التي قام بها أميرُ المؤمنين المتوكِّلُ على اللّه، وذكر أنَّه ضَرَّى أسداً حتى ألِف وصار أهليّاً صَيُوداً، حتى اصطادَ الحميرَ والبقرَ وعِظامَ الوحش صيداً ذريعاً، إلا أنَّ الأسَد بعد هذا كله وثب على ولدٍ له فأكلَه، فقتَلهُ السوداني.
والذي عندنا في الذّئب أنه يألف، ولو أخذ إنسانٌ جرواً صغيراً من جرائه ثمَّ ربَّاه، لما نَزعَ إلا وحشيّاً غَدُوراً مُفْسداً، ولذلك قال الأعرابي:

أكلْتَ شُوَيَهتي ونَشأت فينا　　　　فمن أنباك أنَّ أباكَ ذيبُ

فالذي حكى عبويه من شأن هذا الذّئب والأسد من غريب الغريب.

مصارعة كلبة لثعلب

وأخبرني عبويه صاحب ياسر الخادم قال: أرسلتُ كلبةً لي فحاصرَتْ ثعلباً، فواللّه إنْ زالا كذلك حتى خرَّا ميّتين، قال: فقلت: أكرِمْ بهما صيداً ومَصيداً، وطالباً ومطلوباً.

من خصائص الكبار والفلاسفة

قال: وإذا أسنَّ القرشيُّ رَحَل إلى الحجاز. وقال: ما احتنَك رجلٌ قطُّ إلا أحبَّ الخلوة، وقالوا: ما فكَّر فيلسوفٌ قط إلا رأى الغُربةَ أجمَعَ لهمِّه وأجوَدَ لخواطره.

قول بكر المزني في الأرَضة

قال: وشتم رجلٌ الأرَضَة فقال بكر بن عبد اللّه المُزَني: مَهْ، فهي التي أكلَتْ جميع الصَّحِيفةِ التي تعاقدَ المشركون فيها على رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، إلا ذكرَ رسول اللّه، وبها تبيَّنت الجنّ أن لو كانوا يعلمون الغيبَ ما لبثوا في العذاب المهين، وبها تكشَّف أمرُها عند العوّام بعد الفتنة العظيمة عندهم، وكان على الخاصّة من ذلك أعظم المحن.

طول ذماء الضب

وخبّرَني رجلٌ من بني هاشمٍ كان منهوماً بالصَّيدِ لَهِجاً به، أنَّه ضَرَب وَسَط ضَبٍّ بالسَّيفِ فقطعه نِصْفَين، فتحرَّك كلُّ واحدٍ منهما على حِيالِه ساعةً من نهار ثمَّ سَكَنا.

الورل والضب

وأخبرني أنهم كانوا يُهارشون بين الضَّبِّ والورَل، فيُلْغِبُه الورلُ حتى يقتله.
وحكَى أنّ الورلَ يقتل الضبّ على معنى الصائد والطالب، وأن الضبّ يقاتل على معنى المُحْرَج، وأنّه هارَشَ بين الورَل والحيَّة فوجد الورَلَ يقتُل الحيّة ويأكلها، ويقتل الضبّ ولا يأكله ولكن حُسُوله.

علة عدم قتل الأعراب للورل والقنفذ

وزعم أنّه وجَدَ مشايخَ الأعرابِ لا يقتلون وَرَلاً ولا قنفُذاً ولا يدَعُون أحداً يصطادهما، لأنهما يقتُلان الأفاعيَ، ويُريحانِ الناسَ منها.

نوادر من الشعر والخبر

وأنشد أبو عبيدة لأبي ذؤيب:

وسَوَّدَ ماءُ المَرْدِ فاهاً فلَونُه ... كلَوْنِ النَّؤُورِ وهي بيضاءُ سَارُها

وأنشد شبيهاً به للنابغة:

يَتَحلّبُ اليعضيد من أشداقها ... صفراً مَناخرُها من الجرجار

وأنشد شبيهاً بذلك لإبراهيم بن هَرْمة:

كأنَّها إذْ خُضِبت حِنّاً وَدَمْ ... والحُرض والعسن والهَرْم العُصُمْ

وأنشد أيضاً:

تُعلِّمُ الأكلَ أولادُ الظباءِ بها ... فما يحسُّ بها سِيدٌ ولا أسَدُ

وأنشد:

ذكرتُكِ ذِكْرةً فاصطدت ظبياً ... وكُنْتُ إذا ذكرتُكِ لا أخِيبُ

منحتُكم المودَّةَ مِن فؤادِي ... وما لي في مودَّتكم نصيبُ

وقال ابن مُقبل:

وكم من عَدُوٍّ قد شققنا قميصَهُ		بأسمرَ عَسَّالٍ إذا هُزَّ عاملُهْ

وقال أيضاً:

ولم أصطبحْ صهباءَ صافيةَ القذى		بأكْدَرَ من ماء اللّهابة والعَجْبِ

ولم أسْرِ في قومٍ كرامٍ أعِزَّةٍ		غَطارفةٍ شُمِّ العَرانِين من كلْبِ

اللّهابة والعَجْب: ماءان من مياه كلب موصوفانِ بالعُذوبة، وهي في ذلك كَدِرة، وأنشد ابن مَزْرُوع لعديٍّ بن غُطيفٍ الكلبيّ، وكان جاهليّاً:

أهلكَنا اللّيلُ والنـهـارُ مَـعـا		والدَّهر يَعدُو عَلَى الفتَى جَذَعا

والشَّمْسُ في رأسِ فُلْكةٍ نُصِبَتْ		رَقَّعها في السماءِ مَن رَفَـعـا

أمرٌ بِليطِ السمـاءِ مُـكْـتَـتـمٌ		والنَّاسُ في الأرض فُرِّقوا شِيَعا

كما سَطا بالآرامِ عادٌ وبالـحِـجْ		ـر وأرْكى لـتُـبَّـعٍ تـبـعـا

فليس ممّا أصابـنـي عـجـب		إن كنتَ شَيباً أنكرتُ أو صَلَعَا

قال: هو عاد بن عُوص بن إرم، وسَطا بالحِجْر، أي بأهل الحِجْر، وأرْكَى أي أخَّر، والإركاء: التأخير. وقال كعبُ بنُ زهير:

فعْمٌ مُقلَّدُها عَبْـلٌ مـقـيَّدُهـا		في خَلْقِها عن بَنات الفَحْل تَفضِيلُ

حَرْفٌ أخوها أبوها من مُهَجَّنةٍ		وعمُّها خالُها قوداءُ شِمْـلـيلُ

وكما قال ذو الرّمّة:

أخوها أبوها والضَّوَى لا يضيرُها

وقال سالم بن دارة:

حَدَوْتُ بهم حتّى كـأنّ رقـابَـهُـمْ		من السَّير في الظّلماء خيطان خَرْوَعِ

وقال بعض المحدَثين:

وقد شَرِبُوا حتى كأنّ رقابَهُمْ ... من اللِّين لم تُخلق لهنَّ عظامُ

وقال آخر:

كأنّ هامَهُمُ والنَّوْمُ واضِعُها ... على المناكِبِ لم تُعْمَدْ بأعناق

وقال الكميت:

وفي اللَّزَباتِ إذا ما السِّنُو ... نَ أُلْقِيَ مِن بَرْكِها كلكلُ

لعامٍ يقولُ له المُؤْلِفُو ... نَ هذا المُقِيمُ لنا المُرْحِلُ

وقال أيضاً:

الطّيِّبُو تُرْبِ المَغَار ... سِ والمنابتِ والمكَاسِرْ

والساحبون اللاحفُو ... ن الأرضَ هُدّابَ المآزِرْ

أنتمْ معادِنُ للخلاف ... ة كابراً مِن بَعْدِ كابِرْ

بالتِّسْعة المتتابعي ... ن خلائفاً وبخير عاشِرْ

وقال أيضاً:

ولا يكن قوله إلا لرائدها ... أعشَبْتَ فانزلْ إلى معْشَوْشِبِ العُشْبِ

ذهب إلى قوله:

مُسْتَأْسِدٌ ذِبَّانُه في غيطلِ ... يقُلْنَ للرَّائد أعشَبْتَ انزل

ولكن انظُرْ كَم بين الدِّيباجتَين، وفي الأوَّل ذَهَبَ إلى قول الأعشى:

إذا الحَبَرَاتُ تَلوَّتْ بهمْ ... وجرُّوا أسافِلَ هُدّابها

قال: كان أصحابُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم يقولون: كونوا بُلْهاً كالحمام ولقد كان الرّجل منهم يدعُو لصاحبه يقول: أقلَّ اللّه فِطْنتك.
قال: وهذا يخالف قول عمرَ رضي اللّه عنه، حين قيل له: إنّ فلاناً لا يعرف الشَّرّ، قال: ذلك أجْدَرُ أن

يقعَ فيه.
وقال النابغة الذبياني:

ولا يحسَبونَ الخيرَ لا شَرَّ بَعْدَهُ ولا يحسبون الشَّرَّ ضربة لازبِ

وقال الآخر:

ولا تعذِراني في الإساءة إنّـه شِرَارُ الرجال مَنْ يسيء فيُعذَرُ

وقالت امرأة ترثي عُمَير بنَ مَعْبَد بن زُرارة:

أعيْنُ ألا فابكي عُميرَ بن مَعبدِ وكان ضروباً باليدين وباليدِ

تقول: بالسَّيف وبالقداح، لأنّ القداح تُضرَبُ باليدين جميعاً، وقال ابن مقبل:

وللفؤاد وجيب عند أبـهَرِه لَدْمَ الوليدِ وراءَ الغيبِ بالحجَرِ

وقال ابن أحمر:

وفؤادهُ زَجِلٌ كعزَفِ الهُدْهُدِ

وكان حسّان يقول لقائده إذا شهد طعاماً:أطعامُ يدٍ أم طعام يدين؟، طعام يدين: الشِّواءُ وما أشبه ذلك، وطعام اليد: الثرائد وما أشبهَها.
وقال بعض السَّلاطين لغلامٍ من غِلمانه وبين يديه أسيرٌ: اضربْ، قال: بيدٍ أو يدين؟ قال: بيد، فضرَبه بالسِّياط، قال: اذهبْ فأنتَ حُرٌّ، وزوّجَه وأعطاه مالاً.
وسارَّ رجلاً من الملوك بعضُ السُّعاة بابنٍ له ذكر أنّه بموضع كذا وكذا يشرب الخمر مع أصحاب له، فبعثَ غلاماً له يتعرّف حالَه في الشراب، فلمّا رجع وجَدَ عنده ناساً فكره التفسير، فقال له: مَهْيَمْ، قال: كان نَقْلُه جُبْناً، قال: أنت حُرٌّ، لأنّ مُعاقِري الخمرِ يتنقلون بالجبن لأسبابٍ كثيرة.
وكان فرجٌ الحجَّام مملوك جعفر بن سليمان، إذا حَجَمه أو أخذ من شَعرِه لم يتكلَّم ولم يتحرّك، ولم يأخذ في شيء من الفضول، فقال جعفر ذاتَ يومٍ: واللّه لأمتحننّه، فإن كان الذي هو فيه من عَقْلٍ لايَنْثُهُ، وإن كان كالطَّبيعة والخِلقْة لأحمدَنّ اللّه على ذلك، فقال له يوماً: ما اسمك يا غلام؟ قال: فرَج، قال: وماكُنْيتُك؟ قال: لا أكتني بَحضْرَةَ الأمير، قال: فهل تحتجِم؟ قال نعم، قال: متَى؟ قال: عند هيجه، قال: وهل تعرفُ وقتَ الهيج؟ قال: في أكثر ذلك، قال: فأيَّ شيءٍ تأكلُ على الحجامة؟ قال: أما في الصيَّفِ فسِكْباجةٌ محمَّضَةَ عذبة، وأمَّا في الشتاء فديجيراجة خاثِرةٌ حُلوة، فأعتقه وزَوَّجه، ووهَبَ له مالاً.
وكان قاطعَ الشهادة، ولم يكنْ أحدٌ من مواليه يطمع أن يُشهدَه إلاّ على شيء لا يختلف فيه الفقهاء، وهو الذي ذكره أبو فِرْعون فقال:

خَلُّوا الطَّريق زَوْجتي أمامي　　　أنا حميمُ فَرَجِ الحـجَّـام

وكان أهل المربد يقولون: لا نرى الإنصاف إلا في حانوتِ فرجِ الحجَّام، لأنّه كان لا يلتفت إلى مَن أعطاه الكثيرَ دونَ من أعطاه القليل، ويقدِّم الأوّل ثم الثاني ثم الثالث أبداً حتى يأتي على آخرهم، على ذلك يأتيه من يأتيه، فكان المؤخَّر لا يغضَب ولا يشكُو.
وقال ابن مَقْروم الضّبي:

وإذا تُعلَّل بالسِّياط جِيادُنـا　　　أعطاك ثائبة ولم يتعلل

فدعَوْا نَزَالِ فكنـتُ أوّل نـازل　　　وعلام أركبه إذا لم أنزل

ولقد أفَدْتُ المال مِن جَمْع امرئٍ　　　وظلفت نفسي عن لئيم المأكل

ودخلتُ أبنية الملوكِ علـيهـمُ　　　ولشر قول المرء ما لم يفعل

وشهدتُ مَعْرَكة الفُيول وحوَلها　　　أبناء فارس بيضها كالأعبل

متَسرْبلي حَلَق الحدِيدِ كأنّهُمْ　　　جرب مقارفة عنية مهمل